روح القرآن

تفسير سورة

البقرة

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين

روح القرآن

تفسير سورة البقرة

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الموزعون الوحيدون لجميع أقطار العالم
دار العلم للملايين

الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ٢٠٠٧

تنضيد واخراج: **المجموعة الطباعية**
هاتف: ٠١/٨٢٤٢٠٣ - ٠١/٨٢٣٧٢٠
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

حول هذه السورة

للعلاّمة فضيلة القاضي الشيخ حسين غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين الذي أرسله الله رحمة للعالمين وبعد.

هذه السورة (البقرة) أطول سورة في القرآن وقد أخرج الترمذي عن النبي ﷺ قوله: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة. . .» وذلك أخذاً من سنام الجمل الذي هو أعلى موقع فيه. وتُسمى السورة عادةً باسم شيء يُذكر فيها وقد سُمّيت سورتنا هذه (البقرة) لاشتمالها على قصة أشار إليها المؤلف في مقدمته.

ولا ريب أن هذه السورة فائقة الأهميَّة لاشتمالها على أُمورٍ تَهُمُّ كل مسلم، منها: ما يتعلق بالعقيدة من الإيمان بالغيب وتقسيم الناس بين مؤمن وكافر ومنافق. ومنها: ما يتعلق بالجانب التشريعي. ومنها: ما يتعلق بالمعاملات بين الناس، وهي في كلّ ذلك تتناول الأمور بشكل يعتمد المعالجة الموضوعية.

ففي جانب العقيدة يخاطب الله البشرية طالباً منهم العودة إلى الإيمان والرجوع إلى الفطرة بعبادة ٱللَّه وحده فيخاطبهم بهذا الأسلوب الهادئ المتّزن،

يخاطب العقل والفكر والوجدان، تأمل الآية: ﴿**يَاأَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ. الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُم فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وأَنْتُم تَعْلَمُونَ**﴾.

ثم يخاطب الله الذين لا يستجيبون لنداء الحق خطاب إقحام مبني على الحجة الدامغة فيقول: ﴿**وَإِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ..**﴾ فهذا هو التحدّي حيث يطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وتأمل التحدي الصارخ ﴿**وَلَنْ تَفْعَلُوا**﴾ أنظر كيف أغلق بوجههم الباب، أي حتماً لن تستطيعوا فِعْلَ ذَلِكَ، وهذا يعني أن هَذَا القرآنَ ليس بكلام بشر بل هو من عند الله ولذا لا تستطيعون أن تأتوا بمثله، إذاً لماذا المكابرة عُودوا إلى الإيمان بالله وإلاّ.. ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾ أية نار؟ إنها ليست ناراً وقودها الخشب والحطب بل إنها نار وقودها أنتم الذين كفرتم وعاندتم كما قال الله تعالى في تتمة الآية السابقة: ﴿**الَّتي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ**﴾.

وفي جانب العبادات تشريع الصلاة والصوم والحج. وفي جانب الأحوال الشخصية تشريع الزواج ذلك الرباط المقدس وما حوى من دعوة كريمة إلى الاستجابة لما يمليه العقل والشعور والإحساس والعاطفة، ثم تشريع الطلاق وما يترتب عليه من حقوق وواجبات وأحكام مادية ومعنوية، ولا تنسى الآيات في أدق المواقف أن تشير إلى مراعاة حقوق المرأة وعدم الإضرار بها، يقول الله تعالى: ﴿**وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا**﴾.

وفي سورة البقرة أعظم آية هي آية الكرسيّ: ﴿**اللَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ القَيُّومُ..**﴾ وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ بأنها سيدة آي القرآن.

ولا بد من الإشارة إلى أن عبارة «الكاتب العدل» التي تملأ الشوارع ربما لا يعرف الكثير من الناس أنها مأخوذة من النص القرآني في أطول آية في معرض كتابة الدَّيْن **﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾** وتظل هذه الكلمة «الكاتب العدل» رمزاً مدوياً واعترافاً صارخاً بأن القرآن الكريم هو من أطلق هذا العنوان منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مع الإشارة إلى أن التعبير القرآني **﴿كَاتِبٌ بالعَدْلِ﴾** أبلغ من «الكاتب العدل» لأن الباء في العدل تجعل العدالة متجهة إلى مضمون الكتابة لا إلى الكاتب.

وأخيراً وليس آخراً لا ننسى أروع آية في مناجاة الخالق حيث يعلّمنا ربنا أدب المخاطبة والتوجه إليه بنداء خفيّ فيقول: **﴿رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أوْ أخْطَأْنَا رَبَّنَا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ. .﴾** وتأمل الخاتمة **﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا. .﴾** وقد أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يُعْطَهُنّ نبيّ قبلي» كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أن العبد إذا قرأ تلك الآيات: «قال الله: قد فعلت»(١) أي قد عفوتُ وغفرتُ ورحمتُ.

وفي الختام لا بد أن ننوّه بأسلوب صديقنا الأستاذ عفيف طبارة الذي اعتمده في التفسير حيث يتوخّى الجزالة في اللفظ، والسهولة في العبارة والإيجاز الذي لا يُخِلُّ بجوهر المعنى، وعدم التطويل المملّ آخذاً بعين الاعتبار أن القارئ في هذه الأيام ليس لديه الوقت ليستغرق في شروحات جانبية، وحَسْبُهُ أن يأخذ من المعاني ما يوفي بالغرض.

(١) أخرجه مسلم.

وهناك جانب مدهش لا يعيره الكثيرون انتباههم عنيت به جانب الطباعة فقد أوْلى المؤلف هذه الناحية اهتماماً خاصاً حيث كان يشرف على الطباعة بنفسه مراعياً الفسحة بين الكلمات والانفراج بين السطور فيُسَرّح القارئ النظر بين أزهار الكلمات في قِطَع من رياض المعاني، وعندها يشعر القارئ بمتعتين: متعة النظر المريحة ومتعة المعاني الرائعة البديعة.

وفي الختام نسأل الله سبحانه أن يوفق المؤلف إلى إتمام مهمته التي أوشكت على النهاية في إكمال تفسير القرآن ليحظى القارئ بهذه الثروة من التفسير الرائع البديع.

جعل الله خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

تعريفٌ بهذه السّورة

سُمِّيت هذه السورة بسورة البقرة لأنها أوردت قصة عنها حيث طلب الله من بني اسرائيل على لسان موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، قال ٱللَّه تعالى: ﴿**إنَّ الله يأمُرُكم أن تَذْبَحوا بَقَرَةً**﴾ ذلك بعد أن قُتِلَ فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله، فأمرهم الله أن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا ويخبرهم من هو القاتل، ثم يموت ثانية فيكون هذا العمل معجزة من عند الله وبرهاناً على قدرته.

وهذه السورة هي أطول سورة في القرآن مدوّنة على ثمان وأربعين صفحة وتبلغ آياتها ستًّا وثمانين ومائتي آية، كما أنها سورة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة بعد هجرة النبي محمد ﷺ من مكة، وهي تُعنى بالتشريع العام لحياة المسلمين سواء منه ما يتعلق بالدِّين أو بالأمور الدنيوية لأنهما في نظر الإسلام مترابطان لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

وقد اشتملت هذه السورة على كثير من المواضيع سأقتصر على ذكر بعضها:

- التنويه بشأن القرآن بأنه هداية للناس ومتحدٍّ في الوقت نفسه جميع الناس بأن يأتوا بسُورة من مثل سُوَرِهِ إذا كانوا يرتابون بأنه ليس من كلام الله، وتقرير بعجز الناس عن الإتيان بمثله، وإلى الآن لم يأتِ أحد بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله، وهذا دليل على أن القرآن وحي إلهي وليس من كلام البشر.

- الكلام المستفيض عن المنافقين الذين كانوا بمثابة طابور خامس ابتليت بهم الأمة وهم الفريق الذي يمعن في الأرض فساداً، وقد تحدّثت هذه السورة عنهم في ثلاث عشرة آية حيث كشفت عن خداعهم ومؤامراتهم على الإسلام وذكرت مرض قلوبهم ليكون المسلمون على بينة من أمرهم نحوهم والحذر منهم.

- بيان الدلائل الكونية على وجود الله ووحدانيته في خلق السموات والأرض وقدرته سبحانه على البعث والدعوة إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به.

- بيان فضل الله على البشرية حيث جعل أباهم آدم خليفة في الأرض ليعبدوا ٱللَّه وليعمروا الأرض ويقيموا فيها ميزان العدالة، وبيان ما كان من الملائكة بشأنه، وكذلك بيان سكن آدم وزوجه في الجنة ثم إخراج الله لهما منها بسبب عصيانهما أوامره بأكلهما من الشجرة التي نهاهم الله عن الأكل منها، وإهباطهما إلى الأرض، وإن إقامة الإنسان في الأرض غير دائم أبداً كما قال الله تعالى: **﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾**.

- الكلام المستفيض على بني إسرائيل في كثير من الآيات حيث كانوا جيراناً للمسلمين في المدينة المنورة، فيذكّرهم الله بنعمة تفضيله لهم على عالم زمانهم وبنعمة إنجاء آبائهم من ظلم فرعون، وما أعقب ذلك من الانتقام منه وإهلاكه. ثم تذكيرهم بنعمة تظليلهم بالغمام في صحراء سيناء المُحرقة وإنزال المنّ والسلوى عليهم غذاء لهم، وبتفجير الماء لكل سبط من أسباطهم الأثني عشر لإرواء عطشهم ولكن بالرغم من هذه النعم التي أنعمها عليهم كفروا بِنِعَم الله ونقضوا العهود والمواثيق فاستحقوا غضب الله. كما تتحدّث السورة عن مزاعم بني إسرائيل الباطلة كزعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس، وسوء أدبهم مع الله حيث طلبوا رؤيته، واشتغالهم بالسحر للإضرار بالناس.

- اختبار الناس بتحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة بمكة وما أثير حولها من أقاويل، وبيان أن البر ليس بالتوجه إلى جهة معينة ولكن البر هو الإتيان بفضائل الأعمال والقيام بواجب العبادات نحو الخالق وقد جاء ذلك في آية البِرّ وهي من أبلغ آيات القرآن التي تبيّن جوهر الدين وحقيقته: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
- أوضحت السورة أصول التشريع في نطاق العبادات من الدعوة إلى المحافظة على الصلوات، وبيان عبادة الصوم التي بها طهارة القلوب وبيان بعض أحكام الحج والدعوة إلى بَذْلِ الصدقات على المحتاجين وعدم إبطال ثوابها بالمنّ والأذى لهم.
- حرية التدين ومنع إكراه أحد على الدخول في الإسلام وهو بهذا سبق المدنية الحديثة بقرون في هذا المنحى مما يسجل للإسلام سبقاً في الدعوة إلى حرية المعتقد.
- الاهتمام بالأسرة ففي السورة دعوة إلى الوصية للوالدين والأقربين، ومعاملة اليتامى بالحسنى ومخالطتهم في المعيشة وإصلاح أموالهم وأحوالهم وتنظيم شؤون الأسرة في الزواج والطلاق والعدّة.
- تحريم الخمر والقمار والربا وبيان إثمها والأضرار المترتبة عليها ومدى آثارها السيئة على الأمة.
- إباحة الأكل من جميع الطيبات وتحريم المآكل التي فيها الضرر للإنسان مع تعداد هذه المآكل المحرَّمة وإباحة الأكل منها عند الضرورة الشديدة التي تؤدي إلى الهلاك.

- أحكام القصاص في القتلى القائمة على مساواة العقوبة بالجرم مما يردع المجرمين.
- تحريم أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام للاستعانة بهم ـ عن طريق الرشوة ـ على أكل أموال الغير ظلماً وعدواناً.
- الكلام عن الجهاد في سبيل الله وإن القتال هو لردّ الاعتداء لا للاعتداء على الناس بل لمنع الفتنة في الدين من اضطهاد المسلمين وإخراجهم من ديارهم **﴿وَقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللَّه الّذِينَ يقاتِلُونكم ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المعْتَدِينَ﴾**.
- دعوة المؤمنين للإنفاق في سبيل الله لأنه العدّة لحفظ كيان الأمة من الأعداء، مع بيان ثواب المنفقين في سبيل ٱللَّه.
- الدعوة إلى كتابة الدَّيْن في أطول آية في القرآن، وهي تبيّن الأصول المتبعة لحفظ حقوق الدائن والمدين بما لا نجد له مثيلاً في أحدث النظم القانونية في العالم.

هذا قليل من كثير مما اشتملت عليه هذه السورة من أحكام ووقائع تاركين للقارئ الكريم الاستمتاع بما حوت من تفاصيل في منتهى الروعة والإبداع.

وأختم هذه الكلمات بما جاء في فضل هذه السورة، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»(١) وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»(٢) أي السحرة.

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) أخرجه مسلم.

سُورَةُ البَقَرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ
٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ
لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾.

شرح المفردات

لا ريب: لا شك.

هُـدى: إرشاد، وضده الضلال.

للمتقين: الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه اتقاء لعذابه.

يُؤمنون بالغيب: يصدقون بما غاب عن حواسهم كالتصديق بالله واليوم الآخر والملائكة.

بما أُنزل إليك: بما أُوحي إليك يا محمد من القرآن.

يُـوقِـنُـون: يعتقدون اعتقاداً جازماً.

المفلحون: الفائزون بما طلبوا، الناجون يوم القيامة.

سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرهم: أي مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، والإنذار إعلام فيه تخويف.
ختم الله على قلوبهم: طبع الله على قلوبهم فلا يصل إليها الحق.
غشاوة: غطاء.

القرآن هداية للمتقين

يستهل ٱللَّه هذه السورة بهذه الأحرف: ﴿الٓمٓ﴾ هذه الأحرف تُقرأ مقطّعة فلفظها: ألِف، لام، ميم. وقد افتتح ٱللَّهُ هذه السورة بهذه الحروف على هذا النحو، ولم يكن هذا الأُسلوب معروفاً عند العرب من قبل، ولم يكن لهذه الحروف معانٍ في اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها بأنها حروف هجائية يتألف منها الكلام، ولم يُرْوَ عن النبي محمد ﷺ بيان المراد منها، وقد كان المفسرون أمامها فريقين: فريقاً يرى أنها مما استأثر ٱللَّه بعلمه، ويُروى عن أبي بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه في ذلك قوله: «في كل كتاب سرّ، وسِرُّ القرآن أوائل السور».

وفريقاً آخر فسّر هذه الأحرف على وجوه شتى:

منها: أن هذه الأحرف رموز لبعض أسماء ٱللَّه تعالى أو لصفاته، فالألِف مثلاً إشارة إلى أنه سبحانه هو (الأول) و(الآخر)، واللام إشارة إلى أنه سبحانه هو (اللطيف)، والميم إشارة إلى أنه (الملك) و (المجيد) و(المؤمن) إلى آخر ما هنالك من أسماء.

ومنها: أن بعض هذه الحروف هي أسماء لبعض سور القرآن مثل سور: طٰه، يٰسٓ، صٓ، قٓ.

ومنها: أن هذه الأحرف ذُكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركّب من هذه الحروف المقطّعة التي يتألف منها كلامهم.

ومنها: أن الكفار كانوا ينفرون عند استماع القرآن حين يتلوه النبي محمد ﷺ عليهم وكانوا يقولون كما حكى ٱللَّه عنهم ﴿. . . **لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦] كما كانوا يتواصون بالإعْراض عنه، فأراد ٱللَّه تعالى أن يورد على أسماعهم ما لا يعرفون ليكون سبباً لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم بعد ذلك، فأنزل ٱللَّه هذه الأحرف في مفتتح السور، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد، فإذا ما أصغوا هجم عليهم القرآن بآياته يقرع أسماعهم، فكان ذلك من ٱللَّه استدراجاً لهم حتى يُقبلوا على القرآن ويستمعوا له وينتفعوا بمواعظه، والذي يؤكّد ذلك أنه كان يُذكر لفظ القرآن أو لفظ الكتاب والمراد به القرآن بعد هذه الأحرف مثل قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١] ﴿يسٓ. وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] ﴿حمٓ. وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢] ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

ثم يُبَيِّن ٱللَّه علوَّ منزلة القرآن بقوله:

﴿**ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ ذلك: اسم إشارة يشار به إلى البعيد، والكتاب مصدر بمعنى المكتوب والمراد منه القرآن الكريم، وقد أُشير إلى القرآن بلفظ ﴿**ذَلِكَ الكِتَابُ**﴾ للإشارة إلى علوّ مكانته وبُعد مرتبته في الكمال عن سائر الكتب ﴿**لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ أي لا شكّ فيه بأنه مُنزل من عند ٱللَّه، ومن ارتاب في أن القرآن وحي إلٰهيّ فلأنه لم يُقبل على قراءته بعقل منفتح أو بقلب سليم من التعصب الأعمى ﴿**هُدًى لِلْمتّقِينَ**﴾ خص ٱللَّه القرآن المتقين بالهداية مع أنه هداية لهم ولغيرهم لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم، فهو إرشاد لهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم لما تضمّنه من العقيدة، والأحكام

العادلة، والأَخلاق الرفيعة. والمتقون: هم الذين يصونون أنفسهم ويحفظونها من عذاب ٱللَّه وذلك بترك السيئات وفعل الصالحات.

ثم يصف ٱللَّه المتقين بخمس صفات هي:

أولها: ﴿**الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ والإيمان هو التصديق القلبي الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها إياه، والغيب: ما غاب علمه عن الخلق وما لا تدركه عقولهم كذات ٱللَّه وصفاته وملائكته واليوم الآخر.

ثانيها: ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**﴾ والصلاة في اللغة: الدُّعاء وقد استعملها الإسلام في العبادة التي تحتوي على الركوع والسجود وتسبيح ٱللَّه وتعظيمه.

وإقامة الصلاة تعني تأديتها كاملة يصحبها الإخلاص واستحضار جلال ٱللَّه وعظمته، وهي التي تترتب عليها الآثار الحميدة من تطهير النفس من الآثام وسلامتها من الآفات والتي قال ٱللَّه عنها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثالثها: ﴿**ومِمّا رَزَقْناهُم يُنْفِقُونَ**﴾ أي يُنفقون مما أعطاهم ٱللَّه وملّكهم إياه في وجوه الخير التي تشمل الصدقات الواجبة كالزكاة، والمستحَبّة كصدقة التطوع وغيرها، وفي قوله سبحانه ﴿**مما**﴾ وأصلها (من ما) من: تفيد التبعيض، أي ينفقون بعض أموالهم بدون إسراف وتبذير على المحتاجين، وجاء قوله سبحانه: ﴿**يُنْفِقُون**﴾ بصيغة المضارع التي تفيد أن الفعل يحدث ويتجدد منهم مرة بعد أخرى. وقد أثنى ٱللَّه على المنفقين أموالهم في سُبل الخير لأن ذلك الإنفاق من أعظم أسباب رُقيّ الأُمم وسلامتها من الآفات الاجتماعية.

ورابعها: ﴿**والّذين يُؤْمِنُونَ بما أُنْزِلَ إلَيْكَ**﴾ أي ومن صفاتهم أنهم يُصدّقون بالقرآن المنزل عليك يا محمد من ٱللَّه وبما فيه من أحكامٍ وآداب

فيعملون بمقتضاها ﴿وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما يُصدّقون بما أنزل ٱللَّه من الكتب السماوية التي نزلت على من سبقك يا محمد من الأنبياء والرسل كالتوراة والإنجيل وغيرهما. فالكتب السماوية السابقة يكفي الإيمان بأنها كانت وحياً من ٱللَّه وهداية للناس ولكن على طول الزمن دخلها التحريف والتبديل، أما العمل فلا يكون إلاّ بما تضمّنه القرآن من أحكام وإرشادات لأن القرآن نسخ ما قبله الكثير من الشرائع.

فالإسلام يُقرّ بالرسالات الإلّهية السابقة ولا ينكرها وذلك خلافاً لليهود والنصارى، فاليهود ينكرون المسيحية والإسلام، وينكرون كتابيهما وهما الإنجيل والقرآن، والمسيحيون ينكرون نُبوّة محمد والقرآن الذي أَنزله ٱللَّه عليه، ولهذا نرى أن أهل كل دين يجدون احترام رسلهم في القرآن بينما يجدون انتقاص رسلهم في الديانات الأخرى.

وخامسها: ﴿وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً بوجود الدار الباقية بعد فناء دار الدنيا حيث يبعث ٱللَّه الناس أحياءً بعد مماتهم يوم القيامة، فيثيب ٱللَّه الأبرار ويُدخلهم جنات النعيم ويُعاقب الفجّار بأن يدخلهم جهنم وبئس المصير.

﴿أُولئِكَ عَلَى هُدًى[١] مِن رَّبِّهِم﴾ أي هؤلاء الموصوفون بما سبق من صفات هم متمكنون من أسباب الهداية من ربهم ومن توفيقه لهم سبحانه ﴿وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ أي وأُولئك هم الفائزون بالخيرات في الدنيا، ونيل نعيم الجنة في الآخرة، وتكرار اسم الإشارة ﴿أُولئِكَ﴾ للتنويه بشأنهم وأن الفوز مقصور عليهم.

---

(١) هدى: إيراد الهُدى نكرة يعنى أنه هدى عظيم على ما هو معروف في علم البلاغة.

وبعد أن بيَّن ٱللَّه صفات المؤمنين أَتْبع ذلك بوصف أحوال الكافرين بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾** هذه الآية جاءت فيمن حقّت عليهم كلمة العذاب وسبق في علم ٱللَّه أنهم يموتون على كفرهم(١). رُوي أن هذه الآية جاءت في أحْبارٍ من يهود المدينة المنورة جحدوا نُبُوّة محمد ﷺ وكتموا أمرها عن الناس وهم يعرفون بأنه نبيّ كما يعرفون أبناءهم.

وقد كان الرسول محمد ﷺ يحرص على أن يُؤمن جميع الناس ويتبعوه على الهدى فأخبره ٱللَّه سبحانه أنه لن يؤمن إلاّ من كتب ٱللَّه له السعادة لطيب عنصره وطاعته له، وأنه يستوي ـ أي يتساوى ـ إنذاره للكافرين وعدم إنذاره لهم لأنهم باقون على ضلالهم.

والإنذار: هو الإعلام بما فيه تخويف وتحذير من الكفر لما يترتب عليه من عذاب ٱللَّه.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ختم وطبع في اللغة واحد وهو التغطية على الشيء بإحكام حتى لا يدخله شيء آخر، والختم على القلب بأن يجعله لا يفهم شيئاً، وهنا كناية عن أحوال الكافرين حيث مثّل ٱللَّه قلوبهم وأسماعهم بالوعاء الذي خُتِمَ عليه، فلا يقبلون الحقّ والإذعان له ولا يسمعون من رسول ٱللَّه موعظة يتعظون بها، فالإنسان إذا تمادى في اعتقاد الباطل وارتكاب المحظور يجعل ٱللَّه على قلبه غطاء فلا ينفذ إليه الهُدى ولا يميز بين الخير والشر **﴿وعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾** أي جعل ٱللَّه على أبصارهم غطاء فلا تبصر آيات ٱللَّه الكونية الدالة على وجوده وقدرته وحكمته **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ**

---

(١) الكفر في كلام العرب الستر والتغطية، وسُمي من لم يؤمن بالله أو بوحدانيته أو من ينكر نبوّة محمد كافراً لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان له كالمغطي له.

عَظِيمٌ﴾ ويشمل العذاب ما أعدَّ ٱللَّه للكافرين من عذاب الآخرة، وما يُصيبهم في الدنيا من عذاب على أيدي المؤمنين من الأسر والقتل. ووصف ٱللَّه هذا العذاب بأنه عظيم لبيان شدته ووقعه على الكافرين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ
﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا
يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ
ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا
لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت
تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

شرح المفردات

يُخادعون ٱللَّه: يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

وما يخدعون إلاّ أنفسهم: وما يعود ضرر خداعهم إلاّ عليهم.

في قلوبهم مرض: هو النفاق والكفر وسُمّيَ مرضاً لكونه مانعاً من إدراك الفضائل.

لا تُفسدوا في الأرض: الفساد خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة وضده الصلاح.

السّفهاء: خفيفو العقل وضعيفو الرأي.

خَلَوا إلى شياطينهم: انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبَّهين بالشياطين.

يمدّهم: يمهلهم ويملي لهم ليزدادوا إثماً.

طُغيانهم: ضلالهم وكفرهم، والطغيان مجاوزة الحد في الكفر والضلال.

يعمهون: يعمون عن الرشد ويتحيرون في أمورهم.

اشتروا الضلالة بالهُدى: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

صفات المنافقين

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المنافقين في ثلاث عشرة آية، والمنافقون هم الذين يخفون الكفر في قلوبهم ويظهرون الإيمان علانية، قال ٱللَّه تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُم بِمؤْمِنِينَ﴾** واليوم الآخر هو الوقت الذي يبتدئ ببعث الناس من القبور أحياء ويستمر باستقرار الأبرار في نعيم الجنة والفجار في عذاب النار.

اقتصر إيمان هؤلاء المنافقين على الإيمان بٱللَّه واليوم الآخر ليموهوا على المؤمنين بأنهم أحاطوا بالإيمان من جانبيه لأن من يؤمن بٱللَّه واليوم الآخر من شأنه أن يكون مؤمناً برسل ٱللَّه وملائكته وكتبه.

ولكن ٱللَّه نفى إيمانهم على أبلغ وجه إذ جاء النفي مؤكّداً بالباء في قوله تعالى **﴿وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾**.

﴿يُخادِعُونَ ٱللَّهَ والَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخديعة: الحيلة والمكر، وإظهار خلاف ما يضمرون، ومخادعة المنافقين لله هي من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة، فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وهذا جهل منهم بٱللَّه تعالى إذ لو عرفوا ٱللَّه حقاً لعلموا أنهم لا يستطيعون خداعه، بل ٱللَّه هو خادعهم أي مجازيهم على خداعهم.

وقيل: المراد بمخادعة ٱللَّه خداع رسوله محمد لأن ٱللَّه لا تخفى عليه خافية، ونُسب ذلك إلى ٱللَّه تعالى للتنبيه إلى عُلوّ منزلة الرسول محمد حيث جعل خداعه خداعاً لله تعالى. وهم في خداعهم للمؤمنين من حيث إنهم يقولون أمامهم غير ما يبطنون، ويمتثلون أحكام الإسلام لمنافع يحصلون عليها من الغنائم وغيرها، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم لأنهم يعيشون في خوف مستمر من أن يَكشف المؤمنون أمرهم، أو يفلت لسانهم بقول يُنبئ عن نفاقهم **﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ﴾** والحال أنهم ما يضرّون بذلك إلاّ أنفسهم لأن ضرر المخادعة يعود عليهم **﴿وما يَشْعُرُونَ﴾** أي ما يحسّون بذلك لتماديهم في الغفلة والغواية، وإن ٱللَّه سيفضحهم في الدنيا بإطلاع رسوله محمد والمؤمنين على خداعهم.

﴿في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ والمرض هو العِلّة في البدن وما ينشأ عنها من آلام تمنع المريض من التصرّف فيما ينفعه، وقد يستعمل المرض على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء من آفات وعيوب فيخلّ بكماله النفسي كالكفر والنفاق والحسد والكذب وغير ذلك، وهذه الآفات كانت متمكنة في عقول المنافقين **﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾** فزاد ٱللَّه المنافقين كفراً ونفاقاً وحسَداً بزيادة النّعم على رسوله محمد والمؤمنين بما أيّدهم ٱللَّه من النصر **﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾** ولهم عذاب موجع بما كانوا يكذبون بادعائهم الإيمان.

﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفسِدُوا في الأَرْضِ﴾ القائل للمنافقين **﴿لا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ﴾** هو النبي ﷺ أو المؤمنون الذين اطلعوا على بعضٍ من سوء أفعالهم. وإفساد المنافقين في الأرض هو بالكفر والعمل بالمعصية وإثارة الفتن بين المسلمين وإفشاء أسرار المسلمين للكفار وإلقاء الشّبه على الإسلام ومعاونة المشركين على المسلمين ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ولكن جواب المنافقين كان مبنياً على مُغالطة كاذبة حيث أجابوا **﴿قالُوا**

﴿إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ لقد صوَّر المنافقون إفسادهم إصلاحاً لعدم تمييزهم بين الخير والشر وهذه صفة بعض مرضى النفوس في كل زمان، ولكن ٱللَّه أكّد فسادهم بقوله: **﴿أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ المفْسِدُونَ﴾** فٱللَّه تعالى يحكم عليهم بالفساد وأنهم مقصورون عليه وقد أكد ذلك بحرف «إن» وبضمير الفصل «هم» **﴿وَلٰكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾** والشعور هو الإحساس النفسي والعقلي بخطأ ما يفعلون، فالشر قد استغرقهم حتى صاروا لا يميزون بين الخير والشر بسبب جهلهم وعدم إدراكهم الخبيث والطيب من الأفعال.

هذا مع العلم أن المدينة المنورة كانت قبل الإسلام ميداناً للصراعات والفساد وشيوع المعاصي والمنكرات، فلما بعث ٱللَّه محمداً رسولاً منه عمل على إزالة هذا الفساد والقضاء على العصبيات الجاهلية، وبذلك تهيأت الأرض للصلاح بعد الفساد.

﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كما آمَنَ النَّاسُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين صدِّقوا بأن محمداً رسول ٱللَّه وبما جاء به من الهدى من عند ٱللَّه كما صدّق به أصحاب محمد ﷺ من المؤمنين أجابوا على ذلك **﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفَهاءُ﴾** والسفهاء: جمع سفيه، والسفيه: هو الجاهل الناقص العقل القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ. لقد وصف المنافقون أصحاب محمد بالسّفهاء، فردّ ٱللَّه عليهم أبلغ ردّ فقال **﴿أَلآ إِنَّهم هُمُ السُّفَهآءُ﴾** أي إن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين **﴿وَلٰكِنْ لا يَعْلَمُون﴾** أي لا يعلمون مقدار ما أُوتوا من سفه الرأي وما أوتي غيرهم من سداد الرأي وحكمة الإيمان.

﴿وإِذَا لَقُوْا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لقيه: استقبله قريباً منه **﴿قالُوا آمَنَّا﴾** أي أخلصنا الإيمان بقلوبنا **﴿وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ﴾** وإذا انْفردوا إلى شياطينهم وهم

رؤساؤهم وكبراؤهم الذين يشبهون الشياطين في تمرّدهم وصدهم عن سبيل الحق ﴿**قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ**﴾ والمعية هنا يُراد منها موافقتهم في دينهم ليزيلوا ما قد يجري في خواطرهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام. وتابع المنافقون قولهم لرؤسائهم: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾ هذا القول منهم ورد مورد الجواب عما قد يعترض عليه رؤساؤهم من مشاركتهم المؤمنين في مظاهر دينهم وكأنهم يقولون لهؤلاء الرؤساء إن مشاركتنا للمؤمنين هي على سبيل الاستخفاف والسخرية، وهنا صوّر ٱللَّه نفاقهم أدقّ تصوير، فقد عبّر عن ملاقاة المنافقين للمؤمنين بكلمة ﴿**لَقُوا**﴾ أي إنَّ لقاءَهم لهم كان مُصادفةً لا يحرصون عليها، وعبَّر عن ملاقاتهم لرؤسائهم بكلمة ﴿**خَلَوْا**﴾ والخلوة فيها القصد للإدلاء لهم بما عندهم من الأسرار لرؤسائهم.

ثم يَرُدُّ ٱللَّه على استهزائهم بقوله: ﴿**ٱللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ**﴾ أي ٱللَّه ينتقم منهم ويجازيهم على استهزائهم لاستحالة معنى الاستهزاء على ٱللَّه تعالى، فقد سمّيت عقوبتهم باسم الذّنب الذي صدر عنهم للمطابقة اللفظية بينهما، وتسمية جزاء الذنب باسم الذنب معروفة في الكلام العربي ﴿**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يمدّهم: يزيدهم أو يمهلهم، والطغيان: الغلوّ في الكفر والضلال. يعمهون: أي يعمون عن الرشد ويترددون حيارى. والعمى يكون في العين، والعمه يكون في القلب. والمعنى: ويزيد ٱللَّه المنافقين في ضلالهم أو يمهلهم فيه يتحيّرون ويتخبطون فيه لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً ﴿**أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى**﴾ اشتروا: بمعنى اختاروا واستبدلوا أي أن المنافق والكافر استبدلا الهُدى بالضلالة والنّفاق ﴿**فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ**﴾ لأن المستبدل في سلعته سلعة دونها ودون الثمن الذي يبتاعها به هو الخاسر في تجارته، وكذلك الكافر والمنافق يخسران في تجارتهما لأنهما اختارا الضلال

وفضّلاه على الرشاد ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي أنهم لم يهتدوا إلى طُرق التِّجارة السليمة التي تحقق الربح وتجنّب الخسارة، وهؤلاء بمسلكهم الخاطئ هذا بقوا في ظلمة الضلال ولم يهتدوا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ
ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ
فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ
مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم
مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

شرح المفردات

مَثَلُهُمْ: صفتهم.

استوقد ناراً: أوقد ناراً.

صُمٌّ: سدّوا آذانهم عن سماع الحق فصاروا كالصم.

بُكْمٌ: جمع أبكم وهو الأخرس، أي لا ينطقون بالحقّ.

كَصيِّب: الصيّب هو المطر المنهمر.

فيه ظلمات: المراد بها الظلمات الناشئة من كثافة المطر وكثافة السحب التي تحجب نور الشمس والناشئة عن ظلمة الليل.

الصواعق: جمع صاعقة، وهي إفراغ كهربائي جوي بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين.

حذَر الموت: خوف الموت.

محيط بالكافرين: أي لا يفوتونه ولا ينجون من بطشه.

وصف أحوال المنافقين

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين فيصوّر أحوالهم بتلك الصورة البليغة:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مثلهم: المثل هو الشبيه والمثيل، ويستعمل المثل في الحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفيّ ولتمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسّيّة، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوضح وأوقع في القلوب.

وهذا المثل يسوقه ٱللَّه لهؤلاء المنافقين الذين أظهروا الإيمان بألْسنتهم وانتفعوا به بين المسلمين واكتسبوا بإيمانهم نوراً ثم أبطلوا ذلك الإيمان بنفاقهم فوقعوا في حيرة عظيمة، فمثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجلٍ أوقد ناراً في ليلة مظلمة فرأى ما حوله واتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ انطفأت ناره فبقي في ظلمة حائراً متخوفاً. وقد أُسند النور إلى ٱللَّه **﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾** للإيذان بأن هذا النور إنما ذهب بأمر سماوي بسبب نفاقهم **﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾** وإيراد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة في شدتها فكأنها لشدة كثافتها ظلمات بعضها فوق بعض، وأكّد هذا المعنى بقوله تعالى **﴿لا يُبْصِرُونَ﴾** أي أن هذه الظلمات بلغت من الشدة بحيث لا يرى من خلالها أي شيء.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ وصف ٱللَّه حال المنافقين بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع وألْسِنة تنطق وأعين تُبصر، ولكنهم لمّا حَجبوا أسماعهم عن تقبّل الحقائق كانوا بمثابة الصُّمّ الذين لا يسمعون، ولمّا لم ينطقوا بالحق كانوا بمثابة البُكم، ولمّا لم يميزوا بين الحق والباطل ببصائرهم كانوا بمثابة العمي **﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾** فهم لا يتوبون ولا يرجعون إلى الهدى ولا إلى الخير.

ويتابع القرآن فيمثل المنافقين بهذا المثال الثاني:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الصَّيِّبُ: المَطَرُ المنهمر، والظلمات: المراد منها كثرة هطول المطر وكثافة السحب وظلمة الليل. شبّه ٱللَّه القرآن الذي به حياة القلوب وإصلاح النفوس، بالمطر النازل من السحاب الذي به حياة الأرض والعباد. وشبّهَ اللَّهُ ما أحاط بالمنافقين من التردد والحيرة والشكوك بالظلمات، وشبَّه ٱللَّهُ ما عليه المنافقون من الخوف من وعيد ٱللَّه إياهم بحلول العذاب بهم بالرعد، وشَبَّهَ ٱللَّه ما في القرآن من الحجج الباهرة والإرشادات الخيّرة للإنسان بالبرق. فالمنافق في قلبه ظلمات الكفر، بينما المؤمن يعيش نور الإيمان حيث يجد فيه الأمن والطمأنينة والسعادة.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ﴾ هنا مُبالغة في تصوير إعْراض المنافقين عن قبول ما جاء به رسول ٱللَّه محمد من الهُدى حيث صَوَّرَ القرآن إعْراضهم بالرجل الخائف من الصّواعق الذي يَسُدُّ أُذنيه بأنامله حتى لا يسمعها خشية أن يموت من شدة صوتها وما تحدثه من هلاك لمن تصيبه **﴿واللَّهُ مُحِيطٌ بالكافِرِينَ﴾** والإحاطة هنا: السلطان والاستيلاء والقوة، أي أنهم في قبضة ٱللَّه سبحانه إن أراد أهلكهم فهو محيط بهم لا يفلتون منه.

ثم يأتي المشهد التالي ليزيد على الصورة خيالاً وَرَهْبَةً:

﴿يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُم مشَوْا فِيهِ﴾ فالبرق لشدة لمعانه يكاد يذهب بأبصار المنافقين وهم كلما أضاء لهم استرشدوا به في سيرهم، وإضاءته لهم عندما يرون في إظهار الإيمان ما يعجبهم من الحصول على الغنائم في الغزوات والثراء في الأموال والسلامة في البلدان والأهل **﴿وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾** فإذا ذهب ضوء البرق وعاد الظلام إليهم كأن لم يجدوا عند المسلمين مغنماً أو ما يعجبهم في دنياهم رجعوا إلى كفرهم وأقاموا على نفاقهم

وثبتوا على ضلالتهم ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي لو شاء ٱللَّه لأذهب عن المنافقين سمعهم وأبصارهم عقوبة لهم على كفرهم وضلالهم بسبب إعراضهم عن الحق بعد معرفتهم إياه، فقد جعل ٱللَّه لهم السمع والأبصار لتكون سبيلاً إلى الهدى ولكن صرفوها إلى المعاصي والشهوات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإنّما وصف ٱللَّه نفسه بالقدرة على كل شيء تحذيراً للمنافقين من عقوبته إياهم وأنه قادر على إذهاب أسماعهم وأبصارهم، وقديرٌ من صيغ المبالغة على اسم الفاعل قادر، أي المبالغة في القدرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

شرح المفردات

لعلكم تتقون: لكي تقوا أنفسكم وتحفظوها من عقاب الله.

جعل لكم الأرض فِراشاً: أي خلقها الله موطأة كالفراش بحيث يتيسر الاستقرار عليها.

وأَنْزَلَ من السماء ماءً: وأنزل الله من السحاب ماءً، فكل ما علاك سماء.

أنْداداً: جمع نِدّ وهو الشبيه والنظير والمُماثِل.

الدعوة إلى عبادة اللّه وحده

وبعد الكلام عن صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين يأتي خطاب ٱللَّه للناس كافة داعياً إياهم إلى عبادته وحده بأسلوب مؤثّر مقنع يجعل النفس تستجيب طوعاً لهذا النداء الرباني، قال ٱللَّه تعالى:

﴿يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فالآية دعت إلى عبادة ٱللَّه ووصفته بصفة الربّ: وهو المالك والمربي، وإضافته إلى المخاطَبين بقوله **﴿رَبّكُم﴾** حَثٌّ للإقبال على عبادته، وذلك أن الإنسان إذا اتّجه بفكره إلى معنى كون ٱللَّه مالِكاً ومربياً له وتَذَكَّرَ ما يحفُّه به من رفق وما يجود عليه من نِعَمٍ لا يلبث أن يخصه بأقصى ما يمكن من العبادة.

والعبادة في اللغة: الطاعة والخضوع والتذلل والتّنسُّك، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلاّ المُنْعِم بأجلّ النعم وأعظمها وهو ٱللَّه سبحانه.

ومجالات العبادة في الإسلام تشمل الأركان الشعائرية: من الصلاة والصيام والزكاة والحج ويطلق عليها العبادات، كما تشمل ما زاد على ذلك من ألوان التعبّد كذِكر ٱللَّه والتوجه إليه بالدّعاء، واستغفاره وتسبيحه، وتكبيره والشكر والحمد له. ثم بيّن القرآن الدّواعي والأسباب التي توجب عبادة ٱللَّه:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي اعبدوا ربكم فهو الذي أنشأكم من العدم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وغذّاكم بنِعَمِه ونمّاكم بكرمه، كما أنه سبحانه خالق من كان قبلكم من الآباء والأجداد والأُمم **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** لعلَّ: حرف يدل معناه على الترجّي وهو توقّع حصول شيء عندما يحصل سببه، والتقوى: جعل النفس في وقاية من عذاب ٱللَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والمعنى: اعبدوا ٱللَّه راجين أن تكونوا من المتقين، لأن التقوى هي الغاية التي تنشأ عن العبادة، لأن من يعبد ٱللَّه ويعلم أنه مطلع عليه يترك ما حرّمه عليه، ويؤدي ما افترضه عليه ويصبح من المتقين لله.

ثم يُبَيِّن القرآن نِعَمَ ٱللَّه على الإنسان:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً﴾ أي خلق ٱللَّه للإنسان الأرض منبسطة

ممهدة ليتمكن من الاستقرار عليها وبناء البيوت للسكن فيها، أضف إلى ذلك إمكان الانتفاع من خيراتها بما فيها من تربة صالحة للزراعة ولم يجعلها كلها جبالاً ووديانا وصخوراً صلبةً بحيث يصعب العيش عليها والتنقل فيها **﴿والسَّماءَ بِنَاءً﴾** وجعل ٱللَّه لكم السماء كالسقف للأرض وسوّى أجرامها على هذه الصفة المشاهَدة، متماسكة كالبناء بقانون الجاذبية بحيث لا يصطدم بعضها ببعض أو يسقط بعضها على الأرض فينسفها **﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾** أي وأنزل ٱللَّه من السحاب ماءً عذباً تشربون منه وفيه حياة كل حيٍّ على وجه الأرض **﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾** ومن هذا الماء ينمو كلُّ أنواع الثمرات التي يقتات منها الإنسان والحيوان **﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** الأنداد: جمع نِدّ وهو المُماثل والشريك والنَّظير، فالمشركون لمّا تركوا عبادة ٱللَّه إلى عبادة الأصنام وسمّوها آلهة وزعموا أنها تنفع وتضر فهم بذلك جعلوها شريكةً لله. فٱللَّه سبحانه ينهاهم عن اتخاذ شركاء لله من أصنام لا تنفع ولا تضر **﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** وأنتم تعلمون أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، فلو تأملتم أدنى تأمل في وضعها لتركتم عبادتها وتوجهتم إلى عبادة ربكم خالق الكون الجدير وحده بالعبادة.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

شرح المفردات

في رَيبٍ: في شَكٍّ.

مما نَـزّلنا على عبدنا: أي مما نزّل الله من القرآن على محمد ﷺ.

بِسُورة: السورة هي الطائفة من آيات القرآن والتي أقلها ثلاث آيات.

وادْعُوا شهداءكم: أي ادعُوا أنصاركم وأعوانكم ليشهدوا أنكم عارضتم القرآن.

فاتّـقوا النار: فاحذروا عذاب الله في نار جهنم.

أُعِدَّت: هُيِّئت.

القرآن يتحدى العرب وكافة الأُمم

كان العرب في زمن النبي محمد ﷺ على جانب كبير من البيان والفصاحة في المنطق والبلاغة في القول، وكانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الشعراء ويُنشدون أشعارهم وخطبهم في مكان يطلق عليه سوق عكاظ.

فجاء القرآن أفصح كلاماً وأبلغ أُسلوباً وأعمق معنى ليستحوذ على قلوب أهل الجزيرة العربية بعد أن كانت مسرحاً للظلم والفساد، وليخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي الوقت نفسه ليكون القرآن دليلاً وبرهاناً على صدق نبوة محمد ﷺ الذي كان أُمِّيّاً لا يقرأ ولا يكتب.

سمع العرب فصاحة القرآن فبهتوا لفصاحته وأذعنوا لبلاغته فقالوا في

القرآن: هو شعر، وهو سحر، وهو أساطير الأولين، ورموا محمداً بالجنون، واتهموه بالكذب حيث زعموا أن القرآن من تأليفه، وهذه الشّبهة يرددها الكثير من أتباع الديانات الأخرى بدون علم ولا بصيرة.

ولمّا كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً بالقصائد والخطب لذا تحدّى القرآن المشركين المنكرين بأن القرآن منزل من عند ٱللَّه بقوله تعالى: **﴿وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾** أي وإن كنتم ـ أيها العرب ـ في شكٍّ بأن القرآن مُنزل من عند ٱللَّه على عبده محمد فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن بما يشبهه في حسن النظم وبراعة الأسلوب وسموّ المعنى فأنتم أهل الفصاحة والبلاغة.

والآية وصفت النبي محمّداً ﷺ بأنه عبد ٱللَّه **﴿عَبْدِنا﴾** باعتبار عبوديته لله، وفي إضافته إلى ٱللَّه تنبيه على شرف منزلته عند ٱللَّه، كما أن وَصْفَ النبي محمد بصفة العبودية هو تذكيرٌ لأُمَّته بهذا المعنى حتى لا يغلوا في تعظيمه ويدّعوا له الألوهية كما غلا بعض أتباع الأديان الأخرى في تعظيم أنبيائهم.

ثم يخاطب ٱللَّه المشركين المنكرين بأن القرآن مُنزل من عنده بقوله:

﴿وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ شهداءكم: أعْوانكم ونُصراءكم، وقيل: آلهتكم. والمعنى: نادوا الذين اتخذتموهم آلهةً وأعواناً وأنصاراً من غير ٱللَّه ليعينوكم على مُعارضة القرآن، أو ليشهدوا بأنكم أتيتم بمثل القرآن بلاغة وحكمة **﴿إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾** أي صادقين في زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن وأن محمداً افترى واختلق هذا القرآن.

﴿فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تستطيعوا الإتيان بسورة من مثل سور القرآن **﴿ولَنْ تَفْعَلُوا﴾** هو نفيٌ قاطع لاستطاعتهم الإتيان بسورة من مثله في الحاضر

والمستقبل وتأكيد على عجزهم عن معارضته وذلك من معجزات القرآن، إذ لم يثبت أنهم أتوا بسورة من مِثْلِ هذا القرآن أيام رسول ٱللَّه ﷺ ولا من بعده إلى زمن كتابة هذه الكلمات **﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ﴾** أي إذا عجزتم عن مُعارضة القُرآن والإتيان بسورة من مثله وأصررتم على إنكاركم بأن القرآن وحي إلَهيّ، فعندها تكون قد لزمتكم الحجة، فاتّقوا عذاب النار التي سيكون وقودها من الكافرين ومن الأصنام التي كانت مصنوعة من الحجارة **﴿أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾** أي هُيِّئَت هذه النّار للكافرين، واقترانهم مع الأصنام في عذاب النار زيادة في إيلامهم وتحسرهم.

هذا وقد ورد في القرآن جملة من التحدّيات للمشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ولَمّا لم يأتوا بمثله تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

وأعاد عليهم هذا التحدي في سورة البقرة في الآية التي نحن بصددها، ولمّا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله جاء الردّ القاطع لهم على عجزهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

هذا هو التحدي الواضح الذي أعلنه القُرآن منذ خمسة عشر قرناً ولم نسمع إلى يومنا هذا أن أديباً أو بليغاً أو شاعراً أو مجموعةً من هؤلاء استطاعوا أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثل سور القرآن في بلاغتها ومعانيها الباهرة، أيُّ دليل وبرهان على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى أن القُرآن وَحْيٌ من عند ٱللَّه أقوى من ذلك؟

القرآن هو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ

المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وقد جرت حكمة ٱللَّه سبحانه أن تكون معجزة الأنبياء من جنس ما اشتهر به أهل زمانهم، فقد اشتهر قوم موسى بالسحر فكان من معجزاته عصاه التي ابتلعت أدوات السحرة. واشتهر قوم عيسى بالطب فكان من معجزاته إحياء الموتى وإبراء الأكمَه والأبرص بإذن ٱللَّه. واشتهر العرب في عهد محمد ﷺ بالفصاحة والبلاغة فكانت معجزته القرآن الكريم من النوع الذي اشتهروا به.

ومعجزات الأنبياء لم يشاهدها إلاّ من عاصر الأنبياء، وبوسع الملحدين أن يُنكروها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة يشاهدها كل دارس للقرآن حسب علمه واختصاصه في أي فرع من أنواع المعرفة، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ما مِنَ الأَنبياء مِنْ نَبِيٍّ إلا قد أُعطي من الآيات ـ أي المعجزات ـ ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُه وَحْياً ـ أي القرآن ـ أوحاه ٱللَّه إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(١).

---

(١) أخرجه الشيخان.

من مظاهر إعجاز القرآن

ومظاهر إعجاز القرآن كثيرة نذكر بعضها فيما يلي:

أُسلوب القرآن: ومن مظاهر إعجاز القرآن أُسلوبه المخالف لأساليب العرب بما اشتمل عليه من تشبيهٍ واستعارةٍ وإيجازٍ وبلاغةٍ، وما من عالمٍ أو بليغٍ إلاّ وهو يعرف ذلك ويَعُدُّ خروج القرآن على أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام البشر. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدّعي بعض دُعاة الأديان لجاء القرآن بأسلوب يشبه أُسلوباً من أساليب البلغاء والشعراء في عصره لأنه عاش في وسطهم، هذا مع العلم أن أُسلوب القرآن وما اشتمل عليه من موضوعات يختلف عن أقوال النبي ﷺ ووصاياه التي دوّنتها كتب الأحاديث الشريفة.

لا تفاوُت في بلاغة القرآن في كل مواضيعه: ومن مظاهر إعجاز القرآن أن بلاغته لا تتفاوت ولا تختلف على ما يتصرف فيه من الوجوه من قَصَصٍ وَوَعْظٍ وحكم وأحكام وتشريع وغير ذلك مما حواه القرآن، بينما نجد كلام البليغ يختلف باختلاف الأغراض. فمن بلغاء العرب من يجيد الوَصفَ دون الغَزَل، والمدح دون الهجو، ومنهم من يُجيد في بعض النواحي من أغراض الشعر دون بعض، وإذا تأملت نظْم القرآن وَجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه والمواضيع ليس فيه انحطاط عن المنزلة العليا في البلاغة، كما أنه ليس في بلغاء العرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة في القول وعلى هذا القدر من الطول كالذي عليه القرآن.

احتواء القرآن على أُمور غيبيّة: ومن مظاهر إعْجاز القرآن اشتماله على كثيرٍ من الأمور الغيبية التي تحققت مثل قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فدخله المسلمون كما وعدهم ٱللَّه، ومثل قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ . فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٢ ـ ٤] فتحقَّق ذلك كما أَخبر القرآن. ومثل ذلك ما أنبأ به القرآن من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاّ الراسخون في العلم من علماء أهل الكتاب كإخباره عن أحوال نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم، والكلام عن الكثير من الأنبياء والرسل وما جرى لهم من أحداث مع قومهم تختلف عما جاء في العهد القديم، هذا مع العلم أن النبي محمداً لم يجتمع بأَحبار اليهود ورُهْبان النصارى لتلقِّي العلم على أيديهم، ولو حصل ذلك لشاع بين قومه هذا واتخذ أعداؤه ذلك مادة للطعن في نُبُوَّته.

ميزة القرآن على غيره من الكُتب السَّماوية: ومن مظاهر إعجاز القرآن اشتماله على العلوم الإلَهية وأُصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسي والمَدَني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان، وبذلك يَفْضُلُ القرآنُ كُلَّ ما سبقه من الكتب السماوية.

والملفت للنظر أن القرآن يذكر صفات خالق الكون بغاية العظمة والجلال، ففي كل آيةٍ من آيات القرآن تلوح فيها عظمة ٱللَّه تعالى وتظهر أُلوهيته وقدسيته في أعلى مظاهرها، كما أن القرآن امتلأ بأسماء ٱللَّه الحسنى وصفاته الجليلة، كما ورد فيه ذكر ٱللَّه بكثرة لافتة بحيث لا يُضاهيه أي كتاب سماويّ، فالتوراة والإنجيل اللذان يتبعهما اليهود والنصارى لو قرأتها لوجدت صفحات منها خالية من ذكر ٱللَّه تعالى، ولكنك لا تجد صفحة من القرآن خالية من ذِكْرِ اسم ٱللَّه تعالى والدعوة إلى ذكره وعبادته وشكره.

مُعجزات القرآن العلمية: والجدير بالذكر اشتمال القرآن على كثيرٍ من

المسائل العلمية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للعلماء والباحثين في طبيعة الكون، ففي القرآن الكثير من الآيات التي تتعلق بعلوم الفَلَك والطبيعة وعلم الحياة وخلق الإنسان وغيرها من العلوم التي أشار إليها القرآن، وقد أَلَّف العلماء في ذلك كتباً تبيّن فيها ما أورد القرآن من الحقائق العلمية[١] منذ خمسة عشر قَرْناً حين لم تكن هذه المعارف معلومة في ذلك الوقت وهذا مما يثبت أن القرآن وحي إلٓهي.

فصاحة القرآن في كل كلمة من كلماته: ومن مظاهر إعجازه فصاحة ألفاظه وبلاغة أساليبه وحُسن وقعه على السمع، من تَخَيُّر الألفاظ العذبة التي تتآلف حروفها في النغم بحيث لو سقط حرف واحد أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لشكّل ذلك خَلَلاً بَيِّناً في انسجام النغم، مع الابتعاد عن الغريب والوحشي من الكلام.

كما ترى في آيات القرآن اطراد الفاصلة فيها على نسق خاص، والفاصلة في اصطلاح القرآن هي الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية حيث تكون مُنسجمة لحناً مع الفاصلة التي سبقتها، وهذه الفواصل تنتهي بحرف خاص يتكرر في آيات السورة مثل (النون). كما جاء في أواخر الآيات (تعلمون، تؤمنون، تتقون) أو تنتهي الفاصلة (بالألف) مثل (خبيراً، كثيراً، عليماً، حكيماً) والقرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما في ذلك من تأثير كبير على السمع، ووقع مؤثّر في النفس، وهذا يُظهر إعْجاز القرآن وعظمة بلاغته.

---

(١) أورد المؤلف بعض هذه الحقائق العلمية في كتابه (روح الدين الإسلامي).

تأثير القرآن

والقرآن اختص بميزة خاصة لا تجدها في أيّ كتابٍ آخر وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس فقارئه لا يملّه وسامعه لا يمجّه، تستشعر النفس عند قراءته لَذّةً وحلاوة وروعة ومهابة، تستبشر به النفوس الطيّبة المؤمنة لما فيه من المبشرات بنعيم ٱللَّه للمتقين، وتنشرح له الصدور لما فيه شفاء للهموم وبلسم للأحزان، وصدق ٱللَّه إذ قال في القرآن ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

شرح المفردات

وبَشِّر الذين آمنوا: التبشير يطلق غالباً على الإخبار بالخبر السارّ.

وَأُتـوا به مُتَشابهاً: أي قُدّم لهم ثمر الجنة متشابهاً مع ثمار الدنيا لكنه يفوقها طعماً ومذاقاً.

أزواج مُطَهَّرة: أي زوجات مُبَرَّآت من كل دَنَسٍ وعيب.

لا يستحي أن يضرب مثلاً ما: أي لا يترك الله ضرب المثل، وضرب المثل استعماله فيما ضرب له.

بعوضة: البعوض يطلق على البقّ والناموس.

فما فوقها: أي الزيادة في الحجم.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

ينقضون عهد الله: أي يبطلونه، وعهد الله ما أَخذه على العباد من توحيده والعمل بشريعته.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: يقطعون صلة الأرحام.

المقارنة بين المؤمنين والكافرين ومصير كل منهما

وبعد أن ذكر ٱللَّه أحوال الكفار وأن مصيرهم في عذاب جهنم عَقَّبَ على ذلك بالكلام عن المؤمنين وما يفوزون به من النعيم في الآخرة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾ يطلب ٱللَّه من نبيه محمد ﷺ أن يُبشّر الذين صدّقوا بوحدانيته وأخلصوا له الإيمان، وقرنوا إيمانهم بالأعمال الصالحة **﴿أنَّ لَهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾** والجَنّات: جمع جنّة وهي كل بُستان ذي شجر متكاثف ملتفّ الأغصان، ثم صارت الجنة اسماً شرعياً لدار النعيم في الآخرة، وهذه الجنات تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً﴾ أي أن سكان الجنة كلّما رُزقوا ثمرة من ثمارها **﴿قَالُوا هَذا الَّذِي رُزِقْنا مِن قَبْـلُ﴾** أي قالوا: هذا الذي رَزَقنا ٱللَّه إياه من قبل في الحياة الدنيا، أو بمعنى: هذا الذي وُعدنا به في الدنيا جزاء الإيمان والعمل الصالح **﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً﴾** أي جيء لهم بهذه الثمار متشابهة في اللون والمظهر، وفي هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة في حسن مظهرها، ولذة

طعمها بحيث لا تفضل ثمرة في ذلك على أُخرى بخلاف ثمر الدنيا فإنه يتفاوت في طعمه. أو بمعنى: أن ثمر الجنة متشابه في الصورة والشكل على ما كان في الدنيا فإذا ما أكلوا منه أَحَسّوا فرقاً شاسعاً في اللذة والطعم بينه وبين ثمر الدنيا. وإنما جعل ثمر الجنة مشابهاً في الصورة لثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه، فإن الطباع تميل إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿**وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾ ولأهل الجنة زوجات منزهات عن كل ما يعيبهن من العيوب في أبدانهن أو خلقهن، فهؤلاء الأزواج مطهرات من الأخلاق المشينة والطبائع الرديئة كالغضب والحقد والكيد والمكر والتطلع إلى غير أزواجهن، ومطهرات من الأدناس الجسدية كالحيض والجنابة والبول والتغوط والعَرَق وغير ذلك ﴿**وَهُمْ فيها خالِدُونَ**﴾ وهم في الجنات باقون أبداً، وهذا مما يُضفي عليهم سعادة، لأن النعيم متى كان مترقب الزوال يجعل صاحبه منغصاً إذ يذكر أنه سيفقده يوماً ما.

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَما فَوْقَها**﴾.

رُوي أنه لما ذكر ٱللَّه الذّباب والعنكبوت في القرآن وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل ٱللَّه هذه الآية ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لا يَسْتَحْيِ . .**﴾.

ومعنى: يستحي من الاستحياء بمعنى الحياء وهو لغةً: انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يُعاب به ويذم، وهذا المعنى غير مراد بجانب ٱللَّه، والمراد من الحياء: الترك، لأن من استحيا من شيءٍ تركه.

والمَثَلُ في اللغة: الشبه والشبيه، وضرب المثل يعني إيضاحه وبيانه، واختير له لفظ الضرب لأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى

قلبه، وضرب المثل هو للتذكير والوعظ والاعتبار وتقريب المراد منه بصورة المحسوس.

ومعنى الآية: إن ٱللَّه لا يترك ضرب المثل بأي شيء سواء كان صغيراً كالبعوضة أو أكبر منها في الحجم كالذباب والعنكبوت.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِمْ﴾ فأما المؤمنون فيعلمون أن المثل الذي ضربه ٱللَّه ومثّل به هو الحق من ربهم، والحق هو خلاف الباطل وهو الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وقد ضرب ٱللَّه الأمثال للناس لِيُعينهم على فهم المعاني الصحيحة.

﴿وأمَّا الَّذِين كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي إن الكافرين يتعجبون ويقولون: ماذا أراد ٱللَّه من ضرب هذه الأمثال المتمثلة بهذه المخلوقات الضعيفة؟ وغايتهم إنكار أن يكون ٱللَّه قد ضربها للناس ويستحيل صدورها منه.

ثم يعقّب ٱللَّه على ذلك بقوله: ﴿يُضِلُّ به كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثيراً﴾ أي يضل ٱللَّه بهذا المثل كثيراً من الناس الذين عميت قلوبهم عن إدراك مراميه، ويهدي به كثيراً من الناس ممن استنارت قلوبهم بالإيمان، فيزداد المؤمنون بالمَثَل رُشداً إلى رشدهم، ويزداد به الكافرون تخبطاً في ظلمات الجهل والضّلال.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسِقِينَ﴾ والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج عن طاعة ٱللَّه، فيشمل الخروج من الإيمان إلى الكفر، أو إلى ما دون الكفر وهي الكبائر والصغائر من الذنوب. ولكنه اختص في العُرف من بعد بارتكاب الكبيرة. وإضلال ٱللَّه تعالى للفاسقين لا يعفيهم من أن يتحملوا تبعته، لأنَّ الإنسان إذا سلك باختياره طريق الكفر والفساد غير مكترثٍ بما حذَّره ٱللَّه منه يتركه ٱللَّه في ضلالته لأنه سلك سبيلها وأَوْغل فيها مختاراً.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ والنَّقْضُ: إفساد ما أبرم وفسخه، وشاع استعمال النقض في إبطال العهد ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ﴾ أي من بعد توثيقه وتمامه بين المتعاهدين.

والعهد الذي نقضه هؤلاء الفاسقون هو وصية ٱللَّه إلى خلقه وأمره إياهم بطاعته ونهيه إيّاهم عن معصيته، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل بما وصّاهم به. كما أن عهد ٱللَّه هو ما أخذه على أهل الكتاب بالعمل بما أنزله عليهم من الكتب الإلٓهيّة واتباع محمد حين يُبعثُ نبيًّا والتصديق بما جاء به، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد أن أخَذ ٱللَّه عليهم العهد بأن يبينوه للناس ولا يكتموه وفي هذا يقول ٱللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ. . .﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والعهد يكون تارة بين الأفراد والجماعات في الأُمّة الواحدة وتارة بين الأُمم بعضها مع بعض فلا يجوز نقض هذه العهود، ويكون نقضها خروجاً عن طاعة ٱللَّه وهديه.

﴿وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ﴾ وهو قطع صلة الأرحام والقرابات وكذلك صلة الأخوّة بين المؤمنين. فصلة الأرحام توجد نوعاً من التكافل الاجتماعي بين البشر فإذا حدث لشخص مصيبة أسرع أقاربه إلى الوقوف بجانبه ومدّ يد المعونة له والتخفيف عنه. وقطع صلة الأخوّة بين المؤمنين يؤدي إلى إضعافهم وشيوع الحقد والفرقة بينهم ﴿وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ﴾ والإفساد في الأرض ضدّ إصلاحها، وإصلاحها يكون بالعمل بوصايا ٱللَّه، أما إفسادها فيكون بشيوع الفواحش والمنكرات والظلم والغشّ، كما يكون إفسادها بإفساد

البيئة التي نعيش فيها وينتقل ضررها إلى الإنسان والحيوان والنبات والماء ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾ أي أولئك المتصفون بهذه الصفات الذميمة هم الذين خسروا الحياة الطيبة في الدنيا وسوف يخسرون نعيم الآخرة بما أفسدوا في الأرض ونقضوا عهد ٱللَّه.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

شرح المفردات

استوى إلى السماء: تعلّقت إرادته تعالى بتسوية السماء.

خليفة: هو من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في الأرض.

ويَسْفِكُ الدِّماء: يُريقها بالقتل عُدواناً وظُلماً.

نُسبِّح بحمدك: ننزهك عما لا يليق بك ومتلبسين بحمدك.

ونُقدّس لك: نُطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيماً لك وتمجيداً، من التقديس بمعنى التطهير.

آدم خليفة ٱللَّه في الأرض

وبعد أن عدد ٱللَّه مساوئ أولئك الكافرين وبيّن ما يصيرون إليه من الخسران في الدنيا والآخرة وَجَّهَ إليهم الخطاب على الوجه المعروف في علم البلاغة باسم (الالتفات) حيث نقل الحديث عنهم من طريق الغائب إلى طريق الخطاب مباشرة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ﴾ والغرض من هذا الاستفهام الإنكار والتوبيخ، أي عجباً من أمركم كيف تكفرون بٱللَّه وتجحدون فضله ونعمه عليكم، وكنتم أمواتاً في حال العدم حيث كنتم في أَصلاب آبائكم فأخرجكم ٱللَّه أحياءً إلى الدنيا بعد أن نفخ فيكم الروح وأنتم في أرحام أمهاتكم **﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾** أي بخروج أرواحكم في الدنيا بعد انقضاء آجالكم **﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾** ببعثكم أحياء بعد الموت يوم القيامة **﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** ثم تصيرون إلى ٱللَّه وحده دون سواه حيث يتولى حسابكم ويجزيكم على أعمالكم يوم القيامة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي أنه سبحانه خلق جميع ما في الأرض من حيوانٍ ونباتٍ ومعادن وخيرات من أجلكم أنتم أيها الناس لتنتفعوا بها، وفي هذا النصّ دليلٌ على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة من استعمالها حتى يقوم دليل على حرمتها، وقد أكد القرآن على ذلك بقوله **﴿جَمِيعاً﴾**.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ﴾ والمُراد من استوائه ـ تعالى ـ إلى السماء إقباله عليها بإرادته ليخلقها بغير صارفٍ يصرفه عن ذلك أو بمعنى علا إليها وارتفع من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه مع كمال التنزيه عن مشابهة أحد **﴿فَسَوَّاهُنَّ**

﴿سَبْعَ سَمٰوٰتٍ﴾ ومعنى تسوية ٱللَّه تعالى للسماوات السبع تدبير خلقهن وتقويمه لهن مصونات من النقص والخلل ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي أن عِلم ٱللَّه شامل لكل ما في الكون لا يخفى عليه شيء.

ولكن ما المُراد بالسماوات السبع؟ ليس هناك رأيٌ جازم بحقيقة السماوات السبع، ولذلك يرى بعض العلماء أن نسلم الأمر لله ونؤمن بأن هناك سبع سماوات كما جاء في القرآن وإن كنا لا ندري كنهها. وهناك من ذهب في تفسير ذلك بأن الغلاف الجوي للأرض مُكوَّن من سبع سماوات أي سبع طبقات، والسماء في اللغة هي كل ما علاك فأظلك من سقف أو غيره، كما تطلق على الفضاء الواسع هذه القبة الزرقاء.

وهناك رأي جدير بالملاحظة كما ذهب كثير من المفسرين وهو أن المراد بالسماوات السبع الكواكب السبعة السيّارة في مجموعتنا الشمسية وهي الكواكب الآتية: عُطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وأُورانوس ونبتون، أما كوكب بلوتو الذي اكْتُشِفَ حديثاً فأقوى النظريات الحديثة لا تعتبره من مجموعتنا الشمسية إذ إن خصائصه تختلف عن بقية الكواكب في المجموعة الشمسية كما أن هذا الكوكب لا يُرى إلا بواسطة التلسكوب لبعده الشاسع.

ومما يؤيد ذلك أن ٱللَّه لفت أنظار العرب إليها في زمن نزول القرآن وأنها كانت مرئية لهم كما جاء في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا[١] . وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]،

---

(١) طباقاً: جاء في لسان العرب تطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، وطابَقْتُ بين الشيئين: جعلتهما على حذْوٍ واحد. فالكواكب السيارة تتوافق من حيث دورانها حول الشمس وتكوينها الجيولوجي مع بعضها البعض.

واقتران ذكر الشمس والقمر ضمن هذه الكواكب السيّارة يدلّ على أن المُراد بالسماوات السبع هذه الكواكب السيّارة التي مر ذكرها في مجموعتنا الشمسية.

ودليل آخر على ذلك ما نص عليه القرآن من أن طبيعة هذه الكواكب تشبه طبيعة الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وهناك من المفسرين من قال إن كلمة سبع سماوات لا يراد بها العدد المحدود المذكور إنما يراد بها الكثرة من الأعداد كما ورد في بعض آيات القرآن ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]. ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. فالسبع والسبعون يراد بها الكثرة ولا يراد بها عدد محدود.

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ أي واذْكُر يا محمد وقت أن قال ٱللَّه للملائكة ﴿إِنّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وجاعل بمعنى خالق، أي إني خالق في الأرض خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فَأُمَكِّنه من الأرض وأَجعله صاحب سلطان فيها وهو آدم وذُرّيته. وقد استخلفهم ٱللَّه في عَمارة الأرض بما ميّزهم على سائر المخلوقات من المواهب والعقل، وبما سخَّر لهم ما في السماوات والأرض، وبما أنزل عليهم من الشرائع الإلَهيّة والأحكام ليحكموا فيها وينفذوا إرادة ٱللَّه في خلقه.

كما أن كلمة الخليفة تأتي بمعنى الخالف لمن كان قبله، أي أن آدم وذُريّته خلفوا من سبقهم في عمارة الأرض، ولهذا قالت الملائكة عندئذٍ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماء﴾ وهذا مما يُشعر بأنه كان في

الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان[١] وأنه أفسد في الأرض وسَفَكَ الدماء، أو أن الملائكة قالوا ذلك لِعِلْمٍ قد علموه من ٱللَّه سبحانه بوجهٍ من الوجوه. والفساد: ضد الصلاح، وسفك الدماء حصول التقاتل بينهم مما يؤدي إلى إسالة الدماء.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على ٱللَّه ولا على وجه الحَسَد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك.

وتابع الملائكة قولهم: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السّوء على وجه التعظيم، فيكون المعنى: ونحن ننزّهك عن كل سوءٍ ونقيصة. والحمد: الثناء، أي نُسبح لك حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، والتقديس: التطهير، أي نُطَهّرك يا رب عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء أو بمعنى: نُطهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك حتى تصير مستغرقة في أنوار معرفتك.

وقد ردّ ٱللَّه على الملائكة بقوله: ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ أي إني أعلم ما لا تعلمون من الدّواعي والأسباب من جعل آدم خليفة في الأرض حيث جعلت في ذُريّته الصلاحية لعمارة الأرض وجعلت فيهم الأنبياء والصالحين الذين يخصّونني بالعبادة ولا يضير أن بعضهم مُفسد، سَفّاك للدماء.

---

(١) علم الأنثربولوجيا يقرر أن الأرض سكنها أنواع شتى من المخلوقات القريبة الشبه من البشر قبل آدم معتمداً على تحليل وفحص الجماجم والعظام المتحجرة التي وجدت في أنحاء المعمورة والتي قدر العلماء أن بعضها يرجع عمره إلى مليون سنة وبعضها إلى ثلاثة أرباع المليون والبعض الآخر إلى ١٣٠ ألف سنة. وليس معنى ذلك أن هناك إنساناً كان قبل آدم فآدم هو أول البشر على سطح الأرض.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا
عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ
غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

شرح المفردات

وعلَّم آدم الأسماء كلها: ألهمه الله معرفة ذوات الأشياء التي خلقها ومعرفة أسمائها ومنافعها.

عرضهم: عرض الشيء: إظهاره وإبانته.

أنبئوني: أخبروني.

سبحانك: ننزهك عما لا يليق بك.

أعلم غيب السمٰوات والأرض: أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم.

ما تُبدون: ما تُظهرون من الأفعال والأقوال.

تكتمون: تخفون.

اسجدوا لآدم: حيّوه بالانحناء.

قصة آدم مع الملائكة

ثم يبيّن ٱللَّه جانباً من علوم الغيب وذلك في قصة آدم مع الملائكة لِيُثبت بذلك صحة نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلٰهي. ومن المعلوم أن محمداً كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولم يصاحب أحبار اليهود، كما أن هذه الأخبار الغيبية

تختلف في جوهرها عما جاء في التوراة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدمَ الأَسْماءَ كُلَّها﴾ أي علَّم ٱللَّه آدم أسماء كل الأشياء من جميع المخلوقات دقيقها وجليلها، والأسماء جمع اسم، والاسم ما يكون علامة على الشيء، وتأكيد الأسماء بلفظ كلها ﴿الأسْماءَ كُلَّها﴾ يدلّ على أنه علَّمه أسماء كل ما خَلق ٱللَّه من المخلوقات من إنسان وحيوان ودابّة وطير وغير ذلك، ويصحّ حمل الأسماء على معرفة ذوات الأشياء، ومعرفة ما يخصها من المنافع والمضارّ.

يقول الشيخ متولي الشعراوي في تفسيره: «والعجيب أن الطريقة التي علَّم ٱللَّه سبحانه وتعالى آدم بها هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا، فأنت لا تعلّم الطفل بأن تقصّ عليه الأفعال، ولكن لا بد أن تبدأ تعليمه بالأسماء والمُسمّيات تقول له: هذا كوب، وهذا جبل، وهذا بحر، وهذه شمس، وهذا قمر، وبعد أن يتعلّم المُسمَّيات يستطيع أن يعرف الأفعال ويتقدم في التعليم بعد ذلك».

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ﴾ أي ثم عرض ٱللَّه المُسمّيات المدلول عليها بالأسماء على الملائكة ﴿فَقالَ أنْبِئُوني بأَسْماءِ هؤُلاءِ﴾ أي قال ٱللَّه تبكيتاً لهم وإظهاراً لعجزهم: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في زَعْمِكم أنكم أحقّ من آدم بالخلافة في الأرض.

ولكن الملائكة عجزوا واعترفوا بجهلهم عن العلم بهذه الأسماء قائلين: ﴿قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنَا﴾ أي نُنزّهك يا رب التنزيه اللائق بك، فلا يمكن أن تخلو أفعالك من الحكمة، وما كان سؤالنا إلاّ لنتعلم ونعرف الحكمة من استخلافك آدم في الأرض، وإننا لا نعلم أي شيء إلا ما علَّمتنا إياه

﴿إِنَّـكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ العليم والحكيم: من صيغ المبالغة في اللغة، أي إنك يا رب عليم بكل شيء، ذو الحكمة الشاملة في تدبير خلقك.

ثم وجّه ٱللَّه الخطاب لآدم:

﴿قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ﴾ أي أخبِرهُم يا آدم بأسماء هذه المُسمَّيات التي عجزوا عن معرفتها ﴿فَلَمّا أَنْبَـأَهُم بِأَسْمائِهِم﴾ فلما أخبرهم آدم بأسماء المُسمَّيات التي فاتتهم معرفتها ظهر لهم فضل آدم عليهم، عندئذ خاطب ٱللَّه الملائكة بقوله: ﴿قالَ أَلَم أَقُلْ لَكُمْ إنّي أَعْلَمُ غَيبَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنْتُم تَـكْـتُمُونَ﴾ أي ألم أقُلْ لكم إني أعلم ما غاب عنكم في السماوات والأرض وأعلم ما تظهرونه وما كنتم تخفونه في أنفسكم من أنكم أفضل من آدم وأحقّ منه بالخلافة؟

ثم يبيّن ٱللَّه ما خصَّ آدم من تفضيل وإكرام على غيره من المخلوقات:

﴿وإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ﴾ أي واذكُر يا محمد حين قلنا للملائكة اخضعوا لآدم تحيةً له وإقراراً بفضله. والسجود في اللغة: الخضوع والتذلل، وسجود الملائكة لآدم كان على وجه التحيّة والتكريم والتعظيم. وقد يكون السجود بانحناء كالركوع. والسجود في عُرف الشريعة الإسلامية وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة وليس السجود لآدم عبادة لأن عبادة غير ٱللَّه هي الشرك وهو أعظم الآثام.

﴿فَسَجَدُوا إلاّ إبلِيسَ أبى وَاسْتَـكْبَرَ﴾ فسجد الملائكة جميعاً لآدم باستثناء إبليس فإنه امتنع عن فعل ما أمره ٱللَّه تكبراً واستعلاء عن السجود لآدم، وقد بَيَّنَ القرآنُ في موضع آخر ما قاله إبليس لربه مُبَيّناً سبب امتناعه عن السجود: ﴿قالَ

أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦] وقال إبليس أيضاً ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١].

وإبليس[١] ليس من الملائكة بل كان من الجنّ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، فإبليس هو أبو الجن كما أنَّ آدم أبو البشر ثم إنَّ الملائكة لهم خاصيّة يُعرفون بها كما قال ٱللَّه تعالى في حقهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وإبليس قد عصى ربه وهذا يعني أنه ليس من الملائكة، كما أن إبليس خُلق من نارٍ بينما الملائكة خُلقت من نُور.

ويختم ٱللَّه الكلام عن إبليس بقوله: ﴿وكانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ أي صار بسبب عصيانه لأمر ربه واستكباره من الكافرين بٱللَّه، الجاحدين لنعمه، البعيدين عن رحمته.

---

(١) إبليس: مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة، ولا نظير له في الأسماء فشبِّه بالأسماء الأعجمية التي تمنع من الصرف.

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا
ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن
رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا
جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

شرح المفردات

رَغَداً: أكلاً هنيئاً وافراً بلا عَناء.

فأَزَلّهما الشيطان: فأوقعهما الشيطان في الزلل والخطيئة وأبعدهما عن الجنّة.

اهبطوا: الهبوط هو النزول من أعلى إلى أسفل.

مُسْتَقَرٌّ: مكان تستقرون فيه.

ومتاعٌ إلى حين: وما تتمتَّعون به من خيرات الأرض وتنتفعون به إلى وقت انقضاء آجالكم.

كلمات: هي كلمات التوبة والاستغفار التي ألْهمه الله أن يَدْعُوَ بها.

فتاب عليه: قَبِل الله توبته.

غواية الشيطان لآدم

ويتابع القرآن فيذكر غِواية الشيطان لآدم واستجابة آدم له مما سبب له الخسران:

﴿وقُلْنا يا آدمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّة﴾ فٱللّه سبحانه تحدّث عن نفسه بصيغة الجمع تعظيماً لقدره لأنه ملك الملوك حيث أمر آدم أن يتخذ الجنة مأوى

ومنزلاً ومسكناً مع زوجته. والزوج كما جاء في الآية هي حَوّاء. ويُطلق لفظ الزوج على الرجل والمرأة. والجَنَّة في اللغة: هي كل بستان ذي شجر متكاثف ملتفّ الأغصان يظلل ما تحته.

وقد اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها ٱللَّه لآدم، هل هي في السماء أم في الأرض؟ فذهب جمهور من العلماء إلى أنها في السماء وهي جنّة الخلد، أي دار النعيم التي وعد ٱللَّه بها المتقين في الآخرة.

وتابع ٱللَّه قوله لآدم وزوجه ﴿**وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما**﴾ والرَّغَدُ: الواسع الهنيء، أي كُلا من ثمر الجنة أكْلاً واسعاً هنيئاً من أيّ مكان شئتما من الجنة، ﴿**ولا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ القرب: الدُّنُوّ، وجاء لفظ ﴿**ولا تَقْرَبَا**﴾ عِوَضاً عن لفظ الأكل للمبالغة في النهي عن الأكل منها، إذ في النهي عن القرب من الشيء المأكول ما يمنع الأكل منه، وبالأخص إذا كان في هيئته مما يغري بالأكل منه ﴿**فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ المراد من ظُلْمهما ظلم نفسيهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما ٱللَّه عنها مما سبب لهما الحرمان من النعيم الذي كانا يعيشان في الجنة.

وهنا سؤال: ما نوع هذه الشجرة التي نهى ٱللَّه آدم عن الأكل منها؟ لقد ذكر المفسرون في تعيينها أقوالاً شتى، يقول الطبري في تفسيره: «ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن ٱللَّه لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنّة الصحيحة. . وقد قيل: كانت شجرة البرّ، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها».

ثم بَيَّن القرآن الحالة التي وصل إليها آدم وحواء بعد أن عَصَيا ربهما وأكَلا من ثمر الشجرة التي نهاهما ٱللَّه عنها:

﴿**فَأَزَلَّهما الشَّيطَانُ عَنْهَا**﴾ أي أغوى الشيطان آدم وحَوّاء فوقعا في الزَّلل

وهو الخطأ والذنب بسبب وسوسته لهما للأكل من الشجرة فأَكَلا منها، وهناك قراءة ﴿فأَزَالَهُمَا الشَّيْطانُ عَنها﴾ أي أبعدهما الشيطان عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانَا فِيهِ﴾ والتعبير عن الجنة وما فيها من نعيم بقوله تعالى ﴿مِمّا كانَا فِيهِ﴾ أبلغ من تعداد النعم التي كانا يتنعمان فيها، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يُعَبّرَ عنه بلفظ مبهم لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها تخيّله.

وقد يقال: كيف تَوَصَّل إبليس إلى إغواء آدم وحواء بالوسوسة وهما في الجنة بعد أن قيل له كما في سورة الحجر ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [آية: ٣٤]؟ قيل في ذلك إنما منع من الدخول إلى الجنّة على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء، وقيل: إنه خلص إلى آدم وزوجه بالسلطان الذي جعله ٱللَّه له ليبتلي به آدم وذريته.

﴿وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والخِطاب لآدم وحواء وإبليس، والمعنى: انزلوا من الجنة وانتقلوا منها إلى الأرض حيث يكون بعضكم عدوًّا للآخر بما أودع ٱللَّه فيكم من غرائز بعضها للخير وبعضها للشر استغلّها الشيطان بوساوسه وأثار العداوة بينكم. وها نحن نرى العَداوة مُتَأَصِّلة بين الأُمم والجماعات والأُسَر والأفراد بتأثير وساوس الشيطان.

﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حِينٍ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتّع بالعيش فيها إلى وقت انتهاء آجالكم بالموت. ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره في الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهي يوماً ما بالموت فَشَأْنُهُ أن يُسارع إلى العمل الصالح ويكفّ عن الظلم والخطايا التي سَيُعاقَبُ عليها يوم القيامة.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وتلقي آدم للكلمات هو أخذه لها، وقبوله لما فيها، وعمله بها حين أوحاها ٱللَّه إليه، وأظهر ما قيل في تعيين هذه الكلمات هي ما أشار ٱللَّه إليه بقوله على لسان آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ التوبة في أصل اللغة: الرجوع، والتوبة من ٱللَّه: الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد: الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب، مع تركه للذنب فيما يستأنف من الزمان ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التواب والرحيم من صيغ المبالغة، أي أن ٱللَّه كثير القبول للتوبة من عباده عظيم الرحمة بهم، وهذا يفيد أن الإنسان قد تتكرر منه المعصية ولكن ٱللَّه يقول لمثل هذا المذنب: ارجع إليَّ بالطاعة ولا تيأس من رحمتي فأنا أقْبَل توبتك ولو تكررت معصيتك.

والتوبة التي شرعها ٱللَّه هي رحمة بالناس، فالإنسان إذا عصى ربه وعرف أنه لا توبة لذنوبه ولا غفران لها وأنه محكوم عليه بالعذاب في الآخرة جزاء ما فعل لا ريب أن ذلك يُؤَدي به إلى التمادي في عصيانه لله بسبب قنوطه من رحمة ٱللَّه.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً﴾ كرَّر اللهُ الأمر لآدم وحوّاء وما سَيَنْشَأُ عنهما من ذُرّية بالنزول إلى الأرض ليبين لهم ما سيترتب عليهم من واجبات ﴿فإمّا يَـأْتِيَـنَّـكُمْ مِنّي هُدَى﴾ فإما يأتينكم مني إرشاد إلى الدين الحق بواسطة رُسُلي الذين يُبَلِّغونكم شريعتي ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُداي فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن عمل منكم بإرشاداتي وأطاع رُسُلي فهم آمنون يوم القيامة من أن يلحقهم مكروه ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا فنعيم الجنة ينسيهم ذلك ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآياتِنا﴾ والذين جحدوا آيات القرآن وكذّبوا بأنها

مُرسلة من عندي أو جحدوا الأدلة على وحدانيتي وربوبيتي لهذا الكون ﴿**أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أي أُولئك مصيرهم في عذاب النار يوم القيامة خالدين فيها أبداً.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

شرح المفردات

إسرائيل: هو لقب النبي يعقوب عليه السلام جدّ بني إسرائيل.

وأَوْفوا بعهدي: أَدُّوا التكاليف التي عهدت إليكم بها.

أُوفِ بعهدكم: أُعْطِكُم ثوابي الذي عاهدتكم عليه وافياً.

فارهبون: فخافون.

بما أَنزَلتُ: أي بالقرآن الذي أنزلته.

مُصدِّقاً لما معكم: أي مصدقاً للتوراة.

ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً: ولا تجعلوا بدلاً من العمل بآياتي منافع الدنيا وملذاتها فإنها قليلة.

ولا تَلبسوا: ولا تخلطوا.

دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام

وبعد أن بين ٱللَّه نعمته على البشر ومن بينها خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة بما أُوتي من علم، شرع يُبيّن فضله على بني إسرائيل بقوله:

﴿يا بَني إسرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمتُ عَلَيْكُم﴾ وإسرائيل: هو لقب النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. ولفظ إسرائيل مؤلف من كلمتين: إسرا ومعناه باللغة العبرية: عبد، وإيل: هو اسم ٱللَّه تعالى، فيكون معنى إسرائيل: عبد ٱللَّه.

وَمُناداة اليهود بلقب **﴿يا بني إسْرائِيلَ﴾** تذكيرٌ لهم بأن نسبهم يرجع إلى أصلٍ طَيّب، ولتَكون مُناداتهم بذلك حثًّا لهم إلى الإقبال على ما يأتي بعد هذا النداء من وصايا لهم يجب عليهم اتباعها.

فٱللَّه سبحانه يذكّرهم بنعمه عليهم لشكره واتباع هديه، ومن هذه النعم إرسال الرسل إليهم وإنقاذهم مما كانوا فيه من الاضطهاد من فرعون وقومه وتمكينهم في الأرض، وتظليل الغمام عليهم وهم في صحراء التيه وإنزال المنّ والسلوى عليهم وغير ذلك من النعم.

وإنما ذكّر ٱللَّه بني إسرائيل بالنِّعم التي كانت لآبائهم لأن أثرها واصل إليهم وفضلها عائد عليهم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ والوفاء بعهد ٱللَّه يكون باتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

ويندرج في هذا العهد ما أخذه ٱللَّه على بني إسرائيل في التوراة من وُجوب اتّباع الرسول محمد ﷺ عندما يبعثه ٱللَّه نبياً وتصديقه فيما يخبر به عن ربه **﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾** أي أن ٱللَّه يفي بما عاهدهم عليه من النصر على الأعداء إذا وفوا بعهد ٱللَّه **﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾** أي ولتكن قلوبكم عامرة بخشية ٱللَّه فإنها داعية إلى طاعته فيما يأمر به وينهى عنه، وتقديم الضمير **﴿إِيَّايَ﴾** على الفعل **﴿فَارْهَبُونِ﴾** يفيد الحصر بمعنى: لا تخشوا أحَداً غير ٱللَّه.

﴿وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ﴾ وصَدِّقُوا ـ يا بني إسرائيل ـ بالكتاب المُنَزَّل على محمد وهو القرآن فإنه مصدّق لما بين أيديكم من التوراة بما فيها من الدعوة إلى الإيمان بٱللّه وتوحيده والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي، وما جاء في التوراة خلاف ذلك من وصف الأنبياء بالمنكرات من الأفعال فهو من تحريف كتاب ٱللّه. ويدخل في تصديق القرآن للتوراة إعلامه بما جاء فيها من البشارات على مجيء نبيّ تنطبق صفاته على صفات النبي محمد مطابقة جليّة وإن ما أعلنه القرآن بأنه مصدّق للتوراة يثير اهتمام بني إسرائيل ويدعوهم إلى دراسة القرآن وتدبّر آياته، وهذا يهيئ نفوسهم إلى اعتناق الإسلام لما يجدون فيه من الحقائق والبراهين القوية على أنه مُنزل من عند ٱللّه.

﴿ولا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ﴾ ولا تكونوا أيها اليهود أوّل المبادرين إلى الكُفر بالنبي محمد بعد المشركين من العرب، بل ينبغي أن تكونوا أوّل المؤمنين به لما عرفتم من صفاته التي تنطبق على النبي التي وعدتكم التوراة بمجيئه.

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، والآيات: هي الدلائل التي أيَّد اللهُ بها رسوله مُحَمَّداً ﷺ وأعظمها القرآن، أو الآيات المنزلة عليهم في التوراة والإنجيل المتضمنة الأمر بالإيمان برسول ٱللّه محمد ﷺ، والثمن القليل: هو ما كان رؤساؤهم وأحبارهم يحرصون عليه من الرياسة والمال والجاه التي يخافون ضياعها وفقدانها لو اتبعوا الرسول محمداً ﷺ، وإنما وصف ٱللّه الثمن بالقلة لأن متاع الدنيا قليل وزائل فلا يدوم ﴿وإيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ وتقديم الضمير ﴿إيَّايَ﴾ على الفعل يفيد الحصر بأن يخافوا ٱللّه وحده ويتقوا عقابه بطاعته وترك عصيانه.

﴿ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالبَاطِلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق

بالكذب فخلط الحق بالباطل هو ترويج للباطل في صورة الحق كأن يكتبوا في التوراة ما ليس فيها، فيختلط الحقّ المُنزل من عند ٱللَّه بالباطل الذي كتبوه بأيديهم ﴿وَتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة بأن محمداً رسول ٱللَّه الذي تجدون صفته ونعته في التوراة والإنجيل ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أن ما جاء به من الوحي هو من عند ربه وأنه رسول ٱللَّه إلى الناس جميعاً، فكتمانهم كان عن عمد وإصرار بقصد صرف الناس عن اتباع الرسول محمد ﷺ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ وإقامة الصلاة أداؤها مستوفية لأركانها وشروطها، مع التوجّه إلى ٱللَّه بالقلب والخشوع له، والإخلاص في العبادة، والمراد بالصلاة: الصلاة التي يقيمها المسلمون ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والإيتاء: الإعطاء، والزكاة المُراد بها الصدقة المفروضة، وأصل معنى الزكاة في اللغة: النماء والزيادة والطَّهارة، وسُمي إخراج المال للفقراء زكاة من حيث إنه ينمّي مال المزكّي فتكثر بركته ويرفع ٱللَّه البلاء عنه، كما أن الزكاة تطهر المزكي من الذنوب.

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ والركوع في اللغة: الانحناء، وهو في عُرف الإسلام أن يخفض المُصَلّي رأسه ويمدّ ظهره وعنقه ويقبض على ركبتيه، والركوع كناية عن الصلاة من باب إطلاق اسم الجزء على الكل لأن الركوع رُكْنٌ من أركان الصلاة عند المسلمين، وبما أن اليهود لا ركوع في صلاتهم، لذا خصَّ ٱللَّه الركوع بالذكر حثّاً لبني إسرائيل على الإتيان بصلاة المسلمين. وفي قوله سبحانه ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ حَثٌّ على إقامة الصلاة جماعة. ويأتي الركوع بمعنى الخضوع لله بالطاعة.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

شرح المفردات

البِرُّ: اسمٌ يتناول كل عمل من أعمال الخير.

تَنسَوْنَ أنفسكم: تتركون العمل بما تدعون الناس إليه من طاعة ٱللَّه.

لَكَبيرَةٌ: لَثقيلة وشاقّة.

الخاشعين: الخشوع لله هو الخضوع والاستكانة له.

يظنّون: يعلمون ويُوقنون.

توجيهات لخير الإنسان

وبعد أن ذكّر ٱللَّه بني إسرائيل بنعمه عليهم وأنكر عليهم كفرهم، جاء التوبيخ لأَحْبارهم حيث كان سلوكهم يُنافي ما يدعون الناس إليه من البِرّ، قال تعالى مخاطباً إياهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ والبِرُّ: كما جاء في لسان العرب، الصدق والخير والصلاح والطاعة، وفلان يبرّ ربه أي يطيعه. ومعنى **﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾** والنِّسيان هنا: الترك، لأن أحداً لا ينسى نفسه. والاستفهام في الآية توبيخ موجّه إلى أحبارهم بسبب تركهم العمل بما يرشدون الناس إليه من أعمال البِرّ، فقد كانوا يحضُّون الناس على طاعة ٱللَّه وكانوا هم يقترفون المعاصي.

وتابع ٱللَّه مخاطباً إياهم: **﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ﴾** والحال أنكم أيها

الأحبار تقرأون كتاب التوراة وتدرسونه وتتعلمون ما فيه من الحث على أفعال البر، والتحذير من تركه ﴿**أفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ أي ألا تستعملون عقولكم وتدركون قُبح فِعلتكم هذه التي تنافي ما تدعون الناس إليه؟ وهل من العقل أن ينصح الإنسان غيره ويدعوه إلى طاعة ٱللَّه ثم يترك نفسه في أوحال الرذيلة والمنكرات؟

والخطاب وإن كان لأَحبار بني إسرائيل، فهو يشمل كل من يفعل فعلهم من الوُعّاظ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل واعظ يأمر الناس بالبر ولا يعمل بما يقول ينطبق عليه هذا التوبيخ من ٱللَّه تعالى.

وتجدر الإشارة إلى أن الواعظ الذي يدعو الناس إلى البِرِّ لا بد وأن يكون قُدوة للناس في فعل الخير، لأن من يفعل المنكرات ثم يدعو الناس إلى تركها فإنه يكون بذلك قُدوة سوء. ولنا درسٌ من النبي شعيب عليه السلام حيث قال لقومه ﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ**﴾ [هود: ٨٨].

وقد قال أحد الحكماء:

لا تَنْـهَ عن خُـلُـقٍ وتأتي مثلــه عــارٌ عليك إذا فعلْتَ عظيـمُ

﴿**واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ**﴾ والاستعانة: طلب المعونة. والصبر: حَبْس النفس عن الشهوات وكفّها عن هواها، واحتمال مكاره الحياة ومصائبها بنوع من الرّضا والتسليم لأمر ٱللَّه.

والآية تدعو إلى الاستعانة بالصبر لأن كل خصال الخير تنشأ عن الصبر، وهو الدعامة الأولى للتغلب على مشاقّ الحياة ومصائبها، والفوز بكل ما يطمح إليه الإنسان.

كما دعا ٱللَّه إلى الاستعانة بالصلاة لأنها تعين على النهوض بالأعمال

الجليلة، ففي الصلاة يناجي الإنسان ربه ويطلب العون والهداية منه ويذكر جلاله وعظمته ورحمته وفضله، ويذكر أنه سبحانه يُراقبه ويُحصي أعماله.

واللافت للنظر اقتران الصلاة بالصبر، فإذا كان الصبر بمثابة أُمّ الفضائل لأنه استفراغ كل الجهد في سبيل تحمّل المشاقّ والمصائب، فإن الصلاة عامل قويّ لإشاعة الطمأنينة في النفس وتقوية معنوياتها من جرّاء مُناجاة ٱللَّه وذكره، وقد جاء في القرآن ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد يكون وقع المصيبة على النفس أقوى مما تستطيع تحمّله ويكون الصبر وحده لا يفي بالغَرَض لذا كانت الصلاة متمّمة لما تعجز النفس عن تحمّله، ولهذا رُوي «أن النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر ـ أي أصابه غَمّ ـ لجأ إلى الصلاة»(١).

﴿وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلى الخَاشِعِينَ﴾ لكبيرة: أي إن الصلاة ثقيلة وشاقّةٌ إلاّ على الخاشعين لله. والخشوع: التواضع والتذلل والاستكانة.

وقيل: الخشوع حالة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع.

والمعنى: إن الصلاة صعبة وشاقة على من لا يخشع قلبه في صلاته لربه وهذا ينطبق على من لا يعتقد أنَّ في فِعلها ثواباً ولا في تركها عِقاباً.

فالخشوع لله في الصلاة يجعل الإنسان يستحضر عظمة الخالق وجلاله ويدرك ضآلة نفسه وعجزها، فيسلم أمره إليه تعالى، ويخضع لكل ما يقدره عليه من مصائب.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ والظَّنُّ هنا بمعنى اليقين والعلم، أي إن الصلاة صعبة إلاّ على الذين يخشعون لله ويوقنون أنهم سيحشرون إليه يوم القيامة لمجازتهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُم إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ويعلمون أنهم إلى ربهم راجعون بعد مماتهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

فما دُمْتَ أيها الإنسان قد جئت إلى الدنيا مخلوقاً من ٱللّٰه، فأنت لا محالة سترجع إليه بعد الموت لتنال ما تستحق من جزاء يوم القيامة على أعمالك في الدنيا إنْ كان خيراً فخير، وإنْ كان شرًّا فشرّ.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

شرح المفردات

على العالَمين: على جميع الناس الذين كانوا في زمانهم.

لا تجزي: لا تُغني، لا تقضي.

عَدلٌ: فِدية.

يَسُومونكم: يُذيقونكم.

ويستحيون نساءكم: يتركون بناتكم ونساءكم أحياءً للخدمة فلا يقتلوهن.

بلاءٌ: ابتلاء.

فرقنا بكم البحر: فَصَلْنا لأجلكم البحر بعضه عن بعض وجعلنا فيه طرقاً لتعبروها.

فضل اللّٰه على بني إسرائيل

ثم يُذَكِّرُ ٱللّٰهُ تعالى بني إسرائيل بنعمه التي أسبغها عليهم محذراً إياهم من عذاب يوم القيامة إذا عصوا أمره وخرجوا عن طاعته، قال تعالى:

﴿يا بَني إسرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾ هذا النداء من ٱللَّه لبني إسرائيل لتذكيرهم بنعمته عليهم حثًّا لهم على القيام بواجب الشكر والطاعة لربهم على ما أولاهم من النعم التي سيأتي ذكرها فيما بعد ﴿وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العالَمِينَ﴾ أي فَضَّلتُ أسلافكم وآباءكم على أهل زمانهم، وكان هذا التفضيل لآبائهم لأنهم كانوا أصحاب دين سماوي وغيرهم من الأمم كانوا يعبدون الأصنام. وعلى هذا فلا يتناول هذا التفضيل مَنْ مضى قبلهم ولا من سيوجد بعدهم، وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء، ولكن يحصل به الشرف للأبناء فلا يجدر بهم أن يُضَيِّعوا هذا الشرف بعصيان ٱللَّه.

وبهذا لا يُفهم من ذلك تفضيلهم على أمة محمد إذ قد أعلن القرآن بأن المسلمين هم خير أمة أُخرجت للناس عندما قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ٱللَّه تعالى مخاطباً أُمة محمد ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم يُحذِّر ٱللَّه بني إسرائيل من العقاب لهم يوم القيامة بقوله:

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً﴾ اتقوا: احذروا، واليوم: هو يوم القيامة، والحَذَرُ من هذا اليوم وما يجري فيه من فزع وعذاب يكون بالسير على صراط ٱللَّه المستقيم ﴿لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيئاً﴾ لا تجزي: لا تقضي، أي لا تقضي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً من الحقوق أو شيئاً من الجَزاء ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنها شَفاعَةٌ﴾ وقد كان يهود بني إسرائيل يقولون: نحن أبناء ٱللَّه وأحِبّاؤه وأولاد أنبيائه وسيشفع آباؤنا لنا عند ٱللَّه، فأخبرهم ٱللَّه أنه لا يقبل منهم شفاعة لمن مات على كفره غير تائب إلى ٱللَّه عز وجل. فالآية نفت الشفاعة للذين كفروا بربّهم، أما الشفاعة للمؤمنين المُقصِّرين في واجباتهم الدينية فتقبل إذا أذن ٱللَّه ورضي للشافعين أن يقوموا بشفاعتهم كما جاء في القرآن: ﴿. . مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ..﴾ [يونس: ٣].

فقد رُوي عن النبي ﷺ: «أسعَدُ النَّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلَه إلاّ ٱللَّه خالصاً من قلبه أو نفسه»(١) كما روي عن النبي ﷺ أيضاً قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر(٢) من أُمَّتِي»(٣).

ويتابع القرآن قوله في الكافرين ﴿ولا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ﴾ والعَدلُ: الفدية. أي لا يؤخذ من أَحَدٍ فدية بدلاً من كفره، بالغاً البدل ما بلغ من القيمة كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١].

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ والنصر: يراد به المعونة، أي لا يستطيع أَحَدٌ أن يُقدّم لهم المعونة للتخلص من العذاب المحدق بهم.

﴿وإِذْ(٤) نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وفرعون لقب يطلق على كل ملك من ملوك مصر قديماً والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن خلصناكم من ظُلم فرعون وأعوانه، لقد خوطب بنو إسرائيل بهذه النعمة مع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم وأجدادهم، ولو استمر عذاب فرعون لهم لأفناهم عن بكرة أبيهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذابِ﴾ أي يذيقونهم أشدّ العذاب وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُم﴾ يذبّحون: بتشديد الباء الذي يدل على كثرة الذبح الذي هو إزهاق الروح عن طريق قطع شريان الحلق، والأبناء: المراد بهم الأطفال الذكور ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ والاستحياء: الاستبقاء أحياء، أي يُبقون بناتكم أحْياء

(١) أخرجه البخاري.
(٢) الكبائر: أي كبائر الذنوب مثل الشرك بالله وعقوق الوالِدَيْن وشهادة الزُور وغيرها.
(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وأبو دواد.
(٤) إذ: بمعنى وقت فهي مفعول به لفعل ملاحظ في نظم الكلام وهو (واذكروا).

عند الولادة فلا يقتلوهن، وأطلق اسم النساء على البنات لأنهن يصرنَ نساء، وغايتهم من تركهن أحياء هي الخدمة لهم عندما يكبرن وللمتعة كذلك ﴿**وفي ذٰلِكُمْ بَلاءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ أي وفي قتل الذكور واستحياء النساء بلاء عظيم، والبلاء: هو الاختبار والامتحان، وقد يكون بالضَّرّاء ليصبروا أو ليقلعوا عما هم عليه من المعاصي، وقد يكون بالسَّرَّاء ليشكروا ربهم، كما فُسِّر البلاء هنا بالمحنة. ووصف البلاء بالعظم (عظيم) لأن تذبيح الأبناء وإبقاء البنات أحياء هو أعظم محنة تنزل بالأُمة، فإن فناء الرجال يقتضي انقطاع النسل، وفساد مصالح النساء في أمر المعيشة.

﴿**وإذْ فَرَقنا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْناكُم**﴾ الفرْق: الفصل، أي واذكروا يا بني إسرائيل حين فصلنا لكم البحر بين مياهه فصار فيه طُرُق فَسِرْتم فيها هرباً من فرعون وجُنده وبذلك تمت لكم النجاة من الهلاك على أيديهم ﴿**وأَغْرَقنَا آلَ فِرعَونَ وَأَنْتُم تَنْظُرونَ**﴾ بينما أطبق ٱللَّه البحر على فرعون وجنده وأغرقهم حينما ساروا خلفهم في طرق البحر ﴿**وَأَنْتُم تَنظُرونَ**﴾ وأجدادكم يشاهدون غرقهم، ولا شيء يشفي غليل النفس مثل رؤية مصرع عدوّها الذي يحاول قتلها.

فالآية تشير إلى قصة نجاة بني إسرائيل التي ذكرها القرآن في مواضع أُخرى وسنذكر هنا ملخّصها.

جاء الأمر الإلَهي لموسى بالخروج من مصر فانطلق بقومه بني إسرائيل سرًّا في الليل قاصداً بلاد الشام. عَلِمَ فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا من مصر فتبعهم بجيش كبير وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر. أيقن بنو إسرائيل بهلاكهم عندما رأوا طلائع جيش فرعون وراءهم واستولى الذعر على نفوسهم فقالوا لموسى: لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به فماذا نفعل والبحر أمامنا؟ قال لهم موسى كما جاء في القرآن: ﴿**إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ**﴾

[الشعراء: ٦٢]، وفي هذه الأثناء أوْحى ٱللَّه إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ففعل، فبقدرة ٱللَّه صار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بين هذه الطرق كالجبل العالي، فسار بنو إسرائيل في هذه الطرق المفتَّحة لهم في البحر حتى وصلوا إلى البر، بينما كان فرعون وجنوده لا يزالون يسيرون خلف بني إسرائيل في طرق البحر، عندئذٍ أمر ٱللَّه البحر بأن يطبق عليهم فانطبق وأغرقهم جميعاً.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

شرح الكلمات

واعَدنا: وعده إياه، وصيغة المواعدة تنبئ عن تراضي الواعد والموعود وتوافقهما.

الفرقان: استعمل في القرآن بمعنى الحجة وبمعنى النصر، واسماً للكتاب المنزل من عند الله.

بارِئكم: البارئ من أسماء الله تعالى ومعناه: الذي خلق الخلق.

فاقتلوا أنفسكم: فليقتل البريء منكم المجرم.

جهرة: عياناً غير مستترٍ بشيء.
بَعَثْناكم من بعد موتكم: أحييناكم بإعادة الروح إليكم.

عبادة بني إسرائيل للعجل

ويتابع القرآن فيذكر فضل ٱللَّه ورحمته على بني إسرائيل بالعفو عنهم بعد عبادتهم العجل، قال تعالى:

﴿**وإِذْ وَاعَدْنا مُوسى أرْبَعِينَ لَيلَةً**﴾ أي واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ إذ وعد ٱللَّه موسى بإعطائه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة يقضيها في التوجه إلى ٱللَّه بالصيام والعبادة في جبل الطور، وقال ﴿**أرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ لأن الشهر القمري يبدأ ليلة طلوع الهلال، ولهذا نجد العرب يؤرخون بالليالي. والمواعدة تفيد التوافق على الوعد بين اثنين: أي الوعد من جانب ٱللَّه والاستجابة المقرونة بالشوق من جانب موسى وبيان ذلك: أنّه لما عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد ٱللَّه موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً ـ أي جعل ٱللَّه له موعداً ـ وهو شهر ذي القعدة ثم زاد عليه عشر ليال من شهر ذي الحجة كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وبعد انتهاء أربعين ليلة قضاها موسى في العبادة أنزل ٱللَّه عليه التوراة.

ثم يقول سبحانه ﴿**ثُمَّ اتَّخَذْتُم العِجْلَ مِنْ بَعدِهِ وَأنتُم ظَالِمونَ**﴾ ومعنى اتخاذهم العجل: جعلهم له إلَهاً يعبدونه. والمعنى: ثم اتخذتم يا بني إسرائيل العجل من بعد ذهاب موسى إلى جبل الطور لمناجاة ربه وأنتم ظالمون لأَنفسكم بعبادة غير ٱللَّه وذلك مما يسبب لكم الشقاء والخسران.

﴿**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ مِنْ بَعدِ ذلِكَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ**﴾ والعفو: محو الذنب

وعدم المؤاخذة به. أي ثم عفونا عنكم إذْ تبتم بعد عبادتكم العجل لتكونوا من الشاكرين على نعمة العفو بالاستمرار على طاعة ٱللَّه والعدول عن معصيته.

﴿وإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ والفُرْقَانَ﴾ الكتاب: المراد به التوراة. والفرقان: هو الشرائع والأحكام التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام. ويصحّ أن يُراد من الفرقان المعجزات التي أجراها ٱللَّه على يدي موسى لأنّها فَرَّقت بين الحق والباطل، حيث كان فيها نجاة بني إسرائيل وإهلاك فرعون وجنده. والمعنى: واذكروا إذ أعطينا موسى التوراة والشرائع والأحكام والمعجزات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتهتدوا بها إلى سبيل الفلاح في الدنيا والفوز بالسعادة في الآخرة.

﴿وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُم ظَلَمتُمْ أَنْفُسَكُم باتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ أي واذكروا وقت أن قال موسى لقومه: يا قومِ إنكم ظلمتم أنفسكم عندما عرّضتموها لعقاب ٱللَّه باتخاذكم العجل إلَهاً فعبدتموه. وصدّر موسى خطابه لهم بقوله: ﴿يا قَوْمِ﴾ لِيُذَكّرهم بأنه منهم وأنه لا يُريد بهم إلاّ خيراً ﴿فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ﴾ أمَر موسى قومه بالتوبة وهي الرجوع عن ذنبهم والندم على ما فعلوا من معصية والعزم على عدم العودة إليها. و (البارئ) اسم من أسماء ٱللَّه ومعناه: الخالق على غير مثال سابق المُوجد للأشياء على ما تقتضيه الحكمة، فهو سبحانه المستحق للعبادة، وأما العجل فإنما يعبده من يشبهه في الغباوة ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ أي إن توبتكم تكون بأن يقتل البريءُ منكم المجرمَ بغية تطهير المجتمع من المشركين.

وهذا التعبير ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ جاء مثله في القرآن ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] بمعنى: فلْيُسلِّم بعضكم على بعض. وقد ذكر المفسرون عدد الذين

قُتلوا وكان فيه مبالغة لا يرتضيها العقل، مع العلم أن القرآن لم يذكر عدد ذلك.

ومن المفسرين من فسَّر القتل على غير حقيقته وهو جعل النفس كالمقتولة: بمزيد الغم والنّدم والإذلال أو قطع الشهوات.

﴿ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾ أي إنّ قتل أنفسكم امتثالاً لما أُمِرْتُم به هو خير لكم من الإقامة على المعصية **﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾** هذا النص معطوف على محذوف وكأنه قال: ففعلتم ما أمركم به، فتاب عليكم خالقكم **﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** التواب والرحيم صيغتان من صيغ المبالغة، أي إن ٱللَّه كثير قبول التوبة من عباده على كثرة ما يصدر منهم من ذنوب وهو دائم الرحمة أو واسعها بحيث يشمل عباده بإحسانه وفضله.

ثم يُبين القرآن تعنّت بني إسرائيل وخروجهم عن جادّة الأدب مع ربهم، من ذلك قولهم لموسى: **﴿وإِذ قُلْتُم يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾** أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن قال أجدادكم لموسى: لن نصدّقك ولن نُقِرَّ بما جئتنا به حتى نرى ٱللَّه معاينة وعلانية لاسِتار بيننا وبينه.

وفي سياق ذلك رُوي: أنه لمّا تاب بنو إسرائيل عن عبادةِ العجل وتاب ٱللَّه عليهم أمر ٱللَّه موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه على ما اقترفوا من عبادة العجل، فاختار موسى منهم سبعين رجلاً من خيارهم فخرج بهم إلى طور سيناء لموعد حَدَّده ٱللَّه لهم، فلما أتوا ذلك المكان قالوا لموسى: **﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾** وهذا دليل على ضعف إيمانهم وعلى تمرّدهم وقِلّة اكتراثهم بما شاهدوا من معجزات نبيهم موسى عليه السلام.

أمام هذا التمرد جاءهم العقاب الإلّهي: ﴿**فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأَنْتُم تَنْظُرونَ**﴾ أي سقطت الصاعقة عليكم وأهْلكتكم بنارها بسبب عنادكم وتعنتكم وطلبكم المستحيل من ربكم. وفي قوله سبحانه ﴿**وَأَنْتُمْ تَنْظُرونَ**﴾ يُفيد أن الصاعقة نزلت عليهم وهم يشاهدونها، وفي مشاهدتها رعب وفزع يأخذ بمجامع قلوبهم قبل أن يأخذ العذاب المهلك لأجسامهم. رأى موسى ما حل بقومه الذين كانوا معه فقام يبكي ويدعو ٱللَّه ويقول: رَبِّ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، رَبِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أَتُهْلِكنا بما فعل السُّفهاء مِنّا؟

استجاب ٱللَّه دعاء موسى فأَحياهم بعدما أماتهم كما قال تعالى في الآيات هنا ﴿**ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**﴾ والبَعْثُ يُستعمل بمعنى الإيقاظ من النوم، كما يستعمل بمعنى الإحياء من الموت وهو المراد من الآية ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ أي لكي تشكروا نعمة ٱللَّه ببعثكم أحياءً بعد الموت. والشكر لله يكون بالعمل بما شرعه ٱللَّه لهم حتى تغفر لهم جرائمهم.

وقال بعض العلماء: كان موتهم غشياناً وهموداً لا موتاً حقيقياً كما في قوله تعالى: ﴿. . وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ. . ﴾ [إبراهيم: ١٧]، والمراد من البعث على هذا الرأي: إعادة النشاط والصحو لهم من بعد غيبتهم عن الوعي.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟
ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾
۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

شرح المفردات

الغَمام: جمع غمامة وهي السحابة.

المَنُّ: مادة صمغية تنزل على ورق الشجر حلاوتها تشبه حلاوة العسل.

السَّلْوى: طائر معروف بالسُّماني.

رَغَداً: واسعاً هنيئاً.

وقولوا حِطَّة: أي قولوا شيئاً يحطّ ذنوبكم.

رِجْزاً: عذاباً.

يفسقون: يخرجون عن طاعة ٱللَّه.

استسقى موسى: طلب من ربه الماء.

لا تَعْثَوْا: لا تُفسدوا ولا تطغوا.

بعض المعجزات لبني إسرائيل

وبعد أن أحْجم بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة التي وعدهم ٱللَّه بأن ينصرهم على سكانها وقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، حينئذٍ أخبر ٱللَّه موسى بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم وأنهم سيتيهون في الأرض في صحراء سيناء أربعين سنة جزاء خروجهم عن طاعة ٱللَّه، وفي هذا يقول ٱللَّه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وفي الآيات التالية يُذَكِّر ٱللَّه بني إسرائيل بما مَنَّ على آبائهم من النعم وهم في صحراء سيناء:

﴿**وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ**﴾ أي جعلنا الغمام يظلكم في النهار ليقيكم حرَّ الشمس، والغمام هو السحاب ﴿**وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى**﴾ والمَنُّ هو مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل. وقيل: هو شراب كان ينزل عليهم مثل العَسَل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وقيل: المَنُّ هو العَسَل. وقيل: هو ما مَنَّ ٱللَّه به عليهم من غير تعب ولا زرْع ومنه قول النبي ﷺ: «الكمأة من المنّ الذي أنزل ٱللَّه على بني إسرائيل»[١]. والسَّلْوى: هو طائر السُّماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه ﴿**كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ**﴾ أي قال ٱللَّه لبني إسرائيل: كلوا من ملذات ما أنعمنا عليكم من الرزق ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا**﴾ أي بتركهم شكر ٱللَّه وإقبالهم على معصيته بأن كفروا بهذه النعم، أو بأن سألوا ٱللَّه غير هذه النعم ﴿**ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ أي ولكن سوء عاقبة ظلمهم يعود عليهم بعقاب ٱللَّه على كفرهم في الدنيا والآخرة، فإن ٱللَّه لا تضره المعصية له من خلقه كما لا تنفعه طاعتهم له.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿وإذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ القَرْيَةَ﴾ والقرية هي بيت المقدس، والظاهر أن الأمر بدخول القرية كان بوحي من الله إلى موسى بعد خروجهم من الصحراء التي تاهوا بها ﴿فَكُلُوا مِنها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ أي فكلوا من هذه القرية في أي مكان شئتم أَكْلاً هنيئاً ذا سعة بعد أن كان طعامكم مقصوراً في صحراء سيناء على المَنّ والسلوى، وهذا معناه أن هذه القرية كانت ذات زروع وثمار ﴿وَٱدْخُلُوا البَابَ سُجَّداً﴾ وادخلوا من باب القرية خاضعين متواضعين شكراً لله سبحانه على إخراجكم من الصحراء والإنعام عليكم بدخول الأرض المقدسة والاسترزاق منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ حِطَّةٌ: بمعنى ضع، أي وقولوا: يا ربّ حُطَّ عنا ذُنوبنا، أو بمعنى: استغفروا ربكم وقولوا ما يحط ذنوبكم ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ الغَفْرُ في اللغة: التغطية والستر، أي نستر لكم سيئاتكم السابقة فلا نعاقبكم عليها ﴿وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ﴾ ومعنى أحسن: فعل الحسن ضد أساء، والحسنة هي الفعل الحسن. والمحسن من صَحَّح عقيدته في وحدانية ٱللّه وأقبل على أداء فرائض ٱللّه وعمل كل خير يقربه من خالقه. فٱللّه سبحانه وعد بزيادة ثواب المحسن، وقد جاء في القرآن: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿فَبَدَّلَ الَّذينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غَيَّر الذين ظلموا من بني إسرائيل القول الذي أمرهم ٱللّه به، فهم أُمروا أن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم فخالفوه إلى قول يحمل معنى الاستهزاء[١] ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِن السَّماءِ﴾ والرجز: هو العذاب، ولم يبين القرآن نوع هذا العذاب الذي سقط عليهم من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب خروجهم عن طاعة ٱللّه.

(١) روي أنهم قالوا حنطة بدل حط عن ذنوبنا، قالوا ذلك من باب الاستهزاء.

﴿وإِذِ اسْتَسْقَى مُوسى لِقَوْمِهِ﴾ استسقى: طلب السقيا، أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش وهم في صحراء سيناء، فاستغاث موسى بربه وطلب منه أن يمنّ على قومه بالماء **﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ﴾** أي فأوحى ٱللَّه إلى موسى أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء فضربه بها **﴿فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾** انفجرت: انشقت، والعين: منبع الماء، أي خرج الماء بغزارة من اثني عشر مكاناً فيه، بعدد أسباط بني إسرائيل وهم ذرية أبناء النبي يعقوب عليه السلام الاثني عشر **﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُم﴾** علم: بمعنى عرف، أي عرف كل سبط العَين التي صارت مشرباً لهم، وخَصَّ كل سبط بمشرب له منعاً لما عساه أن ينشب بينهم من التنازع على الماء. لقد أراد ٱللَّه بهذه المعجزة أن يبين لهم صِدق نبوة موسى وأن يزداد إيمانهم بٱللَّه الذي أرسله **﴿كُلُوا واشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللَّهِ﴾** أي قال ٱللَّه لهم على لسان موسى بأن يأكلوا المن والسلوى ويشربوا من الماء الذي تفضّل ٱللَّه به عليهم **﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** العُثُوُّ: أشَدُّ الفَساد، أي ولا تتمادوا فساداً في الأرض وتقابلوا النِّعَمَ بالطُّغيان فيحرمكم ٱللَّه منها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ
﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

شرح المفردات

بَقْلِها: ما تنبته الأرض من الخضار مما يأكله الناس والأنعام.

قِثّائها: القثاء، الخيار وما يشبهه.

فُومها: الحنطة، وقيل الثوم.

مِصراً: بلداً من البلدان.

الذِّلَّةُ: الهوان.

مَسْكنة: فقر النفس.

باءوا بغضب من ٱللّه: رجعوا بغضبٍ من ٱللّه مستحقين له.

كفران اليهود لنعم اللّه عليهم

ثم يُبيّن ٱللّه لليهود ما كان عليه أسلافهم من كفران للنعمة حيث سئموا ما كانوا عليه من طيب المأكل:

﴿وإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعامٍ وَاحِدٍ﴾ واذكروا أيها اليهود يوم

سيطر البَطَر على أسلافكم فقالوا لنبيهم موسى: إننا لن نصبر على نوعٍ واحدٍ من الطعام وهو المَنّ والسَّلْوى، وسمّوهما طعاماً واحداً لأنهما يتكرران كل يوم ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ لقد طلبوا من موسى أن يدعو لهم ربّه لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وإخراج النبات من الأرض إظهاره بإيجاده. لقد طلبوا إخراج النبات من الأرض مع علمهم أن الصحراء لا تُنبت نباتاً ﴿مِنْ بَقْلِها وقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها﴾ والقِثَّاءُ: هو الخيار أو ما شابهه، والفُومُ: هو الحنطة، وقيل: هو الثوم. أجابهم موسى مستنكراً سوء اختيارهم: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ﴾ أي أَتُفَضِّلون هذه الأصناف على ما هو أفضل وأحسن وهو المنّ والسلوى سواء من جهة اللذة في الطعم أو الحصول عليهما من غير تعب ولا مشقّة؟

وتابع موسى قوله ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ والهبوط إلى المكان: النزول إليه والحلول به، و (مصراً) تعني بلداً، أي انتقلوا إلى بلدٍ زراعي من بلدان الشام تجدون فيه ما طلبتم. فلو صح ما تزعمون من كراهتكم الاقتصار على طعام واحد فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم بسبب جبنكم من دخول الأرض المقدسة التي أمركم ٱللَّه بدخولها، ووعدكم بالنصر إن فعلتم ما أمركم ٱللَّه به، وعند ذلك تجدون في ذلك البلد ما ترغبون به من الطعام مِنْ بُقول الأرض ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ﴾ أي أحاط بهم الهوان والفقر. لقد عاش اليهود قروناً مستعبَدين لمختلف الأمم فأورثهم هذا الاستعباد ذلّة وفقراً في النفس مما جعلهم لا يفرّقون بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ورجعوا بغضبٍ من ٱللَّه مستحقين له لسوء أفعالهم.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآياتِ ٱللَّهِ﴾ أي سبب غضب ٱللَّه عليهم هو أنهم كانوا يجحدون آياته، وآيات ٱللَّه تستعمل بمعنى المعجزات أو نصوص

الكتب الإلّهية المنزلة على رسل ٱللَّه، أو حجج ٱللَّه وأدلّته على توحيده، فاليهود جحدوا آيات ٱللَّه بكل معانيها التي جاءهم بها موسى عليه السلام **﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾** وهم بالإضافة إلى جحودهم لآيات ٱللَّه: يقتلون الأنبياء الذين يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر كما فعلوا بيحيى عليه السلام وغيره. أما قول ٱللَّه سبحانه: **﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾** ففيه بيان بأن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال، وهذه العبارة جاءت لتعظيم الأمر عليهم وزيادة التشنيع بقبح أعمالهم **﴿ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** أي ذلك الكفر منهم بآيات ٱللَّه وقتل الأنبياء بغير حق حصل منهم بسبب خروجهم عن طاعة ٱللَّه ومجاوزتهم حدود ٱللَّه إلى ما نهاهم عنه.

ثم يُبيّن ٱللَّه في الآية التالية الناجين من عذابه المستحقين ثوابه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** والمُراد بهم الذين صدّقوا برسالة محمد واتبعوه واستمروا على إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود، وسُمُّوا بذلك من أجل قولهم **﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾** [الأعراف: ١٥٦] أي تُبنا ورجعنا إليك يا ربّ، أو بسبب نَسَبِهم إلى يهوذا أكبر أبناء يعقوب عليه السلام، فَقُلِبَت الذَّالُ في يهوذا دالاً.

﴿وَالنَّصَارَى﴾ أتْباع عيسى عليه السلام، سُمُّوا بذلك نِسبةً لقرية تسمى (ناصرة) كان ينزلها عيسى عليه السلام، وقيل سُمُّوا بذلك لنصرة بعضهم بعضاً.

﴿والصَّابِئِينَ﴾ هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة، ويصلّون الخمس ويقرأون الزبور، وقيل: إنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة. وقيل: هم قوم يقدسون الرّوحانيات ويتخذون لها وسائط يعبدونها لتقربهم إليها فعبدوا الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من آمن بٱللَّه من جميع هذه الطوائف المذكورة إيماناً بٱللَّه الواحد الأحد الذي لا شريك له من غير ادِّعاء بأن له وَلَداً، وآمن أيضاً باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال، وقرن إلى هذا الإيمان العمل الصالح فلهم أجْرٌ على إيمانهم وعلى عملهم الصالح **﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** أي لا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا ومتاعها عند معاينتهم ما أعَدّ ٱللَّه لهم من الثواب والنعيم عنده.

هذا الحُكم يَسْرِي على الأُمم التي كانت تعيش قبل الإسلام، أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام فلا ينفعهم إلا أن يؤمنوا برسالة محمد ويتبعوا دينه.

وقد أساء فهم هذه الآية بعض الكُتَّاب فزعموا أنه يمكن تحقيق الإيمان الذي طلبه ٱللَّه من عباده من المِلل المذكورة مع بقائها على دينها بعد مجيء الإسلام وهذا زعم باطل لا يقوم على دليل ولا تسنده حجة، وقد نفى الإسلام زعمهم حين قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والخلاصة إن الفَوْزَ بنعيم الآخرة يكون بإيمانٍ صحيحٍ بٱللَّه الواحد الذي لا شريك له، له سلطان على القلوب مصحوب بالعمل الصالح، وإنه لا تفرقة أمام ٱللَّه لا بالجنسية ولا بالمِلّة فالْخلْق كلُّهم عباد ٱللَّه يجزيهم ٱللَّه سبحانه في الآخرة حسب إيمانهم وأعمالهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

شرح المفردات

ميثاقكم: الميثاق هو العهد المؤكد.

رفعنا فوقكم الطُّور: أي زعزعنا جبل الطور عن مكانه فصار كالظُّلَّة فوق رؤوسكم.

بِقُوَّة: بجدّ واجتهاد والتزام.

تَوَلَّيتم: أعرضتم.

السبت: يوم السبت حيث حرّم ٱللّه عليهم الصيد فيه.

خاسئين: أذِلاّء حقيرين.

نكالاً: عقوبة وعبرة وزجراً لغيرهم.

عقاب اللَّه لبني إسرائيل لعصيانهم أمره

ويتابع القرآن فَيُذكِّر بني إسرائيل بما جرى لأسلافهم من تهديد عندما أبوا العمل بالتوراة ليكون ذلك عِبْرة لهم:

﴿وإذْ أَخذْنا مِيثاقَكُمْ﴾ والميثاق: العهد المؤكد، والمراد به الإيمان بوحدانية ٱللّه مقروناً بالعمل الصالح وفق ما جاء في التوراة، والمعنى: واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تعبدوا ٱللّه وتتبعوا ما جاءكم به رسله وتعملوا بما في التوراة **﴿وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾** واذكروا كذلك وقت

أن رفعنا فوق أسلافكم جبل الطور تهديداً لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر ٱللَّه. وبيان ذلك: أن موسى عليه السلام جاءهم بالألْواح التي كتبت فيها التوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة فأبوا قبولها والعمل بها، فأمر ٱللَّه الملك جبريل بأن يقلع الجبل من أساسه ويرفعه ويُظَلِّله فوقهم، فقال لهم موسى: إما أن تقبلوا ما في التوراة وتعملوا بها وإلاّ أُلقي عليكم الجبل، فلما رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا ما في التوراة وسجدوا لله، وجعلوا يلاحظون الجبل بأنظارهم وهم سجود لئلا يهبط عليهم، فصارت عادة في اليهود أن لا يسجدوا إلاّ على أنصاف وجوههم، ويقولون: بهذا السجود رُفِعَ عنّا العذاب.

وَرَفْعُ الجبل فوقهم هو لإشهادهم معجزة من معجزات ٱللَّه ليقوى إيمانهم بأن التوراة مُنزّلة من عند ٱللَّه، وليكون ذلك دافعاً لهم إلى العمل بها.

﴿خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ والذي أعطاهم التوراة هو ٱللَّه سبحانه، ومعنى بقوة: أي بجدّ وعزم واجتهاد **﴿وَاذْكُرُوا ما فِيهِ﴾** أي وادْرُسوا ما في كتاب التوراة من الأوامر التي أمركم ٱللَّه بها، والنواهي التي نهاكم عنها واحفظوا ما فيه ولا تنسوه **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة. وهذا المعنى يندرج ضمن العمل بما جاء في القرآن الذي أنزله ٱللَّه بعد التوراة والإنجيل وفيه الشرائع والوصايا التي تسعد الأمم وتجنبهم المهالك والخسران في الدنيا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ﴾ ثم أعرضتم عن طاعة ٱللَّه بعد أخذ الميثاق عليكم **﴿فَلَوْلا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾** فلولا فضل ٱللَّه عليهم بتوفيقهم للتوبة ورحمته لهم بالعفو عن زلاّتهم لكانوا من الهالكين في الدنيا والمعذبين في الآخرة. فالقرآن يُذَكِّرُ بني إسرائيل المعاصرين للنبي محمد ﷺ بما كان من أسلافهم من جحود النعمة ونقضٍ للعهد، وفي هذا

التذكير تحذيرٌ لهم من السير على طريقتهم ودعوة لهم للدخول في الإسلام الذي فيه نجاتهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل ما فعل ٱللَّه بمن عصى من أسلافكم حين خالفوا أمره واصطادوا السمك يوم السبت الذي نهاهم ٱللَّه عن الصيد فيه.

وبيان ذلك: أن ٱللَّه أخذ العهد على بني إسرائيل أن يتفرغوا لعبادته في يوم السبت، وحرم عليهم الصيد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد ٱللَّه أن يختبر طاعتهم له، فابتلاهم بتكاثر الأسماك في يوم السبت دون غيره من الأيام، فكانت تتراءى لهم على ساحل البحر يوم السبت قريبة المأخذ سهلة المنال، فقالوا: لو حفرنا إلى جانب ساحل البحر الذي يزخر بالأسماك حياضاً تنساب إليها المياه مع الأسماك ويتعذر خروجها منها، ثم نأخذ هذه الأسماك من تلك الحياض يوم الأحد وما بعده، فنهاهم فريق منهم عن عملهم هذا، وقالوا لهم إنه خروج عن طاعة ٱللَّه، فلم يعبأ أكثرهم بذلك النهي فعاقبهم ٱللَّه بما بَيَّنَهُ بقوله:

﴿فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي كونوا قردة أذِلاّء مطرودين، واختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى **﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾** فقيل إن ٱللَّه حَوَّلهم قردة حقيقة، ورُوِيَ عن مجاهد أنه قال: «ما مُسِخَت صورهم ولكن مُسِخَتْ قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تعي زجراً» **﴿فَجَعَلْنَاها نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْها وَمَا خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾** نكالاً: عقوبة وعِبرة، أي وجعل ٱللَّه مسخهم قردة عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن شهدها وعاينها من الناس، ولمن جاء بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة، وتذكرةً وعبرة للمتقين الذين يخشون ربهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ
عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ
فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ
لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

شرح المفردات

هُزُواً: سخرية.

فارِضٌ: كبيرة هرمة.

بِكْر: فتيَّة لم تلد.

عَوانٌ بين ذلك: وسط بين المسنّة والفتيّة.

صفراء فاقع لونها: لونها شديد الصفرة.

لا ذَلُول: لم تذلل بالعمل.

تُثير الأرض: تقلبها بالمحراث للزراعة.

ولا تسقي الحرث: لا تروي الزّرع.

مُسَلَّمَةٌ: بريئة من العيوب.

لا شِيَةَ فيها: لا لون فيها يُخالف لون سائر جلدها.

قصة بقرة بني إسرائيل

ويُتابع القرآن فيبيّن ناحيةً من مساوئ اليهود وهي مُكابرتهم على طاعة نبيهم موسى، وجفاؤهم في مخاطبته وعدم مسارعتهم للامتثال لأوامر ربّهم، وذلك يتمثّل بما كان منهم لمَّا طلب منهم أن يذبحوا بقرة، قال تعالى:

﴿وإذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي واذكر يا محمد الوقت الذي قال فيه موسى لقومه ـ وقد وُجِدَ قتيلٌ بين أظهرهم لم يعرفوا قاتله ـ إن ٱللَّه يأمركم أن تذبحوا بقرة ليكون ذلك وسيلة إلى معرفة القاتل، وهذا ما سيأتي إيضاحه فيما بعد.

وسبب نزول الآيات في هذا الشأن: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل قد أدركته الشيخوخة وكان ثَرِيًّا، فاستبطأ ابن أخيه موته فقتله ليرثه. وكان بنو إسرائيل يسكنون في قريتين متجاورتين فألقى القاتل مَنْ قتله إلى باب القرية الأخرى ليتهمهم بقتله ويأخذ ديته، فأنكر سكان القرية التي وُجد القتيل في جوارهم قَتْله، ووقع الشّجار بينهم وبين القرية الأخرى حتى شهروا السلاح في وجوه بعضهم بعضاً، فقال أصحاب العقول منهم: أنتقاتل ورسول ٱللَّه بيننا؟ اذهبوا إلى موسى وقصوا عليه القصة ففعلوا، فأوحى ٱللَّه إليه أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقرة.

ويبقى هذا السؤال: هل سارع بنو إسرائيل إلى امتثال ما أمرهم ٱللَّه به؟ الجواب: كلا، لم يمتثلوا بل تلكأوا عن طاعة ربهم، وأجابوا موسى بما يقصه علينا القرآن: **﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً﴾** أي أتجعلنا يا موسى مكان هزء وسخرية؟ نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح بقرة! سمع موسى كلامهم فذهل من جهلهم وسوء أدبهم، فهل هناك نبيّ يستهزئ بقومه وبما كلفه به ربّه؟ أجابهم موسى: **﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾** أي أَلْتجئُ إلى ٱللَّه من أن أكون من

زمرة الجاهلين، فالاستهزاء بأوامر ٱللَّه يؤدي بالمستهزئ إلى غضب ٱللَّه وأسوأ العواقب.

تابع بنو إسرائيل قولهم: ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا ما هِيَ**﴾ لقد سألوا موسى أن يطلب من ربّه أن يبين لهم صفة تلك البقرة، أجابهم موسى بعد أن دعا ربه وبيَّن له صفة تلك البقرة ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ**﴾ أي إنَّ ربّكم يقول في شأن هذه البقرة بأنها ليست كبيرة هرمة، وليست فتيّة صغيرة لم تلد بل هي ﴿**عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**﴾ أي هي مُتوسطة السّن بين الفارض والبكر ﴿**فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ**﴾ أي كفاكم مجادلة وَنَفِّذوا أمر ٱللَّه على الفور واذبحوا بقرة أيًّا كانت على الصفة المذكورة.

لم يُنَفِّذْ بنو إسرائيل ما أمرهم به ربهم، بل بحثوا عن سؤال آخر يدل على غبائهم وسوء فهمهم ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا ما لَوْنُها**﴾ أي اطلب يا موسى من ربّك أن يُبين لنا لون هذه البقرة، فأجابهم موسى بما أوحى الله إليه ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾ أي إن لونها شديد الصفرة يشعر ببهجة كلُّ من ينظر إليها لنضارتها وحسن منظرها وصفاء لونها.

لكن بني إسرائيل لم تكفهم هذه الأوصاف التي بيّنها لهم ربّهم بل أخذوا كعادتهم يماطلون في الامتثال فأجابوا موسى: ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنا ما هِيَ إِنّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا**﴾ أي إن البقرة الموصوفة بالصفات السابقة هي كثيرة فاشتبه علينا أيُّها نذبح، فَادْعُ لنا ربَّك يا موسى يبين لنا شأن هذه البقرة، ثم أضافوا قولهم: ﴿**وإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**﴾ وفي تعليق اهتدائهم بمشيئة ٱللَّه دليل على تفويض أمرهم إلى ٱللَّه سبحانه وطلبهم الهداية منه، وهم لو لم يقولوا: ﴿**إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ**﴾ لحيل بينهم وبين الاهتداء إلى البقرة المطلوب ذبحها أبداً.

والتلفظ بمشيئة ٱللَّه يُستحسن في كل عمل يراد تحصيله ولذلك خاطب ٱللَّه رسوله محمداً بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ . . .﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

وبعد أن فَوّضوا أمرهم إلى مشيئة ٱللَّه جاء الجواب النهائي على ما طلبوا: **﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ﴾** أي قال موسى لهم:

إنَّ ربَّكم يقول إنها بقرة لم يذللها العمل فلم تفلح الأرض ولم تستخدم في انتزاع المياه من الآبار لسقي الأرض المهيأة للزراعة **﴿مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها﴾** أي بريئة من العيوب ليس فيها لون يخالف لون سائر جسدها فهي صفراء كلها. ثم قالوا عندما سمعوا تلك الأوصاف كلها **﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ فَذَبَحُوها وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾** أي فقالوا لموسى: الآن جئت بالبيان الواضح، وبحثوا عن البقرة المتصفة بهذه الأوصاف فذبحوها وقد قاربوا أن يتركوا ذبحها وما فرض عليهم في ذلك لغلاء ثمنها.

وكانت هذه البقرة على ما رُوِيَ عند رجل يزعم أنه ليس بائعها بمال أبداً، فلم يزالوا يساومونه حتى رضي أن يأخذ ملء جلدها ذهباً ثمناً لها، وذلك بأن يأخذوا جلدها بعد ذبحها ويملأوه ذهباً فباعهم إياها على هذا الثمن.

فبنو إسرائيل لو أطاعوا ٱللَّه من أول الأمر وذبحوا أية بقرة لأجزأتهم، ولكنهم شَدَّدوا على أنفسهم فشدَّد ٱللَّه عليهم.

ولعلّ إكثارهم من المراجعات في أوصاف البقرة لغرض الوصول إلى تعيين وصف يتعذر وجوده في أبقارهم وذلك لغرض أن يعفوا من ذبح البقرة التي أُمروا بذبحها.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ
أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

شرح المفردات

فادَّارَأْتُم: اختلفتم وتنازعتم.

واللهُ مُخرج ما كنتم تكتمون: والله مُعلنٌ ما كنتم تسرُّون وتغيِّبون.

اضرِبُوه ببعضها: اضرِبُوا القتيل ببعض أجزاء البقرة.

وإنَّ منها لما يَهْبِطُ: وإن من الحجارة لما يسقط من أعلى إلى أسفل.

الغاية من ذبح البقرة وقسوة قلوب اليهود

ثم يبين القرآن الغاية المتوخاة من ذبح البقرة:

﴿**وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُم فِيها**﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل إذْ قتلتم نفساً فاختلفتم وتنازعتم في قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، ونسب القتل إليهم لكون القاتل منهم. والخطاب في الآية لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ وإن كان القتل حصل عند أسلافهم للتنبيه على أنهم ليسوا أفضل منهم بل هم سائرون على نهجهم في الانحراف والضلال، ويستعمل هذا الأُسلوب عند القصد إلى ذم المخاطبين ﴿**واللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمونَ**﴾ واللّه يعلم الحقيقة وهو كاشفها ومظهرها مع كتمانكم لها.

وبعد أن تم ذبح البقرة أراد ٱللَّه أن يظهر القاتل، فقال سبحانه:

﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها﴾ أي قال ٱللَّه لهم على لسان رسوله موسى: اضربوا القتيل بأي جزءٍ من أجزاء البقرة التي ذبحتموها. وفي الآية حذف تقديره: فضربوا الميت بجزء منها فأحياه ٱللَّه ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أخبر به ﴿كَذلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ المَوْتى﴾ أي مثل إحياء ذلك القتيل بعد موته يحيي ٱللَّه الموتى للحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة ولكن ليس على الصفة التي تمّ بها إحياء ذلك الميت ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآيات: الدلائل، أي يجعلكم ٱللَّه مبصرين الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء ولكي تستعملوا عقولكم في تعرّف سبيل الرشد.

تعليق على النص القرآني: جمهور المفسرين يرى أن حادثة قتل النفس وتنازعهم في أمر القتيل حصلت قبل الأمر بذبح البقرة وإن وردت في الذكر بعده، وإنما قَدَّمَ ٱللَّه قصة الأمر بذبح البقرة ليتشوق السامع إلى الغاية من ذبحها، كما أراد ٱللَّه سبحانه أن يُعطينا صورة عن سلوك اليهود ومُكابرتهم لرسول ٱللَّه موسى عليه السلام وتلكئهم عن الامتثال لما أمرهم ٱللَّه به، هذا مع العلم بأن القرآن حين يذكر قصص الأنبياء أو الأمم السابقة فإنما يذكرها لهدف العبرة دون الاهتمام الزمني للقصة.

ثم يختم ٱللَّه قصة البقرة بقوله:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ القسوة: الصَّلابة والشدّة، والمراد بذلك قلوب جميع بني إسرائيل، ووصف القلوب بالقسوة لبعدها عن الاعتبار وعدم تأثير المواعظ فيها بعد رؤيتهم جميع المعجزات التي أيَّد ٱللَّه بها موسى عليه السلام.

ثم وصف ٱللَّه قلوب اليهود بقوله: ﴿فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فقلوبهم تتفاوت في القسوة، فبعضها قاسٍ كالحجارة، وبعضها أشدّ قسوة من الحجارة كالمعادن الصّلبة ﴿وإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ﴾ والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، وهذا بيانٌ لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية لأن من الحجارة ما يتفتح بكثرة وسعة ويتدفّق منها الأنهار ﴿وإِنَّ مِنْها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ وإن من الحجارة لما يتصدع فينبع منها الماء، وفي هذا إشارة إلى العين النابعة ﴿وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الهبوط: التردّي، أي النزول من أعلى إلى أسفل، أي إن من الحجارة ما ينزل وينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه خشية من ٱللَّه تعالى، وهذا الوصف مجاز عن انقياد الحجارة لأمر ٱللَّه وأنها لا تمتنع على ما يريده منها، أما قلوب هؤلاء اليهود فلا تنقاد ولا تلين ولا تخشع، ولا تفعل ما يأمره ٱللَّه به من الرحمة والشفقة على عباد ٱللَّه.

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا تهديدٌ لهم بأن ٱللَّه ليس بغافل عن أعمالهم بل سيحصيها عليهم ويحاسبهم عليها وسيجازيهم عاجلاً أو آجلاً على أعمالهم الآثمة.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ
اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا
لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا
أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا
النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن
يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ
مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

شرح المفردات

يَسْمعون كلام الله ثم يُحرِّفُونه: يُبدِّلونه أو يؤولونه بالباطل.

عَقَلُوهُ: فهموه.

خلا بعضهم إلى بعضٍ: انفرد بعضهم إلى بعض.

فتح اللَّه عليكم: حكم به أو قضى.

لِيُحاجُّوكم: ليخاصموكم ويقيموا عليكم الحجة.

أمانيّ: جمع أُمنية وهي ما يحب أن يحصل عليه الإنسان.

فَوَيْلٌ لهم: أي هلاك وعذاب لهم وهو وارد مورد الدعاء.

وأحاطت به خطيئته: الخطيئة: السيئة، وإحاطتها: شمولها له.

تحريف بني إسرائيل للتوراة وأمانيهم الباطلة

وبعد أن ذكر القرآن عناد اليهود وعدم امتثالهم لأوامر ربهم عقّب على ذلك بذكر بعض مساوئهم: كتحريف التوراة وأمانيهم الباطلة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الخطاب في الآية للنبي محمد ﷺ والمؤمنين والاستفهام في قوله تعالى **﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾** للإنكار، أي لا تطمعوا في إيمان اليهود مستجيبين دعوتكم لهم للإيمان.

وقد كان النبي محمد والمؤمنون شديدي الحرص على دخول اليهود في دين الإسلام لأنهم أهل كتاب منزل من عند ٱللَّه، فبيَّن اللهُ لهم أنهم ميئوس منهم للأسباب التالية:

﴿وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ والمراد بالفريق هنا من كان في زمن النبي محمد ﷺ وهم أحْبار اليهود حيث كانوا يسمعون كلام ٱللَّه ـ أي التوراة ـ ويؤوّلونها تأويلاً فاسداً، أو يبدّلون كلام ٱللَّه حسب أغراضهم بوضع كلام آخر مكانه أو بكتمان بعضه **﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** أي يحرفون كلام ٱللَّه من بعد ما فهموه وضبطوه في عقولهم مع علمهم بأن من يحرّف كلام ٱللَّه يستحق الخزي والعذاب الأليم في الآخرة.

فأحبار اليهود حرّفوا كتاب ٱللَّه وقلَّدهم أتباعهم في ذلك تقليداً أعمى، فهؤلاء لا يُرجى منهم خير ولا يهتدون إلى الدين الحق.

﴿وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ هذا الشطر من الآية فيه بيان لنوع من مساوئ اليهود الكاشفة عما يضمرونه من النفاق، فقد كان بعضهم إذا لقوا الذين

آمنوا من أصحاب النبي أظهروا لهم بأنهم مصدّقون بنبوّة محمد وما أُنزل عليه من القرآن وأنه مبشّر به في التوراة ﴿**وإذا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ**﴾ وإذا انفرد اليهود بعضهم إلى بعض قال الأحْبار للمنافقين منهم معاتبين إياهم ﴿**قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾ والفتح: بمعنى العلم وإزالة الإبهام، أي أتخبرون المؤمنين من أتباع محمد بما فتح ٱللَّه عليكم من أبواب العلم التي كتمناها عنهم مما جاء في التوراة من البشارات والأوصاف التي تنطبق على نبوة محمد وأنه صادق في ادعائه النبوة. ويأتي الفتح بمعنى النصر والقضاء والحكم، أي أَتُحَدّثونهم بما قضاه ٱللَّه فيكم من أخْذه الميثاق عليكم بأن تؤمنوا بأن محمداً رسول ٱللَّه وتستجيبوا لدعوته ﴿**لِيُحَاجُوكُمْ بِهِ**﴾ ليحتجوا به عليكم باعترافكم هذا قائلين: كفرتم بعد أن وقفتم على صدق نبوة محمد وأنه نبي حقاً ﴿**عِنْدَ رَبِّكُمْ**﴾ أي في حكمه وكتابه، أو بمعنى: ليكون للمؤمنين الحجة عليكم عند اجتماعهم بكم أمام ربكم في الآخرة فيكون في ذلك فضيحة لكم أمام الخلائق ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ أي أليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه الحجة عليكم؟ ﴿**أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ ألا يعلم هؤلاء اليهود الذين نافقوا أن ٱللَّه يعلم ما يخفونه من كفرهم بمحمد وتكذيبهم له وما أبدوه وأظهروه رياءً للمؤمنين بقولهم: آمنا، ليرضوهم بذلك نفاقاً وخداعاً!

﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أَمَانِيَّ**﴾ وأُمِّيُّونَ: جمع أُمِّيّ وهو الذي لا يُحسن القراءة والكتابة، والكتاب هنا المراد به التوراة، والأمانيّ: جمع أُمنية وهي ما يرغب الإنسان في الحصول عليه، والمعنى: ومِنْ هؤلاء اليهود أناس لا يحسنون القراءة والكتابة ولا يعلمون من التوراة إلاّ ما هم عليه من أمانيهم بأن ٱللَّه لا يؤاخذهم على خطاياهم، وأن أنبياءهم يشفعون لهم،

وأن النار لن تمسهم بسبب ذنوبهم إلا أياماً معدودات ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ﴾ وإن هؤلاء اليهود في اعتقادهم هذا ليسوا على علم من أُمور الدين وإنما هم في شك منها. والظن: هو التردد في الاعتقاد بغير جزم ولا يقين.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للذين يُحَرِّفُونَ كتاب ٱللَّه وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسّون فيها ما ليس منها. ومن الأشياء التي حرّفوها ما جاء في التوراة من أوصاف النبي المُبَشَّر به التي تنطبق على صفات النبي محمد فأبدلوها بصفات أخرى ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ﴾ ثم يقولون لأتباعهم من العوامّ: هذا من عند ٱللَّه ليحملوهم على الاعتقاد به، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة وأعظم إثم وهو افتراء الكذب على ٱللَّه ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ والاشتراء: الاستبدال، أي يأخذوا لأنفسهم مقابل تحريف كتاب ٱللَّه ثمناً قليلاً، وهو الاحتفاظ بالرياسة والجاه، وأكل أموال الناس بالباطل حيث يفتونهم بما يرضي أهواءهم ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لهم على فعلهم هذا، وكرّر القرآن هذا المعنى للتأكيد على مبلغ إثمهم والعقوبة التي ستحل بهم من جرّاء تحريفهم كتاب ٱللَّه وتبديله أو سوء تأويله ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ﴾ وهلاك وعذاب لهم مما يحصلون عليه بالباطل من مال، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن ابتدع في دين ٱللَّه ما ليس منه أو اكتسب من مالٍ حرامٍ باسم الدين عن طريق الرشوة والتلاعب في آيات ٱللَّه.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَةً﴾ أي وقالت اليهود لن تلاقي أجسامنا النار في الآخرة إلا أياماً قليلة. وذلك أن اليهود قالوا: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألْف سنة يوماً واحداً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ﴾ والمراد بالعهد: الوعد المؤكد. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود تبكيتاً لهم وتوبيخاً: هل سبق لكم من ٱللَّه وعد بذلك حتى

يكون الإيفاء بهذا الوعد متحققاً؟ ﴿**أَمْ تَقُولُونَ عَلى ٱللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ أي ليس الأمر كذلك وإنما أنتم تقولون على ٱللَّه ما لا دليل لكم عليه. فهم لا يستطيعون أن يؤكدوا أن ٱللَّه وعدهم بما أخبروا به من أن النار لن تمسهم إلاّ أيّاماً معدودة، وليس في التوراة نصٌّ يستندون إليه فيما ادَّعوه.

ثم أبْطل ٱللَّه دعواهم وبيّن من يستحق العذاب في الآخرة:

﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ بلى: حرف جواب بمعنى: نعم، أي نعم، من اقترف سيئة، والمراد بفاعل السيئة هنا: أهل الشرك والكفر بٱللَّه ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ والخطيئة المراد بها كبيرة من كبائر الإثم التي أوجب ٱللَّه عليها عذاب النار، ومعنى إحاطة الخطيئة بصاحبها أخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها فهو أسير الشهوات وسجين الموبقات، والخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان وأدَّت به إلى الكفر.

﴿**فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدونَ**﴾ أي من أشرك بٱللَّه واقترف ذنوباً جمّة فمات عليها قبل الإنابة إلى ٱللَّه بالطاعة والتوبة فأولئك سيكونون من أصحاب النار المُلازمين لها لا يخرجون منها أبداً.

والخلود في عذاب النار هو لأهل الكفر بٱللَّه خاصة دون أهل الإيمان به لورود الأخبار عن رسول ٱللَّه بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر بٱللَّه.

﴿**والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**﴾ والذين جمعوا بين الإيمان الصادق بوحدانية ٱللَّه والعمل الصالح وامتنعوا عن السيئات ﴿**أُولَئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدونَ**﴾ أي هم أصحاب الجنة الملازمون لها المنعّمون فيها بكل ما يشتهون وهم باقون فيها أبداً لا يخرجون منها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ
دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ
أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ
مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ
ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

شرح المفردات

مِيثاق: العهد المؤكد.

تولَّيتم: أعرضتم.

لا تسفكون دماءكم: لا تريقونها بأن يقتل بعضكم بعضاً.

ولا تُخرجون أنفسكم: لا يخرج بعضكم بعضاً.

أقْرَرْتُم: قبلتم هذا الميثاق واعترفتم بلزومه.

تقتلون أنفسكم: يقتل بعضكم بعضاً.

تَظاهرون عليهم: تتعاونون عليهم.

بالإثم والعدوان: بالمعصية والظلم.

أُسارى: جمع أسير وهو من يؤخذ على سبيل الغلبة في القتال.

تُفادوهم: تنقذوهم من الأسْر.

خِزي: ذُلٌّ وهوان.

يُرَدُّون: يصيرون، يرجعون.

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة: آثروا متاعها وملذاتها على نعيم الآخرة.

العهد الذي أخذه اللَّه على بني اسرائيل

ثم يُبين القرآن العهد الذي أخذه ٱللَّه على بني إسرائيل وطلب منهم الوفاء به قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ ٱللَّهَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد، أي واذكروا يا بني إسرائيل إذْ أخذنا عليكم العهد المؤكد ويشمل عدة أمور منها:

﴿لاَ تَعْبُدُونَ إلاّ ٱللَّهَ﴾ وقد جاءت الصيغة **﴿لا تَعْبُدُونَ﴾** في صورة الخبر المنفي، والمراد النهي عن عبادة غير ٱللَّه وكلمة **﴿إلاّ ٱللَّهَ﴾** إثباتُ العبادة لله وحده لأنه سبحانه هو المستحقّ لها دون غيره، وعبادة ٱللَّه الخضوع له وحده وإثبات الوحدانية وتصديق رسله والعمل بما أنزل في كتبه.

ومن الميثاق: **﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** قرن ٱللَّه أمر الإحسان إلى الوالدين بالأمر بعبادته وذلك لِمَا للوالدين من الفضل الكبير على الولد لأنهما بَذَلا الكثير من العناية في تربيته والقيام بشؤونه في عهد الطفولةِ أيام كان صغيراً عاجزاً، والإحسان إلى الوالدين يكون: بمعاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما، والقيام بما أوجبه ٱللَّه لهما من الحقوق.

﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والمَسَاكِينِ﴾ وذو القربى: هو من تكون بينك وبينه صلة قرابة من جهة الأب أو الأم. والإحسان إليه يكون بالقيام بما يحتاج إليه من مال ومعونة بقدر الاستطاعة، وفي ذلك تقوية للروابط بين الأقارب وإشاعة الودّ بينهم ﴿والْيَتَامَى﴾ جمع يتيم وهو من فقد أباه وهو دون البلوغ، والإحسان إليه يكون بالعطف عليه والإنفاق عليه إذا كان فقيراً كما يكون بالتوجيه الرشيد والكلمة الطيبة. والإحسان إلى اليتامى بهذا المعنى فيه حماية للمجتمع حتى لا يكونوا عناصر شر وفساد فيه ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ هم الذين لا يقدرون على كسب عيشهم أو لا يكفيهم ما يكسبونه من مال. والإحسان إلى المساكين يكون بإعطائهم ما يكفيهم من المال للعيش الكريم، وهذا ما يؤدي إلى التكافل بين أفراد الأُمة.

ومن الميثاق: ﴿وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ والقول الحسن للناس يكون بالنصيحة لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع لِيْنِ الجانب، ومخاطبة الناس بما تطيب به نفوسهم مع الابتعاد عن الغلظة والفظاظة في القول والسباب والطعن والسخرية. هذه الوصية من أرْفع الوصايا التي تشيع الود في المجتمع وتنفي عنه البغضاء والتناحر والتفرقة، هذا هو جوهر الدين وروحه القائم على الخلق الحسن.

ومن الميثاق: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والصلاة التي أُمر بنو إسرائيل بإقامتها، والزكاة التي أُمروا بإتيانها، هما الصلاة والزكاة المشروعتان في ديانتهم قبل أن يُنْسخا بشريعة الإسلام، ولعظم شأن هاتين العبادتين ذُكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة ٱللَّه، لِمَا للصلاة من الأثر الكبير في النهي عن الفحشاء والمنكر، ولما في الزكاة من تأثير في تخفيف ويلات الفقر على المحتاجين.

هذه الوصايا التي ذكّر ٱللَّه بها بني إسرائيل، وأخذ عليهم الميثاق للعمل بها ليست خاصة بهم بل هي موجهة كذلك إلى الأُمة الإسلامية، لأن هذه التوجيهات من صلب الشرائع الإلٓهية التي أنزلها ٱللَّه لخير البشر، وقد أمر ٱللَّه الأُمة الإسلامية بنظير ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم إلاّ قَلِيلاً مِنكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ تولّيتم: تولّى عن الشيء رفضه وانصرف عنه، والتولّي والإعراض بمعنى واحد، وقيل: التولّي بالجسم والإعراض بالقلب. والتوبيخ في الآية موجهٌ إلى اليهود الذين كانوا في عصر النبي محمد ﷺ ويشمل أسْلافهم من قبل حيث أعرض أكثرهم عن الميثاق الذي أخذه ٱللَّه عليهم ورفضوه **﴿إلاّ قَلِيلاً مِنْكُمْ﴾** وهم القلة منهم وتشمل من آمن قديماً من أسلافهم أو من كان على عهد النبي محمد كعبد ٱللَّه بن سلام وأصحابه.

وبعد أن أخذ ٱللَّه العهد على بني إسرائيل بالعمل بفضائل الأعمال عقَّب على ذلك بما أخذ عليهم العهد بالكفّ عن سيئ الأفعال.

وقبل أن نذكر آيات القرآن التي جاءت في هذا الصدد، نذْكُرُ هذه الوقائع التي كانت مسيطرة على الوضع في المدينة المنورة والتي على ضوئها جاءت الآيات التي تنهى بني إسرائيل عن عصيان ٱللَّه.

كان في المدينة المنورة قبيلتا الأَوْس والخَزْرج وهم الذين سُمّوا الأنصار بعد إسلامهم. وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام عبّاد أصنام وكانت بين القبيلتين حروب كثيرة. وكان يهود المدينة المنورة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير حُلَفاء قبيلة الخزرج، وبنو قريظة حلفاء قبيلة الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه من العرب فيقتل

اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوْزارها افتدى اليهود أسْراهم تصديقاً لما دعت إليه التوراة، وفي الآيات التالية يستنكر ٱللَّه تصرفهم هذا بقوله:

﴿**وإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ**﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً، والنص القرآني يُشعر بأن دم كل فرد من أفراد الأُمّة كأنه دم الآخر فإذا سفكه فكأنما سفك دم نفسه، وهذا توجيهٌ قرآني يُبين الحرص على احترام النفس الإنسانية وعدم سفك دمها ﴿**وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُم مِنْ دِيارِكُمْ**﴾ أي لا يُخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم، ويدخل في معنى الإخراج من الديار أن يَتصدّى الرجل لإيذاء جاره حتى يضطره إلى الخروج من داره تخلّصاً من شره. والنص القرآني جعل إجلاءهم لغيرهم من مساكنهم إجلاء لأنفسهم فنبّه بذلك على وحدة الأُمة ﴿**ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُم تَشْهَدُونَ**﴾ أي ثم اعترفتم بالميثاق الذي أخذه ٱللَّه عليكم وبوجوب المحافظة عليه وأنتم تُشهدون أنفسكم بلزوم العمل بمقتضاه أو بمعنى: وأنتم تشهدون أيها المخاطبون على أسلافكم بأنهم أقروا بهذا الميثاق وقبلوا به.

﴿**ثُمَّ أَنْتُم هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُم مِنْ دِيارِهِم**﴾ هنا خطاب لليهود المعاصرين لرسول ٱللَّه محمد فيه توبيخ شديد لهم واستنكار لسلوكهم المنافي للميثاق، والمعنى: ثم أنتم يا معشر اليهود بعد إقراركم بالميثاق قاتلتم إخوانكم في الدين كما طردتموهم من ديارهم بعد أن نهاكم ٱللَّه عن ذلك.

﴿**تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإثْمِ وَالعُدْوانِ**﴾ تظاهرون: التظاهر التعاون. ولَمّا كان قتل بعضهم لبعض وإجلاؤهم لفريق منهم عن ديارهم يحتاج إلى قوةٍ

وغلَبةٍ، بيّن ٱللّه أنهم يفعلون ذلك متعاونين عليهم قتلاً وإخراجاً من ديارهم، آثمين في حق إخوانهم في الدين معتدين ظالمين فيما يصنعون به‍م ﴿**وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ**﴾ وإذا وجدتم الأسرى من أهل دينكم في أيدي أعدائكم تسعون لِفَكِّ أسرهم وتبذلون المال لإطلاق سراحهم ﴿**وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**﴾ فكيف تُخرجون أهل دينكم من ديارهم وهو محرّم عليكم فِعْلُه ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾ والكتاب هنا: التوراة. ومعنى بعض الكتاب الذي آمنوا به وأقرُّوا به هو ما حُرِّم عليهم من ترك الأسرى في أيدي أعدائهم، والكفر ببعض الكتاب هو ما حُرِّم عليهم من قتل وإخراج أهل دينهم من ديارهم.

﴿**فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إلاّ خِزْيٌ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ الخزي: هو الذلّ والهوان مع الفضيحة، أي إنكم إن فعلتم ما نهاكم ٱللَّه عنه، سيصيبكم ٱللَّه بالذلّ والهوان في الدنيا، وهذا ما تحقق فعلاً فكان الخزي الذي أصاب بني قريظة من قتلهم جميعاً بسبب خيانتهم العهد مع رسول ٱللَّه، كما أُخرج بنو قينقاع من ديارهم بالسبب ذاته.

وفي هذه الآيات إيحاءٌ للمسلمين وتحذيرٌ لهم بأنهم إذا لم يطبقوا شريعة دينهم في كل مرافق دينهم سيصيبهم ما أصاب اليهود من ذل وهوان فإن الإيمان ببعض ما قرره الدين من الأحكام والكفر ببعضه وتركه يُدخل المؤمنين في حساب الكافرين لأن الإيمان وحدة لا تتجزأ.

ويُتابع القرآن كلامه عن هؤلاء اليهود: ﴿**وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العَذَابِ**﴾ أي وبعد الذلّ والهوان الذي نزل بهم في الدنيا يصيرون إلى أشدّ العذاب يوم القيامة ﴿**وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ**﴾ تهديد ووعيد لهم، فإن ٱللَّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيحاسبهم عليها يوم القيامة.

﴿**أُولٰـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَياةَ الدُّنْـيَا بِالآخِـرَةِ**﴾ أي أُولئك اليهود الذين تقدّم ذكرهم آثروا الحياة الدنيا واختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿**فَلاَ يُـخَـفَّـفُ عَـنْـهُـمُ العَذَابُ وَلاَ هُـمْ يُـنْـصَرُونَ**﴾ فلا يخفف عنهم عذاب جهنم ولن يجدوا من ينقذهم من هذا العذاب لا بقوته ولا بشفاعته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

شرح المفردات

الكتاب: المراد به التوراة.

قفّينا: أتبعنا.

البينات: المعجزات والحجج الدالة على نُبُوّته.

أيَّـدناه: قويناه وساندناه.

رُوح القُدُس: هو الملك جبريل عليه السلام.

لا تهوى أنفسكم: لا يوافقها ولا يتلاءم مع رغباتها.

وقالوا قلوبنا غُلْفٌ: أي محجوبة عما تقول فلا تفهم كأن عليها غلافاً.

يستفتحون: أي يطلبون من الله النصر.

اشْتَرَوا: باعوا.

بَغْياً: ظلماً وحسداً.

فباءوا: رجعوا.

مهين: مذلّ.

كفر اليهود واستكبارهم

ويتابع القرآن الكلام عن بني إسرائيل فيذكّرهم بالنِّعم التي أمدّهم ٱللَّه بها فقابلوها بالكفر والإجرام. قال ٱللَّه تعالى:

﴿ولَقَدْ آتَيْنَا موسى الكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة **﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ﴾** أي وأتبعنا من بعد موته أنبياء ورسلاً إلى بني إسرائيل، ومن هؤلاء الأنبياء: يُوشع وداود وسُليمان وإلْياس واليسع ويُونُس وزكريا ويحيى عليهم السلام. وكثرة الأنبياء فيهم ليست دليلاً على أنهم شعب ٱللَّه المختار كما يزعمون، بل لغلظة قلوبهم وكثرة فسادهم، ولطول الفترة الزمنية بين موسى وعيسى فقد كانت خمساً وعشرين وتسعمائة وألْف سنة على ما قيل.

﴿وآتَيْنَا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾ أي وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات والحجج الواضحة الدالة على صدق نبوته كإبراء الأكمه والأبْرص وإحياء الموتى بإذن ٱللَّه. والملفت للنظر أن القرآن في كثير من آياته عندما يذكر كلمة عيسى يعقب على ذلك بقوله ابن مريم وذلك لدحض المزاعم بأنه ابن ٱللَّه، وقد وردت صيغة **﴿عِيْسَى ابنَ مَرْيَمَ﴾** في القرآن ست عشرة مرة تأكيداً لهذه الحقيقة بأنه بشر **﴿وأيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾** أيَّدناه: قويناه والمراد من هذه التقوية الإعانة، وروح القُدُس هو الملك جبريل عليه السلام، وسُمِّيَ رُوحاً لأن الملائكة أرواحٌ

لطيفة. والقدس: الطهر والبركة، وسُمِّيَ جبريل بروح القُدُس لأنه يُنزل الوحي على رسل ٱللَّه بما يطهر النفس ويزكيها بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويصحّ تفسير روح القدس بالوحي الذي يمدّ ٱللَّه به رسله إذ هو شبيه بالروح الذي تحصل به الحياة، ذلك أن الأُمم تحيا به حياة صالحة.

﴿أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ والاستفهام للإنكار والتوبيخ على استكبارهم واستعلائهم وجعل هواهم هو المتحكم بهم فأدّاهم ذلك إلى أن يُكَذِّبوا النبيين أو يقتلوهم، ونسب القتل إلى المعاصرين للنبي محمد مع أن القتله هم أسلافهم لرضاهم به ولُحُوق مَذَمَّتِه بهم.

ويستوقفنا إيراد خبر قتلهم الأنبياء بصيغة الفعل المضارع **﴿تَقْتُلُونَ﴾** التي تدل على الحال لاستحضار تلك الجريمة التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً وأن قتلهم الأنبياء تجدّد دائماً منهم، وقد حاولوا قتل النبي محمد ﷺ فعصمه ٱللَّه منهم.

ثم بيّن القرآن مذمّةً أُخرى لهم وهي قولهم:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا عليها غشاء أو أغطية لا ينفذ إليها ما جئت به يا محمد من الدين، وهي ليست مستعدة لقبول دعوتك **﴿بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾** بل أبعدهم ٱللَّه عن رحمته وأهْلكهم بكفرهم **﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾** فقلة الإيمان تعني أنهم لا يؤمنون إلاّ بقليل مما يجب الإيمان به من التوراة، والمقصود بالقلّه العدم، أي لا يؤمنون أصْلاً، فإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر لا يعتبر إيماناً بل كفراً.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن. أي ولما جاءهم كتاب مُنزل من عند ٱللَّه وهو القرآن مصدّق للتوراة

التي معهم في التوحيد وأُصول الدين التي أعلنت عن مجيء نبي تنطبق صفاته على النبي محمد ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستفتحون: يستنصرون، والمراد بالذين كفروا هنا: المشركون العرب، والمعنى: وقد كان اليهود من قبل رسالة محمد يطلبون الفتح والنصر على مشركي العرب بالنبي المنتظر الذين يجدون نعته في التوراة، فكان اليهود يقولون لأفراد قبيلتي الأَوْس والخَزْرَج من العرب قبل إسلامهم: «إن نبياً مبعوثاً قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فلما جاءهم النبي محمد الذي عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجها ريب كفروا بنبوته حسداً منهم للعرب لأنه جاء منهم ولم يأت من بني إسرائيل ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلى الكَافِرِينَ﴾ فهلاك لهؤلاء وبعدٌ لهم عن رحمة ٱللَّه، وقال سبحانه ﴿عَلى الكَافِرِينَ﴾ ولم يقل عليهم لِيُشْعِرَ بأن سبب حلول اللعنة عليهم هو كفرهم.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ بئس: فعل يستعمل للذمّ. واشتروا هنا بمعنى باعوا، ذلك أن اليهود لمّا دعاهم ٱللَّه إلى الإيمان الذي يفضي إلى سعادتهم وحذّرهم من الكفر الذي يؤدي إلى شقائهم، اختاروا الكفر على الإيمان فكأنهم باعوا الإيمان والحق وأخذوا مكانهما الكفر والباطل، فبئس كفرهم بما أنزل ٱللَّه على محمد الذي باعوا به أنفسهم مقابل تصديقهم بنبوة محمد ومناصرتهم له ﴿بَغياً أن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ البغي: الظلم أو الحسد، والفضل في الآية هو الوحي الإلٰهي. فاليهود كان سبب كفرهم هو الحسد من أن ينزل ٱللَّه الوحي على من يختاره من عباده وهو محمد ﷺ، فقد حسده اليهود على النبوة التي أنعمها ٱللَّه عليه لأنه لم يكن من بني إسرائيل. فالنبي محمد يرجع نسبه إلى إسماعيل عليه السلام، وهو أخو جدهم إسحاق عليه

السلام وكلاهما وَلَدا إبراهيم عليه السلام، وهم كانوا يريدون أن تقتصر النبوة عليهم من ولد إسحاق ولا تنتقل منهم إلى العرب ﴿**فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ**﴾ أي فرجعوا بغضبٍ على غضبٍ من ٱللَّه، أي غضب مضاعف، فهم كفروا بعيسى عليه السلام، كما كفروا بالنبي محمد ﷺ وكأن كفرهم باقٍ ومستمر، فحقَّ عليهم غضب ٱللَّه وكان غضباً متكاثراً بالنظر لتعدد أسبابه ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ الكافرون هنا هم اليهود المتحدث عنهم، فهؤلاء لهم عذاب مذلّ جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب يشمل عذاب الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

شرح المفردات

ويكفرون بما وراءه: ويكفرون بما جاء بعده.

بالبيِّنات: بالمعجزات الدَّالة على نُبوته.

الطُّور: اسم جبل.

اسْمَعُوا: اسمعوا ما تؤمرون به سماع قبول وطاعة.
أُشْرِبُوا في قلوبهم العِجْلَ: تمكّن حُبّ العجل في قلوبهم وخالطها.

عصيان اليهود لربّهم وإجرامهم

ويُتابع القرآن الكريم الكلام عن بني إسرائيل مبيناً جانباً من جحودهم للحق وإنكارهم لما جاء به محمد من القرآن المنزل عليه من ٱللَّه:

﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ المراد بقوله تعالى: **﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾** يعني بما أنزل ٱللَّهُ من القرآن على محمد، والمراد بقولهم **﴿قالوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنا﴾** يعني بالتوراةِ التي أنزلها ٱللَّه على موسى. والمعنى: وإذا دُعِيَ اليهود إلى التصديق بالقرآن المنزل على رسول ٱللَّه محمد أجابوا إنهم يؤمنون بالتوراة، وهم أرادوا بذلك أن ٱللَّه أنزل عليهم التوراة، والقرآن لم ينزل عليهم **﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾** أي يجحدون بما سوى التوراة وبما بعدها من كُتب ٱللَّه التي أنزلها على رسله **﴿وَهُوَ الحَقُّ﴾** والقرآن هو الحق من عند ٱللَّه والحق ضد الباطل **﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾** وتصديق القرآن للتوراة يدلّ على أنه وحي من عند ٱللَّه، ويظهر ذلك بما جاء به من قصص الأنبياء التي توافق التوراة في الجوهر وتخالفها فيما نسبت إلى بعض الأنبياء من الفواحش، كما أن القرآن يصدق التوراة في بعض الأحكام، مع العلم أن محمداً كان أُمِّـيًّا لم يتعلم علماً ولا درس على يد أُستاذ. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن التوراة ذكرت الكثير من البشارات على مجيء نبي تنطبق صفاته على صفات النبي محمد، وهذا يثبت أيضاً أن القرآن مصدق للتوراة، فمن يدّعي الإيمان بالتوراة يجب عليه الإيمان بأن القرآن منزل من عند ٱللَّه، لأنهم إذا كفروا بالقرآن الذي يصدّق بما معهم من التوراة فكأنهم كفروا بالتوراة.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود مُوبخاً لهم: إن كنتم مصدقين بالتوراة فلأي شيء تقتلون أنبياء ٱللَّه، والتوراة لا تسوّغ قَتْلَ الأنبياء؟ وجاءت ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع الذي يُفيد الحاضر والمستقبل ليدل على أن قتلهم الأنبياء يتجدد ويقع منهم المرة بعد الأُخرى فهو شأن من شؤونهم اعتادوا عليه. وقتل الأنبياء وقع من أسْلافهم ويصحّ توبيخ الخَلَف بما فعله سَلَفهم متى كان الخلف يمشي على درب السلف، هذا وقد حاول اليهود قتل الرسول محمد ﷺ فأبطل ٱللَّه مسعاهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «إن خطاب الخلف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها في الأخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أَثر الأخلاق الغالبة عليها، والأعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الأخلاق، فما جرى من بني إسرائيل من المنكرات لم يكن مصادفة وإنما كان عن أخلاقٍ راسخةٍ في الشعب تبع الآخرون فيها الأولين»[١].

ثم يُبين القرآن لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ ما صدر عن أسلافهم من كفر وظلم، وجاء الخطاب لليهود الحاضرين مواجهة بدل الكلام عن أسلافهم بصيغة الغائب لأنهم تطبعوا بأخلاقهم وساروا على خطاهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءكم يا بني إسرائيل موسى بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه وصحة نبوته كالعصا التي تحولت إلى ثعبان، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين، والبحر الذي ضربه موسى بعصاه فانفلق

---

(١) نقلاً عن تفسير المنار.

وصار فيه طُرُقٌ ليسلكها بنو إسرائيل وينجوا من فرعون وجنده، وغيرها من المعجزات ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ثم اتخذتم يا بني إسرائيل العجل إلّهاً من بعد أن فارقكم موسى ماضياً إلى مناجاة ربّه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وأنتم معتدون على أحكام الدين حيث وضعتم العبادة في غير موضعها بعبادتكم العجل بدلاً من عبادة ٱللَّه وحده.

﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن تعبدوا ٱللَّه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعملوا بما جاء في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور إظْهاراً لِقُوَّتِنا وقدرتنا عليكم وما يمكن أن تفعله هذه القدرة بكم حتى إذا استشعرتم ذلك آمنتم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي خُذوا ما أُمرتم به في التوراة بجدٍّ وعزم ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ واسمعوا ما أمرتكم به سماع تَدَبُّرٍ وفَهْمٍ وتقبّلوه بالطاعة، ولكن كان جوابهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، وجوابهم هذا فيه مبالغة بالكبرياء والعصيان ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ والإشراب هو جعل الشيء شارباً واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء آخر، أي إنّ حبهم العجل خالطهم حتى نفذ إلى قلوبهم كما ينفذ الماء إلى أعماق البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو تقليد لساداتهم الفراعنة في مصر، فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن وتوارثه الأبناء عن الآباء.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: بئس الذي يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة من الأعمال التي تقترفونها المنافية لما جاء في التوراة ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ هذه الجملة فيها قدح وذم في ادِّعائهم الإيمان إذِ الإيمان لا يسوّغ العمل بالجرائم والمعاصي، فأنتم لستم بمؤمنين.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

شرح المفردات

خالِصة: خاصة بكم.

لو يُعَمَّرُ: لو يطول عمره.

بمزحزحه: بِمُبْعِدِهِ.

أوهام اليهود

ومن مزاعم اليهود الباطلة أن الجنة لن يدخلها إلاّ من كان يهوديًا وأن الجنة هي خاصة بهم دون الناس جميعاً فأبطل ٱللّه هذا الزعم بقوله:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ ٱللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ المراد بالدار الآخرة هنا: الجَنّة، وخالصة: بمعنى مختصة. ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن كان دخول الجنة والتمتع بنعيمها مختصًا بكم فلا يدخلها أحَدٌ غيركم **﴿فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾** والمراد بالتمني هنا: هو التلفظ بما يدلُّ عليه لا مجرد أن يخطر بالقلب وتميل النفس إليه، أي تمنوا الموت بحقٍّ إن كنتم صادقين في زعمكم أن الجنة خاصة بكم فإن من أيقن

بدخول الجنة اشتاق إليها وتمنى الحصول عليها ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي ولن يتمنوا الموت طالما هم على قيد الحياة لأنهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يدّعون به، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخولهم النار في الآخرة، وعبَّر عن اقتراف المعاصي بالأيدي لأن معظم الأعمال تتم بالأيدي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ هذه الجملة فيها وعيد وتهديد لليهود الذين مرّ ذكرهم لأنهم ظالمون في أمرهم كله، وٱللَّه عليم بسائر أحوالهم.

لنقف عند قوله تعالى ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فإنه معجزة من معجزات القرآن لأنه إخبار بالغيب عنهم بأنهم لن يتمنوا الموت ولو بأَلْسنتهم، ولو حصل ذلك لنُقل ذلك عنهم وهم الذين يريدون الإساءة إلى الإسلام، كما أن من الممكن أن يفطن اليهود لهذا التحدّي ويقولوا: بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من ٱللَّه، ولكن حتى الآن لم يصدر منهم هذا النفي.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ[١] أَحْرَصَ النَاسِ عَلَى حَياةٍ﴾ أي وٱللَّه لتجدنَّ يا محمد أُولئك اليهود أحْرص من جميع الناس على حياة. وتنكير ﴿حياةٍ﴾ للتحقير، أي إنهم أحْرص الناس على أية حياة ولو كانت حقيرة وذليلة فهي عندهم خير من الموت. وقيل: أراد بتنكير ﴿حياةٍ﴾ حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي هم أحْرص من الذين أشركوا على هذه الحياة، والذين أشركوا هم الذين جعلوا لله شريكاً أو شركاء في خلقه ولا يؤمنون بالبعث ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا.

(١) ولتجدنهم: اللام الداخلة على تجدنهم للقسم، والنون للتوكيد.

وقد ذكر ٱللَّه المشركين بوجه خاص للمبالغة في توبيخ اليهود على شدّة حرصهم على الحياة حيث إن أُولئك المشركين لا يؤمنون بحياة أُخرى بعد الموت، لذا فإنَّ حرصهم على طول البقاء في الدنيا غير مستنكر، فإذا زاد حرص اليهود على الحياة على المشركين ـ واليهود لهم كتاب إلٰهيّ يقر بالبعث ـ كان في ذلك تصوير لمبلغ جشعهم وحرصهم على الحياة ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ أي بلغ من شدة غلوّ اليهود في الحرص على الحياة أنّ الواحد منهم يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت أقصى حد لا يبلغه الإنسان في عمره. وإنما خص الأَلْف سَنَةٍ بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة ﴿**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ**﴾ وما ذلك التعمير الطويل لو تم لإنسانٍ مُذنب بمُبعده أو مُنجيه من عذاب ٱللَّه يوم القيامة ﴿**وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ**﴾ وبصير هنا بمعنى عليم، وهذا تهديد ووعيد لهم فهو سبحانه عالم بأعمالهم علم من يبصر ويُدقّق لا تخفى عليه خافية من أمرهم وسيجازيهم ٱللَّه بما يستحقون من عقاب.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن
كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ
بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ
مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

شرح المفردات

جِبريل: ملك من ملائكة ٱللَّه، أمين على تبليغ الوحي بين ٱللَّه ورسله.

مُصَدِّقاً لما بين يديه: مُؤَيِّداً ما تقدّمه من الكتب السماوية.

ميكال: الملك ميكائيل.

بَيِّنات: واضحات.

الفاسِقون: الخارجون عن طاعة ٱللَّه.

نَبَذَهُ فريق منهم: طرحوه جانباً ونقضوه.

عداوة اليهود لجبريل ونبذهم للعهود

ومن قبائح اليهود قولهم في الملك جبريل عليه السلام هو عدوّنا، وأرادوا من هذا القول أنهم لا يؤمنون بوحي من ٱللَّه يأتي به عدوهم، وبالتالي يكون لهم في نظرهم عذر برفض نبوة محمد الذي يتلقى الوحي من ربه بواسطة جبريل عليه السلام.

وقد روي أن اليهود قالوا للنبي محمد ﷺ: إنه ليس نَبِيٌّ من الأنبياء إلاّ يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي، فمَن صاحبُك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة لتابعناك على دينك فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ الضمير في ﴿**نـزَّله**﴾ عائد على القرآن، ويكون المعنى: قل يا محمد من كان عدواً لجبريل فلا وجه لعداوته ولا سبب لذلك لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل بأمر ٱللَّه الذي تجب طاعته ﴿**مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ وهذا القرآن مؤيد لما سبقه من الكتب السماوية ومنها كتاب التوراة، وتأييد القرآن لها موافقته لما جاء فيها من وحدانية ٱللَّه وأُصول الدين الصحيح والأخلاق الكريمة وإذا وجد ما يُنافي هذه الأمور فإن سببه ما دخل عليها من تبديل وتحريف وتأويلات باطلة ﴿**وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي إن القرآن بالإضافة إلى ما سبق هو مرشد إلى سُبُل الخير والسعادة كما أنه يُبشّر المؤمنين بالجنة في الآخرة.

﴿**مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ هذا إعلامٌ من ٱللَّه بأن من كان عدوًّا لله بمخالفة أمره عناداً والخروج عن طاعته مكابرة وعدوًّا لملائكة ٱللَّه بإنكار فضلهم ومنزلتهم عند ٱللَّه، وعدوًّا لرسل ٱللَّه بتكذيبهم وعدم اتباع ما جاءوا به من الهُدى، وعدوًّا للملكين جبريل وميكائيل خاصة، وإنما خصّهما ٱللَّه بالذّكر مع اندراجهما تحت عموم الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾ أي إنّ عداوة كل من ذكرته الآية هو كفر، ومن عاداهم عاداه ٱللَّه وعاقبه أشد العقاب على كفره.

فٱللَّه سبحانه يريد أن يُبيّن أن اليهود أعداء الحق وأعداء كل من يمثله الحق ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون

أنهم يحبونه، ومعاداتهم للرسول محمد كمعاداتهم سائر رسل ٱللَّه لأن وظيفتهم واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ أي ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات القرآن واضحات الدلالة على كونها من عند ٱللَّه لإعجازها البشر بفصاحتها وبلاغتها، وما تشتمل عليه من العقائد والأحكام الشرعية ومبادئ الأخلاق الكريمة، والعبادات التي تسمو بالروح، فرسول ٱللَّه محمد الذي أتى بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى، وهذا يشهد بمصدره الإلَهيّ **﴿وَمَا يَكْفُرُ بِها إلاّ الفَاسِقُونَ﴾** أي ولا يكفر بهذه الآيات القرآنية البيّنات إلاّ الفاسقون وهم المتمردون في الكفر والمعصية الخارجون عن حدود ٱللَّه وطاعته.

ومن عادة أُولئك اليهود أنهم كانوا ينقضون العهود ولا يقومون بالوفاء بها:

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ والاستفهام في **﴿أَوَكُلَّما﴾** للإنكار والتوبيخ ولفظ (كُلَّما) لإفادة تكرارهم لنقض العهود.

ونبذ العهد: نقضه وترك العمل به، وإسناد النبذ إلى فريق منهم يؤذن بأن منهم فريقاً لم ينبذه، واليهود يُعاهدون اليوم وينقضون غداً، وكم عاهدوا النبي محمداً مراراً ولم يفوا بما عاهدوه عليه كما فعل يهود بني قريظة ويهود بني النضير مع النبي ﷺ.

واليوم بعد خمسة عشر قرناً يظهر مصداق ما أعلنه القرآن من نقضهم للعهود بأوضح ما يكون، فعشرات المعاهدات التي أُبرمت بين العرب واليهود في فلسطين نقضها اليهود الواحدة تلو الأخرى، وهذا يدلّ على أنهم قوم لا عهد لهم **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** بل أكثر اليهود لا يؤمنون بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الضمير في جاءهم عائد على اليهود والرسول المقصود هنا هو محمد ﷺ. ووصفه بأنه جاء من عند ٱللَّه تعظيم له والمعنى: ولمّا جاء اليهود رسول عظيم من عند ٱللَّه وهو الرسول محمد ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مصدق لما اشتملت عليه التوراة التي وردت فيها المبشرات بمجيء نبيّ من العرب تنطبق صفاته على الصفات التي وردت في التوراة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ كتاب ٱللَّه المراد به التوراة. والمعنى: طرح جانباً فريق من اليهود ما جاء في كتاب التوراة من المبشرات التي تنطبق على النبي محمد ﷺ رافضين لها ومستخفّين بها ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي متجاهلين ما ورد في التوراة من هذه المبشرات ومن الدعوة إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ واتّباعه. فاليهود كانوا يعلمون حقيقة نبوة محمد ولكنهم أفسدوا علمهم وجحدوا ما بين أيديهم من الحق وكفروا بنبوة محمد حسداً أن تكون النبوة في غيرهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ
وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى
ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ
إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ
ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا
لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ
كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ
ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣﴾.

شرح المفردات

تَتْلُوا: تُحَدِّثُ وتروي.

بابِلَ: بلدة قديمة كانت بالعراق يُنسب إليها السِّحْر.

فِـتْـنة: اختبار وابتلاء.

اشتراه: ابتاعه.

خَلاق: نَصِيب من الخير.

شَرَوْا به أنفسهم: باعوا به أنفسهم.

لَمَثُوبَةٌ: لأَجْر وثواب.

تعاطي اليهود للسحر

من سلوك اليهود المشين نشرهم الفساد في الأرض عن طريق السحر الذي نسبوه إلى النبي سليمان من أجل أن يمنحوه جواً من القبول والتعاطي به. قال ٱللَّه تعالى في شأنهم:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِيْنُ عَلى مُلْكِ سُلَيمانَ﴾ تتلوا: تحدث وتخبر، وقيل: تفتري، والشياطين: تشمل شياطين الجن والإنس، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، والمعنى: إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب التوراة وراء ظهورهم واتبعوا ما كانت تخبره وتحدثه شياطين الإنس على عهد ملك سليمان وفي زمانه من الأكاذيب، ومن ذلك زعمهم أن ملك سليمان قام على أساس السحر، وأنه ارتدّ في أواخر حياته عن دين ٱللَّه وعَبَدَ الأصنام إرضاء لنسائه الوثنيات **﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيمانُ وَلٰكِنَّ الشَّياطِينَ كَفرُوا﴾** رد ٱللَّه كلام اليهود وكذبهم، ونزّه النبي سليمان عن افتراءاتهم وأبْعده عن عمل السحر الذي يتعاطاه أُولئك الشياطين من الإنس وينسبونه إليه معلناً أن السحر نوع من الكفر.

وقد روي أن شياطين الإنس في عهد سليمان دَوَّنُوا كُتباً فيها سحر عظيم ثم أذاعوها بين الناس، ثم توارث يهود المدينة المنورة هذه الكتب عن آبائهم وكانوا يشتغلون بما فيها قبل مبعث النبي محمد، ولما بُعث رفضوا كتاب ٱللَّه الذي جاء به وفَضَّلوا عليه الاستمرار في مزاولةِ السحر الذي يحرمه مع أن الديانة اليهودية قامت على إبطال السحر الذي جاء به سحرة فرعون وقررت أن الساحر لا يفلح حيث أتى.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين تلقوا علم السحر يعلّمونه للناس **﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾** وما: بمعنى الذي، والملكين: قرئ بفتح اللام وكسرها، فمن قرأها بالكسر جعلهما من غير الملائكة[1]، قيل إنهما كانا رجلين وسُمّيا ملكين مع أنهما من البَشَر لصلاحهما وتقواهما واسمهما هاروت وماروت. وليس معنى الإنزال عليهما أنه وحي من

---

(١) الملِك: بكسر اللام تطلق على البشر، أما بفتح اللام فتطلق على الملائكة.

ٱللَّه فإن كلمة ﴿أُنْزِلَ﴾ تستعمل في القرآن في مواضع لا صلة بينها وبين وحي ٱللَّه كما جاء في القرآن ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٦] والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين بالملائكة إلْقاؤه في قلبيهما وتعليمهما إياه.

أما على قراءة ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام فقد قيل إنهما كانا مَلَكَيْن نزلا من السماء وهاروت وماروت اسمان لهما. والسبب في إنزال هذيْن الملكين أن السحرة كثروا في ذلك الزمان واستنبطوا أبواباً غريبة في السحر وكانوا يدّعون النبوة ويتحدّون الناس بها، فبعث ٱللَّه هذين الملكين لأجل أن يُعلّما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أُولئك الذين يدّعون النبوة كذباً وليتمكنوا من التفريق بين معجزات الأنبياء والسحر.

وفسرت ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ بمعنى النفي أي لم ينزل ٱللَّه على الملكين السحر ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل، فيكون معنياً بـ ﴿المَلَكَيْنِ﴾ جبريل وميكائيل لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن ٱللَّه أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فكذّبهما ٱللَّه بذلك وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرّأ سليمان مما اتّهموه به من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشيطان، وأن اللذين يعلّمانهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت.

وبابل كانت مدينة بالعراق يسكنها الصابئون الذين يعبدون الكواكب وكان منهم أُناس يُزاولون السحر ويَدْعُون الناس إلى الكفر وتقديس الكواكب والشياطين ويسيطرون عليهم بالسحر ليحملوهم على عبادتها.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ أي إن الملكين هاروت وماروت لا يعلِّمَان أحداً من الناس السحر إلا وينصحانه

بقولهما: إن ما نُعلِّمُكَ إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار ليتميز المطيع لله من العاصي، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين، فتعليم هاروت وماروت للسحر هو تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه وتعليم لطريق الوقاية منه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي إن بعض متعلمي السحر قد استعملوه في إزالة الأُلْفة بين الزوجَيْن، وإحداث العداوة بينهما فيحصل الفِراق بينهما، وفي إسناد تفريق الزوجين إلى السحرة وجعل السحر سبباً لذلك بيان لمدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالأُسرة والمجتمع.

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وبالرغم من أن السحر له تأثير في الإضرار بالناس، فإن ٱللَّه سبحانه يُخبرنا أن السحرة لا يستطيعون أن يحدثوا بسحرهم ضرراً إلاّ بإرادته وعلمه وقضائه **﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾** ويتعلم الناس من السحر الذي يضرهم في دينهم ولا ينفعهم في آخرتهم لأنهم يقصدون بتعلمه الشر والإضرار بالناس.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ الخلاق: النصيب، أي ولقد علم هؤلاء اليهود الذين اختاروا السحر واستبدلوه بكتاب ٱللَّه، أن من يفعل ذلك ليس له حظّ من الجنة في الآخرة لأنه ليس له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يُثاب عليه **﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** شروا[١]: باعوا، وبيع الأنفس مراد به بيع حظوظها من نعيم الجنّة في الآخرة مقابل العمل بالسحر الذي يضرهم ولا ينفعهم، ولو كان عندهم علم وعقل لامتنعوا عن العمل الذي يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

(١) الاشتراء: من الأضداد يُستعمل في كلٍّ من البيع والشراء.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود الذين يعملون بالسحر ويؤثرونه على ما أنزل ٱللَّه من الهدى، لو أنهم صدّقوا بنبوة محمد واتبعوه، وصدّقوا بالقرآن الذي فيه هدايتهم، واتقوا ٱللَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لكان لهم ثواب وأجر خير لهم من السحر **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** أي مبلغَ ثواب ٱللَّه وقدر جزائه على طاعته.

ذهب جمهور العلماء إلى أن السحر ثابت وله حقيقة فمن ذلك ما جاء في القرآن من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لما أمكن تعليمه ولا أخبر ٱللَّه أنهم كانوا يعلمونه للناس، فهو علم مكتسب تمارسه بعض النفوس الدنيئة إما بالخداع وتخييل الشيء على غير حقيقته، وقد يكون رُقية وكلاماً يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، وقد يكون أدوية أو أدخنة أو أطعمة للإضرار بالناس، وهذا الإضرار لا يتحقق إلا بالاستعانة بالشيطان والتقرب إليه بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك أو عملاً كعبادة الكواكب.

والسحر يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله فمنه ما يُمرض وما يؤثر في الرجل فيمنعه من وطء امرأته، ومنه ما يفرق بين الزوجين أو يلقي البغضاء بينهما.

ذهب الإمام مالك إلى أن المسلم إذا سَحَر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يستتاب وهو قول الإمام أحمد والشافعي وجملة من الصحابة، والمشهور عن أبي حنيفة أن الساحر يُقتل مطلقاً إذا عُلِمَ أنه ساحر.

الوقاية من السحر والشرور

إن أهم ما يُتقى به خطر السحر وأنفعه هو التحصُّن بآيات القرآن الكريم والأدعية المأثورة عن النبي محمد ﷺ:

من ذلك قراءة آية الكرسي، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله لأبي هريرة: «إذا أويت إلى فِراشِكَ فاقْرَأ آية الكرسيّ لن يزال عَلَيْكَ مِنَ ٱللَّه حَافظ ولا يقربكَ الشَّيْطان حتى تُصْبِحَ»[١].

ومن ذلك قراءة المعوذتين: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**. .﴾ إلى آخر السورة و﴿**قل أعوذ برب الناس**. .﴾ إلى آخر السورة. وقد رُوي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «كان النبي ﷺ يتعوَّذ[٢] من الجِنّ وعيْنِ الإنسان حتى نزلت المعوّذتان، فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما»[٣]. يقول ابن القيّم: إن المعوّذتين من السور العظيمة النفع والتي تشتد الحاجة بل الضرورة إليهما، وإنه لا يَسْتَغني عَنْهُما أحد قطّ، وإن لهما تأثيراً في دفع السحر.

ومن ذلك قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُون**. .﴾ إلى آخر السورة، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ قَرَأَ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٤] أي كفتاه من كل سوء.

وقراءة سورة الفاتحة مِمَّا يتحصن به من الشيطان ومن كل شرّ.

ومما يُتقى به السحر الاستعاذة بٱللَّه من كل شر، وقد ورد عن النبي ﷺ ما كان يستعيذ به، وما كان يدعو به ربَّه، من ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال:

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) يتعوذ: عاذ، أي لاَذَ به ولجأ إليه.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) متفق عليه.

«كان النبي ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْن يقول: «أُعيذكما بكَلِمَات اللَّهِ التَّامة مِنْ كل شيطان وَهَامة[١] ومن كل عَيْن لامّة[٢]»[٣].

وعن عائشة أُم المؤمنين: «أن النبي ﷺ كان يُعَوِّذُ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللَّهم رب الناس أَذهِب البأس[٤] واشْفِ أَنْتَ الشَّافي لا شفاء إلا شفاؤك شِفاءً لا يُغادِرُ سقماً»[٥].

ومن الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ: «بسم ٱللَّه الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»[٦].

وكذلك وردت عن النبي ﷺ هذه الصيغة: «أعوذُ بكلمات ٱللَّه التَّامَّات من شر ما خلق»[٧].

التنجـيم

وهناك نوع من السحر يمكن تسميته بعلم التنجيم ويعتمد على مجموعة من الأبراج والكواكب، فلكل برج وضعه الخاص من تدبير الحوادث على الأرض، وقد نهى رسول ٱللَّه عنه فقال: «من اقْتَبَس عِلْماً من النجوم اقتبس شعبةً من السِّحر زاد ما زاد»[٨] وهذا العلم الذي عدّه رسول ٱللَّه ﷺ من السحر هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

---

(١) الهامة: ما لها سم كالحية والحشرات.
(٢) عين لامة: العين التي تصيب ما نظرت إليه بسوء.
(٣) أخرجه البخاري وأبو داود.
(٤) البأس: الشِدَّة، العذاب.
(٥) أخرجه مسلم.
(٦) أخرجه الترمذي وأبو داود.
(٧) أخرجه مسلم.
(٨) أخرجه أبو داود.

وعلم النجوم المنهي عنه هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان التي يمكن معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها. كما يدّعي أهل التنجيم أن للأبراج روحانيات تؤثر في الحوادث، وجعلوا لها أسماء وقالوا: إن المولود الذي تصادف ولادته برجاً من الأبراج فإن حياته وما فيها من سعادة أو تعاسة تُقرّر بناء على تأثير ذلك البرج في حياة المولود، وقد أطلقوا على هذه الأبراج أسماء: كاسم الحمل، والجوزاء، والأسد، والقوس وغيرها.

وجاء في كتاب (الكون) تأليف كولين رونان ما يلي: «وقد سمى الرومان الكواكب، باستثناء الأرض، على أسماء آلهتهم. والواقع أن أكثر الشعوب القديمة اعتقدت أن الكواكب آلهة لها تأثير في حياة البشر. وخلال مئات السنين كان الناس يعتقدون أن الحظ في الحياة متوقف على موقع الكواكب في المجموعة النجمية عند مولد الشخص، ودراسة النجوم ومدى تأثيرها على مصير الفرد يدعى «التنجيم». . يقوم المُنَجِّمُ بمعرفة مولد الشخص بالضبط ثم يستخرج مواقع الكواكب والنجوم في تلك اللحظة ويستنتج بالتالي مستقبل ذلك الشخص. . ولا يزال هنالك إلى الآن بعض الناس الذين يعتقدون أن الحظوظ يمكن أن تعرف من النجوم. . **ولكن الذين درسوا علم الفلك الحديث يعرفون أنه لا صحة للتنجيم على الإطلاق**»[(١)]، يقول ابن تيميه: «واعتقاد المعتقد أنَّ نجماً من النجوم السبعة هو المتولي لسعده ونحسه اعتقاد فاسد، وإن المعتقد أنه هو المدبر فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كُفراً وشِركاً محضاً. . »[(٢)].

(١) الموسوعة العلمية الحديثة ـ الدار الأهلية للنشر والتوزيع.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ـ ج ٣٥ ـ ص ١٧٧.

ويقول الفخر الرازي في تفسيره للقرآن: «لا نزاع بين الأمة في أن المعتقِد أنَّ الكواكب هي المدبّرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر».

ولقد كثر المنجمون في العصر الحاضر وبتعبير آخر (المُشَعْوِذُون) وأَلَّفوا الكتب في التنجيم مستغلّين سذاجة الناس ممن يغلب عليهم الجهل، ومن العجب أن أي كتاب في التنجيم له من الرواج والمبيعات عشرة أضعاف أي كتاب أدبي!

ولقد حذّر الرسول محمد ﷺ من هؤلاء المنجمين الذين يَدَّعون علم الغيب وأنذر الذين يُصدّقونهم بقوله:

«من أتى عَرَّافاً[١] فسأله عن شيء فصدَّقه لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[٢].

ويقول الرسول محمد ﷺ أيضاً: «من أتى كاهناً[٣] أو عرّافاً فَصَدَّقَهُ بما يقول فقد كَفَرَ بما أُنزل على محمدٍ»[٤].

---

(١) عَرّافاً: العرّاف هو المنجم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الكاهن عند العرب: هو من يتعاطى التنجيم وعلم الغيب والإخبار عما سيقع.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ
وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾
۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ
ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

شرح المفردات

راعِنا: الْتَفِتْ إلَيْنا وأَقْبِل علينا.

انْظُرْنا: انظُرْ إلينا وأَقْبِلْ علينا.

ما يَوَدُّ: لا يتمنى ولا يحب.

ننسخ من آية: نُبْطِل حكمها ونزيله.

نُنْسِها: نتركها ونُؤَخِّرها عن النسخ إلى وقت معلوم.

وليّ: من يلي أمرك ويحفظك.

سواء السبيل: طريق الحق المستوي المستقيم.

مُراعاة الأدب مع رسول الله ﷺ

ثم يُوجّه القرآن المؤمنين بأن يتخيروا من الكلمات أحسنها، ومن المعاني أرقاها في مخاطبة رسول اللّه ﷺ، وأن يجتنبوا الكلمات التي يحمل معناها

الأذى لمقامه الكريم، قال ٱللَّه تعالى ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا﴾ خاطب ٱللَّه أتْباع محمد بقوله ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليذكّرهم بهذا النداء بأن الإيمان يقتضي منهم أن يتلقوا أوامر ٱللَّه بحسن القبول والطاعة. ومن هذه الأوامر ما نهاهم عنه ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنا﴾ وكان المسلمون إذا ألْقى عليهم رسول ٱللَّه شيئاً من العلم يقولون: راعِنا يا رسول ٱللَّه، أي راقبنا وتأنَّ بنا حتى نفهم كلامك، فنهاهم ٱللَّه عن التَّفَوُّهِ بهذه اللفظة لما تحتمل من إساءة للنبي عن طريق اليهود.

وكانت لليهود كلمة عبرانية يتسابُّونَ بها فيما بينهم وهي: «راعينا» ومعناها عندهم: اسمع لا سمعت، فلما سمع اليهود بقول المؤمنين لرسول ٱللَّه ﴿رَاعِنا﴾ اتخذوا من هذه اللفظة ذريعةً لإهانةِ رسول ٱللَّه فجعلوا يخاطبونه بها، وقالوا كنا نَسُبّه سِرًّا فالآن نَسُبّه جهراً. وكلمة ﴿رَاعِنا﴾ قد يريدون بها معنى اسم الفاعل من الرعونة التي هي الحمق، فنهى ٱللَّه المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة ﴿راعِنا﴾ وأمَرهم أن يقولوا بدَلاً منها ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي انتظرنا وأمهل علينا يا رسول ٱللَّه حتى نفهم عنك ونتلقى منك ما تقوله ﴿واسْمَعُوا﴾ أي واسمعوا أيها المؤمنون سماع قبول وامتثال ما يأمركم به رسول ٱللَّه وما ينهاكم عنه بآذانٍ واعيةٍ وأذهانٍ حاضرةٍ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللكافرين من هؤلاء اليهود عذاب موجع في الآخرة.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون بٱللَّه من عبدَة الأوثان العرب ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أن يُنزّل عليكم أيها المؤمنون شيء من الخير من عند ربكم بغضاً فيكم وحسداً لكم، وأعظم خير ينزله ٱللَّه على المؤمنين هو القرآن الكريم لأنه الهداية العظمى إلى الصراط المستقيم ﴿وَٱللَّهُ

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ والاختصاص بالشيء الانفراد به، والرحمة: تشمل النُّبُوّة والقرآن والنصر، وهذا كله مما لا يحب الكافرون أن يخص ٱللَّه به المؤمنين ﴿**وَٱللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾ والفضل: هو الخير، أي وإيتاء النبوة لمن يشاء ٱللَّه من عباده هو الفضل العظيم على من خصَّه ٱللَّه به.

النسخ في القرآن

ثم يردُّ القرآن على بعض ما قاله اليهود عند تحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة: إن محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، وإن القرآن من عنده لا من كلام ٱللَّه، فنزل الوحي الإلَهيّ مبيناً أنَّ النسخ من عنده تعالى لا من عند رسوله محمد ﷺ.

﴿**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها**﴾ النسخ في اللغة: الإزالة والنقل، والمراد بالآية هنا: الجملة القرآنية التي تحتوي على حكم شرعي. ومعنى ننسها: نتركها لا نُبَدِّلها ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ أي نأتِ بما هو خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. والمراد بنسخ الآية رَفْع حكمها مع بقاء تلاوتها، وتارةً برفع تلاوتها مع بقاء حكمها، أو رفعهما معاً، وقد يكون النسخ بإبدال آيةٍ مكان آية. فما نُسِخَ بحكمٍ أخفّ فهو في العمل أيْسر، وما نُسِخَ بالأَشدّ فهو في الثواب أكثر.

والحكمة في نسخ بعض الأحكام وإبدالها بأحكام أخرى هي اليُسْرُ بالناس ومراعاة مصلحتهم، مثالٌ على ذلك الطبيب الذي يُغَيِّر الأغذية والأَدْوية تبعاً لاختلاف صحة المريض، فكذلك الأحكام الشرعية قد يتغير بعضها حسب أحوال الأُمم والجماعات، والقرآن نسخ جميع الشرائع الإلَهية السابقة كالتوراةِ والإنجيل بأحكامٍ جديدةٍ تناسب جميع الأُمم وتصلح لكل زمان ومكان.

﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي محمد ﷺ وهو موجه بمعناه إلى أُمّته، والمعنى: قد علمت أيها المخاطب أن ٱللَّه قادر على أن يَفْعَلَ ما يشاء، ومن جملة ذلك أن ٱللَّه قادر على أن ينسخ ما يشاء من الأحْكام وعلى الإتْيان بما هو أنفع للناس منها.

﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ**﴾ الاستفهام أيضاً للتقرير، أي قد علمت أيها المخاطب أن ٱللَّه له التصرف في السماوات والأرض بالإيجاد والاختراع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من الأحكام التي شرعها لعباده ﴿**وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ وما لكم أيها المؤمنون من مالك يتولى أموركم غير ٱللَّه، ولا نصير لكم سواه يعينكم على أعدائكم، ومن كان ٱللَّه وليّه ونصيره كفاه ٱللَّه من كل شر.

﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ**﴾ استفهام للإنكار أي أتُريدون أيها المسلمون أن تسألوا رسول ٱللَّه محمداً وتقترحوا عليه أسئلة تتنافى مع الإيمان الحق كما سُئِلَ موسى قبلكم من قومه حيث قالوا له ﴿**أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً**﴾ [النساء: ١٥٣] وقالوا له ﴿**ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ**﴾ [الأعراف: ١٣٨] وهذا ردّ على ما قاله بعض المرتابين بنبوة محمد ﷺ حيث قالوا له:

ائْتِنا بكتابٍ غير هذا ينزل عليك من السماء نقرؤه، وفجِّرْ لنا أنهاراً فعندها نَتَّبِعك ونُصَدِّقك ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بِالإيمانِ**﴾ ومن يستبدل الكفر بدل الإيمان ﴿**فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ**﴾ أي فقد حادَ وعدَلَ من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحقّ والهدى. وسواء السبيل: وسط الطريق الذي هو بين الغلوّ والتقصير.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ
إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم
مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾
وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ
أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ
مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ
وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

شرح المفردات

وَدَّ: تمنى وأحبّ.

حتى يأتي ٱللّه بأمره: حتى يأتي أمر ٱللّه بالإذن في قتالهم.

هُوداً: أي يهوداً.

بُرهانكم: دليلكم.

أسلم وجهه لله: أخلص عبادته لله وخضع له بالطاعة.

حسد اليهود للمسلمين وأمانيهم الباطلة

ويتابع القرآن فيذكر بعض نِيّات اليهود السيئة نحو المسلمين وهي تمنيهم ارتدادهم عن دينهم الحق، قال ٱللّه تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً﴾ وَدَّ: تمنى وأَحَبَّ، وأهل الكتاب المراد بهم هنا اليهود، والمعنى: تمنى كثير من اليهود أن يُرجعوكم أيها المسلمون من بعد إيمانكم ودخولكم في الإسلام إلى ما كُنتم عليه من الكُفر قبل إسلامكم. وفي قوله سبحانه **﴿مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ﴾** بيانٌ لقبح سلوك اليهود لأنهم أهل كتاب إلَهي، فكيف يرتضون لغيرهم الكفر بدل الإيمان، علماً بأن دينهم يذمّ الكفر ويدعو إلى الإيمان، والمؤمنون العرب كانوا من قبل أن يؤمنوا بوحدانية ٱللَّه وبنبوة محمد ﷺ كانوا يعبدون الأصنام، كما أن ما يتمناه اليهود من رجوع المؤمنين العرب عن دينهم متعذر الحصول، لأن الإيمان بٱللَّه متى استحوذ على القلوب منع صاحبه من الكفر.

وتمني اليهود للمؤمنين العرب بالرجوع عن دينهم سببه الحسد كما صرحت الآية **﴿حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾** أي إن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك، بل إن الحسد رسخ في قلوبهم مع علمهم بنهي ٱللَّه عنه، والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير، ودلّ هذا الحسد على أنهم يُوقنون بصحة دين الإسلام، لأن الإنسان لا يحسد إنساناً آخر على دينه إلاّ لأنه يعرف في نفسه صحة هذا الدين، وأنه سبيل السعادة والنجاح، فلو كان الإسلام ديناً باطلاً فكيف يحسدونهم عليه؟ **﴿مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾** أي من بعد ما اتضح لهم الحق الذي أنتم عليه ـ أيها المسلمون ـ وذلك استناداً إلى ما جاء في كتب اليهود الإلَهيّة من البشارات على مجيء نبيّ من العرب تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات التي أيّده ٱللَّه بها **﴿فَاعْفُوا واصْفَحُوا﴾** أي فتجاوزوا أيها المسلمون عما كان من اليهود من عداوة وحسد لكم، والعفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح: ترك التأنيب عليه **﴿حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾** حتى يأذن ٱللَّه لكم بالقتال للذين يُناصبونكم العداء ويضمرون لكم الشرّ، وذلك عندما

يصبح لكم قوة تتمكنون بها من قهر عدوكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن كل شيء في الوجود داخل تحت سلطان ٱللَّه وقدرته التي لا تقهر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ﴾ أي أدُّوا الصلاة كاملةً مع الخشوع لله سبحانه وأعْطوا زكاة أموالكم للفقراء والمحتاجين بما يسدّ به عوزهم.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة مُرَغِّبَة في فعل الخير الذي يتناول أعمال البرّ كلها وقال سبحانه: ﴿لِأَنْفُسِكُم﴾ تنبيهاً على أن ما يُقدّمونه من خير إنما هو لمصلحة أنفسهم. والذي يجدونه عند ٱللَّه هو ثواب ما يقدمونه من العمل الصالح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فٱللَّه يخبر المؤمنين بأنه بصير بجميع أعمالهم ليحرصوا على طاعته وليحذروا معصيته.

ثم يُبين القرآن نوعاً آخر من أباطيل أهل الكتاب:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصارى﴾ في هذا الكلام حذْف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهودياً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، ولكن الآية أدت هذا المعنى وسلكت طريق الإيجاز فعبرت عن القولين في جملة واحدة ﴿تِلْكَ أمانِيُّهُمْ﴾ والأماني: جمع أُمنية وهي ما يتمنى، فأُمنية اليهود دخول الجنة وحدهم وأُمنية النّصارى كذلك وأُمنيتهم جميعاً ألاّ يدخلها المسلمون، وما يتمنونه هو أوهام كاذبة لا أساس لها ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: أحْضِروا حُججكم وأدلتكم على اختصاص دخول الجنة بكم وحدكم إن كنتم صادقين فيما تَدَّعُون. ويؤخذ من الآية بُطلان التقليد الأعمى في أُمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ بلى: تأتي جواباً للنفي، فعندما نفى اليهود

والنصارى دخول الجنة عن غيرهم جاء الجواب: بلى، أي كذبتم في قولكم بل يدخل الجنة من أخلص نفسه وذاته لله فآمن به وأطاعه ونَزَّهَهُ عن الولد وخصَّ الوجه بالذكر لأنه أشرف أعضاء الإنسان وموضع العقل والفكر، كما يكنى بالوجه عن ذات الإنسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عامِلٌ للحسَنات تارك للسيئات ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فله ثواب عمله عند ربه بدخول الجنة ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي من أهوال يوم القيامة ولا من عذاب النار ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوا وراءهم من الدنيا من مالٍ ومقتنياتٍ فقد عوَّضهم ٱللَّه بأحسن مما كانوا فيه.

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيسَتِ النَّصارَى عَلى شَيءٍ وَقَالَتِ النَّصارَى لَيسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيءٍ﴾ في هذا النص القرآني يتهم اليهود والنصارى بعضهم بعضاً بالضلال وأنهم ليسوا على شيءٍ صحيحٍ يُعتدُّ به من أُمور الدين.

وقد رُوِيَ أن وفد نجران النصارى لما قدموا على رسول ٱللَّه أتاهم أحْبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيءٍ من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتابَ﴾ يتلون: يقرأون، فاليهود يقرأون التوراة والنصارى يقرأون الإنجيل، أي إنهم أهل العلم بالتوراة والإنجيل، ومن كان تالياً للكتاب السماوي فشأنه أن يعترف بما في كتاب سماوي مثله إذ الكتب السماوية يصدّق بعضها بعضاً بما تشتمل عليه من الحق ﴿كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ والذين لا يعلمون الذين ذكرتهم الآية هم مُشْرِكو العرب، فإنهم كانوا يقولون للمسلمين: لستم على شيء من الدين أي إن دينكم باطل، والهدف الذي ترمي إليه الآية هو أن إنكار اليهود والنصارى لنبوة محمد لا ينبغي أن يُثير شبهة على عدم صحة نبوته والدين الذي جاء

به، فسبيلهم في إنكار الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به وكان الأحْرى بهم أن يؤمنوا به لأنهم أهل علم بكتب ٱللَّه ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ أي فاللَّهُ يقضي ويفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمور الدين فيثيب من كان على حق ويعاقب من كان على باطل.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ
وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟
فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ
عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

شرح المفردات

ومَنْ أَظْلَمُ: استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أكثر ظلماً.

خِزْيٌ: ذُلّ وهوان.

واسع: من أسماء ٱللَّه سبحانه، أي إن إنعامه ورحمته وسعت كل شيء.

قانتون: مُنقادون خاضعون.

بديع: الذي يُحدث الأشياء على غير مثال سابق.

قضى أمراً: إذا أراد شيئاً.
يُوقِنون: اليقين يطلق على العلم الذي انتفت عنه الشكوك.

التحذير من العدوان على معابد الله

وبعد أن بيَّن القرآن موقف اليهود من النصارى وموقف النصارى من اليهود وموقفيهما من الإسلام بيَّن في الآية التالية فداحة الظلم الذي يتمثل في التعرّض لأماكن العبادة بالخراب ومنع الناس من أداء العبادة فيها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَساجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ وَسَعى في خَرابِها﴾

ومن: استفهام يُراد منه النفي، أي لا أحَد أَظْلم، والمساجد: جمع مسجد وهو البناء الخاص لصلاة المسلمين مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيماً له، وكل موضع طاهر من الأرض يمكن أن يُعبد ٱللَّه فيه يسمى مسجداً[١]. ومعنى الآية: لا أحَد أَظْلم ممن يحول دون ذكر ٱللَّه في أماكن العبادة ويسعى في خرابها بإلْقاء القاذورات فيها أو إغلاقها، أو الحيلولة دون دخول العابدين فيها **﴿أُولئِكَ ما كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوها إلاّ خَائِفِينَ﴾** أي أُولئك المانعون المخربون للمساجد[٢] ما كان ينبغي لهم دخولها إلاّ وفي قلوبهم خوف من ٱللَّه، ولكن قست قلوبهم وعملوا على منع الناس من العبادة فيها **﴿لَهُمْ في الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾** أي لهؤلاء المخربين للمساجد في الدنيا هوان وذلة، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم لا يوصف لشدة هوله.

هذه الآية نزلت في كفار قريش لمّا منعوا رسول ٱللَّه والمسلمين أن يدخلوا المسجد الحرام بمكة وأداء العمرة فيه عام الحديبية.

---

(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «جُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً».

(٢) يقول القرطبي: والذين يبنون مسجداً إلى جنب مسجد أو قرية يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه واختلاف الكلمة فإن المسجد الثاني يُنقض ويمنع بنيانه.

وقيل: وردت في شأن الرومانيين الذين غزوا بني إسرائيل وخربوا بيت المقدس، وقيل: إن الآية منبئة بأمر سيقع وهو ما كان من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وتخريبه.

فالآية التي معنا ناطقة بوجوب احترام كل معبد يُذكر فيه اسم ٱللَّه تعالى بالصلاة والتسبيح، وتحريم السعي في خراب المعابد، والحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها بكونهم أظلم الناس، وهذا ما يفعله اليهود في عصرنا الحاضر من محاولة تخريب المسجد الأقصى وإحْداث الحرائق فيه وتدْنيسه من بعض أركان السلطة فيهم، ومنع قسم من فئات المسلمين من الصلاة فيه، بينما الإسلام يدعو إلى احترام كنائس أهل الكتاب وبِيَعِهِم(١) والمحافظة عليها من كل سوء.

ولمّا كانت الآية السابقة قد أفادت أن بعض الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة في مساجد ٱللَّه جاءت الآية التالية تفيد بإباحة الصلاة في أي مكان في الأرض غير المساجد، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس ومكان غروبها ويُراد منهما جميع الأرض. وجه ٱللَّه: أي الجهة التي ارتضاها ٱللَّه وأمر بالتوجه نحوها في الصلاة وهي الكعبة وتسمى القِبلة، والمعنى: إن جميع ما في الأرض مُلْكٌ لله وحده، ففي أيّ مكان من الشرق والغرب استقبلتم جهة الكعبة قبلةً لكم في الصلاة التي أمركم ٱللَّه بالتوجه نحوها **﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾** فهناك موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بطاعته.

---

(١) بِيَعُهُم: جمع بِيعَة وهي مكان العبادة لليهود.

وجاء في تفسير المنار في توضيح ذلك: «إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، ولمّا كان سبحانه مُنَزَّهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه وجعل استقبال ذاك المكان كاستقبال وجهه تعالى» ﴿**إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ أي إن ٱللَّه يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجُود، وهو عليمٌ بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء أينما كانوا.

وفي أسباب نزول هذه الآية ما روي عن بعض الصحابة قولهم: كنا مع رسول ٱللَّه في ليلة مظلمة فلم نَدْرِ أين القبلة! فَصلى كُلُّ رجُل منا على حياله ثم أصبحنا فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فأنزل ٱللَّه ﴿**فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ وَرُوِيَ أن هذه الآية نزلت في قوم عُمِّيت عليهم القِبلة فلم يعرفوا جهتها فَصَلُّوا على أنحاء مختلفة، فقال ٱللَّه عز وجل لهم: لي المشارق والمغارب فأنّى ولّيتم وجوهكم فهنالك وجهي وهو قبلتكم، مُخبرهم بذلك أن صلاتهم صحيحة ﴿**إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ وهو سبحانه واسع إنعامه ورحمته لا يضيّق على عباده، وهو عليم بنية من يتجه إليه بالعبادة.

﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً**﴾ والذين قالوا اتخذ ٱللَّهُ ولَداً هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد ذكر ٱللَّه عن اليهود أنهم قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ ٱللَّهِ، وعن النصارى أنهم قالوا: المَسيحُ ابنُ ٱللَّه، وعن المشركين أنهم قالوا: الملائكة بنات ٱللَّه ﴿**سُبْحانَهُ**﴾ تنزيهاً لله وتبرئةً له مما يَنسبون له من الولَد ﴿**بَلْ لَهُ مَا في السَّمٰواتِ والأَرْضِ**﴾ وٱللَّهُ سبحانه لا يصحّ أن يكون له ولد لأنه مالك السماوات والأرض، وهو سبحانه ليس بحاجةٍ إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يرغب فيه الوالد ليحيى ذكره أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة وٱللَّه تعالى مُنَزَّهٌ عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلاّ بمن كان ضعيفاً كالإنسان. ثم إن الحكمة

من التوالد بقاء النوع الإنساني أو الحيواني، أما ٱللَّه سبحانه فهو الواحد في ذاته وصفاته الباقي على الدوام ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ والقُنوتُ هو الطاعة والخضوع، أي إن كل ما في السماوات والأرض مطيعون لله خاضعون له لا يستعصي شيء منهم على مشيئته، فخضوع الكائنات لربّها واحتياجها إليه ليس له حدود.

﴿بَدِيعُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومُنشئهما على غير مثال سابق ﴿وإذا قَضَى أَمْراً﴾ إذا أراد ٱللَّه خلق شيء وإيجاده ﴿فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ المراد من هذه الكلمة سُرعة نفاذ قُدرة ٱللَّه في تكوين الأشياء بلا فكرة ومعاناة وتجربة، وبلا مهلة، من غير امتناع ولا توقّف.

﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي وقال الجُهَّال من المشركين أو المتجاهلون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون حقيقة التوحيد والنبوة ﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنا ٱللَّهُ﴾ أي هلاّ يُكَلّمنا ٱللَّه بلا واسطة كما يكلم الملائكة ﴿أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ﴾ أو تأتينا معجزة تكون حجة على صدق نُبوتك يا محمد، قالوا ذلك على وجه العناد والاستكبار، وهو جحود منهم من أن تكون آيات القرآن والمعجزات التي أيّده ٱللَّه بها دليلاً على صدق نبوته ﴿كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِم﴾ أي مثل هذا القول من الجحود والمكابرة قاله الذين كفروا من الأُمم السابقة ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تشابهت قلوب قومك يا محمد مع قلوب الذين من قبلهم من الأُمم السابقة في الكفر والعناد والمكابرة ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي بيّن ٱللَّه العلامات التي من أجلها غضب على الأُمم السابقة بسبب كُفرها وعنادها وتكذيبها لرسله للطالبين معرفة حقائق الأشياء عن علم ثابت لا يدخله الشكّ.

ثم خاطب ٱللَّه رسوله محمداً بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحَقِّ بشيراً وَنَذِيراً﴾

أي إنا أرسلناك يا محمد داعياً إلى دين الإسلام وهو الحق، مبشراً من اتبعك فأطاعك بالسعادة في الدنيا، والنعيم الدائم في الآخرة، ومخوِّفاً ومحذراً من عصاك فَخالفك بالخزي في الدنيا والشقاء فيها، والعذاب المهين في الآخرة.

﴿**وَلاَ تُسْأَلُ عَن أَصْحابِ الجَحيم**﴾ ولست مسؤولاً يا محمد عمن كفر بما جئت به من الحق وكان بكفره من أهل الجحيم، والجحيم اسم من أسماء جهنم، وجهنم هي النار التي يُعذّب بها الكفار في الآخرة.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

شرح المفردات

مِلَّتَهم: المِلَّة هي الدِّين.

يتلونه حقّ تلاوته: يقرأونه حق قراءته فلا يُحَرِّفونه.

على العالَمِين: أي العالَمين في زمانهم.

لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً: لا تحمل نفس عن نفس أُخرى شيئاً من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عَدْل: ولا يقبل منها فِداء.

إصرار أهل الكتاب على ضلالهم

كان النبي محمد ﷺ حريصاً على دخول أهل الكتاب من اليهود والنصارى في مِلَّة الإسلام، وكان يسلك معهم كل الأساليب الحسنة لترغيبهم بالإسلام، ولكن دعوته لهم كانت تقابل بالعناد والجحود والأذى له مما كان يدخل الأَسى إلى قلبه، فجاءت الآية التالية تواسي النبي محمداً ﷺ وتبين حقيقة توجهاتهم نحوه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلا النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِـعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ المِلَّةُ: اسم لما شرعه ٱللَّه لعباده في كتبه وعلى أَلْسنة رسله. فقد نفى القرآن رضى اليهود والنصارى عن النبي ﷺ على وجه المبالغة، إذْ علّق رضاهم عنه على أمرٍ مستحيل صدوره، وهو اتباع النبي لملتهم، وهذه حقيقة تُنبئ عما يدور في نفوسهم، فهم لا يرضون عن أحَدٍ حتى يَتَّبِعَ مِلَّتهم ﴿**قُلْ إنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ الهُدَى**﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ هُدى ٱللَّه وهو القرآن الذي أنزله ٱللَّه عليك هو الهُدى الذي يجب اتّباعه.

﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ**﴾ ولئن: مكونة من لام القسم وإن الشَّرْطية. وأهواؤهم: آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة عن شهوات أنفسهم، والمعنى: قسماً لئن اتبعت يا محمد أهواءهم وديانتهم التي دخلها الكثير من التبديل والتغيير بعد الذي جاءك من العلم بحقيقة الإسلام ﴿**ما لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾ أي ليس لك من غير ٱللَّه من يلي أمرك، ولا نصير يدفع عنك عقابه. والخطاب هنا وإن كان للنبي ﷺ إلا أن المُراد به أُمّته فهو تحذيرٌ لها من اتِّباع أهواء أهل الكتاب.

﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾ والكتاب هنا المراد به التوراة والذين أعطاهم التوراة قد يُراد بهم علماء بني إسرائيل كعبد ٱللَّه بن سلام

وأصحابه الذين دخلوا في الإسلام. والتلاوة: الاتباع أي هؤلاء يتبعون كتاب ٱللَّه حق اتباعه فَيُحِلّون حلاله ويُحَرِّمون حرامه، وتأتي التلاوة بمعنى القراءة، أي يقرأون كتاب ٱللَّه كما أنزله سبحانه، لا يُحَرِّفُونَ الكلم عن مواضعه، ولا يفسرون منه شيئاً على غير تأويله ﴿**أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ أي هؤلاء يُصَدِّقون بنبوة محمد لأن في التوراة نعته وصفاته وهي تأمر أهلها بالإيمان به ووجوب طاعته ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ**﴾ أي ومن يجحد نبوة محمد فهم الخاسرون في الآخرة إذْ يفوتهم ما أعدّ ٱللَّه للمؤمنين من نعيمٍ دائمٍ.

﴿**يا بَنِي إسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ سبق تذكير بني إسرائيل بنعم ٱللَّه عليهم، وإسرائيل هو النبي يعقوب عليه السلام، وهنا كرر ذكر هذه النعم تأكيداً لوجوب شكرها وحَثًّا لهم على طاعة ٱللَّه، ومن هذه النعم نجاة آبائهم من ظلم فرعون وقومه، وإنْزال المَنّ والسَّلْوى وهم تائهون في الصحراء، وتمكينهم من السكن في البلاد التي دخلوها معززين مكرمين بعد أن كانوا أذِّلاّء مستعبدين في مصر ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العَالَمِينَ**﴾ كما أن ٱللَّه فضّلهم على عالم زمانهم حينما اتبعوا رسول ٱللَّه موسى وصدّقوا بالتوراة التي أنزلها ٱللَّه عليه واتبعوا ما فيها من الهدى.

﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً**﴾ واليوم المذكور في الآية هو يوم القيامة، واتقاء يوم القيامة وما فيه من أهْوال يكون بأداء الواجبات التي فرضها ٱللَّه واجتناب المحظورات التي نهى ٱللَّه عن فعلها، وفي هذا اليوم الذي يُحاسب ٱللَّه فيه الناس على أعمالهم لا تحمل فيه نفس غير مذنبة عن نفس مذنبة شيئاً من الجزاء والعقاب ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنها عَدْلٌ**﴾ ولا يقبل من النفس المذنبة فدية للنجاة من عذاب ٱللَّه إذا كانت من أهل الظلم والعدوان في الدنيا ﴿**وَلاَ تَنْفَعُها شَفَاعَةٌ**﴾ وهذه النفس المذنبة لا ينفعها شفاعة من أَحَدٍ ﴿**وَلا هُمْ**

يُنْصَرُونَ﴾ ولا يجدون ناصراً لهم ينصرهم ويدفع عنهم العذاب لأنهم فرّطوا في جنب ٱللَّه ولم يراعوا حقوقه فاستحقُّوا العذاب وبئس المصير.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ
قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ
مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ
أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

شرح المفردات

ابتلى إبراهيمَ ربُّه: اختبر ٱللَّه إبراهيم وامتحنه.

بِكلمات: بأوامر ونواهٍ كلّفه ٱللَّه بها.

فأتمَّهن: أتى بهن على الوجه الأكمل.

إماماً: قُدوة للناس.

عهدي: العهد هنا: الإمامة والنبوة.

البيت: المراد به الكعبة.

مثابة للناس: مرجعاً لهم للعبادة.

مقام إبراهيم: هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة.

وَعهِدْنا: أي أمرنا أمراً مؤكداً.

للطائفين: للذين يطوفون حول الكعبة.

العاكفين: الملازمين للمسجد زمناً ما للعبادة.

أَضطره: ألجئه.

استجابة إبراهيم لأوامر ربه

وبعد أن ذكر ٱللَّه تعالى في الآيات السابقة، نِعَمِهِ على بني إسرائيل وكيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، أتبع الكلام عنهم بذكر فضائل النبي إبراهيم عليه السلام ومنزلته عند ربه، قال تعالى:

﴿**وإِذِ ابْتَلَى إبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ**﴾ الابتلاء: الاختبار والامتحان، أي واذكر يا محمد وقت أن امتحن ٱللَّه نبيه إبراهيم بأوامر دعاه إلى أدائها ونواهٍ دعاه أن لا يقربها وهذه الأوامر والنواهي هي شرائع الإسلام ﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ أي أتى بهن على الوجه الأكمل، وقام بهن أتم قيام، وقد أثنى ٱللَّه على إبراهيم بما جاء في القرآن ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

﴿**قَالَ إنّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً**﴾ أي قال ٱللَّه: إني مُصَيِّرُكَ يا إبراهيم إماماً، وهذا نتيجة لنجاحه في اختبار ٱللَّه له، والإمام: هو القُدوة الذي يؤتمُّ به في أقواله وأفعاله، وإمامة إبراهيم هي النُّبُوَّة فقد كان نبياً يقتدى به في اتباع دين ٱللَّه ومكارم الأخلاق ﴿**قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتي**﴾ هذا القول من إبراهيم عليه السلام يحتمل أن يكون دعاء، أي: واجعل لي يا رب من ذريتي إماماً، ويحتمل أن يكون هذا القول: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتي**﴾ المقصود منه الاستفهام، أي ومن ذريتي ماذا يكون يا رب حالهم، فأجابه ٱللَّه: ﴿**قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ فالعهد هنا مراد به: الإمامة أو النبوة، وفي الآية إيجازٌ بديع: إذِ المُراد إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة أو النبوّة، وقد نال النبوة من ذريته كلٌّ من إسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ويُوسُف وغيرهم، كما تدل الآية صراحة على أن الظالمين من ذرية إبراهيم ليسوا أهلاً لأن يكونوا أئمة يُقتدى بهم، والظلم يعني: كبائر المعاصي، والخروج عن طاعة ٱللَّه والتعدي على حقوق الناس.

وقد استدل بهذه الآية جماعة من العلماء على أن الإمام يجب أن يكون من أهل

العدل والإحسان مع القوة على القيام بذلك، فأما أهل الفُسوق والظلم فليسوا أهلاً للإمامة. ثم انتقل القرآن إلى الكلام عن الكعبة ومزاياها:

﴿وَإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابَةً للنَّاسِ وَأَمْناً﴾ والبيت في الآية: الكعبة، أي واذكروا وقت أن حكمنا وقررنا بأن يصير بيت ٱللَّه الحرام مرجعاً يرجع إليه الزوّار أفواجاً بعد أفواج فلا يقضون منه وطراً، أو موضع ثواب يثابون عليه. وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والإسلام وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه ﴿وَأَمْناً﴾ أي موضع أمن، فالحج إليه يجعل الحاج مطمئناً إلى رحمة ٱللَّه فإنه مُكَفِّرٌ لكثير من الذنوب، ومن لاذ به كان آمناً من ظالميه، فقد كان العرب في الجاهلية يقتتلون ويُغير بعضهم على بعض وأهله آمنون ومن دخله كان آمناً من التشفي والانتقام.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبْراهيمَ مُصَلًّى﴾ مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم حين ارتفعت جدران الكعبة فاحتاج إليه ليتيسر له وضع الحجارة في مكانها ليتم البناء، وكان ولده إسماعيل يساعده فيناوله تلك الحجارة، أي اتخذوا من موضع قيام إبراهيم لبناء الكعبة موضعاً للصلاة، وقد ورد في الحديث الشريف أن رسول ٱللَّه طاف بالبيت سَبْعاً وصلَّى خلف المقام ركعتين، ومنهم من فسر مقام إبراهيم بمواقف الحج كلها.

﴿وَعَهِدْنا إلى إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ﴾ أي أمر ٱللَّه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يُطَهِّرا بيت ٱللَّه الحرام وما حوله من كل ما لا يليق بعبادة ٱللَّه من الأوثان والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جمع طائف وهو الذي يدور حول الشيء، والمراد: المتقربون إلى ٱللَّه بالطواف حول بيت ٱللَّه الحرام ﴿والعَاكِفِينَ﴾ جمع عاكف، والعاكف على الشيء هو المقيم عليه

الملازم له، ومعناه المقيمون في الحرم بقصد العبادة **﴿والرُّكَّعِ السُّجودِ﴾** الرُّكَّع: جمع راكع، والسجود، جمع ساجد، والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها، وإنما عبر عن المصلين بالرُّكَّع والسجود لأن أبرز معاني العبادة والخضوع لله في الصلاة تظهر في الركوع والسجود.

﴿وَإِذْ قَالَ إبْراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَداً آمِناً﴾ أي واذكروا حين دعا إبراهيم رَبَّه قائلاً: ربِّ اجْعَلْ مكة بلداً آمناً، وهذا الدعاء من جوامع الكلم فإن أمن البلاد يستتبع سعادة الحياة الدنيا والرخاء فيها، كما يستتبع الأمن إعمار البلاد وزيادة ثرواتها، فإذا اختل الأمن ذهب كل ذلك وأصابها الخوف والشقاء وهجرة السكان منها **﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ﴾** دعا إبراهيم ربه بأن يجود على أهل مكة بأنواع الثمرات لأن مكة لم يكن فيها زرع ولا ثمر. وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم بقوله: **﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾** إظهاراً لشرف الإيمان وعلوّ مكانته ومراعاة لحسن الأدَب مع ربّه وإيذاناً بأنهم هم المستحقون لهذا الرزق دون من سواهم من الكافرين. فأجاب ٱللَّه إبراهيم **﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾** أي إن ٱللَّه يرزق الكافر أيضاً في الدنيا كما يرزق المؤمن، والمتاع القليل هو متاع الدنيا ووصفه ٱللَّه بالقلة لأنه صائر إلى نفاد وانقطاع، ثم عقب ٱللَّه على ذلك بقوله **﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** أي ثم أدفع ذلك الكافر وأسوقه مرغماً إلى عذاب النار، وبئس المصير الذي ينتهي أمره إليه.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ
أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

شرح المفردات

يرفع إبراهيم القواعد من البيت: القواعد: الأُسُس، جمع قاعدة، ورفعها: البناء عليها. والبيت: هو الكعبة.

وأرِنا مناسكنا: عَلِّمْنا شرائع ديننا وأعمال حَجِّنا.

يُـزَكِّيهم: يُطَهِّرهم من الشرك والمعاصي.

دعاء إبراهيم وإسماعيل

ويُتابع القرآن فيذكر بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة ودعاءهما بأن يتقبل ٱللَّه عملهما هذا مع الدعاء بأن يرسل ٱللَّه إلى العرب رسولاً منهم لهدايتهم:

﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْماعِيلُ**﴾ والقواعد: جمع قاعدة وهي الأساس الذي يُقام عليه البناء، ورفع القواعد هو إعلاء البناء عليها، والبيت هو الكعبة، وقد روي أن أول من بَنى الكعبة آدم عليه السلام ثم اندرست معالمها على طول الزمن وبقي أساسها فأوحى ٱللَّه إلى الملك جبريل أن يُرشد إبراهيم إلى مكانها وأمَرَهُ بالبناء على أساسها، فشرع إبراهيم بالبناء مع ابنه إسماعيل وهما يَدْعُوان ٱللَّه ﴿**رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ أي ربّنا تقبل منا بناء هذا البيت إنك وحدك السميع لأقوالنا، العليم بخفايا قلوبنا، ومن

كان سميع الدعاء عليماً بالنِّيّات الصالحة يتفضل باستجابة الدعاء للمخلصين في طاعته، ومن فوائد هذا الدعاء تعليم المؤمنين الاقتداء بإبراهيم وإسماعيل في القيام بالطاعات الشاقة وهم يضرعون إلى ٱللَّه ويرجون منه قبولها ﴿**رَبَّنا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ وقولهما ﴿**رَبَّنا**﴾ هو دعاء، أي يا ربنا اجعلنا مُستسلمَيْنِ لأمرك خاضِعَيْن لطاعتك مذعنَين لأمرك لا نُشرك بعبادتك أحَداً ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ واجعل يا ربنا من ذريتنا أُمةً مؤمنةً بك، مُطيعةً أوامرك ونواهيك، ومن ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: العرب، ومنهم بعث ٱللَّه رسوله محمداً إلى الناس كافة، ومن ذُرِّية إبراهيم بنو إسرائيل فقد بعث ٱللَّه فيهم أنبياء ورسلاً ﴿**وَأَرِنا مَناسِكَنا**﴾ وأرنا: من رؤية القلب، أو عَلِّمْنا، والمناسك: هي العبادات كلها ومنها معالم الحج، وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي ٱللَّه عنه أنه قال: لمّا فرغ إبراهيمُ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء فبعث ٱللَّه إليه جبريل فعلّمه مناسك الحج ﴿**وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ**﴾ أي وَفِّقْنا يا ربّ للتوبة أو تقبّلها منا، والتوبة من الإنسان النَّدَمُ على ما فعل من ذنب والإقلاع عنه والعَزْم على عدم العود إليه ورد المظالم إلى أهلها، والتّوّاب: من صِيَغِ المبالغة، أي إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده المنيبين إليه، وقبول توبتهم يقتضي عدم مؤاخذتهم بما فعلوه من خطيئات سابقة، واختلف العلماء في معنى طلبهم قبول توبتهم وهم أنبياء معصومون عن الخطايا، فقالت جماعة: طلب التوبة المقصود منه التثبيت والدوام على الطاعة، وقيل إنه ليس أَحَدٌ من خلق ٱللَّه إلا ويمكن أن يكون بينه وبين ٱللَّه من طاعة له يجب أن تكون أحسن مما هي، كما أن في هذا الدعاء تعليماً للناس بأن يدعوا بهذا الدعاء بعد توبتهم.

﴿**رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾ ضمير ﴿**فيهم**﴾ راجع إلى ذريتهما

والمقصود بهم هنا العرب من ذرية إسماعيل، وقد أجاب ٱللّه هذا الدعاء فبعث في ذرية إبراهيم وإسماعيل رسولاً من أنفسهم وهو محمد ﷺ يعرفون نَسَبه وسيرته الفاضلة ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط ٱللّه المستقيم، وقد كان رسول ٱللّه محمد ﷺ يقول عن نفسه: «أنا دَعْوَةُ أبي إبراهيم وبشاره عيسى بي»[1] وبشرى عيسى هي التي ذكرها ٱللّه على لسان عيسى بقوله ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ وتلاوة الشيء قراءته، والآيات هي آيات كتابك الذي تُوحيه إليه، وقد يُراد بالآيات دلائل توحيد ٱللّه وتنزيهه عن النقص، والإيمان بالنبوة والبعث بعد الممات **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ﴾** وقد استجاب ٱللّه دعاءهما فأنزل ٱللّه على رسوله محمد القُرآن الذي عَلَّمه لقومه كما عَلَّمَهُم الحكمة وهي المعرفة بالدين والفهم لشريعة ٱللّه، ومن الحكمة ما كان ينطق به الرسول محمد من المواعظ والإرشادات وهي التي تُعرف بالأحاديث الشريفة التي دوّنت في عدة مجلدات **﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾** أي يُطَهِّرهم من دَنَسِ الشِرْكِ والمعاصي وينميهم بالخير **﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** إنك يا رب القويّ الغالب الذي لا يعجزه شيء، وإنك يا رب الحكيم في أفعالك فلا يدخل في تدبيرك خلل ولا زلل.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ
ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ
لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ
إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ
ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ
﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا
تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

شرح المفردات

يرغب: يزهد وينصرف.

مِلَّةِ إبراهيم: شريعة إبراهيم.

إلاّ من سَفِه نفسه: امتهنها واستخفّ بها، والسَّفَهُ: خِفَّةٌ في العقل.

اصطفيناه: اخترناه للرسالة الإلّهية.

إذ قال له ربه أَسْلِمْ: أي أخلِص لربّك بالعبادة واخضع له بالطاعة.

شُهداء: جمع شهيد بمعنى شاهد أي حاضر.

أُمَّة: جماعة.

خلت: مضت.

وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما

ثم يبين القرآن بأن ملة إبراهيم قامت على توحيد ٱللَّه وإخلاص الطاعة له وأن من ينصرف عنها يكون من جملة الجاهلين بحقائق دين ٱللَّه:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْراهِيمَ﴾ مَنْ: استفهامية قُصِدَ بها الإنكار والتقريع. ورغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا كرهه وانصرفتْ نفسه عنه ﴿إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي لا يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بٱللَّه إلاّ من امتهن نفسه واستخفّ بها. والجملة القرآنية واردة مورد التوبيخ للكافرين الذين أحدثوا الشرك بٱللَّه ونَسَبُوا إلى ٱللَّه الولَد، فهؤلاء بفعلهم هذا يؤكدون على خفة عقولهم وجهلهم وعدم التمييز بين النافع والضار حين أعرضوا عن دين إبراهيم دين التوحيد، ودين الخضوع والاستسلام لله وحده.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ في الدُّنْيا﴾ أي ولقد اختار ٱللَّه إبراهيم في الدنيا في الزمن الذي عاش فيه واختصه من بين سائر الخلق بالرسالة الإلَهية والحكمة وهداية الناس ﴿وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنه في الحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا من جملة عباد ٱللَّه الصالحين الذين أدُّوا الأمانة التي كُلِّفوا بها.

ومن اصطفاه ٱللَّه في الدنيا بالرسالة الإلَهية وكان مشهوداً له في الآخرة بالصلاح والاستقامة كان جديراً بأن تُتَّبع ملته ويُقتدى بهديه، وذلك هو إبراهيم عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي قال ٱللَّه لإبراهيم أخْلِص لي العبادةَ واخضع لي بالطاعة ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِينَ﴾ قال إبراهيم مجيباً ربَّه: خضعت لك بالطاعة وأخلصت لك العبادة فإنك المالك لجميع خلقك ومدبرها دون غيرك ﴿وَوَصَّى بِها إبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصَّى إبراهيمُ بنيه بالإسلام ووصَّى يعقوب بمثل ذلك ﴿يا بَنِيَّ إنَّ ٱللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ هذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب في وصيتهما لأبنائهما بأن ٱللَّه اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه واجتباه لكم ودعاكم إلى الالتزام به ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾

فلا تُفارقوا هذا الدين واثبتوا عليه في حياتكم حتى يدرككم الموت وأنتم متلبسونَ بالإسلام.

﴿أَمْ[١] كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ جاءت هذه الآية للإنكار على أهل الكتاب افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على ما هم عليه من التدين، فردّ ٱللَّه عليهم بقوله: بل لم تكونوا حاضرين وقت أنِ احتُضر يعقوب وأشرف على الموت وأوْصى بنيه باتباع ملة إبراهيم **﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾** إذ قال لهم: أي شيء تعبدون من بعد وفاتي؟ فأجاب أبناء يعقوب أباهم: **﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهكَ وَإِلَٰهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسْحاق إِلَٰهاً وَاحِداً﴾** أي قالوا: نعبد معبودك الذي تعبده وهو ٱللَّه معبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق حال كونه إلَٰهاً واحداً نخلص له العبادة فلا نشرك به شيئاً **﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** ونحن خاضعون له بالعبودية والطاعة.

والملفت للنظر أن الآية جعلت إسماعيل بمنزله الأب ليعقوب مع أنه عمه، والعرب تجعل الأعمام بمنزلة الآباء فلذلك دخل إسماعيل في جملة الآباء تجوّزاً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك: إشارة إلى إبراهيم وأبنائه الأنبياء، والأُمَّة: الجماعة يجمعهم أمر واحد من نحو الدين أو الموطن أو اللغة، ومعنى خلت: مضت وانقرضت **﴿لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾** والكسب: التحصيل والعمل لما فيه نفع. والمعنى: تلك أُمَّةٌ مضت لها جزاء ما كسبت من عمل ولكم جزاء ما كسبتم. والآية ترمي إلى تحذير المخاطبين من أن يتركوا طاعة ٱللَّه اتكالاً على انتسابهم للآباء ولو كانوا أنبياء **﴿وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانوا**

---

(١) أم: المنقطعة تتضمن معنى: بل، وجاءت بصيغة الاستفهام لتفيد الإنكار والتوبيخ.

يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا تُسألون أنتم أيها المخاطبون يوم القيامة عما كان يعمل أسلافكم في الدنيا من عمل صالح أو سيىء، فلا تنفعكم أعمالهم الصالحة وأنتم على نقيضها ولا تُؤاخذون بسيئاتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ
(١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ
أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾.

شرح المفردات

هُوداً: يهوداً.
حنيفاً: مائلاً عن الضلال إلى الحق، والمخلص دينه لله وحده.
الأسْباط: جمع سبط وهو ولد الولد، وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً أطلق على ذرية كل واحد منهم سبط.

في شِقاق: خلاف أو معاداة.

فسيكفيكهم ٱللَّه: فسيكفيك ٱللَّه يا محمد أمرهم ويقيك شرّهم.

صبغة ٱللَّه: دين ٱللَّه.

أتُحاجُونَنا: أتجادلوننا وتخاصمونا في ٱللَّه.

خلت: مضت.

الإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع رسل الله

ويُتابع القرآن فيذكر ادعاءات اليهود والنصارى بأنهم وحدهم الذين يتبعون الحق وأن غيرهم على ضلال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارَى تَهْتَدُوا﴾ فهذا النص القرآني يبين أن كُلاًّ من اليهود والنصارى يدعو المسلمين إلى اتباع دينهم. فاليهود قالوا للمسلمين: اتبعوا دين اليهود تهتدوا، والنّصارى قالوا للمسلمين كُونوا نصارى تهتدوا أي تُصيبوا طريق الحق **﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنِيفاً﴾** قل يا محمد لهؤلاء: بل نتبع دين إبراهيم حنيفاً أي مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق. وقيل: الحَنْفُ الاستقامة، فَسُمِّيَ دِينُ إبراهيم حنيفاً لاستقامته **﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾** تنبيهٌ إلى أن اليهود والنصارى أشركوا، لأن بعض اليهود قالوا: عُزَيْرٌ ابن ٱللَّه، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ ٱللَّه وذلك إشراكٌ باللهِ.

وبعد أن جاء الردُّ على أهل الكتاب الذين ادعوا أنهم وحدهم على هدى من ٱللَّه خاطب ٱللَّه المسلمين بقوله:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ والإيمان بٱللَّه تصديق جازم بوجوده ووحدانيته وأنه لا شريك له، وتصديق بما اختص به من صفات الكمال، وأنه لا يشبه أحَداً من خلقه **﴿وَما أُنْزِلَ إلَيْنا﴾** وقولوا ـ أيها المسلمون ـ صَدَّقْنا بالقُرآن الذي أنزله ٱللَّه على نبينا محمد، لنؤمن به ولنعمل بأحكامه **﴿وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْراهيمَ وإسْماعِيلَ**

وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْباطِ﴾ والمراد بما أُنزل إلى هؤلاء: الصحف التي أنزلها ٱللَّه إلى إبراهيم عليه السلام المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ. صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩]، وهذه الصحف الإلّهية مع أنها نزلت على إبراهيم فإنَّ الأنبياء الثلاثة الذين ذكرتهم الآية بعد إبراهيم مأمورون باتباعها. والأسْباط: هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، والسّبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل ﴿**وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسَى**﴾ أي وقولوا: صَدَّقْنا بالتوراة التي أعطاها ٱللَّه لموسى وصَدَّقْنا بالإنجيل الذي أعطاه ٱللَّه لعيسى ﴿**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾ أي وَصَدَّقنا بكل ما أعطى ٱللَّه أنبياءه كافة من الوحي الإلّهيّ ﴿**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾ أي لا نُفَرِّقُ بين جماعة النبيين فنؤمن ببعضهم ونكذب البعض الآخر كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد، بل نُؤمن بهم جميعاً لأنهم رسل من عند ٱللَّه ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ ونحن خاضعون لله بالطاعة ومنقادون لأمره ونهيه.

فما جاء به رسول ٱللَّه محمد يطابق ما جاء به الأنبياء من قبله في أُصول الدِّين كتوحيد ٱللَّه وعبادته وحده، والإيمان بالبعث وما فيه من حساب وثواب وعقاب والحضّ على مكارم الأخلاق، أما الشرائع فتختلف بين أُمَّةٍ وأُخرى حسب اختلاف الزمن والوضع الاجتماعي، وقد صرَّح ٱللَّه بذلك في القرآن: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ**﴾ [المائدة: ٤٨].

والإيمان بهؤلاء الرسل الذين مَرَّ ذِكْرهم لا يستدعي من المسلمين اتباع شرائعهم، فإنَّ شرائعهم قد دخلها تحريف وتبديل بطول الزمن وما تعاقب عليهم من نكبات، ولكن نؤمن بأن كل شريعة من تلك الشرائع كانت حقاً في زمانها. ثم جاء الإسلام وهو آخر الأديان بشريعة كاملة تنسخ ما قبلها من الشرائع

وتوافق أحوال الأُمم وتطورها، وأنها وحدها المقبولة عند ٱللَّه كما جاء في القرآن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم يوجه ٱللَّه الخطاب إلى أُمَّة محمد ﷺ بقوله: **﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾** أي فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به بجميع كتب ٱللَّه ورسله ولم يفرقوا بين أَحَدٍ منهم كما فعلتم فقد اهتدوا **﴿وَإِن تَوَلَّوْا فإِنَّما هُمْ في شِقاقٍ﴾** والشِّقاق: المُخالفة والمُعاداة، أي وإن رفضوا مثل هذا الإيمان وأعْرضوا عنه فقد وقعوا في الخِلاف والمعاداة بينهم، وفعلهم هذا يدل على أن غرضهم ليس طلب الدين والانقياد للحق **﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾** يكفي: من الكفاية بمعنى الوقاية، وهذا وعد من ٱللَّه بأنه سيكفي نبيه محمداً مكرهم وينصره عليهم. وقد أنْجز ٱللَّه وعده حيث نصره ٱللَّه على هؤلاء اليهود الذين أَمْعَنُوا في عداوته وحاولوا الغدر به، فَقَتَلَ البعض منهم وأجلى البعض الآخر، وتم الاستيلاء على أموالهم وديارهم، وهذا إخبار بالغيب قد تحقق ومعجزة للقرآن تُثبت أنه وحيٌ إلَهي إذ لا يعلم الغيب إلا ٱللَّه **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾** أي إن ٱللَّه سَميعٌ لما ينطقون به، عَلِيمٌ بجميع ما يضمرون لك يا محمد ولأصحابك المؤمنين.

ثم يبين القرآن أن هِداية الإسلام هي الهداية الحقة:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يظهر عليه ذاك اللون دون غيره، وصبغة ٱللَّه هي دين ٱللَّه وهو الإسلام، وسمي الإسلام صبغة عن طريق الاستعارة والمجاز من حيث إنه يظهر أثره على صاحبه كظهور أثر الصبغ في الثوب، فهو يتغلغل في قلب الإنسان ويؤثر فيه لأنه دين الفطرة الإنسانية، كما أنه يُطَهِّره من الآثام والشرور لما فيه من مبادئ سامية، وأَصْلُ

ذلك أن النصارى يغمسون أطفالهم في ماء يقال له المعمودية[١] وذلك علامة على الميثاق بين ٱللَّه وبينهم ويزعمون أن ذلك صبغة لهم، فَرَدَّ ٱللَّهُ عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي دين الإسلام هو الصبغة التي تطهر من الآثام دون سواه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ استفهام ومعناه النفي. أي لا شيء أحْسن من صبغة ٱللَّه لأنه سبحانه يصبغ عبادة بالإيمان بما بَيَّنَ من دلائل وجوده ووحدانيته ويطهرهم من الشرك والآثام ﴿وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾ والعبادة هي الخضوع لله تعالى وطاعته والعمل الذي يُتقرب به إليه، وإنما يكون العمل عبادة يستحق صاحبه ثواب ٱللَّه إذا صحبه إخلاصٌ منه لله تعالى.

﴿قُلْ أَتُحاجُّونَنَا في ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك: كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا، وزعموا أن دينهم خير من دينك، قل لهم: أَتُجادِلُونَنا في ٱللَّه ودينه ﴿وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ﴾ والحال أنَّ اللَّهَ هو خالِقُنا والمنعم علينا، كما أنه خالقكم والمنعم عليكم فنحن وإياكم سواء بالنسبة إلى ٱللَّه، فلا وجه للادعاء بأن ٱللَّه خاصّ بكم وأن ٱللَّه ميَّزكم عن سائر البشر ﴿وَلَنَا أَعْمالُنَا وَلَكُمْ أعْمالُكُمْ﴾ أي لنا أعمالنا الحَسَنة ولكم أعمالكم السيئة التي ينشأ عنها ثواب أو عقاب فكما أننا نتساوى في كوننا عباداً لله تعالى كذلك نتساوى في استحقاق الجزاء من ٱللَّه على الأعمال الصادرة منا ﴿وَنَحْنُ

---

(١) لمَّا بلغ يُوحنا المعمدان الثلاثين من عمره أخذ يدعو الناس للتوبة ويعمّدهم بالماء كرمز لتطهير القلوب بالتوبة، ومن الإنجازات ليوحنا أن عيسى الناصري تعمد في ماء نهر الأردن على يد هذا النبي كأي واحد آخر. ومن الحقائق المعروفة أن الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن كانوا من أتباع يُوحنا وقد مارسوا المعمودية وكانوا يعيشون حياة تقشف. والتهجئة الصحيحة لاسمهم تكون (صباغي أو صبائي) بمعنى الصباغين أو المعمدانيين، والقرآن يورد اسمهم الصابئين مع همزة بدل الغين. والمُعَمّد «صباغ» يغطِّس أو يغمِّس المعتنق الجديد للمسيحية أو المولود حديثاً بالماء.

لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ونحن مخلصون لله في العبادة لم نُشرك به شيئاً، والإخلاص لله هو أن يقصد الإنسان بعمله وجه ٱللَّه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إبراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطَ كانُوا هُوداً أو نَصارَى﴾ أم تزعمون أن هؤلاء الأنبياء وأبناءهم كانوا يهوداً أو كانوا نصارى، فإن هذا الزعم خطأ كبير، لأن اليهودية والنصرانية حَدَثَتَا بعد هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الآية **﴿قُلْ أَأَنْتُم أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾** الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، أي قل لهم يا محمد أأنتم أعلم بدينهم أم ٱللَّه أعلم **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾** أي لا أَحَد أشدُّ ظُلْماً ممن سَتَرَ وأخفى شهادةً عنده من ٱللَّه بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا مسلمين وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكتموا أمر محمد ﷺ ونُبوّته وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل **﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** هذا وعيدٌ شديدٌ من ٱللَّه لهم على مزاعمهم الباطلة وكتمانهم الحق، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية من أعمالهم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ خَلَتْ: مضت، أُمَّة: مِلَّة أو جماعة، والمعنى: تلك مِّلَّة مضت لسبيلها لها ما عملت من خير وعليها ما اكتسبت من شر وأنتم يا معشر اليهود والنصارى لكم مثل ذلك، وإنكم لا تُسْألون عما فعل أسْلافكم من أعمال. هذه الآية وردت سابقاً وأُعيدت هنا بعينها مُبالغةً في التحذير من الافتخار بالآباء والاتكال على صلاحهم فكل إنسان مجزيٌّ بعمله.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ
قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ
ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً
إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾.

شرح المفردات

السُّفَهاءُ: جمع سفيه، من السَّفَهِ وهو الخِفَّة الناشئة من نقصان العقل.

ما وَلاّهم: أيُّ شيء صرفهم.

صراط مستقيم: طريق قويم لا عوج فيه والمراد به هنا طريق الحق.

أُمَّة وسطاً: أُمة عدْلاً خِياراً، معتدلين في الدين.

شُهداء: جمع شهيد وهو الشاهد.

ينقلب على عَقِبَيْهِ: يرتدّ عن دينه.

الإسلام دين وسط بين الأديان

ثم ينتقل القُرآن إلى الكلام عن مسألة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وما أُثير حولها من شبهات وطعن واستهزاء من اليهود والمشركين العرب والمنافقين.

والقِبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان في صلاته، وقبلة كل شيء للإنسان ما قابل وجهه.

وقد ثبت أن الصلاة فُرضت في مكة وكانت قبلتهم في الصلاة آنذاك إلى بيت القدس، ثم لمّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة استمروا على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وكان ذلك بأمر من ٱللَّه ووحيه، ثم نسخ ٱللَّه حكم التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة، وأمَرَ بالتوجه إلى الكعبة وفي هذا يقول ٱللَّه تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتي كَانُوا عَلَيْها﴾ والسُّفهاء: جمع سفيه وهو الخفيف العقل، والمعنى: سيقول ضِعاف العقول من اليهود والمشركين والمنافقين على وجه الإنكار: إذا حولتم وجوهكم أيها المسلمون عن استقبال بيت المقدس في الصلاة، ما صَرَفَهُم عن استقبال القبلة التي كانوا عليها؟ هذه الآية تدلّ على أنه سيقع حادث في أمر القبلة وأن السُّفهاء سيتخذونه وسيلة إلى الطعن في حكمة التشريع الإسلامي، وقد أخبر اللهُ بما سيقوله السُّفهاء قبل وقوعه ليكون وقعه خفيفاً على قلوب المسلمين عند حدوثه لأن مفاجأة المكروه يكون أشدّ إيلاماً للنفس، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنَّ هذه الآية إخبار بالغيب مما سيقع، ومما حدث فعلاً، مما يدل على أن القرآن وحيٌ إلَهيّ **﴿قُلْ لِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ﴾** وإذا كان لله المشرق والمغرب فله الأرض كلها، فكل مكان منها مشرق عند قوم ومغرب عند آخرين، وإذا كانت الأَرْض كلها لله، فله سبحانه أن يختار منها ما يشاء ليكون قبلة للمسلمين يتجهون إليها في الصلاة **﴿يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾** يرشد ٱللَّه سبحانه من يشاء من عباده إلى طريق قويم يختاره له ويخصّه به.

﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ أي عَدْلاً خِياراً، والخيار خلاف الشر. والمعنى: وكما هديناكم أيها المسلمون إلى صراطٍ مستقيم بالتوجّه في صلاتكم إلى الكعبة التي ترضونها كذلك جعلناكم خياراً وعُدولاً. وقد وصف ٱللَّه الأُمَّة

الإسلامية بأنها ﴿**أُمّة وَسَطاً**﴾ فليسوا أهل غُلُوٍّ كَغُلُوِّ النصارى الذين قالوا إنَّ المسيح ابن ٱللَّه ولا هم أهل تقصير كاليهود الذين بَدَّلوا كتاب ٱللَّه وقتلوا أنبياءهم.

والإسلام وَسَطٌ بين مطالب الروح ومطالب الجسد فهناك أناس يُسرفون في المادة ويُهملون القِيَمَ الرُّوحية، أما الإسلام فيدعو المؤمنين إلى أن يعيشوا مادية الحياة بحدود القيم الروحية، والعَدْل بين مطالب الروح والجسد.

﴿**لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ أي تشهدون يوم القيامة بأنَّ الرسل قد بَلَّغوا أُمَمَهم ما أمرهم ٱللَّه بتبليغه إليهم ونصحوهم ولم تعد لهم حجة على ٱللَّه بعد مجيء الرسل، ومستند هذه الشهادة ما قَصَّه القرآن على المسلمين من أحوال هذه الأُمم. وقد تكون هذه الشهادة في الدنيا، أي لتكونوا أيها المسلمون شُهداء على الناس بما يصدر منهم من غُلُوٍّ وتقصير فتبلّغوهم ما عُلّمتم من الوحي الإلَهيّ كما نقله الرسول محمد إليكم ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ وشهادةُ الرسولِ محمدٍ على أُمَّتِهِ بأنه قد بَلَّغهم رسالة ربه وشهادته عليهم بإيمانهم.

﴿**وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها**﴾ أي وما جعلنا قبلتك الأُولى في الصلاة يا محمد وهي بيت المقدس ثم حَوَّلناك عنها إلى الكعبة ﴿**إلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ الانقلاب على العقب: الارتداد عن الإسلام، والمعنى: ما شرعنا التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة إلاّ لنمتحن الناس ونعلم حينئذٍ من يتبع الرسول محمداً ويأتمر بأوامره متميزاً ممن لم يدخل الإيمان إلى قلبه وممن ينصرف عن اتباعه، فإن اتباع الرسول من علامات الإيمان.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لكبيرة: أي شاقّة صعبة والمعنى: وإن كان تحويل قبلة الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة شاقًّا، ثقيل الوقع على النفوس لأن ذلك مخالف للعادة، لأن من أَلِفَ شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال لغيره ولكن الأمر يسير على من هداهم ٱللَّه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَـكُمْ﴾ هذا النص من الآية هو جواب لما تردد بين المسلمين من أقوال حيث قال البعض: ما مصير من مات من إخواننا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة؟ وكانت قبلتهم في الصلاة بيت المقدس ظانين أن صلاتهم آنذاك غير مقبولة عند الله فبيَّن اللَّهُ أن ظنهم في غير محلِّه وأنه سبحانه لا يضيع ثواب صلاتهم، وعبَّر ٱللَّهُ عن الصلاة في الآية بالإيمان على سبيل الاستعارة لأنها أعظم الإيمان، وهي لا تصدر إلا عن إيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن ٱللَّه يشمل برأفته ورحمته عباده المؤمنين الطائعين له، فلهذا لا يُضيع ثواب أعمالهم.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

شرح المفردات

تَقَلُّبَ وجهك في السماء: تَرَدُّدَ وجهك وتطلُّعك إلى السماء.

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ترضاها: نُمكنك ونُحوِّلك إلى قِبْلَةٍ تهواها وتحبها.

المسجد الحرام: يطلق على المصلى العام، فيتناول الكعبة وما أُحيط بها.

شطره: نحوه.

بكل آية: بكل حجةٍ وبرهانٍ.

تحويل القبلة في الصلاة نحو الكعبة

لم يختلف المسلمون أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي بمكة وهو يتوجه إلى بيت المقدس. وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة، استمر على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وكان النبي ﷺ يتشوّق لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لأنها قبلة جَدِّهِ إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو ٱللَّه أن يجعل قبلته نحو الكعبة وينظر إلى السماء رَجاء أن ينزل الملك جبريل عليه بالوحي الذي سأل به ربّه.

والتوجه في الصلاة نحو الكعبة أدعى إلى إيمان العرب، والعرب هم

المعوّل عليهم في ظهور الإسلام وانتشاره، فاستجاب ٱللَّه دعاء النبي ﷺ وأَنْزل عليه قوله:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاهَا﴾ أي قد رأيناك يا محمداً كيف كنت تتطلع إلى السماء في ضراعة ورجاء عسى أن ينزل الوحي عليك بتغيير قبلة بيت المقدس إلى الكعبة فاستجبنا لرجائك، فَلَنَصْرِفَنَّكَ عن بيت المقدس إلى الكعبة التي تهواها وتشتهيها **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ[١] شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ﴾** فاصرف وجهك يا محمد في الصلاة ناحية المسجد الحرام حيث وجود الكعبة فيه، ووصف المسجد بالحرام لأن القتال فيه مُحَرَّمٌ، والمسجد الحرام يُطلق على المصلّى العام فيتناول الكعبة وما أُحيط بها من نحو الحِجْر ومقام إبراهيم، ويُطلق على الكعبة نفسها.

والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب هو مراعاة الجهة، والمُشاهِد للكعبة يجب عليه أن يستقبل عَيْنها، والغائب عنها يكفيه استقبال جهتها، ويجتهد في تعرّف الجهة ما استطاع. ورَوَى البيهقيُّ أن النبي ﷺ قال: «البيتُ قِبْلَةُ المسجد، والمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لأهل الحَرَمِ، والحَرَمُ[٢] قِبْلَةٌ لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أُمتي».

﴿وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي وفي أي مكانٍ وُجدتم ـ أيها المسلمون ـ فتوجهوا في الصلاة نحو المسجد الحرام **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** الذين أُوتوا الكتاب: هم عُلماء اليهود والنصارى، وقيل هم اليهود خاصة لأنهم هم الذين طَعَنُوا في تحويل القبلة، والضمير في (أنه) عائد إلى تحويل القبلة إلى الكعبة. فَعُلماء أهل الكتاب

---

(١) فَوَلِّ وجهك: أي جملة بدنك، والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء.

(٢) الحَرَم: مكة وما حولها.

يعلمون أن الكعبة هي قبلة الأنبياء وأن استقبالها في الصلاة هو الحقّ من ربهم، وأن محمداً الذي أخبر بتحويل القبلة إلى الكعبة قد قامت الدلائل عندهم على أنه رسول ٱللَّه فما شأنهم بإثارة الفتنة في ذلك ﴿**وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ وٱللَّه سُبحانه لا يخفى عليه ما يدبره أهل الكتاب من الكيد للإسلام وما يصدر عنهم من آثام وسيحاسبهم عليه حساباً عسيراً يوم القيامة.

﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾ أي ولئن جئت يا محمد أهل الكتاب بكل حُجَّةٍ وبُرهان يدل على مشروعية تحويل القبلة إلى الكعبة ما صَدَّقُوا بذلك ولا اتبعوا قبلتك. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود سكان المدينة المنورة وأمثالهم ﴿**وَمَا أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ ولست أنت يا محمد بمتبع قبلتهم وهي بيت المقدس بعدما جاءك الوحي من ربك بأن تكون قبلتك هي الكعبة ﴿**وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**﴾ وما أُولئك اليهود بتابعين قبلة النصارى وهي المشرق، ولا أُولئك النصارى بتابعين قبلة اليهود وهي بيت المقدس لتمسُّك كل فريق بقبلته، فما شأنهم يعيبون على المسلمين انفرادهم عنهم في القبلة ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ**﴾ والأهواء: جمع هوى وهو ما تميل إليه النفس، وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر فيما لا خير فيه. والمعنى: إن فُرِضَ واتبعت أهواء اليهود والْتمست رضاهم فرجعت إلى قِبْلتهم بيت المقدس من بعد ما جاءك الوحي من ربك بأن تكون قبلتك في الصلاة هي الكعبة ﴿**إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ أي إذا كان ذلك الاتباع قد وقع، فبسببه تكون من الظالمين.

والخطاب في الآية في ظاهره للنبي محمد ﷺ ولكن المقصود به أُمّته، فهو تحذيرٌ لهم من اتباع آراء أهل الكتاب المنبعثة عن هوى النفس، والآية أخرجت الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للنبي محمد مع أنه عليه الصلاة والسلام

معصومٌ عن اتباع الهوى ومخالفة أمر ٱللَّه، فكأن الآية تقول: حَذَارِ أيها المسلمون من اتّباع أهواء أهل الكتاب، فلو اتبع محمد أهواءهم مع أنه أفضل الخليقة وأعلاهم منزلةً عند ٱللَّه، لكان جزاؤه جزاء الظالمين، فكيف إذا وقع ذلك منكم؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا
تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

شرح المفردات

المُمْترين: الشاكّين.

وِجْهَةٌ: جهة وناحية.

مُوَلِّيها: مُتَّجه إليها.

فاستبقوا الخيرات: بادِرُوا وتَسابَقُوا إلى فعل الخيرات.

شَطْرَ: نحو.

التأكيد على صحة نبوة محمد ﷺ

ثم يُبين القرآن بأن عُلَماء اليهود والنَّصارى يَعلمون أن محمداً رسول ٱللَّه حقاً، ولكنهم يكتمون ذلك عن قومهم ويُصِرُّون على رفض رسالته مُكابَرَةً وعِناداً منهم، قال ٱللَّه تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي إن علماء اليهود والنصارى الذين أعطاهم ٱللَّه التوراة والإنجيل يعرفون أن محمداً هو رسول ٱللَّه ولا يعتريهم شكٌّ في صِدْقه كما لا يَشكّون في معرفة أبْنائهم.

﴿وإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن فريقاً من عُلماء أهل الكتاب ليخفون الحقَّ ولا يُعلنونه في شأن نبوة محمد ﷺ، فالبِشَارة به كانت موجودة بوضوح في التوراة والإنجيل ويعرفونها حقاً، ولكنهم يخفونها عن قومهم وهم يعلمون أن محمداً هو نبيٌّ وإن كتمانهم ذلك هو إثم. أسند ٱللَّه هذا الكتمان إلى فريقٍ منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فإن من علماء بني إسرائيل من اعترف بالحق وأعلن إيمانه كعبد ٱللَّه بن سلام وغيره.

إنَّ كتمان الحق هو السمة البارزة عند عُلماء اليهود والنصارى الذين يعلنون إنكارهم لنبوة محمد ﷺ، ولكنهم في قرارة أنفسهم يعترفون بذلك لأن الدلائل والحجج على صدق نبوة محمد هي من الكثرة والتنوع والوضوح بحيث لا ينكرها إلا من ينكر عقله، ولكنهم يكتمون ذلك خوفاً من معاداة قومهم لهم، ومن حرمانهم مما هم عليه من جاهٍ وثراءٍ، وهم بذلك قد آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿الحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ أي ما جئت به يا محمد من الدِّين فهو الحق من ربك **﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾** الامتراء: هو الشكّ، والخِطاب هنا موجه للنبي محمد ﷺ والمراد أُمَّته، إذ لا يُتَصوّر من النبي ﷺ شك فيما أنزل ٱللَّه عليه من الوحي، وقد كان من أتباع النبي محمد ﷺ من هم حديثو عَهْدٍ بكفرٍ يُخْشى عليهم أن يُفتنوا بما يُرَوِّجه اليهود من الشبهات في شأن ما ينزل على النبي من

الوحي، وفي شأن القِبلة التي أصبحت نحو الكعبة، لذا أمرهم ٱللَّه بأن لا يكونوا من الشاكّين في ذلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها﴾ أي ولكل مِلَّة قبلة يتجهون إليها في صلاتهم فقِبلة المسلمين الكعبة، وقِبلة اليهود بيت المقدس، وقبلة النصارى المشرق ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ﴾ أي بادِروا إلى المُسارعة في السبق إلى فعل الخير النافع لكم في الدنيا والآخرة، وأن تسبقوا سواكم إليه ﴿أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً﴾ أي أين ما كنتم فوق الأرض أو في بطنها يأتِ بكم ٱللَّه للجزاء يوم القيامة على أعمالكم، فَيُثيبُ المُحْسِنَ على إحسانه، ويُعاقب المسيء على إساءته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته سبحانه ليس لها حدّ وهي تشمل كل شيء.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ أي ومن أي مكان خرجت يا محمد في سَفَرٍ، وأينما كُنت في جميع المواطن من نواحي الأرض فتوجَّه في صلاتك أنت والمسلمين نحو المسجد الحرام ﴿وإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وإن التوجه نحو المسجد الحرام هو الحق من عند ربك الذي أمرك بالتوجّه إليه ﴿وما ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ٱللَّه بغافلٍ عن أعمالكم ولكن مُحصيها لكم حتى يُجازيكم عليها يوم القيامة.

ثم يُكرر ٱللَّه الطلب من النبي ﷺ والمؤمنين بالتوجه في الصلاة نحو المسجد الحرام لما في هذا التوجه من شأنٍ خطيرٍ وأمرٍ مهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ في هذا النص تشريع للاتجاه في الصلاة نحو المسجد الحرام في الأسفار وفي كل الحالات ﴿وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهنا تشريع للاتجاه إلى المسجد الحرام في الصلاة لجميع المقيمين في بقاع الأرض المختلفة.

ثم عَلَّلَ ٱللَّهُ الأمرَ باتجاه المسلمين إلى الكعبة في كل مكان يصلّون فيه:

﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**﴾ الحُجَّةُ: هي البُرهان والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، والناس في الآية المُراد بهم اليهود والمشركون، والحجة التي كانت لأهل الكتاب في شأن النبي ﷺ وأصحابه عندما كانوا يتوجهون بصلاتهم نحو بيت المقدس هي قولهم: يُخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا، وحجة المشركين هي قولهم: إن محمداً بتركه التوجه إلى الكعبة تَرَكَ دين إبراهيم، فقطع ٱللَّه عليهم حجتهم جميعاً بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿**إلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ وهم المُعانِدون من فريقَي اليهود والمشركين، فهؤلاء لا يميزون الرشد من الضلال وهم الذين أثاروا الفتنة عند تحويل القبلة ﴿**فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾ فلا تخافوا ما يُثيرون من الجَدَلِ والطعن في توجُّهكم نحو الكعبة، وخافوا ٱللَّه فيما يأمركم به من الطاعات فَأْتوا بها على وجهها وحافظوا على التوجه في صلاتكم إلى الكعبة ﴿**وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ**﴾ هنا بشارة للمسلمين بفتح مكة وإزالة الأصنام والأوثان من بيت ٱللَّه الحرام وما يستتبع ذلك من نشر الإسلام في ربوع الأرض، ويُلاحظ أن مجيء النعمة بعد الأمر بالخشية فيه إشارة إلى أن النعمة تكون جزاء على خشية ٱللَّه ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ أي أمركم ٱللَّه بذلك رجاء امتثالكم أمره فيحصل اهتداؤكم إلى الحق وتفوزوا بسعادة الداريْنِ.

لقد أمر الله رسوله محمداً بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام ثلاث مرات:

الأمر الأول: هو مقرون بإكرام النبي والمؤمنين بالتوجه إلى القِبْلة التي كانوا يحبونها، قال تعالى ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ**﴾.

الأمر الثاني: هو تِبيان أن التوجه إلى قِبْلة المسجد الحرام هو الحق من ربهم: قال تعالى ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وإنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ**﴾.

الأمر الثالث: هو التوجه في الصلاة نحو الكعبة في جميع الأمكنة مع قطع حجج الطاعنين بها، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ لِئَلاّ يَكُونَ للنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**﴾.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

شرح المفردات

ويُزَكِّيكُم: يطهركم من الشرك والمعاصي.

الكتاب: أي القرآن.

والحكمة: السنّة النبوية.

الصبر: ضبط النفس وقوة الاحتمال.

وَلَنَبْلُوَنَّكُم: البلاء هو الاختبار.

صلوات من ربهم: مغفرة ورحمة من ربهم.

منزلة الذاكرين لله والصابرين عند البلاء

ثم يُبين القرآن نعمة ٱللَّه على العَرَبِ حيث أرسل إليهم رسولاً منهم لهدايتهم، قال ٱللَّه تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُم**﴾ هذا الشطر من الآية متصل بما قبله، والمعنى: ولأُتِمَّ نعمتي عليكم أيها المسلمون في جعل الكعبة قبلة لكم كنعمتي عليكم بإرسال رسول منكم هو محمد ﷺ، وفي إرْسال الرسول منكم نعمة تستوجب الشكر لربّكم، لأنكم تعرفون سيرته العطرة وصِدْقه وأمانته مما يحملكم على المسارعة إلى التصديق بنبوته واتّباعه ﴿**يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنَا**﴾ والآيات: هي دلائل توحيد ٱللَّه والنبوّة والبعث، ويَصِحُّ أن يُراد من الآيات آيات القرآن، وتلاوتها: قراءتها.

والبصير بأساليب البيان العربي يدرك حين يتلو القرآن فصاحته، وسموّ معانيه، وإرشاداته القيّمة بما يشهد أن مصدره من عند ٱللَّه لا من تأليف بشر، عِلْماً أن الذي يتلو عليهم القرآن هو أُمِّيٌّ لم يتعلم القراءة والكتابة وهو محمد ﷺ مما يشهد بِصِدْق نُبوَّته ورسالته من عند ٱللَّه. كما أن من وظيفة ذلك الرسول ﴿**وَيُزَكِّيكُمْ**﴾ أي يُطهركم من الشِّرْكِ والأخلاق الذَّميمة ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ الكتاب هنا: المراد به القرآن، أي يعلمكم ما يخفى عليكم من معاني القرآن وأحكامه كما يعلّمكم الحكمة وهي ما يصدر عن هذا الرسول ﷺ من الأقوال والأفعال والمواعظ التي فيها خير المسلمين وصلاحهم ﴿**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ أي ويعلّمكم العقائد السليمة والعبادات الخالصة لله والأخلاق القويمة والأحكام العادلة التي لم تكونوا تعلمونها من قبل.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ذكر الشيء: التلفُّظ باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره في الذِّهْن. ولا يكفي في ذكر ٱللَّه أن يُجري الإنسان اسماً من أسمائه على لسانه، بل عليه أن يستحضر عظمته وجلال شأنه مما يستدعي منه التسبيح والتحميد لله جلّ شأنه. ويكون ذكر ٱللَّه في القلب: وهو التفكر في الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه التي تشهد بقدرته وحكمته. كما يكون ذكر ٱللَّه بالجوارح وذلك بالامتثال لما أَمر من الطاعات، فكل عمل بطاعة ٱللَّه هو ذِكْرٌ له سبحانه.

وقد قيل في تفسير جملة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾ أقوالٌ شتى منها:

ـ اذكروني بالطاعة: أذكركم بالثواب والمغفرة.

ـ لا يذكر ٱللَّهَ مؤمنٌ إلا ذكره ٱللَّهُ برحمته.

ـ اذكروني بقلوبكم: أذكركم بتحقيق مطلبكم.

ـ اذكروني في الرَّخاء بالطاعة والدعاء: أذكركم في البلاء والشدة بالعطيّة والنَّعماء.

وعلى هذا يُفهم من ذكر ٱللَّه للمؤمن حفظه من كل سوء يُراد به ثم الإنعام عليه بالعِزة والرَّخاء في الدُّنيا والسعادة في الآخرة.

ومرتبة ذكر ٱللَّه مرتبة عالية لا يُوازيها شيء، ففي حديث قدسيّ عن النبي ﷺ يقول ٱللَّه تعالى: «أنا عند ظنّ عَبْدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ ذكرْتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»(١).

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ شكر الإنسان لله ثناؤه عليه بِذِكرِ إحسانه ونعَمِهِ عليه

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي.

بقلب مفعم بالحب له، ومَنْ ذَكَر أن ما يصل إليه من الخير هو من نِعَم ٱللَّه عليه، لم يلبث أن يصرف ما أنعم ٱللَّه به عليه من العقل والجوارح فيما يُرضيه من الطاعات ﴿وَلا تَكْفُرُونِ﴾ والكُفر جحود نِعَم ٱللَّه وإحسانهِ. كما يستعمل الكفر بمعنى عدم الإيمان. فٱللَّه يطلب من المؤمنين أن يشكروا نِعَمَه عليهم ومنها إرساله رسولاً منهم وهو محمد ﷺ الذي أرشدهم إلى الإسلام وهداهم إلى الدين الذي شرعه لهم وأن لا يجحدوا إحسانه إليهم فيسلبهم نِعَمَه التي أنعمها عليهم.

ولمّا كانت المصائب قد تُؤدي ببعض النفوس إلى الكفر والاعتراض على المشيئة الإلّهية لذلك دعا ٱللَّه المؤمنين إلى مواجهة المصائب والصمود أمامها بالصبر والصلاة، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ﴾ والصبر يحصل برياضة النفس على تحمُّل المكاره والمصائب وتوطينها على احتمال المشاقّ وتجنُّب الجزع. والمعنى: يا من آمنتم بٱللَّه استعينوا على إقامة شعائر دينكم والدفاع عنه وعلى فعل الطاعات وترك المعاصي، وعلى تحمُّل المصائب، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل، وبالصلاة المقترنة بالخشوع والإخْلاص لله سبحانه، ففي الصلاة يستحضر المؤمن جلال ٱللَّه وعظمته ويقدسه ويثني عليه ويطلب منه المعونة والهداية ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ . ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥ ـ ٦] ولا شكَّ أن ذلك يُضفي عليه طمأنينة وقوة في النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي إن ٱللَّه معهم بالمعونة والتأييد، ومن كان ٱللَّه معه لم يخشَ الأهوال.

تأمَّل ما ذكره ٱللَّه سبحانه بأنه مع الصابرين، فبذلك يطلب ٱللَّه منك ـ أيها المؤمن ـ أن تُواجه الحياة ومشكلاتها في مَعِيَّةِ ٱللَّهِ التي خصَّها للصابرين فأنت

لو واجهت مشكلاتك في معيّة من تثق بقوته تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت في معيّة ٱللَّه الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل ما في الكون خاضع لإرادته؟!

ثم يُبين ٱللَّه منزلة الشهداء وما خصهم به من كرامة:

﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْواتٌ**﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم أموات ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ بل هم أحياء في عالمٍ غير عالمكم ولكن لا تشعرون بحياتهم إذ ليست في عالم الحسّ الذي يدرَك بالمشاعر بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس، وهذه المزية أنهم في حياة سارَّة ونعيم مقيم عند ربهم، وجمهور العلماء قالوا: إنهم في الجنة. وقد جاء في الحديث الشريف: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل..»[١] كما جاء في القرآن بأن الشهداء هم في حياة كريمة مصحوبة بالرزق: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ**﴾ البلاء: هو الاختبار والامتحان، أي ولنختبرنكم بشيءٍ من الخوف ينالكم من عدوكم وبشيء من الجوع ـ بسبب القَحْط ـ ينالكم فيه مجاعة وشِدَّة ﴿**وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمراتِ**﴾ ولنختبرنكم أيضاً بقلة الكسب للمال أو الخسارة في التجارة، وبنقص الأنفس سواء بالموت الطبيعي أو عن طريق القتل، وبنقص من الثمرات الذي ينشأ عن الآفات الطبيعية أو أحوال الطقس. فالبلاء هو المعيار الذي يكشف عن خبايا

(١) أخرجه مسلم.

النفوس ودرجة إيمانها وصدقها مع ربّها **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إذا أَصابَتْهُم مُصِيبَةٌ﴾** وبَشِّر يا محمد الصابرين على بلائي لهم المستسلمين لقضائي بما يسرُّهم من المغفرة والرحمة، هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصيبة بسكينة وتسليم لقضاء ٱللَّه القائلين عند المصيبة **﴿قَالُوا إنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** هنا يثني ٱللَّه على الذين يقولون هذه الكلمات عند حلول المصيبة بهم، ويستشعرون مضمونها فهي عزاء لهم عندما تلم المصيبة بهم، وعصمة لهم من الوقوع في الزلل عندما يمتحنهم ٱللَّه بالبَلايا، وما أبلغ هذه الكلمات فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث بعد الموت. ومعنى **﴿إنّا للَّهِ﴾** إنَّا: أصلها إِنَّنَا حذف منها نون للتخفيف، أي إننا ملك لله، فنفوسنا وأموالنا وأهلونا هي ملك لله يتصرف فيها سبحانه كما يشاء، وما في أيدينا جعله ٱللَّه وديعة[١] إن شاء أبقاه وإن شاء استردّه، فلا يجدر بنا أن نجزع عندما يسترد ٱللَّه ما هو ملك له بل نصبر ونُسَلِّم الأمر إليه ونرضى بقضائه.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ وإننا في خاتمة المطاف صائرون إلى ٱللَّه يوم القيامة فيجازينا على امتثالنا له لما دعانا إليه من الصبر عند المصيبة ويوفينا أجورنا كاملة.

هذه الكلمات التي نقولها عند حلول المصائب يستفاد منها جملة أُمور:

منها: التسليم لقضاء ٱللَّه وقَدَره.

ومنها: أنها تواسي قلب المصاب وتقلل من حزنه.

ومنها: تهيئة النفس لتلقّي المصيبة بالصبر الجميل.

---

(١) وما أصدق قول الشاعر:

وما المال والأهلونَ إلاّ ودائعٌ ولا بُدَّ يوماً أن تُردّ الودائعُ

ومنها: اشتغال المُصاب بمعاني هذه الكلمات بدل لجوئه إلى كلامٍ لا يليق بهذا المقام فيعرّضه للإثم ويحرمه الأجر من ٱللَّه.

ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحُزن الشديد لدى المصاب عند حلول المصيبة، وإنما الذي ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه هو الجزع المفضي إلى الاعتراض على حكم ٱللَّه فيما أنزل به من بأساء أو ضراء، أو تكون المصيبة مهلكة لصاحبها فلا يصمد أمامها لضعف إيمانه بقضاء ٱللَّه وقدره، أو أن يغفل عما حرَّمه الإسلام من النياحة على الميت والندب والصراخ ولطم الخدود وغير ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِم صَلَواتٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي أولئك الذين امتثلوا أمر ٱللَّه وقالوا عند المصيبة: **﴿إِنّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** عليهم صلوات من ربهم والصلوات: جمع صلاة، وصلوات ٱللَّه على عباده: هي الغفران لهم والثناء الحسن عليهم وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة، وجاءت الصلوات بصيغة الجمع لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات، وأضاف إلى ذلك **﴿وَرَحْمَةٌ﴾** ورحمته تعالى تظهر بإزالة آثار المصيبة، أو تعويض المصابين بما ينعم ٱللَّه عليهم من النعم، ورحمة ٱللَّه لعباده هي أثمن شيء في الوجود كما جاء في القرآن: **﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾** [الزخرف: ٣٢] ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: **﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** أي مهتدون إلى ما ينبغي عمله في أوقات المصائب إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل في قلوبهم فيكونون هم المهتدون للرشد والصواب.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

شرح المفردات

الصَّفَا والمَرْوة: هضبتان ملحقتان حاليًا بالمسجد الحرام يسعى بينهما من يقصد الحج أو العُمرة.

من شعائر ٱللَّه: من أعلام دينه ومتعبَّداته.

حج البيت: أي قصد الكعبة لأداء المناسك في موسم الحج.

اعْتَمر: زَار الكعبة لنسك العمرة، والعمرة لا تختص بزمان.

فلا جُناح عليه: فلا إثم عليه.

تَطَوَّع خيراً: زاد خيراً على ما طُلب منه.

البينات: الحجج الواضحات.

الهُدى: ما يهدي إلى الحقّ والرشاد.

يلعنهم الله: يطردهم من رحمته.

ولا هُم يُنْظَرُونَ: أي لا يؤجل عذابهم ولا يؤخر.

الصَّفا والمروة من معالم الحج

ويُتابع القرآن فيوضح بعض الأمور المتعلقة بالحج والعمرة وهي السعي بين الصفا والمروة قال ٱللَّه تعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما هضبتان مطلتان على المسجد الحرام ﴿مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ﴾ من معالمه ومواضع عباداته ﴿فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ﴾ فمن قصد بيت ٱللَّه الحرام لأداء فريضة الحج وأداء عبادة ٱللَّه من إحرام وطواف حول بيت ٱللَّه الحرام وسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والقيام بسائر مناسك الحج استجابة لأمر ٱللَّه ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ والاعتمار كالعُمرة لغةً وهي زيارة البيت الحرام لأداء عبادة ٱللَّه من إحرامٍ وطوافٍ حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فلا إثم على من يسعى بين الصفا والمروة، ومعنى يطّوَّف فقد فسَّرَتْهُ السُّنَّة النبوية بالدوران حول الكعبة سبعة أشْواط، وبالنسبة إلى الصَّفا والمروة فالمقصود منهما هو السعي بينهما سبعة أشواط.

ولكن ما هو الأمر الداعي لأن يقال عن السعي بين الصفا والمروة بأنه لا حَرَجَ على من يقوم بذلك؟

الجواب على ذلك هو أن العرب في الجاهلية أَدْخلوا على شعائر ٱللَّه في الحج التي ورثوها عن إبراهيم عليه السلام مظاهر الوثنية، فقد وضعوا على الصفا صنماً يسمى أسافاً، ووضعوا على المروة صنماً يسمى نائلة، فكانوا يسعون بينهما تعظيماً للصنمين ويَتَمَسَّحُون بهما، فلما جاء الإسلام وأُزيلت الأصنام تَحَرَّج المسلمون وامتنعوا عن السعي بين الصفا والمروة ظانين أن السعي بينهما هو إثم يلحقهما إذا قاموا بذلك، فبيّن القرآن أن لا إثم من السعي بينهما، وأنهما من شعائر ٱللَّه ومتعبّداته في الحج والعمرة.

والسعي بين الصفا والمروة هو اقتداء بهاجَر زوجة إبراهيم عليه السلام حين نفد منها الماء الذي تركه زوجها فعطشت وعطش ابنها إسماعيل فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت الصفا أقرب مرتفع يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ ولكنها لم تر أحَداً فهبطت من الصفا ثم سعت

سعي الإنسان المرهق حتى وصلت إلى المروة وصعدت عليها ونظرت فلم ترَ أحَداً ثم أخذت تهرول وتسعى بين الصفا والمروة سبع مرات وهي تدعو ٱللَّه إلى أن أنْبَعَ اللهُ ماءَ زمزم وأجاب دعاءها.

فالسعي بين الصفا والمروة شرعه الإسلام(١) لما فيه من اللجوء إلى ٱللَّه في كشف الضر لأنَّ في ذلك الموضع كشف ٱللَّه الضر عن هاجَر وولدها، كما أن في ذلك إشْعاراً للمؤمنين بأن ٱللَّه يبتليهم بأنواع المحن إلاّ أنه يغيثهم برحمته عندما يلجأون إليه ويدعونه بتضرع لكشف البلاء عنهم.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ والتطوع هو ما يأتي به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه وتسمى النَّوافل، أي ومن أتى بالحج والعمرة مرة أُخرى فزاد على الواجب **﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾** فإن ٱللَّه يشكر عمله بمزيد من الثواب، وهو عليم بكل شيء فلا يخفى عليه تطوعه.

التحذير من كتمان شرائع الله

ويتابع القرآن فيبين مبلغ الإثْم العظيم لمن يكتمون ما أنْزل ٱللَّه من الشرائع: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدَى﴾** هذا النصّ من القرآن نزل في أحْبار اليهود ورُهْبان النَّصارى وفي كل من كتم شيئاً من أحكام الدين.

والكتمان ترك إظْهار الشيء مع مسيس الحاجة إليه وحصول الدّاعي إلى إظهاره. وكتم ما أنزل ٱللَّه يشمل إخْفاء نصوصه وعدم ذكرها للناس كما يشمل

---

(١) اختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فقال الشافعي وابن حنبل: هو ركن، وهو المشهور من مذهب مالك، وقال أبو حنيفة وأصحابه: إنه واجب يجبر تركه بدم (أي ذبح شاة).

إزالة النصّ ووضع آخر مكانه أو تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح، وقد فعل أهْلُ الكتاب ولا سيما اليهود كل ذلك، فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من التوراة أن نبوَّة محمد هي حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حَسَداً لمحمَّد على ما آتاه ٱللَّه من فضله، فهم كتموا ما أنزل ٱللَّه ﴿**مِنَ البَيِّناتِ**﴾ وهي الحجج الواضحة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وكذلك كتموا آية الرَّجْم للمحصن التي وردت في التوراة، كما كتموا ﴿**وَٱلْهُدَىٰ**﴾ أي ما في التوراة مما يهدي إلى الحق والرشاد بضروب من التأويل غير الصحيح حتى أفسدوا الدِّينَ وانحرفوا بالناس عن هديه ﴿**مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ في الكِتابِ**﴾ والكِتاب هنا لا يُعنى به كتاب إلَهيّ معيّن بل يراد منه جنس الكتب التي أنزلها ٱللَّه على رسله كالتوراة والإنجيل والقرآن، ودلَّ قوله تعالى ﴿**مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ**﴾ على أن معصيتهم بالكتمان متناهية في الفظاعة وأنه لا يقدم على ذلك إلاّ من بلغ الغاية في السوء.

﴿**أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ أي أولئك الكاتمون للعلم الذي بيّنه ٱللَّه في الكتاب يطردهم ٱللَّه من رحمته ويُسخط عليهم الخَلْقَ فيزدرونهم وينبذونهم ويدعون عليهم باللعنة.

ثم إن العبرة في الآية أن حكمها عام وإن كان سبب نزولها خاصّاً، فكل من يكتم آيات ٱللَّه وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة.

والقُرآن الكريم لم يكتفِ بالوعيد على من يكتم شرع ٱللَّه وهدايته بل أَمَرَ بِنَشْرِ هُداه للناس وتبيانه وعدم كتمانه، وهذا هو العهد الذي أخذه ٱللَّه على أهل الكتاب بقوله بما جاء في القرآن ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم يُبيّن القُرآن مصير من يتوبون ويرجعون عن الكتمان بقوله:

﴿إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي نَدِمُوا على ما كتموه من هدى ٱللَّه **﴿وأَصْلَحُوا﴾** بإظْهار ما كتموه وتصحيح ما حَرَّفوه أو أساءوا فيه الفتوى **﴿وَبَيَّنُوا﴾** للناسِ حقيقة ما كتموه من كتاب ٱللَّه **﴿فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾** أي إن ٱللَّه يقبل توبتهم المقرونة بإصلاح أعْمالهم، وقبول التوبة من ٱللَّه لهم يتضمن المغفرة لما سلف من ذنوبهم**﴿وَأَنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** والتواب والرحيم صيغتان من صيغ المبالغة، أي من شأنه المبالغة في قبول التوبة وسعة الرحمة فهو الجدير بأن يتوب على عباده ويرحمهم إذا تابوا وبيّنوا للناس ما كتموه من شرع ٱللَّه ودينه.

﴿إنَّ الَّذين كَفَرُوا ومَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي إن الذين جحدوا نُبُوَّة محمد وكذبوا بالهدى الذي جاء به من عند ربه، وأَصَرُّوا على كفرهم حتى فارقوا الحياة **﴿أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾** واللعن من ٱللَّه للكافر إبعاده من رحمته، واللعن من الملائكة ومن الناس للكفار الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة ٱللَّه، وكذلك الكفار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً **﴿خَالِدِينَ فِيها﴾** الخُلُود: البقاء إلى غير نهاية، والظاهر أن الضمير في قوله «فيها» عائد إلى اللَّعْنَةِ المذكورة في الجملة، والخلود في اللعنة يقتضي الخلود في النار **﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾** ولا يخفف عنهم العذاب في جهنم **﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾** الإنظار: الإمهال والتأخير، أي ولا يُمهَلون عن العذاب كما يُمْهَلون في الدنيا ولا يؤَخَّر عذابُهم بل يلاقيهم العذاب حالَ مفارقتهم الحياة.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

شرح المفردات

الرَّحمنُ الرَّحِيمُ: صيغتان للمبالغة في الرحمة، وتختص الأولى بالله، ويجوز إطلاق الثانية على غيره.

واختلاف الليل والنهار: تعاقبهما أو اختلافهما بالزيادة والنقصان.

الفُلْك: اسم يطلق على سفينة أو أكثر.

بَثَّ فيها: نَشَرَ فيها.

من كل دابّة: من كل نوع من الدوابّ، والدّابّة ما يدبُّ ويمشّي على الأرض من الحيوان.

وتصريف الرياح: تقليبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً.

والسَّحاب المُسَخَّر: المنقاد لله يوجهه كيف يشاء.

لآيات: دلائل على قدرته تعالى.

البُرهان على وحدانية الله

ثم ينتقل القرآن إلى إثبات وحدانية ٱللَّه والدلائل والبراهين العقلية عليها وذلك بتوجيه الأنظار إلى هذا الكون الذي يشهد كل ما فيه على وجود ٱللَّه ووحدانيته وعظمته، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وإلٰهُكُمْ إلَهٌ واحِدٌ﴾ والإلَه في كلام العرب هو المعبود مطلقاً والمُرادُ به في الآية المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد. ومعنى الآية: وإلَهكم الذي

يستحق العبادة هو إلّه واحد، فمن عَبَدَ سواه أو عَبَدَ شيئاً معه فعبادته باطلة **﴿لا إلّه إلاّ هُوَ﴾** هذه الجملة من الآية نافية عن ٱللَّه الشريك صراحة ومثبتة له الأُلُوهِيّة الحقّة، أي إن ٱللَّه وحده هو الإلّه وليس شيءٌ مما سواه إلّهاً **﴿الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾** فهو سُبحانه شمل الكائنات برحمته، وعمَّت رحمته في الدنيا المؤمن والكافر، واختصت رحمته في الآخرة أهل الإيمان والصلاح.

ولمّا بيَّن القرآن بأن ٱللَّه هو إلّه واحد عَقَّبَ على ذلك بذكر بعض المظاهر الطبيعية التي أبدعها ٱللَّه في هذا الكون التي تشهد بعظمته وعظيم صنعه، وقد ذكرت الآية التالية سبعة من هذه المظاهر الطبيعية نذكرها فيما يلي:

أولاً: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ هذه السماوات التي خُلِقَتْ على هذا الشكل وما تحتويه من بلايين النجوم المشتعلة والكواكب وغيرها التي يحفظها ٱللَّه جميعاً بقانون الجاذبية ويمنعها من أن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكبنا الأرْضِيّ فتنسفه وتدمّره.

وهذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها وما عليها من نباتٍ وحيوانٍ وسهولٍ وجبالٍ وَبِحَارٍ، كل ذلك يسير على سنن كونية ثابتة ونواميس خاصة في منتهى الحكمة، ألا يعطينا كل ذلك دليلاً على وجود قدرة إلّهيّة حكيمة أبدعت هذا الكون؟

ثانياً: ﴿واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ أي تعاقُبهما واختلافهما بالزيادة والنقصان، واختلاف الليل والنهار يَنْشآن من دَوَران الأرض على مِحْورها كما أنها لا تدور في مكانٍ واحدٍ، إذ إنها تدور أيضاً حول الشمس وهذان الأمران يعطياننا نهاراً وليلاً مختلفي الطول.

ألاّ يدلّ اختلاف الليل والنهار على وجود قُدرةٍ إلهيّة أبدعَتْه على هذا الشكل ليكون سبباً لحياة الكائنات؟

ثالثاً: ﴿**والفُلْكِ الَّتي تَجْرِي في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ**﴾ هذا النصُّ القرآني فيه جملة أمور تشهد على وجود ٱللَّه ووحدانيته، فهو سبحانه خلق المواد التي تنشأ منها السفن، وألْهَمَ الإنسان إلى كيفية صُنعها، وهو سبحانه الذي سخَّر البِحار وجعل مياهها بتلك الكثافة بحيث تطفو عليها السفن التي ترتاد البحار حاملة المسافرين وأنواع البضائع من بلد إلى بلدٍ مُحَقِّقة المنافع للناس، هذا فضلاً عن أن ٱللَّه جعل البحار مصدراً لقوت الملايين من البشر بما تحتويه من أنواع السمك.

رابعاً: ﴿**وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**﴾ هذا النص له ارتباط بما ذكر من قبل باختلاف الليل والنهار الذي ينشأ عن دَوَران الأرض حول محورها وحول الشمس والذي له تأثير على تحرّكات الرياح، والرِّياح تنقل بخار الماء من المحيطات إلى داخل القارات حيث يتكاثف ويتحول إلى مطر، والمطر مصدر الماء العذب الذي تشربه الكائنات الحية وترتوي به الأرض التي تنبت صُنُوفَ النَّبات، ولولا الماء العذب لانْعَدَمت الحياة على الأرض، وصدق ٱللَّه إذ قال: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء: ٣٠] ألا يدل كل ذلك على وجود قدرة إلٰهية حكيمة؟

خامساً: ﴿**وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ**﴾ بَثَّ: فَرَّقَ وبَسَطَ. والدّابَّةُ: تجمع الحيوان كله وتشمل الطير أيضاً. تأمّل هذه الحيوانات التي تبلغ الملايين على وجه الأرض، فمنها ما يؤكل ومنها المفترس، وتأمل كل واحدة منها في طريقة معيشتها والحصول على قوتها، والدفاع عن نفسها، واختلاف أحجامها وألْوانها وتناسلها مما يستلزم الكتابة عن أسرار هذه الكائنات المجلدات الكثيرة، أما تشهد هذه الدواب بوجود خالق لها في نهاية القدرة والعلم والحكمة؟

سادساً: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ وتصريفها: تقليبها في الجهات المختلفة ونقلها من مكان إلى مكان، ففي بعض البلدان يتغير هبوب الرياح مرّاتٍ كثيرةٍ في اليوم الواحد، وفي بعض الأمكنة تهب الرياح باستمرار من جهةٍ واحدةٍ طيلة أسابيع أو أشهر، وفي زمن السفن الشراعية كانت الرياح ذات أهمية للتجارة حيث كان البحارة يجعلون رحلاتهم في موسم هبوب الرياح في الاتجاه الذي يقصدونه.

وهناك الرياح الموسمية، وهناك الرياح الحارَّة التي مصدر هبوبها من الصحارى، وهناك رِياحٌ تهبُّ من الجبال أيّاماً بطولها في كل مرة وتسبب تغيرات مفاجئة في الطقس، وقد تتحرك الرياح أحياناً في عواصف عنيفة تسبب أضراراً جسيمة. . ألا يدل كل ذلك على قدرة ٱللَّه العظيمة المحركة لتلك الرياح؟!

﴿والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ﴾ المسَخّر: من التسخير وهو التّذْليل، وتسخير السحاب: بَعْثُهُ من مكان إلى مكان آخر. والسحاب يتألف من الأَبخرة المتصاعدة من المحيطات والبحيرات والأنهر والمستنقعات، حيث يتراكم على شكل غيوم ثم تسوقها الرياح إلى البلاد التي يريد ٱللَّه إحياءها حيث تتجمع وتتحول إلى مطر عندما تصادف طبقة باردة، أو غير ذلك من العوامل الطبيعية.

وقد كشف القرآن عن هذا المعنى في موضع آخر حيث قال سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨].

ويختم ٱللَّه الكلام عن هذه المظاهر الكونية بقوله **﴿لآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** أي إن كل ما ذكر من هذه المظاهر الطبيعية والكائنات الحية لدلائل واضحة

على وحدانيّة ٱللَّه للذين يفكرون بعقولهم ويدركون الحكمة منها، ويستدلون بما فيها من الإتقان والنظام العام الذي يسودها على قدرة مبدعها وحكمته وفضله ورحمته لخَلْقه، كما تدل على أنه وحده الجدير بالعبادة.

فالإسلام ـ خلافاً لكثير من الأَديان ـ يدعو الإنسان إلى استعمال عقله في الوصول إلى الإيمان بوحدانية ٱللَّه عن طريق التفكّر في خلق السماوات والأرض وما على الأرض من كائنات حية تشهد بعظيم قدرته وحكمته.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

شرح المفردات

أنداداً: جمع نِدّ، وهو المثيل والنَّظير.

الذين اتُبِعوا: هم الرؤساء والقادة.

الذين اتَّبَعُوا: هم الأتباع من الرَّعِيَّة.

تقطّعت بهم الأَسْباب: انقطعت الروابط بينهم.

كَرَّة: رَجْعَة وعَوْدة إلى الدنيا.

حَسَرات: جمع حسرة وهي أشد درجات النَّدامة.

ولا تَتَّبِعُوا خُطُوات الشيطان: لا تسيروا وتنقادوا تبعاً لوساوس الشيطان.

الفَحْشاء: ما اشتد قُبحه من الذُّنوب.

الشِّرْكُ يُؤَدّي إلى عذاب اللَّه

وبعد أن ذكر القُرآنُ جانباً من المظاهر الكونية الدَّالّة على وُجودِ ٱللَّه ووَحْدانِيَّته، وصف في الآية التالية حال المشركين ومصيرهم يوم القيامة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَنْداداً﴾ والأَنْداد: جمع نِدّ، وهو المِثْل والنَّظير، قد يُرادُ بالأَنْدادِ الأَوْثان التي اتخذها المشركون آلهة، وقيل: هم الرؤساء الذين يطيعونهم في معصية ٱللَّه **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾** أي فمحبة المشركين للأصنام كمحبة المؤمنين لله **﴿والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** والذين صدّقوا بوحدانية ٱللَّه هم أشدّ حُبًّا له من حبّ أُولئك المشركين لأوثانهم ورؤسائهم لأن حب المؤمنين لله متولد عن يقين واقتناع، بينما حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ للَّهِ جَمِيعاً﴾ ولو يرى أُولئك الذين كفروا وظلموا أنفسهم بالشرك بٱللَّه عذاب ٱللَّه ويُعاينونه لرأوا ما لا يوصف من الهول، وأن القدرة والسلطان لله جميعاً دون سواه من الأَنْداد والآلهة **﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ﴾** وأن عذاب ٱللَّه شديد لمن أشرك به.

﴿إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وتبرَّأَ: من التبرؤ وهو التخلص والتنصُّل، والذين اتُّبِعُوا هم أئمة الكفر ورؤساؤهم الذين يُحَرِّمون ويُحَلِّلون غير

ما أمر ٱللَّه، والذين اتَّبَعُوا: أتباعهم الذين يتلقون أقوالهم بالتقليد والطاعة ﴿وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ﴾[١] أي تنصَّل الرؤساء من المرؤوسين وقت أن عاينوا العذاب وانقطعت الروابط والصلات التي كانت تجمعهم في الدنيا من عقيدة أو قرابة أو مصلحة أو أعمال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرَّأُوا من هؤلاء الرُّؤَساء الذين أضلُّوهم عن سبيل ٱللَّه ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنّا﴾ أي كما تبرأ الرُّؤَساءُ من الأتباع في هذا اليوم العصيب ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كما أراهم ٱللَّه العذاب المعدّ لهم يريهم ٱللَّه أعمالهم الفاسدة المدونة في الصحائف فيتيقنون من الجزاء عليها فيتحسرون، والحسرة أعلى درجات الندامة والهَمّ على ما فات ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وهم باقون في عذاب النار خالدين فيها أبداً.

الانتفاع من الأرض والحذَر من الشيطان

ثم يُخاطب ٱللَّه الناس جميعاً للانتفاع بما في الأرض من المآكل الطيبة التي تَفَضَّلَ بها عليهم:

﴿يا أيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾ الحلال: ما أذن ٱللَّه في تناوله من المآكل والمشارب خلاف ما حَرَّمَهُ، وأن لا يكون الحصول عليه من مالٍ حرامٍ. والطَّيِّبُ: هو المستلذ المستطاب غير الضار بالأبدان والعقول، هذه الآية نزلت في حق كل من حَرَّمَ على نفسه شيئاً لم يُحَرِّمْه ٱللَّه. فالمشركون

(١) الأسباب: جمع سبب، وهو في الأصل الحَبْل الذي يُشدّ به الشيء أو يصل بين أمرين برباط بينهما، والمراد: الصلات التي تربطهم بعضهم ببعض، وتقطَّعت: مبالغة في القطع أي، أن هذه الصلات التي كانت تربط بينهم قطعت من كل ناحية بحيث لا يمكن وَصْلها.

العرب حَرَّموا الأكل من بعض لحوم الإبل، وقد ذكر القرآن في سورة المائدة بعض هذه اللحوم من الإبل، والآية وإن نزلت في هؤلاء المشركين العرب فإنها تشمل كل من كان على شاكلتهم كجماعة السيخ في الهند الذين يحرمون أكل لحم البقر بسبب عبادتهم لها.

فالآية تخاطب الناس جميعاً بأن يأكلوا مما في الأرض من حيوانها ونباتها وثمارها ما كان حلالاً لا حُرْمَةَ فيه، طَيّباً لا تعافه النفس ولا تتضرر منه الأبدان بشرط أن يكسبوها بطريق مشروع. ثم يضيف ٱللَّه على ذلك قوله: **﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾** خطوات الشيطان: أعماله، وقيل: خطاياه، أي ولا تتبعوا آثار الشيطان وأعماله وهي وساوسه التي يقذفها في صدور الناس لينقلهم من طاعة ٱللَّه إلى معصيته **﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** أي إن الشيطان عدوٌّ لكم ـ أيها الناس ـ ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عليكم عداوته.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ﴾ إن الشيطان يأمركم بالمعاصي التي تسوؤكم وتحزنكم في الدنيا وتسوء عاقبتكم في الآخرة، كما يأمركم بما يشتد قبحه من الذنوب **﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾** والقول على ٱللَّه بغير علم هو أن يقول الإنسان: إن لله شريكاً أو يقول حَرَّم ٱللَّه هذا، أو أَحلَّ ٱللَّه هذا، متعمداً الكذب على ٱللَّه، أو أن يُحرِّمَ ويُحَلِّلَ عن جهالةٍ كشأن من يحلل شرب الخمر وأكل الربا وغيرهما من المنكرات، مدّعياً بأن ٱللَّه لم يحرّم ذلك أو يستند إلى أدلة باطلة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ
أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن
طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ
وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾
أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ
أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

شرح المفردات

ما أَلْفَيْنا: ما وَجَدْنا.

ينعق: يصيح بالغنم ويزجرها.

بُكْمٌ: الأبكم هو الأخرس.

أُهِلَّ به لغيرِ ٱللَّهِ: الإهلال: رفع الصوت، أي ما ذُبح مذكوراً عليه غير اسم ٱللَّه.

بَاغٍ: ظالم لغيره.

عادٍ: أي لا يتجاوز الأكل من المحرمات ما يدفع عنه الجوع الشَّديد.

لا يُزكّيهم: لا يُطَهِّرُهم من دَنَس الذُّنوب.

شقاق بعيد: خلاف ونزاع بعيد عن الحق.

ذَمُّ التقليد الأَعْمى

كان أكثر العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام ويشركونها في عبادة ٱللَّه، فجاء الإسلام يستنهض العقل البشري من جموده على العقائد الباطلة، ويدعوه إلى التحرر منها، من ذلك دعوته العرب المشركين إلى الإسلام بقوله تعالى:

﴿وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ وإذا قيل للمشركين اتبعوا شريعة الإسلام المتمثلة بالقُرآن المنزل من عند ٱللَّه، كان جوابهم **﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا﴾** أي نتبع ما وَجَدْنا عليه آباءنا من الدِّين. هذا هو لسان حال أكثر أتباع الأدْيان في العالم، وهذا هو الجواب الذي يُتوقع منهم عندما تدعوهم إلى الإسلام، ولكن ٱللَّه يَرُدُّ عليهم مُسَفّهاً عقولهم بقوله: **﴿أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾** الهمزة في **﴿أَوَلَوْ﴾** للإنكار والتعجيب، أي: أَيَتَّبِعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدِّينِ ولا يهتدون للصواب؟!

هذه الآية فيها دعوة لتحرير العَقْل من الجُمودِ على العقائد الموروثة الباطلة، وحَثٌّ للعقل على الانطلاق في مجاله الفكري لتقصّي الحقائق في شأن العقيدة الدينية ليكون الإيمان قائماً على الاقتناع والبرهان والدليل، ولهذا يقول ابن عطية في تفسيره للقرآن: أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد.

فالتقليد في الباطل مذموم، أما التقليد لأهل العلم الأُمناء فهو فَرْضٌ على العاميّ من أمر دينه لأنه ليس عنده من المؤهلات باستنباط الأحكام من أُصولها عملاً بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فما دعا إليه الإسلام من التحرُّرِ من التقليد الأَعْمى للآباء بدون استعمال العقل والوقوف على الدليل هو منهج فكري يتفق مع أرقى ما توصَّل إليه العقل الإنساني في التحرِّي عن الحقائق للوصول إلى الصواب الذي ترتاح إليه

النفس، ثم تأتي الآية التالية وفيها تمثيل لحال هؤلاء الكفار المقلدين آباءهم بهذه الصورة المزرية:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً ونِداءً﴾
يَنْعِقُ: يصيح، وهذا الصياح نوعان: منه الدّعاء، وهو الصياح بالبهائم لتأتي، ومنه النِّداء وهو الصياح بها لتذهب. وقيل: الدُّعاء للقريب، والنداء للبعيد.

هنا صورة في منتهى الروعة حيث صورت الكفار بقطيع من الغنم والماشية وصوَّرت من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تعي أو تفهم ما يتفوه به ذلك الرّاعي.

ثم يُصوّر ٱللَّه حال الكافرين بقوله: **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾** أي صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يتكلمون به لجهلهم إياه، عُمْيٌ عن طريق الهدى **﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾** فهم لا عقل لهم كسبيّ كي يدركوا شيئاً من المعرفة لفقدهم الحواس الثلاث السمع والنطق والنَّظر التي هي وسائل للعلم والثقافة والقراءة، وبدون الانتفاع بهذه الحواس الثلاث لا يستطيع الإنسان أن يتلقَّى شيئاً من العلم.

الطعام حلاله وحرامه

ثم يُخاطب اللهُ المؤمنين بقوله: **﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ﴾** والطَّيبات التي أمر ٱللَّه المؤمنين بالأكل منها هي المستلذات من الأطعمة الحلال التي منّ ٱللَّه بها عليهم ورزقهم منها **﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾** والشكر لله هو الاعتراف بنعمه والثناء عليه، وهذا يستدعي الامتثال لما أَمَر ٱللَّه به واجتناب ما نهى عنه **﴿إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** إن كنتم أيها المؤمنون تخصّون ربكم وحده بالعبادة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ﴾ أي حرّم ٱللَّه عليكم الأكل من الأنعام

الميتة التي تموت من غير ذَبْحٍ، والميتة لا تموت غالباً إلاّ لمرض أو تَسَمُّم أو انْحلال أنسجتها بسبب الهرم، وهذا ما يجعل لحمها مُضِرًّا يتسمم الآكل منه.

كما حرّم عليكم ﴿والدَّمَ﴾ والمراد ما يسيل من الحيوان الحي كثيراً كان أم قليلاً، وهو ما يسمى (الدم المسفوح) والدَّم ضارٌّ بالصحة إذا استعمل غذاء، فالتحليل أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» وهو مادة تضر بالصحة إذا استعمل غذاء، وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات تحتوي على بعض الأمراض المعدية فيكون في ذلك الضرر لمن يتناوله.

وحرَّم اللهُ أيضاً ﴿وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ﴾ لأنه يُؤوي في جسمه عدداً كبيراً من أنواع الطفيليات كما أن الخنزير يُصاب بأمراضٍ شتى تنتقل إلى الإنسان إذا ما أكل من لحمه وتصيبه بأمراضٍ خطرةٍ يمكن أن تُودي بحياته. ومن أخطر الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير (الترخينة) وهي نوع من الديدان السلكية المدورة تنتقل إلى الإنسان إذا أكل من لحمه وتسبب له أمراضاً خطرة على صحته. كما أن لحم الخنزير يحتوي على دُهْنٍ أَكْثَرَ من ضعفي اللحوم العاديّة مما يزيد «الكولسترول» في الجسم ويسبب تصلباً في الشرايين وأمراض القلب.

وحرَّم ٱللَّه على المؤمنين ﴿ومَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ والإهلال: رفع الصوت، والإهلال بالذبيحة لغير ٱللَّه أن يذكر غير اسم ٱللَّه عند ذَبْحها كما يفعل المشركون، فهم إذا ذبحوا رفعوا أصواتهم بقولهم: «باسم اللاَّت، أو العُزَّى، أو مَناة» وهي أسماء أصنامٍ كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم هذه اللحوم أنَّ فيها تشبيهاً بالوثنيين ومشاركةً لهم في عقائدهم، والإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الوثنية.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي فمن ألْجأته الضرورة إلى الأكل من تلك المحرمات،

والمضطر هو الجائع جوعاً مُهلكاً ولا يجد ما يأكله غير تلك المحرمات، ومثله من كان معتقلاً من عدوٍّ أكرهه على أكل لحم الخنزير ﴿**غَيْرَ بَاغٍ**﴾ أي غير طالب للمحرّم وهو يجد غيره، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيهلك الآخر ﴿**وَلا عَادٍ**﴾ ولا متجاوز سدّ الجوع ولكن يأكل قدر ما يمسك به نفسه من الهلاك ﴿**فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ أي من أكل ذلك على تلك الصفة فلا تبعة عليه ولا حرَج ﴿**إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ أي إنه سبحانه غفور لمن أكل من المحرمات عند الضرورة وهو رحيم لمن أطاعَه.

ثم يأتي الكلام عن أحْبار اليهود الذين كتموا عن الناس أمْرَ نُبُوَّة محمدٍ مع أنهم يجدون نعته وصفاته مكتوبة عندهم في التوراة، وقد كانوا يكتمون ما هو مكتوب خشية أن يدخل أهل ملتهم في الإسلام فتضيع مكاسبهم وما هم عليه من جاهٍ ورفاهية ولذيذ الأطعمة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ الكِتابِ**﴾ وكتمان ما أنزل ٱللَّه في كتابه من الأحكام هو أن يخفيه الأحْبار عند السؤال عنه، أو يفسرونه على ما يُوافق هَوَاهم لأنه قد كان فيهم من يعرف الآيات الدالة على نُبُوَّة محمدٍ فكانوا يذكرون لها تأويلاتٍ باطلةٍ ويصرفونها عن معانيها الصحيحة ﴿**وَيَشْتُرونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾ الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، أي يستبدلون ما يجب عليهم من بيان ما في التوراة من الحق بالكتمان لقاء مبلغ زهيد من عرَض الدنيا وشهواتها، وسمى ٱللَّه هذا الثمن بالقليل لأنه ينتفع به مدة قليلة.

﴿**أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِم إلاّ النَّارَ**﴾ أي أولئك الذين يكتمون ما أنزل ٱللَّه لمكاسبهم الدنيوية سيعاقبون يوم القيامة بإرغامهم على أكل النار من جمراتها المشتعلة بحيث تمتلئ بها بطونهم، إنه عذابٌ يفوق الوصف ﴿**وَلا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ**﴾ أي لا يكلمهم كلام رحمةٍ ولا كلاماً يسرهم بل

يكلمهم بالتوبيخ، وهذا كناية عن حلول غضب ٱللَّه عليهم وعدم الرِّضا عنهم ﴿**وَلاَ يُزَكِّيهِمْ**﴾ أي لا يُثني عليهم خَيْراً ولا يُطهرهم من دَنَس الذُّنوب ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ ولهم عذاب موجع يوم القيامة.

﴿**أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى والعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ**﴾ أي أُولئك اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة ﴿**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**﴾ فما أجرأهم على العمل الذي يُقرّبهم إلى عذاب النار مع أنه لا يمكن الصبر عليها.

﴿**ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾ الكتاب: المراد به جنس الكتب الإلٓهيّة التي أنزلها ٱللَّه، والمعنى: أي ذلك العذاب المترتب على الكتمان بسبب أن ٱللَّه نزّل الكتب الإلٓهيّة متلبّسة بالحق ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ**﴾ والذين اختلفوا هم أهل الكتاب بأن آمنوا ببعض كتب ٱللَّه وكفروا ببعضها. وقيل المراد بالكتاب: القُرآن فقد اختلف المشركون فيه فقال بعضهم: هو شِعْر، وبعضهم: هو سِحْر، وبعضهم: هو أسَاطير الأوَّلين ﴿**لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ أي إن الذين اختلفوا في كتب ٱللَّه هم في خلاف ونزاع بعيد عن الحقّ.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ
عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ
وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

شرح المفردات

البرّ: التوسّع في فعل الخير وطاعة ٱللَّه.

قِبَلَ: جهة.

وآتى المال: أعْطى المال.

ابن السبيل: المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال.

وفي الرِّقاب: تحرير نفس من الرِّقّ.

البَأْساء: الشدَّة والفقر.

الضَّرّاء: من الضَّر، وهو المرض ومصائب البدن، وقيل: النقص في الأموال والأنفس.

حين البَأْس: وقت شدة القتال مع الأعداء.

البِرُّ المطلوب من المؤمن

مَرَّ معنا في الآيات السابقة أن قِبْلة المسلمين في الصلاة كانت نحو بيت المقدس وهي قبلة اليهود، ثم أمر ٱللَّهُ بعد ذلك المسلمين بأن يُحَوِّلُوا قبلتهم نحو الكعبة بمكة المكرّمة، وهذا ما أثار لَغطاً وجَدَلاً عند اليهود وأكثروا الخوض فيه، فَنَبَّهَ ٱللَّه في الآية التالية إلى أنَّ الجَدَل في مِثل هذا الأمر خارج عن دائرة البرّ والخير إذْ لا تفاضل للجهات عند ٱللَّه لأنها كلها ملكه، وإنما التفاضل يكون بالإيمان وفيما يفعله الإنسان من وجوه الخير، قال ٱللَّه تعالى:

﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ﴾ البِرُّ: هو التوسع في فعل الخير ولكل طاعةٍ وقربةٍ إلى ٱللَّه. وتولية الوجوه قِبَلَ الشيء: التوجه إلى جهة ذلك الشيء. والمعنى: ليس البر التوجه إلى جهة المشرق والمغرب، بل البر أعظم من ذلك وهو ما ذكرته الآية والتي ترتكز على ثلاثة أُمور: **أولاً**: صحة العقيدة. **ثانياً**: الإحسان إلى الجماعة المحتاجة، **ثالثاً**: تهذيب النفس والعمل بمكارم الأخلاق.

صحة العقيدة

وتتمثل بقوله تعالى: **﴿وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ﴾** فهذا النص القرآني يُبين أن مظاهر البِرِّ تتمثّل بالإيمان بتلك الأمور الخمسة:

١ ـ **الإيمان بٱللَّه**: هو الخضوع والإذعان والعبادة له وحده والتصديق بالصفات الواجبة له سبحانه من الوحدانية والبقاء والقدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفات الكمال التي اختص بها، وأنه وحده سبحانه هو المُدَبِّر لأمور الخلائق يرزقها بفضله، كما أنه هو القاهر فوق عباده ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

والإيمان الصحيح يستتبع صدور الأَعْمال الصالحة من المؤمن واتقاء الشرور، فلذلك نرى الكثير من الآيات في القُرآن التي ذَكَر ٱللَّه فيها **﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾** أضاف إليهم **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحات﴾**.

والإيمان بٱللَّه ينير لنا ظلمات الحياة، ففي ساعة اليأس يتذكَّر المؤمن أن هناك مَلاذاً يلجأ إليه وأن ربَّه قادرٌ على معونته، فليس هناك ما يدعوه إلى اليأس والجزع فتطمئن نفسه وتصغر أمامها المصاعب والأهوال، وقد جاء في القرآن

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٢ ـ **الإيمان باليوم الآخر**: وهو التصديق بالبعث وبما يقع بعده من حساب على الأعمال وثواب وعقاب، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلّهية، وأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في الأرض لا يلقى الجزاء وأن الظالم لن يفلت من ظلمه لأن ٱللَّه أعدَّ له عذاباً أليماً، كما أن الإيمان باليوم الآخر يخفف على المؤمن مصائب الدنيا اعتقاداً منه بما أعدَّ ٱللَّهُ للصابرين من حُسْنِ الجزاء.

٣ ـ **الإيمان بالملائكة**: وهي أجسام نُورانِيّة قادرة على التشكل في صور مختلفة، لا يعصون ٱللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وإنهم سفراء ٱللَّه إلى أنبيائه ورسله يبلغونهم وحي ٱللَّه وإن منهم الذي يقبض أرواح العباد عند استيفاء أجَلِها، وإن منهم من يُدَوِّنُونَ أعمال العباد الحسنة أو السيئة ليجازوا عليها يوم القيامة. كما أن لهم وظائف شتى وَكَّلَهُم ٱللَّهُ بها، وقد أمرنا ٱللَّه تعالى بالإيمان بهم وهو إيمان بالغيب الذي لا يُرى ولا يُحَسُّ، فحقٌّ علينا أن نُؤمن بوجودهم.

٤ ـ **الإيمان بالكتاب**: الكتاب: للجنس أي التصديق بجنس الكتب الإلّهيّة لأنها تحتوي على ما بلّغه ٱللَّه للرسل من الشرائع إلى أممهم، ولهذا يجب على المسلم أن يصدق بالقُرآن وبما سبقه من الكتب التي أنزلها على رسله، ومن هذه الكتب بالإضافة إلى القرآن المنزل على محمد ﷺ: التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزَّل على عيسى عليه السلام، والزَّبُور المنزَّل على داود عليه السلام، وصُحُف إبراهيم عليه السلام، والقُرآن ذكر أن أتباع الديانات السابقة نسوا حظاً مما ذُكِّروا به وطرأ على كتبهم التحريف والتبديل

بسبب طول الزمان عليها وضياع أُصولها، فجاء الإسلام مصححاً لما طرأ عليها من بِدَعٍ وتحريف وتبديل وبيان الحقيقة لما اختلفوا فيه من الدين.

٥ ـ **الإيمان بالنبيين**: وهو التصديق بأنهم رجال اصطفاهم ٱللَّه لتلقّي هدايته وكُتبه وتبليغها للناس بأمانةٍ وصدقٍ، والنبيون والرسل الذين يجب الإيمان بهم هم كل من ثبتت نُبُوّتهم عن طريق القرآن أو الحديث الصحيح المروي عن النبي محمد ﷺ وكل من أنكر نُبُوَّة نبيّ ثبتت نبوّته فقد كفر. والإيمان بالأنبياء يستتبع التخلق بأخلاقهم والاهتداء بهديهم، وقد ذكر ٱللَّه بعض الأنبياء في القُرآن وعقّب على ذلك بقوله: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ**﴾ [الأنعام: ٩٠].

الإحسان إلى الجماعة المحتاجة

ويتمثل ذلك بما ذكرته الآية: ﴿**وآتَى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَساكِينَ وابنَ السَّبِيلِ والسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقابِ**﴾.

ومعنى ﴿**وآتى المَالَ عَلى حُبِّهِ**﴾ أي وأعطى الإنسان المال وهو محب له حريص على جمعه للمحتاجين من عباد ٱللَّه وهم:

١ ـ ﴿**ذوي القربى**﴾: أي من البِرِّ أن يُعطي الإنسان المال المحبوب إليه إلى الفقراء من ذوي قرابته لأنهم أحق ببذل المال لهم، وقد قال رسول ٱللَّه ﷺ: «إنَّ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى الرَّحِمِ[1] اثنتان: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»[2].

(١) الرحم: هم ذوو القربى.

(٢) أخرجه النَّسائي والترمذي وابن ماجه.

٢ ـ ﴿واليتامى﴾: جمع يتيم وهو من فقد أباه قبل أن يبلغ سن البلوغ، واليتامى أحقّ بالإحسان بعد ذوي القرابة لعجزهم عن كسب ما يسدّ حاجاتهم، وإذا أُهمل اليتامى كانوا أعضاءً فاسدين في المجتمع فينشأوا وفي أنفسهم عُقد نفسية فيكون منهم اللصوص وقطّاع الطرق.

٣ ـ ﴿والمساكين﴾: جمع مسكين وهو من لا شيء له من المال أو له شيء لا يكفي حاجاته، فإعطاء المساكين ما يسدّ حاجاتهم هو من البر الذي رغّب ٱللَّه فيه.

٤ ـ ﴿وابن السبيل﴾: وهو المُسافر المنقطع عن ماله ولا يمكنه الاستقراض للرجوع إلى بلده فيعطى من المال ما يسدّ حاجته، وفي هذا تنبيه على أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون كالأسرة الواحدة.

٥ ـ ﴿والسَّائِلِينَ﴾: جمع سائل وهو طالب الصدقة بدافع الحاجة، فمن البر التصدّق عليه إلاّ إذا تبين أنه غير محتاج فإنه لا يُعطى من المال لأنه يتخذ من التسوّل مهنة له.

٦ ـ ﴿وفي الرِّقَابِ﴾ أي تحرير الأرِقَّاء من العبودية وذلك بشرائهم ثم عتقهم أو بإعطائهم المال ليدفعوه إلى أسيادهم الذين كاتبوهم على قدر معلوم من المال يؤدونه لهم نظير عتقهم وتحريرهم من الرق، والإسلام أول دين في الأرض دعا إلى تحرير الرقيق.

وإعْطاءُ المالِ لمن تقدم ذكرهم من المحتاجين هو غير الزكاة، فالزكاة محدودة النوع والمقدار بينما في الآية يُعتبر بذل المال من باب الصدقات التي يُثاب عليها المؤمن، وهي غير محددة، يتراوح ثوابها حسب ما يبذله المتصدق عن طيب نفسه.

التهذيب النفسيّ والعمل بمكارم الأخلاق

ويتمثل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ﴾ وإليكم ما في تلك الأمور من توجيهات طيبة:

١ ـ ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ أي من أعمال البر أداء الصلاة بأركانها وشروطها، ففي الصلاة تَوَجُّهٌ إلى ٱللَّه سبحانه ومناجاته والثناء عليه، والاعتراف بأنه هو المعبود وحده، وهو المستعان، ومن شأن ذلك أن يغرس في قلب المؤمن مراقبة ٱللَّه والخشية من عصيانه فتصدر أعماله وفق أوامر ٱللَّه.

٢ ـ ﴿وآتى الزَّكَاةَ﴾ ومن أعمال البِرِّ إعْطاء الزكاة المفروضة لمستحقيها، والزكاة من معانيها في اللغة: الطهارة فهي طهارة لنفوس الأغنياء من البخل والأنانية والطمع، وطهارة لنفوس الفقراء من الحسد والبغض للأغنياء. والزكاة يجب إعطاؤها للمحتاجين عن كل ما يملكه الشخص ملكاً تامًّا من أموال عينيه وبضائع تجارية وزراعة ومواشٍ شرط أن تكون زائدة عن حوائجه الضرورية، وأن يملك نصاباً من المال، وأن تمضي سنة على ما يقتنيه. وقد بيّن ٱللَّه مصارفها بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]. هذه لمحة عن الزكاة التي تحتاج إلى شرح وتفصيل يُرجع إليها في الكتب المختصة في هذا الموضوع.

٣ ـ ﴿وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا﴾ والوفاء بالعهد من أعمال البِرِّ، وهو يشمل العهد مع ٱللَّه ومع الناس. فالعهد مع ٱللَّه هو ما أخذه ٱللَّه على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته؛ أما العهد مع الناس فيشمل ما يكون بينهم من عقود ومواثيق فيجب الوفاء بها وهي من أعمال البِرِّ التي دعا إليها.

والالتزام بالمواعيد هو من الوفاء بالعهد وهو من أجَلِّ الصفات التي يتحلَّى بها الإنسان والتي بها ينتظم حسن العلاقات بين الناس.

٤ ـ ﴿**وَالصَّابِرِينَ في البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ**﴾ والصبر من أنواع البِرِّ وهو مِلاك الأخلاق الإنسانية، وقد عددت الآية الأحوال الشديدة التي تحتاج إلى الصبر وهي: الصبر في البأساء، والبأساء: الفقر والشّدَّة، والضراء: ما ينال الجسم من مَرَضٍ عارضٍ أو مرض خطير أو فقد عضو من أعضائه، والصبر حين البأس: هو حين القتال وحين تدور رحى الحرب. هذه الأحوال هي أشد الأمور التي يحتاج فيها الإنسان إلى الصبر، وقد وعد القرآن الصابرين بالثواب الجزيل يوم القيامة حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ثم ختم ٱللَّه آية البر التي جمعت صفات الكمال البشريّ وأفعال الخير بقوله تعالى: ﴿**أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ**﴾ هنا تنويه بشأن الذين تحلّوا بهذه الصفات التي ذكرتها الآية حيث وصفهم ٱللَّه بالصدق، فهم الذين صدقوا في إيمانهم وحققوا أقوالهم بأفعالهم، كما وصفهم ٱللَّه بالتقوى، فهم الذين اتقوا عقاب ٱللَّه بتجنب معاصيه، واتقوا عقاب ٱللَّه بأداء فرائضه.

وهكذا نرى آية البِرِّ على إيجازها صورت جميع مكارم الأخلاق وأرْفَع الخصال البشرية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

شرح المفردات

القِصاصُ: إنْزالُ العُقُوبة بالجاني بمثل جنايته.

فمن عُفِيَ له من أخيه شيء: أي إذا صفح وليّ القتيل عن القاتل تجب الدِّيَة.

فاتّباعٌ بالمعروف: أي فَلْتكن مُطالبَة وليّ القتيل بالدِّيَة بالمعروف بحيث لا تُرهق القاتل.

وأداءٌ إليه بإحْسان: وعلى القاتل أن يُؤدي الدِّيَةَ إلى أهل القتيل من غير مماطلةٍ ولا بخسٍ لحقهم.

عقوبة القاتل عن عَمْدٍ

لا تخلو المجتمعات الإنسانية من مُنحرفين ضالِّين يعتدون على النفس بالقتل عَمْداً، لذا كان من الحكمة الإلَهية وجوب تأديبهم والاقتصاص منهم.

وقد كان للعرب قبل الإسلام عادات من بينها قتل القاتل ولكنهم كانوا يسرفون في ذلك ولا يتوخّون العَدْل فكانوا كثيراً ما يعاقبون البريء بدلاً من القاتل عن طريق قتلِ أحَدِ أقْرِبائه ثَـأْراً لقتيلهم، وكانوا يهملون دم الوضيع إذا قتله الشريف.

لذا جاء الإسلام بتشريعه العادل في عقوبة القتل عن عَمْدٍ، قال اللَّه تعالى:

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصاصُ في القَتْلَى﴾ كُتِبَ عليكم: أي فُرِضَ عليكم، والقِصاص: العُقُوبة بالمِثْلِ من قَتْلٍ أو جَرْحٍ. والقتلى: جمع

قتيل، وإنما يُفْرَضُ القِصاصُ عند القتل الواقع على وجه العَمْد والعُدْوان وحيث يُطالب به أولياء القتيل ـ وقد صدرت الآية بخطاب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للحضّ على إنفاذ حكم القِصاص، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل المؤمنين على تنفيذ شريعة ٱللَّه التي فيها الخير لهم.

ثم فَصَّلَتِ الآيةُ حُكم القِصاص في القتلى فقال ٱللَّه تعالى: ﴿الحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أي الحُرُّ القاتل يُقتل في مقابل الحُرِّ الذي قتله ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ والعبد يُقتل في مقابل العبد الذي قتله ﴿والأُنْثىٰ بالأُنْثىٰ﴾ والأُنثى تُقتلُ في مقابل الأُنْثى.

هذا بيان لمعنى المساواة في القتل المشار إليه بلفظ القِصاص ومفاده أنْ يُقتلَ القاتل بالذي قتله دون ما سواه. كما أنَّ النص القرآني يُبطل ما كان جارياً عند العرب قبل الإسلام حيث إن القبيلة القويّة إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصاً لا ترضى إلاّ أن تقتل مقابله أشخاصاً من القبيلة الضعيفة.

ثم إن الآية ذكرت حكم القِصاص في النوع الواحد ولم تتعرض للحكم ما إذا اختلف القاتل والقتيل نوعاً، كما إذا قتل حُرٌّ عَبْداً، أو قتل رَجُلٌ امرأةً أو العكس، ولكن نرى في نَصِّ القُرآن الدعوة إلى التساوي في النفوس أي النفس بالنفس كما قال ٱللَّه تعالى في شأن القِصاص الذي فرضه على بني إسرائيل ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن القواعد الجارية عند المسلمين أن شرع ما قبلهم يجب العمل به إذا لم يرد في شرعهم ما يَنْسَخه، ولهذا جرى العمل منذ زمن رسول ٱللَّه ﷺ إلى ما بعده على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل.

وهنا يأتي سؤال: أَيُقْتَلُ المسلم بالكافر إذا قَتَلَهُ؟ قال جمهور من العلماء:

إنه لا يقتل مسلم بكافر لقول النبي ﷺ: «لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكافِرٍ»[(١)] أما الإمام أبو حنيفة وأصحابه فيرون أن المسلم يُقتل إذا قَتَلَ ذمّيًّا وهما متساويان في الحرمة التي تستوجب القِصاص لأن كلاهما صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الذمّي، وهذا يدل على أن مال الذمّيّ مساوٍ لمال المسلم وحُرمة دم الذّميّ أعظم من حرمة ماله.

والإسلام لم يحتّم إنزال العقوبة بالقاتل عن عَمْد بل ترك الأمر لوليّ القتيل الذي جعل له الحق بأن يطلب من الحاكم الاقتصاص منه بأن يُقتل أو العفو عنه مع أخذ الدِّيَة، قال ٱللَّه تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ له من أَخِيهِ شَيءٌ**﴾ عُفِيَ: من العفو وهو إسقاط العقوبة عنه والذي عُفِيَ له هو القاتل. و ﴿**أخيه**﴾ الذي عفا هو وليّ المقتول. والمراد بلفظ ﴿**شيء**﴾ القِصاص. ومعنى هذه الجملة التي صيغت عن طريق الإيجاز: أنّ وَلِيّ المقتول إذا أسْقَط القِصاص عن القاتل يكون من شأنه طلب الدِّيَة على هذا الوجه ﴿**فَاتِّباعٌ بالمَعْرُوفِ**﴾ وَصِيَّةٌ من ٱللَّه لِوَليّ المقتول بأن يتبع عفوه بالمعروف فلا يثقل عليه بالدِّيَة التي لا يستطيع أداءَها ولا يحرجه في الطلب ﴿**وأداءٌ إلَيْهِ بإحْسانٍ**﴾ وصية للقاتل بأن يؤدي الدِّية بإحسان فلا يماطل في دفعها ولا يبخس فيها ﴿**ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَبِّكُم وَرَحْمَةٌ**﴾ فهو امتنان من ٱللَّه سبحانه على عباده بما في هذا التشريع الذي تضمّن فتح باب العفو والاكتفاء بالدية فإنها تخفيف على القاتل وتعود بالنفع لأولياء القتيل ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ**﴾ هنا تحذير لمن يرجع بعاطفة الغضب إلى قصد الانتقام فيقتل الجاني الذي سبق أن عفا عنه مقابل الدِّيَة، فهذا المعتدي له عذاب في الدنيا بالاقتصاص منه وعذاب بالآخرة بما أعد ٱللَّهُ له من عقاب.

---

(١) أخرجه البخاري.

ويُلاحِظُ أنَّ الإسلام، في القِصاص للقتلى، جعل الحق لأولياء المقتول وهم ورثته، ولا فرق بين ذَكَرٍ وأُنثى، فهؤلاء الوَرَثَة لهم أن يطلبوا من الحاكم تنفيذ حكم الشرع بقتل الجاني شفاءً لغيظ نفوسهم، لأنه إذا لم يُجِبْهُم القاضي إلى طلبهم ولم يَقْتَصَّ لهم من القاتل أدّى ذلك إلى الأخذ بالثأر وتسلسل جرائم القتل كما أن لأولياء القتيل العفو عن الجاني، ولكن هناك عقوبة تعزيريّة بدلاً من القِصاص وهي تكون بالقدر الذي يراه القاضي صالحاً لتأديب الجاني ودفع ضرره: مِنْ حَبْسٍ أو نَفْيٍ أو قَتْلٍ إذا كان يُهَدِّد السلامة العامة.

وهناك أحكام أخرى للقتل عن عَمْدٍ نذكر بعضها فيما يلي:

- يُقتصّ من الجماعة بقتل الواحد، فإن رأى أولياء القتيل - أي وَرَثَته - قتل الجناة قُتِلوا جميعاً، ولهم الحق أن يعفوا عن بعض الجناة والاقتصاص من الآخرين.

- الوَالِدُ لا يُقْتَلْ بِقَتْلِهِ ولده، فالأب هو سبب وجود الابن فلا يكون الولد سبباً لإفنائه.

- القتل الخطأ لا قِصاص فيه وعقوبته تحرير رقبة مؤمنة من الرق ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بتنازلهم عنها.

- إذا عفا بعض أولياء القتيل عن الجاني وخالف البعض الآخر سقط القصاص عن الجاني وعاد الأمر إلى الدِّيَة.

ثم يتبع ٱللَّهُ آيةَ القِصاص بقوله: ﴿**وَلَكُمْ في القِصاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ**﴾ هذه الآية ترتقي إلى أعظم مراتب البلاغة، فإنها على إيجازها تشتمل على المعاني الآتية:

١ - سُمِّيت العقوبة قِصاصاً لأنَّ القِصاص يتضمن المساواة بين الجريمة والعقوبة وفي هذا منتهى العدالة.

٢ ـ أَعلنت الآية أن القِصاص فيه حياة الجماعة: ﴿**ولكم في القِصاصِ حَياةٌ**﴾ لأن من يعلم أنه سَيُقْتَصُّ منه إذا قَتَلَ، يمتنع عن القتل فيتسبب بذلك في حياة نفسه وحياة من يُريد قتله، كما أن سافكَ الدِّماء إذا اقتُصَّ منه ارتدع من كان يهمّ بالقتل فلم يقتل، فكان القِصاص سبباً للحياة. وإذا لم يكن هناك قِصاصٌ أُهْدِرَتِ الدِّماءُ وأصبح الأمر لذي الغَلَبَة والقُوَّة وسرى في المجتمع الأخذ بالثأر.

٣ ـ أشارت الآية إلى أن غاية القِصاص وحكمته تدركها العقول السليمة وهذا ما ذكرته الآية ﴿**يا أُولِي الأَلْبَاب**﴾ الألباب: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام.

٤ ـ ختمت الآية بقوله تعالى ﴿**لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ**﴾ أي فرضنا عليكم القِصاص للقاتل لتتقوا الجريمة خوفاً من العقوبة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ
لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

شرح المفردات

حَضَرَ أَحَدَكُم الموتُ: ظهرت أماراته من العلل والأمراض الخطيرة.
تَرَكَ خَيْراً: ترك مالاً.

الوصية: هي ما يُوصي به إنسانٌ من مالٍ أو غيره لِيُصْرَفَ بعد موته لشخص أو جهة معيّنة.
فمن بَدَّلَهُ: فمن غَيَّر الوَصِيَّة بالزيادة أو النقصان أو أنكرها.
إِثْمُهُ: الإثم ارتكاب الذنب.
جَنَفاً: الجَنَفُ هو الجوْر والميل عن الحقّ.

الوَصِيَّـة بالعَدْل

ويُتابع القرآن فيدعو إلى الوصية للوالدين والأقربين وأن تكون الوصية بالحق والعدل ليعمّ نفعها ويحصل الخير منها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿**كُتِبَ عَلَيْكُم إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ**﴾ كُتِبَ عليكم: بمعنى وجب عليكم، وحضور الموت حدوث أسبابه وظهور علامات على أن الموت صار قريباً بسبب العلل والهرم البالغ والأمراض الخطيرة ﴿**إِنْ تَرَكَ خَيْراً**﴾ والخير: المال، ومقام الأمر بالوصية فيه يُشعر بأنّ المراد بالخير: المال الكثير، وجمهور العلماء يرى أن الوصية مشروعة في المال قليله أو كثيره ﴿**الوَصِيَّـةُ لِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ**﴾ أي وجب عليه أن يُوصي بجانبٍ منه لوالديه: أبيه وأمه وأقاربه ﴿**بالمَعْرُوفِ**﴾ أي إنّ الوصية يجب أن تكون بالعَدْل الذي هو متعارف بين الناس وأن لا تتجاوز ثلث المال، وأن لا تكون الوصية للأغنياء ويحرم منها الفقراء ﴿**حَقًّا على المُتَّقِينَ**﴾ وهذه الوصية هي واجبة ثابتة ينفّذها المتّقون لله.

وقد كانت الوصية في بدء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من له مال، وسبب ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا يوصون للأبعدين طلباً للفخر والجاه ويتركون الأقربين فقراء فأوجب ٱللَّه تعالى الوصية للأقربين وفي طليعتهم الوالدين، وجمهور المفسرين والفقهاء يرون أن هذه الآية منسوخة بآيات الميراث في سورة النساء التي خصت الوالدين والأقارب ممن يرثون بنصيب من

ميراث المتوفى ودليلهم في ذلك: أن النبي ﷺ خطبهم قائلاً: «إنَّ ٱللّه قد قسم لكل إنسانٍ نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وَصِيَّة»[١].

والقائلون بنسخ وجوب الوصية للوارث قالوا: إن النسخ مقتصر على الذين يرثون ولكنها مستحبة فيمن لا يرثون كأن يكون الوالدان كافرين أو يكون الأقارب ممن لا يرثون[٢].

كما ذهب جمهور العلماء إلى أن الوصية يكون حدّها الأعلى: الثُّلُث من مال المتوفى، فإذا زادت عن الثلث بَطُلَ ما زاد عن الثلث. وفي الصحيحين «أن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول ٱللّه إن لي مالاً ولا يرثني إلاّ ابنة لي أَفَأُوصي بِثُلُثَي مالي؟ قال: لا، قال: فبالشطر[٣]؟ قال: لا، قال: فالثُّلُثُ؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إنْ تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٢) وبعض فقهاء السَّلَف قالوا بوجوب الوصية للوالدين أو الأقارب الذين لا يرثون، وهذه الوصية الواجبة أصبحت علماً يقصد بها إعطاء الحفيد المحجوب بالميراث حصة من مال جَدِّه لا على سبيل الإرث وإنما على سبيل الوصية الواجبة، فلو كان للأب ابنان توفي أحدهما في حياته وله أولاد ثم توفي الأب فإن ميراثه كله للابن الحي ولا شيء لأولاد الابن المتوفى لأنهم محجوبون بالابن الذي هو أقرب درجة.
ولكن الذين شرعوا الوصية الواجبة خصصوا لهذا الحفيد حصة من مال جَدّه لا على سبيل الإرث وإنما على سبيل الوصية الواجبة، ولهذا أخذ بالوصية الواجبة القانون الصادر في مصر سنة ١٩٤٦ والقانون الصادر في سوريا سنة ١٩٥٣، وقال المشرّعون: إنه يفرض لهذا الحفيد المحجوب بالميراث حصة من مال جَدّه بمثل حصة أبيه الإرثيّة لو كان حيًا شرط أن لا تزيد عن الثلث الباقي من التركة سواء كان هذا الفرع واحداً أو متعدداً وسواء أوْصى الميت أو لم يوصِ، أو أجاز الوَرَثَة أو لم يجيزوا. نقلاً باختصار عن كتاب «الميراث على المذاهب الأربعة» للعلامة القاضي الشيخ حسين غزال.

(٣) الشطر: النصف.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ فمن غَيَّرَ الوصية الواقعة بالعدل بالزيادة في الموصى له أو النقص من حصته من بعد ما سمعها وتحقق منها من الوصيّ ﴿فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي إنما الذنب يقع على الذين يُبَدّلون الوصية، ومن يُتوقع منهم تبديل الوصية هم الأوصياء المكلفون بتنفيذ الوصية وكذلك الشهود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن ٱللَّه سميع لما أوصى به الموصي، عليمٌ بما يقع فيها من تبديل وتغيير.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً﴾ الخوف: المُراد به هنا العلم عن طريق المجاز، والفَرْق بين الجنف والإثم: أن الجنف هو الميل على جهة الخطأ من حيث لا يدري أنه يجور[١]، والإثم هو الذنب الذي يفعله الإنسان عن قصد. والمعنى: أي من علم في وصية الموصي ميلاً عن الحق خطأ أو إثماً مقصوداً بأن حرم من وصيته من يستحق من أقربائه أو قدّم عليه من هو أبْعَد نَسَباً أو أوصى إلى غنيّ من أقربائه وترك فقراءهم، أو أوصى لبني ابنه ليكون المال لأبيهم ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من علم ذلك فسعى في إصلاح الوصية وطلب من الموصي تبديل وصيّته، أو سعى إلى إصلاح الوصية بعد وفاة الموصي بتبديل ما هو جائر إلى ما هو حق فأصلح ما وقع بين الورثة من خلاف فلا إثم عليه، بل يكون له ثواب الإصلاح ﴿إِنَّ ٱللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة لمن قصد الإصلاح في الوصية.

وكان قتادة وهو من أئمة المفسرين يقول: من أوصى بجوْر أو حيف[٢] في وصيته فردَّها وليّ المتوفى أو إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب ٱللَّه وإلى العدل، فذاك له (أي جائز ومطلوب).

---

(١) الجوْر: الظلم.

(٢) الحيف: الظلم.

ويقول ابن عباس: إذا اخطأ الميت في وصيّته أو حاف[1] فيها، فليس على الأَولياء حرج أن يَرُدُّوا خطأه إلى الصواب.

هذا وقد حذَّر الرسول محمد ﷺ من الإضرار في الوصية فقال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة ٱللَّه ستين سنة ثم يحضُرُهما الموت فَيُضارَّان في الوَصِيَّةِ فتجب لهما النار»[2].

وهنا تظهر عظمة التشريع الإسلامي بتوجيهه أُولي الأمر أن يعملوا على جعل الوصية في حدود العدْل والحق، ليس فيها جنوح إلى الظلم فَتَمْنَحُ أشخاصاً غير مستحقّين وتَحْرُمُ آخرين أحقّ منهم بالوصية، بالإضافة إلى ذلك بأن تكون الوصية في حدود الثلث من المورث لغير الورثة حتى لا يُحرم الورثة من نصيبهم الذي بيَّنه القرآن.

ويزداد إعجابنا بعظمة التشريع الإسلامي عندما نقرأ أن بعض الأشخاص في الدول الغربية يوصون بأموالهم كلها للكلاب والقطط ويحرمون الورثة مما يستحقون من مال، أو يخصّون فرداً بعيداً عن العائلة بأموالهم كلها، والغريب أنّ مثل هذه الوصية تنفّذ على هذا الوجه الموصى به حسب قوانينهم المدنيّة.

(١) حاف: ظلم وجار.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن
كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ
لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ
ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ
وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ
عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا
يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

شرح المفردات

كما كُتِبَ على الذين من قبلكم: كما فُرِضَ على الأُمم التي سبقتكم.

لعلّكم تتقون: لتتقوا المعاصي بصيامكم.

فَعِدَّةٌ من أيام أُخَر: أي تصوموا الأيام التي أفطرتموها.

يُطيقونه: يحتملونه بمشقة كبيرة كما في كبير السن.

فمن تطوَّع خيراً: فمن زاد على القدر المذكور في الفدية.

هُدًى للنّاس: هادياً ومرشداً من الضلالة.

بَيّنات: آيات واضحات.

الفُرقان: الفارق بين الحق والباطل.

فمن شَهِد: حضر أو علم به.

ولتُكمِلُوا العِدَّة: ولتكملوا عدد أيام شهر رمضان صياماً أداءً وقضاءً.

فريضةُ الصيام وأحكامها

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الصوم وأحكامه الذي فرضه ٱللَّه على المؤمنين قال ٱللَّه تعالى:

﴿ياأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ عَلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يُخاطب ٱللَّه المؤمنين من أُمَّة محمدٍ بأنه قد فرض عليهم الصيام كما كان مفروضاً في الأُمم السابقة، وإن اختلف الصيام بين أُمّة وأُمّة في الكيفية والمدة.

والصيام شرعاً في الإسلام: الإمساك عن الطعام والشراب والامتناع عن المباشرة الزوجية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طيلة شهر رمضان مع النية امتثالاً لأمر ٱللَّه.

وقد شرع ٱللَّه الصيام في الإسلام لما فيه من الخير والفضائل للإنسان والمجتمع، كما بيّن رسول ٱللَّه محمد ﷺ بأن الصيام من أركان الإسلام الخمسة حيث قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلَه إلاّ ٱللَّه، وأن محمداً رسول ٱللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت[١] من استطاع إليه سبيلاً»[٢].

ثم بيّن ٱللَّه الغاية من الصوم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلّ: بمعنى الإعداد والتهيئة، أي إن الصوم يهيئ النفوس ويُعدّها للتقوى، والتقوى هي وقاية النفس من كل ما يعرّضها لغضب ٱللَّه وعذابه، ويكون ذلك بالامتثال لأوامر ٱللَّه واجتناب نواهيه.

وإعداد الصيام نفوسَ الصائمين لتقوى ٱللَّه يظهر من وجوه كثيرة أهمها

(١) البيت: هو بيت الله الحرام.

(٢) متفق عليه.

وأعظمها شأناً: أن أمر الصيام موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه إلاّ ٱللَّه، فإذا ترك الصائم شهواته من الطعام وغيره التي تُعرض له أثناء الصوم امتثالاً لأمر ٱللَّه شعوراً منه بأن ٱللَّه تعالى يعلم أحواله فلا جرَم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة طيلة شهر رمضان ملَكة مراقبة ٱللَّه تعالى وخشيته والحياء منه بأن يراه حيث نهاه، هذه المراقبة أيضاً تؤهّله لكل أعمال الخير وتبعده عن الشر، ولهذا يقول رسول ٱللَّه محمد ﷺ: «إنما الصوم جُنَّة (أي وقاية) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يَرْفُث[١] ولا يَجْهَل[٢]، وإن امرؤ قاتله أو شاتَمه فليقل: إني صائِمٌ، إني صائِمٌ»[٣].

والصيام يربّي في الصائم الوازعَ الإنساني الداخلي الذي يحفزه نحو الخير والعطف على المساكين، فإنّ الصائم إذا ذاق أَلَمَ الجوع في شهر رمضان ذكر ما يُقاسيه المساكين من آلام الجوع في سائر الأيام فيتسارع إليه شعور الرحمة بهم والعطف عليهم.

كما أن الصوم يقوّي الإرادة، فالذي يصبر على آلام الجوع والعطش ويكبح نفسه عن الشهوات الجنسية وقت الصيام احتساباً لأمر ٱللَّه لا شك أنه يحصل له من جرّاء ذلك قوة في الإرادة تجعله مالكاً لزمام نفسه وليس أسيراً ومستعبَداً لأهوائه ورغباته الضارّة.

وأخيراً نقول: إن في الصيام شفاءً لكثير من العِلَل والأمراض الناشئة عن الإسراف في الطعام وهذه حقيقة اعترف بها الأطباء.

---

(١) فلا يرفث: المراد بالرفث هنا الكلام الفاحش.

(٢) ولا يجهل: ولا يفعل شيئاً من أفعال أهل الجهل والسفه في المخاصمة.

(٣) أخرجه البخاري.

وبعد هذه المقدمة نتابع ما ذكره ٱللَّه عن الصوم بقوله:

﴿أيّاماً مَعْدُوداتٍ﴾ والمُراد بهذه الأيام المعدودات التي يجب فيها الصوم شهر رمضان. والتعبير عن شهر رمضان بأنه أيام معدودات لتقليل مدّته وتيسيره على الصائمين، وكأنّ ٱللَّه سبحانه يقول: فرضناه شهراً تُعَدُّ أيامه ولم نفرضه أكثر من ذلك رحمةً بكم.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ﴾ أي من كان من المسلمين في مرض أو سفر فقد أباح ٱللَّه له أن يمتنع عن الصيام ويفطر مدة المرض أو السفر، والمرض المبيح للإفطار هو الذي يُحدث أَلَماً وضَرَراً للصائم أو يزيد المرض شدةً أو يطيل مدّته؛ والذي يقرر الضرر من صيام المريض الطبيب المسلم المختص. كما يُباح للمسافر(١) الإفطار في شهر رمضان. ثم يقول ٱللَّه سبحانه ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أيّامٍ أُخَرَ﴾ العدة: العدد من الأيام، أي فعلى المسافر والمريض قضاء الأيام التي أفطرا فيها، وهذه الأيام التي يُقضى بها تبتدئ من وقت القدرة على الصوم كما ذهب الإمام أحمد، وأوجب الشافعي أن تكون في السنة التي يكون فيها رمضان.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والطاقة: اسم للقدرة على عمل الشيء مع الشدّة والمشقة، ولا تقول العرب: أطاق الشيء، إلاّ إذا كانت قدرته عليه في غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة.

---

(١) يُباح الفطر للمسافر بشرط أن يكون السفر مسافة تبيح قصر الصلاة وهي مسافة سفر يوم وليلة بسير الإبل، هكذا كان في زمن نزول القرآن، وقدَّر العلماء المسافة بثمانين كيلومتراً ومايتان. وفي عصرنا الحاضر تُقطع هذه المسافة في فترة قليلة من الوقت بواسطة السيارات والطائرات، وعلى هذا، فالمسافر الذي لا يقاسي مشقة شديدة في سفره، فالأفضل له أن يصوم، كما قال مالك والشافعي في بعض ما رُوي عنهما: الصوم أفضل لمن قوِيَ عليه.

وإن الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم والمرأة الكبيرة الهرمة اللذين لا يستطيعان الصوم، فعليهما إطعام مسكين عن كل يوم أفطرا فيه ولا قضاء عليهما، أما المرضع والحامل فلهما أن تُفطرا وتقضيا الأيام التي أفطرتا فيها في شهر رمضان بعد نهاية الحمل أو الانتهاء من الرّضاعة ولكن ليس عليهما فِدْيَة(١).

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي فمن تطوع خيراً بأن زاد على القدر المفروض في الفدية أو أطعم أكثر من مسكين فتطوُّعه سيكون خيراً له وأجره عند ٱللَّه ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأن تصوموا خير لكم من الفطر إن كنتم تعلمون ما في الصوم من فضيلة وخير وفائدة.

﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ﴾ أي إن ٱللَّه شرّف شهر رمضان بإنزال القرآن فيه وكان ذلك في ليلة القدر، قال ٱللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أي ابْتَدأ إنْزال القُرآن في تلك الليلة ـ وهناك معنى آخر كما رُوي عن ابن عباس والحسن رضي ٱللَّه عنهما أن القرآن أُنزل في تلك الليلة إلى سماء الدنيا جملةً، ثم أُنْزِل مُفَرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث ﴿هُدَى للنَّاسِ﴾ أي إن القرآن أُنزِلَ لهداية الناس من الضلال ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَانِ﴾ وهو يشتمل على آيات واضحات ترشد إلى الحق وتبيّن الحلال والحرام وتفرّق بين الحق والباطل.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن شهد: أي حضر أو علم، والمعنى: فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيماً وليس عنده

---

(١) هذا ما ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه، وقال الشافعي وأحمد: يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً ويقضيان الأيام التي أفطرا فيها.

عذر يمنعه من الصوم، أو علم منكم بحلول شهر رمضان ـ والمراد بالشهر في الآية: الهلال، فقد كانت العرب تعبّر عن الهلال بالشهر، فعلى كل من رأى هلال رمضان وثبتت عنده رؤية غيره له عليه أن يبدأ صومه، ويثبت شهر رمضان بأحد أمرين:

الأول: أن يُرى الهلال فِعْلِيًّا إذا كانت السماء صافية.

الثاني: إذا كانت السماء غائمة ويمتنع معها رؤية الهلال فيجب إكمال شهر شعبان ثلاثين يوماً لقول النبي ﷺ: «صُومُوا لرؤيته وأفْطِروا لرؤيته، فَإنْ غُمَّ[١] عليكم، فأكملوا عِدَّة شعبان ثلاثين»[٢].

﴿**وَمَنْ كان مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ**﴾ تكرّرت هذه الجملة في الدعوة إلى الصوم وذلك لأهميّة تلك الرخصة التي شرعها ٱللَّه للتخفيف من مشقة الصيام على المريض والمسافر، والحكمة من هذه الرخصة بيَّنها ٱللَّه بقوله: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ**﴾ أي يُريد ٱللَّه لكم ما فيه السهولة واليسر للتخفيف عنكم من عناء الصوم حيث أباح الفطر لكم عند السفر أو المرض ﴿**وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ**﴾ ولا يريد ٱللَّه أن يرهقكم بالصوم عند المرض والسفر لرأفته وسعة رحمته بكم ﴿**وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ**﴾ ولتكملوا صيام عدد أيام شهر رمضان فلا تنقصوا من عدده يوماً أو أكثر فإن صيامه كله مفروض عليكم ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ على ما هَدَاكُمْ**﴾ والمراد بهذا التكبير هو تعظيم ٱللَّه على ما هداكم إليه من صيام هذا الشهر المبارك بأن تقولوا: (ٱللَّه أكبر) وهي جملة تدلّ على أن ٱللَّه أعظم من كل عظيم، وإثبات العظمة له وحده يستلزم نقصان مَن

(١) غُمَّ: خفي.

(٢) متفق عليه.

عداه الذي لا يستحقّ الألوهية، لذلك كان من السنّة النبوية أن يُكَبِّر المسلمون عند الخروج إلى صلاة عيد الفطر، ويُكَبّر الإمام في صلاة العيد ويكبّر المسلمون معه كما يكبّر الإمام في خطبة العيد، وينقطع التكبير عند انقضاء صلاة العيد ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا ٱللَّه على ما أنعم عليه من الهِداية والتوفيق لصيام هذا الشهر المبارك الذي فيه النفع لكم في الدنيا والثواب في الآخرة.

فضيلة الصيام: يقول الرسول محمد ﷺ: «إن في الجنَّة باباً يُقالُ له الرَّيّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقالُ: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أَحَدٌ غيرُهم، فإذا دخلوا أُغلِقَ فلم يدخل منه أحَدٌ»(١).

ويقول الرسول محمد ﷺ أيضاً: «مَنْ قام لَيْلَةَ القَدْرِ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»(٢).

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا
دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ
لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ
لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ
وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ
ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي
ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

شرح المفردات

يَرْشُدون: يهتدون إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

الرَّفَثُ إلى نسائكم: المراد به المباشرة الزوجية.

تختانون أنفسكم: تخونون أنفسكم.

باشِروهن: المراد بالمباشرة الجِماع.

وابتغوا ما كَتَبَ ٱللَّه لكم: واطلبوا ما أحل ٱللَّه لكم منهن.

عاكِفون في المساجد: الاعتكاف ملازمة المسجد والمكوث فيه للعبادة.

تلك حُدودُ ٱللَّه فلا تقربوها: تلك ما حرَّمَهُ ٱللَّه ونهى عنه فلا تقربوا ما نهى عنه.

الدُّعاء من العبادة

ويُتابع القرآن الكلام عن الصيام وما يشتمل عليه من بعض الأحكام مستهلاً ذلك بالحضِّ على الدُّعاء لأن الدعاء مستجاب من ٱللَّه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ورد في أسباب نزول هذه الآية: أنَّ أعرابيًّا قال: يا رسول ٱللَّه أقريبٌ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل ٱللَّه عزّ وجلّ قوله: ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنّي قَرِيبٌ..﴾[1] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي﴾ والمراد بالعباد هنا المؤمنون الذين يشعرون بحق العبودية لله ويرتضونها طيّبة نفوسهم بها، ومعنى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ والمراد بالقرب: الإحاطة والعلم لا القرب المكاني لأنه محال على ٱللَّه إذ يقتضي أنه جسم وٱللَّه سبحانه يتنزه عن ذلك، ولذا جاء في القرآن ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤٠] أي يعلم في أي مكان كنتم، وٱللَّه سبحانه قريب من عباده قرب إجابة ورضا ورحمة.

وتأمل كيف أن الجواب على سؤال الأعرابي لم يأتِ بلفظ (قُلْ) أي قل لهم يا محمد كما وقع في الجواب على أسئِلتهم الواردة في آياتٍ أُخرى بل تولى ٱللَّه الجواب بنفسه إشعاراً بشدة قربه من عباده.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ﴾ أي إن ٱللَّه يُجيب دعوة الذي يدعوه إذا صدر هذا الدعاء عن إيمانٍ وخشوعٍ وعن طيب مأكل، وبما أنَّ هذه الآية وردت بين آيات الصيام فإنها تُشعر بأن استجابة الدعاء مرجوّة في شهر رمضان أكثر من أيام غيره وبذا يكون استحباب الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان، وقد رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «الصّائِمُ لا تُرَدُّ دَعْوَتُه»[2] كما رُوي أيضاً عن النبي ﷺ قوله: «ثلاثة لا تُردُّ دَعْوَتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة

---

(١) رواه الطبري في التفسير.

(٢) أخرجه الترمذي.

المظلوم»[١] هذا مع العلم أن استجابة الدعاء تابعة لمشيئة ٱللَّه كما جاء في القرآن: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وجاء في القرآن أيضاً في الدعوة إلى الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ففي هذه الآية وصف ٱللَّه الدعاء بأنه عبادة يستحق من يستكبر عنها غضب ٱللَّه، ورُوي عن النبي ﷺ قوله: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ»[٢].

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي فليجيبوني فيما أدعوهم إليه من طاعتي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وليصدّقوا أني أجزل لهم الثواب والكرامة في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليهتدوا إلى ما فيه رشدهم وصلاح أمرهم الذي هو وسيلة لسعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُمْ﴾ الرفث: كناية عن الجِماع. أي أَحلَّ ٱللَّهُ لكم ـ أيها المؤمنون ـ مُباشرةَ نسائكم في أي وقت من ليالي شهر رمضان. وقد رُوِي في أسباب نزول الآية: أنه كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء أو ناموا قبلها حَرُمَ عليهم النساء والطعام إلى الليلة التالية، وكان ذلك في بدء الإسلام، ثم إن أُناساً من المسلمين باشروا نساءَهم بعد أن ناموا فشكوا ذلك إلى رسول ٱللَّه، فأنزل ٱللَّه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ. .﴾ الآية، ويشمل ذلك أيضاً الأكل والشرب إلى الفجر تيسيراً على المسلمين.

﴿هُنَّ لِباسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾ هذا الشطر من الآية شَبَّهَ كُلاً من

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه.
(٢) أخرجه الترمذي.

الزوجين باللباس لأن كلاً منهما يستر الآخر فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإذا كان الملبس لستر عورات الجسم ولحفظه من أذى البرد وللتجمل والزينة فإن كلاً من الزوجين يحفظ شَرَفَ صاحبه ويصون عرضه ويوفر له راحته وصحته. هذا وإن هذا التعبير يُوحي بشدّة القرب بين الزوجين، فهما كالثوب الملاصق للإنسان، مما يوحي بسكون كل منهما إلى الآخر وهذا ما ذكره القرآن بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿**عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ**﴾ تختانون: من الخيانة، وقد عبَّر ٱللَّه بهذا اللفظ عما وقعوا فيه من المعصية وذلك بالجِماع والأكل بعد النوم أو بعد صلاة العشاء، وكل من عصى ٱللَّه فقد خان نفسه، لأن الخيانة عبارة عن عدم الوفاء لما يجب عليهم الإتيان به ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ فقبل توبتكم ﴿**وَعَفَا عَنْكُمْ**﴾ وعفا عما اقترفتموه من ذنب ومحا عنكم أثره.

﴿**فالآنَ باشِرُوهُنَّ**﴾ والمُباشرة كناية عن الجِماع، أي الآن أَبَحْنَا لكم المُعاشرة الزوجيّة، وسمي الجِماع مُباشَرَةً من البَشَرَةِ لتلاصق بَشَرَتَي الرجل والمرأة.

﴿**وابْتَغُوا ما كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ**﴾ أي واطلبوا من وراء هذه المُباشرة مع زوجاتكم ما كتبه ٱللَّه لكم من الذُّرِّيّة ﴿**وَكُلُوا واشْرَبُوا**﴾ أي وتمتعوا بما أباحه ٱللَّه لكم من الأكل والشرب في ليالي رمضان ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ**﴾ والخيط الأبيض هو خيط الفجر يشقُّ السماء بنور كالخط ثم ينتشر ذلك الخط شيئاً فشيئاً حتى يختفي الظلام ويكون النهار،

والخيط الأسود ما يكون حول ذلك الخيط الأبيض من ظلام، وهذان الخطان يبدوان في الفجر، وقد شبه القرآن بياض النهار بخيط أبيض وسواد الليل بخيط أسود ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلى اللَّيْلِ**﴾ أي ثم ابدأوا صومكم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ﴿**وَلاَ تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ في المَساجِدِ**﴾ ولا تقربوا نساءكم في حال اعتكافكم في المساجد، والاعتكاف شرعاً: لزوم المسجد والمكث فيه لطاعة ٱللَّه والتقرب إليه. والاعتكاف سُنَّة ولا يجوز في غير المسجد، ويجوز الاعتكاف بغير صوم والأفضل أن يصوم معه، وكان رسول ٱللَّه ﷺ يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، وأقلّ الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة، والجِماعُ في حال الاعتكاف يُبْطِلُهُ.

﴿**تِلْكَ حُدودُ ٱللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوها**﴾ والحَدُّ في اللغة: هو الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما في الآخر، وسُمِّيت أحكام ٱللَّه حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل، والآية واردة مورد النهي عن مخالفة تلك الأحكام، ودلّ على النهي عن مخالفتها بالنهي عن قربها مبالغة في التحذير من مخالفتها، لأن النهي عن الاقتراب من الشيء أبلغ من النهي من مزاولته ﴿**كَذلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آياتِهِ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ أي كما بيَّن ٱللَّه هذه الحدود يبيّن جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها ومخالفتها، وآيات ٱللَّه: هي العلامات الهادية للحقِّ.

وهكذا نرى آيات الصيام قد ختمت بالتقوى ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ كما بدأت في مطلع آيات الصوم بقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ وذلك لبيان تأثير الصوم في اتقاء المعاصي، ومدى أهميته في القُرْبى من ٱللَّه تعالى.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞
يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ
بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ
ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

شرح المفردات

وتُدْلُوا بها إلى الحكَّام: ولا تلقوا بأموالكم إلى الحكَّام.

بالإثْم: بالذنب، وقد يحصل بشهادة الزُور أو الأَيْمان الكاذبة أو الرَّشْوة.

الأهِلَّة: جمع هلال، وهو القمر في بدء الشهر القمري.

مَواقيت للناس والحج: معالم زمنية يؤقت بها الناس شؤونهم الدنيوية ويعرفون بها وقت حجّهم.

البِرُّ: جُملة أعمال الخير التي تقرّب الإنسان من ربّه.

التحذير من أكل أموال النّاس بالباطل

لمّا كان الصوم يؤدي إلى تقوى ٱللَّه انتقل القُرآن إلى الكلام عن المال الذي قد يُؤدي الحرص على جمعه إلى الظلم والطمع في مال الغير بغير حق، وهذا يُنافي صفة التقوى التي أمرنا ٱللَّه بها، لذا حذَّر ٱللَّهُ المؤمنينَ في الآية التالية من فتنة المال بقوله:

﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ﴾ أي لا يأخذ بعضكم مالَ بعضٍ ويستولي عليه بغير حق. وعبّر عن أخذ المال بالأكل، لأن الأكل أهم وسائل الحياة وفيه تُصرف الأموال غالباً. واختار القرآن لفظ **﴿أمْوالَكُمْ﴾** بدل لفظ أموال الغير للإشعار بوحدة الأُمَّة وتكافلها، فمال الآحاد هو مال الأمة فيجب

المحافظة عليه، فالإنسان إذا استحل مال غيره يدفع غيره إلى استحلال ماله، وأخْذ المال بغير حق يعرّض كل مال للضياع والذهاب، وأكل أموال الناس بالباطل يشمل: الرِّبا والقِمار والغشّ والسرقة والغَصْب وغير ذلك من طرق الاستيلاء على أموال الناس ظُلماً وعُدْواناً ﴿**وَتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام**﴾ ولا تلقوا بالأموال إلى الحكام رشوة لهم ﴿**لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بالإِثْمِ**﴾ لتأخذوا عن طريق حكمهم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم كاليمين الكاذبة أو شهادة الزُّور ﴿**وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ**﴾ مع علمكم أن فعلكم هذا هو إثم وباطل، فالآية بَيَّنت أنَّ الاستعانة بالحُكّام على أكل المال بالباطل أمر محرَّم لأن حكم القاضي لا يغير الحق في نفسه ولا يحلّه للمحكوم له إذا كان فيه ظلم وجوْر للغير.

ولقد حذَّر رسول ٱللَّه ﷺ من الذين يأخذون أموال الناس بالباطل عن طريق الحُكّام بالأكاذيب والحجج المقنعة التي تؤثر على حكم القاضي فقال: «ألا إنما أنا بَشَرٌ؛ وإنّكم تختصمون إليَّ، ولَعَلَّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسْمَع، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أَقْطَعُ له قطعةً من النَّار»[١].

الأَهِلَّةُ هي مواقيت للناس

سبق أن بَيَّنَت الآيات السابقة ذكر فريضة الصوم في شهر رمضان وأن البدء بالصوم يكون برؤية الهلال، ولعلّ ذلك أثار في بعض النفوس الرغبة في أن يسألوا رسول ٱللَّه ﷺ عن حقيقة الهِلال، وقد رُوي أن بعض المسلمين قالوا لرسول ٱللَّه: ما بالُ الهِلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي

(١) متفق عليه.

ويستدير ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما بدا، لا يكون على حالةٍ واحدةٍ؟! فنزلت الآية: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ**﴾[(١)].

والأهلة: جمع هلال وهو القمر يتراءى في أول الشهر القمري، وإنما قال ٱللَّه ﴿**عَنِ الأَهِلَّةِ**﴾ مع أنهم سألوا عن الهلال وهو واحد، ولكن لمّا كانت حالة الهلال التي سألوا عنها تتكرر كل شهر جاء الجواب بالجمع.

والقمر ليس له نور ذاتي بل يضيء بانعكاس نور الشمس عليه، وهو يبدو لنا بتغيير شكله في الفضاء، ويدور حول الأرض فيبدو هلالاً أول الشهر، وفي الليل التالي يتسع الهلال ويستمر ذلك ليلةً بعد ليلةٍ، واختلف اللغويون إلى متى يسمى القمر هلالاً، فقال بعضهم: يسمى هلالاً لليلتين من أول الشهر أو في ثلاث.

وبعد سؤالهم عن الأهلة يأتي الجواب بقوله تعالى: ﴿**قُلْ**[(٢)] **هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ**﴾ والمواقيت: جمع ميقات وهو الوقت، والمعنى: قل يا محمد للذين يسألونك عن الأَهِلَّة، قل لهم: بأنها معالم زمنية يؤقّت بها الناس شئونهم ويعرفون بها وقت حجّهم، وهذا لفت لأنظارهم إلى أن الواجب أن يسألوا عن فوائدها في الدِّين والمعاملات لا عن أشكالها. كما أن الإجابة عن سؤالهم كانت في صورة يستطيع العقل أن يفهمها في زمن نزول القرآن، أما الناحية العلمية فتركها للأزمنة القادمة بما يكشفه علم الفلك عن السبب في اختلاف شكله من يوم إلى يوم.

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير.

(٢) قل: هذه اللفظة وردت في عشرات المواضع من القرآن وكانت جواباً لكثير من الأسئلة التي سئل رسول الله عنها وكان الجواب يأتي بعدها بأفصح عبارة وأبلغ حكم تقنع المتردد وتفحم الكافر، هذه اللفظة (قل) تنبئ بأن القرآن ليس من تأليف محمد كما يدّعي بعض أتباع الأديان، بل القرآن هو وحي من عند الله، فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدّعون لما كان بحاجة إلى أن يستهلّ الجواب بلفظة (قل) والتي هي خلاف جميع أساليب الكتّاب والأدباء والعلماء.

ولقد خَصَّ الإسلام مواقيت بعض العبادات برؤية الهلال كالصوم، وتُعرف هذه المواقيت بالأشهر القَمَرية لأنها تعرف برؤيتها، وهي لا تخفى على أحَد بخلاف الأشهر الشمسية التي لا يتيسر ضبطها إلاّ لِقِلّةٍ من العارفين بدقائق علم الفلك وبالأخص في زمن نزول القرآن.

﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيوتَ مِنْ ظُهورِهَا﴾ هذا الشطر من الآية نهيٌ لجماعة بعض المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها قبل الإسلام وهي أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أَحْرَمُوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه من ظهور بيوتهم، فجاء رجل من الأنصار فدخل إلى بيته من بابه فكأنه عيّر بذلك، فأنزل ٱللَّه قوله: **﴿وَلكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا البُيوتَ مِنْ أبْوابِها﴾** والبِرُّ: هو الصدق والصلاح والتوسع في فعل الخير، والمعنى: ليس من الخير والصلاح ما كنتم تفعلونه قبل الإسلام من دخولكم البيوت من ظهورها بعد إحْرامِكم وحَجّكم، ولكن البِرَّ يكون في تقوى ٱللَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وجملة **﴿وَأْتُوا البُيوتَ مِنْ أَبْوابِها﴾** كناية عن أن إتيان البيوت من ظهورها يعني العدول عن الطريق الصحيح الذي يجب سلوكه بينما إتيان البيوت من أبوابها يعني التمسّك بالأساليب القويمة التي توصل إلى الخير والصلاح. وهناك مَثَلٌ مشهورٌ اقتبس من الآية، وهو أنَّ من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه.

ويختم ٱللَّه الآية بقوله: **﴿وَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** أي افعلوا ما أمركم ٱللَّه به واجتنبوا ما نهاكم عنه لتكونوا من الفائزين بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ
أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ
يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ
لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا
ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

شرح المفردات

وقاتِلوا في سبيل ٱللَّه: قاتلوا لإعلاء كلمة الله، وإعْزاز دينه، وإقامة شرائعه.

ثَـقِفْتموهم: وجدتموهم وظفرتم بهم.

والفِتْنَةُ أشدُّ من القَتْل: أي إن فتنتهم للمؤمنين بإيذائهم وإلْجائهم إلى مفارقة وطنهم للتأثير في عقيدتهم أشدّ جرماً من القتل.

ويكون الدِّين للّٰهِ: وتخلص العبادة لله فلا يُعبد أَحَدٌ سواه.

الشهر الحرام بالشهر الحرام: أي إن انتهك المشركون الشهر الحرام وقاتَلُوكم فيه فبادلوهم بالمِثْلِ.

الحُرُمات: جمع حُرْمة، وهي ما مُنع من انتهاكه.

قِصاصٌ: أي العقاب على الجريمة بمِثْلِها.

القتال للدفاع عن النفس

كان المسجد الحرام في مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام قِبْلَة العرب ومقصدهم يحجّون إليه في الأشهر الحُرُم(١) التي يَحْرُمُ فيها القتال، وكان المرء إذا الْتقى بأشد الناس عداوة له لم يجرؤ أن يُجرّد سيفاً في وجهه أو يسفك دماً، وظلت هذه الحرمة باقية بعد الإسلام وقد طهره من مظاهر الشرك بٱللَّه التي أدخلها المشركون عليه، وشرع للمسلمين مناسك الحج التي كان يؤديها إبراهيم عليه السلام.

وكانت قريش قد آلت على نفسها منذ أن هاجر النبي ﷺ من مكة أن يصدّوه ومن آمن معه عن المسجد الحرام ويحولون بينهم وبين زيارته وقد انقضت ست سنوات على الهجرة، والمسلمون يحدوهم الشوق لزيارة المسجد الحرام، فخرج رسول ٱللَّه ومَن معه مِنَ المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وكان عددهم ألْفاً وأربعمائة لا يحملون من السلاح إلاّ السيوف في أغمادها، فلمّا علمت قريش بمجيئهم أجْمَعت على صدِّهم عن زيارة المسجد الحرام واستعدّت لقتالهم، ولكن النبي ﷺ أبى أن يقتحم البيت الحرام عنوةً ويُقاتل المشركين في مكة، وسار حتى نزل بأقصى الحُدَيْبِيَة(٢).

ثم أرسل النبي ﷺ رسلاً إلى قريش وجرت مفاوضات بينه وبينهم انتهت بالاتفاق على أن يرجع المسلمون ذاك العام دون زيارة المسجد الحرام وأن يعودوا في العام المقبل لهذه الزيارة، واتفقوا على أن تُخلي قريش لهم مكة ثلاثة أيام يُؤَدُّون فيها العُمرة.

---

(١) الأشهر الحرم: هي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورَجَب.

(٢) الحُدَيْبِيَة: هي بئر قرب مكة حدث عندها صُلْحُ الحديبية المشهور.

فلمّا أقبل العام التالي تجهَّز النبي ﷺ وأصحابه لأداء شعائر العُمرة التي سمّيت بِعُمْرَةِ القَضاء، وخاف المسلمون ألاّ تفي قريش بوعدها، وغلبت عليهم الحيرة فيما يفعلون في حال منعهم من العُمرة، فنزلت الآيات التالية وفيها تبَيَّن للمسلمين الموقف الذي يجب عليهم أن يلتزموه إن قاتلهم المشركون وانتهكوا حرمة بيت ٱللَّه الحرام والأشهر الحرم ومنعوهم من أداء شعائر دينهم، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وقَاتِلُوا في سَبِيلِ ٱللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وسبيلُ ٱللَّهِ: هو دِينهُ، والقتال في سبيل ٱللَّه هو الجِهَادُ لإعلاء كلمته حتى يكون المؤمنون أعِزَّة، لا يسومهم أعداؤهم ضيماً، ويكونون أحراراً في الدعوة إليه وإقامة شعائره دون أن يصدهم عن ذلك أَحَدٌ.

تأمَّل كيف بَيَّنت الآية القرآنية أحكام القتال وهي أن يُقاتل المسلمون من قَاتلهم، أي أن لا يبدأوا بقتال أعدائهم بل يُقاتلون الذين يبدأون بقتالهم دفاعاً عن أنفسهم وحريتهم في أداء العبادة. ثم أمر ٱللَّه المسلمين بقوله: **﴿ولا تَعْتَدُوا﴾** والاعتداء: مُجاوزة الحدِّ فيما أمر ٱللَّه به أو نهى عنه، أي ولا تعتدوا فيما نهى ٱللَّه عنه بقتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين، وقد رُوي أن رسول ٱللَّه ﷺ كان يقول: «اغزُوا في سبيلِ ٱللَّهِ، قاتِلوا من كَفَر بٱللَّهِ، اغْزُوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع»[1] **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾** ومحبة ٱللَّه لعباده صفة اختص بها المتقين، من أثرها الرعاية والإنعام والقربى منه، ونفي ٱللَّه محبته للمعتدين كناية عن بغضه إياهم واستحقاقهم لعقوبته.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ واقتلوا الذين قاتلوكم في أي مكان أدركتموهم وظفرتم بهم في أي مكان يحلّ به القتال أو يحرم **﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾** أي وأخرجوا الكُفار من المكان الذي أخرجوكم منه، والمكان الذي أخرجهم الكفار منه هو مكة، فإن الكفار من قريش اشتدوا في أذى المسلمين واضطهادهم حتى ألجأوهم إلى الخروج من مكة والهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة المنورة ثانياً **﴿وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾** والفتنة تأتي بتلك المعاني: الابتلاء، والامتحان، والعذاب، والصدّ عن الدِّين، والكُفر بٱللَّه، أي إن فتنة المشركين للمؤمنين بصدهم عن الإسلام وإرْغامهم على الرجوع إلى الكفر بٱللَّه بالتعذيب والإيذاء ومصادرة أموالهم وإلْجائهم إلى مفارقة الأهل والوطن أصعب من القتل، إذ لا بلاء أشدّ وقعاً على الإنسان من اضطهاده وتعذيبه لإرْغامه على تغيير معتقده الذي تمكّن في قلبه.

﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي وعلى المسلمين أن يؤدوا مناسك دينهم ولا يقاتلوهم عند المسجد الحرام الذي حرَّم ٱللَّه القِتال فيه، فإذا اعتدى المشركون على المسلمين واستباحوا القتال في المسجد الحرام، فقد أباح ٱللَّه للمسلمين أن يصدوا هذا العُدْوان بالدفاع عن حياتهم وعن عقيدتهم **﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾** أي فإن بدأُوكم بالقتال عند المسجد الحرام فلا حرج عليكم في قتلهم عنده، فإن المنتهك لحرمة المسجد إنما هو البادئ بالقتال فيه لا المدافع عنه **﴿كَذلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾** أي مِثْل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يُجازي ٱللَّه الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإنْ كَفُّوا عن قتالكم ـ أيها المسلمون ـ فكفوا عن قتالهم ولا تتعرضوا لهم، فإن ٱللَّه غفور رحيم لكل من

تاب من كُفْرٍ أو معصية، ونظير هذا ما جاء في القرآن: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة هنا: الشِّرْك بٱللَّه والكفر، أي قاتلوهم حتى لا يكون هناك كُفر وشِرْك بٱللَّه وحتى لا يُعبد دونه أحَد، وتضمحلّ عبادة الأوثان والآلهة، ولتتحقق للمسلمين حرية العقيدة وحرية أدائهم لشعائرهم الدينية ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ والدِّينُ: هو العِبادةُ والطاعة لله في أمره ونهيه، أي قاتلوا المشركين لتكون العبادة والطاعة لله وحده وحتى لا يعبد إلاّ ٱللَّه ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاّ عَلى الظَّالِمِينَ﴾ أي فإنِ انتهى الذين يقاتلونكم من الكُفار عن قتالكم ودخلوا في مِلّتكم وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان فاتركوا الاعتداء عليهم بقتالهم، فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلاّ على الظالمين وهم المُشركون بٱللَّه الذين اعتدوا عليكم. وسمى ٱللَّه ما يُصنع بالظالمين عُدْواناً من حيث هو جزاء على عُدوانهم.

﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ﴾[1] أي الشهر الحرام من جانبكم ـ أيها المسلمون ـ مُقابل الشهر الحرام من جانب المشركين، فإن تقيد المشركون بالحرمة فيه ولم يثيروا حرباً ولم يعتدوا الْتَزَمْتُم حرمته ولم تقاتلوهم فيه. وإن استباح المشركون الشهر الحرام الذي لا يحلّ القتال فيه وقاتلوكم فيه فقابلوا عُدْوانهم بالمِثْلِ ﴿وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما سبقها من معانٍ في القتال، والحرمات: جمع حرمة، والحرمة الأمر الذي حرَّمه ٱللَّه ومنع انتهاكه. والقِصاصُ من معانيه المساواة وتتبع آثار الجريمة بالعقوبة. ومعنى القِصاص في الحرمات أن يعامل منتهك الحرمات بمثل ما فعل وأن يكون العِقاب من جنس

---

(١) الشهر الحرام: الشهر هنا للجنس والمراد به الأشهر الأربعة: ذو القعدة، ذو الحجة، مُحرَّم، رَجَب. والمراد بكلمة (الحرام) تحريم القتال في هذه الأشهر.

العمل. أي إذا قاتلوكم ـ أيها المسلمون ـ في الشهر الحرام وهتكوا حرمته فقاتلوهم في الشهر الحرام.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي مَنْ يعتدي عليكم أيها المسلمون من الأعداء بحرب يشنُّها عليكم فاعتدوا عليه بالمِثْلِ. وهنا سؤال: كيف عَبَّر ٱللَّهُ عن مقاومة العدو بلفظ «الاعتداء». الجواب على ذلك: هو أن ٱللَّه سمى الجزاء على اعتدائهم وانتهاكهم لحرمة المسلمين اعتداء للمشاكلة أي الموافقة اللفظية، فالفعل الأول من جانب الأعداء اعتداء لأنه صدر عن ظلم، والثاني صدر عن مُقاومة ودفاع عن النفس فكان عدْلاً.

وهناك صور من اعتداء العدو: كأن ينتهك الأعراض، ويقتل الذرية الضعاف والشيوخ الكبار، فهل يسلك المسلمون مسلكهم؟ هنا تبين الآية عدم جواز ذلك بقوله تعالى **﴿وَاتَّقُوا ٱللَّهَ واعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** وتقوى ٱللَّه هي أن يُراعي المسلمون الرحمة والعَدْل، وأن ٱللَّه مع المتقين بالنصر والتأييد.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وسبيل ٱللَّه هو الطريق الموصل إلى مرضاته والحصول على ثوابه، وسبيل ٱللَّه غلب استعماله شرعاً على الجهاد للدفاع عن دين ٱللَّه والدفاع عن الوطن وهذا يَسْتَدْعِي أموالاً طائلة لشراء الأعتدة الحربية الحديثة لتقوية الجيش ليكون سَدًّا منيعاً في وجه المعتدين، لهذا أوجب الإسلام على كل مسلم أن يُنفق من أمواله للمجهود الحربي عند اعتداء المعتدين حسب قدرته، وأوجب على الحاكم أن يفرض من الضرائب ما يكفي لحاجات الجيش إذا لم تَفِ ميزانية الدولة بذلك.

كما أن الإنفاق في سبيل ٱللَّه يكون في وجوه البرّ على الفُقراء والمساكين ما يسدّ حاجاتهم ويوفّر لهم العيش الكريم، وبهذا تَقْوَى الروابط بين الأغنياء

والفقراء وينتفي عن المجتمع الثورات والقلاقل التي يثيرها الجوع والحِرْمان.

فالبخل في الإنفاق في سبيل ٱللَّه يجعل الأُمّة تحت رحمة أعدائها، كما أن البخل يؤدي إلى شيوع الفقر والحِرْمان مما يُؤَدّي إلى إضعاف الجبهة الداخلية التي هي الحِصن المنيع في وجه أعدائها، لهذا كان القرآن بليغاً عندما رتب على البخل في الانفاق قوله: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ﴾ فليعتبر كل من يمتنع عن الإنفاق في سبيل ٱللَّه لأن عاقبة ذلك هلاك كل فرد من أفراد الأُمّة.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ وأحسن هو الفعل الحسن والإنْعام والتفضّل على الغير، كما يأتي الإحسان بمعنى الإتْيان بالفعل على وجه الإتقان.

والإحسان إلى الناس يكون بإكرامهم وحسن معاملتهم والإنفاق على المحتاجين منهم. والإحسان في العبادة يكون كما قال النبي ﷺ: «أنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كأنكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنه يَراكَ»(١).

والإحسانُ هنا جاء بعد الأمر بالإنفاق في سبيل ٱللَّه فيكون مكملاً له والحث عليه، أي إن إحسانكم وإنفاقكم في سبيل ٱللَّه أمر محبب إلى ٱللَّه، ومن أَحَبَّهُ ٱللَّه حبب عباده به ويَسَّرَ أمره ووقاه من كل سوء.

(١) أخرجه البخاري.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾.

شرح المفردات

أُحصِرتُم: مُنِعْتُم بعد الإحرام من الوصول إلى بيت اَللَّه الحرام.

فما اسْتَيْسَرَ من الهَدْيِ: أي فعليكم إذا أردتم التَّحَلُّلَ من الإحرام ذبح ما تيسر لكم من الهَدْيِ وهي الأنعام.

ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلّه: ولا تتحللوا من الإحرام بالحلق حتى تعلموا أن الهدي قد بلغ مكانه الذي يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم.

نُسُك: ذبيحة وأقلها شاة.

حاضِري المسجد الحرام: هم أهل مكة.

فمن فَرَضَ فيهن الحَجَّ: فمن أَلْزَمَ نفسه بأداء فريضة الحج.

رَفَث: الجِماعُ أو الكلام المتضمن لما يُستقبح ذكره من الجِماع ودواعيه.

فُسوق: المعصية مطلقاً، أو مخالفة أوامر الحج وارتكاب نواهيه.

جِدال: المُناقشة الحادة مع الرُّفقاء والخَدَم وغيرهم.

بعض أحكام الحج أو العمرة

ويُتابع القُرآن فيذكر بعض أحكام الحج والعمرة، وما يجب على من يقوم بهما في حال منعه مانع من أداء حَجِّه أو عُمرته، مع بيان الآداب التي يجب الأخذ بها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ للَّهِ﴾ وإتمام الحج والعمرة هو الإتيان بهما كاملين بمناسكهما المشروعة مع الإخلاص التام لله سبحانه لا تشوبهما شائبة من رياء أو مما هو محظور.

والحَجُّ فريضة تجب مرة في العمر لمن استطاع القيام به، وأركان الحج عند جمهور الفقهاء أربعة: الإحرام(١) والوقوف بعرفة وطواف الزيارة حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، وزاد الشافعية على ذلك حلق الشعر أو تقصيره، والترتيب بين معظم الأركان.

وهناك واجبات في الحج، والواجب هو ما يطلب فِعله ويَحْرُمُ تركه ولكن لا تتوقف صحة الحج عليه ويأثم تاركه إلاّ إذا تركه بعذر معتبر شرعاً، ويجب عليه الفدية في حال تركه وهي ذبح شاة أو غيرها من الأنعام، وقد اصطلح على ذلك بالقول: عليه دم.

أما العمرة فقد اختلف الفقهاء فيها، فبعضهم يرى أنها فريضة وبعضهم يرى أنها سُنَّة مؤكدة، وأركان العمرة عند جمهور الفقهاء ثلاثة: وهي الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة، وزاد الشافعية على ذلك حلق الشعر أو تقصيره.

والصلة بين العمرة والحج وثيقة، فالحج يتضمن أعمال العمرة ويزيد عليها

---

(١) الإحرام: هو نِيَّـةُ الدخول في حرمات الحج أو العمرة على هيئة مخصوصة. والإحرام له ميقات زماني وميقات مكاني، فبالنسبة لمن يريد أن يحج فزمانه في أشهر الحج، أما الميقات المكاني فهو يختلف باختلاف الجهة التي يأتي منها المسافر، وقد جاء تعيينها في كتب الفقه.

بأشياء كالوقوف بعرفة، والمبيتِ بِمنى والمُزْدَلِفة، ورمي الجمار وغير ذلك من أعمال الحج.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ والإحْصار هو المَنْعُ، أي إن منعكم مانع من دخول مكة أو عن إتمام مناسك الحج أو العمرة كمرض أو عَدُوّ، وأردتم التَّحَلُّل[١] من الإحرام ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾ فعليكم تقديم ما تيسّر لكم من الهدي من غير كلفة ولا مشقة، كشاةٍ مثلاً. والهَدْيُ: هو ما يُهْدى من الأَنْعام إلى بيت ٱللَّه الحرام لتذبح في الحرم وتوزع على الفقراء تقرُّباً إلى ٱللَّه، والأَنْعامُ: هي الإبل والبقر والغنم والماعز.

﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي لا يحل للمحرم المُحْصَر وهو الذي منعه من أداء الحج أو العُمرة مرضٌ أو عدو أن يحلق رأسه ويتحلل من إحْرامه حتى يصل الهدْي إلى محل ذبحه وهو الحرم حيث يُذبح هناك، ويرى جمهور من الفقهاء أن المحصَر يذبح الهدي حيث أُحْصِر.

وحَلْق الشعر أو تقصيره هو مظهر من الانتهاء من الإحرام، ولكن قد يطرأ على الحاج أو المعتمر عُذْر بأن يحلق شعره إذا كان برأسه حشرات تؤذيه كالقمل مثلاً وتجعل غيره يتقزز منه، أو قد يصير مصدر أذى لغيره وعدوى له، ففي تلك الحالة رَخَّص ٱللَّه لذلك المريض بأن يحلق شعره ويظل على إحرامه مقابل فدية لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ نُسُكٌ: جمع نَسِيكَةٌ وهي الذَّبيحة، أي من كان منكم ـ أيها المُحْرِمُونَ ـ مريضاً بمرض يضطر معه إلى حَلْقِ شعره أو كان به أذًى من رأسه

(١) التَّحلُّلُ لغة: هو أن يفعل الإنسان ما يخرج به من الحرمة، واصطلاحاً: هو فسخ الإحرام والخروج منه بالطريق الموضوع له شرعاً، والتحلل للمحصر يحصل بنحر الهَدْي وحَلْق الشَّعْر أو تقصيره.

كجراحةٍ وحَشَرات مُؤذية، فعليه إن حَلَق فِدْيَةٌ من صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة يوزع لحمها على الفقراء، وهذا ما بينته السُّنَّة النبوية.

﴿فإذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمْرَةِ إلى الحَجِّ﴾ أي إذا كنتم في أمان وأردتم أداء الحج والعُمرة معاً في أشهر الحج فأول شيء تفعلونه هو الإحرام من الميقات للعمرة، ثم تأتون بأركانها، وعند التحلل منها وذلك بقص شعركم يحل لكم التمتع بما كان محظوراً عليكم في الإحرام من مُباشرة زوجاتكم والتطيب وقص الأظافر وغير ذلك. وقبل يوم عَرَفَة بأيام أو صبيحة ذلك اليوم تُحرمون من مكة باللباس المعهود وبنية أداء فريضة الحج، ومقابل هذا التمتع بعد أداء العُمرة عليكم تقديم ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾ أي ما تيسّر من الهَدْيِ من حيث تقربتم إلى ٱللَّه بالعُمرة، وهذا الهدي يُذْبح في الحَرَم لينتفع به سكانه، ولا يأكل منه الحاج عند الشافعي، وأجاز أبو حنيفة الأكل منه ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أيَّام في الحَجِّ﴾ أي من لم يجد الذبيحة التي يجب تقديمها إلى الحرم إما لِفَقْرِهِ أو عدم وجودها فعليه صيام ثلاثة أيام من أيام حجِّه، والأفضل أن يكون في سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه ولا يجوز صوم يوم النحر. ﴿وَسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وعليه أيضاً أن يصوم سبعة أيام إذا عاد إلى بلده وأهله فيصبح عدد الأيام التي سيصومها عشرة، إكمال صومها وجب عليه ﴿ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ أي هذا الحكم خاص بمن لم يكن من أهل حاضري المسجد الحرام، وهؤلاء هم أهل مكة وما حولها، فهؤلاء لا يحصل لهم تمتع، وليس عليهم فِدْيَة لإمكان أدائهم العُمرة طول العام ﴿وَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي اتقوا ٱللَّه بطاعته فيما أَلْزمكم به من فرائضه، واحذروا الإخلال بشعائره فهو سبحانه شديد العقاب لمن خالف مناسكه فترك ما أُمر به وارتكب ما نهاه ٱللَّه عنه.

﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ﴾ أي إن الوقت الذي يُؤَدّى فيه الحج هو أشهر معروفات وهي: شَوّال، وذُو القعدة، والعشرة الأيام الأولى من ذي الحِجّة، فلا يَصِحُّ الحج في غير هذه الأشهر، كما أنّ الإحْرام بنيّة الحج في غير هذه الأشهر ليتمّه في أشهره لا يصح عند الشافعية، ويَصِحُّ مع الكراهة عند الحنفية.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ أي من أَلْزَمَ نفسه بأداء فريضة الحج وأحْرم **﴿فَلاَ رَفَثَ﴾** أي عليه أن يجتنب الرفث وهو الجِماع والإفْحاش في الكلام **﴿وَلاَ فُسُوقَ﴾** والفُسوق هو الخروج عن طاعة ٱللّه بارتكاب المعاصي ومنها السِّباب وفعل محظورات الإحرام **﴿وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾** والجدال هو أن تُماري صاحبك حتى تغضبه، وقيل: السباب والمنازعة.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي ومهما تفعلوا من خَيْرٍ وعمل صالح ابتغاء مرضاة ٱللّه فٱللّه به عليم يُوفّيكم أجره، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ التزوّد هنا مادي ومعنوي، أما المادي فقد رُوِيَ أن طائفةً من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ويقول بعضهم: نحن المتوكلون على ٱللّه، فكانوا يبقون عالةً على النّاس، فأمرهم ٱللّه بالتزود من الطعام بما يقيهم ذُلَّ الحاجة. كما أن الزاد في الآية يشمل الزاد المعنوي وهو الطلب من المؤمنين التزود لآخرتهم بالأعمال الصالحة، ويؤكد ذلك أنه جاء عقب ذلك قوله تعالى: **﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** والتقوى في عُرْفِ القُرآن عبارة عن فِعْلِ الواجبات التي أمر ٱللّه بها وترك المحظورات. فالسفر في الدنيا لا بدّ له من زادٍ من الطعام والشراب، والسفر إلى الآخرة لا بدّ له من زادٍ وهو معرفة ٱللّه ومحبته وطاعته واجتناب ما نهى عنه، وزاد الآخرة هو خيْرٌ من زاد الدنيا لأنه يُوصل إلى النعيم الدائم في الآخرة **﴿وَاتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبَابِ﴾** أي

اتخِذوا من عمل الخير واجتناب الشرّ والقيام بالطاعات وقاية لكم من غضب ٱللَّه ومعاقبته لكم، وخص ٱللَّه أصحاب العُقول بتوجيه الخطاب لهم ﴿**يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ لأنهم أهل التمييز بين الحقّ والباطل، وهنا إشارة إلى أن من لا يتقي ٱللَّه ليس له عقل يميّز به الصالح من الفاسد من الأمور.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ
أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ
ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ
حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ
وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ
فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

شرح المفردات

جُناحٌ: إثم.

فَضْلاً من ربِّكم: أي تحصيل الرزق من تجارةٍ أو غيرها.

أَفَضْتم من عَرَفاتٍ: اندفعتم في زحمة وكثرة من عرفات.
المَشْعَرِ الحَرامِ: هو مُزْدَلِفَة.
قَضَيْتُم مناسككم: أَدَّيْتُم عبادات الحج.
من خَلاق: من نصيب وحظّ من الخير.
أيّاماً معدودات: هي أيام التشريق الثلاثة التالية ليوم النحر.
تُحشرون: تُجمعون يوم القيامة للحساب.

من أعمال الحج

ويُتابع القُرآن الكلام عن الحجِّ موضحاً الأعمال التي يجب أن يُؤديها المسلمون ونافياً الحَرَج من تعاطي بعض الأعمال التجارية في الحج التي يُتوهم أنها تخلّ بأعمال الحج، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَّبِكُمْ**﴾ الجُناح: الحَرَج والإثم، والمعنى: ليس عليكم ـ أيها المسلمون ـ إثم أن تطلبوا من ربكم رزقاً حلالاً في أيام الحج عن طريق التجارة. فقد كان الناس يمتنعون عن البيوع والتجارة أيام موسم الحج حتى يقضوا حجهم فأحله ٱللَّه لهم ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّن عَرَفَاتٍ**[١]﴾ الإفاضة: السير متدافعين في جمع متزاحمين، وذلك تشبيه لهم بالماء إذا فاض ودفع بعضه بعضاً، والمعنى: فإذا سِرْتُم ـ يا معشر الحُجّاج ـ من عَرَفات متزاحمين متجهين إلى المُزْدَلِفَة.

وقبل أن ننتقل إلى المزدلفة نُذَكِّرُ أن الوقوف بعرفة رُكْنٌ، من أركان الحج ولا يتم الحج إلاّ بِهِ، وقد قال النبي ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَة»[٢] ومن فاته الوقوف

(١) عرفات: جمع عرفة وسُمِّيَ بذلك بما رُوي أن جبريل كان يُري إبراهيم عليه السلام المناسك فيقول: عرفتُ عرفتُ: فسمي عرفات، وقيل سُمِّيَ بذلك لأن الناس يَتَعارَفُون فيه حيث يجتمع الحجيج جميعاً على جبل عرفات في وقتٍ واحدٍ فيجري التعارف بينهم.

(٢) أخرجه أبو داود.

بِعَرَفَة في وقته فاته الحج، ويدخل وقت الوقوف بعرفة من زَوال اليوم التاسع من ذي الحجة ويمتدُّ إلى طلوع فجر يوم عيد النحر العاشر من ذي الحجة، ووقته نصف يوم وليلة كاملة، فمن وقف بعرفات في هذا الوقت ولو لفترة قصيرة من ليل أو نهار فقد حصل له الوقوف بعرفة[١].

ولنرجع إلى الكلام عن المُزدلفة حيث يقول ٱللَّه سبحانه: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ**﴾ والمَشْعَرُ الحرام هو المُزْدَلِفَة كلها، وسمّيت المزدلفة مَشعراً من الشِّعار وهو العلامة، لأنه من معالم الحج، ووُصف بالحرام لحرْمته أو لأنه من أرض الحَرَم. ويُطلقُ المَشعر الحرام على جبل قُزَح الذي هو ضمن المزدلفة، وإن الوقوف فيما يقرب منه أفضل من الوقوف في سائر مواضع أرض مزدلفة، فبعد غروب الشمس يوم عرفة ومكوث الحجاج فترة بعد الغروب في عَرَفَةَ يندفعون إلى المزدلفة للمبيت بها.

والمبيت بالمزدلفة ليس رُكْناً من أركان الحج عند جمهور الفقهاء بل هو واجب من واجبات الحج فمن تركه فعليه دم (ذبح شاة) ويتحقق فعل المبيت إلى ما بعد منتصف ليلة النحر أي العاشر من ذي الحجة.

فالآية تطلب من الحجاج أن يذكروا ٱللَّه عند المَشْعَرِ الحرام بالتلبية[٢] والتهليل[٣] والدعاء بقلوبٍ خاشعة، لأن ذكر ٱللَّه في تلك الأماكن المقدسة يقرّب الحجاج إلى ٱللَّه ويمحو خطاياهم.

---

(١) هذا ما ذهب إليه الشافعية، أما المالكية فقالوا: إن وقت الوقوف هو الليل فمن لم يقف جزءاً من الليل فحجّه باطل، ويرى بعض الفقهاء أن من فارق عرفة قبل غروب الشمس وجب عليه دم (ذبح شاة).

(٢) التلبية: هي قولهم: لبّيك اللهمّ لبّيك..

(٣) التهليل: هي قولهم لا لإله إلا الله.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ واذكروا ٱللَّه بالثناء عليه والشكر له على نِعَمِهِ كما هداكم فاستنقذكم من النار **﴿وَإِنْ كُنْتُم مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾** وقد كنتم قبل ذلك في الشرك والحيرةِ والعمى عن طريق الحق.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ كانت قريش ومن دَانَ دِينَها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون (الحُمْس) وكان سائر العرب يقفون بعرفات، وكانت قريش تفعل هذا ترفعاً عن بقية الناس متعللين بأنهم أهل الحَرَم، فأمرهم ٱللَّه بالوقوف بعرفة وأن يفيضوا مع الناس جميعاً إلى المزدلفة بعد الوقوف بعرفة، ليكونوا في منزلة واحدة مع المؤمنين، فيستوي الغني والفقير والشريف والوضيع، لتصبح المُساواة شعارهم في هذا الموقف المهيب أمام ربّ العالمين.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الخِطاب هنا للحجاج جميعاً بأن يطلبوا المغفرة من ٱللَّه ويُقلعوا عن ذنوبهم ليشملهم ٱللَّه برحمته ومغفرته.

وطلب المغفرة من ٱللَّه فور الانتهاء من العبادة أمر تطمئن به نفس المؤمن، والمؤمن الصادق الإيمان كلما قوي إيمانه شعر بأنه مقصّر تجاه ربه فيلجأ إلى طلب الغفران مما قصّر في العبادة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ﴾ المراد بالمناسك أعمال الحج، أي فإذا فرغتم من أعمال الحج **﴿فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَو أَشَدَّ ذِكْراً﴾** فقد كان العرب في الجاهلية بعد فراغهم من حَجّهم ومناسكهم يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم ٱللَّه في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يُلزموا أنفسهم بالإكثار من ذكره نظير ما كانوا أَلْزَموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم أو أشدّ ذكراً. وقيل في معنى الآية: اذكروا ٱللَّه كذكر

الأطفال آباءهم وأُمهاتهم واستغيثوا به والْجأوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيا﴾ هنا يُبيّن ٱللَّهُ حال بعض الناس بعد الانتهاء من مناسك الحج، فمنهم من يكون همهم الدنيا وحدها، فلا يكون دعاؤهم لربهم إلاّ ما يشبع رغباتهم وشهواتهم، وكأن العبادة في نظرهم ليست إلاّ ذريعة لطلب الشهوات والحصول على ما يرغبون منها. هذا وقد حذف المفعول به لفعل ﴿آتِنا﴾ ليعمّ كل ما يطلبون من متاع الدنيا وهذا من الإيجاز الرائع الذي يدلّ على بلاغة القُرآن ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ وهذا الصنف من الناس لا نصيب لهم ولا حظ من نعيم الآخرة لأنهم لم يطلبوها ولم يعملوا لها.

ثم يُبَيِّنُ ٱللَّه حال الصِّنْف الآخر من الناس الذين حازوا رضاه:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ رَبَّـنَا آتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ والحَسَنَةُ في الدُّنيا التي يطلبونها هي عبارة عن الصحة والأَمْن والكِفاية من الرِّزْق والتوفيق إلى الخير والزوجة الصالحة والأولاد الأبرار، والعلم والعبادة، أما الحسنة في الآخرة فهي الجنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي احفظنا يا ربّ من عذاب النار بالعفو والمغفرة واجْعَلْنا ممن يدخل الجنة بغير عذاب.

﴿أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أُولئك: إشارة إلى الفريقين جميعاً، أي للأَوَّلِينَ نصيبٌ من الدُّنيا ولا نصيب لهم في الآخرة، لأنهم لم يعملوا لآخرتهم وللآخرين ثواب جزيل على ما كسبوا من الأعمال الصالحة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ أي إنه سريع الحساب للعباد لا يشغله شَأْنٌ عن شَأن فَيُحاسبهم جملة واحدة، وقد قيل لعليّ بن أبي طالب رضي ٱللَّه عنه: كيف يُحاسب ٱللَّه العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم.

وبعد أن أمر ٱللَّه سبحانه الحُجَّاج بأن يذكروه بتقديسه والثناء عليه عند المَشْعَرِ الحرام، أمرهم سبحانه بأن يواصلوا ذِكره في أيام معدودات، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وهذه الأيام هي أيام مِنى وتُسَمَّى أيام التشريق الثلاثة التي تقع بتاريخ (١١ ـ ١٢ ـ ١٣) من شهر ذي الحجة التي تلي يوم النحر يوم عيد الأضحى. والمقصود بذكر ٱللَّه في هذه الأيام هو التكبير والتهليل (أي قول لا إلَه إلاّ الله) والتحميد عقب الصلوات وعند رمي الجَمَرات.

ولا يجوز الصيام بهذه الأيام لما رُوي عن النبي ﷺ قوله «إنَّ هذه الأيام أيام أكل وشُرب وذِكر الله»[1]. وأيام التشريق هي وقت لرمي الجَمَرات بِمِنًى والمبيت بِمِنًى معظم الليل واجب من واجبات الحج **﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾** أي من تعجَّل بالرَّحيل عن مِنى قبل غروب اليوم التالي من أيام التشريق فلا يأثم بهذا التعجيل كما لا حرج عليه في ذلك، ومن تأخر بالمبيت بِمِنًى حتى رَمْيِ الجِمَار في اليوم الثالث فلا إثم عليه في تأخّره. والمقصود بذلك: التخيير بين التعجيل والتأخير. وبيان ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا فريقين: فريقاً جعل المتعجل آثماً، وفريقاً جعل المتأخر آثماً فجاء الإسلام ينفي الإثم عنهما جميعاً وقد قيّد ٱللَّه نفي الإثم بقوله: **﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾** للإشارة إلى أن العِبرة في مناسك الحج تكون بتقوى القلوب وتهذيب النفوس **﴿واتَّقُوا ٱللَّهَ واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** أي واتقوا ٱللَّه في جميع مناسك الحج بأدائها كما أمر ٱللَّه واجتناب ما حرّم عليكم واعلموا أنكم إلى ٱللَّه وحده تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم، فاحذروا مخالفة أمره.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

شرح المفردات

أَلَدُّ الخصام: شديد الخصومة في الباطل.

تَوَلَّى: انصرف، أو بمعنى صار والياً.

الحَرْث: الزَّرع.

النَّسْل: الذُّرِّية.

أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْم: أي حملته الأنفة وحميّة الجاهلية على فعل الإثم.

المِهادُ: الفِراش والموضع المهيأ للنوم.

يَشْري نفسه: شرى في اللغة يأتي بمعنى البيع والشراء، وهنا بمعنى البيع.

ابتغاء: طلباً.

صفات المنافق المفسد في الأرض

ثم يُقَدِّم لنا القُرآنُ صورتين بليغتين: صورة عن المنافق الذي يَعيثُ في الأرض فَساداً ويَخْدع الناس بكلامه المعسول، وصورة عن المؤمن التقي الورع الذي يبتغي رضا ٱللَّه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ هنا يذكر القُرآن جانباً

من أحوال المنافقين المرائين الذين يثيرون إعْجاب الناس بحسن بيانهم وحلاوة منطقهم عندما يتحدثون عن أُمور الدنيا ومشاكلها ووسائل الإصلاح فيها، ويزعمون أن غايتهم إيصال الخير للناس والعمل لأجلهم **﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾** وهذا الذي يثير إعجاب الناس بذلاقة لسانه إذا رأى الناس يرتابون في قوله، أقْسم لهم أن ما في قلبه يُوافق ما يجري على لسانه كأن يقول: ٱللَّه يعلم أني أقول حقاً وإني صادق فيما أقول لكم[١] **﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾** وهو شديد الخصام في الباطل وقد يأتي الخصام بمعنى الجدال، أي هو شديد الجدال بالباطل، كاذب في القول يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة، لا يهمه الحق بمقدار ما يهمه انتصار فِكْرِهِ وغَلَبَة رأيه، وهذا الصنف من الناس قال النبي ﷺ فيهم: «إنَّ أبغض الرّجال إلى ٱللَّه الألَدّ الخَصِم»[٢].

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفسِدَ فِيها﴾ والتَّوَلِّي: يأتي بمعنى الإدْبار والانْصراف، أي وإذا أعرض عنك يا محمد هذا المنافق المُرائي بعد أن خدع الناس بحلاوة لسانه وفصاحة منطقه عَمِلَ إلى الإفْساد بين الناس وأَلْقى بينهم بذور الفِتنة وعَمِلَ في الأرض بما حرَّم ٱللَّه. وقد يأتي تَوَلَّى بمعنى: صار والِياً، أي هذا الذي اجتذب ثقة الناس بأقواله الخادعة وأيْمانِهِ الكاذبة وخُطَبِهِ الرنَّانةِ إذا صارَ والياً على الناس وتربع على سدّة الرئاسة لا يسعى لنفع الناس ولا يحكم بينهم بالعَدْل، بل يسعى لإشْباع رغباته وأهوائه ويثير الأحقاد نحو خُصُومه مما يؤدي إلى الفَساد في الأرض **﴿وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ﴾** الحَرْثُ: الزرع. والنسل: المراد به نَسْل كل دابةٍ والناس أيضاً. أي هذا المُرائي الخَدّاع

---

(١) قرر علماء اللغة أنّ من ألْفاظ القسم: الله يعلم أني فعلت كذا أو الله يشهد أني قلت كذا، فهذا تأكيد للقسم معروف في لغة العرب.

(٢) متفق عليه.

لا يكتفي بالإفْساد في الأرض بل يعمل على هلاك مُقومات الأُمة ومرافقها الحياتية من نبات وحيوان، أو يعمل لإثارة الأحقاد التي تؤدي إلى الصراع الدّموي وهلاك زهرة شباب الأمة ﴿وَٱللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ وٱللَّه لا يحب المفسدين في الأرض بل يبغضهم، وفي بُغْضِ ٱللَّه لهم بيان لما أعدَّ لهم من عذاب في الآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وإذا قيل لهذا المنافق المرائي: اتق غضب ٱللَّه واخش عقابه بالامتناع عن الفساد في الأرض ﴿أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ بالإثم: أي بالمعصية، والباء الداخلة على الإثم للسَّبَبِيّة، أي استولت عليه العزة والأنفة والكبرياء بسبب الإثم الذي ملأ قلبه وأحاط بنفسه فلم يدع سبيلاً لنفاذ الهداية إلى قلبه. فهذا المفسد يتعاظم عن أن يؤخذ عليه خطأ أو أن يوجه إلى الصواب، فقد أخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولكن بالإثم، فاستمر في إجرامه وتمادى في طغيانه، وهذا وصف دقيق ينطبق على الطغاة في كل العصور(١).

ثم يُبين ٱللَّه مصير هذا المفسد بقوله: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي كفاه عذاب جهنم على كبريائه وإفساده في الأرض ﴿وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾ والمِهَادُ: هو الفراش الذي يأوي إليه المرء للراحة والنوم، فاستعمال المهاد لجهنم للتهكم به وإذْلاله فهو مهاد له للعذاب لا للراحة.

وفي مقابل الحديث عن هذه الفئة المفسدة في الأرض يأتي الحديث عن الفئة الصالحة من عباد ٱللَّه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يَشْرِي: يبيع، أي ومن

(١) يقول ابن مسعود: إنَّ من أكبر الذنب عند الله أن يُقال للعبد: اتَّقِ الله، فيقول: عليك بنفسك.

الناس مؤمنون صادقون سَمَت نفوسهم، وترفَّعُوا عن النفاق والفساد في الأرض، فلم يستجيبوا لأهوائهم وشهواتهم، وإنما باعوا أنفسهم في سبيل ٱللَّه وطلباً لمرضاته، وفِداءً لِدِينه، وقاسوا أنواع المشقات في طاعة ٱللَّه فقبل ٱللَّه هذا البيع وأعطاهم الثواب الجزيل والنعيم في الآخرة كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وٱللَّهُ رَؤُوفٌ بالعِبَادِ﴾ وٱللَّه سبحانه رحيم بعباده حيث أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ولكنهم قصّروا في واجباتهم نحو ربهم ولم يقوموا بما يتوجب عليهم من شكره والعمل بمرضاته.

صورتان يبرزهما القرآن ليتعلم الناس مدى التفاوت بين الخداع والصدق، وليبحثوا عن الحقيقة وراء هذه المظاهر المموهة الخَدَّاعة من كثيرٍ من الناس، وأنْ لا ينخدعوا بمن اتخذوا الكلام المزوّق سلعة لهم للوصول إلى الحكم وإلى أغراضهم الدنيئة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا
تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن
زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ
ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

شرح المفردات

السِّلْم: المُسالمة أو الإسلام.

خُطُوات الشيطان: آثاره وطرائقه التي يُزَيِّن لكم بها المعاصي.

زَلَلْتُم: مِلْتُم وضللتم عن الحق.

ينظرون: ينتظرون.

ظُلَل: جمع ظلة، وهي ما يحجب ضوء الشمس.

آية بَيِّنَة: حُجَّة واضحة.

الدعوة إلى السِّلْم

وبعد أن بَيَّنَ القُرآن حال الذين يعيثون في الأرض فساداً انتقل إلى دعوة المؤمنين إلى العمل بأحكام الإسلام لأنه الدين المرتكز على السلام ونبذ العنف قال ٱللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ السلم: قرئ بكسر السين كما قرئ بفتحها، وقد ذهب فريق من أهل اللغة والمُفسرين إلي أن السِّلم بالكسر والسَّلم بالفتح بمعنى واحد، ويُطلقان على الإسلام، وعلى المُسالمة والمُوادعة والصُّلْح.

فإذا أخذنا السِّلم بمعنى الإسلام فيكون الخطاب لجملة أناس، قد يكون الخطاب للمؤمنين بنبوّة محمد وبالقرآن الذي أُنزل عليه، أمرهم ٱللَّه جميعاً بالثبات على دينهم وأن يعملوا بجميع أحكام الإسلام وشرائعه ويحافظوا على فرائضه وإقامة حدوده.

وقيل: الخطاب في الآية لمن آمن بنبوّة محمد من بني إسرائيل كعبد ٱللَّه بن سلام وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل وأرادوا الأخذ بشيء من أحكام التوراة فنزلت الآية فيهم، والمعنى: ادخلوا مع المسلمين في شريعتهم جميعاً ولا تفترقوا عنهم بالأخذ بما نسخه القرآن من التوراة، وقيل: الخطاب لأهل الكتاب، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بنبوّة موسى وعيسى ادخلوا في الإسلام جميعاً وآمنوا بنبوة محمد فليس إيمانكم بالتوراة والإنجيل وحدهما بنافعكم. وقد قال النبيّ محمد ﷺ: «والذي نَفْسُ محمدٍ بيده لا يسمع بِي أَحَدٌ من هذه الأُمّة: يهوديَّ ولا نصرانيّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلْتُ به إلاّ كان من أصحاب النار»[١].

أما إذا أخذنا معنى (السَّلْم) على أنه المُوادعة والمُسالمة والصلح فيكون دعوة المسلمين إلى المُسالمة فيما بينهم، وأن لا يتفرقوا ولا يتنازعوا بالجدل والخلاف المذهبي فيصبحوا شِيَعاً وأحْزاباً يَقْتُلُ بعضُهم بعضاً كما حصل ذلك بعد الإسلام، كما تشمل الدعوة إلى (السلم) مُسالمة المسلمين لغيرهم فلا

(١) أخرجه الإمام مسلم.

يعتدون عليهم ما داموا مسالمين للمسلمين وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وإن نصوص القرآن بجملتها تدعو إلى السلام بين البشر ونَبْذِ الحروب والصراعات فيما بينهم، كما دعا القُرآن شُعوبَ الأرض إلى التعارف بينهم بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. والتعارف ينفي النزاع والتقاتل فيما بينهم.

ومن وصية ٱللَّه لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦١] أي وإن مال أعداؤك إلى الصلح والسلام وكفّوا عن مقاتلتك فعاملهم بالمثل.

﴿**وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ**﴾ هنا تنبيهٌ إلى أنَّ ما يصرف الناس عن السلم ويدعوهم إلى التفرقة هو من وساوس الشيطان، ولما كان من أساليب الشيطان أنه لا يجرّ الناس بوساوسه إلى الشر دُفعة واحدة بل يأخذهم بالتدرج من شرٍّ إلى ما هو شر آخر، لذا عبَّر ٱللَّهُ عن ذلك بخطوات الشيطان، أي خطوة إلى الشر إثر خطوة ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة لكم ـ أيها الناس ـ فهو يحرضكم على الفرقة والتنازع، ويغريكم باتِّباع الشهوات والمنكرات ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ**(١)﴾ فإن أخطأتم الحق فضللتم عنه وخالفتم الإسلام وشرائعه ﴿**مِّن بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ البَيِّناتُ**﴾ أي من بعد أن ساق ٱللَّه لكم الحجج والأدلة المبينة لكم الحق من الباطل والضلال من الهدى ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ**

---

(١) زللتم: يقال: زلّ، أي زلت به القدم ووقع أرضاً، ثم استُعملت كلمة زلّ في العدول عن الحق.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي فاعلموا أن ٱللَّه هو القوي الغالب لا يعجزه الانتقام منكم على معصيتكم إياه، حكيم يضع الأُمور في مواضعها فلا يجعل المصلح كالمفسد بل يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ والمَلاَئِكَةُ﴾ ينظرون: ينتظرون، والاستفهام هنا إنكاريّ بمعنى النفي، أي: لا ينتظرون، وإتيان ٱللَّه إنما هو بالمعنى اللائق به لأنه سبحانه يتنزه عن مشابهة الخلق فيحمل معنى إتيان ٱللَّه وملائكته على إنزال عذابه الدنيوي. والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الذين يأبون الدخول في الإسلام من بعد ما جاءتهم الحجج الواضحة بأن الإسلام حق إلا أن يأتيهم أمر ٱللَّه للملائكة بإهلاكهم وإنزال العذاب بهم في ظلل من السحاب الأبيض يحسبونه رحمة يجود عليهم بالمطر بينما هو عليهم عذاب فيكون ذلك أشدّ وقعاً على نفوسهم **﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾** أي إذا نزل فيهم عذاب ٱللَّه في الدنيا فقد قُضي أمر ٱللَّه فيهم إذ لم يكن ثمة رجاء في إيمانهم كما أهلك ٱللَّه قوم عاد وثمود وفرعون وجيشه وغيرهم **﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾** وإلى ٱللَّه وحده تصير الأمور، وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا وسيجازي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿سَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ والمأمور بالسؤال هو الرسول محمد ﷺ، والمراد من **﴿بَنِي إسْرائِيلَ﴾** في الآية الحاضرون من اليهود في عهد الرسول ﷺ، والضمير في **﴿آتَيْنَاهُم﴾** هم سلفهم وأجدادهم، والآية البيّنة: المعجزة الواضحة.

فٱللَّه سبحانه يطلب من رسوله محمد أن يسأل اليهود على عهده سؤال توبيخ وتقريع كم أعطى أسلافهم من معجزات على يد رسل ٱللَّه بما يدعوهم للإيمان بٱللَّه، ومثال على ذلك ما أيَّد ٱللَّه به موسى، فعصاه انقلبت إلى حية

تسعى وابتلعت أدوات السحرة، وضرب موسى بعصاه البحر فانشق إلى اثني عشر طريقاً سلكه بنو إسرائيل ونجوا من بطش فرعون، وظللهم ٱللَّه بالغمام وهم في صحراء سيناء ومنع عنهم حرارة الشمس اللاّهبة، ونزّل ٱللَّه عليهم المَنّ والسَّلْوى لغذائهم وهم في الصحراء القاحلة، ومع هذه المعجزات وغيرها يقولون لموسى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ومنهم من كفروا وعبدوا العِجْلَ فاستحقوا بذلك غضب ٱللَّه وعذابه، وكأن ٱللَّه يُذَكِّر بني إسرائيل على عهد رسوله محمد ﷺ بأنهم إذا أعْرضوا عما جاءهم به من الهُدى فإنهم سيلقون العذاب كما حصل لأسلافهم من قبل.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ ونعمة ٱللَّه تشمل: نعمة الصحة، ونعمة المال، ونعمة العقل، ونعمة الهداية بإرسال الرسل، ونعمة الإسلام الذي جاء به رسول ٱللَّه محمد ﷺ، أي ومن يُبدّل هذه النِّعَم بالكفر ولا يبذل جهده في مرضاة ٱللَّه وينغمس في المعاصي والمنكرات **﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾** أي لكل من ضلّوا بعد ما جاءتهم البيّنات وبدّلوا نعمة ٱللَّه كفراً.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ زُيِّنَ: حُسِّنَ، أي حُسِّنت الدنيا في أعينهم وتغلغلت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها معرضين عن العمل للآخرة، والتزيين من حيث الإيجاد يرجع إلى ٱللَّه سبحانه، فهو الذي حسّنها وجمّلها ليمتحن بها عباده كما جاء في القرآن ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ويجوز أن يكون التزيين من الشيطان إذْ يوسوس للإنسان الارتماء في شهوات الدنيا وملذّاتها وعصيان ٱللَّه فيها على حدّ ما جاء في القرآن على لسان

إبليس ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فالكُفار حسّنت لهم الدنيا فحسبوها كل شيء وأنساهم ذلك العمل للآخرة، وظنوا أن ليس هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء ولذلك انكبّوا على ملذّاتها وشهواتها بأي السبل كانت حلالاً أم حراماً **﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** وقد أدَّى بهم تهافتهم على الدنيا أن سخروا من الذين آمنوا لأن أكثرهم من الفقراء، بينما هم كانوا في ثراء يحقق لهم كل ما يشتهون، ولكن ليس هناك صلة وارتباط بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، فقد يكون المحروم من متاع الدنيا هو المنعّم في الآخرة **﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾** أي والذين يخافون ٱللَّه ويحذرون عقابه بترك المعاصي يكونون يوم القيامة أرفع منزلة وأعلى مكانةً عند ٱللَّه من الذين كفروا، فالفوقية هنا فوقية تشريف وتكريم وهي مجاز في تناهي الفضل والنعيم لهم في الجنة، بينما الكُفار في عذاب النار **﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾** وٱللَّه سبحانه يُعطي من يشاء من الرزق بغير حصر وبلا تقتير، فَيُعطي الرزق في الدنيا من يطيعه ومن يعصيه، ولكن لا يعطي نعيم الآخرة إلا للمتقين، والرزق في الدنيا والحصول عليه منوط بالعمل بأسبابه وبتوفيق ٱللَّه لمن يرزقه.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

شرح المفردات

أُمَّةً: جماعة من الناس أمْرُهم ومقصدهم واحد.

مُبشّرين: يخبرون الناس بما يسرّهم برضوان ٱللّه عليهم إن أطاعوه.

مُنذرين: يُخوِّفون الناس من سخَط ٱللّه عليهم إن عصوه.

البَيّنات: الأدلّة المقنعة الظاهرة.

بغياً: ظلماً وعدواناً.

صراط مستقيم: الطريق الذي لا اعوجاج فيه وهو طريق الإيمان والخير.

اختلاف الناس سببه العدول عن الحق

وبعد أن ذكر ٱللّه في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق فاسد اختار الشرّ طريقاً له، وفريق صالح باع نفسه في سبيل ٱللّه لنيل رضاه، بيَّن ٱللّه في الآية التالية أن اختلاف الناس هو من طبيعة الوجود الإنساني، فالناس منهم الصالح ومنهم المفسد، ولكن يتدارك ٱللّه عباده بإرسال الرسل إليهم ليهدوهم إلى الحقّ والهُدى، قال ٱللّه تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ الأُمّة: كل جماعة يجمعهم أمْرٌ، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، وجمعها أُمم. والمعنى: كان الناس جماعة

واحدة متفقين على العقيدة الحقة وهي وحدانية ٱللَّه التي فطر ٱللَّه الناس عليها، مقرّين بالعبودية له وحده ثم اختلفوا ما بين ضالٍّ ومهتد.

أو يكون المعنى: كان الناس جماعة واحدة في خلوِّهم من الشرائع وجهلهم بالحقائق، أو كانوا قبل إرسال الرسل إليهم على مِلَّة واحدة وهي الكُفر **﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾** فأرسل ٱللَّه النبيين لإرشاد الناس إلى دين ٱللَّه الحق، مبشرين من سار منهم على هدى ٱللَّه بجزيل الثواب، ومنذرين من ضلّ منهم بسوء العذاب **﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بالحَقِّ﴾** الكتاب: اسم جنس بمعنى الكتب، أي وأنزل ٱللَّه الكتب المنزلة من عنده وفيها شرائع ٱللَّه داعية إلى الحق.

وأورد القرآن كتب الأنبياء بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت إلاّ أنها في جوهرها كتاب واحد لاشتمالها على أُصول الدين من عبادة ٱللَّه وحده، والإيمان بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، أما الشرائع فهي تختلف بين أُمَّة وأُخرى **﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيما اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** أي ليحكم كل نبيّ بين الناس من قومه فيما اختلفوا في دين ٱللَّه ويردّهم إلى الحق والصواب **﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾** أي وما اختلف في الكتاب المنزل من عند ٱللَّه إلاّ الذين أُوتوه من أرباب العلم به والدراسة له، واختلافهم في كتاب ٱللَّه هو تأويله على غير معناه بما يُوافق أهواءهم ومذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً **﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّناتُ﴾** أي من بعد ما جاءتهم الحجج الواضحات على وجوب الأَخْذ به وعدم الاختلاف فيه. ولكن كان السبب الدّاعي لاختلافهم فيه هو **﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾** والبغي أصله الحَسَد والظلم، ثم سمِّي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود، كما يأتي البغي بمعنى العُدول عن الحق والكِبْر **﴿فَهَدَى ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ**

الحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي وإذا كان هذا شأن الظالمين في اختلافهم في كتاب ٱللَّه فقد هدى ٱللَّه الذين آمنوا وصدَّقوا رسله إلى الحق الذي اختلفوا حوله، وقد يُراد من قوله تعالى ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ هم أُمّة محمد الذين هداهم ٱللَّه لِما اختلف فيه أهل الكتاب بأن وفقهم ٱللَّه لإصابة الحق بإذنه تعالى وتيسيره ﴿**وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُّسْتَقِيم**﴾ بهذه الجملة ختم ٱللَّه الآية لبيان كمال سلطته وإرادته، ولو أراد ٱللَّه أن يكون الناس جميعاً مهتدين لحصل ذلك، ولكن حكمته اقتضت أن يختبرهم ليتميز الصادق في إيمانه من الكاذب فَيُجازي كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

شرح المفردات

حَسِبتم: ظننتم.

خلوا: مضوا.

مسَّتهم: أصابتهم.

البَأْساء: الفقر أو الشدة.

الضرّاء: المرض أو الضرر مطلقاً.

زُلزلوا: أُزعجوا إزعاجاً شديداً بالبلايا.

دعوة للصمود عند الشدائد

ويتابع القرآن فيحثّ المسلمين على الصمود والصبر وكان ذلك حينما أحاط الأعداء بالمدينة المنورة من كل جانب ينتظرون فرصة للانقضاض على المسلمين وإهْلاكهم، وفي هذا الجو المشحون بالخوف والقلق على المصير نزلت الآية التالية تثبيتاً لقلوبهم ومُبشّرة لهم بالنصر القريب على أعدائهم:

﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ**﴾ أم حسبتم: اسْتفهام إنْكاري، أي هل حسبتم أيها المسلمون أن تدخلوا الجنة يوم القيامة ﴿**وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم**﴾ لَمّا: أداة نفي فيها معنى التوقع، والمعنى: ولم تأتكم محنة يتوقع حلولها بكم، ولم يصبكم مثل ما أصاب مَنْ قَبْلَكُم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار فَتُبْتَلُوا بما ابتُلوا به ﴿**مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ**﴾ أي أصابهم البأساء وهو الفقر والشدة والبلاء وأصابتهم الضرّاء وهي الأمراض والآلام ﴿**وَزُلْزِلُوا**﴾ والزلزلةُ: شِدّة التحريك، أي أُزعجوا إزعاجاً شديداً بما نزل بهم من البلايا ﴿**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ ٱللَّهِ**﴾ والرسول: للجنس، أي إن تلك الحالة من البلايا والشدّة والاختبار كانت تعرض لكل رسول من رسل ٱللَّه، إذ يمتحنهم ٱللَّه بأنواع البلايا ويختبرهم بصنوف الشدة. ومن المعلوم أن رسل ٱللَّه في غاية الثبات والصبر عند نزول البلاء، فإذا لم يبق لهم صبر حتى استغاثوا بٱللَّه وشاركهم في الاستغاثة المؤمنون من أتباعهم متسائلين: متى نصر ٱللَّه؟ فهذا يصوّر عِظَم البلاء الذي

حلّ بهم، وفي تلك الحالة تأتي البشرى من ٱللَّه ﴿**أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ في هذه الجملة أنواع من المؤكدات على حصول النصر. منها: تصدير الجملة بأداة الاستفتاح ﴿**أَلَا**﴾ الدالّة على تحقيق مضمونها. ومنها: ذكر ﴿**إِنَّ**﴾ المؤكِّدة لمضمون القول. ومنها: إضافة النصر إلى ٱللَّه القادر على كل شيء وهو سبحانه إذا وعد وَفَى.

هكذا كانت حال المؤمنين مِنْ قَبلِكم ـ يا أتباع محمد ـ لم يغيّرهم طول البلاء وعِظَم الشدة عن الثقة بٱللَّه، فكونوا مثْلهم في تحمّل الأذى ومقاساة الأهوال، فإن نصر ٱللَّه قريب.

هذه الآية، قيل: إنها نزلت في غزوة الأحزاب إذ اجتمع المشركون مع أهل الكتاب على الإيقاع بالمسلمين والقضاء عليهم، وأصاب المؤمنين يومئذٍ ما أصابهم من الجهد والجوع والخوف، وقد وصف ٱللَّه ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠. هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

وروى البخاري عن خبّاب بن الأرتّ قال: شكَوْنا إلى رسول ٱللَّه ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تَسْتنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قَبْلَكم يُؤخذ الرجلُ فيُحْفَرُ له في الأرض فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجاءُ بالمنشار فيوضعُ على رأسه فيُجْعَلُ نصفين، ويمشَّطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمِهِ وعَظْمِه فما يصدُّه ذلك عن دِينهِ، وٱللَّه لَيُتِمَّنَّ ٱللَّهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضْرَمَوْت لا يخافُ إلاّ ٱللَّه، والذئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

التكافل الاجتماعي

ثم ينتقل القرآن إلى موضوع آخر وهو الدعوة إلى التكافل الاجتماعي عبر سؤال بعض المسلمين عن كيفية إنْفاق أموالهم ومواقعه التي بها يقع القبول عند ٱللَّه، فيأتي الجواب من ٱللَّه على سؤالهم:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد: ما هي الوجوه التي ينفقون فيها؟ وأين يضعون ما لزم إنفاقه[١]؟ والخير في الآية هو المال، ويطلق على الوفير منه، والخير يفترض أن يكون المال حلالاً، وإنما سمي المال خيراً للتنبيه على أن من حقه أن يُصرف إلى جهة الخير، والخير هو الشيء الحسن النافع. ثم تُبَين الآية الجهة التي تستحق الإنفاق عليها وهي: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى والمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قدَّم القرآن الآباء والأُمهات على غيرهم أداءً لحق تربيتهما للمنفِق ووفاء لبعض حقوقهما عليه، ثم الأقرباء من الإخوة والأخوات والأعمام والعمّات والأخوال والخالات وغيرهم وفاءً لحق القرابة. واليتامى هم الذين فقدوا آباءهم وكانوا صِغاراً فُقراء، ثم المساكين وهم من لا كسْب لهم من المال، أو لهم كسْب ولكن لا يفي بحاجاتهم، وابن السبيل وهو المسافر الذي انقطع عن ماله. فالترتيب في الآية يشير بتفضيل البعض على البعض الآخر في الإنْفاق، فيسدّ المنفق حاجة الأبوين أولاً، ثم يسدّ حاجة الأقرباء، ثم يسدّ حاجة المحتاجين من غير أسرته.

وأكثر العلماء قالوا: إنَّ الآية حكمها في صدقة التطوع لأن هناك فريضة الزكاة التي تُصرف على المحتاجين الذين نص عليهم القرآن.

---

(١) عن ابن عباس قال: كان عمرو بن الجموح شيخاً كبيراً وعنده مال كثير، فقال: يا رسول الله، بماذا نتصدق؟ وعلى من ننفق؟ فنزلت هذه الآية.

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ عليم: صيغة مبالغة من العلم، وإحساس المؤمن بأن ٱللَّه يرى عمله في الخير حين يعمله، وأنه سيكافئه عليه، إن هذا سيشجعه على فعل الخير والاستمرار عليه.

ثم يبين ٱللَّه الواجب على المسلمين في حال الاعتداء عليهم:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ كُتِبَ أي فرض ٱللَّه عليكم القتال ـ أيها المسلمون ـ وهو أمْر تلجأون إليه وتضطرون إليه مكرهين على القتال لإزالة الفتنة التي يثيرها أعداؤكم، ذَوْداً عن الدِّين ودفاعاً عن أرواحكم وأموالكم. وكراهية القتال أمر طبيعي لأنه يحول بين المقاتل وبين طمأنينته ولذّاته وأهله ويعرِّضه لخطر الهلاك وألَم الجراح ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وعسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة والخطر على حياتكم ولكن نهايته تكون خيراً لكم ﴿وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وقد تحبون شيئاً وتحرصون عليه ولكنّ نهايته شرٌّ لكم. فالقعود عن الجهاد عند الاعتداء عليكم يؤدي بكم إلى الضعف والفقر والذُّل والهَوان، أما الجهاد ومقارعة العدو المعتدي فهو سبب للعِزَّة والكرامة، وفيه إحدى الحسنيين: إما الشهادة ودخول الجنة في الآخرة وإما الظفر والغنيمة ﴿وٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وٱللَّه يعلم ما هو خير لكم وما هو شرّ لكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فأطيعوا ٱللَّه في كل ما يأمركم به لأن فيه الخير دائماً.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ
يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

شرح المفردات

الشهر الحرام: أحد الأشهر الأربعة التي حرَّم ٱللَّه القتال فيها وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم.

وصدّ عن سبيل ٱللَّه: وصرْف للمسلمين عن كل ما يوصل إلى طاعة ٱللَّه.

الفِتنة: المراد بها تعذيب المسلمين وإخراجهم من ديارهم وعن دين ٱللَّه.

أكبر عند ٱللَّه: أعظم إثماً عند ٱللَّه.

حتى يردّوكم عن دينكم: حتى يخرجوكم من الإسلام ويعيدوكم إلى الكفر.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم الصالحة.

حكم القتال في الأشهر الحرام

ويتابع القرآن فيبين الآثام التي تنجم عن القتال في الأشهر الحرم، وعن منع الناس وصرْفهم عن دين ٱللَّه، وعن الكفر بٱللَّه، وعن الفتنة في دين ٱللَّه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك المسلمون ـ يا محمد ـ عن القتال في الشهر الحرام أهو جائز أم محرّم؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ قل لهم يا محمد: إن القتال في الشهر الحرام هو ذنب عظيم. والشهر الحرام في الآية المراد به جنس الأشهر الحرام وهي الأشهر الأربعة: رَجَب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم. وأطلق عليها الأشهر الحرم لأن القتال فيها محرّم، وقد كانت العرب لا تسفك دماً في تلك الأشهر ولا تقوم بغارة على عدو، والحكمة في تحريم القتال في الأشهر الحرم تأمين السبل وإشاعة الأمن لمن يريد أداء الحج أو العمرة.

وقد سأل المسلمون هذا السؤال بعدما علموا من قتل أحد المشركين في الشهر الحرام على يد بعض المسلمين، وقد جرى ذلك في حادثة مفادها بما سنذكره باختصار: بعث رسول ٱللَّه عبد ٱللَّه بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين إلى مكان يسمى (بطن نخلة) ليترصدوا عيراً[١] لقريش ويأتوه بخبرهم، فمرّت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتله المسلمون وأَسَروا اثنين واستاقوا العير إلى المدينة التي كانت تحمل تجارة لقريش وكان ذلك أول يوم من شهر رجب وهم يظنونه من شهر جمادى الآخرة. فلمّا قدموا على رسول ٱللَّه قال لهم: وٱللَّه ما أمرْتكم بقتال في الشهر الحرام، فلمّا قال لهم ذلك سُقط في أيديهم، وظنّوا أن قد هلكوا وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين، وأوْقف رسول ٱللَّه توزيع الغنيمة[٢]، وقالت قريش: استحلَّ محمدٌ الشهر الحرام! عندئذٍ سأل بعض المسلمين رسول ٱللَّه عن حكْم القتال في

(١) عير: قافلة من الجمال.

(٢) وبعد نزول الآية التي تستنكر ما فعله المشركون وزّع رسول الله الغنيمة وفادى الأسيرَيْن.

الشهر الحرام، فبيَّن ٱللَّهُ أنَّ القتال فيه إثم كبير، ولكن هناك جرائم أكبر من ذلك قد اقترفها المشركون وهي الأُمور الآتية:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرام وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ فهم فعلوا **أولاً**: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي منعوا الناس وصرفوهم عن دين ٱللَّه والدخول فيه. **ثانياً**: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي وكفروا بٱللَّه إذْ عبدوا الأوثان وأشْركوا به غيره. **ثالثاً**: ﴿وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ أي منعوا المسلمين من زيارة المسجد الحرام للحج أو العمرة. **رابعاً**: ﴿وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وإخراج أهل المسجد الحرام حين آذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة، وإنما جعلهم ٱللَّه أهل المسجد الحرام لأنهم كانوا يسكنون حوله ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ أي إن هذه الأمور مجتمعة ومنفردة أكبر من القتال في الشهر الحرام، ومع ذلك ارتكبها المشركون، وأخذوا على بعض المسلمين القتال في الشهر الحرام.

هذه الأُمور الأربعة كلها جرائم اقترفها المشركون وهي في مجموعها تُساوي واحدة قائمة بذاتها وهي الفتنة في دين ٱللَّه، ولذلك خَصَّها اللهُ بالذكر بقوله:

﴿والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ﴾ والفتنة تطلق على الإيذاء والتعذيب والمحنة، والفتنة هنا أُريد بها ما لقيه المسلمون من المشركين من صُنوف الأَذى والتعذيب لصرفهم عن دينهم، وقطيعتهم في المعاملة والسخرية بهم، ومنعهم من إظهار عبادتهم، ولقد بالغ المشركون في إيقاع الأذى والعذاب بالمسلمين حتى إن بعض المسلمين مات تحت العذاب وهو ياسر وزوجه سُميَّة. وكان أُمَـيَّةُ بن خلف يُعذِّب بلالاً ويمنع عنه الطعام والشراب ويطرحه في رمال الصحراء الحارة ويكويه بالنار ليرتدّ عن الإسلام، وغيرهم كثير ذاقوا مُرَّ العَذَابِ.

﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ أي لم يكتف المشركون بإنزال العذاب بكم ـ أيها المؤمنون ـ بل لا يزالون يشنّون الحرب عليكم لصرفكم عن دينكم القويم ويردّوكم إلى الكفر **﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾** هذه العبارة تدلّ على عدم قدرتهم على ذلك، وعلى استبعادٍ لاستطاعتهم، كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرتَ بي فلا تُبْقِ عَلَيَّ.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ﴾ ومن يرجع منكم ـ أيها المؤمنون ـ عن دينه الذي أقرّ به، ويكفر بٱللّه بعد إذ آمن بوجوده ووحدانيته أو ينكر نُبُوَّة محمد ويطعن بها بعد أن أذعن لِما جاء به النبيّ من الهدى فيمت وهو على كفره **﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ﴾** أي أولئك تبطل كل أعمالهم الصالحة التي قدَّموها في دُنياهم ويبطل الثواب عليها في الآخرة **﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾** أي أولئك المرتدّون عن دينهم هم ملازمون عذاب النار يوم القيامة ملازمةَ الصاحب لصاحبه وهم خالدون في العذاب بها وباقون فيها أبداً.

وبعد أن نفى ٱللّه الإثم عن الذين قتلوا عَمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام عن خطأ منهم، وبيّن أن ما فعله المشركون بالمؤمنين من الأذى والاضطهاد أكثر إثماً، سأل عبدُ ٱللّه بن جحش ومن معه من المؤمنين رسول ٱللّه بقولهم: يا رسول ٱللّه، هَبْ أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجراً وثواباً؟ فنزلت الآية التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

في هذه الآية ثلاث صفات لأولئك المُقرَّبين إلى ٱللَّه:

١ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدَّقوا بوجود ٱللَّه ووحدانيته وأَذْعنوا لحكمه وأخْلصوا قلوبهم له.

٢ ـ ﴿والَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة وتركوا أموالهم فداء لدينهم وتمسكاً به.

٣ ـ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهاد بذْل الجهد في طاعة ٱللَّه والقتال في سبيل إعلاء كلمته وإقامة دينه.

هؤلاء الذين فعلوا ذلك كله هم على رجاء برحمة ٱللَّه لهم ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾ والرجاء ترقّب الخير مع تغليب الظن في حصوله، وإنما قال سبحانه: يرجون لأنه لا يعلم أحد في الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة ٱللَّه كل مبلغ، لأمرين: الأول، أنه لا يدري بما تنتهي حياته من صالح الأعمال أو من سيئها. والثاني: لئلا يتكل على عمله، فدخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ولكن بفضل ٱللَّه ورحمته. وقد قال الرسول محمد ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، فقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، حتى يتغمدني ٱللَّه برحمته»[١].

وختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هاتان صفتان من صيغ المبالغة، أي إن ٱللَّه واسع المغفرة لمن تاب إليه وعمل صالحاً، وهو سبحانه عظيم الرحمة لمن آمن به وهاجر إليه وجاهد في سبيله.

---

(١) متفق عليه.

﴿ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

الخمر: كل شراب مُسكر، وسميت بذلك لأنها تستر العقل عن التفكير الصحيح.

الميسر: القمار.

العفو: ما فضل عن النفقة الواجبة للعيال ويزيد عن الحاجة.

تُخالطوهم: تخلطوا نفقتهم بنفقتكم، وتعيشوا وتسكنوا معهم.

لأعْنتكم: لَكَلَّفكم مشقةً وضيَّق عليكم.

تحريم الخمر والقمار

وبعد أن سأل المسلمون رسول ٱللَّه عما ينفقون من أموالهم على المستحقين للصدقة وعن حكم القتال في الشهر الحرام، سألوه عن الخمر والميسر ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ**﴾ أي يسألك يا محمد المسلمون عن الخمر والميسر: هل تعاطيهما حلال أم حرام؟ والميسر هو القمار، فيأتي الجواب من ٱللَّه ﴿**قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**﴾ قل لهم إن شرب الخمر وتعاطي القمار ينشأ عنهما إثم كبير، والإثم: الذنب، وفي وصف الإثم بأنه كبير يظهر لنا مبلغ النهي عن تعاطي شُرب الخمر والقمار ﴿**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ أما منافع الخمر التي أشارت إليها الآية فأهمّها التجارة، فقد كانت ولا تزال مورداً مهمًّا للثروة، كما

أنها توفّر العمل لكثير من العمّال في تصنيعها. ومنافع القمار هي ما يُؤخذ من أرباح صالات القمار ومن أوراق اليانصيب في مساعدة الجمعيات الخيرية، ولكن القرآن ينفي نفعهما فيقول: ﴿**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾ وهذه إشارة إلى تحريمهما، لأن ما غلبت مضرّته على منفعته يكون حراماً.

ولقد نزل في الخمر أربع آيات من القرآن الكريم:

أولها: قوله تعالى: ﴿**ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾]النحل: ٦٧]. فعندما قال ٱللَّه ﴿**سَكَراً**﴾ مر عليها بلا تعليق، وعندما قال ﴿**رِزْقاً**﴾ وصفها بأنها ﴿**حَسَناً**﴾ فتسمية أحد النوعين بأنه رزق حسن، معنى ذلك أن مقابله ليس رزقاً حسناً.

ثانياً: نزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمنَافِعُ لِلنَّاسِ..**﴾ وهي الآية التي نحن في صددها، فشربها قوم وتركها آخرون.

ثالثاً: نزل قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ**﴾ [النساء: ٤٣]. وأسباب نزول الآية أن بعض المسلمين جاءوا لأداء الصلاة ووقف أحدهم إماماً وكان في حالة السكر فقرأ (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) بغير (لا) النافية، بدلاً من أن يقرأها (لا أعبد). وهذه الآية التي نهت عن الصلاة في حالة السكر فيها خطوة تمهِّد لتحريمها، والصلاة خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكفي ما بينهما للسكر ثم الإفاقة منه.

رابعاً: نزل قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠] وفي هذه

الآية التحريم القاطع لِشُرْبِ الخمر وتعاطي القمار، ولذلك أراق المسلمون كل الخمور التي كانت لديهم حتى سالت في الطرقات.

فالإسلام حرَّم الخمر بالتدرّج، وهذا ما يتوافق مع أحدث الأساليب العلمية لمعالجة المدمنين على الخمر، فالمدمن لا يستطيع أن يترك الخمر دفعة واحدة بل يحتاج إلى وقت طويل وفترات متباعدة، وهذا ما سلكه القرآن.

والخمر: مأخوذة من خمر الشيء إذا ستَره وغطَّاه، سمِّيت بذلك لأنها تَسْتُرُ العقل وتُغَطِّيه. والخمر تشمل كل مسكر، فقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ»(١) ورُوِيَ عنه أنه قال: «كل شراب أسكر فهو حرام»(٢)، وقوله أيضاً: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»(٣).

مضارّ الخمر: تشمل الناحية الجِسمية والناحية النفسية، فالخمر وما تحتويه من كحول تفتك بالجسم مروراً بالمريء والمعدة مما يسبب فيهما الإصابات السَّرَطانية وذلك بصورة مؤكدة، والكبد هو العضو الأساسي المعرّض لأضرار الموادّ الكحولية، فالموادّ الكحولية تسبّب للكبد الْتهابات وتمزيقاً لخلاياه وتجمّعاً للدُّهْنِيّات في ما تبقّى منها، ثم تحجّراً مع تليّف يصل بالكبد إلى مرحلة التشمع التي لا شفاء منها. هذه بعض أضرار الخمر على صحة الإنسان نقتصر عليها خوفاً من التطويل.

أما من الناحية النفسية، فإن الخمر تؤدي بالشارب إلى إضْعاف صوت ضميره وذهاب حيائه، مما يدفع به إلى عدم التمسك بالأخلاق الكريمة وفعل

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

كل منكر قبيح، وإن كثيراً من حوادث الزنى والاغتصاب تقع تحت سلطان الخمر.

والخمر تؤدي بالشارب إلى ذهاب رشده، وضعف إدراكه، وعدم وزنه الأمور وَزْناً صحيحاً، مما يترتب على ذلك الخُسران في كل مجالات عمله من تجارة أو معاملات بين الناس.

مضارّ القمار: سمّى ٱللَّه القمار في القرآن «ميسراً» وهو الذي كان يتعامل به العرب، والميسر مشتقّ من اليُسْر بمعنى السهولة، لأن المال يجيء للرابح من غير جهد، ويدخل ضمن الميسر اليوم: أوراق اليانصيب، والرّهان في سباق الخيل، وألعاب الروليت وما يأتي عن طرقٍ أُخرى فيها الكسب والخسارة.

فالمُقامر لا يقوم ربحه إلاّ على خُسران الغير، فهو مغتصبٌ مال أخيه على مرأى منه، والإسلام حريص على تعزيز الأخوّة بين المؤمنين، فأيّ أُخُوَّةٍ تبقى بين هؤلاء؟

ويقول الشيخ محمد عبده في مضارّ القمار: «تعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القدرة العقلية بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهْمال المقامرين للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران، ومنها، وهو أشهرها، تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعةٍ واحدةٍ..»[١].

وبعد أن نهى ٱللَّه المسلمين عن إنْفاق أموالهم في الوجوه المحرَّمة كتعاطي الخمر والميسر سألوا عن وجوه الإنفاق في طرق الحلال، وقد رُوِيَ عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أُمِروا بالنفقة في سبيل ٱللَّه أتوا النبي ﷺ

---

(١) نقلاً عن تفسير المنار.

فقالوا: إنّا لا ندري ما هذه النفقة التي أُمرنا بها في أموالنا، وما الذي ننفقه منها؟ فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ﴾ العَفْوُ: ما سهل وتيسر مما فضل من الكفاية. والمعنى: ويسألك المسلمون يا محمد ما الذي ينفقون من أموالهم؟فقل لهم: أن ينفقوا السهل الزائد عن حاجاتهم ولا يشقّ عليهم بَذْلُهُ، والمراد من الآية أنّ على المتصدق أن يُبْقِيَ لنفسه ولعياله ما يكفيهم من المال، وما يزيد من المال يتصدَّق منه، وقد رُوِي أنّ النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً وابدأ بمن تعول»(١).

﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في الخمر والميسر والإنفاق، يُبين ٱللَّه لكم آيات الأحكام في كتابه لكي تتفكروا في أُمور الدنيا والآخرة، وتعملوا بهذه الأحكام مما يقربكم من ربكم.

وبعد سؤال المسلمين ماذا ينفقون من أموالهم، يأتي سؤالهم عن اليتامى وكيفية معاشرتهم. وسؤالهم عن اليتامى يَسْتدعي أن نذكر هذه المقدمة الوجيزة، وعلى ضوئها نفهم الآية التي وردت بشأنهم.

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينتفعون بأموال اليتامى لمصالحهم الذاتية، واستمر بعضهم على ذلك بعد إسْلامهم، فأنزل ٱللَّه سبحانه قوله مُحَذِّراً إيـاهـم: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾** [النساء: ١٠] فعند ذلك اعتزل الناس اليتامى فلم يخالطوهم في مأكل ولا مشرب ولا مال خوفاً من تحذير ٱللَّه لهم، فعند ذلك اختلّت مصالح

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

اليتامى وساءت معيشتهم، فمن كان عنده يتيم يقوم برعايته عزل طعام اليتيم عن طعامه، وربما كان يزيد عن اليتيم طعام فيتركه له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به، وهذا مما سبب الشدة والضيق للأوصياء على اليتامى، فسأل بعضهم رسول ٱللَّه عن الطريق السليم في معاملتهم، فنزل قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي يسألك بعض المسلمين يا محمد عن أمر اليتامى، قل لهم: إن المطلوب إصْلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية والعطف وإصلاح أموالهم بالتنمية من غير أن تؤكل أموالهم، فإصلاحهم خير من إهمال شأنهم وتركهم بدون رعاية والسهر عليهم فتفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ﴾ وإن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن فإنهم إخوانكم في الدين، والمُخالطة تستدعي الإخلاص وحسن النية فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير، وهذا يستدعي أن تُراعوا مصلحته على أكمل وجه وتشعروه بأنه في بيت أهله وذويه **﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾** وٱللَّه يعلم ما تضمره القلوب نحوهم من قصد الإصلاح لهم أو الإفساد، فعليكم ـ أيها المسلمون ـ أن تُراقبوا ٱللَّه في معاملتكم لليتامى، فإنه سبحانه سيجازي كُلاً من المصلح والمفسد بما يستحقه من ثواب أو عقاب **﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾** العَنَتُ: المشقة، أي لو شاء ٱللَّه لأوقعكم في المشقة وما يصعب احتماله بأن يكلفكم القيام بشؤون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم دون مخالطتهم ولا بأكل لقمة واحدة من طعامهم **﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** إن ٱللَّه هو القويّ الغالب لا يُعجزه أمر أراده، حكيم فيما يُشَرِّعه لكم من الأحكام التي فيها خيركم.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

شرح المفردات

ولا تَنْكِحُوا المشركات: لا تتزوجوهن، والمشركات المراد بهن الوثنيات ومن لا دين لهنّ.
ولأمة: الأمة هي المرأة المملوكة.
ولا تُنكحوا المشركين: ولا تزوِّجوهم من المؤمنات، والمراد بالمشركين هنا الكافرون مطلقاً.
يدعون إلى النار: يدعون من يتزوجهم ويعاشرهم إلى الأعمال التي تؤدي إلى عذاب النار.

تحريم الزواج من المشركات

وبعد أن بينت الآية السابقة الدعوة إلى الاعتناء باليتامى وإصْلاح أُمورهم، انتقلت الآيات للدعوة إلى الاعتناء بالأُسرة عن طريق اختيار الزوج أو الزوجة مبيناً في ذلك ما يحلّ وما يحرم مما فيه الخير للمؤمن، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوجوا ـ أيها المؤمنون ـ المشركات الوَثنيات حتى يُصَدِّقْنَ بٱللَّه ورسوله وما أنزل عليه من ربّه.

فالنكاح هو الزواج وأصله الوطء أو الضم، ويطلق على العقد الذي يُحِلّ العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، والمراد بالمشركات في الآية من يَعْبُدْنَ غير ٱللَّه ومن ليس لَهُنَّ دِين، وقد حرَّمت الآية نكاحهنَّ.

أما الكتابيّات (اليهوديّات والمسيحيّات) فلا تدلّ الآية على منع الزواج

بهنّ، فإنهن لا يُعرفن بالمشركات في لسان الشريعة الإسلامية، وإنما يُعرفن بالكتابيّات، وقد أُبيح الزواج منهنَّ صراحةً في قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

تأمل كيف أباح ٱللَّه الزواج من الكتابيّات، ولكنه اشترط أن يَكُنَّ مُحْصَنات، والمحصنات هن العفيفات.

وقد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب جماعة من الصحابة: عثمان، وطلحة، وابن عباس، وجابر، وحُذَيْفَة، ومن التابعين: سعيد بن المسيَّب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعِكْرِمة، والشَّعْبِيُّ وغيرهم، كما ذهب إلى ذلك فُقهاء الأَمصار، وعلى هذا يمتنع أن تكون الآية **﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكاتِ﴾** من سورة البقرة ناسخة للآية التي في سورة المائدة التي أَحلَّت الزواج من الكتابيّات كما يَدَّعِي البعض، لأن سورة البقرة أول ما نزل بالمدينة المنورة وسورة المائدة هي آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول وليس العكس.

وبهذا الحُكْم أخذ جمهور العلماء والصحابة بتحليل الزواج من اليهودية أو النصرانية، وقد رُوي أن عثمان تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة وهي نصرانية على نسائه، وطلحة بن عبيد ٱللَّه تزوج يهودية من أهل الشام.

وعلى هذا فزواج المسلم بالكتابية جائز، لأن القرآن صريح في إباحة ذلك، ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهيته كما ذهب إلى ذلك الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل، فقد كَرِها ذلك مع وجود المسلمات والقدرة على نكاحهن، وهم على صواب في ذلك لأن زواج المسلم بكتابيّة قد يُؤَثّرُ قَطْعاً في دين الأطفال التي تنجبهم وترضعهم من لبنها وتوجههم نحو معتقدها، فينشأ

الأولاد وبهم ميْل إلى دين أُمهم، وبالأخص إن كان آباؤهم المسلمون ليس لهم من قوة الإيمان وصلابة النفس ما كان للسلف الصالح من المسلمين الأولين، وليس لهم الحرص على تنشئة أولادهم على دين الإسلام، وهذا مما يجعل أولادهم يتبعون أُمهم في دينها.

﴿وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ الأَمَةُ: الأُنثى من الرقيق، أي إن زواج المؤمن من أَمَةٍ مؤمنةٍ خيرٌ من زواجه من مُشركةٍ ولو أعجبه حُسْنها أو مالها أو نسبها أو جاهها. والسبب في ذلك أن الزواج يقوم على المودة والرحمة والإخلاص، فالأَمَة المؤمنة تتوفر فيها هذه الصفات التي هي ثمرة الإيمان بٱللَّه وتعاليم الإسلام، أما المُشركة التي تثير الإعجاب بجمالها، فهي مزهوّة بجمالها، لا عاصم لها من دين يعصمها عن الغواية، ولا مانع من خُلُق يمنعها من الخيانة، وكيف يلتقي قلبان على تناقض: قلب يعبد ٱللَّه وحده، وقلب يعبد الأوثان؟ هذا مع العلم أن الزواج هو علاقة دائمة تقوم على التوافق بين الميول والمعتقدات.

تحريم زواج المسلمة من مشرك وكافر

وإذا كان زواج المؤمن بالمشركة حرام فتزويج المؤمنة بالمشرك حرام أيضاً، قال تعالى: **﴿وَلاَ تُنكِحُوا المُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾** تنكحوا: بضم التاء تزويج الإنسان غيره، والمعنى: ولا تزوّجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات بالرجال المشركين حتى يتركوا ما هم عليه من الشرك بٱللَّه ويدخلوا في دين الإسلام، والعبد المؤمن مع ما عليه من رِقٍّ خير من مشرك ولو أعجبكم بِحَسَبِهِ ونَسَبِهِ وغِناه وجماله. تأمّل كيف فضَّل ٱللَّه العبد المؤمن على الرجل الحُرّ المُشرك، لأن المؤمن له من خشية ٱللَّه ما

يردعه عن الآثام والظلم، وله من تعاليم الإسلام ما يوفر لزوجته السلامة والطمأنينة والسعادة، بينما المشرك يغترّ بماله وحسبه ونسبه، وهذا مما يطغيه ويجعله يسيء معاملة زوجته لأنه ليس له دين يردعه.

والنهي هنا يتناول المشرك الذي يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن جعل عدم الإيمان غاية للنهي، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل بوحدانية ٱللَّه وبنبوة محمد لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة. والدليل على ذلك أيضاً ما جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فهذه الآية صريحة في أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز، وكلمة كافر تشمل الكتابي والمشرك كما قال ٱللَّه تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، كما قد جاء في القرآن: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وعلى هذا أجمع الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم من العلماء على تحريم زواج المرأة المسلمة من رجل لا يدين بدين الإسلام.

هذا وقد استنبط العلماء من قوله تعالى: **﴿وَلاَ تُنْكِحُوا المُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾** أنه لا يجوز عقد النكاح إلاّ بوليّ، لأن النهي عن تزويجهن إلى المشركين إنما وُجِّهَ إلى أوليائهن، وبذلك جاء في الحديث الشريف: «لا نكاح إلاّ بوليّ»[1] ويقوّي ذلك ما جاء في القرآن أيضاً ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أمّا الإمام أبو حنيفة فيقول: إذا زوّجت المرأة نفسها برجل كفء

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.

بشاهدين فذلك نكاح جائز بناء لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ثم يُبين ٱللَّه الحكمة من منع الزواج من المشركات أو المشركين بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي هؤلاء المشركون بما لهم من اتصال ومعاشرة مع زوجاتهم قد يدعونهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التي تفضي بهم إلى دخول النار في الآخرة. والسبب في ذلك أن رابطة الزواج هي رابطة اتصال ومعاشرة بين الزوجين، والحرص على إرضاء أحدهما للآخر، وسلطة الرجل على المرأة أقوى من سلطتها عليه، لذا نهى القرآن عن وقوع الرابطة الزوجية مع المشركين لما لهم من تأثير على زوجاتهم، والاقتداء بهم في عقائدهم الباطلة ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الجَنَّةِ وَالمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي إن ٱللَّه يدعو المؤمنين إلى الإيمان الحق والعمل الصالح الموصل إلى الجنة بأمره وهدايته وتوفيقه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ويُوضح ٱللَّه حججه وأدلّته في كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ليتذكروا ويعتبروا بما فيه من الإرشادات القيّمة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

شرح المفردات

المحيض: دم العادة الشهرية للمرأة.

أذى: أي يؤذي ويجلب الضرر.

فاعتزلوا النساء في المحيض: أي امتنعوا عن الاتصال الجنسي بنسائكم زمن الحيض.

ولا تقربوهن حتى يطهرن: ولا تجامعوهن حتى ينقطع الحيض ويغتسلن.

نساؤكم حرث لكم: نساؤكم موضع زرع لكم تلقون نطفكم في أرحامهن، والحرث: الزرع.

الضرر من مضاجعة الزوجة الحائض

وتتوالى الأسئلة على رسول ٱللَّه فيأتي السؤال عن الحيض، وقد روى الإمام مسلم عن أنس رضي ٱللَّه عنه: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يُشاربوها ولم يجامعوها في البيوت (أي لم يكونوا معها في البيت)، فَسُئِلَ رسول ٱللَّه عن ذلك فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذى فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي المَحِيضِ..﴾ الآية.. والمحيض مشتق من الحيض، والحيض هو ما يقذفه رحم المرأة من دم في حال فراغه من الحمل، والسؤال عن المحيض هو سؤال عن حكم العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عند وجوده، ويأتي الجواب بأن

المحيض ﴿هُوَ أَذًى﴾ وهذه الكلمة من معجزات القرآن التي تلخص أضرار الحيض.

الأذى النفسي للمرأة: فالمرأة في زمن الحيض لا تكون في حال تستسيغ معها العلاقة الجنسية، لأنها تُعاني عادةً انحرافاً في مزاجها وتشعر بتعب عامّ، وتظهر حدة في طبعها، ويكون جهازها التناسلي في حال اضطراب فتتألم من المضاجعة. وكثير من حالات العجز الجنسي والبرودة الجنسية عند الرجال والنساء هو بسبب الجِماع في المحيض، وهناك فوق ذلك قذارة الدم ورداءة الموضع، كما أن النسل وتلقيح بويضة الأُنثى لا يحصل في تلك الحالة.

الأذى الصحي للمرأة والرجل: الاتصال الجنسي في غير أيام الحيض يكون سليماً، إذ إن الموادّ المطهرِّة والإفراز الحامض للمهبل عند المرأة تقتل الميكروبات، أما في أوقات الحيض فيكون المهبل ميداناً مفتوحاً لغزو أسراب من مختلف الميكروبات، وقد ثبت أن الاتصال الجنسي في زمن الحيض هو العامل الأكبر في وصول هذه الميكروبات إلى المهبل مما يؤدي إلى التهابه، ويسبب آلاماً شديدة عند المرأة، وقد يؤدي هذا الالتهاب إلى العُقم.

وقد تمتد العدوى إلى الرجل بما يحمل الدم من ميكروبات عن طريق قناته البولية فتحدث عنده التهابات مختلفة في أعضائه التناسلية، بل قد تصيب المثانة والبروستاتا والخصيتين بأشدّ الآلام ويصاب بالضعف الجنسي(١).

أمام هذه الأضرار كلها الناشئة عن الاتصال الجنسي أثناء الحيض يأمر ٱللَّه الأزواج بقوله ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ والمراد بالاعتزال الامتناع عن العلاقة الجنسية عندما تكون المرأة في الحيض، وقد رُوِي عن النبي ﷺ قوله

---

(١) نقلاً باختصار عن كتاب (القرآن والطب) للدكتور محمد وصفي ـ دار ابن حزم.

في تلك الحالة: «اصنعوا كل شيء إلاّ الجِماع»[١]، وعن ميمونة قالت: «كان رسول ٱللَّه يُباشر[٢] نساءه فوق الإزار وهن حُيَّض»[٣]. وسئل ابن عباس: ما للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قال: ما فوق الإزار. وقال جمهور من الفقهاء: إن الذي أمر ٱللَّه باعتزاله منهن في حال حيضهن ما بين السرّة والركبة.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ والقرب المنهي عنه هو كناية عن الامتناع عن الاتصال الجنسي، وهي من الكنايات القرآنية التي تربّي الذوق السليم وتمنعه من التلفظ بالألفاظ النابية التي يجافي سمعها الذوق السليم. فالآية تمنع من مجامعة الحائض حتى تطهر، وطهرها يكون بانقطاع حيضها واغتسالها، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فإذا تطهرت النساء بانقطاع دم الحيض والاستحمام منه، فلكم أن تجامعوهن من المكان الذي أمركم ٱللَّه، وكلمة **﴿فَأْتُوهُنَّ﴾** ليس المراد بها أمر إلْزامي بل المراد بها الإباحة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ إن ٱللَّه يحب التوابين من الذنوب المبالغين في التوبة، النادمين على ما فعلوا **﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾** ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار. رُوي عن النبي ﷺ قوله: «من أتى حائضاً (أي جامعها) فقد كفر بما أنزل على محمد»[٤] وهذا من باب الترهيب لا من حيث الخروج عن الإسلام، أي إنه فَعَل ما يفعله الكافرون.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) يباشر: المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج كالتقبيل والمعانقة والملامسة.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي.

أحكام الحيض

الحيض هو بروز الدم من رحم الأُنثى إلى الفرج من غير داء لها وألاّ يكون بسبب الولادة، فالخارج بسبب الولادة يسمّى دم نفاس.

وقد اتفق الفقهاء على أن الدم الخارج من رحم الأُنثى لا يعتبر حَيْضاً إلاّ ببلوغها تسع سنوات قمرية، وما كان من دم دون التسع سنوات فغير معدود به.

ويُعرف دم الحيض بلونه الأسود (أحمر مائل إلى السواد) وله رائحة خاصة، وقد يكون باللون الأحمر المشرق، وقد يكون دم الحيض باللون الأصفر(١) واللون الأكدر(٢).

واللون الأصفر واللون الأكدر هما شيئان كالصديد، ويُبْنى عليهما الأحكام الآتية:

١ ـ لا يثبت ابتداء العادة الشهرية لدى الأُنثى برؤية الأصفر والأكدر بل بلون الدم الأسود أو الأحمر المشرق.

٢ ـ الأصفر والأكدر في وقت الحيض، هما حيض.

٣ ـ رؤية الأصفر والأكدر بعد الطهر، هما طهر.

وعلامة الطهر من الحيض هي رؤية ماء لزج أبيض يعقب انتهاء الحيض، كما أن الحائض تتعرف على طهرها بإدخال خرقة مكان خروج الدم، فإذا رأت عليها أثراً كالخيط الأبيض فهي العلامة الطبيعية على طهارة الرحم، فإن لم ترَ ذلك تكتفي برؤية الأثَر الجافّ على القطن.

---

(١) اللون الأصفر: هو كصفرة القزّ والتبن.

(٢) اللون الأكدر: هو كلون الماء الكَدِر.

فترة الحيض: ذهب الحنفية إلى أن أقلّ مدة الحيض ثلاثة أيام بلياليها، وأكثرها عشرة أيام بلياليها.

وذهب المالكية إلى أنه لا حد لأقلّه من الزمان، وأكثره خمسة عشر يوماً.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن أقلّ الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يوماً بلياليها، كما نصّ الشافعية والحنابلة إلى أن غالب الحيض ستة أيام أو سبعة.

ولا بد من التنبيه إلى أن ما ذكره الأئمة عن أقلّ الحيض وأكثره يكون في حق المرأة المبتدئة بالحيض، أما التي اعتادت أن يكون حيضها عدداً محدداً من الأيام: خمسة أيام أو ستة أو سبعة مثلاً، كما هي العادة عند معظم النساء، فهذه تكون عادتها ملزمة لها، والعادة الشهرية تثبت بمرة واحدة في المبتدئة، وبمرتين فأكثر في غيرها.

فمثلاً المرأة التي عادتها أن ترى الدم ستة أيام من كل شهر إذا استمرت في رؤية الدم أكثر من ستة أيام نقول لها: إن الأيام الستة فقط هي حيض، وما زاد عن الستة أيام يطلق عليه دم استحاضة، لذا يصحّ لها أن تغتسل بعد انقضاء اليوم السادس وتصوم وتصلي، وحكم الاستحاضة أنها لا تمنع الأمور التي يمنعها الحيض، والمرأة المستحاضة تتوضأ لوقت كل صلاة وتصلي به ما تشاء حتى يخرج الوقت.

أما إذا انقطع دم المعتادة دون عادتها ورأت الماء اللزج الأبيض فإنها تطهر بذلك ولا تتمم عادتها.

ومما ينبغي معرفته أنه لا يُشترط في الحيض ـ العادة الشهرية ـ استيعاب مدته كلها لنزف الدم، فالعبرة في الحكم لأول الدم وآخره، وإن ما بين الدَّمين

من نقاء يعتبر حيضاً شرط عدم بلوغ النقاء خمسة عشر يوماً.

ما تمتنع عنه الحائض: اتفق الفقهاء على عدم صحة الصلاة من الحائض، وأنه لا قضاء عليها ما فات من الصلاة في أيام حيضها. كما أنه يحرم عليها الصيام وأن عليها قضاء الأيام التي أفطرت فيها، ومتى انقطع دم الحيض وجب عليها الصوم. والحيض لا يمنع شيئاً من أعمال الحج إلاّ الطواف حول الكعبة.

وذهب جمهور الفقهاء إلى حرمة قراءة الحائض للقرآن ومسّ المصحف وحمله، واستثنى المالكية من ذلك المُعَلِّمة والمُتَعَلِّمة، فإنه يجوز لهما قِراءة القُرآن ومَسّ المصحف(١). كما اتفق الفقهاء على حرمة اللبث في المسجد للحائض إن خافت تلويثه، وجواز عبورها دون لبث فيه للضرورة والعذر.

طهارة الحائض: لا خلاف بين الفقهاء في طهارة جسد الحائض وعَرَقها، وجواز أكل طبخها وعَجْنها، وما مسَّته من المائعات والأكل معها.

أما وطء الحائض فهو إثم كبير من العامد العالم بالتحريم، ومن يفعل ذلك فعليه كفّارة، فقد أوجب الحنابلة نصف دينار ذهباً(٢) لمن يفعل ذلك.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ الحرْثُ في الأصل: إلْقاء البذْر في الأرض، أو هو الزَّرْع، والمُراد: أنهن مزْرع لكم ومَنْبِتُ للولد أعدّهنَّ ٱللَّه لذلك، فالآية تُشَبِّهُ الزوجة بالحرث، ووجه الشبه بينها وبين الزرع أنّ كليهما وسيلة لمَدّ الوجود الإنساني بالحياة، فالزوجة تمدّ النوع الإنساني بعنصر تكوينه وإنشائه في رحمها، والأرض تمدّه بالزرع الذي يتغذى منه ويكون به استمرار حياته.

---

(١) نقلاً عن (الموسوعة الفقهية) الصادرة عن وزارة الأوقاف ـ الكويت: مادة (حيض) ومادة (مصحف).

(٢) أي ما يوازي ٢,١٣ غراماً ذهباً.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أنَّى معناها: كيف، أي باشروا نساءكم في موضع الحرث على أي شكل كانت المُضاجعة من خلْف أو من أمام، مستلقية أو مضطجعة، قائمة أو قاعدة على أن يكون ذلك في فرج المرأة.

أما من فسَّر قوله تعالى ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ في أي مكان شئتم في قُبُل المرأة أو دُبُرِهَا، فالآية لا تُفيده لأن ٱللَّه سبحانه يقول: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ والمعنى المراد أن يكون الجِماع في موضع النَّسْلِ، ومعاذ ٱللَّه أن يتبادر إلى الذهن المعنى الآخر. ولأن ٱللَّه يقول أيضاً ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ ولا يُتصور الحرث إلاّ في موضع النسل وإنجاب الذرّية، وهل في الدُّبُر من حَرْث؟ ومما يؤيد ذلك أن ٱللَّه حرَّم إتيان النساء في المحيض لاستقذاره وما ينشأ عنه من أذًى، فكيف يُباح إتيانهن في الأدبار وهي أشدّ قذارة من مكان المحيض وأشد ضرراً في ذلك؟

وقد وردت الأحاديث الشريفة في النهي عن ذلك فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «مَلْعُونٌ من أتى امرأةً في دُبُرها»(١).

ويقول أيضاً: «لا ينظرُ ٱللَّهُ إلى رَجُلٍ أتى رجلاً أو امرأةً في الدُّبُرِ»(٢).

ثم يقول ٱللَّه تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ هذه الجملة يندرج في مضمونها كل خير، أي قَدِّمُوا لأنفسكم كل عمل صالح يقربكم إلى ٱللَّه تعالى.

أو قَدِّموا لأنفسكم في أمر الزواج بأن تختاروا ذاتَ الخُلُق والدِّين والعَفاف حتى تكون لكم عيشة هنيئة في حياتكم الزوجية.

---

(١) أخرجه أبو داود والنَّسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وابن حبان.

أو قَدِّموا لأنفسكم بأن تُحسنوا تربية أولادكم، فينشأوا على الصلاح والتقوى وليكونوا بارّين بكم عند هَرَمكم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتقوى ٱللَّه هي خشيته واتِّقاء غضبه وذلك بطاعته وترك ما نهى عنه **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُلاقُوهُ﴾** والإيمان بلقاء ٱللَّه هو الذي يمنع الإنسان من اقتراف المنكرات والظُّلْم يقيناً منه بأن ٱللَّه سيحاسبه على ما اقترفت يداه، وسيجزيه على الإحسان إحساناً وعلى السوء سوءاً **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** وبشر يا محمد المؤمنين بالثواب الجزيل على ما تُقدّمه أيديهم من الأعمال الصالحة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

شرح المفردات

عُرْضَة: معترضاً وحاجزاً.

لأيمانِكم: الأيْمان، جمع يمين وهو الحَلِفُ والقَسَم.

أن تبرّوا: أن تفعلوا البِرّ، والبِرُّ هو التوسّع في فعل الخير.

اللغو: ما لا يُعْتَدّ به من الكلام.

يُؤْلُونَ: يقسمون، والإيلاء شرعاً أن يحلف الرجل أن لا يضاجع امرأته.

وإن عزموا الطلاق: وإن صمموا على الطلاق ليوقعوه.

تربّص: انتظار.

فاءوا: رجعوا.

النهي عن جعل الحلف بالله مانعاً للخير

وبعد أن ذكر ٱللَّه فيما سبق الدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير وصحبة اليتامى ورعاية شؤونهم، أمر ٱللَّه المؤمنين في الآية التالية بأن لا يمتنعوا عن هذه الفضائل وغيرها تَعَلُّلاً منهم بأنهم حلفوا بٱللَّه أن يمتنعوا عنها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلاَ تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾

عُرضة: حاجزاً ومعترَضاً، واليمين[١]: بمعنى القَسَم. والمعنى: لا تجعلوا ٱللَّه ـ لأجل حلفكم به ـ حاجزاً دون فعل ما حلفتم على تركه من البِرّ والتقوى والإصلاح بين الناس.

والآية بيَّنت ثلاثة أنواع من الخير قد يقسم الناس بٱللَّه على تركها إما بوازع الغضب أو عند تلقّي الإساءة من الغير. أولها: البِرُّ، وهو التوسع في فعل الخير. والثاني: التقوى، وهي اتقاء ٱللَّه والحذر من عقابه بطاعته والقيام بفرائضه. والثالث: الإصلاح بين الناس بإزالة ما بينهم من عداوة وخصومة.

وقد رُوِيَ في أسباب نزول الآية أن أبا بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه حلف أن لا يعطي ذا قرابة له صَدَقة وهو (مسطح) عندما خاض بالبهتان في شأن ابنته عائشة.

وجلّ ما تدعو إليه الآية، أن المسلم إذا حلف على ترك فعل الخير فليفعله، وليكفّر عن يمينه، ولا يجعل اليمين مانعاً من إتيانه، وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «مَن حَلَفَ على يَمِينٍ فرأى غيرها خيراً منها

(١) اليمين: بمعنى القَسَم، وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا وثّقوا عهودهم بالقَسَم وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه، ولهذا أُطلق على القَسَم كلمة اليمين.

فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليكفِّر[١] عن يمينه»[٢].

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما يقوله الحالف منكم بٱللَّه إذا حلف، وهو عليمٌ بنيَّاتكم والدوافع التي دعتكم إلى القَسَم، فحافظوا على فعل الخير والإصلاح بين الناس.

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ﴾ اللغو: هو الساقط من الكلام، وما لا يُعْتَدُّ به، ولا يصدر عن فكر وَرَوِيَّة. ويمين اللغو التي لا قصد فيها إلى الحَلِفِ، وهي التي تجري على اللسان دون قصد ولا نية، ومعنى نفي المؤاخذة في يمين اللغو: أنه لا إثم فيها ولا يجب عليها كفّارة.

ومن أمثلة يمين اللغو ما رُوي عن عائشة: قول الحالف «لا واللَّهِ» و «بَلَى واللَّهِ».

ورُوِيَ عن مالكٍ قوله: «لَغْوُ اليمينِ أن يحلف على شيءٍ يظنُّه كذلك ثم يتبين خلاف ظنِّهِ».

وعن ابن عباس قوله: «اللغو أن يحلف الرجل على الشيء يراهُ حقًّا، وليس بحقٍ».

كما رُوي عن ابن عباس قوله: «لغو اليمين أنْ تحلف وأنت غضبان». قد يُراد بالغضب ما يُخرج الإنسان عن اتّزانه.

ومما قيل عن لغو اليمين: هو أن يحلف الرجل على المعصية فلا يؤاخذه ٱللَّه بإلْغائها، وكفّارتها أن يتوب منها.

---

(١) كفارة اليمين عند عدم الوفاء به هي: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة من الرق، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

(٢) أخرجه مسلم.

ومن أمثلة لغو اليمين: أن يتساوم الرَّجُلان في البيع والشراء فيقول أحدهما: «وٱللَّه لا أشتريه منك بكذا» ويقول الآخر: «وٱللَّه لا أبِيعك بكذا وكذا» ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي إنه سبحانه لا يعاقبكم على أيْمان اللغو غير المقصودة، ولكن يعاقب من أقسم كاذباً ليخدع الناس ويستولي على أموالهم بالباطل.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امرئٍ مسلم بيمينه[1] فقد أوجب ٱللَّه له النار، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال وإن كان قضيباً من أراكٍ»[2].

ويختم ٱللَّه الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور: من صيغ المبالغة أي أنه سبحانه واسع المغفرة، حليمٌ لا يُعاجل بالعقوبة من يعصيه.

من فروع القَسَم: الإيلاء

ثم تأتي الآية التالية متممة لأحكام القَسَم ومن فُروعه: الإِيلاء، وهو أن يُقْسِمَ الرجل على هِجران امرأته جِنْسياً. والإيلاء لغة: الحَلِفُ، وشرعاً هو أن يقول الرجل لزوجته حالِفاً: واللهِ لا أقربكِ (أي لا أُجامعكِ) أربعة أشهر أو أكثر من أربعة أشهر، أو يقول: وٱللَّه لن أقربكِ أبَداً.

وقد كان الرجل عند العرب في الجاهلية ـ أي قبل الإسلام ـ لا يحب امرأته ولا يحب أن يتزوجها غيره، فكان يحلف أن لا يطأها السنة والسنتين وأكثر من ذلك للإضْرار بها، ومن أشد الإضرار بالحياة الزوجية هجر المرأة في المبيت والامتناع عن مضاجعتها، لأنه يدل على البغض الشديد لها من زوجها،

(١) بيمينه: أي بِقَسَمِهِ.
(٢) أخرجه مسلم.

وعلى الطعن في أُنوثتها، وهذا ما يسبب لها آلاماً نفسية يصعب تحمّلها، كما أنها تصبح كالمُعَلَّقة: لا هي متزوجة ولا هي مطلّقة.

ثم جاء الإسلام وبعض المؤمنين يفعلون ذلك استمراراً لما كانوا يفعلونه قبل الإسلام، فأزال هذا الظلم عن المرأة وأمهل الزوج مدةً من الزمن حتى يَتَرَوَّى ويُراجع نفسه عن الظلم، وتعود المودة بين الرجل والمرأة إلى سابق عهدها، وهذه المدة بيَّنها ٱللَّه بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ والتربُّص: الانتظار، أي فمن حلف أن لا يطأ امرأته مطلقاً أو زيادة على أربعة أشهر يُمْهَلُون أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ والفَيءُ: هو الرُّجوع، وفسّروه هنا بالجِماع، أي إن رجعوا إلى ما كانوا عليه من المعاشرة الزوجية بوطء نسائهم إن قدروا عليه، أو بالقول إن عجزوا عنه جنسيًّا بعد مضيّ أربعة أشهر مخالفين بذلك ما حلفوا عليه، فيكونون بذلك قد حنثوا في أيْمانهم ويلزمهم كفارة اليمين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن ٱللَّه سبحانه يغفر لهم ما فرط منهم نحو زوجاتهم، وهو رحيم بهم بإسقاط العقوبة عنهم.

فالرجل الذي يحلف بٱللَّه أن لا يجامع زوجته مدة من الزمن، فإذا كانت المدة أربعة أشهر أو أقلّ ثم يرجع إلى معاشرتها جنسيًّا قبل مضيّ تلك المدة يكون قد حَنَثَ في قَسَمِهِ، وعليه كفّارة اليمين. وهذا ليس من الإيلاء في نظر الأئمة: مالك، والشافعي وأحمد، وهي عندهم يمين محضٌ. أما إذا زادت المدة على أربعة أشهر ولم يُراجع الزوج زوجته ولم يطأها، فللزوجة الحق بمطالبة زوجها بأن يفيء: أي يرجع إلى معاشرتها واستئناف حياته الزوجية معها وعليه كفّارة اليمين، وفي حال رفْضه يحقّ لها طلب الطلاق، ويُجبره القاضي على ذلك، وتكون الطلقة رجعية أي يحقّ للزوج مراجعة زوجته بدون عقد ومَهْرٍ جديدَيْن ضمن العِدَّة.

وأما الإمام أبو حنيفة فيرى أن الطلاق يقع بانتهاء الأربعة أشهر، والرجوع إلى الزوجة إنما وقته دون الأربعة أشهر وعليه كفّارة اليمين، فلا زيادة على تلك المدة، ويقع الطلاق طلاقاً بائناً بعد مضيّ أربعة أشهر. والطلاق البائن هو أنه لا يجوز للرجل الرجوع إلى زوجته إلا بعقد ومهر جديدَيْن وبعد موافقة الزوجة.

وقد يكون هِجران الزوجة من الوسائل لتأديبها: كما إذا أهملت شؤون بيتها أو أساءت معاملة زوجها أو غير ذلك من الأمور التي تستدعي هجرها، علَّها تعود إلى رشدها ويستقيم حالها، فيحتاج الرجل في مثل هذه الحالات إلى الإيلاء يقوّي به عزمه على ترك قربان زوجته تأديباً لها أو رغبة في إصلاحها، ولكن هذه المدة حدَّدها الشرع الإسلامي بأربعة أشهر، فإمّا الرجوع إلى معاشرة زوجته وإما أن يطلقها كما جاء في تتمة الآية **﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** أي وإن عزم هؤلاء الحالِفون بهجر نسائهم على الطلاق بعد مضي الأربعة أشهر، فإن ٱللَّه سميع لقولهم وما حلفوا عليه، عليمٌ بِنيّاتهم فليراقبوه فيما يفعلون، لأنهم إن كانوا يريدون إيذاء نسائهم فإن ٱللَّه لا تخفى عليه خافية، فليتقِ ٱللَّه من يُبيّت الأذى لزوجته لأن ٱللَّه سيتولى عقابه.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

شرح المفردات

يتربَّصْنَ: ينتظرنَ.
قُروء: جمع قُرْء وهو الحيض أو الطهر منه.
بعولتهن: البعولة، جمع بعل وهو الزوج.
أحقّ بردّهن: أي هم أصحاب الحق بمراجعة زوجاتهم في العدة عند الطلقة الأولى والثانية.
بالمعروف: هو كل فعل يُعرف حُسْنُهُ بالعقل والشرع.

من أحكام الطلاق

وبعد أن بيَّن القرآن أن من الرجال من يعزم على الطلاق، ناسب أن يذكر أحكام الطلاق وما يترتب على الزوج من واجبات وحقوق نحو امرأته في حال أن طلقها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ والمراد بالمطلّقة هنا: المرأة الحُرَّة خلاف الأَمَة، والتي تكون من ذوات الحيض، أي التي يأتيها الحيض والتي سبق لزوجها أن دخل بها ـ أي جامعها ـ فخرج بذلك المرأة الآيسة التي لا تحيض لكبر سنها أو التي لم تر الحيض بعد لصغر سنها، أو المرأة التي لم يدخل بها زوجها، أو المرأة الحامل، وكل هؤلاء لهن أحكام خاصة بهن نصَّ عليها القرآن.

ومعنى **﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾**: ينتظرن مرور ثلاثة قُروء، وزيدت كلمة **﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾**

إشْعاراً لهنّ بالانتظار وصيانة لأنفسهن من الابتذال والاحتفاظ بكرامتهن حتى لا يرتمين على أي رجل يتقدم إليهن بعد الطلاق. و﴿**قُرُوء**﴾ جمع قُرْء، وقد اختلف الفقهاء وعلماء اللغة في تحديد معناه:

فالإمام أبو حنيفة والإمام أحمد بن حنبل قالا: المراد بالقُرء في الآية مدّة الحيضة التي تأتي كل شهر، أما الإمام مالك والإمام الشافعي فقالا: إنَّ المراد بالقُرء مدة الطهر بين حيضتَيْن.

ولنرجع إلى كيفية التربُّص، فإذا كان تفسير القرء بمعنى الحيض يكون الحكم كما يأتي: إذا طلَّق الرجل امرأته في طهر لم يجامعها فيه، استقبلت المطلقة حيضة، ثم حيضة ثانية، ثم حيضة ثالثة، فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العِدّة وطُلِّقت من زوجها طلقة بائنة[١].

أما إذا فسَّرنا القُرء بمعنى الطُّهْر، فيكون الحكم كما يأتي: إذا طلَّق الرجل امرأته في طُهْرٍ لم يجامعها فيه استقبلت بعده طُهْراً ثانياً بعد حيضة، ثم طهراً ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العِدَّة ومن عصمة زوجها الذي طلَّقها، ولا يجوز له مراجعتها إلاّ بعَقْدٍ ومَهْرٍ جديدَيْن.

والمدة التي تتربص فيها المطلقة أثناءها ثلاثة قُروء تسمى (العِدَّة) التي لا يجوز للمطلقة في أثنائها أن تتزوج من أحَدٍ، كما أن الغاية من هذه الفترة براءة رحمها من الولد إن كانت حاملاً من زوجها الذي طلقها.

﴿**وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ**﴾ أي ولا يحلّ لهؤلاء المطلقات أن يكتمن ما يكون في أرحامهن من جنين أو دم حيض، وذلك لأن أمر العدة يدور على الحيض والحَمْل، لذا جُعِلَ القول قولهن في

(١) الطلقة البائنة: هي التي لا يحق للزوج مراجعة زوجته إلاّ بعقد ومهر جديدن.

انقضاء العدة، والمراد بالنهي عن الكتمان: النهي عن الإضرار بالزوج. فإذا قالت المطلقة: حُضْتُ وهي لم تَحِض، فمعنى ذلك أنها حامل بولد تريد أن تنسبه إلى غير أبيه، وقد كان بعض نساء العرب قبل الإسلام يكتمن الحمل ليلحقن الولد بالزوج الجديد، فنزلت الآية مُحَذِّرةً من ذلك. وإذا قالت المطلقة: لم أحِضْ وهي قد حاضت، فمعنى ذلك أنها تدّعي الحمل وتريد إلْزام زوجها بالنفقة فتكون قد أضرَّت به.

﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ هنا وعيدٌ شديدٌ للمطلقات لتأكيد تحريم كتمان ما في أرحامهن، وبيان أن من كتمت منهن لم تستحق اسم الإيمان بٱللَّه لأن سبيل المؤمنات أن لا يكتمن الحق، وفوق ذلك تهديد ووعيد لهن بالمحاسبة يوم القيامة وما يكون فيه من عذاب شديد لمن يعصي ٱللَّه.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ والبعولة: جمع بعل وهو الزوج، أي أن المرأة في مدة انتظار حصول ثلاثة قروء لها ليثبت طلاقها تظل في كنف زوجها، وله الحق في أن يُراجعها قبل انتهاء عِدّتها إلى عصمته بعد أن تكون مسبّبات الخلاف بينهما قد زالت، وبعد أن يكون الزوج قد شعر بالندم على طلاقها، وظهرت له الأضرار المترتبة عليه، وما يلي ذلك من عواقب وخيمة على أُسرته، وقد يتدخل الأهل والأصدقاء لإصلاح ما بين الزوجين من سوء تفاهم، كل هذه العوامل قد تساعد إلى إعادة الحياة الزوجية إلى عهدها السابق. لذا جعل ٱللَّه الحق للزوج أن يُعيد زوجته إلى كنفه ويلغي الطلاق إما بالقول كأن يقول لزوجته: أَرْجَعْتُكِ إلى ذمّتي، أو تكون المراجعة بالفعل بإقامة العلاقة الجنسية معها، وبذلك يبطل الطلاق ويحسب عليه بذلك طلقة واحدة، والرجعة إلى الحياة الزوجية أثناء العدة تعود إلى الزوج وحده وليس فيها عقد ومهر جديدان.

ثم أتبع القرآن هذا الحكم قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً﴾ أي إنّ الرجل لا يسوغ له أن يفكر في الرجعة إلى الحياة الزوجية إلاّ إذا حاول إصلاح حاله وحملها على الاستقامة والعمل لخير الأسرة، ومعاملة زوجته بالرفق واللين والمعاملة الحسنة، والسبب في ذلك أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يُراجعون المطلقة ويريدون بذلك الإضرار بها، وذلك بأن يُراجعوها قبل أن تنتهي عِدَّتُها ثم يُطلّقونها بعد ذلك لتستأنف العدّة من جديد وهلّم جرّا.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾ أي للنساء على أزواجهن من الحقوق وحُسن المعاشرة مثل الذي عليهن للأزواج من الواجبات. وقوله سبحانه: ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ أي ما يُستحسن من الأفعال وحُسن الصحبة ولين الكلام وغير ذلك من الأخلاق الكريمة.

فالنص القرآني يُعطي للرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والأحوال، فإذا همَّ بمطالبتها بأمر من الأمور عليه أن يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائها، وليس المراد بالمِثْلِ في كل الأمور، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة، فما من عمل تعمله المرأة للرجل بما هو من اختصاصها إلاّ وللرجل عمل يقابله لها بما هو من اختصاصه، فليس من العدل أن يتحكَّم أَحَد الزوجين بالآخر ويستذلّه ولا سيما بعد الرباط بين الزوجين الذي لا يقوم إلاّ على الحبّ والرحمة والاحترام المتبادل بينهما.

ثم إن الآية التي مرّت معنا والتي أقَرّت المساواة بين الزوجين في المعاملة بيَّنت بعد ذلك الفرق بينهما بقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي للأزواج على الزوجات زيادة درجة لأنه هو ربّ الأُسرة والقائم المشرف عليها، والمنفق أمواله في مصالحها، وهذه الدرجة فسّرتها الآية القرآنية الآتية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ

﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فحق القَوّامة مستمد من التفوق الفطري لطبيعة الرجل، فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة، ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية، لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرَّضاعة، إضافة إلى نهوض الرجل بتكاليف الأُسرة.

ويختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه القوي الغالب المنتقم ممن خالف أمره وتعدّى حدوده، الحكيم في أفعاله وما شرع لعباده من الأحكام.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

شرح المفردات

فإمساك بمعروف: فردُّوهنّ إلى عصمتكم، والمعروف: ما أَلِفَتْهُ العقول واسْتَحْسَنَتْهُ النفوس.

تسريح بإحسان: ترك الزوجة بلا مُراجعة حتى تنقضي عِدَّتها مع أداء حقوقها من غير إساءة لها.

أن يخافَا ألاّ يُقيما حدود الله: أن يظنّا أن لا يؤدّيا واجبات الزوجية التي فرضها الله.

جُناح: إثم.
تنكح زوجاً غيره: تتزوج زوجاً آخر ويدخل بها.
أن يتراجعا: أن يرجع كل منهما إلى حالة الزوجية السابقة.
تلك حدود الله: أحكامه المفروضة.

ضوابط الطلاق

كان الطلاق في الجاهلية ـ وفي مستهلّ الإسلام ـ غير مقيَّد بعدد محدود، وكانت العِدَّةُ معروفة مقدَّرة، فكان الرجل ـ في بدء الإسلام ـ إذا غاضب زوجته طلَّقها ثم راجعها قبل انقضاء عدتها، يكرر ذلك كما يشاء، فلا هو يحسن عشرتها ولا هو يُخلّي سبيلها. حتى قال رجل لامرأته: وٱللَّه لا أُطَلِّقك فَتَبِينِي[١] ولا آويكِ أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أُطَلِّقُكِ، فكلما هَمَّت عِدّتك أن تنقضي راجَعْتُكِ، فذهبت المرأة فشكت حالها إلى رسول ٱللَّه، فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿**الطَّلاقُ مَرَّتانِ**﴾ أي إن الطلاق الذي يقره الشرع الإسلامي هو أن يكون مرّتان منفصلتان الواحدة عن الثانية، أي مرّة بعد مرّة لا طلقتان دفعة واحدة ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ**﴾ أي إن للزوج الحق بعد كل واحدة من الطلقتين أن يُرجع زوجته إلى عصمته ما دامت في العدة، أو يعقد عليها بعقد ومهر جديدَيْن وموافقة الزوجة بعد انتهاء العدة، وفي حال إرْجاعها إلى الحياة الزوجية يجب على الزوج معاملتها بالمعروف: وهو اسم لكل فعل يعرفُ بالعقل والشرع حُسْنُهُ، فلا يُؤذيها ولا يُلحق الضَّرر بها، ولا يَبخل عليها بالإنفاق ﴿**أَوْ تَسْرِيحٌ**

(١) فتبيني: بانت الزوجة أي أصبحت خارجة عن عصمة زوجها، فلا يحق للزوج إرْجاعها إليه بعد انقضاء عدّتها إلاّ بعقد ومهر جديدين وموافقة الزوجة.

بِإِحْسَانٍ﴾ وتسريح الزوجة أن يترك مراجعتها بعد إيقاع الطلاق بها حتى تنقضي عِدَّتُها مع الإحسان إليها وإعطائها من المال ما يليق بها وإكرامها، وعدم إهانتها.

﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ أي ليس من الحلال أن تأخذوا من زوجاتكم في حال الطلاق ما أعطيتموهن من مالٍ، ويدخل في ذلك أخذ المهر الذي وهبه الزوج لزوجته وغيره مما يُعطيه الرجل امرأته على سبيل التمليك، بل يجب على الزوج أن يُمَتِّعَها بشيءٍ من ماله زائداً على ذلك، ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق زوجته **﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾** أي ولكن أباح الشرع للزوج أن يأخذ من زوجته بعض ما أعطاها من المال مقابل طلاقها إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود ٱللَّه، وهي أحكام ٱللَّه وشرائعه، وسُمّيت حُدوداً لمنع تخطيها إلى ما وراءها، ويكون الطلاق بسبب عدم قيام المرأة بحقوق زوجها وسوء طاعتها له أو يكون بطلب الزوجة الطلاق من زوجها مقابل رَدّ المال الذي دفعه زوجها لها ويسمى ذلك بالخُلْعِ. وقد رُوِيَ أنَّ امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتتِ النبي ﷺ فقالت: يا رسول ٱللَّه، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دِيْنٍ، ولكن لا أُطيقه بغضاً وأكره الكُفر في الإسلام (أي كفر نعمة الزوج وخيانته) فقال لها النبي: «أَتَرُدِّينَ عليه حديقته؟» (حديقة كان زَوْجها قد وهبها إياها) قالت: نعم، قال النبي لثابت: «اقْبَلِ الحديقة، وطَلِّقْها تَطْلِيقة»(١).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فإن خفتم يا معشر المسلمين ألاّ تؤدي الزوجات حقوق الزوجية سليمة كما بيَّنها ٱللَّه سبحانه، فلا إثم على الزوجة فيما افتدت به نفسها من المال مقابل الطلاق من

---

(١) أخرجه البخاري.

زوجها، ولا إثم على الزوج فيما أخذه من المال من زوجته.

﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوها**﴾ أي تلك أحكام ٱللَّه وشرائعه فلا تتجاوزوها إلى ما حرَّم عليكم وما أمركم به ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ**﴾ أي ومن تخطّى حدود ٱللَّه وتجاوزها إلى ما حرَّم ٱللَّه وما نهى عنه، فإنه هو الظالم الذي فعل ما نهى ٱللَّه عنه وعصى ٱللَّه في ذلك، وقد نهى ٱللَّه عن الظلم وأوعد عليه في القرآن بالعذاب يوم القيامة.

﴿**فَإِنْ طَلَّقَها فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ**﴾ أي إذا طلَّق الرجل امرأته التطليقة الثالثة بعد التطليقتين اللتين ذكرهما ٱللَّه بقوله: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتانِ**﴾ فلا تحلّ له امرأته إلاّ بعد أن تتزوج زوجاً غيره ويُجامعها ويطلقها عن رضا بدون شروط مسبقة وبعد انتهاء عدّتها. وقد سُئِلَ رسول ٱللَّه عن رَجُلٍ طَلَّقَ امرأته الطلقة الثالثة فتزوجت رجلاً غيره، ثم طلَّقها قبل أن يُجامعها: أَتَحِلُّ لزوجها الأوَّل؟ فقال رسول ٱللَّه: «لا تَحِلُّ لِزَوْجِها الأوَّل حتى يذوق الزوج الآخر عُسَيْلتَهَا وتذوق عُسَيْلَتَهُ»(١)، والمراد أن يُجامعها، شبّه لذّة الجماع بذوْق العسل.

واتخاذ زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول أكبر مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب عُرفوا بشدة الغَيْرَة والحَمِيَّةِ وأقوى رادع لهم عن ممارسة الطلاق، فجاء القرآن بأكبر زجر لمنع الطلاق في أُمّة اشتهرت بالغَيْرَة على نسائها والمحافظة على العزّة والشرف.

ويشترط في الزواج الثاني أن لا يكون مؤقّتاً، الغاية منه تحليل الزوجة المطلقة ثلاثاً للزوج الأول، وقد نهى رسول ٱللَّه أن يتزوج الرجل بالمرأة بقصد

---

(١) أخرجه البخاري.

تحليلها للزوج الأول فقال: «ألا أُخبركم بالتَّيْسِ المُسْتَعار؟ قالوا: بَلَى يا رسول ٱللَّه، قال: هو المُحَلِّل، لَعَنَ ٱللَّهُ المُحِلِّلَ والمُحَلَّل له»[١].

ولقد اتفق فقهاء المسلمين على أن نكاح التحليل حرام إذا قصد به في عقد الزواج لتضافر الأدلة بلعن النبي ﷺ للمحلّل، ولهذا ذهب الإمام مالك والإمام أحمد والشافعي في أحَد قوليه إلى أن من تزوج بالمطلقة ثلاثاً بقصد تحليلها لزوجها الأول فنكاحه باطل.

ويرى الإمام أبو حنيفة أنه لو تزوجها ولم يشترط في عقد النكاح أنه يفارقها وبنِيَّته أنه يفارقها فالنكاح صحيح، ويحصل به التحليل إذا دخل بها وطلقها وانقضت عِدَّتها، ولكن يُكْرَه ذلك، لأن الأحكام تُناط بالظواهر، والنيّات علمها عند ٱللَّه، وهو الذي يُؤاخذ الناس عليها.

ولنرجع إلى تتمة الآية السابقة حيث يقول ٱللَّه تعالى:

﴿فَإِنْ طَلَّقَها فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِما أَن يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ﴾

أي فإن طلَّقها الزوج الثاني بعد الدخول بها (أي بعد وطئها) وانقضاء عِدّتها، فلا إثم على المرأة وعلى زوجها الأول أن يتزوجا زواجاً جديداً إن اعتقدا أنهما سيقيمان حدود ٱللَّه بالمعاشرة بالمعروف، والقيام المتبادل بواجباتهما الزوجية الحَسَنة **﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** وتلك الأحكام الشرعية في شأن الطلاق يُبَيِّنها اللَّهُ للناس ليعلموا حقيقتها الشرعية ويُدركوا الفائدة منها، فيراعوها ويتعهدوا بالقيام بها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ
أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ
يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ
وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

شرح المفردات

فبلغن أجَلَهُنَّ: شارفت عدتهن على الانتهاء.

فَأمسكوهن بمعروف: فردّوهن إلى عصمتكم مع معاشرتهنّ بالإحسان.

أو سَرِّحوهن بمعروف: أو اتركوهن حتى تنقضي عِدّتهن وينفصلن عنكم من غير إضرارٍ بهنّ.

ولا تُمسكوهن ضِراراً: ولا تُراجعوهنّ إلى عصمتكم بقصد الإضْرار بِهِنَّ.

ولا تتخذوا آيات ٱللّه هُزواً: ولا تأخذوا أحكام الله هازئين غير جادّين.

فلا تَعْضُلُوهُنَّ: فلا تمنعوهن وتُضيّقوا عليهن.

أزْكى لكم: أنمى وأنفع لكم.

النهي عن الإضْرار بالمُطلَّقَةِ

ويتابع القرآن الكلام عن الطلاق مع إرشاد الزوج والزوجة إلى ما فيه الخير لهما، إما بإرجاع الحياة الزوجية إلى سابق عهدها بعد إيقاع الطلاق، وإما بالفراق، قال ٱللّه تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم ـ أيها الأزواج ـ نساءكم طلاقاً رجعيًّا وكانت نساؤكم في العِدّة ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربت العدة على الانتهاء ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فإن رجح لديكم أنّ الإبقاء على حياتكم الزوجية أصلح لكم من انقطاعها، فأعيدوا هذه المُطلّقة إلى سابق عهدها مع معاشرتها بحسن الصحبة وبما يُستحسن من الأفعال ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وإن غلب على ظنكم أنه يتعذر العيش مع زوجاتكم المطلقات بالمعروف لسبب من الأسباب فاتركوهن حتى تنقضي عدتهن ويصبحن أحراراً من الرابطة الزوجية، وأعطوهن حقوقهن المالية من غير إيذاءٍ لهن ولا إهانة ولا طعن بهنَّ ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ أي لا تُراجعوا زوجاتكم إلى عصمتكم بعد طلاقهن وهن في العِدَّة رغبة في الإضْرار بهنَّ وإيذائهنَّ ليفتدين أنفسهن بالمال. وقد كان بعض العرب يفعل ذلك كما روى ابن جرير أن ثابت بن بشار طلّق امرأته حتى إذا انقضت عِدّتها إلاّ يومين أو ثلاثة راجعها، ثم طلقها لتستقبل العدة من جديد حتى مضت لها تسعة أشهر يضارّها بذلك، فأنزل ٱللَّه قوله: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ والضرار يعني المشاركة في الضرر للإشعار بأن ضُرَّه إياها يستتبع ضُرَّها إياه وذلك بإهمالها واجباتها المنزلية وتبديد أمواله ومناكفته، مما يجعل بيت الزوجية مكاناً للنكد والخصام والتعاسة بدلاً من أن يكون ساحة للوئام والودّ والسعادة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ومن يعتدي على زوجته ويلحق الضرر بها فقد ظلم نفسه، واكتسب بذلك إثماً، وأوجب لنفسه من ٱللَّه عقوبة ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ ولا تتخذوا أحكام ٱللَّه وشرائعه في شأن الطلاق وغيره استهزاء ولعباً، فإنها كلها قائمة على الجدّ، ولا تتهاونوا في الالْتزام بها.

وقد رُوي أن الرجل في الجاهلية كان يُطَلِّق ويقول: إنما طلقت وأنا

لاعب، ولهذا قال رسول ٱللَّه ﷺ: «ثلاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ وهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكاح، والطلاق، والرَّجْعَة»[١].

﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ واذكروا نِعَمَ ٱللَّه الكثيرة عليكم ومنها نعمة الزوجية وما فيها من السعادة لكم حيث جعل ٱللَّه زوجاتكم سَكَناً لكم تُبادِلوهنَّ الوُدَّ والعطف، وتتعاونون معاً لاجتياز مصاعب الحياة ﴿**وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ واذكروا ما أنزل ٱللَّه عليكم من الكتاب وهو القرآن الكريم وما أنزل عليكم من الحكمة وهي السُّنَّة النبوية التي تتمثل بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. فالسنّة النبوية تُبين أحكام القرآن من تفصيل المجمَل، وتوضيح المشكل، وتخصيص العامّ، والكشف عن الأحكام المنطوية في نصوصه العامة وقواعده الكلية، ودل على أنّ السُّنَّة النبوية أنزلها ٱللَّه على رسول ٱللَّه محمد ﷺ قوله سبحانه: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] ولكن السنّة هي غير ما أنزل ٱللَّه في القرآن ﴿**يَعِظُكُمْ بِهِ**﴾ والوعظ: النصح والتذكير بما يليّن القلوب إلى الخير، فٱللَّه سبحانه يُذَكِّر المسلمين بما أنزل عليهم من القرآن وما جاءهم به رسوله محمد ﷺ من الحكمة ليعملوا بها ويَتَّعِظوا ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ أي وخافوا ٱللَّه وتجنبوا عذابه بالعمل بما أمر وترك ما نهى عنه ﴿**وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ أي واعلموا أنَّ ٱللَّه يعلم سِرَّكم وجهركم ويعلم كل شيء في الكون، ولا شك أنَّ معرفة ذلك تدعو المؤمن إلى طاعة ٱللَّه وعدم عصيانه.

ثم يأتي الخطاب لأولياء المُطَلَّقات بأن لا يمنعوهن من الرجوع إلى أزواجهن السابقين إذا حصل التوافق بينهم بعد الطلاق وانقضاء العدة:

---

(١) أخرجه أبو داود.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ[١]﴾ أي وإذا طلّقتم أيها الأزْواج نساءكم وانقضت العِدَّة ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ﴾ العَضْلُ: المنع والتضييق، أي فلا تمنعوهن ـ أيها الأولياء ـ أن يتزوجن أزواجهن الذين طلقوهن ويستأنفن حياتهن الزوجية السابقة ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذا حصل التراضي بينهم بعد النزاع الذي أفضى بهنَّ إلى الطلاق، وكان هذا التراضي قائماً بالمعروف، والمعروف هو الذي يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُهُ، ولم يكن ثمة سبب للاعتراض عليه.

وقد جاء في أسباب نزول الآية ما رُوِي عن معقل بن يسار أنه قال: «كانت لي أُخْتٌ، فأتاني ابن عمٍّ لي فأنكحتها إياه (أي زوجتها إياه) فكانت عنده ما كانت ثم طلَّقها تطليقة ولم يُراجِعْها حتى انقضت عِدّتها، فهوِيَها وهويَتْه (أي أحَبَّها وأحَبَّته) ثم خطبها مع الخُطّاب، فقلت له: يا لُكَع[٢]، أكرمتك بها وزوجتُكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، واللهِ لا ترجع إليكَ أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم ٱللَّه حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية، قال: فَفِيَّ نزلت، فكفّرْتُ عن يميني وأنكحتها إياه..»[٣].

﴿ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي ذلك التوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأعدلها يُذكّر به من كان منكم يُصَدِّقُ بوجود ٱللَّه ووحدانيته وبثوابه وعقابه يوم القيامة ﴿ذٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وهذا الحكم هو أعظم برَكَةً ونفعاً لكم وأكثر تطهيراً لكم من الريبة والتّهم، فإنّ

(١) المراد ببلوغ الأجل هنا انتهاء العدّة، أما بلوغ الأجل في الآية التي قبلها فإنها تعني المشارفة والمقاربة، وسياق الكلامين في الآيتين يدل على اختلاف البلوغين.

(٢) يا لكع: أي يا لئيم.

(٣) أخرجه البخاري والنسائي والترمذي وأبو داود.

المرأة إذا عوملت معاملة كريمة الْتزمت في سلوكها العفاف والطهر، أما إذا عوملت بالظلم والامتهان فإن هذه المعاملة قد تدفعها إلى ارتكاب ما نهى ٱللَّه عنه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وٱللَّه سبحانه يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا ما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

شرح المفردات

حَوْلَيْن: سنتين بالتقويم القمري.

رزقهن وكسوتهن بالمعروف: أي النفقة لهن بما يتعارف عليه الناس ولا تُنكره العقول السليمة.

وُسْعها: استطاعتها.

لا تُضارَّ والدةٌ بولدها: أي لا يحصل لها الضرر بسبب ولدها.

فِصالاً: فِطاماً للمولود عن الرَّضاع.

أن تسترضعوا أولادكم: أن ترضعوهم من غير أُمهاتهم.

الحقوق المتوجبة للمرضعة

وبعد أن بيَّن اللَّهُ حقوق الزوجين بعضهما على بعض وكذلك أحكام الطلاق عند استحكام النفرة بينهما، بيَّن ٱللَّهُ فيما يلي حقوق من كانوا ثمرة الزواج وهم الأطفال الرُّضَّع، وما لهم من واجبات على آبائهم وأُمهاتهم، وكذلك ما يجب للمرضعة من حقوق، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ هو أمر جاء على صيغة الخبر، أي على جميع الوالدات مطلقات كُنَّ أو غير مطلقات إرضاع أولادهن. وهذا الأمر هو للاستحباب وللوجوب، فهو يكون مستحَبًّا عند توفّر شروطٍ ثلاثةٍ: قُدرة الأب على استئجار المرضعة، ووجود من ترضعه غير الأم، وقبول الولد لِلَبَنِ[1] الغير، ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك في أحكام الطلاق، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بطفلها وترك إرضاعه.

ولبن الأم هو الغذاء الطبيعي لولدها، وهو أكثر فائدةً للرضيع، وأسلم وسيلة لضمان صحته ونموّه، كما أن عناية الأُم بطفلها وما تحيطه به من حنوّها في هذه الفترة من إرضاعه يؤدي إلى تحسين أحواله.

وفي عصرنا الحاضر أصبح الأطباء يُوصون لبعض الأطفال أنواعاً من اللبن الصناعي المستخرج من ألْبان البقر عند تعذّر الأم إرضاع ولدها، ولكنهم مجمعون على أنه لا أصلح للطفل من لبن أُمّه، هذا مع العلم أن الإرضاع من اللبن الصناعي يحتاج إلى مزيد من الحَذَر من تلوّثه، بينما لبن الأم هو بمنأى عن ذلك.

(١) اللَّبَنُ: يطلق على الحليب، كما يطلق على الحليب الرائب، والمراد به هنا الحليب الطبيعي.

وحتى لا يختلف الوالدان في مدّة الرضاعة بأن يريد الأب أن يقصّر مدة الرضاعة في حال طلاق زوجته ليتخلص من نفقة الرَّضاعة لها، أو تحاول الأم إطالة مدة الرضاع للانتفاع بالنفقة من زوجها، حَدَّدَ ٱللَّهُ مدة الرضاعة اللّازمة للطفل لقطع النزاع بين الزوجين بقوله ﴿**حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾ والحَوْلُ: هو السَّنَةُ بالتقويم القمري ﴿**لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ**﴾ أي هذا الحكم هو لمن أراد إتمام الرَّضاع، فإذا أراد الأبَوان أن يُنقصا مدّة الرضاع عن السنتين كان لهما ذلك.

﴿**وَعَلى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ**﴾ المولود له: هو الأب، أي وعلى الآباء أن يقدّموا للأُمهات في حال إرْضاع أولادهن عند طلاقهن ما يلزمهن من نفقةٍ وكسوةٍ بالمعروف: أي بالطريقة المتعارف عليها عند أصحاب المروءة والفضل ﴿**لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها**﴾ أي لا يُلزم الوالد من النفقة بما يشقّ عليه، بل يكون الأجر الذي يدفعه في حدود طاقته ﴿**لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا**﴾ أي لا ينبغي أن يقع ضرر على الأم المرضعة بسبب ولدها بأن يستغل الأب حنوّها على وليدها فيمنع عنها ما يتوجب عليه من نفقتها وكسوتها، أو يأخذ منها طفلها وهي تريد إرضاعه ويضعه عند مرضعة أُخرى ﴿**وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ**﴾ أي ولا ينبغي أن يقع ضرر على الأب بسبب ولده بأن تطلب منه أُم طفله ما لا تتسع قدرته عليه من النفقة مستغلة عاطفته نحو ولده. تأمّل كيف أضاف ٱللَّه الولد إلى أُمه وأبيه لإثارة عاطفة الأبوة والأمومة نحوه، وأن هذا الولد الذي رزقهما ٱللَّه إياه جدير بأن ينال حظًّا وافراً من العناية والعطف والحنان ﴿**وَعَلى الوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ**﴾ أي في حال وفاة الأب، فإنه يتوجب على وارث الأب أن يُنفق على الأم المُرضعة، هذا بأن لا يكون للطفل الرضيع مالٌ وَرِثَهُ عن أبيه، فإن كان له مالٌ أُخذت أجرة رضاعه من ماله.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصالاً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُما وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ والفِصالُ: الفِطام عن الرَّضاع، أي التفريق بين الصبيّ والثدي، أو لأنه يفصل الولد عن أُمه، وقد قيّد ٱللَّه هذا الفطام للطفل بأن يكون عن تراضٍ وتشاورٍ بين الأب والأم، وبذا لا يكون عليهما إثم في ذلك، لأن إقدام أحدهما على فطام الصبيّ بدون هذا التشاور قد يؤثّر في صحة الطفل، ولأَنَّ رأي الأم والأب مُجْتَمِعَيْنِ هو أصلح لمصلحة الطفل.

﴿وإِنْ أَرَدْتُّم أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإن أردتم أن تجعلوا لأولادكم مرضعة غير والدتهم لمصلحة الطفل فلكم ذلك ولا إثم عليكم **﴿إِذا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾** أي إذا سلّمتم المرضعة أَجْرها بما يتعارفه الناس وبما تستحسنه العقول السليمة من دون مماطلةٍ في إعطائها حقّها، فإنّ عدم توفير الأجر بما تستحق يبعثها على التَّساهل بأمر الصبيّ والتفريط في شأنه **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** أي خافوا ٱللَّه فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم للمراضع ولأولادكم **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** أي واعلموا أن ٱللَّه لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سِرّها وعلانيتها، فاحذروا الخروج عن طاعته.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

شرح المفردات

ويذَرون أزواجاً: يتركون زوجات لهم في عصمتهم وقت الوفاة. وأزواجاً: جمع زوج ويطلق على الرجل والمرأة.

يتربَّصْنَ: ينتظرنَ في بيت الزوجية.

بلغن أجَلهن: انقضت عِدَّتهن.

عَرَّضْتُم: لَوَّحتم وأشرتم به، وضده التصريح والإفصاح.

خِطبة النّساء: طلبهن للزواج.

أكننتم: أخفيتم.

ولا تعزموا عُقْدَة النكاح: ولا تقصدوا قصداً جازماً تنفيذ عقد الزواج.

حتى يبلغ الكتاب أجَله: والكتاب: هو الأمر المكتوب المفروض وهو هنا العِدّة، والأجل: هو انتهاء المدة المقررة للعدة.

عِدَّةُ المتوفىٰ عنها زوجها

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الحكم في حال وفاة الزوج، وما يترتب على الزوجة من أُمور يجب القيام بها، وهي أن تمكث فترة من الزمن في حداد على

زوجها لا يحق لها في أثنائها الزواج، وهذه الفترة تسمى عِدَّة الوفاة، قال ٱللَّه تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُم وَيَذَرُونَ أَزْواجاً**﴾ أي الأزواج منكم ـ معشر المسلمين ـ الذين يموتون ويتركون زوجاتهم، الحكم في حقهن أن: ﴿**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**﴾ التربُّصُ: الانتظار، أي يجب على الزوجات أن ينتظرن بعد وفاة أزواجهن مدة أربعة أشهر وعشرة أيام بدون زواج، وهذا الحكم على كل زوجةٍ صغيرةٍ كانت أم كبيرة، مَدْخولاً بها أو لا.

والحكمة من تلك العِدَّة التي مدتها أربعة أشهر وعشرة أيام تظهر في أمرَيْن: الأول، هو أن يتبيَّن فيها للمرأة الحمل من زوجها المُتوفى إذا كانت حاملاً منه، فهذه المدة هي التي يتحرك في مثلها الجنين تحركاً ظاهراً وتشعر به الأم ويظهر الحمل عليها، فإذا تبين أنها حامل فعدّتها تنتهي بوضع حملها أي بولادتها، وبعدها يحقّ لها الزواج، وبذلك لا تختلط الأنساب، ولا يقع الإشكال في الأب الحقيقي للمولود، وهذا يدلّ على عظمة التشريع الإسلامي القائم على العدل والحكمة.

والأمر الثاني: وهو أن الغاية من العِدَّة هي أن تكون في حداد على زوجها ورفيق عمرها وربّ أُسرتها بالطريقة المثلى، وبذلك يصحح الإسلام ما كانت عليه حال المرأة عند العرب في الجاهلية، فقد كانت المرأة إذا تُوُفّي عنها زوجها تغلق على نفسها في بيتها وتقضي فيه عاماً كاملاً حداداً على زوجها، فأبطل الإسلام ذلك، وفي هذا يقول الرسول محمد ﷺ: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بٱللَّه واليوم الآخر أن تَحِدَّ على ميتٍ فوق ثلاث، إلاّ على زَوْجٍ أربعة أشهرٍ وعشراً»[1].

---

(١) متفق عليه.

وفي عِدَّةِ الوفاة يَحْرُمُ على المرأة الخروج من بيتها إلاّ لضرورةٍ، كأن تزاول مهنة أو وظيفة، أو لا تجد من يقوم بحوائجها، كما يحرم عليها الزينة وتوابعها في أثناء العدة، لأن المرأة المؤمنة الوفية لزوجها يأبى عليها دينها ومروءتها أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، كما يحرم على الرجل أن يخطب المرأة أثناء العدة.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فإذا انتهت مدة عِدَّة الوفاة فلا إثم ولا حرج عليكم ـ أيها الأولياء ـ فيما فعلن هؤلاء الزوجات الأرامل من طرح الحداد والاستعداد للزواج، وذلك بالتزيّن والتجمّل، ولكن بالطريقة التي يُقِرُّها الشرع وبِما يَحْسُنُ عقلاً وشرعاً، وأن يكون زواجها من الكفء الذي لا يجلب العار لأُسرتها.

وهنا إشارة إلى أنهنَّ لو فعلنَ ما يُنكره الشرع فعلى الأولياء أن يمنعوهن عن ذلك **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** واللّه سبحانه عليم بما تمتثلون من أمره وهو مجازيكم على أعمالكم فاحذروا معصيته.

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ﴾ عرَّضتم: التعريض هو ضد التصريح، وهو ما تضمّن الكلام الأمر المراد دون ذكره صراحة، والخِطبة بكسر الخاء طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس، والمقصود من النساء في الآية المعتدّات عن وفاةٍ، ومعنى الآية: لا إثم عليكم ـ أيها المسلمون ـ من التعريض بخطبة النساء وهنَّ في العِدَّةِ بعد وفاة أزواجهن بكلام يفهم منه رغبتكم في الزواج بهن بعد انقضاء عدّتهن، وعلى هذا فلا يجوز الكلام مع المرأة التي هي في العدة بما هو نص في طلب الزواج بها بشكل صريح، كما لا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقاً رجعياً وهي في العِدَّة لأنها لا تزال في عصمة زوجها.

ومن أمثلة التعريض بخطبة النساء وهُنَّ في عِدَّة وفاة أزواجهن أن يقول لها:

ـ إنكِ عَلَيَّ لكريمة، وإن الله سائق إليكِ خيراً ورِزْقاً، وإني لمعجب بكِ.

ـ إني أُريد التزوج وإنّ من شأني النِّساء، ولَوَدِدْتُ أن ٱللَّه يسَّر لي امرأة صالحة.

ـ أو يقول: إني حسن الخلق كثير الإنفاق جميل العشرة مُحْسِنٌ إلى النّساء، فيصف نفسه بالصفات الحميدة ليرغّبها فيه، فلا يصرّح بالزواج بأن يقول: إني أُريد أن أَتزوجك أو أخطبك، فالتصريح بالخِطبة لا يجوز حتى لا يؤذي أهل الميت، وحتى لا يدفعها إلى الامتناع عن الحداد على زوجها المتوفىٰ.

﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم فيما سترتم وأضمرتم في قلوبكم من الزواج بهنَّ **﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾** أي علم ٱللَّه أنكم لا تصبرون عن النطق لهنَّ برغبتكم في الزواج بهنَّ، فرخَّص لكم في التعريض دون التصريح، وفي هذا نوع من التوبيخ لهم على قِلَّةِ صبرهم **﴿وَلكِن لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾** السِّرُّ في هذا الموضع: الزّنا، أي لا يَكُونَنَّ منكم مواعدة على الزنا في العدة ثم التزوج بعدها، وقيل: أن لا يأخذ الميثاق عليها بأن لا تتزوج غيره، أو بمعنى: لا تلتقوا بهن سِرًّا وتقولوا معهنَّ ما تستحون من قوله جهراً **﴿إلاَّ أَن تَقُولُوا قَولاً مَّعْرُوفاً﴾** ولكن أباح لكم أن تقولوا قولاً معروفاً، والمعروف هو الذي يُعْرَفُ بالعقل والشرع حُسْنُهُ، ولا تُنكره الأخلاق الكريمة.

﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي لا تقصدوا وتعقدوا العزم في أثناء العِدَّةِ على تنفيذ عقد الزواج **﴿حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾** حتى تبلغ العدة المفروضة آخرها، فٱللَّه سبحانه نهى عن العزم على عقد الزواج في العدة للمبالغة في عدم إبْرام العقد.

والنهي عن مقدمات الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق أوْلى.

ومن المعلوم أن عقد النكاح في زمن العِدَّة باطل، والمباشرة به وتنفيذه يعتبر من الزنى، والتفريق بين الرجل والمرأة في تلك الحالة واجب. فالتزوج بالمرأة في العِدَّةِ مُحَرَّمٌ قطعاً، ولأجله حُرّمت خِطبتها في العدَّة.

﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي واعلموا أن ٱللَّه يعلم ما يجول في أنفسكم من خواطر وما تعزموا عليه من الأفعال، فاحذروا أن تعملوا بما نهاكم عنه وخافوا مخالفة أمره **﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** وهو سبحانه غفور لِمَنْ أذنب ثم تاب، وهو سبحانه حليم لا يعجل بالعقوبة لمن أذنب، بل يمهله ليصلح حاله ويعود عن ذنبه تائباً.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

شرح المفردات

تَمَسُّوهُنَّ: المَسُّ هنا: الجِماعُ.

فريضة: أي مهراً.

ومتّعوهن: المتعة، مقدار من المال تُعطاه المطلّقة قبل الدخول بها من زوجها تعويضاً لما فاتها من أذى الطلاق.

الموسِع: الغنيّ.

المُقْتِرِ: الفقير الضيِّق الحال.

قَدَرُهُ: طاقته وسعته.

يعفون: يصفحن ويتركن نصف المهر المستحق لهن، وهذا بالنسبة للمطلقة قبل الدخول بها.

حقوق الزوجة المُطَلَّقَةِ قبل الدخول بها

ثم يُبين القرآن حق المرأة في حال طلاقها قبل الدخول بها وقبل تعيين مهر لها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّساءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ تمسّوهن: تدخلوا بهن. وكلمة تمسّوهن كناية حسنة من كنايات القرآن تعلّم الناس الأدب في التعبير، وعدم التلفظ بالألفاظ النابية التي يمجها الذوق، والمراد بالفريضة هنا: المهر الذي يفرضه الرجل على نفسه عند زواجه. ومعنى الآية: لا تَبِعَة عليكم ولا إثم أيها الرجال في طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تُقدِّموا لهنَّ مهراً معيّناً، ولكنّ الواجب عليكم المتعة لهن **﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾** والمتعة ما ينتفع به الإنسان من مال وكسوة وغير ذلك، أي على الرجل الذي طلَّق زوجته التي لم يدخل بها ولم يعيّن لها مهراً أن يُمَتِّعَها بمال وكسوة لتنتفع به جبراً لخاطرها، لما نالها من حزن بسبب فراق زوجها، وهذه المتعة هي واجبة عند كثير من الصحابة والفقهاء، ومندوبة[1] عند البعض. وقد جعل ٱللَّه هذه المتعة تابعة لحالة الرجل المادية **﴿عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ﴾** على

(١) المندوب: هو المستحبّ.

الموسع وهو الغنيّ الذي هو في سعة من غناه أن يُمتِّع مطلقته بما يُناسب غناه ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ وعلى الفقير أن يمتع مطلقته قدر إمكانه وطاقته ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذه المتعة للزوجة المطلقة تكون بالوجه الذي يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُهُ وبما تقتضيه المروءة ﴿حَقًّا على الْمُحْسِنِينَ﴾ فالمتعة هي حق على من يريد الإحسان في معاملة زوجته المُطَلَّقة، والإحسان هو فوق العدل لأن المحسن يعطي أكثر مما عليه.

أما مقدار المتعة فيرى الإمام أبو حنيفة أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب على الزوج نصف مهر أمثالها من الزوجات.

ثم يبين القرآن الحُكم في حال أنْ سمى الزوج لامرأته مهراً معيّناً ثم طلّقها قبل الدخول بها:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ والمعنى: وإن طلقتم ـ يا معشر الرجال ـ النِّساء قبل أن تدخلوا بهن وقد فرضتم لهنَّ مهراً وقت عقد الزواج فالواجب عليكم في تلك الحالة أن تدفعوا لهنَّ نِصف ما فرضتم أي نِصف المهر ﴿إلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ والعفو هنا: الإبراء والتنازل، والمعنى: إلاّ أن تتنازل المرأة عن حقها في نِصْفِ المهر، فتتركه لمطلقها بسماحة نفس بأن تكون هي الراغبة في الطلاق ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ والذي بيده أمر عقدة النكاح هو الزوج، ومعنى عفوه أن يترك لمطلقته المهر كاملاً لها إذا كان قد سدّده سابقاً، أو أن يؤديه إذا لم يكن قد دفعه.

﴿وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ الخطاب هنا للرجال والنساء، أي إن تعفو المرأة المطلقة عن حقها في نصف المهر، وإن يعفو الزوج، وذلك بالزيادة على

نصف المهر الواجب عليه، فهذا أقرب لكم إلى تقوى ٱللَّه وابتغاء مرضاته ﴿**وَلَا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ هذا الشطر من الآية يوحي بأرفع الصفات الخلقية وسماحة النفس عند الطلاق وما يعقبه من بغضاء وعداوات بين الأُسَر.

فالقرآن يدعو إلى التعالي على الجراحات التي يسببها الطلاق وأن لا ينسوا الفضل بينهم وما كانوا عليه من مَوَدَّةٍ وعِشْرَةٍ طيبة، والفضل في أصل معناه الزيادة في كل شيء، وأكثر ما تكون الزيادة في الأشياء المحمودة، يُقال: أَفْضَلَ الرجلُ على فلانٍ: إذا أناله من فضله وأحسن إليه، ورجل مِفْضالٌ: أي كثير الفضل والخير والمعروف، ومن الفضل بين الزوجين إعطاء الزوج المهر كله لزوجته المطلقة أو تتنازل الزوجة عن حقها في نصف المهر.

ويختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ أي إنه سبحانه بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، وفي هذا ترغيب للمحسن بزيادة إحسانه وترهيب للمسيء بالكَفِّ عن إساءته.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ
(٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا
عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ
وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ
فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن
مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾.

شرح المفردات

الصلاة الوسطى: صلاة العصر في الأرجح.

قانتين: مطيعين خاضعين.

رجالاً: جمع راجل، أي مشاة.

رُكباناً: جمع راكب.

أزواجاً: جمع زوج وتطلق على الذكر والأنثى.

متاعاً: المتاع هنا نفقة المتوفى عنها زوجها.

الحَوْل: السَّنَةُ.

الدعوة إلى المحافظة على الصلاة

ثم تأتي الآيات التالية التي تدعو إلى المحافظة على أداء الصلوات المفروضة، وهي تتوسط آيات الأحكام في شأن الطلاق وما يعقب ذلك من عداء وهموم وأحزان، والذي يربّي النفس ويصقلها بالخير والتسامح

ويخفف ما بها من أحزان هي الصلاة، لأن فيها يُناجي الإنسانَ ربَّه ويطلب منه المعونة والهداية، لذا دعا الله المؤمنين إلى أداء الصلوات لما فيها من فوائد جمة، قال الله تعالى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطَى﴾ حافظوا: من الحِفْظِ بمعنى ضبط الشيء وصيانته عن كل تضييع. والمحافظة على الصلاة تقتضي أمرَيْنِ:

الأول: أداؤها باستمرار في أوقاتها دون تخلف ولا تفريط.

الثاني: الإتيان بها كاملة الأركان مستوفية الشروط، يشترك فيها القلب مع حركات الأعضاء من ركوع وسجود فلا ينطق المصلي بأي كلمة من كلمات الصلاة إلاّ ويستحضر معناها في قلبه.

أما الصلاة الوسطى التي أمر الله بالمحافظة عليها، فقد اختلف العلماء في تحديدها فرجّح بعضهم أنها صلاة العصر لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال يوم معركة الأحزاب: «شَغَلُونا عن الصَّلاةِ الوُسْطىٰ: صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم ناراً»(١) أو لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس فقبلها اثنتان وبعدها اثنتان، وقد خُصَّت صلاة العصر بمزيد من التأكيد بالمحافظة عليها مما يشهد بأنها هي الصلاة الوسطى، فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ(٢) أهله وماله»(٣).

وقال جمهور من الفقهاء: إن الصلاة الوُسْطى هي صلاة الصبح، فقد خصها الله بالذكر بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) وُتِرَ: أي انتُزِعَ منه، وقيل: نقص، فبقي بلا أهل ولا مال.

(٣) أخرجه مسلم.

وجاء في الحديث الشريف: «إن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون عند صلاة الصبح»(١). وتوسطها بين الصلوات ظاهر لأن وقتها بين الليل والنهار، فصلاة الظهر والعصر في النهار وصلاة المغرب والعشاء في الليل.

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها، والوسطى تعني الفضلى، والأوسط في أكثر استعمال القرآن يعني الأَمْثَل والأَفْضل، والمعنى على هذا التفسير: حافِظوا على الصلوات كلها بالمداومة عليها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها من النوع الأَمْثَلِ والأَفْضَلِ بإقامة أركانها خاشعين متجهين إلى ربِّ العالمين دون سواه ﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ**﴾ أي قوموا لله في صلاتكم خاضعين طائعين.

﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً**﴾ أي فإن كان بكم خوف من عدوٍّ في حال الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب فَصَلُّوا راجلين: أي مُشاةً على الأقدام أو راكبين على أي أداة من أدوات الركوب مستقبلي القِبْلَة وغير مستقبليها، فالصلاة لا تسقط عن المكلَّف بها بحالٍ من الأحوال، سَواء في الأمن أو الخوف، أو الصحة والمرض، فقد ورد عن عمران بن حصين أنه قال: كانت بي بواسير فسألتُ رسول الله ﷺ فقال: «صلِّ قائماً، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فقاعِداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك»(٢).

﴿**فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ**﴾ المراد بذكر الله هنا: الصلاة، أي إذا زال الخوف عنكم فأدّوا الصلاة تامة كاملة مستوفية الأركان بإتمام الركوع والسجود واستقبال القِبلة ﴿**كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ أي مِثْلَ ما علّمكم إياها

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

ربّكم على لسان رسوله محمد ﷺ، وقد مَنَّ اللَّهُ عليكم بهذا التعليم الذي كنتم تجهلونه من قبل.

ويُتابع القرآن بذكر بعض الأحكام التي تتعلق بالنساء المُتَوَفَّى عنهن أزواجهن:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ يتوفّون: المراد بها هنا: يتوقعون الوفاة ويحتضرون. والمعنى: والذين يتوقعون قُرْبَ الوَفاة منكم ـ أيها المسلمون ـ ويتركون زوجاتهم بعد وفاتهم ﴿وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتاعاً إِلَى الحَوْلِ﴾ أي فليوصوا وصية لزوجاتهم بأن يُمَتَّعْنَ بعد وفاتهم بالنفقة والكسوة والسكن من مالِهِم، وهذه المدة تمتد سنة كاملة ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي غير مخرجات من مسكن الزوجية، فلا يصحّ لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكنهنّ بغير رضاهنَّ، لأن بقاءهنَّ في مسكن الزوجية حقٌّ شرعه الله لَهُنَّ، وحينئذٍ يجب على الزوجة ملازمة السكن وترك التزيّن كما يجب عليها الإحداد هذه السنة ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ فإنْ هُنَّ تركنَ حقهنَّ من تلك الوصية وخرجن من منزل الزوجية بعد إتمام العِدَّة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي فلا إثم عليكم يا أولياء الميت فيما فعلنَ من أُمور تتعلق بهنَّ لا ينكرها الشرع كالتزيُّن والتطيُّب وترك الحداد، والتزوج بعد انتهاء عدتهنَّ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه هو القويّ الغالب ينتقم ممن عصاه وخالف أمره، حكيم فيما شرعه من الأحكام التي تراعي مصالح عباده.

يرى بعض المفسرين أن حكم الوصية في هذه الآية كان قبل أن تنزل آية الميراث في سورة النساء، ثم نسخ فجعل لها فريضة معلومة: الثُّمْنُ إن كان للزوج ولد، والرُّبْعُ إن لم يكن له ولد.

وذهب بعض المفسرين إلى القول إن الآية مُحْكَمة لا نَسْخَ فيها حيث إن العِدَّة مُدَّتها لوفاة الزوج هي أربعة أشهر وعشرة أيام، ثم جعل الله لهن وصية من أزواجهم بعد وفاتهم تمام هذه الأربعة أشهر وعشرة أيام إلى سنة، فإن شاءت المرأة سكنت في بيت الزوجية سنة كاملة بناء على وصية زوجها، وإن شاءت خرجت منه بعد إتمام عدتها، وهذه الوصية هي على سبيل الإحسان والرفق بالزوجة والإكرام لها.

﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعرُوفِ**﴾ والمتاعُ: هو كل ما ينتفع به من مالٍ، وكسوة، وطعامٍ، ونفقةٍ، وخادمة تخدمها حسب قُدرة الزوج المادية، وهذا المتاع للمطلقة هو زيادة على الحقوق المقرّرة لها شرعاً. وهذا المتاع ينقسم إلى قسمين: واجب ويكون للمطلقة قبل الدخول بها ولم يكن سمى لها مَهْراً، ومندوب أي مستحسن في غير تلك الحالة، وقد جعل الله هذا المتاع للمطلقات بالمعروف وهو أن يكون بما تستحسنه العقول السليمة وحسب العُرف بين الناس ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ أي هذا المتاع جعله الله حقًّا على المتقين الذين أطاعوا الله في أمره ونهيه وصانوا أنفسهم عن كل ما يبغضه الله. وإنه من الطاعات التي يتحلى بها المتقون، والغاية من ذلك جَبْرٌ للمطلقة من وحشة الفِراق من زوجها، وتخفيف لما قد يحيط بالطلاق من تنافر وخصام.

﴿**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أي مثل هذا البيان الحكيم لأحكام الطلاق يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياته في سائر الأحكام التي أنزلها على رسوله محمد لتعقلوا الحكمة منها، وتعرفوا ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فتعملوا بما أمركم الله به لتنالوا جزيل ثوابه في الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

شرح المفردات

حذَر الموت: خوفاً من الموت.

يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً: ينفق في سبيل الله ابتغاء ثوابه.

يَقْبِضُ: يُضَيِّقُ في الرزق.

ويَبْسُطُ: يُوَسِّعُ في الرزق.

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله

وبعد أن بيَّن الله أحكام الطلاق انتقل إلى الكلام عن الجهاد في سبيل الله ممهداً لذلك بإعطاء صورة عن الذين يتقاعسون عنه خوفاً من الموت، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ﴾ أَلَمْ تَرَ: والرؤية هنا بمعنى العِلْم، والخطاب لكل قارئ وسامع، أي: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُك ـ أيها القارئ ـ إلى حال أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف ـ وكانوا فوق العشرة[1] آلاف، وما كان خروجهم إلا فراراً وخوفاً من الموت، ولكنّ

(١) العَشَرَةُ فما دونها جمع قلة، فيقال فيها: آلاف ولا يقال ألوف إلا لجمع الكثرة الذي يزيد على العشرة.

الموت المقدّر لهم قد استقبلهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي إنهم ماتوا بأمر الله ومشيئته ثم أعادهم إلى الحياة مرة أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فهو سبحانه المتفضّل على الناس بإيجادهم من العدم، والمتفضّل عليهم بالشرائع الهادية إلى الحق، والمتفضِّل عليهم بالطيّبات من الرزق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ أي إن أكثر الناس لا يشكرون نِعَمَ الله التي أنعمها عليهم، فلا يصرفون نعم الله على طاعته ولا يعملون بها لخير الناس، بل يتخذون من هذه النِّعَم سبيلاً إلى البَغْيِ والظلم والفساد في الأرض.

والعبرة من الآية أن الإماتة بيد الله لا بيد غيره، فلا ينبغي أن يخاف الإنسان من شيء مُقَدَّر عليه، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مُغترّ، وقد جعل الله هذه الآية مقدمة لدعوة أُمَّة محمد إلى الجهاد في سبيله لدحر المعتدين عليهم.

ولكن مَنْ هُمُ الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حَذَرَ الموت؟ هناك عِدَّة روايات في شأنهم من تلك الروايات: إنهم قومٌ من بني إسرائيل خرجوا هاربين من الوباء فنزلوا وادياً، فأماتهم الله ثم أحياهم، إجابةً لدعوة نبيّ من أنبيائهم.

وفي رواية أُخرى: إنهم قوم من بني إسرائيل دُعُوا إلى الجهاد في سبيل الله، فخرجوا من ديارهم فِراراً منه حتى لا يموتوا في ساحة القتال، فأماتهم الله عِقاباً لهم على فرارهم، ثم أحياهم ليبيّن قدرة الله عليهم ويذكّرهم بأنَّ الإماتةَ والإحْياء بيدِ ٱللَّهِ.

ويرى الشيخ محمد عبده[1] أن هذا مَثَلٌ لا قِصَّة واقعية، وأن الموت الذي وقع بالقوم هو مَجازيّ، والمراد بيان سُنَّتِهِ تعالى في الأُمم التي تجبن ولا تدافع

(١) نقلاً باختصار عن تفسير المنار.

عن نفسها من المعتدين عليها، أن عَدُوَّها سوف ينكّل بها، ويلغي استقلالها، ويفرّق شملها، فتصير كالأموات.

ومعنى حياتهم هو عَوْدة الاستقلال لهم حيث جمعوا صفوفهم ووثقوا رابطتهم وقهروا أعداءهم، فخرجوا من ذُلِّ العُبودية التي كانوا فيها إلى عِزِّ السِّيادة والحرية، هذا وإن القرآن أطلق اسم الحياة على الحالة المعنوية كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وبعد أن بيَّن القرآنُ أن الفِرارَ من الموت لا يُنْجي مما قدَّره الله، دعا المؤمنين إلى القتال في سبيل الله بقوله **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** وسبيل الله هو سبيل الحق، فكل قتال لإعلاء كلمة الله والدفاع عن دينه هو قتال في سبيل الله، وكل قتال في سبيل رفع الظلم ونُصْرة المظلومين هو قتال في سبيل الله. وقد سُئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١) ثم يختم الله الآية بقوله **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** فهو سبحانه سميعٌ لأقوال المؤمنين التي تدلّ على رغبتهم في الجهاد، عليمٌ بالدوافع التي تدفعهم إلى ذلك.

ولمّا كان القتال يحتاج إلى بَذْلِ المالِ في تجهيز الجيش المقاتل وتوفير السلاح له، بَيَّن ٱللَّهُ ثواب من يساهمون في ذلك بقوله:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ أصْلُ القَرْضِ: ما يُعْطيه الرجل لغيره ليجازى عليه وأن يكون دَيْناً يردّه إليه، وإقْراضُ

---

(١) متفق عليه.

ٱللَّهِ قرضاً حَسَناً هو التصدُّقُ قاصداً رضا الله وثوابه بعيداً عن الرياء وطلب السمعة، والمراد بالقَرْضِ الحَسَنِ هنا: الإنفاقُ على القِتال في سبيل الله بدليل مجيء الآية هنا بعد الدعوة إلى القتال في سبيل الله، كما يشمل الإنفاق على المحتاجين، والإنفاق على المصالح العامة لإقامة مشروعات اجتماعية أو عمرانية يعمّ نَفْعها جميع الناس.

وقد حَثَّ القُرآن على بَذْلِ المالِ في سبيل الله وسماه قَرْضاً له، لأن فيه إشارة إلى أنه سيردّ لصاحبه، وأيّ سموّ تعلو به نفس المُنْفِق وأي حافزٍ يدعوه إلى العطاء عندما يعلم أن المقترض هو ربّ العالمين الذي يملك كل شيء في هذا الوجود، وأنه سُبحانه خالق كل شيء، وأنه الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، وهذا مما يرغّب المنفق على الإنفاق في سبيل الله، لأن هذا القَرْض يُسَدِّدُهُ ٱللَّهُ بالثواب العظيم، وزيادة على ذلك **﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾** والضِّعْفُ مِثْلُ الشيء وضِعْفاهُ أي مِثْلاه، وأضعافاً كثيرة: أمْثالاً كثيرة، ولم يذكر الله سبحانه العدد ليدل على الكثرة الوافرة التي لا حَدَّ لها، وهذا الجزاء من الله يشمل خير الدنيا والآخرة. فالإنفاق في سبيل الله يلقي في النفس سعادة وطمأنينة ويدفع الضر عن الجماعة، ويبارك الله في رزق المعطي ويجزيه الجزاء الأوفى يوم القيامة **﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾** فالله سبحانه هو القابض الذي يقتّر الرزق على من يشاء ويَبْسُط الرزق لمن يشاء، وإذا كان الرزق بيد الله فعلى الغنيّ أنْ يستشعر أنَّ ما بيده فَيْضٌ من الله سبحانه، وأنَّ عليه أنْ يَشْكُرَ الله بإنفاقه في الحلال دون الحرام، وأن يُنفق من ماله في سبيل النفع العامّ الذي يقيم مجتمعاً بعيداً عن الآفات الاجتماعية **﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** وإلى الله وحده ترجعون بعد وفاتكم فيحاسبكم يوم القيامة على كل ما فعلتموه من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ
لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ
إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ
يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ
بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

شرح المفردات

المَلأُ: أشرافُ القوم ووجهاؤهم.

ابْعَثْ لنا مَلِكاً: وَلِّ علينا مَلِكاً نرجع إليه ونعمل برأيه.

هل عَسَيْتُم: هل الأمر كما أتوقعه منكم.

تَـوَلَّوا: أعْرَضُوا وتخلَّفُوا.

أَنَّـى: كيف.

اصطفاه: اختاره.

بَسْطَةً: سعة.

توحّد بني إسرائيل بعد الهزائم التي حَلَّت بهم

ثم يُبيّن القُرآن لنا ما جرى لقومٍ من بني إسرائيل حين أخرجهم أعداؤهم من ديارهم بسببب تفرّقهم وجبنهم وعصيانهم لله، ثم ما آل إليه أمرهم حين توحدت صفوفهم وأطاعوا الله، وتفصيل ذلك:

لمّا دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بعد وفاة موسى، ظلوا ستًّا وخمسين وثلاثمائة سنة وليس عليهم مَلِكٌ، وإنما كان يحكم بينهم قضاة يُعيّنهم الأنبياء، وفي بعض الأحيان كان الأنبياء يقيمون أنفسهم قضاة عليهم.

وكان بنو إسرائيل في هذه الأزمان عُرْضَةً للغَزْوِ والقتال من الأُمم المجاورة لهم كالفلسطينيين والمديانيين والعمالقة من العرب، وكانت الحَرْبُ سِجالاً بينهم.

وكان من آخر قُضاة بني إسرائيل النبي «صمويل» وكان محبوباً من قومه، فلما شاخ وكبر، وقعت حروبٌ بين بني إسرائيل والفلسطينيين، فانهزم بنو إسرائيل وسقط منهم كما تقول التوراة ٣٠,٠٠٠ قتيل، وانسحب الفلسطينيون آخذين معهم تابوت عهد الربّ إلى «أشدود» وهي إحدى مُدُنِ الفلسطينيين الخمس الرئيسية.

وكانت الأُمور المُتَّبَعة في بني إسرائيل أنهم إذا توجهوا إلى حَرْبٍ قدَّموا أمام جنودهم تابوت عهد الرب لِيُقَوِّي من عزائمهم ويستنصروا به على أعدائهم، وكان في هذا التابوت عصا موسى وثيابه، وعصا هارون، ولَوْحان من الحجارة عليهما كتابة من وصايا الرب ومن التوراة التي كتبها موسى بيده قبل وفاته، ولكن بني إسرائيل هُزِمُوا ولم يفطنوا إلى أن هزيمتهم كانت بسبب عصيانهم لله، وأن مجرد إحضار التابوت لا يعني أن الله سينصرهم.

وكان بنو إسرائيل قد أُرهقوا من كثرة اعتداء الدول المجاورة عليهم، وأُصيبوا بهزائم متعددة، واعتقدوا أن ذلك يعود إلى تفرّقهم فكان كل سِبط من أسباطهم استأثر بقطعة من الأرض، فصاروا دُوَلاً صغيرةً متفرقةً، ورأوا أنهم إذا اتَّحَدُوا جميعاً في دولة واحدة يحكمها حاكم واحد تضاعفت قوّتهم وهابتهم

الدول المجاورة، واستقرّ رأيهم أن يطلبوا من نبيهم «صمويل» أن يجعل لهم ملكاً عليهم فاستجاب لرغبتهم.

والقرآن يقص علينا بعض ما جرى بين نبيّهم وبين شيوخ بني إسرائيل مما فيه من العبرة عندما تتوحّد الأمة وتنبذ التفرقة وتجاهد في سبيل الله، يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى المَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسىٰ﴾ الملأ: هم الكُبَراء وأشْراف القوم ويطلق اسم الملأ على الجماعة، والمعنى: أَلَمْ ينتهِ عِلْمُكَ إلى جماعةٍ من بَنِي إسرائيل بعد عهد موسى عليه السلام **﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقاتِلْ في سَبيلِ اللَّهِ﴾** إذ طلبوا من نبيهم في ذلك الوقت أن يجعل عليهم مَلِكاً يجمع شملهم ويقودهم تحت لوائه للقتال في سبيل الله إعلاءً لكلمته، واسترداداً لعزّتهم المسلوبة، وأرضهم المغتصبة.

أجابهم نبيهم على طلبهم هذا **﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُم إن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا﴾** الاستفهام في قوله للتقرير والتحذير، أي هل الأمر كما أتوقعه منكم أنكم لا تقاتلون إذا فُرض عليكم القتال جُبْناً منكم، وقد بنى نبيهم توقّعه هذا على تاريخهم الطويل في إعراضهم عن الجهاد وتقهقرهم أمام عدوّهم، فأنكروا أن يقع ذلك منهم **﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** والمعنى: أيّ شيء يمنعنا مِنْ أن نُقاتل في سبيل الله واسترداد حقوقنا؟ وتابعوا قولهم: **﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنا وَأَبْنائِنَا﴾** وقد طَرَدنا العدو من أوطاننا، وحيل بيننا وبين أبنائنا حيث أصبحوا عبيداً للغُزاةِ يُسَخِّرونهم لخدمتهم **﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتالُ تَوَلَّوْا إلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾** أي فلمّا فُرِضَ عليهم قتال أعدائهم أعرضوا وتخلَّفوا عنه جُبْناً إلاّ نفراً قليلاً منهم آثروا الآخرة على الحياة الدنيا طمعاً فيما عند الله من الثواب. وهذا إخبار عما سيقع منهم بعد أن يجعل الله عليهم مَلِكاً يأمرهم

بالقتال في سبيل الله فيُعرض أكثرهم عنه ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ وصف الله بني إسرائيل بالظلم لأنهم ظلموا أنفسهم بالرِّضى بالذُّلّ، وخالفوا أمر ربهم بالجهاد بعد أن عاهدوا الله عليه.

اختيار طالوت مَلِكاً على بني إسرائيل

استجاب الله لرغبة بني إسرائيل في تولية مَلِكٍ عليهم، فقال لهم نبيهم بما أوحاه الله إليه ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً**﴾ أي إن الله اختار من بينكم شخصاً استوفى كل صفات ومؤهلات الرِّياسة وجعله مَلِكاً عليكم، وهذا الملك هو (طالوت) وأُطلق عليه اسم (شاول) في العهد القديم وطالوت لَقَبُهُ، وهم اسم مصدر من الطول وُصِفَ به للمبالغة في طول قامته.

ولكن بدل أن يرضى بنو إسرائيل فيما اختاره الله لهم، أثاروا الاعْتِراض على ذلك: ﴿**قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالمُلْكِ مِنْهُ**﴾ أَنَّى: بمعنى كيفَ، وهو استفهام مستعمل في التعجب. لقد قالوا لنبيّهم: من أي جهة استمدّ طالوت المُلْك وليس في سُلالته مُلك متوارث؟ وإنما قالوا ذلك لأنّ النبوّة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أَحَدِ السّبطين، وتابعوا قولهم: ونحن أشراف بني إسرائيل أحقّ بالملك منه نَسَباً وَحَسَباً ﴿**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ**﴾ وبالإضافة إلى ذلك فهو فقيرٌ، لا يملك من المال ما يملكه بعضنا، فكيف يكون ملكاً علينا؟ أجابهم نبيهم على ادعاءاتهم هذه: ﴿**قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ والجِسْمِ**﴾ أي إن الله اختاره وفَضَّله عليكم، واختياره من الله يجب أن يُقابَل بالإذعان والتسليم لإرادة الله، وآتاه الله عِلْماً واسعاً يصرّف به أموركم بحكمةٍ ودرايةٍ لمصالحكم، وآتاه جسماً قويّ البنية طويل القامة ما يجعله قادراً على التمرّس

في القتال، وقُدمت البسطة في العلم على البَسْطة في الجسم للدلالة على أن الفضائل العلمية أعلى وأشرف من الفضائل الجسميّة وأصلح للقيادة ﴿**وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَآءُ**﴾ واللَّه يُعطي الملك والرِّياسة مَنْ يشاء مِنْ خَلْقِهِ بمقتضى حِكْمَتِهِ ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ والله واسِعُ الفضل والعطاء، يختص برحمته من يشاء، وهو عليمٌ بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

شرح المفردات

آية مُلْكِهِ: علامة ملكه.

التَّابوت: صندوق فيه بعض ألْواح التوراة ومقدَّسات بني إسرائيل.

فيه سكينة من ربكم: فيه طمأنينة لقلوبكم من ربكم.

فلما فَصَلَ طالوت بالجنود: أي فلمّا جاوز طالوت بجنوده مكان إقامتهم.

يَطْعَمْهُ: يَذُقْهُ.

غُرْفَةً بِيَدِهِ: المقدار من الماء الذي يملأ الكفّ.

جاوزه: قَطَعَهُ وتَعدَّاهُ.

طالوت يقود بني إسرائيل إلى النصر

ثم بيّن النبيّ صمويل لبني إسرائيل البُرهان والدليل على أن طالوت قد اختاره الله مَلِكاً عليهم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي قال لهم نبيهم إن علامة صحة مُلْك طالوت ورياسته عليكم أن يأتيكم التابوت الذي سُلِبَ منكم ويرجع إليكم على يديه **﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** فيه سكينة وطمأنينة لقلوبكم لأنَّ في عودته بُشرى بالسلطان والعِزَّة التي فقدتموها **﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾** والتابوت الذي ارتبطت به قلوبهم فيه بقيّة مما ترك آل موسى وهارون، وهي عصا موسى وثيابه، وثياب هارون، وبعض الألواح من التوراة التي تكسَّرَت **﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾** أي جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعتْه عند طالوت، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك أذعنوا له بالرِّياسة ومَلَّكُوهُ عليهم. وختم نبيهم قوله: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** أي إنّ في إعادة التابوت إليكم الذي فيه شارة عِزّكم لدليلاً يدفعكم إلى طاعة طالوت والرِّضا به، إن كنتم تذعنون للحق وتؤمنون به.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلمّا جاوز طالوت بجنوده مكان إقامتهم، وكان قد سار بجيشه سيراً حثيثاً فأصاب جنده عطش شديد، فأراد طالوت أن يختبر عزيمتهم وصبرهم على العطش فقال لهم: **﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ**

﴿مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي إن الله مختبركم وممتحنكم بنهر **﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾** أي من شرب من هذا النهر فليس من أَتْباعي الذين هم تحت إمرتي، فعليه أن يتركني ولا يُصاحبني **﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾** ومن لم يشرب من النهر ولم يذقه فهو من أتْباعي **﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾** ولكن يُباح لأحدكم أن ينال غرفة من ماء النهر بيده **﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾** فلمّا جاءوا إلى النهر خالف أكثر الجنود أمر طالوت وأقبَلُوا عليه يعبُّون منه عَبًّا، غير آبهين لنهيه.

فطالوت إذ طلب من جيشه الامتناع عن الشرب من النهر باستثناء غرفة منه بيدهم هو ليعلم مَن المُطِيع لأوامره مِن الرافض لها، فطاعة الجيش للقائد هي من العوامل الفعّالة للنصر على الأعداء، وربما لخطة حربية كما يقول العلّامة محمد أبو زهرة رحمه الله: «خشي أنهم إن مكثوا حول النهر وملأوا مزاداتهم وبطونهم واستراحوا واستجمّوا أحسّ بهم أعداؤهم فاجتازوا النهر إليهم وأبعدوهم عنه، فأراد طالوت أن يأخذ عدوّه بالجولة الأولى المفاجئة فيجتاز النهر قبل أن يحسوا به، وإن اجتازوه صار النهر في قبضتهم يشربون منه ما شـاءوا من غير حاجة إلى التزود، وكانوا هم على الماء، وعَدُوّهم أسفل منه»[١].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي فلمّا قطع طالوت النهر وتعدّاه مع الذين صبروا على العطش ولم ينالوا من النهر إلاّ غُرْفَةً منه، وقد وصفهم القرآن بالإيمان حيث قال: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾** للإشارة إلى أن إيمانهم بالله دعاهم إلى تحمّل المشاقّ والصبر على العطش الشديد **﴿قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ**

(١) نقلاً عن كتاب زهرة التفاسير ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي إنّ الذين اجتاوزا النهر مع طالوت وأطاعوه في الامتناع عن الشرب من النهر كانوا فريقين: فريقاً شعر بالخوف من كثرة العدوّ وقالوا: لا قدرة لنا اليوم على محاربة جالوت وجنوده. وفريقاً ثانياً لم ترهبه كثرة العدوّ، وهم الذين قال الله فيهم: **﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاَقُوا ٱللَّهِ﴾** الظن هنا بمعنى اليقين، أي قال المُوقنون بالبَعْثِ والرجوع إلى الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم ويثيبهم على جهادهم بالجنة **﴿كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾** كم: تفيد الكثرة، والفئة: الجماعة، أي قالوا: لا تخافوا من كثرة جنود جالوت فكثيراً ما انتصرت قلة مؤمنة على جماعة كثيرة بإذن الله وتيسيره **﴿وَٱللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** أي مع المؤمنين بنصره وتأييده لهم.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾.

شرح المفردات

بَرَزُوا: ظَهَرُوا لقتالهم.

ثَبِّت أقدامنا: قَوِّنا على الجهاد.

هزيمة جالوت

ويُتابع القرآن فيبين ما دار في رحى المعركة بين طالوت وجالوت مع بيان نفسيّة المؤمنين آنذاك.

﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ ولمّا خرج طالوت ومَنْ معه من المؤمنين لمقاتلة جالوت وجنوده وظهروا لهم في ساحة المعركة ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً**﴾ يقال: أفْرَغَ الإناء إذا صبّ ما فيه من ماء[١]، أي قال المؤمنون: يا ربّ، أفِضْ وصبَّ علينا صَبْراً يُقَوِّي من عزائمنا، لقد بدأوا معركتهم مع العدوّ طالبين من ربهم بأن يمنحهم الصبر، والصبر هو عُدَّة القتال الأولى في الحرب، وهو العامل الفعّال في النصر على الأعداء ﴿**وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**﴾ كما طلبوا من ربهم الثبات في مقارعة الأعداء وأن لا يجعل الفرار منهم سبيلاً إلى قلوبهم، وعبَّر عن الثبات بالأقْدام لأن بها يكون البقاء في المعركة ﴿**وَانْصُرْنا على القَوْمِ الكَافِرِينَ**﴾ كما طلبوا من ربِّهم أن يُؤَيّدهم وينصرهم بفضله على الجاحدين لأُلوهيته، الظالمين في الأرض.

﴿**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وقَتَلَ داوُدُ جَالُوتَ**﴾ استجاب الله دعاء المؤمنين فهزموا أعداءهم بإذن الله وتوفيقه، وفي هذه المعركة قتل داود جالوت ﴿**وَآتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ**﴾ ولمّا مات طالوت تولّى داودُ القيادة بعده وأعطاه الله الملك بسبب شجاعته ورجاحة عقله، ووهبه الحكمة وهي وضع الأمور في مواضعها والتدبير المحكم ﴿**وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشَاءُ**﴾ وعَلَّمه الله ما يشاء أن يعلّمه إياه من العلم الذي خَصَّه به من سياسة الرَّعِيَّةِ، والعَدْلِ بينهم، كما أنعم عليه بالنُّبُوَّةِ وعلم التوراة.

---

(١) جعل الصبر بمنزلة الماء المنصبّ عليهم يثلج به صدورهم.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ أي ولولا أن يسلّط الله الصالحين من عباده على المُفْسِدين لمحو فسادهم، ويُسَلِّط الأشرار بعضهم على بعض لإضعافهم وكفّ شرورهم عن العباد، لولا هذا الدفع والتصادم بينهم لَعَمَّ الفسادُ في الأَرْضِ[١] ولَما عمرت الأرض بالصالحين من عباد الله الذين هم حرب على أهل الباطل في كل زمان، والله ناصِرُهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض **﴿وَلـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾** أي إن الله ذو فضل عظيم على جميع الخلق لا يُدرك الناس قدره ولا يعرفون مداه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه الآيات القرآنية التي ذكرها الله لك يا محمد من أخبار بني إسرائيل فيها العِبر والعظات لقومك، وهي الحق من ربك، وهي دليل على صدق نبوّتك، لأنّك لم تتلقَّ هذه الأخبار من علمائهم وأحبارهم كما أنك أُمّيّ لم تَطَّلِعْ على كُتبهم **﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** وإنك يا محمد من رسل الله الذين أرسلهم لهداية خلقه.

كيف قتل داود جالوت؟

ورد في كتب اليهود الدينية قصة قتل داود لجالوت نذكر ملخصها فيما يلي:

بعد أن اجتاز طالوت النهر مع جنوده وتقدم نحو القوات الفلسطينية، خَرَجَ مُبارِزٌ منهم قويّ البأس اسمه (جليات) والقُرآن أطلق عليه اسم (جالوت) وكان لابساً دِرْعاً، وعلى رأسه خوذة من نحاس وفي يده رمح وترس وكان يزهو بكبرياء ويقول: أنا الفِلَسْطِينيُّ هل من مُبارِزٍ؟

(١) هذا ما يعرف حديثاً بنظرية: تنازع البقاء والبقاء للأصلح.

وكانت القاعدة آنذاك أنهم ينتخبون ممثلين من الجيوش المتحاربة يتبارزون قبل بدء القتال، والجانب الذي ينتصر أَبْطالهُ في هذه المُبارزات ترتفع معنويات جنوده كثيراً، مما يكون له أثر كبير على سير المعركة، وكان بُروز جالوت هكذا لابساً دروعه المخيفة هذه مدعاة لبثّ الرعب في نفوس الإسرائيليين.

وكان لرجل من بَنِي إسرائيل يُدعى «يسَّىٰ» عدة أولاد، ثلاثة منهم تبعوا طالوت «شاول» إلى الحرب، فأراد «يسَّىٰ» أن يرسل طعاماً إلى أبنائه الثلاثة فأرسل إليهم أخاهم داود إلى مكان ساحة القتال بالطعام، فرأى داود جالوت يروح ويغدو متبختراً في درعه الحديدي يدعو من يبارزه ويتهكم على الإسرائيليين. ساء داود ذلك وراح يهدّد جالوت بالقتل. سمع طالوت بذلك فاستدعى داود وحَذَّره من تصرّفه هذا، فأجابه داود أنه مستعدّ لمحاربة جالوت وأن عنده من المؤهلات ما يستطيع التغلّب عليه، فقال:

بينما كنت أرعى الغنم فكان يجيء أسد تارة ودبّ تارة أخرى ويخطفَ شاة من القطيع فكنت أخرج وراءه وأضْربه وأخلّص الشاة من فيه وأقْتله، فقد قتلت أسداً ودبًّا وسيكون مصير هذا الفلسطيني مثل واحد منهما، فقال له طالوت: اذهب وليكن الرب معك، وألْبسوا داود درعاً وخوذة من حديد ولم يكن قد لبسهما من قبل، فلم يستطع السير بهما ونفضهما عن نفسه، وتقدم ليقاتل جالوت وليس معه إلا عصاه والحجارة التي انتقاها من الوادي ووضعها في جرابه ومقلاعه في يده، وتقدّم جالوت للقاء داود ولكنّ داود أسرع وأخذ حجراً من جرابه ورماه بالمقلاع فأصابه في جبهته، وسقط جالوت على الأرض من شدة الضربة، فأسرع داود إليه وأخذ سيفه منه وقتله به وقطع رأسه، ولمّا رأى الفلسطينيون ذلك خافوا وبدأوا في الفِرار، ولحقهم جنود بني إسرائيل وقتلوا منهم الكثير.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

شرح المفردات

منهم من كَلَّم اللَّهُ: وهو موسى عليه السلام الذي كلّمه الله بلا واسطة.

البَيِّنات: الحجج والأدِلّة.

بِرُوحِ القُدُسِ: أي بالروح المقدّس المطهر وهو الملك جبريل.

خُلّة: الصَّداقة والمودَّة.

التفاضل بين رسل الله الكرام

ولمّا ذكر الله سبحانه ما خَصَّ به داود من الملك والنبوة والحكمة، بَيَّنَ في الآية التالية أن رسل الله ليسوا على درجةٍ واحدةٍ من الفَضْلِ، بل إن بعضهم أفضل من بعض ـ وكلهم فاضلون ـ قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تلك الرسل: المراد بهم جماعة الرُّسُل الذين تقدّم ذِكْرُهُم في هذه السورة، وهؤلاء الرسل فضّل بعضهم على بعض في المكانة، وما خصّ كل واحد منهم من معجزات، وإن كانوا جميعاً قد تساووا في شرف النبوّة والرِّسالة الإلهية.

ثم بَيَّن اللهُ بعض مظاهر التفضيل بينهم فقال سبحانه:

﴿مِّنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي من الرُّسُل من فَضَّلَهُ اللَّهُ بتكليمه مباشرةً دون وسيط كما حصل لموسى عليه السلام، وقد جاء في القرآن: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِي وَبِكَلَـٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ والدرجات: جمع درجة، وهي المنزلة الرفيعة السامية، أي ومن الرسل من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية، كإبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلاً، وموسى الذي كلّمه الله، وإدريس الذي رفعه الله مكاناً عليًّا، ومن فَضَّله الله هو عيسى عليه السلام حيث جعله الله يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص بإذنه.

والإجماع منعقدٌ على أنَّ أفْضلَ الرُّسُلِ جميعاً محمد ﷺ لأن رسالته عامة للبشرية جمعاء، فقد خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وخاطبه الله أيضاً بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومحمد ﷺ أُوتِيَ من الآيات التي تشهد بصدق نُبُوَّتِهِ ما لم يُؤْتَ أحَدٌ من الأنبياء قبله، ولو لم يؤتَ إلاّ القُرآن وحده لكفى به فضلاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على مدى الدهر دون سائر معجزات الأنبياء وهي في متناول شعوب الأرض في كل زمانٍ ومكانٍ.

وقد قال النبي ﷺ: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم يَوم القيامةِ، وأَوَّلُ من يَنْشَقُّ عنه القَبْرُ، وأوّل شَافِعٍ وَأوّل مُشفَّعٍ»(١). أما ما روي عن النبي ﷺ قوله: «لا تفضِّلوني على

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

الأنبياء»[١] فإن ذلك من باب تواضعه، أو حرصاً منه للترفع عن الجِدال بأن يذكر بعضهم الأنبياء بما لا ينبغي أن يُذكر من صفاتهم ويقلل من احترامهم.

ثم قال سبحانه: **﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾** أي وأعطى الله عيسى ابن مريم المُعْجِزات الظاهرة الواضحة الدلالة على صدق نبوّته **﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾** أي وقوَّيناه بجبريل عليه السلام، لأن عيسى كان مضطهداً من أعدائه الرومان ومن قومه بني إسرائيل، ولم يكن له قدرة للدفاع عن نفسه، فَتَوَلَّى اللهُ حِمايته بملائكته الأطهار، ومن بينهم الملك جبريل.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ أي: ولو شاء الله ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ بأن جعلهم متفقين على اتِّباع الرُّسل الذين جاءوا بالحق من عند ربهم **﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ﴾** أي من بعد ما جاءهم الرسل بالمعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدَّالَّة على الحقّ الذي يجب اتِّباعه **﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾** وسبب هذا الاختلاف هو أنهم يختلفون في العقول والمدارك والفَهْم وتقبّل الحق **﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّنْ كَفَرَ﴾** فمنهم من آمن لأن قلبه يتّجه إلى الحق، ومنهم من كفر لسوء جِبِلَّتِهِ وفساد سريرته، وهذا الاختلاف بينهم حول الدِّين أدَّى بهم إلى التنازع والتخاصم والتقاتل **﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾** كرّر الله ذلك تأكيداً لما سبق، أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يتقاتلون ولكنّ الله تركهم لاختيارهم حتى يتبيّن الخبيث من الطيّب ثم يُجازي كُلاً حَسَبَ عمله **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾** والله سبحانه يفعل ما تقتضيه حكمته، فلم يشأ منع الاقتتال بين أتباع الرسل بل أراد أن تكون هكذا طبيعة الإنسان على وجه الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري.

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ تخصيص المؤمنين بالخطاب لأنهم هم المكلّفون بتنفيذ أوامر الله ومنها الإنفاق في وجوه الخير، ويشمل فريضة الزكاة، وصدقة التطوّع الزائدة على فريضة الزكاة، ويقول أحد المفسرين: ظاهر هذه الآية أنها مُرادٌ بها الإنفاق في جميع وجوه البِرّ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال يترجّح منه أن يكون الإنفاق موضعه في سبيل الله وهو الإنفاق على الجيش والمجاهدين الذين يُدافعون عن الوطن وما يحتاجون إليه من سِلاح وعَتادٍ. ومما يلفت النظر في الآية قوله تعالى **﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾** ففيه إشعار للمؤمنين بأن المال الذي بين أيديهم هو رِزْقٌ رزَقَهُمُ اللهُ إياه، فمن الواجب أن يطيعوا الله فيما أمرهم به من الإنفاق وأن لا يبخلوا في بَذْلِ بعضه في سبيل الله **﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ﴾** أي من قَبْلِ أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجدون فيه ما يتقربون به إلى الله مما يُكسب ببيع أو تجارة أو يفتدون بذلك أنفسهم من عذاب الله **﴿وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾** الخُلَّةُ: المَوَدَّةُ والمحبة بين صديقين، أي يوم القيامة لا تنفعهم صداقة ومودة مهما قويت ولن تجديهم شفاعة شفيع إلاّ لمن يأذن الله له **﴿وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** والكافرون هم الذين جحدوا وجود الله وأنكروا وحدانيته وأفسدوا في الأرض، هؤلاء هم الظالمون لأنفسهم لأنهم تعدّوا على حدود الله، وأوردوا أنفسهم موارد الهلاك.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

شرح المفردات

القَيُّوم: القائم على أُمور الخلق بالتدبير والرعاية.

سِنَةٌ: ما يتقَدّم النوم من الفُتُور، وهو النعاس.

كُرْسِيُّه: عِلْمُه سبحانه، أو كناية عن ملكه وعظمته.

لا يَؤُودُهُ: لا يثقله ولا يشقُّ عليه.

آية الكرسيّ تُظهر عظمةَ الله

تُعْرَفُ هذه الآية باسم: آية الكرسيّ لِوُرُودِ اسم الكرسيّ فيها، وقد ورد عن النبي ﷺ أن هذه الآية أعظم آيةٍ في القرآن، وإنما كانت كذلك لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الله سبحانه ما لم تجمعه آية أخرى: فهي تؤكد معنى وحدانية الله، وتغرس في قلب المؤمن المهابة والخشية منه سبحانه لما يتصف به من العظمة الإلهية.

وهذه الآية تشتمل على عشر جُمَلٍ، كل جملة منها تشتمل على صفة أو صفتين من صفات كمال الله تعالى وسلطانه الشامل على الكون وتدبيره له، وإليكم عرضاً لبعض معانيها:

الجملة الأولى: وهي ما جاء في مطلع الآية ﴿**اللَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ الله: هذا الاسم أكبر أسمائه تعالى وأجمعها وهو اسم الله الأعظم ولم يَتَسَمَّ به غيره، ولم

يُثَنّ ولم يجمع، فالله اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلاّ هُوَ، وذلك أن بعض الناس عبدوا غير الله، فَعَبَدَ بعضُهم الشمس والكواكب، وعَبَدَ بعضهم النار، وعَبَدَ بعضهم الأوثان، واعتبروا كل هذه آلهة فكانت عبادتهم باطلة، إنما المعبود بحق المستحق للعبادة هو الله سبحانه.

الجملة الثانية: وهي ما جاء في الآية: ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾ أي إن الله له الحياة الكاملة الأزلية، فلا أول لها، والباقية فلا آخر لها، فهو الحيُّ الذي لا يموت، وسائر الأحياء على وجه الأرض يعتريهم الموت والفناء.

فهو سبحانه حَيٌّ بذاته وكلُّ ما عداه من الأحياء فهو حيٌّ بِهِ، أي: إنه يستمدّ حياته منه، بينما حياة المخلوقات تفارقها الحياة حين تموت، إن حياة الله تعالى هي التي تفيض الحياة على كل حيّ على وَجْهِ الأرض فهو سبحانه الذي يحيي ويميت.

﴿القَيُّومُ﴾ أي إنه سبحانه القائم بنفسه الذي لا يقوم بغيره، والقائم على كل شيء بالتدبير والحفظ والرعاية، فهو القائم على خَلْقه بآجالهم وأعمالهم وأرْزاقهم. وقد رُوِيَ عن ابن عباس أن كلمة ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾ هي اسم الله الأعظم، وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأَعْظم في هاتين الآيتين الأولى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] والثانية في فاتحة سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آية: ١ ـ ٢]»[١].

فالآية الأُولى تُثْبِتُ لِلّه الوحدانيَّة مع الرَّحْمَة، والآية الثانية تُثْبِتُ لِلّه مع الوحدانية: الحياة والقيّوميَّة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «لما كان يوم معركة بَدْر قاتلتُ، ثم جئت إلى رسول الله أنظر ماذا يصنع، قال: فجئت وهو ساجِدٌ يقول: يا حَيُّ يا قَيُّوم لا يزيد على ذلك، ثم رَجَعْتُ إلى القِتال ثم جئتُ وهو يقول ذلك، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظر إليه، وكان لا يزيد على ذلك إلى أن فتح الله له»(١).

الجملة الثالثة: وهي ما جاء في الآية ﴿**لاَ تأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾ السِّنةُ: ما يتقدم النوم من الفتور وهو النعاس، أي إن الله سبحانه لا يصيبه نعاس ولا نوم، وهذا يؤكد بأن الله قيّوم على كل شيء لأن النعاس والنوم يؤديان إلى الغفلة عن تدبير أمر الخلائق وهذا ينافي معنى الألوهية الحقة، وكلمة ﴿**لاَ تَأْخُذُهُ**﴾ فيها دلالة على أن للنوم سُلْطَةً قاهِرَةً تأخذ كلَّ حَيٍّ أخْذاً، فلا يستطيعون التغلّب عليه، وذلك مستحيل على الله الذي هو القاهر فوق عباده.

الجملة الرابعة: وهي ما جاء في الآية ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ فهذه الجملة تفيد المُلْكِيَّة المُطْلَقة لربّ العالمين لكل ما في الكون من أجرام سماوية وملائكة وما في الأرض من إنسانٍ وحيوانٍ ونَباتٍ وجبالٍ وبحار وأنهار وغير ذلك، فكل أولئك ملكه، خاضِعُون لمشيئته، وهو سبحانه الحافظ لوجودهم.

الجملة الخامسة: وهي قوله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ الاستفهام هنا معناه الإنكار والنفي، أي: لا يشفعُ عند الله أَحَدٌ إلاّ بإذنه، وإنما يأذن الله لمن يشاء عن علم وعَدْلٍ وحكمة.

وهذه الجملة التي تُبيّن أن الشَّفاعَة لا تكون إلاّ لمن يأذن الله له تظهر عموم سُلطان الله، وأنه انفرد بتدبير أُمور الخلائق فلا إرادة تتعلق بأمور الخلق غير

(١) أخرجه النسائي.

إرادته، فهو يُعطي الإذن بالشفاعة لمن يشاء ويمنعها عمّن يشاء.

وهذا الذي ذكره القرآن من اختصاص الله بالشفاعة وأنه سبحانه يأذن بها لمن يريد، إنَّ هذا لَسَبِيلٌ إصلاحيٌّ كبير يقطع الأمل أمام العُصاة الذين يقصّرون في واجباتهم الدينية اتكالاً على ما يدّعون بأن لهم شُفَعاء، غير عابئين بأعمالهم السيئة التي ستؤدي بهم إلى عذاب الله. وجمهور العلماء أثْبتوا شفاعة النبي محمد ﷺ للعُصاة من أُمَّته بعد أن يأذن الله بها ويرضى تكريماً له ورحمةً بالناس، وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ في هذا الصدد.

الجملة السادسة: وهي قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ فهذه الجملة تأكيد لكمال علم الله وسُلْطانه في هذا الوجود، وإحاطة علمه بكل أحوال الناس، لا يخفى عليه شيء، فالله سبحانه يعلم ﴿**ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ وهو ما يعلمونه من شؤون سابقة أو حاضرة من أُمور دنياهم ﴿**وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ فهو يعلم ما يكون مغيّباً عنهم من أُمور ستقع في المستقبل، أو ما يكون من أُمور الآخرة، فالعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علم الله بماضي العباد وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شؤونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

الجملة السابعة: وهي قوله تعالى ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ**(١) **مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بما شَاءَ**﴾ إحاطة العلم معناها العلم الكامل بالأمر، أي إن البَشَر لا يعلمون شيئاً من معلومات الله إلا ما يشاء الله لهم أن يعرفوه، وبالقدر الذي أراد أن يعلمهم إياه على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

الجملة الثامنة: وهي قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ**﴾ فَسَّرَ العُلَماء «كُرْسِيُّهُ» بالعَرْش، كما فسَّر بعضُهم «كُرْسِيُّهُ» بأنه كناية عن سعة ملكه

---

(١) يقول الأصبهاني: الإحاطة بالشيء علماً هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به.

وسُلْطانه وقُدْرَته وشمول إرادته. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: «كُرْسِيُّه: عِلْمُهُ»، كما ذهب إلى ذلك ابن جرير الطبري.

وقيل: الكرسيّ غير العرش، وهما مخلوقان لله تعالى، وهما من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فنفوِّض علم حقيقتهما إليه مع كمال تنزيهه عن الجسمية وعن مشابهته المُحْدَثات، اهتداءً بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الجملة التاسعة: وهي قوله سبحانه مُظهراً قدرته **﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُما﴾** أي لا يُثقله ولا يُتْعبه حِفْظُ السمواتِ والأرضَ وتدبير شؤونهما، لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن التَّعَبِ وعن مُشابهة الحوادث، فكل ما في الكون في حِفْظِ الله، فأجْرام السماء من نُجومٍ وكواكب يحفظها ٱللَّه بنظام الجاذبية بحيث لا تتصادم، والأرض وما عليها من كائنات في حفظ الله خاضعة للقوانين التي سَنَّها ٱللَّهُ بحكمته بما يكفل لها الحصول على عيْشها واستمرار نوعها.

الجملة العاشرة: وهي قوله سبحانه **﴿وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾** فالله سبحانه عَلا بصفاته وذاته عن مُشابهة المخلوقات، وهو عالي المنزلة والقدر بتنزّهه عن مشابهة المخلوقين، وهو القاهر فوق عباده. كما أنه سبحانه هو العظيم قدراً ومهابة وشرفاً، كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه.

هذه آية الكرسيّ التي تملأ القلب مهابَةً وخَشْيَةً، فهي تُعلن أن الله متفرّدٌ بالألوهية، قائم على تدبير الكائنات، لا يغفل لحظة عن أُمور خلقه، وهو المالك لكل شيءٍ في السموات والأرض، فلا معبود بحق في الكون إلاّ هُوَ، الواحد الأَحَد. وفيها تكرار اسم ٱللَّه ظاهراً أو عن طريق الضمائر في ستة عشر موضعاً.

وقد أخرج الإمام مسلم بما معناه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أعْظَمَ آيةٍ في القُرآن هي آية الكرسي».

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

شرح الكلمات

لا إكراه في الدِّين: أي لا إجبارَ على الدُّخُولِ في الإسلام.

الرُّشْدُ: الهُدى أو الحق.

الغيّ: الضَّلال أو الباطل.

بالطاغُوت: كل ذي طُغْيانٍ، أو كل معبود سوى الله.

العُرْوَة الوُثْقى: الإيمان بالله، وهو العقيدة المحكمة التي لا يضلّ من تمسَّك بها.

لا انْفصامَ لها: لا انقطاع لها.

وَلِيُّ الذين آمَنُوا: مُعِينُهم ومُتولّي أُمورهم.

يُخرجونهم من النور إلى الظلمات: يخرجونهم من نور الحق والإيمان إلى ظلمات الكفر.

حُرِّيَّةُ التَّدَيُّن

من الأُمور الهامة التي تشهد بعظمة الإسلام تقريره حرية المعتقد في زَمَنٍ شهد العالم سلسلة من الصراعات الدموية في سبيل إرغام الغير على اعتناق دينهم.

والإسلام في تقريره حريةَ المعتقَد سبق المَدَنِيَّة الحديثة بقرونٍ كثيرة، فقد صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرّته الجمعية العامة للأمم

المتحدة في العاشر من كانون الأول سنة ١٩٤٨ حيث نَصَّ هذا الإعلان في المادة الثامنة عشرة منه على ما يلي: «إنّ لكلّ شخص حقًّا في حرية التفكير والضمير والدين.. وحرية الإعْراب عن ديانته أو عقيدته بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر...».

والإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً قرّر حرّية المعتقد بقوله تعالى:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الإكراهُ: هو إلْزام الغير على قولٍ أو فعلٍ لا يريده عن طريق التخويف والتعذيب، والمراد بالدِّينِ في الآية: دين الإسلام، والمعنى كما جاء في تفسير ابن كثير: «لا تُكْرِهُوا أحَداً على الدخول في دِينِ الإسلام فإنه بَيِّنٌ واضِحٌ، جَلِيٌّ دلائله وبراهينه لا يُحتاج إلى أن يُكرَه أحَدٌ على الدخول فيه، بل مَن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونَوَّرَ بصيرته دخل فيه على بَيِّنة...» **﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾** أي قد تبيّن الرُّشْدُ والحق في دين الإسلام كما تبين الضلال والباطل فيما سواه.

نزلت هذه الآية في قومٍ من الأنْصار، أو في رجل منهم، كان لهم أولاد قد هَوَّدُوهم أو نَصَّرُوهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام(١).

ورُوِيَ أنه كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاتاً (أي التي لا يعيش لها ولد) فتُنذر إنْ عاش ولدها أن تجعله مع أهل الكتاب على دينهم، فجاء الإسلام وطوائف من أبناء الأنصار على دينهم، فقالوا: إنما جعلناهم على دينهم ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وإذ جاء الله بالإسلام فلنكرهنهم(٢)، فنزلت الآية

---

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) فلنكرهنهم: أي يكرهونهم على الدخول في الإسلام.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[(١)] فالآية تقرر أن الإكراه في الدين لا ينبغي فعله، لأن التدين لا يكون إلاّ عن اقتناع وإذْعان قلبي، واتجاه بالنفس إلى الله، وتلك معانٍ لا يُتَصور منها الإكراه، والتدين والإكراه لا يجتمعان، ومن أُكْره على أَمْرٍ ازداد له نفوراً وكرهاً.

ويقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: «لمّا بَيَّنَ اللَّهُ دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعُذْرِ، قال بعد ذلك: إنه لم يبقَ بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عُذْرٌ في الإقامة على الكُفْر إلاّ أن يُقْسَرَ على الإيمان ويُجْبَر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بُطلان معنى الابتلاء والامتحان» ونظير هذا ما جاء في القرآن: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] كما جاء في القرآن: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] أي ليس في استطاعتك يا محمد ولا مِنْ وظائف الرسالة الإلهية التي بُعثتَ بها أن تُكْرِهَ الناس على الإيمان، كما جاء في القرآن: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ الطاغوت: هو الشيطان أو الصنم، وكل ما عُبد من دون الله، وهو مأخوذ من الطُّغْيان: وهو مُجاوزة الحَدِّ في الشيء، أي فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويصدق بالله بأنه إلهه وربّه ومعبوده ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ والعُرْوَةُ: ما يستمسَك به ويعتصم، والوثقى: المُحْكَمَة، شَبَّهَ اللَّهُ من تمسَّكَ بالإيمان أو بالإسلام بحال من تمسّك بأَوْثَقِ عُرى النجاة التي لا يُخْشَى منها الخللُ، وهي الاستقامة على

(١) عن تفسير الطبري.

طريق الحق القويم الذي لا يضلّ سالكهُ **﴿لا انْفِصَامَ لَهَا﴾** لا انقطاع لها **﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** أي سميعٌ لأقوال الناس، عَلِيمٌ بما يُسِرُّونه في نفوسهم وما يُعْلِنُونَه.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ الوَلِيُّ: الناصر والمعين، والمعنى: الله سبحانه مُعِينُ المؤمنين وناصرهم ومتوليهم بهدايته إلى طريق الحق يخرجهم من ظلمات الكُفْر والمعاصي إلى نور الهداية والإيمان **﴿والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مّن النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾** أي والذين كفروا بالله وأنكروا رسالة النبي محمد ﷺ هؤلاء يتولى أمرهم الطاغوت وهم الشياطين وسائر المُضِلِّين عن طريق الحق ويوقعونهم في ظلمات الكفر والضلال **﴿أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾** أي أُولئك الذين ركنوا إلى الطاغوت هم الذين يُعَذّبون في النار يوم القيامة عذاباً لا نهاية له.

هذه الآية: **﴿لا إكْراهَ فِي الدِّينِ. .﴾** قيل إنها منسوخة بقوله تعالى: **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾** [التحريم: ٩] لأن النبي محمداً ﷺ قد دعا العرب الوثنيين وحثهم على الدخول في دين الإسلام وقاتلهم عندما قاتلوه ولم يرض منهم إلاّ الإسلام بعدما اضطهدوه، ولأن الجزيرة العربية كانت المنطلق لدعوة الإسلام إلى شعوب العالم.

وقيل: إن هذه الآية غير منسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى في العالم إذا أدوا الجِزْيَة، وهي ضريبة قليلة من المال مقابل حمايتهم. والذي تسكن إليه النفس أنّ هذه الآية غير منسوخة، لأن التدين كما ذكرنا سابقاً لا يكون مع الإكراه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

شرح المفردات

أَلَمْ تَرَ: ألم تعلم، وهذا الاستفهام للتعجب.

حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه: خاصمه وجادله في شأن ربه.

فَبُهِتَ الذي كفر: تَحَيَّرَ ودُهِشَ وانقطعت حجته.

طُغْيانُ الحُكَّام

ثم ينتقل القرآن إلى عَرْضِ لَوْنٍ من ألْوان الطغيان الذي يظهر على بعض الحُكّام الطغاة الذين يظنون أنهم وصلوا إلى مرتبة الأُلُوهِيَّة، فَيُنكرون وجود الخالق الذي خلقهم، ويُمعِنُونَ في إيقاع الظلم بالعباد، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ﴾ والاستفهام للتعجب، أي أَلَمْ تعلم إلى حال هذا الملك الذي خاصم إبراهيم وجادله في شأن خالقه، والمحاجّة: هي المخاصمة والمغالبة في القول **﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ﴾** وكان هذا المَلِكُ قد طغى وتَجَبَّر وادعى الأُلوهية، وطغيان هذا الملك هو بسبب ما أنعم الله عليه من الملك والسلطان الدنيوي على قومه فجعله مسرفاً في الضلال.

﴿إِذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وكان الملك قد سأل إبراهيم عن ربه الذي يدعوه لعبادته، فوصف إبراهيمُ ربَّه بأوضح ما يُعرف به وبالصفة

التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحَدٌ، ولا يمكن أن يدّعيها أحَدٌ، فَرَبُّهُ هو الذي ينشئ الحياة في جميع الكائنات الحية، ويُزيل الحياة عنها بالموت، والتعبير بالفعل المضارع ﴿**يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ يفيد معنى الاستمرار الذي يُرى في كل يوم.

﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ فأجاب الملكُ إبراهيمَ: أنا أفعل ذلك فأحيي بالعفو عن محكوم عليه بالموت فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياء له، وأقتل من أردتُ قتله فيكون ذلك مني إماتةً له. وهكذا يفعل الطغاة في كل العصور فتكون أرواح العباد مستباحة لهم لكل من ينتقد سياستهم أو يخالفهم في رأيهم.

ولنرجع إلى جواب الملك لإبراهيم الذي يدلّ على جهله وقِصَر نظره، ولذلك اقتضت حكمة إبراهيم أن يغلق باب الجهل الذي صدر عن الملك ويجابهه بموضوع آخر لا يستطيع أن يجادله فيه:

﴿**قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ أي قال إبراهيمُ للملكِ: إنَّ رَبِّي هو الذي يُطلع الشمس من جهة المشرق بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نُشاهدها كل يوم، فإذا كنت أيها الملك تَدَّعي الأُلوهية فَأَظْهِرْ أمارات قدرتك وسُلطانك على الكون بأن تأتي بالشمس من جهة غروبها ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ أي تحيّر هذا الذي كفر وادَّعى الأُلوهية، واضطرب ولم يجد جواباً ولم يستطع أن يتفوَّهَ بكلمةٍ ﴿**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ فالذين يعاندون الحق هم ظالمون، وإذا استحكم الظلم في النفس أصبحت كل البراهين لا تجديهم نَفْعاً، ولذلك لم يكتب الله الهداية لهؤلاء، بل شاء أن يظلوا في ضلالهم يعمهون.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

شرح المفردات

أنّى يُحْيِي: كيف يحيي.

خاوِيَة على عروشها: ساقطة حيطانها على سقوفها.

بعثه: أحياه الله بعد مماته.

لم يَتَسَنَّهْ: لم يُغَيِّرهُ مرّ السنين.

وانظر إلى العِظام كيف نُنْشِزُها: أي كيف نرفعها من أماكنها من الأرض فنردّها إلى أماكنها في الجسم.

دليل على البعث يوم القيامة

ويتابع القرآن فيقدّم لنا دليلاً على إثبات البعث يوم القيامة مستقى من القصة التالية، قال تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ﴾ هذه الآية معطوفة على الآية قبلها، والمعنى: هل رأيت يا محمد مثل الذي مرّ على قرية، والقرآن لم يسمّ الشخص ولا القرية لأنه يقصد من هذه القصة العبرة، وقد روي أنّ الذي مَرَّ على القرية هو عُزَيْر، وقيل: إرميا، والقرية: هي بيت المقدس التي خربها وهدمها بختنصر **﴿وَهِيَ**

﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خاوية: ساقطة، وعروشها: جمع عرش وهو السقف، أي سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه، وهذا المنظر ينبئ عن خراب القرية وذهاب عمرانها. ثم إن عُزَيْراً مَرَّ على هذه القرية وهو راكب على حمار، فتعجب مما رأى وقال كما ذكر القرآن **﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها﴾** أي كيف يحيي الله هذه القرية التي فنيت وخربت بعد موتها؟ ويُلاحظ أن التساؤل من عُزَيْر كان منه عن كيفية الإحياء ولم يكن شكًّا منه في قُدرة الله على إحيائها، فهو مؤمن صادق الإيمان. أراد عُزَيْرٌ أن يستريح قليلاً، فربط حماره وتناول من شجر هذه القرية التين والعنب وشرب من عصير فاكهتها، ووضع ما زاد عنه في وعاء له، فأراد الله أن يريه آيةً تدل على عظيم قدرته التي تعلو وتفوق عمارة هذه القرية **﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾** أي جعله الله ميتاً مائة سنة، وظاهر هذه الإماتة إخراج الروح من الجسد، كما أمات حماره معه، ثم أعمى الله عن جسده أبصار الإنس والسباع والطير. فلمّا مضى على موته سبعون سنة وَجَّهَ اللهُ ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمروه، فعمروه في ثلاثين سنة، فلما تمت المائة سنة من موت عُزَيْر أحياه الله بما ذكره القرآن **﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾** أي ثم أحْياه، ويوم القيامة يسمّى يوم البعث لأن الموتى يُبعثون فيه من قبورهم. فالله سبحانه أعاد إليه الحياة كما كان سابقاً، فسأله الله تعالى بواسطة ملك من الملائكة **﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾** أي: كم لبثت في رقادك؟ قيل له ذلك مراعاةً على ما يظن أنه كان نائماً في تلك المدة التي أفاق منها من نومه، فأجاب الرجل: **﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾** أي مكثتُ في نومي هذا يوماً، قال هذا قبل النظر إلى الشمس، ثم التفتَ فرأى بقية من نور الشمس، فقال: أو بعض يوم. فقد أماته الله غدوة ثم بعثه حيًّا بعد تلك المدة الطويلة قبل الغروب.

ولكن الملك أجابه بهذا القول الذي أدهشه وأزاح عن عينيه ما كان غائباً عنه **﴿قَالَ بَلْ لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾** أي لم تلبث نائماً تلك المدة القصيرة التي ظننتها

بل مكثت ميتاً مائة عام ثم بعثك الله حيًّا، ونظر عُزَيْرٌ حوله فرأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها التي بُنيت ما دَلَّ على ذلك.

ثم أراه الله معجزةً أُخرى تدلّ على قدرته متمثلة بطعامه وشرابه **﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾** يَتَسَنَّه: أي لم تُغَيِّرْهُ السِّنُونُ، أي فَانظر إلى طعامك وشرابك اللذين كانا معك لزادك وقد مّر عليهما مائة عام وما زالا صالحين للأكل والشراب لم يلحقهما فساد أو تبديل، ولم يغيرهما مضيّ هذه الأعوام الطويلة **﴿وَانْظُرْ إلى حِمَارِكَ﴾** أي وانظر أيضاً إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتحللت وتفتَّتت، وهذا يدلّ على مَرْ السنين على حين بقي الطعام والشراب على حالهما لم يلحقهما تغيير ولا فساد **﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾** ولنجعل من قصتك هذه دلالةً على البعث بعد الموت يوم القيامة، ومعجزة ناطقة على قدرة الله سبحانه، ووجه كونها آية للناس إنّ الناس تناقلوها فيما بينهم، وإن أحفاد عُزير كانوا يذكرون أنه مات وانتهى أمره، ولمّا وجدوه حيًّا وأعلمهم بما كان له وما أصابه من موت ثم كيف أحياه ٱللَّهُ، أدرك الناس علامةً من علامات قُدرة الله على البعث.

وتابع الملك خطابه لِعُزَيْر مُلْفِتاً نظره إلى آيةٍ أُخرى من آيات الله في إحياء الموتى: **﴿وَانْظُرْ إلى العِظَامِ كَيفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحماً﴾** وأمّا العِظام التي أُمر بالنظر إليها فهي عظام الحمارِ، ومعنى نُنْشِزُها: نرفعها، أي انظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض من أماكنها من الأرض فَنَرُدُّها إلى مواضعها في الجسم، وهناك قراءة هي **﴿نُنْشِرُها﴾** بالراء بمعنى نبعثها إلى الحياة من جديد **﴿فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** فلمّا تبيّن له بالأدلة الحسيّة الماديّة هذه المعجزات، ورأى ما رأى من عظمة الإبداع الإلهي، أيقن وأقرّ بقدرة الله سبحانه، وأنه القادر على فعل أي شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

شرح المفردات

فصُرهُنّ: أَمِلْهُنّ إليكَ وقطّعهن.

يأتينكَ سَعْياً: سريعاً.

عزيز: القويّ الغالب.

إحياءُ اللَّه للموتى

ثم تأتي القصة التالية وفيها يُبيّن القرآن قدرة ٱللَّه على إحياء الموتى، يسوقها القرآن لكل من يرتاب في صحة البعث يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إبْراهِيمُ رَبِّ أَرِني كَيفَ تُحْيي المَوْتَى﴾ أي واذكر يا محمد وقتَ أن خاطب إبراهيمُ ربَّه طالباً منه أن يريه كيفية إحيائه للموتى، والسؤال يدلّ على إيمان إبراهيم بإحياء ٱللَّه للموتى، فهو لا يشكّ في قدرة الله على البعث وإنما يسأل عن الكيفية في ذلك، كما أنه يريد أن ينتقل من مرتبة البُرهان العقلي إلى مرتبة المشاهدة، فإنّ الحسَّ يحمل الإنسان على الإذعان أكثر مما يحمله الدليل العقلي. ومعاذَ ٱللَّه أن يرتابَ إبراهيمُ في قُدرة ٱللَّه سبحانه، فهو رسول من عند ٱللَّه ومن أُولي العَزْمِ من الرسل. تأمّل كيف استهلّ إبراهيمُ دعاء ربه بكلمة **﴿رَبِّ﴾** فهو يعترف له بالربوبية الحقة، ويُقِرُّ بأنه خالقه ومربّيه والقائم على أمره.

أجاب اللَّهُ إبراهيمَ على سؤاله بقوله: ﴿**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن**﴾ أي أتقولُ ذلك وتطلبه، فهل أنت لم تؤمن؟ فإذا كنت مُؤمناً، فلماذا تسأل هذا السؤال؟ ﴿**قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ أي قال إبراهيمُ: بل كنتُ في حيرة في كيفيّة الإعادة لا في أصل القضية، فطلبت ذلك منك يا رب ليطمئنّ قلبي، فالاستدلال بالعيان بعد الاستدلال بالبرهان أثبت في النفس وأرسخ في الإقناع.

أجاب اللَّهُ إبراهيمَ على طلبه بكيفية إحيائه للموتى وطلب منه: ﴿**قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾ فَصُرْهُنَّ: أي اضْمُمْهُنّ إليكَ، أو بمعنى: قطّعهن، أو أَمِلْهُنّ إليك. أمر ٱللَّهُ إبراهيمَ بأن يأخذ أربعة من الطير، كل طيرٍ يُخالف الآخر في نوعه، وأن يضمّهن إليه ليتأمل كل واحد منها فيعرف ميزات كل طائر عن غيره، ثم يذبحهن ويقطعهن، ثم أمره أيضاً ﴿**ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً**﴾ أي ثم ضَعْ يا إبراهيم على كل مرتفَعٍ من الأرض جزءاً من تلك الأشلاء المتقطعة من تلك الطُّيور الأربعة ﴿**ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً**﴾ ثم قُلْ لهنَّ: تعالينَ بإذنِ اللَّهِ، فتعود إليك مسرعات تطير إليكَ وهُنَّ الطيور الأربعة عينها التي عرفْتَها قبل ذبحها وتفريق أجزائها على الجبال المحيطة بك ﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ واعلم أن ٱللَّه لا يعجز عن شيء، وهو ذُو حكمة بالغة في كل أمر.

وفي هذه القصة الموجزة درس للناس ليؤمنوا بالبعث بعد الموت، فكما أن أجسام تلك الطيور بعد ذبحها وتقطيعها وتفرُّق أجزائها على الجبال أعاد ٱللَّه الحياة لها، فكذلك جسد الإنسان بعد موته وتحلّله وتفرّق أجزائه في التراب أو اليمّ، يجمع ٱللَّه أجزاءه يوم القيامة، ويعيد إليه الحياة للحساب ولمجازاته على أعماله من ثوابٍ أو عقاب.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن
صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ
وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

شرح المفردات

سبيل الله: هو الطريق الموصل إلى مرضاته كالجهاد للدفاع عن دينه وأعمال البِرّ المتنوعة.

سنابل: جمع سنبلة وهي ما فوق الساق وفيها الحب كالقمح وما شابه ذلك.

يُضاعِف لمن يشاء: يضاعف الثواب لمن يشاء من أهل الإحسان.

مَـنًّا: المَنُّ أن يذكر المنفق فضله على من أحسن إليه ويفتخر عليه.

أذىً: الأذى هنا، أن يتطاول المنفق على آخذ الصدقة بكلام يؤذيه أو بعمل ما.

رئاء الناس: مراءاةً لهم.

صَفْوان: الحجر الأَمْلَس.

وابِلٌ: مطر شديد.

صَلْداً: الحجر الصلب الأَمْلَس.

ثواب الإنفاق في سبيل اللّٰه

وبعد أن ذكر الله القصص السابقة وما فيها من البراهين الدالة على صحة البعث يوم القيامة رغَّب ٱللّٰه في الآيات التالية بالإنفاق في سبيل ٱللّٰه وبيّن ثواب ذلك بقوله تعالى: **﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾** والإنفاق في سبيل ٱللّٰه هو الإنفاق بما يرضيه كأعمال البر المتنوعة والجهاد في سبيله. فٱللّٰه سبحانه أراد أن يُصَوِّر لعباده ثواب الذين ينفقون أموالهم في سبيله بأن مَثَلَهُم كَمَثَلِ زارعٍ زَرَعَ في الأرض حبة قمح أو شعير أو غير ذلك، فأنبتت هذه الحبة نبتة تحمل سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، فشبَّه ٱللّٰه المتصدّق بالزّارع، وشَبَّه الصدقة بالبذْر الذي يُعطي الخير الكثير، أي إن ٱللّٰه يُعطي بكل صدقة سبعمائة حسنة.

وعلى هذا فإذا عَلِمَ الإنسان أنه إذا بذر حبّة في الأرض أخرجت له سبعمائة حبة كان ذلك داعياً إلى الحرص على زرع الحبوب لما فيه من الربح الوفير له، فكذلك إذا عَلِمَ المنفق مَالَهُ في سبيل ٱللّٰه أنه كزارع حبة القمح سيأخذ أجره سبعمائة ضعف، كان ذلك حافزاً له على فعل الخير، ودافعاً له إلى إنفاق ماله في سبيل ٱللّٰه.

وقد رُوِيَ أن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي ٱللّٰه عنهما، وذلك أن رسول ٱللّٰه لمّا حَثَّ الناسَ على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك جاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: أقرضتها لربي، فقال رسول الله: «باركَ ٱللّٰهُ لكَ فيما أَمْسَكْتَ[1] وفيما أَعْطَيْتَ» وقال عثمان: يا رسول ٱللّٰه عليّ جهاز من لا جهاز له (أي من لا سلاح ولا ركوب له) فنزلت الآية فيهما.

---

(١) أمْسَكْتَ: أبْقَيْتَ عندكَ.

وفي الحديث الشريف أن رسول ٱللَّه ﷺ قال: «مَنْ أَنْفَقَ نفقةً في سبيل ٱللَّه كُتِبَ له سبعمائة ضِعْف»[١].

كما رُوِيَ عنه ﷺ قوله: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحَسَنَةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»[٢].

﴿وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ﴾ وٱللَّه سبحانه يضاعف ثواب الحسنات لمن يشاء من عباده، والضِّعْفُ هو الزيادة على أصل الشيء فيجعله مِثْلَيْن أو أكثر ﴿وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي كثير الجود وجزيل الثواب، عليمٌ بمن يُنفقون أموالهم في مرضاته وطاعته.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي الذين ينفقون أموالهم في سبيل ٱللَّه من جهاد وفي وجوه الخير ابتغاء مرضاته، ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منًّا على من أنفقوا عليهم ولا يُتبعونه أذى لهم بالقول أو بالفعل، هؤلاء لهم ثواب عملهم على الأموال التي أنفقوها في سبيل ٱللَّه ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا خوف عليهم في الدنيا والآخرة من أن يلحقهم مكروه، أما في الدنيا فإنَّ الإنفاق في سبيل ٱللَّه يدفع خطر الأعداء ويقضي على أسباب الفتن الداخلية التي يولّدها الفقر، وأما في الآخرة فلا خوفٌ عليهم من أهوال يوم القيامة ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا هم يحزنون عند فراقهم الدنيا على ما خلَّفوا وراءهم لأن ٱللَّه أعطاهم في الآخرة من أنواع النعيم ما تقرّ به أعينهم.

ولنرجع إلى بيان معنى المنِّ والأَذَى، فالمنُّ: هو أن يذكر المُنفق فضله على المحتاج إلى عطائه كأن يقول له: لقد أحسنتُ إليكَ، وأنقذتك من الضيق

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه مسلم.

الذي أنت فيه وتفضّلت عليكَ بمالي، أو التحدّث أمام الناس كقوله: لقد أعطيت فلاناً مالاً لَمّا عرفتُ أنه بحاجة إليه، فيبلغ الفقير خبر ذلك فيؤذيه.

والأذى: هو أن يتطاول على الفقير كأَنْ يقول له: كم تسألني العطاء وقد بُلِيتُ بك وأراحني ٱللَّه منك، وفي الترفع عن إيذاء الفقير يقول أحد الصالحين: «إذا أعطيتَ فقيراً مالاً، ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تُسَلِّم عليه».

﴿قَوْلٌ مَّعْروفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذًى﴾ القول المعروف: هو الرَّدُّ الجميل لطالب العطاء بأن يقول له كلاماً جميلاً يُطَيِّبُ خاطره ويحفظ له كرامته، كأن يعتذر إليه بعدم استطاعته، أو يدعو له بالتيسير والفرج. والمغفرة: هي العفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول، أو عفو من جهة السائل لأنه إذا ردّه ردًّا جميلاً عذره. فالقول الجميل والمغفرة للسائل خير عند ٱللَّه من صدقةٍ يتصدّق عليه بها ويُؤْذيه بسببها.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «الكلمةُ الطَّيِّبَةُ صدقةٌ، وإنَّ من المعروف أنْ تلقى أخاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ»[1] فعليك أيها المسلم أن تَلْقَى صاحب الحاجة بوجهٍ بشوشٍ لتكون مشكوراً إنْ أعطيتَ ومعذوراً إنْ منعتَ **﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾** أي عما يتصدّق به الناس **﴿حَلِيمٌ﴾** لا يُعجّل بالعقوبة لمن يمنّون على الفقراء ويؤذونهم بالقول، بل يمهلهم لعلَّهم يتوبون.

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ والأَذَى﴾ خاطب ٱللَّه المؤمنين بأن لا يضيّعوا ثواب صدقاتهم على المحتاجين بالمنّ عليهم بإظهار فضلهم عليهم أو إيذائهم بالقول أو الفعل فيكون مثلهم **﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾** أي كالمُرائي الذي ينفق أمواله لِيُرائي بها الناس فتبطل بذلك صدقته، والمُرائي يُظهِرُ للناس أنه يريد بصدقته وجه الله، والواقع هو أنه يُريدُ ثَناءَ الناسِ

---

(١) أخرجه مسلم.

عليه ليُقال إنه كريم ورجل صالح ﴿وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهذا المرائي لا يصدّق بوحدانية ٱللَّه وربوبيته لهذا الكون، ولا يصدّق بأنه مبعوث بعد الموت ليجازى على عمله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الصَّفْوانُ: هو الحجر الكبير الأَملس. أي مَثَلُ ذلك المُرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الرائي له أرضاً طيبة خصبة صالحة للزرع ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ فأصاب هذا الحجر مطرٌ شديدٌ فأزال ما عليه من تراب ﴿فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ أي تركه أجْرد نقيًّا من التراب الذي كان عليه.

لقد شبّه ٱللَّه أعمال هؤلاء المرائين الذين لا يبتغون وجه ٱللَّه في إنفاقهم ولا يبتغون رضاه كحال حجر أملس عليه قليل من التراب يوهم الناظر أنه خصب منتج للزرع ثم ينزل عليه المطر الشديد فيزيل ما عليه من التراب ويكشف ما حوله، فإذا هو لا ينبت ولا يصلح للزرع، فثوب الرياء يشفُّ دائماً عما تحته، لأنَّ المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة، فإذا كان يوم القيامة اضمحلت أعماله وذهبت لأنها لم تكن للَّه، كما أذهب المطر الشديد ما على هذا الصفوان من التراب.

وفي الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم ذِكْرٌ للأصناف الثلاثة ـ وهم الغازي والعالِم والجواد ـ التي يُقْضىٰ فيها أول الناس يوم القيامة، يقول النبي ﷺ: «وَرَجُلٌ وسَّعَ ٱللَّه عليه وأعطاه من أصنافِ المالِ كُلِّه، فَأُتِـيَ به. فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ مِنْ سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلاّ أنْفَقْتُ فيها لك. قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ هُوَ جَوَّادٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثم أُلْقِيَ في النارِ».

﴿لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمّا كَسَبُوا﴾ أي هؤلاء الذين يراءون الناس بما تصدّقوا به، عليهم أن يتذكروا أن هذا المال الذي يتصدّقون به لم يكسبوه بمقدرتهم لأن القدرة في عمل شيء أو كسبه هي لله وحده، فما كان لهم أن يُراءوا

ويمنّوا ويؤذوا الفقراء، فالمال مال ٱللَّه وهو الذي مكّنهم منه بقدرته وفضله.

وقد يكون المعنى: إن هؤلاء المرائين لا يقدرون يوم القيامة على نيل ثواب شيء مما فعلوه في الدنيا، لأنهم لم يطلبوا بعملهم الأجر والثواب من ٱللَّه. ﴿**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ وٱللَّه سبحانه لا يوفق الكافرين إلى الخير والرشاد في أفعالهم، وفي ذلك إشارة إلى أن المنّ والأذى في الإنفاق والرياء من خصال الكفار، فيجب أن يُقْلِعَ عنها أهل الإيمان فهي صفات لا تليق بهم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

شرح المفردات

ابتغاء مرضاة الله: طَلَباً لرضاء الله.

تثبيتاً من أنفسهم: تصديقاً ويقيناً بثواب الإنفاق في سبيل الله.

جنة بِرَبْوَةٍ: بستان كثير الشجر بمرتفع من الأرض.

وابِلٌ: مطر شديد.

فَطَلٌّ: المطر الخفيف، وهو الرَّذاذ.

إعْصار: ريح عاصفة.

ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تُنفقونَ: ولا تقصدوا بما تنفقون الرديء والحرام.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تتساهلوا وتتسامحوا في أَخْذِهِ، وتغضُّوا بصركم عنه.

حميد: من أسماء ٱللَّه تعالى، أي المحمود على نِعَمِهِ.

الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير

ويتابع القرآن الكلام عن الذين ينفقون أموالهم في سبيل ٱللَّه ومدى ثوابهم بإعطاء صورة بلاغية رائعة تحثُّ الناس على الاقتداء بهم مقابل صورة من ينفقون أموالهم رئاء الناس فيقول ٱللَّه سبحانه:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يشبّه ٱللَّه تعالى حال الذين ينفقون أموالهم من أجل الحصول على رضا ٱللَّه **﴿وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾** أي يقيناً من أنفسهم وتصديقاً بوعد ٱللَّه بما أَعَدَّ لهم من الأجر، أو بمعنى: يتثبتون من الموضع الذي يضعون فيه صدقاتهم في طاعة الله، هؤلاء مَثَلُهُم **﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَها وَابِلٌ﴾** الجَنَّةُ: هي البستان. والربوة: المكان المرتفع من الأرض. أي مَثَلُ هؤلاء المنفقين أموالهم في رضا ٱللَّه كمثل بُسْتانٍ يقع على مرتفع من الأرض وقد أصابه مطر شديد، فزاد ذلك في خصوبته وضاعف من ثمره **﴿فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ﴾** أي فأعطى هذا البستان ثمراً بِمِثْلَيْ ثمر غيره **﴿فَإِن لَّم يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾** الطَّلُّ: هو المطر الخفيف، أي إن هذا البُستان ينتج من الثمر على كل حال سواء أكان المطر غزيراً أم قليلاً، فالقليل والكثير من المطر له نفع عظيم لهذا البستان.

لقد شَبَّهَ اللَّهُ هؤلاء المنفقين أموالهم عن إيمانٍ صادقٍ قاصدين بإنفاقهم وَجْهَ الله، شبههم بإنفاقهم الكثير والقليل من أموالهم في مرضاة ٱللَّه ببستان بربوة من الأرض خصبة تنتج ضعفي غيرها من الأراضي من الثمار في حال غزارة المطر وفي حال قلّته. فصدقة هؤلاء المنفقين في نماء لا ينقطع، يعود نفعها على المجتمع ويعود نفعها عليهم لِمَا يشعرون به من طمأنينة ولما سينالونه من الثواب الجزيل ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ أي إن ٱللَّه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وفي هذا ترغيب لهم بالإخلاص لله في أعمالهم مع الوعيد ضمناً والتحذير من الرياء ونحوه.

ثم يُعطي ٱللَّه مثلاً آخر للذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمنّ والأذى والرياء فيقول: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنابٍ**﴾ الوُدُّ: المحبة الكاملة، والهمزة في «أَيَوَدُّ» لإنكار الوقوع بمعنى النفي، أي لا يحب أحدكم أن يكون حاله كحال صاحب البستان الذي يحوي أشجار النخيل والأعناب ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمراتِ**﴾ والمياه تجري من خلال أشجار البستان الذي فيه جميع أنواع الثمار ﴿**وَأَصابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ**﴾ وقد تقدمت السنّ بصاحب هذا البستان حتى أصبح شيخاً هرماً عاجزاً عن الكسب، وبالإضافة إلى ذلك فإن له ذُرّيةً ضعافاً يحتاجون إلى مَنْ يُعيلهم ﴿**فَأَصَابَها إعْصَارٌ**[١] **فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾ وفجأة أصاب هذا البستان ريح عاصفة شديدة معها نار، فأحرقت الثِّمار والأشجار ﴿**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ أي كما بيّن ٱللَّه لكم في آياته السابقة آداب الإنفاق

(١) الإعصارُ: هو اضطراب جوّي يتميز برياح شديدة يصحبه رَعْدٌ وبرق وأمطار، وقد يكون فيه نار إذا كان مقترناً بتفريغ شحنات كهربائية من السُّحُبِ.

وأحكامه، يبيّن ٱللَّه لكم الآيات في سوى ذلك، فيعرّفكم أحكامها وحلالها وحرامها، لتتفكروا وتتعظوا وتعملوا بما يرضي ربكم.

إن حالَ من يفعل الخير ثم يُبطله بالمَنِّ والأَذَى كحال الذي يملك هذا البستان الذي فيه من كل الثمر، وقد جعله موضع أَمَلِهِ في حياته وغذاءً لأولاده بعد وفاته، وهو في سنّ الكبر والشيخوخة الفانية، وفجأة يُصيب بستانه هذا ريح عاصفة فيها نار فتحرقه وتقضي على آماله فيه مع شدة حاجته إليه، فكذلك من يبطل صدقاته بالمنّ والأَذى والرّياء تكون حاله كحالة الريح العاصفة التي تقضي على حسناته في وقت هو في أشدّ الحاجة إليها يوم القيامة عند ملاقاة ربه ومجازاته على عمله.

وبعد أن رَغَّب القرآن في الإنفاق في سبيل ٱللَّه وما فيه من ثواب عظيم، دعا المؤمنين أن يتصدَّقوا من الطَّيّب لا مِنَ الخبيث، قال تعالى:

﴿ياأيُها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ خاطب ٱللَّه المؤمنين ودعاهم بأن يتصدّقوا من طيّبات أموالهم التي اكتسبوها بعملهم، سواء أكان صناعة أم تجارة، وسواء أكان عَمَلاً آلِيًّا أم فِكْرِيًّا، وأن يكون ما اكتسبوه من المال من طرق الحلال **﴿وَمِمّا أَخْرَجْنا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾** وأن ينفقوا مما أخرج ٱللَّه لهم من الأرض، مِنَ الحبوب والثمار والزروع وغيرها **﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾** والتَّيَمُّمُ: القَصْدُ، والمعنى أن لا يقصدوا الرديء من أموالهم وطعامهم فيتصدّقوا به، ولكن لتكن صدقاتهم من الطيّب الجيّد ومن المال الحلال.

وفي أسباب نزول الآية عن البراء بن عازب قال: كانوا يجيئون في الصدقة بِأَرْدَإِ تمرهم وَأَرْدَإِ طعامهم، فنزلت الآية **﴿ياأَيُها الَّذِين آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ**

مَا كَسَبْتُمْ. .﴾ الآية. وعن عليٍّ قوله: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر فَيَصْرِمُهُ[١]، فيعزل الجيّد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء، فقال ٱللَّه تعالى **﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾** والصدقة هنا تعمّ صدقة التطوع وصدقة الفرض، كما ذهب إلى ذلك الكثير من العلماء.

ثم يُبيّن القرآن بأن من يتصدّق من الرديء الذي لا يقبله لنفسه، فكيف يتصدّق به على غيره؟

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ والحالُ أنكم لا تأخذون الرديء لأنفسكم إلاّ بأن تتساهلوا وتتسامحوا في أَخْذِهِ، كما يتساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه، فكيف ترضون لغيركم ما لا ترضون لأنفسكم؟ **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** واعلموا أيها الناس أن ٱللَّه غنيٌّ عن صدقاتكم، وإنما أَمَركم بها رحمة منه لفقرائكم وضعفائكم، وليجزل لكم الثواب عليها في الآخرة، وهو سبحانه محمود عند خلقه بما أوْلاهم من نِعَمِهِ عليهم.

---

(١) فيصرمه: يقطع ثمر النخل ويُجذّه.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

شرح المفردات

الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفقْرَ: أي يُخوّفكم من الفقر إذا أنفقتم من أموالكم في وجوه الخير.

ويأمركم بالفحشاء: ويحضُّكم على البُخْلِ لتمتنعوا عن الصدقات.

وَفَضْلاً: زيادة في الرّزق في الدنيا وثواباً في الآخرة.

وما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولو الألْباب: وما يتَّعظ إلاّ أصحاب العقول السليمة.

إن تُبدوا الصدقات: إن تُظهروها بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم.

فنِعِمّا هي: أي فحبَّذا هذه الصدقات التي تظهرونها.

وإنْ تُخفوها: وإن تعطوا الصدقات خِفْيَةً.

فضيلة الإنْفاق وذمُّ البُخْلِ

بعد أن حَثَّ القرآن على الإنْفاق في وجوه الخير حذَّر من وساوس الشيطان التي تُغري المؤمن بالبُخْلِ، قال تعالى:

﴿الشَّيطَانُ يَعِدُكُمُ الفقْرَ﴾ أي إن الشيطان يخوّفكم من الفقر إذا أنفقتم أموالكم في سبيل الله، ويحذّركم من الصدقة على الفقراء بما يوسوس بذلك في

أنفسكم ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ ويُغْريكم باقتراف الفحشاء وهي المعاصي كالزنى والسرقة وشرب الخمر، كما تُطْلَقُ الفحشاء في لغة العرب على البخيل الشديد البخل، وبهذا التفسير اللغوي قد يكون معنى ﴿يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ يأمركم بالبُخْلِ.

فالشيطان يوسوس في نفس الغنيّ بأن الإنفاق في وجوه الخير يُنقص من مالِهِ ويُؤَدّي به إلى الفقر، فإذا سيطر هذا الشعور على نفسه وجّهه إلى طريق البُخْلِ الشديد، فكان بهذا البخل أَشْقى الناس حيث يقتّر على نفسه وعائلته ويحرم نفسه من طيبات الحياة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى يشتهر بخله بين الناس فيكون بذلك مكروهاً منبوذاً من المجتمع لأنه مَنَعَ ماله عن المحرومين منه.

ولقد حذَّرَ رسول ٱللَّه من وساوس الشيطان بقوله: «إن للشيطان لَمَّةً[١] بابن آدم، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأمَّا لَمَّةُ الشيطانِ فإيعاد بالشَّرِّ وتكذيبٌ بالحَقِّ، وأما لَمَّةُ المَلَكَ فإيعادٌ بالخَيْرِ وتصديقٌ بالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذلك فَلْيَعْلَم أنه مِنَ الله، ومنْ وجد الأُخرى فَلْيَتَعَوَّذ بٱللَّه من الشيطان الرجيم»[٢] ثم قرأ قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

﴿واللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ وإذا كان الشيطان يُهَدِّدُ المُنْفِقين بالفقر عند العطاء فٱللَّه يَعِدُ المُنفقين بأمرين: أوّلهما، المغفرة لذنوبهم. وثانيهما: الفضل وهو الزيادة في الخير في الدنيا والآخرة، وهو أنْ يخلف عليهم أفضل مِمّا أنفقوا، فإن الصدقات تزيد البركة في الرزق، كما أن ٱللَّه ينعم عليهم في

(١) لَمَّةٌ: خاطِرَةٌ.
(٢) أخرجه الترمذي.

الآخرة بما هو أفضل وأكثر. وقد جاء في القرآن ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

فهٰهنا وَعْدَان: وَعْدٌ من الشيطان، وَوَعْدٌ من الرحمن، فأي الوعدين تُصدِّقُ أيها الإنسان؟ هل تُصدّق وعد الشيطان بالفقر فَتُمْسِكُ عن الإنفاق، أم هل تُصَدِّق وعد الرحمن بأنه يعطيك أفضل مما أنفقت ويخلف عليك أضعافاً مضاعفة؟ لا أظن إلاّ أنك ستصدّق وعد ربّك، فتنفق في وجوه الخير وتنال سبعمائة ضعف وأكثر، وتُضيف الآية ﴿وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه واسع العطاء، وواسع المغفرة، عليم بما تتصدّقون به لِيجُازيكم عليه في الآخرة.

ثم يَذْكُرُ ٱللَّه فضل الحكمة وآثارها الحميدة على الإنسان بقوله:

﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ أي يُعطي ٱللَّه الحكمة لمن يشاء من عباده ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً﴾ أي ومن يعطه ٱللَّه الحكمة فقد أُعطي خيراً كثيراً ونفعاً عظيماً.

وقد يسأل سائل: ما موضع هذه الآية التي فيها الثناء على من أُعْطِيَ الحكمة ضمن الآيات الداعية إلى الإنفاق؟ والجواب: إنَّ مِنَ الناس من يحسب البخل والحرص على المال من الحكمة، فأشار ٱللَّه إلى أن الإنفاق في وجوه الخير هو الحكمة الحقيقية لأن فيه رقيّ الأُمَّة ونهضتها ودفع صُنُوف الأَذى عنها.

ونعود إلى الكلام عن الحكمة ومعانيها وفوائدها، ومما قيل فيها:

ـ الحكمةُ: إصابة الحق بالعلم والعقل.

ـ الحكمةُ: هي القرآن والفِقْهُ به، فكتاب ٱللَّه حكمة وسُنَّةُ نبيّه محمد ﷺ حكمة.

ـ الحكمةُ: المعرفة في الدين والفِقْه فيه والاتّباع له.

ـ الحِكمةُ: إصابة الصَّواب في القول والفعل.

ـ الحكمةُ: هي الإقْدامُ على الأفعال الحسنة الصائبة وفعل الخيرات.

هذا بعض ما ذكره المفسرون في تعريف الحكمة التي تُنير قلب الإنسان وترشده إلى ما فيه خيره.

ويختم ٱللَّه الكلام عن الحكمة بقوله: **﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الأَلْبابِ﴾** يَذَّكَّرُ: أصلها «يتذكّر»، والألباب: جمع لُبّ وهو العقل، والمعنى: وما يتذكر ويعتبر بأوامر ٱللَّه إلاّ أصحاب العقول السليمة الراجحة التي تخلصت من شوائب الهوى.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ النَّذْرُ: هو ما يُوجبه الإنسانُ على نفسه في طاعةٍ من طاعات ٱللَّه من غير أن يلزمه ٱللَّه به إذا حصل له ما يرغب فيه، كأن يقول: «نَذَرْتُ للَّه كذا من المال للمساكين إذا شفى ٱللَّه ولدي من المرض الذي هو فيه»، أو يقول مثلاً: «ولِلَّهِ عَلَيَّ حج بيت ٱللَّه الحرام في العام المقبل» وهكذا في كل طاعة من الطاعات. وفي قوله سبحانه: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾** وعد ووعيد، وعد بثواب ٱللَّه لمن حقق ما نذر به، ووعيد لمن لا يفي بنذره **﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** والظالمون هم الذين يُبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى والرياء أو الذين لم يوفوا بنذورهم، كما يندرج فيهم كل من عصى ٱللَّه وارتكب ما حَرَّمَهُ، وهؤلاء ليس لهم من ينصرهم من دون ٱللَّه يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا[1] هِيَ﴾ أي إنْ تُظهروا صدقاتكم وتعلنوها بين

---

(١) فَنِعِمَّا: هي نِعْمَ المدغمة في ما، والمعنى: نعم شيئاً يستحق المدح والثناء.

الناس فَنِعْمَ شيئاً يستحق المدحَ والثناء تلك الصدقات ﴿وإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوها الفُقَرآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وإنْ تخفوا الصدقات وتعطوها الفقراء سِرًّا فهو خير لكم لأن في إخفاء الصدقة سدًّا لكل ذرائع الرياء. كما أن صدقة السرّ خير للفقراء لأنها تحفظ كرامتهم ولا تفضح فقرهم، فلا يجتمع عليهم أمران: ذُلّ فقرهم، وإشهار بؤسهم بين الناس، وفي قوله سبحانه: ﴿وَتُؤْتُوها الفُقَراءَ﴾ يُفيد أن صدقة التطوع تُسْتَحَب على كل فقير وإن كان من غير المسلمين، وقد جاء في تفسير الطبري أنّ الآية ﴿إنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ نزلت في الصدقة على اليهود والنصارى.

وعموم نصوص القرآن والأحاديث الشريفة التي رُويت عن النبي محمد ﷺ تُذكّر بأن ٱللَّه كتب الرحمة والإحسان على كل شيء، ومما روي عن النبي ﷺ قوله: «لا يرحم ٱللَّه من لا يرحم الناس»(١)، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٢).

ومن ثواب الصدقات: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئاتِكُم﴾ أي ويمحو ٱللَّه عنكم بصدقاتكم بعض الذنوب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى على ٱللَّه نيّاتكم عند إبدائكم الصدقات أو عند إخفائها، فهو سبحانه الخبير العالم بدقائق الأمور.

أما مسألة إعلان الصدقات أو إخفائها فإن فيها أقوالاً متعددة، فقال كثير من العلماء: إن صدقة الفريضة كصدقة الزكاة الأفضل إعلانها، لأنها لو أُخفيت لَتوهّم الناس أنّ من وجبت عليه لا يُؤَدّيها، أما صدقة التطوع فالأفضل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي.

أن تكون في السرّ من حيث هي ستر لحالة الفقير، ومجانبة للرياء. وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه..» وذكر من ضمنهم: «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينُهُ»[(١)].

وقد يكون في إعلان صدقة التطوع خيرٌ في بعض الحالات لما يتحقق بها من أُسْوَةٍ حَسَنةٍ كالإنفاق على الجمعيات والمستشفيات والمستوصفات الخيرية وغير ذلك، فعندئذٍ يكون الإعلان عن الصدقات أفضل لأنها تشجع المحسنين على بذل صدقاتهم في هذا السبيل.

وعلى هذا فإنَّ صَدَقَة السرّ وصدقة العلن لكل منهما حسنات وعلى المتصدق أن يتفحص الموقع المناسب منهما فيعمله.

(١) متفق عليه.

﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ
وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ
ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾
لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ
ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا
تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

شرح المفردات

وما تُنفقوا من خَيْرٍ فلأنفسكم: وما تُنْفِقُوا من مالٍ في وجوه الخير فثوابه عائد لكم.

يُوَفَّ إليكم: يَصِلُ إليكم جزاؤه غير منقوص.

أُحْصِروا في سبيل الله: مُنعوا من كسب عيشهم لاشتغالهم بالجهاد في سبيل الله.

لا يستطيعون ضَرْباً في الأرض: أي لا يستطيعون سَيْراً في البلاد وتقلُّباً فيها ابتغاء المكاسب لاشتغالهم بالجهاد والتعلم.

من التعفُّف: من أجل تعففهم وامتناعهم عن سؤال الناس.

بسيماهم: بعلامتهم التي تدل على فقرهم وتواضعهم وخشوعهم.

لا يَسْأَلُونَ الناسَ إلْحافاً: الإلْحافُ: الإلْحاح في السؤال، أي لا يسألون الناس أصلاً، تعفُّفاً.

الصدقات للفقراء من جميع الملل

ويتابع القرآن فيبين أن الصدقات تكون لكل الفقراء سواء أكانوا مسلمين أم

غير مسلمين، لأنَّ الإسلام يحترم النفس الإنسانية ويدعو إلى الإخاء الإنسانيّ العام بين البَشَر، قال تعالى: **﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشآءُ﴾**.

وفي بيان أسباب نزول هذا الشطر من الآية عدَّة روايات منها:

ما رُوي عن سعيد بن جبير: إن المسلمين كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذِّمَّة، فلما كثُر فقراء المسلمين قال رسول ٱللَّه ﷺ: «لا تتصدّقوا إلاّ على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة الصدقة على مَنْ ليس مِنْ أهل دِين الإسلام[١].

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قُرَيْظَة والنَّضِير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يُسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب ذلك.

وهذه الصدقات التي تُعْطى لغير المسلمين هي من صدقات التطوّع، أما الزكاة المفروضة على المسلمين فلا تعطى إلاّ للمسلمين.

هذا ما ورد في أسباب نزول قوله تعالى: **﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾** والخطاب للرسول محمد ﷺ والمراد هو وأُمَّته، أي ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك، وليس عليك أن تمنع عنهم الصدقات لحملهم على الإسلام، ولكن ٱللَّه يهدي من يشاء من خَلْقِهِ إلى الإسلام، فيوفِّقهم له فلا تمنعهم من الصدقة.

﴿وَمَا[٢] تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾ والخير هنا هو المال، أي وما تنفقونه ـ أيها المسلمون ـ على الفقراء من مال فإنه سيعود عليكم بالثواب الجزيل في

---

(١) نقلاً عن تفسيري القرطبي والمحرر الوجيز لابن عطية.

(٢) ما: في الآية هنا اسم شرط جازم يجزم فعلَيْن، لِذا كان الفعل (تنفقوا) مجزوماً بحذف النون.

الآخرة كما أنه سيعود نفعه عليكم في الدنيا، لأن الصدقات تجلب المودة وتؤاخي بين الأغنياء والفقراء وترفع البؤس عن الفقراء مما يؤدي إلى خير المجتمع، وإذا حُرِمَ الفقراء حقهم من العيش الكريم أضْمروا الحِقْدَ للأغنياء وتكتلوا ضِدّهم، وأكثر الثورات والانقلابات في العالم صدرت من الطبقات المحرومة ضد الطبقة الرأسمالية.

﴿**وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ**﴾ ما: حرف نفي، أي لا تجعلوا إنفاقكم المال على الفقراء إلاّ قاصدين وجه ٱللَّه الكريم طَلَباً لثوابه ورضاه، لا رياء ولا لغرض دنيوي ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾ أي وما تُنفقوا من مالٍ في سُبُلِ الخير تُعطوا جزاءه في الآخرة جزاءً وافياً ﴿**وَأَنْتُم لا تُظْلَمُونَ**﴾ أي وأنتم لا تُنقَصُونَ شيئاً من الثّواب الذي وعدكم ٱللَّه به.

﴿**لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الإحْصارُ: الحَبْسُ والمَنْعُ، وسبيل ٱللَّه هو الجهاد في عُرْفِ القرآن، والمعنى: أنفقوا على فقراء المهاجرين الذين كانوا بسبب الجهاد في سبيل ٱللَّه غير قادرين على التكسب للمعيشة.

ولكن من هؤلاء الذين أُحْصِروا في سبيل ٱللَّه؟ قيل: إنهم أربعمائة رجل من المهاجرين الفقراء، هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة ولم يكن لهم أهْلٌ، فأقامهم رسول ٱللَّه ﷺ في الصُّفَّة[1]، فكانوا يستغرقون أوقاتهم في التفقه في الدين والجهاد في سبيل الله، إذ كانوا يخرجون مع كل سريّة يُرسلها رسول ٱللَّه لمقاتلة أعدائه، وهؤلاء سُمّوا (أهْلَ الصُّفَّةِ).

---

(١) الصُّفَّةُ: اسم موضع بناه النبي ﷺ في المسجد النبوي بالمدينة المنورة ليأوي إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أمتعتهم وأموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة المنورة لإعلاء كلمة الله.

ثم ذكر القرآن من صفاتهم التي تستدعي الإنفاق عليهم:

﴿لا يَسْتَطِيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ﴾ والضَّرْبُ في الأرض: بمعنى الذهاب بها والسفر فيها طَلَباً للرزق، أي إنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد في سبيل الله. وسُمِّيَ السير في الأرض ضَرْباً لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل **﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾** أي يظنهم من يجهل حالهم بأنهم أغنياء لا يستحقون الصدقة من أجل تعففهم وامتناعهم عن سؤال الناس، والتعفف: ترك الشيء والإعراض عنه تنزهاً عن الطمع بما في أيدي الناس.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي تعرفهم بعلامتهم وآثارهم، وهي التَّخَشُّع والتواضع، أو ما يظهر عليهم من الفقر من رثاثة الثياب والضر وصفرة الوجوه **﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾** الإلْحافُ: هو الإلْحاحُ في السؤال حتى يحظى السائل بما يطلب، أي لا يسألون الناس مُلِحّين في السؤال كعادة الفقراء، والمراد أنهم لا يسألون الصدقة مطلقاً لا إلْحاحاً ولا بغير إلْحاح، فلو كانوا يسألون الصدقة ما حسب الجاهل حالهم بأنهم أغنياء من التعفف، وقد قال رسول ٱللَّه ﷺ في شأنهم: «ليس المسكين الذي تَرُدُّهُ التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفّف، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: **﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾**[1].

﴿وَمَا[2] تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وما تنفقوا من مالٍ في الصدقات سواء كان سِرًّا أم علانية، فإن ٱللَّه يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) ما: هنا شرطية تجزم فعلَين.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُم بِاللَّيلِ والنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أي الذين من شأنهم الإنفاق في وجوه الخير في جميع الأوقات سواء بالليل أو بالنهار، وفي جميع الأحوال سرًّا أو علانية **﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** لهم ثواب عملهم عند ربهم **﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** أي لا ينالهم خوف يوم الحساب لأنهم في مأمن من عذاب ٱللَّه بسبب ما قدّموا من عمل صالح، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا فقد عوّضهم ٱللَّه بأحسن من ذلك حيث أسكنهم ٱللَّه في نعيم جناته.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

شرح المفردات

الذين يأكلون الرِّبا: المراد بأكله أخذه والانتفاع به، والرِّبا لُغَةً: الزيادة، وشرعاً: كل قَرْضٍ جَرَّ منفعةً أو فائدة مقابل أجَلٍ ما.

يتخبّطه الشيطانُ: يصرعه، والخبط: الضرب بغير استواء خبط العشواء.

المَسُّ: الخَبَلُ والجنون.

فانتهى: كَفَّ عن الرّبا.

فله ما سَلَفَ: فله ما كان قد أكل من الرّبا قبل التحريم.

يمحقُ اللَّهُ الرِّبا: يُذهبه ويُهلكه ويهلك المال الذي دخل فيه.

يُربي الصدقات: يُنمي المال الذي أخرجت منه الصدقات ويزيده.

كَفَّار: صيغة مبالغة من كافر، أي مُبالغ في الكُفر لاستحلاله ما حرَّم الله.

أثيم: منهمك في ارتكابه الذنب وذلك باستمراره في أكل الرّبا.

تحريم الرِّبا تحريماً قاطعاً

وبعد أن بَيَّنَ ٱللَّهُ في الآيات السابقة ثواب الإنفاق في وجوه الخير، بيّن ٱللَّه في الآيات التالية قُبح الرِّبا وإثمه العظيم بقوله:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لاَ يَقُومُونَ إلاّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾ والرِّبا هو أن يزيد المدين في الدَّيْنِ نظير الزيادة في الأَجَلِ.

والرّبا في اللغة: الزّيادة مطلقاً، يُقالُ: رَبَا الشيء إذا زاد، وعبّر عن أخذ الربا بالأكل لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دالٌّ على الجشع وهو أشدّ الحِرْصِ.

وقد كان الربا شائعاً عند العرب وهو إقراض المال إلى أَجَلٍ بزيادةٍ على ما استقرض، فكانت الزيادة على الدَّيْن بَدَلاً من الأَجَلِ. ومعنى يتخبطه: يمسّه بالأذى، وقيل: هو الضرب على غير استواء، ويقال للذي يتصرف في أمرٍ ولا يهتدي فيه: يخبط خبط عشواء ـ والمَسُّ: الخَبَل[1] والجنون. فالشيطان يمسّ المرابي بالوسوسة التي يحدث عنها الصرع.

---

(١) الخَبَلُ: فسادٌ في العقل.

فٱللَّه سبحانه يصف المرابين في الدنيا بأنهم يكونون في تصرفاتهم وسائر أحوالهم في اضطراب وخلل، كالذي أفسد الشيطان عقله وأصابه بالجنون، فالرِّبا يُصيبُ آكله باضطرابات نفسية وعصبية نتيجة إرهاقه وتركيز ذهنه في المال الذي أقرضه بأنه قد لا يعود إليه، فالمُرابون أكثر الناس تعرّضاً للأزمات القلبية، ولقد قَرَّرَ الأطباء أن نسبة ضغط الدم وتصلب الشرايين والشلل والذبحة الصدريّة عند المُرابين هي أضعافها عند غيرهم.

ولقد ذهب الكثير من المفسّرين إلى أن ذلك الوصف للمرابي يحصل يوم القيامة بمعنى: أن آكل الرّبا يُبعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط على غير هدى، وهذه علامة له يُعرف بها يوم الجمع حيث يجمع ٱللَّه الناس للحساب، وهذه فضيحة له وعقوبة ما بعدها عقوبة، ولا مانع أن يكون هذا الوصف للمرابين حاصلاً في الدنيا والآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا﴾ أي هؤلاء المرابون أحَلُّوا الرِّبا لأنهم قالوا: إنما البيع يُماثل الربا، فكما أنّ ربح البيع حلال فكذلك ربح الرّبا حلال أيضاً. وإنما قالوا: **﴿إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا﴾** لإرادة المبالغة في جعل الرِّبا حلالاً وجعله أصلاً للتعامل، وكان مقتضى القياس الظاهري أن يقاس الربا على البيع فيقال: إنما الربا مثل البيع ولكنهم عكسوا ذلك، وهذا مما يظهر شدّة تعلقهم بالربا **﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾** ولكن واقع الأمر أنّ ٱللَّه أحلّ الأرباح في التجارة وفي الشراء والبيع وحرّم التعاطي بالرِّبا.

والفرق كبير بين الربا والبيع، فالبيع يستلزم العمل والمساهمة في تيسير السلع للمستهلكين وتبادل المنافع بين البائع والمشتري، بينما الرِّبا يؤدي إلى وجود طبقة مترفة لا تعمل شيئاً تستغل حاجات الناس الملحّة لزيادة ثروتها، ولا تستجيب لداعي الشفقة، ولا تنظر بعين الرحمة، مما يؤدي إلى انقطاع المعروف بين الناس.

﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِهِ فَٱنْتَهَى**﴾ الموعظة: هي النصح والتذكير بالعواقب بما يلين القلب من ثواب أو عقاب، أي فمن جاءه موعظة من ربه بتحريم الرِّبا فاهتدى بذلك وامتنع عن التعامل بالربا ﴿**فَلَهُ مَا سَلَفَ**﴾ فله ما تقدَّم من المال الربوي الذي أخذه لا يستردّ منه ولا مؤاخذة على ما أخذه، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله ﴿**وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ وأَمْرُ المُرابي قبل تحريم الرِّبا إلى عفو ٱللَّه ورحمته. أو بمعنى: إن شاء ثبّته ٱللَّه على الانتهاء من الرِّبا لصدق نيته، وإنْ شاء خذله عن ذلك. والعبارة تُشْعِرُ بأن ردّ المرابي ما أخذه من مال الربا إلى أصحابه قبل التحريم، من أفضل القُرُبات إلى الله، ومن أشد ما يُرضي الضمائر الحية التي ترغب في تطهير مالها من الحرام.

﴿**وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أي ومن عاد إلى الرِّبا مستحلاً له، فأُولئك أَصحاب النار المُلازمون لها في الآخرة ليعذَّبوا بها، وهم فيها خالدون لا يخرجون منها أبداً.

﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا**﴾ المحْق: النُّقصان وذهاب البركة، ومحْق ٱللَّه للربا بإذهاب بركته وإهلاكه، أو إهلاك المال الذي يدخل فيه ﴿**وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ**﴾ أي يُضاعف ثوابها ويُبارك فيها ويَزيد المال الذي أُخرجت منه الصدقة، وقد رُوِيَ عن رسول ٱللَّه محمد ﷺ قوله: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ[١] تمرة من كَسْبٍ طَيِّبٍ ـ ولا يقبل ٱللَّه إلاّ الطيّب ـ فإنَّ ٱللَّه يتقبّلها بيمينه ثـم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فُلُوَّه[٢] حتى يكون مثل الجبل»[٣].

---

(١) بعدل: مثل.

(٢) فُلُوَّهُ: مُهْرَهُ.

(٣) أخرجه البخاري.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هاتان الصفتان من صيغ المبالغة أي لا يحب ٱللَّه من كان عظيم الكفر شديد الإثم. فالذين يستحلّون الربا ينطبق عليهم هذا الوعيد لأنهم اتخذوا ما أسبغ ٱللَّه عليهم من نِعَمِ المال في سبيل التضييق على الناس والاستيلاء على أموالهم بدلاً من تفريج كربهم، وٱللَّه لا يرضى عن هؤلاء، ومن حُرِمَ رضا ٱللَّه فقد حُرِمَ خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وبعد أن بيّن القرآن أن المرابي الذي يستحلّ الرِّبا ويتعاطى به هو كفّار أثيم، بيَّن في الآية التالية ما يقابل ذلك بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ أي إن الذين صدّقوا بوجود ٱللَّه ووحدانيته وبرسوله محمد ﷺ وبما جاء به من عند ربهم من تحريم الرِّبا وأكله وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم اللَّهُ بها **﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ﴾** وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها، وفيها تقديس ٱللَّه والثناء عليه وعبادته وحده وفيها طلب العون والهدى منه، وأعطوا زكاة أموالهم للمحتاجين مما يُواسي كربتهم ويخفف بؤسهم، هؤلاء **﴿لَهُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** لهم الجزاء الحسن عند ربهم على ما قاموا به من الأعمال الصالحة **﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** أي ولا خوف عليهم من مكروه يصيبهم يوم القيامة ـ يوم الفَزَع الأكبر ـ ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم من الدنيا فقد عوضهم ٱللَّه بالنعيم المقيم في جنة الخلد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

شرح المفردات

وَذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا: واتركوا ما بقي لكم من الرِّبا عند الناس.

فَأْذَنُوا بحربٍ من اللّه ورسوله: فاعلموا أنكم سَتُحارَبُونَ من اللّه ورسوله.

فلكم رُؤُوسُ أموالِكُم: أي لكم أن تستردُّوا ما أقرضتم من المال بدون فائدة.

وإن كان ذو عُسْرَةٍ: وإن كان المدين ضيّق الحال لا يقدر على أداء الدَّيْن.

فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ: فإمهالٌ للمدين حتى يُصبح في يُسْرٍ وسعة من المال.

وأن تَصَدَّقُوا خير لكم: وإن تتصدقوا على المدينين فهو خير لكم بما ستجدون ثواب ذلك عند الله.

إنْذارُ المُرابين بحربٍ من اللّه ورسوله

ويُتابع القرآن الكلام عن الرِّبا مُحَذِّراً أشدّ التحذير من التعاطي به، يقول اللّه تعالى:

﴿ياأيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ استهلّ اللّه الآية بدعوة المؤمنين إلى أن يخشوه ويتّقوا عذابه وذلك بطاعته فيما أمر وبترك ما نهى عنه **﴿وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾** واتركوا ما بَقِيَ لكم عند النّاس من مال الربا، وحاذروا أن تنالوا منه

شيئاً ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ أي إنْ كنتم مؤمنين حقًّا لأن من مقتضيات الإيمان ترك الرّبا. فالآية خاصة بالذين كانوا يتعاملون بالرِّبا ولهم عقود ربوية قد قبضوا بعضها وبقي البعض الآخر لم يقبضوه، فإن لهم ما سلف من مال الربا قبل تحريمه وأمرهم إلى الله، أما ما بقي لهم من مال الربا بعد تحريمه فلا يحلّ لهم أخذه.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإن لم تتركوا ما بقي لكم من الربا بعد تحريمه، فاعلموا واستيقنوا بأنكم في حرب كبيرة مع ٱللَّه ورسوله، لا تدرون كنهها، ومن كان في حرب معهما فهو حتماً خاسر، وهذه الحرب هل هي مَجَازِيَّة بمعنى المبالغة من الوعيد بما سيصيب المُرابين في الدنيا من بلاء وخسران، وتسليط الأعداء عليهم وما سيصيبهم في الآخرة من عذاب أم أنها محاربة حقيقية بمنع المرابي من الربا قَسْراً كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين؟ فإذا أصرَّ المرابي على الربا أصدر الحاكم بحقه الإجراءات الصارمة، من حَبْسٍ وتَعْزِيرٍ وغير ذلك من العقوبات إلى أن تظهر توبته. وإن كان المُرابي ذا قوّة ونفوذ في قومه حاربه الحاكم كما يحارب الفئة الباغية مثل ما حارب الخليفة أبو بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه مانعي الزكاة.

وكما شدَّد القرآن على تحريم الرِّبا، شددت السُّنَّة النبوية على ذلك أيضاً.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقات ـ أي المُهلكات ـ وذكر فيها آكل الربا»[١].

وروى أبو داود عن ابن مسعود قوله: «لَعَنَ رَسولُ اللَّهِ آكِلَ الرِّبا وَمُوكِلَهُ[٢] وشَاهِدَهُ وكَاتِبَهُ».

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) المُوكِلُ: من يمنح الآخرين تَوْكيلاً ليعملوا باسمه.

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لاَ تَظْلِمونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ أي من كان يتعاطى الربا وأراد أن يتوبَ إلى ٱللَّه ويرجع إلى طاعته، فليعلم أنه ليس له أن يأخذ من المدين بعد تحريم الرِّبا إلاّ المال الذي أقرضه خالياً من الفائدة. وإن الاقتصار على استرجاع رأس المال فقط لا يكون فيه ظلم للدائن ولا ظلم للمستدين حيث إن الدَّيْن الخالي من الربا قد فرّج كُربته.

ولكن كيف يتوب المرء من المال الحرام؟ إن سبيل التوبة مما بيده من مال الربا يكون بردِّها إلى مَنْ أرْبَى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضراً، فإن أيس من وجوده فليتصدق بذلك المال، كما ذكر القرطبي في تفسيره.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي إن كان المدين في شدّة وضيق لا يقدر على سداد الدَّيْن **﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾** النَّظِرَةُ: التأخيرُ والإمْهالُ، أي فأمهلوا المدين المعْسر عند انقضاء أجَل دَيْنِهِ إلى حال يُسْرِهِ **﴿وأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾** أصل تصدقوا: «تَتَصَدَّقوا»، أي وأن تتصدقوا على المدين المعسر بإبرائه من الدَّيْنِ كُلِّهِ أو بعضه، فهو خير لكم من إمْهاله إلى وقت يُسره وأكثر ثواباً عند ٱللَّه **﴿إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾** أي ما في تصدّقكم على المعسرين من ثواب عند الله، وما يحصل في ذلك من مودة بينكم وبينهم.

وقد بيَّن رسول ٱللَّه فضيلة إبْراء المعسر من دَيْنِهِ وما ينشأ عنه من ثواب عظيم فقال ﷺ: «كان رَجُلٌ يُداين الناس فكان يقول لِفَتَاهُ: إذا أتيت مُعسراً فتجاوز عنه، لعلَّ ٱللَّهَ أن يتجاوز عنا، فلقي ٱللَّه[1] فتجاوز عنه»[2]، أي غفر ٱللَّه له.

---

(١) فلقي الله: أي توفاه اللَّهُ.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

ثم يختم ٱللَّه آيات الرِّبا بهذه الآية التي فيها الوعظ لجميع الناس:

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ دعا ٱللَّه الناس بأن يتقوا يوم القيامة، وتنكير كلمة اليوم للتفخيم والتهويل والتحذير عما فيه من الشدائد والأهوال، حيث تُرجعون فيه إلى ٱللَّه بعد بعثكم من قبوركم، فلا تملكون من أموركم شيئاً ثم تُعطى كل نفس جزاء ما كسبته في دنياها وافياً كاملاً **﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** أي بنقص من الثواب على عملهم الصالح، أو زيادة عقاب على ما اقترفوا من آثام.

هذه الآية تثير الرهبة في النفوس وتحذِّر المسترسلين في المعاصي والمنكرات الغافلين عن هذا اليوم العظيم.

وقد قال بعض أهل الورع: من لم يتعظ بمواعظ القرآن فليس له فيما سواه متّعظ، وأيّ موعظة أعظم مما أخبر ٱللَّه به عباده من الرجوع إليه، فمن لم يحزن لذلك الموقف ولم يبكِ لذلك المشهد فبأي موعظة يتّعظ؟

رُوِيَ أنَّ هـذه الآية هي آخر آيةٍ نزلت في القرآن، وأنها نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليالٍ ثم لم ينزل بعدها شيء، وهناك رواية أنها نزلت قبل موت النبي ﷺ بواحدٍ وثلاثين يوماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾.

شرح المفردات

تَدايَنْتُم: دايَنَ بعضُكم بعضاً.

أَجلٍ مسمى: وقتٍ معين.

كاتِبٌ بالعَدلِ: كاتب أمين فقيه.

وَلْيُمْلِلِ الذي عليه الحق: والمملي على الكاتب ما يكتبه هو المدين الذي عليه حق أداء دينه.

ولا يَبْخَس منه شيئاً: ولا ينقص من عليه الحقّ شيئاً مما عليه من الدَّيْن.

سفيهاً: السفيه هو الذي لا يحسن التصرّف بماله، المبذّر له.

ضعيفاً: كأن يكون صبياً ينقصه الإدراك أو شيخاً أصابه الخرف.

لا يستطيع أن يُمِلَّ هو: لا يستطيع أن يلقن إمّا لِخَرسٍ أو غيره من العوارض.
واستشهدوا شهيدين: واطلبوا شهيدين يشهدان على هذه المُداينة.
ممن ترضون من الشهداء: أي من الشهداء العدول.
أن تضلَّ إحداهما: إن تنسى إحداهما الشهادة.
ولا يأبَ الشُّهداء إذا ما دعوا: ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة إذا دُعوا إليها.
ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً: لا تضجروا ولا تملّوا من كتابة الدَّيْن صغيراً كان أو كبيراً.
إلى أجله: إلى الوقت المتفق عليه.
أقْسط عند الله: أعدل عند ٱللَّه سبحانه.
أقْوم للشهادة: أحفظ للشهادة وأثبت لها وأعون على أدائها.
أدْنى ألا ترتابوا: أقرب ألا تشكّوا في مقدار الدين وأجله.
ولا يُضارّ كاتب ولا شهيد: لا يضر الكاتب والشاهد أحد المتعاقدين: بأن يأبى الكاتب أن يكتب أو يأبى الشاهد أن يشهد أو يزيد أحدهما في الحق أو ينقص.
تديرونها بينكم: تتصرفون فيها يداً بيد بلا تأجيل.
وإن تفعلوا: أي وإن تفعلوا ما نهيتم عنه.
فإنه فسوق بكم: فإنه خروج عن طاعة ٱللَّه ومعصية لاحقة بكم.

أحكام المُدايَنَةِ في الإسلام

مما يشهد بعظمة القرآن وأنه وحي إلهي هو ما دعا إليه من كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه، وفائدة ذلك ليعلم الدائن والمَدِين أو وَرَثَتهم حقوقهم وواجباتهم نحو بعضهم البعض، لأن مرور السنين مدعاة للنسيان، كما يؤدي عدم كتابة الدَّيْن إلى التنازع، وإنكار المَدِينِ الحَقَّ المتوجّب عليه نحو الدائن، كما هو مشاهد عند بعض الناس.

والدَّعوة إلى كتابة الدّيْن جاءت في آية هي أكبر آيات القرآن لشمولها كثيراً من التوجيهات التي تحفظ حقوق الدائن والمَدِين، وإليكم ما جاء في صددها

مما يشهد بسموّ التشريع الذي يتميز به القرآن وعدالته في أحكامه. قال ٱللَّه تعالى:

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ تداينتم بدَيْنٍ: تعاملتم بالدَّيْن، وأَجَلُ الدّيْن: هو الوقت المعين بالأيام أو الأشهر لأدائه في المستقبل، والمعنى: ياأيها الذين صَدَّقُوا بٱللَّه ورسوله إذا دايَنَ بعضكم بعضاً بِدَيْنٍ إلى وقتٍ معين، فاكتبوا هذا الدَّيْن.

فٱللَّه سبحانه أمر بكتابة الدَّيْن لئلا يقع فيه نِسْيانٌ أو جحودٌ، وقد ذهب الظاهرية إلى وجوبه، أما جمهور الفقهاء فذهبوا إلى أنه مندوب، وكتابةُ الدَّيْنِ المؤجل سداده إلى تاريخ معين أخذ بها القانون الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر حين اشترط أن يكون الدَّيْن مكتوباً إذا زاد على قدر معين، وعن القوانين الفرنسية أُخذت القوانين الأوروبية.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كما أمر ٱللَّه سبحانه أن يكتب وثيقة الدَّيْن كاتِبٌ عالمٌ بشروط العقود وتوثيقها، عالمٌ بأحكام الشريعة، وخبير بمعاملات الناس، وأن يتحرى العَدْلَ بين الطرفين بأن لا يزيد ولا ينقص في الدَّيْن الذي يكتبه، وفي هذا دعوة إلى أنه ينبغي أن يكون في الأُمَّة كُتَّابٌ متخصّصون للقيام بهذه المهمة، وهذا ما يُعرف الآن (بِكُتَّابِ العَدْلِ) وتجدر الإشارة إلى أن هذه التسمية مقتبسة من النص القرآني **﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾**.

﴿وَلاَ يَأْبَ كاتِبٌ أن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ يَأْبَ: يمتنع. أي ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهم بالطريقة التي علّمه ٱللَّه إياها بأن يتحرّى العَدْلَ في كتابته، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية، فلا تكون فيها شروط ليست في كتاب ٱللَّه أو لا يسوّغها الشرع أو لا يمكن تنفيذها.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ﴾ الإمْلالُ والإمْلاءُ بمعنى واحد: وهو التلقين، أي إن الذي يُلقّن الكاتب مقدار الدَّيْن وموعد سداده بوجود الدائن هو المَدِين، ليكون إملاؤه إقراراً بالدَّيْن وبالحقوق التي يجب عليه الوفاء بها، وليكون ما في الوثيقة حُجَّة يُبرزها الدّائن عند استحقاق سداد الدَّيْنِ أو عند بروز الخلاف بينهما ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ الخطاب هنا يصلح أن يكون لِلْمَدِينِ أو أن يكون للكاتب. فإذا كان الخطاب لِلْمَدِينِ فيكون المعنى: وليتق ٱللَّه المدين الذي عليه حق أداء دَيْنه، ولا ينقص من الدَّيْن حين الإملاء شيئاً ولو كان زهيداً، بل يعترف به كما اتفق عليه مع الدائن. وعلى المعنى الثاني: وليتق ٱللَّه الكاتب ولا ينقص من حق كلٍّ من الدائن والمَدِين شيئاً، بل يُثبت لكل منهما حقه كاملاً دون زيادة أو نقصان.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أو ضَعِيفاً﴾ أي إذا كان الذي عليه الحق وهو المَدِينُ سفيهاً، وهو الجاهل بالعقود والتصرفات أو المبذر المتلاف الذي لا يحسن تدبير أموره وإدارة أمواله، أو كان ضعيفاً وهو الصبي والشيخ الهرم الذي أصابه الخرف أو العجز ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أي لا يقدر على التلقين بأن كان أخرس أو غير ذلك ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ﴾ أي فعلى وَلِيِّ أمرِه أو وكيله أو من يهمّه شأنه أن يتولّى تلقين الكاتب عنه متحرّياً الحقّ والعدل فيما كُلِّفَ به، وذلك حِرْصاً على حق هذا الضعيف أو السفيه من أن توقعه حاله في الإساءة إلى نفسه.

الإشْهادُ على الدَّيْنِ

ولا يكتفي القرآن بالدعوة إلى كتابة الدَّيْنِ، بل يدعو أيضاً إلى الإشْهاد عليه زيادة في توثيق عَقْدِ الدَّيْنِ، وحرصاً على حفظ الحقوق من النكران:

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ واسْتَشْهِدُوا: السين والتاء تُفيدان

الطلب، أي واطلبوا وابحثوا وتحرّوا ﴿**شَهِيدَيْنِ**﴾ أي شاهدين عَدْلَيْن، لأن «شهيد» صيغة مبالغة من شاهد، والمبالغة في معنى الشهادة تفيد معنى تحرّي العدالة فيها ﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ**﴾ فإذا تعذّر وجود رجلين للشهادة فليقم مقامهما رجل وامرأتان ﴿**مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾ أي من الذين يُرتضى وضعهم الاجتماعي وسيرتهم الحسنة ويقولون الحق ﴿**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُما الأُخرى**﴾ والحكمة في أن المرأتين تقومان مقام رجل واحد في الشهادة هي خشية أن تُخْطِئ أو تنسى إحداهما، فتذكرها الأخرى به. والسبب في خطئها أو نسيانها هو قِلَّةُ مُزاولتها للشؤون المالية، لأن أكثر وقتها هو في تدبير منزلها وتربية أطفالها، فإذا تركت إحداهما شيئاً من الشهادة تكون قد نسيته أو غفلت عنه تذكّرها الأُخرى به. أما اشتغال النساء في هذا العصر بالمسائل المالية، فلا يغيّر الحكم لأن الأحكام إنما هي للأغلب، كما أن بعض النساء تغلب عليهن العاطفة مما يبعدهن عن جادّة الحق فتذكّرها الأُخرى بالصواب.

﴿**وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا**﴾ أي ولا يمتنع الشهود عن الشهادة أمام القاضي إذا ما طُلبوا لأداء الشهادة، لأنَّ ترك الشهادة أو كتمانها يفضي إلى تضييع الحقوق، ولقد حذّر ٱللَّه من كتمان الشهادة بقوله: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ**﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿**وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ**﴾ أي ولا تَملُّوا من كتابة الدَّيْن سواء أكان الدَّيْن كبيراً أم كان صغيراً إلى وقت حلوله الذي أقرّ به المَدِينُ، ولأن إهمال كتابة الدَّيْن الصغير يؤدي إلى جحوده وعندئذ تذهب الثقة، وإذا ذهبت الثقة ساد التنازع ﴿**ذٰلِكُمْ أقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا**﴾ أي تلك الوصايا التي أمركم ٱللَّه بها هي أعدل عند الله، وأقوم طريق

للإثبات، وأقرب إلى انتفاء رَيْبِكِم وشكوككم في جنس الدَّيْن وقَدْرِهِ، وأجَلِ استحقاقه.

﴿**إِلاّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا**﴾ استثنى القرآن التجارة الحاضرة وهي التي يجري فيها التقابض في المجالس أو التي يتأخّر فيها الأداء زمناً يسيراً، وسميت حاضرة لأن المبيع والثمن كلاهما حاضر، ووصفت بأنها تدور لأن هذا يعطي وذاك يأخذ، وقد يطلب هذا بضاعة ويدفع ثمناً مرّة وقد يعطي مقابل البضاعة بضاعة أحياناً، وأمثال هذه التجارات التي يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها لا يُتوقع فيها التنازع أو النسيان، ولا جناح عليكم في عدم كتابتها، وفي نفي الجُناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أوْلى ﴿**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُم**﴾ أمر ٱللَّه بالإشْهاد على البيع، وقد قرر المذهب الظاهري أن الإشْهاد على البيع واجب، بحيث لو لم يُشْهِدْ المُتبايعان على بيعهما شهوداً يأثمان، أما جمهور العلماء فقالوا: إنَّ الإشْهاد على البيع غير واجب وإنما هو مجرّد إرشاد وتعليم، هذا مع العلم أن الإشْهاد على البيع يمنع من أي ظلم قد يطرأ عليه.

﴿**وَلاَ يُضَارَّ كاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ**﴾ والمضارّة: إدخال الضرر، أي لا يصح أن ينزل ضرر بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق ﴿**وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ**﴾ وإن تفعلوا ما نُهيتم عنه من الإضْرار بالكاتب أو الشاهد وتلحقوا الأذَى بهما، فإن ذلك معصية وخروج عن طاعة ٱللَّه ﴿**وَاتَّقُوا ٱللَّهَ**﴾ وخافوا ٱللَّه وراقبوه في فِعْلِ ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ**﴾ ويُعَلِّمُكم ٱللَّه أحكام دينكم وما تحتاجون إليه لمصالحكم، وفي هذا النص الوعد لمن اتقى ٱللَّه أن يعلّمه ٱللَّه العِلْمَ النافع، لأن العِلْمَ نور لا يُهدى لغير من اتقى الله.

ولقد قال الإمام الشافعي حين شكا لأُستاذه وكيع سوء حفظه للعلم، فدعاه إلى تقوى الله، وفي هذه المناسبة أنشد الشافعي هذه الأبيات:

شَكَوْتُ إلى وكيعٍ سُوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأعلمني بأن العِلْمَ نُورٌ ونُورُ اللَّهِ لا يُهدى لِعاصي

ويختم ٱللَّه الآية بقوله ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ**﴾ أي إنه سبحانه يعلم أعمالكم ويحصيها عليكم ليجازيكم عليها.

وهكذا نرى أن توثيق الحقوق الذي يُعدّ من النظم الحديثة، قد شرعه الإسلام من قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً، وهذا مما يشهد على عظمة القرآن الذي جاء بتشريعات فيها الخير والصلاح للبشرية جمعاء.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

شرح المفردات

فَرِهانٌ: الرهان جمع رهن، وهو ما يأخذه الدائن من المستدين من الأعيان ذات القيمة ضماناً لوفاء دَيْنِهِ.

أمانته: دَيْنه وسمّي الدَّيْن أمانة لائتمانه عليه بدون رهن أو كتابة.

وليتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ: وليخشَ اللَّهَ ربَّه فلا يخون الأمانة.
ولا تكتموا الشهادة: ولا تخفوا أيها الشهود ما عَلِمْتُوهُ وشاهدتموه.
إن تُبدوا ما في أنفسكم: إن تُظهروا ما في قلوبكم.

الرَّهْنُ عند تَعَذُّرِ كتابة الدَّيْن

وبعد أن دعا ٱللَّه في الآية السابقة إلى كتابة الدَّيْن والإشْهاد عليه، بيّن في الآية التالية ما ينبغي فِعْلُه عند عدم وجود الكاتب كما في حال السفر، قال ٱللَّه تعالى: **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾** أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجَلٍ مسمى ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم الدَّيْن، فليكن بَدَل الكتابة رِهَانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لِدَيْنِهِ من المَدِينِ. ولا يدلّ هذا التقييد على أن مشروعية الرهن خاصة بالسفر، لأنه ثبت أن النبي محمداً ﷺ توفِّي وَدِرْعَهُ مرهونة عند يهودي[1] مقابل ما استدان منه، وهذا ما جرى التعامل فيه بين المسلمين على الرهن في السفر والحضر، سواء وُجِدَ الكاتب أم لم يُوجد، وإنما أرشدت الآية إلى ما يقوم مقام الكتابة في الحالة التي يغلب عَليها عدم وجود الكاتب وهي حالة السفر.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ أي فإن أَمِنَ الدائنُ المَدِينَ فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فعندها يُؤَدّي المَدِينُ الدَّيْنَ في موعده لأنه أمانة في عنقه **﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ﴾** أي وليخشَ المَدِينُ رَبَّهُ فلا يخون الأمانة وهي الدَّيْن المترتب عليه، ولا يماطل في أداء الحق الواجب عليه **﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾** ولا تُخفوا الشهادة أيها الشهود بما علمتم، بل ٱشْهَدُوا وأقرّوا بالحق إذا دُعيتم لأداء الشهادة، ومن يكتم الشهادة

---

(١) أخرجه البخاري.

ويُعْرِضُ عن أدائها فإنه آثم قلبه، والقلب أشرف مكان في الإنسان، وله الهيمنة على كل الأعضاء، فإذا صَلُحَ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسد دبّ الفساد في الجسد كله، وهذا تصوير بليغ لشدة الإثم المترتب على كاتم الشهادة **﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** وٱللَّه سبحانه يعلم ما يصدر من الناس من خيرٍ أو شر، فيجازي المحسنين إحْساناً والمسيئين سوءاً.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ هذا النص متصل بالآيات السابقة التي دعت إلى الإنفاق في سبيل الله، فكل ما في السماوات وما في الأرض هو مُلْكٌ لله، وأنت أيها الإنسان بما تملكه من مال جعله ٱللَّه وديعة في يدكَ، فلا يحسن أن تبخل به على المستحقين لأن المال مال ٱللَّه، وهذا ما ذكره ٱللَّه بقوله: **﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾** [النور: ٣٣].

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن تُظهروا أيها الناس ما في قلوبكم أو جوارحكم من أقوال وأفعال حسنة أو سيئة أو تكتموها عن الناس يجازيكم ٱللَّه بها يوم القيامة. هذا النص يفيد علم ٱللَّه بما ظهر وما خَفِيَ وأنه سيحاسب الإنسان على النيات إضافة إلى الأعمال الظاهرة. وقد رُوي أنه لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا رسول ٱللَّه فقالوا: كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق.. وقد أنزل ٱللَّه هذه الآية ولا نطيقها! فقال رسول ٱللَّه ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: **﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾** ثم أنزل ٱللَّه بعد ذلك **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها..﴾** تهويناً للخطب عليهم.

فالعزم على المعصية والتصميم عليها مؤاخذ عليهما الإنسان، وأما حديث النفس بها والخواطر الفاسدة التي تَرِدُ على القلب دون أن يصحبها عزم وتصميم فمعفوٌّ عنها، إذ ليس في وسع الإنسان أن يمنعها عنه. وروي عن النبي ﷺ قوله:

«إن ٱللَّه تـجاوز لأمتي ما حَدَّثَت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»(١).

﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَيَغْفِرُ ٱللَّه لمن يشاء من أهل الإيمان ويعفو عنهم، ويُعَذِّب بعدله من يشاء من أهل الشرك والمعاصي حسب مشيئته المبنية على الحكمة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدير: صيغة مبالغة لاسم الفاعل في القُدرة، فهو سبحانه قادر على حساب أهل العصيان ومُعاقبتهم، وعلى منح الغفران والتجاوز عن السيئات لمن يشاء من عباده المؤمنين، فلا أحَد يعارضه في حكمه المبنيّ على العدل.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

شرح المفردات

لا نُفَرِّق بين أحَدٍ من رسله: أي نؤمن برسل ٱللَّه جميعاً ولا نَكْفُرُ بِأَحَدٍ منهم.

وقالوا سمعنا: أي سمعنا قولك واعتقدنا وجوب العمل به.

غُفرانك ربنا: أي نطلب ونسأل غفرانك يا رب.

(١) متفق عليه.

وإليك المصير: وإليك المرجع بعد الموت يوم البعث.
إلاّ وُسْعَهَا: إلاّ ما تتسع له طاقتها وقدرتها من الأعمال.
لها ما كَسَبَت: لها ثواب ما عملت من الحسنات.
وعليها ما اكتسبت: وعليها وِزر ما عملت من السيئات.
ولا تَحْمِلْ علينا إصراً: لا تكلفنا أمراً يثقل علينا.
أنت مولانا: أنت مالكنا ومتولي أمرنا.

ابتهالاتٌ إلى اللَّه وقبولها منه سبحانه

وأخيراً يختم ٱللَّه هذه السورة ببيان أن رسالة محمد هي امتداد للرسالات الإلٰهية السابقة، وأن جوهر الدِّين واحد في كل الرسالات الإلهية التي أنزلها ٱللَّه على رسله، قال تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صدَّق الرسول محمد وأقرّ بما أَوْحَىٰ إليه رَبُّهُ من القرآن وما فيه من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد بثواب ٱللَّه لمن أطاعه والوعيد لمن عصاه. واقتران إيمان المؤمنين بإيمان الرسول محمد هو تشريفٌ لهم حيث آمنوا برسول ٱللَّه وبما جاء به من الهدى من عند ربه.

﴿كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول محمد ﷺ والمؤمنون آمنوا بٱللَّه وهو التصديق بوجوده ووحدانيته وصفاته وَرَفْضُ كل معبودٍ سواه. ثم ثنّى ٱللَّه بأنهم يؤمنون أيضاً بالملائكة وهم غُيّبٌ عن الأنظار لا يُرون ولا نَعْرف عنهم شيئاً إلاّ بما أخبرنا ٱللَّه عنهم، وهم لا يعصون ٱللَّه ويفعلون ما يُؤمرون، فمنهم من خصّه ٱللَّه بإنزال الوحي على رسله، ومنهم من خصّه ٱللَّه بقبض أرواح الناس عند استيفاء أجَلِهم، ومنهم من خصّه بإنزال العذاب على العصاة، ومنهم من خَصَّهم ٱللَّه بمهماتٍ غير ذلك.

كما أن الرسول محمداً ﷺ والمؤمنين يؤمنون بكتب ٱللَّه التي أنزلها على رسله قبل أن يدخل عليها التحريف والتبديل، وهذه الكتب فيها الهدى للناس، وفيها ما يُسعدهم في دنياهم وآخرتهم، والكتب التي ذكرها القرآن الكريم هي صُحُف إبراهيم، والتَّوْراة، والإنْجيل، والزَّبُور، وكان آخر هذه الكتب: القُرآن الكريم، وكذلك يُصَدِّقُ المؤمنون بِرُسُل ٱللَّه جميعاً فمنهم من جاء ذكرهم في القرآن ومنهم من لم يذكره، وقد خاطب ٱللَّه رسوله محمداً بقوله: **﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾** [النساء: ١٦٤].

﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي إن حال الرسول محمد ﷺ والمؤمنين هو أنهم يُؤمنون بجميع رسل ٱللَّه من غير تفريق بينهم، فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ولكنهم يصدّقون بهم جميعاً، ويقرّون بأن ما جاءوا به من الهُدى هو من عند الله، وهم بذلك يُخالفون اليهود الذين أقرّوا بنبوّة موسى وكَذَّبوا بنبوّة عيسى ومحمد عليهما السلام، كما أنهم يُخالفون النصارى الذين أقروا بنبوة موسى وعيسى وكَذَّبوا بنبوّة محمد ﷺ.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾ أي وقال الرسول محمد والمؤمنون: سمعنا قول ربنا بما أنزل علينا من القرآن الذي هو كلامه، وعَلِمْنَا صحّته وقبلناه، وأطعنا ربنا فيما ألزمنا به من فرائضه، وما دعانا إليه من طاعته **﴿غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾** أي نسألك يا ربنا غفرانك لذنوبنا، والغُفْرانُ: السِّتْرُ من ٱللَّه على ذنوب من غفر له من عباده وصفْحه عنهم ورفْع العقوبة عنهم، وإليك يا ربنا المصير والمآل، وهنا إقرار منهم بالبعث يوم القيامة والحساب والمجازاة على أعمالهم، هذه الكلمات الأخيرة التي يقولها المؤمنون تُجَسِّدُ معنى العبودية الحقّة لله سبحانه والتسليم لإرادته مما يُضفي عليهم طمأنينة في قلوبهم، وراحة في نفوسهم مصدرها هذا الإيمان الذي خالط قلوبهم واستشعروا لذته في أرواحهم ووجدانهم.

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها﴾ أي لا يكلّف ٱللَّه نفساً من التكاليف الشرعية والأوامر والنواهي إلاّ بما تستطيع وتقدر على فعله، فلا يضيّق عليها ولا يجهدها، وقد جاء في القرآن ما يطابق هذا المعنى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي للنفس البشرية ما عملت من الحسنات فتنال أجرها وثوابها ﴿وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وعليها ما ارتكبت من سيئات، فَعَلَيْها وِزْرُها وتنال العقاب عليها، وجاءت العبارة في الحسنات بلفظ ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح الإنسان ويسرّ بكسبه لها فتضاف إلى ملكه، وجاءت السيئات بلفظ ﴿عَلَيْها﴾ من حيث هي أوْزار وأثْقال ينوء بحملها.

﴿رَبَّنَا[١] لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ والمؤاخذة معناها المجازاة والمعاقبة، أي لا تُعاقبنا يا ربّ على الإثم الذي يقع منا على وجه النسيان أو الخطأ.

وقد يسأل سائل: لماذا ذكر ٱللَّه هذا الدعاء مع أن الخطأ والنسيان مرفوع وزره عن أُمة محمد كما جاء في الحديث الشريف «إن ٱللَّه وضع عن أُمَّتي الخَطَأ والنِّسْيان وما اسْتُكْرِهُوا عليه»[٢]؟ الجواب على ذلك: هو أن أُمة محمد لمّا كانت حريصة أشدّ الحرص على أن تتقي ٱللَّه حق تقاته، فإن ما يصدر منها من زلّة أو معصية لا يكون إلاّ على وجه الخطأ أو النسيان.

وذهب الطبري إلى أن النسيان هنا بمعنى الترك، أي لا تؤاخذنا إن تركنا شيئاً من طاعتك.

---

(١) ربنا: منادى حُذِفَ منه حرف النداء، وأصله: يا ربنا.

(٢) رواه ابن ماجه.

﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الإِصْرُ في اللغة: الثِّقْلُ والشِّدَّةُ، مأخوذٌ من أَصَرَ بمعنى حَبَس، فكأنه لِثِقْلِهِ يحبس صاحبه في مكانه، فيمنعه من الحركة، والمُرادُ به التكاليف الشاقة، فالمؤمنون يطلبون من ربِّهم أنْ لا يُكلِّفهم بالتكاليف الشاقة التي يعجزون عن أدائها كما كلّف بذلك اليهود حيث أُمروا بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة أُمِرَ بقطعه، وكانوا إذا أتوا بخطيئة حَرَّمَ ٱللَّه عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم.

﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقَّةٍ، أي لا تحمّلنا يا رب ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف أو ما لا طاقة لنا على تحمّله من المِحَن والبلايا والمصائب والأمراض المستعصية وقد كررت لفظ **﴿رَبَّنا﴾** لكمال الضراعة ولبيان أن حالهم يتجدّد فيهم لطلب العون من ربهم **﴿وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنا﴾** أي امْحُ عنا ذنوبنا يا رب، واسْتُرْ سيئاتنا، فلا تفضحنا بها يوم القيامة، وارحمنا برحمتك التي وَسِعَت كل شيء، فلا تعذّبنا بما صَدَرَ منّا من تقصيرٍ أو من زللٍ **﴿أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾** أنت يا رب سيدنا المتولي أُمورنا ونحن عبيدك، فانصرنا على القوم الذين جحدوا دينك وأنْكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعَبَدُوا غيركَ.

وقد جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: أن ٱللَّه قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: «قد فَعَلْتُ» فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يُؤاخذهم بشيءٍ من الخطأ والنِّسْيان، ولا حمل عليهم شيئاً من الإصْرِ الذي حمله على من قَبْلهم، ولا حمّلهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد للَّه رب العالمين.

وقد روى البخاري والجماعة أن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر

سورة البقرة في لَيْلَةٍ كفَتَاهُ» أي كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان، فلا يقربه شيء من ذلك تلك الليلة.

وأخرج الإمام أحمد والنَّسائي أن النبي ﷺ قال: «أُعطِيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش، لم يُعْطَها نَبِيٌّ قبلي».

وأخرج الترمذي أن رسول ٱللَّه قال: «إن ٱللَّه كَتَبَ كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بأَلْفي عام، فأنزل منه آيَتَيْن ختم بهما سورة البقرة ولا يُقرأ بهن في دارٍ ثَلاثَ ليالٍ فيقربها شيطان».

وأخرج مسلم والنّسائي واللفظ له عن ابن عباس قال: «بينا رسول ٱللَّه وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً[1]، فرفع جبريلُ بَصَرَهُ إلى السماء فقال: هذا بابٌ قد فُتِحَ من السماء ما فُتح قطّ، قال: فنزل منه مَلَكٌ فأتى النبي ﷺ فقال: أَبْشِرْ بنورَيْنِ قد أُوتيتُهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لَنْ تَقْرَأَ حرفاً منهما إلاّ أُوتِيتَه».

(١) نقيضاً: أي صوتاً.

المراجع

جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للإمام الزمخشري

تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير

تفسير أبي السعود للعلامة بن محمد العمادي

تفسير الفتح القدير للعلامة محمد بن علي الشوكاني

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطيه

تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي

تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

تفسير صفوة البيان للإمام حسنين محمد مخلوف

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير سورة البقرة للعلامة محمد الخضر حسين في (مجلة لواء الإسلام)

زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة

التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور

تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا

التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

تفسير القرآن الكريم ـ لجنة من الأساتذة ـ دار المعارف بمصر

الموسوعة الفقهية ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت

كتاب الحيض للدكتور كامل موسى

الفهرس

كلمة الشكر

أقدم شكري **لأصحاب دار العلم للملايين** الأفاضل، لما لقيت منهم من دعم طيلة أربعين عاماً، وما لمست منهم من صدق وإخلاص ووفاء في زمن قلّ فيه الوفاء، سائلاً الله أن يحفظ دار العلم، وأن يجعل رايتها خفّاقة في ربوع العالم لتؤدي رسالة العلم والنور.

وأقدم شكري وامتناني إلى الصديقين:

فضيلة العلاّمة القاضي **الشيخ حسين غزال**

وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير

كما أقدم شكري إلى

الأديبة ذات الكفاءة العالية: **الأستاذة هدى رفيق سنو**

والدكتور **محمد مرعشلي**

اللذين أشرفا على تصحيح هذا الكتاب قبل الطبع وما قدّما لي من ملاحظات قيّمة.

وإلى الصديق الحميم الأستاذ **شفيق لبان** لما قدم لي من معونة وملاحظات قيّمة.

كما أقدّم شكري لفضيلة الدكتور الشيخ **أحمد اللدن** على ما تفضّل بكتابة الخطوط العربية لهذه السورة، وهو من أميز خطّاطي لبنان، بالإضافة إلى تخصُّصه بالعلوم الشرعية وتدريسه لها.

وفي الختام أقدم شكري **لموظفي مكتبة كلية الآداب** في الجامعة العربية لما بذلوه من جهد في إمدادي بالمراجع العلمية، وما خصّوني به من عناية وتوفير الجو الملائم لي لمتابعة البحث والدراسة بتفكير هادىء مشرق.

كما أقدّم شكري للصديق الأستاذ **توفيق حوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية لسعيه الدؤوب وتضحياته الجمّة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضمّ أكثر من مائة ألف كتاب من الكتب النفيسة، المبوّبة على أحدث الأساليب العلمية والتي قدّمت لي الكثير من المراجع القيمة.

سائلاً الله أن يلهم أثرياء المسلمين التبرع لبناء كبير يستوعب هذه الكتب التي تزداد يوماً بعد يوم، وفيه قاعة كبيرة للمطالعة تسع العشرات من القراء والباحثين في جوّ مريح.

إلى هؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن ييسرنا جميعاً لخدمة دينه

عفيف عبد المفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- **روح الدين الإسلامي** الطبعة الرابعة والثلاثون
- **مع الأنبياء في القرآن** الطبعة الرابعة والعشرون
- **روح الصلاة في الإسلام** الطبعة الثالثة والعشرون
- **الخطايا في نظر الإسلام** الطبعة الثانية عشرة
- **اليهود في القرآن** الطبعة الرابعة عشرة
- **الحكمة النبوية** الطبعة الرابعة
- **تعلم كيف تحج** الطبعة الثانية
- **THE SPIRIT OF ISLAM**

الترجمة الإنكليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)

صدر عن تفسير **(روح القرآن)** الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يٓس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة البقرة

روح القرآن

تفسير سورة آل عمران

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

978-9953-63-873-7
00532
9 789953 638737

قال محمد رسول الله ﷺ :

إنّ أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه

سورة آل عمران

روح القرآن

تفسير سورة

آل عمران

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة الأولى

شباط 2012 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة آل عمران

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

سورة آل عمران مدنيّة أي نزلت بالمدينة المنوّرة، وسمّيت بذلك لورود قصة آل عمران فيها، فعمران والد مريم ومن ذرّيته جاء عيسى ابن مريم عليه السلام.

وهذه السورة تعالج عدة قضايا منها:

- تقرير وحدانية الله وعظمته في الكون.
- الحوار مع أهل الكتاب.
- بعض الإرشادات للمسلمين.
- غزوة أُحُد وما فيها من دروس وعبر.

يبدأ الله هذ السورة بذكر وحدانيّته وبعض أسمائه الحسنى:

﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [الآيتان: ١، ٢] فالله سبحانه هو الحيّ الذي لا يدركه الفناء، وهو القيّوم الذي له الهيمنة والتدبير والقيام على شؤون الخلق ـ وتذكر السورة بأن الله شَهِدَ بنفسه على وحدانيّته واشترك معه بهذه الشهادة الملائكة والعلماء:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الآية: ١٨].

وأنّه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه يصوّر الخلق في الأرحام كيف يشاء، وأنه هو العزيز الحكيم، وأنه البصير بالعباد،

مالك الملك يُؤْتي المُلك من يشـاء وينزع المُلك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

ـ أمَّا الحوار مع أهل الكتاب فنراه في مطلع هذه السـورة، فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى الرسول محمد ﷺ في المدينة المنوّرة، ثم أقاموا فيها أيامًا يناظرون رسول الله محمدًا في شـأن عيسى عليه السلام، ورسول الله يردُّ عليهم بما يُوحي الله إليه وَنَزَلَ فيهم نيّفٌ وثمانون آية.

ـ كما ذكرت السـورة أن الله أنزل القرآن على رسـوله محمد مصدّقًا لما بين يديه من كتب الله، قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الآية: ٣] وأن على المسـلم الإيمـان بجميع أنبياء الله ورسله من دون أدنى تفريق بينهم، وتؤكّد السورة أن رسالتهم جميعهم واحدة ألا وهي الإسلام الذي بَعَثَ الله به كل رسول.

ـ وفي هذه السـورة دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء تجمع بينهم وبين المسـلمين قـال الله تعالـى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ [الآية: ٦٤].

ـ كما تُشبّه السورة خلق عيسى بخلق آدم وأنه ليس ابنًا لله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [الآية: ٥٩].

ـ وفيها الحديث عمّا نذرته امرأة عمـران من أنها إذا رزقها الله ولدًا ذكرًا أن تجعله في خدمة بيت الله ولكنها رُزقت بأنثى وهي مريم، فتقبّلها الله وقام النبي زكريا بكفالتها وتنشئتها على الطهر والعفاف وعبادة الله.

ـ وفيها البشرى من الملائكة لمريم بأنها ستلد ابنًا عظيم الشأن عند الله،

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الآية: ٤٥]، ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الآية: ٤٨].

ـ وفي السورة تضرّع زكريا لربه بأن يرزقه ولدًا صالحًا يقوم بالدعوة إلى الله بعد وفاته، فاستجاب الله له ورزقه ولدًا صالحًا اسمه يحيى الذي خصّه الله بالنبوّة، على الرغم من كبر سنّه وامرأته العاقر.

ـ وفي السورة دعوة المؤمنين لأن يتقوا الله حق تقاته وأن يتمسكوا بدينه وأن يُعدّوا جماعة منهم للدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ١٠٤]، وأن السلف الصالح من أمة الإسلام قاموا بهذا الواجب فكانوا خير أمة أخرجت للناس كما قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [الآية: ١١٠]، فإذا حاد المسلمون عن هذا المنهج زالت الخيريّة عنهم.

ـ وفي السورة بيان لأفضليّة البيت الحرام بمكة وأنه أول بيت وُضِعَ لعبادة الله وحده وأن الحج إليه واجب على كل مسلم.

ـ وفيها الحديث عن غزوة أُحُد التي أخذت حيِّزًا كبيرًا من هذه السورة بحيث يكشف الله فيها عن خفايا القلوب ونوازعها من إيمانٍ ونفاقٍ على ضوء ما جرى فيها من نصر وهزيمة، كما تعالج الأخطاء التي وقع فيها المسلمون وأدَّت بهم إلى الهزيمة.

ـ وفيها دعوة المؤمنين إلى الاعتبار بما أصابهم في أُحُد، ونهيهم عن الوهن واليأس، وأن ما أصابهم من جراح قد أُصيب بمثلها أعداؤهم يوم غزوة بَدْر قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ[1] فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآيتان: ١٣٩، ١٤٠].

ـ وفي هذه السورة بيان أن الأعمار بيد الله وأنه لن تموت نفس إلّا بإذن الله فلا مجال للإنسان أن يحجم عن القتال دفاعًا عن وطنه وعرضه.

ـ وبيّنت السورة أنّ هزيمة المؤمنين في غزوة أُحُد سببها تنازعهم وتطلّعهم للحصول على الغنائم ومخالفتهم وصية رسول الله لهم.

ـ وفيها مصير الشهداء الذي سقطوا صرعى في غزوة أُحُد وما خصّهم الله من كرامة وأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.

ـ وهذه السورة لم تذكر أحداث غزوة أُحُد متتابعة بل تخللتها إشارة إلى معركة بدر وما جرى فيها من بطولات أوصلت المسلمين إلى نصر فريد من نوعه في تاريخ الأُمم، وكذلك النهي عن تعاطي الرِّبا لأنه يثير الضغائن في النفوس فلا يجعل القلوب صافية مترابطة لمواجهة العدو.

ـ كما دعت السورة إلى تقوى الله والإنفاق في سبيله وكظم الغيظ ممن يثيرون غضبهم والعفو عنهم، والتوبة عن تعاطي الفواحش والمنكرات.

ـ وأخيرًا نرى هذه السورة تثني على أصحاب العقول السليمة الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض فيؤدّي بهم ذلك إلى ترسيخ إيمانهم بالخالق وذكره على الدوام وطلب المغفرة منه.

هذه بعض محتويات هذه السورة نقتصر عليها خوفًا من التطويل، وهناك أُمور أُخرى نتركها للقارئ ليستفيد منها ويقتبس من هداها.

---

(١) قرح: جرح، والمراد: ما أصاب المسلمين من أذى وهزيمة وخسائر يوم غزوة أُحُد.

سُورَةُ آلِ عِمۡرَان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ
وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ
ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ
٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾

شرح المفردات

الْقَيُّومُ: القائم بذاته والحافظ لكل شيء، والمعطي له ما به قوامه.

الْفُرْقَانَ: يُطلق على القرآن وعلى جميع الكتب السـماوية، لأنها تفرّق بين الحق والباطل.

ذُو انْتِقَامٍ: ذو عقوبة شديدة لمن عصاه.

يُصَوِّرُكُمْ: يخلقكم على ما شاء من هيئة.

الأَرْحَام: جمع رحم وهو مكان حمل الجنين في المرأة.

صفات الله وما اختص به سبحانه

مطلع هذه السورة فيه الكلام عن عقيدة الإسلام القائمة على وحدانية الله وفيه مناقشة النصارى في معتقداتهم.

فقد رُوي[١] أنَّ وفْدًا من نصارى نَجران قَدِموا على رسول الله محمد ﷺ وكانوا ستّين نَفَرًا بينهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم، فدخلوا عليه في مسجده في المدينة المنوّرة حين صلّى صلاة العصر، يقول بعض مَنْ رآهم: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا يُصلّون في مسجد رسول الله، فقال رسول الله: دَعُوهُمْ، فصلّوا إلى المشرق. وهذا برهان واضح على سماحة الإسلام.

ثم جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ مُناظرة في شأن عيسى عليه السلام فتارةً يقولون: إنَّ عيسى ابنُ الله، وتارةً هو اللهُ، وكان ما قاله رسول الله لهم:

أَلَسْتُم تعلمون أن ربَّنا حيٌّ لا يموت، وأنَّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: أَلَسْتُم تعلمون أن ربَّنا قَيِّم على كُلِّ شيء يحفظه وَيَرزُقُهُ؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: فَهَلْ يَمْلك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا. قال رسول الله: أَلَسْتُم تعلمون أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال رسول الله: فَهَل يَعلم عيسى شيئًا من ذلك إلّا ما عُلِّم؟ قالوا: لا. قال رسول الله: فَإنَّ رَبَّنا صَوَّرَ عيسى في الرَّحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: فكيف يكون عيسى كما زعمتم؟ فعرفوا الحق ثم أبوا إلّا جحودًا. هذا مختصر ما جرى بينهم وبين رسول الله ﷺ، ثم أنزل الله تعالى الآيات التالية:

---

(١) هذا ما ذكره المفسرون عن محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير.

﴿الٓمٓ(١) ۝ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الله: اسمُ الله الأعظم لم يتسمّ به غيره، ولذلك لم يثنّ ولم يُجمع. فالله سبحانه هو الجامع للصفات الإلٰهية، وهو الذي أنشأ الخَلْق وربّاهم، لا مالك لهذا الكون ومن فيه سواه، فهو المتّصف بكل كمال والمُنَزّه عن كل نقص ليس كمثله شيء. ﴿لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي أن الألوهية خاصّة به سبحانه دون سواه لا شريك له في سلطانه ومُلْكِهِ، فهو سبحانه ﴿الْحَيُّ﴾ أي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها، كما أنه سبحانه ﴿الْقَيُّومُ﴾ أي القائم على كل شيء يحفظه ويرعاه ويرزقه.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب: المراد به هنا القرآن، أي نزّل الله عليك يا محمد القرآن مقترنًا بالحق والصدق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أن القرآن مُصدّق لما قبله من الكتب السماوية وبما جاء فيها من الآداب ومكارم الأخلاق، ومُصَحِّحٌ لما طرأ عليها من تحريفات وبِدَع وخروج عن هُدَى الله.

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي أن الله أنزل التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن لأجل هداية الناس إلى الطريق الصحيح الذي يوصلهم إلى سعادة الدُّنْيا والآخرة ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ والمراد به هنا القرآن الكريم، وأعاد الله ذِكْرَ القرآن تشريفًا له، وسُمِّي القرآن بالفرقان لأنه يفرّق بين الحق والباطل، وقيل: المراد بالفرقان الكتب السماوية السابقة بما فيها القرآن بحيث أنزلها على رسله لتفرّق بين الحق والباطل، وليسير النَّاسُ على هدًى من ربهم وعلى الطريق المستقيم.

---

(١) الٓمٓ: قيل إن هذه الأحرف التي جاءت في مقدمة بعض سور القرآن هي مما استأثر الله العلم بها، وقيل: إن هذه الأحرف ذُكرت للتحدّي وبيان إعْجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف وغيرها التي يتخاطبون بها، وقيل: إنّ العرب لمّا سمِعوا القرآن لغوا فيه وانصرفوا عنه فأنزل الله هذه الأحرف ليعجبوا منها، وليكون عجبهم سببًا لاستماعهم إلى ما يتلى عليهم من القرآن بعدها الذي تستهويهم آياته بما فيها من بلاغة وهُدًى. وقيل غير ذلك مما ذكرناه في مطلع سورة البقرة.

أما بشأن التوراة، فقد أشار القرآن في عِدَّة مواضع إلى أن اليهود حرَّفوا كتاب الله وبدّلوه، فقد كان ما حَلَّ بأُورشليم في عهد بختنصر أولًا، ثم في عهد الرومان ثانيًا من خراب واضطهادات لأهلها سببًا في أنهم نَسُوا حظًّا ممّا دعاهم الله إليه، وعلى هذا فليست التوارة الحاضرة هي المذكورة في القرآن، وإن كان في التوراة بعض ما أنزل الله على موسى كالوصايا العشر، وبعض الأحكام التي لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل.

والإنجيل في القرآن هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، وقد جاء لفظ الإنجيل بصيغة المفرد كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ...﴾ [المائدة: ٤٦]، وفي قول الله تعالى مخاطبًا عيسى عليه السلام كما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] وهناك إشارة إلى هذا الإنجيل بما جاء في رسائل بُولُس وهي من الكتب المعتمدة عند النصارى.

فعيسى عليه السلام جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل ولكن الناس على مرِّ الزمان فقدوا ذلك الإنجيل وتمسَّكوا بكتب تنسب إلى بعض الحواريين من أصحابه، وقد اشتملت على سيرته وصلبه وبعض أقوال المسيح عليه السلام. وقد كثرت الأناجيل بعد عيسى عليه السلام ولكن الكنيسة أقرت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ**﴾ أي إن الذين جحدوا حجج الله والأدلة على توحيده ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ لهم عذاب من الله شديد يوم القيامة ﴿**وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾ والله سبحانه هو القويّ الغالب على كل شيء، وهو ذو عقاب شديد لمن يكفر بآيات الله.

﴿**إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ هذا الجزء

من الآية فيه بيان لِسِعَة عِلْم الله بالكون، فالله سبحانه لا يغيب عن عِلْمِهِ شيء، فهو العالِمُ بما كان وما سيكون في الأرض وفي السماء، وهو الخالق المبدع لهما، وهو مُطَّلع على من آمن ومن كفر، ومن كان شأنه كذلك فقد وجب أن ينفرد وحده بالأُلوهيَّة، فلا يُشاركه في أُلوهيته ومُلكه أحَدٌ، ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ يُصَوِّركم: والتصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، والأرحام: جمع رحم، وهي موضع نشوء الجنين في بطن أُمِّه، فالله سبحانه جعل نطفة الرجل بعد تلقيحها ببويضة الأُنثى من نطفة إلى عَلَقَة إلى مُضْغَة إلى عظام إلى أن يصبح الجنين إنسانًا ذَكَرًا أو أُنثى، والله سبحانه صوّر عيسى وكوّنه في رحم أُمِّه كما كوّن سائر الناس فكيف يكونُ إلَهًا من كانت هذه نشأته؟ وهاتان الفكرتان: عدم خفاء شيء على الله، وتصوير عيسى عليه السلام في رحم أمّه وردتا في المناقشة التي جرت بين النبي ﷺ وبين وَفْد نصارى نجران ﴿**لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ**﴾ هذه الجملة هي نفي للألوهيّة عند غير الله سبحانه وحصْرٌ لها به وحده لا يشاركه في أُلوهيّته مشارك ﴿**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ أي هو سبحانه القويّ الغالب، ذو الحكمة البالغة في تدبير الكون وما فيه من سماوات وأرضين، وما فيهما من كائنات.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ
ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ
فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

شرح المفردات

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ: المحكمات من آيات القرآن ما عُرِفَ تأويلها وفُهِمَ معناها.

أُمُّ الْكِتَابِ: أي أصل القرآن الذي يُعَوَّلُ عليه في الأحكام.

مُتَشَابِهَاتٌ: محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها، أو ما ٱستأثر الله بعلمه.

زَيْغٌ: مَيْلٌ عن الحق إلى الباطل.

ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ: طلبًا لتفسيره.

الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: المتمكّنون منه المُتبحّرون فيه، المتفقّهون في الدين.

يَذَّكَّرُ: يتّعظ.

أُوْلُوا الأَلْبَابِ: أصحاب العقول الخالصة من الشوائب.

لا تُزِغْ قُلُوبَنَا: لا تُمِلْها وتصرفها عن الحقّ.

مِنْ لَدُنْكَ: من عندك.

لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ: أي يوم القيامة لا شك في وقوعه.

آيات القرآن: محكمات ومتشابهات

وبعد أن ذَكَرَ الله سبحانه في ما سبق أنه أنزل التوراة والإنجيل والقرآن هدًى للناس، بيَّن في الآيات التالية مراتب القرآن وخصائصه، قال الله تعالى:

﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾ الكتاب: المراد به القرآن، أي أن الله سبحانه هو الذي أنزل عليك القرآن يا محمد ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**﴾ أي أن آيات القرآن نوعان: نوع فيه آيات بيّنات واضحات الدلالة على معانيها لا التباس فيها ولا اشتباه ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ وهذه الآيات المحكمات هي أصل القرآن المعتمد عليه في الأحكام، وهي عماده في بيان الحلال والحرام ﴿**وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ ومن القرآن آيات أُخرى متشابهة، لأنها مما اَستأثر الله بِعِلْمِهِ دون سائر خلقه[1].

وهناك أقوالٌ أُخرى للمفسرين في تحديد معنى المحكم والمتشابه من آيات القرآن، نذكر بعضها في ما يلي:

المحكم: هو الذي لا يحتمل تأويله إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه هو الذي يحتمل وجوهًا عدّة.

ومنها: أن المحكمات من آيات القرآن هي المعمول بها، وهي الناسخات، والمتشابهات: هي الآيات التي تُرِكَ العمل بها وهي الآيات المنسوخة.

ومنها: أنَّ المحكم من الآيات ما كان دليله واضحًا، والمتشابه ما يخفى دليله إلا على الراسخين في العلم.

ومنها: أن الآيات المحكمات هي التي تكون واضحة الدلالة على

---

(١) ومما اَستأثر الله بعلمه: حلول ساعة القيامة، وحقيقة الروح، والحروف المقطعة في أوائل سور القرآن وغير ذلك.

معانيها، والمتشابهات هي غير واضحة الدلالة على معانيها بل يحتاج تأويلها إلى الرجوع إلى غيرها من الآيات.

ومنها: أن المحكم هو ما يجب الإيمان به والعمل به، والمتشابه ما يجب الإيمان به من غير تكليف بعمل.

وقد ذكر المفسرون أمثلة على المتشابه، منها: قوله تعالى عن ذاته العَلِيّة: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ومنها قوله سبحانه ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠]، فهاتان الآيتان يخالف ظاهر اللفظ فيهما المعنى المراد، لأن الله سبحانه وصف ذاته بقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وعلى هذا فسّر العلماء ﴿يَدُ ٱللَّهِ ﴾ بقدرته ونصرته للمؤمنين. وقد سُئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجِبٌ، والسؤال عنه بِدْعَة.

ويُتابع القرآن قوله: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**﴾ والزَّيْغُ: هو المَيْلُ عن الاستقامة، فالذين في قلوبهم زَيْغٌ هم المائلون عن الحق إلى الأهواء الباطلة، لأنهم يتّبعون ما تشابه من القرآن حيث يجدون فيه ما يتفق مع اعوجاج نفوسهم رغبة في صَرْفِ الناس عن دين الإسلام، وإثارة الريبة في أحكامه ﴿ **وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ وطلبًا لتفسيره بمعانٍ توافق مذاهبهم الباطلة المبتدعة كما فعل القاديانية والبهائية وغيرهما من الفِرَق التي أنشأها دُعاتها لتحقيق مطامعهم ولشقّ وحدة المسلمين ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ في حين أن هذه المتشابهات لا يعلم تفسيرها إلا الله كما يعلمها الراسخون في العلم المتمكنون منه.

وهناك احتمال آخر في التفسير بأن يكون النص القرآنيّ قد تم عند قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ**﴾ أي أن العِلْم بتفسير الآيات المتشابهة

محصور بالله وحده، وما جاء بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استئناف لكلام جديد، أي أن الراسخين في العِلْمِ يؤمنون بها كما هي و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي أن كلًّا من المحكم والمتشابه هو من كلام الله ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ أي وما يتّعظ بآيات القرآن إلّا أصحاب العقول السليمة الخالصة من الشوائب التي لا تتأثر بالأهواء.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذا ما يتضرَّع به الراسخون في العلم إلى ربهم بأن لا يُميل قلوبهم عن الاستقامة وأن يساعدهم على عدم الانحراف عن الحقّ بعد أن تفضّل عليهم بالهداية للإيمان بمحكم آياته وبالمتشابه منها معًا، ويحتمل أن يكون هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ تعليمًا من الله للمؤمنين بأن يدعوا به في مراحل حياتهم ليجنّبهم الله ما يعتريهم من فِتَنٍ وإغراءات وأهواء تُبعدهم عن منهجه.

والله سبحانه لا يُزيغ قلوب عباده عن طريق الحق إلا عندما ينحرفون عن هدى الله ويميلون إلى سبل الضلالة، وهذا ما أعلنه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

كما يدعو الراسخون في العلم ربهم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي وامنحنا يا رب من عندك رحمة وتوفيقًا وثباتًا على الحق، والرحمة تشمل أن تحصل في جوارحهم دواعي الطاعة والعبوديَّة لله، وأن يحصل لهم سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية من الرزق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ هنا تأكيد للرحمة التي يطلبونها من الله بعدة مؤكدات وهي: لفظ إنّ وهو حرف توكيد، ومنها: الضمير العائد إلى الله بقولهم ﴿أَنْتَ﴾، ومنها: التعبير بصيغة المبالغة وهي لفظ ﴿الْوَهَّابُ﴾ أي كثير الهبات، فالله سبحانه هو المتفضّل برحمته على من يشاء من عباده.

ويتابع الراسخون في العلم دعاءهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي يا ربنا إنَّك تجمع الناس للجزاء على أعمالهم يوم القيامة الذي لا شك في وقوعه ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إنَّك يا رب لا تُخلف وَعْدَكَ للمؤمنين بالثواب، وللكافرين بالعقاب، فمن انحرف قلبه عن هداك فهو في العذاب الذي أعددته له، ومن سار على هديك فهو من أهل النعيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾

شرح المفردات

لَنْ تُغْنِيَ: لن تنفع أو لن تدفع.

كَدَأْبِ: كعادة.

فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ: أي فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم.

تُحْشَرُونَ: تُجْمَعُون.

الْمِهَادُ: الفراش.

آيَةٌ: علامة وعبرة.

فِئَتَيْنِ: طائفتين.

لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ: لَعِظَة لذوي العقول ولمن أبصرهم.

مصير الكافرين في الدُّنيا والآخرة

ويُتابع القرآن فَيُحـذِّر الكافرين المعرضين عن هـدى الله بما أُعِدَّ لهم من العذاب في الدُّنيا وسوء المصير في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُـمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَـيْئًا﴾ أي إن الذيـن جحدوا الحق وأنكروا نُبُوَّة محمد سواء أكانوا من أهل الكتاب أم كانوا من مشركي العرب لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من عذاب الله، سواءٌ أَنزل الله هذا العذاب بهم عاجلًا في الدُّنيـا أو أَخَّرَهُ إلى يوم القيامـة، وهذا ردٌّ على ما قاله مشركو العرب بما ذكره القرآن ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

ثم يُبيّـن الله نوع هذا العذاب لهـم ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ هُمْ وَقُـودُ النَّارِ﴾ أي إنَّ عذابهم يكون بأن تصبح أجسـادهم وقودًا لنار جهنم، وليس من عذابٍ أشد من ذلك ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِـنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي حال هؤلاء في الكفر في استحقاق العذاب كحال آل فرعون وهم أعوانه وبطانته، كما هو شأن من كان قَبْلَهُم من كفّار الأمـم الماضية كقوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذّبوا بالمعجزات والأدلة التي تُثبت صِدق الرسـل الذين أرسـلهم الله لهدايتهم، وكذَّبوا بما جاءوا به من عند الله، فكانت النتيجة كما ذكرها الله سـبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، والأَخْـذُ بالذنب هو العقاب عليه ﴿وَاللهُ شَـدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والله سبحانه عقابه شـديد لمن كَفَرَ به وكذَّب رُسُلَه بعد قيام الحجة عليه.

﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ**﴾ قل يا محمد للكفار ستحلّ بكم الهزيمة وسينتصر عليكم المؤمنون، وسَتُجمعون يوم القيامة للحساب، وتُساقون بعدها إلى جهنّم ﴿**وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ والمهاد هو الفراش اللين المريح، وهذا التعبير فيه تهكُّم وإذلال لهم، إذ هل في جهنم التي يُعذّبون بنارها فراش مريح لهم؟ والخطاب هنا موجَّهٌ إلى كفار مكة كما هو موجّه إلى اليهود الذين كانوا في جزيرة العرب.

وقد روي أنه لمّا تغلّب رسول الله على قريش في معركة بدر ورجع إلى المدينة المنوّرة جَمَعَ اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يُصيبكم الله بما أصاب قريشًا، فقالوا: يا محمد، لا يغرَّنَّك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا[1] لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن النّاس، وأنك لم تَلْقَ مِثْلنا فأنزل الله: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ**﴾ إلى قوله في الآية التالية: ﴿**لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ وبعد فترة قصيرة من هذا الوعد الإلّهي بانتصار المسلمين، سار رسول الله بجُنْده إلى يهود بني قينقاع، فحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة حتى استسلموا له، فأمر رسول الله ﷺ بإجلائهم عن المدينة المنوّرة، فساروا إلى بلدة أذْرعاتِ بالشام.

كما انتصر رسول الله على كل من ناوأه من العرب، أما بقية اليهود فحاربهم رسول الله بعد أن غَدَروا به، فقتل بعضهم وأجْلاهم جميعهم عن جزيرة العرب حتى لم يبق فيها أحد.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ**﴾ إنَّ هذا الوعد من الله لرسوله ﷺ بالنصر وتحققه بعد زمن قصير لهو من أقوى الأدلة على أن القرآن وحي إلّهي إذ لا يعلم الغيب إلا الله.

---

(١) الأغمار: الجهلاء الذين لم يجرّبوا الأمور.

التذكير بمعركة بدر

ثم يلفت الله الأنظار إلى ما جرى في معركة بدر بقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ أي لقد كان لكم علامة وعبرة على أنَّ الله معزّ دينه وناصر رسوله محمدًا، وهذه العبرة تتمثَّلُ في جماعتين الْتحمتا في القتال يوم معركة بدر ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ أي جماعة مسلمة تُقاتل في سبيل الله ونُصرة دينه وكان عددها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلًا مع قلّة في السلاح، وجماعةٌ كافرة وهم المشركون من قريش وكان عددهم تسعمئة وخمسين رجلًا مدجّجين بالسلاح ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي الفئة المسلمة رأت المشركين ضعف عدد المسلمين أي ستمئة وأَزْيَد، وقد قلّل الله عدد المشركين المقاتلين في نظر المسلمين ليجترئوا على قتالهم ولا يهابوهم، وقد وعد الله المسلمين بالنصر في حال كون عدد عدوهم ضعف عددهم حيث قال الله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] وقد تُفَسَّر الآية بأن الفئة الكافرة رأت الفئة المؤمنة مِثْلَيْ عدد الكافرين، وقد كان عدد الكافرين تسعمئة وخمسين مقاتلًا، فكان عدد المسلمين في نظرهم ألفًا وتسعمئة، وإنما أراهم الله ذلك ليهابوهم وليدخل الرُّعب في قلوبهم، وكان ذلك مددًا معنويًّا من الله للمؤمنين، كما أمدّهم الله بالملائكة بصورة آدميين ليقاتلوا معهم وبذلك انتصر المسلمون ﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي أن النصر منوطٌ بإرادة الله وليس بالكثرة العددية وكثرة السلاح، وإنما بمقدار الإيمان بالله وطاعته والثقة به وما ينشأ عن ذلك من قوة معنويّة للمحارب تساعد على النصر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ أي إن في غلبة الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة لَعِظة لذوي العقول السليمة القابلة للاعتبار بأن النصر من عند الله.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ
ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ
مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ
وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

شرح المفردات

زُيِّنَ: حُسِّنَ.

الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ: المال الكثير.

الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ: الراعية في المرعى أو الخيل الحسان.

الأَنْعَام: الإبل والبقر والغنم.

الْحَرْث: الزَّرع.

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: ما يُتمتع به في الدنيا زمنًا قليلًا.

الْمَآب: المرجع.

الْقَانِتِينَ: الطائعين لله الخاضعين له.

الأَسْحَار: جمع سَحَر، وهو آخر الليل قُبيل الفجر.

شهوات الدنيا والحرص عليها

ثم ينتقل القرآن إلى بيان أن الاستغراق في ملذّات الحياة ومشتهياتها والاندفاع في تحصيلها، من دون التمسُّك بالقِيَمِ الروحيَّة يُبعدان الإنسان عن ربّه ويؤدّيان به إلى الخسران، قال الله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ أي حُسِّن للناس حُبُّ الشهوات، والشهوات: جمع شهوة، وهي لذّات النفس ورغباتها فيما تُحبه وتُريده.

ولكن مَنِ المُزَيِّن للشهوات والمحسّن لها؟ قيل: هو الله سبحانه للابتلاء والاختبار، والإسلام لا يمنع مِنَ الميل إلى الشهوات في حدود الاعتدال والحق، ولكن يمنع من المبالغة فيها بحيث تطغى على كل صفات الخير في الإنسان بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ثم ذَكَرَ القرآن الشهوات التي يميل إليها الإنسان وأولها: **النِّساء**، وهنّ أكثر ما يرغب فيه الرجال لما أَوْدَعَ الله فيهم من غريزة جنسيّة، ولِمَا خصَّ الله به النساء من جمال وجاذبية وإغراء، والرسول محمد ﷺ اعترف بهذه الرغبة الطبيعية إلى النساء فقال: «حُبِّبَ إلَيَّ من دُنْياكم ثلاث: الطيب، والنِّساء، وجُعِلَتْ قُرَّة عَيْني في الصّلاة»(١). وليست الشهوات مقتصرة على الرجال فالنساء يشاركنهم في شهوة الجنس، وهذه الرغبة المتبادلة بين الرجال والنساء جعلها الله لبقاء النوع الإنسانيّ عن طريق الزواج الشرعي الذي يحيطه الحب والرحمة. وحُبُّ النساء ليس شرًّا، وإنما الشرّ في إقامة علاقات معهن غير شرعية كالزنا الذي يغضب الرب، وما ينشأ عنه من أضرار اجتماعية وفردية، والوقوع في حبائل

(١) أخرجه الإمام أحمد.

النساء الساقطات اللاتي يستنزفن من الرجال أموالهم وصحتهم، ويقضين على ما ينتظرهم من مستقبل زاهر، ولقد حذَّر النبي ﷺ من هذا الصنف من النساء بقوله: «ما تَرَكْتُ بعدي فِتْنَةً أضَرُّ على الرِّجالِ من النِّساء»(١).

وإذا كان في المجتمع نساء يتمثَّل فيهن الشرّ فهناك صِنْفٌ من النساء يكُنّ سبب سعادة الإنسان، وفي هذا يقول النبي محمد ﷺ: «الدُّنْيا مَتَاعٌ، وخير متاعها المرأة الصالحة: إنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإنْ أمَرَها أطاعته، وإن غاب عنها حَفِظَتْهُ في نفسها وَمَالِهِ»(٢).

والبنين: ثم يأتي بعد النساء من الشهوات التي ذكرتها الآية: حُبُّ البنين، فهن فلذات الأكباد، وقرّة أعين الوالدَيْن، فقد أوْدَعَ الله في الوالِدَيْن شعورًا وجدانيًا بأن الولد قطعة منهما، وصدق القائل:

إنما أولادنا أكـ ـبادنا تمشي على الأرض

والأولاد لهم وَقْعٌ جميل أخّاذ في نفوس والديهم، وبالأخص في طفولتهم لبراءتهم، ولما يصدر عنهم من تَصَرُّفات وحركات محبّبة إلى النفوس، ونطق رائع يأخذ بمجامع القلوب، وصَدَقَ الله إذ قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما أن الأبناء هم أمل والديهم في المستقبل لتقديم العون لهم عندما يبلغون سِنّ العجز والشيخوخة.

ويُتابع القرآن ذكر الشهوات المحبّبة إلى النفوس: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ والقناطير: جمع قِنْطار، وهو المال الكثير، وقد قيل: القنطار عند العرب هو وزن لا يحد، و﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ تعبير للمبالغة في كثرة المال كما يقال: ألوف مُؤَلَّفة، وقيل: ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ بمعنى المضاعفة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

وقد أسرف بعض الناس في حُبّهم للمال حتى أصبح معبودهم وهمّهم الوحيد في الدُّنيا، يسعون إلى جمعه وتكديسه من أي طريقٍ كانت شريفة أو مذمومة، وسواء كان الكسب حلالًا أو حرامًا، وحُبُّهم للمال جعلهم يَبْخلون به ولا يُنفقون منه إلا بشقّ الأنفس، وهذا ما سبَّب لهم الشقاء بدلًا من السعادة، وصَدَقَ النبي محمد ﷺ حينما قال: «لو كان لابنِ آدَمَ واديان مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى ثالثًا، ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابن آدم إلّا التراب»(١).

وطلب المال ليس شرًّا مطلقًا، بل قد يكون خيرًا لِسَدِّ العَوَزِ والإنفاق على الأهل ووجوه البرِّ. ثم تذكر الآية بقية الشهوات: ﴿**وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾.

﴿**وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ**﴾: وهي الخيل المتناهية في الحُسْنِ، وقيل: هي التي ترعى في الأَودية، وقيل: هي المرسلة وعليها راكبوها.

والخيل كانت وما زالت محبّبة إلى كثير من الناس يتنافسون في اقتنائها على الرغم من اختراع صنوف المركوبات، كما أن الخيل كانت قديمًا أداةً من الأدوات التي يعتمد عليها الجنود في قتالهم للأعداء.

﴿**وَالأَنْعَامِ**﴾: وهي الإبل والبقر والغنم لأن الإنسان في حاجة شديدة إليها لطعامه وملبسه وسَفَرِه بواسطة الإبل التي كان الناس قديمًا يعتمدون عليها في أسفارهم. هذا وإن للأنعام منظرًا خلّابًا وهي ترعى في الجبال والسهول لكل من يتأملها.

﴿**وَالْحَرْثِ**﴾: هو الزرع سواء أكان حبوبًا أم بقلًا أم شجرًا مثمرًا، وإنه لمنظر يبعث المتعة للعين، والسرور في القلب، أن ترى أمامك على مَدّ النظر

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

سهولًا تموج بالزروع المختلفة وتكتسي بالأشجار المثمرة المتنوعة، ينتظر أهلها أوان قطافها ليجنوا منها رزقًا حسنًا وغلالًا وافرة.

ثم ختم الله هذه المشتهيات المذكورة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمتاع: ما يتمتع به الإنسان، ومُتَعُ الحياة الدُّنيا مهما كثرت وتلذَّذ بها الإنسان فهي إلى زوال ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والمآب: المَرْجِع، والمرْجع الحسن عند الله هو نعيم الجنَّة.

وبعد أن ذَكَرَ الله سبحانه شهوات الدنيا التي لا تدوم، ذَكَر مُقابلها سعادة الآخرة الدائمة التي هي خير من شهوات الدُّنيا الزائلة والتي خَصَّها الله لعباده الصالحين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي قُل يا محمد لهؤلاء الذين استحوذت عليهم شهوات الدُّنيا: أَأُخبركم بخيرٍ وأفضل لكم من متاع الدُّنيا وشهواتها؟ أن تَتَّقوا ربّكم بالخوف منه وتطيعوه بأداء فرائضه وأجتناب معاصيه فتنالوا في الآخرة جنَّات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في نعيمها الذي لا يزول، لا يشوبكم كدر بخلاف المنعّمين في الدُّنيا، فإن نعيمهم إلى زوال ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي وللمتقين أيضًا في هذه الجنان زوجاتٌ مُطَهَّراتٌ من الأدناس الحِسِّية والخلقيّة وبذلك يحصل بهن الأُنس والسعادة، ولهم فوق ذلك ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فلا يسخط الله عليهم بعد ذلك أبدًا، ورضاء الله هو أعظم النعم وأجلّها. وقد جاء في الحديث النبوي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة يوم القيامة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربّنا وسعدَيْك، فيقول: هَلْ رَضِيتُم؟ فيقولون: وما لَنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أُعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا ربّنا، وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول الله سبحانه: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسخَطُ عليكم بعده أبدًا»(١).

---

(١) متفق عليه.

ثم يختتم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي أنه سبحانه عليم بأحوال عباده، فلا يخفى عليه شيء من أفعالهم، وسيكافئهم على حسناتهم، ويعاقبهم على سيئاتهم.

ويتابع القرآن فيذكر صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي إننا صَدَّقنا بك يا رب، وإنك الواحد الذي لا شريك لك، وصدَّقنا برسولك محمد والرسل الذين كانوا قبله بكل ما جاءوا به من عندك من الهُدَى، فاستر ذنوبنا بعفوك ولا تعذبنا بها، وجنِّبنا عذاب النار يوم القيامة التي أعددتها للظالمين من عبادك.

ثم عدَّد الله بعض صفات المتقين الذين نالوا سعادة الآخرة وهم: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾: هم الذين صبروا على الفقر والشدّة، وصبروا على ما ينال الجسم من مرض، وصبروا على أداء الطاعات وترك المعاصي ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: وهم الذين صَدَقوا في أقوالهم ومعاملاتهم مع الناس، وَصَدَقوا في ما عاهدوا الله عليه، والصدق هو الذي يبثّ الثقة بين أفراد الأُمّة. ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: وهم المُطيعون لله والمُقِرُّون له بالعبودية ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: أي المنفقين أموالهم سواء في الزكاة التي أوجبها الله عليهم أو المنفقين على ذَوِيهم وأرحامهم وفي سبيل الله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ والأسحار: جمع السَّحَر، وهو الوقت الذي يكون قُبَيْل الفجر، وخصَّ الله وقت السحر بطلب المغفرة منه لأن النفوس في هذا الوقت تكون أصفى وأهدأ، لأنها تكون بعيدة عن ضوضاء الحياة ومشاغلها بحيث يستحضر الإنسان ما اقترف من ذنوب وآثام فيندم عليها ويطلب من الله العفو عنها. ومن المفسرين من ذهب إلى أن الاستغفار هنا هو الصلاة في الأسحار.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

شرح المفردات

قَائِمًا بِالْقِسْطِ: أي أن الله قائم بالعدل في تدبير الكون.

أُوتُوا الْكِتَابَ: هم اليهود والنصارى الذين أُعطوا التوراة والإنجيل.

بَغْيًا بَيْنَهُمْ: ظُلمًا وحسدًا قائمًا فيهم.

الكون يشهد بوحدانية الله

وبعد أن أثنى الله على المؤمنين فيما سبق عندما قالوا: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا**﴾ بَيَّنَ الله سبحانه بعد ذلك أن الدلائل على وجوده ووحدانيته في هذا الكون ظاهرة لا مجال للريب فيها، قال الله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ أي بيَّن الله وأعلم عباده بأنه هو الإلَه الحقّ ولا إلَه في الكون سواه. وشهادة الله على وحدانيته مراد بها بأنه خلق الكون وجعله دليلًا على وحدانيته، وذلك واضح للمُتأمِّل في دقَّة النّظام السائد فيه بحيث لم يطرأ عليه خلل ولا فساد منذ أن خلقه الله، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] والضمير في ﴿فِيهِمَآ﴾ يرجع إلى السَّماوات والأرض كما هو مذكور في الآية.

وجاء في القرآن في هذا المعنى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وبعد شهادة الله على نفسه بوحدانيته، أتبع ذلك بشهادة ملائكته وأصحاب العلم بقوله: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ﴾ فالملائكة هم أصفى مخلوقات الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وشهادة الملائكة بوحدانيته لم تكن حاصلة من النظر في الأدلة على ذلك كالبشر، وإنّما حصل علمهم من التجلّي الإلَهي عليهم، وما انكشف لهم من عظمته وجلاله وقدسيّته.

وكذلك شهد بوحدانيّة الله أهل العلم المتخصّصون في كل مجال من مجالات الحياة، وفي ذلك فضيلة لأهل العلم وإشادة بعلوّ منزلتهم حيث قَرَنَهم اللهِ بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانِيَّته، لأنهم بما أُوتوا من النظر العميق والتحقيق الدقيق يقفون على أسرار الإبداع الإلَهي فيما خلق وأبدع بما لا يظهر لغيرهم، ولهذا نرى أنَّ الله أثنى عليهم في موضع آخر من القرآن حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فالله سبحانه شَهِدَ على نفسه وشَهِدَ معه الملائكة وأُولو العلم بأنه قائم بالعدل في تدبير أمر خلْقِهِ فيما قسَّم بينهم من الأرزاق والآجال وحكم بينهم بالثواب والعقاب، وأنه انفرد بالألوهيّة لا إلَه غيره، وأنه سبحانه هو القويّ الغالب لا يُنازعه في مُلكه أحد، وأنه سبحانه الحكيم الذي يَضَعُ كل شيء في موضعه الصحيح عن علم وحكمة وتدبير.

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ هذه الجملة مستأنفة مؤكّدة للجملة التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ فإنْ قُلْتَ: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته إن قوله تعالى

﴿لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو توحيدٌ لله، وقوله ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ هو وصفه بالعدالة، فإذا أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْـلامُ﴾ فقد أخبر أنَّ الإسلام هو العـدل وتوحيد الله، لِذا نرى القرآن يجعل الإسـلام في مقابل الشـرك بالله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

ومعنـى ﴿الدِّين﴾ الطاعة والجـزاء، ويُطلق على الملَّـة وعلى مجموع العقائـد والأعمال التي يبلّغها كل رسـول مـن عند الله إلى قومه، ويبشّـر القائمين بها بالنعيم في الآخرة، وينذر المعرضين عنها بعذاب الله الشـديد. والدِّين المرضيّ عنه عند الله هو الإسـلام كما جاء فـي القرآن: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والإسـلام في اللغة يأتي بمعانٍ ثلاثـة: (الأول) هو الانقيـاد والمتابعة، (والثاني) بمعنى الصُّلح والأمان، (والثالث) بمعنى الإخلاص لله في العبادة.

فالإسلام هو الانقياد لله واتّباع ما أَنزل الله على رسوله محمد من الشرائع والأحكام، جاء في القرآن: ﴿...قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

كما أن الإسـلام هو الإخلاص لله في العبادة، من قولهم: سـلم الشـيء لفلان أي خَلُصَ له، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

ويأتي الإسلام بمعنى الصلح والسلامة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والإسلام على تلك المعاني التي سـبق ذِكْرُها يتناول جميع الملل التي

جاء بها الأنبيــاء، فكل الأنبياء في نَظَــرِ القرآن هم مســلمون، وكلهم بُعِثوا بالإســلام، وكلهم كانوا مُوَحِّدِين لله تعالى كما جاء في القرآن ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبيــاء: ٢٥]، غير أن الشــرائع تختلف بحســب تطور الأُمم في مختلف العصور كما جاء في القــرآن ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨] وبعد هذا الاســتطراد نذكر بقية الآية:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي أن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اختلفوا فــي كون محمد ﷺ نبيًا بعد أن عَلِموا بأن ما جاء به محمد من الدِّين هو الحق الذي لا باطل معه، وبعد بيان صِفَته ونبوّته في كتبهم التي تنطبق عليه، كمــا اختلف الذين أُعطوا الإنجيل في أمر عيســى من بعد ما جاءهم العِلْمُ بأن اللهَ واحدٌ، وأن عيســى عبد الله ورســوله، كما اختلف أهل الكتاب فيما بينهم فقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليســت اليهود على شيء، كما افترقت كل طائفة فيما بينهم فِرَقًا متعدّدة كل فرقة تحسب أنها على حقّ وتكفّر الأُخرى، وسبب هذا الخلاف بيّنه الله بقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا، وظلمًا، وطلبًا للرِّياسة، وتعدّيًا بعضهم على بعض ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ومن يجحد بآيات الله فلينتظر حساب الله السريع، وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ
اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ
﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

شرح المفردات

حَاجُّوكَ: جادلوك ونازعوك الحجة.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ: أخلصت ذاتي لله تعالى.

الأُمِّيِّينَ: المراد بهم من لا يكتبون ولا يقرأون من مشركي العرب.

أَأَسْلَمْتُمْ: هل دخلتم في الإسلام وأفردتم الله وحده بالعبادة.

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ : أي ليس عليك يا محمد إلّا تبليغ رسـالة ربك، ولن يضرّك كفرهم.

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ: يأمرون بالعدل.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت أعمالهم فلا ثواب لها.
أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ: هم أحبار اليهود الذين عندهم قسم من التوراة.
يَتَوَلَّى: يُعرض.
وَغَرَّهُمْ : وخدعهم.
يَفْتَرُونَ: يكذبون.
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ: ولاقت كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر.

الخضوع لله والإخلاص له

وبعد أن ذكر الله أسباب الاختلاف الذي حصل بين أهل الكتاب، أمر الله رسوله محمدًا بأن يدعوهم إلى الإسلام لأن فيه الهداية لهم مما هم عليه من ضلال، مُحذِّرًا إيّاهم من السير على خطى أسلافهم الذين كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله، قال تعالى:

﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ**﴾[1] فإن جادلك يا محمد اليهود والنصارى في الدِّين بعد أن أقمت الحجج على بطلان مزاعمهم ﴿**فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾ فقل يا محمد لهم: أخلصتُ ذاتي لله وخضعتُ له، فلا أعبدُ غيره، ولا أتوقّع الخير إلّا منه، ولا أُشرك به غيره، وكذلك من اتبعني من المؤمنين فقد أسلم وجهه لله وخضع له، وعبّر القرآن عن ذات الإنسان بالوجه لأنه أكرم جوارح بني آدم وبه غالبية الحواسّ ﴿**وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾ وقل يا محمد للذين أُعطوا التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى، وللأميّين وهم مشركو العرب الذين عُرفوا بهذا الوصف، لأن الأُميّة كانت تغلب عليهم، قل يا محمد لهؤلاء جميعًا: ﴿**ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾ أي هل خضعتم لله وأخلصتم له العبادة؟ والاستفهام هنا في معرض التقرير

(١) حاجّوك: المحاجّة هي أن يطلب كل واحد أن يردَّ الآخر عن حجته.

والمقصود منه الحضُّ على الدخول في الإسلام ﴿**فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا**﴾ فإن دخلوا في الإسلام فقد حصلت لهم الهداية إلى الدِّين الحق ﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**﴾ وإن أعرضوا عن الدخول في الإسلام فما عليك يا محمد إلّا إبلاغهم رسالة ربك وليس عليك إرغامهم على الإسلام ﴿**وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ أي وهو سبحانه بصير بسلوك العباد لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

جزاء قتل الأنبياء

ثم ينذر القرآن الذين يجحدون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ**﴾ أي إنَّ الذين يجحدون حجج الله الدالة على وحدانيّته، ويجحدون نبوّة محمد وما أُنزل عليه من آيات القرآن الكريم ﴿**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ وهم اليهود الذين كانوا يقتلون أنبياءهم الذين يدعونهم إلى الهدى، فقد قتلوا من الأنبياء زكريا وابنه يحيى عليهما السلام كما قتلوا الكثير من أنبياء الله، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فهو معدود عليهم بإقرارهم قتله، وإن كانوا كاذبين في زعمهم إذ نجّاه الله وَرَفَعَه إليه.

وإنَّ وَصْفَ الله قتلهم ﴿**بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ هو للمبالغة في وصف إجرامهم والاستنكار على قتلهم الأنبياء، مع أن قتلهم لا يمكن أن يكون بحقّ أبدًا، لأن الأنبياء لا يرتكبون المنكرات إذ هم معصومون عن اقترافها.

﴿**وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ**﴾ كما أنهم كانوا يقتلون الذين يأمرونهم بالعدل فيما أمر الله به ونهى عنه من أتْباع الأنبياء ﴿**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ أي فأخبرهم يا محمد أن لهم عند الله عذابًا ألمه شديد، والتبشير يقالُ للخبر السارّ وهنا يستعمل الله البشارة بالعذاب على سبيل السخرية بهم والإنذار لهم بسبب أفعالهم ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**

﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أولئك المتصفون بتلك الصفات الشنيعة بطلت أعمالهم في الدنيا وخلت من الثمرة التي كانوا يؤملون من ورائها فلم ينالوا ثناءً ومدحًا من الناس بل ذمًّا واستهجانًا لأعمالهم وأما في الآخرة فسيعاقبون ويُلعنون جزاءً لهم على أعمالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي وليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله وينقذهم منه. وفي هذا تحذير لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ من السّير على طريقة أسلافهم في الإجرام.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ انظر يا محمد وتعجَّب من حال هؤلاء اليهود الذين يحفظون بعض ما جاء في التوراة، فما عند اليهود هو جزء منها وليس كلّها، وهذا الجزء دَخَلَهُ التحريف والتبديل لأن التوراة كُتِبت بعد موسى بخمسمئة سنة وبقي في هذا الجزء البشارة بمجيء محمد وبعض الأحكام الشرعية ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي أن النبيّ محمدًا كان يدعو اليهود إلى الرجوع إلى كتابهم التوراة ليحكم بينهم في ما تنازعوا فيه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ التولِّي: هو الإعراض وقد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ والحال أنهم معرضون عن الاستجابة لحكم التوراة، فإن قيل: التَّوَلِّي هو الإعراض فما فائدة تكراره؟ أُجيب عن ذلك بأنه للتأكيد، وقيل: يتولون بأبدانهم ويُعرضون عن الحقّ بقلوبهم.

هذه الآية نزلت بسبب هو أن رسول الله محمدًا ﷺ دخل بيت المِدْراس(١) على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله، فقال له نُعَيم بن عَمْرو، والحارث ابن زيد: على أيّ دِينٍ أنت يا محمد؟ فقال رسول الله: إني على مِلَّةِ إبراهيم، فقالا: فإنَّ إبراهيم كان يهوديًا، فقال رسول الله: فهلمّوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا فنزلت الآية:

(١) المدراس: مكان تدارس اليهود للتوراة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك الإعراض من اليهود عن الاستجابة لكتاب الله هو بسبب زعمهم أنهم لن يصيبهم عذاب النار في الآخرة لعصيانهم لله إلّا أيامًا معدودات، والمراد بها أيام عبادتهم للعجل في غيبة موسى لتلقي ألواح التوراة من ربِّه، أو لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وأطمعهم في دينهم وخداعهم ذلك الغرور الباطل وما كانوا يختلقون من الكذب من أنهم لن يُعَذَّبوا في الآخرة على جرائمهم إلّا أيامًا قليلة. ويُفهم من هذا أن كل من يستخفّ بِوَعيد الله على عصيانه إيّاه وينغمس في المعاصي والمنكرات زاعمًا أنّ الله لن يعذّبه على سيئاته اتكالًا على شفاعة الشافعين من الأنبياء والصالحين، وعلى عفو الله ومغفرته، غير تائبٍ من ذنوبه، فإنّه بذلك يكون من الخاسرين في الآخرة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في الكلام هنا حَذْفٌ تقديره: فكيف يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وأعرضوا عن كتاب الله، إذا جمعهم الله يوم القيامة، يوم الجزاء على أعمالهم، وهذا اليوم ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه، قال الله ذلك للتأكيد على حصول هذا اليوم لأن من اليهود وغيرهم طائفة تنكر البعث ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ وأُعطيت كُلُّ نفسٍ جزاء ما عملته في الدنيا من خَيْرٍ أو شرّ ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يبخس المحسن من ثوابه، ولا يُعاقَب المسيء بغير جُرمه.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

شرح المفردات

الْمُلْك: المراد به هنا الحكم والتصرّف المطلق في أمور الناس.

تُؤْتِي: تُعْطي.

تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ: أيْ تكوّن الأحياء من المواد التي لا حياة فيها كالهواء والماء والغذاء والتراب.

عظمة القدرة الإلَهية

ثم تنتقل بنا آيات القرآن إلى وصف قدرة الله العظيمة في أحوال الأمم والناس وفي بعض المظاهر الكونيّة التي تتكرر كل يوم. وفي بيان القدرة الإلَهية ما روي أن الرسول محمدًا وعد أمته حين افتتح مكة مُلك فارس والروم فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد مُلك فارس والروم وهم أعزّ وأمنع من ذلك؟ ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى يطمع في مُلك فارس والروم؟ فأنزل الله قوله على رسوله محمد ﷺ:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ أي قل يا محمد: يا ألله أنت مالك المُلْك على الإطلاق مُلكًا حقيقيًا تتصرف فيه كما تشاء، إيجادًا، وإحياءً، وإماتةً وتعذيبًا

وإثابةً، من غير شريك لك ولا ممانع، فأنت يا ألله مالك السماوات والأرض، ومالك جميع الناس وما ملكوا، وأنت مالكهم في الدنيا كما أنت مالكهم في الآخرة حين تبعثهم من قبورهم أحياء، وحين ينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه كل من في الأرض ومن في السماء ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تعطي المُلك من تشاء من عبادك فتملّكه وتسلّطه على من تشاء ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ وتزيل المُلْك مِمَّن تشاء من عبادك ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بإعطائه المُلْك والسلطان وبسط القدرة له ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بنزع المُلك عنه وتسليط عدوّه عليه ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ والمراد باليد هو القدرة، أي بقدرتك يا الله تحصل كل هذه الأمور والخيرات ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنك يا رب بالغ القدرة على كل شيء في هذا الكون.

نظرة على الأمم عبر التاريخ التي بسطت سلطتها ونفوذها على غيرها من الأمم، وعلى الملوك والرؤساء الذين تربّعوا على سدّة الحكم تجعلنا نرى هذه الحقيقة ماثلة للعيان، فكم من الأمم الظالمة انترع مُلكها على يد غيرها من الأمم وأذاقوها ألوانًا من الذلّ والهوان، وكم من الملوك والرؤساء الطغاة زالت سلطتهم وأصبحوا أذلاء بعد أن كانوا أعزاء، وهذا كله يشهد بأن الله وحده هو العزيز القهار، يؤتي المُلك من يشاء وينزع الملك مِمَّن يشاء.

ثم يوجه القرآن الأذهان إلى عظمة القدرة الإلَهية في بعض المظاهر الكونية: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الولوج: هو الدُّخُول، هناك تفسيران لهذا النص، الأول: نُقصان الليل في زيادة النهار، ونقصان النهار في زيادة الليل يتعاقبان على ذلك على مرور الأيام وفصول السَّنَة، فيكون الليل أحيانًا أَطْول من النهار ويكون النهار أحيانًا أطول من

الليل. والمعنى الثاني: قد يُراد به تعاقب الليل والنهار، كأن زوال أحدهما دُخولٌ في الآخر والتعبير القرآني بلفظ (إيلاج) يُصَوِّرُ مظهر الليل والنهار على حقيقتهما، فالليل لا ينقلب دفعة واحدة إلى نهار، وكذلك النهار لا ينقلب دفعةً واحدةً إلى ليلٍ، فالنهار يدخل في الليل شيئًا فشيئًا حتى يختفي الظلام ويبدأ نُور الصباح، وكذلك الليل لا يجيء دفعةً واحدةً بل إنَّ ضوء النهار يضعف شيئًا فشيئًا حين غروب الشمس ويحل بعد ذلك الظلام. وتعاقب الليل والنهار ينشأ من دوران الأرض حول نفسها الذي هو آية على عظمة الخالق الذي أبدع هذا الكون على هذا الشكل المُعجز الذي يبهر العقول.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فدورة الحياة والموت على سطح الأرض هي المعجزة التي أودعها الله سبحانه في خَلْقِه. فالإنسان مثلًا ينمو وتدبّ فيه الحياة وتستمر من الغذاء الذي يأكله من النبات ولحوم الحيوان، ويتحول هذا الغذاء إلى عناصر ومواد من نوع جسمه والغذاء عنصر ميت. وإضافة إلى الغذاء الذي يأكله الإنسان وهو شيء ميت فإن بقاء الإنسان حيًّا يقوم أيضًا على الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي. وكذلك الهواء الذي يتنفس منه، والطاقة الشمسيّة التي تبعث فيه الحرارة والدِّفْء، وهذه كلها عناصر ميتة تنشأ عنها الحياة، وهكذا يخرج الله الحياة في سائر أحياء الأرض، أما إخراج الميت من الحي في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فالمراد به إبطال الحياة من الحي بأي سبب أراده الله وعودته إلى أصله: وهو الماء والتراب.

ويختم الله الآية بقوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي ترزق من تشاء من عبادك رزقًا واسعًا لا يُعدُّ لكثرته، وهذا ما نشاهده في هذه الحياة، فكم من أُناس نشأوا فُقراء وأصبحوا في سنين قليلة من أصحاب الملايين.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ
وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا
فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ
﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

شرح المفردات

أَوْلِيَاء: أصدقاء أو أنصارًا وأعوانًا.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ: متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين.

فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ: : فليس من دين الله في شيء.

تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً: تخافوا من جهتهم أمرًا يجب اتّقاؤه.

يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ: يخوّفكم الله غضبه وعقابه.

الْمَصِيرُ: المرجع.

مُحْضَرًا: مُشاهدًا لها في صحف الأعمال التي دوَّنتْها الملائكة.

أَمَدًا بَعِيدًا : مسافة بعيدة.

يُحْبِبْكُمُ اللهُ: يثيبكم الله.
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ : يتجاوز عنها ويعفو عنها.

لا يخفى على الله شيء من أعمال الإنسان

وبعد أن بيَّن القرآن في ما سبق أن الله بيده المُلك والسلطان المطلق في تصريف الكون، بعد هـذا البيان فمن غير المنطق أن يعتزّ المسلم بغير الله أو أن يلتجئ إلى غيره، ولكن بعض المسلمين الذين لم يترسّخ الإيمان في قلوبهم كان يقع في خاطرهم اغترار بعزّة الكافرين وقوتهم فيركنون إليهم، ويبنون معهم صداقات للحصول على مكاسب منهم، لذا جاءت الآية التالية تنهى عن موالاة الكافرين. قال الله تعالى:

﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أولياء: جمع وَليّ، والموالاة تُطلق لُغَةً على الصداقة والنُّصرة وتولّي أمر الغير، والمعنى: لا يحلّ للمؤمنين أن يتَّخذوا الكافرين أولياء ونُصَراء متجاوزين المؤمنين، بل عليهم أن يُراعوا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وأن يقدّموها على ما بينهم وبين الكفّار من قرابة أو صداقة، لأن غير المؤمنين لا يمكن أن يراعوا حقوق المؤمنين حقّ الرعاية.

والموالاة الممنوعة هي التي يكون فيها خذلان للدِّين وإضاعة لمصالح المسلمين، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وأنواع المعاملات الدنيوية فلا يدخل في ذلك النهي.

وفي أسباب نزول هذه الآية التي نحن في صددها، أنَّ عُبادَةَ بن الصامت كان له حلفاء من اليهود، فقال يوم معركة الأحزاب: يا رسول الله، إنَّ معي خمسمئة من اليهود، وقد رأيت أن أَستظهر بهم على العدو، فنزلت هذه الآية.

وروي أن بعض اليهود كانوا يخالطون نفرًا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال لهم بعض صحابة رسول الله: اجتنبوهم واحذروا أن تطلعوهم على أسراركم وخبايا أنفسكم حتى لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر، فأنزل الله هذه الآية.

﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ**﴾ أي ومن يتخذ الكافرين أعداء الإسلام أولياءَ وأنصارًا من غير المؤمنين، فقد برئَ اللهُ منه بارتداده عن دينه ودخوله في مِلَّة الكفر ﴿**إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ إلّا أن تكونوا في سلطانهم وتحت حكمهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاء والطاعة بألْسنتكم وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على الإضرار بمسلم.

﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾ ويخوِّفكم الله من نفسه أن تركنوا إلى معاصيه أو توالوا أعداءه ﴿**وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ**﴾ وإلى الله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم حين يحشركم يوم القيامة لمجازاتكم على أعمالكم، فإن الله شديد العقاب لمن يعصيه ويخالف أمره.

﴿**قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ**﴾ أي قل يا محمد للذين أمرتهم أن لا يتخذوا الكافرين أولياء من غير المؤمنين، قل لهم: إن تخفوا ما في صدوركم من موالاة الكفّار، فتجعلوه سرًّا أو تعلنون ذلك بألسنتكم وأفعالكم يعلمه الله ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ ويعلم الله ما في السماوات وما تشتمل عليه مِنْ بلايين النجوم والكواكب وغيرها، وما في الأرض من كائنات حية ونبات وجماد.

﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ والله سبحانه بالغ القدرة على كل شيء من الأمور، لا يتعذّر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه شيء طلبه. فالله سبحانه

أثبت لنفسه العلم بالكون والقدرة على كل شيء، وهذا معناه أنه متمكّنٌ من تنفيذ وعيده للذين يعصون أمره.

وما أعلنه القرآن من أنَّ الله يعلم ما خفي وما ظهر من أُمور الناس هو حثٌّ لهم على مراقبة أنفسهم، والحؤول بينها وبين الوقوع في الزلل والعصيان لله، لأنهم سيحاسَبون على ما فعلوه سِرًّا وعلانيةً، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أي يوم القيامة تجد كل نفس ما عملت من خير في الدنيا ثابتًا واضحًا، كأنه أُحْضِرَ من الدنيا إلى الآخرة، أو بمعنى أنَّ ملائكة الله أحضرت أعمالهم الخيّرة المدوّنة في الصحف، وهذا تطمين لهم بأن أعمالهم الخيّرة لم تذهب سُدًى، بل سينالون الثواب عليها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي والنفس التي عملت السُّوء في حياتها تتمنى أن يكون بينها وبينه زمن بعيد، لأن ما يخافه الإنسان يرغب أن يتأخر ويؤجّل أطول فسحة من الزمن ليشعر بالأمان، وهذا يكشف عما يختلج في نفوس المسيئين من الألم والحسرة على ما فعلوه في دُنياهم ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ويخوّفكم الله سخطه وعقابه ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي ومن مظاهر رأفة الله ورحمته أن حذّر الناس من عصيانه لئلا يستحقوا عقابه، وأنَّ من شأنه سبحانه الرحمة والعفو، وليس من العدل في شيء أن يتساوى المحسن والمسيء.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ روي أن هذه الآية نزلت في وفد نصارى نجران لمّا قالوا: إنا نعبد المسيح حبًّا لله، وقيل: نزلت في أقوام زعموا على عهد النبي محمد أنهم يحبّون الله مكتفين بذلك فأمروا أن يجعلوا لقولهم تصديقًا من العمل. وقد تتعدّد أسباب نزول القرآن، والعبرة

مع هذا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والمعنى: قل يا محمد إن كنتم كما تزعمون تحبّون الله وتعظمون المسيح حبًا منكم لربّكم، فحققوا قولكم بأتِّباعي فيما جئت به من الهدى، فإنّ ذلك علامة صدقكم في محبتكم لله، فإن اتبعتم ما جئت به من عند الله من الهدى وصدّقتم بأني رسول الله إليكم يحببكم الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويصفح ويعفو عما مضى من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله سبحانه كثير الغفران لذنوب عباده التائبين منها، رحيم بهم.

ومحبة الإنسان لله تظهر في تعظيمه له وإجلاله، وإيثار طاعته على غيره، واتِّباع أوامره واجتناب نواهيه. أما محبّة الله للإنسان فتكون برضاه عنه، وثوابه له بسبب طاعته له، والعفو عما اقترف من ذنوب، ومن غفر الله له فقد أزال عنه العذاب في الآخرة، وأسكنه جنّته.

وتأمّل آثار محبة الله في الإنسان بما ذكره الرسول محمد ﷺ بقوله: «إن الله إذا أَحَبَّ عبدًا دعا جبريل فقال: إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّه قال: فيُحِبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماء فيقول: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فيحبُّهُ أهل السَّماءِ، ثُمَّ يوضع له القَبولُ في الأرضِ...»[(١)]

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ قل لهم يا محمد: أطيعوا الله بأتّباع كتابه وهو القرآن الذي أنزله عليّ واتّبعوني لأني رسول الله إليكم، بأتّباع سُنَّتي وما جئتُ به من عند ربكم من الهدى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن طاعة الله وطاعتك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإنَّ الله لا يحب المعرضين عن طاعته، وعن طاعة رسوله محمد بل يبغضهم ويمقتهم، وقد وصفهم بالكفر بسبب إعراضهم، ومن كفر فقد استوجب لنفسه الطرد من رحمة الله.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ
ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ
أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ
أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا
ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ
عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ ﴾

شرح المفردات

ٱصۡطَفَىٰٓ: أختار.

آلَ عِمْرَانَ: منهم عيسى وأُمّه مريم.

ذُرِّيَّةً: الذرية هي النسل.

مُحَرَّرًا: خالصًا للعبادة وخدمة بيت الله.

أُعِيذُهَا: أي ألوذ بك وألجأ وأُحصّنها بك.

الرَّجِيم: المطرود من رحمة الله.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا: أي قَبِل الرب مريم ـ في النَّذر ـ بدل الذكر.

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا: وأنشأها تنشئةً صالحةً.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا: الكافل هو الضامن والعائل ومن يقوم برعايته وحضانته.

الْمِحْرَاب: غرفة في بيت الله للعبادة.
أَنَّى لَكِ هَذَا: من أين لك هذا؟

الذين اصطفاهم الله والنشأة الطاهرة لمريم

وبعد أنّ بَيّن اللهُ في ما سبق من الآيات أنّ محبَّته لا تتمّ إلّا بطاعته واتّباع رسله الذين أَرْسَلهم لِهداية الناس، عَرَضَ في الآيات التالية أسماء بعض هؤلاء الرسل الذين فَضَّلهم الله على كثيرٍ من الناس فقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
فالله سبحانه اختار هؤلاء وجعلهم صفوة خلقه، وفَضَّلَهُم بالدِّينِ والنُّبُوَّة وهم:

آدم: وهو أبو البَشَر الذي جعله خليفته في الأرض وأَسْجَدَ له ملائكته.

ونوحًا: وهو الأب الثاني للبَشَر، فقد حَدَثَ على عهده ذلك الطّوفان العظيم فانقرض من السلالات البشرية من كفر بالله، أما نوح ومن آمن معه فقد نجَّاهم في الفلك، ونوح هو أوَّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض لهدايتهم وحرّم عليهم الزواج من البنات والأخوات والعمات والخالات.

وآل إبراهيم: والآل في اللغة: الأهل والقرابة. كما يقال آل للأتْباع وأهل الطاعة. ومن ذُرّية إبراهيم: إسماعيل وإسحاق والأنبياء من ذريتهما، ومن ذرّية إسماعيل خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

وآل عمران: إذْ جَعَلَ فيهم عيسى عليه السلام. وعِمْران هو والد مريم أُمّ عيسى، وينتهي نَسَبه إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

وهؤلاء الذين اصطفاهم الله واختارهم **﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** أي على عالَمِي زمانهم **﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾** أي ذرّية متشابهون في توحيد الله

والإخلاص له وطاعته سبحانه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده، عليم بضمائرهم فهو يصطفي من عباده من يعلم استقامته وإخلاصه، وجاء في القرآن: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ وامرأة عمران يُطْلَق عليها اسم حنَّة بنت فاقوذا، وكانت هذه السيدة عاقرًا لا تلد، وكانت تغبط النساء بما يُرزقن من الأولاد، فتحرَّكت عاطفة الأمومة في قلبها ولجأت إلى الله بالدعاء بأن يهب لها ولدًا، ونذرت إن حقّق الله رجاءها أن تجعل ولدها هذا مُحَرَّرًا: أي خالصًا للعبادة وخدمة بيت الله، وختمت دعاءها بقولها ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ أي فتقبل يا رب منّي ما نذرت لك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنك تسمع دعائي وتعلم نيّتي وإخلاصي لك.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ أي فلما ولدت بنتًا قالت متحسّرة حزينة: رَبِّ إني ولدتُ أُنثى، والأُنثى ما كانت تؤخذ لخدمة بيت الله ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي لا تظني أنَّ الذَّكَر الذي كنت تتمنين ولادته سيصل إلى مرتبة هذه الأُنثى التي سيكون لها شأن عظيم، إذ منها سيكون عيسى الذي ستلده من دون أب، ويجعله الله معجزة تدلُّ على كمال قدرته ونفاذ مشيئته ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ أي وليس الذكر الذي نذرته لله كالأنثى التي ولدتها، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه في العبادة والمكانة، إلّا أنَّها لا تصلح لخدمة بيت الله بسبب حُرْمَة اختلاطها بالرِّجال وما يعتريها من حيض، والذكر يصلح للخدمة بما يتمتع به من قوة دون الأنثى لأنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وقد اختارت امرأة عمران اسم مريم للمولودة تقرُّبًا بها إلى الله، لأن مريم في لغتهم معناها العابدة ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وإني ألتجئ إليك يا ربّ بأن تعصمها وذريتها من الشيطان المطرود من رحمتك. وقد عصم الله بهذا

الدعاء مريم وابنها من أن يمسّها الشيطان بوساوسه لعصيان الله. وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ مَوْلُودٍ إلّا والشيطانُ يمسّه حين يُولد فيستهلّ صارخًا مِن مَسِّ الشيطان إياه إلّا مَرْيَمَ وابنها»[١].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي رضيَ الله أن تكون مريم خالصة للعبادة وخدمة بيت الله كأحسن ما يكون القبول ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وتشبيهها بالنبات الحَسَن مجاز عن تربيتها بما يُصلحها في جميع أحوالها، فنشأت على التقوى والصلاح والعفّة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي وجعل الله زكريا كافلًا لها وملتزمًا بمصالحها لتقتبس منه الحكمة والعلوم الدينية وتقتدي به في سائر أحوالها.

وكان زكريا نبيًّا من أنبياء الله ومن ذرّية سليمان بن داود ومتزوجًا من خالة مريم. وهناك رواية تُلقي الضوء على كيفية كفالة زكريا لمريم، وهي أن (حنة) أُمّ مريم لمّا ولدتها حملتها إلى بيتِ الله ووضعتها عند الأحبار وقالت: دُونكم هذه التي نذرتها لله، فتنافسوا فيها بمن يكفلها، وأبوا إلّا القُرعَة، فانطلقوا إلى نَهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم، وبهذا وقعت القرعة على زكريا الذي قام بكفالتها بأمر الله على أفضل ما يرام.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ والمحراب الذي كانت فيه مريم هو غرفة عالية بُنيت لها في بيت الله لا يُصعد إليها إلّا بسُلَّم، وقيل: المحراب يطلق على ذات بيت الله، وقيل: المحراب هو ما يعبّر عنه أهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة في مقدَّم المعبد. فزكريا كان كلَّما دخل عليها للقيام بشأنها والإتيان بطعامها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي وجد عندها طعامًا، قالوا إنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء،

---

(١) متفق عليه، وأخرجه البخاري بهذا اللفظ.

فيعجب زكريا من ذلك ويسألها ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ أي من أَيْنَ لَكِ هذا الرِّزق النّادر؟ فتجيبه كما ذكر لنا القرآن: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ ثم أكّدت قولها بما يزيل العجب ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذه الجملة يُحتمل أن تكون من كلامها أو تكون كلامًا مستأنفًا من كلام الله سبحانه، فالله سبحانه يرزق من يشاء من عباده رزقًا وافرًا ليس له حدّ، ولا يُحصيه عدٌّ لكثرته، وخزائن الله لا تنفد من أي عطاء يخص الله به من يشاء من عباده.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

شرح المفردات

مِن لَدُنْكَ: من عندك.

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً: ولدًا صالحًا مباركًا، والذرية تطلق على الذكر والأنثى وعلى الولد الواحد والكثير.

سَمِيعُ الدُّعَاءِ: مجيب الدعاء.

الْمِحْرَاب: غرفة في بيت الله للعبادة.

بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ: تُطلق الكلمة على عيسى لأنه خُلِقَ بكلمة (كن) من الله فكان بشرًا.

وَسَيِّدًا: يطلق على الرئيس والحليم والشريف والفاضل.

حَصُورًا: هو الذي لا يأتي النساء تعففًا لا عجزًا.

أَنَّى: كيف.

وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ: عقيم لا تلد.

اجْعَلْ لِي آيَةً: علامة أستدلّ بها على بداية الحمل من امرأتي.

أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ: أي لا تقدر على كلامهم.

إِلَّا رَمْزًا: أي لا تكلمهم إلا إشارة.

وَسَبِّحْ: التسبيح هو الصلاة.

بِالْعَشِيِّ: هو الوقت ما بعد الظهر إلى غروب الشمس.

وَالإِبْكَارِ: أول النهار.

الملائكة تبشّر زكريا بولد اسمه يحيى

ولمّا رأى زكريّا عليه السلام ما خصّ الله به مريم من كرامة حيث كان يرزقها بغير الطرق المعتادة، رِزقًا وافرًا، وأيقن بقدرة الله القادرة على كل شيء، وبعد أن رأى من مريم ما رأى من علامات الذكاء والطيبة والورع، تحرّكت في نفسه عاطفة الأبوّة، ورغب في الذريّة الصالحة، فتوجّه إلى الله تعالى بالدعاء:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

هنالك: أي في ذلك المكان وهو المحراب الذي كان يلتقي فيه زكريا بمريم مرّة بعد مرّة، ويرى ما خصّ الله مريم من عجائب وكرامات، اتجه زكريا إلى ربّه وتضرّع إليه بأن يرزقه ذريّة طيّبة وهي المرغوب فيها التي

لا يصدر منها إلّا الخير، وختم زكريا دعاءه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي إنك يا ربّ تسمع دعوتي وتعلم رغبتي بالولد وإنّك سريع الإجابة لمن يدعوك.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أكرم الله زكريّا فأجاب دعاءه فأرسل إليه الملك جبريل، وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيمًا لشأنه، وَقَلّ أن يرسله الله إلا ومعه جَمعٌ من الملائكة. فبشّره جبريل بالولد الذي سيُرزق به، وكانت هذه البشرى في وقت مناجاته ربه وهو يصلّي في المحراب، والدعاء في الصلاة أدعى إلى الإجابة، لأن الإنسان في الصلاة يكون قريبًا من خالقه، وهذا الولد الذي بشّره به اسمه يحيى، وسُمّي بذلك لأن الله أحياه بالإيمان، وهذا الولد سيخصّه الله بالمزايا الآتية:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى بأنه رسول من عند الله، وسُمّي عيسى ﴿كَلِمَة﴾ لأنه خُلِقَ بكلمة من الله تعالى التي هي ﴿كُنْ﴾ فكان من غير أب، أو بمعنى أن يحيى مُصدّق بكتاب الله المُنزل، لأن الكتب المنزلة من عند الله هي من كلامه تعالى ﴿وَسَيِّدًا﴾ كما أن يحيى هو سيّد، والسيّد يطلق على الرئيس والشريف والفاضل والحليم، فكلمة السيّد تتضمن معاني السؤدد ومكارم الأخلاق ﴿وَحَصُورًا﴾ وأصل معنى الحصر: الحبس، والمراد أنّ يحيى حَبَسَ نفسه عن الشهوات، وحبسها عن المعاصي، وقيل: إن يحيى كان لا يقرب النساء مع القدرة على ذلك لانهماكه في العبادة ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هنا بشارة بنُبوّة يحيى بعد البشارة بولادته، وأن الله لا يختار أنبياءه إلّا من الصالحين من عباده، لأن الله يعصمهم من الانغماس في الشرّ والمعصية قبل النبوّة وبعدها.

لمّا سمع زكريّا البشــارة بالولد أخذه العجب وقال مخاطبًا ربه: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ**﴾ أي كيف يكون لي غــلامٌ ﴿**وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾ وكان زكريا شــيخًا هَرِمًا مُتَقَدِّمًــا في العُمر وامرأته كانت عاقرًا لا تلد ﴿**قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ أي قال الله لزكريّا: إنَّ ذلك الشيء الذي تتعجَّب منه من أنك سَتُرزَقُ ولدًا وأنت شيخ وامرأتك عاقر، مثل ذلك الإنجاب يفعل الله ما يشــاء في الكون بغير السنن المعهودة عند البشر.

﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً**﴾ قال زكريا: ربِّ اجعل لي علامة أستدلُّ بها على أنَّ امرأتي حامِل ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّــاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**﴾ أي أجاب الله زكريّــا بما أوحى إليــه: بأن العلامة التي تــدل على حمل امرأتك هي أنك لا تقدر على مكالمة الناس إلّا عن طريق الإشــارة باليد أو الرأس أو نحوهما لمدة ثلاثة أيام، حيث يُحبس لسانك عن القدرة على مكالمة الناس، ولكن لا يُحبس لســانك عن ذِكْرِ الله والثناء عليه ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا**﴾ أي اذكره كثيرًا بالشــكر والحمد على هذه النعمة ﴿**وَسَــبِّحْ بِالْعَشِــيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ أي وعظّم ربّك بعبادته والصلاة له صباحًا ومســاءً، والمراد بذلك جميع الأوقات. والعشــيّ هو الوقت من زوال الشمس إلى أن تغيب، والإبكار: هو الوقت من طلوع الشمس إلى الضحى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ
مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

شرح المفردات

ٱصْطَفَاكِ: اختارك لعبادته وحسن طاعته.

طَهَّرَكِ: نقّاكِ من الأدناس والذنوب وسائر الصفات السيئة.

على نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: أي على عالمي زمانها ومن يأتي بعدها من النساء.

اقْنُتِي لِرَبِّكِ: داومي على طاعته وأخلصي العبادة له.

وَاسْجُدِي: واخضعي لربك، وتذلّلي له، وقد يعبّر بالسجود عن الصلاة.

يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ: يضعون أقلامهم التي يكتبون بها التوراة في النهر عند الاقتراع على كفالتها.

يَخْتَصِمُونَ: يتنازعون.

بِكَلِمَةٍ مِنْهُ: هي الكلمة التي خَلَقَ الله بها عيسى وهي كلمة «كُن» فكان.

وَجِيهًا: صاحب جاه وشرف.
فِي الْمَهْدِ: مضجع الصبي وهو رضيع.
وَكَهْلًا: أي ما بين الشباب والشيخوخة.
لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ: كناية عن الجماع، أي لم يقرب مريم رجل عن طريق الزواج.

منزلة مريم عند الله

ويُتابع القرآن فيبيِّن ما خصّ الله مريم به من ميزات كريمة لم تتوفر لامرأة غيرها، قال الله تعالى:

﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ**﴾ أي واذكُر يا محمد للناس حين قالت الملائكة لمريم: إنَّ الله اختارك لطاعته، وخِدْمَةِ بيته، وخطاب الملائكة لمريم هو شَرَفٌ خصّها الله به دون سائر النساء ﴿**وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ أي وطهَّرك ربُّك من الأدناس ومن الكُفر والذُّنوب والأفعال الذميمة، واختارك على نساء العالمين في زمانك، وجائز أن يكون على نساء العالمين كلهن، وقد كرّر الله لفظ الاصطفاء لمريم لِمَا خصَّها به من التكريم، فالاصطفاء الأوّل هو أنَّ الله اختارها لطاعته وخدمة بيته. والاصطفاء الثاني بأن وهب لها ابنًا هو الرسول عيسى عليه السلام من غير أبٍ ومن غير أن يمسّها أَحَدٌ من البشر.

وتابعت الملائكة خطابها لمريم: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ**﴾ والقنوت عبادة الله، ولزوم طاعته مع الخضوع له ﴿**وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ والسجود[1] وضع الجبهة على الأرض تذلّلًا، والركوع: هو الانحناء بالرأس والجسد خشوعًا لله تعالى، وخُصّ الركوع والسجود بالذِّكر لشرفهما لأنهما من أركان الصلاة، والمراد ﴿**مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ أي لتكن صلاتك جماعة مع المؤمنين.

(١) السجود: يأتي بمعنى الخضوع لله، وكل من ذل وخضع لما أمر الله به فقد سجد.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي أن ما ورد من قصّة زكريا ومريم هو من أخبار الغيب لم تكن تعلمها أنتَ يا محمد ولا قومك، أخبرك الله بها عن طريق الوحي إليك لتكون دليلًا على صدق نبوّتك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي وما كنت يا محمد حاضرًا بين الأحبار حين تنازعوا على كفالة مريم حين قَدَّمتها أُمّها لخدمة بيت الله، ولفضّ النزاع بينهم اتفقوا على الاقتراع بأن يأخذوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة ويضعوا أسماءهم عليها ويلقوها في النهر، ولمّا فعلوا ذلك غرقت أقلام الأحبار وَبرَزَ قلم زكريا على وجه الماء، وهكذا وقعت القرعة على زكريّا الذي قام بكفالة مريم، وإنما خصّت الأقلام للقرعة لما تحمل من بركةٍ حيث كانوا يكتبون بها التوراة.

ثم يختم الله الآية ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي وما كنت معهم يا محمد حينما تنازعوا في شأن مريم وأيهم أحق بكفالتها، وهنا إثبات لنبوّة محمد ﷺ حيث يخبر قومه بأخبار أوحاها الله إليه لم يكن يعلمها هو ولا قومه.

البُشرى بولادة عيسى عليه السلام

ثم تأتي صفحة جديدة فيها الكلام عن مريم حيث قال الله سبحانه:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك حين قالت الملائكة: يا مريم إنَّ الله يُخبرك بخبرٍ سارٍّ وهو أنه سيمنُّ عليك بولد اسمه المسيح عيسى ابن مريم. وقد ذكر الله المسيح في الآية هنا بأنه (كلمة) لأنَّ الله سبحانه خلقه بكلمة منه هي «كُنْ» فكانَ، لأن عيسى لم يُخلق بطريق التناسل بين ذكَرٍ وأُنثى كما يُخلق سائر الأحياء على الأرض، بل خَلَقَ الله عيسى خلاف ما يُخلَقُ البشر.

وقد أَطلق القرآن على المولود الذي ولدتــه مريم ثلاث تعريفات: لقب، واســم، وكنية. أما اللَّقَب فهو المسيح، وأمّا الاســم فهو عيسى، وأمّا الكنية فهي ابن مريم.

وسُــمِّيَ عيسى بالمسيح لأنه كان لا يمســح ذا عاهة أو مَرَضٍ إلّا شُفِيَ، وقيل: إنه سُمِّيَ بالمسيح لأنه مُسِحَ بالطهر من الذنوب. وقيل: المسيح أصله مشــيحا بالعبرانية، ومعناه: المبارك. وأمّا كُنْيَة عيسى فهي ابن مريم للإشارة إلى أنَّ نَسَبه ثابت لِأُمِّه لا لِأَحَدٍ سواها.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي أن عيسى عليه السلام ذو شرف وجاه في الدنيا والآخــرة، أما وجاهته في الدُّنيــا فهي النُبوّة، وأما في الآخرة فهي الشــفاعة وعلوّ المنزلة في الجنة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهو مقرّب عند الله يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي أن عيســى يكلّم الناس في حال كونه طفلًا في المهد كما يكلمهم في ســنّ الكهولة بكلام لا تفاوت فيه بين حال الطفولة والكهولة. والكهل عند العــرب هو الذي اجتمعت قوته وجاوز الثلاثين من عمره، فعيســى عليه السلام تكلّم في المهد ببراءة أُمّه، وهذا الكلام هو معجزة عظيمة له، كما تكلَّم في ســنّ الكهولة حين بلّغ رسالة الله إلى قومه ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كما أن عيسى من عباد الله الصالحين الذين نالوا رضاه.

وبعد أن بشَّرت الملائكة مريم بالولد الذي ستلده أخذها العجب ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي كيف يكون لي وَلَدٌ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْــنِي بَشَــرٌ﴾ فمريم تنفي أن يكون لها زوج ولم يتصل بها بشــر فكيــف يكون لها ولد؟ ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَــاءُ﴾ أي أجابها الله بواسطة الملك جبريل: إنَّ هذا الولد الذي ســتلدينه يا مريم من دون أب هو معجزة من الله وهو واحد من الإبداعات الكثيرة التي يخلقها الله كما يشــاء وبغير الأسباب المعهودة،

والملفت للنظر ما جاء في الآية تعقيبًا على خَلْقِ عيسى من غير أب ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَـاءُ﴾ والخلق فيه إبداع فيقال خلق الله السـماوات والأرض ولا يقال فعـل الله السـماوات والأرض. أمّا بشـأن خلق يحيى مـن أبوَيْن عجوزين فقد عبّرت عنه الآية ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] فهو كإيجاد سائر الناس بما هو المتعارف بينهم مع ما فيه من الغرابة ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي أن الله إذا أراد إيجاد شيء فإنما يقول له ﴿كُنْ﴾ فيكون ويحصل فورًا من غير امتناع، وقد وصف القرآن السـرعة في إيجاد الشيء الذي يريده الله ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

شرح المفردات

الْحِكْمَة: العِلمُ النافع والفهم لكتاب الله وسِرّ التشريع فيه.

بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ: بمعجزة من ربّكم تشهد بأني رسول الله إليكم.

الأَكْمَهَ: الذي وُلِدَ أعمى.
الأَبْرَصَ: البرص بَياضٌ يُصيبُ الجِلْدَ البشريّ.
مَا تَدَّخِرُونَ: ما تُخَبِّئونه للأكل فيما بعد.

ما خصّ الله عيسى من علم ومعجزات

ويُتابع القرآن فيذكر ما بَشّرت به الملائكة مريم من صفات ولدها عيسى عليه السلام وما سيخصّه ربه من ميزات وما سيؤيّده من معجزات تحصل على يديه: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾ الكتاب: المراد به الكتابة والخط، فإن عيسى عليه السلام قد أرسله الله إلى قوم اشتهروا بالعلم والمعرفة، فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره في هذه النواحي، كما أكرم الله عيسى بالحكمة: وهي العلوم الشرعية وإصابة الحق في القول والعمل، وعَلّمَه الله التوارة التي أنزلها على موسى عليه السلام، كما علّمه الإنجيل الذي أوحاه إليه خاصة.

﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ وسيجعل الله عيسى رسولًا منه إلى بني إسرائيل لهدايتهم ﴿**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُم**﴾ هذه الجملة فيها الْتِفَاتٌ وانتقال من خطاب الله لمريم إلى ما يقوله عيسى لقومه بأنه مؤيد من الله بالمعجزات التي تدلّ على صِدْقِهِ بأنه رسول من عند الله ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ**﴾ والخلق في الآية المراد به التصوير، فعيسى يقول لقومه: إني أصوّر لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فتدبّ الحياة في أرجائه فيكون طيرًا بإذن الله. وقوله: ﴿**بِإِذْنِ اللهِ**﴾ نفي لما قد يتوهم البعض بأنه شريك لله في خلق الكائنات ﴿**وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ**﴾ وأَشفي من وُلِدَ أعمى وأُعيد البصر إليه، وأشفي من أُصيب بمرض البرص وهو مرض جلدي، وكذلك فإني

أُعيد الحياة إلى من مــات، ولا أفعل ذلك بقدرتي الذاتيــة وإنما أفعله بإذن الله وإرادته وأمره، وهذا أيضًا نكران لذاته بأنه لا يســتطيع فِعْلَ ذلك بنفسه، بل الفاعل هو الله سبحانه ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وأخبركم بالذي تأكلونه ولم أُشاهده وما تدّخرونه في بيوتكم من مال وطعام لوقت حاجتكم إليه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُــمْ﴾ إن في تلك المعجزات التي أجراها الله على يدي لدلالة واضحة على أني رســول الله إليكــم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدّقين بوجود الله ووحدانيته وقدرته الشــاملة على كل شيء.

وتابع عيســى قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِــنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي وجئتكم مصدّقًا بالتوراة الحاضرة لديّ التي نزلت على موسى لا ناسخًا لها ولا مخالفًا لأحكامها ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُــرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فقد حرَّم الله على بني إسرائيل بعض الطيّبات من الأطعمة بسبب ظلمهم كما جاء في القرآن:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النســاء: ١٦٠]

فجاءت شريعة عيســى عليه السلام لِتُحِلّ لهم بعض ما حرّمه الله عليهم ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وجئتكم بمعجزة من ربكم تشــهد بأني رسول الله إليكم. وقد ذُكِرَت المعجزة هنا مفردة مع أنّ الله أيّد عيســى بمعجزات كثيرة لأنها جنس واحد في الدلالة على صحة رســالته من الله، وقد أعاد عيســى ذكر المعجزة ليصير كلامه مؤثّرًا في قلوبهم ﴿فَاتَّقُــوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا الله لتنجوا من عذابه وذلك بالعمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وأطيعوني فيما آمركم به .

﴿إِنَّ اللهَ رَبِّــي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُــدُوهُ﴾ والربّ: من معانيــه المالك والمدبّر والمربي والمنعم، فعيســى عليه السلام يقول لقومه: إنَّ الله هو مالكنا ومدبّر أمورنا

وهو الذي ربّانا بالشـرائع المنزَّلة من عنده وهو المنعـم علينا بما رزقنا من الطيبات، وما دام الأمر كذلك فحقٌ علينا أن نعبده وحده ولا نشـرك بعبادته أحدًا ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فعبادة الله وحده هي الطريق المسـتقيم الذي يوصلنا إلى مرضاته، والسعادة في الآخرة.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

شرح المفردات

الْحَوَارِيُّونَ: أصحاب عيسى وخواصّه وأنصاره.

وَمَكَرُوا: المكر تدبير الشرّ خفية، وذلك حين دَبَّروا أمر اغتيال عيسى عليه السلام.

وَمَكَرَ اللَّهُ: أبطل مكرهم.

مُتَوَفِّيكَ: قابضك من الأرض من غير أن تنال اليهود منك شيئًا.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ: فيؤتيهم الله ثواب أعمالهم الصالحة.

نجاة عيسى من القتل

وبعد أن ذكرت آيات القرآن المعجزات التي أيّد الله بها عيسى انتقلت بنا الآيات إلى ذكر قصته مع قومه حين دعاهم إلى الإيمان واتّباع دعوته، ولكن قومه قابلوه بالأذى والاضطهاد، قال الله تعالى:

﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**﴾ فلمّا تبيّن لعيسى الكفر من قومه برسالته، وأخذوا يُنزِلون به الأذى نادى في أتباعه: ﴿**قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾ أي مَنِ الذين يرضون أن يكونوا أنصاري إلى الله لِأُواجه بهم الذين يحاربون دعوتي ﴿**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ**﴾ أجاب الحواريون: نحن أنصار دينِ الله، ونحن جنوده المؤيدون لدعوتك. والحواريون: هم أعوان عيسى والمخلصون في طاعته ومحبته. وتابع الحواريون قولهم ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ صدّقنا بوجود الله ووحدانيّته إيمانًا صادقًا، واشهد علينا يا رسول الله بأنّنا خاضعون للهِ ومنقادون لأوامرك .

ثم توجّه أنصار عيسى إلى الله معلنين إيمانهم قائلين:

﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ أي يا ربنا إنّنا صدّقنا بما أنزلته على عيسى من الوحي واتّبعناه بما يأمرنا به وينهانا عنه، فاكتبنا في جملة من شهدوا لك بالوحدانية ولأنبيائك بالتصديق، واجعلنا يا رب في عدادهم فيما تخصهم به من مكرمات ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**﴾ والمكر: هو تدبير الشرّ للغير خفية، والاحتيال لإيقاع الأذى به. فهؤلاء اليهود دبَّروا القتل لعيسى عليه السلام واتخذوا كل الوسائل الذميمة لتنفيذ مآربهم فوشوا به إلى

ملك الرومان وادَّعوا أنه يضلّ النّاس ويصدّهم عن طاعة المَلِكِ ويفسد الرعية، فبعث الملك في طلبه لأخـذه وصلبه ﴿وَمَكَـرَ اللهُ﴾[1] أي أحبط الله مكرهم وأبطل تدبيرهم بأن نجّى الله عيسى. ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أن الله أقوى وأقدر على إيصال الضر بالماكرين. والقرآن صرّح بأنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فقد أَلْقى الله الشَّبَه على غيره الذي صُلب، والروايات في الذي صُلِبَ هو يهوذا.

وبعد أن نجّى الله عيسى من القتل خاطبه بقوله:

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ فكما أن التوفِّي يأتي بمعنى الموت فهو يأتي بمعنى النوم كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] إذ رُوي أن عيسى رفعه الله إليه وهو نائم رِفْقًا به. والتوفِّي في اللغة يأتي بمعنى القبض، من قولهم: توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تامًّا، فالله سبحانه يقول لعيسى: إني قابضك ورافعك إليّ من غير موت إلى محلّ كرامتي في السماء ومقرّ ملائكتي، وجمهور العلماء ذهبوا إلى أن عيسى رُفع حيًّا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء وبقائه فيها إلى الأمد المقدّر له. ويرى بعض العلماء أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا بمعنى: إني رافعك إليّ ومتوفّيك بعد ذلك بعد نزولك من السماء إلى الأرض، وقد وردت أحاديث نبويّة في البخاري ومسلم عن نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان فيحكم بشريعة الإسلام ويملأ الأرض عدْلًا ثم يميته الله.

---

(١) المكر ليس من صفات الله لأن المكر من صفات الضعفاء والأشرار ولا يطلق على الله إلّا بأسلوب المشاكلة، وهو التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، والصحبة هنا جاءت عند قوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا﴾ فصحبتها ﴿وَمَكَرَ اللهُ﴾.

ثم يتابع الله قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مطهرك يا عيسى من سوء جوارهم، وخُبْث صحبتهم، ودَنَس معاشـرتهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهو كون الذين اتَّبعوك يا عيسـى من النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامـة، والعلوّ أي الفوقيَّة المقصودة في الآية يحتمل أن يكون علوًّا فـي الدرجة والمنزلة عند الله، كمـا يحتمل أن تكون بمعنى الغَلَبة بالحجة والبرهان، والكثير من أحرار أوروبا وأميركا من العلماء يعتقدون بأن المسيح رسـول من عند الله وليس إلَهًا، وقدّموا الحجج والأدلة على اعتقادهم هذا، ولا تزال الدراسـات في حقيقة السـيد المسيح تؤيّد ما ذهب إليه الإسلام.

ثم يقول الله سـبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثُمّ إلـى الله مرجع الفريقين في الآخرة: فريق اتّبعوا المسيح وصدَّقوا به واعتقدوا بأنه رسول من عند الله، والفريق الآخر كفروا باعتقادهم بإنه إلَه، أو أنكروا نبوّته كما هو حال اليهود ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي فيقضي الله بين الفريقين فيما اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي فأمّا الذين جحدوا نُبوّة عيسـى وخالفوا ملّته وقالوا ما قالوا فيه من الباطل ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وهذا العذاب ظهر بما قاسـوه من ويلات الحروب التي اندلعت في ما بينهم وقضت على الملايين منهـم، إضافة إلى تدمير بلادهم ومرافقهم الحياتية، كما أن العذاب يسـتمر بما يصيبهم الله من زلازل ورياح عاصفة مدمّرة وسيول جارفة تسـبب أفدح الخسائر بسبب ذنوبهم، بالإضافة إلى عذاب الآخرة الذي يفوق كثيرًا عذاب الدنيا ﴿وَمَـا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وليس لهم من يدافع عنهم أو يدفع عنهم عذاب الله .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأمّا الذين صدَّقوا بِنُبوّة عيسى وصدّقوا بوحدانيّة الله وعملوا صالح الأعمال ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيعطيهم

الله ثواب أعمالهم ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ والظلم وضع الشيء في غير موضعه، كما يأتي بمعنى الجوْر ومجاوزة الحد، والمراد بالظلم هنا الكفر بوحدانية الله حين جعل النصارى الله سبحانه أحد الأقانيم الثلاثة[1] والألوهية للمسيح عليه السلام. كما أن الكفر من اليهود حيث أنكروا نُبوّة المسيح عليه السلام. هذا وإن إطلاق وصف الظلم عليهم للإشعار بأنهم بكفرهم هذا متجاوزون الحدّ لأنهم وضعوا الكفر مكان الإيمان الذي دعاهم الله إليه.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ
وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

شرح المفردات

والذِّكْر الْحَكِيم: القرآن المحكم الذي ينطق بالحكمة.

مَثَلَ عِيسَى: أي حالُهُ وصِفَتُهُ العجيبة.

الْمُمْتَرِينَ: الشّاكّين في أنه الحقّ.

حَاجَّكَ: جادَلَكَ ونازعك.

---

(١) الأقانيم الثلاثة عند المسيحيين: الآب والابن والروح القدس.

تَعَالَوْا: هلمّوا، وأَقبِلوا بالعزم والرأي.

نَبْتَهِلْ: الابتهال هو الاسترسال في التضرُّع إلى الله.

تَوَلَّوْا: أعرضوا ولم يَقْبلوا ما جاء به رسول الله من الهدى.

خَلْقُ عيسى كمَثَلِ خَلْقِ آدم

وبعد أن ذَكَرَ القرآن قصّة المؤامرة على قتل السيّد المسيح، وما هيّأ الله له من النجاة، أتبع ذلك ببيان بطلان مزاعم الذين يدّعون له الألوهيّة لأنه خُلِقَ من دون أب، قال الله تعالى:

﴿**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ**﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدّم من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين، يخبرك الله بها يا محمد عن طريق الآيات التي يتلوها عليك الملك جبريل ﴿**وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**﴾ وهذه الآيات هي من القرآن المحكم الذي يفصل بين الحق والباطل، والذكر: من أسماء القرآن.

﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**﴾ هنا شبّه الله خلق عيسى بخلق آدم من تراب ﴿**ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ ثم قال الله لعيسى (كُن) أي كن بشرًا ﴿**فَيَكُونُ**﴾ فصار عيسى بقدرة الله روحًا وجسدًا[1].

فالآية هنا تُشبّه خَلْق عيسى بخلق آدم، ولكنَّ خَلْق آدم أغرب وأبدع في التكوين من خَلْق عيسى حيث إنَّ آدم خُلِقَ من دون أب ولا أم، أما عيسى الذي خُلِقَ من دون أب فقد تكوّن في بطن أمه كما يتكون سائر البشر.

---

(١) هذه الآية نزلت عند حضور وفد نصارى نجران إلى الرسول محمد وكان من جملة حججهم أن قالوا: يا محمد لَمّا سَلَّمْتَ أن عيسى لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله، فنزلت هذه الآية التي تردّ على مزاعمهم الباطلة.

هذا وقد نفى القرآن الولد عن الله سبحانه بما جاء في سورة مريم ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥].

ثم يقول الله سبحانه ﴿ **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ الامتراء: هو الشكّ الذي يدفع بالإنسان إلى المجادلة المبنيّة على الأوهام. والمعنى: إنَّ ما أخبرك ربك يا محمد في شأن المسيح هو الحق الذي لا مجال للشك فيه والخطاب للنبي محمد ﷺ والمراد به أمّته، لأن النبي ﷺ لم يكن شاكًّا في أمْرِ خَلْقِ عيسى عليه السلام.

﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ**[1] **فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ أي فمن جادلك يا محمد في شأن عيسى من بعد ما جاءك من العلم اليقيني من عند ربك في شأنه ﴿ **فقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ** ﴾ فقل: هلمّوا لأن يدعو كل منّا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه ﴿ **ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ والابتهال: الاسترسال في التضرُّع، أي ثم نتضرَّع في الدعاء بأن يجعل الله لعنته على من كذّب في شأن عيسى وادَّعى الأُلوهيّة له.

واللافت للنظر في الآية هو مشاركة النساء للرجال في الاجتماع للمُلاعَنَةِ على اعتبار أنَّ المرأة كالرجل في الأمور العامة في نظر الإسلام، فلو لم يعلم الله أن المؤمنات على يقين في اعتقادهن كالمؤمنين لم يشركهن معهم في هذا الاجتماع، ثم توجّه رسول الله ﷺ إلى وفد نجران وقرأ عليهم هذه الآية التي تدعو إلى الملاعنة، فقالوا لرسول الله: أمْهلنا حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدًا. فلما خلا وفد نصارى نجران بعضهم ببعض قالوا لرئيس من رؤسائهم واسمه العاقب وكان صاحب رأي فيهم: ما ترى يا عبد المسيح؟

(١) المُحاجَّةُ: تبادل الحُجَّة، وأن يَرُدَّ الآخر عن حجته عن طريق الجِدَال والمغالبة.

وهنا جرى حديث طويل نختصره بأن قال العاقب لهم: والله يا معشر النصارى، إنَّ محمدًا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، ولقد جاءكم بالحق في أمر عيسى، والله ما لاعَنَ قومٌ نبيًا قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال لكم، فإنْ أبَيْتُم إلّا الإصرار على دينكم فوادعوا محمدًا وانصرفوا إلى بلادكم، ثم كان الاتفاق بينهم وبين رسول الله ﷺ بأن لا يغزوهم ولا يردّهم عن دينهم مقابل جزية (من مال وغيره) يؤدونها له كل عام ﴿**إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**﴾ فالله سبحانه يقول: إن هذا الذي قصصته عليك يا محمد من أخبار عيسى بأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم لهو القَصَصُ أي النبأ الحق، وقد أكّد الله صِدْق القَصَص بحرف ﴿**إِنَّ**﴾ وباللام الزائدة التي تفيد التوكيد الداخلة على (هو).

﴿**وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ**﴾ هنا نفي قاطع لأن يكون هناك إلَـٰه سوى الله فهو سبحانه الواحد الذي لا شريك له في مُلكه وتدبيره لهذا الكون، وهذا النفي هو توكيد للمعنى السابق ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ أي إن من شأن الإلَـٰه أن يكون متصفًا بالعزَّة والغلبة والحكمة البالغة في تدبيره لأمور خَلْقه.

﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا**﴾ فإنْ أعرضوا عمّا أُوتيتَ به يا محمد من عند ربّك في شأن عيسى ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ فالله سبحانه يعلم من يفسد من خَلْقه فيجازيه على ذلك. فالإعراض عن توحيد الله إفساد للدِّين يؤدي بدوره إلى إفساد النفس بل إلى إفساد العالم، لأنَّ المعتقدات الباطلة تؤدي إلى التنازع والتقاتل بين البشر كما جرى ذلك عبْر تاريخ الأمم.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ
وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ
فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ
لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

شرح المفردات

كَلِمَة سَوَاء: كلمة عدل وإنصاف لا تختلف فيها الشرائع.

وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ: أي لا يتخذ بعضنا بعضًا آلهة يعبدونهم من دون الله.

فَإِنْ تَوَلَّوْا: فإنْ أعرضوا.

مُسْلِمُونَ: منقادون، وخاضعون لله.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ: هم اليهود والنصارى، والمقصود بالكتاب: التوراة والإنجيل.

تُحَاجُّونَ: تجادلون.

حَنِيفًا: مائلًا عن المِلل الباطلة إلى الدين الحقّ.

أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ: الأحق والأجدر والأقرب منه.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ: ناصرهم ومتولّي أمورهم.

الدعوة إلى عبادة الله وحده

ويُتابع القرآن الكلام عن أهل الكتاب فيدعوهم إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وتلك هي عقيدة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وكلمة سواء: أي كلمة ذات عَدْلٍ وإنصاف. فالله سبحانه يأمر رسوله محمدًا بأن يقول لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى: هلُمّوا وأَقبِلوا إلى كلمة عادلة مستقيمة ذات إنصاف بيننا وبينكم **﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾** أي فلا نعبد صنمًا ولا كوكبًا ولا بَشَرًا ولا ملائكة ولا نبيًا، ولكن نعبد الله وحده ولا نشرك بعبادته أحدًا من خَلْقه **﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾** أي ولا يسجد بعضكم لبعض، ولا تطيعوا أحباركم ورهبانكم فيما أحدثوا من تحريم الحلال وتحليل الحرام من غير الرّجوع إلى ما شرع الله، وجاء تأكيد ذلك في موضع آخر من القرآن:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]

حيث أطاعوهم بتحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحلّ الله. وعن عدي بن حاتم وكان نصرانيًا قال لرسول الله: ما كُنّا نعبدهم! قال رسول الله ﷺ: أليس كانوا يُحِلُّون لكم وَيُحَرِّمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم، قال رسول الله: هو ذاك.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن عبادة الله وحده وأبوا إلّا أنْ يعبدوا غير الله ويطيعوا أحبارهم ورهبانهم في غير ما شرع الله **﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** أي قولوا يا معشر المؤمنين لهؤلاء الذين أشركوا بالله: اشهدوا بأننا نعبد الله وحده مخلصين له الدِّين لا نعبد سواه ولا نتوجّه إلى غيره في طلب نفع أو دَفْعِ ضُرٍّ.

هذه الآية من أبلغ الآيات التي خاطبت اليهود والنصارى بأسلوب منطقيّ في دعوتهم إلى عبادة الله وحده، إنها دعوة منصفة لأنها كلمة سواء يقف الجميع بها على مستوى واحد لا يعلو بعضهم على بعض، دعوة عادلة لا يأباها إلّا كل متكبر جاحد للحق لا يريد أن يرجع إلى الصواب. ولقد كان الرسول محمد يضمّن هذه الآية كل الرسائل التي كان يرسلها إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام.

ثم تأتي الآية التالية وفيها ردّ على اليهود والنصارى حيث ادَّعى كل منهما أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، فقد رُوي عن ابن عباس أنه اجتمع عند النبي ﷺ نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده، فقالت أحبار اليهود: ما كان إبراهيم إلّا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلّا نصرانيًا فأنزل الله فيهم الآية التالية ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ**﴾ أي يا أهل الكتاب لِمَ تجادلون وتتنازعون في دين إبراهيم ويدّعي كل منكما أنه كان على دينكم؟ ﴿**وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ**﴾ أي فكيف يكون إبراهيم يهوديًا يدين بالتوراة مع أنها نزلت من بعده؟ وكيف يكون إبراهيم نصرانيًا يَدِين بالإنجيل مع أنه نزل من بعده؟ علمًا بأنه بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبينه وبين عيسى ألفان ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ أفلا تتفكرون فيما تقولون وترجعوا إلى صوابكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال العقيم.

﴿**هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**﴾ ها: للتنبيه، أي تنبَّهوا أنتم يا معشر اليهود والنصارى حيث جادلتم وخاصمتم فيما لكم به عِلْمٌ من التوراة والإنجيل، ويحتمل أن الله لم يصفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد ما يدّعونه من العلم بهما ﴿**فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**﴾ أي فلماذا تجادلون وتخاصمون في أمر دين إبراهيم الذي لا عِلْمَ لكم بدينه؟

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ هنا يقرّر الله العِلْمَ المطلق له وينفي عنهم العلم في هذا المقام، فهو سبحانه يعلم حال إبراهيم وما أَنزل عليه من الوحي، ويعلم الحقّ الذي يتجادلون فيه.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا﴾ أي ما كان إبراهيم على ملّة اليهود ولا كان على ملّة النصارى ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ ولكن كان منصرفًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مُوَحِّدًا لله، خاضعًا له، منقادًا إلى ما فرض الله عليه من عبادة وأحكام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان إبراهيم من الذين اتَّخذوا مع الله إلَهًا آخر، ولا مِنَ الذين توجّهوا إلى غير الله في العبادة.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي إن أحق الناس وأجدرهم بالانتساب إلى إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الذين كانوا على شريعته في زمانه ومن بعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ والمراد به محمد ﷺ الداعي إلى وحدانية الله التي دعا إليها إبراهيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم المؤمنون الذين صدَّقوا بأن محمدًا رسول الله واتَّبعوه فيما جاء به من عند ربّه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا يبشِّر الله المؤمنين بأنه ناصرهم ومتولِّي أمورهم، وقد صدق الله وعده فنصر رسوله محمدًا والذين آمنوا معه على كل من ناوأهم من الكفار.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ
وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ
هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ
إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

وَدَّتْ: أحبّت، تمنّت.

وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ: أي أنكم تشهدون بأنه حق من عند ربكم.

تَلْبِسُونَ: تخلطون، أو تسترون.

وَجْهَ النَّهَارِ: أوّل النهار.

وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ: أي لا تصدِّقوا إلا لمن كان على ملّتكم.

أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ: أي ولا تُصدِّقوا أن يُؤتى أحـدٌ مثل ما أُوتيتم من الفضائل.

يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ: يغلبوكم عند ربّكم بالحجة.

وَاللهُ وَاسِعٌ: أي ذو سعة بفضله وإحسانه.

ضلال اليهود وسعيهم لإضلال غيرهم

لمّا بيَّن القرآن فيما سبق طريقة أهل الكتاب في العدول عن الحقّ والإعراض عن قبول الحجة ببيان صحة الإسلام، بيَّن في الآيات التالية أنهم لا يقتصرون على ضلالهم بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول محمد ﷺ ويسعون إلى صَرْفِهم عن دين الإسلام، قال الله تعالى:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي تمنَّت جماعة من أهل التوراة من اليهود، وأهل الإنجيل من النصارى لو يصدّونكم أيها المؤمنون عن الإسلام ويردّونكم إلى ما هم عليه من ضلال فيهلكونكم بذلك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهم بمحاولتهم إضلالكم ما يُضِلّون إلّا أنفسهم وبالتالي يُهلكونها بسبب سخط الله عليهم ونزول عقابه بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يعلمون أن هذا يضرّهم ولا يضرّ المؤمنين.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ خاطب الله أهل الكتاب بصيغة استفهام إنكاري توبيخًا لهم بقوله: لماذا تجحدون آيات الله؟وآيات الله: المراد بها الآيات الواردة في التوراة والإنجيل وفيها البشارة بمجيء نبيّ من العرب تنطبق صفاته على النبيّ محمد، ولكنهم يجحدون ذلك وينكرونه، وقيل: المراد بآيات الله آيات القرآن حيث يجحدون أنها من عند الله ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وأنتم يا علماء أهل الكتاب تُنكرون أن القرآن هو من عند الله أمام العوام من ملّتكم، مع أنكم في قرارة نفوسكم تشهدون بأن القرآن هو من عند الله لكونه معجزًا بفصاحته وبلاغته ومعجزًا بتشريعه وهديه، وأنه الحق من ربكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي لماذا يا أهل الكتاب تخلطون الحق بالباطل بتحريفكم آيات التوراة

والإنجيل وتأويلكم إياها على غير حقيقتها؟ ولماذا تكتمون الحق في شأن محمد الذي بشَّرت به كتبكم؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بأن محمدًا هو رسول الله حقًّا وأن ما جاء به من القرآن هو وحي أوحاه الله إليه.

ثم يذكر القرآن ما تآمر به اليهود لتشكيك المسلمين بدينهم:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ فقد تواطأ اثنا عشر رجلًا من أحبار اليهود وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أوّل النار ـ باللسان دون الاعتقاد ـ ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم أعلنوا كفركم آخر النهار، وقولوا للمسلمين إنّنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا أنّ محمدًا ليس بذاك النبيّ الذي وَصَفَتْهُ التوراة وبشّرت بمجيئه، وظهر لنا بطلان دينه فرجعنا عنه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحاب محمد في دينهم ورجعوا عنه. ولكن هذه الشبهة لم تَلْقَ آذانًا صاغية من المسلمين ولا استجابة لمؤامرة اليهود الدنيئة، بل ظل المسلمون متمسّكين بدينهم غير مكترثين بكذبهم وافترائهم.

ثم تأتي الآية التالية تذكر ما جاء على لسان علماء اليهود لأتباعهم:

﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي ولا تُصَدِّقوا إلّا لِمَن اتّبع دينكم فكان يهوديًّا ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ جملة معترضة من كلام الله سبحانه، أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن الهدى هو هُدى الله الذي أوحاه إليّ من القرآن. ويتابع علماء اليهود قولهم لأتباعهم: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ ولا تُصَدِّقوا بأن يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتُم من الفضائل والكرامات، وهذا القول كناية منهم عن نفي النبوّة عن محمد ﷺ ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أو أن أحدًا يستطيع أن ينازعكم ويبادلكم الحجة عند ربكم لأن دينكم خير الأديان.

وهناك وجه آخر في تفسير الآية بأنها جاءت خطابًا للمؤمنين من الله سبحانه على جهة التثبيت لقلوبهم، فيكون المعنى: لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين الذين اتَّبَعوا رسول الله محمدًا إلّا من اتَّبع دينكم من المسلمين، والإسلام هو الهدى الذي خصَّكم الله به، ولا تُصدِّقوا أن يُؤتى أحَدٌ مِثلَ ما أُوتيتم من الفضل والدّين، ولا تُصَدِّقوا أن يغلبكم أحَدٌ بإظهار الحجّة عليكم عند ربكم لأنكم على الدّين الحق.

﴿**قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ والمراد بالفضل هنا: النبوّة والهداية وأصل الفضل في اللغة: الزيادة، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن النبوّة والهداية هي بيد الله يعطيها لمن يشاء من عباده ﴿**وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ والله سبحانه واسع الفضل، عليم بمن يتفضّل عليه ويخصّه بفضله ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ والرحمة المقصودة هنا هي: الإسلام والقرآن والنبوّة ﴿**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ وقد وصف الله فضله بالعِظَمِ، لأنه لا شبيه له في جلاله وكرمه وعطاآته، ولا عظمة تساوي عظمة فضل الله على خلقه.

﴿ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم
مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا
خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا
يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ
ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨ ﴾

شرح المفردات

بِقِنطَارٍ: المراد به المال الكثير.

إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا: أي ملازمًا له تطالبه وتقاضيه باستمرار.

لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ: أي ليس علينا ذنب وملامة في أكل أموال الأمّيّين، والأُمّيّ هو الذي لا يحسن القراءة والكتابة، والمقصود بالأميين هنا العرب.

يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ: يستبدلون بعهد الله وهو ما عاهدوا الله عليه من أداء الأمانة.

وَأَيْمَانِهِمْ: جمع يمين وهو الحلف بالله.

لا خَلاقَ لَهُمْ: لا نصيب لهم من الخير.

وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: لا يُحسن إليهم ولا يرحمهم.

وَلا يُزَكِّيهِمْ: أي لا يُطهّرهم من الذنوب بالمغفرة أو لا يُثني عليهم بجميل.
يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ: يُحرِّفون كتاب الله ويميلون به عن معانيه الصحيحة.

بعض مساوئ اليهود وتحريفهم لكتاب الله

ويتابع القرآن فيذكر جانبًا من أخلاق اليهود في معاملتهم للناس من غير دينهم وأنحراف بعضهم عن هدى الله حيث يستحلّون أموال الناس بغير حق مُتعلّلين بحججٍ واهيــة لا أصل لها في دين الله، وليس لها واقع ســليم بين الناس، قال الله تعالى:

﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ**﴾ القنطار هنا: المراد به المال الكثير. والمعنى: من اليهود أُناس هم أهل أمانةٍ، لو ائتمنت أحدهم على المال الكثير يردُّه إليك كامــلًا ولا يخونك فيه ﴿**وَمِنْهُمْ مَــنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَــا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًــا**﴾ أي ومن اليهود من يخون الأمانة، إن تأمنه على دينار واحد لا يردّه إليك عند طلبه إلا بالإلحاح الشديد والملازمة والاستمرار في الطلب.

فالآية بيَّنت قسمين من اليهود كان العرب يتعاملون معهما:

القســم الأول: كأمثال عبد الله بن ســلام الذي كان يهوديًا، ثم أسلم فيما بعد، فقد أوْدَع رجل عنده حين كان على يهوديّته ألْفًا ومائتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه كاملة. والقســم الثاني من كان يخــون الأمانة كأمثال فنحاص بن عازوراء فقد استودعه عربي قرشي دينارًا واحدًا فجحده.

وهؤلاء الذين كانوا يخونون الأمانة ويستولون على أموال الناس بالباطل يزعمون كما تقول الآية ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ أي ليس علينا إثم وملامة في أكل أموال العرب الأُمِّيّين. وسُمِّي العرب بالأُمِّيين

لأنه لم يكن عندهم علم بالقــراءة والكتابة، وكانت تغلب عليهم الأُمِّيَّة وهي الجهل بالقراءة والكتابة، أو كان اليهود يريــدون بذلك أن من كان على غير دينهم فهو أُمِّيّ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين كانوا يجحدون الأَمانات ويستولون على أموال الناس بالباطل ويقولون ليس علينا حــرج ولا إثْم في أكل أموال الأُمِّيين هــم بذلك يفترون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون، لأنهم ليس عندهم نص صريح في كتبهم يبيح لهم خيانة الأمانة.

والكلام عن الأمين والخائن عند اليهود جاء بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ فلم تَرْمِ الآية اليهود جميعًا بالخيانة، وهو من الإنصاف الذي يتحلّى به القرآن.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْــدِهِ وَاتَّقَى﴾ بلى: معناها إثبات ما نفوه من أنه ليس عليهم سبيل في خيانتهم للأمانات، أي عليكم حرج وإثم، ثم يستأنف القرآن الكلام بقوله: ومن وفى بعهد الله فآمن برسوله محمد ﷺ واستقام في معاملة الناس وأدّى الأمانات إلى أصحابها، واَتقى الله فيما نهاه عنه وعمل بما أمره به ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِــبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ الله يحب الذيــن يُوفون بعهدهم ويؤدون الأمانات إلى أهلها .

وقد كان المســلمون يــؤدون الأمانة ويترفعون عن أخــذ أموال الناس بالباطل، فقد قال رجل لابن عباس: إننا نُصيب فــي الغزو من أموال أهل الذِّمَّة[1] الدجاجة والشــاة، قال ابن عباس: فتقولون مــاذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس، قال ابن عباس: هذا كما قــال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَــبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلّا بطيب أنفسهم.

---

(١) أهل الذمة: أهل العهد، وسُمّوا بأهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم.

كما شدّد النبي محمد ﷺ على الوفاء بالأمانة وعدم خيانة من خانه فقال: «أَدِّ الأَمانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَنْ خانَكَ»(١).

ثم يُبيّن القرآن مصير الذين لا يوفون بعهد الله بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يشترون: يستبدلون، والمراد بعهد الله كل ما يجب الوفاء به بما فرضه الله على عباده، من ذلك ما أوجبه الله على أهل الكتاب من التصديق بنبوّة محمد الذي يجدون صفته في التوراة والإنجيل، وما أوجب على الناس من أداء الأمانات إلى أهلها، ولكن الذين يستبدلون الإيمان بنبوّة محمد بالجحود لنبوّته، ويستبدلون أداء الأمانات إلى أصحابها بالخيانة لها، ويُقْسِمون على ذلك لتأكيد ما هم عليه من جحود وخيانة مقابل ثمن زهيد من متاع الدُّنْيَا ﴿أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي لا حظ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ أي كلامًا ينفعهم ويسرّهم ﴿وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يرحمهم ولا يُحسن إليهم ولا ينيلهم خيرًا يوم القيامة ﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب مؤلم موجع على ما اقترفوا من المعاصي.

روي في أسباب نزول الآية أن الأَشْعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدّمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: أَلَكَ بيّنة؟ قلت: لا، فقال لليهودي: اَحْلِفْ، قلتُ: يا رسول الله إذاً هو يحلف فيذهب بمالي، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ...﴾ الآية، ويقول رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلى

---

(١) أخرجه الترمذي.

يَمِينٍ لِيَقْتَطِعَ بها مَالَ امرئٍ مُسْلِمٍ هو فيها فاجِر[١]، لَقِيَ الله وهو عليه غَضْبان»[٢].

وقيل نزلت الآية في أحْبارٍ من اليهود عُهِدَ إليهم في التوراة تبيين صفة النبي محمد ﷺ، فحرَّفوا التوراة وبدّلوا صفة النبي محمد وأخذوا الرّشوة على ذلك.

ويمضي القرآن في الكلام عن اليهود بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ أي من أهل الكتاب جماعة والمراد بهم يهود المدينة المنوّرة يحرّفون كتاب التوراة ولا ينطقون به على الوجه الصحيح بل يميلون بألسنتهم إلى تغيير كلماته وتبديل معانيه ليتجهوا إلى معانٍ ليست فيه. والملفت للنظر أنَّ القرآن لم يعمّم حكمه على اليهود بل نسب التحريم والتبديل إلى جماعة منهم، وهذا من عدالة القرآن الذي اختص به كما سبق ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي لتحسبوا أيها المسلمون ما حرَّفوه من التوراة وما بدّلوه فيها هو من كتاب الله الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، والحق أنّ ما قاموا به من تحريف ليس من كتاب الله.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ أي وزيادة في افترائهم أنهم ينسبون ما حرَّفوه بأنه مُنزَلٌ من عند الله وما هو في الحقيقة من عند الله ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم لا يفترون الكذب على بشر بل إنهم يكذبون على الله علّام الغيوب الذي يعلم ما تنطق به ألسنتهم وما تُخفيه صدورهم، هذا وإنَّ الكذب في حق الله من أعظم الافتراءات التي توجب أشدّ العذاب من الله تعالى.

---

(١) فاجر: هو من مال عن الحق وعدل عنه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ
يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ
بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ
أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن
كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟
أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

شرح المفردات

الْحُكْم: الحكمة، وهي إصابة الحق.

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ: أي منسوبين إلى الرَّبِّ بالتمسك بدينه وطاعته، وكونوا فقهاء في الدين تعلِّمونه للناس.

تَدْرُسُونَ: تقرأون كتاب الله.

مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: الميثاق هو العهد المؤكد الذي أخذه الله على النبيين.

أَأَقْرَرْتُمْ: هل اعترفتم والتزمتم به؟

وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي: أي قَبِلْتم عهدي وميثاقي.

العهد الذي أخذه الله على الأنبياء

ولمّا بيَّن القرآن أن عادة بعض علماء أهل الكتاب تحريف الكتب المنزلة على رسل الله وتبديلها أتبع ذلك ببطلان نسبة الألوهية للأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية الناس:

فقد روي أن فئة من أحبار اليهود، وفئة من نصارى نجران اجتمعتا عند رسول الله محمد ﷺ فدعاهم إلى الإسلام، فقال أحدهم: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟... فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله! ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أُمِرْتُ. فأنزل الله قوله:

﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾ أي لا ينبغي ولا يستقيم عقلًا لبشر أعطاه الله الكتاب الذي فيه شريعة الله التي يحكم بها بين الناس، وأعطاه الحُكْمَ: أي الفهم والعلم والصواب في القول والعمل، وخصّه الله بالنُّبوّة ﴿**ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ أي فهل من المعقول أن يتنكّر هذا النبي لربّه ويقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله تخصّونني بالعبادة والأُلوهيّة؟

ولكن الذي يستقيم مع المنطق أن يقول هذا الذي خصّه الله بالنبوّة أن يقول لقومه ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾ أي كونوا منسوبين إلى الربّ بالتمسُّك بدينه وطاعته وتعلّم شريعته ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ بمقتضى ما علّمكم الله من علم الكتاب المُنزل عليكم وما تدرسونه منه ﴿**وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا**﴾ ولا يأمركم الله أن تجعلوا الملائكة والنبيين آلهةً تعبدونهم من غير الله. ﴿**أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ الهمزة في كلمته ﴿**أَيَأْمُرُكُم**﴾ استفهام معناه الإنكار،

أي لا يقول أحد بعبادة الملائكة والنبيّين، أيأمركم نبيّكم بجحود وحدانيّة الله والوقوع في الكفر بعد إذ أنتم منقادون له بالطاعة متذلّلون له بالعبوديّة؟

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي وأذكروا يا معشر أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكَّدَ على النبيين الذين أعطاهم الله الكتاب الذي فيه شريعة الله التي يحكمون بها، وأعطاهم الحكمة وهي العلم النافع وحُسن التدبير ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ ثم جاءكم أيها النبيّون رسول من عند الله مصدّق لِمَا معكم من كتاب أنزلته عليكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فالله سبحانه أخذ العهد على جميع الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى عليه السلام أن يصدّق كل نبيّ بمن يأتي بعده من نبيّ وينصره إن أدركه، وهذا التصديق يسري على أتباعهم.

ومن الأئمة من قال: إن المراد بالرسول في الآية هو محمد ﷺ كما نُقِلَ عن الصحابة عليّ وابن عباس رضي الله عنهم، وعلى هذا يكون المعنى: وأذكروا إذ أخذ الله العهد على النبيّين أجمعين أن يصدّقوا بنبوّة محمد وينصروه إنْ أدركوه، كما أمرهم أن يأخذوا بذلك العهد على أُممهم.

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أخذتم: الأخذ هنا بمعنى القبول، والإِصْرُ: العهد المؤكّد. أي قال الله للأنبياء: هل اعترفتم بهذا العهد المؤكّد وقبِلْتُم به وأخذتم العهد على أتباعكم أن ينفّذوه؟ فثمّة إذًا عهدان: عهد الله على النّبيّين، وعهد النّبيّين على أتباعهم ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ أي قال الأنبياء: اعترفنا بذلك يا ربّ وقبلنا عهدكَ، فرَدَّ اللهُ عليهم ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي فأشهدوا أيها الأنبياء على أتباعكم بأنكم أخذتم عليهم تلك العهود بأن يؤمنوا بالرسول الذي يجيء مصدّقًا لِمَا معكم، ثم أكّد الله تلك الشهادة بشهادته بقوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأيُّ شهادة أعظم وأجلّ من شهادة الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي فمن أعرض بعد ذلك عن الإيمان بمحمد ونُصرته وتأييده، فأولئك هم الذين خرجوا عن دين الله وطاعتهم له.

فبمقتضى هذا العهد الذي مرَّ ذِكْرُهُ يُفهم منه أنَّ دين الله واحد غايته إسعاد البشرية جمعاء، فكل رسول أرسله الله كان متممًا لما بدأ به الرسول والنبيّ الذي جاء قبله، حتى ختم الله النبوّة بمحمد[1]، فكان خاتم الأنبياء، لذا كان على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذي أخذه على النبيّين أنْ يصدّقوا بنبوّة محمد وينصروه ويتّبعوا ما جاء به من الهدى.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

---

(١) جاء في القرآن ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وهذه حقيقة لا ريب فيها، وها قد مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا ولم نسمع بمجيء نبي بعد محمد ﷺ.

شرح المفردات

يَبْغُونَ: يطلبون ويرغبون.

وَلَهُ أَسْلَمَ: ولله سبحانه استسلم وانقاد وخضع.

طَوْعًا: اختيارًا.

الأَسْبَاط: أولاد يعقوب، وأحفاده.

وَمَنْ يَبْتَغِ: ومن يطلب.

جميع أنبياء الله هم مسلمون

وبعد أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يصدّقوا من يأتي بعدهم من الأنبياء وينصروهم، بيّن الله بعد ذلك أن الإعراض عن دين الله هو مخالف للنواميس الإلَهية التي أودعها الله في طبيعة البشر، قال الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، أي أيطلبون دِينًا غير دِين الله وهو الإسلام **﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾** وقد خضع لله وانقاد له كل من في السماوات والأرض طوْعًا، والطوْع: الانقياد بسهولة، والكَرْهُ: الانقياد بمشقّة وإباء من النفس. هذه الآية نزلت حين اختصمت فئة من اليهود مع فئة من النصارى إلى رسول الله محمد فقالوا: أيُّنا أحقّ بدين إبراهيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «كِلا الفريقين بريئين من دين إبراهيم» فقالوا لرسول الله: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بِدِينِكَ.

هذا وإن الأَجرام السماوية أسْلَمتْ لله طوْعًا وكَرْهًا بموجب النواميس الإلَهية التي وضعها الله في الكون ولا يمكن التفلُّت منها، وأما أهل الأرض فمنهم من خضع لله طَوْعًا كالأنبياء والمؤمنين، وبعضهم خضع لله كَرْهًا كالكافر الذي ينقاد له كرهًا في جميع ما يقع عليه قضاء الله، ولا يمكن دفع قضاء الله وقدره. كالموت، والمرض وأشباه ذلك.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وإلى اللهِ تصيرون أيّها الناس بعد مماتكم فيجازيكم بأعمالكم، المحسن منكم يجزيه بإحسانه، والمسيء منكم يجزيه بإساءته، وهذا وعيد عظيم من الله لكل من خالف أمره وخرج عن طاعته.

ثم أمر الله نبيّه محمدًا وأتباعه أن يؤمنوا بمن سبقهم من الأنبياء:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ قل يا محمد لأهل الكتاب: آمنتُ أنا وأتباعي بوجود الله ووحدانيّته وأطعناه فيما أمرنا به ونهانا عنه، وآمنّا كذلك بالقرآن الذي أنزله الله علينا وفيه شريعة الله التي تهدي إلى الحق والرَّشاد ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ وآمنّا أيضًا بهؤلاء الأنبياء وما أُنزل عليهم من كتب وصحائف فيها أوامر الله ونواهيه. والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وأحفاده، والمراد بما أنزل على الأسباط ما أنزل على ذرّيتهم من الأنبياء كداود وسليمان وغيرهما من الأنبياء ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وآمنّا بما أُنزل على موسى وعيسى والأنبياء من الكتب الإلَهية وبما أيّدهم الله من المعجزات الدّالة على صدقهم ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ لا نفرّق بين جماعة رسل الله والأنبياء في الإيمان بهم، فنؤمن ببعض وننكر البعض الآخر كما فعل اليهود حيث أنكروا نبوّة عيسى ومحمد، وكما فعل النصارى حيث أنكروا نبوّة محمد ﷺ ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن للهِ خاضعون منقادون له بالطاعة والعبوديّة.

فالإسلام ليس دينًا جديدًا، ولكنه هو الدِين الذي أنزله الله على الرسل الذين جاءوا قبل رسالة محمد ﷺ، والأنبياء جميعهم أطلق عليهم القرآن صفة الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد والخضوع لله، ورسالة الأنبياء والرسل واحدة تتفق في الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ كل مظاهر الإشراك بالله، أما شرائع رسل الله فتختلف حسب اختلاف الأمم وتطورها. ثم ختم الله الأنبياء بالنبي محمد ﷺ وأعطاه شريعة كاملة تصلح لكل الأمم ولكل زمان ومكان.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا﴾ ومن يتخذ دينًا غير دين الإسلام الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فلن يَقبلَ الله منه هذا الدِّين ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهو يوم القيامة من الذين وقعوا في الخسران لأنهم خالفوا ما أمرهم الله به من اتّباع رسوله محمد.

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ
ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن
يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا
تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

شرح المفردات

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا: أي لا يهدي الله هؤلاء القوم.

الْبَيِّنَاتُ: الحجج الظاهرة.

لَعْنَةَ اللهِ: هي الطرد من رحمته.

وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ: ولا يُمهلون ولا يؤخّر عنهم العذاب.
الْبِرُّ: هو الإحسان وكمال الخير.

مغبَّة الكفر بعد الإيمان

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم كفــروا بعد إيمانهم، مبيّنًا ما يترتب على ذلك من سُخْط الله عليهم واستحقاقهم عذابه في الآخرة، قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي كيف يُرشد الله للصواب ويوفّق للإيمان قومًا جحدوا نبوّة محمد ﷺ بعد تصديقهم إياه. والذين كفروا قيل: هم عشرة رهط[١] ارتدُّوا بعدما آمنوا بالرسول محمد ولحقوا بالمشركين بمكة، وقيل: هــم يهود بني قُرَيْظــة والنضير، فاليهــود رأوا صفة محمد في التوراة من خلال ما جاء فيها من المبشــرات عن مجيء نبيّ، وكانوا يقولون للمشركين العرب: سيأتي نبيّ قَرُبَ زمانه ونتّبعه ونقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فلمّا بعث الله محمــدًا نبيًّا من العــرب وهو من غير ملّتهم حســدوا العرب وأنكروا نبوّته ﴿وَشَــهِدُوا أَنَّ الرَّسُــولَ حَقٌّ﴾ أي وبعد أن شهدوا في قرارة أنفسهم بأن محمدًا رسول الله حقًّا لما رأوا مِنْ صفاته التي تنطبق على ما جاء في التوراة ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ومن بعد ما جاءتهم البراهين والحجج على أنّ محمدًا رسول الله حقًّا ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يُوفِّق للحق الجماعة الظالمة، وقد أطلق الله عليهم صفة الظالمين لأنهم أنكروا الحق بعد أن عرفوه. فالآية تقرّر حقيقة ثابتة وهي أن النفس التي تشــهد بالحق وتؤمن به ثم تكفر به عن عصبيّة لا يُرجى لها هداية.

﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَــةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم جزاؤهم أن يطردهم الله ويبعدهم عن رحمته

(١) رهط: الرَّهْطُ من الرجل قومه وقبيلته.

كما تلعنهم الملائكة والناس أجمعون وتدعو الله أن ينزل بهم أشد العقاب ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**﴾ ماكثين أبدًا في عذاب جهنم لا يخفف عنهم من العذاب شيء في حال من الأحوال ﴿**وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾ ولا يؤخّر عذابهم ولا يُمهلون لمعذرة يعتذرون بها.

﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا**﴾ إلّا الذين تابوا من كفرهم وآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، واتّبعوا ما جاءهم به الرسول من عند ربهم، وأصلحوا أعمالهم، إنهم إذا قاموا بذلك ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ أي غفور لذنوبهم فلا يعذّبهم بها، رحيم متعطف عليهم بالرحمة منه.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا**﴾ روي أن هذه الآية نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفرًا حينما كفروا بمحمد، أو ازدادوا كفرًا بالذنوب التي اكتسبوها، أو تكرّر منهم الكفر بعد الإيمان، فهؤلاء ﴿**لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾ فالله سبحانه لا يقبل التوبة من قوم أصرّوا على الكفر، لأنه لم يصحّ منهم العزم على تركه، بينما يَقبلُ الله التوبة منهم إذا رجعوا إلى إيمانهم وندموا على كفرهم وعزموا على أن لا يعودوا إليه ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**﴾ أما الذين استمروا على كفرهم فهم الذين ضلّوا عن سبيل الحق وتركوا هدى الله.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾ إنّ الذين جحدوا نبوّة محمد ولم يصدّقوا به ولا بما جاء به من عند الله وماتوا على ذلك الجحود لنبوّته وما جاء به من عند الله ﴿**فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ**﴾ فلن يَقبل الله من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا على فرض أنه يملك ذلك وبذله للخلاص من عذاب الله الآتي ذكره بقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾ أي أولئك الذين ماتوا وهم كفّار لهم عذاب شديد الإيلام وليس لهم من ناصر يدفع عنهم عذاب الله أو يخففه.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والبِرُّ: فعل كل خير من أيّ جنس كان والتوسّع فيه، وقيل: البِرُّ هو التقوى، وقيل: هو الجنة، والمعنى: لن تكونوا أبرارًا تستحقون به ثواب الله وتصبحوا من زمرة المتقين الذين وعدهم الله بالجنّة حتى تُنفِقوا ممّا تُحبّون من أجود ما تملكون دون أرذله في وجوه الخير، ومجال الخير واسع وهو ما ينفع عباد الله المحتاجين وينشلهم من حافة الفقر والحرمان، والتعبير في الآية ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما: أصلها من ما، وهذا يؤذن بمشروعية إنفاق البعض دون الكل.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي ومهما تتصدّقوا به من طيّبات ما تقتنون فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه، ومما جاء في القرآن في معنى هذه الآية قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

فالإنفاق من الطيبات دليل على سخاء النفس لوجه الله، وفي ذلك تطهير للنفس مما لامسها من الشح، وفي ذلك صلاح عظيم للأمة كما قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فالإسلام في دعوته للإنفاق من الطيبات يهدف إلى التقارب بين الأغنياء والفقراء وبذلك تشتد أواصر الأخوّة فيما بينهم، وينتفي الحسد والكراهية من قلوب الفقراء، بينما الإنفاق مِنَ الأمور التي تعافها النفس ولا تريده فيه معنى الأنانية والشحّ والتعالي على الناس والاستئثار بملذات الحياة وهذا أمر لا يريده الله من المؤمنين.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ
فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ
مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ
ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾

شرح المفردات

حِلًّا: حلالًا.

إِسْرَائِيلَ: هو النبي يعقوب عليه السلام.

فَاتْلُوهَا: فاقرأوها.

افْتَرَى: اختلق.

مِلَّةَ: شريعة.

حَنِيفًا: مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق.

بِبَكَّةَ: من أسماء مكة.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ: هو الحَجَر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة.

الحلال والحرام من الأطعمة لبني إسرائيل

ثم ينتقل القرآن إلى الردّ على اليهود فيما يثيرونه من شبهات حول الإسلام وصحة نُبوّة محمد حيث أحلَّ الإسلام أكل لحوم الإبل بينما هي في نظرهم محرّم أكلها، ولذلك قالوا للنبي ﷺ: كيف تزعم أنك على ملّة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها؟ فقال النبي ﷺ: كان ذلك حلالًا لإبراهيم ونحن نحلّه، فقالت اليهود: بل كان ذلك حرامًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله تكذيبًا لهم:

﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ أي كل أنواع الطعام والمأكولات كانت حلالًا لبني إسرائيل ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام، فقد روي أنه كان يشتكي من مرض النَّسا[1] ويقاسي منه أشد الآلام فنذر لله إن شفاه الله من سَقِمِهِ أن يُحرّم على نفسه أحب الطعام إليه وكان أحبّه إليه لحم الإبل وألبانها، فشفى الله يعقوب وحرّمها على نفسه وتبعه أولاده في تحريم ذلك ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾ أي كان تحريم ذلك من إسرائيل قبل أن يُنزّل الله التوراة على موسى، أما بعد نزول التوراة فلم يبقَ هذا التحريم ساريًا بل حرّم الله عليهم أنواعًا كثيرة، فكانوا كلّما أتوا بذنب عظيم حرّم الله عليهم نوعًا من أنواع الطعام، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ[2] حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بالتوراة ويبيّنوا إذا كان فيها تحريم أكل لحوم الإبل: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أي إذا كان الحق في جانبكم بما ادَّعيتم أن الله أنزل تحريم ذلك في التوراة فأتونا بها واقرأوا تحريم ذلك علينا إن كنتم صادقين في زعمكم أنّ ما تحرِّمونه على أنفسكم

(١) النَّسا: عرق من الورك إلى الكعب.

(٢) هادوا: هم اليهود.

كان محرّمًا على نوح وإبراهيم. روي أنهم لـم تبلغ بهم الجرأة على الإتيان بالتوراة لأن ذلك يسبب الفضيحة لهم والخذلان.

هذا وإنّ في اسـتدعائهم أن يأتوا بالتـوراة وتحدّيهم بأن يتلـوا فيها آيات التحريم لهو الحجة الواضحة والبرهان السـاطع على صِدْقِ نبوّة محمد ﷺ وهو الأُميّ الذي لا يعرف القراءة والكتابة ولا دَرَسَ التوراة. وبالرجوع إلى التوراة لم نجد فيها أساسًـا لدعوى اليهود فيما ذهبوا إليه من أن تحريم أكل الإبل وألبانها شَـرَعَهُ الله وأن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السـابقة ﴿**فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ فمن اختلق الكذب على الله بعد قيام الحجّة على بطلان قولهم ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ أي المتجاوزون الحق المُعْتَدون على حدود الله.

﴿**قُلْ صَدَقَ اللهُ**﴾ قل يا محمـد لهؤلاء اليهود: صَـدَقَ الله فيما أخبر به مـن أن كلّ الطعام كان حـلالًا لهم إلّا ما حرّم إسـرائيل على نفسـه وكان هـذا التحريم قبل نزول التـوراة، وإن إبراهيم عليه السلام ما حـرّم أكل لحم الإبل ولا الشُّـرب من ألبانها، وأن ما حرّم الله على اليهود في التوراة من الأطعمة كان جزاء لهم وعقوبة بسبب أفعالهم السـيئة ﴿**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ فاتبعوا ملّة الإسـلام التي جاء بها النبي محمـد ﷺ التي هي في الأصل ملّة إبراهيم عليه السلام، ومن اتّبع محمـدًا فقد اتّبع مِلّة إبراهيـم، وكان النبي إبراهيم حنيفًا أي مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وكل من أسـلم لأمر الله ومال إلى الاستقامة فهو حنيف ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ وما كان إبراهيم مشْركًا بالله أحدًا بل كان موحّدًا له.

الكعبة أول بيت وُضِعَ لعبادة الله

ومن الشـبهات التي كان يثيرها اليهودِ حول صحّة نبوّة محمد تحويل القِبلة من بيتِ المقدس إلى الكعبة، فقد ظلّ المسلمون يتوجهون في صلاتهم وهم في

مكة إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، وبعدها نزل الوحي الإلّهي على الرسول محمد ﷺ بالتوجّه إلى الكعبة، فرأى اليهود في ذلك منفذًا للطعن في الإسلام، وقالوا إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحقّ بالتوجّه إليه عند الصلاة لأنه وُضِعَ قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقِبلة الأنبياء، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكّة: هي مكة نفسها أُبدل حرف الميم فيها بباء[١]، وقيل: هما متغايران، فبكّة موضع البيت[٢] ومكّة اسم البلد. والمعنى: إن أوّل بيت وُضِعَ في الأرض لعبادة الله وحده هو البيت الحرام بمكة[٣]. وعن أبي ذرّ ﷺ قال: «قلت يا رسول الله: أيّ مسجد وُضع على الأرض أولًا؟ قال: المسجد الحرام، قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة...»[٤]

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وبيت الله الحرام في مكة كثير الخير والنفع لمن حجّه واعتمره وطاف حوله، وإنّ الطاعات يزداد ثوابها عنده، كما أنه قِبْلة يهتدي به المصلّون إلى جهة صلاتهم ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فيه علامات واضحة تبيّن شرف منزلته، فمن قصده بسوء أهلكه الله كما أهلك أصحاب الفيل عندما أرادوا هدمه.

ومن الآيات البيّنات الموجودة فيه ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة وفيه أثر قَدَمَي إبراهيم بالرغم من صلابته، وقيل: مقام إبراهيم هو الحرم كله، وقيل أيضًا: هو كل مواقف الحج.

---

(١) والعرب تُبْدِلُ الميم بالباء في مواضع كثيرة، وأصل كلمة بكة من البك وهو الازدحام لازدحام الناس من حول البيت للطواف حوله.

(٢) يطلق اسم البيت هنا على الكعبة كما يطلق عليه اسم البيت الحرام، والمسجد الحرام.

(٣) قيل: إن أول من بنى البيت الحرام آدم وجدّد بناءه إبراهيم عليه السلام.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

ومن الآيـات البيّنات: حصول الأمـن فيه ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وقد كانت العرب في الجاهلية يتقاتلون، ويُغير بعضهم على بعض، ومن دخل حَرَمَ مكة أَمِنَ من القتل، أما في الإسلام فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه إذا قَتَلَ شخص شخصًا في غير الحرم ثم دخل الحرم لم يقتصّ منه ما دام فيه ولكنه لا يُبايع ولا يُؤاكل إلى أن يخرج من الحرم فيقتصّ منه، وإن قَتَلَ في الحرم قُتِلَ، وقال مالك والشافعي: يُقتصّ منه حتى ولو كان في الحَرَم.

﴿ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ هذه الآية تنصّ على إثبات فرضيّة الحج حيث جاءت بصيغة الإلزام والوجوب، والحج قَصْدُ السفر إلى مكة لأداء عبادة الله، من طواف حول بيت الله الحرام، والوقوف بعرفة، والقيام بسائر مناسك الحج من الإحرام، والسعي بين الصفا والمروة، وغيرها من المناسك استجابة لأمر الله، والحج أحد أركان الإسلام الخمسة ويجب في العمر مرة واحدة، وشروطه: الإسلام، وأن يبلُغَ قاصده سنّ البلوغ، والعقل، والحرية ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ والاستطاعة هي القدرة على نفقات الزاد وآلة الركوب ذهابًا وإيابًا ونفقة الإقامة زمن الحج، ويدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن وأن تكون الطريق إلى الحج آمنة، وقد أصبح الطريق إلى مكة آمنًا بفضل جهود المملكة العربية السعودية وولاتها الكرام ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي ومن جحد فرضيّة الحج وأنكرها ولم يؤدّها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غنيّ عنه وعن حجّه وعن الناس جميعًا.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ
﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

شرح المفردات

بِآيَاتِ اللهِ: آيات القرآن وفيها الدلائل على نبوة محمد ﷺ.

شَهِيدٌ: عالم بالشيء مطّلع عليه.

تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ: تَصْرِفُون الناس عن دين الله.

تَبْغُونَهَا عِوَجًا: تطلبون لملة الإسلام اعوجاجًا وميلًا عن الاستقامة.

وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ: وأنتم تعلمون أن الإسلام حقّ.

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ: ومن يستمسك بدين الله الذي هو الإسلام.

محاولة اليهود الإيقاع بين المؤمنين والتفرقة بينهم

بعد أن بيّن الله أنَّ بيت الله الحرام بمكة هو أول بيت أُقيم للناس لعبادة الله تعالى، وأنَّ الله فرض على الناس الحج إليه، وَبَّخَ بعد ذلك أهل الكتاب على كُفرهم وأساليبهم الخبيثة في إثارة الخلاف بين المؤمنين، وإيقاع الفتنة بينهم قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللهِ﴾ أي قُل يا محمد لليهود والنصارى: لأي سـببٍ تكفرون بآيـات الله؟ والآيات هنا الآيـات القرآنية، والكفر بها هو عدم الإذْعان لأحكامها وإنكار صِدْقها، أو جحود ما في التوراة والإنجيل من حجج وبشارات تدل على نبوّة محمد ﷺ **﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾** وكلمة شـهيد من صِيَغ المبالغة، أي أنه سبحانه مُبالِغ في الاطلاع على جميع أعمالكم وفي مُجازاتكم عليها، وهنـا وعيد من الله على كفرهم **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللهِ مَـنْ آمَنَ﴾** أُعيد الخطاب لأهل الكتـاب توبيخًا لهم وتقريعًـا، أي قل لهم يا محمـد: لماذا تحاولون صرف منْ آمن بالله ورسـوله محمد عن سـبيل الله وهو الإسـلام، وصدّهم عن الدخول فيه؟ **﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** تطلبـون لدين الله العوج والميل به عن الاستقامة **﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾** وأنتم تشهدون أن الإسلام هو دين الله الحق الذي لا تحوم حوله شـائبة اعوجاج **﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** تهديد ووعيد لهم لصرفهم الناس عن الإسلام، والله سبحانه لا يفوته شيء من أعمالهم.

رُوي في أسباب نزول هذه الآية وما بعدها من آيات:

أنَّ رجلًا من اليهود حـاول الإيقاع بين قبيلَتَـيْ الأَوْس والخزرج اللتين دَخَلَتا في الإسـلام، وهذا الرجل اسمه (شـاس بن قيس) وكان عظيم الكفر شـديد الحسـد للمسـلمين، فغاظه ما رأى بين الأَوس والخزرج من تآلف قلوبهم وصلاح ذات بينهم بعد أن كانت بينهم العـدواة والبغضاء والاقتتال في الجاهلية أي قبل الإسـلام. فأمر شـابًّا يهوديًا كان معه بأن يجلس معهم ويذكِّرهم (يوم بُعاث) يوم اقتتلت الأوس والخزرج ويُنشدهم ما قيل فيه من الأشـعار ففعل، فتفاخر القوم وتغاضبوا إلى أن بلغ بهم الغضب إلى اللجوء إلى السـلاح وتهيأوا للقتال، فبلغ الخبر الرسـول محمـد ﷺ فخرج إليهم مع بعض أصحابه وقال لهم: يا معشر المسـلمين أتدّعون الجاهلية وأنا بين

أظهُركم بعــد أن أكرمكم الله بالإســلام فترجعون إلى ما كنتــم عليه كفّارًا؟ فعلموا أنها نزغة من الشـيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا الســلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضًا وانصرفوا مع رسول الله ﷺ.

فما فعله اليهودي (شــاس بن قيس) للتفريق بين المسلمين ودفعهم إلى الاقتتال يفعله أعــداء المســلمين والصهيونيون اليوم في فلسـطين والدول العربيــة، فحريّ بالمســلمين أن يجتنبوا كيدهم وأن يأخذوا درسًــا من تلك الحادثة فلا يجعلوا لأعدائهم سبيلًا لتفريق وحدتهم.

ثم يخاطب الله الأوْس والخزرج بعد هذه الفتنة العمياء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِيــنَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ناداهم الله بصفة الإيمان لتحريك عوامل الإيمان في قلوبهم ليكون منهم الحذر واليقظة ممــا يدبّر لهم من فتنة بينهم، فيقــول الله لهم: إن تطيعوا جماعة من أهل الكتــاب ـ وهم اليهود ـ فيما يبثّونه بينكم من دســائس ومؤامــرات لإلقاء العــداوة والبغضاء بينكــم الذي يؤدي إلــى تقاتلكم ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ يصيّروكم بعد إيمانكم كافرين، ومعنى ذلك أن الفِرقة والتنازع والتباغض والتقاتل إن حصلت بينكم فهي مظهر من مظاهر الكفر.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ الاستفهام هنا للتعجّب، أي من الذي يتصــوّر أن يكون منكم كفر بعد أن اجتمعت كل الأسباب الداعية إلى الإيمان:

أولًا: أنكم تتلى عليكم آيات القرآن التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ وفيها كل منابع الخير لكم التي فيها سعادتكم وصلاح أمركم.

ثانيًا: أنّ بينكم رسول الله يُرشدكم إلى الهُدىٰ والصلاح وينهاكم عن الغيّ والضلال ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومن يلجأ إلى ربّه متمسّكًا بدينه فقد اهتدى إلى طريق الفوز والفلاح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

شرح المفردات

حَقَّ تُقَاتِهِ: أي أن يُتقي الله اتقاء حقًّا ثابتًا بأن يُطاع فلا يُعصى.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ: وتمسَّكوا بعهد الله ودينه وكتابه.

وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ: شفا الحفرة طرفها، أي وكنتم مُشرفين على الوقوع في نار جهنم.

أُمَّةٌ: جماعة تربطهم رابطة جنس أو دين.

الْمَعْرُوف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حُسنه.

الْمُنْكَر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقُبحه.

دعوة إلى التكاتف حول الإسلام

وبعد أن بيّن القرآن محاولة بعض اليهود زعزعة الوحدة بين المؤمنين والتفريق بينهم دعا بعد ذلك إلى الوحدة بين المؤمنين وحذّر من الفُرقة فيما بينهم، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ أي يا معشر من صدّق الله ورسوله محمدًا اتّقوا الله بطاعته وترك عصيانه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي اتقاء حقًّا ثابتًا بأن يُطاع الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكْفَر ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ولا تموتنّ ـ أيها المؤمنون ـ إلّا وأنتم خاضعون لربّكم مُذعنون له بالطاعة، مُخلصون له العبادة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ والاعتصام: التمسك بالشيء. والحبل كما هو معروف يستعمل للرّبط أو للتدلي أو الإمساك به للنجاة من الخطر، كما أن الحبل يأتي بمعنى مجازي وهو العهد والأمان، وقد فُسّر الحبل هنا بدِينِ الله أو القرآن، والاعتصام بحبل الله هو التمسّك بدينه وترك الفُرقَة واتّباع القرآن، فإنه أمان للمسلمين من عذاب الله وعقابه. وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «القرآنُ حَبلُ اللهِ المتين لا تَنْقَضي عجائِبُه، ولا يَخْلُقُ عن كَثرة الرَّدّ[1]، مَن قال به صَدَق ومن عمل بِهِ أُجِرَ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم»[2].

والملفت للنظر قوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ في التمسّك بدين الله، أي كونوا جميعًا متمسّكين بحبل الله لأن الأُمَّة الإسلامية طائفة واحدة متضامنة لا تقبل التجزئة والتفرقة، أو بمعنى: خذوا شريعة الله كلها في نظام حياتكم

(١) أي لا يبلى ولا تزول لذة قراءته من كثرة ترداده.
(٢) أخرجه الترمذي.

ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء ﴿وَلا تَفَرَّقُـوا[١]﴾ أي ولا تتفرقوا في الدِّين كما تفرّق كلٌّ من اليهـود والنصارى في أديانهم، أو كمـا كنتم مُتفرِّقين في الجاهلية قبل الإسلام يُعادي بعضكم بعضًا وتتقاتلون لأوهى الأسباب.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْـدَاءً﴾ والنعمة التي يُذكّر الله بها المؤمنين هي نعمة الهداية إلى الإسـلام الذي وحَّد بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداءً يتقاتلون فيما بينهم ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ فجمع الله بين قلوبكم على الإيمان بعد أن كنتم أعداء متخاصميـن ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فصرتم بنعمة الإسلام إخوانًا في الدِّين متحابّين لا ضغائن بينكم.

والجديـر بالذكر أنّ الآية صرّحـت بالقلوب ﴿فَأَلَّفَ بَيْـنَ قُلُوبِكُمْ﴾ دلالة على أهمية القلوب، وأن عليها الاعتماد في بناء العلاقات بين الناس، فإذا تآلفت القلوب أدّت إلى المحبّة والتعاطف وبالتالي إلى القوّة والمنعة، وإذا تنافرت أدّت إلى العداوة والبغضاء، وبالتالي إلى الضعف والانحلال.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَـفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّـارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ والشـفا: طرف الشيء وحرفه، وأشفى على الشيء: أشرف عليه. والمعنى: وكنتم مشرفين بكفركم علـى الوقوع في نار جهنـم فجعل الله اسـتحقاقهم لعذاب النار بسـبب كفرهم وضلالهم كمن كان على طرف حُفرة مـن النار ومن كان على طرفها لا يتماسك عن الوقوع فيها ولكن الله أنقذهم منها بأن هداهم للإسلام ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي بمثل هذا البيان الذي كنتم عليه قبل الإسـلام، كذلك يُبيِّن الله لكم سـائر حججه لتهتدوا إلى سبيل الرَّشاد.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ فسَّر بعض العلماء (مِنْ) في كلمة

---

(١) تفرّقوا: أصلها تتفرقوا بحذف التاء تخفيفًا.

(منكم) بأنها للتبعيض، أي عليكم ـ أيها المسلمون ـ إعداد جماعة منكم[(١)] تدعو إلى الخير وتسعى إلى تنفيذه، والخير ضد الشر وهو كل أمْرٍ نافعٍ في الدنيا ويُعطى ثوابه في الآخرة كإنشاء دور التعليم والمستشفيات وبيوت العجزة، ورعاية حقوق الفقراء ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والمعروف: ما استحسنه شَرْعُ الله والعقل السليم، والمُنكر: هو كل فِعْلٍ تحكم العقول السليمة بقُبحه وشرِّه، ومعلوم أن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُشترط فيها العلم بالحلال والحرام، فمن الثابت أنَّ هذا التكليف مُوجَّهٌ إلى العلماء المتفقِّهين في الدّين، فإنَّ الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف.

ويرى فريق من العلماء أن (مِنْ) في الآية ليست للتبعيض بل للبيان، بمعنى: كونوا أُمَّة دُعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر لأنَّ الله أوجب ذلك على كل الأُمّة كما جاء في القرآن في وصف المسلمين الأولين:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وجاء في القرآن ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فالله سبحانه أهلك الذين عملوا السوء ولم ينهوا عنه، وأنجى الذين ينهون عنه، فجعل الله سبحانه الممتنعين عن نهي الظالمين عن ظلمهم مع الظالمين في العذاب.

ويقول الرسول محمد ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلِكَ أَضْعَفُ الإيمانِ»[(٢)].

---

(١) تأمّل كيف دعا الله إلى إعداد جماعة من المسلمين إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الجماعة لها القدرة على الوقوف في وجه المفسدين. أما الفرد فقد يتعرض للأذى ولا يستطيع كبح أهل المنكر عن منكرهم.

(٢) أخرجه الترمذي.

ثم ختم الله هذه الآية بقوله ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ والفلاح هو الظفر والفوز، وإدراك ما يبتغيه الإنسان من نيْل رضاء الله والحياة الطيّبة في الدنيا والنعيم في الآخرة، وهذا يتحقق للذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

شرح المفردات

الْبَيِّنَاتُ: الحجج والأدلّة الواضحة.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ: أي يوم القيامة تُسَرُّ وجوه وتفرح.

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ: تكتئب وتحزن.

فَفِي رَحْمَةِ اللهِ: أي في جنّته وكرامته.

تُرْجَعُ الأُمُورُ: أي تصير أُمور الخلق إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم.

مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة

وبعد أن دعا الله المؤمنين إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لا يحصل إلّا بعد تمام الألفة والمحبّة بينهم، لذا حذّرهم الله من الفُرْقَةِ والاختلاف حول دينهم لكي لا يصير ذلك سببًا لعجزهم عن القيام بهذا الأمر الجليل، قال الله تعالى:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ نهى الله سبحانه المسلمين عن التفرُّق والتّنازع والاختلاف حول دينهم وأن لا يكونوا كالذين سبقوهم من المِلَل حيث تفرَّقوا شِيَعًا وأحزابًا كل طائفة تُكفِّر الأخرى بسبب تأويلاتهم المختلفة لنصوص دينهم، من بعدما جاءتهم الحجج الواضحة المبيّنة للحقّ، والموجبة لعدم التفرقة والاختلاف ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا إنذار للمؤمنين كي لا يقعوا في التفرُّق والاختلاف حول دينهم، لأن هذا التفرُّق يؤدّي إلى عذاب الآخرة.

ثم يخبرنا الله سبحانه بما يكون عليه مظهر المؤمنين والكافرين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فبياض الوجوه هو تعبير مجازي عن الفرح والسرور، وسواد الوجوه هو كناية عن الغمّ والحُزْن، وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيضَّ وجهه بما يظهر عليه من الفرَح والغبطة، كما يقال لمن أصابه مكروه: اربدَّ وجهه[1] وتبدَّلت صورته من شدَّة الحُزن والغَمّ. وقيل إن البياض هو حقيقة ويحصل على وجوه المؤمنين، والسواد يحصل على وجوه الكافرين. فالمؤمن يشعُّ البياضُ في وجهه فيعرف الخلائق أنه من الذين نالوا رضى الله واستحقوا نعيم الآخرة، كما يظهر السواد في وجه الكافر العاصي ربه الذي استحقَّ عذاب النار.

---

(١) اربدّ وجهه: احمرّ حمرة فيها سواد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وجواب (أمّا) محذوف تقديره: فيُقال للذين اسودّت وجوههم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أكفرتم وجحدتم الحقَّ بعد إيمانكم؟ ولكن ما المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟ اختلف العلماء فيهم، فبعضهم قال: إنهم المنافقون وذلك أنهم تكلموا بالإيمان بألسنتهم وأنكروه بقلوبهم، وقيل: هم من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد قبل بعثته نبيًّا بناءً على ما جاء في كتبهم الدينية من البشارات على مجيئه، فلما بُعث نبيًّا أنكروه وكفروا به، وقيل: إن الخطاب في الآية يشمل جميع الكافرين الذين ارتدّوا بعد إيمانهم من غير تخصيص لفئة ما ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي يُقال للذين كفروا بعد إيمانهم: ادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب فيها بسبب كفركم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ وأما الذين أدركت قلوبهم معاني الإيمان وساروا على موجبه فهم في رحمة الله وهي الجنّة التي أعدَّها لهم وفيها من أنواع النعيم ما تقرّ به أعينهم، وقد عبَّر الله عن الجنّة هنا بالرَّحمة إشارة إلى أن دخول المؤمن إلى الجنّة هو بفضل الله ورحمته ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والمؤمنون باقون في الجنّة أبدًا بلا نهاية.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي تلك آيات القرآن نُعرِّفُك إيّاها يا محمد وهي متّصفة بالحقّ والعدل، وقد أسند الله التلاوة إليه مع أن التالي في الحقيقة الملك جبريل بأمر الله للتنبيه على شرف هذه الآيات ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ فالله سبحانه لا يُريد أن يظلم البشر ولا يقبل منهم أن يظلم بعضهم بعضًا، فالظلم أمر لا يليق بذاته ولا يُتصوّر حدوثه منه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه ما في السّماوات من نجوم وكواكب وغيرهما من أجرام سماوية، وله ما في الأرض من كائنات حيّة

ونبات وماء وجماد، فهو سبحانه الخالق والمالك والمدبّر لِمَا فيهما ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وكلّ أعمال الناس راجعة إلى حُكمه وقضائه، فَليحذر الذين يخالفون أمره من سوء المصير.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

شرح المفردات

أَهْلُ الْكِتَابِ: هم اليهود والنصارى، والمراد بالكتاب كتاب التوراة وكتاب الإنجيل.

الْفَاسِقُونَ: الخارجون عن طاعة الله.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى: أي لن يضرّكم اليهود إلا ضررًا يسيرًا لا يعتدُّ به كالسبّ والطعن والتهديد.

يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ: يُعطوكم ظُهورهم مُنهزمين.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ: أي أُحيطوا بها.

ثُقِفُوا: وُجدوا.

بَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له.

الْمَسْكَنَةُ: فقر النفس وشحّها.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا: أي بسبب خروجهم عن طاعة الله.

المسلمون كانوا خير الأمم

وبعد أن حـذَّر الله المؤمنين من أن يكونوا مثل أهـل الكتاب في التمرُّد والعصيان لربهم، خاطب الله أصحاب النبي محمد ﷺ الذين كانوا على أعلى مثال في التقوى والصلاح بقوله:

﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ أي أنتم يا أُمَّة الإسـلام وُجِدْتُم خير أُمَّةٍ ظهرت للناس، وهذه الخيريَّة لِأُمَّة الإسلام منوطة بتحقيق أمرين:

أولاهما: ﴿**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ والأمر بالمعروف هو ما كان معروفًا فِعْله بأنه جميل مستحسـن تُقِرُّه العقول السـليمة، والنهي عن المنكر هو ما أنكره الله ورآه أهل الإيمان والعقول السليمة قبيحًا فِعْله.

ثانيهما: ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ أي تؤمنون بأن الله واحد لا شريك له وتؤمنون بسائر صفاته الحسنة التي ذكرها القرآن، ولا تتوجهون بالعبادة إلى سواه.

والإيمان بالله هو منبع الفضائل، فهو سـبحانه الذي حدَّد للإنسـان معاني الخير والشر، وبيّن الحلال من الحرام ووضع أسسًا لعلاقة الإنسان بربِّه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسـان، ثم أوضح له غاية وجوده على الأرض، فالإيمان بالله هو الذي يُوجّه الإنسان إلى الالتزام بما شرعه الله لعباده من الخير.

هذه الصفات التي ذكرها القرآن إذا قام بها المسلمون يكونون خَيْرَ الأمم، فإذا انعدمت زالت عنهم الخيريَّة.

﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾ أي لو آمن أهل التوراة وأهل الإنجيل بنبوّة محمد ﷺ وصدّقوا بما جاء به من الهدى من عند ربه لكان ذلك خيرًا لهم في دُنياهم وآخرتهم ﴿**مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي من أهل الكتاب المخلصون في عقيدتهم حيث صدّقوا بنبوّة محمد كعبد الله بن سلام وجماعته من اليهود، والنجاشي ملك الحبشة وجماعته من النصارى ﴿**وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ وأكثر أهل الكتاب خارجون عن دين الله وطاعته.

﴿**لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى**﴾ أي ما يُصيبكم أيّها المسلمون من هؤلاء الفاسقين اليهود إلّا أذًى يسيرًا لا يُعتدّ به كمثل ما تسمعونه منهم من هجاء وطعن وشبهات على دينكم ﴿**وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ**﴾ وإن يقاتلوكم يفرُّوا منكم منهزمين، وعبَّر القرآن عن انهزامهم بتوليتهم الأدبار وهي ظهورهم، لأن من ينهزم في ساحة القتال يولّي ظهره لعدوه فرارًا منه ﴿**ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ**﴾ ثم لا يكون لليهود نصر عليكم أيها المسلمون.

وقد قاتل المسلمون بني النضير وبني قريظة ويهود خيبر فانتصروا عليهم، منهم من أجلاهم محمد ﷺ عن ديارهم بعد هزيمتهم وبعضهم قضى عليهم عندما غَدَروا به كما حصل لبني قُرَيْظة.

﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ**﴾ والضرب إيقاع شيء على شيء، والمراد أن الذِّلَّة التصقت باليهود وأحتوتهم ﴿**أَيْنَ مَا ثُقِفُوا**﴾ أينما حلُّوا وحيثما وُجدوا ﴿**إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ**﴾ والحبل مستعار للعهد، وشُبِّه العهد بالحبل لأن الناس يرتبطون بالعهود كما يقع الارتباط بين شيئين بالحبل، فالله سبحانه يبيّن بأن اليهود لا يُعانون الذِّلَّة في حال وجود عهد من الله لهم وهو ما قرَّره الإسلام من الأمان لهم في حال كونهم مُسالمين للمسلمين وهذا ما حصل، فحينما دخل الرسول محمد المدينة المنوّرة أعطاهم العهد فكانوا آمنين، فلمّا خانوا

العهد انقطع حبل الله عنهم ونـزل بهم ما نزل من التهجير والقتل والسبي والذُّلّ ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ وهو ارتباطهم بدولة قوية تساعدهم وتدافع عنهم كما هو شأنهم الآن حيث تمدّهم بعض الدول الكبرى بالمال والسلاح الوفير وتدافع عنهم.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي رجعوا بغضب من الله، وهو كناية عن استحقاقهم له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ ولازَمتهم الذّلة والتعاسة ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي ذلك الذي أصابهم كان بسبب أنهم كانوا يجحدون حجج الله الدالَّة على صِدْقِ أنبيائه ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي وبسبب قتلهم أنبياء الله مثل زكريا ويحيى وغيرهما، ولكن هؤلاء اليهود المعاصرين للنبيّ محمد ﷺ لم يصدر عنهم قتل الأنبياء، ولكن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء، فلما كانوا راضين بفعلهم نُسِبَ ذلك الفِعْلُ إليهم، هذا مع العلم أنهم حاولوا قتل النبي محمد ﷺ، وألّبوا المشركين على محاربته والقضاء عليه مع من آمن به ﴿ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضَرْبِ الذِّلَّة عليهم ورجوعهم بغضب من الله، إنَّ ذلك كان بسبب كفرهم وعصيانهم أوامر الله واعتدائهم على حدوده.

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى
ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن
يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن
تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ
وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

لَيْسُوا سَوَاءً: أي ليس أهل الكتاب متساوين في سلوكهم.

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ: منهم جماعة مستقيمة ثابتة على طاعة الله.

يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ: يقرأون آيات القرآن.

آنَاءَ اللَّيْلِ: ساعاته وأوقاته.

يَسْجُدُونَ: يُصَلُّون.

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ: يبادرون إليها ويتنافسون فيها.

فَلَنْ يُكْفَرُوهُ: فلن يُجحد عملهم الخيّر ولن يُحرَموا ثوابه.

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ: لن تدفع عنهم أموالهم.

أَصْحَابُ النَّارِ: أهل النار يُعذّبون بها.

رِيح فِيهَا صِرٌّ: ريح شديدة البرودة.
حَرْثَ قَوْمٍ: زَرْع قوم.

أهل الكتاب فيهم الصالح والآثم

وبعد أن وصف الله سبحانه الفاسقين من أهل الكتاب بذميم الصفات وقبائح الأعمال، وذكر الجزاء على أعمالهم، بيَّن الله سبحانه في الآيات التالية بأن أهل الكتاب ليسوا جميعًا متساوين في قبائح الأعمال، بل فيهم جماعة صالحة تسير على هدى الله، قال سبحانه:

﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ**﴾ هذا القسم من الآية وما بعده من آيات نزل في من آمن من أحبار اليهود، كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد وغيرهما. والمعنى: ليس كل أهل الكتاب متساوين في الكفر والأعمال السيئة بل يوجد منهم جماعة مستقيمة عادلة ﴿**يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾ أي يقرأون آيات القرآن في ساعات الليل وهم يُصلّون، وقد عبّر القرآن عن الصلاة بالسجود لأنه ركن من أركان الصلاة، وتخصيص السجود بالذكر لأنه يدل على كمال الخضوع لله.

﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ يُصدّقون بوجود الله ووحدانيّته ويصدّقون بأنهم سيُبعثون أحياء بعد مماتهم يوم القيامة، وأن الله سيجازيهم على أعمالهم ﴿**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ ويأمرون غيرهم بالمعروف وهو ما يُعرف حُسْنُهُ بالعقل والشرع ﴿**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ وينهون عن قبائح الأعمال والمعاصي التي تُبعدهم عن ربّهم.

﴿**وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين حرصًا منهم على نيل ثواب الله ﴿**وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات هم من جملة عباد الله الصالحين الذين نالوا الرِّضى من الله. وكلمة

الصالحين مَدَحَ الله بها أنبياءه بقوله عن بعضهم: ﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ وكلمة ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ معناها التغطية، أي لن يغطي الله ما فعلوا من خير ولن يُحرموا ثوابه البتة ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي أنه سبحانه عليم بمن اتّقاه فأطاعه واجتنب معاصيه. وإذا كان الله عليم بأفعالهم الحسنة فهو سبحانه قد حثّهم على الاستمرار فيها والترغيب في الاستزادة منها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ أي إن الكافرين لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم التي يعتزّون بها شيئًا من عقوبة الله لهم يوم القيامة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهم من أهل النار التي سيُعذبون بنارها لا يخرجون منها ولا يفارقونها. ولكن من هم هؤلاء الذين كفروا؟ قيل: هم المشركون العرب الذين كانوا يدّعون بما ذكره القرآن: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥] ومن الذين كفروا يهود بني قريظة والنضير الذين كانوا يسكنون المدينة المنوّرة وينفقون الأموال الطائلة في محاربة الإسلام.

ثم مثّل الله ما ينفقه الكفّار سواء أكان ما ينفقونه في محاربة الإسلام الذي سيذهب سدى، أو ما ينفقونه في سُبُلِ الخيْر الذي يبطل الله ثوابه بسبب كفرهم بقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي هذا الإنفاق منهم مثله كمثل ريح شديدة البرودة ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ وهذه الريح الشديدة البرودة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي، فأفسدت زرعهم وأهلكت ما فيه من ثمر في وقت كانوا أحوج الناس للانتفاع به ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمهم الله بإنزال العقوبة فيهم بإهلاك زرعهم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ
خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي
صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ
أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن
تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ
كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾

شرح المفردات

بِطَانَة: بطانة الرجل خاصّته وموضع سرّه.

مِنْ دُونِكُمْ: من غير ملَّتكم.

لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا: لا يُقَصِّرون في إنزال الشرّ والفساد فيكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ: تمنوا لكم المشقَّة والضَّرر الشديد.

بَدَتْ: ظهرت.

الغَيْظ: شدة الغضب.

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ: أي أن الله يعلم بما انطوت عليه النفوس من الأسرار.

كَيْدُهُمْ: مكرهم وتبييتهم الشرّ للمؤمنين.

عدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين

وللمحافظة على كيان الدولة الإسلامية من أيّ خللٍ يُصيبها أو ضرر يلحق

بها نهى الله المؤمنين عن عقد الصلات الوثيقة مع أعداء الإسلام يُفشون لهم أسْرارهم ويتلقّون المشورة منهم. وقد كانت قلة من المسلمين يُخالطون حلفاء لهم من اليهود وأهل النفاق ويخصُّونهم بالمودَّة لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ـ قبل الإسلام ـ فجاء القرآن بالنهي عن مخالطتهم وعن اتخاذهم أصفياء لِمَا ظهر منهم من عداوة للإسلام، قال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**﴾ نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من غير إخوانهم المؤمنين بِطانةً لهم يُطلعونهم على أسرارهم وخفايا أُمورهم ويطلبون المشورة منهم ﴿**لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا**﴾ أي هؤلاء البِطانة لا يُريدون لكم الخير، ولا يُقصِّرون في إلْحاق الشرِّ والفساد بكم ﴿**وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ**﴾ أي تمنّوا وقوعكم في الضرر الشديد والمشقَّة ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ قد ظهرت الكراهية لكم من أقوالهم وما يحصل من فلتات ألْسنتهم ﴿**وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ وما تنطوي عليه صدورهم من الحقد وإرادة الشرّ لكم هو أشد مِمّا ظهر على أفواههم ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أي قد أوضح الله لكم العلامات الدَّالَّة على شديد بُغضهم لكم، فلا تجعلوهم أصفياء وأصدقاء لكم إن كنتم من أهل العقل والإدراك للحقائق.

ثم بَيَّن القرآن السبب في نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة لهم من غير دينهم: ﴿**هَاأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ**﴾ أُولاء: بمعنى الذين، أي ها أنتم أيها المؤمنون الذين اتخذتم من غير ملَّتكم بطانة لكم تحبونهم وترجون لهم الهداية والخير، وهم لا يُحبّونكم ولا يريدون الخير لكم بل يُبطنون العداوة لكم ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**﴾ والكتاب هنا هو اسم جنس للكتب الإلَهية المُنزلة، أي وأنتم ـ أيها المسلمون ـ تُصَدِّقون بجميع الكتب الإلَهية التي أنزلها الله على رسله، واليهود لا يؤمنون بذلك بل يؤمنون ببعض الكتب دون البعض الآخر ﴿**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا**﴾ وإذا لقوكم ـ أيها

المؤمنون ـ قالوا: صدَّقنا بما جاء به محمد من عند ربه، يقولون ذلك خداعًا لكم حتى تطمئنوا لهم وتخبروهم أسراركم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وإذا اختلى بعضهم ببعض بحيث لا يراهم المؤمنون ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ﴾ أي أظهروا شدَّة العداوة لكم حتى بلغت شدَّتها إلى عضّ أناملهم من غيظهم لِمَا يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: استمروا بغيظكم وابقوا عليه حتى الموت، فهنا دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به. هذا وإن السبب في ازدياد غيظهم هو ما يرونه من انتشار الإسلام وانتصار أهله وعزتهم ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو سبحانه يعلم ما في صدور خلقه وما قد تنطوي عليه من خير وشر فيجازيهم جميعهم على ما قدّموا من أعمالهم.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إن نالكم خير ـ أيها المؤمنون ـ ساءهم ذلك وأحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وإن تنزل بكم مصيبة يفرحوا ويشمتوا بكم.

ومن دقائق بلاغة القرآن أنه اختار لفظ المس في جانب الحسنة والإصابة في جانب السيئة إشعارًا بأن أُولئك الكافرين والمنافقين يسوؤهم ما يصيب المسلمين من خير وإن قلَّ، وعبَّر عن المصيبة التي تلحق بالمسلمين بالإصابة وهي التي تغمر وتعمّ فهي التي تفرحهم وتشفي غليلهم.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وإن تصبروا ـ أيها المؤمنون ـ على عداوتهم وكيدهم وتتقوا اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين لا ينالكم من كيدهم لكم شيئًا من الضرر قليلًا كان أو كثيرًا ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إن الله محيط علمه بأعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم بما يستحقون من عذاب بسبب كيدهم لكم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ
رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

شرح المفردات

غَدَوْتَ: خرجت أوّل النهار، وقد يستعمل الغُدُوُّ في مطلق الخروج.

تُبَوِّئُ: تُهيّئ وتُنزل.

مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ: الأماكن المناسبة للقتال.

وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ: المراد أنهم كانوا قليلي العدد مع قلّة في السّلاح.

مِنْ فَوْرِهِمْ: من ساعتهم.

مُسَوِّمِينَ: معلّمين بعلامة تميّزهم عن غيرهم.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا: ليُهلك طائفةً منهم.

يَكْبِتَهُمْ: يُخزيهم ويُدخل الهمّ إلى قلوبهم.

فَيَنْقَلِبُوا: فينصرفوا ويرجعوا.

غزوة أُحُـد

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الحديث عن غزوة أُحُـد، وكان حديثه في ذلك زاخرًا بالتوجيهات الحكيمة والتربية القويمة والتشـريعات السامية بما يكون في ذلك هداية للمسـلمين في كل زمان ومكان، مبيِّنًـا الطريق الذي يوصل المسـلمين إلى النصر، وموضحًا طريق الفشل ليجتنبوه، وقد كان النصر أولًا للمسـلمين ثم تلته الهزيمة عندما خالفَ رُماة السِّـهام وصيَّة الرسول محمد ﷺ بالبقاء في أماكنهم في الجبل خلف جيش المسلمين مهما كان حال سير المعركة نصرًا أو هزيمة.

الرغبة فـي الثأر: لم يهدأ غيظ الكفار العرب بعـد ما أصابهم من هزيمة فادحة في غزوة بدر، لهذا أخذوا يُعِدُّون العُدَّة لجولة أُخرى من القتال يثأرون فيها لمن قُتِلَ منهم، فأرسـلوا إلى قبائل العرب يسـتنفرونهم للقتال معهم، فاسـتجابت لهم جموع من قبائل شتى واسـتطاعوا تجنيد ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة (أبي سفيان) ثم أقبل بهم نحو المدينة المنوَّرة ونزل بجيشه قريبًا من جبل أُحُد.

استشـار النبي ﷺ أصحابه في شـأن هـؤلاء المشـركين الزّاحفين إلى المدينة لقتال المسـلمين فكان رأي بعضهم، ومعظمهم من الشباب، الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، وكان رأي فريق آخر من الصحابة استدراج المشـركين للدخول إلـى أزقة المدينة، فـإن هاجموهم قاتلهـم الرجال في وجههم ورماهم النسـاء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وكان النبي ﷺ يميل إلى هذا الرأي، إلا أنه آثر الأخذ برأي الشباب، وهم الأكثر عددًا، حيث يرون ملاقاة المشركين خارج المدينة.

صلّى النبي ﷺ صلاة الجمعـة ووعظ الناس وحثّهم على الصَّبر والجلد،

وبعد الانتهاء من الصلاة دعا بِلأْمَتِهِ[(١)] فلبسها، ثم نادى المسلمين للخروج لملاقاة المشركين، فخرج النبي ﷺ في ألف مقاتل من المسلمين.

ولمّا كان النبي ﷺ وجيشه في منتصف الطريق قاصدًا جبل أُحُد انسحب عبدالله بن أُبَيّ رئيس المنافقين ومعه ثلاثمئة من أتْباعه من جيش المسلمين، ولمّا رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبي العهد بالإسلام تخاذل عبدالله بن أُبَيّ وجماعته تولّاهم الخَوَر والجُبْن وكادتا تنسحبان من جيش المسلمين ولكنّ الله عصمهما عن ذلك.

نزل المسلمون في جانب الوادي من جبل أُحُد جاعلين ظهورهم إلى الجبل، وفي صباح يوم السبت وزّع النبي ﷺ الرُّماة ـ أي الذين يرمون السهام ـ وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال لهم: احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن نُؤتى من ورائنا، والْزموا مكانكم لا تبرحوه، وإن رأيتمونا نهزمهم فلا تُفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصروننا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالسهام، فإنَّ الخيل تتراجع في حال إصابتها.

الْتحم الجيشان، وظهر المسلمون في أعلى صُوَرِ البطولة والشجاعة، وما هي إلّا جولات حتى ولّى المشركون الأدبار منهزمين، ورأى الرُّماة الذين وضعهم النبي على الجبل أن الهزيمة تحلّ بالمشركين فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم عبدالله بن جبير أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملًا بوصيّة النبي ﷺ، إلّا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة للحصول على الغنائم، وبقي عبدالله بن جبير على الجبل مع عشرة من المقاتلين الرُّماة.

---

(١) لأمته: دِرْعه.

أدرك خالد بن الوليد وكان آنذاك قائدًا على فيلق من المشركين قبل إسلامه أنَّ ظهور المسلمين قد انكشفت بترك معظم رُماة السِّهام أماكنهم، فاغتنمها فرصة واستدار على عجل بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين وأخذوا في مهاجمتهم في مكان ما كانوا يظنون أنهم سيهاجَمون منه بعد أن قضوا على من بقي من الرماة على الجبل فقتلوهم جميعًا مع أميرهم عبدالله بن جبير، فلمّا رأى المسلمون ذلك البلاء الذي حلّ بهم دُهِشوا وأصابهم الهلَع وتركوا ما بأيديهم من الغنائم، واختلَّت صفوفهم، إلّا أنَّ فريقًا منهم أخذ يقاتل ببسالة، واستشهد عدد كبير منهم، وأُصيب النبي ﷺ خلال ذلك بجروح بالغة وأُشيع أنه قُتِلَ، فازدادت الفوضى وعظُمت البليّة، إلّا أن أحد المسلمين شاهد محمدًا وأنه حيّ، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين هذا رسول الله، فالتفَّ حوله جماعة من صحابته ودافعوا عنه دفاع الأبطال.

وقد كانت إشاعة مقتل النبي التي تسرَّبت إلى صفوف المشركين وكثرة الضحايا التي أوقعوها بالمسلمين سببًا في تراجع المشركين عن الاستمرار في المعركة وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين، وانتهت غزوة أُحُد باستشهاد سبعين مقاتلًا من المسلمين. هذا مُلَخَّصُ غزوة أُحُد.

رجع المسلمون إلى المدينة المنوَّرة وقد هدَّهم الحُزْنُ، وفَتَّ في عضدهم هذه الهزيمة بعد النصر الذي أصابوه، لذا نزل في هذه المعركة ستون آية تعالج نفوس المؤمنين وما أصاب بعضهم من وَهنٍ ويأس، وتُواسي من فقدوا من أحِبَّتهم، وما أصابهم من جراح، مبيّنة الثواب العظيم للشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة.

والقرآن لم يذكر أحداث غزوة أُحُد متتابعة بل تخللتها إشارة إلى غزوة بدر وما جرى فيها من تضحيات وتأييد من الله للمسلمين أوصلتهم إلى نصر

فريد من نوعه في تاريخ الأُمم، وكذلك النهي عن تعاطي الرِّبا لأنه يثير الضغائن في النفوس فلا يجعل القلوب صافية مترابطة لمواجهة العدو، كما دعا القرآن المؤمنين إلى المسارعة إلى مغفرة الله والإنفاق في سبيل الله وكظم الغيظ والعفو عمن يسيئون إليهم.

ولنعرض ما ذكره القرآن عن غزوة أُحُد وما جرى فيها من وقائع وأحداث، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ غدوت: أي خرجت غدوةً في أوّل النهار. والمعنى: وأذكر يا محمد وقت خروجك باكرًا من المنزل الذي فيه أهلك إلى غزوة أُحُد ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ[1] لِلْقِتَالِ﴾ قاصدًا وضع المؤمنين في الأماكن المناسبة للقتال، فمنها موضع لرماة السهام، وموضع للفرسان، وموضع لسائر المؤمنين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بنيّاتكم وأعمالكم .

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ والهمّ هو الخاطر الذي يُراود النفس بأن تفعله ولكن لا تنفّذه، والطائفتان هما حيّان من الأنصار: بنو سلَمَة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوْس وكانا جناحَيْ عسكر رسول الله. والفشل في اللغة يأتي بمعنى ضَعْف مع جُبْنٍ وهو المراد في الآية، والمعنى: واذكر يا محمد حين همّت طائفتان من جنودك أن تَجْبُنا وتضعُفا عن القتال حين رأوا المنافق عبدالله بن أُبَيّ ينسحب بثلث الجيش من أتباعه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ والله سبحانه يتولّى أمر هاتين الطائفتين من المؤمنين ويعصمهما عن أتباع ما همّت به أنفسهم من الانسحاب، وهذا ما حصل

(١) مقاعد: جمع مقعد، ثم استعمل بمعنى المكان توسعًا وهو المراد هنا، والقرآن عبَّر عن الأماكن بالمقاعد للإشارة إلى وجوب الثبات فيها كما يثبت القاعد في مكانه.

فكان أن مضوا مع رسول الله للقتال ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويُفوّضوا أُمورهم إليه مع اتخاذ الأسباب التي أمر الله بإتيانها.

غزوة بَدْر

وقبل أن تُتَابع الآيات الكلام عن غزوة أُحُد التي انتهت بالهزيمة بسبب مخالفة رماة السهام أوامر النبي ﷺ بالثبات في أماكنهم على الجبل، تذكر لنا هذه الآيات ما جرى في غزوة بَدْر التي سبقت غزوة أُحُد التي انتهت بالنصر حينما توكّل المسلمون على الله واستماتوا في القتال وامتثلوا أوامر النبي ﷺ، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ[1]﴾ وبَدْر: هو بئر بين مكة والمدينة المنوَّرة كان لرجل اسمه بدر فسمي هذا الموضع باسمه، وهناك حصلت غزوة بدر حيث نصركم الله ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي وأنتم قليلون. وذِلّتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، فقد كانوا ثلاثمئة وبضعة عشر ولم يكن معهم إلا فرس واحد، وكان عدوّهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس، يقول القرطبي: واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلّا أعِزَّة ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فاتقوا الله أيها المؤمنون بالثبات مع رسوله ﷺ، وامتثال أوامر الله لعلّه يُنْعِمُ عليكم نعمة أُخرى تشكرونه عليها.

وسبب غزوة بدر هو أن النبي ﷺ عَلِمَ أن قافلة تجاريّة كبيرة لقريش قادمة من الشام في طريقها إلى مكة بقيادة أبي سفيان ويحرسها ثلاثون أو

(١) أذلة: الأذلة، جمع قلة. والذلان جمع الكثرة.

أربعون رجلًا، فعزم النبي ﷺ أن يعترض طريق هذه القافلة فيُصادرها للإنفاق على جنوده، فدعا النبيّ أصحابه للخروج معه للاستيلاء عليها.

وصل إلى أسماع أبي سفيان نَبأ خروج محمد وأصحابه للاستيلاء على القافلة، فأرسل أحد رجاله إلى قريش يُعْلِمُهُم الخبر، واتَّبع هو طريقًا غير طريق القافلة فأفلت ممن يترصدونه، وسارع رجالات قريش إلى نجدته، فخرجوا في تسعمئة وخمسين مقاتلًا معهم مئة فرس.

هنا تغيّر وجه الأمر، فلم يكن قاصرًا على ملاقاة قافلة قليلة العدد بل على جيش كبير لم يأخذ المسلمون الاستعداد لملاقاته، فاستشار النبي ﷺ من معه من أصحابه، فتكلم المهاجرون كلامًا حسنًا، وكان منهم المقداد بن عمرو فقد قال: يا رسول الله، امضِ لما أَمَرَكَ الله فنحن معك، ثم تكلم سعد ابن معاذ عن الأنصار فقال: «لقد آمنَّا بك وصدَّقْناكَ وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فأمضِ لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك»، فظهر السرور على وجه النبي لقول سعد ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وَعَدني إحدى الطائفتين»[1] حيث يقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] وتابع النبي قوله: «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم إنَّ النبي ﷺ أخذ يتحسّس أخبار قريش وعددهم عن طريق العيون التي بثّها حتى علم أنهم ما بين التسعمئة والألف وأن فيهم عامة زعماء المشركين، ونظر إلى أصحابه مقابلهم وعددهم ثلاثمئة ونيّف.

استقبل النبي ﷺ القِبلة وقال: «اللَّهم أنجِز لي ما وَعَدْتني، اللَّهم إن تَهلك

(١) إحدى الطائفتين، إما الاستيلاء على القافلة أو الانتصار على جيش قريش.

هذه العصابة[١] من أهل الإسلام فلن تُعبد بعدُ في الأرض أبدًا» فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر بيده وقال: «حسبك يا رسول الله، ألْححت على ربّك»، وكان مما نزل من القرآن بعد هذه الاستغاثة:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ[٢]﴾ [الأنفال: ٩].

ثم ابتدأت المعركة وحمي وطيسها وكانت الهزيمة لقريش وبلغ عدد القتلى منهم سبعين رجلًا، وأُسِرَ منهم سبعون أيضًا، أما قتلى المسلمين فبلغوا أربعة عشر رجلًا، وهذا ملخص عن غزوة بدر.

فالله سبحانه أمدَّ المؤمنين يوم غزوة بدر بألْف من الملائكة كما هو مذكور في سورة الأنفال، ثم إن المسلمين بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد جيش قريش بعدد كبير من المحاربين فخافوا وشقَّ ذلك عليهم لقلة عددهم، فأنزل الله قوله: **﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾** أي واذكر يا محمد حين قلت للمؤمنين يوم غزوة بدر: ألا يكفيكم للتغلب على أعدائكم أن يُمدكم الله.بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين من السماء لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم **﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾** نعم يكفيكم ذلك الإمداد إن صبرتم واتقيتم الله بطاعته وترك عصيانه **﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾** أي وإن عاجلكم المشركون في الحال بجيشهم لمحاربتكم **﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾** أي يزد ربكم الملائكة إلى خمسة آلاف مميِّزين أنفسهم بعلاماتٍ يُعرفون بها.

---

(١) العصابة: الجماعة من الناس.

(٢) مردفين: متتابعين.

والله سبحانه أمدَّ المؤمنين يوم غزوة بدر بألْف من الملائكة كما هو مذكور في سورة الأنفال، ثم وعد الله المؤمنين بأنّ الكفار إن جاءهم مدد من قومهم ونجدة، فإن الله سيمدّهم بثلاثة آلاف من الملائكة أو خمسة إذا صبروا على القتال واتَّقوا ربهم، ولكن ذلك المَدَد من المحاربين لم يأتِ للكفار من مكة بسبب انصراف قومهم عن نجدتهم بعد أن بلغهم هزيمتهم، لذا لم يكن من داعٍ لإمداد المسلمين بالزيادة عن ألْف من الملائكة، ولا دلالة في الآية على أنهم أُمِدُّوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، وقد أجمع المفسرون أن الله أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة يوم غزوة بدر كما جاء في سورة الأنفال وأنهم قاتلوا الكفار مع المسلمين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ وما جعل الله الإمداد بالملائكة إلّا بشارة لكم من الله بالنصر على أعدائكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أي ولتسكن قلوبكم بهذه البشرى فلا تخافوا من كثرة عدوّكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي وإن النصر لا يكون إلّا من عند الله وحده وليس بكثرة عدد المحاربين ووفرة السلاح، وهو سبحانه القويّ الغالب، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها حسب ما تقتضيه حكمته في سائر أفعاله.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولقد نصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ يوم بدر لِيُهلك طائفة من الكفار ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فيرجعوا إلى ديارهم منهزمين وقد فقدوا الآمال فيما سعوا إليه.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً: الأضعاف جمع ضعف، وضعفاه مِثْلاه، وأضعافه أمثاله.
أُعِدَّتْ: هُيِّئت.

التسليم لإرادة الله

ولقد كان لغزوة أُحُد وقعٌ كبير على رسول الله ﷺ بما أُصيب به من جراح، فقد كُسِرَت رُباعِيَّته[1]، وشُجّ رأسُه، وأخذ الدم يسيل على وَجْهِهِ الكريم، فجعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: كيف يُفلحُ قومٌ خضبوا وجه نبيهم بالدَّم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزل الوحي الإلٰهي عليه بقوله تعالى:

﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر الناس شيء وإنما أمْرهم إلى الله يقضي فيهم بما يشاء ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ**

(١) رباعِيّته: السِّن التي بين الثَّنِيَّة والناب؛ والثّنيّة هي إحدى الأسنان الأربع التي في مُقدَّم الفم.

فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أو يتوب عليهم في حال إسلامهم واتِّباعهم ما جئت به من الهدى، أو يعذبهم في الآخـرة إن هُم أصرُّوا على كفرهم، فهم مسـتحقون العذاب لظلمهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي له سـبحانه ما فيهما خَلْقًا وملـكًا وتصرّفًا، ومن كان كذلك كان جديرًا بأن يكـون الأمر كله إليه **﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾** أي يغفر الله لمن يستحق أن يُغفر له ممن تاب وآمن وعمل صالحًا، ويُعذّب من يشاء لمن يقترف المعاصي والمنكرات **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** هاتان الصفتان لله من صيغ المبالغة، فالله سبحانه يُبشّر عباده بأنه متصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة وأنّ رحمته سبقت غضبه.

تحريم الرِّبا

وفي هذا الجو الـذي تفوح منه رائحـة القتال والموت فـي غزوة بدر وغزوة أُحُد، تأتي توجيهات القرآن في النهي عن الرِّبا، ولكن ما علاقة الربا بهذا الجَوّ الذي يسـوده القتال؟ الجواب على ذلك: هو أن الإعداد الرُّوحي والخُلقي والنفسـي للمعركة لا يقلّ أهمية عن الإعداد الحربـي، فالرِّبا يُثير الضغائن في النفوس، ولا يجعل القلوب صافيةً مترابطةً متّحِدَةً كما ينبغي لها أن تكون وهي مقبلة على خوض المعركة، لذا شـدَّدَ القرآن النهي عن الرِّبا في كثير من الآيات، وبالأخص في هذه السورة حيث يقول الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا لا تَأْكُلُـوا الرِّبَا أَضْعَافًـا مُضَاعَفَةً﴾ خاطب الله المسلمين بصفة الإيمان لبيان أنّ أكل الربا ليس من طبيعة المؤمنين، وإنما هو من صفات أهل الكفر والعصيان. والرِّبا: معنـاه الزيادة والمُرادُ به اصطلاحًا، الزيادة علـى أصل الدَّيْن، وكلمة الرِّبا مرادفة لكلمـة الفائدة في عُرْفِ علماء الاقتصاد. وقد كان العرب قبل الإسـلام يتعاطون الرِّبا، فكان المدين إذا حلَّ

أجل سداد دينه مقابل فائدة ما، ولم يكن باستطاعته أن يدفع الدَّيْن المستحقّ عليه، قال لصاحب المال: أخِّر عني سداد دينك وأَزيدُك على مالِكَ، فيفعلان ذلك مرارًا حتى تتضاعف الفائــدة، ولربما ضاعف الدائن الفائدة مقابل تأخُّر المدين في الدفع.

والآية هنا التي نهت عن أكل الرِّبا في حال المضاعفة لا تدلُّ على إباحته عند عدم المضاعفة ـ كمــا يدّعي البعض ـ وإنما هو لبيــان الواقع والغالب عند العرب يومئذٍ من غير القصد إلى جَعْلِ مــا دون المضاعفة جائزًا مباحًا. ولعلّ بعض النــاس الجهلة يريدون أن يُحلِّلوا الرِّبــا فيقولون إن المحرَّمَ هو الأضعاف، أما الأربعة أو الخمســة أو الســبعة في المئة فلا يكون داخلًا في نطاق التحريم، وهم نســوا ما ذكره القرآن في الــرد على من يدّعي ذلك في شأن الرِّبا حيث قال الله تعالى:

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]

والمعنى: ولكم أيها الدائنــون رأس مالكم من دون فائدة ما في حال توبتكم عن تعاطي الرِّبا. ثم ختــم الله الآية التي نهت عن الرِّبا بقولــه: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ أي اجعلوا بينكــم وبين ما نهاكم الله عنه وقاية، ومن ذلك الامتنــاع عن أكل الرِّبا لتنالوا الفوز في الدنيا وســعادة الآخرة ﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ وقــد كان أبو حنيفة يقول عن هذه الآية: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المُعَدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب ما حرَّمه عليهم، ومن تلك المحرمات التعاطي بالرِّبا.

﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ أي أطيعوا الله ورسوله في كل ما أمركم الله به وما نهاكم عنه لتنالوا رحمة الله، وهنا إشــارة بأنه لا طاعة لله ورســوله في مجتمع يقوم على النظام الربوي، ولا طاعة لله ورسوله في قلب من يأكل الرِّبا.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ
فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ
وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ
ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

شرح المفردات

وَسَارِعُوا: المُسارعة إلى الشيء: المبادرة إليه من دون تراخٍ ولا تردُّد.

أُعِدَّتْ: هُيِّئت.

السَّرَّاء: الرَّخاء واليُسر.

وَالضَّرَّاء: الشِّدَّة والعُسر.

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ: كظم الغيظ هو حبسه وعدم إظهاره، والغيظ أشد الغضب.

فَاحِشَة: هي كل فعلة شديدة القبح، كما تطلق الفاحشة على الزنى.

يُصِرُّوا: يقيموا على الشيء لا يتركوه.

صفات المتقين وثوابهم عند الله

وبعد أن شدَّد القرآن على النهي عن تعاطي الرِّبا وبيَّن إثمه العظيم بيَّن بعد ذلك بعض الصفات والأعمال التي تُقرِّب المسلم إلى خالقه، قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ والمعنى: بادِروا وسابِقوا إلى العمل الذي يوصلكم إلى مغفرة من الله لذنوبكم ويدخلكم جنة واسعة فيها من ألوان النعيم ما لا يخطر على قلب بشر. وقد وصف الله تلك الجنة بأن عرضها كعرض السماوات والأرض، وقد ذُكِرَ العرض للمبالغة في سعتها، فإذا كان عرض الجنة هكذا، فكم يكون طولها؟ وهذه الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هُيِّئَت للذين يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب المعاصي التي حرَّمها عليهم.

ثم وصف الله بعض صفات المتقين التي تؤهلهم لمغفرته تعالى ودخول جنته ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي يُنفقون في اليُسر والعُسر والرَّخاء والشدَّة، وكلمة ﴿يُنْفِقُونَ﴾ جاءت بصيغة فعل المضارع الذي يفيد التجدّد مرة بعد مرة، فهم ينفقون ويتجدد إنفاقهم باستمرار في الصدقات وطرق الخير.

فالإنفاق في السَّرّاء والضَّرّاء أدلُّ على التقوى وأنفع للبشر، فالمال عزيز على النفس وبَذْلُهُ في الصدقات وطرق الخير والمنافع العامة يشقّ على النفس، ففي السَّرّاء يكون صاحب المال مشغولًا به للإنفاق على ملذّاته وشهواته ما يدفعه إلى البخل به في مصالح العباد، وأما في الضَّرّاء فلأن الإنسان يرى في هذا الحال أنه أحق بالمال من سواه، فالإنفاق في السَّرّاء والضَّرّاء دليل على تغلّب النفس على شهواتها ورغباتها ابتغاء رضوان الله.

ومن صفات المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فالغيظ: هو أشدّ الغضب، وكظم الغيظ هو الإمساك على ما في النفس من الغضب حتى لا يظهر له أثر، والإنسان في استرساله في الغضب يخرج عن وعيه وعن إدراكه لما يصحّ فعله، فيهدم في حالات الغضب ما بناه في سنين من صلات الودّ

مع الآخرين، وقد يُؤدي الغضب وما يصدر عنه إلى ما لا تحمد عُقْباهُ من المشاجرة والاقتتال، كما يؤدي إلى أضرار صحيَّة بالغة الخطورة على صحة الإنسان، لذا جعل الرسول محمد ﷺ امتلاك النفس عند الغضب من أمارات البطولة فقال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ[1]، إنّما الشَّديدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَب»[2].

ومن صفات المتقين: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ والغضب في أكثر الأحيان ينشأ عند الإنسان بسبب الذين يُسيئون إليه ويعتدون على حُرماته، لذا كان العفو من الصفات الحميدة التي يتحلَّى بها المؤمن لأنها لا تصدر إلّا عن نفسٍ كبيرةٍ راجحة العقل صبرت على اعتداء الغير وأذاه.

وقد دعا القرآن إلى العفو وبيَّن أنه من أسباب رِضا الله ومغفرته فقال تعالى ﴿... وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] كما أثنى اللهُ على الذين يعفون عمن أثاروا غضبهم فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

ومن صفات المتقين ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقد أسبغ الله على المحسن محبّته وهي مرتبة في القربى من الله لا يُوازيها أيّ مرتبة في الفضل. والإحسان يطلق على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير، يُقال: أحسن إلى فلانٍ أي أعطاه الحسنة، والثاني: إذا عمل عملًا حسنًا على الوجه اللائق، ومنه قول النبي ﷺ عندما سُئِلَ عن الإحسان فأجاب: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ»[3].

---

(١) الصرعة: من يغلب الناس عند المصارعة ولا يُغلب.
(٢) رواه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.

ومن الطريف ما رواه القرطبي عن ميمون بن مهران: أنّ جاريته جاءت ذات يومٍ بصحفة فيها مرقة حارّة وعنده أضياف، فعثَرت فصبّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها فقالت الجارية: يا مولاي خذ بقول الله تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قال لها: قد فعلتُ، فقالت: اعمل بما بعده ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال: قد عفوتُ عنكِ، فقالت الجارية ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ميمون: قد أحسنتُ إليكِ فأنتِ حُرَّة لوجه الله.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ والفاحشة هي الفعل القبيح الذي لا يرضاه الله، وقيل: الفاحشة في هذه الآية يُراد بها الزِّنى ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باقتراف ذنبٍ من الذنوب وهو ما دون الزنى مثل القُبلة والمعانقة ممن لا يباح له معها ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكَّروا أوامر الله ونواهيه وما أعدّه للمذنبين من عقاب، أو تذكَّروا عظمة الله وجلاله وحقّه أن يُطاع فلا يُعصى ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي طلبوا المغفرة من الله لأجل ذنوبهم.

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يغفر جنس الذنوب إلّا الله، وفي ذلك وَصْفٌ للهِ بغاية سعة رحمته، وأن التائب عنده كمن لا ذنب له، وأنَّ عَدْله يوجب المغفرة للتائب، وفي ذلك تطييبٌ لنفوس العباد، وحثٌّ على التوبة، ورَدْعٌ عن اليأس والقنوط لمن أسرف في المعاصي، والله سبحانه يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ أي ولم يصرّوا على ارتكاب الذنوب بل امتنعوا عنها وبادروا إلى التوبة منها ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بأن الله قد نهى عن اقتراف الذنوب وأَوْعد بالعقوبة عليها.

﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أُولئك الموصوفون بصفات التقوى لهم من الله عفو على ما سَلَفَ من ذنوبهم ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأَنْهَارُ﴾ ولهم جنّات تجري من خلال أشـــجارها وقصورها الأنهار ينعّمون بها بما تشتهي به أنفسهم من ألوان النعيم **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** ماكثين فيها أبدًا لا يخرجون منها **﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** ونِعْمَ ثواب العاملين بطاعة الله وهو دخول جنات النعيم.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ
وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ
تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) ﴾

شرح المفردات

خَلَتْ: مَضَت.

سُنَنٌ: جمع سُنَّة، وسُنَّةُ الله: ما جرى به نظامه في خلقه.

عَاقِبَةُ: مصير.

بَيَانٌ: توضيح.

مَوْعِظَةٌ: هي النصح بطاعة الله والإرشاد إليها.

وَلا تَهِنُوا: الوهن: الضعف، أي ولا تضعفوا.

قَرْحٌ: جُرْح.

نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ: نجعلها متبادلة، فمرَّة الغلبة لهؤلاء ومرَّة لسواهم.

وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا: يُطَهِّرُهم الله من الذنوب بما يصيبهم من الابتلاء.

وَيَمْحَقَ: ويهلك.

تَمَنَّوْنَ: ترغبون.

مواساة المؤمنين بما أصابهم من المحن

ثم يعود بنا القرآن ثانية إلى الكلام عن غزوة أُحُد وما تركت من انطباعات أليمة في نفوس المؤمنين، مُبيِّنًا حقيقة النصر، وأسباب الهزيمة التي لو تمعّن بها المؤمنون لانكشفت لهم أسرار الأحداث الأليمة التي ألمّت بهم في هذه المعركة، وما أصابهم فيها من قتل وجراح، يقول الله تعالى:

﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**﴾ والسُّنَنُ: جمع سُنَّة وهي الخطّة المتبعة والطريقة المستقيمة، والمراد بالسنن هنا ما سَنَّه الله في الأُمم من وقائع، وما جرى به نظامه في خلقه. فالله سبحانه يخاطب المؤمنين بأنه قد مضت قبل زمانهم هذا وقائع أجراها الله حسب سُنّته في إهلاك الأُمم الطاغية ﴿**فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ فسيروا في الأرض ـ أيها المؤمنون ـ وانظروا في أحوال الأُمم السابقة وما كان من مصيرهم من هلاك بسبب تكذيبهم الأنبياء، وإنّ آثار الدمار الذي حلّ بهم لتنبئ عنهم كقوم عاد وثمود وقوم لوط.

﴿**هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ**﴾ أي هذا القرآن يوضّح للناس سُنَنَ الله في خلقه ﴿**وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ كما أنه إرشاد إلى الحقّ، وعظة يتّعظ بها المتقون الذي أطاعوا الله وتركوا معصيته.

ثم يُواسي الله المؤمنين لما أصابهم في غزوة أُحُد من قتل وجراح: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله ولا تحزنوا على من قُتِلَ منكم ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وحالُكم أيها المؤمنون أنكم أعلى من أعدائكم شأنًا لأنكم على الحق، ولأن قتالكم في سبيل الله يضمن لكم الجنة وأنّ الكافرين هم على الباطل، وأنتم الغالبون إن كنتم مصدّقين في ما وعدكم به الله من النصر، فاتركوا الوهن والحُزن جانبًا.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ القرح بفتح القاف. الجراح، أراد القرآن أن ما أصاب المؤمنين من قتل وجراح يوم غزوة أُحُد قد أصاب أعداءهم مثله يوم غزوة بدر ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي يصرّفها الله بين الناس من فرح وغمٍّ، وصحة وسقم، وغنًى وفقر، ونصر وهزيمة. فالمداولة: نقل الشيء من طرف إلى آخر، والمراد هنا أن النصر يكون تارةً للمؤمنين، وتارةً يكون للكافرين إذا عصى المؤمنون ربهم، وخالفوا وصية نبيهم، ولم يأخذوا بالأسباب التي تُؤدي إلى النصر ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليعلم الله الذين آمنوا منكم أيها القوم من الذين نافقوا منكم، ومعنى علْم الله تعالى هنا تحقُّق ما قدَّره في الأَزَل، فالله سبحانه عالم بكل شيء قبل ظهوره للعباد وبعد ظهوره ليميّز الثابتين على الإيمان من غيرهم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرّم الله أناسًا منكم أيها المؤمنون بالشهادة إذا وقعت المعركة، ليكونوا مِثالًا يُحتذى لغيرهم في التضحية بالنفس في سبيل الله، وسُمّوا شهداء لأنه مشهود لهم بنعيم الجنة، وهم أحياء عند ربهم يُرزقون ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ والله سبحانه لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التمحيص: تخليص الشيء من كل عيب، أي لِيُطَهِّر الله المؤمنين من الذنوب وينقّيهم من السيئات بما ينزل بهم من أنواع الابتلاء ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلك الكافرين.

ثم يعاتب الله المؤمنين المنهزمين في غزوة أُحُد: ﴿أَمْ[1] حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل ظننتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا كرامة ربكم ﴿وَلَمَّا[2] يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ولم يتبيّن المجاهد منكم في سبيل الله الذي صبر على أعباء القتال وشدائده فيعلم الله ذلك منكم. والله سبحانه عالم بكل شيء قبل ظهوره للعباد وبعد ظهوره لا تخفى عليه خافية فطريق الجنة ليس سهلًا يسلكه كل إنسان، وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ تمنّون: أصلها تتمنون حُذفت إحدى التائين تخفيفًا. والمعنى: ولقد كنتم ـ أيها المؤمنون ـ تتمنون قتال أعدائكم والموت في سبيل الله لتنالوا الشهادة والأجر من الله مثل ما ناله الذين قاتلوا في معركة بدر من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا أهواله ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فقد رأيتم الموت حين قُتِلَ إخوانكم، وأنتم تنظرون سقوطهم صرعى بين أيديكم.

---

(١) أم: هي المنقطعة بمعنى (بل) التي تفيد الانتقال إلى كلام فيه معنى يختلف عن الأول.

(٢) لمّا: وإن أفادت نفي ما بعدها من الجهاد والصبر من المؤمنين ولكنها تفيد توقّع حصول ذلك منهم فيما بعد.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ
قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾
وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا
كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

شرح المفردات

خَلَتْ: مضت.

انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ: ارْتددتم إلى الكفر بعد إيمانكم.

بِإِذْنِ اللهِ: بأمره وقضائه.

كِتَابًا مُؤَجَّلًا: أي كتب الله الموت كتابًا مؤقتًا بوقتٍ محدّدٍ.

وَكَأَيِّنْ: بمعنى (كم) الخبرية الدّالّة على الكثرة.

رِبِّيُّونَ: جموع كثيرة، أو فقهاء علماء.

فَمَا وَهَنُوا: فما ضعفوا وما عجزوا.

وَمَا اسْتَكَانُوا: وما ذلّوا وما خضعوا لأعدائهم.

إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا: خطايانا.
ثَوَابَ الدُّنْيَا: النصر على عدوّهم والغنيمة منه.

إشاعة مقتل محمد ﷺ وأثرها

ولقد كان من أشدّ المصائب وقعًا على قلوب المسلمين ما أُشيع عن قتل النبي محمد ﷺ في غزوة أُحُد، هذه الإشاعة أحدثت بلبلة في صفوف المسلمين حيث ألقى بعضهم السلاح، وقال البعض الآخر: لَيْتَ لَنا رسولًا إلى عبدالله بن أُبَيّ وهو من كبار المنافقين فيأخذ لنا الأمان من أبي سفيان.

وفي تقاعس بعض المسلمين عن الجهاد عندما سمعوا أنَّ محمدًا قد قُتل، نزل القرآن مُرشدًا للمسلمين إلى أن دين الإسلام ليس مُقتصرًا على حياة النبي محمد ﷺ، وإنَّما هو دِينٌ يجب الارتباط به والدفاع عنه سواء أبقِيَ محمدٌ حَيًّا بين المؤمنين أو توفّاه اللهُ، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ أي وما محمد إلّا رسول من عند الله قد مضت من قبله رُسُلٌ من عند الله وماتوا عند انتهاء آجالهم ﴿**أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ**﴾ أفإن مات محمد كما مات الأنبياء قبله أو قُتل كما قتل بعضهم مثل يحيى وزكريا ﴿**انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾ والانقلاب: الرجوع، والأعقاب: جمع عَقِب وهو عظم مؤخر القدم، والانقلاب على الأعقاب: تعبير مجازي يُراد به الارتداد عن دينهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿**وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا**﴾ ومن يرجع عن دينه فلن يضرّ دينَ الله في شيء، ولا ينقص ذلك من ملك الله وسلطانه، لأن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرّه معصية أَحَدٍ، وإنما رجوعه عن دينه يعود عليه بسخط الله ﴿**وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ وسَيُثيب الله الذين صبروا على دينهم وعلى لقاء عدوّهم وشكروا الله في السَّرّاء والضَّرّاء.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي ما كان الموت ليحصل لنفس لأيّ سبب من الأسباب إلا بمشيئة الله وأمره، لأن ملَك الموت الموكل بقبض الأرواح لا يفعل ذلك إلّا بإذن الله ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أي كتب الله لكل نفس عمرها كتابًا مؤقتًا إلى أجل ووقت معلوم لا يتقدّم ولا يتأخّر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن يرغب منكم ـ أيها المؤمنون ـ في الحصول على شهوات الدنيا وملذّاتها، فإن الله يُعطيه منها ما قسم له فيها من رزق في أيام حياته، وهنا تعريض بالذين خالفوا وصية النبي ﷺ وتركوا أماكنهم في الجبل التي أمرهم نبيهم بالثبات فيها للحصول على الغنائم ولكن لم ينالوها بل سقط الكثير منهم صرعى وكان ذلك سببًا لهزيمة المسلمين.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن أراد بعمله وجهاده وثواب الآخرة وما أعدّ الله فيها لعباده الصالحين من كرامة وأجر جزيل يعطه الله له في الآخرة ما تقرّ به عَيْنُهُ وتشتهيه نفسه.

ومن أراد ثواب الدنيا والآخرة معًا بطاعة الله وتقواه والعمل الصالح يعطه ثوابهما بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم في الآخرة ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وسيجزي الله الشاكرين في الآخرة الجزاء الأَوفى، وهم الذين ثبتوا على الإسلام وصبروا على المكاره، وبذلوا أقصى الجهد في طاعة الله ولم يقصدوا بأعمالهم إلّا الله والدار الآخرة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي وكم من نبيٍّ قاتل معه جموع كثيرة من أتباعه الذين آمنوا برسالته واهتدوا بهديه ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فما أصاب الذين اتبعوه جُبْنٌ ولا ضعف أثناء قتالهم في سبيل الله على الرغم ممّا كانوا يعانون من قتل وجراحات وآلام ﴿وَمَا

ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما أصابهم ضعف وما خضعوا لعدوّهم وما ذلّوا له **﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾** الذين يتحملون الشدائد والمكاره في سبيل الله فينصرهم على عدوّهم ويرضى عنهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي وما كان لهؤلاء المجاهدين في سبيل الله من قول في مواطن القتال إلّا التضرع إلى ربهم بأن يغفر ذنوبهم بما حصل منهم من تقصير في حق الله **﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾** وأن يغفر لهم تجاوزهم الحدّ في كبائر الذنوب **﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾** وأن يثبت أقدامهم في مواضع القتال ومواطن الحرب بالتقوية والتأييد وأن يحقق لهم الغلبة على الكافرين حيث دَعَوْا ربهم: **﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ فأَعطاهم الله ثواب الدنيا من النصر والغنيمة وقهر الأعداء **﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾** كما أنه سبحانه سيعطيهم ثوابًا حسنًا في الآخرة بدخول الجنة، ووصف الله ثواب الآخرة بصفة الحُسْنِ للتنبيه إلى فضله ومزيّته **﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** وهم الذين يحسنون أعمالهم وعبادتهم، وحسن ثباتهم في ساحات القتال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ
بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ
وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ
إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

شرح المفردات

يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ: يردّوكم إلى ما كنتم عليه من الكفر قبل الإسلام.

مَوْلَاكُمْ: ناصركم.

سُلْطَانًا: حجة وبرهانًا.

مَأْوَاهُمُ: المكان الذي يرجعون إليه.

مَثْوَى: مكان الإقامة الدائمة.

تَحُسُّونَهُمْ: تقتلونهم قتلًا ذريعًا.

بِإِذْنِهِ: بأمره وعلمه.

فَشِلْتُمْ: جَبُنْتم وأصابكم الخَوَر فهُزِمْتُم.

تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ: اختلفتم.
مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ: من الظفر وقهر الكفار.
ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ: أي كفَّ الله معونته عنكم فغلبكم الكفار.

تحذير المسلمين من طاعة الكافرين

ويتابع القرآن الكلام عن غزوة أُحُد وما جرى فيها من هزيمة المسلمين وما أُشيع فيها من مقتل النبيّ ﷺ الذي أحدث بلبلة في صفوف المسلمين حيث اغتنمها الكفار فرصة لدعوة المسلمين إلى الارتداد عن دينهم، وأمام هذه البلبلة وهول الفاجعة وضياع المسلمين نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ خاطب الله أتباع محمد بصفتهم الإيمانية لتذكيرهم بما جرى منهم من عصيان وإحباط يُنافي الإيمان الصحيح، وحذّرهم من طاعة الكفار فيما يأمرونهم به من الضلال والخروج عن طاعة رسول الله، إنهم إذا فعلوا ذلك وأطاعوهم، يُرجعوهم إلى الكفر بعد الإيمان **﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾** فتصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيصيبكم الذل والهوان وتصبحوا تحت رحمة أعدائكم، وأما في الآخرة فتحرموا من ثواب الله وتنالوا السخط منه.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ بل الله ناصركم ـ أيها المؤمنون ـ فأطيعوه **﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾** فهو خير من نصر فلا تستنصروا بغيره.

ولكن من هم هؤلاء الكفار الذين حذَّر الله المؤمنين منهم؟ قيل: هم اليهود الذين كانوا يلقون الشبه بين المسلمين بعد المعركة ويقولون: لو كان محمد نبيًّا حقًّا لما غُلب، ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وقيل: هم المنافقون حيث قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم: ارجعوا إلى دين آبائكم. ولفظ الكفر في الآية يتناول جميع الكفار ولا حاجة لتخصيصهم.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سيُلقي الله في قلوب المشركين الخوف والفزع، وقد روي أنه لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون متوجّهين إلى مكة بعد أن ألحقوا الهزيمة بالمسلمين في غزوة أُحُد، ولمّا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا: بِئس ما صنعنا شيئًا! قتلنا الكثير من المسلمين ثم تركنا من بقي منهم ونحن قاهرون لهم، ارجعوا حتى نستأصلهم جميعًا، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فامتنعوا عن ملاحقة المسلمين ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ لأنهم أشركوا بعبادة الله آلهة هي الأصنام التي لم ينزِّلْ الله بها حجة أو برهانًا على أُلوهيتها. فهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، فالإشراك بالله سبب لإلقاء الرعب في قلوبهم وخذلانهم ونجاة المؤمنين من كيدهم، لأن الله يُدافع عن المؤمنين ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وليس للمشركين مأوًى في الآخرة إلّا نار جهنم وساء هذا المكان الذي هو جزاء لظلمهم، فهم قد ظلموا أنفسهم فأضلّوها وصرفوها عن الحقّ وظلموا المؤمنين وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أي ولقد حقّق الله وعده لكم ـ أيها المؤمنون ـ بالنصر على المشركين ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ إذ تقتلونهم قتلًا ذريعًا بإذن الله وقضائه حيث قتلتم صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ الفشل: هو الجُبن وضعف الرأي، أي حتى إذا ضعفت نفوسكم وعجزتم عن مقاومة أهوائكم وشهواتكم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حين اختلف رُماة النبال منكم الذين وضعهم رسول الله على الجبل لحماية ظهور المسلمين، وأمرهم بأن لا يبرحوا أماكنهم مهما كان سير المعركة نصرًا أم هزيمة. فرأت فئة من الرّماة ألّا يبرحوا أماكنهم طاعةً منهم لرسول الله بعد أن لاحت بوادر النصر للمسلمين وهم كانوا

مــع قائدهم عبد الله بن جبيــر، وعصت فئة من الرّماة رســول الله وتركوا أماكنهم فــي الجبل لجمع الغنائم مــع جيش المســلمين ﴿**وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ**﴾ ولكن أكثركم عصوا وصية رســول الله وتركوا مراكزهم في الجبل من بعد مــا أراكم الله في أول المعركة من نصر مؤزَّر تحبونه وترجونه ﴿**مِنْكُمْ مَــنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا**﴾ وهم الذيــن تركوا مراكزهم في الجبل التي أوصاهم رســول الله بالثبات فيهــا للحصول على الغنائم ﴿**وَمِنْكُمْ مَــنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ ومنكم من يريــد ثواب الآخرة وهم عبد الله ابن جبير وأصحابــه الذين ثبتوا في أماكنهم في الجبل حتى استشــهدوا ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**﴾ ثم منع الله نصره عنكم بســبب فشــلكم وتنازعكم ومعصيتكم لنبيّكم، وردَّكم الله عن أعدائكم فلــم تنالوا منهم ما خرجتم لأجله من النصر عليهم، بــل أُصبتم بالهزيمة وكثرة من استشــهد منكم ﴿**لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ وكان في ذلــك امتحان لكم واختبــار ليتميّز قويّ الإيمان من ضعيفه، والمخلص من المنافــق ﴿**وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ**﴾ أي ولقد عفا الله عمّا وقع منكــم ـ أيها المؤمنون ـ من ضعف أمام شــهواتكم وعصيانكم لرسول الله ﴿**وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي الله سبحانه صاحب الفضل على المؤمنين بالعفو عنهم والتجاوز عن سيئاتهم.

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا
تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ
طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ
لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ
كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

شرح المفردات

تُصْعِدُونَ: تهربون منهزمين في الأرض مبتعدين.

وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ: لا يلتفت بعضكم لبعض من الخوف.

فِي أُخْرَاكُمْ: في جماعتكم المتأخرة.

فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ: فجازاكم حزنًا متّصلًا بحزن.

أَمَنَةً: أمنًا.

يَغْشَى: يُغطي.

أَهَمَّتْهُمْ: حملتهم على الهمّ.

لَبَرَزَ: لَخَرج.

مَضَاجِعِهِمْ: مصارعهم.

وَلِيَبْتَلِيَ: وليختبر ويمتحن.

وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ: أي ليطهِّر قلوبكم من الرِّيب.

تَوَلَّوْا: انهزموا وفرّوا.

الْجَمْعَانِ: جمع الكافرين وجمع المؤمنين.

اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ: حملهم على الزلّة والمعصية بوسوسته.

فرار بعض المسلمين من المعركة وعفو الله عنهم

ويتابع القرآن فيصف فرار المسلمين من أعدائهم بعد أن انقلب النصر إلى هزيمة في تلك الصورة المصحوبة بالهلع والخوف، يقول الله تعالى:

﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ**[1] **وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ**﴾ واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ إذ تذهبون بعيدًا في الوادي وبعضكم يصعد إلى الجبل فارّين منهزمين لا يلتفت بعضكم إلى بعض من شدّة الهلع ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ**﴾ والرسول محمد يدعوكم من خلفكم وأنتم منهزمون قائلًا لكم: إليَّ عبادَ الله إليَّ عبادَ الله، يدعوكم إلى نفسه لتجتمعوا عنده وتكونوا كتلةً واحدةً لمحاربة العدو ﴿**فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ**﴾ أي فجازاكم الله على صنيعكم غمًّا متّصلًا بغمٍّ، والغمّ هو الحُزن والكرب وليس المراد بقوله تعالى: غمًّا بغمّ، غمّين اثنين، وإنما المراد مواصلة الغموم وتفرّقها، فما سمعوه من إشاعة مقتل نبيّهم محمد أدخل الغمّ الأكبر إلى قلوبهم، وعصيانهم للرسول ﷺ كان غمًّا له، وما

---

(١) تُصعدون: الإصعاد هو الذهاب في الأرض والإبعاد فيها، وهو كناية عن فرارهم من العدو، وهناك قراءة بفتح التاء في تصعدون بمعنى الصعود، أي الصعود في الجبل.

أصابهم في صفوفهم من قتل وجراح كان غمًّا لهم **﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾** أي ما أصابكم من غمٍّ هو بسبب عصيانكم لرسول الله لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة ولا ما أصابكم من قتل وجراح **﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** أي إنّ الله سبحانه عالم بأعمالكم وما قصدتم إليه، فيُجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

ثم يبيّن القرآن ما حدث للمؤمنين بعد غزوة أُحُد:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ أَمَنَة: مصدر بمعنى الأمن، والنعاس فتور في الحواس يسبق النوم. والمعنى: ثم أنزل الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ بعد الحزن الذي هدَّ كيانكم أمْنًا أزال عنكم الذي كان بكم حتى نعستم، وبهذا النعاس اطمأنت نفوسكم واسترددتم ما فقدتموه من قوة وما أصابكم من ضعف. وهذا النعاس الذي راودهم لم يغيبوا به عن الوعي، يقول أبو طلحة أحَد المحاربين المسلمين ممن أصابه النعاس بعد غزوة أُحُد: لقد سقط سيفي من يدي مرارًا وآخذه ويسقط من يدي.

وهذا النّعاس **﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾** أي يُغطّي فريقًا منكم وهم المؤمنون المخلصون، أمّا المنافقون فلم يُلق عليهم النعاس وبقوا في خوفهم فزعين. والنعاس الذي راود المؤمنين بعد جلاء المعركة هو معجزة من الله لهم، فإنَّ أعداءهم كانوا حريصين على الإجهاز عليهم، فبقاء المسلمين في شبه نوم ـ والخائف لا ينام ـ دليل على حفظ الله لهم وحمايتهم من أعدائهم هذا حال المؤمنين، أمّا حال المنافقين فيصفه الله بقوله:

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهذه الطائفة من المنافقين أوقعتهم أنفسهم في الهموم والغمّ، لا يهمّهم إلّا أمر سلامة أنفسهم **﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾** وظنّهم بالله غير الحق هو أن الإسلام ليس بدين

الحقّ، وأنّ الله لن ينصر رسوله محمدًا، وهذا ظنّ أهل الجاهلية الذين لم يعرفوا الإيمان أصلًا، والجاهلية: تطلق على حقبة من تاريخ العرب قبل الإسلام حيث كان الجهل فاشيًا، والحقّ غائبًا، والشّرك بالله وعبادة الأصنام سائدين.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي يقول المنافقون لبعضهم البعض على سبيل الإنكار: هل لنا من النصر والظفر نصيب؟ أي ليس لنا من ذلك شيء، لأن الله سبحانه لا ينصر محمدًا في زعمهم، أو بمعنى: ليس لنا من الأمر أيّ شيء، فلسنا مسؤولين عن الهزيمة التي حدثت للمسلمين لأننا لم يكن لنا رأي يُطاع، فقد كان رأينا ألّا نخرج لمقاتلة المشركين وأن نظلّ في المدينة نقاتلهم عندما يدخلونها ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يثبّطون عزائم المسلمين: إن الأمر بيد الله يقدِّرُ كيف يشاء، وقد قضى الله أن ينهزم المسلمون لحكمةٍ يعلمها سبحانه، وهي أن يستفيد المسلمون من هذه الهزيمة بسبب مخالفة بعضهم وصيّة النبي ﷺ، وبالتالي حتى لا يعودوا إلى مثل هذه المخالفة ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي هذه الطائفة من المنافقين يُضمرون في أنفسهم النِّفاق والشكّ في أمر الله والنَّدم على خروجهم للقتال مع المسلمين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي يقول المنافقون لبعضهم البعض: لو كان لنا من الرأي والتدبير شيء مستقلّ ما خرجنا من بيوتنا ولما قُتل منّا من قُتل، ولكن كنّا مغلوبين على أمرنا فحصل ما حصل، فيردُّ الله عليهم ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: لو كنتم في منازلكم وتخلّفتم عن القتال لخرج من بينكم المكتوب عليهم القتل إلى المكان الذي يكون فيه مصرعهم،

وعبَّرت الآية عن مكان قتلهم بالمضاجع، جمع مضجع وهو مكان النوم، فهم يصرعون هناك ويكونون كالنيام إلى يـوم البعث. وفي هذا يدعوهم الله أن يستسلموا لحكمه لما قدّره.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي وليختبر الله ما في صدوركم ـ أيها المؤمنون ـ بالبلايا والشدائد ليتميّز المخلص منكم من المنافق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليُطهِّر قلوبكم مما علق بها من ذنوب ويزيل عنها الشكّ والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه حيث صرف عنكم العدوّ ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما فيها من خير أو شرّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ أي إن الذين فرُّوا منهزمين منكم يوم غزوة أُحُد ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ حيث التقى جمع المسلمين مع جمع الكفار في المعركة ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ إنما أوقعهم الشيطان بالزّلل بما وسوسه في صدورهم وحسَّنه لهم، والزلل: الوقوع في الخطأ والذنب ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي أوقعهم الشيطان في الزلل بسبب بعض ما اكتسبوا من ذنوب سابقة أدت بهم إلى منع تأييد الله لهم حتى فرّوا منهزمين، كما يشمل الذين وقعوا في الزلل رماة النبال الذين وضعهم رسول الله على الجبل وأمرهم بأن لا يبرحوا أماكنهم ولكنهم عصوا أمره وتركوا مراكزهم للحصول على الغنائم مما ترتب على ذلك هزيمة المسلمين كما ذكرناه سابقًا ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز الله عن ذنوبهم فلم يعاقبهم عليها بل غفر لهم لأن الله علم سلامة نواياهم ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي إنّ الله واسع المغفرة حليم لا يعجّل العقوبة لمن عصاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ
إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا
قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى
ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ
ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي
ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن
يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم
مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ: سافروا لتجارة أو غيرها.

غُزًّى: جمع غازٍ، وهو المقاتل.

حَسْرَةً: حُزنًا وندامة.

تُحْشَرُونَ: تُجْمَعُون إلى الله للحساب يوم القيامة.

لِنْتَ لَهُمْ: أي كنت سَهلًا معهم فلم تعنّفهم إذ خالفوك.

فَظًّا: خشن الكلام سيئ الخُلُق.

غَلِيظَ الْقَلْبِ: قاسيًا ذا سطوة.

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ: لتفرّقوا عنك ولم يبقَ معك أَحَدٌ.

يَخْذُلْكُمْ: يترك العون لكم ونصرتكم.

دعوة المسلمين إلى الثبات على دينهم

ولمّا كانت غزوة أُحُد قد أدّت إلى وقوع الكثير من الضحايا في صفوف المسلمين وهذا مما يفتّ من عضدهم ويحول دون ثباتهم على دينهم، نزلت الآيات التالية تقوّي معنويات المسلمين وتُبيّن لهم حقيقة الموت ومكانة الذين يستشهدون في سبيل الله قال الله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ هنا تحذير للمؤمنين بأن يكونوا مثل الكافرين والمنافقين الذين قالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ههنا ﴿**وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ أي وقالوا لإخوانهم في النفاق إذا سافروا في الأرض لتجارة أو غيرها فماتوا ﴿**أَوْ كَانُوا غُزًّى**﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله فقُتِلوا ﴿**لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا للسفر أو للغزو لَمَا ماتوا ولَمَا قُتِلوا ﴿**لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرةً في قلوبهم. فيا أيها المؤمنون لا تكونوا مثلهم في هذا الاعتقاد فتصيبكم الحسرة على موتاكم وتضعفون عن مقاتلة أعدائكم وفي ذلك الذُلّ والهوان لكم ﴿**وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ أي أن الحياة والموت بيد الله، فقد يضفي الله السلامة على المسافر والمقاتل مع اقتحامهما لموارد الموت، ويميت المقيم القاعد في بيته مع توقّيه للأخطار والأخذ بأسباب السلامة ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ أي بصيرٌ بأعمالكم فيُجازيكم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ.

﴿**وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ**﴾ فالله سبحانه يقسم بأنَّ من يموت أو يُقتل في سبيله طالبًا رضاه ينال منه سبحانه الغفران لذنوبه، والله سبحانه لا يغفر إلّا لمن يرضى عنه ويخصّه برحمته، والرحمة من الله للإنسان: الإحسان، ومن مظاهر إحسانه أن يرزقه الحياة الطيبة الميسّرة

في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة. ثم يُبيّن الله أن مغفرته ورحمته هما ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي خير مما يجمعه الكفار من أموال وعقارات ومقتنيات التي هي متاع قليل زائل.

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي على أي وجه كانت وفاتكم سواء كنتم في بيوتكم أو قُتلتم بأيدي أعدائكم وأنتم تجاهدون في سبيل الله، فإلى الله وحده مرجعكم حيث تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم.

وصية من الله لرسوله محمد ﷺ

ثم تأتي آيات القرآن التالية وفيها التفات إلى بعض صفات الرسول محمد ﷺ وما كان عليه من أخلاقٍ كريمة وقيادة حكيمة، مع بعض الوصايا من الله له بما هو قدوة لِأُمَّته من بعده:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمة من الله منحك إياها يا محمد كنت لَيِّنًا مع المسلمين في كافة أحوالهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ ولو كنت غليظ الجانب سيئ الخُلُق وصاحب القلب القاسي، عديم الرحمة ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرّق أصحابك عنك ونفروا منك ولم يطمئنوا إليك ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي فاَعْفُ يا محمد عمّن خالف أمرك وما ترتب على تلك المخالفة من هزيمة للمسلمين ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ واَطْلب من الله الغفران لهم على ما بدر منهم من عصيان لك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ لقد أمر الله سبحانه نبيّه محمدًا أن يشاور أصحابه في كل الأمور مع أن الوحي كان يأتيه من السماء وذلك تعليمًا لِأُمّته ليقتدوا به، ويتّخذوا الشورى قانونًا لهم في كافة مجالات حياتهم.

وقد استشـار النبي أصحابه في غزوات بدر وأُحُـد والأحزاب وفي غير ذلك من الأمور التي تتعلق بمصالح المسـلمين، وسار على هذا النهج ولاة أمور المسلمين وقادتهم.

والشـورى أصل من أُصول الحكم في الإسـلام ولهذا نـرى في القرآن سورة من سُوَرِهِ باسم (سورة الشـورى) وفيها يُثني الله على المؤمنين الذين اتخذوا الشـورى قانونـًا لهم في أمـور حياتهـم ونظام حكمهـم، قـال الله تعالـى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقديمًا كان يُقـال: ما نَدِمَ من استشـار، ومن أُعجب برأيـه ضَلّ. وقال بعضهم: شـاور من جرَّب الأُمور، فإنـه يعطيك من رأيه ما وقـع عليه غاليًا وأنت تأخذه مجّانًا.

﴿ فَإِذَا عَزَمْـتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ فإذا عقدت نيّتـك على إمضاء ما تريد عقب المشـاورة ووطّنت نفسـك على تنفيذه ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ أي اعتمد على الله وفوِّض أمرك إليه، وهنا إشـارة أن التوكل ليـس إهمال التدبير كليّة بل لا بُـدَّ أن يقترن بالعمل ومراعاة الأسـباب التي توصـل إلى النجاح مع تفويض الأمر إلـى الله، وكم من أُناس اغترّوا بقوّتهـم واعتمدوا على رأيهم وحده من دون أن يعتمدوا على الله، فكان الفشل من نصيبهم لأن هناك أُمورًا في الحياة فوق مقدورهم وهـي بيد الله يصرّفها كيف يشـاء ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ وأي منزلـة أعلى من منزلة المتوكلين علـى الله الذين خصَّهم الله بمحبته لأنهم آمنوا بالله حق الإيمان وأخلصوا نفوسهم له، وفوَّضوا الأمر إليه ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِـبَ لَكُمْ ﴾ إن يخصّكم الله بالنصر فلن يغلبكم غالـب ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِـنْ بَعْدِهِ ﴾ أي وإن يمنع الله نصره عنكم فليس لكم من ناصر سواه ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي

على الله وحده فَلْيَتَوكَّل المؤمنون لا على غيره، فالتوكل على الله أثر من آثار الإيمان بالله، فالذي يعتقد بأن الله بيده تدبير شؤون الناس وبيده النفع والضر يترك الأمر إليه، ويرضى بمشيئته، فلا يفزعه المستقبل وما يخبئه له من مصائب وكوارث، ويستعيض عن الخوف بالاطمئنان إلى عدل الله ورحمته، وقد أثنى الله في القرآن على من قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] وتفويض الأمر إلى الله يأتي بمعنى التوكل على الله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

شرح المفردات

يَغُلَّ: يخون في الغنيمة.

تُوَفَّى كُلُّ نَفسٍ مَا كَسَبَتْ: تُعطى كل نفس جزاءها وافيًا.

بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ: رجع متلبّسًا بغضبٍ من الله.

مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: أنْعَمَ وَتَفَضَّل عليهم.

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا: أرسل الله فيهم رسولًا من عنده وهو محمد ﷺ.

وَيُزَكِّيهِمْ: يُطَهِّرهم من الذُّنوب والأخلاق الذميمة.
الْكِتَابَ: المقصود به هنا هو القرآن.
وَالْحِكْمَةَ: هي السُّنَّة النبوية.

نفي الخيانة في الغنائم عن النبيّ ﷺ

لمّا كانت الآيات تتكلم عن غزوة أُحُد تطرَّق القرآن بالمناسبة إلى مسألة الخيانة في توزيع الغنائم أو الاستئثار بها، وقبل أن نذكر ما نزل من القرآن في هذا الصدد نذكر أسباب النزول.

رُوي أن رُماة النبال الذين أوصاهم النبي محمد ﷺ بالثبات في أماكنهم في الجبل خلف جيش المسلمين لحمايتهم، خالفوا وصية النبي ﷺ ونزل أكثرهم إلى ساحة المعركة بعد أن لاح لهم انتصار المسلمين قائلين فيما بينهم: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئًا فهو له ولا يُقسّم الغنائم لجميع المحاربين، فبلغ النبي ﷺ قولهم هذا وقال لهم توبيخًا: أظننتم أن نغلّ ولا نقسّم لكم.

كما رُوي أن قطيفة[1] حمراء فُقِدت في المغانم يوم غزوة بدر، فقال بعض من كان مع النبي ﷺ: لعلّ أن يكون النبيّ أخذها، فنزلت الآية:

﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ**[2]﴾ أي ما صَحّ لنبي من الأنبياء ولا استقام أن يخون في الغنائم أو يحتفظ بها لنفسه أو يعطي قومًا ويمنع آخرين ﴿**وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ أي ومن يَخُن يأتِ بما خان فيه يوم القيامة يحمله على عنقه زيادة في فضيحته وعذابه ﴿**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ ثم تُعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شرّ، وهم

---

(١) قطيفة: ثوب يلقيه الرجل على نفسه.
(٢) يغل: الغلّ هو الخيانة في خفاء وهي في المغنم خاصة والسرقة منه.

لا يُظلمون بنقص في الثواب إن عملوا خيرًا، أو زيادة في العقاب إن أساءوا. ومن الغلّ هدايا العمال، أي الموظفين في خدمة الدولة الذين يتقبّلون الهدايا من الناس(١).

وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ استعمل عبدالله بن اللُّتْبيّة الأزدي على الصَّدَقة، فلما جاء قال: هذا لكم وهذه الهدية أُهديت إليَّ، فقال النبي ﷺ: «ألا جَلَسْتَ في بيتِ أُمّكَ وأبِيكَ حتّى تأتيكَ هديتكَ؟ ثم قال: والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ، ما يَأْخُذُ أَحَدُكم شيئًا بغير حقّه إلّا جاء يوم القيامة وهو يحمله على عنقه...»(٢).

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾ هذه الجملة جاءت بصفة الاستفهام الإنكاري عن المساواة بين المُحسن والمُسيء، أي ليس من اتّبع مرضاة الله بطاعته وترك معصيته كمن رجع بغضب شديد من الله جزاء ظلمه وعصيانه له ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وهذا الذي غضب الله عليه سيكون مصيره جهنم يوم القيامة ليعذّب بنارها، وبئس المصير الذي ينتظره.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ والدرجة: هي الرُّتبة والمنزلة، فالذين رضي الله عنهم هم متفاوتون في النعيم حسب طاعتهم لله وأعمالهم الصالحة، والذين سخط الله عليهم متفاوتون في العذاب حسب عصيانهم لله وأعمالهم السيئة ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله سبحانه يعلم عمل كل إنسان علم من يراه ويبصره وسيجزي كل نفس ما كسبت من خيرٍ أو شرّ.

---

(١) يحضر في ذهني ما قرأته يومًا أن وزيرًا في إنكلترا تقبّل هدية زهيدة فكان في ذلك فضيحة أدت إلى استقالته. والجدير بالذكر أن الإسلام له السبق في ذلك مما يشهد بعلو المبادئ الإسلامية ورفعتها.

(٢) أخرجه الإمام مسلم.

ثم يُبيِّنُ اللهُ فضله على المؤمنين العرب بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي لقد أنعم الله وتفضّل على المؤمنين العرب كما تفضّل على سائر المؤمنين في العالم حين أرسل الله إلى العرب رسولًا عربيًّا من جنسهم، ومن أشرفهم نسبًا يتكلّم بلغتهم ليفهموا قوله، وليطّلعوا على أحواله وما كان عليه من صدقٍ وأمانةٍ وسيرة حسنة قبل نبوّته وهذا أدعى إلى تصديقه والوثوق به ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وهذا الرسول يقرأ على قومه آيات القرآن المعجزة في بلاغتها ودلالتها على قدرة الله وحكمته ووحدانيته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويُطَهّرهم من الأخلاق الذميمة والمعتقدات الوثنية الباطلة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلّمهم القرآن وشرائعه وأحكامه ويعلّمهم الحكمة وهي أقوال النبيّ وأفعاله وتعرف بالسُّنَّة النبويّة، وفيها المنهاج الصالح والسلوك القويم لسعادة الإنسان ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقد كان العرب قبل البعثة النبوية في ضلال واضح لا يعرفون حقًّا ولا يهتدون إلى صواب.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

شرح المفردات

قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا: أي من أين أتتنا هذه المصيبة.

ادْفَعُوا: أي ادفعوا العدوّ عن دياركم وأهليكم.

وَقَعَدُوا: تخلّفوا عن الجهاد.

فَادْرَءُوا: فادفعوا.

أسباب هزيمة المسلمين بأُحُد

ويتابع القرآن الكلام عن غزوة أُحُد التي أُصيب فيها المسلمون بخسائر فادحة في الأرواح مما جعلهم يتساءلون عن أسباب هذه الهزيمة التي حلَّت بهم، لذا نرى القرآن يُجيب عنها بالآيات التالية:

﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**﴾ أي أجزعتم وتخاذلتم ـ أيها المؤمنون ـ حين حلَّت بكم مصيبة بغزوة أُحُد إذ قُتِلَ منكم سبعون شهيدًا، ولكنكم في غزوة بدر قد أوقعتم ـ أيها المؤمنون ـ بالمشركين ضعف المصيبة التي حلَّت بكم إذ قتلتم منهم سبعين مُحاربًا وأسَرْتُم سبعين، والأسير في حكم المقتول لأن الآسر قد يقتل أسيره ﴿**قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا**﴾ أي قلتم يوم انهزامكم من أين جاء هذا البلاء الذي حَلَّ بنا وقد وعدنا الله بالنصر؟ ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**﴾ قل لهم يا محمد إنّ ما أصابكم هو بسبب مخالفة ما أمرْتهم به بأن يبقى رماة النبال في أماكنهم في الجبل لحماية ظهور المسلمين ولكن أكثرهم تركوا أماكنهم لطلب الغنائم وبهذا انكشفت ظهور المسلمين للمشركين الذين أمعنوا فيهم قتلًا وجراحًا ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ أي إن الله بالغ القدرة على كل شيء فهو ينصركم حين تستحقون النصر.

﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ**﴾ أي وما أصابكم أيها

المؤمنون من قتل وجراح يوم التقى جمعكم وجمع المشركين في غزوة أُحُد فبإرادته سبحانه وعلمه وقضائه ﴿**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وليظهر إيمان المؤمنين بثباتهم في القتال الذين يبغون إعلاء كلمة الله حسب ما قدَّره في علمه الأزَليّ ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**﴾ وليظهر كُفر المنافقين وما ظهر منهم من خذلان وانصراف عن القتال حسب ما قدَّره الله في علمه الأزَليّ وبهذا يتميّز المؤمنون عن المنافقين ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ أي قال النبي ﷺ والمؤمنون معه للمنافقين: تعالوا قاتلوا المشركين معنا لنصرة الإسلام ﴿**أَوِ ادْفَعُوا**﴾ أوِ ادفعوا عنّا سطوة المشركين بالانضمام إلينا فيكثر عددنا ويرهبوننا فيحجموا عن قتالنا ﴿**قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ**﴾ أي قال المنافقون للمؤمنين: لو نعلم أنكم تُقاتلون لانضممنا إليكم، ولكن ما أنتم عليه ليس بقتال، أو بمعنى: لو نعلم فنون الحرب وأساليبها لاتّبعناكم.

﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ**﴾ هم في تلك الحالة أقرب للكفر منهم إلى الإيمان ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ أي إنهم يتظاهرون بالإيمان وليس في قلوبهم منه شيء، فإيمانهم موجود في أفواههم فقط معدوم في قلوبهم ﴿**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾ والله سبحانه أعلم بما يُخفون وما يضمرون في قلوبهم من الكفر والبغضاء للمسلمين.

﴿**الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا**﴾ أي هؤلاء المنافقون الذين تخلَّفوا عن الجهاد، قالوا لأهلهم وعشيرتهم الذين هم مثلهم في النِّفاق ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وتخلّفوا عن القتال كما تخلّفنا يوم غزوة أُحُد ما قُتِلوا في المعركة ﴿**قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ**﴾ قل يا محمد لهؤلاء: إذا كان التخلُّف عن القتال يُنجي من الموت كما تزعمون، فادفعوا عن أنفسكم الموت الذي كتبه الله عليكم حين يأتي أجله ﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ بأن الموت لن يقع بكم إذا تخلَّفتم عن الجهاد وقعدتم في بيوتكم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ
ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ
وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

شرح المفردات

لَا تَحْسَبَنّ: لا تظنَّنَّ.

وَيَسْتَبْشِرُونَ: يفرحون.

الْقَرْحُ: الجراح.

جَمَعُوا لَكُمْ: جمعوا الجيوش لقتالكم.

حَسْبُنَا اللهُ: يكفينا الله ويحفظنا مما أرادوا بنا من الأذى.

فَانْقَلَبُوا: فرجعوا.

لَمْ يَمْسَسْهُمْ: لم يصبهم.

ثواب الاستشهاد في سبيل الله

لقد أحدثت الخسارة الجسيمة التي أُصيب بها المسلمون في غزوة أُحُد جرحًا بليغًا في نفوسهم، وألمًا شديدًا على فقد من استُشهد من أهلهم وأصحابهم حين استشهد منهم سبعون مقاتلًا، فنزلت الآيات التالية تُواسي المسلمين وتبيِّن منزلة الشهيد عند الله وما أَعَدَّ له من الثواب والكرامة، قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾ أي لا تظنَّنَّ يا محمد أو أيها المستمع أن الذين قُتِلوا بغزوة أُحُد دفاعًا عن الإسلام أموات لا يحسّون شيئًا ولا يتنعّمون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ بل إنهم أحياء عند ربهم في الجنة يُرزقون فيها ويتنعّمون بألوان النعيم التي أسبغها الله عليهم.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي هم فرحون مسرورون بما أعطاهم الله من كرامته وفضله وجزيل ثوابه، لذا فَلِمَ الحسرة على فراقهم؟ والحال أنّ الناس كلهم يغبطونهم على منزلتهم عند الله ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي هؤلاء الشهداء يتوقّعون أن تأتيهم البشارة في وقت قريبٍ عن استشهاد الذين تركوهم من بعدهم أحياء، راجين لهم بأن يُقتلوا في سبيل الله لينالوا تلك المنزلة العظيمة التي حصلوا عليها باستشهادهم في سبيل الله ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والخوف يكون بسبب توقع المكروه الذي قد يصيبهم في المستقبل، والحزن بسبب أن تفوتهم المنافع التي كانت لهم في الماضي، فبيَّن الله أنه لا خوف على هؤلاء الشهداء مما سيأتيهم من أهوال يوم القيامة ولا حُزن لهم على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ هنا تأكيد على أن الشهداء في منتهى الفرح والسعادة بسبب ما تفضّل الله عليهم بإدخالهم الجنة ونَيْلهم

رضوانه ومغفرته ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن الله لا يُبطل جزاء من صدَّق رسوله محمدًا واتَّبعه وعمل بما جاء به من عند الله.

هذا وقد بيَّن رسول الله ثواب الذين يُقتلون في سبيل الله وما هم عليه من نعيم بقوله: «لمّا أُصيب إخوانكم يوم أُحُد جعل الله أرواحهم في أجوافِ طير خضرٍ تَرِدُ أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظِلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحُسْنَ مقيلهم[١]، قالوا: يا ليتَ إخواننا يعلمون ما صَنَعَ اللهُ بِنا لئلّا يَزْهدوا في الجهاد...»[٢]

ثم يشير القرآن إلى غزوتين قام بهما المؤمنون ولكن لم يحصل فيهما قتال، الأولى تُعرف بغزوة (حمراء الأسد) والثانية تعرف بغزوة (بدر الموعِد).

غزوة حمراء الأسد: لمّا انصرف أبو سفيان وأصحابه بعد معركة أُحُد وبلغوا مكانًا يسمى (الروحاء) ندموا وهمُّوا بالرجوع للقضاء على المسلمين فبلغ رسول الله خبرهم، فأراد أن يُرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فطلب رسول الله من أصحابه الخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا أُريد أن يخرج معي أحَدٌ إلّا من كان معي أمس في القتال. فخرج رسول الله ﷺ مع قومٍ من أصحابه حتى بلغوا مكانًا يُسمى (حمراء الأسد) وهي تبعد ثمانية أميال عن المدينة المنوّرة. وكان بأصحاب رسول الله الكثير من الجراحات التي أُصيبوا بها في غزوة أُحُد فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر من الله، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا ورجعوا إلى مكة، وفي هذه الغزوة يمدح الله المؤمنين بقوله:

---

(١) مقيلهم: موضع القيلولة والاستراحة في الظهيرة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ أي أُولئك الذين أجابوا داعي الله وأطاعوا رسوله بالخروج للجهاد في سبيل الله من بعد ما نالهم الجرح العميق في غزوة أُحُد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهؤلاء الذين أحسنوا القيام بما أمرهم الله ورسوله به، واتقوا عصيانهما، لهم أجر عظيم عند الله يتناسب مع جهادهم وصبرهم.

غزوة بدر المؤعِد: رُوي أن أبا سفيان لمّا عزم على الانصراف إلى مكة عقب غزوة أُحُد نادى محمدًا بقوله: موعدنا بدر من العام المقبل، فقال رسول الله ﷺ: ذاك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى.

فلمّا كان العام المقبل خرج أبو سفيان ومعه جند من أهل مكة حتى نزلوا مكانًا يدعى (مَجَنَّة)[1] فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له الرجوع ومَن معه إلى مكة. وفي تلك الأثناء لقي أبو سفيان نُعَيم بن مسعود وكان قاصدًا مكة لأداء العمرة، فقال له أبو سفيان: إني واعدت محمدًا وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر، وإنّ هذا عام جدب ولا يصلحنا إلّا عام خصب فيه المرعى لأنعامنا ونشرب اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة، فالْحَقْ بالمدينة فثبِّطْهم[2] ولك عندي عشرة من الإبل. فأتى نُعَيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم إلى دياركم وقتلوا الكثير منكم، فإن ذهبتم لملاقاتهم لم يرجع منكم أحد، فأحدث كلامه رهبة في قلوب بعض المؤمنين، فلما عرف رسول الله ذلك قال:

---

(١) مَجَنَّة: موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مرّ الظهران.

(٢) فثبّطهم: عوِّقْهم وأضعِف عزيمتهم.

«والذي نَفسُ محمدٍ بيــدهِ لأخرجنَّ إليهم ولو لم يخرج معي أَحَد، فخرج ومعه سبعون راكبًا يقولون (حسبي الله ونعم الوكيل) حتى وافى (بدر) في الموعد الذي عيَّنه مع أبي سفيان، فأقام ثمانية أيام فلم يلق أحَدًا، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة، وقصد المســلمون سوق بدر وكانت معهم بضاعة فباعوا واشتروا وربحوا ربحًا وفيرًا ثم انصرفوا إلى المدينة المنوّرة سالمين غانمين.

وقد أشار القرآن إلى هذه الغزوة التي لم يحصل فيها قتال بقوله:

﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ**[١] **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾ والناس الأُولى في الآية المرادُ بها نعيم بن مسعود، وهو الذي حاول تثبيط المؤمنين والناس الثانية المراد بها أبو ســفيان وجنده. والمعنى: إن نعيم بن مســعود قال للمســلمين: إن أعداءكم قد جمعوا لكم جيشًا كبيرًا لمقاتلتكم فخافوهم ولا تتورَّطوا بقتالهم ﴿**فَزَادَهُــمْ إِيمَانًا**﴾ ولكن تخويفه للمســلمين لم يجدِ نفعًا بل زادهم إيمانًا بالله ويقينًــا بتأييده لهم بالنّصر ﴿**وَقَالُوا حَسْــبُنَا اللهُ**﴾ أي يكفينا الله أمرهم، فإذا كان المشــركون يستنصرون بجيشهم الكبير فنحن كفايتنا بالله الذي هو ناصرنــا ﴿**وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ والوكيــل: هو الذي يُفوَّضُ الأمر إليه ويُعتمد عليه وهو الناصر المعين.

ثم خرج المسلمون للقاء جيش المشــركين، ولكن المشركين جُبنوا عن لقاء المســلمين وعادوا أدراجهم إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة السلامة، قال تعالى: ﴿**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ**﴾ فانقلبوا: أي عاد المؤمنون مــن وجهتهم هذه كما خرجوا لم يُقتلوا ولم يُقاتِلُوا بل صحبهم في هذه العودة أمور أربعة:

---

(١) الناس: لفظ الناس جاز في اللغة إطلاقه على الإنسان الواحد.

أولها: نعمة من الله إذ خذل أعداءهم وألقى الرعب في قلوبهم.

ثانيها: الفضل العظيم وهو ما جَنَوه في تجارتهم من ربح وفير.

ثالثها: السلامة من السوء حيث لم يصبهم قتل ولا جراح.

رابعها: اتّباع رضوان الله، وهو أعظم ما يناله المؤمن حيث يحظى بالنعيم الدائم في الآخرة، ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وهو سبحانه صاحب فضل عظيم على عباده.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يُخوّف أولياءه: في هذه الجملة حذف حرف الجرّ، والتقدير: يُخوّفكم الشيطان يا معشر المؤمنين بأنصاره أمثال أبي سفيان وغيره من المشركين، وأولياء: جمع وَليّ، وهو الصديق والنصير والمحبّ، فالذي يُخَوِّفكم أيها المؤمنون عن لقاء أعدائكم ومقاتلتهم هو الشيطان بواسطة أتباعه الضّالين ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فلا تخافوا ـ أيها المؤمنون ـ أولياء الشيطان وأتباعه ـ وهم المشركون ـ ولا تَرهبوا جمعهم مع طاعتكم لربكم، فالله سبحانه قد كفل لكم النصر والظفر ﴿وَخَافُونِ﴾ ولكن خافوا ربكم ولا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم صادقي الإيمان قائمين بما يفرضه عليكم من التضحية في سبيل الله.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا
نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ
لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

شرح المفردات

حَظًّا: نصيبًا.

اشْتَرَوُا الْكُفرَ بِالْإِيمَانِ: استبدلوا الإيمان بالكفر.

نُمْلِي لَهُمْ: نمهلهم ونتركهم في غيّهم ولا نُعجّل في عقوبتهم.

لِيَذَرَ: ليترك.

يَمِيزَ: يفصل بعضه عن بعض.

يَجْتَبِي: يختار.

بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ: بما أعطاهم الله تفضّلًا منه من مال وغيره.

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ: سيُجعل الذي بخلوا به طوقًا في أعناقهم يوم القيامة.
وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: أي كل ما في السماوات والأرض يؤول لله سبحانه لأنه المالك لهما.

مصير الكافرين في الآخرة

وبعد هزيمة المسلمين في أُحُد أظهر المنافقون الشماتة بالمسلمين وقالوا: لو كان محمد رسولًا من عند الله ما غُلِب، وقالوا في حقِّ الذين استشهدوا من المسلمين: لو كانوا عندنا ولم يخرجوا للمعركة لما ماتوا، إلى آخر الأقوال التي كانوا يُشيعونها في صفوف المسلمين لإلقاء الوهن واليأس في قلوبهم، لذا نزلت الآيات تُواسي الرسول محمدًا وتُثبِّت قلبه بقوله تعالى:

﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾ اختلف المفسرون في هؤلاء المسارعين في الكفر، فقيل: هم المنافقون، وقيل: هم قوم من الكفار أسلموا ثم ارتدّوا، وقيل: هم رؤساء اليهود، وحُزْنُ رسول الله عليهم يكشف أنّ الشُّغل الشاغل له هو أمر دين الإسلام ورغبته الملحّة بأن يؤمن الناس بالله الواحد ويصبحوا مسلمين، لذا يُواسي الله رسوله بقوله ﴿**إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾ أي إنهم بمسارعتهم في الكفر لن يضروا الله في شيء، فعاقبة كفرهم وبالٌ عليهم لا عليك ولا على المؤمنين، وإنّ كفرهم لن يُنقِصَ من سلطان الله شيئًا، فعظمة الله لا ينقصها كُفْرُ من كَفَرَ، ولا يزيدها إيمان من آمن ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ**﴾ فالله سبحانه أراد بسبب كفرهم أن لا يجعل لهم نصيبًا من الثواب في الآخرة بحرمانهم من نعيم الجنة ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ وإضافة إلى ذلك لهم عذاب عظيم في جهنّم يفوق التصوُّر.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ**﴾ إنَّ الذين اختاروا الكفر وسلكوا سبيله واتخذوه عقيدة وسلوكًا بَدَلًا من الإيمان ﴿**لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾ أي

إنهم لن يضرّوا الله بشيء، وكيف يضرونه وله ملك السماوات والأرض وهو يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وبعد أن وصف الله العذاب في الآية السابقة بقوله: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، وصفه الله هنا بأنه أليم شديد الإيلام.

﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ**﴾ الإملاء: الإمهال والإطالة في العمر، وأملـى الله للكافر: أمهلـه ولم يُعَجِّل عقوبتـه، والمعنى: لا يظنَّنَّ الذين كفروا أنّ إمهال الله لهم بإمدادهم بطـول العمر وإعطائهم نعيمًا في الدنيا وعدم تعجيله بعقوبتهم على ما فعلوه بالمسلمين هو خير لهم ﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًـا**﴾ إنما يُمهلهم الله ويطيـل أعمارهم ويؤخّر عقوبتهم ليقترفوا مزيدًا من المعاصـي ومن ثم تزداد عقوبتهم ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ أي عذاب فيه ذلٌّ ومهانة لهم مقابل ما كانوا عليه في الدنيا من كبرياء واعتزاز.

﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ أي ليس من شأنه تعالى أن يترك المؤمنين على ما هم عليه، فيهم المؤمن الصّادق في إيمانه، وفيهم المنافق الذي يضمر الكفر، بل لا بُدّ من الابتلاء لهم بالتكاليف الشاقة كالجهاد ﴿**حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ حتى يفصل الله ويفرّق بين المؤمنين والمنافقين، وهذا ما ظهر في غزوة أُحُد حيث كشف الله لرسـوله محمد والمؤمنين حجم النفاق ومداه حين انسـحب عبدالله بن أُبَيّ، سَـيِّد المنافقين مع جماعته من صفوف المسلمين ولم يشتركوا مع المسـلمين في المعركة، إضافة إلى ما أشاعوه بين المسلمين من الأخبار التي فيها ما يثبط همّتهم ويزعزع إيمانهم، وكما ظهر أمر المنافقين ظهر بالمقابل إخلاص المؤمنين واسـتماتتهم في سبيل إعزاز دينهم ونصرته. ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ أي وما كان الله ليطلعكم ـ أيها المؤمنون ـ على ضمائر قلوب عباده فتعرفوا منهم المؤمن من المنافق ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُسُلِهِ مَن يَشَـاءُ**﴾ ولكن الله يصطفي مِن رُسله من يشاء فيُطْلعه

على بعض ما في ضمائر بعضهم وعلى شـيء من أُمور الغيب الذي يختصّ به ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ فداوموا ـ أيُّها المومنون ـ على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسله الذين أرسلهم لهداية الناس ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وإن تؤمنـوا بالله حق الإيمان وتتقوا مخالفة ما أمركم الله به ورسـوله فلكم في مقابلة ذلك ثواب عظيم عند الله يوم القيامة.

وبعد أن حثّ القرآن على الجهاد في سبيل الله حثّ على الإنفاق في سبل الخير: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي لا يظنَّنَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله مـن فضله من مال فلا ينفقون منه في سـبيل الله ولا على الفقراء، لا يظن هؤلاء أن البخل هـو خير لهم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ بل عاقبته وخيمة عليهم، فالبخل من جهة يُضعف الأُمَّة بعدم الإنفاق على عِدَّة القتال القويّة في وجه الأعداء، ومن جهة أخرى فالبخل على الفقراء يُولّد الحقد في قلوبهم فينشأ من ذلك الثورات وصراع الطبقات. وتأمّل قوله تعالى: ﴿يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ تذكيـر للبخلاء بأن المال الذي في أيديهم هو مـال الله أعطاهم إيّاه من فضله فهو وديعة بين أيديهم فلا يجدر بهم أن يبخلوا به. وهذا المال الذي يمسكونه ويبخلون به ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي سـيجعل الله هذا المال الـذي بخلوا به طوقًا مؤلمًا في أعناقهم يوم القيامة مَثَّلَهُ النبـي ﷺ بقوله: «مَنْ آتاهُ اللهُ مَالًا فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ لَهُ يوم القِيَامَةِ شُجاعًا أقرَعَ[١]، لَهُ زَبِيبتَانِ[٢]، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلِهْزَمَتَيْهِ[٣]، يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنْزُكَ»[٤] ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا...﴾ الآية.

---

(١) الشجاع الأقرع: الثعبان القوي الكثير السم.

(٢) الزبيبتان: نقطتان سوداوان فوق عينَيْ الثعبان وهما تكونان لأخبث الحيات.

(٣) اللّهزمتان: شدقاه، وهما عظمتان ناتئتان في عظمتي الحنك.

(٤) أخرجه البخاري.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالبخلاء لن يأخذوا شيئًا بعد وفاتهم مما يكنزون، إنما يرثه الله سبحانه الذي له ميراث السماوات والأرض، فلا هم ينتفعون به بعد موتهم ولا هم ناجون من إثمه يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله سبحانه يعلم ما تعملون لا يخفى عليه شيء، وسيجزي كلًّا بما عَلِمَهُ من أعمالهم.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا
نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

شرح المفردات

إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا: أمرنا وأوصانا في التوراة.

أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ: أن لا نصدِّق لرسول في نبوّته.

بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ: القربان ما يتقرب به إلى الله من حيوان وغيره يوضع في مكان فتتنزل عليه نار من السماء فتحرقه.

بِالْبَيِّنَاتِ: بالحجج والمعجزات التي تشهد بصدق رسول الله.

الزُّبُر: الكُتب التي تحوي المواعظ والزواجر.
الْكِتَابِ الْمُنِير: الكتاب الواضح.

افتراءات اليهود على الله

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر بعض مساوئ اليهود وسوء أدبهم مع الله، فقد رُوي أنه لمّا أنزل الله قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ[1] ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: نرى إلَه محمد يستقرض منّا، فنحن إذن أغنياء وهو فقير، فأنزل الله قوله موبِّخًا لهم:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أي لقد عَلِمَ الله هذا القول الشنيع من اليهود الذين قالوا: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي سيأمر الله الملائكة الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم وهذا تهديد ووعيد لهم، ثم قرن الله قولهم المنكر بفعلٍ شنيعٍ من أفعالهم وهو ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لبيان ما عليه طبيعتهم من الشرّ والظلم واستهانتهم بدين الله، لأنّ قتل الأنبياء هو تعدٍّ على الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته إلى الناس، ثم يُقال لهم من جهة الله تعالى يوم القيامة جزاء قولهم وأفعالهم هذه وهم يعذّبون بنار جهنم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وإنّ ما ذكره القرآن عن اليهود الذين كانوا على عهد النبي ﷺ من قتل الأنبياء وهم لم يباشروا قتلهم بل فعله أسلافهم لأنهم كانوا راضين عنه مُقرّين بما ارتكبوا، متعاطفين معهم، ومن رضي عن جريمة فكأنّه فعلها، وهذا يدلُّ على أنَّ الأُمم متكافلة في الأمور العامة، إذ يجب على الأُمَّة

(١) القَرْضُ: هو أن يُعطي الرجل غيره مالاً على أن يردّه إليه بعد أجل معلوم، وقد أطلق الله إنفاق المال على الفقراء ووجوه الخير قَرْضًا له وهو الغني الذي يرزق الناس جميعًا، ترغيبًا بالإحسان وبيان ثوابه الجزيل.

الإنكار على فاعل الشـرِّ من أفرادها والأخذ على يده وإلّا شاع فيها الشرور والمنكرات فتستحق عذاب الله.

﴿ذَلِـكَ بِمَا قَدَّمَـتْ أَيْدِيكُـمْ﴾ أي ذلك العذاب الشـديد بنـار جهنَّم هو بسـبب ما اقترفتم في الدُّنيا من الآثام. وإضافة ما فعلـوه من الآثام إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال تُزاول بها **﴿وَأَنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾** أي أنَّ الله لا يُعاقب إنسانًا بغير استحقاق للعقوبة، وقد أطلق الله على الناس جميعًا لفظ (العبيد) تحقيقًا لعبوديتهم لله، وأنّ الله خلقهم لعبادته وطاعته، ومن خرج عن طاعته فقد استحقّ عقوبته.

ثم يُبيِّن القرآن ما طلبه اليهود من الرسـول محمـد بأن يأتيهم بالمعجزة التالية: **﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾** هذه الآية نزلت في كعب بن الأشـرف ومالك بن الصَّيف وكعب بن أسد، وفنحاص بن عازوراء وغيرهم أتوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا محمد تزعم أن الله بعثك إلينا رسولًا، وأنزل عليك كتابًا، وقد عَهِدَ الله إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسـول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقُربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدّقناك: فأنزل الله هذه الآية.

والقربـان ما يتقرب به الإنسـان إلى الله من صدقـة أو ذبيحة، وقد كان بنو إسـرائيل يذبحون لله فيأخذون القرابين فيضعونها وسـط البيت والسقف مكشوف فيقوم النبيّ في البيت ويناجي ربه وبنو إسرائيل واقفون حول البيت فتنزل نار من السماء فتأكل تلك القرابين وتحرقها فيكون ذلك علامة القبول وإذا لم تُقبل تبقى على حالها. هذا وإنّ معجزات موسى والسيد المسيح عليهما السلام كانت أشياء سوى هذا القربان.

وما طلبه اليهود في زمن النبيّ محمد هو مـن مفترياتهم وأباطيلهم لأن

معجزة القربان الذي تأكله النار هي وسـائر المعجزات التي يؤيد بها رسـله سـواء، وما كان لهم أن يعيّنـوا نوع المعجزة التي يؤيد بها رسـله لأن ذلك شأن من شـؤون الله حيث يختار لنبيه من المعجزات ما يرتأيه له، وهذه الفئة من اليهود طلبت هذه المعجزة من الرسـول محمد لا على سبيل الاسترشاد والاقتناع بنبوّته ولكن على سبيل التعنُّت والرفض. ثم أمر الله رسوله محمدًا أن يخاطبهم بقوله:

﴿**قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَـاتِ**﴾ قل يا محمد لهؤلاء تبكيتًا لهم وإظهارًا لكذبهم: قد جاءكم رسل من عند الله قبلي بالمعجزات الواضحة ﴿**وَبِالَّذِي قُلْتُمْ**﴾ أي وبالذي ادّعيتم بأنه إذا جاءكم رسول من عند الله بالقربان الذي تأكله النار تقرّون به وتصدّقون به ﴿**فَلِـمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أي لماذا قتلتم أولئك الأنبياء أمثال زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الواضحة، إن كنتم صادقين في دعواكم بأن تصدّقوا الرسل وتطيعوهم متى أتوكم بما يشهد بصدق نبوتهم؟

﴿**فَـإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَـدْ كُذِّبَ رُسُـلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ فالله سـبحانه يُواسـي رسـوله محمدًا بقوله: إن كذّب اليهود نبوَّتَك فقد كذّب أسلافهم رُسل الله قبلك ﴿**جَـاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُـرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ وهؤلاء الرسـل جاءوا بالمعجزات الواضحة، **والزُّبُر**: جمع زبـور ويطلق على كل كتاب من عند الله فيه الشـرائع والأحكام والمواعظ الزاجـرة كالتوراة والإنجيل وصحف داود. **والكتاب المنيـر**: أي الكتاب الواضح الذي يظهـر الحق من الباطل ويضيء الطريق إلى الله.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ
فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ
ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ
وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

شرح المفردات

تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ: تُعطون جزاء أعمالكم وافيًا غير منقوص.

زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ: نُحِّي عنها وأُبْعِدَ.

مَتَاعُ الْغُرُورِ: أي ما يتمتّع به الناس هو خداع زائل.

لَتُبْلَوُنَّ: لَتُختَبَرُنَّ وتُمتَحَنُنَّ.

أُوتُوا الْكِتَابَ: هم اليهود والنصارى.

الَّذِينَ أَشْرَكُوا: هم كفّار العرب.

عَزْمِ الْأُمُورِ: من صواب التدبير مما يجب العزم عليه.

مِيثَاقَ: هو العهد المؤكّد.

فَنَبَذُوهُ: طرحوه ونقضوا عهده.
وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا: واستبدلوا به شيئًا تافهًا من منافع الدنيا وملذّاتها.
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا: أي يحبون أن يُثنى عليهم ويُذكَروا بخيرٍ على شيءٍ لم يفعلوهُ.
بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ: بمنجاةٍ من العذاب في الآخرة.

الدنيا دار ابتلاء

ولقد كان حديث الموت هـو الطاغي بعد معركة أُحُدٍ لكثرة الضحايا في صفوف المسلمين، فنزلت الآية تُواسي المسلمين وتُبيِّن حتمية الموت الذي لا مفرَّ منه والذي كتبه الله على النَّاس جميعًا، قال الله تعالى:

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ عبَّر الله سـبحانه عن حلول الموت بالمذاق، وقد يكون المذاق مُرًّا تعافه النفس يتبعه عقاب من الله على ما فرّط الإنسان في جنب الله وأسـرف في عصيانه، وإما أن يكون مذاق الموت حُلْوًا هنيئًا تحوطه البشـرى والرضا من الله، ويتبعه النعيم في الآخـرة جزاء طاعته لله وعمله الصالح ﴿**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ والأجر: الجزاء على العمـل خيرًا كان أم شـرًّا، وتوفية الأجـر هي إعطاؤه كامـلًا لا نقص فيه ولا زيادة، ويشـمل الثواب والعقاب تبعًا لعمل الإنسـان ﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّـارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾ أي فمن نُحِّيَ عن نـار جهنم وأُبْعِدَ عنها يوم القيامة، وظفر بدخول الجنَّة فقد نال السـعادة الأبديَّة ﴿**وَمَـا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ والمتاع: هو ما يَنْعَمُ به الإنسـان وينتفع به، والغُرور: هو الخِداع والطمع فـي الباطل، فالحياة الدُّنيا ما هـي إلّا متاعٌ زائلٌ تُخدعون به، ثم تُحاسـبون على أعمالكم يوم القيامة فلا تغترُّوا بالدُّنيا ولا تنخدعوا بمظاهرها الخلَّابة وشهواتها الزَّائلة.

فكم من الناس قضوا أعمارهم في تشييد القصور الفخمة ثم أتاهم الموت فجأة فلم ينعموا بِسُكْناها.

وكم من الناس عملوا ليلًا ونهارًا في سبيل جمع المال ليتمتعوا به فباغتهم الموتُ وتركوا ما جمعوه لورثتهم، وصدق القائل:

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ وَيَأْكُل المالَ غيرُ مَن جَمَعَه

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي واللهِ، لَتُخْتَبَرُنَّ وتُمْتَحَنُنَّ بالمصائب في أموالكم وأنفسكم حتى يتبيَّن الجازع من الصابر والمخلص من المنافق.

والابتلاء في الأموال يكون إما بنقصها عن طريق التجارة أو تلفها عن طريق الزراعة، أو استيلاء الأعداء عليها أو غير ذلك.

والابتلاء بالأنفس هو عن طريق موت الأحبَّة من الأهل والأصدقاء أو الإصابة بالأمراض المستعصية أو القتل والجراح الناجمة عن الحروب .

فالحياة دار ابتلاء لا تستقرُّ على حال، والمؤمن مُعَرَّضٌ دائمًا للابتلاء وعند الابتلاء يظهر صدق المؤمن بتقبّل البَلاء بالصبر واليقين بأنَّ ما أصابه هو ما قدَّره الله عليه مستحضرًا في ذهنه قول الله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ أي وَلَتَسْمَعُنَّ ـ أيّها المؤمنون ـ من اليهود والنصارى الذين كانوا قبلكم ومن الذين أشركوا بالله من العرب وغيرهم من أعداء الإسلام أذًى كثيرًا بالطعن بالإسلام ونبيّ الإسلام أو غير ذلك من الأذى الذي يصيبكم أنتم بسبب إيمانكم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وإن تصبروا على تلك الشدائد التي تنزل بكم وتتَّخذوا لكم

وقايـة منها باللجوء إلـى الله، إن تفعلوا ذلك فإنَّ ذلك مـن الأُمور التي يجـب أن يعزم عليها كل إنسـان، ومن الجِدِّ والاجتهـاد الذي يجب أن تُوَطِّنوا أنفسكم عليه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي واُذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكَّـد على اليهود والنصارى، والمُراد بذلـك علماؤهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ بأن يبيِّنوا للناس ما في التوراة والإنجيل من البشارات والأدِلَّـة على صدق نبـوَّة محمد، وأن لا يكتموا شـيئًا من ذلـك ويخفوها عن الناس ﴿فَنَبَـذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فألقـوه وراء ظهورهم ونقضوا عهد الله ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ واَسـتبدلوا به ثمنًا قليلًا من متاع الدنيا بأن جعلوا دين الله موردًا للرّزق والجاه وغير ذلك من الأطماع والمآرب الذّاتيَّة ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ فقبحًا لما فعلوا حيث اسـتبدلوا عهد الله بثمن بخس حقير من أطماع الدنيا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، والمعنى: لا تظنَّنَّ يا محمد أو أيها المؤمن أن هؤلاء الذين يفرحون بما فعلوا من اَستبدالهم عهد الله بأطماعهم الدنيوية، ويحبّـون أن يمدحهم الناس على مـا لم يفعلوه، وفرحوا بذلـك وأحبُّوا أن يُوصفوا بالدِّيانة والفضل. وقيل إن هـذه الآية نزلت في المنافقين، فقد رُوي أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو تخلَّفوا عنه، فإذا جاء اَعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال، ونحو هذا، فيُظهر رسـول الله القبول باَعتذارهم ويسـتغفر لهم، ففضحهم الله بهذه الآية، والآية حكمها عامّ لكل مـن يريد أن يمدحه الناس وهو خَـالٍ من الفضائل ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فلا تظنَّنَّ أنَّ هؤلاء بمنجاةٍ في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب مؤلم أشدّ الإيلام في جهنم.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ١٨٩ إِنَّ
فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي
ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا
سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيٗا
يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا
وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤ ﴾

شرح المفردات

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: تعاقُبهما ومجيء كل منهما خلف الآخر.

لَآيَاتٍ: وآيات، جمع آية وهي العلامة الواضحة، وسُمي خلق الكون آية لأنه علامة على وجود الله وقدرته العظيمة.

لِأُولِي الْأَلْبَابِ : أصحاب القلوب الثاقبة التي تُدرك حقائق الأمور.

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ: أي مضطجعين.

مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا: ما خلقت هذا الكون عَبَثًا وهزلًا ولَعِبًا.

سُبْحَانَكَ: تنزهت يا ربّ عن كل عَيْبٍ ونقصٍ، وعن ما لا يليق بك.

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ: فأحفظنا من عذابها.

أَخْزَيْتَهُ: فضحته وأهَنْتَه أو أَهْلَكته.

فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا: والمغفرة من الله هي أن يصون العبد من أن يمسَّه عذاب بسبب ذنوبه.

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا: التكفير، التغطية والستر بأن يُزيل عنهم صغائر ذنوبهم.

وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ: أي في زُمْرَتهم وعلى مثل أعمالهم، والأبْرار هم الأنبياء والصالحون.

الْمِيعَادَ: هو الوعد.

التفكر في خلق الكون يؤدي إلى الإيمان بالله

ويتابع القرآن فيبيّن لنا عظمة الله سبحانه، فهو المالك لهذا الكون من سماواته وأرضه، وهو الخالق والمُبدع والمُنشئ لهما من العَدَم، وهو الحافظ لهما من الفناء والمدبِّر لشُؤونهما:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي والله وحده له مُلك السماوات والأرض، وتقديم لفظة الجلالة في الآية لإفادة الاختصاص والانفراد بملك الله لهما لا يشاركه في ملكه أَحَدٌ **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** وكلمة **﴿قَدِيرٌ﴾** من أسماء المبالغة، أي قدرة الله سبحانه تشمل كل شيء في الوجود لا تعجز عن إيجاد شيء ما.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إنَّ المُتأَمِّل في خلقهما يرى فيهما من عجيب الإبداع، وإحكام الصنعة، وبقائهما في الفضاء من دون أن يختلّ توازنهما أو يرتطم بعضهما ببعض **﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** وتعاقبهما على سطح الأرض كل منهما يخلف الآخر باستمرار **﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** إن في ذلك كله لدلالات واضحات، وبراهين بينات تدل على وجود خالق لهما وهو الله سبحانه يدركه أصحاب العقول السليمة الخالصة من شوائب النقص.

هذا منهج جديد دعا إليه القرآن وهو التفكُّر في الكون للوصول إلى الإيمان بالله عن يقينٍ واقتناعٍ لم تعرفه الديانات السابقة قبل الإسلام.

ولنستعرض بإيجازٍ بعض أسرار الله في خلقه بما ذكرته الآية: (١) خلق السماوات (٢) خلق الأرض (٣) اختلاف الليل والنهار.

خلق السماوات

إذا نظرنا إلى السماء وأحصينا عدد النجوم التي تتراءى لنا بالعين المجردة، سواء منها النجوم بما يظهر في نصف الكرة الأرضية الشمالي، أو ما يظهر في النصف الجنوبي، لَرَأَينا عددها لا يزيد على ستة آلاف، ولكن إذا نظرنا إلى السماء من خلال المناظير الضخمة التي توصّل العلماء إلى صنعها لَتَراءت لنا مجموعات هائلة من النجوم في الفضاء، أطلقَ الفلكيُّون على كل مجموعة منها اسم (مَجَرَّة) وكل مجرَّة بالإضافة إلى ما فيها من نجوم تحتوي على مذنَّبات وسُدُم[1]، وأقمار، وكواكب، وكويكبات، وشُهب.

وقد أحصى علماء الفلك حتى الآن أن عدد المجرات يُقدَّر بنحو مائتي ألف مليون مجرة على الأقل[2]، وتتراوح أعداد النجوم في المجرات بين المليون والعشرة ملايين وملايين الملايين[3].

وأن النجوم في الفضاء التي تَتَراءى لنا بالعين المجردة بما فيها

---

(١) السدم: أجرام سماوية هائلة الحجم يقدّر عددها في الكون بالملايين وهي سحابية الشكل بعضها معتم وبعضها مضيء بسبب ما يتخللها من نجوم.

(٢) عن كتاب (السماء في القرآن الكريم) للدكتور زغلول النجار، ص١٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٧.

المجموعة الشمسية تابعة للمجرّة التي أطلقوا عليها اسم (درب اللبانة) وهي تحتوي على مليار نجم[١].

ويقول الدكتور أحمد زكي: إن تِلِسْكُوب جبل بالومار بكالفورنيا وهو ذو مرآةٍ قطرها نحو (٥) أمتار يستطيع الكشف عن ألف مليون مجرة في كلٍّ منها في المتوسط ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم[٢]. واختلاف ما ذُكِرَ في عدد المجرّات والنجوم هو تبعًا للمصادر المأخوذة عن علماء الفلك.

أحجام النجوم: ربما اعْتَقَدَت الشعوب قديمًا وبالأخصّ في عصر نزول القرآن أنّ النجوم ليست سوى مصابيح فضية صغيرة معلّقة في القبة الزرقاء، ولكن الحقيقة التي توصّل إليها العلم منذ قريب أنّ كلّ نجمٍ هو شمس كشمسنا يحتوي على كُتلٍ ضخمة من الغازات الملتهبة في درجة حرارية عالية بدرجةٍ مذهلةٍ، وبعبارةٍ أُخرى أن الشمس نَجْمٌ كسائر نجوم السماء، وهي إن بدت لنا كبيرة فهي لقربها منا، ويُقدَّر بُعدها عنّا بحوالي مائة وخمسين مليونًا من الكيلومترات[٣] وحجمها يزيد على مليون ضعف حجم الأرض.

أبعاد النجوم: إنَّ المجموعة الشمسية التي تنتسب إليها الأرض تكاد تكون منعزلةً انعزالًا تامًّا في الفضاء لِمَا تبعد عنها النجوم الأُخرى، أمّا إذا احتجنا أن نقيس أبعاد النُّجوم الأخرى فلا يكفي الألف مليون بل لا بدّ من مليون المليون، ولهذا اتخذ علماء الفلك من سرعة الضوء وحدة للقياس قدَّرها العلماء بـ١٨٦,٠٠٠ ميلًا في الثانية، فبينما تبعد عنّا الشمس ٨ دقائق ضوئية فإنَّ أقرب النجوم إلينا بعد الشمس ويُدعى (الفاقنطوروس) يبعد عنا ٤,٣ سنة ضوئيّة، وهناك من النجوم ما يبعد عنا بلايين السنين الضوئية.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٩.

(٢) نقلاً عن كتاب (في سبيل موسوعة علمية) دار الشروق، ص٥٣٦.

(٣) عن كتاب (السماء في القرآن الكريم) للدكتور زغلول النجار.

فهذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع الذي لا يستطيع العلم إدْراك اتِّساعه المُحكم البناء، يفضي إلى حقيقةٍ مؤدّاها أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد وُجِدَ بمحض المُصادفة، بل لا بُدَّ له من مُوجِدٍ عظيمٍ أَوْجَده من العدم، له من العلم والقدرة والحكمة ما لا يستطيع العقل تصوره وإداركه.

خلق الأرض

والأرض بتكوينها وما عليها من كائنات تشهد بوجود الله سبحانه الذي أبدعها على تلك الصورة المعهودة.

فالأرض التي نعيش عليها وما تحتويه من سهول وبحار وجبال ووديان وما في جوفها من ثروات معدنية من مختلف العناصر ومصادر الطاقة المتعدّدة من نفط وفحم حَجريّ، وما على سطحها من أنواع النّبات والشجر والأَزهار المختلفة الألوان التي تعبق بمختلف الروائح الزكيّة، كما يحيا على سطحها اليوم أكثر من سبعة مليارات نسمة من الآدميين، ويعيش أيضًا على سطحها وفي البحار أكثر من مليون ونصف المليون نوع من أنواع الكائنات الحيّة، كل صنف من هذه الكائنات ينفرد بأمور خاصة به في نمط معيشته والمحافظة على وجوده والحصول على رزقه. يضاف إلى ذلك أنواع الطيور ذات الألوان الخلّابة التي يصدح بعضها بأعذب الأصوات. أما يشهد ذلك كله بأنَّ له خالِقًا عليمًا حكيمًا يدبّر ويسيّر، وأن الصدفة أو التطوّر الذي يقول بذلك الملحدون لا يمكن أن يُنشآ هذه الأرض وما عليها من مخلوقات على هذا الشكل المعهود.

وصدق الله إذ قال بما ذكره القرآن:

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣، ٤].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

اختلاف الليل والنهار

ومن عظمة القُدرة الإلٰهية أنها أوجدت الليل والنهار بما فيهما من منفعة للعباد والكائنات الحيّة والنبات، قال الله تعالى:

﴿وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فالأرض تدور كالبلبل باستمرار ليلًا ونهارًا على محورها، ومحورها خط وهمي يخترق الأرض من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي. وتُكمل الأرض دورة واحدة كل ٢٤ ساعة، وعندما يقع جزء من الأرض في مواجهة أشعة الشمس يكون نهارًا، وعندما لا تصل أشعة الشمس إلى ذلك الجزء وتجتازه ينتهي النهار ويحلُّ الليل.

والأرض لا تدور كالبلبل المستقيم بوضع عموديّ، بل إنها تدور وهي مائلة، كما أنها لا تدور في مكان واحد إذ إنها تدور أيضًا حول الشمس، وهذان الأمران: أي ميل الأرض ودورانها حول الشمس يُنشئان ليلًا ونهارًا مختلفَي الطُّول ويُسببان الفصول الأربعة.

ومن الآيات الباهرة في صنع الله الذي أتقن كُلَّ شي الدِّقَّة الباهرة في دوران الأرض بحيث لا تخطئ ثانية من الثواني. ودوران الأرض بهذه الدِّقَّة له تأثير عظيم في الحياة على سطح هذه الأرض، فلولا هذا الدَّوران المنتظم لفرغت البحار والمحيطات من مائها، ولو دارت الأرض أسرع مما تدور لتناثرت المنازل وتفكك ما على الأرض، ولو دارت الأرض أبطأ مما تدور لهلك من عليها من حرٍّ ومن برد.

فهل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس باستمرار بهذه الدِّقَّة هو مصادفة؟ لا يقول عاقل بذلك أبدًا، وعظمة القرآن أنه لَفَتَ الأنظار إلى اختلاف

الليل والنهار الذي غفل عن أسراره كثير من الناس، وبإدراك الناس أسراره، يزداد إيمانهم بالخالق ويدركون عظمته ويذكرونه باستمرار. وقد جاء في القرآن:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ثم وصف الله أصحاب العقول السليمة الذين أدركوا عظمة الله من خلال تبصّرهم في خلق هذا الكون، فقال عنهم:

﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ فهم يستحضرون عظَمة الله في قلوبهم، ويُكثرون من ذِكره وتسبيحه وتقديسه في جميع الأحوال، فهم يذكرونه وهم قائمون، ويذكرونه وهم قاعدون، ويذكرونه وهم مضطجعون ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ ويتفكرون في هذا الكون العجيب الذي يسير على غاية النظام والحكمة والإبداع، فيزيدهم هذا التفكُّر إيمانًا على إيمانٍ فيُناجوا ربَّهم بخضوعٍ وإجلالٍ ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا**﴾ أي ما خلقت يا ربّ هذا الكون عَبَثًا خاليًا من الحكمة، بل خلقته مشتملًا على حِكَمٍ جليلةٍ ﴿**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ أي تنزَّهتْ ذاتك يا ربّ عن النقص وعن كل وصفٍ لا يَليق بِعَظَمَتِكَ، فاَحفظنا من عذاب النار يوم القيامة، ووفّقنا للعمل بما يُرضيك.

﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ**﴾ ربّنا إنّك من تدخله نار جهنم لِكُفْرِهِ ومعصيته لكَ تكون قد فَضَحته أمام الخلائق جميعًا وأهَنته ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ وليس للظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي من أنصار يخلّصونهم من عذاب النار التي أعدّها الله لهم.

وهؤلاء الذين ترسّخ الإيمان بالله في قلوبهم يُناجونه أيضًا قائلين: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**﴾ المُنادي الذي دعا

الناس جميعًا للإيمان بوجود الله ووحدانيته هو الرسول محمد ﷺ، وقيل: المراد بالمُنادي الذي يدعو الناس للإيمان بالله هو القُرآن، فآياته تدعو إلى الإيمان بالله وتقدّم البراهين على وحدانيته.

ويتابع المؤمنون مُناجاة ربهم:

﴿**رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**﴾ أي نسألك يا ربّ بأن تغفر لنا ذنوبنا وتسترها وتعفو عنها، وأن تُكفِّر عنا سيئاتنا بأن تزيلها وتمحوها. وقيل: المراد بالذنوب كبائر الخطايا، وبالسيئات صغائرها. وقيل: إن الذنوب التقصير في عبادة الله وكل ذنب في جانب الله، والسيئة كل عمل تسوء عاقبته في الدنيا والآخرة وتسوء صاحبها أو تسوء غيره ﴿**وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ**﴾ والأبرار: جمع بارّ أو برّ وهو الذي يتوسع في طاعة الله، فالمؤمنون يطلبون من ربهم أن يموتوا وهم في حالة الطاعة لله وأن يكونوا في زمرة عباده الأبرار كالأنبياء والصالحين من عباد الله ﴿**رَبَّنَا**[1] **وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ**﴾ أي يا ربّنا أعْطنا ما وعدتَنا على أَلْسِنة رُسُلك من التوفيق لطاعتك والنصر على الأعداء والحياة الطيبة في الدُّنيا ودخول جنتك في الآخرة ﴿**وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ ولا تُهِنّا، ولا تفضحنا يوم القيامة بإدخالنا نار جهنم ﴿**إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ والميعاد: هو الوعد، أي إنّك يا ربّ لا تُخلف ما وَعدت به المؤمنين من النعيم في الآخرة، لقد سألوا ربّهم ذلك للمبالغة في التعبُّدِ والخشوع له وأن يعصمهم من الزَّلل بأن لا يسوء حالهم.

---

(١) من الملفت للنظر أن هذه التضرعات من المؤمنين استهلت بلفظ (ربنا) وهذا اللفظ تكرر خمس مرات، وقد فهم من ذلك الإمام جعفر الصادق فقال: من حَزَبَهُ أمر فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا...**﴾ إلخ، إلى الآية التي استهلت بقوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ...**﴾ فإن هؤلاء الأخيار قد نادوا ربّهم خمس مرات فأجاب الله دُعاهم.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ
أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟
فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾
مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا
يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

شرح المفردات

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ: أي أجاب دُعاءهم.

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: أي بعضكم كبعض، لا تفرقة بينكم.

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ: لأسترنَّ عليهم ذنوبهم وَلأَمْحُونَّها عنهم.

حُسْنُ الثَّوَابِ: حُسْنُ الجزاء على الأعمال الصالحة.

لَا يَغُرَّنَّكَ: لا يخدعنَّك.

تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ: تصرّفهم في البلاد للتجارات وكسب الأموال ورغد العيش.

وَبِئْسَ الْمِهَادُ: أي بئس ما عهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم، والمهاد هو الفراش.

نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ: ضيافة وإكرامًا لهم من عند الله.

رَابِطُوا: أقيموا في الثغور مترصّدين لغزو العدوّ لِدَحرهم، والثغور هي الحدود التي تفصل بين المسلمين وأعدائهم.

صَابِرُوا: كونوا أصبر من الكفار في شدائد الحرب.

مصير المؤمنين الصادقين في الآخرة

وبعد تلك التضرعات والابتهالات من المؤمنين لربّهم بأن يغفر لهم ذُنوبهم ويُعطيهم ما وعدهم على ألْسِنة رُسُله ويُدخلهم الجنّة مع الأبرار، بعد هذه التضرعات أجابَ اللهُ دعاءَهم بقوله:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾
أي فأجاب الله دعاءهم وحقّق لهم رجاءهم بأنه لا يُضيع عَمل عاملٍ منهم، بل سَيُجازيهم على أعمالهم بالجزاء الأَوفى، ولن يُفَرِّقَ الله عطاءه بالثواب بين ذَكَرٍ وأُنثى **﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾** أي بعضكم من بعض في الطاعة والعمل الصالح، أي أنتما متماثلان فلا تفرقة بينكما في ثواب طاعتكما لله[١].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي فالذين هاجروا بأن تركوا أوطانهم من أجل دينهم وطاعتهم لله، وأُخرجوا من ديارهم فِرارًا من ظلم

---

(١) أين هذه المساواة بين الرجل والمرأة التي قرَّرها القُرآن مما كانت عليه المرأة في الهند واليونان والرومان والقرون الوسطى، حيث كانت المرأة منبوذة محتقرة دون الرجل، وكانوا يعتبرونها رمز غواية ومصدر شرّ وأداة من أدوات الشيطان؟

الظالمين واضطهادهم لهم ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي تحمَّلوا الأَذى والاضطهاد للدفاع عن دين الله ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ أي قاتلوا أعداء الله واستشهدوا في سبيله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لأَغفرنّها لهم وأمْحونّها ولأَتَفضَّلَنَّ عليهم بعفوي ورحمتي ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ولأُدْخِلَنَّهم في الآخرة جنّات النعيم تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنّة ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ جزاءً لهم على ما عملوا واستشهدوا في سبيل الله، والله عنده حُسْنُ الجزاء بدخولهم الجنة والتمتع بنعيمها بما لا عَين رَأَتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بَشَر.

ولمّا كان بعض المؤمنين يرون المشركين في رخاء وبحبوحة من العيش فيقولون في أنفسهم: إنَّ أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في ضيقٍ من العيش لهؤلاء يخاطبهم الله بقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي لا يخدعنَّك أيها المؤمن ما تُشاهده بما عليه الكفار من سعة الرِّزق ورخاء العيش ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ما يتمتّعون به من ملذّات الدُّنيا وشهواتها ما هو إلّا متاع قليل زائل لا يدوم ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ثم مكانهم الذي يستقرّون فيه في الآخرة هو جهنم لِيُعذَّبوا بنارها، وبئس الفِراش لهم تلك النار التي يعذَّبون بها.

وفي هذا مواساة للمؤمنين وتعزية لهم عما يرونه من غنى وجاه وترف للمشركين وما ينتظرهم من مصير سيئ، وفي الوقت نفسه توجيه للمؤمنين للصبر على ما هم عليه من شظف العيش، وأن يجعلوا همهم في الحياة العمل الصالح الذي يُوصلهم إلى مرضاة الله وسعادة الآخرة.

ثم يُبيِّن القرآن حُسْنَ مآلِ المؤمنين:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

أي لكن الذين اتقوا الله بطاعته واتّباع مرضاته في العمل بما أمرهم واجتناب ما نهاهم عنه لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار وهم ماكثون فيها أبدًا، لا انقطاع لما هم فيه من نعيمٍ ولا زوال له ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضيف لإكرامه والحفاوة به، وهذا الإكرام هو من فضل الله وكرمه وإحسانه ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وما عند الله من الخير والكرامة والنعيم الدائم خير للأبرار مما عليه الذين كفروا من نعيمٍ قليلٍ زائلٍ في الدنيا، وما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة.

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن أهل الكتاب وأنهم ليسوا سواء بل منهم الأخيار، ومنهم الأشرار:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي أن بعض اليهود والنصارى يؤمنون بالله الواحد وما يجب له من صفاتِ الكمال، وما أُنزل إليكم أيها المسلمون من القرآن، وما أُنزل إليهم من التوراة والإنجيل ﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾ خاضعين لله بالطاعة خائفين منه، متذلّلين له ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يستبدلون بآيات الله عَرَضًا من أعراض الدنيا من مالٍ وجاهٍ، ولم يشتركوا مع قومهم في كتمان ما جاء في التوراة والإنجيل من المبشرات بقرب مجيء النبيّ محمد ووجوب الإيمان به واتّباعه، ولكن رؤساء أهل الكتاب حرَّفوا وبدَّلوا هذه المبشرات وفسَّروها على غير ما جاء به النبيّ محمد وادّعوها لغيره من الأنبياء حرصًا على ديمومة ما هم عليه من الرياسة والجاه على قومهم، وإنَّ ما ينتفعون به هو قليل لأنَّ مُتَعَ الحياة الدنيا فانية سريعة الزوال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أُولئك الذين لا يستبدلون بآيات الله ثمنًا قليلًا لهم أجرهم الجزيل عند ربهم ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فهو سبحانه سريع في إنجاز الحساب لعباده لا يُعجزه إحصاء أعمالهم ومحاسبتهم عليها لأنه القادر على كل شيء.

هذه الآية نزلت في من أسلم من أهل الكتاب: من أحبار اليهود ومن النصارى. أمّا أحبار اليهود فلم يبلغوا عشرة، وفيهم عبدالله بن سلام وزيد بن سعنة، وأما النَّصارى فقد أسلم منهم أربعون من أهل نجران، وثمانية من الروم، واثنان وثلاثون من الحبشة، ومن هؤلاء النجاشي ـ مَلِك الحبشة ـ وبعض علماء دينه، وقد جاء في الصحيح: أنّ النجاشي لمّا مات، نعاه النبيّ محمد ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فقوموا فصلّوا عليه» فقمنا فصفّنا صفّين[1].

وقد أثنى النبيّ محمدٌ على اليهود والنصارى الذين يُصدِّقون به ويتّبعونه فقال: «ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين، وذكر منهم: رَجُلٌ من أهل الكتاب آمَنَ بِنبيِّه ثم آمن بي...»[2] في هذا الحديث النبويّ إشادةٌ بأهل الكتاب وما يحصل لهم من الأجر العظيم إذا آمنوا بنبوَّةِ محمدٍ واتَّبعوا ما جاء به من الهدى. وأقول بإخلاص: ماذا يمنع اليهودي أو النصراني من الإقبال على دراسة الإسلام بتجرُّدٍ طَلَبًا للحقيقة ولا ينام على موروثاته التي ورثها عن آبائه وأجداده؟ وإذا اقتنع بنبوّة محمد وآمن به واتَّبعه نال الأجر مرتين من عند الله كما ذكر النبي محمد ﷺ ذلك.

ويختم الله هذه السورة بهذه الآية الجامعة لمعاني الخير والفلاح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالله سبحانه يخاطب المؤمنين بقوله ﴿اصْبِرُوا﴾ والصبر جماع الفضائل وهو ضبط النفس عن الانسياق لأهوائها وشهواتها الضارة وتحمّل النفس المكاره وشدائد الدنيا من الفقر والمرض راضية غير ساخطة، وتقبّل المصائب بصبر من دون جزع وانهيار للنفس، احتسابًا لوجه الله، ويقينًا بما أعدَّ اللهُ للصابرين

(١) أخرجه مسلم.
(٢) متفق عليه.

من الأجر الجزيل يوم القيامة، وكذلك الصبر على مشاقّ الطاعات بما أمر الله به وما نهى عنه، والصبر عند الغنى وما قد ينشأ عنه من بَطَرٍ وإسْرافٍ وفرح، والتزام لحدود الله وشكره من دون إيذاء الناس بالتفاخر عليهم والتكبّر. ومن الصبر تحمّل الفشل وآثار الهزيمة بدون يأسٍ، ومعاودة الجُهد للوصول إلى الهدف المرتجى. كما يأمر الله المؤمنين بقوله: ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي غالبوا أيها المؤمنون أعداءكم بالصبر على شدائد الحرب، ولا تكونوا أقلّ منهم صبرًا وثباتًا. كما أن المُصابرة تكون بتحمُّل المكاره الواقعة بين المؤمن وغيره كتحمّل الأخلاق الرديئة والأذى من أهله وجيرانه، وترك الانتقام منهم وعدم مقابلتهم بالمِثْل.

وأخيرًا يأمر الله المؤمنين بقوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾ وهي مُفاعلة من ربط، وهو ربط الخيل للحراسة في ثغر(١) من الثغور استعدادًا لِصَدِّ العدوّ عند الاعتداء على بلاد المسلمين. وليس بلازمٍ أن يكون الرباط بالخيل في كل زمان ومكان، وقد كانت الخيل قديمًا من أهمّ الوسائل التي يستعملها المحارب، بل المقصود رصد حركات العدوّ والتأهب لصدّه عند الاعتداء بكافة الأسلحة الحديثة أرْضًا وبحرًا وجَوًّا. وقد بيَّن رسول الله ﷺ ثواب المرابطة للدفاع عن ديار الإسلام، فقال: «رِباطُ يَوْمٍ في سَبيلِ اللهِ خَيْرٌ من الدُّنْيا وما عَلَيْها»(٢).

ومما يُذكَرُ في هذا المقام أنّ النبيَّ ﷺ شَبَّه المُداومة على أداء الصلاة بالرَّباط في سبيل الله فقال: «ألا أَدُلُّكُم على ما يَمْحو اللهُ به الخَطايا ويرفعُ الدّرجات»؟ قالوا: «بلى يا رسول الله»، قال: «إسْباغُ الوضوء على المكارِهِ(٣)»،

---

(١) الثغر: هو الموضع الذي يكون حدًّا فاصلًا بين بلاد المسلمين والكفار.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) إسباغ الوضوء على المكاره: المبالغة في إتمام الوضوء ولو صاحب ذلك مشقة ما.

وكثرةُ الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة إلى الصلاة، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط»[١].

ثم يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ واتقاء الله هو تجنب عذابه بالعمل بما أَمَرَ به والانتهاء عمّا نهى عنه. لقد دعا الله المسلمين إلى تقوى الله لعلهم يفوزوا في الدنيا بالحياة الطيبة وفي الآخرة بالثواب الحسن من الله.

هذا وقد ثبت في الصحيح مما رُوي عن النبي ﷺ أنّه كان يقرأ الآيات العشر من آخر سورة (آل عمران) إذا قام من الليل لتهجُّده، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: بِتُّ عند خالتي ميمونة[٢]، فتحدَّث رسول الله مع أهله ساعة ثم رقد، فلمّا كان ثلث الليل الآخر قَعَدَ، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وما بعدها من الآيات ثم قام فتوضأ واسْتَنَّ[٣]، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذَّن بلال فصلّى ركعتين ثم خرج فصلَّى بالناس الصبح[٤]، كما روي عن النبي ﷺ قوله: «ويلٌ لِمَنْ قرأ هذه الآياتِ ولم يتفكَّرْ فيها»[٥]، يقصد أواخر سورة آل عمران.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) ميمونة: هي زوج النبي ﷺ.
(٣) استَنَّ: نظّف أسنانه بالسواك.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه ابن حبّان في صحيحه.

كلمة شكر

في الختام أقدِّم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل، لِما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة العلّامة القاضي المستشار **الشيخ حسين يوسف غزال**

وإلى فضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ محمد شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير،

وإلى الأديبة الدكتورة **هدى رفيق سنو**

والدكتور **محمد عبد الرحمن المرعشلي**

اللذين أشرفا على تصحيح هذا التفسير قبل الطبع،

وأقدم شكري للأستاذ **توفيق حوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت على سعيه الدؤوب وتضحياته الجمة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضم أكثر من مائة ألف كتاب. هذه المكتبة التي قدّمت لي كثيرًا من المراجع في مسيرتي الطويلة في تفسير القرآن والكتب التي أنجزتها،

وإلى **موظفي مكتبة كلية الآداب** في الجامعة العربية لما بذلوه من جهد في إمدادي بالمراجع العلمية،

كما أقدّم شكري لسماحة الدكتور **أحمد اللدن** على تفضله بكتابة اسم هذه السورة بخطه الجميل، وهو من أميز الخطاطين الذين عرفهم لبنان، إضافة إلى منصبه في الإفتاء والقضاء،

وأخيرًا أخصّ بالشكر **شركة سامو پرس غروب** على ما بذلته من جهد وعناية في تنضيد أحرف هذا التفسير وإخراجه بهذه الصورة الجميلة التي تريح القراء،

سائلًا الله أن يوفقنا جميعًا لخدمة كتابه الكريم.

عفيف عبد الفتاح طبارة

المـراجـع

- جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.
- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.
- تفسير الكشاف للإمام محمود بن عمر الزمخشري.
- تفسير القرآن العظيم للإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير.
- تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي.
- تفسير القرآن العظيم للعلّامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي.
- تفسير اللباب في علوم القرآن للإمام عمر بن علي الحنبلي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية الأندلسي.
- حاشية محيي الدين شـيخ زاده على تفسـير البيضاوي لمحمد بن مصلح الدين القوجوي.
- صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ الأستاذ حسنين محمد مخلوف.
- تفسير كلمات القرآن للشيخ الأستاذ حسنين محمد مخلوف.
- التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي.
- زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة.

الفهـــرس

كـتب للمؤلـف

- **روح الدين الإسلامي** الطبعة الرابعة والثلاثون
- **مع الأنبياء في القرآن** الطبعة الرابعة والعشرون
- **روح الصلاة في الإسلام** الطبعة الثالثة والعشرون
- **الخطايا في نظر الإسلام** الطبعة الثانية عشرة
- **اليهود في القرآن** الطبعة الرابعة عشرة
- **الحكمة النبوية** الطبعة الرابعة
- **تعلم كيف تحج** الطبعة الثانية
- **THE SPIRT OF ISLAM**
- **الترجمة الإنجليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)**

صدر عن تفسير (روح القرآن) الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَـه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة النساء
- تفسير سورة آل عمران
- تفسير سورة البقرة

روح القرآن

تفسير سورة النساء

بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

978-9953-63-840-9 00531
9 789953 638409 9

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

قال محمد رسول الله ﷺ :

إنّ أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه

سُورَةُ النِّسَاءِ

روح القرآن

تفسير سورة النساء

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

الطبعة الأولى

نيسان 2011

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة النساء

للعلاّمة الشيخ حسين غزال

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على الذي أرسله الله رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

سورة النساء سورة مدنيّة أي نزلت بالمدينة المنوّرة، وسُمّيت بذلك لأن ما جاءَ فيها من أحكام تتعلق بالنساء أكثر مما جاء في غيرها من السُوَر كما أنها اهتمت بأمر النساء وكانت نصيرًا لهن في شتّى مرافق الحياة.

افتتحت هذه السُورة باستهلال بالغ التأثير، فقد نادى الله الناس جميعًا وأمرهم بتقواه، وحثّهم على امتثال أوامره وتجنّب معاصيه مذكّرًا إيّاهم بمبدأهم الأول وهو أنهم خُلقوا من آدم وحواء حيث تجمعهم صلة القرابة، وأنهم كالعائلة الواحدة، أبوهم واحد وأُمهم واحدة، ما يستدعي منهم التراحم ورعاية ذوي الأرحام.

وهذه السورة اعتنت باليتامى اعتناءً خاصًّا، فأمرت بالمحافظة على أموالهم والقيام بحقوقهم، وحذّرت من أكل أموالهم بالباطل حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [الآية: ١٠].

وهذه السورة اختصت بذكر أحكام المواريث وهي على جانب كبير من العدل فجعلت للنساء نصيبًا من الإرث: بنتًا، وزوجة، وأُمًّا، وأختًا، بينما كانت قبل الإسلام محرومة من الإرث، قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [الآية: ٧] وقد خصّ الله النساء بالذكر تأكيدًا على حقهنّ بالإرث. وهذه السورة هي الوحيدة التي اختصت ببيان الفرائض في المواريث وَذَكَرت أصحابها وشروط استحقاقها حتى لا يقع الناس في الخطأ[١]، ولأهمية هذا العلم يقول النبي محمد ﷺ: «تعلّموا الفرائض وعلّموها الناسَ فإنها نصف العلم».

وأباحت هذه السورة تعدد الزوجات وحددته بأربع كحدّ أقصى بعد أن كان عند العرب قبل الإسلام ليس له حد، ودعت السورة الزوج إلى العدل بين زوجاته، وفي حال الخوف من عدم العدل، وعدم القدرة على الإنفاق عليهن عليه أن يقتصر على زوجة واحدة كما قال الله تعالى ﴿.. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ...﴾ [الآية: ٣].

كما دعت هذه السورة إلى إنصاف المرأة ونبذ الظلم الذي درج عليه العرب قبل الإسلام في حقها حيث إنّ الرجل إذا توفي يكون ابنه الأكبر هو أحق بامرأته ينكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنها، أو يزوجها مَن شاء، أو يحبسها حتى تفتدي منه بالمهر الذي أخذته من زوجها، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ...﴾ [الآية: ١٩] ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٢٢].

---

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتابنا (الميراث على المذاهب الأربعة).

وهذه السورة رفعت الظلم عن الزوجة والإضرار بها، فكان بعض الأزواج يضيقون على زوجاتهم حتى تفتدي الزوجة نفسها بالمال الذي عندها، أو بالمهر الذي كانت قد أخذته من زوجها لتحصل على الفراق منه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[1] لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ١٩].

كما فتحت هذه السورة باب التوبة على مصراعيه، وإن التوبة يقبلها الله في حال الصحة، ولا تكون مقبولة عند حضور الموت وظهور أماراته.

ومن أسمى ما ذكرته هذه السورة حث الأزواج على معاشرة زوجاتهم بالمعروف وهو ما تستحسنه العقول ويدعو إليه شَرْعُ الله، وإذا كان بعض الأزواج يشعرون بالكراهية نحو زوجاتهم لسبب ما، فقد نصحت الآية التالية الأزواج بأن لا تكون كراهيتهم لزوجاتهم سببًا لفراقهن أو إساءة عشرتهن فلربما يحصل من هذه الكراهية خير كثير، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [الآية: ١٩].

كما ذَكَرَت هذه السورة المحرّمات مِنَ النساء اللاتي لا يجوز للرجل الزواج بهن من ذوي الأرحام كالأمّ التي أرضعته والأخت من الرضاعة، والجمع بين الأختين في الزواج بهن.

وهذه السورة بيّنت أن للرجال القوامة على النساء وذكرت أنواع التأديب التي يباح للزوج أن يأتي بها في حال ترفُّع زوجته عليه، أو عند سوء سلوكها معه وإهمال بيتها وأولادها، وهذه الأنواع من التأديب فيها الكثير من الرفق حيث تعالج نفسيّة المرأة وتمضي بها إلى إصلاح شأنها. وفي حال استفحال

(١) لا تعضلوهن: لا تضيقوا عليهن.

الخلاف بين الزوجين والوصول إلى حافة الطلاق دعت السورة إلى التحكيم بينهما بإرسال حكمٍ من أهله وحكم من أهلها للإصلاح بينهما لأنهما أدرى بأحوال الزوجين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [الآية: ٣٥].

والجدير بالذكر أن الآية أمرت ببعث الحكمين عند خوف حصول الخلاف قبل أن يحصل.

كما اعتنت هذه السورة بالضمان الاجتماعي وذلك بالإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجار القريب والبعيد والزوجة والصاحب الذي برفقتك والمسافر المنقطع عن بلده والمحتاج إلى المعونة.

وبيّنت هذه السورة أساس الحكم الإسلامي الذي يقوم على أمرين عظيمين وهما: أداء الأمانات إلى أهلها والعدل بين الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ...﴾ [الآية: ٥٨].

كما دعت هذه السورة المؤمنين إلى المبالغة في تطبيق العدل ولو كان ذلك يُصادم رغباتهم وفوائدهم الشخصية ومصالح أقرب الناس إليهم نسبًا قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ...﴾ [الآية: ١٣٥].

كما قررت هذه السورة استقلال المرأة وأنّ مسؤوليتها عن أعمالها مستقلة عن الرجل وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [الآية: ١٢٤] وهذا تكريم للمرأة لم تعرفه الشعوب قديمًا حيث كانت منبوذة من المجتمع.

وهـذه السـورة تعرّضت لقضية جرت على عهـد النبي محمد ﷺ حيث اتهم بالسـرقة يهودي وهو منها بريء والسـارق الحقيقي هو مسـلم، فحاول أهل المسـلم وعشـيرته تبرئته بأن صوّروا للنبي ﷺ الوضع على غير حقيقته فمـال النبـي ﷺ إلى تصديقهـم، فأطلع الله النبي محمدًا علـى حقيقة الأمر، ونـدّد بالذين دافعوا عن السـارق، ودعا المؤمنين إلـى الالتزام بالحق وعدم التحيز إلى أقاربهم وعشيرتهم ولو كان الخصم على غير دينهم.

وهـذه السـورة تنهى عـن الطعـن بالغير علنًا على مسـمع مـن الجميع واتهامـه بالسـيئ من الأفعال كمـا يحصل عند البعض الآن بواسـطة أجهزة الإعلام لأن ذلك يؤدي إلى سـوء العلاقة بين الناس، ولا يسـتقيم حال أُمة ينتشـر فيها مقالة السـوء والطعن بأعراض الناس والمسّ بكرامتهم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ...﴾ [الآية: ١٤٨].

وتحدثت السورة عن المنافقين الذي يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر ويثيرون الشـبه والأضاليل على الإسـلام، ويسـتغلون كل حادثة لمصالحهم الخاصة ويتخذون الكافرين أولياء لهم من دون المؤمنين.

كما تعرضت السـورة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ونددت باليهود ومخالفتهـم المسـتمرة لنبيهم موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ وجرائمهـم بقتل الأنبيـاء، وقولهم البهتـان على السـيدة مريم، وطالبـت النصارى أن لا يغلوا فـي دينهم قال الله تعالـى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ...﴾ [الآية: ١٧١].

هذا بعض ما تحتويه هذه السورة من أحكام ووصايا، وهناك جوانب أخرى ذكرتها السـورة تبيّن عظمة القرآن وسـموّ مبادئه لم نذكرها خوفًا

من التطويل بل ندعها للقارئ ليستمتع بها ويرى ما فيها من خير للناس جميعًا.

وفي خاتمة المطاف أدعوك أخي القارئ أن تجلس جلسة هادئة وتقرأ معي ما ورد في هذه السورة بأسلوب مؤلّفنا الباحث الإسلامي الشيخ عفيف طباره لتجد فيه سلاسة العبارة وسهولة الأسلوب، وتتراءى لك المعاني المعقدة البعيدة في مراميها كيف أصبحت بفضل المؤلف البارع دانية الظلال قريبة المنال. وأهمس في أذن قارئنا العزيز ما صارحني به مؤلفنا القدير أن يجعل الله عمله هذا خالصًا لوجهه الكريم وأن يمدّ الله في عمره لإتمام تفسير مجمل القرآن الذي فيه العبرة لأولي الألباب، وأن يمنّ الله عليه وعلينا بحسن الختام، وأن يحشرنا في زمرة خاتم الأنبياء رسول الله محمد ﷺ، ويدخلنا الجنة بسلام مع صحابته الكرام وحَسُن أولئك رفيقًا.

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا
الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ
إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

شرح المفردات

بَثّ: نشر وفرّق.

تساءلون به: يسأل بعضكم بعضًا بالله، فتقولوا: أسألك بالله.

الأرحام: الأقارب الذين تربطهم بالإنسان صلة النسب.

رقيبًا: مراقبًا أعمالكم.

الخبيث: الحرام أو الرديء.

بالطيب: بالحلال أو الجيّد.

حُوبًا: إثمًا وذنبًا.

وحدة الجنس البشري تقتضي تواصلهم وتراحمهم

يستهلّ الله هذه السورة بهذه الآية البليغة التي مطلعها الدعوة إلى تقوى الله، مبيّنة وحدة الجنس البشري مع الوصية بالإحسان إلى الأقارب، قال الله تعالى:

﴿**يا أَيُّها ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ**﴾ وجَّه الله الخطاب للناس جميعًا لأن الإسلام دين عالمي وليس خاصًّا بمجتمع إقليمي خاص، لقد أمرهم الله بأن يتقوه لأنه ربهم أي مالكهم وسيّدهم ومصلح أمرهم، واتقاء الله هو أن يتجنب الإنسان عذابه وذلك بالعمل بما أمر به والامتناع عما نهى عنه ﴿**ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ**﴾ فالله سبحانه خلق الجنس البشري من نفس واحدة هي آدم، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «**الناسُ بنو آدمَ وآدمُ من تراب**»[(١)].

﴿**وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها**﴾ أي وخلق الله سبحانه من هذه النفس الواحدة زوجها وهي حواء، والزوج في كلام العرب يطلق على الزوج والزوجة، والمراد هنا الزوجة امرأة الرجل. وقد روي أنه لمّا خلق الله آدم عليه السلام ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن المرأة خُلقت من ضلع فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها»[(٢)] وهذا يُشعر بأن طبيعة المرأة من طبيعة الرجل وأنها ليست من جنس دونه رتبة، وأنها ليست رمز غواية وعنوان شرٍّ وأداة من أدوات الشيطان كما كانت تعتقد بعض الشعوب القديمة، فالمرأة مساوية للرجل في نظر القرآن لأنها خلقت منه ﴿**وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالًا كَثِيرًا ونِسَاءً**﴾ البثُّ: النَّشْرُ والتفريق، أي نَشَرَ اللهُ وفرَّق من آدم وحواء بالتناسل رجالًا كثيرًا ونساء كثيرات حيث انتشروا شعوبًا وأُمَمًا في الأرض. والتعبير بالبثّ يُفيد أن البشر مهما تباعدت ديارهم واختلفت لغاتهم وألْوانهم وأشكالهم عليهم أن يدركوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه الإمام مسلم.

أنهم ينتمون إلى أصلٍ واحدٍ وهذا يقتضي تراحمهم وتعاطفهم وعدم الاقتتال بينهم ﴿وَٱتَّقُوا اللهَ﴾ كرَّر الله الأمر بتقواه لغرس مهابته سبحانه في النفس وعدم عصيانه ﴿ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ تساءلون: أصلها تتساءلون فحُذفت إحدى التَّاءين تخفيفًا، أي اتقوا الله الذي تُعاهِدون وتتحالفون به فيقول أحدكم أسألكَ باللهِ، وأُنشدك بالله أن تفعل كذا ﴿وَٱلأَرْحَامَ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة ـ الله ـ أي واتقوا الله واتقوا قطع الأرحام، أو بمعنى: واتقوا الله في الأرحام فَصِلُوها. والأرحام: تُطلق على الأقارب الذين تربطهم بالإنسان صلة النسب سواء كانوا يرثونه أم لا. وصلة الرحم تكون ببذل المال للمحتاجين منهم، وبالعون لهم عند الحاجة، وبدفع الضرر عنهم إذا وقع بهم ضرٌّ، وإيصال ما أمكن من الخير لهم عند العوز.

وقد حثّ النبي ﷺ على صلة الأرحام بقوله في الحديث القدسي: «قال الله ﷻ: أنا الرحمنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وشَقَقْتُ لها اسمًا من اسمي فمَن وَصَلَها وَصَلْتُهُ ومَن قَطَعَهَا قَطَعْتُه»(١).

ويقول النبي ﷺ أيضًا: «لا يدخلُ الجنةَ قاطعُ رَحِمٍ»(٢).

﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي أنه سبحانه عليكم حفيظ مُحْصٍ عليكم أعمالكم، وهذا وعيد لكل من يخالف أمر الله ويعصيه ويقطع صلة رحمه.

وقد ذكر الله ﷻ رقابته على عباده مؤكدة بأوثق التوكيد، فأكدها بـ(إنّ) وبالتعبير بـ(كان) الدَّالَّة على الاستمرار والدوام، وبذكر الفوقية بلفظ (عليكم) التي تدلّ على الاطّلاع الدائم مع السيطرة، وأخيرًا بلفظ (رقيبًا) وهي صيغة مبالغة من رَقَبَ يرقب، أي أنه سبحانه شديد المراقبة لجميع أقوالكم وأعمالكم.

---

(١) أخرجه الترمذي والإمام أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

ثم ينتقل القرآن إلى التوصية باليتامى بقوله سبحانه:

﴿وَآتُوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ واليتيم هو الصغير الذي مات أبوه وهو صغير لم يبلغ سنّ الرشد بعد، والخطاب هنا موجّه إلى كل من له ولاية أو وصاية على يتيم فردًا كان أو جماعة، والمراد بإعطائهم أموالهم أن يحافظوا عليها ولا ينفقوها ولا يتعرضوا لها بسوء حتى يسلموها لليتامى عند سنّ البلوغ والرشد كاملة.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي ولا تستبدلوا الرديء من أموالكم بالجيّد من أموال اليتامى، فقد كان بعض الأوصياء من العرب يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويضع بدلًا منها شاة هزيلة ويفعلون في غير ذلك من المقتنيات ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلَى أَمْوالِكُمْ﴾ هنا نَهْيٌ للأوصياء أن يَضمُّوا أموال اليتامى إلى أموالهم فيأكلوها جميعًا ويسوّوا بينهما في الانتفاع، كما أنّ ضمّ مال اليتيم إلى مال الوصيّ قد يُؤَدِّي إلى ضياعه، إذ يُخشى أن يموت الوصيّ ولا يُعرف مال اليتيم من ماله فيؤدّي ذلك إلى اختلاطهما وعدم التمييز بينهما، وبالتالي إلى ضياع مال اليتيم ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ والحُوبُ: معناه الإثم، فأكل مال اليتيم، وتبديل الخبيث بالطيّب هو إثم عظيم لأنه اعتداء على ضعيف وخيانة للأمانة التي وكّلهم الله بها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

شرح المفردات

أَلّا: أصلها (أن) و(لا) النافية فأُدغمت أن في اللام للتخفيف.

تُقْسِطوا: تعدلوا.

فأنكِحوا: أي تزوجوا بعقد الزواج.

ما طاب: ما مالت إليه نفوسكم.

ملكت أَيْمانكم: هن الإماء.

أَلّا تَعُولوا: أن لا تجوروا وتظلموا.

وآتوا: وأعطوا.

صَدُقاتِهِنَّ: جمع صَدُقَةَ بضم الدال وهي المهر.

نِحْلَةً: عطيّةً على سبيل التبرع عن طيب نفس.

هنيئًا مريئًا: طيبًا محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم في الآخرة.

أحكام تعدد الزوجات

وبعد أن حذَّر القرآن من أكل مال اليتامى ظُلمًا واعتبره إثمًا عظيمًا، انتقل إلى الكلام عن تعدد الزوجات وما يجب في حقهن من العَدْل، قال الله تعالى:

﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ**﴾ تُقْسِطوا: تعدلوا، والخطاب هنا موجَّهٌ إلى الأوصياء الذين يتولَّون أُمور اليتامى ويرغبون في الزواج منهن، أي إذا خفتم أيها الأولياء من أن لا تعدلوا إذا تزوجتم من اليتامى كأن لا تعطوهنَّ المهر اللائق بهنَّ أو لا تعاشروهنَّ المعاشرة الكريمة ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ فتزوجوا غيرهن من النساء ممن هنَّ حلال لكم اثنتين أو ثلاثًا أو أَربعًا ممّن تميل إليهن نفوسكم وتستطيبه.

وقد روي في تفسير الآية عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة ﵂ عن

هـذه الآيـة فقالـت: «يا أبـن أُختي هـي اليتيمة في حِجْـرِ[١] وليّها تُشـركه في مالـه ويعجبـه مالهـا وجمالها فيريد وليّهـا أن يتزوجها من غير أن يُقْسِـطَ في صداقهـا[٢] فيعطيها مثل مـا يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلّا أن يُقْسِـطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سُنّتهن من الصداق»[٣] والسُّنَّة: الطريقة والسيرة.

وهناك تفسير آخر ذكره المفسرون وهو: وإن خفتم أن لا تُقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك خافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم فلا تتزوجوا منهن إلاّ ما أمنتم معه الجوْر[٤] مثنىٰ وثلاث ورباع...

فالإسلام أباح للمسلم أن يجمع بين أربع زوجات ولا يزيد على ذلك، فقـد روي أن النبـي ﷺ قال لِغَيْلان بن أُمَيَّة الثقفي حين أسـلم وتحته عشـر نسوة: «اختر منهن أربعًا، وفارق سائرهن»[٥].

وقال الإمام مالك والشـافعي في الذي يتزوج خامسة وعنده أربع: عليه الحدُّ[٦] إن كان عالمًا.

وقد قيَّد الإسـلام إباحة تعدد الزوجـات بالقدرة على العدل بينهن، قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ والمراد بالخَوْفِ: العلم وتوقُّع مكروه أي إن خِفتـم أنكم لن تعدلوا بيـن الزوجات في حال تعددكم لهن فاقتصروا على زوجة واحدة. والخوف من عدم العَدْل هو حالة وجدانية يشعر بها المرء

---

(١) حِجْر: كنف وحماية.

(٢) صداقها: مهرها.

(٣) هذا ما جاء في الصحيحين.

(٤) الجوْر: الظلم.

(٥) أخرجه أبو داود.

(٦) الحدّ: عقوبة مقدَّرة على الجاني.

إذا تدبَّر أمره، وعرف مدى قدرته وطاقته وظروف حياته، فعندئذٍ يستطيع الحكم على نفسه وتقدير أمره تقديرًا صحيحًا فيمتنع عن تعدد الزوجات إن علم في نفسه قصورًا أو جورًا في حقهنَّ، أو عدم قدرة على الإنفاق عليهن.

والعدل المطلوب هو العدل الظاهر بالتسوية بينهن في المطعم والمَلْبَس والمسكن والمبيت، فلا يبيت عند واحدة أكثر من غيرها إلَّا بإذنها أمّا العَدْلُ في المحبة القلبية فهو غير ممكن وغير مطلوب. وكان النبيُّ ﷺ يُسَوِّي بين أزواجه فيما عدا المحبة القلبية، وكان يقول عند قسْمه بين أزواجه: «اللهم هذا قِسْمِي[1] فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[2].

وقد نفى الله إمكان العَدْل بقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ[3]...﴾ [النساء: ١٢٩]، قيل في تفسير ذلك: إنَّ العَدْل المطلوب هو العدل الظاهر والمساواة في المعاملة، والعدل المنفي هو المساواة في المحبة القلبية.

﴿**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ**﴾ تُطلق على الرَّقيق من عَبْدٍ أو أَمَةٍ، أي إن خفتم أن لا تعدلوا في الزواج من واحدة من النِّساء الحرائر فأنكحوا ما تملكون من الإماء[4] ﴿**ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا**﴾ أي ذلك أقرب ألّا تَجُوروا، وفُسِّرت

(١) القِسْمُ: النصيب والحظ.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) فتذروها كالمُعَلَّقةِ: أي فتتركوها، لا هي مطلقة ولا هي ذات زوج.

(٤) كان الرق شائعًا في زمن نشوء الإسلام، فدعا الإسلام إلى تحرير الأرقاء من الأسر، وجعل ذلك من أهم القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، كما جعل الإسلام للأرقّاء حصة من مال الزكاة تُصرف على تحريرهم. ويفعل المسلم بعض المحظورات فيكون تكفيره عن ذلك تحرير رقيق فيما يملك. وقد أباح الإسلام للرجل وطء ما يملك من الإماء وفي ذلك صيانة لهن من البغاء وصيانة لأسيادهن من الزنا، وإذا ولدت الأمة حررها وليدها من الرق وأصبحت حرة وتُسَمَّى أُمَّ وَلَد.

بمعنى: ذلك أقرب ألاّ تكثر عيالكم، وهذا ما فسَّره الشافعي، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وإعالتهم قد تفضي به إلى الخروج عن حدود الوَرَعِ في كسب الحلال من الرزق، وبالأخص إنْ كان من أصحاب الدخل المحدود.

ضرورات لتعدد الزوجات

من المطاعن التي وُجِّهت نحو الإسلام السماح بتعدد الزوجات، والحق أنَّ تعدد الزوجات كان موجودًا عند أغلب الشرائع والأدْيان. والعرب قبل الإسلام كانوا يكثرون من تعدد الزوجات فجاء الإسلام وجعل للتعدّد حدًّا لا يتعداه.

والعالم الغربي اليوم الذي لا يسمح بتعدد الزوجات، يمارس أفراده اتخاذ الخليلات بجانب زوجاتهم، وهؤلاء الخليلات لا يخرجن عن طبقة المتاجرات بأجسادهنَّ، المحرومات من جميع الحقوق الزوجية من النَّفَقَة والإرْث. فأيّ الأمرين أجْدى للمرأة؟ أن تُصبح زوجة ثانية لرجل تستطيع أن تُطالبه عن طريق المحاكم بِنَفَقَتِها ونفقة أولادها منه، ويكون لها الحق في الإرْث منه إذا مات، أو أن تُصبح في عداد النسوة الساقطات ليس لهن أي حق إذا أراد الرجل الانفصال عنهن؟

وهناك مبررات لتعدد الزوجات ترجع إلى خصائص الطبيعة الإنسانية أو إلى ضرورات المعيشة الاجتماعية، فالخصائص الطبيعية الإنسانية تدلُّ على ذلك، فقد ظهر من إحصاءات الأُمم أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أوقات السِّلْم فضلًا عن أوقات الحرب التي تأكل شباب الأُمَّة. فطبيعة المرأة بحاجة إلى استيفاء حاجاتها الجنسية وتعدُّد الزوجات أهمّ علاجٍ لذلك، وإذا لم يُبَحْ تعدد الزوجات فستنتشر شرور الدعارة أكثر فأكثر، وهذا ما نشاهده في أكثر بقاع العالم.

وهناك مبررات تفرضها ضرورات المعيشة الاجتماعية وهي أن المرأة قد تُصاب بِمَرضٍ عُضال أو بِعقم، أو تذهب عنها جميع المغريات الجنسية، أو

يـرى الرجـل أن المرأة الواحدة لا تكفي لإحصانـه لأن طبيعته تدفعه إلى كثرة معاطاة الجنس وامرأته من النساء اللاتي تغلب عليهن البُرودة الجنسية، أو لأنه يضطر إلى الامتناع عنها قَسْرًا أيام الحيض والولادة، أو تكون امرأته عاقرًا.

يقـول الشـيخ نديـم الجسـر مفتـي طرابلـس السـابق رَحِمَهُ اللَّهُ: «هـذا الـزوج المسـكين ماذا نفعل بـه؟ إننا حين نحرمه من حق التزوج بامرأة ثانية سـنضعه أمـام ثلاثـة حلول كل حلّ منهـا أقْبح من الآخر، فإما أن يَرْضىٰ بهذه التعاسـة التـي نزلـت به من جـراء حرمانه من اللـذة والهناء ونعمـة الأولاد، وهذا ضد الحق والخير وضد الفطرة، وإمّا أن يسعى إلى إشباع لذّاته الجنسية عن طريق الزنـا وهذا ضد الحق وضد الخيـر الخاص والعام، وإمّا أن يتجرد من الرحمة وينسى المودة والوفاء فيطلّق تلك الزوجة العاقر أو المريضة المسكينة التي لا ذنب لها، وقد تكون بلا معيل ليستطيع أن يتزوج بأُخرى سواها، فأيُّ حَلٍّ من هـذه الحلول يختاره المفكر المنصف؟ ألَيْسَ من الخير أن نلجأ إلى حَلٍّ رابع ونسـمح لهـذا الزوج أن يقف عند حقه في الحيـاة وعند غريزته الطبيعية وعند واجب الود والوفاء والرحمة فيُبقي تلك الزوجة الأولى معززة مُكَرَّمة في بيت الزوجية ويتزوج بأخرى زواجًا شريفًا مثمرًا لكل خيراته موفرًا لكل لذاته...؟».

المهر من حقوق الزوجة

وبعـد أن بيَّـن اللهُ في الآية السـابقة ما يجب على الـزوج من العَدْل بين الزوجتيـن أو الزوجـات بيَّن الله في الآية التالية ما يجب على الزوج لزوجته من حقوق، قال الله تعالى:

﴿وَآتُوا النِّسَـاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ والصَدُقات: جمع صَدُقة بضم الدال وهي ما يعطيه الزوج لزوجته من المهر والمسمى الصداق. والنِّحْلَة معناها: عطاء بطيب نفس، والمهر واجب في كل زواج.

والخطاب في الآية للأزواج وأولياء النساء، وقد كان العرب لا يحترمون حق ملكية الزوجات لمهورهنَّ، فوليُّها إذا قبض مهرها نيابةً عنها لا يُعطيها إياه فأمر الله سبحانه أولياء النساء بدفع مهورهنّ لهنَّ، كما طالب الزوج بإعطاء الزوجة مهرها، وأن يكون هذا العطاء بطيب نفس، ولهذا صار المهر رُكْنًا من أركان الزواج في الإسلام كما هو في مذهب مالك ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا**﴾ أي إنْ طابت نفس الزوجة بإعطاء زوجها شيئًا من هذا المهر فلا مانع له من أخذه والانتفاع منه بشرط أن يكون ذٰلك من غير إكراه ولا خديعة ولا لجوء إلى سوء العشرة وأن تتوافر للزوجة الحرية الكاملة. وإذا طلب منها زوجها شيئًا من المهر فحملها الخجل والخوف منه على إعطائه ما طلب فلا يحلّ له أخذه، والنص القرآني يشير إلى أن مسامحة الزوجة ينبغي أن تكون ببعض المهر وليس بكله، ولذا قال الله تعالى عن المهر: ﴿**مِنْهُ**﴾ ومِنْ للتَّبْعيض أي عن بعضه ﴿**فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا**﴾ والمراد بالأكل هنا هو أخذ المهر، والهنيء هو الطعام السائغ، والمريء ما يحمد عاقبته، أي يُباح للأزواج أخذ بعض المهر أخذًا لا ضرر ولا تبعة عليهم فيه وهو حلال لهم خالص من الشوائب.

وإن تشريع إعطاء مهر للزوجة هو أول اعتراف لها بحق الملكية لمالها تتصرف فيه كما تشاء بما هي مقبلة عليه من تأسيس أُسرة زوجية، وهذا المهر يُدخل السعادة إلى قلبها من حيث تشعر بأنها مطلوبة مرغوب فيها من الزوج، وقد جعل الله المهر على الزوج تحقيقًا لهذه الغاية التي هي تكريم للمرأة وإعزاز لها، وذلك ما لا يوجد في بعض المجتمعات في العالم التي تفرض على الزوجة أن تدفع مالًا لبناء حياتها الزوجية بما يسمى (الدوطة) فهذا الوضع بأن يُفْرَضَ على المرأة مال لتأسيس الأُسرة دون الرجل وهي أضعف منه على المكافحة في الحياة هو قَلْبٌ للعدالة كما أنه مُنافٍ للوضع الطبيعي للمرأة.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

شرح المفردات

السُّفهاء: جمع سفيه، وهو الخفيف العقل، الجاهل الذي لا يُحسن التصرف في ماله.

قِيامًا: ما تقوم به أُموركم وتصلح به شؤونكم المعيشية.

قَوْلًا معروفًا: قولًا تطيب به نفوسهم وتستبشر.

وأبْتلوا اليتامى: الابتلاء: الاختبار، أي اختبروهم في عقولهم وإدراكهم وحفظ أموالهم.

بلغوا النكاح: وصلوا إلى سنّ البُلوغ.

آنَسْتُم: أبْصرتم وتبيّنتم.

رُشْدًا: سدادًا وحُسن تصرف في المال.

بِدارًا أن يكبروا: ولا تُسارعوا في إنفاق أموال اليتامى حَذَرًا أن يكبروا فيلزمكم تسليم المال إليهم.

فَلْيَسْتَعْفِفْ: أي أن يعفَّ عن مال اليتيم ويمتنع عن أكله.

بالمعروف: ما يُعرف بالعَقل والشرع حُسنه.

حسيبًا: مُحاسبًا للمحسنين والمسيئين.

الحَجْرُ[١] على أموال السفهاء وحفظ مال اليتيم

ثـم ينتقل القرآن إلى دعوة المؤمنين إلـى المحافظة على الأموال العامة والحجر على مال كل سفيه قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ والسُّفهاء: هُم الذين لا يُحسنون تدبير الأموال إمّا لنقص عقولهم، وإما لسوء تدبيرهم.

والمخاطبـون بهـذه الآية هم أولياء اليتامى لأن سياق الآيات يدلُّ على ذٰلـك، فهنا نهـي لأولياء اليتامى عن إيتاء السُّفهاء من اليتامـى أموالهم بعد بلوغهم سـن الرشـد ـ وهم في حالة السَّـفَهِ ـ خشـية إسـاءتهم التصرف في أموالهـم، كمـا أن الخطاب فـي الآية لمجموع الأُمَّة، فهو نَهْـيٌ لها عن إيتاء السـفيه مالـه ليتصرف فيه كما يشـاء، ولهذا ذهب جمهـور الفقهاء إلى لزوم الحَجْـر علـى كل مـن كان سـفيهًا أو طـرأ عليه السَّـفَهُ، ويُنفَق على السـفيه المحجور عليه من ماله وكذا يُنفَق على من تلزمه نفقته.

والغاية من الحجر على السفهاء هي المحافظة على الأموال العامة وهو ما أشارت إليه الآية: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾**.

والملفـت للنظر أن الله سـبحانه لم يقـل: «ولا تؤتوا السـفهاء أموالهم» بـل قـال: **﴿أَمْوَالَكُـمُ﴾** ليلفت أنظار المسـلمين إلى أنّ مال السَّـفيه هو في الوقت نفسـه مال الأُمّة فيجب المحافظة عليه وعدم إعطائه للسـفيه لأنه إذا بَـدَّده أصبح فقيرًا وبالتالي أصبح عالة على المجتمع، فالتضامن الاجتماعي

---

(١) الحَجْرُ: المنع من التصرُّف.

يقضي بأن نعتبر مال السفيه مالَ مجموع الأُمة فيجب المحافظة عليه، فليس لأحدٍ أن يقول: المالُ الذي في حوزتي هو مالي وحدي لا ينتفع به سواي فالمال مال الجميع والمال مال الله كما جاء في القرآن ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، فالمالُ يَنتفع به الجميع من الطريق الذي شرعه الله لعباده.

ثم بيَّن الله الغاية من المحافظة على الأموال العامة بقوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي أن الأموال جعلها الله لتقوم بها معايشكم وتُبنى عليها مصالحكم فهي قوام الحياة الاقتصادية وعمادها. وهذا المبدأ الاقتصادي الذي جاء به القرآن وجرى تطبيقه في الدولة الإسلامية في كثير من العهود يفوق في عدالته كل النظريات الاقتصادية التي طالعنا به علماء الاقتصاد في العالم.

وبعد أن نهى الله عن إيتاء المال للسفهاء أمر الأَوْصياء عليهم بقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيها واكْسُوهُمْ﴾ أي اجعلوا أموال السفهاء مصدرًا للإنْفاق عليهم لطعامهم وكسوتهم، والملاحظ أن الله سبحانه قال: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ولم يقل: «وارزقوهم منها» للإشارة إلى أنَّ الرزق لا يُقتطَع من أموال السفهاء بل على الأوصياء أن يتَّجروا فيها ويستثمروها ليربحوا فيها وعندها تكون النفقة عليهم من الأرْباح لا من رأس المال وبهذا لا يأكلها الإنفاق ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ والقول المعروف هو كل ما سكنت إليه النفس وأَحَبَّته لِحُسْنه عقلًا وشرعًا، كأن يقول الأوصياء لهم قولًا غير منكر وغير مضعِف لشخصيتهم ولا مُذِلٍّ لهم بل يَنصحونهم ويرغّبونهم في ترك التبذير والإسراف الذي يؤدّي إلى الفقر، أو يقولون لهم: المالُ مالُكم وما نحن إلا خَزَنَةٌ عليه نحفظه لكم من الضياع، وعندما تعرفون قيمة المال ونشعر أنكم تحافظون عليه نُسلِّمه لكم.

فالقول الجميل للسفهاء له أثره الطيب في نفوسهم، ويفعل فعله الحسن بترشيدهم وإعادتهم إلى جادّة الصواب.

ثم يخاطب الله الأوصياء على اليتامى بقوله:

﴿وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ﴾ أي اختبروا اليتامى قبل بلوغهم سن الرُّشْد من حيث قدرتهم على التصرف بأموالهم بدون إسراف أو تبذير، وذلك بأن تدفعوا إليهم شيئًا من مالهم يتيح لهم التصرف فيه، وبأن يظهروا مهارة في حفظ أموالهم وإدارتها وتنميتها ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ﴾ حتى إذا وصلوا إلى سِنِّ الزواج ويُعرف ذلك بالبلوغ عند الذكور ويكون بالاحتلام وهو إنزال المنيّ الدافق، وعند الإناث بالحيض[(١)]، كما يُعرف البلوغ ببلوغ الفتى أو الفتاة سِنًّا معيّنة فيرى الشافعية والحنابلة وأبو يوسف ومحمد من الحنفية أن البلوغ بالسن يكون بتمام خمس عشرة سنة قمرية للذكور والإناث، ويرى المالكية أن البلوغ يكون ببلوغهما ثماني عشرة سنة، ويرى أبو حنيفة أن البلوغ بالسنِّ للغلام هو بلوغه ثماني عشرة سنة والفتاة سبع عشرة سنة.

﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ فإن أبصرتم ورأيتم فيهم صلاحًا في العقل وحُسن تصرف في المال وعدم التبذير به ووضعه في مواضعه ﴿فَٱدْفَعُوا إِلَيْهِم أَمْوَالَهُمْ﴾ أي بعد البلوغ وإيناس الرشد منهم. وجاءت صيغة الرشد بصيغة النَّكِرة ﴿رُشْدًا﴾ للإشارة إلى أنه لا يُطلب من الصغير الرشدُ الكامل بمجرد البلوغ بل يُكتفى منه بنوع من استئناس الرشد وتوقع الخير منه، لأن الرشد الكامل لا يكون إلّا بمزيد من الممارسة.

وظاهر مفهوم الآية أن أموال اليتامى لا تُدفع إليهم إلّا إذا بلغوا راشدين، فإذا بلغ اليتيم غير راشد فلا يُسلَّم له ماله عند جمهور الفقهاء ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ بِدارًا: المُبادرة هي الإسراع إلى الشيء، فهنا ينهى الله الأوصياء على اليتامى عن أكل أموال اليتامى في مُدَّةِ الوصاية عليهم مسرِفين في الإنفاق من أموالهم ومسرعين ومتعجّلين أكلَها مخافةَ أن

---

(١) كما أن الحمل علامة على بلوغ الأُنثى.

يكبر اليتامى، فتؤخذ أموال اليتامى من الأوصياء وتؤول إلى أصحابها وتُنْزَعُ الوصاية عنهم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ فالله يُرشد الأوصياء الأغنياء الذين يقومون برعاية اليتيم أن يتحرَّوا العفاف فلا يأخذوا شيئًا من مال اليتيم الذي يدبرونه ويشغلونه ولتكن رعايتهم له من غير أجْرٍ احتسابًا لرضى الله، وكلمة ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أبلغ من العفاف لأنه تحرِّي العفاف وبلوغ أقصى غاياته كما ذهب إلى ذلك الزمخشري في تفسيره ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وإذا كان الوصيّ فقيرًا فقد أذن الله له أن يأخذ من مال اليتيم أجْرًا على وصايته له ورعاية أمواله، ولكن بالمعروف أي بالقدر الذي تقتضيه حاجته الضرورية وبدل أتعابه، بما لا ينكره الشرع وأصحاب العقول السليمة.

ومن العلماء من يرى أنّ للوصيّ أن يأخذ من مال اليتيم ما يحتاج إليه قرضًا، ثم إذا أَيْسَرَ قضاه، وإن مات ولم يقدر على قضائه بأن كان معسرًا فلا شيء عليه.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي فإذا دفعتم ـ أيها الأوصياء ـ لليتامى أموالهم بعد بلوغهم سن الرشد، فأحضروا شهودًا يشهدون بأن اليتامى قد تسلَّموا أموالهم وفي ذلك إبراء للذمة وهو أنفى للريبة. والإشهاد لا يتم بمجرد أن الوصيّ يسلِّم اليتيم مبلغًا من المال أو بعض الممتلكات، ومن أين للشهود أن يعلموا بأن هذا المال هو كل ماله وأن هذه الممتلكات هي كل ما يملك!

وإنما يتم ذلك بأن يقدم الوصيّ حسابًا عن المدخول لممتلكات اليتيم والمبالغ التي أنفقها عليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي وكفى بالله مُحاسبًا وشاهِدًا ورقيبًا على الأوْصياء، وكأن المعنى: حاسبوا أنفسكم ـ أيها الأوصياء ـ فقدِّموا الحساب عن مال اليتيم بصدقٍ وأمانةٍ واحذروا من أكل مال اليتيم ظُلمًا، فإنكم إن أفلَتُّم من حساب الدنيا فلن تُفلتوا من عقاب الله في الآخرة.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾
وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ
عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ
نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

شرح المفردات

نَصيبًا: النصيب هو الحصة من الشيء والقسم منه.

مفروضًا: بيّنها اللهُ وقدَّرها وألزم بها.

القِسْمَة: التَّركة.

فأرْزقوهم منه: أعطوهم شيئًا من المال من هذه التركة.

مِنْ خَلْفِهم: من بعد موتهم.

سَديدًا: صوابًا.

سَيَصْلَوْنَ سعيرًا: سيقاسون حرّ نار جهنم الموقدة.

تخصيص الأقارب واليتامى والمساكين بقسم من الميراث

ولمّا ذكر الله تعالى أمر اليتامى وما يجب على الأوصياء نحوهم من الرعاية شرع بذكر المواريث التي يستحقها اليتامى وغيرهم من أقاربهم الأقرب فالأقرب، ولا ريب أن من أهم التشريعات التي تظهر فيها عظمة الإسلام المواريث التي تقوم على العدالة المطلقة، وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام لا يورثون النساء والأطفال ويقولون: لا يرث إلا من قاتل على ظهور الخيل وطاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز بالغنيمة، فجاء الإسلام مبيّنًا أن الإرْث غير مختصّ بالرجال بل هو أمر مشترك بين الرجال والنساء والأطفال واليتامى، قال الله تعالى:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ ذكر الله سبحانه حق الميراث فذكره أولًا للرجال، ثم ذكر سبحانه حق الميراث ثانيًا للنساء ليبيِّن أن حق المرأة مستقلٌّ عن حق الرجل حتى لا يتوهَّم أحد أنّ حقها تابع لحقّه ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي لكلٍّ من الصنفين ـ الرجال والنساء ـ نصيب من التركة سواء كانت قليلة أو كثيرة ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي حقًّا معيّنًا مقطوعًا به لا سبيل إلى الهوادة فيه ولا يستأثر به بعضهم دون بعض بل تجب مراعاته وتحرم مخالفته، وتقديم القليل على الكثير في الآية للتنبيه على وجوب دخول القليل في الميراث للمستحقين له لأنه مظنّة التهاون به.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ﴾ القِسْمَةُ: المراد بها التركة التي تُقسم بين الوَرَثة، والمراد بذوي القُربىٰ هنا: الأقارب الذين لا ميراث لهم من التركة، والمعنى: وإذا حضر قسمة الميراث أصحاب القرابة ممن لا حق لهم بالميراث وحضرها اليتامى والمساكين. وليس المراد من حضورهم أن يكونوا مشاهدين لتوزيع التركة على المستحقين لها لأن

قسمة الأموال على الورثة لا تكون عادة في حضرة هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين، وإنما المراد العلم بها من مقسِّمي التركة أو من طريق آخر.

﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي فأعطوا هؤلاء الأقارب الذين لا يرثون واليتامى والمساكين شيئًا من مال التركة تطيب به نفوسهم، وتجبر خاطرهم، وتدفع عنهم ما يُساورهم من الحسد لهؤلاء الوَرَثة.

﴿وقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو الكلام الجميل الذي ليس فيه مَنٌّ عليهم ولا يخدش كرامتهم، بأن يلطفوا لهم القول ويعتذروا إليهم إذا كان في العطاء لهم قِلَّة.

ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية التي نحن بصددها منسوخة بآية الميراث، وقال البعض الآخر: إن هذه الآية واجبة على أهل الميراث الذين يرثون ولكن تهاون الناس في العمل بها. وذهب جمهور من الفقهاء إلى أنّ هذا الإعْطاء لهم على سبيل الاستحباب إذ لو كان واجبًا لجرى تحديده.

وهكذا نرى في هذا التوجيه القرآني مدى التكافل الاجتماعي الذي يحرص القرآن على بثِّه في قلوب المسلمين لتكون قلوبهم دائمًا مع من هم بحاجة إلى المعونة والإحسان، وأن يتنازلوا لهم عن قسم ضئيل من الميراث الذي ورثوه بدون كدٍّ ولا تعب.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ﴾ في هذه الآية يأمر الله الأوصياء على اليتامى أن يخافوا ربهم ويتقوه في رعاية اليتامى فلا يظلموهم، وأنهم في حال الإساءة إليهم وظلمهم لهم فليخشوا موقفًا قد يكون فيه أولادهم صغارًا يتامى يخافون عليهم من أن يولّى عليهم أشخاص مجرَّدون من العاطفة يعاملونهم بقسوة وعنف، فكما يتملكهم الخوف على صغارهم من أن يكون وليّهم قاسيًا غليظ القلب

فليتَّقِ الله إذن هـؤلاء الأوصياء وليعاملوا اليتامى الذين في عُهدتهم باللطف والرِّعاية والحنان. إضافةً إلى ذلك ﴿**وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾ والقول السديد هو القول الجميل الذي فيه الحب والحنان بما يُنْسيهم فَقْدهم لوالديهم.

ثـم يختـم الله الوصيـة باليتامى بأبلغ خطـاب فيه التهديـد والوعيد لمن يسيئون إليهم ويستولون على أموالهم:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا**﴾ عبَّر الله عن الاستيلاء على مال اليتيـم بالأكل لأنه الغاية المتوخاة منه، وأكثر ما ينتفع به الإنسـان من المال هـو الأكل. وَوَصْـفُ أخـذ مال اليتيم بالظلم هو تشـنيع وذمّ للآكلين له لأن اليتامى هم بحاجةٍ إلى مزيد من العناية والكرامة لضعفهم وحاجتهم إلى من يرعاهم ﴿**إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾ يرى بعض المفسـرين أن الآكلين لمال اليتامى ظُلْمًا سيأْكُلون النار يوم القيامة حقيقة، وأن المراد إنما يأكلون فـي بطونهم المـال الحرام الذي يفضي بهـم إلى عذاب النار ﴿**وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ ويقاسون حرّ جهنم الموقدة.

ويُلاحـظ أنه ورد فيما سـبق سِـتّ آيات في الدعوة إلـى الاعتناء باليتيم وحُسـن رعايته والمحافظة على ماله مما يُشعر بأن ضعفه وعجزه عن القيام بمصالحه يستدعي رعاية المجتمع له.

وإنّ عدم رعاية اليتيم والاسـتيلاء على أمواله الموروثة سـيفجّر في قلبه الحِقْد والكراهية مسـتقبلًا للذين أساءوا إليه وبالأحرى على المجتمع الذي لم يهتمّ به، وقد يجنح إلى السرقة والإجْرام مقابل ما أجْرم في حقه.

تمهيد لنظام الميراث في الإسلام

نظام الميراث الذي شرعه القرآن هو أعْدل نظام للتوريث في كل قوانين العالـم، وقـد اعتـرف بذلك كل علمـاء القانون فـي أُوروبا وهـو دليل على

أن القــرآن مــن عنـد الله فمن أين لرجل أُمِّـيّ لا يقرأ ولا يكتـب ـ وهو نبيُّ الإسلام ـ الذي لـم يدخل الجامعات ولـم يتتلمذ على أساتذة القانون أن يأتي بهذا التشريع العادل في الميراث، الذي قال عنه الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب:

«... ومبادئ المواريث التي نصَّ عليها القرآن على جانب عظيم من العَدْلِ والإنْصاف... والشريعة الإسلامية منحت الزوجات ـ اللواتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف ـ حقوقًا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا»[1].

والجديـر بالذكـر أن الميـراث الـذي بيَّنه القرآن ليس لـه مثيل ولـم يكن معروفًا عند الفرس ولا عند الرومان في العصر الذي نزل فيه القرآن ولا في أي شريعةٍ قبله حتى يقال إن الميراث الإسلامي مقتبس عن الشرائع قبله.

والقرآن وسَّـع دائرة الانتفاع بالثروات على أكبر عدد ممكن، فكل أبناء المتوفى من ذكور وإناث كبارًا وصغارًا لهم حق في الميراث بعكس القانون الإنكليزي مثلًا الذي كان يقضي بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكْبَر ثم عُدِّل هذا القانون أخيرًا وجعل الميراث لكل أبناء المتوفى.

والميراث في الإسلام إجباريٌّ للورثة الذين عيّنهم القرآن لا يتصرف فيه المورِّث حسب أهْوائه ولا يحق له الوصية إلا بثلث ماله فقط كحدٍّ أقصى، والثلثان هما من حق الورثة.

والنظام الإسـلامي قسَّـم الوارثين إلى طبقتين: الأُولى هي طبقة الأولاد والآبـاء والأزواج، والثانيـة هي طبقة الإخوة والأخـوات، وجميع من ذُكروا فـي الطبقة الأولى هم الوارثون المباشـرون، أما مـن ذكروا في الطبقة الثانية فلا يرثون إلا إذا انعدمت الطبقة الأُولى أو معظمها، كما سيأتي تفصيله.

(١) نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص٤١٦.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾

شرح المفردات

يُوصيكم: يأمركم ويفرض عليكم.

حَظٌّ: نصيبٌ.

ميراث الأولاد

في هذه الآية والآية التي تليها يُبيّن الله من يستحق الميراث تفصيلًا، وكذلك هناك آية ثالثة تتحدث عن الميراث خُتمت بها هذه السورة.

هذه الآيات الثلاث تُبيّن أحكام المواريث عامةً إضافة إلى الأحاديث الشريفة التي وردت عن رسول الله ﷺ مما هو تفسير وتوضيح لذلك، وما اتصل بذلك من مبادئ في المواريث استنبطها الفقهاء.

ويُطلق على علم الميراث: علم الفرائض، وقد ورد عن النبي ﷺ الدعوة إلى تعلّمه فقال: «تَعَلَّموا الفرائضَ وعَلِّموها الناسَ فإنه نصف العلم، وهو أول شيء يُنسى، وأوّل شيء يُنتزَع من أُمَّتي»[١].

وفي أسباب نزول الآية الأُولى من الميراث ما روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: «جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتِلَ أبوهما معك في أُحُد شهيدًا، وإنّ عمَّهما أخذ مالَهما فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا تُنكَحان إلّا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...﴾ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما فقال له: أعطِ ابنتَي سعد الثُّلُثَيْن، وأُمَّهما الثُّمُن، وما بقيَ فهو لكَ»[٢].

يقول الله تعالى في مستهلّ هذه الآية:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الوَلَدُ: يُطلق على الذَّكَر والأُنثى. والحظ: هو النصيب. والمعنى: يأمركم الله في أولادكم أمرًا مؤكدًا في شأن ميراث أولادكم من بعد موتكم أن يكون نصيب الذكر منهم في الميراث مثل نصيب الأُنثيين. وبعبارة أوضح: أنه إذا مات الميت وترك أولادًا ذُكورًا وإناثًا، كان للذكر مثل نصيب اثنتين من الإناث.

وعبَّر القرآن بلفظ الذكر والأنثى دون الرجال والنساء ليبيّن تساوي الكبار والصغار من الفريقين في استحقاقهم للميراث من غير دخل للعمر في ذلك خلافًا لما كان عليه العرب فقد كانوا لا يورثون الأطفال والنساء.

وبعض القوانين المدنية يُسوي بين الذكر والأنثى في الميراث ويعيب

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) أخرجه البخاري.

مُشرِّعوها على الإسلام أنه يُفَرِّق بين الذَّكَر والأُنثى في الميراث، فيجعل حصة الرجل ضعف حصة الأنثى، نقول لهؤلاء: إن الإسلام أعطى للرجل حق الرياسة في الأُسرة وجعل عليه في مقابل ذلك كل النفقات المالية، فالرجل هو الذي يبذل لزوجته مهرها، وهو الواجب عليه أن يُنفق عليها جميع نفقاتها، ونفقات أولادها منه من طعام وشراب وكسوة ومسكن ولو كانت غنية، كما أن على الرجل واجبات نحو أقاربه إذا كانوا فقراء وفي مقدمهم والداه بخلاف المرأة فإنها لا يَتَوجَّب عليها ذلك. أمام هذا كله لا مجال لأن يُقال إن الإسلام بَخَسَ حق المرأة، إذ ليس من العَدْل أن تكون المرأة معفاة من كل نفقة على هذا الوجه وأن يكون نصيبها من الميراث مساويًا لنصيب الرجل!

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي فإن كان الأولاد إناثًا لا ذكر معهن وكان عددهن أكثر من اثنتين فلهن ثُلثا التَّرِكَة مهما بلغ عددهن، والنص القرآني لم يبيّن إذا ترك الميت بنتين ولكن يُفهم من آية أُخرى أن نصيب البنتين هو الثلثان أيضًا قياسًا على نصيب الأُختين لأن الله قال في توريث الأخوات: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ .. ففي الأخوات نصّ القرآن على أن نصيب الأُخْتَيْن الثُّلُثان، فمن باب أولى أن يكون نصيب البنتين الثلثين لأنهما أقوى قرابةً من الأخوات وأجدر بالرعاية.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي إنْ تَرَكَ الميت بنتًا واحدة: لا أخ لها ولا أُخت فلها نصف الميراث، والنصف الآخر يأخذه باقي الوَرَثة حسب حصصهم في الميراث.

هذا توريث الأولاد وإليكم بعض الإيضاحات حول ذلك:

أولًا: إن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكورًا وإناثًا يتمّ بعد أن يأخذ الأبوان وأحد الزوجين حصصهم.

ثانيًا: إن الأولاد يطلقون على كل فروع الشخص من صلبه وهم أبناؤه وبناته وأبناء أبنائه وبنات أبنائه دون أبناء وبنات البنت لأنهم ليسوا من أولاده بل هم من ذوي الأرحام يأتي إرثهم متأخرًا عن العصبات(١) وأصحاب الفروض(٢).

ثالثًا: الفروع وهم طبقتان: الطبقة الأولى تشمل الأبناء والبنات، والطبقة الثانية تشمل أبناء الابن وبنات الابن، فإذا لم يوجد أحد من الطبقة الأولى فإن الطبقة الثانية تحلُّ محلّها بكل التفاصيل. وإذا كانت الطبقة الثانية خليطًا من أبناء ابن وبنات ابن فللذكر ضعف نصيب الأنثى وإن كانت بنت ابن واحدة فلها النصف، وإن تعددت بنات الابن ولم يكن معهن ابن ابن فلهن الثلثان.

ونقتصر على ذلك، ومن أراد الإيضاح واستزادة المعرفة في حقوق الورثة فليرجع إلى كتاب (الميراث على المذاهب الأربعة) للعلّامة القاضي حسين غزال فهو من أوفى الكتب في هذا الموضوع.

ميراث الأب والأُم

وبعد أن بيّن القرآن حصص الأولاد ذُكورًا وإناثًا شرع في بيان ميراث الأب والأُم:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ والمراد بالأَبَوَيْن: الأَب والأُم، أي إذا ترك الميت أبويه وولدًا ذكرًا أو أُنثى، فلأبيه السدُس ولِأُمه السدُس والباقي يُعطى للأولاد على ما تقدّم في بيان حصصهم.

(١) العصبات: جمع عاصب والمراد بهم هنا قرابة الإنسان الذكور من جهة أبيه وتشمل الأصول والفروع.

(٢) أصحاب الفروض: هم كل من له سهم مقدَّر من الميراث نص عليه القرآن أو سُنَّة رسوله محمد ﷺ.

فمثلًا: إن مات رجل وترك ابنًا وأبَوَيْن، فلأبويه لكل واحدٍ منهما السُّدُس وما بقي من المال فللابن. وإن ترك ابنة وأبَوَيْن فللابنة النصف وللأَبَوَيْن السُّدُسان وما بقي وهو السدس فلأقرب عصبة وهو الأب ﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ**﴾ أي إذا مات الميت ولم يترك ولدًا ذكَرًا كان أو أُنثى، وورثه أَبوه وأُمه، أخذت أُمُّه ثلث التَّرِكَة والباقي للأب وهو الثلثان، لِأَنَّ الميراث انحصر فيهما ﴿**فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ**﴾ أي إن كان للميت إخوة سواء كانوا من الأب والأُم أو من الأب فقط، أو من الأُم فقط ذكورًا كانوا أو إناثًا أو مختلطين ففي هذه الحالة يكون لِأُمّ الميت سُدُس التركة والباقي للأب ولا ميراث للإخوة لحجبهم بالأب. أما إذا كان للميت أخ واحد أو أخت واحدة فلا تُحجب الأُم من الثلث إلى السدس بل يبقى لها الثلث، والثلثان للأب.

﴿**مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ أي أنّ تقسيم الميراث على نحو ما تقدّم: للأولاد والأَبَوَيْن لا يكون إلا بعد أداء وصية يكون الميت قد أوصى بها قبل موته ـ والوصية لا تكون إلا في حدود الثلث، ولا تنعقد في أكثر من ذلك إلا إذا وافق الورثة. كما أن الوصية لا تجوز لوارث، وكذلك الميراث لا يُقسم على الورثة إلا بعد أمرين، أولًا: سداد ديْن كان على المورِّث قبل موته، ثانيًا: تنفيذ الوصية على ما سبق ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا**﴾ أي أن آباءكم وأبناءكم الذين خصّهم الله بهذا الميراث لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا في دنياكم فعليكم أن تلتزموا تنفيذ قسمة الميراث كما قسمها الله لكم، ولا يصحّ أن تحكِّموا أهواءكم في أموالكم بعد وفاتكم فتخالفوا ما شرعه الله لكم ﴿**فَرِيضَةً مِنَ اللهِ**﴾ أي فرض الله ذلك الميراث على عباده وقدَّره تقديرًا مُلزِمًا فليس لأحدٍ أن يخالف قسمة الله ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ فالله سبحانه يعلم ما به الصلاح لِخلْقه، لذا فرض الميراث على هذا النحو وهو حكيم فيما يشرّعه من الشرائع التي فيها الخير للفرد والجماعة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ
فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ
إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ
ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ
وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ
فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ
شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ
مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ
ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

كَلالَةً: من لا والد له ولا ولد.

غيرَ مُضارٍّ: غير مدخل الضرر على الورثة.

حُدود اللهِ: أحكام الله وفرائضه في الميراث.

ميراث الأزواج والزوجات

وبعد أن بيّن الله سبحانه ميراث الأولاد والأب والأم شرع في بيان ميراث الأزْواج والزوجات قال الله تعالى:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي ولكم أيُّها الأزْواج نصف ما ترك نساؤكم بعد وفاتهن من أموال إن لم يكن لَهُنَّ أولاد مِنهُنَّ مباشرة أو من أصلاب بنيهنّ أو بني بنيهنّ... إلخ ذكورًا كانوا أو إناثًا، منكم أو من أزواج آخرين، والباقي بعد النصف الذي استحقه الزوج يعطى لذوي الفروض والعصبات الذين لهم حق ميراث الزوجات ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾[1] أي فإن تركت الزوجة ولدًا على نحو ما سبق كان لزوجها ربع ما تركت من مال.

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي يأخذ الزوج نصف مالها تارةً والرُّبُع تارةً أُخرى حسب التفصيل السابق بعد تنفيذ وصية الزوجة إن كان لها وصية وقضاء دَيْنها إن كان عليها دَيْن. وإن كانت التركة تكفي الدَّيْن وحده قُدِّمَ الدَّيْنُ على الوصِيَّة.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أي ولزوجاتكم الرُّبُع مما تركتم بعد وفاتكم

(١) المتأمل في آيات المواريث يجد أن الله سبحانه قد ميّز الوالدين عن الزوجين في الإرث فأعطى الزوجة الربع إن لم يكن للزوج ولد وأعطاها الثمن إن كان له ولد على حين أعطى لكلٍّ من الأُم والأب السدس إن كان للمتوفى ولد، وفي حال عدم وجود الولد أعطى الأب الثلثين وأعطى الأُم الثلث. إن هذا الموقف القرآني من تمييز الوالدين في الإرث على الزوجة يشعرنا بأنه يجب أن ينعكس ذلك على معاملة الوالدين في الحياة وأنه ينبغي تمييز الوالدين على الزوجة في الرعاية والعناية والعطاء. أين ذلك مما نراه الآن من انصراف الأزواج نحو زوجاتهم يغدقون عليهن العطاء وبالمقابل يقتّرون على والديهم؟ أما سمعوا قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فقد قرن الله الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله للحث على البرّ بهما.

من مال والباقي لورثتكم ﴿إِن لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ منهن أو من زوجة سواها ذكرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي فإن ترك الأزْواج بعد وفاتهم وَلَدًا على النحو المذكور ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ أي عند وجود الولد يكون للزوجات ثُمُنُ المال الذي تركه أزواجهن ويكون المال الباقي لبقية الوَرَثة.

ويكون الربع أو الثمن للزوجة إذا انفردت، وفي حال تعدد الزوجات يقسم الربع أو الثمن بينهن بالسوية ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وتكون حصة الزوجة بعد تنفيذ وصية الزوج ووفاء دَيْنِه إن كان عليه دَيْنٌ ويدخل في الدَّيْن مهر الزوجة ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ والكلالَةُ: مَن ليس له ولد ولا والد فإذا مات ورثه غيرهما، كالإخوة، والكلالة: مأخوذة مَن الكلال وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بُعد وإعياء.

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ والمراد بالإخوة والأخوات هنا الإخوة والأخوات لِأُمّ، ويؤيده قراءة للقرآن لسعد بن أبي وقاص (وَلَهُ أَخٌ أو أُختٌ مِنْ أُمّ) ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي لكلٍّ من الأخ أو الأخت لأُم السدس ﴿فإنْ كانُوا أكْثَرَ مِن ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلُثِ﴾ فإن كان الإخوة والأخوات لِأُمّ أكثر من واحد فهم شركاء في ثُلُث التَّرِكة يقتسمونه فيما بينهم بالسوية بين ذكورهم وإناثهم كما يفهم من كلمة (شركاء)[1] والباقي من المال الموروث يقسّم بين أصحاب الفروض والعصبات من الورثة.

هذا وقد ذكر ميراث الإخوة مرتين: هنا مرة، ومرة أخرى في آخر آية من

(١) وميراث الإخوة لأمّ مشروط بعدم وجود من يحجبهم وهم ستة: الأصل الوارث ويشمل الأب والجد، والفرع الوارث ويشمل أربعة: الابن وابن الابن والبنت وبنت الابن.

هـذه السـورة وهي قوله تعالـى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ...﴾ [النساء: ١٧٦].

فقد جعل الله سبحانه في الآية التي نحن بصددها للأُخت لأمٍّ السُّدُس، وجعـل فـي الآية التـي في آخر السـورة للأُخت النصف، فوجـب أن يُحمَل الأخوات في آخر السورة على الشقيقات والأخواتِ لأب.

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي يأخذ الـوارث نصيبه بعد تنفيـذ الوصيـة التي أوصى بها المتوفى من رجـل أو امرأة وبعد أداء ديون المـورث ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي غيـر جالب لورثته الضرر بعـد موته بالزيادة علـى الثلـث في الوصيـة، أو يقرّ لشـخصٍ بِدَيْنٍ ليس عليـه منعًا للميراث عن الورثة، أو يقرّ بأنّ الدَّيْنَ الذي كان له على غيره قد استوفاه مع أنه لم يحصل شـيء من ذلك ﴿وصِيَّةً مِنَ اللهِ﴾ أي وصية كائنة من الله لا يجب التفريط بها.

﴿واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي أنه سـبحانه عليـم بجميع أحوالكـم ونيّاتكم حسـنة كانـت أو سـيئة فيجزيكـم عليها، وهو حليـم لا يعجِّـل بعقوبته على المخالفين أمره لعلهم يتوبون ويؤدون الحقوق لأصحابها[١].

---

(١) تعقيبًا على ما ورد في الدَّيْن والوصية نُشير إلى أن الترتيب في تقسيم التركة يكون كما يلي:
١ ـ تجهيز الميت.
٢ ـ أداء الدَّيْن.
٣ ـ الوصية في حدود الثُّلُث أي ثُلُث الباقي بعد التجهيز والدَّيْن.
٤ ـ يأتي دور الورثة.
فلـو كانت التركة ألْف دولار وكان التجهيز /٢٠٠/ وكان الدين /٢٠٠/ فيبقى /٦٠٠/ فإذا أوصى بالثلث نأخذه من الـ /٦٠٠/ وهو يساوي /٢٠٠/ فيبقى للورثة /٤٠٠/.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ تلك الأحكام المذكورة في بيان المواريث وما سبقها من أحكام هي شرائع الله التي حددها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدُّوها ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ ومن يطع الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي يُدْخله الله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين في الجنة أبدًا لا يموتون فيها ولا يُخرَجون منها ﴿وذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وذلك هو الفلاح العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ ومن يعصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعدَّ حُدود ما شرعه سبحانه مستبيحًا ذلك التعدِّي ﴿يُدْخِلْهُ نارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ يكون جزاؤه دخول جهنم ليعذب بنارها، ماكِثًا فيها أبدًا ﴿وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ وله فوق عذاب الحريق الجسماني عذاب روحاني مُذِلّ لا يعرف كنهه إلا الله.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

شرح المفردات

الفاحشة: الزِّنا وقد يراد بها السحاق.

فأَمْسِكُوهُنَّ في البيوت: احْبسوهنَّ في البيوت.

عقاب الذين يزاولون الفواحش

وبعد أن وزّع القرآن الميراث على أَفراد الأُسـرة توزيعًا عادلًا حذَّر من اقتـراف الفواحـش وبيَّنَ العقوبة علـى من يقترفها لتقوم الأُسـرة على الطهر والعفاف وفي هذا سلامة المجتمع من تفشي الرذيلة فيه، قال تعالى:

﴿**والَّلاتِي يَأْتِينَ ٱلفَاحِشَةَ مِن نِسائِكُمْ**﴾ اللاتي: جمع التي، والفاحشة: هي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وكثيرًا ما أَطلق القُرآن اسـم الفاحشـة على الزنا وهي المراد هنا. والمعنى: والنساء اللاتي يفعلن فاحشة الزنى من زوجاتكم ـ أيها المسلمون ـ أو من إناثكم سواء أكنَّ ثَيِّبات أم أبكارًا ﴿**فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ**﴾ أي اطلبوا أن يشهد عليهن أربعة منكم. والاتهام بالزنا أشدّ أنواع الإجرام الذي تُرمى به المرأة والرجل، وكثيرات من النساء كنَّ ضحية لشائعات كاذبة ترتّب عليها خراب البيوت، لذا تُشـدِّد الآية في إثبات جريمة الزنا فقررت أن يكـون إثباته بشـهادة أربعة من الرجـال العدول وأن تكون الشـهادة بالمُعاينة والرؤيـة الواضحـة لا بالسـماع، ولـذا قال بعـد ذلك: ﴿**فَـإِنْ شَـهِدُوا**﴾ أي إذا ذكروا أنهم عايَنوا وشهدوا ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ**﴾ والإمساك في البيوت لا يقتصر معناه على الحبس والتضييق المجرد، بل إنّ معناه أيضًا الحفظ والصيانة والرعاية، كما يتضمن معنى الإرشاد والتوجيه. وفي حبسهن في البيوت محافظة عليهن ودَفْعٌ للفساد والشر، وقد كان الحبس في البيوت في صدر الإسلام فلمّا كثر الجناة اتخذوا لهم سـجنًا ﴿**حَتَّـى يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلمَوْتُ**﴾ أي حتى يُنهي الموت حياتهـن ﴿**أَوْ يَجْعَـلَ اللَّـهُ لَهُنَّ سَبِيلًا**﴾ أو يجعل الله لهنَّ طريقًا آخر لعقوبتهن على اقتراف جريمة الزنا، وبعدها يفتح الله لهنَّ طريقًا للحياة المستقيمة بالزواج والتوبـة ﴿**وَاللَّـذَانِ يَأْتِيانِها مِنكُـمْ**﴾ أي والرجل والمرأة اللذان يرتكبان فاحشـة الزنا ﴿**فَـآذُوهُمَا**﴾ بالتقريع والتوبيخ والزَّجْر الشديد ليندما على ما فعلا وليرتدع سـواهما بهمـا والأذى يكـون لهما باللسـان بأن يقال لهما: بئس مـا فعلتما! أما خفتم من الله؟ أما استحييتم منه؟ كما يكون الأذى باليد.

وإنما خص الإسلام النساء بعقوبة الحبس دون الرجال لأن الرجل هو العائل لأُسرته فلو حبس حتى يموت لكان في ذلك ضياع واسع لأسرته لأن الرجل مطلوب منه الكدح والعمل لنفقته ونفقة من يعوله.

وقد بقيت عقوبة الزنا على النحو السابق: الإيذاء للرجال والنساء والحبس للنساء خاصة حتى الموت حتى يجعل الله لهن سبيلًا الذي وعد به وهذا ما جاء في سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ ﴾ [النور: ١]، كما جاء عن النبي ﷺ قوله: «خُذُوا عني، خُذُوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْد مائة وتغريب عام، والثَّيِّبُ بالثيب جلد مائة والرجم»[١].

وقد نُسخ جَلد الثيِّب بما فعله النبيّ ﷺ فقد رجم ماعز بن مالك الأسلمي ورجم الغامديّة وكانا ثَيِّبَيْنِ[٢] ولم يجلدهما.

كما أن التَّغْريب يكون للرجل ولا تُغرَّب المرأة في رأي المالكية لأنها إذا غُرِّبت ربما يكون ذلك سببًا لوقوعها فيما أُخرجت بسببه وهو الفاحشة.

وهناك تفسير آخر لما مضى من الآيات وهو ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني[٣] بما نقله عن مجاهد[٤] حيث يقول: والمراد بقوله تعالى: ﴿وٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلفَاحِشَةَ مِن نِسائِكُمْ﴾ هم من يتعاطون المِثْليَّة الجِنْسيَّة (السحاق)، والمرأة التي تستمتع بالمرأة الأُخرى عقوبتها التعزيز، وهي عقوبة يقدّرها القاضي بما يردع الجانية ويزجرها عما هي فيه ويصلحها، وقد اتفق

---

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السُنن.

(٢) الثيّب: من ليس ببكر ويطلق على الرجل والمرأة اللذين سبق لهما الزواج والمجامعة بينهما.

(٣) أبو مسلم الأصفهاني: كان عالمًا بالتفسير.

(٤) مجاهد: وهو مفسر للقرآن من أهل مكة قيل عنه إنه شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس وهو من التابعين الذين جاءوا بعد أصحاب النبي ﷺ.

الفقهاء على أنه لا حدّ[١] في السحاق. والمراد بقوله تعالى ﴿**واللّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما**﴾ واللّذان: تثنية الذي، وهم الذين يتعاطون اللواط، وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّ عقوبة اللائط عقوبة الزاني فيرجم المحصن (أي المتزوج) ويجلد غيره ويغرّب لأنه زنًا.

وبعد أن بيّن القُرآن عقوبة الزاني والزانية عقّب على ذلك بقوله: ﴿**فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا**﴾ فإن ندم الزانيان ورجعا عمّا فعلا من الفاحشة وأصلحا نفسيهما وأصلحا أعمالهما فهذا دليل على توبتهما الصادقة ﴿**فَأَعْرِضُوا عَنْهُما**﴾ والإعراض ليس المراد منه التعيير والتشهير بل المراد بأن لا يُذْكرا بجريمتهما بل يعاملان معاملة الأَطْهار والأبْرار ﴿**إنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾ وتوّاب: من صيغ المبالغة أي أن الله عظيم التوبة على عباده واسع الرحمة بهم.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

شرح المفردات

بِجَهالَةٍ: يرتكبون المعصية جهلًا بما تؤدي إليه من عقوبة.

أَعْتَدْنا: هيّأنا وأعْدَدْنا.

(١) الحدّ في اصطلاح الشرع عقوبة مقدّرة وجبت على الجاني.

أحكام التوبة

وبعد أن ذكر القرآن فيما سبق أن التائبين عن فعل الفواحش يَقبل الله توبتهم بَيَّن في الآيتين التاليتين حقيقة التوبة وكيفية التعاطي معها لتكون مقبولة عند الله، يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ أي إنما قبول التوبة ثابت ومتحقق على الله تفضلًا منه، والتوبة في الشرع[1]: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزم على ترك معاودته. وتاب الله عليه معناه: عاد الله عليه بالمغفرة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ والسُّوء هنا يعمّ الكفر والمعاصي، والجهالة: يطلق معناها على السفاهة التي هي خفة الإنسان في تصرفاته، وفعله الأشياء على غير وجهها، وتأتي الجهالة بمعنى الجهل الذي هو الخلوّ من العلم، أو علم الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وقد يقترف الإنسان المعصية في حال غفوة ضميره وضعفه النفسي وذلك من غير إدراك للعواقب.

وقد قال سبحانه إخبارًا عن يوسف عليه السلام عندما حاولت النسوة استمالته إليهن ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والسبب في إطلاق اسم الجاهل على العاصي لربه هو أنه لو كان على عِلْمٍ بالثواب والعقاب من الله لَما أقدم على المعصية.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ثم يتوبون في صحتهم قبل مرضهم وقبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يتوبون في وقت قريب من وقت عمل السوء بحيث لا يسترسلون في المعاصي ويستمرون عليها، وهؤلاء ممن قال الله فيهم:

---

(١) الشرع: أي ما شرعه الله.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي الحديث الشريف عن النبيّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبة العبد ما لم يُغرغِرْ»(١) (أي ما لم تتردد الروح في الحلقوم).

ثم تُبيّن الآية مصير الذين يتوبون قبل حضور الموت:

﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أُولئك الموصوفون بأنهم يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب قبل أن تظهر أسباب الموت وأماراته عليهم، هؤلاء يقبل الله توبتهم تفضُّلًا منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولا يزال عليمًا بخلقه يحيط علمه بكل شيء، فيعلم الصادق في توبته من الكاذب، عظيم الحكمة في تدبير كل الأمور، ومن حكمته أنه فتح باب التوبة للعصاة لتغيير سلوكهم من الشر إلى الخير.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي لا تكون التوبة صحيحة ولا مقبولة للذين يعملون السيئات ويستمرون عليها حتى الموت. وتأمَّل كيف جاءت السيئات هنا بصيغة الجمع إشعارًا بأن الله لا يقبل توبة مَن كان شأنُهم أن يكرروا الذنوب ويُنوّعوها. وشتَّان بين من يقترف الذنب مرة دون إصرارٍ عليه، ومن يكون صدور السيئات ملكة عنده وعادة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وحضور الموت هو تحقق وقوعه واليأس من الحياة ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ أي أن توبة هؤلاء لا يقبلها الله لأنها جاءت وقت اليأس من الحياة، لأن التوبة المقبولة هي التي تكون وقت الأمل في الحياة مع الرغبة الصادقة في إصلاح النفس والعمل الصالح.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

ويضرب القُرآن مثلًا من هذا القبيل توبة فرعون، وهو الكافر بالله، الظالم لشعبه حين أعلن توبته عند غرقِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ولكن الله رفض توبته حينئذٍ بقوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي ولا يقبل الله توبة الكفار إذا ماتوا على كفرهم ﴿أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابًا أَلِيمًا﴾ أي أُولَئِكَ أعددنا وهيأنا لهم عذابًا مؤلمًا موجعًا يوم القيامة. والملاحَظ أن الله فرَّق بين العصاة في التسمية، فسمّى أحد الصنفين بالكفار، ووصف الصنف الآخر بأنهم أهل السيئات، وقد منع الله المغفرة على من مات على كفره حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وأرجأ سبحانه العُصاة من أهل التوحيد إلى مشيئته حيث قال بعد تتمة الآية السابقة: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨] فإذا كانت المعصية دون الإشراك بالله فإنها قابلة للمغفرة بمشيئة الله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾

شرح المفردات

ولا تَعْضُلُوهُنَّ: تمنعوهن من الزواج.

لِتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن: ليفتدين ببعض مهورهن.

قِنطارًا: المراد به المال الكثير.

أفضى: أفضى الرجل إلى امرأته باشرها وجامعها.

ميثاقًا غليظًا: عَهْدًا شديدًا.

المحافظة على حقوق المرأة

وبعد الكلام عن الميراث وحقوق الورثة انتقل القرآن إلى إصلاح ما كان عليه العرب قبل الإسلام من ظلم واستبداد بحق المرأة حيث جعلوا المرأة كالمتاع الموروث ليس لها رأي، ولا حرية بالتصرف بمالها، وليس لها الحق باختيار الزوج، فقد كان من عادة العرب في الجاهلية أنه إذا مات الرجل كان ورثته أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها.

وكان الرجل في الجاهلية إذا ماتَ وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال: ورثتُ امرأتَهُ كما ورثتُ مالَهُ، فصار أحق بها من سائر الناس ومن نفسها فإن شاء تزوجها بغير مهر إلا المهر الذي أعطاه لها الميت، وإن شاء زوّجها من إنسانٍ وأخذ مهرها ولم يعطها منه شيئًا.

أمام هذا الظلم بحق المرأة نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا ٱلنِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي لا يحلُّ لكم أيها المؤمنون أن تَرِثوا من أقاربكم زوجاتهم بعد وفاتهم كما تُورث الأموال والعقارات وهن كارهات لذلك أو مُكرهات عليه **﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ﴾** العضل: المنع والحبس والتضييق. والخطاب هنا للأزواج فقد كان الرجل منهم إذا كره زوجته وأراد مفارقتها نبذها وأساء

عشـرتها وضيّق عليها حتى تَفْتَديَ نفسـها ويفوز زوجها بشـيء من المهر أو غيـر ذلـك مما أعطاه لها. ونحن نشـاهد فـي عصرنا الحاضر آثـارًا من هذه الصفـات المنكَرة، فنرى البعض إذا كره زوجته ضيَّق عليها وأسـاء عشـرتها لتفتديَ نفسـها منـه بإبرائه من مؤخَّر مهرها، ومنهم مـن يطلب المال الكثير مقابل طلاقها وهذا ظلم لا يرضاه الله **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾** استثنت الآيـة مـن ذلك صدور فاحشـة مبيِّنة أي واضحة وأباحت بهذا الاسـتثناء أن يضيّـق الرجل على امرأته حتى تفتديَ نفسـها بمـال ليفارقها كأن تتنازل عن مهرها المؤخَّر مثلًا، والفاحشة المبيِّنة فَسَّرها العلماء بالزنا والنشوز، ونشوز المـرأة لزوجهـا بُغضها له والترفع عن طاعته ويشـمل ذلك البذاءة والفحش فـي القـول والعمل، فإذا آذت المرأة زوجها إيذاء شـديدًا فقد أتت بفاحشـة مبيِّنة، وإذا أسـاءت إلى أُمِّهِ إسـاءةً بليغة بدون مبرر فقد أتت بفاحشـة مبيِّنة، وكذلك إذا سرقت من ماله أو بذَّرته تبذيرًا بدون مسوِّغ فقد أساءت عشرته.

﴿وَعَاشِـرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعاشـرة هي المخالطة والمصاحبة وأن تكون بالمعروف، وهي ما أمر به الإسلام وارتضاه العقل من الأفعال الحميدة والأقوال الحسـنة **﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْـرًا كَثِيـرًا﴾** ثم يُبيِّن الله سـبحانه للرجـال أنه في حال كراهيتهم لنسـائهم لسـبب من الأسـباب لا يصحّ لهم أن يهدموا حياتهم الزوجية فلربما يكون في هذه الكراهية الخير الكثير الذي لا يعلمونه.

يقول الإمام محمد أبو زهرة تعليقًا على هذا النصّ القرآني وما يتوجب على الزوج تجاه زوجته التي يكرهها:

أولها: أن ينظر الزوج إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها لا من ناحية واحدة منها وهي البغض والحب، فينظر إلى مصلحة أولاده وإلى نظام بيته، وإلى محاسنها بدل أن ينظر إلى مساويها.

وثانيها: أن يفكر الزوج في من يعقبها: أهي خير منها أم لا؟

وثالثها: أن ينظر في شأن العلاقة بعين العقل والمصلحة المشتركة لا بعين الهوى المسيطر الجامح.

ورابعها: وهو أعظمها أن ينظر إلى المسألة بالقلب الديني وأن يتذكر في وقت الكراهية العشرة الحلوة السابقة[١].

وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ: «لا يَفْرِكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»[٢] والفَرَكُ: البغض الكلّي الذي تُنسى فيه كل المحاسن.

وهذا يدلُّ على سموّ الإسلام في إنصاف المرأة من الظلم الذي كانت تتعرض له قبل الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا رغب في التزوج بامرأة أُخرى رمى زوجته بالفاحشة حتى يُلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها من المهر ليصرفه في تزوُّج المرأة التي يريدها، فقال الله تعالى مستنكرًا ذلك:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ[٣] **مَكَانَ زَوْجٍ﴾** أي إذا أردتم أيها الأزواج تَزوُّج امرأة أُخرى ترغبون بها لتحلّ محلّ الزوجة التي تريدون فراقها **﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾** وقد كنتم أعطيتم من تريدون فراقها مالًا كثيرًا عن طريق المهر، والقنطار أقصى ما يُتصور من مهور[٤] **﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾** أي فلا تستردّوا من هذا المهر الذي أعطيتموه للزوجة التي تريدون فراقها شيئًا ولو قليلًا **﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾** هنا توبيخ واستنكار

---

(١) عن كتاب (زهرة التفاسير).

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الزوج: يطلق في لغة العرب على الذكر والأنثى والزوج في الآية هنا مراد به الزوجة.

(٤) قنطارًا: قيل هو مائة أوقية من ذهب أو فضة، والمراد كمية كبيرة من المال.

للأزواج الذين يستردّون من زوجاتهم المهر أو بعضًا منه عندما يكون الفراق منهم لهوى في نفوسهم، وقد وصف الله هذا الأخذ بالبهتان وهو الكذب غير المعقول الذي يتحير فيه العقل ويدهش لفظاعته لأنه اعتداء على الزوجة البريئة، وأنه ذنب واضح معلن عن وضوحه حيث يتهم الرجل زوجته بالفاحشة لاسترداد ما دفعه إليها من المهر ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ الاستفهام للتعجب، أي كيف تأخذون من زوجاتكم اللاتي ظلمتموهن بفراقكم إياهن شيئًا مما أعطيتموهن من المهر ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وأفضى: مأخوذة من الفضاء وهو المكان الواسع أي أنكم دخلتم مع زوجاتكم أوسع مداخلة، وحصلت الألفة التامة بينكم فكيف يليق بكم أن تستردّوا مما أعطيتموهن بطيب نفس؟

وقد فُسّر الإفضاء أيضًا بمعنى الجماع، يقال: أفضى الرجل إلى امرأته: باشرها وجامعها، ولكنّ القرآن عبّر عنه بكناية لطيفة كعادته بأن يعبّر عن العلاقات الجنسية بألفاظ لا تمجّها الأذن. وقال بعض المفسرين بأن الإفضاء هو الخلوة بين الرجل والمرأة[1].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ والميثاق: عَقْدٌ مؤكَّد بيمينٍ وعهدٍ. أي أن زوجاتكم أيها الرجال أخذن منكم عهدًا شديدًا على الوفاء لهن من حُسْن الصحبة وكريم المعاملة والمحافظة على حقوقهن من حسن المعاشرة في حال دوام الزوجية، أو المفارقة بإحسان عند استحكام النفرة الزوجية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(١) وبناءً على اختلاف المفسرين في معنى الإفضاء، فقد ذهب الأئمة الأحناف والحنابلة إلى أن كامل المهر يتقرر بالخلوة، وذهب الأئمة الشافعية والمالكية إلى أنه يتقرر بالجماع لا بالخلوة، كما قرر المالكية أن المهر يجب أيضًا بإقامة الزوجة سنة في بيت الزوج بعد الزفاف بلا وطء.

هـذا الميثاق الغليظ بين الزوجين هو من الفطرة الإلهية التي أودعها الله فيهمـا والمعبّـر عنها بقولـه تعالـى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

هذه الفطرة الإلٰهية القائمة على الوُدّ والرحمة بين الزوجين هي أقوى ما تعتمد عليه المرأة حين تترك أبويها وإخوتها وسـائر أهلها، وترضى بالعيش مـع رجـل غريب عنها تشـاركه الحياة حُلْوها ومرّها، وتَسْكُن إليه ويسـكن إليهـا. هـذا الميثاق الغليـظ يحتّم عليك أيها الزوج في حال تعثَّرت العشـرة بينـك وبيـن زوجتك، ورأيت أن تسـتبدلها بزوجةٍ أُخـرى، إن كنت أعطيتها قنطارًا من الذهب مهرًا لها فلا يحلّ لك أن تأخذ منه شيئًا.

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

شرح المفردات

تَنْكِحوا: يطلق النكاح على عقد الزواج وعلى الجماع.

سَلَفَ: أي مضى.

مَقْتًا: مبغوضًا عند ذوي الطباع السليمة.

ساء سبيلًا: بئس من يسلك تلك الطريق.

ربائِبكم: جمع ربيبة وهي بنت امرأة الرجل من غيره.

حُجُورِكم: كَنَفكم ورعايتكم.

حلائِل: جمع حليلة وهي الزوجة.

أصلابكم: ذريتكم.

تحريم الزواج من امرأة الأب

من عظمة الإسلام الإصلاح الذي حققه في العلاقة الجنسية بين الزوجين، وقد سَما القرآن بهذه العلاقة إلى أعلى مستوى من الطهارة، على حين كانت العلاقة الجنسية عند العرب في الجاهلية قد خالطها الكثير من القبائح والمنكرات، وفي طليعة تلك القبائح زواج الابن بامرأة أبيه من غير أُمه بعد وفاة أبيه أو طلاقها منه.

وقد كان في العرب قبائل اعتادت أن يخلف الابن على امرأة أبيه فيتزوجها وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة على التراضي، فجاء الإسلام بتحريم هذا الزواج أشدّ التحريم، وخصَّ الله تحريمه بآية خاصة، ولم يُدرجه ضمن المحرّمات في الآيتين التاليتين اهتمامًا بشأن تحريمه، ومبالغة في الزجر عنه.

وقد روي أنه لمّا تُوُفِّي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار جاء ابنه قيس، فخطب امرأة أبيه فقالت: إني أُعِدُّكَ وَلَدًا، ولكني آتي رسول الله

أستأمره، فأتته فأخبرته، فقال: ارجعي، لعل الله أن ينزل فيك شيئًا، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّساءِ﴾ أي لا تتزوجوا من تزوجهنّ آباؤكم من النساء غير أُمهاتكم بعد فراقهم لهن بموت أو طلاق ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج في الجاهلية قبل نزول تحريمه في هذه الآية فإنكم لا تؤاخذون به، ولكن تصير زوجة أبيه حرامًا عليه من وقت نزول هذه الآية ويجب عليه أن يفارقها ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي أن زواج الأبناء من زوجات الآباء هو أمرٌ مستقبَح غاية القبح، وإنه أمر بغيض يبغضه الله ويبغضه أهل المروآت فلا يقبلونه ولا يرضونه، ومن الدلالة على قبحه أن العرب كانوا يسمون الولد الذي ينشأ من هذا الزواج باسم المقتيّ أي البغيض ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي أن هذا الزواج أسوأ طريق يسلكه الولد وأقبح طريق عند الله.

والحكمة من تحريم زواج الابن من امرأة أبيه هي منع عين الولد من التطلع إلى زوجة أبيه عن رغبة جنسية، فلربما أعجبته، فأقلّ أنواع التفكير الذي يراود نفسه أن يقول بينه وبين نفسه: بعدما يموت أبي أتزوجها، وربما يفرح بموت أبيه، فيريد الله أن يقطع على الولد أمل الزواج بزوجة أبيه ولو بالخيال والتمني، وأن ينظر إلى زوجة أبيه غير أُمه نظرته إلى أُمه.

كما أن الزواج من امرأة الأب يتنافى مع ما للآباء من وقار وما يجب لهم من الوفاء، لأن امرأة الأب لا تحتشم أمام ابن زوجها، فلو كانت تحلّ للزواج به بعد موت زوجها أو طلاقها منه لتطلعت النفس إليها، وبالمقابل فقد ترغب زوجة الأب في الابن فتفارق الأب أو تغاضبه ليطلّقها طمعًا في الزواج من ابنه، لذا سدَّ الإسلام جميع الذرائع التي تنشأ عن ذلك لأجل الوفاء للأب.

والنـكاح يطلق على عقد الزواج وعلى وطء الزوجة. وعقد الزواج ذاته أحيانًا يكون سببًا للتحريم، فإذا عقد الأب أو الجد الزواج على امرأة حُرّمت هـذه المرأة علـى الأبناء والأحفاد ولو لم يدخل بهـا الأب أو الجد (أي لم يجامعها) وفي هذا يقول ابن عباس: كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل فهي عليك حرام[١].

وأحيانـًا لا يكـون عقد الزواج سـببًا للتحريم كما لـو عُقد الزواج علـى الأُم فـإنّ ابنتهـا لا تُحرَّم عليـه إلاّ إذا دخل بـالأُم، ومن هنا قال الفقهاء: العقد على البنات يُحرِّم الأُمهات، والدخول بالأُمهات يحرّم البنات.

ويرى المالكية والشـافعية والحنابلة أنّ المسَّ والمباشـرة في غير الفرج والتقبيل ولو بشـهوة لا يحرّم أصول مَن مسَّـها ولا فروعَها، زوجةً كانت أم أجنبية.

ويرى الحنفية أنّ من زنى بامرأة أو مسّها بشهوة حُرّمت عليه أُمُّها وابنتُها، ومَن مسَّتُه امرأةٌ بشهوة حُرِّمَت عليه أُمُّها وابنتُها.

ما يحرَّم على الرجل الزواج من النساء

وبعـد أن ذكـر القرآن تحريـم زواج الأبناء ممن تزوج منهـن الآباء تأتي الآيـة التاليـة وفيهـا تحريـم زواج المسـلم ممن تربطه بالنسـاء صلـة القرابة القريبة والنسب، قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَـتْ عَلَيْكُـمْ أُمَّهاتُكُـمْ﴾ أي حـرَّمَ اللهُ عليكـم نـكاح أُمهاتكـم اللاتي ولدنكم، ويشـمل الجدّات، أمّ الأُم وإن علت وأمّ الأب وإن علت

(١) الموسوعة الفقهية الصادرة عن وزارة الأوقاف في الكويت.

﴿وبَنَاتُكُـمْ﴾ وحـرَّم اللهُ عليكـم نـكاح البنات اللاتي مـن ذرّياتكم وبنات أولادكـم سـواء أكان البنـات مـن أولادكـم الذكـور أم الإنـاث وإن نزلوا أي بنـات الأولاد الذكور والبنـات ﴿وَأَخَواتُكُمْ﴾ وحرَّم الله عليكم نكاح أخواتكـم سـواء كن شـقيقات لكـم مـن أبٍ وأُمٍّ أو أخـواتٍ لأبٍ أو لأُمٍّ ﴿وعَمّاتُكُـمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ وحرَّم اللهُ عليكم نكاح عماتكم، والعمة تشـمل أُخـت الأب أو الجـدّ وإن علـت، كمـا حـرَّم الله عليكم نـكاح خالاتكم، والخالة تشـمل أخت الأُمّ وأُخت الجـدّة وإن علت ﴿وَبَناتُ ٱلْأَخِ وَبَناتُ الأُخْـتِ﴾ وكذلـك حـرَّم عليكم نـكاح بنـات إخوانكم وبنـات أخواتكم ويدخل فيهن أولادهن، سـواء كنّ إخوانكم وأخواتكم شـقيقات لكم من أب وأُم، أو من أب فقط، أو من أُم فقط.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان المحرَّمات نكاحهن من الرضاع:

﴿وَأُمَّهاتُكُـمُ اللَّاتـي أَرْضَعْنَكُـمْ﴾ أي وحرَّم اللهُ عليكم نـكاح أُمهاتكم اللاتي أرضعنكم وقد سمّى الله المرضعات (أمهات) جريًا على لغة العرب، ومـا هـنّ بأُمهـات حقيقـة ولكنهن ينزلـن منزلـة الأُمهـات، لأن الأطفال قد رضعـوا منهن وتغـذَّوا بألبانهن. فالرضاعـة تمنح المرضعـة وصف الأُمومة فتسـمَّى بذلك أُمًّا للرضيع، ويصير زوجها الذي كان السـبب في درّ لبنها أبًا لذلك الرضيع.

﴿وَأَخَواتُكُـم مِـنَ الرَّضَاعَـةِ﴾ وإذا رضع طفل من امـرأة صارت بناتها أخـوات لـه من الرضاعة ويحرَّم عليه الزواج بهن سـواء البنت التي رضعت معه أو البنت التي رضعت قبله أو بعده.

وسـنفصّل فيما يلي من يحرَّم على الرضيع التزوّج بهن عندما يبلغ سن الرجولة:

يحرَّم على الرضيع التزوج ممن أرضعته لأنها أمّه من الرضاعة. وكذلك يحرَّم عليه بناتها لأنهن أخواته من الرضاعة. ويحرَّم عليه أُمّ التي أرضعته لأنها أصبحت كجدّته. ويحرَّم عليه أُخت التي أرضعته لأنها أصبحت بمنزلة خالته.

ويحرَّم عليه أخت زوج أُمه التي أرضعته لأنها أصبحت بمنزلة عمته. ويحرَّم عليه بنات أولاد المرضعة لأنهن أصبحن بمنزلة بنات إخوته أو بنات إخوانه، وإجمالًا يقول النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1].

وأما بنات عمات الرضيع وأعمامه رضاعًا، وبنات خالاته وأخواله رضاعًا فلا يحرمن عليه من التزوج بهن.

ما يحرَّم على المرضعة

يحرَّم على المرضعة أبناء رضيعها، وأبناء أبنائه وإن سفلوا، ولا يحرّم عليها أُصوله: كأبيه وجدّه، ولا حواشيه كإخوته وأعمامه وأخواله فيجوز لهؤلاء أن يتزوجوا المرضعة أو بناتها أو أخواتها.

ويحرَّم على صاحب اللبن ـ أي زوج المرضعة ـ الزواج ممن أرضعتها زوجته لأنها ابنته من الرضاع، كما تحرَّم على أبنائه الذين من غير المرضعة لأنهم إخوتها من الرضاعة، وتحرم الرضيعة على آباء زوج المرضعة لأنهم أجدادها من قِبَل الأب من الرضاعة، وعلى إخوته لأنهم أعمامها من الرضاعة.

(١) متفق عليه.

الرَّضاعة المحرِّمة

والرضاعة المحرِّمة عند الإمام مالك وأبي حنيفة وكثير من الصحابة هي أن قليل الرضاع وكثيره يُحرِّم وإن كان مصّة واحدة.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن ما دون خمس رضعات متفرقات لا يؤثِّر في التحريم.

ولا بدّ أن تكون الرضاعة في الصغر وذلك يكون في السنتين الأوليين من حياة المولود.

فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الرضاع المؤثِّر في التحريم هو حولان(١) بعد ولادته فلا يحرّم بعد الحولين.

والشريعة الإسلامية انفردت من بين الشرائع القائمة بجعل الرضاع سببًا من أسباب التحريم وذلك لأن المُرضع التي تُرضع الولد إنما تغذيه بجزء من جسمها فتدخل أجزاؤها في تكوينه ويصبح جزءًا منها، وإن الطب يثبت ذلك فإن لبنها خلاصة من دمها يُنبت لحم الطفل ويُقَوِّي عظمه، وإذا كان الطفل جزءًا منها فهي كالأُم من النسب مُحَرَّمة إلى الأبد وبعض من يتصل بها محرَّمات عليه. والرضاعة من غير الأم كانت شائعة في زمن نزول القرآن، أمّا في عصرنا الحاضر فقد استعيض عنه باللبن المحضَّر طبّيًّا من غير لبن الأُمهات عند تعذُّر الأُمّ إرضاعَ وليدِها أو عند وفاتها، وهذا اللبن لا ينشر الحرمة كما ينشره لبن المرضعة. ويتابع القرآن ذكر المحرّمات من الزواج بهن من النساء: ﴿**وأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ**﴾ وكذلك حرَّمَ اللهُ عليكم نكاح أمهات زوجاتكم سواء أكنّ أُمهات مباشرات أم جدّات، لأنّ كلمة الأُم تشمل الجدّات ﴿**وَرَبائِبُكُمُ اللّاتي في حُجُورِكُم مِن نِسائِكُمْ**﴾ والربائب: جمع

---

(١) حولان: مثنّى حَوْل، وهو السنة القمرية.

ربيبـة، والربيبـة هي بنت الزوجة من غير زوجها التي تعيش معه، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترمّلت أو طُلّقت بعد أن ولدت بنتًا، فـزوج الأُم الجديد سـيُدخل هذه الربيبة في كنفه ورعايتـه وتربيته، ﴿**ٱللَّـٰتِي دَخَلْتُـم بِهِـنَّ**﴾ أي يحرم عليكم نكاح الربيبة إذا نكحتم والدتها وهي حلال لكـم إذا لم يحصل منكم نـكاح لأمّها وهو المعبَّر عنه بالدخول بأُمها ﴿**فإن لَـمْ تكونـوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فـلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ فإن لم يدخـل الزوج بالأُم فلا تحـرم عليـه بنتها، بـل له أن يتزوجها بعـد طلاق أمّها. أما إذا عقد شـخص الـزواج علـى البنت فـإن أُمها تحرم عليـه بمجرد العقد حرمـة أبدية وإن لم يدخل بالبنت.

والحكمـة فـي تحريـم من سـبق هـي أنه لـو أُبيح للرجـل أن يُطلّـق الأُم المدخول بها ويتزوج ابنتها أو يُطلّق البنت ويتزوج أُمَّها لأدّى ذلك إلى تقطيع الأرحام وإشـعال دواعي الغيرة وإثارة العداوة والبغضاء بين الأُمّ والبنت. أمّا في حال التزوج بالبنت بعد الافتراق عن الأُمّ غير المدخول بها، فالأُم لها من الحنان والعطف ما يجعلها تغفر لابنتها تَزَوُّجَها ممن كانت قد عقدت الزواج عليه، لكنّ البنت لا تغفر لأُمها تزوُّجَها ممن كانت قد عقدت الزواج عليه.

﴿**وَحَلَائِـلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِـنْ أَصْلابِكُمْ**﴾ والحلائل: جمع حليلة وهي الزوجـة، أي وحـرَّمَ اللهُ عليكـم زوجات أبنائكـم تحريمًا أبديًّا سـواء حصل الدخول ـ أي النكاح ـ أم لم يحصل، ويشمل أيضًا زوجات ابن ابنه وابن بنته، وفـي التصريح ﴿**مِنْ أَصْلابِكُمْ**﴾ أي من ذريتكم وظهوركم لإخراج زوجات الأبنـاء بالتبنـي مـن التحريم، فـإنَّ امرأة المتبني ليسـت حرامًا علـى من تبنّاه ﴿**وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ**﴾ أي وحرَّمَ اللهُ عليكم أن تجمعوا بين أُختين في النكاح، كأن تتزوجوا امرأة ثم تضمّوا إليها أُختها بطريق الزواج، كذلك نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمّتها أو العمة على ابنة أخيها أو المرأة

علـى خالتها، أو الخالة على بنـت أختها[(١)]، والحكمة من تحريم ذلك هو ما يحصل من الجمع بينهما من البغضاء وقطع الأرحام ﴿**إلَّا ما قَدْ سَلَفَ**﴾ أي مـا فعلتموه من ذلـك فيما مضى فلا تؤاخذون به ولكن بعد النهي عنه يجب التفريـق بيـن الزوجة وأُختها والزوجة وعمّتها أو خالتها إن حصل ذلك ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ إن الله كان ولا يزال عظيم الغفران لذنوب من تاب من عباده، واسع الرحمة بهم فلا يؤاخذهم إلا بعد عصيانهم له.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

شرح المفردات

والمُحصنات من النساء: أي وحرمت عليكم ذوات الأزواج من النساء ما دمن في عصمة أزواجهن.

كتاب الله عليكم: أي كتب الله عليكم تحريم ما ذكر من النساء.

ما وراء ذلكم: غير ذلك.

مُحصنين: متعففين عن الزنا.

---

(١) كما جاء في صحيح الترمذي.

غَيرَ مسافحين: غير زانين، والسفاح هو الزنا.
فما استمعتم به: الاستمتاع بالشيء الانتفاع به.
فآتوهن أُجورهن: فأعطوهن مهورهن.
ولا جُناح عليكم: لا إثم ولا حرج عليكم.

ما يحل وما يحرم من الزواج بالنساء

ويتابع القرآن الكريم مبيّنًا الزواج الحلال والحرام من النساء، قال الله تعالى: ﴿**والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّساءِ**﴾ هذه الجملة من الآية معطوفة على المُحَرَّمات من النساء والمعنى: وحرم عليكم نكاح المتزوجات من النساء، أي أن زوجة الغير والمعتدّة منه بطلاق أو وفاة لا يجوز عقد الزواج بها قبل انقضاء عدّتها ومفارقة زوجها لها.

والمحصنات: جمع محصنة وهي المرأة التي صانت نفسها عن الفواحش ولذلك تُطلق على العفيفة، وأحيانًا تطلق على المرأة الحُرَّة التي هي خلاف الأَمَة، وتارة على المرأة المسلمة وتارة تطلق على المرأة المتزوجة لأن الأزواج أحصنوهن عن الفاحشة وهي المراد بالآية هنا ﴿**إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ**﴾ ومُلْكُ اليمين يُطلق على الرقيق من عبْدٍ أو أمة، أي ويستثنى من المحرمات ما ملكتم من إماء بسبب السَّبْي عند محاربتكم الكفار فهن حلال لكم نكاحهن بعد البراءة والتأكد من عدم حملهن من أزواجهن الكافرين، ويرى بعض الفقهاء أن نكاح الأمة لا يحلّ إذا استُرقّت مع زوجها ﴿**كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ**﴾ هذا النصّ جاء بعد بيان المحرمات الذي ورد سابقًا، وكتاب يكون مصدر كتب بمعنى: فرض، أي أن تحريم ما ذكر من النساء هو شيء قد فرضه الله عليكم، وقد يكون المراد بالكتاب: القرآن، والمعنى: الْزموا كتابَ اللهِ الذي هو حجة عليكم إلى يوم القيامة، وهو الذي يُبيِّن لكم الحلال من الحرام.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وراء: بمعنى غير، أي وبعد أن حرّم الله عليكم نكاح هؤلاء اللواتي ورد ذكرهن سابقًا، أَحلَّ لكم نكاح سواهن من النساء ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ﴾ من أجل أن تطلبوا الزواج من النساء اللاتي جعلهن الله حلالًا لكم مِن طريق ما تقدمونه لهن من أموالكم كمهور حال كونكم تريدون بذلك العفة وتحصين أنفسكم من الزنا.

﴿فَمَا اَسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي فما انتفعتم به وتلذّذتم من النساء بالزواج فأعطوهن أُجورهن وهو المهر الذي فرضه الله عليكم ﴿ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا حرج ولا إثم ﴿فِيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِن بَعْدِ الفَرِيضَةِ﴾ أي لا إثم فيما حصل به الرضا بين الأزْواج والزوجات من إسقاط شيء من المهر أو الإبراء منه عن طيب نفس من الزوجة أو الزيادة عليه كرمًا منكم أيها الأزواج بعد اتفاقكم على المهر الذي فرضتموه على أنفسكم عند عقد الزواج.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو سبحانه عليم بما ينفع عباده ويصلح حالهم، حكيم فيما يُشرِّعه لهم من الأحكام التي فيها خيرهم وسعادتهم.

تحريم المتعة

استدلّ فقهاء الشيعة بقوله تعالى: ﴿فَمَا اَسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ أُجورَهُنَّ﴾ على إباحة زواج المتعة، وزواج المتعة هو قول الرجل للمرأة: أُعطيكِ كذا على أن أتمتّع بكِ يومًا أو شهرًا أو سنةً أو نحو ذلك، ونكاح المتعة كان مباحًا في أول الإسلام أمدًا قصيرًا ثم حُرِّم.

ولقد أباح النبيّ ﷺ المتعة في صدر الإسلام للضرورة القصوى حينما كان المسلمون الأوائل يضربون في الأرض لنشر دعوة الإسلام فيوغِلون

في أرجائها بعيدًا عن ديارهم وأهاليهم وكانوا حديثي عهدٍ بالجاهلية، وكان لا بُدّ من صقل نفوس أُولئك المسلمين وتهذيبها تدريجيًّا حتى يُقلعوا تمامًا عن الفواحش على نحو ما جرى في تحريم الخمر على مراحل. وقد أذن النبيّ ﷺ بالمتعة خلال الغزو حينما كان المحاربون بعيدين عن الأهل والوطن ولشدة شبقهم للنساء، فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصي! فنهانا عن ذلك ثم رخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب(١) إلى أجل(٢).

والمتعة كانت رُخصة في أول الإسلام لمن اضطر إليها كرخصة أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للمضطر، ثم أحكم الله دين الإسلام ونهى عنها.

والمتعة هي نكاح إلى أجل لا ميراث فيها وفراق المتمتعة يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق.

وقد ذهب جمهور الفقهاء: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة على الصحيح من المذهب إلى حُرمة نكاح المُتعة وبطلان عقده مستدلّين بأدلة منها حديث الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدَّثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني قد كُنت أذنت لكم في الاستمتاع مِنَ النساء، وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا»(٣).

وروي عن عليّ رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحُمر الأهلية زمن خيبر(٤).

---

(١) بالثوب: أي يستمتع بها مقابل ثوب يقدّمه لها.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) متفق عليه.

وقال الإمام الشافعي: لا أعلم شيئًا حُرّم ثم أبيح ثم حُرّم إلاّ المتعة.

وإباحة المتعة وتحريمها كانا مرتين، فقد كانت حلالًا قبل خيبر ثم حُرِّمت يوم خيبر ثم أُبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس ثم حُرِّمت بعد ثلاثة أيام تحريمًا مؤبّدًا.

والله تعالى أباح في القرآن الزوجة وملْك اليمين ـ أي الرقيقة ـ وحرَّم ما دون ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

والمتمتعة أي المستمتَع بها على النحو الذي سبق، بعد هذا النصّ القرآني ليست زوجة ولا ملك يمين فتكون حرامًا بنصِّ القرآن.

وعقد الزوجية يترتب عليه صحة الطلاق والإرث والعدّة ووجوب النفقة وهذه كلها في نكاح المتعة مُنْتَفِية. روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «حَرَّمَ ـ أو هَدَّمَ ـ المُتعة: النكاح والطلاق والعدّة والميراث»(١) بمعنى أنّ المتعة ترتفع من غير طلاق ولا يجري فيها التوارث بينهما بمعنى أن المتعة لم تكن المرأة فيها زوجة للرجل.

هذا وإنّ النكاح ما شُرع لاقتضاء الشهوة بل شُرع لأغراض ومقاصد يُتوسل إليها كما جاء في القرآن ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ففي الزواج تسكن الأرواح وتطمئن النفوس في جوٍ من الود والرحمة، والمتعة تُفضي إلى قضاء الشهوة ولكنها لا تحقق هذه الأُمور كتحقق السكن بين الزوجين، والنسل وتكوين الأُسرة.

---

(١) أخرجه ابن حِبّان في صحيحه والبيهقي.

ومن الدلائل على عدم إباحة المتعة قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، ولو كانت المتعة جائزة لم يأمر الله تعالى بالاستعفاف لمن لم يجد قدرة على نفقات النكاح.

وليس غرضي في هذه الصفحات القليلة أن أناقش ما ذهب إليه الشيعة في إباحة المتعة فهذا موضوع يطول ليس هنا مكانه، ولكن هناك من أئمة الشيعة من دعا إلى التعفف بشأن المتعة، وهو ما ذهب إليه الدكتور موسى الموسوي(١) حيث يقول في كتابه: (الشيعة والتصحيح)(٢) ما يلي: وأسأل الفقهاء الذين يُفتون بجواز المتعة واستحباب العمل بها: هل يرضون شيئًا كهذا لبناتهم وأخواتهم وقريباتهم؟ ويتابع قوله: لقد أراد العالِم الكبير السيد محسن الأمين العاملي أن يدافع عن كلامٍ قريب لِما ذهبتُ إليه بقوله: «إذا كانت المتعة أمرًا مباحًا فلا يلزم أن يفعلها كل أحد، فكم من مباح تُرِكَ تَنزّهًا وترفّعًا»(٣).

والمتعة انتقاص من كرامة المرأة كما يقول الدكتور موسى الموسوي بعد أن يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وبنو آدم في الآية الكريمة لفظ يشمل الرجل والمرأة على السواء... فأين يكون موقع المرأة وكرامتها والاحتفاظ بأخلاقها من قانون المتعة؟ إنَّ موقعها من هذا القانون هو الذل والهوان وشأنها كالسلعة التي يستطيع الرجل أن يكدسها واحدة فوق الأخرى وبلا عدّ ولا حدّ... وهل يليق بها أن تقضي أوقاتها بين أحضان الرجال واحدًا بعد الآخر باسم شريعة محمد ﷺ؟

---

(١) هو حفيد الإمام الأكبر السيد أبو الحسن الموسوي الأصبهاني. حصل على شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة طهران عام ١٩٥٥م، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السربون عام ١٩٥٩م، وعمل أستاذًا للاقتصاد في جامعة طهران ١٩٦٠م ـ ١٩٦٢م.

(٢) الشيعة والتصحيح ص ١٥٥.

(٣) الشيعة بين الحقيقة والأوهام ص ٣٥٧.

ويتابع قوله: لقد أراد بعض فقهائنا ـ سامحهم الله ـ أن يصوروا المتعة وكأنها فَضْلٌ مِنَ اللهِ حيث شَرَعَ قانونًا شرعيًّا يمنع الرجل من الوقوع في البغاء، ولكن غاب عن بالهم أن الإسلام ليس دين الرجال فحسب بل أُنزل للناس كافةً بمن فيهم النساء، وأنّ القوانين الإلهية والشرائع السماوية لم تُنَزَّلْ لإرضاء شهوات الناس وإشباع غرائزهم تحت غطاء الشرعيّة والقانون[1].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

(١) عن كتاب (الشيعة والتصحيح) ص ١٥١.

شرح المفردات

طَوْلًا: غنى وسعة وقدرة على أداء المهر ونفقات الزواج.

المُحْصنات: جمع محصنة والمراد بها هنا المرأة الحرة خلاف الرقيقة.

ملكت أَيْمانكم: ما تملكون من الرقيق.

فتياتكم المؤمنات: الفتيات، جمع فتاة والمراد بها هنا الأمة.

وآتوهن أُجورهن: وأدّوا إليهن مهورهن.

مُحْصنات: عفيفات.

غير مُسافِحات: غير زانيات.

ولا متخذات أخدان: ولا متخذات صواحب يزنون بهن سرًّا.

أُحْصِنَّ: تزوَّجن.

لمن خَشي العَنَتَ: لمن خاف الإثم والزنى بسبب غلبة الشهوة.

ويهديكم سنن الذين من قبلكم: ويرشدكم إلى طرائق مَن تقدّمكم مِنَ الأنبياء لتسلكوها.

يتوب عليكم: يعود بالمغفرة عليكم ويقبل توبتكم.

أن تميلوا مَيْلًا عظيمًا: تعدلوا عن الحق بارتكاب ما حُرّم عليكم من المعاصي.

الزواج من الإماء عند الضرورة

كان الرقّ شائعًا في زمن نزول القرآن، وفي ذلك الوقت كان بعض المسلمين يرغب في الزواج من المرأة الحرة، ولكن ما كانوا عليه من الفقر جعلهم يحجمون عن الزواج بها لما يتطلب ذلك من المهر وما يستوجب من نفقات كثيرة وهذا ما كان يعرّضهم للزنا لعدم استطاعتهم تلبية حاجاتهم الجنسية بالحلال، لذا يسّر الإسلام لهؤلاء باب الزواج من الإماء لقلة تكاليف الزواج بهن، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾ الطَّوْلُ: أي الغنى والسعة في المال، وهو كناية عما ينفق على المرأة الحرة من المهر والنفقات الزوجية، والمحصنات:

جمع محصنة وهي هنا بمعنى الحرة خلاف الأَمَة ﴿**فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِـنْ فَتَياتِكُـمُ المُؤْمِناتِ**﴾ ومُلْـكُ اليمين: هو ما يَمْلِكُهُ الإنسـان من الرقيق سواء كان ذكرًا أو أُنثى، والمراد بقوله تعالى: ﴿**مِنْ فَتَياتِكُمُ المُؤْمِناتِ**﴾ أي مـن إمائكـم المؤمنات. ولم يطلق القرآن على الأمة اسـم (العبدة) وإنما عبّر عنها باسم الفتاة احترامًا لها وإعزازًا لإنسانيتها، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «لا يَقُولَنَّ، أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل: فتاي وفتاتي»[(١)] ومعنى الآية: ومن لم يجد منكم أيها المؤمنون سـعة من المال تمكّنه من الزواج بالمرأة الحرة فليتزوج أمةً من الإماء المؤمنات ﴿**وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ**﴾ فالله سبحانه يعلم حقيقة إيمانكم وأنتم جميعًا تضمّكم إنسانية واحدة وكلكم عبيد لله فلا يظلم بعضكم بعضًا ﴿**فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهلِهِنَّ**﴾ فَتزَوَّجوهُنَّ بإذنِ أوليائهن وأسـيادهن ورضاهـم ﴿**وَآتوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالمَعْـرُوفِ**﴾ وأدُّوا لهنَّ المهر بما هو متعارف لأمثالهن مما يستحسـنه العقل ولا ينكره ﴿**مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسـافِحاتٍ**﴾ أي تزوجوهن إذا كن عفيفات غير زانيات ﴿**ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدانٍ**﴾ ولا متخذات صواحب يرتكبن الزنا معهم سرًّا.

لقد أمر الله المؤمنين أن يختاروا من الإماء في حال الرغبة في زواجهن مـن تتحلى بصفة العفَّة، إذ الرق وفقـدان الحرية يكون معهما الذل والهوان والطاعة العمياء لأسـيادهن، وحيث يكون الذل والهوان تكون الرذيلة أقرب لهـن، لـذا كان من عدالة الإسـلام أن جعـل العقوبة لهن في حـال اقترافهن الزنا أخفّ من العقوبة على المرأة الحرة كما يبين القرآن فيما يلي:

﴿**فَـإِذَا أُحْصِـنَّ**﴾ والإحصـان هنا بمعنى الـزواج، أي فـإذا تزوجت الإماء ﴿**فَـإِنْ أَتَيْـنَ بِفَاحِشَـةٍ**﴾ أي فإن اقترفن فاحشـة الزنا ﴿**فَعَلَيْهِـنَّ نِصْفُ ما على المُحْصَنَاتِ مِنَ العَذَابِ**﴾ والمحصنات هنا المراد بهن النساء الحرائر، والعذاب

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد.

هو العقوبة التي قدّرها الله على الزناة. والمعنى: وفي حال اقتراف الإماء للزنا فعقوبتهن نصف العقوبة المقدرة على الزوجة الحرة. وقد نصّ الفقهاء على أنّ الأَمَة تُقام عليها العقوبة إذا زنت سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة[١].

أين هذا السموّ في التشريع السماوي مما كان جاريًا في القانون الروماني حيث كان العبد إذا زنى بالمرأة الحرة قُتل، وإذا زنى الرجل الشريف حُكم عليه بغرامة مالية!

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ ذلك: اسم الإشارة هنا يرجع إلى نكاح الإماء ويكون المعنى: إن الله سبحانه أباح الزواج من الإماء للأشخاص الذين يخافون الوقوع في الزنا باعتبار أنّ نكاح الأمة غير مرغوب فيه، ولذا نصحت الآية بعدها بأنَّ تَرْكَ زواج الإماء أفضل كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وصبركم بالامتناع عن الزواج بالإماء هو خير لكم لأن الولد الذي يولد من الأمة يكون رقيقًا يضاف إلى ذلك أنها مطالبة بخدمة سيدها بجانب واجباتها نحو زوجها، وإنّ في الصبر بالامتناع عن الزنا تهذيبًا للنفس وتهيئة ملكة التقوى فيها بترك اتّباع هواها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله سبحانه الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم، وغفور: من أبْنية المبالغة، أي كثير الغفران لعباده، رحيم بهم لا يعاجلهم بالعقوبة على آثامهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله أن يبيّن لكم أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم وآخرتكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ويرشدكم إلى الطريقة المثلى التي كانت عليها المجتمعات الفاضلة قبلكم وما جاء به النبيّون من الهدى لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويرجع بكم من معصيته التي كنتم عليها إلى طاعته التي أمركم بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه

(١) في حال زنت الأمة وكانت غير متزوجة تعاقب بخمسين جلدة، أما إذا زنت وهي متزوجة فلا تعاقب بالرجم كما تعاقب المرأة المتزوجة الحرة لأن الرجم لا يتنصف وإنما تعاقب بالجلد.

عليم بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم حكيم يضع الأمور في مواضعها فيقبل التوبة عن عباده إذا أخلصوا النية وأقلعوا عن الشر.

﴿**والله يُرِيدُ أن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾ والله سبحانه يريد أن يتوب عليكم فيفتح لكم باب التوبة لتُقْبِلوا عليها فمن تاب من ذنوبه غفر الله له وتجاوز عن سيئاته ﴿**وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ**﴾ ويريد الذين يتَّبِعُون شهوات أنفسهم من أهل الباطل والفواحش ﴿**أن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**﴾ أن تميلوا ميلًا كبيرًا عن الحق والاستقامة فتكونوا مثلهم بارتكاب المنكرات.

﴿**يُرِيدُ اللهُ أن يُخَفِّفَ عَنْكُم**﴾ فيما يشرّعه لكم من الأحكام التي فيها يُسْرٌ لكم ﴿**وَخُلِقَ الإِنْسَان ضَعِيفًا**﴾ أي ضعيفًا أمام رغباته وشهواته وضعيفًا في أمر النساء أمام إغرائهن.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

شرح المفردات

بالباطل: أي بكل ما حرّمه الله كالربا والقمار والسرقة.

ولا تقتلوا أنفسكم: أي لا يقتل بعضكم بعضًا لأنكم أهل دين واحد فأنتم كنفس واحدة.

عدوانًا: التعدي على الغير مع القصد أو تجاوز الحلال إلى الحرام.

نصليه نارًا: ندخله جهنم ونحرقه بها.

تجتنبوا: الاجتناب هو الابتعاد عن الشيء وتركه جانبًا.

كبائر ما تنهون عنه: كبائر الذنوب التي تعظم عقوبتها.

نكفِّر عنكم سيئاتكم: نمحوها ولا نعاقب عليها، والمراد بالسيئات صغائر الذنوب.

وندخلكم مُدْخلًا كريمًا: وندخلكم مكانًا حسنًا مرضيًّا وهو الجنة.

تحريم أكل أموال الناس بالباطل

وبعد أن بيَّن الله فيما سبق ما يحلّ زواجه من النساء وما يحرم بيَّن في الآية التالية ما يحرم الحصول عليه من الأموال، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾ خاطب الله المؤمنين بصفة الإيمان ترغيبًا وحثًّا لهم على الاستجابة لما يأمرهم به، وبالأخصّ إذا كان الله هو المنادي لهم، أمرهم الله بأن لا يستولوا على أموال الغير بالباطل كالرِّبا والقِمار والسرقة والرَّشْوة والخيانة والتزوير والغشّ إلى غير ذلك من الأساليب التي لا يبيحها شرع الله. والتعبير بقوله تعالى **﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ﴾** بدلًا من قوله: «لا يأكل بعضكم مال بعض» إشعارًا لهم بأنّ مال الفرد هو في نفس الوقت مال الأُمَّة فيجب المحافظة عليه بما يعود نفعه على الأمّة. وعبّر الله عن أخذ أموال الغير بالأكل لأن المقصود الأول من جمع المال هو الأكل.

﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ﴾ ولكن يستثنى من ذلك أخذ الأموال من الغير عن طريق التجارة الناشئة عن التراضي فيما بينكم. وكلمة **﴿عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ﴾** توجز كل النظريات والقوانين التي وضعت في أساليب التجارة التي ينشأ عنها تبادل المنافع وتيسير السلع التجارية، والتراضي في

التجارة أساس العقود عامة وأساس المبادلات المالية خاصة، فلا بيع ولا شراء ما لم يتحقق فيه الرضا.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا فإنَّ قَتْلَ واحدٍ منكم للآخر هو قتل لأنفسكم، وقتلُ نفسٍ بغير حق كقتل الناس جميعًا. أو بمعنى: لا يقتل أحدكم نفسه ـ بأن ينتحر ـ فإنَّ ذلك إثم عظيم. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ تَردّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ في نارِ جَهَنَّمَ خالِدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا ومَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَديدةٍ، فَحَديدته في يده يجأ ـ أي يطعن ـ بها في بطنه في نار جهنم خالِدًا مُخَلَّدًا فيها أبَدًا»[1] ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ بما شرعه لكم من الأحكام التي فيها الخير لكم.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلك﴾ إشارة إلى المحرَّمات في هذه السورة ومنها أكل مال المسلم أو قتله ﴿عُدْوانًا وَظُلْمًا﴾ والعدوان والظلم بمعنى واحد، وقيل العدوان مجاوزة الحد وما أمر الله به، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ فسوف يدخله الله نار جهنم ليقاسي حرّها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ وكان ذلك العذاب على من يتعدى حدود الله ويعصيه سهلًا يسيرًا على الله.

كبائر الذنوب

وبعد أن ذكر الله جملة من المحرَّمات في هذه السورة بيَّن ثواب الذين يَجْتَنبوها بقوله سبحانه:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ واجتناب الشيء هو المباعدة عنه وتركه جانبًا، والكبائر: هي ما عظم قبحه من الذنوب وعظم العقاب عليها والمعنى: إن تبتعدوا عن الذنوب الكبيرة التي نهاكم الله عن اقترافها

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والمراد بالسيئات هنا صغائر الذنوب بدليل مقابلتها بالكبائر وهي ما قلّ فيها الإثم، والمعنى: إذا اجتنبتم كبائر الذنوب نمحو عنكم صغارها ولا نعاقبكم عليها ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي وبالإضافة إلى ذلك فإنّا ندخلكم في الآخرة مُدْخلًا حسنًا كريمًا: هو الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

ولكن ما هي كبائر الذنوب التي أمر الله باجتنابها؟ قيل في تعريفها جملة أقوال نُجملها فيما يلي:

كلُّ ما نهى الله عنه في القرآن أو نَصَّ على تحريمه فهو كبيرة، ويندرج تحته ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى الآية الثلاثين منها.

وكلُّ شيء عُصِيَ اللهُ به فهو كبيرة.

وكلُّ ما أوعد الله عليه بالعذاب يوم القيامة فهو كبيرة.

وكلُّ ذنبٍ ختمه الله بغضبٍ منه أو لعنةٍ أو عذابٍ بالنار فهو كبيرة.

وكلُّ عمل يقام عليه الحدّ ـ أي العقوبة ـ أو يوصف فاعله بالفسق فهو كبيرة.

وقد ذكرت السنّة النبويّة بعض الأمثلة عن كبائر الذنوب نذكر بعضها، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقات[١]، قيل: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْر، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنى، والتولّي يوم الزحف[٢]، وقذف المحصنات[٣] الغافلات المؤمنات»[٤].

---

(١) الموبقات: المهلكات.

(٢) التولي يوم الزحف: الفرار من وجه العدوّ عند الالتحام به باستثناء خطة حربية.

(٣) قذف المحصنات: اتهام المؤمنات العفيفات بالزنا زورًا وبهتانًا وإشاعة التهمة بهن.

(٤) متفق عليه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر فقال: الشرك بالله وعقوق الوالدَيْن[١] وقتل النفس، وقال: ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور، أو قال: شهادة الزور[٢].

وروي عن النبي ﷺ قوله: «إنّ من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسبّ الرجل أبا الرجل وأمَّه، فيسبّ أباه وأُمَّه»[٣] والمراد بذلك من يتسبَّب بسبِّ والِدَيْهِ.

هـذا بعض ما ذكره النبيّ ﷺ من كبائر الذنوب وهناك ذنوب أُخرى من كبائر الإثم جاء ذكرها في القرآن والسنَّة نذكر بعضها فيما يلي:

الزنا وأشده إثمًا الزنا بزوجة الجار ـ اللواط ـ أذى الجار ـ اليمين الغموس[٤] ـ القمار ـ شرب الخمر ـ السرقة ـ أخذ مال الغير غصبًا ـ قطع الطرق ـ الكذب على الله وعلى رسوله محمد ﷺ ـ سبّ أصحاب النبي ﷺ أو إحدى زوجاته ـ عدم التناهي عن المنكر ـ الغيبة ـ النميمة ـ الظلم ـ الحلف بالله كذبًا ـ التكبُّر على عباد الله ـ كتمان الشهادة بلا عُذْر ـ تكفير المسلم[٥] ـ نقض العهد ـ البغي ـ الطعن بالمسلمين ـ الخيانة ـ الكذب ـ الإضرار بالوصية ـ الغش ـ إيذاء المؤمنين ـ أخذ الرشوة ـ اليأس من رحمة الله ـ إنْقاص الكيل والميزان ـ نسيان الله ـ النفاق ـ عبادة الله رياء ـ قطع الرحم (أي هجر الأقارب).

(١) عقوق الوالدين: نكران جميلهما وعدم البِرّ بهما.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) اليمين الغموس: أن يحلف بالله على شيء وهو بحلفه كاذب.
(٥) تكفير المسلم: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه» (متفق عليه).
ويقول رسول الله ﷺ: «من رمى مؤمنًا بكفر فهو كقتله» (أخرجه البخاري).
ويقول الإمام الأوزاعي: «لئن نُشِرتُ بالمناشير فلا أقول بتكفير أحد من أهل الشهادتين».

هذه بعض كبائر الذنوب نقتصر على ذكرها خوفًا من التطويل وهي لم يحرّمها الله ورسوله إلا لأنها تؤدي إلى الإضرار بفاعلها وتُلحق الأذى بالمجتمع.

فالذنوب منها الكبائر والصغائر، فالكبائر هي كما أشرنا إلى بعضها، وصغائر الذنوب هي كالنظرة والقُبلة المحرّمة وغيرها مما لم يأت الوعيد على فعلها حيث يرتكبها الشخص استهانة بها من غير إصرار عليها، وهي التي يمحوها العمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

كما أن الله سبحانه فتح لعباده باب التوبة من الذنوب صغيرها وكبيرها ووعدهم بغفرانها في حال توبتهم منها ثم إتباعهم التوبة بالعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا (٣٢)
وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا (٣٣)﴾

شرح المفردات

تتمنوا: من التمني، وهو التعلُّق والرغبة بحصول أمر في المستقبل.

نصيب: حظّ.

مما اكتسبوا: مما عملوا.

موالي: ورثة.

عقدت أَيْمانُكُم: حالفتموهم وعاهدتموهم.

شهيدًا: مطلعًا.

النهي عن تمني ما في أيدي الغير

وبعد أن نهى الله المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل أمرهم الله في الآية التالية أن يرضوا بما قسم الله لهم من الأرْزاق ولا يتمنوا ما أُوتي الغير من الغنى والثراء وغير ذلك قال الله تعالى:

﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ نهى الله المؤمنين عن تمني ما فضّل الله غيرهم به من جاه ومال وصحة وذرية ومتاع، وفاتهم أن ذلك التفضيل هو قسمة من الله صادرة عن حكمةٍ وعلم منه بأحوال العباد، فعلى كل إنسان أن يرضى بما قَسَمَ الله له على حد قوله تعالى: **﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا...﴾** [الزخرف: ٣٢].

والتمني المنهي عنه هو الذي يجرّ إلى التحاسد والتباغض ويجعل النفس في قلقٍ دائم واضطراب بسبب تطلعها إلى ما عند الغير مما هي محرومة منه، هذا مع العلم أن التمني مقرون عادة بالكسل ولا يتمنى أحد ما عند الغير إلا عن قصور في همَّته وضعف في إيمانه.

﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ولِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي للرجال

نصيب من ثواب الله أو عقابه مما اكتسبوا من أعمال عملوها من خيرٍ أو شرٍ، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال. أو بمعنى: لكل فريق من الرجال والنساء نصيب مما اكتسب في هذه الحياة من مال ومقتنيات مما خصّه الله به من مواهب وقدرة وذلك بما سعى إليه من جد واجتهاد، فعلى كل إنسان أن يكافح في هذه الحياة، ولا يضيّع وقته في التمني الذي لا يُجديه نفعًا مع رجائه بفضل الله وتوفيقه كما جاء في الشطر الثاني من الآية ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أي ادعوا الله أن يُنْعِمَ عليكم من فضله وخيره ممّا لا يصل إليه كسبكم إما لجهلكم أو لعجزكم، وقد روي عن النبيّ ﷺ قوله: «سَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ فإنه يُحِبُّ أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرَج»[(١)].

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إن الله هو العالم بما يُصلح عباده فيما قَسَمَ لهم من خير فلا تتمنوا غير الذي أعطاكم ولكن عليكم طاعته والتسليم لأمره والرضا بقضائه ثم أمر الله بإعطاء الورثة حقهم من الميراث بقوله:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ موالي: ورثة. والمعنى: ولكل منكم أيها الناس جعلنا ميراثًا مما تركه الوالدان والأقربون لكم من المال، كلٌّ منكم يرث نصيبه من الميراث بما قدّره الله له ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأَيْمان: جمع يمين وهو القَسَم، وسمي القسَم باليمين وذلك لأنَّ العرب في الجاهلية كانوا إذا تحالفوا وأخذوا العهد على بعضهم بالنصرة والمؤاخاة أخذ كلٌّ منهم بيد صاحبه وأقسموا على هذا العهد، ويقول الرجل لمن عاهده: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسِلْمي سِلْمَكَ، ترثني وأرثك... فيكون لكل واحد من الحليفين السدس في مال الآخر بعد وفاته ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي أعطوهم حظهم من الميراث، وكان هذا الحكم ثابتًا

(١) أخرجه الترمذي.

في الجاهلية وابتداء الإسلام، ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ...﴾ [الأنفال: ٧٥]. أي أن الأقارب أحق بالميراث ممن تحالفتم معهم. ولمّا نسخ الله الميراث لمن تحالفوا معهم جعل الله لهم نصيبًا في الوصية، على أن لا تزيد الوصية عن ثلث ما يتركون من مال بعد وفاتهم ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيدًا﴾ أي إن الله عليم بكل شيء من الأشياء، شهيد عليها، مُطَّلع على أفعالكم فيعلم منكم الوفاء بالعهد أو عدمه.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات

قَوَّامون على النساء: قوَّام، مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته، أي يقومون على نسائهم قيام الولاة المصلحين على الرعية.

قانتات: مطيعات لله ولأزواجهن.

حافظات للغيب: يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب حفظه في النفس والمال.

نُشُوزَهُنَّ: عصيانهنَّ لكم وترفعهنَّ عن طاعتكم.

واهْجروهـن فـي المضاجع: هو أن يوليها الزوج ظهـره في الفراش ولا يكلمها ولا يضاجعها.

فلا تبغوا عليهن: فلا تظلموهن.

شقاق بينهما: اختلافًا بين الزوجين.

تأديب الزوجة المترفعة على زوجها

ثـم تنتقـل الآيات إلى بيان العلاقة بين الـزوج والزوجة وما يترتب على كل واحـد منهمـا من واجبات نحو الآخر مع بيـان الخطوات التي يجب أن يسلكها الزوج في حال عصيان زوجته له والترفع عليه، قال الله تعالى:

﴿**الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ**﴾ قوّامون: جمع قوَّام، وهي صيغة مبالغة من القيام على الشـيء وحفظه، أي أن الرجال يقومون على شـؤون النسـاء بالحفظ والرعاية والنفقة والكسـوة والمسـكن ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ على بَعْـضٍ وَبِمـا أَنْفَقوا مِنْ أَمْوالِهِم**﴾ فحق القوامة مسـتمَدٌّ من التفوّق الطبيعي فـي صفـات الرجـل، ومسـتمَدّ كذلـك من نهـوض الرجـل بأعباء المعيشـة وتكاليف الحياة البيتيّة، فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ولو كانت مثله فـي القـدرة العقلية والجسـدية لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسـرًا في فترة الحمل والرضاعة، وهو الكفيل بتدبير معاشـها وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الأولاد، وعلى هذا فالتفضيل هو تفضيل جنس على جنس لا تفضيل آحاد، فمن النساء من هن أقوى وأميز من الرجال عقلًا ومعرفة.

ثـم شـرع الله في تفصيل أحوال النساء فقسَّـمهن إلى قسمين: صالحات وغيـر صالحـات فقـال فـي شـأن القسـم الأول ﴿**فَالصَّالِحـاتُ قَانِتـاتٌ**﴾ فالصالحات: هن المحسـنات العاملات بالخير ومن صفاتهن أنهن قانتات: أي مطيعـات لله ولأزواجهـن فـي غيـر معصيـة ﴿**حَافِظـاتٌ لِلْغَيْـبِ**﴾ أي

يحفظن الأمور المغيّبة فلا يفشين ما يكون بينهن وبين أزواجهن من أسرار الحياة الزوجية ويحفظن أموالهم ومتاع بيوتهم ويحفظن فروجهن فلا يَخُنَّ أزواجهن ﴿**بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ بحفظ الله إياهن ومعونته وتسديده، أو بمعنى: بما لهن من حقوق على أزواجهن من مَهْرٍ وحُسن معاشرة.

أمّا القسم الثاني فقال سبحانه في شأنهن: ﴿**وَاللاتي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ**﴾ ونشوز الزوجة هو عصيانها لزوجها والترفع عليه وإظهار كراهيتها له، وأصْل النشوز في اللغة هو ما ارتفع من الأرض. والمعنى: واللاتي تخافون عصيانهن وتعاليهن عليكم ـ أيها الأزواج ـ بما أوجب الله عليهن من طاعتكم. والتعبير القرآني ﴿**تَخافُونَ**﴾ فيه إشارة إلى أن علاج النشوز يكون لمجرد الخوف من وقوعه ولا ننتظر حتى يقع ويستفحل بل نعالجه عند وقوع بوادره وظهور أماراته حتى لا يصل الخلاف إلى أقصى درجاته وذلك بأن تهجر الزوجة زوجها وتخرج من منزل الزوجية.

ثم قدَّم القرآن علاجًا للمرأة الناشزة يقوم على ثلاث مراحل: ﴿**فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ في المَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ**﴾.

فالمرحلة الأولى ﴿**فَعِظُوهُنَّ**﴾ والوعظ هو النصح المبني على التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب والتخويف من عواقب الخلاف والعصيان. فالزوج يبادر زوجته في هذه المرحلة فينصحها نصحًا رقيقًا يستعمل فيها لباقته ويثير فيها أحاسيس الحب المتبادلة بينهما، ويُذكِّرها بذكرياتهما الجميلة، ويثني بلطف على أخلاقها وأخلاق أُسرتها ويُحذِّرها شماتة الأعداء دون أن يظهر منه مظهر الضعف أو التذلل، ولا مظهر التهديد أو الوعيد، وقد يتكرر هذا الوعظ ويتنوع بما يراه الزوج مُؤَثِّرًا في زوجته، مع الصبر على ما يظهر منها من عنفوان.

وإذا لم يفلح الوعظ مع الزوجة وظلت مستمرة في غيها تأتي المرحلة الثانية ﴿**وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ**﴾ والهجر مراتب: أدناها يكون الهجر في

موضع النوم بأن يدير لها ظهره ولا يباشرها جنسيًا ولا يُكَلِّمها، من غير مجافاة ولا مخاصمة ولكن لا يهجر بيته، ولكل حالة نوعها مع الزوجة الناشزة.

والحكمة من الهجر في المضاجع أنها عقوبة نفسية تمسّ المرأة في الصميم، فإنّ أكبر ما تعتزّ به المرأة أنوثتها، وأن ترى زوجها هائمًا بها، شديد الميل إليها فإن وجدت منه ما يدلّ على الانصراف عنها وعدم التأثر بأنوثتها، أحسّت بأنها بدأت تدخل في منطقة الخطر على مستقبلها وأنّ عليها ألا تسترسل في عصيانها، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران في المضاجع ليظهر هذا الموقف السلبي من الرجل في أقصى مداه وهنا يتبيّن وضعها فإن كانت مُحِبَّة للزوج فذلك يشقّ عليها وإن كانت مبغضة فيظهر النشوز منها.

ولكن ينبغي أن يُعلم أن أُسلوب الهجران الزوجي لا يمكن أن يستمرّ طويلًا، فهو إمّا أن يؤدّي إلى الغاية المنشودة منه سريعًا، وإمّا أن يظهر أنه غير مفيد، وهنا تأتي الخطوة الثالثة التي ذكرها القرآن ﴿**وَٱضْرِبُوهُنَّ**﴾ والضرب هو الخطوة الأخيرة التي يلجأ إليها الزوج لإصلاح زوجته، فالمرأة التي لا تؤثر فيها الموعظة ولا الهجر في المضجع هي امرأة غير طبيعية تحتاج إلى تأديب يُرجعها إلى طبيعتها.

وليس معنى إباحة الضرب إذا لم ينفع الوعظ والهجر في المضجع إباحته في كل حالة ومع كل امرأة، فجمهور العلماء قيّدوه بالسلامة من الأضرار لوصيّة رسول الله ﷺ أن يكون الضرب «غير مُبَرِّح» أي غير مؤذٍ، وأن يتجنب الوجه. فقد سأل رجل النبيّ ﷺ: ما حق المرأة على الزوج؟ قال: أن يطعمها إذا طعم، وأن يكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبِّحْ[١] ولا يهجر إلا في البيت»[٢].

---

(١) يقبح: لا ينسب شيئًا من أفعالها وأقوالها إلى القبح.

(٢) أخرجه ابن ماجه.

والضرب قيّده العلماء بمن لا يعدّون الضرب في عُرفهم إهانة وأن يراعى فيه المألوف، والناس متفاوتون في ذلك فأهل البدو لا يعدّون ضرب المرأة اعتداء ولا تعدّه النساء عندهم امتهانًا لكرامتهن.

هذا وإنّ الضرب قد ألف الناس أن يؤدّبوا به أولادهم فهل من الحكمة أن تترك المرأة تنساق إلى أهوائها وشهواتها وتُفسد أبناءها وبناتها بتصرفاتها الرعناء وتهدم بيتها أو أن يحاول زوجها إيقافها عند حدّها بلطمة خفيفة تعيد إليها رشدها بعد أن ضاقت كل السبل في إصلاحها، والضرب على علّاته أخفّ وقعًا على المرأة من الطلاق الذي يُبعدها عن بيت الزوجية وأولادها.

كما أنّ هناك بعض النساء من مرضى النفوس وهن قلة يتأدبن بالضرب ولا يتأدبن بغيره، فمنهن من لا تُحسّ قوة الرجل عليها إلا إذا قهرها بقوة جسمه، وهذا الصنف موجود ويحتاج إلى هذا النوع من التأديب.

ورسول الله ﷺ الذي هو قدوة المسلمين تقول عنه عائشة رضي الله عنها: «ما ضَرَبَ رسول الله ﷺ خادمًا له ولا امرأة...»[(١)] كما أن رسول الله ﷺ قال: «خياركم، خياركم لنسائهم»[(٢)].

كما أن رسول الله ﷺ عاب على الذين يضربون نساءهم لأوهى سبب بقوله: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره، أما يستحي؟»[(٣)].

وبعد أن بيّنت الآيات العلاج للمرأة الناشزة حذَّرت الزوج من الاستمرار في إيذائها إذا استجابت له وأطاعته، قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا**﴾ البغي: هو الظلم، والمعنى: فإن

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه.

(٣) أخرجه البخاري.

أطاعت الزوجات أزواجهن فلا تظلموهن بأي نوع من الظلم وعاشروهن بالمعروف.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ هنا إشارة إلى قوة الله القاهرة فوق عباده، وأنه إذا استعلى الزوج على زوجته وعاملها معاملة منكرة فعليه أن يتذكر بأنّ الله العليّ الكبير هو فوقه، وهو محاسِبه على ما قدّمت يداه بعذاب أليم يوم القيامة.

ثم يبيّن القرآن السبيل إلى الإصلاح بين الزوجين إذا استفحل الخلاف بينهما وأصبحت الحياة الزوجية بينهما على حافة الطلاق، قال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ والمراد بالخوف هنا العلم، والخطاب لوُلاة الأمر والقُضاة أو صُلَحاء العائلة، والمراد بالشقاق: العداوة والخلاف بين الزوجين وسُمِّي شِقاقًا لأن كلاً من الزوج والزوجة قصد شقًّا أي ناحية غير ناحية صاحبه **﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾** أي فأرسلوا إليهما حكَمًا من أهل الزوج وحكَمًا من أهل الزوجة لينظرا فيما بينهما من نزاع وشقاق. وقد حمل بعض العلماء ذلك على الاستحباب وقالوا: إذا تعذّر وجود حكَمين من الأقارب جاز للقاضي أن يبعث بحكَمين من الأجانب غير أنهم شددوا على الأقارب لأنهم أعرف بأحوال الزوجين وأشدّ طلبًا للإصلاح من غيرهم **﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾** أي إن يرد الحكَمان الإصلاح بنيّة سليمة يوفّقهما الله لإصلاح ما بين الزوجين من نفور وعداوة **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾** هنا وعيد للزوجين وللحكَمين في حال سلوكهما غير طريق الحق، فهو سبحانه عالم بما أراد الحكَمان، خبير بنيَّاتهما.

وهكذا نرى القرآن لم يذكر الطلاق كوسيلة لفضّ النزاع والخلاف بين الزوجين حرصًا منه على بقاء الحياة الزوجية، لأن الطلاق فيه خراب البيوت وتشريد الأُسرة والجناية على الأولاد.

وقد اختلف العلماء فيما يتولاه الحكَمان، أَيتولّيان الجمع أو التفريق بين الزوجين بدون إذنهما، أم ليس لهما تنفيذ أمر يتعلق بالزوجين إلا بعد استئذانهما؟ يرى بعض الأئمة أنّ للحكَمين أن يُلْزِما الزوجين بما يريانه بدون إذنهما لأن الله سمّاهما حكَمين، والحكَم هو الذي يحسم الخلاف بما تقتضيه المصلحة سواء رضي المحكوم عليه أم لم يرض، وإلى هذا الرأي اتجه ابن عباس ومالك والأوزاعي وغيرهم، ويرى الشافعية والحنابلة أنه ليس للحكَمين أن يُفرِّقا بين الزوجين إلا برضاهما لأنهما وكيلان للزوجين، ولأن الآية الكريمة قد بيّنت أنّ عملهما هو الإصلاح فإن عجزا عنه فقد انتهت مهمّتهما لأن الطلاق من حق الزوج وحده ولا يتولاه غيره إلا بالنيابة عنه.

وقال الحنفية: يرفع الحكَمان ما يريدانه إلى القاضي وهو الذي يطلّق طلاقًا بائنًا بناءً على تقريرهما.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

شرح المفردات

وبِذي القُربى: صاحب القرابة من قِبَلِ الأب أو الأُمّ ويعبَّر عنهم بالأرحام.

واليتامى: جمع يتيم وهو الصغير الذي مات أبوه ويستمرّ يُتمه إلى البلوغ.

والمساكين: جمع مسكين وهو الفقير الذي يقلّ كسبه عن إيفاء حاجته.

الجار ذي القربى: وهو الذي قَرب جواره منك أو مَن له مع الجوار قُرْب اتصال بنَسب.

الجار الجُنُب: وهو الذي بَعُد جواره عنك أو الجار الذي لا قرابة بينك وبينه.

والصاحب بالجَنْبِ: وهو الرفيق الذي يُصاحبكم في معاهد العلم أو الصناعة أو السفر. وقيل: هي الزوجة.

وابن السَّبيل: هو المسافر الذي انقطع عن ماله فتؤويه وتطعمه حتى يرحل عنك.

مختالًا: هو المتكبر المتعالي على غيره.

فخورًا: هو الذي يزعم لنفسه الفضل على ما سواه ويفخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعمته.

دعوة إلى عبادة الله والتكافل الاجتماعي

وبعد أن مرَّ معنا حرص الإسلام على سلامة الأُسرة وتقديم العلاج لكل ما يصيبها من خلاف تأتي الآيات التالية وفيها الدعوة إلى عبادة الله وإقامة التكافل الاجتماعي حرصًا على سلامة المجتمع من كل سوء، قال تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وعبادة الله هي الخضوع لله تعالى والتذلل له بالطاعة والإخلاص له سبحانه في كل ما يعمل لأجله.

ومن مظاهر عبادة الله: الشكر له على نِعَمه، جاء في القرآن: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، كما أنَّ من مظاهر عبادته

سبحانه التوجّه بالدُّعاء إليه وحده جاء في القرآن: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ويقول النبيّ ﷺ: «الدعاء مُخّ العبادة»[1].

وعبادة الله تشمل ما شرعه الإسلام من الصلاة، والصيام والحج والصدقات والتي أطلق عليها الفقهاء اسم العبادات، وذروة العبادات هي الصلاة بما تشتمل عليه من أقوال وأفعال فيها كل معاني الخضوع والثناء على الله.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فالشرك بالله ليس مقتصرًا على اتخاذ الأصنام والأوثان آلهة من دون الله ولكنّ هناك ألْوانًا من الشرك، منها إيثار الشهوات على طاعة الله، جاء في القرآن: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ومن الشرك إيثار حكم الإنسان على حكم الله وتشريعه في التحليل والتحريم.

والشرك بالله كان مصدر شر على البشرية في تاريخها الطويل فهو الذي كبّل عُقول الناس بالخرافات والأساطير وحال دون رقيّهم، وجلب لهم الخصام والنزاع والاقتتال فيما بينهم.

ثم يقرن الله الدعوة إلى عبادته بالإحسان إلى فئةٍ من الناس هم أحقّ بالعطف والرعاية. والإحسان هو مرتبة فوق العَدْل، فإذا تعاملت مع الناس فأخذت منهم حقك وأعطيتهم حقوقهم فقد جريت على سُنَّةِ العَدْل، ولكن إذا تجاوزت هذه المنزلة إلى ما هو فوقها بأن تعطي أكثر مما عليك وتأخذ أقلّ مما لك فإنك تجري على سُنَّةِ الإحْسان، فالإحسان زائد على العَدْل.

---

(١) أخرجه الترمذي.

وأول الناس الذين خصَّهم الله بالإحسان ﴿وبِالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾: والإحسان إلى الوالِدَيْن يكون بالصحبة الكريمة وسَدّ حاجتهما والقول الحسَن، وعدم التململ من حياتهما إن بلغا الكِبَرَ وصارت حياتهما عبئًا على أولادهما.

ثم يلي ذلك الإحسان إلى ﴿وَبِذِي القُرْبى﴾ أي الذين جمعت بينك وبينهم رابطة القرابة والنَّسب من جهة الأب أو الأُم كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، وما تناسل من هؤلاء جميعًا.

ومن الذين خَصَّهم الله بالإحسان: ﴿وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ﴾ والإحسان إلى اليتيم يكون بإيوائه والعطف عليه بما يقوم مقام عطف أبيه وسدّ حاجاته، ويسوّي بينه وبين أولاده. وكذلك الإحسان إلى المساكين وهم الفقراء الذين ليس عندهم من المال ما يكفيهم أو لا يجدون عملًا يعملونه أو لا طاقة لهم على عمل لِمَرَضٍ مزمن أو شيخوخة.

ويلي ذلك مَن خصّه الله بالإحسان إلى ﴿وَالْجَارِ ذِي القُرْبَى﴾ أي الجار الذي يتصل بك بصلة الرحم والقرابة، أو الجار القريب المَسْكَن منك ﴿وَالْجَارِ الجُنُبِ﴾ هو الجار الأجنبيّ الذي لا قرابة بينك وبينه أو الجار البعيد المَسْكَن منك مسلمًا كان أو يهوديًّا أو نصرانيًّا. وقيل: مَن ساكن رجلًا في محلّة أو مدينة فهو جاره.

وحقوق الجار كثيرة منها: أن يبدأه بالسلام ويعوده في المرض، ويُعزّيه في المصيبة ويُهنّئه في الفرح ويَصْفَح عن زلّاته ولا يتطلع إلى عوراته ويستر ما انكشف له منها ويغضّ بصره عن زوجته وبناته ويهتمّ بالإهداء إليه وزيارته وصنع المعروف معه، وإعانته فيما يحتاج إليه من المعونة، وعدم التطاول عليه بالبنيان، وعدم إيذائه بالدخان والمياه الوسخة والأصوات المرتفعة.

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبيّ ﷺ في حق الجار وحُسْنِ معاملته منها:

عن ابن عمر ﵄ عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سَيُورِّثُه»[(١)].

كما أن رسول الله ﷺ جعل إكرام الجار من علامات الإيمان فقال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكرِم جاره»[(٢)].

ويقول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه[(٣)]»[(٤)].

كما دعا القرآن إلى الإحسان إلى ﴿**وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**﴾ وهو الرفيق في السفر أو في معاهد العلم أو في التجارة والصناعة وهو الذي يصحبك في ذلك ويكون في جنبك وجوارك. وقيل: هي الزوجة التي تصاحبك. ويتبع ذلك ﴿**وَأَبْنِ السَّبِيلِ**﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله ويكون الإحسان إليه بمساعدته للوصول إلى بلده. وأخيرًا ﴿**وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ وهم الأرقّاء من العبيد والإماء، وقد أوصى القرآن بالإحسان إليهم في وقتٍ كان الرقيق عند أكثر شعوب العالم يُسَخَّر بالأعمال الشاقة بلا رأفة ولا رحمة.

هذا وقد أوْصى رسول الله ﷺ بالأرِقّاء بقوله: «هم إخوانكم وخَوَلُكم[(٥)] جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) بوائقة: جمع بائقة وهي الداهية والشر، والمراد بذلك ألْوان الأذى.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) خولكم: الخول هم العبيد والخدم ونحوهم.

وليُلبِسه مما يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم»[١] ويلحَق بذلك الخدَم.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتالًا فَخُورًا**﴾ نفى الله محبّته ورضاه عن المختال وهو المتكبر، وعن الفخور: وهو الذي يفتخر على الناس ويعدّد مناقبه تكبُّرًا وتطاولًا على مَن دونه، والمختال الفخور يأنف ويترفع عن أقاربه الفقراء وعن جيرانه الضعفاء، وعن المساكين فلا يُحْسِن إليهم ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[٢] وبطر الحق: ردُّه استخفافًا وترفّعًا، وغَمْطُ الناسِ: احتقارُهم وازْدِراؤهم. فالمتكبر يتخيّل لنفسه من الصفات ما ليس فيه فيستعلي على الناس ولا يقوم بحق النعمة التي أنعمها الله عليه.

ثم يبيّن الله صفات هؤلاء المتكبرين:

﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبُخْلِ**﴾ أي هؤلاء يَبْخَلُونَ بأموالهم فلا ينفقونها في وجوه البرّ والخير، ولا يكتفون بهذا بل يأمرون غيرهم بالبخل أيضًا، وهذا من مظاهر قسوة قلوبهم وبطرهم بالنعمة التي أنعمها الله عليهم.

﴿**وَيَكْتُمونَ مَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ كما أنهم يخفون ما أنعم الله عليهم من فضله حتى لا يطمع الناس في بِرِّهم وإحسانهم. وقيل: المراد بالآية هنا الكلام عن اليهود الذين بخلوا بالعلم الذي آتاهم الله في كتبهم بمجيء نبيٍّ من العرب تنطبق صفاته على النبيّ محمد ﷺ فلم يبيّنوه للناس، لأن هذا النبيّ ﷺ لم يأتِ من اليهود ومن سُلالة أنبيائهم يعقوب وإسحق، بل جاء من سلالة إسماعيل فكتموا ذلك على الناس وأمروا الذين وصل علمهم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي.

بذلك إلى كتمان أمر نبوّته ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي وأعدّ الله وهيّأ للكافرين عذابًا يُهينهم ويُذِلُّهم في الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

شرح المفردات

يُنفقـون أموالهم رئـاء الناس: أي قاصدين بإنفاقهم الرياء والسُّمعة لا وجه الله تعالى.

قرينًا: صاحبًا.

تُسَوَّى بهم الأرض: بأن يكونوا ترابًا مثلها.

من صفات الكافرين والمنافقين

ويتابـع القـرآن فيبيّـن صفـات الكافريـن والمنافقيـن، يقـول الله تعالى: ﴿وَالَّذِيـنَ يُنْفِقُـونَ أَمْوالَهُـمْ رِئـاءَ النَّاسِ﴾ أي هـؤلاء يُنفِقُـونَ أموالهم حبًّا

بالظهور ومراءاة للناس وطلبًا للثناء منهم، ولا ينفقون أموالهم على المحتاجين ابتغاء وجه الله وهؤلاء ليس لهم من ثواب عند الله على ما أنفقوا. يقول النبيّ ﷺ: «يقول صاحب المال يوم القيامة لربه: ما تركت من شيء تُحب أن يُنفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله تعالى: كذبت إنما أردت أن يُقال جواد فقد قيل»(١) ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ أي لا يصدّقون بوحدانية الله ولا يصدّقون بوقوع اليوم الآخر ـ يوم القيامة ـ وما فيه من ثواب وعقاب، فلو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لقصدوا في إنفاقهم وجه الله ومرضاته وحده.

﴿وَمَنْ يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ والشيطان هو ما يوسوس للإنسان ويغريه باقتراف المعاصي، والقرين: هو الصاحب الملازم للإنسان والمعنى: أنّ مقارنة الشيطان ومخالطته هي التي دفعت هؤلاء إلى البخل والمراءاة في الإنفاق وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له صاحبًا ملازمًا له، فبئس هذا الصاحب لأنه يُضِلُّه ويقوده إلى الهلاك.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللهُ﴾ الاستفهام هنا للتعجب والإنكار، والمعنى: وأيُّ شيء على هؤلاء المشركين والمنافقين وأيُّ ضرر يصيبهم لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ابتغاء مرضاته؟ إنهم لو فعلوا ذلك لكان لهم ثواب يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ فالله يخبر الناس بأنه مطّلع على أعمالهم وسيحاسبهم على ما فعلوه في دنياهم، وهنا تهديد ووعيد للذين يُعرِضون عن منهج الله وهديه.

ثم يبيِّن القرآن عدالة الله في خلقه:

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المثقال: هو المقدار الذي له ثقل، والمعنى: إن الله لا يبخس الناس حقهم من الأجر ولا يظلمهم قليلًا ولا كثيرًا ولو كان وزن ذرة بل يجازيهم على السيِّئة ويثيبهم على الحسنة ﴿وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْها﴾ أي وإنّ من مقتضيات رحمته أن لا يجزي على السيئة إلا بمثلها وأن يضاعف ثواب الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك ﴿وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويعط الله من عنده لمن رجحت حسناته على سيئاته عطاءً جزيلًا وهو الجنة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي فكيف يكون حال المشركين والمنافقين يوم القيامة إذ يؤتى بنبيٍّ كل أُمة يشهد على قومه بما ارتكبوه من سيئات. فما من أُمَّةٍ إلّا ولها نبيٌّ يشهد عليها، فأعمال كل أُمَّةٍ تُعرَض على نبيها فمن شهد لهم نبيهم بأنهم استجابوا لدعوته فهم النَّاجون. وشهادة النبيّ على قومه جعلها الله حجة عليهم ليكون ذلك على المسيء أبلغ والتبكيت له أعظم وحسرته أشدّ ﴿وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ أي جئنا بك يا محمد شهيدًا على هؤلاء الأنبياء بأنهم بلّغوا رسالة الله ولم يقصّروا في نصح قومهم، وقد يكون المعنى: بأنّ محمدًا يكون شهيدًا على قومه بأنه بلّغهم ما أمره الله بتبليغه، فشهادة النبيّ محمد ﷺ تشمل شهادته على قومه وشهادته على الأنبياء السابقين.

وكان النبيّ ﷺ يَسْتَعْظِمُ أمر هذه الشهادة فقد جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: يا رسول الله أَقْرأُ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: نعم فإني أُحب ان أسمعه من غيري، فقرأتُ سورة النساء حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: أَمْسِك، وفي رواية «حَسْبُكَ الآن» فإذا عيناه

تَذْرفان»[١] وكأنّ النبيّ ﷺ لفرط إيمانه بالله وتخوّفه من يوم الحساب استعظم تلك الشهادة التي وُضعت في عنقه فسالت عبرات عينيه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ في ذلك اليوم ـ أي يوم القيامة ـ يتمنى الذين كفروا لو يُسَوِّي الله بهم الأرض، أي يجعلهم والأرض سواء، أو بمعنى أن تواريهم الأرض وتبتلعهم ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ وحالهم إذ ذاك أنهم لا يستطيعون أن يخفوا عن الله شيئًا مما فعلوا في دنياهم ولا يستطيعون كتمانه حيث تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يقترفون من آثام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣ ﴾

شرح المفردات

عابري سبيل: عابرين المسجد من جانبٍ إلى جانب.

الغائط: المكان المنخفض من الأرض وكانوا يقصدونه لقضاء الحاجة.

لامستم النساء: اتصلتم بهن جنسيًا، أو لمستم بشرتهن.

صعيدًا: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن.

طيبًا: طاهرًا من النجاسة.

---

(١) متفق عليه.

حقوق الصلاة وكيفية التيمم

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الصلاة وآدابها وما يجب في حقها من أُمور، ومن روعة التشريع الإسلامي في القرآن أنه أمر المؤمن بأداء الصلاة وهو على أحسن حالة من الوعي والراحة النفسية، لذا حرّم الإسلام الصلاة على السكران بقوله: ﴿**يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُم سُكارَى**﴾ والسبب في ذلك هو أنّ المطلوب من المصلي الإقبال على الله بقلبه وأن يخلو ذهنه وشعوره من كل ما يشوّش عليه من نوم واحتقان وجوعٍ وكل ما يشغل البال، ولهذا يقول النبيّ ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلّي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإنّ أحدكم إذا صلّى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»[١].

ويقول: «إذا حضر العشاء وأُقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء»[٢].

ثم بيَّن القرآن الحكمة من منع الصلاة في حالة السكر بقوله: ﴿**حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾ لأن الصلاة فيها مناجاة للخالق وتقديسه والثناء عليه وطلب الهداية منه مع الخشوع والشعور بجلاله. كما أن في الصلاة تلاوة سورة الفاتحة وآيات من القرآن والتدبر بمعانيها، وأيّ صلاةٍ تحصل للسكران؟ وأيّ عبادة منه تكون لخالقه وهو في تلك الحالة المزرية؟

وقد رُوي في أسباب نزول الآية أنّ عبد الرحمن بن عوف صنع طعامًا وشرابًا فدعا نفرًا من أصحاب النبيّ ﷺ فصلّى بهم المغرب وهو سكران فقرأ «قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، وأنا عابد ما عبدتم لكم دينكم ولي دين» فأنزل الله ﴿**يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارَىٰ...**﴾.

(١) أخرجه البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي.

وبعد هذا النهي عن أن يقرب المسلمون الصلاة وهم سكارى، حرص المسلمون على أن يكون السكر في غير أوقات الصلاة، وبما أن أوقات الصلاة متقاربة كان ذلك داعيًا لهم لامتناعهم عن شرب الخمر أثناء النهار ومزاولتهم شرب الخمر بعد صلاة العشاء وهذا تحريم للخمرة على سبيل التدرج، ثم حرَّم الله الخمرة بعد ذلك تحريمًا قاطعًا كما جاء في سورة المائدة.

﴿وَلاَ جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ والجُنُب هو من جامع امرأته ولم يغتسل أو حصلت له الجنابة بسبب الاحتلام أو الحيض أو النفاس، ومعنى عابر سبيل هو الذي يمرّ بالمسجد لحاجة ولا يمكنه الوصول إلى حاجته إلا إذا مرّ به.

وقد كانت بيوت بعض الصحابة تجاور المسجد ولا ينفذون إلى الطريق إلاّ منه والمراد بقوله: **﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾** أي مُنع الجُنُب من المكوث في المسجد باستثناء عابر سبيل، فعليه الاغتسال حتى تزول الجنابة.

وقال أحمد وإسحاق في الجُنُب: إذا توضَّأَ لا بأس في أن يجلس في المسجد، ولكن الوضوء لا يرفع حدث الجنابة ولا يصح له الصلاة حينئذٍ.

والاغتسال تعميم الجسد كله بالماء مع تدليكه وهو طهارة حسية وتنشيط للبدن بعد أن أصابه الجهد والشعور باللذة أثناء مزاولته للجنس وما يعقب ذلك من فتور، ويُمْنع الجُنُب من قراءة القرآن غالبًا إلا الآيات اليسيرة للتعوُّذ.

ثم يبيّن القرآن كيفية الطهارة عند انعدام الماء أو الضرر من استعماله:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مرضى: جمع مريض، والمريض هنا هو الذي يضرّه استعمال الماء أو يزيده ضررًا فإن الله يُرَخِّص لهذا المريض أن يتيمم بدل أن يتوضأ أو يغتسل. ومثل حال المرض ما إذا كان الماء باردًا بردًا شديدًا ولا يوجد لدى المتوضئ ما يدفئ به الماء ليتقي ضرره فإنه يسوغ له التيمم، وقد أقرَّ النبيّ ﷺ ذلك فقد رويَ عن عَمرو بن العاص أنه قال: «احْتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فَأَشْفَقْتُ إنِ اغتسلتُ أن أهْلَكَ فتيمّمتُ ثم صلّيتُ بأصحابي الصبحَ، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال النبيّ: «يا عَمْرو، صلّيت بأصحابك وأنت جُنُب» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك النبيّ ﷺ ولم يقل شيئًا»[(١)] بمعنى أنه أباح ذلك.

كما يباح التيمم إذا كان استعمال الماء يؤدي إلى الضرر فقد رُوي عن جابر قال: «خرجنا في سَفَرٍ فأصاب رجلًا منا حجر فشجَّه في رأسه. ثم احتلم فسأل أصحابَه فقال: هل تجدون لي رُخْصَةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رُخْصَةً وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فماتَ! فلمّا قدِمنا على النبيّ ﷺ أُخبر بذلك فقال: قَتَلُوهُ، قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العيّ[(٢)] السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده»[(٣)].

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ والسفر عادة يَقِلُّ فيه الماء فإذا لم يجد المسلم، أو كان ما معه من الماء لا يكفي إلا للشرب فيباح له التيمم.

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) العي: الجهل وعدم الاهتداء لوجه.

(٣) أخرجه أبو داود.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الغَائِطِ﴾ والغائط: هو المنخفَض من الأرض، وكانوا يتبرّزون هناك ويقضون حاجتهم ليغيبوا عن أعين الناس، وهذا التعبير من الكنايات اللطيفة التي اختص بها القرآن.

﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ﴾ كناية عن الدخول بهن ـ أي الجماع ـ حيث يجب الغسل. وقد جوَّز الإمام الشافعي الجمع بين الحقيقة والمجاز فلم يمنع أن يراد باللمس معناه الحقيقي وهو مس بشرة الجسم ـ أي سطح الجلد ـ ومعناه المجازي وهو الدخول بالمرأة، لذا ينقض الوضوء عنده لمس امرأة ليست ذات رَحِمٍ مَحْرَمٍ كالعمّة والخالة مثلًا، ما دامت قد بلغت البلوغ الطبيعي.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ التيمم: معناه القصد، والصعيد: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن(١)، ومعنى طيبًا: أي طاهرًا. والمعنى: وإذا انعدم وجود الماء فاقصدوا وجه الأرض الطاهرة للتيمم به.

وكيفية التيمم بيّنته الآية: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي أن الواجب في التيمم هو مسح الوجه كله ومسح اليدين ظهرًا وباطنًا إلى المِرفقين، وأن التيمم يحصل من ضربتين على صعيد الأرض إحداهما للوجه والأخرى لليدين. هذا ما ذهب إليه أكثر العلماء. وينقض التيمم ما ينقض الوضوء كما ينقضه وجود الماء والقدرة على استعماله بدون ضرر.

والتيمم هو تقرير لزوم الطهارة وتقرير حرمة الصلاة والأمر فيه تعبدي، وهو المحافظة على عادة الوضوء، وإشعار للمؤمنين بأنهم متطهرين، وهو رمز لخلوص القلب وصفاء النفس بالاتجاه إلى الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عفُوًّا غَفُورًا﴾ عفوًّا عن ذنوب عباده ساترًا لخطاياهم.

---

(١) قال الشافعي: لا يقع الصعيد إلّا على تراب ذي غبار، واشترط الشافعي أن يعلق التراب باليد ويتيمم به، وقالت طائفة من الأئمة: التيمم يكون بوجه الأرض ترابًا كان أو رملًا أو حجارة أو معدنًا، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ
وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ
عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ
وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

شرح المفردات

أُوتوا نصيبًا من الكتاب: أُعطوا حظًّا أو جزءًا من التوارة.

يشترون الضلالة: تركوا الهدى وتمسكوا بالضلالة.

السبيل: الطريق القويم.

هادوا: أي اليهود.

راعِنا: ظاهرها بمعنى المراعاة وكان اليهود يقصدون بها الذمّ نسبة إلى الرعونة.

لَيًّا بألسنتهم: صرفًا للكلام عن ظاهره ونهجه.

وانظُرنَا: انتظرنا وأمهلنا حتى نسمع قولك فنفهم.

ضــلال اليـهــود

وبعد أن أرشـد الله عباده المؤمنين إلى كثيرٍ من الأحكام الشـرعية وحذَّر من يخالفهـا بالعقـاب الشـديد جاءت الآيـات التالية وفيهـا التعجب من حـال اليهود

الذين غيَّروا أحكام دينهم وحرَّفوا التوراة وأرادوا إضلال المسلمين عن دينهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتابِ﴾ ألَمْ تر: أي ألَمْ ينته علمك إلى هؤلاء اليهود، والمراد العلم اليقيني لأنه يشبه الرؤية. وهذه العبارة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تُذْكَرُ للتعجب أي أنّ حال اليهود بلغ من الضلال بحيث يُتعجب منه. والمراد بـ﴿الَّذِينَ﴾ أحْبار اليهود، والنصيب: هو الحَظّ، والمراد بالكتاب: التوراة.

فاليهود أُوتوا مقدارًا من التوراة ولم يؤتوا التوراة كلها لأن الأحداث التي توالت عليهم من غارات التتار ومظالم الرومان أَدّت إلى ضياع بعض أجزائها وانقطاع سندها عن التوراة التي أنزلها الله على موسى، ولذا فهم قد وصل إليهم بعض التوراة وهذا البعض لم يعملوا به، بل حرَّفوه وبدَّلوه وفسَّروه حسب أهوائهم.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ﴾ وهؤلاء اليهود يختارون الضلالة على الهدى ويتركون ما أوتوه من الهداية ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ وهم لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من اختيارهم الضلالة بل أرادوا أن تضلوا أنتم أيها المسلمون السبيل، والسبيل: هو الطريق المستقيم الذي هو سبيل الحق.

واختيار اليهود للضلالة هو جحودهم ما يعرفون من العلم بنبوّة محمد ﷺ وكون رسالته حقًّا وصِدْقًا إلى تكذيبه وإنكار نبوته ومحاربته.

كما أنّ اختيارهم للضلالة هو بذل أموالهم في سبيل إضلال أهل الإيمان، وما زال هذا اللون من الضلال سبيلًا من سُبُل اليهود في العالم. ففي أمريكا وأُوروبا يجمعون الأموال بالملايين من أفراد الشعوب وحكوماتهم وتوضع تحت تصرُّف الدولة العبرية كي تحارب الإسلام وتقضي على شعوبه، وهذه الأموال التي جمعوها تُحوَّلُ إلى جهود مادية وإلى كتب تؤلَّف وإلى إذاعات تذاع وإلى صحف تَدُسُّ الطعن والأكاذيب في سبيل التنفير من الإسلام.

ويتابع القرآن مخاطبة المؤمنين بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ والله أعلم بأعدائكم منكم ـ أيها المؤمنون ـ فاْحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم لأنهم يريدون لكم الخذلان والضلال ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي يتولى أُموركم وينفعكم بما شاء ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي يدفع عنكم مكرهم وشرّهم فاكْتَفوا بولايته ونُصرته ولا تُبالوا بهم، وفي ذلك وعد للمؤمنين بالنصر عليهم ووعيد لأعدائهم بالخذلان والذل. والملفت للنظر أنه سبحانه لم يقل وكفى بالله وليًّا ونصيرًا بل كرر لفظ (كفى) للتأكيد والمبالغة وليكون التكرار أشدّ تأثيرًا في القلب لإلقاء الطمأنينة في قلوب المؤمنين.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ هادوا: هم اليهود، أي فريق من اليهود يحرّفون أحكام التوراة، والتحريف: الإمالة والإزالة، أي يميلون كلام التوراة عن مواضعها ويجعلون مكانه غيره أو يتأولونه على غير تأويله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبي: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، كما كانوا يخاطبون النبيّ ﷺ بقولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهذه الجملة تحتمل معنى الشر ومعنى الخير، موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير للنبيّ ﷺ مع أنهم لا يريدون له إلّا الشرّ. ففي معنى الخير: اسمع مِنّا غير مُسْمَع كلامًا تكرهه. وفي معنى الشرّ: هو دعاء على النبيّ ﷺ بأن يُصاب بالصمم فلا يسمع خيرًا قط وهو ما كان يقصده اليهود من قولهم هذا. كما كان اليهود يقولون للنبيّ أيضًا ﴿وَرَاعِنَا﴾ وهي كلمة ذات معنيين: تحتمل معنى الخير: أي راعِنَا سمعك وأصغِ إلينا حتى نفهمك وتفهم عنا. كما تحتمل معنى الشر وهي رميٌ للنبيّ بالرعونة والحمق، لذا كان اليهود يُظهرون للنبي التوقير والاحترام ويضمرون له الإهانة والاستهزاء. وكانت غايتهم من ذلك: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي صرفًا للكلام عن ظاهره ونهجه إلى المكروه من معناه للطعن في الإسلام.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي لو أنهم عندما سمعوا شيئًا من أوامر الله ونواهيه قالوا: سمعنا وأطعنا ﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ واسمع إجابتنا دعوة الحق وانظر إلينا نظرة إقبال وعطف ورعاية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان خيرًا لهم عند الله - مما قالوه سالفًا - ولكان أعدل وأصوب.

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ولكنهم لم يفعلوا ما ينبغي من الحق والصواب لأنّ الله طردهم من رحمته بسبب كفرهم وعصيانهم ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلًا﴾ ولكنّ الله بعدله وحكمته لا ينفي عنهم الإيمان نفيًا مطلقًا بل يقرر أن منهم من يؤمن ولكن عددهم قليل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

شرح المفردات

نَطمس: الطمس هو استئصال أثر الشيء والإزالة.

أدْبارها: جمع الدُبُر، وهو الظهر والقفا.

أصحاب السبت: هم اليهود المتمردون على أوامر الله بالصيد يوم السبت بعد أن نهاهم الله عن الصيد فيه.

افترى: اختلق وارتكب.
يُزَكُّون أنفسهم: التزكية هي مدح الإنسان نفسه بالصلاح.
فتيلًا: الخيط الذي يُبطِّن نواة التمر والمراد: لا يُظلمون أدنى ظلم.
مبينًا: ظاهرًا واضحًا.

إنذارٌ لليهود وإثم الشرك بالله

وبعد أن ندَّد اللهُ بسلوك اليهود وبيَّن ضلالهم ومحاولتهم إضلال المؤمنين دعاهم في الآيات التالية إلى الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وما أُنزل عليه من القرآن منذرًا إياهم بأشدّ العذاب في حال استمرار محاربته، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم﴾ ناداهم الله بوصف كونهم أهل كتاب إلٰهيّ وهو التوراة ليحملهم على ترك ما هم عليه من إنكار نُبُوَّة محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن، فإنّ كونهم أهل كتاب إلٰهيّ يقتضي مسارعتهم إلى التصديق بنبوّة محمد وبالقرآن الذي أُنزل عليه بناءً على ما فيه من الدلائل والبراهين على أنه وحي إلٰهيّ، فهو مصدِّق لما معهم من التوراة وموافق لها في أُصول الدين وسيرة الأنبياء والآداب ومصحِّحٌ لما طرأ عليها من الإضافات الغريبة التي أُلصقت بها والتي تنافي هدى الله. ثم ينذرهم الله بسوء العاقبة في حال رَفْضِهم دعوة الإسلام.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِها﴾ هذا النص القرآني ذهب المفسرون فيه جملة تأويلات:

منها: من قبل أن نمحو وجوهكم فنذهب بالأنف والفم والعين فتصير وجوهكم على هيئة مؤخر الرأس.

ومنها: من قبل أن نُضِلّكم إضلالًا لا تهتدون بعده.

ومنها: من قبل أن نمحو آثاركم في الحجاز ونردّكم على أدباركم إلى البلاد التي جئتم منها ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ اللعن: الطرد من رحمة الله وإنزال العذاب. وأصحاب السبت هم قوم من اليهود حرّم الله عليهم الصيد في يوم السبت لينصرفوا للعبادة وكانت قريتهم تطلّ على البحر فاختبرهم الله بأن جعل الحيتان تأتي يوم السبت ظاهرةً على الشاطئ وهو اليوم الذي ينقطعون فيه عن العمل للعبادة ولا تأتيهم في اليوم الذي يعملون فيه وكان ذلك اختبارًا لهم، فتحايلوا على استحلال ما حرّمه الله بحِيَل يحصلون بها على الصيد في هذا اليوم وعصوا ربهم، فلعنهم الله ومسخهم قردة ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعولًا﴾ وقد ثبت وتقرر أن أمر الله فيما يخبر به مقدّر وواقع لا محالة وقد تحقق ما أنذر الله به اليهود المعاصرين للنبيّ محمد ﷺ الذين ناوأوه وحاربوه فقتل المسلمون الكثير منهم وأجلوا الباقين عن جزيرة العرب تاركين أموالهم وممتلكاتهم في أيدي المسلمين.

ثم يبيّن القرآن مبلغ الإثم الذي يلحق من يقول إن لله شريكًا:

﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ إنّ الله لا يغفر ذنوب من مات مشركًا بالله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ويغفر ما سوى ذلك من سائر الذنوب لمن يشاء من عباده أن يغفر له. وفي الآية دليل على أنّ من اقترف كبيرة من كبائر الإثم إذا مات من غير توبة فإنه في خطر المشيئة الإلٰهية إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة بفضله وكرمه وإن شاء الله عذَّبه بالنار على قدْر معصيته ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ ومن يجعل مع الله شريكًا ﴿فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي بهذا الشرك يكون قد افترى، والمفتري هو الكاذب، لأنه عندما يعتقد بأن لله شريكًا يكون قد اختلق كذبًا وارتكب إثمًا كبيرًا لا يُغفر له إن مات عليه، والشرك قسمان: أحدهما شرك

في الألُوهية وهو اتخاذ شريك مع الله وله سلطة وتدبير في الكون وهذا ما نفاه الله عنه بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٢، ٣].

والثاني: شرك في الربوبية، وهو جعل سلطة التشريع وتبيان أحكام الحلال والحرام، للأحْبار والرهبان الذين غيّروا وبدَّلوا في كتاب الله، زاعمين أنهم لا يتكلمون إلا عن الله وإن كان كتاب الله يخالف قولهم وهو ما أشار الله إليه بقوله:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وقد فسَّر النبيّ ﷺ اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا بطاعتهم لهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام.

كما أن إطلاق لفظ الألُوهية على المسيح عليه السلام هو شرك بالله وكفر به جاء في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ...﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك بالله هو وليد الجهل والوهم فهو يجلب من المساوئ للمجتمع الإنساني ما لا تجلبه عقيدة أخرى، ونراه بجانب مناقضته للعقل والمنطق يجعل الأذهان خاضعة لقبول كل الأوهام والخرافات والأساطير، وكثيرًا ما خالط الشرك شرائع الله بسبب ما روَّجه المبتدعون من خرافات، فشوّهوا بذلك سُموَّ الدين ومهّدوا السبيل للطعن فيه من قِبَلِ الملحدين.

يقـول صاحب تفسير المنار الشيخ رشيد رضا: أمّا الحكمـة في عدم مغفرة الشرك فهي أنّ الدين إنما شُرِعَ لتزكية نفوس الناس وتطهير أرواحهم وترقية عقولهم، والشرك بالله هو منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم ونفوسـهم، ومنه تتولد جميع الرذائل والخسـائس التي تفسـد البشـر... لأنه عبـارة عـن رفعهـم لأفراد منهـم أو لبعـض المخلوقات التي هـي دونهم أو مثلهـم إلـى مرتبة يقدّسـونها ويخضعـون لها ويذلّـون، بدافع الشـعور بأنها ذات سـلطة عُلْيا فوق سـنن الكون وأسبابه... وهذا ما سبّب استبداد رؤساء الدين والدنيا بالأقوام والأُمم واسـتعبادهم إياهـم... وناهيك بما كان لذلك من الأخلاق السـافلة والرذائل الفاشـية من الذل والمهانة والدناءة والتملك والكذب والنفاق وغير ذلك...

﴿أَلَـمْ تَـرَ إِلَـى ٱلَّذِيـنَ يُزَكُّـونَ أَنْفُسَـهُمْ﴾ والتزكية هنا عبـارة عن مدح الإنسـان نفسـه بالصلاح والدين، وقد نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى حيـث قالـوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. وقالـوا ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]. وتزكيـة اليهود والنصارى هي أنهم يصفون أنفسـهم بالطهارة والصلاح وأنهم يسـلكون سـبيل الهداية والتقـوى. والاسـتفهام في قولـه تعالى: ﴿أَلَـمْ تَرَ﴾ للتعجب مـن أحوالهم حيث بالغوا في مدح أنفسـهم مع أن الكثير منهم كاذبون لا يسـتحقون هذا المدح.

﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي أن الله سبحانه هو الذي يعلم من يستحقّ التزكيـة والمدح مـن عباده ممن لا يسـتحقّهما، فليدَعِ الناسُ تزكية أنفسـهم ويُفوِّضوا أمر ذلك إلى الله فإن تزكيتهم لأنفسهم ليست سوى دعاوى فاسدة تنبـع مـن محبـة النفس وطلب العلـوّ والترفع عن النـاس والتفاخر على من سواهم.

فتزكيـة الله لإنسـان مـا، هي التـي يُعتدّ بها لأنه سبحانه هـو العالم بما ينطوي عليه قلب الإنسان من خير أو شرّ وما يصدر عنه مِنْ أفعالٍ حسنة أو سيئة لذا جاء في القرآن: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿وَلا يُظْلَمُـونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا ينقص من ثواب أحَدٍ شيئًا وإن قلَّ ولو كان بقـدر الفتيـل: وهـو الخيط الذي يكون في شـق نواة التمـر ويُضرب به المَثَلُ في القلة.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ أي انظر كيف يُكذبون على الله بتزكيتهـم أنفسـهم ويزعمون أن لهم امتيازًا على غيرهـم من الناس ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي كفاهم بهذا الادعاء أن يكون إثْمًا ظاهرًا واضحًا، فالله لا يخص شعبًا بامتياز خاص، بل إن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ
مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن
يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ٥٢ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ
فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ
عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾

شرح المفردات

الجبت: هو كل ما عُبد من دون الله واستعمل في الساحر والصنم والشيطان.

الطاغوت: هو الشيطان وكل صارف عن طريق الخير.

نقيرًا: النقير هو النقطة التي تكون على ظهر النواة.

صَدَّ عنه: أعرض عنه.

كفر اليهود وضلالهم

قبل أن نشرع في تفسير هذه الآيات التي نزلت في اليهود نُمهِّد لذلك بذكر أسباب نزولها، ومفادها أن يهود بني النضير لمّا أجْلاهم رسول الله عن يثرب عزم نفرٌ من أشرافهم منهم سلاَّم بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحُيَيّ بن أخطب أن يُؤَلِّبوا ويحرّضوا الأحْزاب على حرب المسلمين، فخرجوا حتى قدِموا على قبيلة قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممّن اتبعه، قالوا ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون، وإنما حملهم على ذلك حسدُهم للنبيّ محمد وأصحابِه.

هنا نزلت الآيات تعيب على اليهود تفضيلهم المشركين عبَدة الأصنام على دين محمد الذي جاء بوحدانية الله ومحاسن الأعمال، يقول الله تعالى:

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ**﴾ أي ألَم تنظر أيها النبيّ وتَعْجب من حال هؤلاء اليهود؟ الذين أُعطوا حظًّا من الكتاب وهو التوراة، فإن نيلهم أقلّ قدر من علم التوراة ينافي تفضيلهم عبدة الأوثان على النبيّ محمد المرسل من عند الله ﴿**يُؤْمِنونَ بالجِبْتِ**﴾ والجِبْتُ يقال لكل ما عُبِدَ من دون

الله وسمِّيَ الساحر والكاهن والصنم جبْتًا ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ ويؤمنون بالطاغوت وهو الشيطان وكل صارف عن طريق الخير وعن كل معبود من دون الله.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي ويقول هؤلاء اليهود للذين كفروا وهم مشركو مكة إنهم أقوم طريقًا وأحسن دينًا من الذين آمنوا من أتباع محمد، والعجب من شأن اليهود وهم أهل كتاب أن يدفعهم الهوى والتعصب إلى أن يجعلوا كفار قريش وهم عبدة الأصنام أهدى طريقًا من الذين يعبدون الله وحده ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين فضّلوا دين المشركين على دين محمد طردهم الله وأبعدهم عن رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ومن يطرده الله من رحمته فلن تجد له ناصرًا ينصره من عقوبة الله إن حلّت به، ولن تجد له من يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله وسخطه.

هذا الموقف المخزي الذي وقفه اليهود من صاحب الدعوة الإسلامية سيّدنا محمد ﷺ استنكره المؤرخ اليهودي إسرائيل ولفنسون حيث قال:

«... والذي يؤلم كل مؤمن بإلّه واحد من اليهود والمسلمين على السواء إنما تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش ألوثنيين حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية... فكان من الواجب ألّا يتورط اليهود في مثل هذا الخطأ الفاحش وألّا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأنّ عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم لأنّ بني إسرائيل كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم... هذا فضلًا عن أنهم بألْتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة...»[1].

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٤٢.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ﴾ هنا استفهام إنكاري حُكمه حكم النفي أي ليس لهم نصيب من الملك حتى يكون لهم الحق في الإعطاء والمنع والحكم بين الناس **﴿فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾** أي لو أُعطوا نصيبًا من الملك على سبيل الفرض فإنهم لشدّة حرصهم وبخلهم لا يعطون الناس أيَّ قدر من حقوقهم ولو كان ضئيلًا جدًّا، وقد وصف الله هذا القدر من الضآلة بالنقير: وهو النقطة التي تكون على ظهر النواة ويُضرب بها المَثَلُ في القلة والحقارة.

ثم بيّن الله أنَّ سرّ تماديهم في الضلال يرجع إلى الحسد:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى ما آتاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ والحسد هو الألم الشديد لِما يصيب الناس من خير وتمني زواله، وأنّ من يحسد الناس فإنه يُعادي الله على نعمه التي خصها لخلقه، والمراد بالناس في الآية النبيّ ﷺ وأصحابه حسدهم اليهود لِمَا خصهم الله من فضله حيث جعل منهم نبيًّا وأنزل عليه القرآن بينما هم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم وحدهم من خصّهم الله بالنبوّة دون غيرهم من الناس **﴿فَقَدْ آتَيْنا آلَ إبْراهيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَآتَيْناهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾** أي وإذا كنتم ـ أيها اليهود ـ تحسدون الناس لما توهَّمْتم أنّ النبوة خاصة بكم فقد أخطأتم في ذلك، ففضل الله واسع، فقد أعطى الله إبراهيم عليه السلام وذريّته الكتاب والحكمة والنبوّة وأعطاهم الله مع ذلك ملكًا عظيمًا واسعًا على أيدي أنبيائه يوسف وسليمان وداود وغيرهم، فلا غرابة بعد ذلك أن يعطي محمدًا وهو من أولاد إبراهيم مثلما أُعطي الأنبياء من قبل **﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهم مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾** هذا الشطر من الآية فيه بيان لموقف أهل الكتاب من شريعة إبراهيم عليه السلام. أي من أهل الكتاب من آمن بإبراهيم واتبع شريعته ومنهم من كفر به وأعرض عنه ـ وقيل:

الضمير بلفظ ﴿بِهِۦ﴾ هو النبي محمد ﷺ فمنهم من آمن به وما أُنزل عليه من القرآن كعبد الله بن سلام وغيره، ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وكفى بمن لا يؤمن بإبراهيم أو بمحمد أن تكون جهنم بسعيرها ولهيبها مصيرًا لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

شرح المفردات

نُصليهم نارًا: نُذيقهم حرّها ونَشويهم بها.

نضجت جلودهم: احترقت وتلاشت.

ظلًّا ظليلًا: ظلًّا كثيفًا دائمًا لا شمس فيه.

مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة

وبعد أن عدَّد اللهُ جرائم أهل الكتاب وهدَّدهم بالعقاب عليها، أتبع ذلك ببيان جزاء الكافرين عمومًا يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَروا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ والآيات: جمع آية قد

يُراد بها كل جملة من القرآن أو يراد بها الأدلة على وحدانية الله، والمعنى: إن الذين جحدوا آيات القرآن أو الآيات والأدّلة الدالّة على وحدانية الله وأنه المستحقّ وحده للعبادة سوف نُدخلهم يوم القيامة جهنم ليقاسوا حرّها وتحرقهم بنارها ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ**﴾ كلّما احترقت جلودُهم وتلاشت ﴿**بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾ بدّلهم الله جلودًا غير التي احترقت وتلاشت ﴿**لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ ليستمرّ عذابُهم وآلامهم الشديدة إلى ما لا نهاية ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ إن الله كان ولم يزل هو القويّ الغالب الحكيم في أفعالِهِ يضع الأمورَ في مواضعها فلا يعذِّب محسنًا ولا يثيب كافرًا.

يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل تعليقًا على هذه الآية:

هذه الآية تقول: «إن النار كلما أكلت جلودهم بدّلهم الله جلودًا غيرها، والسبب في ذلك أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألمًا شديدًا بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألمًا كثيرًا.

فالله تعالى يقول لنا: إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نُجدِّده كي يستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان»[١].

وإني أتوجّه بإخلاص إلى الذين يدّعون بأن القرآن هو من تأليف محمد ﷺ أن يقفوا وقفة قصيرة، وقفة تأمل خالية من التعصب ويتساءلوا:

(١) عن كتاب «الإسلام والطب الحديث».

هل ما ذكره القرآن من أنواع العذاب الذي يقاسيه الذين كفروا في الآخرة، هل هو من تأليف محمد ﷺ أم هو وحي إلٰهي؟ وهل وصل محمد ﷺ بعلمه ومواهبه إلى مرتبة في الطب يدرك بها مواضع الإحساس والألم في الجسم؟ لا، ليس القرآن من تأليف محمد بل هو وحيٌ إلٰهيّ من عند الله وهو معجزة خصَّ الله بها نبيّه محمدًا ﷺ، وفيها الدلائل على وجود الله ووحدانيته وعلى صدق نبوّة محمد ﷺ وأنه مرسل من عند الله لهداية البشر.

وفي مقابل عذاب الكافرين يذكر القرآن ثواب المؤمنين بقوله:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي والذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وبرسوله محمد ﷺ وما أُنزل عليه من القرآن، وعملوا الأعمال الصالحة التي فيها الخير لهم وللناس جميعًا ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ سيدخلهم الله يوم القيامة بساتين فيها كل أنواع النعيم تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مقيمين فيها أبدًا لا يموتون ولا يُخرجون منها ولا ينغّصهم شيء من زوال هذا النعيم كما هو نعيم الدنيا الذي لا يدوم ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي في الجنّة للرجال أزْواج وللنساء أزْواج، فالرجال ينعمون بزوجات طاهرات من الأدناس المادية فلا حيض ولا نفاس ولا تعتريهم أمراض، وطاهرات من الأدناس المعنوية فلا أخلاق ذميمة ولا نكد يصدر منهن ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قد يُراد به الظلّ الحسّيّ، أي لا يعتريهم ألم الحرّ والبرد، وقد يأتي الظل بما ذكره الراغب الأصبهاني: ويعبّر بالظل عن العِزَّة والمتعة وعن الرفاهة، أي أنّ الله يُدخلهم الجنة في عزٍّ ومتعة ورحمة ورعاية كريمة منه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

شرح المفردات

الأمانات: جمع أمانه، وهي ما يؤتمن الشخص عليه سواء ما يتعلق بحق الله أو الناس.

نِعِمَّا يعظكم به: أي نِعْمَ الشيء يعظكم الله به.

وأُولي الأمر منكم: أصحاب الحلّ والعَقْد في شؤون الناس والدولة من الرؤساء والعلماء.

تنازعتم: اختلفتم.

فَرُدُّوهُ إلى الله والرسول: أي ارجعوا في الحكم به إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

تأويلًا: مآلًا وعاقبة.

أداء الأمانه والحكم بالعدل

وبعد أن ذكر الله ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعَدَّ لهم من نعيم في الآخرة أتْبع ذلك بذكر بعض تلك الأعمال الصالحة التي أكد على أن يأتي الناس بها قال الله تعالى:

﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُـمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانَـاتِ إلى أَهْلِها**﴾ هذه الآية من أُمهات الأحكام التي تضمنت جميع أمور الدين والشرع، والخطاب فيها للرسول محمد ﷺ وللمؤمنين في جميع العصور. وجاءت صيغة الدعوة إلى تأدية الأمانات بكلمة ﴿**يَأْمُرُكُـمْ**﴾ للتأكيد على أدائها بأكمل وجه. كما جاءت ﴿**الأَمانَـاتِ**﴾ بصيغة الجمع لتشمل كل ما يؤتمن الإنسان عليه من ودائع وعلم وأسرار وغير ذلك مما يقع في دائرة الائتمان، والمراد بأداء الأمانات إلى أهلها إرجاعها إلى أصحابها من غير بَخْسٍ ولا نقص ولا مماطلة.

والأمانة منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الناس، ومنها ما يتعلق بحق نفس الإنسان، فالأمانة التي تتعلق بحق الله يحصل أداؤها في فعل ما أمر الله به في جميع التكاليف التي كلفنا الله بها وبالأخص في العبادات التي هي أجَلّ الأعمال الملقاة على عاتق المؤمنين.

والأمانة مع الناس يكون أداؤها بردِّ الودائع، وترك التطفيف في الكيل والوزن وعدم الغش وأن لا يفشي عيوب الناس، كما يدخل فيها عدل الرؤساء مع رعيتهم، وقيام كل فرد بحق الوظيفة المسندة إليه على أتم وجه.

وأمانة الإنسان التي تتعلق بحق نفسه عليه هي بأن لا يختار لنفسه إلا ما هو أنْفع وأصْلح له في دينه ودنياه، وأن لا يستعمل حواسّه وأعضاءه إلاّ في مرضاة الله، فمثلًا: الأمانة في حق اللسان أن لا يستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والفحش في الكلام والطعن في الناس، والأمانة في حق العين أن لا يستعملها في النظر إلى الحرام، والأمانة في حق السمع أن لا يستعمله في الملاهي وما نهى الله عنه من سماع الفحش والأكاذيب وغيرها، وكذا القول في جميع الأعضاء.

وقد عظَّم الله أمر الأمانة في مواضع كثيرة من القرآن فقال سبحانه:
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأثنى الله على المؤمنين الذين يقومون بأداء الأمانة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

كما نهى الله المؤمنين عن التفريط في حق أداء الأمانة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أما ما جاء في الأحاديث الشريفة فقد رُوِيَ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سَلِمَ المُسْلِمون من لِسانِه ويدِهِ والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(١).

كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وإذا ائْتُمِنَ خانَ»(٢). كما رُوي عن النبيّ ﷺ قوله: «لا إيمانَ لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»(٣).

وبعد أن أمر الله بتأدية الأمانات إلى أهلها عقّب على ذلك بقوله: ﴿وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وقد جمع الله بين الأمانة والعدل لما بينهما من ارتباط وثيق حيث إنَّ كُلًّا منهما غايته إيصال الحقوق إلى أهلها.

والعَدْلُ معناه في أصل اللغة المثيل، واستُعمل في الحكم بين الناس فيما يختلفون فيه بحيث يكون هذا الحكم مساويًا للذنب المرتكَب، فإذا ارتكب شخص جُرمًا كان الحكم النازل به مساويًا للجُرم الذي ارتكبه بما يردعه، كما يشمل العدل أن يُسوِّيَ الحاكم بين المُتَقاضِيَيْنِ في النظرة والموقف فلا يتأثّر بالمظاهر ولا بِغِنَى هذا أو وجاهة ذاك.

ولقد دعا الله إلى الحكم بالعدل في كثير من آيات القرآن فقال

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ...﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ونهى الله عن اتباع الهوى في الحكم بين الناس فقال سبحانه مخاطبًا النبيّ داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [ص: ٢٦]، كما أمر الله أن يكون العدل حتى مع الأعداء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ[1] قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. والمعنى: ولا تحملنّكم كراهتكم لقوم وعداوتكم لهم على ترك العدل معهم، بل يأمركم الله أن تعدلوا لأن العدل أقرب إلى تقوى الله.

ومن الملاحظ في الآية أنّ الله قدَّم الأمر بأداء الأمانات على الأمر بالعدل لأن العَدْلَ في الأحكام يُحتاج إليه عند الخيانة في الأمانات التي تتعلق بحقوق الناس ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا[2] يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نِعْمَ الشيء الذي يعظكم به الله: وهو تأدية الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، والوعظ: هو التذكير بالخير والتحذير من الشر بأسلوب يرقّ له القلب وقد يكون فيه زجر وتخويف ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إن الله كان سميعًا لأقوالكم في الأحكام وفي غيرها ﴿بَصِيرًا﴾ بكل أحوالكم وتصرفاتكم وسيجازيكم على كل ما تفعلونه بالخير خيرًا، وبالشر شرًّا.

طاعة الله ورسوله وأُولي الأمر

وبعد أن أمر الله سبحانه المؤمنين بتأدية الأمانات إلى أهلها والحكم

---

(١) شَنَئَان: البغض والكراهية.

(٢) نِعِمَّا: أصله (نِعْمَ ما) رُكِّبَت (نعم) مع (ما) بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة وأدغمت الميمان وحُرِّكت العين الساكنة بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين.

بين الناس بالعدل، أمرهم بعد ذلك بطاعته وطاعة رسوله محمد ﷺ وولاة أُمورهم قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ أمر الله في هذه الآية بطاعته وهي تتحقق بالعمل بما ورد في القرآن لأنه هو الذي يحوي أوامر الله ونواهيه وهو المصدر الأول من مصادر التشريع في الإسلام، لا يُعدل عنه متى وُجد نص للحكم فيه.

ثم أمر الله بطاعة رسوله محمد لأنه هو الذي يبيّن للناس أحكام الشرع الإسلامي ومقاصده التي وردت مجملةً في القرآن فيفصّلها ويزيد عليها بما أوحاه الله إليه مما طرأ من وقائع وأحْداث أفتى بها الرسول وبيَّن فيها الحلال والحرام، وهذا ما هو معروف بالسُّنَّة النبوية، فالسُّنَّة المنقولة نقلًا ثابتًا عن الرسول ﷺ هي المصدر الثاني الذي يؤخذ منه أحكام الشرع بعد القرآن.

ثم أشار الله سبحانه إلى مصدر ثالث من التشريع ألْزم اتِّباعه وطاعته عندما لا يوجد نصّ في القرآن والسُنَّة وهذا المصدر المشار إليه هو ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ الذين يجب طاعتهم وهم العلماء والفقهاء الذين يفتون في الأحكام الشرعية ويعلّمون الناس دينهم.

فهؤلاء إذا اتفقوا على أمرٍ واحد أو حُكْمٍ ما، وجب أن يُطاعوا بشرط أن يكونوا مسلمين، وأن لا يُخالفوا أمر الله ولا سُنَّة رسوله محمد وأن يكون ما اتفقوا عليه ليس فيه معصية للخالق، لقول الرسول محمد ﷺ: «والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ أو كَرِه ما لم يُؤمر بمعصية، فإِنْ أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

---

(١) متفق عليه.

واتفاق أولي الأمر على حكم ما يسمى بـ(الإجماع) وهو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي يصار إليه عندما لا يوجد نص في القرآن والسُّنَّة، وهؤلاء يتألف منهم شبه (مَجْلس أعلى للأُمَّة) يسهر على مصالحها ويُوَجِّه سياستها في السلم والحرب.

وعند التنازع والاختلاف بين أُولي الأمر شرع الله طريقًا لحسم النزاع وهو قوله: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ**﴾ والتنازع هنا لا يعني المحاربة، وإنما المراد من التنازع هو الاختلاف، أي فإن اختلفتم في شيءٍ من أُمور دينكم أو دنياكم فردُّوا ذلك الحكم المختلَف فيه إلى كتاب الله وهو القرآن وإلى سُنَّة رسوله محمد ﷺ بالرجوع إلى ما ورد عن الرسول محمد ﷺ من قول أو عمل يتعلق بذلك الأمر المختلَف فيه ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ**﴾ إن كنتم تصدّقون بالله ربكم وتصدّقون بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب فردُّوا ما تتنازعون فيه إلى قواعد الدين المبيَّنة بالقرآن والسُّنَّة. وفي قوله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنونَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ دليل على أنّ من لم يتحاكم عند النزاع والاختلاف إلى الكتاب والسُّنَّة ولا يرجع إليهما في ذلك لا يكون مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر ﴿**ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ أي ذلك التحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله عند التنازع والاختلاف خير لكم وأصلح من التمادي في الخصومة وأحسن عاقبة ومآلًا.

وعند الخلاف في الأمور التي لم يأتِ فيها نص يُكلِّف أُولو الأمر طائفة من أهل الفقه البحث في الأُمور المختلَف فيها، فتضعها على بساط البحث وتقارن بينها وبين ما ورد في القرآن والسُّنَّة لتضع الأحكام على ضوئهما وهذا ما يسمّى عند الفقهاء بـ(القياس) الذي جعلوه المصدر الرابع من مصادر التشريع الإسلامي.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ
أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا
بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى
ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾
فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ
جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

شرح المفردات

يزعمون: الزعم هو القول حقًّا كان أو كذبًا. ثم كثر استعماله في الكذب.

الطاغوت: هو كل معبود من دون الله أو هو الشيطان أو هو شخص يكون رأسًا في الضلال.

يصدُّون: يُعرضون.

وَعِظْهُم: أي أنصحهم بطاعة الله وأرْشِدهم إليها مع تخويفهم من عقاب الله.

قولًا بليغًا: كلامًا مؤثرًا في نفوسهم.

ضلال المنافقين

من أشدّ ما اُبْتُلِي به الإسلام في بدء ظهوره وجود جماعة من المنافقين كانوا يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكُفر ويَكيدون للإسلام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ومن مساوئ المنافقين التي ذكرها القرآن واستنكرها منهم أنهم كانوا في خصوماتهم يؤثرون التحاكم إلى زعماء اليهود على أن يتحاكموا إلى رسول الله ﷺ.

وقد رُوِيَ أنّ رجلًا من المنافقين كان بينه وبين يهوديّ خصومة، فقال اليهودي: انطلِقْ بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف، وكعب هذا دان باليهودية وكان سيِّدًا في قومه كثير العداء للنبيّ ﷺ وأصحابه وهو الذي سمّاه الله تعالى الطاغوت. فأبى اليهوديّ إلا أن يتحاكما إلى رسول الله ﷺ، فأذعن المنافق وأتى معه إلى رسول الله فاحتكما إليه فقضى لليهودي. يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ألَم ينته إلى عِلْمك يا محمد خبر هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله عليك من القرآن، وما أنزل على الرسل من قبلك من الكتب السماوية، والاستفهام سِيقَ للتعجّب والإنكار من حال أولئك المنافقين بسبب إعراضهم عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ والمراد بالطاغوت هنا ما سوى شريعة الإسلام من أحكام ظالمة بعيدة عن الحق، أو المراد بالطاغوت: كعب بن الأشرف اليهودي الذي رغب المنافقون في التحاكم إليه وكان مفرطًا في الطغيان وعداوة الرسول محمد ﷺ، وقد أمرهم

الله أن يكفروا به وبالأحكام التي تصدر عنه ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا**﴾ واختيارهم الاحتكام إلى طاغية من طغاتهم كان بوسوسة من الشيطان الذي يريد أن يُضِلَّهم عن الحق والهدى.

وقد وصف الله هذا الضلال بقوله ﴿**بَعِيدًا**﴾ وهو عبارة عن عِظَمِ الضلال وتمكّنه فيهم حتى يصعب الرجوع عنه. هذا النص من القرآن يُشْعِرُ بأنه لا يتفق مع الإيمان الصادق أن يتحاكم المؤمن إلى غير ما يقرره القرآن والسُّنَّة، وإنّ كل تحاكُم إلى غير شريعة الله وما تُقرِّره من أحْكام هو تحاكم إلى طغيان يوصل إلى الضلال والبعد عن هدى الله ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وإِلَى الرَّسُولِ**﴾ وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا إلى حكم الله الذي أنزله في القرآن وإلى الرسول محمد ليحكم بينكم به ﴿**رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا**﴾ رأيت يا محمد المنافقين يُعرضون عنك إعراضًا شديدًا.

﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ فكيف تكون حالهم وكيف يصنعون إذا نزلت بهم المصائب بسبب ما فعلوه من المعاصي من تركهم حكم الله واتّباعهم حكم الطاغوت الذي يؤدي إلى التنازع فيما بينهم، أو بسبب افتضاحهم وأنكشاف أمرهم أمام المؤمنين ثم معاملتهم بالإذلال والطرد من حضرة النبيّ محمد ﷺ، فلا يستصحبهم في الغزوات ولا يشاركهم في المغانم ﴿**ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا**﴾ ثم جاءوا إليك يا محمد معتذرين عما صدر منهم، حالفين بالله كذبًا وزورًا بأنهم ما قصدوا بهذا الصدود الإعراض عنك والتحاكم إلى غيرك، وإنما قصدوا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم حتى لا تتسع فيهم شقة الخلاف.

﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلُوبِهِمْ**﴾ أُولئك المنافقون يعلم الله ما في قلوبهم من النفاق والميل إلى الكفر والكيد للمؤمنين ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾

أي فلا تلتفت إليهم ـ يا محمد ـ ولا تُقبِل عليهم حتى يشعروا باستنكارك لِما صدر منهم وأنك غير راضٍ عنهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ والوعظ هو التذكير بفعل الخير وترك الشر والتخويف من عقاب الآخرة ﴿وَقُلْ لَهُمْ في أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ والقول البليغ هو الكلام الذي قَلَّ لفظه وكثر معناه مع حسن العبارة والمراد به هنا القول الذي يشتمل على الإنْذار والوعيد الشديد والترهيب المخيف مما يؤثر فيهم ويردعهم عن غَيِّهم ويعود بهم إلى رشدهم.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ
إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ
لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا
عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا
قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ
وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

توّابًا: من صيغ المبالغة، أي أن الله كثير قبول التوبة من التائبين النادمين على المعصية.

فلا وربِّك: اللام لتأكيد القسم أي (فوربك).

شَجَرَ بينهم: اختلط عليهم من الأُمور وتنازعوا فيها.

حَرَجًا: ضيقًا.

كتبنا عليهم: قدَّرنا.

أشدّ تثبيتًا: أشدّ استقرارًا لهم ورسوخًا لإيمانهم.

رفيقًا: مرافقًا ومؤنسًا.

من علامات الإيمان طاعة الله ورسوله ﷺ

ويُتابع القرآن فيبيِّن أن الرسول الذي يرسله الله إلى قوم يجب أن يُطاع من هؤلاء القوم وأن لا يخالفوا ما يأمرهم به لأنه مُبَلِّغٌ عن الله، قال الله تعالى:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ أي أن الله لم يرسل رسولًا إلى قوم لهدايتهم إلا كان من شأنه أن يُطاع من هؤلاء القوم، وهذه الطاعة هي بإذن الله لأن الله هو الذي أمر بطاعته، وطاعة رسول الله هي من طاعة الله لأن رسول الله يبلّغ قومه ما أمره الله بتبليغه ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ**﴾ أي ولو أنّ أُولئك الذين تحاكموا إلى زعماء اليهود جاءوا إليك يا محمد تائبين سائلين الله أن يصفح لهم عن ذنبهم وهو عدم تحاكمهم إليك ﴿**وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ**﴾ وسأل الله رسوله محمدًا أن يغفر لهم ﴿**لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾ لوجدوا الله كثير القبول لتوبة التائبين كما أنه سبحانه يتفضل عليهم بالرحمة والمغفرة. هنا يُقال: ما الفائدة من ضم استغفار الرسول محمد إلى استغفارهم؟ الجواب: هو أنّ تحاكمهم إلى زعماء اليهود هو إساءة إلى رسول الله ﷺ، ومن كان ذنبه

كذلك وجب عليه الاعتذار لرسول الله عن ذلك، فمجيئهم إلى رسول الله وطلبهم منه أن يستغفر لهم هو اعتراف بذنبهم، كما أن شفاعة رسول الله بطلبه من الله أن يغفر لهم هي أدْعى لغفران ذنوبهم، ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ**﴾ أقسم الله بذاته العليّة وقد أضاف الربوبية إلى النبيّ محمد فقال ﴿**وَرَبِّكَ**﴾ تكريمًا لذات النبيّ وإعلاءً لشأنه، وجواب القسم ﴿**لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ أي لا يؤمنون بالله الواحد الأحد حتى يجعلوك يا محمد حَكَمًا ﴿**فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ أي فيما وقع بينهم من خلاف ونزاع. والمُشاجرة: هي النزاع ﴿**ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ**﴾ أي ثم لا يجدوا في قرارة أنفسهم ضيقًا أو شكًّا فيما قضيت بينهم بما يتنازعون فيه ﴿**وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ وينقادوا لأحكامك ويُذعِنوا لها. وقد أكد الله قوله: ﴿**وَيُسَلِّمُوا**﴾ بالمصدر فقال ﴿**تَسْلِيمًا**﴾ للإشارة إلى وجوب الانقياد إلى نبيّه محمد والإذعان المطلق له من غير أن يثيروا أيّ شبهة، أو يشعروا بضيق حول ما يحكم به.

«ومما يجب التنبيه له أنَّ التحاكم إلى النبي محمد ﷺ بعد وفاته يكون بالتحاكم إلى القرآن وسنّة النبي ﷺ، وعلى هذا فيجب أن يَعْلَمَ كل من يُسمي نفسه مسلمًا أنّ الله يُقرر أنه لا يؤمن مَن لا يتحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ثم لم يجد ضيقًا في حكم الشرع بل يرضى به وينقاد له انقيادًا ظاهرًا وباطنًا»(١).

﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ**﴾ ولو أن الله فرض على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِل إليك يا محمد من القرآن المحتكمين إلى الطاغوت، لو أن الله فرض عليهم مثل ما فرض على بني إسرائيل بأن يقتلوا أنفسهم تكفيرًا لذنوبهم من عبادتهم للعجل،

---

(١) عن كتاب «زهرة التفاسير» للإمام محمد أبو زهرة.

أو فرض الله عليهم الهجرة من أوطانهم للمحافظة على دينهم ﴿**مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾ أي لشقّ عليهم ذلك وما نفَّذه إلاّ نفر قليل منهم ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾ ولو أنهم فعلوا ما وعظهم به رسول الله ونصحهم بإتيانه وانقادوا لما حكم به لكان ذلك خيرًا لهم وأنفع في دنياهم وآخرتهم ﴿**وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**﴾ وكان ذلك أدعى لهم إلى الثبات على الحق والصواب وأبعد لهم عن الضلال وأشدّ تثبيتًا لعزائمهم.

﴿**وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أي ولو نفّذوا ما أمرتهم به يا محمد واستجابوا لك لأعطاهم الله من عنده ثوابًا عظيمًا وفضلًا ليس له حدود وهو الجنة ﴿**وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾ ولأرشدهم الله إلى طريق مستقيم يؤدي بهم إلى صالح الأعْمال ويقرّبهم إلى الله.

﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ**﴾(١) ومن يطع الله بالانقياد لِما أمر به ونهى عنه ويطع رسوله محمدًا فيما جاء به من عند ربه ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ أي هم معهم في دارٍ واحدة ونعيمٍ واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنهم يساوونهم في الدرجة، وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم يكونون ﴿**مِنَ النَّبِيِّينَ**﴾ وهم الذين خَصَّهُم الله بوحيه وجعلهم هداة للبشر وقاسوا في سبيل الدعوة إلى الله أشدَّ الأهوال ﴿**وَالصِّدِّيقِينَ**﴾ وهم في مرتبة تلي النبيين، والصِّدِّيقون: جمع صِدِّيق وهو المبالِغ في الصدق فهو الصادق الذي لا يكذب وهو الذي صدَّق الأنبياء واتَّبع هداهم بكل إصرار ويقين. وإنّ الصدق في القول والعمل إذا صار عادة في الإنسان طهرت نفسه واستقام فكره وعمله ﴿**وَالشُّهَدَاءِ**﴾ وهم المجاهدون الذين يُقتلون في سبيل

(١) هذه الآية قيل إنها نزلت في رجل من الأنصار جاء إلى النبيّ ﷺ وهو محزون، فقال له النبيّ: ما لي أراك محزونًا، فقال: يا رسول الله غدًا تُرفع مع الأنبياء فلا نصل إليك، فنزلت هذه الآية: ﴿**ومن يطع الله والرسول..**﴾ ... إلخ.

الله لإعلاء كلمة الحق قاصدين وجه الله بقتالهم، وقيل: هم الذين يشهدون بصحة دين الله بالحجة والبيان.

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ وهم من صلحت نفوسهم وأعمالهم فهم الصالحون في الباطن والظاهر فأدّوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ والرفيق هو الصاحب الذي يلازمك في عمل أو سفر. وإن لفظ ﴿حَسُنَ﴾ معناه: ما أحسن وأطيب رفقة هؤلاء الرفقاء في الجنة.

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أخبر الله تعالى أنهم لم ينالوا درجة القرب منه بطاعتهم له، بل نالوها بفضله تعالى وكرمه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي يكفي عِلْم الله بطاعة المطيع ومعصية العاصي فإنه لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيجزي المحسن منهم بالإحسان، والمسيء منهم بالعقاب، ويعفو عمَّن شاء من أهل التوحيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ
جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ
قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ
أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ
مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞
فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ
فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح المفردات

خُذوا حِذْركم: تيقَّظوا واحترزوا من مكائد عدوّكم.

فانفروا: اخرجوا للجهاد.

ثُباتٍ: جماعة في أثر جماعة. أو مجتمعين حسب ما تقضي أساليب القتال.

لَيُبَطِّئَنَّ: أي يتباطأ ويتثاقل.

يشرون: يبيعون.

والولدان: جمع وليد وهو الصبيّ.

وليًّا: معينًا.

كيد: الكيد هو الاحتيال في إلْحاق الضرر بالخصم.

القتال لرفع الظلم عن العباد

وبعد أن بيّن القرآن للمؤمنين صفات المنافقين وأمرهم بطاعة الله ورسوله، أمرهم في الآيات التالية بالحذر من الكافرين حتى لا يباغتوهم في عقر دارهم ويُمْعِنوا فيهم قتلًا لأنفسهم وتدميرًا لممتلكاتهم، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ خاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان ليثير في نفوسهم دواعي الاستجابة لِما يأمرهم به وهو أن يتيقظوا

من عدّوهم ويكونوا منه على حَذَرٍ حتى لا يُباغتهم بالهجوم عليهم ﴿فَٱنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ يقال: نفر القوم ينفرون نفرًا إذا نهضوا لقتال عدوّهم وخرجوا للحرب، ومعنى ثُبات: جماعات متفرقة.

والمعنى: اخرجوا أيها المؤمنون لقتال عدوّكم جماعةً بعد جماعة إذا اقتضت الحرب ذلك وظهرت من عدوّكم بوادر العدوان عليكم ﴿أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أو أخرجوا لقتال عدوّكم جماعة واحدة، والمراد بذلك تعبئة كل الجيش لملاقاة العدوّ إذا لزم الأمر واستشعر منه الخطر، يساند الجيش كل أفراد الأُمّة كُلًّا حسب قدرته واختصاصه ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وإنّ من بينكم يا معشر المسلمين لمن يتباطأ ويتخلّف عن الخروج للجهاد أو ليُبطِّئنَّ سواه. والمتباطئون هم المنافقون وضعاف الإيمان.

والتعبير بقوله تعالى ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ تعبير في أسمى درجات البلاغة والروعة لأنه يصوّر الحركة النفسية للمنافقين وضعاف الإيمان وهم يشدّون أنفسهم شدًّا ويُقدّمون رِجْلًا ويُؤَخِّرون أُخرى عند دعوتهم للجهاد في سبيل الله.

والتعبير عن الإبطاء عُرِضَ بصورة بلاغيّة دقيقة التصوير، فلو قال القرآن «وإن منكم ليبطئن» بحذف لفظ (لمن) لتغيّرت الصورة وتغيّر وقعها في الحس لأنّ التعبير يصبح أسرع ومن ثمّ لا يكون بذات الدرجة في تصوير حالة الإبطاء، ولكن بصياغته بتلك الصورة التي جاءت في القرآن:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ بزيادة ﴿لَمَن﴾ لا تملك إلا أن تخفف من سرعة نطقك ويتجسد في ذهنك معنى الإبطاء لفظًا ومعنى ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي فإن نزلت بكم هزيمة ـ معشرَ المسلمين ـ ولحقت بكم خسارة في الأرواح ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي قال كل فرد من المنافقين أو من ضعاف الإيمان: قد أنعم الله عليَّ حيث لم أكن حاضرًا معهم في المعركة وإلا لكان أصابني مثل الذي أصاب المسلمين من

قتـل وجرح وصرتُ شـهيدًا من شـهدائهم، فإنعام الله عليه فـي نظره هو النجاة مـن القتل والجـراح ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾ أي وإن تفضّل الله عليكم ـ أيهـا المؤمنـون ـ بالنصر وأنعم عليكم بالغنيمة اسـتولت الحسـرة والغم على المنافقين وندموا على عدم الخروج مع المؤمنين للقتال ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُـمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ هذه الجملة بعد (لَيقُولَنَّ) هي جملة معترضة، بمعنى: كان حالهـم كحـال من لم يكن بينكم وبينهم مـودة، وهذا ظاهر فقد كانوا يضمرون الحقد والحسد للمؤمنين. ثم يأتي وصف تحسّر المنافقين حيث يقول كل واحد منهم: ﴿يا لَيْتَني كُنتُ مَعَهُم فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ليتني كنت مع المسلمين فـي سـاحة القتال فأغنم مغانم كثيـرة وأموالًا وفيرة. فالصلـة والمودّة التي كان المنافقـون يُظهرونهـا للمؤمنيـن تقتضي أن يكونـوا معهم في السـرّاء والضرّاء، ولكنّ نفاقهم كشف سريرة نفوسهم وخبث سلوكهم تجاه المؤمنين.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ﴾ كلمة يَشْرون: مـن الأضـداد تحمـل معنـى البيع والشـراء، وهي هنـا بمعنى البيـع. والمعنى: فليقاتـل في سـبيل الله الذيـن يبيعون الحياة الدنيا وشـهواتها ويطلبـون ثمنًا لها الآخرة وما فيها من جنّات ونعيم دائم ورضوان من الله، وسبيل الله الذي يجب أن يقاتل فيه المسلم هو سبيل الحق وإعلاء دينه ورفع الظلم عن العباد.

فالمسلم كما يقول سيّد قطب: لا يقاتل لمجد شخصيّ، ولا لمجد بيت، ولا لمجـد طبقـة، ولا لمجـد دولـة، ولا لمجد أُمّة، ولا لمجـد جنس، إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض ولتمكين منهجه في تصريف الحياة[١] ومنهج الله هو إقرار العدالة بين البشر ورفع الظلم والطغيان عنهم.

﴿وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ومـن يتقـدّم للقتال في سـبيل الله الذي هو سـبيل الحـق طالبًا رضى الله

(١) عن كتاب «في ظلال القرآن».

سبحانه، فإن قُتِلَ واسْتُشْهِدَ في سبيله أو غلب وانتصر على أعداء الله فسوف يُعطيه الله ثوابًا عظيمًا. والملفت للنظر أنّ الله اقتصر على بيان حالتين بالنسبة للمقاتل في سبيل الله وهما حالة الاستشهاد وحالة الغلبة على العدوّ للإشعار بأنّ المجاهد الصادق لا يبغي من جهاده إلا هاتين الحالتين، ومتى وطّن المجاهد نفسه على ذلك ثبت في قتاله للعدوّ؛ ثم إنّ القرآن قدّم الاستشهاد في الآية على التغلب على العدوّ بقوله: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ للإيذان بأنّ المجاهد المخلص حرصُه على الموت في سبيل الله أشدُّ من حرصه على النصر.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ وَالْوِلْدانِ﴾ والاستفهام في الآية هنا لإنكار واستقباح التخلف عن الجهاد ولا سيّما أنّ الباعث له أمران: أحدهما القتال في سبيل الله والدفاع عن دينه، والثاني: تخليص المستضعفين من المسلمين المستذَلّين بمكة الذين يسومهم الكفّار أنواع العذاب والاضطهاد ولا يستطيعون مقاومة المعتدين. وهؤلاء الضعفاء كانوا يلجأون إلى الله بالدعاء:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ لقد تضرعوا إلى الله بأن يُخرجهم من هذه القرية وهي مكة التي يظلمهم أهلها، والملاحَظ أنّ الله وصف أهل مكة بأنهم ظالمون ولم توصف مكة بالظلم كما وصف غيرها من القرى مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص: ٥٨] وعدم وصف مكة بالظلم هو تشريف لها وتكريم.

وتابع هؤلاء المستضعفون دعاءهم **﴿وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾** أي وهيئ لنا يا ربنا من عندك وليًّا يتولى أمرنا ويحمينا من اضطهاد الظالمين لنا **﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾** وهيئ لنا من عندك من ينصرنا عليهم. وقد استجاب الله دعاءهم حيث يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة المنوّرة، والذين بقوا في مكة نصرهم الله يوم فتحها على يد رسول الله فكان خَيْرَ وَلِيٍّ، وخير ناصر لهؤلاء الضعفاء.

﴿الَّذِيـنَ آمَنُـوا يُقاتِلُونَ في سَـبِيلِ اللهِ﴾ أي الذيـن صدّقوا بوحدانية الله وبرسـوله محمـد الـذي أرسـله الله بالهـدى ودين الحـق يقاتلون في سـبيل إعـلاء كلمة الله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي والذين كفروا يقاتلون من أجل طاعة الشيطان الذي يأمرهم بكل بغي وطغيان وشرّ ﴿فَقَاتِلُـوا أَوْلِيَـاءَ الشَّـيْطَانِ﴾ فقاتلوا أيها المؤمنون أنصار الشـيطان وأعوانه ﴿إِنَّ كَيْـدَ الشَّـيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إنّ مكره ومكر مـن اتّبعه من الكفار كان ضعيفًا واهيًا، والمراد بكيد الشيطان وسوسته لأتْباعه بالاعتداء على المؤمنين وفتنتهم عن دينهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ
أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا
تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ
فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ
حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ
رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

شرح المفردات

كُفُّوا أيديكم: أي امتنعوا عن قتال الكفار.

يخشون الناس: يخشون قتال كفار مكة.

لولا أخَّرتنا إلى أجَلٍ قريب: لولا أخرتنا إلى أن تنقضيَ آجالُنا دون قتال، والأجل هو غاية الوقت في حلول الموت.

متاعُ الدنيا: ما يستمتع به الإنسان في الدنيا.

فتيلًا: الخيط الموجود في شق النواة، يضرب به المثل في القلّة.

بروج مشيّدة: حصون مرتفعة منيعة مُحكمة.

يفقهون: يفهمون فهمًا دقيقًا.

شهيدًا: شاهدًا على صدق رسالتك.

عدم الرهبة من الموت عند قتال المعتدين

وبعد أن دعا القرآن المؤمنين إلى القتال في سبيل الله والدفاع عن النساء والولدان الذين يسومهم كفار مكة أنواع العذاب والاضطهاد، بيَّن القرآن في الآيات التالية أن المسلمين ليسوا سواء في تحمّل أخطار القتال وشدائده، بل منهم من يُحجم عنه خوفًا من الموت ورغبة في التمتع بملاذّ الحياة وشهواتها.

فقد رُوِيَ أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبيّ ﷺ بمكة فقالوا: يا نبيّ الله، كُنَّا في عِزَّةٍ ونحن مشركون فلمّا آمنّا صرنا أَذِلَّة، ـ يريدون أنْ يأمرهم بقتال المشركين ـ قال النبيّ: إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلمّا هاجر النبيّ إلى المدينة المنوّرة أمره الله بالقتال، فامتنع هؤلاء الذين طلبوا الإذْن بالقتال عن مقاتلة المشركين وشاركهم في ذلك المنافقون فنزلت الآية التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي أَلَم تنظر يا محمد فَتَعْجَب إلى الذين رغبوا في القتال قبل أن يجيء الإِذْن به فقيل لهم: لَمْ يأت بعد وقت القتال فكفّوا أيديكم عنه، وذلك في الفترة التي كانوا فيها بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة المنورة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ لقد أمرهم رسول الله بما أوحى الله إليه بأن يمتنعوا عن القتال مؤقتًا وليتجهوا في هذا الوقت إلى تقوية أرواحهم ونفوسهم بإقامة الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما أنّ فيها تخليصَ أنفسهم من أدْران المآثم والاتجاه إلى الله وحده في العبادة مما يقوّي نفوسهم ويُثَبِّت قلوبهم على الإخلاص له ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأَعطوا الزكاة لمستحقّيها من الفقراء بما يحتاجون إليه للعيش الكريم، وبذلك تقوى الروابط الاجتماعية بين أفراد الأُمَّة وتنتفي أسباب البغضاء والحسد بين الأغنياء والفقراء مما تتقوّى بِهِ الجَبْهَة الداخلية التي هي عنصر هامّ في مجابهة الأعداء.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ فلما فُرض عليهم القتال الذي كانوا قد سألوا أنْ يُفرض عليهم وذلك بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ لقد عبّر الله عن الأعداء بقوله ﴿النَّاس﴾ وهو أبلغ توبيخ لهم، إذ الذين يخشونهم هم أناس مثلهم، والتعبير القرآني بأنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ يُعبّر عن ضعف إيمانهم، إذ المؤمن لا يليق به أن يخاف الناس كما يخاف الله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي لِمَ فرضت يا رب علينا الجهاد؟ قالوا ذلك ركونًا منهم إلى الدنيا وجزعًا من القتال وهم ينسون أنّ العزة والكرامة لا تحصلان إلا بالقتال للدفاع عن النفس وتعزيز دين الله ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي هَلاَّ أَخَّرْتنا يا رب إلى أن نموت في منازلنا وفُرشنا عند انتهاء آجالنا فَلا نُقْتَل في ساحة القتال ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يخشون القتال رغبة

بالاستمتاع بالحياة الدنيا بأنّ نعيم الدنيا قليل زائل ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ ونعيم الآخرة خير من الدنيا لأنّ نعيمها باقٍ دائم لا يزول وهي للذين اتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصوا شيئًا في الدار الآخرة من جزاء على أعمالكم ولو كان هذا الشيء ضئيلًا لا تأبهون له في دنياكم. ومعنى الفتيل: الخيط الدقيق الذي يكون في شق نواة التمر، ويُضرب به المَثَلُ في القِلَّة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ﴾ أي في أيّ مكان تكونون سواء كان في ساحة القتال أو بين أهليكم ينزل بكم الموت، وفي التعبير بكلمة ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ إشارة إلى أن الموت كأنه يطلب الإنسان ويتبعه ولا مفر له منه عند انتهاء أجله ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ والبروج: جمع بُرْج وهو الحصن المنيع ويُطلق على القصر العالي، والمعنى: إن كنتم تريدون بانصرافكم عن الجهاد أن تؤخّروا حلول الموت بكم أو تطيلوا الحياة فقد أخطأتم، فإنه حيثما كنتم يدرككُم الموت ولو كنتم في أقوى الحصون وأمنعها أو كنتم في القصور العالية.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ أي إن يصبِ المنافقين نعمة كسعة في الرزق وكثرةٍ في الأموال وصحة في الأبدان يقولوا: هذا الذي أصابنا هو من عند الله، قالوا ذلك لا عن إيمانٍ بالله واعترافٍ بفضله بل قالوه تهوينًا لشأن النبيّ ﷺ وإشارةٍ إلى أنه لا يأتيهم بخير ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي وإن تصبهم قلة في الرزق وشدّة في العيش يقولوا لرسول الله ﷺ: ما أصابنا من سوء إنما حصل بسوء تدبيرك وشؤمك علينا ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ قل لهم يا محمد: إنّ كل ما يصيبكم من نعمة أو سوء هو بقضاء الله وقدره ﴿فَمَالِ هٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ تعبيرٌ لهم بالجهل وتَعَجُّبٌ من سوء فهمهم، أي فما شأن هؤلاء

القوم حتى أصبحوا بعيدين عن الفهم والإدراك ولا يفهمون أن كلاً من الخير والشر هو من عند الله.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ أي ما أصابك يا محمد من خصب ورخاء وصحة وسلامة فبفضل الله عليك وإحسانه إليك ﴿ومَا أصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ وما أصابك من جَدْبٍ وشِدَّة وهزيمة فبذنبٍ أتيته فعوقبت عليه، والخطاب موجّه للنبيّ محمد ﷺ ولكنّ المراد أُمَّته.

يقول الإمام محمد الطاهر ابن عاشور:

«أما السيئة فإنها وإن كانت تأتي بتأثير الله تعالى، ولكن إصابة معظمها: الإنسان، يأتي من جهله، أو تفريطه، أو سوء نظره في العواقب، أو تغليب هواه على رشده. وهنالك سيئات الإنسان من غير تَسَبُّبِهِ مثل ما أصاب الأُمم من خسف وأوبئة وذلك نادر بالنسبة لأكثر السيئات... جزاء على سوء فِعْلٍ»[(١)].

وقد تنزل البليّة بالمؤمن ابتلاءً واختبارًا من الله كما جاء في القرآن ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

كما قد تنزل المصائب بالمؤمن تكفيرًا عن خطاياه، كما جاء في قول النبيّ محمد ﷺ: «ما يُصيب المسلم: من نَصَبٍ[(٢)] ولا وَصَبٍ[(٣)]، ولا هَمٍّ ولا حُزن ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[(٤)].

---

(١) عن تفسير التحرير والتنوير.

(٢) نصب: الإعياء والتعب.

(٣) وصب: مرض وتوجّع.

(٤) متفق عليه.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وأرسلناك يا محمد رسولًا مُبَلِّغًا للناس كافة رسالة ربك التي تخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ وكفى بالله شاهدًا على أنك رسول من عنده تُبَلِّغ ما أُنزل إليك من ربك. وفي هذه الجملة الأخيرة تطمين لقلب رسول الله وتقوية لعزيمته، كما أنّ فيها وعيدًا للكفار، بمعنى: إنّ الله شهيد على من كذَّب رسول الله ﷺ فلا يُفلتون من عذابه.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

شرح المفردات

بَرَزُوا من عندك: خرجوا من مجلسك ظاهرين.

بَيَّتَ طائفة: دبَّروا بليلٍ.

وكيلًا: نصيرًا لمن يعتمد عليه.

يتدبرون القرآن: يتأملون في أساليبه البلاغية ويتفكرون في معانيه.

اختلافًا كثيرًا: تناقضًا في معانيه أو يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع.

الدعوة إلى طاعة الرسول ﷺ والتدبُّر في القرآن

ثـم يأتي الكلام عـن المنافقيـن وموقفهم من نبوة محمـد، وكيف كانوا يُظهرون للنبي ﷺ خلاف ما يخفون في قلوبهم، مبينًا لهم أن طاعة النبي ﷺ هي طاعة لله، قال تعالى:

﴿مَـن يُطِـعِ الرَّسُـولَ فَقَدْ أَطَـاعَ اللهَ﴾ فالله سـبحانه يُخبرنا بـأنّ من أطاع الرسول محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، لأن الرسول محمدًا هـو مُبَلِّـغ عن ربـه فيما أمره الله بتبليغه، وفي هذا تطييـب لخاطر النبيّ وأن لا يكترث لِما نسـب إليه المنافقون من أن البلاء نزل عليهم بشـؤمه. كما أنّ في ذلك بيانًا لشـرف رسـول الله ﷺ وعلوّ شـأنه وارتفاع مرتبته بما لم يبلغ ذلك أحـد، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مـن أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»[١].

ويؤخذ من النص القرآني أن الرسول محمدًا معصوم من الزلل في جميع الأوامـر والنواهـي التي كان يُبلِّغها عن ربه، لأنه لو أخطأ في شـيء منها لم تكن طاعةً لله، كما أن كل تكليف من الله لعبادةٍ في العبادات وسائر الأحكام لم يأت تفصيلها إلا ببيان وتعليم من رسول الله ﷺ، وعلى هذا كانت طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظًا﴾ أي ومن أعْـرض عـن طاعتك يا محمد وعـن اتِّباع الحق الذي جئـت به من عند الله فقد جنى على نفسـه، لأن الله لم يُرْسـلْكَ للناس حافظًا ورقيبًا لأعمالهم أو لتحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي.

ثم يتحدث القرآن عن المنافقين بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي ويقول المنافقون للنبيّ ﷺ إذا أمرهم بشيء للعمل

---

(١) أخرجه مسلم.

بـه ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أَمْرُنَـا وشـأننا طاعة أو بمعنـى: أطعناك طاعـة، كقول الرجل المـطيع من يأمره أمرًا: سمعًا وطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُم غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي فإذا انصرف المنافقون من مجلسك يا محمد بدَّل جماعة منهم وغيَّروا قولك فيما عهدت إليهم من طاعة الله وما نهيتهم عنه من المآثم، بدَّلـوا ذلـك بمخالفة ما أمرتهم به وما نهيتهم عنه ﴿وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي والله سـبحانه يعلـم مـا يبدّلون من أقوالـك ويغيرونها ليسـتمروا على عصيانهم لك، وقد سـجّلته ملائكـة الله في صحائف أعمالهم ﴿فَأَعْـرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تعاقبهـم يـا محمد ولا تُحدِّث نفسـك بالانتقـام منهم ولا تفضحهـم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَـى اللهِ﴾ وفَوِّض أمرك إلى الله في شـأنهم فـإنّ الله يكفيك أمرهم وينتقم لك منهم ﴿وَكَفَى بِاللهِ وكيلًا﴾ وكفى بالله نصيرًا لمن يعتمد عليه.

ثـم تأتـي الدعوة من الله إلـى التفكّر فيمـا يحتويه القرآن من تشـريعات وعقائـد وآداب، قال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّـرُونَ القُرآنَ﴾ والخطاب للناس جميعًا وهو يحمل معنى الإنكار والاستقباح لعدم تدبّرهم للقرآن فلو تدبَّروا ما فيه بإنصاف مجرّدًا عن التعصب لأقرّوا بأنه كلام الله حقًّا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان هذا القرآن من عند غير الله ـ أي من تأليف إنسانٍ ما ـ لَوَجَدُوا فيه اختلافات كثيرة منها:

اختـلاف فـي الأفكار حيث تجـد فكرة في مكان تتناقض مـع فكرة أخرى، واختـلاف في الأخبار حيث تجد خبرًا فـي مَوْضِع مختلفًا عنه في موضع آخر، واختلاف في الأُسلوب حيث تجد بلاغة في موضع ولا تجدها في موضع آخر، فلمـا وجدنا القرآن الكريم لا توجد فيه هذه التناقضات والاختلافات، دلَّنا ذلك على أن القرآن الكريم ليس كلام بشر، وأنه تنزيل من عند الله العزيز الحكيم.

نعـم، إن أيَّ كاتـب أو فيلسـوف أو عالـم لا يسـتطيع أن يأتـيَ بمثل ما أتى القرآن في بيان أُصول العقائد الصحيحة وإصلاح ما طرأ عليها مِنْ بدَعٍ

وأساطير، كما أنه لا يستطيع أن يأتيَ بمثل ما جاء في القرآن من شرائع في تنظيم الأُسرة، ونظام الحكم، وأُسس الاقتصاد السليمة، والعقوبات على الجرائم المخلّة بالأمن، وهذه كلها أُمور اعترف علماء القانون والاجتماع بعدالتها وصلاحيتها لأيّ مجتمع.

ومما يتميز به القرآن دعوته إلى الأخلاق الكريمة، وما تضمَّنَ من إرشادات ساميةٍ وغايات نبيلةٍ في حلو الشمائل وكريم الفضائل، سما بها القرآن إلى أعلى درجات السمو والمثالية الفاضلة.

ثم إن ما جاء في القرآن من الكلام عن الدار الآخرة ووصْف ما فيها من نعيمٍ للأبرار وعذاب للفجار تستشعر من خلالها بأنها ليست من كلام البشر، فضلًا عن وصف أهوال يوم القيامة وصفًا دقيقًا لم تعرفه الأُمم قبله.

كما أنّ القرآن يحتوي على قصص الأنبياء السابقين وما في حياتهم من دروس وعبر، والدعوة إلى الاقتداء بهم خلاف ما جاء في التوارة حيث نسبت إلى بعضهم سَيِّئ الأفعال والمنكرات مما لا يصحّ أن يكون قدوةً للناس، هذا مع العلم أنّ التوراة الحاضرة طرأ عليها التحريف والتبديل كما ذكر ذلك القرآن.

ومما ينفرد به القرآن عن الكتب الدينية السابقة وصف الكائنات بأنواعها كالكواكب والنجوم والرياح والجبال والنبات والحيوان، ملفتًا الأنظار إلى ما فيها من أسرار وخفايا تشهد على عظمة خالقها، مما يزيد إيمان الإنسان بالخالق والتوجه لعبادته بيقين وخضوع.

وإن المنصف المتجرد من عصبيته إذا أقبل على دراسة القرآن بقلب مُنْفَتِحٍ تظهر له الأمور الآتية:

- حسن تأليفه والْتئام كلماته وفصاحته وبلاغته الخارقة.

- صورةُ نظْمه العجيب وأُسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، فليس هو من قبيل الشعر وليس هو من ضروب الخُطَب والسجع.

● الروعةُ التي يشعر بها سامعو القرآن والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته وتأثيره في النفوس.

● احتواؤه على علومٍ لم يَسبق إليها أَحَدٌ من البشر وضَمُّهُ معارف لم يحملها كتاب قبله.

● ما تضمنه من قصص الأوَّلين وأخبار الأُمم الماضية التي لا يعرفها إلاّ من أكْثَر دراسة الكتب والاطلاع على تاريخ الأُمم، مع العلم أن النبيّ محمدًا كان أُمِّيًّا لا يعرف شيئًا من كتب الأولين وأقاصيصهم وأخبارهم، وهذا مما يشهد بأن القرآن وحي آلهي.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أَمْرٌ: خبر عن سرايا الرسول ﷺ.

الأمن: النصر.

الخوف: المراد به هنا الهزيمة.

أَذاعوا به: نشروه وأفشوه.

يستنبطونه: يستخرجون حقائقة الخفيّة بفطنتهم.

وحرِّض المؤمنين: وحثّهم ورَغّبهم.

بأس: البأس يطلق على القوة والعذاب.

تنكيلًا: تعذيبًا وإيلامًا.

عدم نشر الأخبار المتعلقة بالأمن

ولقد كان من عادة المنافقين إشاعة الأخبار التي تُلقي الوهن في قلوب المؤمنين، وأخطر الأخبار المتداولة هو ما يتعلق بالأمور الحربية التي كانت تدور رحاها بين المسلمين والمشركين، وكان ضعاف الإيمان من المسلمين يُقَلِّدون المنافقين في ذلك مما يؤدي إلى الإضرار في جماعة المسلمين، لذا حـذَّر القرآن من ذلك بقوله ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾ أي وإذا غزت سريّة من المسلمين موقعًا للكفار وأنهم أمنوا بالتغلب عليهم، أو أصاب العدو من المسلمين هزيمة أدخلت الرعب إلى قلوبهم أفشى المنافقون خبر ذلك وبَثُّوه بين الناس.

فأخبار انتصار المسلمين على عدوهم قد تؤدي إلى التواكل وعدم الحذر منهم، وأخبار الهزيمة قد تُلقي الرعب والوهن في قلوب ضعفاء الإيمان فتنهار الروح المعنوية في نفوسهم، وقد يكون فيما يُذاع وينشر مصلحة للعدوّ.

﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ**﴾ أي ولو لم يُحدِّثوا بهذه الأخبار وأوكلوا أمرها إلى النبيّ محمد ﷺ حتى يُحدِّث بها ويظهر حقيقتها، وإلى أُولي الأَمْر وهم أهل العلم والفقه في أمور الدولة والخبراء العسكريّون ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ أي لعلِم هذه الأخبار أُولئك الذين يحاولون استخراج الوقائع وإذاعتها، وعلموا ما ينبغي أن يُكتم من

هـذه الأخبـار وما ينبغـي أن يُذاع منهـا ﴿وَلَوْلا فَضْـلُ اللهِ عَلَيْكُـمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولولا فضل الله عليكم بتثبيت قلوبكم على الإيمان ورحمته بما هداكم إليه من طاعته لأتَّبَعَ أكثركم إغواء الشيطان ولم يَنْجُ من هذا الإغواء إلا قليل منكم تفضل الله عليهم بعقل راجح، اهتدوا به إلى الحق والصواب، وتجنبوا غواية الشيطان.

فهـذه الآيات فيها توجيهـات إلى الأفراد والجماعات ووسـائل الإعلام بعدم نشـر الأخبار الحربية وإذاعتها وحصر نشرها بمصادرها العسكرية التي هي على بصيرة بما يصلح أن يُكتم وما يصلح أن يُذاع. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى هو مواجهة ما يسـمى الآن بالحرب النفسـيّة التي يشـنّها العدوّ ببـث الإشـاعات الكاذبـة التي تُلْقـي الوَهن والتخـاذل في قلـوب المؤمنين وتؤديّ بهم إلى الهزيمة.

ولمّا أمر الله بالجهاد ورغَّب فيه أشدّ الترغيب في الآيات السابقة، وذكر قلّة رغبـة المنافقيـن في الجهاد عاد في الآية التاليـة إلى الأمر بالجهاد، فقال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ في سَبِيلِ اللهِ﴾ هنا خطاب للنبيّ ﷺ ويشمل أُمَّتَهُ لأنه لم يَرِدْ في القرآن أن الجهـاد فُـرض عليـه دون أُمَّتـه، والمعنى: قاتـل يا محمد ومعـك المؤمنون فـي سـبيل الله ﴿لا تُكَلَّـفُ إِلاّ نَفْسَـكَ﴾ أي لا تُؤاخـذ إلّا بفعلـك، ولا تُؤاخذ إلّا بـه دون فعـل غيرك ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حُثّهم على الجهاد في سـبيل الله ورغِّبهـم فيـه بذكر ما فيه من الثـواب لمن أتى به والإيمان بوعد الله بالنصرة والغنيمـة ﴿عَسَى اللهُ أن يَكُـفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عسـى: معناها الترجّي في الأمر المحبوب، وعسى بالنسبة إلى الله رجاء محقّق الوقوع، فالله سبحانه يحثّنا ويدفعنـا إلـى الطمع فـي فضله، وقد وعد أن يمنع شـدّة الكفار وسـطوتهم عن المؤمنين ووعده كائن لا محالة، ولا يخلف الله وعده ﴿وَاللهُ أَشَـدُّ بَأْسًـا﴾ والله أشدّ قوة من الكفار ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ وأشد عذابًا لمن عصى أمره.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

شرح المفردات

يَشْفَع شفاعةً: هو التوسط لإيصال شخص إلى منفعة أو خلوص من مضرة.

نصيب منها: أي حصة من ثوابها.

كِفْلٌ: نصيب من وزرها، والوزر هو الإثم.

مُقيتًا: حافظًا.

حسيبًا: محاسبًا ومجازيًا.

الشفاعة والتحية

لا نرى سببًا من الأسباب التي تؤدي إلى النفع أو إلى دفع الضرر إلّا ونجد القرآن الكريم قد دعا إليه ورغّب فيه، من ذلك دعوته إلى الشفاعة الحسنة مبينًا ما فيها من الأجر والثواب لفاعلها. قال الله تعالى:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها﴾ أي مَن يشفعْ بين الناس شفاعة موافقة لشرع الله يكن له فيها نصيب من الأجر. وتطلق الشفاعة على التوسُّط لإيصال شخص إلى منفعة دنيويّة أو أُخرويّة، أو الخلاص من مضرّة ما.

ولقد عَرَّفَ الزمخشري الشفاعة الحسنة بقوله: «هي التي روعيَ بها حق مسلم ودُفع بها عنه شرّ، وابْتُغِي بها وجهُ الله ولم تؤخَذ عليها رشوة، وكانت في أمرٍ جائز، وليست في حدٍّ من حدود الله ولا في حق من الحقوق».

ولقد حثّ النبيّ ﷺ على الشفاعة لقضاء الحوائج ودفْع المضارّ بقوله: «اشفعوا فَلْتُؤْجَروا، وليقض الله على لسان نبيّه ما أحب»[1].

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها﴾ والكِفْل: النصيب، أي ومن يشفع ليضر شخصًا يكن له إثم من هذه الشفاعة.

فمن يشفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر لنفسه، ومن سعى بالنميمة والغِيبة أصابه إثْمٌ فيها، فالشفاعة الحسنة أثنى عليها الإسلام ورغَّب فيها، والشفاعة السيئة ذمَّها الإسلام ونفَّر منها ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقِيتًا﴾ أي وكان الله على تحقيق كل شيء من الأشياء مقتدرًا وحافظًا، من ذلك قدرته على مجازاة كل إنسان بما يستحقه من جزاء، وحفظ كل شيء من الأشياء.

إفشاء السلام بين الناس

ولمّا كان من أسباب المودة والأُلفة بين الناس تبادل التحية فيما بينهم، لذا دعا إليها الإسلام بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ التحيّة: هي السلام، وأصل معنى التحية: الدعاء بالحياة، وكانت العرب قبل الإسلام تقول عند لقاء بعضهم بعضًا: حَيَّاك الله، ثم شرع الإسلام للتحية عبارة

---

(١) متفق عليه.

(السلام عليكم) أي الأمان والاطمئنان لك، أي أنت سليم مني فاجعلني سليمًا منك، كما أن التحية بلفظ السلام هي دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية، هذا مع العلم أن هذه الآية نزلت في سياق أحكام الحرب ومعاملة المحاربين، فمن قال لخصمه: السلام عليكم فقد أمّنه على نفسه.

أما بشأن التحية والردّ عليها فقد أوضحت الآية: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فقد روي أنه إذا قيل لكم (السلام عليكم) فردّوا التحية بقولكم: (السلام عليكم ورحمة الله) وإذا قيل لكم: (السلام عليكم ورحمة الله) فزيدوا عليها وقولوا: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

أما قوله تعالى عن التحية ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ والرد بالمِثْلِ أن تقول لمن قال: السلام عليك: وعليك السلام، إلّا أنه ينبغي أن يكون السلام كله بصيغة الجمع وإن كان المُسلَّم عليه واحدًا، وكذلك الجواب يكون بلفظ الجمع، يقول المُسلِّم: (السلام عليكم) ويردّ التحية بقوله: (وعليكم السلام) وقد أجمع العلماء على أنّ الابتداء بالسلام سُنَّةٌ مُرغّب فيها وردّه فريضة.

وللتحية آداب منها: أن يسلّم الراكب على الماشي، والمارّ على القاعد، والعدد القليل على العدد الكثير، والصغير على الكبير، ولا بأس من التسليم على الصبيان، وأما التسليم على النساء فجائز إلا على الشابات منهن خوف الفتنة من مكالمتهن.

وقد دعا رسول الله ﷺ إلى التحية فيما بين المؤمنين بقوله: «لا تدخلون الجنة حتى تُؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تَحابُّوا، أفلا أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[١].

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي أن الله كانَ محاسبًا ومجازيًا على كل شـيء من أعمالكم التي من جملتها مـا أمرتم به من التحية وردّها بأحسنَ منها ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ﴾ أي أنه سبحانه هو المعبود الذي لا تنبغي العبوديـة إلا له فلا تقصّروا في طاعته والخضـوع لأمره ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ[1] إِلَىٰ يَـوْمِ القِيامَـةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أقسـم سـبحانه ليبعثنكم أحياءً بعـد مماتكم يوم القيامة وليحشـرنكم جميعًا إلى موقف الحسـاب ليقضي فيه بين أهل طاعته ومعصيتـه، فلا تكونوا في شـك فيما يخبركم بـه الله، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ اسـتفهام إنكاري لأن يكـون أحدٌ أصدق من الله فيمـا أخبر به من جمعكم إليه يومَ القيامة وثوابه للمطيعين له وعقابه لمن يعصيه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا
﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ
مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ

(١) ليجمعنكم: اللام هنا لام القسم وكل لام بعدها نون مشددة فهي لام القسم.

ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

شرح المفردات

فِئَتين: فرقتين.

أرْكسهم: رَدّهم إلى الكفر بعد الإيمان.

أولياء: أعوانًا ونُصَراء.

فإن تولَّوا: فإن أعرضوا عن الإيمان والهجرة من دار الكفر.

فخذوهم: أي خذوهم أسرى.

يَصِلون: يلجأون.

ميثاق: عهد.

حَصِرتْ صُدورهم: ضاقت صدورهم.

اعتزلوكم: تركوا قتالكم.

السَّلم: الانقياد والاستسلام.

أُرْكِسُوا فيها: وقعوا في الفتنة أشد وقوع.

ويَكُفّوا أيديهم: أي امتنعوا عن قتالكم.

ثقفتموهم: تمكّنتم منهم.

سلطانًا مبينًا: حجة واضحة.

موقف للمؤمنين تجاه المنافقين

ثـم يأتـي الكلام عن فئـة من المنافقيـن اختلف المؤمنون بشـأنهم: أَهُم

مؤمنـون أم منافقـون؟ فبيَّن اللهُ حقيقتهم في الآيـات التالية وما يتوجب على المؤمنيـن نحوهـم، وقبـل أن نذكـر الآيات التـي وردت فيهم نذكر أسـباب نزولها:

رُوي أن النبيّ ﷺ لما خرج إلى جبل أُحد لقتال المشـركين رجع ناس ممن خرجوا معه لا يبغون قتال المشركين، فافترق فيهم أصحاب رسول الله إلـى فرقتين ففرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا نقتلهم، فنزلت الآيات في شأنهم.

وقيـل: هم أُناس تخلّفوا عن نبـيّ الله وأقاموا بمكة وأعْلنوا الإيمان ولم يهاجروا فاختلف فيهم أصحاب رسـول الله ﷺ، فتولاهم ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، وتبرّأ من ولايتهم آخرون فسماهم الله منافقين، وأمر المؤمنين أن لا يتولّوهم حتى يهاجروا.

يقـول الله تعالـى: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِيـنَ فِئَتَيْنِ**﴾ الخطاب هنا موجّه إلـى المؤمنين الذين اختلفوا في شـأن هؤلاء المنافقين، والاسـتفهام هنا هو للإنـكار بما وقع من الخلاف في شـأنهم، والمعنـى: لِمَ تختلفون في القول بكفر هؤلاء المنافقين وتفترقون في شـأنهم إلى فرقتين ﴿**واللهُ أَرْكَسَـهُمْ بِمَا كَسَـبُوا**﴾ وقـد ردهم الله إلى الكفر وأضلهم بسـبب ما اقترفـوه من أدعائهم الإيمان وإخفائهم الكفر، وبسـبب معاونتهم المشـركين ضد رسـول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين.

﴿**أَتُرِيـدُونَ أَنْ تَهْـدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ**﴾ أتريدون أيهـا المؤمنون أن تهدوا إلى الإسلام من كتب الله عليه الضلالة باعتبار أنه سار في طريقها وانحرف عن سـبيل المؤمنين ﴿**وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَـبِيلًا**﴾ ومن يخذله الله عـن دينـه ويصرفه عن هديـه فلن تجد له يـا محمد طريقًا يهديـه إلى الخير والرَّشاد.

﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾ هؤلاء المنافقون يتمنَّوْن لكم أيها المؤمنون أن تكفروا وتجحدوا وحدانية ربكم وتصديق نبيّكم كما كفروا هم، فتكونوا كفارًا مثلهم وتستووا أنتم وهم في الشرك بالله، هذا التمني من المنافقين يدل على غلوّهم في الحقد والبغضاء وتماديهم في الضلال ﴿**فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ أولياء: جمع وليّ وهو الصديق والحليف والنصير، فالله سبحانه نهى المؤمنين عن مصادقة هؤلاء المنافقين، وأن يتخذوا منهم نصراء حتى يصدر منهم ما يدلُّ على إقلاعهم عن النفاق والضلال، ويُهاجروا من مكة التي شاع الكفر في أهلها إلى موطن الإيمان وهي المدينة المنورة التي هاجر إليها رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين هربًا من اضطهاد الكفار لهم ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾ أي فإن أعرض هؤلاء المنافقون عن الإيمان والهجرة من مكة إلى المدينة المنورة فَأْسُروهم إن قدرتم عليهم، واقتلوهم حيث ما تمكّنتم منهم دفعًا لشرهم وردًّا لكيدهم ﴿**وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾ ولا تتخذوا منهم حليفًا ولا صديقًا ولا وليًّا يتولى شيئًا من مهامّ أموركم، ولا نصيرًا تستنصرون به على أعدائكم.

هذا الحكم ليس عامًّا في كل المنافقين، وإنما هو خاصّ بتلك الفئة التي بدا منها أنها كانت تتعامل مع الكفار ضد المسلمين وظهر منها جليًّا الخيانة والكَيْد لرسول الله ﷺ.

ثم يستثني الله فئتين من المنافقين طُلب من المؤمنين أن لا يتعرضوا لهم بالقتل:

الفئة الأولى: ذكرها الله بقوله: ﴿**إِلّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ**﴾ وهم الذين يلجأون إلى قوم بينكم أيها المسلمون وبينهم عهد أو حسن جوار، فهم بهذا الالتجاء صار حكمهم كحكم من لجأوا إليهم.

والفئة الثانية: هي التي ذكرها الله بقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلوكُمْ أو يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ ومعنى حصرت صدورهم: أي ضاقت، بمعنى أنّ هؤلاء ضاقت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو أن يقاتلوا قومهم، والعرب تقول لكلّ من ضاقت نفسه عن شيء من فِعْلٍ أو قَوْلٍ: قد حَصِر. فهم يكرهون أن يُقاتلوا المسلمين لحبّهم لهم، ويكرهون أن يُقاتلوا قومهم في مكة لأنهم قومهم وعشيرتهم وأهلهم، ولأنهم يخشون إن قاتلوهم أن يُلحقوا الأذى بأموالهم وذرّيّاتهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي لو شاء الله لسلّط المشركين والمنافقين عليكم وجعلهم صفًّا واحدًا في التعرض لكم بسوء، ولكن من رحمة الله بكم أن جعل منهم من يُسالمكم. وتسليط الله المشركين على المؤمنين هو أن يُقدِرهم على ذلك ويُقوّيهم عليهم إمّا عقوبةً منه سبحانه عند ظهور المعاصي بين المسلمين وإما ابتلاءً واختبارًا لإيمانهم.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي هؤلاء الذين استثناهم الله من الأخذ بالأسر والقتل اقبلوا مُسالَمَتهم إنِ امتنعوا عن قتالكم وانْقادوا للصلح والأمان معكم، واسْتسْلَموا لأمركم، ودخلوا في طاعتكم ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفة لا يأذن الله في أسرهم وقتلهم بأيّ طريق من طرق العدوان عليهم.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء هم أُناس من المنافقين كانوا يأتون النبيّ ﷺ فيُظْهِرون له أنهم مسلمون رياءً، ثم عندما يقابلون الكفار يقولون نحن معكم، يريدون بذلك أن يظفروا بالأمن من الجانبَيْن ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ والفتنة: تأتي بمعنى الكفر، والارتكاس: الارتداد والرجوع، والمعنى: أنهم كلما دُعوا إلى الكفر رجعوا إليه وعادوا ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي إن لم يعتزلوا قتالكم، ويمتنعوا عن

حَرْبكـم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ ويمدوا إليكم أيديَهم بالمُسالمة والصلح والأمان ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ ويمتنعوا عن إيذائكم، أي إذا لم ينفّذوا هذه الأمور المشار إليها فعندها ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أي خُذوهم أسرىٰ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ واقتلوهم حيث وجدتموهم وتمكّنتم منهم ﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي وهؤلاء المنافقون جعلنا لكم عليهم حجة واضحة في قتلهم وأسرهم أينما لقيتموهم بسبب بقائهم على الكفر، وعداوتهم لكم وقتالكم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
(٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ
خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا
عَظِيمًا (٩٣)﴾

شرح المفردات

فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ: عتق عبد مؤمن وتحريره من الرِّق.

دِيَةٌ: هي ما يقدمه القاتل من المال لورثة القتيل.

يصَّدَّقُوا: أصلها يتصدقوا، أي يتصدقوا بالدية بالتنازل عنها.

ميثاق: عهد.

خالدًا فيها: ماكثًا في جهنم زمنًا لا نهاية له.

أحكام القتل عن خطأ وعن عَمْد

وبعد أنْ بيَّنت الآيات السابقة أن القتال شرعه الله لرفع الظلم عن المستضعفين ورَدّ عدوان المعتدين، بيَّن القرآن فيما يلي حُكم وقوع القتل بين المؤمنين، سواء كان عن خطأ أو عن عمْد، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً**﴾[1] هذا النفي هو بمعنى النهي الذي يقتضي التحريم، والمعنى: ما صحَّ وما ساغ ولا أُبيح لمؤمنٍ صادق الإيمان أن يقتل إنسانًا مؤمنًا بغير حق إلاّ إذا حَدَثَ ذلك خطأً، لأن قتل المسلم أخاه المسلم حرام قطعًا.

ووجوه الخطأ كثيرة يضبطها عدم القصد بقتل إنسان كأن يُريد اصطياد طيرٍ فيصيب إنسانًا، أو يرمي عَدُوًّا من المشركين المحاربين فيصيب مسلمًا.

والخطأ لا يُحاسَب عليه المؤمن وليس عليه إثم القتل، وإنما يأثم من ترك التحرز وعدم الحذر من الوقوع فيه، ولكن قد يقع الخطأ فيتوجب على القاتل خطأً ما يلي:

---

(١) رُوِي أن هذه الآية نزلت بسبب قتل عياش بن أبي ربيعة الحارثَ بن زيد، وكان الحارث كافرًا يعذب عيّاشًا في مكة بسبب إسلامه فحقد عليه عياش. ثم أسلم الحارث بن زيد وهاجر إلى المدينة المنورة، فلمّا لقي عياش الحارث بن زيد في ضاحيةٍ من ضواحي المدينة ظن أن الحارث لم يزل مشركًا فقتله، فلمّا علم عياش بإسلامه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قتلتُه ولم أشعر بإسلامه، فأنزل الله هذه الآية.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي من حدث منه القتل عن خطأ فالواجب عليه أن يحرِّر عبدًا مؤمنًا من الرِّق، وعبَّر القرآن عن نفس العبد الرقيق بكلمة ﴿رَقَبَة﴾ للإشارة إلى أن الرِّق غِلٌّ معنوي فهو كالغل في الرقاب، ولا يليق بالمؤمن الصادق ولا يجوز له أن يسترقَّ رقاب العباد، ولكن قد يضطر إلى ذلك بالمعاملة بالمِثْلِ وهذا ما كان يحصل في الماضي القديم وفي زمن بعثة النبي ﷺ[1].

والحكمة في تحرير العبد من الرق بَعْثٌ له إلى الحياة «إذ الحرية تساوي الحياة، ولأن الرِّقَّ يُفقد الجماعة عنصرًا عاملًا فيها، فكان لا بد من تعويضها بعنصر عامل فيها، والعبد عمله لسيده، أما الحر فعمله لجماعة المسلمين»[2].

كما أن على القاتِل خطأً واجبات نحو أهل القتيل، وهي ما ذكرها القرآن بقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ والدِّيَة هي ما يُعطى من المال وغيره مما له ثمن إلى وَرَثَةِ أهل القتيل ترضيةً لهم، وهذه الدية يقتسمونها بينهم حسب الميراث.

وقد اتفق الفقهاء على أن الدية هي على عاقلة القاتل، والعاقلة هي عَصَبَته أي أقرباؤه من جهة أبيه. وتحميل العاقلة دفع الدية هي من باب المعاونة وهذا مما يقوي الأُلفة ويزيد المحبة بين أفراد العائلة، وتُلْزَم العاقلة بدفع الدية في ثلاث سنين كل سنة ثلثها، ولا تسقط الدِّيَة إلا في حال التنازل عنها من أهل القتيل والعفو منهم، وهي ما أشار إليها القرآن بقوله:

---

(١) كان الرق شائعًا في زمن نزول القرآن، والإسلام هو أول من سعى إلى القضاء على الرق في العالم بما شرع من الكفّارات، ومن ذلك تخصيص قسم من أموال الزكاة يُصرف على تحرير الأرقاء.

(٢) باختصار وتصرف عن كتاب (زهرة التفاسير) للإمام محمد أبو زهرة.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أصلها «أن يتصدقوا» فأدغمت التاء بالصاد وقد سمّى القرآن هذا التنازل صدقة ترغيبًا في العفو.

ومقدار الدِّيَة هي مائة من الإبل لمن يملك إبلًا كما كان حال العرب في زمن النبي ﷺ، وألف دينار[١] من الذهب لمن لا يملك إبلاً، واثني عشر ألف درهم[٢] لمن يملك فضة.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المقتول خطأً مؤمنًا وبقي في قومه الكفار، فالواجب في تلك الحالة عتق عبد مؤمن من الرِّقّ وإطلاق حريته كفارة عن هذا القتل الخطأ، ولا تجب في هذه الحال الدية لأنها تعود على أعداء المسلمين.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي وإن كان القتيل الذي قُتل خَطَأً من قوم بينكم أيها المؤمنون وبينهم عهد وذِمَّة وليسوا أهل حرب لكم فعلى قاتله أمران ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ فالأمر الأول دية تُسَلَّم إلى أهله يتحملها عاقلة القاتل، والأمر الآخر تحرير عبدٍ مُؤْمِنٍ من الرِّقّ كفّارةً لقتله الخطأ، وبذلك يظهر سموّ الإسلام في رعاية حقوق المعاهدين والذِّمِّيين.

هذا وقد ذهب جمهور من الصحابة والتابعين إلى أن دِيَة أهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ كَدِيَة المسلمين إذا كانوا معاهدين وأهل ذِمَّة.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فمن لم يجد عَبْدًا مؤمنًا لِيُحرِّره من الرق وذلك لأنه لا يملك رقيقًا أو لأنه يعجز عن شرائه ليحرره، أو لعدم وجوده كما هي الحال في العصر الحاضر، فالواجب على القاتل

(١) الدينار (ذهب) = ٤,٢٥ غرامات.

(٢) الدرهم (فضة) = عند الحنفية ٣,١٢٥ غرامات، وعند الجمهور ٢,٩٧٥ غرامين.

ـ في هـذه الحالة ـ الانتقال إلـى البدل وهو صيام شـهرين مُتتابعين وأن لا يقطعـه بإفطـار بعض أيامه لغير عِلَّةٍ حائلةٍ بينـه وبين صومه ﴿**تَوْبَةً مِنَ اللهِ**﴾ تـاب: تأتـي بمعنـى ندم، أو بمعنـى: قبل الله منـه توبته أي أوجـب الله على القاتل الصيام ليتوب الله عليه فيما أخطأ لأن خطأه عظيم ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ أي وكان الله ولم يـزل عليمًا بما يصلح عباده فيما يكلفهم به من فرائض، حكيمًا بما يقضي فيهم من أوامره.

ثم يُبيّن الله مبلغ الجرم وإثمه العظيم لمن يقتل مؤمنًا متعمدًا فيقول سبحانه:

﴿**وَمَـنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**﴾ أي ومن يقتل مؤمنًا قاصدًا قتله ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّـمُ خَالِـدًا فِيهـا**﴾ فجـزاؤه الـذي يسـتحقه على تلـك الجريمـة النكراء دخـول جهنم لِيُعَذَّب بنارِها ماكثًا فيها إلى أبد الآبدين، وبالإضافة إلى ذلك ﴿**وَغَضِـبَ اللهُ عَلَيْـهِ ولَعَنَـهُ**﴾ وغضب الله عليه هو الانتقـام منه بما أعد الله لـه مـن العقاب، واللَّعنَة منه هي إبعاده سـبحانه عن رحمته ﴿**وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ وهيّأ الله عذابًا شديدًا لا يعلم قدره سواه.

هـذه الآيـة كما رأينا تشـتمل على أشـد التهديـد والوعيد بالعـذاب يوم القيامة لمن يسـتحلّ سـفك دماء المسـلمين بغير حق ويشمل قتل كل بريء علـى وجـه الأرض بغير حق مصداقًـا لقوله تعالـى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢].

ولقد بيّن النبي محمد ﷺ عِظَمَ الجرم لمن يَقتل مؤمنًا متعمدًا:

«لَزَوالُ الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»(١).

ويقـول النبـي ﷺ: «أول ما يُقضـى بين الناس يوم القيامة فـي الدماء»(٢) والمقصود بالدماء القتل.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

(٢) متفق عليه.

ويقول ﷺ أيضًا: «سِبَابُ المُسلم فُسوقٌ وقِتالهُ كُفْرٌ»(١)، والفسوق نقص في الإيمان، ومقاتلة المؤمن مساوية للكفر.

كما أن من أقوال النبي ﷺ في هذا الصدد: «كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمُه ومالُه وعِرْضُه»(٢).

فَلْيَرْعَوِ وليتَّعِظْ أُولئك الذين يسفكون دماء المسلمين والأبرياء بسبب الانتقام أو بداعي الغضب أو التعصب لمذهب ما، غافلين عمّا أعدَّ الله لهم من العذاب يوم القيامة.

وبجانب هذا التهديد والوعيد للقاتل عن عَمْدٍ شرع الله القِصاص له: إما أن يُقتل بناءً على رغبة أسرة القتيل، وإما أن تعفو عنه مقابل دية يدفعها القاتل لهم.

والقتل عن عمد يكون بآلةٍ من شأنها أن تقتل كالرصاصة أو السيف أو الرمح أو السكّين أو بحجر كبير، أو بالسمّ أو الخَنْق، كما يكون بآلة ليس من شأنها أن تقتل ولكنه قصد بها القتل.

ولننتقل إلى الكلام بشأن من قتل عامدًا هل له توبة منها؟

لقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ**...﴾ فقال: إن الرجل إذا عَرَفَ الإسلام وشرائع الإسلام ثم قَتَلَ مؤمنًا مُتعمِّدًا فجزاؤه جهنم ولا توبة له. كما قال: إن هذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن وما نسخها شيء. وقد أَيَّد جَمْعٌ من الصحابة والتابعين ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما بأنّ من يقتل مؤمنًا لا توبة له.

فالآية التي نحن بصددها تدلّ بظاهرها على أن القاتل عمدًا لا توبة له وأنه مخلّد في عذاب النار يوم القيامة. وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم.

القاتل عمدًا داخل تحت المشيئة الإلٰهية لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وجاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قوله: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان»(١) كما جاء في الحديث الشريف بما رواه البخاري قصة الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم تاب فتاب الله عليه. وإن أُمة محمد أَوْلى بذلك، والله أعلم.

فباب التوبة إلى الله مفتوح لكل من قصده ورام الدخول فيه لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] والقاتل بعد توبته تحت المشيئة الإلهية إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عذبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

شرح المفردات

ضَرَبتم في سبيل الله: سافرتم وذهبتم للغزو.

فَتَبيَّنوا: فتريثوا فيما يصدر منكم ولا تعجلوا.

أَلْقى إليكم السلام: حيّاكم بتحية الإسلام، أو استسلم وانْقاد إليكم.

تبتغون: تطلبون.

(١) أخرجه البخاري.

عَرَضَ الحياة الدنيا: الغنيمة وهي مال الدنيا الزائل.

فَمَنَّ الله عليكم: تفضّل الله عليكم.

التثبّت ممّن يُعلن إسلامه

وبعد أن تَوَعّد الله بأشدّ العذاب من يَقتل مؤمنًا متعمدًا، أمر الله بالتثبت ممّن يعلن إسلامه، والتروي في اتخاذ موقف منه، دون الحاجة للكشف عما في قلبه لأن ذلك في علم الله وحده.

وقد ورد في أسباب نزول الآية التي نحن في صددها عدة روايات مؤداها:

أن رجلًا مرّ بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنمًا وكان من قوم بين المسلمين وبين قومه عداوة وحرب، فسلَّم على المسلمين بتحية الإسلام وتلفَّظ بما يدلّ على إسلامه، فاعتقدوا أنه كافر، وأنه لم يتلفظ بما يدلّ على إسلامه إلاّ ليحمي نفسه من القتل، فعمد إليه أحدهم وقتله وساق غنمه.

أُخبر رسول الله ﷺ بذلك فحزن حزنًا شديدًا وقال: «قتلتموه إرادة ما معه» ثم توجه إلى قاتله قائلًا: «قَتَلْتَهُ وهو يقول «لا إله إلا الله» فقال قاتِلُه: «إنما قالها تَعَوُّذًا»، فقال رسول الله: «هلّا شققتَ عن قَلْبِهِ». ثم أمر رسول الله بِرَدِّ الأغنام وتحرير رقبة مؤمنة ونزلت الآية التالية بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ والضرب: السير في الأرض، والمعنى: يا أيها الذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وصدَّقوا برسالة محمد وما جاءهم به من عند ربهم إذا سِرْتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله **﴿فَتَبَيَّنُوا﴾** فتثبّتوا مِن حال مَن تقاتلونهم ولا تقتلوا مَنْ أشْكَلَ عليكم أمره إن كان مسلمًا مسالمًا أو عدوًّا كافرًا **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾**

ولا تقولوا لمن استسلم إليكم فلم يقاتلكم مُظهرًا لكم أنه من أهل مِلَّتكم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي أنك لست مؤمنًا، وإنما أعلنت إيمانك لطلب الأمان، بل اقبلوا منه ما اعترف به من أنه مؤمن ولا تقتلوه ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون من وراء قتله الغنيمة والحصول على أمواله التي هي متاع الدنيا الزائل، وعرض الدنيا ما كان فيها من مال سريع النفاد ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فإن الله عنده مغانم كثيرة من رزقه فهي خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام وأقرّ بإسلامه وقتلتموه ﴿كُنْتُمْ مِن قَبْلُ﴾ أي كنتم تُخفون إيمانكم من قبلُ خائفين على أنفسكم ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ فمَنَّ الله عليكم بإعزاز دينه فأَعْلَنتم إسلامكم، فلا تنكروا أن يكون هذا الذي قتلتموه كان يستخفي بدينه خوفًا على نفسه ثم أعلن إسلامه حين علم أنكم مسلمون ﴿فتَبَيَّنُوا﴾[1] كررها القرآن للتأكيد بأن يتثبتوا من حال الذين يقاتلونهم عسى أن يكونوا قد هدى الله بعضهم كما هداكم ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إن الله عليم علمًا دقيقًا لا يخفى عليه شيء وهو سبحانه محاسبكم بمقتضى علمه.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

(١) هناك قراءة للقرآن (فتثبتوا) بمعنى التأكد والتحقق، والمعنيان متقاربان.

شرح المفردات

القاعدون من المؤمنين: المراد بهم الذين لم يخرجوا للجهاد لعذر.

أُولي الضرر: أصحاب الأمراض والعلل التي تمنعهم من الجهاد.

درجة: منزلة عالية.

الحُسْنىٰ: الجنة.

فضيلة الجهاد في سبيل الله

ويتابـع القرآن فيبيّن فضـل المجاهدين في سـبيل الله ومنزلتهم الكريمة العاليـة عند ربهم، قال الله تعالى: ﴿**لا يَسْـتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**﴾.

رُوي في أسباب نزول هذه الآية عن زيد بن ثابت قال: أملى عليَّ رسول الله ﷺ: ﴿**لا يَسْتَوِي القَاعِدُوَنَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ والمُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ**﴾ قال: فجاءه ابن أُم مكتوم وهو يمليها عليَّ، فقال: يا رسـول الله، لو أسـتطيع الجهاد لجاهـدت... ـ وكان رَجُـلًا أعمى ـ فأنزل الله قولـه: ﴿**غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ**﴾ وهم مَن أُصيبوا بمرض مزمن أو عاهة تمنعهم من الجهاد كالعَمىٰ والعَرج والكساح، أي لا يتساوى هؤلاء مع الذين يُقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله والدفاع عن دينه مُضَحِّين بأموالهـم وأنفسـهم ﴿**فَضَّـلَ اللهُ المُجاهِدِيـنَ بِأَمْوالِهِـمْ وَأَنْفُسِـهِمْ علـى القاعِدِينَ دَرَجَـةً**﴾ أي فضَّل الله هـؤلاء المجاهدين على القاعدين عن الجهاد المتخلِّفين عنه لِعِلَّةٍ من مَرَضٍ أو عاهةٍ درجةً، لأنهم يتسـاوون مع المجاهدين في النية على نصرة ديـن الله، لقـول النبي ﷺ عند دخوله المدينة المنورة بعـد غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه». قالوا: «يا رسول الله وهم بالمدينة؟» قال: «نعم وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

فهذا يقتضي أن صاحب العذر يُعْطَى أجر الغازي في سبيل الله إذا كان يتمنى الجهاد لو كان في استطاعته، وفي فضل الله متسع، فيثيب على النية الصادقة ما يثيب على الفعل ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىٰ﴾ ولكلّ واحد من فريقي المجاهدين والقاعدين الذين تركوا الجهاد لعذر المثوبة الحسنة وهي الجنة لحُسْن عقيدتهم وإخلاصهم لربهم ﴿وَفَضَّلَ اللهُ المُجاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِين[1] أجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وفضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين وهم الذين لم يكن لهم عذر يمنعهم من الجهاد، فَضَّلَ الله المجاهدين على هؤلاء بالأجر العظيم والثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة، لأن المجاهدين قد عَرَّضُوا أنفسهم للمخاطر والأهوال وبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، بينما القاعدون عن الجهاد التاركون له لغير عُذْرٍ قد استسلموا للكسل والترف إرضاء لشهواتهم.

فالله سبحانه فَضَّلَ المجاهدين على القاعدين عن الجهاد بعذر درجةً، وفَضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين عن الجهاد بغير عذر درجات.

﴿دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ والدرجة هنا مستعارة للعلوّ المعنوي والمراد بها علوّ الفَضْل ووفرة الأَجْر الحسن، فالله سبحانه يرفع المجاهدين درجات ويُقَرِّبهم إليه فيكونون في مرتبة الصدّيقين والأنبياء والصالحين، لأنهم تعرضوا للاستشهاد في سبيل الله فيكون لهم المقام العالي والمنزلة الرفيعة

---

(١) هناك معنى بليغ أشار إليه العلاّمة الشعراوي ننقله عنه بتصرف من تفسيره للقرآن حيث يقول رَحِمَهُ اللهُ: إن مقابل (القاعدين) في الآية الكريمة (المجاهدون) لكن في مفهوم اللغة والناس أن مقابل (القاعدون) هم (القائمون). ولكن ما الحكمة في مجيء (المجاهدين) مقابل (القاعدين)؟ الحكمة من ذلك هي أن الله يريد أن يبيّن أنه في بداية الإسلام أن على كل مؤمن حين يدخل الإسلام أن يعتبر نفسه جنديًّا في حالة تأهب، فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء بل في حالة تأهب وكأنه واقف دائمًا ليلبي نداء الله، وكأن القاعد المتقاعس عن الجهاد ليس في صفوف المؤمنين.

عند الله، وقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة أَعَدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيله ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السماء والأرض»(١).

كما أن لهؤلاء المجاهدين ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ والمغفرة من الله هي التغطية على ذنوب المجاهدين والعفو عنها وذلك لأن الحسنات يُذهبن السيئات، وأيُّ الحسنات أعظم منزلةً من بذل النفس في سبيل الله. وكذلك فإن لهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ فرحمة الله تنزل بالمجاهدين وتغمرهم في الدنيا والآخرة.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ والغفور من أبنية المبالغة، أي كان الله ولا يزال كثير الغفران لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم، وواسع الرحمة بهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟
كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً
فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا
ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ
يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

(١) أخرجه البخاري.

شرح المفردات

تَوفَّاهم الملائكة: تقبض أرواحهم عند استيفاء آجالهم.

ظالمي أنفسهم: أي ظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله لتركهم الهجرة لنصرة الرسول ﷺ.

مُستضعفين: عاجزين عن القيام بما وجب عليهم.

لا يستطيعون حيلة: لا يجدون وسيلة للوصول إلى غايتهم.

مُراغَمًا: مُتَحوَّلًا يتحول إليه ومكانًا يستقرّ فيه.

وسعة: أي في رزقه.

وقع أجره على الله: ثبت ثوابه عنده.

دعوة المؤمنين إلى الهجرة من أوطانهم في حال اضطهادهم

وبعد أن ذكر الله في الآية السابقة فضْل المجاهدين في سبيله على غيرهم ممن لم يجاهدوا، بيَّن سبحانه في الآيات التالية حال أُناس من أهل مكة أسلموا وشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وكانوا يخفون إسلامهم ولم يهاجروا، بل ظلوا ضمن المشركين يعيشون في كنفهم. فلمّا خرج المشركون إلى بدر لقتال المسلمين أخرجوهم معهم فأصيب بعضهم بجراح وقُتِلَ البعض الآخر، فقال المسلمون في المدينة المنوّرة: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين فاستغفروا لهم، فنزلت الآيات التالية تُبيِّن حقيقة أمرهم وما يتوجب عليهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوفَّاهُمُ المَلائِكَةُ﴾ توفّاهم: أصلها تتوفاهم حُذفت إحدى التاءين تخفيفًا، والمقصود بالملائكة التي توفّتهم ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في حال ظلمهم لأنفسهم حيث أسلموا وآثروا البقاء بين ظهراني المشركين في مكة وتحملوا الذل والهوان منهم، ولم

يهاجروا إلى بلد يأمنون فيه على دينهم وأموالهم وأنفسهم، هؤلاء الظالمو أنفسهم تسألهم الملائكة سؤال توبيخ عند قبض أرواحهم ﴿**قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ**﴾ أي في أي حالةٍ كنتم من أمر دينكم؟ فيجيبونهم: ﴿**قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ أي قالوا معتذرين: كنا نعيش في بلد مقهورين أذِلّاء تحت أيدي المشركين وكانوا يحولون بيننا وبين إقامة شعائر ديننا، وهذا الاعتذار منهم ينمّ عن ضعف نفوسهم، لذا تقول لهم الملائكة: ﴿**قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾ والاستفهام هنا إنكاري، والمعنى: أَلَمْ تكن أرض الله واسعة، فلماذا لم تهاجروا منها إلى أرض الله الواسعة حيث تنضمّون إلى جماعة المؤمنين فيقوون بكم وتنالون العزة بهم؟ وعندئذ تستطيعون إقامة شعائر دينكم بحرّيّة وأمان. هنا توجيه للمؤمن بأنه إذا أقام في بلد يُضطهد فيه ويُفتن فيه عن دينه فعليه الرحيل منه إلى بلد يعيش فيه بحرّيّة وكرامةٍ ويمكنه إقامة شعائر دينه بأمان ﴿**فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ أي فجزاء هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة أن يقيموا في جهنم ويستقروا فيها، وهي المكان الذي يُؤْوُون إليه، وبئس هذا المأوى الذي يصيرون إليه.

ثم يستثنى من هذا المصير السيئ الذين لا يستطيعون الهجرة وهم:

﴿**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ وَالْوِلْدانِ**﴾ وأول هؤلاء: ضعفاء الرجال من الشيوخ الهَرِمين والمرضى وذوي العاهات. وثانيهم: النساء اللاتي لا يستطعن الخروج من مكة إما لثقلهن بالأولاد، وإما لخشيةٍ من خطورة الطريق، وإما لعدم وجود زوجٍ يصحبهنّ، أو عدم وجود ذي رحم محرم كالعم والخال. ثالثهم: الولدان وهم الذين ليس لهم آباء يتبعونهم وهم غير مكلفين بالهجرة وهؤلاء جميعًا ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً**﴾ والحيلة: لفظ عامّ يشمل أنواع التخلص من المآزق، أو بمعنى قوة، أي ليس لهم

قوة تعينهم على الهجرة. وقد كان المسافر في زمن النبي محمد ﷺ يحتاج إلى خبرة ومعرفة في الطرق ﴿وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يعرفون الطريق التي توصلهم إلى بغيتهم ﴿فَأُولَـئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين استثناهم الله لا شيء عليهم ولا يؤاخذون في عدم هجرتهم ولهم أن يطمعوا في عفو الله. وعسى: كلمة ترجٍّ وطمعٍ في كلام الناس، والله سبحانه إذا أطمع عبدًا وصله وحقق رجاءه، فعلى المقصّرين في واجباتهم نحو الله أن يطلبوا العفو من الله رجاءً وطمعًا ﴿وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وكان الله وما زال كثير العفو عن عباده فيما وقعوا فيه من تقصير في حقه، كثير المغفرة لمن تاب وأقلع عن ذنوبه.

ثم رغَّب الله في الهجرة في سبيله بقوله:

﴿وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي ومن يُهاجر في سبيل الله من أرض الكفر إلى مكانٍ يأمن فيه على نفسه وماله ودينه يجد في الأرض ﴿مُرَاغَمًا﴾ أي مُتَحَوّلًا يتحول إليه من أرض إلى أرض ومكانًا يسكن فيه ومبتغى لمعيشته، كما أنه يجد سعةً في الرزق وسعة في البلاد ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن يخرج من بيته مُهاجِرًا إلى بلد حيث أمر الله ورسوله بالهجرة إليه لإعلاء كلمة الله والفرار من الفتنة في الدين، والسلامة من المعاصي ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ﴾ ثم ينزل به الموت قبل أن يبلغ مقصده ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ فقد ثبت ثوابه عند الله وحق له الأجر العظيم عنده. هذه الآية يُروى أنها نزلت برجل بمكة يدعى جندب بن ضمرة وكان شيخًا كبيرًا مريضًا قصد الهجرة إلى المدينة المنوّرة استجابة لله ورسوله، فقال لأهله: أخرجوني من مكة، فحملوه على سرير وسافروا به فمات بمكان يقال له (التنعيم) قرب مكة، فبلغ خبر وفاته أصحاب رسول الله فقالوا: لو توفِّي بالمدينة المنوّرة

لكان أتمّ أجرًا، وقال المشركون: ما أدرك هذا ما طلب، فنزلت الآية توضح الحقيقة في ذلك.

ويقاس على ما سبق أن من قصد فعل عمل صالح أو طاعة لله، ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب ذاك العمل الصالح كاملًا.

ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي وكان الله ولا يزال عظيم المغفرة لمن يصدر منهم من ذنوب ثم يتوبون منها، كثير الرحمة بهم بحيث يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

والرسول محمد ﷺ أمر المسلمين بالهجرة من مكة بعد أن اشتد الأذى عليهم من الكفار فهاجر بعضهم أولًا إلى الحبشة، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة المنوّرة حيث لحق بهم رسول الله. ولمّا تمَّ فتح مكة وأعزَّ الله الإسلام لم يكن بعد ذلك من سبب إلى الهجرة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ـ أي فتح مكة ـ ولكن جهاد ونية»(١) كما أطلق رسول الله ﷺ في موضع اسم الهجرة على هجر الذنوب والمعاصي لما يحصل في ذلك من ثواب فقال: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(٢).

وينقل الزمخشري في تفسيره (الكشاف) عن بعض أهل العلم قولهم: «كل هجرة لغرض دينيّ من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعةً لله أو قناعة وزهدًا في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله».

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه البخاري.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ
ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ
عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ
فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟
فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ
يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ
فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي
ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ضرَبْتم في الأرض: سافرتم.

جُناح: حرج وإثم.

أن تقصروا من الصلاة: أن تخففوا الصلاة الرباعية إلى ركعتين.

يفتنكم: ينالكم مكروه.

طائفة: جماعة.

ولْيَأخذوا حذرهم: وليكونوا متيقظين للعدوّ.

ميلة واحدة: هجمة واحدة يقضون بها عليكم.

كتابًا موقوتًا: فريضة لها وقت معين.

ولا تَهِنوا في ابتغاء القوم: لا تضعفوا ولا تتوانوا في قتال الكفار الذين يقاتلونكم.

قصر الصلاة في السفر وصلاة الخوف

وبعد أن حثَّ الله المسلمين على الجهاد في سبيله للدفاع عن دينه وتأمين حرية عبادته بيَّن في هذه الآية التالية لمن سافر للجهاد أو هاجر في سبيل الله كيفية الصلاة فأباح للمسلمين آنذاك أن يقصروا من الصلاة بالتخفيف من ركعاتها تيسيرًا عليهم، قال الله تعالى:

﴿وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي وإذا سافرتم، وأطلقت الآية عبارة الضرب في الأرض على السفر لأن المسافر يضرب برجلِه الأرض **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾** أي فليس عليكم حرج أو إثم أن تُنقصوا من ركعات الصلاة الرباعية فتصبح ركعتين وهي في ثلاثة مواقع: الظهر والعصر والعشاء وتبقى صلاتا المغرب والصبح على حالهما **﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وفتنة الكفار للمؤمنين هي إنزال الأذى بهم. وظاهر نص الآية اشتراك الخوف في السفر لجواز قصر الصلاة، ولكنّ السُّنَّة النبوية أجازت أيضًا قصر الصلاة في السفر مع الأمن وفي ذلك يقول

الرسول ﷺ جوابًا لمن سأله عن قصر الصلاة حالة الأمن: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»(١).

ويختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ هذا النص فيه تأكيد لعداوة الكفار للمؤمنين للحذر منهم، وقد أكد الله سبحانه هذه العداوة بما يلي:

أولًا: ﴿إِنَّ﴾ الدالّة على التوكيد. ثانيًا: التعبير بـ(كان) الدالّة على الدوام والاستمرار. ثالثًا: وصف الكافرين بالعداوة، لأن العدوّ يطلب لعدوّه الشرّ فلا تأمنوهم. رابعًا: وصف هذه العداوة بأنها ظاهرة لا تخفى على أحد، وعلى هذا فتنبّهوا ـ أيها المؤمنون لعداوة الكفار واحذروا أن يغدروا بكم وأنتم في الصلاة.

وقصر الصلاة للمسافر إنما شُرع تخفيفًا وتيسيرًا عليه، وإنما يكون في السفر الطويل الذي فيه مشقة. وقدَّر الإمام أبو حنيفة المسافة التي تُقصر فيها الصلاة للمسافر بثلاثة أيام ولياليها بِسَيْر الإبل ومَشْيِ الأقدام وقُدّر بمئة وواحد وعشرين كيلومترًا. وفي مذهب مالك والشافعي أن قصر الصلاة يكون بما مسافته في السفر ثمانية وأربعون ميلًا، والميل يقدّر بـ١٦٠٩ من الأمتار أي حوالي ٧٧ كيلومترًا.

وقال الإمام مالك: إن خرج إلى الصيد وهو معاشه قَصَرَ من الصلاة، وإن خرج متلذّذًا لم أستحبَّ له أن يُقَصِّرَ.

واختلف العلماء في مدة الإقامة التي إذا نواها المسافر أتمّ صلاته، فقال الإمام مالك والشافعي: إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتمّ صلاته، وقال الإمام أبو حنيفة وأصحابه: إذا نوى خمسة عشر ليلةً أتمّ صلاته، وإن كان أقلّ من ذلك قصر في صلاته.

---

(١) أخرجه مسلم.

صلاة الخوف

ثم ينتقل القرآن إلى بيان صلاة الخوف عندما يكون المسلمون في مواجهة العدوّ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ﴾ أي وإذا كنت يا محمد في أصحابك وشهدت معهم القتال وأردتَ إقامة صلاة الخوف بهم إمامًا ﴿فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي تجعلهم طائفتين فتُصلّي طائفة منهم معك وتقف الطائفة الأخرى تجاه العدوّ لمراقبته وحراسة المسلمين منه، ولتأخذ الطائفة القائمة معك في الصلاة أسلحتها حتى تكون على أُهبة القتال في حال انقضاض العدوّ عليهم ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي فإذا فرغت الطائفة التي تصلّي معك ـ أيها النبي ـ من السجود الثاني من الركعة الأولى فلينصرفوا للحراسة خلفكم ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي ولتأتِ الطائفة الأخرى التي كانت في مواجهة العدوّ للحراسة وأنت قائم، فتصلّي بهم الركعة الثانية وتسلّم بهم، وهي بالنسبة إليهم الركعة الأولى، فكان للنبي ﷺ ركعتان ولكل طائفة ركعة واحدة لا يقضون غيرها، وهناك صورة من صلاة الخوف وهي أنّ كل طائفة بعد أن تصلّي مع الإمام ركعة وتنصرف عنه تُتِمّ لنفسها الركعة الثانية.

إمّا إذا الْتحم القتال واشتدّ الخوف فيصلّي كل واحد حينئذ كيفما أمكنه ماشيًا أو راكبًا على حصانه أو دبّابته كما هو في الحروب الحديثة، مستقبِلًا القبلة أو غير مستقبلها لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]. يومئون بالركوع والسجود بقدر ما يستطيعون بحيث لا يغفلون عن العدوّ.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ويجب أن يكونوا دائمًا متيقظين حتى لا يباغتهم العدوّ، وليأخذوا معهم أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم إذا بادَأَهُم

العدوّ بالقتال ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي تمنّى الذين كفروا أن ينالوا منكم على حين غفلة وأنتم واضعون السلاح جانبًا تاركون حماية أنفسكم وأمتعتكم التي فيها لوازمكم وما تحتاجون إليه في حربكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فيهجمون عليكم هجمة واحدة يكون فيها القضاء عليكم.

﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم ولا حرج أن تتركوا أسلحتكم جانبًا عندما يكون بكم تأذٍّ من مطر أو مرض أو تعبٍ شديدٍ بحيث يشقّ عليكم حملها، هذا الشطر من الآية نزل بسبب عبد الرحمن بن عوف الذي كان مريضًا فوضع سلاحه جانبًا فعنَّفه بعض الناس ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ولكن يجب أن تكونوا على حذَرٍ وتيقظ من مباغتة العدوّ لكم وبخاصة في تلك الحالة التي وضعتم فيها أسلحتكم ﴿إِنَّ اللهَ أعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ إن الله هَيَّأَ للكافرين عذابًا يهينهم ويُخزيهم ويُذلّهم.

﴿فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ أي فإذا فرغتم من صلاة الخوف فداوموا على الإكثار من ذكر الله في كل أحوالكم سواء أكنتم قائمين أم قاعدين أم مضطجعين على جنوبكم ﴿فَإِذا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي فإذا أمنتم وسكنت قلوبكم من الخوف فداوموا على أداء الصلاة على وجهها كما كانت تُؤَدَّى في حال السلم بإتمام ركوعها وسجودها والقيام بأركانها وسننها مع المحافظة على خشوعها.

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كانَتَ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتابًا مَوْقُوتًا﴾ هذه الجملة جاءت ختامًا لما تقدّم من تشريع صلاة الخوف. ولا ريب أن فريضة الصلاة كما رأينا لا تسقط حتى في ميدان القتال وترقّب الالتحام مع الأعداء، وما ذلك إلّا لأنها فريضة ذات منزلة خاصة في الدين لا يجوز التهاون بها والغفلة عنها.

وهذه الجملة وردت بمؤكِّدات شتى مما يدلّ على مكانة الصلاة وأهميتها في الإسلام، فقد جاء الكلام عن الصلاة مؤكَّدًا بحرف التوكيد ﴿**إِنَّ**﴾ وعبّر عنها بلفظ ﴿**كانت**﴾ التي تدل على الدوام والاستمرار في الماضي والحاضر والمستقبل، ثم جاء التعبير عنها بوصفها ﴿**كِتَابًا**﴾ أي فَرْضًا مقررًا، وجاء وصفها أيضًا بأنها ﴿**مَوْقُوتًا**﴾ أي أن لها أوقاتًا محددة لا بد من فعلها فيها وعدم تأجيلها وتأخيرها، وجاء الطلب على أدائها بكلمة ﴿**على**﴾ في قوله تعالى ﴿**على المؤمنين**﴾ وهو ما يفيد الإلزام والحتمية.

فالصلاة شرعها الإسلام حتى في حال الحرب، وما ذلك إلا لأن لها تأثيرًا في تقوية معنويات الجيش التي هي من الأسباب الرئيسية للنصر على الأعداء، والصلاة ما هي إلا إقرار بوحدانية الله والعبودية له والثناء عليه وطلب المعونة والهداية منه، واليقين بلقائه بعد الموت وما أعدّه من أجر وثواب للذين يقاتلون في سبيله، ما يؤثر في نفسية المحارب ويُمِدّه بالصبر والثبات والشجاعة، وهي أُمور أساسية تساعد للتغلب على الأعداء.

ثم يأمر القرآن المسلمين بالصبر في صراعهم مع أعدائهم:

﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ القَوْمِ**﴾ والوهن: هو ضعف في القلب والجبن الذي يشعر به المحارب، أي لا تَضْعفوا في طلب أعدائكم وقتالهم ﴿**إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ**﴾ أي ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصًّا بكم بل هو أمر مشترك بينكم وبين أعدائكم ﴿**وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ**﴾ وأن لكم على أعدائكم مزيّة لا توجد فيهم وهي أنكم ترجون من الله وتطمعون منه الأجر الجزيل وعظيم الجزاء ما لا يخطر لهم ببال، أما أعداؤكم فلا رجاء لهم في شيء ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ أي أنه سبحانه عظيم العلم بكل شيء، فيعلم بما فيه مصلحتكم، عظيم الحكمة فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ
أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ
يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا
﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ
مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم
مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾

شرح المفردات

خصيمًا: مجادلًا ومدافعًا.

يختانون أنفسهم: يخونونها بارتكاب المعاصي.

خوّانًا: كثير الخيانة.

أثيمًا: مبالغًا في ارتكاب الإثم.

يَسْتَخْفونَ: يستترون من الناس حياء وخوفًا.

يُبَيِّتُونَ: يدبّرون فيما بينهم خفية.

محيطًا: عالمًا بكل شيء.

وكيلًا: مدافعًا محاميًا يتولى أمرهم.

قصة اليهودي الذي اتُّهِم بسرقة الدرع

ثـم يعرض القرآن قضية جرت على عهد رسـول الله حيـن اتُّهم يهوديّ بالسرقة وهو منها بريء، وفي ذلك نزلت الآيات تستنكر هذا الاتهام الباطل، وتدعو المؤمنين إلى إعطاء كل ذي حق حقه ولو كان من غير ملّتهم، وهذا جانب من العدالة لم تعهده الشعوب قديمًا. ومفاد هذه القضية:

أن (طُعمة بن أُبَيْرق) وهو من عائلة (بني ظفر) سرق درعًا من جارٍ له اسمه (قتـادة بـن النعمـان) وكان هـذا الدرع في جـراب [1] فيه دقيـق، فجعل الدقيق ينتثر من ثقب فيه. وخبأ (طُعمة) الجراب الذي فيه الدرع عند رجل من اليهود اسـمه (زيـد بن السـمين) فالْتَمَسَ القوم الدرع عند (طُعمـة) متبعين أثر الدقيق فلـم توجـد عنده وحلف أنه ما أخذها وما له بها مـن علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيـق الـذي كان ينتثر مـن الجراب حتى انتهى أثر ذلك إلـى منزل اليهوديّ، فوجدوها عنده فقال اليهوديّ: دفعها إليَّ (طُعمة) وشهد له جماعة من اليهود.

فقـال قـوم (طُعمـة): انطلقوا بنا إلى رسـول الله حيث سـألوه أن يجادل ـ أي يدافع ـ عن صاحبهم (طُعمة) وشهدوا ببراءته وسرقة اليهوديّ، وقالوا: إن لـم تفعـل هلك (طُعمـة) وافتُضح، وبـرئ اليهوديّ، وصـوّروا له القضية بصـورة تُخالـف الواقع، فهمّ رسـول الله أن يفعلَ كما طلبـوا منه، ولكنّ الله أطْلَعَ رسوله على حقيقة الأمر ونزلت الآيات التالية:

﴿**إِنَّـا أَنْزَلْنَـا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَـقِّ**﴾ الكتاب: المراد بـه القرآن الكريم، والمعنى: أنزل الله إليك القرآن يا محمد ناطقًا بالحق ومشتملًا عليه، والحق هـو الأمـر الثابت الذي لا ينقضـه واقـع آخر ولا يأتيه الباطـل ﴿**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ لتحكم أيها النبيّ بين الناس جميعًا لا بين المؤمنين فقط، فإذا كان

---

(١) جراب: كيس أو وعاء يكون عادة من جلد.

الحق مع المسلم فيجب أن تحكم لمصلحته وإذا كان الحق مع غير المسلم فيجب أيضًا أن تحكم لمصلحته، فلا محاباة لمسلم على أي إنسانٍ آخر إذا كان الحق في غير جانبه ﴿بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ أي بما علَّمك الله وأوحى إليك، وإنما سمى الله العلم التشريعي المُنزل من عنده رؤية، لأنه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور ﴿وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ والخصيم: أي مخاصمًا ومدافعًا عنهم، فالله سبحانه يأمر رسوله محمدًا بأن لا يقف موقفًا لصالح الخائنين، وأن لا ينحاز إليهم قبل سماع البينات المرشدة إلى الحق، والخائنون المراد بهم هنا (طُعمة) وقومُه الذين قصدوا إلْصاق تهمة السرقة باليهوديّ زُورًا وبهتانًا.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهَ﴾ واطلب المغفرة من الله ـ أيها النبي ـ بما هممت به من الحكم في أمر (طُعمة) وبراءته وإدانة اليهودي حيث إنّ ظاهر الأمر أوضحَ لك ذلك، والأمر بالاستغفار للنبي في هذه القضية وما يماثلها لا تقدح في عصمة الأنبياء لأنه لم يكن من النبيّ إلا الهمّ وهو لا يوصف بأنه ذنب، ويُحتمل أن يكون المراد: واستغفر لأولئك الذين يريدون أن يدافعوا عن (طعمة) ويُظهروا براءته من السرقة ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي إن الله واسع المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن تاب من عباده، وقد أكَّد الله ذلك بعدّة مؤكدات، أولها: ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد التوكيد. ثانيها: ﴿كَانَ﴾ التي تفيد الاستمرار. ثالثها: صيغة المبالغة في غفور ورحيم.

﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ[(١)] أَنْفُسَهُمْ﴾ يختانون: يخونون، والمعنى: أي ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بارتكاب المعاصي والآثام، فخيانتهم للغير هي خيانة لأنفسهم لأن ضرر الخيانة عائد عليهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾

(١) يختانون: هي من مادة افتعال في اللغة لقصد المبالغة في الخيانة.

وخوانًا وأثيمًا من صيغ المبالغة، أي إن الله لا يحب من كان كثير الخيانة مفرطًا فيها منهمكًا في الإثم، وعدم محبة الله لهؤلاء المراد منه البغض والسخط عليهم. وتأمل كيف جاء عقب وصفهم بالخيانة وصفهم بالإثم، لأن الخيانة تجرّ إلى آثام كثيرة، ومَن كان طبعه الخيانة فإنه يسرق ويكذب ويأكل أموال الناس بالباطل، فكأن الخيانة جالبة معها كل الآثام.

ويتابع القرآن الكلام عن هؤلاء الذين اتهموا اليهوديّ بالسرقة ظلمًا: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ**﴾ والاستخفاء: هو الاستتار، أي يستترون من الناس كي لا يطّلعوا على خيانتهم وكذبهم ﴿**وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾ وهذا موقف عجيب منهم إذ كيف يستترون من الناس ولا يستترون من الله وهو معهم بالعلم والرؤية والسمع ﴿**إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ فالتبييت تدبير الأمر بالليل، وكل تدبير في الخفاء تبييت، فهؤلاء الذين وصفهم الله بالخيانة والإثم كانوا يدبّرون بالليل ما لا يرضاه الله للمؤمنين من اتهام البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور حين عزموا على اتهام من لا يدين بالإسلام وتبرئة المسلم ﴿**وَكَانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطًا**﴾ أي أنه سبحانه يعلم أمور خلقه علم إحاطة فلا يخفى عليه شيء، وهو مطلع عليهم لا تخفى عليه منهم خافية.

ثم يوبِّخ الله الذين دافعوا عن هؤلاء الخائنين بقوله:

﴿**ها أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا**﴾ والمجادلة: المدافعة بالقول والمناظرة لإظهار الصواب، والمعنى: يا هؤلاء الذين دافعتم عن (طُعمة) وقومه في الحياة الدنيا بسبب أنهم مسلمون ﴿**فَمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**﴾ أي فمن ذا الذي يخاصم الله ويدافع عنهم يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء؟ ﴿**أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا**﴾ أي مَن ذاك الذي يقوم بأمرهم ويكون محاميًا عنهم إذا نزل عذاب الله بهم؟

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ
يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ
ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ
وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ
مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ
بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ
جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

شرح المفردات

ومن يكسب إثمًا: ومن يفعل ذنبًا.

فإنما يكسبه على نفسه: فإنما يعود وبال الإثم عليه.

يرم به بريئًا: يتهم به بريئًا.

احتمل: كلف نفسه أن تحمل.
بهتانًا: كذبًا فظيعًا.
نجواهم: الحديث الذي يكون سرًّا بينهم.
معروف: هو كل ما عُرف حُسنه شرعًا وعُرفًا.
ابتغاء مرضاة الله: طلبًا لرضى الله.
يشاقق الرسول: يخالفه فيما أمر به ونهى عنه.
نُصْلِهِ: ندخله.

اتهام البريء هو من الآثام الكبيرة

وتُتابع الآيات فتفتح للعُصاة باب التوبة ليرجعوا عن خطاياهم وينالوا مغفرة الله، وتخبرهم بأن من أشدّ الآثام فداحة أن يرتكب الشخص الشر ويلصقه بغيره زورًا وبُهتانًا قال الله تعالى:

﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا**﴾ والسُّوءُ هو ما يكون فيه أذى للغير، أي ومن يقترف عملًا يلحق الضرر بالغير ﴿**أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ**﴾ بما يفعله من الذنوب التي يُغضب بها ربّه ويستحق بها عذابه في الآخرة ﴿**ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ**﴾ والاستغفار هو طلب المغفرة من الله وذلك يقتضي بالامتناع عن تعاطي الذنوب والندم على ما فعله منها ﴿**يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ يجد الله ساترًا لذنوبه مُتجاوزًا عن خطاياه، رحيمًا به بقبول توبته.

﴿**وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ أي ومن يفعل ذنبًا فإنما يعود وبال ما فعل على نفسه لا يتعدى ذلك إلى غيره ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ وكان الله ولم يزل واسع العلم بأفعال الناس، عظيم الحكمة فيما شرعه سبحانه من الأحكام ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً**﴾ أي ومن يقترف خطيئة وهي الذنب ﴿**أَوْ إِثْمًا**﴾ وهو ما لا يحلّ فعله من المعصية. والفرق بين الخطيئة والإثم هو أن الخطيئة قد تكون عمدًا وغير عمد، والإثم لا يكون

إلا عن عمد ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ ثم يضيف إلى ما اقترف من الخطيئة والإثم اتهامه بذلك بريئًا ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا﴾ فقد كلَّف نفسه أن يحمل وزر البهتان والإثم بافترائه على البريء، والبهتان[١]: هو الكذب والباطل الذي يُتحير من بطلانه. هنا تشبيه للخطايا والآثام بما له ثقل ووزن فهي حمل ثقيل على من يقترفها، ولذا عبَّر عنها القرآن بقوله ﴿احْتَمَلَ﴾ وليس حمل لأن هناك مشقة ومكابدة في حملها، وهذا الشيء الثقيل هو الخطيئة التي اقترفها (طعمة) من السرقة وإلْصاق التهمة باليهودي البريء منها.

فحرمة اليهودَيّ والمسيحيّ والبوذيّ المعاهد كحرمة المسلم، والمسلم الذي يقترف اعتداءً على أتْباع الأديان الأخرى، ويُلْصق بهم التهم جزافًا فهو آثم، تجري العقوبة في حقه جزاء ما اقترف، فالقرآن أنزله الله ليحكم به النبي ﷺ ومن جاء بعده من الخلفاء بالحق بين الناس جميعًا في كل قضية كما جاء في مطلع هذه الآيات ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ..﴾ فأيّ سموّ يعلو على سموّ الإسلام الذي شرعه الله لإقرار العدالة في الأرض، والتسوية بين الناس جميعًا على اختلاف مللهم؟

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ أي ولولا فضل الله عليك يا محمد بالنبوة والتأييد بأنْ عَصَمَكَ الله من الوقوع في الزلل، ورحمته بك ببيان حقيقة الواقع لهمّت جماعة: وهم قوم (طُعمة) أن يُضلّوك عن الحكم العادل بشأن اليهوديّ، وذلك بقولهم الزور وتزكية المجرم وتبرئته ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهؤلاء الذين صوَّروا لك الأمر خلاف الواقع وأرادوا إضلالك هم بعملهم هذا لا يُضلون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيءٍ﴾ أي وما يضرونك يا محمد في شيء، فقد عصمك الله من الوقوع في الزلل واتباع الهوى فيما تحكم به بين الناس ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ

(١) وباهَتَهُ: استقبله بأمرٍ يقذفه به وهو منه بريء (لسان العرب).

﴿الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾ والكتاب: المراد به القرآن، والحكمة: هي السُنَّة النبوية ففيها مقاصد القرآن ومعانيه وبيان حلاله وحرامه وأمره ونهيه **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾** وعلَّمك اللهُ ما لم تكن تعلم من أُمور الدين وأَحكام الشرع وأخبار الأولين والآخرين **﴿وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾** حيث أرسلك الله لهداية البشر وجعلك خاتم الأنبياء، وأيَّدك بالقرآن الذي يحتوي على شريعة عادله تنسخ الشرائع الإلٰهية السابقة وتؤيد بعضها، وأعلى الله ذكرك، فمئات الملايين من البشر يدعون لك بالرحمة في صلاتهم بقولهم (اللهم صل على محمد) والصلاة من الله هي الرحمة، أي اللهم أرحم محمدًا وعظِّمه بإعلاء ذكره وإظهار دينه. ومِنْ فَضْلِ اللهِ عليكَ يا محمد تأييده لك بإنشاء خير أُمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وبعد أن استنكر القرآن ما كان يفعله قوم (طُعمة بن أبيرق) في الخفاء من تدبير ظالم باتهام البريء وتبرئة السارق انتقل القرآن إلى بيان المنهج السليم الذي يجب أن يسير عليه المؤمنون بقوله تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مَنْ نَجْواهُمْ﴾ النجوى: هي كلام السر بين الاثنين أو الجماعة، أي لا خير في كثير من الكلام فيما يتناجى فيه الناس، ثم استثنى القرآن من التناجي الذي ليس فيه خير، الأمور الثلاثة الآتية التي هي خير:

أولًا: **﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾** أي أن التناجي المحمود هو الأمر بالصدقة، وهي التبرع بالمال لفعل الخير لمساعدة الضعيف، وإمهال المدين المعسر أو ترك المطالبة بالدَّيْن والعفو عنه للمعسرين.

ثانيًا: **﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾** والمعروف: اسم لكل فِعْلٍ يُعرَف بالعقل أو الشرع حُسْنُه وهو يشمل جميع أنواع البرّ، ومن المعروف: إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والإنفاق على الجمعيات الخيرية، والمعروف يُقابله المنكر وهو كل ما يضرّ بالإنسان والمجتمع.

ثالثـا: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح بين الناس متعدد الأهداف، فقد يكون في الدماء والأعراض والأموال ليحل الوئام وينتفي الخصام.

وقـد حـضَّ القـرآن علـى الإصلاح بيـن الناس سـواء أكانـوا أفـرادًا أم جماعات، لأن التنازع والتخاصم قد يؤدي إلى الاقتتال وسـفك الدماء، فقد جـاء في القرآن ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا...﴾ [الحجرات: ٩].

ثـمَّ بيَّن الله عاقبة من يقوم بفعل هذه الفضائل بقوله:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ أي ومن يفعل هذه الفضائل التي ذُكرت طلبًا لرضاء الله ﴿فَسَـوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فسـوف يعطيه الله أجرًا كبيرًا لا يعرف مقداره إلا الله.

وفـي تقييد الفعل بكونه ابتغاء مرضاة الله حَثٌّ على إخلاص النية لوجه الله، والأعمـال تُقبـل عند الله حسـب النيات وفي هذا يقول رسـول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[1] وإذا صاحَبَ الأعمال رياء أو طلب منفعةٍ أو جاهٍ أو حب للظهور، بطل ثواب ذلك العمل وانتفى نفعه.

والتعبيـر ﴿بِسَـوْفَ﴾ عن الأجـر لتأكيد وقوعه في المسـتقبل لأن مناط الجزاء يكون في الآخرة.

﴿وَمَنْ يُشَـاقِقِ الرَّسُولَ﴾ والمُشـاقَّةُ: العداوة والخلاف بين فريقين، أي ومن يخالف الرسـول محمدًا فيما جاء به من دين الله ويعاديه ﴿مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّـنَ لَـهُ الهُدَىٰ﴾ أي من بعد ما ظهر لـه الحق واضحًا وقام له الدليل على صحة الإسـلام ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَـبِيلِ المُؤْمِنِينَ﴾[2] أي يتبع غير طريقهم وما

---

(١) متفق عليه.

(٢) هذه الآية استنبط منها أحد الفقهاء أن إجماع المؤمنين حجة وأن أتباع سبيل المؤمنين واجب.

هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه في الاعتقاد والعمل ﴿**نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ**﴾ أي نتركه وما اختار لنفسه ونكله إلى ما توكل عليه ونجعل ناصره وما استنصر به من غير الله بما لا يدفع عنه من عذاب الله شيئًا ﴿**وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ**﴾ ونلزمه جهنم ليذوق بها عذاب الحريق ﴿**وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ وبئس المرجع أن يكون مصيره عذاب جهنم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ
لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن
يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا
مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ
ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ
ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا
مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا
﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

شرح المفردات

ما دون ذلك: ما سوى الشرك من المعاصي.

ضلالًا بعيدًا: أي يبعد عن الحق بُعْدًا عظيمًا.

يَدْعون: يعبدون.

مَريدًا: البالغ الغاية في الشر والفساد.

نصيبًا مفروضًا: حظًّا مقدّرًا معلومًا من الناس.

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام: تبتيك آذان الأنعام: تقطيعها أو شقها.

غُرورًا: خداعًا وباطلًا.

محيصًا: مهربًا.

الشرك باللهِ وبعض مظاهره

ثم تأتي الآية التالية مبيِّنة مبلغ الإثم لمن يشرك بالله، ممهدة لما بعدها من الآيات التي وصفت بعض أحوال الشرك الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾ إن الله لا يغفر لأحدٍ أن يشرك به سواه، لأن الشرك إلغاء لمعنى الوحدانية التي هي سمة الإسلام وروح العبادة ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلك لِمَنْ يَشاءُ**﴾ وأنه سبحانه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين ما دون الشرك بالله حسبما تقتضيه حكمته في العفو، فالتوبة الصادقة وكثرة الحسنات مدخل لمغفرة الله تلك الذنوب ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا**﴾ وإن الذي يخالط الشرك بالله قلبه فقد ضلّ عن طريق الهدى ضلالًا بعيد المدى وبذلك يُحرم من الخير كله.

والشرك بالله هو اقتران عبادته بعبادة غيره من أصنام أو حيوانات أو قبور أو أجرام سماوية أو اتخاذ البشر والرسل آلهة، أو الكفر به مطلقًا، وإنكار وجوده. وإنما ذُكر الشرك في هذه الآية لأنه كان الاعتقاد السائد

في الجزيرة العربية التي نشأت فيها الدعوة الإسلامية، فقد كان لأهل كل دار في مكة صنم يعبدونه، كما كان من العرب من يعبد الشمس والقمر والملائكة والجن.

والشرك بالله يجلب من المساوئ للإنسان ما لا تجلبه عقيدة أُخرى، فهو فضلًا عن مناقضته للعقل والمنطق يجعل الأذهان خاضعة لقبول كل الأوهام والخرافات التي تسْتَعْبِدُ الإنسان وتؤدي إلى شقائه في الدنيا والآخرة.

ثم بيَّن القرآن جانبًا من الشرك بالله الذي كان عليه العرب قبل الإسلام قال الله تعالى: ﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا**﴾ «إن» بمعنى «ما»، ويدعون: بمعنى يعبدون، لأن من عبد شيئًا فإنه يدعوه عند احتياجه إليه، والمعنى: ما يعبد هؤلاء المشركون من غير الله إلّا إناثًا. ولكن ما المراد بكلمة الإناث؟ قيل: هي الأصْنام التي كانوا يسمّونها باسم الإناث مثل صنم اللات وهو تأنيث لفظ الله، والعُزّى: وهو تأنيث لفظ العزيز. هذا وقد كان لكل حيّ من أحياء العرب صنم يسمونه أُنثى بني فلان ويعبدونه.

وقيل: المراد بالإناث الملائكة، لأن بعض العرب كان يعبد الملائكة ويقولون عنها: الملائكة بنات الله كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ **وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا** ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقيل: الإناث بمعنى الأموات.

﴿**وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا**﴾ أي ما يعبد هؤلاء في الواقع إلا شيطانًا شرّيرًا عاتيًا خارجًا عن طاعة الله وهو إبليس، إذ هو الذي أغراهم بعبادتها فكانت طاعتهم له عبادة ﴿**لَعَنَهُ اللهُ**﴾ أي طرد الله إبليس من جنته وأَبْعده عن رحمته لتمرُّده واستكباره عن طاعة ربه ﴿**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾ وقال إبليس حين لعنه الله: لأجعلنَّ حصة مقدَّرة معلومة من عباد الله تحت إغوائي وفي جانب إضلالي وهم الذين اتبعوا خطواتي

وانقادوا لِوَساوسي ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ وأقسم الشيطان بأنه سيضل عباد الله ويبعدهم عن طريق الحق ويُمَنِّيهمْ بالأماني الباطلة: كعدم البعث يوم القيامة وأنه لا جنة ولا نار، ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، كما يُزَيِّنُ لهم المضيّ في المعصية بدون توبة ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ والبتك: القطع، أي ولآمرنَّهم بتقطيع آذان الأنعام امتثالًا لأمري، وقد فعل الكفار ذلك امتثالًا لأمر الشيطان. وكان العرب قبل الإسلام إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرًا قطعوا أذنها وحرموا أنفسهم الانتفاع بها وجعلوها للطواغيت وسمّوها بَحيرة يفعلون ذلك تقرّبًا للأوثان ﴿وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ قيل: المراد بذلك تغيير دين الله بتبديل الحرام حلالًا والحلال حرامًا. وقيل: خصاء العبيد والوشم والتخنث، وهو أن يتشبه الرجل بالنساء في حركاتهن وكلامهن ولباسهن والعكس كما قال النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ المتشبهينَ من الرِّجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(١) وكذلك الواصلة وهي التي تصل شعرها بشعرٍ آخر يكثر به ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي ومن يجعل الشيطان وليًا له فيطيعه ويدع أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي خسر خسرانًا واضحًا ظاهرًا لأن طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم وهي غاية الخسران.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي يعد الشيطان أتباعه بالوعود الخادعة، ويُمنّيهم بالأماني الكاذبة كطول العمر، ونيل مراده من الدنيا من نعيمها ولذّاتها ﴿وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُورًا﴾ والحال أنّ الشيطان ما يعِدُهم إلا بالأمور الخادعة التي يُغريهم بها ويُهيئ لهم أنّ فيها نفعًا، والحقيقة أنها ضرر محض، فوعوده باطلة لا يُرجى منها خير ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي هذا الفريق الذي اتخذ الشيطان وليًّا: مرجعهم ومستقرّهم جهنم ﴿وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ ولا

---

(١) أخرجه البخاري.

يجدون عن جهنم عندما يصيرون إليها يوم القيامة معدلًا يعدلون عنها إلى غيرها، ولا مهربًا يُنجيهم من عذابها، ثم يبيّن الله مصير المؤمنين في الآخرة:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية الله وبنبوّة محمد ﷺ وأدُّوا الفرائض التي فرضها الله عليهم وقاموا بالأعمال الخيّرة التي فيها صلاح للمجتمع ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي سيدخلهم الله يوم القيامة بساتين تجري من تحت مساكنها وأشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي باقين في هذه الجنات أبد الدهر لا يبرحونها ولا يتحولون عنها ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ أي هذا الوعد من الله لهم هو وعد حق والله لا يخلف وعده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ أي ولا أَحَدٌ أصدق من الله وعدًا فهو الذي إذا وعد وفى.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

شرح المفردات

أمانِيّكم: جمع أُمنية وهي ما يَوَدُّه الإنسان ويشتهيه.

نقيرًا: قدر النقرة في ظهر نواة البلح.

ملة إبراهيم: شريعته الموافقة للإسلام.

خليلًا: صفيًّا.

حنيفًا: الحنيف هو الذي يميل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام.

كل إنسان يجازى بعمله

ذكرت الآيات السابقة أن الشيطان يُلْقي في أذهان الناس الأماني الباطلة، ومن الأماني الباطلة ما يراود بعض الأذهان بأن انتسابهم إلى دين ما يجعلهم في منأًى من العقاب على سيّآتهم، وفي الآية التي نحن بصددها تبين الحقيقة في ذلك ليكون الناس على بصيرة من أمرهم فلا يسيرون وراء الأماني الباطلة.

وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان منّا، وقالت قريش: ليس نُبعث، وهناك رواية أخرى تقول: تَفاخَر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المسلمون: نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على سائر الكتب، فنزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ والأماني: جمع أُمنية وهي ما يَوَدُّه الإنسان ويشتهيه. والمعنى: ليس ما وعد الله به من الثواب أو إدخال الجنة يحصل بمجرد أمانيكم أيها المسلمون وأماني أهل الكتاب، وإنما يحصل بطاعة الله والعمل الصالح، وأنه **﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾** أي من يرتكب معصية سواء كان مؤمنًا أو كافرًا يجازه الله عليها **﴿وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾** أي هذا الذي ارتكب المعصية لا يجد له وَلِيًّا غير الله يَلِي أمره، كما لا يجد له نصيرًا ينصره ويدفع عنه عقاب الله على عصيانه له.

فيا أيها المسلمون ليست المسألة مسألة أمانٍ وتمنيات، ولكنها مسألة عمل صالح تُجازون عليه وتتقربون به إلى الله، أو عمل سيئ تعاقَبون عليه، وانتسابكم للإسلام لا يُعفيكم من المجازاة على سيئاتكم، فكم من أُناس يعيشون دنياهم ولا يصنعون فيها حسنة، وإذا قيل لهم: لماذا تعيشون الحياة بلا عمل صالح؟ قالوا: أحْسَنَّا الظنَّ بالله، لِهٰؤلاء يقول الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل، إن قومًا غرّتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نُحسن الظن بالله وقد كذبوا، إذْ لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له.

ثم يبيّن الله مصير المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بقوله:

﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ هذا القسم من الآية على قلّة كلماته يتضمّن أمورًا عدّة:

أولها: قوله تعالى ﴿**مِنَ الصَّالِحاتِ**﴾ وحرف «مِن» للتبعيض، أي يعمل بعض الأعمال الصالحة، لأن المسلم لا يستطيع أن يعمل جميع الأعمال الصالحة، والمطلوب منه أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

ثانيها: قوله تعالى ﴿**مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ**﴾ فَذِكْرُ الإناث بجانب الرجال في القيام بالأعمال الصالحة إشعار بكمال إنسانية المرأة وأنها مساوية للرجال في الحقوق والواجبات إلاَّ في بعض الأمور التي اختصّ الله كلّ واحد منهما بحكم، وفي هذا يكون الإسلام قد رفع من شأن المرأة على حين كانت عند العرب في الجاهلية وعند كثير من الشعوب منبوذة محتقرَة ليس لها من الحقوق شيء.

ثالثها: قوله تعالى ﴿**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ هنا يشترط الله سبحانه لقبول الأعمال الصالحة أن يكون فاعلها متصفًا بالإيمان بالله وقاصدًا وجهه الكريم، فالثواب من الله ليس على مجرّد العمل بل يجب أن يصاحبه النية للتقرب إلى الله

بعمله، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[١].

وهؤلاء المتصفون بما سبق ذِكْرُه مصيرهم في الآخرة ﴿**فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ أي يدخلون الجنة وهي دار النعيم جزاءً على إيمانهم وعملهم الصالح ولا يُنْقَصون شيئًا من ثواب أعمالهم مهما كان ضئيلًا ولو كان بقدر (النقير) وهو العلامة التي تكون في ظهر نواة البلح فتظهر كثقب صغير، ويَضْرِبُ العربُ المَثَلَ بها في القِلَّة.

﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ**﴾ والاستفهام هنا للنفي، أي لا أحد أحسن في الدين ممن أخلص نفسه لله، فلم يعرف لها ربًّا سواه ولم يتوجه إلى غيره في دعاء، ولم يجعل بينه وبين ربه حجابًا من الوسطاء، وإسلام الوجه لله كناية عن تمام الطاعة له والاعتراف بربوبيته وهو أحسن الكنايات تعبيرًا عن الإخلاص لله، لأَنَّ الوجه أشرف الأعضاء وفيه العقل الذي به يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ وإسلام الوجه لله قَرَنه سبحانه بالإحسان بمعنى: فاعل للحسنات أو قائم بالأعمال الصالحة على وجه الإتقان ﴿**وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ بالإضافة إلى ذلك اتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ موحّدًا لله مائلًا عن الأديان الباطلة ﴿**وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**﴾ أي اصطفاه وخصّه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله، والخليل هو المحب الذي ليس في محبته خلل، أي أحبّه محبّة تامّة لا خلل فيها وقد كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ محبوبًا من الله مُحبًّا له. وجاء في تفسير (التحرير والتنوير)[٢] أن اتِّخاذ الله إبراهيم خليلاً شِدة رضى الله عنه، إذ الخلّة الحقيقية تستحيل على الله، فأريد بها لوازمها وهي الرضى.

---

(١) متفق عليه.

(٢) للإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

﴿وَللهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ﴾ أي أنّ كلَ ما في السماوات والأرض من الكائنات الحية وغيرها من جماد هي لله خَلقًا ومُلكًا وتدبيرًا ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شيءٍ مُحِيطًا﴾ وإحاطة الله كناية عن علمه بهذا الكون وقُدْرته عليه، وفي هذا تقرير لوجوب طاعته، فمن أطاع الله وأخلص له فقد أخلص للقويّ القادر على كل شيء وهو وحده المستحق للعبادة.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يَسْتفتونك: يسألونك الحكم الشرعي

بالقِسْطِ: بالعَدْلِ في الميراث والأموال.

بعلها: زوجها.

نُشوزًا: النشوز هو أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته ومودّته.

جُناح: حرج.

إعْراضًا: هو أن يقلّل محادثتها ومؤانستها.

وأُحْضِرت الأنفس الشُّحّ: جُبِلَت على الإفراط في الحرص والبخل فكأنه حاضر في الأنفس ملازم لها.

فتذروها: فتتركوها.

كالمُعَلَّقَة: هي المرأة التي ليست مطلقة ولا صاحبة زوج.

يُغْنِ اللهُ كلاًّ من سَعَته: يغنِ الله كِلَيْهما من غِناه الواسع.

حقوق النساء واليتامى والولدان

في مطلع سورة النساء نرى الدعوة إلى العناية باليتامى والنهي عن أكل أموالهم بالباطل، وإعطاء الزوجة حقها في المهر، كما بينّت السورة أحكام المواريث وحصة المرأة والأولاد من الميراث. والآية القرآنية التي نحن في صددها تجيب عن بعض التساؤلات في تلك الأمور التي كان البعض يطلبون الفتوى فيها قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ والاستفتاء: طلب الفتوى، والإفتاء: إظهار المُشكل من الأحكام وتبيينه، والمعنى: ويسألك أصحابك يا محمد أن تفتيهم في أمر النساء فيطلبون منك بيان ما يَشْكُلُ عليهم من أحكامهن وما يجب للنساء من حقوق وما يكون عليهن من واجبات ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي قُلْ لهم يا محمد إنّ الله يُفتيكم فيهن، ويبيّن لكم الحكم الشرعيّ

الذي تسألون عنه ﴿وَما يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ في الكِتَابِ﴾ وَيفتيكم الله بالذي يُتلى عليكم من القرآن. وحاصل الكلام أنهم قد سألوا رسول الله عن أحوال كثيرة تتعلق بالنساء فما كان منها غير مبيَّن الحكم فيه ذكر أن الله يفتيهم فيه على لسان رسوله محمد، وما كان مبيّن الحكم في آيات القرآن التي نزلت سابقًا أحالهم إليها.

﴿فِي يَتامَى النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي الله يُفتيكم أيضًا في النساء اليتامى اللاتي لا تعطوهن أيها الأوصياء ما فُرِضَ لهن من الميراث والمهر، بل الواجب تقوى الله فيهن، فإنّ أكل مال اليتيم فيه الوعيد الشديد عليه فضلًا عن كون اليتيم امرأة لا ناصر لها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ وترغبون في الزواج بهن لجمالهن وأموالهن أو تنفرون من الزواج بهن لقبحهن وتمنعوهن من الزواج بغيركم رغبة في أموالهن، وحذف حرف الجر بعد ﴿تَرْغَبُونَ﴾ من بلاغة القرآن وذلك أنّ كلمة ﴿تَرْغَبُونَ﴾ إذا جاء بعدها حرف الجر (في) يكون معناها الطمع والحرص على الشيء، وإذا جاء بعدها حرف الجر (عن) يكون معناها ترك الشيء والزهد فيه، وإذا حذف (في) و(عن) من رغب احتمل المعنيين رغبة فيها أو نفرة عنها. فقد كانت اليتيمة قبل الإسلام تكون في كنف وليها: فإذا كانت جميلة يرغب فيها ويتزوجها ويستولي ما معها من المال، وقد تكون اليتيمة دميمة، فيرغب عنها وليها ولا يتزوجها، ويمنعها من الزواج حتى تموت ويستولي على مالها، فنهى الله عن ذلك وأمر بالعدل بينهن.

﴿وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدانِ﴾ أي الله يفتيكم أيضًا في شأن المستضعفين من الأولاد الصغار بأن لا تحرموهم حقوقهم من الميراث، لأن العرب في الجاهلية كانوا لا يورّثون الصغار، فجاء الإسلام وأثبت لهم حقًّا في الميراث كالكبار ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بالقِسْطِ﴾ واليتامى تشمل

الذكـور والإنـاث، أي أن تقوموا علـى رعايتهم بالعدل فـلا تظلموهم، وأن تسهروا على رعايتهم وإصلاح حالهم وتعهّدهم بالعطف والمحبة والإكرام، وأن تحافظوا على أموالهم وتؤدوها لهم عند بلوغهم سن الرشد.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وما تفعلوا أيها الأوصياء مـن خير في إعطاء هؤلاء الضعفاء من الولدان واليتامى حقهم فإن الله عليم بأفعالكم، ويجزيكم خير الجزاء.

ويتابع القرآن فيوصي بالزوجات خيرًا بقوله:

﴿وَإِنِ امْـرَأَةٌ خَافَـتْ مِـن بَعْلِهـا نُشُـوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الخـوف: هو توقُّع الإنسـان مكروهًـا ينزل به وهـو المراد به هنـا. والبعل: هو الزوج. والنشـوز: بمعنى الاستعلاء والتعالي، ويُوصف به الرجل والمرأة. والنشوز من الرجل هو استعلاؤه بنفسه على زوجته وترفُّعه عن صحبتها كراهةً منه لها ومنعًا لحقوقها ومجافـاةً لها بترك مضاجعتها، والتقصير في الإنفـاق عليها إما لدمامتها، وإما لكبر سنّها، أو بسبب إهمالها لمنزلها إلى غير ذلك من الأسباب.

والإعراض: هو أن لا يؤانسها بحديثه وأن يصرف وجهه عنها، والإعراض أخفّ من النشـوز. والمرأة إذا لاحظت النشـوز والإعراض من زوجها فإنها لا تقابلـه بمثـل ذلك، فإن ذلك يوسّـع الهـوّة بينهما. والعلاج فـي ذلك يوضحه القـرآن: ﴿فَلَا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحـا بَيْنَهُما صُلْحًا﴾ أي فلا حرج ولا إثم علـى الزوجـة فيمـا تفعله لإصلاح ما بينهـا وبين زوجها مـن إعفائه من بعض مهرهـا أو فيمـا تعطيه لـه من مالها، أو فيمـا تتنازل له من نصيبهـا في المبيت عندهـا لضرّتهـا الشـابّة، أو أنّ الرجل تكون لـه الزوجة الكبيـرة فيتزوج عليها المـرأة الشـابّة ويكـره أن يفـارق أُمّ ولـده فيصالحها علـى عطيّة مـن ماله، أو يتصالحـا علـى أنّ لها يومًـا في المبيت عندها وللزوجة الشـابّة يومين أو ثلاثة فترضـى بذلك ﴿وَالصُّلْـحُ خَيْرٌ﴾ وقد رتب القرآن علـى الصلح بأنه خير من

الطلاق وبالأخص عند وجود الأولاد، والصلح خير من الخصام المستمرّ ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ والشحّ: أشدّ البخل، وقيل: البخل مع الحرص، والمعنى: إنّ الشحّ حاضر في الأنفس ملازم لها لا يغيب عنها لأنه من طبعها، فكلٌّ من الزوجين يبخل بنصيبه على الآخر، فالمرأة لا تتسامح ولا تتنازل عن شيء من حقها، والرجل لا يتنازل أيضًا عن شيء من حقه، وعندها يقع التصادم المؤدي إلى ما لا تُحمد عقباه، لذا إذا رغب الزوجان في إبقاء الحياة الزوجية بينهما فعليهما أن يخالفا ميولهما وطبائعهما ويتنازل كلٌّ منهما عن بعض حقوقه تفاديًا للأَسْوأ، وعندها تستقيم الأمور وينتهي الوضع إلى الصلح بينهما ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ وإن تحسنوا أيها الأزواج الصحبة والعشرة مع زوجاتكم وتتقوا الظلم بهن لأنهن أمانة عندكم ﴿فإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي إن الله لا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم عليها بالخير خيرًا وبالسوء سوءًا، وعليه فأحسنوا صحبة زوجاتكم لتنالوا الخير والأجر الجزيل.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي ولن تقدروا أيها الرجال أن تسوّوا بين زوجاتكم في الحب وما يميل إليه القلب لأن ذلك ليس بمقدوركم، ولو حرصتم على العدل والتسوية بينهن. وأحيانًا يكون لإحدى الزوجتين تأثير في جذب الرجل إليها أكثر من ضرّتها لجمالها وحلو حديثها وحداثة سنّها ومزيد إخلاصها. وقد كان النبي ﷺ يعدل بين نسائه ويقول: «اللهم إن هذا قِسْمِي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»(١) يقصد مَيْل القلب.

وقد ادّعى بعض الكتّاب أنه بضمّ الآية التي وردت في مطلع السورة ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ...﴾ إلى الآية التي نحن في صددها ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ وما دام العدل غير

---

(١) سبق تخريجه.

مستطاع فقد وجب الاقتصار على زوجة واحدة وهذا فهم خاطئ، لأن قوله تعالى: ﴿**فإنْ خِفْتُمْ ألّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً**﴾ المراد به العدل الماديّ من المبيت والنفقة والمؤانسة، أما الآية الثانية فالمراد بها العدل في الحب وميْل القلب.

وما ينفي هذا الفهم الخاطئ أنّ القرآن لم يقف عند قوله تعالى ﴿**وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ بل استدرك فقال: ﴿**فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوها كَالمُعَلَّقَةِ**﴾ فكأنّ الله يقول لهؤلاء: إنّ عدم استطاعتكم العدل بين زوجاتكم أمر يعلمه الله وهو من صُلب الطبيعة البشرية، ولكن المطلوب منكم ـ أيها الأزواج ـ ألّا تميلوا كل الميل الظاهري إلى إحداهنّ مع أنّ باستطاعتكم التسوية بينهن في ذلك، ومعنى هذا أن الله قد أبقى الحكم في إباحة تعدد الزوجات ولم يمنعه. ومعنى ﴿**فَتَذَرُوها كَالمُعَلَّقَةِ**﴾ أي تتركوها بإهمالكم إياها فلا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، وهذا تشبيه لها بالشيء المعلّق بشيء من الأشياء، لأنه لا على الأرض استقرّ ولا على ما عُلِّق عليه يستطيع تحمله.

﴿**وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا**﴾ وإن تصلحوا أعمالكم ـ أيها الأزواج ـ فتعدلوا في التسوية بين زوجاتكم وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة الحسنة وتتقوا الله بأن لا تميلوا عن العدل بينهن ﴿**فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ أي غفورًا لما حصل منكم من الميل إلى بعضهن دون بعض، رحيمًا بكم حيث لم يكلفكم ما لا تقدرون عليه من الميل القلبي.

﴿**وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ**﴾ وإن لم يتصالح الزوجان بل فارق كل واحد منهما صاحبه بالطلاق فإن اللهَ يجعل كلاًّ منهما مستغنيًا عن الآخر بأن يهيئ للرجل امرأة توافقه وتقرّ بها عينه، ويهيئ للمرأة رجلًا تغتبط بصحبته وتهنأ بعشرته، ويرزقهما الله من غناه الواسع ﴿**وَكَانَ اللهُ واسِعًا حَكِيمًا**﴾ وكان الله ولم يزل واسع الفضل على عباده، حكيمًا في جميع أفعاله وما شرعه لعباده مما هو في صالحهم، وهنا وعد من

الله لكلا الزوجين بأنه سيغني كل واحد منهما عن الآخر إذا قصد الفرقة تخوفًا من ترك حقوق الله التي أوجبها عليه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ولقد وصَّينا: ولقد أمرنا أمرًا مؤكدًا.

الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم: هم أهل الكتب السماوية السابقون وهم اليهود والنصارى وغيرهم.

حميدًا: مُستحقًّا للحمد والشكر والثناء.

الوكيل: من يفوَّض إليه الأمر كلّه ويقوم بتدبيره على أحسن الوجوه.

ثواب: الثواب هو ما يعطيه الله من الخير للإنسان جزاءً على عمله الصالح.

الدعوة إلى تقوى الله والتحذير من الكفر

وبعد أن ذكر الله سبحانه بأنه يُغني الزوجين من سعة رزقه بعد افتراقهما عند تعذّر الصلح بينهما، بيّن الله بعد ذلك مبلغ غناه بقوله:

﴿**وَللهِ ما في السَّموات وَمَا في الأَرْضِ**﴾، أي أن لله ما في السماوات وما في الأرض مُلكًا وتصرفًا فيهما، ومن كان كذلك فلا يتعذّر عليه إغناء الزوجين بعد افتراقهما ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِكُمْ وإيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ**﴾ والكتاب هنا: اسم جنس يتناول الكتب السماوية المُنزلة، والذين أعطاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى، ولقد وصّاهم الله كما وصّى المسلمين بأن يتقوا الله، وهذا معناه: أن الوصية بتقوى الله هي دعوة عامة لجميع الأُمم. وتقوى الله: هي حفظ النفس من الإثم خوفًا من الله وطلبًا لرضاه، وذلك بالامتناع عن ما نهى الله عنه والامتثال لما أمر به، ولقد أوصاهم الله بالتقوى، والوصية عادةً تحوي الأمر النافع الذي فيه الخير الكثير، واقتصار الوصية على تقوى الله لأنها أعظم شيء للإنسان، لذا ينبغي على المسلم أن يعمل ما بوسعه ليحقّقها في نفسه، فهي تحقق له الخير وتجلب له السعادة ﴿**وَإِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأَرْضِ**﴾ أي أنكم أيها الناس إنْ تكفروا بالله وتجحدوا نِعَمَهُ فإنَّ لله ما في السماوات وما في الأرض من أصناف المخلوقات جميعها من يعبده ويتقيه، فحقُّه أن يُطاع ولا يُعصى فيما أمر ﴿**وكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا**﴾ وكان الله غنيًا أي مستغنيًا عن خلقه وعن عبادتهم إيّاه ومستحقًّا لأن يُحمد لكثرة نِعَمِهِ على عباده، فلا يضره كُفْرٌ ولا معصية من عباده، كما أنه لا ينتفع بشكرهم له وتقواهم.

﴿**وَللهِ ما في السَّماواتِ وما فِي الأَرْضِ**﴾ أي أن الله له ما في السماوات والأرض من الخلائق التي لا تحصى، يتصرف بهم كيف يشاء إيجادًا وإعدامًا

وإحيـاءً وإماتـةً ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ وكفى بالله قيّمًا على أُمور السـماوات والأرض يُدَبِّر شؤونهما خلقًا وتدبيرًا، فلا يليق بالإنسان أن يخرج عن تقوى الله وينقاد إلى شهواته وغرائزه الضارَّة.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي لو شاء الله لأهلككم أيها الناس وجاء بخلقٍ آخرين أصلح منكم لا يكونوا أمثالكم، ولكن الله لم يشـأ ذلك لا لعجزٍ منه، ولكن لحكمةٍ اقتضت ذلك، ليختبر أعمالكم ويُجازي كل إنسـانٍ على عمله، أو بمعنى: «إن يشـأ يذهبكم بعذاب ينزله بكم أو أُمَّةٍ قوية يسـلّطها عليكم فتسـلب استقلالكم حتـى تجعلكم عبيدًا أو كالعبيد لها، لا تستطيعون أن تقوموا بمصالحكم ومنافعكم... ﴿وَيَـأْتِ بِآخَرِينَ﴾ يحلّون محلّكم في الوجود أو الحكم والتصرف»[١].

وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد:٣٨]. ﴿وَكانَ اللهُ عَلَـى ذٰلِكَ قَديرًا﴾ وكان الله وما زال بالغ القدرة على إفنائكم وإيجاد قوم آخرين مكانكم. قد يكون الخطاب فـي الآيـة هنا للمشـركين الذين آذوا رسـول الله واضطهدوا المسـلمين كما يشمل الخطاب بعض المؤمنين المعرضين عن هدى الله.

﴿مَـنْ كَانَ يُرِيـدُ ثَـوابَ الدُّنْيـا فَعِنْـدَ اللهِ ثَـوَابُ الدُّنْيـا والآخِـرَةِ﴾ الثواب: ما يعود على الإنسـان من جزاء علـى أعماله، والثواب يقال في الخيـر والشـر ولكن الأكثـر المتعارف عليـه يكون في الخيـر. والمعنى: مـن كان يريـد بعمله المنافع الدنيوية فإنه سـينال جـزاء عمله، ومن كان يريـد الآخرة بعمله الصالـح مبتغيًـا وجه الله فعند الله الجزاء على طاعته. والآيـة تدعو المؤمنين بأن لا يلهيهم طلـب خير الدنيا عن طلب الآخرة إذ الجمـع بينهمـا أفضل نحو قوله تعالـى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

---

(١) عن تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ...﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢] وقد كان مشركو العرب لا يؤمنون بالبعث والحساب، وكانوا يقرّون بأن الله خالقهم فكان تقرُّبهم إلى الله إنما هو ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها، فأخبر الله تعالى أن خير الدنيا والآخرة عند الله، فينبغي أن يطلب منه ثواب الدنيا والآخرة ﴿**وكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ سميعًا لأقوال الناس بصيرًا بأعمالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

شرح المفردات

قوّامين بالقسط: قائمين بالعدل مع المواظبة عليه والمبالغة فيه.

أَنْ تَعْدِلوا: تميلوا عن الحق وتتركوه.
تَلْوُوا: تُحَرِّفُوا الشهادة على المتخاصمين.
تُعْرِضوا: تتركوا إقامة الشهادة أو تؤدّوها على غير وجهها الصحيح.

الدعوة إلى العدالة المطلقة

ثم تأتي الآية التالية التي تدعو إلى إقامة العدل في الأرض بصورةٍ لا نجد لها مثيلًا في أي كتاب ديني أو مذهب أخلاقي. والملفت للنظر في الآية أنها لا ترتكز على وصية القضاة بالعدل بل تجعل من المتقاضين أنفسهم حراسًا للعدل وبهذا تنتفي أكثر المنازعات في الأرض.

والعدل صمام الأمان لكل مجتمع، وأساس الاستقرار والطمأنينة في الناس، وما داموا ملتزمين بالعدل فالمجتمع بخير وسعادة. وإليكم بيان هذه الآية القرآنية البليغة الداعية إلى العدل والتي نستشعر من معانيها أنها ليست من كلام البشر بل هي من كلام رب العالمين:

﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ**﴾ فقوَّام: صيغة مبالغة لمن قام بالأمر وأتى به على أكمل الوجوه، والقسط: هو العدل. ولفظ ﴿**قَوَّامِينَ**﴾ يفيد بأن مراعاة القسط مرة أو مرتين غير كافٍ بل يجب أن يكون القيام بالعدل على الدوام ﴿**شُهَداءَ للهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ**﴾ أي أنْ تقيموا شهادتكم بالحق لوجه الله لا لغرضٍ دنيويّ ولو اقتضى الأمر أن تكون هذه الشهادة على أنفسكم، وشهادتكم على أنفسكم هي إقراركم بما عليكم من الحق لغيركم، ولو كانت هذه الشهادة وبالًا عليكم تلحق الضرر بكم ﴿**أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ وأن تشهدوا بالحق على الوَالِدَيْن اللذين هما أحبّ النّاس إليكم ولو كانت شهادتكم ضد مصالحهما الذاتية، وكذلك أن تشهدوا بالحق على أقاربكم بما تربطكم بهم من

مـودة. وإذا كان رب العالميـن يطلب منا أن نشـهد بالحـق على أقاربنا، فتكون شهادتنا بالحق على غير الأقارب من باب أولى.

﴿إِنْ يَكُـنْ غَنِيًّـا أَوْ فَقِيرًا فاللهُ أَوْلَى بِهِما﴾ أي إن يكن المشـهود عليه غنيًّا يُرجـى نفعه أو يُخشـى شـرّه، أو كان المشـهود عليه فقيـرًا يثير فقره الرحمة والشـفقة، فلا تمتنعوا عن الشـهادة عليهما بالحق، فالإنسـان ليس أحق وأجدر برعاية مصالح الناس من خالقهم، ولو لم تكن الشهادة بالحق خيـرًا لهـم لما دعا الله إلـى القيام بها ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الهَـوَى أَن تَعْدِلُوا﴾ أي اتركوا اتّباع الهوى حتى تكونوا متصفين بصفة العدل، فالذي يفسـد العدل هـو الهـوى، والهوى هـو الخضوع للشـهوات والميل إلى رغبـات النفس الأمّـارة بالسـوء. وقد يُـراد بكلمة ﴿تَعْدِلُـوا﴾ العدول عـن الحق، فيكون المعنـى: فـلا تعدلوا عـن الحق وتنقادوا إلـى هوى النفـس ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ الخطاب هنا يشـمل الحكام أو من يشـهد على القضية المتنازع عليها. أي وإن تأتـوا بالشـهادة على غيـر وجهها الصحيح أو تحرّفوهـا أو تميلوا إلى أحـد الخصميـن ﴿أَوْ تُعْرِضُـوا﴾ أو تمتنعـوا عن أداء الشـهادة أو تعمدوا أيهـا الحكام إلى المماطلة في الحكم رغم ظهور الحق ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُـونَ خَبِيـرًا﴾ هنا تهديـد ووعيد لمن يعصي الله ويظلـم الناس، ووعد بالإحسان لمن يطيع الله ويعدل بين الناس.

وبعـد أن أمـر الله المؤمنين القيام بالعدل علـى أكمل الوجوه، بيّن لهم فيما يلي الأمور التي يجب التصديق بها، قال الله تعالى:

﴿يَـا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُـولِهِ﴾ هنا يخاطب الله المؤمنين كافـة بأن يثبتـوا على الإيمان به ويُداوموا عليه وذلك باعتقاد أن الله واحد لا شـريك لـه، وأنـه ليس كمثله شـيء، فهـو خالق كل شـيء وهو وحده المستحق للعبادة، وأن يؤمنوا برسوله محمد الذي جاء بالهدى ودين الحق

من عند ربه ﴿**والكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ وأن يؤمنوا بالكتاب الذي نزّله الله على رسوله محمد وهو القرآن الكريم ﴿**وَالكِتابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ**﴾ وأن يؤمنوا كذلك بالكتاب الذي أنزله الله من قبل نزول القرآن، والكتاب: اسم جنس للكتب الإلٰهية السابقة التي أنزلها الله على رسله وهي الزبور والتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم وقد عبّر الله عن القرآن بقوله: ﴿**نَزَّلَ**﴾ وعن غيره من الكتب السماوية بقوله: ﴿**أَنْزَلَ**﴾ لأن القرآن قد نزل مُفَرَّقًا حسب الأحداث والوقائع، أما غيره من الكتب السماوية فقد نزلت دفعة واحدة.

﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ**﴾ ومن يجحد بالله فلا يُؤمن بوحدانيته ولا بقدرته المبدعة التي تسيّر أمور الكون بغاية الحكمة، ويُنكر ملائكته الذين هم عباده المكرمون أوكلهم تدبير كثير من أمور الكون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُون ﴿**وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾ ومن يجحد أيضًا بكتب الله التي أنزلها من قبل على رسله الذين أرسلهم الله على فترات من الزمن لهداية الناس وإنذارهم من عصيان الله ﴿**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ وأيضًا من يُنكر اليوم الآخر وهو يوم القيامة حيث يحاسب فيه الناس على أعمالهم، ثم يكون مصير المحسنين الطائعين ربهم إلى الجنة ومصير المسيئين العاصين ربهم إلى جهنم.

ومن يجحد وينكر تلك الأمور التي أمر الله بالتصديق بها ﴿**فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا**﴾ أي فقد بَعُدَ عن الحق والهدى بُعْدًا شديدًا يؤدي إلى عذاب الآخرة. وعلى ضوء هذه الآية يظهر لنا أن الإسلام لا يهدم الأديان السابقة ولا ينكرها ولكن يتممها، ويبيّن الصحيح منها، وينبذ ما دخل عليها مِن بِدَعٍ وإضافات غريبة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ
كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ
يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ
بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ
وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم
مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ
ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

شرح المفردات

بَشِّر: أخبِر.

أَوْلياء: أصدقاء ونصراء وأحباء.

العِزَّةَ: المنعة والقوة والنصرة.

يَخُوضوا في حديث غيره: يتكلموا في موضوع آخر.

يَتَرَبَّصُون بكم: ينتظرون ما يحلّ بكم.

فَتْحٌ من الله: نصر منه.

نصيب: أي حظٌّ أو بعض من النصر.

ألم نستحوذ عليكم: ألم نُحِطْكم بعوننا ومساعدتنا.

سبيلًا: طريقًا إلى استعبادهم والتسلّط عليهم.

أحوال المنافقين ومصيرهم في الآخرة

إن من أشد ما ابتُلي به المسلمون: النفاق، والنفاق في عُرْفِ القرآن أن يُظهر المرءُ الإسلامَ ويُخفي الكفر، وكانت نشأة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي من مكة إليها، لذا نزلت الآيات القرآنية في وصف أحوالهم والتنديد بهم في عدّة مواضع من القرآن، منها: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا**﴾ والمعنى: إن الذين آمنوا بدين الإسلام ووحدانية الله ثم رجعوا عنه إلى ما كانوا عليه من ضلال ثم آمنوا بعد ذلك ثم كفروا مرة أخرى ثم ازدادوا كفرًا على كفرهم بأن استمروا عليه حتى ماتوا ﴿**لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا**﴾ أي هؤلاء المنافقون لا يغفر الله لهم ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه، ولا يهديهم الله إلى طريق الحق والهدى لأنهم أصرّوا على الكفر. أما في حال توبتهم فإن الله أخبر أنه يغفر من الكفر من تاب صاحبه منه قبل موته وأصلح أعماله، جاء في القرآن: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ والبشارة لا تكون عادةً إلا في الخبر السارّ، والتعبير بالبشرى في هذا المقام هي من باب التهكم والاستهزاء بهم، وفي الوقت نفسه هي إنذار لهم بما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، لأن المنافق يطمع في النفع الدنيوي، فيقال لهم: إن البشرى التي تنتظرونها هي العذاب الشديد لنفاقكم في الإيمان وإضماركم السوء للمسلمين.

﴿**الَّذِيـنَ يَتَّخِذُونَ الكافِرينَ أَوْلِياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنينَ**﴾ والأولياء: جمع وليّ، وهو الصديق والنصير ومن يهيئ للإنسان ما يبغيه من الخير والمنفعة.

فهـؤلاء المنافقون اتخذوا الكافرين أولياء مـن دون المؤمنين ﴿**أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ**﴾ والعزّة: القوة والغلبة والتأييد، والاستفهام في الآية للتوبيخ علـى طلبهم العزة من الكافرين ﴿**فَـإِنَّ العِزَّةَ لِلهِ جَمِيعًا**﴾ أي من يطمح إلى العِزَّة، فإنَّ العزّة لا تكون إلا من عند الله لمن يطيع أوامره ويترك نواهيه.

يقـول سـيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما يسـتعز المؤمـن بغير الله وهـو مؤمن، وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله. وما أحوج ناسًـا ممن يدّعون الإسـلام ويتسـمّون بأسـماء المسـلمين وهم يسـتعينون بأعدى أعـداء الله فـي الأرض أن يتدبـروا هذا القـرآن.. إن كانت بهـم رغبة في أن يكونوا مسلمين.. وإلا فإن الله غني عن العالمين»[١].

ثم يخاطب الله مَن أظهر الإيمان مِن مؤمن صادق أو منافق:

﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الكِتابِ أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بها**﴾ أي وقد نزّل الله عليكم في القرآن[٢] أنكم إذا كنتم في مجلس وسـمعتم آيات القرآن تُتلى عليكم ورأيتم الكافرين يجحدون بها ويستهزئون ﴿**فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾ أي اُتركوا مجالستهم وقاطعوهم حتى يتكلموا في حديث آخر ﴿**إِنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ**﴾ أي إنكم إذا بقيتم معهم تستمعون إلى كفرهم واستهزائهم بآيات الله فأنتم مشاركون لهم في الكفر والإثم، وهذا يـدل على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي بفعلهم، فكل من يجلس في مجلس يجاهر أصحابه بمعصية

---

(١) عن كتابه «في ظلال القرآن».

(٢) ومـا نـزل عليهم من القرآن من قبـل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الله ولا ينكر عليهم ذلك فهو معهم في الذنب سواء، فإن لم يستطع أن ينكر عليهم ويكفّهم عما هم عليه فينبغي ترك مجالستهم حتى لا يكون مثلهم **﴿إِنَّ اللهَ جامِعُ المُنافِقِينَ والكَافِرِينَ في جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾** لأن هذيْن الفريقين كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، سيجمعهم الله جميعًا يوم القيامة في جهنم ليتعذبوا بها بسبب سوء أفعالهم.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ التربُّص: الانتظار، والذين يتربصون هم المنافقون حيث ينتظرون ما يحلّ بالمؤمنين عند قيام الحرب بينهم وبين المشركين **﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ﴾** فإن كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ نَصْرٌ من الله **﴿قَالُوا أَلَمْ نكُن مَعَكُمْ﴾** أي ألم نكن معكم بالعون، نجاهد عدوّكم ونغزوهم معكم حتى انتصرتم عليهم، إذًا فأعطونا حصة من الغنيمة **﴿وإِن كَانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ﴾** أي وإن كان للكافرين حظ من النصر **﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحوِذْ عَلَيْكُمْ وَنمْنَعْكُم مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾** أي قالوا للكافرين: ألم نحطكم بحمايتنا ورعايتنا حتى قهرتم المؤمنين فأعطونا ثمن ذلك.

ولنتأمل الأداء البياني حين يقول الله عن انتصار المؤمنين **﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾** لأن الفتح يفصل بين الحقّ والباطل، ولأن من وراء نصر المؤمنين فتح الطريق لكي يدرك الناس حقائق الإسلام ويدخل فيه من شاء منهم.

أما عن انتصار الكافرين فقد ذكر القرآن كلمة **﴿نَصِيبٌ﴾** أي شيء من الغلبة ولا يمكن أن تكون هذه الغلبة فتحًا لأن الله لا يدع الباطل ينتصر دائمًا.

﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامةِ﴾ فإنّ مآلهم إلى الله يوم القيامة وهو الذي سيحكم بالحق وحده، فيثيب المؤمنين المخلصين ويعاقب المنافقين.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ والسبيل: الحجة والغلبة. والمراد بذلك الغلبة يوم القيامة كما روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل

المراد بالآية في الدنيا، حيث ينفي الله أن يكون للكافرين سلطان وغلبة على المؤمنين ما داموا متبعين أوامر دينهم وآخذين بالأسباب التي تجعل النصر حليفًا لهم، وإذا حدثت هزيمة في بعض الأوقات فتكون للابتلاء والاختبار، وغالبًا ما تكون الهزيمة لهم بسبب انحرافهم عن تعاليم دينهم وعصيانهم أوامر ربهم ورسوله كما حصل في غزوة أُحُد.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ
ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ
مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ
وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا
يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ
ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ
تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

شرح المفردات

المُنافقون: هم الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر.

يُخادِعون الله: بإظهار الإيمان وإبطان الكفر.

يُراءُون الناس: يُظهرون للناس غير ما انطوت عليه نفوسهم لخداعهم.

مُذَبْذَبين: متردّدين بين المؤمنين والكافرين.

فلن تجد له سبيلًا: فلن تجد له طريقًا يوصل إلى الحق.

سُلْطانًا مُبينًا: حجة ظاهرة.

الدَّرْكِ الأَسفل من النار: المكان الأسفل منها وهو قعرها.

اعتصموا بالله: اتخذوه ملجأ وملاذًا.

وكان الله شاكرًا: والشكر من الله لعباده مجازاتهم الجزاء الحسن والثناء الجميل عليهم.

إنْ تبدوا: إنْ تُظهروا.

صفات المنافقين والنهي عن الجهر بالسوء

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين ويصف جانبًا من سلوكهم السيئ ليحذرهم المؤمنون وليكونوا على بيّنة من أمرهم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ والخداع: إظهار غير ما في النفس، وإيهام الغير خلاف ما يريد به من المكروه. ومخادعة المنافقين لله تمثلت بأنهم تظاهروا بالإيمان وأبطنوا الكفر، وفاتهم أن الله يعلم ما يخفون وما يعلنون.

وقد يكون المراد من مخادعة الله مخادعة رسوله محمد ﷺ، فصار خداعهم لرسول الله خداعًا لله ﷻ وأمثال ذلك كثير في القرآن مثل قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ...﴾** [الفتح: ١٠].

فهم يخادعون الله ولكنه سبحانه هو ﴿خَادِعُهُم﴾[١] أي يعلم خداعهم ويتركهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الوصول إلى الحق، وسيجازيهم يوم القيامة بأشد العذاب على خداعهم.

﴿وإذا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قاموا كُسَالَى﴾ أي قاموا إلى الصلاة متباطئين متثاقلين لأنهم لا يعتقدون أن لهم ثوابًا على أدائها ولا عقابًا على تركها ﴿يُراءُونَ النَّاسَ﴾ أي يأتون بالصلاة رياءً، والمرائي هو الذي يريد بصلاته ثناء الناس عليه ولا يريد بها عبادة الله ﴿ولا يَذْكُرونَ اللهَ إلاّ قَلِيلًا﴾ أي ولا يجري ذِكْرُ الله تعالى في قلوبهم إلا نادرًا لأنهم لا يدركون معاني الإيمان، وقد يراد بذكر الله: الصلاة نفسها، أي أنهم لا يأتون بالصلاة إلا قليلًا لأنهم لا يصلّون إلّا وهم غائبون عن أعين الناس، فإذا رأوا الناس: قاموا إلى الصلاة، وهذا لا يحصل إلا قليلًا.

﴿مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذلِكَ﴾ والمذبذب: المضطرب المتردد بين أمرين فهؤلاء المنافقون مترددون بين الكفر والإيمان ﴿لا إِلَى هـؤُلاءِ وَلا إِلَى هؤُلاء﴾ أي ليسوا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة لإضمارهم الكفر، ولا إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ومن يبعده الله عن طريق الرشاد وهو الإسلام فلن تجد له طريقًا يوصله إلى الحق والصواب.

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾ يا أيها الذين صَدَّقوا بالله ورسوله محمد لا تجعلوا الكافرين أصدقاء ونصراء لكم يتولون أموركم دون إخوانكم المؤمنين لأنه لا يُؤْمَنُ جانبهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطانًا مُبِينًا﴾ الاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة واضحة في عذابه إياكم إذ إنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم وهم يبغون لكم الهزيمة ولدينكم الزوال.

---

(١) الخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه.

وهذا لا يمنع من عقد معاهدات السلام معهم إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

﴿**إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ الدَّرْكُ: أسفل كل شيء ذي عمق، والدرك الأسفل من جهنم أقصى قعرها. فالمنافقون في أقصى قعر جهنم ليعذّبوا بنارها ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين من يُنْقِذهم ويخلّصهم من ذلك العذاب الهائل.

﴿**إِلاّ الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا**﴾ ولكن الذي يُخلِّص المنافقين من العذاب الأمور الآتية وهي: توبتهم من النفاق قبل مماتهم، وإصلاحهم ما أفسدوا في حال النفاق بأن يعملوا بما أمر الله وينتهوا عما نهاهم عنه ﴿**واعْتَصَمُوا بِاللهِ**﴾ وتمسكوا بشرع الله ابتغاء مرضاته ﴿**وَأَخْلَصُوا دِينَهُم للهِ**﴾ وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي عملوها لوجه الله مجردة عن الرياء وحب الظهور ﴿**فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي فهؤلاء الموصوفون بما ذُكِرَ يكونون مع المؤمنين المخلصين، والمقصود بالمعيّة في قوله: ﴿**مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ التشريف والتكريم بصحبتهم ﴿**وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ وسوف يعطي الله المؤمنين الذين اتصفوا بما ذُكِرَ ثوابًا عظيمًا في الآخرة.

﴿**ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ**﴾ والمعنى: أيّ منفعة له سبحانه في عذابكم وعقوبتكم إن شكرتم نعمه وأدَّيتم حقها، وآمنتم برسوله محمد فصدقتموه وأقررتم بما جاءكم به من عند الله فعملتم به. إن ذلك كله لا يزيد في مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا، ﴿**وَكَانَ اللهُ شاكِرًا عَلِيمًا**﴾ أي مثيبًا لكم على طاعتكم إياه ومجازيكم الجزاء الحسن بإدخالكم جنات النعيم في الآخرة، وهو سبحانه عليم بما تفعلونه من خيرٍ أو شرّ.

ثم يبيّن القرآن جانبًا من الأخلاق الكريمة التي يجب أن يتحلّى بها المجتمع الإسلامي، قال الله تعالى:

﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّـوءِ مِـنَ القَوْلِ﴾ وعدم محبَّة الله لمن يجاهر بالسـوء كنايـة عن عدم رضاه عنـه وغضبه عليه، والجهر بالسـوء هو الكلام بـه علنًا ونشـره بين الناس وإذاعته، والقول السـوء هو الذي يسـيء إلى من يقصده بالقول ويُؤذيه في شَرَفِهِ أو عِرْضِهِ أو سُمْعَتِهِ أو غير ذلك.

واليـوم نرى هـذه الآية يظهر معناها في أوضح صـورة عند الذين يتعاطون مقاليد الحكم أو غيرهم حيث اتخذوا من وسائل الإعلام، سواء منها الصحف أو شاشـات التلفـزة أو الإذاعـات، وسـيلة لتنفيـس حقدهـم علـى خصومهـم والإسـاءة إليهم، إنهم يفعلون ذلك ابتغاء مكسـب ما ﴿إلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ لكن من وقع عليه الظلم فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول في الحدود التي تمكّنه من رفع الظلم عنه دون أن يتجاوز الجهر بالسوء إلى الكذب والبهتان ﴿وكَانَ اللهُ سَـمِيعًا عَلِيمًا﴾ بهذه الجملة ختم الله الآية، وفيها تحذير من الجهر بالسـوء لأنه سبحانه سميع لكل ما يقوله الناس، عليم بما يدور في النفوس من بواعث الخير والشر، وسيجزي الله سبحانه كل إنسان بما يقترفه من شرّ أو ظلم.

والجهر بالسـوء وإشـاعته كثيرًا ما يترتب عليه آثـار مدمرة في المجتمع حيـث يخيَّـل للنـاس أن الشـرّ صار غالبًـا، وأن الخير قد خلا مـن النفوس، ومن المُشـاهَد أن الجهر بالسـوء يبدأ في أول الأمر باتهامات فردية وينتهي إلى اتهامات جماعية، وبذلك تنعدم الثقة فيما بين الناس، وهنا مكمن الخطر ﴿إن تُبْـدُوا خَيْـرًا أَوْ تُخْفُـوهُ﴾ إنْ تُظهروا الخير علنًا بأنواعـه المختلفة من الصدقـة والأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكـر والنفع الإنسـاني العام، أو تفعلوا الخير سـرًا ﴿أوْ تَعْفُوا عَن سُـوءٍ﴾ أو تصفحوا لمن أسـاء إليكم بما جهـر مـن كلام يؤذيكم أو ظلم لحق بكم ﴿فَـإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فإن الله كان ولـم يزل كثير العفو عمَّن عصـاه، عظيم القدرة على عقوبته، ولكنه يُؤثر العفو مع القدرة على العقاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ
بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ
وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ
سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢ ﴾

شرح المفردات

ويريدون أن يُفَرِّقُوا بين اللهِ ورسُلهِ: ويريدون أن يؤمنوا بالله دون رسله.

ويُريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلًا: ويريدون أن يتخذوا طريقًا وسطًا بين الإيمان والكفر.

أعْتَدْنا للكافرين: هيأنا لهم.

عذابًا مهينًا: عذابًا مُذِلًا.

يُؤتيهم: يُعطيهم.

أجورهم: ثواب عمالهم.

التصديق برُسُل الله

وبعد أن ذكر القرآن صفات المنافقين انتقل إلى الحديث عن اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض رسل الله وجحدوا بعضهم مبيّنًا فساد مسلكهم الذي هو مظهر من مظاهر الكفر بالله، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُـلِهِ﴾ والكفر بـالله هو الجحود بوحدانيته سبحانه، أمـا الكفـر برسـل الله فهو إنكار وجود رسـل الله إلـى خلقه، فمن يجحد رسالة رسول من عند الله مع قيام الدليل على أنه رسول الله حقًا بما أيّده من المعجزات فقد كفر بالله، لأنه سبحانه هو الذي بعث هذا الرسـول وأنـزل عليه الوحـي لهداية الخلق ﴿وَيُرِيـدُونَ أن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُـلِهِ﴾ والتفريـق بيـن الإيمـان بالله والإيمان برسـله كفـر، وإنما كان كفـرًا لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شـرع لهم على أَلْسِـنة رسـله، فإذا جحدوا رسـالة الرسـل فقد ردوا عليهم الشـرائع التي أنزلهـا عليهم، فكانوا بذلـك ممتنعيـن عن الْتـزام العبودية التي أُمـروا بالتزامها مـن الخالق، وَتَرْكُ ٱلتزام الطاعة للهِ والعبودية له هو كُفْرٌ به سبحانه.

﴿وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهم اليهود الذين آمنوا بموسى ومن قبله من الرسـل وكفروا بنبوّة عيسـى ومحمد، وكذلك النصارى الذين آمنوا بنبوّة موسـى وعيسـى وكفروا بنبوّة محمد ﷺ ﴿وَيُرِيـدُونَ أن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَـبِيلًا﴾ أي ويريدون أن يتخذوا بين الإيمان ببعض الرسـل دون البعـض مذهبًـا جديدًا يذهبون إليه وَدينًـا يدينون به ﴿أُولَٰئِكَ هُـمُ الكافِرُونَ حَقًّـا﴾ أي الذيـن ذهبـوا هـذا المذهـب من الإيمـان ببعض الرُّسُـل والكفر ببعضهـم: هـم الكاملون في الكفر، وكلمة ﴿حَقًّـا﴾ تأكيد لمضمون الجملة أي أنهم كفروا كفرًا ثابتًا لا شـكَّ فيه ﴿وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي وهيَّأَ الله للكافرين عذابًا يهينهم به جزاءً لتفريقهم بين الله ورسـله، والإيمان بالبعض والكفر بالبعض الآخر.

فالإيمـان بوحدانيـة الله يقتضـي وحدة الديـن الذي ارتضاه الله سـبحانه للنـاس، ويقتضـي الإيمان برسُـلِ الله الذيـن جاءوا بهذا الديـن من عند الله، والكفر ببعض الرسـل وتكذيبهم هو كفر بوحدانية الله، فدين الله الذي أنزله

للبشر منهجه واحد لا يتغيّر في أساسه، ولهذا يخاطب الله رسوله محمدًا كما جاء في القرآن: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي والذين صدّقوا بوحدانية الله وصدّقوا بجميع رُسُل الله ولم يفرّقوا في الإيمان بين رسول ورسول ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي أُولئك سوف يعطيهم الله أجورهم التي وعدهم بها يوم القيامة، وقد أكَّد الله سبحانه الجزاء الحسن والثواب على عقيدتهم الصحيحة بالتعبير بـ﴿سَوْفَ﴾ الدالة على تأكيد الفعل في الزمن المستقبل ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ للدلالة على أن ذلك الجزاء والثواب للمؤمنين هو من فضل الله ورحمته، لأنه سبحانه متصف بالغفران الدائم لمن تاب وعمل صالحًا كما أنه سبحانه متصف بالرحمة الواسعة.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

شرح المفردات

أَرِنا الله جهرةً: أي عِيانًا نعاينه وننظر إليه.
وآتينا موسى سلطانًا مبينًا: وأعطينا موسى حجة تبين عن صدقه وحقيقة نبوّته.
الطُّور: جبل الطور بصحراء سيناء.
بميثاقهم: بِعَهْدِهم.
لا تعدوا في السبت: لا تعتدوا بصيد السمك المحرَّم عليكم صيده يوم السبت.
ميثاقًا غليظًا: عَهْدًا وثيقًا مؤكَّدًا.

عصيان بني إسرائيل لربهم

وبعد أن بيَّن القرآن أحوال بعض أهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ الذين آمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعض، بيَّن في الآيات التالية عناد اليهود ومكابرتهم وامتناعهم عن اتّباع نبيّ الإسلام وما جاء به من الهدى، قال الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتابًا مِنَ السَّماءِ**﴾ واليهود هم الذين سألوا رسول الله محمدًا، فقد سألوه بقولهم: إن كنت نبيًّا صادقًا فأتنا بكتاب من السماء جملة مكتوبًا كما جاء موسى بالتوراة مكتوبة من عند الله، ومعلوم أن التوراة نزلت على موسى مكتوبة جملة واحدة بواسطة الألواح. واليهود نسبوا التنزيل إلى رسول الله بقولهم: ﴿**أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ**﴾ والرسول محمد ما قال إني نزّلت القرآن بل قال: أُنْزِلَ عَلَيَّ القرآن من عند الله.

﴿**فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً**﴾ أي لا تستكثر يا محمد مكابرة اليهود وعنادهم وتوجيه هذا السؤال إليك، لأنّهم فعلوا مع موسى أكبر من ذلك حين طلبوا منه أن يريهم الله ذاته رؤيةً ظاهرةً للعيان بحيث يشاهدونه بأبصارهم، وهذا مطلب يدل على التبجّح والتعنّت، ولا يصدر عن نفس يلامسها شعور بالإيمان، بل يدل على الوقاحة وسوء الأدب مع الله، وطلبهم هذا لم يمر بسلام بل عاقبهم الله على ذلك بقوله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي أهلكتهم الصاعقة بسبب ظلمهم بذلك السؤال ثم أعادهم الله إلى الحياة بعد أن تضرع موسى إلى ربه طالبًا منه المغفرة والرحمة لمن أساءوا الأدب معه.

والصاعقة: هي إفراغ كهربائي جويّ بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين، ينشأ عنه صوت شديد أو نار محرقة، فإذا أصابت إنسانًا أهلكته.

وتُتابع الآيات ذكر بعض مساوئ اليهود:

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ واسترسالًا في غيّهم اتخذوا العجل معبودًا لهم من بعد ما جاءتهم الأدلة الواضحة الشاهدة على وحدانية الله وبطلان عبادة آلهة سواه، كما جاءتهم المعجزات الباهرة التي تشهد بصدق نبوة موسى: كعصاه التي ابتلعت أدوات السَّحَرة، وشق البحر بعصاه حيث أحدثت فيه طرقًا سار عليها بنو إسرائيل ونجوا من بطش فرعون، وتفجير الصخر عند ضربة موسى بعصاه فأنبعث منه اثنتا عشرة عينًا وغير ذلك من المعجزات **﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾** أي فعفا الله عن الذين عبدوا العجل بعد توبتهم ورجوعهم عن ضلالهم، وعبادة العجل هي بقية من بقايا الوثنية التي خالطت قلوبهم وهم في مصر، وقد كانت عبادة العجل شائعة في مصر آنذاك **﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾** وأعطى الله موسى حججًا بينات ومعجزات باهرات وقوة على الانتصار على من خالفه.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ ولما امتنع بنو إسرائيل عن قبول شريعة التوراة أمر الله الملك جبريل بأن يقتلع جبل الطور من أساسه ويرفعه فوقهم تهديدًا لهم بسبب نقضهم العهد الذي أخذه موسى عليهم وهو العمل بالتوراة، فلما ظنّوا أن الجبل واقع بهم أقبلوا على العمل بالتوارة، وبهذا رفع الله العذاب عنهم **﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾** والمراد بالباب: باب القرية التي أُمروا بدخولها بعد خروجهم من الصحراء التي تاهوا فيها أربعين

عامًا، وكان دخولهم القرية بقيادة يوشع، وقد اختُلف في اسم القرية هل هي بيت المقدس أو إيليا أو أريحا، ودخولهم القرية ساجدين هو ما أمرهم الله أن يدخلوها خاضعين متواضعين مُطَأْطِئي رؤوسهم شكرًا لله على نجاتهم من الصحراء، وانتصارهم على أعدائهم، ولكنهم لما دخلوا القرية أعرضوا عما أمرهم الله به من الخضوع والخشوع له، بل دخلوها عن طريق المجون والاستهزاء وعصيان الله ﴿**وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ**﴾ أي وقال الله لهم على لسان نبيهم بما أوحى الله إليه: لا تتجاوزوا الحدود التي أمركم الله بالْتزامها وهي عدم صيد السمك يوم السبت ﴿**وَأَخَذْنا مِنْهُم مِيثاقًا غَلِيظًا**﴾ وأخذ الله منهم عهدًا مؤكَّدًا شديدًا بأن يعملوا بما أمرهم به سبحانه، ولكنهم نقضوا العهد واحتالوا لصيد السمك الذي نُهوا عن صيده، وعصوا أمر ربهم.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا
عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا
قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾
وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

شرح المفردات

فَبِما نَقْضِهِم ميثاقهم: الميثاق العهد المؤكد ونقضه هو إبطاله وعدم العمل بمقتضاه.

قلوبُنا غُلْفٌ: مُغَطَّاة بأغشية تمنعها من الوعي والفهم.

طَبَع الله عليها: ختم عليها فلا تعي وَعْظًا.

بُهْتانًا: القولُ الكذب الشنيع الذي يبهت ويحيّر.

جرائم اليهود ومسألة صلب المسيح

ويتابع القرآن فيذكر جانبًا من سيئات اليهود وإجرامهم، قال الله تعالى: **﴿فَبِما نَقْضِهِم مِيثاقَهُمْ﴾**[1] أي بسبب نقضهم العهد الوثيق المؤكد الذي عاهدوا به ربهم لَعَنَّاهم وعاقبناهم **﴿وكُفْرِهِم بِآياتِ اللهِ﴾** كما لعنّاهم بسبب جحودهم بآياتنا الواردة في التوراة فقد أخفوا ما فيها من بشارات بمجيء رسول الله من العرب وهو الرسول محمد ﷺ، حيث أساءوا تأويل ما جاء في التوراة في شأنه ليبرروا نكران نبوّته **﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** كما لعنهم الله بسبب قتلهم الأنبياء ظلمًا وعدوانًا كما فعلوا بيحيى وزكريا **﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾** أي قولهم إن قلوبنا عليها غشاوة وأغطية تمنعنا عما تدعونا إليه فلا نفقه ما تقول ولا نعقله، فردّ الله عليهم **﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ﴾** أي بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم وإصرارهم على المعاصي **﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاّ قَلِيلًا﴾** أي لم يصدّقوا بما أمرهم الله به كله ولكن صدّقوا ببعض الأنبياء وببعض الكتب التي أنزلها الله، وقيل: المراد بالقليل هو من آمن بنبوة محمد كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود.

---

(١) **﴿فبما نقضهم﴾** هذه الجملة متعلقة بمحذوف تقديره: لَعَنّاهم وعاقبناهم، ويؤيد ذلك ما جاء في القرآن ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ هاتان سيئتان من جملة سيئاتهم معطوفتان على ما تقدم من سيئات، إحداهما: الكفر بعيسى ونكران نبوّته، والثانية: اتهام أمه مريم الطاهرة بالزنى، وقد وصف الله هذا الاتهام بالبهتان العظيم وهو الكذب الفظيع الذي لا تقبله العقول بل ترفضه لِبُعده عن الحقيقة وغرابته، وقد اتهموها بالزنى لأنها وضعت وليدها عيسى وهي لم تتزوج، فبرَّأها الله على لسان وليدها عيسى عليه السلام حين أنطقه الله بالكلام وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢].

ومن جرائمهم التي تُظهِرُ كفرهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾ هذا القول منهم بقتل المسيح هل يعدّ جريمة؟ نعم إنها لجريمة لأن قولهم هذا يفصح ما سعوا إليه من رغبة في قتله، وسعوا بكل السبل لذلك، فقاموا بالوشاية عليه عند الرومان، وكذبوا عليه وافتروا وسلَّموه إلى الحاكم الروماني وقُتِل في زعمهم.

أما ما جاء في الآية من وصف عيسى بأنه ﴿رَسُولَ اللهِ﴾ ففيه احتمالان: أحدهما أن يكون هذا من قول اليهود عن طريق السخرية بالرسالة الإلٰهية التي يدعوهم إليها وأن الله لم يحمه منهم، والاحتمال الثاني: أن يكون هذا القول من الله فيدل على أن الله ينفي عن عيسى ما وصفه به اليهود من الأباطيل وما ادّعوا أنهم قتلوه، مع أنه رسول من عند الله جاء لهدايتهم.

﴿وما قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي لقد زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فكذَّبهم الله في ذلك وقال: ﴿وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي أن الله أَلْقى الشَّبَه بعيسى على رجلٍ فظنُّوه إياه وقتلوه وصلبوه، وهذا الرجل ليس في الواقع عيسى عليه السلام، وقد أمسك القرآن عن ذكر من ألقى الله عليه

شبه عيسى فقتل مكانه، أما عيسى فقد رفعه الله إليه ونجّاه من أعدائه، هذا وسنتعرض إلى مسألة صلب المسيح بإسهاب في آخر هذه السورة.

﴿وإِنَّ الَّذينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من النصارى لفي شك دائم من حقيقة أمره. ولقد اختلف النصارى في شأن عيسى اختلافًا كبيرًا، فمنهم من زعم أنه ابن الله وأنه أحد الأقانيم الثلاثة[1]، ومنهم من ادّعى أن في عيسى عنصرًا إلٰهيًا مع العنصر الإنساني وأن الذي ولدته أُمه مريم هو العنصر الإنساني ثم جاء اللاهوت بعد ذلك، ومنهم من زعم أن لعيسى طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلٰهية، ومنهم من أنكر أُلوهية عيسى وقالوا: بل هو مخلوق لله كما ذهب إلى ذلك آريوس[2] وغيره، ومنهم من كان يقول: إن عيسى وأُمه إلٰهان من دون الله. هذه بعض الآراء في شأن عيسى عليه السلام. كما اختلف النصارى في صلب السيد المسيح، فمنهم من أثبت ذلك ومنهم من أنكره.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاّ اتّباعَ الظَّنِّ﴾ أي لا يصدر عنهم من علم في شأن السيد المسيح وصلبه إلاّ الظنّ الذي لا تثبته حجّة، ولا يقوم على بُرهان.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ وما قتلوا السيد المسيح حقًّا وصدقًا وما تأكدوا من قتله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ بل رفعه الله إلى موضعٍ تولّى فيه حفظه وحمايته، وظاهر القول أن الرفع بعيسى كان بجسده وروحه لا بروحه

(١) يعتقد النصارى أن الله واحد في ثلاثة أقانيم يملك كل واحد من هؤلاء الأقانيم الطبيعية الإلهية بكاملها، وهذه الأقانيم هي: الأب والابن وروح القدس.

(٢) آريوس: وُلد في مدينة القيروان في ليبيا عام ٢٧٠م في عائلة نصرانية، سافر إلى الإسكندرية والْتحق بجامعتها اللاهوتية وتربع على مناصب عالية في السلك الديني المسيحي وكان يدعو إلى وحدانية الله وينكر ألوهية المسيح، وكان له الكثير من الأنصار والأتباع وقد اضطُهد بسبب دعوته هذه.

فقط وعليه أكثر المفسرين ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل القوي الغالب لا يلجأ إليه أحد إلا أعزّه وحماه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها.

﴿وَإِنْ[١] مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إلّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ للمفسرين في هذه الآية اتجاهان، الأول: أن الضمير في قوله (قبل موته) يعود إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويكون المعنى: ما من أحد من أهل الكتاب أي من اليهود والنصارى إلا ليؤمنن بنبوّة عيسى وأنه عبد الله ورسوله وأنه ليس بإلّه، ولا بأنه ابن الله، وذلك عند نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان قبل يوم القيامة لأن الله رفعه إليه وأنه باقٍ حيًّا، وعند نزوله إلى الأرض يكذب هؤلاء الذين تباينت أقوالهم واختلفت فيه آراؤهم ويمكث أربعين سنة وتكون الأديان كلها دينًا واحدًا وهو دين الإسلام ثم يتوفى بعد ذلك. ونزول عيسى ثابت في الصحيحين: البخاري ومسلم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرُ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية[٢]، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرًا له من الدنيا وما فيها.

والاتجاه الثاني أن الضمير في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى اليهودي والنصراني المشار إليه بقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ﴾ والمعنى على هذا أن كل يهودي ونصراني وهو يُحْتَضَر ويُعاينُ سكرات الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى فيؤمن به إيمانًا صحيحًا، فيعلم اليهودي أنه رسول من عند الله وأنه صادق غير كذّاب في ادعائه النبوة، ويعلم النصراني أنه بَشَرٌ خصّه الله برسالته إلى بني إسرائيل فليس هو بإله ولا هو ابن لله، ولكن هذا

(١) إن: حرف نفي.
(٢) ويضع الجزية: أي لا يقبلها من أحد من أهل الأديان لأنه لا يقبل غير الإسلام دينًا.

الإيمان لا ينفع لأنه حدث في وقتٍ انقطع فيه الإنسان عن التكليف، كما لم ينفع إيمان فرعون عندما أدركه الغرق.

ويختتم الله الآية بقوله: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِم شَهِيدًا**﴾ أي ويوم القيامة يشهد سيدنا عيسى على اليهود بما كفروا به ويشهد على النصارى بما قالوا فيه: إنه ابن الله، وإن كلام الفريقين في هذا باطل، وإنه ليس بإلٓه وليس هو ابنٌ للهِ بل هو عبدٌ لله ورسوله إلى بني إسرائيل.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

شرح المفردات

هادوا: هُمُ اليهود.

وبِصَدِّهِم عن سبيلِ الله: ومَنْعهم الناس عن دينه وسُبُله التي شرعها لعباده.

أعْتَدْنا: أعددنا وهيَّأنا.

الراسخون في العلم: الثابتون فيه المتمكنون منه.

سنؤتيهم: سنعطيهم.

تحريم الطيبات على بني إسرائيل بسبب ظلمهم

وبعد أن ذكر القرآن ما صدر عن اليهود من ذنوب كبيرة في الآيات السابقة، بيّن ما ترتّب على ذلك من تحريم طيبات أُحلّت لهم مع إنذارٍ للكافرين منهم بعذابٍ أليمٍ يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ أي فبسبب ظلمٍ فادحٍ وقع من أولئك اليهود من كفرٍ وقتلٍ للأنبياء ونقض ما عاهدوا الله عليه، حرّم الله عليهم طيبات من الطعام كانت حلالًا لهم، ومن هذه الطيبات التي حرّمها اللهُ عليهم ما ذكره سبحانه في سورة الأنعام بقوله ﴿ **وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ... الخ**﴾ [الانعام: ١٤٦].

﴿**وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كثيرًا**﴾ ومن مظاهر ظلمهم: منع أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله كثيرًا بقولهم على الله الباطل وتبديلهم كتاب الله وتحريف معانيه عن وجوهها الصحيحة، وجحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ.

﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ**﴾ ومن مظاهر ظلمهم: أخذهم الربا الذي نهاهم الله عنه. فالتوراة الأصلية التي أنزلها الله على موسى حرّمت الربا على كل الناس، ولكنهم غيّروا وبدّلوا وجعلوا أخذ الربا حلالًا بالنسبة لغير اليهود، فمن تعاليمهم الآن: «للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا» ﴿**وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بالبَاطِلِ**﴾ كالرّشوة والخيانة وغير ذلك من سائر الوجوه المحرّمة ﴿**وَأَعْتَدْنا للكافِرينَ مِنْهُم عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ أي وهيّأ الله للكافرين منهم عذابًا موجعًا شديد الإيلام.

واليهود ليسوا جميعًا على هذا النحو من الضلال، ولهذا استدرك القرآن

وبيَّـن أن هنـاك فريقًا سـاروا علـى درب الحق فأثنـى الله عليهم ووعدهم بالثواب الجزيل بقوله: ﴿**لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ**﴾ والراسخ في العلـم هـو العالِمُ المُبالغ فـي العلم بكتاب الله، المتمكـن منه، الثابت في يقينه بحيث لا يكون معه ريب ولا شبهة، والراسـخون في العلم هم مَن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأشباهه ﴿**وَالمُؤْمِنُونَ**﴾ أي المصدّقون بالله ورسله مـن أُمَّة محمد أو المؤمنـون من أهل الكتـاب ﴿**يُؤْمِنُونَ بِما أُنـزِلَ إلَيْـكَ وَمَا أُنْزِلَ مِـن قَبْلِكَ**﴾ يُصَدِّقون بما أُنـزل إليك يا محمد من القرآن ويصدّقون بسـائر الكتب المنزلة من عند الله على موسـى وعيسـى وغيرهمـا من الرسـل، ثم ذكـر القرآن أعظـم أعمال الخير التـي يقوم بها المؤمنـون الصادقون فـي إيمانهم وهي: ﴿**والمُقِيمينَ الصَّلاةَ**﴾ أي يؤدون الصلاة حقَّ أدائها في أوقاتها، والصلاة علاقة روحية تجعل المسـلم قريبًا مـن خالقـه يذكـره دومًا بعبوديته له، فـلا يرتكب إثمًـا ولا يقترف خطيئة، وقد بيَّن القرآن الغاية من الصلاة: ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿**وَالمُؤْتُـونَ الزَّكاةَ**﴾ وهـم الذين يُعطون الصدقة لمسـتحقيها. والزكاة هي التشـريع الأمثل للتكافل بين أفراد المجتمع، وهي حق للفقراء في مال الأثريـاء، ومـن أهداف الـزكاة أنها تُرَبّي فـي المؤمن خصلة البَـذْل والعطاء والإنفاق في سبل الخير، وتَحُولُ بينه وبين الأَثَرَةِ والبخل.

﴿**وَالمُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ**﴾ والإيمان بالله هو الذي يُفيض السكينة علـى قلـب المؤمن عندما يلجأ إلى ربه عنـد المصائب، كما أن الإيمان بالله هو منبع الخير لأنه يصرف الناس عن فعل المنكر. أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بالحسـاب والمُجازاة على الأعمال يوم القيامة، والإيمان بذلك يـردع الناس عـن الظلم خوفًا من مجازاة الله لهم يـوم القيامة، كما أنه يقدّم

العـزاء للمعذبيـن في الأرض حيث يطمئنون إلى ما أعـدّه الله للصابرين من حُسْنِ الجزاء.

﴿أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هؤلاء المتّصفون بتلك الصفات السـابق ذكرها يسـتحقون بسـببها جزاءً عظيمًا في الآخرة، وهـذا الجزاء هو نعيم الجنة.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

شرح المفردات

أَوْحينا: الوحي يقال للكلمة الإلٰهية التي تُلقى إلى أنبياء الله ورسله.

الأسْباط: هم أولاد يعقوب وكانوا اثنى عشر.

زَبُـورًا: هـو الكتاب المُنزَّل على داود عليه السلام ويسـمى المزامير فـي العهد القديم عند أهل الكتاب، وهو حِكَم ومواعظ.

مُبَشِّرينَ: يُخبرون بالأخبار السارة من أطاع الله بما أعدَّ لهم سبحانه من جزاءٍ حَسَنٍ.

مُنْذِرين: يُخَوِّفون من يعصي الله بما أعَدَّ لهم من عقابٍ أليمٍ.

حجة: معذرة يعتذرون بها.

محمد رسول من الله كسائر رسل الله

ولما كان اليهود قد طلبوا من محمد ﷺ فيما سبق أن ينزّل عليهم كتابًا من السماء جملة واحدة كما أنزل على موسى التوراة، ولما كان البعض منهم قالوا: ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى، نزلت الآيات التالية تبيّن حقيقة نبوّة محمد وموقعها من بين سائر النبوات السابقة، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا:

﴿**إنَّا أَوْحَيْنا إلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إلى نُوحٍ والنَّبِيّينَ مِن بَعْدِهِ**﴾ أي أن الله خصَّك يا محمد بالوحي من عنده كما أوحى إلى نوح وإلى سائر الأنبياء الذين جاءوا من بعده. وإنما بدأ الله بذكر نوح لأنه أوّل نبي أرسله الله لهداية قومه، وأول نبي عَذّب الله أُمته لرفضهم دعوته لهم إلى عبادة الله، وفي ذلك إنذار بالهلاك للذين يكفرون بنبوّة محمد ويُناوئونه.

ولنقف قليلًا لنعرّف حقيقة الوحي الإلٰهي، فهو إعلام بخفاء، والكلمة الإلٰهية التي تُلْقَى إلى أنبياء الله. وتكليم الله للرسل على أنواع كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ**﴾ [الشورى: ٥١].

والمراد بقوله: من وراء حجاب هو سماع كلام الله من غير أن يراه كسماع موسى كلام الله، أما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فهو كتبليغ الملك جبريل الوحي للنبي محمد.

ويتابع القرآن قوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إلى إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْباطِ﴾ وكل نبي من هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله يختص بصفة خاصة، فإبراهيم أبو الأنبياء، وإسماعيل هو جدّ نبيّ العرب وكافة الأمم سيدنا محمد ﷺ، وإسحاق أبو أنبياء بني إسرائيل، ومثله ابنه يعقوب ويُدْعَىٰ إسرائيل، واليهود يُنسبون إليه فيُقال: بنو إسرائيل، والأسباط: هم أولاد يعقوب، ولعل الوحي إلى الأسباط كان من قبيل الإلْهام لأنه لم يكن لهم رسالات بشرائع خاصة.

﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ ويُونُسَ وهَارُونَ وَسُلَيْمانَ﴾ كما أوحى الله لهؤلاء الأنبياء، فعيسى عليه السلام كانت رسالته الترفع عن المادة وأدرانها والبعد عن الشهوات، وقد وُلد من غير أب وجعله الله آية للعالمين، وأيوب عليه السلام خصّه الله بصفة الصبر، فقد صبر على ما ابتلاه من المرض والأوجاع، ويونس عليه السلام ابتلاه الله بابتلاع الحوت له عندما فارق قومه وهو غضبان عليهم بسبب كفرهم وقد فارقهم بدون أن يأذن الله له بفراقهم ثم أنجاه الله بعد أن تاب إلى ربه واعترف بظلمه ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور بمعنى المكتوب، أي أعطى الله داود كتابًا مكتوبًا يُقرأ ويُرَتَّل، والزبور يشتمل على حِكَمٍ ومواعظ وتسابيح وثناء على الله وتقديس له، ولا يشتمل على أحكام ولا على بيان للحلال والحرام. ولقد كان داود رجل حرب يقود جيشه كما كان يحكم بين الناس في خصوماتهم بالعَدْل ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي وأرسل الله رسلًا قد ذكرهم الله لك يا محمد في القرآن من قبل هذه السورة مثل: صالح، وهود، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء.

﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي وأرسل الله كذلك رسلًا كثيرين إلى أمم الأرض لم يذكر الله لك قصصهم وما جرى لهم مع قومهم، ولقد وضّح

الله ذلك بما جاء في القرآن: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿وَكَلَّم اللهُ مُوسى تَكْلِيمًا﴾ أي وخصَّ اللهُ موسى بتكليمه له من غير واسطة الملك جبريل، وهو أعلى مراتب الوحي الإلٰهي، وقد أكَّد الله تكليمه له بالمصدر من كلّم بقوله ﴿تَكْلِيمًا﴾ أي كلامًا حقيقيًّا، غير قابل للمجاز والتأويل.

ومما يجدر ذكره أن الله كلَّم رسوله محمدًا بدون واسطة الملك جبريل ليلة الإسراء والمعراج وهو في السماوات العلى.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي أرسل الله هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، والبشارة هي للخبر السار، والإنذار هو للخبر الذي فيه وعيد، فهؤلاء الرسل يبشِّرون من أطاع الله بالثواب الجزيل والنعيم في الآخرة، ويُخَوِّفُونَ من عصى الله بما أعده لهم من عقاب ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي أرسل الله هؤلاء الرسل إلى أقوامهم ليبطل حجة من يقول: لو أرسل الله إلينا رسولًا لآمنّا، وليُسقط كل اعتذار للعصاة في عصيانهم لربّهم، وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل القوي الغالب، البالغ الحكمة في تدبير شؤون الكون.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا
لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

شرح المفردات

وصَدُّوا عن سبيل: ومنعوا الناس عن اتباع دين الله الذي ارتضاه لعباده.

ضَلُّوا: الضلال ضد الرّشاد، أي بعدوا عن طريق الحق.

ضلالًا بعيدًا: ضلالًا كثيرًا.

ولا ليهديهم طريقًا: أي لا يهديهم إلى طريق فيه النجاة والسعادة لهم.

مصير المنكرين لنبوّة محمد ﷺ في الآخرة

ولما كان اليهود ينكرون نبوّة محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن، بيّن الله أن إنكارهم لا يُعبأ به وليس له أي قيمة، لأن الله من عليائه يشهد بنبوّته وما أنزل عليه من القرآن.

روي أن النبي محمدًا ﷺ دخل عليه جماعة من اليهود ليجادلوه في نبوته فقال لهم: إني والله أعلم إنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله قوله:

﴿**لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ أي أن الله يشهد بأنك يا محمد رسوله الذي أنزل عليك القرآن وقد أنزله الله بإرادته وعلمه وحكمته، وأنك أهل لإنزاله عليك، وهو حجة على صدقك ﴿**والمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ**﴾ والملائكة كذلك يشهدون ويُقِرّون بأن الله أنزل عليك القرآن وأنك رسوله ﴿**وَكَفَى باللهِ شَهِيدًا**﴾ وكفى بالله شاهدًا على أنك يا محمد على الحق وإنْ أنكَر المنكرون ذلك، فشهادة الله وحدها كافية لإثبات أنك رسوله، وأن هذا القرآن منزلٌ عليك من عنده.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ أي إن الذين كفروا بالله فأنكروا وجوده أو لم يؤمنوا بوحدانيته وأنكروا نبوّة محمد ومنعوا الناس من الدخول في الإسلام واتباع طريق الهدى ﴿**قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا**﴾ والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، وضد الضلال الهداية، أي إن هؤلاء الكافرين بعدوا عن طريق الحق بعدًا شاسعًا لأنهم جمعوا بين الضلال وإضلال غيرهم.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا**﴾ والظلم هنا: ظلم النفس وظلم الغير، أي أُولئك الذين لَجُوا في كفرهم وظلموا أنفسهم بإبعادها عن طريق الهداية، وظلموا غيرهم بمنعهم عن اتباع سبيل الله وأثاروا الشبهات حول نبوة محمد ﷺ ﴿**لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ**﴾ أي لم يكن من حكمة الله ولا من تدبيره العادل أن ينالوا مغفرة الله وأن يتجاوز عن خطاياهم ﴿**ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا**﴾ ولا أن يوفقهم لطريق من الطرق التي ينالون بها ثواب الله والنعيم في الآخرة ﴿**إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أَبَدًا**﴾ ولكن الله سبحانه يخذل

هؤلاء الكافرين الظالمين حتى يسلكوا الطريق المؤدي بهم إلى عذاب جهنم ماكثين في العذاب زمنًا لا نهاية له ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ أي أن دوام تعذيب الذين كفروا وظلموا هو أمر يسير على الله.

ثم يُخاطب الله الناس جميعًا بمن فيهم أهل الكتاب والمشركين العرب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم الرسول محمد بدين الإسلام وهو الدِّين الذي ارتضاه لكم، وهو الحق من ربكم ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ والأسلوب هنا جاء بشكل نصيحة لهم، أي أنصحكم بأن تصدّقوا أن محمدًا رسول الله إليكم، وأن تتبعوا الهدى الذي جاء به من عند ربكم يكن ذلك خيرًا لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وإنْ تَكْفُرُوا﴾ وإن تجحدوا نبوّة محمد وتكذّبوا بما جاء به من الحق من عند ربكم ﴿فَإِنَّ لِلهِ ما فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فإن الله هو الغني عن إيمانكم لأن الله له ما في السماوات وما في الأرض ملكًا وتصرفًا، فمن كان هذا شأنه فهو قادر على معاقبة الكافرين على كفرهم ﴿وكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل عظيم العلم، فهو عالم بأحوالكم، مراعيًا للحكمة في جميع أفعاله.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾

شرح المفردات

أَهْل الكتاب: تُطلق على اليهود والنَّصارى، والمُراد بهم في الآية هنا النَّصارى.
لا تَغْلُوا في دِينكم: الغُلوّ مُجاوزة الحد، وغُلُوُّ النصارى في دينهم هو إفراطهم في تعظيم عيسى حتى جعلوه إلٰهًا وابنًا لله.
كلمته: المراد بها عيسى وأطلقت الكلمة عليه لأن الله خلقه بكلمة (كن) فكان.
أَلْقاها إلى مريم: أوْصلها إلى مريم.
رُوحٌ منه: أي رحمة منه سبحانه، أو ذو روح من أمر ربه.
لا تقولوا ثلاثة: لا تقولوا إن الله مُكَوَّنٌ من ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس.
وكيلًا: الوكيل هو الحافظ والكفيل بأرزاق العباد.

نهي النصارى عن الغلوّ بعيسى عليه السلام

وبعد أن أجاب القرآن الكريم عن شبهات اليهود حول نبوة محمد وما جاء به من عند ربه، جاءت آيات القرآن التالية وفيها الكلام عن النصارى، مبينة لهم حقيقة المسيح وبطلان معتقداتهم في شأنه، قال تعالى:

﴿**يا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ**﴾ يخاطب الله النصارى وينهاهم عن الغلوّ في الدين، وهو المبالغة والتشدّد فيه وتجاوز الحدّ، وغلوّ النصارى في دينهم حصل عندما أخرجوا المسيح من طبيعة البشر واتخذوه إلٰهًا وجعلوه ابنًا لله تعالى ﴿**وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلّا الحَقَّ**﴾ أي ولا تَصِفُوا الله بما يستحيل اتصافه به من اتخاذ الصاحبة[1] والولد. وقولكم في عيسى إنه ابن الله هو قول منكم على الله غير الحق.

﴿**إنَّما المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ**﴾ صُدِّر الكلام هنا بأداة القصر (إنما) للتنبيه بأن عيسى ما هو إلا رسول من عند الله أرسله الله لهداية

(١) الصاحبة: هي الزوجة.

الناس[1]، فهو ليس إلٰهًا من دون الله، ولا ابنًا لله كما يدّعون. وفي ذكر اسم عيسى ونسبته إلى أُمه مريم ﴿عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أنه إنسان ككل الناس ولدته أُنثى والإلٰه لا يولد، وعيسى كان يأكل ويشرب والإلٰه ليس كذلك، وفي ذكر الأُم من غير ذكر الأب دليل على أنه لا ينتسب إلى أبٍ قَطّ، فليس هو ابن يوسف النجار وليس ابنًا لله.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي أن عيسى عليه السلام تَكَوَّنَ في بطن أُمِّه مريم وَوُجِدَ بسبب كلمة الله وهي ﴿كُنْ﴾ فكان من غير وساطة أبٍ ولا نُطفة، وهذه الكلمة ﴿أَلْقاهَا إلى مَرْيَمَ﴾ أي أوصلها إليها.

فالله سبحانه لما أرسل إلى مريم الملك جبريل يبشّرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلامًا زكيًّا، استنكرت ذلك، إذ هي عذراء ليس لها زوج ولم يمسسها بشر، فقال لها جبريل كما جاء في القرآن: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

فكلمة ﴿كُنْ﴾ هي الكلمة من الله الدّالة على تكوين شيء وإيجاده بمحض القدرة الإلٰهية. وزيادة في الإيضاح جاء في القرآن بأن عيسى خلقه الله كما خلق آدم بكلمة ﴿كن﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فإذا كان عيسى خُلِقَ بدون أبٍ، فآدم خلق بدون أبٍ وأُم.

كما أن عيسى وصفه القرآن بأنه ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي أنه روح من عند الله كسائر الأرواح البشرية، وإنما أضافه الله تعالى إليه تشريفًا وتكريمًا. وهذا

(١) هناك نصوص كثيرة في الأناجيل المعتمدة عند النصارى تثبت أن المسيح نبي وأنه رسول من عند الله، منها: ما جاء في إنجيل يوحنا بعد ذكره معجزة تكثير أرغفة الشعير الخمسة والسمكتين: «فلما رأى الناس الآية التي أتى بها يسوع، قالوا: حقًّا هذا هو النبيّ الآتي إلى العالم» [٦: ١٤].

التعبير ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ليس خاصًّا بعيسى، بل ورد مثله بشأن آدم كما جاء في القرآن: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

كما يأتي الروح بمعنى الوحي الإلٰهي الذي ينزله الله على رسله كما جاء في القرآن: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، وسمي الوحي روحًا لما يحصل به حياة القلوب والأرواح. ويأتي الروح في القرآن بمعنى الرحمة كقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي برحمة من الله سبحانه.

كما أطلق القرآن لفظ الروح على الملك جبريل حين أرسله الله إلى مريم ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ومن المعلوم أنَّ الملائكة تتمثل أحيانًا بهيئة البشر.

﴿فآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ﴾ فآمنوا بالله الواحد الذي لا شريك له في الملك والسلطان وآمنوا بالرسل جميعًا ومن جملتهم: عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ ولا تقولوا ـ يا معشر النصارى ـ إنَّ الله واحد في ثلاثة أقانيم يملك كلٌّ من هؤلاء الأقانيم الطبيعة الإلٰهية بكاملها ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ انتهوا عن عقيدة التثليث في شأن الله يكُن ذلك الانتهاء خَيْرًا لكم، لأنكم بذلك تتجنبون العقيدة غير الصحيحة التي لا أساس لها من الصحة ﴿إنَّما اللهُ إلَهٌ واحِدٌ﴾ أي إنما الله واحد بالذات منزّه عن التعدّد، منفرد في أُلوهيته وليس مركّبًا من أقانيم ثلاثة: الأب والابن وروح القدس ﴿سُبْحانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تنزّه الله تعالى عن أن يكون له ولد ﴿لَهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأرْضِ﴾ له سبحانه ما في السماوات من بلايين النجوم والكواكب، وله سبحانه ما في الأرض من مخلوقات وكائنات، ومن كان مالكًا لكل هذا حريٌّ أن يندرج تحته في الملك كون المسيح مخلوقًا من الله وعبدًا له سبحانه كما جاء في القرآن ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

ثم يختتم الله الآية بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ أي أن الله سبحانه له الكفاية والقدرة في تدبير أمر الكون فلا يحتاج إلى ولد يُعينه ولا إلى إلّه آخر معه يساعده في حفظ الخلائق، على حين أن كل الخلائق محتاجون إليه.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

شرح المفردات

لن يَسْتَنْكِفَ: لن يَأْنَفَ ويترفّع أو يستكبر.

المُقَرَّبُونَ: هم الملائكة الذين قرّبهم الله إليه.

فَسَيحشرهم: يجمعهم إليه يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

فيوفيهم أجورهم: فيعطيهم الله ثواب أعمالهم.

مصير الذين يترفَّعون عن عبوديتهم لله

وبعد أن ذكر الله سبحانه غُلُوَّ النصارى في شأن السيد المسيح ورفعهم إياه إلى رُتبة الألوهية، بيَّن في الآية التالية أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ شأنه كشأن الناس

جميعًا، وأنه عبد الله لا يترفع عن عبادته، قال الله تعالى: ﴿**لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ**﴾ الاستنكاف: الترفُّع والاستكبار والامتناع، أي لن يمتنع المسيح ولن يستكبر من أن يكون عبدًا لله ولن يترفع عن ذلك ﴿**وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ وكذلك من هم أعلى منزلة من المسيح كالملائكة المقرّبين من الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش، فهؤلاء رغم عُلُوِّ درجاتهم عند الله لا يترفعون ولا يستكبرون عن أن يكونوا عبيدًا لله، فكيف يترفع المسيح ويمتنع أن يكون عبدًا لله؟

﴿**وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ**﴾ ومن يترفّع عن عبادة الله ويستكبر عن الخضوع له ﴿**فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا**﴾ فسيجمعهم الله إليه يوم القيامة، فيجازي من عصاه واستكبر عن عبادته بما يستحق من عقاب.

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ**﴾ أمّا الذين حققوا في نفوسهم الإيمان بوحدانية الله وخضعوا له بالطاعة، وتذلّلوا بعبوديتهم له وعملوا الأعمال الصالحة التي دعاهم إليها رسلُه فسيعطيهم الله جزاء أعمالهم الصالحة جزاءً وافيًا غير منقوص ﴿**وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ**﴾ ويضاعف الله حسناتهم ويزيدهم على ما وعدهم به من الجزاء الحسن.

﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ وأما الذين ترفّعوا عن الخضوع لله بالطاعة واستكبروا عن عبودّيتهم له فيعذّبهم الله عذابًا موجعًا في نار جهنم ﴿**وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ أي ولا يجدون لهم غير الله وليًّا يلي أمرهم ويُنَجّيهم من عذابه، ولا يجدون لهم نصيرًا يدفع عنهم عقوبته.

فالله يريد من المؤمنين أن يخرجوا من عبادة البَشَر إلى عبادة الله وحده، ليدركوا أن صاحب السلطان في هذا الكون هو الله وحده، فلا يخضعون إلا له، ولا يسيرون إلا على درب منهاجه وشريعته.

والذين يستنكفون عن عبوديتهم لله يذلّون لعبوديات شتى: يذلّون لعبودية المال، وعبودية الهوى والشهوة، وعبودية حُبّ الجاه والحكم، ويذلون لعبودية الطغاة والمتجبرين في الأرض، وهذه كلها تؤدي بهم إلى الشقاء والتعاسة بدلًا من السعادة التي ينشدونها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

شرح المفردات

بُرْهانٌ من ربكم: حجة ودليل على صحة دين الإسلام.

نورًا مبينًا: نورًا واضحًا وهو القرآن الكريم.

واعتصموا به: تمسَّكوا بهدى الله وعملوا بما جاء فيه من الشرائع.

يهديهم إليه صراطًا مستقيمًا: يهديهم إلى الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى رضاء الله.

البرهان على صحة الإسلام

ويتابع القرآن فيقدّم البرهان والحجة الواضحة على أنه كتاب الله المنزل على رسوله محمد، وأنه الصادق الأمين فيما يبلّغه عن ربه، وأنه رسول الله حقًا، قال الله تعالى:

﴿يـا أيُّهـا النَّاسُ قَـدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِـن ربِّكُمْ﴾ والبُرهـان: هو الحجة النيِّرة والدليل المؤكد الذي يُعطي اليقين على صحة دين الإسلام.

والبرهان الذي جاء به رب العالمين على صحة دين الإسلام هو القرآن الكريم، فهو المعجزة الخالدة التي أيّد اللهُ بها رسوله محمدًا ﷺ.

وقيـل: إن البرهـان الذي جـاء به رب العالمين هو الرسـول محمد ﷺ، فإن سيرة حياته منذ بدء نشأته إلى وفاته، وما تحقَّق على يده من إصلاحات في جزيرة العرب تشهد بأنه رسول الله حقًا.

والحقيقـة فـي ذلـك أن البرهـان على صحة الإسـلام يتمثـل بالقرآن الكريم كما يتمثل بسـيرة الرسـول محمد مجتمِعَيْن، وسـنتكلم عن هذين البُرْهانَيْـن فيمـا بعد، ثم يصـف الله القرآن الكريم بقولـه: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾** فالله سـبحانه أنزل القرآن على الناس جميعًا بواسـطة الوحي الـذي أوحـاه الله إلى رسـوله محمد، وسـمّاه الله نورًا لأنـه يُخرج الناس من ظلمات الضلالة والحيرة التي يتخبطون بها إلى نور الإيمان والهداية الربانية.

﴿فَأَمّـا الَّذِيـنَ آمَنُوا بِاللهِ﴾ أي فأما الذين صدّقـوا بوجود الله ووحدانيته وأنـه لا مُنشـئ للكون سـواه وأقـرّوا بعظمته وجلالـه ولم يعبدوا ربًّا سـواه **﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾** وتمسكوا بهديه ولجأوا إليه وحده في المُلِمّاتِ، وامتنعوا به عن اتِبّاع النفس الأمّارة بالسوء **﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾** ورحمة الله لهم في الدنيا أن يكونوا في سعادة ويُسر واطمئنان وهدوء بال، وأما الرحمة لهـم في الآخـرة فهي دخولهـم الجنة والتمتـع بنعيمها **﴿وَفَضْـلٍ﴾** وهو ما يتفضل الله به عليهم من أنواع المكرمات **﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطًا مُسْتَقِيمًا﴾** ويُرشدهم الله سبحانه إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه الذي يوصلهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثـم نعـود إلـى بيـان حقيقـة البرهـان المتمثـل بالقرآن وسـيرة الرسـول محمد ﷺ والذي أشار الله إليه بقوله: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِن رَبِّكُمْ﴾ ونبدأ بالكلام عن القرآن:

البرهـان المتمثـل بالقـرآن الكريم: فالقرآن هو البرهـان على أنه من عند الله فهو المعجزة التي أيّد الله بها رسوله محمدًا. وتتحقق معجزة القرآن بأنه تحدَّى العرب وهم المشهورون بالبلاغة والفصاحة، كما تحدَّى سائر الأمم أن يَأْتُوا بمثل هذا القرآن وتحدّاهم أن يأتوا بعشر سور أو سورة مثل سور القـرآن، كمـا قـال الله تعالـى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

تأمّل ما جاء في هذه الآية: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ هل يستطيع عربي يَدْري ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات الأدبية مفتوح على مصراعيه؟ وماذا يفعل محمد لو أن هذا القرآن من تأليفه وأن جماعـة مـن بلغاء العرب تعاونوا على أن يأتوا بصيغة أدبية تفوق بلاغة القرآن؟ ولكن هذا لم يحصل، واستمر عجزهم وعجز البشـرية جمعاء إلى يومنـا هـذا، مع العلم أن محمـدًا كان أُمِّيًا لا يقرأ ولا يكْتُب ولم يتلقّ العلم عـن أحدٍ، فقامت الحجة وجـاء البرهان على أن القرآن معجزة من عند الله، إذ لو كان القرآن من تأليف إنسـان ما، لأَسـتطاع العرب أو غيرهم من أهل الفصاحة من الأُمم أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

فالقـرآن معجـز بـكل مـا يحتمله هـذا اللفظ مـن معنى: فهـو معجز في أُسـلوبه المخالف لجميع أسـاليب العرب، ومعجز بألفاظه الفصيحة البعيدة عن الركاكة، ومعجز في معانيه وعلومه، ومعجز بتشـريعاته التي أقرَّ بعدالتها وصلاحيتها للتطبيق علماء القانون في الغرب.

والقـرآن معجـز بما تضمَّنه مـن توحيد الله وتنزيهه عـن النقص وبيان صفـات الله الكاملـة، فنجـد كثيرًا من آياته تذكر عظمـة الله وجلاله بحيث تظهر فيها أُلوهيته وربوبيته للكون وقُدْسِيّته بما لا نجده في أي كتاب ديني آخر.

كمـا أن القرآن يشـتمل على الدعـوة إلى عبادة الله، وبيان ما شـرعه الله من أحكام ووعظ، وأمْرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر، وإرشـاد إلى محاسـن الأخلاق، وزجر عن مساوئها.

كما أن في القرآن أخبارًا عن القرون السالفة كإخباره عن عاد وثمود وفرعون وقومه وما حلّ بهم من عذاب جزاء كفرهم بالله وعصيانهم له، كما ذكر القرآن سـيرة أنبياء الله: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط وموسـى وسـليمان وداود ويوسـف وأيوب، وما في حياة هؤلاء جميعًا مـن دروس وعبـر، وقدوة حسـنة يتأسَّـى بها المؤمنـون، نافيًا مـا أُلْصِقَ ببعضهم مِنْ تُهَمٍ باطلة وفضائح جنسـية، كما نراه في العهد القديم عند أهل الكتاب.

بالإضافة إلى ما اشـتمل عليه القرآن من إشـاراتٍ إلى بعض العلوم في حقائق الكون مما كشف عنه العلم الحديث.

البرهان على أن محمدًا رسـول من عند الله: إن البرهان على أن محمدًا رسول الله ظاهر للعيان، ولكن التعصب الأعمى جعل أتْباع الديانات الأخرى يمتنعـون عـن النظر في حياة النبي محمد ﷺ وسـيرته العطرة، وما تمَّ على يده من إصلاحات تشهد بنبوّته وأنه مؤيَّد من الله سبحانه.

فقد نشـأ محمد نشـأة طاهرة لم تُعرف عنه خصلة ذميمة أو خُلُق سَيِّئ ولـم يشـارك قومه فـي عبادة الأوثـان ولا في مجونهـم قبل النبوّة، كما أنه اشتهر بالصدق والأمانة حتى لُقِّبَ بالصادق الأمين، وبعد سن الأربعين جاءه

الوحي من الله وأُنزل عليه القرآن، وتمّ على يده في مدة ثلاث وعشرين سنة كثير من الإصلاحات نذكر منها ما يلي:

أولًا: توحيد الأُمة العربية بعد أن كانت قبائل متفرقة تتصارع لأَوْهىٰ الأسباب.

ثانيًا: قضاؤه على وثنية متوارثة منذ آماد طويلة، ونَبْذ كل مظاهر الإشراك بالله التي كانت سائدة عند كثير من الشعوب، ودعا مقابل ذلك إلى دين يدعو إلى عبادة الله وحده.

ثالثًا: إحداثه إصلاحًا اجتماعيًا حقق فيه العدالة والصلاح في الأُسرة والمجتمع وعلاقة الأفراد مع بعضهم البعض.

هذا وإن إصلاحًا واحدًا من هذا الإصلاحات كفيل بأن يجعل من قام به على درجة عالية بين عظماء التاريخ، فكيف وقد تمت كلها على يد الرسول محمد ﷺ؟

وفي هذه المناسبة أَنْقلُ ما جاء في إنجيل متّى[1] المعتمَد عند النصارى قول السيد المسيح: «إياكم والأنبياء الكذّابين، فإنهم يأتونكم في لباس الخراف وهم في باطنهم ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم».

لا، ليس النبي محمد ﷺ من صنف الأنبياء الكذابين أما تشهد الثمار التي تمت على يده بأنه نبي صادق؟ لا يستطيع أحد إنكار ذلك. كما أذكر في هذه المناسبة بعض أقوال عُلماء الغرب المنصفين ونظرتهم إلى النبي محمد ﷺ، يقول وِل ديوارنت في موسوعته «قصة الحضارة»:

«وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إنَّ

(١) الإصحاح السابع.

محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعبٍ أَلْفت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مُصلحٍ آخر في التاريخ... وكانت بلاد العرب لمّا بدأ الدعوة صحراء جدباء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أُمة موحدة متماسكة...»(١).

ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»:

«فإنَّ مما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك لا نرى حدًا لفضل محمد على العرب...».

ويقول أيضًا: «وإذا ما قيست الرجال بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ»(٢).

ويقول الكاتب الإنجليزي (توماس كارليل) في كتابه (الأبطال):

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فردٍ متمدِّن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يُظَنّ من أنَّ دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدّاع مزوِّر، وأن لنا أن نحارب ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس..»(٣).

ومنذ قريب، نَشَرَ العالِم والمؤرخ الاميركي (ميشيل. هـ. هارت) كتابًا

---

(١) الجزء الثاني من المجلد الرابع ـ ترجمة الأستاذ محمد بدران.

(٢) نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٤٥.

(٣) نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد السباعي ص ٥٤ ط ٣.

بعنوان: «الأعظم مئة في التاريخ» حيث ذكر مئة من أعظم الرِّجال تأثيرًا في التاريخ فوضع محمدًا على رأس القائمة أي في المرتبة الأُولى، ووضع السيد المسيح في المرتبة الثالثة.

ونختم القول بطرف من المحاورة التي جرت بين هرقل ملك الروم وأبي سفيان من كبار التُّجّار في مكة. فقد ترامت الأخبار إلى هرقل عن نبيّ ظهر في جزيرة العرب، فأراد أن يستفسر عن هذا الأمر، فطلب من أعوانه إحضار أحد التجار الذين كانوا يفدون إلى الشام، فالْتقوا بأبي سفيان حيث أحضروه إلى مجلس هرقل وجرى بينهما حديث طويل نختصر منه أن هرقل سأل أبا سفيان بواسطة المترجم: هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال (أي قبل ادِّعائه النبوة)؟ فأجاب أبو سفيان: لا، فقال هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

ومما سأل هرقل أبا سفيان: أيزيد أتباعه أم ينقصون؟ فأجاب أبو سفيان: إنهم يزيدون(١) فأجاب هرقل: وكذلك أمر الإيمان حتى يَتِمَّ(٢).

هذا جانب من البرهان على أن محمدًا رسول الله حقًّا، ولو أردنا الاستفاضة في ذلك لاحتجنا إلى مجلداتٍ كثيرة.

---

(١) يفهم من كلام الكاتب الإنجليزي توماس كارليل الذي نَقَلْته عنه سابقًا أن عدد المسلمين في الزمن الذي سطَّر فيه كلماته كان مائتي مليون مسلم، أما الآن فقد تبيَّن لي من بعض الإحصاءات أن عددهم هو مليار و٨٠٠ مليون مسلم وأنهم يزيدون في السنة ٢,٩ من سكان الأرض. وهذا ما يذكّرني بما قاله هرقل لأبي سفيان منذ أربعة عشر قرنًا: أيزيد أتباع محمد أم ينقصون؟ ليُستدلَّ بذلك على صدق نُبُوَّة محمد، فأجابه أبو سفيان: بل يزيدون!

(٢) نقلاً عن صحيح البخاري من الحديث النبوي ـ باب الوحي.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

شرح المفردات

يَسْتفتونك: يطلبون منك يا محمد الحُكْم الشرعي الذي شرعه الله تعالى.

الكَلالَة: الذي لا والد له ولا ولد عند وفاته.

أن تَضِلُّوا: لئلا تضلوا.

توريث الإخوة

ثم يختم الله هذه السورة بآية تُبيِّن بعض أحكام ميراث الإخوة(١) التي لم يأت بيان الحكم فيها في آيات المواريث في مطلع هذه السورة، وأسباب نزول الآية ما روي عن جابر بن عبد الله قال: مرضتُ، فأتاني النبي ﷺ يَعودني هو وأبو بكرٍ وهما ماشيان، فوجداني قد أغمي عَلَيَّ، فتوضَّأَ رسولُ الله ثم صَبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقت فقلتُ: يا رسولَ الله، فكيف أقضي في مالي، أو كيف أصنع في مالي؟ وكان لجابر تسع أخوات، ولم يكن له

(١) من عدالة الإسلام توريث الإخوة خلافًا للقوانين الأوروبية المشتقة من القانون الروماني التي لا تورث الإخوة ولا الأخوات.

والد ولا ولد، قال جابر: فلم يجبني رسول الله شيئًا حتى نزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ إلى آخر السورة.

يقول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ أي يطلب منك صحابتك يا محمد أن تُبيِّن لهم الحُكم في ميراث الميت الذي لم يترك ولدًا ولا والدًا ولكن ترك غيرهما من الورثة، وجاء طلب الفُتْيا بصيغة الجمع مع أن الذي طلب الفُتْيا هو جابر لأن الحكم يعمّ المسلمين جميعًا ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ أي قل لهم يا محمد: اللهُ يُبيّن لكم حكم الميراث في الكلالة، والكلالة: من ليس له ولد ولا والد ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ أي إن امرؤ مات وسُمي الموت هلاكًا لأنه إعدام في الحقيقة ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي ليس له ولد ولا والد، ولم يأت ذكر الأب في الآية هنا لأنه داخل في مفهوم الكلالة لغة ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ وهذا الشخص الذي مات ولم يترك ولدًا ولا والد له ولكن له أُخت شقيقة (أي من أبٍ وأُم) أو أُخت لأب عند عدم الأخت الشقيقة، فهذه الأخت لها نصف ما ترك من المال.

وأما الأخت لأُمّ ففرضها السدس كما في الآية ١٢ من هذه السورة ﴿وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ﴾ وهو: أي الأخ الشقيق أو الأخ لأب يرث أُخته إن لم يكن لها ولد، فيأخذ الأخ جميع ما تركته أخته من مال إن لم يكن لها ولد ذكرًا كان أم أُنثى. فإنْ كان لها ولد ذكر لم يرث الأخ شيئًا، وإن كان لها بنت أَخذت البنت النصف وأخذ الأخ أو الأُخت الباقي.

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُما الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي فإن زادت الأُخت عن واحدة بأن وجدت أُختان فأكثر، فلهن الثلثان مما ترك الأخ المتوفى أو الأخت المتوفاة.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ أي وإن كان الإخوة مختلطين ذكورًا وإناثًا فللذكر منهم مثل نصيب الأُختين.

فهـذه الآية ذكرت صورًا أربع لميراث الإخـوة والأخوات للميت الذي لم يترك ولدًا ولا والدًا وهي:

١ ـ أن يمـوت الميـت وترثـه أُخت واحـدة فلها نصف تركتـه والباقي للعصبة[1] إنْ وجدوا، فإن لم يوجدوا فلها الباقي بالردِّ[2].

٢ ـ أن تموت امرأة ويرثها أخ واحد فيكون له جميع تركتها.

٣ ـ أن يكـون الميـت أَخًا أو أُختًـا والوارث أُختان فصاعـدًا ففي هذه الحالة يكون لهن الثلثان.

٤ ـ أن يكـون الميـت أخًـا أو أُختًـا والورثــة عــددًا مـن الإخـوة والأخـوات ففي هذه الحالة تقسـم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

وظاهـر الآيـة يفيـد أنه لا فرق بيـن الإخوة الأشـقاء (أي مـن أَبٍ وأُم) والإخوة لأب في أنهم يشتركون في التركة إذا اجتمعوا، ولكن السُّنَّة النبويّة قدّمـت الأشـقاء على الإخوة لأب، فـإذا ما اجتمع الصنفـان حجب الإخوةُ الأشقّاء الإخوةَ لأب.

وفـي التفصيل أن الأخ الشـقيق (أي مـن أب وأم) يَحْجُبُ الإخوة لأب ذكـورًا وإناثًـا، فـإن وُجِدَت شـقيقة واحدة أخذت النصـف وأخذت الأخت لأب السـدس. وإنْ وُجِدَت شـقيقتان تسـقط الأُخت لأب إلا إذا وُجد معها أخ لأب فإنه يعصبها ويأخذان الباقي.

وفـي حـال وفاة الميت وقد ترك ولدًا ذكرًا وإخوة له، فالإخوة لا يرثون بل كل التركة تكون من حصة الولد الذكر.

---

(١) العصبة: هم قرابة الإنسان الذكور من جهة أبيه، وتشمل الأُصول والفروع والحواشي.

(٢) الردّ: أن يعطى لأصحاب الفروض ما بقي عن أصل المسألة.

وكـذا لا يـرث الإخوة إذا وُجد ابنُ ابنٍ، أو إذا وجد أبٌ، وأما الجد أبو الأب فإنه يحجب الإخوة عند أبي حنيفة خلافًا لسائر المذاهب.

أمـا إذا توفـي المـورّث وتـرك بنتين، فقـد ورد عن النبـي ﷺ أنه ورَّث البنتين الثلثين وأعطى الأخ الباقي، وروي عن ابن مسعود أنه أفتى في مسألة كان الورثة فيها: بنت، وبنت ابن، وأُخت، فأعطى البنت النصف وبنت الابن السدس تكملة للثلثين وأعطى الأخت الباقي تعصيبًا[١].

ثـم يختـم الله الآية بقولـه: ﴿**يُبَيِّـنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّـوا**﴾ أي يُوضّح الله لكـم شـرائع دينكم لئلّا تضلّوا عن طريق الحق، إمـا بإهمال الميراث جملةً فلا تُعطوا أحدًا من المسـتحقين وتجعلوا ميراثكم للكلاب والقطط كما هو الحال في العالم الغربي، أو تجعلوا الحرية للمورّث يُوصي بماله لمن يشاء بغيـر قيد ويترك ورثتـه المحتاجين يتضورون جوعًا، وإما بحرمان من يشـاء وإعطاء من يشاء، وفي ذلك إثارة للبغضاء والعداوة بين الإخوة ﴿**وَاللهُ بِكُلِّ شَـيءٍ عَلِيمٌ**﴾ أي أن الله بكل شـيء بليغ في العلم، يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم في الشرائع والأحكام التي بيّنها لكم.

---

(١) تعصيبًا: هو إرث بغير الفرض.

قضية صلب المسيح

قبل أن أعالج قضية صلب المسيح أريد أن أُبيّن نظرة القرآن إلى المسيح وأُمِّه مريم عليهما السلام حيث يخصّهما الله بمزيد من الإكرام والفضل، فالمسيح هو رسول من عند الله أرسله الله لهداية بني إسرائيل كما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦] والملائكة تخاطب السيدة مريم: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ...﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أما السيدة مريم فقد نصّ القرآن على أن الله فضّلها على نساء العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

بعد هذه المقدّمة أتطرق إلى مسألة صلب المسيح حيث يعتقد النصارى أنه بسبب خطيئة آدم ـ أبي البشر ـ في أكله من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة قامت نظرية صلب المسيح نيابة عن الجنس البشري وفداءً له تكفيرًا عن خطيئته. فالله سبحانه بمقتضى صفة العدل ـ في نظرهم ـ كان عليه أن يُعاقِب ذُرِّيّة آدم بسبب تلك الخطيئة التي ارتكبها أبوهم، وبمقتضى الرحمة كان عليه سبحانه أن يغفر سيئاتهم، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد ـ حاشا الله أن يكون له ولد ـ إلى العالم

لِيُخَلِّصَ العالم من الخطيئة التي اقترفها أبوهم آدم والتي لحقت بالجنس البشري وأن يظهر في شكل إنسان ويعيش كما يعيش الإنسان ثم يصلبِ لِيُكَفِّر عن خطيئة البشر.

أما إلزام الأحفاد والذرية ومعاقبتهم بسبب أخطاء الآباء والأجداد فهو لا ينسجم مع ما جاء في العهد القديم الذي ينصّ في سفر تثنية الاشتراع[1]: «لا تُقْتَلُ الآباء بالبنين ولا تُقتل البنون بالآباء بل كل امرئ بذنبه يُقتل».

وجاء في نبوءة حزقيال[2]: «النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن، بِرُّ البارّ عليه يعود، ونفاق المنافق عليه يعود».

أما القرآن فيذكر أن الإنسان يؤاخذ بعمله فقط وليس له شأن بخطيئة آدم قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١]، أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] أي لا تُؤخذ نفس بذنب غيرها، فكل إنسان مَجْزِيٌّ بعمله لا يُؤاخذ بذنب غيره.

وأما بالنسبة إلى ما وقع فيه آدم من المعصية بأكله من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة فقد نصّ القرآن بأن الله أوْحى إلى آدم أن يتوسل إليه ويطلب المغفرة منه بكلماتٍ لقّنه إياها فدعا بها آدم فتاب الله عليه وأصبحت خطيئته كأن لم تكن كما جاء في القرآن: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

---

(١) الإصحاح الرابع والعشرين عدد ١٦.
(٢) الإصحاح الثامن عشر عدد ٢٠.

نجاة السيد المسيح من الصلب

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل صلب المسيح وقتله، والقرآن يَنْفِي قتل المسيح وصلبه فقد جاء فيه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ...﴾.

والمراد بالشكِّ في الآية هو الشكُّ في شخصية المسيح بحيث يكون هناك تَشابُهٌ بينه وبين غيره، ومما يؤيد فكرة الشك في صلب السيد المسيح ما جاء في الأناجيل أنّ المسيح أخبر تلاميذه أنهم جميعًا سيشكّون فيه ليلة الصلب حيث قال: «كلُّكم تشكّون فِيَّ في هذه الليلة»(١) وعلى هذا نسأل: كيف ساغ لهم أن يجزموا بقتله وصلبه؟

وفي الأناجيل نصوص تثبت نجاة السيد المسيح من يد الذين يريدون القبض عليه:

«فقال لهم يسوع أنا معكم بعدُ زمانًا يسيرًا ثم أذهب إلى الذي أرْسَلَني، وستطلبونني فلا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا»(٢).

«أجابهم يسوع: أفالآن تؤمنون؟ ها إنها تأتي ساعة وقد أتت تتفرقون فيها كل واحد منكم إلى خاصَّته وتتركوني وحدي، ولا أكون وحدي لأن الآب(٣) هو معي قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام...»(٤).

وحاول اليهود الاعتداء على المسيح مرارًا ولكن الله حفظه منهم:

---

(١) إنجيل متّى، الإصحاح السادس والعشرون رقم ٣١.

(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع ٣٣، ٣٤.

(٣) كلمة الآب بالمد تعني (الله) باللغة السريانية أو الكلدانية.

(٤) إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس عشر ٣١ ـ ٣٣.

«فقاموا وأخرجوه إلى خارج المدينة واقتادوه إلى قمة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيّة عليه ليطرحوه عنها. أما هو فجاز في وسطهم ومضى[(١)]».

«فأخذوا حجارة ليرجموه فتوارى يسوع وخرج من الهيكل[(٢)]».

«ولما أحَسَّ المسيح بإصرار اليهود على قتله «رفع الدعاء والابتهال بصراخ شديد ودموع ذوارف إلى الذي بوسعه أن يُخلصه من الموت فاستجيب لتقواه[(٣)]».

وفكرة الخلاص بتقديم الإلٰه نفسه فداءً لتكفير خطيئة أزَليَّة متلبسة بها الإنسانية معروفة عن الديانات الهندية، فالبرهميون يعتقدون أن «كريشنا» وهو الإلٰه «فيشنو» قد خلّص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحةً عنه، ويُصَوِّرون «فيشنو» مصلوبًا مثقوب اليدين والرجلين... ويعتقد البوذيّون مثل ذلك في بُوذا، حتى إنهم ليسمّونه المسيح والمولود الوحيد ومخلص العالم، ويقولون إنه إلّه كامل تجسد بالناسوت وإنه قدَّم نفسه ذبيحةً ليكفّر ذنوب البشر[(٤)].

علاقة الإسلام بالمسيحية

هذا وإنَّ الإسلام يعتبر المسيحية أقرب الملل إلى الإسلام حيث جاء في القرآن: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد دعا الإسلام المسلمين إلى أن تكون علاقتهم مع المسيحيين قائمة

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع ٢٩، ٣٠.
(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن ٥٩.
(٣) رسالة بولس إلى العبرانيين، الإصحاح الخامس: ٧.
(٤) عن كتاب الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، تأليف الدكتور عبد الواحد وافي ص ١٣٠.

على العدالة والبرِّ إذا كانوا مُسالمين للمسلمين لا يُقاتلوهم ولا يُخرجوهم من ديارهم. جاء في القرآن: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

البرّ: من معانيه كما جاء في لسان العرب: الصلاح، والصدق والإكرام وفعل كل خير من أيّ ضرب كان.

والقِسْطُ: معناه العدل، والعدلُ ينبئ عن المساواة وإقرار الحق.

هذه المعاني هي التي يجب أن يراعيها المسلمون في علاقتهم مع المسيحيين: البرّ والعدل الذي دعا إليهما القرآن.

وإنّ المسيحيين في أي دولة إسلامية هم مواطنون لهم ما للمسلمين من حقوق، وقد سمّاهم أهل ذِمّة، وسُمُّوا أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم، ورجل ذمي كما جاء في لسان العرب: رجل له عَهْد. فالمسلمون تَعاهدوا مع المسيحيين في أيٍّ وطنٍ يسكنون معهم على العيش في وئام. وقد حَثَّ القُرآن المسلمين على الوفاء بالعدل، ومَنْ يَنكث العهد يستحق اللعنة من الله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقد دعا نبي الإسلام محمد ﷺ إلى حماية المسيحيين ورَفْع الظلم عنهم فقال: «ألا من ظلم مُعاهِدًا أو انتقصه حقه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حَجِيجُه[1] يومَ القيامة»[2].

وجعل الإسلام للمسيحيين المعاهدين ما للمسلمين فحرّم قتلهم، فقال النبي محمد ﷺ: «ألا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعاهدًا له ذِمَّة الله وذِمَّة رسوله فقد

(١) حجيجه: خصمه المطالب بحقه.

(٢) أخرجه أبو داود.

أخفر(١) بِذِمَّةِ الله ولا يُرَح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها لَيُوجَدُ مِنْ مَسيرة سبعين خريفًا(٢)»(٣).

ومن صلات الودّ التي شرعها الإسلام مع المسيحيين هو أنه أباح المُؤَاكلة من طعامهم باستثناء الخمر ولحم الخنزير مع بعض المحرّمات الأخرى التي انفرد بها، كما أباح التزوّج من نِسائهم العفيفات مع الحرية لهن في البقاء على دِينهنَّ، والمُصاهرة تستدعي الودّ، وحُسْنَ المُعاشرة، والإخلاص في المُعاملة جاء في القرآن: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ(٤) مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ [المائدة: ٥].

كما دعا الإسلام في حال مجادلة المسيحيين في الدِّين أن يكون جدالهم معهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

كما أذكر أخيرًا أنَّ الإسلام نهى أتْباعه أن يُكْرِهوا أحَدًا على الإسلام، جاء في القرآن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كما جاء أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا ما أحببت ذكره في هذه العجالة، ولو أحببت الاسترسال في هذا الموضوع لاستلزم الكثير من الصفحات.

---

(١) أخفر: نقض العهد وغدر.

(٢) الخريف: السنة والعام.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) المحصنات: العفيفات.

كلمة شكر

وفي الختام أقدِّم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل، لِما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة العلّامة القاضي المستشار **الشيخ حسين غزال**

وإلى فضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر** اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير.

وإلى الدكتور **محمد عبد الرحمن المرعشلي**

وإلى الأستاذة القديرة الأديبة **هدى سنو**

على ما بذلا من جهد في تصحيح هذا التفسير.

وأقدّم شكري للأستاذ **توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت على سعيه الدؤوب وتضحياته الجمّة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضمّ أكثر من مائة ألف كتاب، هذه المكتبة التي قدّمت لي كثيرًا من المراجع في مسيرتي الطويلة في تفسير القرآن.

كما أقدّم شكري **لمكتبة كلية الآداب** في الجامعة العربية على ما قدّمت لي من مراجع وخدمات على أيدي موظفيها الكرام.

وأخيرًا أقدّم شكري لشركة سامو پرس غروب على ما بذلته من جهد وعناية في تنضيد أحرف هذا التفسير وإخراجه بهذه الصورة الجميلة الأخاذة التي تريح القراء.

سائلًا الله أن يوفقنا جميعًا لخدمة كتابه الكريم.

المراجـع

- جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.
- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.
- تفسير الكشاف للإمام الزمخشري.
- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.
- تفسير أبي السعود للعلّامة محمد بن محمد العمادي.
- تفسير روح المعاني للعلّامة الألوسي.
- تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية.
- تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري.
- صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ الأستاذ حسنين محمد مخلوف.
- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.
- التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي.
- التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة.
- التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي.
- المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني.
- الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت.

الفهرس

كتب للمؤلف

• روح الدين الإسلامي	الطبعة الرابعة والثلاثون
• مع الأنبياء في القرآن	الطبعة الرابعة والعشرون
• روح الصلاة في الإسلام	الطبعة الثالثة والعشرون
• الخطايا في نظر الإسلام	الطبعة الثانية عشرة
• اليهود في القرآن	الطبعة الرابعة عشرة
• الحكمة النبوية	الطبعة الرابعة
• تعلم كيف تحج	الطبعة الثانية

- THE SPIRT OF ISLAM
- الترجمة الإنجليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)

صدر عن تفسير (روح القرآن) الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر

- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة البقرة

روح القرآن

تفسير سورة المائدة

بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

المَوزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

ISBN 9953-63-175-1 دراسات اسلامية 4-544
9 789953 631752 2

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وَعَلَّمَه

روح القرآن

تفسير سورة المائدة

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف : ٦٦٦ ٣٠٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى

كانون الثاني / يناير ٢٠٠٥

تنضيد وإخراج: **المجموعة الطباعية**
هاتف: ٨٢٤٢٠٣ ـ ٨٢٣٧٢٠ (٠١)
بيروت ـ لبنان

هذه السورة

سورة المائدة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة وهي من أواخر القرآن نزولاً، وسميت بذلك لأنها تحدثت عن المائدة التي طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن ينزّلها الله عليهم.

وقد اشتملت هذه السورة على كثير من الوصايا والأحكام نذكر بعضها:

- الدعوة إلى الوفاء بالعهود والمواثيق، وبيان المواثيق التي أخذها الله على بني إسرائيل ثم نقضوها.
- بيان ما أحله الله للمؤمنين من الأطعمة وما حرمه عليهم، وَذِكْرُ ما حرمه العرب على أنفسهم بدون حق ولا تشريع من الله.
- قصة ولدي آدم قابيل وهابيل وإقدام قابيل على قتل أخيه بدافع الحسد وهي أول جريمة تُرتكب على الأرض.
- بيان لأحكام الوضوء والطهارة وفوائدهما ويُسر الشريعة في ذلك.
- حكم الصيد برًّا وبحراً في حرم مكة وفي حالة الإحرام لمن يؤدي الحج أو العمرة.
- الدعوة إلى التعاون على البِرّ والتقوى مما يستلزم إنشاء الجمعيات

الخيرية لصالح الأمة، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان الذي يضر بمصالح الأمة.

- عصمة الله لرسوله محمد ﷺ من أن يضره أحد من الناس أو يقدروا على صده عن تبليغ رسالة ربه، ووقاية الله له مما حيك له من المؤامرات وما دبّروا له من الاغتيالات.
- النهي عن سؤال النبي عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أُبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف الشرعية عليهم، أو كشف بعض الأمور التي فيها فضيحة لبعضهم.
- عقوبة قطّاع الطرق والسرقة وأثر ذلك في القضاء على الجريمة التي تهدد أمن المجتمع.
- كفارة اليمين وكيفية التحلل منها.
- علاقة المسلمين بأهل الكتاب بإباحة الأكل من ذبائحهم والزواج من العفيفات من نسائهم.
- بيان بالمعجزات التي أيَّد الله بها رسوله عيسى عليه السلام وأنها حصلت بإذن الله تعالى.
- التشديد على الالتزام بالعدل حتى مع الأعداء.
- تحريم الخمر والقمار وما ينشأ عنهما من أضرار دينية ودنيوية.
- حكم الوصية للمحتضر إذا كان في سفر.
- إحجام بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة التي أمرهم الله بدخولها، وعقوبة الله لهم بالتيه في صحراء سيناء أربعين عاماً.

كما تشتمل هذه السورة على كثير من الوصايا لم نذكرها خوفاً من التطويل وسيأتي الكلام عنها فيما بعد.

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

شرح المفردات

أوْفوا بالعقود: الوفاء هو الإتيان بالشيء وافياً، والعقود: العهود الموثقة.

بهيمة الأنعام: البهيمة هي ما لا عقل له من الحيوان وخصصت ـ في العرف ـ بذوات الأربع قوائم، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والماعز. وأُلحق بها ما يماثلها في الاجترار كالظباء وبقر الوحش.

إلاّ ما يتلى عليكم: إلا ما سيتلى عليكم تحريمه في الآية رقم «٣» من هذه السورة.

غير محلّي الصيد: غير محلّلين الصيد والانتفاع به.

وأنتم حُرُمٌ: وأنتم في حالة الإحرام للحج أو العمرة.

دعوة المؤمنين للوفاء بالعهود

يستهل الله هذه السورة بدعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعهود:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ خاطب الله الذين اتبعوا رسوله محمداً واصفاً إياهم بصفة الإيمان ليحثهم على امتثال ما يكلفهم به. يقول عبد الله بن مسعود وهو من أعلام الصحابة: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه ﴿أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ وماذا يأمرهم الله به؟ إنه يأمرهم بالوفاء بالعقود وهي العهود، والمراد بها جميع ما ألزمه الله تعالى على عباده، وأمرهم به من التكاليف والأحكام الدينية من تحليل ما أحله، وتحريم ما حرمه، لأن المؤمن بمقتضى إيمانه قد عاهد الله على طاعته والأخذ بكل ما أمر به، وترْك كل ما نهى عنه.

وتشمل العقود ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء، كعقد التحالف، وعقد الشراكة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقود المصالحات والمهادنات في الحروب، والتعاقد على نصرة المظلوم.

ومن العقود ما يلزم به المسلم نفسه من نذر وطاعات فإنه يجب الوفاء بها ما لم تكن فيها معصية لله.

والوفاء بالعهود من أنبل الصفات التي تضفي الخير والأمن على علاقات الناس فيما بينهم، ولهذا استهلّ الله هذه السورة بالدعوة إلى الوفاء بها، لأن عدم الوفاء بها هو غدر ونقض للعهود وهذا يتنافى مع شيم المؤمنين.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ والبهيمة: هي ما لا عقل له من

الحيوان ذي الأربع قوائم، وقد خصصها العرف بما عدا السباع، وسميت بهيمة لجهة عدم نطقها وفهمها، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والمعز. والمعنى: أحل الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ أكل بهيمة الأنعام وما يماثلها من الحيوانات المجترة كالظباء وبقر الوحش **﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾** إلا ما سيُتلى عليكم تحريمه من المآكل وهو ما سيرد في الآية الثالثة من هذه السورة **﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾** أي من غير أن تستحلوا الصيد المباح لكم، ولكن حرمه الله عليكم في حال **﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾** أي وأنتم محرمون[١] بحج أو عمرة سواء أكنتم في الحرم[٢] أم خارجه، كما لا يحل الصيد لمن كان في الحرم ولو لم يكن محرماً **﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾** إن الله سبحانه يقضي في خلقه بما يشاء من تحليل وتحريم حسب حكمته وما يريد به الخير لعباده.

والجدير بالذكر أن هذه الأحكام كلها جاءت في آية واحدة وهي على قلة ألفاظها فيها من البلاغة ما يعجز أن يعبر عنه أرباب الفصاحة والبلاغة، فقد اشتملت على عدة أحكام، **الأول**: الأمر بالوفاء بالعهود. **الثاني**: تحليل أكل بهيمة الأنعام. **الثالث**: استثناء ما لا يحل الأكل منه. **الرابع**: تحريم الصيد على المحرم.

---

(١) **محرمون**: تقال لمن كانوا في حال الإحرام، والإحرام ركن من أركان الحج أو العمرة، فإذا أراد الإنسان الحج أو العمرة أحرم من الميقات وهو المكان الذي حدده رسول الله لمن يأتي إلى الكعبة حاجاً فيخلع ثيابه العادية ويلبس لباساً خاصاً بالإحرام غير مخيط عبارة عن رداء وإزار ويمتنع عن كل العلاقات الجنسية والتطيب والزينة وغيرها مما جاء ذكره في شروط الإحرام.

(٢) **الحرم**: هو المكان المحيط بمكة وهو الذي لا يصاد صيده ولا يقطع شجره ولا ينتفع بلقيطته، وهو الذي حدده نبي الله إبراهيم عليه السلام ونصب أنصاباً تُعرف بها حدوده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ
وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ
وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

شرح المفردات

لا تحلوا: لا تنتهكوا ولا تستبيحوا.

شعائر الله: جمع شعيرة وهي العلامة، والمراد ما جُعل علامة للنسك من مواقف الحج أو فرائض دين الله وأحكامه.

الهدي: ما يهدى إلى الحرم الشريف من الأنعام ليذبح هناك وينتفع به الناس.

القلائد: جمع قلادة وهي ما يعلّق في أعناق الأنعام من لحاء الشجر أو حبل أو نعل ليُعلم بأنها هدي فلا يتعرض لها أحد بغصب.

آمّين: قاصدين.

حللتم: خرجتم من إحرامكم.

ولا يجرمنكم: لا يحملنكم.

شنآن قوم: بغضكم إياهم.

البِرّ: كلمة تجمع وجوه الخير.

العدوان: التعدي.

المحافظة على شعائر الله والالتزام بها

ثم ينتقل القرآن إلى التحذير من انتهاك حرمة شعائر الله والاستهانة بها:

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تُحِلّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾ وإحلالها: انتهاكها أو

تركها، وإهمال ما يجب فعله، فمن يفعل عملاً منهياً عنه فقد أخلّ بشعائر الله. وشعائر: جمع شعيرة بمعنى العلامة، وشعائر الله ما جُعل علامة للعبادة في مناسك الحج وقيل: شعائر الله هي شرائع الله ومعالم دينه، وإضافة الشعائر إلى الله لتشريفها.

فالله سبحانه نهى المؤمنين أن ينتهكوا حُرمة أيّة شعيرة من شعائر دين الله في الحج أو في سائر الفرائض والتكاليف التي أوجبها الله على عباده ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ﴾ أي ولا تستبيحوا وتنتهكوا القتال في الشهر الحرام، والمراد به جنس الأشهر الأربعة وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وسمي الشهر بالشهر الحرام باعتبار أن إيقاع القتال فيه حرام، وهذه الأشهر لا يحل القتال فيها، فلا يبدأ المسلمون القتال فيها ولكن يدافعون عن أنفسهم إن اعتُدِيَ عليهم فيها. ﴿ولا الهَدْيَ وَلاَ القَلائِدَ﴾ أي ولا تعترضوا الهدي ولا القلائد بنحو غصب أو سرقة أو حبس. والهدي هو ما يُهدى من الأنعام إلى البيت الحرام ليُذبح هناك، والقلائد: هي ما يقلَّد به الهدي من الأنعام ليُعرف أنها هدية إلى البيت الحرام.

وقد كان الحجاج يضعون في أعناق الهدي من الأنعام ضفائر من صوف أو يربطون بأعناقها نعالاً أو قِطَعاً من لحاء الشجر أو غير ذلك ليُعلم أنها هدْي إلى بيت الله الحرام فلا يتعرض لها أحد بسوء، ومن الفقهاء من خص القلائد بالإبل والبقر فلا يقلّد سواها، وخصت القلائد بالذكر تشريفاً لها واعتناء بشأنها والثواب فيها أكثر.

والسر في الدعوة إلى إهداء الأنعام إلى بيت الله الحرام هو أن مكة تقع في وادٍ غير ذي زرع والحجاج كثيرون وهم يحتاجون إلى الطعام

لذا جعل الله إهداء الأنعام إلى بيت الله الحرام من شعائر الله للتوسعة على عباد الله وسكان بيت الله الحرام.

﴿وَلاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ﴾ المراد بهم المؤمنون الذين يقصدون بيت الله للحج والعمرة فلا يجوز لأحد أن يمنعهم بسبب نزاع أو خصام لأن بيت الله يجب أن يكون مفتوحاً لكل قاصد للحج.

وقد بيّن الله مقصد هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِم وَرِضْوَاناً﴾ أي يطلبون ثواب الله ورضوانه ﴿وَإِذَا حَلَلْتُم فَاصْطَادُوا﴾ والحلّ يكون بفعل الإنسان ما يخرج به من الإحرام فيحل له ما كان محظوراً على المحرم بالحج والعمرة. ويكون التحلل من الإحرام عند جمهور الفقهاء برمي جمرة العقبة والحلق أو التقصير، ويباح بهذا التحلل لبس الثياب والصيد وكل شيء ما عدا النساء وهذا هو التحلل الأول. ولكن الصيد يكون في غير أرض الحرم.

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُم عَنِ المسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾(١) أي لا يحملنكم ـ أيها المؤمنون ـ بغضكم لقوم كانوا قد صدوكم سابقاً عن الوصول إلى المسجد الحرام وعن أداء العمرة فيه عام الحديبية على الاعتداء عليهم بعد ذلك بغير حق.

وقد يقال إن اعتداء المشركين على المؤمنين كان قبل أن يدخلوا الإسلام، فكيف يتصور أن يعاملهم المؤمنون بما كان قد صدر منهم سابقاً، والإسلام يمحو ما قبله من الآثام؟ والجواب: إن جرح النفس قد يستمر أثره لذلك نهى الله المؤمنين أن ينقادوا لغريزة الانتقام وطلب

---

(١) **جرم يجرم**: بمعنى كسب، غير أن كسب يستعمل في كسب ما لا خير فيه، ويقال: جرمني كذا على بغضك أي حملني عليه.

منهم أن يكون سلوكهم قائماً على العفو والصفح.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ البِرّ: هو التوسع في فعل الخير والصلاح والصدق وإسداء المعروف إلى الناس، والتقوى: اتقاء عذاب الله وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. فالتعاون على البر والتقوى يتناول المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير للأمة، كالتعاون لإنشاء الجمعيات الخيرية ودُور الأيتام والعجزة، وبناء المستشفيات والمدارس. فالإسلام جعل التعاون أساساً لتحقيق البر والتقوى في حياة الناس لأن كثيراً من حالاتهما لا يمكن تحقيقه بجهد فردي، والإنسانية في مسيرتها الطويلة لم تصل إلى رقيها الفكري، ومستواها الاجتماعي المتطور إلا بفضل الجهود المتعاونة على الأعمال النبيلة.

﴿وَلاَ تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾ والإثم[١]: يطلق على كل ذنب ومعصية. والعدوان: هو مجاوزة حدود الله والاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم.

فالتعاون على الإثم والعدوان يهدمان الحياة الفاضلة ويحولانها إلى غابة تسود فيها شريعة الغاب، والقوة الغاشمة الظالمة، ويصبح الحق دائماً مع الأقوى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي تجنبوا عذاب الله بالعمل الصالح وترك ما نهاكم عنه لئلا تستحقوا عقاب الله وأليم عذابه بسبب مخالفة أمره وعصيانه.

---

(١) فسر النبي ﷺ الإثم بقوله: «الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» أخرجه مسلم فعندما يقدم الإنسان على فعل أمر ما ويخشى أن يراه الناس فهذا هو الإثم لأنه لو لم يكن إثماً لما حرص على ستره عن أعين الناس.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

شرح المفردات

وما أُهِلّ لغير الله به: ما ذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى بصوت مرتفع.

والمنخنقة: هي التي ماتت خنقاً.

الموقوذة: هي البهيمة التي تضرب بعنف وشدة حتى تموت (الوقذ: شدة الضرب).

المتردية: هي التي سقطت من علوٍّ فماتت.

النطيحة: هي التي ماتت بفعل النطح من حيوان آخر.

السبع: كل حيوان مفترس.

ما ذكّيتم: إلا ما أدركتم ذبحه وفيه بقية حياة.

ذُبح على النُّصُب: النصب أحجار نصبوها حول الكعبة كانوا يعظمونها.

تستقسموا: تطلبوا معرفة ما قُسِمَ وقُدّر لكم.

بالأزلام: واحده زلم وهو قطعة من الخشب على هيئة سهم وكان عددها ثلاثة، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث: ليس عليه شيء. كانوا يقترعون بها عند الإقدام على عمل ما.

فسق: خروج عن طاعة الله.

مخمصة: مجاعة.

متجانف لإثم: مائل إلى الإثم.

المحرمات من المآكل والأفعال

وبعد أن ذكر الله أنه أباح للمؤمنين الأكل من بهيمة الأنعام، شرع بعد ذلك في بيان المحرمات منها، قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ حرم الله أكل ﴿الْمَيْتَةَ﴾[١] وهي التي ماتت ميتة طبيعية بدون تذكية شرعية ـ أي بدون أن تذبح ـ والميتة لا تموت غالباً إلا نتيجة مرض وهذا المرض يجعل لحمها مضراً بالإنسان، وأمّا إذا كانت الميتة بسبب الشيخوخة فضررها كضرر الميتة لأن الشيخوخة معناها ضعف وانحلال في أنسجة الجسم وخلاياه، وقد تكون الشيخوخة بمرض تدريجي غير منظور يُحدث تغيرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمته الغذائية أو تضرّ بآكله أو تسمّمه ﴿والدَّمُ﴾ وحرم الله تناول الدم والمراد به الدم المسفوح أي المائع الذي يسيل من الحيوان لجرح أو عند الذبح وإن تجمد بعد ذلك بخلاف الدم الجامد في أصل خلقته كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة من دم فلا يحرم ذلك.

والدم ضارّ بالصحة إذا استعمل غذاء فالتحليل أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك uric acid» وهو مادة تضر بالصحة إذا استعملت غذاء.

وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات بعض الأمراض المعدية فيكون في ذلك الضرر الكبير لمن يتناوله، وهذا هو السر في فرض الإسلام ذبح المواشي من الوريد الرئيسي في العنق حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان.

---

(١) يستثنى من أكل الميتة السمك والجراد كما جاء في الحديث الشريف فإنه يحل أكلهما.

﴿وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ﴾ وحرم الله أكل لحم الخنزير لأنه يحوي في جسمه عدداً كبيراً من أنواع الطفيليات كما يصاب بأمراض شتى، وهذه الطفيليات والأمراض تنتقل إلى الإنسان إذا ما أكل لحمه.

فمن الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير الترخينة (Trichinella Spiralis) وهي نوع من الديدان السلكية المدورة تنتقل إلى الإنسان وتسبب داء مميتاً له يدعى داء الترخينة.

وأكثر الطفيليات خطراً في لحم الخنزير هي الديدان السلكية المدورة وأشدها ضرراً هي الصفرية أو حية البطن. ومن الطفيليات أيضاً في لحم الخنزير الدودة السوطية التي تلتصق بجدار المصران الأعور، وديدان الرئة التي تسبب التهاب الرئة.

ومن الأمراض التي تصيب الخنزير: كوليرا الخنزير والحمى المتموجة (Brucellosis) التي تصيب الفقرات الظهرية والمفاصل والخصيتين.

هذه نبذة عن بعض الأمراض والطفيليات التي تصيب لحم الخنزير وتنتقل بالعدوى إلى الإنسان(١).

ويتابع الله ذكر المحرمات بقوله: **﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ والمُنْخَنِقَةُ وَالموْقُوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾**.

---

(١) نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٠ تحت مادة خنزير Pig المجلد السابع عشر. وكذلك تحت مادة Trichinosis في المجلد الثاني والعشرين، وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا «الخطايا في نظر الإسلام» فليرجع إليه من يريد الإحاطة بأضرار لحم الخنزير.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والإهلال: رفع الصوت، فقد كان المشركون قبل الإسلام إذا ذبحوا الأنعام رفعوا أصواتهم بغية التبرك بآلهتهم قائلين: باسم اللات، أو العزى، أو مناة، وهي أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم لحوم هذه الذبائح أنها ذُبحت باسم الأصنام لا باسم الله تعالى، لأن الإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الإشراك بالله، ولأن الذبائح لا يصح أكلها إلاّ إذا ذُكِرَ اسم الله وحده عليها.

﴿والمُنْخَنِقَةُ﴾: وهي البهيمة التي تموت خنقاً سواء أكان بفعلها كأن تُدخِل رأسها في موضع لا تستطيع التخلص منه فتموت، أم بفعل غيرها.

﴿والمَوْقُوذَةُ﴾: وهي التي تُضرب بعصاً أو بحجر أو بحديدة حتى تموت، وكانوا في الجاهلية قبل الإسلام يضربونها بالعصيّ حتى تموت فيأكلوها.

﴿والمُتَرَدِّيَةُ﴾: وهي التي سقطت من علوٍّ إلى أسفل فماتت من التردي، ومثلها التي وقعت في بئر فماتت.

﴿والنَّطِيحَةُ﴾: وهي التي نطحتها بهيمة أخرى بقرنيها أو برأسها فماتت من تأثير النطح. والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة هي كلها لحوم ميتة ماتت من مسببات قاسية، أو جروح تسربت إليها الميكروبات وجعلت لحمها مضراً، وخصوصاً أن دمها ما زال فيها.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي ما افترسها السبع وأكل منها فلا يؤكل ما بقي منها. وكذا الحكم لو افترسها فماتت ولم يأكل منها. والسبع هو

كل ذي ناب وأظفار من الحيوان كالأسد والنمر والذئب والضبع ونحوها من الحيوانات المفترسة. وقد كان العرب في الجاهلية يأكلون ما ترك السبع من الشاة أو البقرة أو نحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين، والحكمة من ذلك أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الأمراض، وربما انتقلت الجراثيم من فم السبع إلى الفريسة ﴿إلاّ مَاذَكَّيْتُم﴾ والتذكية في كلام العرب: الذبح والمعنى: إلا ما أدركتم فيها الحياة وقمتم بذبحها مما قد ذُكر من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ما خلا لحم الخنزير. ومظاهر الحياة فيها إذا كانت تطرف بعينها أو تحرك ذنبها أو تركض برجلها، فتذبح ذبحاً شرعياً وعندها يحل أكلها.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ والنصب حجارة كانت العرب في الجاهلية يعظمونها ويذبحون عليها تقرباً للأصنام، وكانت حول الكعبة وعددها ثلاث مئة وستون فكانوا إذا ذبحوا لطخوا بالدم على ما أقبل من بيت الله الحرام ووضعوا عليها اللحوم قطعاً قطعاً، فنهى الله عن الذبح على النصب، وعن أكل ما ذُبح عليها.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ﴾ أي وحُرّم عليكم أن تطلبوا عِلْم ما قُسِمَ لكم أن تفعلوه بواسطة الأزلام، والأزلام قطع من الخشب على هيئة السهام مكتوب على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، والثالث خالٍ من الكتابة. فإذا أراد أحدهم سفراً أو قضاء حاجة ما، أو زواجاً، حرّك هذه الأزلام وسحب إحداها من وعاء وضعت فيه، فإن كان الذي التقط مكتوباً عليه (أمرني ربي) أقدم على ما عزم على فعله، وإن كان الذي التقط مكتوباً عليه (نهاني ربي) امتنع عن فعل ما

أراده، وإن كان الذي التقط خالٍ من الكتابة أعاد السحب. وهذا العمل افتراء على الله لأن الله لم يخبر أحداً من خلقه ما قدره عليه بواسطة هذه الأزلام من خير أو شر ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي ذلك الاستقسام بالأزلام وتناول ما سبق من المحرمات هو خروج عن طاعة الله ودينه.

ويشبه الاستسقام بالأزلام معرفة الحظ أو ما يُراد فعله بواسطة المسبحة أو المصحف، أو أوراق اللعب (الشدة) أو قراءة الفنجان أو الكف ـ كما يفعل ذلك بعض الناس ـ فَفِعْلُ كل ذلك حرام ومنكر شرعاً لا يجوز اللجوء إليه.

وقد سنّ رسول الله بديلاً من ذلك كله صلاة الاستخارة وهي ركعتان ثم الدعاء بهذا النص المأثور وانتظار النتيجة من انشراح الصدر أو انقباضه، وهذا هو نص الدعاء:

روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأُمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أَحدُكم بالأمرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ من غَيْرِ الفَرِيضَةِ. ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ. وَأَسأَلُكَ مِن فَضْلِكَ العَظِيم. فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وتَعْلَمُ ولاَ أَعْلَمُ، وأَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ. اللَّهُمَّ، إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذا الأَمرَ ـ ويُسَمِّي حاجَتَهُ ـ خَيْرٌ لي فِي دِينِي ومَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْري ـ أَو قَالَ في عاجِلِ أَمْري وآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْهُ لِي، ويَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بارِكْ لِي فِيه. وإِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ هذَا الأَمْرَ ـ ويُسَمّي حاجَتَهُ ـ شَرٌّ لِي فِي دِينِي ومَعاشِي، وعَاقِبَةِ أَمْري ـ أَو قالَ فِي عاجِلِ أَمْري وآجِلِه ـ فاصْرِفْهُ عَنِّي واصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كانَ ثُمَّ رَضِّنِي ـ أَو أَرْضِنِي ـ بِه».

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ اليوم: قيل هو الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية، وقيل: يوم نزول الآية وهو يوم الوقوف بعرفة، أو يوم فتح مكة. واليأس: انقطاع الرجاء، فالكفار انقطع رجاؤهم من زوال دين الإسلام، أو النيل منه، أو يئسوا من أن يرتدّ المؤمنون عن دينهم ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْنِ﴾ فلا تخشوا أيها المؤمنون أن يغلبكم هؤلاء الكفار، أو أن يبطلوا دينكم فقد أبدلكم الله من ضعف إلى قوة، ومن خوف إلى أمن، فالواجب عليكم أن تخافوا الله لأنكم إن خالفتم أمره وتعديتم حدوده فقد يحل بكم عقابه وينزل بكم عذابه.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم﴾ والمراد باليوم هنا يوم وقف النبي ﷺ على عرفة وقد صادف يوم الجمعة بعد العصر في حجة الوداع، فقد أخبر الله رسوله محمداً والمؤمنين أنه قد أكمل لهم دينهم وأتمه فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، إذ بيّن الله فيه الحلال والحرام، والفرائض والأحكام، وهذه أكبر نعمة أنعمها الله على المسلمين إذ لم يعودوا يحتاجون إلى دين غيره، وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصاً قبل اليوم ثم أكمله، وإنما المراد أن الأحكام صارت فيه غير قابلة للنسخ وأصبحت مؤبدة تصلح لكل زمان ومكان ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي﴾ أي أتم الله على المؤمنين نعمة النصر ومكنهم من أعدائهم، فدخلوا مكة ظافرين منتصرين، وأدّوا عبادتهم لله آمنين، وانتشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ واختار الله لهم الإسلام ديناً ورضيه لهم، فهو الدين المقبول عنده الذي لا يقبل غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي شأن هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي..﴾ قال يهودي لعمر رضي الله عنه: «إنكم تقرأون ـ أيها المسلمون ـ آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيداً» وأيّ نعمة أفضل من نعمة الإسلام الذي أخرج الله فيه الناس من الظلمات إلى النور، وبيّن الله فيه ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم، فعلى المسلمين أن يقدّروا هذه النعمة حق قدرها ويقوموا بواجبها حق القيام، وذلك بالتمسك بدينهم لأن فيه عزهم ودوام سؤددهم.

وبعد أن ذكر القرآن المحرّمات من المآكل استثنى من ذلك حالة الضرورة.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ﴾ والاضطرار: الوقوع في الضرورة، والمخمصة: المجاعة، والمعنى: أي ما ذكر من تناول المحرمات السابقة محظور الأكل منها في حالة الاختيار، ولكن إن ألجأتكم الضرورة إلى الأكل منها في وقت المجاعة إنقاذاً لحياتكم بسبب عدم وجود غيرها ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ متجانف: من الجنف وهو الميل، أي فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مائل إلى ارتكاب إثم من الآثام بأن يأكل فوق الشبع تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة في ذلك أو ينتزعها من مضطر آخر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الله ساتر لذنوب عباده رحيم بهم لذا رخّص الله لهم أكل المحرمات في حالة الضرورة. وعلى ضوء هذا النص القرآني استنبط علماء التشريع قاعدتين في الفقه الإسلامي اعتمدوهما وهما:

أولاً: الضرورات تبيح المحظورات. **ثانياً**: الضرورات تُقَدَّرُ بقدرها، أي متى زالت الضرورة عاد الحظر.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم
مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن
يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

شرح المفردات

الجوارح: هي الصائدة من الكلاب والفهود والطيور الكاسرة التي يتكسّب منها.

مُكلّبين: معلمين ومدربين إياها على الصيد.

فكلوا مما أمسكن عليكم: فكلوا من الصيد الذي جاءت به الجوارح ولم تأكل منه.

واذكروا اسم الله عليه: واذكروا اسم الله على نية الصيد عند إطلاق ما دربتموه من الجوارح.

المحصنات: الحرائر[١] العفيفات.

غير مسافحين: السفاح هو الزنا أي غير مجاهرين بالزنا.

ولا متخذي أخدان: أخدان جمع خدن وهو الصديق أي غير متخذي عشيقات تعاشروهن سرًّا.

حبط عمله: بطل ثواب عمله.

---

(١) الحرائر: جمع حرة خلاف الأمة، والأمة هي العبدة المسترقّة.

أحكام في الصيد والعلاقة مع أهل الكتاب

وبعد أن حرم الله على المؤمنين أصناف اللحوم التي تضر بالصحة العامة، أباح لهم تناول الطيبات من الأطعمة، وما تناله أيديهم عن طريق الصيد، قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون يا محمد ماذا أحل الله لهم من الطعام **﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾** قل يا محمد لهؤلاء السائلين: إن الله أحل لكم الطيبات من المآكل الحلال وهي كل ما يستطيبه الذوق السليم وتشتهيه النفوس عند أهل المروءة والرزانة ولا تستقذره وتعافه الأنفس **﴿وَمَا عَلَّمْتُم من الجَوَارِحِ﴾**(١) أي وأحل الله لكم كذلك صيد ما دربتم من الجوارح على الصيد من سباع البهائم: كالكلاب والفهود وغيرها، ومن الطيور الكاسرة: كالبازي والصقر ونحوهما **﴿مُكَلِّبِينَ﴾** أي معلمين لها الصيد. والمكلّب هو مدرّب الكلاب على الصيد. وخُص معلم الكلاب بالذكر وإن كان يعلّم غيرها من الفهود أو الطيور على الصيد، لأن الصيد بالكلاب هو الغالب عند الناس **﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾** أي تعلّمون الجوارح بما اكتسبتم من علم ودراية بحيث تصبح إذا أُرسلت لطلب الصيد استجابت، وإذا زُجرت ازدجرت، وإذا أمسكت صيداً لم تأكل منه شيئاً، وأن لا تفر منه إذا أراد منها الصيد.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُم﴾ أي فكلوا من الصيد الذي أمسكته

---

(١) جوارح: جمع جارحة ومعناها الكاسبة، أي هي الحيوانات أو الطيور التي من شأنها أن تكسب صيداً ومنه قوله تعالى: ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ما كسبتم.

هذه الجوارح لأجلكم، وبأن لم تأكل منه شيئاً وإن قتلن الطريدة التي أمسكتها. فإذا أدركتموها حيَّة فاذبحوها، أما إذا أكلت منها فلا تأكلوا من هذه الطريدة لأنها أمسكته على نفسها **﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** أمر الله بالتسمية عند إرسال الجارحة إلى الصيد. ومذهب الإمام مالك وجمهور أهل العلم أن التسمية واجبة مع الذكر ساقطة مع النسيان فمن تركها عامداً فقد أفسد الذبيحة والصيد ومن تركها ناسياً سمى عند الأكل وكانت الذبيحة جائزة، ولفظ التسمية: بسم الله والله أكبر.

وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ حيث قال لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك وسميت فَأَمْسَكَ وقَتَلَ فكُل، وإن أَكَلَ فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه. وإذا خالط كلاباً لم يُذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنك لا تدري أيها قتل. وإن رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُل. وإن وقع في الماء فلا تأكل»(١).

وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية فإن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد وإن وصل إليه ميتاً، أما إن وصل إليه حياً فليذبحه **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** أي احذروا مخالفة أمره فيما أرشدكم إليه واتخِذوا وقاية من عذابه بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه **﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** أي يحاسبكم على ما تعملون من غير توانٍ ولا إمهال.

---

(١) أخرجه الشيخان.

ويتابع القرآن فيذكر بأن الله أحل للمؤمنين طعام أهل الكتاب والزواج من نسائهم:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ تكرار لما سبق المراد منه أن على المؤمنين أن يتحروا الطيبات لمأكلهم التي تستطيبها النفوس السليمة التي أحلها الله لهم ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ أي وأحل الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ طعام أهل الكتاب وذبائحهم مما لم يرد نص بتحريمه ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ وطعامكم أيها المؤمنون حلال لأهل الكتاب.

فالإسلام يريد أن يغرس الأُلفة والترابط والتسامح بين المسلمين وأهل الكتاب عن طريق إباحة الأكل لنا من ذبائحهم، وإباحة الأكل لهم من ذبائحنا كما يريد أن ييسر التعايش بينهما عن طريق المصاهرة التي سيأتي الكلام عنها.

وقد اتفق جمهور الفقهاء على أن ذبائح أهل الكتاب من الأنعام وغيرها مما يباح أكله هي حلال إذا ذبحت وسال دمها، أما غيرها من الأطعمة فحلال أكلها باستثناء الأطعمة التي دخلها أجزاء من الخمر أو الميتة أو الخنزير كالزيوت والأجبان وغيرها فيحرم أكلها.

ولكن هناك سؤال وهو أن أهل الكتاب قد يذكرون اسم غير الله أحياناً على ذبحائهم فهل يحل الأكل منها؟ قال جمهور من الصحابة إذا سمعت الكتابي (أي اليهودي أو النصراني) يُسَمِّي غير اسم الله عزّ وجلّ فلا تأكل، وقال الإمام مالك: أكره ذلك ولا أحرمه.

وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي والنصراني فذكر اسم غير الله وأنت

تسمع فلا تأكل وإذا غاب عنك فكل فقد أحل الله ذلك.

وعن عمير بن الأسود أنه سأل أبا الدرداء عن كبش ذُبح لكنيسة يقال لها جرجس أهدوه لها أنأكل منه؟ فقال أبو الدرداء: اللّهم عفواً إنما هم أهل كتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم وأمره بأكله.

ويُتابع القرآن فيذكر ما أحل الله للمؤمنين من الزواج من النساء:

﴿والمُحْصَنَاتُ[(١)] **مِنَ المُؤْمِنَاتِ﴾** أي وأحل لكم ـ أيها المؤمنون ـ الزواج من الحرائر العفائف من المؤمنات **﴿وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** وكذلك أحل الله لكم الزواج من النسوة العفيفات من أهل الكتاب اللاتي كن قبلكم في الملة وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، وهذا من سماحة الإسلام في معاملة أهل الكتاب، وقد أباح أكثر الفقهاء والمفسرين عند أهل السنة الزواج من الكتابيات وكرهه ابن عمر **﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾** إذا أعطيتموهن مهورهن وسمي المهر أجراً لتأكيد وجوبه، وعدم الاستهانة بأي حق من حقوق المرأة وقد فرض المهر إعزازاً لها وتكريماً.

أما النساء المؤمنات فلا يحل للرجال من أهل الكتاب الزواج

---

(١) المحصنات: تأتي بمعنى الحرائر، والحرائر: جمع حرة وهي التي في مقابل الأمة (أي العبدة) لأن الإحصان يعني الوقاية من الفاحشة، وكانت الحرة قديماً تتورع عن فعل القبيح وكان البغاء مقصوراً على الإماء. وتأتي المحصنات بمعنى العفيفات وهي المقصودة هنا ويكون وصف القرآن لهن بذلك من باب الترغيب في اختيار الزوجة التي تتصف بالعفة والحرص على اختيارها على من عداها من النساء. كما يطلق لفظ الإحصان على الرجل المتزوج أو المرأة المتزوجة.

منهن، فقد رُوي عن عمر بن الخطاب قوله: نساء أهل الكتاب لنا حلٌّ ونساؤنا عليهم حرام.

وروي أيضاً عن جابر قوله: نساء أهل الكتاب لنا حلٌّ ونساؤنا عليهم حرام. لأن الزوجة المسلمة إذا تزوجت بغير المسلم فهي تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه بحكم الواقع كما أن أولادهما يلتحقون بدين زوجها، وتصبح ملزمة بتربية أبنائها على دين غير دينها، وهذا يتنافى مع عقيدتها، لأن الإسلام يجب أن يهيمن أبداً.

وكما اشترط القرآن العفة في النساء فإنه اشترطها أيضاً في الرجال، قال تعالى: ﴿**مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾ والإحصان في هذا الموضع هو النكاح ـ أي الزواج ـ، والسفاح: هو الزنى، أي طالبين أيها الرجال العفة في النكاح غير زانين ﴿**وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ**﴾[1] أي ولا متخذين عشيقات وخليلات تزنون بهن في السر ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ**﴾ أي ومن يجحد وحدانية الله وشرائع الإسلام وعقائده ونبوة محمد ﴿**فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**﴾ فقد بطل ثواب عمله الذي كان قد عمله في الدنيا ﴿**وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾ وهو يوم القيامة من الذين خسروا نعيم الجنة.

---

(١) أخدان: جمع خِدن وهو الصديق يطلق على الذكر والأنثى، والمراد بالخدن هنا البغي التي يصادقها الرجل ليفجر بها وحده سرًّا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن
كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ
عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

شرح المفردات

الغائط: موضع قضاء الحاجة.

لامستم النساء: كناية عن الاتصال الجنسي، وقيل مس البَشَرَة.

صعيداً طيباً: تراباً أو وجه الأرض طاهراً.

حرج: ضيق في دينه وتشريعه.

أحكام الوضوء والغسل

وبعد أن بيّن القرآن ما أباح الله للمؤمنين من المآكل والزواج من العفيفات من المؤمنات ومن نساء أهل الكتاب انتقل إلى الكلام عن الوضوء الذي يشترط لصحة الصلاة قال الله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا قُمْتُم إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيْدِيَكُم إلى المَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرؤوسِكُم وَأرجُلَكُم إلى الكَعْبَيْنِ..﴾.

أمر الله المؤمنين بأنهم إذا أرادوا القيام إلى الصلاة وهم محدثون حدثاً أصغر[١] فعليهم القيام بأعمال الوضوء التي نصت الآية على أربعة منها وهي:

أولاً: ﴿**فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم**﴾ وغسل الوجه حدّه طولاً من منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن. وحدّه عرضاً ما بين شحمتي الأذنين.

ثانياً: ﴿**وَأَيْدِيَكُم إلى المَرَافِقِ**﴾ والمرافق: جمع مرفق وهو عظْمُ المفصل البارز في نهاية الذراع، والمعنى: واغسلوا أيديكم مع المرافق، لأن (إلى) الداخلة على المرافق فسرها الكثير من الفقهاء بمعنى: مع. ولأن النبي ﷺ لازم في وضوئه غسل المرفقين مع اليدين.

ثالثاً: ﴿**وامْسَحُوا بِرُؤوسِكُم**﴾ والمسح إمرار اليد المبللة بالماء على الرأس، والفقهاء لهم اجتهادات في مسح الرأس: فالشافعي قال إن المطلوب مسح بعض الرأس. وأبو حنيفة قال: بمسح ربع الرأس. ومالك قال بمسح جميع الرأس.

رابعاً: ﴿**وَأَرْجُلَكُم إِلَى الكَعْبَيْنِ**﴾ وقد اختلف القراء في قراءة وأرجلكم فقرأ جماعة من قراء الحجاز والعراق (وأرجلَكُم) بفتح اللام، وقرأ آخرون (وأرجلِكُم) بالجر، وبموجب هذا اختلف الحكم في الأرجل: المسح أو الغسل؟ أما قراءة الفتح فبناء على أن أرجلكم

---

(١) الحدث الأصغر يحدث بالبول والغائط والنوم الذي لا يبقى معه إدراك وهناك أمور أخرى تنقض الوضوء يُرجع إليها في كتب الفقه. وإذا أحدث المتوضىء بطل وضوؤه ولا تصح صلاته وعليه إعادة الوضوء.

معطوفة على الأيدي أي اغسلوا وجوهكم واغسلوا أرجلكم أي أن الفرض هو غسل الرجلين وهذا ما ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأصحابهم، وقد ورد البيان عن النبي ﷺ بالغسل قولاً وفعلاً فهو ما ثبت بالنقل المستفيض المتواتر أن النبي ﷺ غسل رجليه في الوضوء، فقد توضأ وغسل كل عضو مرة واحدة فغسل رجليه وقال هذا وضوء من لا يقبل الله له صلاة إلاّ به، كما روي عن جمهور من الصحابة أن النبي ﷺ رأى قوماً تلوح أعقابهم لم يصبها الماء فقال ويل للأعقاب[١] من النار، وهذا وعيد لا يستحق إلا لمن ترك الفرض. فأفاد ذلك كله وجوب غسل الرجلين ولا يجزىء مسحهما لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطىء ما أخطأ.

هذا وإن غسل الرجلين يشتمل على المسح ولا ينعكس فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط فوجب المصير إليه، وعلى هذا الوجه يجب القطع بأن غسل الرجلين يقوم مقام مسحهما. وكذلك إن فرض غسل الرجلين محدود إلى الكعبين والتحديد إنما جاء في الغسل لا في المسح، والكعبان هما العظمان الناتئان من جانبي الساق.

وأما قراءة ﴿وأرجلِكم﴾ بالجر أي بكسر اللام فقد فسروها بأنها معطوفة على الرأس، وبما أن الواجب في الرأس المسح فكذلك الواجب في الرجلين المسح دون غسلهما، وإلى هذا ذهب بعض الصحابة فقد نقل عن أنس رضي الله عنه قوله: نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل، وكان إذا مسح قدميه بلّهما.

---

(١) الأعقاب: جمع عقب وهو عظم مؤخر القدم.

وعن عكرمة قال: ليس على الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح.

وعن ابن عباس كما رواه عنه عكرمة: الوضوء غسلتان ومسحتان.

وعن الشعبي أنه قال: إنما هو المسح على الرجلين ألا ترى أنه ما كان عليه الغسل (أي في الوضوء) جعل عليه المسح (أي في التيمم) وما كان عليه المسح أهمل.

وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري: المكلف مخير بين المسح والغسل.

وقال الطبري: إن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء.. وإذا فعل ذلك بهما المتوضىء كان مستحقاً اسم «ماسح غاسل» لأن غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصابتهما بالماء، ومسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما. ولذلك كره أكثر العلماء أن يدخل المتوضىء رجليه في الماء دون أن يمر بيديه عليهما. ويرى الطبري أن الحديث الشريف الذي قال بالويل لمن ترك غسل عقبه في الوضوء «ويل للأعقاب من النار» دليل على وجوب عموم مسح جميع القدم بالماء. ويقول: إن مراد الله من مسحهما العموم وكان لعمومهما بذلك معنى الغسل والمسح.. لأن في عموم الرجلين بمسحهما بالماء غسلهما، وفي إمرار اليد وما قام مقام اليد عليهما مسحهما.

بعض الأحكام حول الوضوء

ذهب جمهور الفقهاء أن النية ركن من أركان الوضوء. والنية معناها القصد إلى الصلاة بواسطة الوضوء طلباً لرضى الله، لأن الوضوء عبادة

فيفتقر إلى النية كسائر العبادات لقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

ويفيد ظاهر نص القرآن ﴿إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ﴾ أن الوضوء واجب عند القيام لكل صلاة، ولكن الثابت في السنة النبوية أن النبي ﷺ صلّى الصلوات الخمس بوضوء واحد وهو على طهارة.

وقال جمهور الفقهاء إن ترتيب أفعال الوضوء كما جاءت في القرآن شرط لصحة الوضوء.

وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب الموالاة بين أفعال الوضوء، فإذا قطع المتوضىء وضوءه بعمل خارجي وجب استئنافه مبتدئاً بأوله.

ولنعد إلى بقية الآية حيث يقول الله تعالى: ﴿وإن كنتم جُنُباً فاطَّهَّروا﴾ كلمة (جُنُب) وصف للرجل والمرأة وتطلق على الجمع والمفرد. ولحصول الجنابة سببان: نزول منيّ الرجل بتدفق ولذة سواء في اليقظة أو المنام، والثاني التقاء الختانين، أي ختان الرجل وهو عضوه الذكري، وختان المرأة وهو فرجها. أي الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة.

والجنابة بمعناها الشرعي تستلزم اجتناب الصلاة، وقراءة القرآن، ومس المصحف، ودخول المسجد إلى أن يغتسل الجنب، وكما يجب الغسل للجنابة يجب عند انقطاع الحيض والنفاس عند المرأة.

والتطهر من الجنابة يكون بالاغتسال بصب الماء على كل جزء من أجزاء الجسم وإيصال الماء إلى منابت الشعر عند الرجال، أما بالنسبة إلى النساء فإذا كان لهن ضفائر فلا تحلها دفعاً للحرج.

﴿وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فإذا كان هناك من مرض يمنع

من استعمال الماء للوضوء، أو الطهارة من الجنابة بالغسل، أو كنتم في سفر وتعذر وجود الماء، أو إذا وُجِدَ فلحاجة ملحّة كالشرب ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الغَائِطِ﴾ والغائط هو اسم للمنخفض من الأرض، وكانوا يقضون الحاجة هناك فجعل ذلك كناية عن الحدث. هكذا كان في الماضي، أما الآن فقضاء الحاجة يكون في أماكن معينة في البنايات، وقضاء الحاجة ينقض الوضوء. وتأمل لفظ ﴿أَحَدٌ مِنْكُم﴾ بصيغة المفرد للإشارة إلى وجوب الذهاب إلى قضاء الحاجة فرادى للاستتار ﴿أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ اختلف الصحابة في معنى الملامسة المذكورة في هذه الآية فقال بعضهم هي كناية عن الجماع وعدم ذكر ما يستحيي من ذكره وكانوا لا يوجبون الوضوء لمن مس امرأته، وقال غيرهم إن الملامسة هنا المراد منها اللمس باليد، وكانوا يوجبون الوضوء بمس المرأة.

واختلف الفقهاء في ذلك فقال أبو حنيفة وصاحباه[١] لا وضوء على من مسّ امرأة لشهوة أو غير شهوة، وقال مالك: إن مسَّها لشهوة تلذذاً فعليه الوضوء وكذلك إن مسّته تلذذاً فعليها الوضوء. وقال الشافعي: إذا مسّ يدها أو جسدها فعليه الوضوء لشهوة أو لغير شهوة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طيّباً﴾ والتيمم: هو القصد، والصعيد: هو وجه الأرض تراباً أو غيره، والطيّب: هو الطاهر الذي لم تلوثه النجاسة والأقذار. والمعنى: إذا أعوزكم الماء وتريدون الطهارة فاقصدوا وجه الأرض الطاهر النظيف غير النجس ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ﴾

(١) صاحباه: هما أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني.

والتيمم هو مسح الوجه واليدين بالتراب بضربتين ضربة على التراب يمسح بها وجهه، وضربة ثانية على التراب يمسح بها يديه إلى مرفقيه. ولا يصلي المتيمم إلا صلاة فرض واحدة ويتيمم بعد دخول وقت الصلاة ﴿مَا يريدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الله أن يجعل عليكم بما فرضه من الوضوء والغسل والتيمم لصحة الصلاة من ضيق ومشقة في ذلك ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي يطهر أعضاءكم المعرضة للأوساخ والغبار بالماء عدة مرات في اليوم عن طريق الوضوء، كما يريد أن يطهركم من الذنوب حيث جُعل الوضوء رمزاً للطهارة المعنوية، يقول النبي ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء[١]، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب»[٢] فغسل الإنسان هذه الأعضاء يوحي له أن عليه أن يغسل معها آثامها ويجعل في نفسه إحساساً ووازعاً للابتعاد عن الشر.

ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تَشْكُرونَ﴾ أي ويريد الله أن يتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام التي فيها الخير لكم ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى.

---

(١) شكٌّ من راوي الحديث بأن النبي ﷺ قال (مع الماء) أو (مع آخر قطر الماء).

(٢) أخرج هذا الحديث مالك ومسلم عن أبي هريرة.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ
إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ (٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ
شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا
تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (٨) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ (٩) وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ (١٠)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ
هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ
عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (١١)﴾

شرح المفردات

وميثاقه الذي واثقكم به: عهده الذي أخذه عليكم.

قوّامين: أي قائمين حق القيام.

بالقسط: بالعدل.

لا يَجْرِمَنّكم: لا يحملنكم.

شنآن: بغض وعداوة.

ألاّ تعدلوا: أن لا تعدلوا.

يبسطوا إليكم أيديهم: يبطشوا بكم.

فكف أيديهم عنكم: فمنعهم عن إيذائكم وإلحاق الضرر بكم.

التذكير بنعم الله والدعوة إلى القيام بالعدل

بعد أن أشار الله إلى ما فيه غذاء للأرواح وطهارة للأبدان عن طريق الصلاة والوضوء، بيّن الله نعمه على المؤمنين بقوله:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ نعمة الله عليكم بهدايتكم للإسلام حيث كنتم متفرقين فجمعكم على الحق، وكنتم أذلاء فأعزكم بالإسلام، وكنتم فقراء فأغناكم، وكنتم مستضعفين في الأرض فمكّن لكم فيها، وهذه النعم تستوجب منكم الشكر لخالقكم **﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذي وَاثَقَكُم بِهِ﴾** والميثاق: العهد، أي واذكروا عهد الله الذي أخذه عليكم وعاهدكم به حين بايعتم ـ أي عاهدتم ـ رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة سواء فيما ترغبون أو تكرهون **﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾** حين قلتم لرسول الله: سمعنا ما قلت لنا وأطعناك فيما أمرتنا به، فقوموا ـ أيها المؤمنون ـ بما عاهدتم عليه رسول الله.

والمسلمون عاهدوا رسول الله عدة عهود، منها مبايعة الأنصار له في مكان يدعى العقبة حيث عاهدوه بأنهم سيدافعون عنه كما يدافعون عن نسائهم وأبنائهم وأنهم سيؤوونه إذا هاجر إليهم، ومن هذه العهود بيعة الرضوان في الحديبية تحت الشجرة.

والملفت للنظر أن الله أضاف الميثاق الذي حصل بين رسوله محمد وبين المؤمنين إلى ذاته العلية حيث قال سبحانه: **﴿وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾** وقد تكرر هذا المعنى في القرآن حيث خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فالمؤمنون حين يوفون بما عاهدوا رسول الله عليه فهم بذلك يوفون بعهد الله، وإذا صدقوا فيما عاهدوا الله عليه فهناك وعد من الله بأن يوليهم نعمه ويهبهم النصر من عنده، وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ثم ختم الله الآية التي نحن بصددها **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** وتقوى الله هي أن يستشعر المؤمنون عظمته ويتخذوا من ذلك وقاية لأنفسهم من معصيته فهو سبحانه عليم بالنوايا التي تستتر داخل الصدور والقلوب، وتخصيص العلم بها للتحذير من مخالفة الله في السرّ وبالأحرى في العلن، ووجوب تطهير القلوب من الدنس والشرور.

وبعد أن بيّن الله للمؤمنين واجب الطاعة لرسوله بما عاهدوه عليه أردف ذلك بوصيته لهم بالعدل في أي موقع كان:

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ(١) **لِلَّهِ﴾** خاطب الله المؤمنين بأن يكونوا قائمين حق القيام لله في كل عمل يعملونه من أمر دينهم ودنياهم، قاصدين بأعمالهم وجه الله في كل ما يلزمهم القيام به من الأمر بالمعروف والعمل به والنهي عن المنكر واجتنابه تعظيماً لأمره وطمعاً في ثوابه **﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾** أي أدوا الشهادة بالعدل على وجهها الصحيح من غير مراعاة لقرابة، أو صداقة، أو مجاملة، أو خوفاً من أحد **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾** أي ولا يحملنكم بغضكم لقوم على أن لا تعدلوا في حكمكم فيهم أو أن لا

(١) قوامين: جمع قوّام وهو صيغة مبالغة من قائم، والقوّام هو المبالغ في القيام بالشيء على أتم وجه وأحسنه.

تشهدوا عليهم بالحق، لأن المؤمن يجب أن يكون دائماً بجانب الحق. وهذا توجيه رباني فرضه الله على المسلمين لا نرى له مثيلاً في كل الأنظمة المعمول بها في الأرض حيث يوصي أتباعه بالعدالة المطلقة حتى مع أعدائهم، متجردين من كل اعتبار يمنعهم من ذلك، ومترفعين عن الحقد والانتقام، حتى ولو كانوا لاقوا على أيديهم من قبل صنوف الأذى ﴿**ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ أي أن العدل هو أقرب الطرق الموصلة إلى تقوى الله وخشيته واتقاء عذابه. وإذا كان العدل مطلوباً مع الكفار الذين هم أعداء الله، فبالأحرى أن يكون مطلوباً مع المؤمنين الذين هم أولياء الله وأحباؤه ﴿**واتَّقُوا اللَّهَ**﴾ وتجنبوا عذاب الله وسخطه بالعمل بما أمر والانتهاء عما نهى ﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ إن الله عليم بدقائق أموركم لا تخفى عليه خافية من أعمالكم وسيجازيكم عليها يوم القيامة من ثواب أو عقاب حسب أعمالكم.

﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي وعد الله عباده المؤمنين الذين صدّقوا بوحدانيته وبرسوله محمد وعملوا صالح الأعمال التي أمر الله بها، المشتملة على الخير ونفع العباد ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ ومغفرة الله لهم هي سترٌ لذنوبهم والعفو عنها، والأجر العظيم هو ما وعدهم به من النعيم الدائم في الآخرة. والجدير بالذكر أنه ما من موضع في القرآن ذُكِرَ فيه الإيمان والثناء على المؤمنين إلا اقترن بالعمل الصالح، لأن الإيمان الحقيقي ثمرته العمل الصالح.

﴿**والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا العهد الذي عاهدوا الله عليه، وكذبوا بآيات الله المنزلة على رسله ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ**﴾ أي هؤلاء سيُصلون ناراً شديدة التأجج

ليعذبوا بها أشد العذاب وهم يلازمونها ملازمة الصاحب لصاحبه الذي لا يفترق عنه.

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ هنا يذكّر الله المؤمنين بنعمة خاصة هي إنجاؤهم من كيد أعدائهم ليشكروه عليها فيداوموا على طاعته والامتثال لأمره ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُم أَيْدِيَهُمْ﴾ حين عزم أعداؤكم من المشركين أو اليهود أن يبطشوا بكم، يقال: بسط إليه يده إذا بطش به ﴿فَكَفَّ أيديَهُم عَنْكُم﴾ فمنعهم الله من إيذائكم بقهره لهم وسلطانه فلم يستطيعوا أن ينالوا منكم شيئاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا الله أيها المؤمنون أن تخالفوه فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمرهم إليه.

هذه الآية التي يمنُّ الله بها على المؤمنين بنعمته عليهم، قيل إنها نزلت حين أنقذ الله نبيه محمداً من يهود بني النضير حين همّوا بقتله وقتل من معه يوم سار إليهم يطلب منهم الإعانة على دفع دية رجلين قُتلا ظلماً كان معهما أمان من النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد عقد مع بني النضير عهداً أن لا يحاربوه وأن يعينوه على الدّيات التي يتوجب دفعها، فلما حضر عندهم وجدوا أن الفرصة قد سنحت لهم للغدر به، وهموا أن يسقطوا عليه صخرة، فأعلم الله نبيه بذلك فانطلق ونجا منهم.

وهناك روايات أخرى في هذا الصدد حاول أفراد اغتيال النبي ﷺ فلم يمكّنهم الله من غدرهم. كما أن من نعم الله على المؤمنين نجاتهم من الإبادة يوم معركة الأحزاب وغيرها من المعارك، فلا تخصيص في النص القرآني بل يترك على عمومه ليعم كل مؤامرة.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ
وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

شرح المفردات

وبعثنا: أرسلنا.

نقيباً: رئيساً وعريفاً.

وعزّرتموهم: نصرتموهم مع تعظيمهم وطاعتهم.

أقرضتم الله قرضاً حسناً: أنفقتم في سبيل الله عن طيب نفس.

سواء السبيل: الطريق الواضح الموصل إلى سعادتكم.

فبما نقضهم ميثاقهم: أي فبسبب نقضهم عهدهم المؤكد.

لعناهم: طردناهم من رحمتنا.

قلوبهم قاسية: قلوبهم صلبة لا تعرف الرحمة ولا تؤثر فيها الموعظة.

يحرّفون الكلم عن مواضعه: يغيرون كلام التوراة أو يؤولونها بالباطل.

ونسوا حظًّا مما أمروا به: نسوا نصيباً مما أمروا به في التوراة من اتباع رسول الله محمد ﷺ.

خائنة: خيانة.

نقض بني إسرائيل لعهد الله وتحريفهم للتوراة

وبعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالوفاء بعهده الذي أخذه عليهم على لسان رسوله محمد ﷺ بالسمع والطاعة له، شرع الله يبين كيف أخذ العهود والمواثيق على اليهود قبلهم فنقضوا عهد الله، محذراً بذلك المؤمنين من السير على خطاهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ﴾ أي ولقد أخذ الله الميثاق ـ وهو العهد ـ على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة، والميثاق الذي أخذه الله عليهم هو ما كلفهم به من صلاة وزكاة وطاعة لرسله والجهاد في سبيله **﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾** وأمر الله موسى أن يختار من بني إسرائيل اثني عشر رئيساً يتولون أمور أسباط[1] بني إسرائيل وكان عددهم اثني عشر سبطاً فيختار عن كل سبط رئيساً، ويقوم هؤلاء الرؤساء أو النقباء على رعاية قومهم. ثم أمر الله موسى بالسير ومن معه من بني إسرائيل إلى بيت المقدس التي كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وذلك للاستيلاء عليها، فلما دنا موسى من الأرض المقدسة أرسل هؤلاء النقباء إليها ليستطلعوا أحوال سكانها ويتحسسوا أخبارهم ليقاتلوهم **﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾** وقال الله لهؤلاء النقباء أو لبني إسرائيل جميعاً: إني معكم بالنصر والتأييد على أعدائكم أو أنه معهم بعلمه يعلم حالهم من طاعة وعصيان **﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾** لئن: اللام هي الموطئة للقسم أي والله لئن أديتم الصلاة على وجهها الكامل بإخلاص ودون رياء، وأعطيتم الزكاة للمستحقين لها من

---

(١) الأسباط: جمع سبط، والسِّبْط من اليهود كالقبيلة من العرب.

فقرائكم ﴿وآمنْتُم بِرُسُلي﴾ وصدّقتم برسلي الذين أرسلتهم إليكم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ والتعزير: هو النصرة لهم مع التوقير والتعظيم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ والمراد من إقراض الله في هذا المقام هو الإنفاق في سبيل الله وإعطاء الضعفاء والمساكين حقهم من مال الله، فمن يفعل ذلك بإخلاص ابتغاء مرضاة الله فكأنما أقرض الله قرضاً حسناً. وليس المقصود أن الله بحاجة إلى من يقرضه فقد جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وإنما سمى الله سبحانه الإنفاق هنا إقراضاً له للحث عليه والترغيب به وتشريفاً لعمل المنفق.

ثم يبيّن الله ثمرة ذلك كله: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُم سَيِّئَاتِكُمْ﴾ هذا جواب القسم الذي أقسم الله به سبحانه وهو يتضمن ما وعد الله به بني إسرائيل إذا قاموا بما يوجبه الميثاق عليهم، وهذا الوعد هو غفران ما ارتكبوا من سيئات، وقد عبّر الله عنها بلفظ ﴿لأكفرنّ﴾ ومعنى تكفيرها سترها فلا تفضح بالعذاب إذ العذاب كشف لها ﴿وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ﴾ أي ومع المغفرة يدخلهم الله في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ينعّمون فيها بما أعد الله لهم من صنوف النعيم جزاء وفائهم بميثاق الله ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾ أي من جحد منكم ـ يا معشر بني إسرائيل ـ شيئاً مما أمرته به فتركه، أو عمل بما نهيته عنه، بعد أن أخذت عليكم الميثاق بالوفاء بطاعتي واجتناب معصيتي فقد حاد عن الطريق المستقيم الذي رسمته لكم.

ولكن بني إسرائيل لم يوفوا بعهد الله وحادوا عن طريق الحق:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم عهدهم المؤكد الذي عاهدوا الله عليه استحقوا لعنة الله والبعد عن رحمته ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي خذلهم الله وأورث قلوبهم الغلظة والقسوة، منزوعة منها الرأفة والرحمة لا تتأثر بالمواعظ[١] ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أي يغيرون كلام الله في التوراة بالزيادة والنقصان ويتأولونه على غير تأويله، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله على نبيهم موسى عليه السلام ثم يقولون للناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على موسى. يقول الشيخ رشيد رضا: «إن التحقيق الذي عليه العلماء الذين عرفوا تاريخ القوم (أي اليهود) واطلعوا على كتبهم التي يسمونها التوراة وغيرها، هو أن التحريف اللفظي والمعنوي كليهما واقع في تلك الكتب. . . وإنها غير متواترة، فالتوراة التي كتبها موسى عليه السلام وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها قد فقدت قطعاً باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى»[٢].

«ومعظم العلماء المحققين يرون أن التوراة الحالية قد كتبها أحبار اليهود خلال فترة السبي البابلي ما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد أي بعد حوالي سبعة قرون من عصر موسى عليه السلام، وهذه الكتابة تمت اعتماداً على الذاكرة وعلى بعض الوثائق التي ظلت قائمة. وبما أن التوراة قد كتبت في جو مشحون بالشعور بالمرارة والكراهية

(١) وصفاتهم هذه تنطبق على صفاتهم في العصر الحاضر، حيث يرتكبون المجازر في حق الشعب العربي الفلسطيني بدون رأفة ولا رحمة، ويهدمون بيوتهم ويحرقون مزارعهم ويضطهدونهم أشد الاضطهاد.

(٢) تفسير المنار.

والحقد فقد جاءت حافلة بالنصوص التي تمجد بني إسرائيل وتحقر سائر الشعوب الأخرى وتدعو إلى إبادتها»[١].

ويقول كاتب الموسوعة البريطانية: «فيما يتعلق ببعض كتابات العهد القديم.. فإن تناقلها ظل شفهياً لمدة طويلة قبل إخضاعها للكتابة. وخلال هذا الفاصل الزمني فإن هذه المواد ربما عانت من الاختصار أو التضخيم أو التحريف على أيدي النقلة، وبذلك فإن النسخة الأصلية لم تتغير فحسب بل إن عملية النقل المتعاقبة قد ولدت أكثر من تنقيح واحد منذ بداية كتابتها»[٢].

هذا وإن التوراة التي بين أيدينا تصور الإله بأبشع الصور وتصفه بما لا يليق بالإله الحكيم العادل، أما الرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشر فقد نسبت إليهم الموبقات والفواحش والمنكرات وكل ذلك دلائل على تحريف التوراة.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ والمراد بالنسيان هنا الترك والإهمال، والحظ: النصيب، أي تركوا نصيباً مما أُمروا به في التوراة من وجوب اتباعهم لها وخاصة إيمانهم بمحمد ﷺ عند ظهوره وذلك بما تشتمل عليه كتبهم من البشارات التي تنطبق عليه **﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾** أي ولا تزال يا محمد تشاهد خيانة منهم، فالغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم **﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُم﴾** استثنى القرآن قليلاً منهم جبلوا على الوفاء بالعهد، وقد يراد بهذه القلة الذين آمنوا

(١) نقلاً عن كتاب: حول موثوقية الأناجيل والتوراة للأستاذ محمد السعدي.

(٢) الموسوعة البريطانية ـ المجلد الثاني صفحة ٨٨٤ نقلاً عن المصدر السابق.

بِنَبِيِّ الإسلام كعبد الله بن سلام وأصحابه.

ولقد وصف الله أكثر اليهود بالغدر والخيانة والقسوة، ووصفهم النبي أرمياء بالكذب والسرقة والزنى والشرك، كما وصفهم السيد المسيح: بأنهم الحيّات أولاد الأفاعي، وأنهم قتلوا الأنبياء والحكماء، وجعلوا بيت الله مغارة للصوص.

ثم نعود إلى تتمة الآية وفيها وصية الله لرسوله محمد ﷺ تجاه ما يلقاه من غدر اليهود وخيانتهم **﴿فَاعْفُ عَنْهُم وَاصْفَحْ﴾** أي فاعف عنهم يا محمد بما ظهر من هؤلاء اليهود، واصفح عمن أساء منهم إليك تأليفاً لهم، فلعلّ الله أن يهديهم. والعفو المراد به عدم مقابلة الإساءة بمثلها، والصفح هو ترك اللوم والمعاتبة **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** فالله يحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه.

فتأمل نبل الإسلام في معاملة اليهود مع أنهم لا يتوانون في الكيد للمؤمنين والإساءة لهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ
فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا
كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم
مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ
مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

شرح المفردات

أخذنا ميثاقهم: أي أخذ الله العهد على النصارى.

حظاً: نصيباً أو مقداراً.

فأغرينا بينهم العداوة: فألقينا وأوقعنا بينهم العداوة.

يعفوا: يتركه ولا يبينه.

نور: المراد به محمد ﷺ.

كتاب مبين: قرآن مظهر وموضح.

سبل السلام: طرق النجاة والسلامة.

اختلاف النصارى وتركهم نصيباً من كتاب الله

وبعد أن بيّن القرآن أنه أخذ العهد على بني إسرائيل باتباع التوراة، وما كان من أمرهم بعد أن نقضوا العهد، أعقب ذلك ببيان حال النصارى حين أخذ عليهم العهد باتباع عيسى عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَمِنَ الَّذِين قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي وأخذ الله من النصارى العهد على طاعته وأداء فرائضه واتّباع ما جاء في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام. وعبّر القرآن بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِين قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ بدلاً من قوله «ومن النصارى» تنبيهاً على أنهم نصارى بتسميتهم أنفسهم بهذا الاسم ادّعاء لنصرة الله وأنهم على دين المسيح عليه السلام.

﴿فَنَسُوا حظًّا مِمَّا ذُكِّروا بِهِ﴾ والمراد بالنسيان هنا: الترك والإهمال عن قصد، لأن الناسي حقيقة لا يؤاخذه الله على نسيانه، ومن أسباب ترك النصارى نصيباً وافراً مما أُمروا به في الإنجيل هو أنهم اضطُهدوا اضطهاداً شديداً في عهد الرومان حتى ضاعت كتبهم ولم يعرف شيء منها إلا القليل بعد أن ترك المسيح هذه الدنيا.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ فأغرينا: أي أوقعنا وألقينا، وقيل: ألصقنا بهم مأخوذ من الغراء الذي يلصق به. والفاء الداخلة على أغرينا للسببية، أي فكان تركهم نصيباً من الإنجيل سبباً لوقوعهم في الأهواء والتفرق والتباغض، وتسلّط بعضهم على بعض وتفرقهم إلى فرق شتى كل فرقة تعادي الأخرى، وقد حدث هذا عبر الأجيال إلى يومنا هذا، وبالرجوع إلى تاريخ الكنيسة تظهر هذه الحقيقة القرآنية الجليلة فالقوم لما اختلفوا في كتاب الله وحقيقة عيسى

وعصوا الله ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة **﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** أي سيخبرهم الله يوم القيامة بما كانوا يصنعون في الدنيا من نقضهم ميثاقه ونكثهم عهده وتبديلهم كتابه فيعاقبهم الله على ذلك حسب ما يستحقون.

والسبب في أن النصارى نسوا حظاً مما ذُكّروا به هو أن المسيح عليه السلام لم يكتب ما وصّاهم به من المواعظ والإرشادات ودعوتهم إلى توحيد الله وعبادته وحده وكان الذين اتبعوه من عامة الشعب وبعض الصيادين، كما أن شدة عداوة اليهود له ولأتباعه كان لها الأثر على دعوته.

ويظهر من تاريخ النصارى أن الذين كتبوا الأناجيل كثيرون جداً، وقد اعتمدت الأناجيل الأربعة المعروفة على ما عداها بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عندما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية.

جاء في كتاب (قصة الحضارة): «وترجع النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي ٦٠ و ١٢٠م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل»(١).

وبعد الكلام عن اليهود والنصارى قبل الإسلام وكيف نسوا نصيباً وافراً من أمور دينهم انتقل القرآن من الكلام عن ماضيهم إلى مخاطبة الحاضرين منهم في عهد رسول الله محمد ﷺ:

---

(١) تأليف ول ديورانت جـ ١١.

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنا﴾ وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، وقد ذكر الكتاب بصيغة المفرد واليهود والنصارى لهم كتب وأسفار عدة لأن الكتاب اسم جنس يطلق ويراد به الجمع، وفي تسميتهم بأهل الكتاب مراعاة لجانبهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى أصول دينهم، وبيان أن لهم رابطة أُخوَّةٍ تجمعهم مع المسلمين فهم جميعاً أصحاب رسالات سماوية.

فالله سبحانه بيّن لليهود والنصارى أنه أرسل إليهم رسوله محمداً، وفي قوله تعالى **﴿رسولنا﴾** تعظيم وتشريف حيث أضافه الله سبحانه إلى ذاته، وتوجيه لهم باتباعه لأنه رسول مبلّغ عن الله **﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ﴾** هنا نص صريح بأنهم كانوا يخفون أموراً من الكتاب الذي أُنزل على موسى، ومن الكتاب الذي أُنزل على عيسى عليهما السلام.

وما أخفاه اليهود والنصارى هو البشارات التي جاءت في كتبهم عن مجيء رسول من عند الله بعد عيسى عليه السلام يدعى أحمد، وحرفوها بتفسيرها على معانٍ أخرى. وكذلك ما أخفاه اليهود من عقوبة الرجم للزاني المحصن ـ أي المتزوج ـ وكذلك أخفى اليهود العلم بما يكون بعد الموت من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، حتى أنك تقرأ التوراة التي بين أيدينا فلا تجد فيها ذكراً للحياة الآخرة، كما أن اليهود أخفوا تحريم الربا تحريماً عاماً وقصروا المنع على أكل الربا من الإسرائيلي فقط، أما غيره فحلال التعاطي بالربا معه **﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾** أي لا يظهر لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب فلا يتعرض لكم ولا يؤاخذكم به لأنه لا حاجة إلى إظهاره.

﴿**قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾ أي جاءكم ـ أيها اليهود والنصارى ـ نور من الله، والمراد بالنور هنا الرسول محمد ﷺ لأنه يُهتدى به كما يُهتدى بالنور في الظلام، وقيل: النور هنا هو الإسلام، والكتاب المبين: هو القرآن الكريم فهو واضح في نفسه، مبين لما يحتاج إليه البشر لهدايتهم.

﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**﴾ سبل السلام: هي طرق السلامة وهي استعارة لطرق الحق التي لا خوف على السائر فيها من الزلل، أي أن من اتجه إلى مرضاة الله باتباع النور الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه وعمل بالقرآن الذي أنزله الله عليه يهديه الله إلى طرق السلامة ويبعد عنه كل شقاء ﴿**وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ**﴾ والظلمات: استعارة للضلال، والنور استعارة للهدى، فهؤلاء الذين يتبعون نور الله يخرجهم سبحانه من ظلمات الكفر والضلال، ومن ظلمات الوثنية والخرافات التي طرأت على دين الله إلى نور التوحيد ﴿**بِإِذْنِهِ**﴾ أي بمشيئته وتوفيقه ﴿**وَيَهْدِيهِم إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ ويهديهم الله سبحانه إلى طريق قويم لا اعوجاج فيه وهو طريق الإسلام.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

شرح المفردات

فمن يملك من الله شيئاً: أي فمن يقدر أن يمنع من أفعال الله شيئاً.

القرآن ينفي الألوهية عن المسيح عليه السلام

وبعد أن ذكر القرآن بأن اليهود حرفوا كلام الله، وأن النصارى نسوا نصيباً مما وعظوا به أتت الآية التالية مبينة ضلال النصارى حيث نسبوا الألوهية إلى المسيح عليه السلام:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِين قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والكفر هو نقيض الإيمان كما يطلق الكفر على الشرك بالله كأن يتخذ المرء مع الله إلَهاً آخر. فالذين ادعوا بأن المسيح هو إلَه قد خرجوا من حظيرة الإيمان إلى حظيرة الكفر والجحود بوحدانية الله.

ثم يبين القرآن عظمة الألوهية التي اختص بها الله سبحانه والتي هي فوق مقدور البشر:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ المسِيحَ ابنَ مَرْيَم وَأُمَّهُ وَمَنْ في الأَرْضِ جَميعاً﴾ يملك هنا بمعنى: يقدر، والمعنى: قل

يا محمد لهؤلاء النصارى لو أراد الله أن يُهلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على منعه من ذلك أو صرفه عنه؟ فالاستفهام هنا يفيد النفي أي لا أحد يقدر على منعه أو أن يحول دون إرادته. والتعبير بكلمة ﴿**يملك**﴾ يستفاد منه أن قدرة الله قدرة تملّك وليست قدرة مستعارة أو مأخوذة من غيره.

﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ أي الله وحده له الملكية التامة للتصرف في السماوات بطبقاتها المتعددة، وما تحتويه من نجوم وكواكب وغيرها، وله الملكية للأرض وما فيها من موجودات وكائنات حية، وله سبحانه ما بين السماء والأرض من فضاء وما يحتويه من هواء وسحاب وغير ذلك. وهذا دليل على نفي الألوهية عن عيسى لأنه لو كان إلهاً كما يقول النصارى لكان له شيء في ملك السماوات والأرض ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾ أي يبدع الله ما يشاؤه من المخلوقات، فقدرة الله قدرة مطلقة لا حد لها، فهو يخلق ما يشاء، يخلق الناس من أب وأم، وخلق آدم من غير أب ومن غير أم، وخلق عيسى من أم ومن غير أب، وهو سبحانه القائل في شأن عيسى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فهو سبحانه الإله المعبود، القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء أراده.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

شرح المفردات

فترة من الرسل: أي بعد مدة خلت من الرسل وانقطع فيها مجيئهم.

بشير: أي رسول من عند الله يبشرهم بحسن العاقبة للمؤمنين.

نذير: أي رسول من عند الله ينذرهم بسوء المصير للضالين.

بطلان ادعاءات اليهود والنصارى

ويتابع القرآن فيذكر بعض الأوهام التي استحوذت على عقول اليهود والنصارى حيث حكى الله عنهم بقوله:

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي قال قوم من اليهود والنصارى نحن في القرب من الله بمنزلة أبنائه المدللين يعطف علينا ويرحمنا ولا يعذبنا ولنا ميزة على سائر الخلق.

وقد روي في أسباب نزول الآية أن جماعة من اليهود أتوا رسول الله فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا

محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، وقالت النصارى مثل قولهم، فأنزل الله هذه الآية.

وكلمة (ابن الله) بمعناها الحقيقي محال على الله فهو سبحانه ليس له صاحبة ـ أي زوجة ـ وبالتالي لم يوجد له ولد.

وكلمة (ابن الله) وردت في أسفار العهد القديم والعهد الجديد في مواضع كثيرة في حق كل بارٍّ صالح، وثيق الصلة بالله، ومحبوب من الله، فقد جاء في إنجيل متى: «طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله يُدْعَوْن» [٥: ٩] وفي إنجيل يوحنا: «قال لها يسوع لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي لإخوتي وقولي لهم: «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهك» [٢٠: ١٧] ففي هذا النص ساوى المسيح بين أبوة الله له وبين أبوّة الله لقومه، ولكن النصارى تصرفوا بمفهوم هذه الأبوة فجعلوا المسيح الابن الحقيقي لله والابن المجازي بالنسبة إلى غيره.

وهناك احتمال آخر وهو أن تكون البنوّة هي البنوّة التي زعمها اليهود لِعُزَيْر إذا قالوا عُزَير ابن الله وهم أتْباعه وشيعته، كما ادّعى النصارى أن المسيح ابن الله وهم أتباعه فهم أبناء الله بهذا الاتّباع.

ثم يفنّد الله ادعاءاتهم في تتمة الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم أبناء الله وأحباءه لما عذبكم بذنوبكم، لأن شأن المحب أن لا يعذب حبيبه وشأن الأب أن لا يعذب أبناءه.

وفي التوراة سرد لكثير من الذنوب التي اقترفها بنو إسرائيل وحصل بسببها تخريب الغزاة لبلدهم المرة بعد المرة وقتل ما لا يحصى من

سكانها واسترقاق البعض، كما أن النصارى ذاقوا الويلات والاضطهاد على يد أعدائهم بسبب ذنوبهم بالإضافة إلى تنكيل بعضهم ببعض بسبب نزاعاتهم واختلافاتهم المذهبية في أمور دينهم.

هذا وقد ورد في القرآن أن اليهود قد أقروا بأن العذاب سيقع بهم من جراء أفعالهم فقد نقل القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] كما أن النصارى يقرون بأن الله سيحاسب الناس يوم القيامة ويجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

ثم يرد على مقولتهم بأنهم أبناء الله وأحبّاؤه ﴿**بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ أي أنتم بشر من جملة ما خلق الله، وهو سبحانه الحكم العادل لا يحابي أحداً فهو يغفر لمن يشاء ممن يطيعه، ويعذب من يشاء ممن يعصيه، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم فإن العبرة بالإيمان الصادق والعمل الصالح وليس بالانتساب إلى الآباء والرسل ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ المَصِيرُ**﴾ ولله وحده ملك السموات والأرض وما بينهما من فضاء يتصرف فيهما حسب حكمته وإليه وحده مصير البشر ومرجعهم إليه يوم القيامة فيجازيهم على أفعالهم إن كانت خيراً فيجزيهم خيراً وإن كانت شراً فيعاقبهم بما أساءوا.

﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ رسولنا: المراد به محمد ﷺ. خاطب الله اليهود والنصارى

بأنه أرسل إليهم رسوله محمداً يبين لهم الشرائع والأحكام الإلهية، والحق من الباطل، بعد انقطاع من الرسل وفترة من الزمن والمراد بالفترة المدة التي لم يرسل الله فيها رسولاً من عنده لهداية الناس.

وقد جاء محمد ﷺ بالرسالة الإلهية بعد رسالة أخيه عيسى عليه السلام وقدرت هذه المدة بستة قرون[١] إلا قليلاً.

﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ أي أرسل الله إليكم محمداً لئلا تقولوا يا أهل الكتاب ما جاءنا رسول من عند الله يبشرنا بحسن العاقبة لمن يطيع الله، ولا نذير يحذرنا من سوء العاقبة لمن يضل عن سبيل الله **﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾** أي لا عذر لكم في عدم معرفة أوامر الله ونواهيه فقد جاءكم الرسول محمد يبشركم بالخير والسعادة إن صدّقتم به واتبعتم ما جاء به من الهدى، كما أنه جاء لينذركم بالعذاب والشقاء إن أعرضتم عنه وبقيتم على كفركم **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** هنا بيان لشمول قدرة الله على كل شيء فلا يعجزه شيء أراده، فهو سبحانه قادر على عقاب من يعصيه، وإجزال الثواب لمن يطيعه.

(١) ولد الرسول محمد ﷺ سنة ٥٧١ ميلادية.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ
أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى
كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ
﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا
حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ
عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ
إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى
وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا
مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

شرح المفردات

وجعلكم ملوكاً: أحراراً، أسياد أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً للفراعنة.

الأرض المقدسة: المعظمة حيث جعلت مسكن الأنبياء وهي بيت المقدس وقيل فلسطين.

ترتدوا على أعقابكم: تنهزموا خوفاً من العدو.

فتنقلبوا خاسرين: فتصيروا خاسرين.

قوماً جبارين: شديدي البطش عظيمي الأجسام.

فافرق: فافصل.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

يتيهون في الأرض: يسيرون متحيرين في الأرض لا يهتدون.

فلا تأس: فلا تحزن.

عصيان بني إسرائيل وعقوبة اللّه لهم

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن بني إسرائيل وما جُبلوا عليه من عصيانٍ لرسل الله، وما في طبائعهم من لؤم وجبن حيث يؤثرون الراحة والذلة على الجهاد الذي فيه عزهم وكرامتهم، كما أن في الآيات التالية دروساً لأمة محمد ﷺ يتعلمون منها مغبة التقاعس عن الجهاد حيث يستدعي وجوبه، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ أي واذكر يا محمد حين قال موسى لقومه ناصحاً إياهم: تذكروا نعمة الله عليكم، وتذكّر النعمة يستدعي شكر الله مصدر النعم كلها، وطاعته وعدم عصيانه. ثم عدّد موسى تلك النِّعَم التي أسبغها الله عليهم: **﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاءَ﴾** فقد جعل الله فيهم كثيراً من الأنبياء كإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام وغير هؤلاء من الأنبياء، ولم يبعث الله في أمة من الأمم أنبياء مثل ما بعث في بني إسرائيل **﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾** وجعلكم أحراراً أعزاء بعد أن كنتم مستعبدين لفرعون وقومه فالملوك هنا بمعنى الأحرار المالكين لأنفسهم وتدبير أمر أهليهم وأموالهم، وأن لهم بيوتاً وخدماً. ونعمة الحرية

والاستقلال التي أسبغها عليهم من أجَلِّ النِّعَم، وبالأخص بعد أن ذاقوا مرارة الرق والاضطهاد **﴿وآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ﴾** وأعطاكم الله من النعم ما لم يعطِ أحداً من عالمي زمانكم، حيث شق لكم البحر فسرتم فيه ونجوتم من فرعون وجنده حيث أغرقهم الله، وأنزل عليكم المنّ والسلوى لتأكلوا من الطيبات وأخرج لكم المياه الغزيرة من الحجر بعد أن داهمكم العطش في الصحراء، وظللكم بالغمام ليحجب عنكم حرارة الشمس.

وكان موسى قد أخبر قومه أن الله وعدهم بإسكانهم الأرض المقدسة، ولما وصل موسى إلى حدود تلك الأرض بعث اثني عشر رجلاً من كل سبط من بني إسرائيل رجلاً وهم النقباء الاثنا عشر الذين سبق ذكرهم، أرسلهم موسى إلى الأرض المقدسة ليتحسسوا أحوال سكان تلك الديار وليأتوه بخبر سكانها، فلما رجعوا من مهمتهم إلى موسى قالوا له: إن الأرض التي بعثتنا إليها هي أرض طيبة، كثيرة الثمار، غير أن سكانها قوم جبارون أقوياء، فأمرهم موسى أن يكتموا ما شاهدوه فلم ينصاعوا لأمره إلا رجلين منهم فإنهما سهّلا الأمر، وأما العشرة الباقون فإنهم أوقعوا الجبن في قلوب الناس. وفي الآيات التالية يذكر لنا القرآن الحوار الذي جرى بين موسى وقومه حينما أمرهم بدخول الأرض المقدسة:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ﴾ والأرض المقدسة هي المطهرة من الشرك وجعلت مسكناً للأنبياء قيل هي بيت المقدس، وقيل هي فلسطين. أي ادخلوا الأرض المطهرة المباركة **﴿الّتي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** أي التي قسمها وقدرها لكم إن آمنتم بالله وأطعتموه **﴿وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى**

أَدْبَارِكُمْ﴾ والأدبار: جمع دُبُر وهو الظهر، أي ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين منهزمين من خوف الجبابرة ولكن امضوا قُدُماً لأمر الله الذي أمركم به **﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾** فإذا أحجمتم عن قتالهم يتبدّل أمركم من عزّ وسؤدد إلى ذلّ في الدنيا وخسران في الآخرة بسبب عصيانكم أمر ربكم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾[1] أي قال بنو إسرائيل لنبيهم: يا موسى إن الأرض التي وعدتنا بدخولها يسْكنها قوم أقوياء عظيمو الأجسام، طوال القامة شديدو البطش لا قدرة لنا بقتالهم **﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾** وقالوا لنبيهم: إننا لن ندخل تلك الأرض حتى يغادرها أهلها طواعية من أنفسهم دون أن يكون لنا شأن معهم، فإن غادروها فإننا ندخلها دون حرب وقتال. قول ينمّ عن نهاية الجبن والتخاذل من بني إسرائيل كما أنه مطلب عجيب يظهر سخافة عقولهم، إذ كيف يخرج أهل البلد الأقوياء من بلدهم طواعية ليقدموها هدية لهؤلاء الجبناء؟

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذين يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي قال لهم رجلان من الذين يخافون الله ويخشون مخالفة أمره، وهما من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الهداية، والمراد بالرجلين: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وكانا من ضمن الاثني عشر نقيباً الذين أرسلهم

---

(١) ذكر بعض المفسرين عن أحوال هؤلاء الجبارين وضخامة أجسامهم بما فيه الكثير من الخرافات والإسرائيليات بما لا تصدقه العقول السليمة، والتي قال عنها ابن كثير في تفسيره: إنه يستحيي من ذكرها، هذا مع العلم أن القرآن الكريم لم يذكر عنهم إلا صفة جبارين وهذه اللفظة لا تحتمل ما ذكروه من خرافات.

موسى إلى الأرض المقدسة ليأتوه بأخبار أهلها. هذان الرجلان قالا لبني إسرائيل: ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ﴾ أي ادخلوا عليهم من باب بلدهم وباغتوهم بالقتال في عقر دارهم بما يُلقي الرعب في قلوبهم، ولا تَدَعُوا لهم فرصة للتفكير في مقاومتكم ﴿فَإِذا دَخَلْتُموهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ فإذا فعلتم ذلك أيَّدكم الله بنصره وغلبتموهم ﴿وعَلَى اللَّهِ فَتَوكَّلوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واعتمدوا على الله وحده، وفوّضوا أموركم إليه، ولا تخشوا عدوكم إن كنتم مؤمنين بالله حق الإيمان مصدّقين بوعده بالنصر لكم إذا أنتم أطعتموه.

لم تنفع بني إسرائيل موعظة الرجلين بل أصرّوا على التمرد والعصيان: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾ قالوا لنبيهم بأنهم لن يدخلوا أرض الجبابرة أبداً أي مدى حياتهم ما داموا فيها ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ أي إذا كنت يا موسى مصمماً على دخول البلدة فاذهب أنت وربك لقتال الجبابرة فإننا هنا قاعدون منتظرون هزيمتهم. وفي قولهم: ﴿وربك﴾ وكأنهم يصورون الله بأنه إلَه موسى وليس إلَهاً لهم.

ما أعجب مقالتهم هذه التي تدل على اللؤم والبعد عن الأدب مع نبيهم موسى، أَبَعْدَ كل ما شاهدوه من المعجزات التي ظهرت على يد نبيهم، وبعد كل النعم التي أسبغها الله عليهم يكون منهم هذا الموقف العجيب؟ أمام هذا كله توجه موسى إلى ربه شاكياً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنّي لا أَمْلِكُ إلاَّ نَفسي وَأَخي﴾ أي قال موسى: يا رب إني لا أملك أمر أحدٍ من قومي أحمله على طاعتك وامتثال أمرك، إلا

أمر نفسي وأمر أخي هارون. فأنا وهارون في طاعتك، ولا أحد من هؤلاء الجبناء أستطيع حمله على طاعتك **﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾** أي فافصل يا رب بيننا ـ يريد نفسه وأخاه هارون ـ وبين هؤلاء القوم الذين خرجوا عن طاعتك بقضائك العادل. استجاب الله دعاء موسى وأخبره سبحانه بقوله:

﴿قَالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِم أرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ في الأَرْضِ﴾ أي حرّم الله على الذين خالفوا أمره من قوم موسى دخول الأرض المقدّسة مدة أربعين سنة يتيهون أثناءها في صحراء سيناء حيارى لا يهتدون إلى الخروج منها جزاء جبنهم واستهانتهم بأوامر الله **﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾** أي فلا تحزن يا موسى على هؤلاء الفاسقين إذا عُوقبوا بِهَذِهِ العقوبة الشديدة فإنهم مستحقون لهذا التأديب الإلهي.

«عاقب الله بني إسرائيل بهذه العقوبة الصارمة ليفني الجيل القديم الذي رضخ للطغيان في عهد حكام مصر ورضي بالعبودية عندهم وأصبح الجبن طبيعة لهم، ولينشأ جيل جديد يجمع بين حريّة البداوة وقسوتها وعدل الشريعة وهدايتها. ربّاهم الله هذه التربية ليمكّن الجيل الجديد بعد ذلك من دخول الأرض المقدسة. فعلينا أن نعتبر بهذه التربية الإلّهية ونعلم أن إصلاح الأمم بعد فسادها إنما يكون بإنشاء جيل يجمع بين حرية البداوة وما فيها من استقلال وخشونة وبين العمل بشريعة الله وما فيها من عدالة وهداية ورحمة»(١).

(١) باختصار وتصرف عن تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

فالشعوب التي تنشأ في عهد الاستبداد وتُعامَل بالظلم والاضطهاد من قِبَلِ حكامها تفسد أخلاقها وتذلّ نفوسها، وهكذا كان حال بني إسرائيل فقد أفسد ظلم الفراعنة نفوسهم وطبعها بطابع المهانة والذل والجبن إلى أن جاءهم موسى يدعوهم إلى الجهاد لدخول الأرض المقدسة، ولكن نفوسهم التي ألفت الذل والاستعباد لم تطاوعهم على الجهاد لدخول الأرض المقدسة بل أجابوا موسى بهذه المقولة التي تشع باللؤم والجبن: **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾** هكذا كان حال بني إسرائيل في عهد نبيهم موسى، أما حال المسلمين في عهد نبيهم محمد ﷺ فيتمثل بما قاله المقداد بن عمرو عن نفسه وعمن حوله من المسلمين عندما استشارهم النبي لقتال المشركين يوم بدر: «يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون. وهكذا قاتل المسلمون مع نبيهم يوم معركة بدر وانتصروا فيها على المشركين انتصاراً باهراً بالرغم من قلة عددهم وكثرة عدد أعدائهم، وذلك بفضل إيمانهم وطاعتهم لرسول الله.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ
مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا
يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي
مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ
أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ
نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ
ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ
أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ
فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ
ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ
نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا
وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ
جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ
ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾

شرح المفردات

واتل: واسرد على مسامع أمتك يا محمد وعلى اليهود والنصارى.

قرَّبا: قدّما.

قُرباناً: ما يتقرب به إلى الله من ذبيحة أو صدقة أو نحوهما.

بسطت: مددت.

تبوء: ترجع.

بإثمي وإثمك: بقتلك إياي، وإثمك قبل ذلك.

فطوّعت: فسهّلت وحسّنت.

يبحث في الأرض: يحفر في الأرض.

سوءة أخيه: جيفته أو عورته.

يا ويلتا: كلمة تحسّر وجزع تستعمل عند وقوع المصيبة.

فأواري: فأستر.

بالبينات: بالحجج الواضحات.

لمسرفون: لَمُجاوزون الحد في الظلم.

الإثم العظيم لقتل النفس البريئة

وبعد أن بين القرآن سابقاً ما كان لليهود من بسط أيديهم بالأذى للنبي ﷺ ومحاولة قتله، ونقضهم المواثيق، وادعائهم الكاذب الفضل على الناس، بيّن الله علة ذلك وهي الحسد الكامن في نفوسهم، والحسد داء نفسي قديم منذ عهد آدم عليه السلام.

وفي الآيات التالية يسرد علينا القرآن الكريم قصة ولدي آدم التي هي مثال للحسد وما ينشأ عنه من إجرام، قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ وابنا آدم هما: قابيل وهابيل اللذان من صُلبه. هابيل: التقي الورع، وقابيل: الباغي الظالم. والقربان: ما يتقرب به المرء إلى رَبِّهِ من صدقة أو نسك أو ذبيحة. والمعنى: واسرد يا محمد على مسامع اليهود وعلى أمتك خبر وَلَدَيْ آدم قابيل وهابيل خبراً متلبساً بالحق حين قدّم كل من الأَخَوَيْن شيئاً يتقرب به إلى الله **﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾**

وهذان الأخوان لم يكونا على درجة واحدة من التقوى والإخلاص لله تعالى. فكان هابيل صاحب غنم وقد قرّب إلى الله أكرم غنمه وأسمنها قدّمها طيبة بها نفسه، وأما قابيل فكان صاحب زرع فقرّب إلى الله أردأ زرعه غير طيبة بها نفسه.

وكانت علامة القبول من الله أن تأتي نار على القربان الذي رضيه سبحانه فتأكله وإن لم يتقبل الله القربان لم تنزل عليه نار، فجاءت النار فأكلت الشاة وتركت الزرع. ولما رأى قابيل أن قُربانه قد رُفض امتلأ قلبه حسداً وحقداً على أخيه فخاطبه **﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾** هذه الكلمة هي كلمة الظالم الآثم الذي خلا قلبه من الرحمة، وقد أكّد قابيل تصميمه على قتله بلام القسم ونون التوكيد، فكان جواب هابيل على تهديد أخيه له: **﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** أي أن تقوى الله هي سبب القبول عنده سبحانه، فإذا وجدت كان القبول، وإذا انتفت لا يحصل القبول. والتقوى التي اعتبرت للقبول من الله تتضمن خشية الله والإخلاص له، واتقاء الذنوب والآثام.

وتابع هابيل قوله لأخيه: **﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾** أي لئن مددت إليّ يدك لتقتلني فأنا لست ممن يتصف بهذه الصفة المنافية لتقوى الله **﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾** فخوف الله هو الذي جَعَله يقف هذا الموقف السليم وأن لا يقابل الإساءة بمثلها، وفي الوقت نفسه إرشاد لأخيه الذي يحاول قتله بأن يقف موقفه السليم ويخشى الله رب العالمين.

ثم يحذّر هابيل أخاه قابيل من الإقدام على قتله لما يترتب على

ذلك من عقاب الله له:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي إن قتلتني أكون بذلك مظلوماً وتمضي متحملاً بإثم قتلي وسائر آثامك التي أوجبت أن لا يتقبّل الله منك قربانك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فتكون بفعلك هذا من أصحاب النار الذين يعذبون بها والملازمين لها في الآخرة، وذلك عقاب الظالمين الذين يعتدون على عباد الله الأبرياء.

ويتابع القرآن فيبيّن ما انتهى إليه أمر قابيل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ أي سهّلت له نفسه أمر قتل أخيه وشجعته على ذلك، ويُروى أن قابيل صبر حتى نام هابيل فضرب رأسه بحجر كبير فقتله وتركه بالعراء ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾ أي خسر دنياه وآخرته، أما خسران دنياه فكان بأن أسخط والديه وفقد أخاه الطيب، وأما خسران آخرته فكان بأن أسخط ربه وصار إلى عذاب النار وذلك هو الخسران المبين.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ في الأَرْضِ﴾ أي فأرسل الله غراباً، وجعله يحفر أمامه في الأرض ـ بمنقاره ورجليه ـ حفرة ثم ألقى فيها غراباً آخر ميتاً وواراه بالتراب ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ فعل الغراب ذلك ليُري قابيل كيف يواري ويستر جثة أخيه وعورته، أمام هذا المشهد نطق قابيل بهذه الكلمة ﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا﴾ كلمة تحسّر وتلهّف وجزع، وهي كلمة تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ﴾ أي أعجزت أن أفعل مثل ما فعل الغراب،

قال ذلك لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخي﴾ فأستر جثة أخي وعورته عن الأعين بدفنه في التراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي على قتل أخيه، ولا سيما بعد أن رأى جثته بين يديه، وأحسّ بالبلية التي وقع فيها، ومقدار الشر الذي ارتكبه، ولذلك عبّر بلفظة ﴿أَخِي﴾ التي توحي بالمودة والمحبّة بين الإخوة، بدل الحسد الذي أدى به إلى قتل أخيه.

فالحسد سبب هذه الجريمة النكراء، وهو أول ذنب عصى به الإنسان ربه على الأرض كما أنه الباعث على كثير من الجرائم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ﴾ فالله سبحانه يقول: من جراء ما فعله قاتل أخيه وشناعة جرمه قضينا على بني إسرائيل في الكتب المنزلة عليهم من عندنا ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي أن من قتل نفساً بغير سبب القصاص الذي شرعناه للقاتل عن عمد ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأرضِ﴾ أو غير سبب فساد في الأرض. والفساد يكون بالإخلال بالأمن وإهلاك الحرث والنسل كما تفعل العصابات المسلحة وقطاع الطرق بقتل الأنفس ونهب الأموال ﴿فَكأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً﴾ أي من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً. تأمل قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً﴾ فلم يخصّها الله سبحانه برابطة القومية أو الجنسية أو الدين بل هي النفس البشرية مطلقاً، فما أسمى معاني القرآن وحرصه على احترام النفس الإنسانية والحفاظ عليها والتي كرّمها الله في موضع آخر من القرآن حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ثم يبيّن القرآن مبلغ الثواب لمن يحافظ على النفس الإنسانية **﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** أي ومن أحيا نفساً من غرق أو حرق أو هلكة أو دفاعاً عنها من القتل على أيدي المجرمين، أو من عفا عمن وجب له قتله فله من الثواب كإحياء الناس جميعاً. وفي هذا النص إشادة بالجسم الطبي ومكانته إذا اتخذ ذلك لخدمة الإنسانية مبتعداً عن ابتزاز الناس وإرهاقهم بالأجور العالية للإثراء العاجل، كما أن في ذلك دعوة لمحاربة المخدرات، تلك السموم القاتلة التي تفتك بالناس، والضرب بيد من حديد على مروجيها لأنهم يتسببون بقتل الناس.

هذه الآية التي نحن بصددها سُئل عنها الحسن رضي الله عنه حيث قيل له: أهي لنا ـ أي للمسلمين ـ كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: أي والذي لا إلّه غيره هي لنا كما كانت لبني إسرائيل، وما جَعَلَ اللَّهُ دماء بني إسرائيل أكرم من دمائنا.

وعلى ضوء حكم هذه الآية فليخش الذين يرتكبون قتل الأنفس بداعي الأخذ بالثأر أو بداعي المحافظة على الشرف، فليس للإنسان أن يقتص من أحد بيده، بل مرجع القصاص كله بيد الحاكم، فما كانت النفس الإنسانية عرضة لأهواء الناس وهدفاً لتنفيس غضبهم وظنونهم الآثمة.

ثم يختم الله هذه الآية بقوله: **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ﴾** أي ولقد أتت بني إسرائيل رسل من الله بالآيات الواضحة والحجج البينة على حقيقة ما أُرسلوا به إليهم، وصحة ما دعوهم إليه من أداء فرائض الله واحترام النفس الإنسانية **﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ**

لَمُسْرِفُونَ﴾ ولكن لم تنفعهم إرشادات رسل الله ولا هذّبت نفوسهم بل إن كثيراً منهم يسرفون في الأرض بالقتل وسائر ضروب البغي.

ومن يقرأ تاريخ بني إسرائيل يَرَ صفحاتٍ سوداء من الإجرام التي اقترفوها في حق الشعوب، وهذه أرض فلسطين تشهد أفظع المذابح والاضطهادات والإبادة للعرب بأيديهم الملطخة بالدماء.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

يحاربون الله ورسوله: هم قطاع الطرق الذي يخرجون عن طاعة الله ويخالفون أمره.

تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: أي تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس.

ينفوا من الأرض: يبعدوا أو يسجنوا.

خزي: ذل وفضيحة.

عقوبة قطاع الطرق

وبعد أن بيّن الله تعالى اعتداء أحد ابْنَيْ آدم على أخيه بالقتل ظلماً، وأن بعض النفوس يغلب عليها طابع الشر، ولا يردعها عن ذلك إلا القصاص العادل، لذا شرع الله بعض العقوبات في حق المجرمين لترهبهم وتحول بينهم وبين الإجرام، قال الله تعالى:

﴿إِنَّما جَزَاءُ الَّذِين يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَوَصْفُ المحاربين لله ورسوله يُطلق على الذين يحملون السلاح على الناس في مدينة أو قرية أو طريق أو خارج المدن بقصد الاعتداء على الناس بالقتل والسلب أو بِتَرْوِيعِهِم. ومحاربة الناس لله تعالى على وجه الحقيقة غير ممكنة لتنزهه عن أن يكون جسماً يقاتل، ولأن المحاربة تستلزم أن يكون كل من المتحاربين في جهة ومكان والله منزه أيضاً عن ذلك، كما أنه سبحانه لا يغالب، فيكون التعبير بمحاربة الله من نوع المجاز: أي الذين يحاربون شرع الله ودينه ويعتدون على أرواح الناس وأموالهم، وهؤلاء المحاربون لله ورسوله يُطلق على أفعالهم «جريمة قطاع الطرق» أو (جريمة المحاربة)[١]. والمغتال كالمحارب وهو أن يحتال في قتل إنسان ليأخذ ماله وإن لم يشهر السلاح بأن دخل عليه بيته أو صحبه في سفر فأطعمه سمًّا فقتله.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾ والسعي هو الحركة السريعة المستمرة، والفساد: ضد الصلاح، فالإخلال بالأمن والتعدي على الأنفس وسلب الأموال، والاتجار بالمخدرات وترويجها كل ذلك

(١) المحاربة: صيغة مفاعلة من الحرب ومعناها التعدي على الناس بالقتل وسلب أموالهم.

إفساد في الأرض، وجزاء هؤلاء المفسدين ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ والتقتيل هنا المراد به قتل المجرمين، وذكر التقتيل بصيغة التفعيل للمبالغة والتكثير في قتالهم وعدم الرأفة بهم ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ذكر الصلب أيضاً بصيغة التفعيل لتفيد التشديد في العقوبة، والصلب وهو وضع الجاني بعد قتله مشدوداً على مكان مرتفع تشهيراً به، وليكون عبرة لغيره من المجرمين وردعاً لهم عن ارتكاب الجرائم، ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل لمدة يوم واحد ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلاَفٍ﴾ أي لا تقطع الأيدي والأرجل من جانب واحد من الجسم، بل يكون القطع من جانبين مختلفين، فإذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى وتبقى بدون قطع اليد اليُسرى والرِّجل اليمنى، ومعنى من خلاف: أي من جانب خلاف الآخر ﴿أَو يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ والمراد نفيهم من الأرض التي اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتفرقوا ولا يجتمعوا على ذلك الشر الذي ارتكبوه، وفسر الإمام أبو حنيفة النفي بالحبس.

ولكن ما هو الحكم في هذه الآية وكيف ينفذ؟ هناك رأيان، الأول هو أن لفظ ﴿أَوْ﴾ الوارد في الآية للتفصيل في كيفية إيقاع العقوبة في الجاني، فإذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا نفوا من الأرض[١].

أما الرأي الثاني: فهو أن لفظ ﴿أَوْ﴾ الوارد في الآية هو للتخيير، أي أن الإمام مخير في أمر المحاربين فإن شاء قتل، وإن شاء صلب،

(١) هذا ما روي عن ابن عباس وهذا ما قال به الشافعي.

وإن شاء قطع الأيدي والأرجل وإن شاء نفى من الأرض، والتخيير هنا فيه إجازة مطلقة للإمام ليعالج الجريمة بما يراه أقرب إلى المصلحة العامة، ويقول الإمام مالك: أَسْتَحْسِنُ أن يأخذَ الحاكمُ في الذي لم يَقْتُل بأيسر العقاب ولا سيما إن لم يكن ذا شرور معروفة وأما إن قتل فلا بد من قتله ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك الذي ذكر من العقاب لأولئك المحاربين المفسدين هو لهم ذل وفضيحة في الدنيا ليكونوا عبرة لغيرهم من المفسدين ولهم في الآخرة مع الذل والفضيحة في الدنيا عذاب عظيم في جهنم.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي أن توبة قطاع الطرق قبل الظفر بهم تُسقط عنهم عقوبة المحاربة التي ذكرناها والتي هي من حدود الله[1]. أما ما يتعلق بحقوق العباد فلا يسقط عنهم بالتوبة قبل القدرة عليهم. وحقوق العباد هي ما شرعه الإسلام من القِصاص[2] من القاتل وجعل مصيره بيد ولي القتيل، فإما أن يطلب من الإمام قتله، أو يختار العفو عنه مع أخذ الدية أو العفو عنه مع التنازل عن الدية، كما أن من حقوق العباد أن يرد المحارب ما أخذ من أموال الناس ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إذا تاب

---

(١) جرائم الحدود هي التي شرع الله لها عقوبة مقدرة حقاً لله تعالى وهي: الزنا، والقذف، والسرقة، وقطع الطرق، وشرب الخمر. وجرائم الحدود يعود تنفيذ العقوبة فيها إلى الإمام، فليس فيها عفو، ولا إبراء، ولا شفاعة.

(٢) القِصاص في الشرع هو أن يحكم الإمام على الجاني من العقوبة مثل ما جنى وذلك في جرائم القتل والجروح التي اقترفت عن عمد، وتسقط عقوبة القصاص بعفو المجني عليه عن الجاني إن كان حياً، وبحال وفاته ينتقل حق القصاص إلى ورثة المجني عليه.

المحاربون وأقلعوا عن جرائمهم فإن الله يتجاوز عن سيئاتهم وهو سبحانه رؤوف رحيم بعباده.

هذه أحكام قطاع الطرق التي شرعها الله وقد يرى فيها البعضُ قسوة وشدة على المجرمين، ولكنهم لو أمعنوا النظر في أفعال قطاع الطرق وما ينشأ عنها من مآسٍ بحق الأبرياء وما يحصل من إخلال بالأمن لأقرّوا بعدالة عقوبات الإسلام في حق هؤلاء المجرمين، هذا وإن تطبيق العقوبة على أفراد قلائل فيه ردع للمجرمين عن تنفيذ إجرامهم بعد أن رأوا ما حل بغيرهم من العذاب.

وعقوبة الإسلام علاج لما يحصل حالياً في بعض دول أميركا الجنوبية وغيرها حيث تكثر العصابات المسلحة التي تسطو على البنوك وتعتدي على السكان جهاراً، ليلاً ونهاراً بقصد السلب والنهب، كما أنها تخطف النساء وتغتصبهن، وتتاجر بالمخدرات وتروجها في المجتمع، يفعلون ذلك ويستسهلونه لأن القوانين عندهم في حق المجرمين ليس فيها من شدة العقوبة ما يردعهم عن سوء أفعالهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ
ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ
مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ
ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

شرح المفردات

وابتغوا: واطلبوا.

الوسيلة: هي ما يتقرب به إلى الله من فعل الطاعات وترك المعاصي.

عذاب مقيم: عذاب دائم.

التقرّب إلى الله بالأعمال الصالحة

وبعد أن ذكر القرآن جزاء المحاربين لله ورسوله عقب على ذلك بدعوة المؤمنين إلى العمل بما يقربهم إلى الله سبحانه:

﴿يَاأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ النداء موجه للمؤمنين لأن مقتضى الإيمان أن يستجيب المؤمنون لما يدعوهم إليه ربهم. والأمر بتقوى الله يعني اتقاء سخطه وعقابه بطاعته واجتناب معاصيه، ولا شك أن النفس إذا اتجهت إلى تقوى الله تغلّب عليها جانب الصلاح على جانب الشر **﴿وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾** واطلبوا إليه الوسيلة لطاعته سبحانه، وطلب مرضاته، والتقرب إليه بترك المعاصي **﴿وَجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ﴾** وسبيل الله

هو طريق الهدى الذي دعا إليه سبحانه وتعالى والذي فيه صلاح الإنسان ودفع الفساد في الأرض، وإقرار العدالة والحق فيها. والجهاد: هو بذل أقصى الجهد في تحقيق تلك الغاية الإنسانية العليا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لعلّكم تفوزون برضاء الله، والحياة الطيبة التي لا يشوبها كدر.

والوسيلة ورد ذكرها في الحديث الشريف بأنها درجة في الجنة مختصة برسول الله محمد ﷺ حيث قال: «من قال حين يسمع النداءَ «أي الأذان»: اللّهم رَبَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[١].

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليَّ فإنه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلاّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة»[٢].

وابتغاء الوسيلة إلى الله استدل بعض الناس به على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى والعباد والقسم بهم بأن يقال: اللّهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا.. ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله الصالحين يا فلان، ادع الله تعالى أن

(١) أخرجه الجماعة إلا مسلماً.

(٢) أخرجه مسلم.

يرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة، وكل ذلك بعيد عن شرع الله حيث جاء في القرآن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وجاء في الحديث الشريف: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وتحقيق الكلام في هذا المقام: أن الاستعانة بمخلوق وجعله وسيلة ـ بمعنى طلب الدعاء منه ـ لا شك في جوازه إن كان المطلوب التوسل منه حياً. وأما إذا كان المطلوب منه التوسل ميتاً أو غائباً فلا يشك أي عالم في أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف الصالح، ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه طلب من ميت شيئاً.

وفي هذا الزمن نرى أن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله من الأولياء الأحياء منهم والأموات، وتضرعوا لهم على أعتاب أضرحتهم، وهذا ليس من التوسل المباح في شيء، وقد عدّه بعض العلماء شركاً بالله.

ويتابع القرآن فيوضح أن الله لا يقبل الفداء من الكفار عن العذاب في الآخرة:

﴿إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَا في الأَرْضِ جَميعاً﴾ أي أن الذين جحدوا وحدانية الله وأشركوا به وجحدوا ما جاءت به الرسل من عند الله، لو أنهم يملكون ما في الأرض جميعاً من أموال وزروع وكنوز **﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾** وملكوا مثلها معها **﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ﴾** أي لو بذلوا كل ما يملكون ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة الذي استحقوه بكفرهم **﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾** أي لما تقبل الله منهم ذلك

فداء لما هم فيه من العذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب شديد موجع.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ يتمنى هؤلاء الكفار أن يخرجوا من النار بعد أن ذاقوا ويلاتها ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ ولكن الحال أنهم ليسوا بخارجين منها أبداً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ولهم عذاب دائم يلازمهم ولا ينقطع عنهم.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا
نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ
ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

شرح المفردات

كسبا: عملا.

نكالاً لهما: عقاباً لهما يردعهما عن معاودة السرقة.

يتوب عليه: يقبل توبته.

عقوبة السرقة

وبعد أن بيّن القرآن عقوبة قطاع الطرق انتقل إلى بيان عقوبة السرقة التي تتم خفية عن العيون، قال تعالى:

﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهُما﴾ الخطاب موجه للحكام الذين يرجع إليهم تنفيذ العقوبات التي شرعها الله، أي فاقطعوا يد السارق من الرجال ويد السارقة من النساء. وقطع اليد يكون من مفصل الكف. ولكن ما حكم من يعاود السرقة؟ قال جمهور من الصحابة: «إذا سرق قُطعت يده اليمنى، فإن سرق بعد ذلك قُطِعَت رجله اليسرى، فإن سرق لم يُقطع وحبس» وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وصاحباه. وتقطع الرِّجل من المفصل الظاهر الذي يلي الكعب. فالله سبحانه أوجب قطع اليد ليمنعه من الأخذ والبطش بها، وأمر بقطع الرِّجل ليمنعه من المشي بها ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ أي ذلك القطع جزاء على فعلهما ﴿نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ عقوبة من الله على لصوصيتهما ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله هو القوي الغالب فلا يفوته المعتدون، حكيم فيما شرع من هذه العقوبة للقضاء على هذه الجريمة النكراء.

والسرقة هي أخذ المال على سبيل الاستخفاء دون طعن بسلاح أو تهديد به، أما إذا اقترنت السرقة بالتهديد بالسلاح فحينئذ يكون الحكم عليها حكم قاطع الطريق ويشترط في السرقة التي تستوجب العقوبة عدة شروط:

أولاً: أن يكون السارق عاقلاً بالغاً فالمجنون لا عقوبة عليه إذا سرق والصغير لا تقطع يده وإنما يضمن وليه قيمة المسروق مع تأديبه.

ثانياً: أن يأخذ السارق مال الغير الذي ليس له فيه أدنى ملك، أما إذا كان شريكاً وسرق من مال الشركة فلا يعتبر عمله سرقة وإنما يعتبر خيانة فتبدل عقوبة قطع اليد بعقوبة أخرى يراها القاضي مناسبة، وحكم القاضي يسمى عندئذ تعزيراً[١].

ثالثاً: أن يأخذ السارق مال الغير من حرزه المعد لحفظه (أي المحل المحفوظ به) فالمال الضائع من صاحبه، والثمر الذي يكون في الشجر بلا حائط أو سياج، والماشية التي لا راعي لها، والزرع المحصود ونحو ذلك فلا قطع فيها لليد ولكن يعزر الآخذ بعقوبة أخرى.

والحرز نوعان: حرز بالمكان وحرز بالحافظ.

فالحرز بالمكان هو كل بقعة معدّة لحفظ المال والمقتنيات وممنوع الدخول إليها إلا بإذن أصحابها كالمنازل والحوانيت وحظائر الماشية.

والحرز بالحافظ وضع المال تحت بصر من يقوم على حفظه، مثال ذلك شخص دخل محلاً تجارياً يتّجر صاحبه بالأقمشة والثياب فغافل صاحب المحل وسرق ثوباً من القماش فهذا الشخص السارق تقطع يده. كما أن النشال عليه عقوبة القطع.

رابعاً: أن لا تقل قيمة المسروق عن ربع دينار لقول النبي ﷺ «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار[٢] فصاعداً»[٣] كما أن للفقهاء آراء

(١) التعزير: هو التأديب بما يراه الحاكم زاجراً للمذنبين بما لم يرد به نص في العقوبة.
(٢) الدينار يساوي: ٤,٢٥ غرام ذهباً.
(٣) أخرجه مسلم.

أخرى في هذا الباب والحكمة في هذا التحديد هي أن الإسلام جعل سبب قطع اليد فيما له قيمة. أما ما دون ذلك فإنه لا يوجب قطع اليد لقلته بل تجب عليه عقوبة التعزير.

خامساً: أن لا تكون السرقة عن حاجة ملحة كالجوع الشديد ففي تلك الحالة يعدل عن عقاب السرقة إلى عقاب أخف وطأة، فإن عمر ابن الخطاب لم ينفذ قطع اليد في عام المجاعة.

سادساً: السرقة من الأقارب. يرى جمهور الفقهاء عدم قطع يد السارق إذا وقعت السرقة من الأصول على الفروع، فلا تقطع يد الأب إذا سرق مال ولده وإن سفل ـ أي ابن الابن ـ ويستوي في ذلك الأم والجد والجدة لأب أو لأم، وكذلك لا تقطع يد الفرع إذا سرق من الأصل فلا تقطع يد الولد إذا سرق من مال أبيه وإن علا كالجد، ولكن يعاقب بعقوبة أخف وطأة.

سابعاً: قال بعض الفقهاء: إنه لا قطع لليد في الأموال غير القابلة للادخار أي التي يتسارع إليها الفساد كاللحم والفاكهة الرطبة واللبن والخضر، كما اتفق الفقهاء على أن سرقة ما يحرم تناوله لا قطع فيها كسرقة الخمر أو لحم الخنزير.

وإذا اشترك جماعة في السرقة قطعت يد كل منهم إن بلغت حصته مما سرقوا ربع دينار.

وهناك أحكام أخرى في موضوع السرقة ذكرها الفقهاء يرجع إليها في كتب الفقه.

وعلى الحاكم أن يتثبت بعناية من واقعة السرقة وظروفها ودواعيها

وأن يعدل عن قطع يد السارق عند وجود شبهة لقول النبي ﷺ: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[١].

وتثبت السرقة بالبينة وبالإقرار، والبيّنة هي الأدلة الثابتة، والإقرار هو اعتراف المتهم بالذنب.

ثم يفتح الله أمام السارق باب التوبة ويحثه عليها بقوله:

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾ فمن تاب من بعد سرقته واعتدائه على أموال الناس ورَدّ ما سرقه وأصلح عمله واستقام **﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾** فإن الله يتقبل توبته **﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** إن الله واسع المغفرة والرحمة.

والتوبة قبل الترافع إلى القاضي إذا صحبها رد المسروق إلى مالكه تمنع إقامة الحد باتفاق الفقهاء، أما إذا كانت بعد الترافع وإثبات السرقة فلا بد من القطع وهذا ما قاله أبو حنيفة ومالك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم ـ أيها المكلف ـ أن الله تعالى له السلطان الكامل على السماوات والأرض وما فيهما من كائنات ومخلوقات **﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** أي يعذب الله من يشاء من خلقه في الدنيا بسبب معصيته إياه ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا لمن تاب من كفره ومعصيته إياه فينقذه

(١) أخرجه الترمذي والبيهقي في السنن.

من الهلكة ويُنَجِّيه من العقاب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله سبحانه عظيم القدرة على كل شيء.

قد يرى البعض أن في قطع يد السارق حكماً قاسياً، ولكن إذا تمعنّا في الأخطار التي تنجم عن السرقة لرأينا أن عقوبة الإسلام في حق السارق عادلة، وذلك لأن السرقة في حي أو قرية أو مدينة تروّع سكانها أجمعين وتفقدهم الأمن والطمأنينة، كما أن السرقة لا تخلو من أخطار، فقد يرتكب السارق جريمة قتل إذا شعر أن صاحب المنزل أحس به فيقدم على قتله. والتخلص منه حتى لا يقع في قبضته.

وعقوبة السرقة في القوانين الوضعية لا تزجر السارقين، بل تراهم يعاودون السرقة مرات عديدة حتى ضاقت بهم السجون.

فاللص حين يقدم على جريمته هو مطمئن إلى أن أقصى ما سَيَتَعَرَّض له إن وقع في أيدي رجال الأمن هو السجن شهوراً أو سنوات قلائل، وهذا لا يوازي ما جمعه في سرقته من مال حرام، يوفر له حياة مترفة بعد خروجه من السجن.

فتطبيق عقوبة الإسلام بقطع يد السارق ترهب المجرمين من الإقدام على السرقة أو تحول بين السارق وبين معاودة السرقة لأن قطع يده يشل حركته ويمنعه من السرقة بسهولة. كما أن عقوبة قطع اليد للسارق تلحق العار والفضيحة بصاحبها مدى الحياة، إذ إن المجتمع يتأبى ذلك الشخص وينظر إليه نظرة احتقار وإذلال له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ
مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ
إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ
ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ
وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ
لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ
أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ
حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ
﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ
يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

شرح المفردات

يسارعون في الكفر: يقعون فيه بسرعة ورغبة.

ولم تؤمن قلوبهم: هم المنافقون.

هادوا: أي اليهود.

يحرفون الكلم من بعد مواضعه: يؤولون الكلام في التوراة على غير تأويله.

ومن يرد الله فتنته: أي من يرد الله إضلاله أو عذابه.

خزي: إهانة وفضيحة.

أكّالون للسحت: أي كثيرو الأكل للمال الحرام كالربا والرشوة ونحوهما.

بالقسط: بالعدل.

يتولون: يعرضون عن حكم الرسول.

من صفات اليهود والمنافقين

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام على المنافقين واليهود الذين تجمعهم صفة الكفر والكذب مبيناً ما عليه اليهود خاصة من ضلال وتحريف لكتاب الله:

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِين يُسَارِعُون في الكُفْرِ﴾ وفي نداء الله للنبي محمد بقوله: **﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾** زيادة تشريف له وتعظيم لأن تبليغ الرسالة الإلهية أخص وأشمل من النبوة. والمسارعة في الشيء: الوقوع فيه بسرعة ورغبة. والمعنى: لا تحزن يا محمد على الذين يتهافتون على الكفر والإسراع فيه **﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِين هَادُوا﴾** فهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تصدق به قلوبهم هم المنافقون. والذين هادوا: هم اليهود، أي أن المسارعين في الكفر فريقان: فريق المنافقين وفريق اليهود **﴿سَمَّاعُونَ لِلكَذِبِ﴾** وسمّاع: صيغة مبالغة من سامع، أي يسمعون الكذب كثيراً سماع قبول، وذلك الكذب الذي يقبلونه هو ما يقوله رؤساؤهم من الأكاذيب في دين الله في تحريف التوراة وفي الطعن في النبي محمد ﷺ. وهذه الصفة تحتمل أن تكون صفة للمنافقين ولبني إسرائيل لأنهم جميعهم يسمعون الكذب بعضهم من بعض ويقبلونه **﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ**

﴿آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي أنهم أيضاً أعين وجواسيس لقوم آخرين كانوا لا يحضرون مجلسك يا محمد تكبّراً وعناداً لكي ينقلوا إليهم أخبارك عن كذب وافتراء **﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ﴾** صفة لليهود فيما حرفوا من التوراة **﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾** أي من بعد استقرار مواضعه وبيان الحلال والحرام منه، والتحريف يكون على ضروب شتى فيكون إما بتغيير الألفاظ والزيادة والنقص فيها، وإما بتفسير الكلام بغير ما تدل عليه الألفاظ، وتوجيه المعاني إلى غير مقاصدها، واليهود حرفوا التوراة بكل أنواع التحريفات. وهذه الآيات هنا روي أنها نزلت في اليهود حين جاءوا إلى رسول الله فقالوا له: إن رجلاً منا وامرأة زنيا ـ وكانا مُحْصَنَيْنِ ـ فقال لهم رسول الله: ما تجدون في التوراة؟ ـ أي عقوبة لهما ـ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية فأتوا بالتوراة، فأتَوْا بها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فَرُجِما.

ثم يبين القرآن غاية اليهود من طلبهم الفتيا من رسول الله في شأن الرجل الذي زنى بعد إحصانه بامرأة من اليهود قد أحصنت:

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُم هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا﴾ أي يقولون لمن أرسلوهم إلى رسول الله ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا: إن أفتاكم محمد بالجلد لهما عوضاً عن الرجم فخذوا هذا الحكم وارضوا به، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك والرضا به،

ولكن رسول الله أفتى برجم الزانيين بعد أن تبين له أن التوراة تحكم برجم الزاني المحصن، والرجم هو قذف الزاني المحصن بالحجارة حتى الموت ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ الفتنة: من معانيها العذاب والضلال والاختبار، والمعنى: من يرد الله أن يعذبه لكفره وضلاله، أو من يرد الله أن يحكم بضلاله لسوء أفعاله، أو من تعلقت إرادة الله بأن يختبره في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شيئاً﴾ فلن تستطيع يا محمد دفع ذلك عنه وإنقاذه مما هو فيه لأنك لا تملك له من الله شيئاً في دفع العذاب عنه ﴿أُولَئِكَ الَّذِين لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ هؤلاء الذين اتصفوا بالنفاق والكذب وتحريف كتاب الله لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر وخبث الضلاله بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان، فقد طغى الشر على قلوبهم حتى حجب عنها نور الهداية ﴿لَهُمْ في الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الخزي: هو الإهانة والفضيحة، فخزي المنافقين هو افتضاح نفاقهم وازدياد غمهم حين يرون انتشار الإسلام وانتصاره على أعدائه، وخزي اليهود بالذل وظهور كذبهم في كتمان ما في التوراة وإجلائهم عن ديارهم ﴿وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في نار جهنم.

ثم خص القرآن اليهود بهذا الوصف: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وقد كرر هذا الوصف في حقهم تأكيداً لما قبله، فاليهود كثيرو سماع الكذب من أحبارهم ورؤسائهم الذين يلقون إليهم الأكاذيب التي افتروها ﴿أَكَّالُونَ للسُّحْتِ﴾ أكالون صيغة مبالغة من الأكل أي كثيرو الأكل، والسحت: هو المال الذي يُكتسب من وجه حرام كالربا والرشوة.

والسحت في اللغة أصله الهلاك والشدة، وسمي المال الحرام سُحتاً لأنه يَسحت الطاعات أي يذهبها ويستأصلها، وقيل: سمي الحرام سُحتاً لأنه يسحت مروءة الإنسان وفضائله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رشوة الحاكم من السحت. وقيل من السحت أن يأكل الرجل بجاهه وذلك أن يكون له جاه عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها. وقال أبو حنيفة: إذا ارتشى الحاكم انعزل في الوقت وبطل كل حُكْمٍ حَكَمَ به بعد ذلك ـ فاليهود كثيرو الأكل للمال الحرام كالربا والرشوة في الحكم والشهادة وأخذ الأجور في الشفاعات.

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أو أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ظاهر هذا النص أن النبي ﷺ مخير في أن يحكم بين أهل الكتاب أو أن يعرض عنهم، وقال بعض الصحابة والتابعين: إن هذا الحكم منسوخ بقوله تعالى: **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾** [المائدة: ٤٩].

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: **﴿فَإِن جَاؤوكَ فَاحْكُمْ بينَهُم أو أعْرِضْ عَنْهُمْ﴾** قبل أن تعقد لهم الذمة ويدخلوا تحت أحكام الإسلام بالجزية، فلما أمر الله بأخذ الجزية منهم وجرت عليهم أحكام الإسلام أُمر بالحكم بينهم بما أنزل الله فيكون حكم الآيتين جميعاً ثابتاً: التخيير في أهل العهد الذين لا ذمة لهم ولم يجر عليهم أحكام المسلمين كأهل الحرب إذا هادنّاهم، وإيجاب الحكم بما أنزل الله في أهل الذمة الذين تجري عليهم أحكام الإسلام. ولهذا قال الشافعية: «إن أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا وجب على الحاكم المسلم أن يحكم

بينهم بما أنزل الله، وأما المعاهدون فلا يجب عليه ذلك إن تحاكموا إلينا، بل هو مخير بين الحكم بينهم وبين الإعراض عنهم»[١].

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُم فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيئاً﴾ وإن تُعرض ـ أيها النبي ـ عن الحكم بينهم فلن يقدروا على الإضرار بك، فأولئك الذين أرادوا من النبي ﷺ أن يصدر الحكم تبعاً لهواهم لا للحق في ذاته شعروا بخيبة أمل عندما حكم النبي خلاف ما يأكلون، فأضمروا السوء للنبي وأثاروا الإشاعات الباطلة في حقه، ولكن الله طمأنه بأنه حاميه وأنهم لا يستطيعون إلحاق الضرر به ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالقِسْطِ﴾ وإن اخترت الحكم بينهم يا محمد فاحكم بينهم بالعدل، فالعدل هو شعار الحكم في الإسلام حتى مع اليهود الذين يضمرون السوء للنبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾ أكد القرآن على مراعاة العدل في الحكم بـ(إن) المؤكدة، وبيان أن محبة الله لا تكون إلا للعادلين، فتأمل حرص الإسلام على إقامة العدل حتى مع الخصم.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ الاستفهام هنا للتعجب ولإنكار حالهم. فاليهود يتحاكمون إلى النبي ﷺ في شأن الزاني المحصن مع أن الحكم عندهم في التوراة صريح لا مجال للريب فيه، فلماذا يعدلون عن تنفيذ ما عندهم من الحكم في شأن الزاني والزانية إلى الطلب من النبي ﷺ أن يحكم بينهم؟ إنهم يريدون المخرج وتخفيف عقوبة الرجم بعقوبة أخف ويجعلون من حكم النبي

---

(١) وهذا الحكم يسري على الأجانب الذين هم في بلاد الإسلام.

ﷺ حجة لهم في ذلك، ولكن النبي ﷺ حَكَمَ برجم الزانيين المحصنين كما جاء في التوراة. وفي قوله تعالى: **﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾** ليس معناه تصديقاً للتوراة بمجملها، بل بتلك الجزئية الخاصة برجم الزاني، لأن القرآن حكم على اليهود بأنهم نسوا نصيباً مما وُعظوا به، وحَرَّفوا كلام الله عن مواضعه، ولا شك أن التحريف لم يتناول التوراة كلها، بل لا يزال فيها بعض الأحكام التي أُنزلت على موسى **﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** أي ثم يعرض اليهود عن الحق من بعد حكمك به وهو الموافق لما في التوراة **﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** وما أولئك اليهود بالمؤمنين بما في التوراة لإعراضهم عن اتباعها، وعن اتباع حكمك يا محمد.

وفي الآية دليل على أن التولي عن حكم الله يخرج صاحبه من حظيرة الإيمان.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ
ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا
ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا
تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ
وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾
وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ
وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ
قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ
يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

شرح المفردات

هادوا: أي اليهود.

الربانيون: هم العلماء الراسخون في علوم الدين وهم علماء النصارى.

الأحبار: هم علماء اليهود.

استحفظوا: استودعوا وائتمنوا عليه.

شهداء: رقباء يحمونه من التغيير والتبديل.

قِصاص: القِصاص هو عقاب الجاني بمثل ما جنى.

تصدّق به: عفا عن الجاني.

كفارة له: محو لذنوبه وعَفْوٌ عنها.

الدعوة إلى الحكم بما شرعه الله

وبعد أن وصف القرآن سابقاً بأن التوراة فيها حكم الله، استأنف الثناء عليها وعلى الأنبياء الذين حكموا بموجبها وساروا على هديها قبل أن يطرأ التغيير عليها:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنورٌ﴾ وصف الله التوراة بأنه أنزلها وحياً من عنده، وأنها اشتملت على الأحكام التي تهدي الناس إلى سبيل الله، وأنها نور لما تشتمل عليه من المواعظ والأخلاق الكريمة **﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾** أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهم السلام، ووصف الله هؤلاء الأنبياء بقوله **﴿الذين أسْلموا﴾** أي الذين انقادوا وخضعوا لأوامر الله الورادة في التوراة. وقد يكون المراد بقوله **﴿الذين أسلموا﴾** ردًّا على اليهود والنصارى لأن بعضهم كانوا يقولون: الأنبياء كلهم يهود أو نصارى، فبيّن الله أن الأنبياء كانوا مسلمين بمعنى الخضوع لله والانقياد لتكاليفه بهذه الصفة لا بصفة أخرى **﴿لِلّذين هَادُوا﴾** أي يحكم بالتوراة النبيون لليهود خاصة وذلك بإجراء أحكامها عليهم **﴿والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ﴾** والربانيون هم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس والقيام بمصالحهم. والأحبار هم فقهاء اليهود وعلماؤهم، أي ويحكم بكتاب الله الربانيون والأحبار بما استودعوا من علمه. وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه على وجهين: أحدهما، أن يحفظوه في صدورهم فلا ينسوه، وأن يحافظوا عليه من التغيير والتبديل. والثاني، ألاّ يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه **﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ﴾** وكان هؤلاء النبيون وعلماء التوراة شهداء بأن كل ما

فيها حق وصدق، أو رقباء يحمونها من أن يطرأ عليها التغيير والتبديل. وقد سئل أحد العلماء: لِمَ جاز التبديل والتغيير على أهل التوراة، ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم ولكنهم ضيعوا ما طلب منهم بينما قال الله سبحانه في شأن القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فتعهد الله بحفظ القرآن فلم يجرِ عليه التحريف والتبديل.

﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ والخشية: هي خوف يشوبه تعظيم. هنا خطاب لِرُؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة دون العبارة.

والمعنى: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي فإنهم لا يقدرون أن يلحقوا بكم ضراً ولا نفعاً إلا بإذني، ولكن اخشوني فقط دون سائر خلقي فإن النفع والضُّرَّ بيدي ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ والاشتراء معناه: الاستبدال، أي لا تستبدلوا بأحكام آياتي التي اشتملت عليها التوراة أحكاماً أخرى تخالفها، إرضاء للحكام أو رشوة من الأغنياء مقابل ثمن قليل من شهوات الدنيا كَمَالٍ تحصلون عليه أو جاهٍ تصلون إليه ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ ظاهر هذا الحكم هو العموم فيشمل هذه الأمة ـ أي أمة الإسلام ـ وغيرها من الملل التي كانت قبلها وإن كان الظاهر أنه في سياق خطاب اليهود. وقال الحسن: نزلت هذه الآية في اليهود وهي علينا واجبة. فالآية متناولة كل من لا يحكم بما أنزل الله ولكنه في أُمَراء أُمّة الإسلام كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان. ويقول ابن

عباس: من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أَقَرّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. ويقول الزمخشري في تفسيره: «من لم يحكم بما أنزل الله مُستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون».

أما الذي لا يحكم بحكم الله مع إقراره واعترافه به فإنه لا يصل في عصيانه وفسقه إلى درجة الكفر، بل هو كفر دون كفر، أي أن كفر المسلم ليس مثل كفر الكافر.

ثم بين الله ما اشتملت عليه التوراة من بعض الأحكام التي فرضها الله على اليهود ولم يأخذوا بها، حيث كانوا يفرقون بين القوي والضعيف في القِصاص، قال تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ أي وفرضنا على اليهود في التوراة أن النفس الجانية تقتل مقابل النفس المقتولة، فلا تفاضل بين نفس الغني ونفس الفقير، ولا بين نفس الأمير ونفس الوضيع ﴿**والعَيْنَ بِالْعَيْنِ**﴾ أي وأن عين الجاني تفقأ مقابل عين الغير التي فقأها ﴿**وَالأنْفَ بِالأنْفِ**﴾ وأن أنف الجاني يقطع بالأنف الذي قطعه ﴿**والأُذُنَ بِالأُذُنِ**﴾ وأن أذن الجاني تقطع مقابل الأُذن التي قطعها ﴿**والسِّنَّ بِالسِّنِّ**﴾ وأن سن الجاني تقلع مقابل السن التي قلعها بالعدوان عليه ﴿**والجُروحَ قِصَاصٌ**﴾ القِصاص: المماثلة، أي عقوبة الجاني بجراح المجني عليه أن يُجرح مثل الجرح الذي جنى به إذا أمكن ذلك، وفي الموضع الذي كان فيه الجرح. ولا شك أن القصاص هو الأردع للجناة، فإن من يعرف أنه إن شج رأس سواه عوقب بشج رأسه لا يقدم على أذى غيره بل يتردد، وكلما كانت العقوبة من جنس الجريمة كانت أشد زجراً وتأثيراً.

وكل ما ذكرناه من الجنايات المقصود منه ما كان عن عمد، أما ما

كان عن خطأ فلم تتعرض له الآية، ولكن فيها دفع الدية للمجنى عليه.

وفائدة الإعلام بما شرع الله لبني إسرائيل في القِصاص توبيخهم لمخالفتهم أحكام دينهم وذلك أن اليهود في المدينة المنورة كانت بينهم نزاعات وحروب وبالأخص بين بني النضير وبني قريظة، فاشترط بنو النضير على بني قريظة أن دية النضيري هي ضعف دية القرظي، وعلى أن القرظي يقتل بالنضيري، ولا يُقتل النضيري بالقرظي الذي قتله.

ثم تعقب الآية على هذه الأحكام: **﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾** أي إذا عفا المجني عليه عن الجاني ولم يطلب من الحاكم القصاص منه **﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾** فهو سبب في تغطية ذنوبه والعفو عنها، كما أنه مُذهب للعقاب في الآخرة، وقد سمى الله العفو عن الجاني صدقةً لأنه كالعطية له، ولا شك أن العفو في هذا المجال فيه تأليف للقلوب وإزالة للبغضاء من النفوس.

ونلفت النظر إلى أن العفو عن الجاني لا يسقط حق المجتمع، فللقاضي أن يحكم بتعزيره إذا عفا المجني عليه عن الجاني، والتعزير هو عقوبة غير محددة يحكم بها القاضي على الجاني حسب الظروف التي اقترف بها الجرم.

يقول ابن كثير: «استدل كثير ممن ذهب مِنَ الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقرراً ولم ينسخ.. والحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة»[١]. وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

ويختم الله آية القصاص بقوله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** أي أن الحكام الذين لا يُطَبّقون هذه الأحكام يكونون موصوفين بالظلم لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله الذي فيه العدالة والرحمة للخلق، والظلم يطلق على الكفر فيكون هذا مؤكداً لما جاء في الآية السابقة **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾**.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

شرح المفردات

وقفَّينا على آثارهم بعيسى: أي جعلناه يقفو آثار النبيين ويتّبعهم.

الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله.

الإنجيل فيه هدى ونور

وبعد أن بيّن الله صفات اليهود أتبع ذلك بالحديث عن عيسى عليه السلام وعن الإنجيل الذي أنزله عليه، قال تعالى:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثارهم بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾ أي وأرسلنا من بعد الذين حكموا بالتوراة من النبيين كموسى وداود وسليمان وغيرهم بعيسى ابن مريم مقتفياً آثارهم. وفي ذكر عيسى مقروناً بكلمة ابن مريم إشارة إلى أنه مُحْدَثٌ ككل المحدَثات وأنه مخلوق بعد أن لم يكن وأن نسبه يعود لأمّه مريم فليس له أب، وأنه ليس ابن الله كما يقول النصارى ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي مؤيداً للتوراة التي أنزلها سبحانه على موسى عليه السلام، غير مخالف لما فيها، وكان العمل بها واجباً ما لم ينسخه الإنجيل من أحكامها ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ﴾ وأنزل الله على عيسى كتاباً اسمه الإنجيل وهو في نظر المسلمين غير الأناجيل الأربعة التي تروي سيرة حياته وجملة من أقواله، لأن الله صرّح أنه أنزل على رسوله عيسى إنجيلاً بصيغة المفرد، كما أن أوصاف الإنجيل التي ذكرها القرآن لا تتطابق كلياً مع الأناجيل الموجودة في هذا الزمن إذ أنكر ما فيها من إثبات الألوهية لعيسى عليه السلام ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ والإنجيل اشتمل على الهدى، وما جهله الناس من حكم الله في زمن عيسى، كما أن في الإنجيل نوراً يستضاء به لتمييز الحق من الباطل ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ كما أن الإنجيل مُصدّق لما كان قبله من التوراة.

ويلاحظ أن تكرار جملة ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ جاء لمعنيين مختلفين، الأول: أن المسيح يصدّق بالتوراة، والثاني: أن الإنجيل مصدّق بالتوراة، وتلاقي التصديقين يفيد إقرار أكثر أحكام التوراة، فالإنجيل قد جاء بشريعة متممة لما جاء في التوراة من غير نقض لها ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما جعل الله الإنجيل هدىً

يُهتدى به وموعظة لمن اتقى الله بطاعته وترك ما نهاه عنه، والمتقون هم الذين يستفيدون من إرشادات الإنجيل دون ما سواهم.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أمر الله النصارى أن ينفّذوا الأحكام الواردة في الإنجيل، وأهل الإنجيل هُمُ الّذين آمنوا بالمسيح وكتابه الذي أنزله الله عليه فالعمل واجب بشريعة الإنجيل قبل البعثة المحمدية، فلما جاء محمد ﷺ بشريعة الإسلام صار العمل بها هو المطلوب لأن شريعة الإسلام تنسخ ما قبلها من الشرائع وهي الشريعة المقبولة عند الله، وقد جاء في القرآن **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾** [آل عمران: ٨٥].

ومن جملة الحكم بما أنزل الله في الإنجيل أن يؤمنوا بنبوة محمد ورسالته ويتبعوا شريعته، لأن الإنجيل معناه البشارة، وقد بشر الإنجيل بمجيء محمد ﷺ رسولاً من الله بعد المسيح عليه السلام فإذا آمن النصارى برسالة محمد واتبعوه يكونون قد حكموا بما أنزل الله في الإنجيل **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾** أي ومن لم يحكم بما أنزل الله في الإنجيل ولم يتّبع ما ورد فيه من البشارة بمجيء الرسول محمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام فقد خالَفَ أوامر الله فاستحقّ أن يكون من الفاسقين أي الخارجين عن طاعة الله وهديه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم
بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن
يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ
حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

شرح المفردات

وأنزلنا إليك الكتاب: وأنزلنا إليك يا محمد القرآن.

مصدّقاً لِمَا بين يديه مِن الكتَابِ: مصدقاً لما تقدّمه من الكتب السماوية.

مهيمناً عليه: مسيطراً ورقيباً على ما سبقه من الكتب السماوية.

شِرْعةً ومنهاجاً: شريعة وطريقاً واضحاً في الدين.

ليبلوكم: ليختبركم.

فاستبقوا الخيرات: فسارعوا إليها وليسبق كل منكم غيره إلى فعلها.

أن يفتنوك: أن يصرفوك ويصدوك عما أُوحي إليك.

فإن تولوا: فإن أعرضوا.

الجاهلية: العصر الذي سبق الإسلام.

يوقنون: يؤمنون إيماناً راسخاً.

القرآن مهيمنٌ على الكتب السماوية

وبعد أن أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام، ودعا إلى اتباعهما، جاء الكلام عن القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ والعلاقة التي تربطه بتلك الكتب السماوية:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ[(١)] بِالحَقِّ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن قائماً بالحق **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ[(٢)]﴾** مُصَدِّقاً لما تقدّمه من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله قبل تحريفها، ومؤيداً ما اشتملت عليه من الدعوة إلى طاعة الله والعمل الصالح. وفي هذا إشعار بوحدة الرسالات الإلهية وأن محمداً ليس بدعاً من الرسل، بل هو متمم لما جاء به رسل الله وهو خاتمهم **﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾** أي مسيطراً ورقيباً على سائر الكتب السماوية السابقة، يشهد بما فيها من الحقائق، ويبين ما صنعه المحرفون فيها من تغيير وتبديل وزيادة ونقصان، فيقر حقائقها ويبيّن أباطيلها **﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** فاحكم يا محمد بين أهل الكتاب بموجب الحق الذي أنزله عليك من القرآن الكريم **﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾** أي ولا تتبع في حكمك شهواتهم ورغباتهم فتنحرف عما جاءك من عند الله من الحق، والضمير في قوله تعالى **﴿أَهْوَاءَهُم﴾** يعود إلى اليهود الذين

---

(١) الكتاب: (أل) الداخلة على الكتاب هي للعهد أي الكتاب المعهود المعروف وهو القرآن.

(٢) الكتاب: (أل) هنا الداخلة على الكتاب هي للجنس أي جنس الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبل محمد ﷺ.

تحاكموا إلى النبي ﷺ وأرادوا أن يحكموا بما لم ينزل من عند الله في قضية الرجم للزانيين، مع أن الحكم عندهم في التوراة التي بأيديهم منصوص عليه ولم ينسخه القرآن ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾ الخطاب هنا لليهود والنصارى والمسلمين ممن نزل عليهم شريعة من عند الله. والشِّرعة: المراد بها الشريعة، وهي ما أنزله الله من أحكام تكليفية على رُسله يجب العمل بها. والمنهاج: هو الطريق الواضح لتنفيذها وإقامة أحكامها. والمعنى: جعل الله لكل أمة منكم أيها المسلمون واليهود والنصارى شريعة تُنَاسِبُ أحوالكم.

وهنا يرد سؤال: بما أن الرسالة الإلَهية واحدة فكيف حصل اختلاف الشرائع؟ الجواب على ذلك: أن الوحدة التي تجمع بين الرسالات الإلَهية هي ما يتعلق بالعقيدة، من إيمان بوحدانية الله والإخلاص له وعبادته وحده، والإيمان باليوم الآخر وما يجري فيه من حساب وثواب وعقاب. أما الشريعة التي خص الله بها كل نبي فهي تختلف من نبي إلى آخر من تحليل وتحريم، أو تكون مؤيدة لما قبلها وناسخة لبعض أحكامها، هذا مع العلم أن الشرائع وطرق تطهير النفس من الآثام تختلف من أمة إلى أخرى فقد يشدّد الله في الأحكام على بعض الأقوام بسبب قلوبهم القاسية، ويخفف الأحكام عن قوم آخرين لطيب عنصرهم ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً**﴾ أي لو شاء الله تعالى أن يجعلكم أيها الناس أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد لفعل ذلك بأن يخلقكم على استعداد واحد وطبيعة واحدة ﴿**وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ ولكن مشيئة الله أرادت أن تجعلكم أمماً متعددة ليختبركم الله فيما آتاكم من الشرائع، ومدى امتثالكم لأحكامها، وليتبيّن المحسن

منكم من المسيء ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ أي فليسبق كل منكم إلى الخيرات، وتنافسوا في تحصيلها للتقرب إلى ربكم ونيل رضاه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ فإن مصيركم جميعاً بعد مماتكم إلى الله وحده ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم فِيه تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم الله يوم القيامة بما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين، ويجزيكم على ما فعلتموه من خير أو شر.

﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي فَاحْكُم يا محمد بين اليهود بحكم الله الذي أنزله إليك في القرآن، ولا تتّبع رغباتهم وأهواءهم في الحكم بينهم بغير شريعة الله. هذا النص القرآني وما بعده روي في أسباب نزوله أن بعض أحبار اليهود تحدثوا فيما بينهم قائلين: اذهبوا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم فنؤمن لك ونصدقك... فأبى رسول الله أن يفعل ما طلبوا فأنزل الله الآية ﴿وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ إلى قوله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَاحْذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوا محتكمين إليك أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من أحكام كتابه ـ أي القرآن ـ فيحملوك على ترك العمل به ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي فإن أعرض هؤلاء اليهود عن حكمك يا محمد بعد تحاكمهم إليك فتركوا العمل بما حكمت به، فاعلم أنّما يريد الله أن

يتعجّل في عقوبتهم في الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم.

ومن هذا العقاب الإلٓهي ما حصل ليهود بني النضير حيث أجلاهم رسول الله عن ديارهم حين علم أنهم يدبرون أمراً للكيد به، وحكم رسول الله بالموت على يهود بني قريظة بسبب خيانتهم له وانضمامهم إلى أعدائه في معركة الأحزاب. فالآية فيها تهديد ووعيد للذين يعرضون عن الأحكام التي جاء بها القرآن، وأن ذلك من الذنوب التي يعاقب الله عليها في الدنيا قبل الآخرة، لأن الأمة التي لا تخضع لأحكام شرع الله وتنقاد إلى لذائذها وشهواتها وأهوائها الباطلة لا بد أن يصيبها عقاب الله على ما اقترفت من آثام، ثم ختم الله الآية بقوله **﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾** وإن كثيراً من اليهود لتاركوا العمل بكتاب الله وخارجون عن طاعته إلى معصيته.

﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، أي أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود[1]؟ والجاهلية: هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه والجهل بشرائع الدين والكِبْر والتجبّر وتسلط الأقوياء على الضعفاء.

فالقرآن ينكر على اليهود الذين يريدون بأن يحكموا بأحكام الجاهلية التي تقوم على الظلم ولا تستند إلى حق أو عدالة **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ**

---

(١) روي أن بني النضير لمّا تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في خصومة قتيل وقعت بينهم وبين قريظة طلب بعضهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل فقال النبي: (القتلى سواء) أي متساوون. فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بحكمك. وكان بنو النضير يأخذون في الديات ضعف ما يجب لبني قريظة.

اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي لا أحد أحسن حُكماً من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويذعنون للحق الذي جاء به، إنهم هم الذين يدركون حُسْنَ أحكام الله وعدالتها لأنها تُسَوّي بين الناس كافة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

شرح المفردات

أولياء: نصراء وأصدقاء.

في قلوبهم مرض: أي نفاق.

تصيبنا دائرة: يدور علينا الدهر بنوائبه.

بالفتح: أي بالنصر لرسول الله محمد ﷺ.

ما أسرّوا: ما أخفوا.

جهد أيْمانهم: مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها.

حبطت أعمالهم: بطلت وضاعت أعمالهم سدى فلا ثواب لهم.

موقف الإسلام من أهل الكتاب

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه المؤمنين إلى الاحتراز من اليهود والنصارى الذين كان الكثير منهم أعداء للإسلام في زمن بعثة النبي ﷺ:

﴿يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ فالله سبحانه يأمر المؤمنين بأن لا يتخذوا اليهود والنَّصارى حلفاء ونصراء بعدما ظهرت عداوتهم لله ورسوله وللمؤمنين.

وفي أسباب نزول الآية أنه لما كانت غزوة أُحُد اشتد الخوف لدى طائفة من المسلمين وتخوفوا من أن يتغلب الكفار عليهم، فقال رجل لصاحبه: أما أنا فألحق بفلان اليهودي فآخذ منه أماناً وأتهوّد معه، وقال الآخر: أما أنا فألحق بفلان النصراني ببعض أرض الشام فآخذ منه أماناً وأتنصّر معه.

وقيل: المقصود بذلك عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبيّ بن سلول حيث تبرأ عبادة بن الصامت من حلف اليهود بينما تمسك عبد الله بن أبيّ رئيس المنافقين بحلف اليهود.

ويتابع القرآن قوله: **﴿بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾** أي أن اليهود بعضهم أنصار بعض على المؤمنين ويد واحدة عليهم، وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم﴾** أي ومن يتولّ اليهود والنصارى ويستنصر بهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملّتهم فإنه لا يتولى أحد غيره إلا وهو راضٍ عنه وعن دينه **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** إن الله لا يوفق من وضع

الولاية في غير موضعها فاستنصر باليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله.

فالنهي عن الولاية لهم كانت من أجل العداوة التي كانوا يضمرونها للإسلام والمسلمين لا لأجل الاختلاف في الدين لذاته، فإن النبي ﷺ لما وصل إلى المدينة المنورة كتب كتاباً آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وأن بينهم النصر على من حاربهم، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وأن النصر للمظلوم، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. ولم يتصد النبي ﷺ لحربهم إلا بعد أن غدروا به وانضموا إلى أعدائه.

هذا وإن الإسلام يتعايش مع اليهود والنصارى ويأمر أهله بأن يفعلوا الخير لهم، ويعاملوهم بالعدل والإنصاف إذا لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم، كما جاء في الآية الكريمة التالية التي تحدد سلوك المؤمنين بالنسبة لغيرهم من الملل ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

كما أن الإسلام أباح الأكل من ذبائح اليهود والنصارى إذا كانت من حيوانات مباح أكلها، والتزوج من نسائهم، والمؤاكلة والمصاهرة تدعو إلى التقارب وحسن المعاشرة والمودة.

وعلى هذا التوجيه الرباني فالذين يعيشون من أهل الديانات مع المسلمين في وطن واحد لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من أمور الدنيا، يتناصرون فيما بينهم على أعدائهم ويتوادون، ولا يشهرون

العداوة والبغضاء في وجوههم.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى متابعة الآية السابقة:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ وصف الله المنافقين بمرضى القلوب، والقلوب تصاب بالأمراض النفسية كما تُصاب بالأمراض الجسدية، وأمراض القلوب النفسية هي الكذب والغدر والخيانة وغيرها من الصفات الذميمة. فهؤلاء المنافقون يسارعون في مودة اليهود ونصارى نجران لأنهم كانوا أهل ثروة وكانوا يعينونهم بالرغم من عدائهم للمسلمين **﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾** والدائرة: هي الهزيمة والسوء ومكاره الدهر، أي يقول هؤلاء المنافقون نخشى أن يظفر الكفار بمحمد فيحل بنا ما يحل بالمؤمنين من الاضطهاد، ذلك بأنهم كانوا غير موقنين بوعد الله بنصرة رسوله، لأنهم كانوا في شك من أمر نبوته، لهذا اتخذوا لهم يداً عند أعداء الإسلام ليكونوا في مأمن إذا أصاب الإسلام سوء، وهذا هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فهم الطابور الخامس الذي يطعن الأمة في ظهرها **﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾** هذا رد على المنافقين فيما وقع في قلوبهم من الخشية للأعداء، وعسى: لفظ يدل على الرجاء في الحصول على مرغوب وإذا صدر لفظ (عسى) من الله كان متحقق الوقوع لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله، فما بالك بأكرم الأكرمين. والفتح: من معانيه الفصل بين الحق والباطل، وكذا الظفر والنصر على الأعداء، فالله وعد المؤمنين بالنصر وهو سبحانه سينجز وعده **﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾** وهذا الأمر هو بنصر المسلمين وتبدّل حالهم من الضيق إلى السعة في العيش بعد الاستيلاء على أموال أعدائهم وممتلكاتهم

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا في أنْفُسِهِم نَادِمِينَ﴾ أي فيصبح هؤلاء المنافقون بعد أن يجيء نصر الله للمسلمين نادمين على ما حدّثوا به أنفسهم وكتموه في صدورهم من الكفر، ونادمين أيضاً بسبب مودتهم لليهود وغشهم للإسلام وأهله.

﴿وَيقُولُ الَّذِين آمنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِين أقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم إِنَّهُم لَمَعكُمْ﴾ أي يقول المؤمنون لليهود مشيرين إلى المنافقين بعد أن أُصيب اليهود بالهزيمة: أهؤلاء الذين أقسموا بأغلظ الأيْمان أنهم يعينونكم على محمد إذا قاتلتموه؟ كما حكى القرآن عنهم ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] ولكن بعد وعدهم هذا خذلوهم. ويحتمل أن يكون المعنى: أي يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين: أهؤلاء الذين كانوا يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم مؤمنون فقد هتك الله سترهم وفضحهم بعد هزيمة اليهود **﴿حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحوا خَاسِرِينَ﴾** أي بطلت أعمال المنافقين التي عملوها في الدنيا فلا ثواب لها ولا أجر لهم عليها، فأصبح هؤلاء المنافقون عند مجيء أمر الله بنصر المؤمنين على أهل الكفر في خسران بسبب افتضاحهم، وبحصول العذاب لهم في الآخرة لأجل نفاقهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ
يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ
﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ
هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ
ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

شرح المفردات

يرتد منكم عن دينه: يرجع ويعود إلى الكفر بعد الإيمان.

أذلة على المؤمنين: رحماء متواضعين.

لومة لائم: اعتراض معترض وتوبيخه.

واسع: كثير الفضل والجود.

وليّكم: ناصركم والجدير بالولاء له.

ومن يتولّ: أي يجعل له وليًا وناصراً.

هُزواً: سخرية.

لعباً: تناولهم للأمور في عبث وعدم اهتمام.

مغبّة الارتداد عن الإسلام

ثم إن اتخاذ المؤمنين لليهود والنصارى أولياء قد يؤدي بضعفاء الإيمان إلى الارتداد عن دينهم، لهذا يبيّن الله في الآية التالية بأن دينه لن يناله ضرر منهم وأنه سيكون لدين الإسلام أتباع وأنصار يبذلون دماءهم في سبيل نصرته، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّها الّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُم عَنْ دِينِهِ﴾ أي ياأيها الذين آمنوا من يرجع منكم عن دينه الحق ـ دين الإسلام ـ الذي هو عليه فيبدّله ويغيّره بدخوله في الكفر **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ﴾** أي وفي حال خروجكم عن دينكم فلن تضروا الله شيئاً وسيأتي الله بقوم من صفاتهم أن الله يحبّهم وهم يحبونه. قيل إن هؤلاء القوم هم أبو بكر وأصحابه حيث قاتلوا المرتدّين عن دفع الزكاة بعد وفاة رسول الله، وقيل: هم أهل اليمن قوم أبي موسى الأشعري، وقيل: هم الأنصار، وقيل: المراد بهؤلاء الأقوام الذين يحبهم الله من سيدخلون في الإسلام من سائر الأمم ويكون لهم شأن عظيم في خدمة الإسلام وتوسيع مملكته بالفتوح ونشر هديه بين البشر وهذا ما حصل فعلاً.

وهؤلاء القوم من صفاتهم أن الله يحبهم وهم يحبونه، وأن محبة الله تعالى للمؤمنين هي أعلى ما يصل إليه طموحهم لأنها علامة رضا الله عنهم، وينتج عن رضا الله لهم توفيقهم لطاعته، وتيسير الخير لهم، وإسباغ البركات عليهم.

أما محبة المؤمنين لله فهي أعلى درجات الإيمان، ومن علاماتها الطاعة المطلقة لله ولرسوله، فلا يكون محباً لله من يعصيه، فطاعة الله ورسوله ملازمة للمحبة، كما أن محبة الله تستوجب طاعته، ولهذا أمر

الله رسوله محمداً بأن يخاطب قومه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والمراد بالذلّ هنا: الحنوّ والعطف والتواضع ولين الجانب، أي يعاملون إخوانهم في الدين متحلين بتلك الصفات الكريمة، وفي الوقت نفسه هم أشدّاء على الكفار ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب، وهذا ما وصف القرآن به المؤمنين في موضع آخر منه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقفة عند قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإذا كان المؤمنون يسيرون على هذا النهج بالنسبة لإخوانهم في الدين فلا ريب أن تنشأ بينهم رابطة الود والتضحية والوحدة، وما تفرق المسلمون وطمع فيهم أعداؤهم إلا بعد أن فقدوا هذه الرابطة الخُلُقية التي تجمعهم.

﴿يُجَاهِدُون في سَبيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد بذل ما في الوسع والطاقة والصبر على الشدة، وسبيل الله: طريق الحق والخير الموصلة إلى مرضاة الله. وقد يكون الجهاد ببذل النفس والمال في قتال أعداء الحق والدفاع عن الأوطان من اعتداء الأعداء، وقد يكون الجهاد بنشر دعوة الإسلام وبيان حقائقه والرد على خصومه ﴿ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ أي لا يخشون ملامةً من أي لائم لِقُوّة إيمانهم لأنهم لا يعملون العمل رغبة في ثناء الناس ولا خوفاً من مكروه يصيبهم. وقد دعا رسول الله ﷺ إلى الجهر بكلمة الحق بدون خوف ولا وجل فقال: «أفضل الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطان جائر»[١].

---

(١) أخرجه أبو داود.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ما تقدم من الفضائل الجليلة من محبة الله لهم ومحبتهم لله تعالى وتضحيتهم للمؤمنين وشدتهم على الكفار، والجهاد في سبيل الله دون خشية أحد، إنما هو عطية من الله يتفضّل بِهَا سبحانه على من يشاء من عباده **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** والله سبحانه واسع الفضل والجود والرحمة يَسَعُ الناس جميعاً برحمته وفضله، محيط علمه بكل شيء.

معجزة للقرآن: وفي الآية التي مرت معنا إشارة إلى ما سيكون من أمور مغيبة في المستقبل من ارتداد بعض العرب عن الإسلام، وهذا ما تحقق فعلاً مما يسجل معجزة للقرآن ودليلاً على صدق نبوة محمد ﷺ ففي أواخر عهد رسول الله ﷺ ارتدّت ثلاث قبائل وهم: بنو مدلج، وبنو حنيفة، وبنو أسد. وفي خلافة أبي بكر الصديق ارتدّ بعض القبائل عن الإسلام، وبعضها امتنع عن دفع الزكاة فقاتلهم أبو بكر الصديق وانتصر عليهم.

ثم بيّن القرآن للمؤمنين من هم الجديرون بطلب النصرة منهم:

﴿إِنّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ والّذِين آمَنُوا﴾ قصرت النصرة على هؤلاء بأداة القصر **﴿إنما﴾** التي تفيد الحصر، أي ليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله والمؤمنون.

ومن صفات المؤمنين الذين يجب أن نتولاهم: **﴿الّذِينَ يُقِيمُون الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** أي يؤدون الصلاة كاملة لتؤدي غايتها من تربية الوجدان النفسي والنهي عن الفحشاء والمنكر، ويعطون الزكاة

لمستحقيها عن طيب نفس ﴿وَهُم رَاكِعونَ﴾ والركوع هو الانحناء فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة، وتارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها وهو المقصود هنا، أي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم متواضعون دون تكبر.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ومن يجعل نصرته من الله ورسوله ومن المؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ والحزب معناه: الجمع من الناس الذين يجتمعون على رأي واحد من أجل أمر أهمهم وشغلهم، فهؤلاء المؤمنون الذين يتولون الله ورسوله وينصر بعضهم بعضاً هم حزب الله، وصفهم الله بذلك تنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم، وحزب الله هو حزب الخير وسيكون هو الغالب إن شاء الله وهذا ما تحقق فعلاً.

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾ نادى الله أتباع محمد بصفة الإيمان الذي هو مناط رفعتهم وجامع وحدتهم بأن لا يتخذوا أعداء الإسلام الذين يستخفّون بدينهم ويهزأون به ويجعلونه موضع لعب وعبث وهؤلاء هم: ﴿مِنَ الّذِين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفّار أَوْلِيَاءَ﴾ والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بهم هنا اليهود الذين كانوا جيراناً للمؤمنين في المدينة المنورة، والكفار: هم المشركون وعبدة الأصنام من العرب، فقد نهى الله أن يتخذ المؤمنون هؤلاء نصراء لهم، وكيف يكونون نصراء للمؤمنين يريدون العزة لهم مع أنهم يستهزئون بدينهم الذي هو مصدر قوّتهم ونهضتهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ﴾ وخافوا الله ـ أيها

المؤمنون ـ واجتنبوا معصيته لأن اتخاذكم نصراء لكم وهم يسخرون بدينكم ينافي تقوى الله والمؤمن الصادق يحافظ على كرامة دينه ويجتنب مهانته.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلاةِ﴾ والنداء: الدعاء برفع الصوت، أي وإذا أذّن المؤذن منكم ـ أيها المؤمنون ـ لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة ووجوب الإقبال على أدائها **﴿اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾** جعلوا ذلك من الأمور التي يهزأون بها واللعب بتقليده تهكماً وازدراء من أهلها **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾** أي أنهم لا يفكرون في الأمور تفكير العقلاء فلو كان عندهم عقل لخشعت قلوبهم عند صوت الأذان لما فيه من تكبير لله ودعوة إلى الصلاة التي فيها الفوز والفلاح.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ
أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟
يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ
ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

شرح المفردات

تنقمون: تكرهون وتعيبون.

فاسقون: خارجون عن طاعة الله.

مثوبة: المثوبة والثواب الجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

الطاغوت: هو كل معبود من دون الله، أو هو الشيطان.

سواء السبيل: الطريق السوي المستقيم والدين الحق.

العدوان: الظلم.

السحت: المال الذي يكتسب من وجه حرام.

لولا: بمعنى هلاّ، وهي للحض على الفعل.

الربانيون: جمع رباني وهو العالم الراسخ في علوم الدين.

الأحبار: جمع حبر وهو العالم الفقيه عند اليهود الذي يعرّف الناس بشئون دينهم.

مساوىء اليهود وعداوتهم للمؤمنين

وبعد أن بيّن القرآن أنّ اليهود والمشركين اتخذوا دين الإسلام سخرية ولعباً أمر الله رسوله محمداً بأن يخاطب اليهود بقوله:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأهل الكتاب هل تعدُّون علينا ذنباً أو نقيصة إلا أن صدّقنا بالله وأقررنا بوحدانيته **﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾** وإيماننا بما أنزل إلينا من القرآن، وإيماننا بما أُنزل إلى أنبياء الله من الكتب السماوية قبل نزول القرآن **﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** مع أن أكثركم مخالفون أمر الله خارجون عن طاعته.

روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس: أتى رسول الله نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ قال: أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً منكم، فنزلت هذه الآية وما بعدها.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ مثوبة: جزاء ثابتاً على العمل وهو مصدر ميمي بمعنى الثواب، ويقال في الخير والشر إلا أن أكثر المتعارف استعماله في الخير، واستعمالها هنا في الشر على طريقة التهكم بهم كما في قوله تعالى: **﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾** والبشرى هي الخبر السارّ. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود هل

أخبركم بمن هو شر وأسوأ حالاً في العقوبة الثابتة لكم عند الله؟ هو ما أنتم عليه من ضلال. وليس في الدين الإسلامي ولا في أهله أدنى شيء من شر بل كله خير محض وإنما اعتبر قوله ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ من باب المجاراة لهؤلاء اليهود فيما اعتقدوه ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي شر من ذلك من طردهم الله من رحمته وأبعدهم عن رضاه وحل عليهم سخطه ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾ أي وجعل الله منهم من يشبه القردة في نزواتها واستيلاء الشهوات على نفوسها وتقليدها الأعمى وعبثها، كما جعل منهم من يشبه الخنازير في انغماسها في كل ما هو قذر، ويأكلون من المحرمات كما تأكل الخنازير من القاذورات ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وجعل منهم من عبد الشيطان ورؤساء الضلال الذين قادوهم إلى الكفر بما أنزل الله ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ أولئك في شر المكانة وأحط المقام في الدنيا والآخرة ﴿وَأَضَلُّ عن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وأكثر انحرافاً وبعداً عن الطريق السويّ المستقيم والدين الحق. والسواء: الوسط المعتدل.

﴿وإِذَا جَاءُوكم قَالوا آمَنَّا﴾ نزلت هذه الآية في جماعة من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله يظهرون له الإيمان نفاقاً. والخطاب هنا للنبي ﷺ وللمؤمنين، أي وإذا جاءكم هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا: آمنا بالنبي محمد ﷺ وما أُنْزِلَ عليه من ربه ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وقد دخلوا عليكم ـ أيها المؤمنون ـ متلبسين بالكفر الذي يعتقدونه بقلوبهم ويضمرونه في صدورهم، وهم قد خرجوا من عندكم متلبسين بالكفر، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم

لم يتحولوا عن كفرهم، ولم تتأثر قلوبهم بالمواعظ التي يلقيها النبي ﷺ على أسماعهم، وفي هذا إشارة إلى أنهم ما دخلوا على النبي ﷺ بقلب سليم بل دخلوا مخادعين منافقين **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾** والله أعلم بما كانوا يخفونه في صدورهم من كفر ونفاق والحرص على إلحاق الضرر بالمسلمين وتدبير الكيد لهم.

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُم يُسَارِعُونَ في الإِثْمِ﴾ وترى ـ أيها النبي ـ كثيراً من اليهود يبادرون بسرعة وبدون تردد إلى ارتكاب المعاصي ولا يتحاشون شيئاً من الكفر **﴿والعُدْوَان﴾** وهو مُجاوزة الحد في الظلم والتعدي على الغير **﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** وأكل المال الحرام عن طريق الرشوة والربا.

فاليهود هم الذين نشروا الربا في الأرض، واتخذوا الرشوة سبيلاً لبسط سلطانهم في الأرض، فهم يرشون الدول الكبرى عن طريق السياسيين فيها فينالون منها التأييد والمعونة في ارتكاب الظلم، وهم الذين اتخذوا الاحتكار ذريعة لمضاعفة ثرواتهم **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ذم لهم على أعمالهم هذه لمخالفتها أوامر الله.

﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبارُ﴾ لولا: بمعنى هلاّ، وهي هنا للتحضيض والتوبيخ. والربانيون: علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود **﴿عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** أي هلاّ ينهاهم علماء الإنجيل وعلماء التوراة عن قول الكذب وعن أكل المال الحرام وفي هذا توبيخ شديد وذم بليغ لعلمائهم الذين تركوا النهي عن هذه المنكرات، لذا عقّب القرآن على ذلك قوله: **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا**

يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس ما كان يصنع علماؤهم من تركهم النصيحة لقومهم ونهيهم لهم عن المعاصي. وكان علماء المسلمين يقولون: ما في القرآن آية هي أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها. كما أن الآية دلت على أن تارك النهي عن المنكر ومرتكبه في الذم سواء.

وهذه العبارة **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** التي جاءت في حق علمائهم أبلغ من قوله تعالى: **﴿لَبِئْسَ مَا كانُوا يَعْمَلُون﴾** التي وردت في الآية السابقة في ذم أعمال اليهود وذلك لأن الصنع أقوى من العمل. فإن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخاً متمكناً بدقة ومهارة وإحكام، فجعل الله ذنب العاملين بالمعاصي ذنباً غير راسخ حيث عبّر عنه بالعمل، وجعل ذنب العلماء التاركين النهي عن المنكر ذنباً راسخاً متمكناً فيهم حيث عبّر عن ذلك الترك بالصنع، مما يفيد أن العلماء التاركين النهي عن المنكر أسوأ حالاً وأعظم ذنباً من الذين يرتكبون الذنب.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ
يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

شرح المفردات

يد الله مغلولة: أي يد الله مقبوضة عن العطاء بخلاً.

غلت أيديهم: دعاء عليهم بالبخل.

يداه مبسوطتان: أي عظيم الكرم والعطاء.

طغياناً: تجاوزاً للحد في العصيان.

أوقدوا ناراً للحرب: أثاروا الفتن ودبروا المكائد التي تؤدي إلى وقوع الحرب بين الناس.

لكفرنا عنهم سيئاتهم: محاها الله ولم يعاقبهم عليها.

لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم: لوسّع عليهم أرزاقهم.

الأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما إما دين واحد أو زمان أو مكان.

مقتصدة: معتدلة.

طغيان اليهود وفسادهم في الأرض

وبعد أن بين القرآن سلوك اليهود السيىء بالنسبة لغيرهم من الأمم، بيّن في الآيات التالية حالهم مع ربهم:

﴿وقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ والغل ما تقيد به يد الشخص ليكون عاجزاً عن التصرف، وقيل للبخيل: هو مغلول اليدين لأنه لا يحركهما بالبذل والعطاء ومن ذلك ما حكاه الله عن اليهود بأنهم قالوا: يد الله مغلولة، وهو مجاز عن البخل من قبيل الاستعارة التمثيلية.

فالله سبحانه بسط على اليهود الرزق حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله وكذبوا برسول الله محمد ﷺ كف عنهم ما بسط الله عليهم من الرزق فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء اليهودي **﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا بمقالته نسبت تلك المقالة التي تحمل الافتراء على الله إلى الكل.

ثم رد الله عليهم بقوله: **﴿غُلَّت أيدِيهِم﴾** دعاء عليهم بالشح المرير الذي يجعلهم مبغوضين من الناس منبوذين من المجتمع أو دعاء عليهم بأن تقيد أيديهم في الدنيا بأخذهم أسارى وَالعذاب في الآخرة **﴿وَلُعِنُوا بِما قَالُوا﴾** وطُردوا وأُبعدوا من رحمة الله **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** وبسط اليد هنا مجاز عن الجود والإنعام على خلقه وعبّر القرآن بالمثنى (يداه) للإشارة إلى كثرة الفيض الإلهي والعطاء العميم على خلقه كأنه يعطي بيدين لا بيد واحدة، فهو يبسط يديه بالعطاء على الطريقة التي يريدها، لذا قال سبحانه بعد ذلك **﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** أي يرزق كيف يشاء لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على

الحكمة، وبسبب معاصي اليهود ضيّق الله عليهم.

وأما الكلام عن اليد بالنسبة إلى الله فهي صفة من صفات الله وليست بجارحة، وهي كغيرها من صفات الله كالسمع والبصر فيجب الإيمان بها كما جاءت في القرآن والسنّة مع نفي الكيفية والتشبيه لأن الله لا يشبه أحداً من خلقه كما جاء في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ويمكن أن تكون اليد مجازاً يراد بها القدرة أو النعمة.

﴿وَلَيزيدَنَّ كَثيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ والمراد بالكثير: علماء اليهود ورؤساؤهم. أكد الله فساد قلوبهم بقوله **﴿وليزيدن﴾** بلام القسم ونون التوكيد، أي والله ليزيد علماء اليهود ورؤساؤهم ما أنزل إليك يا محمد من القرآن طغياناً أي غلواً في إنكار ما قد علموا صحته من نبوتك والتمادي في ذلك، ويزيدهم مع غلوهم في إنكار ذلك جحودهم عظمة الله ووصفهم إياه بغير صفته بأن نسبوه إلى البخل. وخص الله ذكر الكثير إذ فيهم من آمن بالله ومن لا يطغى ويخرج عن جادة الحق.

﴿وألْقَيْنا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَومِ القِيَامَةِ﴾ فقد افترق اليهود إلى فرق كثيرة يناوىء بعضهم بعضاً فمنهم الجبرية والقدرية والمشبهة وهم ينكرون أن يكون اليهود من غير بني إسرائيل ويعادون السامرة الذين لم يكونوا من أصل إسرائيلي، وستظل العداوة والبغضاء مستحكمة بين فرقهم إلى يوم القيامة **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلحَرْبِ أطْفَأَهَا اللَّهُ﴾** أي هؤلاء اليهود لحسدهم المستمر للناس ولكراهيتهم لهم يثيرون الحروب بين الناس، وعبّر القرآن عن إثارة الحروب بإيقاد نارها وبما

تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة وإن أساليب اليهود في ذلك معروفة في كل زمان، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك[١].

ولكن القرآن يقرر أنهم كلما أشعلوا ناراً للحرب خذلهم الله في مسعاهم، وارتد كيدهم على أنفسهم، وهم لا يقتصرون على ذلك بل ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾ وذلك بإثارة الفتن وإيقاظ الأحقاد ونشر الرذيلة ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المفْسِدِينَ﴾ والله سبحانه يمقت الذين يعيثون في الأرض فساداً فلا يصلح عملهم ولا ينجح سعيهم لأنهم مضادون للحكمة الإلهية التي تريد صلاح الناس وعمران البلاد.

﴿وَلَوْ أنّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي ولو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله محمد فصدقوه واتبعوه وآمنوا بما أُنزل عليه من القرآن واجتنبوا ما نهاهم الله عنه وخافوا عقابه، ورجوا ثوابه، لو فعلوا ذلك ﴿لَكَفَّرْنَا عنْهُم سيِّئَاتِهِمْ﴾ أي محا الله عنهم ذنوبهم وسترها ولم يفضحهم بها ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُم جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ولأدخلهم الله جنات ينعمون فيها في الآخرة.

﴿وَلَوْ أنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ﴾ أي ولو أن أهل الكتاب عملوا بما في التوراة والإنجيل من الأحكام وما فيهما من أوامر ونواهٍ ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه، وأقروا بما اشتملت عليه كتبهما الإلهية من المبشرات بمجيء نبي تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ فآمنوا به عند بعثته ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِم﴾ وهو القرآن، أي التزموا العمل بالقرآن المنزل من عند ربهم الذي ينسخ ما قبله من

---

(١) راجع كتاب (اليهود في القرآن) للمؤلف.

الشرائع ويجمع محاسن الكتب السماوية ويصحح ما فيها من أخطاء، أي لو فعلوا ذلك وقاموا بما خوطبوا به حق القيام **﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِم وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾** أي لوسّع الله عليهم أرزاقهم من السماء التي تجود بالمطر، ومن الأرض التي تنبت صنوف النبات، ولأحاطت بهم الخيرات من كل جانب. وهنا إشارة بأن إقامة شرع الله تأتي بالرزق الرغيد لمن أخذ بالأسباب واعتمد على الله حق الاعتماد **﴿مِنْهُم أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾** مقتصدة: معتدلة من غير غلوّ ولا تقصير، أي منهم جماعة عادلة قالوا في عيسى هو عبد الله ورسوله كالذين آمنوا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي ملك الحبشة وأصحابه الذين أسلموا ومن نهج نهجهم **﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾** أي وكثير من اليهود والنصارى ساء عملهم، فكذب النصارى برسول الله محمد ﷺ، وزعموا أن المسيح ابن الله، وكذب اليهود بعيسى وبمحمد، فهؤلاء أفرطوا في عنادهم وظلوا على كفرهم فاستحقوا الذم والملامة بسبب موقفهم البغيض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾

شرح المفردات

يعصمك: يحفظك وينجيك.

طغياناً: تجاوزاً للحد في الضلال والعصيان.

فلا تأس: فلا تحزن ولا تتأسف.

وقاية اللّه لرسوله محمد ﷺ من الأخطار

كان رسول الله محمد ﷺ مهدداً من كثير من الأعداء سواء من المشركين أو اليهود وكان ذلك مما يثير في نفسه الخوف والقلق على سلامة الدعوة الإسلامية إبّان تبليغها، لذا نزلت الآية التالية تطمئن رسول الله بأن الله حافظه وأن عليه تبليغ ما أنزل عليه من الوحي بدون وجل، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ النداء للنبي ﷺ بوصف الرسالة لتشريفه بهذا الوصف الكريم لافتاً نظره إلى المهمة التي سيكلف بها وهي تبليغ جميع ما أنزله ربه إليه من آيات القرآن إلى

الناس كافة ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي وإن لم تبلّغ يا محمد كل ما أُنزل إليك من الوحي إلى الناس فما بلّغت رسالة الله، لأن من يؤمر بتبليغ كلام فيحذف بعضه أو يكتمه لا يُعدّ أنه قد بلّغ كلام الله إلى من أرسل إليهم، فتبليغ الرسالة تقتضي أن تكون بتمامها ولا تقبل التجزئة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي أن الله يحفظك من كيد أعدائك ويجعل لك وقاية من كل خطر يتهددك. وكان لرسول الله حرس يحرسونه فلما نزلت هذه الآية قال لحراسه: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إن الله لا يرشد الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم الضلال على الهدى.

هذا الشطر من الآية ﴿واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هو من معجزات القرآن التي تدل على أن القرآن وحي إلهي. فمن يصدق أن رجلاً يطعن في معتقدات قومه القائمة على عبادة الأصنام ويسفه عقولهم ويقضي على زعاماتهم ثم يسلم من كل الأخطار التي تهدده لولا وقاية الله له.

لقد مكث رسول الله ﷺ بضع عشرة سنة يبشر بالدعوة الإسلامية صابراً على شدة إيذاء العرب له بمكة، وقد تطور هذا الإيذاء إلى عدة محاولات لقتله ولكنه نجا منها كلها، ثم تطورت بعد ذلك الأحداث حتى أجمع أعداؤه على قتله فهاجر متخفياً إلى المدينة المنورة، وهناك تألبت عليه قبائل العرب واليهود لإبْطالِ دعوته، ولكن الله أنجاه من كل المحاولات للقضاء عليه.

هذه الجملة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليست من ذاتية محمد وتأليفه كما يدعي أعداء الإسلام بل هي وحي إلّهي من عند ربه.

ونتساءل: ما مصير الدعوة الإسلامية لو أن أعداءه تمكنوا من قتله بعد هذا الإعلان بأن الله يعصمه؟ أما يكون ذلك سبباً لهدم الإسلام من أساسه والشك بأنه من عند الله؟ فليرعو الذين يَشكُّون في نبوة محمد ﷺ، وليأخذوا من هذا النص القرآني برهاناً على أن محمداً هو رسول الله حقاً.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُم عَلَى شَيْءٍ حَتّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإنجيلَ﴾ أي قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى: لستم على شيء له وزن من أمر الدين، ولا في أيديكم شيء من الحق والصواب حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل فيما أمرا به من التوحيد الخالص لله تعالى والعمل الصالح والوفاء بعهود الله والإقرار بما فيهما من أقوال تبشر برسالة محمد فتؤمنوا به عند مبعثه **﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبّكُمْ﴾** وحتى تؤمنوا بما أُنزل إليكم من ربكم من القرآن الذي أكمل الله به دين الأنبياء والمرسلين فتعملوا بأحكامه وتهتدوا بهديه.

﴿وَلَيزيدَنَّ كَثيراً مِنهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً﴾ هذه الآية تكرار لما سبق وفيها يخبر الله رسوله محمداً بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي ختم الله به كتبه الإلهية إلا طغياناً على الحق وإمعاناً في الضلال. فالقرآن المنصف لا يحكم على الجميع بالشر وفيهم أخيار، ولذلك كان حكمه على الكثرة لا على القلة. ويختم الله هذه الآية بقوله: **﴿فَلاَ تأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾** أي فلا تحزن يا محمد ولا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع إليهم وحدهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

شرح المفردات

الصابئون: قوم يقرون بالله ويقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة وقد أخذوا من كل دين شيئاً.

ميثاق: عهد مؤكد يلزم صاحبه الوفاء به.

تهوى: الهوى ما تميل إليه النفس من الشهوات مما يجانب الحق ويستعبد النفوس.

وحسبوا ألا تكون فتنة: أي ظن اليهود أنه لا يصيبهم من الله بلاء وعذاب بقتل الأنبياء.

الناجون في الآخرة

ويتابع القرآن فيذكر فئات الناجين في الآخرة من عذاب الله الحائزين على رضاه، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِين آمَنُوا﴾ والمراد بهم الذين صدقوا برسالة محمد فيما أتاهم به من الحق من عند ربهم واستمروا على إيمانهم **﴿وَالَّذِينَ**

هَادُوا﴾ أي اليهود ويطلق عليهم بنو إسرائيل وهم أتباع موسى عليه السلام، ومن جاء بعده من الأنبياء حتى نبوة عيسى عليه السلام **﴿وَالصَّابِئُونَ﴾** قيل هم قوم آمنوا بوحدانية الله ولكنهم قالوا بوجود وسائط بين الخالق والمخلوقات هي الكواكب، وقيل إنهم يعبدون الملائكة أو الكواكب ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم **﴿وَالنَّصَارَى﴾** سموا بذلك لأنهم ادعوا أنهم أنصار عيسى عليه السلام، وقيل سموا بذلك نسبة إلى قرية النصارى التي ظهر بها عيسى عليه السلام واتبعه بعض أهلها **﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾** وذلك يتضمن الإيمان بوحدانيته وأنه الخالق وحده والمهيمن على الوجود، أَحَدٌ لا شريك له، وأنه لا يشبه أحداً من خلقه، وليس بوالد ولا ولد **﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** وهو الإيمان بالبعث والحساب والعقاب والثواب، وأن الإنسان مجزيٌّ بعمله إن خيراً فخير أو شراً فشرّ **﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾** أي عمل صالح الأعمال للتقرب إلى الله وترك سيئات الأفعال خوفاً من الله سبحانه **﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم﴾** أي هؤلاء جميعاً لا خوفٌ عليهم من عقاب ولا من أهوال يوم القيامة **﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها إذا عاينوا ما أعد الله لهم من النعيم الدائم، فالفوز بنعيم الآخرة يكون بإيمان صحيح له سلطان على القلوب يؤدي إلى العمل الصالح، فلا تفرقة أمام الله بالجنسية ولا بالملة، فكلهم عباد الله يجزيهم سبحانه على حسب أعمالهم.

هذا بالنسبة إلى الأمم الماضية، أما الذين تبلغهم دعوة الإسلام من تلك الملل المذكورة آنفاً ثم لم يقبلوها فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم يؤمنون بغيرها لأن شريعة الإسلام تنسخ

الشرائع السابقة، وتجمع محاسن الكتب السماوية وتصحح ما دخل عليها من تحريف وتبديل، وتبين أسس السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إسْرائيلَ﴾ والميثاق: هو العهد المحكم الذي يلزم صاحبه بالوفاء به. ولقد أكد الله هذا العهد الذي أخذه على بني إسرائيل بلفظ (قد) الذي يفيد التحقيق ولم يذكر الله سبحانه هنا موضوع هذا الميثاق اكتفاء بما ذكره في مواطن أخرى من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿وَأَرْسَلْنا إلَيْهِم رُسُلاً﴾ والتنكير في **﴿رسلاً﴾** يفيد التكثير، أي أرسل الله إليهم كثيراً من الرسل ليرشدوهم إلى ما فيه سعادتهم **﴿كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوى أَنْفُسُهُم فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾** أي أنهم نقضوا العهد وعصوا رسل الله فكانوا كلما جاءهم رسول من عند الله بما لا تحبه أنفسهم ولا يوافق أهواءهم ناصبوه العداء فكذبوا بعض الرسل وقتلوا البعض الآخر.

والتعبير بالفعل المضارع **﴿يقتلون﴾** لاستحضار فظاعته في الذهن وأن لا ننزع دائماً من أذهاننا صورة قتلهم للرسل وبشاعتها، وقد قال علماء العربية إن التعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل.

﴿وَحَسِبُوا أنْ لا تكونَ فِتْنَةٌ﴾ وظن اليهود أنهم لا يصيبهم من الله عذاب ومكروه بتكذيبهم للرسل أو قتلهم لهم لإمهال الله لهم وعدم

معاجلته بعقابهم **﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾** من العمى الذي هو ضد الإبصار، ومن الصمم الذي هو ضد السمع، أي عموا عن الدين الذي جاء به الرسل فلم يروا ما فيه من الخير لهم، وصموا آذانهم عن الاستماع إلى ما اشتمل عليه من الوعظ وإرشاداته، فاستعارة العمى والصمم لحالهم لبيان عدم انتفاعهم بدعوة الرسل كما لا ينتفع الأعمى بما يرى والأصم بما يسمع **﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾** أي ثم قَبِلَ الله توبتهم عندما أقلعوا عن ذنوبهم وندموا على ما اقترفوا من آثام **﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾** ثم رجعوا إلى ما كانوا عليه من ضلال وفساد فعموا عن آيات الله في كتبه الدالة على عقاب الله للأمم الظالمة، وصموا آذانهم عن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل **﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾** والله سبحانه بصير يرى أعمالهم فلا يخفى عليه شيء فيجازيهم يوم القيامة على ما فعلوه إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشرّ.

فاليهود لمّا عموا وصموا عن القبول بدعوة الرسل وانهمكوا في الظلم والفساد سلط الله عليهم البابليين فأحرقوا معبدهم في القدس ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم، وسلبوهم الملك والاستقلال، ثم رحمهم الله بعد ذلك وتاب عليهم، وأعاد إليهم ملكهم وعزهم، ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وإفسادهم في الأرض فسلط الله عليهم الفرس ثم الرومان فأزالوا ملكهم واستقلالهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ
مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى
وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ
وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ
مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ
صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ
نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

شرح المفردات

كفر: الكفر هو نقيض الإيمان وجحود وحدانية الله ونعمه على خلقه وستر الحق وإنكاره.

أنصار: أعوان.

ثالث ثلاثة: ثالث آلهة: الله أحدهم، والآخران عيسى وروح القدس.

ينتهوا: يمتنعوا.

خلت: مضت.

صدّيقة: دائمة الصدق مع الله تعالى.

أنّى يؤفكون: كيف يصرفون عن الحق مع قيام البرهان عليه.

حقيقة عيسى عليه السلام ونفي الألوهية عنه

بعد أن تحدث القرآن عن اليهود ونقضهم عهد الله وإفسادهم في الأرض وتكذيبهم لبعض الأنبياء وقتلهم البعض الآخر جاء الكلام على النصارى وانحرافهم عن توحيد الله إلى الإشراك به، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِين قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ﴾ أكد الله كفر النصارى وخروجهم عن الإيمان بلفظ **﴿لقد﴾** اللام الداخلة على قد للقسم و (قد) للتحقيق وكان كفرهم بسبب ادعائهم أن الله هو المسيح مع أنه بشر وهو ابن مريم، ومن كان بشراً لا يصح أن يكون إلّهاً.

﴿وَقَالَ المسيحُ يَا بَنِي إسرائيل اعْبُدوا اللَّهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ﴾ والحال أن عيسى قال لبني إسرائيل حين أرسله الله إليهم لهدايتهم: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً فهو ربي الذي خلقني وتعهدني بالتربية والرعاية وهو ربكم أيضاً. فهذا النص **﴿ربِّي وَرَبَّكم﴾** يمنع الألوهية عن المسيح من ناحيتين: **الناحية الأولى**: إثبات أن الله هو ربه الذي خلقه ونمّاه وأنشأه، **والناحية الثانية**: التسوية بينه وبين غيره من الخلق في التكوين والإنشاء والتربية.

ثم حذر الله سبحانه من الشرك وما يترتب عليه من العقوبة في الآخرة: **﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾** ظاهر السياق أنه كلام السيد المسيح ويصح أن يكون ذلك الكلام مستقلاً عن كلام السيد المسيح وأنه تقرير لمقام وحدانية الله. فالله سبحانه حرّم دخول الجنة في الآخرة على من أشرك في عبادته أحداً من خلقه، وأن مقر المشركين في الآخرة هو في نار جهنم **﴿ومَا للظَّالِمينَ مِنْ أنْصَارٍ﴾** ولا ينصر هؤلاء الذين يشركون بالله ناصر في

الآخرة فينجيهم من عذاب الله. فالإشراك بالله هو أعظم الذنوب عند الله التي لا يغفرها سبحانه وقد جاء في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الّذين قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أثبت الله كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، حيث أطلقوا على الله سبحانه لقب الآب وهو الأقنوم الأول، وأشركوا مع الله في الألوهية: الابن وهو عيسى عليه السلام وهو الأقنوم الثاني، والأقنوم الثالث هو: روح القدس ﴿وَمَا مِنْ إِلَه إِلاّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هنا نفي الألوهية عن غير الله. وفي قوله تعالى: ﴿إلاّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يفيد حصر وصف الألوهية في الإلّه الواحد فانتفت الألوهية عن التثليث المحكي عنهم ﴿وإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ هذا تحذير ووعيد لهم لِمَا هم عليه من ضلال وكفر ولِمَا ينطقون من أن الله ثالث ثلاثة ﴿لَيَمسَّنَّ الذين كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب شديد موجع، وقد أكد القرآن ذلك بلام القسم الداخلة على ﴿يَمَسَّنَّ﴾ وبنون التوكيد.

﴿أفَلاَ يَتُوبُونَ إلى اللَّه ويَسْتغْفِرونَهُ﴾ أفلا: تفيد الحث على فعل الشيء وهي هنا تحثهم على التوبة والندم عما صدر منهم، والرجوع إلى الحق وهو أن الله واحد لا شريك له، كما تحثهم على طلب المغفرة من الله على ما سلف من ذنوبهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله سبحانه بالغ الغفران للتّائبين، ويرحم المذنبين المستغفرين ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿ما المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾

فالمسيح في الحقيقة ما هو إلا رسول من عند الله ومن ضمن الرسل الذين مضوا قبله ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ صدّيقة: صيغة مبالغة من الصدق، أي أمه مريم كثيرة الصدق لم تكذب قط، ومصدقة لما جاء به ولدها عيسى، والقصد من وصفها بذلك مدحها والثناء عليها ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فالمسيح عليه السلام وأمه مريم هما كسائر البشر كانا يأكلان الطعام لحفظ حياتهما، ولو أنهما حرما الطعام لهلكا كسائر الكائنات الحية، ومن كان هذا شأنه لا يكون إلهاً وقد جاء في القرآن في شأن الله سبحانه ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُر أنّى يُؤْفَكُونَ﴾ انظر يا محمد وتأمل في شأن هؤلاء الذين بيّن الله لهم الدلائل الواضحات على أن عيسى بشر اصطفاه الله بالنبوة، ثم تأمل كيف يُصْرَفون عن الحق ويبتعدون عنه بعد هذا البيان الواضح المقنع.

المسيح نبي ورسول من عند اللّه

يستوقفنا في الآيات التي مرت قوله تعالى ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي أن المسيح عليه السلام رسول من رب العالمين إلى بني إسرائيل كما جاء في القرآن أيضاً ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦] كما أن القرآن سبق أن ذكر بأن المسيح هو نبي من أنبياء الله، حيث أنطقه الله في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

والجدير بالذكر أنني في مطالعاتي للأناجيل رأيتها تتفق مع ما جاء في القرآن في هذا الصدد حيث وصفت السيد المسيح بالنبوة وكانت هذه الصفة اعتقاد الجماهير الذين كانوا يعاصرونه فقد كانوا يصفونه بأنه نبي ويذكرون ذلك على مسمع منه وهو يقرهم على ذلك فمن تلك النصوص:

ما جاء في إنجيل يوحنا بعد ذكره لمعجزة تكثير أرغفة الشعير الخمسة والسمكتين:

«فلما رأى الناس الآية التي أتى بها يسوع، قالوا: حقًّا هذا هو النبي الآتي إلى العالم» [٦: ١٤].

وفي إنجيل متى: «ولما دخل أُورشليم ضجَّت المدينة كلها وسألت: «من هذا» فأجابت الجموع: «هذا النبيُّ يَسوع من ناصِرَةِ الجليل» [٢١: ١٠، ١١].

وفي إنجيل لوقا حيث ينسبون للمسيح قوله: «ولكن يجب عَلَيَّ أن أسيرَ اليوم وغداً واليوم الذي بعدهما لأنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يَهلِكَ في خارج أُورشليم» [١٣: ٢٨].

وفي إنجيل مرقس: فقال لهم يسوع: «لا يُزْدَرى نبيٌّ إلا في وطنه وأقاربه وبيته» [٦: ٤] ففي هذا النص عبّر يسوع عن نفسه بأنه نبي.

وفي إنجيل يوحنا: «لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبيّ كرامة في وطنه» [٤: ٤٤].

وفي إنجيل لوقا، أن المسيح عندما قال لميّت: قُمْ، فَجَلَس الميّت

وأخذ يتكلم، فقال تلاميذه وجمع كثير من الناس: «قام فينا نبيٌّ عظيم وافتقد الله شعبه» [٧: ١٤، ١٥].

المسيح رسول من عند الله: وفي الأناجيل أيضاً نصوص تثبت بأن المسيح هو رسول من عند الله إلى بني إسرائيل وإليكم ما جاء في الأناجيل على لسان المسيح في تقرير ذلك:

ففي إنجيل متى يقول السيد المسيح: «لم أُرْسَل إلاّ إلى الخِرافِ الضَّالَّة من بيت إسرائيل» [١٥: ١٤].

وينقل إنجيل يُوحنّا عن السيد المسيح قوله: «لأني لم أتكلّم من عندي بل الآب الذي أرسلني هو الذي أوصاني بما أقول وأتكلم، وأنا أعلم أن وصيته حياة أبدية، فما أتكلم به أنا، أتكلم به كما قال لي الآب» [١٢: ٤٩، ٥٠].

وفي إنجيل يُوحنا ينقل أيضاً عن السيد المسيح قوله: «ولكنكم تريدون الآن قتلي، أنا الذي قال لكم الحق الذي سمعه من الله..» [٨: ٤].

وفي إنجيل يُوحنا نقلاً عن يسوع قوله: «من لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلمة التي تسمعونها هي ليست لي بل للآب الذي أرسلني» [١٤: ٢٤].

وفي إنجيل يوحنا نقلاً عما قاله يسوع: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك والذي أرسلته يسوع المسيح» [١٧: ٤].

مسألة التثليث

جاء في قاموس الكتاب المقدس عن عقيدة النصارى الحالية في مسألة التثليث ما يأتي:

«**طبيعة الله**: الله واحد وهو ثلاثة أقانيم متساوية في الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فالآب هو الذي خلق العالمين بواسطة الابن، والابن هو الذي أتم الفداء وقام به، والروح القدس هو الذي يطهر القلب والحياة، غير أن الأقانيم الثلاثة يشتركون في جميع الأعمال الإلهية على السواء...»[١].

«والكلمة نفسها «التثليث أو الثالوث» لم ترد في الكتاب المقدس ويظن أن أول من صاغها واستعملها هو ترتليان في القرن الثاني للميلاد»[٢] انتهى كلامه.

ثم تطورت عقيدة التثليث حيث عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وأقر فيه ألوهية المسيح إلى جانب ناسوتيته. أما التثليث فلم يكتمل بشكله الحالي إلا في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م الذي أقر فيه ألوهية روح القدس ليتم الثالوث المعروف عند المسيحيين. من هنا يتضح أن التثليث أقر بعد المسيح عليه السلام بأكثر من ثلاثة قرون.

وجاء في كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) لمؤلفه هـ.ج.ولز: «وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد العالم المسيحي بأسره وليس هناك من دليل واضح على أن حواريي المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ»[٣].

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ـ صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ـ ط ٢ ص ١٠٧.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢.

(٣) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ المجلد الثالث ـ ط ٤ ـ ص ٦٩٢.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟
أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا
وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ
بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ
عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾
تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا
قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ
هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

شرح المفردات

من دون الله: من غير الله.

لا تغلوا: لا تبالغوا مبالغة شديدة.

أهواء: شهوات.

سواءَ السبيل: طريق الحق والهداية.

على لسان داود وعيسى ابن مريم: في الزبور والإنجيل.

لا يتناهون عن منكر فعلوه: لا ينهى بعضهم بعضاً عن اقتراف المعاصي.

يتولون: يوالون ويناصرون.

سخط: غضب غضباً شديداً.

أولياء: أنصار.

فاسقون: خارجون عن شعائر الدين الحق.

مغبّة عدم إنكار المنكرات

وبعد أن بيّن القرآن انتفاء الألوهيّة عن المسيح وأمه مريم لحاجتهما إلى الطعام، بيّن بعد ذلك في الآية التالية دليلاً آخر على بطلان ألوهيتهما، قال تعالى:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً﴾

الاستفهام في قوله تعالى: **﴿أَتَعْبُدونَ﴾** لإنكار واقع النصارى والتعجب مما صدر منهم، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء النصارى وأمثالهم في الشرك: أتعبدون من غير الله من لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال؟ هذا مع العلم أن اليهود كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء فما استطاع الإضرار بهم. ومعنى قوله تعالى **﴿وَلا نَفْعاً﴾** أي أتعبدون من لا يستطيع أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق، هذا مع العلم أن أنصار المسيح كانوا مضطهدين فما استطاع المسيح إيصال النفع لهم وإنقاذهم مما هم فيه من البلايا.

ويختم الله الآية بقوله: **﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾** والله وحده هو الذي يسمع أقوالكم وهو العليم بجميع أحوالكم وأعمالكم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِينكم غَيْرَ الحَقِّ﴾ الغلوّ: هو تجاوز الحد، والغلوّ في الدين هو التعصب الأعمى والتشدد فيه.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء النصارى: لا تتجاوزوا الحد وتتشددوا في دينكم متجاوزين الحق إلى الباطل، فتبالغوا في تقديس المسيح تقديساً تخرجوه عن نطاق البشر إلى مقام الألوهية **﴿ولا تَتَّبِعُوا أهْوَاء[(١)] قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾** أي ولا تتبعوا أهل الضلال والهوى من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم الذين ضلوا من قبل بعثة النبي محمد ﷺ بتحريفهم الكتب السماوية جرياً وراء شهواتهم وأهوائهم واتبعوا ما كانت عليه الأمم والفلاسفة من عقائد باطلة، وخرجوا عن توحيد الله إلى الشرك به **﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾** أي وأضل رؤساء دينكم كثيراً ممن تبعهم فيما دعوا إليه **﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** وأخطأوا سلوك طريق الحق والهداية.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ عَلَى لِسَان دَاوُدَ وعيسى ابنِ مَرْيَمَ﴾ أي لُعِن هؤلاء الكفار من اليهود على لسان عيسى ابن مريم، ولعنوا في الزبور على لسان داود، واللعن هو الطرد من رحمة الله، كما يعبّر باللعن عن مقته سبحانه وغضبه. وقد جاء الفعل **﴿لُعن﴾** بالبناء للمجهول لأن الفاعل معلوم وهو الله، ولأن الأنبياء لا يلعنون أحداً إلا بإذن الله، وهما أي داود وعيسى لا يملكان الطرد من رحمة الله **﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** هذا بيان لسبب لعنهم وهو: مخالفة أوامر الله، وبسبب استمرارهم في البغي والعدوان على الآخرين، فقد قتلوا بعض الأنبياء وبالغوا في إيذاء الآخرين. وقد عبّر

---

(١) الهوى: كل ما فيه شهوة ولذة، وكلمة الهوى في القرآن لا تكاد تستعمل إلا في مقام الذم في الاتباع وفي موضع الشر. جاء في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صَ: ٢٦].

القرآن عن العصيان بالفعل الماضي للإشارة إلى ثبات العصيان في طبائعهم، وعبّر عن الاعتداء بفعل المضارع لأنه مستمر فيهم متكرر الحدوث، وها نحن اليوم نشاهد اعتداءاتهم المستمرة على الشعب العربي في فلسطين بدون رأفة ولا رحمة.

﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْن عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوه﴾ وعدم التناهي عن المنكر، المراد منه: أنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عنه، وأنهم لا يرتدعون عنه، والمنكر: هو كل ما قبّحه شرع الله وحرّمه وهو ضد المعروف.

لقد تقاعس بنو إسرائيل عن النهي عن المنكر وسكتوا عنه فاستحقوا اللعن من الله، وهذا الحكم ينطبق ويسري على كل جماعة في الأرض تتقاعس عن النهي عن المنكر، فالسكوت عن المنكر هو رضاء ضمني به أو مشاركة فيه، كما أنه تشجيع للمفسدين في استمرارهم اقتراف المنكرات، وإذا شاعت المنكرات عمّ الناس بلواها، وحل بهم العذاب من حيث لا يشعرون[١] **﴿لَبِئْسَ مَا كَانوا يَفْعَلُونَ﴾** أي قَبُحَ ما فعل بنو إسرائيل من المنكرات وسكوت الآخرين عنها، وقد أكد الله سبحانه قبح فعلهم بالقسم، إذ اللام الداخلة على بئس هي لام القسم.

﴿تَرَى كَثيراً مِنْهُم يَتَوَلَّوْنَ الَّذِين كَفَرُوا﴾ أي ترى كثيراً من اليهود يخصّون المشركين بالمودة والنصرة ويحرضونهم على قتال المسلمين

(١) روى الإمام أحمد والترمذي عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعُنّه فلا يستجيب لكم».

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُم أَنْفُسُهُم أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أكّد الله ذمه لليهود بالقسم حيث قدّموا من الأعمال ما يستدعي غضب الله وسخطه عليهم في الدنيا والآخرة وذلك بمحاربتهم الإسلام وهو دين التوحيد الذي دعت إليه التوراة، وبسبب مناصرتهم المشركين الذين اتجهوا إلى غير الله في العبادة **﴿وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُون﴾** أي وسيكون جزاؤهم في الآخرة عذاب الله في النار أبد الآبدين.

﴿وَلَوْ كَانوا يُؤْمِنُون بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدّقون بوجود الله ورسوله محمد وبالقرآن الذي أنزله الله عليه **﴿مَااتّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾** أي ما اتخذوا المشركين الذين لا يوحدون الله ولا يؤمنون بنبوة نبي مرسل نصراء لهم **﴿وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُم فَاسِقُونَ﴾** ولكن الكثير من اليهود انحرفوا عن الحق وخرجوا عن طاعة الله. وإنما قال الله سبحانه **﴿كَثيراً مِنْهُم﴾** لأنه يعلم أن فريقاً منهم سيؤمن بالإسلام مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وهم قليلون.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ
وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى
ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا
نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ
ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
(٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ (٨٦)﴾

شرح المفردات

قسّيسين: جمع قسيس وهو رئيس ديني مسيحي.

رهباناً: الرهبان جمع راهب، وهو المتبتل المنقطع لعبادة الله وحرمان النفس من الطيبات والزواج.

أعينهم تفيض من الدمع: تمتلىء أعينهم بالدّمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته.

فاكتبنا مع الشاهدين: فاكتبنا مع المقرّين بنبيك.

وما لنا لا نؤمن بالله: وأي مانع يمنعنا من الإيمان بالله.

فأثابهم: فجازاهم الله وكافأهم.

الجحيم: اسم من أسماء جهنم حيث يُعذب بها العصاة بالنار.

موقف اليهود والنصارى والمشركين من المسلمين

وبعد أن ذكر الله سبحانه أحوال النصارى وغلوّهم بادّعاء ألوهية المسيح عليه السلام، كما ذكر أحوال اليهود وشيوع المنكرات فيهم دون إنكارها، بيّن الله في الآية التالية أحوال اليهود في عدائهم للمؤمنين من جهة، وبين مودة النصارى للمسلمين من جهة أخرى، قال الله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ(١) أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِين آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِين أَشْرَكُوا﴾

أقسم الله لرسوله محمد مؤكداً له بأن أشدّ الناس عداوة للمؤمنين اليهود والمشركون، وقدّم الله اليهود على المشركين لأن عداوتهم أشدّ وأقوى بسبب ما يضمرونه لصاحب الدعوة الإسلامية من الحسد والحقد والكبرياء.

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي انتقل فيها رسول الله إلى المدينة المنورة حيث جمع قبيلتي الأوس والخزرج على الإسلام وكانت هاتان القبيلتان مِنْ قَبْلُ حليفتين لليهود، كما أبرم العهود مع اليهود وسالمهم، ولكن اليهود نقضوا العهود ودبّروا المؤامرات لاغتيال رسول الله والقضاء على دعوته.

كما أنهم حاربوا الإسلام بتشويه تعاليمه السامية بما دسّوا فيه من الإسرائيليات.

وفي كل أدوار التاريخ كان لهم دور في العداء للإسلام، من ذلك ما دبروه في أوائل القرن العشرين من الانقلابات في تركيا بعزل الشريعة

---

(١) لتجدن: اللام الداخلة على تجدن لام القسم والنون هي نون التوكيد.

الإسلامية عن الحكم وإلغاء الخلافة الإسلامية.

وهم حالياً يتحالفون مع كل دولة تضمر العداء للإسلام ويمدونها بالسلاح والمعونات الاقتصادية، ويقومون بحملة مسعورة ضد العرب والمسلمين عن طريق أجهزة الإعلام التي يملكون الكثير منها في العالم، وإنّ المجازر التي يرتكبونها في فلسطين ضد العرب والمسلمين شاهدة على شدة عداوتهم للإسلام.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلّذين آمَنُوا الّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى﴾ أي وبالمقابل لتجدنّ يا محمد أقرب الناس محبة ومودة للمؤمنين الذين قالوا إنّا نصارى وذلك لما في قلوبهم من الرأفة والرحمة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُم لا يَسْتكبِرُون﴾** لأن فيهم قسيسين يعلّمونهم دينهم ويتوددون إلى الإسلام الذي رأوا فيه ديناً يوافق كثيراً من المبادىء المسيحية، كما أن منهم رهباناً يُضرب بهم المثل في الزهد والإعراض عن متاع الدنيا وزينتها، ويغرسون في نفوس المسيحيين الخوف من الله، كما أن من أسباب مودتهم للمسلمين التواضع وأنهم لا يستكبرون عن الخضوع والإذعان للحق، وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين العرب لأن غرورهم واستكبارهم جعلاهم ينصرفون عن الحق، فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار وأن النبوّة خاصة بهم، والمشركون يرون أن النبوّة يجب أن تكون في أغنيائهم وزعمائهم وهم الذين قالوا كما نقل عنهم القرآن ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾

الرسول: هو محمد ﷺ. وما أُنزل إليه: هو القرآن الكريم. أي من صفات علماء النصارى ورهبانهم أنهم إذا سمعوا ما أُنزل على محمد من قرآن تأثرت بِهِ قلوبهم وسالت الدموع من مآقيهم بغزارة **﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾** أي بسبب ما عرفوا من الحق الذي بيّنه القرآن **﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** أي اتجهوا إلى ربهم معترفين بربوبيته وحده ومقرّين بالإيمان الصادق المنبعث من قلوبهم، وطلبوا من الله تعالى أن يكتبهم من الذين شهدوا بالحق وشهدوا برسالة النبي محمد ﷺ.

هذه الآيات التي وردت في النصارى قيل إنها جاءت في النجاشي ملك الحبشة وصحابته وإليكم بيان ذلك:

نزل بالمسلمين في بدء الدعوة الإسلامية كثير من الاضطهاد والتعذيب من قِبَلِ كفار قريش في مكة، عند ذلك أشار عليهم النبي محمد ﷺ بأن يهاجروا من مكة للنجاة بدينهم، فلما سألوه أين يذهبون؟ نصحهم بأن يذهبوا إلى بلاد الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه. وقد هاجر إلى الحبشة كثير من المسلمين، فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم أصابوا بها داراً وقراراً ائتمروا بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين من قريش إلى النجاشي ليقنعوه بردّ هؤلاء المهاجرين إلى مكة ليفتنوهم عن دينهم فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا ليقدموها إلى النجاشي ولبطارقته.

ولما مَثَلا بين يدي ملك الحبشة قالا له: أيها الملك قد ضوى ـ أي لجأ ـ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وطلبوا من ملك الحبشة أن يردّ المسلمين إلى مكة، ثم قدّموا هداياهم إليه، فأبى النجاشي أن يقوم بطردهم حتى يسمع منهم ما يقولون في دينهم، وبعث في طلبهم، فلما مَثَلوا بين يديه سألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل الحاضرة؟ فكان الذي كَلَّمه هو جعفر بن أبي طالب الذي شرح له مبادىء الإسلام، وبعد أن انتهى من كلامه قال له النجاشي: هل معك مما جاء به نبيكم عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[1] واحدة، ثم قال لِرَسُولَيْ قريش: انطلِقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما.

وعلى ضوء ما تقدم لا يعني أن معظم النصارى على مودة مع المسلمين، فالنصارى فئتان: فئة اتبعت وصايا الإنجيل وما فيه من الفضائل الخيّرة، وفئة أخرى تحالفت مع اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] هؤلاء

(١) المشكاة: كوّة في الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح ونحوه، والمراد أن القرآن والإنجيل كلام الله وأنهما من مصدر واحد.

المسيحيون تديّنوا عن عصبية وهم الذين وقفوا مع اليهود في وجه الدعوة الإسلامية حرصاً على كيانهم من الزوال. واليوم نرى ذلك في بعض الدول التي تدين بالمسيحية وتتحالف مع اليهود ضد الحق العربي المسلم في فلسطين.

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله هؤلاء الذين استمعوا إلى القرآن وفاضت أعينهم من الدمع: **﴿وَمَا لَنا لا نُؤمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ﴾** الاستفهام هنا إنكاري فيه معنى التعجب، فهو بمعنى النفي من أن يحدث منهم عدم الإيمان، لأن موجب الإيمان قد وجد بعد استماعهم للقرآن الذي وجدوا فيه الحق **﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِين﴾** وهم يطمعون أن يُدخلهم ربهم مع القوم الصالحين وهم أمة محمد ﷺ الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾ فكافأهم الله على حُسْنِ إيمانهم جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار **﴿خَالِدينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحسِنِينَ﴾** أي ماكثين فيها أبداً، وذلك العطاء الرباني والنعيم المقيم الذي منحه الله لهم هو جزاء إحسانهم، وذلك بسبب فعلهم الشيء الحسن من الإيمان بالله وما نزل من الحق، وليس هذا الثواب قاصراً عليهم بل يعمّ كل من أحسن إحسانهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾ والذين كفروا وجحدوا الحق وكذبوا بآيات القرآن هم أصحاب النار وسكانها المقيمون فيها ولا يفارقونها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾

شرح المفردات

ولا تعتدوا: ولا تتجاوزوا الحلال إلى فعل الحرام.

النهي عن تحريم ما أحلّ اللّه من الطيبات

وبعد أن أثنى الله على القسيسين والرهبان الذين رضخوا إلى الحق عند سماعهم آيات القرآن تتلى عليهم، بيّن القرآن في الآيات التالية أن الرهبانية وما فيها من تقشف وحرمان لا يوجبها الإسلام ولا يلزم بها المسلمين، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُم﴾ ويعني بالطيبات اللذيذ من الأطعمة التي تستطيبها وتشتهيها النفوس، أي لا تحرّموا أيها المؤمنون على أنفسكم الطيّبات التي أحلّها الله لكم كما فعل الرهبان من النصارى وغيرهم من الملل فحرّموا على أنفسهم النساء والمآكل الطيبة والمشارب اللذيذة وحبسوا أنفسهم في الصوامع، فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك **﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** مما يلفت النظر في هذا النص القرآني أن الله سمى حرمان النفس مما أحله الله من الطيبات تجاوزاً للحدود التي رسمها الله في

الحلال والحرام، والله لا يحب من يتعدى حدوده.

وقد رُوي أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رفضوا التزوج بالنساء وأكل اللحم وأرادوا أن يتخذوا من الصوامع مسكناً لهم، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «ليس في ديني ترك النساء واللحم، ولا اتخاذ الصوامع»[(١)].

وجاء في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها، أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب[(٢)] عن سُنَّتي فليس مني[(٣)].

فالإسلام حدد للمسلمين السلوك الذي يجب أن يراعوه من تلبية رغباتهم الجنسية في حدود الرابطة الزوجية، كما أباح لهم المآكل الطيبة المغذية لسلامة أجسادهم ونشاط عقولهم، فإن العقل السليم في الجسم السليم.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ أي كلوا ـ أيها المؤمنون ـ من رزق الله الحلال الطيب، وقد وصف الله الرزق بأن يكون طيباً أي يكون كسبه من طريق حلال لا خبث فيه، لأن الطعام يكون خبثاً إذا

---

(١) رواه الطبري في تفسيره.

(٢) رغب: أعرض عن شيء وتركه.

(٣) متفق عليه.

اكتسب من الربا والمال الحرام والرشوة ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الذي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ أي خافوا ربكم ـ أيها المؤمنون ـ من أن تتعدوا حدوده فَتُحِلّوا ما حرّم عليكم وتجعلوه حلالاً لكم وتحرموا ما أحلّ الله لكم فتجعلوه حراماً، واحذروا أن تخالفوه في ذلك فينزل بكم سخطه وتستوجبوا عقوبته، فالتزموا حدود الله إن كنتم بوحدانيته مقرّين، وبربوبيته مصدّقين، وقد قرن الله التقوى بالإيمان، لأن الإيمان بالله يقتضي التقوى.

وإذا كان الإسلام أباح الطيبات فإنه حرّم الإسراف فيها بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

كما أن الله طلب من عباده أن يقوموا بالشكر على نعمه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

شرح المفردات

الأيمان: جمع يمين وهو القَسَم والحلف.

باللغو في أيْمانكم: الحلف من غير قصد القَسَم.

عقدتم الأيمان: توكيد القَسَم بالقصد والتصميم.

فكفارته: أي الأعمال الصالحة التي تمحو بعض الذنوب، أو ترفع إثم الإخلال بالقسم.

من أوسط ما تطعمون أهليكم: الأوسط المعتدل من كل شيء والمراد هنا الأغلب من الطعام الذي يأكله الناس.

تحرير رقبة: إعتاق رقيق من العبودية إلى الحرية.

كفّارة اليمين

وبعد أن نهى الله المؤمنين عن تحريم الطيبات على أنفسهم بيّن الله حُكْمَ القَسَم وكيفية التحلّل منه إذا حصل، قال تعالى:

﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ في أيْمَانِكُمْ﴾ أيْمان: جمع يمين وهو الحلف والقَسَم، وسبب نزول الآية: أن بعض المسلمين حرّموا طيبات

المطاعم والملابس والنساء على أنفسهم وحلفوا على ذلك، فلما نزلت الآية **﴿لا تُحرِّمُوا طيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُم﴾** قالوا: كيف نصنع بأيْماننا ـ أي بما أقسمنا به ـ فنزلت الآية **﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ﴾** أي لا يؤاخذكم الله ولا يلومكم إذا صدر منكم القَسَم على سبيل اللغو ولا كفارة فيه.

واللغو لغة: هو ما لا يعتدّ به من كلام وغيره ولا يحصل منه على نفع، واللغو في اليمين ـ أي في القَسَم ـ الحلف من غير قصد ولا نية.

ويمين اللغو على أنواع، منها:

قول الحالف: لا والله، بلى والله في حديثه على سبق اللسان من غير قصد.

ومنها: أن يحلف الرجل على شيء يظن أنه صادق فيه ثم يتبيّن له خلاف ذلك.

ومنها: ما يحصل عند التبايع فيقول أحد الرجلين: والله لا أبيعك بكذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا وبكذا، فهذا من اللغو الذي لا يُؤاخذ به.

ومنها: أن تحلف وأنت غضبان.

ومنها: أن تحلف على فعل الحرام، فلا مؤاخذة بتركه ولا كفارة فيه.

ومنها: أن يقول الرجل: والله ما فعلت وقد فعل، أو يقول: والله لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله، متعمداً الكذب فهو آثم ولا كفارة عليه.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ أي ولكن الله يلومكم ويعاقبكم في الآخرة بما يصدر عنكم من اليمين التي أكدتموها بالقصد والتصميم والعزم ولم تقوموا بالوفاء بما أقسمتم عليه[١]، فإذا أردتم أن ترفعوا الإثم عن هذا القسم، ورأيتم أن تنفيذه سيحرمكم خيراً كثيراً فباستطاعتكم أن تنقضوا اليمين وتبذلوا في مقابل ذلك كفّارة[٢] لما أقسمتم عليه، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إني والله ـ إن شاء الله ـ لا أحلف على يمين فأرى خيراً منها، إلاّ كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»[٣].

وكفارة اليمين على أنواع ذكرها القرآن فيما يلي:

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي كفارة اليمين هي إطعام عشرة مساكين تغديهم وتعشيهم من غالب قوت البلد. والمراد بالأوسط أي في القيمة فلا يكون غالياً من أعلى الموجود ولا زهيد الثمن من أردأ الموجود، وليس هو أقل ما يأكله أهل البلد ولا هو أكثر بل يكون وسطاً في ذلك، ولا يجوز أن يطعم غنياً ولا قريباً له من ذوي الأرحام تلزمه نفقته.

وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام بدلاً من إطعام

---

(١) كأن يحلف الرجل ويقول: والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل، والرجل يقول: والله لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل.

(٢) الكفّارة: هي ما شرعه الله من وجوه البر كالصدقات والصوم وعتق الرقيق، يفعل ذلك من لم يستطع الإيفاء: بما أقسم عليه. وسميت كفارة لأنها تمحو الخطيئة والذنب وتسترهما، لأن أصل معنى الكفر بفتح الكاف التغطية والستر. هذا وقد حدد الإسلام لبعض الخطايا كفارات يفعلها المسلم للتخلص منها ومحوها.

(٣) أخرجه مسلم.

عشرة مساكين في يوم واحد، كما أجاز إخراج قيمة الكفارة من المال وإعطاءها للمساكين العشرة أو للمسكين الواحد مقابل عشرة أيام **﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾** أي وكما يجوز أن تكون الكفارة طعاماً يجوز أن تكون كسوة لعشرة مساكين، والكسوة تختلف باختلاف البلاد والأزمنة، والكسوة أدناها ثوب واحد لكل مسكين أو عباءة، أو يعطي لكل مسكين من المساكين العشرة من الكسوة ما يصح أن يصلي فيها أو قيمة كل كساء من المال لكل مسكين كما أجاز ذلك أبو حنيفة.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ومن الكفارة عتق إنسان من الرق ذكراً أو أنثى مقابل أن يحنث[١] في يمينه، واشترط بعض الفقهاء أن تكون النفس المستَرَقّة مؤمنة، وأجاز أبو حنيفة عتق النفس الكافرة، وهذا يبيّن لنا حرص الإسلام على تحرير الأرقاء ـ أي العبيد ـ من الرق في زمن كان فيه الرق شائعاً.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام﴾ أي فمن عجز عن الإتيان بواحدة من الثلاث المتقدمة: الإطعام أو الكسوة أو تحرير رقبة فعليه أن يكفِّر عن يمينه بصوم ثلاثة أيام متتابعات عند أبي حنيفة، ولا يشترط التتابع عند الشافعي وغيره من الفقهاء، كما يشترط أن ينوي الصيام من الليل **﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾** أي ذلك كَفَّارة اليمين إذا حلفتم بالله ثم حنثتم ولم تقوموا بالوفاء بما حلفتم به **﴿وَٱحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾** أي قللوا من الحلف، فلا تحلفوا إلا لإحقاق حق أو دفع باطل وقوموا بالوفاء بما حلفتم به **﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم**

---

(١) حنث الإنسان في يمينه: لم يف بما أقسم عليه من فِعْلٍ أو تَرْكٍ.

﴿آيَاتِهِ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي في أحكام الكفارة يبيّن الله لكم أحكام دينكم فيوضحها لكم لتقوموا بشكره على ما أرشدكم إليه من تشريعات نافعة.

والحلف لا يكون إلا باللَّهِ، أو باسمٍ من أسمائِه، أو صفة من صفاته كما أن الحلف لا يكون إلا بالله لقول النبي ﷺ: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت(١).

والقسم الكاذب المتعمد يسمى في الشرع الإسلامي: اليمين الغموس، وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم يوم القيامة وهي من كبائر الذنوب التي ورد فيها الوعيد على فاعلها.

وقد جاء في الحديث الشريف: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ ـ أي كبائر الذنوب ـ قال النبي ﷺ: الإشراك بالله، قال الأعرابي: ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين، قال: ثم ماذا؟ قال النبي ﷺ: اليمين الغموس، قال: وما اليمين الغموس؟ قال: التي يقتطع(٢) بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب(٣).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه ـ أي بما حلف ـ فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة..»(٤).

ومن يحلف كاذباً متعمداً فعليه رد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب على يمينه ضياع حق ثابت، وعليه أيضاً الكفارة المبينة في الآية.

---

(١) متفق عليه.

(٢) يقتطع: يمنعه من حقه.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه مسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ
مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ
وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا
عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

المَيْسِر: القمار.

الأنصاب: هي حجارة حول الكعبة كانوا يذبحون قرابينهم عندها.

الأزلام: هي سهام من الخشب كانوا يقترعون بها قبل القيام بأي عمل، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي والثالث خلو من الكتابة.

رجس: الرجس هو كل ما يستقذر حساً أو معنى.

فهل أنتم منتهون: استفهام إنكاري بمعنى انتهوا.

فإن تولّيتم: فإن أعرضتم عن الإيمان.

جناح: إثم وذنب.

فيما طعموا: فيما تناولوه من الخمر قبل التحريم.

تحريم الخمر والقمار

وبعد أن نهى الله عن تحريم ما أحل من الطيبات لعباده، وكان من جملة الأمور المستطابة عند العرب الخمر والقمار، بيّن الله في الآيتين التاليتين أنهما غير داخلتين في الأمور التي أحلها الله، بل هما محرّمتان وذلك بسبب ما ينشأ عنهما من الأضرار، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إنَّما الخَمْرُ﴾ حرّم الله في هذه الآية الخمر وهي ما أسكر من عصير كل شيء، وسُمِّيَتِ الخمر خمراً لأنها تخمر العقل وتستره.

والخمر في تعريف أكثر الفقهاء: كل ما أسكر قليله أو كثيره سواء اتُّخِذَ من العنب أو التمر أو الحنطة أو الشعير أو غيرها. وتشمل الخمر ما يعرف اليوم باسم الويسكي والشمبانيا والفودكا والبيره وغيرها. وقد قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»(١).

ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام»(٢).

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن المسكر حرام قَلّ أو كَثُر، سكر منه شاربه أو لم يسكر. وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

وتحريم الخمر ينطبق على جميع المخدرات مثل الأفيون والحشيش والقات والكوكايين والهيرويين لأن لها نفس التأثير، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه: «نهى عن كل مسكر ومُفَتِّر[١]»[٢].

وقد شدّد رسول الله ﷺ من التنفير من الخمر بقوله: «لَعَنَ الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها»[٣].

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ وكما حرّمت الآية الخمر حرمت كذلك المَيْسر وهو القمار، وقد اختار الله هذا الاسم من اليُسر ولم يسمه المعسر، ذلك أن أحداً لا يُقبل على القمار وهو يظن أنه يخسر لذلك جاء بالاسم الذي يعبّر عن حالة اللاعب للقمار. والمَيْسر هو كل ما يتراهن فيه الناس من معاملة فيها قصد الكسب المطلق أو الخسارة دون عمل، ومن المَيْسر أوراق اليانصيب والرهان في سباق الخيل. فالكسب الحاصل من الميسر هيّن على المقامر، لذا يبدّده أو ينفقه فيما لا ينفع، فالكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه. والقمار يعطل الرغبة في العمل لكسب الرزق ويجعل المقامر يعيش في أوهام الربح السريع.

﴿والأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ﴾ والأنصاب هي حجارة مقدسة عند عرب الجاهلية يذبحون عليها القرابين المقدمة للأصنام، وقيل: هي الأصنام. والأزلام مر الكلام عنها في الآية الثالثة من هذه السورة.

---

(١) المفتِّر: كل شراب يورث الفتور والخدر في الأعضاء والخمول.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

والأنصاب تقوم على تقديس أحجار معينة فإن كانت للذبح عليها وتقديم القرابين إلى الأصنام فهي لون من الشرك بالله، وإن كانت نصبت للعبادة فهي شرك صريح بالله سبحانه.

ثم عقّب القرآن على الخمر والقمار والأنصاب والأزلام قوله ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ والرِّجس يطلق على الأشياء القذرة والنجسة، ومعنى كونها من عمل الشيطان أي أن الأنصاب والأزلام والخمر هي من وسوسة الشيطان فكأنه هو الذي عملها وفي ذلك تنفير لمتعاطيها بأنه يعمل عمل الشيطان.

وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخمر نجسة نجاسة مغلظة كالبول والدم لثبوت حرمتها وتسميتها رجساً، بينما ذهب البعض الآخر منهم ربيعه شيخ مالك والصنعاني والشوكاني، والمزني وهو من أصحاب الشافعي إلى طهارتها، وحملوا الرجس في الآية على النجاسة المعنوية ﴿فَاجْتَنِبُوهُ[1] لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ أي اجتنبوا الأمور التي نهاكم الله عنها أي اجعلوها في جانب وأنتم في جانب لترجوا الفوز والفلاح، لأن مجالسة الشاربين للخمرة والمقامرين لا يتحقق فيها الأمر بالاجتناب،

(١) تجري على ألسنة البعض كلمات تشكك في تحريم الخمر، فيزعمون أن الله سبحانه لم يقل الخمر حرام، بل قال: اجتنبوه، واجتنبوا كما يقولون لا تدل على التحريم كدلالة كلمة «حرمت» والجواب على ذلك: إن كلمة «اجتنبوه» أدل على التحريم من «حرمت» لأن اجتنبوه أي اطرحوه جانباً أي أنه حرام فيجب اجتنابه. ومن جهة أخرى فإن القرآن قرن تحريم الخمر بتحريم الأوثان في قوله تعالى: **﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾** والأنصاب هي الأوثان فجعل حرمة الخمر كحرمة الأوثان لأنه قرنها بها في تعبير واحد. ومعلوم أن حرمة الأوثان هي أكبر حرمة حرمها الإسلام ويؤيد هذا أن كلمة اجتنبوه جاءت في موضع آخر في تحريم الأوثان قال الله تعالى: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾** [سورة الحج].

فالاجتناب يتضمن النهي عن دخول الحانات التي تُعاقر فيها الخمرة ويدار فيها القمار ومن حام حولها يوشك أن يقع فيها.

ثم ذكر الله سبحانه بأن للخمر والقمار مفسدتين، أُولاهما دنيوية والثانية دينية **﴿إِنّما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ﴾**.

فالشيطان يريد بوساوسه أن يُوقع العداوة والبغضاء بين بعضكم البعض عن طريق شرب الخمر، ذلك أن شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذي كان يمنعه من الأقوال والأعمال القبيحة فعندها يسيء إلى الناس دون أن يكون عنده رغبة حقيقيّة في ذلك ويسرع إليه الغضب بالباطل، وبذلك تكون الخمر سبباً للإساءة إلى الآخرين بالمشاجرة والخصام وما يستتبع ذلك من أحقاد وبغضاء.

والميسر وهو القمار مجلبة للعداوة والبغضاء فإن ربح المقامر لا يقوم إلا على خسارة الغير، فالمقامر مغتصب مال الغير على مرأى منه، وكلما أوغل الإنسان في الخسارة كلما اشتد بغضه للرابح الذي يسلبه ماله في لحظات قليلة، وكثيراً ما يتمادى لاعب القمار في الخسران حتى يفقد كل ماله فيؤدي به ذلك إلى عدم السيطرة على نفسه، فيتعرض للرابح بالشتم ويضمر له كل شر وربما انتهى ذلك بالشجار والخصام.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ﴾ والخمر تصد عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة لأن السكران لا عقل له كاملاً ولا وعي حتى يذكر به ربه ويثني على نعمه، ويعبده عبادة مبنية على التعقل والتفكر والإحساس المرهف، ولا تتحقق عبادة الله إذا سكر الإنسان.

كما أن القمار يصد عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة، فالمقامر تتوجه جميع قواه العقلية إلى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة ويستغرق في ذلك أوقَاتاً طويلة تنسيه ذِكْرَ خالقه وتلهيه عن أداء الصلاة التي تسمو بروحه وتقرّبه إلى خالقه.

ثم ختم الله الكلام عن الخمر والقمار بقوله: **﴿فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ﴾** أي إذا كنتم قد علمتم ما في الخمر والميسر من مضارّ وما يسببان من عداوة وبغضاء بينكم، أفأنتم منتهون بعد ذلك عنهما تاركون لهما؟ أم أنتم باقون على غيّكم وضلالكم؟ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ومؤدّاه: انتهوا عما أنتم عليه.

ولما علم عمر رضي الله عنه أن هذا وعيد شديد وزجر زائد على معنى انتهوا قال: انتهينا يا رب. ثم أمر النبي ﷺ مُنَادِيَه أن يُنادي في طرق المدينة ألا إن الخَمْرَ قد حرّمت... فكُسرت أوانيها بعدما أريقت حتى جرت في طرق المدينة.

ثم أكد الله هذا التحريم بقوله: **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾** أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به وما نهيا عنه واحذروا مخالفتهما **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُم﴾** فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ﴾** أي فاعلموا أن الرسول محمداً عليه تبليغ رسالة الله وتأدية الأمانة وليس مسؤولاً عن عصيانكم. وفي ذكر **﴿رسولنا﴾** مضافاً إلى الله تشريف للنبي ﷺ.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ هذا النص القرآني يبيّن حُكْمَ الذين كانوا يتعاطون شرب الخمر قبل

تحريمها، فقد قال ناس من أصحاب الرسول ﷺ: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فقال سبحانه: ليس على الذين آمنوا وعملوا صالح الأعمال إثم وعقوبة فيما شربوا الخمر قبل تحريمها، وكلمة ﴿**طَعِمُوا**﴾ تطلق على تناول المشروب والمأكول ﴿**إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي إذا اتقوا الله بخشيته والعمل بطاعته وآمنوا بما نُزِّل من عند الله من الأحكام وعملوا الأعمال الصالحة ﴿**ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا**﴾ ثم انتهوا عن الخمر والميسر بعد التحريم وثبتوا على تقوى الله في ذلك والإيمان به، والعطف بثمّ يفيد الاستمرار والدوام على الحالة المذكورة ﴿**ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**﴾ والمقصود من تكرار التقوى التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى وضم الإحسان إليهما. والإحسان يأتي بمعنى الإنعام على الغير، كما يأتي بمعنى العمل الحسن وهو أن يعملوا بما فرضه الله عليهم من العبادات والأعمال الصالحة ويزيدوا عليها بما ذاقوا من حلاوة الإيمان «فالمحسن هو من عشق التكليف من الله وعرف منزلة القرب من الله فوجد أنَّ الله قد كلّفه دون ما يستحق ـ سبحانه ـ مِنّا فزاد من العمل الذي يزيده قُرْباً من الله»(١) كما أن من الإحسان الاستغراق في عبادة الله، وفي الحديث الشريف عندما سئل رسول الله ﷺ عن الإحسان، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢) ثم يختم الله الآية بقوله ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ وفي هذا إشادة بالإحسان ومنزلة المحسنين عند ربهم حيث خصهم بحبه، وهي أقصى مرتبة يطمح المؤمن بالوصول إليها.

---

(١) نقلاً عن تفسير الشعراوي.

(٢) أخرجه البخاري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ
ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ
وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ
مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)﴾

شرح المفردات

ليبلونكم: ليختبرنكم.

بشيء من الصيد: ما صِيدَ من حيوانات البر الوحشية ومن الطيور.

تناله أيديكم ورماحكم: يراد به كثرته وسهولة اصطياده.

وأنتم حرم: أي وأنتم محرمون بحج أو عمرة.

من النّعم: وهي الإبل والبقر والغنم.

ذوا عدل: رجلان عادلان.

هدْياً بالغ الكعبة: يُهدى إلى الحرم ويذبح فيه للتوسعة على الفقراء.

أو عدل ذلك صياماً: أو عليه ما يعادل ذلك الطعام صياماً.

ليذوق وبال أمره: ليذوق جزاء شر عمله.

كفّارة صيد البر لمن استحله وهو محرم أو في الحرم

وبعد تحريم الخمر والقمار يأتي تحريم الصيد في حال الإحرام أو في الحرم، والإحرام هو أن يلبس الشخص ثياب الإحرام ناوياً القيام بشعائر الحج أو العمرة والدخول في حرماتها من نسك ومحظورات،

ومن بينها الامتناع عن صيد البر. والحرم هو مكة وما حولها حيث حرّم الله فيها كثيراً مما ليس بمحرّم في غيرها كالصيد وقطع النبات ونحوهما، وهذا كله ليعيش الإنسان المؤمن في سلام ووئام مع أخيه الإنسان وحتى مع الحيوان، حتى يتفرغ القلب للخالق وتصفو النفس فلا تتعرض لأذى الغير. قال تعالى:

﴿يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لَيَبْلُونَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ فالله سبحانه يخاطب المؤمنين بأنه سيختبرهم وهم في حالة الإحرام بشيء من الصيد، وكلمة **﴿بشيْء﴾** فيها معنى التقليل والتصغير، أي أن هذا الاختبار لا يتضمن المشقة الكبيرة التي يكون فيها التكليف صعباً، وإنما هو تكليف واختبار سهل **﴿تَنَالُهُ أيديكُم وَرِمَاحُكُمْ﴾** فما تناله الأيدي من الصيد هو الفراخ، وما لا يستطيع أن يفرّ من صغار الصيد، وأما ما تناله الرماح فهو كبار الصيد مثل حمر الوحش والظباء **﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالغَيْبِ﴾** وعِلْمُ الله هنا مجاز لأنه سبحانه عالم بالماضي والحاضر والمستقبل، أي ليتميز من يخاف الله وهو لم يره ممن لا يخافه، وأن الذي ينجح في ذلك الامتحان يكون ممن يخاف الله تعالى في غيبه عنه **﴿فَمَنِ ٱعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** والاعتداء تجاوز الحد ومخالفة أوامر الله تعالى، أي فمن اصطاد منكم بعدما أعلمكم الله بذلك، فله عذاب شديد الإيلام في الآخرة بسبب عصيانه لله تعالى.

وسبب نزول هذه الآية هو أن المسلمين حينما كانوا يؤدون العمرة التي أُطلق عليها عُمرة الحديبية ابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحش والطير التي تصاد تغشاهم في رحالهم مما لم يروا مثله قط فيما مضى،

فنهاهم الله عن قتلها وهم في حالة الإحرام. ومن المعروف عن العرب حبهم للصيد وولعهم به لذا امتحن الله المؤمنين واختبرهم ليرى: هل سينقادون إلى شهوة الصيد مخالفين أوامر الله أم أنهم سيلتزمون طاعته؟

﴿يَاأَيُّها الّذين آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ والصيد المنهي عن قتله هو كل حيوان يؤكل لحمه لأن الذي يحرم أكله ليس بصيد وإلى هذا ذهب الأئمة الشافعية. أما الأئمة الحنفية فيرون أن الصيد المحرّم قتله هو كل حيوان متوحش سواء أكان مأكولاً أم غير مأكول.

وفي الحديث الشريف: «خمس فواسق يُقتلن في الحلِّ والحرم: الغراب والحدأة، والعقرب والفأرة والكلب العقور»(١) وقد ألحق مالك وأحمد بالكلب العقور: الذئب والسبع والنمر والفهد لأنها أشد ضرراً منها.

وفي قوله تعالى ﴿وَأَنْتُم حُرُمٌ﴾ قيل: المراد به وأنتم محرمون بالحج. وقيل: المراد به: وقد دخلتم بالحرم، وقيل: هما مرادان بالآية. فالمُحرم ممنوع من الصيد مطلقاً داخل الحرم وخارجه، وغير المُحرم ممنوع من الصيد داخل الحرم.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُم مُتَعَمِّداً﴾ ذكر الله سبحانه المتعمد في وجوب الجزاء خاصة وللتوضيح فإن الذي يقتل الصيد ثلاثة أقسام: متعمد ومخطىء وناسٍ، فالمتعمد هو القاصد للصيد مع العلم أنه في حالة الإحرام، والمخطىء هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً خطأ، والناسي هو الذي يتعمد الصيد ولكنه لا يذكر أنه في حالة الإحرام، وقد ذكر جمهور من الصحابة أنه يجب عليه الكفارة في العمد والخطأ

(١) متفق عليه.

والنسيان، وذهب الطبري وأحمد في إحدى روايتيه إلى أنه لا شيء على المخطىء والناسي ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي فعلى الصائد أن يؤدي نظير الصيد الذي صاده كفارة تماثل ما قتله من النعم: وهي الإبل والبقر والغنم، واختلف الصحابة في هذه المماثلة: هل تكون في الخلقة أم بالقيمة؟ والذي عليه جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء أن المماثلة تكون في الخلقة أي في الحجم والمنظر، فحكموا في النعامة بناقة وهي لا تساوي ناقة، وحكموا في حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوي بقرة، وفي الظبي شاة.

وقيل المراد بالمثل: قيمة الصيد المقتول ـ يقوّمُ في المكان الذي صِيد فيه أو في أقرب الأماكن إليه ويراعى زمان القتل في التقدير.

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي يقضي بالمماثل للمقتول من صيد الحرم رجلان عدلان من المؤمنين من أهل الدين والفضل والمعرفة ﴿هَدْياً بالِغَ الكَعْبَةِ﴾ أي أن جزاء الصيد الذي يحكم به الرجلان العدلان يكون هدية من الصائد تبلغ الحرم المكي فتذبح هناك ويتصدق بلحمها على مساكين الحرم، والمراد بالكعبة في الآية الحرم ـ أي مكة وما حولها ـ ولم يقصد الكعبة بعينها فإن الهدي لا يبلغها إذ هي في المسجد، وإنما خُصَّت الكعبة بالذكر تعظيماً لها.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً﴾ ذهب جمهور العلماء إلى أن كلمة ﴿أو﴾ في الآية للتخيير، فالجاني مخير بين هذه الأنواع التي ذكرتها الآية إن شاء ذبح ما يماثل الصيد المقتول من الأنعام ويتصدق به على مساكين الحرم، وإن شاء قوّم المثل دراهم

والدراهم طعاماً بحيث يعطي لكل مسكين نصف صاع[١] من القمح أو صاعاً من غيره كما ذهب أبو حنيفة أو يعطي لكل مسكين مُدًّا[٢] من الطعام كما ذهب الشافعي، أو يكون عليه أن يصوم ما يعادل هذا الطعام صياماً بأن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وما قلّ عن طعام المسكين يصوم عنه يوماً كاملاً ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ الوبال: الثِّقَل والشدة، أي شرع الله هذا الجزاء على قتل الصيد ليذوق القاتل جزاء ذنبه وسوء عاقبته وثقل فعله ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي عفا الله عما سبق لكم من قتل الصيد قبل تحريمه ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد بعد تحريمه فإن الله يعاقبه على ما ارتكب ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ والله سبحانه هو القوي الغالب لا يمنعه مانع من الانتقام ممن عصاه في الآخرة.

أما الكفارة فقد أوجبها جمهور الفقهاء على العائد إلى قتل الصيد، ويتكرر الجزاء له كلما كرر الصيد في الحرم.

---

(١) الصاع عند جمهور العلماء يساوي ٢,٠٤ كلغ.

(٢) المد عند جمهور العلماء يساوي ٥١٠غ.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

شرح المفردات

وللسيّارة: وللمسافرين منكم.

ما دمتم حُرُماً: ما دمتم محرمين.

الذي إليه تحشرون: أي تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة للحساب.

قياماً للناس: ما يقوم به أمر الناس ويصلح شأنهم في دينهم ودنياهم.

والشهر الحرام: (ال) في الشهر للجنس أي أشهر الحرم الأربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب.

والهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام قربةً إلى الله للتوسعة على فقراء الحرم.

والقلائد: الإبل التي تقلد بلحاء الشجر أو غيرها ليُعلم أنها هدي.

تحليل صيد البحر

بعد أن حرّم الله صيد البر لمن كان في الإحرام، وكذلك في الحرم بيَّن الله حكم صيد البحر للمحرمين بقوله:

﴿أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ أي أُحِلّ لكم ـ أيها المؤمنون ـ صيد البحر والمراد بالبحر ما يشمل المياه المالحة كالبحار أو العذبة كالأنهار والبحيرات، كما أحل الله لكم أكل ما صدتموه منه، أو بما قد قذفه البَحْر على الشاطىء أو طفا على وجه الماء، وفي الحديث الشريف عن البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»(١). واستثنى بعض العلماء صيد الضفدع لما روي عن النبي ﷺ «أنه نهى عن قتل الضفدع وقال: نقيقها تسبيح»(٢) ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي ينتفع بهذا الصيد المقيمون والمسافرون ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُماً﴾ وحَرَّمَ الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ اصطياد حيوان البر أو طيره والأكل منه ما دمتم في حالة الإحرام. وقد اختلف العلماء فيما يأكله من كان في حالة الإحرام من الصيد إذا اصطاده غيره، فذهب قوم إلى أنه لا يحل ذلك بحال، وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه، ولا صِيد بناء على طلبه، ولا بإشارته ولا أعان عليه غيره ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واخشوا الله ـ أيها المؤمنون ـ واحذروا غضبه بطاعته فيما أمركم به فلا تستحلوا الصيد في حال الإحرام ولا في الحرم ﴿الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فهو سبحانه إليه مصيركم ومرجعكم فيعاقبكم على معصيتكم أمره ويثيبكم على طاعتكم له.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ﴾ أي حكم الله بأن تكون الكعبة بيت الله الحرام، وسُمّي بذلك إيذاناً بحرمته وتعظيماً له ﴿قِيَاماً للنَّاسِ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه النسائي.

وأن يكون سبباً لقيام مصالح الناس وما به صلاحهم في دينهم ودنياهم، أما في دينهم فإنهم يحجون إليه ويتجهون إليه في صلاتهم، وأما في أمر دنياهم فإن الله جعله ملاذاً للناس، ومن دخله كان آمناً من المخاوف بسبب حُرمة التعرض له وحرمة القتال فيه، كما أنه تجبى إليه ثمرات كل شيء من بقاع الأرض على يد الحجاج الذين يقصدونه لعبادة الله.

﴿والشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ والقَلائِدَ﴾ هذه الثلاث معطوفة على الكعبة وأنها سبب لقيام مصالح الناس، والمراد بالشهر الحرام جنس الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب، ومعنى كون هذه الأشهر قِياماً للنّاس هو أن العرب كانوا يتقاتلون في سائر الأشهر ويُغير بعضهم على بعض حتى إذا أهلّت هذه الأشهر الأربعة كفوا عن القتال، وزال الخوف والفزع من قلوبهم، وباشروا الأسفار للتجارة آمنين على أنفسهم وأموالهم.

وكذلك جعل الله الهدي قياماً للناس، وهي الأنعام التي تُهدى إلى الكعبة وتذبح في الحرم ويوزع لحمها على المساكين فيكون ذلك نسكاً لمن قام بإهدائها وثواباً له وقواماً لمعيشة الفقراء.

وكذلك القلائد وهي الهدي من الأنعام التي تُقَلَّد بعلامات من لحاء الشجر أو الجلد وغير ذلك إشعاراً بأنها هَدْيٌ إلى الله فلا يتعرّض لها أحد بسوء، وقيل: المراد بها البُدن[1] خُصَّت بالذكر لأن الثواب فيها

(١) البُدنُ: النوق، جمع ناقة.

أكثر وهي في هذا قياماً لمعيشة الفقراء والمساكين ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ﴾ أي جعل الله تلك الأمور التي مَرّ ذِكرُهَا قياماً للناس وبها صلاحهم ليعلموا أن الله يعلم عِلْماً شاملاً لما في السماوات والأرض ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وأنه سبحانه من خلال علمه الشامل يشرّع من الأحكام ما تصلح به أمور الناس.

﴿اَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي أن الله شديد عقابه لمن انتهك حرماته وانتهك حدوده ﴿وَأنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأن الله واسع المغفرة والرحمة لمن تاب ورجع إليه بالطاعة.

﴿مَا عَلى الرَّسُولِ إلاّ البَلاغُ﴾ هذا النص يفيد أن الرسول محمداً عليه تبليغ رسالة الله إلى الناس وأنه بلّغ رسالة الله فلا تَبِعَةَ عليه بعد ذلك، ولا عُذر لأحد بعد هذا التبليغ بالإعراض عما بلّغ الرسولُ والإصرار على الكفر، ثم يَعْقُب ذلك ثواب الله لمن أطاعه وعقاب الله لمن عصاه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ والله يعلم ما يظهر من الناس من أعمال وأقوال، ويعلم ما تخفيه نفوسهم ويسرونه في قلوبهم من كفر ونفاق.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن
تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟
بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

شرح المفردات

لا يستوي: لا يتساوى.

الخبيث والطيب: الحرام والحلال والجيد والرديء.

ولو أعجبك: ولو سرّك.

يا أولي الألباب: يا أصحاب العقول.

إن تبد: إن تظهر.

نهي المؤمنين عن الأسئلة التي تؤدي إلى الإضرار بهم

وبعد أن حذّر الله الناس من معصيته ورغّب في طاعته أتبع ذلك بوصف المعصية بصفات تنفر منها النفوس، قال الله تعالى:

﴿قُلْ لا يَسْتَوي الخبِيثُ والطَّيِّبُ﴾ أي قل لهم يا محمد لا يتساوى ولا يتماثل الخبيث والطيّب. والخبيث هو الأمر المستقذر الذي تعافه النفوس والطبائع السليمة ويكون سبب الحصول عليه خبيثاً، والطيّب هو ما يكون حَسَناً في ذاته وفي طريق كسبه، وترضاه النفوس المستقيمة، وهو ما جاءت به الشرائع الإلهية.

وفي كتب التفسير: الخبيث والطيب هما: المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والرديء والجيد، كما أن الخبيث والطيب يشمل المكاسب من الأموال والأعمال والمعارف من العلوم وغيرها.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: الخبيث والطيب قسمان: أحدهما الذي يكون جسمانياً وهو ظاهر لكل أحد، والثاني الذي يكون روحانياً، وأخبث الخبائث الروحانية: الجهل والمعصية، وأطيب الطيّبات الروحانية: معرفة الله تعالى وطاعته، وذلك لأن الجسم الذي يلتصق به شيء من النجاسات يصير مستقذراً عند أرباب الطبائع السليمة، فكذلك الأرواح الموصوفة بالجهل والإعراض عن طاعة الله تصير مستقذرة عند الأرواح الكاملة المقدسة.

فالخبيث والطيب لا يتساويان **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾** أي ولو أثار عجبك واسترعى نظرك كون الخبيث كثيراً. إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يُستحسن شرعاً، أو ترضى به النفوس السليمة، ولا يمكن للشرّ أن يُصبح بالكثرة مساوياً للخير.

وهنالك فرق بين شريعة الله وقوانين الناس، فإن قوانين الناس تستمد قوتها من الكثرة ولو كانت فاسدة، أما شريعة الله فهي للخير المحض **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾** فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ولا تغترّوا بكثرة المال الخبيث، ولا بكثرة أهل الباطل، فالله يريد منكم استعمال عقولكم للتمييز بين الخبيث والطيّب وعدم الانجرار إلى أهل الباطل **﴿لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾** لتفوزوا بثواب الله يوم القيامة.

ثـم ينتقل القرآن إلى نهي المؤمنين عن سؤال رسول الله ﷺ عن حكم من أحكام الدِّين الذي سكت عنه لئلا يؤدي ذلك إلى تكاليف يشق عليهم القيام بها أو السؤال عما لا يعني من أحوال الناس، بحيث يؤدي ذلك إلى كشف عوراتهم والاطلاع على مساوئهم، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُم تَسُؤْكُمْ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا لا تكثروا السؤال على رسول الله عن أمور لا فائدة لكم في السؤال عنها لأنه إن أظهرها لكم ساءتكم ووقعتم في الحرج والمشقة.

روي في أسباب نزول هذه الآية عن أبي هريرة قال: «خطبَنا رسول الله فقال: يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج، فقام محْصن الأسديّ فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما إني لو قلتُ نعم لَوَجبت، ولو وَجَبت ثم تركتم لضللتُم، اسكتوا عني ما سكتُّ عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» فأنزل الله هذه الآية **﴿ياأيها الّذين آمنوا لا تسأَلُوا عَنْ أشياء...﴾** الآية.

ويروى أيضاً أن المسلمين سألوا النبي ﷺ حتى أكثروا عليه من السؤال، فقام مغضباً خطيباً فقال: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي إلاّ حدثتكم! فقام رجل فقال: من أبي؟ قال: أبوك حُذَافةُ. وكان هذا الرجل ينسب إلى غير أبيه، فكان ذلك فضيحة لأمه حيث قالت: ما رأيت أعقَّ منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس؟

فهذا تأديب من الله ونهي لهم أن يسألوا عن أمور لا فائدة في

السؤال عنها بحيث يؤدي السؤال إلى كشف مساوئهم.

وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «.. إن الله كره لكم ثلاثاً قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»[١].

وقال النبي ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[٢].

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: **﴿وَإِنْ تَسأَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ القُرآنُ تُبْدَ لَكُم﴾** أي وإن تسألوا رسول الله عن أشياء نزل بها القرآن مجملة فتطلبوا بيانها وتفسيرها تُبَيّن لكم حينئذ، ويظهرها الله ويبديها على لسان رسوله.

فالسؤال على قسمين: الأول، هو السؤال عن شيء لم يَرِدْ ذكره في القرآن والسنة فهذا السؤال مَنْهيّ عنه، الثاني: السؤال عن شيء نزل به القرآن ولكن السامع لم يفهمه فهنا السؤال واجب.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها. ويمكن أن يكون معنى عفا بمعنى ترك، أي ترك الله حكمها ولم يذكرها بشيء فلا تبحثوا عنها **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** والله كثير المغفرة وواسع الحلم فلا يعجّل بالعقوبة من عصاه.

﴿قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي سأل أمثال

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن والحاكم في المستدرك.

هذه الأسئلة قوم من الأمم السابقة قبلكم كقوم صالح سألوا نبيهم معجزة، فلما أُعطوها كفروا بها وقالوا ليست من عند الله، فأهلكهم الله بسبب كفرهم، وكقوم عيسى سألوا المائدة ثم كفروا بها، وكذلك بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم أشياء ويستفتونهم بها فإذا أُمروا بها تركوها فَحَلَّ بهم العذاب بسبب عصيانهم.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

شرح المفردات

يفترون على الله الكذب: يختلقون الكذب على الله.

حسبنا: كافينا.

عليكم أنفسكم: احفظوها من المعاصي وقوموا بصلاحها.

فينبئكم: فيخبركم.

تحليل ما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم

كان العرب قبل الإسلام يحرِّمون على أنفسهم الأكل من بعض لحوم الأنعام ويحرِّمون ذبحها بناء على أمور اختصت بها، ويحسبون أن ذلك هو من دين الله الذي يجب اتباعه، ولما جاء الإسلام بيّن فساد مزاعمهم، وأوضح لهم أن هذا التحريم الذي ألزموا أنفسهم به ليس هو من دين الله، بل هو من الأوهام والأباطيل التي شاعت بينهم، قال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ﴾ أي ما شرع الله هذه المحرمات التي حرمتموها على أنفسكم وزعمتم أن الله حرمها عليكم وهي ما يلي:

البحيرة: وهي الناقة التي تلد خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً شَقُّوا أُذن الناقة وامتنعوا من ركوبها وذبحها والانتفاع بلبنها وسيّبوها لآلهتهم، ولا يُجَزّ لها وبر، ولا يُحْمَلُ على ظهرها، ولا تُطرد عن ماء، ولا تُمنع عن مرعى.

السائبة: هي الناقة إذا ولدت اثنتي عشرة إناثاً من الولد ليس بينهن ذكر، فعند ذلك لا يُركب ظهرها ولا يُجزّ وبرها ولا يُشرب لبنها إلا للضيف.

الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت سبعاً، عمد إلى السابع، فإن كان ذكراً ذُبح، وإن كان أنثى تُركت، وإن كان في بطنها اثنان ذكر وأنثى فولدتهما قالوا: «وصلت أخاها» فَيُتركان جميعاً لا يُذبحان.

الحام: هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون: حمي ظهره فلا يركب ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

﴿وَلَكِنَّ الَّذِين كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَأَكثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ والافتراء في القرآن هو الكذب القاطع، وما ذكر الافتراء إلا مقترناً بالكذب. والمعنى: أن الله لم ينشىء في شرعه شيئاً من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ولكن الذين كفروا قد قالوا بهتاناً وكذباً على الله في ذلك، فحرّموا على أنفسهم ما أحلّ الله ونسبوا التحريم كذباً إلى الله تعالى، وما دفعهم إلى ذلك إلا أوهام سيطرت على عقولهم فهم لا يفكرون في أمورهم تفكير العقلاء. وفي قوله تعالى: **﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾** إنصاف للقلّة العاقلة التي لم تفعل فعلهم.

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قال قائل لهؤلاء الضالين: تعالوْا إلى ما أنزل الله في القرآن من الأحكام واعملوا بها، واتّبِعوا الرسول محمداً فيما يبلّغكم إِياه من شرع الله يوضحه لكم **﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا﴾** قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين **﴿أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ﴾** أي أيَكْفيهم ما وجدوا عليه الآباء من الدين؟ ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين الحق ولا يهتدون إلى سبيل الله؟! فإذا كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدِّين الحق، فهل من العقل اتِّباعهم والسير على خطاهم؟

والاستفهام في قوله تعالى **﴿أوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾** للإنكار والتوبيخ والعجب من جهلهم وتقليدهم الأعمى لآبائهم.

هكذا كان حال المشركين في زمن نزول القرآن وهو حال أكثر المتدينين في العالم الذين يسيرون على خطى آبائهم ولا يخالفونهم في

شيء ولو كانوا على ضلال. هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام يحرر الإنسان من التقليد الأعمى للآباء في شأن الدِّين الذي سار عليه آباؤه، والدعوة إلى النظر فيه نظرة عاقلة فاحصة، وهذا منهج فكري راقٍ سبق به الإسلام ما توصل إليه العقل البشري مؤخراً من الدعوة إلى التقصي عن الحقائق للوصول إلى ما تطمئن إليه النفس وتنساق إليه عن اقتناع ودليل.

وإذا تحرر الإنسان من العقائد الموروثة عن الآباء التي لا يقبلها العقل سهل عليه الوصول إلى الحقائق الثابتة من دين الله.

وبعد أن أنكر القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم واستمرارهم على ضلالهم، بيّن بعد ذلك أن المؤمنين لا يلحقهم إثم هؤلاء الضالين، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم﴾ خاطب الله المؤمنين بقوله: التزموا إصلاح أنفسكم واعملوا على خلاصها من عقاب الله، وانظروا إلى ما يقربكم من ربكم فإنه ﴿لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضركم من كفر وسلك غير سبيل الحق إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه.

هذه الآية أخطأ البعض في فهمها، فقد رُوي أن أبا بكر الصديق قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها وإني سمعت رسول الله يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[١].

(١) أخرجه الترمذي.

وقد قيل في هذه الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ بأنها أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ تعني احفظوا أنفسكم من المعاصي وذلك يكونُ بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغّب بعضكم بعضاً في الخيرات، وينفّره من القبائح والسيئات، فكان ذلك أمراً بأن نحفظ أنفسنا من المعاصي ولا يكون الحفظ إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقيل: إن الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ خاص حكمها بالكفار الذين لا ينفعهم الوعظ ولا يتركون الكفر، فهنا لا يجب على المسلم أن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقيل إن الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ مخصوصة بما إذا خاف الإنسان عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نفسه أو على عرضه أو على ماله فهنا عليه إصلاح نفسه لا تضره ضلالة من ضل ولا جهالة من جهل.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ**﴾ أي إلى الله وحده مرجعكم ومصيركم في الآخرة فيخبر كل فريق منكم بما كان يعمله في الدنيا ثم يجازيه على حسب ما عمله من خير أو شر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ
حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ
إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ
تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا
نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ
إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا
فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ
فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ
إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ
وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾

شرح المفردات

حَضر أحدكم الموت: ظهرت علاماته.

ضربتم في الأرض: سافرتم فيها.

أصابتكم مصيبة الموت: قاربتم انقضاء آجالكم.

تحبسونهما: تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق والهرب وليس المراد به السجن.

إن ارتبتم: إن شككتم في صِدْق ما يقرّان به.

لا نشتري به ثمناً: لا نستبدل بالقسم بالله مغنماً من مغانم الدنيا.

فإن عُثِرَ: العثور على الشيء هو الاطلاع عليه من غير سبق طلب له.

الأوْلَيان: تثنية أوْلى أي الأجدر والأحق.

أدنى: أقرب.

تُردّ أيْمان بعد أَيْمانهم: تُبطل أيْمانهم بعد أيْمان الورثة، والأيْمان: جمع يمين وهو القسم.

حكم الوصية للمحتضر وهو على سفر

ولما أمر الله المؤمنين فيما سبق بحفظ أنفسهم من الآثام وأنه لا يضرهم من ضلّ إذا اهتدوا، أمرهم في الآيات التالية بحفظ المال عن طريق الوصية التي تكون في سفر ويموت صاحبها. وقد قرّر علماء القانون الوضعي دقّة الإثباتات التي احتوت عليها هذه الآيات لما اشتملت عليه من أمور تحفظ الحقوق لأصحابها بما لا مثيل لها في القوانين المدنيّة، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الّذين آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموْتُ حِينَ الوَصيَّةِ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا إذا قارب وقت حضور الموت أحداً منكم وظهرت علاماته عليه وكان يريد أن يوصي بشيء **﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم أوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُم﴾** أي فالشهادة بينكم على الوصية: هي شهادة اثنين من أصحاب العدالة والتقوى يُشهدهما الموصي الذي قاربه الموت على وصيته ويدفع إليهما أمواله لتسليمها إلى ورثته. وهذان الشاهدان يكونان منكم أي من أهل دينكم ـ يا معشر المؤمنين ـ أو آخران من غير دينكم عند تعذّر وجود المؤمنين **﴿إِنْ أَنْتُم ضَرَبْتُم في الأَرْضِ﴾** المراد به إذا سافرتم لأن المسافر يضرب في الأرض **﴿فَأَصابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾** أي إذا شعرتم أن الموت سيصيبكم وسمّاه القرآن **﴿مُصيبة﴾** لأنه في حدّ ذاته مؤلم ويسبقه قلق.

وفي شهادة غير المؤمنين من أهل الكتاب اختلف الفقهاء في ذلك فذهب فريقٌ من الفقهاء والصحابة إلى أن شهادة أهل الكتاب جائزة على المسلمين في السفر عند عدم وجود المسلمين، وخالفهم الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم لا يقبلون شهادة غير المسلم على المسلم مطلقاً في سفر أو في حضر، وفي وصية أو غير وصية، وذهبوا إلى أن قوله تعالى ﴿**مِنْ غَيْرِكُم**﴾ منسوخ حكمه.

وعند دخول الشك والريبة في هذين الشاهدين على الوصية يقول تعالى: ﴿**تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ**﴾ أي تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس، وكذا فعل رسول الله ﷺ في شأن بعض الأوصياء، وقيل بعد أي صلاة كانت لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق وناهية عن الكذب ﴿**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُم**﴾ أي يحلف هذان الشاهدان بالله أن شهادتهما حق وصدق عند وجود الريبة والشك عند الورثة ﴿**لا نَشْتري**[1] **بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ ويقول هذان الوصيان عند القسم بالله: لا نحصل بيمين الله عرضاً من أعراض الدنيا أو مغنماً منها ولو كان فيه نفع لأحد من أقاربنا ﴿**وَلاَ نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ**﴾ ولا نخفي الشهادة التي أمرنا الله بأدائها صحيحة، وأضيفت الشهادة لله لكونه هو الآمر بإقامتها والناهي عن كتمانها ﴿**إِنَّا إذاً لَمِنَ الآثِمِينَ**﴾ أي أننا إذا أخفينا الشهادة أو قلنا غير الحق كنا من الآثمين المستحقين عقوبة الله.

---

(١) الشراء يطلق بمعنى البيع.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ فإن اطلع وظهر على أن الشاهدين بعد أن حلفا استوجبا إثماً بسبب كذبهما وظهور خيانتهما **﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِين اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾** أي فرجلان آخران من الورثة والأحقان بالشهادة والوصية **﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾** أي يحلفان بالله قائلين: لشهادتنا أصدق وأجدر بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا الأمانة وكذبا الشهادة **﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** أي وما تجاوزنا الحق في يميننا وفيما نسبناه إليهما من خيانة، إننا إذا اعتدينا عليهما وقلنا فيهما خلاف الحق نكون من الظالمين المستحقين لسخط الله علينا.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي ذلك التشريع الحكيم الذي شرعه الله هو أقرب إلى أن يأتي الأوصياء بالشهادة تامة كاملة. فكلمة **﴿على وَجْهِهَا﴾** في الآية المراد بها على أحسن الطرق فاسم الوجه في مثل هذا التعبير مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيهاً بوجه الإنسان الذي يتميز به عن سائر الأعضاء **﴿أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** أو يخافوا أن يحلف غيرهم مظهراً خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا بردّ اليمين التي أقسموا بها **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ واسْمَعُوا﴾** أي خافوا الله فلا تخالفوا أحكامه ولا تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا الأمانة، واسمعوا ما توعظون فاعملوا به **﴿واللَّهُ لا يَهْدي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾** والله لا يوفق من خرج عن طاعته وذلك بأن عصاه وحلف يميناً كاذبة.

روي في أسباب نزول هذه الآيات أن رجلاً مسلماً من بني سهم

اسمه بُديْل قد خرج للتجارة مع تميم الداريّ وعديّ بن بداء النصرانيين. فمرض بديل وكان معه في أمتعته إناء من فضة منقوش بالذهب قاصِداً به ملك الشام.

فلما اشتد مرضه وحضرت له مقدمات الموت أخذ صحيفة فكتب فيها كل ما عنده من المتاع والمال ودسّها بين أمتعته ودفع ما معه إلى تميم وعديّ وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله. ومات الرجل لكن الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه الإناء، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقْتَسَما المبلغ وسلّما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خَبَر الإناء الثمين، وسأل أهل الميت الشخصين اللذين تسلما المتاع عن الإناء فأنكرا أيّ معرفة به، فذهب أهل بديل إلى رسول الله ﷺ وشكوا إليه تميماً وعديًا فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتما الشهادة ولا كذبتما في قولكما ثم وجدوا الإناء بمكة، ولما سئل الذين وجد عندهم الإناء، قالوا: اشتريناه من تميم وعديّ، فجاء رجلان من ورثة بديل فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الإناء لصاحبهم، فردّ رسول الله الإناء إلى أهل بديل.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ
إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ
ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

شرح المفردات

يوم يجمع الله الرسل: يوم القيامة يجمع الله الرسل.

بروح القدس: الملك جبريل عليه السلام.

في المهد: في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام.

وكهلاً: في حال اكتمال القوة.

الكتاب: الكتب السماوية، أو الكتابة.

الحكمة: العلم والتدبير وإصابة الحق.

تخلق: تصوّر.

الأكمه: من وُلِدَ أعمى.

والأبرص: المريض ببياض يظهر في ظاهر الجلد.

تُخرِجُ الموتى: تُخرج الموتى من قبورهم أحياء.

كففت بني إسرائيل عنك: صرفت عنك أذى بني إسرائيل حين تآمروا لقتلك.

سحر مبين: سحر بيّن واضح.

نعم الله على عيسى والمعجزات التي أيّده بها

وبعد أن أمر الله عباده بإقامة الشهادة على وجهها الصحيح وحذّرهم من الكذب وشهادة الزور أتبع ذلك تذكيرهم بيوم القيامة حيث يُحَاسَبُ فيه الناس على ما عملوا من خير أو شر:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ: مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي واذكر أيها الإنسان حين يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول لهم: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقرار بألوهيتي والعمل بطاعتي والانتهاء عن معصيتي، والمراد من سؤال الله للرسل هو تذكير الأمم بسابق فضله عليهم، وإقامة الحجة على الكافرين منهم ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ وعلاّم من صيغ المبالغة على وزن فعّال، أي أنت يا رب كثير العلم الذي يخفى علينا. وفي قول الرسل ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾ لم يكن منهم الإقرار بأن يكونوا غير عالمين بما عملت به أممهم ولكنهم ذهلوا عن الجواب من هول يوم القيامة، فنفوا عن أنفسهم العلم في حال ذهولهم، أو أنهم استحقروا علمهم بجانب علم الله، أو أن علمهم كان بمن عاصروهم لا بمن جاء بعدهم من الأمم، وقد كانت إجابة الرسل قمة الأدب مع الله تعالى.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ إذ: بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم، وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل بالخطاب لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه غلوًّا وافتراءً، فالنصارى جعلوه إلَهاً واليهود كذّبوا نبوّته. فالله سبحانه يقول: اذكر يا عيسى إنعامي عليك وعلى والدتك، ونعمة الله على عيسى هي النبوّة، ونعمة الله على والدته السيّدة مريم هي أنه

سبحانه أنبتها نباتاً حسناً وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ﴿إِذْ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ﴾ وروح القدس هو جبريل عليه السلام ملك الوحي الذي يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلّهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها، وهناك رأي آخر يقول: إن روح القدس هنا المراد به الروح الطاهرة المقدسة التي خصّه الله بها في قوله تعالى عن عيسى ﴿وروح منه﴾ وكلا الأمرين ينطبق على عيسى عليه السلام حيث كان متصفاً بالروح المطهرة وأيّده جبريل في سائر حياته ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً﴾ فأما تأييد الله له بعد ولادته ـ وذلك بأن جعله يكلم الناس وهو في المهد[1] وكان كلامه تأييداً لبراءة أمه من الفاحشة التي اتهموها بها، وأما تأييد الله لعيسى وهو كهل أي عندما كبر وصار رجلاً مكتمل الرجولة قادراً على تبليغ رسالة ربه بنزول الوحي عليه.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنْجيلَ﴾ أي واذكر يا عيسى نعمة الله عليك إذ علّمك الكتاب، والكتاب يفسره بعض العلماء بالكتابة فالكتاب مصدر كتب يكتب، فالله سبحانه ألهمه تعلّم الكتابة والقراءة، وقد يراد بالكتاب اسم جنس أي جنس الكتب الإلّهية السابقة التي علّمه الله إياها، كما علّمه الله الحكمة وهي العلوم النافعة والكلام المحكم الدقيق الذي يكشف أسرار الوجود، وعلّمه الله أيضاً التوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله عليه. وذِكْرُ التوراة مقترنة بالإنجيل للإشارة إلى أنهما متلازمان وأن الإنجيل متمم للتوراة.

---

(١) المهد: مكان نوم الطفل عقب ولادته.

ولمّا كان البشر لا يصدقون بنبوّة نبي إلا إذا جاء بأشياء خارقة للعادة وهي المسماة معجزات، لذا أيّد الله كل نبيّ بمعجزات تناسب عصره وما اشتهر به قومه. فعصر موسى اشتهر بالسحر فأيده الله بمعجزة تفوق السحر وهي عصاه التي تحولت إلى ثعبان وابتلعت سحر السحرة بجانب غيرها من المعجزات. وعصر عيسى اشتهر بالطب والعلوم والمعارف فأيده الله بما يفوق الطب البشري. وعصر محمد اشتهر ببلاغة الكلام وفصاحته والشعر والخطابة فأيده الله بالقرآن الذي هو أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً من كلام العرب. وفي الآية التالية يذكر القرآن بعضاً من المعجزات التي خص الله بها عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْني فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكونُ طَيْراً بِإِذْني﴾:

فالله سبحانه يقول: واذكر يا عيسى وقت تأييدي لك حين وفّقتك لأن تخلق ـ أي تصور ـ من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير فتكون طيراً بإذني ومشيئتي. وذُكرت كلمة **﴿بإذني﴾** أي بإذن الله عند تصوير شكل الطير وعندما صار طيراً للإشارة إلى أن كل ذلك من خلق الله، وأن عيسى ليس هو الخالق ولكن الله أجرى الخلق على يديه **﴿وَتُبْرِىءُ الأكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْني﴾** وتشفي يا عيسى الأكمه ـ وهو من وُلِدَ أعمى ـ فتعود إليه نعمة النظر، كما تُشفي من أصيب بداء البرص بإذن الله تعالى **﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الموْتَى بِإِذْني﴾** وحين تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون، كل ذلك بإذن الله ومشيئته وإرادته لبيان أن العمل ليس لعيسى ـ وإن جرى على يديه ـ وإنما هو لله سبحانه الذي شفى الأعمى والأبرص وأَحْيَى الموتى.

وقد كانت هذه المعجزات التي أجراها على يدي عيسى كافية لأن يؤمن بنو إسرائيل بنبوته ويتبعونه، ولكن الكثير كفروا به وهموا بأذاه فمنع الله أذاهم عنه، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي واذكر يا عيسى نعمتي عليك حين منعت من أراد قتلك وإلحاق السوء بك من بني إسرائيل حين جئتهم بالمعجزات الواضحات **﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** أي ولكن الكافرين من بني إسرائيل لم يصدقوا بما جئتهم من معجزات واضحات بل قالوا: إنّ هذا الذي جئت به ما هو إلا سحر بيّن واضح، وبالأحرى لم يصدقوا بنبوتك.

هذا وقد اتخذ البعض من معجزات عيسى دليلاً على ألوهيته، ولكن القرآن نفى هذا الزعم عندما عقب على كل معجزة صدرت من السيد المسيح بقوله **﴿بإذني﴾** أي بإذن الله تعالى، أي إن هذه المعجزات هي من صنع الله الذي أظهرها على يدي رسوله عيسى عليه السلام تأييداً لرسالته وشاهداً على صحة نبوته. وإن النصوص الإنجيلية تؤكد هذه الحقيقة فقد جاء في سفر أعمال الرسل ما يلي:

«فقام بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وخاطبهم قائلاً... : يا رجال إسرائيل اسمعوا هذا الكلام. إن يسوع الناصري الرجل الذي أُشير لكم إليه من الله بالقوات والعجائب والآيات التي صنعها الله على يديه فيما بينكم كما أنتم تعلمون» [٢: ١٤، ٢٢].

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ (١١١) إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى
ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ
أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا
وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ
رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا
وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ
إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا
لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١١٥)﴾

شرح المفردات

الحواريون: أنصار عيسى وخاصته والمخلصون له.

مسلمون: منقادون لطاعتك.

هل يستطيع ربك: هل يستجيب لك ربك طلبك.

الشاهدين: الناظرين لها عياناً.

مائدة: هي الخوان الذي يوضع عليه الطعام.

وآية منك: معجزة منك.

المائدة التي أنزلها الله على عيسى

وبعد أن بيَّن الله نعمه على عيسى بالنبوة وما أظهر على يديه من

معجزات تأييداً له، بيّن الله فيما بعد معجزة أخرى وهي إنزال مائدة من السماء وهي التي طلبها أنصار عيسى من نبيهم واستجاب الله لدعاء عيسى بإنزالها، وأنصار عيسى هم الحواريّون الذين استهل الله الكلام عليهم بقوله:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولي﴾ والمراد بالوحي هنا الإلهام. والحواريون[1]: هم أنصار عيسى الذين آمنوا به ولازموه وصدّقوه. والقرآن لم يسمهم رسلاً وإنما النصارى سموهم رسلاً ليفصلوا مقامهم عن مقام عيسى عليه السلام حيث ادعى النصارى له الألوهية. وفي قوله تعالى في الآية ﴿وبرسولي﴾ إشارة إلى حقيقة مقامه من الله وانفصال شخصه عن ذات الله، وأنه لا يتجاوز عن كونه رسولاً من رب العالمين.

والمعنى: واذكر يا عيسى نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين المخلصين لك أن يؤمنوا بأني أنا الله الواحد الأحد المستحق للعبادة وأن يؤمنوا بك يا عيسى بأنك رسول من عندي فاستجابوا لنداء الله و﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُون﴾ أي استجاب هؤلاء الحواريون لنداء ربهم الإلهامي وقالوا بكل يقين واطمئنان: آمنا بك يا رب بأنك واحد أحد، خالق كل شيء، وآمنا بأن عيسى رسول من عندك، واشهد علينا يا ربنا بأننا مخلصون لك بإيماننا.

﴿إِذْ قَالَ الحَواريّون يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطيعُ رَبُّكَ أن يُنَزِّلَ

(١) مادة الحور في اللغة تدل على الصفاء ونصوع البياض. وقال بعض العلماء: إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم.

عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لقد كان الحواريون وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه يعرفون أنه بشر، وأنه ليس رباً، وليس ابناً لله لذا خاطبوه بالحقيقة التي يعرفونها عنه **﴿يا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾** وكان الحواريون يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع المعجزات على يديه وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة لذلك حين طلبوا أن ينزل عليهم المائدة قالوا **﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**[1] **أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾** هنا يَرِدُ اعتراض: كيف يكونون مؤمنين ومع ذلك يتصورون احتمال ألاّ يستطيع الله تعالى إنزال مائدة من السماء؟ الجواب على ذلك أنهم لم يشكّوا في استطاعة الخالق لأنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي بهذا العمل مع علمه بأنه يستطيع ذلك، أو أن سؤالهم للتثبت لا للنفي ولزيادة الطمأنينة في قلوبهم، ولعلّهم كانوا لقرب عهدهم بالجو الذي كان سائداً آنذاك وهو الاعتقاد بأن الأمور لا تحصل إلا بأسبابها المعهودة عند الناس، ولم يكن معتاداً أن تنزل مائدة من السماء يأكل منها الناس. كما أُجيب على سؤالهم هذا أيضاً بأن ما صدر منهم كان أول دخولهم في حظيرة الإيمان وقبل أن يتمكن الإيمان في قلوبهم.

وقد أجابَ عيسى على ما طلبه الحواريون منه: **﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّه إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾** أي خافوا الله أن ينزل بكم عقوبة من عنده على قولكم

---

(١) اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: **﴿هل يستطيع ربك﴾** فقرأ جماعة من الصحابة والتابعين (هل تستطيع) بالتاء بدل الياء، وقراءة (ربك) بالنصب بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، أو هل تستطيع أن تدعو ربك.

هذا إن كنتم مصدّقيّ في ما أتوعدكم به من عقوبة الله إياكم على شككم في قدرة الله، وفي الشك في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به.

ولكن القوم برّروا ما سألوا به نبيهم بقولهم: **﴿قَالُوا نُرِيدُ أن نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾** أي أردنا أن نأكل من المائدة لحاجتنا إليها، ونعلم أيضاً قُدرة الله على كل شيء فتطمئن قلوبنا وتستقر على وحدانيته سبحانه وقدرته على كل شيء **﴿وَنَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾** أي نعلم علم اليقين أنك قد صدقتنا فيما جئتنا به من عند الله **﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** أي نشهد على حصولها عند الذين لم يحضروها ويروها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً، أو نكون من الشاهدين لها بأعيننا دون السامعين لخبرها من غيرنا، لأن الدليل الحسي المرئي أظهر في النفس وأشد في الإقناع **﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾** نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية **﴿اللَّهمَّ﴾** الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية **﴿ربَّنَا﴾** المنبئة عن التربية للخلق إظهاراً لغاية الخضوع **﴿أنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾** والمائدة هي الخوان الموضوع عليه طعام والخوان تخت من خشب له قوائم ليوضع عليه الطعام للأكل، وقيل: المائدة اسم الطعام وإن لم يكن على خوان **﴿تكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾** والعيد اسم ليوم يعود كل سنة ذكرى لنعمة أو حادثة وقعت فيه للشكر وللاعتبار. أي يكون عيداً لأول أُمَّتِنَا وآخرها **﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾** وتابع عيسى قوله: وأن تكون المائدة معجزة من عندك

ودليلاً على صحة نبوتي **﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾** أي واجعل هذه المائدة رزقاً حسناً نأكل منه وأنت وحدك خير من يرزق وخير من يعطي وأجود من تفضل على الناس.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُم﴾ هذا وعد من الله بإنزال المائدة من السماء ولا يخلف الله وعده، وهو يقتضي أنه أنزلها **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُم فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أحداً مِنَ العَالَمِينَ﴾** أي فمن يكفر منكم بعد نزول هذه المعجزة وينكر نبوّة عيسى ويخالف طاعتي فيما أمرته به ونهيته عنه فإني أعذبه عذاباً لا أعذب مثله عذاباً أحداً من عالم زمانه. أي أن هذا العذاب يفوق العذاب الذي يعذب به الكفرة، وذلك لأنهم طلبوا هذه المعجزة وأنزلها الله بناء لطلبهم وشاهدوها بأم أعينهم، وأكلوا من طعامها، فأي برهان أقوى من ذلك للدلالة على قدرة الله وصدق نبوة عيسى.

أما صفة المائدة وأنواع الطعام التي تحتويها فلم يذكرها القرآن فلا حاجة للبحث عن ذلك، وكل ما قاله المفسرون في ذلك لا دليل قاطع لهم على قولهم.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى
وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى
نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ
عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ
ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

شرح المفردات

سبحانك: تنزيهاً لك يا رب عما لا يليق بك.

وكنت عليهم شهيداً: أي رقيباً، أو شاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان.

فلما توفيتني: أخذتني وافياً بالرفع إلى السماء حيًّا.

الرقيب عليهم: الحفيظ عليهم، المراقب لأعمالهم.

شهيد: المحيط علمه بكل شيء.

حوار بين الله وعيسى يوم القيامة

وبعد أن بيّن الله المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام لإثبات نبوّته يأتي هذا الحوار البليغ الذي سيحصل يوم القيامة بين الله تعالى ونبيه عيسى عليه السلام، إنه حوار يظهر العظمة الإلّهية بأبهى صورها وينبىء أن القرآن ليس من كلام البشر، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هذه الجملة وما بعدها معطوفة على قوله سبحانه من قبل **﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ...﴾** [المائدة: ١١٠] أي يقول الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة توبيخاً لقومه على رؤوس الأشهاد ومخاطباً له بنسبه الحقيقي فهو ابن مريم وليس ابناً لله **﴿أَأَنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** أي هل أنت قلت لقومك اعبدوني أنا وأمي، واجعلوني مع أمي معبودين تعبدونهما من غير الله؟

وقد عاب الله على الذين اتخذوا عيسى إلهاً في هذه السورة في عدة مواضع منها، أما عبادة أمه فقد كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية، وسمّي الذين عبدوها «المريميُّون»... وهذه العبادة منها: ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود، ومنها ما هو استغاثة، واستشفاع، ومنها ما هو صيام ينسب إليها، ويسمى صيام العذراء. وكل ذلك يقترن بخضوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتماثيلها، مع اعتقاد بالسلطة الغيبية لها، وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة، إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمّونها «والدة الإله».

ولما سأل الله عيسى: هل أنت قلت لقومك اتخذوني وأمي إلّهين؟ أجاب: **﴿قَالَ سُبْحَانَكَ ما يكونُ لي أنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لي بِحَقٍّ﴾** أي

تنزيهاً لك يا رب عن أن يكون معك إلَه آخر، ما ينبغي أن أدّعي لنفسي ما ليس من حقها، فأنا عبد مخلوق وأمي كذلك فكيف ندّعي الربوبية؟ ﴿**إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ**﴾ إذ لو كان قد حصل مني ذلك فإنك عالم به وهذا من ألطف الأجوبة وأوثقها ﴿**تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ**﴾ أي تعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وما تفعل. والنفس عبارة عن ذات الشيء، وذكر نفس الإنسان مقابل نفس الله هو من باب المقابلة والمشاكلة والله سبحانه ليس كمثله شيء ﴿**إِنَّك أنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ**﴾ إنك يا الله تعلم الأمور المغيبة عن أعيننا لا يخفى عليك شيء منها. وقد أكد عيسى علم الله للغيب بإن المؤكدة وبصيغة المبالغة لاسم الفاعل ﴿**علاَّم**﴾ وبلفظ ﴿**الغيوب**﴾ جمع غيب، أي العالِم بكل أنواع الغيب ما وقع في الماضي وما سيقع في المستقبل وما يتعلق بالكائنات جميعها.

﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاّ مَا أَمَرْتَني بِهِ أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ أي ما قلت لهم يا رب إلا ما أمرتني بتبليغه لهم من توحيدك وعبادتك. فهذا القول هو في مقام إثبات الحجة عليهم وإقامة الدليل على استحقاق الله وحده للعبادة حيث قال ﴿**رَبّي وَرَبَّكُمْ**﴾ لأنه وحده الذي خلقني وخلقكم فكيف يكون المخلوق إلهاً ﴿**وَكُنْتُ عَلَيْهِم شَهيداً مَا دُمْتُ فيهم**﴾ أي كُنتُ حفيظاً عليهم أرعى أحوالهم وأمنعهم من مخالفة أمرك مدة وجودي بينهم ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم**﴾ والتوفي: يأتي بمعنى الموت، كما يأتي بمعنى: أخذ الشيء وافياً وهو المقصود هنا. والمعنى: فلما رفعتني إليك حياً مستوفياً ما قدرته لي إنجاء مما دبروه من قتلي، وقد جاء التوفي بهذا المعنى في قوله

تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥]. ويرى بعض العلماء أن رفع عيسى إلى السماء كان بعد موته، ومنهم من يرى أن رفع عيسى إلى السماء كان بالروح لا بالجسم. يقول الشيخ حسنين محمد مخلوف: «ولا يصح أن يحمل ـ أي التوفي ـ على الإماتة لأن إماتة عيسى في وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها ورفعه إلى السماء بعد الموت جثة هامدة سُخفٌ من القول، وقد نزّه الله السماء أن تكون قبوراً لجثث الموتى، وإن كان الرفع بالروح فقط فأيّ مزية لعيسى في ذلك على سائر الأنبياء، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة، فالحق أنه عليه السلام رفع إلى السماء حياً بجسده، وقد جعله الله وأمه آية»(١).

وقد تضافرت الأخبار بأنه لم يمت وأنَّه باقٍ في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان.

ثم يختم عيسى قوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أنت يا رب شاهد لما كان وما سيكون، والعالم بكل شيء فلا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم أنهى عيسى حواره مع ربه بقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذب يا رب من أقام على الكفر من قومي فإنما تعذب بالعدل من يستحق التعذيب منهم فإنهم عبادك وأنت مالكهم تتصرف بهم كيف تشاء وتحكم فيهم بما تريد ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وإن تصفح عنهم وتستر ما فرط منهم من ذنوب فذلك تفضل منك عليهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) في تفسيره (صفوة البيان لمعاني القرآن).

﴿الحَكِيمُ﴾ فإنك أنت القوي الغالب، الحكيم في تصرفك وصنعك.

هذه الآية: **﴿إنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾** لها شأن عظيم وقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قام إلى الصلاة وجعل يرددها في صلاته حتى الصباح، روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي ذر قال: «صلّى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد **﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُم عِبَادُكَ﴾** الخ.. فلما أصبح قلتُ: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت قال: إني سألت ربي الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أخبر الله أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم يوم القيامة.

والمراد بالصادقين الذين كانوا صادقين مع الله بإخلاص العبادة له وحده وعدم الشرك به وكانوا صادقين مع الناس جميعاً فلا يكذبون، ولا يغشون، ولا يظلمون أحداً ولا يخلفون موعداً مع أحد، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فهم صورة صادقة عن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين.

هؤلاء الصادقون: **﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** أي لهم جنات النعيم في الآخرة تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة **﴿خَالِدينَ فِيهَا أَبَداً﴾** باقين فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها **﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾** أي نالوا الرضا من الله بما عملوا من الطاعات التي أمرهم بها، ورضوا عنه سبحانه بما جازاهم مما لم يخطر لهم على بال، ومما لا تتصوره عقولهم، والرضا من الله أرفع

درجات النعيم وأعلى منازل الكرامة ﴿ذَٰلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ أي دخولهم جنات النعيم وظفرهم برضاء الله هو الفوز العظيم الذي لا يفوقه فوز.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ أي إن الله سبحانه ملك السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات يتصرف فيهم كيف يشاء إيجاداً وإفناء وإحياء وإماتة من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو سبحانه قادر على كل شيء لا يعجزه شيء أراده، وهو لا يتقيد بالأسباب والمسببات. وقد جاء القرآن بهذه الخاتمة دفعاً لما سبق ممن ادعى الألوهيّة لعيسى وأمه، فأخبر سبحانه بأن له وحده ملك السماوات والأرض دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته.

المراجع

جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للإمام الزمخشري

تفسير القرآن العظيم للعلامة ابن كثير

تفسير أبي السعود للعلامة محمد بن محمد العمادي

تفسير روح المعاني للعلامة الألوسي

تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية

تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري

تفسير الخازن للإمام علاء الدين عليّ بن محمد البغدادي

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف

تفسير سورة المائدة للإمام محمد أبو زهرة ـ مجلة لواء الإسلام ـ

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي

تفسير القرآن الكريم ـ لجنة من الأساتذة ـ دار المعارف بمصر

أحكام القرآن لابن العربي

أحكام القرآن للجصاص

الفهرس

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص.

وإلى فضيلة القاضي المستشار **الشيخ حسين غزال**

وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير

وإلى الأساتذة:

د. هدى سنو

شفيق اللبان

د. محمد مرعشلي

على ما قدموا لي من معونة وما بذلوا من جهد في تصحيح هذا التفسير.

كما أقدم شكري **للأستاذ توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي على سعيه الدؤوب وتضحياته الجمة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي، التي قدمت لي الكثير من المراجع المفيدة لهذا التفسير.

وأخيراً أقدم شكري لمكتبة **كلية الآداب في الجامعة العربية** ومكتبة **المعهد العالي** للدراسات الإسلامية **لجمعية المقاصد الإسلامية** على ما قدما لي من مراجع وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام.

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة كتابه الكريم

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة

روح القرآن

تفسير سورة الأنعام

بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل الملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

دراسات إسلامية ISBN 9953-9-0508-8

9 789953 905082 2

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إِنَّ أَفضلكم مَن تعلَّم القرآن وَعلَّمَه

روح القرآن

تفسير سورة

الأنعام

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٦٦٦ ٣٠٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

الطبعة الأولى

آب - اغسطس ٢٠٠٣

مِن وَحي هَذهِ السّورَة

بسم الله الرحمن الرحيم

لفضيلة القاضي المستشار **الشيخ حسين غزال**

هذه السورة العظيمة، وكل سور القرآن عظيمة، ولكن هذه السورة تمتاز بتنوّع موضوعاتها ودقة معالجتها لأمور شتى: سواء في الحوار العقلاني مع المشركين الذي يعتمد على الفكر وإعمال العقل والبصيرة، أو في دعوتها إلى النظر والتأمل في العالم العلوي وما فيه من نجوم وكواكب، أو في تلك الآيات التي تفتح العقول على أمور لم تُطرق من قبل كالتي في صفات الله: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البرِّ والبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾** الله أكبر على هذا الإعجاز، كل كلمة فيها تقول إن هذا ليس من كلام البشر.

أو في المعجزات العلمية وكشف أمور لم تدرَك إلا في عصرنا الحاضر كما في وصف الذي يضيق صدره إذا علا في السماء **﴿. . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ. . ﴾**.

أو في الإشارة إلى القذائف والألغام في قوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾** **﴿من فوقكم﴾** مثل القذائف، و**﴿من تحت أرجلكم﴾** مثل الألغام.

أو في وصف قدرة الله ونفاذ أمره في الكائنات والخلائق في الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ. . ﴾.

أو ما هو وصف لوضع البشر يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُم وَرَاءَ ظُهُورِكُم﴾.

أو في الوصف الرائع لحالة الذي يعود إلى الكفر بعد أن هداه الله ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنا ولا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعقَابِنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا اللَّهُ كالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأَرْضِ حَيْرَانَ. . ﴾.

أو ما يتعلق بالخلق ﴿إنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ. . ﴾ ﴿فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً. . ﴾.

أو ما يتعلق بالنبات ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخرج مِنْهُ حبًّا مُتَراكِباً﴾.

أو في بسط الوصايا العشر التي أقرتها الشرائع السماوية من قبل. . أو. . أو. .

كل ما في السورة رائع رائع. . أتركك أخي القارىء مع الكاتب المبدع الأستاذ عفيف طبارة الذي أظهر روائع السورة وأخرجها على خير وجه: طباعة وصقلاً وإخراجاً وأسلوباً سهلاً يفهمه القارىء العادي ويقبل عليه بنهم وشوق، كما يجد فيه العالم المتخصص لقطات لا يعثر عليها في غيره من المراجع، لأن كل لقطة يكمن فيها جهد المؤلف وغربلته لعشرات المراجع، وإذا بالقارىء يصل إليه جهد المؤلف على طبق من ذهب شراباً سائغاً للشاربين.

جعل الله القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وشفاء نفوسنا، وجلاء أحزاننا، وقائدنا إلى النصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الأَنعَامِ

تعريف بهذه السورة

«عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح. وعن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة»(١).

وسميت هذه السورة بسورة الأنعام لما تكرّر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات.

وهذه السورة نزلت في تبيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام وبيان وحدانية الله في ذاته وصفاته وفي التوجّه إليه وحده في العبادة، وفي رسالة الله إلى خلقه بواسطة رسله الذين جاءوا بالهدى من عند ربهم، كما أن فيها أصول البر والأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة.

وسورة الأنعام من السور السبع الطوال(٢) التي تقيم قواعد الإيمان على أسس ثابتة وأسلوب يتسم بالحوار الحي مع المشركين فيما يعتقدون به من عقائد باطلة، لذا نراها قد تكررت فيها كلمة (قل) خطاباً للنبي أربعاً وأربعين مرة ثم يأتي بعدها التوجيه الإلهي الحق، وهذا الأسلوب من البراهين القوية على أن القرآن وحي إلهي وليس من تأليف محمد كما يدعي أعداء الإسلام فلو كان القرآن من تأليفه لما جاء على هذا النمط من الأسلوب الذي لم يعهد من قبل، والذي يُشعر أنه يتلقى الوحي من الله.

وهذه السورة تشتمل على جملة من المواضيع والتوجيهات الإلهية منها:

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) السور السبع الطوال هي: البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الأنعام ـ الأعراف ـ التوبة.

ـ دعوة الناس إلى النظر في معالم الكون وما فيه من دلالات على عظمة الخالق وجلاله ووحدانيته وانتفاء الشريك عنه.

ـ توجيه الأنظار إلى عجائب خلق الله في السماء والأرض، وإنبات النبات من الجامد اليابس من الأرض، وانفلاق الحب والنوى عن نبات وشجر.

ـ بيان الحلال الذي أحله الله من الأطعمة وبيان الحرام منها، وضلال المشركين فيما حرموه على أنفسهم من غير أن يعتمدوا على دليل وبرهان من الله فيما ذهبوا إليه.

ـ عناد المشركين وعدم استجابتهم إلى رسول الله ﷺ وأنهم وصلوا في الجحود إلى أنهم لو نزل عليهم كتاب من عند الله فلمسوه بأيديهم لرفضوه وقالوا إنه سحر مبين.

ـ مواساة رسول الله محمد ﷺ لما يلقاه من قومه من إعراض وأذى وسخرية بذكر ما لاقاه الرسل قبله من أذى من أقوامهم، وكيف حل بهم الهلاك جزاء ذلك.

ـ تسفيه المشركين بما كانوا يفعلون من قتل أولادهم بسبب الفقر وغير ذلك.

ـ النهي عن سباب معبودات المشركين لئلا يقابلوا ذلك بسبّ الله اعتداء بغير علم بما ينشأ عن ذلك من إثم.

بيان أن دين الله واحد لا يجوز التفرقة فيه وأن الذين يسعون فيه بالتفرقة وإنشاء المذاهب المختلفة هم بريئون من دين الله.

ـ كل إنسان يُجزى بأعماله فلا يحمل أحد خطيئة غيره ولا ينجو المسيء من العذاب بحسنات غيره.

ـ رسم معالم الدين الحق ومناهج السلوك الفاضل بإقامة الصلاة وتقوى الله وترك الإثم ظاهره وباطنه.

ـ سعادة الأمم بطاعة رسل الله واتباع هديهم وشقاوتها بانتشار الظلم والفساد فيها.

ـ ذكر الوصايا العشر التي أوصانا الله بها الجامعة لشتى الفضائل التي تسعد الإنسانية.

ـ كما أن هناك أموراً أخرى عالجتها هذه السورة لم نشر إليها خوفاً من التطويل.

سورة الأنعام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ
ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن
طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ
ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا
تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

شرح المفردات

يعدلون: يسوُّون به غيره في العبادة .

قضى أجلاً: حدّد للناس وقتاً يموتون فيه .

وأجل مُسمّى عنده: ووقت عيّنه الله للبعث يوم القيامة للحساب والجزاء .

تمترون: تشكّون في البعث أو تجحدونه .

هو الله الخالق للكون وللناس

تُستهل هذه السورة بالشكر والثناء على الله مبدع هذا الكون :

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرضَ﴾ فكلمة الحمد لله : هي الثناء

عليه والشكر على نعمه التي شملت جميع خلقه، والحمد أعم معنى من الشكر. فالله سبحانه أثنى على نفسه بما علّم به عباده الثناء عليه، فأثبت أن كل ثناء حسن ثابت له بالاستحقاق دون غيره، وهذا رد على المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيلوه من إسدائها إليهم النعم وتفريج الكربات عنهم.

فالله مستوجب للحمد لخلقه السماوات التي تشتمل على البلايين من النجوم والكواكب، وخلْقه الأرض وما تشتمل عليه من جماد ونبات وحيوان ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ وأوجد الله الظلمات والنور، وقدّم الظلمات على النور لأن الكون في بدء الخلق كان ظلاماً دامساً ثم خلق الله النجوم المشتعلة، ومن هذه النجوم شمسنا التي تعكس نورها على القمر فيضيء وتلقي بنورها وحرارتها على كوكبنا الأرضي ولولاها لانعدمت الحياة على هذه الأرض وأصبحت جليداً دائماً.

وقد يراد بـ ﴿**الظلمات**﴾ الناحية المعنوية من الكفر والضلال، كما يراد بـ ﴿**النور**﴾ الهدى والحق، فالكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس في الجهالة والحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه انقياد إلى الهدى والحق. وجعلت الظلمات بصيغة الجمع والنور بصيغة المفرد لأن الهدى واحد والضلال متعدد والحق واحد والباطل متعدد.

وقد جاء في الحديث الشريف: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء فقد اهتدى ومن أخطأه ضل»[١]. ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ**﴾ العدل: هو التسوية يُقال: عدل الشيء بالشيء إذا سواه به، أي ثم الذين كفروا مع قيام هذه الدلائل الظاهرة على عظمة الله في خلقه يسوّون بربهم غيره في الألوهية ممن لا يقدر على خلق أي شيء ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

(١) رواه أحمد والحاكم في المستدرك.

﴿هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ طِينٍ﴾ إشارة إلى المادة التي خُلِقَ منها آدم أبو البشر، فكل البشر أصلهم من طين، والطين هو التراب الذي يخالطه الماء.

وعندما قام العلماء بتحليل جسم الإنسان وجدوه يحتوي على العناصر الموجودة في التراب مثل الكربون والحديد والصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم وغير ذلك من العناصر إضافة إلى الماء وهذه العناصر تنتقل إلى جسم الإنسان عن طريق التغذية فكل الأغذية النباتية والحيوانية التي تتغذى منها الكائنات الحيّة ومنها الإنسان أصلها من تراب ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ ثم قدّر الله حدًّا معيناً من الزمان لموت كل إنسان ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت الإنسان إلى يوم البعث سماه الله وعيّنه لديه لا يعلمه أحد سواه ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ثم أنتم أيها المشركون تشكّون في أن الله إلّه واحد لا شريك له مع وضوح الأدلة على وحدانيته، وتستبعدون وقوع البعث، ولكن الله الذي خلق الإنسان ابتداء على هذه الأرض قادر على إعادته حياً يوم البعث للحساب والمجازاة على أعماله ﴿وَهُوَ اللَّهُ في السَّمَاوَاتِ وفي الأَرْضِ﴾ أي وهو الله المالك والمنفرد بالتدبير في السماوات والأرض والمعبود فيهما بحق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يعلم ما انطوت عليه قلوبكم وما تخفونه في السر من الأقوال والأفعال، كما يعلم ما تفعلونه علانية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ويعلم ما تعملون من الخير أو من الشر فيثيب على الخير ويعاقب على الشر.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾
أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن
لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ
فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

شرح المفردات

وما تـأتيـهم من آية: وما تأتيهم من معجزة أو آية من القرآن الكريم.

مُعرضين: منصرفين.

بالحق: المراد به القرآن.

أنباء: جمع نبأ وهو الخبر الذي له أهمية (أي أخبار ما سينالهم من العقوبات).

قرن: الأمة من الناس وأهل كل زمان سمُّوا بذلك لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان.

مكـنّـاهم في الأرض: منحهم الله القوة والسلطان في الأرض وأثبتهم فيها.

وأرسلنا السماء: أي المطر وعبّر عنه بالسماء مجازاً لأنه ينزل منها.

مدراراً: متتابعاً غزيراً.

الذنوب سبب لهلاك الأمم

ويتابع القرآن فيحذر المشركين من إعراضهم عن الحق الذي جاءهم به رسول الله ﷺ من عند ربه مبيّناً لهم عاقبة أمرهم:

﴿وَمَا تَـأْتِيهِم مِنْ آيَـةٍ مِنْ آيَـاتِ رَبِّـهِم﴾ أي وما تأتي المشركين آية من آيات القرآن أو حجة ودلالة من عند خالقهم تدل على وحدانيته وصدق رسوله محمد ﷺ

﴿إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إلا قابلوا تلك الآيات بالإعراض عنها وعدم التدبر فيها، وأصل الإعراض صرف الوجه عن النظر في شيء ﴿فَقَدْ كَذَّبوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فقد كذبوا بالقرآن الذي فيه الحق حين جاءهم على لسان محمد ﷺ ﴿فَسَوْفَ يَأْتيهم أَنْبَاءُ مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنباء: جمع نبأ وهو الخبر العظيم الذي له أهمية. والمراد بهذه الأنباء ما جاء في القرآن من الوعد بنصر المؤمنين والوعيد للكفار بخزيهم وإنزال العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وسيظهر لهم عندها أن هذا الحق ليس موضع استهزاء.

ولقد بيّن الله أحوال الكافرين بصفات ثلاث:

الأولى: إعراضهم عن التأمل فيما جاءهم به رسول الله ﷺ من الهدى.

الثانية: تكذيبهم بالقرآن وهذه مرتبة أزيد مما قبلها لأن المُعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به.

الثالثة: تجاوزهم التكذيب بالقرآن إلى الاستهزاء به، وهم بهذا بلغوا الغاية القصوى في العداء لدين الله.

ثم يبيّن الله مصير الذين كذّبوا بالحق من الأمم السابقة ليأخذ المشركون العبرة منهم:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ﴾ ألم: الهمزة للإنكار والتوبيخ، وكم: هي خبرية تفيد الكثرة. والقرن: يطلق على أهل كل عصر، واختلف في الزمن المحدد للقرن فقيل إنه سبعون سنة أو ثمانون أو مائة أو أكثر. والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المكذبون لرسول الله كثرة الأمم التي أهلكها الله كديار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، وقد رأى الكثير من المشركين آثارهم في أسفارهم وسمعوا أخبارهم

﴿مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي ملّكهم الله في الأرض وذلك كناية عن كثرة عمرانهم وثبات حكمهم ونفاذ أمرهم وكثرة ما أُعطوا من الخيرات، وأنتم يا معشر المشركين لم يكن لكم شيء من ذلك فأنتم دونهم قوة وأقل ثراء ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً﴾ والمراد من السماء المطر وعبّر عن المطر بالسماء لنزوله منها، أي وأرسل الله عليهم المطر غزيراً متتابعاً ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَار تَجْري مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم﴾ أي فكفروا نعمة ربهم وعصوا رسول خالقهم فأهلكهم الله بسبب ما اكتسبت أيديهمْ من آثام ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ وأوجد الله من بعد إهلاكهم قوماً آخرين عمروا بلادهم.

وفي هذا ما يوجب الاعتبار والعظة بحال من مضى من الأمم السابقة فإنهم رغم ما كانوا عليه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكهم الله لمّا بغوا وظلموا وعاثوا في الأرض فساداً، فهنا تهديد ووعيد للمشركين ولكل أمة تشيع فيها المعاصي والذنوب فإن ذلك نذير بهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم﴾.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

شرح المفردات

قِـرطاس: ما يكتب فيه من صحيفة سواء أكانت من ورق أو غيره.

لولا أُنزل عليه ملك: هلاّ أُنزل عليه أحَدُ الملائكة لنصدّقه.

لقضي الأمر: لتمّ الأمر بإهلاكهم.

لا يُنظرون: لا يُمهلون.

وللبَسْنَا عليهم: أي التبس عليهم الأمر واشتبه.

فحاق: أحاط أو نزل بهم العذاب.

عاقبة: آخر الشيء ونتيجته.

كتب على نفسه الرحمة: أوجب على نفسه الرحمة تفضّلاً وإحساناً.

إنكار المشركين لنبوة محمد ﷺ

ثم يبين الله مبلغ إنكار المشركين للدعوة الإسلامية وإصرارهم على الكفر:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ﴾ القرطاس: ما يكتب فيه سواء كان من جلد أو من ورق أو من غيرهما. فالله سبحانه يقول: لو نزّلنا عليك يا محمد الوحي مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فعاينوه ومسوه بأيديهم فاجتمع لهم بذلك حاسة النظر وحاسة اللمس ﴿لَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي لقال المشركون: ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضح سحرت به أعيننا، قالوا ذلك إمعاناً منهم في الجحود والعناد.

﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وهذا نوع آخر من جحودهم لنبوة محمد ﷺ حيث قالوا: هلاّ أُنزل على محمد ملك من الملائكة نشاهده معه ويخبرنا أنه رسول من عند الله حتى نؤمن به ونتبعه ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي لو أنزل الله ملكاً على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبهم لأهلكهم الله إذا لم يؤمنوا ﴿ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ ثم لا يمهلون ولا يؤخر هلاكهم، لأن سُنّة الله جرت بأن من طلب معجزة واستجيب طلبه ولم يؤمن بعد مجيئها عذبه الله عذاب استئصال، والله لا يريد لأهل مكة العذاب لهم تكريماً لرسوله محمد ﷺ وتحقيقاً لوعده ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد يكون المعنى: لو أنزلنا على رسولنا ملكاً من السماء في صورته الحقيقية وشاهدوه بأعينهم لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، وذلك لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات الملائكة لأن طبيعتهم غير مُعَدَّة لذلك، ولذلك كانت الملائكة تأتي إلى الأنبياء بصورة الإنس في غالب الأحيان ولمّا رأى النبي محمد ﷺ جبريل في صورته الحقيقية غشي عليه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة إلى الناس لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم رؤية الملك على صورته الحقيقية ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي لاختلط عليهم الأمر واشتبه أهو رجل أو ملك من الملائكة، وإذا كان إرسال ملك سيؤدي إلى هذه النتيجة فليس من الحكمة أن يجعل الله رسوله ملكاً بل الصواب أن يكون بشراً منهم مؤيداً من الله بمعجزة تكون فوق قدرة البشر.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أخبر الله رسوله محمداً خبراً مؤكداً بأن الكفار قد سخروا من الرسل قبله، وهذه طبيعة الكفار كما جاء في القرآن في موضع آخر: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١] وإذا كان الأمر كذلك فاصبر يا محمد على أذاهم وسخريتهم بك كما صبر الرسل قبلك ﴿فَحَاقَ بِالَّذِين سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط بهؤلاء المستهزئين العذاب وحلّ بهم جزاء سخريتهم برسل الله، وفي هذا تثبيت لقلب محمد ﷺ ومواساة له على ما يلقاه من قومه من سخرية، كما أنه وعد له بالنصر على أعدائه.

﴿قُلْ سِيرُوا في الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ قل يا محمد للمكذبين برسالتك من عند الله: سافِروا في الأرض وانظروا بأعينكم نظرة تدبّر واعتبار في آثار من كان قبلكم من الأمم لتعرفوا ما حل بهم من دمار وعذاب ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾ والعاقبة آخر الشيء ومآله وما يعقبه من مسبباته فإذا كان عاقبة المكذبين للرسل الهلاك فأنتم أيها المشركون بعد هلاكهم لهالكون. والتعبير بالمكذبين دون التعبير بالمستهزئين للإشارة إلى أن مآل من كذّب الرسل الهلاك فكيف يكون مآل من جمع بين التكذيب والاستهزاء.

ثم يطلب الله من رسوله متابعة الحوار معهم:

﴿قُلْ لِمَن ما في السَّمَاوَاتِ والأرْضِ﴾ قل يا محمد لقومك المشركين بالله: من الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيها من إنس وجن وملائكة وكائنات حية؟ هذا السؤال تمهيد لجواب يكون حجة عليهم ويلجئهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال ما يعتقدونه من الشرك بالله ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كل ما في السماوات والأرض هو ملك لله، وهنا تقرير للجواب نيابة عنهم لأنهم يعترفون بذلك كما ذكر القرآن عنهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] فإذا تعين ذلك فَلِمَ يعبدون الأصنام من دون الله وهي لا تملك شيئاً ولا تنفع ولا تضر؟

لقد أمر الله تعالى رسوله محمداً أن يسألهم أولاً ثم يجيب عنهم ثانياً، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ غاية في الإقناع بحيث لا يقدر على إنكاره منكر.

فإذا ثبت أن لله ما في السماوات والأرض باعترافهم فالله قادر إذن على أن يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، وقادر على بعثهم أحياء بعد الموت لمجازاتهم على أعمالهم، ولكنه سبحانه أمام كل ذلك ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي قضاها وأوجبها على نفسه بطريق التفضل والإحسان، هذا الوصف للذات الإلهية ترغيب للمذنبين بالإقبال على الله وتسكين لخواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم العقوبة وأنه يقبل منهم التوبة فلا ييأسوا من رحمته وقد جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»(١).

---

(١) أخرجه البخاري.

ومن مقتضى رحمة الله قوله سبحانه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ[١] إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ يؤكد الله أنه سيجمع الناس في يوم القيامة الذي لا ينبغي أن يرتاب فيه عاقل حيث سيحيي الناس بعد موتهم ويجازيهم على ما فعلوه في دنياهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

فالإنسان في عمره المحدود يرى الخير والشر يتصارعان وقد ينتصر الشر على الخير. ووجود إرادة إلهية تعاقب على الشر يوم القيامة هو مظهر من رحمة الله وعدله كما أن في جمع الناس يوم القيامة للحساب وعيداً للمجرمين ليكفوا عن إجرامهم وترغيباً للمؤمنين لزيادة طاعتهم لله والإكثار من العمل الصالح ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم فَهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾ أصل الخسار: الغُبن، يقال خسر الرجل في البيع إذا غُبِنَ. فالكفر هو خسارة للأنفس فإنه لا يكفر بوجود الله إلا من ينسى أن كل أثر له مؤثِّر وكل موجود له موجد، وخسروا عقولهم بسبب سيطرة الأوهام والخرافات فأشركوا مع الله في العبادة أصناماً من صنع أيديهم، فالإيمان يحتاج إلى عقل مدرك وإلى إذعان للحق بعد وضوح معالمه، إذ كل إنكار للحق هو خسران، فالكفار أهلكوا أنفسهم وغبنوها بعدم إيمانهم وبادعائهم بأن لله شريكاً، فترتب على ذلك أن سخط الله عليهم، وأعد الله لهم عذاباً أليماً في الآخرة.

---

(١) ليجمعنكم: أكد الله ذلك بتأكيدين بلام القسم وبنون التوكيد.

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ
ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ
أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ
عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن
يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ
وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

شرح المفردات

وله ما سكن في الليل والنهار: وله سبحانه ما استقر في الليل والنهار.

ولـيًّـا: ربًّـا معبوداً وناصراً معيناً.

فاطر السماوات والأرض: مبدعهما وخالقهما على غير مثال سابق.

يُـطْـعِـمُ ولا يُـطـعَـمُ: يُطعم خلقه ولا يأكل هو.

من أسلم: خضع لله بالعبودية وانقاد له.

من يُصرف عنه يومئذ: من يُبعد عنه العذاب يوم القيامة.

يمسسك: يصيبك.

بضرّ: الضر: ضد النفع وهو الحال من فقر أو مرض أو شدة.

القاهر: القادر المستعلي.

الخبير: الذي يعلم ظواهر الخلق وبواطنهم.

شمول قدرة الله وعلمه للكون

ويتابع القرآن فيذكر شمول قدرة الله وعلمه للكائنات جميعاً:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ سكن: استقر وثبت، أي لله سبحانه ما اشتمل عليه الليل والنهار من كائنات، فكل ما طلع عليه النهار وكل ما غشيه الظلام فهو ملك لله وتحت سلطانه وتدبيره وقيل: سكن بمعنى السكون الذي هو ضد الحركة، وإذا كان الله تعالى يعلم ما سكن في الليل والنهار من كائنات فهو يعلم ما تحرّك فيهما فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وهو سبحانه السميع لكل ما من شأنه أن يُسمع، العليم بكل ما من شأنه أن يُعلم. فالله يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الوليّ: هو النصير والمعبود، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون الأوثان والأصنام قل لهم على سبيل الإنكار عليهم: أغير الله أتَّخذ معبوداً أطلب منه النصرة والإعانة على النوائب والمصائب ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ أي هو مبدعهما ومنشئهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ فهو الله سبحانه يرزق ويُطعِم كل من في هذا الوجود من أحياء ويمدهم بأسباب الحياة والنماء، والله لا يُطعمه أحد، وهنا إنكار على من يعبدون الأصنام ويقدمون القرابين والأطعمة لها ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قل يا محمد لقومك إني أُمرت من ربي أن أكون أول من خضع له وانقاد إلى دينه وأخلص له في العبادة ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ كما أُمرت أن لا أكون من جملة المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى يتوجهون إليها بالعبادة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يأمر الله رسوله محمداً بأن يبين لقومه حالاً من أحواله وهو خوفه من عذاب الله إذا عصاه، فيكون ذلك

تنبيهاً للمشركين وإنذاراً لهم بالعذاب إذا بقوا على الشرك بالله والعصيان لأمره المستوجب للعذاب العظيم يوم القيامة. وإضافة العذاب إلى اليوم العظيم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كناية عن عِظَمِ ذلك العذاب وشدة أهواله.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي من يُدفع عنه هذا العذاب ويسلم منه فقد رحمه الله بفضله ﴿وَذَلِكَ الفَوْزُ المبينُ﴾ وهذا الفوز الظاهر الواضح هو النجاة من عذاب الله يوم القيامة والظفر بنعيم الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ﴾ والخطاب هنا للنبي ﷺ ولكل مؤمن ولكل من هو أهل للخطاب، والمعنى: وإن يصبك الله بضرّ كمرض وفقر وحزن وغير ذلك من البلايا فلا يكشفها عنك إلا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيء قَدِيرٌ﴾ وإن يصبك الله بخير أي برخاء في العيش وسعة في الرزق وصحة في البدن فهو سبحانه على كل شيء قدير. فالله وحده هو القادر على نفعك وإزالة الضر عنك فكيف تتوجه أيها الإنسان بالدعاء والعبادة إلى غير الله الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً.

﴿وَهُوَ القَاهِر فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي الغالب لعباده، المُقْتَدِر عليهم، الذي لا يعجزه شيء أراده وإنما قال ﴿فوق عباده﴾ لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وهو سبحانه الحكيم في تدبير مراده وتنفيذه، العالِمُ بما ظهر من أحوال العباد وما خفي من أمورهم.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ
لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا
أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

شرح المفردات

شهادة: إخبار المرء بما رأى والإقرار بما علم.

لأنذركم: الإنذار هو التحذير والتخويف بما هو وخيم العاقبة.

ومن بَـلَـغَ: ومن بلغه القرآن من سائر الأمم.

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً: أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب.

لا يفلح: لا يفوز ولا ينجح.

شهادة اللّه بوحدانيته

ويتابع القرآن فيرد على المشركين الذين يجحدون نبوة محمد ﷺ، فقد روي عن ابن عباس أن رؤساء أهل مكة قالوا: يا محمد ما وجد الله غيرك رسولاً وما نرى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم فأَرِنا من يشهد لك بالنبوة، فأنزل الله تعالى الآيات التالية:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين يجحدون نبوّتك وينكرونها: من هو أعظم شاهد الذي شهادته أكبر شهادة

وأعظمها؟ ولم يمهلهم القرآن الإجابة على ذلك بل ذكر لهم الشاهد الذي لا يعقل أن تُردّ شهادته: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد إن أكبر شهادة هي شهادة الله ـ ولا شهادة تعدل شهادته ـ وهو شهيد بيني وبينكم بمن هو على حق ومن هو على باطل، وهو شهيد بأني قد بلّغتكم رسالة الله إليكم ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وقد أوحى الله إليّ هذا القرآن لتهتدوا به ﴿لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ لأنذر بهذا القرآن وأُحذّر به المشركين والظالمين والعصاة من العرب ومن يبلغه دعوته وإرشاداته من سائر الأمم من مغبّة عصيان أوامر الله. أي أن من بلغه القرآن واطلع على ما فيه من إرشادات ووصايا فهو مخاطب به سواء أكان من أمة العرب أم كان من غيرها من سائر الأمم.

ولقد روي عن النبي ﷺ قوله: «يا أيها الناس بلِّغوا عني ولو آيةً من كتاب الله، فإنه من بَلَغَهُ آيةٌ من كتاب الله فقد بلغه أمْرُ الله، أخَذَهُ أو تَرَكَهُ»[١].

وروي أيضاً أن النبي ﷺ قال: «بلِّغوا عن الله، فمن بَلَغَهُ آيةٌ من كتاب الله فقد بَلَغَهُ أمْرُ الله»[٢].

يُفهم من هذا أن من لم يبلغه القرآن ولا يعلم عنه شيئاً فإنه لا يعتبر أنه قد بلغته الدعوة الإسلامية وإثمه يقع على الذين قصروا في الدعوة إلى الإسلام، وأنه لا معذرة لمن اطلع على القرآن واستمر على كفره. يقول ابن عباس: «من بلغه القرآن فهو له نذير».

كما أن الدعوة إلى الإسلام فرض كفاية إذا قام بها بعض المسلمين سقط الإثم

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره.

(٢) نفس المصدر.

عن الباقين. والمسلمون يأثمون جميعاً إذا لم يكن لهم دعاة إلى الإسلام يُبَيِّنون حقائقه ويظهرون محاسنه ويردّون على أكاذيب أعدائه بالحجة والبرهان ﴿أَئِنَّكُم لَتَشْهَدُون أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ والاستفهام هنا إنكاري لإنكار ما وقع منهم من شرك بالله وعبّر بقوله (لتشهدون) للإشارة إلى قوة الضلال المتغلغل في نفوسهم إذ إنهم مع ضلال الفكرة الوثنية فهم يعتقدونها أشد الاعتقاد إذ إن الشهادة لا تكون إلا بالعلم اليقيني. وتسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها آلهة مجاراة لهم في زعمهم، فهي في الحقيقة ليست آلهة لأنها جمادات من صنع أيديهم لا تنفع ولا تضر ﴿قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ وإنني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون بأن مع الله آلهة أخرى، وقل لهم: إنما المعبود بحق هو إلّه واحد هو الله. وأنا بريء مما تشركون معه في العبادة من أصنام. هذا الشطر من الآية يدل على تأكيد وحدانية الله من ثلاثة أوجه:

أولاً: قوله ﴿**لا أشهد**﴾ أي لا أشهد على وجود الشركاء لله.

ثانياً: قوله ﴿**قل إنما هو إلّه واحد**﴾ وكلمة «إنما» تفيد الحصر ولفظ الواحد صريح في توحيد الله.

ثالثاً: قوله ﴿**وَأَنَا بريءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ**﴾ تصريح بالبراءة من إثبات الشركاء لله.

فثبت بذلك وجوب توحيد الله بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد.

ثم يبين القرآن ضلال أهل الكتاب بادعائهم أن نبوة محمد هي غائبة عن علمهم:

﴿**الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبناءَهُم**﴾ الذين أعطاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى فقد أُعطوا التوراة والإنجيل. وعلماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النبي محمد ﷺ كانوا يعرفون بأن محمداً هو رسول الله

وذلك بما ثبت عندهم من المبشرات في كتبهم بمجيء نبي من مكة تنطبق صفاته على صفات محمد ﷺ، وكانوا يعرفونه عن يقين كما يعرفون أبناءهم الذين لا يضلّون عنهم لكثرة ملازمتهم لهم.

﴿الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُم﴾ هؤلاء الذين أنكروا نبوة محمد بالرغم مما اجتمع عندهم من الحُجَج والبراهين على صدق نبوّته أهلكوا أنفسهم بإعراضهم عن الحق، وخسروا أنفسهم بحرمانها من نعيم الجنة بسبب كفرهم وجحودهم لنبوة محمد ﷺ ﴿فَهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم لا يصدّقون بما جاء به محمد من الحق والهدى.

﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق الكذب على الله وزعم أن الملائكة بنات الله، وأن لله شركاء يُعبدون معه كما كان يعتقد المشركون العرب ﴿أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أو كذب بآيات القرآن المنزلة على رسول الله محمد ﷺ وأنكر الأدلة والحجج الدالة على وحدانية الله ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ إن الظالمين الذين يختلقون الكذب على الله ويكذّبون بآيات القرآن لا يفوزون بخير لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن
يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

شرح المفردات

نحشرهم: الحشر هو جمع الناس يوم القيامة للحساب.

شُركاؤكم: آلهتكم من دون الله.

تزعمون: تدّعون أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم.

فتنتهم: اختبارهم ومحنتهم.

ضلّ عنهم: غاب وزال عنهم.

يفترون: يكذبون.

أكنة: أغطية جمع (كِنان).

أن يفقهوه: كي لا يفهموه.

وقراً: صمماً وثقلاً في السمع.

إن هذا إلا أساطير الأولين: أي ما القرآن إلا أباطيل ملفقة عن الأمم الماضية.

يَنْـَٔوْنَ: يتباعدون بأنفسهم عن القرآن فلا يؤمنون به.

إقرار المشركين بالحق يوم القيامة

ثم يعرض القرآن مشهداً مخزياً للمشركين يوم القيامة وقد وقفوا أمام ربهم فيسألهم: أين آلهتكم؟ فيصيبهم الخزي ولا يعرفون بماذا يجيبون:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أين شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِين كُنْتُم تَزْعُمُونَ﴾ أي يوم يجمع الله الناس كلهم يوم القيامة ثم يسأل المشركين خاصة على سبيل التوبيخ والتقريع: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم ويقرّبونكم إلى الله؟ أين هم لكي يدافعوا عنكم في هذا اليوم العصيب؟ وأطلق القرآن على آلهتهم وهي الأصنام لفظ ﴿شركاؤكم﴾ لأنهم هم الذين زعموا أنها شركاء لله فأضافها القرآن إليهم من باب التهكم بهم لأنها ليست شركاء لله إلا في اعتقاد المشركين ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ والفتنة: المحنة والابتلاء والعذاب. أي وكان من أثر محنتهم والهول الشديد الذي رأوه يوم القيامة في موقف الحساب أن نسوا ما كانوا عليه من شرك بالله ﴿إلاَّ أَن قَالُوا واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي قالوا مقسمين بالله: والله ما كنا مشركين في دنيانا. لقد أقسموا بالله وهم غير صادقين في قسمهم، ونادوا الله معترفين بربوبيته وحده وذلك من فرط الهول والشدة ومن صدق ما رأوه من الحقائق البادية أمام أنظارهم.

﴿اُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِم﴾ أي انظر يا محمد نظرة تأمل واعتبار إلى حال هؤلاء المشركين وكذبهم الصريح باعتذارهم بالباطل ﴿وَضَلَّ عَنْهُم ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وزال عنهم وذهب ما كانوا يختلقون من أن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم في ذلك اليوم الرهيب. وقد كان المشركون يستمعون إلى رسول الله حين يتلو القرآن لا ليهتدوا وإنما ليلتمسوا الطعن فيه فقد روي أنه اجتمع أبو سفيان وأبو جهل والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وغيرهم يستمعون القرآن فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير

الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأرى القرآن حقاً[١]، فقال أبو جهل: كلا، فنزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنة هي الأغطية، أي جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون أن يصل كلام الله ونوره إليها ﴿أن يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا أو كراهة أن يفهموا ما يستمعونه من القرآن ﴿وفي آذانِهِم وَقْراً﴾ أي وجعل الله في آذانهم صمماً وثقلاً مانعاً لهم من سماعه.

هنا تشبيه للحجب والموانع المعنوية التي تصرف المشركين عن الهداية بالأشياء الحسية فالقلب الذي لا يقبل الحق ولا يستفيد منه هو كالوعاء الذي وضع عليه غطاء فلا يدخل فيه شيء، وهذه الحجب هي ما هم عليه من كبرياء وعناد وتقليد للآباء، كما أن الأذن المصابة بثقل في السمع لا تنتفع بما يصل إليها من الهدى ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وإن يروا كل معجزة وعلامة تدل على صدق نبوّتك يا محمد لا يصدّقون بها ولا يقرّون بها عناداً واستكباراً ﴿حَتَّى إذَا جاءوك يُجَادِلُونَكَ﴾ أي لم يكن مجيئهم إليك يا محمد إذعاناً للحق ولكن ليخاصموك ﴿يَقُولُ الَّذِين كَفَروا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا ما سطّره الأولون في الكتب من القصص والأخبار من كذب وأباطيل.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[٢] فهم ينهون الناس عن اتباع رسول الله وعن الاستماع للقرآن، وهم بالإضافة إلى أنهم لا يهتدون فإنهم يمنعون الهداية عن غيرهم ﴿وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾[٣] وهم يبتعدون عن رسول الله ويتجافون عن مجلسه ﴿وَإِن يُهْلِكُون إلاَّ

---

(١) وقد نفع الله أبا سفيان بكلمته هذه فأسلم هو دونهم ليلة فتح مكة.

(٢) (٣) تأمل هذا الانسجام اللفظي بين (يَنْهَوْنَ) و (يَنْئَوْنَ) ووقعه على السمع وهو ما يسمى في علم البديع «الجناس غير التام».

﴿أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون بصدّهم عن سبيل الله وإعراضهم عن القرآن إلا أنفسهم، ذلك أنهم بفعلهم هذا يعرّضونها لسخط الله، وهم لا يشعرون أنهم يسيرون في طريق الهاوية ولو شعروا بها لتجنبوا ما هم عليه من ضلال ولآمنوا.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

شرح المفردات

وُقفوا على النار: حُبسوا عليها يوم القيامة أو عاينوها وأشرفوا عليها.

نُـرَدُّ: نرجع إلى الدنيا.

بـدا لهم: ظهر لهم.

بمبعوثين: البعث إحياء الله الموتى يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

يا حسرتنا: الحسرة شدة الندم على ما فات.

فَـرَّطْـنَـا فيها: قصّرنا وضيّعنا في الحياة الدنيا.

أوزارهم: آثامهم وخطاياهم (جمع وِزْر).

ما يـزِرُون: ما يحملون من الخطايا.

خسارة المشركين بإنكارهم لقاء الله

وبعد أن ذكر الله حال المشركين في إصرارهم على الكفر وجحودهم لنبوة محمد ﷺ بيّن الله في الآيات التالية حالهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ لو: هي شرطية حذف جوابها لتذهب النفس في تصور الهول كل مذهب. وكلمة ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّار﴾ يفهم منها أن يكونوا عاينوها، أو أُدخِلوها فعرفوا مقدار عذابها، أو وقفوا على الصراط مشرفين عليها، والصراط جسر فوق جهنم. وكلمة ﴿وُقفوا﴾ فعل مبني للمجهول أي أوقفهم غيرهم، والمقصود الملائكة.

والمعنى: ولو ترى يا محمد أو أيها السامع ما يحل بأولئك المشركين من الفزع والهول حين تدخلهم ملائكة العذاب إلى النار ويعاينوا ما ينتظرهم فيها من عذاب لرأيت شيئاً مخيفاً وهولاً مفزعاً لا يحيط به الوصف ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُونَ مِنَ المؤْمنين﴾ إن المشركين يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ولا يكذبوا بآيات الله التي جاءهم بها رسوله محمد ﷺ ويكونوا من المؤمنين المتبعين أوامر الله ونواهيه.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا مِنْ أعمالهم السيئة وأحسوا بقبح ما فعلوا ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي لو أُعيدوا على سبيل الفرض إلى الدنيا كما يتمنون ـ مع العلم أن لا إعادة إلى الدنيا بعد الموت ـ لعادوا إلى الشرك والكفر والمعاصي ﴿وَإِنَّهُم لَكَاذِبونَ﴾ فيما تضمَّنه تمنّيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إن: حرف نفي بمعنى ما، فهم نفوا وجود حياة بعد الموت غير التي يعيشونها في دنياهم، كما أنهم نسبوا الحياة إليهم (حياتنا) لاستمتاعهم بها واستغراقهم بشهواتها وملاذّها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

كما أنهم أنكروا البعث يوم القيامة وما يعقبه من حساب وجزاء على الأعمال.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي ولو ترى ـ أيها المخاطب ـ حال أولئك المشركين حين يقفون للحساب أمام ربهم لرأيت سوء حالهم، فأمرهم لا يقتصر على ما هم عليه من بلاء وعناء بل يُسألون سؤال تأنيب وتبكيت: أليس هذا البعث الذي تشاهدونه الآن هو الحق الذي أنكرتموه من قبل في دنياكم ﴿قَالُوا: بَلَى وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بالبعث بعدما أنكروه سابقاً وأكدوا اعترافهم بالقسم، قال سبحانه: ﴿قَال فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُونَ﴾ فالذوق هنا كناية عن ما سيقاسونه من العذاب الشديد جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسول الله.

﴿قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي قد خسر سعي أولئك المشركين الذين كذبوا بالبعث وخاب، وهذا الخسران يكون بحرمانهم من نيل ثواب الله واستحقاقهم للعذاب الأليم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ والساعة(١) هنا هي القيامة سميت بذلك لسرعة الحساب فيها أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأة من غير توقع ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ والحسرة: هي الندم الشديد وجاء التحسّر بأسلوب النداء لشدة وقع القيامة عليهم فهم ندموا على ما فوّتوا على أنفسهم من الإيمان والعمل الصالح في دنياهم الذي كان سينجيهم من أهوال هذا اليوم ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُم عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهم يحملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم، وفي هذا مشهد تصويري مليء بالخزي والهوان والذل لهم ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ألا بئس ما يحملون من أعمال سيئة أوصلتهم إلى الهلاك والخسران في الآخرة.

﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي ما متاع الدنيا في حقيقة أمرها إلا

---

(١) والساعة أصلها في اللغة جزء من الليل أو النهار لا يلحظ فيه التحديد. وأطلقت الساعة معرّفة (بالألف واللام) في القرآن على يوم القيامة.

لعب ولهو، واللهو صرف النفس عن الجد إلى الهزل وعما ينفعها ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإن الجنة ونعيمها الدائم في الآخرة خير من الدنيا ومتاعها الزائل، وهي للذين اتقوا ربهم بطاعته وترك معصيته ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم وتدركون أن الإقبال على الدنيا بشهواتها وملاذّها مهلك، وأن العمل للآخرة بتقوى الله هو السبيل للسعادة والنجاة.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

شرح المفردات

يجحدون: الجحود، الإنكار مع العلم.

لكلمات الله: الآيات التي وعد الله بها المؤمنين بالنصر.

كبُرَ عليك: عَظُمَ وشق عليك.

تبتغي: تطلب.

نفقاً: القناة أو الحفرة تحت الأرض.

بآية: بمعجزة كونية.

يستجيب: الاستجابة، هي الإجابة المقرونة بالقبول.

يبعثهم الله: يُحييهم بعد مماتهم.

لولا: حرف يدل على الحث والتحضيض مِثْل: هلاّ.

مواساة لرسول اللَّه ووعده بالنصر

ثم تأتي الآيات التالية تواسي رسول الله محمد ﷺ وتخفف من حزنه بسبب ما يلاقيه من قومه من إيذاء وإعراض عن دعوته، قال تعالى:

﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ**﴾ أي قد أحاط علمنا يا محمد. بما يحزنك مما يقول المشركون بما لا يليق بك من أنك ساحر كذاب وشاعر ومجنون، ومفترٍ على الله، ولم تذكر هذه الآية تلك الأوصاف التي كان المشركون يقولونها في حق رسول الله تلطفاً به ﴿**فَإِنَّهُم لا يُكَذِّبُونَكَ**﴾ فإنهم لا يكذبونك يا محمد لذاتك فقد كنت مشهوراً بينهم بالصدق والأمانة ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمينَ بِآيَاتِ اللَّه يَجْحَدُونَ**﴾ والآيات: هي آيات القرآن أو المعجزات والدلائل على صدق نبوّة محمد ﷺ، والجحود: هو الإنكار مع العلم، فالله سبحانه أخْبَرَ رسوله محمداً بأن المشركين لا يكذبونه ولكنهم أهل جحود ومكابرة، فهم ينكرون بأن القرآن من عند الله مع علمهم بأنه الحق، كما وصفهم بالظلم لأن الظالم يجري على خلاف الحق.

﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبوا وَأُوذُوا**﴾ فالله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: إن ما تلاقيه من تكذيب وإيذاء من قومك قد حصل للرسل قبلك فصبروا على هذا التكذيب والإيذاء، وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ لأن البلوى إذا عمّت هانت ﴿**حَتَّى أَتَاهُم نَصْرُنَا**﴾ أي فاصبر يا محمد كما صبر رسل

الله قبلك حتى يأتيك النصر كما جاءهم، وفي هذا بشارة له بأن الله سينصره على أعدائه ﴿ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ﴾ ولا مغيّر لكلمات الله وآياته التي أنزلها على رُسُله ووعدهم فيها بالنصر على أعدائهم، فإن الله لا يُخلف وعده، وأحكامه لا تُنقض، ولقد جاء في القرآن: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَكَ مِن نَبَإِ المُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك يا محمد من أخبار الرسل مما قصّه الله عليك ما فيه من العظات والعِبَر بما يطمئن بها قلبك.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ وإن كان قد شقّ عليك يا محمد وعَظُم عليك إعراضهم ورفضهم لدعوتك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أن تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأَرْضِ أو سُلَّماً في السَّمَاءِ﴾ أي فإن استطعت أن تتخذ طريقاً في باطن الأرض أو سلّماً تصعد به إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ فتأتيهم بمعجزة ودليل على صدقك بأنك نبي فافعل ولكن ليس في قدرتك ذلك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدَى﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لحملهم جميعاً على الإيمان قسراً وقهراً أو طوعاً ولكن الله لم يشأ ذلك لسوء طويتهم بل تركهم ليختاروا الإيمان أو الكفر بإرادتهم ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ والجهل ضد العلم، أي فلا تكن يا محمد من الذين لا يعلمون حكمة الله وسنّته في خلقه. ويجوز أن يكون الجهل في الآية ضد الحلم، أي لا تضق صدراً بإعراضهم عنك.

﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يستجيب لدعوتك يا محمد أولئك الذين يسمعون آيات الله سماع تدبّر وفهم ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ وأما هؤلاء الذين لا ينتفعون بدعوتك إياهم إلى الإيمان فهم في حكم الأموات وسيبعثهم الله يوم القيامة أحياء ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ثم مصيرهم إلى الله فيحاسبهم على ما فعلوه في دنياهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الآية: المراد بها المعجزة، أي وقال المشركون: هلاّ أُنْزِلَ على محمد معجزة من ربه تدل على صدقه كالمعجزات التي أنزلها الله على رسله ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ قل لهم يا محمد إن الله قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا من المعجزات ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثرهم ليسوا من أهل العلم والعقل، لأنهم غفلوا عن الحكمة في عدم تحقيق ما سألوا، وهي أن الله لم يشأ إهلاكهم لأن سنّة الله جرت في خلقه بأنه سبحانه إذا أجاب قوماً إلى ما طلبوا من معجزات ثم لم يؤمنوا عند مجيئها أصابهم عذاب الاستئصال كما جرى للأمم التي كانت قبلهم.

وإن المعجزة الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً والتي غفل عنها الكثيرون هي القرآن المعجز ببلاغته وما اشتمل عليه من أنباء غيبية وإشارات إلى حقائق علمية توصَّل العلم حديثاً إلى كشف أسرارها. كما أن معجزته تكمن في التشريعات التي قدمها في الاقتصاد ونظام الحكم والأسرة والعلاقات الدولية والتي تفوق في سموها ما شرعته الأمم من قوانين ودساتير في هذا الخصوص، بالإضافة إلى ما في القرآن من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، والعبادات الجامعة بين مطالب الروح والجسد، والإيمان بوحدانية الله عن طريق التفكر في خلق السماوات والأرض، كما أن في القرآن حياة رسل الله ومواقفهم العظيمة وتضحياتهم وسموّ أفعالهم التي نجد فيها القدوة لكل من يبتغي السمو الإنساني.

ولقد تحدّى القرآن الأمم والجماعات التي تُنكر أنه من عند الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور بل بسورة مثل سُوَر القرآن فعجزوا واستمر عجزهم إلى عصرنا الحاضر وهذا مما يثبت أن القرآن كلام إلٓهي وليس من صُنع البشر.

ومما يؤيد ذلك أيضاً أن القرآن جاء على لسان رجل أُمِّيّ لا يعرف القراءة والكتابة

ولم يدرس على يد العلماء ولم يقرأ مئات الكتب ولم يطّلع على ثقافة الأمم، ألا يدل كل ذلك على أن القرآن هو المعجزة الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً ﷺ؟

هذا وإن معجزة القرآن الكريم هي معجزة عقلية وفي مرأى من الجميع لِكُلِّ العصور خلاف معجزات الأنبياء الحسية التي رآها المعاصرون للأنبياء ثم ضعف تأثيرها على الأمم التي جاءت بعدهم، فالدليل والبرهان الذي يبقى قائماً كمعجزة القرآن تأثيره على الأنفس أقوى من الدليل الذي غاب وانقضى ولا يعرف إلا بالخبر والسماع كما هو شأن معجزات الأنبياء السابقين.

وكما أيّد الله رسوله محمداً بالقرآن أيده بالنصر وبكثير من المعجزات الأخرى كانشقاق القمر، وإخباره بالمغيّبات، وإنباع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام إلى غير ذلك مما روته كتب الأحاديث الشريفة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ
أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم
مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

شرح المفردات

ما فرّطنا في الكتاب من شيء: ما أغفلنا وتركنا في اللوح المحفوظ من شيء لم نثبته.

يُحشرون: يُجمعون.

صمّ: جمع أصم وهو من فقد سمعه.

بُكم: جمع أبكم وهو الأخرس.

في الظلمات: ظلمات الجهل والعناد والكفر.

صراط: طريق.

أرأيتكم: أخبروني عن عجيب أمركم.

الساعة: القيامة.

بالبأساء: شدة الفقر.

الضراء: المرض.

يتضرعون: يتذللون لله تعالى ويتوبون إليه.

بأسنا: عذابنا.

ذُكّروا به: وُعظوا به.

أخذناهم بغتة: أنزل الله بهم العذاب فجأة.

مُبلسون: متحيرون يائسون من النجاة.

فقُطع دابر القوم: أهلكوا جميعاً بحيث لم يبق منهم أحد.

إنذار المكذبين بآيات الله

ثم ذكر الله سبحانه بعض الآيات الكونية التي تنبىء عن قدرة الله سبحانه في مخلوقاته.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾ والدابة ما يدب ويتحرك على وجه الأرض من الحيوان ﴿ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وصف الطائر بأنه يطير بجناحيه إشارة إلى كمال القدرة الإلهية التي خلقت الطير على هذا الشكل بحيث يسبح في الفضاء ﴿إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي أن دواب الأرض وأنواع الطيور خلقها الله جماعات لها خصائص تقرب من خصائص البشر، أي أن لها عقلاً متواضعاً تدبر به أمورها بجانب غرائزها.

هذه حقيقة علمية اعترف بها العلم حديثاً، فقد دل على أن جماعات الحيوان يربط آحادها رباط اجتماعي وثيق العرى وأن منها ما يعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾ التفريط في الشيء: تضييعه وتركه وإهماله، والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ[1]، أو القرآن الكريم. وإذا كان المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد ولا سواهما ما كان وما سيكون. وإذا كان المراد به القرآن الكريم فيكون المعنى: ما تركنا في القرآن شيئاً مما يحتاج إليه الناس من أمر الدِّين والدنيا إلا بيّناه ووضحناه إما بالتفصيل أو بالإجمال أو بالإشارة. وليس معنى هذا أن في القرآن تفاصيل علوم البشر ومذاهب الاجتماع أو تقنيات العلوم وغيرها، ولكن القرآن جاء بالأسس التي عليها صلاح البشرية والتي وضّح الكثير منها رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ﴾ ثم إن دواب الأرض

---

(١) اللوح المحفوظ: شيء لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ويوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وقدّر أن يعمله.

وطيور الجو تُجمع مع كل الأمم يوم القيامة فينصف بعضها من بعض.

﴿وَالَّذِين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ أي والذين كذبوا بآيات القرآن وبالحجج الدالة على وحدانية الله مَثَلُهم في جهلهم وعدم تدبرهم لها، كمثل الأصمّ الذي لا يسمع من يرشده إلى الهدى وكمثل الأبكم الذي لا يستطيع أن ينطق بالحق، وحال هؤلاء كحال من هم ﴿في الظُّلُمَاتِ﴾ أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة لا يهتدون إلى ما فيه صلاحهم كما لا يهتدي السائر في الظلام إلى ما يسعى إليه ولا يظفر به ﴿من يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي من يشإ الله إضلاله لفساد طويته يتخلى عنه فلا يهتدي إلى خير ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومن يشأ الله هدايته لطيب عنصره يجعله على طريق الحق.

أما الهداية والإضلال من الله فقد بيّن القرآن أنهما عن سابقة استحقاق كما جاء في النصوص الآتية: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩].

ثم يبيّن الله مبلغ جهل المشركين بعبادتهم الأصنام ولجوئهم إليها بالدعاء عند الملمات: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أو أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أرأيتكم(١): بمعنى أخبروني، وهذه الكلمة تستعمل للتنبيه والحث على التأمل.

---

(١) أرأيتكم: أي أرأيتم، والكاف هنا للخطاب لا محل لها من الإعراب فهي زائدة للتوكيد، وهذه الصيغة منقولة عن فصحاء العرب ولا تستعمل إلا لطلب معرفة شيء له حالة عجيبة.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى غيركم من الأمم الظالمة من قبل: كالخسف، والريح الشديدة العاتية، والصاعقة، والطوفان، أو أتتكم القيامة بأهوالها وشدائدها في الآخرة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أتدعون غير الله لينجيكم من عظيم ما نزل بكم من البلاء إن كنتم صادقين بزعمكم أن آلهتكم، وهي الأصنام، تنفعكم آنذاك؟

وقد كانت طبيعة المشركين أنهم إذا أصابتهم شدة وبلاء تركوا اللجوء إلى أصنامهم وتوجهوا بالدعاء إلى الله ليكشف الضر عنهم لاعتقادهم أن أصنامهم لا تنفعهم ولا تجيب دعاءهم، فالفطرة الإنسانية حتى عند الملحدين تلجأ إلى الله وحده عندما يحيق بها الخطر، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تتوجهون أيها المشركون بالعبادة إلى غير الله؟

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ بل الله وحده تدعونه عند نزول البلاء بكم وحين تحيط بكم المخاطر فيكشف الضر الذي تدعون ربكم إلى كشفه إن شاء، والتعبير بالمشيئة الإلهية لبيان أن إجابة دعائهم غير مطردة بل هي تابعة لمشيئة الله ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وفي تلك الحالة تنسون آلهتكم وتغيب عن عقولكم تلك المعبودات الباطلة.

ثم يبيّن الله العاقبة السيئة التي تنتظر المشركين إذا استمروا على ضلالهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ولقد أرسلنا رُسُلاً إلى الأمم من قبلك يا محمد ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهم يَتَضَرَّعُونَ﴾ فعاقبنا تلك الأمم بالشدائد كالقحط والجوع والفقر والأوبئة لعلّهم يبتهلون ويتذللون إلى ربهم تائبين من كفرهم ومعاصيهم.

﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ لولا: هي هنا للحض والتوبيخ، أي هلاّ حين جاءتهم الشدة والعذاب ابتهلوا إلى الله خاضعين له متذللين ﴿وَلَكِن قَسَتْ

﴿قُلُوبُهُم﴾ أي صلبت وغلظت فلم ينزجروا مما هم عليه من الكفر ولم يتوجهوا إلى الله بالدعاء والاستغفار **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** وحَسَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي فجعلها في أعينهم حسنة، وجعل ما جاء به الأنبياء من الهدى في نظرهم قبحاً وضلالاً.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فلما تركوا الاتعاظ بما ابتلاهم الله من الفقر والمرض والشدائد واستمروا على كفرهم وتكذيبهم لرسل الله **﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوابَ كُلِّ شَيءٍ﴾** أي نقلهم الله من حالة الشدة إلى ضدها بأن فتح أبواب الخيرات عليهم من سعة الرزق ورخاء العيش، وهذا التعبير **﴿أَبْوَابَ كُلِّ شيءٍ﴾** فيه صورة لإقبال الدنيا عليهم بجميع نِعَمِهَا، وهذا اختبار لهم بالنعمة بعد أن اخْتَبَرهم بالشدة ليرجعوا عن ضلالهم ويتوبوا من كفرهم ومعاصيهم كما جاء في موضع آخر من القرآن **﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَالِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** [الأعراف: ١٦٨].

﴿حَتَّى إِذا فَرِحُوا بما أُوتُوا﴾ أي حتى إذا فرحوا بما أُعطوا من النعم بطراً وغروراً بها **﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾** أخذهم الله بالعذاب فجأة من غير ترقّب، وإنما أُخذوا وهم في تلك الحالة من الرخاء ليكون وقعه أشد عليهم لتحسُّرهم على ما فاتهم من النعيم **﴿فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾** أي يائسون من كل خير، وقيل: المُبلِس الشديد الحسرة الحزين **﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** أي فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله واستؤصلوا عن آخرهم فلم يبق منهم أحد **﴿وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمينَ﴾** والثناء على الله والشكر له بعد أن طهّر الأرض من أولئك الظالمين الذين لم يتعظوا بما جاءهم من النقم والنعم بل ظلوا على كفرهم وعنادهم ومناوءتهم لرسل الله.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

شرح المفردات

أرأيتم: أخبِروني.

وختم على قلوبكم: أي غطاها فأصبحت لا تعقل.

عذاب الله بغتة أو جهرة: أي جاءهم العذاب فجأة بدون أمارات، أو ظاهراً تسبقه علامات.

نصرّف الآيات: نبيّن الحجج والبراهين على قدرتنا.

يصدفون: يُعرضون.

يمسّهم العذاب: يصيبهم العذاب.

يفسقون: يخرجون عن طاعة الله بالكفر والمعاصي.

خزائن الله: المراد بها مقدوراته أو التي منها يُرزق العباد.

الأعمى والبصير: الأعمى هو الضالّ، والبصير هو المهتدي.

وأنذِر: الإنذار هو التخويف والتحذير من سوء أفعالهم.

وليّ: ناصر.

تحذير للمشركين وإنذار لهم بالعذاب

ثم يبين الله فضله على الناس محذراً المشركين من التمادي في كفرهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُم وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين لك: أخبروني إن أزال الله سمعكم وأبصاركم. والأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقره وهو هنا مجاز في السلب والإزالة ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ وغطى على قلوبكم بحيث تصبح لا تفهم شيئاً. فالسمع والبصر هما مفتاح المعرفة والتفاهم بين الناس والسعي لتحصيل الرزق، والقلوب تستعمل في القرآن مصادر للفهم والإدراكات العقلية(١)، فلو أخذ الله هذه الجوارح والحواسّ وأزالها من الإنسان أصبح عديم النفع لا معنى لحياته ووجوده على هذه الأرض ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي من هي هذه الآلهة التي تعبدونها من غير الله تستطيع أن تأتيكم بما أخذه الله منكم ﴿أنظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ انظر نظرة تأمل كيف ننوّع الحجج والبينات لهم لعلّهم يعتبرون ثم هم مع هذا يعرضون عن تدبرها والانتفاع بها ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُم عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَو جَهْرَةً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين تبكيتاً لهم: أخبروني إن جاءكم عذاب الله في الدنيا فجأة بدون مقدمات تنبهكم إليه، أو جهرة تسبقه علامات تدل عليه ﴿هَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام هنا للنفي أي ما يهلك الله إلا الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وتكذيب الرسل ومعصية الله.

﴿وَمَا نُرسِلُ المرسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي وما يرسل الله رسله إلى خلقه إلا مبشرين المؤمنين الصالحين بالخبر السار بما ينتظرهم من حسن الثواب في

---

(١) القلب هو سر الحياة، فهو الذي يضخ الدم إلى جميع أعضاء الإنسان، ومنها المخ فهو سبب لنشاطه العقلي، لهذا أسند الله الفهم والعقل والفكر إلى القلب مجازاً.

الآخرة، كما يُرسل الله رسله منذرين ومخوفين الكفار الذين عصوا ربهم بالعذاب الأليم إذا استمروا على كفرهم ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن آمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح عمله وفق شريعة الله فلا خوف عليهم من عقاب يصيبهم، ولا هم يحزنون على فوات الثواب لأنهم استحقوه بإيمانهم وعملهم الصالح.

﴿والَّذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين كذبوا بآيات الله المنزلة على الرسل، وبالمعجزات التي أيدهم الله بها ﴿يَمَسُّهُمُ العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فهؤلاء يصيبهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بسبب خروجهم عن طاعة ربهم.

ولما كان المشركون قد اقترحوا على رسول الله جملة مقترحات تعجيزية فوق مقدور البشر لذا أمر الله رسوله أن يجيب على مقترحاتهم بقوله:

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُم عِنْدي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ قل لهم يا محمد ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم ما تريدون لأن المشركين كانوا يقولون لرسول الله: إن كنت رسولاً من عند الله حقاً فاطلب منه أن يوسع رزقنا ويُغنينا ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ وأخبرهم يا محمد بأنك لا تعلم الغيب بما سيقع في المستقبل، وذلك لأن المشركين قالوا أخبِرنا بما ينفعنا وما يضرنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ﴿ولا أَقُولُ لَكُم إنّي مَلَكٌ﴾ وأخبرهم يا محمد أيضاً بأنك لست ملكاً من الملائكة حتى تكلفوه من الأفعال الخارقة بما لا يطيقه البشر كالصعود إلى السماء وغير ذلك ﴿إن أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحى إلَيَّ﴾ إن هنا حرف نفي، أي قل لهم: ما أنا إلا بشر أتَّبِع ما يوحي الله إليَّ وأعمل بمقتضاه فلا تطلبوا مني ما ليس من شأني وقدرتي ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ وقل لهم يا محمد هل يستوي الكافر الذي عمي عن الحق ولم يستجب له، مع المؤمن الذي أبصر الحق فآمن بوحدانية الله، وعمل

بطاعته، والاستفهام في الآية للإنكار، أي كما لا يتساوى أعمى العينين وبصيرهما فكذلك لا يتساوى المهتدي والضالّ ﴿أفلا تتفكّرون﴾ تقريع وتوبيخ للمشركين، أي أفلا تسمعون هذا الكلام الحق وتفكروا فتُميِّزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام؟

﴿وأَنْذِرْ بهِ الَّذين يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى ربِّهِم﴾ الإنذار: إعلام مع تخويف، أي وخوِّف يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون من هول يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة وتجمعهم إلى ربهم ليجازيهم على أعمالهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِنْ دُونِهِ وَليٌّ ولا شَفِيعٌ﴾ ليس لهم غير الله نصير يحميهم ولا شفيع يخلّصهم من عذاب الله إن هم عصوا ربهم ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ لعلّهم يتقون عذاب الله بطاعته وترك ما نُهوا عنه.

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ

إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم
بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞.

شرح المفردات

بالغداة والعَشِيِّ: في أول النهار وآخره والمراد كل الأوقات أي ما بين الغداة والعشي.

يريدون وجهه: يريدون الإخلاص لذاته لا لغرض من أغراض الدنيا.

فتنّا: ابتلينا وامتحنا.

كتب ربكم على نفسه: قضى وأوجب تفضلاً وإحساناً.

بجهالة: بسفه وسوء رأي.

نفصّل الآيات: نبيّن آيات القرآن.

بيّنة: حجة.

ولتستبين: ولتتضح.

يقص الحق: يقول الحق فيما يحكم به.

تدعون: تعبدون.

كبرياء المشركين وضلالهم

ويتابع القرآن فيذكر ما كان يتصف به المشركون من كبرياء تحول بينهم وبين اتّباع رسول الله والانضمام إلى جماعة المؤمنين الفقراء الذين استجابوا لرسول الله. فقد روي أنه مر أشراف من قريش برسول الله وعنده صهيب وبلال وعمّار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من

بيننا؟ أنكون نحن أشراف قومنا تَبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك، فنزلت الآية:

﴿ولا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُون رَبَّهُم بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ﴾ أي لا تستجب أيها النبي لدعوة المتكبرين من الكفار فَتُبْعِد عنك المستضعفين من المؤمنين الذين يعبدون ربهم طرفي النهار أوله وآخره، أي يصلّون عامة الأوقات لأنه يكنى بطرفي الشيء عن جملته وهي الصلوات الخمس ﴿يُريدونَ وَجْهَهُ﴾ المراد بالوجه الذات أي مخلصين العبادة لله سبحانه لا يريدون إلا رضاه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شيءٍ﴾ أي ما عليك ـ أيها النبي ـ شيء من أمر حساب هؤلاء المؤمنين على أعمالهم، ولا عليك رزقهم ولا هم يرزقونك ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيءٍ﴾ أي وليس عليهم شيء ما من أمر حسابك على أعمالك لأن كل واحد مؤاخذ بحساب عمله عند ربه، فحسابهم عند ربهم لازم لهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عند ربك لا يتعداك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمينَ﴾ أي إن طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء المستضعفين استجابة لرغبة أشراف قريش وأثريائهم تكون من جملة الظالمين الذين يضعون الشيء في غير موضعه ويخرجون عن جادة الحق.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ومثل ذلك الابتلاء من التفاوت بين المؤمنين والكفار ابتلينا واختبرنا بعض الناس ببعض بالغنى والفقر، والقوة والضعف والعز والذل، فكلا الفريقين المؤمنين والكافرين مبتلى بصاحبه. فرؤساء الكفار وأشرافهم كانوا يحسدون فقراء المؤمنين لكونهم سابقين إلى الإسلام، وإنهم لو دخلوا إلى الإسلام لوجب عليهم أن ينقادوا لهم ويعترفوا لهم بالتبعية والمساواة بهم وهذا شيء يشق عليهم ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي كي يقول هؤلاء الكفار الأثرياء: أهؤلاء الفقراء

الضعفاء تفضّل الله عليهم دوننا بالهدى والرشاد ونحن الأغنياء الأقوياء فهم في نظرهم هم المفضلون عند الله بما أعطاهم من الغنى والجاه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر له، والله أعلم بمن يشكرون فضله وإنعامه فهو يلطف بهم ويسهل لهم الإيمان ويحببه إليهم.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ وإذا جاءك يا محمد المؤمنون الذين يصدّقون بآيات القرآن فقل لهم تكريماً: سلام عليكم. نزلت هذه الآية في الذين نهى الله رسوله محمداً عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام تطييباً لخواطرهم وقال الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام. والسلام اسم بمعنى الدعاء بالسلامة فمعنى سلام عليكم: إنني أدعو الله بأن يسلمكم من الآفات في دينكم وأنفسكم، والسلام أيضاً بمعنى الأمان، وهي كلمة كانت العرب تقولها عندما يلتقي المرء بغيره دلالة على أنه مسالم له لا محارب، لأن العرب كانت بينهم صراعات قبل الإسلام وأخذ بالثأر فكان الرجل إذا لقي من لا يعرفه لا يأمن أن يكون بينه وبين قبيلته عداوة فيؤمّن أحدهما الآخر بقوله: السلام عليكم ثم شاع هذا اللفظ في التحية ﴿كَتَبَ رَبُّكم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب ربكم على ذاته العلية الرحمة إيجاب فضل وإحسان، وله سبحانه أن يوجب على نفسه ما شاء ولا يوجب عليه أحد شيئاً، فالرحمة من شأن ربوبية الله التي وسعت كل شيء ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُم سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ أي من عمل منكم خطيئة وهو جاهل لما ينشأ عنها من المضرة والعقاب في الآخرة وما فاته من الثواب باقترافها ففعله هذا من أفعال الجهلة، فالمؤمن لا يباشر عملاً يعلم أنه يؤدي إلى الضرر في دينه ودنياه. أو بمعنى: أنه جاهل الحلال من الحرام ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ والتوبة ندم أي ثم ندم على فعله وأصلح ما أفسده تداركاً وعزماً على أن لا يعود إليه أبداً ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ فإن الله يغفر له لأنه سبحانه كثير المغفرة واسع الرحمة.

وهؤلاء المؤمنون المستضعفون أكرمهم الله بكرامتين: **الأولى** أن يبدأهم النبي ﷺ بالسلام حين دخولهم عليه وهي مزية لهم لأن شأن السلام أن يبدأه الداخل على إنسان والكرامة **الثانية** هي بشارتهم برضى الله عنهم بأن غفر لهم ما عملوا من سوء إذا تابوا من بعده وأصلحوا. ثم يقول سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ التفصيل: التبيين الذي تظهر به المعاني، أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على بطلان الإشراك بالله كذلك نفصّل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين والدنيا **﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجْرِمِينَ﴾** أي وليتضح لك يا محمد وللمؤمنين سلوك المجرمين فتعاملوهم بما يستحقون.

﴿قُلْ إِنّي نُهِيتُ أَن أَعْبُدَ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد إني نهيت من الله تعالى أن أعبد معكم الأصنام التي تعبدونها من دون الله **﴿قُل لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُم﴾** وقل لهم لا أتبع أهواءكم في عبادتكم للأصنام فعبادتكم لها قائمة على محض الهوى والتقليد لا على سبيل العقل والدليل لأنها جمادات منحوتة بأيديكم لا تنفع ولا تضر **﴿قَدْ ضَلَلْتُ إذاً وَمَا أنا مِنَ المُهْتَدِينَ﴾** أي إن اتبعت أهواءكم وجاريتكم بعبادة الأصنام فأنا ضالّ وما أنا من المهتدين، وكأنه بذلك يقول لهم: أنتم ضالّون بعبادتكم للأصنام.

﴿قُلْ إِنّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ المراد بالبيّنة: اليقين والحجة الواضحة، أي قل لهم يا محمد إني على يقين في شأن وحدانية ربي وكذّبتم أنتم بربكم حيث جعلتم له شركاء عبدتموها معه ومن جعل لله شركاء فقد كذّب بوحدانيته وكذّبتم بما جاءكم به رسول الله من الهُدَى **﴿مَا عِنْدي ما تَسْتَعْجِلونَ**

بِهِ﴾ أي ليس عندي القدرة على إنزال عذاب الله الذي تستعجلون نزوله، وقد كان المشركون يستعجلون العذاب الذي توعّدهم الله به على لسان رسوله تحدّياً وإنكاراً ﴿إِنِ الحُكْمُ إلاّ لِلَّه يَقُصُّ الحَقَّ﴾ أي ما الحكم في نزول ذلك العذاب تعجيلاً وتأجيلاً إلا لله تعالى، فهو سبحانه يقول الحق لأن كل ما أَخْبَرَ به فهو حقّ وفي قراءة ﴿إِنِ الحُكْم إلاَّ لِلَّه يَقْضي الحقَّ﴾(١) بمعنى الحكم، أي يحكم بالحق ولا يجور في حكمه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلينَ﴾ وهو خير من يفصل بين الحق والباطل في قضايا خلقه.

﴿قُلْ لَو أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بيني وَبَيْنَكُم﴾ قل لهم يا محمد: لو أن في قدرتي إنزال العذاب الذي تتعجلون نزوله لأنزلته عليكم غضباً لربي وانتهى الأمر بيني وبينكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمينَ﴾ والله سبحانه أعلم بالظالمين وبالوقت المناسب لنزول العذاب بكم، فهو سبحانه يعجّل العذاب للظالمين أو يؤخره حسب حكمته.

---

(١) يقول ابن جرير: هذه القراءة أولى بالصواب لما جاء بعدها ﴿وهو خير الفاصلين﴾ لأن الفصل بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقصص.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ
ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى
ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ۞ ﴾ .

شرح المفردات

مفاتح الغيب: معرفة الأمور التي تغيب عنا.

يتوفّاكم بالليل: يُنيمكم في الليل.

جرحتم بالنهار: ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

يبعثكم: يوقظكم في النهار.

أجل مسمى: وقت محدد لكل واحد ينتهي إليه عمره.

وهو القاهر فوق عباده: أي هو الله الغالب على خلقه العالي عليهم بقدرته.

حفظة: ملائكة تحفظكم وتحصي عليكم أعمالكم.

توفّته رسلنا: قبضت روحه ملائكة الله.

لا يفرّطون: لا يقصّرون ولا يتوانون.

أسرع الحاسبين: يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان وأقصره.

مدى علم الله وقدرته في الكون

ويتابع القرآن فيبيّن شمول علم الله وقدرته لكل جزئيات هذا الكون ودقائقه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾ مفاتح: جمع مِفتح بكسر الميم وهو المفتاح أي الآلة التي يفتح بها الخزائن. وقد تكون مفاتح جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن. فالله سبحانه جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها، وهذا التعبير على سبيل الاستعارة، أو إنه سبحانه جعل للأمور الغيبية مفاتح يُتوصل بها إلى ما في المخازن من الأمور الغيبية.

فخزائن الغيب أي ما غاب علمه عن الخلق هي في علم الله تعالى وفي تصرُّفه وحده وإن المفاتيح وهي الوسائل التي يُتوصل بها إلى علم الغيب هي عنده سبحانه تعالى أيضاً. فالله سبحانه اختص بأسباب علم الغيب والطرق الموصلة إليه، وقد خصّ الله رسله ببعض الغيب كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

أما العرّافون الذين يدّعون علم الغيب كقول أحدهم لمن يستخبرهم عن مستقبلهم عن طريق الكف أو قراءة الفنجان: إنك ستكسب كذا أو تتزوج فلانة أو نحو ذلك فهو رجم بالغيب وهو من الآثام الكبيرة، وإثم ذلك يقع على المخبِر والمستخبِر.

وكذلك الذين يدّعون أن حظوظ الناس وأعمالهم يمكن أن تُعرف من تحركات القمر ومواقع النجوم فيقولون: إن مواليد شهر كذا الملقب ببرج الحمل ومواليد شهر كذا الملقب ببرج الأسد وغير ذلك من مسميات سيحصل لهم من الأمور كذا وكذا وهذه كلها من الخزعبلات. وإن الذين درسوا علم الفلك الحديث يعرفون أنه لا صحة للتنجيم على الإطلاق.

والمؤمنون منهيّون عن إتيان العرّافين فقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله:

«من أتى عَرّافاً فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[١].

وروي عن النبي ﷺ قوله: «من أتى عرّافاً أو كاهناً[٢] فصدَّقَـهُ بما يقول فقد كَـفَـرَ بما أُنْـزِلَ على محمّد ﷺ»[٣].

﴿وَيَـعْـلَـمُ ما في البَرِّ وَالـبَـحْـرِ﴾ ويعلم الله سبحانه ما يحتويه البر من النبات والأحياء والمعادن، وما يحتويه البحر من كائنات حية وغيرها ﴿وَمَـا تَـسْـقُـطُ مِـنْ وَرَقَـةٍ إلاّ يَـعْـلَـمُـهَـا﴾ وما تسقط ورقة من أوراق الشجر أو النبات إلا وهي في عِلْمِ الله سبحانه ﴿ولا حَـبَّـةٍ في ظُـلُـمَـاتِ الأرْضِ﴾ وما تسقط حبة من الحبوب التي يلقيها الزارع في الأرض ويطمرها أو الحبوب التي تسقط من النبات بدون فاعل وتصبح في طبقات الأرض إلا ويعلمها الله ﴿وَلاَ رَطْبٍ ولا يَـابِسٍ﴾ ويعلم سبحانه أيضاً كل رطب ويابس من النبات والثمر أو غير ذلك ﴿إلاّ في كِـتَـابٍ مُبينٍ﴾ فُسِّر الكتاب هنا بعلم الله المحيط بجميع الأشياء إحاطة الكتاب بما فيه من الكلمات، كما فسِّر الكتاب باللوح المحفوظ الذي يوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وقدّر أن يعمله.

﴿وَهُـوَ الَّـذي يَـتَـوَفَّـاكُـم بِـالـلَّـيْـلِ﴾ التوفي: أخذ الشيء وقبضه بتمامه وأطلق التوفي على الموت لأن الأرواح تُـقْـبَـضُ وتُـؤْخَـذُ أخذاً تاماً حتى لا يبقى لها تصرف في الجسد. وهنا في قوله ﴿يتوفاكم بالليل﴾ أطلق على النوم في الليل على سبيل المجاز والاستعارة لأن النوم شبيه بالموت لما بينهما من المشاركة من زوال بعض الحواس مؤقتاً كالبصر والانتباه والإدراك.

فهناك وفاتان: وفاة كبرى وتكون بالموت، ووفاة صغرى وتكون بالنوم، وقد

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) الكاهن هنا: هو الذي كان يدّعي علم الغيب عند العرب وليس هو الكاهن المعروف عند المسيحيين.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

صوّر القرآن تلك الحالتين بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ويعلم ما كسبتم وما عملتم في النهار من خير أو شر ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسمًّى﴾ ثم إنه بعد توفيكم بالنوم في الليل يوقظكم منه في النهار لأجل أن يقضي كل فرد أجله المعيّن في علم الله من حياة ورزق وعمل ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُم﴾ ثم إلى الله مرجعكم بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ ثم يخبركم بما كنتم تعملون في دنياكم من خير أو شر ويجازيكم عليها.

﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهو الله سبحانه العالي على الخلق بقدرته والغالب المتصرف في أمورهم كيف يشاء: إحياء وإماتة، ورزقاً، وغنى وفقراً، وعافية ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ والحفظة هم ملائكة جعلهم الله حافظين للناس من الآفات ويسجلون ما يعمله الناس من خير أو شر ﴿حَتّى إذا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي حتى إذا جاء الوقت الذي ينتهي فيه أجل الإنسان توفته الملائكة المُرْسَلُون لقبض الأرواح، وهؤلاء الملائكة المرسَلون هم أعوان ملك الموت، فقد ثبت أن لملك الموت أعواناً من الملائكة يوكل إليهم قبض روح أي عبد جاء أجله ﴿وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ وهم لا يقصّرون ولا يتوانون في تأدية أعمالهم.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ﴾ ثم يبعث الله هؤلاء الأموات يوم القيامة أحياء، ويردّون إلى الله خالقهم ومالكهم الحق أي العادل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿ألا لَهُ الحُكْمُ﴾ ألا: أداة استفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر، أي ألا لله سبحانه وحده الحكم النافذ في خلقه فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ

الحَاسِبِينَ﴾ وهو سبحانه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الفكر والرويّة والتدبّر.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

شرح المفردات

ظلمات البر والبحر: شدائدهما.

تضرّعاً: تذلّلاً وخضوعاً لله.

كرب: الغم الشديد الذي يأخذ بالنفس.

يَلْبِسكم شيعاً: يجعلكم فرقاً مختلفة الأهواء.

يُذيق بعضكم بأس بعض: ينكّل كل فريق بالآخر.

بوكيل: بحفيظ.

لكل نبأ مستقرّ: لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه.

بيان قدرة الله وفضله على عباده

ثم ينتقل القرآن إلى تذكير المشركين بفضل الله عليهم عندما يلجأون إليه وحده في كشف الضرّ عنهم:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ قل يا محمد للمشركين موبخاً إياهم: من الذي ينجيكم من شدائد البر والبحر عندما تغشاكم بأهوالهما المرعبة إنكم في تلك الحالة تلجأون إلى الله وحده ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ تدعونه بضراعة أي بخضوع وذلّ كما تدعونه بالسرّ والخفاء ﴿لَئِنْ[1] أنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ﴾ أي نقسم يا رب لئن أنقذتنا من هذه الأخطار لنكونن من المقرّين بفضلك القائمين بشكرك.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أنْتُم تُشْرِكُونَ﴾ قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه الأهوال ومن كل شدة أخرى ثم أنتم بعد النجاة منها تشركون مع الله آلهة أخرى في العبادة وأنتم تعلمون أنها لا تدفع شراً ولا تجلب نفعاً.

نعود إلى قول الله تعالى: ﴿ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ والمراد بهما شدائدهما الهائلة التي تبطل الحواس وتُدهش العقول وتثير المخاوف في النفوس، والعرب تقول يوم مظلم إذا كان شديداً. فظلمات البر تظهر في ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من الأعداء. أما ظلمات البحر فهي اجتماع ظلمة الليل مع ظلمة السحاب إضافة إلى الرياح العاصفة والأمواج الهائلة التي يترتب عليها الخطر على المراكب والسفن. ففي تلك الأحوال الرهيبة لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله وحده ويدعوه بأن ينجيه من تلك الأخطار. فالفطرة التي أودعها الله في الإنسان تلجىء إلى الله وحده عند اشتداد الكرب وتترك ما كانت تعبد من دون الله من أصنام وأشخاص ومظاهر طبيعية، وإذا كان الأمر كذلك وجب على الإنسان أن يتوجه إلى الله في الدعاء والعبادة في كل الأحوال ويترك ما كان يدعو من غير الله مما لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً.

---

(١) لئن: اللام لام القسم.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوقِكُم أو مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قل يا محمد للمشركين على سبيل التهديد: الله سبحانه هو الذي يقدر على أن يبعث عليكم عذاباً يأتيكم من أعلاكم أو من أسفل منكم ﴿أوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ واللبس: اختلاط الأمر حتى لا يعرف الجهة التي يريدها، ولذلك سميت استقامة الأمور نظاماً واختلال الأمور والفوضى لبساً. و(شيعاً) جمع شيعة وهي الفرقة من الناس التي تجتمع على أمر ما من عقيدة أو مبدإ. والمعنى: هو الله القادر على أن يجعلكم فرقاً مختلطي الأهواء متفرّقي الآراء ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ البأس: هو الشدة والمكروه كما يطلق على الحرب والعذاب، أي يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل ﴿أنْظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ﴾ انظر أيها العاقل كيف يبين الله ويوضح الدلائل والحجج لهؤلاء المكذبين رجاء أن يفهموا حقيقة الإيمان بالله ويكفوا عن كفرهم وضلالهم. وقد سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد»[١]. هذه الآية ظهر تأويلها في زمن الحربين العالميتين وما بعدهما من حروب فقد أرسل الله على الأمم عذاباً من فوقها بما تقذفه المدافع وبما تلقيه الطائرات من قنابل وصواريخ على المدن، أما العذاب من تحت أرجلكم فيظهر في الألغام التي زرعها المحاربون في أراضيهم وفي أراضي أعدائهم وهي تفتك بمن يدوس عليها.

أما قوله تعالى: ﴿أو يَلْبِسَكُم شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فهو ما ظهر في الحروب الأهلية عند كثير من الشعوب، والتي ذاق ويلاتها كافة طبقات الشعب.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَومُكَ وَهُوَ الحَقُّ﴾ وكذّب قومك يا محمد بالقرآن وهو الحق

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

الذي لا ريب فيه ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وقل لهم لست عليكم بحفيظ أجازيكم على أعمالكم ولم يوكَل أمركم إليّ.

﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ والنبأ هو الخبر العظيم الذي له أهمية. أي لكل خبر عظيم جاء في القرآن له وقت أو مكان يحصل فيه هذا الخبر ويتحقق ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وسوف تعلمون في المستقبل صدق هذه الأخبار عند وقوعها.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

يخوضون في آياتنا: يندفعون في الاستهزاء والطعن في آيات القرآن.

فأعرِض عنهم: فلا تجالسهم واتركهم.

بعد الذكرى: بعد التذكر.

ولكن ذِكْرى: ولكن تذكير ووعظ.

وَذَرِ: واترك.

غَـرَّتهم: خَـدَعَـتْـهُم.

تُـبْـسَـل نفس: تُسلم نفس إلى الهلاك أو تفتضح.

ولـيّ: ناصر.

وإن تعدل كل عدل: العدل: الفداء، وإن تفتد تلك النفس بكل فداء لا يُقبل منها.

حميم: ماء شديد الحرارة.

ترك مجالسة الذين يطعنون في دين اللَّه

ولما كان بعض المشركين يطعنون في القرآن ويستهزئون به لذا أمر الله رسوله محمداً والمؤمنين بالإعراض عنهم وترك مجالستهم. فقد رُوي أن المشركين بمكة كانوا إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي ﷺ خاضوا فيه واستهزأوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج ـ حين نسمع قولهم ونجالسهم ـ فلا نُعيب عليهم، فأنزل الله هذه الآية:

﴿وَإِذَا رَأَيْـتَ الذين يَخُـوضُـونَ في آيَـاتِـنَـا﴾ أي وإذا رأيت ـ أيها النبي ـ أو أيها المؤمن هؤلاء المشركين يخوضون في آيات القرآن عند استماعهم لها بالطعن والتكذيب والاستهزاء. والخوض: حقيقته المشي في الماء، ثم استُعير الخوض للكلام الذي فيه الكذب والباطل **﴿فَـأَعْـرِضْ عَـنْـهُـم حَـتَّـى يَـخُـوضُـوا في حَـدِيثٍ غَـيْـرِهِ﴾** أي فاترك مجالستهم وقت اشتغالهم بباطلهم حتى يدخلوا في حديث غيره، وفائدة الإعراض عنهم تكمن في قطع الجدال معهم. وإنما عبّر عن انتقالهم إلى حديث آخر بلفظ «الخوض» لأنهم لا يتحدثون إلا فيما لا جدوى له من أحوال الشرك بالله وأمور الجاهلية.

﴿وَإِمَّـا يُـنْـسِـيَـنَّـكَ الـشَّـيـطَـانُ﴾ إما: أصلها: «إن» الشرطية المدغمة في «ما»

أي وإن أنساك الشيطان ترْك مجالستهم ﴿فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تقعد بعد التذكر عن النهي عن مجالستهم مع هؤلاء القوم الظالمين.

أما مسألة النسيان من رسول الله فيرى بعض العلماء أن ما جاء في الآية إنما هو على سبيل الفرض لا الواقع إذ لم يقع منه نسيان لذلك، ولهذا استعملت «إن» الشرطية فهي لمجرد الفرض لما ليس له تحقق الوقوع.

ويرى آخرون على جواز النسيان من النبي في الأفعال واستحالة النسيان منه في الأقوال التي عليه تبليغها. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكّروني»(١). أما النسيان من جهة المؤمنين فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه»(٢) أي هذه الأمور لا يؤاخذ الله عليها المؤمن.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِين يَتَّقُون مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيءٍ﴾ أي ما على المؤمنين الذين يتقون ربهم أن يحاسبوا هؤلاء الخائضين في آيات الله بالطعن والاستهزاء ولا أن يمنعوهم من ذلك ولا يلحق المؤمنين إثم من أفعال هؤلاء ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ ولكن على المؤمنين أن يعظوهم لعلّهم يجتنبون ما هم عليه من القبائح ويتقوا الله في أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِباً وَلَهْواً﴾ واترك ـ يا محمد ـ المشركين الذين جعلوا دينهم لعباً ولهواً وأمثال هؤلاء كل من يعمل على شاكلتهم من أهل

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه ابن ماجه.

الكتاب. أما اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً فهو أن أعمال دينهم التي يعملونها لم تكن مزكّية للأنفس ولا مهذّبة للأخلاق ولا واقعة على الوجه الذي يرضي الله سبحانه فهي صرف للوقت فيما لا فائدة فيه على سبيل اللهو واللعب وأكثر ما يظهر ذلك في مواسم الأعياد الدينية وما يشوبها من مآثم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم الحياة الدنيا وظنّوا أن لا حياة بعدها وأن نعيمها دائم لهم ﴿وَذَكِّر بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الضمير في (به) راجع للقرآن، أي ذكّر بالقرآن وقم بالوعظ بما جاء فيه من الهدى، و(تبسل): لها عدة معانٍ منها: تُهلك، أي مخافة نفس أن تُسْلَمَ للهلاك مما عملته من الكفر والمعاصي. وقيل: تبسل بمعنى تُرتهن، أي تؤخذ بعملها إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. وقيل الإبسال بمعنى الحبس، أي تُحبس في جهنم بما عملت من ذنوب ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ﴾ والوليّ: هو الناصر، أي ليس لتلك النفس الآثمة من غير الله ناصر ينصرها، ولا شفيع يشفع لها في الآخرة ويمنع عنها العذاب ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ العدل: هو الفداء، أي وإن تقدّم تلك النفس كل فداء تفتدي به من العذاب لا يُقبل منها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أولئك الذين أُسْلِمُوا للهلاك أو يُجزون بسبب أعمالهم القبيحة ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ والحميم: ماء بالغ نهاية الحرارة إذا شربوه يقطع أمعاءهم، وخُصَّ الشراب بالحميم من سائر أنواع العذاب الأخرى لأنهم يعطشون فلا يشربون إلا ما يزيدهم حرارة على حرارة العطش ﴿وَعَذَابٌ أليم﴾ ولهم أيضاً مع الشراب الحميم من الله العذاب الأليم بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب استمرارهم وإصرارهم على الكفر.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

شرح المفردات

ونُردّ على أعقابنا: ونرجع إلى الوراء وذلك بالعودة إلى الشرك بالله.

استهوته الشياطين: أغوته وأضلته.

لِنُسْلِمَ: لنخضع وننقاد.

إليه تُحشرون: تجمعون إليه يوم القيامة.

الصُّور: بوق ينفخ فيه الملك إسرافيل يوم القيامة.

الغيب: ما يغيب عن الرؤية.

الشهادة: ما يُشاهد بالنظر.

التوجه إلى الله وحده بالعبادة

كان المشركون قد طلبوا من رسول الله أن يترك الدعوة إلى الدِّين الذي جاءهم به وهو عِبادة الله وحده، كما طلبوا من المؤمنين أن يتركوا دين الإسلام ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الشِّرْكِ بالله وعبادة الأصنام فنزلت الآية الكريمة:

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا﴾ أي قل يا محمد للمشركين الذين يدعونك والمؤمنين إلى الشِّرْكِ بالله وعبادة الأصنام: أنعبد من غير الله ما لا يقدر على نفعنا إن عبدناه، ولا يقدر على ضرّنا إن تركنا عبادته؟ والاستفهام هنا للتوبيخ ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ والأعقاب: جمع عقب وهي مؤخر القدم، ويُقال: رجع على عقبه وعلى عقبيه بمعنى رجع إلى المكان الذي جاء منه، ثم استعمل ذلك المعنى للحالة الذميمة التي فارقها صاحبها ثم عاد إليها، والمقصود هنا أن الذي يعود إلى الشرك بعد الإيمان يكون قد عاد إلى الصفة الذميمة بعد أن كان قد تركها، والمعنى: كيف يليق بنا أن نعبد غير الله، وأن نرتدّ بإغوائكم أيها المشركون إلى ما كنا عليه من الشرك بعد أن هدانا الله إلى توحيده وترك عبادة الأصنام، وعند رجوعنا إلى الشرك يكون حالنا ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأَرْضِ حَيْرانَ﴾ أي كالذي اذهبت الشياطين بهواه وعقله وأضلته عن الطريق السليم فأصبح حيران تائهاً في الأرض بعد أن كان عاقلاً عارفاً بمسالكها ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ٱئْتِنَا﴾ وكان لهذا الذي أضلته الشياطين رفقاء صالحون يقولون له: ائتنا فكن معنا على الدين الحق. هذا مَثَلٌ ضربه الله لمن يدعو إلى عبادة غير الله ولمن يدعو إلى عبادة الله وحده فمثلهما كمثل رجل ضلّ عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه المهتدون يدعونه إليهم وجعل أهل الضلال يدعونه لينضم إليهم فبقي حيران لا يدري أين يذهب، فإن استجاب لأهل الضلال هلك وإن استجاب لأصحابه المهتدين نجا وسَلِمَ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى﴾ قل يا محمد للمضلّين: إن هُدى الله ـ وهو الإسلام ـ هو الهادي إلى الطريق المستقيم ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ وأمرنا الله أن نخضع له ونخصّه وحده بالعبادة دون سواه لأنه رب كل شيء أي مالكه وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي وأمرنا الله أيضاً أن نُقيم الصلاة ونؤدّيها في أوقاتها مستوفية لأركانها وأن نتّقي ما يغضبه فنطيعه ولا نعصيه ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهو الله سبحانه الذي تُجمعون إليه يوم القيامة للحساب والمجازاة على أعمالكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما خلْقاً مشتملاً على الحق والصواب ولم يخلقهما عبثاً وباطلاً ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحَقُّ﴾ أي قوله سبحانه هو الحق والصواب يوم يقول للشيء: كن فيكون فوراً، وهو وقت أن خلق الله السماوات والأرض، ووقت القيامة والبعث وقيام الناس أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ﴾ وله وحده سبحانه التصرف المطلق يوم القيامة حين ينفخ الملك إسرافيل في الصُّور، وهو قرن ينفخ فيه، إيذاناً ببعث الأموات أحياء للوقوف أمام ربهم للحساب والمجازاة على الأعمال، ففريق في الجنة وفريق في النار ﴿عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ﴾ وهو الله سبحانه يعلم ما يغيب عن أنظار العباد ويعلم ما يشاهدونه فلا يخفى عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وهو سبحانه ذو الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه بحكمة ودراية وهو الخبير بأحوال الخلق.

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ
وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا
كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا
ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

شرح المفردات

مبين : ظاهر واضح.

ملكوت : المُلك العظيم مصدر زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة.

من الموقنين : من المؤمنين إيماناً راسخاً.

جنّ عليه الليل : ستره الليل بظلامه.

أفل : غرب وغاب.

بازغاً : مبتدئاً في الطلوع والظهور.

وجّهت وجهي : قصدت بعبادتي.

فطر : خلق وأنشأ على غير مثال سابق.

منهج إبراهيم في الدعوة إلى عبادة اللّه وحده

وبعد أن أوضح القرآن فساد الإشراك بالله وبطلانه، وشمول قدرة الله سبحانه لهذا الكون، انتقل بعد ذلك إلى ذِكْرِ المحاورة التي حصلت بين نبيّ الله إبراهيم عليه السلام وبين قومه في بطلان ما كانوا يعبدون من دون الله من أصنام ومظاهر طبيعية. وإبراهيم عليه السلام كانت له مكانة عالية عند العرب في الجاهلية وكانوا يدّعون أنهم على ملّته، وفي هذه المحاورة الآتية موعظة تشتمل على سُبُل الإقناع لترك عبادة غير الله والرجوع إلى الدين الحق، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾ آزر: كما ذكر العلماء المسلمون هو لقب له مثل يعقوب الملقّب بإسرائيل. واسم أبي إبراهيم (تارح). وقيل (آزر) اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم فلقّب به.

والمعنى: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين حين قال إبراهيم لأبيه آزر منكراً عليه عبادة غير الله: أتتخذ أنت وقومك الأصنام آلهة تعبدونها من دون الله؟

والأصنام: جمع صنم وهو على شكل إنسان أو حيوان ويكون من خشب أو حجر أو معدن ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي إني أراك وقومك في ضلال ظاهر واضح. ووصف الضلال بـ ﴿مبين﴾ أي ظاهر يدل على فساد عقولهم حيث لم يلاحظوا ضلالهم مع أنه مشاهد مرئيّ، وفي قول إبراهيم هذا تبكيت وتقريع لأبيه ولقومه على مسلكهم الذي يتنافى مع العقل، فهذه الأصنام من صنع أيديهم لا تنفع ولا تضرّ فكيف يتوجهون إليها بالعبادة؟ ثم يبيّن القرآن منهج إبراهيم عليه السلام في الدلالة على وجود الله ووحدانيته:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ يقول الله تعالى:

وكما عرّفنا إبراهيم ضلال قومه، والبصيرة في الدِّين الحق، نريه مُلكنا العظيم للسماوات والأرض وما فيهما من مخلوقاتنا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ليكون من جملة الراسخين في الإيمان الذين لا يتطرق الشك إلى قلوبهم.

ثم شرع إبراهيم في إرشاد قومه إلى عبادة الله وحده بالبراهين الآتية، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي فلما ستر الليل إبراهيم وغشيه بظلمته رأى كوكباً ظاهراً في السماء، فقال وحوله فئة من قومه: هذا ربي أي خالقي ومدبّر أمري فهو مستحق لعبادتي، قال ذلك على سبيل الفرض مجاراة لقومه ليستأنسوا بقوله وليستدرجهم فيما بعد إلى سماع الحجة الدامغة على ربوبية الله وحده لهذا الكون، وبطلان عبادة الكوكب الذي يعبده قومه، وكي لا ينفروا من وعظه من أول وهلة، وهكذا تظاهر بموافقته لهم لينال ثقتهم ولينتقل بعد ذلك إلى بيان مواضع الخطأ والضلال في معتقداتهم.

ويقول بعض المفسرين: إن قول إبراهيم ﴿هذا ربي﴾ هو على طريق الاستفهام الإنكاري، أي أهذا ربي كما تزعمون؟ وليس القول على الحقيقة ألبتة.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ أي فلما غاب هذا الكوكب وغرب قال إبراهيم: لا أحب عبادة الآلهة الزائلين، لأن شأن الإله أن يكون دائم المراقبة لعباده لتدبير شؤونهم، فلما احتجب كان محجوباً عن الاطلاع على الناس.

ثم ينتقل إبراهيم خطوة أخرى:

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً من وراء الأفق قال هذا ربي على طريق حكاية ما كان يقول قومه تمهيداً لإبطال عبادته ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أي

فلما غاب القمر قال إبراهيم: لئن لم يرشدني ربي إلى الحق ويُثَبِّتْني عليه لأكونن من جملة الذين لم يهتدوا إلى الحق.

فإبراهيم في هذا الاعتراف يرمي إلى هدفين، **الأول**: نقض عبادة القمر وبيان أن من اتخذ القمر إلّهاً فهو ضال. **والثاني**: إن هناك معبوداً آخر بِحقٍّ هو الله وحده الذي يهدي الناس ويحول دون تسرّب الشك والحيرة إلى قلوبهم.

ثم انتقل إبراهيم إلى استدلال آخر على بطلان معتقدات قومه:

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي فحين أبصر إبراهيم الشمس قد بدأت في الشروق قال مشيراً إليها: هذا هو ربي إنه أكبر من الكوكب والقمر، فهو أجدر منهما بالربوبية، قال لهم ذلك استدراجاً لهم حتى يجارونه في الاستماع إليه بعد تعريضه السابق بالكوكب والقمر وبطلان ألوهيتهما **﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** أي فلما غابت الشمس أعلن إبراهيم حينئذ لقومه براءته من جميع معبوداتهم الباطلة المتغيرة التي كانوا يعبدونها من دون الله، أو يشركونها مع الله في العبادة.

وبعد أن نقض إبراهيم ما كانوا يعبدون من دون الله أعلن إيمانه بربه فقال: **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾** أي إني جعلت قصدي واتجاهي في العبادة لله الذي أوجد السماوات والأرض وأنشأها على غير مثال سابق **﴿حَنِيفاً﴾** أي مائلاً عن الاعتقادات الباطلة إلى عقيدة وحدانية الله **﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** ولستُ من الذين أشركوا مع الله في العبادة بعض مخلوقاته.

إن المتمعن في الآيات السابقة يرى حقيقة علمية ذكرها القرآن عندما حكى عن المعبودات التي كانت في عصر نشأة إبراهيم في العراق وهي الكواكب والقمر

والشمس، وهي معبودات قديمة شهد العلم بوجودها بعد أن سبر تاريخ الأمم الماضية بواسطة الحفريات والآثار التي حصل عليها.

ففي بلدة أور في العراق بلد إبراهيم شاعت عبادة القمر وكان يُطلق عليه اسم (نانار) كما عُبدت الشمس وأطلق عليها اسم (شماس) كما شاعت عبادة الكواكب ومن أشهرها كوكب الزهرة الذي أطلق عليه اسم (عشتار) وكوكب المريخ واسمه (مردوخ)[١].

وهذه الحقائق التي أعلنها القرآن عن عصر إبراهيم تشهد بأنه وحي إلّهي ليس من تأليف محمد كما يدّعي المغرضون، فمحمد لم يسافر إلى العراق ولم ينقّب في الآثار ليحصل على هذه المعلومات والحقائق التي عُرفت في العصر الحاضر. هذا مع العلم أن التوراة لم تشر إليها لا من قريب ولا من بعيد.

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للأستاذ عباس محمود العقاد. وقصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ جـ ٢ ص ٢١٤.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا
تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ
ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟
إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ
ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

شرح المفردات

وحاجّه قومه: خاصموه في توحيد الله وجادلوه.

وَسِعَ ربي كل شيء علماً: أحاط علمه بكل شيء.

أفلا تتذكّرون: أفلا تعتبرون وتتعظون.

سُلطاناً: حجة وبرهاناً.

يَلبِسُوا: يخلطوا.

حجّتنا آتيناها إبراهيم: أدِلّتنا التي أرشدنا إبراهيم إليها.

حجة إبراهيم في بطلان الإشراك بالله

وبعد أن أقام إبراهيم الحجة على قومه ببطلان عبادة غير الله من أصنام ومظاهر طبيعية لم يجد قومه وسيلة للرد عليه إلا مجادلته بالباطل:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ والمحاجّة: هي المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة.

وتطلق الحجة على كل ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه أو ردّ دعوة خصمه. فإبراهيم عليه السلام جادله قومه بعدما تقدّم من أمره معهم وخاصموه في قضية وحدانية الله وعبادته وحده ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ قال إبراهيم مُنكراً عليهم: أتجادلونني في وحدانية الله وعبادته وحده وقد أرشدني الله إلى طريق الحق والصواب ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ ولا أخشى أن ينالني سوء من آلهتكم التي خوفتموني بها فإنها لا تنفع ولا تضر ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ أي لكن إن شاء ربي وقوع مكروه بي فإنه يقع بمشيئته وحده لا بإرادة آلهتكم ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أحاط علم ربي بكل شيء ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون ما أنتم عليه من خطأ وضلال وأن آلهتكم عاجزة عن إلحاق الضرر بي؟

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ وكيف أخشى آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُم أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُم سُلْطَاناً﴾ أي ولا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم فتشركون به آلهة لم ينزّل سبحانه عليكم من السماء حجة وبرهاناً على استحقاق ألوهيتها وعبادتها ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ فأيُّ من الفريقين أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ نحن الذين نعبد الله وحده أم أنتم الذين تعبدون آلهة كثيرة لا تنفع ولا تضرّ، إن كنتم من أهل العلم والبصيرة فأخبِروني بذلك. وهذا من روائع الحوار العقلاني الذي سلكه القرآن مع مخالفيه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي إن الذين صدّقوا بوجود الله وأنه واحد لا شريك له ولم يخلطوا عبادتهم وتصديقهم لله سبحانه بِشِرْكٍ ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ أي لهم الأمن من العذاب في الآخرة ﴿وَهُم مُهْتَدُونَ﴾

وهم السالكون طريق الرشاد والنجاة دون ما سواهم. والظلم هنا كما قال المفسرون هو الإشراك بالله بناء على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما نزلت الآية ﴿**الّذين آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانهم بِظُلْمٍ**﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله فقالوا: يا رسول الله وأيُّنا لم يظلم نفسه، فقال النبي ﷺ: ليس بذلك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**﴾ تلك حجّتنا: هي إشارة إلى تلك الدلائل والبراهين على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة وحده التي أرشد الله إبراهيم إليها محاولاً إقناع قومه بها ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ درجات: جمع درجة، وهي التي تصلح للصعود أو النزول ثم استعملت في ارتفاع قِيَمِ الناس الاجتماعية ومراتبهم المعنوية في الخير والعلم والفضل وهي المقصودة هنا. فالله سبحانه يرفع بالعلم والفهم والعقل والفضيلة والحكمة من شاء من عباده على غيرهم ممن لا يتمتعون بتلك المزايا ويُعلي قدرهم في الدنيا والآخرة ﴿**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ إن ربك يا محمد حكيم في جميع أفعاله، عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وعلم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن
قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ
كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا
فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا
لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ .

شرح المفردات

وهبنا: أعْطَيْنَا.

واجتبيناهم: اصطفيناهم، واخترناهم.

لحبط: لبطل.

الحكم: القضاء بين الناس بالحق، أو الحكمة.

اقتده: اقتدِ، والهاء للسكت، أي تأسّ به.

ذرية إبراهيم من الأنبياء ومكانتهم عند الله

وبعد أن أظهر إبراهيم عليه السلام دينه وغلب خصومه بالحجج القاطعة والبراهين القوية على وحدانية الله وبُطلان عبادة الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله

بيّن القرآن بعد ذلك ما خصّ الله إبراهيم به من ذرية صالحة اصطفاها بالنبوّة، قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسحَاق وَيَعْقُوبَ﴾ أي أنعم الله على إبراهيم بولد من صلبه اسمه اسحاق. ويعقوب هو ابن إسحاق أي حفيده وهو ولد الولد ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أي هدى الله كلاًّ منهما إلى سبيل الرشاد ووفّقهما إلى طريق الحق والصواب ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل إبراهيم هَدَى اللَّهُ نوحاً إلى التوحيد والدعوة إليه.

وفي ذكر نوح عليه السلام في سياق تعداد النعم على إبراهيم، وإبراهيم من ذرية نوح، إشارة إلى أن هداية الآباء نعمة على الأبناء، كما أن هداية الأبناء نعمة على الآباء وشرف لهم.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي ومن ذرّية نوح هؤلاء الأنبياء الوارد ذكرهم ﴿وكذلك نجزي المُحْسِنِينَ﴾ أي وكما جزى الله هؤلاء الأنبياء وأنعم عليهم بأنواع الكرامات كذلك يجزي الله كل محسن عامل للحسنات تارك للسيئات بأنواع الكرامات.

﴿وَزَكَرِيَّا ويَحْيَى وَعيسَى وإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ أي وَهَدَى الله هؤلاء الأنبياء إلى الدِّينِ الحق وجعل كلاًّ منهم من عباده الصالحين الذين صَلُحَ عملهم فأطاعوا الله فيما أمرهم به ﴿وَإِسْمَاعِيلَ والْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ﴾ أي وفضّل الله كل واحد من هؤلاء الأنبياء على سائر عالم زمانهم ﴿وَمِنْ آبَائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم وَإِخْوَانِهِم﴾ وهدى الله أيضاً من آباء الأنبياء المذكورين ومن ذرياتهم وإخوانهم آخرين لم يَذْكُرِ الله أسماءهم ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُم﴾ واختارهم الله لدينه وإبلاغ رسالته إلى خلقه ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وسدّد الله خطاهم فأرشدهم إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الإسلام، الذي يدعو

إلى توحيد الله والخضوع والانقياد له فيما أمر به من الأحكام والعبادات ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أخبر القرآن عن الهدى الذي هدى الله به أنبياءه بأنه هُدى الله لتشريف أمره وبيان بُعْدِهِ عن الخطأ والضلال، وأنه سبحانه يهدي إلى دينه القويم من يشاء من عباده، وفي هذا حث للنفوس على طلب هُدى الله وابتغاء رضوانه حتى تنال شرف الهداية من الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لو حصل من عباده الصالحين المذكورين إشراك بالله على سبيل الفرض ـ وحاشا لله أن يصدر منهم ذلك ـ لبطل ثواب ما كانوا يعملون من أعمال صالحة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم أنزل الله على بعضهم الكتب الإلهية التي فيها الهدى لأقوامهم، ومن هذه الكتب التي ورد ذكرها في القرآن: صحف إبراهيم عليه السلام، والزبور الذي أعطاه الله لداود عليه السلام، والتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، والقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ.

﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كما أن الله جعل لأولئك الأنبياء القدرة على الفصل بين الناس بالحق، كما فُسِّر الحُكم بمعنى الحكمة، وأيضاً خصّ الله أولئك الأنبياء بالوحي والرسالة منه إلى خلقه ﴿فَإِن يَكْفُر بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ المراد بـ (هؤلاء) أهل مكة وسائر من كفر بعد تبلّغهم رسالة الله، أي فمن يكفر بمن وَرَدَ ذِكْرُهم من الأنبياء وما جاءوا به من الهدى من عند الله ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بكافِرِينَ﴾ أي وفّق الله للإيمان بها ومراعاتها والقيام بحقها من لا يجحدون بها بل يُؤمنون بها ويصدّقونها ويعملون بموجبها.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أي هؤلاء الأنبياء الذين

وفّقهم الله لدينه الحق والعمل بشريعته واصطفاهم على خلقه فاقتد بهم بطريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وبما كانوا عليه من أخلاق حميدة، وأفعال مرضية، وصفات كريمة ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ وقل يا محمد لقومك لا أطلب منكم أجراً ومكافأة على تبليغكم رسالة الله، وهنا توجيه للدعاة والوعاظ بأن لا يأخذوا أجرهم على ما يقومون به من دعوة إلى الله ليكون لدعوتهم التأثير على القلوب وتحظى بالقبول من الله ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما القرآن إلاّ عظة وإرشاد لكافة الخلق إلى الطريق السويّ الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا أحد النصوص القرآنية التي تدل على عموم رسالة محمد لكافة البشر.

ثم إن القرآن ذكر في هذه السورة ثمانية عشر نبياً دون ترتيب رسالاتهم لا بحسَبِ الزمان ولا بحسب الفضل، ولكن هناك حكمة كما ذكر بعض المفسرين أوجبت هذا الترتيب الذي أورده القرآن الكريم وهي أن الله قسم الأنبياء إلى طوائف وخص كل طائفة منهم بنوع من الكرامة والفضل فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم واسحاق ويعقوب باعتبار أنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعاً. ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان، وقد خص الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً.

ومن المراتب التي تمايزوا بها: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذا أيوب عليه السلام ويوسف عليه السلام. ومن المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء: كثرة المعجزات وقد خص الله تعالى بذلك موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر.

ومن المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام. ثم ذكر الله بعد ذلك من لم يبق لهم أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ
أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ
تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ
ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ
ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

شرح المفردات

وما قَدَروا اللَّه حقَّ قدره: وما عظّموه حقَّ تعظيمه.

قراطيس: أوراق مكتوبة مفرّقة ليتمكنوا من إبداء ما يريدون إبداءه منها.

ذرهم: اتركهم.

خوضهم: الخوض من الكلام ما فيه الكذب والباطل.

أم القرى: مكة والمراد أهلها.

إنكار نزول الوحي على محمد ﷺ

ثم تأتي الآية الكريمة ردًّا على المنكرين بأن محمداً رسول الله وأن الوحي الإلهي لم يكن ينزل عليه من السماء. والمنكرون بأن محمداً رسول الله هم كثيرون ظهروا في العصور السابقة كما ظهروا في العصر الحديث. ومن الذين أنكروا بأن محمداً رسول الله في زمن بدء الإسلام: المشركون العرب واليهود. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظّموا الله حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته في اللطف بعباده والرحمة بهم، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب الإلهية

عليهم ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي قالوا لم يُنَزِّل الله على بشر كتاباً ولا وحياً من السماء. ولكن من القائل بذلك؟ اختلف المفسرون فقال بعضهم: إنهم كفار قريش وقال البعض هم اليهود، ولكن نص القرآن ينطبق على المشركين العرب فهم ينكرون بأن محمداً رسول الله ويقولون: ما أنزل الله وحياً على بشر بينما اليهود كانوا يعترفون بأن الله كان ينزل الوحي على رسله ومنهم موسى ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ قل يا محمد لكفار قريش على سبيل التبكيت لهم: من الذي أنزل التوراة على موسى وهم يعترفون بذلك فذكّرهم بأمر لا يستطيعون إنكاره وألزمهم به لِمَا كان شائعاً في بلاد العرب فقد كانوا مختلطين باليهود وسمعوا منهم ظهور المعجزات على يد موسى ﴿نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ﴾ وهذه التوراة هي ضياء من ظلمة الضلال وإرشاد للناس لما فيه الخير لهم وذلك قبل أن يدخل عليها التحريف والتبديل ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ إذا أمعنا النظر في هذا النص نرى أنه خطاب لليهود ولكن بما أننا اخترنا مذهب من يقول في هذه الآية إنها جاءت في صدد مخاطبة كفار قريش فإن هذا الإشكال يزول إذا علمنا أن هناك قراءة للآية بلفظ الغيبة أي بذكر الياء بدل التاء في تجعلونه، وتبدونها وتخفون، فيصبح النص القرآني على تلك القراءة ﴿يَجْعَلونَهُ قَرَاطِيسَ يُبدونَها ويُخْفُونَ كَثِيراً﴾ فالكلام هنا عن اليهود، فاليهود جعلوا كتاب التوراة في أوراق مفرقة ليسهل عليهم إظهار ما يريدون إطلاع الناس عليه، وإخفاء الكثير من أحكام التوراة مما لا يحبون أن يعرفها الناس، ومما كانوا يكتمونه عن الناس ما جاء في التوراة من أمر محمد ﷺ والبشارة بنبوته ﴿وعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولا آباؤُكُمْ﴾ وعلِّمتم يا معشر العرب ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم، والذي علموه هو ما أخبرهم به رسول الله ﷺ من الأمور الدينية التي أوحى الله إليه بها ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قل يا محمد: الله نزّله، وهذا جواب على السؤال

المطروح في صدر الآية: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ﴾ ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي ثم اتركهم فيما يخوضون فيه من الباطل يعبثون ويلعبون.

يرى بعض المفسرين أنه لما كان كفار قريش واليهود يشتركون في إنكار نبوة محمد لم يبعد أن يكون الكلام الوارد في الآية بعضه موجّه إلى كفار قريش وهو ما ورد في صدر الآية والبعض الآخر خطاب لليهود، وهو ما تدلّ عليه القراءة للأفعال بلفظ التاء بدل الياء في شأن اليهود ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ كثيراً﴾.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهذا القرآن كتاب أنزله الله من عنده على محمد وهو مبارك أي كثير البركة والخير، دائم النفع مصدّق لما أنزله الله من الكتب على الأنبياء من قبله كالتوارة والإنجيل إذ إنه يوافقها في الدعوة إلى عبادة الله وحده وفيما جاءت به من فضائل الأعمال، وإن خالفها في بعض الأحكام، ويصحح ما طرأ عليها من تحريف وتبديل ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والإنذار هو التحذير والتخويف من عصيان الله. وأم القرى هي مكة سميت بذلك لكونها أعظم القرى شأناً ولأن فيها أول بيت وضع لعبادة الله وحده ولكونها قبلة المسلمين في الصلاة، ومحل حجهم، والمراد بإنذارها إنذار أهلها وإنذار جميع البلاد حولها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك وهو القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد، وإيمانهم هذا يحملهم على المحافظة على صلاتهم، وخصّ الله الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين، والمحافظة على الصلاة هي المواظبة على أدائها في أوقاتها مستوفية لشروطها وأركانها مع الخشوع لله، والصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

شرح المفردات

افترى: اختلق.

غمرات الموت: سكرات الموت وشدائده.

أَخْرِجوا أنفسكم: خلّصوها مما هي فيه من العذاب.

عذاب الهون: عذاب الخزي والذل.

خوّلناكم: أعطيناكم من متاع الدنيا.

وراء ظهوركم: أي في الدنيا.

تقطّع بينكم: تشتت جمعكم وانفصلت الروابط بينكم.

الوعيد لمن يدّعي النبوّة كذباً

وقد كان في عهد النبي ﷺ من ادعى النبوة كذباً وآخر ادّعى أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول الله من الوحي كمسيلمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرْح وغيرهما فنزلت

الآيات القرآنية الآتية وفيها الوعيد بالعذاب الشديد لهم يوم القيامة قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ استفهام معناه النفي، أي لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله كذباً كالذين قالوا ما أنزل الله وحياً على بشر، أو جعلوا لله شريكاً أو ولداً ﴿أو قَالَ أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيءٌ﴾ أو قال بأن الله أوحى إليه وخصه بالنبوة مع أنه كاذب في دعواه لأن الله ما أوحى إليه شيئاً، وهذا الحكم يسري على كل من يدعي النبوة بعد نبوة محمد ﷺ لأنه لا نبي بعده ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أو من ادّعى بأنه قادر على الإتيان بمثل ما أنزل الله على محمد من القرآن كما ادّعى النضر بن الحارث ﴿وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ المَوْتِ﴾ الخطاب لرسول الله ولكل من سمع هذا الخطاب. وجواب (لو) حذف للتهويل. وغمرات الموت: سكراته وشدائده، والمعنى: ولو ترى يا محمد حال أولئك الظالمين وهم في سكرات الموت وشدائده لرأيت أمراً عظيماً ﴿والملائِكَةُ باسِطُو أيْدِيهم﴾ بسط اليد: مدّها، وقد استعملت بمعنى الإيذاء المطلق، أي أن الملائكة يبسطون أيديهم لقبض أرواحهم بالعنف والضرب، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]. ثم تقول لهم الملائكة ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم﴾ أي أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلّصوها من هذه الآلام إن استطعتم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ﴾ أي في وقت الإماتة، والوقت الممتد بعده إلى يوم القيامة يكون جزاؤكم عذاب الخزي والذل ﴿بِمَا كُنْتُم تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ﴾ والقول على الله غير الحق يشمل كل نوع من الكفر أو ينسب إلى الله كل باطل ﴿وَكُنْتُم عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكنتم تُعْرِضُون عن آيات القرآن والإيمان بها ولا تتعظون بها تكبّراً وجحوداً.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يقول الله سبحانه:

ولقد جئتمونا أيها الناس للحساب يوم القيامة منفردين عن الأهل والأعوان كما أوجدناكم أوّلَ حياتكم الأولى عند خروجكم من بطون أمهاتكم حفاة عراة ﴿وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وتركتم وراءكم في الدنيا كل ما أعطيناكم إياه مما كنتم تغترون وتتباهون به من الأموال والأولاد والجاه، وهذا يدلّ على أن كل مال يكتسبه الإنسان ولا ينفقه في مصارف الخيرات فشأنه كشأن ما ذكرته الآية، أما إذا أنفق أمواله في الجهات التي أمر الله بها في وجوه الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين فإنه بذلك لا يكون قد ترك الأموال وراء ظهره ولكنه قدمها أمامه ثواباً عند الله كما جاء في القرآن ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

ثم يقول الله لهؤلاء المشركين: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُم شُفَعَاءَكُمُ﴾ أي ما نرى شفعاءكم من الأصنام الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُم فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ الذين زعمتم أنهم ينصرونكم عند الله وأنهم شركاء لله في الربوبية فعبدتموهم من دون الله ﴿لَقَدْ تَقَطَّع بِيْنَكُم﴾ أي انقطع وتفرق ما كان بينكم وبينهم من الروابط والتواصل التي كانت في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْكُم مَا كُنْتُم تَزْعُمُونَ﴾ وذهب أو غاب عنكم ما كنتم تزعمون في الدنيا من أن أصنامكم تشفع لكم، وما كنتم تدّعون من أنه لا بعث يوم القيامة ولا جزاء ولا حساب على الأعمال.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ
مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ
وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ
مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ
أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ
أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

شرح المفردات

فالق: الفلق، الشق، أي يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات.

النّوى: ما في داخل الثمرة وهي البزْرة.

تؤفكون: فكيف تُصرفون عن الإيمان بالله وعبادته.

فالق الإصباح: شاقٌّ ظلمة الصبح عن ضياء النهار.

سكناً: يُسكن فيه من تعب النهار.

حُسباناً: يُحسب بهما الأوقات.

فصّلنا الآيات: بيّنا الدلالات على قدرتنا.

فمستقر ومستودع: أي مكان استقرار الإنسان في الرحم وموضع استيداعه في القبر.

يفقهون: يفهمون.

طَلْعُها: أول ما يبدو من ثمر النخل كالكيزان.

قِنوان: جمع قِنو. أي عراجين وهي للتمر بمنزلة العنقود.

دانية: متدلية أو قريبة من يد المتناول.

وينعه: ونضجه.

من مظاهر القدرة الإلهية في الكون

ثم ينتقل بنا القرآن إلى بعض مظاهر القدرة الإلهية في هذا الكون فيلفت أنظارنا إلى بعض معالمه العجيبة وينقلنا من مشهدٍ إلى مشهد سواء ما كان في العالم العلوي من النجوم والكواكب أو ما كان في العالم السفلي مما تنبته الأرض من نبات وشجر لا يملك الإنسان عند تأملها واستجلاء أسرارها إلا أن يخرّ ساجداً لله معظّماً إياه على قدرته الباهرة، وحكمته البالغة، وفضله العظيم على الناس.

فها هو القرآن يقف بنا أمام نشأة الحياة في النبات:

﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى**﴾ فالق: أي شاقٌّ، فالله سبحانه يشقّ الحبَّ مثل القمح والفول والعدس فيخرج منه النبات الذي ينتج هذه الحبوب، كما يشق النوى وهي البذور التي في داخل الثمرة كالبلح والخوخ والمشمش وغيرها فتنبت الأشجار التي تُنتج هذه الثمرات.

لا يكفي أن يكون هناك تربة وماء وضوء لكي ينمو النبات ولكن قبل ذلك لا بد من قوة دفينة داخل الحَبّ وداخل النوى فيها عناصر النماء تنبت في الظروف المناسبة. والنواة والحبة تشقّان طريقهما في الحياة وتكون كل منهما مشابهة للنبات أو الشجرة التي أنتجتها بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحاً ولا نواة المشمش إلا شجرة المشمش.

ولكن السؤال: من أوجد تلك القوانين التي تتحكم في وراثة أنواع النبات والشجر وتمتلك القدرة على النمو، ومن أين جاءت النباتات الأولى؟

لا يستطيع أحد أن يقول إنها وُجدت بمحض المصادفة أو إنها أنشأت نفسها بنفسها، ولكن الجواب المنطقي هو أن هناك قدرة خفية حكيمة أبدعت النبات وهي قدرة الله سبحانه التي خلقته وجعلت منه غذاء ومنفعة للإنسان والحيوان.

وبعد ذكر الحَب والنوى يقف بنا القرآن أمام انبثاق الحي من الميت:

﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ﴾ فالله سبحانه يخرج الحيّ من الميت، كفرخ الطير يخرج من البيضة، والنبات من الحبّ، ففي البيضة جنين حي، وفي الحب مادة حية، ولكن المقصود من كونها ميتة هو من حيث إنها لا تظهر عليها علامات الحياة من حركة ونمو إلا إذا تهيأت لها أسباب الحياة، فالحياة فيها كامنة ولكنها خامدة خمود الأموات فكأنها ميتة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحي ينمو ويتحرك وتستمر حياته بأكل أشياء ميتة، والغذاء ميت لا حياة فيه، بل إن خلايا الجسم نفسها في أثناء دورة الحياة تتجدد فيفنى منها ما يفنى ليحل محلها خلايا حية جديدة، ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلكم المحي والمميت هو الله ذو القدرة العجيبة المستحق للعبادة فكيف تُصرَفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الأشياء كلها؟

فدورة الحياة والموت هي معجزة الكون التي صنعها الخالق، والسمات الرئيسية فيها: إن الماء وثاني أكسيد الكربون والنتروجين والأملاح غير العضوية في التربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتريا إلى مواد عضوية هي مادة الحياة في الحيوان، والقرآن أشار إلى الماء ودوره في حياة الكائنات الحية بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] كما يشير القرآن إلى خلق الحياة في الأرض الميتة ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

ثم يقف القرآن بنا أمام المظاهر الطبيعية وما فيها من روعة تدل على إبداع الخالق في صنعه: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ الإصباح: جمع صبح، والصبح والصباح معناهما واحد وهما أول النهار، أي أن الله سبحانه هو خالق الضياء الذي يشق ظلام الليل بضوء الشمس، فالصباح ينفلق عن الظلمة ويشقها ليخرج النور.

وبين انفلاق الحبِّ والنّوى وانفلاق الإصباح صلة وثيقة، وإن نمو النبات والشجر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالضوء، وذلك أن الحب والنوى بعد انفلاقهما يحتاجان إلى غذاء وهذا الغذاء يتكون من تربة الأرض بواسطة جذور النبات والماء والضوء ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ أي وهو الله الذي جعل الليل ليسكن فيه الإنسان ويستريح من عناء العمل في النهار، والنوم عنصر أساسي لحياة الإنسان ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ أي وجعل الله الشمس والقمر وسيلة للتوقيت ومعرفة الزمن. فالأرض تدور حول الشمس في مدار يستغرق سنة كاملة، كما أن القمر يدور حول الأرض، وتستغرق دورته الكاملة حول الأرض نحو ٢٩ يوماً ونصف اليوم ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ ذلك تدبير الله المحكم فهو القوي الغالب العليم بأحوال خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظلماتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ أي وهو الله سبحانه الذي خلق لكم النجوم لتهتدوا بمواقعها إلى مقاصدكم وأنتم سائرون في ظلمات الليل بالبر والبحر، هكذا كانت النجوم منذ القدم وما تزال هي المعالم التي يهتدي بها الإنسان في سفره براً وبحراً. ويستفاد من رصد النجوم في تعيين موقع المسافر وتحديد الاتجاه الذي يسعى إليه، ومع تقدم العلم أصبحت الملاحة البحرية والجوية والبرية عِلماً وفنًّا دقيقاً يعتمد عليه الإنسان وذلك باستخدام آلات السدس والبوصلة والأقمار الاصطناعية وبالرجوع إلى الجداول الخاصة بذلك، بل إن رجال الفضاء في الآونة الأخيرة قد استعانوا بالنجوم في تحديد اتجاههم في بعض مراحل سفرهم ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي هذه الهداية في السفر

المستفادة من النجوم قد بيّنها الله ووضّحها لقوم يستدلون بها على كمال علمه وقدرته وأنه سبحانه واحد لا شريك له.

ثم يذكّر الله بني آدم بِنِعَمِهِ عليهم حيث أوجدهم من العدم:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي أن الله هو الذي ابتدأ خلقكم أيها الناس من نفس واحدة وهو آدم فهو أبو البشر كلهم، وحواء مخلوقة منه ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي أن مستقر الإنسان وهو جنين في رحم أمه ومستودع الإنسان بعد موته يكون في الأرض، وقيل: المستقر في أرحام الأمهات والمستودع في أصلاب الآباء وقيل: مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة، وقيل غير ذلك[١].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي بيّن الله الحجج الدالة على وحدانيته بالبراهين الواضحة، والحجج القاطعة لقوم يفهمون آيات القرآن ويستدلون بها على وحدانية الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ وهو الله سبحانه أنزل من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيءٍ﴾ فالله جعل الماء وهو مادة واحدة سبباً في إخراج صنوف النبات التي يختلف نوعها ومذاقها والتي ينتفع بها الإنسان والحيوان ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً﴾ أي فأخرج الله من الماء

---

(١) يقول الدكتور عدنان الشريف في تفسيره العلمي لهذه الآية بما ننقله عنه باختصار: المستقر هو المكان الذي جعله الله سبحانه مستقراً للأشياء الآتية من الخارج. والمستودع هو المكان الذي جعله سبحانه مستودعاً ومصدراً للأشياء. وعلى ضوء علم الوراثة والكيمياء العضوية ووظيفة الأعضاء عند الإنسان تتبين لنا الأبعاد العلمية الإعجازية في هذه الآية وهي: إن كل خلية أو عضو في جسم الإنسان هو في نفس الوقت مستقر لمواد كيميائية تأتيه من الخارج عن طريق الجهاز الهضمي والدم والسائل اللمفاوي، وكل خلية أو عضو في الإنسان هو أيضاً مستودع ومصدر الأشياء، مثال على ذلك مبيض المرأة هو مستودع الخلايا الجنسية الأنثوية، وهو في نفس الوقت مستقر لمواد كيميائية مغذية تأتي من خارجه بواسطة الدم، كذلك بالنسبة للخصية التي هي مصنع الخلايا الجنسية ومستودعها، ومستقر المواد الكيميائية الواردة إليها من الدم.

زرعاً ذا أوراق خضراء يخرج منه حبًّا متراكماً بعضه فوق بعض كسنابل القمح ونحوها. وهذا ما أدركه العلم من أن النبات ينتج المواد الغذائية بواسطة خلايا الورقة الخضراء (الكلوروفيل) التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي والتي هي من العناصر المهمة لتكوين الحبوب والثمار، هذا بالإضافة إلى الماء الذي يسقي جذور النبات ويساعدها على امتصاص الغذاء من الأرض ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ والطلع: ما يبدو من ثمر النخل في أول ظهوره، والقنوان: جمع قنو وهو عنقود النخل الذي يحمل التمر. والمعنى: ويخرج الله من الماء شجر النخيل التي تحمل عناقيد من التمر ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة ينالها القائم والقاعد ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ وبساتين من أغراس العنب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ كما يخرج الله من الماء شجر الزيتون والرمان بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة واللون والطعم مما يدل على كمال قدرة الخالق ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ انظروا أيها الناس نظر اعتبار وتبصر إلى خروج هذه الثمار من الشجر وإلى نضجها الكامل بعد أطوار مختلفة وما تحتويه من مركّبات مختلفة من السكريات والزيوت والبروتينات والنشويات وغيرها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن فيما ذكر من إنزال الماء من السماء وإنبات هذه الأصناف المختلفة من الأشجار التي فيها نفع للناس، لدلائل باهرة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته.

المتأمل في الآية السابقة يرى أن الله قدم الزروع التي تنتج الحبوب على سائر الأشجار لأن الحبوب أساس التغذية، أما الأشجار فهي تحمل الفواكه في الأغلب، ثم قدم النخيل على غيره من الشجر لأن ثمره طعام وحلوى وفي النخيل من المنافع والخصائص ما ليس لغيره. وجاء ذكر العنب بعدئذ لأن العنب فاكهة شائعة حافلة بالفوائد أما الزيتون فمادته وزيته من العناصر المهمة في التغذية. وأخيراً ذكر الرمان لأنه فاكهة تحتوي على منافع شتى فسبحان من خلق مما تنبت الأرض ما ينتفع به الإنسان ويتمتع بخيراته.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى
يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

شرح المفردات

وجعلوا لله شركاء الجن: أي وجعل المشركون الجن شركاء للّه في الألوهية.

وخرقوا: اختلقوا وافتروا.

بديع السموات والأرض: مبدعهما ومخترعهما لا عن مثال سابق.

أنّى يكون: كيف يكون.

صاحبة: زوجة.

وكيل: رقيب، حفيظ، يتولاّه.

لا تدركه الأبصار: إدراك الشيء، الوصول إليه، والإحاطة به.

اللطيف: العليم بدقائق الأمور وخوافيها.

بصائر: جمع بصيرة، وهي آيات القرآن وحججه التي يهتدون بها إلى الحق فهي النور الذي يبصر به القلب.

بحفيظ: برقيب لأعمالكم.

نصرّف الآيات: نبيّنها.

درست: تعلمت.

افتراءات المشركين على العزة الإلهية

ثم ينتقل القرآن إلى الطعن بمن ادعوا أن لله شركاء في خلقه فيقول الله سبحانه مستنكراً لهم:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾ أي وجعل هؤلاء المشركون الجن شركاء لله سبحانه في الألوهية والعبادة ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقد خلق الله الجن من العدم فكيف يكون المخلوق شريكاً للخالق؟ والمراد بالجن إبليس وذريته من الشياطين فقد عبد الشيطان أقوام وسموه ربًّا ومنهم من سماه إلّه الشر، كما أن المشركين أطاعوا الشياطين في أمور الشرك بالله والمعاصي ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي واختلق المشركون وكذبوا على الله حيث جعلوا له بنين وبنات من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، وفي هذا تنبيه على ضلال غيرهم ممن ادعى بأن لله ولداً كما زعم بعض اليهود بأن عزيراً ابن الله، وكما زعم النصارى بأن المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزّه الله تعالى وتقدّس عما يصفه هؤلاء المشركون بأن لله شركاء وأن له بنين وبنات.

﴿بَدِيعُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ الإبداع: الاختراع، أي إيجاد الأشياء على نحو ليس له نظير سابق. فقد أوجد الله سبحانه هذا الكون على غير مثال سبق ولا شريك يعينه ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي فكيف يكون له ولد كما زعموا ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ والصاحبة هي الزوجة، أي لم تكن له زوجة تصاحبه كي يأتي منها الولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو الله سبحانه خالق كل شيء في هذا الكون، وهو عالِم بجميع خلقه لا يغيب عن علمه شيء.

فالله نفى عن نفسه الولد بإعلان أنه اختص بخلق السماوات والأرض، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون له ولد لأن من شأن الولد أن يكون قادراً على مثل ما يقدر عليه

أبوه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن من شأن الولد أن يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه لم تكن له زوجة يأتي منها الولد.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيء فَاعْبُدُوهُ﴾ ذلكم: أي الموصوف بما تقدم من الصفات الجليلة هو الله مالك أمركم ومربّيكم الذي خلق ما كان وما سيكون الجدير بالعبادة وحده فاعبدوه ولا تعبدوا سواه من بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ وَكِيلٌ﴾ وهو سبحانه متولّي أمور خلقه رقيب على أعمالهم يقوم بأرزاقهم والمتصرف في شؤون ملكوته وفق علمه وحكمته الباهرة.

﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ الأبصار هي العيون التي نرى بها المرئيات. والإدراك إذا أسند إلى العين دل على التعمق في الرؤية، لأن كلمة أدرك في استعمالاتها اللغوية تدل على الوصول إلى غاية الشيء ومن هنا كانت الآية تنفي إدراك رؤية الله، هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد نص القرآن على جواز رؤية المؤمنين لربهم قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. كما جاء في الحديث الشريف بأن المؤمنين يرون ربهم وهم في جنات النعيم ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ وهو سبحانه يرى جميع المرئيات لا يخفى عليه شيء منها ﴿وَهُوَ اللطيفُ الخَبِيرُ﴾ وهو الرفيق بعباده، العالم بدقائق الأمور، الخبير بشؤون خلقه.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر: جمع بصيرة وهي الحجة واليقين بالشيء والعلم به كما تأتي بمعنى العبرة. والمعنى: قد جاءكم أيها الناس حجج من عند ربكم تميّزون بها الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ فمن اهتدى بهذه الحجج إلى الحق فلنفسه اهتدى ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ ومن تعامى عن هذه الحجج ولم يهتد إلى الحق الذي دعا الله سبحانه إليه فضرر ذلك يعود على نفسه لأنه يتعرّض لغضب الله وعذابه في الآخرة. ثم أمر الله سبحانه أن يقول

لقومه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم وأحفظكم من الضلال، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربي.

﴿وكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي وكما بيّن الله آيات القرآن والحجج الدالة على وحدانيته في هذه السورة كذلك يبيّن الله آياته وحججه في كل موطن لتقوم الحجة على المشركين ﴿وَلِيَقُولوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقول المشركون: قد درست يا محمد هذا القرآن على أهل الكتاب وتعلمت منهم، وهكذا عندما يُفحم المشركون لا يجدون أمامهم مخرجاً إلا افتعال الكذب، مع العلم أن اليهود والنصارى لم يكن لهم وجود في مكة، ولم يتردّد محمد على الأحبار والرهبان ليتعلم منهم أمور الدين. وما قاله المشركون قديماً في حق النبي محمد ﷺ يقوله بعض المستشرقين والمبشرين حالياً في سبيل طمس الإسلام وتعمية الناس عن حقائقه وصرفهم عن الاهتداء به، ولكن مهما حاولوا في هذا السبيل فإن محاولاتهم باءت بالفشل، وها هو الإسلام قد تعاظم ظهور حقائقه للعالم المتمدن يوماً بعد يوم بعد انتشار وسائل الإعلام وبواسطة الكتب بسائر اللغات كما وإننا نسمع أن كثيراً من الأحرار في العالم قد اعتنقوا الإسلام لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي وليبين الله أسرار القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، ووصفهم الله بالعلم للإيذان بأن المشركين ومن هم على شاكلتهم هم في غاية الجهل ولا حظ لهم من العلم والمعرفة.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ
أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم
مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ
لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ
أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

شرح المفردات

حفيظاً: رقيباً مهيمناً.

بوكيل: حفيظ.

عَدْواً: اعتداء وظلماً.

زيّنّا: حسّنّا.

وأقسموا بالله جَهْدَ أيْمانِهم: أي وحلفوا بالله بأغلظ الأيْمان عندهم.

آية: معجزة.

طغيانهم: ضلالهم وتجاوزهم الحد في العصيان.

يعمهون: يعمون عن الرشد أو يتحيرون.

النهي عن سب معبودات المشركين

وبعد أن بيّن القرآن وحدانية الله بالحجج والبراهين ونفى عنه الولد توجّه بالخطاب إلى رسول الله محمد ﷺ وإلى المؤمنين للالتزام بالأمور الآتية:

﴿ٱتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في الوحي الذي أوحى به إليك فاعمل به فإنه لا معبود سواه يستحق العبادة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وأعرض عن أقوال المشركين ولا تبالِ بافتراءاتهم الباطلة وتكذيبهم لك، وامضِ في تبليغهم بما أوحيناه إليك من القرآن.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا﴾ أي لو أراد الله أن يعبده هؤلاء المشركون وأن لا يشركوا به شيئاً لجعلهم يتجنَّبون الشرك قسراً ولكنه لم يفعل ذلك بل تركهم لاختيارهم ليحصل لهم الثواب على إيمانهم والعقاب على كفرهم ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ وما جعلناك يا محمد قيّماً وحافظاً عليهم تُحصي أعمالهم لتحاسبهم وتجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما أنت بقيّم عليهم في أمر جزائهم وتدبير مصالحهم فتجبرهم على الإيمان، إنما عليك البلاغ.

ثم يخاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ولا تشتموا الأصنام التي يعبدها المشركون من غير الله ﴿فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيردّ المشركون على هذا الشتم بأن يشتموا الله تعالى اعتداء وتجاوزاً عن الحق إلى الباطل وعن جهالة بما يجب لله من التعظيم، مع العلم أن المشركين كانوا يقرّون بوجود الله تعالى وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عند الله.

فقد حرّم الله تعالى سبّ آلهة المشركين مع كون السبّ إغاظة وإهانة لآلهتهم لأن ذلك قد يفضي إلى سبّ المشركين لله تعالى لإغاظة المؤمنين.

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يسبّون أصنام الكفار فيردون عليهم بالسباب لله سبحانه فنهاهم الله عن ذلك لئلا يتسببوا بالسباب لربهم.

وَوَجْهُ النهي عن سبّ أصنامهم هو أن السباب لها لا يترتب عليه فائدة بل يزيد الفجوة بين المؤمنين والكافرين، ولهذا كان من صُلْبِ آداب الدعوة في الإسلام ما جاء

في القرآن ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] ولهذا لا يحلّ لمسلم أن يسبّ أديان الغير ومظاهر العبادة فيها وتحقيرها لأنهم بذلك يبرّرون لأتباع هذه الديانات تحقير الإسلام وشعائره ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ زيّن: حسّن. أي كما حُسِّن لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان والأصنام كذلك حسّن الله لكل أمّة من الأمم عملهم فقد زُيِّن لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفر، وقد بيّن الله للناس طريقي الخير والشر فيختار كل فريق منهم ما يوافق ميوله من طاعة الله أو معصيته. فالله سبحانه زيّن للمؤمنين الإيمان به وطاعته كما زيّن الشيطان للكافرين الشهوات الضارة وسوء أعمالهم فرأوها حسنة ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم مصيرهم جميعاً بعد الموت إلى ربهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم يوم القيامة بما كانوا يعملون في الدنيا، فيجازيهم على أعمالهم، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرّ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أيمَانهم: جمع يمين وهو القسم، أي وأقسم هؤلاء المشركون بأقصى جهدهم وطاقتهم في القسم ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ لئن جاءتهم معجزة كما جاءت على يد الأنبياء السابقين ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ لَيُصدِّقوا بأنها من عند الله وأن رسول الله هو صادق فيما يبلّغه عن ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد إنما المعجزات هي من عند الله وهو القادر على الإتيان بها دون أحد سواه. ولمّا كان المؤمنون يتمنون تحقيق ما يطلبه المشركون من معجزات طمعاً في إيمانهم، لذا خاطب الله المؤمنين مبيناً الحكمة في عدم تحقُّق مطلب المشركين: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وما يدريكم أيها المؤمنون إذا جاءت هذه المعجزات التي طلبها المشركون أنهم لا يصدّقون بأنها من عند الله ولا يصدّقون برسول الله وما جاءهم به من الوحي من عند ربه، بل يظلون على ما كانوا عليه من الكفر والجحود والعناد؟

هذا وقد غفل المشركون عن أن القرآن بما يختص به من بلاغة وهداية هو المعجزة الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً حيث تحدى العرب وهم أهْل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثل سُوَره فعجزوا عن ذلك عجزاً مبيناً وكما عجز غيرهم عن ذلك على مر العصور.

ويكفي ما جاء به القرآن من إصلاح للمجتمعات العربية التي كانت مرتعاً للفوضى والمظالم والخرافات، كل ذلك غاب عن أنظارهم بسبب ضيق تفكيرهم وتعصبهم الأعمى لمعبوداتهم الباطلة.

﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لم يُؤْمِنُوا بِهِ أَوّلَ مَرَّةٍ**﴾ والتقليب: هو تحويل الشيء عن وَجْهِهِ إلى وجه آخر. والمعنى: وما يشعركم أيها المؤمنون أن الله يحوّل قلوب المشركين عن إدراك الحق فلا يفقهونه، ويحوّل أبصارهم عن معالمه فلا يبصرونه، ويكون حالهم بعد نزول المعجزات التي اقترحوها كحالهم من قبل، وهو البقاء على الكفر والاستمرار عليه ﴿**وَنَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ أي ويترك الله هؤلاء المشركين في تجاوزهم الحد في العصيان والشر في حيرتهم لا يهتدون لحق ولا يبصرون صواباً بسبب استحواذ الشيطان عليهم.

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

شرح المفردات

حشرنا: جمعنا.

قُبُلاً: مواجهة ومعاينة.

زُخْرُفَ القول: القول الذي زُيّن ومُوّه بالكذب.

غروراً: خداعاً.

فذرهم: فاتركهم.

يفترون: يختلقون الكذب.

ولتصغى: ولتميل.

أفئدة: قلوب.

وليقترفوا ما هم مقترفون: وليكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون.

شياطين الجن والإنس ووساوسهم للناس

وبعد أن ألح المشركون في طلب المعجزات كي يؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الأصنام تأتي الآيات التالية لتبين أنهم لم يكونوا ليؤمنوا ولو أَتَتْهُم المعجزات، كاشفة بذلك عن حقيقة أمرهم، قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائِكَةَ﴾ أي لو أنزلنا على المشركين الملائكة

حتى يشهدوا لك يا محمد بالنبوة ﴿وَكَلَّمَهُمُ الموْتَى﴾ أي تحادثوا معهم بعد إعادتهم للحياة وأخبروهم بصدق ما جئت به من الهدى ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِم كُلَّ شَيءٍ قُبُلاً﴾ والحشر: الجمع، أي وجمعنا إليهم كل الموجودات على الأرض جماعة جماعة من سائر المخلوقات مواجهة يقابلونهم ويرونهم بأعينهم ويحاولون إقناعهم ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بوحدانية الله ويستجيبوا لهذه المعجزات ﴿إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا إذا شاء الله لهم الإيمان، ولكن لن يكون الإيمان منهم على سبيل الإجبار بل على سبيل الاختيار ﴿وَلَكِنَّ أكثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ وإسناد الجهل إلى أكثرهم يفيد أن منهم عقلاء من أهل الرأي يُرجى إيمانهم.

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية: أن المستهزئين من المشركين أتوا رسول الله في نفر من أهل مكة، فقالوا لرسول الله: ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول أم باطل؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً (أي مقابلة) فنزلت الآية.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾ أي كما ابتليناك يا محمد بهؤلاء الأعداء من مشركي قومك كذلك ابتلينا الرسل من قبلك بأن جعلنا لهم أعداء يؤذونهم من شياطين الإنس والجن، وفي هذا مواساة للنبي ﷺ بما يلقاه من أذى على يد أعدائه.

وشياطين الجن هم نوع من الموجودات الخفية المجردة عن المادة. والجنّ منهم الصالحون ومنهم الكفرة. وشياطين الجنّ هم الكفرة من الجنّ.

وشياطين الإنس[١] هم الذين يفعلون مثل شياطين الجن من فعل الخبائث وإضلال الناس. وعلى هذا فهناك شياطين من الإنس وشياطين من الجن، والشيطان هو

(١) الإنس: هم جنس الإنسان وهو مشتق من التأنس والإلف لأن الإنسان يألف بالإنسان ويأنس به.

كل عات[١] متمرد[٢] من الجنّ والإنس. وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال: دَخَلْتُ المسْجِدَ ورسولُ اللَّهِ فيه فَجِئْتُ فَجَلَستُ إلَيْـهِ فقال: «يا أبا ذَرّ تَعوَّذ باللَّهِ مِنْ شَرِّ شياطينِ الجِنِّ والإنسِ، قُـلْتُ: أَوَ للإِنْسِ شياطين؟ قَالَ: نعم»[٣].

﴿يُوحي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ والوحي: هو إعلام بخفاء، ولماذا يوحي بعضهم إلى بعض خفاءً؟ لأن قوة الحق لا تجعل الشياطين قادرين على الجهر بوسوستهم، بينما أهل الحق يتحركون علانية ولا يستخفون من الناس.

والذين يوحي بعضهم إلى بعض هم شياطين من الإنس والجن، إنس يوحون لإنس وكذلك يوحي الجنّ للإنس للغرض نفسه. وزخرف القول: هو باطله الذي حُسِّنَ وموّه بالكذب، وكل قول حسّنته وزيّنته وهو باطل فهو زخرف ﴿غروراً﴾ والغرور: هو الخداع. أي أن الشياطين يزينون للناس الشهوات والمعاصي ويقومون بإغرائهم وخداعهم ليقترفوها بكلمات مزخرفة بإظهار فائدة موهومة ويسترون عن الناس مضرة هذه المعاصي والشهوات ويصرفونهم عن الحق إلى الباطل ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ولو شاء ربك يا محمد أن لا يفعلوا هذا الإيحاء بالشرّ ما فعلوه لأنه لم يشأ أن يُغَيِّرَ عقولهم ويجبرهم على خلاف ما حسَّنته لهم أهواؤهم، لأن الله خلقهم مستعدّين لفعل الخير أو الشر وأعطاهم الخيار ليختاروا سلوك أي الطريقين، ومحال أن يجبرهم على فعل السوء ثم يعاقبهم عليه، لأن الله سبحانه من صفاته العدل وأنه يتنزه عن الظلم ﴿فَذَرْهُم وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فاتركهم يا محمد وما يفترونه عليك من الكذب في شأن نبوّتك فإننا سنعاقبهم على افترائهم هذا.

---

(١) عات: استكبر وجاوز الحد.

(٢) متمرد: شرير.

(٣) أخرجه النسائي في السنن والإمام أحمد في المسند.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ولتصغى: أي لتميل إليه، والمعنى: يوحي بعض الشياطين إلى بعض الناس زخرف القول ليخدعوهم وينشأ عن ذلك أن تميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وعدم إيمانهم بالآخرة ينشأ عنه عدم توخّيهم في أعمالهم الحصول على الثواب من الله أو البعد عما يسخط الله، بل كانوا يتّبعون أهواءهم وما تحسّنه لهم شهواتهم ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُقْتَرِفُونَ﴾ وليرضوا بذلك القول المزخرف الباطل بعدما مالت إليه نفوسهم وليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ما هم مكتسبون، يقال: اقترف ذنباً إذا أتاه وفعله.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ
يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

شرح المفردات

أبتغي: أطلب.

حَكَماً: حاكماً يفصل بيني وبينكم.

مفصّلاً: مبيّناً.

الممترين: الشاكّين.

يَخْرُصون: يكذبون.

القرآن هو سبيل الله الحق

ثم يبيّن الله أن ما أنزله من الوحي على رسوله محمد هو الحق الجدير بالاتباع:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ حَكَماً: هو من يتحاكم إليه الناس باختيارهم ويرضون بحكمه، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: أفغير الله أطلب حَكَماً يقضي بيني وبينكم، ذلك أن المشركين كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَماً، فأمره الله أن يجيبهم بأنه لا يرضى أن يكون غير الله حَكَماً ﴿وَهُوَ الذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ المراد بالكتاب هنا القرآن، أي أن الله أنزل القرآن فيه العقائد والشرائع والحلال والحرام ﴿والَّذِين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ أي والذين أعطاهم الله عِلم التوراة والإنجيل كعلماء اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ يعلمون أن القرآن منزّل من ربك يا محمد بالحق وذلك لما قرأوا من البشارات في كتبهم عن مجيء نبي تنطبق صفاته على صفاتك يا محمد من أنك أُمِّيّ لا تقرأ ولا تكتب، ثم تأتي بهذا القرآن المشتمل على ما جاء في الكتب الإلهية السابقة من أحوال الأمم، ومبيناً ما طرأ عليها من تحريف وتبديل، مع شريعة جديدة تتناسب مع التطور الذي طرأ على العالم في تقدمه ورقيه ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ فلا تكونن ـ أيها المخاطب ـ من المتشككين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق وأن عدم اعترافهم بهذا مردّه إلى المكابرة والحسد.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وكلمة ربك يُراد بها الكلام الكثير كقولهم: قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته، والكلمة تطلق على الجملة والطائفة من القول في معنى واحد وغرض واحد، و﴿كلمة ربك﴾ المراد بها القرآن لأنه في جملته شيء واحد في إعجاز النظم والهداية ﴿صِدْقاً وعَدْلاً﴾ فهو صادق فيما أخبر به من القرون الماضية وعما هو كائن إلى يوم القيامة وفيما أخبر به من ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي

في النار وهو عدل فيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام وسائر الأحكام ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ التبديل: هو التغيير، أي لا مغيّر لقضائه ولا خُلف لمواعيده، ولا يستطيع أحد أن يبدّل القرآن ويحرّفه كما فُعِلَ بالكتب الإلٓهية السابقة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهو السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم.

ثم بيَّن القرآن أن أكثر سكان الأرض على ضلال لأن أهل الحق قلّة وأشياع الباطل كثير ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإن تطع يا محمد أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله الذي هو طريق الحق ومنهج الصدق لأن أكثرهم ليسوا على الهدى ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي هؤلاء الكفار الذين يجادلونك لا يتّبعون الحق والصواب بل يتّبعون الظنون والأوهام التي لا تستند إلى الحقيقة، وهم ليسوا على بصيرة وحق في دينهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وما هم إلاّ يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه من أمور لا تليق به، وهم يجعلون عبادة الأصنام وسيلة للتقرب منه، ويحللون أكل الميتة وغيرها من المآكل المحرّمة، وسوى ذلك من المنكرات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي إن ربك يا محمد هو أعلم بمن يبتعد عن سبيله ويميل إلى العقائد الباطلة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو أدرى بالمهتدين السالكين طريقه المستقيم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ
أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ
الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا
تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ
لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)
أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾.

شرح المفردات

وذروا: واتركوا.

وباطنه: ما خفي منه.

يقترفون: يكتسبون من الإثم.

لفسق: لخروج من طاعة الله إلى معصيته.

ليوحون إلى أوليائهم: ليوسوسون إلى أنصارهم من الكفار.

الحلال والحرام من الأطعمة

ولمّا كان حكم الحلال والحرام في المأكولات يستند إلى العقيدة الدينية ويرتبط بها لذا بيّن الله في الآيات التالية بعض أحكامها، من ذلك تحريم ما كان عليه المشركون

من أكل الذبائح التي ذُكِرَ اسم أصنامهم عليها عند ذبحها، وكذلك أكل الميتة، فقد روي أن أُناساً أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله: أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله (أي الميتة) فنزلت الآية التالية:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي فكلوا ـ أيها المؤمنون ـ مما ذُكِرَ اسم الله دون غيره عليه من الأنعام والطير عند ذبحه واحذروا ما ذُبح للأصنام والأوثان ولغير الله، فَعُلِمَ من ذلك أن أكل الميتة ونحوها مما لم يذبح منهيٌّ عنه لأن ذِكْرَ اسم الله أو اسم غيره إنما يكون قبل بدء ذبح الحيوان كما هو معروف عند العرب والميتة هي التي تموت دون أن تُذبح وبالتالي لا يُذكر اسم الله عليها ﴿إِنْ كُنْتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدّقين بآيات الله التي جاءتكم بالهدى، فالإيمان يقتضي العمل بما أحلّه الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في ترك الأكل مما ذُكِرَ اسم الله عند ذبحه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكم[1]﴾ وقد بيّن لكم ربكم الحلال من الحرام ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُم إِلَيْهِ﴾ أي ما ألجأتكم الضرورة إلى أكله من المحرمات بسبب تعرّض النفس للهلاك فإنه حلال لكم أكله بقدر الضرورة التي تحيا بها النفس ويدفع عنها الهلاك ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وإنّ كثيراً مِنَ الكفار يُضلّون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بأهوائهم التي تزيّنها لهم نفوسهم بغير عِلْمٍ مستند إلى شَرْعِ الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي أنه سبحانه هو أعلم بمن تعدّى حدوده فأحلّ ما حرّم وحرّم ما أحلّ مما يمليه عليه هواه، وفي هذه الآية وعيد لمن يعتدون على شريعة الله ويعبثون بها، وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ

---

(١) وقد بيّن الله المحرمات في الآية ١٤٥ من هذه السورة كما بيّن ذلك في أول سورة المائدة الآية الثالثة التي نزلت بعد هذه السورة.

وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[النحل: ١١٦].

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الإثم: الذنب وهو أن يعمل الإنسان ما لا يحلّ له. فالله أمرنا أن نترك الإثم الظاهر وهو ما بدا من الجوارح وأمكن الإطلاع عليه كالزنا والسرقة مثلاً، كما أمرنا أن نترك الإثم الباطن كالكبر والرياء والنفاق والحقد والإضرار بالناس سرًّا وما أشبه ذلك. والآثام الباطنة أخطر وأغلظ من الآثام الظاهرة. وقد كان بعض العرب في الجاهلية يأتون الزنا سراً ويرون ذلك حلالاً إذا كان في السرّ، وهناك طوائف إلى الآن تسير حسب هذا المعتقد، فحرّم الله الآثام سواء ما يحصل منها في السرّ وما يحصل في العلانية.

وهذا منهج أخلاقي لم تصل إليه أرقى الأمم، فالقوانين الوضعية التي تسير عليها الكثير من الأمم تحمي الناس من الآثام الظاهرة التي فيها إضرار بالمجتمع، أما منهج القرآن فهو يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطنه. ولتثبيت هذا المعنى في النفوس جاء في القرآن ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فإذا علم الإنسان أن الله مطّلع على أعمال العباد سرّها وعلانيتها وأنه سيحاسب عليها كان ذلك رادعاً له عن اجتناب الآثام ﴿إِنَّ الَّذِين يَكْسِبُون الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه من الذنوب ويأتون ما حرّم الله سيُجزون يوم القيامة بما كانوا يكتسبون من الآثام.

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لم يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي ولا تأكلوا ـ أيها المؤمنون ـ مما لم يُذكر اسم الله عليه عند ذبحه من الحيوانات التي أباح الله أكلها، أو ذُكِرَ عليه اسم غيره كالأصنام وغير ذلك أو مات حتف أنفه ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وإنّ الأكل منها لمعصية وخروج عن طاعة الله إذا ذُكِرَ عليه اسم غير الله أو كان ميتة.

وفي مفهوم هذه الآية اختلف الفقهاء في حكم الذبيحة التي يحل أكلها ولم يُذكر اسم الله عليها فمنهم من قال: لا يحل أكل الذبيحة التي يترك ذكر اسم الله عليها ـ عمداً أو نسياناً ـ ولو كان ذلك من المسلم وإلى ذلك ذهب داود الظاهري وأحمد بن حنبل في رواية عنه.

ومنهم من قال: إن ترك التسمية نسياناً لا يضر، أما من تركها عمداً فلا تحلّ ذبيحته، وهو ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة.

ومنهم من يرى أن التسمية ليست شرطاً، فلو ترك المسلم التسمية ولو عمداً جاز أكل الذبيحة لأنه وإن لم ينطق اسم الله بلسانه فقلبه مؤمن به ذاكر له وهذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي وفي رواية عن الإمام مالك.

هذا وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: «إن قوماً قالوا يا رسول الله: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أَذَكَروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ: سمّوا الله عليه وكلوا».

﴿وَإِنَّ الشياطينَ لَيُوحُون إِلَى أَوْلِيَائِهِم لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ أي وإن شياطين الإنس والجنّ ليلقون إلى أنصارهم وأعوانهم من المشركين بالوساوس والأوهام ليجادلوكم بالباطل في تحريم أكل الميتة ﴿وَإِن أَطَعْتُمُوهُم إِنَّكُم لَمُشْرِكُونَ﴾ وإن أطعتم ـ أيها المؤمنون ـ المشركين فيما يجادلونكم فيه من إبطال أحكام الإسلام إنكم إذن مثلهم في الشرك بالله وإن لم تدّعوا بأن لله شريكاً. يقول أحد العلماء: في الآية دليل على أن كل من أحلّ شيئاً مما حرّم الله تعالى أو حرّم شيئاً مما أحلّ الله تعالى فهو مشرك، وإنما سُمي مشركاً لأنه أثبت سوى الله حاكماً لأفعاله.

ثم يشبّه الله حال المؤمن وحال المشرك بهذا البيان البليغ:

﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، فالآية تنكر التماثل بين المؤمن والكافر.

فحالة المؤمن الذي كان ضالاً ثم أصبح مؤمناً شبّهها الله بالميت حيث أحياه بهداية الإسلام ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وجعل الله له نوراً وهو القرآن يستنير به في أمور حياته وفي معاملته للناس.

أما حالة المشرك فقد وصفها الله بقوله: ﴿كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ فالمشرك بالله يتخبط في ظلمات الكفر والضلال لا يعرف إلى أين يسعى وإلى أين يسير، ولا يعرف كيفية الخروج من الظلمات التي يتخبط فيها ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كما حسَّنَ الله للمؤمنين إيمانهم وأعانهم عليه، حسّن الشيطان للكافرين ما كانوا يعملون من الكفر والعصيان حتى يظلوا في الظلمات.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ
فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ
ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ
يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ
يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا
حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

شرح المفردات

أكابر: جمع الأكبر وهم الرؤساء والوجهاء والسادة.

مجرميها: جمع مجرم وهو مرتكب الإجرام والجُرم هو الذنب والإثم.

ليمكروا فيها: يدبرون الشر خفية.

صَغَارٌ: ذلٌّ وهوان.

يشرح صدره للإسلام: يوسّع صدره لقبوله، وشرح الصدر توسعته.

حَرَجاً: أي ضاق ضيقاً شديداً.

الرِّجس: العذاب.

دار السلام: الجنة.

وليُّهم: ناصرهم ومؤيدهم.

مآل المجرمين وأثر الهداية في النفس

ثم يبيّـن القرآن أن كبراء الأمة وزعماءها المترفين هم الذين يقفون في وجه رسُل الله ودعاة الإصلاح، قال الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُروا فِيهَا﴾

أجرم: أذنب وتعدى واكتسب أمراً مكروهاً. والمكر: تدبير الشر خفية والاحتيال لإيقاع الأذى بالغير وأكثر ما ورد المكر في القرآن في مكر الكفار بالرسل.

والمعنى: وكما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية من قرى الأمم رؤساء مجرمين مثلهم، وإنما جعل الأكابر مجرمين لأنهم بفضل زعامتهم

وما ينعّمون به من مال كثير وجاه وترف تحملهم على المبالغة في حفظ تلك المكاسب والمحافظة عليها حتى ولو اضطروا إلى ارتكاب جميع الصفات الذميمة من غَدْرٍ ومكر وخداع والطعن بالرسل والمصلحين وهذا ما يحصل غالباً في أكابر الأمة ﴿**وما يَمْكُرُونَ إلا بِأَنْفُسِهِمْ وما يَشْعُرُونَ**﴾ أي وما يمكر هؤلاء الأكابر إلاّ بأنفسهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم، ولكن العاقبة الحسنة هي للرسل، وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] والآية نزلت لمواساة رسول الله محمد ﷺ لما يلقاه من كبراء قريش من أذى واضطهاد.

﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ**﴾ وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة من الله على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ من عند الله، أو بمعنى: وإذا أنزلت على محمد آية من القرآن تدعوهم إلى الإيمان بالله وطاعته ﴿**قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ**﴾ قالوا لن نصدّق بما دعانا إليه محمد حتى يعطينا الله من المعجزات مثل ما أعطى موسى معجزة العصا التي شق بها البحر وتحولت إلى ثعبان هائل، ومثل ما أعطى الله عيسى من المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وأن تحصل لهم النبوة كما حصلت لمحمد ﷺ، قالوا ذلك حسداً منهم للنبي محمد ﷺ.

وقد روي أن الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنتُ أنا أَحَقّ بها من محمد فإني أكثر منه مالاً وولداً، فنزلت هذه الآية.

وقد ردّ الله على هؤلاء الحاسدين الذين ظنوا أن النبوة تكون بالمال والعصبيات: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ هنا بيان لعظيم قدر النبي ﷺ وعلوّ مرتبته.

فالنبوة لا تُنال بالأماني ولكن الله يعلم من يصلح لها ومن لا يصلح والنفوس تتفاوت في قبول الفيض الإلّهي، ولا تصلح النبوة إلا لنفس طاهرة صافية بعيدة عن الرذائل الخلقية سليمة من الأمراض القلبية ﴿**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ**

﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الصغار: الذل والهوان، وقد جعل الله عقابهم ذلاً وهواناً ليناسب كبرياءهم وطغيانهم، والذل هو ما حصل لهم في الدنيا من الهزيمة المخزية وعذاب القتل والأسر يوم معركة بدر حيث هلك الكثير من سادة قريش وعظمائهم كما سيحصل لهم الذل والهوان يوم القيامة بالإضافة إلى العذاب في نار جهنم ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم برسول الله محمد ﷺ وعداوتهم له.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلامِ﴾ الشرح: الكشف والفتح. وشرح الله صدره للإسلام: وسّعه لقبوله وهيّأه للأخذ به.

هذا الشطر من الآية يمثل مرحلة من السلوك الإنساني تبدأ مع عرض الحق على أي إنسان، فإذا كان سليم العقل والفهم خالياً من العلل، يحسن الموازنة بين الحق والباطل ويستخدم عقله استخداماً نزيهاً فإنه ينساق طوعاً إلى جانب الحق، وبعد هذا يشرح الله صدره للإسلام الذي هو الدين الحق ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ هذه هي صفة الكافر المتعصب المعقّد الذي يرفض بمحض اختياره إحكام النظر فيما يُعرض عليه من الحق ويسترسل مع شهواته وأهوائه وهنا يجعل الله صدره ضيّقاً حرجاً لغلبة الكفر عليه، والحرج: أشد الضيق بحيث إنه لشدة ضيق صدره لا تنفذ الموعظة إلى قلبه ولا يدخل إليه نور الإيمان.

ثم وصف الله تبرّم الضالّ عن الحق وضيقه به بقوله: ﴿كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ هذا الشطر من الآية يبين إعجاز القرآن وأنه وحي إلهي لا من تأليف بشر، فمنذ خمسة عشر قرناً زمن نزول القرآن لم يكن الناس يدرون أن من يرتفع في السماء يضيق صدره، ولكن بعد ارتياد الطبقات الجوية العالية بواسطة الطائرات والمركبات الفضائية استطاع الإنسان أن يدرك ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص الأوكسجين في تلك الطبقات العليا حيث يشعر الصاعد في هذا العلوّ بصعوبة في التنفس ويحسّ بالضيق في صدره ولهذا يزوّد

ربّان الطائرات مقصورة المسافرين بالأوكسجين اللازم للتعويض عن نقص الأوكسجين ليتمكنوا من التنفس بطريقة طبيعية.

وظاهرة ضيق الصدر شعر بها هواة التسلق في الجبال العالية كمرتفعات جبال هملايا وغيرها حيث يقلّ الأوكسجين، ومما يلفت النظر أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وجبالها قليلة الارتفاع لا يأخذ الساكن فيها فكرة الصعود في السماء وما ينتج عنه من ضيق، وهنا نسجل بفخر اتفاقاً رائعاً للوصف القرآني مع الواقع العلمي.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيّقاً حَرَجاً كأنما يصّعّد في السماء كذلك يسلّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق، هذا على تفسير الرجس بأنه الشيطان. وقيل الرجس هو ما لا خير فيه، كما أن من معاني الرجس العذاب.

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ وهذا القرآن أو الإسلام الذي يشرح الله صدر من يريد هدايته هو طريق ربك المستقيم الذي لا عوج فيه **﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾** أي قد بيّن الله آيات القرآن وما فيها من الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، لقوم يتذكرون بها ويتعظون بما فيها من المنافع والخيرات لهم.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ودار السلام اسم من أسماء الجنة، أي لهؤلاء الذين يتّعظون بآيات القرآن ويعملون بما فيها من أوامر ونواهٍ، يجازيهم ربهم بدخول الجنة والتمتع بنعيمها، وإنما وصف الله الجنة بدار السلام، والسلام اسم من أسماء الله، لذا أضيفت الجنة إلى السلام إضافة تشريف. ومن معاني السلام: السلامة من العيوب والآفات، فلا يجد المؤمنون في الجنة ما ينغّص حياتهم **﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾** والله يتولّى أمر هؤلاء الصالحين بالتوفيق والهداية **﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي جزاء لهم على طاعتهم لله واتّباعهم ما أمرهم به حتى استحقوا رضوانه.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ
أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ
أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ
ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن
لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ
دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم
مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ
ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

شرح المفردات

يحشرهم: يجمعهم.

يا معشر: المعشر كل جماعة أمْرُهُم واحد ويحصل بينهم معاشرة ومخالطة.

أولياؤهم: جمع وليّ وهو الصَّديق والناصر والتابع. أي أنصار الشياطين وأعوانهم.

بلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا: وصلنا إلى الوقت الذي حددته لنا وهو يوم القيامة.

مثواكم: منزلكم ومستقرّكم.

يقصّون: يتلون.

وغرّتهم: وخدعتهم.

يُذْهِبْكُم: يهلككم.

ويستخلف من بعدكم ما يشاء: ينشىء خلقاً بدلكم بعد إهلاككم.

بمعجزين: أي بِجَاعِلي ربكم عاجزاً عن إدراككم.

على مكانتكم: على قدر استطاعتكم وإمكانكم.

عاقبة الظلم والتحذير من وساوس الشياطين

وبعد أن بيّن القرآن الحلال من الأطعمة وحذّر من اقتراف الآثام انتقل بعد ذلك إلى وصف بعض مواقف الحساب للخلق يوم القيامة حيث يخاطب الله الجن والإنس موبخاً لهم على عصيانهم له:

﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإِنْسِ**﴾ أي واذكر يا محمد يوم يجمع الله الجنّ والإنس يوم القيامة ثم يقول الله سبحانه: يا جماعة الجنّ المفسدين قد أكثرتم من إغوائكم الإنس وإضلالكم إياهم ﴿**وَقَالَ أولِيَاؤُهُم مِنَ الإِنْسِ**﴾ وقال المشركون المُوالُون لشياطين الجن الذين اتبعوهم وأطاعوهم وتأثروا بإغوائهم: ﴿**رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**﴾ واستمتاع الإنس بالجنّ هو انتفاعهم بوسوستهم حيث قبلوا منهم ما حسّنوه لهم من المعاصي فوقعوا فيها وتلذذوا بها، واستمتاع الجن بالإنس هو انتفاع الجن بتكثير أتباعهم من أهل الضلالة وطاعة الإنس لهم فيما يأمرونهم به فصاروا كالرؤساء للإنس ﴿**وَبَلَغْنَا أجَلَنَا الّذي أَجَّلْتَ لَنَا**﴾ حتى بلغنا الوقت الذي حدّدته لموتنا، أو بمعنى: بلغنا الوقت الذي أجّلْته لحسابنا وهو يوم القيامة الذي نُبعث فيه أحياء. ثم قال الله سبحانه لهؤلاء الجماعة من الجن والإنس ﴿**قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ**﴾ أي النار مأواكم ودار إقامتكم ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**

إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ أي ماكثين في عذاب جهنم أبداً لا تخرجون منها إلا من شاء الله إخراجه. وأغلب علماء الإسلام يرون أن مرتكبي كبائر الإثم من المسلمين لن يخلدوا في النار أبد الآبدين بل سوف يشفع لهم إيمانهم وتوحيدهم لله فيخرجون منها وإن طال المدى بفضل الله تعالى **﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** إن الله حكيم في تدبير خلقه، وعقابهم حسب درجات ذنوبهم، وهو عليم بكافة أحوالهم.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فالله سبحانه يقول: أي كما أنزلت العذاب بالجنّ والإنس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولّي بعض الظالمين من الإنس على بعض الظلمة، أي نسلّط بعضهم على بعض فنعاقب الظالم على يد ظالم مثله جزاء ما اقترف من ظلم، يقول ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم. وقيل: إذا أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم.

ثم يحكي لنا القرآن كيف يخاطب الله المشركين وعصاة الجنّ يوم القيامة موبخاً لهم على سلوكهم طريق الكفر والشر: **﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾** أي يا جماعة الجن والإنس: ألم يأتكم رسل من الله من بينكم تعرفون صدقهم وأمانتهم **﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي﴾** يخبرونكم بما أوحيت إليهم من آياتي الدالة على توحيدي ويقرأون عليكم كتبي **﴿ويُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا﴾** ويحذرونكم ويخوفوكم لقاء عذابي يوم القيامة في حال معصيتكم إياي **﴿قَالُوا شَهِدْنَا على أنْفُسِنا﴾** اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلّغتهم رسالات ربهم وأنذروهم **﴿وَغَرَّتْهُمُ الحيَاةُ الدُّنْيَا﴾** وخدعتهم الحياة الدنيا واطمأنوا بها ورفضوا العمل للآخرة بصالح الأعمال **﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾** وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين بالله وبما جاءت به رُسُل الله من الهدى.

فالجن مكلفون بالعمل بشرائع الله كالإنْسِ، وإن الله يعاقبهم على عصيانهم رسل الله وهم الذين يبعثهم الله من الإنس فيكون الجن مكلفين بشرائعهم كالإنس، ويرى بعض المفسرين بأن الله أرسل رسلاً من الجن إلى قومهم كما أرسل رسلاً من الإنس.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾: أي ذلك الذي تقدم من إرسال الرسل لأنه سبحانه لا يعاجل بالعقوبة أي قوم من أجل ظلم فعلوه، وهم غافلون لا يدركون عاقبة ما هم عليه، بل يُنَبَّهوا ويُنْذَرُوا قبل نزول العذاب بهم بواسطة الرسل، لأنه سبحانه لا يظلم أحداً، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ والدرجات: هي ما يرتقي عليه الإنسان من أسفل إلى أعلى في سلّم أو بناء، والمراد بها هنا المنازل أو المراتب التي يصل إليها الإنسان بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. فكلّ مكلّف من الإنس والجنّ يصنع في هذه الحياة مستقبله عند الله، وعلى قدر ما يبذل من جهد في طاعة الله أو يعصيه تكون درجته في الآخرة، فمنهم من هو أعظم ثواباً ومنهم من هو أشد عقاباً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ والخطاب لرسول الله ومن معه من المسلمين فهو مواساة لهم لما يلقونه من أذى المشركين، ومن ناحية أخرى هو وعيد للمشركين وإخبار لهم بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ما فعلوا في الدنيا.

﴿وَرَبُّكَ الغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ والغني هو الذي لا يحتاج إلى غيره، والغني الحقيقي هو الله لأنه لا يحتاج إلى غيره بحال من الأحوال. فالله سبحانه هو الغني عن عباده وعن أعمالهم الصالحة وعبادتهم إياه، وهو سبحانه لم يأمرهم بما أمر، ولم ينههم

عن شيء لحاجته إليهم ولكن ليصلح حالهم وليتفضّل عليهم برحمته، ويثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، ومن مظاهر رحمته أن أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين وناصحين لهم إلى ما يسعدهم ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ يذهبكم: يهلككم، والاستخلاف: جعل الخلف عن الشيء والعوض عنه، والمعنى: إن يشأ الله يهلككم بسبب كفركم وينشيء من بعد هلاككم خلفاً غيركم أحسن طاعة لله منكم، فهنا وعيد بإهلاك المشركين ﴿كَمَا أَنْشَأَكُم مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ مثلما أنشأكم من ذرية قوم آخرين قد هلكوا قبلكم.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ﴾ أي إن الذي يوعدكم به ربكم ـ أيها المشركون ـ من عقاب بسبب إصراركم على كفركم فهو واقع بكم لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولن تعجزوا ربكم هرباً منه في الأرض فتفوتوه لأنكم حيثما تكونوا فأنتم في قبضته وهو القادر على عقوبتكم بسبب معصيتكم إياه. وحقيقة المعجز هو الذي يجعل طالب الشيء عاجزاً عن نيله، ويستعمل مجازاً في معنى الإفلات من تناول طالبه.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل يا محمد للمشركين: اعملوا على غاية تمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وبكل ما أوتيتم من قوة وإمكانية من أجل استمراركم على الكفر ﴿إِنّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإني مستمر على ما أنا عليه من دعوتكم إلى الحق، كما أنكم مستمرون على العناد والكفر، فسوف تعلمون عند نزول عذاب الله عليكم أينا كان المحق ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ والعاقبة آخر الأمر وأثر عمل العامل، فعاقبة كل شيء هي ما ينجلي عنه الشيء من أثر ونتيجة، أي فسوف تعلمون من تكون له العاقبة المحمودة من النصر في الدنيا ومن له النعيم في الدار الآخرة ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إنه لا يفوز ولا يوفق عند ربه من كان ظلوماً كفاراً لا يتبع الحق ولا يسلك سبيل الصواب.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا
هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ
فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ
شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ
لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا
يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا
يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ
الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

ذرأ: خلق.

الحرث: الزرع.

الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز.

نصيباً: جزءًا.

لشركائنا: لأصنامنا.

زَيّن: حسَّن.

لِيُرْدوهم: ليهلكوهم بالإغواء.

ولِيلْبِسوا عليهم دينهم: ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلّوا عنه إلى الشرك.

ذرهم: دعهم واتركهم.

يفترون: يختلقون من الكذب.

حِجْرٌ: ممنوعة محرّمة.

أنعام حُرِّمت ظهورها: أي أنعام لا تُركب ولا يُحمل عليها شيء.

سفهاً: السفاهة الخفة في العقل والجهالة.

بعض مساوىء العرب في الجاهلية

كان للمشركين العرب في الجاهلية قبل الإسلام عادات مذمومة، وأفعال قبيحة تنمّ عن سفاهة عقولهم وفساد أحكامهم، فجاء الإسلام ناقضاً لها لمجافاتها العقل والفهم، ولما فيها من كفر وشرك بالله؛ وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام. يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ أي أن المشركين جعلوا لله سبحانه جزءاً مما خلق من الزروع والأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز ينفقونه على الضيوف والمساكين، كما جعلوا جزءاً من الزروع والأنعام لآلهتهم ينفقونه على سَدَنَتِها والقائمين بخدمتها ويذبحون عندها تقرّباً إليها. وما خصصوه لأصنامهم يفهم من قوله تعالى بعد ذلك ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ والزعم: الكذب، فالمشركون كانوا يكذبون في تخصيصهم هذا لأنه لم ينزل بذلك

شرع إلٓهي ولا حجة لهم بذلك. ومعنى لشركائنا: أي لأصنامنا، وسُمّيت شركاء لأن الشركاء من الشركة حيث جعل المشركون لها نصيباً من أموالهم، ويجوز أن يكون المعنى من الشرك بالله حيث جعلوا أصنامهم شركاء لله في العبادة، وأضافها الله إليهم لاعتقادهم بذلك.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إلى اللَّهِ﴾ فالجزء المخصص لأصنامهم من نماء الزرع ونتاج الأنعام فلا يصل إلى الله منه شيء، أي إلى المصارف التي شرع الله الإنفاق عليها كالصدقة وصلة الرحم وإكرام الضيف ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَائِهِمْ﴾ أي ما يجعلونه لله فهو يصل إلى أصنامهم وينفقونه في مصالحها. فإذا هلك وانتقص شيء مما جعلوه لأصنامهم عوّضوا عنه ما خصصوه لله، فمثلاً إذا أصابت آفة الزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للأصنام، وإذا ماتت بهيمة من التي نذروها لله لم يعوضوها، وإن ماتت بهيمة كانوا نذروها للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي قبح هذا الحكم الذي أحدثه المشركون حيث لم يشهد بصحته عقل وشرع بل هو من سفاهة عقولهم، فكيف يرجحون جانب الأصنام وهي جماد لا تنفع ولا تضر على جانب الله تعالى في الرعاية والإنفاق والحفظ مع أن الله سبحانه هو الخالق للزروع والأنعام ولكل شيء في الوجود.

ثم بيّن القرآن بعضاً من أحكام المشركين الفاسدة التي تنمّ عن قسوة قلوبهم وهي قتل أولادهم:

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشرِكينَ قَتْلَ أوْلادِهم شُرَكَاؤُهُمْ﴾ زيَّن: حسَّن، وشركاؤهم فاعل زيّن، والشركاء هنا شياطينهم أو سدنة آلهتهم، والمعنى: وكما حَسَّنت الشياطين للمشركين تقسيم أرزاق الله بينه وبين الأصنام كذلك حسّنت لهم

قتل أولادهم. وسُمِّيَت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم.

وكان من المشركين من يقتل بناته خشية العار خوفاً منْ أنْ يقعن في الأسر.

ومنهم من كان يقتل أولاده ـ ذكوراً وإناثاً ـ مخافة الفقر.

ومنهم من كان يحلف بالله لئن وُلِدَ له كذا وكذا غلاماً لينحر أحدهم كما فعل عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله والد رسول الله ﷺ. والقرآن قال إن الكثير كان يفعل ذلك، لأن قتل الأولاد لم يكن يفعله جميع القبائل ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُم﴾ يردوهم: من الردى وهو الهلاك والموت. واللبس: بمعنى الخلط. أي حَسَّنَت لهم الشياطين قتل أولادهم ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به وليخلطوا عليهم أمر دينهم ويُدخلوا الشك عليه، وكانوا قد ورثوا الدِّينَ عن إسماعيل عليه السلام وليس في دينه قتل الأولاد بل كان يحرِّم عليهم القتل مطلقاً، ولكن المشركين انحرفوا عنه وأحدثوا ديناً مختلطاً بالأباطيل ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله عدم ارتكاب المشركين ذلك لعصمهم منه. هذا النص القرآني لا يفهم منه أن الله أجبر المشركين على هذه الفعلة الشنعاء، فإنه من التناقض أن يُجبِرَ الله أحداً على عمل قبيح ثم يلومه عليه ويؤاخذه به. فالله سبحانه خلق البشر وجعلهم يتميزون بحرية الإرادة والتصرف، وحرية الاختيار، فهو يعنّفهم ويعاقبهم إذا أساءوا، ويحكم عليهم بالحماقة إذا خرجوا عن طريقه المستقيم، كما يثيبهم على أعمالهم الصالحة ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فاتركهم يا محمد وما يختلقون من الكذب على الله فإن الله لهم بالمرصاد. وفي هذا من شدة الوعيد لهم ما لا يخفى.

ومن ضلالات المشركين في الأنعام أنهم أباحوا أكل لحم بعضها وحرموا بعضها الآخر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ والحِجْر في كلام

العرب: الحرام. أي أن المشركين حلّلوا وحرّموا ما شاءوا فجعلوا بعض الأنعام حراماً أكلها، وحرّموا أكل بعض الزروع كذلك ﴿**لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِم**﴾ أي لا يأكلها إلا من شاءوا وهم الرجال دون النساء ويبيحونها لسدنة الأصنام، وهذا الحكم منهم صادر عن زعمهم لأن الله لم يأمرهم به والزعم هو الكذب ﴿**وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُهَا**﴾ كما أنهم جعلوا بعض الأنعام مما يحرّم عليهم ركوبها أو أن تحمل الأمتعة وهي: البحائر[١]، والسوائب[٢]، والوصائل[٣]، والحوامي[٤] ﴿**وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا**﴾ وكذلك خصصوا بعض الأنعام بحيث لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون أسماء أصنامهم، أو لا يذكرون اسم الله عليها في أي شأن من شؤونهم: لا إن ركبوا عليها، ولا إن حلبوها، ولا إن حملوا عليها الأمتعة، ولا يحجون عليها لأن الحج لا يخلو من ذكر الله تعالى: ﴿**اْفْتِرَاءً عَلَيْهِ**﴾ أي فعلوا ذلك كذباً على الله، لأنهم نسبوا ما كانوا يحرمونه إلى الله وأنه سبحانه هو الذي حرمه، فنفى الله أنه أمرهم بذلك ﴿**سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ سيعاقبهم الله بما يختلفون عليه من الكذب، وهنا وعيد لهم وتهديد على أفعالهم هذه.

﴿**وَقَالُوا مَا في بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْواجِنا**﴾ أي وقال أولئك المشركون ما في بطون هذه الأنعام من أجنّة البحائر

---

(١) البحائر: جمع بحيرة وهي الناقة التي تلد خمسة أبطن آخرها ذكر كانوا يشقون أذنها ويتركونها لآلهتهم.

(٢) السوائب: جمع سائبة وهي اسم للناقة التي يتركها صاحبها فلا تنحر لأنها نجت من الحرب أو لأن صاحبها نذرها للأصنام.

(٣) الوصائل: جمع وصيلة وهي اسم للناقة التي تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى كانوا يتركونها للأصنام.

(٤) الحوامي: جمع حام وهو اسم للفحل إذا لقح ولد ولده قالوا حمى ظهره فلا يُركب ويترك حتى يموت.

والسوائب إذا ولد منها حيًّا فهو خالص أكله للرجال دون النساء ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة حين يُولد فحلال أكله للرجال وللنساء أي شركاء في أكله ﴿سَيَجْزِيهِم وَصْفَهُمْ﴾ سيعاقبهم على وصفهم الكذب على الله، بادعائهم أنه تعالى أحل وحرم ما يفعلونه ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إنه سبحانه حكيم في أفعاله وأقواله وفيما شرعه لهم، عليم بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِين قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سفهاً: السفه هو الطيش ونقصان العقل والجهل في الأمور الدينية والدنيوية. فإن قتل الأولاد هو خسران ما كان يُرجى نفعه عن طريق الولد من الإنس والسرور وكفاية المهمات والمعونة للآباء عندما يكبر الأولاد. فالولد نعمة من الله على الإنسان فإذا سعى في زوالها فقد خسر خسراناً عظيماً في الدنيا واستحق العقاب من الله في الآخرة، كما أن قتل الأولاد يدل على خفّة في العقل وقسوة في القلب، وجهل بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم. وأما قوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهو الجهل بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقبح ﴿وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ وحرّموا على أنفسهم أكل ما أحلّ الله لهم من الأنعام زاعمين أن الله أمرهم بذلك وهذا كذب وافتراء على الله ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فهم بتحريمهم هذا أخطأوا طريق الحق والصواب وما كانوا مهتدين إلى طريق الرشاد والصواب.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ
وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ
كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ
كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ
مُّبِينٞ ١٤٢ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ
ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ
نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ
ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ
ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤ ﴾ .

شرح المفردات

أنشأ: خلق.

جنّات: بساتين.

معروشات: مرفوعات على ما يحملها كالكرم والقرع.

وغير معروشات: وهو ما انبسط على وجه الأرض وما قام على ساق واستغنى لقوة ساقه عن التعريش كالنخل وسائر الشجر.

متشابهاً: متقارباً في اللون والطعم.

حصاده: جنْيه.

من الأنعام حمولة وفرشاً: أي وخلق لكم من الأنعام ما تحمل الأثقال كالإبل وما يفرش على الأرض للذبح كالغنم.

لا تتبعوا خطوات الشيطان: لا تسلكوا طرقه في التحريم والتحليل.

أزواج: جمع زوج، ويطلق على كل واحد من القرينين الذكر والأنثى ويطلق على مجموعهما والمراد الأول.

نبئوني: أخبروني.

شهداء: حاضرين.

فضل اللَّه على عباده وما حلله من الأطعمة

وبعد أن بيّن القرآن ضلال المشركين في تقسيم أرزاق الله بينه وبين أصنامهم وما يفعلونه ظلماً من قتل أولادهم وتحريمهم بعض الأشياء على هواهم بيّن بعد ذلك بأن الله وحده هو الخالق للزروع والأنعام، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ معروشات: مرفوعات على ما يحملها من عيدان أو أعمدة كدوالي العنب، والمعنى: هو الله سبحانه خلق بساتين كروم العنب مرفوعات على أعمدة **﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾** وهي ما انبسط على وجه الأرض مثل بعض كروم العنب والبطيخ والقرع والخيار التي تُترك بدون عرائش وما قام على ساق كالنخل والزرع والأشجار **﴿وَالنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾** وخلق الله سبحانه النخل والزرع مختلفاً ثمره في الهيئة والطعم، وخصهما القرآن بالذكر لمنافعهما، فإن ثمر النخيل من أفضل الأقوات التي تدّخر وأيسرها تناولاً في السفر، ولا يحتاج إلى طبخ وفيه من المنافع التي لا تُحصى وهو غذاء كامل. أما الزرع وهو النبات الذي يحصل بعد حرث الأرض ووضع بذوره بها كالقمح والشعير والأرزّ فهي التي يقتات منها أكثر البشر **﴿وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾** وخلق الله سبحانه الزيتون والرمان متشابهة أوراقهما في المنظر وغير متشابه ثمرهما في الطعم،

فالرمان منه الحلو ومنه الحامض ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ كلوا من ثمر ذلك الذي ذُكِرَ ولو قبل نضجه، وقال بعض الفقهاء إنه رخصة للمالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى فيه لكن بدون توسع في الأكل ﴿وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ والحصد: هو القطع. أي أخرجوا من هذه الأصناف زكاة أموالكم على المستحقين لها من الفقراء والمساكين عند قطعها وجنيها، وبناء على هذا التفسير قيل إن هذه الآية نزلت بالمدينة المنورة لأن فريضة الزكاة وتحديدها كانت في تلك المدينة.

وقيل المراد بهذا الحق الصدقة المطلقة المستحبّة فَيُعْطي صاحب الزرع منه عند حصاده من حضر من المساكين، إلى أن نُسخت الصدقة بتحديد الزكاة فيها بالعشر فيما سقي بالمطر ونصف العشر فيما سقي بآلة، لأن هذه الآية نزلت بمكة ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ والإسراف: مجاوزة الاعتدال إلى التبذير أي لا تتجاوزوا الحد بإخراج الصَّدقة للفقراء بحيث لا يبقى لعيالكم شيء، أو لا تتجاوزوا الحد في البخل أو بإنفاقه في المعاصي، فأما بذل بعضه في الخير ونفع الناس فليس من الإسراف ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ﴾ هنا وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء وكفى بذلك إثماً بجعل المسرف لا يحبه الله.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام وهي الإبل حمولة، أي يُحمل عليها الأمتعة ويُركب عليها. وفرشاً: وهي صغار الإبل والمعز والغنم، وفَرَشَ لغة: بَسَطَ، أي تبسط على الأرض لذبحها، وقيل الفَرْشُ: ما يتخذ مِنْهُ الوبر والصوف والشعر فراشاً يفترشه الناس على الأرض ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا من الثمار والزرع والأنعام التي أحلّها الله لكم ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تسلكوا طريق الشيطان في تحريم ما أحلّ الله لكم ﴿إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان ظاهر العداوة لكم حريص على إغوائكم. والشيطان يشمل شياطين الإنس والجن التي توسوس بمخالفة أوامر الله وتشجع على معصيته.

ثم بيّن القرآن بعض ما كان عليه المشركون من ضلالات فيما كانوا يحرمون أكله من الأنعام: ﴿ثَمانِيَةَ أزْواجٍ﴾ وثمانية منصوبة بفعل مضمر تقديره: (كلوا)، أي كلوا لحم ثمانية أزواج من الأنعام. ومعنى أزواج: أي أفراد وإنما سمي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، وكل فرد عند العرب إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل يسمى زوجاً، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج كما يطلق لفظ الزوج على مجموعهما وهما الذكر والأنثى وهذا ليس بمراد في الآية. والمراد بقوله تعالى ﴿ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ﴾ أربعة ذكور من كل من الإبل والبقر والغنم والمعز، وأربعة إناث كذلك منها، خلقها الله جميعها لتنتفعوا بها أكلاً وركوباً وحلباً لألبانها والانتفاع بوبرها وصوفها، ولم يحرّم الله شيئاً منها ولا من أولادها. ثم فصّل الله هذه الثمانية بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ والضأن: ذوات الصوف من الغنم، أي من الضأن زوجين اثنين كذلك ذكر وأنثى وهما الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ومن المعز زوجين اثنين ذكر وأنثى وهما التيس والعنزة فتلك أربعة من الثمانية ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ استفهام إنكار، أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين حرّموا أكل بعض أصنافهما: هل حرّم ربكم أكل الذكرين من لحم الضأن والماعز، أم حرّم أكل الأنثيين منهما، فإن كان قد حرّم الذكرين من الغنم والماعز فجميع الذكور حرام، وإن كان قد حرّم الأنثيين منهما فجميع الإناث حرام، ولكن المشركين حللوا أكل بعض الذكور والإناث تارة، وحرموا الأكل من بعضها تارة أخرى، ولم يجعلوا الإباحة والتحريم مطّرديْن، لأن من شأن أحكام الله أن تكون مطّردة في الأشياء المتحدة بالنوع والصفة ﴿أمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ أم حرّم الله ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضأن وأنثى الماعز[1]، فإذا كان التحريم بسبب ما

(١) هنا إنكار على قول المشركين: ﴿وَقَالوا مَا في بطُون هَذِهِ الأنعام خالِصَةٌ لذكُورنا ومحرَّم عَلَى أزواجنا﴾.

اشتملت عليه أرحام الأنثيين وجب تحريم ما يتوالد منهما من الذكور والإناث معاً لا أن يقتصر التحريم على أحد الصنفين لأن الكل يشتمل عليه الرَّحم ويولد منه ﴿نَبِّئُوني بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ وقل لهم يا محمد: أخبروني ـ أيها المشركون ـ عن عِلْمٍ منسوب إلى الله بأنه سبحانه حرَّم ذلك عليكم، وفي هذا تبكيت لهم وإلزام الحجة عليهم لأنه ليس عندهم عِلْمٌ ولا دليل على ذلك.

﴿ومن الإبِلِ اثْنَيْنِ﴾ أي وخَلَقَ الله لكم من الإبل اثنين ذكراً وأنثى وهما الجمل والناقة ﴿وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ وخلق لكم من البقر اثنين ذكراً وأنثى وهما الثور وأنثاه البقرة وهذه أربعة أزواج أُخر بقية الثمانية ﴿قل ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ قل لهم يا محمد أكان التحريم بسبب الذكورة في هذين الصنفين أي الإبل والبقر أم كان بسبب الأنوثة فيهما ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ كرّر الله هذه الجملة تكذيباً لهم وتهكماً بهم في نسبتهم تحريم ذلك إلى الله ﴿أَمْ كُنْتُم شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أم: للإنكار، والشهداء هم الحضور المشاهدون للشيء وهم جمع شهيد، والمعنى: أعندكم علم يُؤثر عن أحد من رُسل الله فنبئوني به، أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم، وهم لا يدّعون هذا ولا ذاك وإنما يفترون على الله الكذب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن يكذب على الله فيزعم تحريم ما لم يحرّمه الله ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ليصدّ الناس عن دين الله بجهله وسفهه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ إن الله لا يُرشِدُ إلى الخير من كذّب عليه، ونسب إليه ما لم يشرّعه لعباده، وهنا وعيد لكل من يُدْخِل على دين الله البدع، فيحرّم ويحلّل كما يحلو له.

وهكذا يظهر لنا مدى ما كانت الخرافات والأباطيل سائدة في جزيرة العرب قبل الإسلام، كما يظهر لنا مدى الإصلاح الذي حقّقه الإسلام في كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن
يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ
فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ
وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ
ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ
وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧ ﴾ .

شرح المفردات

طاعم يَطعمُهُ: آكل يأكله.

دماً مسفوحاً: دماً سائلاً مهراقاً.

رجس: نجس خبيث والمراد أنه حرام.

فِسقاً: خروجاً عما أحله الله.

أُهِلَّ لغير الله به: ذُكِرَ اسم غير الله عليه عند ذبحه.

غير باغ: غير طالب لها إلا للضرورة ولا متعدياً حدود الضرورة.

ولا عاد: ولا متجاوز ما يسد الرمق والضرورة.

كل ذي ظفر: وهو ما ليس مشقوق الأصابع من بهيمة أو طير ويدخل فيه الإبل والبط.

شحومها: جمع شحم وهو الدهن.

إلاَّ ما حملت ظهورهما: إلا ما وجد من الشحم فوق ظهورهما.

الحوايا: الأمعاء (المصارين). .

أو ما اختلط بعظم: وهو شحم الإلية المتصل بالعصعص في الضأن.

ببغيهم: بسبب ظلمهم.

بأسه: عذابه.

المحرّمات من المآكل

وبعد أن بيَّن القرآن فساد المشركين وضلالاتهم في التحليل والتحريم، وافترائهم على الله في ذلك، بيّن بعد ذلك ما حرّم الله عليهم بقوله:

﴿قُلْ لا أجِدُ في ما أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحلّلون ويحرّمون من عند أنفسهم: إني لا أجد فيما أوحاه الله إليّ شيئاً محرماً على آكل يأكله ﴿إلاّ أنْ يَكُونَ مَيْتَةً أوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾ إلاّ أن يكون الحيوان المباح أكله مات ميتة طبيعية أو بحادث بغير ذبح فلا يجوز أكله.

والدم المسفوح هو ما سال من الحيوان عند ذبحه فقد حرّم الإسلام تناوله، أما الدم غير المسفوح فهو معفو عنه كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح كذلك يُعفى عن الكبد والطحال فإنهما دمان غير سائلين، كما يُعْفَى عن الدم الذي يتلطخ به اللحم. والدم ضار بصحة الإنسان إذا استعمل غذاء، فالتحليل الطبي أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» Uric Acid وهو مادة تضرّ بالصحة إذا استعملت غذاء.

وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات بعض الأمراض المعدية، فإذا تناوله الإنسان سبّب له الضرر الكبير والخطر الأكيد. والغريب أن بعض الشعوب الأوروبية التي تدعي الرقيّ تجعل الدم من الأغذية التي تتناولها بعد مزجها بالطحين وطهيها وهي غافلة عن مضارّها في الجسم.

﴿أو لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإنَّهُ رِجْسٌ﴾ كما حرَّم الله أكل لحم الخنزير فإنه نجس خبيث وقذر، وكل نجس يحرم أكله. وقد حرم الله أكل الخنزير في الديانات السماوية ومنها اليهودية وكان المفروض أن يتبع النصارى اليهود في تحريمه لأنهم مكلّفون باتباع قوانين العهد القديم ولكنهم لأمر ما خالفوهم وأباحوا أكل لحم الخنزير، فالخنزير يعيش في جسمه عدد كبير من أنواع الطفيليات كما يصاب بأمراض شتى، وهذه

الطفيليات والأمراض تنتقل إلى جسم الإنسان إذا ما أكل من لحمه وتصيبه بأمراض خطيرة يمكن أن تُودي بحياته.

فمن أشد الأمراض التي تصيب الخنزير: كوليرا الخنزير أو حمّى الخنزير Hog Cholera وهو مرض معدٍ يصيب كافة الخنازير على اختلاف أعمارها وسلالاتها ومنها أيضاً: «الحمى المتموّجة Brucellosis» ومن الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير داء الترخينة Trichinella Spiralis وهي نوع من الديدان السلكية المدورة تنتقل إلى الإنسان عند تناوله لحم الخنزير، وداء الترخينة من أشدّ الأمراض تأثيراً على الإنسان. ومن الطفيليات أيضاً: الدودة السوطية التي تلتصق بجدار المصران الأعور، ومنها دودة الكلية التي تؤذي الكبد والكليتين وأعضاء أخرى(١).

ولحم الخنزير يحتوي على دهن أكثر من ضعفي دهن اللحوم العادية. وبذلك يجد آكلو لحم الخنزير أن كمية الدهن ترسب في أجسامهم. وقد وجد العلماء أيضاً أن (الكولسترول) هو فضلة من فضلات الدهن تسيل في الدم بنسبة خاصة، وهذا الكولسترول هو الذي يُحدث تصلباً في الشرايين وأمراض القلب.

﴿أو فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أو يكون المطعوم لحم حيوان ذُكِرَ عليه عند ذبحه اسم غير الله تعالى، فإنه يكون عند ذلك خروجاً عن العقيدة والشريعة. والإهلال رفع الصوت، فقد كان الوثنيون قبل الإسلام إذا ذبحوا ذبيحة رفعوا أصواتهم بقولهم: باسم اللات أو العزّى أو مناة وهي أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم هذه اللحوم أن فيها مشاركة للوثنيين ومشايعة لهم، فالإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الإشراك بالله لأن الذبائح لا تكون إلا باسم الله.

---

(١) ومن أراد الاستزادة في معرفة أضرار لحم الخنزير فليرجع إلى كتابنا (الخطايا في نظر الإسلام) وقد نقلنا ذلك عن دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٠ المجلد السابع عشر تحت مادة Pig.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ فمن أصابته الضرورة الداعية إلى أكل الميتة أو لحم الخنزير بأن أشرف على الموت من الجوع ولم يجد طعاماً يأكله سوى ذلك فيحل له الأكل بقدر ما يدفع عنه الهلاك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير طالب للمحرّم وهو يجد غيره، أو غير طالب له للذّته أو غير ظالم على مضطر مثله ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ ولا متجاوز قدر الضرورة وهو الذي يسدّ الرمق ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يؤاخذ ربك المضطر للأكل من ذلك لأنه سبحانه رحيم بعباده غفور لزلاّت المضطرين.

﴿وعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ هادوا: هم اليهود، فقد حرَّم الله عليهم أكل كل ذي ظفر وهو ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير مثل الإبل والنعام والإوز والبط، وقيل: كل ذي مخلب من الطير وذي حافر من الدواب: فهناك حيوانات نجد تشقق أصابعها ظاهراً والأصابع منفصلة ومنفرجة بعضها عن بعض فهذه ليست حراماً عليهم.

﴿وَمِنَ البَقَرِ والغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا﴾ والشحوم: جمع شحم وهو المادة الدهنية التي تكون مع اللحم في جسد الحيوان، فقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم وحرّم عليهم شحومهما كشحوم الكليتين ﴿إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا الشحوم العالقة بظهور البقر والغنم فأكلها ليس محرمًّا عليهم ﴿أَوِ الحَوَايَا﴾ وكذلك الشحوم التي تغطي الأمعاء فهي أيضاً ليست محرّمة عليهم ﴿أو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وكذلك الشحوم التي تكون متصلة بعظم، كشحم الإلية فإنها متصلة بالسلسلة الفقرية فهي أيضاً ليست محرّمة عليهم.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِم﴾ أي ذلك التحريم كان عقاباً لهم بسبب ظلمهم وتعدّيهم حدود الله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يخبرنا الله سبحانه بأنه صادق في كل ما بيّنه فيما أحلَّ وحرّم بالنسبة لليهود.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فإن كذّبك يا محمد اليهود والمشركون فيما بيّنته لهم من الحلال والحرام بشأن الأطعمة فقل إن ربكم الذي خلقكم وتعهّدكم بالتربية والإرشاد هو صاحب رحمة واسعة حيث لم يُعاجلكم بالعقوبة ﴿ولا يُرَدُّ بأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المجرمين﴾ أي لا تطمعوا بسعة رحمة الله فإنه مع سعة رحمته يعاقب المجرمين، ولا يقدر أحد دفع عقابه عنهم طالما أنهم مستمرون على اقتراف المنكرات.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

بأسنا: عذابنا.

تخرصون: تكذبون.

الحجّة البالغة: بإرسال الرسل وإنزال الكتب الإلهية عليهم.

هَلُمَّ شهداءكم: أحضروا شهداءكم.

وهم بربهم يعدلون: وهم يسوّون به غيره في العبادة.

المشركون واحتجاجهم بمشيئة الله

ثم ينتقل القرآن إلى بيان جانب فاسد خاطىء من أحوال المشركين فهم يخطئون ثم يحاولون إلقاء تبعة أخطائهم على غيرهم. والمشركون الذين استمعوا إلى صوت الحق صمّوا آذانهم عن القبول به وزعموا أن ضلالهم هو أثر من مشيئة الله وهم غير أحرار في ترك ما هم عليه من ضلال، وهذا ما حكاه القرآن عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِين أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ إنهم يقولون: لو شاء الله ألاّ نجعل له شركاء ما أشركنا به، وما أشرك آباؤنا من قبل، وحيث إنه لم يمنعنا من الشرك به ثبت أنه مريد له ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيء﴾ أي لو شاء الله ألا نحرّم شيئاً مما حرّمناه على أنفسنا لما حدث منا هذا.

ومحصّل هذه الشبهة عندهم أن الله شاء هذا الشرك منهم، وشاء أن يحرّموا ما شاءوا من الأنعام، بل شاء أيضاً أن يعصوا الله ويقترفوا ما شاءوا من المنكرات.

هذا هو مذهب الجبرية الذين يزعمون بأنهم مجبورون على أفعالهم من قِبَلِ الله وأنهم ليس لهم حرية ولا اختيار فيما يفعلون. ونَردُّ عليهم: بأن الإنسان لو كان مجبراً على ما يفعل لانتفى الثواب والعقاب من الله يوم القيامة، وما كان من داعٍ لإرسال الله للرسل مبشرين ومنذرين.

وقد ذَكَرَ القرآن في موضع آخر من هذه السورة مزاعم الذين يدّعون أن أعمالهم السيئة هي بأمر الله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فالله سبحانه أودع في الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر، وجعله مختاراً فيما يفعله، قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا وإن حقيقة الدِّين وما فيه من التكاليف والأوامر والنواهي لا تتحقق مع استبعاد إرادة الإنسان واختياره، وإضلال الله لشخص: معناه أن هذا الشخص آثر الغيّ على الرشاد فأقرّه الله على مراده كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وادّعاء المشركين بأن إشراكهم بالله هو أثر من مشيئة الله نقضه القرآن في تتمة الآية التي نحن بصددها ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي كما كذّب هؤلاء المشركون في زعمهم بأن الله شاء لهم الشرك، كذلك كذّب الذين من قبلهم رسلهم واستمروا على ذلك ﴿حَتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي حتى نزل بهم عذاب الله، وهذا يدل على الوعيد لمن يذهب إلى هذا المذهب في اعتقاده هذا، ثم تابع الله قوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار: هل عندكم من حجة فيها من العلم واليقين تؤيد مزاعمكم بأنكم على حق فتقدموها لنا ﴿إن تَتَّبعونَ إلاّ الظَّنَّ﴾ أي إنَّ سلوككم قائم على الظنِّ، والظَّنُّ لا يُغنِي مِنَ الحقّ شيئاً ﴿وَإنْ أَنْتُم إلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ وما أنتم إلاّ تكذبون وتقدّرون تقديراً خاطئاً في ما ذهبتم إليه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ قل لهم يا محمد: الله وحده له الحجة البيّنة الواضحة التي بلغت نهاية القوة وقد لزمتكم بإرسال الرسل إليكم وإنزال الكتب عليكم من الله تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُم أجمعينَ﴾ أي لو شاء الله هداية الناس جميعاً لهداهم، على معنى أنه يخلقهم خلقاً آخر على طبيعة أخرى مثل طبيعة الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤْمرون، ولكن الإنسان إذ ذاك لا يكون هذا المخلوق الذي أراد الله أن يكون صاحب اختيار في أفعاله وأن تكون سعادته أو شقاؤه بإرادته.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الّذِينَ يَشْهَدُونَ أنّ اللَّهَ حرّمَ هَذَا﴾ هلمّ: هي في اللغة اسم

فعل أمر بمعنى أقْبِلْ، أي أحضروا شهداءكم الذين يخبرون عن علم أن الله حرّم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه. فالمطلوب منهم إحضار جماعة من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأمم الأحكام الدينية بالأدلة الصحيحة، أي أحضروهم لنا ليدلوا بما عندهم من الحجة بأن الله حَرَّم عليكم ما تزعمون تحريمه ﴿**فَإِن شَهِدُوا فلا تَشْهَد مَعَهُم**﴾ فإن فُرِضَ بأن أحضروا شهداء يشهدون أن الله حرّم عليهم ما يزعمون من المحرّمات فلا تصدقهم ولا تسلّم لهم ما شهدوا به بعد ما عرفت من افتراءاتهم على الله ﴿**ولاَ تَـتَّـبِـعْ أَهْـوَاءَ الَّـذِينَ كَـذَّبُوا بِـآيَـاتِـنَـا**﴾ أي ولا تتّبع يا محمد أهواء هؤلاء الناس الذين كذّبوا بآيات القرآن التي أنزلها الله عليك ﴿**والَّـذِيـنَ لا يُـؤْمِـنُـونَ بـالآخِـرَةِ**﴾ وهم مع تكذيبهم بآيات الله ينكرون الآخرة والبعث والجزاء على الأعمال ﴿**وَهُم بِـرَبِّـهِم يَـعْـدِلُـونَ**﴾ وهم إضافة إلى ذلك يساوون الأصنام بالله ويتخذونها شركاء لله، ويعبدونها من دونه.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ

ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا
صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ».

شرح المفردات

تعالوا: أقبِلوا واحضروا.

أَتل: أَقرأ.

من إملاق: من فقر.

الفواحش: ما عظم قبحه من المعاصي كالزنى.

ما ظهر منها وما بطن: علانيتها وسرّها.

وصّاكم به: أمركم وألزمكم به.

حتى يبلغ أشده: أي يبلغ قوّته البدنية والعقلية ويحسن التصرف بما له.

بالقسط: بالعدل.

وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُربى: وإذا قلتم قولاً في حكم أو شهادة فقولوا الحق ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم.

لعلّكم تذكّرون: لكي تتعظوا.

هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه: هذا منهاجي الذي لا عوج فيه فاسلكوه.

الوصايا العشر في القرآن

وبعد أن بيّن القرآن حجّة الله البالغة على المشركين الذين حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله وادّعوا بأن الله أراد لهم الشرك والتحريم، بيّن الله بعد ذلك في الآيات التالية الثلاث، الأمور والأشياء التي حرّمها عليهم مع بيان الفضائل التي أمرهم باتّباعها.

وقد اشتهرت هذه الآيات الثلاث بأنها تحوي الوصايا العشر في القرآن، وقد قال ابن عباس عنها: هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله تعالى في سورة الأنعام أجمعت عليها شرائع الخَلْق ولم تُنسخ قط في ملّة، وقد قيل:

إنها العشر كلمات المنزلة على موسى عليه السلام[١]. قال الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُمْ﴾ يأمر الله رسوله محمداً بأن يقول لقومه: تعالَوْا إلَيَّ، وأقبِلوا عليَّ لأِقْرَأ لكم ما حرّم ربكم عليكم فيما أوحاه إليَّ. وكلمة (تعال) في أصل معناها يقولها من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه بأن يعلو ويصعد إليه «كما تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعهم من انحطاط هم فيه، إلى علوٍّ يُراد لهم ويُدْعَوْنَ إليه، وتدل في الوقت نفسه على طلب المتكلم إقبالهم عليه، وانضمامهم تحت لوائه، فتتّحد وجهتهم ولا تذهب بهم الأهواء والسبل في مناحي الغيّ والفساد»[٢].

<u>الوصية الأولى:</u> ترك الشرك بالله

قال الله تعالى: ﴿أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ أي لا تجعلوا أحداً أو شيئاً من الأشياء شريكاً لله في العبادة له ما لله من حق التحليل والتحريم واللجوء إليه بالدعاء والاستعانة به، سواء أكان ذلك الشيء مظهراً من المظاهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم، أو كان عظيم القدر من الأنبياء والصالحين والملائكة، أو كان من الأصنام التي يتوجّه إليها الكفّار بالعبادة زاعمين أنها تشفع لهم وتقربهم إلى الله.

كما أن من الشرك بالله انقياد الإنسان لأهواء نفسه، فلا يهوى شيئاً إلا اتّبعه مُعرضاً عن هدى الله، وهذا ما ذكره القرآن: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير القرآن للشيخ محمود شلتوت.

والشرك بالله هو وليد الجهل والوهم فهو بجانب مناقضته للعقل والمنطق فإنه يجعل الإنسان تحت تأثير الخرافات والأساطير التي تهدم كيانه وتجعله في حيرة لا يَجِد السبيل إلى الخلاص منها بجانب ما يقوم به من شعائر وتكاليف ترهقه ولا يجني منها نفعاً. وقد وصف القرآن حال المشركين وما هم عليه من اضطراب بهذه الصورة البليغة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

الوصية الثانية: البرّ بالوالدين

قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي أحسنوا إليهما إحساناً كاملاً لا إساءة معه، ولم تُذكر هذه الوصية بأسلوب النهي عن الإساءة إليهما سموًّا بالإنسان عن أن تُظَنَّ به الإساءة إلى الوالدين، وكأن الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع حتى يحتاج إلى النهي عنها.

وقد شدّد الإسلام على الإحسان إلى الوالدَيْن بما لا مزيد عليه، ويكفي دليلاً على أهمية ذَلِكَ أن الوصية بالبرّ بالوالدين كانت دائماً مقرونة بعبادة الله وشكره. جاء في القرآن ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وجاء في القرآن أيضاً ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فكما أن الإنسان عليه واجب الشكر لخالقه لما أنعم عليه مِنَ النِّعَم التي لا تُحصى كذلك على الإنسان واجب الشكر لوالديه لما لهما من الفضل العظيم عليه في تنشئته وتربيته والإنفاق عليه وحفظه من المهالك ورعايته من صغره حتى يبلغ أشده.

الوصية الثالثة: عدم قتل الأولاد

قال تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا أولادكُم مِنْ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الإملاق: الفقر وقد كان بعض العرب في الجاهلية يدفنون أبناءهم وهم أحياء خشية الفقر، كما كانوا يئدون بناتهم خشية العار فبيّن القرآن فساد ذلك بقوله ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُم﴾ فإذا كان الله قد كفل رزق الوالد فهو أيضاً كفل رزق أولاده.

ولا يوجد إنسان ذو فطرة سليمة يرضى بقتل ولده، لأنه إن فعل ذلك كان أحط درجة من الوحوش الكاسرة، ودل ذلك على انعدام الرحمة في قلبه.

الوصية الرابعة: الابتعاد عن الفواحش

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ﴾ والفواحش: جمع فحشاء أو فاحشة، والفاحشة هي كل ما اشْتَدَّ قُبحه من الذنوب والمعاصي وكثيراً ما تَرِدُ الفاحشة في القرآن بمعنى الزنا. والفواحش هي كل ما حرّمه الله مما كان ضارًّا بالأفراد والجماعات في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

فالله سبحانه ينهى عن الاقتراب من المحرَّمات كلها فضلاً عن الوقوع فيها سواء أكانت في السرّ أو في العلانية. وتأمَّل سرّ قوله تعالى: ﴿ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ﴾ فهو مبالغة في الزجر عنها والاحتياط من الوقوع فيها لأن القرب منها يؤدي إلى مباشرتها. فالذي يرتاد أماكن اللهو والعربدة (الكباريهات) لا يأمن من أن يقع في المحظور بتأثير ما يشاهده من الإثارة، والذي يجالس شاربي الخمر يؤدي به الحال إلى مسايرتهم وشرب الخمر معهم، والذي يختلي بالمرأة الأجنبية يمكن أن يؤدي به ذلك إلى ما لا تُحمد عقباه.

الوصية الخامسة: النهي عن قتل النفس

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ حرّم الله قتل النفس الإنسانية مطلقاً لا فرق بين مسلم وذميّ ومعاهد لأن لهؤلاء مع المسلمين عهداً يجب الوفاء به. وأهل الذمّة هم المواطنون من اليهود والنصارى لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين متى كان لهم عقد الذمة. وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «من قتل مُعاهِداً لم يَرَحْ رائحة الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»(١) وروي عن النبي ﷺ قوله: «من قتل نفساً معاهدة بغير حلّها حرّم الله عليه الجنة»(٢).

وحُرمة قتل النفس البشرية قديمة في الشرائع السماوية، وإنها شَرْعٌ عامّ لم تُخصَّ به أمة دون أمة ولا جيل دون جيل، فالقتل عن عَمد هو من كبائر الذّنوب وأعظم الجرائم عند الله، فقد جاء في القرآن عما كتبه الله على بني إسرائيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وبيّن القرآن إثم القتل عن عَمد عند الله ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

هذا وقد دعا القرآن إلى قتل القاتل الذي يقتل عن عمد، وقتل من يعتدي على المسلمين ويغزو ديارهم.

كما وردت في السُّنّة النبوية الأسباب التي تستوجب عقوبة القتل وهي قول النبي ﷺ: «لا يحلّ دم امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس،

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) أخرجه النسائي وأبو داود.

والتاركُ لِدِينه المفارقُ للجماعة»(١)، فالذي يزني بعد أن سبق له الزواج يُـقْـتَـلُ شرعاً، والقاتل لغيره عمداً يُـقتل، والتارك لدينه، أي الذي ارتدّ بعد أن دخل في الإسلام يُقتل، لأنه خيانة لمعتقده، وهذا يشبه ما تفعله الأمم المتحضرة التي تنصّ على القتل جزاء الخيانة الوطنية ﴿ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الذي تقدّم ذكره من الوصايا الخمس أمركم الله بها لعلّكم تستعملون عقولكم فتدركوا المصالح والمنافع التي من أجلها طلبها الله منكم فهي التي تحفظ النفس الإنسانية من الهلاك ومن كل الأضرار الفادحة التي يمكن أن تصيبها.

الوصية السادسة: حفظ مال اليتيم

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هي أَحْسَنُ﴾ نهى الله عن سوء التصرف بمال اليتيم، وقد جاء النص القرآني بعبارة بليغة الدلالة على ذلك فنهى عن الاقتراب من مال اليتيم فضلاً عن أكله إلا في الحالات التي تكون أحسن لليتيم بِما فيه المصلحة له ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يدرك سن البلوغ ويتحقق رُشده وهو أن يُحسن التصرّف بما له سالكاً مسلك العقلاء لا مسلك أهل السفه والتبذير، وقد اختلف العلماء في السن التي يبلغ فيها اليتيم رُشده فقال أبو حنيفة: هي خمس وعشرون سنة، وقيل هي أن يبلغ ثماني عشرة سنة، وقيل: هي أن يبلغ خمس عشرة سنة إلى ثلاثين.

هذا والمطلوب من أولياء اليتامى أن يثمّروا أموالهم وأن يطعموهم من ثمراتها لا من أصلها، ولهم نظير ذلك أن يأخذوا أجرهم على ما بذلوا من جهد بالمعروف دون زيادة وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ٦].

(١) أخرجه الشيخان.

وأكل مال اليتيم بغير حقٍّ هو من كبائر الإثم، جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] كما أوصى رسول الله ﷺ باليتيم فقال: «خير بَـيْتٍ في المسْلِمين بَـيْتٌ فيه يتيمٌ يُحْسَنُ إلَيهِ، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بَيتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إليه»(١).

الوصية السابعة: الوفاء بالكيل والميزان

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر الله سبحانه بإيفاء الكيل والوزن بالعدل بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس، هذا وإن الدقة في الكيل والميزان التي تحقق العدل المطلق قد لا تدخل تحت كسب الإنسان وقدرته لذا رَفَعَ الله الحرج في ذلك بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ فإيفاء الكيل والميزان مطلوبان بقدر الاستطاعة، فلا يُكلِّف الله البائع أن يعطي الشاري أكثر من الحق الذي له، ولم يكلفه الزيادة لأن الزيادة تضيق نفسه بها، ولم يُلْزِمِ الشاري الرّضا بأقل من حقه لما في النقصان من ضيق نفسه بها، بل أمر كلاًّ من البائع والمشتري بإيفاء الحق لصاحبه بدون زيادة أو نقصان وللبائع أن يزيد ما يشاء.

الوصية الثامنة: العدل في القول

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي وإذا صدر منكم قول في قضاء أو شهادة أو مشورة أو إرشاد فالتزموا العدل في أقوالكم دون محاباة أو خوف من أحد ولو كان المحكوم له أو عليه أقرب الناس إليكم فيجب أن يكون الإنصاف رائدنا فيما ننطق به دُون مُحاباةٍ لأَحدٍ، أما أن نَـذُمَّ مَنْ نَـكْـرَه، ونمدح مَنْ نُـحِب بدون حق، ونرائي من نخاف فهذا لا يجوز، ولكل منا أقرباء وأصدقاء فليس من العدل أن نميل إليهم على حساب الحق.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

وقد حدّد الله حدود العدل بهذه الآية التالية البليغة التي ترتقي إلى أسمى مراتب السموّ والعدالة المطلقة بحيث لا نرى لها مثيلاً في كل الشرائع، قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ[١] شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] كما أمر الله بمراعاة قواعد العدل حتى مع الأعداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ[٢] عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

الوصية التاسعة: الوفاء بعهد الله

قال الله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّه أَوْفُوا﴾ أي التزموا الوفاء بأوامر الله ونواهيه، فكل ما وصّى الله به شَرَعَهُ للناس من الأحكام فهو من العهد مع الله يجب الوفاء به، وما يلتزمه الإنسان مما يعاهد به ربه عليه من النذور والصدقات والعمل الصالح يجب الوفاء به.

والوفاء بعهد الله هو الذي أخذه الله سبحانه على الخلائق جميعاً أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

ومن العهود التي لها صلة بعهد الله ما يتفق عليه الناس في معاملاتهم المختلفة وما يلتزمون به من عقود ومعاهدات ومواثيق فهذه يجب الوفاء بها، لأن نقضها من الآثام التي نهى الله عنها. ثم عقّب الله على هذه الوصايا الأخيرة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ

---

(١) كونوا قوّامين بالقسط: كونوا مبالغين في القيام بالعدل.

(٢) ولا يجرمنّكم شنآن قوم: ولا يحملنّكم بغضكم لقوم.

﴿بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما ذُكِرَ من الوصايا المتقدمة أمركم الله بها لعلّكم تتعظون بما تحتويه من الفوائد في الدنيا والسعادة في الآخرة فاعملوا بها واحرصوا على أدائها.

الوصية العاشرة: اتباع صراط الله

قال الله تعالى: **﴿وأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ﴾** أي وما تقدم من هذه الوصايا هو طريق الله المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الإسلام فاتبعوا ما أمر به واجتنبوا ما نهى عنه **﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِهِ﴾** أي ولا تتبعوا الطرق المختلفة التي تغاير هذا الطريق من الملل المختلفة وسائر أهل البدع والأهواء الذين أضافوا إلى دين الله ما لم يأذن به فتفرّقكم وتبعدكم عن دينه الحق والوقوع في الضلالات. هذا وقد ذكرت الآية سبيل الله بصيغة المفرد **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾** وذكرت السبل الأخرى بصيغة الجمع **﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾** لأن سبيل الله هو الحق، والحق واحد لا يتعدد، أما الباطل فمتعدد وطرقه ملتوية مختلفة **﴿ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** أي ذلكم ما وصاكم به ربكم من اتباع طريقه المستقيم والابتعاد عن سبل الضلالات، أمركم بذلك ليعدّكم ويهيئكم إلى اتقاء كل ما يشقيكم في دنياكم وآخرتكم.

رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: «خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن شماله ثم قال هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إليه، ثم قرأ هذه الآية: **﴿وَأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه..﴾** الآية[١].

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ
أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ
ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾
أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ
أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا
مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ
إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

شرح المفردات

تماماً على الذي أحسن: إتماماً للنعمة على كل من أحسن القيام بالتوراة.

دراستهم: قراءة كتبهم.

وصدف عنها: أعرض عنها، أو صرف الناس عنها.

ينظرون: ينتظرون.

كانوا شِيَعاً: فِرَقاً وأحزاباً في الضلالة.

ينبّئهم: يخبرهم.

إنزال الله لكتبه هداية للناس

وبعد أن ذكر القرآن الوصايا العشر التي أوصى الله بها عباده أخبر عن الغاية من إنزال التوراة على موسى مبيّناً بعد ذلك مكانة القرآن وما يحتويه من هداية ورحمة للخلق، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الله أعطى موسى التوراة قبل نزول القرآن ﴿تَماماً عَلَى الَّذي أَحْسَنَ﴾ لإتمام النعمة والكرامة على كل من أحسن في اتباعها والاهتداء بها، أو إتماماً للنعمة على موسى الذي أحسن في تبليغ التوراة والقيام بأوامر الله واجتناب نواهيه ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شيءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ وفي التوراة تفصيل لكل ما يحتاج إليه قوم موسى من أحكام الدين وإرشاد إلى طرق الخير، وهدى من الضلالة، ورحمة من الله لمن اتبعها ﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ﴾ لعلّ بني إسرائيل يؤمنون بالبعث ويُصَدِّقون بالثواب والعقاب فيرتدعون عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن، أي وكما أن التوراة التي أنزلها الله على موسى فيها هداية ورحمة كذلك هذا القرآن هو كتاب كثير الخير والنفع فاعملوا بما فيه من الأحكام ﴿وَاتَّقُوا لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ واحذروا مخالفة ما جاء فيه من الأوامر والنواهي رجاء أن يرحمكم الله فتنجوا من عذابه وأليم عقابه.

﴿أن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ـ لئلاّ تقولوا يا معشر المشركين معتذرين يوم القيامة: إنما أُنزل ذلك الكتاب ـ أي التوراة والإنجيل ـ على طائفتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِم لَغَافِلِينَ﴾ وإننا كنا عن مطالعة التوراة والإنجيل لغافلين عما جاء فيهما لأنهما ليسا بلغتنا، والمراد إثبات الحجة عليهم وقطع أعذارهم حيث نزل القرآن عربيًّا بلغتهم.

﴿أو تَقُولوا لَوْ أنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُم﴾ أو لئلا تقولوا ـ أيها المشركون ـ لو أن الله أَنزل علينا كتاباً كما أُنزل على اليهود والنصارى لكنا أشد استقامة على طريق الحق وأكثر اتباعاً للكتاب منهم وأحسن عملاً بما فيه ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُم وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فقد جاءكم هذا القرآن وفيه بيان وحجة واضحة من ربكم وإرشاد إلى طريق الحق ورحمة لمن عمل به واتبعه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ(١) عنها﴾ أي لا أحد أشدُّ ظلماً وعدواناً ممن كذَّب بآيات القرآن وأعرض عن هديها أو صرف الناس عن اتباعها فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزي الَّذِين يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ﴾ أي سيجازي الله بأشد العذاب الذين يعرضون عن آيات القرآن ولا يتدبّرونها ولا يتعرفون على حقيقة ما جاءت به من أدلة على وحدانية الله وعلى صدق ما جاءهم به محمد ﷺ من عند ربهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي يفعل الله ذلك بهم جزاء إعراضهم عن آيات الله ومنع غيرهم من اتباع أحكامها وهديها.

﴿هَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكةُ﴾ ينظرون: بمعنى ينتظرون، أي هل ينتظر هؤلاء المشركون أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم أو تأتيهم بالعذاب ﴿أو يَأَتِيَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بإهلاكهم ﴿أو يَأْتيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي يأتي بعض العلامات على قرب الساعة، والساعة هي القيامة. وقد قال جمهور المفسرين: هي طلوع الشمس من مغربها(٢) ﴿يَوْم يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً

---

(١) صدف: أعرض هُو، ويطلق بمعنى صرف غيره كما في القاموس.

(٢) جاء في الصحيح عن رسول الله أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ثم قرأ الآية: ﴿يَوْم يأتي بَعض آيات ربِّك لا ينفَعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنت مِنْ قَبْلُ أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أخرجه البخاري ومسلم.

إيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي يوم يأتي بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطراري كطلوع الشمس من مغربها فلا يُقبل الإيمان حينئذ من نفس كافرة إذا لم تكن آمنت قبل ظهورها ﴿**أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِهَا خَيْراً**﴾ ولا ينفع العمل الصالح نفساً مؤمنة تعمله عند ظهور هذه العلامة، لأن وقت التكليف الاختياري قد فات، إذ لا ينفع الإيمان إلا مع العمل الصالح قبل ظهور علامات يوم القيامة ﴿**قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين انتظروا ما تتوقعون إتيانه ووقوعه بنا من الخسران والهزيمة إنا منتظرون ما وعدَنا ربنا من النصر وما أوعدكم ربكم من الهزيمة، وفي هذا النص القرآني تهديد ووعيد للمشركين بسوء المصير.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً**﴾ أي إن الذين فرّقوا الدين الحق بالعقائد الزائفة والتشريعات الباطلة وصاروا بذلك أحزاباً وفِرَقاً تتبع كل فرقة إماماً لها ويتعصب أفرادها لها. هذه الآية قيل إنها نزلت في اليهود والنصارى إذ فرّقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى فجعلوه أدياناً مختلفة ومذاهب شتى، وقيل: إن الآية تنطبق على أهل البِدَع والفرق الإسلامية التي مزّقت وحدة الإسلام بما استحدثوا من النِّحَل والمذاهب، والآية تشمل الفئتين من المسلمين وأهل الكتاب. هؤلاء الذين فرقوا دينهم ﴿**لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ومن مذاهبهم الباطلة ومن فِرَقِهم الضالّة. وفي هذه الآية تحذير شديد وإنذار لكل من يسعى إلى التفرقة بين المسلمين والعمل على هدم وحدتهم وإثارة البغضاء فيما بينهم ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ هؤلاء يتولّى الله أمرهم ويتكفّل عقابهم ثم يخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلونه في الدنيا. والجدير بالذكر أن الإخبار هنا ليس مجرد إخبار وإنما هو ينطوي على تهديد لهم ووعيد بالعذاب جزاء ما كانوا يفعلون من السعي لهدم وحدة المسلمين.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا
مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا
قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى
وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

شرح المفردات

قِيَماً: مستقيماً.

ملّة إبراهيم: دين إبراهيم.

حنيفاً: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق.

نسكي: عبادتي.

أبغي: أطلب.

ولا تزر: ولا تحمل، ومنه اشتقت كلمة وزير لأنه يحمل أعباء الحكم.

وازرة: نفس آثمة.

خلائف: خلفاء يخلف بعضكم بعضاً.

ليبلوكم: ليختبركم ويمتحنكم.

دين الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام

ثم يختم الله هذه السورة بآيات جامعة تحضّ على فعل الحسنات مع بيان ما ينبغي أن تكون عليه صلة الإنسان بربه. قال الله تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي إذا عمل المؤمن حسنة من الحسنات قاصداً بها وجه الله سبحانه فجزاؤه عليها عند ربه عشر أمثالها ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فلا يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا﴾ ومن عمل عملاً سيئاً فجزاؤه مماثل لما عمل. وقد تفضل الله سبحانه على عباده في مضاعفة جزاء الحسنات ترغيباً لهم في فعلها، واقتصر الجزاء على السيئة بواحدة فقط مثلها(١)، لأن كفّ النفس عن المآثم وما فيها من إغراءات وشهوات عسير عند أكثر الناس ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب المطيع لله ولا يزاد على عقاب العاصي فإن الله لا يظلم أحداً.

﴿قُلْ إنّني هَدَانِي رَبِّي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنني أرشدني ربي إلى طريق مستقيم وهو دين الإسلام الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه وهو دين إبراهيم عليه السلام المائل عن الضلالة إلى الاستقامة القائم على توحيد الله وعبادته وحده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يتخذ إبراهيم شريكاً لله بل كان موحداً له مخلصاً لم يعبد سواه. وفي هذا النص ردٌّ على المشركين العرب حيث كانوا يزعمون أنهم على ملّة إبراهيم وفي الوقت نفسه يعبدون الأصنام، وردٌّ على اليهود والنصارى

(١) يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك: فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» أخرجه البخاري ومسلم.

الذين أدخلوا على دينهم ما لم يأذن به الله وزعموا أنهم على ملة إبراهيم، فلهؤلاء جميعاً يقول الله تعالى إن الذي اتبع دين إبراهيم هو محمد ﷺ.

وإن ما جاء به الأنبياء جميعاً وفي طليعتهم إبراهيم عليه السلام هو عقيدة وحدانية الله وأصول الآداب، وقواعد العدل، أما صُوَر العبادات والشرائع فهي تختلف تبعاً لاختلاف الأمم والعصور، وقد جاء في القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: إن صلاتي وعبادتي هي خالصة لله لا شريك له فيها، بل إن حياتي ومماتي هي أيضاً لله. ومن يتقرب إلى ربه بهذا الإخلاص والتجرد له في سائر أحواله لا يجزع من الموت، ولا يحزن من مصائب الحياة، ولا يبالي بفقد المال والأهل والولد لأنه وهب حياته ومماته لله **﴿لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المسْلِمِينَ﴾** أي لا شريك لله تعالى في ربوبيته، وبذلك التوحيد أمرني ربي، وأنا أول المسلمين في علوّ الدرجة والرتبة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي ربًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ﴾ الاستفهام هنا للإنكار ـ أي قل يا محمد لقومك: أغير الله تريدونني أن أطلب رباً فأشركه في عبادة الله، والحال أن الله سبحانه هو رب كل شيء ومالكه وهو خالق كل شيء **﴿ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا﴾** أي لا تصيب أي نفس ذنباً إلا وقع جزاؤه عليها وحدها **﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾** تزر[1] : تحمل. والوازرة: النفس التي تعمل الذنب. والوزر: الذنب،

(١) تزر: يقال: وَزَرَ يَزِرُ إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المُثْقِلة ومن الذنوب.

والمعنى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نَفْسٍ أخرى، أي لا تؤخذ نفسٌ بذنب غيرها فكل إنسان مَجْزِيٌّ بعمله ولا يؤاخذ بذنب غيره، هذا الشطر من الآية ردٌّ على من يعتقد أن الناس جميعاً عصاة تسلسلت إليهم الخطيئة من أبيهم آدم، فخطيئة آدم في نظر الإسلام لم تنتقل إلى ذريته بل كانت محصورة به وحده، وقد تلقى آدم من ربه كلمات ليدعو بها ربه فدعا وكانت سبباً في قبول توبته كما جاء في القرآن ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي أن المرجع والمصير في الدار الآخرة إلى الله وحده فيخبركم ـ أيها الناس ـ بما اختلفتم به في الدنيا من العقائد ويجازيكم على أعمالكم.

﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُم خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ خلائف: جمع خليفة، أي هو الله سبحانه أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية وجعلكم تخلفونهم في الأرض وتعمرونها من بعدهم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وميز بعضكم عن بعض في العلم والرزق والعقل والقوة والضعف ﴿لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُمْ﴾ ليختبركم فيما أعطاكم من النعم فيختبر الغنيّ ويسأله عن شكره له سبحانه، وعن كيفية إنفاق ماله، ويختبر الفقير في فقره وعن مدى صبره عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ﴾ أي لمن عصاه وخالف أمره ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أطاعه وسار على هديه وأخلص له في عبادته.

وكما كانت بداية السورة وسياقها تشتملان على الوعيد للذين لا يتبعون الحق، اختتمت السورة بالتذكير بعقاب الله السريع للعصاة لتكون الفكرة في نهاية السورة موصولة ببدايتها، مع التذكير بمغفرة الله ورحمته لمن تاب وأطاعه.

من المراجع

جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للزمخشري

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

تفسير البيضاوي مع حاشية الشيخ زاده

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي

فتح القدير للشوكاني

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير اللباب في علوم الكتاب للحنبلي

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

روح المعاني للألوسي

التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

تفسير الشعراوي

المنتخب في تفسير القرآن ـ **المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة**

تفسير سورة الأنعام للشيخ محمد الغزالي مجلة (لواء الإسلام).

الفهرس

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة القاضي المستشار **الشيخ حسين غزال**

وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير

وإلى الأساتذة :

د. هدى سنو

شفيق اللبان

د. محمد مرعشلي

على ما قدموا لي من معونة وبذلوا من جهد في تصحيح هذا التفسير .

وأقدم شكري إلى **جامعة بيروت العربية** لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع وخدمات جلّى على يد المشرفين عليها .

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة كتابه الكريم

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر: الحجر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام

تنضيد وإخراج
المجموعة الطباعية
تلفون: ٨٢٤٢٠٣ ـ ٨٢٣٧٢٠/ ٠١
٨٢٥٨١٦/ ٠٣
بيروت ـ لبنان

روح القرآن

تفسير سورة الأعراف

مع

بعض المبشرات بنبي الإسلام

في

التوراة والإنجيل

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

دراسات إسلامية
ISBN 9953-9-0507-X
9 789953 905075 5

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

قَالَ رسُولُ اللَّهِ مُحمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه

روح القرآن

تفسير سورة

الأعراف

مع

بعض المبشرات بنبي الإسلام

في

التوراة والإنجيل

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة الأولى

تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢

تعريف بهذه السورة

سورة الأعراف مكية أي أنها نزلت بمكة، وقيل نزل بعضها بالمدينة المنورة وهي ثماني آيات تبتدىء بقوله تعالى: ﴿**واسألهم عن القرية...**﴾ وتنتهي بقوله تعالى: ﴿**وإذ نتقنا الجبل..**﴾.

وهذه السورة من السبع الطوال التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي سُور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، براءة.

ولهذه السورة جملة أغراض منها:

- تقرير توحيد الله في العبادة والنهي عن اتخاذ شركاء له، وتقرير البعث والجزاء يوم القيامة، وتقرير الوحي والرسالة الإلهية إلى من يصطفيهم الله من خلقه ويجعلهم رسله إليهم، وتقرير نبوّة محمد ﷺ والتأكيد على أنه رسول من عند الله.

- إنذار المشركين العرب وغيرهم من سوء عاقبة الشرك وَذِكْرُ ما حل بالمشركين قبلهم من هلاك في الدنيا وما سيلقون من عذاب في الآخرة.

- ذِكْرُ قصة خلق آدم وحواء وخروجهما من الجنة بسبب ميلهما إلى وسوسة الشيطان وبيان أن عداوة الشيطان لبني آدم مستمرة إلى يوم القيامة.

- ذِكْرُ قصص بعض الأنبياء مع أممهم وما انتهت إليه أحوالهم بسبب كفرهم كما أفاضت هذه السورة في ذِكْرِ قصة موسى عليه السلام مع فرعون وفي سلوك بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام.

ـ تذكير الناس بنعمة خلق الأرض التي يعيشون عليها وتمكينهم من الحصول على خيراتها.

ـ النهي عن الفساد في الأرض التي جعلها صالحة لخير الإنسان وفائدته.

ـ بيان أن نبوّة محمد ﷺ منصوص عليها في التوراة والإنجيل، وأن النبي ﷺ أتى ليدعو اليهود والنصارى إلى الإسلام، وعمل كل خير وترك كل شرّ، وليحلّ لهم الطيبات التي حُـرِّمت عليهم ويحرّم عليهم الخبائث، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد من التشريعات التي كانت عليهم.

ـ بيان العهد الذي أخذه الله على بني آدم بأن يذعنوا له ويسلّموا بالربوبية له وحده دون سواه وأنهم أقروا واعترفوا بذلك.

ـ إعلام من الله بأنه سيبعث على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

ـ دعوة الناس إلى النظر في السماوات والأرض وما فيهما من إبداع وحكمة تدل على وجود خالق لهما متصف بالعلم والقدرة والحكمة وأن خالقهما هو الله الواحد الذي لا شريك له.

ـ الأمر بالاستماع والإنصات عند تلاوة القرآن للاستفادة مما اشتمل عليه من الفوائد الجمة التي تنفعهم في دنياهم وآخرتهم.

هذا بعض ما في هذه السورة من مواضيع اقتصرنا على ذكرها خوفاً من التطويل.

سُورَةُ الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ
وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ
أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ
قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ .

شرح المفردات

حرج: ضيق.

لتنذر به: لتخوف وتحذر من عصيان الله.

ذِكرى: تذكّر واتعاظ.

من دونه: من سواه.

أولياء: قادة يتولون أمركم.

وكم من قرية: كثيراً من القرى (كم: هي هنا خبرية بمعنى كثير).

تذكّرون: تتعظون (أصلها تتذكرون حُذفت التاء تخفيفاً).

بأسنا: عذاب الله.

بياتاً: في الليل.

قائلون: من القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار.

دعواهم: دعاؤهم وتضرعهم.

دعوة إلى اتباع هدى الله والتحذير من الظلم

يستهل الله تعالى هذه السورة ببيان الغاية من نزول القرآن فيقول:

﴿الـمـص﴾[(١)]. ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن أُنزل إليك يا محمد من ربك، ولم يصرّح القرآن باسم الذي أنزله لأنه مستغنٍ عن التعريف لأن الذي ينزل الكتب المنزلة على الأنبياء هو الله سبحانه ﴿فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ حرج الصدر: ضيقه وغمه، أي فلا يكن في صدرك يا محمد ضيق من تبليغ القرآن للناس، وكان النبي ﷺ يعتريه الضيق بسبب تكذيب المشركين نبوّته، أو بسبب خوفه من التقصير في إبلاغ رسالة الله إلى قومه، أو بسبب تعجيز قومه إياه بما يطلبون منه. قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾[هود: ١٢] ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وذِكْرى لِلْمُؤْمنينَ﴾ أي أُنزل إليك القرآن يا محمد لتخوّف به الكافرين من عذاب الله إن لم يؤمنوا، ولتذكّر وتعظ به المؤمنين لأنهم هم المستعدون للاهتداء به.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اتبعوا أيها الناس ما أُنزل إليكم من ربكم وهو القرآن واعملوا بهديه، لأن الله الذي أنزله هو خالقكم ومربيكم ومدبّر أموركم ﴿ولا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ولا تتبعوا من غير ربكم أولياء من رؤسائكم

---

(١) هذه الأحرف وغيرها من الأحرف في أوائل بعض السور تقرأ حرفاً حرفاً، قيل في تفسيرها عدة أقوال منها: إنّ هذا القرآن المعجز ببلاغته وهديه مؤلف من هذه الأحرف وغيرها، ومع ذلك لم يقدر المشركون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه، وقيل إن هذه الأحرف من الأسرار التي لا يعلمها إلاّ الله، وقيل هي أسماء للسور، وقيل: إن العرب لما سمعوا القرآن لغوا فيه وانصرفوا عنه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، وسماعهم سبباً لاستماع ما بعد ذلك من الآيات. وقيل غير ذلك والله أعلم.

وقادتكم فيما يحللونه لكم ويحرمونه عليكم بما يخالف شرع الله، وبما يصرفونكم عن الحق إلى الأهواء والبدع ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما تتعظون إلا قليلاً من حيث لا تتأثرون بما يُتلى عليكم من القرآن ولا تعملون بموجبه، ويجوز أن يراد به النفي المطلق أي لا تتعظون أصلاً به.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي وكثير من أهل القرى أهلكهم الله بسبب ظلمهم ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾ أي جاءهم عذاب الله ليلاً كما حصل لقوم لوط ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أو جاءهم العذاب وقت القيلولة وهي النوم وقت الظهر، أو الاستراحة عند منتصف النهار ولو كانت بلا نوم، كما جرى لقوم شعيب، وخُصّ هَذَان الوقتان من بين أوقات الليل والنهار لأنهما وقت الغفلة والدعة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع وقعاً.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُم إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي فما كانوا يدّعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه، أو بمعنى: فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين نزول عذاب الله بهم ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمي أنفسهم بكفرهم، ولكن اعترافهم هذا لن ينجيهم من عذاب الله، والتوبة لا تنفع آنذاك.

وقفة عند قول الكفار: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فالظلم يطلق على الشرك بالله كما جاء في القرآن ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، كما يطلق على الكفر بالله والتعدي على حدوده، والانتقاص من حقوق الناس، فالظلم من أسباب هلاك الأمم كما جاء في القرآن ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

شرح المفردات

المرسلين: رسل الله تعالى إلى الناس لهدايتهم.

فلنقصنّ عليهم: نخبرهم.

وما كنا غائبين: وما كان الله غائباً بعلمه عنهم.

والوزن: أي القضاء.

ثقلت موازينه: كثرت حسناته.

خفّت موازينه: خفّت أعماله الصالحة.

مكناكم في الأرض: جعلنا لكم فيها أمكنة تسكنون، وأقدرناكم على التصرف فيها.

وجعلنا لكم فيها معايش: أي ما تعتاشون في الأرض من مطاعم ومشارب.

عدالة الله في الآخرة

ثم ينتقل القرآن إلى عرض بعض مواقف الحساب في الآخرة:

يقول الله تعالى: **﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرسِلَ إلَيْهِم﴾** والمراد بالذين أُرسل إليهم جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم رسله. يسأل الله هؤلاء الأمم: ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل؟ وسؤاله سبحانه ليس للاستفهام والاطلاع على أخبارهم لأن الله يعلم أخبارهم بل هو سؤال توبيخ وإهانة للذين عصوه وكذّبوا رسله **﴿وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِينَ﴾** وكذلك الرسل يُسألون مع العلم بأنه لا يصدر منهم التقصير ألبتة ليظهر

عدم تقصيرهم في تبليغ ما حملوه من الرسالة الإلهية، ولتقريع الأمم إذا أنكروا تبليغ الرسل لهم.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ والله سبحانه لا يكتفي بشهادة الرسل على أممهم، ولا بإقرار الأمم على أنفسهم بما عملوا، بل يخبر الجميع بعلم ويقين بما عملوا في دنياهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ وما كان الله غائباً بعلمه عنهم حين كان الرسل يبلغون أممهم ما أمرهم ربهم بتبليغه إياهم، وما كان الله غائباً بعلمه عما كانت تفعله الأمم من أعمال.

ثم يبين القرآن العدالة الإلهية في الثواب والعقاب في الآخرة:

﴿والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ الوزن حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقله، والوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقدار ما تستحقه الأعمال من ثواب أو عقاب تعييناً لا إجحاف فيه، أما كيفية الوزن فقيل إن ما يوزن هو الصحائف التي كتبت فيها أعمال العباد، أو إن الأعمال يقلبها الله يوم القيامة أجساماً لها وزن، وحقيقة ذلك هي في علم الله، وقيل إن الوزن آنذاك هو كناية عن القضاء العادل ﴿فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ﴾ وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الصالحة على السيئة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو حصول الخير والفوز بالجنة ﴿وَمَنْ خَفَّت مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الّذين خَسِروا أنْفُسَهُم﴾ أي حرموا أنفسهم من ثواب الله وكرامته والسعادة في الآخرة ﴿بِمَا كَانوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله.

﴿وَلَقَد مكَّنَّاكُم في الأَرْضِ﴾ والمراد بالتمكين في الأرض: التمليك والقوة والقدرة على التصرف فيها، فالله يمتنّ على الجنس البشري بتمكينهم في الأرض، ولولا ذلك ما استطاعوا أن يقهروا الطبيعة ويسخّروها لمنافعهم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُم فيها مَعَايِشَ﴾ والمعايش: جمع معيشة وهي ما يقتات به الإنسان من المآكل والمشارب وما تكون به الحياة وما يتوصل به إلى العيش، لقد يسّر الله للإنسان أسباب العيش على هذه

الأرض بما أودع فيه من الاستعدادات والمعرفة لتسخير الأرض لمنافعه والحصول منها على قوته، وهذا من الآيات الباهرة على قدرة الله الحكيمة، وفضله العميم على خلقه، ولكن الناس مقابل هذه النعم ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي أن شكرهم لخالقهم قليل على هذه النعم الجليلة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

شرح المفردات

فاهبط منها: فاخرج من الجنة.

الصاغرين: الأذلاّء المهانين.

أَنظرني: أخّرني وأمهلني حياً.

يوم يُبعثون: هو يوم القيامة حين يخرج الناس من قبورهم أحياء.

فبما أغويتني: فبما أضللتني.

لأقعدن لهم صراطك المستقيم: لأترصَّدنّهم وَلأَجلِسَنّ لهم مجلس المُضِلّ.

مذءوماً: مذموماً معيباً ومحقراً.

مدحوراً: مطروداً مبعداً.

فضل اللّه على بني آدم وإغواء الشيطان لهم

ويتابع القرآن الكريم فيذكر فضل الله على بني آدم وما خصّ آدم من تكريم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم﴾ أي ولقد خلقنا أباكم آدم ـ أيها الناس ـ من طين، ثم صورناه بشراً سوياً، وإنما ذُكر آدم بلفظ الجمع لأنه أبو البشر فكان في خَلْقِهِ خَلْقُ من خرج من صلبه ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ﴾ والملائكة أجسام خلقهم الله من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والسجود في اللغة الخضوع والتذلل ويكون بانحناء وغيره. والسجود شرعاً وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، والمراد هنا: أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتعظيم وتكريم لا سجود عبادة لأن عبادة غير الله هي من الشرك بالله وهو ما يتنزه عنه الملائكة.

وتحية الملائكة لآدم كانت إكباراً له لأنه أنبأهم بأسماء كل المسميات على الأرض وخواصها بعد أن علّمه الله إياها وعجز الملائكة عن علمها.

وبعد أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ﴿فَسَجدُوا إلاّ إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدينَ﴾ أي فسجد الملائكة كلهم لآدم إلاّ إبليس فإنه أبى واستكبر عن السجود له.

وإبليس هو من جنس الجنّ وليس من جنس الملائكة وهو بامتناعه عن السجود لآدم خرج عن طاعة ربه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي قال الله تعالى له: ما منعك يا إبليس عن امتثال أمري فحملك على أن لا تسجد لآدم مع الساجدين من الملائكة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع وليس للاستعلام لأن الله يعلم حقيقة عمله.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال إبليس: أنا خير من آدم لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أشرف عنصراً من الطين، وهذا يستدعي في نظره تفضيله على آدم، ولكن غاب عن علمه أن الطين هو محل النبات والنمو والإصلاح، وأن النار من شأنها الإحراق والإيذاء.

وآدم أفضل وأشرف من إبليس لأن الله خلقه بيديه، قال تعالى موبخاً إبليس لرفضه السجود لآدم: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

وآدم خير من إبليس أيضاً حيث نفخ الله في آدم من روحه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

أمام رفض إبليس السجود لآدم خاطبه الله بقوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي اهبط من الجنة إلى الأرض، لأن من كان قد كرّمه الله بإسكانه الجنة لا يحق له أن يتكبر فيها عن أمر الله ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين﴾ فاخرج من الجنة محكوماً عليك بالذلة والهوان.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال إبليس لربه: أمهلني واتركني حياً إلى يوم القيامة، يوم يبعث الله فيه آدم وذريته لمحاسبتهم على أعمالهم، وقد طلب إبليس ذلك لغايتين: **أولاً**: أن يثأر من آدم بإغواء ذريته جميعاً. **وثانياً**: أن ينجو من الموت إذ لا موت بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي قال الله سبحانه: إنك من الممهلين المؤخرين ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]. والوقت المعلوم هو حين يُنفخ في الصور النفخة الأولى فيموت جميع الخلائق فلا يبقى غير الله الحي القيوم الذي لا يموت، أما النفخة الثانية في الصور فتكون يوم البعث حين يقوم الناس أحياء لرب العالمين، ولو

أُعطي إبليس ما سأل ربه أن يمهله إلى يوم البعث لأعطي خلوداً وبقاء لا فناء بعده.

وقد يقال: ما فائدة إجابة إبليس بإمهاله حياً إلى يوم الوقت المعلوم؟ وما الحكمة من غوايته للناس مع أن فيها إضراراً بهم؟ الحكمة في ذلك هي اختبار الله للناس وابتلاؤهم بإبليس الذي يسعى لإضلالهم، فيثاب الصالحون من الناس الذين لم يستجيبوا لوساوسه بل استجابوا لله، ويعاقب أهل الضلال على استجابتهم لإبليس.

وتابع إبليس قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ[1] لَهُمْ صِراطَكَ المسْتَقيمَ﴾ أي بسبب إغوائك لي يا رب حيث صرت من أهل الضلال: أقسم لأضلّن بني آدم ولأصرفنّهُم عن طريقك القويم ودينك الحق. وقيل معنى ذلك: «فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغواء بني آدم»[2].

والمعتزلة يحتجون على من نسب الضلال إلى الله بقولهم: هذا قول إبليس إلاّ أن قوله ليس بحجة، كما أنهم فسروا الغيّ بمعنى الهلاك وهو تفسير تؤيده معاجم اللغة، والمعنى: فبما أهلكتني بطردك إياي من الجنة لأضلن بني آدم.

أما قعود الشيطان لبني آدم في الصراط المستقيم فهو كناية عن رصده لبني آدم ومراقبتهم لإضلالهم.

ويتابع الشيطان قوله: ﴿ثُمَّ لآتينَّهم مِنْ بَيْنِ أيْديهم وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وعن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي لأجتهدن في إضلال بني آدم من الجهات الأربع، والمقصود بذكر الشيطان هذه الجهات هو المبالغة في الحرص على إغواء بني آدم في كل أحوالهم بحيث لا يترك لهم فرصة للإفلات منه. وقيل: المراد بقوله تعالى ﴿مِنْ بَيْنِ أيديهم﴾ أي يحسّن لهم الدنيا في قلوبهم ويرغبهم في شهواتها وعصيان الله فيها

(١) لأقعدن: اللام في هذه الكلمة هي لام القسم.

(٢) تفسير الزمخشري.

﴿ومِنْ خَلْفِهِم﴾ أي من قِبَلِ الآخرة، فيقول لهم: لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِم﴾ جمع يمين، ويكنى بها عن الحسنات، أي يصرفهم عنها ويصدهم عن الحق ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ جمع شمال، ويكنى بها عن السيئات، أي يأتيهم من جهة سيئاتهم يرغّبهم فيها ويحسّن لهم الباطل ﴿ولا تَجِدُ أكثَرَهُم شَاكِرِينَ﴾ ولا تجد يا رب أكثر بني آدم شاكرين لنعمك ولا مطيعين لأمرك.

﴿قَالَ اَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً﴾ أي قال الله تعالى لإبليس: اخرج من منزلة الكرامة أو من الجنة معيباً مذموماً مبعداً مطروداً من رحمتي ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُم لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكُم أَجْمَعِينَ﴾(١) فالله أخبر خبراً مؤكداً بالقسم بأن من يتبع إبليس ويطيعه ـ من ذرية آدم ـ فيما يحسّنه لهم من الكفر والشرك بالله والمعاصي فإن جزاءهم أن يكونوا معه جميعاً في جهنم. وجهنم اسم من أسماء دار العذاب في الآخرة حيث يُعذّب الكفار والعصاة بالنار المتأججة، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر حيث خاطب الله إبليس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥].

---

(١) (لمن تبعك منهم لأملان جهنم) لَمَن: بفتح اللام على أنها لام القسم وجوابها (لأملأن).

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن
سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا
مِنَ ٱلۡخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا
ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ
وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ لَكُمَا
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرٌّ
وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فوسوس لهما: أغراهما بالمعصية.

ليبدي لهما: ليظهر لهما.

ما ووري عنهما: ما استتر وخفيَ عنهما.

سوءاتهما: عوراتهما.

وقاسمهما: أقسم لهما، حلف.

فدلاّهما بغرور: فأنزلهما عن رتبة طاعة الله إلى عصيانه بخداعه لهما.

وطفقا يخصفان: وشرعا يُلزقان.

مستقرّ: استقرار.

متاع: ما تستطيبه النفس في هذه الحياة ويُنتفع به ويأتي عليه الفناء.

تُخرجون: تُخرجون أحياء يوم القيامة للجزاء على أعمالكم.

إغواء الشيطان لآدم وحواء

ويتابع القرآن فيذكر وصية الله لآدم وزوجه وهما في الجنة قبل المعصية:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ أي وقال الله لآدم: اسكن في الجنة أنت وزوجك وتنعّما بخيراتها، والزوج يطلق في اللغة على كل من الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء ﴿فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فكلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما منها ولا تأكلا من ثمر هذه الشجرة وقد عيّنها الله لهما، والتعبير بالنهي عن الأكل من ثمر هذه الشجرة بقوله سبحانه ﴿ولا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ مبالغة في تحريم الأكل منها لأن مجرد الاقتراب منها حرام، وهذه الشجرة قيل هي: شجرة العنب، وقيل: شجرة التين، وقيل: السنبلة. ولم يذكر القرآن نوعها، فالأوْلى عدم تعيينها ﴿فَتَكونَا مِنَ الظَّالمينَ﴾ أي إن أكلتما من ثمر هذه الشجرة تكونا من الظالمين من حيث عصيتما أمر ربكما.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيطَانُ﴾ والوسوسة هي الكلام الخفيّ والخطرة الرديئة التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان ليقارف الذنب ويغريه بالشر ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْءَاتِهَما﴾ ما ووري: ما ستر وغطّي، والسوأة: فرج الرجل والمرأة، والسوأة مشتقة من السَّوْء، وسميت بذلك لأن ظهورها يسوء الإنسان. والمعنى: فوسوس لهما الشيطان ليكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما غطّي وسُتر عنهما من عورتيهما وكانا لا يريانهما من نفسيهما، ولا يرى أحدهما سوْأة الآخر. واختلف في ذلك اللباس الذي كان يسترهما، فقيل كان نوراً، وقيل من ثياب الجنة، وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات وأنه مستقبح في الطباع والعقول السليمة ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ وقال الشيطان لآدم وحواء: ما منعكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ﴿إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أو تَكُونَا مِنَ الخالِدينَ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين من الملائكة أو تكونا من ساكني الجنة أبداً فلا

يلحق بكما الموت. ولا يفهم من ذلك تفضيل الملائكة على البشر من كل وجه، فالراجح عند العلماء أن المطيعين لربهم من بني آدم أفضل من الملائكة لأنهم قهروا ما سُلّط عليهم من وساوس الشيطان وانتصروا على دواعي الشر، والملائكة ليسوا كذلك إذ لا توجد فيهم دواعي المعصية.

ولكي يدعو الشيطان آدم وحواء إلى طاعته ﴿وَقَاسَمَهُمَا[(١)] إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي أقسم أنه من الناصحين لهما بالأكل من الشجرة ﴿فَدَلَّاهُمَا[(٢)] بِغُرُورٍ﴾ التدلية والإدلاء: إرسال من أعلى إلى أسفل، أي أنزلهما إبليس عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرّأهما على ذلك بما خدعهما به من القسم. والغرور: هو الخداع، وسبب انخداع آدم وحواء هو ظنهما أن أحداً لا يقسم بالله كذباً.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي فلما أكل آدم وحواء من ثمر هذه الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها انكشفت لهما عورتيهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجنَّة﴾ وجعلا يلصقان على عورتيهما من ورق التين أو الموز أو غيرهما ورقة فوق ورقة ليستترا بها. يقول أحد المفسرين: «لمّا ذاقا ثمر الشجرة وقد نُهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلاّ وخلعا ثوب الطاعة وبدت منهما سوْأة المعصية، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجِل عادةً من الاستتار والاستخفاء حتى لا يُرى، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما يجتنّان[(٣)] بها ويستتران، وما لهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك»[(٤)].

---

(١) قاسمهما: صيغة مفاعلة، والمراد بها المبالغة في صدور القسم من إبليس لآدم وحواء وأنهما قبلا منه القسم.

(٢) دلاّهما: من الدالّة وهي الجرأة.

(٣) يجتنّان: يستتران.

(٤) صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف.

ثم سمعا النداء الرباني بتقريعهما ولومهما: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أنهكما عن الأكل من ثمر تلك الشجرة ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة لا يريد لكما الخير.

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ قال آدم وحواء: يا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بمعصيتك ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِر لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ وإن لم تغفر ذنبنا وترحمنا بفضلك نكن من الهالكين، والمغفرة من الله هي أن يصون العاصي من أن يمسه العذاب.

وبعد أن عصى آدم وحواء ربهما جاء أمره سبحانه بإخراجهما من الجنة عقاباً لهما:

﴿قَالَ اْهبِطوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والخطاب لآدم وحواء وإبليس، أما العداوة لبعضهم البعض فإننا نراها جليّة بين البشر، فنرى العداوة بين الأخ وأخيه، وبين الجماعات والشعوب بعضها مع بعض بسبب الأنانية والطمع، والظلم المتأصل في النفوس، وبسبب وساوس الشيطان الذي لا يترك فرصة إلا وينفذ إلى قلب ابن آدم وينفث سمومه فيه ﴿وَلَكُم في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ﴾ ولكم في الأرض استقرار وتمتّع بِنعَم الله إلى الوقت الذي تنتهي فيه أعماركم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تموتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجونَ﴾ قال الله لآدم وحواء ويشمل الخطاب ذريتهما من بعدهما: في الأرض تحيون الحياة المقدَّرة لكل منكم، وفي الأرض تموتون عند انتهاء أعماركم، ومن الأرض تُخرجون أحياء بعد مماتكم عند بعثكم أحياء يوم القيامة لمجازاتكم على أعمالكم.

ولكن ما هي الجنة التي أُهبط منها آدم؟ قيل إنها جنة عدن لا جنة الخلد، وقيل إنها جنة في الأرض مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار ونعيم.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ
خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ
لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ
أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ
إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم
مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾

شرح المفردات

يواري سوءاتكم: يستر عوراتكم.

وريشاً: لباساً تتزينون به وتتجملون كما يتجمل الطير بريشه.

يذّكّرون: يتعظون.

لباس التقوى: الإيمان وثمراته من الأعمال الصالحة.

لا يفتننكم: لا يوقعنكم في المحنة والبلاء.

قبيله: جماعته.

أولياء: نصراء وأصدقاء يتولون أمرهم.

فاحشة: الفعلة الشديدة القبح.

بالقسط: بالعدل.

وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد: المراد بالوجوه الأنفس، وإقامتها بالتوجه إلى الله تعالى، والمسجد مكان العبادة أو عند كل صلاة.

التحذير من غواية الشيطان

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على بني آدم باللباس الذي يسترهم ويجملهم، قال الله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً[١] يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي يا بني آدم قد أنعمنا عليكم فخلقنا لكم ملابس تستر عوراتكم وتجملكم ﴿وَرِيشاً﴾ هو لباس الزينة للإنسان، وهذا التعبير مستعار من ريش الطائر لأنه زينته، فكما أن الريش زينة للطير فكذلك اللباس زينة لبني آدم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي ولباس التقوى خير من اللباس الذي تلبسونه. وقد شبه الله التقوى باللباس من حيث إنه يقي المتقي من سخط الله ويحفظه مما يضره. والتقوى: هي الانتهاء عما نهى الله عنه من المعاصي والعمل بما أمر به من الطاعات. وتشمل التقوى: الإيمان بالله والعمل الصالح وخشية الله، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فتظهر فيه نضرة الإيمان ونوره، والسمت الحسن في وجهه ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ذلك الذي أعطاه الله لبني آدم من اللباس هو من آيات الله الدالة على وجوده وقدرته وحكمته لعلّهم يتعظون فلا يعصونه ويتذكرون فضله وإحسانه عليهم فيشكرونه على نعمه.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُم الشَّيْطَانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ﴾ أي يا بني آدم احذروا أن يوقعكم الشيطان في المحنة والبلاء ويخدعكم بوساوسه فيحسّن لكم الأفعال الرديئة والمعاصي فتحرموا من دخول الجنة وتدخلوا النار كما فتن أبويكم آدم

---

(١) ولكن هناك سؤال: كيف أنزل الله اللباس؟ والجواب على ذلك هو أن الله أنزل المطر من السماء الذي ينبت منه النبات، ومن النبات ما يخرج منه القطن أو الكتان، ومن دود القز الذي يتغذى بالنبات يخرج الحرير، ومن الأنعام التي تتغذى بالنبات نأخذ الصوف من الغنم، والشعر من الماعز، والوبر من الإبل التي نغزل منها جميعاً الخيوط ونصنع الثياب. فالتعبير القرآني هو في نهاية الدقة حيث قال تعالى: ﴿أنزلنا عليكم لباساً﴾ لأن مصدر كل ذلك هو المطر الذي أنزله الله من السماء، فكأن الله تعالى أنزل اللباس من السماء.

وحواء من قبل فأخرجهما من الجنة بخداعه ومكره ﴿يَنْزِعُ عَنْهُما لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ أي ينزع إبليس بوساوسه عن آدم وحواء لباسهما ليكشف عورتيهما ويظهرهما لأعينهما، وكذلك وسوس إبليس للمشركين العرب فجعلهم يطوفون حول بيت الله الحرام عراة الأجسام يُظهرون عوراتهم للناس بحجج باطلة.

وما يجري اليوم من استحداث اللباس شبه العاري الذي يكشف عن عورات المرأة ومفاتنها بما يغري الناس بالفواحش هو من وساوس الشيطان.

وما في العالم اليوم من فساد خلقي كإنشاء أندية للعراة يظهر فيها الرجال والنساء عراة الأجسام، وما يحدث في الحانات من فساد خلقي، وكذلك ما يعرض في بعض القنوات الفضائية والأنترنت في الكمبيوتر من أفلام إباحية، كل ذلك من فتنة الشيطان لبني آدم أخبرنا الله بها قبل أن تقع وتنتشر ويستفحل شرها كما يحصل في هذا العصر.

﴿إِنَّه يَرَاكُم هُوَ وَقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُم﴾ أي أن الشيطان يراكم هو وجماعته من حيث لا ترونهم[1] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشياطِينَ أولِيَاءَ لِلَّذينَ لا يُؤمِنُونَ﴾ إنا صيرنا الشياطين قرناء وأصدقاء للذين لا يوحدون الله ولا يصدقون بنبوة محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمرنَا بِهَا﴾ والفاحشة: هي الفعلة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا طواف المشركين العرب ببيت الله الحرام عراة الأجسام ويشمل ذلك عبادتهم للأصنام، وحجتهم بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك فهم يقلدونهم، كما زعموا أن الله أمرهم بذلك.

أما حجة المشركين في تقليد الآباء فهي حجة واهية، فمن قال إن آباءهم كانوا

(١) يرى بعض العلماء أن الجن لا يُرون على حقيقتهم أما إذا تمثلوا بصور أخرى فإنهم يُرون، ورؤيتهم متمثلين في أشكال الجسمانيات مقصورة على عصر النبوة كما حدث للنبي سليمان عليه السلام ونبينا محمد ﷺ.

على هدى من الله؟ ومتى كان تقليد الآباء هو السلوك الصحيح المنزه عن الخطأ؟ وقد جاء في القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي عالمنا اليوم ديانات خالطها الإشراك بالله وطرأت عليها البدع والأوهام والزيادات الغريبة فهل من المنطق أن يرث الإنسان دينه عن أبويه ويقلدهما تقليداً أعمى بدون روية ولا تفكير؟

أما ادعاؤهم بأن الله أمرهم بذلك فقد جاء الردّ الفوري عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾ قل لهم يا محمد: إن الله لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساويها ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه ما لا يصح وما لا يليق عن جهل منكم؟

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين: أمر ربي بالعدل والاستقامة ﴿وأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي توجهوا بنفوسكم وقلوبكم إلى الله عند كل مسجد تتعبدون فيه أو في مكان كل سجود، والمراد بالسجود الصلاة بطريق ذكر الجزء وإرادة الكل، والسجود وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتذللاً له ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ﴾ واعبدوه وحده مخلصين له الطاعة ﴿كَمَا بَدَأَكُم تَعُودونَ﴾ فهو كما أنشأكم ابتداء على هذه الأرض، يعيدكم بعد الموت أحياء فيجازيكم على أعمالكم ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلالَةُ﴾ وعند إحيائكم بعد الموت تعودون فريقين، فريقاً هداهم الله واستحقوا المثوبة والمكافأة بالجنة، وفريقاً اختاروا الضلالة فاستحقوا العقوبة في نار جهنم ﴿إِنَّهُمُ اتَّخذوا الشَّيَاطِينَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقد حقت عليهم الضلالة لأنهم اتخذوا الشياطين قادة وأولياء من غير الله فأطاعوهم بكل ما حسّنوا لهم من الفواحش والمنكرات ﴿وَيَحْسَبُون أَنَّهُم مُهْتَدونَ﴾ وهم مع ضلالهم يحسبون أنهم على هداية.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

خذوا زينتكم: الزينة هي ارتداء الثياب الجميلة والتمشط والتطيب.

ولا تسرفوا: ولا تتجاوزوا حد الاعتدال.

الإثم: فِعْلُ ما نهى الله عنه.

البغي: الكبر والظلم والفساد.

ولكل أمة أجل: أي وقت يموتون فيه وتنتهي به حياتهم.

لا يستأخرون: لا يتأخرون.

ولا يستقدمون: ولا يتقدمون.

ما أحلّه اللّه وما حرّمه

وبعد الدعوة إلى التوجه الكلي إلى الله في عبادته، جاء الأمر بالتزين عند الحضور إلى المساجد: **﴿يا بني آدمَ خُذوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾** المقصود ببني آدم هنا المسلمون لأن غير المسلمين لا يصلّون في المساجد. أي تجملوا ـ أيها المسلمون ـ بزينتكم عند كل مسجد وذلك بلبس الثياب الجميلة النظيفة وتسريح الشعر والتطيّب وغير ذلك إجلالاً لربكم الذي تقفون بين يديه في صلاتكم.

كما أن في مضمون هذا الخطاب إنكاراً لما كان يفعله بعض العرب في ذلك الزمن حيث كانوا يطوفون عراة الأجسام حول بيت الله الحرام، الرجال يطوفون نهاراً، والنساء تطوف ليلاً، وكانوا يقولون: لا نطوف بثيابٍ عصينا الله فيها، فأنزل الله هذه الآية تدعو لستر العورات وارتداء اللباس الجميل عند الحضور إلى المساجد.

والمسجد هو البناء الذي يجتمع فيه المصلون، والمصلون متنوعون في مهنهم، وكل مهنة لها زيها الخاص وقد تتلطخ بأوساخ المهنة أو العرق فيصدر منها رائحة تزعج المصلين ولهذا عليهم عند حضورهم إلى المسجد أن يجعلوا لهم لباساً نظيفاً لائقاً بهم يتناسب مع الوقوف بين يدي الله إجلالاً وتعظيماً وتوقيراً له.

فإذا كان الناس يلبسون أجود ما عندهم عند مقابلة رؤسائهم فالله أحق بذلك، وقد روي عن الحسن بن عليّ رضي الله عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له: يا ابن بنت رسول الله لِمَ تلبس أجود ثيابك إذا قمت إلى الصلاة؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي، وهو يقول سبحانه: **﴿خُذوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسجِدٍ﴾**.

ثم يعرض القرآن بعض الطب الوقائي لتجنب كثير من الأمراض: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبوا ولا تُسْرِفُوا﴾** أي كلوا من حلال ما طاب لكم، واشربوا من حلال الأشربة، ولا تسرفوا بالإفراط في الطعام والشراب، بهذه الكلمات الثلاث سنّ الإسلام قانوناً يحفظ صحة الإنسان، فالإنسان إذا أكثر من الطعام لم يستطع له هضماً بسهولة، ويصاب بالتخمة وعسر الهضم، وقد يحدث أن تصاب المعدة بالاتساع والتمدد نتيجة الإفراط في الطعام، فيفقد الإنسان شهيته للأكل. وقد يصاب الإنسان نتيجة ذلك بالقيء أو الإسهال، أو الإمساك والصداع.

والإسراف في الطعام يسبب البدانة والتعرض لأمراض القلب، وارتفاع الضغط

وأمراض الكلى والسكري، وقد يموت المرء بسكتة قلبية بسبب امتلاء بطنه وضغطه على القلب لمن يقاسي ضعفاً في القلب.

هذا من ناحية الصحة العامة على الإنسان، ومن جهة أخرى فإن الإسراف في الطعام يقوي الرغبة الجنسية ويؤدي بالإنسان إلى أن يعتبر الحياة مجرد متعة مادية فتضعف فيه الصفات الروحية من الإحسان والتضحية وإنكار الذات وتحل محلها الأنانية وقسوة القلب والاستكانة إلى الترف، وبالإضافة إلى ذلك فإن الإسراف في الطعام يؤدي إلى تبلّد الأذهان والانصراف عن تغذية العقل والروح بالمعارف الإنسانية المفيدة. ثم يعقّب القرآن على النهي عن الإسراف في المأكل والمشرب بقوله تعالى: ﴿إِنَّـه لا يُـحِـبُّ المسْـرِفينَ﴾ وإذا لم يحب الله عباده المسرفين في الطعام والشراب فهذا يعني أنه غير راضٍ عنهم وكفى بالإسراف إثماً.

﴿قُـلْ مَـنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّـهِ التي أَخْـرَجَ لِعِـبَـادِهِ﴾ قل يا محمد لقومك: من حرّم زينة الله التي خلقها الله لنفع عباده؟ والزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به من ملبس أو أداة للركوب أو حلي للنساء، فضلاً عن المسكن الجميل بدون إسراف، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة إذا لم تكن مما حرمها الله ﴿والطَّـيِّـبَـاتِ مِـنَ الرِّزْقِ﴾ وقل لهم: من حرّم الطيبات الحلال من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس ويشربونه، وقد جاءت الآية بصيغة الاستفهام المتضمن الإنكار على من حرّم ذلك على نفسه أو حرّمه على غيره ﴿قُـلْ هِـيَ لِلَّـذِين آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنْـيَـا﴾ وقل لهم يا محمد: هذه الطيبات نعمة من الله ما كان ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدنيا وإن شاركهم الكفار في التمتع بها ﴿خَـالِـصَـةً يَـوْمَ القِيَـامَةِ﴾ وهي مختصة بالمؤمنين يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار ﴿كَـذَلِـكَ نُـفَـصِّـلُ الآيَـات لِـقَـوْمٍ يَـعْـلَـمُـونَ﴾ أي مثل هذا التفصيل في بيان الحلال والحرام يبين الله سائر الأحكام لقوم يعلمون الحكمة منها وما تشتمل عليه من توجيهات سامية وفوائد جمة.

وبعد أن ذكر الله ما أباحه من الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا ذكر ما هو محرم عليهم: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وقل لهم يا محمد: إنما حرّم ربي الأمور البالغة في القبح سواء منها ما يرتكب سراً وما يرتكب علانية، والفواحش جمع فاحشة وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل، وأكثر ما تطلق الفاحشة على الزنا، وقد جاء في القرآن: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، كما حرم الله ﴿والإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصي والذنوب كما أنه يطلق على الخمر وهي المدخل لاقتراف الذنوب، وقد جاء في القرآن ﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، والبغي: هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس، والمراد ﴿بغير الحق﴾ أن يطلب الإنسان ما ليس له بحق، فإذا طالب بحقه خرج عن أن يكون بغياً.

كما حرّم الله ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَاناً﴾ أي وأن تجعلوا لله شريكاً دون حجة صحيحة أو دليل قاطع، والمراد التهكم بالمشركين لأن الله لم ينزل من السماء برهاناً على رسله بأن له شريكاً في ملكه ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ والقول على الله بغير علم هو من أعظم المحرمات وهو منشأ البدع والتحريفات التي طرأت على الأديان المنزلة بما أضافه رجال الدين إلى دينهم من الحلال والحرام بما لم يأذن به «وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته كما تكون الوسائط عند الملوك، فكل مشرك قائل على الله بغير علم»(١).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي ولكل جماعة من المكذبين لرسل الله وقت معين لنزول

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

العذاب بهم ﴿فَـإِذَا جَاءَ أَجَلُـهُم لا يَسْتَـأْخِـرُون سَاعَةً ولا يَسْتَـقْـدِمُونَ﴾ فإذا جاء وقت هلاكهم لا يتأخرون عنه برهة من الزمان ولا يتقدم هلاكهم على الوقت الذي حدده الله لهم، وهو وعيد لأهل مكة الذين ناوؤوا رسول الله، ولكل أمة تخرج عن هدى ربها ويشيع فيها الظلم وتنغمس في الفواحش والمنكرات.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ
فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا
وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن
قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ
لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ
تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾

شرح المفردات

يقصون: يتلون ويحدّثون.

واستكبروا عنها: تعالوا عليها ورفضوها.

فمن أظلم: أي لا أحد أظلم.

افترى: اختلق الكذب.

نصيبهم من الكتاب: حظهم مما كتبه الله لهم في الدنيا من الأرزاق والأعمار.

جاءتهم رسلنا: جاءتهم الملائكة الموكلة بقبض الأرواح.

ضلوا عنا: غابوا عنا ولم ينفعونا.

خلت: مضت.

اداركوا: تلاحقوا واجتمعوا.

أخراهم: هم أتباع القادة والرؤساء الذين قلدوهم في الكفر.

لأولاهم: هم القادة والرؤساء الذين أضلوا غيرهم.

مصير المكذبين بآيات اللّه

وتنتقل بنا الآيات فيخاطب الله بني آدم داعياً إياهم إلى السير على المنهج الذي شرعه لهم:

﴿يَا بني آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّون عَلَيْكُم آياتي﴾ فالله سبحانه يقول: يا بني آدم إن يأتكم رسل من عندي من أبناء جنسكم يتلون عليكم الأحكام والشرائع التي أنزلتها عليهم فعليكم تصديقهم واتباع ما جاءوا به من الهدى **﴿فَمَن اتّقى وَأَصْلَحَ﴾** فمن اتقى منكم ما نهيته عنه وأصلح نفسه بفعل ما أوجبته عليه **﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة لأن أمرهم يؤول إلى الأمن والسعادة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا لأن الله قد أعد لهم من النعيم ما ينسيهم آلام الدنيا ومتاعبها.

والآية تنص على أن رسل الله يكونون من البشر، ومن الأمة التي يعيشون فيها، بالإضافة إلى ما يخصهم الله بالفضائل الإنسانية العالية، فإذا جاء رسول من عند الله يعرفون صدقه وأمانته مؤيَّداً بالمعجزة التي خصه الله بها أيقنوا بذلك أنه رسول من عند الله واتبعوه لأنه جاءهم بما لم يعهد لأمثاله ولا لأحد منهم.

﴿والَّذِين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا واسْتَكْبَروا عَنْهَا﴾ وأما الذين كذّبوا بآيات الله المنزّلة على رسله واستكبروا عن الإيمان بها رغم الأدلة والبراهين على أنها من عند الله ﴿أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ فهؤلاء مصيرهم العذاب في نار جهنم ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها، فهم يلازمون النار كما يصاحب الإنسان منا صاحبه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذباً كمن ادعى بأن لله شريكاً، أو ولداً، أو بلّغ عنه بما لم يأمر به ﴿أَوْ كَذَّبَ بآياتِهِ﴾ أي أنكر الآيات المنزلة على رسل الله، ويشمل ذلك الإنكار بأن القرآن ليس منزلاً من عند الله ﴿أُولَـئِكَ يَنَالُهُم نَصِيبُهُم مِنَ الكِتَابِ﴾ أي ينالهم في الدنيا حظهم مما قُدّر لهم وكتب لهم في اللوح المحفوظ من الأعمال والأرزاق والأعمار مع ظلمهم وافترائهم، لا يحرمون منه إلى انقضاء آجالهم تفضلاً منه تعالى رجاء أن يتوبوا ﴿حتَّى إذَا جَاءَتْهُم رُسُلُنَا يَتَوفَّوْنَهُم﴾ حتى إذا جاءتهم الملائكة الموكلة بقبض أرواحهم ﴿قَالُوا أيْنَ مَا كُنْتُم تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قالت لهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دونه ليمنعوكم من عذابه ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا وذهبوا عنا وتركونا فلم ينفعونا عند حاجتنا إليهم ﴿وَشَهدوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَنَّهم كانوا كافرين﴾ وشهد هؤلاء الكفار على أنفسهم عند معاينتهم العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله كافرين بعبادتهم غير الله سبحانه.

﴿قَالَ ادْخُلوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ في النَّارِ﴾ قال الله تعالى لهؤلاء الكافرين أو بواسطة ملك من الملائكة: ادخلوا جهنم لتعذَّبوا بنارها مع جماعات مضوا قبلكم من أهل الملل الكافرة من الجن والإنس ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كلما دخلت في النار جماعة كافرة لعنت أختها أي الأمة الأخرى التي سبقتها إلى النار، وجعلت أختاً لها لأنها شبيهة لها في الملة

والضلالة. واللعن هنا الذم والدعاء بالطرد من رحمة الله، فيلعن الأتباع القادة بقولهم: أنتم أوردتمونا النار فلعنكم الله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ حتى إذا تلاحقوا في النار واجتمعوا فيها ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ قالت أُخراهم في المنزلة ـ وهم الأتباع ـ في حق أُولاهم مقاماً وهم الرؤساء والقادة الذين أضلوهم. وقد يكون المعنى: قالت أخراهم أي الذين كانوا في آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين الباطل ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾ أي قال الأتباع مشيرين إلى قادتهم السابقين: ربنا هؤلاء أضلونا عن الهدى فعاقبهم عقاباً مضاعفاً من عذاب النار ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قال الله: لكل منكم عذاب مضاعف، فالأتباع لضلالهم وانقيادهم لرؤسائهم انقياداً أعمى بدون بصيرة، والقادة والرؤساء لضلالهم وإضلال الذين اتبعوهم ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولكن لا تعلمون بما أعد الله لكل فريق من العذاب.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي وقالت أولاهم وهم القادة لأخراهم الذين اتبعوهم بعدما سمعوا جواب الله لهم: نحن متساوون في مقدار الذنب واستحقاق مضاعفة العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي فذوقوا مثلنا العذاب المضاعف بسبب كفركم والانقياد لنا، قالوا لهم ذلك على سبيل التشفي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

شرح المفردات

يلج: يدخل.

سَمِّ الخياط: ثقب الإبرة.

مهاد: فراش.

غواش: أغطية تغطيهم، جمع غاشية.

وسعها: ما تطيقه وما تستطيع فعله في حال السعة والسهولة لا في حال الشدة.

من غلٍّ: من حقد.

مقارنة بين حال المؤمنين والكافرين في الآخرة

ثم تبين آيات هذه السورة مصير الذين يكذّبون بآيات الله واستحالة دخولهم الجنة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي إن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع، كالأدلة الدالة على وجود الله

ووحدانيته والدالة على صحة النبوات والرسل السابقين ونبوة محمد ﷺ والدالة على صحة المعاد ونحو ذلك، وبالغوا في الاستكبار عن الإيمان بها والالتفات إليها **﴿لا تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّماءِ﴾** أي لا تفتح لأدعيتهم وأعمالهم أبواب القبول في السماء، أو لا تفتح لأرواحهم ـ بعد موتهم ـ أبواب السماء لتتصل بالملائكة وتنعم بالراحة وتقابل بالترحيب كما هو شأن المؤمنين، وإنما يصعد إلى الله الكلم الطيب ـ كلمة التوحيد ـ والعمل الصالح من المؤمنين يرفعه الله إليه **﴿ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾** والولوج: الدخول بصعوبة، والجمل: هو الذكر من الإبل، وخص بالذِّكْرِ من بين سائر الحيوانات عند العرب لأنه أكبرها جسماً. وسمّ الخياط: أي ثقب الإبرة وهو مثل عندهم في ضيق المسلك. فهنا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة، فكما يستحيل دخول الجمل[1] من ثقب الإبرة فكذلك فإن دخول الكفار الجنة ميئوس منه **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المجْرِمِينَ﴾** أي ومثل ذلك الجزاء الشديد يجزي الله كل المجرمين الذين يكذبون بآيات الله.

﴿لَهُم مِنْ جَهَنَّم مِهَادٌ﴾ والمهاد جمع مَهْدٍ وهو الفراش، أي لهؤلاء المكذبين بآيات الله فرش من النار يجلسون عليها ويضطجعون **﴿وَمِنْ فَوْقِهِم غَوَاشٍ﴾** وغواش: جمع غاشية وهي الغطاء كاللحاف ونحوه، والمراد من الآية أن النار محيطة بأهل النار من جميع الجوانب، والتعبير بالمهاد والغواشي للتهكم بهم **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾** أي ومثل هذا الجزاء من العذاب في جهنم يجزي الله الظالمين بكفرهم بآيات الله وتكبرهم عن الإقرار بها واتباعها. وقد عبر الله عنهم بالمجرمين فيما سبق، وعبر عنهم هنا بالظالمين للتنبيه على أنهم بتكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها جمعوا هاتين الخصلتين.

---

(١) قد يراد بالجمل الحبل الغليظ كما جاء في اللغة، ولكن البعير هو أليق بالمعنى وأصح.

﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدّقوا بوحدانية الله، وأنه لا شريك له في ملكه ولا ولد، وصدقوا برسوله محمد واتبعوه وعملوا بما أمرهم به ربهم من الأعمال الصالحة ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف الله أحداً من الأعمال إلا قدر استطاعته ﴿أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الجنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هؤلاء هم أصحاب الجنة ماكثون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يحرمون من نعيمها.

﴿وَنَزَعْنَا ما في صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾ والنزع: قلع الشيء من مكانه، والغلّ: الحقد الكامن في الصدور. أي يُخرج الله من قلوب أصحاب الجنة الحقد والعداوة ويطهر قلوبهم منها حتى لا يكون بينهم إلا الود والتعاطف. وصيغة (نزعنا) بفعل الماضي للإيذان بتحققه فأهل الدنيا تشوب علاقاتهم الخصام والعداوة والحسد مما ينغص حياتهم. أما أهل الجنة فهم متوادون يغمرهم الحب والسلام الذي يضفي عليهم سعادة وطمأنينة ﴿تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ فيرونها وهم في غرفات قصورهم تتدفق في جنات النعيم فيزدادون سروراً لا يشوبه كدر.

﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّه الذي هَدَانَا لِهَـذَا﴾ وقال المؤمنون حين رأوا كرامة الله لهم في الجنة: الحمد لله الذي هدانا لهذا النعيم المقيم بما وفقنا الله من الإيمان به والعمل الصالح ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وما كان من شأننا ولا من مقتضى عقولنا أن نهتدي إلى الله بأنفسنا لو لا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا باتّباع رسله ومعونته لنا على طاعته ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ لقد أتتنا رسل الله بالحق من عند ربنا فاهتدينا بهديهم ودخلنا الجنة مصداقاً لما وعدنا الله به ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ وتناديهم الملائكة أو يناديهم الله تعالى تشريفاً لهم: هذه الجنة التي أورثكم الله إياها بطاعتكم ربكم وما قدمتوه من عمل صالح. وعبّر القرآن عن دخولهم الجنة بالتوريث، للإيذان بكمال استحقاقهم لها كما هو شأن الميراث لا يأخذه إلا من يستحقه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا
وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ
يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا
تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ
مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا
يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

شرح المفردات

فأذّن مؤذن: نادى منادٍ.

يصدون عن سبيل الله: يُعرضون عن دين الله ويمنعون الناس عنه.

ويبغونها عِوَجاً: ويريدون تغيير دين الله وتبديله عمّا جعله مستقيماً.

الأعراف: سور بين الجنة والنار، والأعراف: جمع عُرف وكل مرتفع من الأرض فهو عُرف.

بسيماهم: بعلاماتهم المميزة لهم.

ما أغنى عنكم جمعكم: ما نفعتكم كثرتكم أو جمعكم للمال.

صورة قاتمة عن أصحاب النار

ثم تنتقل بنا آيات القرآن لتخبرنا عن مشهد من مشاهد الآخرة حيث يجري حوار بين أهل الجنة وبين أهل النار ويفصل بينهما حجاب، فيخاطب بعضهم بعضاً بما يزيد أهل الجنة عرفاناً بمزيد نعمة الله عليهم ويزيد أهل النار حسرة وألماً، وفي هذا تنبيه للإنسان في الدنيا لما ينتظره في الآخرة من عذاب أو نعيم ليسلك الطريق الذي فيه نجاته ويرجع إلى الله تائباً.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الجنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أي ونادى أهل الجنة أهل النار بقولهم: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا على لسان رسله من النعيم والكرامة حقاً ﴿فَهَلْ وَجَدْتُّم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ فهل وجدتم ما توعدكم الله به من العذاب حقاً ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ قال أصحاب النار متحسرين: نعم لقد وجدنا ذلك ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُم أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ التأذين: رفع الصوت بالإعلام بالشيء، أي فنادى منادٍ من الملائكة ـ بين أهل الجنة وأهل النار ـ بأن الطرد والإبعاد من رحمة الله واقعان على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسل الله وعصيانهم أمر ربهم.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ والصد: المنع، والذين يصدون عن سبيل الله هم من امتنعوا عنه ولم يتبعوه، وصدوا غيرهم عن اتباعه بالطعن بدين الله وإلقاء الشبه عليه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ويطلبون لدين الله المستقيم العوج بأن يغيروا طريقته التي شرعها الله لعباده، وأن يجعلوا دين الله على هواهم بتحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله، وبما يزيدون عليه من البدع التي تشوهه وتنفر الناس منه ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ وهم بلقاء الله وثوابه وعقابه جاحدون.

﴿وَبَيْنَهُما حِجَابٌ﴾ وبين الجنة والنار حجاب وهو سور يفصل بينهما، ولهذا لا يصيب أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم الجنة ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ والأعراف: جمع عُرف وهو كل مرتفع في الأرض، ومنه قيل عُرف الديك وعُرف الفرس، لارتفاعه عن سائر جسمه. والمعنى: وعلى أعالي هذا السور[1] رجال يعرفون كلاًّ من أهل الجنة ومن أهل النار بعلاماتهم المميزة لهم: أهل الجنة يُعرفون بنضرة الوجوه وحسنها، وأهل النار يُعرفون بقتامة

(١) هذا السور هو ما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] أي باطن هذا السور الرحمة من ناحية أهل الجنة وظاهره المواجه لأهل النار فيه العذاب. وهذا السور أو الحجاب هو المسمى بالأعراف.

الوجوه وقبحها. وهؤلاء الرجال الذين هم على أعالي السور قيل فيهم عدة أقوال منها:

ـ هم فضلاء المؤمنين وكان ذلك زيادة في ثوابهم ومبالغة في كرامتهم.

ـ هم الأنبياء والرسل لأنهم شهداء على قومهم فيمن اتبعهم وفيمن أعرض عنهم.

وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فحبسوا هناك حتى يقضي الله فيهم.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة بالتحية لهم وإخبارهم بسلامتهم من العذاب والآفات حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها بعد وهم يطمعون في دخولها، أو أن أصحاب الأعراف يطمعون في دخولها.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وإذا حولت أبصار أهل الأعراف جهة أصحاب النار، وقد جاء التعبير بلفظ (صُرِفَتْ) وهو الفعل المبني للمجهول الذي يفيد أنهم لم يلتفتوا إلى جهة أهل النار إلا مجبرين على ذلك لا باختيارهم لأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وعند رؤية رجال الأعراف أهل النار وما يقاسونه من العذاب تضرعوا إلى الله بأن لا يجعلهم معهم.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ والظاهر أن هذا النداء صادر من بعض أصحاب الأعراف لمن كانوا يعرفونهم من الزعماء والأغنياء الذين أبطرهم غناهم، واحتقروا ضعفاء المؤمنين لفقرهم، نادوهم وهم يُعذَّبون في نار جهنم على سبيل التوبيخ: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى[1] عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي هل نفعكم ودفع عنكم عذاب جهنم جمعكم للمال وكثرة أتباعكم

(١) ما أغنى: يجوز أن تكون (ما) استفهامية للتوبيخ والتقريع ويجوز أن تكون (ما) نافية.

وما كنتم تستكبرون على الضعفاء والفقراء، ثم يشيرون إلى أولئك الضعفاء ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ أي أهؤلاء الذين احتقرتموهم في الدنيا وحلفتم بأن الله لا يصيبهم برحمة في الآخرة لأنه لم يعطهم في الدنيا مثل ما أعطاكم من مال وسلطان، وهنا ينادي منادٍ من قِبَلِ الله تعالى على هؤلاء الفقراء فيقول لهم: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من العذاب النازل بالكفار، ولا تحزنون على ما فاتكم من الدنيا فإن الله عوضكم عنها بما تقر به أعينكم، وقد يكون النداء صادراً من أصحاب الأعراف للمؤمنين حين رأوهم يشرعون في دخول الجنة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

شرح المفردات

أفيضوا علينا من الماء: صبّوا علينا الماء.

غرّتهم الحياة الدنيا: خدعتهم الحياة الدنيا بزخارفها وزينتها وما هم فيه من رفاهية.

يجحدون: ينكرون.

فصّلناه على عِلْمٍ: بيّنا فيه أصول التشريع على علم منا.

هل ينظرون إلا تأويله: أي هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به في القرآن من العقاب والحساب.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: وغاب عنهم ما كانوا يكذّبون بقولهم إن الله شركاء يشفعون لهم.

معاناة الكافرين في جهنم

ولمّا بيّن الله تعالى ما يقوله أصحاب الأعراف لأهل النار أتبع ذلك بذكر ما يقوله أهل النار لأهل الجنة:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ينادونهم من شدة العطش والجوع وما يقاسونه من العذاب قائلين: صبّوا علينا الماء وأطعِمونا مما رزقكم الله. فقد طلبوا الماء لإرواء ظمئهم وإطفاء الحريق الذي يشوي أجسادهم، وكلمة **﴿أَفِيضُوا﴾** تحمل معنى التوسعة والإعطاء بكثرة، كما أنها تُشعر بأن أهل الجنة هم أعلى مكاناً من أهل النار، فأجابهم أهل الجنة **﴿قَالوا إنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرينَ﴾** أي منعهما منعاً كلياً عليكم فلا نستطيع أن نعطيكم شيئاً ونخالف ما حكم الله به عليكم.

ثم بيّن الله السبب الذي أدى بهم إلى هذا المصير السيّىء:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي اتخذوا دينهم صُوراً ورسوماً لا تزكّي نفساً ولا تطهّر قلباً ولا تهذّب خُلُقاً، وكان اشتغالهم به على هذا النحو إضاعة للوقت فيما لا يفيد وهو بمثابة اللهو واللعب. وإن العلة الحقيقية لمسلكهم هذا هي اغترارهم بزخارف هذه الحياة، وانكبابهم على شهواتها غير آبهين لما حرّمه الله عليهم.

﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِم هَذَا﴾ من معاني النسيان في اللغة: الترك والإهمال وهذا هو المعنى المناسب للآية لأن الله سبحانه لا ينسى. والمعنى: أي يوم القيامة يتركهم الله في العذاب كالمنسيين ويهمل أمرهم كما تركوا العمل الصالح في

الدنيا استعداداً للقاء هذا اليوم ﴿وَمَا كانوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ولأنهم كانوا ينكرون آيات القرآن ولا يقرّون بأنها من عند الله.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي ولقد أنزلنا إليهم هذا القرآن مفصّلاً مبيناً الحق من الباطل، ومشتملاً على العقائد والأحكام والمواعظ عالمين بما يحتاج إليه البشر لإصلاح نفوسهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا الكتاب فيه الهداية لمن يعملون بإرشاداته، وهو رحمة للذين يصدّقون به فيستجيبون لتوجيهاته، فينقذهم من الضلال، ويرشدهم إلى الهدى، ويخلصهم من الشقاء ويأخذ بيدهم إلى السعادة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ النظر: هنا بمعنى الانتظار، أي هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا ما توعّدهم القرآن وما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله لهم في الدنيا ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ يوم القيامة تتحقق عاقبة ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول الذين تركوا القرآن كالمنسيّ فلم يعملوا بهديه، يقولون عند معاينة العذاب: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قد جاءت رسل الله بالحق وهو الدعوة إلى وحدانية الله والعمل الصالح والإيمان بالبعث، والثواب والعقاب في الآخرة، ثم يقولون وهم يقاسون العذاب ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي هل من شفعاء يشفعون لنا عند الله فيرفع عنا ما نحن فيه من العذاب ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو هل نُردُّ إلى الدنيا أحياء فنعمل فيها غير ما كنا نعمل من الشرك بالله والمعاصي، ونعمل ما يكون سبباً لمرضاة الله ونيل ثوابه ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لقد خسروا أنفسهم في الحياة الدنيا لكفرهم بالله وانغماسهم في المعاصي، كما خسروا في الآخرة حين حرمهم الله من دخول الجنة وصاروا من أهل النار ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وظهر بطلان ما كانوا يختلقونه من الكذب من أن الأصنام شركاء لله وشفعاؤهم يوم القيامة.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ
مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟
رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ
يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

شرح المفردات

يُغشي الليل النهار: يغطي الليل النهار بظلمته فيذهب ضوؤه.

يطلبه حثيثاً: يطلب الليل النهار طلباً سريعاً.

تبارك الله: تعالى وتقدس وكثر خيره.

تضرعاً: مظهرين التذلل والخضوع والخشوع.

وخفية: سراً في قلوبكم.

بُشْراً بين يدي رحمته: مبشرات بالمطر الذي هو من رحمة الله.

أقلّت سحاباً ثقالاً: حملت سحاباً مليئاً بالأمطار.

لبلد ميت: لبلد عديم الحياة لا ماء فيه ولا نبات.

لا يخرج إلا نكداً: لا يخرج نباته إلا قليلاً.

نصرّف الآيات: نبين الآيات ونكررها بأساليب مختلفة.

من مظاهر قدرة الله وفضله على الناس

ثم ينتقل القرآن إلى بيان عظمة الإبداع الإلهي في هذا الكون بما يثير دواعي الإيمان بالخالق إجلالاً وخشوعاً له:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن ربكم وسيدكم ومصلح أموركم أيها الناس هو الله المعبود بحق الذي خلق السماوات وما فيها من بلايين النجوم والكواكب وغيرها، وخلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ومعادن وكائنات حية وأنواع لا حصر لها من النبات، خلق الله ذلك كله في ستة أيام، وأيام الله ليست كأيامنا، والمراد ستة أوقات من الزمن لا ندري طولها، وقد جاء في القرآن: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد تكون أيام الله أطول من ذلك. قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار ويأتي بمعنى الاستيلاء أي أن الله استوى بلا كيف على الوجه الذي يليق به مع تنزّهه عمّا لا يجوز عليه. والعرش سرير الملك «وكنّي به عن العز والسلطان والمملكة.. وعرش الله مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له، تعالى الله عن ذلك»[1] والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر: ٤١].

ويقول الإمام القفال: المراد من ذلك أنه استقام ملكه واطرد أمره، ونفذ حكمه تعالى في مخلوقاته، والله تعالى دلّ على ذاته وصفاته، وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم، واستقر في قلوبهم تنبيهاً على عظمته وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه.

---

(١) مفردات غريب القرآن للأصبهاني.

وقد ذهب الكثير من العلماء إلى أن صفات الله تعالى هي بلا كيف، ولا انحصار، ولا تشبيه ولا تمثيل.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي يجعل الله الليل كالغشاء، فيغطي بظلمته ضياء النهار، ولم يذكر الله ما يحصل لضوء النهار اكتفاء بذكر أحدهما. وتغطية الليل للنهار كناية عن دوران الأرض حول محورها، فنصف الأرض المواجه للشمس يكون فيه النهار، والنصف الآخر من الأرض يكون فيه الليل ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ أي يطلب الليل النهار طلباً سريعاً، فالحثيث: السريع، ويقال ولّى حثيثاً أي مسرعاً[(١)].

﴿والشَّمْسَ وَالقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي وخلق الله الشمس والقمر خاضعين لإرادته، مسخّرين بقضائه وتصريفه، وتخصيص الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في خلق السماوات لمزيد فوائدهما لكوكبنا الأرضي ﴿ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ الخلق: إيجاد الأشياء من العدم، والأمر: التدبير والتصرف على حسب الإرادة الإلهية. فالله سبحانه هو الخالق والمدبر لشؤون الكون على حسب إرادته، فهذا الوصف الموجز من الله يستوعب جميع الأمور التي تتعلق بصفاته على غاية الاستقصاء ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ أي كثر خيره وإحسانه، من البركة بمعنى الكثرة من كل خير، أو بمعنى: تمجّد وتعظّم وتقدّس، فالله سبحانه أحسن الخالقين لأنه هو الذي خلق الكون ودبره أحسن تدبير، أما جميع الآلهة التي عبدها البشر ـ عبر العصور ـ فهي عاجزة عن الخلق والتدبير ولا تصلح للربوبية.

---

(١) في بدء خلق الأرض كانت سرعة دوران الأرض حول محورها عالية للغاية، هذا ما أظهرته الدراسات العلمية في صخور الأرض وفي هياكل الحفريات من الكائنات الحيوانية. ثم بدأت دورة الأرض تتباطأ حتى وصلت إلى إتمام دورتها حول نفسها في أربع وعشرين ساعة وهو طول النهار والليلة في زماننا الراهن. والسرعة الفائقة في دوران الأرض حول محورها أمام الشمس عند بدء الخلق سجلتها الجملة القرآنية ﴿يطلبه حثيثاً﴾ والتي سبق بها القرآن كافة المعارف البشرية بأكثر من ألف وأربعمائة من السنين. نقلاً عن الدكتور زغلول النجار باختصار.

﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾ أي سلوا ربكم حوائجكم فإنه تعالى يسمع الدعاء ويجيب دعاء المضطر ادعوه بخشوع وتذلّل واستكانة، وسرًّا في أنفسكم فإن الصياح في الدعاء تجاوُز للأدب وقد كان المسلمون الأولون يجتهدون في الدعاء ولا يُسمع لهم صوت وهم يناجون ربهم. وفي الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال لقوم يجهرون بالتكبير: أيها الناس أربعوا[١] بأنفسكم إنكم ليس تدعون أصمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم وهو أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته[٢]»[٣] ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المعْتَدِينَ﴾ إن ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حدّه الذي رسمه الله لعباده في دعائه وسؤاله ربه، والمجاوزة في الدعاء تكون كأن يسأل الداعي ربه ما ليس له كالخلود في الدنيا، أو يطلب منزلة نبي، أو يطلب المحال، أو يدعو بمعصية.

﴿ولا تُفسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ أي لا تفسدوها بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق. هذا القِسْمُ من الآية فيه تحذير من تلويث البيئة التي يعيش فيها الإنسان الذي أفسد بيئته براً وبحراً وهواء في عصرنا الحاضر، بما يتصاعد من السيارات والمعامل من دخان المحروقات فترتب على ذلك كثرة الإصابة بأمراض الرئة والربو وغيرهما، وكذلك ما تؤدي مخلّفات المعامل السامة من تلويث المياه الجوفية والآبار، وتلويث الكثير من شواطىء البحار مما انعكس سلباً على صحة الإنسان.

ويشمل الفساد في الأرض قتل الناس بغير حق وتخريب منازلهم أو هدمها وقطع أشجارهم، ويكون فساد الإنسان كذلك بالزنا واللواط وتعاطي الخمور والمخدرات.
﴿وادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي ادعوا ربكم وأنتم على رهبة وخوف منه ورغبة في

---

(١) ارفقوا بها واقصروا من الصياح.
(٢) راحلته: ناقته.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

رحمته وفضله وإحسانه، حتى يكون الرجاء والخوف من الله للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه إلى طريق الاستقامة ويجنّبانه المساوىء والبعد عن الله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ورحمة الله لعباده عبارة عن التفضل والإنعام عليهم وإيصال الخير لهم، أي أن رحمة الله قريبة من المحسنين في أفعالهم المتقنين لها.

فمن أحسن في العبادة نال القُربى من الله والرضى منه، ومن أحسن إلى الفقراء ابتغاء وجه الله نال الثواب منه، ومن أحسن في أمور الدنيا وأتقن عمله نال حسن النجاح، لأن الجزاء من جنس العمل ولهذا جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ فالله وحده هو الذي يطلق الرياح مبشرة بنزول المطر، فما يجري في الكون من أمور وأحداث هو بتصريف الله سبحانه، وهي لا تجري على طبيعتها خارجة عن إرادة الله، لهذا عند احتباس المطر شرع الإسلام صلاة الاستسقاء التي يطلب فيها المصلون من الله أن يمنّ عليهم بالمطر.

والرياح كما هي معلومة جعلها الله خاضعة لعوامل الضغط الجوي، ولمناطق الكرة الأرضية ولفصول السنة: فالرياح تحمل الأبخرة المتصاعدة من البحار والأنهر وتصعد بها إلى طبقات الجو العالية الباردة ويزداد تكاثفها فتتكون السحب ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً سُقْنَاهُ لبَلَد مَيِّتٍ﴾ أي حتى إذا حملت الرياح السحب المثقلة بالماء، ساق الله تلك السحب نحو بلد أصابه الجفاف لا نبات فيه ولا مرعى، يشبه الميت في بطلان نفعه ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ فأنزل الله المطر بهذا البلد الميت، فأخرج به أنواعاً من كل الثمرات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الموْتَى لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ أي وبمثل ذلك الإحياء للأرض بالماء وإنبات النبات فيها يُخرج الله الموتى أحياء يوم البعث للحساب والجزاء على أعمالهم لعلَّكم ـ أيها الناس ـ تتذكرون قدرة الله سبحانه وتتعظون من ذلك.

﴿والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي والأرض الطيبة الخصبة تنتفع بالمطر فيخرج نباتها نامياً كثير الحَبِّ والثمر ﴿والَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً﴾ والمقصود بالبلد الذي خبث: الأرض السبخة الملحية التي لا تنتفع بالمطر، فهي لا يخرج نباتها وثمرها إلاّ قليلاً عديم الفائدة ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي كذلك يبين الله الحجج ويضرب الأمثال على قدرته وحكمته آية بعد آية لقوم يشكرونه على إنعامه عليهم بالهداية.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فقد شبه نزول القرآن بالمطر، وشبه الله المؤمن بالأرض الطيبة التي ينزل عليها المطر فينبت فيها أنواع النبات وتثمر من كل الثمرات، وشبّه الكافر بالأرض السبخة الفاسدة فهي وإن نزل عليها المطر لا ينبت فيها النبات ولا تعطي شيئاً من الثمرات، وهكذا المؤمن ينتفع بالقرآن وتظهر آثار الهداية في أفعاله وأقواله، وأما الكافر فلا ينتفع به شيئاً ويظل على كفره وفجوره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

شرح المفردات

الملأ: السادة والأشراف.

وأنصح لكم: أتحرى ما فيه صلاحكم قولاً وفعلاً.

ذِكْرٌ من ربكم: تذكير ووعظ من خالقكم.

لينذركم: ليخوفكم ويحذّركم عاقبة كفركم.

الفلك: السفينة.

عمين: عمي القلوب عن الحق والإيمان.

قصة النبي نوح عليه السلام

وبعد أن ذكر القرآن الدلائل والبراهين على قدرة الله في هذا الكون، أتبع ذلك بالكلام عن سيرة بعض الأنبياء مع أقوامهم الذين كفروا، وكيف أهلكهم الله بسبب تكذيبهم رسل الله ومن هؤلاء قوم نوح الذين كانوا يعبدون الأصنام، ويتخذونها آلهة من دون الله فاصطفى الله نوحاً نبياً من قومه ليحذّرهم ويخوّفهم من عذاب الله إن استمروا على ضلالهم وكفرهم.

ونوح هو أول نبي بعثه الله رسولاً إلى قومه بعد نبوة آدم وإدريس قال تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** أي قال نوح لقومه: اعبدوا الله وحده فإنه هو وحده الذي يستحق العبادة، ليس لكم من إلّه غيره، أما آلهتكم التي صنعتموها بأيديكم ـ أي الأصنام ـ فإنها لا تستحق العبادة **﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** إني أخاف عليكم إن لم تقبلوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم الهول، وهذا اليوم هو إما يوم القيامة وإما عذاب الطوفان الذي أهلكهم الله به.

﴿قَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي قال الأشراف من قوم نوح: إننا لنراك يا نوح في ضلال واضح، يقصدون بذلك أن عبادتهم للأصنام هي حق، فأجابهم نوح بأسلوب رقيق مهذب: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾** والتاء في ضلالة للمرة الواحدة، فهو نفي أن يكون فيه ضلالة واحدة، فضلاً عن أن يحيط به الضلال، فبالغ في نفي الضلال عنه، وتابع نوح قائلاً: **﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ**

العَالَمِينَ﴾ أي أرسلني الله إليكم لأهديكم إلى سبيل الرشاد، وأنقذكم من الهلاك بسبب ما أنتم عليه من الشرك بالله **﴿أُبلّغُكُم رِسَالاَتِ رَبي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾** أبلغكم ما أَوْحَى الله إليَّ بأن تعبدوه وحده، وأن تعملوا بالأحكام التي أمركم بها التي تصلح أحوالكم، وأنصح لكم باتباعها لتحصلوا على ثواب الله وتنجوا من عقابه، والنصح من نوح كان إرادة الخير لقومه **﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** وأعلم من الله الأمور الغيبية، ومن شدة بطشه بأعدائه ما لا تعلمون.

ثم قال نوح لقومه: **﴿أَوَ عَجِبتُم أَنْ جَاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** أي أكذبتم رسالة الله إليكم الذي أرسلني بها، وعجبتم لتذكير ووعظ من خالقكم **﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُم﴾** على لسان رجل منكم تعلمون حاله من الصدق، وأنه لا يبتغي إلاّ الخير لكم **﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾** ليحذّركم ويخوّفكم من عذاب الله بسبب إعراضكم عن عبادته ومخالفة أمره، وتجنّب غضب الله تعالى بالامتناع عمَّا نهاكم عنه **﴿وَلَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾**رجاء أن تفوزوا برحمة الله في الدنيا والآخرة. وحرف الترجي (لعلّكم) فيه تنبيه إلى أن تقوى الله ليست وحدها موجبة للرحمة الإلهية، وأن الرحمة منوطة بفضل الله، وأن المتقي ربه ينبغي ألا يعتمد على تقواه فقط، بل عليه أن يرجو دائماً رحمة ربه.

﴿فَكَذَّبوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ والَّذِينَ مَعَهُ في الفُلْكِ﴾ فأصر قوم نوح على تكذيبه، واستمروا على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً على كفرهم إلى أن حق عليهم العقاب، فأمر الله نوحاً ببناء سفينة ليركبها ومن آمن معه للنجاة من الطوفان الذي قَدَّرَهُ الله لإهلاك قومه الكافرين **﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كانوا قَوْماً عَمِينَ﴾** وأغرق الله قوم نوح بالطوفان بسبب تكذيبهم بآيات الله المنزلة على نوح، وتكذيبهم بالدلائل والبراهين على ربوبية الله وحده لهذا الكون. إنهم كانوا قوماً عمي البصائر عن الحق، لا يبصرون ما يسعدهم وما يُرضي الله عنهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا
لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟
ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ
وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا
دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

شرح المفردات

وإلى عاد: وأرسلنا إلى قبيلة عاد.

في سفاهة: في خفة عقل.

ذِكْرٌ من ربكم: موعظة من ربكم.

خلفاء من بعد قوم نوح: أي تخلفون في الأرض قوم نوح بعد هلاكهم.

بسطة: سعة في القامة وقوة في الجسم.

آلاء الله: نعم الله عليكم.

نذر: نترك.

رجس: عذاب.

من سلطان: من حجة تحتجون بها وليس فيها دليل.

وقطعنا دابر الذين كذّبوا: أي استأصل الله المكذبين ولم يُبقِ منهم أحداً حياً.

قصة قبيلة عاد

وبعد الكلام عن قوم نوح تنتقل بنا الآيات للكلام عن قوم عاد. وعاد قبيلة من العرب البائدة أي الذين هلكوا ولم يبق منهم أحد. وكانت منازل عاد بوادي الأحقاف بأرض اليمن بين عُمان وحضرموت، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم رسوله هوداً لهدايتهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُم هُوداً﴾ أي وأرسلنا إلى عاد واحداً منهم في النسب هو النبيّ هود عليه السلام ﴿قالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال لقومه: اعبدوا الله واتركوا عبادة الأصنام فليس لكم إلَه يستحق أن يُعْبَد غير الله ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي أفلا تخشون الله وتتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عذابه؟

ولقد رأى القوم في كلام هود جرأة آلمتهم وجرحت كبرياءهم فردوا عليه بغلظة وسوء أدب:

﴿قَالَ الملأُ الَّذِين كَفَروا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرَاكَ في سَفَاهَةٍ﴾ أي قال الأشراف الذين كفروا من قوم هود: إننا لنراك مُتَّصِفاً بخفة في العقل والجهل حيث فارقت دين قومك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ لقد ظنوا به الكذب، وهذا الظن لم يبلغ بهم إلى درجة اليقين لأنهم كانوا يعلمون عنه الصدق والسيرة الحسنة قبل النبوة.

أجابهم هود: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بي سَفَاهَةٌ ولَكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ أي ليس بي خفة في عقلي كما تدّعون ولست كاذباً ولكني رسول الله إليكم من رب العالمين الذي هو رب كل شيء والمدبر والمربي للخلق ﴿أُبلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبّي وَأَنا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أبلغكم أوامر ربي وما نهاكم عنه، وأنا ناصح لا أبتغي إلا الخير لكم، أمين على ما أرسلني الله به إليكم من الوحي لا أكذّب فيه ولا أزيد.

﴿أَوَ عَجِبْتُم[1] أَنْ جَاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُم عَلَى رَجُلٍ مِنْكُم لِيُنْذِرَكُمْ﴾

---

(١) أوعجبتم: الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره: أكذّبتم وعجبتم.

أي أكذبتم وعجبتم أن جاءتكم موعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه وسيرته الحسنة، وقد جاء ليحذركم ويخوّفكم عاقبة كفركم، إنه لا عجب في هذا الأمر. ثم أشار النبي هود إلى ما حلّ بقوم نوح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي واذكروا فضل الله عليكم إذ جعلكم خلفاء في الأرض من بعد هلاك قوم نوح ﴿وَزَادَكُم فِي الخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي زادكم عن أمثالكم من الناس سعة في أجسامكم فجعلكم طوال القامة أشداء الأجسام ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما خصّكم به لعلّكم تفوزون برضاه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استغرب القوم أن يدعوهم نوح لعبادة الله وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام والآلهة، فعبادتهم هذه منشؤها تقليد الآباء بغير رويّة ولا تفكير، وهكذا كان التقليد الأعمى للآباء هو عقبة في سبيل تقبّل الحقائق، وهو يؤدي بالعقل إلى الجمود والتخلف. وتابع قوم هود قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتنا يا هود بما هددتنا به من نزول العذاب فينا لعبادتنا الأصنام إن كنت من أهل الصدق فأجابهم هود: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِن رَبِّكُم رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي قد حل بكم عذاب وسخط من ربكم بسبب رفضكم دعوتي إياكم إلى عبادة الله وحده ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآبَاؤُكُم﴾ أي أتخاصمونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة مع أن معنى الألوهية فيها معدوم، فالألوهية لها صفة النفع والضر أما أصنامكم فهي من صنع أيديكم لا تنفع ولا تضر ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما جعل الله لها من حجة وبرهان يدلاّن على ألوهيتها ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ المُنْتَظِرِينَ﴾ فانتظروا عقاب الله، إني معكم أنتظر ما يحل بكم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وبعد إنذار هود لهم نزل العذاب بهم كما أوعدهم به فأنجاه الله والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ

الذين كذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كانوا مُؤْمِنِينَ﴾ واستأصل الله المكذبين بآيات الله عن آخرهم فلم يبق منهم أحداً، وكان هلاكهم بالريح العاتية القوية التي استمرت تعصف سبع ليال وثمانية نهارات.

أما هود عليه السلام فقد أنجاه الله ومن آمن معه فجاءوا مكة وتركوا ديارهم قبل نزول العذاب بقومهم وعبدوا الله تعالى إلى نهاية آجالهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟
يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٧٩) ﴾

شرح المفردات

وإلى ثمود: أي وأرسل الله إلى قبيلة ثمود.

بيّنة: معجزة ظاهرة واضحة.

آية: معجزة.

فذروها: فاتركوها.

وبوّأكم في الأرض: وأنزلكم في الأرض وجعل لكم فيها منازل.

وتنحتون الجبال: تنحتون الأحجار منها لبناء البيوت أو تتخذون في الجبال بيوتاً تنحتونها.

آلاء الله: نعم الله.

ولا تعثوا في الأرض: ولا تسعوا فيها بالإفساد.

الملأ: الأشراف.

فعقروا الناقة: فذبحوها.

وعتوا عن أمر ربهم: استكبروا عن امتثال أوامر الله.

فأخذتهم الرجفة: فأهلكتهم الزلزلة.

جاثمين: ميتين.

قصة قبيلة ثمود

ثمود قبيلة من العرب البائدة أي التي هلكت ولم يبق منها أحد وقد سمِّيت باسم جدّهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح. وكانت مساكنهم بالحِجْر بين الحجاز والشام وآثارهم باقية في بلادهم إلى اليوم، وقد بلغوا درجة متقدمة من الحضارة وفن العمارة.

وكان أهل ثمود يعبدون الأصنام ويتخذونها آلهة من دون الله، فأرسل الله إليهم رسوله «صالحاً» يعظهم وينصحهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، فلم يؤمنوا بالله ولم يتبعه إلا قليل منهم. فلما ألح عليهم بالوعظ والإنذار من عقاب الله طلبوا منه معجزة تشهد بأنه مُرسل من عند الله فأيده الله بالناقة التي أخرجها الله على غير المألوف، وقد روي أن صالحاً قال لقومه اخرجوا إلى هضبة من هضاب الأرض فخرجوا فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل ثم إنها انفرجت فخرجت من وسطها الناقة، ولكن ليس هناك دليل جازم على كيفية حدوثها.

وكان من عظم شأن هذه الناقة أنها إذا وضعت فمها في الماء شربته كله لذلك جعل الله لها يوماً تختص فيه بشرب الماء ولهم يوم آخر لا تشاركهم في شربه وفي هذا

جاء في القرآن ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وكانت تعطيهم لبناً بدل الماء في اليوم الذي تختص فيه بشرب الماء فيشربون من لبنها ويدّخرون، وبعد هذه المقدمة نرجع إلى ما جاء في هذه السورة في شأنهم، يقول الله تعالى:

﴿وَإِلَى ثَمودَ أَخَاهُم صَالِحاً﴾ أي ولقد أرسل الله إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً في النسب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال صالح: يا قوم اعبدوا الله وحده الذي لا شريك له فليس لكم من إلَه غير الله يستحق العبادة ﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قد جاءتكم معجزة وبرهان على صدق ما أقول ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُم آيَةً﴾ أي هذه الناقة التي خلقها الله هي معجزة منه إليكم، وقد أضاف صالح الناقة إلى الله تعظيماً لشأنها، ولأنها جاءتهم من عند الله بلا وسائط وأسباب معهودة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ اللَّهِ﴾ فاتركوها تأكل وترعى في أرض ربها، فهذه الناقة ناقة الله والأرض أرض الله فليس لكم أن تحولوا بينها وبين رزقها ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُم عَذَابٌ أليمٌ﴾ ولا تتعرضوا لها بالأذى والسوء كمنعها من الماء أو المرعى، وغير ذلك من أنواع الإيذاء كالضرب والقتل، فإن فعلتم ذلك فسيحلّ بكم عذاب من الله شديد الإيلام.

ثم ذكّرهم صالح بنِعَم الله عليهم التي تستوجب شكره وعبادته وحده:

﴿واذْكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ وتذكّروا فضل ربكم عليكم حيث جعلكم تخلفون قوم عاد في الأرض بعد هلاكهم ﴿وَبَوَّأَكُم في الأَرضِ﴾ أي أنزلكم وأسكنكم فيها ومتعكم بخيراتها ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً﴾ أي تقيمون على سهولها قصوراً لسكناكم بما حذقتم من فنون البناء ﴿وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً﴾ أي وتنحتون من صخور الجبال حجارة تبنون بها بيوتاً.

وفي هذا ما يدل على أنهم بلغوا في فن العمارة شأواً بعيداً في ذلك العهد الضارب في القدم. ثم تابع صالح قوله: ﴿فَاذْكُروا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ

﴿مُفْسِدِينَ﴾ أي تذكّروا نِعَمَ الله عليكم في ذلك واشكروه بعبادته وحده، ولا تجعلوا من هذه النعم وسيلة للفساد في الأرض والطغيان على الناس.

﴿قَالَ الملأُ الَّذِين اسْتَكْبَروا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِين اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم﴾ أي أن الأشراف المتكبرون من قوم صالح قالوا للذين آمنوا من المستضعفين الذين اتبعوا رسول الله ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قد يراد بهذا السؤال التهكم والاستهزاء بالمؤمنين، وقد يراد به استفهامٌ حقيقي، فأجاب المؤمنون في ثقة وجرأة: ﴿قَالُوا إنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي إننا بما أُرسل به صالح من عند ربه من الوصايا، مؤمنون ومصدّقون بها لأنها هي الحق، وهذا الردّ منهم يدل على جرأتهم وقوة إيمانهم.

﴿قَالَ الَّذين اسْتَكْبَرُوا إنَّا بِالَّذي آمَنْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي قال أولئك المستكبرون للمؤمنين: إننا جاحدون منكرون للذي آمنتم به: وهو ما يدعو إليه صالح من عبادة الله وحده.

هذا وقد جرت سُنَّة الله في خلقه بأن الفقراء المستضعفين في الأرض هم أسرع الناس استجابة لدعوة رسل الله، لأن دعوة الرسل تدعو إلى المساواة بين البشر، وتنقذهم مما هم عليه من ذُلٍّ واستعباد، واستغلال على يد كبرائهم، بينما أكابر القوم والأغنياء المترفون يكفرون بدعوة الرسل لأنها تحدُّ من شهواتهم وتقضي على امتيازاتهم التي ولّدها الغنى والنسب والجاه.

إن انتشار دعوة صالح للإيمان بالله بين المستضعفين من قومه، ترك أثراً سلبياً على طبقة الأشراف، وكان من أثر ذلك أن أقدم أحدهم على قتل الناقة متحدّين ما أنذرهم صالح من عذاب الله إن هم مسّوها بسوء ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي فنحروا[١]

---

(١) النحر هو الذبح.

الناقة واقتسموا لحمها، وأسند القرآن نحر الناقة إلى جماعة مع أن الفاعل واحد وذلك لرضاهم بذلك العمل وموافقتهم عليه، ومن رضي بالحرام كمن فعله ﴿وَعَتَوْا[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم﴾ واستكبروا عن امتثال أمر ربهم بعدم التعرض للناقة بسوء.

ولم يكتفوا بنحر الناقة بل قالوا لنبيهم بتحدٍّ وجبروت ﴿وَقَالُوا يا صَالِحُ أئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلينَ﴾ نادوه باسمه استهانة به وقالوا ائتنا بما أوعدتنا به من العذاب إن كنت رسولاً من عند الله، وهكذا شأن الطغاة الذين يغترون بما عندهم من قوة وأنه لا يستطيع أحد ردعهم فيقترفون من المظالم ما يروق لهم. ولكن الله عجل العذاب لهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والرجفة هي الزلزلة الشديدة العظيمة، أي أهلكتهم الزلزلة. وجاء في موضع آخر من القرآن أن هلاكهم كان بسبب الصيحة: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧]. وفي موضع آخر: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧] أي أن عذابهم إنما كان بصاعقة سماوية اقترنت بصيحة هائلة وزلزلة في الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا في دَارِهِم جَاثِمينَ﴾ أي سقطوا على الأرض صرعى لا حراك بهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُم وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم رِسالَةَ رَبِّي﴾ أي فأعرض عنهم وقال: لقد أوصلت إليكم رسالة ربي بكل ما فيها من حق وعدل ﴿وَنَصَحْتُ لَكُم وَلَكِن لا تُحِبُّون النَّاصِحينَ﴾ أي لا تحبون الذين يرشدونكم إلى ما فيه خيركم. لقد ردّد صالح هذه الكلمات على مسامعهم قبل نزول العذاب بهم لأنه روي أنه خرج حينئذ ومن آمن معه من بين أظهرهم، أو أن خروجه كان بعد أن هلكوا وهو ظاهر معنى الآية وعلى هذا خاطبهم بعد موتهم على وجه التفجع عليهم أما كيفية نجاة صالح على هذا الوجه فلم يبيّنها لنا القرآن.

---

(١) يقال: عتا يعتو عُتُوّاً: إذا تجاوز الحد في الاستكبار.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم
مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

شرح المفردات

الفاحشة: الفعلة المتناهية في القبح والمقصود بها هنا اللواط.

إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء: إنكم لتباشرون الشذوذ الجنسي مع الرجال وتتركون مباشرة زوجاتكم.

مسرفون: مجاوزون الحد في المعصية.

من الغابرين: من الباقين في العذاب.

عاقبة: نهاية وجزاء.

قصة لوط عليه السلام

النبي لوط عليه السلام هو ابن أخي النبي إبراهيم عليه السلام. وكان لوط قد هاجر مع إبراهيم عليه السلام من أرض بابل في العراق إلى الشام، فنزل إبراهيم في فلسطين ونزل لوط في الأردن، وقد أرسله الله رسولاً إلى أهل قرية سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم عليه من المعاصي وأبرزها فاحشة (اللواط).

وقد وعظهم لوط عليه السلام ونصحهم وخوّفهم من عذاب الله إذا استمروا على فعل هذه الفاحشة فلم يرتدعوا. فلما ألحَّ عليهم بالموعظة هددوه تارة بالرجم

بالحجارة، وتارة بإخراجه من قريتهم، إلى أن جاءت الملائكة إلى لوط بصورة فتيان حسان وهو لا يعلم أنهم من الملائكة ونزلوا بضيافته، والملائكة مخلوقات جعل الله لها القدرة على الظهور بشكل بني آدم.

علم أهل قرية سدوم بنزول فتيان حسان في ضيافة لوط عليه السلام فاقتحموا بيته ليفعلوا فيهم فاحشة اللواط، فحاول لوط جاهداً في ردهم فلم يفلح، فطمس الله على أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا فيما يتصرفون فيه. ثم أخرج الملائكة لوطاً وابنتيه ومن آمن معه من القرية بعد أن أخبروه بحقيقتهم.

ولما جاء أمر الله بإهلاك هذه القرية جعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من طين متحجر زيادة في عذابهم.

وقد وردت قصة لوط في عدة سور من القرآن بتفصيلات لم تُذكر في هذه السورة وهنا في هذه السورة طرف من قصتهم. قال الله تعالى:

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ أي واذكر يا محمد ما قاله لوط لقومه موبخاً لهم منكراً عليهم فعلهم القبيح: أتعملون الفاحشة، والفاحشة هي الفعل الدنيء الذميم المتناهي في القبح وهو اللواط **﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ﴾** أي ما سبقكم إلى فعل هذه الفاحشة أحد من الناس فأنتم أول من أحدثها وابتدعها. ثم تابع لوط قوله:

﴿إِنَّكم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي إنكم لتأتون الرجال في أدبارهم تاركين زوجاتكم اللاتي هنّ محلّ لقضاء الشهوة، وموضع لطلب اللذة، فقوم لوط كانوا يشتهون ما هو جدير بالذم والاستنكار، كما أنهم يفسدون النساء بالإعراض عنهن **﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾** بل أنتم قوم عادتكم الإسراف والمبالغة في المعاصي والشهوات المحرمة.

فالله سبحانه وضع في الكون نظام الذكورة والأنوثة وجعل الإحساس الجنسي مشتركاً بينهما لبقاء النوع الإنساني والكائنات الحية، والذين يعدلون عن ذلك يخالفون سُنَّة الله في خلقه ويجاوزون حدود الله.

واللواط يجلب أضراراً للفاعل والمفعول به كما أثبت ذلك الطب الحديث كما ينقل مرض الإيدز، بالإضافة إلى السمعة السيئة عند تسرب أخبار الفاعلين إلى المجتمع.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَن قَالُوا: أَخْرِجُوهم مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما كان جواب قوم لوط على وعظ نبيهم وزجرهم عن هذه الفاحشة إلا أن قالوا لبعضهم البعض: أخرِجوا لوطاً ومن اتبعه وأطاعه من قريتكم ﴿إِنَّهم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرونَ﴾ والتطهر: حقيقته النظافة، وتطلق الطهارة مجازاً على تزكية النفس والترفع عن الآثام والقبائح وهي المراد هنا، لأنهم يعدّون الاستقامة والكمال الخلقي منافراً لطباعهم، كما أن كلامهم يحمل معنى التهكم والاستهزاء بلوط ومن آمن معه، والافتخار بما هم عليه من الرذائل الخلقية كما هو شأن أهل الدعارة.

ثم يبين القرآن بلمحة سريعة ما حل بقوم لوط:

﴿فأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي أنقذ الله لوطاً وأهله الذين آمنوا معه من العذاب الذي حلّ بهم إلا امرأته كانت من الباقين في القرية فأصابها العذاب كما أصاب أهل القرية جميعاً بسبب خيانتها لزوجها وعدم إيمانها.

وكانت نجاة لوط ومن آمن معه بأن أمرتهم الملائكة بالخروج من القرية ليلاً وبعد خروجهم منها جعل الله القرية عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً﴾ أي وأرسل الله عليهم مطراً عجيباً بيّنه الله في موضع آخر من القرآن ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وسجيل هو طين متحجر، فهلكوا جميعاً ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ﴾ الخطاب هنا لكل من يسمع هذه القصة من أهل النظر

والاعتبار، وإن عاقبة من يتعاطون اللواط هي حلول العذاب بهم، فلتحذر الأمم من شيوع الفساد وانتشار الفواحش فيها فإنها لا تسلم من عقاب الله على أفعالها.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

شرح المفردات

مدْين: مدينة واقعة قرب «معان» بطريق الحجاز، ويطلق اسم مدين كذلك على القبيلة الساكنة فيها.

بيّنة من ربكم: حجة ومعجزة من ربكم.

فأوْفوا الكيل والميزان: أعطوا الكيل والميزان حقه للغير.

لا تبخسوا الناس أشياءهم: لا تنقصوا الناس حقوقهم.

ولا تقعدوا بكل صراط توعدون: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق تخوّفون من آمن بالقتل.

وتصدّون عن سبيل الله: تمنعون الناس عن دين الله.

وتبغونها عوجاً: تودون سبيل الله أن تكون معوجّة.

فكثّركم: فزاد في عددكم وأغناكم.

يحكم: يقضي ويفصل.

قصة قبيلة مَدْين

مدْين هي أمة سمّيت باسم جدّها مَدْين بن إبراهيم الخليل عليه السلام. ومَدْين هو من زوجة إبراهيم الثالثة التي تزوجها في آخر عمره وهي سريّـة[١] اسمها قطورا. ومدْين تزوج ابنة نبي الله لوط عليه السلام وولد له عدة أبناء، ومن ذريتهم تفرّعت بطون مَدْين، وكانوا يسكنون بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر، وتنتهي أرضهم من الشمال إلى حدود مُعان من بلاد الشام وإلى نحو تبوك من جهة الحجاز.

وشعيب عليه السلام هو رسول من عند الله أرسله الله إلى أهل مَدْين، وكانوا أهل كفر يبخسون الكيل والميزان أي ينقصونهما للمشتري، ويفسدون في الأرض، ويقال لشعيب إنه خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته، وقد أُرسل إلى أمتين: أهل مدْين وأصحاب الأيْكة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قوم مدين أخاهم في النسب شعيباً الذي يمتد نسبه إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فقال شعيب لقومه: اعبدوا الله وحده فليس لكم من إلّه غيره يستحق العبادة ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُم﴾ أي قد جاءتكم حجة وعلامة من الله على صدق نبوتي. قد تكون هذه البينة معجزة أظهرها الله على يد شعيب، وقد يراد بالبيّنة حجة أوحاها الله لشعيب تبين بطلان ما هم عليه من الكفر والأفعال السيئة ﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ﴾ والكيل وعاء تُكال به السوائل، كما كانت تُكال به الحبوب من قمح وشعير وغير ذلك، أي أعطوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان بحيث يُعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان سواء في الشراء أو البيع ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تبخسوا: يقال بخسه حقه إذا نقصه إياه، أي لا

---

(١) سرية: أمة مملوكة.

تنقصوهم حقوقهم في المبايعات التي لا تقوم على الوزن والكيل، كما يشمل البخس الغش والحيل الخفية التي يقوم بها البائع أو المشتري للحصول كلٌّ على أكثر من حقه، وكذلك يشمل البخس الانتقاص من قدر العلماء وأصحاب الفضل والكفاءات والنيل منهم ظلماً وحسداً.

﴿ولا تُفسِدوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغي وعصيان، وإفساد كل ما تم إصلاحه على يد الأنبياء **﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إن كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾** أي ذلكم الذي أمرتكم به خير لكم في الدنيا والآخرة، فبادروا إلى الاستجابة لما أدعوكم إليه إن كنتم تؤمنون بالله ومصدّقين بنبوتي، أو كنتم ذوي إيمان بالحق.

﴿وَلاَ تَقْعُدوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ﴾ الصراط: هو الطريق، ومعنى توعدون: تتوعدون، والتوعد هو التخويف والتهديد، قيل إنهم كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيهددون من أراد الذهاب إليه والانضمام إليه **﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ﴾** وتفتنون من آمن بالله وتمنعونه عن طريق الهدى، وسبيل الله هو المفضي إلى رحمته **﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾** وتطلبون بأن يكون سبيل الله معوجّاً بإلقاء الشبه عليه **﴿وَاذْكُروا إِذْ كُنْتُم قَليلاً فَكَثَّرَكُم﴾** واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلي العدد فكثّر عددكم بالنسل وأغناكم بعد فقر **﴿وَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ المفْسِدِينَ﴾** وانظروا مصير المفسدين من الأمم التي كانت قبلكم كيف أهلكهم الله وأنزل بهم العذاب جزاء إعراضهم عن هدى الله وعصيانهم لأوامره.

وتابع شعيب مخاطبة قومه **﴿وَإِنْ كَانَ طائِفَةٌ مِنْكُم آمنوا بِالَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لم يُؤْمِنُوا﴾** أي وإن كان جماعة منكم صدّقوا بما جئتهم به من عند الله واتبعوني وجماعة أخرى لم يصدّقوا بما جئت به من الهدى ولم يتبعوني **﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾** أي فاصبروا وانتظروا حتى يفصل الله بيننا وبينكم بحكمه

العادل، وهذا القول تهديد ووعيد للكفار بما سيصيبهم من عذاب، وفي الوقت نفسه وعد للمؤمنين بالنصر وحثّ لهم على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى الكفار ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمينَ﴾ وهو خير من يفصل ويقضي بين العباد إذ لا معقّب لحكمه ولا ظلم فيه.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى
دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

شرح المفردات

لتعودن في ملّتنا: لترجعن إلى ديننا.

أولَوْ كنا كارهين: أتعيدوننا إلى كفركم مع كرهنا إياه.

افترينا: اختلقنا.

وما يكون لنا: ولا يجوز لنا، ولا يليق بنا.

وسع ربنا كل شيء علماً: أحاط ربنا علماً بكل شيء.

افتح بيننا وبين قومنا بالحق: احكم بيننا وبين قومنا بالعدل.

الرجفة: الزلزلة الشديدة.

جاثمين: يقال جثم إذا لزم مكانه لاصقاً بالأرض لا يبرح والمراد أنهم أصبحوا موتى لا يتحركون.

كأن لم يغنوا فيها: كأن لم يقيموا في ديارهم ناعمي البال.

فتولى عنهم: فأعرض عنهم.

فكيف آسى: الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحزن، والأسى هو الحزن.

تتمة قصة قبيلة مدْين

وبعد أن سمع قوم شعيب مواعظه لهم، أجابه بعضهم بقولهم:

﴿قَالَ الملأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ أي قال الأشراف المستكبرون: والله لنخرجنك يا شعيب ومن آمن معك من قريتنا **﴿أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾** أو لترجعن إلى ديننا فنصفح عنكم ونبقيكم في وطنكم. ولا يفهم من ذلك أن شعيباً كان كافراً من قبل، ولكن أتباع شعيب كانوا قبل دخولهم في دينه كفاراً فخاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه، هذا مع العلم أن شعيباً كان يخفي دينه ومذهبه فتوهموا أنه كان من قبل على دين قومه.

أمام هذا التهديد أجابهم شعيب **﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾** الاستفهام هنا للإنكار أي أنعود إلى ملتكم ولو كنا غير مقتنعين بها كارهين لها لأنها منافية للعقول السليمة؟ لا لن يكون ذلك في أي حال من الأحوال.

وتابع شعيب قوله: **﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُم﴾** أي نكون قد اختلقنا على الله كذباً عظيماً إذا رجعنا إلى دينكم ونسبنا إلى الله شريكاً **﴿بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾** بعد أن هدانا الله إلى الإيمان ونجانا من الكفر والضلال **﴿وَمَا يكونُ لَنَا أن نَعُودَ فِيهَا إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾** وما يصحّ منا الرجوع إلى دينكم وترك الحق الذي نحن عليه في حال من الأحوال إلا إذا قضت ذلك مشيئة ربنا فأمورنا راجعة إليه غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء لمن أطاعه، ويشقي من يشاء لمن عصاه.

فشعيب مع ثقته المطلقة بأن المؤمنين معه لن يعودوا إلى ملة الكفر يفوّض الأمر إلى الله تأدباً فلا يجزم بمشيئته هو، بل يترك المشيئة لله، وهذا شأن الأنبياء فهم دائماً على حذر يخافون سوء العاقبة، كما دعا رسول الله محمد ﷺ: «يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

وتابع شعيب قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي أحاط خالقنا ومربّينا عِلْمَ كل شيء ما كان وما سيكون ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إلى الله وحده فوّضنا أمورنا وعليه اعتمدنا ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالعدل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وأنت خير الحاكمين. والفتح كما جاء في الآية أصله في اللغة إزالة الإغلاق عن الشيء واستعمل بمعنى الحكم لأنه يفتح مواضع الحق بين الخصوم ويفصل بينهم بالعدل.

وبعد أن رأى الأشراف أن عدد المؤمنين في تزايد مما يشكل خطراً على كيانهم حاولوا أن يثنوا المؤمنين عن اتّباع شعيب بوسائل التخويف.

﴿وَقَالَ الملأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي وقال الأشراف من قوم شعيب الذين أصرّوا على الكفر، قالوا للمؤمنين: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُم إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ أي لئن اتبعتم شعيباً في دينه وتركتم ملة آبائكم سيؤدي بكم إلى الخسران بسبب مقاطعتنا لكم وتضييقنا عليكم وفقدانكم ما تجنونه من أرباح تحصلون عليها بما نتعامل به معاً.

أمام هذا الإصرار على الكفر من قوم شعيب جاء أمر الله بإهلاكهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِم جَاثِمِينَ﴾ أي أهلكتهم زلزلة شديدة فسقطوا باركين على ركبهم ووجوههم منكبّة على الأرض وهم صرعى لا حراك بهم.

أما شعيب والذين آمنوا معه فقد أنجاهم الله من الهلاك كما جاء في سورة هود ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٩٤].

وكانت نجاة شعيب والذين آمنوا معه بأن فارقوا ديار العذاب، فقد قيل إنه خرج مع من آمن معه إلى مكة واستقروا فيها إلى انقضاء آجالهم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لم يَغْنَوْا فِيهَا﴾ الذين كذبوا دعوة شعيب إلى ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وترك الفساد في الأرض، هؤلاء كأنهم بعد هلاكهم بالزلزلة لم يقيموا ويسكنوا في دارهم أصلاً، ولم يعيشوا فيها متنعمين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسِرينَ﴾ الذين كذّبوا شعيباً كانوا هم الذين خسروا أنفسهم بكفرهم الذي أدى إلى هلاكهم. وهذا مقابل ما ذكره الأشراف سابقاً للمؤمنين ﴿لَئِن اتَّبَعْتُم شُعيباً إنَّكم إذاً لَخاسِرُونَ﴾.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُم وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُم﴾ أي أعرض شعيب عن قومه وقال لهم قبل نزول العذاب بهم: لقد اجتهدت في إبلاغكم رسالات ربي وبينت لكم ما فيها مما يسعدكم في دنياكم وآخرتكم وبذلت وسعي في نصحكم وبيان الخير لكم ولكنكم أصررتم على ضلالكم وفسادكم ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرينَ﴾ فلمّا نزل ما نزل بقومه من العذاب عزّى نفسه قائلاً: فكيف أحزن على قوم أعرضوا عن هدى الله وأفسدوا في الأرض إنهم ليسوا أهلاً أن يُحزن عليهم.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ
يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ
ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم
بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى
وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ
نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا
كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ
لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أخذنا: عاقبنا.

بالبأساء: الشدة والفقر وسوء الحال.

الضراء: المرض.

يضّرّعون: يخضعون لله ويتذللون له ويتوبون إليه.

عفوا: كثروا عدداً ومالاً.

السراء: النعمة ورخاء العيش.

فأخذناهم بغتة: عاقبناهم أو أهلكناهم فجأة.

يأتيهم بأسنا: يأتيهم عذابنا.

بياتاً: ليلاً.

ضحى: أول النهار بعد شروق الشمس.

مكر الله: إمهال الله لهم وإهلاكهم من حيث لا يحتسبون.

أوَلم يهدِ: أو لم يتبين.

نطبع على قلوبهم: نختم على قلوبهم فلا يصل إليها الهدى والرشاد.

من عهد: من وفاء بعهد أوصيناهم به.

لفاسقين: لخارجين عن طاعة الله.

التحذير من الاسترسال في المعاصي

وبعد أن بيّن الله ما جرى للأمم السابقة من هلاك بسبب عصيانهم أمر ربهم بيّن بأن الهلاك سيصيب كل أمة تخرج عن طاعة ربها:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي وما أرسل الله نبياً من الأنبياء في قرية من القرى يدعو أهلها إلى دين الله القويم، فأعرض أهلها عن دين الله وكذّبوا النبي الذي أرسله الله إليهم، إلا أصابهم الله قبل هلاكهم بالشدة وضيق العيش والأمراض وسوء الحال **﴿لَعَلَّهم يَضَّرَّعُونَ﴾** أي لكي يتذللوا ويبتهلوا إلى الله طالبين منه كشف ما نزل بهم من البلاء، فالشدائد تُذكِّرُ الناس بخالقهم وتدعوهم إلى محاسبة أنفسهم مما هم عليه من ظلم وعصيان لربهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ﴾ ثم بدّل الله حال أهل القرية مما أصابهم من شدة وبلاء إلى نعمة ورخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى استدراجاً لهم **﴿حَتَّى عَفَوْا﴾** حتى كثرت أموالهم وذريتهم. يقال عفا الشَّعْرُ إذا كثر وطال. ولكنهم أمام هذه النعم لم يشكروا خالقهم ولم يتوبوا من كفرهم، بل اغتروا بما هم عليه من نعم **﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾** أي قالوا

جحوداً للنعمة: إن ما أصابنا من المحن والبلايا، والرفاهية والنعيم هو شأن الدهر يداول السراء والضراء بين الناس، وليس ما أصابنا شيء جديد فهو على نمط ما أصاب آباءنا. إن قولهم هذا يدل على مبلغ استهتارهم وعدم مبالاتهم بما أصابهم من رخاء، وهي حالة تظهر في أهل الرخاء والجاه الذين يبذّرون الأموال بلا حساب، ويرتكبون أنواع الظلم والفواحش بدون اكتراث ولا إيمان بالله يردعهم. وهنا وفي ساعة الغفلة، وثمرة للطغيان الذي هم عليه تأتي العاقبة السيئة المؤلمة كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ والأخذ هنا بمعنى الإهلاك، أي فأهلكهم الله فجأة على حين غفلة دون أن يعلموا مسبقاً بما سيحل بهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا﴾ أي لو أن أهل القرى التي أهلكها الله ـ والتي ذكرها القرآن سابقاً ـ آمنوا بالله، وبما جاءت به الرسل من عند الله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ والبركات: جمع بركة وهي زيادة الخير في الشيء، وبركات السماء هي المطر الذي ينتفع به العباد، وبركات الأرض هي وفرة النبات والثمار والأنعام وكل ما فيها من الخيرات.

وقد عبّر الله تعالى عن إفاضة النعم والخيرات بلفظ (فتحنا) للإيذان بأنها كثيرة كأنها تتدفق عليهم من أبواب مفتّحة ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كذّبوا رسل الله واستمروا على الكفر والمعاصي ولم يؤمنوا بالله، فكانت نتيجة أعمالهم أن عاقبهم الله بأنواع العذاب، ومن ذلك العقاب ما أصاب قبيلة قريش من قلة المطر والقحط بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لإصرارهم على الكفر، فلما آمنوا فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عامّ في كل أهل القرى الذين كفروا بالله وكذّبوا رسله. والاستفهام بمعنى الإنكار والمعنى: أغَفَلَ أهل القرى بما حلّ بالأمم السابقة من عذاب

واعتقدوا أنهم في أمان من أن يحل عليهم عذاب الله ليلاً وهم غارقون في النوم.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أو أمِنُوا من أن يحل بهم عذاب الله في ضحى النهار عند انتشار الشمس إذا ارتفعت وهم يلهون ويلعبون لشدة غفلتهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ فسّر المكر هنا بالعذاب، أي أغَفَلوا عن عذاب الله وجزائه على كفرهم وظنوا أنهم في أمان منه؟ وهناك تفسير آخر: فالمكر في أصل اللغة الخداع وإذا نسب المكر إلى الله فالمراد استدراج القوم المكذبين للرسل بالنعم وإمهالهم حتى يمعنوا في الطغيان ثم يأتيهم عذاب الله بغتة من حيث لا يشعرون تشبيهاً لذلك بالخداع ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ إنه لا يأمن من نزول العذاب من الله إلاّ الذين يسترسلون في المعاصي وهم القوم الذين خسروا أنفسهم وسعادتهم لأنهم أوقعوا أنفسهم في الدنيا في الضرر وفي الآخرة في أشد العذاب.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن».

ويرى أئمة الأحناف أن الاسترسال في المعاصي اتكالاً على عفو الله كفر، ومثله اليأس من رحمة الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أوَ لم يتبيّن للذين استخلفهم الله في الأرض بعد هلاك الأمم التي كانت قبلهم بسبب ذنوبهم ﴿أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم﴾ أي لو يشاء الله لفعل بهم كما فعل بمن كان قبلهم من العذاب والهلاك بسبب ذنوبهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ ويختم الله على قلوبهم بسبب اختيارهم الكفر والضلال ﴿فَهُم لا يَسْمَعُونَ﴾ فهم لا يسمعون إنذاراً ولا يعتبرون بهلاك من كان قبلهم من الأمم.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ أي هذه الأمم التي قصصنا عليك يا محمد أخبارهم وهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب الذين أصابهم الهلاك بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم بما فيه العبرة لمن أرسلك الله إليهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولقد جاءتهم رسل الله بالحجج الدامغة والمعجزات الباهرة على صحة ما جاءوا به من الهدى من عند ربهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به رسل الله بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، وإن حالهم بعد مجيء رسل الله كحالهم قبل ذلك كأن لم يبعث الله إليهم رسولاً، وذلك لعنادهم وتحجّر عقولهم ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي كما ختم الله على قلوب كفار الأمم الماضية فلا يتقبلون الهدى كذلك يختم الله على قلوب الكافرين من قومك يا محمد بسبب إيثارهم الضلال على الهدى.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِنْ عَهْدٍ﴾ وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام وفاء بميثاق مما أوصيناهم به من الإيمان على لسان الرسل، ولا رعاية لحرمة ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وما وجدنا أكثرهم إلا خارجين عن طاعتنا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ
بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ
وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

شرح المفردات

بعثنا: أرسلنا.

ملئه: الأشراف والسادة.

حقيق على: حريص أو واجب عليّ.

بيّنة: حجة ومعجزة.

ثعبان: الذكر من الحيات.

مبين: ظاهر واضح.

ونزع يده: وأخرج يده من جيبه وهي فتحة القميص من جهة الرأس.

أرجه وأخاه: الإرجاء هو التأخير أي أخّر الحكم عليهما حتى ننظر في أمرهما.

حاشرين: جامعين للسحرة.

موسى في مواجهة فرعون

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن رسول الله موسى مع فرعون ودعوته له لتحرير بني إسرائيل من طغيانه، وبيان ما أيّد الله موسى من معجزات:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم أرسل الله بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم موسى عليه السلام مؤيداً بالمعجزات التي تشهد أنه رسول الله حقاً واختيرت كلمة (بعث) للرسالات الإلهية، لأن البعث يقتضي أن الدين كان موجوداً سابقاً ثم غيّبته الأحداث. وحين يبعث الله رسولاً لا ينشىء عقيدة جديدة لأن الحق لا يتغير ولكن ليزيل عن العقيدة ما خالطها من خرافات وبدع ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسل الله موسى إلى فرعون وأشراف قومه الذين كانوا يستعبدون بني إسرائيل. وفرعون هو لقب لملوك مصر الأقدمين، وفرعون الذي يذكره القرآن هو أحد ملوكهم ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي فكفروا بهذه الآيات وكانوا بهذا الكفر ظالمين لأنفسهم إذ عَرَّضوها للهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفْسِدِينَ﴾ فانظر أيها العاقل كيف كان عاقبة فرعون وأشراف قومه وجنوده لقد أغرقهم الله في البحر جزاء كفرهم وفسادهم في الأرض.

ثم شرع القرآن يقص علينا ما جرى بين فرعون وموسى من أحداث:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ لقد قال موسى باعتزاز ويقين إنه رسول من عند رب العالمين، خالق كل شيء ومربّيه ومتعهده وهذا ردّ على ما كان يعتقده المصريون القدماء من أن للسماء إلّهاً، وللأرض إلّهاً، فأبلغهم موسى بأن إلّه الكون إلّه واحد لا شريك له.

وتابع موسى قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ﴾ أي حريص أو واجب عليّ بأن لا أنقل عن الله الذي أوحى إليَّ غير الحق والصدق ﴿قَدْ

جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُم﴾ أي قد جئتكم بحجة هي معجزة من ربكم تشهد بأني رسول الله حقًّا ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فأطلق يا فرعون سراح بني إسرائيل من الأسر والاستعباد الذي وضعتهم فيه، ودعهم يخرجون أحراراً من بلدك ليذهبوا معي إلى البلد الذي يكونون فيه أحراراً ليعبدوا الله وحده.

وهنا يردُّ فرعون على طلب موسى قائلاً: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إن كنت يا موسى قد جئت بمعجزة واضحة الدلالة على أنك رسول من عند الله كما تدّعي فأحضرها وأظهرها لنا إن كنت صادقاً في دعواك.

وبدون تردد يظهر موسى معجزته التي أيده الله بها ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي فألقى موسى عصاه التي كانت بيده فإذا هي تتحول إلى ثعبان ظاهر واضح يزحف ويتحرك لا يشكّ أحد في أنه ثعبان ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ وأخرج موسى يده من جيبه(١) أو من تحت إبطه بعد أن أدخل يده فيه، فإذا هي بعد إخراجها منه تصير ذات بياض عجيب خارق للعادة لها شعاع يغلب ضوء الشمس.

أمام هذا المشهد العجيب: ﴿قَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِ فرعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال الأشراف من قوم فرعون مجاراة له: إن موسى الذي يدّعي أنه رسول من رب العالمين لساحر ماهر في سحره، عليم به ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ صدر هذه الآية من جملة حديث الأشراف، إذ قالوا: يريد موسى الساحر الماهر أن يخرجكم من أرض مصر بسحره البارع لينتزع ملكها من أيديكم وهنا يجيبهم فرعون: فماذا تأمرون؟ وبأي رأي تشيرون عليّ في شأن موسى؟ إن كلام فرعون هذا

(١) جيبه: الجيب المراد به فتحة القميص من جهة الرأس.

ينبىء عن ضعفه، وهو أول معول في هدم ألوهيته، فهل يحتاج الإله إلى مشورة أحد من البشر؟!

وبعد أن طلب فرعون المشورة من حاشيته كان جوابهم إياه: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخّر القضاء والحكم في أمر موسى وأخيه هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي وأرسل إلى مدن مصر وقراها رجالاً يجمعون السحرة ويستحضرون كل ساحر متمرّس في علم السحر وبلغ الغاية في إتقانه.

ولا يذكر القرآن كيف جمعوا السحرة وجاءوا بهم إلى فرعون وإنما يترك للعقل إدراك ذلك دون ذكر هذه التفاصيل. هذا وقد دلت الأبحاث التاريخية على انتشار السحر قديماً في مدائن مصر في عصر الفراعنة.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾

وجاء السحرة إلى فرعون بعد أن استدعاهم إليه، فسأل السحرة فرعون: هل لنا عطاء ومكافأة في حال انتصارنا على موسى ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُم لَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ أي قال فرعون على الفور: لكم ما طلبتم، وزاد على ذلك قائلاً: إنكم ستكونون من المقربين عندي.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ
عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

شرح المفردات

واسترهبوهم: بالغوا في تخويفهم.

تلقف: تأخذ وتبتلع بسرعة.

ما يأفكون: ما يكذبون ويموهون به على الناس.

فوقع الحق: ثبت وظهر الحق.

وبطل ما كانوا يعملون: وبطل السحر الذي عملوه وذهب ضياعاً.

انقلبوا صاغرين: صاروا أذلاّء.

مكر مكرتموه: مكيدة وحيلة احتلتم بها.

من خلاف: من كل ناحية طرفاً: كاليد اليمنى والرجل اليسرى أو بالعكس.

منقلبون: راجعون.

أفرغ علينا صبراً: صبّ علينا صبراً كثيراً.

موسى ومعجزته الكبرى وإيمان السحرة

جاء اليوم الموعود لالتقاء السحرة بموسى، وتدفقت جماهير غفيرة إلى ساحة العرض وكان ذلك في يوم الزينة ويُظَنّ أنه يوم وفاء النيل وكان أعظم أعيادهم. وفي ساحة المبارزة خاطب السحرة موسى: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾** أي إما أن تُلْقِيَ يا موسى عصاك أولاً التي تنقلب إلى أفعى، وإما نكون نحن الذين نُلقي حبالنا وعصينا التي تنقلب إلى أفاعٍ، وكان هذا التخيير منهم يُعبِّرُ عن ثقتهم بتغلّبهم على موسى **﴿قَالَ أَلْقُوا﴾** أي قال لهم موسى: ألقوا سحركم أولاً، قال ذلك استهانة بهم ويقيناً بتأييد الله إياه ولتظهر معجزته جليّة واضحة **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾** أي فلما ألقى السحرة ما عندهم من عصيّ وحبال التي تراءت للناظرين كأنها حيّات سحروا بها أعين الناس بما جاءوا به من التمويه والتخييل **﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾** أي أدخلوا الرهبة في قلوب الجموع المحتشدة والفزع مما شاهدوه **﴿وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾** وأتوا في باب السحر بأعمال عجيبة خُيِّل للناظرين أنها حقائق مع أنها ليست كذلك في عالم الواقع، فالعصي والحبال هي نفسها، والذي تغيّر هو رؤية الأشياء بفعل السحر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ وبعد هذا السحر العظيم أوحى الله لموسى بأن يلقي عصاه التي في يده على الأرض ففعل **﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾** فإذا عصاه تتحول إلى حية عظيمة تبتلع بسرعة كل ما جاء به السحرة من حبال وعصيّ، وما جاءوا به من الكذب والتمويه والشعوذة **﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** فظهر الحق الذي جاء به موسى من عند ربه وثبت، وبطل ما قام به السحرة من السحر، وكلمة وقع استعيرت للتعبير عن الثبات والدوام لأنها في مقابل الباطل، والباطل زائل **﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾** فغلب موسى فرعونَ وحاشيتَه والسحرةَ في المكان الذي وقع فيه سحرهم وصاروا أذلاّء مقهورين.

﴿وأُلْقِيَ السَّحَرةُ سَاجِدِينَ﴾ ولما رأى السحرة تلك المعجزة عرفوا أنها ليست من السحر في شيء، فعند ذلك خرّوا سُجَّداً لله واضعين جباههم على الأرض إقراراً بربوبيته وخضوعاً له سبحانه، وشكراً له للفوز بنعمة الإيمان. وكلمة «أُلقي» توحي كأن أحداً دفعهم وألقاهم على الأرض سجّداً، أو أن الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه، فالملقي هو الله تعالى بإلهامه لهم بالسجود حتى يذوق فرعون طعم الذل والخذلان أمام هذه الجموع الحاشدة.

وبعد أن سجدوا للّه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارونَ﴾ أي آمنا وصدّقنا برب جميع المخلوقات ومبدع الكائنات وهو رب موسى وهارون، وخصهما الله بالذكر بعد دخولهما في جملة العالمين تفضيلاً وتشريفاً.

لقد آمن السحرة برب العالمين وأعلنوا ذلك أمام فرعون وحاشيته غير مبالين بطغيان فرعون ولكن فرعون لم يعجبه ذلك بل خاطبهم بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُم﴾ أي آمنتم وصدّقتم بالإلّه الذي دعاكم إليه موسى لعبادته قبل إذني لكم، وهذا الاعتراض يظهر غروره وجبروته، فكأن الإيمان برب العالمين يحتاج إلى الإذن منه، فهو يريد أن يحتكر ضمائر الناس وعقولهم فليس لأحدهم أن يرى رأياً غير رأيه وهذا منطق الطغاة في كل العصور الذين يقضون على حرية الأفراد والجماعات.

ثم خاطب فرعون السحرة ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ في المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي أن إيمانكم برب موسى وهارون لم يقع منكم عن قناعة بل هو حيلة منكم وخديعة اتخذتموها بالاتفاق مع موسى لِتُخرجُوا من مصر سكانها الأصليين وهم القبط ويستقر لكم الأمر من بعدهم، وقد قصد فرعون من كلامه هذا أمرين:

أولاً: التمويه على الناس وتحذيرهم من الاقتداء بالسحرة في إيمانهم بالله، وإذكاء نار العداوة لموسى والسحرة، إذ ليس أشد ألماً على النفوس من مغادرة الأوطان

على كره منهم.

ثانياً: إن إيمان السحرة كان بالتواطؤ مع موسى لا عن اقتناع منهم.

ثم توعّد فرعون السحرة بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف تعلمون أنواع العذاب الذي سألحقه بكم جزاء إيمانكم برب موسى وهارون.

ثم ذكر فرعون للسحرة نوع العذاب الذي سيلحقه بهم: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾ أي لأقطعن من كل واحد منكم يده اليمنى مع رجله اليسرى أو بالعكس وهذا ما يشل حركة الإنسان ويجعله عاجزاً عن فعل أيّ شيء ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُم أَجْمَعِينَ﴾ ثم بعد ذلك لأصلبنكم على جذوع النخل زيادة في التنكيل بكم وإرهاب من يقتدي بكم. وجاء في موضع آخر من هذه السورة: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧١].

هذا التهديد الفظيع لم يرهب السحرة بل ظلوا متمسكين بعقيدتهم وكان جوابهم لفرعون: ﴿قَالُوا: إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي إننا جميعاً نحن وأنت راجعون إلى ربنا يوم الجزاء ليحاسبنا على أعمالنا فمصيرنا ومصيرك إلى الله يحكم بيننا بالحق وهو خير الحاكمين. وقد يكون المعنى: إننا إلى نعيم ربنا وثوابه الجزيل لصائرون فيثيبنا على العذاب الذي ستنزله بنا، لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير كله، وهو أحب الأماني إلى قلوبهم.

وتابع المؤمنون من السحرة قولهم: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي وما تكره منا يا فرعون وتعيب علينا إلا أننا صدّقنا بمعجزات ربنا التي تشهد بربوبيته لهذا الكون، وصدّقنا بما جاء به موسى من عند ربه. ثم توجه السحرة إلى ربهم بالدعاء: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ[1] عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

---

(١) معنى الإفراغ في اللغة: الصب، وأصله من إفراغ الإناء وهو صب ما فيه حتى يخلو الإناء مما فيه من الماء فاستعمل الإفراغ في الصبر على التشبيه بحال إفراغ الإناء بحيث يفيض عليهم ويغمرهم.

أي ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتصبّه علينا صباً بتثبيتك إيانا على الإيمان، وتوفّنا مسلمين خاضعين لك مذعنين لأمرك غير مفتونين بوعيد فرعون.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

شرح المفردات

أتذر موسى: أتترك موسى.

نستحي نساءهم: نترك نساءهم أحياء.

وإنا فوقهم قاهرون: وإنا مستعلون عليهم بقوة السلطان والغلبة.

والعاقبة للمتقين: والخاتمة الطيبة للذين يتقون الله.

ويستخلفكم في الأرض: ويجعلكم خلفاء فرعون في أرض مصر.

موسى يعد بني إسرائيل بالفرج

ثم ينتقل القرآن إلى ما قامت به طبقة الأشراف من تحريض فرعون على موسى ومن آمن معه من قومه:

﴿وَقَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا في الأَرْضِ﴾

أي وقال السادة الأشراف لفرعون: أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين يعيشون في أرض

مصر فساداً ﴿وَيَـذَرَكَ وآلِـهَـتَـكَ﴾ ويترك موسى عبادتك وعبادة آلهتك.

وهكذا نرى دائماً حاشية السوء تحسّن للطغاة في كل عصر ما هم عليه من طغيان وظلم لأن في ذلك دوام سلطتهم ومكاسبهم المادية المستمدة من سلطة رؤسائهم، وما فعله موسى هو في نظرهم مفسد يحاول قلب نظام الحكم في مصر.

وقفة عند قوله تعالى حكاية عن ما قاله الأشراف بفرعون ﴿وَيَـذَرَكَ وآلِـهَـتَـكَ﴾ فهو حقيقة تاريخية فقد كان الملك إلّهاً في مصر وكان على الدوام ابن أمون ـ رع لا يحكم مصر بحقه الإلّهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلّهي، فهو إلّه رضي أن تكون الأرض موطناً له إلى حين[1] وقد جاء في القرآن أيضاً بما كان يقول فرعون لقومه ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

أما ما ذكرته الآية من أن لفرعون آلهة شتى بجانب ألوهيته فهو حقيقة تاريخية أيضاً فقد كان المصريون يعتقدون أن للسماء إلّهاً هو سيبو، وللأرض إلّهة هي نويت ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة. وكان القمر إلّهاً ولعلَّه كان أقدم ما عُبِدَ من الآلهة في مصر، ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت أعظم الآلهة... وكانت بعض النباتات مقدسة لهم، وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذيوعاً بين المصريين من آلهة النباتات... وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة[2].

ولنرجع إلى جواب فرعون على التحريض الذي سمعه من أشراف مملكته بشأن قوم موسى حيث يقول: ﴿قال سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرونَ﴾ أي سنفعل ما كنا نفعل من قبل فسنقتل الذكور عند ولادتهم ونستبقي الإناث أحياء للخدمة، وإننا فوقهم غالبون فهم الضعفاء ونحن الأقوياء.

---

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت جـ٢ ص١٦١.

(٢) قصة الحضارة ـ ول ديورانت. باختصار جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٦١.

ويصل إلى أسماع موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون فيطمئنهم موسى ويواسيهم بقوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ استَعِينوا باللَّهِ واصْبِرُوا﴾ أي اطلبوا العون من الله في أموركم كافة واصبروا على البلاء ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي هذه الأرض التي تسكنون فيها ليست ملكاً لفرعون وإنما هي ملك لله رب العالمين، وهو سبحانه يورّث أرضه لمن يشاء من عباده، والإرث هو انتقال الشيء الذي في حوزة الإنسان إلى من يرثه من أقاربه بعد مماته ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلْمتَّقِينَ﴾ والنصر والظفر والخاتمة المحمودة هي للذين يتقون ربهم فيطيعونه ولا يعصونه، وفي هذا مواساة للمضطهدين في كل العصور.

وفي لهجة تنمُّ عن الحزن خاطب بنو إسرائيل موسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئتَنَا﴾ أي لقد أوذينا يا موسى من قبل أن تأتينا رسولاً من عند الله وأصابنا الإيذاء والبلاء من بعد ما جئتنا بكل أنواع الظلم والاضطهاد فكأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً، فرد عليهم موسى بقوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُم في الأَرْضِ﴾ أي لعلّ ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم بعد هلاكهم. وكلمة عسى تفيد الرجاء وما بعدها مرجوّ الحصول، وإذا كانت من الله فهي تفيد التحقيق. فموسى سلك طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء، ويحتمل أن يكون قد أوحى الله إليه بذلك، وقد حقق الله هذا الرجاء فأغرق فرعون وجنوده في البحر، وأنقذ بني إسرائيل من الأسر والعبودية وملّكهم بيت المقدس ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ربكم ما تعملون من بعدهم من طاعة لله أو عصيان له، وهذه الجملة من الآية تجري مجرى الحث على التمسك بطاعة الله سبحانه.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ
ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ
قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى
ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

شرح المفردات

أخذنا: عاقبنا.

بالسنين: بالقحط والجدب.

يذكّرون: يتعظون.

الحسنة: السعة والخصب وحسن الحال.

سيئة: القحط وسوء الحال.

يطيّروا: يتشاءموا.

إنما طائرهم عند الله: إنما سبب شؤمهم أعمالهم السيئة المكتوبة عند الله فهي التي ساقت إليهم ما يسوؤهم.

الرجز: العذاب.

ينكثون: ينقضون العهد الذي عاهدوا موسى عليه.

في اليم: في البحر.

أنواع البلاء الذي أصاب قوم فرعون

ويتابع القرآن فيذكر كيف ابتلى الله فرعون وقومه بالمصائب لعلَّهم يرجعون عن كفرهم وظلمهم ويؤمنون بالله رب العالمين:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أخذنا: الأخذ هو التناول باليد وهنا الأخذ بمعنى: الابتلاء والاختبار والامتحان. والسنين: جمع سَنَة أي عام الجدب والقحط. فالله سبحانه ابتلى آل فرعون واختبرهم بالجوع حين حبس عنهم نزول المطر وما نشأ عنه من قحط وجدب كما ابتلاهم بقلة الزروع والثمرات بتسلط الآفات والأمراض عليها **﴿لَعَلَّهُم يذَّكَّرون﴾** لعلَّهم يتعظون ويرجعون عن الكفر والظلم.

﴿فإذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ﴾ فإذا أصاب آل فرعون الرخاء والخصب وكثرة الثمار **﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾** أي قالوا نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكرونه على إنعامه **﴿وَإن تُصِبْهُمْ سِيِّئَةٌ﴾** أي قحط وجدب وقلة من الثمرات **﴿يَطَّيَّروا[1] بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾** يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين قائلين: ما أصابنا بلاء إلاّ بوجودهم **﴿أَلَا إِنَّما طَائِرُهُم عِنْدَ اللَّهِ﴾** أي أن ما جاءهم من خير وما أصابهم من بلاء إنما هو من عند الله وتقديره، وليس الشر الذي أصابهم بسبب موسى وقومه **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمونَ﴾** ولكن أكثر هؤلاء لا يعلمون أن ما حل بهم من البلاء هو بسبب ذنوبهم لا بسبب موسى ومن معه من المؤمنين، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم يفيد بأن بعضهم يعلم ذلك.

---

(١) الأصل في إطلاق التطيّر على التشاؤم أن العرب كانوا إذا أرادوا سفراً أو فعل أي شيء زجروا الطير فإن اتجه يميناً تفاءلوا وأقدموا على ما أرادوا سفراً كان أم غيره وإن اتجه شمالاً تشاءموا وقعدوا، ثم كثر استعماله في معنى التشاؤم.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا به من آيةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وقالوا مهما جئتنا من معجزة لتسحرنا بها وتصرفنا عن دين فرعون ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلسنا لك بمصدّقين بأنك رسول من عند الله. وفي قولهم (مهما) ما يدل على استمرارية عنادهم وجحودهم وعدم اقتناعهم بأي شيء قدّمه لهم موسى من المعجزات.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ﴾ فأرسل الله عليهم المطر الشديد واستمر ذلك حتى هدم بيوتهم وغمر أرضهم وزرعهم ومنع الناس من تدبير شؤون حياتهم، فقالوا: يا موسى ادع الله لنا لكشف ما نحن فيه من عناء فنحن سنؤمن بالله فدعا ربه فدفع الله عنهم هذا العناء فطغوا ورجعوا إلى كفرهم. فبعث الله عليهم الجراد فأكل ما أنبتت الأرض إلا القليل وضيّق عليهم غاية التضييق فقالوا لموسى: ادع لنا ربك لكشف الجراد ونحن نؤمن بالله فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فرجعوا إلى كفرهم.

فبعث الله عليهم القمّل وهو صغار القردان[١] ، وقيل: هي البراغيث، وقيل هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وهناك قراءة (القَمْل) بفتح القاف وهو القمل المعروف. ثم إنهم قالوا: ادع يا موسى لنا ربك أن يكشف عنا هذا العذاب فكشف الله عنهم ذلك ولكنهم رجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله عليهم الضفادع فكانت تدخل في مضاجعهم وبين ثيابهم وآنيتهم، وإذا تكلم أحدهم وثبت إلى فيه، فقالوا: ادع لنا ربك يا موسى لكشف هذا الضرّ فكشف الله عنهم ذلك فرجعوا إلى كفرهم وطغيانهم.

فبعث الله عليهم الدم فتحول ماؤهم الذي يستسقونه دماً، وإن الرجل منهم كان يستسقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد الماء دماً، ولا يغترفون من إناء إلاّ عاد دماً،

---

(١) وهي دويبه معروفة تتعلق بالحيوانات.

وإنّ كل ما حصل لهم كان كما قال الله تعالى ﴿آياتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ أي معجزات واضحات الدلالة على أنها عقوبات لهم على كفرهم وطغيانهم. وقيل معنى ﴿مُفَصَّلاتٍ﴾ مفرقات في الزمن، فقد كان العذاب يرتفع عنهم ثم يبقون مدة قيل شهراً أو ثمانية أيام، وعندما يعودون إلى كفرهم يَرِدُ العذاب الآخر، أي أن هذه الأنواع من العذاب لم تأت متصلاً بعضها ببعض ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ أي فاستكبروا عن الإيمان بالله وكانوا قوماً موغلين في الإجرام.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ ولمّا وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب ﴿قَالُوا يا موسى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي قالوا عند نزول كل نوع من هذا العذاب: يا موسى ادع لنا ربك واسأله بحق ما عندك من عهد الله وتكريمه إياك بالنبوّة وما خصك من الدعاء المستجاب، وسميت النبوة عهداً لأن النبي عاهد ربه أن يقوم بأعبائها على أتم وجه ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إسْرَائيلَ﴾ أي نقسم لئن أزلت يا موسى عنا العذاب الذي نزل بنا لنُصَدِّقَنَّ بنبوتك وبإلهك الواحد ونرسل معك بني إسرائيل إلى حيث تشاء.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما كشف الله عنهم العذاب مرّة بعد مرّة إلى وقت محدّد هم واصلون إليه وهو وقت إغراقهم في البحر، أو بمعنى: فلما كشف الله عنهم العذاب إلى وقت عينوه لإيمانهم، إذا هم يسارعون إلى نقض العهد الذي أكدوه بالقسم، ويعودون إلى طبيعتهم من الكفر والظلم.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُم في اليَمِّ﴾ أي فعاقبهم الله بسبب نقضهم العهد وإصرارهم على الكفر وارتكاب المعاصي، وكان هذا العقاب هو إغراقهم في البحر ﴿بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلينَ﴾ وإغراقهم في البحر هو بسبب تكذيبهم بآيات الله، أي بمعجزاته وحججه عليهم وكانوا غافلين عنها لا يتدبرون العبرة منها ولا يتقون الله تعالى.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ
وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟
يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ
ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

شرح المفردات

مشارق الأرض ومغاربها: يراد بها أرض الشام ومصر.

وتمت: تحققت.

كلمة ربك: وعد ربك بالنصر.

الحسنى: تأنيث الأحسن.

يعرشون: يبنون قصوراً وعمارات.

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر: قطعنا وعبرنا بهم البحر.

يعكفون على أصنام لهم: يقومون على عبادة تماثيل لهم.

متبّر ما هم فيه: مُهْلَك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وعبادة الأصنام.

أبغيكم إلَهاً: أطلب لكم إلَهاً معبوداً.

يسومونكم سوء العذاب: يذيقونكم أشد العذاب.

يستحيون نساءكم: يستبقون نساءكم أحياء للخدمة.

بلاء من ربكم: اختبار وابتلاء من ربكم.

فَضْلُ اللَّه على بني إسرائيل

وبعد أن أهلك الله فرعون وجنوده بإغراقهم في البحر، بيّن بعد ذلك فضله على بني إسرائيل وما خصّهم به من نعم فقال سبحانه:

﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانوا يُسْتَضْعَفُونَ**﴾ أي وبعد أن أغرق الله فرعون وجنوده في البحر أورث بني إسرائيل المستضعفين في الأرض الذين عذّبهم فرعون بتقتيل أبنائهم وتسخيرهم بالأعمال الشاقة ﴿**مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**﴾ أي نواحيها وجميع جهاتها، والمراد بمشارق الأرض الشام ومغاربها مصر، فإن بني إسرائيل ورثوا العمالقة في الشام وانتقل سلطانهم إليها، وورثوا الفراعنة بمصر ﴿**التي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ فقد بارك الله في أرض مصر وأرض الشام بالخصب وسعة الأرزاق وبارك الله في مصر بنهر النيل ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بني إِسْرَائيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ والحسنى: مؤنث الأحسن، وتمام كلمة ربك: هو إنجاز ما وعدهم الله من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم، وكان ذلك جزاء صبرهم على الشدائد التي كابدوها من ظلم فرعون وقومه ﴿**وَدَمَّرنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ**﴾ ودمّر الله ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات ﴿**وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ وما كانوا يبنونه من الأبنية والقصور وما يهتمون بغرسه في بساتينهم من الأشجار المثمرة والأعناب.

﴿**وَجَاوَزْنا بِبَني إِسْرَائيلَ البَحْرَ**﴾ وَعَبَرَ بنو إسرائيل البحر بمعجزة من الله بعد أن انفلق وأصبحت فيه طُرُقٌ بضربة من عصا موسى بما أوحى الله إليه، والمراد بالبحر هنا البحر الأحمر من جهة خليج السويس، وكان العبور من الشاطىء الغربي حيث تقع مصر إلى الشاطىء الشرقي حيث توجد سيناء ﴿**فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُم**﴾ فمر بنو إسرائيل على جماعة من الناس يقومون بعبادة أصنام لهم ويلتزمون بتعظيمها وتقديسها، وكانت هذه الأصنام بصور البقر ﴿**قَالُوا يا مُوسَى**

ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كما لَهُم آلِهَةٌ﴾ أي قال بنو إسرائيل لموسى حينما شاهدوا هؤلاء القوم: اصنع لنا صنماً نعبده، كما أن لهؤلاء القوم أصناماً يعبدونها **﴿قَالَ إِنَّكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** قال لهم موسى متعجباً مما طلبوه: إنكم قوم تتصفون بالجهل وبالغباء الكامل، أتقولون ذلك بعدما شاهدتم من المعجزات التي تثبت ربوبية الله لهذا الكون واستحقاقه العبادة له وحده؟

وتابع موسى خطابه لهم **﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي إن هذا الدين الباطل الذي رأيتموه من عبادتهم للأصنام هو هالك مدمّر، فهم لا ينتفعون بعبادتها، وما يعملونه هو باطل لا بقاء له. فهذه الأصنام المصنوعة من حجر أو خشب أو نحاس لا تحمل معنى الألوهية في أي وجه، فهي مصنوعة بيد الإنسان فكيف يعبد الإنسان ما صنعت يداه؟

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكم إِلَٰهاً﴾ قال لهم موسى إنكاراً عليهم وتوبيخاً: كيف أطلب لكم غير الله إلٓهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من معجزات الله ما يكفي لتثبيت إيمانكم **﴿وَهُوَ فَضَّلَكُم عَلَى العَالَمِينَ﴾** وهو سبحانه فضلكم على أهل زمانكم بما أنعم عليكم من هلاك عدوكم، واستخلفكم في الأرض بدلهم، وأخرجكم من الذلّ والاستعباد على يد فرعون، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غير الله؟

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَسومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ﴾ أي واذكروا فضل الله عليكم وقت أن أنقذكم الله من طغيان فرعون وقومه الذين كانوا يستعبدونكم ويكلفونكم القيام بأشقّ الأعمال **﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُم ويَسْتَحْيُون نِسَاءَكُم﴾** يذبّحون أبناءكم الذكور ويتركون الإناث أحياء لخدمتهم **﴿وَفي ذَلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظِيمٌ﴾** وفي هذا كله مصاب عظيم ومحنة جسيمة أنقذكم الله منها فاذكروا نعمة الله على ذلك واشكروه بعبادته وحده.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

شرح المفردات

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة: وعد الله موسى أن يكلمه عند انتهاء ثلاثين يوماً يصومها.

ميقات ربه: أي الوقت الذي حدده لمناجاته وتلقّي ألواح التوراة.

اخلفني في قومي: كن خليفتي في قومي وقائماً على أمرهم حتى أعود.

استقرّ مكانه: ثبت في مكانه وبقي على حاله.

فلما تجلّى ربه للجبل: بدا له شيء من نوره تعالى.

جعله دكاً: جعله مفتتاً منهاراً.

وخرّ موسى صعقاً: وسقط موسى على الأرض مغشياً عليه.

رؤية الله تعالى

ثم ينتقل بنا القرآن إلى بيان ما خصّ الله به رسوله موسى عليه السلام من تكليمه إياه وإنزال التوراة عليه:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وأتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ أي ووعد الله موسى بعد أن نجّاه وقومه من فرعون بإنزال كتاب يهتدي به بنو إسرائيل، ويبين لهم فيه الحلال والحرام ويكون ذلك بعد مضي ثلاثين ليلة يقضيها في التوجه إلى الله بالصيام والعبادة. فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقاً ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا

الفضل عشر ليال، فتمّ الزمن الذي وقّته ربه وحدّده لحصول هذه النعمة أربعين ليلة، والثلاثون هي شهر ذي القعدة، والليالي العشر التي أتمها الله هي العشر من شهر ذي الحجة.

وروي أن الثلاثين ليلة التي صامها هي تهيئة له لمناجاة ربه، وأن مدة المناجاة هي الليالي العشر التالية لها والتي أُنزلت التوراة في خلالها.

والمراد بقوله تعالى: أربعين ليلة، الليالي مع نهاراتها، فاقتصر على ذكر الليالي لأن النهارات لا تكون إلا معها، هذا وإن النفس في الليل تكون أكثر صفاء للأحوال الروحية ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّه أربعين لَيْلَةً﴾ فتمّ الوقت الذي قدّره الله لصوم موسى وعبادته ونزول التوراة عليه أربعين ليلة، لأن الميقات هو الوقت الذي قُدّر فيه عمل ما. وقبل أن يتوجه موسى إلى جبل الطور أوصى أخاه هارون بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي في قومي وراقبهم في أحوالهم، وكلمة (قومي) من موسى توحي بأنهم أعزّاء عليه وأنه لا يريد لهم إلا الخير الذي يريده لنفسه ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبيلَ المُفْسِدِينَ﴾ وأصلِحْهم بحملهم على طاعة الله ولا تسلك طريق المفسدين بالمشاركة في أعمالهم ومخالطتهم.

ومما يلفت النظر قول موسى لأخيه (وأصلح) فإن سياسة الأمة تدور حول الإصلاح وجميع تصرفات الأمة يجب أن تكون صالحة، وأن تعود الأعمال بالخير على الأمة.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ ولما وصل موسى إلى الجبل في الوقت المعلوم الذي حدده الله له لمناجاته ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي خلق الله في موسى إدراكاً سمع به كلام ربه دون واسطة، وكلام الله لا يشبه شيئاً من كلام الخلق ولا يصدر من جهة من الجهات وهو مغاير للأحرف والأصوات التي يتفاهم بها البشر ﴿قَالَ ربِّ أَرني أَنْظُر إلَيْكَ﴾ قال موسى: يا رب أسألك أن تمكنني من النظر إليك، أو أن تتجلّى لي لأنظر إليك.

وسؤال موسى رؤية الله تعالى هو تطلّع إلى زيادة معرفة منه بالجلال الإلهي، ولِمَا هاج به الشوق بعد تكليم الله له فحمله ذلك على سؤال الله الرؤية. فقال الله رداً على طلبه: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي لن تراني يا موسى، ولكن انظر إلى الجبل فإنني سأتجلى له فإن بقي مستقراً وثابتاً في مكانه فسوف تراني. وإذا كان الجبل المؤلف من الصخر لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي من رب العالمين فكيف بالإنسان الضعيف أن يتحمل ذلك. وقد جاء هذا الاستدراك على عدم وقوع الرؤية لموسى في الدنيا لأنه لم يتهيأ لهذه الرؤية بالتكوين المناسب لها. أما رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم فهي حق وممكنة وهي أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة في الجنة كما يفهم من بعض آيات القرآن وكما جاء في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ والتجلي إزالة الحجب بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التي استأثر الله تعالى بها في هذا الكون. والمعنى: ولما ظهر الله للجبل على الوجه اللائق بجلاله جعله الله دكًّا، والدكّ هو الانسحاق والتفتت، فروي أنه ذهب الجبل برمته بعد أن تجلى الله له، كما روي أن الجبل تفتت وانسحق حتى صار في مساواة الأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ وسقط موسى على الأرض مغشياً عليه لهول ما رأى وشدة ما عانى.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلما أفاق موسى من غشيته وغيبوبته وعاد إليه وعيه قال تعظيماً لله: أنزهك يا رب عن مشابهتك لشيء من خلقك، وإني تبت من أن أسألك شيئاً بغير إذن منك وأنا أول المؤمنين بكبريائك وعظمتك من هذه الأمة.

هذه هي الذات الإلهية التي ذكرها القرآن المتصفة بالعظمة والجلال، وهي الجديرة بالتوقير والتعظيم، والخشوع عند سماعها وذكرها، فأين من ذلك ما وصفت

التوراة الذات الإلهية بالضعف، فقد صارع الله يعقوب في زعمهم إلى الفجر ولم يغلبه!

وأين منا الآن حيث نرى اسم الله يحشر في كلمات الأغاني التي يغنى بها في صالات اللهو والفجور على مسمع من روادها الذين يحتسون الخمور ويرقصون على أنغام تلك الأغاني؟

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

شرح المفردات

اصطفيتك على الناس: اخترتك وفضلتك عليهم.

الألواح: وهي التي كتبت فيها التوراة.

فخذها بقوة: فتناولْها بجدّ وعزيمة.

سأصرف عن آياتي: سأمنع وأُبعد عن فهم آياتي والإيمان بها والانتفاع بما جاء فيها.

سبيل الرشد: طريق الهدى.

سبيل الغيّ: طريق الضلال.

حبطت أعمالهم: بطل ثواب أعمالهم.

اصطفاء اللَّه لموسى عليه السلام

وبعد أن أعلن موسى توبته من طلبه رؤية الله وأقرّ بأنه أول المؤمنين بعظمته خاطبه الله بقوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلامِي﴾ أي فضلتك وخصصتك على جميع الناس المعاصرين لك باختيارك رسولاً من عندي إلى قومك، وآثرتك بإنزال التوراة عليك، كما آثرتك بكلامي إياك من غير واسطة ﴿فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فتقبّل ما أنعمت به عليك من شرف الرسالة الإلَهية، وارضَ بنعمة مناجاتك إياي وكن في عداد الشاكرين فإنّ ما أنعمتُ به عليك من أجلّ النعم.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

فالله سبحانه يقول: وبيّنّا لموسى في التوراة التي أنزلناها عليه والمكتوبة في الألواح كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل من أمور دينهم، وفيها المواعظ وتفصيل الأحكام وبيان الحلال والحرام، أما عدد الألواح التي كتبت عليها التوراة ونوعها فلم يذكرها لنا القرآن فالأصحّ عدم الخوض في ذلك كما ذهب بعض المفسرين.

ويلاحظ أن التوراة الأصلية فُقدت في الغزو البابلي، أما التوراة الحاضرة فقد شابها التحريف والتبديل كما صرّح بذلك القرآن.

ثم يخاطب الله موسى بقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي قم بأداء ما في هذه الألواح من الأوامر، وامتنع عما فيها من النواهي بجدّ وإخلاص وعزيمة وأمر قومك باختيار الأحسن منها، أي ما أجره وثوابه أكثر من سواه، مع العلم أنها كلها حسن ﴿سأُورِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ هنا تهديد ووعيد لمن يخالف أوامر الله، أي سأريكم في الآخرة ما يؤول إليه حال الفاسقين الذين خرجوا عن طاعتنا، أو بمعنى: سأريكم دار فرعون وقومه كيف أقفرت مساكنهم بعد هلاكهم.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ

بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن طاعتي عن فهم الحجج والأدلّه المنصوبة في الكون الدالة على عظمتي فلا يعتبرون بها، وأمنعهم من الاستفادة من الأحكام والشرائع المنزلة على رسلي فلا ينتفعون بها. والآيات هنا هي جملة كل كتاب منزل من عند الله على رسول من رسله، كما تُطلق الآيات على المعجزات التي أيّد الله بها رسله. وأيضاً سُمّي خلق الكون آية لأنه علامة على وجود الله سبحانه وقدرته وحكمته. أما التكبُّر فهو احتقار الناس والاستعلاء عليهم وعدم الرضوخ للحق.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي إن يسمعوا كل آية من آيات الكتب الإلهية أو يبصروا معجزة من المعجزات على يد رسل الله التي تشهد بربوبية الله ووحدانيته لا يصدّقوا بها **﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوه سَبيلاً﴾** وإن يشاهدوا طريق الهدى والسداد لا يسلكوه ولا يتخذوه طريقاً لهم **﴿وإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾** وإن يعلموا طريق الضلال والفساد يختاروه لأنفسهم مسلكاً مستمراً **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم كَذَّبُوا بآياتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾** أي ذلك التكبر وعدم الإيمان واتباع طريق الضلال هو بسبب تكذيبهم بآيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته للكون، وبسبب غفلتهم عن التفكر بآيات الله والاتعاظ بها.

﴿وَالَّذينَ كَذَّبُوا بَآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُم﴾ والذين لم يصدّقوا بآيات الله الداعية إلى الإيمان وفضائل الأعمال وكذّبوا بها، وأنكروا لقاء الله في الآخرة ووقوع الجزاء فيها على أعمالهم، هؤلاء بطلت أعمالهم التي كانوا يرجون ثوابها، إذ إن شرط قبول أعمال الخير ونيل الثواب عليها من الله هو تحقيق الإيمان بالله وإخلاص العمل له **﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي لا يلقون في الآخرة إلا الجزاء السَّيِّىء والعقاب من ربهم على ما فعلوه في دنياهم.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ
أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا
سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ
لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ
أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ
بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا
تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ
لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ
ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤ ﴾

شرح المفردات

له خوار: له صوت كصوت البقر.

اتخذوه: أي اتخذوا العجل إلٰهاً وعبدوه.

ولا يهديهم سبيلاً: ولا يرشدهم إلى طريق الخير والصواب.

سُقِط في أيديهم: ندموا أشدّ الندم على ما فعلوا.

أسِفاً: حزيناً شديد الغضب.

بئس ما خلفتموني من بعدي: ما أقبح ما فعلتم بعد فراقي إياكم.

فلا تُشمت بي الأعداء: فلا تسرّهم بما تنال مني من مكروه.

المفترين: الذين يختلقون الكذب على الله.

سكت عن موسى الغضب: هدأ عن موسى الغضب.

لربهم يرهبون: يخافون ربهم أشدّ الخوف.

بنو إسرائيل وعبادة العجل

كانت آثار الوثنية مُتأصِّلة في قلوب بني إسرائيل بسبب معاشرتهم الطويلة للمصريين. ومن مظاهر الوثنية عبادة العجل، فقد تخيّل المصريون قديماً الآلهة في أشكالِ حيواناتٍ، ونخصّ بالذكر منها اثنين كانوا يعبدونهما منذ أقدم الأزمان وظلوا كذلك إلى آخر عهدهم ونعني بذلك العجل «منفيس» المقدس إلّه هليوبوليس، والعجل «أبيس» معبود منف، بالإضافة إلى ما كان يعبد المصريون من الآلهة: كإلّه الشمس، وإلّه الماء وإلّه القمر وإلّه السماء وإلّه الأرض وغير ذلك من الآلهة.

وقد استغل ظاهرة عبادة العجل رجل ماكر من بني إسرائيل سمّاه القرآن «السامريّ» فصاغ لهم تمثالاً من ذهب بصورة عِجْلٍ وقال لهم: هذا إلّهكم وإلّه موسى.

وبيان ذلك: أن موسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل قبل ذهابه إلى جبل الطور لمناجاة ربّه وتلقي التّوراة بأن غيبته عنهم لن تطول أكثر من ثلاثين ليلة، ثم أتمَّ اللَّهُ هذه الليالي الثلاثين بعشر ليالٍ أُخرى. ولما طالت غيبة موسى عن قومه اسْتبطأوه وقالوا: إن موسى أخْلَفَنا وعده، فقال لهم السامريُّ: إنَّ موسى لن يرجع وإنه قد مات، فاغتنمها فرصة وأخذ من بني إسرائيل بعض حُلِيِّهم من الذهب التي كانوا قد استعاروها من القبط ـ سكان مصر ـ قبل خروجهم منها، وسبك من تلك الحُلِيِّ عِجْلاً وصاغه بطريقة خاصة بحيث إذا دخلت الريح من خلفه أخْرَجَ صوتاً من فمه كصوت خوار البقر. ثم دعاهم السامريُّ إلى عبادة هذا العِجْل فأطاعوه. وبعد هذه المقدمة نستعرض الآيات التي ذكرت هذا الموضوع. قال الله تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ من حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ أي

وبعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل لمناجاة ربّه اتَّخذ قومه من حليهم المُخَصَّصة للزينة جسماً على صورة العجل له صوت يشبه صوت خوار البقر ليكون معبودهم. والذي صنع هذا العجل هو (السامري) ونسبت الآية الفعل إلى قوم موسى لأن ذلك كان برضاهم وموافقتهم ولأنهم أطاعوا السامريّ في جعله إلّهاً معبوداً ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّه لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِم سَبيلاً﴾ والاستفهام في الآية إنكاريّ لما قاموا به من عبادة صنم العجل، الذي ليس فيه شيء من صفات الألوهِية، فهو لا يكلمهم ولا يهديهم إلى سبيل الخير ﴿اتَّخَذوهُ وَكَانُوا ظَالِمينَ﴾ أي اتخذوه إلّهاً معبوداً وكانوا بعملهم الشنيع هذا ظالمين لأنفسهم حيث أوردوها مورد الهلاك.

﴿ولمَّا سُقِطَ في أيدِيهِمْ﴾ أي ولمّا ندم الذين عبدوا العجل عند رجوع موسى إليهم أشدّ الندم واستسلموا لحكمه فيهم، والتعبير عن الندم بلفظ (سقط في أيديهم) هو تعبير بلاغي رائع لم يُسمع به قبل نُزول القُرآن، فالسقوط هو الوقوع من أعلى إلى أسفل، ومن شأن من اشتد ندمه أن يعضّ يده من شدة الغمّ والندم فهو بهذا يسقط فمه على يديه، كما أن ذِكْر اليد في السُّقوط لأن الندم يَحدث في القلب ثم يَظْهَر أثره على اليد، ولهذا وصف الله من نَدِمَ على ما فَعَلَ بقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وبعد أن ندم الذين عبدوا العجل على فعلهم هذا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهم قَدْ ضَلُّوا﴾ وعلموا أنهم قد جاوزوا الصواب وخرجوا عن طريق الهدى، قالوا مُتَحَسِّرين: ﴿قالوا لِئن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرينَ﴾ أي والله لئن لم يعف الله عنا برحمته وإحسانه، ويَتَقَبَّل توبتنا فَيُكَفِّر عنا سيئاتنا لنكونن من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم لتوجههم إلى عبادة غير الله سبحانه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي ولما رجع موسى من الجبل الذي ناجى فيه ربّه، وهو شديد الغضب حزينٌ على ما اقترفه قومه في غيبته من عبادة

العجل، وكان الله قد أخبره وهو في الجبل بضلال قومه ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي قال موسى للمرتدّين من قومه: ما أقْبَحَ ما فعلتم بعد فراقي إياكم، كما أن خطابه يشمل المؤمنين حيث لم يمنعوا عَبَدَة العجل عمّا فعلوه، فيكون المعنى: أي بئس قيامكم مقامي إذ لم تراعوا عهدي، لأن الواجب على الخلفاء أن يسيروا على نهج من استخلفهم على أَمْرٍ ما. ثم خاطب موسى عَبَدَةَ العِجْلِ بقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربّكم من انتظاري وحفظ عهدي حتى أرجع إليكم وآتيكم بالتوراة ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخيه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ووضع موسى الألواح التي كتبت عليها وصايا الله وشريعته جانباً ليأخذ بشعر رأس أخيه، وراح يجره إليه من شدّة غضبه لظنه أنَّ أخاه هارون قد قصّر في نصح قومه ولم يمنعهم من عبادة العجل، فقال هارون لموسى وهو في تلك الحالة: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ قال: يا ابن أُمَّ مع كونهما شقيقين ليثير الحنان والشفقة في قلب موسى لأن الأمّ مصدر الحنان والعطف والرحمة، وأضاف قائلاً: إنَّ القوم استضعفوني وأذلّوني وأوشكوا على قتلي، وفي قوله هذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض المقاوم لهم. وتابع هارون قوله: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ أي فلا تفعل يا موسى أمام هؤلاء الأعداء ما يكون سبب شماتتهم بي، والشماتة هي إظهار الفرح بمصيبة تقع على الخصم ﴿ولا تَجْعَلْني مَعَ القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ ولا تجعلني يا أخي في عداد الظالمين الذين عبدوا العجل مع براءتي منهم ومن ظُلْمِهِم.

ثم دعا موسى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لي وَلأخِي﴾ أي رَبِّ اغْفِرْ لي ما بدر مني من غلظة على أخي قبل الاطلاع على حقيقة الأمر، واْغْفِر لأخي إن كان قد قصّر في الإنكار على الذين عبدوا العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا في رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحمينَ﴾ وأدْخِلنا يا ربّ في رحمتك التي وسعت كل شيء لأنك أكثر الراحمين رحمة.

وما ورد في القرآن تصحيح لما ورد في التوراة الحالية من أن هارون هو الذي

صَنَعَ العِجْلَ لبني إسرائيل ليعبدوه في غياب موسى عنهم، فهارون هو نبيّ من أنبياء الله وحاشا للأنبياء أنْ ينزلقوا إلى هذا الكفر الفادح، وما جاء في التوراة في هذا الصدد هو من افتراءات اليهود وتحريفهم لكتاب الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي إن الذين جعلوا من العِجْلِ إلٰهاً وعبدوه من دون الله كالسامري ومن اتَّبَعَهُ من بني إسرائيل ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سينالهم غضب من خالقهم في الدار الآخرة وسيصيبهم في الحياة الدنيا الذُّلُّ والهوان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وبمثل هذا العقاب الشديد يُعاقِبُ اللَّهُ كل من اختلق الكذب على الله وعبد سواه.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أي والذين اقترفوا الكُفْرَ وسائر المعاصي ثم رجعوا إلى الله بالتوبة والطاعة وأقلعوا عن سيئاتهم وآمنوا بالله ورسوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربك من بعد توبتهم من كفرهم وذنوبهم قد ضمن المغفرة والرحمة لهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي ولمّا زال الغضب عن موسى. وهنا استعارة تُظهر بلاغة القرآن، فالمستعار هو السكوت وحقيقة السكوت زوال الكلام، ولكن هل للغضب سكوت؟ نعم لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً تُنَفِّسُ فيه عن مشاعرها أمام من استفزها. فالآية تمثل الغضب في صورة شخص يدفع موسى عليه السلام على الانفعال ويقول له: قل لقومك كذا، وألْقِ الألواح، وجرّ رأس أخيك، وهذا ما فعله، ثم ترك الغضب كلامه وسكت عن دفع موسى وتحريضه عندئذٍ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ أي ولمّا سكن الغضب عن موسى أخذ الألواح التي كان قد ألقاها على الأرض جانباً، وفي ما كتب في هذه الألواح هداية إلى الخير والإيمان وهداية من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ كما أن في هذه الألواح أسباب رحمة للذين يخافون ربّهم ويخشون عقابه.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

شرح المفردات

لميقاتنا: الميقات المكان الذي حدَّده الله ليذهب موسى وقومه إليه.

أخذتهم الرجفة: أصابتهم الزلزلة الشديدة.

السُّفهاء: يستعمل السَّفَه للطيش والحمق ونقصان العقل.

فِتْنَتُكَ: ابتلاؤكَ.

حسنة: حياة طيبة وتوفيقاً في طاعتك.

هُدْنا إليك: تُبْنا إليك من المعاصي ورجعنا إليك بالطاعة.

طلب الغفران من اللّه لما فعله السفهاء

وبعد أن سَكَنَ غضب موسى لـمـّا رأى من قومه ما رأى يذكر لنا القرآن ما جرى بعد ذلك من أحداث، وقبل أن نستعرض الآيـات في هذا الصَّدد نذكر ما روي في ذلك:

أمر الله موسى أن يأتيه بجماعة من قومه ممن لم يعبدوا العجل يعتذرون عمن تركوهم وراءهم من عَبَـدَةِ العجل، وعيّن لهم موعداً؛ فاختار موسى منهم سبعين

رجلاً وذهب بهم إلى جبل الطور، وسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء ويتوب على من عَبَدَ العِجْلَ، فأخذتهم في ذلك المكان الرجفة وهي الزلزلة الشديدة فَغُشِيَ عليهم منها لأنهم لم ينهوا قومهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف ثم أفاقوا منها، وكانت الرجفة لتأديبهم على تقصيرهم.

ورُوِيَ أن الوفد الذي كان مع موسى لمّا أتوا إلى ذلك المكان الذي حدّده الله لهم قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلّمته فأرِنا إيّاه، فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله بعد مماتهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ في الكلام هنا حذف حرف الجر (من). والمعنى: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً من فضلاء قومه الذين ظلوا على إيمانهم فَقَدِمَ بهم إلى المكان والزمان اللذين حدّدهما الله لهم ليعتذروا عن الذين عَبَدُوا العِجْلَ من قومهم وسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فلما أصابتهم الزلزلة الشديدة التي نشأ عنها الإغماء أو الموت ﴿قَالَ رَبِّ لَو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أي فلما رأى موسى ما حلَّ بالوفد قال: يا ربّ، لو شئت إهلاكهم لأهلكتهم قبل خروجهم إلى الميقات وأهْلكتني معهم، ولكن هلاكهم اليوم فيه اتهام لي بقتلهم، فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم إلى هنا ليموتوا ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الاستفهام هنا للاستعطاف، ووصف الذين عبدوا العجل بالسّفه وهو خِفَّةُ العقل والطيش حيث عبدوا عجلاً من صنع اليد لا يكلمهم ولا ينفعهم. والمعنى: أتُهْلِكنا بذنوبِ من عبد العجل ونحن من ذلك براء، ثم أحياهم الله بعد مماتهم. وتابع موسى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي ما كانت عبادتهم للعجل إلاّ ابتلاءً واختباراً منك ابتليتهم بها ليتبيَّن الذي يضل عن الحق بعبادته للعجل والذي يهتدي بترك عبادته.

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِر لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ﴾أي أنت القائم بأُمُورنا في الدنيا والآخرة فتجاوز عن سيئاتنا وتفضّل علينا بإحسانك وآثار رحمتك التي وسعت كل شيء وأنت أكرم من يتجاوز عن السيئات.

وتابع موسى دُعاءه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا في هذه الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ﴾ واجعل لنا بفضلك في هذه الحياة الدنيا عيشة حسنة طيبة، وتوفيقاً إلى طاعتك، وهب لنا في الآخرة مغفرةً لِذُنُوبنا، والنعيم الدائم في جناتك الواسعة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ إننا تُبْنا إليك ﴿قَالَ عَذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي قال الله جواباً على ما طلبه موسى: إن شأن عذابي أني أُصيب به من أشاء ممن يخرج عن طاعتي، وليس لأِحَدٍ عليّ اعتراض ﴿وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شيء﴾ وإحساني شمل جميع خلقي. أما في الآخرة فإن رحمتي وجبت للمؤمنين خاصة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذينَ يَتَّقُونَ﴾ أي فسأجعل رحمتي في الآخرة للذين يخافونني ويجتنبون الكفر والشرك والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي ويؤدّون زكاة أموالهم لمستحقيها من الفقراء وغيرهم ﴿وَالَّذِين هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ والذين يصدّقون بجميع الكتب التشريعية المنزلة من عندي وبالأخص آيات القرآن الكريم.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ
ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

شرح المفردات

الرسول: هو الذي يُوحى إليه من عند الله ويأمره الله بتبليغ وحيه.

النبي: هو الذي يُوحي الله إليه بعلم لم يحصله بكسب ويعلم أنه من عند الله وهو يتبع الرسول الذي قبله.

الأُمِّي: الذي لا يقرأ ولا يكتب.

يجدونه مكتوباً عندهم: يجدون صفته ونعته في كتبهم الدينية.

الطيبات: ما تستسيغه الأذواق من الطعام الحلال مما كان محرماً على بني إسرائيل.

الخبائث: ما تنفر منه النفس وتُـضَـرّ به الأجسام.

إصْرهم: التكاليف الشاقـة التي فُرضت على اليهود بسبب ظلمهم.

الأغلال: الأحكام الثقيلة التي كانت في شرائع بني إسرائيل.

عَزَّرُوهُ: وقَّروه وعَظَّموه وأعانوه.

نبوة محمد مكتوبة في التوراة والإنجيل

وبعد أن بيّن القرآن أن رحمة الله سينالها الذين يَـتّـقُـونَـه ويؤمنون بآياته ويؤتون الزكاة، بَـيَّـنَ في الآيات التالية أن رحمة الله سينالها أيضاً الذين يتبعون النبي محمداً ﷺ فيما جاء به من عند ربه، قال الله تعالى: ﴿الَّـذِينَ يَـتَّـبِـعُـونَ الرَّسُـولَ الـنَّـبِـيَّ الأُمِّـيَّ﴾ والرسول النبي الأمي هو محمد ﷺ. والأُمِّي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. ووصف محمد بالأُميّة هو من الآيات الباهرة التي تشهد أنه رسول الله حقاً، فكون محمد أُميًّـا ثم يأتي بهذا القرآن المشتمل على الشرائع والأخلاق والعقائد والعبادات وقصص الأنبياء والعِبَـر منها مما هو أعظم آية على أنه رسول الله حقاً أوحى اللَّهُ إليه هذا القرآن.

فهذه العلوم التي يشتمل عليها القرآن لا يصدر بعضها إلا عمّن كان على قدر كبير من الذكاء وتتلمذ على أيدي كبار علماء اللاهوت في عصره، وأتْقن عدة لغات وقرأ مئات الكتب في هذا الشأن، أما أنْ يَصدر هذا القرآن من رجل أُمِّيٍّ لم يُزاول الكتابة والقراءة ولم يتتلمذ على أَحَدٍ من العلماء لأنه لم يكن في ذلك العصر في مكة علماء ولا جامعات، ولم يغادر محمد مكة ليقتبس علم الأديان من الأحبار والرُّهْبان، فإن كل ذلك يثبت نبوته ويؤكدها.

وبجانب القرآن هناك الأحاديث النبوية التي كان ينطق بها محمد ﷺ في كل المناسبات سواء في بيانِ ما أنزل إليه من القرآن، أو في وَعْظِهِ للناس عندما يرى منهم شَطَطاً، أو إرشادهم إلى ما يُقرّبهم إلى الله، وهذه الأحاديث الشريفة المدونة في الكتب تشهد بأنه رسول من عند الله، لما فيها من بلاغة وحكمة وإرشاد بزّت حكمة الحكماء وبلاغة البلغاء.

وهؤلاء الذين يتبعون النبي الأُمِّيّ ﴿الَّـذي يَـجِـدُونَـهُ مَـكْـتُـوبـاً عِـنْـدَهُـم في الـتَّـوْراةِ والإنجيلِ﴾ أي يجد اليهود والنصارى وَصْفَ النبي محمد ﷺ باسمه ونعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل التي كتمها أهل الكتاب أو تعمّدوا تأويلها بما يحقق

رغباتهم، وسنذكر فيما بعد بعض ما ورد في التوراة والإنجيل من المبشّرات بمجيء نبيّ تنطبق صفاته على محمد ﷺ بعد الانتهاء من تفسير هذه السورة ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ومن صفات النبي محمد ﷺ أنه يأمر اليهود والنصارى بالإيمان بوحدانية الله وطاعته ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق وكل ما تستحسنه الطبائع السليمة من الأفعال، كما ينهاهم عن كل فعل تُنْكِرُهُ الطبائع السليمة من الأفعال السيئة كالفواحش والمنكرات والشرك بالله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي يُحِلُّ لهم ما تستطيبه الأذْواق من الأطعمة التي فيها فائدة في التغذية ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ويحرّم عليهم تناول كل خبيث وضارّ كالدم والميتة ولحم الخنزير والخمور، كما يُحَرِّمُ عليهم الرِّبا وما يُؤْخَذُ من الأموال بغير حق ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي يُخفف عنهم ما ثقل عليهم من التكاليف الشاقة في العبادات والمعاملات ﴿وَالأَغْلالَ التي كَانت عَلَيْهِمْ﴾ والأغلالُ: جمع غُلّ وهو القيد يقيّد به فيجعل الأعضاء في وسطه، وهنا استعارة لما كان في شرائعهم من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب وإحراق الغنائم، وتحريم العمل يوم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيّن القصاص في القتل العمد والخطأ من غير شرع الدية ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ فالذين آمنوا بنبوة محمد ﷺ واتبعوه فيما جاء به من الشرائع من عند ربه وعظّموه وَوَقَّرُوهُ، ونَصَرُوا دينه بجهادهم معه أعداء الله ﴿واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ والنور هنا هو القرآن، وسمي القرآن نوراً لكونه ظاهراً واضحاً في آياته يَهدِي من اتبعه إلى العقيدة السليمة والعمل الصالح كما يهدي النور الحسي في الليلة الظلماء من يسعى إلى مبتغاه ﴿أُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ أي أُولئك الذين آمنوا بنبوة محمد ونصروه واتبعوا ما أُنزل عليه من القرآن هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً﴾ أي قل يا محمد للناس

جميعاً إني رسول الله إليكم كافةً. وفي القرآن آيات أُخرى تثبت بأن الله أرسل محمداً للناس جميعاً لا للعرب خاصة خلافاً للأنبياء والرسل قبله، فقد كانت دعوتهم إلى أقوامهم خاصةً لا إلى الناس جميعاً.

وقد جاء في القرآن ما يؤكّد عموم رسالة محمد إلى البشر كافة مثل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

ويقول النبي محمد ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرة شهرٍ، وجُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحلّ لأَحَدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامةً»[1].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالأَرْضِ لا إِلَه إِلاَّ هُوَ﴾ وقل يا محمد إن الله الذي أَرْسَلني إلى الناس كافةً، له ملك السماوات والأرض وما استقرَّ فيها، وله التصرّف والتدبير في كل ذلك، وهو واحدٌ لا شريك له، ولو كان لغيره تصرّف مع تصرّف الله لفسد نظام الكون، فوحدة النظام في الكون دليل على وحدة الألوهية ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهو الذي يقدر على الإحياء والإماتة دون غيره ويبعث الناس أحياء بعد مماتهم يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ فآمنوا أيها الناس جميعاً بوحدانية الله وآمنوا برسوله محمد النبي الأُمِّيّ الذي بشّر به الأنبياء من قبل ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ وهذا النبي محمد يصدّق بما يدعوكم إليه من وحدانية الله وكلماته التشريعية التي أنزلها الله على رسله من قبل، وما أنزل الله عليه من القرآن ﴿واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾ واتبعوا محمداً بكل ما

---

(١) رواه البخاري.

جاءكم به من الدِّين من عند الله واقتدوا به لكي تهتدوا وتصيبوا الحق والصواب في اتّباعكم إياه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ
عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ
ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ
كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ
وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

شرح المفردات

أُمَّة: جماعة.

يهدون بالحق: يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويرشدون إليه.

وبه يعدلون: وبالحق يعطون ويأخذون فلا يجورون.

وقطَّعْناهم اثنتي عشرة أسْباطاً: أي صيَّرهم اللَّهُ اثنتي عشرة قبيلة، والسِّبْطُ: ولد الولد أو الولد.

فانبجست: فانفجرت.

وظلّلنا عليهم الغمام: وسخّر الله لهم السحب تظلّهم من حرارة الشمس.

المَنَّ والسَّلْوى: المَنُّ مادة مائعة لزجة تنزل من الجو كما ينزل الطلّ طعمها حلو تنزل على الحجر وورق الشجر، والسلوى: طائر السمانى.

وقولوا حِطَّةٌ: أي حُطّ عنا ذنوبنا يا رب بغفرانك لها.

رِجْزاً: عذاباً.

فَضْلُ اللَّهِ على بني إسرائيل

ويتابع القرآن فيذكر أن بني إسرائيل ليسوا كلهم سواء في تمردهم على طاعة الله وعصيانهم أمره، بل إن منهم فئة صالحة:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي ومن قوم موسى جماعة يهتدون بالحق ويعملون به ويرشدون إليه **﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** وبالحق يُنصفون الناس ويحكمون بينهم بالعدل.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ أي فرّق الله بني إسرائيل وصيّرهم اثنتي عشرة أمة لتتميز كل أُمة عن الأخرى، ويُقال لكل واحد سِبْط، والأسْباطُ في بني إسرائيل كالقبائل عند العرب، والسِّبْطُ وَلَدُ الوَلَدِ أي الحفيد أو الولد. وكان بنو إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر وَلَداً هم أولاد يعقوب الذي يطلق عليه أيضاً اسم إسرائيل.

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام على بني إسرائيل حين كانوا في صحراء سيناء بين مِصْرَ وفلسطين، والسبب في وجودهم هناك كما جاء في سورة المائدة: أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بالدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين للإقامة فيها بناء على وعْدٍ من الله لهم، فأبوا **﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾** [المائدة: ٢٢] كما قالوا لموسى: **﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾** [المائدة: ٢٤] أمام هذا اللؤم والجبن المستحكم في بني إسرائيل دعا موسى ربه أن يفصل بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين، فاستجاب له ربّه وأخبره بأن الأرض المقدّسة محرمة عليهم وأنهم سيتيهون في الصحراء أربعين سنةً، والآيات التالية تذكر

فَضْلَ الله عليهم وهم في الصحراء حين استبدَّ بهم العطش:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أي وأوحى اللهُ إلى موسى حين طلب منه قومه الماء لِيَرْووا عطشهم ﴿أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ أمر الله موسى بأن يضرب الحجر بعصاه التي في يده فضربه بقدرة الله تعالى ومعجزة منه فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْناً بعدد أسباط بني إسرائيل. أما نوع هذا الحجر أو الصخر وحجمه فلم يذكره لنا القرآن ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي قد عرف كل أُناسٍ من الأسْباط الاثنتي عشرة العين الخاصة بشربهم لا يدخل سِبْط على غيره في شربه.

ولما كانت الصحراء بِحَرِّها الشديد تفتقر إلى الشجر والظلال لتقيهم حرّ الشمس كان من فضل الله عليهم ما ذكره سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي وسَخَّرَ اللَّهُ لهم السحاب يلقي ظلاله عليهم حيث بسطه الله فوقهم في إقامتهم وسيرهم.

وكان الحصول على الطعام في الصحراء شغلهم الشاغل فيسّره الله لهم إذ قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ والسَّلْوَى﴾ أما المنّ فهو مادة بيضاء تنزل على ورق الشجر وغيره كالندى، حلوة الطعم، مذاقها حلو كالعسل، والسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسمانى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي قال الله لهم على لسان موسى: كلوا من مستلذّات ما رزقناكم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام هنا حذف تقديره: فكرهوا وملّوا منه وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وما ظلموا الله بكفرهم بهذه النعم ولكن كان ظلمهم مختصاً بهم، مقصوراً عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ واذكر يا محمد لقومك وللمعاصرين لك من اليهود حين قال الله لأسلاف بني إسرائيل على لسان موسى: اسكنوا هذه القرية

ـ أي بيت المقدس أو أريحا ـ بعد الخروج من صحراء التِّيه، وانتهاء مدة عقوبتهم فيها ﴿وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُم﴾ وكلوا مِنْ خيراتها من أي ناحية من نواحيها شئتم ﴿وقُولوا حِطَّةٌ﴾ وقولوا نسألك يا رب أن تَحطَّ عنا خطايانا بغفرانك لنا ﴿وادْخلوا البَاب سُجَّداً﴾ وادخلوا باب القرية خاضعين خاشعين لله مع انحناء الرؤوس تواضعاً لله وشكراً على تمكينكم من دخولها ﴿نَغْفِر لَكُم خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ المحْسِنِينَ﴾ أي إن فعلتم ذلك يغفر الله ما سبق من خطيّاتكم، وسيزيد ثواب الذين أحسنوا الأعمال بالإضافة إلى غفران ذنوبهم.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْهُم قَولاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُم﴾ أي فغيّر الذين كفروا من بني إسرائيل قولاً غير الذي قيل لهم فوضعوا مكان ذلك قولاً آخر تكبّراً واستهزاء. أما حقيقة العبارات التي قالوها وذكرها بعض المفسرين فلم يرد بها نص فالأصح عدم تعيينها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي بعث الله عليهم عذاباً من السماء أهْلك الكثير منهم قيل: هو الطاعون، وكان ذلك بسبب ظلمهم وما كانوا يغيّرون من أوامر الله.

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى
ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ
قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

شرح المفردات

القرية: المراد بالقرية أهلها، وهي قرية أيْلة.

حاضرة البحر: قريبة ومجاورة للبحر الأحمر.

يَعْدُونَ يوم السبت: يعتدون ويتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت وقد نُهوا عنه.

حيتانُهم: جمع حوت، وهو السمكة كبيرة كانت أم صغيرة.

شُرَّعاً: ظاهرة على وجه الماء.

ويوم لا يَسْبِتُونَ: وغير يوم السبت الذي أمروا بتعظيمه.

نَبْلُوهُم: نختبرهم ونمتحنهم.

أُمَّـةٌ منهم: جماعة منهم.

قالوا معذرة إلى ربكم: أي نعظهم لأجل الاعتذار إلى الله عن السكوت عن المنكر.

بعذابٍ بئيسٍ: بعذابٍ شديدٍ.

عَتَوا عن ما نُهوا عنه: تكبّروا عن ترك ما نهوا عنه.

خاسئين: أذلاّء صاغرين.

تأذَّنَ: آذن، أي أعلم.

من يسومهم: من يذيقهم.

عصيان اليهود ما نهاهم عنه ربّهم

ويُتابع القرآن أخْبار اليهود فيذكر كيف كانوا يعصون أمر ربّهم ولا يلتزمون طاعته:

قال الله تعالى: **﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ التي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾** أي وٱسأل يا محمد بني إسرائيل سؤال تقريع وتوبيخ عمّا فعل أسلافهم في قرية أيْلة الكائنة قرب البحر الأحمر **﴿إذْ يَعْدُون في السَّبْتِ﴾** يعدون: يعتدون، أي حين يعتدون ويتجاوزون حدود الله بالصيد في يوم السبت المحرّم عليهم الصيد فيه، بينما أمرهم الله بالتفرغ في هذا اليوم للعبادة **﴿إذْ تَأْتِيهِم حِيتَانُهُم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعاً﴾** أي حين كانت تأتيهم الأسْماك يوم السبت ظاهرةً على وجه الماء، وكان الله يبعثها على الظهور في هذا اليوم ابتلاءً لهم **﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُون لا تَأْتِيهِمْ﴾** أي ويوم لا يفعلون عمل يوم السبت من تعظيمه بترك الصيد والاشتغال بالعبادة لا تأتيهم الأسْماك ولا تظهر **﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾** أي مثل ذلك الابتلاء يختبرهم الله به بسبب خروجهم عن طاعة الله ليظهر منهم المحسن والمسيء فيظهر السمك على ظهر الماء بكثرة في اليوم المحرّم عليهم الصيد فيه، ويختفي في الأيام المحلل الصيد فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها يوم السبت أغْراهم ذلك بالاحتيال على صيدها بِنَصْبِ الشباك يوم الجمعة حتى إذا ما وقع فيها الصيد يوم السبت أَخَذُوهُ يوم الأحد، أو ٱتخذوا حياضاً يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج ويأخذونها منها يوم الأحد.

﴿وَإذْ قَالَت أُمةٌ مِنْهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُم عَذَاباً شَديداً﴾ أي وٱذْكُر حين قالت جماعة منهم لم يقعوا في معصية الله، قالوا للجماعة الصالحة التي كانت تعظ الأشْرار المعتدين: لأي سببٍ تنصحون قوماً

سيهلكهم الله بسبب عصيانهم أمره، أو معذبهم عذاباً شديداً في الآخرة؟ فأجابهم هؤلاء الوعّاظ: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي نعظهم وعظ اعتذار إلى ربكم لئلا ننسب إلى التقصير في النهي عن المنكر، وقد أمرنا الله بالتناهي عنه، رجاء انتفاعهم بالموعظة، ولعلَّ ذلك يكون سبباً لإقلاعهم عمّا هم عليه من معصية الله.

يفهم من النص القرآني أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق:

(١) فرقة المعتدين الذين كانوا يصطادون السمك يوم السبت مخالفين بذلك أمر ربهم.

(٢) فرقة الواعظين الذين كانوا ينهون المعتدين عن خروجهم عن طاعة ربهم.

(٣) فرقة اللائمين للواعظين ليأسهم من صلاح المعتدين.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلمّا نسي المعتدون المذنبون ما وعظهم به المتقون وأعْرضوا عنه كل الإعراض ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي أنجى الله من العذاب الذين كانوا يَنْهون المعتدين عن معصية الله ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وعاقب الله الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أوامره ونواهيه بعذابٍ شديدٍ ﴿بِمَا كانوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا[1] عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ أي فلما تجاوزوا الحَدَّ في معصية الله وتَكَبَّروا عن ترك ما نُهوا عنه جعلهم الله قردةً صاغرينَ أذِلاّء مُبْعَدِين عن كل خَيْرٍ، قيل: مَسَخَهُم اللَّهُ مسخ خلْق وجسم فكانوا قِرَدَةً بالفعل، وقيل مسخهم الله مسخ خُلُق فصاروا كالقِرَدَةِ في طيشها وشرّها وإفسادها ما تصل إليه أيديها.

---

(١) عتوا: يُقال عتا يعتو عُتُوًّا: إذا استكبر وجاوز الحَدَّ في المعصية.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ تأذّن بمعنى آذن، أي أعْلَم، والمعنى: وَاْذْكُرْ يا محمد إذْ أعلم ربّك الناس بما قضاه على بني إسرائيل من أنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سُوء العذاب من إجلاءٍ وتشريدٍ وتقتيلٍ عِقاباً لهم على ظُلمهم وفسقهم وفسادهم في الأرض ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ فهو سبحانه سريع العقاب لمن أقام على الكفر وارتكب المعاصي ولمن رأى الحكمة في تعجيل عقابه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإنه سبحانه كثير الغفران والرحمة لمن تاب وأصْلَحَ وتَرَكَ عصيان الله.

فالقرآن ذكر أن العذاب والاضطهاد سَيُلازمان بني إسرائيل إلى يوم القيامة ومن المعلوم أن بني إسرائيل قد اضطُهدوا قبل الإسلام على يد عِدّة فاتحين، ولكن ما أخبر به القرآن بأن العذاب سيلازمهم إلى يوم القيامة والذي حصل بعد الإسلام في مناطق مختلفة من العالم لهو من الأنْباء الغيبيّة التي تحققت والتي تشهد بأنه وحي إلَهي إذْ لا يعلم الغيب إلا الله.

جاء في كتاب (الفكر اليهودي)(١) عن اضطهادات اليهود في إسْبانيا والبُرْتغال (يرجع اضطهاد العنصر اليهودي إلى فَجْرِ العهد الذي تسلمت فيه المسيحية إدارة الشؤون المدنية، إذْ ظلّت كراهية اليهود لعدة قرونٍ رَمْزاً من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين، لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية فأشبعتهم امتهاناً واحتقاراً. . . فلم يجدوا ملجأً إلاّ الأنْدلس حيث أحاطهم أُمراء الإسلام بعطفٍ خاص. لكن عندما احتل النصارى الأندلس انهدم هذا الملاذ الوحيد. . . إذ تقرر إخراج اليهود منها، ففي سنة ١٣٩٠م ألْقى واعِظٌ معروفٌ يدعى هرناندو مارتينيز خطبة مثيرة هاج لسماعها الكاثوليك بأشبيلية فهاجموا حيَّ اليهود وقتلوا منهم ٤٠٠٠ نفس. . . وفي العام التالي

(١) تأليف ج. هـ. هرتس الحاخام الأكبر للأمبراطورية البريطانية، ترجمة الدكتور ألفريد بلوز.

وقعت حوادث مماثلة في بلنسيا وقرطبة. . . وطليطلة وبرشلونة جلّها بتحريض الواعظ ذاته، وقد بذل رجال الكنيسة كل جهودهم في سبيل طرد العنصر اليهودي. . . ففي أقل من ثلاثة أشهر أرغم جميع اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية على مغادرة البلاد الإسْبانية وإلا حُكِمَ عليهم بالإعْدام، وقد وقع كثيرون منهم في يد القراصنة الذين انتشروا حول الشواطىء فجرّدوهم من أمْوالهم واتخذوهم عبيداً أرقّـاء، هذا عدا الذين ماتوا جوعاً أو أُصيبوا بالطاعون فأهلكهم. . . ثم لجأ ثمانون ألْفاً إلى البُـرْتغال ارتكاناً على وعد ملكها، لكن القساوسة الإسْبانيين أثاروا الرأي العام في تلك البلاد وعمدوا إلى إقْناع ملك البُرْتغال بعدم إيوائهم، فأصدر أمراً يقضي بإبْعاد جميع اليهود البالغين، أما الأولاد الذين لا تتجاوز سنّهم أربعة عشر عاماً فقد انـتُـزعوا من أحْضان أُمّهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي.

لم يقتصر طرد اليهود على إسْبانيا والبُرْتُغال فقط، بل طُردوا وشُرِّدُوا من جميع دول أوروبا وإليك أيها القارىء لائحة بحوادث الطرد.

في إنكلترا: طرد الملك إدوارد اليهود سنة ١٢٩٠م.

وفي فرنسا: طردهم الملك فيليب الجميل سنة ١٣٠٦م. وسَمَحَ لِعَدَدٍ ضئيل منهم بالعودة، ولكنهم طُردوا مجدداً سنة ١٣٩٤م.

وفي المجر: طُردوا سنة ١٣٦٠م. ولكنهم ما لبثوا أنْ عادوا فيما بعد، وفي سنة ١٥٨٢م طُردوا مجدداً.

وفي بلجيكا: طُردوا عام ١٣٧٠م.

وفي تشيكوسلوفاكيا: شُـرِّدوا من براغ سنة ١٣٨٠م. وكثيرون عادوا فاستوطنوها سنة ١٥٦٢م، وفي سنة ١٧٤٤م طردتهم الأمبراطورة ماريا تيريزا.

وفي النمسا: طُـردوا سنة ١٤٢٠م على يد الملك ألبريخت الخامس.

وفي هُولَنْدا: طُـردوا من أوتريخت عام ١٤٤٤م.

وفي إيطاليا: طُـردوا من مملكة نابولي وسردينيا سنة ١٥٤٠م.

وفي ألْمانيا: نُـفُـوا من بافاريا سنة ١٥٥١م، ثم كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأُزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم.

وفي رُوسيا: طُـردوا سنة ١٥١٠م. ثم عادوا تدريجياً إليها متعرضين لأنواعٍ شتى من الاضطهادات وأبْرزها الاضطهاد الذي حصل في أُوكرانيا طيلة عام ١٩١٩م.

جاء في كتاب (الفكر اليهودي) في شأن هذا الاضطهاد: (لقد ذُبحَ أكْثر من مائة ألْف يهودي ـ رجالاً ونساء وأطفالاً ـ وأُهْرِقت دماؤهم في الشوارع. ارْتكَبَ تلك الأعمال جنودٌ غير نظاميين تحت إمرة القائدين دنكين وتبلورا، وقد أسكرتهم حمرة الدماء، فابتكروا وسائل تعذيب شيطانية.

وإن من الأسباب التي اضطهدتهم الشعوب لأِجْلها عدم اندماجهم بها وعدم إخْلاصهم ووفائهم للذين استضافوهم ولسلوكهم الشائن معهم، وذلك لما يظنونه من أنهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها وأنه يحق لهم اغتصاب حقوق الغير، ولعلَّ تعاليم التلمود ـ أحد كتبهم المقدسة ـ تركت أثراً كبيراً في تكييف سلوكهم. فمن تعاليم التلمود:

«إنَّ أمْلاك غير اليهود تُعتبر كالمال المتروك الذي يحقّ لليهودي أنْ يتملّكه».
وإن «الله قد منح اليهود السلطة على مقتنيات وحياة كل الشعوب» وأنه «كما يسمو الإنسان على الحيوان كذلك يسمو اليهودي على باقي أهل الأرض ذوي الطبيعة البهيمية».

واليوم وبعد أن عَلَوْا في الأرض وٱمتلكوا جميع أنواع الأسْلِحة الحديثة الفتّاكة، واقترفوا من المظالم والمجازر في حق الشعب الفلسطيني ما تقشعرّ منه الأبْدان فإن العدالة الإلَهية لن تتركهم يتمادوا في ظلمهم، فسيتحقق وعد الله فيهم ـ بإذنه ومشيئته ـ كما تحقق من قبل بأن يبعث عليهم عذاباً جزاء ما اقترفته أيديهم، وكل آتٍ قريب.

وصدق الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الجامع الأزْهر حين قال: «وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فَرَّطُوا في حق خالقهم وفي حقِّ أنفسهم ولم يأخذوا بالأسباب التي شرعها الله لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولتهم في قلب البلاد الإسلامية».

وأضيف على ذلك: خذلان الأمم الإسلامية وتقصيرهم في نجدة إخوانهم الفلسطينيين بموجب ميثاق الأخوة الإسلامية الذي يوجب نصرة المؤمن المظلوم والدفاع عنه عند الاعتداء عليه، كما كان للفرقة والتنازع على المناصب والخيانة دور في ذلك.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

شرح المفردات

وقطّعناهم في الأرض أُمَماً: وفرَّقْناهم في أقْطارِ الأرض فِرَقاً وجماعات.

ومنهم دون ذلك: ومنهم غير المؤمنين كالكافرين والفاسقين.

وبلوناهم: اختبرناهم وامتحنّاهم.

فخلف من بعدهم خَلْفٌ: فجاء جيل بعد جيل وقَرْنٌ بعد قَرْن.

يأخذون عَرَضَ هذا الأدْنى: يأخذون عوضاً عن قول الحق متاع الدنيا وحطامها وهو الرشوة في الأحكام.

مِيثاق الكتاب: عهد الله الوثيق المؤكد، والمراد بالكتاب: التوراة.

يُمَسِّكُونَ: يتمسكون ويعتصمون.

نَتَقْنَا الجَبَلَ: قلعناه ورفعناه.

ظُلَّة: كل ما أظلّك من سَقْفٍ أو غمامة.

وظنوا: أيقنوا، وكثيراً ما يُستعمل الظن في القرآن بمعنى التيقن.

واذكروا ما فيه: واعملوا بما فيه من الأحكام.

ابتلاءُ اللَّه لبني إسرائيل وتهديده لهم

وبعد أن توعّد الله بني إسرائيل في الآية السابقة بأن يُرسل عليهم سُوء العذاب إلى يوم القيامة جاءت الآية التالية تُبيّن أثراً من آثار هذا الوعيد وهو تفريقهم في الأرض، قال الله تعالى:

﴿**وَقَطَّعْنَاهُم في الأَرْضِ أَمَماً**﴾ أي فَرَّقَهُم اللَّهُ وصيّرهم في الأرض جماعات، كل جماعة في قطرٍ من أقطارها، وقد فرقهم الله في الأرض حتى لا تكون لهم دولة باجتماعهم في قطر واحد يترتب عليه أذًى لغيرهم، إلا أنهم لما اجتمعوا وصارت لهم دولة في فلسطين آذوا سكانها الأصليين العرب واقترفوا في حقهم أفظع أنواع الجرائم ﴿**مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ**﴾ منهم الصالحون الذين آمنوا بالله واتّبعوا رُسله وثَبَتُوا على دينهم قبل عيسى عليه السلام، كما أن منهم الذين آمنوا بنبوة محمد ﷺ واتّبعوه، ومنهم أناس دون وصف الصلاح وهم كفارهم الذين كانوا يخالفون أوامر الله ويفسدون في الأرض ﴿**وَبَلَوْنَاهُم بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ**﴾ كما أن الله اختبرهم وامتحنهم بالنّعم والعافية ليشكروا ربهم، كذلك امتحنهم بالشدائد والأمراض ليرجعوا إلى طاعته ويتوبوا إليه.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ﴾ فجاء من بعد هؤلاء الذين فيهم الصالح وغير الصالح خلف سوء لا خَيْرَ فيهم، والخَلْفُ: القَرْن يأتي بعد القَرْن أي أُمَّة بعد أُمَّة ﴿وَرِثُوا الكِتَابَ﴾ ورثوا عن آبائهم كتاب الله الذي أُنْزِلَ عليهم، والمُرادُ بكتاب الله: التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ والعَرَضُ: مَتَاعُ الدنيا وحطامها، والأَدْنى: الأقرب، والمراد به الدنيا، والمعنى: يأخذون عوضاً عن قول الحق والعمل بالتوراة مَتَاع هذه الحياة الدنيا وذلك بأخذهم المال الحرام وقبولهم الرشوة في الأحكام مقابل منفعة لهم وإرضاء لشهواتهم ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ويقولون في أنْفسهم سَيَغفِرُ اللَّهُ لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿وإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ والحال أنهم مصرّون على الذنب عائدون لمثله غير مبالين بأخذهم المال الحرام من عقاب الله إياهم ولا مكترثين لِتَبِعَةِ أعمالهم ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ الكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي ألَم يأخذ الله على بني إسرائيل العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله إلاّ الحقّ وقد درسوا ما فيها من حلال وحرام، فما بالهم يتعاطون الحرام ويصرون عليه ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِين يَتَّقُونَ﴾ وإن نعيم الدار الآخرة خَيْرٌ من متاع الدُّنيا للذين يخافون الله فلا يعصونه ﴿أَفلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون أن النعيم الدائم في الآخرة خيرٌ لكم من متاع الدنيا القليل الذي لا يدوم.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ﴾ أي والذين تمسّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى من عند ربّه وهو التوراة، يُؤمنون به ويحكمون بما فيه، فأدى ذلك بهم إلى الإيمان بالكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ وهو القُرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة عليهم أداءً كاملاً بأوقاتها مستوفية شروطها وأركانها ﴿إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ﴾ فالله سبحانه لا يضيع ثواب المصلحين الذين أصْلحوا أنفسهم باتباع الفضائل التي أمرهم الله بها، وأصْلحوا مجتمعهم من الفساد، وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وبعد أن أعْطى الله بني إسرائيل التوراة رفضوا العمل بما فيها من الأوامر والنواهي مُتعلِّلين بأنها حمل ثقيل لا يطيقونه، وحيال تمردهم هذا رفع الله جبل الطور من أصْله ثم جعله فوق رؤوسهم تهديداً لهم، فسجدوا لله، وٱنْقادوا إلى ما أمرهم به، ورَفْعُ الجَبَلِ معجزة أيّد الله بها موسى تصديقاً لما سيبلّغهم عن الله من أحكام التوراة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي واذكر يا محمد حين اقتلعنا الجبل ورفعناه فوق بني إسرائيل كأنه سحاب فوقهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِم﴾ وأيْقنوا أنه واقع بهم إن لم ينفذوا ما أمرهم الله به من أحكام ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ خذوا ما أعْطيناكم من أحكام الشريعة بجدّ وعزم على تحمّل مشاقّها ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ واذكروا ما في التوراة من أحكام بالعمل بها فإن في ذلك تطهيراً لقلوبكم وتزكية لنفوسكم لعلَّكم بذلك تجتنبون قبائح الأعمال ورذائل الأخْلاق.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ظهُورهم: جمع ظَهْر، ويراد به العمود الفقري الذي فيه النخاع الشوكي.

ذريتهم: سلالتهم من ذكور وإناث.

أَشْهَدَهم على أنفسهم: طلب منهم أن يعترفوا ويقروا بربوبيته.

أن تقولوا: لئلا تقولوا.

عن هذا: عن وحدانية الله وربوبيته.

من قبل: من قبل أن نوجد في الدنيا.

المُبْطلون: المراد بهم المشركون من آبائهم.

نفصّل الآيات: نوضح الدلائل.

لعلَّهم يرجعون: رجاء رجوعهم عن تقليد آبائهم في الشرك بالله.

إقرار بني آدم بربوبية اللَّه وحده

وبعد الكلام عن بني إسرائيل وما أخذ الله عليهم من مواثيق وعهود على طاعته، انتقلت بنا الآيات إلى الكلام عن بني آدم عامة حين أخذ الله عليهم المواثيق والعهود بالإقرار بربوبيته وحده وهم في عالم الغيب قبل أن يظهروا على مسرح الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي واذكر يا محمد للناس حين أخرج ربك من أصْلاب بني آدم نَسْلاً بعد نَسْلٍ وجيلاً بعد جيل ﴿وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم﴾[1] وطلب منهم أن يعترفوا ويقرّوا بأن الله ربهم ومالك أمرهم، وأنه لا إلَه إلا هو بعد أن أظهر لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته.

وبعد أن هيأهم الله لقبول ذلك وجّه إليهم الخطاب بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾ فكان جوابهم ﴿قَالُوا: بَلَى﴾ أي قالوا: نعم أنت ربّنا وحدك لا شريك لك، وبذلك الاستفهام التقريري من الله بقوله: ﴿أَلست بربكم﴾ والإجابة منهم بقولهم: (بلى) تم أخذ الميثاق من الله على عباده.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام

(١) يرى بعض المفسرين أن هذا من باب التمثيل أي وبعد أن نصب الله تعالى الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم فكأنه سبحانه أشهدهم على أنفسهم وقال (أَلَسْت بربكم) وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى، ونظيره قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

بنعمان[١] يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ـ أي خلقها ـ فنثرها بين يديه ثم كلّمهم فتَلا: ﴿**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**...﴾ إلى آخر الآية[٢]. فذريّة آدم أُخذت من ظهره، وكُلٌّ مِنّا قبل أن تحمل به أمه كان ذَرَّةً في ظهر أبيه، وأبُوه كان ذَرَّةً في ظهر أبيه، وهكذا توالت السلسلة حتى آدم عليه السلام.

أما بشأن الفطرة التي أوْدعها الله في الإنسان بالاهتداء إلى خالقه فقد جاء في القرآن ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[٣] [الروم: ٣٠] ولنرجع إلى متابعة الآيات، فبعد أن أخذ الله على بني آدم الميثاق وقالوا (بلى) قال الله سبحانه ﴿**شَهِدْنَا، أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ أي شهدنا عليكم يا بني آدم بما اعترفتم لئلا تقولوا يوم القيامة عند محاسبتكم على أعمالكم: إنا كنا عن الإيمان بك يا رب والإقرار بوحدانيتك غافلين.

﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم**﴾ أو تقولوا إن آباءنا كانوا يجعلون لله شريكاً، وكنا ذرية لهم فاقتدينا بهم ﴿**أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ أفَتُؤاخذنا يا ربّ، فتهلكنا بما فعل أهل الباطل من آبائنا وتجعل عذابنا مثل عذابهم مع قيام عذرنا بتقليدهم؛ ولكن هذا العذر لا يجديهم نفعاً، وهذا دليل على استهجان تقليد الآباء تقليداً أعمى بدون عِلْمٍ واقتناع، وأن تقليد الآباء إذا كانوا على باطل لا يُنجيهم من عذاب الله.

﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ**﴾ أي وبمثل ذلك البَيَان الحكيم يُبيّن الله الدلائل على وحدانيته ليرجع الذين جعلوا له شريكاً عن غيّهم وضلالهم وتقليدهم لآبائهم.

---

(١) بنعمان: وادٍ بجبل عرفة.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير.

(٣) الحَنيف: هو مَنْ أَسْلَمَ لأَمْر الله وكان على دِيْنِ إبراهيم دين التوحيد ودين الإسلام.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى
ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ
تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ
ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ
لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ
أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ
فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

شرح المفردات

واتْلُ عليهم: واقرأ عليهم.

فانسلخ منها: فخرج منها بكفره بها وفارقها كما تنسلخ الحية من جلدها.

فكان من الغاوين: فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية.

لرفعناه بها: لرفعناه إلى منازل الأبرار.

أخلد إلى الأرض: ركن إلى الدنيا واطمأن بها.

تحمل عليه: تطارده بالضرب والزجر.

يلهث: يخرج لسانه أثناء التنفس الشديد.

ذرأنا: خلقنا.

الجن: عالم حي عاقل مكلف خفي لا يُدرَكُ بحواس البشر.

لا يفقهون: لا يفهمون ولا يدركون.

كالأنعام: كالإبل والبقر والغنم والماعز.

ولله الأسماء الحسنى: ولله الأسماء التي تدل على أكمل الصفات وأحسن المعاني.

يلحدون في أسمائه: يميلون وينحرفون عنها إلى الباطل كأن يسمّوا أصنامهم بأسماء مشتقة من أسماء الله.

مثال لمن أعرض عن هدى الله

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه أخذ العهد على البشر بالإقرار بربوبيته، ضَرَبَ مثلاً للذي أعرض عن العمل بآيات الله واصفاً إياه بأخسّ الصفات، قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذي آتيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أي واقرأ يا محمد على من أرسلك الله لهدايتهم خبر الذي أعطيناه علماً بآياتنا المنزلة على رسلنا **﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾** فخرج منها بكفره بها، والسلخ حقيقته نزع جلد الحيوان من جسده، كما يُسلخ جلد الشاة عنها، والسلخ هنا استعارة تصور ترك العمل بمقتضى آيات الله **﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾** أي لحقه وأدركه فصار قدوة ومتبوعاً للشيطان وملازماً له **﴿فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾** فصار من الراسخين في الغواية والضلال بإعراضه عن آيات الله التي آتاه إياها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي لو شاء الله هدايته إلى الحق لرفعه بتلك الآيات إلى منازل الأبرار وأعلى درجات الكمال إذا استنار بهديها وعمل بموجبها **﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ﴾** ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها واستحوذت عليه بشهواتها وملاذّها، وآثرها على الآخرة فلم ينتفع بشيء من هذه الآيات بل اتّبع هواه، واتّباع الهوى يضل صاحبه عن سبيل الله وينحرف به إلى سبل الغواية المهلكة **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾** واللهاث إخراج اللسان لتعب أو عطش، أي مثل هذا الرجل في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن

تطارده بالضرب والزجر يخرج لسانه من أثر الإرهاق ﴿أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وإن تركت الكلب دون أن تطرده أو تزجره فإنه يظل يخرج لسانه كذلك، فطبيعة الكلب أن يلهث دائماً في حال التعب وحال الراحة، وحال الارتواء وحال العطش.

كذلك الإنسان إذا ترك دينه من أجل دنياه، وارتمى على شهوات الدنيا وملاذّها وأعرض عن هدى الله، يكون مثله كمثل الكلب اللاهث فهو في همّ دائم وشغل شاغل في جمع المال والتمتع بملاذّ الدنيا، وكلما أصاب سعة من الرزق زاده ذلك طمعاً وإعياء، إن وعظته ظل على ضلاله، وإن تركت وعظه فهو في ضلال مستمر.

ويقول الشيخ شعراوي رحمه الله في تفسيره: «فالإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة حتى وإن كان في نعمة لأنه معزول عن الله، وما دام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لي هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائماً في قلق ورعب مخافة أن يفوته النعيم أو أن لا يدوم له، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه».

﴿ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك المثل المتناهي في القبح والذم المتمثل بالكلب اللاهث هو صفة جميع الذين كذبوا بآيات الله التي أوضحت لهم سبل الهداية ﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ﴾ فاقصص يا محمد على قومك هذه الأخبار رجاء أن يتفكروا ويعتبروا بما في هذه القصص من عِبَرٍ ومواعظ. وفي قوله تعالى: لعلَّهم يتفكرون، دعوة إلى التفكر واستعمال العقل في شأن العقيدة.

﴿سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَأنْفُسَهُمْ كَانوا يَظْلِمُونَ﴾ أي بئس مثل القوم المكذبين بآيات الله المشتملة على الهداية والحق، وقد ظلموا أنفسهم بالإعراض عنها وحرمانها من الاهتداء بها وما يترتب على ذلك من خسارتهم سعادة الدنيا والآخرة.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِي﴾ ومن يرشده الله إلى دينه أو يتولّى هدايته بعد أن سلك طريق هداه، فهو المهتدي دون سواه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾ ومن يخذله الله بالحرمان من هذا التوفيق للهدى، ويسير على درب الضلال فأولئك هم الخاسرون في دنياهم وآخرتهم.

فالله سبحانه ذكر صفة من هداه بصيغة المفرد حيث قال ﴿فهو المهتدي﴾ إشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد، كما ذكر صفة الذين ضلّوا بصيغة الجمع حيث قال ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ للإشارة إلى تعدد أنواع الضلال وتنوّع وسائله وطرقه وهذا ما أشار إليه القرآن في موضع آخر حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثم وصف الله حالة الكفار بصورة مزرية تنفر منها النفوس، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهنَّم كثيراً من الجِنِّ والإِنسِ﴾ أي ولقد خلقنا كثيراً من الجن والإنس ليعذَّبوا بنار جهنم وهم الكفار الذين أعرضوا عن آيات الله ﴿لَهُمْ قلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ والقلب هو العضو المعروف في البدن وقد استعمله القرآن بمعنى العقل وبمعنى الوجدان النفسي الذي يعبر عنه بالضمير. فهؤلاء الكفار الذين مآلهم إلى النار يوم القيامة لهم قلوب لا يفكرون بها في آيات الله المنزلة على رسله ولا يفهمون ما تصلح به نفوسهم من توحيد الله الذي يجنبهم الخرافات والأوهام ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُون بِهَا﴾ ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون نظرة تأمل في ما خلق الله من مخلوقات تدل على عظمة خالقها ووحدانيته ﴿ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُون بِهَا﴾ ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها آيات الله ومواعظه فيتدبرونها ويستفيدون منها ﴿أُولَئِكَ كالأَنْعَام﴾ فهؤلاء كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل. فالإنسان فضّله الله على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك الذي يميز به بين الحق والباطل فإذا سُلب العقل والإدراك فلا فرق بينه وبين الأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل إن

الكفار أضل من الأنعام لأن الأنعام تعرف ما يضرها وما ينفعها بغريزتها أما الكفار فكأن لا عقل لهم ولا غريزة ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي غافلون عن آيات الله التي ترشدهم إلى ما فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والحسنى: مؤنث لكلمة الأحسن، أي للّه الأسماء والصفات التي هي أحسن الأسماء وأجلّها لاشتمالها على أحسن المعاني وأشرفها ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إما بمعنى التسمية كقولهم دعوته زيداً أي سميته زيداً، وإما بمعنى الدعاء والنداء، فقد أمر الله المؤمنين أن يدعوه بأسمائه الحسنى، فإنه إذا دُعي الله بأحسن أسمائه وكلها حسنى كان ذلك من أسباب إجابة الدعاء ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي وابتعدوا عن الذين يميلون بأسمائه إلى ما لا يليق بذاته العلية. والإلحاد في أسماء الله هو الميل والانحراف فيها إلى الباطل من تحريف أو تشبيه أو شرك أو ما ينافي وصفها بالحسنى، ومن إلحاد المشركين في أسماء الله الحسنى تسمية أصنامهم بأسماء مشتقة من أسماء الله: كتسميتهم اللات: من الله، والعُزّى: من العزيز، ومناة: من المنّان ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي سيُنزل الله عقوبته بالمشركين لعدولهم عن عبادة الله وحده إلى عبادة الأصنام.

هذا وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن للّه تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة والله وِتْر[١] يحب الوتر»[٢] ومعنى أحصاها أي عدها وحفظها، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها وأخذ العبرة من معانيها.

وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للّه تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة؛ هو الله الذي لا إله إلاّ هو، الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارىء، المصوِّر،

(١) الوتر: الفرد ومعناه في وصف الله تعالى أنه الواحد الذي لا شريك له ولا نظير.
(٢) متفق عليه.

الغفار، القهَّار، الوهَّاب، الرزَّاق، الفتَّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحَكَم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليُّ، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البرّ، التوّاب، المنتقم، العَفوُّ، الرؤوف، مالك المُلْك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسط، الجَامع، الغَنيّ، المغني، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى
مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾
أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا
هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

شرح المفردات

أمة: جماعة.

سنستدرجهم: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم بالإنعام والإمهال حتى يفاجئهم الهلاك وهم غافلون.

وأُملي لهم: أمهلهم ولا أتعجل في معاقبتهم.

إن كيدي متين: إن أخذي لهم بالهلاك قوي شديد.

جِنَّـة: خبل وجنون.

نذير: الإنذار هو التبليغ مع التخويف.

مبين: ظاهر واضح.

ملكوت: هو المُلْكُ العظيم زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة.

يذرهم: يتركهم.

طغيانهم: تجاوزهم الحد في الكفر والعصيان.

يعمهون: يترددون ويتحيرون.

دعوة إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض

وبعد أن بين القرآن فيما سبق بأن الله خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس بسبب ضلالهم بيّن في مقابل ذلك صفة من ساروا على هدى الله، قال الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدون بِالحَقِّ﴾ أي ومن جملة من خلقهم الله للجنة جماعة يهتدون بالحق ويدعون إليه **﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** وبالحق يقضون بين الناس وينصفون فيما بينهم والمراد بهم أمة محمد لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[١] وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان، ولا مكان دون مكان بل هم في كل مكان وفي كل زمان.

﴿والَّذين كذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين جحدوا آيات الله المنزلة من عنده ولم يعملوا بها واستهزأوا بها **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾** سَنَسْتَدْنِيهِم ونقربهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً وذلك بإفاضة النعم عليهم وهم مقيمون

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

على المعاصي، فكانوا كلما اقترفوا ذنباً أُعطوا نعمة استدراجاً لهم فظنوا لعظم غفلتهم عن الله وعن سننه في خلقه أن ذلك إكرام لهم إلى أن يأتيهم عقاب الله على حين غفلة. ولذا قيل: إذا رأيت الله أنعم على عبده وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج. ويتابع الله قوله في شأنهم ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أطيل لهم المدة وهم في بطرهم وطغيانهم وأؤخر عنهم العقوبة ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن عقابي لهؤلاء قوي شديد، وسُمي عقاب الله لهم كيداً لأنه على خلاف ما كانوا يظنون بأنهم آمنون ولنزوله بهم من حيث لم يكونوا يتوقعون.

وقد كان المشركون يتهمون محمداً بالجنون بسبب هذا الدين الذي يدعوهم إليه لذا جاء الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِنْ جِنَّةٍ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و «ما» نافية. وجنّة مصدر بمعنى الجنون. والمعنى: أكَذَّبُوا رسول الله محمداً ولم يتفكروا فيما جاءهم به من الوحي الإلهي؟ إنهم إنّ تفكروا في ذلك مليّاً أوشكوا أن يعرفوا الحق وأن صاحبهم محمداً ما به من جنون كما يزعمون. ووصف الله محمداً ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ لأنهم كانوا أدرى الناس بسلوكه بينهم، فقد عرفوا كل صغيرة وكبيرة عنه، فقد كان موصوفاً بينهم بالصدق والأمانة ورجاحة العقل، فلم يجار قومه في عبثهم وضلالهم بل كان مترفعاً عن كل ما يخدش المروءة، ولم يقلدهم في عبادتهم للأصنام. فالمقام مقام تفكر وتأمل فيما جاء به من عند الله من القرآن، وليس إلقاء القول جزافاً في حقه واتهامه بالجنون، فالإصلاح الديني والأدبي والاجتماعي الذي قام به محمد ﷺ لا يمكن أن يكون ثمرة جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما محمد إلا مُحَذِّر ومخوف تحذيراً واضحاً من عقاب الله من يرفضون دين الله ويعيثون في الأرض فساداً وظلماً.

ثم تأتي الآية التالية تدعو المشركين إلى التفكر في خلق السماوات والأرض الذي ينبىء عن وجود خالق لهما يستحق العبادة وحده.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّموات وَالأَرْضِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ من إعْراضهم عن النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض، والملكوت: من أبنية المبالغة في اللغة، أي الملك العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ﴾ أي ألم ينظروا كذلك فيما خلق الله من شيء، وهذا الشيء يشمل أصغر ما في الوجود كالذرّة والخلية الحية ويشمل ما كان في العِظم والحجم كالأجرام السماوية وكوكبنا الأرضي كما يشمل ما أودع الله في الأرض من أحياء ونبات وأتربة وماء ومعادن كل ذلك يشهد بأن لها خالقاً أبدعها ولم تُوجَدْ صدفة أو بعد تطور ملايين السنين كما يدعي الماديون الملحدون.

ثم إن هذا النظام العام في هذا الكون الذي يجري على سنن مطردة يدل على أن مصدره واحد، وتدبيره يرجع إلى علم عليم واحد، وقدرة قدير واحد، وحكمة حكيم واحد، وصدق من قال في وحدانية الله عند التأمل في مخلوقاته:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

إن كل شيء في الوجود له مؤثر، وكل حادث له محدِث، وكل صنعة لها صانع وهذه من البديهيات في مفهوم العقل، فتعالى الله مبدع الكون الذي تعجز العقول عن الإحاطة بعلمه وحكمته وقدرته.

وبعد هذا البيان الموجز في عظمة الله يأتي عقب ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَن عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُم﴾ أي أولم ينظروا أيضاً ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيموتوا على الكفر، وهذا التحذير حث للكفار على التفكر فيما يردّهم إلى الصواب والحق، ويردعهم عما هم عليه من ضلال قبل فوات الأوان بحلول موتهم فجأة وما يعقبه في الآخرة من ثواب أو عقاب على ما فعلوه في دنياهم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا لم يؤمن هؤلاء الكفرة بهذه البراهين الدالة على وحدانية الله وصدق نبوّة محمد ﷺ وبالقرآن المنزل عليه فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ ومن يوقعه الله في الضلال بسبب اختياره

الضلال على الهدى فلن يجد هادياً يهديه من دون الله ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ويتركهم الله في تجاوزهم الحد في الكفر والضلال مترددين حيارى لا يهتدون إلى الحق سبيلا.

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

شرح المفردات

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

أيّان مرساها: متى إثباتها واستقرارها.

لا يجلّيها: لا يظهرها ولا يكشف عنها.

ثَقُلت: عظمت لشدتها.

بغتة: فجأة.

كأنك حفيّ عنها: كأنك عالم بها.

التذكير بيوم القيامة

وبعد أن دعا القرآن المشركين إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض للتوصل إلى الإيمان بالله ذكّرهم بعد ذلك بيوم القيامة حيث مرجعهم إلى الله سبحانه فيحاسبهم على أعمالهم:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ السائلون قوم من قبيلة قريش سألوا رسول الله محمداً ﷺ عن الساعة وهي يوم القيامة متى وقوعها؟ وهم سألوا عنها لا إيماناً بها بل استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها. والساعة في اللغة جزء من أجزاء الليل والنهار وهي في اصطلاحنا الحاضر الوقت الذي يقدّر بستين دقيقة، والغالب في استعمال القرآن للساعة يوم القيامة حيث ينفرط نظام الكون وما يعقب ذلك من أهوال وموت الخلائق جميعها ثم يبعث الله بعد ذلك الناس أحياء بعد موتهم لمحاسبتهم على ما اقترفوه في دنياهم وما ينشأ عن ذلك من ثواب لهم أو عقاب. ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ أي قل يا محمد للسائلين عنها: لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه القيامة إلاّ الله سبحانه الذي استأثر بعلمها ولا يظهرها في وقتها أحد سواه ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ ثقل وقعها على السماوات والأرض لعظمها وشدتها، لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر، والجبال تتفتت والبحار تنضب ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ لا تأتيكم أيها الناس إلا فجأة وعلى حين غفلة منكم ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يسألك الناس يا محمد عن وقت وقوع القيامة كأن عندك علماً عنها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس لي علم بالوقت الذي تأتي فيه وإنما علمها عند الله وحده ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون بأن أمر القيامة مختص علمه بالله وحده لا يعلم متى حصولها أحد سواه.

ثم يأمر الله بعد ذلك رسوله محمداً بأن يبيّن لقومه بأنه بَشَرٌ وليست فيه صفات الألوهية كما كان بعض البشر يعتقدون ذلك في أنبيائهم ودعاة الإصلاح بينهم، قال الله تعالى:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَرًّا إِلاَّ ما شَاءَ اللَّهُ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إني لا أملك لنفسي جَلْبَ نفع في وقت ما، ولا دفع ضر في وقت ما مستقلاً

بقدرتي، وإنما يحصل ذلك بمشيئة الله سبحانه وقدرته.

وإذا كان محمد ﷺ لا يقدر على جَلْبِ نفع أو دفع ضر لنفسه إلا بمشيئة الله فمعنى ذلك أنه لا يملك لغيره نفعاً ولا ضراً إلا بمشيئة الله سبحانه، وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وجاء في القرآن: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧].

فمدار العبودية في الإسلام هو توجّه الناس إلى الله فيما يرجون من نفع أو دفع ضر، ومن يتوجه إلى وليّ لكشف الضر عنه أو حصول على نفع منه فقد ارتكب نوعاً من الشرك بالله فليتعظ هؤلاء الذين يزورون قبور الأولياء والصالحين من عباد الله ويقدّمون لهم النذور ويطلبون وهم على أعتاب أضرحتهم كشف الضرّ عنهم والحصول على ما يبتغونه، ولكن ألا يعلمون أن هؤلاء الذين يطلبون منهم قضاء حوائجهم لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً؟

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ وقل يا محمد لقومك: لو كنت أعلم ما غاب عني من خير أو شر لاستكثرت من كل خير لعلمي بما فيه من نفع وَلَدَفَعْتُ عن نفسي كل سوء باجتناب أضراره ﴿إِنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلاّ رسول أرسلني الله لأُنذر العصاة والكفار وأخوّفهم من عذاب النار، وأُبشّر الذين يؤمنون بالله ويطيعونه في أمره ونهيه بنعيم الجنة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون بالحق ويذعنون له ويقرّون بالثواب والعقاب من الله.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا
فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا
لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ
شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن
تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ
فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

شرح المفردات

من نفس واحدة: هي نفس آدم عليه السلام.

وجعل منها زوجها: وصيّـر من جنسها زوجها وهي حواء.

ليسكن إليها: ليطمئن إليها ويأنس بها.

تغشّاها: غشيها وهو كناية عن الجماع.

حملت حملاً خفيفاً: كان حملها في البدء خفيفاً هيناً.

فمرّت به: فمضت في قضاء حاجاتها من غير مشقة.

فلما أثقلت: فلما صارت ذات ثقل بسبب كبر الولد في بطنها.

صالحاً: ولداً سليماً من العاهات.

صامتون: تاركون دعوتهم.

كيدون: اعملوا على ضرري.

فلا تُـنـظِـرونِ: فلا تمهلوني ولا تؤخروني بعد تدبير كيدكم.

بعض مظاهر الإشراك بالله

ثم ينتقل القرآن إلى بيان خلق الإنسان من آدم وحواء وكيف دخل الشرك بالله إلى بعض ذريتهما:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي هو الله الذي بدأ خلقكم أيها الناس من نفس واحدة هي نفس آدم، ووصف النفس بواحدة للإشارة إلى وحدة أبوة البشر ووحدة الأخوة التي تستدعي عدم التناحر بين البشر لأنهم كلهم إخوة من آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق من جسم آدم زوجة له وهي حواء ليكون الجنس إلى الجنس أميل حتى يتم الأنس والتوافق بين الزوجين ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن إليها وتزول الوحشة من قلبه، وفي هذه الآية دلالة على أن الغاية الرئيسية المقصودة من الحياة الزوجية سكون الروح واطمئنان النفس وليست العلاقة الجنسية البحتة كما يفهمها البعض، وهذا ما أشار إليه القرآن في موضع آخر منه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فإذا ما توفّر السكون إلى الزوجة مع الود والرحمة كانت هناك الحياة الزوجية البعيدة عن الخصام. وبعد السكون إلى المرأة تنشأ العلاقة الجنسية التي وصفتها الآية: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ الغشاء: غطاء الشيء الذي يستره من فوقه وهنا كناية لطيفة مهذبة عن الجماع وتتسق مع جو الستر الذي تدعو إليه الشريعة في البعد عن الفحش في القول ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ أي وبعد هذا الجماع ظهرت على المرأة عوارض الحمل وكان حملها خفيفاً في بادىء الأمر ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها من غير مشقة ولا عناء ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ فلما صارت الأم ذات ثقل لكبر الولد في بطنها، تأمل لفظة ﴿أثقلت﴾ فهي تُصَوِّرُ أدقَّ التصوير لحالة المرأة في أواخر حملها حيث أثقلها عن الحركة وعن قضاء حوائجها بسهولة. وعند اقتراب الولادة يصور القرآن حالة الزوجين وهما يدعوان ربهما ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا

لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي يا ربنا لئن أعطيتنا ولداً كامل الخلقة، سالماً من العيوب لنكونن من الشاكرين لنعمتك.

﴿فَلَمَّا آتاهما صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيما آتَاهُمَا﴾ أي فلما أعطاهما الله ولداً سليماً لا نقص ولا عيب في تكوينه نسبوا ذلك إلى أصنامهم ـ كما كان يفعل مشركو العرب ـ ولم ينسبوا ذلك إلى الله وحده، أو نسبوا ذلك إلى بركة عباد الله الصالحين أو القديسين، كما هو الشأن عند بعض أتباع الديانات الأخرى.

ويحتمل أن يكون المراد بالشرك بالله إيثار حب الأولاد على حبّ الله تعالى وتعلقهم بهم بما ينسيهم عبادة الله وشكره، وبما يصرفهم عن الالتزام بما شرعه الله من الحلال والحرام **﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** فتعالت عظمة الله وتنزه عن أن يكون له شريك في ملكه.

ثم بيّن القرآن أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون لا تخلق شيئاً:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي هل يصح أن يجعلوا مع الله شركاء من أصنام مادتها من حجر أو خشب أو نحاس صنعوها بأيديهم وجعلوها آلهة، ثم قاموا بعبادتها وهي ليس لها القدرة على أن تخلق شيئاً **﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾** وهم مخلوقون، والمخلوق يكون محتاجاً إلى غيره وعاجزاً، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون إلهاً معبوداً.

﴿ولا يَسْتَطِيعُونَ لَهُم نَصْراً ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرونَ﴾ وهذه الأصنام لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصراً على أعدائهم، فضلاً على أنها لا تملك أن تجلب لنفسها نصراً إن أرادها أحد بسوء.

﴿وَإِن تَدْعُوهُم إِلَى الهُدَى لا يَتَّبِعُوكُم﴾ وإن تدعوا أيها المشركون آلهتكم من دون الله لهدايتكم لا يجيبوا لكم طلباً لإرشادكم ولا يتبعوكم إلى مرادكم **﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُم أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُم صامِتُونَ﴾** أي سواء دعاؤكم لهم عند

الشدائد أو بقاؤكم على صمتكم وعدم دعائكم إياهم إذ هم لا يفهمون دعاءكم ولا يسمعون أصواتكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي إن الذين تعبدونهم ـ أيها المشركون ـ من الأصنام وتسمونهم آلهة من دون الله هم عباد مماثلون لكم في العبودية لأنهم في الأصل جمادات ومسخرون لأمر الله كما سخّرت الأرض والسماوات لأمره سبحانه.

وسمى القرآن الأصنام عباداً وإن كانت جمادات لأن المشركين كانوا يعتقدون أنها تضر وتنفع فهي عاقلة في نظرهم ولهذا أنزلها القرآن منزلة العقلاء تبكيتاً وتوبيخاً لهم. وقيل الخطاب يشمل طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عباد أمثالهم لا آلهة. ثم عقّب القرآن على ذلك بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أي نادوا ـ أيها المشركون ـ هذه الأصنام، وادعوهم لجلب نفع أو دفع ضر ولتكن منهم الإجابة لدعائكم إن كنتم صادقين في ادّعائكم أنها آلهة، وهذا تهكّم واستهزاء بهم حيث إن أصنامهم لا تملك نفعاً لهم.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُون بِهَا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لها أرجل تمشي بها لقضاء حوائجكم وليست لها أيد يبطشون بها بمن يقصدكم بشرّ أو مكروه ﴿أَمْ لَهُم أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُم آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي وليس لهم أعين يبصرون بها أحوالكم ليحققوا لكم أغراضكم وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم ليستجيبوا لرغباتكم، فكيف يعبد الإنسان من هو دونه منزلة ويسبغ عليه صفات الألوهية؟ ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ أي قل لهم يا محمد: نادوا شركاءكم ـ أي أصنامكم ـ واستعينوا بهم على إيصال الضرر بي وامكروا بي ولا تمهلوني وتؤخروا ما قررتم إنزاله بي من الضرر فإني لا أبالي بمكركم، وفي هذا نهاية التعجيز والتحدي

لهم ولأصنامهم. وسمى الله الأصنام شركاءهم من حيث إنها منسوبة إليهم بتسميتهم آلهة وشركاء لله.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ
مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن
تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨
خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا
مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ
يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾

شرح المفردات

إن وليـّيَ الله: إن متولي أمري وناصري هو الله.

العفو: السهل اليسير من أخلاق الناس.

بالعُرف: بالمعروف المستحسن من الأفعال، والعُرف ما حسنه شرع الله.

وأعرض عن الجاهلين: واترك مخالطة السفهاء وقابلهم بالحلم إذا سفهوا عليك.

ينزغـنـّك من الشيطان نزغ: وإن يُـغْـوِكَ الشيطان ويدفعك للشر بوساوسه.

فاستعذ بالله: فالجأ إلى الله واعتصم به ليعيذك من شره.

مسّهم طائف: أصابهم خاطر ووسوسة.

تذكروا: أي تذكروا أمر الله ونهيه وعداوة الشيطان لهم.

الغيّ: الضلال والفساد.

ثم لا يقصرون: أي ثم لا يكفّ هؤلاء الناس عن الغي بل يتمادون فيه.

الدعوة إلى مكارم الأخلاق والترفع عن وساوس الشيطان

وبعد أن بيّن القرآن عجز الأصنام عن إيصال النفع للمشركين أو دفع الضر عنهم، بيّن بعد ذلك بأن النصرة والمعونة قد خصّهما الله لرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين.

﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللَّـهُ الذي نَـزَّلَ الكِتَـابَ﴾ وليّ المرء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع عنه الضرر، والكتاب هنا المراد به القرآن. والمعنى: قل يا محمد لقومك: إن نصيري ومعيني عليكم هو الله الذي نزّل القرآن عليّ بالحق ﴿وَهُـوَ يَتَـوَلَّـى الصَّـالِحينَ﴾ وهو سبحانه يحفظ الصالحين من عباده وينصرهم ويحول بينهم وبين أعدائهم. والصلاح في اللغة هو خلاف الفساد وضدّه.

فالصالحون من عباد الله هم الذين أصلحوا أنفسهم مما طرأ عليهم من شر وفساد وتابوا إلى الله عما اقترفوه من ذنوب.

والصالحون هم الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون فيها.

وهم الذين يصلحون مجتمعهم من كل ما يطرأ عليه من فساد وظلم.

وهم الذين يصلحون ما بين الأفراد والجماعات من نزاعات وأحقاد.

وهم الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات من الأعمال التي أمرهم الله بها.

هذا هو مفهوم الصلاح في القرآن وقد ورد في ذلك عشرات الآيات القرآنية.

هذا الشطر من الآية ﴿وَهُـوَ يَتَـوَلَّـى الصَّـالِحينَ﴾ استوحى منه الخليفة عمر ابن عبد العزيز سلوكه وتوجهاته نحو بنيه، فقد رُوي أنه ما كان يدّخر لأولاده شيئاً من المال فقيل له في ذلك فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين، فإن كان من الصالحين فوليّه الله ومن كان الله له وليًا فلا حاجة له إلى مالي. وإن كان من المجرمين فقد قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1] [القصص: ١٧] ومن ردّه الله فلن أشتغل بإصلاح مهماته.

---

(١) ظهيراً: معيناً.

﴿والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُم﴾ أي والأصنام التي تعبدونها ـ أيها المشركون ـ عاجزة عن نصرتكم ومدّ يد المعونة لكم في الشدائد والملمّات ﴿وَلا أَنْفُسَهُم يَنْصُرُونَ﴾ كما أنها عاجزة عن نصرة أنفسها فمن أحقّ بالعبادة؟ من ينصره الله أم من لا يستطيع أن ينصر نفسه وغيره؟ هذه الآية وإن تقدم ذكرها، كررها القرآن لمزيد من التأكيد وإظهارٍ لسخف عقول المشركين.

﴿وَإنْ تَدْعُوهُم إلَى الهُدَى لا يَسْمَعُوا﴾ وإن تطلبوا من أصنامكم أن يهدوكم إلى سبيل الرشاد لا يسمعوا دعاءكم ﴿وَتَرَاهُم يَنظُرونَ إلَيْكَ وَهُم لا يُبْصِرُونَ﴾ وترى يا محمد آلهة المشركين يقابلونك بعيون وصورة كأنها ناظرة إليك، فقد كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر فكانوا بذلك على هيئة الناظرين ولكن لا حياة فيها لأنها من جماد، فكيف تعبدون أيها المشركون هذه الآلهة التي لا تبصر فضلاً عن أنها لا تسمع؟ ومثل هذا ما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه الذي كان يعبد الأصنام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان بعض مكارم الأخلاق التي يستحسن الأخذ بها:

﴿خُذِ العَفْوَ﴾ والأخذ حقيقته تناول الشيء وهو مجاز هنا عن القبول والرضا، والعفو: هو الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه، والمراد العفو عن المشركين وعدم مؤاخذتهم بما أساءوا إلى رسول الله والمؤمنين. ويطلق العفو على السهل الذي لا كلفة فيه، أي ارضَ من الناس بما تيسّر من أخلاقهم ولا تستقص عليهم، ولا تكلفهم من الجهد ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا مثل قبول الاعتذار والتساهل حيال ما يصدر منهم، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «بشّروا ولا تنفروا، يسّروا ولا تعسّروا»[١] ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ والعرف هو الاسم المرادف

(١) رواه مسلم وأبو داود.

للمعروف، وهو المستحسن من الأفعال التي تعرف العقول صوابه، وتطمئن إليه النفوس، ويوافق شرع الله، وهو خلاف المنكر الذي تنكره العقول لقبحه ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ والجاهلون هنا السفهاء الطائشون، أي أعرض عنهم ولا تعاشرهم ولا تنحدر إلى مستواهم، ولا تقابلهم بمثل سفههم وطيشهم عندما يصيبك الأذى منهم بل قابلهم بالحلم.

هذه الآية التي أمرت بالأمور الثلاثة قال عنها الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ ونزغ الشيطان: وساوسه، يقال نزغ الشيطان بين الناس: أفسد بينهم بحثّهم على الشرّ بداعية غضب أو شهوة من شهوات النفس.

وقد أخبرنا الله في القرآن بأن هناك في عالم الغيب شيطاناً لا تدركه حواسنا يتصل بنا ويقوّي دواعي الشر فينا وقد سماه الله: وسواساً، ونزغاً، ومسًّا، فمتى مالت أنفسنا إلى الشر أو إلى المعصية عالجنا ذلك بما أرشدنا الله إليه: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي الجأ إلى الله ليحميك من وساوس الشيطان وقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله سميع لما تقول، عليم بما تتوجه إليه من الأفعال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم فامتثلوا أوامره واجتنبوا ما نهى الله عنه من عادتهم أنهم إذا أصابهم خاطر من خواطر الشيطان أو وسوسة منه تُزَيِّن لهم المعصية تذكّروا مقام ربهم واستحضروا عظمته وجلاله ووعده بالثواب ووعيده بالعقاب. تأمل كلمة طائف فهي اسم فاعل من طاف بالشيء إذا دار حوله، وجعلت وسوسة الشيطان طائفاً للإيذان بأنها وإن مسّت المتقين فلا تؤثر فيهم فكأنها تطوف حولهم ولا تصل إليهم ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فإذا هم مبصرون بنور ربهم طريق الهدى، منتهون عن معصية الله، ممتنعون عن الاستجابة لوساوس الشيطان.

﴿وَإِخْوانُهُم يَمُدُّونَهُم في الغَيِّ﴾ وإخوان شياطين الجن من المشركين تزيدهم الشياطين في الضلال بالوسوسة والإغراء بالمعاصي ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يكفّون عن إضلالهم بل يستمرون على ذلك.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

شرح المفردات

لولا اجتبيتها: هلاّ اخترعتها واختلقتها من عند نفسك.

هذا بصائر: هذا القرآن حجج بيّنة تبصّركم وجه الحق.

فاستمعوا له: فاقصدوا سماعه ولا تُعرضوا عنه.

وأنصتوا: واسكتوا متأملين معناه.

تضرّعاً: متضرعاً له بخشوع متذللاً.

ودون الجهر من القول: الجهر رفع الصوت بإفراط وبما دونه مما هو أقل منه وهو الوسط بين الجهر والمخافتة.

والغدوّ: جمع غُدوة وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

الآصال: جمع أصيل وهو الوقت من بعد العصر إلى المغرب.

ولا تكن من الغافلين: أي لا تكن من الغافلين عن ذكر الله اللاهين عنه.

آداب قراءة القرآن وذكر الله

ويتابع القرآن فيناقش المشركين في شأن نبوّة محمد التي ينكرونها، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي وإذا لم تأتهم يا محمد بآية من القرآن عند تراخي نزوله عليك أو طلبوا معجزة مما اقترحوه عليك قالوا: هلاّ اختلقت الآيات واخترعتها من عند نفسك ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ قل لهم يا محمد ليس لي أن أقترح شيئاً من المعجزات على ربي أو الإتيان بآيات القرآن من عند نفسي، بل أتبع ما يوحي الله إليّ من الآيات أُبلّغها لكم ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن الذي تنزل عليّ آياته من عند ربي هو حججٌ بيّنة وبراهين نيّرة، تُبصرون به الحق وتدركون الصواب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو هدى للناس إلى الطريق المستقيم ورحمة للذين يؤمنون به ويتبعون وصاياه.

ثم يأتي الخطاب للمؤمنين في شأن الاستماع عند تلاوة القرآن وعند ذكر الله:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ وإذا تُلي عليكم أيها المؤمنون القرآن فاصغوا إليه بأسماعكم وأنصتوا: أي فاسكتوا ولا تتكلموا تعظيماً له لتفهموا معانيه وتتدبّروا مواعظه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين بحسن الاستماع والإنصات إليه الفوز برحمة الله.

أما ما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع للقرآن والاشتغال بالأحاديث المختلفة فمكروه كراهة شديدة، وكذلك بدعة قراءة القرآن في المآذن والناس في أشغالهم وبيعهم ولهوهم لا يصغون إليه ولا يفهمون شيئاً لبعد المسافة وضجيج الميكروفونات، فعلى أئمة المساجد أن لا يسمحوا بذلك، ولا يجوز لقارىء القرآن أن يقرأ على قوم لا يستمعون إليه، كما تُكره قراءة

القرآن أثناء سير الجنازة جهراً لأنها بدعة وكذلك لا تجوز قراءة القرآن في المواضع القذرة كالحمامات وغيرها.

وتستحب قراءة القرآن بالترتيل والنغم الدالّ على التأثر والخشوع من غير تكلف ولا تطويل في المدود، وأن يستعيذ المؤمن قبل قراءة القرآن من الشيطان الرجيم، ويدعو الله في أثناء سماع الآيات بحسب معانيها كسؤال الرحمة عند ذكرها، والاستعاذة من العذاب عند ذكره.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي اذكر ربك أيها المسلم في نفسك بينك وبين ربك لأن الإخفاء أصْفىٰ للنّفس، وأقرب إلى الإجابة وأبعد عن الرياء ﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ وأن يكون ذكرك على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والخشوع له سبحانه، وأن يكون على وجه الخوف والخشية من سلطان ربوبية الله وعظمة ألوهيته ﴿ودُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ﴾ أي واذكر ربك بلسانك دون الجهر، والمراد بالجهر رفع الصوت بإفراط وبما دونه ما هو أقل منه وهو الوسط بين الجهر والمخافتة ﴿بالغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ وليكن ذكرك لله في الغدو: وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. والآصال: جمع أصيل وهو من العصر إلى غروب الشمس، والمراد بهما هنا جميع الأوقات حسبما يتيسّر للذاكرين ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ﴾ أي ولا تكن أيها المسلم من جملة الغافلين عن ذكر ربك بأن تترك ذكره سبحانه، فمن غفل عن ذكر الله مرض قلبه، وضعف إيمانه، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه، وقد جاء في القرآن: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ويقول رسول الله محمد ﷺ: «مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مَثَلُ الحيّ والميت»(١) فذكر الله يُحيي القلوب بنوازع الخير ويُدخل الطمأنينة لها، ونسيان الله

(١) رواه البخاري.

يميت القلوب فَتَقْسو، ويتنابها القلق والأمراض النفسية، ولله در الشاعر إذ يقول مخاطباً ربه:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

وتختتم هذه السورة بالكلام عن الملائكة، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ والمراد بهم الملائكة. وقال: عند ربك، لأنهم قريبون من رحمته وكل قريب من رحمة الله فهو عنده ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتكبرون ولا يتعظمون عن عبادة ربهم بل يؤدونها وفق ما أُمروا بها كاملة وافية كما أمر الله ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي وينزهون الله عن كل ما لا يليق بجلاله على أبلغ وجه وأكمله ويخضعون له تعالى ويعبدونه.

فالملائكة وهم على طهارتهم وبعدهم عن عصيان الله لا يستكبرون عن عبادة الله فأحرى بالبشر المثقَلين بالخطايا أن يعبدوا الله ويخضعوا له ويسجدوا تشبهاً بالملائكة، ويطلبوا الغفران والرحمة منه بما قدمت أيديهم من آثام.

هذه الآية الأخيرة من هذه السورة طُلب فيها من المؤمنين أن يسجدوا لله عند تلاوتها أو سماعها، وهذه السجدة المعروفة عند الفقهاء بسجدة التلاوة هي سجدة بين تكبيرتين، تكبيرة لوضع الجبهة على الأرض وتكبيرة للرفع من السجود دون تشهد ولا تسليم، ويشترط لها ما يشترط للصلاة من الطهارة والنية واستقبال القبلة. وفي القرآن أربع عشرة آية أخرى على المؤمن أن يسجد عند تلاوتها أو سماعها. وسجود التلاوة سُنَّة للقارىء والمستمع عند أكثر الفقهاء، فمن سجد فله أجر ومن لم يسجد فلا إثم عليه. والحكمة من سجود التلاوة المسايرة لروح العبودية العامّ المنتظم في الكون وذلك ما ورد في سورة الرعد ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩﴾ [الرعد: ١٥].

بَعضُ المُبَشِّراتِ بِنَبيِّ الأُسْلامِ
في
التَوراةِ وَالإنجيلِ

النصارى أقرب الملل مودة إلى الإسلام

في هذا البحث أريد أن أُثبت ما أعلنه القرآن من أن صفة النبي محمد ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل، ولست أبتغي في هذا البحث الإساءة إلى أحد بل أريد الوصول إلى الحقيقة المجردة.

فقد أعلن القرآن أن النصارى هم أقرب الناس مودة للمسلمين قال تعالى: ﴿. . .وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للذين آمنوا الّذِينَ قَالوا إِنَّا نصارى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرُون﴾ [المائدة: ٨٢].

كما دعا الإسلام إلى معاملتهم بالبرّ والعدل إذا كانوا مسالمين للمسلمين بموجب الآية الكريمة التالية: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عن الّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم في الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيارِكُم أن تَبَرُّوهم(١) وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِم إِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمقسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

كما دعا القرآن إلى الإيمان بنبوّة عيسى عليه السلام وأن من ينكر نبوته من المسلمين فهو كافر.

وفي الأناجيل الحاضرة والقرآن الكريم من القِيَم الروحية والفضائل الخلقية ما يقدم أعظم الخير للإنسانية المعذبة التي عانت من الظلم والاضطهاد أجيالاً كثيرة.

هذا وإن الدين أنزله الله ليصلح بين البشر لا ليفـرّق بينهم وهذا ما خاطب الله به

---

(١) تبرّوهم: البرّ في اللغة فعل كل خير والإكرام والصدق وفسّره النبي محمد ﷺ بقوله: البرّ حُسْنُ الخلُق.

المؤمنين بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ[1] وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى أن أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيه. . .﴾ [الشورى: ١٣] تأمّل كيف جمع الله في هذه الآية بين أنبياء الله: نوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ليؤكد الوحدة الرسالة الإلهية التي أتوا بها.

وإني في هذا البحث أمهد الطريق للحوار الصحيح بين الإسلام والمسيحية عن طريق الدعوة إلى الإيمان بنبوّة محمد، فكما أن المسلمين يؤمنون بنبوّة عيسى عليه السلام فإن النصارى بإيمانهم بنبوّة محمد عليه السلام يمكنهم أن يزيلوا الكثير من الحواجز التي تفصل بينهم وبين المسلمين مما يؤدي بهم إلى التقارب والتآلف والمحبة.

المبشّرات بنبوة محمد في التوراة والإنجيل

وقد كان اليهود والنصارى قبل الإسلام يتناقلون الحديث فيما بينهم عن قرب مجيء نبي ذي صفات معينة تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ بالنسبة لما قرأوه في كتبهم المقدسة، فلما بعثه الله نبياً آمن به كثيرون وصدقوه كما جحد به آخرون.

وفي التوراة والإنجيل الكثير من المبشّرات بنبوة محمد لو استعرضناها جميعاً لاحتاج الأمر إلى سِفْر كبير ولكني هنا سأقتصر على بعضها.

والناظر في نصوص التوراة والأناجيل المعتمدة عند النصارى يجد اختلافاً في الترجمات بعضها عن بعض مما يجعل الباحث يلاقي مشقة عند الاستشهاد بها إضافة إلى اختلاف تفسيرها.

وهذه بعض المبشّرات في التوراة والإنجيل في شأن نبوة محمد ﷺ والتي أشار

---

(١) أوحينا إليك: هو النبي محمد ﷺ الذي أوحى الله إليه.

إليها القرآن بقوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهم في التَّوْرَاةِ وَالإنجيلِ. . .﴾ [الأعراف: ١٥٧].

موسى يعلن عن مجيء نبيّ من ذُرّية إسماعيل

جاء في الأصحاح الثامن عشر من تثنية الاشتراع من التوراة:

(١٧) فقال لي الرَّبّ: قد أَحْسَنوا فيمَا قالوا (١٨) سَأُقيمُ لَهم نبياً من وَسْطِ إخوتهم مِثْلَكَ وأَجْعَلُ كلامي في فَمِهِ، فيخاطبهم بِكُلِّ ما آمُرُه بِهِ (١٩) وأيُّ رَجُل لم يَسْمَع كلامي الذي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمي فَإِنّي أُحاسِبُه عليه (٢٠) ولكن أيُّ نبيٍّ اعتدَّ بنفسه فَقَال باسمي قَوْلاً لم آمُرْه أن يقوله، أو تَكَلَّمَ بِاسْمِ آلِهةٍ أُخرَى فَلْيُقْتَلْ ذَلِكَ النبيّ (٢١) فَإِن قُلتَ في قلبك كيف نَعرفُ القَولَ الذي لم يَقُله الربّ (٢٢) فإن تكلم النبيُّ باسمِ الرَّبِّ ولم يَتِمَّ كَلامُه ولم يَحدُثْ، فَذَلِكَ الكلامُ لم يتكلَّم بِهِ الرَّبّ بل لِلاعتدادِ بِنَفْسِه تَكلَّم بِهِ النبيُّ فلا تَهَبْه.

هذا النص جاء على لسان موسى عليه السلام بمجيء نبيّ، وأنَّ هذا النبي لن يكون من بني إسرائيل[١] وإنما من إخوتهم. فمن المسلّم به أن إسماعيل عليه السلام هو أخو إسحاق عليه السلام وهما ولدا إبراهيم عليه السلام، وأن بني إسرائيل من نسل إسحاق، وأن محمداً ﷺ من نسْل إسماعيل وولده قيدار (عدنان) وهو الجد الأعلى للعرب. وعلى هذا يتعيّن استبعاد جميع أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام من مظنّة أن يكون أحدهم هو المقصود بهذه البشارة.

(١) يقول اليهود: إلى الآن لم يظهر هذا النبي وإذا ظهر سيكون من بني إسرائيل، ويقول النصارى إن ذلك النبي هو عيسى وقد جاء ولا نبي من بعده، ونقول نحن المسلمين إن ذلك النبي الموعود هو محمد نبي الإسلام.

ولو كان المقصود نبياً من بني إسرائيل لقال موسى: نبياً من أنفسهم ولكنه قال: «أُقيم لهم نبياً وسط إخوتهم»[١] أي من نسْل إسماعيل.

وقد جاء في الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين: (٢٠) وَأَمَّا إسماعيلُ فقد سمعتُ قولك فيه وَهاءنذا أُبارِكُه وأُنْميه وأُكَثِّرُهُ جدًّا جدًّا وَيلِدُ اثني عشر رئيساً وأجعَلُهُ أُمَّةً عظيمة.

فالنص صريح على أن إسماعيل قد حصل على البركة من الله وأنه سيكون من نسْله أنبياء.

وجاء في هذه البشارة لفظ (مثلك) أي أن هذا النبي سيكون مثل موسى عليه السلام وهنا تأكيد على أن النبي المقصود هو محمد ﷺ.

فموسى صاحب كتاب وشريعة، ومحمد مثل موسى صاحب كتاب وشريعة، ولم يكن عيسى عليه السلام إلاَّ نبياً منفذاً للناموس فقد قال كما جاء في كتب النصارى: (١٧) لا تظنوا أَنّي جئتُ لأُبْطِلَ الشَّريعَةَ أو الأنبياء. ما جئتُ لأُبْطِلَ، بل لأُكْمِل [متى ٥: ١٧].

ومحمد مثل موسى، فقد وُلد موسى من أبٍ وَأُمٍّ بطريقة زواج طبيعية وكذلك محمد ﷺ بينما عيسى ولد من مريم العذراء فقط.

وتزوج موسى ومحمد عليهما السلام ولكن عيسى عليه السلام لم يتزوج طيلة حياته.

وموسى ومحمد حاربا من أجل الحق ولم يحارب عيسى أعداء الله.

وجاء في هذه البشارة لفظ (وأُلقي كلامي في فِيهِ) وهو إشارة إلى أن ذلك النبي

---

(١) جاء في الأصحاح السادس عشر من سفر التكوين: (١١) وقال لها ملاكُ الرب ها أنت حَامِلٌ وستلدين ابناً وتسمّينه إسماعيل لأن الرب قد سمع صوت شقائك (١٢) ويكون رَجُلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه وأمام جميع إخوته يسكن.

ينزل عليه الكتاب وحياً من عند الله وإلى أنه يكون أُمّيًا لا يُباشر الكتابة بل يكون حافِظاً للكلام الإلهي ويتلو ما يمليه الله عليه.

وقد ثبت أن محمداً كان أُمِّيًا ولـمّا بلغ من العمر أربعين عاماً وكان يتعبد في غار حراء جاءه الملك جبريل وأمره قائلاً (اقرأ) فقال محمد ما أنا بقارىء فكرر جبريل عليه (اقرأ) وكان الجواب (ما أنا بقارىء) أي لا أحسن القراءة لأني أميّ ثم نزل عليه الوحي من الله بواسطة الملك جبريل وظل الوحي ينزل عليه ثلاثاً وعشرين سنة فكان النبي محمد ﷺ يتلو ما أُنزل عليه من الوحي على أتباعه ويدوّنه كتبة الوحي. بينما كان عيسى قارئاً وكاتباً كما نصت الأناجيل على ذلك.

وجاء في هذه البشارة: «وأي رجل لم يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه» وقد فسر عيسى عليه السلام: «فإني أحاسبه عليه» بالعذاب الشديد لمن لا يسمع ويطيع لذلك النبي الآتي إلى العالم. وقد جاء في الأصحاح الثالث من أعمال الرسل: (٢٣) «ومن لم يستمع لذلك النبي يُستأصل من بين الشعب». وهذا ينطبق على نبي الإسلام وحده لأن عيسى قال: «أنا لست أطلب مجدي. يوجد من يطلب ويدين» [يوحنا ٨: ٥]. ولأنه دفع الجزية للرومان [متى ١٧ : ٢٧] وقال بصريح العبارة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه» [مرقس ١٢ : ١٧].

أما نبي الإسلام فحارب اليهود الذين خانوه وطردهم من جزيرة العرب التي قدموا إليها، وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قام بفتح بلاد الشام واستولى عليها وقضى على دولة الروم فيها.

كما جاء في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره به أو يدعو الناس إلى إلّه غيره يكون جزاؤه من الله القتل. ولنسأل: هل قُتِلَ نبي الإسلام أو هل قتل عيسى عليه السلام؟ فإذا نظرنا في القرآن نجد أنه يصرح بأنهما لم يُقتلا، ونجد الإنجيل الذي بين أيديهم يصرِّح بقتل عيسى، فعلى ما كتبوا في الإنجيل لا يكون ذلك النبي هو عيسى عليه السلام.

فلو لم يكن محمد نبيًا حقاً وصدقاً لكان قُتل، وقد جاء في القرآن في شأن محمد ﷺ ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعضَ الأقاويل. لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِين**﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. والمعنى: لو افترى محمد على الله كذباً وادّعى بما لم يتلقه من الله لكان جزاؤه القتل بقطع عنقه.

ولكن القرآن أثبت صدق محمد وأعلن بأن الله سيحفظه ويرعاه: ﴿. . . **واللَّهُ يَعْصِمكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧]. وقد تحقق وعد الله ولم يقدر أحد على قتله رغم بعض المحاولات في ذلك ومات ميتة طبيعية.

وبيّنت البشرى بأن علامة النبي الكاذب هي إخباره عن أمور الغيب بما لم يتحقق، ومحمد أخبر عن كثير من الأمور الغيبية التي تحققت جميعها. منها: وعد أصحابه بالنصر على أعدائهم كما جاء في القرآن ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الّذِين آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرضِ كمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلهم. . .**﴾ [النور: ٥٥]، ﴿**قُلْ لِلّذِينَ كَفَروا سَتُغْلَبُون. .**﴾ [آل عمران: ١٢].

وقد تحقق ما أخبر به القرآن وتم النصر للمؤمنين على الكافرين، ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير من الأمور الغيبية التي أخبر عنها القرآن وتحققت كلها.

موسى يتنبأ بِنَبيٍّ يبعثه اللَّهُ من مكة

وجاء في الأصحاح الثالث والثلاثين من تثنية الاشتراع:

(١) وهذه هي البَرَكَةُ التي بارك بها موسى رَجُلُ اللَّهِ بني إسرائيل قَبْلَ مَوْتِهِ (٢) فقال: أقبلَ الرَّبُّ مِنْ سيناء وأشْرَقَ لهم مِنْ سِعير وتجلّى من جبل فَاران وأتى من رُبى القُدْسِ[١] وعن يمينه قَبَسُ شَريعَةٍ لَهُم.

---

(١) رب القدس وترجمت من ربوات القدس وربوات هي الجماعات الكثيرة. والقدس هنا هي الملائكة =

فقوله (أقبل الـرَّبُّ مِن سيناء) إشارة إلى أول شريعة لبني إسرائيل على يد موسى عليه السلام حيث أنزلت عليه التوراة في جبل الطور في صحراء سيناء. وقوله: (وأشرق لهم من سِعِير) وسعير هو جبل يقع إلى الجنوب والشرق من البحر الميت وجبل سعير هو مكان سكنى بني هارون الذين هم فَرْعٌ من بني لاوَى، والرمز بجبل سعير إشارة إلى العلماء والأنبياء من بني إسرائيل الذين كانوا من بعد موسى ومنهم عيسى عليه السلام فإنه من نسْل هارون من سِبْط لاوى، فَإشراقه من سعير إشارة إلى ظهور عيسى عليه السلام حيث أعطاه الله الإنجيل فيه هدى ونور وقوله: (وَتَجلَّى من جَبَلِ فَاران) وفاران هي من أسماء مكة المكرمة التي سَكَنَ فيها إسماعيل عليه السلام. والتوراة تذكر أن إبراهيم عليه السلام قد أسكن زوجه هاجر وابنهما إسماعيل فاران. وقد جاء في الأصحاح ٢١ من سفر التكوين عن إسماعيل: (٢١) وأقام بِـبـرِّيـةِ فَاران، واتّخذت له أُمُّهُ امرأةً من أرضِ مِصْر.

وفي ذكر فاران إشارة إلى شريعة من الله تنزل على نبي من آل إسماعيل عليه السلام، وهذا النبي الذي جاء من آل إسماعيل ومن نسله هو النبي محمد ﷺ ولم يأت من نسْل إسماعيل نبيٌّ غيره. فمحمد يرجع نسبه إلى إسماعيل عليه السلام الذي استقر في قفار فاران (أي مكة) وهو النبي الذي تقبّل العرب ما جاء به من الهدى من عند ربه عندما كان الظلام يلف أرجاء الأرض ومن خلاله شَـعَّ النور الإلهي في فاران.

ثم إن هناك نبوءة جاء بها حبقوق النبي وهي جديرة بالملاحظة.

فقد جاء في الأصحاح الثالث من سفر حبقوق من العهد القديم: (٣) الله يأتي من تَيمان والقدُّوسُ من جَبَلِ فاران. غَطَّى جلالُه السَّماوات وامتلأتِ الأَرْضُ من تَسْبِحَتِهِ (وهناك ترجمة: من تسبيحه).

= وليس المراد بالملائكة الملائكة الحقيقيين بل المراد قوم شبيهون بالملائكة في الطهر والصلاح على سبيل المجاز. وهؤلاء الجماعات الشبيهون بالملائكة هم صحابة رسول الله محمد ﷺ.

إن هذه النبوءة التي قالها حبقوق[١] إنما تشير إلى مكة المكرمة. فقوله: «الله جاء من تيمان» تُشير إلى بلد في جنوب شرقي تبوك قريب من المدينة المنورة. وقوله «القُدُّوس من جبل فَاران» إنما هو إشارة إلى مكة المكرمة، وحينما يقول: «غَطَّى جَلالُه السماوات» فإنه يرمز إلى نداء «الله أكبر» الذي يتردد في الآفاق على لسان المؤذنين في كل الأراضي التي يسكنها المسلمون، إنه جلال الله الذي يغطي السماوات والأرض، وهذا لا يمكن أن يكون المقصود به كنيس اليهود الذي يستخدم البوق، ولا كنيسة النصارى التي تستخدم الجرس.

عيسى يبشر بنبي بعده اسمه أحمد

جاء في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا:

(١٥) إن كنتم تُحبُّوني فاحفظوا وَصَايايَ (١٦) وأنَا أسْأَلُ الآب فيعطيكم معزِّياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد.

إن كلمة (المعزّي) الواردة بهذا النص مترجمة عن الأصل اليوناني لإنجيل يوحنا بلفظ (Periglytos) كما أن مترجمي العربية للإنجيل قديماً احتفظوا بالأصل اليوناني ونقلوه بلفظ (فارقليط)[٢]، كما جاء في ترجمة لندن سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٨٤م.

فإنجيل يوحنا كتب باللغة اليونانية وليس بالآرامية التي كانت اللغة الوطنية لعيسى عليه السلام.

إن الكلمة اليونانية التي ترادف المعزى ليست (باراكليتوس) بل (باراكالون ـ Paracalon).

---

(١) لم يرد اسم حبقوق النبي في القرآن الكريم ولا يمنع ذلك من كونه نبياً، لأن الله خاطب رسوله محمداً في شأن الأنبياء فقال: ﴿مِنهُم من قصصنا عَلَيْكَ وَمِنْهُم من لم نقصصْ عليك﴾ [غافر: ٧٨].

(٢) فسّر علماء اللاهوت المسيحيون الفارقليط بأنه الروح القدس أحد الأقانيم الثلاثة.

وكلمة (باراكليتوس) تعني من الناحية اللغوية: الأمجد، والأشهر، والمستحق للمديح[١] وهذا ما يعنيه بالضبط اسم أحمد باللغة العربية، وأحمد هو من أسماء نبي الإسلام.

واللفظ العبري الذي نطق به عيسى عليه السلام كما ذكر الأب متى (البيراقليط) فلو ترجم إلى اليونانية ستكون الترجمة (بيركليتوس) وهذه اللفظة تدل على الحمد.

وقد جاء في القرآن على لسان عيسى عليه السلام مبشراً بنبي الإسلام: **﴿وإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إِنّي رَسُولُ اللَّهِ إليكم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أحمد﴾** [الصف: ٦].

أما قول السيد المسيح عن (الفارقليط) بأنه (ليقيم معكم إلى الأبد) أي تظل شريعته إلى يوم القيامة، فهذا الوصف متحقق في نبي الإسلام لأنه أعلن أنه خاتم الأنبياء، وإلى الآن لم يظهر ما يكذب ما أعلنه.

وجاء في الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا:

(٧) إلاَّ أنّي أقولُ لَكُمُ الحَقَّ إنّ في انطلاقي خيراً لكم لأَني إن لَمْ أنطلق لم يَأْتِكُمُ المُعَزِّي ولكن إذا مَضَيْتُ أرْسَلْتُهُ إليكم (٨) وَمتَى جَاءَ يُبَكِّتُ العَالَمَ عَلى الخطيئةِ وعلى البرِّ وَعَلى الدَّيْنُونَةِ (٩) أَمَّا على الخطيئةِ فَلأَنَّهم لَمْ يُؤمنوا بي (١٠) وأمّا عَلَى البرِّ فَلأنّي مُنْطَلِقٌ إلى الآبِ ولا تَرَوْني بَعْدُ (١١) وأمّا على الدّيْنونَةِ فلأَنَّ رئيسَ هَذَا العَالَمِ قَدْ دِينَ (١٢) وإنَّ عندي كثيراً أَقُولُهُ لَكم ولَكِنَّكُم لا تُطيقون حَمْلَهُ الآنَ (١٣) ولكن متى جاء ذَاكَ رُوحُ الحق فهو يُرْشِدُكُم إلى جميع الحقِّ لأنه لا يتكلَّم

---

(١) ففي قاموس الإسكندر الإغريقي ـ الفرنسي يفسر كلمة Periqleitos فيقول:
Periqleitos : très célèbre, illustre, glorieux؛ أي الأمجد والأشهر والمستحق للمديح.

مِن عِنْدِهِ بل يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَيُخبِرُكُم بما يأتي (١٤) هو يمجدني لأنه يأخذ مِمَّا لي ويخبركم.

هذا النص فيه تبشير بنبوة محمد الذي يتراءى لنا في الأمور الآتية:

ففي قول السيد المسيح (إنّ في انطلاقي خيراً لكم لأني إنْ لَمْ أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى) فقد علق عيسى عليه السلام مجيء الفارقليط بذهابه، ومحمد ﷺ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام.

وفي قوله: (ومتى جاء يبكّت[1] العالم على الخطيئة) وهذا ينطبق على نبي الإسلام فقد وبّخ اليهود على تحريفهم لكتاب الله وتركهم لتعاليمه وعلى عدم إيمانهم بنبوّة عيسى ووبخ النصارى على نسبة الألوهية لعيسى ووبخ الكفار لعبادتهم الأصنام من دون الله.

وأما قوله: (وأما على الدَّينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دِينَ) ورئيس هذا العالم حسب المفهوم الإنجيلي هو الشيطان، ومن يقرأ القرآن لا يجد إدانة للشيطان أكثر مما أدانه وحذر منه.

وأما قوله: (لا يتكلم مِنْ عِندِه بَلْ يَتَكَلَّم بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ) وهذا الوصف ينطبق على نبيّ الإسلام إذ كان لا يقرأ ولا يكتب وكان يبلّغ رسالته وكلام الله إلى قومه عن طريق ما يسمعه من الوحي الإلهي بواسطة الملك جبريل عليه السلام.

وفي قوله: (ويخبركم بأمور آتية) أي يخبرهم بأمور غيبية ستقع وهذا ما نراه في القرآن بما أخبر عن أمور غيبية وقعت لو أردنا الاستشهاد بها لاستلزم الكثير من الصفحات. نذكر أحدها وهي ما أخبر عنه من أن النصر سيكون لدولة الروم بعد

---

(١) يبكت: يوبخ.

هزيمتهم من الفرس في بضع سنين وهذا ما تحقق فعلاً. جاء في القرآن: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبونَ في بِضْعِ سِنينَ...﴾ [الروم: ١].

وفي قوله (ذاك يمجّدني) أي أنه يُعظّم عيسى عليه السلام ويعترف بفضله وهذا الوصف ينطبق على نبي الإسلام فقد دعا إلى الإيمان بعيسى عليه السلام وبيّن أنه رسول كريم من عند الله وذكر ما خصه الله من معجزات ومجّده بما لم يمجّد به رسول قبله ويكفينا ما جاء في القرآن في حقه: ﴿إذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المسيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجيهاً في الدُّنْيَا والآخِرةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

وفي قوله: (ولكن متى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الحق فهو يُرْشِدكُم إلى جميع الحقِّ) وهذا ينطبق على نبيّ الإسلام الذي أرشد الناس كافة إلى جميع الحق الذي جاء به من عند الله. وإذا قيل: كيف يُقال لنبي الإسلام روح الحق وهو إنسان؟ الجواب على ذلك ما ورد في رسالة يوحنا الأصحاح الرابع:

«(١) أيها الأحبَّاء لا تَركُنوا إلى كُلِّ رُوح بل اختبروا الأرواحَ لِتَرَوا هل هي من عِنْدِ الله لأن كثيراً من الأنبياء الكذَّابين انتشروا في العالم (٢) وَمَا تَعْرِفُون بِهِ رُوحَ اللَّهِ هُوَ أَنَّ كُلَّ رُوحٍ يَشْهَدُ لِيَسوعَ المسيح الذي جاء في الجَسَدِ كَانَ مِنَ اللَّهِ وكُلَّ رُوحٍ لا يَشْهَدُ لِيَسوع لم يكن مِنَ اللَّه..».

فهذه إشارة من السيد المسيح إلى أن روح الحق الموعود به يعترف بالمسيح أن الله أوجده بكلمة منه في جسد السيدة مريم بدون أب وأنه أرسله رسولاً منه إلى بني إسرائيل، ولا تَصْدُقُ هذه الإشارة إلا على نبيّ الإسلام فإنه أقرَّ بمجيء المسيح رسولاً من عند الله وبرَّأه هو ووالدته من افتراءات اليهود؛ وجاء في القرآن: ﴿... إنَّما

المسيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ. . . ﴾ [النساء: ١٧١].

وجاء في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا:

«(٢٦) ومتى جاء المعزِّي الذي أُرسله إليكم من عند الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق فهو يشهد لي (٢٧) وأنتم تَشهدون لأنكم معي مُنذُ الابتداء».

وهذه علامة نطق بها عيسى عليه السلام ليعرف بها صدق نبي الإسلام على معنى: إن شهد بفضل عيسى ونبوّته كان صادقاً وإن جاء ولم يشهد بنبوّة عيسى ولم يعترف بفضله يكون كاذباً، وأنتم أيها التلاميذ ومن يأتي بعدكم تشهدون معه بنبوتي وإني كنت بشراً كسائر البشر لأني أخبرتكم حين كنتم معي أول الأمر.

وقد شهد محمد بنبوة عيسى عليه السلام فقد جاء في القرآن: ﴿**ما المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ. . .**﴾ [المائدة: ٧٥].

الأنبياء الصادقون من ثمارهم تعرفونهم

وجاء في الأصحاح ٧ من إنجيل متى:

(١٥) إيّاكم والأنبياءَ الكذّابين فَإِنَّهم يأتونكم في لِباسِ الخِرافِ وَهُم في باطنهم ذِئابٌ خاطفة (١٦) من ثِمارِهم تَعْرِفونَهم أَيُجْنَى من الشَّوْكِ عِنَبٌ أو من العُلَّيقِ تين (١٧) كذلك كل شَجَرةٍ طيبةٍ تُثمرُ ثِماراً طيّبة والشَّجَرةُ الخبيثةُ تُثْمِرُ ثِماراً خَبيثة (١٨) فليس للشجرة الطيِّبَةِ أن تُثْمِرَ ثِماراً خَبيثة ولا للشجرة الخبيثة أن تُثمر ثِماراً طيِّبة (١٩) وكل شجرة لا تثمر ثمراً طيّباً تُقطع وتُلقى في النار (٢٠) فَمِن ثِمارِهم تَعْرِفونَهم.

لم يقل السيد المسيح احترزوا من الأنبياء فيكون التقرير قاطعاً بأنه لم يعد هناك أنبياء بعده، بل حذّر من الأنبياء الكذابين، ومفهوم ذلك بأن هناك أنبياء صادقين،

ويعرف الفرق بين النبي الصادق والكاذب من ثمارهما، فيظهر الجيد من الرديء والصحيح من الزائف.

فلننظر بتجرد إلى ما جاء به محمد للإسلام من إصلاحات فهل هي من علامات الأنبياء الكاذبين أم من علامات الأنبياء الصادقين؟

فمحمد وحّد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل متفرقة يحارب بعضها بعضاً.

ومحمد قضى على وثنية متوارثة في بلاد العرب منذ آماد طويلة وأحل محلها ديناً يعبد الله وحده.

ومحمد أحدث إصلاحاً اجتماعياً حول أخلاق العرب من جاهلية متخلفة وما تشتمل عليه من ضياع حقوق المستضعفين لحقهم إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وإنصاف المظلوم من الظالم.

ومحمد جاء بدين يشتمل على الأخلاق الفاضلة والعبادات الجامعة بين مطالب الروح والجسد التي ترقي الروح وتصل الإنسان بخالقه.

ومن الوصايا الجامعة في القرآن من ضمن مئات الوصايا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذي القُرْبى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ والبَغْي يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾ [النحل: ٩٠].

أما بشأن ما جاء في القرآن من الأخلاق فقد قال الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون: «إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها»[١].

---

(١) حضارة العرب، نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٤٥٤.

وقال: «إن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك لا نرى حداً لفضل محمد على العرب»[١].

هل بعد ذلك كله يمكن أن يَشكّ أحدٌ بنبوة محمد ﷺ التي أكدها السيد المسيح عليه السلام بقوله: «فمن ثمارهم تعرفونهم»؟

هذا وقد جاء في سفر أعمال الرسل: (إن كان هذا الرأي أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه) [٥: ٣٨، ٣٩]. ودعوة محمد لم تنتقض لأنها من عند الله.

ملكوت السماوات هو دين الإسلام

ومن البشارات على مجيء النبي محمد بدين الإسلام ما جاء في الأصحاح الرابع من إنجيل متى:

«(١٧) وبدأ يسوع من ذلك الحين ينادي فيقول: توبوا قد اقترب ملكوت السماوات».

وجاء في الأصحاح الثالث من إنجيل متى:

(١) في تلك الأيام ظهر يوحنا المعمدان يُنادي في برية اليهودية فيقول: «توبوا قد اقترب ملكوت السَّمٰاوات».

ولكن ما المراد بملكوت السماوات؟ ملكوت السماوات تعبير ورد في التوراة والإنجيل للدلالة على حُكْمِ الله في الأرض تمييزاً لجماعة المؤمنين بالله والعاملين بشريعته عن جماعة الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ويحكمون أنفسهم بقوانين وضعية تنافي الأحكام الإلهية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

والذي أطلق اسم ملكوت السماوات على حكم الله في الأرض هو النبي دانيال أثناء سبي بني إسرائيل في بابل، ذلك أن ملك بابل واسمه نبوخذ نصر ـ وكان وثنياً ـ رأى في الليل أحلاماً أفزعته وطلب تفسيرها من المجوس والسحرة والعرافين والكلدانيين فعجزوا عن تفسيرها، حينئذ تقدم النبي دانيال وفسرها للملك، ومما أخبر به أنه ستأتي أمم إثر أمم وأنه ستنشأ على الأرض أربع ممالك[١] وفي نهاية المملكة الرابعة يؤسس ملكوت السماوات، وإجماع المفسرين من النصارى نقلاً عن اليهود أن المملكة الرابعة هي الدولة الرومانية.

والتاريخ ينبىء أن الذي أزال سلطان روما نهائياً هو نبي الإسلام فيكون هو المقصود بملكوت السماوات في عبارات النبي دانيال الذي قال: «وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إلّه السماوات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد» [دانيال ٢: ٤٤].

ولكن ما الذي يقوله النصارى في ملكوت السماوات؟ إنهم يقولون إنه ملكوت عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنه ملكوت روحي على قلوب من يؤمنون به بمعنى أن كل من يؤمن بالإنجيل فهو تحت سلطان الولاء الأدبي لعيسى وهو يبدأ من مجيء عيسى بالدعوة إلى زمان رفعه إلى السماء ثم يأتي عيسى ثانية في نهاية الزمان ليكمل هذا الملكوت في السماء.

ولكن نرد عليهم بأن إشارات دانيال عن هذا الملكوت تشير إلى أنه أرضي لشبهه بالممالك الأرضية الأربع التي فسرها دانيال لحلم نبوخذ نصر.

وإنهم يقولون: إن المسيا[٢] صاحب الملكوت سيكون من ذرية داود، وإن

(١) وهذه الممالك الأربع هي: مملكة بابل، ومملكة فارس، ومملكة اليونانيين، ومملكة الروم.

(٢) المسيا؛ هو لقب أطلقه بنو إسرائيل على أنبيائهم وعلمائهم وملوكهم وهذا النبي الملقب بالمسيا سيظهر في بني إسرائيل كما يدّعون، كما أُطلق اسم المَسيَّا على المسيح.

عيسى هو المسيا «وسيعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على آل يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه انقضاء» [لوقا: ٣٢، ٣٣] فيلزم على هذا القول أن يكون ملك عيسى ملكاً أرضياً لا روحياً، لأن ملك داود في الزمن القديم كان ملكاً أرضياً.

وإن الأمثال التي مثلها عيسى في الأناجيل عن ملكوت السماوات تشير إلى ملك أرضي من حيث الأرض والزرع وسلوك الناس والشريعة الإلهية، ففي نهاية أحد الأمثال عن ملكوت السماوات يقول عيسى لعلماء بني إسرائيل: «إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تَصْنَعُ ثَمَرَهُ» [متى ٢١: ٤٣].

وتلاميذ المسيح كانوا يفهمون أن الملكوت أرضي ولذلك سألوه بعد قيامته من الأموات وظهوره على الأرض: هل في هذا الوقت تردّ الملك إلى إسرائيل؟ [أعمال ١: ٦].

وإذا كان الملكوت هو عصر الإنجيل وقد وعظ وبشّر به عيسى مع بدء نبوته فلماذا يعبّر عنه بلفظ «قد اقترب ملكوت السماوات»؟

إن ما نادى به يوحنا المعمدان وعيسى ابن مريم: «توبوا قد اقترب ملكوت السماوات» هو ملكوت نبي الإسلام الذي قوامه الإيمان بإله واحد والتصديق بما جاء به الرسل من عند الله ويشتمل على شريعة كاملة تصلح لكل زمان ومكان. وإن المسيح (أي المَسِيّا) الذي كان اليهود يتوقعونه لم يكن يهودياً ولا من سلالة داود بل كان من نسل إسماعيل الذي بشّر به عيسى عليه السلام واسمه أحمد الذي سيقيم مملكة الله على الأرض كما تنبأ بذلك النبي دانيال والتي تحققت على عهده وعلى عهد صحابته الكرام.

يوحنا المعمدان يعلن عن نبيٍّ قويّ

كان يوحنا المعمدان[١] حسب روايات الأناجيل الأربعة هو ابن خالة عيسى عليه السلام، وكان معاصراً له ولم يزد عمره عن عمر عيسى أكثر من ستة أشهر وكان من هذه الإنجازات العظيمة ليوحنا المعمدان أن عيسى عليه السلام تعمّد على يد هذا النبي كأي واحد آخر.

وثمة إشارة غامضة في الأسئلة التي وجهت إلى يوحنا المعمدان كما جاء في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا إذ أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ (٢٠) فاعترف ولم يُنكِر، اِعترف: لستُ المسيح (٢١) فسألوه: من أنت إذاً؟ أأنتَ إيليّا، قال لستُ إيّاهُ، أأنت النبيّ؟ أجاب: لا (٢٢) فقالوا له: من أنت فَنَحمِلَ الجواب إلى الّذين أرسلونا؟ ماذا تقولُ في نَفْسِك (٢٣) قال: أنا صوتُ مُنادٍ في البرِّيَّة قَوِّموا طريقَ الرب كما قال النبي أَشعيا (٢٤) وكان المُرسَلُونَ من الفَرِّيسيِّين (٢٥) فَسألوه أيضاً: إذا لم تكن المسيح ولا إيليّا ولا النبي فَلِمَ تُعمِّد إذاً؟ (٢٦) أجابهم يُوحَّنا: أنا أُعَمِّدُ في الماء وبينكم من لا تعرفونه (٢٧) ذلك الآتي بعدي، من لستُ أهلاً لأن أُفُكَّ رِبَاطَ حذائه. . . (٢٩) وفي الغد رأى يسوعَ آتياً نحوه فقال: هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطيئة العالم (٣٠) هذا الذي قلت فيه يأتي بعدي رجل قد تَقَدَّمني لأنه كان قبلي (٣١) وَأنا لم أكُن أعرفُه ولكني ما جئت أُعَمِّدُ في الماء إلاَّ لكي يَظهَرَ أمْرُه لإسرائيل».

وهناك سؤال: ماذا يعني أولئك الكهنة بقولهم ليوحنا: أأنت النبي؟ كل المفسرين النصارى يظهرون عيسى وكأنه موضوع شهادة يوحنا المعمدان ونبوءته والتي نص عليها إنجيل يوحنا. ولكن كلمة يوحنا المعمدان (هو الذي يأتي بعدي) تستبعد عيسى بكل

---

(١) يوحنا المعمدان أطلق عليه القرآن اسم يحيى.

وضوح من أن يكون هو النبي المبشر به لأن عيسى ويوحنا ولدا في سنة واحدة وعاصر أحدهما الآخر، وكلمة (يأتي بعدي) تدل على مستقبل غير معلوم، وبلغة النبوة فهي تعبر عن دورة أو أكثر من دورات الزمن التي تقدر بنحو خمسة قرون أو أكثر حيث يظهر نبي يؤدي رسالة الله إلى قومه.

والعبارة الواردة في إنجيل يوحنا التي قالها المعمدان عن عيسى «وأنا لم أكن أعرفه» تنقضها صلة القرابة بين المعمدان وعيسى عليه السلام.

هذا وإن الأناجيل الثلاثة: لوقا، ومتى، ومرقس، اتفقت شهادتها على أن المعمدان لم يصرّح بأنه قصد عيسى بشهادته، وشهادة هؤلاء الثلاثة أقوى من شهادة الواحد وهي الشهادة التي رواها إنجيل يوحنا وقصد بها عيسى.

وإليكم ما جاء في هذه الأناجيل الثلاثة:

جاء في الأصحاح الثالث من إنجيل متى:

(١١) أنَا أُعمِّدُكم بالماءِ للتَّوبة وأمَّا الذي يأتي بَعْدي فهو أقوى مني وأنا لا أستحق أن أَحْمِلَ حِذَاءَهُ وهو يُعَمِّدُكم بالرُّوح القُدُسِ وَالنَّارِ.

وجاء في الأصحاح الأول من إنجيل مرقس:

(٤) كان يُوحَنّا يُعَمِّدُ في البَرِّيَّةِ ويَكْرِزُ بمعْمُوديَّةِ التَّوْبَةِ لِغُفْران الخطايا... وَكَانَ يكرِزُ[١] قائلاً (٧) إنَّهُ يأتي بَعْدي مَنْ هُوَ أقوى منّي وأنا لا أستحق أن أنحني وَأَحُلَّ سَيْر[٢] حذائه (٨) أَنا عَمَّدتُكم بالماءِ وأَما هُوَ فيُعمِّدكُم بالرُّوح القُدُس (٩) وفي تِلْكَ الأيَّام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعْتَمَد مِن يُوحَنَّا في الأُرْدُنّ.

---

(١) يكرز: يعظ.

(٢) سير أو سيور حذائه: رباط من جلد يربط به الحذاء وكان الخدم موكلون بفك هذا الرباط.

جاء في الأصحاح الثالث من إنجيل لوقا:

(١٥) وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعلّه هو المسيح (١٦) أجَابهم يُوحنَّا أجمعين قائلاً أنا أُعَمِّدُكُمْ بالماءِ ولكن يأتي مَنْ هُوَ أقوى مني وأنَا لا أسْتَحِقُّ أن أَحُلّ سُيُور[١] حذائه وهو يُعَمِّدُكم بالروح القُدُسِ وَالنَّار (١٧) الذي بِيَدِه المِذْرَى يُنَقِّي بَيْدَرَهُ ويجمع القَمْحَ إلى أَهْرَائِهِ ويُحرِقُ التّبن بنارٍ لا تُطْفَأُ.

فمن هو ذاك الأقوى الذي بشّر به يوحنا المعمدان؟ ولو كان المسيح هو الشخص الذي تنبأ به المعمدان على أنه أقوى منه لما كان هناك من معنى لتعميده في النهر على يد شخص أقل منه وهو يوحنا المعمدان الذي عمّده كمثل أي يهودي، فهذه الإشارة من يوحنا المعمدان هي من الوضوح بحيث لا تحتمل إلا وجهاً واحداً وهو أن نبياً يأتي بعده هو أقوى منه.

ثم لنتساءل هل عمّد عيسى عليه السلام (بالنار) كما ذكر المعمدان وهو إشارة إلى أن النبي المنتظر الذي سيأتي من بعده سيأتي بقوة عظيمة ليبيد الفجار ولينتقم من الأشرار وليمكن للحق والعدل في الأرض بسيفه ورمحه، لا لم يحدث شيء من ذلك مع عيسى عليه السلام ولكن حدث مع نبي الإسلام الذي شهر الحرب في وجه أعدائه الذين اضطهدوه وانتصر عليهم ودانت له كل جزيرة العرب.

وعلى هذا الذي قدمناه يكون المقصود من قول يوحنا المعمدان: «يأتي بعدي من هوى أقوى مني» هو نبي الإسلام قطعاً لأنه صاحب شريعة مستقلة عن شريعة موسى أما يوحنا المعمدان وعيسى فلم تكن لهما شريعة جديدة مستقلة عن التوراة بل كانا يدعوان الناس إلى شريعة موسى ويعملان بها.

هذه بعض المبشرات اقتصرنا على ذكرها خشية التطويل والخروج عن الهدف المقصود وهو تفسير القرآن.

---

(١) سير أو سيور حذائه: رباط من جلد يربط به الحذاء وكان الخدم موكلون بفك هذا الرباط.

من المراجع

جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للزمخشري

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

تفسير البيضاوي مع حاشية الشيخ زاده

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي

فتح القدير للشوكاني

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير اللباب في علوم الكتاب للحنبلي

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

روح المعاني للألوسي

التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

تفسير الشعراوي

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر

البشارة بنبيّ الإسلام في التوراة والإنجيل للدكتور أحمد حجازي السقّا

محمد في الكتاب المقدس تأليف عبد الأحد داود

الفهرس

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني :

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص .

وإلى فضيلة الأستاذ **الشيخ محمد شريف سكر** الذي تفضل فراجع هذا التفسير .

وإلى **فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين غزال** على بعض ملاحظاته القيمة .

وإلى د. **هدى سنو** ذات الكفاءة العالية على جهودها الكريمة في تصحيح هذا التفسير بعد تنضيد أحرفه وعلى بعض ملاحظاتها القيمة .

وإلى د. **محمد مرعشلي** على ما أسدى إليّ من معونة وجهد في هذا التفسير .

وإلى **الأستاذ توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي على الإنجاز العظيم الذي حققه بجهوده الكريمة بإنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي التي اشتملت على عشرات الآلاف من الكتب النفيسة والتي قدمت لي ما أحتاج إليه من المراجع العلمية .

وإلى **جامعة بيروت العربية** لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام .

سائلا الله أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يٓس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طٓه
- تفسير سُوَر : الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف

روح القرآن

تفسير سُورة الأنفالْ و سُورة التوبة

بقلم

عَفيفْ عَبدالفتّاح طبّارَه

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

قَالَ رسُولُ اللَّهِ مُحمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وَعلَّمَه

روح القرآن

تفسير

سورة الأنفال

و

سورة التوبة

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة الأولى

أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله معز المؤمنين ومذل الكافرين والصلاة والسلام على سيدنا محمد حامل لواء النصر إلى يوم الدين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن سورتي الأنفال والتوبة تتميزان باشتمالهما على كيفية مواجهة الكفار والتعامل معهم، فتعرضان المنهج الإسلامي الذي يجب على المسلمين اتباعه وترسمان الطريقة التي تكفل للمسلمين النصر على الأعداء والفوز المبين.

تعالج السورتان موضوع الجهاد مع الكفار، والقتال مع الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر، وتنفذان من خلال ذلك إلى مواضيع في غاية الأهمية يترتب عليها سلامة الأوطان.

وإن الإسلام في الأساس هو دين سلام ومعاهدات ومواثيق ولكن متى أنس خطراً من أي جهة كانت فإنه يعلنها حرباً لا هوادة فيها حتى يدفع الخطر ويثبت الأمن على قواعد ثابتة لا يطرأ إليها الوهن ولا يعتريها الضعف.

وفي سبيل دفع الخطر، ولتكون كلمة الله هي العليا، ترخص الأرواح وتُبذل النفوس رخيصة في سبيل إحقاق الحق ودحر الباطل، ولهذا يقف الإسلام موقفاً حازماً في وجه الذين يريدون النيل من الإسلام وأهله، ذاك أنه ينبغي أن لا يكون هناك في صفوف المسلمين مذبذب أو منافق من الذين يريدون أن تبقى لهم أدنى علاقة مع الأعداء لغاية في نفوسهم المريضة يسعون إليها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦]. وإن نص الآية حاسم فلا يسوغ للمؤمنين أن يتخذوا من أعدائهم بطانة وأولياء يفشون إليهم أسرارهم بما يعرض مصالحهم العليا للخطر، وهذا ينطبق على بعض الدول الإسلامية وعلى أفرادها مما نشاهده في زماننا الحاضر.

وإن منهج الإسلام في الإعداد لحرب الأعداء واضح، يتجلى في مسلكين: الأول في طلبه من المسلمين إعداد العدة لمجابهة الأعداء حيث قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والثاني: في أنه يهيىء الأرواح لتبذل رخيصة في سبيل الله، وقد قال أحد قادة المسلمين مخاطباً قائد الأعداء: «لقد جئناك برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة». هذه هي روح الجهاد التي رباها القرآن في نفوس أبنائه حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. وقد جاء رجل يوم غزوة أُحُد فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات في يده كان يأكلها ثم قاتل حتى قتل وكأنه يستعجل الجنة. لله ما أروع هذه النفوس المؤمنة التي باعت أرواحها في سبيل الله مطمئنة إلى ما وعدها الله به من النعيم المقيم في جنة عرضها السماوات والأرض.

وفي سورة التوبة دروس وعبر تستوقف التأمل والنظر نشير إلى بعضها إشارة موجزة:

يستوقفنا التوجيه القرآني في معاملة المشركين وأنه إذا طلب أحد المشركين أن نجيره فعلينا أن نجيره وأن نمنع عنه الأذى ونحفظ له سلامته حتى يسمع كلام الله فيتفهم الدين عن كثب ولعلَّ الإيمان يدخل قلبه، حتى إذا أغلقت في وجهه أبواب الخير وأراد الانتقال إلى دار الشرك أُمرنا أن نظل محافظين على سلامته حتى يبلغ مأمنه، قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

هذه شيمة الإسلام توجهنا أن لا نغدر ولا نظلم ولا نتخلى عن المبادىء والعهود.

ويستوقفنا ـ وما أكثر ما يستوقفنا ـ نبل الإسلام وسعة أفقه وتمتعه بشمولية واسعة وكيف أنه يستوعب من دخل الإسلام من المشركين حيث يعتبرهم كأنهم مسلمون من زمن بعيد وأن الإسلام يمحو ما قبله من الخطايا قال تعالى:

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

فهؤلاء المشركون الذين أسلموا حديثاً أصبحوا إخواناً للمسلمين في العقيدة

«فإخوانكم في الدين»؛ وبذلك يتساوى من دخل في الإسلام منذ لحظة مع من مضى على إسلامه عدة سنين.

ويستوقفنا ما جاء في سورة التوبة من دعوة المسلمين إلى الجهاد عندما يداهمهم العدو، يقول الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟[١] خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]. فالله سبحانه يدعو المسلمين إلى الخروج إلى الجهاد شباناً وشيوخاً، فقراء وأغنياء إذا داهم العدو بلداً من بلاد المسلمين، لأن المسلمين في الأرض أمة واحدة وما يصيب المسلمين في أقصى الأرض من اعتداء أو أذى يستوجب على المسلمين كافة نصرتهم كما جاء في سورة الأنفال: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [الآية: ٧٢].

ما أحوجنا اليوم إلى تطبيق هذا الهدي الرباني فيهب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لنصرة إخوانهم في فلسطين الذين استفردهم العدو الصهيوني وأمعن فيهم ذبحاً وتقتيلاً وتنكيلاً وتدميراً للمنازل والمقدسات بكل ما ابتكرته التكنولوجيا الحديثة من وسائل الدمار والخراب.

لا أستطيع في هذه الصفحات القليلة أن أستعرض ما اشتملت عليه هاتان السورتان من إرشادات سامية وتوجيهات حكيمة فيها عزة المسلمين وكرامتهم ولكن أترك ذلك للمؤلف الذي أجاد في عرضها.

وقبل أن أنهي كلمتي لا بد لي أن أشيد بالمؤلف بما بذله من جهد في تفسير هاتين السورتين بما عودنا عليه من دقة ودراسة شاملة لمعاني الآيات بتبويب رائع وأسلوب سهل، وتوخي البساطة في عرض الفكرة حتى يدخل المعلومات الصعبة إلى ذهن القارىء بوضوح وبأسطر قليلة وبينما يحتاج شرحها إلى صفحات كثيرة.

نسأل الله سبحانه أن يجعل القرآن الكريم شفاء نفوسنا وجلاء أحزاننا وأن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

---

(١) انفروا: اخرجوا إلى قتال العدو.

تعريف بسورة الأنفال

سورة الأنفال هي سورة مدنية، أي أنها نزلت في المدينة المنورة. وسبب تسميتها بذلك أنها افتتحت بآية ذكر فيها اسم (الأنفال) وهي الغنائم، كما تسمى أيضاً: (سورة بدر).

وهذه السورة تتحدث بإسهاب عن غزوة محمد ﷺ بدر وهي المَوْقِعَةُ الفاصلة في تاريخ الإسلام، وهي أولى الغزوات التي خاضها المسلمون بقيادة نبيهم، وتحقق لهم فيها النصر الكاسح على المشركين، على الرغم من قلة عددهم وكثرة عدد المشركين، فنرى آيات القرآن تذكر ما كان قبلها، وما حدث في أثنائها، وما جرى في أعقابها، كما تذكر تأييد الله للمؤمنين أثناء المعركة بإنزال الملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين.

وهذه السورة تتحدث أيضاً عن بعض أحكام القتال، والبواعث عليه، وأسباب النصر، وأحكام غنائم الحرب وكيفية توزيعها، ووجوب الاستعداد للحرب بأقصى الاستطاعة لإرهاب العدو ولجمه عن الاعتداء على المسلمين، والدعوة إلى وحدة المسلمين واتفاق كلمتهم، ونبذ التنازع فيما بينهم لأنه يفضي إلى الفشل والقضاء على قوة المسلمين.

وفي هذه السورة دعوة للوفاء بالمعاهدات التي أبرمها المسلمون مع أعدائهم ولو أضر ذلك بمصلحة المسلمين، كما تذكر وجوب تأديب ناقضي العهد بالشدة اللازمة، كما أن في هذه السورة الدعوة إلى السلام والميل إليه إذا مال العدو إليه.

وفي هذه السورة مدح وثناء على المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وبيان لصفات المؤمنين الصادقين.

كما تدعو السورة إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، وأنهم إذا اتقوا الله يجعل لهم (فرقاناً) أي هداية ونوراً في قلوبهم، يفرقون به بين الحق والباطل.

هذا بعض ما تحتويه السورة من توجيهات وإرشادات، وهناك مواضيع أخرى نتركها للقارىء ليرى ما فيها من روعة البيان والفوائد التي تعود على الإنسان في دنياه وآخرته.

سُورَةُ الأَنفَالِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ
بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ
رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ
كَرِيمٞ ٤﴾.

شرح المفردات:

الأنفال: غنائم الحرب والمقصود بها هنا غنائم معركة بدر.

فاتقوا الله: أي اجعلوا لأنفسكم وقاية من عقوبة الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح.

وأصلحوا ذات بينكم: وأصلحوا الصلة بينكم حتى تكون صلة ألفة واتفاق.

وجلت: خافت.

يتوكلون: أي يعتمدون على ربهم ويفوّضون أمرهم إليه.

الكلام عن الغنائم وصفات المؤمنين

تبدأ هذه السورة بالحديث عن غنائم غزوة بدر التي اختلف المسلمون في توزيعها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ والرَّسُولِ﴾ فالسائلون هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين قاتلوا في غزوة بدر، وهم سألوا رسول الله في شأن الأنفال[١] وهي الغنائم. وقد اختلفوا في قسمة غنائم غزوة بدر كيف تُقسّم، ولمن الحكم في قسمتها، فنزلت الآية لبيان أن الحكم في قسمتها يرجع إلى الله ورسوله، يحكم الله فيها، ورسول الله يقسّمها بحسب حكم الله ﴿فاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي إذا كان أمر الغنائم في قسمتها لله وللرسول فخافوا الله أيها القوم واتقوه بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وأصلحوا الحال بينكم، واتركوا النزاع والشحناء، والتزموا المودة والمحبة بينكم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر الغنائم وسواها بامتثال أوامرهما، فرسول الله يطاع في كل أمر لأنه مبلغ عن الله ومبين لما أوحى إليه ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ هنا شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه. والمراد بالإيمان كماله، أي إن كنتم كاملي الإيمان فالتزموا بما ذُكر فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث التي مر ذكرها في القرآن وهي: طاعة الله ورسوله واتقاء المعاصي وإصلاح الخلاف بينكم بالعدل.

وقد روي في أسباب نزول الآية عن عبادة بن الصامت أنه قال:

نزلت الآية فينا معشر أصحاب رسول الله حين اختلفنا في النَّفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسّمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين.

---

(١) الأنفال: الغنائم واحدها نَفَلٌ والنفل: الزيادة. والأنفال مما زاده الله على أمة محمد في الحلال، لأن الغنائم كانت محرمة على من قبلهم، يقول النبي ﷺ: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي».

ثم بيّن الله سبحانه أن المؤمنين لا يكونون مؤمنين حقيقيين إلا إذا توفرت فيهم خمس صفات:

١ ـ ﴿إِنَّما المؤْمِنُونَ الّذِين إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فالمؤمنون الكاملو الإيمان إذا ذُكِرَ الله تعالى خافت قلوبهم وفزعت هيبة من عِظَم قدر الله وجلاله، وحذراً من عقابه.

٢ ـ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن قوي إيمانهم ويقينهم بربهم، فما من أحد يسمع آيات القرآن ويتدبّر معانيها إلا ازداد إيماناً بأن القرآن من عند الله وليس من تأليف بشر، فبلاغته التي تعلو على كلام البشر، وتأثيره في النفوس، وما احتواه من حكم وشرائع وأخلاق سامية، وقصص الأنبياء، وما كشف عنه من أسرار الخلق، وبيان قدرة الله المسيطرة في الكون، كل ذلك يقوي إيمان المؤمن بخالقه ويزيده يقيناً بأن الإسلام دين الحق.

٣ ـ ﴿وعَلَى رَبِّهِم يَتَوكَّلُونَ﴾ أي أنهم يعتمدون على الله وحده ويفوّضون أمورهم إليه. ولا يعني التوكل بأن لا يعمل الإنسان لكسب رزقه اعتماداً على أن الله هو الرازق لا، بل العمل وبذل الجهد والأخذ بالأسباب ضروري للحصول على الرزق. والمؤمن لا يكون متوكلاً إذا خرج عن سنن الله في الكون بأن ينتظر ثمراً من غير غرس، ونجاحاً من غير جهد، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللّهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة»؛ وتقديم الجار والمجرور ﴿وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفيد قصر التوكل على الله وحده.

فالتوكل على الله هو تفويض الأمر كله له والاعتماد عليه والإيمان بأنه هو المدبر لأمور الكون، وهو الموفّق لما يسعى إليه الإنسان، ولكن بعد بذل الجهد، وبعد الأخذ بالأسباب.

٤ ـ ﴿الَّذِينَ يُقِيمونَ الصَّلاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة مستوفية لشروطها وأركانها كلها في مناجاة لله بخشوع، وفي دعاء وثناء على الله وتمجيد لعظمته.

٥ ـ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ أي ينفقون من أموالهم لمساعدة الفقراء والمساكين بإعطاء زكاة أموالهم، أو بإعطاء الصدقة المندوبة، كما ينفقون من أموالهم على كل ما يعود بالخير على المجتمع. وقد قرن الإنفاق بقيد: ﴿مِمّا رَزَقْنَاهُم﴾ أي مما رزقهم الله، وذلك يوحي بأن ليس للمؤمنين أن يمتنعوا عن الإنفاق لأن الله الذي رزقهم سيعوض عليهم ما ينفقون وفي هذا جاء في القرآن ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿أُولَـئِكَ هُمُ المؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أولئك الذين ذكرت الآية صفاتهم الخمس الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقيقياً، وكل مؤمن لا يتصف بهذه الصفات فهو ليس بمؤمن إيماناً صحيحاً ولا يُرجى منه الخير. فليراجع المسلم نفسه هل هو من أهل الإيمان أم من غيرهم ﴿لَهُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك المؤمنون حقاً لهم مراتب رفيعة عند الله من الكرامة والثواب وعلو المكانة في الجنة حسب أعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولهم عفو من ربهم وستر لذنوبهم كما أن لهم رزقاً كريماً عند ربهم من نعيم الجنة.

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾.

شرح المفردات:

إحدى الطائفتين: العير أو النفير. فالعير هي القافلة، والنفير هو جيش قريش.

ذات الشوكة: الشوكة هي الشدة والقوة أو السلاح. وذات الشوكة هي جيش قريش.

بكلماته: بأمره لكم بالقتال وبوعده لكم بالنصر.

يقطع دابر الكافرين: يستأصلهم.

معركة بدر الكبرى

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن معركة بدر وما أحاط بها من أحداث:

﴿كَمَا[١] أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ المؤْمِنينَ لكَارِهُونَ﴾ أي أن المسلمين رضوا بهذا الحكم في الغنائم وإن كانوا كارهين له كما أخرجك ربك يا محمد من المدينة بسبب حق يظهر وهو علو كلمة الإسلام والنصر على أعداء الله، والحال أن فريقاً من المؤمنين لكارهون الخروج معك للقتال إما لعدم استعدادهم لملاقاة جيش قريش أو لميلهم للحصول على قافلة قريش.

وتوضيح ذلك: هو أن النبي ﷺ علم أن قافلة تجارية كبيرة لقبيلة قريش قادمة من

(١) **﴿كما أخرجك ربك﴾** الكاف للتشبيه والآية تشبه حالة بحالة. الحالة الأولى هي اختلاف المسلمين حول الغنائم كيف تقسم. والحالة الثانية هي خروج المسلمين لقتال المشركين، وفي كلتا الحالتين كان هناك عدم رضى من المسلمين.

الشام في طريقها إلى مكة وكان على رأسها أبو سفيان بن حرب ويحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً. عزم النبي ﷺ أن يعترض هذه القافلة ويستولي عليها ليفجع قريشاً في تجارتها جزاء سوء معاملتهم للمسلمين في مكة، فدعا أصحابه للخروج معه فلبى دعوته ثلاثماية وثلاثة عشر رجلاً، وهو عدد يكفي لاعتراض القافلة فاكتفى بهم وسلك الطريق المؤدية إلى (بدر) وهي عين ماء كانت تمر عليها القوافل الآتية من الشام إلى مكة.

علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ للاستيلاء على قافلته فأرسل بعض رجاله إلى مكة يعلمهم الخبر ويطلب منهم النجدة، أما هو فقد سلك بالقافلة طريق الساحل وأفلت بقافلته من أيدي المسلمين.

سارع رجالات قريش إلى نجدة أبي سفيان فخرجوا في تسعمائة وخمسين مقاتلاً ومعهم مائة فرس وسبعماية بعير محملة بالزاد والسلاح، وبينما هم في الطريق جاءهم رسول أبي سفيان يخبرهم بنجاة قافلته ويطلب منهم الرجوع إلى مكة، ولكن أبا جهل أحد زعمائهم تحمس للحرب وأبى إلا أن يتقدم ويتابع مسيرة الجيش.

تردد القوم فرجع بعضهم إلى مكة واتبعت سائر قريش رأي أبي جهل ومضوا في طريقهم حتى وصلوا إلى وادي بدر ونزلوا في الجانب الأبعد منه.

ولنرجع إلى الكلام عن المسلمين الذين انطلقوا مسرعين خوفاً من أن تفلت القافلة منهم وهم يحاولون حيث ما مرّوا أن يقفوا على أخبارها حتى أتوا «وادي ذَفِران» فنزلوا فيه وهناك جاءهم الخبر أن قريشاً قد خرجت من مكة في جيش كبير للدفاع عن أموالها، إذ ذاك تغيّر وجه الأَمر فلم يكن قاصراً على ملاقاة قافلة حراسها قليلون، بل ملاقاة جيش كبير لم يأخذوا العدة لملاقاته.

استشار النبي ﷺ جيشه في شأن جيش قريش فتبين له أن بعض جيشه كان يميل إلى الاستيلاء على القافلة فقط، واحتجوا بأنه لما استنفرهم للخروج معه لم يذكر لهم أنه مقدم على قتال جيش قريش بل الاستيلاء على القافلة، فردّ عليهم رسول الله فقال:

إن القافلة قد مضت على ساحل البحر وهذا جيش قريش قد أقبل، فقالوا يا رسول الله: عليك بالقافلة ودع العدو.. فقام أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فتحدثا فأحسنا القول، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امضِ إلى حيث أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى بِرْك الغماد «يعني مدينة الحبشة»، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا له. ثم قال رسول الله: أشيروا عليَّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار[١] لأنه شك في نصرتهم له، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ[٢] عند الحرب، صُدُقٌ[٣] عند اللقاء لعلَّ الله أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله. فسرّ رسول الله بقول سعد ونشّطه ذلك ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين[٤] والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غداً.

وبعد هذا التمهيد لما جرى بين النبي ﷺ وأصحابه نعود إلى ذكر الآيات:

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ والمجادلة: هي المناظرة لا لإظهار الصواب بل لطلب المغالبة بالرأي، وجدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلا للاستيلاء على القافلة وهلاّ قلت لنا لنستعد ونتأهب للقتال أمام جيش قريش. والمراد بالحق الذي جادلوا فيه، هو القتال الذي حضهم رسول الله ﷺ عليه. والمراد بقوله ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾

---

(١) كان الأنصار قد بايعوا رسول الله على حمايته ونصرته ما دام في المدينة وليس خارجها ولهذا وجه الخطاب لهم.

(٢) صُبُر: جمع صابر.

(٣) صُدُق: جمع صادق.

(٤) الطائفتين: هما قافلة قريش أو جيشها.

هو إعلام رسول الله لهم بأنهم سَيُنْصرون على أعدائهم. ثم شبه القرآن كراهيتهم لقتال المشركين بقوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي كأنهم لشدة رعبهم يساقون إلى الموت وهم ناظرون إلى أسبابه ومشاهدون لموجباته.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي واذكروا حين وعدكم الله بالنصر والفوز بإحدى الفرقتين، ووعد الله حق، فالفرقة الأولى هي الاستيلاء على قافلة قريش، والفرقة الأخرى هي الانتصار على جيش قريش، فلما أفلتت القافلة من أيديهم بقي جيش قريش وهو الذي وعدهم الله بالنصر عليه ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ والشوكة: هي السلاح والقوة، أي أنتم ترغبون بالظفر بالفرقة التي ليس فيها قوة ولا سلاح وهي القافلة، ولا ترغبون بالالتحام مع جيش قريش. وهنا تعريض بهم حيث كرهوا القتال ورغبوا بالمال، وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين الذين ينبغي أن يُضحّوا بأرواحهم في سبيل الله.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ويريد الله أن يثبّت الدين الحق وهو دين الإسلام بكلماته المعلنة لإرادته وقدرته، ووعده بنصر المؤمنين ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ والدابر: التابع من الخلف، والمراد من قطع دابر الكافرين هو استئصالهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ ليثبّت الله سبحانه الحق ويزيل الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولو كره المشركون ذلك، لأن كراهيتهم لا وزن لها، وهم قد أجرموا بطغيانهم ومحاربتهم للإسلام.

«والمراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل، بإظهار كون ذلك الحق حقاً، وإظهار كون ذلك الباطل باطلاً، وذلك تارة يكون بإظهار الدلائل والبيّنات، وتارة بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل»[١].

---

(١) تفسير الفخر الرازي.

والحكمة من أن الله جعل القافلة تفلت من أيديهم ويجعلهم وجهاً لوجه أمام جيش قريش، أن يثبت للملأ أنهم لو استولوا على القافلة لقيل عنهم إنهم جماعة يفضلون الغنيمة على الجهاد في سبيل الله، إذ لم يكن مع القافلة آنذاك إلا أربعون رجلاً، والمسلمون ثلاثمائة ونيّف، ولكن الله أراد أن ينصرهم على جيش قريش الضخم في العدد وكثرة السلاح ليثبّت دين الله في قلوب المؤمنين، وإن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده.

* * * * *

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ
وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ
أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ
فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾
ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

شرح المفردات:

تستغيثون ربكم: تطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم.

فاستجاب لكم: فأجاب دعاءكم.

مُـردِفين: أي متتابعين بعضهم في إثر بعض.

لتطمئن: لتسكن.

يغشيكم النعاس: أي يغطيكم النعاس ويشملكم به.

أَمَنَـةً منه: أي أمناً من الله وطمأنينة.

رجز الشيطان: وسوسته وتخويفه لكم.

وليربط على قلوبكم: يثبت قلوبكم ويقويها بالشجاعة والصبر.

بنان: الأصابع، وقيل أطراف أنامل اليدين والرجلين.

شاقوا الله: حاربوا الله وجانبوا دينه وطاعته.

المعونة الربانية للمؤمنين

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على المؤمنين يوم معركة بدر:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّـكُم﴾[1] أي واذكروا أيها المؤمنون حين كنتم تطلبون الإغاثة والنصرة والعون من ربكم على عدوكم ﴿فاسْتَجَابَ لَـكُم أنّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الملائِكَةِ مُـرْدِفِـينَ﴾ أي فأجاب الله استغاثتكم ودعاءكم بأن أمدكم بألف من الملائكة متتابعين بعضهم إثر بعض لنصرتكم.

أما هل قاتلت الملائكة مع المؤمنين يوم معركة بدر، فهناك خلاف في ذلك، ولكن القرآن بيّن الغاية من إمدادهم بالملائكة:

﴿وَمَا جَعَلَـهُ اللَّهُ إلاَّ بُـشْرَى وَلِـتَطْمَـئِنَّ بِـهِ قُلُوبُـكُمْ﴾ أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا ليبشّركم بأنكم منتصرون، ولتطمئن قلوبكم ويزول خوفكم واضطرابكم.

---

(١) هذه الاستغاثة يذكرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة، فاستقبل القِبلة فجعل يدعو ويقول: اللّهم أنجز لي ما وعدتني اللّهم إن تَهْلِك هذه العصابة (أي الجماعة) من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﴿إذ تستغيثون ربكم..﴾ الآية.

وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا وأن الغاية من إمدادهم بالملائكة هي بثّ الطمأنينة في قلوب المؤمنين وأن الله ناصرهم، هذا مع العلم أن ملكاً واحداً قادر على إهلاك جيش قريش كما جرى للملك جبريل حيث جعل مدائن قوم لوط عاليها سافلها. كما أن هناك روايات تقول إن الملائكة قاتلت يوم بدر ﴿وَما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فالنصر في الحقيقة هو من عند الله فثقوا بنصره الذي وعدكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن الله هو القوي الغالب، الحكيم في تدبيره لخلقه.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي واذكروا أيها المؤمنون وقت كنتم متعبين وقلقين على مصيركم، فألقى الله عليكم النعاس أَمَاناً أمّنكم به من خوفكم الذي حصل لكم من كثرة عدوكم وقلة عددكم. والنعاس هو فتور في الأعصاب يعقبه النوم، ولقد جعل الله هذا النعاس آية منه، وذلك أن الخائف من عدوه خوفاً شديداً لا يأخذه النعاس ولا النوم، فلولا حصول النعاس الذي فيه استراحة أجسامهم وتقويتها لما تمكنوا في اليوم الثاني من قتال عدوهم بجد ونشاط.

ويفهم من النعاس أنهم ما ناموا نوماً عميقاً بحيث يباغتهم العدو ويتمكّن منهم، بل كان نعاساً يزيل الإعياء والإرهاق بحيث لو انقضّ عليهم العدو لتنبهوا له واستطاعوا مقاومته.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ وهذه الجملة من الآية تحكي لنا نعمة أخرى كان لها الشأن في النصر على المشركين، إذ كان جيش المسلمين قد نزل بجانب الوادي القريب من المدينة بعيداً عن الماء في أرض رمليّة، وكان المؤمنون قد لحقتهم في سفرهم الجنابات فصلّوا بدون طهر لانعدام الماء لديهم، وكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة، وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماء بدر، فحرصوا هم أن يسبقوهم إليه، فأنزل الله المطر فسالت الأودية فاغتسلوا من الجنابات، وطهّرهم الله، وتلبدت الرمال فسهل المشي عليها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا المشركين إلى الماء،

أما المشركون فكان المطر وبالاً عليهم فقد تحولت به أرضهم الجلدة اليابسة إلى أوحال لا يقدرون معها على الحركة ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي ويزيل عنكم وسوسة الشيطان وتخويفه إياكم من العطش والفشل ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ أي يثبتها ويوطّنها على الصبر ويطمئنها إلى النصر، لأن إنزال الله للماء دليل بارز على عنايته بهم ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ وذلك أن المسلمين كان بينهم وبين عدوهم رملة لا تستطيع الدواب السير عليها ولا يمشي فيها الماشي إلاّ بجهد، فأصابها الله بالمطر حتى اشتدت وثبتت فيها الأقدام.

أسرع النبي ﷺ وأصحابه إلى ماء بدر ونزلوا إلى أول ماء وجدوه، فقال الحباب بن المنذر وكان مشهوراً بأصالة الرأي: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه[١] الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أو هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوّر ـ أي ندفن ـ ما وراءه من الآبار ثم نبني حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل، فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي، ونفّذ ما أشار إليه الحباب.

ويبين الله عنايته بالمؤمنين يوم معركة بدر:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِين آمَنُوا﴾ أي واذكر يا محمد نعمة أخرى أنعمها الله على المؤمنين حين أوحى ربك للملائكة بأنه معهم بالنصر والإعانة، فثبّتوا قلوب المؤمنين لينتصروا على أعدائهم، وتثبيت المؤمنين يكون بمؤازرتهم والبشارة لهم بالنصر وتكثير عددهم والقتال معهم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي أن الله سيُلقي في قلوب الكافرين الخوف والفزع منكم أيها المؤمنون، وهذا من أعظم النِّعَم على المؤمنين، فالعدو إذا سيطر عليه الرعب كان

(١) أنزلكه: أي أنزلك إياه.

ذلك سبباً في هزيمته ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ فاضربوا ـ أيها المؤمنون ـ رؤوس الكافرين لأن ما فوق العنق هو الرأس ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بنَانٍ﴾ والبنان كل إصبع من الأصابع أو أطراف أيديهم وأرجلهم، فإذا قُطِعَ من المحارب أصابعه أو أطرافه شُلّت حركته ولم يستطع القتال.

﴿ذَلِكَ بِأنهم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أن ما أصابهم من العقاب هو بسبب العداء منهم لله ورسوله ومخالفتهم أمرهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ورسُولَهُ﴾ ومن يخالف الله ورسوله ويناوؤهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَديدُ العِقَابِ﴾ فعقاب الله شديد لا يفلت منه أحد.

﴿ذَلِكُم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الخطاب للمشركين المنهزمين في غزوة بدر من الجرحى والأسرى عن طريق الالتفات لهم، أي ذلكم العقاب العاجل الذي أصابكم في الدنيا من الذل والهوان فذوقوه، والذوق يكون للطعام القليل عن طريق استساغته وبيان طعمه، والعذاب الذي حلّ بالكافرين على أيدي المؤمنين مجرد ذوق هين قليل لما سيعقبه في الآخرة من العذاب الأليم، كما أن الذوق هنا يحمل معنى الشماتة والإهانة لهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩ ﴾.

شرح المفردات:

زحفاً: الزحف تقارب القوم إلى القوم في الحرب والدنو بعضهم من بعض قليلاً قليلاً.

فلا تولّوهم الأدبار: فلا تديروا ظهوركم لهم أي تنثنوا عن قتالهم وتفروا منهزمين.

متحرفاً لقتال: منعطفاً عن موقفه إلى موقف آخر أصلح للقتال فيه.

متحيزاً إلى فئة: منحازاً ومنضماً إلى جماعة أخرى ليقاتل معها.

باء بغضب من الله: رجع بغضب من الله مستحقاً له.

ليبلي المؤمنين: أي ليُحسن الله إليهم وينعم عليهم بالنصر والغنيمة، والبلاء هنا محمول على الإحسان والنعمة ويطلق أيضاً على المحنة.

مُوهن: مُضعف.

إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح: إن تطلبوا النصر يا معشر الكفار فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة لكم.

تغني عنكم: تدفع عنكم.

الصمود في وجه العدو

ثم يحذر القرآن المؤمنين من الفرار من وجه العدو عندما تدور المعارك رحاها:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله إذا لقيتم الذين كفروا وأنتم مجتمعون تزحفون إلى عدوّكم قليلاً قليلاً وهم يزحفون نحوكم كذلك ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ﴾ فلا تديروا لهم ظهوركم منهزمين فارين منهم، بل اصبروا واثبتوا في ميدان المعركة.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِم يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ أي ومن يفر من وجه العدو بقصد الميل من جانب إلى آخر، كأن يوهم العدو بأنه ينسحب وفي ذات اللحظة يعاود الكرة على العدو مطوّقاً له ﴿أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ﴾ أو منضماً إلى جماعة أخرى من المؤمنين ليقاتل معها العدو، ففي كلتا الحالتين لا حرج على المؤمن إذا أدار ظهره للأعداء.

أما الذي يفرّ من وجه العدو ويؤثر الهزيمة على القتال ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي فقد رجع من المعركة وقد غضب الله عليه غضباً شديداً، بخلاف المؤمن الذي يرجع بعد الانتهاء من قتال العدو بالثواب العظيم عند الله حيًّا أو ميّتاً ﴿وَمأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان طلباً للراحة، والفار من وجه العدو لن يجد في الآخرة مأوى يسكن إليه إلاّ جهنم ليُعذب بنارها، وبئس المرجع والمصير آنذاك.

والفرار من ميدان القتال عند الالتحام مع العدو من كبائر الإثم التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: «اجتنبوا السبع الموبقات...» ومنها: «التولي يوم الزحف»[1] أي الفرار عند التقاء الجيشين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

هذا وإن الصمود في وجه العدو أو الانسحاب من وجهه متروك لقائد المعركة فإن رأى الثبات أمام العدو ثبت، وإن رأى غير ذلك انسحب بجيشه حتى تتاح له فرصة للكر عليه لئلا يُلقي بجنوده إلى التهلكة في معركة خاسرة.

ثم يبيّن الله فضله على المؤمنين في غزوة بدر حيث نصرهم على أعدائهم:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُم﴾ فلم تقتلوا ـ أيها المؤمنون ـ المشركين ولكن الله قتلهم ـ أضاف الله قتل المشركين إلى ذاته العلية، ونفاه عن المؤمنين إذ إن الله سبحانه هو مسبب قتلهم بإنزال الملائكة وإلقاء الرعب في قلوبهم وتسليط المؤمنين عليهم لقتلهم. وقد رُوي أنه عقب المعركة أقبل بعض المؤمنين يتفاخرون بأنهم قتلوا وأسروا فنزلت الآية تنهاهم عن الافتخار.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ هذه الجملة من الآية تذكر ما جرى حين دنا المسلمون من المشركين فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء فقال: يا رب إن تُهلك هذه العصابة ـ أي الجماعة المسلمة ـ فلن تُعبد في الأرض أبداً، فقال له الملك جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولّوا مدبرين. والمعنى: وما رميت يا محمد وجوه القوم بقبضة من تراب بقدرتك الذاتية فامتلأت بها عيون المشركين وشغلوا بها عن قتالكم، لم يكن ذلك بقدرتك الذاتية ولكنها كانت رمية الله حتى فعلت ما فعلت وأوصلها مع قلتها إلى عيون المشركين.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ ليبلي من البلاء بمعنى الاختبار وقد يكون بالنعمة كما يكون بالمحنة والمراد به هنا النعمة. أي وليُنعم الله على المؤمنين بالنصر على أعدائهم، ويغنمهم ما معهم من سلاح وعتاد ويثيبهم على جهادهم مع رسول الله ﷺ وذلك هو النعمة الحسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن الله سميع أيها المؤمنون دعاء رسوله، عليم بما فيه صلاحكم وصلاح عباده فاتقوه وأطيعوا أمره.

﴿ذَلِكُم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾ ذلكم: يعود إلى ما سبق من نعمة الله على المؤمنين، وأن الله مُضعف كيد الكافرين الذين يريدون سوءاً بالمؤمنين.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ﴾ الاستفتاح: طلب النصر. والمخاطبون هنا هم كفار قريش والمعنى: إن تطلبوا من الله النصر على محمد في بدر فقد جاءكم النصر، وهذا من باب التهكم بهم حيث جاءتهم الهزيمة والذل بدل النصر. وذلك أنهم حينما خرجوا من مكة لقتال رسول الله ﷺ تعلقوا بأستار الكعبة وسألوا الله أن ينصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين بالنصر والظفر، فكأن هذا الدعاء دعاء على أنفسهم بالهزيمة ودعاء لرسول الله بالنصر، لأنه على الحق وهم على الباطل ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لكُم﴾ أي وإن تتوبوا عمّا أنتم عليه من الكفر والضلالة فهو خير لكم في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ وإن عُدْتم إلى ما كنتم عليه من محاربة رسول الله وإيذائه نَعُدْ إلى ما فعلنا بكم في بدر من الهزيمة ونصرة رسول الله عليكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكم فِئَتُكُم شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ ولن تنفعكم جماعتكم شيئاً في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ﴾ وأن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ولا تولوا عنه: ولا تنصرفوا عن رسول الله ﷺ.

الدواب: جمع دابة وتتناول الإنسان والحيوان مأخوذة من دب على الأرض ومشى عليها.

الصم: جمع أصم وهو الذي لا يسمع.

البكم: جمع أبكم وهو الذي لا ينطق.

يحول بين المرء وقلبه: بمعنى الحجز والفصل بينهما وهو مجاز عن غاية قربه تعالى من الإنسان، أو يمنعه من حصول ما لم يرده منه.

تحشرون: تجمعون يوم القيامة.

الدعوة إلى طاعة الله ورسوله

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خاطب الله سبحانه المؤمنين بصفة الإيمان، لأن الإيمان الحقيقي يستوجب طاعتهما ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ والتولي: هو الإعراض أي لا تعرضوا عَن طاعة رسول الله مخالفين أمره ونهيه وأنتم تسمعون القرآن يتلى عليكم بالحث على طاعته. فطاعة رسول الله هي طاعة لله كما جاء في القرآن: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠].

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أي ولا تكونوا أيها المؤمنون كالمنافقين الذين قالوا سمعنا القرآن وهم في الحقيقة لا يسمعونه سماع تدبّر واتعاظ، وسماع تقبّل وإذعان، بل سماع نفاق ومداهنة، فكأنهم لم يسمعوا القرآن أصلاً لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ والدواب هي كل ما دب على الأرض من إنسان وحيوان، فشر الدواب في حكم الله الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يعقلون، وصف الله بذلك الكفار مع كونهم ممن يسمع وينطق وذلك لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق، فهم صمٌّ رغم أن لهم آذاناً تسمع لأنهم يرفضون أن يسمعوا دعوة الحق والهداية، وهم بكم أيضاً لأنهم لا ينطقون بكلمة وحدانية الله. وبالإضافة إلى ذلك فهم ﴿لا يعقلون﴾ أي لا عقل لهم يميزون به ما فيه النفع لهم ليعملوا به وما فيه الضرر فيجتنبوه. والمراد بكونهم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي أنهم شر من دواب الحيوان. وهذا تصوير بليغ وصف الله فيه بكلمات قليلة فئة المشركين التي لا تنقاد إلى الهدى مهما قُدِّم إليها من براهين وحقائق ومواعظ.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِم خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ أي ولو عَلِمَ الله بعلمه الأزلي أن في هؤلاء الكفار خيراً لأسمعهم سماع هداية يوصل الحق إلى عقولهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ولو أن الله سبحانه أسمعهم آياته ومواعظه وحججه بعد أن علم أن لا خير فيهم لانصرفوا عن الاهتداء وقبول الحق جحوداً منهم وعناداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم[١] لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعاء الله والرسول وأطيعوهما وامتثلوا أوامرهما إذا دعاكم رسول الله لما يحييكم.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُم﴾ الإحياء في الأصل تكوين الحياة في

---

(١) دعاكم: الضمير هنا يعود إلى رسول الله لأنه هو المباشر للدعوة التي أمره الله بها.

الجسد، والإحياء هنا مستعار لما يشبه إحياء الميت وهو إعطاء الإنسان ما به كماله وسعادته. فرسول الله يدعو المؤمنين إلى ما يحييهم، فمن يرفض الدعوة إلى الحياة؟ ولكن ما هي الأمور التي يدعوهم إليها وتكون فيها حياتهم الحقيقية؟

إنه يدعوهم إلى الإيمان بوحدانية الله والخضوع له وحده والعمل الصالح وبهما ينال الإنسان الحياة الطيبة في الدنيا والثواب في الآخرة، جاء في القرآن: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

إنه يدعوهم إلى الهدى والرشاد وتطبيق أحكام شرع الله التي فيها حياتهم، وجاء في القرآن أيضاً: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

كما أن رسول الله يدعوهم إلى الجهاد ورد كيد المعتدين، فمن انتصر بعد الحرب عاش عزيزاً مرهوب الجانب، ومن استشهد كان مع الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ﴾ والحول: هو الفصل بين شيئين، والمعنى: واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه إذا لم يستجب لله ورسوله بأن يطمس على قلبه، فلا يهتدي إلى رشاد، ولا يميز بين الخير والشر، ولا يسيطر على أهواء نفسه، فيصير على حافة الهلاك ويقع في الخسران.

أو بمعنى آخر: إن الله مالك لقلوب عباده ومتصرف في الأمور كلها، فلا يقدر ذو قلب أو عقل أن يدرك شيئاً من إيمان أو كفر، أو أن يعي شيئاً إلا بإذنه ومشيئته، فحذار من عصيان الله وغضبه إذا خالفتم أمره، فإنه في هذه الحالة يحول بين الكافر أن يؤمن، وبين المؤمن أن يكفر.

وقد يكون المعنى أيضاً: بادروا إلى الاستجابة لله ورسوله لأن الله يحول بين المرء وقلبه بالموت فيندم على تقصيره في طاعة الله ولا يقدر على استدراك ما فات.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإلى الله تجمعون يوم القيامة فيجزيكم بحسب مراتب أعمالكم.

* * * * *

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

شرح المفردات:

واتقوا: احذروا وتجنبوا.

فتنة: ذنباً ومعصية وضلالاً واختلافاً بينكم.

يتخطفكم الناس: يأخذونكم بسرعة فلا تملكون أن تدافعوا عن أنفسكم.

يجعل لكم فُرقاناً: هداية في قلوبكم تفرّقون بها بين الحق والباطل.

التحذير من الفتن والخيانة

ويتابع القرآن فيحذّر من الفتن وما تجر من كوارث، ويدعو إلى اتقائها:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِين ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصَّةً﴾ أي اتخذوا وقاية لكم من فتنة إن نزلت بكم لا يقتصر عذاب الله فيها على الظالمين بل يتعدى العذاب إليكم جميعاً الصالح منكم والطالح. والفتنة هنا فُسِّرت: بالذنب والمعصية وإقرار المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والضلال.

فالله سبحانه يأمرنا أن نتقي الفتن من أول ظهورها وقبل أن يستفحل شرّها، وحذار أن يقول الإنسان: عليَّ نفسي ولا شأن لي بغيري، فقوله هذا لا مكان له في الواقع لأن الشر سريع الامتداد لا بُدّ أن يصيبه عاجلاً أم آجلاً.

فالله يريد من كل شخص أن يكون مسؤولاً عن أي خلل في المجتمع، وأن يكون عيناً على كل مفسد حتى لا يكون هناك مجال لأي ظالم أن يعيث في الأرض فساداً.

فالأمة التي تشيع فيها الفواحش والمنكرات، وتتفرق شيعاً وأحزاباً، وتظهر فيها البدع والضلالات لهي أمة أشرفت على هاوية السقوط، وأصبحت معرّضة لعقاب الله.

وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[١].

وروي عن زينب زوج النبي ﷺ أنها قالت: «سألت رسول الله: أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كَـثُـرَ الخبث»[٢] والخبث هو الفساد.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي أن الله يعاقب عقاباً شديداً كل من خالف أمره، ولم ينكر على الظالمين ظلمهم.

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي.

(٢) أخرجه البخاري.

ثم يذكّر القرآن المهاجرين بِنِعَمِهِ عليهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي واذكروا ـ يا معشر المهاجرين ـ الوقتَ الذي كنتم فيه قلة مستضعفة في أرض مكة تحت سيطرة كفار قريش ﴿تَخَافُونَ أن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ والخطف: الأخذ بسرعة. والمعنى: تخافون أن يتخطفكم المشركون لشدة عداوتهم لكم فيفتنوكم عن دينكم وينالوكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم أو يقتلوكم ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدكُم بِنَصْرِهِ﴾ أي أوجد لكم مكاناً تأمنون فيه على دينكم وأنفسكم حين هاجرتم إلى المدينة المنورة[١]، فاستقبلكم الأنْصار بالترحاب، وهيأ لكم أسباب النصر في غزوة بدر، بما أمدكم الله به من الملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ وساق لكم الخيرات الكثيرة ومن بينها غنائم غزوة بدر التي استوليتم عليها بعد هزيمة المشركين لعلّكم تشكرون هذه النعم التي أنعمها عليكم.

﴿يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾ وخيانة الله تكون بترك فرائضه، وارتكاب معاصيه، ومجاوزة حدود شرعه. وخيانة رسول الله ﷺ تكون بهجر سنّته وإفشاء سره للمشركين والتعاون معهم ضده. والنفاق أسوأ مظاهر الخيانة لأن سلوك المنافق وأفعاله تنافي الأمانة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا ائتُمِن خان»[٢].

والآية التي نهت عن خيانة الله ورسوله نزلت في أبي لبابة وذلك أن رسول الله حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله الصلح فأبى رسول الله أن يعطيهم ذلك إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة

(١) المدينة المنورة هي تسمية حديثة لمدينة الرسول، وقد كان يطلق عليها اسم (المدينة) و (يثرب). وقد آثرت أن أطلق عليها في هذا التفسير اسم المدينة المنورة بما هو معروف الآن وحتى لا يلتبس اسم المدينة على القارىء العصري لأن اسم المدينة يطلق حالياً على كل مدينة من المدن.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وفي رواية لمسلم: من علامات المنافق ثلاثة.

وكان ناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كانوا عندهم فبعثه رسول الله فأتاهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه يعني أنه الذبح فلا تفعلوا. يقول أبو لبابه: ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله. هذا وقد حكم فيهم سعد بما يُحكم على الخونة فقال: إني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتقسّم الأموال وتُسبى الذراري والنساء.

﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُم وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تخونوا في الأمانات التي تكون فيما بينكم وأنتم تعلمون أوامر الله ونواهيه فيها.

ومن الخيانة إفشاء سر الدولة وإعطاؤه للأعداء والاستعانة على المسلمين بأعدائهم، ومن الخيانة عدم تولية الأكفاء، وعدم النصح لأولياء الأمور.

ومن الخيانة في الأمانات: التصرف بالودائع بغير وجه شرعي كبيعها بدون إذن صاحبها أو إنكارها أو التهاون في حفظها.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُم فِتْنَةٌ﴾ والفتنة من معانيها: الاختبار والامتحان والضلال والإثم. ومعنى الآية: وليكن معلوماً لديكم أن أموالكم وأولادكم امتحان واختبار لكم من الله وسبب للوقوع في الضلال والإثم، فلا تكسبوا أموالكم عن طريق المحرّمات كالغش وأكل أموال الناس بالباطل، ولا تبخلوا به على العيال والمساكين، ولا تضيّعوا أموالكم في التبذير وفيما حرّمه الله، ولا يحملنكم حبكم لأولادكم وتوفير المال لهم على الإقدام على معصية الله باختلاس مال، أو قبول رشوة، ولا يصرفكم حبكم لهم عن القيام بجلائل الأعمال وواجباتكم نحو ربكم، أو الإهمال في تربيتهم على طاعة الله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم، فأطيعوا الله حتى تنالوا ذلك الأجر العظيم.

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُم فُرْقَاناً﴾ فالله سبحانه

يخاطب المؤمنين بأنهم إذا اتقوه بطاعته واجتناب معاصيه يجعل لهم فرقاناً. والفرقان مصدر يفيد المبالغة وأصله من الفرق وهو الفصل بين الشيئين. وقد فُسِّر الفرقان بأنه نور يجعله الله في قلوب المؤمنين ينير بصيرتهم فيفرقون به بين الخبيث والطيب من الأعمال. وهذا المعنى يفسّره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقيل المراد بالفرقان: هو ملكة من العلم والحكمة يضعها الله في قلوب المتقين، فيفرّقون بها بين الحق والباطل، ويميّزون بها بين الضار والنافع، وقد سمّى الله القرآن بلفظ الفرقان لأنه فرّقَ بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

وقيل أيضاً: بأن الفرقان هو النصر على الأعداء لأنه يفرق بين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله، وقد سمّى الله يوم غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون على المشركين ﴿يَوْمَ الفُرقَانِ﴾.

ولا تقتصر ثمرات التقوى على أن يجعل الله للمؤمنين فُرقاناً بل هناك زيادة على ذلك: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي أن الله سبحانه بسبب التقوى يتجاوز عما اقترفتم من آثام ويغفرها لكم ولا يعاقبكم عليها في الآخرة ﴿وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ والفضل: هو العطاء والإحسان والكرم فالله وحده له الفضل العظيم على جميع خلقه.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ
عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ
مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ
يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

شرح المفردات:

يمكر: المكر هو الاحتيال والخديعة وتدبير الشر خفية.

ليثبتوك: ليحبسوك ويوثقوك.

ويمكر الله: يحبط كيدهم ويوقع السوء بهم من حيث لا يشعرون.

أساطير الأولين: ما سطروه في كتبهم من الأحاديث المكذوبة والقصص الخيالية.

يصدون عن المسجد الحرام: يمنعون المسلمين من الطواف بالمسجد الحرام.

مكاء: المكاء هو الصفير.

تصدية: تصفيقاً.

المكر السيىء يصيب فاعله

ثم تأتي الآيات التالية مبيّنة فضل الله على رسوله محمد ﷺ حيث أنجاه من مكر الكافرين:

﴿وإِذْ يَمْكُرُ بكَ الّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخرِجُوكَ﴾ والمكر: تبييت نية الشر مع قصد الضرر بالخصم. والمعنى: واذكر يا محمد إذ يمكر بك الذين كفروا، وكان هذا المكر حينما اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في شأن محمد الذي بدأت دعوته تنتشر، فقال قائلهم: أرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت مقيداً وتشدّوا وثاقه وهذا معنى ﴿ليُثْبِتُوكَ﴾ وبهذا يمنعونه من لقاء الناس والدعوة إلى دين الله. وقال آخر: أرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم، وبهذا تحولوا بينه وبين قومه. وقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة غلاماً من أكرم القوم حسباً ثم يُعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلها فلا يتمكن قومه من الأخذ بثأره ويرضون بأخذ ديته، فأتى الملك جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه وأخبره بمكر القوم وأن الله أَذِنَ له بالخروج من مكة فخرج منها وهذا من أسباب هجرة رسول الله ﷺ من مكة.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ[١] واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ ويعاملهم الله معاملة مكرهم ويجازيهم جزاء مكرهم، والله خير المجازين لمكر الماكرين فهو يبطل مكرهم من حيث لا يشعرون ويرتد مكرهم عليهم.

---

(١) الغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل والله منزه عن هذا وإنما أُسند المكر إلى الله من باب المشاكلة بتسمية تخييب سعيهم في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسم المكر. والحق أن المكر منه الخير ومنه الشر وقد جاء في مفردات القران للأصفهاني: المكر ضربان مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميلٍ، ومكر مذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح.

ويفهم من الآية أن المؤامرات التي يحوكها دعاة السوء كثيراً ما ترتد على فاعلها وهذا ما ذكره القرآن: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] فالنصر والفوز دائماً للمؤمنين الصادقين الداعين إلى الخير والفضيلة.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ أي وإذا قرئت على كفار قريش آيات القرآن قالوا عناداً ورفضاً للحق: سمعنا مثل هذا الذي جاء به محمد ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ لو: حرف امتناع لامتناع، فتعليق إتيانهم بمثل هذا القرآن على المشيئة اعتراف منهم بعجزهم عن الإتيان بمثل كلام القرآن، ولو قدروا على ذلك ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة، هذا مع العلم أن القرآن تحدى فصحاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا، فهذا العجز دليل على أن القرآن من عند الله ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي أن هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد ما هو إلا ما سطّره الأولون من الحكايات والقصص وليس كلام الله تعالى. وقد روي أن قائل هذا القول هو النضر بن الحارث فإنه كان ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم. ولما قدم مكة ووجد رسول الله يتلو القرآن قال للمشركين: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان النبي إذا قام من مجلس جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث المشركين بأخبار ملوك فارس والروم...

وقد أسند الله سبحانه قول النضر إلى جميع المشركين لأنهم كانوا راضين بقوله ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية. هذا مع العلم أن ما يحكيه النضر من الحكايات ليس له منهج إلّهي وليس فيه ما يستحوذ على السامع من بلاغة الكلام وسموّ المعنى.

ومن أقوال المشركين التي تدل على انعدام الفكر والمنطق السليم عندهم قولهم:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والقائل بهذا هو أبو جهل: والمعنى: اللّهم إن كان هذا

القرآن هو الحق المنزل من عندك فعاقبنا بإنزال حجارة ترجمنا بها من السماء وتهلكنا كما عاقبت أصحاب الفيل، أو ائتنا بعذاب شديد الإيلام غير إنزال الحجارة.

وهذا من أعجب الأمور التي تثير الدهشة، فالمنطق السليم يستوجب أن يدعو هؤلاء المشركون ربهم: اللّهم إن كان هذا القرآن هو الحق المنزل من عندك فاهدنا ووفقنا إلى التسليم به واتّباعه، ولكن عنادهم وحقدهم الأعمى لرسول الله جعلهم يؤثرون الهلاك على القبول بالحق. وهذا نمط من الناس موجود في كل زمان لا يحبون الإقلاع عمّا هم عليه من الضلال مهما بينت لهم الصواب من الخطأ وقد جاء في القرآن في وصف هؤلاء في موضع آخر منه ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولكن القرآن هو الحق فلماذا لم ينزل الله العذاب بهؤلاء الطغاة الذين يرفضون دعوة الحق؟ أجاب الله على ذلك بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب ما دمت بينهم يا محمد لأن سنّة الله قضت أن لا يُعذب قوماً ونبيها بين أظهرهم، وعذاب الله حين ينزل يعم الجميع ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، لأن النبي ﷺ لما هاجر من مكة بقي فيها من المسلمين من لم يستطع الهجرة من مكة، وكان هؤلاء المؤمنون يستغفرون الله، وقيل: إن هذا دعاء للمشركين إلى الإيمان والاستغفار ليتحاشوا العذاب.

هذا وقد جعل الله في أمة محمد ﷺ أمانَيْن هما: وجود رسول الله فيهم، والاستغفار، فمضى رسول الله إلى ربه وبقي الاستغفار، وبهذا الاستغفار يرفع الله العذاب عن أمة محمد ﷺ فإذا عصوا الله ولم يتوبوا ولم يطلبوا الغفران منه على ذنوبهم أصابهم الله بعذابه كما حصل لكثير من الأمم.

ويتابع القرآن الكلام عن المشركين:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ أي وأي سبب يقتضي أن لا يعذّب الله المشركين وهم يمنعون رسول الله ﷺ والمؤمنين عن العبادة في المسجد الحرام والصلاة فيه ومن زيارته، إنهم يستحقون أن يُعذبوا بفعلهم هذا ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أولياء: جمع وليّ وهو من يُعهد إليه برعاية شيء والاهتمام به، أي أنهم غير أهل لولايتهم على المسجد الحرام وذلك لإشراكهم بالله وعبادتهم للأصنام ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إلاَّ الْمتَّقُونَ﴾ إنما أولياؤه المتقون الذين آمنوا بوحدانية الله وصدّقوا برسوله محمد واجتنبوا ما حرمه الله عليهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم وتماديهم في الكفر والضلال. وإسناد هذا الجهل إلى أكثرهم يفيد أن فيهم قلة يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتمون إيمانهم ويتحينون الفرصة لإعلانه.

ثم يبين الله لوناً آخر من ضلال المشركين:

﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمراد بالبيت: الكعبة، وبصلاتهم عنده أي الصلاة في المسجد الحرام. والمكاء: هو الصفير ـ والتصدية: هي التصفيق. وقد روي أنهم كانوا يطوفون حول الكعبة عراة الأجسام يصفرون ويصفقون وكان ذلك عبادة في نظرهم، فصلاتهم هذه ليس فيها وقار ولا خشوع لله ولا استشعار لحُرمة بيت الله الحرام ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرونَ﴾ هنا التفات إلى مخاطبة المشركين بعد الكلام عن مساوئهم وهذا الخطاب يحمل التهديد والوعيد، قيل المقصود بالعذاب هنا عذاب الآخرة، أو ما ينتظرهم من العذاب الدنيوي كما حصل لهم يوم معركة بدر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ
عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ
سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ
ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ليصدوا عن سبيل الله: ليمنعوا الناس عن دين الله.

حسرة: ندماً وغماً.

لِيَميز: يفصل الخبيث من الطيب.

فيركمه: يجمعه ويضم بعضه على بعض.

ما سلف: ما مضى.

سُنّة الأولين: طريقة الأولين السابقين.

لا تكون فتنة: شرك وضلال أو لا يفتتن مؤمن عن دينه.

الكافرون ينفقون أموالهم لمحاربة الإسلام

ويتابع القرآن فيبين مؤامرات الكافرين على الإسلام وسعيهم للقضاء عليه:

﴿إِنّ الّذِين كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبيلِ اللّهِ﴾ إن الذين كفروا يصرفون أموالهم لمنع الناس عَنْ دين الله كما فعل رؤساؤهم وأغنياؤهم حيث أنفقوا

الأموال الطائلة على الجيش الذي أعدوه لمحاربة المسلمين يوم معركة أُحُد ويوم معركة بدر ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي أن هذه الأموال التي أنفقوها في محاربة الإسلام سدى ستكون نتيجتها ندماً وأسفاً على ما أنفقوا ثم تكون الهزيمة لهم آخر الأمر. وهذه الآية من الأنباء الغيبية التي تحققت، فقد نزلت الآية حينما كان المسلمون قلة مستضعفة يحيط بها الكفار من كل جانب فما هي إلاّ سنوات قليلة حتى انتصر الإسلام على كل أعدائه ﴿وَالَّذِين كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّم يُحْشَرُونَ﴾ والذين أصروا على الكفر وماتوا عليه يُساقون يوم القيامة إلى جهنم ليعذَّبوا بنارها.

واليوم يتكرر ما فعله الكفار سابقاً فنرى أعداء الإسلام ينفقون الأموال الطائلة في محاربة الإسلام بوسائل الإعلام المختلفة، أو بواسطة عملائهم المنبثين في بلاد المسلمين، أو بإثارة النزاعات والتفرقة بين الدول الإسلامية للسيطرة عليها تمهيداً لصد المسلمين عن دينهم.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ليميز: يفصل ويفرق، والمعنى: ولقد جعل الله النصر لفريق المؤمنين والخذلان والحسرة لفريق الكافرين لكي يفصل بين العمل السيىء الضار، وبين العمل الطيب النافع ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي ويجعل الله فريق الكفار الخبيث بعضه فوق بعض ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ فيجمع هذا الصنف الخبيث ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط كثرتهم وازدحامهم ثم يُطرحون في جهنم ليعذّبوا بنارها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾ أولئك هم أعظم الخاسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ولأنهم اشتروا بأموالهم ما هو المسبب لعقابهم في الآخرة، فما ربحت تجارتهم وكانوا هم الخاسرون.

﴿قُلْ لِلَّذين كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قل يا محمد للذين كفروا من مشركي قومك: إن يَتركوا ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيبك، ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، إنهم إن فعلوا ذلك ودخلوا في حظيرة الإيمان، واتبعوا ما جئت به من

الهدى: يغفر الله لهم ما سبق من ذنوبهم قبل إيمانهم. وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يمحو ما قبله من الذنوب، وأن الكافر إذا اعتنق الإسلام لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية. وقد جاء في الحديث الشريف: «الإسلام يجبُّ[١] ما قبله والتوبة تجب ما قبلها»[٢] ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ وإن يعد هؤلاء الكفار إلى محاربتك بعد الهزيمة التي لحقت بهم في غزوة بدر، فقد مضت طريقة الله في الأولين من الأمم قبلهم بأنهم إذا طغوا وكذبوا رسل الله ولم يقبلوا نصحهم فإنه يحل عليهم عذاب الله فيهلكهم. وهنا تهديد ووعيد لمن أصرَّ على كفره وإيذاء المسلمين.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فقاتلوا ـ أيها المؤمنون ـ هؤلاء المشركين حتى لا يكون هناك شرك بالله وعبادة للأصنام، وحتى لا يكون هنالك بلاء على المؤمنين من الإيذاء والتعذيب ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ولكي تكون الطاعة والعبادة كلها خالصة لله دون غيره ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ فإن امتنع المشركون عن الكفر والمعاصي بالتوبة والإيمان، وامتنعوا عن إيذاء المؤمنين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وهو بصير بنواياهم فيجازيهم على أفعالهم ونواياهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وأصروا على قتالكم ـ أيها المؤمنون ـ فقاتلوهم وأيقنوا أن الله مُعينكم عليهم وناصركم وهو ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ نعم المعين لكم المتولي أمركم ونعم النصير لا يُغلب من ينصره، وكل من كان في حماية الله أَمِنَ من الخوف والأذى.

* * * * *

---

(١) تجب: تمحو.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾
إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ
كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا
وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾.

شرح المفردات:

غنمتم: الغنيمة ما كسب بالحرب.

يوم الفرقان: يوم غزوة بدر وسمي بذلك لأنه فُرق فيه بين الحق والباطل.

الجمعان: جمع المؤمنين وجمع الكفار.

العدوة: طرف الوادي وحافته.

الدُّنيا: تأنيث الأَدنى بمعنى الأقرب.

القصوى: مؤنث الأقصى أي الأبعد.

الركب: قافلة الجمال التي تحمل تجارة قريش.

عن بَيِّنة: عن حجة واضحة.

لفشلتم: لتهيبتم وأصابكم الجبن من لقاء العدو.

بذات الصدور: بما تنطوي عليه القلوب.

الكلام عن الغنائم وغزوة بدر

وبعد أن أمر الله تعالى بقتال الكفار بيّن بعد ذلك حُكْمَ الغنائم التي تؤخذ منهم بعد الانتصار عليهم، وطريقة قسمتها بين المحاربين وغيرهم من المستحقين:

﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْـتُمْ مِنْ شَيءٍ فَـأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَـى واليَـتَـامَـى والمسَاكِينِ وَٱبْـنِ السَّبِيلِ﴾.

والغنيمة هي كل شيء ظَفِرَ به المسلمون من مال العدو وسلاحه وأمتعته عن طريق الحرب على وجه الغلبة والقهر، أما ما آل إلى المسلمين من مال العدو على وجه الصلح من غير حرب فيسمى «الفيء».

فكل ما غنمه المسلمون عن طريق الحرب يُـقسّم على خمسة أقسام، فخمس الغنيمة يقسم على الفئات التي ذكرتهم الآية، وأربعة أخماس الغنيمة الباقية مقسومة على المحاربين.

أما خمس الغنائم فيقسّم على الفئات التالية:

١ ـ **﴿فَـأَنَّ لِلَّه خُمُسَهُ وَللرسُولِ﴾**: المقصود بذكر لفظ الجلالة (لله) هو افتتاح الكلام في قسمة الغنائم على سبيل التبرك لأَن الله عز وجلّ له ملك الدنيا والآخرة، وقيل نصيب الله أي سهمه المقصود به هو الإنفاق على بيت الله الحرام والكعبة ووجوه الخير.

وسهم الله تعالى وسهم رسوله محمد ﷺ واحد، فرسول الله يأخذ منه كفايته لنفسه وعياله، وأما بعد موت النبي ﷺ فيُـصرف سهمه في مصالح المسلمين وما فيه قوة للإسلام، وقيل إنما سهمه يصير إلى وليّ أمر المسلمين. وقيل يرد إلى بقية الأصناف الأربعة: لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

٢ ـ **﴿وَلِذي القُرْبى﴾**: هم أقارب رسول الله ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب

لأن آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة، فجعل لهم الإسلام نصيباً من الغنائم، واختلف في سهم ذوي قرابة النبي ﷺ بَعْدَ موته فقيل يظل ثابتاً إكراماً لهم وتشريفاً، ويُقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم، وقيل يعود ذلك إلى وليّ أمر المسلمين.

٣ ـ ﴿واليَتَامَى﴾: جمع يتيم والمراد به من فقد أبويه أو أحدهما قبل سنّ البلوغ فيعطى من الخُمُس ما يسدّ حاجته وفقره.

٤ ـ ﴿والمسَاكِينِ﴾: وهم الفقراء أهل الحاجة والفاقة من المسلمين.

٥ ـ ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر في غير معصية ونفد ماله ولا يجد ما ينفقه قبل أن يصل إلى بلده.

وحكمة تقسيم الخُمُس على هذا النحو أن الدولة التي تدير سياسية الأمة لا بد لها من مال تستعين به على ذلك وهو أقسام: أولها ما كان للمصلحة العامة كشعائر الدين والحفاظ عليها وهو ما جعل (لله) في الآية. وثانيها ما كان لنفقة إمامها ورئيس حكومتها وهو سهم رسول الله فيها. وثالثها ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته وهو سهم أولي القربى. ورابعها ما يكون لذوي الحاجات من ضعفاء الأمة.

أما الأربعة الأخماس الباقية فتقسّم على المحاربين، فيعطى للفارس ثلاثة أسهم، ومن الفقهاء من يقول للفارس سهمان، وللراجل أي الذي يحارب بدون فرس سهم واحد. وقد جعلت لهؤلاء الغنائم اعترافاً بشجاعتهم وصبرهم، وتقديراً لبلائهم وما عرّضوا أنفسهم للمخاطر.

وبعد هذا الشرح للآية نأتي على بقيتها: ﴿إِنْ كُنْتُم آمَنْتُم بِاللَّهِ﴾ أي اعلموا أن ذلك هو حُكْمُ الله في توزيع الغنائم، فاعملوا به إن كنتم مؤمنين حقاً بالله ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ﴾ وصدّقتم بما أنزل الله على عبده محمد ﷺ من آيات القرآن، ونزول الملائكة لتثبيت قلوبكم، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائكم يوم غزوة بدر، وهو

يوم الفرقان، وقد سمي بذلك لأن الله فَرّقَ فيه بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ﴾ أي يوم التقى جمع المؤمنين، وجمع المشركين حيث التقوا يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون كان عددهم بين الألف والتسعمائة مقاتل، فانهزم المشركون أمام هذه القِلّة من جيش المسلمين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وما أصاب المؤمنون من نصر آنذاك فإنما حصل بقدرة الله التي لا يعجزها شيء، فعليكم أيها المؤمنون أن تداوموا على طاعة الله وشكره.

ويتابع القرآن الكلام على غزوة بدر قبل التحام الجيشين بأسلوب تصويري بديع وعلى تدبير الله المحكم الذي أدى إلى نصر المؤمنين قال تعالى:

﴿إِذْ أَنْتُم بِالعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالعُدْوَةِ القُصْوَى﴾ والعدوة جانب الوادي وحافته. والمعنى: واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ حين كنتم بجانب الوادي القريب من المدينة المنورة، والمشركون في جانب الوادي البعيد عن المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ والقافلة التي بقيادة أبي سفيان بما معه من التجارة كانت في موضع أسفل منكم مما يلي ساحل البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُم في المِيعَادِ﴾ ولو كان اجتماعكم أنتم وجيش قريش عن ميعاد للقتال لما حصل لكم هذا التوافق عليه ولكنتم تخلفتم عنه، لكراهة الكثير منكم الحرب بسبب قلتكم وعدم استعدادكم لقتال جيش قريش، وما كان همكم إلا الاستيلاء على قافلة قريش، كما أن غرض المشركين كان إنقاذ القافلة من أيدي المسلمين لا غير ﴿ولكن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ ولكن الله دفع الفريقين للقتال، وهيأ له الأسباب لأمر قد حكم بأن ينفذ وسيتحقق، وهو هزيمة المشركين وخزيهم وانتصار المسلمين.

﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الهلاك والحياة هنا مستعاران للكفر والإيمان، والمعنى: ليصير كفر من يكفر صادراً عن حجة قاطعة ضده

بأنه على باطل، وليكون إيمان من آمن صادراً عن حجة ويقين بأن دينه هو دين الحق الذي يجب التمسك به.

وهناك من فسّر البيّنة في الآية بالمعجزة، ويكون المعنى: ليموت من يموت من الكفار بعد مشاهدة هذه المعجزة، معجزة انهزامهم أمام المسلمين مع كثرتهم، والمؤمنون الذين بقوا على قيد الحياة شاهدوا هذه المعجزة، معجزة انتصارهم على المشركين مع قلّة عددهم ﴿وإن اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ في مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ واذكر يا محمد فضل الله عليك وعلى أصحابك حيث أراك الله في منامك المشركين بأنهم قليلو العدد، فأخبرت بذلك أصحابك فاطمأنت نفوسهم، وكانت تلك الرؤيا المنامية لتشجيع المؤمنين على القتال وأن لا يهابوا أعداءهم، وقيل إن القلة لم تقصد حقيقتها وإنما قصدت نتيجتها وهي ضعفهم، أي أن بلاء الكفار في المعركة سيكون قليلاً، وأن كيدهم سيكون ضعيفاً فتجرأ المؤمنون على القتال وقويت قلوبهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ﴾ ولو أن الله صوّر لرسوله محمد ﷺ المشركين بأنهم كثيرون وأخبر بذلك المؤمنين لتردد بعض المؤمنين عن القتال جبناً وخوفاً، ولحدث بينهم نزاع في شأن قتالهم للمشركين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ولكن الله عصم المؤمنين من الخلاف والتنازع وأنعم عليهم بالسلامة، إنه عليم بما في القلوب التي في الصدور من شجاعة وجبن، وصبر وجزع.

﴿وإذ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُم قَلِيلاً﴾ واذكروا أيها المؤمنون وقت أن التقيتم مع أعدائكم وجهاً لوجه في غزوة بدر، كيف أن الله جعل عدد الكفار في نظركم قلة[1] لتزدادوا جرأة عليهم وطمعاً فيهم ﴿وَيُقَلِّلُكُم في أَعْيُنِهِمْ﴾ ويقلل الله عدد

---

(١) يقول عبد الله بن مسعود وهو ممن حضر معركة بدر: قلت لجار لي: أظنهم سبعين ـ أي المشركين ـ فقال: لا بل مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

المؤمنين في أعين الكفار ليزدادوا طمعاً فيهم، وتقلّ مبالاتهم بحربكم، ويزدادوا غروراً واستهتاراً بكم، وبهذا التصور لكل منكم يقدم كل فريق على قتال الآخر، فتتوفر أسباب النصر للمسلمين بإيمانهم بأنهم متفوقون على الكفار، وتتوفر أسباب الهزيمة للكفار لاعتقادهم بأن المسلمين قلة لا يستحقون الاهتمام ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ ليتم تنفيذ أمرٍ علمه الله وكان لا بدّ أن يتم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإلى الله تُرجع أمور العالم كله فلا ينفذ أمر إلاّ ما قد قضاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا
لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ
رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن
دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ
مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ
وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ
هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

فئة: جماعة.

فاثبتوا: فاصمدوا.

ولا تنازعوا: ولا تختلفوا.

تذهب ريحكم: تذهب قوتكم أو دولتكم.

بطراً: فخراً واستعلاء وطغياناً.
رئاء الناس: الرياء إظهار العمل رغبة في أن يراهم الناس فيعجبوا بهم ويثنوا عليهم.
يصدّون: يمنعون ويصرفون.
زَيَّنَ: حَسَّن.
جَارٌ لكم: مجير وناصر ومعين.
نكص على عقبيه: رجع القهقرى وولى هارباً.
غر هؤلاء دينهم: خدع هؤلاء المسلمين دينهم.

مقومات النصر

ثم ينتقل القرآن إلى مخاطبة المؤمنين مبيناً لهم الأمور التي تساعدهم على النصر:

١ ـ الثبات في وجه العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته، إذا حاربتم جماعة من أعدائكم فاصمدوا لقتالهم حتى النهاية، ولا تُحدّثوا أنفسكم بالتراجع من أمامهم، فالثبات المراد به هنا: المواجهة الشجاعة، والمحارب إذا ما كان ثابتاً في القتال فالعدو يخشاه ويهابه. هذا وإن النظام الحربي المعاصر يقضي بقتل الجندي الفار من القتال خشية أن تنتقل عدوى فراره إلى غيره فتحدث آنذاك البلبلة والجزع في صفوف الجيش ويكون ذلك داعياً إلى هزيمتهم.

٢ ـ الإكثار من ذكر الله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كثيراً لَعَلَّكم تُفْلِحُونَ﴾ وأكثروا من ذكر الله في أثناء القتال، اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته وعظمته، واسألوه العون والتأييد وتحقيق وعده بنصر المؤمنين، فافعلوا ذلك ليكون الفوز والنصر حليفكم.

وَذِكْرُ الله في الحرب والمداومة عليه له تأثير فعَّال في الحصول على النصر لأن الإيمان بالله واستحضار عظمته وقوته يمدان المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية ويكون لها الأثر الكبير في نفسية المحارب.

٣ ـ طاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وذلك بالتزام الأوامر واجتناب النواهي التي أمرهم الله بها وبلّغهم رسول الله إياها، سواء أكانت تتعلق بشؤون القتال أم بسواها. فقد كان رسول الله هو قائد المسلمين في أغلب المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، وبعد وفاته وجب عليهم طاعة قادتهم في القتال.

٤ ـ الاختلاف يؤدي إلى الفشل: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم وكونوا يداً واحدة فإن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُم﴾ والريح معناها هنا: القوة والغلبة والسيادة، يقال: «هبت رياح فلان» إذا كانت له السيادة وجرى أمره على ما يريد. والمعنى: بسبب تنازعكم تذهب قوتكم وتنتهي سيادتكم.

فالتنازع هو من أبرز الأسباب لهزيمة المقاتلين، فالجيش الذي يقاتل عدوه كتلة واحدة متراصة لهدف واحد ليس كالجيش الذي تتنازعه الأهواء والأطماع، وأكثر المعارك التي خسرها المسلمون بعد وفاة نبيهم سببها النزاع فيما بينهم، وقد أدرك اليهود والمستعمرون هذه الحقيقة فكانوا يثيرون الفرقة والتنازع بين الدول التي يريدون السيطرة عليها بواسطة عملائهم عاملين بالمبدأ الشهير «فرق تسد».

٥ ـ الصبر في مواجهة العدو: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فالله يدعو المؤمنين إلى الصبر على الشدائد التي تعترضهم في مواجهة العدو، وبالأخص إذا كان عدوهم صابراً شديد البأس، ولهذا كان على المؤمن أن يمتلك رصيداً من الصبر يفوق صبر العدو، والله سبحانه مع الصابرين بالمعونة والتأييد، ومن كان الله معه فلا بد أن ينتصر على عدوّه. والقرآن قدّم لنا أمثولة ودرساً في الصبر عن أصحاب طالوت عندما واجهوا أعداءهم حيث دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

٦ ـ الإخلاص لله وعدم الرياء: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذين خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ والبطر: الطغيان عند النعمة وترك شكرها وجعلها وسيلة إلى ما لا

يرضاه الله. والرياء أن يعمل المرء على خلاف ما هو عليه لأجل الثناء عليه. فالله سبحانه ينهى عباده المؤمنين عن التشبّه بالكفار الذين غادروا مكة ليقاتلوا المسلمين بطرين بما أُوتوا من قوة، كافرين بِنِعَمِ الله، مرائين للناس ليثنوا عليهم بأنهم أولو قوة وشجاعة ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والصد عن سبيل الله إضلالهم للناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية.

هذه الآية تشير إلى ما كان من قريش حينما خرج رجالها من مكة لإنقاذ قافلتهم المحمّلة بالمؤن على احتمال وقوعها في أيدي المسلمين قبل معركة بدر، ولما علم أبو سفيان بغرض المسلمين أفلت بقافلته منهم وسلك طريق الساحل. وأرسل إلى قريش رسولاً يخبرهم بأن قافلتهم قد سَلِمَت من أيدي المسلمين، لكن أبا جهل وهو من زعمائهم قال: «والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد (بدراً) فنشرب فيها الخمر، وتعزف علينا القيان[١]، وننحر الجُزُر[٢]، ونطعم بها من حضرنا من العرب» فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم.

هكذا كان حال جيش قريش قبل معركة بدر، أما بعد هزيمتهم النكراء في المعركة فقد شربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان غناء القيان.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ والله محيط علماً بجميع ما عمله هؤلاء المشركون، وقد جازاهم بما يستحقون من ذل وهوان وهزيمة.

ويتابع القرآن فيصف الحالة النفسية للكفار قبل معركة بدر:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي واذكروا أيها المؤمنون وقت أن حسَّن الشيطان للمشركين خروجهم لحربكم، ووسوس

---

(١) القيان: الجواري.

(٢) الجُزُر: مفردها جزور وهي الواحد من الغنم والماعز.

لهم قبل معركة بدر أنهم أقوياء لا يستطيع أحد من الناس أن يغلبهم ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ووسوس لهم الشيطان بأنه مجير ومعين لهم وناصرهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ وحينما تلاقى الجيشان: جيش المؤمنين وجيش الكفار، ونظر بعضهم إلى بعض ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ رجع الشيطان القهقرى مُدبراً هارباً ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ وقال للمشركين إني بريء من نصرتكم ولا أتحمل تبعة ما يحصل لكم ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وقال الشيطان: إني أرى من الملائكة ما لا ترون إني أخاف عقاب الله، وخوف الشيطان كان من أن تحرق الملائكة جنوده ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعذاب الله أليم لمن عصاه.

يقول الشيخ رشيد رضا: «معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين في المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرّهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبّتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم... فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما فرّ الشيطان بجنوده من بين المشركين لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين وهما ضدان لا يجتمعان ولو اجتمعوا لقضى أقواهما وهم الملائكة على أضعفهما، فخوف الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده لا على المشركين...»[١].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فالمنافقون هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر في سريرة أنفسهم، وهم فئة من الأوس والخزرج كانوا يريدون السيادة على المدينة المنورة وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك، ولكن ظاهرة الإقبال من أكثرية أهل المدينة على الإسلام عن اقتناع وإيمان، جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة، لذلك تظاهروا بالإسلام وبقي في قلوبهم حقد على المسلمين. والذين في قلوبهم مرض المراد بهم ضعيفو الإيمان فهم

(١) تفسير المنار.

مسلمون في ساعة الرخاء مرتابون في دينهم ساعة الشدة. والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون وقت أن قال فيكم المنافقون والذين في قلوبهم شك في الإسلام: خَدَعَ هؤلاء دينهم وغرّر بهم فخرجوا على قلّتهم ليحاربوا من يفوقونهم عدداً وعدّة. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن يفوّض أمره إلى الله ويعتمد عليه فإن الله حسبه وكافيه وناصره، وهو سبحانه القوي الغالب الحكيم في كل أفعاله.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

شرح المفردات:

وأدبارهم: ظهورهم.

كدأب: كعادة.

لم يك: لم يكن.

حرّض المؤمنين: حثهم وحضّهم.

فأخذهم الله بذنوبهم: فعاقبهم الله بذنوبهم.

مآل الظالمين

وبعد الهزيمة التي لاقاها الكفار في معركة بدر حيث قُتِلَ سبعون من رجالاتهم، تأتي الآية التالية تصوّر ما حدث لهؤلاء القتلى من عذاب وإذلال عندما توفتهم الملائكة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الملائِكَةُ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ ولكل من يصلح الخطاب له. وجواب (لو) محذوف، وإذا ما حذف الجواب فقد ترك القرآن الخيال لكل إنسان أن يتصور ما حدث في أبشع صورة. والمعنى: ولو عاينت وشاهدت أيها النبي حال هؤلاء الكفار حين تتوفاهم الملائكة، وتقبض أرواحهم في معركة بدر لرأيت أمراً فظيعاً ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وَأَدْبَارَهُمْ﴾ والمراد من وجوههم ما أقبل منهم من وجوه وصدور. وأدبارهم: أي ظهورهم. وخُصّت الوجوه والأدبار بالضرب لأن الخزي والإذلال في ضربهما أشد، وقد يكون ذلك إشارة إلى الطريقة التي كان الكفار يعذبون بها المؤمنين، فالمقبل عليهم من المؤمنين كانوا يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره، ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة، أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة الهائلة، ولكن هذا الضرب لا ينجيهم في الآخرة من عذاب النار حيث تقول لهم الملائكة: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ وذلك عندما يُطرحون في جهنم ويُعذبون بنارها.

﴿ذَلِكَ بمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم﴾ أي تقول لهم الملائكة: ذلك العذاب الذي حلّ بكم هو بسبب ما اكتسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب، سواء أكان من عمل الأيدي والأرجل أو تدبير العقل، وعبّرت الآية بالأيدي دون غيرها لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ «وظلام: من صيغ المبالغة، فهل يعني هذا أن الله ظالم بعض الشيء؟ لا، فالله ينفي الظلم إطلاقاً عن نفسه، لأن الله لم يقل: ليس بظلام (للعبد) بل قال ﴿ليس بظلاّم للعبيد﴾ ولو أن الله ظلم كل عبد من عباده مثقال ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد، ولكن بما أن هذه الذرّة من الظلم لم

تحدث من الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] لهذا جاءت ظلاّم في الآية بصيغة المبالغة»[١].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِين مِنْ قَبْلِهِم﴾ الدأب: هو العادة التي تتكرر مع الإنسان، أي أن عادة هؤلاء الكفار من قومك ـ أيها النبي ـ وعملهم الذي داوموا عليه كشأن آل فرعون والأمم التي كانت قبلهم في إصرارهم على كفرهم بالله، رغم ما أرسل الله إليهم من رُسُل ﴿كَفَروا بآيَات اللَّهِ﴾ كفروا بشرائع الله المنزلة على رسله وحججه الدالة على وحدانيته، وجحدوا المعجزات التي أجراها على أيدي رسله التي تُثبت صدقهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بذُنُوبهم﴾ فعاقبهم الله على ما اقترفوه من المعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ إن الله قوي لا يغلبه غالب، شديد العقاب لمن خرج عن طاعته وأصرّ على كفره وعناده.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ذلك العذاب الذي أنزله الله بهم هو لأنهم غيّروا وبدّلوا نعمة الله التي أنعمها عليهم كفراً، فغيّر الله نعمته عليهم بإهلاكهم، والله لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم من عزة وسلطان، ورفاهة وطيب عيش، وأمن وراحة بغيرها سوءاً، إلا إذا بدّلوا نعمة الله عليهم كفراً وجحوداً لها وبغياً في الأرض ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وأن الله سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، فهو يعاقبهم على كفرهم على نِعمِه.

والناظر في أحوال الأمم حالياً وما تعانيه من ويلات وكوارث طبيعية ونزاعات داخلية، وحروب مدمّرة وغيرها، هذه الأحوال ما هي إلا بسبب شيوع الفساد فيها وخروجها عن تعاليم ربها، وانتشار الفواحش والمنكرات فيها، فلتتعظ الأمم بما أصابها من ويلات ولترجع إلى هدى ربها، ولتأخذ درساً بما حدث للأمم قبلها.

---

(١) باختصار عن تفسير الشعراني.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

كرّر القرآن ما حل بآل فرعون للتأكيد مع اختلاف بما ذكر في الآية السابقة. فالآية السابقة تقول: ﴿كَفَروا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي أنكروا الدلائل الإلهية على وجوده ووحدانيته وما أنزله على رسله من الشرائع أما الآية هنا فتقول: ﴿كَذَّبوا بِآيَاتِ رَبِّهِم﴾ فقد ذكر هنا اسم الرب مضافاً إليهم بدل اسم الله لأن في الرب والربوبية معنى أنه منعم عليهم مربٍّ إياهم، لأن نعم الله عطاء ربوبية. وتكذيب آيات المنعم المربي هو كفران لنعمه. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ هنا توضيح لهذا العقاب وهو الهلاك والإغراق في اليمّ، بينما في الآية السابقة قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بذنوبهم﴾ أي عاقبهم الله بذنوبهم. ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي كل من أهلكهم الله وعذبهم سواء أكانوا من الأمم السابقة أم آل فرعون أم كفار قريش، كانوا ظالمين بسبب كفرهم بالله وبآياته وتكذيب رسله وارتكابهم المعاصي وكفرانهم لنعم الله عليهم.

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ
مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى
ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ
وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن
دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

شرح المفردات:

الدواب: جمع دابة وهي كل ما يدب على وجه الأرض.

ينقضون عهدهم: لا يوفون به.

تثقفنهم: تلقاهم وتجدهم.

فشرِّد بهم من خلفهم: فافعل بهم فعلاً يخيف الذين وراءهم ويشردهم.

وإما تخافنَّ من قوم خيانة: إن تتوقع من قوم عاهدوك خيانة بنقض العهد.

فانبذ إليهم على سواء: فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستوٍ ظاهر بأن تعلمهم بنبذك للعهد قبل أن تحاربهم.

سبقوا: فاتوا وأفلتوا من عقاب الله.

لا يعجزون: لا يفلتون من عقاب الله وليس عاجزاً عن إدراكهم.

رباط الخيل: المكان الذي ترابط فيه الخيل المعدّة للقتال.

ترهبون: تخوّفون.

يوفّ إليكم: تعطوا جزاءه وافياً.

إعداد القوة لمجابهة المعتدين

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن فئة من اليهود وما جرى منهم مع النبي ﷺ من غدر ونقض للعهود:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في يهود بني قريظة حيث عاهدهم النبي ﷺ على أن لا يساعدوا أعداءه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم أيضاً فنكثوا العهد ومالوا مع الكفار يوم معركة الخندق، فقد ذهب رئيسهم كعب بن الأشرف إلى مكة قبل معركة الخندق فحالفهم على محاربة النبي ﷺ وغزو المدينة المنورة. ومعنى الآية: إن شر ما يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه هم اليهود الذين كفروا وجحدوا نبوة محمد مع قيام الحجة عليهم وثبوت أمارات نبوته في كتبهم الدينية، لذا جعلهم الله شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم في جنس غير البشر وذلك لعدم تقبلهم لما فيه رشدهم وخيرهم.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُم ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُم في كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين أخذت عليهم العهد يا محمد بأن لا يعينوا عليك أعداءك كفار مكة بل يلتزموا الحياد، ولكنهم غدروا بك ونقضوا العهد معك، وتكرر منهم نقض العهد أكثر من مرة، وهم لم يتوقّوا مغبة الغدر، وما يجرّ عليهم من ويلات، ولا يخافون الله في فعلهم هذا.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ فإن تدرك ـ أيها النبي ـ هؤلاء الناقضين لعهدهم، وتظفر بهم في الحرب فنكِّل بهم تنكيلاً شديداً بما يكون سبباً لتفريق شمل من وراءهم من الأعداء وإخافتهم من كفار مكة وغيرهم، ممن تحدّثهم بنقض العهد مع المؤمنين ﴿لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلّهم يتعظون ويعتبرون فلا يتجرأوا على قتال المؤمنين ونقض العهد معهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وإن تتوقع يا محمد خيانة من عدو لك بينك وبينه عهد بأمارات تنبيء عن الغدر بك ونقض العهد معك ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِم عَلَى سَوَاءٍ﴾ والنبذ: هو الطرح، أي فاطرح إليهم عهدهم وارم به إليهم وناجزهم الحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بنقض العهد، ولا تبادرهم الحرب وهم على توهّم بقاء العهد معك فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ فالخيانة يبغضها الله بجميع صورها ومظاهرها ومن أي جهة صدرت.

﴿ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُم لا يُعْجِزُونَ﴾ أي ولا يظنن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله أنهم أفلتوا ونجوا من عقاب الله إياهم، كلا إنهم لا يعجزون الله عن إدراكهم والانتقام منهم في كل وقت، والمقصود بالذين كفروا هنا هم الذين نجوا من القتل في معركة بدر.

﴿وَأَعِدُّوا لهم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ﴾ أمر الله المسلمين بأن يستعدوا لأعدائهم بكل ما يستطيعون من قوة، ولفظ القوة يشمل كل قوة تعين على دحر العدو من أسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها ويشمل ذلك التدريب المستمر على القتال وإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب وإجادة استعمال الأسلحة الحديثة ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾ ورباط الخيل هو المكان الذي ترابط فيه الخيل مع فرسانها عند الحدود للحراسة ومراقبة العدو ويشمل ذلك حفظها واقتناءها لاستخدامها في القتال.

وقد أمر الله بإعداد رباط الخيل لأنها كانت مركب الجيش الأساسي في زمن النبي ﷺ وقد تغير الزمان فأصبح مركب الحرب سفناً حربية وطائرات وسيارات مصفحة ودبابات، لهذا وجب على المسلمين أن يعدوا لأعدائهم ما استجد من اختراعات في آلة الحرب، والقصد من إعداد القوى الحربية هو إخافة العدو ﴿تُرْهِبُون بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم﴾ وعندما يخاف العدو قوة المسلمين يصبح المسلمون في منأى

من الاعتداء عليهم، وأعداء الله في زمن النبي ﷺ هم كفار مكة وغيرهم من العرب واليهود ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وهناك أعداء آخرون من وراء أولئك المجاهرين بعداوتكم لا تعلمونهم لتستّرهم في عداوتكم، والمراد بهم: المنافقون المندسون بين صفوف المسلمين، فإذا شاهدوا المسلمين في غاية القوة عدلوا عن الإضرار والكيد بالمسلمين ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكل ما تنفقون من مال في إعداد الجيش للقتال والمساهمة في المجهود الحربي والإنفاق على أُسَرِ المجاهدين ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُم وَأَنْتُم لا تُظْلَمُونَ﴾ أي يعطكم الله جزاءه وافياً تاماً، وأنتم لا تُنقَصون من ثواب أعمالكم شيئاً ولا يلحقكم أي غبن في الجزاء.

وقد جاء في فضل تجهيز الغزاة في سبيل الله قول النبي ﷺ «من جهز غازياً فقد غزا ومن خَلَفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا»[١] أي أن تجهيز الغازي بالسلاح والمؤن ورعاية أهله في غيبته يعتبر في الثواب كالجهاد في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري.

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ
وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ
أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن
مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

شرح المفردات:

جنحوا للسلم: مالوا للسلام والصلح.

يخدعوك: يظهروا لك أنهم مسالمون ويبطنوا الغدر والخيانة.

حسبك الله: كافيك الله في دفع خديعتهم.

أيدك: قواك.

حَرِّض المؤمنين: حثهم وحضهم.

لا يفقهون؛ لا يفهمون ولا يدركون.

الصمود أمام الأعداء

وبعد أن دعا الله المؤمنين إلى إعداد القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المؤمنين، بيّن الغاية من إعداد القوة وهي منع الحرب والوصول إلى حالة السلم:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ جنحوا: مالوا. أي وإن مال الأعداء إلى

الصلح والمسالمة وترك الحرب فاقبل منهم ما مالوا إليه لأن الإسلام دين السلام ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ واعتمد على الله وفوّض أمرك إليه، ولا تخش يا محمد كيد أعدائك الذين يتخذون من السلم وسيلة إلى الغدر، فكن على حذر منهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إن الله هو السميع لما يقولون العليم بما يفعلون فلا يخفى عليه شيء.

فالإسلام في دعوته إلى السلام سبق ما دعت إليه عصبة الأمم، والأمم المتحدة في ميثاقها المتضمن نبذ الحرب والدعوة إلى السلام، فالإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان والقضاء على الظلم والوصول إلى حالة السلم.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ وإذا شعرت ـ أيها النبي ـ أن مبادرة السلام التي يعرضونها عليك هي مجرد خديعة يتوخّون من ورائها الانقضاض عليك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فإن الله كافيك أمرهم وحاميك من شرهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ هو الله سبحانه قواك وأعانك بنصره لك على أعدائك يوم معركة بدر وقواك وأعانك بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وجمع الله بين قلوب المؤمنين بعد أن كانوا أعداء متناحرين، فجمع الله بين قلوب قبيلتي الأوس والخزرج من الأنصار في المدينة المنورة، وقد كانت الحرب سجالاً بينهما لا تنقطع، كما جمع الله بالإيمان والود بين قلوب المؤمنين من الأنصار والمهاجرين، فاستقبل الأنصار في المدينة المنورة إخوانهم المؤمنين المهاجرين من مكة بالترحاب وتقاسموا معهم ما يملكون من مال، ووفّروا لهم السكن، وكانت أُخوّتهم في الإيمان تفوق أُخوّة النسب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿لَوْ أَنفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي لو جمعت ـ أيها النبي ـ ما في الأرض من مال وأنفقته في سبيل جمع قلوبهم على هدف واحد ما جمعت بينهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن الله هو الذي جمع بين قلوبهم ووحّد صفوفهم بفضله وكرمه ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إنه سبحانه القوي الغالب، الحكيم في تدبيره لخلقه.

فالمال لا يجمع بين القلوب ولا يقيمها على الطهر والعفاف، ولا يربي الوجدان، ولا يوقظ الضمير، بل المال كان وما يزال سبباً للطغيان والفساد في الأرض والتفرقة بين الناس.

إن المعجزة التي حققها الإسلام هي في جمع العرب على المحبة والوئام ووحدة الهدف، بعد أن كانوا قبائل متفرقة لا تجمعهم جامعة، تغير القبيلة على الأخرى فتبدد شملها وتسلبها حريتها ومالها، فكانت الحروب والغارات بينهم سجالاً لا تنقطع، وكان الانتقام والأخذ بالثأر شغلهم الشاغل، وهذا ما ولّد الأحقاد والضغائن فيما بينهم، بالإضافة إلى ما انتشر فيهم من الفواحش والمنكرات وهضم حقوق الضعفاء وأكل أموال الناس بالباطل، ولكن الإسلام جعلهم ينبذون تلك الرذائل ويتحلّون بالفضائل ويأخذون بالمثل العليا، ويقيمون العدالة في الأرض، كما جعلهم إخوة متحابين في الله رحماء بينهم، على الرغم ما كان بينهم من كبر وتحاسد وتنازع وعصبية قبل الإسلام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخاطب الله رسوله محمداً بأنه وحده كافيه وكافي المؤمنين الذين اتبعوه، فهو ناصرهم ومؤيدهم على أعدائهم، فليعتمدوا عليه ويطيعوه في أمره ونهيه لكي ينالوا نصره.

وبعد أن دعا الله المؤمنين إلى السلم دعاهم من جهة أخرى إلى الصمود والصبر في وجه أعدائهم عندما تدور المعارك رحاها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ(١) الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ فالله يأمر النبي بأن يرغّب المؤمنين في قتال أعدائهم ويحثهم عليه، لأنه قتال لإعلاء كلمة الحق ولدفع العدوان عنهم، وبهذا يبعدون أنفسهم عن الهلاك.

---

(١) التحريض في اللغة أن يحث الإنسان غيره على شيء لأنه يعلم أنه مقارب للهلاك إن لم يفعله. وقيل: التحريض هو الحث على الشيء بتحسينه وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس لأن فيه إزالة الحرض، والحرض هو الإشراف على الهلاك.

﴿إِنْ يَكُن مِنْكُم عِشْرُون صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِنْكُم مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالإيمان يعطي المحارب قوة تعادل قوة عشرة من الكفار. وقد كان رسول الله ﷺ يرسل بعثات قتالية لا يشترك معها في القتال تسمى «السرايا» وهي جمع سريّة، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين ولا تزيد على مائة، فذكرها الله سبحانه مرة بالعشرين ومرة بالمائة، وقد اشترط الله لتغلّبها على الكافرين أن يتحلّى أفرادها بالصبر: ﴿إِنْ يَكُن مِنْكُم عِشْرونَ صَابرون. . .﴾ الآية. لأن القوة القتالية لكي يتحقق لها النصر لا بد أن تكون قوية في إيمانها، قادرة على تحمّل مشاقّ القتال وعنفه بصبر وجلد.

ثم تأتي تتمة الآية تصف الكافرين: ﴿بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون الغاية من القتال. ولنقارن بين الكافرين وبين المؤمنين الذين يفهمون الغاية من القتال:

فالكفار في القتال لا يعتمدون في القتال إلا على قوتهم وعددهم وسلاحهم، وهم حين يقاتلون لا يعتقدون بوجود الآخرة وليس همهم إلا الدنيا والمحافظة على حياتهم، أما المؤمنون فإنهم يقاتلون بشجاعة ومعهم رصيد كبير من قوة الإيمان، لأنهم يعلمون أنهم مؤيدون من الله بنصره، وأن الدنيا بالنسبة لهم رحلة قصيرة إلى الآخرة، فإن استشهدوا نالوا رضوان الله وفازوا بنعيم الجنة، وإن انتصروا وبقوا أحياء نالوا حسنى النصر ومغانمه.

ولما كان صمود المسلمين أمام عشرة أمثالهم من الكفار يترتب عليه الكثير من المشقة ويوقع المسلمين في الحرج أو في الإثم إذا لم يصمدوا، جاءت رحمة الله بالتخفيف عليهم، ففرض الله على الواحد من المسلمين الثبات أمام اثنين من الكفار بدلاً من عشرة وبالأخص بعد أن كَثُر عدد المسلمين ممن دخلوا في دين الله أفواجاً.

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُم وَعَلِمَ أَنَّ فيكم ضَعْفاً﴾ أي الآن قد خفف الله

عنكم ـ أيها المؤمنون ـ رحمة بكم لعلمه أن فيكم ضعفاً يقتضي التيسير عليكم ﴿فَإِن يَكُن مِنْكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِن يَكُنْ مِنكُم أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ اشترط القرآن على المؤمنين أن يتحلوا بالصبر أيضاً للتغلب على أعدائهم إذا كانوا مثليهم في العدد، وإذا كان أعداؤهم صابرين في المعركة فعلى المؤمنين أن يفوقوهم صبراً وصموداً ليتغلبوا عليهم بمعونة الله وتيسيره ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والنصرة على الأعداء، وأن الصبر هو المحك، وهو الوسيلة المحققة للنصر.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

شرح المفردات:

أسرى: جمع أسير وهو العدو المستسلم.

يثخن في الأرض: يبالغ فيها بالقتل والجراح حتى تظهر قوة المسلمين.

عَرَضَ الدنيا: حطامها، وسمّي عرضاً لسرعة زواله.

لمسكم فيما أخذتم: لأصابكم بسبب ما أخذتموه من الغنائم.

فأمكن منهم: أقدرك عليهم قتلاً وأسراً.

حُكْمُ اللَّه في الأسرى يوم بدر

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الحكم الإلهي في الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين بعد غزوة بدر.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ(١) فِي الأَرْضِ﴾ أي ما صح وما استقام لنبي من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم وحتى يكون له التمكّن والسيطرة عليهم وبهذا يذل الكفر.

وسبب نزول الآية أن النبي ﷺ استشار أصحابه في الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم في غزوة بدر حيث قُتِلَ سبعون من رجالاتهم وأُسِرَ سبعون فاستشار النبي أصحابه وقال: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم أهلُك وقومك، قد أعطاك الله الظفر عليهم ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان استبقهم وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لك عضداً. ثم التفت رسول الله إلى عمر وقال: ما تقول يا ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك من مكة وقاتلوك. ما أرى رأي أبي بكر قدِّمهم فَأَضرب أعناقهم، فأخذ رسول الله برأي أبي بكر وأطلق سراحهم في مقابل فدية أُخذت من كل واحد منهم. فالآية فيها عتاب لطيف للنبي ﷺ وأصحابه على قبولهم الفدية من هؤلاء الأسرى من المشركين، وكان الأوْلى والأصح أن يُقتلوا بسبب موقفهم العدائي القوي من النبي ﷺ والمسلمين، فقد اضطهدوهم في مكة واضطروهم إلى الهجرة منها، فهؤلاء ليسوا أهلاً لهذه المنّة التي أغدقها عليهم النبي بإطلاق سراحهم.

---

(١) يثخن: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوة المرض عليه فقوله تعالى: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ معناه حتى يقوى ويشتد ويغلب ويبالغ ويقهر، ثم إن كثيراً من المفسرين قالوا: المراد منه أن يبالغ في قتل أعدائه، ولأن كثرة القتل توجب الرعب وشدة المهابة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت معركة بدر هي المعركة الأُولى التي خاضها المسلمون ضد المشركين، وكان المسلمون ما يزالون قلة، والمشركون ما يزالون كثرة، وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذلّ كبرياءهم، ويُدخل المهابة في قلوبهم، فلا يتجرأون على معاودة الكرة في الإقدام على محاربة المسلمين، ولكن بعد الإفراج عن الأسرى، أقدم المشركون على محاربة المسلمين بعد سنة في معركة أُحُد وانتصروا عليهم بعض الشيء، وأخذوا بثأرهم منهم، كما أقدموا على محاربة المسلمين في معارك أخرى.

ثم يعاتب الله المؤمنين على إطلاقهم سراح الأسرى بقوله: ﴿تُرِيدُون عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي أتريدون بأخذكم الفداء من المشركين من مال متاع الدنيا وحطامها الزائل؟ والله يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله.

هذه الجملة من الآية ﴿تُريدونَ عَرَض الدُّنيَا واللَّـهُ يُرِيدُ الآخرة﴾ يصحّ أن تكون نبراساً هادياً لكل من يقدم على عمل عظيم يبتغي فيه وجه الله فيشغله عرض الدنيا عن الهدف وكأن الآية تقول له: إنك إن أردت عرض الدنيا فلا تأس عليه إن فات مقابل رضاء الله، لأن الله وعدك ثواب الآخرة، والآخرة خير من الدنيا وأبقى.

هذه الجملة من الآية طالما رددتها في مسيرة الحياة فتدخل إلى نفسي الطمأنينة والثبات على منهج الله الذي يقتضي الكثير من التضحيات.

هذه الجملة من الآية هي بلسم لكل ما يبذله مريدو الإصلاح وطلبة العلوم الشرعية من مشقات وتضحيات، فإذا كان القصد هو ثواب الآخرة فلا أسف ولا ندم على فوات متاع الدنيا ولذائذها الفانية. ثم يختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو القوي الغالب، وهو الحكيم في تدبير أمور خَلْقِه.

﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَـقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لولا قضاء من الله وحكم سابق منه بأن لا يعذب قوماً على جهالة، ولا يعذبهم إلا بعد تأكيد الحجة

عليهم وتقديم النهي المسبق لهم، ولولا ذلك لأصابكم فيما أخذتم من المال لفداء الأسرى عذاب عظيم، وبما أنه لم يتقدم نهي سابق على أخذ الفداء من الأسرى فهم بموجب ذلك بمنأى من العذاب.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾ رُوي أن المسلمين بعد هذا العتاب من الله لهم أمسكوا عن الانتفاع بهذه الغنائم التي حصلوا عليها ولم يمدوا أيديهم إليها حتى نزلت هذه الآية التي تبيح لهم الغنائم والانتفاع بها سواء أكانت من مأكول أو من مال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وخافوا الله في أمركم كله إن الله غفور لذنوب عباده المؤمنين.

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِمَن في أيديكُم مِنَ الأَسْرَى﴾ الله سبحانه يأمر النبي محمداً بأن يقول للأسرى الذين وقعوا بين أيدي المسلمين: ﴿إن يَعْلَمِ اللَّهُ في قُلُوبِكُم خَيْراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وتصديقاً بالإسلام وإخلاصاً لله ﴿يُؤْتِكُم خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُم﴾ أي يعطكم الله أفضل ممّا أَخَذَ منكم المسلمون من المال الذي دفعتموه لفدائكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُم واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ويمحو عنكم ما سلف من الذنوب، والله غفور لذنوب عباده إذا تابوا، رحيم بهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ وإن يُرِد هؤلاء الأسرى الغدر والخداع بك يا محمد، بما يُظهر بعضهم من الميل إلى الإسلام ثم يعودون لمحاربتك، فقد خانوا الله من قبل بالكفر وبما أقدموا على محاربتك يوم بدر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُم﴾ فأمكن الله منهم قتلاً وأسراً، وليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا إلى خيانتهم لله ورسوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بخلقه حكيم في تدبير أمورهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

شرح المفردات:

آوَوْا: أووا المهاجرين في المدينة المنورة وأنزلوهم في منازلهم وهم الأنصار.

أولياء: جمع ولي وهو الصديق، والمعين، والناصر.

ميثاق: معاهدة.

ورزق كريم: نعيم في الجنة.

أولو الأرحام: أصحاب القرابات.

مراتب المؤمنين وثوابهم الجزيل

ويختم الله هذه السورة ببيان مَراتِب المؤمنين في الفضل والثواب، وما يجب عليهم تجاه بعضهم بعضاً. وقد قسَّم الله المؤمنين في عهد رسول الله ﷺ إلى أربعة أقسام كل قسم منهم له خصائصه، وذلك في الآيات التالية:

١ ـ المهاجرون الأولون:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِم في سَبيلِ اللَّهِ﴾
فالله سبحانه يصف هذا القسم من المؤمنين بأنهم صَدَّقوا بوحدانية الله وبكل ما جاء به محمد ﷺ من الوحي من عند الله واتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه. **وهاجروا**: أي تركوا وطنهم في مكة وفارقوا أهلهم وعشيرتهم وأموالهم فِراراً بدينهم من أذى المشركين ومن اضطهادهم لهم إرضاء لله ونصرة لرسوله محمد ﷺ. **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم**: أي بذلوا كل ما في وسعهم وجهدهم في الدفاع عن دين الله بأموالهم وأنفسهم، واحتملوا المشقات والتعذيب في سبيل عقيدتهم، وهؤلاء هم المهاجرون الأولون.

٢ ـ الأنصار من أهل المدينة:

﴿والَّذِين آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ وهم الأنصار سكان المدينة المنورة فهم الذين استقبلوا المهاجرين بالترحاب، وأنزلوهم في منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وأبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن دين الله ونصرته وحماية رسول الله ﷺ **﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَولياءُ بَعْضٍ﴾** أي أن المهاجرين والأنصار بعضهم أصدقاء بعض يتناصرون في القتال، ويتعاونون في السلم، وكانت الولاية بينهم تشمل الميراث فكان المهاجر يرث الأنصاري وقد جمعتهما الأخوّة الدينية[١] وبالعكس.

---

(١) عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة المنورة آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار وجعل لكل مهاجر أخاً من الأنصار وقال: تآخوا اثنين اثنين، وكان الأنصار بموجب هذه الأخوة الدينية يشاطرون إخوانهم المهاجرين أموالهم ودورهم، كما أنه بموجب هذه الأخوة كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة. وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من قريبه في المدينة حتى نسخ ذلك بنزول الآية الكريمة: **﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾** وصار بعد ذلك الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين، ولا يتوارث أهل ملتين شيئاً.

٣ ـ المؤمنون الذين لم يهاجروا:

﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلاَيتِهِم مِنْ شَيءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا﴾ أي والذين صدّقوا بالله ورسوله وأقاموا بمكة ولم يهاجروا إلى المدينة المنورة، ولم يلحقوا برسول الله ﷺ ليشتركوا مع المهاجرين والأنصار في نصرة دين الله، فهم إذن باقون في أرض المشركين خاضعون لهم، وهؤلاء ليس لهم شيء من ولاية المهاجرين والأنصار عليهم، فلا توارث فيما بينهم ولا تعاون حتى يهاجروا إليكم ويتركوا ديار الكفر. والمقصود من ذلك حثهم على الهجرة إلى المدينة المنورة والترغيب فيها، لأن المسلم متى سمع أن الله يقول: إن من امتنع عن الهجرة انقطعت الولاية بينه وبين المسلمين، ولو هاجر لحصلت تلك الولاية، فلا شك في أن ذلك يكون مرغباً في الهجرة، والهدف من الهجرة تكثير عدد المسلمين في المدينة المنورة واجتماعهم وإعانة بعضهم بعضاً، وحصول الألفة والقوة وعدم التفرقة.

﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ في الدِّين فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ﴾ ولكن هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة قد يؤذون بسبب إسلامهم وقد يُعتدى عليهم فيطلبون منكم ـ أيها المؤمنون ـ الساكنون في المدينة المنورة، من المهاجرين والأنصار، مساعدتكم ضد هؤلاء الكفار، وحينئذ يجب عليكم أن تسرعوا إلى إجابتهم إلى ما طلبوه فتنصروهم على أعدائهم بشرط أن لا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء معاهدة سلام وعدم اعتداء، ففي هذه الحالة لا تجيبوهم إلى طلبهم، فالنصرة تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار المعاهدين، ولأن الإسلام يوجب الوفاء بالعهد ولا يبيح الغدر والخيانة.

إن هذا الوفاء بالعهد على الرغم من هذه الظروف المحيطة به لا نجده عند أي ملة في الأرض، وهذا مما يبيّن حرص الإسلام على الوفاء بالعهد. ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ﴾ والله سبحانه يرى ويعلم كل ما تفعلون لا يخفى عليه شيء فعليكم أن تـتَّـبعوا أوامره، ولا تتجاوزا حدود ما نهاكم عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُم أولِيَاء بَعْضٍ﴾ أي والذين كفروا بعضهم أولياء بعض في النصرة والتعاون على قتالكم وإيذائكم فهم في جملتهم فريق واحد ـ فالكفر ملة واحدة ـ تجاه المسلمين وإن كانوا ظاهراً مللاً كثيرة يعادي بعضهم بعضاً. ولما نزلت هذه الآية لم يكن في جزيرة العرب إلا المشركون واليهود، وكان اليهود يعينون المشركين في قتالهم للمسلمين.

﴿إلاّ تَفعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فالله سبحانه يخبر المسلمين بأنهم إن لم يفعلوا ما أمرهم الله به من التناصر والتواصل والتعاون فيما بينهم فسوف تكون فتنة شديدة وفساد كبير «لأن المؤمنين إذا لم يتجمعوا ويتحدوا فيما بينهم وينصر بعضهم بعضاً ذابوا مع الكافرين... ولو حدث مثل هذا الذوبان فسيُربّى الأولاد في مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان فيأخذ الأولاد من المحيط الذي يعيشون فيه عادات غير عادات دينهم، وعلى مرور الزمن لا يتعرفون على قِيَمِ دينهم الأصيلة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المسلمين حين لا يتضامنون مع بعضهم البعض يستقوي عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلة مع أنهم أغلبية ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم ولا يحسب لهم حساباً، بالإضافة إلى ذلك فإنهم يكونون أسوة سيئة للإسلام بإعراضهم عن دينهم»(١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبيلِ اللَّهِ والَّذِين آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ المؤمِنونَ حَقاً لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ففي هذه الآية ثناء على المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا في سبيل الله ونصروا دينه حيث وصفهم بأنهم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، وبيان ما خصهم الله به من المغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في الآخرة حيث ينعمون بجنات النعيم. هذه الآية ليست تكراراً لما سبق، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين وهذه الآية تضمنت الثناء والتكريم لهم.

---

(١) باختصار وتصرف عن تفسير الشعراوي.

٤ ـ الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم:

﴿والَّذِين آمَنُوا مِنْ بَـعْدُ وَهَاجَـرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَـأُولَئِك مِـنْـكُم﴾ هذا الصنف الرابع من المؤمنين هم الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم إلى المدينة المنورة عن هجرة إخوانهم المؤمنين الأوائل الذين سبقوهم إلى الهجرة، والمراد بهذا القسم الرابع أهل الهجرة الثانية التي وقعت بعد صلح الحديبية أو بعد غزوة بدر، أي هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا من بعدكم أيها المهاجرون الأوائل والأنصار، وقاتلوا معكم في سبيل الله **﴿فأولئك منكم﴾** أي لا فرق بينكم وبينهم فهم مثلكم في استحقاق الموالاة والنصرة والمعونة. كما يفهم من الآية أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة، لأن الله ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم معهم، ولولا أن الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق بهم.

﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَـعْضُهُم أَوْلَى بِـبَـعْـضٍ في كِـتَـابِ اللَّهِ﴾ والأرحام: هم الأقارب، أي ذوو القرابة بعضهم أوْلى ببعض في التوارث في حكم الله الذي بيّنه في سورة النساء التي ذكرت أحكام المواريث وحصص الورثة[1] هذه الآية تنسخ حكم التوارث بين المهاجرين والأنصار الذي حصل في بدء الهجرة. وقيل المراد من الآية أن القرابات في النسب أحق ببعض في النصرة والمعونة وهم أوْلى من غيرهم في حكم الله الذي أوجبه عليهم، لأن الله دعا إلى صلة الأرحام والوصية بالوالدين وبذي القربى، فهم أحق من غيرهم بالبر بهم والإعانة، هذا إذا جمعهم الإيمان، أما الكفر فيقطع الرابطة بين المؤمن وقريبه. ويختم الله هذه السورة بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾** أي إن اللَّهَ محيط علمه بكل شيء فهو يحكم بكل ما فيه الصواب والصلاح للإنسان. وإذا عَلِمَ الإنسان أن الله محيط علمه بكل شيء كان ذلك حافزاً له على الكف عن الظلم، والامتناع عن الفواحش والمنكرات، لأن الله سيحاسبه في الآخرة على ما قدمت يداه.

---

(١) من يرد الإيضاح عن حصص الورثة من ذوي الأرحام فليرجع إلى كتاب: «الميراث على المذاهب الأربعة» للقاضي الشيخ حسين غزال، فهو من أوفى الكتب التي صدرت حديثاً في هذا الموضوع.

تعريف بسورة التوبة

سورة التوبة من السور المدنية أي التي نزلت في المدينة المنورة وهي من أواخر ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ، وسُمّيت بذلك لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين ومنهم الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

وتُسمى هذه السورة أيضاً بسورة (براءة) لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ إلى الذين عاهَدتم مِنَ المشركين﴾ وهذان الاسمان: التوبة وبراءة هما من أشهر أسماء هذه السورة. كما تسمى هذه السورة بسورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين وكشفت نفاقهم، وتسمى أيضاً بسورة المخزية لأن فيها خزي المنافقين، وهناك أسماء أخرى لم نذكرها اختصاراً.

وفي سورة التوبة بيان لعلاقة المسلمين بغيرهم وكانوا ثلاث طوائف:

١ ـ طائفة مشركي العرب، وقد دعت الأحداث إلى نبذ عهد الذين لم يوفوا بعهدهم ومنحهم هدنة مقدارها أربعة أشهر ثم بيان ما يعاملون به بعد انتهاء مدة الهدنة.

٢ ـ أهل الكتاب الذين قامت الأدلة على عزمهم الانقضاض على المسلمين، وقد أمر الله سبحانه بقتالهم حتى يخضعوا للمسلمين ويدفعوا الجزية.

٣ ـ المنافقون وقد فضحهم الله في هذه السورة وكشف ما يُبَيّتونه من شر للمؤمنين وأكثر آيات هذه السورة جاءت على ذكرهم.

فمن صفات المنافقين: التقاعس عن الجهاد والتعلل بأعذار كاذبة، وإشاعة الفتنة في صفوف المسلمين، وكراهية الخير لرسول الله ﷺ وأصحابه وإرادة السوء بهم، وطعنهم برسول الله والسخرية بالمؤمنين، وتعاونهم فيما بينهم على الإثم والعدوان، واتخاذ بعضهم مسجداً لهم للإضرار بالمؤمنين والتفرقة بينهم.

وتمضي السورة فتتحدث عن الأعراب ـ سكان البادية ـ وموقفهم من الإسلام، كما تدعو هذه السورة إلى الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله مبينة ثواب الله العظيم للشهداء عند الله.

وفي السورة دعوةُ فريق من المؤمنين للتفقه في الدين لينذروا قومهم من مغبة عصيان الله. كما أن فيها الكلام عن غزوة حُنين حيث أيّد الله المؤمنين بالملائكة ونصرهم على المشركين بعد هزيمتهم، كما تُبيّن فضل الله على رسوله ﷺ حين هاجر من مكة مع صاحبه أبي بكر الصديق وكان الله معهما بتأييده وحفظه حيث أعمى الله أنظار الكفار عن رؤيتهما وهما في غار ثور.

ويتبادر إلى الأذهان سؤال: لماذا لم تُذكر البسملة أي (بسم الله الرحمن الرحيم) في مطلع السورة كما في سائر سور القرآن الكريم؟ قيل في أسباب ذلك عدة أقول:

منها: أنها لم تكتب في صدر هذه السورة لأن البسملة فيها رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف ولا أمان للمنافقين.

ومنها: أنه كان من شأن العرب في الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه البسملة، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين بعث بها النبي ﷺ إلى عليّ بن أبي طالب فقرأها عليهم في موسم الحج ولم يذكر البسملة على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة.

ومنها: أن الصحابة اختلفوا في سورة الأنفال وسورة التوبة هل هما سورة واحدة، أم سورتان؟ قال بعضهم: هما سورة واحدة لأن كليهما نزلتا في القتال، ومنهم من قال: هما سورتان، فلما ظهر الاختلاف من الصحابة في هذا الباب تركوا بينهما فُرجة[1] لقول من قال إنهما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة.

ومنها: أن البسملة لم تكتب لأن جبريل ما نزل بها في هذه السورة.

---

(١) الفرجة: الفاصل بين الشيئين.

سُورَةُ التَّوْبَة

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ
بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ
فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ
أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

شرح المفردات:

براءة: تَخَلُّصٌ وتبرُّؤٌ من العهود التي بينكم وبين الكفار البادئين بنقض العهود.

فسيحوا في الأرض: فسيروا فيها أحراراً.

غير معجزي اللّٰه: غير مفلتين وهاربين من انتقامه.

مخزي الكافرين: مذلهم في الدنيا والآخرة.

وأذان: وإعلام.

يوم الحج الأكبر: المراد به يوم عيد النحر.

لم ينقصوكم: لم ينقضوا العهد معكم.

ولم يظاهروا عليكم: ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم.

إلى مدتهم: إلى نهاية العهد الذي بينكم وبينهم.

نقض العهد مع المشركين المعتدين

يخاطب الله المؤمنين في مستهل هذه السورة:

﴿بَرَآءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقال برئت من الشيء إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه، والمراد من البراءة قطع العهد ما بين المؤمنين وبين المشركين الناكثين للعهد، وإنهاء حكم الأمان الذي تضمنته هذه العهود. وإنما نُسبت البراءة لله ورسوله لأنها تشريع من الله، وأمْرٌ من الله لرسوله محمد ﷺ بتنفيذه، ونُسبت المعاهدة للمؤمنين حيث قال الله سبحانه ﴿عَاهَدتُّم﴾ لأنهم هم الذين ينفّذون أحكام المعاهدات.

وسبب نزول هذه السورة ما روي عن رسول الله ﷺ أنه لما خرج إلى غزوة تبوك، وتخلف عنها المنافقون... جعل المشركون ينقضون العهد فأمره الله بنبذ عهودهم وطرحها فأنزل (سورة براءة) في سنة تسع للهجرة.

وقد اتفقت الروايات أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك عقد العزم على أن يحج إلى بيت الله الحرام سنة تسع للهجرة في شهر ذي الحجة، ولكنه كره مخالطة المشركين في الحج وسماع تلبيتهم في شعائر الحج التي تتضمن إشراكاً بالله، كما كره طوافهم حول الكعبة عراة الأجسام، لذا أمسك عن الحج تلك السنة وبعث أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أميراً على الناس ليقيم لهم الحج وكتب لهم سننه. فلما سافر نزلت سورة براءة متضمنة نقض العهد مع المشركين، فأمر رسول الله عليًّا رضي الله عنه أن يذهب إلى موسم الحج ليقرأها عليهم، فقيل لرسول الله ﷺ: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي، كما أمر رسول الله عليًّا أن يبلّغ الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت ـ أي بيت الله الحرام ـ عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته. فخرج عليّ رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ حتى أدرك أبا بكر في الطريق

فلما رآه أبو بكر سأله: أمير أو مأمور، فقال: بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب فأذّن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان. كما قرأ عليهم أربعين آية من سورة براءة.

يقول الفخر الرازي في تفسيره:

«واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر عليًّا بقراءة هذه السورة عليهم وتبليغ هذه الرسالة إليهم، فقالوا: السبب فيه أن عادة العرب أن لا يتولّى تقرير العهد ونقضه إلا رجل من الأقارب فلو تولاه أبو بكر لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهود فربما لم يقبلوا، فأزيحت علتهم بتولية ذلك عليًّا رضي الله عنه... وهذا لا يدل على تفضيل عليٍّ على أبي بكر، ولكنه عامل العرب بما يتعارفونه فيما بينهم...».

ولكي لا يُنسب إلى المسلمين الغدر والخيانة ونكث العهد أمهل الله المشركين أربعة أشهر تكون هدنة بينهم وبين المسلمين، يباح للمشركين فيها أن يسيروا في الأرض حيث شاءوا، آمنين من القتل والقتال، وهذه المدة كافية للنظر والتدبّر والتشاور فيما بينهم في قبول الإسلام أو رفضه، أو المواجهة مع المسلمين في القتال أو الخروج من جزيرة العرب. يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ والسياحة في الأرض هي الانتقال والتجوال الواسع فيها، وهذه الأربعة أشهر تبتدىء من العاشر من ذي الحجة من سنة تسع للهجرة وتنتهي في العاشر من ربيع الآخر (الثاني) من سنة عشر للهجرة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ واعلموا أيها المشركون أنكم إذا تنقلتم في الأرض وأصررتم على كفركم بالله وعدم إقراركم بتوحيده وتصديق رسوله محمد ﷺ، وأصريتم على قتال المسلمين، فإنكم غير مفلتين من انتقام الله، لأنكم في قبضته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ وأن الله مذل الكافرين في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بعذاب النار.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحجِّ الأكْبَرِ﴾ أي وإعلام من الله ورسوله إلى جميع الناس في يوم الحج الأكبر، والمقصود من الحج الأكبر هو فريضة الحج، بينما الحج الأصغر هو العمرة، وفي تعيين هذا اليوم الذي حصل فيه الإعلام، قيل هو يوم النحر، وقيل هو يوم عرفة ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المشْرِكينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين الخائنين ﴿فَإِنْ تُبْتُم فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فإن تبتم أيها المشركون من كفركم ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فرجوعكم هذا أنفع لكم في الدنيا والآخرة ﴿وإن تَوَلَّيْتُم فَاعْلَمُوا أَنَّكُم غَيْرُ مُعْجزي اللَّهِ﴾ وإن أعرضتم عن الإيمان بوحدانية الله وآثرتم البقاء على ما أنتم عليه من الشرك بالله فاعلموا أنكم لا تعجزون الله بإنزال عقابه الشديد بكم، وأنكم لا مهرب لكم منه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين كَفَرُوا بِعَذَابٍ أليمٍ﴾ ولفظ البشارة ورد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم، لأن البشارة لا تكون إلا للخبر السار، فكيف إذا كانت هذه البشارة بالعذاب الأليم يوم القيامة ﴿إلاَّ الَّذِين عَاهَدتُّم مِن المُشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُم شَيئاً﴾ أما من عاهدتم من المشركين ولم ينقضوا العهد ولم ينقصوا من شروطه شيئاً ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُم أَحَداً﴾ ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوا إلَيْهِم عَهْدَهُم إلى مُدَّتِهِم﴾ أي فأوفوا لهم عهدهم إلى نهايته مهما كانت مدته واحترموه ﴿إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقينَ﴾ إن الله يحب من اتقاه بطاعته بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

فالإسلام شدّد على الوفاء بالعهد ما دام العهد معقوداً، وأن شرط وجوب الوفاء به من المسلمين أن يحافظ عليه العدو فإن أخلّ بشيء منه أو عاون أحداً من الأعداء على المسلمين وجب نبذ عهده.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦)﴾.

شرح المفردات:

انسلخ: انقضى ومضى.

الأشهر الحُرم: الأشهر التي يحرم فيها القتال.

وخذوهم: وأسروهم.

واحصروهم: وضيقوا عليهم وامنعوهم من الإفلات.

واقعدوا لهم كل مرصد: وراقبوهم واحصوا تحركاتهم.

فخلّوا سبيلهم: فاتركوهم أحراراً.

استجارك: أي سأل جوارك ليكون في حماك ويحصل على الأمان.

فأجره: فأمّنه.

كلام الله: القرآن الكريم.

أبلغه: أوصله.

شروط العفو عن المشركين

ثم يبين الله سبحانه كيفية معاملة المشركين بعد انقضاء مدة الهدنة:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ﴾ أي فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرَّم الله فيها قتال المشركين الناكثين لعهودهم، وجعلها الله هدنة بين المسلمين والمشركين، لعلَّ المشركين يثوبون إلى رشدهم، وهي التي تبتدىء من يوم النحر إلى العاشر من ربيع

الآخر (الثاني) والمراد من كونها حُرُماً أي أن الله سبحانه حرَّم القتال فيها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ﴾ أي فاقتلوا هؤلاء المشركين في أي وقت ومكان ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي وأسروهم ﴿واحصُرُوهُم﴾ وضيّقوا عَليهم وامنعوهم من الإفلات ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ والمرصد: هو الموضع الذي يرقب فيه العدو، أي راقبوهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم منه ورؤية تحركاتهم، وضيّقوا عليهم السبل ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَاموا الصَّلاةَ وآتوا الزّكَاةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُم﴾ أي فإن رجعوا عن الشرك بالله ودخلوا في الإسلام، ولبّوا دعوة الإيمان سواء فيما يرجع إلى حق العبودية لله وحده وأساسه الصلاة، أو ما يرجع إلى حق الجماعة وأساسه الزكاة، وهي صدقة واجبة على أموال الأغنياء لتصرف على الفقراء والمساكين وغيرهم وسيأتي الكلام عنها، فإذا فعلوا ذلك فلا تتعرضوا لهم بسوء وكفّوا عن قتالهم ولا تعاملوهم بما كان منهم سابقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ إن الله يتجاوز عن سيئات من تاب ورجع عن الشرك بالله إلى الإيمان بوحدانيته، ومن المعصية إلى الطاعة.

وقد روي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»[١] هذا الحديث يجري حكمه على مشركي العرب خاصة، وقد استند أبو بكر الصديق إلى هذا الحديث في محاربته مانعي الزكاة. أما أهل الكتاب فسيأتي الحكم بشأنهم لاحقاً في هذه السورة.

وقد يعترض البعض على هذا الإجراء الشديد مع المشركين حيث خيّرهم النبي ﷺ بين الإسلام أو السيف وأن هذا الإجراء ينافي حرية التديّن، والجواب على ذلك: إن أكبر دولة في عصرنا الحاضر التي تتغنى بحرية الأديان وحقوق الإنسان قد

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

لجأت إلى مثل هذا الإجراء مع اليابان حيث أجبرت إمبراطور اليابان تحت قهر الهزيمة والإذلال على إعلان أنه لا ينحدر من سلالة الآلهة كما يعتقد اليابانيون وأنه ليس سوى بشر مثل بقية الناس ولا ينبغي أن يُعبد، فألغيت عبادة الأمبراطور بصفة نهائية في عام ١٩٤١م[١].

المستأمن

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي بعد انقضاء أربعة أشهر على مُهادنتك يا محمد المشركين وطلب منك أَحدهم الحماية والأمان ليطلع على حقيقة الإسلام ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ أي أعطه الأمان ليسمع القرآن ويفهم أحكامه، وعَرِّفه ما يجب أن يُعرف من مبادىء الإسلام ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ثم إن انقضت المدة التي جعلتها أماناً له وأبى الإسلام فردّه إلى قومه أو المكان الذي يأمن به قبل المجيء إليك لئلا يُصاب بسوء ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم قَوْمٌ لا يَعْلَمُون﴾ أي أن المشركين يجهلون القرآن ومبادىء الإسلام، لذلك هُم بحاجة إلى من يبصّرهم حقائق الإسلام.

وهنا لا بد من وقفة تأمل أمام هذا الموقف الرائع للإسلام من المحاربين المشركين الذين يطلبون الأمان من المسلمين حيث أمرنا الله سبحانه أن نعطيهم الجوار والأمان، وأن نعطيهم فرصة سماع القرآن والتعرف على الإسلام، وهو بهذا يهدف إلى هدايتهم لا إلى إبادتهم، وهذا بدوره ينفي فكرة أن الإسلام يُكره غيره على الإسلام، بل إن الإسلام في تساميه يخطو خطوة أخرى فيطلب من المسلمين في حال لم يستجب المشركون إلى الإسلام أن يحرسوهم ويحموهم حتى يصلوا إلى البلد الذي يأمنون فيه.

وقد اصطلح على تسمية الحربي الذي يطلب الأمان اسم المستأمِن وأوجب على

---

(١) نقلاً بتصرف عن كتاب (الجهاد والقتال) للدكتور محمد خير هيكل.

المسلمين حمايته في نفسه وماله في دار الإسلام إذا طلب الأمان للاطلاع على مبادىء الإسلام، ولم يشترط في ذلك إلا ما يضمن للمسلمين سلامتهم بأن لا تبدو على المستأمن مظاهر التجسس على المسلمين، وقد توسع الإسلام في هذا الباب توسعاً عظيماً فسمح للمسلم أن يجير ويؤمّن فرداً أو جماعة من الكفار، وأمانه وعهده محترمان. والإسلام يعطي هذا الحق لأفراد المسلمين، ولكن من حق الإمام أو نائبه أن يلغي أيّ أمان يراه في غير محله، أو يترتب عليه ضرر للمسلمين والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجاري والصناعي والثقافي وغير ذلك مما لا يضر بأمن الدولة، وقد كان من فائدة هذا الأمان نشر الدعوة الإسلامية وإيصالها إلى كثير من الأقاليم النائية غير الإسلامية.

وتستوقفنا مطالعة قيّمة للإمام الفخر الرازي حول هذه الآية ﴿**وإن أَحَدٌ من المشركين اسْتَجارك فَأَجِرْهُ حتى يسمع كلام اللَّه. .**﴾ إذ يقول: «اعلم أن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كافٍ في الدِّين وأنه لا بد من النظر والاستدلال، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً، لوجب أن لا يُمهل هذا الكافر بل يقال له: إما أن تُؤمن، وإما أن نقتلك، فلما لم يُقل له ذلك، بل أمهلناه وأزلنا الخوف عنه ووجب علينا أن نبلغه مأمنه، علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن التقليد في الدِّين غير كافٍ، بل لا بد من الحجة والدليل فأمهلناه وأخّرناه ليحصل له مهلة النظر والاستدلال».

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

شرح المفردات:

فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم: أي استقيموا لهم مدة استقامتهم لكم.

يظهروا عليكم: يظفروا بكم ويغلبوكم.

لا يرقبوا فيكم: لا يراعوا في أمركم.

إلاًّ: عهداً أو حلفاً أو قرابة.

ذمة: أماناً، وما يلزم أن يُحفظ ويُحمى.

اشتروا بآيات الله: استبدلوا بآيات القرآن.

فصدّوا عن سبيله: فأعرضوا عن دين الله.

غدر المشركين ونقضهم للعهود

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام على المشركين وما يتصفون به من غدر ونقض للعهود:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ كيف: استفهام بمعنى الإنكار والتعجب، أي كيف يكون لهؤلاء المشركين عهد يعتدّ به عند الله وعند

رسوله يستحق أن تُراعى حقوقه وهم لا يتمسكون بالعهود التي عقدوها مع المسلمين ولا يحترمونها ﴿إِلاَّ الَّذِين عَاهَدتُّم عِـنْـدَ المسجِدِ الحَرَامِ﴾ هنا يستثني القرآن فئة من المشركين لم تنقض العهد وهم بنو كنانة وبنو ضمرة، وقد كانوا عاهدوا رسول الله عند المسجد الحرام ﴿فَمَا اسْتَـقَـامُوا لَـكُم فَـاسْتَـقِـيمُوا لَهُمْ﴾ أي فأي زمان استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على مثله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُـتَّـقِينَ﴾ والله يحب المتقين الذين يوفون بالعهد، فالوفاء بالعهد هو من التقوى.

﴿كَيفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَـيْـكُمْ﴾ أي كيف يكون للمشركين عهد يُعتدّ به، وحالهم يدل على أنهم إن ينتصروا عليكم ويتمكنوا منكم ﴿لا يَـرْقُـبُوا فِـيكُم إِلاًّ﴾ أي لا يراعوا في أمركم قرابة، وقد كانت بين المشركين وبين المسلمين أنساب وقرابات ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ أي ولا يراعوا فيكم عهداً ولا حُرمة ﴿يُـرْضُونَـكُم بِأَفْوَاهِهِم وَتَـأْبَى قُلُوبُهُم﴾ يرضونكم بالكلام المعسول ولكنهم يضمرون في قلوبهم الحقد والضغينة لكم ﴿وَأَكْثَـرُهُم فَاسِقُونَ﴾ وأكثرهم خارجون عن طاعة الله، إلا قليل منهم الذين وفوا بعهودهم.

﴿اشْتَـرَوْا بِـآيَـاتِ اللَّهِ ثَمناً قَلِيلاً﴾ اشتروا: العرب تقول لكل من ترك شيئاً وتمسك بغيره قد اشتراه، والمعنى: استبدل المشركون بآيات القرآن التي تحمل الهداية لهم أشياء تافهة من حطام الدنيا وزخرفها تلبية لأهوائهم وشهواتهم ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِـيلِـهِ﴾ فأعرضوا عن دين الله الموصل إلى مرضاته، وصرفوا غيرهم عن اتباعه ﴿إِنَّهُم سَاءَ مَا كَانُوا يَـعْمَلُونَ﴾ أي قبح عملهم بسبب إعراضهم عن الحق وإقبالهم على الباطل.

﴿لا يَـرْقُـبُونَ في مُـؤْمِنٍ إِلاًّ ولا ذِمَّةً وَأُولَئِك هُمُ المُعْتَدُونَ﴾ أي لا يراعي المشركون في مؤمن قرابة منهم ولا عهداً ولا أماناً، وأولئك هم المعتدون الذين ينقضون العهد. هذه الآية تأكيد للآية السابقة التي جاءت بنفس المعنى والتي قيدت اضطهاد المشركين للمؤمنين عند التغلب عليهم، ولكن الآية هنا زادت لفظ العدوان، فعدوانهم على المؤمنين صفة راسخة فيهم.

﴿فَإِن تَـابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَـوُا الزَّكَاةَ﴾ فإن تابوا عن الكفر وعادوا إلى عبادة الله وحده وأدوا الصلاة المفروضة عليهم وأعطوا الزكاة لمستحقيها ﴿فَإِخْوَانُـكُمْ في الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في الإسلام، وهذا نصٌّ في أن أخوّة الدين لا تثبت إلا بهذين الركنين: الصلاة والزكاة.

فالصلاة تحرر الناس من العبودية لغير الخالق، وتوجههم إلى عبادة الله وحده، وتوحّد بين قلوبهم وتساوي بينهم حيث يقف الغني بجانب الفقير، والسيد بجانب المرؤوس في صلاة الجمعة والجماعة، كلهم يثنون على الله ويطلبون منه المعونة والهداية. والزكاة صدقة محدّدة زهيدة تُفرض على أموال الأغنياء لتصرف على الفقراء وغيرهم مما سيأتي الكلام عنها. فالصلاة حق الله والزكاة حق الفقير. ولا يمكن للمجتمع أن يصلح ويسعد إلا إذا أدّى الإنسان فيه حق الخالق والمخلوق.

فإذا آمن المشركون وأدوا الصلاة وأعطوا الزكاة لمستحقيها، يصبح هؤلاء إخواناً في الدين للمسلمين ويستتبع ذلك أن يصفح المسلمون عن كل ما تعرّضوا له من أذى على أيدي المشركين.

وبالمناسبة فإن المشركين لم يكونوا يعرفون هذه الأخوّة، وكانت الحروب مستعرة بينهم على الدوام، وكان القوي يأكل حق الضعيف، وكان الفقراء محرومين من عطف الأغنياء، وبعد مجيء الإسلام أصبحوا بنعمة الله إخواناً. ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَنُـفَصِّلُ الآيَـاتِ لِـقَـوْمٍ يَـعْـلَـمُـونَ﴾ أي ويبين الله الحجج والأدلة لأهل العلم الذين يدركون حكمة التشريع الإسلامي.

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

شرح المفردات:

نكثوا أيْمَانَهُم: نقضوا عهودهم الموثقة بالحلف والقسم.

أئمّة الكفر: رؤساء المشركين وقادتهم.

لا أيْمَان لهم: لا عهد لهم.

يخزهم: يهينهم ويفضحهم.

غيظ قلوبهم: غضبها الشديد.

وليجة: بطانة وأولياء تفشون إليهم سركم.

قتال المشركين الناكثين للعهد

ويتابع القرآن فيذكر الأسباب التي أَذِنَ الله فيها للمؤمنين بقتال المشركين:

﴿وَإِن نَكَثُوا أيْمَانَهُم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِم﴾ وإن نقض المشركون عهودهم الموثقة بالحلف **﴿وطَعَنُوا في دِينِكُم﴾** أي عابوا الإسلام بالقدح والذم **﴿فَقَاتِلوا أَئِمَّة الكُفْرِ إِنَّهم لا أيْمَانَ لَهُم﴾** فقاتلوا رؤساء الكفار الذين يُحرّضون الناس على عداوة

المؤمنين ويقودونهم لقتال النبي ﷺ، قاتلوهم لأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي ليكن غرضكم من قتالهم أن ينتهوا عمَّا هم عليه من الإجرام والطعن في الإسلام، لا بقصد إيقاع الأذى بهم لأن الإسلام يأمر بالقتال دفاعاً عن النفس لا حبًّا بالقتال.

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ هنا حض على جهاد أعداء الإسلام عن طريق الاستفهام الإنكاري، أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الموثق بالحلف والقسم ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ وقد سبق أن عزموا على إخراج رسول الله محمد ﷺ من مكة والتآمر على قتله ﴿وَهُم بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهم الذين بدأوكم يا معشر المؤمنين بالإيذاء والعدوان ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي أتخافونهم ـ أيها المؤمنون ـ وتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم، فالله أجدر أن تخافوا عقابه إن عصيتموه، إن كنتم صادقين في إيمانكم ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قاتلوا المشركين يعذبهم الله بأيديكم بالقتل والأسر ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ويصيبهم منكم ـ أيها المؤمنون ـ الذل والهوان وينصركم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ويبرىء الله ما في صدور المؤمنين من حقد على هؤلاء المشركين بسبب ما لاقوه منهم من أذى ومكروه بذلك النصر الذي سيؤيّدهم الله به. ولقد تحقق هذا النصر بعد فترة وجيزة وهذا مما يشهد بصدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي من عند الله.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ويزيل ما في قلوب المؤمنين من الغم والكرب بذلك النصر ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ ويمنّ على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله واسع العلم بشؤون الناس حكيم فيما يشرّعه لهم من الأحكام.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ أي أظننتم أيها المؤمنون أن يترككم الله تعالى من دون

أن يختبركم بأمور يتبيّن منها من هو مخلص لدينه ومن هو غير مخلص وإن الجهاد هو الاختبار الفاصل الذي يتضح منه من هو الصادق ومن هو الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ[1] اللَّهُ الَّذِين جَاهَدُوا مِنْكُم﴾ لمّا: حرف نفي مع توقع الحصول، أي إلى الآن لم يتحقق وقوع الجهاد منكم لعدم حصوله وقت نزول الآية، ولكن ينتظر وقوعه وفق ما في علم الله تعالى فيعرف المجاهدين منكم في سبيله من المضيعين أمر الله في ذلك ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ولا رَسُولِهِ ولا المؤمنين وَلِيجَةً﴾ الوليجة: هي البطانة. أي هؤلاء المؤمنون الصادقون لم يتخذوا من غير الله ولا رسوله ولا المؤمنين بطانة لهم من المشركين يصادقونهم ويفشون إليهم أسرار المؤمنين ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾ والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسيجازيكم عليها.

والمراد مما سبق أن المجاهد قد يجاهد ولا يكون مخلصاً بل يكون منافقاً باطنه خلاف ظاهره، ويتخذ بطانة من دون المؤمنين لمكاسب شخصية، فبيّن الله أنه لا يترك المؤمنين بغير اختبار فيعلم الذين جاهدوا في سبيله عن إخلاص بدون أي غرض آخر.

* * * * *

(١) المراد بالعلم هنا علم الظهور لا علم الخفاء، أي ولما يظهر الله تعالى علمه للناس بالمجاهد والمنافق.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ما كان للمشركين: ما صح وما استقام للمشركين.

يعمروا مساجد الله: يجعلونها عامرة ويساهموا في عمارتها.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم.

سِقاية الحاج: أي سَقي الحجيج من الماء لندرته بمكة ومشقة الحصول عليه.

وهاجروا: خرجوا من مكة إلى المدينة المنورة خوفاً على دينهم وأرواحهم من أذى المشركين.

نعيم مقيم: نعيم دائم غير منقطع.

عمارة المساجد منوطة بالمؤمنين

ويتابع القرآن فينكر على المشركين افتخارهم بسقاية الحجاج وخدمة بيت الله الحرام مع استمرارهم على الشرك بالله وعبادة الأصنام:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشركينَ أن يَعْمروا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام للمشركين أن يعمروا المساجد التي بنيت لعبادة الله، والمساجد هنا يدخل فيها المسجد الحرام

بمكة لأن عمارته محل افتخارهم، وهناك قراءة لهذه الآية (مسجد الله) بالمفرد أي المسجد الحرام، وعمارة المسجد الحرام تكون بملازمته، والإقامة فيه لعبادة الله، وزيارته للعبادة بأداء الحج والعمرة، كما تشمل عمارة أي مسجد آخر وذلك ببنائه وترميمه وتنظيفه وخدمته ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ هذه الجملة من الآية تُشعر بأن كفر المشركين ظاهر، وأنهم يعترفون به اعترافاً لا يملكون إنكاره حيث نصبوا الأصنام في بيت الله الحرام وعبدوها بجانب عبادة الله[1]، فالمساجد تُعمر لعبادة الله وحده فمن كان بالله كافراً فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي أولئك الذين يفخرون بعمارة المسجد الحرام مع بقائهم على الكفر بطلت أعمالهم فلا يثابون عليها في الآخرة ولا يكتب لهم أجر ما عملوا ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ومصيرهم في الآخرة هو العذاب بنار جهنم ماكثين في العذاب أبداً.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي إنما يعمر مساجد الله المصدّق بوحدانية الله المخلص له بالعبادة وحده، والمصدّق بوجود اليوم الآخر يوم القيامة حيث يجازي الله الناس على أعمالهم، وهم إما إلى نعيم الجنة أو إلى عذاب النار ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأقام الصلاة المفروضة بأوقاتها مُراعياً شروطها وأركانها، خاشعاً لله متدبراً ما يُتلى فيها من القرآن، وأعطى الزكاة المفروضة على ما يقتنيه من أموال وزروع لمستحقيها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وهو مع ذلك لا يخشى أحداً إلا الله في أداء شعائر الله والقيام بما أوجبه عليه، ولم يترك أمر الله لخشيته الناس ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ عسى: تفيد الرجاء وهي من الله واجبة، أي فخليق بأولئك الذين يتصفون بما ذكر عنهم أن يكونوا ممن قد هداهم الله سبحانه إلى الحق والصواب.

﴿أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ﴾ هذا توبيخ من الله سبحانه للقوم الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة بيت الله

(١) كان المشركون يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما مَلَكَ» يعنون الأصنام.

الحرام[١]، فأعلمهم الله أن الفخر يكون بِالإِيمَانِ بوحدانية الله وتنزيهه عن الشريك، والتصديق باليوم الآخر ﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد في سبيل الله يكون بالقتال في سبيله إذا دعت الضرورة، وبذل الجهد وما في الوسع لنشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يتساوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره بالله، لأن الله لا يقبل عملاً إلا إذا كان مقترناً بالإيمان بالله، ولم يبتغ فيه إلا وجهه ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والله لا يهدي إلى طريق الخير والصواب المصرّين على ظلم أنفسهم بالكفر وظلم سواهم بالأذى والعدوان.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِم﴾ أي من كان موصوفاً بهذه الصفات من الإيمان بوحدانية الله والهجرة من مكة تأييداً لدينهم وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أعلى رتبة وأعظم منزلة عند الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وأولئك هم الظافرون بسعادة الدنيا والآخرة.

﴿يُبَشِّرُهُم رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ والبشارة هي الخبر السار الذي يفرح الإنسان. أي يبشر الله هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله برحمة منه لهم فلا يعذبهم، وبأنه قد رضي عنهم بطاعتهم لربهم وأدائهم ما كلّفهم به ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُم فيها نَعِيمٌ مُقيمٌ﴾ ويبشرهم ربهم بتلك الجنات التي لهم فيها نعيم دائم لا يزول ولا يفنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أبداً﴾ مقيمين في تلك الجنات إقامة أبدية دائمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إن لهم عند الله ثواباً عظيماً على طاعتهم لربهم، وأدائهم ما كلفهم به من الأعمال.

---

(١) روي أن العباس لما أُسِرَ مع أصحابه عقب معركة بدر أقبل المسلمون يعيّرونهم بالشرك فقال العباس: أما والله كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني ـ أي الأسير ـ ونسقي الحاج فأنزل الله ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ
اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

شرح المفردات:

أولياء: جمع ولي وهو الصديق والنصير.

استحبوا الكفر: اختاروا الكفر وأقاموا عليه.

عشيرتكم: أقرباؤكم الأدنون.

أموال اقترفتموها: أموال اكتسبتموها.

تجارة تخشون كسادها: تجارة تخشون بوارها بفوات وقت رواجها بسبب غيابكم عن مكة أيام الموسم.

فتربصوا: فانتظروا.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

محبة الله ورسوله والولاء لهما

وبعد أن حذّر الله المؤمنين من التودد للمشركين واتخاذهم بطانة لهم حذرهم أيضاً من الولاء للأقارب إذا فضّلوا الكفر على الإيمان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وذلك في حال ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروا الكفر بالله وآثروه على

التصديق به والإقرار بتوحيده ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُم﴾ ومن يتبعهم ويخلص لهم الود على ما هم عليه من الإصرار على الكفر، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله في المدينة المنورة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالذين يفعلون ذلك هم الظالمون حيث خالفوا أمر الله وتجاوزوا الحدود التي نهاهم عنها.

هذه الآية نزلت في بعض المؤمنين، فإنهم لمّا أُمروا بالهجرة من مكة قالوا إن هاجرنا قاطعنا آباؤنا وأبناؤنا وعشيرتنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، فجاء الرد عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وأَبناؤُكُم وَإِخْوانُكُم وَأَزْوَاجُكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة من مكة إن كان المقام مع هؤلاء الأقرب نسباً لكم ﴿وَعَشِيرَتُكُم﴾ والعشيرة قبيلة المرء ومن يعاشرهم من الأقارب الأدنين ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُموهَا﴾ وأموال اكتسبتموها فهي عزيزة عليكم أن تتركوها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْن كَسَادَهَا﴾ وتجارة تخشون بوارها بفوات وقت رواجها بسبب غيابكم عن مكة أيام الموسم ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ ومنازل تعجبكم الإقامة فيها وتودون أن لا تبرحوها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبيلِهِ﴾ إن كان كل ذلك أو بعضه أحب إليكم من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيل الله بالمال والأنفس لإعلاء كلمة الحق ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي فانتظروا حتى يحكم الله بعقابه العاجل، أو عذابه الآجل في الآخرة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ والله لا يرشد القوم الخارجين عن طاعته فيما أمرهم به.

هذا وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

ويقول النبي ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحَبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحب المرءَ لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يَـكره أن يُـقذَف في النار»(١).

ويقول النبي ﷺ أيضاً: «من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان»(٢).

فالعقيدة الإسلامية لا تقبل أن يكون في القلب شريكاً لله فإما تجرد للعقيدة وإما إعراض عنها، هذه العقيدة هي التي يجب أن تكون المسيطرة والحاكمة على كل تصرفات الإنسان.

فالقرآن يجعل كل مشتهيات الحياة في كفة، ويجعل في الكفة الأخرى حُبَّ الله ورسوله وطاعتهما والجهاد في سبيل الله، وهذه هي الكفة الرابحة التي أخذ بها المسلمون الأولون فانتصروا على كل جحافل الكفر وعلت كلمة الإسلام في ربوع الأرض، ولما أعرض من جاء بعدهم من المسلمين عن هذه المعاني، وركنوا إلى ملذات الحياة ومشتهياتها معرضين عن طاعة الله ورسوله، وتركوا الجهاد في سبيل الله ضعفوا ودبت الفرقة بينهم وأصبحوا لقمة سائغة للمستعمرين، الذين أذاقوهم ألوان الذل واستولوا على خيرات بلدانهم.

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه أبو داود.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا
رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ
جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

شرح المفردات:

مواطن كثيرة: أماكن كثيرة.

يوم حُنين: واد بين مكة والطائف حدثت فيه معركة سميت باسم الوادي (غزوة حنين).

فلم تغنِ عنكم: فلم تفدكم ولم تنفعكم.

بما رحُبت: بما وسعت.

ولّيتم مدبرين: منهزمين.

أنزل اللّه سكينته: أنزل الله طمأنينته ورحمته.

نجس: المراد بنجاستهم خبث باطنهم، والنجاسة هنا معنوية.

عيْلة: فقراً وفاقة.

غزوة حنين وفضل الله على المؤمنين

حدثت هذه الغزوة بعد فتح مكة مباشرة وسببها أن أشراف قبيلتي هوازن وثقيف اجتمعوا بقيادة مالك بن عوف وانضمت إليهما جموع غفيرة من قبائل شتى حتى بلغ مجموعهم ثلاثين ألف مقاتل، وقد تشاوروا في شأن محمد واتفقوا على قتاله وأن

يبدأوه بالغزو قبل أن يغزوهم. وقال قائل منهم: «والله ما لاقى محمد قوماً يحسنون القتال، فأجمعوا أمركم وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم».

وقد ساق مالك بن عوف مع المقاتلين نساءهم وأموالهم وأبناءهم، ولما سئل مالك: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

فلما علم رسول الله ﷺ بخروج هذه الجموع إليه أزمع السير إليهم وخرج معه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين منهم عشرة آلاف ممن شهدوا فتح مكة، وألفان من الذين أسلموا من قريش بعد الفتح، وخرج معهم نساء كثيرات طمعاً في المغانم.

عبأ رسول الله جنوده فأعطى قيادة المهاجرين لعليّ بن أبي طالب، وقيادة بني الأوس لأسيد بن حضير، وقيادة الخزرج للحباب بن المنذر.

ولما سار جيش المسلمين ورأى أفراده كثرتهم داخلهم شيء من الزهو، فقال رجال منهم: لن نُهزَمَ اليوم من قلّة.

ولما تمت تعبئة الجيش انحدر النبي ﷺ بجنوده في الوادي عند غبش[1] الصبح، وكان رجال من هوازن قد كمنوا له في بعض شعاب ذلك الوادي ومضايقه، فلما حمل المسلمون على جيش العدو لم يلبثوا أن انهزموا. قال البراء بن عازب: فأكببنا على الغنائم، فخرج علينا من كانوا كامنين في الشعاب والمضايق واستقبلونا بالسهام فولّينا مدبرين لا يلوي أحد منا على أحد.

انهزم جيش المسلمين ولكن النبي ﷺ ورجاله من أركان حربه وعددهم ثمانون لم ينهزموا وبقي النبي ﷺ على بغلته يدفعها نحو جموع الأعداء ولكن بعض أصحابه كان يكفّها عن المضيّ خوفاً عليه من الردى في مواجهة العدو والثمانون الذين لم ينهزموا منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والفضل بن العباس وأسامة بن زيد وغيرهم، وكان النبي وهو في تلك الحالة والناس يولون الأدبار حواليه سراعاً لا يلوون على

---

(١) غبش: الغبش ظلمة آخر الليل.

شيء، يناديهم قائلاً: إليَّ أيها الناس، فلم يجد سميعاً، فقال لعمه العباس وكان جهوري الصوت: صُح بالناس قائلاً: يا معشر الأنصار يا أصحاب السَّمُرة[1]. فما طرقت هذه الصيحات أذنيْ واحد منهم حتى سارع إليه قائلاً: لبيك لبيك، وسيوفهم مصلتة في أيديهم تلمع كالشهب فأمر النبي ﷺ أن يصدقوا الحملة على المشركين، فأجابوه واندفعوا على المشركين كالسيل العرم ثم أخذ النبي ﷺ قبضة من التراب بعدما دعا ربه قائلاً: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني» ثم استقبل بها وجوههم وقال: «شاهت الوجوه»، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه في عينيه تراب من تلك القبضة فولّوا هاربين لا يلوون على شيء تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم وما جلبوه معهم من الشياه والإبل غنيمة للمسلمين بعد أن قُتل الكثير منهم وفي هذه الغزوة نزل الوحي الإلهي:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾أي لقد نصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ في مواقع كثيرة كغزوات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر ومكة، أما يوم غزوة حنين فقد أعجبتكم كثرتكم فتراخيتم في القتال فلم تفدكم هذه الكثرة شيئاً في دفع العدو عنكم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي وأحسستم وكأن الأرض ضاقت بكم على رحبها وسعتها من شدة الرعب والفزع ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي ثم جعلتم ظهوركم للكفار فارّين منهم لا تلوون على شيء. وبعد هذه الهزيمة جاء النصر من الله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثم أنزل الله على المؤمنين رحمته التي تسكن لها القلوب وتطمئن بها اطمئناناً يستتبع النصر القريب، وأما سكينته التي أنزلها الله على المؤمنين فقد كان من أثرها بقاء عدد من المؤمنين حول رسول الله ﷺ يقاتلون معه، وعودة المنهزمين إلى أرض المعركة حين رأوا رسول الله ﷺ يقاتل العدو وحوله فئة من

(١) أصحاب السمرة: والسمرة الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان التي بايع فيها المهاجرون والأنصار رسول الله على الإسلام وعلى أن لا يفروا من القتال.

أصحابه ﴿وَأَنْـزَلَ جُنوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي وأنزل الله مع هذه السكينة التي أنزلها على رسول الله ﷺ والمؤمنين جنوداً من الملائكة لم يروها بأبصارهم ولكنهم وجدوا أثرها في تقهقر أعدائهم ﴿وعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَروا﴾ وعذّب الله الكافرين بأن سلّط المؤمنين عليهم فقتلوا منهم من قتل وأسروا منهم من أُسر ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾ وذلك الذي نزل بهؤلاء الكافرين من الهزيمة هو جزاء لهم على كفرهم ﴿ثُمَّ يَتوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْـدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وتوبة الله على عباده هي أن يعود عليهم بالمغفرة إذا تابوا فيقبل توبتهم ﴿وَاللَّهُ غَـفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي غفور لذنوب عباده رحيم بهم.

لقد أذاق الله المسلمين في بدء معركة حنين مرارة الهزيمة مع كثرة عددهم ووفرة سلاحهم ليبين الله سبحانه لمن قال: «لن نغلب اليوم عن قلة» بأن النصر إنما هو من عند الله، وأن من ينصره الله فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي يتولّى نُصرة رسوله ﷺ ودينه لا كثرتكم ـ أيها المسلمون ـ التي أعجبتكم فلم تفدكم شيئاً، فانهزمتم وتقهقرتم أمام أعدائكم.

والذي يتدبر انتصار المسلمين في غزوة حُنين يدهش كل الدهشة لحدوثها على غير السنن الطبيعية فإن تصدُّع جيش المسلمين وهزيمته أمام وجه العدو وانكشاف جموعه عن النبي ﷺ وهو ممتطٍ ظهر بغلته وهو على مرمى سهم من العدو الذي ثمل بخمرة النصر، ثم يرى بعد ذلك طائفة محدودة العدد من المسلمين تستجيب لنداء العباس في صيحاته تتغلب على جموع المشركين الذين يفرّون مذعورين أمامهم تاركين نساءهم وأولادهم وكل ما يملكون وراءهم. هذا كله لا يعقل حدوثه إلا بتأييد إلهي وهو الذي عناه الله بقوله: ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾.

لقد افتتح الله غزو المسلمين للمشركين بغزوة بدر واختتمها بغزوة حنين، والملائكة قاتلت مع المسلمين في هاتين الغزوتين، وبهما قضى الله على محاولة الكفار القضاء على الإسلام، فالأُولى وهي غزوة بدر أرهبت المشركين وكسرت من شوكتهم،

والثانية وهي غزوة حُنين استنزفت قواهم وفرّقت جموعهم حتى لم يجدوا مهرباً إلا الدخول في دين الله.

ثم يُعقّب القرآن على غزوة حنين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ﴾ والنجس هو ما يصيب المرء من قذر أو دنس، فالمشركون لا يتطهرون من الجنابة والحدث ولا من سائر النجاسات التي تصيب أجسادهم وقد يراد بالنجاسة النجاسة المعنوية التي تتمثل بخبث اعتقادهم وطويتهم فهم بمنزلة الأعيان النجسة في وجوب اجتنابهم ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِم هذا﴾ هنا ينهى الله المؤمنين أن يمكّنوا المشركين من دخول المسجد الحرام بعد العام الذي نزلت فيه هذه الآية، وهو العام الهجري التاسع حين بعث رسول الله علياً بن أبي طالب وبصحبته أبو بكر إلى موسم الحج وأمره أن ينادي بالناس بجملة أمور منها: ألا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف ببيت الله الحرام عريان كما كان يفعل المشركون.

ولمّا كان منع المشركين من دخول المسجد الحرام يترتب عليه حرمان المسلمين من بعض موارد رزقهم التي تأتي مع هؤلاء المشركين القادمين من أنحاء الجزيرة العربية إلى حج بيت الله الحرام، فقد بشّر الله المسلمين بالغنى وتوفير الرزق لهم:

﴿وَإِن خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغنيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ وَالعيْلة: الفقر والفاقة. أي وإن خفتم ـ أيها المسلمون ـ فقراً بسبب منع المشركين عن الحج إلى بيت الله الحرام، وفقدان ما كانوا يجلبونه معهم من الأرزاق التي تستفيدون منها فسوف يغنيكم الله بما تحتاجون إليه من الأموال من فضله إن شاء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حكيمٌ﴾ إن الله عليم بشؤونكم، حكيم في تدبيره لها.

وقد صدق الله وعده فأرسل المطر مدراراً، ووفق أهل تباله وجرش للدخول في الإسلام فجاؤوهم بالأرزاق والخيرات. وصارت أرضهم خصبة بالمطر الذي انهمر،

وتبع ذلك فتوحات الإسلام على البلاد المجاورة لهم كالفرس والروم وغيرهما وغنم المسلمون منها الغنائم الكثيرة.

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ولا يدينون دين الحق: أي لا يعتقدون صحة دين الإسلام الذي هو دين الحق.

الجزية: هي ضريبة يأخذها المسلمون من أهل الكتاب جزاء حمايتهم وحقن دمائهم.

عن يد: عن قدرة وغنى.

صاغرون: ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام.

علاقة المسلمين بأهل الكتاب

وبعد أن بيّن القرآن كيفية معاملة المشركين بالبراءة من عهدهم بسبب نقضهم للعهود ووجوب مقاتلتهم إلى أن يسلموا، بيّن بعد ذلك كيفية معاملة أهل الكتاب:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ﴾.

هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ وفيها الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام. وبعد نزول الآية كانت غزوة تبوك التي كان من أسبابها ما يلي:

ففي أواخر السنة الثامنة للهجرة، وبعدما توّج المسلمون انتصاراتهم بدخول مكة

وانتصارهم بمعركة حنين، بلغت النبي ﷺ أنباء خطيرة عن اعتزام الروم وحلفائهم العرب من لخم وجذام وغسان وعاملة، توجيه ضربة إلى الدولة الإسلامية، قبل أن يشتد ساعدها وتنفرد بقيادة الجزيرة العربية، وتشكل خطراً حاسماً على الوجود البيزنطي في بلاد الشام، وتناهى إلى علم المسلمين أن القبائل بدأت بإرسال طلائعها إلى البلقاء، كما أن الروم قتلوا بعض من أسلم في تلك النواحي، وقتلوا أيضاً الرسول الذي أرسله النبي ﷺ إليهم يدعوهم إلى الإسلام.

وقتئذ خرج النبي على رأس جيش ضخم قيل إنه بلغ ثلاثين ألفاً، وتخلّف بعض الناس من أهل المدينة المنورة وحولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحرّ، فبلغ جيش المسلمين موضع تبوك بعد مسيرة خمسة عشر يوماً، ولكن الروم انسحبوا إلى الداخل عبر أراضي الأردن وفلسطين.

وإزاء انسحاب الروم من ساحة المواجهة لم يجد النبي ﷺ مبرراً لقتال القبائل العربية النصرانية المنتشرة في المنطقة فشغل خلال الأسابيع الثلاثة التي قضاها في تبوك بمحاولة تحرير هذه القبائل من الولاء للدولة البيزنطية، وعقد معاهدات صلح وتعاون معها، ثم رجع رسول الله من دون الالتحام مع الروم لضيق الحال وضعف المسلمين.

فالله سبحانه يقول: ﴿قَاتِلوا الَّذينَ لا يُـؤْمِنُون بِاللَّهِ ولا بِالْـيَـوْم الآخِـرِ﴾ والذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان هم اليهود والنصارى. فهم وإن آمنوا بوجود الله واليوم الآخر إلا أنهم وصفوا الله بصفات تنافي الألوهية، فإن أكثر اليهود مشبّهة يعتقدون أن الإله له جسم، فقد زعموا أن الله صارع يعقوب إلى الفجر ولم يغلبه، وقصارى القول إنه لم يكن للأمم القديمة إلّه آدمي في كل شيء كإلّه اليهود، كما أن منهم من قال: عزير ابن الله والله منزه عن الجسم.

والنصارى يعتقدون بالتثليث فهم يقولون بوجود الأب والابن وروح القدس، كما يعتقدون بأن عيسى هو الرب وأنه ابن الله والله منزه عن الولد فصاروا بذلك

لا يؤمنون بوجود الإله الحق الذي لا شريك له.

كما أن اليهود لا يؤمنون باليوم الآخر على النحو الصحيح «فهم يعتقدون أن الثواب الوحيد الذي كان البررة الصلّاح من آل إسرائيل يرجونه هو أن يجود الله عليهم بحياة طويلة باسمة الأفراح واسعة العيش... وكان اليهودي يرى نهاية الوجود بنهاية الحياة... ويرى أن لاسعادة للإنسان إلاّ بطيبات الأرض»(١).

والنصارى يعتقدون بأن الأرواح تبعث يوم القيامة دون الأجساد، وأن نعيم الجنة وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك، وهذا منافٍ لما أخبر به القرآن من أن في الجنة نعيماً مادياً يفوق نعيم الدنيا ولهم في الجنة من كل الثمرات ولهم أزواج يتمتعون بهن، فإذا كان النعيم في الجنة روحياً كما يدّعون فكيف يغرينا الله بشيء لا نعلمه، فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً صحيحاً كما يريده الله.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي أن اليهود والنصارى لا يحرّمون ما حرّمه الله ورسوله محمد ﷺ في القرآن والسنة، وفضلاً عن ذلك فهم لا يلتزمون ما حرّمته شريعتهم على ألسنة رسل الله إليهم، فنرى اليهود يستحلون أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره، والنصارى يستبيحون ما حرّم عليهم في التوراة كالخمور وأكل لحم الخنزير ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي لا يعتقدون بصحة دين الإسلام الذي هو الدين الحق الناسخ لغيره من الأديان، أو بمعنى أن الدين الذي يعتنقه كل من اليهود والنصارى إنما هو دين تقليدي وضعه لهم أحبارهم وأساقفتهم بآرائهم الاجتهادية وليس هو دين الله الحق الذي أوحاه الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي من الذين أُعطوا التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى.

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ أي قاتلوا هؤلاء حتى يدفعوا إليكم الجزية،

---

(١) عن كتاب (اليهود في التاريخ) للقس بولس عبود.

ومعنى عن يد: أي دفع الجزية بانقياد وطاعة، وأن يسلموها بأيديهم مباشرة بغير توكيل وقيل: عن يد بمعنى الغنى ولذلك لا تجب الجزية على الفقير. أو بمعنى: عن إنعام منكم عليهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وهم ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام. وقال الشافعي في كتابه (الأم): سمعت عدداً من أهل العلم يقولون: الصغار أي أن يجري عليهم حكم الإسلام، وبهذا قال الإمام ابن القيّم الجوزية. ومن المفسرين من قال في الآية أقوالاً يأباها عدل الإسلام ورحمته.

توضيح عن معنى الجزية

الجزية على وزن فِعْلة، من جزى يجزي إذا كافأ عما أسدي إليه من معروف، فكأنهم أعطوا الجزية جزاء ما مُنحوا من الأمن، وجزاء الحماية لهم والدفاع عنهم، أو جزاء إعطاء الذمي حقوق المسلمين ومساواتهم بأنفسهم في حرية النفس والمال والعرض.

ومتى أعطوا الجزية سُموا أهل الذمة أي أهل العهد والميثاق الذي يوجب على المسلمين معاملتهم بالعدل والمساواة بمقتضى ذمة الله ورسوله، ويُقال لهم أيضاً (المعاهدون) لأنهم يقيمون في دار الإسلام بموجب عهد أو معاهدة معقودة بين المسلمين وبينهم يجب تنفيذ أحكامها، ويحرم ظلمهم وتكليفهم ما لا يطيقون.

والجزية لم يبتدعها الإسلام بل كانت معروفة قبله عند جيران العرب من الفرس والروم وغيرهما من الأمم.

فالجزية ضريبة شخصية يفرضها الإسلام على غير المسلمين من رعايا الدولة التي فتحها الإسلام، وهي من غير المسلمين تقوم مقام الزكاة التي تؤخذ من المسلمين. فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاةً تصرف على الفقراء والمحتاجين، فأهل الكتاب وغيرهم الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون أيضاً بالخدمات التي يؤديها الإسلام لهم، وبالمقابل يجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من الأموال نظير تلك

الخدمات، بل إن الإسلام لا يكلفهم أن يدخلوا جنداً في حرب ضد أي عدو للمسلمين.

والجزية تسقط عمن اعتنق الإسلام من أهل الذمة لقول النبي ﷺ: «ليس على المسلم جزية»[١].

وجاء في صحيح مسلم ما ملخصه أن النبي ﷺ كان إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ثم قال: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم. ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم... فإن هم أبوا فلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم. فإن هم أبوا ـ أي إعطاء الجزية ـ فاستعِن بالله وقاتِلهم».

وقد اتفق الفقهاء على أن الجزية تُقبل من أهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ وتقبل أيضاً من المجوس، أما المشركون فقد اختلف الفقهاء في شأنهم، فذهب جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة إلى أن الجزية لا تقبل من المشركين مطلقاً ولا يقبل منهم إلا الإسلام فإن لم يسلموا قوتلوا، وذهب الأئمة الأحناف ومالك وأحمد بن حنبل إلى أن الجزية تقبل من المشركين إلاّ مشركي العرب ولأن النبي ﷺ لم يأخذ الجزية من مشركي العرب، والجزية لا تؤخذ من الفقير غير المتكسب، ولا من الرهبان المنقطعين للعبادة في الصوامع ولا على نساء أهل الذمة.

والجزية تكون على ضربين: جزية بالتراضي والصلح، وجزية يفرضها الإمام وهي مقدّرة على الأقل والأكثر. فتوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً، وعلى المتوسط أربعة وعشرين، وعلى الفقير المتكسب اثني عشر درهماً في السنة وهذا ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعلى المسلمين في مقابل الجزية توفير الحماية

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي.

لأهل الذمة والدفاع عنهم فإن لم تتمكن الدولة الإسلامية من حمايتهم فإن الجزية تسقط عنهم.

اعتراض على الجزية

سمعت من بعض النصارى اعتراضاً على كلمة الجزية وأنها انتقاص مهين في حقهم، هذا الاعتراض أجاب عنه بعض الفقهاء فقد جاء في كتاب المهذب من فقه الشافعية: «فإن امتنع قوم من أداء الجزية باسم الجزية وقالوا: نؤدي باسم الصدقة ـ أي الزكاة ـ ورأى الإمام أن يأخذ الجزية باسم الصدقة جاز لأن نصارى العرب قالوا لعمر رضي الله عنه: لا نـؤدي ما يؤدي العجم ولكن خذ منا باسم الصدقة كما تأخذ العرب. . . فصالحهم على أن يُضعِّف عليهم الصدقة»[١] ويأخذها جزية باسم الصدقة.

هذا وقد أوصى رسول الله بأهل الذمة فقال:

«ألا من ظلم معاهداً[٢]، أو انتقصه[٣]، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه[٤] يوم القيامة»[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «من قتل نفساً معاهداً لم يَرِح رائحة الجنة. وإنّ ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[٦].

---

(١) المهذب لِلشيرازي ٢/ ٢٥٠.

(٢) معـاهــدا: من كان بينكٍ وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة.

(٣) انتقصه: جعل حقه ناقصا.

(٤) حجيجه: أي محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه. والمراد هنا: فأنا خصمه يوم القيامة.

(٥) أخرجه أبو داود.

(٦) أخرجه البخاري.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

شرح المفردات:

يضاهئون: يشابهون.

أنى يُـؤفكون: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل مع قيام الدليل.

أحبارهم: علماء اليهود.

رهبانهم: متنسكو النصارى.

ويأبى الله: ولا يرضى الله.

ليظهره: ليعليه.

عقائد اليهود والنصارى

ويتابع القرآن الكلام عن اليهود والنصارى فيقول: إنهم ادعوا أن لله ولداً ومن قال ذلك فقد أشرك بالله واقترف إثماً عظيماً:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ أي تجاوز اليهود وحدانية الله في عقيدتهم وقالوا: عزير ابن الله، وتجاوز النصارى الوحدانية كذلك

فقالوا: المسيح ابن الله ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي قولهم هذا مبتدع من عندهم، ولم يأتهم به كتابٌ من عند الله، ولا رسولٌ منه، فهو مجرد قولٍ بالفم فقط دون أن يكون له حقيقة في الواقع ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ يضاهئون: يشابهون، أي يشابهون بادعائهم هذا قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم الماضية التي ضلت وانحرفت عن الحق وأشركت مع الله في العبادة آلهة أخرى كالهنود[١] والبوذيين فيها[٢] وبعض أهل الصين واليابان وقدماء المصريين واليونان والرومان[٣].

وهذا البيان لهذه الحقيقة أثبتته الدراسات العلمية وهو من معجزات القرآن فإنه لم يكن يعرفها أحد من العرب في زمن نزول القرآن.

وجاء في كتاب «الهند: شعبها وأرضها»: «وتُحَدِّثنا السجلاتُ والوثائق عن بعثات دبلوماسية من الهند إلى روما وجدت في العاصمة الرومانية إبان حكم ستة من الأباطرة بين سنة ٢٢ قبل الميلاد وسنة ٥٣٠ بعد الميلاد، وكان لهذه الاتصالات بين الهند وبين عالم البحر المتوسط أثرٌ في الديانة البوذية وفي عقائد الإغريق والرومان وفي الديانة المسيحية»[٤].

هذا مع العلم أن أول من أعلن ألوهية عيسى وبنوّته لله سبحانه مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

---

(١) كالديانة التي نشأت في الهند وهي الديانة البُدَّهيَّة نسبة إلى مؤسسها بُدَّهه الذي ولد قبل ظهور المسيح بخمسة قرون ولم تظهر ديانته إلاّ في القرن الثالث قبل الميلاد في الهند ثم انتشرت في بقية آسيا. يقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه حضارات الهند ترجمة عادل زعيتر صفحة ٣٤٤: «وتجد أوجه شبه شاملة للنظر بين حوادث حياته وبعض أقاصيص الأناجيل» وبُدّهه ألّهه أتباعُه إذ كانوا يدخلون معابده ويسجدون له أمام صورته.

(٢) يُعتبر بوذا عند البوذيين إلّهاً يصلّى له ومنقذاً لهم من الضلال.

(٣) من يرد إيضاح وتفسير ما ذهبت إليه فليرجع إلى كتاب (النصرانية) للدكتور محمد أحمد الحاج، وقد صدر هذا الكتاب عن الدار الشامية ـ بيروت.

(٤) تأليف مانوراما موداك، ترجمة العميد محمد عبد الفتاح إبراهيم، صفحة ١٠٠ ـ مكتبة النهضة المصرية، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

وبعد أن بين الله بأن اليهود والنصارى حادوا عن طريق الله بادعائهم بأن لله ولداً أتبع ذلك قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ هذه الجملة تستعمل للتعجب من قولهم هذا، ويراد بها الهلاك لأن من قاتله الله لا بد أن يهلك. ويقول ابن عباس: إن معنى (قاتلهم الله) لعنهم الله، وكل شيء في القرآن (قتل) فهو لعن، ومن المعروف أن اللعن من الله هو الطرد من رحمته. ثم عقب القرآن على ذلك بقوله: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أنّى: بمعنى كيف، أي كيف يصرفون عن حقيقة وحدانية الله وعبادته وحده بعد قيام الأدلة بأنها الحق، ويميلون بأقوالهم هذه إلى الباطل.

ولا أريد أن أناقش النصارى في عقائدهم فهذا موضوع يطول وقد ألف في ذلك كثير من الكتب ولكن أكتفي بما جاء في دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي حيث يقول نقلاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية ما يلي:

«. . . وإن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكوّنة لذات الخالق، وما كان بطرس أحد حواريه يعتبره أكثر من رجل يوحى إليه من عند الله، أما بولس فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى وقال: إن المسيح أرقى من إنسان وهو أنموذج إنسان جديد ـ أي عقل سام ـ متولد من الله ـ وكان موجوداً من قبل أن يوجد هذا العالم، وقد تجسد هنا لتخليص الناس ولكنه مع ذلك تابع لله الآب».

إلى أن قالت دائرة المعارف:

«كان الشأن في تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى كانت غالبة مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين، فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة) وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية اعتقدت بأن عيسى إنسان بحت مؤيد بالروح القدس، وما كان أحد يتهمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون وملحدون. قال جوستن مارشير (وهو مؤرخ لاتيني في القرن الثاني) إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن

عيسى هو المسيح ويعتبرونه إنساناً بحتاً، وإن كان أرقى من غيره من الناس، وحدث بعد ذلك أنه كان كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل».

ولنعد إلى تتمة الآيات في هذا السياق:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حبر بكسر الحاء وفتحها وهو العالِم عند اليهود. والرهبان: جمع راهب وهو العابد عند النصارى الذي اعتزل ملذات الحياة وانقطع لعبادة الله. والمعنى: جعل اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم كالآلهة حيث أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرّم الله، كما أطاعوهم في كل شيء.

عن عديّ بن حاتم وكان نصرانياً قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عديّ اطرح هذا الوثن من عنقك قال: فطرحته وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخذوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: قلت يا رسول الله: إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرّمون ما أحَلَّ الله فتحرّمونَهُ، ويُحِلُّون ما حرّم الله فتُحلُّونه قال: قلت: بلى، قال: فتلك عِبادَتُهُم. وقد أسلم عديّ بعد ذلك وكان من خيرة الصحابة.

ثم ذكر القرآن بعد ذلك ما انفرد به النصارى عن اليهود ﴿وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي واتخذ النصارى المسيح ابن مريم إلهاً وكان ذلك على صور شتى، فمرة عبدوه على أنه ابن الله، وتارة عبدوه على أنه إلّه، وتارة على أنه ثالث ثلاثة.

وما فعله النصارى في شأن العقيدة لم يأمر به الله في كتبه التي أنزلها إليهم على يد رسله:

﴿وَمَا أُمروا إلاَّ لِيَعْبُدوا إلَهاً وَاحِداً﴾ والحال أنهم ما أُمروا على ألسنة رسل الله والكتب التي أنزلها الله عليهم، إلا بعبادة الله وحده، فهو المعبود بحق ولا معبود سواه

في الوجود ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ هنا نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده الذي لا إله في الكون إلا هو ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله عن الشركاء والأولاد فهو رب العالمين.

﴿يُرِيدون أن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم﴾ أي يريد أهل الكتاب أن يطمسوا نور القرآن الذي أوضح الله به وجه الحق في شأن العقيدة وذلك بمحاولتهم إبطاله وصرف الناس عنه بإثارة الشبهات حول تعاليمه. وفي الآية استعارة بلاغية رائعة حيث شبه حالهم في محاربة الإسلام والقرآن الكريم بحال من يريد طمس نور عظيم نشره الله في الآفاق، ومحاولة إطفائه بنفخه في الفم وهذا من المستحيلات. ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ﴾ يأبى: بمعنى لا يريد أو لا يرضى، أي لا يريد الله إلا إتمام هذا النور بإعلاء كلمة الإسلام ولو كره الكافرون إتمامه.

فالآية الكريمة وعد من الله سبحانه ـ ومن أصدق من الله وعداً ـ بأن ينشر دينه، هذا الوعد جاء في زمن كان المسلمون محصورين في جزيرة العرب، ولم تمض سنوات حتى انتشر الإسلام في كثير من ربوع العالم، وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت، والتي تشهد بأن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو الله سبحانه الذي أرسل رسوله محمداً بالقرآن المشتمل على الإرشادات السامية والتوجيهات القويمة، كما أرسله بدين الحق وهو دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ والإظهار هنا بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان وصلاحيته للشعوب على سائر الأديان كلها ﴿وَلَوْ كَرِهَ المشْرِكُون﴾ وصف الله الذين اتخذوا لله ولداً بالشرك بالله كما وصفهم في الآية السابقة بالكفر، فهم قد جمعوا بين الكفر والشرك بالله بأدعائهم بأن لله ولداً.

تأمل قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾ فلم يخصص ديناً من الأديان الحاضرة لأن في الكون أدياناً متعددة كالديانة البوذية، وديانات اليهود والنصارى،

والمجوس الذين يعبدون النار، وأديان الهند وغيرها. وقد يتساءل القارىء: كيف يعلو الإسلام على الأديان كلها وأتباعها أكثر عدداً من المسلمين؟ والجواب: هو أن الإعلاء بحججه وصلاحيته للمجتمعات البشرية. ولنأخذ مثلاً: الطلاق، فطالما تعرّض الإسلام للطعن من أتباع الديانات الذين يحرّمون الطلاق ثم اضطروا أن يبيحوا الطلاق وإن خالف ذلك تعاليم دينهم لأنهم لم يجدوا حلاًّ للمشكلات المستعصية في الأسرة إلاّ بذلك.

ومثال آخر هو الرضاعة: لقد قامت في أوروبا وأميركا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية وطالبوا باستخدام اللبن المجفف وغيره من مشتقات النبات وكان ذلك في نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل ثم بعد ذلك ظهرت أضراره على صحة الطفل ونفسيته، ثم اضطروا أن يعودوا إلى الرضاعة الطبيعية وقد جاء في القرآن: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ ﴾(البقرة: ٢٣٣).

ومثال آخر: الخمر التي حرمها الإسلام، واليوم نجد حرباً شعواء ضد الخمر في الدول التي أباحتها بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنساني(١).

وهناك عشرات الأمثلة يضيق بنا المجال للاستشهاد بها في هذا المقام.

من هو عزير (عزرا)

وعزير هذا هو الذي يسميه اليهود (عزرا) والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغروا اسمه بالصيغة العربية للتحبيب وأطلقوا عليه اسم (عزير). ولم يقل كل اليهود (عزير ابن الله) بل جماعة منهم فقط، ولم ينكر اليهود المعاصرون للنبي ﷺ هذا النص القرآني (عزير ابن الله) ولم يكذبوه، فكان ذلك دليلاً على أنه كان في المدينة المنورة

---

(١) باختصار وتصرف عن تفسير الشعراوي.

آنذاك من كان يدّعي ذلك ويؤمن به، و «عزرا هو كاهن ابن سرايا، لقّب بالكاتب، إذ إنه كان موظفاً في بلاط أمبراطور الفرس (أرتحششتا) ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية التي كانت تقيم في ما بين النهرين منذ أيام السبي. وقد تمكن عزرا لثقة الأمبراطور به وتلبيته طلباته من أن ينال عفو الأمبراطور عن اليهود وسماحه لهم بالعودة إلى القدس وإقامة حكم ذاتي لهم في فلسطين بحيث يقيمون مجتمعهم على التقاليد العبرانية. . . وكانت عودته إلى القدس حوالى ٤٥٨ أو ٤٥٧ قبل الميلاد. . . وعُرف عزرا في القدس بإخلاصه ونشاطه في سبيل طائفته التي كان كاهناً عليها فحاز ثقة وإعجاب وولاء اليهود المعاصرين له من نبلاء وكهنة فلم يعارضوه في أعماله وإصلاحاته. وقد قام عزرا بمجرد عودته إلى القدس بقراءة ناموس موسى أمام اليهود وتفسيره لهم بمعونة اللاويين مستعيناً أيضاً بالترجمة الآرامية للأصل العبراني. وكان اليهود يُقبلون على الاستماع لشريعتهم ويعلنون ولاءهم لها، وهذا ما جعل اليهود المتأخرين عنه عدة أعصر يعتبرونه زعيماً لهم بعد موسى الذي أخرجهم من مصر. . . ويعتقد اليهود أنه هو الذي جمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها. . .»[(١)].

نظرة القرآن إلى عيسى عليه السلام

كان عيسى عليه السلام حلقة في سلسلة الأنبياء والرسل الذين بعث بهم الله تعالى إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، كما جاءهم عيسى بالتوحيد الخالص لله والإقرار بالعبودية له، كما أكد لهم أنه بشر اصطفاه الله بالرسالة الإلهية لدعوة بني إسرائيل إلى شريعة الله، وأنه مصدق للتوراة غير ناسخ لها بل مفسر لها وحاكم بشريعتها ومكمل لها.

جاء في القرآن نقلاً عن لسان عيسى عليه السلام حيث أنطقه الله وهو في المهد:

---

(١) باختصار عن كتاب (قاموس الكتاب المقدس) تأليف نخبة من الأساتذة.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٣٠ ـ ٣٢).

وينقل القرآن ما قاله عيسى عليه السلام لقومه:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف: ٦).

وجاء في القرآن ما خص الله به عيسى عليه السلام:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٤٦).

ويبين القرآن الإثم العظيم لمن يدعي ألوهية عيسى عليه السلام:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

ويتحدث القرآن عن قدرة الله وسلطانه في الكون نافياً البنوة له لأي مخلوق في هذا الوجود:

﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

وبيّن القرآن للذين يدعون بأن المسيح ابن الله لأنه خلق بدون أب على خلاف سنة البشر في التوالد، لهؤلاء يخاطبهم القرآن: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩). فإذا كانت ولادة عيسى بدون أب فخلق آدم أعظم من خلق عيسى لأنه خلق بدون أب ولا أم.

ويخص القرآن أم عيسى مريم بأعظم مراتب الطهارة والقربى من الله:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(آل عمران: ٤٢).

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات:

يكنزون الذهب والفضة: يجمعونها ويدخرونها ولا يؤدون زكاتها.

يُحْمَى عليها: الإحماء شدة الحرارة.

فَتُكْوَى: والكي هو أن يوضع على الجلد جمر أو معدن حار.

جباههم: جمع جبهة وهي من الوجه ما بين الحاجبين إلى منابت شعر الناصية.

جنوبهم: جمع جنب وهو جانب الجسد من يمين ويسار.

التحذير من أكل أموال الناس وكنزها

بعد أن بيّن القرآن أن النصارى واليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله بين بعد ذلك سيرة الكثيرين منهم:

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ﴾.

أسند القرآن أكل أموال الناس إلى كثير من الأحبار والرهبان دون جميعهم لأنه لا يخلو من وجود من يأنفون ذلك، وقد عبر القرآن عن أخذهم أموال الناس بالأكل (ليأكلون) من باب الاستعارة، لأن من أكل شيئاً فقد استأثر به ومنعه من الوصول إلى غيره، ومن هذا الوجه سمي الأخذ بالأكل.

وقد وصف القرآن أخذهم أموال الناس بالباطل، والباطل ضد الحق وهذا ما يتراءى لنا من الوجوه الآتية:

منها: ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتغيير الأحكام إرضاء لشهوات الملوك وكبار الأغنياء.

ومنها: أخذهم الهدايا والنذور التي تقدم إلى قبور الأنبياء والصالحين والمعابد.

ومنها: ما يأخذونه من الربا الفاحش وهو خاص باليهود واليهود أساتذة المرابين في العالم، ومن أقوالهم: «للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا».

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللَّهِ﴾ أي ولا يكتفون بذلك بل يصرفون أتباعهم ويمنعونهم من الدخول في دين الإسلام واتباع رسول الله محمد ﷺ بإثارة المطاعن والشبهات حوله.

وبعد أن وصف الله أهل الكتاب بالحرص على أكل أموال الناس بالباطل ذكر بعد ذلك الوعيد لمن جمع المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء من أهل الكتاب أم من المسلمين:

﴿والَّذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونها في سَبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذابٍ أليمٍ﴾.

والكنز لغة: الضم والجمع، أي الذين يدخرون الأموال ولا ينفقونها في سبيل الله.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعارة بلاغية لزيادة الإيلام لهم لأن البشارة لا تكون إلا للخبر السار فكيف إذا كانت البشارة بالعذاب.

ولما نزلت هذه الآية ظن المسلمون أنه لا يحل لهم كنز المال وأنه يجب إنفاقه كله في سبيل الله فشق ذلك على المسلمين، فقال النبي ﷺ حينئذ: «ما أُدِّي زكاته فليس بكنز»[1] أي أن المال إذا أخرجت الزكاة عنه ليس كنزاً محرماً.

وإلى هذا ذهب جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء إلى عدم حرمة اقتناء الأموال التي تفيض عن الحاجة ما دام صاحبها يؤدي حق الله فيها عن طريق الزكاة، وحجتهم في ذلك أن الله شرع المواريث، ولو وجب إنفاق كل ما زاد عن الحاجة من مال في سبيل الله لما كان لمشروعية المواريث التي قررها القرآن من فائدة.

وقد ثبت أن سعد بن أبي وقاص عندما كان مريضاً، وزاره رسول الله، قال سعد: يا رسول أأوصي بمالي كله في سبيل الله؟ قال: لا، إلى أن انتهى بقوله: «هل أوصي بالثلث؟ فقال له رسول الله: الثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون أيدي الناس..»[2].

كما كان في عهد رسول الله من الصحابة من يملكون الكثير من الأموال كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ولم يأمرهم رسول الله بإنفاق ما زاد عن حاجاتهم الضرورية.

وبعض الصحابة فهم من الآية السابقة تحريم كنز الأموال التي تفيض عن حاجات الإنسان الضرورية كأبي ذر الغفاري رضي الله عنه فكان يفتي بذلك فنهاه معاوية

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري.

فلم ينته فخشي أن يضر بالناس في هذا فكتب رسالة يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فاستقدمه عثمان وأنزله ببلدة الرَّبذه القريبة من المدينة المنورة وقال له تنحّ قريباً، قال أبو ذر: والله لن أَدَعَ ما كنت أقول.

كما روي عن عليّ رضي الله عنه قوله في الآية ﴿وَالَّذين يَـكْنزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّة﴾ قال: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة وما فوقها كنز.

ويحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه، وعن عليّ رضي الله عنه في هذا المقام هو أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة إلى المال لأن هذه الآيات نزلت إثر غزوة تبوك وجيش المسلمين يعاني الفقر ولم يكن في بيت المسلمين ما يفي بحاجاتهم الضرورية فحذرت الآية الكريمة من كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله.

﴿يَوْمَ يُـحْـمَى عَلَـيْـهَـا في نَـارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يعذب الله يوم القيامة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بهذه الأموال التي يحمى عليها في نار جهنم وتصبح جمراً ﴿فَـتُـكْوَى بِـهَـا جِـبَـاهُـهُـم وَجُـنُـوبُـهُـم وَظُهُورُهُمْ﴾ أي تحرق جباه كافريها وجنوبهم وظهورهم بها.

ثم يقال لهؤلاء الذين يُعذَّبون بأموالهم: ﴿هَذَا مَا كَـنَـزْتُـم لأَنْـفُسِكُم﴾ أي هذا جزاء كنزكم المال لأنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه ﴿فَـذُوقوا مَـا كُـنْـتُم تَـكْـنِـزُونَ﴾ فذوقوا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم على المستحقين له.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

شرح المفردات:

عِدَّة الشهور: عددها.

في كتاب الله: الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلق. وقيل المراد بالكتاب الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به.

حُرُم: جمع حرام، والشهر الحرام هو الشهر المحرّم فيه القتال.

الدِّين القيّم: الدين المستقيم السليم من العوج.

كافة: جميعاً.

النسيء: تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر.

ليواطئوا: ليوافقوا.

زُيِّن: حُسِّنَ.

تحريم القتال في الأشهر الحُرُم

كان العرب قد ورثوا عن ملّة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحُرُم وهي:

ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. وذلك لتأمين مناسك الحج

والطرق الموصلة إليه. ولما طال عليهم الزمن غيّروا وبدّلوا في شعائر الله، واستبدلوا بعض الأشهر الحرم بسواها من الأشهر، وربما زادوا في أشهر السنة شهراً بأن يجعلوها ثلاثة عشر شهراً، لذا جاءت الآيات التالية تصحح هذا الخلل وتبيّن الصواب في ذلك، قال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشهورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهراً في كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي إن عدد الشهور المعتبرة عند الله اثنا عشر شهراً[١] في حُكم الله التشريعي وفيما أثبته وكتبه في اللوح المحفوظ الذي كَتَبَ الله فيه جميع أحوال الخلق ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ﴾ أي هذا الحكم قضاه الله يوم خلق السموات والأرض، والمراد بهذه الشهور الشهور القمرية لأنها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم السابقة، وهي أقدم أشهر التوقيت عند العرب وأضبطها، لأن اختلاف أحوال القمر يساعد على رصد الأيام والشهور، وهي أبعد عن حصول الخطأ، والسنة القمرية ثلاثماية وخمسة وخمسون يوماً، أما السنة الشمسية فهي ثلاثماية وخمسة وستون يوماً وربع اليوم، ويكون الفرق بين التوقيت الشمسي والتوقيت القمري عاماً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام، وبذلك تختلف أوقات العبادة من سنة إلى أخرى، فيأتي شهر رمضان والحج مرة في الصيف ومرة في الشتاء، وغير ذلك من الفصول، وهكذا يدور رمضان والحج في شهور العام كله، وبذلك يتم عدل الله على جميع المؤمنين بأوقات العبادات في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي من أشهر السنة أربعة أشهر ثلاث منها حُرُم متواليات وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وواحد فرد وهو شهر رجب الذي يقع بين شهري جمادى الآخرة وشهر شعبان. وحُرُم: جمع حرام، وإنما سميت هذه الأشهر

---

(١) والأشهر هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

حُرُماً لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرِّم القتال فيها حتى لو أن أحدهم لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه لم يتعرض له بسوء، ولمّا جاء الإسلام أبقى على هذه الأشهر حُرْمتها ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ أي ذلك التحريم للقتال في هذه الشهور الأربعة هو الدين المستقيم السليم من الاعوجاج ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تهتكوا حرمتها بارتكاب ما حرّم فيها من القتال وارتكاب المعاصي والظلم، فإن فعلتم ذلك فقد ظلمتم أنفسكم بفعل ما نهاكم الله عنه.

وإنما كانت الأشهر الحُرُم أربعة ثلاثة منها متواليات وواحد فرد فهي لأجل أداء مناسك الحج والعمرة. فحرّم الله قبل الحج شهراً وهو ذو القعدة ليأمن الحجاج الذاهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج على أنفسهم وأموالهم، وحرّم القتال في شهر ذي الحجة لأنهم يؤدون فيه الحج ويشتغلون بأداء مناسكه، وحرّم القتال بعده شهراً آخر وهو شهر المحرّم ليرجع الحجاج فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرّم القتال في شهر رجب الذي هو بمثابة هدنة لمن يقوم بزيارة بيت الله الحرام لأداء مناسك العمرة ثم يعود إلى وطنه آمناً.

والقتال في الأشهر الحُرُم مُحرّم إلاّ في حالة ردّ العدوان، فحين يعتدي أحد على المسلمين في هذه الأشهر الأربعة، فإن رَدَّ الاعتداء يكون مشروعاً كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا المُشرِكينَ كَافَّةً كما يُقاتِلُونَكُم كافَّةً﴾ أي قاتلوا المشركين جميعاً، كما يقاتلونكم جميعاً، مجتمعين على قتالهم متعاونين متناصرين ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المتَّقِينَ﴾ أي أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة والتأييد.

﴿إِنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ﴾ النسيء: مشتق من نسأه وأنسأه إذا أخّره، والنسيء: تأخير حُرمة شهر محرّم فيه القتال إلى شهر آخر. وذلك أن العرب كانت تعتقد بتعظيم الأشهر الحُرُم وكان ذلك مما تمسّكت به من ملة إبراهيم، وكانت معايشهم والحصول على أرزاقهم من الصيد والغارة على بعضهم البعض، فكان يشق عليهم الكف عن القتال ثلاثة أشهر متوالية، وربما وقعت لهم حرب في الأشهر الحُرُم فيكرهون تأخير

حربهم فينسأون أي يؤخرون تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم شهر المحرم إلى شهر صفر فيحرمون القتال في شهر صفر ويستحلونه في شهر المحرّم. وإذا احتاجوا إلى تحريم القتال في شهر صفر أخروه إلى شهر ربيع الأول، فكانوا يصنعون هكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم إلى السنة كلها. ولما جاء الإسلام أرجع المحرم إلى موضعه ـ أي تحريم القتال فيه ـ وقد خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرُمٌ ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه من الحلّ والحُرمة وعاد الحج إلى شهر ذي الحجة بعدما كان المشركون أزالوه عن محله بالنسيء، وقد وافقت حجة الوداع شهر ذي الحجة، وكانت حجة أبي بكر قبلها في شهر ذي القعدة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إنما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ﴾ أي إن ما يفعله المشركون من تأخير حرمة شهر فيه تحريم إلى شهر آخر ليس فيه تحريم هو كفر بشرع دين الله إضافة إلى كفرهم وهو الشرك بالله ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أن الذي أحلّ لهم القتال في الشهر الحرام يجعلهم ضالين بعملهم هذا حيث يأتمرون في التحريم والتحليل بأمرهم ﴿يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمونَهُ عَاماً﴾ أي يحلون القتال في الشهر الحرام عاماً ويجعلون مكانه في التحريم شهراً حلالاً ويحافظون على حرمة الشهر الحرام عاماً آخر ﴿لِيُواطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي يفعلون ذلك لكي يوافقوا عدد ما حرم الله من الأشهر الحُرُم وهي أربعة أشهر. فالمشركون ما أحلوا شهراً من الأشهر الحُرُم إلا حرّموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال، فينتهي أمرهم فيما فعلوا إلى أن يحلوا ما حرم الله[1] ﴿زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أَعْمَالِهِم﴾ أي جعلت لهم أعمالهم السيئة حسنة، بأن

---

(١) قيل إن أول من أحدث النسيء جناده بن عوف الكناني وكان مطاعاً في الجاهلية، كان يقوم على جمل في موسم الحج فينادي بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم في العام المقبل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه.

حسَّنها لهم رؤساؤهم وشياطينهم ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ والله لا يرشد إلى الصواب والحق القوم المصرّين على كفرهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

شرح المفردات:

انفروا في سبيل الله: اخرجوا للجهاد في سبيل الله.

اثّاقلتم: تثاقلتم وتباطأتم وتقاعستم.

فما متاع الحياة الدنيا: المراد من متاعها التمتع بلذائذها.

ويستبدل قوماً غيركم: يستأصلكم وينشىء بدلكم قوماً آخرين.

غزوة تبوك والدعوة إلى الجهاد

ثم ينتقل القرآن إلى ذِكْر غزوة تبوك وما رافقها من عتاب للمؤمنين الذين تخلّفوا عن الجهاد في سبيل الله.

وتبوك هي موضع في منتصف الطريق بين المدينة المنورة ودمشق وتبعد عن المدينة المنورة حوالي ستمائة كيلومتر.

وكانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وهي آخر غزوة لرسول الله ﷺ، وكان سبب حدوثها أن رسول الله ﷺ بلغه أن الروم قد جمعوا له جموعاً كثيرة على أطراف الشام وأنهم يريدون أن يتجهوا لمهاجمته في المدينة المنورة،

فاستنفر رسول الله الناس إلى قتال الروم، وقد لبى المؤمنون دعوة رسول الله، أما المنافقون وكثير من الأعراب فقد تخلّفوا عنها، وبعد أن وصل رسول الله والمؤمنون إلى تبوك لم يجدوا جموع الروم حيث انسحبوا لمّا بلغهم اتجاه جيش المسلمين نحوهم، فأقام المسلمون هناك بضع عشرة ليلة، ثم عادوا أدراجهم من حيث أتوا.

فالله سبحانه يعاتب المؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُم إِذَا قِيلَ لَكُم انْفِرُوا في سَبيلِ اللَّه اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرْضِ﴾ ناداهم الله بصفة الإيمان ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾ لإثارة ما يكنّونه في صدورهم من الإيمان الذي يستدعي طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ. ولفظ ما لكم: استفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: ما الذي أصابكم أيها المؤمنون ومنعكم من المسارعة إلى الجهاد في سبيل الله عندما دعاكم رسول الله إليه ﴿اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرْضِ﴾ أي تباطأتم وملتم عن الجهاد، وهذه الجملة فيها تمثيل لحال الكارهين للقتال كسلاً وجبناً بحال من يطلب منه النهوض والخروج للغزو فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض ويأبى النهوض والسير إليه. والتعبير بقوله سبحانه ﴿اثَّاقَلْتُم﴾ يمثل بلفظه وجرسه[1] الجسم المسترخي الثقيل الذي استقر على الأرض والذي كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إلى ثقله فسقط بين أيديهم، إنها ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على فوات اللذائذ والشهوات، بينما الجهاد في سبيل الله هو التخلي عن ذلك كله للحفاظ على الكرامة الإنسانية، وإعلاء كلمة الحق والحِفاظ على دين الله.

﴿أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ أي أيها المتثاقلون إلى الأرض المعرضون عن الجهاد: أآثرتم الحياة الدنيا الفانية ولذائذها الزائلة على الحياة الآخرة ونعيمها الدائم ﴿فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ فما التمتع بالدنيا ولذائذها إلى جانب متاع الآخرة إلا قليل تافه لا ينبغي أن يحرص عليه أحد.

---

(١) الجرْس: الصوت الخفي.

وبعد هذا العتاب والتوبيخ تنتقل الآيات إلى التهديد والوعيد:

﴿إلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُم عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي إن لم تخرجوا للقتال في سبيل الله حين يُطلَبُ منكم الخروج إليه يعذبكم الله عذاباً شديداً، والعذاب الذي يتهددهم به ليس عذاب الآخرة وحده بل هو كذلك عذاب الدنيا، إنه عذاب الذلة والمهانة التي تصيب القاعدين عن الجهاد في سبيل الله. وصدق الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجُنّته(١) الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه(٢) ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء..» هذا ما نقلناه عنه من مطلع خطبة له.

ويتابع القرآن: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم﴾ ويأتي الله بقوم آخرين بدلاً منكم يستجيبون لله ولرسوله ولا يتخلّفون عن الجهاد ﴿ولا تَضُرُّوهُ شيئاً﴾ ثم إنكم لا تضرون الله بهذا التخلّف شيئاً ﴿وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ والله عظيم القدرة على كل شيء لا يعجزه أمر، ولا يحول دون إنفاذ مشيئته حائل أو مانع.

لقد عاتب الله بعض المؤمنين على تثاقلهم عن القتال لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال، هذا الاستعداد يرهب الكفار ويمنع عدوانهم.

والباعث على تثاقل بعض المؤمنين عن تلبية نداء رسول الله ﷺ بالغزو هو أن تبوك تبعد عن المدينة المنورة مسافة كبيرة يستدعي قطعها مشياً وركوباً على الخيل والإبل بضعة أيام، ثم إن وقت هذه الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة، وكان العام عام عسرة، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام، ولم يتوفر له العدد الكافي من أدوات الركوب كالخيل والإبل، كما أن بعض ضعاف الإيمان كان يؤثر حياة الدعة والراحة

---

(١) جنته: ما يستتر به ويتحصن كالدرع.
(٢) رغبة عنه: زاهداً فيه.

والاستمتاع بلذائذ الحياة على الجهاد، ويأنف عن تعريض نفسه للمخاطر والاستشهاد.

هذا وقد كان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج إلى غزوة لا يخبر عنها أصحابه وجنده إلا عندما يَصِلونَ إلى ساحة المعركة، إلاّ هذه الغزوة فقد بيّن لهم رسول الله ﷺ وجهتهم لها قبل أن يغادروا المدينة لكي يستعدوا كامل الاستعداد للمشقة التي تنتظرهم.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ثاني اثنين: أحد اثنين وهما النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق.

الغار: فجوة في الجبل تشبه البيت والمراد به غار جبل ثور ويقع على بعد ساعة سيراً من مكة.

فأنزل الله سكينته عليه: ألقى في قلبه الأمن والطمأنينة فذهب عنه الخوف.

بجنود لم تروها: المراد بهم الملائكة لأنها لا تُرى.

نصرة الله لرسوله محمد ﷺ

ويتابع القرآن فينبه المتخلفين عن الجهاد بما كان من نصرة الله لرسوله محمد ﷺ حين هاجر من مكة، وحماية الله له دون أن يكون معه أحد منهم:

﴿إلاَّ تَنْصُروهُ فَقَدْ نَصرَهُ اللَّهُ إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِين كَفَروا ثَانِيَ اثنَيْنِ إذْ هُمَا في الغَارِ﴾

أي إن تركتم نُصرة رسول الله حين يُطلب منكم الجهاد معه، فقد نصره الله في وقت أشدّ وأقسى مما هو فيه، وَذَلِكَ حين أخرجه الكفار من مكة، وهو قد اضطر للهجرة بعد توالي إيذائهم له، وبعد أن تآمروا على قتله، وقد هاجر رسول الله ﷺ وبصحبته واحد فقط هو أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فقد حماهما الله تعالى وهما يسيران وحدهما نحو غار ثور للاختفاء به حتى ينقطع الطلب عنهما، ثم حماهما وحرسهما بينما كانا في الغار ثلاث ليال ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي حين قال رسول الله لصاحبه أبي بكر وهما في الغار بعد أن رأى آثار الخوف على وجهه: لا تحزن إن الله معنا بالعون والحماية فلن تصل إلينا أيدي المشركين بسوء. وذلك أن أبا بكر أحس بحركة المشركين من فوق الغار فخاف خوفاً شديداً لا على حياته وإنما على حياة رسول الله، فلما رأى رسول الله ذلك أخذ في تسكين روعه وتخفيف قلقه وجعل يقول له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يقول أبو بكر: قلت لرسول الله ـ ونحن في الغار ـ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال رسول الله: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[1] فأعماهم الله عن رؤيتهما فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحداً.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأنزل الله طمأنينته على رسوله ﷺ فَقَالَ لصاحبه ما قال، وأيّده بجنود خفية لم ترها أبصاركم وهي الملائكة، فلم يستطع المشركون بسبب هذه الحماية الربانية أن يصلوا إلى رسول الله بسوء ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي وجعل الله كلمة الذين كفروا وهي كلمة الشرك بالله هي السفلى حيث غُلبت على أمرها، وكلمة الله وهي التوحيد ودين الإسلام هي العليا وذلك بأن نجى الله نبيه من كيد المشركين ونصره عليهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله هو القوي الغالب، الحكيم في تدبيره لخلقه.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

قصة هجرة النبي ﷺ

وقصة هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة مشهورة نشير إليها باختصار. والداعي إليها أن قريشاً لما رأت أن المسلمين قد هاجروا بأعداد كبيرة إلى المدينة المنورة قالوا: هذا خطر له عواقبه السيئة علينا، فَأَجْمَعُوا أمرهم على قتل النبي ﷺ وذلك بأن تشترك جميع بطون قريش وعشائرها في قتله بأن ينتدبوا من كل منها شاباً فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ويرضون بأخذ ديته.

أنبأ الله رسوله محمداً ﷺ عن طريق الوحي بما استقر عليه رأي المشركين وأمره باللحاق بأصحابه في المدينة المنورة في الوقت الذي يحدده له.

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال فكان حين استأذن رسول الله في الهجرة قال له رسول الله: لا تعجل لعلّ الله يجعل لك صاحباً، فطمع بأن يكون رسول الله هو الصاحب فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: كان لا يخطىء رسول الله أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أُذن فيه لرسول الله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله بالهاجرة[١] في ساعة كان لا يأتي فيها فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله هذه الساعة إلاّ لأمر حدث، قالت: فلما دخل... قال لأبي بكر إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: الصحبة. تقول عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ. ثم قال أبو بكر: يا نبيّ الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذه الرحلة، ثم استأجرا عبد الله بن أرقط يدلهما على الطريق ودفعا إليه راحلتيهما عنده يرعاهما لميعادهما.

---

(١) الهاجرة: نصف النهار.

وفي الوقت الذي عزم فيه المشركون على قتل النبي ﷺ أتى الملك جبريل النبي فقال: لا تُبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة من الليل اجتمع هؤلاء الشبان على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه للفتك به فلما رأى رسول الله مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسجَّ بِبُردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، فاستجاب عليّ لرغبة رسول الله. وهذا من أرفع مراتب الفداء والتضحية من عليّ لرسول الله، كما أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس وجعل هؤلاء الشبان من قريش ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفرّ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج محمد ﷺ في غفلة منهم إلى دار أبي بكر وقد أعمى الله أبصارهم عنه، وخرج الرجلان من خوخة[١] لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار ثور فدخلاه.

وفي الصباح الباكر دخل هؤلاء الشبان دار النبي وقام عليّ من فراشه فلما دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، أَوَرقيباً كنتُ عليه أمرتموه بالخروج فخرج؟ وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه.

ولما فقدت قريش رسول الله جعلت مائة ناقة لمن يرده عليهم كما أنها جعلت تطلبه بأحد متتبعي الأثر حتى وقفوا على الغار فقال: هنا انقطع الأثر، فإذا العنكبوت بإلهام من الله قد نسجت خيوطها على فم الغار من ساعة وصولهما فأدركوا أنه لم يدخل أحد إلى الغار وإلاّ لتمزقت خيوطها ثم قفلوا راجعين إلى ديارهم.

وبعد أن أقاما ثلاثة أيام في الغار وسكن الطلب عنهما ارتحلا مع دليلهما إلى المدينة المنوّرة كما أردف[٢] أبو بكر عامر بن فهيره مولاه خلفه يخدمهما بالطريق.

---

(١) الخوخة: نافذة صغيرة.

(٢) أردفه: أركبه خلفه.

فضيلة أبي بكر الصدّيق

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ لم يكن قد كاشف أحداً بالهجرة غير صاحبه أبي بكر الذي كان أول من آمن به ممن دعاهم إلى الإسلام بعد أهل بيته، وكان أبو بكر صاحبه الملازم له ومستشاره الدائم.

وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ما يدل على أن الخليفة بعد النبي هو أبو بكر الصديق لأن الخليفة بعد النبي ﷺ لا يكون أبداً إلا ثانياً. ويقول الإمام أبو العباس أحمد بن عمر: إنما استحق أبو بكر أن يقال له: (ثاني اثنين) لقيامه بعد النبي بالأمر ـ أي بواجب الشرع ـ كقيام النبي ﷺ به أولاً، وذلك أن النبي ﷺ لما توفي ارتدّ كثير من العرب عن الإسلام فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاتلهم على الدخول في الدين كما فعل النبي ﷺ فاستحق من هذه الجهة أن يُقال له في حقه ثاني اثنين.

وقد جاء في السُّنَّة الصحيحة ما يدل على أنه الخليفة بعد النبي ﷺ، وذلك أن النبي لما مرض أمر أبا بكر أن يؤم الصلاة بالمسلمين مكانه، وإمامة الصلاة هي من أرفع المراتب قدراً، كما أن جمهور الصحابة بايعوه على خلافة النبي ﷺ بعد وفاته.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ هذه شهادة من الله بأن أبا بكر هو صاحب رسول الله ﷺ، والله لا يرضى بأن يكون لرسوله صاحباً إلا إذا كان في ذروة الإيمان والاستقامة، كما أن رسول الله ﷺ حاشاه أن يتخذ صاحباً إلا إذا كان على منزلة عالية من الخلق الكريم والصفات النبيلة والإيمان الصادق وهذا ما اشتهر عنه.

وتأمل قول النبي ﷺ لأبي بكر ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بينما موسى قال لبني إسرائيل ﴿إنّ معي ربي سَيَهْدِين﴾ فموسى خص نفسه بمعيته مع الله ولم تتعد المعية لأتباعه بينما النبي ﷺ تعدت منه المعية إلى أبي بكر ولم يقل «إن الله معي» بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لأنه أمدّ أبا بكر بنوره فشمله بالمعية.

فالطعن بأبي بكر والتعرض له بالسباب كما يفعل بعض الجهلة هو إيذاء لله ولرسوله.

أما الاشتغال بمن أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وإثارة الخلافات في ذلك فهو من أشد الثغرات التي استغلها أعداء الإسلام للتفرقة بين المسلمين، وما لنا بذلك نحن المتأخرين والله سبحانه يرشدنا إلى الطريق السليم الذي يعصمنا من الخطأ حيث قال الله سبحانه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. هذه الآية جاءت في صدد مناقشة اليهود وهي تنطبق على كل ما يُثار من مهاترات حول الخلافة.

كما أن القرآن حذّر المسلمين من التفرقة والاختلاف فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فصحابة رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو بكر الصدّيق خليفة رسول الله ومن جاء بعده من الخلفاء عمر بن الخطاب وعثمان وعليّ[١] رضي الله عنهم هم من أجلّ الصحابة الذين رفعوا راية الإسلام وضحّوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله، وهم نبراس لنا في دنيانا، وموقفنا منهم هو الدُّعاء لهم بالخير والمغفرة وعدم بغضهم والطعن بهم، وهذا ما رسمه الله لنا بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) ليس هنالك من ينكر على أهل السُّنّة محبّة عليّ وأبنائه وأخص منهم الحسن والحسين رضي الله عنهما فهم جميعاً في ضمير كل مسلم. وما من مسلم لم يحزن على تلك الفتنة العمياء التي أودت بحياة أحب الناس إلى رسول الله والمؤمنين. وما كان استشهادهم إلا في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الحق والقضاء على الظلم والطغيان.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا
قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ
ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

شرح المفردات:

انفِروا خِفافاً وثقالاً: اخرجوا للجهاد نشاطاً وغير نشاط، شباناً وشيوخاً وفقراء وأغنياء.

عَرَضاً قَريباً: غنيمة قريبة التناول.

سفراً قاصداً: سفراً متوسطاً بين القُرب والبُعد.

الشُّقَّةُ: السفر البعيد الذي يقطعه الإنسان بمشقة.

التعبئة العامة للجهاد في سبيل الله

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين جميعاً إلى الجهاد في سبيل الله عندما يداهمهم العدو بقصد الاستيلاء على ديارهم:

﴿انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً﴾ أي اخرجوا للجهاد خفّت عليكم الحركة أو ثَقُلت: شباناً وكهولاً، أغنياء وفقراء، ركباناً ومشاة.

هذه الجملة من الآية تعلن النفير العام للقتال ويكون ذلك إذا داهم العدو بلداً من بلاد المسلمين، أو حرّك جيوشه لاحتلالها أو أراد بأهلها السوء والاعتداء: من أَسْرٍ أو قتل، أو ترويع، فعندئذ يكون الجهاد فرض عَيْنٍ على كل مسلم، كما يتعين الجهاد مثل ذلك على من كان قريباً من هذا البلد إذا عجز أهل هذا البلد عن دفع هجوم الأعداء عنه.

يقول ابن تيمية: إذا دخل العدو بلاد المسلمين فلا ريب أنه يجب دفعه الأقرب فالأقرب إذ بلاد المسلمين كلها بمنزلة البلدة الواحدة.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُم وَأَنفُسِكُم في سَبيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد بَذْلُ ما في الوسع والطاقة لقتال العدو لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله، وقدّم القرآن المال لأن له الأهمية الكبرى في تزويد الجيش بالسلاح، ناهيك أن المال هو أَحَبُّ شيء للإنسان فَبَذْلُهُ في سبيل الله عنوان التضحية وصدق الإيمان، فمن قدر على الجهاد بنفسه وماله وجب عليه بذل الاثنين معاً، ومن قَدِرَ على الجهاد بالنفس فقط، أو بالمال فقط وجب عليه ما قدر عليه منهما ﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لكم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الذي أمركم به الله هو خير لكم وأنفع إن كنتم تعلمون فضل الجهاد وثوابه، فاعملوا به ففيه عزّ الإسلام وسعادتكم، فإنه لا حياة عزيزة للأمم، ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية. أما القعود عن القتال في وقت الحاجة إليه فإنه يؤدي إلى استباحة العدو أرض المسلمين وسلبهم خيراتهم وإذلالهم.

ويتابع القرآن الكلام عن الذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾ والعرض: ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا ومتاعها أي لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً قريب المنال سهل المأخذ ﴿وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ﴾ والسفر القاصد: هو السفر المتوسط بين القُرب والبُعد، من القصد بمعنى التوسط والاعتدال في الشيء، أي لو كان هناك سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك طمعاً في الحصول على المغانم السهلة القريبة ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة: هي المسافة التي لا تقطع إلا بتكبد المشقة والتعب، أي أن المشقة طويلة، وتبوك كما ذكرنا تبعد مسافة طويلة عن المدينة المنورة والوقت صَيفٌ شديد الحرارة، فلهذا تخلّفوا عن السير معك يا محمد للجهاد وآثروا الراحة والدعة.

﴿وسَيَحْلِفُون بِاللَّهِ لو اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُم﴾ وسيحلف بالله أولئك المتخلفون عن غزوة تبوك لكم ـ أيها المؤمنون ـ بعد رجوعكم منها قائلين: لو كنا

نستطيع الخروج معكم إلى تبوك لخرجنا إليها، يريدون بذلك أنهم لم تكن لهم القدرة على الجهاد لعدم وجود السلاح معهم أو لضعف الصحة. تأمل قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ واستخدام حرف السين يعني أن حدوث الأمر سيكون في المستقبل، أي أن المتخلفين عن الجهاد لم يكونوا قد قالوها بعد ولكنهم سيقولونها عند رجوعكم أيها المؤمنون من تبوك، وهذا ما حصل كما أخبر به القرآن، وهو من الأنباء الغيبية الكثيرة التي أخبر بها القرآن قبل حصولها ثم حصلت بعد ذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُم وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهم لكَاذِبُونَ﴾ أي وما داموا قد حلفوا بالله كذباً فقد أدخلوا أنفسهم في الهلاك، والله يعلم إنهم كاذبون فيما حلفوا به كذباً، وفيما انتحلوه من أعذار، وفي هذا النص القرآني دلالة على أن تعمد الحلف الكاذب يفضي إلى الهلاك، فليعتبر كل من يجرؤ على الحلف الكاذب في سبيل منفعة مادية عابرة.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْك لِمَ أَذِنْتَ لَهُم﴾ أي عفا الله عنك ـ أيها النبي ـ فلم يؤاخذك في الإذن لهؤلاء المنافقين بالتخلف عن الجهاد معك. تأمل إلى هذا اللطف بالعتاب حيث بدأه الله بالعفو قبل أن يذكر الذنب، وفي ذكر العفو ما يدل على أن هذا الإذن من النبي ﷺ لهؤلاء المنافقين كان في موقع خلاف الأفضل وليس من باب ارتكاب الإثم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِين صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبينَ﴾ أي لماذا سارعت في الإذن لهم، وهلاّ تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق في عذره ومن هو كاذب منهم؟

فالنبي أَذِنَ للمنافقين بالتخلّف عن الجهاد لأنهم لو خرجوا معه ما زادوا جنده إلا ضعفاً وخذلاناً، وإذا كان أمرهم كذلك فلماذا عاتب الله رسوله بذلك؟

الجواب على ذلك هو أنهم كانوا سيتخلفون عن الغزو في كلتا الحالتين وقد عزموا على ذلك إذ قال بعضهم لبعض: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، لهذا كان الأوْلى أن لا يأذن النبي ﷺ لهم بالتخلف عن الغزو ليكون تخلفهم بغير إذن منه، فعندئذ يظهر نفاقهم علانية بين المسلمين من أول الأمر، فلا يخالطونهم ويأخذون الحذر من مؤامراتهم.

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ
ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟
فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن
قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

شرح المفردات:

ارتابت: تشككت وتحيّرت.

يتردّدون: يتحيرون.

لأعدّوا له عدّة: لاتخذوا له أهبة من السلاح والزاد والراحلة.

انبعاثهم: خروجهم معك للغزو.

فثبطهم: فحبسهم وعوّقهم وصرفهم عن الرغبة فيه.

خبالاً: فساداً وشرًّا.

ولأوضعوا خلالكم: ولأسرعوا بينكم بالنمائم لتفريق كلمتكم.

يبغونكم الفتنة: يطلبون لكم الفتنة والشر بإيقاع الخلاف بينكم.

وفيكم سماعون لهم: أي وفيكم أناس يسمعون حديثكم فينقلوه إليهم.

ابتغوا الفتنة: طلبوا تفريق المسلمين.

وقلبوا لك الأمور: دبروا لك المكايد والحيل وأجالوا الرأي في إبطال دينك.

مسلك المؤمنين والمنافقين

ثم يبيّن القرآن نفسية المؤمنين تجاه القيام بواجب الجهاد في سبيل الله:

﴿لا يَسْتَأذِنُكَ الَّذِين يُؤْمِنُون بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أن يُجَاهِدوا بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم﴾ أي ليس من عادة المؤمنين الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته، وصدّقوا بوجود اليوم الآخر أن يطلبوا منك يا محمد الإذن بالجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، بل يبادرون إلى ذلك فوراً إذا سمعوا النداء العام منك إلى الجهاد في سبيل الله، فضلاً عن أنهم لا يستأذنونك في التخلف عنه ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ بِالمتَّقِينَ﴾ والله يعلم صدق نوايا المؤمنين وما اشتملت عليه قلوبهم من الإخلاص لله والاستجابة لداعي الجهاد.

وفي تخصيص المؤمنين بالإيمان بالله واليوم الآخر إيذان بأن الباعث على الجهاد هو الإيمان بهما، فمن آمن بالله حق الإيمان قاتل في سبيل دينه، ومن آمن باليوم الآخر هان عليه أن يُقتل في سبيل الله لما يعلم من ثواب الله على ذلك، وما أعد الله له من النعيم في الآخرة، ومن لم يؤمن بذلك كان في منأى عن ذلك.

هذا هو شأن المؤمنين أما المنافقون فهم على خلاف ذلك:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الّذين لا يُؤمِنونَ بِاللَّه وَاليَومِ الآخِرِ﴾ أي إنما يطلب منك الإذن في التخلف عن الجهاد الذين لا يصدّقون في قرارة أنفسهم بوحدانية الله ولا باليوم الآخر ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُم فَهُمْ في رَيْبِهِم يَتَرَدَّدونَ﴾ فهؤلاء قلوبهم في شك مما جئت به يا محمد من الوحي من عند الله، فهم في شكهم يترددون بين الإقدام على الجهاد وبين الإحجام عنه، ويتحيرون في قبول الحق الذي دعا إليه القرآن أو في رده.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الخُروجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي لو أراد هؤلاء المنافقون أن يخرجوا معكم أيها المؤمنون في غزوة تبوك لأعدوا لذلك ما ينبغي من الزاد والسلاح والجمال والخيل التي لا يستغني عنها المقاتلون في سفرهم الطويل، وكانت في مقدورهم وتحت أيديهم ولكنهم لم يريدوا ذلك، وهذا دليل على عزمهم على التخلف عن

الجهاد ﴿وَلكن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي ولكن كره الله نهوضهم للخروج معك إلى الغزو فمنعهم وحبسهم عن ذلك بما استقر في نفوسهم من الجُبْن والكسل وكراهة الغزو في سبيل الله ﴿وَقيل[١] اقْعُدوا مَعَ القَاعِدينَ﴾ هنا ذم ولوم للمنافقين لأن القاعدين عن الغزو هم الضعفاء من صبيان ونساء وعميان وعجزة ومرضى.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم ما زَادُوكُم إلاَّ خَبَالاً﴾ أي لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الجهاد في سبيل الله ما زادوكم إلاّ فساداً وشراً وضعفاً في القتال، وخللاً في النظام كما حصل في غزوة حُنين، حيث فرّ المنافقون من ساحة القتال في أول المعركة فاضطرب لذلك الجيش كله ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ الإيضاع: سرعة السير، والمراد هنا الإسراع في الدخول بين المؤمنين بالنميمة والإفساد فيما بينهم بما يختلقونه من الأكاذيب ﴿يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بأن يفرّقوا كلمتكم ويحدثوا الاختلاف فيما بينكم ﴿وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُم﴾ أي وفيكم ضعاف الإيمان يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو بمعنى وفيكم جواسيس لهم يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالمينَ﴾ والله عليم بهؤلاء الظالمين محيط بضمائرهم وظواهرهم وما يحدث منهم.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ لقد رغب المنافقون وقصدوا الشر للمسلمين بتفريق كلمتهم، وتشتيت شملهم من قبل غزوة تبوك، وكان ذلك يوم معركة أُحُد حيث انسحب عبد الله بن سلول بمن معه من أتباعه وأنصاره من جيش المسلمين، كما أنهم يحاولون أن يفتنوكم عن دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم ويردّوكم إلى الكفر

---

(١) قيل: فعل ماضٍ مبنى للمجهول بما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون، فإذا كان التثبيط من الله فكأنه قال لهم: اقعدوا بإذن الله لما يعلم من عدم أهليتكم للجهاد، وإذا كان القول من رسول الله فهو قد أذن لهم بالقعود والتخلف عن الجهاد لما استشف من تراخيهم وعدم رغبتهم في الغزو، وقد يكون القول من الشياطين الذين حسّنوا لهم بوسوستهم القعود وعدم الذهاب إلى الغزو، وقد يكون القول من بعضهم البعض، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة وهي كلمة (قيل) معاني متعددة. نقلاً عن تفسير الشعراوي بتصرف.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أي ودبروا لك يا محمد الحيل والمكايد وأجالوا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ إلى غاية مجيء الحق وهو النصر والظفر لك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعلا دين الله بالنصر على المشركين ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وهم كانوا يكرهون انتصار الإسلام لأنهم يرغبون في هزيمته وخذلانه، ولكن الله خيّب آمالهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

شرح المفردات:

ولا تفتنّي: ولا توقعني في المعصية بتخلّفي من غير إذن.

حسنة: نعمة والمراد بها هنا النصر والغنيمة.

مصيبة: شدة كهزيمة غزوة أُحُد.

كتب الله لنا: أثبت في علمه، أو في اللوح المحفوظ.

مولانا: متولّي أمورنا.

تربّصون: تنتظرون.

إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة، أو الشهادة والمغفرة.

طوعاً أو كرهاً: أي طائعين أو كارهين.

فاسقين: متمردين خارجين على حدود الله.

نوايا المنافقين السيئة

ويتابع القرآن الكلام على المنافقين وما كانوا يتعللون به من أعذار كاذبة للتخلف عن الجهاد:

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ ائْذَن لي ولا تَفْتِنّي﴾ أي ومن المنافقين من يقول للنبي ﷺ ائذن لي في التخلف عن الجهاد ولا توقعني في المعصية والإثم إذا تخلفت بغير إذنك، متظاهراً بالحرص على رضاء النبي ﷺ ولكنه في الحقيقة سيىء النية خبيث الطوية **﴿ألا في الفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾** ألا فليعلم هؤلاء أنهم في المعصية والإثم سقطوا، وذلك بعقدهم العزم على التخلّف عن الجهاد بلا عذر **﴿وإنَّ جَهنّم لَمُحِيطَةٌ بالكَافرينَ﴾** هنا وعيد وتهديد للمنافقين فإن مصيرهم نار جهنم ليعذّبوا بها في الآخرة، وإحاطة جهنم بهم مراد بها عدم إفلاتهم من عذابها.

ثم توضح الآية التالية بعض نوايا المنافقين:

﴿إن تُصِبْك حَسَنَةٌ تَسُؤْهُم﴾ أي إن تصبك ـ أيها النبي ـ في بعض الغزوات حسنة من انتصار وغنيمة كما حصل يوم معركة بدر، يسؤهم ذلك لفرط حسدهم وكراهيتهم لك **﴿وَإن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾** أي وإن تصبك مصيبة تؤلمك كما أصابك يوم معركة أُحُد من هزيمة وكثرة ضحايا في جندك يقولوا على سبيل الشماتة: قد أخذنا الحيطة والحذر من قبل هذه المصيبة فلم نخرج

للقتال مع المسلمين وإلاّ لأصابنا ما أصابهم من ضحايا وخسائر ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ وينصرفوا عن المجلس الذي كانوا يتحدثون فيه بذلك وهم فرحون بما أصاب المسلمين من هزيمة.

هذه طبيعة المنافقين لأنهم لا إيمان لهم فهم يؤثرون السلامة والاستسلام للعدو على المخاطرة في دفعه، وما دروا ما يعقب ذلك من استيلاء العدو على ديارهم وتنكيله بهم وإذلاله لهم، وأن سلامة الأوطان لا تقوم إلا ببذل ضريبة الدم في سبيل العزة والكرامة.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين الشامتين: لن يحدث لنا من مصيبة إلاّ ما قدّره الله علينا وقضاه، وما كتبه سبحانه في اللوح المحفوظ. هذه الجملة من الآية هي أكبر عزاء للمؤمنين عندما تداهمهم المصائب من جروح وضحايا وكوارث في الحروب، ومن أيقن أنه لن يصيبه في الحياة إلا ما كتب الله له اندفع إلى الجهاد ومقارعة الأعداء بروح معنوية عالية دون أن يشعر بخوف من الأعداء أو وجل.

ثم تأتي تتمة الآية: ﴿هُوَ مَوْلانَا وَعَلى اللَّهِ فَليتوكَّلِ المؤْمِنُونَ﴾ أي أن الله هو مالكنا وناصرنا يتصرف بنا كيف يشاء فيجب الرضا بقضائه، فليفوّض المؤمنون أمرهم إلى الله وحده وليعتمدوا عليه.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين: ما تنتظرون أن يحل بنا إلاّ إحدى العاقبتين: كل واحدة منهما هي الحسنى من العواقب. إما النصر على الأعداء وفي ذلك المغنم والعزة والسلامة، وإما أن نُقتل بأيدي الأعداء وفي ذلك الشهادة والفوز بالجنة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بكم أن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أو بِأَيْدِينَا﴾ ونحن ننتظر أن يصيبكم الله بعذاب من عنده كما أصاب قبلكم الأمم الظالمة، كقوم عاد وقوم ثمود وغيرهما، أو تُصابون بعذاب القتل

والذلة على أيدينا عندما يأمرنا الله بذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُتَرَبِّصُونَ﴾ التربص بمعنى الانتظار في تمهل، أي فانتظروا أمر الله فيكم ونحن معكم منتظرون أمره، وفعل الأمر هنا (فتربصوا) يحمل معنى التهديد والوعيد لهم.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُم﴾ أي قل ـ أيها النبي ـ لهؤلاء الذين يريدون أن يستروا نفاقهم بإنفاق المال في الجهاد وغيره، أنفِقوا ما شئتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل الله عملكم الذي أحبطه نفاقكم ﴿إِنَّكُم كُنْتُم قوْماً فاسقين﴾ إنكم كنتم دائماً متمردين على دين الله.

هذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المال من جهة المنافقين، فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وطلباً للجاه والشهرة.

ثم تذكر الآية التالية الأسباب لعدم تقبُّل الله لنفقاتهم:

﴿وَمَا مَنَعَهُم أن تُقْبَلَ مِنهم نَفَقَاتُهُم إلاّ أَنَّهم كفَروا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أي وما منع قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلاّ كفرهم باللَّهِ وصفاته على الوجه الحق، وكفرهم برسالة محمد ﷺ وما جاء به من الهدى من عند ربه ﴿وَلاَ يأْتُونَ الصَّلاةَ إلاّ وَهُم كُسَالَى﴾ أي أنهم لا يؤدون الصلاة في نشاط وإقبال منهم عليها برغبة وشوق، وهذا بسبب ضعف إيمانهم، بل يؤدونها وهم كسالى وخوفاً من مذمة الناس. فليحذر المؤمنون أن يُقبِلوا على الصلاة بتكاسل أو رياء فإن ذلك من صفات المنافقين ﴿ولا يُنْفِقُون إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي ولا ينفقون نفقة في سبيل الله إلا وهم كارهون لهذا الإنفاق في سرائرهم، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء والخوف من انكشاف أمرهم.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

شرح المفردات:

تزهق: تهلك.

يفرقون: يخافون.

يجدون ملجأ: يجدون حصناً ومعقلاً يلجأون إليه.

مغارات: كهوفاً في الجبال.

مُدَّخَلاً: سرداباً في الأرض أو نفقاً.

لَوَلَّوْا: لانصرفوا.

وهم يجمحون: يسرعون أشد الإسراع للدخول فيه.

يلمزك: يعيبك ويطعن عليك.

يسخطون: يغضبون.

حسبنا: كافينا الله من فضله وقسمته.

سلوك المنافقين

ويتابع القرآن فيبين ما يعانيه المنافقون من قلق وعذاب بالنسبة لأموالهم وأولادهم:

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُم ولا أَولادُهُم﴾ هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي ﷺ

إلا أن المراد به جميع المؤمنين. والإعجاب بالشيء أن يسر به سرور راضٍ به متعجب من حسنه، والمعنى: فلا تستحسن أموال المنافقين وأولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن الله تعالى ما أعطاهم الأموال والأولاد إلا للعذاب. فالمال ابتلاهم به الله بالآفات والمصائب وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون ذلك، وأما عذابهم من جهة أولادهم فلأنهم يرونهم قد نشأوا في الإسلام واطمأنت به قلوبهم وأنهم يجاهدون في سبيل الله، وكل هذه حسرات في قلوبهم.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي يريد الله أن تخرج أرواحهم من أجسادهم بصعوبة عند موتهم وهم كافرون بالله ورسوله محمد ﷺ فيعذبهم الله بسبب كفرهم في الآخرة.

والسبب أن الذي انغمس في شهوات الدنيا والمعاصي ولم يعمل شيئاً للآخرة بعد الممات فعندما يأتيه الموت ويوقن أن ما ينتظره هو العذاب عندئذ يعظم حزنه وتشتد حسرته ويكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة فتخرج روحه من جسده بصعوبة وألم.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ ويحلف المنافقون بالله أنهم على دينكم ـ أيها المؤمنون ـ ولكنهم في الحقيقة ليسوا على دينكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ والفرق: هو الخوف، فهم في خوف دائم من أن يفتضح أمرهم فيعزلهم المسلمون عن مجتمعهم ويحاربونهم كمحاربتهم للكفار، فالخوف على مصيرهم هو الذي جعلهم يحلفون كذباً لستر نفاقهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي لو يجد أولئك المنافقون ملجأ يلجأون إليه كحصن أو قلعة أو نحوهما أو كهفاً في الجبال يخفون فيه أنفسهم، أو نفقاً في الأرض يدخلونه ليستتروا عن أعين الناس ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ لانصرفوا إليه وهم يُسرعون إليه إسراع الفرس الجموح الذي لا يثنيه اللجام عن الوقوف في مكانه،

والجموح: هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذي تركبه فلا تقدر على كبح جماحه أو التحكم فيه.

ومن بديع نظم القرآن أنه ذكر أولاً الأمر الأعمّ وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر الأماكن العالية التي يختفي فيها الخائفون وهي الكهوف في الجبال، ثم ذكر الأماكن المنخفضة التي يُختفى فيها وهي الأنفاق في الأرض فبيّن بذلك مبلغ حرصهم على الهروب من أي معركة يخوضها المسلمون مع أعدائهم، والسبب أنهم لا يؤمنون، فكيف يقاتلون في قضية لا يؤمنون بها؟

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ﴾ واللمز: هو الطعن والعيب في الغير، والمعنى: ومن المنافقين من يعيبك ـ أيها النبي ـ ويطعن فيك عند قسمتك الصدقات وتوزيعها على مستحقيها ومن أقوالهم: والله لا يعطيها محمد إلا من أحب، ولا يؤثر بها إلاّ هواه.

﴿فَإِن أُعْطُوا مِنها رَضُوا﴾ فإن أعطيتهم يا محمد من الصدقات ما يريدون وما يشتهون رضوا بها ﴿وَإِن لم يُعْطَوْا مِنْها إذا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وإن لم تعطهم منها ما يحبون يغضبون من قسمتك الصدقات.

﴿وَلَوْ أَنَّهم رَضُوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسولُهُ﴾ أي ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا بما أعطاهم الله ورسوله من عطاء لكان خيراً لهم. والتصريح بأن العطاء من الله إشعار بأن النبي ﷺ وزع الصدقات حسبما أوحى الله إليه فلا مجال إذن للطعن والعيب في النبي ﷺ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ وقالوا: كافينا الله سيغنينا من فضله برزقه فيعطينا رسول الله أكثر مما أعطانا اليوم ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ إننا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون. وفي هذا إيحاء للمؤمنين بأن لا يبتغوا بإيمانهم الغنى والمناصب الدنيوية، وأن عليهم أن يبتغوا من الإيمان الفوز برضاء الله وسعادة الآخرة.

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾.

مصارف الزكاة

وبعد أن طعن المنافقون في عطاء رسول الله ﷺ للصدقات بينت الآية الكريمة مصارف الزكاة.

استهلت هذه الآية بلفظ (إنما) الذي يفيد الحصر، أي أن الصدقات مقصورة على الذين نصّت عليهم هذه الآية دون سواهم، والمراد بالصدقات هنا: الزكاة المفروضة، ولنبين بالتتابع ما نصّت عليه الآية:

﴿للفقراء﴾: جمع فقير وهو من له أدنى شيء من المال وليس له كسب يفي بحاجته وهو مع حاجته يتعفف عن مسألة الناس.

﴿والمسَاكين﴾: جمع مسكين وهو من لا شيء له من المال فيحتاج إلى المسألة والتذلل للناس للحصول على القوت.

وقيل: إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما في المعنى وإن افترقا في الاسم وإنهما صنفان يجمعهما الإقلال والفاقة.

ويقول الشافعي: من كان قوياً على الكسب مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام، واحتج بحديث النبي ﷺ «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة(١) سويّ(٢)»(٣).

﴿والعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم القائمون على جمع الزكاة وهم من كلّفهم الإمام

---

(١) مِرّة: المِرّة هي القوة والشدة.

(٢) سويّ: السوي هو الصحيح الجسم.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

بجمعها وتحصيلها، ويدخل فيهم الحاسب والكاتب وأمين الصندوق ومن يوزع الصدقات وهؤلاء يعطون من بيت المال قدر أتعابهم، ولا يُشترط فيهم الفقر.

﴿والمؤَلَّفَةِ قُلوبُهُم﴾ المراد بهم الأشخاص الذي يرى الإمام دفع شيء من أموال الزكاة إليهم تأليفاً لقلوبهم نحو الإسلام وهم أصناف:

صنف منهم تتألف قلوبهم لمعونة المسلمين.

وصنف تتألف قلوبهم لترغيبهم في الإسلام.

وصنف تتألف قلوبهم لكفّهم عن أذى المسلمين. فيجوز أن يُعطى كل صنف من هذه الأصناف من سهم المؤلفة قلوبهم، وعطاء هؤلاء من قبيل الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه.

﴿وفي الرِّقَابِ﴾ أي في تحرير العبيد من الرق، فقد كان من عادة العرب أن يتفق السيد مع عبده المملوك على مال معين إذا أداه له يعتقه من الرق فهذا يُعان من مال الزكاة، أو يُدفع من مال الزكاة لشراء الأرقّاء وعتقهم، لهذا أمر الله الحكومة الإسلامية أن تساهم في تحرير الأرقاء بأموال الزكاة، وقد ذهب الرق تقريباً من العالم، ومما يسجل في هذا المقام أن الدولة الإسلامية هي أول دولة ساعدت على تحرير الأرقاء في العالم.

﴿والغَارِمِينَ﴾ جمع غارم وهو من استدان في غير معصية ثم عجز عن الوفاء بِدَيْنِهِ ولم يمهله صاحب الدَّين ولم يتنازل عن دَيْنِه، ففي هذه الحالة يقوم بيت مال المسلمين بالمساهمة في سداد هذا الدَّيْن من سهم الزكاة.

والجدير بالذكر أن الإسلام يجعل الديون العادلة تُؤدى من بيت مال الزكاة، وبهذا سبق الشرائع الإنسانية إلى هذا الفضل وخصوصاً الشرائع التي عاصرت نشأته، وحسبك أن تعلم أن القانون الروماني في بعض أدواره كان يسوّغ للدائن أن يسترقّ المَدين[1].

(١) جاء في القانون الروماني المسمى قانون الألواح الاثني عشر: المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق إن كان حراً ويحكم عليه بالحبس أو القتل إذا كان رقيقاً.

﴿وفي سَبيلِ اللَّهِ﴾: ذهب جمهور الفقهاء إلى أن هذا الصنف هم المجاهدون المتطوعون للغزو في سبيل إعلاء كلمة الله الذين لا يتقاضون راتباً من الحكومة فيعطى كلٌّ من الغازي والمجاهد ما يحتاج إليه من سلاح وطعام، وعلى هذا الأساس يصحّ أن ينفق من الزكاة على الجيش وكل ما يتصل به من إعداد المعدات والأسلحة بكل أنواعها ما دام يجاهد في سبيل الله بعد استيفاء مصارف الزكاة السابقة.

والإمام أحمد أضاف إلى الغزاة من يريد الحج وليس له مال يكفيه فيعطى من مال الزكاة ما يساعده على أداء فريضة الحج.

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن الجهاد لا ينحصر في الجانب المادي العسكري وحده وأنه يتسع لأنواع أخرى من الجهاد، فكل جهاد أُريد به أن تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله أيّا كان نوع هذا الجهاد وسلاحه.

«ومن أهم ما ينفق في سبيل الله في زماننا هذا إعداد الدعاة إلى الإسلام وإرسالهم إلى بلاد الكفار من قبل جمعيات منظمة تمدهم بالمال الكافي... ويدخل فيه النفقة على المدارس للعلوم الشرعية وغيرها مما تقوم به المصلحة العامة. وفي هذه الحالة يعطى منها معلمو هذه المدارس ما داموا يؤدون وظائفهم المشروعة التي ينقطعون بها عن كسب آخر»(١).

«ويشمل في سبيل الله إنشاء صحيفة إسلامية تقف في وجه الصحف الهدامة وتصدع بكلمة الحق وترد عن الإسلام أكاذيب المفترين وشبهات المضللين...

ونشر كتاب إسلامي يحسن عرض الإسلام ويكشف عن مكنون جواهره، ويبرز جمال تعاليمه، وتعميم مثل هذا الكتاب على نطاق واسع»(٢).

﴿وَابنِ السَّبيلِ﴾ السبيل هو الطريق، وقيل للسالك فيه (ابن السبيل) لمروره عليه

---

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

(٢) فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوي.

والمراد به المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال يُرجعه إلى بلده كأن فُقِدَ منه أو سلب أو استهلكه في حاجة ضرورية، فهذا المسافر يُعطى من مال الزكاة.

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي أن وجوب الزكاة وتوزيعها على الأصناف الثمانية المذكورة هو بحكم الله وفرضه ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله محيط علمه بكل شيء يفعل كل شيء بحكمة بالغة، ومنها وضع الصدقات في مواضعها النافعة.

توزيع الزكاة: الفقراء والمساكين هم أول الأصناف الذين تصرف لهم الزكاة، ويجوز صرفها إلى صنف واحد من الأصناف المذكورة في الآية مع الاجتهاد وتحري مواضع الحاجة من هذه الأصناف.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن
يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

شرح المفردات:

أُذُنٌ: أي يسمع كل ما قيل له ويقبله.

أُذُنُ خير: أي يسمع الخير فيما يجب سماعه وليس بأذن في غير ذلك.

من يحادد الله ورسوله: أي من يخالف الله ورسوله ويعاديهما.

الخزي: الذل والهوان.

إيذاء المنافقين للنبي ﷺ

وكان من صفات المنافقين إيذاء النبي ﷺ بأقوالهم الباطلة من ذلك ما ورد في الآية التالية قولهم:

﴿وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقولُون هُوَ أُذُنٌ﴾ هذه الآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقولون: إنما محمد أُذُنٌ أي يسمع كل ما يقال له ويقبله ويصدِّقه. فقولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ هو من تسمية الشخص باسم الأُذُن للمبالغة في وصفه بوظيفتها وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه، كقولهم للجاسوس (عين) ويطلق على لازمه وهو عدم الدقة في التمييز بين ما يسمع، وتصديق ما يُعقل وما لا يعقل. أرادوا بذلك بأنه ليس له ذكاء ولا يمحص القول الذي ينقل إليه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُم﴾ أي قل لهم أيها النبي إني أُذُن خير ولست بأذن في غير ذلك كسماع الباطل والكذب والغيبة والنميمة، فالنبي ﷺ لا يُلقي سمعه لشيء من ذلك وإذا سمعه لا يقبله.

وأكبر دليل على كون النبي ﷺ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ هو معاملته للمنافقين بالحلم والحكم عليهم بظاهر حالهم، وقبول أعذارهم فلم يعاقبهم بما يبلغه عنهم، ولو كان يؤاخذهم بما يسمع عنهم لما سَلِمُوا من عقابه لأن أخبار السوء عنهم كثيرة.

ثم وصف الله النبي ﷺ بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي يُصدِّق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة على وحدانيته وما شاهد من الآيات الكونية التي تشهد بوجوده وقدرته وحكمته ﴿وَيُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدقهم لما عَلِمَ فيهم من صدق وإخلاص وحسن سيرة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِين آمَنُوا مِنكُم﴾ أي أن النبي ﷺ هو رحمة للذين آمنوا منكم، لأن النبي هو سبب إيمانهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وهذه الهداية رحمة للمؤمنين ﴿وَالَّذِين يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يؤذون رسول الله بالانتقاص من قدره والطعن فيه، أَعَدَّ الله لهم في الآخرة عذاباً شديد الألم.

وكان المنافقون يتكلمون بما لا يليق بالنبي ﷺ وبالمؤمنين ثم يأتون إليهم

وينكرون ما نُقِلَ على لسانهم في ذلك، ويؤكدون إنكارهم بالقسم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكم﴾ أي يحلفون بالله لكم ـ أيها المؤمنون ـ أنهم ما أساءوا إلى رسول الله ﷺ بكلام يؤذيه.

يريد المنافقون بذلك أن ترضوا عنهم، وهم يحلفون بالله كذباً ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أن يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والضمير في (يرضوه) هو بالمفرد ويرجع إلى الله سبحانه والمراد به تعظيم للجانب الإلهي، وكان الظاهر أن يُقال «يرضوهما» فعدل عن ذلك إلى قوله (يرضوه) لأن المقصود بجميع الطاعات والعبادات هو الله وحده فاقتصر على ذكر رضاء الله، ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي إن كانوا مؤمنين حقًّا فليعملوا على إرضاء الله ورسوله بأن يطيعوا أوامرهما.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّم خَالِداً فِيهَا﴾ ألم يعلموا: الاستفهام هنا للتوبيخ على سوء حالهم. يحادد: يخالف ويعادي، والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من يعادي الله ورسوله ويخالف أمرهما، فجزاؤه في الآخرة أن يُعذّب بنار جهنم ماكثاً فيها أبداً؟ ﴿ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ﴾ أي ذلك الخلود في عذاب جهنم هو الفضيحة والذل والهوان لهم حيث ينكشف حالهم يوم القيامة على الناس جميعاً.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ
ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ
إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ
تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ
مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

شرح المفردات:

يحذر: يخاف. والحذر هو الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع.

تنبئهم: تخبرهم.

مخرج ما تحذرون: مظهر ما تخافونه من الفضيحة.

نخوض: نتحدث ونخوض في الكلام.

المنافقون: الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

بعضهم من بعض: أي متشابهون في النفاق.

ويقبضون أيديهم: يمسكونها عن الإنفاق في سبيل الله ومرضاته.

الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله ودينه.

صفات المنافقين وخوفهم من انكشاف أمرهم

كان النبي ﷺ يخبر المنافقين بما يضمرونه في أنفسهم من السوء وذلك بما ينزل عليه الوحي من السماء، ولهذا كانوا في خوف دائم من أن يُـنَـزَّل على النبي ﷺ سورة من القرآن تفضحهم وتنشر خبرهم بين المؤمنين وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿يَحْذَرُ المنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيهِم سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا في قُلُوبِهِم﴾ أي يخشى المنافقون أن يُنَزِّلَ الله على محمد ﷺ في شأنهم سورة تُتلى على المؤمنين تخبرهم بما كان المنافقون يتحدثون به فيما بينهم من سخرية واستهزاء بالنبي ﷺ وبما كانوا يتبادلونه بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ﴿قُل اسْتَهزِئُوا إن اللَّه مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرونَ﴾ الأمر هنا للتهديد، أي قل لهم يا محمد استهزئوا ما شئتم فإن الله معلن ومظهر على الملأ ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التي تفضحكم وتكشف أسراركم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم لَيَقُولُنَّ: إنَّما كُنَّا نَخُوضُ[1] وَنَلْعَبُ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد عما قالوا من الباطل والكذب، قالوا معتذرين: إنما كنا ندخل ونمضي في أحاديث مختلفة لا عن طريق الجد بل عن طريق اللهو واللعب.

قيل في أسباب نزول هذه الآية: إنه بينما كان رسول الله يسير في جيشه إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين قالوا: أيرجو هذا الرجل ـ أي رسول الله ـ أن يفتح قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات!! فأطلع الله رسوله محمداً على ذلك فقال: عليّ بهؤلاء النفر، فدعاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب. فلما قالوا ذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يقول لهم على سبيل التوبيخ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُم تَسْتَهزِءُونَ﴾ أي كيف ساغ لكم أن تخوضوا وتلهوا مستهزئين بالله ودينه وبآيات القرآن المنزلة من عنده وبرسوله محمد ﷺ؟

﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إيمانِكُم﴾ أي لا تلتمسوا الأعذار الباطلة رغبة في دفع اللوم عنكم فقد ظهر كفركم بعد ادّعائكم الإيمان ﴿إن نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُم﴾ أي إن نتجاوز عن ذنوب جماعة منكم لتوبتهم عما قالوا ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهم

---

(١) نخوض: أصل الخوض الدخول في مائع من الماء والطين ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى.

﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي نعاقب جماعة أخرى بالعذاب الشديد لإصرارهم على النفاق والإجرام.

ثم يبين القرآن بعض صفات المنافقين:

﴿الْمُنَافِقُونَ والمنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ﴾ أي هم صنف واحد متشابهون في أخلاقهم وسلوكهم يستوي في ذلك ذكورهم وإناثهم فمن سلوكهم أنهم ﴿يَأمرُونَ بِالْمنكَرِ﴾ والمنكر خلاف المعروف أي يأمرون بالكفر بالله وبالمعاصي وكل ما هو قبيح في الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَون عَنِ المَعْرُوفِ﴾ وينهون الناس عن الإيمان بالله والفضائل الإنسانية والأعمال الصالحة ﴿وَيَقبِضُونَ أَيدِيَهُم﴾ قبض اليد ضم أصابعها إلى باطن الكف وهو كناية عن شدة بخلهم بإنفاق المال في أي وجه من وجوه الخير والبر، كما أن بسط اليد كناية عن كثرة الإنفاق.

﴿نَسُوا اللَّه فَنَسِيَهُمْ﴾ النسيان: الترك، أي تركوا طاعة الله واتّباع أمره فهم لا يذكرون الله في شيء من أعمالهم فتركهم سبحانه من توفيقه وهدايته ورحمته، وجعلهم بمنزلة المنسيين من ثوابه ﴿إِنَّ المنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ إن المنافقين هم الذين بلغوا الغاية في الخروج عن دين الله وطاعته والتمرد على تعاليمه.

فليحذر المؤمن أن ينسى الله فيكون من جملة المنافقين.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا
هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ
فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ
أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

هي حسبهم: هي كافيتهم جزاء وعقاباً على كفرهم.

ولعنهم الله: طردهم من رحمته.

مقيم: دائم لا يزول ولا يتحول.

فاستمتعوا بخلاقهم: الخلاق هو النصيب من الشيء، أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم الذي قُدّر لهم من دنياهم.

خضتم: الخوض هو الدخول في الباطل واللهو.

حبطت أعمالهم: بطلت وضاع ثوابها لكفرهم.

نبأ: خبر له شأن.

المؤتفكات: المنقلبات وهي قرى قوم لوط جعل الله عاليها سافلها.

إنذار شديد للمنافقين

وبعد أن بيّن الله صفات المنافقين وأعمالهم السيئة بيّن بعد ذلك ما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة يوم القيامة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ المنَافِقِينَ والمنَافِقَاتِ والكفَّارَ نَارَ جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الوعد يكون للخير والوعيد للشر، فإذا ذكر القرآن الوعد هنا في معرض العذاب فهو تهكّم بالمنافقين الذين وعدهم الله نار جهنم يصلون سعيرها، ماكثين فيها أبداً لا يبرحونها ولا ينقطع عنهم عذابها ﴿هِيَ حَسْبُهُم﴾ أي أن جهنم وحدها تكفيهم عقاباً وعذاباً لهم، وبالإضافة إلى ذلك ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَهُم عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ولهؤلاء نوع شديد من العذاب في النار دائم لا يفارقهم.

وبعد الكلام على المنافقين بصيغة الغائب يتحول القول إلى صيغة المخاطب[١] للتشديد عليهم:

﴿كَالَّذِين مِنْ قَبْلِكُم كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُم قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً﴾ أي أنتم أيها المنافقون وكفّار مكة حالكم كحال من مضى من الأمم قبلكم في تكذيب الأنبياء والمكر والخديعة والغدر، لقد كانوا أشد منكم قوة في الأبدان، كما كانوا أكثر غنى وذرية منكم.

﴿فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِم﴾ والخلاق هو النصيب والحظ الذي يصيب الإنسان من أي نعمة، والمعنى: تمتع من قبلكم بنصيبهم المقدّر لهم في هذه الحياة الدنيا وكانوا منغمسين بملذاتها وشهواتها. والسين والتاء الداخلتان على تمتعوا ﴿فاستمتعوا﴾ تفيد الاستزادة والاستدامة في التمتع.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُم كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِين مِنْ قَبْلِكُم بِخَلاقِهِم﴾ أي

---

(١) وهو ما يسمى في البلاغة التفات من الغيبة إلى الخطاب.

وأنتم أيها المنافقون قد تمتعتم بنصيبكم المقدّر لكم من ملاّذ الدنيا وشهواتها كما تمتع الذين من قبلكم في ذلك ﴿وَخُضْتُم كالَّذي خَاضُوا﴾ ودخلتم في الباطل واللهو والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين كما خاض الذين من قبلكم في الباطل.

﴿أُولَئِكَ حَبِطَت أَعْمَالُهُم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾ والحبط: السقوط والبطلان، والمراد أنهم لم يحصلوا من نفع على أعمالهم في الدنيا حيث أصابهم الفشل والخيبة فيما كانوا يكيدون للمؤمنين، أما في الآخرة فلن ينالوا ثواباً على أعمالهم إلا عذاب النار لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ فهم خسروا الدنيا فلم يحصلوا منها على ما يبتغون وسيخسرون الآخرة لِمَا أَعدَّ الله لهم فيها من العذاب.

ثم تنتقل الآيات إلى تحذير المنافقين من أن يحل بهم من العذاب والهلاك مثلما حلّ بالأمم السابقة عندما كذّبوا رُسُلَ الله، قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ الّذين مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إبراهيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ والمؤتَفِكَاتِ﴾ ألم يأتهم نبأ: الاستفهام هنا بمعنى التقرير والتحذير، أي لقد أتاهم ووصل إلى أسماعهم خبر الأمم التي كانت قبلهم، وهو ما فعلوه من الكفر والعصيان، وبلغهم ما فعل الله بهم من الإهلاك: فقوم نوح أهلكهم الله بالطوفان، وقوم عاد أهلكهم بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود أهلكهم بالصيحة فقضت عليهم، وقوم إبراهيم أهلكهم بسلبهم وحرمانهم النعم التي كانوا عليها، وأصحاب مدين وهم قوم شعيب أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة وهي غمامة أمطرتهم ناراً، والمؤتفكات: أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط انقلبت فصار عاليها سافلها وسببت هلاك من فيها.

وقد ذكر الله هذه الأمم الست لأن آثار بعضهم باقية في الجزيرة العربية وبلاد الشام واليمن فكان العرب يمرّون عليها أثناء سفرهم للتجارة وغيرها، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي هذه الأمم أتتهم رسل الله بالحجج الواضحات الدالة على وحدانية الله ووجوب إخلاص العبادة له وطاعته، كما أتتهم رسل الله بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما يبلغونهم من أوامر الله لهم، فأنكروا ذلك وكذّبوا رسل الله فعاقبهم الله على هذا التكذيب ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم﴾ أي فما صح وما استقام أن يظلمهم الله، لأنه سبحانه لم يعجّل لهم العقوبة، بل أرسل إليهم رسله فأنذروهم وحذروهم من مغبة كفرهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُم يَظْلِمُون﴾ وظلمهم كان بجحودهم نبوّة أنبيائهم وما جاءوا به من الهدى وكفرهم.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

شرح المفردات:

أولياء: جمع وليّ وهو الناصر.

خالدين فيها: ماكثين فيها إقامة دائمة.

جنات عدن: أي جنات إقامة وخلود.

صفات المؤمنين وثوابهم في الآخرة

وبعد أن بيّن الله صفات المنافقين أتبع ذلك بالكلام على صفات المؤمنين الحسنة التي هي ضد صفات المنافقين، والمقارنة بين الضدين تظهر الأمرين معاً في أجلى

صورة، وقديماً قال الشاعر العربي: والضد يظهر حُسنه الضد.

﴿والمُؤْمِنُونَ والمؤمِنَاتُ بَعْضُهُم أَولِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أولياء: جمع وليّ وهو الذي يهيىء للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه، كما أن الوليّ للمرء هو المحب والصديق والناصر. فالمؤمنون يجمعهم الإيمان وحسن الصحبة والتناصر والمودة، والتعاون على ما فيه الخير لهم. وهذا مقابل ما جاء في وصف المنافقين، ﴿بَعضهم مِنْ بَعْضٍ﴾ ولم تقل الآية: بعضهم أولياء بعض، لأن المنافقين قلوبهم مختلفة لا يجمعهم الحب والتناصر شأن المؤمنين.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ﴾ فهم يأمرون بالمعروف وهو كل ما عُرِفَ في شرع الإسلام من خير وبرّ وطاعة لله ورسوله. كما أن المؤمنين ينهون عن المنكر وهو ضد المعروف، والمنكر كل ما قبّحه الشرع وحرّمه وكرهه، وهذا في مقابل ما وصفه الله للمنافقين ﴿يَأْمُرونِ بِالمنْكَرِ وَينْهَوْنَ عَنِ المعْرُوفِ﴾.

ومن صفات المؤمنين: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة المفروضة أداءً كاملاً من الخشوع والإخلاص. والصلاة تحتوي على ذِكْرِ الله وتقديسه ومناجاته ودعائه. وهذا كله في مقابل ما جاء في وصف المنافقين ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾.

ومن صفات المؤمنين أنهم ﴿وَيُؤْتُون الزكاة﴾ وهي الصدقة المفروضة شرعاً والتي تسد حاجات المعوزين والمحرومين. وهذا في مقابل ما وصف الله المنافقين ﴿وَيَقْبِضُون أَيْدِيَهُم﴾.

ومن صفات المؤمنين ﴿وَيُطيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ﴾ أي يستمرون على طاعتهما فيما أمرا به وترك ما نهيا عنه، وهذا في مقابل ما وصف الله المنافقين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ والفسوق هو الخروج عن طاعة الله.

ثم يبيّن الله ثمرة أعمال المؤمنين والمؤمنات ﴿أَولئك سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي أن الله

سيشملهم برحمته في مستقبل أمرهم في الدنيا والآخرة ما داموا مستمرين على طاعة الله وطاعة رسوله، وبذلك يحيون دائماً في رحمة الله التي لا تنقطع، بينما المنافقون قد بيّن الله مصيرهم فيما سبق بقوله: ﴿وَلَعَنَهُم اللَّهُ وَلَهُم عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي أن الله هو القوي الغالب الذي يضع كل شيء في موضعه بحكمة بالغة، فيكافىء المؤمنين ويعاقب الكافرين.

ومن الملفت للنظر أن القرآن شمل المؤمنات مع المؤمنين في الأمور الخيّرة والفضائل الإنسانية والرحمات الإلّهية، بينما كانت المرأة في كثير من المجتمعات الإنسانية في عصر ما قبل الإسلام منبوذه محتقرة، لا يُنظر إليها إلاّ على أنها أداة للشر والغوايه، وأنها غير مساوية للرجل في الإنسانية.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات من ثواب في الآخرة:

﴿وَعَدَ اللَّهُ المؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فالله وَعَدَ المؤمنين والمؤمنات ـ ووعد الله حق ـ وعدهم بجنات في الآخرة فيها أنواع النعيم مما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها، بخلاف نعيم الدنيا القليل الزائل ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ وفي الجنة يسكنون منازل يطيب فيها العيش ليس فيها ما يسيء أو يزعج ﴿في جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي وهم في هذه الجنات يقيمون فيها إقامة دائمة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وأعظم من ذلك كله رضاء الله عنهم. ورضوان الله عنهم هو نعيم روحي فيه من اللذة والسعادة ما يفوق نعيم الجنة، وهذا ردٌّ على الذين يدّعون بأن نعيم الجنة في الإسلام هو نعيم حسي يخلو من النعيم الروحي. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن الله سبحانه يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده

أبداً»(١). ويختم الله الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ أي أن ما أعطاه الله لهم من النعيم في الجنة والحصول على رضاء الله هو الفوز الذي بلغ الغاية في العطاء، فينبغي الحرص على طاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه لننال رضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

شرح المفردات:

اغلظ عليهم: شدّد عليهم ولا ترفق بهم.

مأواهم: مسكنهم ومقرّهم.

بئس: ساء.

المصير: المآل والمرجع.

وما نقموا: أي كرهوا غاية الكراهة.

يتولوا: يعرضوا.

وليّ: صديق ينفعهم أو سيد يتولى أمرهم.

---

(١) متفق عليه.

التشديد على الكفار والمنافقين

ظل النبي ﷺ فترة طويلة بعد هجرته إلى المدينة المنورة يعامل المنافقين باللين والرفق، ولكن هذه المعاملة منه لم تؤت ثمارها، بل ازداد المنافقون عِصياناً وتمرداً إلى أن جاء الوحي الإلٓهي يرشد النبي ﷺ إلى كيفية التصرّف معهم بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمنَافِقينَ واْغْلُظْ عَلَيْهِم﴾ أي يا أيها النبي ابذل جهدك في مقاومة هذين الفريقين بمثل ما تراه مناسباً لردهم عن عصيانهم وزجرهم عن تعدياتهم، واشدد عليهم ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة ﴿وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ﴾ ومكانهم ومقرهم الذي يأوون إليه في الآخرة هو جهنم ليكتووا بنارها ﴿وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ وساء المرجع الذي سيصيرون إليه.

وكان المنافقون يشتمون رسول الله ﷺ فيما بينهم ويسيئون إليه، وكان الوحي الإلٓهي يخبر رسول الله ﷺ بما يصدر عنهم، من ذلك ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تظلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاهُ رسول الله فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله تعالى ما قالوا بما نُسِبَ إليهم حتى تجاوز عنهم النبي ﷺ، ونزل قوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي يقسم هؤلاء المنافقون بالله أنه ما صدر عنهم شَتْمٌ وقول سيىء في حق رسول الله ﴿وَلَقَدْ قَالوا كَلِمةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إسْلامِهِمْ﴾ وكلمة الكفر هي سبّ رسول الله والطعن في الإسلام وبهذا ظهر كفرهم بعد أن كان باطناً في قلوبهم ﴿وَهمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهمت فئة من المنافقين باغتيال رسول الله عند رجوعه من تبوك فشعر بهم المرافقون لرسول الله ﷺ وأحبطوا كيدهم وكانوا بضعة عشر رجلاً. وقيل: ائتمروا بإخراج رسول الله من المدينة المنورة ليولوا عبد الله بن أُبيّ ملكاً عليهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي ما كرهوا وما عابوا

على رسول الله ﷺ إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء وهو إغناء الله لهم من فضله. وقد كان هؤلاء المنافقون فيما مضى في ضيق من العيش، فلما قدم رسول الله إلى المدينة المنورة أغناهم الله من فضله ووسّع عليهم أرزاقهم من الغنائم وغيرها، فبدلاً من أن يخصّوا رسول الله بالشكر والمحبة والتفاني في نصرته، قابلوا ذلك بالجحود والإساءة إليه.

وعندما ذكرت الآية الكريمة: ﴿أغناهم اللَّـهُ وَرَسُولُـهُ مِنْ فَضْلِـهِ﴾ كان المتعارف في كلام البشر أن يقال «من فضلهما» ولكن الآية قالت ﴿من فَضْلِـهِ﴾ أي الله، لأن الله لا يثنّى مع أحد.

﴿فَـإِن يَتُوبوا يَـكُ خَـيْـراً لَـهُم﴾ أي فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق وحظيرة الإيمان يقبل الله توبتهم ويكون ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة.

وفَـتْحُ باب التوبة رحمة من الله بالعباد فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب إثماً مصيره النار يوم القيامة، ولكان ذلك تحريضاً للمذنب على التمادي في إثمه، بينما إذا علم المذنب أن باب التوبة مفتوح أمامه أقلع عن ذنبه وسار على درب الهداية ﴿وَإِن يَـتَـوَلَّـوْا يُـعَـذِّبْـهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَليماً في الـدُّنْـيَـا والآخِرَةِ﴾ وإن يعرض هؤلاء المنافقون عن الإيمان والتوبة، ويستمروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق، يعذبهم الله عَذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والأسر والإذلال، وبالآخرة بأشد العذاب في نار جهنم ﴿وَمَا لَـهُمْ في الأَرضِ مِنْ وَليٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ وليس لهم في الأرض على كثرة أهلها صديق ولا ناصر يدفع عنهم عذاب الله.

* * * * *

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

شرح المفردات:

آتانا من فضله: أعطانا الله من نعمه.

إلى يوم يلقونه: إلى يوم يلاقون ربهم يوم القيامة.

فأعقبهم نفاقاً: جعل الله عاقبة بخلهم نفاقاً.

ونجواهم: ما تحدثوا به سرًا فيما بينهم.

من صفات المنافقين

وبعد أن بيّن القرآن فيما سبق بعض جرائم المنافقين جاءت الآيات التالية تحكي لنا مثالاً آخر عن سلوك بعض المنافقين الذين لا يخلو منهم قوم ولا يخلو منهم زمان:

﴿وَمِنهُم مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من عاهد الله تعالى وأقسم: لئن آتاهم الله من فضله مالاً وثراء ليشكرن الله على نعمه بالصدقة على الفقراء، وليكونَنَّ في عِدَادِ الصالحين الذين يسيرون على هُدى الله.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلوا بِهِ﴾ أي فلما حقّق الله لهم ما سألوه من سعة الرزق وأعطاهم من وَاسِع فضله بخلوا بما آتاهم الله من المال الوفير ولم يتصدَّقوا بشيء منه كما عاهدوا الله عليه **﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعرِضُونَ﴾** أي انصرفوا عن طاعة الله وهم قوم

عادتهم الإعراض عن الطاعات فلا يُنكر منهم هذا.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فجعل الله عاقبة بخلهم نفاقاً متمكناً في قلوبهم ملازماً لها إلى يوم يَلْقَوْنَ الله يوم القيامة **﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** أي بسبب أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله به من التصدق على المحتاجين وبسبب استمرارهم على الكذب في جميع أقوالهم.

وذكر القرآن سببين هما من أخصّ صفات المنافقين وهما: خلف الوعد والكذب، فكيف إذا كان خُلْفُ الوعد مع الله مقروناً بالقسم؟

فالمنافق مضطر إلى الكذب لأنه في ظاهره يخالف ما يبطن من الكفر والعداوة لرسول الله فهو يكذب كي يستر نفاقه، كما أنه يخلّ بالعهد وهذه صفة راسخة في المنافق لا يتخلى عنها، لأن الوفاء بالعهد يترتب عليه واجبات عليه أن يقوم بها، وهو لا يريد أن يُلزم نفسه بشيء فيه أدنى تضحية. فليحذر المسلم تلك الصفات التي تُورث النفاق، وليذكر قول رسول الله ﷺ إذ قال: «ثلاث من كُنّ فيه كان منافقاً وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان»[1].

ثم يبين القرآن بأن الله لا يخفى عليه شيء من أحوال المنافقين:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي أغاب عن علم هؤلاء المنافقين الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه أن الله يعلم ما يخفون في صدورهم من النفاق ويعلم ما يتحدثون به سرًّا بعيداً عن سمع الناس **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** وعلّام: مبالغة في العلم، أي أن الله محيط علمه بكل ما يغيب عنهم وعن غيرهم فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وأكثر الروايات التي تذكرها كتب التفسير في أسباب نزول الآيات السابقة تشير

---

(١) رواه مسلم.

إلى أنها نزلت في شأن (ثعلبة بن حاطب) ولنذكر ما جاء في صدده باختصار.

روي أن ثعلبة بن حاطب أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً فقال النبـي: يا ثعلبة قليل تؤدي حقه خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأُعطين كل ذي حق حقه، فدعا له رسول الله، فاتخذ غنماً فنمت وكثرت حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال يا ويح ثعلبة، ثم بعث النبي ﷺ اثنين ممن يعملون في جمع الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب الله الذي فيه فريضة الزكاة، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجعا حتى أرى رأيـي(١)، فنزلت الآيات فيه وفي أمثاله من المنافقين.

(١) هذه القصة لم تصحّ لدى المحدّثين الذين حققوا في أحاديث رسول الله. يقول الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: سنده ضعيف. ويقول ابن حجر في «تخريج الكشاف»: إسناده ضعيف جداً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ثعلبة هو ممن اشترك في معركة بدر وقد قال رسول الله في شأنهم لعمر: «ما يدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ويقول الضحاك كما جاء في تفسير القرطبي: إن الآيات نزلت في رجال من المنافقين نَبْتل بن الحارث وجدّ بن قيس ومعتّب بن قشير. ومما يؤيد ذلك أن القرآن ذكر قصة هؤلاء المنافقين بصيغة الجمع حيث قال: «فأعقبهم نفاقاً» ولو كان المقصود ثعلبة بالذات لقال «فأعقبه نفاقاً».

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ
وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن
يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل
لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ
فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

شرح المفردات:

يلمزون: يعيبون ويطعنون.

المُطَّوِّعين: المتطوعون الذين يفعلون الخير دون أن يكون واجباً عليهم.

جهدهم: طاقتهم ووسعهم (وهم الفقراء).

المخلّفون: الذين تخلفوا عن الجهاد دون حق.

بمقعدهم: بقعودهم.

خلاف رسول الله: أي بعد خروجه أو لأجل مخالفته.

لا تنفروا: لا تخرجوا للجهاد.

رجعك: ردك، والمراد رجوعك من تبوك إلى المدينة.

فـاقعدوا مع الخالفين: فاقعدوا مع من تخلف من المنافقين، أو اقعدوا مع الفاسدين.

المنافقون يسخرون من المؤمنين

ويتابع القرآن فيذكر بعض مساوىء المنافقين تجاه المؤمنين:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِين مِنَ المؤمنين في الصَّدَقَاتِ﴾ يلمزون: يطعنون. والمطوعين: هم المتطوعون المتبرعون بمالهم، والمراد بهم أغنياء المؤمنين الذين تبرعوا بأموالهم في الصدقات رغبة في رضاء الله ونيل ثوابه ﴿وَالَّذِينَ لا يجِدُون إلاّ جُهْدَهُم﴾ جُهدهم: أي طاقتهم وما يبلغه قوتهم، والمراد بهم فقراء المسلمين الذين تصدّقوا بقليل من المال على الرغم من حاجتهم إليه. فالله يذم المنافقين الذين يطعنون بالمؤمنين المتبرعين بأموالهم في الصدقات سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء. وقد روي أن رسول الله ﷺ حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف درهم فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة وهذه الأربعة أقرضتها لربي، فقال رسول الله: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت. . . وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر فقال: آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأقرضت الآخر ربي فأمر رسول الله بوضعه في الصدقات. فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمن بن عوف إلاّ رياء. وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه لـيُـذكر مع سائر الأكابر والله غنيّ عن صاعه.

﴿فَيَسْخَرون مِنْهُم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُم وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ﴾ فهؤلاء المنافقون الذين سخروا من المؤمنين بسبب ما بذلوه من الصدقات، فالله في مقابل ذلك سيجازي المنافقين على سخريتهم بالإذلال والإهانة وذلك حين فضحهم في هذه السورة ببيان نفاقهم وجعلهم محلاً للاحتقار والازدراء، هذا في الدنيا أما في الآخرة فينتظرهم العذاب الشديد.

﴿اسْتَغْفِرْ لَـهُم أو لا تَسْتَغْفِرْ لَـهُم إن تَسْتَغْفِر لَـهُم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَـهُم﴾

روي أنه لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وظهر نفاقهم للمؤمنين جاءوا إلى رسول الله يعتذرون وقالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فقال رسول الله: أستغفر لكم، واشتغل رسول الله بالاستغفار لهم فنزلت هذه الآية فترك رسول الله الاستغفار، أي أن استغفارك لهؤلاء المنافقين وعدمه سيّان. وذكر العدد سبعين بقوله سبحانه ﴿سبعين مرة﴾ المراد منه الكثرة في الاستغفار فقد جرت العادة عند العرب في استعمال هذا العدد للتكثير لا للتحديد، أي مهما بالغت في الاستغفار فالله لن يغفر الله لهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أن حَجْبَ المغفرة عنهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار لهم هو بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ والله لا يوفق إلى الحق والخير أولئك الذين خرجوا عن طاعته وآثروا الضلال على الهدى.

﴿فَرِحَ المُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِم خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ المخلفون: هم الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ بأعذار كاذبة. والمراد بمقعدهم: جلوسهم في منازلهم وعدم خروجهم للجهاد. وخلاف رسول الله: أي مخالفة لأمره. والمعنى: فرح الذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله والمؤمنين بجلوسهم في منازلهم مخالفين بذلك رسول الله فيما دعاهم إليه من الجهاد ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوالِهِم وَأَنْفُسِهِم في سَبيلِ اللَّهِ﴾ وكره المنافقون أن يبذلوا أموالهم وينفقوها في سبيل الله، ويضحّوا بأرواحهم لإعلاء كلمة الله، لأن قلوبهم خلت من الإيمان، وهم ليست لهم قضية يعملون لها ويقاتلون لأجلها، بخلاف المؤمنين الذين استجابوا لرسول الله ﷺ بالجهاد لإيمانهم بالله، ورغبتهم في نيل ثواب الله العظيم.

ولم يكتف المنافقون بتخلفهم عن الجهاد بل كانوا يثبطون هِمَمَ المؤمنين عن الخروج مع رسول الله إلى تبوك ﴿وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا في الحرِّ﴾ أي لا تخرجوا إلى الجهاد وقتال العدو في الحر. وقد كانت غزوة تبوك في الصيف، والحر شديد، والمسافة بعيدة، فأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يردّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

حرًّا﴾ أي أن نار جهنم التي سيدخلونها في الآخرة بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد هي أشد حراً من حرارة الصيف التي تحذِّرون الناس منها ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كان المنافقون يفهمون ذلك لما فعلوا ما يستوجب عقابهم يوم القيامة بنار جهنم.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كثيراً﴾ فليضحكوا فرحين في هذه الدنيا الفانية بجلوسهم في منازلهم وعدم مشاركة المؤمنين في الجهاد، وسيعقبه بكاء كثير لا نهاية له في الآخرة ﴿جَزَاءً بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جزاء ما ارتكبوه من السيئات ومخالفة رسول الله عندما دعاهم إلى الجهاد.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُم﴾ أي فإن ردّك الله يا محمد إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه ـ أي غزوة تبوك ـ وهم الذين تخلفوا عن الجهاد ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلخُرُوجِ﴾ وطلبوا منك أن تأذن لهم في الخروج معك للجهاد في غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخرُجُوا مَعِيَ أَبداً وَلَنْ تُقَاتِلوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فقل لهم يا محمد: لن تنالوا شرف الخروج معي إلى الجهاد أبداً، ولن تُقاتلوا معي عدواً لأنكم لستم أهلاً لنيل شرف الجهاد وشرف الاستشهاد، وإن أسماءكم قد شُطبت من ديوان المجاهدين ﴿إِنَّكُم رَضِيتُم بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأنكم رضيتم بالقعود في المدينة دون الخروج معي إلى تبوك حين دعوتكم إلى الجهاد أول مرة، فجزاؤكم هو حرمانكم من شرف الجهاد ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ﴾ جمع خالف، أي اقعدوا مع من تخلف من المنافقين. وقيل: فاقعدوا مع الفاسدين[١].

* * * * *

(١) مأخوذ من خلف الشيء إذا فسد.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ
وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ .

شرح المفردات:

تزهق: تهلك.

أولو الطَّوْل: أصحاب الغنى والسعة.

ذرنا: اتركنا.

الخوالف: جمع خالفة وتطلق على النساء اللاتي تخلفن عن أعمال الرجال وقعدن في البيوت ويقال: رجل خالفة أي لا خير فيه.

طبع الله على قلوبهم: ختم الله عليها فلا تقبل الهدى والصواب.

لهم الخيرات: لهم أنواع الخير من نعم الدنيا وثواب الآخرة.

المفلحون: الفائزون.

ثواب المؤمنين وموقفهم من المنافقين

ثم تأتي الآيات التالية وفيها الحديث عن المنافقين وكيفية التصرف معهم:

﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْـهُم مَاتَ أَبداً﴾ أي ولا تُصلِّ يا محمد أبداً على أحد مات

من هؤلاء المنافقين الذين تخلّفوا عن الخروج معك إلى الجهاد، والمراد بالصلاة المنهي عنها صلاة الجنازة المتضمنة الدعاء والاستغفار للميت وطلب الرحمة من الله له ﴿ولا تَقُمْ على قَبْرِهِ﴾ أي ولا تقف على قبره عند الدفن أو بعده بقصد الزيارة والدعاء له ﴿إنَّهُم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي نهيناك عن ذلك لأن هؤلاء المنافقين جحدوا وحدانية الله وكذبوا نبوتك ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله.

وكان من عادة النبي أن يصلي صلاة الجنازة على من مات من المسلمين وكان يعامل المنافقين بحكم الظاهر معاملة المسلمين حتى نزلت هذه الآية فما صلى بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى توفي ﷺ. وقد روي أن رأس المنافقين وسيدهم عبد الله بن أُبيّ مات بالمدينة فأوصى قبل موته أن يصلي عليه النبي ﷺ وأن يكفّن في قميصه فكفّنه النبي ﷺ في قميصه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً. . .﴾ الآية:

﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُم وَأَوْلادُهُم﴾ أي ولا يُثِرْ عجبك أيها الرسول ولا تستحسن ما عند المنافقين من أموال وأولاد مع سخطنا عليهم ﴿إنّما يُرِيدُ اللَّهُ أن يُعَذِّبَهُم بِهَا في الدُّنْيَا﴾ وسبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو أن المنافق الذي خلا قلبه من الإيمان يجمع المال من الحلال والحرام، والذي يكسب المال من الحرام هو لص يخاف أن ينكشف أمره بين الناس فهو في قلق دائم من الفضيحة، والذي يُربّي أولاده بالمال الحرام لا يبارك الله في عيشه ويتأثر أولاده بسيرته فينشأون على الموبقات وتبذير أموال أبيهم والعقوق له فيكون ذلك أكبر عذاب لأهليهم ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُم وَهُم كَافِرون﴾ أي وتخرج أرواحهم من أبدانهم عند موتهم وهم مصرّون على الكفر والضلال فيكون مصيرهم العذاب في الآخرة، ومثل هذا الصنف من الناس لا يستحق الإعجاب بما عنده من مال وولد.

﴿وَإذَا أُنْزِلَت سُورَةٌ أن آمنوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي وإذا أنزل الله عليك

يا محمد سورة من القرآن تدعو المنافقين أن يؤمنوا بالله ويطيعوه في أمره ونهيه ويجاهدوا معك لإعزاز دين الله ﴿ٱسْتَـأْذَنَـكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْـهُم﴾ أي طلب منك يا محمد أصحاب الغنى والسعة من المنافقين الذين يملكون مقومات الجهاد من عتاد ومركوب، أن تأذن لهم بالتخلف عن الجهاد وعدم الخروج للقتال ﴿وَقَـالُوا ذَرْنَـا نَـكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ﴾ وقالوا لك: اتركنا يا محمد مع القاعدين في المدينة ممن لهم عذر في عدم الخروج معك واذهب أنت وأصحابك إلى القتال.

﴿رَضُوا بِـأَن يَـكُونوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾ والخوالف: جمع خالفة وتطلق على النساء اللاتي تخلفن عن أعمال الرجال وقعدن في البيوت، ويقال: رجل خالفة أي لا خير فيه لقد رضي المنافقون أن يبقوا في بيوتهم مع هؤلاء ولا يخرجون مع رسول الله إلى الجهاد ولا يفعل ذلك إلا الجبناء ﴿وَطُبِـعَ عَلَى قُلُوبِـهِم﴾ وترتب على نفاقهم وإعراضهم عن الجهاد أن خُتِمَ على قلوبهم ﴿فَهُم لا يَـفْقَهُونَ﴾ فهم لا يفهمون ما في الإيمان والجهاد من سعادة الدنيا وثواب الآخرة.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوالِهِم وَأَنْـفُسِهِم﴾ أي إن تخلّف هؤلاء المنافقون عن الجهاد في سبيل الله، فقد استجاب له من هم خير منهم وهم رسول الله ومن معه من المؤمنين الصادقين، حيث ضحوا بأرواحهم وبذلوا أموالهم لإعلاء كلمة الله ونُصْرة دينه ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي لهم منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ وأولئك فازوا بالمطلوب وهو سعادة الدارين.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم جَنَّـاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي هيأ الله لهؤلاء المؤمنين الصادقين الذين جاهدوا في سبيل الله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِـيهَـا﴾ مقيمين فيها أبداً لا ينقطع عنهم نعيمها بالموت إذ لا موت للصالحين في الآخرة ﴿ذَلِـكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء الذي ينالونه هو الفوز الكبير الذي لا يدانيه فوز.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى
ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ
أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

شرح المفردات:

المعذِّرون: المعتذرون والمراد بهم المعتذرون كذباً.

الأعراب: سكان البوادي.

حرج: إثم أو ذنب.

لا أجد ما أحملكم عليه: لا أجد ما أعطيكم إياه من المركوب.

تولوا: ذهبوا وانصرفوا.

إنما السبيل: إنما الملامة والمعاتبة.

مع الخوالف: جمع خالفة، أي مع النساء.

طبع الله على قلوبهم: ختم عليها.

لتعرضوا عنهم: لتصفحوا عنهم.

فأعرضوا عنهم: فاتركوهم.

رجس: نجس وقذر.

تخلف الأعراب عن الجهاد

وبعد أن بيّن الله أحوال المنافقين الذين يسكنون في المدينة شرع بعد ذلك ببيان أحوال المنافقين من الأعراب وهم سكان البادية.

والأعراب جمع أعرابي ورجل أعرابي إذا كان بدوياً ويطلب مساقط الغيث والعشب. وعلى هذا فمن استوطن القرى والمدن فهم عرب ومن نزل البادية فهم أعراب.

وفي الآيات التالية يذكر القرآن أحوال المنافقين من الأعراب إلحاقاً بمنافقي المدينة:

﴿وَجَاء الْمُعَذِّرونَ[١] مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ والمعذرون هم المعتذرون، والاعتذار قد يكون عن طريق الكذب وقد يكون عن طريق الصدق، والمراد بهم هنا الذين يريدون أن يتخلفوا عن الجهاد بأعذار كاذبة، قيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا، فقال النبي ﷺ: سيغنيني الله تعالى عنكم ﴿وَقَعَدَ الَّذين كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وتخلّف فريق آخر من

---

(١) المعذِّرون: أصله المعتذرون أو بدلت التاء ذالاً وأدغمت في الذال التي بعدها فصارت التاء ذالاً مشددة.

منافقي الأعراب وبقوا حيث يسكنون فلم يجيئوا إلى رسول الله ليعتذروا ويطلبوا الإذن بالتخلف عن الجهاد، وقد ظهر بذلك أنهم كذبوا على الله ورسوله في ادعاء الإيمان حيث لم يحضروا إلى رسول الله ولم يعتذروا وهذا دليل كفرهم ﴿سَيُصِيبُ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد شديد لهم، أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين الذين يدّعون الإيمان وهم لا إيمان لهم عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

ثم يبين القرآن أصحاب العذر الحقيقيين:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى المرضَى﴾ فالضعفاء هم الذين لا يستطيعون القتال إما لكبر سنهم أو لصغر سنهم وكذلك المرضى وأصحاب العاهات كالعمي ﴿وَلاَ عَلَى الَّذين لا يجِدُونَ ما يُنفِقُونَ﴾ وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقونه في شراء دابة تحملهم إلى ميدان المعركة أو شراء معدات قتال يقاتلون بها. هذا وقد كان على المجاهدين في زمن النبي ﷺ أن يهيئوا لأنفسهم متطلبات الحرب من أموالهم إذا لم يجدوها عند النبي ﷺ ﴿حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهؤلاء جميعاً الذين أعفاهم الله من الجهاد ليس عليهم إثم وذنب إذا أخلصوا النصح لله ورسوله. فالنصح لله يكون بالإيمان بوحدانيته والعمل بشريعته وترك ما يخالفها، ويدخل تحت النصح دخولاً أوّلياً نصح المسلمين ومحبة المجاهدين في سبيل الله، والسعي في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا للغزو، كما يدخل في النصح مواجهة الإشاعات الكاذبة التي يطلقها المنافقون للنيل من الروح المعنوية للمسلمين. أما النصيحة لرسول الله ﷺ فهي التصديق بنبوته وبما جاء به من عند الله، وطاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه والعمل بسنّته ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ما على المحسنين من أثم أو لوم، والمحسنون هم الذين يؤدون ما كلفهم الله به بالتمام على وجه حسن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله واسع المغفرة كثير الرحمة.

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إذا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُم﴾ أي وكذلك لا حرج ولا إثم على

الفقراء الذين يرغبون في الجهاد ولكنهم لا يملكون من وسائله من السلاح والراحلة، هؤلاء جاءوا إليك ـ أيها النبي ـ يلتمسون إليك أن تهيىء لهم أسبابه وكانت المسافة الموصلة إلى ميدان المعركة بعيدة، والمقاتل يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه، وبعير يحمل عليه ماءه وزاده وسلاحه، فاعتذرت لهم وقلت لهم ﴿**قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أحمِلُكُم عَلَيْهِ**﴾ أي لا أجد من الدوابّ ما أحملكم عليها، وعندما قلت لهم ذلك ﴿**تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا ما يُنفقُونَ**﴾ أي انصرفوا عنك وأعينهم تسيل دمعاً غزيراً لحزنهم الشديد على عدم تمكنهم من الجهاد لأنهم لم يجدوا من المال لشراء المركوب والسلاح للاشتراك مع المجاهدين في القتال.

صورة من أرفع صور الفداء والتضحية في سبيل الله يقدمها القرآن للمؤمنين في كل عصر. فهؤلاء المؤمنون فاضت أعينهم بالدمع حزناً لعجزهم عن مصاحبة إخوانهم المؤمنين الذاهبين إلى الجهاد، غير عابئين بما يتطلبه الجهاد من مشقات وأخطار. بمثل هذه الروح العالية انتصر المسلمون الأولون ورفعوا راية الإسلام في كثير من بقاع الأرض.

وإن ما يعانيه المسلمون اليوم من اعتداء وذل في كثير من بقاع العالم ما هو إلا بسبب انعدام روح التضحية والإرادة القتالية في نفوسهم.

﴿**إنَّما السَّبيلُ عَلَى الَّذِينَ يستأذنونك وَهُم أَغْنِيَاءُ**﴾ أي وإذا كان الضعفاء والمرضى ومن في حكمهم لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد، فإن الإثم واللوم يقع على الذين يطلبون الإذن للقعود عن القتال وهم أغنياء يملكون كل مقومات الجهاد.

ولكن لماذا يستأذن هؤلاء من النبي لأن يتخلفوا عن الجهاد وهم أغنياء؟ السبب في ذلك أنهم منافقون وضعهم نفاقهم في موضع الذل والهوان ولذا قال الله في حقهم ﴿**رَضُوا بِأن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ**﴾ فهم رضوا أن يكونوا مع الخوالف وهن النساء القاعدات في بيوتهن والصبيان ﴿**وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ وبسبب

إصرارهم على النفاق ختم الله على قلوبهم وأقفل عليها فلا يدخل إليها الإيمان والهدى، فهم لا يعلمون ما في الجهاد من منافع في الدنيا وثواب في الآخرة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُم إِذَا رَجَعْتُم إِلَيْهِم﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد بالأعذار الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم. وهذه الجملة من الآية هي من الأنباء الغيبية التي أخبر الله بها رسوله والمؤمنين عن أحوال المنافقين ﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم﴾ أي قل لهم يا محمد: لا تعتذروا فلن نصدّقكم في اعتذاركم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُم﴾ قد أخبرنا الله بعض أخباركم المنافية للصدق ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ﴾ أي وسيرى الله ورسوله فيما بعد عملكم، أتتوبون من نفاقكم أم تظلون مصرين عليه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله الذي يعلم السر والعلانية والذي لا يخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها وما يشاهد منها ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم كلها سيئها وحسنها فيجازيكم بها، الحسن منها بالحسن، والسيىء منها بالسيىء.

﴿سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُم إِذَا انْقَلَبْتُم إِلَيْهِم لِتُعْرِضُوا عَنْهُم﴾ أي سيحلفون بالله لكم أيها المؤمنون إذا انصرفتم إليهم من غزوكم لتتركوهم وتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُم إِنَّهُم رِجْسٌ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة لا إعراض صفح وعفو لأنهم نجس وقذر، والرجس مبالغة في نجاسة أعمالهم، فبواطنهم خبيثة، وأعمالهم قبيحة، فلا ينفع فيهم توبيخ ولا عتاب فلا تجالسوهم ولا تكلموهم ﴿وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ومسكنهم في الآخرة نار جهنم ليعذبوا بها جزاء لهم بما فعلوا من السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُم لِتَرْضَوْا عَنْهُم﴾ أي يحلف بالله هؤلاء المنافقون اعتذاراً بالباطل والكذب لترضوا عنهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُم﴾ أي فإن رضيتم ـ أيها المؤمنون ـ

عنهم بسبب حلفهم لكم وقبلتم عذرهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم غير نافعهم عند الله لأنه سبحانه يعلم ما يخفون من أمرهم ما لا تعلمون، ويعلم ما في قلوبهم من النفاق، والله لا يرضى عن القوم الخارجين عن طاعته.

* * * * *

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

شرح المفردات:

وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله: أخلق وأحرى بألاّ يعلموا فرائض الله وأوامره.

مغرماً: غرامة وخسارة.

يتربّص بكم الدوائر: ينتظر بكم صروف الدهر ومصائبه.

السوء: ما يسيء ويؤذي.

قربات: جمع قُربة وهي ما يتقرب به الإنسان إلى ربه.

صَلوات الرسول: دعوات رسول الله واستغفاره.

موقف الأعراب من الإسلام

وبعد أن ذكر الله أحوال المنافقين في المدينة المنوّرة أتبع بذلك بِذكْرِ أحوال المنافقين من الأعراب وهم سكان البادية، يقول الله تعالى:

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ أي أن كفّار الأعراب ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل المدن، لأنهم أغلظ طباعاً وأقسى قلوباً وأقل مشاهدة لأهل الخير، وأقل علماً بحقوق الله، لأنهم يقضون جُلّ أعمارهم في رعي الأنعام وحمايتها من ضواري الوحوش واللصوص، كما أن الجو الحار والبرد القاسي في البادية له تأثير أيضاً على طباعهم، وبالإضافة إلى ذلك فليس لهم واعظ ولا مؤدب يرشدهم إلى الحق والصواب ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّـهُ عَلَى رَسُولِـهِ﴾ وهم أخلق وأحرى بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الأحكام والآداب والشرائع، وذلك لِبُعْدهم عن مجلس رسول الله ﷺ وحرمانهم من سماع أقواله وتوجيهاته ﴿واللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله واسع العلم بشؤون عباده وأحوالهم من إيمان وكفر، وهو حكيم فيما يشرّعه لهم من الأحكام.

﴿وَمِـنَ الأَعْرابِ مَنْ يَـتَّخِـذُ ما يُـنْـفِـقُ مَغْرماً﴾ أي ومن الأعراب من يعتقد أن ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسارة إذ لا ينفقه عن إيمان بالله ورجاء لثوابه، وإنما ينفقه خوفاً من المسلمين أو مراءاة لهم ﴿وَيَـتَـربَّـصُ بِكُمُ الدَّوَائِـرَ﴾ والدوائر جمع دائرة وهي ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة. والمعنى: ومن الأعراب من ينتظر أن يحل بكم مصائب الدهر فيتبدل حالكم من قوة إلى ضعف ومن نصر إلى هزيمة ﴿عَـلَـيْـهِم دَائِـرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بمثل ما أرادوا بالمؤمنين، أي عليهم يدور البلاء والحزن فلا يرون في محمد ﷺ ودينه إلا ما يحزنهم ﴿واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لأقوالهم السيئة عليم بنياتهم الخبيثة.

﴿وَمِـنَ الأَعْـرَابِ مـن يُـؤمِـنُ بِـاللَّهِ وَاليَومِ الآخِـرِ﴾ أي ومن الأعراب من يصدّق

بالله ويقرّ بوحدانيته، ويصدّق بالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب من الله ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقربات: جمع قُرْبة، أي يعتبر أن ما ينفقه في سبيل الله يقرّبه من رضاه ومحبته ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي ويبتغي بما ينفق من الصدقات دعاء رسول الله والاستغفار له، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، ولذلك كان من السُّنَّة الدعاء للمتصدّق بالخير والبركة ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي إن إنفاقهم المال في الصدقات قُرْبةٌ لهم عند الله، وهذا الموقف منهم هو شهادة من الله بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وَعْدٌ من الله بأنه سيشملهم برحمته الواسعة، ومن نال رحمة الله سعد في دنياه وآخرته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة.

ثم يبيّن القرآن من لهم السبق والفضل من المؤمنين على غيرهم في الثواب:

﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنصارِ﴾ المراد بالسابقين الأولين من المهاجرين هم أوائل المؤمنين الذين استجابوا لرسول الله ﷺ في مكة وصبروا على الفتنة والتعذيب وخرجوا من ديارهم، وتركوا أموالهم فراراً بدينهم من الفتن وتعذيب الكفار لهم، فهاجروا أولاً إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنوّرة، وذلك قبل أن تنقطع الهجرة بفتح مكة، أما الأنصار فقد كان لهم السبق أيضاً في الإيمان ونصرة رسول الله ﷺ وإيوائه بالمدينة المنورة عندما هاجر إليهم، وإيوائهم كذلك المهاجرين من مكة. فالهجرة في سبيل الله ونصرة رسول الله؛ هما الجهتان اللتان رُوعي فيهما السبق والأوليَّة في الإيمان.

ويشمل السبق بالإيمان جميع أصحاب رسول الله الذين قاتلوا المشركين في غزوة بدر، ومن أدرك «بيعة الرضوان» وهي التي عاهد فيها أولئك المؤمنون رسول الله ﷺ على نصرة الإسلام حتى الموت، والذين قال الله في حقهم: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ

ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ويضيف القرآن إلى المهاجرين والأنصار ممن شملهم الله سبحانه برضوانه:

﴿والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وهم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار في الإيمان ونُصْرة دين الله إلى يوم القيامة، هؤلاء جميعاً شملهم الله برضوانه، فتقبّل أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، ورضوا عنه بما أسبغه عليهم من نِعَمِهِ الجليلة وبما أعد الله لهم من النعيم في الآخرة. ولا شك أن رضاء الله عن المؤمنين أعظم من رضاء المؤمنين عن الله، لأن الله رضي عن المؤمنين وهو مستغنٍ عنهم ورضوا عنه وهم بحاجة إليه، هذا فضلاً عن أن الرضى المنسوب إلى الله يختلف في المعنى عن الرضى المنسوب إلى المؤمنين.

﴿وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأَنْهَارُ خَالِدِين فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ لهؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، هيّأ الله لهم في الآخرة جنّات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار مع الإقامة الدائمة فيها من غير انتهاء، وذلك هو الفوز الذي بلغ الغاية في العِظَم.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره للقرآن:

«فقد أخبر الله سبحانه أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم وسبّهم، أو أبغض أو سبّ بعضهم ولا سيما سيّد الصحابة بعد رسول الله، وخيرهم وأفضلهم، أعني الصدّيق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه... فأين هؤلاء من القرآن إذ يسبّون من رضي الله عنهم؟»

هذا وقد جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله:

«لا تسبّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ(١) ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم(٢) ولا نصيفه»(٣).

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى
ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ (١٠١) وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ
يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)
وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (١٠٦)﴾.

شرح المفردات:

مردوا على النفاق: دُرِّبوا واعتادوا عليه.

تزكّيهم بها: تنمي بها حسناتهم وأموالهم.

وصَلِّ عَلَيْهِم: ادع لهم واستغفر لهم.

---

(١) مثل أُحد: أي أنفق في سبيل الله ذهباً مثل جبل أُحُد.

(٢) مُدَّ أحدهم: المد هو ربع صاع في الوزن والصاع يساوي ٢١٧٦ غراماً أي لو أن أحداً عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القــدرُ اليسيرَ التافه من أعمال الصحابة.

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم.

سكن لهم: طمأنينة وتثبيت لقلوبهم.

ألم يعلموا: «استفهام يراد به التقرير» أي قد علموا.

يقبل التوبة عن عباده: أي يقبل توبتهم ويعود عليهم بالمغفرة.

يأخذ الصدقات: يقبلها ويثيب عليها.

ستردون: سترجعون.

عالم الغيب والشهادة: أي أن الله يعلم الخفي والظاهر.

مُرْجَوْن لأمر الله: مؤخرون لأمر الله ليحكم فيهم.

اللّه سبحانه يقبل توبة التائبين

ويتابع القرآن الكلام على المنافقين، محذراً المؤمنين منهم، يقول الله تعالى:

﴿وَمِمَّن حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُون وَمِن أَهْلِ المدِينَةِ﴾ أي وممن حولكم ـ أيها المؤمنون ـ من سكان البادية منافقون، ومن أهل مدينتكم أمثالهم من المنافقين ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي أقاموا على النفاق ومرنوا فيه واعتادوا عليه، وبلغوا الغاية في إتقانه بحيث لا يشعر بهم أحد ﴿لا تَعْلَمُهُم نَحْنُ نَعْلَمُهُم﴾ لا تعرفهم يا محمد لأنهم بلغوا الغاية في إخفاء نفاقهم، ولكن الله وحده هو الذي يعلم حقيقتهم.

والهدف من ذلك أن يعلم المنافقون أن الله يعلم أحوالهم ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وأن عليهم أن يتوبوا قبل أن يفضحهم الله كما فضح غيرهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ﴾ وعيد من الله لهؤلاء المنافقين بأنه سيعذبهم مرتين قبل يوم القيامة، فالعذاب الأول هو أن يفضحهم الله أمام المؤمنين وفي هذا إيلام شديد لهم، والعذاب الثاني هو عذاب القبر أو عذاب القتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ثم يرجعون إلى خالقهم فيعذبهم في الآخرة عذاب جهنم.

والمنافقون فريقان: فريق عُرفوا بأقوالهم وأعمالهم العلنية، وفريق اعتادوا على النفاق وأخفوه بحيث لا يشعر بهم أحد، وكلا الفريقين يوجد أمثالهم في كل عصر،

فعلى المؤمنين اليقظة التامة منهم، وأشد المنافقين ضرراً هم الذين يلتفون حول الرؤساء وأصحاب السلطة فيزينون لهم الشر بصورة الخير لمنافعهم الذاتية، وكذلك بعض الذين يلبسون لباس علماء الدين ويسخّرون الدين لأطماعهم ورغباتهم وشهواتهم.

ويتابع القرآن فيذكر فئة من المؤمنين تخلّفوا عن الجهاد:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي وآخرون من المؤمنين أقرّوا بذنوبهم وأظهروا الندامة على تخلفهم عن الجهاد ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ والمراد بعملهم الصالح خروجهم مع رسول الله ﷺ إلى سائر الغزوات أما عملهم السيّىء فهو تخلّفهم عن غزوة تبوك وبقاؤهم في المدينة لا كفراً ونفاقاً بل كسلاً وتقصيراً ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لعلّ الله أن يتوب عليهم، وعسى في كلام الله تفيد تحقق الوقوع أي أن الله سيتوب عليهم، وعبّر الله بعسى للإشعار بأن ما يفعله الله بهم من توبته عليهم هو على سبيل التفضّل منه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي ذو عفو لمن تاب، رحيم لمن أطاعه واتبع هداه.

هذه الآية نزلت في عشرة من المؤمنين تخلّفوا عن غزوة تبوك فندموا على ذلك أشد الندم، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد[1] توبة منهم من ذنبهم وكان ممر النبي عند رجوعه من تبوك في المسجد. فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقو أنفسهم بالسواري؟ فقالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلّفوا عنك يا رسول الله، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم وقد اعترفوا بذنوبهم، فقال رسول الله: والله لا أُطلقهم حتى أومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يعذرهم... فأنزل الله برحمته ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم..﴾ الآية فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله وعذرهم وتجاوز عنهم.

---

(١) سواري المسجد: أعمدة المسجد.

وحينما أُطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فأنزل الله قوله:

﴿خُذْ مِن أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهم بِهَا﴾ وهي صدقة الفرض (أي الزكاة) وتشمل صدقة التطوع.

فالصدقة تطهِّر المحسنين من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء، كما تطهّر قلوب الفقراء من الحقد والحسد، فالفقير إن نال خيراً من محسن دعا له بالخير. أما معنى التزكية فهو النماء والزيادة، فهي تنمي نفوس المحسنين بالصفات الخلقية الفاضلة وتنمي الأموال بالزيادة والبركات ﴿وَصَلِّ[(١)] عَلَيْهِم إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم﴾ وادع لهم واستغفر لهم ـ أيها النبي ـ إن استغفارك ودعاءك لهم بالرحمة طمأنينة لقلوبهم الحائرة وإيذان بأن الله يقبل توبتهم ﴿وَاللَّهُ سَميعٌ عَلِيمٌ﴾ والله يسمع اعترافهم بذنبهم، ويعلم بما في ضمائرهم وصدقهم في توبتهم.

وقد كان النبي ﷺ كلما أتاه قوم بأي صدقة قال: «اللَّهم صلِّ عليهم» فأتاه أبو أوْفى بصدقته فقال: «اللَّهم صلِّ على آل أبي أوْفى»[(٢)].

﴿أَلَمْ يَعْلَموا أَنَّ اللَّه هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنبهم أن الله وحده هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده، وقبول التوبة هنا يتضمن معنى التجاوز والصفح عن ذنوبهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يتقبّلها ويثيب عليها، ويضاعف أجرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وتوّاب من صيغ المبالغة أي كثير التوبة عن عباده التائبين عظيم الرحمة بهم. هذا وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن

(١) الصلاة في اللغة الدعاء وبه سميت (الصلاة) التي يقوم بها الإنسان بواجب العبادة لما فيها من الدعاء والاستغفار، وصلاة رسول الله على فلان هي الدعاء له والاستغفار له وطلب الرحمة له من الله.

(٢) متفق عليه.

الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن التمرة لتكون مثل أُحُد»[١] أي مثل جبل أُحُد.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ والمؤْمِنُونَ﴾ أي اعملوا ما شئتم من الأعمال الصالحة فسيرى الله عملكم ويثيبكم عليه، وعملكم لا يخفى على رسوله محمد ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لوجه الله، وراقبوه في سركم وجهركم، وجدير بمن يؤمن بأن الله يرى عمله أن يتقنه ويخلص له النية، فيقف عند حدود شرعه، فإن كان عمله طاعة لله حصل له منه الثناء في الدنيا والثواب الكبير في الآخرة، وإن كان عمله معصية لله حصل له منه الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ ثم تُرجعون يوم القيامة إلى الله الذي يعلم سرّكم وعلانيتكم، ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بما كنتم تعملونه في دنياكم من خير أو شر، ويجازيكم بما تستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿وَآخَرُون مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ إمَّا يُعَذِّبُهُم وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِم﴾ مُرجَوْن: الإرجاء هو التأخير. والمعنى: ومن المتخلفين عن غزوة تبوك قوم مؤجل حكم الله فيهم: إما أن يعذبهم، وإما أن يقبل الله توبتهم فيكونوا من الناجين من عذاب الله. وهؤلاء لم يسرعوا بالاعتذار إلى النبي ﷺ عن تخلفهم عن الجهاد كما فعل غيرهم، وليس فيهم نفاق ولكن ندموا بعد ذلك أشد الندم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بما في قلوبهم حكيم بما يقضي بشأنهم.

وهؤلاء المُرجَوْن لأمر الله هم: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وكانوا قد تخلفوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الراحة، وكل واحد منهم كان يملك

---

(١) رواه الترمذي.

راحلته[١] وعندهم المال وكل متطلبات الجهاد لذلك أصدر النبي ﷺ أمراً بمقاطعتهم إلى أن نزل الوحي بشأنهم، وسيأتي الكلام عليهم بإسهاب في الآية التالية رقم ١١٨ .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى
التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا
رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ .

شرح المفردات:

ضِراراً: للإضرار بالإسلام وأهله .

إرصَاداً: انتظاراً وترقباً .

الحسنى: الخصلة الحسنة .

لا تقم فيه: لا تؤد الصلاة فيه .

الشفا: الحرف والطرف من كل شيء .

الجُرُف: ما جرفه السيل أي استأصله وحفر ما تحته .

هار: مشرف على السقوط .

---

(١) الراحلة هي الناقة .

مسجد الضرار الذي بناه المنافقون

ويتابع القرآن فيذكر بعض مؤامرات المنافقين للتفريق بين جماعة المؤمنين، وكان الأسلوب الذي اعتمدوه هو بناء مسجد قرب مسجد قباء يكون مركزاً لمؤامراتهم، وانطلاقاً لنشاطهم في محاربة رسول الله ﷺ وهو الذي عُرِفَ باسم مسجد الضرار. قال تعالى:

﴿والَّذِينَ اتَّخَذوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤْمِنِينَ﴾ أي ومن منافقي أهل المدينة من بنى مسجداً للإضرار بالإسلام والمسلمين، ونصرة للكفر الذي يضمرونه في قلوبهم، وللتفريق بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يُصلّون في مسجد واحد وهو مسجد قباء، فأراد المنافقون من بناء مسجد الضرار أن يفرقوا وحدة المؤمنين، وأن يجعلوهم يصلّون في أماكن متفرقة ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي واتخذوا المسجد ترقّباً وإعداداً لقدوم من حارب الله ورسوله وهو أبو عامر الراهب، الذي أعلن عداوته لدعوة الإسلام من قبل بناء مسجد الضرار ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إن أَرَدْنَا إلاّ الحُسْنَى﴾ وهم أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين من التيسير على المعذورين والمرضى من السير إلى المسجد الآخر في ليلة شاتية، وإنهم بنوه لذكر الله والصلاة ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إنَّهم لَكَاذِبُونَ﴾ والله يعلم ويشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون في قسمهم هذا لأنهم ما أرادوا ببناء مسجدهم هذا إلا الإضرار بالمؤمنين وتفريق كلمتهم[١].

قصة مسجد الضرار: كان في المدينة المنورة قبل قدوم رسول الله إليها مهاجراً من مكة رجل من قبيلة الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وكان قد تنصّر في الجاهلية

---

(١) جاء في تفسير القرطبي: قال علماؤنا: لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ... وكل مسجد بُني على ضرار أو رياء وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه.

وقرأ علم أهل الكتاب وله شرف في الخزرج وكلمة مسموعة لديهم، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة واجتمع المسلمون حوله وصارت للإسلام كلمة عالية، وانتصر المسلمون في غزوة بدر زالت رياسة أبو عامر، فأظهر العداوة لرسول الله فخرج فارّاً إلى كفّار مكة يحضهم على محاربة رسول الله فأقدموا على ذلك، وجرت معركة أُحُد التي أُصيب فيها المسلمون بنكسة وخسارة. وأبو عامر هو الذي قال لرسول الله يوم معركة أُحُد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم، فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم غزوة حنين فلما انهزمت قبيلة هوازن في تلك المعركة ولّى هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين كتاباً يأمرهم بأن يستعدوا بما يستطيعون من قوة وسلاح، وأنه ذاهب إلى قيصر ليأتي بجنود يُخرج فيها محمداً وأصحابه من المدينة المنورة، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده ويكون له ملاذاً إذا قدم عليهم، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وذلك قبل خروج رسول الله إلى غزوة تبوك. وجاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يأتيهم ليصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته لما بنوه، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة والحاجة في الليلة الشاتية. فقال رسول الله: إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه. وعند رجوع رسول الله من تبوك نزل عليه الوحي من السماء يخبره خبرهم وما يبيّتون من الشر، فدعا رسول الله نفراً من أصحابه وقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، وهذا ما فعلوه.

ويتابع القرآن الكلام عن مسجد الضرار بما خاطب الله رسوله محمداً بقوله:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أبداً﴾ أي لا تقم في مسجد الضرار مصلياً في أي وقت من الأوقات، وقد يعبّر عن الصلاة بلفظ القيام، يقال فلان يقوم الليل أي يصلّي فيه ﴿لَمَسْجِدٌ(١) أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيه﴾ أي والله إن مسجد

---

(١) لمسجد: اللام الداخلة على مسجد هي جواب قسم محذوف تقديره: والله لمسجد.

قباء الذي أُسس على التقوى من أول يوم دخل فيه رسول الله إلى المدينة المنورة مهاجراً، هذا المسجد لجدير بأن تُؤدى فيه شعائر الله، وهو أحق بالصلاة فيه من مسجد الضرار.

وقيل المراد بالمسجد الذي أُسِّسَ على التقوى هو المسجد النبوي بالمدينة المنورة كما جاء في الحديث الشريف، والآية لا تمنع إرادة أي من المسجدين: قباء أو المسجد النبوي لأن كليهما أُسِّسَ على تقوى الله ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّون أن يَتَطَهَّروا﴾ والطهارة هنا تشمل الطهارة الحسية من النجاسات في البدن والثوب والمكان، كما تشمل الطهارة من الذنوب والمعاصي والقبائح. والذين يحبون أن يكونوا طاهرين قد ارتأوا أن يتحلوا بصفاء الروح لأنهم تخلوا عن النجاسات ظاهراً وباطناً وتحلوا بالطهر والعبادة فأمدهم الله بنوره ﴿واللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ ومحبة الله لهم هي الرضا عنهم والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله وطلب مرضاته خير عند الله ﴿أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾أم من أسس بنيانه على الكفر والنفاق فهو كالبناء الذي بُني على حرف وطرف من جانب الوادي الذي جرف السيل تحته التراب والصخور فصار البناء واهياً مشرفاً على السقوط ﴿فَانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فسقط به في نار جهنم يوم القيامة.

وخلاصة المثل القرآني ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله، وبيان ضعف الباطل وانحلاله وقُرب زواله ﴿واللَّهُ لا يَهْدي القَوْم الظَّالِمينَ﴾ والله لا يوفق للرشاد في أفعاله من كان بانياً بناءه على الكفر والنفاق.

﴿لا يزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلُوبِهِم﴾ الريبة: اسم من الريب بمعنى الشك والقلق والحيرة، أي لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون وهو مسجد الضرار سبب ريبة وشك في قلوبهم لكونه بني لتفريق كلمة المؤمنين وليثبتوا ما في قلوبهم من

كفر ونفاق، وإما أنه ريبة في حال هدمه فقد ملأ الغيظ قلوبهم والحسرة نفوسهم لأنهم لم ينالوا مأربهم من بنائه كما أنهم ظلوا في شك من أن يصيبهم رسول الله بسوء وعقاب على ما فعلوه ﴿إلاَّ أن تَقَطَّع(١) قُلُوبهم﴾ إلاّ أن تتصدع قلوبهم فيموتوا، أو تتقطع قلوبهم ندماً وأسفاً على ما بنوه وما أضمروه من السوء للمؤمنين ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله تعالى عليم بأفعال عباده، حكيم بتدبير أمورهم.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

شرح المفردات:

ومن أوْفى: لا أحد أعظم وفاء.

الحامدون: الذين يحمدون الله على كل حال، وهم الراضون بقضاء الله وقدره.

السائحون: الصائمون، سموا سائحين لتركهم الملاذّ، وقيل: الغزاة المجاهدون.

فاستبشروا: افرحوا بتحقيق ما عاهدتم الله عليه.

لحدود الله: لأوامره ونواهيه.

---

(١) تقطع: بفتح التاء والطاء المشددة بمعنى تتقطع حذفت إحدى التاءين منه.

الجهاد ثوابه الجنة

وبعد أن تحدث القرآن عن الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بيّن أن تخلّف هؤلاء ليس له أهميّة، لأن الله عوّض الإسلام بخير منهم، وهم المؤمنون الصادقون الذين باعوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ هذا مثال لما يثيب الله المؤمنين في الآخرة من نعيم مقابل ما ضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وقد مثّل الله بهذا المثل بمن باع شيئاً له لآخر، مع العلم أن الله هو المالك لأنفسهم وهو الذي خلقها ورزقها، وهو غني عن أموالهم، وقد جعل الله تعالى البيع منهم والشراء منه كرماً وفضلاً، إذ كيف يشتري الله ما هو له أصلاً؟ ولهذا يقول الحسن: اشترى أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها لَكِنَّ هذا ذَكَرَهُ الله تعالى لحسن التلطف بهم.

أيُّ مؤمن لا يتأثر بهذا الواقع الإيماني الذي يربطه بالله عزّ وجلّ والذي يجعله يقدم على الجهاد برغبة واندفاع وحماس؟ وهذا ما حدث في عهد رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل يوم غزوة أُحُد فقال يا رسول الله: «أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟» قال: «في الجنة»، فألقى تمرات في يده كان يأكلها ثم قاتل حتى قتل. لقد ألقى هذا المؤمن التمرات التي كان يأكلها من يده ودخل من فوره إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة.

أين نحن اليوم من الذين يدّعون الإسلام وقد تركوا الجهاد بالأنفس والمال في سبيل الله والدفاع عن الأوطان إيثاراً منهم لملاذّ الحياة الدنيا وشهواتها؟ إنهم بعيدون كل البعد عن مفهوم الإيمان الحقيقي الذي صوّره القرآن في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنرجع إلى متابعة الآية: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وهؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله يقاتلون في سبيله وهو سبيل الحق والعدل المتمثل بدين

الإسلام فيكونون إما قاتلين لأَعداء الله، وإما مقتولين شهداء في سبيل الله، أي أنهم حينما دخلوا إلى المعركة وضعوا أنفسهم بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يُقتلوا وإما أن ينتصروا، وعلى هذا لم يراعوا جانب السلامة بالفرار من القتال ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ والقُرآنِ﴾ أي أن وَعْدَ الله للمجاهدين بأن لهم الجنة هو وَعْدُ حق ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا دليل على أن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الظلم والطغيان دعت إليه جميع الشرائع السماوية ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أعظم وفاء بالوعد من الله سبحانه، وما دام الوعد من الله للمؤمنين بالجنة، فالجنة لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُم بِهِ﴾ أي فليفرح المؤمنون الصادقون غاية الفرح بهذا البيع الذي باعوا فيه أنفسهم لله، وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم، لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة أو ليستبدله بأفضل منه فهم قد باعوا دنياهم وملاذّهم وشهواتهم التي سيصيبها الفناء بشيء نفيس لا يقدّر بثمن لأنه باقٍ أبد الدهر وهو نعيم الآخرة الذي لا يزول. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وذلك الشراء والبيع هو الظفر الكبير لكم.

هذه الآية التي وعد الله بها المؤمنين بالجنة تشتمل على جملة تأكيدات:

منها: كلمة (وعْداً) ووعد الله حق. ومنها قوله تعالى (عليه) وكلمة على للوجوب. ومنها قوله: (حَقاً) وهو التأكيد للتحقيق. ومنها قوله سبحانه: ﴿في التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ وَالقرآن﴾ وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية على هذه المبايعة. ومنها قوله سبحانه عن نفسه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو غاية التأكيد. ومنها قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ﴾ تقرير وتأكيد لما سلف.

ثم وصف الله هؤلاء المؤمنين بجملة صفات استحقوا بها القرب من الله فهم:

﴿التَّائبون﴾ أي الراجعون إلى الله عن كل ما يبعد عن مرضاته كالكفر والنفاق والذنوب. والتوبة المقبولة تحصل بأمور أربعة: (١) الإقلاع عن الذنب مع الاستغفار

بسبب فعله. (٢) النّدم على فعل المعاصي فيما مضى. (٣) العزم على تركها في المستقبل. (٤) أن يكون الداعي إليها طلب رضا الله، مع رد الحقوق إلى أهلها إذا كان هناك اغتصاب لحق الغير.

﴿العابِدُون﴾ هم القائمون بالعبادات كلها على وجهها الصحيح لا يتوجهون إلى غير الله بدعاء ولا استعانة، والعابدون أيضاً هم الذين تذللوا إلى الله خشية منه وتواضعاً له.

﴿الحَامِدُون﴾ هم المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم فيثنون عليه ويشكرونه في السراء والضراء.

﴿السَّائِحونَ﴾ هم الصائمون، وقيل: هم طلبة العلم الذين يسافرون من بلد إلى بلد في طلب العلم، وقيل: هم المتنقلون في الأرض للاعتبار ومشاهدة عجائب الله لتأكيد إيمانهم بربهم.

﴿الراكعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ يعني المصلين، وعبّر الله بالركوع والسجود عن الصلاة لأن بهما تتميز الصلاة عن غيرها من العبادات ولأن فيهما غاية الخضوع والتعظيم لله تعالى.

﴿الآمِرُونَ بِالْمعْروفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المنْكَرِ﴾ أي الذين يأمرون الناس بكل خير من إيمان بالله وطاعة له، وينهون الناس عن الشرك بالله والمعاصي وكل ما ينكره الشرع الإسلامي. والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا بد أن يكونوا بمنأى عن هذا المنكر، فليس معقولاً أن ينهوا عن شيء وهم له مزاولون.

﴿والحَافِظُونَ لِحُدودِ اللَّهِ﴾ أي العاملون بأحكام شرع الله والوقوف عند أوامره فلا يتعدونها ﴿وَبَشِّرِ المؤْمِنينَ﴾ وأخبر أيها النبي من يسلكون هذا السلوك بما يسرّهم وبما وعدهم الله به من دخول الجنة، وتخصيص وصفهم بالإيمان هو للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان، وأن المؤمن الكامل هو من يتصف بهذه الصفات.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ
أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ
عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ
قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

شرح المفردات:

ما كان للنبي والذين آمنوا: أي ما صح وما استقام لهم.

يستغفروا: يطلبوا الغفران والرحمة.

أُولي قُربى: أصحاب قرابة.

موعدة: وعْدٍ.

تبرأ منه: بَعُدَ عنه وتنزه عن مصاحبته.

لأواه: خاشع متضرع في الدعاء أو كثير التأوه من خوف الله.

حليم: صبور على الأذى.

ما يتقون: ما يجب اتقاؤه والبعد عنه.

وليٍّ: والٍ يلي أموركم ويدبر شؤونكم.

النهي عن الاستغفار للمشركين

وبعد أن بيّن الله وجوب البراءة من الكفار والمنافقين بيّن الله في الآيات التالية أنه يجب التبرؤ من أمواتهم ولو كانوا أقرباءهم:

﴿مَا كَانَ للنبيِّ وَالَّذين آمنوا أن يَسْتَغْـفِروا للمُشركين وَلَوْ كَانُوا أُولي قُرْبى﴾ أي لا يصح للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا للمشركين المغفرة من الله لهم ولو كانوا أقرب الناس

إليهم نسباً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تبيَّن لَهُم أنَّهم أصْحَابُ الجَحيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم من أهل النار التي يعذبون بها في الآخرة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وموتهم عليه.

فهذه الآية تتضمن تحريم الاستغفار للكفار والدعاء لهم بالرحمة.

هذه الآية نزلت فيما روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان. فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ قال: أوَلم يستغفر إبراهيم لأبويه؟ فذكرته للنبي ﷺ[1]، فنزلت الآية ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين. . .﴾.

ثم يبيّن القرآن بأنه لا حجة للمؤمنين في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبراهيم لأَبيه إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّـاه﴾ والموعدة: اسم للوعد. والمعنى: لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه فإن ذلك كان على وعد من والد إبراهيم لابنه إبراهيم بالإيمان بالله وترك عبادة الأصنام، وقيل: الوعد صدر من إبراهيم عليه السلام إذ وعد أباه أن يستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أنَّـهُ عَـدوٌّ لِلَّهِ تَـبَـرَّأَ مِـنْـهُ﴾ أي فلما تبيّن لإبراهيم أن أباه مستمر على كفره ومات عليه، علم أنه عدو لله لذلك تبرأ منه ولم يستغفر له ﴿إنَّ إبراهيمَ لأَوَّاهٌ حَليمٌ﴾ والأوّاه: هو الخاشع المتضرع لربه الكثير الدعاء، وتضرع إبراهيم كان من خشيته لله. وحليم: صيغة مبالغة من الحلم وهو خُلُقٌ يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عمن آذاه.

﴿وَمَا كَـانَ اللَّـهُ لِـيُـضِـلَّ قَوْماً بَـعْدَ إذْ هَدَاهُم﴾ أي أن الله لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلّالاً بعد أن هداهم إلى الإسلام وبين لهم شرائعه ﴿حَـتَّى يُـبَـيِّـنَ لَهُم مَا يتَّـقُونَ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجب أن يأتوا من الأعمال وما يجب أن يتركوا. أي أن يُـقدم إليهم النهي عن ذلك الفعل، فأما قبل النهي فلا إثم عليهم في فعله ولا يؤاخذون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ والله محيط علمه بكل شيء لا تخفى عليه خافية من أقوالهم وأفعالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إن الله وحده مالك السماوات والأرض وما فيهما من كائنات وأجرام وكل الخلق عبيده، بيده حياتهم وموتهم، يحيى من يشاء منهم ويميت من يشاء ﴿وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّه مِنْ وليٍّ ولا نَصِيرٍ﴾ وليس لكم أحد سوى الله يتولّى أمركم، وليس لكم نصير ينصركم منه إن أراد بكم عقاباً لسوء أفعالكم، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ
ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟
مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

شرح المفردات:

ساعة العسرة: وقت الشدة والضيق في غزوة تبوك.

تزيغ: تميل عن الصواب وتعدل عن الحق.

خُلِّفوا: تخلفوا عن الغزو.

بما رحبت: على اتساعها.

لا ملجأ من الله: لا مفر ولا منجى من سخطه وعقابه.

ليتوبوا: ليداوموا على التوبة ويثبتوا عليها.

قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو

ثم يعود القرآن للكلام عمَّا صدر من المؤمنين من هفوات وزلاّت مبيناً أن الله قد تفضل عليهم وعفا عنهم:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيّ وَالمهَاجِرينَ والأَنْصَارِ الَّذِين اتّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾ ومعنى تاب الله على فلان: غفر له ولم يؤاخذه بما صدر منه من ذنب. فتوبة الله على رسوله محمد ﷺ هي عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك، فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو من باب ترك الأفضل لا من باب فعل الذنب. وأما توبة الله على المهاجرين والأنصار فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود في المدينة والتخلف عن غزوة تبوك، لأنها كانت في وقت شديد الحرارة، ولكنهم استعانوا بالله واتبعوا رسول الله ﷺ وخرجوا معه إلى تبوك ولم يخالفوا أمره.

﴿سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾ أي وقت العسر، والعسرة هي الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار إلى تبوك يسمى جيش العسرة بسبب ما لاقاه هذا الجيش من مشقات وأهوال، فقد كان الرجلان والثلاثة على بعير. وخرجوا إلى تبوك في حرٍّ شديد وأصابهم عطش فجعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها، حتى إن الرجلين ليشقان التمرة بينهما. وقال من شهد المعركة: حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير بسبب العفن والفساد الذي طرأ عليه.

﴿مِن بعْدِ مَا كَادَ يزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ منْهُم﴾ من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق ويشك في دين الله، بسبب ما ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم﴾ ثم غفر الله لهم ولم يؤاخذهم بما وقع في قلوبهم من خواطر السوء،

ورزقهم الله الإنابة والرجوع إلى الثبات على الإيمان ﴿إِنَّهُ بِهِم رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إنه سبحانه كثير الرأفة بعباده، عظيم الرحمة بهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون.

ثم تأتي الآية التالية لتصف حال ثلاثة من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، فأمر النبي بالإعراض عنهم وعدم مكالمتهم إلى أن نزل الوحي الإلهي بقبول توبتهم:

﴿وَعَلى الثَّلاثَةِ الَّذين خُلِّفُوا﴾ هذا الشطر من الآية معطوف على صدر الآية ﴿لقد تاب الله على النبي﴾، أي وتاب الله على هؤلاء الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك كسلاً وحبًّا للراحة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيهِمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي حتى إذا ضاقت عليهم الأرض على سعتها بسبب مقاطعة المسلمين لهم ﴿وَضَاقَت عَلَيْهِم أَنْفُسُهُم﴾ بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الغمّ والحزن ومجانبة الناس إياهم ﴿وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلاَّ إِلَيْهِ﴾ أي علموا وأيقنوا أن لا ملجأ ولا مهرب لهم من سخط الله إلا بالتوبة إليه والاستغفار ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾ ثم رجع الله عليهم بالرحمة والمغفرة، وأنزل آية من القرآن بقبول توبتهم ليرجعوا إلى الله ويندموا على ما وقع منهم من زلل ويتوبوا إلى الله توبة صادقة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي أن الله سبحانه كثير القبول لتوبة التائبين واسع الرحمة بهم.

هؤلاء الثلاثة الذين نزلت هذه الآية بقبول توبتهم هم: كعب بن مالك، وهلال ابن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار، وقد وردت قصتهم بإسهاب في الأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ وفي كتب السيرة النبوية ولننقل باختصار ما رواه أحدهم بأسلوب مؤثر عمّا صادفه وزميليه من آلام وتبكيت ضمير وعذاب نفسي.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله توجه قافلاً[١] من (تبوك) حضرني

(١) قافلاً: راجعاً.

بثّي[١] فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بِـمَ أخرج من سخطه غداً. . .؟ فأجمعتُ على كلمة الصدق.

وقدم رسول الله من سفره، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون (أي الذين تخلفوا عن الغزو) فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل رسول الله منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسَّمَ تبسُّم المغضب ثم قال لي: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلّفك؟ قلت يا رسول الله: والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر. . . ولكني والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[٢] عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر به المخلّفون، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحَدٍ؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي. . .

ونهى رسول الله الناس عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

---

(١) البث: أشد الحزن.

(٢) تجد: تغضب.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم[١]، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، وأقول لنفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليَّ ـ فسلّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله[٢] تعالى، هل تعلمن إني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت..

مضت أربعون ليلة من الخمسين وإذ برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربنها، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر...

فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج فآذن[٣] رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشرونا...

انطلقت قاصداً رسول الله يتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنئونني بالتوبة ويقولون

---

(١) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سناً وأقواهم.
(٢) أنشدك بالله: أي أسألك بالله.
(٣) آذن: أعلم.

لتهنّئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس في المسجد وحوله الناس. . . فلما سلمت عليه قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدَتْكَ أمك، قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. . . فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله؟ قال: أَمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. . . وقلت: يا رسول الله إنما أنجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلاّ صدقاً ما بقيت.

وتنويهاً بخصلة الصدق التي تحلّى بها هؤلاء الثلاثة نزل قوله تعالى:

﴿يا أَيُّـهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّـقُوا اللَّه وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وكونوا مع جماعة الصادقين في أقوالهم وفي جهادهم وعهودهم وفي أقوالهم ووعودهم. فهؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله عليهم حين اعترفوا بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة كما فعل غيرهم.

فالصدق أحسن الفضائل ومصدر كل خصلة محمودة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البِرِّ وإن البِرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُـكتب عند الله صدّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُـكتَب عند الله كذّاباً»[١].

* * * * *

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ
ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا
نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ
وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ
فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ
ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

شرح المفردات:

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه: أي لا يؤثرون أنفسهم عن نفسه بأن يرضوا لأنفسهم الراحة ولرسول الله المشقة.

نصب: تعب.

مخمصة: مجاعة.

يطأون موطئاً: يدوسون أرضاً.

ولا ينالون من عدوٍّ نيلاً: أي يصيبوا من عدوّ أسراً أو قتلاً أو هزيمة.

لينفروا كافة: ليخرجوا جميعاً إلى الجهاد.

فلولا نفر من كل فرقة طائفة: فهلاّ خرج من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة.

لينذروا قومهم: ليحذّروا قومهم ويخوفونهم من معصية الله.

يلونكم من الكفار: الأقرب منكم فالأقرب في الدار والنسب.

ثواب الجهاد والدعوة إلى التفقه في الدين

وبعد أن أمر الله المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين عاد إلى النهي عن التخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرَابِ أن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة المنورة ومن حولهم من الأعراب من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله. فالله بهذا القول يعاتب الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِم عَنْ نَفْسِهِ﴾ ولا أن يضنوا بأنفسهم عمّا بذل رسول الله فيه نفسه، ولا أن يؤثروا أنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره والأخطار، ولا يكرهوها لرسول الله، بل عليهم أن يفدوه بأرواحهم، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه، عِلْماً بأن رسول الله هو أعز نفس على الله وأكرم خلق الله عليه.

ثم يشير القرآن إلى ما عاناه المؤمنون في غزوة تبوك من مشقة وعُسر وما سينالون بسبب ذلك من الثواب العظيم عند الله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم لا يصيبُهُم ظَمَأٌ﴾ أي ذلك الذي كلفهم الله به من وجوب مصاحبة رسول الله في الجهاد هو أنه لا يصيبهم ظمأ وهو العطش الشديد، وقد كان المقاتل منهم من فرط ظمإه يذبح بعيره ويصفّي الماء الذي في معدته ليبلّ ريقه وريق زملائه ﴿ولا نَصَبٌ﴾ أي ولا تعب، وقد كانت غزوة تبوك متعبة بعيدة عن المدينة المنوّرة وكان الوقت صيفاً والجو حاراً ﴿ولا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمخمصة هي المجاعة، وقد كان المسلمون يأكلون التمر الذي أصابه الدود، والشعير الذي انتشر فيه السوس من فرط جوعهم، وقد تحملوا ذلك للجهاد في سبيل الله ﴿ولا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ﴾ ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغضاب الكفار وإزعاجهم ﴿ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً﴾ ولا ينالون من عدو غرضاً بقتله أو أسره أو هزيمته أو الغنيمة منه ﴿إلاّ كُتِبَ لهم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ إلا كُتِبَ لهم بكل واحد مما ذُكِرَ عمل صالح في صحائف أعمالهم ينالون بسببه الثواب

الجزيل من الله ليجازيهم عليه أحسن الجزاء يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ والله لا يضيع أجر الذين أحسنوا في أعمالهم من التضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله. وفي الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه حسنات مكتوبة في صحائف أعماله.

﴿وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً﴾ وكذلك لا يبذل المؤمنون أي مال ينفقونه في سبيل الله صغيراً كان أم كبيراً ﴿ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ ولا يجتازون وادياً من الوديان في مسيرهم إلى عدوهم أو في رجوعهم عنه إلا كتب الله لهم ثواب ذلك وجعله في سجلّ حسناتهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ليجازيهم الله على ذلك أحسن الجزاء يوم القيامة.

وبعد ذلك الترغيب الذي بينه القرآن للذين يكابدون مشقات الجهاد، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة المنورة وبعث السرايا(١) نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله وحده فنزلت الآية التالية.

﴿وَمَا كَانَ المؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً﴾ أي ما صح وما استقام أن يخرج المؤمنون جميعاً إلى الجهاد ويتركوا رسول الله وحده ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ﴾ فليكن الأمر أن تخرج من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم إلى رسول الله ﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ﴾ والفقه هو الفهم، أي ليفهموا دينهم ويتعلموا من رسول الله الأحكام الشرعية ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهم يَحْذَرُونَ﴾ أي ليخوّفوا قومهم وينذروهم من عصيان الله إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلّهم يحذرون عقاب الله فيطيعونه في أمره ونهيه ويتجنبون ما يضرهم.

---

(١) السرايا: جمع سريّة، فحين كان رسول الله يخرج للقتال فالمهمة تسمى غزوة، أما إذا أرسل رسول الله جماعة للقتال بدونه سميت العملية بـ السريّة.

والمعنى المراد من الآية: لا يجوز أن يذهب المؤمنون كلهم إلى الجهاد، بل الأفضل أن يكونوا طائفتين: طائفة تبقى في جوار رسول الله تتعلم منه الأحكام الشرعية وطائفة تذهب إلى الجهاد، لأن الإسلام في ذلك الوقت كان محتاجاً إلى الجهاد وقهر الكفار. فأما الطائفة المقيمة مع رسول الله فهم الذين يتفقهون في الدين بسبب ملازمتهم رسول الله. فإذا رجعت الطائفة التي ذهبت إلى الغزو علمتهم الطائفة المقيمة مع رسول الله ما تعلموه من أمور دينهم. والآية تشمل الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ليجلسوا إلى رسول الله ويتعلموا منه أمور دينهم ثم يرجعوا إلى قومهم ويعلموهم ما تعلموا منه.

فالآية تدل على وجوب تعميم العلم بأحكام الشريعة الإسلامية والتفقه في الدين في المجتمع الإسلامي، وتخصيص فئة لهذا الغرض، وهؤلاء المتخصصون في فقه الدين بنيّة خالصة لإرشاد الناس إلى سبيل الله وتعليمهم أمور دينهم لا يقلون في الدرجة عن المجاهدين في سبيل الله. فمن تفقه في الدين لهذا الغرض كان على المنهج الصحيح والصراط المستقيم، ومن طلب الدنيا بالدين واتخذ الدين مكسباً مادياً له أو للحصول على الجاه فأولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِين يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ﴾ يلونكم: أي الذين بقربكم، فالله أمر المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى ديار الإسلام، لهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال الروم الذين هم أقرب إلى جزيرة العرب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل الجهد الذي حلّ بالجيش.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً﴾ أي وليجد الكفار منكم شدة وقوة وشجاعة عند قتالهم ﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللَّه مَعَ المتَّقينَ﴾ واعلموا أن الله بعونه ونصره مع المتقين الذين يخافون الله ويجتنبون ما نهاهم عنه.

ولما توفي رسول الله قام خلفاؤه بالفتوحات العظيمة، ولكن لما وقعت الفتن ودبت الاختلافات بين حكام المسلمين ومال الناس إلى شهوات الدنيا وعصيان الله طمع فيهم الأعداء فنهبوا ديارهم وقتلوا شبابهم وأذلوهم وكانت عندئذ فتنة أصابت المسلمين بأفدح الخسارات وصدق الله فيهم إذ قال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾
أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا
يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

شرح المفردات:

رجساً إلى رجسهم: كفراً إلى كفرهم ونفاقاً إلى نفاقهم.

عزيز عليه ما عنتم: يشق عليه ضلالكم.

يفتنون: يبتلون بالشدائد.

لا يفقهون: لا يفهمون.

حسبي الله: كافيني الله ومعيني.

حريص عليكم: حريص على إيمانكم وهدايتكم.

رؤوف: شديد الرحمة.

نظرة المنافقين إلى القرآن الكريم

ويتابع القرآن الكلام على المنافقين مبيناً نظرتهم إلى القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيماناً﴾ أي وإذا أنزلنا عليك سورة يا محمد قال بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ يقولون ذلك على وجه الإنكار، أو يقول المنافقون ذلك لضعفاء المسلمين على وجه الاستهزاء.

ولقد ردَّ الله عليهم بأن هناك فرقاً بين المنافقين والمؤمنين في سماعهم القرآن الكريم:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرون﴾ أي فأما الذين آمنوا فقد زادتهم السورة يقيناً وخشية من الله إضافة إلى إيمانهم السابق لما فيها من الهدى، وهم يفرحون بنزولها فترى الفرحة بادية على وجوههم لما سمعوا فيها من بواعث الطمأنينة والاستبشار بما أعد الله لهم في اليوم الموعود.

﴿وَأَمَّا الَّذين في قلوبهم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِم﴾ وأما المنافقون الذين في قلوبهم مرض من كفر خفيّ وسوء عقيدة فزادتهم السورة التي أنزلها الله كفراً مضافاً إلى كفرهم السابق، وإثماً إلى إثمهم، وسمى الله الكفر والإثم رجساً لأنه أقبح الأشياء. وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرونَ﴾ وماتوا وهم جاحدون وحدانية الله وآيات القرآن المنزلة على رسوله.

وهكذا حال من لا يدينون بالإسلام من الملل الأخرى، فإن أقبلوا على دراسة القرآن بنفس صافية بريئة يبتغون الوصول إلى الحقيقة انشرحت صدورهم واطمأنت له نفوسهم لما يرون فيه من الحقائق والهدى والعدالة الاجتماعية والمثل العليا، فعندها يؤمنون عن اقتناع بأنه كلام الله حقاً، ولا سيما أن القرآن الكريم ساحر في بيانه معجز في أسلوبه يلامس القلوب ويستحوذ على المشاعر والعقول.

وأما من يُـقْبِل على دراسة القرآن بتعصب وكراهية فإنهم لا يرون فيه ما يروق لهم، وكان حالهم كحال المنافقين على عهد رسول الله ﷺ.

﴿أَوَلا يَـرَوْنَ أَنَّـهُم يُـفْـتَـنُونَ في كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مَـرَّتَـيْـنِ﴾ يفتنون: يبتلون، وابتلاء المنافقين كان بكشف نفاقهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم كيدهم لهم. وهم يفتنون بدعوتهم إلى الغزو والجهاد، فمع كونهم كافرين فقد عرّضوا أنفسهم للقتل من غير فائدة. والمراد بالمرة والمرتين مجرد التكثير لا بيان الوقوع في الفتنة على حسب العدد المذكور ﴿ثُمَّ لا يتوبُونَ وَلا هُمْ يَـذَّكَّـرُونَ﴾ ثم لا يتوبون عن هذا النفاق ولا يندمون عليه ولا يستغفرون الله مما حدث منهم، ولا يتعظون بما أعطى الله رسوله ﷺ من النصر والظفر على الأعداء.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَت سُورَةٌ نَظَر بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَـرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ وإذا أوحى الله لرسوله محمد سورة من القرآن فيها توبيخ للمنافقين وهم في مجلس رسول الله تأذوا من سماعها ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطعن والاستهزاء بها وقال بعضهم لبعض بصوت منخفض: هل يراكم أحد من المسلمين إذا خرجتم متسللين؟ فإن لم يرهم أحد انصرفوا عن مواضعهم لأنهم لا يطيقون أن يسمعوا الوحي الإلهي وهو يشهّر بهم كما أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا ما يكرهون ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهم قَوْمٌ لا يَـفْقَهُونَ﴾ صرف الله قلوبهم عن الإيمان بسبب أنهم لا يفهمون ما يتلى عليهم من القرآن ولا يفهمون ما فيه نفعهم.

ويختم الله هذه السورة ببيان ما يتحلى به رسوله محمد ﷺ من رأفة ورحمة لقومه وإخلاصه لهم:

﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم﴾ لقد جاءكم ـ أيها العرب ـ رسول من عند الله وهو من أنفسكم ليس بغريب عنكم بل هو واحد منكم قادر على التفاهم معكم، وهو من أكرم البيوت فيكم حسباً ونسباً، تعلمون تاريخه ونشأته وسلوكه حتى سميتموه قبل نزول الوحي عليه بالصادق الأمين، فمجيئه من عند الله رسولاً منه إليكم يرفع من ذكركم ويعلي من شأنكم، كما أنه رسول من عند الله إلى الناس كافة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم﴾ أي يعز عليه مشقتكم فقد جاءكم بالشريعة السهلة السمحة، أو بمعنى: يشق عليه ضلالكم كما يشق عليه وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حريص على هدايتكم ووصول النفع إليكم ﴿بالمؤْمِنينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا الرسول شديد الرأفة والرحمة بكم أيها المؤمنون. وقد قال بعض العلماء: لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه سبحانه إلا لرسوله محمد ﷺ حيث قال سبحانه في شأن محمد ﷺ: ﴿بالمؤمنين رَؤوفٌ رَحيمٌ﴾ وقال سبحانه عن ذاته في القرآن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإن أعرض قومك يا محمد عن الإيمان بالله وتصديق أنك رسول الله وأعرضوا عن طاعة الله فقل: يكفيني الله ويُعينني عليكم ﴿لا إِلَه إِلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا معبود بحق إلا الله سبحانه عليه اعتمدت، وفوضّت أمري إليه، فلا أرجو سواه ولا أستعين إلا به ﴿وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ والمراد بالعرش ـ والله أعلم ـ السلطان والملك، أي أن الله سبحانه هو مالك الملك ورب الكون وصاحب السلطان العظيم.

قراءة القرآن في المآذن

هناك ظاهرة في لبنان وبعض الدول الإسلامية وهي قراءة القرآن في المآذن قبل الأذان للصلوات الخمس بربع ساعة أو أقل أو أكثر، وهي بدعة لم يأت بها شرع الله، وكل بدعة مرفوضة، لأن الأذان قبل الصلاة من ضمن العبادات، وليس لأحد أن يزيد شيئاً عليها. كما أن في ذلك إساءة للقرآن وتعريضه للامتهان بما ظهر لي من المعطيات الآتية:

١) القرآن لا يقرأ للتنبيه إلى وقت الصلاة، بل الأذان هو الوسيلة لذلك.

٢) الغاية من إنزال القرآن هو تدبر معانيه والعمل بأحكامه، قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

كما أن الغاية من تلاوة القرآن تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين، ولهذا وصف الله المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقراءة القرآن في المآذن لا يتحقق بها شيء من تلك المعاني السامية والمقاصد العالية، ناهيك أن القرآن الذي يتلى في المآذن لا يصل معناه إلى الأذن بصورة واضحة يستوعبها العقل، والتعبد بتلاوة القرآن لا تقوم إلا على تدبره وفهمه والعمل به.

٣) إن الأشرطة المسجلة التي تذاع فيها تلاوة القرآن تذاع بصوت عال[١] فلا تفهم مما يذاع منها شيئاً وبالأخص إذا كنت بعيداً عن المسجد فلا تسمع إلاّ نغماً مشوشاً لأحد المقرئين فيكون في ذلك إضرار وتشويش على المصلي في صلاته، وعلى طالب العلم في تحصيله العلمي، وعلى قارىء القرآن في تعبده بتلاوته، وعلى الذي يقوم بعمل فكري يحتاج إلى التركيز، أضف إلى ذلك ما تسببه من إقلاق راحة المسنين والأطفال والمرضى.

---

(١) من المشاهد في بعض المساجد أن القائمين عليها يرفعون صوت الأذان بصورة مرتفعة جداً بما يسبب الضيق والحرج لجيران المسجد، فيجب ضبط الصوت بصورة معتدلة بحيث لا يسبب الأذى للأذن والأطفال.

إن تلاوة القرآن من أفضل الأعمال الصالحة التي يتقرب بها المؤمن إلى الله سبحانه، ولكن ليس في المآذن والناس منهمكون في أشغالهم وطلب معاشهم أو لهوهم، والله سبحانه يخاطب المؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. فيكون ذلك سبباً لوقوع الكثير من الناس في الإثم لأننا نراهم لا يصغون إلى ما يُتلى عليهم من القرآن ولا ينصتون له بل يستمرون في أحاديثهم ولهوهم، هذا إذا وصل الصوت نقياً إلى الآذان، ولكن ما يحصل هو اختلاط الصوت بضجيج السيارات وغيرها من الأصوات.

لهذا نصّ فقهاء الإسلام على عدم جواز قراءة القرآن في الأسواق والمحافل العامة المتشاغلة بمصالح المعاش والكسب وطلب الرزق، وذهبوا إلى تأثيم من يفعل ذلك لأنه يُعرّض القرآن للامتهان بتشاغل الناس عن سماعه وتدبّره، إذ لا يجب عليهم ترك ما هم بصدده من أسباب الرزق والمعاش ليتفرغوا إلى سماع تلك التلاوة.

جاء في كتاب فتح القدير(١): رجل يكتب الفقه وبجنبه رجل يقرأ القرآن فلا يمكنه استماع القرآن فالإثم على القارىء، وعلى هذا لو قرأ على السطح والناس نيام يأثم. ويقول العلامة ابن عابدين في حاشيته: إنما يأثم القارىء لأنه يكون سبباً لإعراضهم عن استماعه أو لأنه يؤذيهم بإيقاظهم.

والتسبيح والأناشيد التي يتغنى بها قبل أذان الفجر بوقت طويل هي من البدع التي يجب تركها، جاء في كتاب الإقناع وشرحه من كتب الحنابلة: وما سوى التأذين قبل الفجر من التسبيح والنشيد ورفع الصوت بالدعاء ونحو ذلك في المآذن ليس بمسنون وما من أحد من العلماء قال إنه يستحب، بل هو من جملة البدع المكروهة لأنه لم يكن في عهده ﷺ ولا في عهد أصحابه.

وعليه فينبغي على أولياء الأمر القائمين على تنظيم الشؤون الدينية إرشاد العاملين في المساجد إلى ترك هذه العادات الممنوعة شرعاً، والاكتفاء بالأذان وحده للإعلام بدخول وقت الصلاة.

---

(١) فتح القدير: هو من الكتب المعتمدة في المذهب الحنفي وهو من تأليف ابن الهمام.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي .
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي .
تفسير الكشاف للزمخشري .
تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا .
تفسير التحوير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور .
التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .
التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ أخبار اليوم، قطاع الثقافة .
تفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ـ دار الفكر .
تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المصري .
تفسير القرآن العظيم لابن كثير .
جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري .
الجهاد والقتال في السياسة الشرعية للدكتور محمد خير هيكل .
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي .
سورة الأنفال للدكتور مصطفى زيد ـ دار الفكر العربي .
فتح القدير للشوكاني .
في تفسير سورة الأنفال والنجم للدكتور علي الجندي .
اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي الحنبلي .

وهناك بعض المراجع ذكرناها في حواشي هذا التفسير .

وفـــي الـخـتـــام

أقدم شكري وامتناني لأصحاب دار العلم للملايين الأجلاء على ما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص.

كما أقدم شكري لفضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين غزال ولفضيلة الأستاذ الشيخ محمد شريف سكر. على ما قدماه لي من معونة وملاحظات قيمة.

وأقدم شكري إلى الدكتورة هدى سنو على جهودها في تصحيح هذا التفسير عند الطبع.

وأخص بالشكر أيضاً الأستاذ توفيق الحوري عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية على ما يسّر لي من المراجع في مكتبتها هذه.

وأخيراً أشكر جامعة بيروت العربية لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام.

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه
ويرضاه وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه
الكريم وأن يجزيهم الله خير الجزاء

عفيف عبد الفتاح طبارة

الفهـــرس

سورة الأنفال

سورة التوبة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طَـه
- تفسير سُوَر : الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورة يونس ـ وسورة هود
- تفسير سورة الأنفال ـ وسورة التوبة

روح القرآن الكريم

تفسير

• سُورَة يونس
• سُورَة هود

بقلم

عَفيف عَبد الفتاح طَباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذا التّفْسِير

- يعَرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .
- يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .
- يَعرِض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:
دَارالعِلم للمَلايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ

روح القرآن

تفسير

سورة يونس
و
سورة هود

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة الأولى

حزيران / يونيو ٢٠٠٠

تعريف بسورة يونس

هذه السورة مكية أي نزلت بمكة وسميت بسورة يونس لأنها انفردت بذكر ما خص الله قَوم يونس برفع العذاب عنهم الذي كاد يصيبهم بعد أن آمنوا بالله وتابوا إليه.

افتتحت هذه السورة بوصف القرآن بأنه الكتاب الحكيم وأنه لا عجب أن ينزل الله الوحي على رجل من البشر ـ وهو محمد ﷺ ـ لينذرهم بالعقوبة إن كفروا بالله وعصوه، ويبشِّرهم بالمثوبة والرحمة إن آمنوا بالله وأطاعوه. ثم أعقب ذلك بأن الله أبدع السموات والأرض في ستة أيام وأنه لا شفيع عنده إلاّ بإذنه وأن المرجع إليه بعد الموت. كما تذكر السورة هلاك الأمم السابقة بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسل الله، وحسن عاقبة المتقين.

وتبين السورة فضل الله على الناس بتسييرهم في البر والبحر وأنهم حين تحيط بهم أسباب الهلاك في البحر يدعونه وحده لينقذهم من الأخطار التي تحدق بهم فإذا أنقذهم عادوا إلى بغيهم في الأرض. كما تصور السورة مثلاً للحياة الدنيا وأن متاعها سريع الزوال فهي كالأرض المخضرة التي أصاب زرعها اليبس والجفاف فجأة فصارت حصيداً كأن لم تكن قائمة من قبل.

كما تتحدث السورة عن إثبات وجود الله ووحدانيته عن طريق آثار صنعه في الكون التي تدل على عظمته وحكمته.

وتتحدى السورة المشركين بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن وتعلن عجزهم عن ذلك وهذا ما تحقق فعلاً إلى الآن.

كما تتناول السورة بإيجاز بعض قصص الأنبياء كقصة نوح عليه السلام وقصة موسى عليه السلام مع فرعون وهلاكه وبقاء جثته إلى اليوم ليكون عبرة لمن يأتي بعده من الأمم وقد اكتشفت جثته حديثاً وهي تُعرض في المتحف المصري.

هذا بعض ما تناولته السورة وهناك مواضيع أخرى يراها القارىء أثناء مطالعته هذا التفسير.

سُورَةُ يُونُس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ
مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ
ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

شرح المفردات

أنـذر الناس: حذِّرهم من مغبّـة الكفر.

قَـدَم صِدْق: سابقة فضل ومنزلة رفيعة عند ربهم أو أجراً حسناً.

لساحر مبين: لساحر واضح السحر ظاهره.

إنذار وبشارة

يستهل الله تعالى هذه السورة بالتنويه بآيات القرآن الكريم:

﴿الـر[١] تِـلْـكَ آيَاتُ الكِـتَـابِ الْـحَـكِـيمِ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن،

---

(١) هذه الأحرف التي جاءت في مطالع بعض سور القرآن قيل في تفسيرها أقوال شتى، منها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله. وقيل: إنها قسم أقسم الله بها وهي من أسماء الله. وقيل: هي أسماء للقرآن أو أسماء للسور. وقيل: إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، وسماعهم له سبباً لاستماع ما بعده. وقيل إنها بيان لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من حروف لغتهم التي يتكلمون بها. والدليل على ذلك أن كل سورة افتتحت بهذه الحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه.

والمعنى: تلك الآيات الرفيعة الشأن التي تألفت منها هذه السورة أو القرآن كله هي آيات مشتملة على الحكمة، والحكمة هي إصابة الحق بالعلم والعقل.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُم﴾ الهمزة في (أكان) للاستفهام وإنكار تعجبهم، والمراد بالناس كفار مكة. والمعنى: هل بلغ الجهل وسوء الفهم بكفار مكة أن كان إنزال الله الوحي على رجل منهم يعرفونه بصدقه وسيرته الحسنة لكي يبلغهم الدين الحق، هل كان هذا الأمر مثار عجب، ولكن لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة حيث خص بعض البشر بالوحي واصطفاهم على من سواهم لهداية قومهم ومنهم رسوله محمد ﷺ.

ومدار العجب عند كفار مكة أن يكون رسول الله إليهم من البشر كقولهم بما حكاه الله عنهم ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤]. فرسول الله في نظرهم يجب أن يكون من الملائكة لا من البشر.

وكان من الأمور التي أوحاها الله إلى رسوله محمد ﷺ: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي أنذر الناس وخوّفهم من عقاب الله إذا ساروا في طريق الشر وعصيان الله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ[١] عِنْدَ رَبِّهِم﴾ وبشِّر ـ أيها الرسول ـ الذين آمنوا بالله وأطاعوه بما يسرّهم بأن لهم سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند ربهم، وأجراً حسناً، بما قدَّموا مِن صَالح الأعمال، وإضافة المنزلة الرفيعة إلى الصدق (قدم صدق) للدلالة على تحققها ﴿قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أي قال الكافرون المتعجبون أن يكون محمد رسولاً من الله إليهم: إن هذا الإنسان الذي يدّعي النبوة لساحر بيّن السحر

---

(١) (قدم صدق) القدم: السابقة، أي سبق لهم عند الله خير. وقيل: القدم كل ما قدمت من خير. وقيل: القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء. والسبب في إطلاق لفظ (القدم) على هذه المعاني لأن بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة، كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها.

واضحه، حيث إنه استطاع بقوة تأثيره أن يجذب الناس إلى دين الإسلام، وهناك قراءة ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحرٌ مُبينٌ﴾ أي إن هذا القرآن لسحر واضح. وقولهم هذا يتضمن اعترافاً منهم بأن القرآن هو فوق المتعارف والمعلوم عندهم لما له من تأثير في القلوب، فهو يسحر العقول بأسلوبه ومعانيه.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ
يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ
شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ
مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

شرح المفردات

استوى على العرش: استولى أو استقر بلا كيف، وعرش الله من الأمور الغيبية.

يُـدبِّر الأمر: يقدّر الله شؤون جميع الكائنات على وفق الحكمة.

تذكّرون: تتدبرون وتستحضرون (أصلها تتذكرون) حذفت إحدى التائين تخفيفاً.

بالقسط: بالعدل.

شراب من حميم: ماء بالغ غاية الحرارة.

وقدّره منازل: صيّر القمر ذا منازل يسير فيها.

اختلاف الليل والنهار: تعاقبهما.

آيات: علامات على قدرة الله.

يتّقون: يخافون الله ويجتنبون ما نهاهم عنه.

عظمة القدرة الإلهية

ويتابع القرآن فيذكر في الآيات التالية عظمة قدرة الله سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الذي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ اليوم يطلق تارة على النهار الواحد، أو على الليل والنهار معاً، أي أن الله خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا لأنه تعريف لنا بما نعرفه، مع قدرته على خلقهما دفعة واحدة وفي أقل من لمح البصر. وقد يراد باليوم الوقت مطلقا، أي أن الله خلق الكون في ستة أطوار من الزمن هي في علم الله وحده ولا يمكن تحديدها، وفي القران أن أيام الله ليست كأيامنا كقوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ واستواء الله على العرش هو صفة لله نؤمن بها بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل، فيجب الإيمان باستواء الله كما وردت، ونفوض العلم بحقيقتها إلى الله سبحانه.

ويمكن أن يُفسَّرَ الاستواء بالنسبة إلى الله بأنه كناية عن القهر والعظمة والغلبة وسلطان الله في الكون، وعرش الله لا يعلمه البشر إلا بالاسم ولا يعرفون شيئاً عن حقيقته. ويتابع القرآن قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي أن الله سبحانه يدبر أمر مخلوقاته تدبيراً محكماً، وعبّر القرآن عن التدبير بصيغة فعل المضارع الذي يفيد الحاضر والمستقبل، إشارة إلى استمرارية تدبير الله سبحانه لمخلوقاته ولهذا الكون.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ هنا يردُّ الله على مشركي العرب الذين كانوا

يدّعون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله، وهذا ما نراه أيضاً عند بعض أتباع الأديان الأخرى حيث يسبغون صفة القداسة على بعض الناس: الأموات منهم والأحياء ويزعمون أن هؤلاء يشفعون لهم عند الله غير عابئين بأعمالهم السيئة، فردّ الله على مزاعمهم بأنه لا يوجد شفيع يشفع لأحد عند الله إلا من بعد إذنه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ﴾ أي ذلك هو الله الموصوف بخلق السماوات والأرض والتصرف في شؤون خلقه هو ربكم فأخلصوا له الطاعة والعبادة ولا تشركوا بعبادته أحداً ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتدبّرون وتستحضرون في أذهانكم الدلائل والآيات التي تدل على وحدانية الله وعظمته، وأن بيده النفع والضر؟

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي إلى الله وحده تُرجعون جميعاً بعد الموت لمجازاتكم على أعمالكم، وقد وَعَدَ الله عباده بذلك وعداً صادقاً وهو لا يخلف وعده ﴿إِنَّه يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ﴾ أي أن الله يخلق الناس ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم مرة ثانية يوم القيامة. فأما بدؤه سبحانه خلق الإنسان والكائنات فهو حقيقة مشاهدة لأن الناس كانوا عدماً ثم أوجدهم، وأما إعادة الناس أحياء بعد الموت فهي هيّنة على الله لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، وقد وصف القرآن قدرة الله سبحانه بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم بيّن القرآن الحكمة من إعادة الإنسان حيًّا بعد الموت يوم القيامة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي ليثيب الله المؤمنين المطيعين له بما أمرهم به من الأعمال الحسنة بعدله التام ﴿وَالَّذين كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَميمٍ﴾ والذين كفروا بالله ورسله وعملوا سيىء الأعمال لهم شراب من ماء شديد الحرارة ﴿وعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانوا يكفُرونَ﴾ ولهم مع ذلك عذاب موجع بسبب كفرهم.

﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً﴾ أي أن الله هو الذي جعل

الشمس ذات نور قويّ ساطع يصدر من ذاتها وهذا ما ذكره القرآن في سورة نوح ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. والسراج هو المصباح الذي ينبعث نوره من ذاته، كما جعل الله القمر منيراً إذ يعكس نور الشمس، والنور هو تموّجات مغنطيسية تمكّن من رؤية الأشياء ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ منازل: جمع منزل وهو مكان النزول، أي جعل الله للقمر منازل ينتقل فيها وهو يدور حول الأرض وهو يظهر في كل ليلة من الشهر على شكل يختلف عن الليلة السابقة ولمّا كان القمر جسماً معتماً ويعكس سطحه الأشعة الشمسية الساقطة عليه لذلك فإن الناظر إليه من الأرض يشاهده أثناء دورانه بأشكال مختلفة بحسب حجم الأجزاء المنيرة من سطحه التي تعرف باسم أوجه القمر. وتستغرق دورة القمر الكاملة حول الأرض نحو تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم. ثم قال سبحانه ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ﴾ أي جعل الله للقمر هذه المنازل التي ينزل بها والأشكال التي يظهر بها لنعلم عدد السنين وحساب الأوقات من الشهور والأيام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله ذلك إلا ملابساً للحق مراعياً لمقتضى حكمته البالغة في منفعة العباد ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يوضّح الله البراهين والعلامات الدالة على قدرته وحكمته لقوم يعلمون أسرار ما خلق الله، فيطيعونه ويشكرونه على نِعَمِه التي لا تُحصى.

﴿إِنَّ في ٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي إن في تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ في السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ أي وما خلق الله في السموات من نجوم وكواكب، وما خلق في الأرض من كائنات حيوانية ونباتية وجبال وبحار ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ لأدلة واضحة على وجود الخالق وقدرته ووحدانيته لقوم يتقونه سبحانه فيطيعونه في أمره ونهيه ويحذرون عقابه.

هذه الشمس وما تعطيه من طاقة وحرارة لنمو النبات وحياة الإنسان وسائر الحيوانات، وهذا القمر الذي يظهر على أشكال متفاوتة لنهتدي بها إلى حساب الأشهر والسنين وهذا الليل والنهار اللذان يحصلان من دوران الأرض حول نفسها، وهذا

الكون بسمائه وأرضه هو من فعل القدرة الإلهية الحكيمة ؛ فعلى الإنسان أن يتذكر ذلك على الدوام ويخص الله سبحانه بالشكر والثناء على نعمه الجليلة .

أما ما يدّعيه الماديون من أن الكون خُلِق صدفة وعبر تطورات ملايين السنين فهو زعم يقوم على الوهم، ويناقض أبسط مبادىء العقل التي تقول بأن لكل صنعة صانعاً . ولنأخذ مثلاً الساعة أو جهاز التلفزة فإنهما لم يحصلا صدفة بل هناك صانع لكل منهما ، وإذا ادعى أحد أنهما وجدا صدفة اتهمناه في عقله ، فما بالك بهذا الكون العظيم القائم على منتهى الحكمة؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

شرح المفردات

لا يرجون لقاءنا: لا يتوقعون لقاء الله للحساب والثواب والعقاب لإنكارهم البعث .

اطمأنوا بها: فرحوا وسكنوا إليها دون اهتمام بأوامر الله .

مأواهم: مسكنهم ومقرهم .

يكسبون: يعملون السوء .

دعواهم فيها سبحانك اللّهم: دعاؤهم أو عبادتهم في الجنة التسبيح والتنزيه لله تعالى .

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

وبعد أن بيّن القرآن قدرة الله على إعادة الإنسان حيًّا يوم القيامة شرع بعد ذلك في بيان أحوال من يكفر بالمعاد، ومن يؤمن به:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الرجاء: الأمل وتوقع ما فيه خير ونفع، وتستعمل كلمة الرجاء أيضاً بمعنى الخوف. والمعنى: إن الذين لا يخافون عقاب الله على أعمالهم السيئة، ولا يأملون بحصول الثواب منه على أعمالهم الحسنة، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمأَنُّوا بِهَا﴾ أي رضوا بالحياة الدنيا معتقدين أن لا حياة بعدها فكل همهم محصور بالتمتع بلذاتها وشهواتها، وسكنت أنفسهم إلى الدنيا غير مبالين بما يصدر عنهم من أعمال سيئة ﴿وَالَّذِين هُمْ عَن آيَاتِنَا[١] غَافِلُون﴾ أي ومن صفاتهم أنهم غافلون عن آيات القرآن وما فيها من المواعظ والمعارف والحكم، أو غافلون عن آيات الله الكونية وما تدل على وحدانيته وحكمته وقدرته ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بمَا كانُوا يَكْسِبُون﴾ أي هؤلاء الذين هذه صفتهم: مسكنهم ومقرّهم في الآخرة نار جهنم بما اقترفوا من المعاصي والسيئات.

﴿إنَّ الّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن الذين آمنوا بوجود الله ووحدانيته، وعملوا صالح الأعمال التي أمرهم الله بها قاصدين بها وجهه الكريم ﴿يَهْدِيهم رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ يرشدهم الله إلى ما فيه خيرهم بسبب إيمانهم، ويجعل لهم نوراً يسلكون به طريق الله المستقيم الذي يوصلهم إلى الجنة في الآخرة. هذه الآية فيها بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بما ينتظرهم من خير عميم، حيث ﴿تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ في جَنَّاتِ النَّعِيم﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار في جنات النعيم ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعواهم: بمعنى الدعاء، أي دعاؤهم في الجنة: سبحانك اللهم، أي تنزيهاً لك يا رب عن كل سوء ونقيصة، ويجوز أن

---

(١) آياتنا: الأدلة والحجج التي ذكرها الله لعباده وتأتي بمعنى آيات القرآن.

تكون كلمة (دعواهم) بمعنى العبادة، أي إن عبادة أهل الجنة هي أن يسبحوا الله ويحمدوه ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فيها سَلاَمٌ﴾ أي يُحيّوْن بالسلام في الجنة ولفظ السلام يدل على الأمن والطمأنينة والسلامة من كل مكروه وهذه التحية تكون من الله للمؤمنين، وتكون من الملائكة لهم، كما تكون من المؤمنين يتبادلونها فيما بينهم ﴿وآخِرُ دَعْواهُمْ أنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وختام دعائهم دائماً الحمد لله على توفيقه إياهم بالإيمان وظفرهم برضوان الله وبما أسبغ عليهم من النعيم.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

شرح المفردات

لقُضي إليهم أجلهم: لأُهلكوا وأبيدوا.

فنذر: فنترك.

طغيانهم: تجاوزهم الحد في الكفر والظلم.

يعمهون: يترددون ويتحيّرون.

مسّ الإنسان الضر: أصابه البلاء والشدة.

دعانا لجنبه: استغاث بنا وهو مضطجع على جنبه.

زُيِّن: حُسِّن.

للمسرفين: المفرطين في العصيان.

أهلكنا القرون: أهلكنا الأمم الماضية.

بالبينات: بالحجج الواضحة.

خلائف: جمع خليفة وهو كل من يخلف غيره ويقوم مقامه.

سنَّة اللَّه في استجابة الدعاء

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المشركين الذين كانوا يستعجلون نزول العذاب بهم الذي توعّدهم به رسول الله ﷺ:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أي ولو يعجّل الله للناس إجابة دعائهم في الشر بما فيه مضرة لهم ومكروه كما يعجّل إجابة دعائهم في طلب الخير ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِم أَجَلُهُم﴾ لهلكوا وعُجِّل لهم الموت.

وقد كان بعض المشركين يدعون على أنفسهم بالهلاك ومجيء العذاب الذي توعّدهم به رسول الله تكذيباً وتحدّياً واستهزاء، وقد حكى الله بعض أقوالهم في ذلك:

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

ويندرج في هذا المعنى دعاء الرجل بالشرّ على نفسه أو على ولده عند الغضب أو عند مصيبة ما، ولهذا يقول النبي ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود.

فالله سبحانه يستجيب للداعي بالخير ولا يعجل باستجابة الدعاء للإنسان إذا دعا على نفسه بالشر، لأنه سبحانه أقام نظام الحياة على الرحمة والرفق بالمخلوقات لطفاً منه، وإن الذين يستحقون الشر لو عُجِّل لم ما استحقوه من العقاب لبطل النظام الذي وضعه للناس وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

فالله قد لا يعجل لقوم الهلاك بسبب معاصيهم وكفرهم إذ لا حكمة بإهلاكهم عاجلاً فربما آمنوا بعد ذلك، أو ربما خرج من نسلهم من يكون مؤمناً، وهذا ما تحقق مع كفار مكة، فقد كفر العديد من الآباء وأسلم أبناؤهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَنَذَرُ الَّذِين لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا في طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾ أي فنترك الذين لا يتوقعون لقاءنا يوم البعث لإنكارهم له، نتركهم وهم على ما هم عليه من مجاوزة الحد في الكفر والظلم، يترددون حيارى في ضلالهم لا يهتدون إلى الصواب.

ثم يبيّن الله طبيعة الإنسان عندما يُصاب بالضرّ:

﴿وإذا مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ﴾ والضر لفظ عام يشمل كل الأمراض والرزايا في النفس والمال والأحبة، أي وإذا أصاب الإنسان أي ضرر من ذلك ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أوْ قَاعِداً أَو قَائِماً﴾ أي دعا الله لكشف ما به من ضر في حال اضطجاعه على جنبه، أو في حال قعوده أو في حال قيامه، وخُصَّت هذه المظاهر بالذكر لأنها أغلب الأحوال التي يكون عليها الإنسان عادة، ويجوز أن يُراد أنه يدعو حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود بسبب مرضه الشديد، أو قاعداً غير قادر على القيام، أو قائماً، إنها الفطرة الإنسانية التي أودعها الله في قلوب الناس حيث يلجأون إليه وحده عند إصابتهم بالضرّ.

﴿فلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأَن لَمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أي فإذا أزال الله

عن الإنسان شدته ورفع عنه بلاءه استمر في بُعْدِهِ عن طاعة الله ونسي ما كان عليه من البلاء وكأنه ما دعا الله من قبل. والتعبير بلفظ (مَرّ) يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذي يدعو الله عند البلاء فإذا ما زال البلاء عنه مرّ واندفع في تيار الحياة لا يتوقف ليعتبر ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي مثل هذا الإعراض عن طاعة الله حسّن الشيطان لهؤلاء المسرفين ما كانوا يعملون من المعاصي والمنكرات، وسماهم الله مسرفين لأن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس أو التافه، ومعلوم أن شهوات الدنيا خسيسة في مقابل سعادة الآخرة، فمن استغرق في شهوات الدنيا ولم يعمل للآخرة كان كمن أنفق أشياء ثمينة ليفوز بأشياء حقيرة وهي متاع الدنيا الزائلة.

ويستفاد من الآية الكريمة ذمّ الذين يتركون دعاء الله وعبادته في الرخاء ويتضرعون إليه فقط عند نزول البلاء، وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[(١)].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي ولقد أهلك الله الأمم قبلكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وفرعون وغيرهم حين ظلموا بتماديهم في الكفر والضلال، والخطاب في هذه الآية يشمل كل أمة ظالمة في أي عصر من العصور ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي والحال أن الأمم السابقة التي أهلكها الله جاءتهم رسل الله بالحجج الواضحة الدالة على أنهم مُرسلون من عند الله ولكن هؤلاء الأقوام ما كانوا ليؤمنوا لفساد جبلّتهم وخذلان الله لهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الأليم الذي حل بالمجرمين من الأمم السابقة قد نجزي بعدهم كل قوم أجرموا وكفروا بما أسبغنا عليهم من نِعَمٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي ثم جعلناكم يا أمة محمد خلفاء في الأرض بعد أن أهلكنا مكذّبي رسلنا من الأمم قبلكم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

تَعْمَلُونَ﴾ لنعلم أي عمل يقع منكم خيراً كان أم شرًّا مع علمنا أزلاً بما سيكون منكم، ونعاملكم معاملة المختبرِ لكم فنجازيكم على ما يصدر منكم. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله إنما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية.

فالله سبحانه يبشر أمة محمد بأنها ستخلف الأمم السابقة في الملك والسلطان إن هي آمنت بالله واتبعت النور الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، كما أكد ذلك في موضع آخر من القرآن: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]. ولقد صدق الله وعده فملّك الله المسلمين ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وكثيراً من الأمم الأخرى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

شرح المفردات

تُتلى: تُقرأ.

آياتنا بيّنات: آيات القرآن الواضحات.

تلقاء نفسي: من جهة نفسي ومن عندي.

ولا أدراكم به: ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني.

افترى: اختلق.

لا يفلح: لا يفوز.

البراهين الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ

ويتابع القرآن فيذكر ما اقترحه المشركون على رسول الله من تغيير القرآن أو تبديل في آياته، قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن واضحة في دلالتها على وحدانية الله وبطلان عبادة الأصنام ﴿قَالَ الَّذِين لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَو بدِّلْهُ﴾ أي قال الذين لا يصدّقون بالبعث ولا يخافون عذاب الله إن عصوه، ولا يرجون ثوابه إن أطاعوه، قال هؤلاء المكذبون: أحضر لنا يا محمد قرآناً غير هذا القرآن أو بدّل في آياته فاجعل الحرام حلالاً، والحلال حراماً، وهم قد طلبوا حذف الآيات التي تهزأ بالأصنام وتذم عابديها، وكذلك الآيات التي تتوعّد المشركين بسوء المصير يوم القيامة ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لي أَن أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسي﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لا يمكنني ولا يحق لي أن أغيّر أو أبدّل في القرآن من عند نفسي وإنما الأمر هو بيد الله سبحانه ﴿إن أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إلَيَّ﴾ أي ما أنا إلا متبع ومبلغ ما ينزله إلي ربي من الوحي ﴿إنِّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى إن خالفت أمر الله وبدّلت ما أوحاه الله إليّ عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة.

ثم يأتي الدليل الواضح والبرهان القوي على صدق نبوّة محمد ﷺ مستقى من حياته:

﴿قَلْ لَوْ شَاءَ اللَّه مَا تلوتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: لو شاء الله لم يُنزّل عليّ القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم، لكنني تلوته عليكم، وتلاوته دليل على أني رسول

من عند الله لما يتضمن من إعجاز، وكلام فوق مستوى البشر ﴿ولا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ ولا أعلَمَكم الله بالقرآن على لساني بما أوحى به إليّ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فيكم عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي فقد عشت بينكم عمراً طويلاً شاهدتم فيه أطوار نشأتي وسلوكي فلم تروا حالة تشبه حالة نزول الوحي عليّ من الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أفلا تفكّرون بعقولكم لتعلموا يقيناً أن سيرتي قبل النبوة وما جئتكم به من الهدى يشهدان أني رسول الله حقًّا؟

لقد عاش محمد ﷺ أربعين سنة في مكة لم يقل في أثنائها شعراً ولا ارتجل خطبة ولا عرف شيئاً من شرائع الأمم وأديانها، ولم يخالط الأحبار والرهبان حيث لم يكن لهم وجود في مكة، ولم يدخل معهداً، مع العلم أنه لم يكن في جزيرة العرب كلها معهد في ذلك الزمن للتدريس، كما أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

ومن المشاهد أنّ أيّ شخص تظهر عليه أمارات النبوغ في علم ما تظهر بوادره في عنفوان شبابه، ومحمد في هذه الفترة من حياته لم يظهر عليه شيء من هذا القبيل، بل جُلّ ما اتصف به هو الصدق والأمانة حتى لُقِّب بالصادق الأمين، كما اشتهر عنه السيرة الحسنة والعزوف عن مخالطة قومه في المجون واللهو وعبادة الأصنام والبعد عن الآثام.

وعند بلوغه سن الأربعين قال لقومه: إن الوحي الإلهي نزل عليه من السماء وإنه رسول الله إلى خلقه، ثم تتابعت آيات القرآن تنزل عليه. فإن قيل بأن محمداً ليس برسول من عند الله وإنه عبقري فنقول: لا توجد عبقرية يتأخر صدورها إلى تلك المرحلة المتأخرة من العمر.

كما أن القرآن لا يشبه ما صدر عن عباقرة التاريخ بل هو كتاب هداية يشتمل على العقائد الإلهية المؤيدة بالبراهين العقلية، والعبادات الروحية والجسدية، والأخلاق والفضائل الإنسانية والشرائع العادلة.

ومن الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ أنه لم يأت قومه بالقرآن جملة واحدة مما يثير الظن أنه كان منكبًّا على تأليفه وتنقيحه زهرة شبابه، بل القرآن كان ينزل عليه حسب الوقائع والأحداث التي تستلزم إصلاح ما عليه قومه من وثنية وفساد وظلم

اجتماعي، وما يسأله أتباعه وأعداؤه عن قضايا يجيب عنها بما كان يوحيه الله إليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله كذباً وزعم أنه رسول من عند الله وهو ليس رسولاً، أو بدّل كلام ربه وأضاف إليه شيئاً مما ليس منه ﴿أو كذَّب بآيَاتِهِ﴾ أو كذّب بآيات القرآن وزعم أنها ليست من عند الله ﴿إنَّه لا يُفْلح المجْرِمُون﴾ إنه لا يفوز الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ
شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ
سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً
فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ
لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

شرح المفردات

أتنبّئون الله بما لا يعلم: أتخبرونه بما لا وجود له أصلاً وهو شفاعة الأصنام عنده.

سبحانه: تنزيهاً له تعالى.

أُمّة: جماعة من الناس يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان.

كلمة سبقت من ربك: الكلمة هي تأخير جزائهم إلى يوم القيامة.

لولا أُنزل عليه آية من ربه: هلاّ أُنزل عليه معجزة من ربه.

الغيب: هو ما غاب عن حواس الناس من الأشياء.

تسفيه عبادة الأصنام

ثم يبين القرآن مدى جهل المشركين الذين يعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم﴾ أي ويعبد المشركون من غير الله أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم في شيء، والعبادة هي الطاعة مع الخضوع والتذلل والتعظيم﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّه﴾ ويقول هؤلاء المشركون إن أصنامهم تشفع لهم عند الله في دنياهم لتيسير أمورهم، وهي تشفع لهم في الآخرة في تخفيف العقاب عنهم، إذا كان هناك بعث وثواب وعقاب، هذا مع العلم أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّه بِمَا لا يَعْلَمُ في السَّمٰواتِ ولا في الأرضِ﴾ قل يا محمد إنكاراً عليهم وتوبيخاً: أتخبرون الله تعالى بأن أصنامكم تشفع لكم عنده؟ كيف تزعمون ذلك والله لا يعلم أن لهؤلاء الشفعاء وجوداً وأثراً في السماوات والأرض، فلو كانوا شفعاء عند الله لكان الله أعلم بهم منكم فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله وارتفع مقاماً عن كفرهم وعن الشركاء له الذين تشركونهم مع الله في العبادة.

وبعد أن بيّن القرآن أن وحدانية الله هي التي يقوم عليها الدين الحق بيّن بعد ذلك أن التوحيد ملّة منذ القدم وفطرة في النفس الإنسانية:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ والمراد بالناس الجنس البشري فإنم كانوا أمة واحدة على ملة التوحيد يعبدون الله وحده متفقين على الدين الحق ثم وقع الاختلاف بين الناس ما بين ضال ومهتد، وعُبدت الأصنام وجُعِلَ لله شركاء فأرسل الله إليهم رسله يبشرون المهتدين بالثواب الجزيل، وينذرون الكافرين بالعقاب الأليم، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر منه:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولولا أن قضى الله في سابق علمه بأن جعل لكل أمة أجلاً، وتأخير الحكم على هذه الأمة إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُم فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لحكم بينهم عاجلاً فيما اختلفوا فيه بأن يهلك أهل الباطل وينجي أهل الحق، ولكن حكمة الله اقتضت إمهال أهل الباطل بإنزال العذاب بهم إلى موعد اختص به وحده بعلمه لأن الدنيا دار تكليف، ودار الآخرة دار ثواب وعقاب.

ثم تحكي الآية التالية بعض ضلالات المشركين الذين اشترطوا لإيمانهم نزول معجزة على رسول الله ﷺ سوى معجزة القرآن:

﴿وَيقُولون لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي ويقول هؤلاء المشركون: هلاّ أنزل الله على محمد معجزة كمعجزات الأنبياء السابقين كالتي حدثنا عنها تكون علامة على صدق نبوّته ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فقل لهم يا محمد إن نزول المعجزة هي من الأمور الغيبية لا يقدر الإتيان بها إلاّ الله ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ المُنْتَظِرِينَ﴾ أي ليس دأبي ودأبكم إلاّ انتظار ما يأتي به الله من القضاء بينكم، إني معكم من المنتظرين لِمَا يفعل الله من تعجيل العقوبة للمبطل منا.

لقد طلب المشركون معجزة من محمد ﷺ وفاتهم أن الله أيده بالقرآن الذي هو معجزة المعجزات في أسلوبه وهديه وتشريعه، وما جاء به من أخبار الغيب وأسرار الكون. فمعجزة القرآن هي معجزة عقلية علمية متجددة العطاء تشهد على صدق نبوة محمد ﷺ، كما تشهد على أن القرآن وحي من الله وليس من صنع البشر.

أما معجزات الأنبياء السابقين فهي معجزات حسيّة يؤمن بالله من شاهدها من أقوامهم، أما من يأتي بعدهم من الأمم فيؤمنون بها على أنها خبر من الأخبار، ويضعف تأثيرها بانقضاء زمانها.

وهذه الحقيقة أشار إليها رسول الله محمد ﷺ إذ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات (أي المعجزات) ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذي أُوتيته وحياً (أي القرآن) أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً (أي أتباعاً) يوم القيامة[١].

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾

شرح المفردات

رحمة من بعد ضراء: رخاء بعد شدة وخصب من بعد جدب.

مسّتهم: أصابتهم.

مكر في آياتنا: طعن بآيات القرآن وتكذيب بها.

قل الله أسرع مكراً: أي الله أعجل عقوبة على مكركم السيىء.

إن رسلنا يكتبون: أي إن الملائكة تكتب آثامهم.

بريح طيبة: أي لينة الهبوب موافقة للمقصد.

ريح عاصف: ريح شديدة الهبوب.

---

(١) أخرجه الشيخان.

أحيط بهم: أحدق بهم الهلاك.

يبغون في الأرض: يظلمون ويفسدون فيها.

متاع الحياة الدنيا: ما تستطيبه النفوس في هذه الحياة ويأتي عليه الفناء.

طبيعة الإنسان في النعمة والمحنة

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن كفار مكة الذين أصابهم القحط سبع سنين حتى كادوا أن يهلكوا، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم بالخصب والمطر ووعدوه بالإيمان، فلما دعا الله لهم واستجاب دعاءه، ورحمهم بإنزال المطر، أخذوا يطعنون بآيات القرآن وهذا ما حكاه الله عنهم:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ والذوق في أصل اللغة إدراك الطعام بالفم ويستعمل في إدراك غيره من الأشياء المعنوية كالنعمة والعذاب. والمعنى: وإذا أنعم الله على هؤلاء الكفار وأمثالهم برحمة منه من بعد ضرّاء أصابتهم، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، وأذاقهم طيب العيش ﴿إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ إذا: هي للمفاجأة، أي إنهم أقدموا سريعاً على المكر، وهو الطعن في آيات القرآن وتكذيبها والاستهزاء بها وإلقاء الشبه عليها. والمكر في اللغة: تدبير الشر للغير خفية والاحتيال لإيقاع الأذى بهم ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ قل لهم يا محمد على سبيل التهديد والوعيد: اللّه سبحانه أسرع وأشد عقوبة على مكركم، فلن يصل إليك يا محمد وإلى آيات القرآن شيء من كيدهم.

وتسمية عقوبة الله مكراً ـ والله يتنزه عن المكر ـ هي من باب المشاكلة وهي الإتيان بلفظ ليس المراد به حقيقة معناه اللغوي الذي يتبادر إلى الذهن، ولكنه جيء بهذا اللفظ لوقوعه في صحبة غيره من اللفظ ذاته، فكأن الله يقول: إننا حين نعاقبك أيها الإنسان على مكرك فإننا نمكر بك فَسُمِّي ما يستحقون من عقوبة باسم فعلهم وهو المكر ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فالله يقول: إن رسلنا من الملائكة الحفظة الموكلين بكم يكتبون ما تمكرون وسيجازيكم على مكركم يوم القيامة. وعبرت

الآية بفعل المضارع في يكتبون ويمكرون الذي يفيد التكرار والمستقبل، أي تتكرر كتابة الملائكة أعمالهم السيئة كلما يتكرر مكرهم.

ويتابع القرآن فيقدم مثالاً عن طبيعة الإنسان عندما يقع في مواطن الخطر وما يصدر عنه عندما يزول الخطر عنه:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي أن الله تعالى هو الذي يسيّركم - أيها الناس - بقدرته ورحمته في البر والبحر بما وهبكم القدرة على السير وبما سخّر لكم من الإبل والدواب والسفن التي تجري في البحر، وبما ألهمكم صنعه من وسائل الركوب كالقطارات والسيارات في البرّ والطيارات التي تطير في الجو ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي حتى إذا ركبتم في السفن وسارت بسبب ريح طيبة مواتية لكم في جهة سيركم وفرح ركاب السفينة بتلك الريح الطيبة المواتية للسفينة[١] ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وفي تلك الحالة من الاستقرار والاطمئنان إلى سير السفينة جاءت ريح شديدة السرعة فأثارت الأمواج ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وأحاطت الأمواج بالسفينة ومن فيها من كل جانب، وتقاذفتها الأمواج العالية[٢] ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ[٣] بِهِم﴾ أي أيقن راكبو السفينة بأنهم هالكون لا محالة ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وفي هذه الحالة التي أيقنوا فيها بالهلاك دعوا الله مخلصين له الدين أن يكشف عنهم هذا الخطر الشديد. إنها الفطرة الإنسانية

---

(١) كانت السفن في عهد نزول القرآن منذ أربعة عشر قرناً سفناً شراعية.

(٢) هذا الوصف القرآني لاضطراب البحر والشعور الذي ينتاب المسافرين حينئذ لفت نظر أحد ربان السفن الأجانب عندما قرأ ذلك في ترجمة للقرآن فسأل بعض المسلمين: أتعلمون أن نبيكم محمداً سافر في البحار، قالوا: لا، ولم يرو عنه أنه سافر في البحر قط، فاعتقد هذا الربان أن ما في القرآن مما ذُكر لم يكن إلاّ بوحي من الله تعالى لنبي الإسلام، وكان ما قرأه أيضاً من ترجمة للقرآن وما يحتويه من توحيد الله وتشريع وأخلاق سبباً لاعتناق الإسلام وهو المستر عبد الله براون، وقد أقام في مصر واجتمع به الشيخ رشيد رضا رحمه الله. هذا ما ذكره الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار.

(٣) العرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكن منها وغلبها، (فأحيط بهم) استعارة تمثيلية للهلاك.

التي تلجأ إلى الله وحده في مواطن الخطر، وتترك اللجوء إلى ما كانت تعبد من قبل من غير الله، حتى إن الملحدين في تلك الحالات المحفوفة بالخطر يلجأون إلى الله ويطلبون منه النجاة، لأن الخطر الشديد الداهم لهم يعيد إليهم صوابهم، ويبين لهم أن هناك يد القدرة الإلّهية التي تتصرف في الوجود، القادرة على إنقاذهم مما هم فيه.

ثم يحكي لنا القرآن ما يقوله ركاب السفينة وهم في هذا الخطر المحدق بهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي والله لئن أنقذتنا من هذه الكارثة لنكونن من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك ولا نشرك بعبادتك أحداً.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُم إِذَا هُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي فلما استجاب الله دعاءهم وأنقذهم من الهلاك المحيط بهم، نقضوا عهدهم، وعادوا فجأة إلى الفساد والظلم في الأرض، وقوله سبحانه ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لما يفيده معنى البغي وهو الظلم والفساد، وأنهم فعلوا ذلك تمرداً وعناداً. وقد يكون من جملة البغي الرجوع إلى معبوداتهم الباطلة، والشرك بالله الذي هو بغي، لأنه تجاوز عن عبادة الله وهو أعظم اعتداء حيث سماه القرآن ظلماً عظيماً ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنما بَغْيُكُم عَلَى أَنْفُسِكُم﴾ هذا التفات من الكلام عن البغاة إلى مخاطبتهم وجهاً لوجه، والمعنى: يا أيها الناس المفسدون في الأرض المعتدون على الغير إنما ضرر بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم، فأنتم وحدكم الذين تتحملون وزره وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة ﴿مَتَاعَ الْحَياةِ الدُّنْيَا﴾ وأنتم تتمتعون بثمرة بغيكم على الآمنين تمتعاً مقتصراً على الحياة الدنيا، ومتاع الدنيا قليل لا يعتدّ به وهو سريع الزوال ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُم فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ ثم إلى الله وحده ترجعون إليه ليعاقبكم على ما قدمتم من ظلم وفساد، ويخبركم بذلك زيادة في إيلامكم، وفي هذا ما فيه من التهديد والوعيد لهم على بغيهم. وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرَّحِم» (أخرجه أبو داود وابن ماجه).

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

شرح المفردات

الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والماعز.

أخذت الأرض زخرفها: استكملت حسنها وبهاءها.

وازّينت: تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة.

أتاها أمرنا: أتاها قضاء الله بإهلاكها.

حصيداً: مقطوعة مستأصلة كما يُحصد الزرع من أصله بالمناجل.

كأن لم تغن بالأمس: كأن لم تمكث تلك الزروع قائمة على ظهر الأرض في الماضي القريب.

دار السلام: هي الجنة.

الحسنى: المثوبة الحسنة وهي الجنة.

وزيادة: أي النظر إلى وجه الله الكريم.

ولا يرهق وجوههم: ولا يغشى وجوههم ولا يعلوها.

قتر: شبه دخان يغشى الوجه من كرب أو هول.

حقيقة الحياة الدنيا

ولمّا كان سبب بغي الناس هو إسرافهم في حب الدنيا والتمتع بزينتها بيّن الله في الآيات التالية حقيقتها للناس حتى لا يغترّوا بها ولا يطمئنوا إلى دوامها:

﴿إِنَّما مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ لقد مثّل الله حال الحياة الدنيا في فنائها وزوال متعها بماء المطر الذي ينزل من السماء فينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات ويختلط بعضه ببعض ويتشابك على كثرته واختلاف أنواعه ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ أي مما يأكل منه الناس من الحبوب والثمار والخضار، وما تأكله الأنعام والبهائم من الأعشاب والمراعي ﴿حتى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾(١) والزخرف: هو الذهب ويطلق على الزينة وكمال حسن الشيء، لقد شبّه الله الأرض في تزينها بأصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون وتزينت بأنواع الحلي ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وظن أهل تلك الأرض أنهم قادرون على حصادها والحصول على ثمراتها والانتفاع بخيراتها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً﴾ أي أتاها قضاء الله بهلاك ما عليها من النبات بإصابتها ببعض العاهات والآفات ليلاً أو نهاراً(٢).

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ أي جعل الله ما عليها من النبات كالأرض المحصودة التي قطع زرعها من أصوله بسبب ما أصابها من التلف ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس مخضرًا طريًا يُنتفع به ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي كهذا المثل في وضوحه وبروز العبرة فيه يفصّل الله الآيات ويضرب الأمثال الدالة على وحدانيته وقدرته الشاملة لقوم يحسنون التفكير ويعتبرون بحال هذه الدنيا ومآلها.

فالله يصور حالة من يتعلق قلبه بالدنيا ويعظم رجاؤه في الانتفاع بملذاتها، فمثله

---

(١) ازينت: أصلها تزينت أبدلت التاء زاياً وأدغمت في الزاي.

(٢) في هذا العصر الذي بلغت فيه الحضارة أوجها وأخذت الأرض زخرفها من العمران وظن الإنسان أنه قادر على هذه الأرض بما توصل إليه من اختراعات، أخشى على هذه الحضارة من الدمار والهلاك بسبب طغيان الإنسان وظلمه وإعراضه عن ربه. وما يصيب العالم اليوم من زلازل وفيضانات وأعاصير إن هو إلا تذكير للإنسان بضعفه أمام قدرة الله المتصرفة في الكون، وإنذار له على تمرده عن طاعته.

كمثل النبات المزدهر ذي الألوان الخلابة فإنه لا يلبث أن تصيبه جائحة سماوية تقضي عليه، وكذلك حال المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته ومطلبه أتاه الموت فجأة فسلبه كل ما هو فيه من نعيم الدنيا وملذاتها، فلا يغتر الإنسان بهذه الدنيا وليكن قلبه معلقاً دائماً بربه وابتغاء رحمته.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ والله يدعو الناس إلى دار السلام وهي الجنة ويكون ذلك بالإيمان بوحدانية الله والدخول في الإسلام والعمل بشريعة القرآن.

وسميت الجنة دار السلام لأن فيها السلامة من جميع الآفات والمصائب والأكدار والمكاره والعداوة والخصام. كما سميت الجنة بدار السلام لأن الله تعالى يسلم على أهلها قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. والملائكة يسلمون على أهل الجنة قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]. والمؤمنون يحيّون بعضهم بعضاً في الجنة، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]. ويمكن أن يكون الله قد أضاف الجنة إلى اسمه على سبيل التعظيم والتشريف، لأن من أسماء الله الحسنى لفظ «السلام».

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ويرشد الله من أراد له الهداية إلى الطريق المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة وهو دين الإسلام.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه، فأطاعوه في ما أمر ونهى، لهم المثوبة الحسنة وهي الجنة، أما الزيادة عليها فهي النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة ورؤيته سبحانه بلا حجاب. وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل[1] ﴿وَلَا يَرْهَقُ

(١) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.

وُجُوهَهُم قَتَرٌ ولا ذِلَّةٌ﴾ قتر: غبرة فيها سواد، أي ولا يغطي وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطي وجوه الكفار من السواد والهوان والانكسار ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ أي أولئك الذين أحسنوا في دنياهم وأطاعوا ربهم هم أصحاب الجنة. وكلمة (أصحاب) توحي بأنهم كالمالكين لها، أو هم يلازمونها ملازمة الصاحب لصاحبه، وهم في الجنة ماكثون فيها لا يخرجون منها أبداً.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ
وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

شرح المفردات

كسبوا السيئات: عملوا السيئات.

ترهقهم: تغشاهم، يقال رهقه إذا غشيه بقهر.

عاصم: مانع يمنع عنهم سخط الله وعذابه.

أغشيت: أُلبست.

مكانكم: أي الزموا مكانكم في موقف الحساب.

فزيّلنا بينهم: فرقنا بينهم، أو قطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

تبلو كل نفس ما أسلفت: أي تختبر ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضرّه.

ضل عنهم: غاب أو ذهب عنهم.

يفترون: يختلقون ويكذبون.

جزاء الذين كسبوا السيئات

وبعد أن بيّن القرآن مصير الذين أحسنوا أعمالهم أتبع ذلك ببيان مصير الذين عملوا السيئات، ومجيء المقابل للشيء يرسخه في الذهن ويبرز صورته بوضوح:

﴿والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا بالله واقترفوا المعاصي فسيجزون بمثل ما عملوا من سوء بما يستحقون من عقاب يوم القيامة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ويغشاهم ذلٌّ وهوان لعقاب الله إياهم ﴿مَا لَهم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَت وُجُوهُهُم قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ تصوير بديع للظلام المعنوي الذي يبدو على وجوه هؤلاء المسيئين حيث تبدو وجوههم مسودّة من الغم والكآبة كأنما أُسدل عليها سواد من ظلمة الليل ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أولئك هم أهل النار الذين يعذَّبون فيها أبداً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَميعاً﴾ واذكر أيها الرسول، أو اذكر أيها الإنسان يوم يجمع الله الناس كافة في موقف الحساب يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم في دنياهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُم أَنْتُم وَشُرَكَاؤُكُم﴾ ثم يقول الله موبخاً المشركين: الزموا مكانكم أنتم ومن عبدتموهم من دون الله حتى تُسألوا وتنظروا ما يُفعل بكم.

وشركاؤهم الذين ذكرتهم الآية هم أصنامهم وغيرها من معبودات من إنس وجن وملائكة، وقد وصفوا بالشركاء لاعتقاد المشركين أنهم شركاء لله، وكذلك من باب التهكم بهم لأن الذين عبدوهم لم يكونوا قط شركاء لله ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي ففرق الله بين المشركين وبين من أشركوهم مع الله في العبادة، والمراد من التفريق بينهم هو قطع ما كان بينهم في الدنيا من صلات وما كان للمشركين في معبوداتهم من آمال في شفاعتهم ﴿وَقَال شُرَكَاؤُهُم مَا كُنْتُم إِيَّانا تَعْبُدون﴾ وقال شركاؤهم الذين كانوا يعبدونهم: ما كنتم تخصّوننا بالعبادة بأمرنا وإرادتنا وإنما كنتم تعبدون

أهواءكم وشياطينكم الذين أغووكم فإنها كانت الآمرة لكم بالإشراك بالله. وهؤلاء المعبودات إما أصحاب عقل وإدراك كالملائكة والبشر، وإما أنها غير عاقلة ولا ناطقة كالأصنام فينطقها الله الذي أنطق كل شيء فتتبرأ منهم ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ فتقول هذه المعبودات: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم على براءتنا من عبادتكم لنا ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُم لَغَافِلِينَ﴾ أي ما كنا نشعر بعبادتكم لنا ولا نعلم بها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك المكان وهو موقف الحساب أمام رب العالمين تُختبر كل نفس وتعلم يقيناً ما قدمت من أعمال في الدنيا من خير أو شر ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ﴾ أي ورجعوا إلى الله في الآخرة وعرفوا أن الله هو مالكهم وإلههم الحق دون ما اتخذوا من شركاء لله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم ما كانوا يدّعون زوراً وبهتاناً من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لم يوم القيامة أو أنها شركاء لله.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ
تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى
لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

شرح المفردات

ومن يُدبِّر الأمر: ومن يلي أمر تدبير العالم.

أفلا تتقون: أفلا تقون أنفسكم عقاب الله بسبب ما جعلتم له شريكاً في العبادة.

فأنى تُصرفون: فكيف تميلون عن الحق إلى الباطل.

حقّت: وجبت.

فأنى تؤفكون: فكيف تنصرفون عن عبادة الله.

يهدي: يرشد.

الصفات التي يختص بها الله تعالى

ثم ينتقل القرآن إلى محاورة المشركين عن طريق السؤال والجواب لتقرير ثبوت الألوهية لله وحده، وبطلان عبادة الأصنام وإفحامهم بالحجة والبرهان:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من

الذي يرزقكم من السماء بإنزال المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها، ويرزقكم من الأرض التي ينبت فيها أنواع النبات والحبوب والثمار مما تأكلون منه وتأكل منه أنعامكم ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ بل قل لهم: من الذي يملك ما تتمتعون به من السمع والبصر، ومن غيره يستطيع خلقهما وتسويتهما بميزاتهما التي أوجدهما بها بحيث تقف النفس أمام أسرارهما مشدوهة منبهرة لما فيهما من إبداع، ولولا السمع والبصر لم يدر الإنسان شيئاً من أمر العالم الذي يحيط به، بل كان حاله وحال الجماد سواء.

وقد جاء لفظ السمع مفرداً، ولفظ الأبصار جمعاً لأن السمع نوع واحد وهو يتعلق بالصوت، أما الأبصار فيشمل الأحجام والألوان والأشكال ورؤية كل ما على الأرض وما في السماء ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الميِّتِ﴾ وقل يا محمد للمشركين من بيده أمر الموت والحياة فيخرج الحي من الميت كإخراج النبات من الأرض الميتة الجافة بعد إحيائها بماء المطر، وكما خلق الله الإنسان من تراب ثم سواه ونفخ فيه من روحه فدبّت فيه الحياة ﴿وَيُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيّ﴾ ومن الذي يخرج الميت من الحي كالإنسان والكائنات الحية عندما تُسلب عنها الحياة، هذا وفي الإنسان تموت ملايين الخلايا الحية، وينشأ بدلها خلايا حية باستمرار فما أعظم القدرة الإلهية ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ وقل لهم: من الذي يتولى تدبير أمور المخلوقات بعد إيجادها، كتعاقب الليل والنهار، وإمدادكم بالطاقة والحرارة من الشمس، ومن الذي يمدكم بالهواء الذي تستنشقونه، والماء الذي تشربونه مما تقوم عليه حياتكم ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فسيعترفون بأن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يدبّر أمورهم ﴿فَقُلْ أفَلا تَتَّقُونَ﴾ فقل لهم يا محمد: أتعترفون بأن الله هو الخالق المدبر للكائنات، ومع ذلك تشركون معه غيره في العبادة وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؟ أليس أجدر بكم أن تُذعنوا للحق وتخافوا الله مالك الملك؟

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فذلكم الله الذي أقررتم بربوبيته علناً أو في قرارة أنفسكم هو الحق الجدير بأن يُعبد ولا يشرك معه أحد في العبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا

﴿الضَّلالُ﴾ ما أروع هذه الجملة وما أبلغها، فالحق والباطل نقيضان لا يجتمعان، فمن يترك الحق يقع في الضلال، وعبّر القرآن عن الباطل بالضلال لأن الضلال أقبح أنواع الباطل، إنها حجة قوية دامغة يقدمها القرآن لدحض كل التوجهات في العبادة لغير الله ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أنّى: بمعنى كيف، أي أبعد ما عرفتم كل هذه البراهين والحجج على وحدانية الله، ونفي الشريك عنه، وأنه وحده الجدير بالعبادة، فكيف تنصرفون عن عبادته وتعبدون غيره.

﴿كَذَلِكَ حَقَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهم لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما ثبت أنّ الحق نقيض الضلال، وثبتت ألوهية الله للكون وحده، كذلك ثبت حكم الله وقضاؤه على الذين فسقوا أي خرجوا عن أمره، وتمردوا على طاعته أنهم لا يؤمنون، وليس معناه أنه تعالى منعهم من الإيمان، بل معناه أنهم امتنعوا عنه باختيارهم الكفر ورفضهم الإيمان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين على سبيل الإلزام والتوبيخ: هل من معبوداتكم التي جعلتموها شركاء لله من تستطيع أن تنشىء الخلق ابتداء ثم تعيده حيًّا بعد الفناء؟ ولمّا كان هؤلاء لا يجيبون على هذا السؤال لإنكارهم البعث والمعاد، أمر الله رسوله محمداً أن يبين لهم الجواب على ذلك: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم: الله وحده هو الذي ينشىء الخلق من عدم ثم يعيده بعد فنائه. فالقادر على بدء الخلق قادر على إعادته، بل هو هين عليه. وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وهذا أمر بديهي في مفهوم الناس لأن من اخترع ساعة أو سيارة يسهل عليه إعادة صنعها، هذا وليس هناك هين وأهون عند الله فالكل هين لديه سواء. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء

المشركين: هل من معبوداتكم التي جعلتموها شركاء لله من يستطيع أن يهدي غيره إلى الدين الحق فينزّل كتاباً من السماء فيه شريعة لهم تبين لهم الرشد من الغيّ؟ وهذا سؤال مفحم لأنهم لا يستطيعون القول: إن أصنامهم تهدي إلى الحق الذي يجب أن يُتبع، لذا أمر الله رسوله محمداً أن يجيب على هذا السؤال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي إن الله وحده هو الذي يهدي الناس ويرشدهم إلى الحق بإرسال الرسل والأنبياء وتأييدهم بكتب الله. ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾ أي فهل القادر على الهداية إلى الحق وهو الله سبحانه أحق أن يُعبد ويُتبع إلى ما يدعو إليه، أم الذي لا يهدي أحداً وهي الأصنام ولا تستطيع هداية نفسها؟ وفي قوله سبحانه: ﴿إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ تهكّم بالمشركين حيث ينقلون أصنامهم من موضع إلى الموضع الذي يريدونه لها فهي لا تهتدي إلى مكان ﴿فَمَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سؤال تعجب من حالهم باستفهامين متواليين للتقريع والتوبيخ، أي ما الذي أصاب عقولكم باتخاذ الأصنام شركاء لله؟ وكيف تحكمون هذا الحكم الباطل بأن أصنامكم آلهة تُعبد؟

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُم إِلاَّ ظَنًّا﴾ وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في معتقداتهم وأحكامهم إلا ظنوناً باطلة لا دليل عليها توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ﴿إِنّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيْئاً﴾ إن الظن لا تثبت به الحقائق ولا يقوم مقام العلم اليقيني، والمراد بالحق هنا هو ما ثبت بطريق وحي من عند الله. هذا التفريق ما بين الظن والعلم اليقيني هو ما قام عليه البحث العلمي حاليًا في إدراك الحقائق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ إن الله عليم بأقوال المشركين وأفعالهم، وفي هذا تهديد لهم إن استمروا على كفرهم.

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟
بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ
بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يُفترى: يختلق ويُكذّب.

تصديق الذي بين يديه: مطابقاً لِما تقدّمه من الكتب الإلهية في أصولها.

تفصيل الكتاب: تفصيل ما كُتب وأثبت من العقائد والشرائع.

افتراه: اختلقه.

من دون الله: سوى الله.

لم يحيطوا بعلمه: لم يعرفوا معاني القرآن ولا اطلعوا على أسراره وإعجازه.

ولـمّا يأتهم تأويله: ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، فالتأويل بمعنى التفسير.

عاقبة: خاتمة ونهاية.

الدلائل على أن القرآن وحي من عند الله

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على المشركين الذين زعموا أن القرآن قد اختلقه محمد من عند نفسه ونسبه إلى الله كذباً وبهتاناً، قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرى مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما ينبغي لهذا القرآن أن يُختلق ويُفترى به على الله، وذلك أن كفار قريش زعموا أن محمداً قد اختلق القرآن من عند نفسه وأنه ليس من عند الله. ومما يدحض مزاعمهم أن القرآن بما فيه من إعجاز

وبلاغة وهداية وأحكام وعبادات لا يمكن أن يكون من عند غير الله .

ثم يبين الله الحقيقة المتوخاة من نزول القرآن على رسوله محمد ﷺ ﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّـذِي بَيْـنَ يَـدَيْـهِ﴾ أي أن الله أنزل القرآن مصدقاً وموافقاً لما تقدم من الكتب السماوية السابقة في أصول العقائد والأحكام، ومصححاً للعقائد التي عبث بها رجال الدين فردّها القرآن إلى أصلها الأول وهو توحيد الله والخضوع له وعبادته وحده ﴿وَتَـفْصِيلَ الكِتَـابِ﴾ كما أنزل الله القرآن الذي فيه تفصيل كل الأحكام التي أجملتها الكتب السماوية السابقة من عقائد وتشريعات وزادها كمالاً، كما نسخ من الأحكام مما لم يعد مصلحة للناس فيها. فالكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل كانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها، أما القرآن فجاء بالأحكام التي تصلح لكل زمان ومكان. ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿لا رَيْـبَ فيه منْ رَبِّ العَالَـمِـينَ﴾ هنا ردٌّ على مزاعم الذين قالوا إن القرآن مختلق من عند محمد ﷺ، فالقرآن لا شك أنه كلام الله رب العالمين الذي تعهد النوع الإنساني أجمعه بالتربية الإلهية لصلاحهم.

﴿أَمْ يَـقُولُونَ افْـتَـرَاهُ قُـلْ فَـأْتُـوا بِسُورة مِثْلِـهِ﴾ أي إذا كان هذا القرآن مُفترى في زعم المشركين العرب، وهذا ما يقوله الكثير من أتباع الديانات الأخرى، فلماذا إذن لا تفترون مثل محمد ـ كما تدّعون ـ وتأتون بسورة واحدة مماثلة لسور القرآن حتى يصح ما زعمتم أن محمداً قد افتراه على الله، وفيكم الشعراء والبلغاء والفصحاء والخطباء؟ ﴿وَادْعُوا مَنِ ٱسْتَـطَـعْـتُـم مِـنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُـنْـتُـم صَادِقِينَ﴾ واستعينوا على الإتيان بمثله بمن تشاؤون من البلغاء والكتّاب والشعراء من دون الله لتبرير زعمكم بأن القرآن قد افتراه محمد، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه، ومعنى ذلك أنه في حال عجزكم عن الإتيان بسورة مثله فإنكم كاذبون تعرفون الحق وترفضونه مكابرة وعناداً.

هذا ما تحداهم القرآن في هذه السورة به، وقد جاء التحدي أيضاً في موضع آخر من القرآن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأثبت عجزهم، قال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وفي موضع آخر تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

هذا هو التحدي الواضح الذي أعلنه القرآن منذ خمسة عشر قرناً، ولم نسمع إلى اليوم أن أديباً أو بليغاً أو شاعراً استطاع أن يأتي بسورة واحدة مثل سور القرآن في بلاغتها ومعانيها الباهرة، أي دليل وبرهان على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى أن القرآن وحي إلٓهي أقوى من ذلك.

وإني أوجه خطابي إلى الذين يدّعون أن القرآن من تأليف محمد من أتباع الديانات الأخرى أن يجمعوا فصحاءهم وشعراءهم وكتّابهم ويصوغوا كلاماً مثل كلام القرآن في فصاحته وبلاغته وهديه وتشريعه، فإذا عجزوا عن ذلك وسيعجزون لا محالة، إذن فليكفوا عن ادعاءاتهم الباطلة فإن الحق ظاهر بأن القرآن وحي من عند الله ولا ينكر ذلك إلاّ من سُلِب منه العقل والفهم وجهل بآداب اللغة العربية وأعماه التعصب.

وكلمة أخيرة أقولها في هذا المقام وهي أن القرآن لو كان من تأليف محمد لكان عقله وذكاؤه يحولان بينه وبين الجزم بعجز الغير عن الإتيان بمثل القرآن أو سورة من مثله، فما أمكن لإنسان أن يفعله يمكن لغيره أن يفعله.

ويتابع القرآن: **﴿بَلْ كَذَّبوا بِمَا لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ﴾** بل سارع الكفار إلى تكذيب أن القرآن مُنزل من عند الله، فهم لم يتدبروا آياته، ولم يحيطوا العلم بما فيه **﴿وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ﴾** أي إن تكذيبهم للقرآن حصل قبل أن يطلعوا على معانيه، وما اشتمل عليه من تشريع وآداب، وأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، وقبل أن يتحققوا

عاقبة ما فيه من الوعيد وما أخبر به عن المغيبات، ولو علموا ذلك كله لتبين لهم حينئذ مبلغ ضلالهم، وأن تكذيبهم بالقرآن كان عن جهل وقصور في الفهم ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي وبمثل هذه الطريقة في التكذيب بغير علم كذّب الكافرون من الأمم السابقة رسل الله وما أنزل عليهم من كتب حيث لم يحيطوا بالعلم بما جاءت به رسل الله من الهدى ﴿فَانْظُر كيف كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمينَ﴾ فانظر يا محمد مآل الظالمين وما حل بهم من عذاب الله، وهذا العذاب وصفه الله في موضع آخر من القرآن: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[١] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّن خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغرَقنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي ومن هؤلاء المشركين الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في دخيلة نفسه ويعلم أنه صدق ولكنه ينكر ذلك جهراً مكابرة وعناداً، وقيل: ومنهم من سيؤمن به في المستقبل وإن كذّب به في الحال ﴿وَمِنْهُم من لا يُؤْمِن بِهِ﴾ ومن هؤلاء من لا يصدقون به أبداً لفرط جهلهم وتقليدهم لآبائهم وإيثارهم الضلال على الهدى ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالمفْسِدينَ﴾ وربك يا محمد أعلم بالمفسدين الذين يؤثرون الضلال على الهدى وسوف يجازيهم بما يستحقون.

---

(١) الحاصب: ريح شديدة البرودة وهي عاصفة تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وقد عذّب الله بها قوم عاد، أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود. وقد عوقب قارون بالخسف، كما عوقب فرعون وجنده بالغرق

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠
بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ
كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا
يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

شرح المفردات

لي عملي ولكم عملكم: لي ثمرة عملي ولكم ثمرة أعمالكم من الثواب والعقاب يوم الحساب.

ينظر إليك: يعاين دلائل نبوتك الواضحة يا محمد.

ويوم يحشرهم: ويوم يجمعهم في موقف الحساب يوم القيامة.

يلبثوا: يبقوا.

وإما نرينك بعض الذي نعدهم: أي وإن أريناك في حياتك بعض ما نعدهم من العذاب فذاك.

موقف رسول الله من المشركين

ويتابع القرآن فيبين لرسول الله ﷺ الموقف الذي يجب أن يأخذه تجاه المشركين:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي وإن كذبك يا محمد هؤلاء المشركون ورفضوا ما جئتهم به من الهدى من عند ربك فقل لهم: لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يجازي الله كلاً بما

عمل ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بريءٌ مِمَّا تَعْمَلونَ﴾ أي أنا مسؤول عن عملي أمام الله فلا تتحملون مسؤوليته، وأنتم مسؤولون عن أعمالكم، وكلٌّ منا بريء من عمل الآخر.

هذه الآية تثبت حرية الرأي التي توصل إليها العالم المتمدن بعد صراعات دامية والقرآن أول من نادى بحرية الرأي بهذا النص القرآني حيث لم يلزم أحداً باتباع رأي سواه بل ترك له الخيار في سلوكه وعمله، وكل إنسان يتحمل وزر عمله.

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي ومن المشركين من يستمعون إليك يا محمد إذا قرأت القرآن وبيّنت ما يحتويه من أصول الإيمان والأحكام ولكنهم لا يستمعون حقًّا إذ لا يتدبّرون القول ولا يفكرون بعقولهم بما يراد منه، وكان شأنهم في سماعه كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣] لهذا وصفهم الله بالصمم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي أأنت يا محمد تقدر على إسماع الصم وهم من فقدوا حاسة السمع، فكيف لو انضم إلى صممهم فقدان العقل عندهم؟ لقد وصفهم الله بفقدان السمع والعقل معاً الذي ينتج عنه عدم الإدراك والفهم في شيء.

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ومن هؤلاء المشركين من ينظر إليك يا محمد عندما تقرأ القرآن، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ولكنه يرفض دعوتك له إلى الإيمان جحوداً وعناداً ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي العُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ أي أأنت يا محمد تستطيع أن تهدي من فقد البصر مع فقدان البصيرة في قلبه، لأن الأعمى الذي فقد البصر ولكن في قلبه بصيرة يكون له من الإدراك والوعي ما يفهم به الكلام الحق إذ تقوم البصيرة مقام النظر، أمّا من اجتمع لديه عمى البصر والبصيرة معاً فقد تعذّر عليه الإدراك.

والمقصود مما سبق من النص القرآني مواساة رسول الله مما يجابَه به من الرفض، فإن هؤلاء المشركين قد بلغوا من النفور منه والعداوة والبغضاء مبلغاً كبيراً بحيث لا ينفع فيهم علاج.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيئاً﴾ إن الله سبحانه وتعالى سيجازي الناس على أعمالهم بالعدل فلا يظلم بعقاب من لا يستحق العقاب ﴿وَلَكِنَّ الناسَ أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ﴾ ولكنهم يظلمون أنفسهم لاختيارهم الكفر على الإيمان وارتكابهم ما يوجب سخط الله عليهم فيعاقبهم الله على معاصيهم. وفي الآية إشارة إلى أن عاقبة الظلم تقتصر على فاعله وأن الإنسان قد جعل الله له الاختيار في ما يعمل وليس مجبراً على فعل ما لا يريد.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهارِ﴾ وحذّر أيها الرسول هؤلاء الظالمين يوم يجمعهم يوم القيامة في موقف الحساب والجزاء فيشتدّ كربهم وينسون تلك الملذات التي استمتعوا بها في دنياهم، حينئذ يدركون قصر المدة التي مكثوها في الدنيا حتى كأنها مقدار ساعة قضوها فيها، والمقصود بالساعة(١) هنا مدة قليلة من الزمن. وفي موقف الحساب: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُم﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا وهذا التعارف فيه توبيخ وافتضاح لهم حيث يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني على الكفر ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بِلِقَاء اللَّهِ﴾ ولقاء الله المراد به ما أعد لهم ربهم في الآخرة من ثواب أو عقاب، لقد خسر المكذبون بالآخرة لأنهم لم يقدّموا في دنياهم عملاً صالحاً يثابون عليه، ولم يظفروا بنعيم الآخرة بسبب كفرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب.

---

(١) اصطُلح على تسمية الساعة بالوقت الذي يقدر بـ ٦٠ دقيقة كما اصطُلح على تسمية الساعة بتلك الآلة التي توضع في اليد أو على الجدران والتي تحصي الثواني والدقائق والساعات. ومنذ خمسة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ لم تكن الساعة معروفة آنذاك بوقتها وآلتها.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فالله يقول: وإما أن نريك يا محمد بعض الذي نعدهم به من نصرك عليهم وإلحاق العذاب والذل بهم أو نتوفاك قبل أن ترى ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُم﴾ فإنه لا مناص من عودتهم إلينا في الآخرة ليحاسبوا على أعمالهم ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم الله شاهد على ما يفعلونه في دنياهم من الكفر والمعاصي ومعاقبتهم على ما يفعلون. وعبّر الله بفعل المضارع في قوله (يفعلون) الذي يفيد المستقبل أي أنه سبحانه سيعلم ما سيحدث من أفعالهم، أما ما مضى من أفعالهم فهو بعلمه أجدر.

لقد تحقق بعض الذي توعدهم الله في حياة رسوله محمد ﷺ بما لقوا من القحط والجوع سبع سنين، كما أُصيبوا بهزيمة نكراء يوم معركة بدر حيث قُتل سبعون من وجهائهم وأغنيائهم وأُسر الكثير منهم، ثم توالت الهزائم عليهم وتم النصر الكامل لرسول الله ﷺ.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ
لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ
نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ
كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ
إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ
لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

شرح المفردات

قُضي بينهم بالقسط: حُكِمَ بينهم بالعدل.

لكل أمة أجل: أي لكل أمة مُدّة عُمْر وبقاء محدودة على هذه الأرض.

أرأيتم: أخبروني.

بياتاً: ليلاً.

ويستنبئونك: ويطلبون منك الخبر عن العذاب الموعود.

وما أنتم بمعجزين: ما أنتم جاعلين الله عاجزاً عنكم غير قادر على إدراككم.

لافتدت: قدمت فدية وعوضاً.

أسرّوا الندامة: أخفوا آثار الندم والأسف على ما فعلوا من الظلم.

إنذار للكافرين من عذاب الآخرة

بعد أن بيّن الله حال المشركين مع رسوله محمد ﷺ انتقل إلى بيان حال الأنبياء السابقين مع أقوامهم وما حل بأقوامهم جزاء كفرهم:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أي ولكل أمة من الأمم الماضية رسول من الله أرسله إليهم بشريعة خاصة بهم يدعوهم إلى عبادة الله والعمل بشريعته ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُم قُضِيَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فإذا جاء رسول الله إليهم بالبيّنات والحجج الدالة على صدقه فآمن من آمن، وكفر من كفر قضى الله بينهم بالعدل فحكم بنجاة المؤمنين وهلاك الكفرة ولا يظلم ربك أحداً، وهذا التفسير على معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد يكون المعنى عما سيجري يوم القيامة: ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول من الله تُنسب إليه، فإذا جاء رسولهم وهم في موقف الحساب أمام ربهم وشهد عليهم بالكفر أو الإيمان قضى الله بينهم بالعدل فأثاب المؤمنين، وعاقب الكافرين، وهذا التفسير على معنى قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أي ويقول كفار قريش لرسول الله ومن اتبعه من المؤمنين على سبيل الاستبعاد والاستهزاء: متى يقع هذا العذاب علينا الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين في هذا الوعيد؟ هنا يأتي الجواب من الله:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفعاً إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس بيدي إنزال عقاب الله بكم لأني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلا بإذنه ومشيئته فكيف أملكه لغيري؟ وكيف أطّلع على ما لم يطلعني عليه ربي فأخبركم بالموعد الذي حدده لعقابكم وعذابكم؟ ويتابع الله قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[1] أي لكل قوم ميقات

(١) الأجل: الوقت المحدد

لانقضاء أعمارهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُم فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم لا يمهلون فيؤخَّرون برهة من الزمن ولا يتقدم أجلهم عن الوقت الذي عيّنه الله.

تأمّل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً: ﴿قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضرًا ولا نَفْعاً إلاّ ما شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه الآية فيها نهي وتوجيه لمن يستغيث برسول الله عند المصائب التي لا يقدر على كشفها إلاّ الله، فكيف يطلب الإنسان من نبيّ من الأنبياء أو من أحد من الصالحين ما هو عاجز عن تلبية دعائه، ويترك الدعاء من رب الأرباب الذي هو وحده القادر على كشف البلاء؟ وكيف يتوجه بعض الناس إلى قبور الأولياء والصالحين ويتمسحون بأضرحتهم يطلبون منهم الحوائج والشفاء من أمراضهم وهم ليس بيدهم شيء؟ بل كُلّ ذلك بيد رب العالمين، وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويتابع القرآن فيردّ على المشركين الذين طلبوا تعجيل العذاب لهم إنكاراً له واستخفافاً به: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إنْ أَتَاكُم عَذَابُهُ بَيَاتاً أو نَهاراً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً وأنتم عنه غافلون أو أتاكم نهاراً وأنتم مشغولون في تحصيل معاشكم ﴿مَاذَا يَسْتَعجِلُ مِنْهُ المجْرِمُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار المتضمن النهي. والمعنى: أي شيء يجعل المجرمين يستعجلون نزول العذاب؟ فالعذاب كله مر المذاق تنفر منه النفوس وتأباه الطبائع السليمة، فلا موجب لاستعجاله. وقد وصفهم الله بالإجرام لأنهم يشركون بالله ويستبيحون المعاصي ومن شأن المجرم أن يخاف العقاب على إجرامه ﴿أَثُمَّ إذا مَا وَقَع آمَنْتُم بِهِ﴾ أي أهنالك إذا وقع العذاب بكم حقيقة صدّقتم به في حال لا ينفعكم فيها التصديق ﴿آلآن وَقَدْ كُنْتُم به تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي وقيل لهم حينئذ: آلآن تصدّقون به وقد كنتم قبل الآن تستعجلونه تكذيباً وإنكاراً؟

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ﴾ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله، يقال لهم إهانة وتبكيتاً على لسان ملائكة العذاب: تجرّعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُم تَكْسِبُونَ﴾ هنا إثبات لعدل الله وأنه لا يظلمهم في ذلك العذاب لأن ما حلّ بهم هو بسبب ما كانوا يعملون في حياتهم من الذنوب والآثام.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي ويطلب المشركون منك يا محمد الخبر عن الذي يراود أنفسهم من عذاب الله فيقولون: أَحَقٌّ ما تقول وما تعدنا به من عذاب الله في الدار الآخرة جزاء ما كنا نكسب من معاصي الله؟ ﴿قُل إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إي: حرف بمعنى نعم، والمعنى: نعم وأقسم بربي إنه لحق، وهذه الجملة من القرآن مؤكَّدة بعدة مؤكدات: القسم، وحرف إنّ المؤكدة، واللام الداخلة على كلمة حق ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وما أنتم بمفلتين من عذاب الله ولا تستطيعون الفرار لأنكم في قبضته وسلطانه وملكه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ أي ولو أن لكل نفس ظالمة بسبب عصيانها لأوامر ربها، لو أنها تملك جميع ما في الأرض من أموال ومقتنيات لدفعته فدية لتفتدي نفسها من العذاب الذي أحاط بها ولكن هيهات أن يُقبل منها ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأخفوا الندامة على ما فعلوا في حياتهم الدنيا من الظلم، لا تصبّراً ولا تجلداً بل لأنهم بُهتوا وصعقوا عندما رأوا هول العذاب الذي نزل بهم، فلم يقدروا على النطق بشيء سوى إسرار الندم والحسرة على ما فات ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُم لا يُظْلَمُونَ﴾ وحكم الله بينهم بالعدل وهم لا يظلمون بأي وجه من الوجوه.

﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾ هنا يبين القرآن أن الله وحده هو الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهما من كائنات ومخلوقات فليس للكافر شيء يملكه في الحقيقة حتى يفتدي به من عذاب الله. وصدّرت الآية بحرف التنبيه (ألا) لتنبيه الغافلين إلى هذه الحقيقة ﴿أَلا إِنّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي أن كل ما وعد الله به حق على لسان

رسله ومن جملة ذلك: البعث والحساب، ووعيده الكفار بعذاب الدنيا قبل الآخرة، هذا وقد أُعيد حرف التنبيه (ألا) للاهتمام بمضمون ما وعد الله ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنّ أكثر الناس الذين أُرسلْتَ إليهم يا محمد لا يعلمون حقيقة الأمر لجهلهم وقصور عقولهم واستيلاء الغفلة على قلوبهم.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهو الله سبحانه بيده الحياة والموت يحيي من يشاء إحياءه ويميت من يشاء إماتته، وإليه ترجعون جميعاً بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا
وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

شرح المفردات

موعظة: وصية تدعو إلى الحق والخير.

وشفاء لما في الصدور: شفاء لما في النفوس من العقائد الفاسدة ونوازع الشر.

وهدى: أي الرشاد إلى الحق والخير.

أرأيتم: أخبروني.

تفترون: تكذبون.

تتلو: تقرأ.

شهوداً: رقباء مطلعين عليه حافظين له، وشهود جمع شاهد، وأخبر الله عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم.

تفيضون فيه: تشرعون فيه.

ما يعزب: ما يغيب وما يخفى.

مثقال: ما يوازن الشيء.

القرآن هدى وشفاء لأمراض النفس

وبعد الحديث عن المشركين وما ينتظرهم في الآخرة من عذاب، تأتي الآيات التالية وفيها نداء من الله للناس للعمل بالقرآن لما يحتويه من فوائد جليلة وفضائل جمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم﴾ أي قد جاءكم كتاب من عند الله وهو القرآن الجامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة تصلح كل أموركم، والموعظة هي التذكير والنصح بالتزام الحق والخير واجتناب الشر، وهذه الموعظة من ربكم، وقد جاء وصف الله بصفة الربوبية لأنه هو الذي تكفّل بتربية الناس وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ﴾ والمراد بالصدور النفوس كما هو شائع في الاستعمال.

فالقرآن شفاء للنفوس من الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والآفات الاجتماعية من ظلم وكبرياء ونفاق وحقد وحسد.

والقرآن شفاء للنفوس مما يعتريها من القلق والحزن والهمّ من جرّاء مصائب الحياة، وذلك بما وعَدَ الله الصابرين بجزيل الثواب يوم القيامة.

فكما أن جسم الإنسان يصيبه المرض فيلجأ المريض إلى الطبيب طلباً للعلاج فكذلك النفس الإنسانية تصاب بأمراض جاء القرآن لعلاجها.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والقرآن يرشد الناس إلى الحق والخير كما أنه سبب الرحمة للمؤمنين الذين امتثلوا إلى ما فيه من الأحكام واتبعوا وصايا ربهم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وقد فُسِّر فضل الله ورحمته بالقرآن، ومن المفسرين من قال: فضل الله بالقرآن ورحمته بالإسلام، وقيل: فضل الله بالقرآن ورحمته أن جعلكم من أهله. والمعنى: قل يا محمد لقومك بأن يفرحوا بما جاءهم من القرآن والإسلام ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وفضل الله ورحمته هما خير مما يجمع الناس من أموال وسائر متاع الدنيا.

وهذا الفضل: أخروي ودنيوي، أما الأخروي فظاهر وهو النعيم الدائم في الجنة، وأما الدنيوي فلأن كمال النفس وصحة الاعتقاد والإقبال على الأعمال الصالحة المستفادة من القرآن تكسب السعادة النفسية والعيش الهنيء.

ثم وبّخ الله المشركين على ما حرّموه على أنفسهم من رزق الله وجعلوا بعضه حلالاً وبعضه حراماً قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً﴾ أي قل يا محمد للمشركين: أخبروني عما خلق الله لكم من الرزق والأطعمة، لِمَ فرّقتم هذه الأطعمة إلى حلال وحرام حسب أهوائكم دون أن تأخذوا بشرع الله؟ ﴿قُل آلله أَذِنَ لَكُم أم على اللَّهِ تَفْتَرُون﴾ وقل لهم: هل الله أذن لكم بأن تحرّموا ما حرمتم أم أنكم تكذبون على الله؟

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي ماذا يظن هؤلاء الذين يكذبون على الله بقولهم: هذا الطعام أحلّه الله، وهذا حرّمه، أيظنون أن الله سيتركهم بلا عقاب يوم القيامة؟ لا، بل سيجازون على افترائهم الكذب على الله ﴿إِنَّ اللَّه لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فالله ذو فضل على الناس لأنه أنعم عليهم بالعقل الذي يميزون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، ورحمهم بإنزال الشرائع التي فيها

صلاحهم بواسطة رسله وأنبيائه، ورزقهم من الطيبات من المآكل ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي أن أكثر الناس لا يشكرون الله على هذه النعم الجليلة التي أنعمها عليهم.

علم اللّه المحيط بالكون

ثم يبيّن القرآن إحاطة علم الله بأحوال الناس كلها: ﴿وَمَا تَكُونُ في شَأْنٍ وما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي وما تكون يا محمد في أمر من أمورك أو في حال من أحوالك، وما تقرأ على قومك من آيات القرآن ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهُوداً﴾ أي ولا تعمل يا محمد أنت وقومك من عمل إلا والله شاهد على أعمالكم ﴿إذْ تُفِيضُونَ فيهِ﴾ إذ تخوضون وتندفعون في ذلك العمل.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلا في السَّماءِ﴾ أي وما يغيب عن علم ربك مثقال ذرة سواء أكانت في الأرض أو في السماء، والذرة أصغر جزء في العنصر البسيط، كما اصطلح على تسمية الذرة في العصر الحاضر على الوحدة المتناهية في الصغر التي لا تُرى بالعين المجردة، وكل كائن في الأرض أو في السماء مكون من ذرات خاصة به ﴿وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ولا أَكْبَرَ﴾ أي ولا يغيب عن علم ربك أصغر من الذرة ولا أكبر منها. وفي زمن نزول القرآن لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة وكان الناس يعتقدون أن الذرة هي الجزء الذي لا يتجزأ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر، ومنذ زمن ليس بالبعيد توصل العلماء إلى تحطيم الذرة ووجدوا أن هناك ما هو أصغر منها ﴿إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ والكتاب المبين قد يراد به اللوح المحفوظ وهو مستودع علم الله، أو يراد بالكتاب كناية عن علم الله تعالى.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

شرح المفردات

أولياء الله: هم أهل الإيمان والتقوى والإحسان.

يتقون: التقوى هي تجنب عذاب الله وذلك بالعمل بما أمر والانتهاء عما نهى عنه.

صفات أولياء اللّه

وبعد أن وبّخ القرآن الذين يفترون على الله الكذب ويحلّون ويحرمون ما لم يأذن به الله جاءت الآيات هنا تتكلم عن أولياء الله، وهم أهل الإيمان والتقوى، وما أعد الله لهم من ثواب في الآخرة:

﴿ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ صُدِّرت الآية بحرف التنبيه (ألا) لتقرير مضمونها وإثارة الانتباه لها لما فيها من البشائر. والأولياء: جمع وليّ، والوليّ لغة من معانيه: القريب، والمراد بأولياء الله: المؤمنون المقرّبون من الله لمزيد تقواهم. والقُرب من الله سبحانه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله، فإن رأى المؤمن رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع، سمع آيات الله، وإن نطق، نطق بالثناء على الله، وإن تحرك، تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد، اجتهد في طاعة الله، فحينئذ يكون في غاية القُرْبِ من الله ويكون وليّاً له.

وقيل في معنى ﴿أولِيَاءَ اللَّهِ﴾ هم الذين يتولون ربهم بالطاعة ويتولاّهم بالكرامة، وهم الراضون بقضاء الله، والصابرون على البلاء، والشاكرون على النعماء، وهم من توالت أفعالهم على موافقة الحق.

وقيل: وليّ الله من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، ويكون آتياً بالأعمال على وفق ما وردت به الشريعة.

وقيل: هم قوم يُـذكر الله لرؤيتهم لما يظهر على وجوههم من أمارات الخير والتقوى، وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل من هم يا رسول الله لعلّنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس(١) ثم قرأ ﴿ألا إنّ أوليـاء اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَـلَـيْـهِـم وَلاَ هُـمْ يَـحْـزَنُـونَ﴾.

ومن سمات الأولياء أنهم يقومون بالنوافل من الصلوات التي كان يقوم بها رسول الله زيادة على الفرائض التي أوجبها الله عليهم، ويصومون مع شهر رمضان يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع وغيرهما من الأيام التي رغّب بها رسول الله ﷺ، وهذا معناه أنّ هذا الإنسان قد دخل في مقام الود مع الله فيفيض عليه ما يشاء من أنواره وتأيـيده وينال رضوانه سبحانه، وفي الحديث القدسي الذي رواه رسول الله ﷺ عن ربه:

«من عادى لي وليـًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وَرِجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه..»(٢).

ومن سمات أولياء الله زهدهم في الدنيا، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله»(٣).

هؤلاء أولياء الله الذين خصهم الله برحمته حيث يقول في شأنهم: ﴿لا خَـوْفٌ عَـلَـيْـهِـم وَلاَ هُـمْ يَـحْـزَنُـون﴾ أي لا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع، فإن الله تعالى منحهم نعمة الطاعة والرضا في دنياهم، فإن أقبلت عليهم نعمة الصحة والرخاء

---

(١) أخرجه أبو داود.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه ابن ماجه.

شكروا الله، وإن حُرموا من ذلك أو بعضه رضوا بقضاء الله وصبروا على ما أصابهم، كما أنهم لا خوف عليهم من أهوال موقف الحساب يوم القيامة وعذاب الآخرة فقد نجاهم الله من عذاب جهنم، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم في الدنيا، فقد منّ الله عليهم في الآخرة بنعيم الجنة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هنا وصف مجمل لصفات أولياء الله الذين توفّر فيهم الإيمان الصادق، وكانوا يتقون الله بالخوف منه وأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ اختلف المفسرون في البشرى التي بشر الله بها هؤلاء القوم في الدنيا وما هي صفتها، فقال بعضهم: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له. فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»(١) وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة.

وأما بشراهم في الآخرة فقد جاء في القرآن: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير ولا خُلْفَ لمواعيده وذلك أن مواعيده بكلماته فإذا لم تبدل الكلمات لم تبدّل المواعيد ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي وما وعد الله به المؤمنين في الآخرة من الثواب هو فوز عظيم لهم.

وكلمة أخيرة حول أولياء الله وهي أن الولاية ليست بالادعاء ولا بالتزيّي بزيّ الزاهدين ولا بالإسراف في الزهد، ولا بالعقل المسلوب، ولكنها بالإيمان الصادق والعمل بما فرضه الله، أما أولئك الذين يدّعون أنهم مستغرقون في حضرة الله وأن التكاليف الشرعية قد سقطت عنهم فلذلك لا يشعرون بما يصنعون من حلال أو حرام

---

(١) رواه الإمام أحمد.

فهم في الحقيقة شياطين الإنس يتخذون من هذا الزعم وسيلة لاقتراف المنكرات والتدجيل على الناس لسلبهم أموالهم.

هذا وقد اشتهرت بعد عصر السلف الصالح فكرة أن الأولياء عالم خيالي غير معقول، وأن لهم من الخصائص في عالم الغيب والتصرف في ملكوت السماوات والأرض، هذه الفكرة غرسها بعض غلاة المتصوفة الذين لعب بعضهم بعقول الناس، واستغلوا سذاجتهم وأرهقوا الناس بأذكار لله لم يقم بها رسول الله، ورسول الله كما هو معلوم هو سيد الأولياء أجمعين.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن
سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

العزة: الغلبة.

يدعون: يعبدون.

يخرصون: يكذبون.

لتسكنوا فيه: لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد عناء العمل بالنهار.

والنهار مبصراً: أي مضيئاً لتتحركوا فيه وتهتدوا في ضوئه إلى قضاء حوائجكم.

سلطان: حجة وبرهان.

الكون ملك لله وتنزهه عن الولد

ثم تأتي الآيات التالية تواسي رسول الله من أحزانه بسبب ما كان يلاقيه من قومه من تكذيب واستهزاء وإعراض عن دعوته:

﴿ولا يَحْزُنكَ قَوْلُهُم﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك وتآمرهم على إبطال دعوتك، ووصفك تارة بأنك ساحر، وتارة أخرى بأنك شاعر أو مجنون. ويحسن الوقوف على كلمة (قولهم) لئلا يتوهم من يسمع ما بعدها من القرآن بأنها من أقوال الكفار. ثم يستأنف الله الكلام بقوله: **﴿إنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾** أي أن الغلبة لله جميعاً في السماء والأرض لا ينازعه سبحانه في سلطته أحد من الناس، فهو القادر على أن يغلب الكفار ويقهرهم ويعصمك منهم **﴿هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾** فهو سبحانه السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم.

﴿ألا إنَّ لِلَّهِ مَنْ في السَّمٰوات وَمَن في الأَرْضِ﴾ لفظ (من) اسم موصول شأنه أن يطلق على العقلاء، والمعنى: ألا إن لله من في السماء من ملائكة، ومن في الأرض من إنس وجن هي كلها ملك لله وحده، وتخصيصهم بالذكر للإيذان بأن غيرهم أوْلى بملكية الله تعالى لهم، فإنهم كلهم تحت سلطانه **﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾** (ما) استفهامية، والمعنى: وأي شيء يتبع من يقول إن لله شركاء ويخصونهم بالعبادة، وهم ليسوا شركاء لله في الحقيقة **﴿إن يَتَّبِعُون إلاَّ الظَّنَّ﴾** وهم لا يتبعون إلا أوهاماً باطلة **﴿وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرصُونَ﴾** وإن هم إلاّ يكذبون بادعائهم بأن لله شركاء.

ثم بيّـن القرآن جانباً من نِعَمِ الله على عباده:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الليْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي هو الله الذي جعل لكم

الليل ـ أيها الناس ـ لتسكنوا فيه وتستريحوا من عناء العمل وتستردوا فيه نشاطكم ﴿والنَّـهَـارَ مُـبْـصِـراً﴾ وجعل الله لكم النهار مضيئاً لتهتدوا في ضوئه إلى تحصيل معاشكم وقضاء حاجاتكم. وفي قوله سبحانه: ﴿والنَّـهار مُـبْـصراً﴾ استعارة بلاغية لأن الناس هم الذين يبصرون فيه لا النهار ﴿إِنَّ في ذَلِـكَ لآيَـاتٍ لِـقَـوْمٍ يَـسْـمَـعُـونَ﴾ والآيات هي الدلائل على وحدانية الله. وفي قوله سبحانه: لقوم يسمعون، تعريض بالذين لم يهتدوا لأنهم بمنزلة الصم فلا يقبلون الهداية، كقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

ثم شرع القرآن في تفنيد مزاعم من نسبوا الولد لله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّـخَـذَ اللَّـهُ وَلَداً﴾ الظاهر أن الضمير في (قالوا) يعود إلى المشركين العرب الذين تخصهم السورة بالذكر، فقد زعم المشركون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله، وقد تشمل الآية غيرهم ممن نسبوا الولد إلى الله ﴿سُـبْـحَـانَـهُ هُـوَ الغَـنِـيُّ﴾ تنزيهاً لله عن ذلك الزعم فهو الغني على الإطلاق المستغني عن كل معين، كما تستعينون أنتم البشر بأبنائكم، وهو دائم الوجود فلا يحتاج إلى ابن لقضاء مصالحه وتنمية ثروته كما هو شأنكم، والله سبحانه لا يحتاج إلى شيء من ذلك لأنه هو الغني عن كل شيء ﴿لَـهُ مَـا في السَّـمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾ والله سبحانه له ما في السماوات وما في الأرض خلقاً ومُلكاً وتصرفاً فلا يحتاج إلى إعانة ولد ﴿إِن عِندَكُم مِن سُـلْـطَـانٍ بِهَذَا﴾ إن: هي نافية بمعنى «ما» والسلطان: هو الحجة والبرهان، والمعنى: ما عندكم دليل ولا برهان على ما زعمتم من أن لله ولداً ﴿أَتَـقُـولُـونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَـعْـلَـمُـونَ﴾ أي أتقولون على الله قولاً لا حقيقة له ولا دليل لكم به بنسبة الشريك والولد لله سبحانه، وهنا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع، لأن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وليس من العلم في شيء، وأن العقائد لا بد أن تقوم على البرهان والحجة لا على التقليد للآباء.

﴿قُـلْ إِنَّ الَّذين يَـفْـتَـرُونَ عَلَى اللَّـهِ الكَـذِبَ لا يُـفْـلِـحُـونَ﴾ أي قل يا محمد إن الذين يختلقون على الله الكذب ويزعمون أن له ولداً لا يفوزون بخير عند الله، فالنار مصيرهم يوم القيامة والجنة محرّمة عليهم ﴿مَـتَـاعٌ في الـدُّنْـيَـا﴾ أي إن ما يتمتعون وينتفعون به باقٍ في الدنيا من السيادة والجاه ووفرة المال، كل ذلك لا ينفعهم عند الله في الآخرة ﴿ثُـمَّ إِلـيْـنَـا مَـرْجِـعُـهُـم﴾ ثم إلى الله مرجعهم يوم القيامة ﴿ثُـمَّ نُـذِيقُهُمُ العَـذَابَ الشَّدِيدَ بِـمَا كانُـوا يَـكْفُـرونَ﴾ ثم يذيقهم الله العذاب الشديد بنار جهنم بسبب كفرهم وافترائهم على الله بأن لله ولداً.

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

واتل: واقرأ.

نبأ: النبأ هو الخبر الذي له شأن.

كَـبُـر عليكم مقامي: عَظُمَ وثَـقُـلَ عليكم قيامي ووجودي بينكم.

تذكيري: وعظي ونصحي.

أَجمعوا أمركم: اعزموا عليه.

ثم لا يكن أمركم عليكم غـمّـة: ثم لا يكن أمركم مستوراً عليكم بل أظهروه وجاهروني به.

اقضوا إلـيَّ: أدّوا إليَّ ذلك الأمر الذي تريدون بي.

ولا تُنظِرون: ولا تمهلوني بل عجّلوا أشدّ ما تقدرون عليه.

من المسلمين: من المنقادين لحكم الله الخاضعين له.

فنجّـيـنـاه: فأنقذناه.

وجعلناهم خلائف: وصيّرنا الناجين يخلفون في الأرض من هلكوا بالطوفان.

نطبع: نختم.

قصة نوح عليه السلام

وبعد أن بيّن القرآن بطلان من يزعم بأن لله ولداً شرع بعد ذلك في الكلام على بعض رسل الله وما حلَّ بأقوامهم الكافرين من هلاك، ونجاة رسل الله ومن معهم من المؤمنين، وفي ذلك تثبيت لقلب رسول الله محمد ﷺ ومن آمن معه وإنذار للمشركين:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي واقرأ يا محمد على هؤلاء المشركين خبر نبي الله نوح عليه السلام **﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقَامِي﴾** أي حين قال نوح لقومه: إن كان عَظُمَ عليكم مقامي بينكم **﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** وشق عليكم وعظي إياكم بحجج الله، فعزمتم على قتلي أو طردي من بلدكم **﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾** هنا جواب الشرط، أي فعلى الله وحده فوّضت أمري واعتمدت عليه **﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾** أي فأحكموا أمركم واعزموا عليه في شأني واجعلوا معكم شركاءكم فيما تريدون بي من السوء. والشركاء يحتمل أن يكون المراد بها أصنامهم التي سموها آلهة وجعلوها شريكة لله وهي لا تضر ولا تنفع، وإما أن يكون المراد من الشركاء من كان على مثل مذهبهم في العقيدة **﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ**

عَلَيْكُم غُمَّةً﴾ أي ثم لا يكن أمركم الذي تدبّرونه من الكيد بي خفيًّا مستوراً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ ثم أدوا ما تريدون بي من الأذى والسوء وافرغوا لمخاصمتي ﴿وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني بل عجلوا ذلك بأسرع ما تستطيعون من غير انتظار، وإنما خاطبهم نوح بذلك إظهاراً لعدم المبالاة بهم وأنهم لن يجدوا سبيلاً للإضرار به، كما أنه قال هذا الكلام ثقة بما وعده الله من حفظه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُم فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عما دعوتكم إلى الحق، وما بلّغتكم من رسالة ربكم إليكم، فهذا الإعراض منكم لا موجب له لأنني لا أطمع في أموالكم ولم أطلب أجراً على وعظي إياكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي وما أجرى على وعظي إياكم إلاّ على الله الذي أرسلني إليكم، فهو الذي يثيبني على ذلك. والوعظ إذا كان خالصاً لوجه الله خالياً من أي منفعة ذاتية كان أشد أثراً على القلوب ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، الخاضعين له.

﴿فَكَذَّبُوه فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي إن نوحاً كذبه قومه فيما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام بعدما قضى دهراً طويلاً في وعظهم فعاقبهم الله بالطوفان ونجى الله نوحاً ومن آمن معه من الغرق حيث ركبوا في السفينة التي أمر الله نوحاً بصنعها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي وجعل الله هؤلاء المؤمنين الناجين يخلفون في الأرض من هلكوا بالطوفان بسبب كفرهم وتكذيبهم بحجج الله الدالة على وحدانيته وأنه وحده الجدير بالعبادة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فانظر يا محمد وتأمل كيف كان عاقبة تكذيبهم نوحاً وما أنذرهم به من العذاب، حيث أهلكهم الله بسبب كفرهم، وهذا إنذار لكفار قريش من أن يحل بهم الهلاك كما حل بقوم نوح.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِم﴾ ثم أرسل الله من بعد نوح رسلاً منه إلى أقوامهم، منهم: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾

أي فجاء هؤلاء الأنبياء أقوامهم بالحجج الدالة على صدقهم بأنهم رسل من عند الله، وبلّغوهم ما أرسلهم الله به إليهم من الهدى ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسل الله بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أُرسلوا إليهم، وكانت حالتهم بعد مجيء رسل الله كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث الله إليهم رسولاً ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ والطبع في اللغة معناه الختم، وقد استعمل هنا مجازاً عن عدم تأثير البينات من الهدى على قلوبهم. والمعنى: كما ختمنا على قلوب أولئك الكفرة السابقين لأنهم لم يقبلوا من أنبياء الله ما دعوهم إليه من الهدى، كذلك يختم الله على قلوب المجاوزين الحد في الكفر وتكذيب رسل الله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

شرح المفردات

بعثنا: أرسلنا.

وملئه: الملأ أشراف القوم.

يفلح: يفوز.

لتلفتنا: لتصرفنا وتبعدنا.

الكبرياء: العظَمة والمُلك.

لا يصلح: لا يُثبت ولا يؤيد.

ويحق الحق بكلماته: يثبّته ويظهره بأوامره ووحيه.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن جانب من قصة موسى وما جرى بينه وبين فرعون من أحداث:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وهارونَ إلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بآيَاتِنَا﴾ أي ثم أرسل الله موسى وهارون بعد أولئك الرسل الذين تقدّم ذكرهم، أرسلهما الله إلى فرعون وأشراف قومه مؤيَّدين بالمعجزات الدالّة على أنهما رسولان من عند الله. ولقد طلب فرعون من موسى دليلاً يشهد أنه رسول من عند الله. فألقى موسى عصاه من يده فإذا هي ثعبان يتحرك، وأخرج يده من جيبه[1] فإذا هي ناصعة البياض تتلألأ للناظرين. **﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قوماً مُجْرمينَ﴾** أي استكبر فرعون وأشراف قومه عن ما دعاهم موسى وهارون للإيمان برب العالمين. والسين والتاء في (استكبروا) للمبالغة في التكبر، وكانوا قوماً راسخين في الإجرام وهو الظلم والفساد في الأرض والذنوب العظام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فلمّا جاءهم موسى بالدين الحق مدعوماً بالمعجزات الدالة على أنه رسول من عند الله **﴿قَالُوا إنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبينٌ﴾** قالوا: إن الذي جئت به يا موسى هو سحر مؤكد واضح، قالوا ذلك عناداً منهم، وتعبيراً منهم عن رفضهم الانصياع إلى الحق.

﴿قَالَ مُوسَى: أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ قال لهم موسى مستنكراً قولهم وموبخاً إياهم: أتصفون الحق الذي جئتكم به من عند الله بأنه سحر، وهي معجزات أيّدني الله بها؟ **﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُون﴾** ولا ينجح الساحرون ولا

---

(١) جيبه: فتحة القميص الذي يدخل منه الرأس.

يفوزون بخير، هذا لو أن موسى ساحر لما طعن في أحوال السحرة إذ صاحب الصنعة لا يطعن في صناعته.

أجاب القوم موسى على ما دعاهم إليه من الإيمان برب العالمين ﴿قَالُوا: أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي أجئتنا يا موسى بهذا الدين لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون وسائر الآلهة لكي نعبد إلٰهك؟ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ في الأَرْضِ﴾ ولكي تكون لك يا موسى ولأخيك هارون السلطة والحكم وتتوليا المُلْكَ علينا؟ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمصدّقين بالدين الذي تدعونا إليه من عبادة الله وحده.

لقد كان رفض فرعون وأشراف قومه دعوة موسى قائماً على أمرين:

أولاً: إصرارهم على تقليد آبائهم في معتقداتهم والتي بسببها يقوم عليه نظامهم السياسي.

أما تقليد الآباء في معتقداتهم الدينية من دون فكر ولا تمحيص فهو آفة العقل الإنساني، لأن العقيدة الدينية يجب أن تأخذ حظها من الدراسة وأن تكون قائمة على الاقتناع التام بصحتها، والغريب أن كثيراً من الأديان المنتشرة في العالم تقوم على تعدد الآلهة كما أن بعضها يشتمل على كثير من الخرافات والأساطير.

أما السبب الثاني لرفضهم نبوّة موسى فهو الخوف من الانتقاص من سلطتهم الدنيوية، وهو من الأسباب الرئيسية للطغاة في كل عصر لمقاومة كل حركة إصلاحية لأنها تقضي على كثير من الامتيازات التي هي في حوزتهم. وهذا يتمثل أيضاً في كفار قريش الحريصين على عقائدهم الموروثة ودوام سلطتهم الدنيوية.

وبعد أن رأى فرعون إصرار موسى ومثابرته على الدعوة إلى عبادة الله وحده وما قدّم من المعجزات التي تؤيد دعوته، توجه فرعون إلى خاصته وخاطبهم:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي اجمعوا لي من جميع أنحاء

مملكتي كل ساحر واسع العلم بفنون السحر كي يعارض ما جاء به موسى.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ﴾ هنا كلام فيه حذف، والتقدير: امتثل خاصة فرعون فيما دعاهم إليه وأسرعوا في إحضار السحرة فلما جاء السحرة والتقوا بموسى خيّروه إما إن يلقي سحره أولاً على ما يظنونه في موسى من أنه ساحر، وإما أن يكونوا هم البادئين، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، فقال لهم موسى على سبيل التحدي: ألقوا ما بأيدكم من السحر، وذلك لإعطائهم فرصة كاملة لإظهار ما في طاقتهم من السحر باطمئنان كامل.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى: مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ أي فلمّا ألقوا ما بأيديهم من العصيّ والحبال سحرت أعين الناس، عندئذ قال لهم موسى: إن الذي جئتم به أيها السحرة هو السحر بعينه، وهذا ما ذكره القرآن عن السحرة في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [آية: ١١٦].

أمام مرأى هذا السحر تابع موسى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن الله سيبطل هذا السحر ويُذهبه إنّ الله لا يصلح عمل من سعى في الأرض فساداً وعمل فيها بعصيان الله ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ويثبت الله الحق ويقويه بأوامره وكلماته التشريعية التي أنزلها على أنبيائه ولو كره المجرمون إحقاق الحق ومنهم فرعون وخاصته.

ولم يذكر القرآن في هذه السورة ما جرى بعد ذلك اكتفاء بما ذكره في سورة الأعراف حيث قال سبحانه: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [آية: ١١٧]. وجاء في سورة الشعراء: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ. قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآيات: ٤٥ ـ ٤٧]. فالعصا التي كانت في يد موسى انقلبت إلى ثعبان وابتلعت جميع أدوات السحرة.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن
يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ
إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟
بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟
عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

شرح المفردات

ذريّـة من قومه: جماعة من قومه، والذرية في أصل اللغة صغار الأولاد وتُستعمل عرفاً للصغار والكبار.

أن يفتنهم: أي يبتليهم ويعذبهم ليحملهم على الرجوع عن الإيمان.

لَعالٍ في الأرض: أي عاتٍ متكبر.

لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين: أي لا تجعلنا موضع عذاب لهم بأنْ تسلّطهم علينا.

تبوّءا: اتّخِذا، والمباءة هي المكان الذي ينزل به الإنسان ويسكن فيه.

واجعلوا بيوتكم قِبلة: أي اجعلوها أماكن للصلاة.

اطمس على أموالهم: الطمس هو المحو، أي أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها.

اشدُدْ على قلوبهم: أي اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان.

خوف المؤمنين من بطش فرعون

وبعد أن ابتلعت عصا موسى حبال السحرة وعصيّهم التي استخدموها في سحرهم، آمن قسم من بني إسرائيل بعد أن رأوا معجزة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلاَّ ذُرِّيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي فما آمن بالله وصدّق بنبوة موسى إلاّ جماعة من بني إسرائيل ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي وكان إيمان هؤلاء مصحوباً بخوف شديد من فرعون وأشراف قومهم الجبناء، المرائين لفرعون، من أن يعذبوهم ويفتنوهم عن دينهم. هذه الآيات فيها مواساة لرسول الله محمد ﷺ لما كان يلاقيه من آلام بسبب إعراض قومه عن الإيمان باستثناء القليل منهم الذين يلاقون الأذى والاضطهاد من كفار قريش بسبب إيمانهم، فبيّن الله لرسوله محمد بأن له أسوة بما جرى لموسى عليه السلام ﴿وَإنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ والعلوّ مستعار للغلبة والاستبداد والتكبر، أي إن فرعون غالب الناس قاهر لهم في أرض مصر ﴿وَإنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ وإنه من جملة من دأبوا على تجاوز الحد في الظلم والفساد وسفك الدماء.

﴿وقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إنْ كُنْتُم آمَنْتُم باللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ﴾ أي قال موسى لأولئك الذين أظهروا إيمانهم: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله وربوبيته للكون فلا تخشوا سواه وفوضوا الأمر إليه واعتمدوا عليه إن كنتم خاضعين له مستسلمين له، فحصول التوكل على الله متوقف على حصول إيمانهم وإسلامهم.

أجاب المؤمنون موسى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي على الله وحده اعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه، لأن كل من اعتقد بأن كل ما في الكون ملك لله يصرفه حسب مشيئته امتنع أن يتوكل على غيره. ثم توجهوا إلى الله بالدعاء: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تجعلنا يا رب موضع عذاب للظالمين بأن تسلطهم علينا فيعذبونا أو يفتنونا عن ديننا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ وأنقِذنا برحمتك يا رب من شرور القوم الكافرين بك إن أرادونا بسوء.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عن طريق الوحي أن يتخذا لقومهما الذين آمنوا بمصر بيوتاً يسكنون فيها[١] ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً﴾ وأن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلّون فيها إلى جهة القبلة[٢] بعيداً عن أعين فرعون وقومه حتى يأمنوا على أنفسهم من بطش فرعون ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأن يؤدوا الصلاة لله كاملة، والصلاة عماد الدين بها يخضع الإنسان لربه ويتذلل له ويدعوه ويشكره ويطلب المعونة منه ﴿وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ﴾ وبشّر يا موسى المؤمنين بأن الله سيحفظهم من أذى فرعون وينجيهم من كيده.

وهنا نلحظ أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون حيث أمرهما الله باتخاذ البيوت لقومهما لأن ذلك من شأن الرؤساء والقادة وهذا ما جاء بصيغة المثنى، أما جعل هذه البيوت مصلى والدعوة إلى إقامة الصلاة فيها فجاءت بصيغة الجمع لأنها أمر مطلوب من الجميع. وأما البشرى فقد جاءت بالمفرد على لسان موسى لأنه الأصل في رسالة الله لبني إسرائيل.

وبعد أن يئس موسى من إيمان فرعون وأشراف قومه توجّه إلى ربه بالدعاء:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً في الحيَاةِ الدُّنيَا﴾ والزينة هي ما زاد عن ضروريات الحياة الدنيا كالحلي والثياب المزركشة والرياش الفاخرة والقصور الفخمة، تلك الزينة كانت من مظاهر الترف التي كان يرتع فيها فرعون وأشراف قومه، أما الأموال التي كانت في حوزة فرعون وأشراف قومه فتشمل الذهب والفضة والزروع والأنعام. ولقد أثبت التنقيب في آثار الفراعنة ما يؤكد ذلك حيث عثر

---

(١) يقول صاحب تفسير (التحوير والتنوير): فالذي يظهر أنّ هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في (جاسان) قرب مدينة فرعون، وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج: إن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام...

(٢) القِبلة: هي اسم لجهة الكعبة، وكانت قِبلةَ موسى وقِبلةَ كل الأنبياء.

على الكثير من أنواع الزينة والحلي والذهب، فالزينة تلهيهم عن اتباع ما يعظهم به موسى، والأموال التي في حوزتهم يسخرون بها الرعية لطاعتهم وإذلالهم.

وتابع موسى دعاءه: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا[1] عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أي أعطيتهم يا رب هذه النعم ليشكروك عليها ويتبعوا سبيلك فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك، وهم لم يضلوا فقط بل أضلوا غيرهم، لذلك حملوا إثم ضلالهم وإثم إضلال غيرهم. ومن جملة دعاء موسى عليهم: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ الطمس هو المحو والإزالة، أي ربنا أهْلِكْ هذه الأموال التي استعبدوا الناس بها، أهلِكها يا رب ليزول سلطانهم ويذلّوا، وقد قال بعض الرواة: إنها مسخت فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان لاختيارهم الكفر وإصرارهم عليه ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي فلا يوفَّقوا للإيمان حتى يروا رأي العين العذاب الأليم الذي هو عاقبتهم ليكونوا عبرة لغيرهم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قال الله تعالى: قد أجيب دعاؤكما، مع أن موسى هو الذي دعا عليهم، وفُسِّر ذلك بأن هارون كان يقول عند دعاء موسى: آمين، أي استجب يا رب، فيكون الدعاء منه أيضاً ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي استمرّا في سلوك الطريق المستقيم ـ طريق الحق ـ الذي رسمه الله لكما ولا تسلكا طريق الجهلة الذين لا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح ولا يذعنون للحق.

---

(١) ليضلّوا: اللام الداخلة على يضلوا هي لام العاقبة.

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠
مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

شرح المفردات

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر : قطعناه بهم وخلّفناه وراءهم.

فأتبعهم فرعون : أي تبعهم حتى اقترب منهم.

بغياً وَعَدْواً : ظلماً واعتداء.

حتى إذا أدركه الغرق : أي حتى إذا أوشك على الغرق.

آلآن وقد عصيت : آلآن تؤمن حين أيقنت بالهلاك.

لمن خلفك : لمن بعدك من الناس.

آية : عبرة.

معجزة للقرآن

وبعد أن أخبر الله تعالى موسى وهارون باستجابة دعائهما على فرعون وقومه، أمرهما الله بأن يُخرجا بني إسرائيل من مصر، فخرجو سرّاً، ولمّا علم فرعون بخروجهم جمع جنده ولحق بهم إلى أن وصلوا إلى شاطىء البحر الأحمر على خليج السويس، فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس، عندئذ أيقن بنو إسرائيل بالهلاك، فأوحى الله لموسى بأن يضرب بعصاه البحر ففعل، فانشقّ الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بين هذه الطرق كالجبال العالية، وسار بنو إسرائيل في الطرق المفتّحة لهم في البحر.

وصل فرعون إلى شاطىء البحر وأشرف على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل فرأى طرقاً سالكة في البحر فسار فيها هو وجنوده خلف بني إسرائيل، ولما وصل موسى ومن معه من بني إسرائيل إلى البر أطبق الله البحر على فرعون وجنده فغرقوا جميعاً. هذه خلاصة ما جاء في القرآن في مواضع منه. وهنا في هذه السورة إشارة إلى بعض ذلك للاختصار بناء على ما سبق ذِكْرُهُ، قال تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جعل الله بني إسرائيل يقطعون البحر ويخلفونه وراءهم ﴿فَأَتْبَعَهُم فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ أي تبعهم فرعون وجنوده رغبة في الظلم والاعتداء عليهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ﴾ حتى إذا أدرك الغرق فرعون وعاين الموت وأدرك أنه لا نجاة له منه ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنو إِسْرَائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي قال فرعون: آمنت بأن لا معبود بحق سوى الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المعترفين له بالعبودية، وأنا من الخاضعين له المستسلمين له.

لقد بالغ فرعون في إيمانه بربه والاعتراف بربوبيته حيث كرره بثلاث عبارات: (١) آمنت (٢) أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل (٣) وأنا من المسلمين.

اعترف فرعون بذلك طمعاً في نجاته، ولكن لم ينفعه إيمانه عند حلول أجله، وهنا يأتي الجواب الإلهي له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الآن تؤمن حين يئستَ من الحياة، وأيقنت الموت، والحال أنك كنت في حياتك الدنيا من العصاة المفسدين في الأرض؟ لقد آمنت بعد فوات الأوان حين لا ينفعك الإيمان.

والتوبة لا تنفع عند معاينة الموت، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر حيث جاء فيه: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

[النساء: ١٨].

ويتابع الله خطابه لفرعون ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي اليوم ننقذ جسمك من الغرق ونطرحه على ناحية من الأرض بعد أن نسلب منه الروح دون سائر قومك المغرقين، والبدن هو الجسم بلا روح، وذكر البدن احتراس من أن يُظنّ بنجاته من الغرق حيًّا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي لتكون لمن وراءك من أهل عصرك وممن يأتي بعدهم عبرة لما ينتظر الطغاة ومن يدّعي الألوهية من مصير سيىء وهلاك.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ معجزة للقرآن وإليكم البيان:

أولاً: أريد أن أوضح أن (فرعون) هو لقب يطلق على كل من تولى العرش على مصر القديمة.

ثانياً: يُستخلص من التوراة ومن التاريخ ومن الاكتشافات الأثرية في الأهرامات وغيرها أن هناك فرعونين في زمن موسى عليه السلام: الأول هو (رمسيس الثاني) ويطلق عليه (رعمسيس الثاني) الذي يمكن أن يسمى فرعون الاضطهاد، الذي اضطهد بني إسرائيل والذي ولد موسى عليه السلام في عهده وتربى في قصره، وقد مات حين هرب موسى من مصر واستقر في مِدْين.

وبعد موت (رمسيس الثاني) خلفه على عرش مصر ابنه (منفتاح) وهو المسمى فرعون الخروج، وهو الذي أمر الله موسى أن يبلّغه رسالة ربه بأن يؤمن به ويكف عن طغيانه وادعائه الألوهية، فكفر بما جاء به موسى، وعذب من آمن من بني إسرائيل، فأمر الله موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر، فلحق بهم فرعون هذا فأغرقه الله وجنده وطرح ماء البحر جثته على البر، فعثر عليه ممن بقوا بعده بعاصمة مُلكه ودفنوه في وادي الملوك والذي جاء في حقه كما ذكره القرآن: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آية﴾ وكلمة آية معناها عبرة ويمكن أن تفسَّر بمعنى معجزة في اصطلاح القرآن.

وفي العصر الحديث تم اكتشاف جثث بعض الفراعنة المحنّطة ومن ضمنها جثة

فرعون الخروج المسمى (منفتاح)، وقد ظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله لأن موته لم يكن منتظَراً فلم يهيّأ له قبر خاص.

يقول البروفسور بوكاي: «لقد اكتشف عالم الآثار «لوريت» جثة منفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني سنة ١٨٩٨ الذي يتضافر كل شيء على إقناع الفكر بأنه فرعون الخروج، وقد عثر على جثته في طيبا في وادي الملوك وقد نقل من هناك إلى القاهرة ـ وحلّ عالم الآثار «إليوت سميث» عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧. ومن تاريخ ١٩١٢ أصبحت المومياء معروضة على الزائرين في متحف القاهرة مكشوفاً منها الرأس والعنق، وبقية البدن مغطاة بإحكام بقطعة قماش»(١).

ومن هنا نقف بإجلال أمام حقيقتين لا مجال للشك فيهما تشهدان بأن القرآن وحي من عند الله وأنّ محمداً رسول الله حقًّا.

أولاً: من أين عرف محمد وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب أن فرعون الغريق لم يبتلعه البحر، وإنما نجى الله جثته وألقى ببدنه على الشاطىء؟

ثانياً: ومن أين عرف محمد أن قوم منفتاح أخذوا بدنه ووضعوه في مقبرة وادي الملوك ليأتي بعد ثلاثة آلاف سنة من موته وبعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن من يكشف عن تلك الجثة المحنطة وهي جثة منفتاح لتوضع أمام الزوار في متحف القاهرة.

هذه الحقيقة القرآنية عن نجاة جثة فرعون (منفتاح) من أن تأكلها الأسماك ليراها من بعده من يراها للعبرة والعظة هي معجزة قرآنية تضاف إلى كثير من معجزاته الأخرى.

ومما يؤكد ذلك أن هذه الحادثة عن بقاء بدن فرعون سليماً لم يأت ذكرها في التوراة ولم يذكرها الإنجيل أصلاً ولم تكن معلومة لدى المؤرخين قديماً حتى يقال إن محمداً نقلها عن غيره.

---

(١) عن كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم تأليف موريس بوكاي. ترجمة الشيخ حسن خالد.

ثم يختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ نعم إن أكثر الناس غافلون عن الآيات الكونية وعن المعجزات التي أوردها الله في القرآن، ولا يعلم ذلك إلاّ من بحث عن الحقيقة بتجرد وكان على علم واسع وثقافة شاملة يميز بهما الصواب من الخطأ والحق من الباطل.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن
كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ
جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

شرح المفردات

بوّأنا بني إسرائيل مبوأ صدق: أي أنزلناهم مكاناً صالحاً آمناً أسكنّاهم فيه.

الممترين: الشاكّين.

فلولا: لولا كلمة تفيد الحث على الفعل بمعنى هلاّ.

كشفنا عنهم: رفعنا عنهم.

عذاب الخزي: عذاب الذل والهوان.

ومتّعناهم إلى حين: أي أطال الله حياتهم في عافية وخير إلى انقضاء آجالهم.

اختلاف بني إسرائيل

وبعد أن ذكر القرآن النعمة العظمى التي أنعمها على بني إسرائيل حيث أنجاهم من طغيان فرعون وجّـه اللوم لهم على اختلافهم حول دينهم:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[١] أي ولقد أنزل الله بني إسرائيل وأسكنهم مكاناً محموداً، ومنزلاً صالحاً مُرضياً وهو ما فتح عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من خصب وثراء ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقهم الله ما لذّ من المآكل والمشارب وطيب العيش ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في أمر دينهم إلاّ من بعد ما قرأوا التوراة وعرفوا أحكامها فاختلفوا في فهمها وانقسموا فرقاً في تأويلها. وقيل: المراد بمن اختلفوا اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ فبعضهم صدّق برسالته الإلهية وبعضهم كذّب بها، وقد كان اليهود قبل بعثة محمد نبيًّا عالمين بقرب مجيء نبيّ تنطبق صفاته على محمد ﷺ لما قرأوا من بشارات في كتبهم للنبي الموعود ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن ربك يا محمد يقضي بين الذين اختلفوا في دينهم يوم القيامة، وبين المختلفين في شأن نبوتك يا محمد بما يستحقون، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿فَإِنْ كُنتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ والمراد به غيره من أهل الشك الذين يرتابون في صحة ما جاء به القرآن من قصص الأنبياء وغيرها، لأن النبيّ يستحيل عليه الشك فيما أُنزل عليه من الوحي. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق. وعن ابن عباس أنه قال: ما شك النبي طرفة عين ولا سأل أحداً منهم. بناء على ذلك فإن المعنى: وإن كنت أيها المكلف أو أيها السامع في ريب مما أنزل الله من الوحي الذي يروي قصص الأنبياء

---

(١) وإنما وصف المبوّأ بكونه صدقاً من باب المدح لأن من عادة العرب أنها إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق.

﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فاسأل علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام، وتميم الداري وغيرهما عن صدق ما أخبر به القرآن من سيرة الأنبياء مع أقوامهم، فإنهم سيخبرونك بأن القرآن كتاب الله حقًّا ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ لقد جاءك أيها المكلف الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ فلا تكونن من أصحاب الشكوك والأوهام، بل كن من ذوي الإيمان الثابت.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولا تكن أيها المكلف من الذين كذبوا بآيات القرآن فتكون في عداد الخاسرين الذين خسروا نعمة الإيمان بالإسلام وما فيه من سعادة للأنفس، وخسروا الآخرة وما فيها من نعيم دائم. وهذه الآية فيها ما يؤكد بأن الخطاب موجه إلى من يرتابون في صحة ما جاء به رسول الله من الوحي من عند ربه، لأن من المستحيل أن يكون رسول الله ﷺ من المكذبين بآيات الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن الذين ثبتت ووجبت عليهم كلمة ربك، أي حكمه وقضاؤه بأنهم لا يؤمنون، بل يموتون على الكفر ويخلدون في النار بسبب إصرارهم على تكذيب رسوله محمد ﷺ تكبراً وعناداً ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ ولو جاءهم كل بيان وكل حجة وكل معجزة لأن طبيعتهم غير قابلة لحقائق الإيمان ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي يؤمنون حين لا ينفع نفساً إيمانها وذلك عند معاينة العذاب ونزوله فيهم لمجازاتهم على كفرهم، وليس بعد نزول العذاب فيهم من عفو عنهم.

نجاة قوم يونس بسبب إيمانهم

وبعد أن ذكر القرآن أن الإيمان لا ينفع من الكفار عند معاينة العذاب بيّن بعد ذلك أن من الكفار من كشف عنهم العذاب عندما رأوا أماراته، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي فهلاّ كان أهل كل قرية

أرسل الله إليهم رسولاً فبادروا إلى الإيمان قبل أن يحيط العذاب بهم فيقبله الله منهم وينجيهم من الهلاك، لكن لم يبادروا بالإيمان قبله فهلكوا ﴿إلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُم عَذَابَ الخِزْيِ في الحيَاة الدُّنْيَا﴾ أي لكن قوم يونس لما آمنوا عندما رأوا أمارات العذاب[١] وتابوا إلى الله، ولم يؤخروا إيمانهم وتوبتهم كما أخرها فرعون، أزال الله عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا بعدما أظلّهم وكاد ينزل بهم ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ﴾ أي وأخّر الله في آجالهم ولم يعاجلهم بالعقوبة بل تركهم في الدنيا يستمتعون بها إلى الوقت الذي كتبه لانتهاء أعمارهم.

روي أن يونس عليه السلام أُرسله الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل في العراق وكانوا أهل كفر وشرك بالله فدعاهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه فأوحى الله إليه أن أنذرهم أن العذاب سيحلّ بهم بعد ثلاث ليالٍ فأخبرهم بذلك، فلمّا قرب موعد الإنذار غامت السماء غيماً أسود هائلاً ذا دخان شديد فهبط حتي غشي مدينتهم فاستولى عليهم الخوف والفزع فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح[٢] وخرجوا إلى العراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب، فحنّ بعضها إلى بعض، فحنّت الأولاد إلى الأمهات، والأمهات إلى الأولاد، وعلت الأصوات والضجيج وأخلصوا النية، وأعلنوا إيمانهم، وتضرعوا إلى الله فاستجاب دعاءهم فرحمهم، وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم.

---

(١) قال الزجّاج: إنهم لم يقع بهم العذاب وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا العذاب لما نفعهم الإيمان.

(٢) المسوح: جمع مِسْح وهو الكساء من الشعر.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ
الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ
الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ
اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

شرح المفردات

الرجس: العذاب الذي يقع بسبب ما يُستقبَح.

تُغني: تنفع.

النذُر: جمع نذير وهو الإنذار بمعنى الإعلام بالشيء المخوف.

ينتظرون: يترقبون ويتوقعون.

خلوا من قبلهم: مضوا قبلهم.

لا إكراه في الدين

كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان قومه ولكن الكثير منهم في بدء دعوته أعرضوا عنه وكذّبوه وهذا ما سبب له الألم والحزن فجاءت الآيات التالية مواسية له، مبينة أن قضية الإيمان والهداية هي بيد الله سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ أي ولو شاء ربك يا محمد لخلق هذا الجنس البشري على طبيعة واحدة وتفكير واحد فجعله لا يعرف إلاّ

طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً، ولكنه لم يشأ ذلك لأن حكمته اقتضت أن يكون الجنس البشري مختاراً، ولديه استعداد للميل نحو الإيمان أو الكفر، ومنحه القدرة على اختيار طريق الحق أو الضلال. فالناس فريقان: فريق شاء الله أن يؤمنوا وهم الذين اختاروا الهدى ورجعوا إلى الله، وفريق شاء الله أن يكفروا لسوء طويتهم وفعلهم واختيارهم طريق الضلال، وفي هذا جاء في القرآن: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي أفأنت مطلوب منك يا محمد أن تكره الناس وتجبرهم على دين الله حتى يصيروا مؤمنين به؟ كلا ليس ذلك مطلوباً منك ولا داخلاً تحت قدرتك وإنما عليك إبلاغهم شرع الله.

هذه أول آية نزلت في حرية المعتقد، وأن الإيمان لا يكون بالإكراه وإنما بالإقناع. وقد جاء في القرآن في هذا المعنى أيضاً: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وجاء في القرآن أيضاً: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

فالإكراه يفرض التسليم بقضية دون الرضا بها، فهل يقبل الإسلام من إنسان أن يوافق دون اقتناع على ما جاء به رسول الله من عند ربه؟ لا ليس ذلك من صلب مبادئه، لأن الدّين الذي لا يقوم على الاقتناع به لا يكون له أثر على صاحبه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أن تُؤْمِنَ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وما كان لنفس ولا من شأنها مما أعطاه الله لها من العقل أن تصدق بوجود الله ووحدانيته وبرسوله محمد ﷺ وبالدّين الذي جاء به إلاّ بإرادته ومشيئته وتوفيقه، فلا تجهدن نفسك يا محمد في هداية الكافر بل عرِّفْهُ بما أنزله الله عليك من الهدى ثم دعه فإن هدايته بيد خالقه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الّذينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويجعل الله سخطه وعذابه على الذين لا يستعملون عقولهم في التفكّر في حجج الله ومواعظه الدالة على توحيده ونبوة رسوله محمد ﷺ.

ثم يرشد الله الناس إلى المنهج الفكري للإيمان بوحدانية الله وهو التأمل في الكون وما يحتويه من مصنوعات تدلّ على الصانع ووحدته وكمال قدرته وحكمته، يقول تعالى: ﴿قُلِ انظروا مَاذَا في السَّمٰوات والأرْضِ﴾ المراد بالنظر هنا التفكر: أي قل يا محمد للكفار: تفكَّـروا بما تحتويه السماء من نجوم وكواكب، وتفكَّروا في الأرض التي تعيشون عليها وما تشتمل عليه من جبال وسهول وأنهار وبحار وكائنات حية، وصنوف النبات وأنواع المعادن، كل هذا يشهد بوجود الله ووحدانيته وحكمته. هذا المنهج الذي دعا إليه القرآن للوصول إلى الإيمان بالخالق لم تعرفه الديانات السابقة، فبعضها يقول آمِـن ثم فكِّر وبعضها يقوم إيمانها على العجائب والمعجزات التي صدرت من الأنبياء ﴿وَمَا تُـغْـني الآيَـاتُ والـنُّـذُرُ عَنْ قَـوْمٍ لا يُـؤمِـنُـونَ﴾ الآيات: المراد بها هنا الدلائل والبراهين الكونية، والـنُّـذُر: جمع نذير، والمراد بالـنُّـذُر: الأنبـيـاء الـذين أنذروا أقوامهم وخوّفوهم من عاقبة الكفر، والمعنى: وما تنفع الآيات الكونية وتحذير الرسل بأمثال هؤلاء الممعنين في الضلال، المصرين على الكفر، المعاندين للحق؟

﴿فَـهَـلْ يَـنْـتَـظِـرُونَ إلاَّ مِـثْـلَ أَيَّـامِ الَّـذِين خَـلَـوْا مِـنْ قَـبْـلِـهِـم﴾ أي فهل يترقب ويتوقع هؤلاء الكفار المعاصرون لرسول الله محمد ﷺ إلا مثل أيام الله التي انتقم فيها من الأمم الماضية قبلهم كأيام الله مع عاد وثمود ﴿قُـلْ فَـانْـتَـظِـرُوا إنِّي مَعَـكُـم مِـنَ الْـمُـنْـتَـظِـريـنَ﴾ أي قل يا محمد للكفار من قومك: فانتظروا العذاب الذي نزل بالأمم قبلكم بسبب كفرهم، إني معكم من المنتظرين لوعد ربي، وهذا تهديد ووعيد لهم من الله. ﴿ثُــمَّ نُـنَـجِّي رُسُـلَـنَـا والَّـذِيـنَ آمَـنُـوا﴾ أي ثم ينجّي الله رسُله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب ﴿كَـذَلِـكَ حَـقّـاً عَـلَـيْـنَـا نُـنـجِ المـؤمِـنِـيـنَ﴾ أي كما أنجى الله سابقاً رسُله ومن آمن معهم من العذاب كذلك اقتضت عدالة الله ورحمته أن ينجّي حـقًـا المؤمنين برسالة محمد ﷺ من العذاب الذي سينزل بالكفار.

﴿قُـل يَـا أيُّـهَا النَّـاسُ إنْ كُـنْـتُـم في شَـكٍّ مِنْ ديني﴾ أي قل يا محمد للمشركين

عبَدة الأصنام الشاكّين في نبوّتك: إن كنتم في ريب وشكّ من ديني فاعلموا أنني مؤمن إيماناً راسخاً بما أنزله الله عليّ من الوحي ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِين تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فإني لا أعبد الآلهة والأصنام التي تعبدونها من غير الله ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذي يَتَوَفَّاكُم﴾ ولكنني أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند انتهاء آجالكم فهو الجدير بالعبادة والتقديس وتخصيص التوفي بالذكر للتهديد والترهيب، حيث يتوفاكم الله فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد يوم القيامة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤْمِنينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المتمسكين بالإيمان به وبما أنزله الله عليّ من الوحي الذي هو هدى للناس.

وفي الآية لفتة كريمة وتعريض بالمشركين فكأنه يقول لهم: إن كنتم في شك من ديني فلا ينبغي أن تشكّوا فيه وإنما ينبغي أن تشكّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، فأما ديني فلا مجال للشك فيه لأني أعبد الخالق الرازق الذي يحيي ويميت.

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن
يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ
لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

شرح المفردات

أقم وجهك للدين: أي أظهِر دين الله واعمل بتعاليمه وأخلِص له.

حنيفاً: الحنيف هو المخلص الذي أسلم لأمر الله.

يمسسك: يُصِبْك.

فلا كاشف له: فلا مُزيل له.

وما أنا عليكم بوكيل: ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم.

كشف الضر بيد الله وحده

ثم تختتم هذه السورة بتوجيهات كريمة من الله لرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ يقول الفخر الرازي في تفسيره: «إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين، لأنّ من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير» والحنيف: هو المسلم المخلص لله الذي أسلم أمره لله، وكل من أسلم أمره لله فهو حنيف. وقيل: الحنيف هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم وهي توحيد الله، ومن كان على دين إبراهيم فهو حنيف لعدوله عن الشرك بالله وميله عن الضلال

﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه أحداً من خلقه كأتباع بعض الديانات الذين يجعلون بينهم وبين الله حجاباً من الوسطاء والأولياء والقديسين والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة بالدعاء ليقضوا لهم حاجتهم(١) بدل أن يوجهوا قلوبهم إلى الله مباشرة بالدعاء الذي بيده كل شيء ولا يملك غيره إجابة الدعاء.

﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ﴾ هنا نهي عن الاتجاه في الدعاء والعبادة إلى غير الله لأنهم لا يملكون استجابة الدعاء وجلب النفع ودفع الضر، فكل من يتوجه بالدعاء والعبادة إلى غير الله لكشف الضر فقد أشرك بالله وضل سواء السبيل ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن توجهت إلى غير الله بالدعاء كائناً من كان فإنك تكون في عداد الظالمين. والظالمون يمكن أن يراد بهم الكافرون كما جاء في القرآن: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿وإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ أي وإن يصبك الله بما تراه يضرك من فقر أو مرض أو مصيبة فإن أحداً لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده، والناس يتعرضون للضر امتحاناً من الله لهم أو تكفيراً لذنوبهم أو رفعة لمنزلتهم عنده سبحانه. وقد يكون الضر بسبب ما جنت يد الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي وإن يرد ربك بك الخير: من رخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين ما أراده الله بك ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يصيب ربك بالرخاء والسرّاء أو البلاء والضرّاء من يشاء ويريد من عباده، وعبّر الله سبحانه بلفظة (الفضل) بدل لفظة الخير للإشارة إلى تفضّله على

---

(١) وكما يفعل بعض المسلمين الجهلة الذين يقصدون قبور الأولياء والصالحين ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم وهذا حرام لا يجوز شرعاً.

عباده بأكثر مما يستحقون ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهو كثير المغفرة لذنوب من تاب من عباده وهو الرحيم بمن آمن وأطاعه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والحق إما أن يكون المقصود به الإسلام أو القرآن أو كليهما. وكلمة (من ربكم) للتنويه بأنه حق واضح لا يخالطه باطل ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن يستقم على الهدى ويتبع ما جاء به القرآن من الوصايا فإنه يجلب الخير والثواب لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ضل عن كتاب الله وأعرض عن هديه فإن ضلاله يعود عليه بما يفوته من فوائد العمل به ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيل﴾ وقل يا محمد لقومك: وما أنا بحفيظ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ولا أنا مسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان.

﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ﴾ واتبع يا محمد بالعمل بما يوحي إليك ربك من القرآن الكريم ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمينَ﴾ واصبر على طاعة الله وما يؤذيك قومك حتى يحكم الله بنصرك على أعدائك وهو أعدل الحاكمين. وقد صدق الله وعده ونصر رسوله محمداً على أعدائه، وانتشر دين الله وجعل المؤمنين خلفاء في الأرض ما داموا سائرين على منهج الله، جعلنا الله من المتمسكين بكتابه سائرين على هديه.

تعريف بسورة هود

هذه السورة مكية أي أنها نزلت بمكة، وسميت بسورة هود لاشتمالها على قصة هود وتخليداً لذكرى كفاحه المرير مع قومه الطغاة حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان والرجوع عن طغيانهم، فرفضوا دعوته فأهلكهم الله بريح شديدة عاتية.

وقد روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: «ما شيّبك؟ قال: شيبتني هود وأخواتها» وفي رواية أخرى: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون» والمراد ما فيها من ذكرٍ لما أصاب الطغاة ومكذّبـي رسل الله من هلاك في الدنيا، وما ينتظرهم من عذاب شديد في الآخرة.

وسورة هود تشتمل على كثير من الموضوعات نشير إلى بعضها فيما يلي:

- الحديث عن القرآن الكريم وما خصه الله من مزايا، ودعوة الناس للعمل به، ودعوة الناس للاستغفار والتوبة ليمتعهم الله في الدنيا متاعاً حسناً.

- الدعوة إلى إقامة الصلوات المفروضة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات.

- بيان إحاطة علم الله بكل الكائنات، وتكفّله برزق كل دابة في الأرض وعلمه بأحوالها.

- بيان إعجاز القرآن وعجز البشر عن الإتيان بعشر سور مثله، مما يثبت أنه وحي من عند الله.

- كما ذكرت هذه السورة طائفة من قصص بعض الأنبياء فبالإضافة إلى قصة هود التي سميت هذه السورة باسمه:

ـ ذكر قصة النبي نوحِ عليه السلام مع قومه الذين تمادوا بالكفر والضلال فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحاً ومن آمن معه بالسفينة.

ـ قصة النبي صالح عليه السلام مع قومه قبيلة ثمود الذين أهلكهم الله بالصيحة بسبب كفرهم ونجاة صالح ومن معه من المؤمنين.

ـ قصة النبي إبراهيم عليه السلام مع الملائكة حيث بشّرته بولد له اسمه اسحق وحفيد له اسمه يعقوب.

ـ قصة النبي لوط عليه السلام وما جرى له مع الملائكة، وإهلاك الله لقوم لوط حيث جعل قراهم عاليها سافلها بسبب شذوذهم الجنسي وعصيانهم لله، ونجاة لوط ومن آمن معه.

ـ قصة النبي شعيب عليه السلام وهلاك قومه جزاء تطفيفهم الكيل والميزان وفسادهم ونجاة شعيب ومن آمن معه.

ـ مصير فرعون وقومه الطغاة في الآخرة.

ـ بيان أن الظلم من أسباب هلاك الأمم وتدميرها.

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ
إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ
يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ
صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

شرح المفردات

أحكمت آياته: أُتقنت آياته ونُـظِّمت تنظيماً محكماً لا خلل فيها ولا اضطراب.

فُـصّلت: ذُكرت فيها الأمور التي يحتاج إليها الناس في عقائدهم وسلوكهم مفصلة.

من لـدن حكيم: من عند الله مبدع الكون على خير وجه.

نذير: محذّر الناس ومخوفهم من عاقبة الكفر والضلال.

بشير: مخبر الصالحين من الناس بما ينتظرهم من ثواب الله.

إلى أجل مسمى: إلى الموعد المحدد لانتهاء أعمارهم.

تولّـوا: تعرضوا أصلها (تتولوا) حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

إلى الله مرجعكم: أي إلى الله رجوعكم ومصيركم بعد الموت.

يثنون صدورهم: يخفون ما في صدورهم من العداوة والبغضاء.

ليستخفوا منه: الاستخفاء الخفاء، والسين والتاء للتأكيد.

يستغشون ثيابهم: يتغطون بثيابهم مبالغة في الاستخفاء.

ما يسرون وما يعلنون: ما يخفون في قلوبهم وما يضمرون وما يظهرون.

الدعوة إلى عبادة الله وحده والتوبة من المعاصي

يستهل الله تعالى هذه السورة ببيان ما يتحلى به القرآن من مزايا:

﴿الٓر[١] كِتابٌ أُحكِمَت آياتُهُ﴾ المراد بالكتاب هنا القرآن الكريم، ومعنى أُحكمت آياته: أي أُتقنت وأُجيدت، فهي متناسقة موضوعاتها ليس فيها نقص ولا خلل ولا تناقض فهي كالبناء المحكم ﴿ثُمَّ فُصِّلَت مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ وهذه الآيات بيَّنت أحكام الحلال والحرام والمواعظ والعبادات والعقائد والثواب والعقاب، كما أن هذه الآيات هي مُنزلة من عند الله الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بأحوال الناس وما يصلحهم.

والغاية الأساسية من إنزال القرآن: ﴿ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ اللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا إلا الله وحده واتركوا عبادة سواه، وعبادة الله هي طاعته والخضوع له مع غاية التذلل له.

فعبادة الله وحده تحرّر الإنسان من الأوهام والخرافات والعبودية للآلهة الزائفة التي اخترعتها أوهام البشر، وتخلّصه من الوسطاء من رجال الدين الذين يدّعون بأن لهم سلطة من الله وقُربة منه، كما أن عبادة الله تُضفي على القلب السكينة والاطمئنان إلى الغد، وتنزع منه الخوف مما يخبئه له القدر من مصائب لأن المؤمن يعتمد على ركن قوي وهو الله القادر على كل شيء.

ثم أمر الله رسوله محمداً أن يبين لقومه مهمته: ﴿إنّني لَكُم مِنْهُ نَذيرٌ وبشيرٌ﴾ أي إني نذير لكم من الله ومخوفكم من عقابه إذا أصررتم على كفركم كما أني مبشّر المؤمنين بما يسرهم من الثواب الجزيل في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا.

---

(١) الٓر: هذه الأحرف التي وردت في مطلع هذه السورة هي من باب التحدي لكفار العرب، فكأن القرآن يخاطب هؤلاء الذين يزعمون أن القرآن من تأليف محمد: ها هي بعض هذه الأحرف التي تتألف منها كلمات القرآن، وهي نفس الأحرف التي تصوغون منها كلامكم ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثل هذا القرآن عندما تحداكم بذلك، فعجزكم دليل على أن القرآن وحي من عند الله. وهنالك أقوال أخرى ذكرناها في مطلع سورة يونس.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبوا إِلَيْهِ﴾ أي أسألوا الله أن لا يؤاخذكم على ذنبٍ مضى ثم توبوا إليه، والتوبة هي أن يكفّ الإنسان عن عمل السيئات مع الندم على ما صدر منه من ذنوب، والعزم على عدم العودة إلى معصية الله، وذكر التوبة عقب الاستغفار يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من الله إلاّ مقرونة بالتوبة، لأن المذنب ما لم يرجع عن ذنوبه ويندم على ما فعل لا يمكن أن يطلب الغفران من الله، فالتوبة مطلوبة لأنها من متممات الاستغفار.

ثم بين القرآن ما ينجم عن الاستغفار والتوبة من خيرات: ﴿يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَناً﴾ والمتاع: ما يقتنيه الإنسان وينتفع به، ووُصف المتاع بالحسن: أي متاع خالص من المكدرات، أي يهيىء الله لكم ما تحبون وما تنتفعون به في الحياة الدنيا من سعة في الرزق، ورغد في العيش ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم بالموت، فلا يستأصلكم بالعذاب والهلاك كما استأصل الأمم الكافرة قبل الوقت الذي قدّره الله لانتهاء أعماركم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ المراد بالفضل الأول ما يصدر من الإنسان من عمل صالح، والمراد بالفضل الثاني: الثواب الجزيل من الله، والمعنى: ويعطي الله في الآخرة كل صاحب عمل صالح ثواب عمله وفضله ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي وإن تُعرضوا عمّا دعوتكم إليه من عبادة الله وحده والتوبة من المعاصي، فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، ووصف هذا اليوم بالكبير لزيادة تهويله ولشدة ما يقع فيه من العذاب.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُم وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى الله وحده رجوعكم ومصيركم بعد الموت حيث يبعثكم من قبوركم ليجازيكم على أعمالكم، وهو سبحانه بالغ القدرة على كل شيء لا يعجز عن فِعْلِ أي أمر.

ثم يتحدث القرآن عن الكفار والمنافقين وما يضمرون من العداء لرسول الله ﷺ: ﴿أَلا إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدُورَهُم لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ ثني الصدر إذا مال وانحرف عن الشيء وهنا كناية عن إعراضهم عما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ من الهدى، كما يأتي الثني

بمعنى الطي، يقال ثنيت الشيء إذا طويته وجعلته جزأين متصلين أحدهما فوق الآخر، والمراد أنهم يطوون صدورهم على الكفر وعلى العداوة والبغضاء لرسول الله ﷺ بحيث يكون ذلك مخفيًا مستوراً. يُروى أن هذه الآية نزلت في أحد المنافقين وهو الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو المنطق يظهر لرسول الله الألفة والمحبة، ويضمر له في قلبه البغض والكراهية ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ألا إنهم في الوقت الذي يغطون وجوههم بثيابهم حتى لا يراهم النبي ﷺ إذا مروا به ﴿يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم الله ما يضمرونه في قلوبهم وما يعلنونه بأفواههم ﴿إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنه سبحانه عليم بما تضمره نفوسهم وما تعلنه ألسنتهم. وقد رُوي أن بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه لئلا يراه النبي ﷺ.

وتأمل كيف بدأ الله الآية بحرف التنبيه (ألا) وكرره للاهتمام بمضمون الكلام، وبيان ما بلغه المنافقون والكفار من جهل وحماقة وكُره للنبي ﷺ.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

شرح المفردات

دابة: اسم لكل حيوان يدبّ على الأرض ذكراً كان أو أنثى، عاقلاً أو غير عاقل، وغلب اسم الدابة على غير العاقل.

رزقها: طعامها.

مستقرها: موضع استقرارها وإقامتها.

مستودعها: موضع استيداعها بعد الموت.

ليبلوكم: ليختبركم ويمتحنكم.

أمّة معدودة: فترة قليلة من الزمان.

ما يحبسه: أيّ شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع.

ليس مصروفاً عنهم: ليس مدفوعاً عنهم.

وحاق: نزل بهم وأحاط.

من مظاهر القدرة الإلهية

ثم يبين القرآن عظمة القدرة الإلهية المتمثلة بإيصال الرزق إلى كل دواب الأرض: ﴿وَمَا مِنْ دابَّةٍ في الأرض إلاَّ عَلَى اللَّـهِ رِزْقُـهَا﴾ أي ما من حيوان على وجه الأرض يمشي على رجلين أو يمشي على أربع أو يمشي على غير هذه الصور، إلاّ تكفّل الله برزقه اللائق به. وكلمة ﴿إلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُـهَـا﴾ تفيد أن الرزق عطاء من الله للدابة لكنها لم تفرضه هي على الله سبحانه، لأنه عطاء منه تفضلاً وإحساناً. وتقديم (على الله) قبل (رزقها) لإفادة القصر، أي على الله وحده الرزق لا على غيره ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ويعلم الله المكان الذي تأوي إليه وتستقر فيه ليلاً أو نهار ﴿وَمُسْتَودَعَهَا﴾ ويعلم الله سبحانه المكان الذي تُودَع فيه بعد مماتها ﴿كُلٌّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ أي كل شيء من ذلك مسجّل عنده سبحانه في كتاب واضح جليّ ثابت في علم الله وهو اللوح المحفوظ.

هذه الآية تدخل الطمأنينة إلى قلوب الناس، فإذا كان الله قد تكفّل بالرزق لكل دواب الأرض فبالأحرى أن يكون رزق الإنسان مقدماً على جميع دواب الأرض، لأن الله قد كرّم بني آدم وفضّلهم على جميع مخلوقاته، حيث قال سبحانه:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

والله إذ تكفل بأرزاق الناس إلاّ أنه أمرهم بالأخذ بالأسباب والسعي في الحصول على وسائل العيش كما قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

كما ألهم الله كل دابة في الأرض إلى الوسيلة التي تحصل بها على طعامها، فما أُعدّ لدواب الأرض من رزق فمن الله، وربما أمسك عنها الرزق فتموت جوعاً.

ثم تتحدث الآيات عن عظمة الإبداع الإلهي في خلق هذا الكون:

﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فالله سبحانه خلق الكون في ستة أيام، والمراد بالأيام: أيام الله لا أيامنا نحن وهي التي تفسر بستة أطوار من الزمن. فاليوم بالنسبة إلى البشر يعرف بشروق الشمس وغروبها بسبب دوران الأرض حول نفسها، وقبل أن يخلق الله الشمس لم يكن هناك ليل ولا نهار، فالأيام الستة التي خلق الله فيها الكون تُفسر على أنها مدة من الزمن هي في علم الله وحده. والله قادر على خلق الكون بفترة زمنية كلمح البصر لما جاء في القرآن عن وصف قدرة الله ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. أما خلق الكون في ستة أيام فهو لحكمة اختص بها سبحانه بما أودع في الكون من أسرار بحسب علمه.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ أي وكان عرش الله على الماء ولم يكن بينهما حائل قبل أن يخلق الله السموات والأرض. واختلف في المراد من عرش الله الذي كان على الماء، فمن العلماء من يفهمه على أنه جسم كوني عظيم خلقه الله أول ما خلق، وجعله مصدر أوامره في الكون، وعرش الله ما لا يعلمه البشر إلا بالاسم فهو من عالم الغيب لا ندركه بحواسنا ولا نستطيع تصوره بأفكارنا. ومن العلماء من ذهب إلى أن العرش كناية عن الملك والسلطان ورمز له، أي أنه مركز نظام الملك ومصدر التدبير له، وعلى هذا الرأي يكون المعنى: وكان ملك الله قبل خلق السماوات والأرض ملكاً

على الماء ليخلق منه ما يريد خلقه من المخلوقات الحية وهي التي أشار إليها القرآن بقوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد خلق الله السموات والأرض ﴿لِيَبْلُوَكُم أَيُّكم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي ليختبركم ويمتحنكم أيكم أتقى لله، وأكثر شكراً له، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعته. من هذه الآية نفهم مكانة الإنسان التي خصه الله بها من سائر المخلوقات حيث خلق السماوات والأرض ليبتليه ويختبره، كما نفهم منها أيضاً بأن الله أراد من الإنسان أن تكون لَدَيْه نزعة التنافس مع غيره في الأعمال الحسنة وهذا ما يفهم من قوله سبحانه: ﴿أَيُّكم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وأعمال الإنسان هي سبب سعادته أو شقائه في الأرض كما أنها تكون سبب عذابه في الآخرة أو النعيم فيها.

ويتابع الله قوله: ﴿وَلَئِن[١] قُلْتَ إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ﴾ ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين مؤكداً لهم: إنكم ستبعثون من قبوركم أحياء يوم القيامة لتجازوا على أعمالكم ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِين كفروا إِنْ هَذَا إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ﴾ أي يقول الذين كفروا على سبيل الإنكار: إن هذا الذي تقوله يا محمد ما هو إلاّ سحر واضح.

ثم يحكي لنا القرآن ما قاله الكفار إنكاراً للعذاب الذي أنذرهم به رسول الله ﷺ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إلى أُمَّةٍ مَعْدودَةٍ﴾[٢] فالأمة هنا بمعنى: الحين والزمان، أي ولئن أخّر الله عنهم العذاب إلى مدة من الزمان قليلة ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي ليقول الكفار على سبيل التهكم: ما الذي حبس هذا العذاب عنّا وجعله غير نازل بنا ﴿أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِم لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ ألا إن ذلك العذاب الذي

---

(١) ولئن: اللام الداخلة على إن هي اللام الموطئة للقسم وجواب القسم ليقولن.

(٢) كلمة معدودة تفيد القلة لأن ما يحصره العد فهو قليل.

استعجل الكفار وقوعه سيأتيهم، ويوم ينزل بهم العذاب لن يدفعه عنهم دافع، وافتتح الكلام بحرف التنبيه (ألا) للاهتمام بالخبر ولإدخال الروع في قلوبهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون به ويستعجلون وقوعه، وعبّر القرآن بلفظ (حاق) بصيغة الفعل الماضي مع أنه لم ينزل بهم للإشارة إلى تحقق وقوعه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

شرح المفردات

رحمة: كل نعمة من الله في الدنيا هي رحمة كالصحة والغنى والأمان.

نزعناها: سلبناها وحرمناه منها.

كفور: كثير الجحود لنعم الله.

نعماء: هي النعمة التي يظهر أثرها على صاحبها.

ضرّاء: نائبة، مصيبة، نكبة.

مسّته: أصابته.

ذهب السيئات: ولّت المصائب عني من فقر ومرض وسواهما.

لفرح فخور: شديد الفرح والبطر بالنعمة متفاخر بما أُعطي منها.

لولا أُنزل عليه كنز: هلاّ أُنزل عليه مال كثير.

وكيل: رقيب، حفيظ للأمور.

طبيعة الإنسان عند البلاء وعند النعمة

ثم يصف القرآن حالة الإنسان عندما يبتليه ربه بالشدة:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي ولو أن الله أعطى الإنسان بعض النعم وأذاقه حلاوتها فصار في سعة من الرزق، ورخاء في العيش، وسلامة في الصحة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبها الله منه بما يبتليه بالمرض، والمصائب، والعسر في العيش ﴿إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾ هاتان الكلمتان من صيغ المبالغة في اللغة، أي صار شديد اليأس من رحمة الله عندما ينزع الله عنه هذه النعم، عظيم الكفران لما سلف مما أعطاه الله من النعم.

هذا حال الكافر، أما المؤمن فلا ييأس أبداً كما قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] لأن الذي ييأس هو الذي لا يركن إلى الله ولا يلجأ إليه عند الضر، أما المؤمن فصلته بالله تخفف عنه كل مصائب الحياة، وتُلقي في نفسه الأمل والرجاء في رحمة الله.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي وإذا أنعم الله على الإنسان بما تطيب به حياته، ويلذّ به عيشه، بعد ضر كان يقاسيه ويعانيه كفقر أو مرض ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي لقال عند ذلك ذهب الضيق والعسر عني، وزالت الشدائد والمكاره ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ إنّه فرح بهذه النعم، مسرور بها متفاخر[1] بها على عباد الله، وغاب عن ذهنه شكر الله عليها ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إلاّ الذين صبروا على ما أصابهم إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده، كما صبروا على النعمة فلم تبطرهم ولم تخرجهم عن طاعة الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعملوا الأعمال الصالحة تقرّباً إلى الله في حالتي النعمة والمحنة ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة لهم مغفرة من الله تعالى لذنوبهم، ولهم ثواب كبير في الآخرة على أعمالهم الحسنة وهو الجنة.

---

(١) الفخر هو تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس.

ثم يواسي الله رسوله محمداً ويخفف من أحزانه بسبب إعراض قومه عن دعوته بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ لعل: للترجّي والتوقع ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه فقد يمتنع لمانع، والمانع هو ما عصمه الله لرسوله محمد ﷺ من مخالفة أمره، والمعنى: فلعلّك يا محمد تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يثير غضب المشركين من التنديد بآلهتهم، وضائق صدرك مخافة تكذيبهم واستهزائهم بقولهم: ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي يقولوا: هلاّ أُعطي محمد مالاً كثيراً يغتني به ﴿أو جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ وهلاّ جاء معه ملك من الملائكة يصدّقه ويشهد له بالنبوة، فثابر يا محمد على تبليغهم ما أمرك الله بتبليغه مما أوحاه الله إليك ولا يضق صدرك بما يطلبون منك من المعجزات. والآية هنا فيها تنديد بالمشركين وحث لرسول الله على عدم الانصياع لرغباتهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ إنما رسالتك يا محمد هي إنذار قومك وتخويفهم من عاقبة كفرهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ والله سبحانه هو الموكل بأمور خلقه يحصي عليهم أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

افتراه: اختلقه من عند نفسه.

يستجيبوا: الاستجابة هي الإجابة والتلبية.

القرآن معجزة محمد ﷺ

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على الكفار الذين زعموا أن القرآن من تأليف محمد، وهذه شبهة يرددها الآن كثير من أتباع الديانات الأخرى.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ[1] يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون إن محمداً قد اختلق القرآن وألّفه من عند نفسه ونسبه إلى الله كذباً، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل التحدي: فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعاني مختلقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقتها من عندي كما تزعمون، فإنكم أقدر على ذلك مني لأن منكم من زاول أساليب النثر والخطب والأشعار ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي واستعينوا على ذلك بمن تجدون عنده البلاغة والفصاحة في الكلام من غير الله إن كنتم صادقين أني قد اختلقت هذا القرآن وليعنكم هؤلاء للإتيان بعشر سور مثله مختلقات كما تزعمون ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن لم يستجيبوا لكم من دعوتموهم ليعينوكم في الإتيان بعشر سور مثل القرآن وعجزوا عن ذلك ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فاعلموا أيها الناس أن هذا القرآن أُنزل بِعِلْمِ الله وحده ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة وهذا الأسلوب أحد غير الله ﴿وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لا شريك له ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم أيها المشركون وقد أدركتم إعجازه، وعدم القدرة على الإتيان بمثله، وأنه ليس من عمل البشر، هل بعد ذلك كله أنتم داخلون في الإسلام متبعون لأحكامه؟ والاستفهام هنا مقصود به الحض على الفعل وعدم تأخيره.

هذا التحدي ذكره القرآن في مواضع شتى وقد مضى عليه خمسة عشر قرناً حتى يومنا هذا ولم نسمع أو نقرأ أنه حصل خلال هذه القرون الماضية أن أديباً، أو شاعراً، أو مجموعة من الأدباء والشعراء والبلغاء من سائر الملل في الأرض قدّموا لنا نصًّا أدبياً يوازي روعة القرآن وبلاغته وفصاحته، بالإضافة إلى ما يحتويه القرآن من الحكم والآداب والشرائع وقصص الأنبياء المتضمنة الدروس والعبر، إن ذلك كله يقدم لنا البرهان القوي، والحجة القاطعة، على أن القرآن هو وحيٌ من عند الله، وأن محمداً رسول الله حقًّا.

---

(١) أم: بمعنى بل، وبل هي للإضراب وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر.

هذا وإن حياة محمد قبل النبوة تشهد بصدق نبوته، فقد نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يزاول الشعر والخطابة والنثر ولم يتتلمذ على أحد من رجال الدين، ولم يشارك قومه في لهوهم ومجونهم ومساوئهم، وقد بقي هذا شأنه حتى بلغ سن الأربعين من عمره، ثم أخبر قومه أن الوحي نزل عليه من السماء ثم أيد دعواه بأنه نبي بهذا القرآن الذي أوحاه الله إليه.

وليس ما تحدى به القرآن العرب وغيرهم من الأمم مقصوراً على الآية السابقة فلقد جاء التحدي أيضاً بأن يأتوا بمثل القرآن، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

كما تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا(١) فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تماثله على كثرة البلغاء منهم أعلن عجزهم وأظهر إعجاز القرآن بهذه الآية ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

من مظاهر إعجاز القرآن

صورة نظمه العجيب وأسلوبه الفريد المخالف لأساليب العرب، وليس من شيء في أسلوب القرآن يدخله في ما يشبه من كلام الناس أو يردّه إلى طبع معروف من طباع البلغاء، وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك ويعد خروج القرآن على أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام البشر، فلو كان القرآن من تأليف محمد لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب البلغاء والشعراء في عصره.

ومن مظاهر إعجاز القرآن ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة

---

(١) عبدنا: هو رسول الله محمد ﷺ.

والأخبار عن المغيبات في المستقبل، فمن ذلك ما وعد الله به رسوله محمداً ﷺ من النصر على أعدائه وأن دينه سيظهر على كل الأديان، وقد تحقق ذلك بعد فترة وجيزة من هذا الوعد الإلهي.

ومنها: ما تضمّن القرآن من المعارف الدينية من توحيد الله وتنزيه لذاته عن مشابهة الخلق، والدعوة إلى عبادته وطاعته، وبيان الحلال من الحرام، ودعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاده إلى محاسن الأخلاق وزجره عن مساوئها.

ومنها: ما اشتمل عليه القرآن من علوم كونية لم تكن معروفة في زمن نزوله ثم ظهرت حقائقها في العصر الحاضر.

ومن مظاهر إعجاز القرآن وقعه الأخّاذ على السمع وتأثيره في النفس من اختيار ألفاظه العذبة وتآلف حروفها في النغم بحيث لو سقط حرف واحد منها أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللاً بيّناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وانسجام النغم، هذا مع الابتعاد عن الغريب والوحشي من الكلام، واطراد الفاصلة(١) في آياته على نسق خاص يؤلف مجموعها كلاماً جميلاً عذباً يجذب السامع إلى ما فيه من روعة وبيان.

هنا أوجه كلامي إلى الذين يشكّون في وجود الله ووحدانيته وإلى الذين يعتقدون بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ.

وإلى الذين ينشدون برهاناً جلياً على أن الإسلام دين من عند الله.

أدعو هؤلاء جميعاً أن يدرسوا القرآن بتجرد وعقل منفتح، ويقارنوا أسلوبه بجميع ما أنتجه بلغاء العرب وفصحاؤهم من إنتاج أدبي قديماً وحديثاً.

---

(١) الفاصلة: هي اصطلاح قرآني يطلق على الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية، وتنتهي هذه الكلمة بحرف خاص يتكرر في آيات السورة وفي الفاصلة مراعاة للمعنى وللنظم الفني للآية. وهذه الفاصلة هي من خصوصيات القرآن لا نجدها في كلام العرب، وهي تُظهر إعجاز القرآن وعظمة بلاغته وعدم القدرة على مجاراته. هذا وأكثر فواصل القرآن ينتهي بالنون أو الميم أو الألف لما لهذه الحروف من وقع خاص على الأذن.

كما أدعوهم ليقارنوا مبادىء الإسلام بكل مبادىء الأديان الحاضرة، فإن اعتقدوا بعد الدراسة والتمحيص بأن القرآن ليس من كلام البشر، فحريّ بهم أن يصلوا إلى النتيجة الحاسمة التي خَلُصَ إليها القرآن عندما تحدى العرب بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن وعجزوا عن ذلك وهي: أنه مُنزل من عند الله، وأن الله هو الذي لا إلّه غيره، فهل أنتم بعد هذه البراهين المقنعة داخلون في الإسلام؟ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنزلَ بعلم اللّهِ وأن لا إلّه إلاّ هو فهل أنتم مُسلمُونَ﴾.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

الحياة الدنيا وزينتها: هي المال والجاه والمنصب وغير ذلك من متع الحياة الدنيا.

نوفّ إليهم أعمالهم: نعطيهم جزاءها وافياً كاملاً في الدنيا.

لا يبخسون: البخس، النقصان. أي لا يُنقصون شيئاً من الجزاء على أعمالهم.

حبط: بطل في الآخرة وذهب نفعه.

وباطل ما كانوا يعملون: أي لا قيمة لعملهم حيث لم يعملوا لوجه الله.

بيّنة: حجة واضحة وبرهان ظاهر.

يتلوه: يتبعه، يقرأه.

إماماً ورحمة: أي كتاباً يؤتم به في الدين، ورحمة للقوم الذي ينزل عليهم.

الأحزاب: الأقوام والجماعات الذين تحزّبوا لمحاربة رسول الله ﷺ.

فالنار موعده: مصيره إلى جهنم يوم القيامة.

فلا تك في مرية منه: فلا تشكّ في أن هذا القرآن هو من عند الله.

مصير الذين لا يبتغون بأعمالهم وجه اللّه

ويتابع القرآن فيحذّر من ينساق إلى شهوات الدنيا ولا يلتفت إلى ثواب الآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحيَاةَ الدُّنيا وَزِينَتَها﴾ أي من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية وملذاتها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي يعطيهم الله ثمرة جهودهم ـ حسب مشيئته ـ دون أن يظلموا شيئاً من حقوقهم فيها ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ وهم في هذه الدنيا لا ينقصون شيئاً من نتائج أعمالهم وجهودهم فيها. فكل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل.

﴿أُولَئِكَ الَّذين لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرة إلاَّ النَّارُ﴾ أي أولئك الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ولا يبتغون بأعمالهم وجه الله، ولا يسعون إلى ثوابه ليس لهم حظ في الآخرة إلا عذاب النار ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فيها﴾ وبطل ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانوا يَعْمَلُونَ﴾ وباطل في ذاته ما كانوا يعملونه في الدنيا لأنهم لم يعملوه لوجه الله فلا نفع ولا خير لهم فيه، ولا ثواب لهم عليه من الله لأن الأعمال بالنيات كما قال النبي ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

(١) متفق عليه.

فالإسلام لا يثيب على الأعمال الصالحة في الآخرة إلاّ إذا كانت خالصة لوجه الله لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا أي مطلب دنيوي، ولا أي غرض سوى رضاء الله، وبهذا ترتقي أعمال الإنسان إلى السمو والرفعة لأنه لا يخالطها حظ من حظوظ النفس وشهواتها، وبهذا يكون نفعها أعم، أما أعمال الخير التي تقوم على الرياء وابتغاء الشهرة والجاه، فيذهب نفعها في خضم أهواء النفس ورغباتها وأهوائها وشهواتها.

ثم يبين القرآن من كان على بصيرة من ربه فاهتدى بذلك إلى الحق:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ والمراد بالبينة: الحجة والبيان والبرهان من الله الذي يدل على الحق والصواب، والبينة هي القرآن، والذي كان على بيِّنة من ربه هو الرسول محمد ﷺ وأتباعه المؤمنون. والمعنى: أفمن كان على حجة واضحة وبرهان من عند ربه يدل على أن القرآن مُنزل من عند الله فاتبع هداه، وجواب الاستفهام محذوف لدلالة الكلام عليه وهو: كمن هو في ضلال وكفر ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي يتبعه شاهد من الله هو إعجاز القرآن الذي عجز جميع البلغاء عن الإتيان بمثله فهو الذي يشهد بصحة نبوة محمد ﷺ.

وقد يكون الشاهد جبريل كما ذهب بعض المفسرين، ويتلوه: من التلاوة بمعنى القراءة فيكون المعنى: أفمن كان على برهان جلي من ربه يدل على أن الإسلام حق وهو القرآن، ويتلو هذا القرآن على رسول الله ﷺ شاهد من الله وهو جبريل عليه السلام ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ ومن قبل نزول القرآن كان الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو التوراة ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ وهذه التوراة كانت إماماً لبني إسرائيل يرجعون إليها في أمور الدين والأحكام والشرائع، كما أنها كانت رحمة لهم لأنها الهادي إلى الحق والصواب ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُون بِهِ﴾ أي أولئك الذين وصفهم الله على بينة من ربهم يؤمنون بأن الإسلام هو الدين الحق وبأن محمداً رسول الله حقاً ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ والأحزاب: جمع حزب، وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم لمحاربة رسول الله ودعوته، أي من يكفر بهذا القرآن من هؤلاء

وبما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى فإن نار جهنم هي التي جعلها الله موعداً لهم في الآخرة.

﴿فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي فلا تكن أيها العاقل في شك من أن هذا القرآن من عند الله ومن أن ما جاء به محمد هو الحق الثابت من عند ربك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك إما لقصور عقولهم أو لعنادهم أو لاستكبارهم وإيثارهم الدنيا على الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ
لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ
ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ
وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ومن أظلم: أي لا أحد أشد ظلماً.

افترى على الله: تعمّد الكذب على الله.

يعرضون على ربهم: أي يحاسبهم ربهم على أعمالهم.

الأشهاد: جمع شاهد أو شهيد وهم من يشهد على كفرهم من الملائكة والنبيين.

يصدون عن سبيل الله: يمنعون غيرهم ويصرفونهم عن دين الله.

ويبغونها عوجاً: يطلبون لدين الله العوج ويصفونه بذلك تنفيراً للناس منه.

لم يكونوا معجزين في الأرض: غير قادرين على الإفلات من عقاب الله بالهرب.

أولياء: نصراء.

لا جرم: أي لا محالة.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: وغاب عنهم في الآخرة ما كانوا يفترون من أكاذيب.

اخبتوا إلى ربهم: خضعوا له واطمأنوا إليه وأطاعوه.

هل يستويان: هل يتماثلان.

من صفات الكافرين

ويتابع القرآن فيحذر الكافرين من سلوكهم المناوىء لدين الله:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممن تعمّد الكذب على الله بأن زعم أن الأصنام تشفع لعابديها، أو نسب إلى الله ما لا يليق به من وجود شريك له أو ولد، أو وصف الله بما لا يجوز وصفه به، أو تقوّل على الله ما لم يُنزّل على رسله ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِم﴾ أولئك الكاذبون يعرضون على ربهم ليحاسبهم على افتراءاتهم ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الّذين كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِم﴾ والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد وهو من يشهد على الكفار بكفرهم وهم الملائكة الذين كانوا يحصون أعمال كل إنسان في الدنيا وكذلك الأنبياء والمؤمنون. هؤلاء يشهدون على من افتروا الكذب على الله، وفي هذه الشهادة فضيحة للكاذبين وخزي وذل لهم أمام الخلائق وتشهير بهم ﴿ألا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمينَ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد أو من كلام رب العالمين. والمعنى ألا بعداً وطرداً من رحمة الله لهؤلاء الظالمين المفترين على الله كذباً.

ومن صفات هؤلاء الكافرين ﴿الّذين يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله طريقه الموصل إلى رضائه وهو دين الإسلام، والصد عنه هو منع الناس وصرفهم عن

الدخول فيه كما صرفوا أنفسهم عنه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أي ويريدون أن يكون سبيل الله معوجّاً حسب أهوائهم بإلقاء الشبهات عليه لينفّروا الناس عن الدخول فيه ﴿وهم بالآخرة هُم كَافِرونَ﴾ وهؤلاء الكافرون يجحدون وجود الحياة الآخرة وما فيها من حساب على أعمالهم وما يتبع ذلك من ثواب أو عقاب من الله.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يكُونوا مُعْجِزِينَ في الأَرضِ﴾ أي هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله لن يخرجوا عن قدرة الله على عذابهم في الدنيا إذا أراد تعجيل العذاب لهم ولا قدرة لهم على الفرار من الله لأنهم في قبضته وملكه ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أولِيَاءَ﴾ وليس لهؤلاء من أنصار قادرين على تخليصهم من عذاب الله ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ﴾ أي لهم العذاب على قدر كفرهم ومعاصيهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُون السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرونَ﴾ وإن سبب تشديد العذاب لهؤلاء الكافرين هو انصرافهم عن السمع المفيد والبصر النافع، فهم صم عن سماع القرآن لثقله على نفوسهم الفاسدة، وهم عمي عن النظر في آيات الله في الكون التي تشهد بوحدانية الله ﴿أُولَئِكَ الَّذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أولئك الذين جنوا على أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب افترائهم الكذب على الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم في الآخرة الآلهة التي كانوا يزعمون أنها شفعاء لهم، وما كانوا يفترون من أكاذيب ودعاوى باطلة ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُم في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ لا جرم: بمعنى لا بد أو لا محالة أو حقاً، إنهم في الآخرة سيخسرون نعيم الجنة بسبب سلوكهم المعوج وضلالهم عن طريق الحق.

مصير المؤمنين يوم القيامة

وبعد أن بيّن الله مصير الكافرين أتبع ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِم﴾ الإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب، أي إن الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته وعملوا الأعمال الصالحة التي ترضيه واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع

والتواضع ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي هؤلاء هم أهل الجنة وأصحابها هم فيها خالدون لا يبرحونها ولا يخرجون منها.

ثم ضرب الله مثلاً لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين بقوله: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ أي مثل الكفار كمثل الأعمى الذي لا يبصر والأصم الذي لا يسمع، فهم لا ينتفعون بما بين أيديهم من الهدى، وأما المؤمنون فحالهم وصفاتهم كحال من جمع بين البصر السليم والسمع الواعي فاهتدى إلى ربه، وميّز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، فسلك سبيل الخير وتجنب الشر ﴿هل يستويان مثلاً﴾ أي هل يتساوى الفريق المؤمن الذي استفاد من سمعه وبصره في إدراك الحق مع الفريق الآخر الذي اختار الكفر فكان كمن طمس على قلبه فلا يرى ولا يسمع ما يلقى إليه من الهدى ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تتذكرون بما بينهما من التفاوت والتباين فتعتبروا به وتبتعدوا عن طريق الضلال وتسلكوا الطريق المستقيم؟

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ
أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

نذير: محذّر ومخوّف من عذاب الله.

مبين: واضح.

الملأ: الأشراف والقادة وأصحاب الجاه والغنى.

أراذلنا: سفلتنا وأقل الناس شأناً (جمع أرذل).

بادي الرأي: ما يبدو من الرأي للوهلة الأولى دون تعمق وإمعان نظر.

أرأيتم: أخبروني.

على بينة: على بصيرة وحجة وبرهان.

فعمّيت: خفـيت والتبست عليكم.

أنلزمكموها: أنكرهكم على اتباعها ونجبركم عليها؟

قصة نوح عليه السلام مع قومه

وبعد الكلام عن مظاهر قدرة الله في الكون ومصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة تذكر السورة طائفة من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم مبينة مآل المكذبين لهم، وما حلّ بهم من هلاك في الدنيا لبيان العظة والعبرة لمن جاء بعدهم من الأمم.

وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء نوح عليه السلام، وقد جاء ذكره في القرآن في عدّة سور[١].

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحاً ليرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وليحذّرهم مما سيصيبهم من عذاب إن استمروا على عبادتهم للأصنام معرضين عن عبادة الله وحده، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ إني لَكُمْ نَذِيرٌ مُبين﴾ أي ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ليقول لهم: إني محذركم تحذيراً واضحاً من غضب الله وعقابه إن بقيتم على كفركم، والإنذار هو الإعلام بالشيء مع بيان عاقبة من خالفه **﴿أن لا تَعْبُدوا إلاَّ اللَّهَ﴾** أي أرسلناه ليدعو قومه لأن لايعبدوا إلاّ الله وحده ولا يشركوا به شيئاً **﴿إنّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾** إني أخاف عليكم من عذاب الله يوم القيامة وهو عذاب شديد الألم.

---

(١) منها سورة الأعراف، وسورة المؤمنون، وسورة نوح.

أجاب القوم نوحاً بعد إنذاره إياهم ﴿فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾ أي قال الأشراف الذين كذبوا برسالة نوح: ما أنت يا نوح إلا بشر مثلنا في الخلق والصورة والجنس ليست فيك مزية علينا بما تدّعيه من النبوة فكيف نستجيب لك؟ وقولهم هذا يدل على جهلهم، فكونه من البشر عامل فعّال يتيح له هدايتهم والقدرة على التفاهم معهم، كما يكون سلوكه قدوة لهم، ولو كان رسول الله من الملائكة لالتبس عليهم أمره ولم يستطيعوا اتخاذه قدوة لهم.

ثم أضاف أشراف قومه قائلين: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي وما نرى في الذين اتّبعوك يا نوح إلا أقلنا شأناً من الفقراء وأصحاب الحرف الوضيعة والعمال ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي، أي اتبعوك دون روية أو تفكير ﴿وَمَا نَرَى لَكُم عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي لا نعلم لك يا نوح ولمن اتبعك مزية وفضلاً علينا حتى ننقاد لكم، بل إننا نعتقد بأنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق، والظن هنا بمعنى الاعتقاد اليقيني.

أمام هذا الرفض الذي لقيه نوح من قومه ردّ عليهم برفق:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي يا عشيرتي: أخبروني إن كنت مؤيداً بحجة واضحة من ربي ﴿وآتاني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ وأعطاني رحمة من عنده وهي النبوة وما أنزل عليَّ من الشرائع التي هي سبب رحمة الله لمن اتبعها ﴿فَعُمِّيَت عَلَيْكُم﴾ فأُخفي عليكم أمرها، وحجبها عنكم جهلكم وكبرياؤكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا[١] وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي أنلزمكم إياها بالجبر والإكراه والحال أنكم كارهون لها نافرون منها إنكاراً وجحوداً واستكباراً؟ هذا أول نصّ في دين الله يدل

---

(١) أنلزمكموها: هذه الكلمة تصور جو الإكراه بإدماج ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب في النطق وشد بعضها على بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، إضافة إلى ما يحمل هذا اللفظ من وقع شديد على الأذن مصوراً حالة من يُكرَه على شيء.

على أنه لا يصح أن يكون الدين بالإكراه، فإن الدين لا يصح اتباعه إلا عن يقين واقتناع، وهذا النص جاء تأكيده في القرآن بقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

شرح المفردات

ملاقو ربهم: أي يلقون الله يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم.

تجهلون: أي تجهلون القيم الحقيقية التي يتفاضل بها الناس عند الله.

تذكّرون: تتعظون. أصلها تتذكرون حذفت تاء منها تخفيفاً.

ملك: أي ملك من الملائكة.

تزدري أعينكم: تنظرون إليهم باحتقار.

نوح ينصح قومه

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله نوح لقومه من نصح وإرشاد مجرداً من أي غرض مادي:

﴿وَيَا قَومِ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ مَالاً إن أجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي يا قومي لا أطلب منكم مالاً على تبليغ رسالة الله إليكم، إن أجري وجزائي إلاّ على الله. إن ما قاله نوح قد قاله رُسُل الله جميعاً لأقوامهم فهم لم يبتغوا الثروة والجاه في دعوتهم إلى الله، بل كان

همهم الأوحد تبليغ رسالة الله إلى الناس مهما صادفوا من أذى واضطهاد وحرمان، وكان ثمرة ذلك أن أيدهم الله بنصره. هذا الإخلاص في الدعوة إلى الله، المجرد من أي غرض مادي، يجب أن يكون الوازع والهدف لجميع الدعاة والمصلحين في كل زمان ليكون لدعوتهم النفاذ إلى القلوب.

ويظهر أن طبقة الأشراف قد وعدت نوحاً الاستجابة إلى دعوته في حال طرده المساكين والفقراء المؤمنين من مجلسه ومعيَّته ولكن نوحاً رفض طلبهم وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الذين آمَنُوا﴾ أي لست بطارد المؤمنين كما أردتم من مجلسي لمجرد احتقاركم إياهم لأنهم ليسوا في منزلتكم كما تدّعون ﴿إِنَّهُم مُلاَقُوا رَبِّهِم﴾ إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم سيلاقون ربهم يوم القيامة فيشكونني إليه إن طردتهم لفقرهم ﴿وَلَكِنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ولكني أراكم قوماً تجهلون ما ينبغي أن يتفاضل به الناس عند الله حيث الكرامة للذين يتقون ربهم، أو بمعنى: أراكم قوماً فيكم جهالة وحمق دفعكم إلى التعالي على هؤلاء المؤمنين الفقراء.

وتابع نوح قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُم﴾ أي ويا قومي من ينجيني من عقاب الله إن طردت هؤلاء الفقراء من مجلسي وهم على ما هم عليه من الإيمان والاستقامة ﴿أفلا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والزجر، أي أفلا تتذكرون أن لهم ربّاً ينصرهم إن طردتهم وينتقم لهم؟

﴿وَلاَ أَقولُ لَكُم عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ ولا أقول لكم إن النبوّة التي خصّني الله بها تجعلني أملك خزائن أرزاقه أتصرف فيها كما أشاء فأجعل من يتبعني غنياً ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ ولا أعلم ما يغيب عن علم الناس من الأمور التي ستحصل في المستقبل فإن ذلك لا يعلمه إلاّ الله ﴿وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا أقول لكم إني ملك من الملائكة بل أنا بشر مثلكم اختصني الله بالنبوة ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذين تَزدَرِي أَعْيُنُكم لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً﴾ ولا أقول في شأن المؤمنين الفقراء الذين تنظرون إليهم نظرة احتقار لن يؤتيهم الله خيراً إرضاء لرغباتكم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا في أَنْفُسِهِمْ﴾ الله هو الأعلم بما في نفوسهم

من خير أو شر، أما أنا فلا أعلم إلا ظاهراً من سلوكهم الذي يدل على إيمانهم ﴿إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إني لو قلت بأنهم لن ينالوا خيراً أكون من الظالمين لأنفسهم لأني حكمت على شيء لا سبيل لي إلى معرفته.

لقد أراد الله أن يبين من تلك الآيات على لسان رسوله نوح أنه ليس لطبقة الأغنياء والأشراف أي امتياز على من سواهم، فالمجتمع الإنساني الذي يريده الله هو مجتمع المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، والتفاضل بينهم يجب أن يقوم على أساس تقوى الله والعمل الصالح وقد جاء في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات

جادلتنا: الجدال هو المناقشة على سبيل المنازعة وتغليب رأي على رأي آخر.

بمعجزين: بمفلتين وهاربين من عذاب الله.

يغويكم: يضلكم.

افتراه: اختلقه من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى.

إجرامي: الإجرام اكتساب الذنب.

إصرار قوم نوح على الكفر

وبعد أن أفحم نوح قومه بالحجج القاطعة التي تبين جهلهم وعنادهم ولم يجدوا مجالاً للرد عليه لجأوا إلى أسلوب التحدي وطلبوا من نوح أن ينفّذ ما أنذرهم به من العذاب إن استمروا على كفرهم.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي يا نوح قد ناقشتنا وخاصمتنا وبالغت في ذلك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأتنا بما أوعدتنا من العذاب الذي هددتنا به إن كنت صادقاً في دعواك أنك نبي وأن الله يعاقبنا على عصيانه، أرادوا بذلك تعجيل العذاب وعدم إمهاله.

أجاب نوح قومه على تحديهم له: ﴿قَالَ إِنَّما يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أي إنما يأتيكم الله بالعذاب الموعود إن شاء إهلاككم ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذاب الله والإفلات منه إن شاء إنزاله بكم.

وتابع نوح مخاطبة قومه: ﴿وَلاَ يَنْفَعُكُم نُصحي إِن أَرَدتُّ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي لا ينفعكم ما أبذله لكم من نصح لمجرد إرادتي الخير لكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يريدُ أن يُغوِيَكُم﴾ أي إن كان الله يريد أن تضلوا عن طريق الحق لعلمه فساد قلوبكم وإصراركم على الكفر، وفُسِّر الإغواء هنا بالإهلاك لأن الضلال يفضي إلى الهلاك ﴿هُوَ رَبُّكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو الله مالك أمركم ومربّيكم وإليه مرجعكم بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الكلام هنا صادر عن قوم نوح والمعنى: بل أيقول قوم نوح عن نبيهم إنه اختلق هذا الدين الذي يزعم أنه من عند الله، لأن الكلام يدور على قصة نوح. وقد تكون الآية (أم يقولون افتراه) جملة معترضة وأنها من كلام مشركي قريش، فيكون المعنى: بل أيقول المشركون من قومك يا محمد إنك قد اختلقت هذا القرآن ﴿قُل إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيّ إجرامي﴾ أي قل لهم يا نوح - أو يا محمد - إن كنت قد

اختلقت ما أبلغتكم إياه من رسالة الله لكم فعليّ إثم إجرامي بالافتراء على الله ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ وأنا بريء من آثامكم وإجرامكم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا
كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ
سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ
تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ
أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن
سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾

شرح المفردات

فلا تبتئس: فلا تحزن ولا تغتمّ.

الفلك: السفينة، ويستعمل الفلك للمذكر والمؤنث والواحد والجمع.

بأعيننا: تحت رعايتنا وتوجيهنا.

ملأ: جماعة من الأشراف.

يخزيه: يذله ويهينه.

عذاب مقيم: عذاب دائم خالد.

جاء أمرنا: جاء وقت تنفيذ أمر الله بعذابهم.

فار التنور: نبع الماء بشدة من التنور وهو الموقد الذي يخبز فيه الخبز.

زوجين: أي ذكراً وأنثى.

سبق عليه القول: حق قضاء الله عليه بالهلاك.

نوح يصنع السفينة بأمر ربه

وبعد هذه الفترة الطويلة الشاقة التي قضاها نوح مع قومه وهو يحاول باستمرار هدايتهم بكل الوسائل وهم يرفضون دعوته ويصرون على عنادهم، عندئذ نزل عليه الوحي من ربه ينير له السبيل:

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ أي أوحى الله إلى نوح: أنه لن يستجيب لدعوتك أحد من قومك بعد الآن غير من سبق منه الإيمان قبل ذلك ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يضق صدرك بكفرهم وانغماسهم في الآثام لأننا سننتقم منهم قريباً.

﴿واصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي واصنع يا نوح السفينة بحفظنا إياك حفظ من يراك، وتحت رعايتنا وإرشادنا عن طريق وحينا لك بكيفية صنعها ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي في الَّذين ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُون﴾ ولا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين بأن تطلب مني أن أرحمهم أو دفع العذاب عنهم، فقد صدر قضائي بإغراقهم فلا مجال للرحمة بهم.

أما بشأن دعاء نوح على قومه بالهلاك كما جاء في سورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فقد صدر هذا الدعاء منه بعد يأسه من إيمان قومه.

﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وكلّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِروا مِنْهُ﴾ أي ويشرع نوح بصنع السفينة التي ألهمه الله صنعها وكلما رآه جماعة من أشراف قومه وهو يقوم بقطع الأشجار وتهيئة الألواح وضم بعضها إلى بعض استهزأوا به وسخروا منه، وقالوا له على سبيل التهكم به: يا نوح صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً، ولم يدركوا السر في هذا التغيير؛ هنا يرد عليهم نوح بقوله: ﴿قَالَ إن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي إن تسخروا منا أنا ومن اتبعني من المؤمنين فإننا عن قريب سنسخر

منكم لما سيحل بكم من هلاك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُون مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو جدير بالسخرية حين يأتيه عذاب من الله يجلب له الذل والهوان في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقيمٌ﴾ ويحل عليه في الآخرة عذاب خالد دائم.

وينتهي نوح من صنع السفينة وينتظر الوقت المحدد في علم الله لركوب السفينة وقد أعلمه الله بذلك الوقت بقوله: ﴿حَتّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي حتى إذا جاء حلول وقت نزول العذاب بهم بحصول الطوفان ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي نبع الماء بقوة من جوف التنور، والتنور هو الشيء الذي يخبز فيه الخبز، وقيل التنور هو وجه الأرض، أي نبع الماء بشدة من الأرض كما قال تعالى في وصف بدء الطوفان: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢].

حتى إذا حدث هذا كله ﴿قُلْنَا احْمِلْ فيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي أوحى الله إلى نوح أن احمل في السفينة من كل صنف من المخلوقات التي أنت بحاجة إليها زوجين اثنين: ذكراً وأنثى، أما الأنواع التي أمره الله بحملها معه في السفينة فلم يرد في تحديدها نص صريح ﴿وَأَهْلَكَ إلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْه الْقَوْلُ﴾ أي واحمل معك في السفينة من آمن من أهلك إلاّ من حق عليه قضاؤنا بهلاكه وهما ابنه وإحدى زوجاته التي ورد ذكرها في القرآن ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ أي واحمل معك الذين استجابوا لدعوتك وآمنوا من قومك، ولم يكونوا من حيث عددهم إلاّ قلة.

﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ
ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ
ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ
وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

شرح المفردات

مجراها: أي وقت جري السفينة في الماء.

مرساها: وقت إرسائها على اليابسة.

وكان في معزل: وكان في مكان منفرد.

سآوي: سألتجيء.

يعصمني: يحميني من ماء الطوفان.

لا عاصم: لا مانع ولا حافظ.

ويا سماء أقلعي: ويا سماء أمسكي عن إنزال المطر.

وغيض الماء: نقص الماء وذهب في الأرض.

واستوت على الجودي: واستقرت السفينة على جبل الجوديّ بالقرب من الموصل.

بعداً للقوم الظالمين: هلاكاً وبعداً لهم عن رحمة الله.

حصول الطوفان والوصف البليغ لانحساره

وبعد أن ظهرت علامات بدء الطوفان قال نوح عليه السلام لأهله والمؤمنين الذين أمره الله بحملهم معه: **﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّه مَجْراهَا وَمُرسَاهَا﴾** أي اركبوا فيها متيمنين بذكر اسم الله تعالى قائلين باسم الله وقت جريها فوق الماء ووقت

إرسائها ووقوفها عند المكان الذي شاء الله أن يوقفها ويثبتها عنده، فجري السفينة وإرساؤها هو بإذن الله وحمايته فلا داعي للخوف من ركوبها ﴿إِنّ ربِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربي لعظيم الغفران لذنوب المؤمنين رحيم بالمؤمنين فهو ينجيهم من كل سوء.

ثم بين الله حال السفينة وهي تمخر بهم عباب الماء ﴿وَهِيَ تَجْري بِهِم في مَوْجٍ كالجِبَالِ﴾ أي وهي تجري بهم بعد ركوبهم فيها في موج مرتفع كالجبال لشدة العواصف التي يتأثر بها الموج.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَان في مَعْزِلٍ﴾ وقبل إبحار السفينة وقبل ارتفاع الماء نادى نوح ابنه بداعي الشفقة وكان في مكان منفرد منعزل عنه ﴿يَا بُنَيَّ[1] ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُن مَعَ الكَافِرينَ﴾ أي يا بني اركب معنا نحن المؤمنين في السفينة وَدَعْ ما أنت عليه من الكفر لتنجو من الغرق ﴿قَالَ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُني مِنَ الماءِ﴾ أي قال الابن: سألجأ إلى جبل مرتفع يحميني من الماء، فرد عليه أبوه قائلاً: ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أمْرِ اللَّه إلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ أي لا نجاة اليوم من العذاب إلاّ من رحمه الله بلطفه وإحسانه وقدّر له النجاة، وعبّر نوح عن العذاب بأمر الله تهويلاً لشأنه لأن أمر الله لا مردّ له، وأَمْرُ الله هو حكمه القاضي بهلاك الكافرين من قوم نوح ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقينَ﴾ وفصل الموج بين نوح وابنه فكان الابن من جملة من أغرقهم الله بسبب كفرهم.

ثم يصف القرآن انتهاء الطوفان بتلك الآية التي ترتقي إلى أعلى درجات البلاغة:

﴿وَقِيلَ يَا أرضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الماءُ وَقُضِيَ الأمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾.

المتأمل في هذه الآية يراها تصف انتهاء الطوفان وهلاك الظالمين بأوجز لفظ

---

(١) يا بني: تصغير ابن مضافاً إلى ياء المتكلم وتصغيره هنا تصغير شفقة وحنان.

وأبلغه، فترى فيها حسن النسق[١] حيث أتى بجملها معطوفة على بعضها على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة، فقد بدأ الله بذكر الأهم وهو إطلاق أهل السفينة إلى البر، ولا يحصل ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض فلذلك أمر الله الأرض بأن تبلع ماءها لأن الطوفان ابتدأ منها. وقد أضاف القرآن الماء إلى الأرض لاتصال الماء بالأرض ولأن أصله من الأرض تبخره الشمس فيصير غيوماً ثم يهبط مطراً إلى الأرض. ولفظة ﴿ابلعي﴾ تصور لما يراد أن تصنعه الأرض وهي أن تبتلعه بسرعة فهي هنا أفضل من امتصي مثلاً لأن البلع حقيقته انزال الطعام والشراب إلى الجوف بدون مضغ في الفم، وهو هنا استعارة لإدخال الماء في باطن الأرض بسرعة.

ثم إن الأرض لو ابتلعت الماء ولم تنقطع الأمطار المنهمرة فإنه سيكون معوضاً لما تبتلعه الأرض من الماء لذلك أمر الله السماء بقوله: ﴿ويا سَمَاءُ أَقْـلِعي﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر، وإقلاع السماء مستعار لكـفّ نزول المطر منها.

ثم تأمّـل التجانس والإيقاع الموسيقي بين (ابلعي) وبين (أقلعي).

وتأمل كيف أن القرآن لم يقل «يا أرض ابلعي ماءك فبلعت» بل قال فقط (يا أرض ابلعي ماءك) لأن الأمر الإلهي لا يُردّ والكون خاضع لكلمته وهي ﴿كُـنْ فيكون﴾.

ثم أشار الله إلى النتيجة التي ترتبت على ذلك بقوله: ﴿وغِيضَ الـمَـاءُ﴾ أي نقص الماء ونضب فإن غيض تشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء[٢].

ثم بيّـن الله الغاية التي توخاها الطوفان بقوله: ﴿وَقُـضِيَ الأمْرُ﴾ وحقيقة معناها: هلك من قضى الله هلاكه ونجا من قدّر له النجاة، وإن الإهلاك والإنجاء كانا بأمر الله المطاع وقضائه الذي لا يُـرَدّ.

---

(١) حسن النسق: هو عبارة عن أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً لا معيباً ولا مستهجناً.

(٢) هو ما يعرف في علم البلاغة باسم (الإشارة) وهو أن يكون اللفظ القليل دالاً على المعنى الكثير.

وأخيراً ينهي الآية بقوله ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالمينَ﴾ وهذا دعاء على الهالكين أي هلاكاً وطرداً لهم من رحمة الله، وتبًّا لهؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسم بإيثارهم الكفر على الإيمان، ووصفهم بالظلم ليعلم الذين جاءوا من بعدهم أن هلاكهم كان بسبب الظلم احتراساً لما قد يتوهم أن الهلاك بعمومه لهم قد شمل من لا يستحق العذاب. وجاءت كلمة (بُعداً) دون (هلاكاً) إشارة إلى أن الهلاك لهؤلاء الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض.

الطوفان شمل قوم نوح

الظاهر في القرآن يدل على أن الطوفان قد شمل قوم نوح فقط وهم الذين عصوا الله وكذبوا رسول الله وهذا لا يقتضي أن يكون الطوفان عامًّا للكرة الأرضية كلها إذ لا دليل على أن البشر كانوا يقطنون الأرض كلها.

وقد أدت الحفريات التي قام بها السير وولي في العراق سنة ١٩٢٠ إلى اكتشاف آثار للطوفان من أوانٍ فخارية وأدوات صوانية مما كان يستعمل في العصر الحجري، وكذلك آثار من نبات المستنقعات جرفتها المياه من المنطقة الوسطى لنهر الفرات.

وقد سجل السكان الذين عمروا الوادي بعد الطوفان قصة ذلك الطوفان على اثني عشر لوحاً ذكروا فيها غرق سكان هذه المنطقة باستثناء رجل ورع بنى سفينة ركب فيها وأخذ معه أفراد أسرته وبعض الحيوانات والدواب وهؤلاء وحدهم هم الذين كتبت لهم النجاة[١].

وما ذكره القرآن من أن الله أمر نوحاً بأن يحمل معه في السفينة من كُلٍّ زوجين اثنين من الحيوانات يدل على قلة الحيوانات في تلك البقعة ولو كان الطوفان عامًّا للأرض لاستلزم عشرات بل مئات السفن لاستيعاب أنواع الحيوانات الموجودة على الأرض مع استحالة جمعها في ذلك الزمن.

---

(١) نقلاً باختصار عن كتاب (الأرض التي نعيش عليها) تأليف: روث مور ـ ترجمة اسماعيل حقي.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ
لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ
أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن
مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ
ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ
ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

شرح المفردات

أحكم الحاكمين: خير الحاكمين حكماً لأنك لا تحكم إلاّ بالحق.

إني أعظك: إني أنصحك وأرشدك.

أعوذ بك: ألتجىء إليك وأحتمي بك.

بسلام منا: بسلامة وأمن من الله.

وبركات: خيرات ثابتة دائمة.

أمم: جمع أمة والأمة الجماعة الكثيرة من الناس التي يجمعها نسب واحد أو لغة أو موطن أو دين.

سنمتعهم: يقال تمتع: إذا عاش في رغد وسلامة فيما يحب.

يمسهم: يصيبهم.

أنباء الغيب: الأخبار الغيبية التي هي خافية عن البشر.

العاقبة: خاتمة الشيء والمصير الأخير فيه.

نوح يطلب من الله النجاة لابنه

تقدم في الآيات السابقة أن الموج حال بين نوح وبين ولده، وهنا يصور لنا القرآن نفسية نوح وقد أخذته عاطفة الأبوة والشفقة على ابنه فسأل ربه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي إنّ ابني كنعان هو من أهلي الذين وعَدْتَ أن تنجيهم من الغرق ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾ أي وإنّ كل وعد يصدر عنك يا رب هو الحق الذي يتحقق وأنت أعلم الحكام وأعدلهم.

لقد سأل نوح ربَّه ذلك لأنه لم يكن قد رأى ابنه يغرق، أو أنّ كفره لم يكن مؤكداً لديه، ويجوز أن يكون الدعاء بعد غَرَقِ من غَرِقَ أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

لقد اكتفى نوح بقوله ﴿ربِّ إنّ ابني مِنْ أهلي﴾ دون أن يصرّح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله واعتقاداً منه بأنه خبير بما يجول في نفسه.

فأجابه الله سبحانه ﴿قَالَ يَا نوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنّ ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم من الطوفان ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ إنّ عمله لا صلاح فيه حيث اختار الكفر على الإيمان فخرج بذلك عن كونه من أهلك لانقطاع الصلة بين المؤمن والكافر، ولأن نجاة أهلك هي بسبب إيمانهم لا بسبب نسبهم إليك، والله لا يحابي أحداً إكراماً للآباء الصالحين، ولو كانوا من الأنبياء ومن يغترّ بنسبه ولا يعمل بما يُرضي الله فهو جاهل بدين الله.

وقريب من هذا المعنى هو ما نهى الله المؤمنين بأن يخصّوا غيرهم بالود إذا كانوا يعصون الله ولو كانوا من أقرب الأقرباء إليهم نسباً، فقال الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبعد أن أخبر الله نوحاً بأن ابنه ليس من أهله بسبب كفره نهاه عن أن يطلب منه ما

لا يعلم وجه الصواب فيه فقال سبحانه ﴿فَلاَ تَسْأَلنِ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلينَ﴾ والجهل هنا كناية عن الذنب، أي إني أحذِّرك وأنهاك أن تكون من جملة الآثمين بسبب سؤالك إيانا ما لا تعلم يقيناً أنه حق وصواب، وهنا يعترف نوح بأنه أذنب وعصى ربه بسؤاله هذا فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إنِّي أعوذُ بِكَ أن أَسْأَلَكَ مَا لَيسَ لي بِهِ عِلمٌ﴾ أي يا رب إني ألتجىء إليك وأحتمي بك أن أسألك ما ليس لي به علم أنه جائز وصواب ﴿وَإلاَّ تَغْفِرْ لي وَتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الخَاسِرينَ﴾ أي وإن لم تتفضل عليّ بمغفرتك وترحمني برحمتك الواسعة أكن من الخاسرين الذين ضلوا عن سبيلك.

وبعد أن ابتعلت الأرض ماء الطوفان واستقرت السفينة على الجبل جاء النداء الرباني لنوح:

﴿قِيلَ يا نوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيكَ﴾ أي قالت الملائكة بأمر الله تعالى، أو قال الله تعالى: يا نوح انزل من السفينة على الأرض مصحوباً بسلام منا مع بركات وخيرات دنيوية وأخروية عليك ﴿وَعلَى أُمَمٍ ممَّن مَعَكَ﴾ وعلى أمم ناشئة ممن معك من المؤمنين وهم المتشعبون من أولادهم وذريتهم، وقد تشعّب كثير من الأجناس من أولاد نوح ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمّ يَمسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وأمم ستنشأ من ذريتهم ليسوا على طريقتهم في الإيمان والعمل الصالح، سنمتعهم في الدنيا فينغمسون في شهواتها المحرمة وينصرفون عن هدى الله، ثم يصيبهم في الآخرة عذاب شديد الإيلام.

ثم اختتم الله قصة نوح عليه السلام مع قومه بقوله:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيها إلَيكَ﴾ أي تلك القصة عن نوح قصصناها عليك يا محمد عن طريق وحينا إليك وهي من أنباء الغيب الماضية ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبلِ هَذَا فَاصْبِرْ إنَّ العَاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ﴾ ما كنت تعلمها بهذه الصورة الصادقة ولا يعلم تفاصيلها قومك من قبل، فاصبر كما صبر نوح

على إعراض قومه عنه وإيذائهم له، إنّ العاقبة المحمودة بالظفر في الدنيا والفوز في الآخرة هي للمتقين الذين يتّقون ما حرَّم الله.

ولقد صدق الله وعده ونصر رسوله محمداً ﷺ على أعدائه كما نصر نوحاً من قبل، وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن وحي من الله وأن محمداً رسول الله حقاً.

هذه السورة نزلت بمكة وجاءت بهذه التفاصيل عن نبي الله نوح عليه السلام حيث لم يكن هناك أحبار ولا رهبان ولا ترجمة للتوراة إلى العربية ليتلقى محمد هذه الأحداث عن حياة نوح كما أن التوراة لم تذكر كل هذه الوقائع عن نوح. مع العلم أن محمداً ﷺ كان أميّاً لايقرأ ولا يكتب، كما كان قومه يجهلون هذه الحقائق عن نوح عليه السلام، وهذا ما أشار إليه القرآن من قبل ﴿**مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا**﴾.

فلو كان قوم محمد يعلمون قصة نوح ونقلها رسول الله عنهم لكذبه الكافرون وادعوا أن هذه القصة مشهورة بينهم ولكان لهم حجة قوية في القضاء على دعوته وتنفير الناس من حوله وهذا ما لم يحصل قط، لأن جلّ علمهم أنه كان في الزمن الغابر نبي يقال له نوح أصاب قومه طوفان فأغرقهم. كما نرى في قصة نوح دروساً إلَهية وعبراً اجتماعية أشرنا إليها مما يشهد بمصدرها الإلهي، بالإضافة إلى البلاغة القرآنية في سرد هذه القصة والتي عجز كل بلغاء الأرض عن مجاراتها والإتيان بمثلها.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى
ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن
قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ
قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا
ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ
بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

شرح المفردات

مفترون: كاذبون.

فطرني: خلقني وأبدعني.

يرسل السماء: ينزل المطر.

مدراراً: غزيراً متتابعاً.

ولا تتولوا مجرمين: ولا تنصرفوا عن الحق انصراف العتاة المستكبرين.

ببيّنة: بحجة ودليل قوي.

عن قولك: أي من أجل دعوتك.

بمؤمنين: بمصدقين.

اعتراك: أصابك.

فكيدوني: فاحتالوا للإضرار بي.

لا تُنظرون: لا تمهلوني بكيدكم.

آخذ بناصيتها: مالكها وقاهر لها، والناصية هي مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها.

صراط مستقيم: طريق الحق والصواب.

قصة قبيلة عاد

بعد أن بيّن الله ما حلّ بقوم نوح من هلاك أتبع ذلك بالكلام عن قوم (عاد) وهي قبيلة من العرب البائدة أي التي لم يعد لها وجود. وقد كانوا يسكنون الأحقاف بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر، وكانوا طغاة ممعنين في الكفر فأرسل الله إليهم رسوله (هوداً) عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ أي وأرسل الله إلى قبيلة عاد رسولاً من بينهم. وقد عبّرت الآية عن هود عليه السلام بأنه أخو عاد للإيذان بأنه أخوهم في النسب وأنه نشأ بينهم وعرفوا صدقه وحسن سلوكه، فهو لا يخدعهم ولا يدعوهم إلاّ إلى الحق ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال هود لقومه ناصحاً لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿إِنْ أَنْتُم إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ الافتراء هو الكذب، أي ما أنتم إلا كاذبون في اتخاذ الأصنام شركاء لله زاعمين أنها مستحقة للعبادة معه.

وتابع هود قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي يا قومي وأهلي لا أطلب منكم أجراً ومكافأة من مال وجاه على دعوتي إياكم لعبادة الله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذي فَطَرَني﴾ وإنما أجري على الله وحده الذي خلقني فهو الذي يكافئني على ذلك، قال لهم ذلك إبعاداً للتهمة عن نفسه من أنّ له غاية ومنفعة خاصة به في دعوتهم إلى عبادة الله. هذا وإنّ كل دعوة إلى الله مشوبة بالأطماع الدنيوية من الداعي، مصيرها الفشل ولا ثمرة تُرجى منها. وتابع هود قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، أي ألا تستعملون عقولكم فتميزون بين ما أدعوكم إليه من حق وما أنتم عليه من باطل؟

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ويا قومي سلوا ربكم أن يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، ثم ارجعوا إلى عبادته وحده وطاعته، والندم على ما كان من أفعالكم فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً﴾ والسماء المراد بها

السحاب فكل ما علاك سماء، أي ينزل الله عليكم المطر غزيراً متتابعاً. وقد كان قوم هود أصحاب زروع وبساتين ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ﴾ أي ويعطكم قوة مضافة إلى قوتكم وذلك بتوفير الأسباب المؤدية إلى ذلك، وقد اشتهروا ببناء الحصون والقصور، كما كانوا ضخام الأجسام وهذا ما وصفهم الله بقوله: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً...﴾ [الأعراف: ٧]. وتابع هود قوله: ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ولا تُعْرِضوا عما أدعوكم إليه مصرّين على آثامكم وما كنتم عليه من إجرام.

أجاب القوم رسول الله هوداً: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي ما جئتنا بحجة ولا برهان يقنعنا بصحة ما تقول ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا لمجرد قولك اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمصدّقين لك فيما تدعوننا إليه.

وتابع القوم قولهم لنبيهم هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسوءٍ﴾ أي وما نقول في شأن ما جئت به إلاّ أنك أصابك بعض آلهتنا بشرّ وخبل بسبب سبِّك إياها وذمك لها مما أفقدك عقلك وجعلك تهذي وتتكلم بالخرافات عن آلهتنا وتدعو إلى عبادة إلّه واحد﴿قَالَ إِنّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ.مِنْ دُونِهِ﴾ قال هود: إني أُشهد الله على براءتي مما تجعلونه من غير الله شريكاً له سبحانه، واشهدوا أنتم على براءتي من كل عبادة تعبدونها من غير الله. ثم تحداهم هود بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ أي فاحتالوا للإضرار بي وحاربوني جميعاً أنتم وآلهتكم جميعاً ﴿ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ ثم لا تمهلوني بل عجلوا بهلاكي والإضرار بي. هذا القول من هود يحمل كل الثقة بربه ويظهر عدم المبالاة بما يقوله قومه وبآلهتهم التي يعبدونها، كما يظهر مدى جرأته وعدم الخوف من أذاهم على الرغم من قوتهم وكثرتهم، وهذه سِمَةٌ من سمات أصحاب العقيدة الذين غمر الإيمان قلوبهم وسيطر حب الإصلاح على مشاعرهم، فلا وجل ولا رهبة من أنصار الباطل.

وسرّ هذه الجرأة من هود هو أنه متوكل على ربه حيث قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي إني فوّضت أمري واعتمدت عليه في دفع ضرّكم عني فهو مالك أمري وأمركم وهو ربي وربكم، وجدير بمن يعتمد على ربه ويفوّض أمره إليه أن يبدّل خوفه أمناً، وضعفه قوة. وتابع هود قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ والدابة: هي كل حي يدب على وجه الأرض ـ أي يتحرك عليها ـ فيدخل فيها الإنسان والحيوان.

والمعنى: ما من حيوان يدب على الأرض إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه وخاضع له، فالأخذ بناصية أيّ مخلوق حي عبارة عن قهره وغلبته، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصيته إلا بيد فلان أي هو مطيع له. والغرض من هذا الكلام الدلالة على عظمة قدرة الخالق وغلبة سلطانه ﴿إِنَّ ربِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إن ربي على طريق الحق والعدل، ولا يسلّط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ومَن تابعهم بالإيمان والهدى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

شرح المفردات

تولّوا: تُعرضوا، أصلها (تتولوا) حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

ويستخلف ربي قوماً غيركم: يجعلهم الله خلفاء لكم في دياركم.

حفيظ: رقيب مهيمن.

أمرنا: عذابنا الذي أمرنا به وهو الريح العاتية.

عذاب غليظ: عذاب شديد لا يحتمل.

جحدوا بآيات ربهم: أنكروها وكفروا بها.

جبّار: العاتي المتسلط المتكبر.

وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة: أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدنيا، ولعنة الله هي الطرد من رحمته.

بعداً: هلاكاً.

هلاك قوم هود

وتابع هود عليه السلام تحذيره لقومه من مغبة كفرهم فقال: **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُم﴾** أي فإن أعرضتم عمّا دعوتكم إليه من الإيمان بوحدانية الله وترك المعاصي فلا عُذر لكم، فقد أبلغتكم رسالة ربي إليكم **﴿وَيَسْتَخلِفُ رَبّي قَوْماً غَيْرَكُم﴾** جملة مستأنفة مراد بها إنذارهم بحلول الهلاك بهم، ثم استبدالهم بقوم آخرين يأتون من بعدهم يرثون أرضهم وأموالهم، يعبدون الله ويطيعونه في أمره ونهيه **﴿ولا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾** ولا تصيبونه بضرر قط بإعراضكم عما دعوتكم إليه وإنما تضرون أنفسكم **﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾** إن ربي رقيب على العباد ومهيمن عليهم فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو الذي يحفظني ومن معي من المؤمنين أن تنالوا منا بسوء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولمّا جاء أمر الله وقضاؤه بإهلاك قوم هود نجّى الله هُوداً والذين آمنوا معه من الهلاك والعذاب الذي حلّ بقومه بفضلٍ منه عليهم ورحمة بهم **﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** ونجاهم الله من عذاب شديد الغلظة عظيم الفتك بالكافرين وهذا العذاب أشار إليه القرآن في سورة الحاقة:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي تلك أمة عاد جحدوا بحجج الله الدالة على وحدانيته واستحقاقه وحده للعبادة وعصوا رسله، ولكنّ عاداً لم يعصوا إلاّ رسولاً واحداً وهو هود عليه السلام إذ لم يرسل الله لهم رسولاً سواه، ولكن عصيانه كعصيان جميع رسل الله لأنهم جميعاً يشتركون في وحدة الهدف وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وبالإضافة إلى ذلك فإنهم اتّبعوا أمر كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة وانقادوا إليهم انقياداً أعمى ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولحقت (بعاد) ولازمتهم اللعنة من الله في الدنيا ويوم القيامة، واللعنة من الله هي الطرد من رحمته.

دعوة للتحرر من سلطان الجبابرة يطلقها القرآن على أسماع المؤمنين في كل عصر من خلال قصة (عاد) ليتحرروا من سلطان كل حاكم ظالم، ومن كل معاند لا يرضخ للحق. وتعبير القرآن دقيق، فقد وصف الله المستبد الظالم بصفتين، الأولى: صفة (جبار) وهو المتكبر والمتعالي عن قبول الحق والإذعان له، وقيل: هو الذي يقتل ويضرب على الغضب. والصفة الثانية للمستبد الظالم أنه (عنيد) وهو الرافض للحق مع علمه به، والمباهي بما عنده من باطل.

فاتباع رغبات الجبابرة أمر ينافي الإيمان الصحيح، لقد هلكت عاد لأنها جحدت آيات ربها وعصت رسله واتبعت أمر كل جبار عنيد، مشيّعين باللعنة من الله في الدنيا والآخرة، وسيهلك كل من يسير على منوالهم.

وهنا أستدرك ما قاله علماء الإسلام في أمراء الظلم من أنه إن قُدِرَ على عزلهم من منصبهم بغير فتنة ولا ظلم وجب خلعهم، وإلا فالواجب الصبر لِما في ذلك من حقن الدماء ولجم عامّة الشعب من الوقوع في الفوضى وتدمير مرافق الأمة، هذا وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وَكَرِهَ إلاّ أن يُؤْمَرَ بمعصية».(١)

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ويختم الله قصة قبيلة عاد بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ألا فانتبهوا أنّ عاداً كفروا ربهم حيث عبدوا غيره وجحدوا نعمة الله عليهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ألا هلاكاً لعاد قوم هود، وبعداً لهم عن رحمة الله، والملفت للنظر تكرار حرف التنبيه (ألا) وإعادة لفظ (عاد) للمبالغة في تهويل حالهم والحث على الاعتبار بهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ
مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا
تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

شرح المفردات

واستعمركم فيها: جعلكم عُمّارها وسكانها.

مرجوًّا: موضع رجائنا وأملنا.

مريب: موجب للقلق وانتفاء الطمأنينة.

أرأيتم: أخبروني.

غير تخسير: غير أن تجعلوني خاسراً هالكاً.

قصة قبيلة ثمود

قبيلة ثمود هي من العرب البائدة أي التي هلكت ولم يبق منها أحد، وكانت مساكنهم في مناطق جبلية بالحِجْر وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى،

ولا يزال المكان الذي كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم رسوله صالحاً ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي وأرسل الله إلى قبيلة ثمود نبيًّا منهم وأخاً لهم في النسب يُسمى صالحاً مبلّغاً رسالة ربه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي يا أهلي ويا عشيرتي آمنوا بالله وحده وأفردوه بالعبادة، ليس لكم أي إلَه يستحق أن يُعبد سواه ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ هو خلقكم من الأرض لأن كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق من الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي أقدركم على عمارتها واستثمارها وبناء ما تسكنون فيها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فاطلبوا من الله المغفرة لما سلف من ذنوبكم مع التوبة إليه، والتوبة إلى الله هي الرجوع إليه بالطاعة، والندم على ما فات من الذنوب والعزم على عدم العودة إلى معصيته ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ إن ربي الذي أدعوكم إلى عبادته قريب بعفوه وإحسانه لمن تاب من الشرك والخطايا، مجيب له إذا دعاه.

أجاب القوم نبيهم صالحاً على وعظه لهم: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي قالوا: يا صالح قد كنت بيننا موضع الرجاء والمحبة والتقدير، وكنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل أن تقول هذا القول ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أتنهانا يا صالح أن نعبد الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا؟ لقد كانت عبادتهم لآلهتهم تقليداً لآبائهم، وهذا هو شأن كثير من أتباع الديانات في العالم اليوم ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإننا نرتاب في صحة ما تدعونا إليه يا صالح من عبادة الله وحده، وهذا الأمر مثير للقلق وموجب للتهمة.

والشك: أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات، والمريب: هو الذي يُظن به السوء. ولكن صالحاً لم ييأس بل أجابهم بأسلوب حكيم:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي يا قومي أخبروني إن كنْتُ على حجة ظاهرة، وبرهان واضح من ربي الذي هو مالكي ومتولي أمري ﴿وَآتَانِي مِنْهُ

﴿رَحْمَةً﴾ وأعطاني من عنده النبوة التي هي رحمة لي ولكم ﴿فَمَن يَنصُرُني مِنَ اللَّهِ إن عَصَيْتُهُ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله وينجيني من عقابه إن أطعتكم وعصيته ولم أبلّغكم رسالته ﴿فَمَا تَزِيدُونَني غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي فما تفيدونني بموافقتكم واتباعكم إلا ضلالاً وإبعاداً عن الخير، كما تجعلونني خاسراً بإبطال أعمالي، وتعريضي لسخط الله.

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

شرح المفردات

آية: معجزة دالة على صدق نبوته.

فذروها: فدعوها واتركوها.

فعقروها: فذبحوها.

تمتعوا في داركم: أقيموا في بلدكم منتفعين بأرزاقكم وبكل ما يسركم.

من خزي: من الفضيحة والذلة.

الصيحة: الصوت المرتفع الشديد.

جاثمين: هامدين ميتين لا يتحركون.

كأن لم يغنوا فيها: كأن لم يقيموا في ديارهم أصلاً وهم في رخاء من عيشهم.

ألا بُعداً لثمود: أي هلاكاً لهم وبعداً لهم عن رحمة الله.

هلاك قبيلة ثمود

ويظهر أن قوم ثمود طلبوا من النبي صالح معجزة تدل على صدق نبوته فأيده الله بناقة خُلِقَت على غير المعتاد وظهرت بينهم بخصائص معينة، فخاطب صالح قومه عندئذ:

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي هذه ناقة عظيمة الشأن شرّفها الله بنسبتها إليه وجعلها معجزة عظيمة تستدلّون بها على قدرة الله، وعلى صدقي في ما أبلِّغكم به عن ربي.

ويروى عن هذه الناقة أنها خرجت من صخرة بقدرة الله سبحانه من غير ولادة وأنها كانت لها مميزات كثيرة ولا تشبه بقية الإبل، كما أنه قد كان لها يوم تشرب فيه وحدها من الماء الموجود لديهم، والقوم جميعاً يشربون في يوم آخر كما جاء في القرآن ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وبعد ظهور الناقة طلب صالح من قومه: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي فاتركوها تأكل من أرض الله الواسعة بما فيها من المراعي ولا يتعرض لها أحد بمنع ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُم عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ولا تصيبوها بأدنى سوء فيأخذكم عذاب عاجل فيهلككم.

ولكنّ قوم ثمود خالفوا ما أمرهم به نبيهم صالح: ﴿فَعقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُم ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي فنحروا الناقة، وعند فعلهم هذا قال لهم صالح بما أوحى الله إليه: عيشوا في بلدكم هذا متمتعين بما تحبون فيه من مأكل ومشرب وغير ذلك لمدة ثلاثة أيام فهي آخر ما تبقّى لكم من متاع الدنيا ثم يأتيكم بعد ذلك عذاب عاجل ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ذلك وعد الله الحق الذي لا خُلْفَ ولا إخلال بالوعد فيه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذين آمنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي فلما جاء أمر الله بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد نجى الله نبيه صالحاً ومن آمن معه من الهلاك برحمة وفضل منه سبحانه ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ونجاهم الله من ذل العذاب المهين الذي نزل بكفار ثمود في ذلك اليوم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ﴾

إن ربك يا محمد الذي يرعاك هو القوي في بطشه الذي لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب .

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وأصاب كفّار ثمود بفعلهم هذا صيحة قوية من السماء زلزلت الأرض بهم فأصبحوا هامدين صرعى لا حراك بهم ﴿كَأَن لَم يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لم يقيموا في ديارهم ولم يعيشوا فيها من قبل في رخاء ﴿أَلا إِنَّ ثَموداْ كَفَرُوا رَبَّهُم﴾ ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود كفروا بنعمة ربهم وجحدوها وخالفوا أمره فاستحقوا عذاب ربهم ﴿أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ ألا بُعداً لثمود عن رحمة الله وهلاكاً لهم. وفي تكرار حرف التنبيه (ألا) وتكرار لفظ (ثمود) تأكيد لطردهم من رحمة الله في الدنيا والآخرة، والاعتبار بما حلّ بهم .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح المفردات

رسلنا : رسل الله هنا كانوا ملائكة بصورة بشر .

بعجل حنيذ : أي بعجل مشوي على الحجارة المُحْماة .

نكرهم : أنكرهم ونفر منهم .

أوجس منهم خيفة: أضمر من جهتهم خوفاً وفزعاً.

بعلي: زوجي.

يا ويلتى: كلمة تعجب.

حميد: من أسماء الله تعالى وهو المستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده.

مجيد: من أسماء الله تعالى أي كثير الخير والإحسان أو ذو الشرف والكرم.

الروع: الخوف والفزع.

أواه: كثير التأوه من خوف الله، المتضرع في الدعاء.

منيب: راجع إلى الله تعالى.

قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة

ويتابع القرآن فيذكر لقاء إبراهيم مع الملائكة وما يحملونه من البشارة: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى**﴾ أي ولقد جاءت رسل الله من الملائكة إلى إبراهيم يبشرونه بما يسره بعد يأس من حصول ولد له. وقد جاءوا بصورة غلمان حسان الوجوه، وقد اختلفت الروايات في عددهم فقيل إنهم ثلاثة، وقيل عددهم أكثر من ذلك ﴿**قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ**﴾ أي قالوا لإبراهيم نسلّم عليك سلاماً فأجابهم عليكم سلام ﴿**فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**﴾ أي فما أبطأ إبراهيم وما تأخر عن إكرامهم، بل أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ، أي مشوي بالحجارة المحماة ليأكلوا منه وهو لا يدري أنهم من صنف الملائكة بل اعتقد أنهم من البشر ﴿**فَلَمَّا رَأَى أَيدِيَهُم لا تَصِلُ إِلَيْهِ**﴾ أي فلما رأى إبراهيم أيدي ضيوفه لا تمتد إلى العجل ليأكلوا منه ﴿**نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُم خِيفَةً**﴾ شعر إبراهيم بالوحشة ونفر منهم وأحس في نفسه الفزع والخوف، لأن العادة عندهم أن الضيف إذا نزل بقوم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء يريد بهم شراً، فإذا أكل أمنوا له ﴿**قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ**﴾ أي فلما رأى الملائكة أمارات الخوف والجزع بادية على وجه إبراهيم كشفوا له عن حقيقتهم وأنهم من صنف الملائكة لا يأكلون، وأخبروه بأن الله أرسلهم إلى قوم لوط لإهلاكهم جزاء اقترافهم فاحشة ما سبقهم إلى فعلها أحد من العالمين وهي: فاحشة اللواط.

﴿وَامْـرَأَتُـهُ قَائِـمَـةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وكانت امرأة إبراهيم واقفة لخدمة ضيوفها فسمعت ما جرى بينهم فضحكت فرحاً وسروراً لزوال الخوف عن زوجها ودخول الطمأنينة إلى قلبه، ولقرب عذاب قوم لوط لكراهتها سيرتهم الخبيثة ﴿فبشَّرْنَـاهَـا بإسحٰق ومِن وَرَاءِ اسْحٰقَ يَـعْـقُوبَ﴾ ثم بشرها الله على ألسنة ملائكته بأنها ستلد من زوجها إبراهيم ولداً يسمى إسحٰق الذي سينجب ولداً حفيداً لها يسمى يعقوب، وإسحق ويعقوب خصهما الله بالنبوة وقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وقد وجهت البشارة إليها لبيان أن الولد سيكون من صلبها فلو كانت البشارة لإبراهيم فلربما ظنت زوجته أن الولد سيكون من زوجة أخرى لأنها كانت عقيماً.

﴿قَالَتْ يَـا وَيْلَـتَى أَأَلِـدُ وَأَنَـا عَجُوزٌ وَهَذَا بَـعْلِي شيْخاً﴾ أي قالت سارة امرأة إبراهيم بعد هذه البشرى: يا ويلتا، كلمة أرادت بها التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك، لقد قالت: أألد ولداً وأنا عجوز وقد صار زوجي شيخاً كبير السن؟

وقد ذكر المفسرون أن إسْحٰق وُلِدَ ولأبيه إبراهيم من العمر مائة سنة، وكان عمر أمه ساره حين بُشِّرت به تسعين سنة، وقيل تسعاً وتسعين سنة. وتابعت سارة قولها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ﴾ أي إن هذا الذي أسمعه لشيء عجيب لم تجر العادة لمن كان مثلنا في العمر أن ينجب أولاداً.

﴿قَالُوا أَتَـعْـجَبِينَ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ﴾ أي قالت الملائكة: أتستبعدين على قدرة الله بأن يرزقك ولداً في هذا العمر المتأخر، إنه ليس هناك أمر عجيب على قدرة الله ﴿رَحْمَـةُ اللَّهِ وَبَـرَكَاتُـهُ عَلَـيْـكُم أَهْلَ الـبَـيْتِ﴾ تلك رحمة الله ونعمه عليكم يا أهل بيت النبوة التي وسعتكم بكل خيراتها ﴿إِنَّـه حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ إن الله مستحق الحمد لذاته كثير الخير والإحسان إلى عباده متصف بأعظم صفات المجد والشرف والكرم.

﴿فَـلَـمَّـا ذَهَـبَ عَـن إبْـراهِيمَ الـرَّوْعُ﴾ فلما زال الخوف عن إبراهيم حين عرف

أن ضيوفه ملائكة ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ وسمع البشارة السارة بأنه سيرزق ولداً ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي أخذ يحاور رسل الله في شأن قوم لوط وكيفية عقابهم ومصير ابن أخيه لوط، وإبراهيم لا يجادل ربه وإنما يسأله ويطلب إليه، وأضاف الله سبحانه المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط كان بأمره، وقيل المراد بالمجادلة هنا «دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم»(١) والمراد بالمجادلة ما ورد في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(٢) [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢].

ثم وصف الله إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ أي كان إبراهيم صبوراً على الأذى صفوحاً عن الجناية يقابلها بالإحسان والعطف كما أنه (أَوَّاهٌ) أي كثير التأوه من خوف الله، المتضرع إليه في الدعاء، وأصل التأوه قوله (آه) وهو أيضاً (منيب) أي كثير الرجوع إلى الله بالدعاء والاستغفار والعبادة.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي قالت الملائكة: يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط وفي طلب إمهال عقوبتهم فقد جاء أمر ربك بإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وأنه نازل بهم عذاب غير مصروف عنهم لا يرده عنهم دعاء ولا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة.

---

(١) عن تفسير التنوير والتحوير للطاهر بن عاشور.

(٢) الغابرين: الباقين في العذاب.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧
وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ
بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ
رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ
لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ
فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا
عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ﴾

شرح المفردات

سيء بهم: ساءه مجيئهم خوفاً عليهم.

ضاق بهم ذرعاً: ضاق صدره بمجيئهم ولم يجد من ذلك المكروه خلاصاً.

يوم عصيب: يوم شديد شره، عظيم بلاؤه.

يهرعون: يسرعون ويتدافعون للوصول إلى بيت لوط.

ولا تخزونِ في ضيفي: ولا تفضحوني وتذلّوني في أضيافي.

رجل رشيد: رجل سديد الرأي.

آوي إلى ركن شديد: ألجأ وأنضوي إلى عشيرة قوية تمنعني منكم.

فـأَسْرِ بأهلك: فسر ليلاً بأهلك.

بقطع من الليل: بجزء من الليل.

سجّيل: حجر وطين مختلط.

منضود: متتابع في النزول بعضه فوق بعض.

مسوّمة عند ربك: معلّمة بعلامات من عند ربك ومعدّة لإهلاك القوم الظالمين.

قصة لوط مع الملائكة وهلاك قومه

ترك الملائكة إبراهيم عليه السلام وتوجهوا إلى قرية سدوم وحلّوا ضيوفاً على لوط، وفي الآيات التالية يحكي لنا القرآن ما جرى من أحداث عندما علم قوم لوط بمجيء ضيوف حسان عنده:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ولما جاء رسل الله من الملائكة إلى بيت لوط وحلوا ضيوفاً عنده ساءه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِم ذَرْعاً﴾ أي ضاق بهم صدره وضعفت طاقته عن احتمال وجودهم عنده ولم يجد خلاصاً من المكروه الذي حلّ به لأنهم جاءوه في صورة شباب من البشر، حسان الوجوه، فخشي من اعتداء قومه على ضيوفه بفعل فاحشة اللواط التي كانت شائعة بينهم ﴿وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وقال لوط في نفسه: هذا يوم شديد هوله، عظيم كربه.

ثم يصف القرآن ما جرى لقوم لوط عندما علموا بمجيء هؤلاء الضيوف:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي وجاء القوم المجرمون إلى بيت لوط مسرعين تدفعهم الشهوة الجامحة الشاذة في ضيوفه ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي ومن قبل مجيء هؤلاء الضيوف إلى بيت لوط كانوا يرتكبون السيئات الكثيرة التي من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء.

وبعدما رأى لوط من قومه ما رأى من تدافعهم نحو ضيوفه، عرض عليهم عرضاً كريماً بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوم هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ[١] لَكُم﴾ والمراد ببناته نساء القرية اللاتي يصلحن للزواج، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة

---

(١) تأمل كيف بيّن القرآن أن إتيان النساء أطهر لأن الاتصالات الجنسية غير الطبيعية عن طريق اللواط تسبب الإصابة بالتلوث بالجراثيم المَرَضية. ولفظ (أطهر) جاء ذكره في القرآن في معرض التطهر من الجراثيم في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]. والماء كما هو معروف من أدوات التطهر من الجراثيم.

وحسن التوجيه، والتزوج بهن هو أطهر وأشرف لهم. ومن العلماء من يرى أن المراد بناته هنا: بناته من صلبه وأنه عَرَضَ عليهم الزواج بهن عرض مجاملة. والرأي الأول أرجح لأن لوطاً كان له بنتان أو ثلاثة، وعدد الذين جاءوا إلى بيته كثير فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاث للزواج؟ وتابع لوط قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي خافوا الله وصونوا أنفسكم من عقابه ولا تفضحوني وتهينوني بالاعتداء على ضيوفي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أليس منكم رجل سديد الرأي رشيد العقل يفهم ما أنهاكم عنه ويرى فيه الصواب من الخطأ فيرعوي عما أنهاكم عنه؟

لم تؤثر كلمة لوط عليه السلام في قومه ولم تردعهم عن غيهم بل أجابوه: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي لقد علمت يا لوط أنه لا رغبة لنا في النساء ولا مطمع لنا فيهن عن طريق الزواج ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وإنك لتعلم أننا نرغب بإتيان الرجال الذين نزلوا ضيوفاً عندك.

فردّ عليهم لوط بقوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو أن لي قوة تقف في وجهكم ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1] أو ألجأ إلى عشيرة أتقوّى بها عليكم وجواب (لو) محذوف تقديره: لردعتكم عن غيكم، وصنت ضيوفي من الاعتداء عليكم.

وبعد هذا الكرب العظيم ألذي ألمّ بلوط كشف الملائكة عن حقيقة حالهم وقالوا: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي إننا ملائكة أرسلنا الله لإهلاك قومك وتطهير الأرض من دنسهم، فلن يصل إليك هؤلاء المجرمون بضرر في نفسك ولا في ضيوفك ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي فاخرج مصحوباً بالمؤمنين من أهلك متخفياً بسواد الليل أو بظلمة من الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي ولا يلتفت أحد منكم خلفه لكي لا يرى هول العذاب النازل بهؤلاء الأشرار

---

(١) وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ قال: «رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يريد أن الله ناصره ومؤيده فهو ركنه الشديد.

فيصاب بسوء، سواء في نظره، أو بما يصيبه من شدة الهلع والخوف ﴿إلاّ امرأتك إنّه مُصيبُها ما أصابَهُمْ﴾ أي لكن امرأتك يا لوط التي خانتك لن تكون من الخارجين معك لأنه لا بد أن يصيبها من العذاب ما قدّر أن يصيب هؤلاء ﴿إنّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي أسرع بالسير بأهلك كي تبتعد عن مواقع العذاب الذي تحدد الصبح وقتاً لنزوله ﴿ألَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أليس الصبح موعداً قريباً[١] لهلاكهم؟ فموعد عذابهم يبتدىء من طلوع الفجر وينتهي مع شروق الشمس، وقد جاء في القرآن في شأن قوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]. وكان الصبح وقتاً لهلاكهم لأنه وقت الراحة والهدوء فيكون نزول العذاب بهم أشد وقعاً.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي فلما جاء أمر الله وقضاؤه بنزول العذاب بقوم لوط جعل الله عالي قرى قوم لوط سافلها وقلَبها على هذه الهيئة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ أي وأنزل الله عليها حجارة كالمطر، والسجيل هو الطين المتحجر، وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة، ومعنى منضود: أي متتابع بعضه فوق بعض.

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي لها علامة خاصة عند ربك لا تصيب غير هؤلاء القوم، ومعدّة إعداداً خاصاً لإهلاكهم ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر وبالشكل الذي أصابت القوم ببعيدة عن غيرهم، بل ستصيب كل ظالم يفعل فعلهم.

وما يصيب العالم من ويلات وكوارث لهو جزاء لمن يخرج عن طاعة الله وينغمس في الفواحش والمنكرات.

---

(١) حين قالت الملائكة: موعد هلاكهم الصبح استبطأ لوط ذلك وقال لهم: بل عجّلوا لهم الهلاك، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ
بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ
أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

شرح المفردات

المكيال: وعاء محدد يقاس به السوائل أو الحبوب عند الشراء والبيع.

عذاب يوم محيط: عذاب يوم يحيط بكم ويهلككم.

بالقسط: بالعدل.

ولا تبخسوا: ولا تنقصوا.

ولا تعثوا في الأرض: ولا تنشروا الفساد في الأرض.

بقية الله خير لكم: أي ما يبقيه الله لكم من الرزق الحلال بعد إيفاء حقوق الناس أكثر بركة.

شعيب يعظ قومه

شعيب هو أحد أربعة أنبياء عرب وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام. وقد روي عن شعيب أنه كان خطيب الأنبياء لفصاحته وقوة حجته.

وقوم شعيب هم أهل مدين وهي قرية تقع في أرض معان بين حدود الحجاز والشام، وهم عرب ينتسبون إلى مدْين بن إبراهيم عليه السلام.

وكان أهل مدْين لا يؤمنون بالله ويعبدون الأصنام، وكانوا أسوأ الناس معاملة ينقصون الكيل والميزان إذا باعوا، فبعث الله فيهم رسولاً منه إليهم وهو شعيب عليه السلام قال تعالى:

﴿وإلَى مَدْيَن أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من قصة صالح، أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب وهو شعيب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اُعْبُدوا اللّهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ناداهم متحبباً إليهم بقوله: يا قومي، أي يا عشيرتي: اعبدوا الله وحده ليس لكم إلَه غيره فهو الذي خلقكم وهو الذي يرزقكم ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الشراء ولا عند البيع، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ﴿إنِّي أَراكُم بِخَيْرٍ﴾ إني أراكم في سعة من الرزق ونِعَم من الله فيجب أن تقابلوا هذه النعم بإعطاء الناس حقهم لا أن تسلبوهم بعض أموالهم دون حق وتفسدوا في الأرض ﴿وَإنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْم مُحيطٍ﴾ وإني أشفق عليكم وأخشى أن يحل بكم عذاب يوم يحيط بكم فيهلككم جميعاً، هذا في الدنيا، كما يكون العذاب في الآخرة حيث يقول سبحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالميزانَ بِالقِسْطِ﴾ كرر شعيب نداءه لهم بإيفاء الكيل والميزان للتأكيد عليهم بعدم الغش وقيده (بالقسط) أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ فالبخس هو الظلم وأن ينقص الإنسان من حق غيره عليه كما يبخس الكيال مكياله فينقصه، والأشياء هنا تشمل الأنواع الحسية من معاملات الناس كافة التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان أو أكل أموال الناس بالباطل والخداع، كما يشمل البخس الأشياء المعنوية من عدم احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطياتهم الخيرة وتضحياتهم للمجتمع ﴿وَلا تَعْثَوْا في الأَرْض مُفْسِدِينَ﴾ والعُثُوّ في اللغة أشد الفساد والمراد النهي عن كل أنواع الفساد في الأرض ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾ أي ما يبقيه الله لكم من المال الحلال بعد إيفاء حقوق الناس بالعدل هو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه من الحرام بشرط أن تؤمنوا بالله وتتبعوا ما أرسلني الله به ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وما أنا عليكم برقيب فأجازيكم بأعمالكم.

ولكن القوم المفسدين قالوا لشعيب على سبيل الإنكار:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي هل صلاتك يا شعيب هي التي تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام، قالوا له ذلك لأنه كان كثير الصلاة ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أو تأمرك أن نترك ما تعودنا فعله في أموالنا من التطفيف في الكيل والميزان. هذا الجواب منهم هو شأن المتكبرين الذين يرفضون اتباع الحق ولا يجدون حجة لتبرير سلوكهم السيىء سوى التمسك بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم. ثم قالوا لشعيب على سبيل السخرية والاستهزاء: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي إنك ذلك الرجل المشهور بيننا بالحلم والعقل والتروي وسداد الرأي، فما تأمرنا يدل على عكس ذلك من الجهالة والسفه والعجلة في الأحكام.

لقد لاحظ قوم شعيب تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه كيف أنها غيرت أوضاعهم وأدت بهم إلى التحرر من عبادة غير الله وترك الغش في معاملاتهم فكان أن تهكموا عليه بهذا القول. والحقيقة أن الصلاة تغير الأنفس لأنها تهدف إلى عبادة الله وحده وصنع ضمير نقي في الإنسان فتحرك فيه مشاعر التقوى ومحاسبة النفس وتذكّره دائماً بيوم الحساب، كما أنها تعصم من الخطايا وتنهى عن الفحشاء والمنكر بما تشعرهم بأن الله رقيب عليهم.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ
أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ
وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن
يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ
مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ
وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾

شرح المفردات

أرأيتم: أخبروني.

بينة: البينة هي الحجة الواضحة وما يتبين به الحق من الباطل.

وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه: وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعله.

لا يَجْرِمنَّكُم: لا يُكسبنكم. أصل الفعل جرم أي كسب والنون للتوكيد.

شقاقي: والشقاق، مصدر شاقّه إذا عاداه.

ودود: من أفعال المبالغة أي كثير الود للمؤمنين.

شعيب يحذّر قومه من غضب الله

وبعد هذا الرفض الذي لاقاه شعيب من قومه شرع يبين لهم الغاية من نصحه إياهم ممهداً بذلك إلى إنذارهم بما سيصيبهم من عذاب:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي﴾ قال شعيب: يا قومي وعشيرتي أخبروني إن كنت على حجة واضحة منحني إياها ربي أميز بها الهدى من الضلال ﴿وَرَزَقَني مِنْه رِزْقاً حَسَناً﴾ وأعطاني ربي الخير من النبوة والحكمة والمال الحلال الوفير ﴿وَمَا أُرِيدُ أن أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ ولا أريد أن أفعل ما نهيتكم عنه بأن آمركم بشيء ثم لا أفعله، أو أنهاكم عنه ثم أفعله.

فما جرى على لسان شعيب بأن قوله يطابق فعله هو درس للوعاظ والمصلحين للنجاح في مهمتهم، إذ مهما صدر منهم من خطب ووعظ وإرشادات فلن يكون لها الأثر في نفوس مستمعيها إذا لم يكونوا هم أول العاملين بمضمونها، وعلى هذا المنهج السديد سار شعيب فكان لا ينطق بموعظة إلا وكان سلوكه يماثل قوله، لأن سلوك الإنسان هو المعيار الصحيح لصدقه أو كذبه أو نفاقه.

ورغبة شعيب في الإصلاح هي رغبة خالصة لوجه الله، بعيدة عن أي غرض مادي أو منفعة ذاتية وهذا ما أعلنه لقومه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي وما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ما دمت أستطيع ذلك وأقدر عليه. فالإصلاح المجرد من أي غرض هو الذي يكتب له في النهاية النجاح والفوز لأن ذلك هو رسالة الحق، والحق دائماً هو المنتصر لأنه صادر عن الله سبحانه. ثم تابع شعيب قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاّ بِاللَّه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي وما توفيقي في إصابة الحق ودعوتكم إلى الخير ونهيكم عن الشر إلا بمعونة الله وتأييده، عليه وحده أعتمد في كل شؤوني، وإليه وحده أرجع في كل أموري.

﴿ويَا قومِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا تحملنكم، أو تكسبنكم، عداوتي على التمادي في عصياني ومحاربتي والإصرار على الكفر بالله ﴿أَن يُصِيبَكم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أو قَوْمَ هُودٍ أو قَوْم صَالِحٍ﴾ أن يصيبكم العذاب كما أصاب قوم نوح بالغرق، وقوم هود أصابتهم الريح المدمرة المهلكة، وقوم صالح أصابتهم الصيحة فأهلكتهم ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُم بِبَعِيدٍ﴾ وديار قوم لوط قريبة من دياركم، والزمن الذي أهلك فيه قوم لوط ليس ببعيد عنكم، فاتعظوا يا قومي بما أصاب قوم لوط من عذاب وهلاك حيث جعل الله أعلى مساكنهم أسفلها.

ثم فتح شعيب لقومه باب الرجاء في رحمة الله حيث قال لهم: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثم تُوبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبّي رَحيمٌ وَدُودٌ﴾ أي اطلبوا المغفرة من ربكم لما صدر منكم من ذنوب، ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة والندم على ما اقترفتم من ذنوب إن ربي واسع الرحمة، كثير المحبة لمن تاب إليه، ورجع عن ذنوبه وأطاعه في أمره ونهيه.

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا
رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ
ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ
وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا
شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي
دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ
ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

شرح المفردات

ما نفقه: ما نفهم.

رهطك: جماعتك وعشيرتك.

لرجمناك: لقتلناك رمياً بالحجارة.

بعزيز: بصاحب قوة ومنعة.

واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم غير ملتفتين إليه.

محيط: عالم بكل شيء.

اعملوا على مكانتكم: اعملوا على غاية تمكّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم.

ارتقبوا: انتظروا العاقبة والمآل.

جاثمين: هامدين ميتين لا يتحركون.

كأن لم يغنوا فيها: كأن لم يقيموا فيها طويلاً في رغد.

بعداً: هلاكاً لهم.

هلاك الكافرين من قوم شعيب

وبعد أن وعظ شعيب قومه بما فيه خيرهم قابلوا وعظه بالإعراض فقالوا له:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ ما نفقه: أي ما نفهم. ليس المراد من قولهم هذا عدم فهمهم كثيراً مما يقوله شعيب، ولكنهم قصدوا الاستهانة به ورفض ما يلقيه على أسماعهم من حجج واضحة تدل على صحة نبوته وفساد سلوكهم، هذا مع العلم بأن شعيباً كان فصيح الكلام وكان يلقّب بخطيب الأنبياء.

وتابع القوم قولهم لشعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي وأنت في نظرنا يا شعيب ضعيف بيننا ولا قدرة لك على مقاومتنا، ولولا مجاملتنا لعشيرتك وأهلك الذين هم على ملتنا لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ولست بيننا قويًّا منيعاً، ولا تستطيع أن تدفع ما نريده بك من أذى إن أردنا ذلك، أو تحول بيننا وبين قتلك.

فقال شعيب ردًّا على هذا التهديد والوعيد: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللَّهِ﴾ هنا استفهام إنكاري، والمعنى: أعشيرتي أعزّ وأكرم عليكم من الله الذي أدعوكم إلى عبادته وطاعته ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُم ظِهْرِيًّا﴾ أي وجعلتم أوامر الله ونواهيه شيئاً منبوذاً وراء ظهوركم لعدم الاعتداد بها بسبب كفركم وطغيانكم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إن ربي محيط علمه بجميع أعمالكم وسيجازيكم عليها.

وتابع شعيب قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ إني عامل على طريقتي في ما أمرني الله به ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي سوف تعلمون عن قريب من منا سيصيبه عذاب من الله يذلّه ويهينه ومن هو كاذب ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُم رَقِيبٌ﴾ وانتظروا عاقبة تكذيبكم إياي إني معكم منتظر ما سيفعله الله بكم، وفي هذا القول إظهار لثقة شعيب بربه واليقين بنصرته له.

لم يتأخر وقوع العذاب بقوم شعيب بل جاء سريعاً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ

أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعيباً وَالَّذِين آمنوا مَعَهُ برَحْمة مِنّا﴾ أي وحين جاء أمر الله بعذابهم وهلاكهم نجى الله النبي شعيباً والذين آمنوا معه من الهلاك الذي حل بقومهم برحمة منه بهم **﴿وأخَذَتِ الّذين ظَلَمُوا الصَّيْحَة﴾** وعوقب هؤلاء الظالمون بالصيحة المُهْلِكة حيث صاح بهم الملك جبريل صيحة شديدة **﴿فَأَصْبَحُوا في دِيَارِهم جَاثِمِينَ﴾** فأصبحوا من شدتها وتأثيرها صرعى في مساكنهم، لا حراك بهم **﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾** كأن هؤلاء لم يقيموا في تلك الديار من قبل ذلك ويعيشوا فيها برخاء وأمان **﴿ألا بُعداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدت ثَمُودُ﴾** ألا هلاكاً لمدين وبُعداً لهم من رحمة الله كما هلكت من قبلهم ثمود، وقد شبه الله هلاك مدين بهلاك ثمود لأن هلاك كليهما كان بالصيحة.

وهكذا نزل العذاب بقوم شعيب وحل بهم الهلاك بسبب نقصهم الكيل والميزان وبخسهم الناس أشياءهم، وبسبب أنهم كانوا من المفسدين في الأرض، وسيحل الهلاك بكل قوم يفعلون فعلهم، وسُنَّة الله في خلقه لا تتغير.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

شرح المفردات

بآياتنا: بمعجزاتنا.

سلطان مبين: حجة بليغة على صدق نبوته.

برشيد: بسديد الرأي.

يَقْدُمُ قومه: يتقدمهم ويقودهم إلى النار.

بئس الورد المورود: ساء المدخل المدخول فيه وهو النار.

بئس الرفد المرفود: أي ساء العطاء المعطى لهم وهو اللعنة المضاعفة.

مصير فرعون في الآخرة

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام على موسى وفرعون بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ[1] مُبِينٍ﴾ أي ولقد أرسل الله موسى بالشرائع الإلهية وأيده بالمعجزات الباهرة والحجج الظاهرة.

والمعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام هي: العصا التي انقلبت إلى ثعبان، واليد البيضاء، والسنون العجاف، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أرسل الله موسى إلى فرعون وأشراف قومه وأتباعه، وخصّهم القرآن بالذكر لأنهم كانوا يعاونون فرعون على فساده في الأرض، كما أنهم انقادوا لأمر فرعون وأطاعوه في تكذيب موسى ورفض ما جاءهم به من عند الله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وما أمرَ فرعون قومه به من إنكار وحدانية الله وتكذيب موسى ليس بالرأي السديد. وتكرار لفظ فرعون للتشهير به وذمه.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يتقدم قومه يوم القيامة فيتبعونه كما كانوا يتبعونه في الدنيا فيدخل جهنم ويدخلهم معه فيها ليعذّبوا بنارها، وأصل الوِرد لغة: الماء الذي يرده الناس، أي يقصدونه لإرواء عطشهم، بينما النار تحرقهم وتذيقهم أشد العذاب. وشتان بين النار التي تحرق والماء الذي يروي العطش ولذا عقّب القرآن على ذلك بقوله: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وبئس: كلمة ذم أي بئس الدخول الذي يدخلونه في نار جهنم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أُلحقت بهم لعنة الله وجُعلت تابعة لهم في هذه الدنيا ويوم القيامة، واللعنة من الله هي الطرد من رحمته ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ

(١) سلطان: سميت الحجة سلطاناً لأن بها قهر الخصم كما أن السلطان يقهر غيره.

المرْفُودُ﴾ والرفد هو العطاء، أي بئس العطاء المعطى لهم وهو الطرد من رحمة الله، وسمّيت اللعنة رفداً على سبيل التهكم بهم لأن العطاء يكون لشيء يُنتفع به أمّا ما يعطى لهم فهو العذاب الأليم في نار جهنم.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ
رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾
وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ
فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

شرح المفردات

قائم: أي باقية آثارها بعد هلاك الظالمين.

حصيد: خراب انمحى أثره كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه.

فما أغنت: فما نفعت.

غير تتبيب: غير تخسير وإهلاك.

أخْذُ: الأخذ هو العقاب المباغت السريع.

أخذ القرى: عاقبها وأهلكها.

مشهود: يشهده الخلائق جميعاً.

لأجل معدود: لانقضاء مدة قليلة قضاها الله حسب حكمته.

زفير: هو الهواء الخارج من الصدر عبر الفم من شدة الحزن.

شهيق: هو الهواء الداخل إلى الصدر عبر الأنف من شدة كربهم.

غير مجذوذ: غير مقطوع عنهم.

التحذير من الظلم وعواقبه الوخيمة

بعد أن ذكر الله في هذه السورة ما حل بقوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط وشعيب وفرعون وقومه من عذاب وهلاك بسبب كفرهم وظلمهم عقّب القرآن على ذلك بقوله:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّه عَلَيْكَ﴾ أي ذلك الذي مر ذكره هو جزء من أخبار القرى التي أهلكناها نقصّه عليك يا محمد عبرة وعظة لمن يتعظ **﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾** أي من هذه القرى التي أهلكها الله ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها كآثار قوم ثمود، كما أن من هذه القرى التي حل بها العذاب ما اندثرت آثارها وزالت، وقد شبهها الله بالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه من أصوله كديار قوم نوح وعاد.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم﴾ أي وما ظلم الله أهل هذه القرى المهلكة ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وعبادة الأصنام والإفساد في الأرض واقتراف المعاصي **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُم آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من شيء﴾** فما نفعتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من غير الله ولا دفعت عذاب الله عنهم **﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** أي حين جاء قضاء الله بإهلاكهم **﴿وَمَا زَادُوهم غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾** أي وما زادتهم تلك الآلهة غير خسران وتدمير وإهلاك.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي ومثل ذلك العقاب الذي مرّ ذكره يهلك الله أهل القرى في حال تلبُّسها بالظلم **﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** إن عقاب

الله للأمم الظالمة شديد الإيلام. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته[١] ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى... الآية﴾ فالنبي ﷺ يقول إن الله يؤخر عقوبة الظالم ويمهله ليزداد إثماً حتى إذا أخذه الله بالعذاب لا يخلصه من الله شيء.

وأصل الظلم الجوْر ومجاوزة الحد والتعدي على حدود الله جاء، في القرآن: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحدود الله هي أحكامه وشرائعه، وتعدّيها مجاوزتها ومخالفتها، كما أن من الظلم العظيم الكفر بالله والشرك به. جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

كما يشمل الظلم الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة فإذا اعتدى أحد على غيره في نفسه أو ماله أو عرضه أو سلبه حقًّا من حقوقه فقد ظلمه ﴿إنّ في ذلِك لآيةً لِمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ﴾ أي إن في ما قصّه القرآن من إهلاك الأمم الظالمة لعظة وعبرة للذين يخافون عذاب يوم القيامة ﴿ذلِك يومٌ مجمُوعٌ لهُ النّاسُ﴾ ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الناس لمحاسبتهم وجزائهم على أعمالهم ﴿وَذلِكَ يومٌ مَشهُودٌ﴾ أي يشهده الأولون والآخرون وأهل السماء والأرض لا يغيب عنه أحد ﴿وَمَا نُؤخّرُهُ إلاّ لأجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي وما يؤخر الله هذا اليوم الذي يجمع فيه الناس إلاّ لوقت محدد ومدة معدودة وهو انقضاء عمر الدنيا ومجيء يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفسٌ إلاّ بِإذْنِهِ﴾ أي حين يأتي يوم القيامة لا تتكلم فيه نفس بأي كلام إلا بإذن الله تعالى، ويكون الناس في ذلك اليوم منقسمين إلى قسمين ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وسَعِيدٌ﴾ أي فمنهم شقيٌّ بما يعاني من ألوان الشدة وما يقاسي من

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

العذاب، ومنهم سعيد بما ينتظره من نعيم الآخرة بسبب إيمانه بالله وعمله الصالح.

﴿فأَمَّا الَّـذِينَ شَقُوا فَفي النَّـارِ﴾ أي فأما الذين قُضي عليهم بالشقاء بسبب كفرهم واقترافهم المعاصي فمصيرهم الاستقرار في النار ليعذبوا بها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير والشهيق صوتان يخرجان من الصدر عند شدة الكرب، فالزفير إخراج النفس من الصدر بمشقة، والشهيق ردّ النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء، والمراد بهما تلاحق أنفاس الأشقياء في النار من شدة العذاب وشدة الكرب.

﴿خَالِدِينَ فِيهَـا مَا دَامتِ السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ﴾ أي ماكثين في النار مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام السماوات والأرض، والمقصود بهذا التعبير الخلود في النار، فإن العرب تستعمل هذا التعبير بمعنى دائماً أبداً، فخاطبهم الله سبحانه بما يتعارفون، ويجوز أن يراد بهذا التعبير سماوات الآخرة وأرضها وهي دائمة أبداً ﴿إلاّ مَا شَاءَ رَبُّـكَ﴾ أي إن دوام عذابهم في جهنم ليس أمراً واجباً بذاته بل إن ذلك موكول إلى مشيئة الله. وقد يكون الاستثناء هنا خاصّاً بالعصاة من المؤمنين فإنهم يخرجون بعد مدة من النار ﴿إِنَّ رَبَّـكَ فَـعَّـالٌ لِمَـا يُرِيدُ﴾ إن ربك يا محمد فعّال لما يريد فعله لا يمنعه أحد عنه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفي الجنَّـة خَالِـدين فيها مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ وأما الذين رزقهم الله السعادة في الآخرة فيدخلون الجنة خالدين فيها لا يبرحونها أبداً ﴿إلاّ مَا شَاءَ رَبُّـكَ﴾ إلاّ في الوقت الذي يشاء الله أن ينعموا بثواب أعظم ﴿عَطَاءً غَـيْـرَ مَجْذُوذٍ﴾ عطاء غير منقوص ولا مقطوع.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ
وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ
مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾
فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾
وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

شرح المفردات

مرية: شك وريبة.

لموفوهم أجورهم: لمعطوهم جزاء أعمالهم كاملاً غير منقوص.

ولولا كلمة سبقت من ربك: ولولا قضاء الله بتأخير العذاب عليهم إلى يوم القيامة.

مريب: موقع في الريبة والقلق والاضطراب.

ولا تركنوا: ولا تميلوا، يقال ركن إلى الشيء إذا مال إليه واطمأن به.

أولياء: نصراء.

مجازاة الناس على أعمالهم ودعوة للاستقامة

ويتابع القرآن فيخبرنا بأن الله تعالى سيجازي الكافرين يوم القيامة على ما سبق من ضلالهم:

﴿فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من أن عبادة قومك للأصنام ضلال، وأن مصيرهم كمصير من سبقهم من الكفار إلى الهلاك في الدنيا وعذاب النار في الآخرة **﴿مَا يَعْبُدونَ إلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آباؤُهم مِنْ قَبْلُ﴾** وعبادتهم للأصنام قائمة على تقليد الآباء تقليداً أعمى بدون رويّة ولا فكر، وهذا شأن بعض المجتمعات البشرية في عصرنا الحاضر **﴿وَإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُم غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾**

وإن الله لَمُعطيهم نصيبهم من العذاب في الآخرة جزاء وافياً غير منقوص حسب جرائمهم.

ثم تنتقل بنا الآيات إلى مواساة رسول الله ﷺ بسبب ما يلاقيه من إعراض واختلاف حول الوحي الذي أنزله الله عليه، وأن هذا الاختلاف حصل من قبل حول التوراة، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي ولقد أعطى الله موسى التوراة فاختلف بنو إسرائيل في شأنها بين مصدق ومكذب فاتبعها بعضهم وكفر بها آخرون ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ولولا قضاء سبق من ربك بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِي بينهم﴾ أي لقضى الله بينهم في الدنيا بإهلاك العصاة وإنجاء المؤمنين ﴿وَإنهم لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيب﴾ وإن اليهود والنصارى الذين ورثوا التوراة لفي شك مقلق من صحة بعضها بسبب طول الزمن واختلاف الشروحات حولها وانقطاع سندها عن طريق التواتر عن موسى عليه السلام ﴿وَإنَّ كُلاً لمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعْمَالَهُمْ﴾ أي وإنّ كُلاًّ من المختلفين حول كتب الله من مصدّقين بها ومكذّبين سيجزيهم ربك يا محمد جميعاً على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ ﴿إنَّه بِمَا يَعْمَلُون خَبِيرٌ﴾ إن الله عالم بأعمالهم لا يخفى عليه شيء.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي فداوم على ما أنت عليه من الاستقامة على شرع الله الذي أنزله عليك وليستقم معك من تاب من قومك عن الشرك بالله وآمن برسالتك والتزم هديك ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ والطغيان مجاوزة الحد، أي الزموا الاستقامة دون تفريط واحذروا أن تتجاوزوا حد الاعتدال في الأوامر والنواهي، ولا ترتكبوا المعاصي ﴿إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إن الله بصير بأعمالكم ومجازيكم عليها.

وكلمة الاستقامة كلمة جامعة لكل ما أمر الله به من عقائد وعبادات ومحاسن الأعمال والأخلاق، كما أن الطغيان هو مجاوزة الحد في العصيان، أو المغالاة في الكفر والبغي.

هذه الآية كانت نبراساً لرسول الله ﷺ فقد جاء أحد الصحابة إليه وقال: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال رسول الله ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»(١).

وفي معنى الاستقامة أقوال صدرت عن بعض العلماء منها:

- الاستقامة هي أن يجتهد العبد في إصلاح باطنه ليصلح ظاهره.

- من استقام بالحق لا يعوجّ ومن استقام بباطل فهو غير مستقيم لأن الاستقامة لا تكون إلا بالحقيقة.

- الاستقامة لا تكون إلا باتباع السنّة.

- استقِم عند المحنة بالصبر والرضا، وعند النعمة بالشكر والثناء.

ويتابع القرآن فيخاطب المؤمنين: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والركون هو الميل إلى الشيء والسكون إليه والاطمئنان به والاعتماد عليه ونقيضه النفور منه. والركون إلى الظالمين المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظالمون من الظلم وتحسين ما هم عليه، ومشاركتهم في شيء من ظلمهم، ومجالستهم ومؤانستهم ونصرهم، أما صحبة الظالم لاتقاء شره فهي مستثناة من النهي ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي فتصيبكم النار بسبب ميلكم إلى الظالمين ﴿وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي والحال أنه ليس لكم غير الله نصراء لإنقاذكم من النار ثم إنكم لن تجدوا من ينصركم إذ جرى حكمه سبحانه بأن يعذبكم بسبب ركونكم إليهم.

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض فلعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ
ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوۡلَا
كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا
مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ
مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا
مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

طَرَفَي النهار: أوله وآخره وهما الغداة والعشيّ.

زُلَفاً من الليل: ساعات من الليل.

يُذهبن السيئات: أي يكفرنها حتى كأنها لم تكن، أي يُمحى إثمها ولا يُعاقب عليها.

ذِكرى للذاكرين: عظة للمتعظين.

من القرون: من الأمم الماضية.

أولو بقيَّة: أصحاب عقل وفضل.

ما أُترفوا فيه: ما نُعّموا فيه من الملذات والشهوات.

الحسنات تمحو السيئات

وبعد أن دعا القرآن إلى الاستقامة أتبع ذلك بالدعوة إلى أداء الصلاة لأن الصلاة تساعد على الاستقامة بما فيها من الاتصال بالله ومناجاته، ومن يتصل بالله يردعه إيمانه عن اقتراف السيئات، قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ الليْلِ﴾ أي أدِّ الصلاة المفروضة طرفي النهار أي الغداة والعشيّ. وصلاة الغداة هي صلاة الصبح، وصلاة العشيّ ـ أي من زوال الشمس إلى غروبها ـ تشمل صلاتي الظهر والعصر **﴿وَزُلَفاً مِنَ الليْلِ﴾** أي أول

ساعات الليل التي تشمل صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي إن الحسنات التي تشمل الصلاة والزكاة والصيام والحج، والاستغفار، وذكر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمحو إثم السيئات. والمراد بالسيئات صغائر الذنوب، أما كبائر الذنوب فلا تكفّرها ـ أي تمحو إثمها ـ إلا التوبة الصادقة من الامتناع عنها والندم عليها والعزم على عدم العودة إليها ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى للذَّاكِرِينَ﴾ أي ذلك عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه(١) شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»(٢).

وجاء في الحديث الشريف: «إن رجلاً أصاب من امرأة قبلة حراماً فأتى النبي ﷺ فسأله عن كفّارتها فأنزل الله ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار...﴾ إلى آخر الآية. فقال الرجل أَلِـيَ هذه يا رسول الله؟ قال: لك ولمن عَمِلَ بها من أمتي»(٣).

هذه الآية التي مرّ ذكرها تجعل المسلم في رقابة ذاتية على أفعاله كما تكون حافزاً للامتناع عن السيئات، وفي الوقت نفسه تخلّصه من عقدة الذنب وآثارها المدمّرة على نفسه لأن المسلم إذا علم أن الحسنات يذهبن السيئات أصبح له أمل في رحمة الله وعفوه وغفرانه بما هُدي به إلى السبيل القويم الذي يجب أن يبنى عليه سلوكه وهو فعل الحسنات.

﴿وَاصْبِرِ فَإِنَّ اللَّـهَ لا يُضِيعُ أَجْـرَ المُحْسِنِينَ﴾ واصبر يا محمد على ما تلقاه من الأذى من قومك وعلى ما تلاقيه من مشقة في تبليغهم رسالة الله إليهم، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

---

(١) درنه: وسخه.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.

ثم يبين الله عاقبة الأمم السابقة التي انجرفت نحو الفساد:

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ القُرون مِن قَبْلِكُم أُولوا بَقِيَّةٍ﴾ أي فهلاّ كان من الأمم قبلكم جماعة من أهل الخير يتحلون بطاعة الله، والخصال الكريمة، والعقول السليمة ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ في الأَرْضِ﴾ أي ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات، والآية هنا للتقريع والتوبيخ، أي أن أكثرهم لم يكن فيهم جماعة خيّرة تنهى عن الفساد في الأرض ﴿إلا قليلاً مِمّن أنجَينا مِنْهُم﴾ أي لكنّ قليلاً ممن آمن من الأمم الماضية ـ وهم أتباع الأنبياء ـ كانوا ينهون عن الفساد فأنجاهم الله بسبب ذلك. وفي الآية توبيخ لكل من يتقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويرتمي في أحضان الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الّذينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمينَ﴾ أي واتّبع الظالمون المترفون من كل أمة لذّات الدنيا وشهواتها فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا على عباد الله، وكانوا مجرمين بكفرهم بالله والإضرار بالناس.

ولقد وصف الله المترفين بصفتي الظلم والإجرام لما يسببونه من أخطار لمجتمعهم، فما يصيب الأمة من أزمات اجتماعية خانقة وفقر مدقع ما هو إلا بسبب ترف المترفين الذين يستأثرون بخيرات الأمة في سبيل إشباع ملذاتهم وإرضاء شهواتهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْم وأهلُها مُصلحون﴾ أي وما كان شأن ربك وسنته في خلقه أن يهلك الأمم بظلم منه في حال أن يكون أهلها مصلحين في الأرض متجنبين الفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم وفسادهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ
رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى
هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

شرح المفردات

أمة واحدة: أي على ملة واحدة وهي ملة الإسلام.

وتمت كلمة ربك: وجب وثبت حكمه وقضاؤه الأزلي.

الجِنّـة: أي عالم الجنّ وهو غير مرئيّ.

ما نثبّت به فؤادك: ما نقوّي به قلبك.

وذكرى للمؤمنين: وموعظة للمؤمنين.

اعملوا على مكانتكم: أي على حالتكم التي أنتم عليها وهي الكفر، والأمر للتهديد.

سنّة اللّه في خلقه والعبرة من أنباء الرسل

ويتابع القرآن فيقدّم لأتباعه هذا التوجيه الرباني السامي الذي يجنبهم الكثير من العثرات مع من يخالفهم في دينهم ومعتقدهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ولو شاء ربك لجعل الناس مجتمعين على الحق ودين الإسلام بحيث لا يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق **﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾** وسيظل الناس مختلفين في

عقائدهم، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلاّ قوماً رحمهم الله فهداهم إلى الحق فاتبعوه ﴿وَلِـذَلِـكَ خَـلَـقَـهُـمْ﴾ أي خلقهم الله فريقين: فريقاً يرحمهم فلا يختلفون، وفريقاً يتخلى عنهم فيختلفون.

هذه الآية ينبثق منها التسامح الديني، وحرية المعتقد، لأن اختلاف الناس في معتقداتهم هو من سنن الله في خلقه ﴿وَتَـمَّتْ كَلِـمَـةُ رَبِّـكَ لأَمْلأَنَّ جَهنَّم مِنَ الجِنَّـةِ وَالـنَّـاسِ أَجْمَعين﴾ أي تمَّ أمر الله ونفذ قضاؤه وحكمه الأزلي بأن يملأ جهنم من الكفار وعصاة الجن والناس أجمعين، وهم أتباع إبليس لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [صٓ: ٨٥].

ثم يبين الله الغاية من قصص الأنبياء ﴿وَكُـلاًّ نَـقُصُّ عَلَـيْـكَ مِن أَنبَـاءِ الـرُّسُـلِ مَا نُـثَـبِّـتُ به فُـؤادَكَ﴾ أي وكل خبر من أخبار هؤلاء الرسل السابقين مع أممهم نقصّه عليك يا محمد بما نقوّي به قلبك، لتدرك أنك لست وحدك الرسول الذي كفر به قومه واضطهدوه، فكل رسل الله جرى لهم ما جرى لك حتى جاءهم نصر الله ﴿وَجَاءَكَ في هَـذِهِ الحَقُّ وَمَـوْعِظَـةٌ وَذِكْرَى لِلمؤمنين﴾ أي وجاءك في هذه القصص من أخبار رسل الله الحق الثابت المطابق للواقع وما حل بأقوامهم الكافرين من هلاك بما فيه الذكرى النافعة للمؤمنين، والعظات البليغة لهم ليزدادوا إيماناً على إيمانهم.

﴿وَقل لِـلّذين لا يُـؤْمِـنُـونَ اْعْـمَلُوا عَـلَى مَـكَانَـتِـكُمْ إِنَّـا عَامِلُونَ﴾ وقل يا محمد للمشركين الذين أعرضوا عن دعوتك بعبادة الله وحده وترك المعاصي، قل لهم مهدِّداً: ابذلوا أقصى ما في قدرتكم واستطاعتكم للوقوف في وجه الإسلام وإيذاء المؤمنين فإننا في موقف الثبات على ديننا أنا ومن اتبعني من المؤمنين ﴿وَانْـتَـظِـرُوا إِنَّـا مُـنْـتَـظِرونَ﴾ وترقّبوا ما تتمنَّونَـه من فشل لدعوة الإسلام، إنني ومن معي من المؤمنين منتظرون ما وعدَنا ربنا من النصر وظهور هذا الدين على الدين كله وإعلاء كلمة الله. هذا الوعد الربّـاني بالنصر تحقق بعد سنوات قليلة مما يشهد بأن القرآن وحي إلّهي.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ أي ولله وحده علم ما غاب عن علم الإنسان في السموات والأرض فلا يخفى عليه شيء من سركم أيها الناس وجهركم ﴿وإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ من إحياء وإماتة ونصر وخذلان وهداية وضلال ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّل عَلَيْهِ﴾ فاعبده وحده وأخلص له العبادة وفوّض أمرك إليه واعتمِد عليه في كل أحوالك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربك بغافل عما تعملون جميعاً أيها المؤمنون والكافرون وسيجازي كلاً بما يستحقه في الدنيا والآخرة، وإذا عَلِمَ الإنسان حقيقة علم الله بأحوال الناس كان ذلك حافزاً له لتجنب الشر والسير في طريق الخير.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
تفسير المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
تفسير التحوير والتنوير للطاهر بن عاشور
جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي
تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف
فتح القدير للشوكاني
تفسير الكشاف للزمخشري
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي
التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي
تفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر
تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري

وفي الختام

أقدم شكري وامتناني لأصحاب دار العلم للملايين الأجلاء على ما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص.

كما أقدم شكري للصديق فضيلة الأستاذ الشيخ محمد شريف سكر على تفضله بمراجعة هذا التفسير.

كما أقدم شكري إلى الأديبة د. هدى سنو على جهودها الطيبة في تصحيح هذا التفسير عند الطبع.

كما أخص بالشكر الصديق الحميم الأستاذ شفيق اللبان لما قدم لي من معونه وبعض الملاحظات القيمة.

وأخص بالشكر أيضاً الأستاذ توفيق الحوري عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية على ما يسر لي من المراجع القيمة في مكتبتها هذه.

وأخيرا أشكر جامعة بيروت العربية لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام.

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه
وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم
عفيف عبد الفتاح طبارة

الفهرس

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي
  باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم

طباعة الكتاب: مطبعة علي موسى ـ حارة حريك

تنضيد الأحرف ـ ماكيت: المركز العربي للمطبوعات

هاتف: ٧٣٩٣٥٣ بيروت ـ لبنان

روح القرآن

تفسير

• سورة يوسف
• سورة الرعد
• سورة ابراهيم

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

روح القرآن

تفسير

الجزء الثالث عشر وقسم من الجزء الثاني عشر

• سورة يوسف
• سورة الرعد
• سورة ابراهيم

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
أيار/ مايو ١٩٩٩

تعريف بسورة يوسف

هذه السورة التي تعرض قصة يوسف عليه السلام نزلت بمكة وهي تختلف عن سائر قصص الأنبياء في القرآن الكريم وذلك لأنها جاءت كاملة من بدايتها إلى نهايتها.

فهذه القصة تبين أمر يوسف مع أبيه الذي كان يؤثره بحبه، وقد ظهر ذلك حين قص يوسف على أبيه رؤيا رآها في منامه تنبىء عن عزّ ورفعة له في مستقبل الأيام، فأوصاه أبوه بكتمان رؤياه خوفاً عليه من كيد إخوته وحسدهم.

ثم تذكر السورة تآمر إخوته عليه حيث ألقوه في البئر للتخلص منه، وكيف التقطه بعض المسافرين وباعوه عبداً رقيقاً في مصر وكان الذي اشتراه وزير الملك الملقب بالعزيز فرباه في قصره. وأدى جمال يوسف بعد أن بلغ سن الشباب إلى افتتان امرأة العزيز به، وقد راودته عن نفسه بعد أن غلّقت الأبواب، ولكن يوسف أبى الاستجابة لرغباتها وفرّ منها فلحقت به حيث وجدا زوجها لدى الباب. واتهمت امرأة العزيز يوسف بمحاولة اغتصابها ولكن شاهداً من أهلها شهد ببراءة يوسف لما رأى من قرائن تدفع التهمة عنه، ولكن سريان هذه الفضيحة في أوساط مجتمع المدينة أدى إلى سجن يوسف تغطية لما يشاع وبإيعاز من امرأة العزيز. ولبث يوسف في السجن بضع سنين، وكان في السجن فتيان رأى كل منهما رؤيا في منامه فسألا يوسف عن تأويل ما رأيا، ففسر يوسف لهما حلمهما وتحقق التأويل الذي ذكره يوسف، فكان أن قُتل أحد السجينين لثبوت ما اتهم به وبرىء الآخر الذي كان ساقي الملك وعاد إلى منصبه.

ورأى الملك رؤيا في منامه أزعجته فجمع أشراف مملكته وسألهم عن تأويل ما رأى فعجزوا عن تفسيرها وقالوا أضغاث أحلام، لكن ساقي الملك تذكر ما جرى بينه وبين يوسف من تفسير منامه وقد صدق في تأويله فطلب من الملك أن

يرسله إلى من عنده علم بتأويل المنامات.

توجه الساقي إلى السجن واجتمع بيوسف وعرض عليه رؤيا الملك ففسرها يوسف بمجيء سبع سنين خصبة يعقبها سبع سنين قحط، وبيّن له كيف يتصرف فيها.

علم الملك بمنزلة يوسف في العلم كما أدرك براءته مما نُسب إليه بعد أن أعاد التحقيق في التهمة الموجهة إليه بناء على طلب يوسف، فاستدعاه الملك إلى قصره وولاه السلطة والحكم والإشراف على خزائن التموين في مصر.

ثم أصابت مصر والبلاد المجاورة سنوات قحط وسمع يعقوب أن الطعام موفور في مصر فأرسل أبناءه إلى مصر ليشتروا حاجتهم من الطعام. وحين دخل إخوة يوسف عليه في ديوانه عرفهم دون أن يعرفوه، فكتم عنهم ذلك ثم طلب منهم إحضار أخيه الأصغر بنيامين معهم في رحلتهم الثانية مع إغرائهم بزيادة الكيل لهم. امتثل إخوة يوسف لما طلب أخوهم منهم بعد أن أعطوا والدهم المواثيق والعهود بالمحافظة عليه ولكن يوسف دبّر حيلة لاستبقاء أخاه بنيامين عنده باتهامه بالسرقة وأخذه رقيقاً مقدمة لإحضار والده إلى مصر.

وفي رحلة الإخوة الثالثة إلى مصر بناء على طلب يعقوب للبحث عن يوسف ومحاولة الإفراج عن بنيامين وشراء الطعام الذي هم بحاجة إليه تعرّف الإخوة على أخيهم يوسف فدعاهم إلى إحضار أبويه وأهلهم جميعاً للسكن في مصر. فحضر أبواه وإخوته وأهلهم جميعاً إلى مصر ولما دخل الإخوة على يوسف أجلس يوسف أبويه على العرش بجانبه وسجد الإخوة ليوسف سجود تحية وتعظيم وتحقق الحلم الذي رآه يوسف في صغره: ﴿**إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾.

وهذه السورة جاءت بأسلوب سلس ممتع، تحمل البشرى للمعذبين في الأرض بأنه لا بد من الفرج بعد الضيق، ومن اليُسر بعد العسر، إضافة إلى ما تتضمنه من الكثير من الدروس والعبر والفوائد الجمة.

سُورَة يُوسُف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ
فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

شرح المفردات

المبين: أي الظاهر في كونه من عند الله.

نقصُّ عليك: نحدثك ونبين لك يا محمد.

فيكيدوا لك كيداً: فيحتالوا لإهلاكك حسداً.

يجتبيك: يصطفيك ويختارك

تأويل الأحاديث: تفسير المنامات وبيان ما تؤول إليه.

يوسف يقص على أبيه رؤياه في المنام.

تبدأ هذه السورة بالتنويه بالقرآن الكريم الذي يشتمل على أحسن القصص:

﴿الٓر[١] تِلكَ آياتُ الكِتَابِ الْمُبينِ﴾ تلك: إشارة إلى آيات هذه السورة، والمراد بالكتاب هنا: القرآن. والمعنى: تلك الآيات الواردة في هذه السورة هي آيات من القرآن الكريم ﴿المبين﴾ أي الظاهر في كونه من عند الله، الواضح في معانيه وأهدافه بحيث لا تشتبه على العقلاء حقائقه.

﴿إنَّا أنزلناه قُرْآناً عَربيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ أي إن الله أنزل هذا القرآن بلغة العرب كي يفهموه ويحيطوا بمعانيه، ويستعملوا عقولهم لفهم ما يتضمنه من المعاني والحكم والهدى.

﴿نَحنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾ أي إن الله يروي عليك يا محمد أحسن القصص ومنها: قصة يوسف الجامعة لأمور الدين والدنيا، والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية، الملأى بالدروس والعظات ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا القُرآنَ وإن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلينَ﴾ أي بما أنزلنا إليك هذا القرآن عن طريق الوحي، وقد كنت من قبل أن نُوحي إليك هذا القرآن لا تعرف هذه القصة لأنها لم تخطر ببالك ولم تصل إلى سمعك لأنك أمّي لا تقرأ ولا تكتب.

ثم شرع الله يقص علينا قصة يوسف في الآيات التالية:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبيه يا أَبَتِ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كوْكباً وَالشَّمْسَ والقَمَرَ رأَيْتُهُم لي سَاجِدينَ﴾ أي اذكر يا محمد، أو أيها المخاطب حين قال يوسف لأبيه

---

(١) هذه الحروف المقطعة التي وردت هنا وفي بعض السوَر هي على سبيل لفت الأنظار والتنبيه على إعجاز القرآن، فكأن الله يقول: ها هو القرآن مؤلف من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومن نفس الحروف الهجائية التي تكتبون فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فأتوا بمثله فإن لم تستطيعوا فاعلموا أنه كلام الله حقاً، وهناك تفسيرات أخرى لهذه الحروف ذكرنا بعضها في مطلع سورة الرعد.

يعقوب: إني رأيت في منامي أحد عشر كوكباً من كواكب السماء ورأيت كذلك الشمس والقمر ساجدين لي. والسجود هو وضع الجبهة على الأرض، وقد سجدوا ليوسف سجود إعظام وتحية لا سجود عبادة، وكان السجود تحية وتعظيماً للرؤساء في العصور الماضية، وقد يراد بالسجود في الآية الانحناء بالرأس وانخفاضه نحو الأرض تحية له.

وكان إخوة يوسف أحد عشر[١] فجاءت هذه الرؤيا تخبر بأنهم سيسجدون ليوسف مع والديه المشار إليهما بالشمس والقمر. فالشمس رمز لأبيه، والقمر رمز لأمه أو بالعكس.

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين طهرت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه. وقد روي عن عائشة زوجة النبي ﷺ أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[٢].

وفي حديث آخر عن النبي ﷺ: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٣].

ولقد كانت هذه الرؤيا التي رآها يوسف في منامه إشعاراً بما سيؤول إليه أمره من عزّ ورفعة، وأن أسرته ستكون مرؤوسة له وهو رئيسها، لذا حذره أبوه يعقوب من أن يقُصّ رؤياه على إخوته حتى لا يناله الأذى منهم:

﴿قال يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلى إِخْوتِكَ فيكيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ أي يا بني لا

---

(١) كان ليعقوب اثنا عشر ولداً: رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، ديساكر، زبولون، من زوجته ليئة. دان، نفتالي، من زوجته بلها. جاد، أشير، من زوجته زلفا. يوسف، بنيامين، من زوجته راحيل. وعلى هذا يكون يوسف وبنيامين شقيقين من الأب والأم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

تخبر إخوتك برؤياك التي رأيتها في المنام التي تشير إلى علو شأنك في المستقبل فيحتالون للإضرار بك حسداً ﴿إِنّ الشَّيْطَانَ للإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبين﴾ إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على الإضرار بك.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيك رَبُّكَ﴾ أي ومثل ما رأيت نفسك في المنام سيداً مطاعاً كذلك يصطفيك ربك ويختارك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي ويعلمك ربك تأويل ما يراه الناس في منامهم وبيان ما يتحقق منها في اليقظة، ويجوز أن يُراد بالأحاديث معاني كتب الله وما خفي وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله أو ما جاء به رسل الله من الوحي ﴿ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي يتمم فضله بالنبوة والمُلك والرياسة ﴿كما أَتَمَّها عَلى أَبَويك مِنْ قَبْلُ إِبْراهيم وَإِسْحٰق﴾ وعبّر عنهما بأنهما أبوا يوسف مع أن إبراهيم جد أبيه وإسحق جده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء وللمبالغة في إدخال السرور إلى قلبه، وإطلاق لفظ الأب على الجد معروف عند العرب ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إن ربك عليم بمن هو أهل للاصطفاء، ومن هو أهل للنبوة، والله حكيم في تدبير أمور خلقه.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨
ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ
قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ
ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا
لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا
يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ
بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

شرح المفردات

آيات للسائلين: دلائل على قدرة الله ومواعظ للناس للذين يرغبون في الوقوف على حقائق هذه القصة.

عصبة: تطلق على الجماعة من الرجال عشرة فصاعداً إلى الأربعين

ضلال مبين: خطأ بيّن واضح في إيثارهما علينا.

اطرحوه أرضاً: ألقوه في أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يستطيع العودة.

يخل لكم وجه أبيكم: يخلص لكم حبه وإقباله عليكم.

غيابة الجب: قاع البئر المظلم وأطلق عليه غيابة لأنه يغيب ما فيه عن العيون.

السيارة: المسافرون.

وإنا له لناصحون: ونؤكد لك يا أبانا أننا ننصح يوسف بما فيه خيره ونشفق عليه.

يرتع: الرتع هو التنعم بالأكل والشرب الهنيء.

ليحزنني: يجعلني حزيناً.

مؤامرة الإخوة على يوسف

وبعد أن بيّن لنا القرآن رؤيا يوسف في المنام وبشارة والده له بالنبوة شرع يقص علينا قصة يوسف مع إخوته:

﴿لَقَدْ كَانَ في يُوسُفَ وَإِخْوتِهِ آيَاتٌ للسَّائِلينَ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عِبَرٌ وعظات للسائلين عنها والراغبين في معرفتها من المشركين واليهود. كما أن في قصة يوسف علامات واضحة على صدق نبوة محمد ﷺ حيث قص عليهم قصة يوسف وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب بأرفع الأساليب البلاغية، مع اختلاف في كثير من وقائعها عما جاء في كتب اليهود عن يوسف في العهد القديم.

﴿إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأخوهُ أَحَبُّ إلى أبينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ إذ قال إخوة يوسف فيما بينهم: إن يوسف وأخاه بنيامين ـ شقيقه من أبيه وأمه ـ أَحَبُّ إلى أبينا منَّا، مع أننا جماعة أقوياء يشتد بنا ساعده، ونحن أنفع له منهما فما باله يؤثرهما بمحبته ﴿إِنَّ أبانَا لَفي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ إن أبانا في تصرفه هذا قد ضلّ عن طريق العدل والمساواة ضلالاً واضحاً لا يخفى على أحد ﴿اُقْتُلوا يُوسُفَ﴾ في الكلام هنا حذف، أي قال قائل منهم: اقتلوا يوسف ﴿أوِ اطْرَحُوهُ أرْضاً﴾ أو ألقوه في أرض مجهولة بعيدة بحيث لا يستطيع العودة ويموت فيها غريباً ﴿يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أبيكُم﴾ أي يخلص لكم وجه أبيكم فَيُقبلُ بمحبته عليكم ولا يلتفت إلى غيركم، والمراد بذكر الوجه تصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه عليه ﴿وتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالحينَ﴾ وتكونوا من بعد هذا الذنب ـ قتل يوسف أو نفيه ـ قوماً تائبين إلى الله فيقبل الله توبتكم.

هذه القسوة من الإخوة قابلتها رأفة من أحدهم: ﴿قَالَ قائِلٌ مِنْهُم لا تَقْتُلوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ أي قال هذا الأخ: لا تقتلوا يوسف قتلاً مباشراً، ولا تلقوه في أرض بعيدة يتعرض فيها للموت ولكن ألقوه في بعض نواحي البئر

فوق الماء بحيث يغيب عن الأنظار، وهذا البئر كان معروفاً يقصده كثير من المسافرين ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ ينتشله حياً من البئر بعض المسافرين ﴿إِنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم مصرين على إبعاد يوسف عن أبيكم، وهذا ما أجمع رأيهم عليه.

وبعد أن استقر رأي الإخوة على ذلك ذهبوا إلى أبيهم وراحوا يحتالون لأخذ يوسف معهم بعد أن شعروا أن أباهم لا يأمنهم عليه، وخاطبوه بأسلوب يبعث الثقة والطمأنينة في قلبه:

﴿قَالُوا يا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أيّ شيء يا أبانا يجعلك لا تأمنّا على أخينا يوسف ونحن له مخلصون نريد له الخير ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أرسله معنا غداً إلى المراعي ليتمتع بالأكل الطيب، ويلعب من ألوان اللعب النافع لبدنه، وإننا لحريصون على المحافظة عليه، ودفع الأذى عنه.

أجابهم أبوهم: ﴿قَالَ إنني لَيَحْزُنُني أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي إني لأشعر بالحزن إذا ذهبتم به بعيداً عني لشدة شفقتي عليه ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وأنتم عَنْهُ غَافِلونَ﴾ وأخاف أن يفترسه الذئب وأنتم غافلون عنه برعي الغنم واللعب.

﴿قَالوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ لئن: هي اللام الموطئة للقسم. أي والله لئن أكله الذئب وهو معنا في هذه الرحلة، ونحن جماعة أقوياء، إن حدث هذا الذي تخشاه فنحن لخاسرون لكل ما يجب الحرص عليه، أو لخاسرون سمعتنا وكرامتنا بين قومنا، أو مستحقون لأن نهلك لأنه لا جدوى ولا نفع من حياتنا.

استسلم الأب أخيراً لإلحاح أبنائه ووافق على طلبهم ليتحقق قَدَرُ الله الذي كتبه على يوسف.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً
يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ
مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾
وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

شرح المفردات

أجمعوا: عزموا واتفقوا.

عِشاءً: أول الظلام إلى ثلث الليل.

نستبق: نتبارى في الركض وفي رمي السهام.

متاعنا: ثيابنا وأمتعتنا.

بمؤمن لنا: بمصدّق لنا في ما نقوله.

بِدَمٍ كَذِبٍ: أي مكذوب فيه.

سوّلت لكم أنفسكم: زيّنت وحسّنت لكم أنفسكم.

فصبر جميل: الصبر الجميل هو الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله.

إلقاء يوسف في البئر

ويتابع القرآن فيذكر ما فعله الإخوة بيوسف حيث ألقوه في البئر، وما قدموا من عذر لأبيهم:

﴿فَلَمَّا ذَهَبوا بِهِ وأجْمَعُوا أن يَجْعَلُوه في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ فلما أخذ أبناء يعقوب يوسف معهم من بعد ما أذن لهم أبوهم بذلك ومضوا به بعيداً عنه نفذوا ما أجمعوا عليه رأيهم وألقوه في البئر بدون رحمة ولا شفقة **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُم لا يَشْعُرُونَ﴾** أي وأوحى الله إلى يوسف وهو في البئر عن طريق جبريل عليه السلام أو عن طريق الإلهام القلبي بأنه سيخرج من السجن وأنه سيخبر إخوته

في مستقبل الأيام بما فعلوه به، وهم لا يشعرون بأنه هو يوسف، وذلك لما سيكون عليه من عز وسلطان ومنصب جليل، وإخوته في ذلة الحاجة والاستعطاف إليه، وفائدة ذلك تطييب لقلبه، وإزالة الهم والوحشة عنه وهو في البئر.

﴿وَجَاءوا أَباهم عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ أي وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتصنعون البكاء، متظاهرين بالحزن والأسى لفقد يوسف.

تأمل كيف أنهم رجعوا إلى أبيهم في الليل لئلا يظهر عليهم أنه بكاء كاذب وليكونوا أقدر على الاعتذار، فلو جاءوا في وضح النهار لافتضحوا وظهرت أمارات تكلف الحزن على وجوههم.

﴿قالوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي إننا ذهبنا نتسابق في العدو ونتبارى في رمي النبال أيّها أبعد سهماً ﴿وتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فأكله الذِّئْبُ﴾ أي وتركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا فأكله الذئب ونحن بعيدون عنه ﴿وما أنتَ بمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾وإننا لنعلم أنك لن تصدقنا في ما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذِّئْب حتى ولو كنا صادقين في ذلك لسوء ظنك بنا.

وزيادة في تمويههم ونفاقهم ﴿وَجَاءُوا عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وأحضروا قميص يوسف إلى أبيهم وعليه دم يشهد بادعائهم حيث ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص، وقد وصف الكذب بالمصدر (بدم كذب) مبالغة، كأنه نفس الكذب كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه، ولكن فات هؤلاء الإخوة أن قميص يوسف الذي أحضروه لوالده كان سليماً من التمزق، ويروى أن يعقوب لمّا تأمل قميص يوسف ولم يجد فيه أثراً ولا خرقاً قال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل يوسف ولم يمزق عليه قميصه.

أمام هذه القرائن الدالة على كذب أبنائه قال يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكم أمراً﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم، بل قد زيَّنت لكم أنفسكم أمراً وحسنته لكم ففعلتموه ﴿فَصَبْرٌ جَميلٌ﴾ أي فصبر جميل أولى بي، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى فيه لأحد سوى الله ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلى مَا تَصِفُونَ﴾ والله هو المطلوب منه العون على ما تقولون في شأن يوسف كذباً.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ
وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ
مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

شرح المفردات

وجاءت سيارة: وجاءت جماعة من المسافرين.

واردهم: الوارد هو الشخص الذي يرد الماء ليستقي لرفقائه.

فأدلى دلوه: فأرسل دلوه في الماء ليملأه، والدلو إناء معروف يوضع فيه الماء.

أسرّوه بضاعة: أخفوه متاعاً للتجارة.

وشروه بثمن بخس: وباعوه بثمن قليل ناقص عن قيمته.

دراهم معدودة: دراهم قليلة.

وكانوا فيه من الزاهدين: أي في الثمن، غير راغبين في ما بأيديهم.

أكرمي مثواه: اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً.

مكنّا ليوسف: جعلنا له مكاناً ثابتاً.

غالب على أمره: غالب على الأمر الذي يشاؤه سبحانه فلا يستعصي عليه مراده ولا يدفعه عنه أحد.

بلغ أشدّه: أي استكمل نموه البدني والعقلي.

حكماً: حكمة.

إخراج يوسف من البئر وبيعه رقيقاً في مصر

وبعد إلقاء يوسف في البئر الذي يقع في الأردن وقيل في بيت المقدس جاءت

رفقة تسرع في السير من بلاد الشام إلى مصر، ونزلوا قريباً من البئر الذي أُلقي فيه يوسف.

يقول الله تعالى: ﴿وجاءت سَيَّارَةٌ﴾ والسيارة هنا هم القوم المسافرون سمُّوا سيارة لمسيرهم في الأرض ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُم فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي فأرسلوا من يجلب لهم الماء من البئر ويستقي لهم، فألقى دلوه فيه ليملأه ماء فتعلق يوسف بالحبل فثقل الدلو على حامله، فأعانه رفقاؤه على جذب الدلو من البئر وهنا كانت المفاجأة ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾ أي يا للخبر السار هذا غلام خرج من البئر ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من البئر مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للبئر واعتبروه عرضاً من عروض التجارة القابلة للبيع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ هنا وعيد لإخوة يوسف، فالله عليم بما صنعوا في شأن يوسف وما وقع فيه من المحن ﴿وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ معدودةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدينَ﴾ وهؤلاء المسافرون باعوا يوسف في مصر بثمن منخفض دون قيمته، وكان الثمن دراهم قليلة، وكانوا في يوسف من الزاهدين الراغبين في التخلص منه لخوفهم أن يدركهم أهله فينتزعوه منهم.

﴿وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامرأَتِهِ أكْرِمي مَثْواهُ﴾ وكان الذي اشتراه من أفراد القافلة وزير الملك الملقب «بالعزيز» فأرسله إلى بيته وأوصى امرأته به خيراً وقال لها: أحسني مُعَامَلَتَهُ وأكرميه بحيث يكون كواحد منا ولا يكون كالعبيد والخدم ﴿عَسَى أن يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ رجاء أن ينفعنا في مصالحنا الخاصة أو نتبناه ونتخذه ولداً، قال ذلك لأنه كان عقيماً لا ولد له.

أمر «العزيز» زوجته بذلك لما توسم في يوسف بفراسته فيه من الخير والنباهة وحسن الخلق ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأَرضِ﴾أي وكما أنقذنا يوسف من البئر ومن كيد إخوته فقد جعلنا له مكانة كريمة في قلب «العزيز» الذي اشتراه ومكانة رفيعة في أرض مصر حيث عُرِفَ فيها بأخلاقه الرفيعة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْويلِ الأَحاديثِ﴾ أي ويعلمه الله تفسير الأحلام وما يتحقق منها ﴿واللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ والله غالب على أي أمر يريده لا يحول أحد دون تحقيقه ولا رادّ لقضائه،

ولا يغلبه شيء، فإذا أراد الله أن ينفذ شيئاً قال له كن فيكون ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله يفعل ما يشاء في خلقه، ولا يعلمون الغيب وما يحمل في طياته من الأسرار والحكم التي هي بعلم الله وحده.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ولمّا استكمل يوسف قوّته الجسدية والعقلية ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ والحكم الذي أعطاه الله ليوسف قد يراد به الحكم بين الناس، أو الحكمة، أو النبوة. أما العلم فالمراد به الفقه في الدين ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحسِنِينَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الذي أعطاه الله ليوسف على إحسانه يجزي الله المحسنين على إحسانهم.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

شرح المفردات

وراودته: المراودة الرفق في الطلب، والمقصود طلبت منه أن يضاجعها.

هيت لك: أقبِل، وبادر، لك أقول هذا.

معاذ الله: أعوذ بالله مما دعوتني إليه.

إنه ربي: إن زوجك هو سيدي الذي رباني.

أحسن مثواي: أحسن إكرامي ومقامي عنده فلا أخونه.

همّت به: عزمت وأصرّت على مضاجعته.

وهم بها: شرع يدفعها عن نفسه.

لولا أن رأى برهان ربه: أي حجة ربه التي منعته من ضربها وإيذائها.

امرأة العزيز تغري يوسف بالزنا

كان يوسف عليه السلام على قسط كبير من الحسن والوسامة وكان وجوده في بيت وزير الملك سبباً في اضطرام مشاعر الحب في نفس زوجته نحو يوسف. ولما كان هو فتاها أي خادمها، ورهين إشارتها، هان عليها ما ينتابها من الشوق والعشق نحوه وشرعت تغريه بنفسها وتعرض عليه محاسنها وهنا يقص علينا القرآن ما جرى بينها وبين يوسف:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الّتي هُوَ في بَيْتها عَنْ نَفْسِه وغَلَّقَتِ الأَبْوابَ﴾ أي وطلبت امرأة العزيز من يوسف أن يضاجعها بعد أن أوصدت الأبواب. والقرآن لم يذكر اسمها ستراً لها وابتعاداً عن التشهير بها بل قال: ﴿التي هو في بيتها﴾ وبعد أن أوصدت الأبواب أقبلت على يوسف ﴿وَقَالَتْ هيْتَ لَكَ﴾ أي هلمَّ وأقبِل فقد هيّأتُ لك نفسي. أجابها يوسف: ﴿قالَ مَعَاذَ اللَّهِ إنَّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي إني ألجأ إلى الله وأستجير به مما دعوتني إليه، وكيف أرتكب ذلك وزوجك هو سيدي الذي أحسن مقامي عنده وأكرمني؟ فلا أخونه في عرضه.

وقد يراد بـ (ربي) الله، أي إن الله هو ربي الذي تولاّني بلطفه وإحسانه فلا أقترف ما حرّمه الله من ذنب ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ إنه لا يفوز الذين يظلمون الناس بالغدر والخيانة ويعصون الله بفعل الزنا.

ولقد ظن يوسف أن ما وعظه سيعيد إليها صوابها، وتمتنع عن خيانة زوجها ولكنها لم تَرْعَوِ وأقبلت بكليتها على يوسف، وهو ما حكته الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ هَمَّت بِهِ﴾ أي همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم على المعصية ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ومالت نفس يوسف إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ميلاً وحديث نفس دون عزم وقصد، فالهمّ منه مجرد خاطر لم يخرج إلى العزم، وهذا اللون من الهمّ لا يخلُّ بمقام النبوة، ولذلك قيل: عصمه الله من الفعل ولم يعصمه من الهمّ ﴿لَوْلا أَنْ رأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها وأقدم عليها، وبرهان ربه

هو حجته الباهرة الدالة على قبح الزنى وسوء سبيله، والمراد بالرؤية اليقين بذلك، وقيل: إن برهان ربه هو تذكّره عهد الله وميثاقه الذي أخذه على عباده بطاعته وعدم معصيته.

هذا وإن الهمّ هو القصد، فوجب أن يحمل في حق الزوجة وفي حق يوسف على القصد الذي يليق به، فالظاهر في هذه المرأة القصد إلى تحصيل اللذة الجنسية التي سعت إليها، واللائق بيوسف الذي اصطفاه الله بالنبوّة هو القصد إلى زجر العاصي عن معصيته، ولو كان همّه كهمها أي إقباله كإقبالها عن عزيمة وقصد لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين.

ولقد قيل في ذلك أيضاً: همّت امرأة العزيز بالمعصية وهمَّ يوسف بالفرار منها.

وقيل ﴿ولَقَدْ هَمَّت به﴾ أي ولقد همّت امرأة العزيز بجذب يوسف إلى نفسها ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي همّ بها يدفعها عن نفسه وكاد يضربها لمزيد إصرارها على مخالطته ﴿لَوْلا أنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لولا أن رأى حجته اليقينية تصرفه عن ضربها لأنها آوَتْهُ وأكرمته، ولو ضربها لكان ذلك حجة عليه لأنها تقول: راودني فمنعته فضربني. ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ﴾ وهكذا ثبتنا يوسف على الطهر والعفاف لنصرف عنه سوء الخيانة ومعصية الزنى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾ إنه من عباد الله الذين أخلصوا الطاعة لله، أو بمعنى إنه من عباد الله الذين اصطفاهم بالنبوة واختارهم على غيرهم.

ولقد صوّر القرآن موقف الإغراء من المرأة مع يوسف تصويراً واقعياً وبأسلوب مهذب بعيداً عما يخدش الحياء أو يجرح الشعور الإنساني، مبيناً عظمة الترفع عن الزنا ومقاومته بما هو أمثولة للرجال عندما يقعون في مثل هذه المواقف الحرجة من الإغراء بالفاحشة وطغيان الشهوة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا
قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾
يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ
ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

شرح المفردات

واستبقا الباب: أي تسابقا للوصول إلى الباب.

قدَّت قميصه: قطعته وشقته.

من دُبُرٍ: من خلف.

ألفيا: وجدا.

راودتني عن نفسي: طلبتني بإغراء للجماع.

من قُبُلٍ: من أمام.

كيدكن: الكيد هو المكر والاحتيال والوسيلة التي يتذرع بها الكائد للوصول إلى غرضه.

الخاطئين: المذنبين العاصين.

براءة يوسف من التهمة الباطلة

وأمام هذا الإغراء من امرأة العزيز ليوسف يطالعنا هذا المشهد الذي يظهر براءته:

﴿واسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي تسابقا إلى الباب، يوسف وامرأة العزيز كل يريد أن يصل إليه قبل الآخر، هو ليهرب منها يبغي الخلاص،

وهي لتمنعه من الخروج وتحمله على الاستسلام لها. ولمّا سبقها يوسف إلى الباب جذبت قميصه جذبة قوية ترتَّب عليها قطع القميص وشقه من الخلف لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ﴾ أي وهما في هذه الحالة وَجَدا سيدها وهو زوجها عند الباب، والتعبير عن الزوج بالسيد كان من عادات القوم في ذلك الزمان، أو الإيحاء بأن الزوج له القوامة على المرأة وهو بالنسبة لها كسيدها. ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قالت لزوجها حين رآهما على تلك الحالة من التدافع: ما جزاء هذا الذي دخل إلى مخدعي وأراد بزوجتك السوء إلا السجن أو العذاب الشديد الإيلام على فعلته الشنيعة هذه؟

بهذه التهمة الباطلة أرادت امرأة العزيز أن تبرىء نفسها، وفي الوقت نفسه تهدّد يوسف وتظهر له مقدرتها على سجنه وتعذيبه طمعاً في أن يستجيب لرغباتها.

ولكن يوسف دافع عن نفسه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتني عَنْ نَفْسِي﴾ أي زوجتك هي التي عملت على إغرائي وإغوائي بارتكاب الفاحشة معها فامتنعت وهربت منها.

ولا ريب أنه في هذه الحالة التي يتبادلان فيها التهم يحتاج الأمر إلى تفكير وروية ومشاورة، والذي شاوره الزوج هو رجل من أهل المرأة اشتهر بالرأي الثاقب كان في القصر حينئذ أو جاء لتوه، وهذا الشاهد أبدى رأيه على ما رأى من قرينة وحجة تشهد ببراءة يوسف:

﴿وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِهَا إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبينَ﴾ أي سمعنا أن قميص يوسف قد شُقَّ، فإن كان قميصه شُقَّ من قُدّامه فقد صدقت في ادعائها لأن هذا يعني أن يوسف كان مندفعاً نحوها يريد اغتصابها وهي تدافع عن نفسها فتمزق القميص في يدها من قدّامه، فتكون في هذه الحالة صادقة ويوسف من الكاذبين في ادعائه البراءة.

وتابع هذا الشاهد قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي وإن كان قميص يوسف شُقَّ من خلف فهذا يعني أنه كان يحاول الفرار والتخلص منها وهي تلحق به وتمسك قميصه من خلف لتمنعه من الهرب، وهذا يعني أنها كاذبة في اتهام يوسف بالاعتداء عليها، وهو من الصادقين بأنها هي التي راودته عن نفسه.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ﴾ فلما نظر الزوج إلى قميص يوسف رآه مشقوقاً من خلف ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أي قال لامرأته: إن اتهامك ليوسف بأنه أراد بك سوءاً ناشىء من مكركن أيتها النسوة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي إن مكركن يا معشر النسوة عظيم بالرجال.

هذه الآية تبين مدى كيد النساء بالرجال، وقد دلت وقائع الأيام عبر التاريخ على مصداق ذلك، فالنساء بما حباهن الله من جمال وفتنة ودهاء لهن القدرة على تنفيذ أصعب المهمات التي يعجز عنها الرجال.

وفي الأحوال التي تحصل فيها الفتن والمشاكل بين الناس قيل في ذلك على لسان أحد القادة المشهورين (فتش عن المرأة).

وبعد هذه القرينة التي تشهد ببراءة يوسف التفت العزيز إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي يا يوسف أعرض عما جرى ولا تتحدث به حتى لا تفضح امرأتي، ثم خاطب امرأته قائلاً: ﴿واسْتَغْفِري لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ أي توبي إلى الله واطلبي المغفرة مما رميت به يوسف من التهمة الباطلة، إنك كنت من الآثمين المتعمّدين لاقتراف الذنب، وكان العزيز رجلاً حليماً فاكتفى بهذا القدر من تأنيبها، وقيل إنه كان قليل الغيرة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ
شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ
هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ
عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ
الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا
تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ
رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

شغفها حبّاً: شق حبه شغاف قلبها وتمكّن منه، والشغاف حجاب القلب.

ضلال مبين: بُعْد واضح عن الصواب.

بمكرهن: باغتيابهن لها وسوء مقالتهن.

أعتدت لهنّ متكئاً: هيّأت لهن ما يتكئن عليه من الوسائد.

أكبرنه: أعظمنه ودهشن من جماله الرائع.

قطّعن أيديهن: جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط ذهولهن ودهشتهن من جماله.

حاشَ لله: تنزيهاً لله أن يكون هذا المخلوق من جنس البشر.

فاستعصم: امتنع وأبى

الصاغرين: الأذلاء المقهورين.

وإلاّ تصرف عني كيدهن: وإن لم تحفظني من شرّ إغوائهن وخداعهن.

أَصْبُ إليهن: من الصبوة وهي المَيْل إلى شهوات النفس.

من الجاهلين: من أهل السفاهة والطيش.

فصرف: فأبعد.

نسوة في المدينة ينبهرن بجمال يوسف

وما جرى بين امرأة العزيز ويوسف تسرّب خبره إلى نسوة من نساء المدينة، لأن نساء القصور يجدن دائماً من يتطوع بإذاعة أخبارهن عن طريق الخدم فعبن عليها سلوكها مع خادمها:

﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدِينَةِ ٱمْرَأَةُ العَزِيزِ**[١] **تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ**﴾ أي قال نسوة من نساء المدينة على سبيل النقد والتشهير: إن امرأة العزيز صاحبة المكانة العالية تراود فتاها ـ أي خادمها ـ عن نفسه وتطلب منه مواقعتها، وأنه ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ والشغاف جلدة رقيقة محيطة بالقلب، أي أن حبها له صار محيطاً بقلبها كما يحيط الشغاف بالقلب حتى تكاد لا تنظر إلى غيره، هو تعبير بليغ يبين مدى العشق الذي أصاب قلب امرأة العزيز نحو يوسف ﴿**إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ أي إننا لنراها بفعلها هذا في خطأ بالغ وبعد عن الصواب.

﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ**﴾ فلما سمعت امرأة العزيز اغتيابهن إياها في شأن حبها ليوسف وسوء كلامهن فيها ﴿**أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ**﴾ دعتهن إلى وليمة في بيتها ﴿**وأَعْتَدَتْ لهن مُتَّكَئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً**﴾ وهيأت لهن وسائد يتكئن عليها كما أعطت امرأة العزيز كل واحدة من ضيوفها سكيناً حادة لتقطع به ما يحتاج إلى القطع كالفواكه واللحم. «فالإنسان حين يجلس على كرسي مريح بوسائد لا بد أن يسترخي وفي استرخائه تضعف يقظته الذهنية، فلو صودف أنه استرخى وبيده سكين لقطع الفواكه وغيرها وحدث أمر طارىء فوق الحسبان أدى ذلك إلى انفعال نفسي وبحركات لاشعورية يغرس السكين بيده بدل غرسها بالفاكهة أو باللحم»[٢]. وفي هذا الجو من الاسترخاء والرفاهية قالت امرأة العزيز ليوسف ﴿**وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**﴾ تريد بذلك أن يفاجئهن بجماله وهن يأكلن الطعام ويمسكن السكاكين لقطع

---

(١) عزيز مصر بحسب اصطلاح المصريين قديماً هو حاكمها والمتصرف فيها بعد مليكها.
(٢) باختصار عن كتاب «يوسف» تأليف: د. زاهية الدجاني.

ما يحتاج إلى القطع، فخرج يوسف عليهن وهن في تلك الحالة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي لمّا رأت النسوة يوسف وجماله الفتان وحسنه الفائق أعظمنه فذهلن عن أنفسهن ودهشن من شدة حسنه وجماله فجرحن أناملهن بما بين أيديهن من السكاكين لفرط انبهارهن، وفي التعبير عن الجرح بالقطع دليل على كثرة جراحهن. وهذه طبيعة الإنسان فقد تصل به المحبة إلى درجة لا يشعر فيها بما حوله ويتصرف تصرفات غير متزنة، فلنحذر من تلك المحبة التي تورد إلى المهالك.

وأمام جمال يوسف الباهر: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي قلن مندهشات: تنزيهاً لله سبحانه عن صفات النقص، والعجز عن خلق مثل هذا الجمال المثالي ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾أي ما هذا الذي نراه بشراً بل هو ملك من الملائكة، يردن بهذا وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال، وقد جرت العادة في تشبيه كل إنسان متناهٍ في الجمال بالمَلك، وكل متناهٍ في القبح بالشيطان. وفي وصف يوسف بأنه ملك كريم إعطاء العذر لامرأة العزيز في ما فعلت لروعة جمال يوسف وتأثيره القوي على النساء.

هنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها فتوجهت بالخطاب إليهن ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي هذا هو الفتى الذي وجّهتنّ اللوم لي في حبه ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي وأؤكد لكم أنني أنا التي طلبت منه أن يمكّنني من نفسه بشتى المغريات فامتنع وأبى، ثم قالت مهدِّدة إياه: ﴿وَلَئِن لَمْ يَفْعَل مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي ولئن لم يفعل ما آمره به ولم يطاوعني في ما دعوته إليه ليسجنن عقوبة له ليكون من الأذلاء المهانين. وفي هذا دلالة على أنها كانت ذات سلطة وتأثير على زوجها بحيث كان لا يعصي لها أمراً.

والظاهر أن هؤلاء النسوة نصحن يوسف أن يوافق على ما تدعوه إليه سيدته وخوّفنه من مغبة عصيان أمرها وبلّغنه تهديدها إياه بالسجن.

أمام هذا التهديد السافر لجأ يوسف إلى ربه مستجيراً به: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدعونني إِلَيْهِ﴾ أي يا رب إن دخولي السجن الذي هدَّدَتْني امرأة العزيز به أحب إليّ وآثَرُ عندي مما يدعونني إليه هؤلاء النسوة من ارتكاب الفاحشة ﴿وَإِلاّ تَصْرِفْ عنّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي وإن لم تصرف عني يا رب كيدهن بتثبيتي على ما أنا عليه من العفة أُجبهن إلى ما طلبنه مني، والصبوة هي الميل إلى الهوى ﴿وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ وأكن من السفهاء الطائشين، وهذا الوصف فيه دليل على أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة وهذه الجهالة تؤدي إلى الإضرار به وإلى سخط الله عليه.

وأما قول يوسف عليه السلام ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ فيشمل امرأة العزيز وسائر النسوة والكيد منهن هو الترغيب له في طاعة سيدته، وتخويفه من مخالفة أمرها، ويحتمل أن كل واحدة منهن كانت تخلو به وترغبه في نفسها وتراوده عن نفسه.

﴿فاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فتفضَّل عليه ربه الذي يتولّى تربيته ويحوطه بعنايته فاستجاب له دعاءه وصرف عنه حيلهن للإيقاع به، وهذا يدل على أنه لا يقدر أحد عن الكف عن معصية الله إلاّ بتوفيق ولطف منه وأن الله سبحانه يستجيب دعاء المخلصين له ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ إن الله سبحانه يسمع دعوات الملتجئين إليه ويعلم أحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ
مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا
بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ
إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن
نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

شرح المفردات

ثم بدا لهم: أي ظهر للعزيز وأهل مشورته

الآيات: العلامات الدالة على براءته.

أعصر خمراً: أي أعصر عنباً يصنع منه الخمر، سُمّي باسم ما يؤول إليه.

نبئنا بتأويله: أخبرنا بتفسير ما رأيناه في المنام.

ملة: دين.

إلصاق التهمة بيوسف وسجنه

ولمّا انتشرت أخبار امرأة العزيز مع يوسف في أرجاء المدينة رأى العزيز وأهل مشورته أنه لا يخلّصهم من العار ولا يكفّ ألسنة السوء عنهم إلاّ اتهام يوسف وإدخاله إلى السجن:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حِينٍ﴾ أي ثم ظهر لهم من بعد ما رأوا وعاينوا البراهين والشواهد الدالة على براءة يوسف أن يدخلوه إلى

السجن مدة من الزمن للتستر على هذه الفضيحة، وقد يكون سجنه بإيعاز من امرأة العزيز لأنها كانت مالكة لزمام زوجها ولا يعصي لها أمراً.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ ودخل السجن مع يوسف فتيان من خدم الملك[١]، أحدهما يعمل خبازاً للملك والآخر ساقي الملك الذي يقدّم له الشراب، وقد رأى كل واحد منهما في منامه رؤيا قصها على يوسف لما توسّما فيه من القدرة على تفسير الأحلام ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ أي قال ساقي الملك: إني رأيت في منامي أنني أعصر عنباً ليتحول إلى خمر بعد حين ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطيْرُ مِنْهُ﴾وقال الآخر وهو الخباز: إني رأيت في منامي أني أحمل فوق رأسي طبقاً فيه خبز، وهذا الخبز تأكل منه الطير ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسِنِينَ﴾ أخبرنا يا يوسف بتفسير ما رأيناه في المنام إننا نراك ممن يحسنون تفسير الأحلام، ومن المحسنين الذين يريدون الخير للناس، ووصفه بذلك لأنه كان يخفف من بلواهم ويعينهم في حوائجهم في السجن.

وبعد أن آنس يوسف منهما الثقة به قال لهما: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي لا يأتيكما طعام من خارج السجن لتأكلاه إلا أخبرتكما ﴿قَبْلَ أن يَأْتِيَكُمَا﴾ قبل أن يصل إليكما عن صفته وجنسه ومقداره وكيفيته فيجدانه كذلك، وفي ذلك إيماء إلى أنه أُوتي علم الغيب ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا

(١) روي أن جماعة من أشراف مصر أرادوا اغتيال الملك فأغروا خباز الملك وساقيه بالمال على أن يدسّا السمّ في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك، ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك، وقبل الخباز الرشوة ودسّ السم في طعام الملك، فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى، فأطعم من ذلك الطعام لدابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما. ثم أُفرج عن ساقي الملك بعد ظهور براءته وقتل خباز الملك لثبوت اشتراكه في المؤامرة على حياة الملك.

﴿عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي ذلكما الذي عرفته من تفسير المنامات والإخبار بالمغيّبات هو بعض ما علمني ربي بالوحي والإلهام ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يؤمنونَ بِاللَّهِ﴾لأني تركت دين قوم لا يؤمنون بوحدانية الله بل يشركون معه آلهة أخرى، والمراد من تركه لدينهم أنه لم يدخل فيه أصلاً ليتركه بعد ملابسته ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي لا يؤمنون بالبعث ولا بالثواب والعقاب من الله على أعمالهم يوم الجزاء.

وتابع يوسف قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبْراهيمَ وإسحٰق وَيَعْقُوبَ﴾ أي واتبعت دين آبائي الذين أرسلهم الله لهداية الخلق وهم: إبراهيم، ومن بعده ولده إسحق، ثم حفيد إبراهيم يعقوب الذي هو والدي وسماهم يوسف آباءه لأن الأجداد بمنزلة الآباء.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما صح ولا استقام لنا نحن معشر الأنبياء أن نجعل لله شريكاً،فكل ما في الكون مخلوق له، وآيات شاهدة على وحدانيته فهو مستحق وحده للعبادة ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي ذلك المنهج من توحيد الله هو من فضل الله علينا حيث خصَّنا بالنبوة، وأوحى لنا، وهو أيضاً من فضل الله على الناس حيث وفقنا لإرشادهم إلى عبادة الله وحده واتباع شريعته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ ولكن أكثر النَّاس لا يشكرون الله بعبادته وحده واتباع رسله، ولا يشكرون الله على نعمه الجزيلة التي لا تحصى.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ
ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ
أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن
رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ
مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ
فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

شرح المفردات

الأرباب متفرقون: ءآلهة متعددون.

القهّار: مبالغة في قاهر، والقاهر من صفات الله لما له على عباده من غلبة وسلطان.

سلطان: حجة وبرهان

ذلك الدِّين القيّم: ذلك الدين المستقيم والمقوّم لأمور الناس المصلح لها.

فيسقي ربه خمراً: فيسقي سيده الملك خمراً.

تستفتيان: تطلبان الفتيا.

اذكرني عند ربك: أخبر سيدك الملك بشأني وعرّفه حالي.

فأنساه الشيطان ذِكْرَ ربه: أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك.

بضع سنين: البضع هو العدد من الثلاث إلى التسع.

يوسف يدعو إلى عبادة الله وحده

وقبل أن يجيب يوسف على طلب السجينين بتفسير مناميهما، اغتنمها فرصة لوعظهما ودعوتهما إلى عبادة الله وحده مبيناً بطلان تعدد الآلهة التي كانت شائعة في مصر آنذاك:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي يا صاحبيّ ورفيقيّ في السجن أخبراني: أعبادة عدد من الأرباب متفرقين في ذواتهم وصفاتهم خيرٌ أم عبادة الله الواحد «القهار» لكل من غالبه. والمراد بالأرباب المتفرقين الآلهة المختلفة في الذوات والصفات والأشكال التي كان يصورها لهم الكهنة من رسوم منقوشة وتماثيل منصوبة في الهياكل والمعابد.

فتعدُّد الآلهة يشوّش عقل الإنسان ويرميه في متاهات الخرافات والشعائر الوهمية، كما يفرّق شمل الجماعات الإنسانية، وذلك من جرّاء تأليه كل طائفة آلهة تختلف عن الأخرى، بينما عبادة الله الواحد والخضوع له وحده تحرر الإنسان من الأوهام وتوحّد قلوب الناس.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي ما تعبدون من غير الله من أصنام وغيرها إلا أسماء لا حقيقة لها مجردة من كل فاعلية وقوة أطلقتم أنتم وآباؤكم عليها صفة الألوهية، وما هي في الحقيقة إلا خيالات وأوهام لا وجود لها، وما هي بآلهة تخلق وترزق، ولا تضر ولا تنفع فكيف تجعلونها آلهة؟ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله من حجة تشهد بألوهيتها، وليس لديكم برهان على وجوب عبادتها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أي ما القضاء والحكم في شأن العقائد والعبادات والأمر والنهي إلاّ لله وحده الذي لا شريك له ولا إلّه غيره ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أمر أن لا تعبدوا غيره سبحانه فهو وحده المستحق للعبادة ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ذلك الدين المستقيم القويم الذي تهدي إليه الأدلة والبراهين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة بسبب جهلهم وإضلالهم من قِبَلِ رجال دينهم فتوجهوا إلى غير الله بالدعاء والعبادة.

يوسف يفسّر منامي صاحبيه

وبعد أن وعظ يوسف رفيقيه في السجن ودعاهما إلى عبادة الله وحده شرع في تفسير مناميهما فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّه خَمْراً﴾ أي يا صاحبيّ اللذين عرفتهما في السجن أمّا أحدكما الذي رأى في منامه أنه يعصر خمراً فسيخرج من السجن بريئاً ويسقي سيده الملك خمراً ﴿وَأَمّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وأما الآخر الذي رأى في منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير فيقتل ثم يُصلب وتأكل الطير من رأسه.

والجدير بالذكر أن يوسف لم يعيّن من هو الذي يسقي الملك خمراً ولا من هو الذي سيُصلب وإنما اكتفى بقوله: «أما أحدكما.. وأما الآخر» تحرجاً من مواجهة صاحب المصير السيىء بمصيره، وإن كان في تعبيره ما يشير إلى مصير كل منهما ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الّذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي تم الأمر وأحكم في ما كنتما تطلبان الفتوى فيه وهو إخبار لما علمني ربي إياه. وقد صدق يوسف في تفسير مناميهما وتحقق كل ما أخبرهما به.

ثم قال يوسف لصاحبه السجين الذي علم أنه سينجو: ﴿وَقَالَ لِلّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرني عِنْدَ رَبِّـك﴾ أي أيها الساقي بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك، اذكرني عنده وأخبره بأني مظلوم قد حبست بلا ذنب اقترفته لعلَّه يخرجني من السجن ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ولكن الشيطان أنساه تذكير سيده الملك بقضية يوسف بسبب شواغل الخدمة المتتابعة في القصر وبسبب فرحه بنجاته، وهذه طبيعة كثير من الناس إذ ينسون أَصدقاءهم عند الرخاء ﴿فَلَبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي فكانت ثمرة هذا النسيان أن مكث يوسف في السجن بعد خروج صاحبه السجين ـ ساقي الملك ـ بضع سنين والبضع من الثلاث إلى التسع، وقد اشتهر أن يوسف مكث في السجن سبع سنين، ومكوثه هذه المدة الطويلة كان لأمر أراده الله وقدّره.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

شرح المفردات

عجاف: هزيلات (جمع عجفاء).

الملأ: الأشراف، والمراد بهم الكهان والحكماء.

أفتوني في رؤياي: فسروها لي وبينوا عاقبتها ومآلها.

تعبرون: تعرفون تأويل الرؤيا.

أضغاث أحلام: أحلام مختلطة باطلة.

ادّكر بعد أُمَّةٍ: تذكر بعد مدة من الزمن.

الأحلام: المنامات.

أنا أنبئكم بتأويله: أنا أخبركم بمن عنده علم بتفسير المنامات.

رؤيا المَلِك الغامضة

وبعد تلك السنين الطوال التي قضاها يوسف في السجن ظلماً شاءت عناية الله فيه أن يخرج من السجن ويتربّع على أعلى المناصب الدنيوية، وإذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب. فقد رأى الملك في منامه رؤيا أفزعته وأثارت اضطرابه فجمع أشراف مملكته من الكهنة والحكماء والأمراء وقال لهم:

﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي إني رأيت في منامي سبع بقرات سمينات تأكلهن سبع بقرات هزيلات نحيلات ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ورأيت أيضاً في منامي سبع سنابل خضراء قد

امتلأت حبًّا ورأيت إلى جانبها سبع سنابل يابسات قد بلغت حدّ الحصاد فالْتَوت السنابل اليابسات على السنابل الخضر حتى غلبتها ولم يبق من خضرتها شيء ﴿يَا أَيُّها الملأُ أَفْتُوني في رُؤْيَايَ إن كُنْتُم للرؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي يا أيها الأشراف من قومي فسّروا لي رؤياي وبيّنوا لي مآلها إن كنتم تعرفون تأويلها معرفة سليمة.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ قال هؤلاء الأشراف جواباً على رؤيا الملك[1]: هذه أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها، وأضافوا قائلين: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ ونحن لا نعلم تأويل الأحلام المختلطة الكاذبة، يريدون بذلك أنهم أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة.

﴿وقَالَ الذي نَجَا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وقال أحد السجينين الذي نجا من القتل وهو ساقي الملك وكان حاضراً إذ ذاك، وقد تذكر بعد مدة طويلة من الزمن براعة يوسف في تفسير الأحلام ﴿أَنَا أُنَبِّئُكم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا فابعثوني إلى من عنده العلم الصحيح بتفسيرها، ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد تفسير رؤيا الملك، فوافقوا على طلبه.

(١) هذا الملك الذي يعنيه القرآن هو (الريان بن الوليد) كما ذكر مؤرخو العرب، وهو من العمالقة (الهكسوس) الذين احتلوا الكثير من الأراضي المصرية من سنة ١٩٠٠ ق.م. إلى سنة ١٥٢٥ ق.م. ثم طردهم المصريون. وقد عبّر القرآن عن رئيس مصر الذي كان في عهد يوسف بلفظ (الملك) ولم يعبر بلفظ (فرعون) إلاّ في عهد موسى، لأن هذا الملك (الريان بن الوليد) لم يكن من القبط بل كان من البدو الغرباء. وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة (فرعون) إلا على من كان من أهل مصر وليس دخيلاً أو مستعمراً. وهذا من البراهين القوية التي تشهد بأن القرآن وحي من عند الله إذ لو كان من تأليف بشر لاتبع ما اشتُهِر عند أهل الكتاب من تسمية ملك مصر في زمن يوسف باسم (فرعون). وقد أخطأ بعض المفسرين بتسمية هذا الملك باسم فرعون.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

شرح المفردات

الصدّيق: الكثير الصدق.

لعلّهم يعلمون: أي لعلّهم يعرفون ما أنت عليه من العلم.

سبع سنين دأباً: أي تزرعون القمح سبع سنين متتابعات بلا انقطاع دائبين كعادتكم.

مما حصدتم فذروه في سنبله: فما حصدتم من القمح فاتركوه في سنابله.

سبع شداد: سبع سنين كلها جدب وقحط.

يأكلن ما قدمتم لهن: أي تستهلكون في هذه السنوات القاحلة ما ادخرتموه في سني الخصب.

مما تحصنون: مما تدخرون من البذور.

يُغاث الناس: ينقذهم الله من الشدة بنزول المطر فتجود الأرض بالزرع والثمر.

يعصرون: يعصرون ما شأنه العصر كالعنب والزيتون.

يوسف يفسر رؤيا الملك

ذهب ساقي الملك إلى السجن واجتمع بيوسف بعد هذه المدة الطويلة التي فارقه فيها، ولعلّه قدّم له العذر والأسف على نسيان إثارة قضيته أمام الملك، ثم بيّن له الغاية من الاجتماع به:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف البالغ الغاية في الصدق في أقوالك وأفعالك وفي تفسيرك للأحلام **﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ**

وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة، وإنما قال ليوسف ﴿أَفْتِنَا﴾ بصيغة الجمع للإشعار بأن هذه الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له شأن ومكانة بين الناس ﴿لَعَلّي أرْجِعُ إلى النَّاسِ لَعَلَّهم يَعْلَمُونَ﴾ أي لكي أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى من بيدهم السلطة فيعملوا بمقتضى هذه الرؤيا ويعلموا مكانتك وبراعتك في تفسير الأحلام فينتبهوا إلى قضيتك ويخلّصوك مما أنت فيه، وإنما قال يوسف ﴿لَعَلّي أرْجِع إلى النَّاسِ﴾ بأسلوب الرجاء لأنه رأى عجز الحكماء والكهنة عن تفسير هذه الرؤيا فخاف أن يعجز يوسف أيضاً عن تفسيرها ويرجع إلى الملك خائباً.

أجاب يوسف على هذه الرؤيا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ أي تزرعون أرضكم في السنين السبع الآتية زراعة مستمرة على حسب عادتكم فيها ﴿فَمَا حَصَدتُّم فَذَرُوهُ في سُنبُلِهِ﴾[1] فما حصدتم من القمح فاتركوه في سنابله لئلا يفسد ويسوّس ﴿إلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تأكلونَ﴾ أي إلا القليل منه المعدّ للأكل فإنه لا بُدّ لكم من فصله وإخراجه عن سنبله وتركِ الباقي في سنبله لتخزينه.

وفي وصيّة يوسف إياهم إرشاد لهم أن يقتصدوا في استهلاكهم للقمح إلى أقصى حدٍّ ممكن. ثم تابع يوسف قائلاً:

﴿ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي ثم يأتي بعد سنين الرخاء سبع سنين أخرى، شديدة صعبة على الناس لما فيها من الجدب والقحط ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُم لَهُنَّ﴾ أي إنكم تأكلون في هذه السنين السبع المجدبة ما كنتم قد ادّخرتم من

---

(١) فذروه في سنبلة: تتفق هذه الآية مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة فمن أين لمحمد هذه الحقائق العلمية التي جاء بها عن ربه، فلم تذكرها التوراة حتى يقال إنه اقتبسها منها؟ إنها ولا ريب معجزة علمية للقرآن تشهد بأنه وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً.

السنابل في سنوات الرخاء ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ إلا القليل الذي تدخرونه وتخزنونه للزراعة.

ولقد فسّر يوسف البقرات السبع السمينات، والسنبلات السبع الخضراء بالسنين الخصبة التي ستأتي على مصر، وفسّر البقرات الهزيلات والسنابل اليابسة بالسنين المجدبة التي تأتي عقب سنيّ الخصب.

والجدير بالذكر أن يوسف لم يقتصر على تفسير هذه الرؤيا، بل تجاوز ذلك إلى وصف العلاج للأزمة الخانقة التي ستأتي على مصر من تخزين الحب في سنبله والاقتصاد في استهلاك ما يأتيهم من الغلال. وبهذا التأويل من يوسف أنقذ الله مصر من مجاعة دامت سبع سنين بفضل ما ألهمه الله بتفسيرها على هذا النحو.

ثم تابع يوسف قوله أخيراً ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلك عَامٌ فِيه يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي ثم يأتي بعد هذه السنين السبع المجدبة القاحلة عام فيه يغاث الناس بالمطر وفيه تجود الأرض بالغلاّت والنعم، وفيه يعصرون ما يقبل العصر من الثمار والحب كالعنب والزيتون والسمسم وقصب السكر.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

شرح المفردات

ما بال النسوة: ما حالهن.

ما خطبكن: ما شأنكن وأمركن.

حاشَ لله: تنزيه لله وتعجبٌ من نزاهة يوسف وعفّته.

حصحص الحق: بان وظهر بعد كتمانه.

كيد: الكيد هو تدبير الشر خفية.

الملك يحقق في المؤامرة على يوسف

نقل الساقي إلى الملك تأويل الرؤيا التي فسّرها يوسف، وعلم أن تأويلها ينسجم مع رؤياه مما يدل على رجاحة عقل مفسرها، فأمر باستدعائه إلى قصره ليستوضحه بعض التفاصيل وهذا ما حكاه الله بقوله:

﴿وَقَالَ المَلِكُ ٱئتوني بِهِ﴾ في الكلام هنا حذف تقديره: وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه تفسير يوسف لرؤياه أحضروه لي **﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾** فلماء جاء رسول الملك إلى يوسف يبلغه رغبة الملك في لقائه بادره يوسف قائلاً: **﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ﴾** أي ارجع إلى سيدك الملك واطلب منه أن يحقق في المؤامرة التي حيكت ضدي ويستجوب النسوة اللاتي حضرن وليمة امرأة العزيز وجرحن أيديهن في تلك الوليمة ليشهدن في

القضية التي سجنت بسببها، لأنهن كن شاهدات على إقرارها بأنها هي التي راودته عن نفسه ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إن ربي العالم بخفايا الأمور هو عليم بما دبّرن من الحيل للإيقاع بي.

لم يتلهف يوسف إلى الخروج من السجن ومقابلة الملك مع ما في ذلك من بشرى بالفرج له، بل تمهّل وآثر البقاء في السجن حتى تبرأ ساحته من الجريمة التي أُلصقت به ظُلماً وعدواناً، ويُظهر للملك حقيقة المؤامرة التي حيكت ضده، وعند ذلك يقابل الملك مرفوع الرأس وافر الكرامة.

رجع رسول الملك بهذه الرسالة من يوسف فلم يغضب الملك بسبب عدم مثول يوسف بين يديه، بل قابل ذلك برحابة صدر، فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز في قصره للتحقيق في المؤامرة على يوسف وخاطب الملك هؤلاء النسوة:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي ما الأمر الهامّ الذي حملكن في الماضي على أن تراودن يوسف عن نفسه؟ هل وجدتنّ منه استجابة لما طلبتن؟ وهل داعبكن حتى تجرأتم على ذلك؟ خاطب الملك جميع النسوة وكان قصده بذلك امرأة العزيز ليكون أستر لها، أو لأنهن نصحن يوسف بطاعة امرأة العزيز في ما طلبت من الفاحشة.

أجابت النسوة بصوت واحد ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً للّه وتعجباً من نزاهة يوسف وعفته ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، ما علمنا عليه من فعل سيىء صدر منه. أمام هذه الشهادة الجماعية من النسوة بطهارة ويوسف وعفته وبراءته من التهمة المنسوبة إليه رأت امرأة العزيز أن تعترف بالحقيقة والواقع لأنها إذا بقيت مصرّة على رأيها فلربما شهد عليها هؤلاء النسوة بما اعترفت لهن سابقاً بأنها هي التي راودته عن نفسه وهددته بالسجن، أو لعلَّ ضميرها قد استيقظ بعد هذه المدة الطويلة، هنا ارتفع صوتها: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي قالت: الآن ظهر الحق وتبيّن ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أنا التي حاولت إغراءه وفتنْتُه ودَعَوْتُه إلى الفاحشة ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإنّ يوسف صادق في قوله دفاعاً عن نفسه: هي راودتني عن نفسي.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ذلك الذي اعترفت به ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال غيبته وهو في السجن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يهدي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ والله لا يرشد إلى الحق ولا يسدد أمر من يدبّر الشر للغير خفية بل يبطله. ثم أكدت اعترافها بما صدر منها من إثم قائلة:

﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وما أبرّىء نفسي مع ذلك مما صدر مني من الخيانة والبهتان حين قلت في حق يوسف ما قلت إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلاّ نفساً رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربي كثير الغفران لمن تاب عن ذنبه رحيم له بقبول توبته.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

شرح المفردات

أستخلصه لنفسي: أي أجعله خاصاً بي أُفوّض إليه أمر مملكتي.

مكين أمين: صاحب مكانة رفيعة مؤتمن على كل شيء.

حفيظ: أي حافظ ما استودعتني من أموال المملكة.

مكنّا ليوسف في الأرض: قوّينا مركزه في مصر.

يتبوأ منها: التبوء هو اتخاذ المكان للنزول به.

يتقون: يقون أنفسهم ما حرّم الله ويطيعونه في ما أمر.

يوسف أمين على خزائن مصر

وبعد أن ثبت للملك براءة يوسف من التهمة الباطلة وإيثاره السجن على ما دعته إليه امرأة العزيز وصاحباتها إلى الفاحشة، قال لرجاله:

﴿وَقَالَ المَلِكُ ٱئتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنفْسِي﴾ أي أحضروا لي يوسف أتّخذه خالصاً لنفسي في تدبير أمور مملكتي، وإنما قال الملك ذلك لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن ووفائه لسيده وثباته على المحن.

وإذا نظرنا إلى تصرف الملك في المرة الأولى عندما بلغه علم يوسف في تأويل الرؤيا وحسن تدبيره للأمور الصعبة قال: ﴿ٱئتوني به﴾ ولكن عندما تحقق من براءة يوسف ونزاهته قال: ﴿ٱئتُوني به أَسْتَخْلِصْه لِنَفْسي﴾ وهذا يبين مدى الاحترام والإعجاب الذي شعر به الملك نحو يوسف ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ هنا يوجد حذف لبيان سرعة الإتيان به. والمعنى: فَأَتوْا بيوسف فلمّا حضر إليه وجرى بينهما الحديث وشاهد منه الملك ما شاهد من عِلْمٍ وفطنة وصدق ﴿قَالَ إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمينٌ﴾ قال الملك: إنك اليوم لدينا ذو مكانة ومنزلة رفيعة وأنت مؤتمن على كل شيء، عند ذلك قال يوسف وقد رأى ثقة الملك به:

﴿قَالَ ٱجْعَلْني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ قال يوسف للملك: اجعلني والياً على مصادر خيرات أرض مصر وهي الأمكنة التي تختزن فيها الأموال والمؤن والغلال ﴿إِنّي حَفيظٌ عَلِيمٌ﴾ إني حفيظ لها من التبذير فلا أصرفها في غير مصارفها وإني عليم بوجوه التصرف فيها ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأَرْضِ﴾ أي كما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من البئر وخلّصناه من السجن كذلك جعلنا له مكانة وسلطة في الأرض بنفوذ رأيه بحيث لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ينزل منها حيث يشاء ويتصرف فيها بما يريد ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ فنخصّ برحمتنا من نشاء من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان والإنعام عليه ﴿وَلا

نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحسِنينَ﴾ ولا نضيع ثواب أعمالهم الحسنة في الدنيا **﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾** ولثواب الآخرة أفضل من ثواب الدنيا حيث يجازيهم الله بالنعيم الدائم في الجنة **﴿لِلَّذينَ آمنوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾** وهذا الجزاء الحسن هو للذين صدَّقوا بوحدانية الله وكانوا يتقون الشرك بالله وما نهى عنه.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ
أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ
عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ
لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

شرح المفردات

وهم له مُنكرون: أي لا يعرفونه لبعد عهدهم به وظنهم أنه هلك.

ولمّا جهَّزهم بجهازهم: أعطاهم كل ما يحتاجون إليه من المؤن والزاد لسفرهم.

أُوفي الكيل: أجعل الكيل وافياً كافياً.

خير المنزِلين: خير المضيفين.

فلا كيل لكم عندي: فلا أكيل لكم بعد ذلك ما تحتاجونه من طعام.

سنراود عنه أباه: سنحتال على أبيه ونفاوضه في ذلك.

لفتيانه: لخدمه وأتباعه.

اجعلوا بضاعتهم في رحالهم: اجعلوا ثمن ما اشتروه من طعام في أوعيتهم.

إذا انقلبوا إلى أهلهم: إذا عادوا إليهم.

يوسف يتعرّف على إخوته

تحقق تأويل يوسف لرؤيا الملك بمجيء السنوات السبع الخصبة فرعاها يوسف بتدبيره وخزن الفائض من الغلات، ثم جاءت بعدها السنوات السبع المجدبة فحصل جوع وقحط ولا سيما في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين.

وقد أصاب يعقوب وأولاده كما أصاب غيرهم ضيق شديد في عيشهم، وسمع يعقوب من بعض الرحّالة بوجود الخير والرزق في مصر، فطلب من أولاده جميعاً باستثناء بنيامين أن يذهبوا إلى مصر وزوَّدهم ببضاعة وفضة لشراء ما يحتاجون إليه من الحنطة.

دخل الإخوة إلى مصر فرأتهم العيون الراصدة من قبل يوسف وقد كانوا في مظهر وعدد يلفت الأنظار فأخذوهم إلى بلاطه: **﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرون﴾** لقد عرف يوسف إخوته من ملامحهم وكلامهم وأزيائهم الخاصة بأهل فلسطين، أما الإخوة فلم يعرفوا يوسف بعد هذه المدة الطويلة من إلقائه بالبئر وقد تغيّرت ملامحه بعد أن أصبح شابًّا وتزيّا بزيّ الحكام، وما عليه من مظاهر السلطان، وتغير اسمه، لأن ملك مصر أطلق عليه اسم (صفنات فعنيح) ومعناه قوت الأحياء.

أكرم يوسف وفادة إخوته وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه، ثم استدرجهم بعد ذلك في الحديث فعرف منهم على وجه التفصيل كل أحوالهم.

ويروى أنهم لما دخلوا عليه سألهم أسئلة تنمّ عن جهله بهم فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا لشراء حاجتنا من الطعام المدَّخر لديكم، قال يوسف: لعلَّكم جواسيس علينا؟ قالوا: معاذ الله... قال: كم ولداً أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر ولداً فهلك منا واحد وبقي واحد مع أبينا **﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِم﴾** ولمّا جهّز يوسف إخوته بالطعام من الحنطة وأعطاهم كل

ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف للدواب ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وكان يوسف يدرك تماماً أنهم متى نقلوا هذه الجملة لأبيهم استغرب ودهش وظن أن الرجل الحاكم على مصر يرمي إلى هدف ما من هذا الطلب، وإلاّ فمن عرّفه أن لهم أخاً من أبيهم، فيوسف أراد أن يفهم أباه أن في الأمر سرّاً فيتحرك ذهنه، ويشرع في البحث عن ذلك السر. وهذا ما فهمه يعقوب وهو أن ابنه يوسف في مصر بدليل أنه قال لأولاده في رحلتهم الثالثة إلى مصر: ﴿يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فتحسَّسُوا مِن يُوسُفَ وأخيهِ﴾.

وبعد أن طلب يوسف من إخوته إحضار بنيامين معهم في رحلتهم المقبلة قال لهم: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ألا تشاهدون كيف أني أعطي الكيل وافياً لكم ولكل الناس بالعدل وأنا أفضل المكرمين لضيوفه ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ فإن لم تأتوني بأخ لكم من أبيكم ـ وهو بنيامين الذي بقي في فلسطين مع أبيه ـ فلا طعام أبيعه لكم ولا تدخلوا بلادي مرة ثانية.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ قال إخوة يوسف سنحتال على أبينا ونجتهد لإحضاره لك وإنَّا لقادرون على ذلك.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم فِي رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف لخدمه وأتباعه الموكَّلين بالكيل: اجعلوا بضاعتهم التي اشتروا بها الطعام في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لَعَلَّهُم يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِم﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم، إذ إن بضاعتهم لا تُعرف بأنها قد ردّت إليهم إلاّ بعد تفريغ حمولتهم ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يعرفون فضله ويرجعون إليه. والقصد من ذلك هو تخوّف يوسف بأن لا يكون عند أبيه من المال ما يعطيه لأبنائه لمعاودة شراء الحنطة فيما بعد فيمتنعوا عن الرجوع إلى مصر فلذلك رد المال إليهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ
أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا
كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ
قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ
مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ
ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

شرح المفردات

ولمّا فتحوا متاعهم: ولمّا فتحوا أوعيتهم التي فيها الحنطة.

ما نبغي: أيّ شيء نطلب من الإحسان بعد ذلك.

هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا: هذا ثمن ما اشتريناه قد رد إلينا والبضاعة هي فضة غير مضروبة وغيرها.

ونمير أهلنا: ونجلب لأهلنا الطعام، والميرة بكسر الميم وسكون الياء هي الزاد الذي يؤتى به من مكان إلى آخر.

حتى تؤتُوني موثقاً: حتى تعطوني عهداً مؤكداً بالقسم بالله.

يُحاط بكم: تُغلبوا، أو تهلكوا جميعاً.

فلمّا آتوه موثقهم: فلمّا أعطوه العهد المؤكّد بالقسَم.

وكيل: رقيب مطلّع.

الإخوة يطلبون من أبيهم إرسال بنيامين معهم

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم بما معهم من مؤن وطعام، فقصوا عليه ما جرى لهم مع وزير المال ـ أي يوسف ـ وما لقوا منه من حفاوة وتكريم وكيف أنه أنذرهم

بمنع الكيل عنهم إن هم عادوا إلى مصر ثانية ولم يكن معهم أخوهم بنيامين، وهذا ما حكاه الله عنهم فقال:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم في فلسطين قالوا له: يا أبانا لقد أنذرنا وزير المال بأن يمنع الكيل عنا إن لم نأت بأخينا معنا في الرحلة القادمة، والمراد بالكيل الحنطة التي يعطيهم إياها بالكيل **﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** فأرسِلْ معنا أخانا بنيامين إلى مصر في الرحلة القادمة لنحصل بسببه على الطعام، وإننا له لحافظون من أن يصيبه مكروه.

ثم قال يعقوب لأولاده بعد إلحاحهم أن يرسل أخاهم بنيامين معهم: **﴿قَالَ: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كما أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخيه مِنْ قَبْلُ﴾** أي هل تريدون أن أأتمنكم على ابني بنيامين، كما ائتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل، فإنه لم يحدث منكم ما يقتضي الاطمئنان على وعودكم التي وعدتموني إياها من قبل بالمحافظة على يوسف ونكثتم الوعد **﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** أي فالله خير منكم ومن سواكم حافظاً وهو أرحم الراحمين بخلقه، ولذا فإني أفوّض أمر حفظه إلى رحمة الله سبحانه فهو لن يضيعه بل يرجعه إليَّ سالماً.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولمّا فتح إخوة يوسف أوعيتهم التي وضعوا فيها طعامهم الذي جلبوه من مصر، وجدوا بجانبه بضاعتهم التي دفعوها ثمناً لهذا الطعام، وقد رُدَّت إليهم حيث وضُعت دون علمهم.

وبعد أن رأى الإخوة ذلك قالوا لأبيهم محاولين إقناعه بإرسال بنيامين معهم: **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إِلَيْنَا﴾** أي يا أبانا أيّ شيء نطلب أفضل من هذا الإكرام؟ هذا ثمن الطعام وقد رد إلينا من حيث لا ندري **﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾** وبهذه البضاعة التي ردت إلينا نجلب لأهلنا بثمنها طعاماً آخر في حال رجوعنا إلى مصر **﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾** ونحفظ في رحلتنا هذه أخانا من المكاره. أكد الإخوة لأبيهم أنهم سيحفظون أخاهم بنيامين رجاء السماح بإرساله معهم إلى مصر **﴿وَنَزْدَادُ**

﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ونزداد باصطحاب بنيامين معنا حمل بعير من الحنطة، لأن وزير المال كان يعطي كل إنسان حمل بعير فقط لا يزيده ولا ينقصه عند دفع ثمنه ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي ذلك كيل يسير عليه نظراً لسخائه وكرمه الذي عرفناه منه.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُم حَتّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّه﴾ قال يعقوب لأولاده بعد أن اقتنع بكلامهم: لن أرسل بنيامين معكم حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي أن تأتوني به وتُرجعوه لي سالماً إلا في حال أن تُغلبوا جَميعاً أو تهلكوا ﴿فَلَمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ فلما أعطوه عهودهم وأقسموا على ذلك قال يعقوب: ﴿قالَ: اللَّهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾أي إن الله رقيب مطلع على من ينقض العهد.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

شرح المفردات

وما أغني عنكم من الله شيئاً: وما تدفع وصيّتي عنكم شيئاً أراده الله.

عليه توكلت: على الله اعتمدت وفوضت أمري إليه.

آوى إليه أخاه: ضمه إليه.

فلا تبتئس بما كانوا يعملون: فلا تأسف ولا تحزن بسبب ما صنعوا بي.

وصيّة يعقوب لأبنائه قبل رحيلهم إلى مصر

اطمأن يعقوب إلى العهد الذي التزم به أبناؤه للمحافظة على ابنه بنيامين، فوافق على إرساله معهم إلى مصر للتزود من الطعام، وقبل سفرهم أوصاهم يعقوب عند دخولهم مصر بأن لا يدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة، أي أن لا يدخلوا مجتمعين بل متفرقين، وكانت المدن في ذلك الزمن محاطة بأسوار لحمايتها من الأعداء، وفي هذه الأسوار أبواب للدخول والخروج منها، وهي مراقبة خشية تسلل الأعداء والجواسيس.

﴿وَقَالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لقد طلب يعقوب منهم ذلك لكي لا يلفتوا الأنظار عند دخولهم مجتمعين فيترامى إلى أذهان حراس المدينة أنهم جواسيس فيسجنونهم ويحولون بينهم وبين تحقيق مرادهم كما أن يعقوب خاف على أبنائه من الإصابة بالعين وحسد الحاسدين لما هم عليه من وسامة وطلعة بهية وقوة الجسد وهم أبناء أب واحد، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «إن العين حق»(١) وقال: «فلو كان شيء سَابَقَ القَدَر سبقتْهُ العَيْنُ»(٢).

كما كان النبي يعوّذ الحسن والحسين بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة(٣) من كل شيطان وهامّة(٤) ومن كل عين لامّة»(٥).

وقد شهدت الوقائع والأخبار المتداولة بأثر العين من بعض الناس في إيصال الضرر للغير.

وتابع يعقوب قوله لأبنائه: ﴿وَمَا أُغْني عَنْكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لا

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه ابن ماجه.
(٣) كلمات الله التامة: كلام الله وهو القرآن لأنه لا نقص فيه.
(٤) هامّة: كل ذات سم يقتل.
(٥) أخرجه البخاري.

أستطيع أن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله لكم، فإن المقدور كائن، ولا ينفع حذر من قدر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أي وما الحكم إلاّ لله وحده لا يشاركه فيه أحد ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت في أموري كلها ﴿وَعَلَيْه فَلْيَتَوكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المتوكلون ويفوضوا أمورهم إليه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي وحين دخل أبناء يعقوب مصر من أبوابها المتفرقة كما أمرهم أبوهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما كان دخولهم المتفرق ليدفع عنهم الضرر أو السوء إن كان الله كتبه لهم ﴿إِلاَّ حَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ولكن وصيّته كانت لحاجة في نفسه أظهرها ووصّاهم بها لشدة حبه لهم، مع اعتقاده بأن كل شيء بقضاء الله وقدره ﴿وَإِنَّه لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ وإنّ يعقوب ذو علم علّمه الله إياه عن طريق الوحي ﴿وَلَكِنّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القدر، وأن الحذر لا يدفع القدر، أو أنهم لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه من العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ولمّا دخل أبناء يعقوب على يوسف ومعهم بنيامين، أكرم يوسف وفادتهم وأحسن ضيافتهم، وجعل كل اثنين في حجرة وبقي بنيامين فضمه إليه ليشاركه في الطعام والمبيت، ثم كشف له عن هويته: ﴿قَالَ إِنّي أنا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أنّ يوسف أطلع أخاه على شأنه وما جرى له وعرّفه أنه أخوه وقال له: لا تحزن ولا تغتمّ بما كانوا يصنعون معك وما صنعوه بي، ثم أمره بكتمان ذلك عنهم، وأخبره بأنه سيدبّر حيلة تبقيه عنده مكرّماً معززاً مقدمة لإحضار أبيهم يعقوب وأهله جميعاً إلى مصر.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ
إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ
صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟
تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟
فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ
جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ
ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

شرح المفردات

جهَّزهم بجهازهم: أي أعدّ لهم ما يحتاجون إليه من قمح وزاد للطريق وسائر لوازم السفر.

السقاية: إناء يُشرب فيه.

رحل أخيه: أثاثه ومتاعه.

أذّن مؤذّن: نادى منادٍ

أيّتها العِير: يا أصحاب القافلة.

صواع: هو نفس السقاية أي كل ما يشرب به أو يكال به.

ولمن جاء به حمل بعير: ولمن يعثر على صواع الملك يكافأ بحمل جمل من الطعام.

زعيم: ضامن مكافأته.

كِدْنا ليوسف: دبرنا ليوسف وهيأنا له أن يتصرف ذلك التصرف الخفي.

دِين الملك: أي حكمه وقانونه وشريعته.

يوسف يحتجز أخاه بنيامين

ثم بيّن القرآن الوسيلة التي دبرها يوسف لاستبقاء أخيه بنيامين عنده وهي

وصمه بالسرقة، وفي اتهام بنيامين اتهام لإخوته جميعاً بحيث يُذلّهم ويُدخل الكرب إلى قلوبهم، ويوقعهم في موقف حرج مع أبيهم انتقاماً منهم على عملهم السابق بإلقائه في البئر.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ولمّا جهّز يوسف إخوته بما يحتاجون إليه في سفرهم من زاد ومتاع وملأ أوعيتهم بالحنطة أمر يوسف أحد أعوانه المقرّبين له بأن يدسّ السقاية في متاع أخيه بنيامين خفية عن أعين الناس والسقاية إناء كان يشرب فيه وهو خاص بيوسف وكان من ذهب أو فضة. وقد كان يوسف يكتال به القمح في ذلك الوقت. وهذه السقاية أطلق عليها القرآن أيضاً اسم الصواع ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُم لَسَارِقُونَ﴾ أي ثم نادى منادٍ: يا أصحاب هذه القافلة قفوا حتى يُحكم في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدونَ﴾ ارتاع الإخوة لهذا النداء واتجهوا إلى المنادين يسألونهم: ما الذي ضاع منكم وعمّ تبحثون؟

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ فأجابهم أتباع يوسف: نبحث عن صواع الملك والمراد بالملك هنا يوسف عليه السلام وإنما نُسِبَ هنا للملك لأن سلطته مستمَدة منه كما أن له المُلك والسلطة على مستودعات الغذاء، وقد آثروا التعبير بـ صواع الملك تهويلاً على السامعين ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي ولمن جاء بهذا الصواع أو دل على سارقه حِمْلُ جَملٍ من القمح زيادة على حقه كمكافأة له، وأكد على ذلك رئيسهم بقوله: وأنا بهذا الوعد ضامن وكفيل بأن أقدمه لمن جاءنا بصواع الملك.

أمام هذا الاتهام الفاضح لهم بالسرقة ردّ الإخوة على ذلك مستنكرين:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي والله ما جئنا إلى بلادكم لكي نفسد فيها، ولسنا ممن يوصف بالسرقة لأننا أولاد نبي الله يعقوب ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُم كَاذِبِينَ﴾ قال عمَّال يوسف بناء على أوامره: فما جزاء من سرق صواع الملك في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعائكم البراءة من هذه التهمة وأن الصواع ليس في أوعيتكم؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ في رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ قال إخوة يوسف: جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترقّ ـ أي يصبح عبداً ـ سنة لمن سُرِق منه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء نعاقب السارقين في شريعتنا، قالوا ذلك ثقة منهم ببراءتهم من السرقة.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ عمّال يوسف بتفتيش أمتعة الإخوة العشرة قبل تفتيش متاع بنيامين بناء على أوامر يوسف لنفي التهمة عنه بأنه هو الذي دبّر هذه المكيدة ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا[1] مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ثم استخرج الصواع من متاع بنيامين بعد تفتيشه على مشهد منهم جميعاً، فلمّا رأى الإخوة ذلك نكّسوا رؤوسهم من الدهشة والذل، وأقبلوا على بنيامين باللوم والتأنيب. ثم يعقّب القرآن على ما حدث ببيان الحكمة من ذلك: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي مثل هذا التدبير الحكيم ألهمنا يوسف ما يوصله إلى غرضه وهو احتجاز أخيه بنيامين ليظل قربه، ففي مقابلة كيد إخوة يوسف كادهم الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ في دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأن يوسف ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه رقيقاً (أي عبداً) في شريعة ملك مصر التي تحكم على السارق بالضرب وتغريمه ضعفي ما سرقه ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله، وأن ما فعله يوسف كان إلهاماً من الله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي يرفع الله درجات في العلم من يشاء من عباده ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وفوق كل عالِم هناك من هو أعلى منه علماً، يقول ابن عباس: فوق كل عالِمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فهذه الآية توجيه لكل عالِم بالتواضع وعدم الغرور لأنه لا يخلو عالِم من وجود عالِم فوقه أرفع رتبة منه في العلم في اختصاصه أو في اختصاصات أخرى.

---

(١) استخرجها: الضمير لسقاية الملك الذي أطلق عليه الصواع. وقيلّ الصواع يذكّر ويؤنث.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي
نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا
مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن
وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ
خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم
مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ
يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ
فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا
لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا
فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾

شرح المفردات

أسرّها: أخفاها.

لم يبدها: لم يظهرها.

استيأسوا: يئسوا يأساً تاماً.

خلصوا نجيًّا: انفردوا متناجين متشاورين.

موثقاً: عهداً.

ما فرطتم: قصرتم و (ما) زائدة.

فلن أبرح الأرض: فلن أغادر أرض مصر.

واسأل القرية: واسأل أهل القرية.

العِير: الجِمال، والمقصود القافلة.

تهمة السرقة وأثرها على الإخوة

إن إخراج الصواع من أمتعة بنيامين أخجلت إخوته، فتنصّلوا باعتذار يبرىء ساحتهم ويلقي التهمة عليه وعلى أخيه من أمه وأبيه وهو يوسف لأن أمهما هي راحيل، فقالوا:

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي إن سرق بنيامين فقد سبقه في ذلك أخ شقيق له هو يوسف، فالسرقة هي خصلة مشتركة بينهما، قالوا ذلك وما دروا أن يوسف هو في مواجهتهم يسمع هذا الاتهام الباطل.

أما ما روي في شأن هذه السرقة فهو أن يوسف سرق وهو صغير صنماً لجده من أمه وكان هذا الصنم من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق، فعيّره إخوته بذلك. ويرى الحسن أنهم كذبوا على يوسف في ما نسبوه إليه، كما روي عن ابن عباس قوله: إن صح ذلك فإن من أخذ صنماً لكي يحطمه لا يُعتبر سارقاً شرعاً.

سمع يوسف ما قاله إخوته في حقه وفي حق شقيقه بنيامين فساءه ذلك **﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾** أي أخفى يوسف في نفسه امتعاضه من إخوته ولم يردّ عليهم كتماناً لأمره **﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾** أي وأضمر في نفسه جواباً لو صرّح به لقال: أنتم أسوأ مكانة ومنزلة **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾** والله أعلم مني ومنكم بما تصفون به غيركم من الأوصاف التي يخالفها الحق وينكرها الواقع.

ولم يكن بد من محاولة لتخليص بنيامين من الرق ـ وهو عقوبة السرقة ـ تنفيذاً للعهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام والدهم يعقوب بالمحافظة على بنيامين، فصار الإخوة يستعطفون قلب يوسف ويثيرون شفقته: **﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيخاً كَبِيراً﴾** أي يا أيها السيد المبجّل إن أخانا هذا الذي أخذته لتسترقّه مدة سنة قد ترك من خلفه في بلادنا أباً طاعناً في السنّ مولعاً بحبه لا يستطيع فراقه **﴿فَخُذْ أَحَدَنَا**

مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إن كان ولا بد أن تأخذ واحداً على سبيل الاسترقاق فخذ أحدنا بدلاً منه إننا نراك من المحسنين فقد أكرمتنا فيما مضى، فأتمم إحسانك بإطلاق سراحه.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ قال يوسف: نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نقع في الظلم باسترقاق غير من عثرنا المكيال عنده ﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ إننا إذا فعلنا ذلك نكون من الظالمين الذين يأخذون البريء بذنب المسيء.

ثم يصوّر القرآن نفسية الإخوة بعد أن رفض يوسف الإفراج عن أخيهم بنيامين: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ استيأسوا: يئسوا يأساً تامًّا، «فالسين والتاء للمبالغة». خلصوا: من الخلوص بمعنى الانفراد. نجيًّا: مصدر أطلق على المتناجين في السر. والمعنى: فلما يئسوا يأساً تامّاً من إطلاق سراح أخيهم بنيامين انفردوا عن الناس وراحوا يتناجون سرّاً ويتشاورون في أمرهم.

هذه الآية من جوامع الكلم فبكلمات قليلة وإيجاز محكم وصف الله حالة الإخوة وقد تملّكهم اليأس واعتزلوا الناس يتناجون سرّاً ويتشاورون وقلّ أن تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة قصيرة كهذا النص القرآني.

وحين اختلى الإخوة بعضهم ببعض لينظروا في أمرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُم أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُم قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ﴾ أي قال كبير إخوة يوسف في السنّ أو في العقل حين رآهم مجمعين الرأي على العودة إلى أبيهم دون بنيامين: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً مؤكداً حين حلفتم بالمحافظة على بنيامين وإرجاعه إليه سالماً ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُم فِي يُوسُفَ﴾ ومن قبل بنيامين كنتم قد قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا العهد مع أبيكم وقد قلتم لأبيكم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ ثم نكثتم العهد فكيف نعود إليه بعد كل ما جرى ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالعودة إليه

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ أو يحكم الله لي بالخروج من مصر على وجه لا يؤدي إلى نقض العهد مع أبي، أو بعد تخليص أخي من الرق بوسيلة من الوسائل.

ثم تابع كبير الإخوة قوله: ﴿ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي عودوا يا إخوتي إلى والدكم وقولوا له إن ابنك بنيامين سرق صواع الملك ووضعه مع أمتعته في الجمل الخاص به فحكم عليه حاكم مصر طبقاً لشريعتنا بأن اتخذه رقيقاً سنة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إلاَّ بِما عَلِمْنَا﴾ وما شهدنا على أخينا إلا بما شاهدناه بأعيننا حيث وجُد الصواع في أمتعته ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك عندما أعطيناك عهودنا بأن نأتيك به معنا.

ثم طلب كبير الإخوة أن يقولوا لأبيهم بما يؤكد صدقهم ﴿واسْأَلِ ٱلقَرْيَةَ التي كُنَّا فِيهَا﴾ أي فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية في مصر التي حصلت فيها حادثة السرقة التي ذاع أمرها فإنهم سيذكرون لك تفاصيلها ﴿والْعِيرَ الَّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ واسأل أهل القافلة التي كنا فيها ـ وكانوا جيراناً ليعقوب ـ فقد رأوا ما جرى من احتجاز بنيامين وسبب أخذه رقيقاً ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾وإننا لصادقون في ما قلنا لك في شأن بنيامين.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

شرح المفردات

سوّلت: زيّنت وسهّلت.

فصبر جميل: الصبر الجميل هو الذي لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد إلا لله.

يا أسفى: الأسف هو أشد الحزن على ما فات.

وابيضّت عيناه: أصابتها غشاوة بيضاء.

كظيم: كاتم للحزن والغيظ.

تالله: أي والله.

تفتأ: لا تزال.

حرَضاً: تصير مريضاً مشرفاً على الهلاك.

أشكو بثي: أشكو همي ومصيبتي.

فتحسسوا: التحسس طلب معرفة الشيء بالحواس.

ولا تيأسوا من روح الله: ولا تقنطوا من رحمة الله.

يعقوب فريسة الأحزان

عاد إخوة يوسف من مصر إلى أبيهم في فلسطين وأخبروه بما حدث وفق ما وصاهم به أخوهم الأكبر الذي ظل في مصر، فهيّج الخبر أحزانه، وضاعف من

آلامه لفقد ابنه الثاني بعد يوسف، فلم يصدّقهم وقال متهماً إياهم:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُم أَنفُسُكُمْ أَمراً﴾ أي ليس الحال كما تزعمون بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً في شأنه لتتخلصوا منه مثلما تخلصتم من أخيه يوسف من قبل، وإلاّ فما أدرى حاكم مصر أن السارق يُسترقّ لولا فتواكم ومؤامرتكم على أخيكم ﴿فَصَبْرٌ جَميلٌ﴾ أي أمام هذا الأمر لا حيلة لي إلاّ أن أصبر صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله ﴿عَسَى اللَّهُ أن يَأْتِيَني بِهِمْ جَميعاً﴾ راجياً من الله أن يأتيني بأولادي جميعاً.

فيعقوب لم يفقد الأمل في رحمة الله وعودة أبنائه الغائبين إليه، ومبعث رجائه تلك الرؤيا التي رآها يوسف في منامه وقد ذُكرت في مطلع هذه السورة، كما علم أن البلاء إذا اشتد وعظم جاء عقبه الفرج. ثم أتبع يعقوب قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي إن الله عليم بحالي، وهو الحكيم في ما يصنع ويدبّر.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾ وأعرض يعقوب عن بنيه وقال: يا حزني الشديد على يوسف. وإنما تجدد حزن يعقوب على يوسف لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب، فيعقوب كان يخفف من حزنه على فراق يوسف بقاء بنيامين بقربه، فلما غاب بنيامين عنه تجدد حزنه على يوسف، لأن فراق يوسف كان مصدر عذابه ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾[1] وذهب بصره من شدة الحزن والبكاء، فقد انقلب سواد عينيه بياضاً ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فهو ممتلىء بالحزن ولكنه يخفيه عن الناس ولا يبديه لهم.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قال الإخوة لأبيهم: والله لا تزال تذكر

(١) وابيضت عيناه من الحزن: ينشأ من الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين وتحدث الجلوكوما أو ما يسمى عرفاً «بالمياه الزرقاء» فيزول صفاء القرنية وبريقها ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء اللون. فانظر كيف وصف القرآن حالة يعقوب بما يؤيده العلم وما ذلك إلاّ أنه وحي إلّهي ليس من تأليف بشر.

يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي حتى تصبح مريضاً مشرفاً على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ أو تصبح في عداد الموتى، فخفف عن نفسك ولا تتلفها بالحزن والهمّ.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال يعقوب عقب لومهم له على إغراقه في الحزن: لا أشكو حزني العظيم إليكم بل إلى الله فهو القادر على كشف الغم عني ﴿وَأَعلَمُ مِنَ اللَّه مَا لا تَعلَمُونَ﴾ وأعلم من لطف الله ورحمته ما لا تعلمون، فأرجو من الله أن يرحمني ويلطف بي ولا يخيّب رجائي بردّ أبنائي إليّ.

﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يا أبنائي اذهبوا إلى مصر وتعرّفوا على أخبار يوسف وأخيه بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ إنه لا يقنط من رحمة الله سبحانه إلا القوم الكافرون لجهلهم فضل الله على عباده.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

مسَّنا: أصابنا.

الضر: الهزال من شدة الجوع وسوء الحال.

ببضاعة مزجاة: ببضاعة قليلة رديئة لنشتري بها.

فأوف لنا الكيل: أي أتممه ولا تُنقصه بحيث يكون زائداً عن الحق الذي لنا.

آثرك الله علينا: اختارك وفضّلك علينا.

لخاطئين: لمذنبين متعمّدين للإثم.

لا تثريب عليكم: لا عتب عليكم ولا لوم.

الإخوة يتعرفون على أخيهم يوسف

استجاب الإخوة لطلب أبيهم يعقوب في التحرّي والبحث عن يوسف وشقيقه بنيامين فعادوا إلى مصر للمرة الثالثة للبحث عنهما، وللحصول على القوت الذي هم بأمسّ الحاجة إليه، وقصدوا يوسف في ديوانه:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ[1] مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي ولمّا دخل الإخوة على يوسف قالوا له باستعطاف: يا أيها العزيز صاحب الجاه والسلطان أصابنا وأصاب أهلنا الفقر والجدب والهزال من شدة الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ وجئنا إليك من بلادنا ببضاعة زهيدة رديئة قليلة القيمة لا تصلح أن تكون ثمناً للطعام الذي نريده ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فأعط لنا الكيل من الحنطة وافياً تامّاً كعادتك في ما سبق ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وتصدَّق علينا زيادة على حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إن الله يثيب المتصدّقين الذين يحسنون إلى الناس بالثواب الجزيل.

تأثر يوسف من حديثهم الذي ينمّ عن بؤسهم وتعاستهم وضيق حالهم فعزم على أن يُظهر حقيقته لهم ويكشف عن هويته حتى يضمهم وأهليهم إلى معيته في مصر ليعيشوا على الرغد والسعة، فبعث بطلب شقيقه بنيامين، ولمّا حضر توجّه يوسف إلى إخوته قائلاً: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم ما فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُم جَاهِلُونَ﴾ أي قال لهم على سبيل التذكير بخطاياهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين من أذى وعدوان إذ ألقيتم يوسف في البئر وفرقتم بينه وبين شقيقه بنيامين وأدخلتم الحزن الشديد إلى قلب أبيكم في وقت كنتم تجهلون عاقبة ذلك العدوان؟ فأفعالكم ما هي إلا محض الجهل والسفه وليست أفعال العقلاء.

سمع الإخوة كلام يوسف ورأوا من خلاله أنه على إلمام ومعرفة بأحوالهم وأسرارهم وأمعنوا فكرهم في مغزى كلامه، ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته فانتقلوا من دور الإنكار له إلى دور الشك في أن الذي يكلمهم هل هو يوسف ذاته أم لا؟ فتجرأ بعضهم وقال ﴿قَالُوا أَءِنَّك لأَنْتَ يُوسُفُ﴾ أي هل أنت يوسف؟ فأجابهم: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخي﴾ قال: نعم أنا يوسف ثم أشار إلى أخيه بنيامين، وقال وهذا أخي ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي قد تفضّل الله علينا بكل خير في

---

(١) العزيز: لقب كان يُطلق على كل من ولآه الملك الحكم والسلطة في مصر آنذاك.

الدنيا حيث جمعنا بعد فراق طويل، وبدّل أحوالنا من عسر إلى يسر ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ إنه من يتق الله فلا يعصيه، ويصبر على ابتلائه له، كما يصبر على الامتناع عما حرّمه الله عليه فلا يقربه، فهو إن فعل ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّه لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً بل يُعطيه ثواب عمله وَافياً لا نقص فيه.

هنا يتراءى في أذهان الإخوة مبلغ إساءتهم إلى يوسف فقالوا له معتذرين عما صدر منهم ﴿قَالُوا تَاللَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي قال الإخوة: والله لقد فضّلك الله علينا بالتقوى والصبر وبكل الصفات الكريمة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وما كنا في ما فعلناه معك إلاّ خاطئين متعمدين للذنب، خاطئين في تصوراتنا وأفكارنا نحوك.

فرد عليهم يوسف بقوله: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا تأنيب عليكم اليوم ولا توبيخ فقد عفوت عما صدر منكم في حقي من أخطاء وآثام ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وأرجو من الله أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والله أرحم الراحمين يرحم مَن تاب عن ذنبه ورجع إلى طاعته.

وبعد أن سأل يوسف عن والده وعلم أنه فقد بصره لشدة حزنه عليه أعطاهم قميصه وأمرهم بأن يطرحوه على وجهه فيرتدّ إليه بصره وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ وإنما علم يوسف ذلك بوحي من الله، وهذه معجزة من المعجزات يجريها الله على أيدي الأنبياء. ويمكن القول إن يعقوب ما أصابه العمى إلاّ من كثرة الحزن، فإذا أُلقي عليه قميص ابنه وعلم أنه حي فلا بد أن يحصل من هذا العلم بذلك صدمة قوية من شدة الفرح تؤدي إلى إعادة بصره إليه بإذن الله.

ثم دعا يوسف إخوته أن يُحضروا أهلهم جميعاً إلى مصر ليعيشوا في كنفه في عز ووفرة من الرزق ﴿وَأْتوني بِأَهْلِكُم أَجْمَعِينَ﴾ وكانوا نحو ثلاثة وتسعين أو ثلاثة وسبعين بين رجل وامرأة وأولاد.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ
ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا
خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

شرح المفردات

فصلت العير: أي فارقت القافلة أرض مصر.

تفنّدون: من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم في السن.

ضلالك: ابتعادك عن الصواب.

البشير: هو المبشر بالخبر السار.

فارتدّ بصيراً: أي رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر.

يعقوب يتلقى خبر سلامة يوسف

ترك إخوة يوسف مصر في قافلة قاصدين أباهم في فلسطين وهم يحملون قميص يوسف لإلقائه على وجه أبيهم بناء على وصية يوسف لهم.

وهنا يصف القرآن المشاعر التي انتابت يعقوب قبل لقائه يوسف:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُم إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي ولمّا خرجت القافلة من مصر وجاوزت حدودها قال يعقوب لمن كان جالساً معه من أهله وأقاربه: إني لأشم رائحة يوسف التي تدل على أنه حيّ وتشير إلى قرب لقائي به **﴿لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾** لولا أن تنسبوني إلى الخرف وضعف العقل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾ أي قال الحاضرون عنده من أهله

وأقاربه: والله إنك لا تزال تعيش في خطئك القديم من ذِكْر يوسف وتوقّع لقائه، قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن يوسف قد مات.

﴿فَلَمَّا أن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السار وهو ابنه يهوذا ألقى القميص على وجه أبيه امتثالاً لوصية يوسف، فعاد نظر يعقوب إلى حالته الأولى قبل أن يُصاب بالعمى.

ثم خاطب يعقوب من كان حوله من ولده وأهله: **﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِني أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** أي ألم أقل لكم إني أعلم من أمر يوسف وحياته ما لا تعلمون؟ وكان هذا العلم إلهاماً من الله وطمأنة منه أن يوسف لا يزال حيّاً.

ثم توجّه الإخوة إلى أبيهم قائلين بعد أن شعروا بفداحة جرمهم: **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾**أي ادعُ الله أن يغفر لنا ما فرط من ذنوبنا إننا كنا مذنبين في ما فعلنا مع يوسف.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُم رَبِّي﴾ أي سوف أسأل ربي أن يعفو عن ذنوبكم، لقد وعدهم يعقوب بالاستغفار لهم في المستقبل مشعراً إياهم بذلك بأن ذنبهم ليس من السهولة الصفح عنه سريعاً، وأن ما صدر عنهم يحتاج إلى توبة صادقة، وهل هذه التوبة ستحصل منهم مقرونة بالإخلاص أم لا؟ ثم أتبع يعقوب قوله: **﴿إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** إن ربي غفور لذنوب عباده إذا تابوا عنها رحيم بجميع خلقه.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾
۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

شرح المفردات

آوى إليه أبويه: ضمّهما إليه.

العرش: السرير الذي يجلس عليه يوسف للحكم بين الناس (سرير الملك).

خرّوا سُجّداً: انحنوا ليوسف تحية إعظام لا سجود عبادة.

البدو: أي البادية.

نزغ الشيطان: أفسد وأغرى.

إن ربي لطيف لِما يشاء: إن ربي ينفّذ ما يريد برفق على أدق وجه.

وليّي: ناصري.

اللقاء المثير بين يعقوب ويوسف

أمر يعقوب أولاده بتحضير وسائل السفر للرحيل إلى مصر بناء على طلب يوسف الذي دعا أبويه وإخوته وأهلهم جميعاً ليستوطنوا فيها بعد أن وفّر لهم أسباب الحياة الرغيدة والعيش الكريم.

وكان يوسف قد كلّم الملك وعرّفه بمجيء أبيه وأهله فأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لاستقبال نبيّ الله يعقوب عليه السلام فانتقلوا إلى

خارج المدينة ونصبوا الخيام منتظرين وصول يعقوب عليه السلام.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ هنا يوجد حذف لدلالة المعنى عليه وتقديره: ولمّا وصل يعقوب وأهله إلى المكان المُعَدّ لاستقبالهم خارج المدينة واستُقبلوا استقبالاً كريماً، دخلوا على يوسف في خيمته الخاصة به فضم يوسف إليه أبويه، أي أمه وأباه[١]، ولم يذكر القرآن ما جرى في هذا اللقاء بل ترك للقارىء أو السامع أن يتصور ما جرى بينهم من سرور عارم ومن دموع الفرح ومن عناق وأشواق حارة وبالأخص بعد فراق دام أربعين سنة.

ثم قال يوسف لأبويه ولسائر أهله: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أي ادخلوا مصر واستوطِنوا فيها آمنين على أنفسكم من كل ما يضرّكم، وذكر يوسف المشيئة الإلهية تبرُّؤاً من ميشئته وقوّته، وأن دخولهم مصر والعيش في كنفه وهو صاحب السلطة فيها إنما كان بمشيئة الله.

وبعد دخول يعقوب وأولاده إلى مصر وإنزالهم في المكان الذي أُعدّ لهم للسكن فيه استدعى يوسف أبويه وإخوته إلى ديوانه الذي يحكم فيه بين الناس ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ﴾ أي أجلس يوسف أبويه على سرير المُلك الذي يجلس عليه لتدبير أمور المملكة زيادة في إكرامهما حيث إن الملك خوّله السلطة والحكم بين الناس ﴿وَخرّوا لَهُ سُجَّداً﴾ أي سجد أبواه وإخوته له سجود[٢] تحية وانحناء على عادتهم المألوفة في التحية، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم على أنه لون من ألوان التحية وهو تحية الملوك والعظماء في ذلك الزمان ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ عندئذ قال يوسف لأبيه: هذا السجود هو ما آلت إليه الرؤيا التي رأيتها في المنام في صغري وهي ﴿إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَر كوكباً والشمسَ والقمرَ

---

(١) وقيل أبوه وخالته لأن أمه قد ماتت فتزوج أبوه خالته والخالة بمنزلة الأم.

(٢) وقيل إن السجود كان من الإخوة فقط، كما أن من المفسرين من علّل السجود هنا بأنه لله سبحانه أي أنهم سجدوا لله شكراً لأجل وجدان يوسف وما صاروا عليه من النعمة بعد أن كانوا في شدة وفقر وجوع.

﴿رَأَيْتُهُم لي سَاجدين﴾ وهذه الرؤيا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي قد حقق ربي هذه الرؤيا وأراني تأويلها بعد زمن طويل ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بي إِذْ أَخْرَجَني مِنَ السِّجْنِ﴾ أي وقد أحسن بي ربي إحساناً عظيماً إذ أخرجني من السجن معززاً مكرماً إلى مقام السيادة والحكم، ولم يذكر يوسف إحسان الله تعالى له بإخراجه من البئر سالماً لئلا يجرح شعور إخوته بذكر سوء ما فعلوا ﴿وَجَاءَ بِكُم مِنَ البَدْوِ﴾ أي وجاء بكم من البادية حيث كنتم تسكنون الخيم وتنتقلون من مكان إلى آخر طلباً لمرعى مواشيكم ثم انتقلتم الآن إلى الحضر لتعيشوا في رغد واستقرار ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْني وَبَيْنَ إِخْوَتي﴾ أي وقد أحسن ربي إليّ وأنعم عليّ بهذه النعم من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي. وقد جعل يوسف ما فعله إخوته به من تأثير الشيطان وليس من تأثير حسدهم ليخفف عن إخوته ما يشعرون به من الندم وتبكيت الضمير ﴿إِنَّ رَبي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ إن ربي رفيق بعباده يحقق مشيئته فيهم على وجه الصواب ﴿إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ إنه سبحانه عليم بأمور خلقه حكيم في تدبيره لشؤونهم.

ثم توجه يوسف إلى ربه بالدعاء شاكراً ما أسبغ الله عليه من النعم:

﴿رَبِّ قَدْ آتيتني مِن الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَني مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَاديثِ﴾ أي يا إلهي يا من ربيتني بعنايتك وأعطيتني مقاليد السلطة والحكم، وعلمتني تفسير الكتب السماوية وتأويل المنامات ﴿فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ أي يا خالق السموات والأرض على غير مثال سابق ﴿أَنْتَ وَلِيّي في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أنت متولي أمري وناصري في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة ﴿تَوَفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أسألك يا رب أن تميتني مخلصاً وخاضعاً لك وألحقني يا رب يوم الحساب بعبادك الصالحين الذين حازوا رضاك.

وبهذا الدعاء يختتم الله قصة يوسف مبيّناً أن يوسف لم يشغله الجاه والسلطة عن طاعة ربه والإخلاص له وعن الاستعداد للآخرة بما يرضيه، وعن رجائه من الله أن يجمعه بالأخيار من عباده الصالحين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ
وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن
مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ
غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

شرح المفردات

اجمعوا أمرهم: أحكموا تدبيرهم.

يمكرون: يتآمرون ويحتالون.

ذكر للعالمين: تذكرة للناس جميعاً.

وكأيّن من آية: وكم من علامة دالة على وجود الله ووحدانيته.

معرضونَ: منصرفون.

غاشية: كارثة كبرى تغمرهم.

الساعة: القيامة.

بغتة: فجأة دون توقع وانتظار.

سبيلي: طريقي.

بصيرة: على يقين ناشىء من وحي الله وحججه.

قصة يوسف من أنباء الغيب

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الغاية المتوخاة من سرد قصة يوسف فيخاطب الله رسوله محمداً بقوله: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾** أي هذه القصة التي

أخبرناك بها عن طريق الوحي هي من الأمور الغيبية التي كانت خافية عليك وعلى قومك ليعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنك صادق في ما ترويه عن ربك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِم إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُم وَهُمْ يَمْكُرونَ﴾ وما كنت يا محمد حاضراً مع إخوة يوسف حينما أجمعوا أمرهم واتفقوا على إلقاء يوسف في البئر، والادّعاء أن الذئب أكله، فروايتك للأحداث التي صادفها يوسف في حياته شاهدة على أنها وحي إلّهي.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنينَ﴾ ورغم كل هذه الأدلة والقرائن التي تشهد بأنك رسول الله حقاً وأن القرآن وحي إلّهي فإن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يقرّون بذلك ولو حرصت على أن يؤمنوا ويشهدوا بأن الإسلام هو دين الحق، لأن عقولهم لا تميز بين الحق والباطل.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما تسألهم يا محمد أجراً نظير هدايتهم وإرشادهم إلى الإسلام وإنما أجرك على الله ﴿إِنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ﴾ وما القرآن إلاّ تذكرة وعظة لأهل الأرض جميعاً.

فالإسلام دين عالمي وليس ديناً خاصاً بالعرب، جاء لينقذ الإنسانية من الفوضى والضلال، ويرسم لها طريق الخلاص من كل ما تتخبط فيه من العقائد الباطلة والشرائع الجائرة.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى السموات والأرض وما فيهما من دلائل تشهد بوحدانية الله:

﴿وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ أي وكم من علامّة دالّة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته يرونها في السماء كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، ويرون ما في الأرض من جبال وسهول وبحار وأنواع النبات وكائنات حية ﴿يَمُرّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي يشاهدونها ويمرون عنها معرضين لا يفكرون ولا يعتبرون في ما تحمل من أدلة على وجود الله ووحدانيته وعظمة إبداعه لهذا الكون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وهُمْ مُشْرِكونَ﴾ وما يؤمن أكثر هؤلاء بالله تعالى وأنه هو الخالق إلا وكان إيمانهم يخالطه الشرك بالله، مثل ما كان عند العرب في الجاهلية حيث كانوا يقرون بوجود الله وأنه الخالق ولكنهم كانوا ينسبون له شركاء من أصنام يعبدونها لتقربهم إلى الله.

ومن الإشراك بالله إسباغ صفة الألوهية على أي إنسان في الوجود، ومن مظاهر الإشراك بالله الذين يتخذون رجال دينهم أرباباً من دون الله، ومن مظاهر الإشراك بالله التوجه إلى غير الله بالدعاء، كما أن من مظاهر الإشراك بالله اتخاذ بعضهم أهواءهم آلهة لهم؛ كل هذه المظاهر بالشرك بالله شائعة عند أكثر الناس كما صرّح بذلك القرآن.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي هل أمن وأطمأن هؤلاء الذين يشركون بالله أن تأتيهم كارثة كبرى تصيبهم وتغمرهم: كالزلازل، والأعاصير، والفيضانات وغيرها جزاء كفرهم وإشراكهم بالله كما حصل لأسلافهم من قبل؟ ﴿أَو تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرونَ﴾ أو تأتيهم القيامة فجأة بأهوالها وشدائدها دون أن يشعروا بقدومها وهم مقيمون على إشراكهم بالله وعصيانهم إياه فيعذبهم الله في نار جهنم جزاء ذلك.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ قل يا محمد لقومك هذه هي طريقي ومنهجي أن أدعو الناس إلى توحيد الله ودين الإسلام ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ على حجة واضحة ويقين ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أدعو إلى الله كذلك أنا ومن اتبعني من المؤمنين.

ويستفاد من ذلك أن على علماء المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الله بالحجة الواضحة خير قيام فهي أمانة استودعهم الله إياها في كل العصور فلا يليق بهم التهاون بها والتفريط بها ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ المشْرِكينَ﴾ وقل لهم يا محمد: أنزّه الله أن يكون له شريك في ملكه أو يكون له ولد، ولست من الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

شرح المفردات

القرى: جمع قرية وهي البلد الكبير أقل من المدينة أو هي كل مكان اتصلت به الأبنية.

عاقبة: مصير.

استيأس: استحكم اليأس فيهم.

بأسنا: عذابنا.

عبرة: عظة.

لأولي الألباب: لأصحاب العقول.

يُفترى: يُلفّق ويُختلق.

بين يديه: ما تقدَّم عليه.

قصص الأنبياء فيها دروس وعبر

ثم تُختتم هذه السورة بالتهديد والوعيد للكافرين الذين يناوئون رسول الله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إلَيْهِم مِنْ أَهْلِ القُرَى﴾ وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسل إلاّ كانوا رجالاً من البشر، ليسوا نساء ولا ملائكة، فأوحينا إليهم شرائعنا وأمرناهم بإبلاغها إلى قومهم، فكان كل قوم يعرفون هذا الرسول المرسل إليهم وما يتحلى به من الصدق والأمانة، وكان الرسل من أهل القرى دون أهل البادية لأن أهل المدن أعقل وأحلم وأعلم وأكثر تجربة من أهل

البادية الذين يغلب عليهم الجهل والجفاء والغلظة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يسر في الأرض هؤلاء الذين يكذّبون دعوتك يا محمد فينظروا نظرة تأمل وتفكّر بما حل بالأمم السابقة من هلاك ودمار بسبب تكذيبهم رسل الله **﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِين اتَّقَوْا﴾** ولثواب الدار الآخرة وهو الجنة خير من لذّات الدنيا الفانية، وهو للمتقين الذين يقون أنفسهم الشرك بالله والمعاصي، وشتّان ما بين نعيم الدنيا الزائل ونعيم الآخرة الباقي **﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** أفلا تستعملون عقولكم وتدركون أن العاقبة الحسنة للمتقين ربهم؟

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ حتى إذا يئس رسل الله من إيمان قومهم أن يصدقوهم ويستجيبوا لهم، وظن قومهم أن الرسل قد كُذبوا فيما وُعدوا به من النصر من عند الله، وبعد هذا الظنّ جاء النصر للرسل وبعث الله العذاب على الذين كذبوهم **﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾** فينجي الله رسله ومن يشاء من المؤمنين الذين اتبعوهم دون الكافرين الذين كذبوا رسله **﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ المجْرِمِينَ﴾** ولا يَرُدُّ أحد عذاب الله وعقوبته وبطشه على القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وخالفوا رسله وما جاءوا به من الهدى من عند الله، فاعتبروا يا أيها المجرمون بسنن الله في من كان قبلكم واحذروا أن يحل بكم عذاب الله فإنّ الله سينصر رسوله محمداً والمؤمنين وإن طال الزمن.

هذه الآية وعد من الله بنصر رسوله محمد، وقد نزلت هذه الآية في مكة حيث كان المؤمنون قليلين مستضعفين، فما مرت سنوات قليلة حتى نصر الله رسوله والمؤمنين على جحافل الكفر، أيّ برهان أقوى من ذلك يشهد بصدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلهي؟

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ لقد كان في قصة يوسف وقصص الأنبياء السابقين عبرة لأصحاب العقول السليمة يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها ويعلمون بأن العاقبة الحسنة للمتقين، وأن الهلاك والدمار للمجرمين

وهي نهاية كل من يبغي في الأرض ويفسد فيها ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾ أي ما كان هذا القرآن كلاماً مختلَقاً مكذوباً على الله ولكنه وحيٌ من الله أنزله على رسوله محمد ﷺ.

فما يحتويه القرآن من قصص الأنبياء السابقين الموافقة لما جاء في التوراة مع تصحيح ما جاء فيها من تغيير وتبديل.

وما اشتمل عليه القرآن من تشريعات تسمو على كثير من التشريعات الوضعية في العصر الحاضر.

وما ترى في القرآن من فصاحة وبلاغة حتى عجز كل البلغاء عن مجاراته.

وما فيه من أخلاق ومبادىء سامية ترفع الإنسان إلى أعلى مراتب السمو الإنساني. كل ذلك لا يتصور عقل أن يأتي به إنسان أمي من عند نفسه إلاّ أن يكون وحياً من الله.

أضف إلى ذلك أن محمداً قبل إعلانه النبوة ونزول الوحي الإلهي عليه كان معروفاً في قومه بالصدق والأمانة، فليس من المعقول أن يصدق مع الناس ويكذب على الله ويأتي بكل هذا الذخر العظيم من الهدى للناس جميعاً إلاّ أن يكون رسول الله حقاً.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن الله أنزل القرآن مصدّقاً للكتب السماوية التي بين يدي محمد ﷺ، أي التي سبقته. فمحمد لم يبتدع ديناً جديداً ولكنه جاء بالوحي الإلهي الذي أُنزل عليه مكمّلاً للرسالات الإلهية السابقة ومصححاً لما طرأ عليها من بدع وتحريفات بسبب طول الزمن عليها، والروايات المتناقضة والترجمات المختلفة والاضطهادات المتتابعة، فجاء الإسلام بالحقائق في ما اختلف الناس فيه ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ كما أن الله أنزل القرآن وفيه تفصيل كل شيء يحتاج إليه الإنسان في شؤون الدين والدنيا والآخرة وهدى من الضلالة ورحمة للناس حيث شرع لهم التشريعات التي فيها اليسر والمصلحة لهم وهذا ما ذكره الله في رسالة محمد بقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

دروس وعبر من قصة يوسف

قصة يوسف تحمل في طياتها كثيراً من الدروس والعبر نذكر بعضاً منها:

درس في العفة

إن في قصة يوسف وصموده أمام الإغراء الجنسي ومغالبته الشهوة ما يجعلها أعظم درس يمكن أن يكون نبراساً وقدوة للشباب.

فشهوة الجنس هي تلك الرغبة العارمة التي خضع أمامها عظماء التاريخ وأكثر الناس، ولكن الانتصار عليها هو مفتاح العظمة كما حصل ليوسف وبالأخص إذا لابستها تلك الإغراءات والظروف التي عايشها.

فها هي امرأة العزيز ـ وزير الملك ـ تختلي بيوسف وهي على قسط وافر من الجمال تعرض عليه مفاتنها وإغراءها وتقول له (هيت لك) أي أَقْبِل عليّ. إن الوضع الذي كان عليه يوسف يستدعي الاستجابة لها برغبة وشوق، وذلك لأن يوسف في ريعان الشباب حيث تنفتح النفس على الحب وتضطرم فيها الشهوة، بالإضافة إلى ذلك فهو في قصرها وتحت سلطانها وقهرها بحيث إذا امتنع عنها ورفض رغبتها تعرّض لأذاها وانتقامها. كما أن يوسف في حال الإقدام على ما طلبت لا يخشى أن تشتكي عليه لأنها هي الطالبة الراغبة وقد غلّقت الأبواب وأبعدت الرقباء. ولكن أمام هذا كله أعرض عنها يوسف بدافع الخشية من الله وبدافع الإخلاص والوفاء لزوجها، لذا قال لها بعد أن طلبت مضاجعته: **﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾**.

اختلاط الجنسين وأخطاره

من الأسباب التي أدّت إلى غواية امرأة العزيز ليوسف اختلاطها معه ووجوده المستمر في القصر بجانبها مما أدى إلى إضرام شعلة الحب في قلبها، بالإضافة إلى ما يتمتع به يوسف من جمال باهر.

فالخلوة بين الرجل والمرأة بعيداً عن رقابة الأهل وعن أعين الناس تؤدي إلى أخطار جسام لا تحمد عقباها، وما تشكو منه المدنية الحاضرة من كثرة الزنا واللقطاء والأمراض الجنسية ما هو إلا بسبب تهاون الناس في هذا الاختلاط بين الجنسين، لذا نرى أن الإسلام حذّر من خلوة الرجل بالمرأة بدون وجود محرم للمرأة كالأب أو الخال أو العم أو الأخ، ويقول النبي محذراً من هذا الاختلاط «لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ كان ثالثهما الشيطان»[١].

التضحية في سبيل المبدأ

وها هو يوسف تطلب منه صاحبات امرأة العزيز أن يستجيب لرغبات سيدته الجنسية بمعاشرتها وألاّ يرفض لها طلباً، ويحذّرنه بأن مصيره السجن في حال رفضه ذلك، ولكن يوسف رفض طلبهن وتوجّه إلى الله قائلاً: **﴿قال رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا يَدْعُونني إِلَيْهِ وَإلاَّ تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهِنَّ وَأكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾** لقد فضّل يوسف حياة السجن وما فيه من شظف العيش على حياة القصور وما فيها من رغد العيش على أن يستسلم لرغبات سيدته الآثمة، أيّ تضحية هذه يوازيها سموّاً ونبلاً؟

عاقبة الصبر

تبتدىء مراحل صبر يوسف بإلقائه في البئر والبعد عن أهله ثم إنقاذه وبيعه رقيقاً في مصر، ثم تأتي مرحلة قاسية من حياته وهي زجّه في السجن سبع سنين ظلماً وعدواناً. هذه الأمور يمكن أن تلقي اليأس في النفوس والكفر بقيم الحق والعدالة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل بل ظل يوسف صامداً على مبادئه صابراً على بلوائه مؤمناً بالله وعدله داعياً أصحابه في السجن إلى عبادة الله وحده وعدم

---

(١) رواه الترمذي.

الإشراك به إلى أن أنعم الله عليه بالإفراج عنه ورفع التهمة عنه وتقلده أرفع المناصب الدنيوية، وقد بيّن يوسف لإخوته عاقبة الصبر بقوله: ﴿إِنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ فالله سبحانه يمتحن من يريد اصطفاءه بالرسالة بأنواع البلاء ليظهر جوهر صدقه وليخلّصه من أمراض النفوس وليثيبه بعد ذلك بأنواع الكرامة والفضل.

الشكوى إلى اللَّه وحده

فهذا يعقوب عليه السلام عندما تلقى الخبر من أبنائه بأن الذئب أكل يوسف وهو أحب أبنائه إليه لم يخرجه الحزن عن طوره بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي صبر لا جزع فيه ولا شكوى إلى الخلق بل إلى الله وحده، وهنا درس للإنسان بأن يتلقى المصائب بروية وحكمة مهما فدح الخطب وعظم المصاب.

ونرى يعقوب أيضاً عندما تلقى خبر استرقاق ابنه بنيامين في مصر بعد فقدانه يوسف لم يزد قوله عن هذه الجملة ﴿إِنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلى اللَّه﴾ وهنا درس للإنسان بأنه إذا ضاقت به السبل واجتمعت عليه المصائب أن يلجأ إلى الله وحده وألا يعوّل على شيء سواه، فكل من انقطع إلى الله كفاه ومن طرق بابه فتح له أبواب رحمته.

الحرص على السمعة الطيبة

وفي قصة يوسف درس في الحرص على السمعة الطيبة، فيوسف ذلك المضطهد الملقى به في ظلمات السجن ظلماً مدة طويلة بدون ذنب اقترفه، لمّا جاءه أمر الإفراج عنه ودعوته لمقابلة الملك لم يتلهف لهذه البشرى بل طلب ممن بلّغه إياها أن يطلب من الملك أن يحقق في قضيته قبل الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة التي ألصقت به زوراً وبهتاناً.

فلمّا أجرى الملك التحقيق مع النسوة واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة بأنها

هي التي راودته عن نفسه وأن يوسف بريء مما اتُّهم به، رضي يوسف بالخروج من السجن مرفوع الرأس موفور الكرامة، عندئذ قال الملك لمّا ظهرت براءة يوسف ومبلغ نبله وصدقه ﴿ٱئْتُونِي به أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

العفو عند المقدرة

وفي قصة يوسف درس في التسامح والعفو عند المقدرة، فيوسف عندما دخل عليه إخوته في ديوانه في مصر وتعرّف عليهم كان باستطاعته أن ينتحل أيّ عذر للزج بهم في السجن وتعذيبهم أشد العذاب جزاء ما أساءوا إليه. لقد كانت السلطة بيده وكانت حياتهم رهن إشارته ولكن قابل إساءتهم بالإحسان، فزاد كيلهم، وردّ البضاعة التي اشتروا بها الحنطة إليهم دون أن يشعروا، فعل ذلك وهم لا يعرفونه. وعندما كشف لهم يوسف عن هويته شعروا بفداحة الجرم الذي اقترفوه في حقه واعترفوا بذنبهم، عندئذ قال لهم يوسف هذه الجملة التي يتمثل فيها كل أنواع النبل ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُم﴾.

العدل بين الأبناء

وفي قصة يوسف درس في كيفية معاملة الأبناء بالعدل والمساواة وعدم الانحياز إلى أحد منهم فهذا يوسف كان قريباً من قلب والده يعقوب لأنه توسّم فيه أمارات النبوة مما أثار حقد إخوته عليه فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أرضاً يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أبيكم وتكونوا مِنْ بعْدِهِ قَوماً صالحين﴾.

فليأخذ الآباء درساً من قصة يوسف وليعاملوا أبناءهم بالعدل والمساواة وعدم إظهار أي ميل لواحد منهم دون الآخر، وإذا حصل ذلك الميل عن استحقاق وجدارة فليكتموه في قلوبهم ولا يُظهروه حتى لا تحصل نزاعات بين الإخوة مصدرها الغيرة والحسد، وتؤدي إلى قطع روابط المحبة بينهم.

تعريف بسورة الرعد

هذه السورة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة، وقيل إنها مكية أي نزلت بمكة. وسمّيت بسورة الرعد لما اشتملت عليه من تسبيح الرعد بحمد الله تعالى.

افتتحت هذه السورة بالثناء على القرآن الكريم وأنه الحق من الله أنزله على رسوله محمد ﷺ، ثم ذكرت بعض المظاهر الكونية التي خلقها الله في الأرض وفي السماء الشاهدة على قدرة الله ووحدانيته وعظيم حكمته.

وتتحدث السورة عن المشركين وتعنّتهم وطلبهم أن يصيبهم العذاب على سبيل السخرية كأنهم لم ينظروا إلى ما حلّ بالكفار قبلهم من ألوان العذاب، وطلبهم معجزة من الله شاهدة على صدق نبوّة محمد كأنهم لا يكفيهم هذا القرآن الذي يتلى عليهم والذي هو معجزة تفوق معجزات الأنبياء السابقين.

كما تتحدث السورة عن إحاطة علم الله بكل صغيرة وكبيرة في هذه الأرض، وأنه سبحانه يعلم ما يغيب عن الأنظار وما يُشاهد منها، ويعلم سبحانه من يُسرّ القول ومن يجهر به، ومن هو مختفٍ بالليل وظاهر في النهار، وأنه سبحانه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

وهذه السورة تذكّر بآيات الله الكونية وأنها جميعها خاضعة مستسلمة لله سبحانه، كما تحاور المشركين عبدة الأصنام في معبوداتهم التي لا تنفعهم بشيء، وتعطي صورة عن انتصار الحق على الباطل، كما تذكر فضائل ذكر الله الذي به تطمئن القلوب.

وتذكر السورة صفات المؤمنين الحسنة وما أعد الله لهم في الآخرة من نعيم مقيم، كما تذكر صفات الكافرين السيئة وما أعد الله لهم من عذاب أليم.

ثم تختم هذه السورة ببيان حسن عاقبة المتقين وسوء عاقبة المكذبين لرسل الله، مع مواساة النبي ﷺ على ما أصابه من الكفار من أذى واضطهاد.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (١) الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٢)﴾

شرح المفردات

الكتاب: المراد به هنا القرآن.

عمد: جمع عمود، والعمود ما يقام عليه البيت أو غيره.

استوى على العرش: استولى واستأثر بالسلطان ونفذت إرادته في ملكوته.

لأجل مسمى: لوقت محدد يعلمه الله.

يدبّر الأمر: يصرّفه على ما يريد بقدرته وحكمته.

يفصّل الآيات: يبيّن دلائل قدرته مفصلة.

توقنون: تصدقون تصديقاً جازماً لا ريب فيه.

من الدلائل على وجود الله ووحدانيته

يستهلّ الله هذه السورة ببيان حقيقة القرآن ومنزلته:

﴿الٓمٓر[١] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات القرآن البالغ حد الكمال، الغنيّ عن الوصف، وسميت كلمات القرآن بالآيات لأنها علامات دالة على أن القرآن وحي إلَهي وعلى صدق نبوّة محمد ﷺ، فإن كل آية من القرآن معجزة ببلاغتها ومعانيها ﴿والّذي أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزله الله عليك يا محمد هو الحق الثابت الذي لا يعتريه الباطل ﴿وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ نعم إن أكثر الناس لا يصدّقون بأن القرآن مُنزَلٌ من عند الله، وهذه حقيقة أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً وجاءت الأيام والسنون تؤيدها والسبب هو اتباع الناس عقائدهم الموروثة وجهلهم بحقائق القرآن، فلو تدارسوه بعقل منفتح لأقرّوا بأنه كلام الله حقًّا، واتبعوا ما فيه من الحق والهدى.

﴿اللَّهُ الذي رَفَع السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الله الذي رفع السماوات وما تحتويه من مليارات النجوم والكواكب وجعلها قائمة بغير دعائم مرئية. فالله سبحانه يمسكها بقدرته ويسيّرها في مداراتها فلا يرتطم بعضها ببعض، ولا يسقط بعضها على الأرض فيدمرها، وهذه الأعمدة ـ والله أعلم ـ هي نظام الجاذبية الذي وضعه الله في الكون ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الاستواء في اللغة يأتي بمعنى الاستقرار وبمعنى الاستيلاء والقهر. والعرش يكنى به عن العز والسلطان، وعرش الله مما لا يعلمه البشر إلاّ بالاسم. والمعنى: ثم استوى على العرش استواء يليق به بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ﴿وَسخَّرَ الشَّمْسَ وَالقمرَ كُلٌّ يجْري لأجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي وذلّل الله الشمس والقمر وجعلهما في حدود ما أراده منهما لمنافع الخلق، فكلٌّ منهما يسير في مداره الذي رسمه الله له، فالشمس تقطع مدارها حول الأرض في سنة شمسية،

(١) المر: هذه الأحرف وغيرها من الحروف التي ابتدأت بها بعض سور القرآن، قيل في تفسيرها أقوال شتى منها: إن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه هو مصوغ من مثل هذه الحروف وغيرها التي بها يتكلم العرب ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، فعجزهم هذا برهان واضح على أن القرآن منزل من عند الله وليس من تأليف بشر فلو كان القرآن من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بمثله.
وقيل: إن هذه الأحرف تثير الانتباه والاستماع لما يليها مما يحتويه القرآن من الهدى، وقيل: هي أسماء للسور، وقيل: هي أسماء للقرآن، وقيل: هي سر الله في القرآن وهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، وقيل هي أسماء من أسماء الرب.

والقمر في شهر قمري. والأجل المسمى هو يوم القيامة، أي أن الشمس والقمر يستمرّان في حركتهما ومدارهما بالتتابع المعهود إلى يوم القيامة ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي يقضي ويدبّر أمر ملكوته في السماء والأرض ويتصرف فيه حسب إرادته ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يبيّن الله البراهين الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وبالغ حكمته في القرآن وفي الكتب المنزلة على رسله ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُم تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا وتتحققوا كمال قدرته وتؤمنوا إيماناً راسخاً بلقاء ربكم يوم القيامة، فالله القادر على رفع السماوات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الخلق، قادر كذلك على إحياء الإنسان بعد موته يوم القيامة ليحاسبه على ما فعل من خير أو شر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

شرح المفردات

مد الأرض: بسطها.

الرواسي: هي الجبال الثوابت.

يغشى: يغطي.

قطع متجاورات: قطع من الأرض متلاصقات.

وجنات من أعناب: وبساتين من كروم العنب.

ونخيل صنوان: نخلتان أو أكثر تتشعب من أصل واحد، وصنوان مفردها صنو وصنوان تطلق على المثنى والجمع.

لآيات: لعلامات وأدلة على وجود الله ووحدانيته.

من مظاهر القدرة الإلَهية في الأرض

ويتابع القرآن ذكر بعض مظاهر قدرة الله في الأرض ونعمه على خلقه:

﴿وَهُـوَ الّذي مَدَّ الأرضَ﴾ أي وهو الله سبحانه الذي بسط الأرض ليسهل على الناس الانتفاع بها والانتقال عليها من مكان إلى آخر ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأنهـاراً﴾ والرواسي هي الجبال التي جعلها الله في الأرض لتثبيتها وحفظ توازنها، ومن فوائد الجبال أنها المصدر لعيون الماء والأنهار حيث تتراكم الثلوج على قممها لأنها أبرد جواً من السهول ثم تذوب عليها تدريجيًّا وتختزن المياه في جوفها، ثم تسيل منها عيون الماء التي تغذي الأنهار، ومن عيون الماء والأنهار ترتوي الأشجار المثمرة وكافة النباتات ولذا عقّب القرآن على الأنهار قوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيهَا زَوجَينِ ٱثنَينِ﴾ والمراد بالزوجين عنصرا التذكير والتأنيث وبدونهما لا ينعقد الثمر.

فالثمرات تحصل من تلقيح الأزهار، والأزهار منها ما يحتوي على الخلية الذكر ومنها ما يحتوي على الخلية الأنثى ويحصل التلاقح بينهما بواسطة الطلع أو الغبار اللقاحي الموجود في الزهر، إما بواسطة الرياح أو بواسطة الماء أو بواسطة الحشرات. والقرآن يشير إلى أن الرياح هي من العوامل في تلقيح الأشجار أو السحاب بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

والجدير بالذكر أن القرآن عمم وجود التأنيث والتذكير في كافة الثمرات وهذه حقيقة علمية معترف بها، كما أكدها في موضع آخر من القرآن حيث قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء].

فبعض أنواع النبات تكون زهرته مفردة بحيث يجتمع فيها عنصرا التذكير

والتأنيث، وبعض النبات يكون فيه التذكير في زهرة، والتأنيث في زهرة أخرى في الشجرة عينها، والبعض الآخر يكون التذكير فيه في شجرة والتأنيث في شجرة أخرى كما هو الحال في النخيل. وهنا يتجلى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم حيث عمَّم وجود التلاقح بين كل أصناف الشجر والنبات حيث قال: **﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنينِ﴾** بينما كان العرب في زمن نزول القرآن لا يدركون ذلك إلا في شجر النخيل. فمن أين لأمّيّ ـ وهو محمد ﷺ ـ أن يعلن هذه الحقيقة على الملأ وهو لم يدخل جامعات، ولم تكن في عهده جامعات ولم يتخصص في دراسة النبات؟ هل هناك تعليل لذلك إلاّ أن القرآن وحي من عند الله؟ **﴿يُغْشِي اللّيلَ النَّهارَ﴾** أي جعل الله الليل يغطي ضوء النهار ويكسوه بظلامه ليستريح الناس في الليل من متاعبهم. والملفت للنظر أن الله ذكر الليل والنهار عقب ذكره **﴿مِنْ كُلِّ الثمرات﴾** لأن تعاقب الليل والنهار على الثمار يساعد على إنضاجها وكمال صلاحها.

هذه المظاهر الكونية يمر الناس عليها وهم غافلون لا يدركون ما فيها من أسرار لذا أتبع القرآن ما سبق بقوله: **﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكَّرون﴾** أي إن هذه المظاهر الكونية لعلامات وبراهين تدل على وجود الله ووحدانيته وبالغ قدرته وحكمته يدركها الذين يتفكرون في أسرارها ومنافعها.

﴿وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ﴾ ويوجد في الأرض قطع يجاور بعضها بعضاً متماثلة في تربتها وفي تعرضها لأشعة الشمس **﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ﴾** وفيها بساتين تشتمل على كروم العنب، كما أن فيها ما يزرعه الإنسان من أنواع الحبوب والبقول **﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾** صنوان: جمع صِنْوٍ وهما النخلتان أو النخلات اللاتي يجمعهن أصل واحد **﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾** وهذه البقع من الأرض التي يجاور بعضها بعضاً تُسقى بماء واحد ولكن ما يُزرع من زرع وشجر يفضل بعضه بعضاً في الطعم فالبعض حلو والبعض حامض والبعض الآخر يختلف في الشكل والرائحة عن الآخر **﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ**

يَعۡقِلُونَ﴾ أي إن هذا التفاوت في الثمر مع تماثل التربة التي يخرج منها والماء الواحد الذي يُسقى منه لدليل واضح على وجود الله ووحدانيته يدركه أصحاب العقول السليمة، فيعلمون أن وراء هذا التفاوت في الثمر قدرة الله التي أحسنت كل شيء خلقه، فيؤمنوا به سبحانه ويخصّونه وحده بالعبادة، ومن لم يقرّ بذلك فليس جديراً بأن يكون من زمرة العقلاء.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ
خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾

شرح المفردات

خلق جديد: عودة للحياة بعد الموت (أي البعث).

الأغلال: جمع غل، والغل طوق أو قيد من حديد أو جلد يجعل في عنق المجرم أو في يديه ورجليه.

بالسيئة: المراد بها هنا العذاب والعقوبة.

الحسنة: السلامة والعافية والثواب في الآخرة.

المثلات: جمع مَثُلَة وهي نقمة أو عقوبة تنزل بالإنسان فيُجعل مثالاً يرتدع به غيره.

مغفرة للناس: ساتر لذنوبهم متجاوز عن خطاياهم إذا تابوا وأصلحوا نفوسهم.

لولا أُنزل عليه: هَلاّ أُنزل عليه.

آية من ربه: معجزة من ربه.

منذر: مخوّف من عاقبة الكفر.

إنكار المشركين للبعث وطلبهم معجزة من رسول الله

بعد أن ذكر القرآن الآيات الدالة على عظيم قدرة الله أعقب ذلك بالرد على المشركين الذين ينكرون إعادة الإنسان حياً بعد الممات يوم الجزاء:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُم أَئِذَا كُنَّا تُراباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن يقع منك عجب يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين لك بعد ما كنت معروفاً عندهم بالصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث مع ما يشاهدونه من الآيات الدالة على عظيم قدرة الله في الكون، واستبعادهم عودة الأجسام الميتة إلى الحياة يوم القيامة حيث قالوا: أنبعث أحياء بعد الموت بعد أن نصير تراباً، ونكون في خلق جديد؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِين كَفَرُوا بِرَبِّهِم﴾ أي هؤلاء المكذبون بحصول البعث هم الذين جحدوا قدرة الله وكفروا به، فلو آمنوا بأنه سبحانه خالق السماوات والأرض لعلموا أنَّهُ قادر على بعث الأجسام حية بعد مماتها، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

ثم وصف الله مصير هؤلاء المنكرين للبعث بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ في أعْنَاقِهِم﴾ هذا هو وصف لحالهم في الآخرة حيث يسحبون إلى النار بسلاسل مربوطة بالأغلال التي في أعناقهم، كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾.

وقد يكون المعنى على سبيل المجاز بأن هؤلاء مقيدون بقيود الضلالة فلا يرجى منهم خير، وهو تشبيه وتمثيل لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدم التفاتهم إلى الحق بحال مَن جُعِل في أعناقهم أغلال بحيث لا يمكنهم الالتفات معها.

والمعنيان لا تعارض بينهما فلا مانع من إفادة الآية لكليهما، فالكفار محجوبون عن النظر والتفكر والاهتداء إلى الصواب في الدنيا، وفي الآخرة تكون

الأغلال في أعناقهم زيادة في تعذيبهم وإهانتهم ﴿وَأُولئك أَصْحَاب النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهؤلاء هم أصحاب النار يُعذَّبون فيها ولا يبرحونها أبداً.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ والمراد بالسيئة هنا العذاب أو العقوبة التي أنذرهم بها رسول الله ﷺ إذا ظلوا على كفرهم، والمراد بالحسنة ما كان يبشرهم به من الثواب والحياة الطيبة جزاء إيمانهم بربهم وطاعتهم له.

ولكن المشركين قابلوا إنذار النبي ﷺ لهم بالاستهزاء والإنكار واستعجلوا وقوع العذاب بهم كما جاء في سورة الأنفال:

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ولكن ما يطلبه المشركون ليس فيه شيء من التعقل والصواب فالعاقل من يطلب الخير لنفسه ولا يستعجل الشر، ولو أن الأمر الذي طلبوه لم يكن له سوابق لكان لهم بعض العذر، ولهذا عقّب الله على طلبهم استعجال العذاب بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾ أي وقد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة التي استأصلتهم كقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط، وقد رأوا آثار الهلاك الذي حلّ بهم جزاء كفرهم، ولهذا ليس لهم عذر في تعريض أنفسهم للهلاك بل الأجدر بهم الاعتبار بتلك الأمم السابقة ﴿وإِنَّ رَبَّك لَذُو مَغْفِرَةٍ للنَّاس عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي وإن ربك يا محمد لصاحب عفو وصفح وستر على المذنبين الذين تابوا فلا يفضحهم في موقف القيامة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ﴾ كما أن ربك شديد العقاب لمن أصر على كفره وعصيانه لربه.

﴿وَيَقُولُ الّذِين كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عليه آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويقول الذين كفروا: هلاّ أُنزل على محمد معجزة من ربه تكون حجة وعلامة على نبوته مثل معجزات الأنبياء السابقين؟ وفاتهم أن الله أيّد رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الذي هو معجزة في حدّ ذاته

تفوق معجزات الأنبياء السابقين، فهو معجزة في بلاغته وفصاحته وهديه وتشريعه العادل، وما أتى به من أنباء الغيب، وقد تحدّى الله به الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله فلم يستطع أحد أن يأتي ولو بسورة من مثله، ولو أنهم أمعنوا تفكيرهم في القرآن الذي هو بين أيديهم لعلموا علم اليقين بأن القرآن كلام الله حقًّا وأن محمداً رسول الله.

إن معجزة القرآن باقية وخالدة على مر الزمن يدركها ويلمسها كل من تأمل فيها بخلاف معجزات الأنبياء السابقين التي لا يدركها إلاّ الذين عاصروا أنبياءهم ثم كانت بعدهم عرضة لإنكار المنكرين. وقد أثبت القرآن حصول هذه المعجزات وبيّنها بالتفصيل وكفى بالقرآن حجة ودليلاً على حصولها.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ إنما أنت مخوّف ومحذّر لقومك من عاقبة الكفر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ولكل قوم في كل زمان رسول من الله يهديهم إلى الحق مؤيَّد بمعجزة من جنس ما هو سائد في عصرهم تكون حجة ودليلاً على رسالته ونبوّته، فلمّا كان الغالب في زمن عيسى عليه السلام مهنة الطب جعل الله معجزته ما يحير الأطباء وهي إحياء الموتى بإذن الله وإبراء الأكمه والأبرص، ولمّا كان الغالب في زمن موسى السحر جعل الله معجزته أمراً خارقاً هو أقرب إلى طريقتهم في الإقناع فأمر الله رسوله موسى بإلقاء عصاه فأصبحت حيَّة ابتلعت كل أدوات السحرة، ولمّا كان الغالب في زمن محمد ﷺ الفصاحة والبلاغة في الكلام جعل الله معجزته القرآن الكريم الذي أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة في عصرهم وفي كل عصر.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

شرح المفردات

تغيض: تنقص.

عالم الغيب والشهادة: عالم بما غاب عن الخلق وبما شاهدوه.

المتعال: المستعلي على كل شيء بقدرته.

مستَخْف: مبالغ في الاختفاء.

سارب: بارز يراه كل أحد.

معقّبات: ملائكة يتعاقبون على حفظ الإنسان بالليل والنهار.

من أمر الله: أي بأمر الله.

سوءاً: هلاكاً وعذاباً.

وال: ناصر يمنع عنهم العذاب.

عِلْمُ اللّه المحيط بالكون

ويتابع القرآن فيذكر شمول علم الله لما يجري في هذا الكون:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى﴾ فالله يعلم ما تحمل كل أنثى في بطنها عند حملها أهو ذكر أم أنثى، أم أن الجنين واحد أم أكثر، ويعلم من دقائق تكوينه وما يحيط به ما لا يعلمه أحد غيره **﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾** الغيض هو

النقصان أي يعلم سبحانه ما تلد الأنثى قبل اكتمال جنينها، ويعلم السقط الذي ينزل من الرحم بعد أشهر من الحمل، أو ما تراه المرأة من دم في حملها، كما يعلم الله سبحانه ازدياد حجم الأرحام بما تشتمل عليه من ولد أو أكثر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ كما أن الله خص كل مخلوق وكل شيء في هذا الكون بوقت معيّن للظهور وحدّد له قسطاً معيّناً في الرزق والأجل، كما جعل الله كل شيء بمقدار معيّن يترتّب عليه دوام الحياة على الأرض، فمثلاً أن نسبة الأوكسجين تحدد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تشعل الغابة.

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية على كوكبنا الأرضي، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحت رماداً وهكذا فإن هناك أمثلة كثيرة لا تحصى تبين الحكمة الإلّهية في جعل كل شيء بمقدار معين.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ الكبيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي أن الله سبحانه يعلم ما يغيب عن أبصار الناس فلا يرونه، كما يعلم ما يشاهدونه بأبصارهم فلا يخفى عليه شيء وهو الكبير بقدرته ودونه كل شيء، كما أنه المستعلي على كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

ثم يبين الله مدى علمه بأحوال الناس فيقول: ﴿سَواءٌ مِنْكُم مَنْ أَسَرّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي من أسرَّ القول وأخفاه وكتمه ولم يتلفظ به، أو أعلنه وأظهره، فهما سواء عند الله يعلمهما ولا يخفى عليه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ﴾ كما يعلم سبحانه المستتر المتواري في ظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ويعلم الظاهر المتصرف في حوائجه بالنهار.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي للإنسان ملائكة يحيطون به من

جميع الجهات من قدّامه ومن وراء ظهره. وسمّى الملائكة معقبات لأنها تتعاقب ويجيء بعضها عقب بعض كما ورد في الحديث الشريف: «يتعاقبون فيكم: ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»[١] ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي يحفظون الإنسان بأمر الله وإذنه وهم كالحرس له فإذا جاء قَدَرُ الله وقضاؤه بحلول السوء خلّوا بينه وبين قَدَرِ الله.

﴿إِنَّ اللَّه لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية من جوامع الكلم التي تختصر بكلمات قليلة أسباب رقيّ الأمم وانحطاطها، فإن تغيير الله لحال الأمم تابع لتغيير ما بأنفسهم من شر إلى خير. هذه القاعدة مطردة في حياة الأمم، لا فرق بين قوم وقوم، ولا بين أمة وأمة أخرى.

لا تجد أمة حرصت على اتقان صناعتها واجتهدت في ترقية زراعتها، وهذبت من أخلاقها، وساد العدل في أرجائها إلا وقد حازت على الخير العميم، وصعدت قُدُماً في سلّم الرقيّ. وبالمقابل لا تجد أمة أخلدت إلى الكسل وأهملت استثمار مواردها الطبيعية، وانقادت إلى الشهوات، وغلب عليها الظلم، وشاع فيها الغش والكذب إلاّ وسادها الفوضى والانحطاط، وأصابها الفقر والعوز والصراعات الدامية، فإن لكل عمل ثمرة تجنى منه، فالذين ساروا على منهج الحق والخير استحقوا من الله النعمة والرخاء والسعادة، والذين ساروا في دروب الشر حل بهم البلاء، هذه سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾وإذا أراد الله بقوم هلاكاً أو عذاباً أو بلاء بسبب ما اقترفوا من ذنوب فلا يقدر أحد على ردّ ذلك عنهم ﴿وَمَا لَهُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وليس لهم من غير الله ملجأ أو ناصر يمنع عنهم عذابه.

(١) رواه البخاري.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ
ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ
ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ
ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ
ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

شرح المفردات

السحاب الثقال: السحب المثقلة بالمطر.

يجادلون: يناقشون ويخاصمون.

شديد المحال: شديد القوة والعقوبة لأعدائه.

ليبلغ فاه: ليصل إلى فمه.

وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال: وليست عبادة الكافرين للأصنام إلاّ ضياعاً وخساراً.

يسجد: يخضع وينقاد.

طوعاً: اختياراً.

كرهاً: جبراً وإلزاماً.

الغدوّ: جمع غداة وهي أول النهار.

الآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار.

خضوع الكون لله

ثم ينتقل القرآن إلى وصف بعض مظاهر القدرة الإلهية في الطبيعة بصورة تهز المشاعر الإنسانية وتضفي عليها الرهبة والخشوع لرب العالمين:

﴿هُوَ الَّذي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[١] أي أن الله هو الذي يريكم البرق فترهبون من منظره لما يتبعه عادة من الصواعق التي تقتل الإنسان أحياناً، وتطمعون في الخير من جرّاء حدوثه لما يعقبه من مطر يُنبت الزرع ويسبّب الخصب للأرض ﴿وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ويحدث الله السحب المثقلة الممتلئة بالمطر التي يعمّ نفعها، والسحب الثقال جمع ثقيلة لكثرة ما تحمله من ماء.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ ويعظّم الرعد الله سبحانه ويمجّده، وقد رُوي عن رسول الله محمد ﷺ أنه كان إذا سمع صوت الرعد الشديد قال: «اللّهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»[٢] وكان يقول أحياناً إذا سمع صوت الرعد: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده»[٣].

وتسبيح الرعد يكون بلسان المقال ولكن الناس لا يفهمون كيف يسبّح الرعد كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] وقيل يسبّح بلسان الحال أي أنه يدعو إلى تسبيح الله، والمعنيان جائزان ﴿والمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ وتسبح الملائكة من خيفة الله ورهبته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي وينزل الله الصواعق فيصيب بها من يشاء إهلاكه من عباده.

روي في أسباب نزول هذه الآية: أن رجلاً أنكر القرآن وكذّب رسول الله فأرسل الله صاعقة أهلكته، وفي رواية أنها نزلت في كافر ذكر الله بغير ما يليق به فأرسل الله عليه صاعقة أهلكته ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ في اللَّهِ﴾ وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعق أصابهم في حال خصومتهم لله سبحانه بادعائهم أن له شركاء، وإنكارهم

---

(١) تأمّل كيف قدّم القرآن الخوف على الطمع إذ قد تقع الصواعق من أول برق ولا يحصل المطر إلاّ بعد تواتر البرق. ولمّا كان الأمر الذي يحصل الخوف من وقوعه يحصل من أول برق ذكر القرآن الخوف أولاً ثم أتى بعد ذلك بذكر الطمع ثانياً وهو حصول المطر.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

(٣) رواه الإمام مالك في موطئه والبخاري في كتاب الأدب.

البعث يوم القيامة بالرغم من الأدلة الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته ﴿وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾ والله سبحانه شديد القوة، وشديد العقوبة لأعدائه.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾دعوة: بمعنى الدعاء، أي أن الله هو الحق الذي لا يُدعى سواه، فهو الذي يسمع فيجيب. وقيل الدعوة هنا بمعنى العبادة أي أن عبادة الله هي الحق والصدق﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بشَيءٍ﴾ أي والمشركون الذين يتوجهون بالدعاء والعبادة إلى الأصنام لا تستجيب لدعائهم لأنها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع، فكل من يتوقع منها الاستجابة لدعائه يكون حاله كما وصف الله ﴿إلاَّ كبَاسِطِ كفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ أي حاله كمن بسط كفيه إلى الماء يطلب منه أن يصل إلى فيه، والماء لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه، فكذلك المشركون الذين يعبدون الأصنام ويتوجهون لها بالدعاء لا تقدر على نفعهم ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلالٍ﴾ وما دعاء الكافرين إذا دعوا أصنامهم لتلبية حاجاتهم إلاّ في ضياع وخسار.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن في السَّمْواتِ وَالأَرْضِ طَوعاً وَكَرْهاً﴾ المراد بالسجود هنا الخضوع والانقياد والاستسلام، أي أن جميع من في السماوات والأرض من الإنس والجن والملائكة خاضعون لعظمة الله، منقادون لإرادته مختارين أو مقهورين شاءوا أم أبوا يستوي في ذلك مؤمنهم وكافرهم، فانقياد المؤمن لله يقع منه اختياراً حيث يخص خالقه بالعبادة والسجود له، وأما الكافر فإنه وإن لم يسجد لله طوعاً فهو في الحقيقة منقاد لأمر الله كُرهاً في الحياة والموت، وفي حال الشدة والمصائب ﴿وَظِلالُهُم بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾ وكذلك تسجد لله وتخضع ظلال كل شيء بالغدو والآصال، أي أول النهار وآخره، وخص الله هذين الوقتين بالذكر لأن الظلال تعظم وتكبر فيهما. والظلال ليست أشخاصاً يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ولكنها داخلة تحت مشيئة الله يصرفها على ما أراد، فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب تبعاً لتحركات الشمس فتمتد وتتقلص بتصريف الله سبحانه.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

شرح المفردات

أولياء: جمع وليّ وهو النصير الذي يُبتغي منه النفع.

يستوى: يتساوى ويتماثل.

القهّار: المتغلب المسيطر على خلقه، والقهار من صيغ المبالغة لا ينبغي إطلاقها إلا على الله تعالى.

انتفاء الشركاء عن الله

وبعد أن بيّن الله سبحانه أن كل ما في السموات والأرض خاضع له ومنقاد لإرادته أمر رسوله محمداً أن يظهر للمشركين عبدة الأصنام طريق الهداية وذلك بمحاورتهم سائلاً ومجيباً لإثبات وحدانية الله وعبادته وحده.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من رب السماوات والأرض المالك لهما والمدبّر لشؤونهما؟ ولمّا كان الجواب معلوماً عندهم أمر الله رسوله أن يكون هو المجيب: **﴿قُلِ اللَّهُ﴾** والمشركون يعترفون بذلك ولا ينكرونه وهذا ما حكاه الله بقوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان].

ثم أمر الله رسوله محمداً بأن يلزم المشركين الحجة على بطلان ما يعبدونه

من أصنام على سبيل التبكيت والتقريع: **﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكون لأَنْفُسِهِم نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾** أي قل لهم يا محمد: أبعد أن علمتم أن الله هو رب السماوات والأرض والمدبر لشؤونهما فَلِمَ اتخذتم من غير الله أصناماً تعبدونها وتطلبون منها النصرة والنفع وهي جمادات لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، ولمّا كانت الأصنام عاجزة عن تحصيل المنفعة لنفسها ودفع المضرة عنها فهي بالأحرى تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها.

﴿قُل هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ قل لهم يا محمد هل يتساوى الأعمى وهو الكافر الذي لا يرى حقيقة الشيء، ولا يهتدي إلى الطريق الصحيح، مع المؤمن الذي يبصر الحق فيتبعه، ويعرف الهدى فيسلكه **﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ﴾** أم هل تتساوى الظلمات والمراد بها الكفر والضلال مع النور الذي هو الإيمان بوحدانية الله المستحق وحده للعبادة **﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِم﴾** هنا استفهام للإنكار والمعنى: بل أجعل المشركون شركاء لله وهي الأصنام خلقوا خلقاً شبيهاً بما خلقه الله فتشابه خلق الأصنام مع خلق الله عندهم، كلا ليس الأمر كذلك فالمشركون يعلمون أن الأصنام لم يصدر عنها أي خلق، لذا كانت عبادتهم للأصنام وإطلاق صفة الألوهية عليها هو محض السفه والجهل.

وبعد أن ألزمهم القرآن الحجة ببطلان عبادة الأصنام أوصلهم إلى النتيجة المتوخاة: **﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُو الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾** أي قل لهم يا محمد: الله سبحانه خالق كل شيء في الوجود، وهو الواحد الذي لا شريك له، القهّار لكل متكبر، المتغلب المسيطر على عباده.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

شرح المفردات

فسالت أودية: فسالت مياه أودية، والأودية جمع واد وهو كل منخفض بين جبلين.

فاحتمل: فحمل.

زبداً: ما يعلو وجه الماء عند اضطراب أمواجه من الرغوة وحطام الأشياء.

رابياً: مرتفعاً فوق الماء.

الحلية: ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة.

متاع: كل ما ينتفع به.

جفاء: ما يرميه السيل ويقذفه إلى جوانب الوادي.

فيمكث: فيبقى.

استجابوا لربهم: أجابوا ولبوا ما دعاهم إليه من توحيده وطاعته.

الحسنى: مؤنث الأحسن، والمراد بها المثوبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة.

المهاد: الفراش والمستقر.

البقاء للأصلح

ويتابع القرآن فيمثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله بهذه الصورة البليغة:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فالله سبحانه أنزل من السماء مطراً **﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ**

بِقَدَرِهَا﴾ فسال الماء في الأودية بين الجبال والمرتفعات بالمقدار الذي قدَّره الله لنفع الناس ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ فحمل السيل الذي حدث من هطول الأمطار رغوة وحطام أشياء تعلو سطحه. فهنا يشبّه الله الكفر والباطل بالزبد الذي يعلو الماء ثم يضمحل ويعلق بجنبات الوادي ولا يحصل منه على نفع.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ وهنا مثال آخر ضربه الله بالمعادن التي يوقد عليها في النار لصهرها وإذابتها لتنقيتها من الشوائب تيسيراً للانتفاع بها في صناعة الحلي من الذهب والفضة ونحوهما، أو ما ينتفع به من الأدوات والأواني وأثاث البيت المتخذ من المعدن المصهور كالحديد والنحاس والألمنيوم، فكل هذه المعادن وغيرها تحمل زبداً كزبد الماء عند صهرها لا ينتفع به ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والبَاطِلَ﴾ أي كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فأما الزبد والخبث الذي لا خير فيه مما خالط المعادن فيطرح ويرمى جانباً ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ وأما ما ينتفع به الناس من الماء الصافي الذي ترتوي به الزروع، وما استخلص من المعادن الصافية فيبقى في الأرض.

فالباطل هو شبيه بالزبد فإنه مهما علا وظهر فإن مصيره إلى اضمحلال وفناء حيث يرمى به ويطرح جانباً، وأما الحق فهو الباقي الذي يمكث في الأرض، وهذا المثل ينطبق على الكفر والإيمان، فالكفر كالزبد، والإيمان هو الباقي الذي ينفع الناس ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ أي أنه تعالى بَيَّن للناس هذه الأمثال لبيان الفرق بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر ليعتبروا بذلك.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ أي للمؤمنين الذين أجابوا ربهم ولبوا دعوته من التصديق بوحدانيته واتباع رسله والعمل بشرائعه لهم المثوبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة ولهم في الدنيا الحياة السعيدة التي لا يشوبها كدر ﴿وَالّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ والذين لم يقبلوا ما دعاهم إليه ربهم من الإيمان بوحدانيته ولم يطيعوه

في ما أمرهم به وما نهاهم عنه، هؤلاء يتمنون ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي لو أنهم يملكون جميع ما في الأرض من متاع وأموال ويملكون أيضاً مثل ذلك معه لقدموه فدية لتخليص أنفسهم من عذاب الله، هذا إذا كان العذاب يفتدى بالمال وغيره ﴿أُولَئِكَ لَهُم سُوءُ الحِسَابِ﴾ أي أولئك يحاسَبون على جميع ذنوبهم لا يُغفر لهم منها بشيء، ولا تُقبل حسناتهم لأنهم ما فعلوها ابتغاء مرضاة الله ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ ومسكنهم ومقامهم جهنم ليعذّبوا بنارها، وبئس هذا الفراش المعدّ لهم هناك.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ
يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ
﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

شرح المفردات

يتذكّر أولو الألباب: يتعظ أصحاب العقول السليمة.

ولا ينقضون الميثاق: ولا يخلفون العهود التي التزموا بها بين الله وبين الناس.

يَصِلُون ما أمر الله به أن يُوصل: أي من البر بالوالدين وصلة الأرحام ونصرة المؤمنين.

ابتغاء وَجْهِ ربهم: أي طلباً لرضاء ذات الله.

يدرؤونَ: يَدْفعون.

عُقبى الدار: العاقبة الحسنة لدار الدنيا وهي الجنة.

سلام عليكم: أمان لكم من المحن والآفات.

خصال المتقين ومآلهم في الآخرة

وبعد أن بيّن الله أن الذين استجابوا له بالطاعة لهم المثوبة الحسنة في الآخرة قارن بعد ذلك بين صفات المؤمن والكافر:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ استفهام للإنكار لمن يتوهم المماثلة بين المؤمن الذي يعلم أن المُنزَل إليك يا محمد من ربك من الوحي هو الحق الذي لا ريب فيه فاهتدى به، وبين الكافر الذي عميت بصيرته فلم يرَ أمامه ولم يهتدِ بهدى الله فسار يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولو الأَلْبَابِ﴾ إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها أصحاب العقول السليمة.

ثم تأتي الآيات التالية معدِّدةً صفات أولي الألباب الذين اهتدوا بهدى الله:

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ولا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ والوفاء بعهد الله هو الاعتراف بوحدانيته وربوبيته لهذا الكون والقيام بما أَمَرَ من الطاعات والامتناع عما نهى عنه من المعاصي، وذلك يشمل جميع التكاليف التي عهد الله إلى الناس الأخذ بها على يد رسله، فما من فضيلة في الخُلُق الإنساني، ولا عدالة في المعاملة إلاّ وهي داخلة في عهد الله، وفي إضافة العهد إلى الله حافز للامتثال لأوامره ﴿وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ والميثاق ما يشدّد به العهد ويؤكد، فهؤلاء المؤمنون لا يقطعون المواثيق والعهود التي ألزموا بها أنفسهم سواء أكانت بينهم وبين ربهم أو بينهم وبين الناس، والعهد أولاه الإسلام عناية خاصة فقال النبي محمد ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[١].

الصفة الثانية: ﴿والَّذِين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هذا وصف عام يتناول أموراً شتى أمر الله بصلتها مثل: صلة الرحم، وإكرام الجار، ومراعاة حقوق

---

(١) رواه الإمام أحمد.

أخوّة الإيمان المذكورة في القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات].

وكذلك صلة الأغنياء بالفقراء بالإحسان إليهم، والعطف على الأيتام، والتوادّ بين الناس.

الصفة الثالثة: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ والخشية خوف يشوبه تعظيم وقيل هي أشد الخوف، أي يخافون ربهم خيفة شديدة تحملهم على فِعْلِ ما أمرهم به والامتناع عما نهاهم عنه. أما خوفهم سوء الحساب فهو خوفهم من أهوال يوم القيامة وما فيه من حساب دقيق على أعمالهم، وخوفهم من عدم الصفح عن ذنوبهم فتحملهم هذه الخيفة على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحَاسبوا.

الصفة الرابعة: ﴿والَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي صبروا على تكاليف ما أوجب عليهم ربهم فعله من طاعته، وصبروا على البلايا ومصائب الحياة احتساباً لرضاء الله، لأن البلايا حصلت بقضاء الله، وكل ما صدر منه سبحانه فهو خير لذاته وهو يثيب عليها. وتأمل قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم﴾ أي أنهم رأوا فيما أصابهم من بلايا ما يجعلهم يحصرون تفكيرهم في تذكر جلال ربهم حتى لكأنهم يشاهدونه، وهذا مقام رفيع من مقامات الإيمان يخفف وقع المصيبة، ومرتبة عالية يحوز بها الإنسان على رضاء ربه.

الصفة الخامسة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعلانِيَةً﴾ أي أدوا الصلاة كاملة مستوفاة لشروطها وأركانها، وأنفقوا بعض ما رزقهم الله من أموال على الفقراء والمحتاجين. وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ حثٌّ على الإنفاق، فكأن الله يقول لهم: إن الذي دعوناكم للإنفاق به على الفقراء هو رزق أغدقناه عليكم فلا عذر لكم في البخل على المحتاجين. أما قوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعلاَنِيَةً﴾ فهو بيان أن الإنفاق في السرّ أفضل لأنه يخلو من الرياء ولا

يخدش كرامة الفقير، وقد يكون الإنفاق علناً مستحباً كما إذا ظن أن عمله سيكون قدوة حسنة لغيره وبالأخص في فريضة الزكاة.

الصفة السادسة: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح السيّىء من الأفعال، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود] أو بمعنى أنهم يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، أو يدفعون الشر بالخير، أو يدفعون سَفَهَ الجاهل بالحلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

وهذا خلق عظيم يطفىء لهيب الشر ويحول دون امتداده ويشيع الود بين الناس.

ثم يختم الله هذه الآيات ببيان ما أعد لهؤلاء المؤمنين من مثوبة بقوله:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي أولئك الموصوفون بهذه الصفات الكريمة لهم العاقبة الحسنة في الآخرة جزاء طاعتهم لربهم.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَاتِهِمْ﴾ أي أولئك الذين قدَّموا في دنياهم العمل الصالح لهم جنات فيها إقامة واستقرار يدخلونها ويدخل معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم، وإن لم يبلغوا مرتبتهم بالصلاح ليأْنَسُوا بِهِم وتَقرّ أعينهم بهم، وصلاحهم هو إيمانهم بوحدانية الله واتباعهم أوامره وأوامر رسوله محمد ﷺ ﴿والملائِكَةُ يَدْخُلُون عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبواب الجنة للاحتفاء بهم ولتهنئتهم قائلين لهم: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي سلمتم من الآفات، أو دامت لكم السلامة بسبب صبركم على طاعة الله، واحتمالكم آلام الحياة ومصائبها ابتغاء وجه الله ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾فنعم عاقبة دار الدنيا هذه الجنات وما فيها من نعيم دائم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ
ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ
إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا
بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

شرح المفردات

ينقضون عهد الله: المراد بعهد الله ما أوجبه عليهم من طاعته ونقضه يكون بعصيان الله.

من بعد ميثاقه: من بعد توثيقه وتأكيده.

اللعنة: الطرد من رحمة الله.

سوء الدار: أي سوء عاقبة دار الدنيا وهي جهنم.

يبسط الرزق: يوسّع الرزق.

ويقدر: يضيّق الرزق.

متاع: شيء قليل يتمتع به.

لولا أنزل عليه آية من ربه: هَلاّ أُنزِل على محمد معجزة من ربه تكون دليلاً على صدقه.

أناب: رجع إلى الله بالتوبة.

طوبى لهم: غبطة لهم وقرة عين وكرامة من الله لهم.

وحسن مآب: وحسن مرجع يرجعون إليه يوم القيامة.

خصال الكافرين ومآلهم في الآخرة

وفي مقابل الصفات الحسنة التي وصف الله بها عباده الصالحين تأتي عقبها الصفات السيئة للأشقياء الذين خرجوا عن طاعة الله:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ أي والذين ينقضون عهد الله بما أوجبه عليهم سبحانه من طاعته والاعتراف بربوبيته والعمل بما أوصى به من التكاليف، ونقض العهد هو إبطاله وعدم الوفاء به ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد ما أكدوا التزامهم به وقبولهم إياه ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي يقطعون كل ما أوجب عليهم وصله ويشمل وصل رسوله محمد ﷺ باتباع سنته ونصرة دينه، ووصل المؤمنين بالمعونة والمحبة، ووصل الأرحام بالمودة والتعاطف والإحسان ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وإفسادهم في الأرض هو بالظلم وإثارة الفتن وارتكاب المعاصي واعتدائهم على المؤمنين ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أولئك الموصوفون بتلك الصفات لهم الطرد والإبعاد من رحمة الله، ولهم في الآخرة الدار السيئة وهي جهنم حيث تكون مقرًا لهم.

وقد كان زعماء المشركين من أهل مكة في بدء الإسلام على جانب من الثراء وكانوا يجعلون ذلك برهاناً على أنهم المستحقون للكرامة فردّ الله على زعمهم الباطل بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي أن شأن الرزق يدبره الله بحكمته فقد يوسع الرزق على الكافر استدراجاً له لزيادة معاصيه، ويضيق الرزق على المؤمن امتحاناً له وزيادة في أجره، فهو سبحانه يعطي المؤمن وغير المؤمن دون أن يجعل بسط الرزق دليلاً على رضاه ولا الإقتار دليلاً على سخطه ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفرح هؤلاء الذين بسط الله لهم الرزق في الحياة الدنيا فركنوا إليها مع ما هم عليه من الكفر ومعصية الله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ وما متع الحياة الدنيا بالنسبة إلى متع الدار الآخرة ونعيمها الدائم إلاّ متع ضئيلة فانية لا بقاء لها ولا يعتد بها.

من شبهات الكافرين

ويتابع القرآن فيذكر ما أثاره الكافرون من شبهات على نبوة محمد بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وآية: معناها هنا: المعجزة، أي هلاّ أُنزل على محمد معجزة من ربه تكون حجة على نبوّته؟ وهذا ما حكاه القرآن عنهم أيضاً في سورة الأنبياء ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ أي فليأتنا محمد بمعجزة تكون دليلاً على نبوّته مثل معجزات موسى وعيسى وصالح عليهم السلام. وهؤلاء الذين اقترحوا ذلك لم يدركوا أن القرآن الذي يُتلى عليهم هو معجزة في أسلوبه وبلاغته وما يحتويه من تشريع وهدى، وما جاء به من أخبار الغيب عن الأنبياء والرسل، فما لهم يقترحون إنزال معجزة على محمد كمعجزات الأنبياء السابقين التي اندثرت وأصبحت خبراً من الأخبار، وعرضة لإنكار الملحدين، بينما القرآن هو معجزة باقية على مرّ الزمن يدركها ويلمسها كل من أوتي حظاً من العلم والمعرفة ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين إن الله يضل من يشاء ممن يختار الضلال، فمن كان على صفتكم من العناد والإصرار على الكفر فلا يوفقهم الله إلى الهداية ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ويهدي الله سبحانه إلى الحق وإلى الإسلام من رجع إليه بالتوبة وأقلع عما كان عليه من الكفر والمعاصي. فالخطوة الأولى تبدأ من العبد في رجوعه إلى الله وبعدها تأتي الخطوة التالية وهي الهداية من الله.

وهؤلاء الذين يرجعون إلى الله وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وذكر الله يحتمل أن يكون المراد منه: القرآن، وإطلاق اسم الذكر على القرآن جاء في آيات شتى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

فهؤلاء الذين آمنوا تطمئن قلوبهم أي تسكن عند تلاوتهم القرآن الذي يعرض

الدلائل على وحدانية الله بما ينزع الريب من النفوس، وبما يرون في القرآن من آيات بيّنات تشهد بإعجازه وأنه من عند الله، وهذا التفسير يندرج مع ما سبق حيث قال المشركون: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

وقد يراد بذكر الله الاتصال به بالقلب واللسان وتذكّر جلاله وعظمته وباهر قدرته، وقد دعا القرآن إلى ذكر الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب].

وذكر الله تطمئن به قلوب المؤمنين لما تستشعر من رحمته وفضله وغفرانه للذنوب، وأن بيده النفع والضر، وأنه القادر على إجابة الدعاء وكشف الضر مما يزيل عن النفس ما تشعر به من قلق واضطراب، وفي الوقت نفسه يضفي ذكر الله على القلب طمأنينة وراحة نفسية.

وذكر الله له مظاهر شتى: فهو يكون عن طريق التحميد والتسبيح والتكبير والتهليل والاستغفار له سبحانه: فالتحميد هو قولك: (الحمد لله) والتسبيح هو قولك (سبحان الله) والتكبير هو قولك: (الله أكبر) والتهليل هو قولك (لا إله إلاّ الله) والاستغفار هو قولك (أستغفر الله).

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ هذه الآية تبين أهمية ذِكْر الله إذ به تحصل الطمأنينة للقلب، وافتتحت الجملة بأداة الاستفتاح (ألا) المفيدة للتنبيه للاهتمام بمضمونها، وللإغراء بالإكثار من ذكر الله سبحانه، كما ذكرت تطمئن بصيغة (المضارع) الذي يفيد التجدد والاستمرار ودوام الاطمئنان.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مآبٍ﴾ فالقرآن لا يذكر الإيمان بالله إلا ويقرنه بالعمل الصالح، لبيان أن الإيمان من لوازمه العمل الصالح، وأن العمل الصالح لا يُقبل إذا لم يقترن بالإيمان بالله ويكون خالصاً لوجهه الكريم. ومعنى ﴿طُوبى لَهُم﴾ أي نِعْمَ ما لهم، أو غبطة لهم، أو خير لهم ﴿وَحُسْنُ مآبٍ﴾ أي أن مرجعهم إلى الله سيكون مرجعاً حسناً.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

شرح المفردات

خلت: مضت.

إليه متاب: إليه مرجعي في كل أموري وإليه توبتي.

أفلم ييأس: أي أفلم يعلم.

قارعة: من القرع وهو ضرب الشيء بشيء آخر بقوة والمراد بالقارعة: الرزية والمصيبة والكارثة.

الميعاد: بمعنى الوعد، والوعد عبارة عن الأخبار قبل وقوعها.

مكانة القرآن العظمى

ويتابع القرآن فيبين أن محمداً ﷺ هو رسول من الله أرسله سبحانه إلى أمته كما أرسل رسلاً قبله إلى أممهم:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ في أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك يا محمد إلى أُممهم، كذلك أرسلناك إلى أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة ﴿لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لتقرأ على مسامعهم هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالله المتصف بصفة الرحمن

الذي وسعت رحمته كل شيء وينسبون له شركاء **﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله المتصف بصفة الرحمن الذي كفرتم به وعبدتم غيره هو ربي وحده دون غيره ولا معبود لي سواه. روي في أسباب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لمّا قال لكفار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فقيل لهم: إن الرحمن الذي أنكرتم إطلاق اسم الله عليه هو ربي **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيهِ مَتَابِ﴾** أي على الله وحده اعتمدت في الأمر كله، وإليه مرجعي ومرجعكم وإليه توبتي.

ثم يعود بنا القرآن إلى الرد على بعض اقتراحات المشركين، من ذلك أن نفراً من مشركي مكة اجتمعوا بالنبي ﷺ فقالوا: إنْ سرّك يا محمد أن نتبعك فسيّر لنا بقرآنك الجبال عن حوالي مكة فأذهِبها عنا لتتسع أرضنا فنزرعها وشقّق الأرض وفجّر لنا فيها الأنهار والعيون كما في أرض الشام، أو أحْي لنا فلاناً وفلاناً يخبروننا أنَّ ما تقوله حق، فنزل قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً[(١)] سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾** والمعنى: لو أنّ كتاباً مقروءاً من الكتب السماوية تحركت به الجبال من أماكنها وشقّقت به الأرض عن أنهار وعيون أو كُلِّم به الموتى بعد إعادة الحياة عليهم. وجواب (لو) في صدر الآية محذوف لدلالة المقام عليه وتقديره: لكان هذا القرآن. ويصحّ أن يكون المعنى: ولو أن كتاباً مقروءاً من الكتب السماوية فسيرِّت به الجبال أو قطِّعت به الأرض أو كلِّم به الموتى لما آمنوا لشدة عنادهم وكفرهم **﴿بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾** أي أن الأمور كلها بيد الله يفعل ما يريد وفقاً لمشيئته وحكمته **﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِين آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جمِيعاً﴾** ييأس: بمعنى يعلم كما جاء في بعض لغات العرب، أي ألم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله هداية الناس جميعاً لفعل ذلك على سبيل الإلزام والقهر، ولكنه لم يشأ أن يفعل ذلك بل جعل الهداية تابعة لاختيار الإنسان بعد أن

---

(١) قرآناً: المراد بالقرآن هنا: معناه اللغوي، أي الكلام المقروء.

أنزل الشرائع وبيّن الحق من الباطل. ومن المفسرين من حمل معنى كلمة ييأس على معناها المعروف وهو القنوط، أي أفلم يقنط الذين آمنوا من إيمان المشركين لأنه سبحانه لو يشاء لهداهم جميعاً، وحيث إنهم لم يهتدوا وأصروا على الكفر كان من حق المؤمنين أن يقنطوا من إيمانهم.

ثم يحذّر الله الكافرين من التمادي في كفرهم:

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي ولا يزال يا محمد الذين كفروا من قومك يصيبهم بسوء أعمالهم مصيبة أو كارثة تروعهم كالذي يحدث لهم حيناً بعد حين من القتل والأسر وأخذ غنائمهم في غزوات المسلمين لهم **﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾** أو تحل تلك المصيبة في مكان قريب من دارهم فينتابهم الهلع والخوف ترقباً أن ينزل بهم مثلها. أو بمعنى: أو تنزل أنت يا محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بخناقهم **﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾** أي حتى يأتي وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾** إن الله لا يخلف ما وعد به.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ
وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى
وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات

فأمليت للذين كفروا: أي أمهل الله الذين كفروا وتركهم فترة من الزمن بدون عقاب.

أخذتهم: أي أخذتهم بالعقوبة وأنزلت عليهم العذاب.

قائم على كل نفس: رقيب ومهيمن عليها وهو الله سبحانه.

تنبّئونه: تخبرونه.

أم بظاهر من القول: أم تسمونهم بباطل من القول.

زُيِّنَ: حُسِّنَ.

مكرهم: مكر الكفار بالرسل هو القدح في دعوتهم وتدبير المعوقات عن الاستجابة لهم.

واقٍ: مانع أو حافظ.

أُكُلها دائم: ثمرها باقٍ لا يغيب ولا ينقطع.

عقبى الذين اتقوا: أي مآلهم وعاقبتهم.

تهديد للكفار ووعدٌ للمؤمنين بحسن المثوبة

ثم ينتقل القرآن إلى مواساة رسول الله محمد ﷺ بسبب ما يلاقيه من سخرية من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي كما سخر بك يا محمد الكفار فقد سخر الكفار السابقون برسل كثيرين أرسلناهم إليهم، فاصبر على أذى قومك وامض لأمر ربك في دعوتهم إلى دين الله ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذين كَفَرُوا﴾ أي فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمن دون عقاب لعلَّهم يثوبون إلى رشدهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ثم أخذتهم بالعذاب الذي أنزلته بهم وكان عقابي لهم هائلاً ومريعاً، والاستفهام هنا للتعجب ممّا حلَّ بهم والتهويل من شدته وفظاعته.

ثم يقارن القرآن بين عبادة الله وعبادة الأصنام

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فالقائم هنا هو الله سبحانه والمقصود هو تولّيه أمور خلقه وهيمنته على شؤونهم وتدبيره للآجال والأرزاق وإحصاء أعمالهم لمجازاتهم عليها يوم القيامة. والمعنى: أفمن كان شأنه كذلك وهو الله كمن ليس بقائم على شيء وهي الأصنام التي أشركوها مع الله في العبادة وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ والحال أن المشركين جعلوا الأصنام شركاء لله مع عدم فائدتها ﴿قل سَمُّوهُم﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين على سبيل التأنيب والتبكيت: بيّنوا أسماء هذه الأصنام التي تعبدونها ولو سمّوها آلهة لكذبوا، لأنها أحقر من أن يكون لها أسماء تدل عليها ﴿أمْ تُـنَبِّـئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ في الأرضِ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، أي أتخبرون الله بشركاء له لا وجود لهم في الأرض لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتخصيص الأرض بالذكر لأن المشركين زعموا أن لله شركاء فيها ﴿أمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمون الأصنام شركاء لله بكلام لا يقصد به معنى معقول، وإنما هو من الكلام الظاهر الذي إذا أردت أن تتفحصه تجده لا يحوي شيئاً ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كفروا مَكْرُهُم﴾ أي

دع عنك يا محمد مجادلتهم فإن هؤلاء المشركين قد حسَّن لهم الشيطان باطلهم ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي منعوا الناس عن طريق الحق والهدى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يضلله الله لعدم استعداده للهدى وإصراره على الكفر والظلم فليس له من هاد يوصله إلى الحق وينجيه من عاقبة ضلاله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ أي لهؤلاء الكفار عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والمحن ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ ولعذابهم في الدار الآخرة أشد من تعذيب الله لهم في الدنيا ﴿وَما لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وليس لهم أحدٌ يقيهم من عذاب الله إذا أراد تعذيبهم.

وبعد هذا الوعيد للكفار أتبع القرآن ذلك ببيان ثواب المتقين في الآخرة:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة التي وعدها الله لعباده المتقين الذين يقون أنفسهم الكفر والمعاصي ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وهذا ما يعطي النضرة والازدهار في أشجارها وثمارها ويضفي الابتهاج والمسرة للمقيم فيها ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي ثمرها باقٍ لا ينقطع في أي وقت من الأوقات، وظلها دائم أيضاً لا شمس فيها ولا زمهرير ولا ظلمة تقبض النفس، فإن حالة الظلام لا تسمّى ظلاًّ، وإنما يقال الظل للحالة التي فيها ضوء خال من حرارة الشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِين اتَّقَوْا﴾ وَعُقْبَى الشيء: آخره ومنتهاه أي هذه الجنة عاقبة الذين اتقوا ربهم بتجنب الكفر والمعاصي ﴿وعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ﴾ بينما عاقبة الكافرين بالله عذاب النار.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن
يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا
وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم
بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ
وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

شرح المفردات

والذين آتيناهم الكتاب: الكتاب المراد به هنا التوراة والإنجيل.

الأحزاب: الجماعات والأقوام المتشابهون في ميولهم وعقائدهم.

وإليه مآب: وإلى الله المرجع والمصير.

وليّ: نصير.

واق: حافظ ومانع من عذاب الله.

بآية: بمعجزة.

لكل أجل كتاب: لكل وقت حكم معين تدعو إليه الحكمة الإلٓهية.

يمحو الله: يزيل الله.

أم الكتاب: اللوح المحفوظ.

وظيفة رسل اللّه

ويتابع القرآن فيتحدث عن المؤمنين الذين يفرحون بما أنزل على محمد ﷺ من الوحي الإلهي:

﴿والَّذِين آتيْناهُمُ الكِتَاب يَفْرَحُون بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ والمراد بالكتاب هنا: التوراة والإنجيل، أي والذين أسلموا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون

بما أُنْزِلَ إليك يا محمد من ربك حين استماعهم للقرآن وهو يُتلى عليهم إيماناً منهم بأنه كتاب الله حقاً أَنزله على رسوله محمد ﷺ وذلك لِمَا رأوا في التوراة والإنجيل من البشارات على مجيء نبي بعد أنبيائهم تنطبق صفاته على صفات محمد ﷺ ومن هؤلاء الذين أسلموا من اليهود عبد الله بن سلام وسواه، ومن النصارى من آمن من أهل نجران واليمن والحبشة.

والآية تنطبق أيضاً على الذين أسلموا من العرب ويكون المراد من الكتاب هنا القرآن. فهم كانوا يفرحون بما كان ينزل على رسول الله من الوحي.

﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل عليك يا محمد من الوحي من ربك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم، ولم يسمّ القرآن هؤلاء الذين ينكرونه، إهمالاً لشأنهم وعدم الاعتداد بهم **﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾** لفظ (إنما) يفيد حصر المعنى، أي أني ما أمرت إلا أن أعبد الله وحده، وأُمِرْت أن لا أُشْرِكَ به شيئاً في عبادته، وهذا يشمل إبطال كل معبود غير الله **﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾** إلى عبادة الله وحده أدعو الناس جميعاً وإليه مرجعي ومصيري ومصيركم للجزاء والحساب يوم القيامة.

بهذه الكلمات القليلة لَخَّصَت هذه الآية الكريمة أهداف الدعوة الإسلامية التي أمر الله بها رسوله محمداً ﷺ وهي: عبادة الله وحده والتخلي عن عبادة ما سوى الله مع التأكيد بأن المرجع إلى الله. وإذا توجهت البشرية جمعاء إلى عبادة الله وحده توحّدت قلوبها نحو هدف واحد وانتفى عنها الكثير من الخلافات والصراعات الدامية.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء السابقين بلغاتهم كالتوراة والإنجيل، أنزلنا إلَيك يا محمد هذا القرآن بلغة العرب ليسهل على قومك فهم معناه والرجوع إليه في الأحكام، وإنما سمي القرآن (حُكماً) أي حاكماً بين الناس لما فيه من الأحكام والشرائع التي يحتاج إليها الناس **﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾** أي ولئن اتبعت يا محمد أهواء المشركين بدعوتهم إياك إلى ملة آبائهم

﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ أي من بعد ما جاءك من العلم اليقيني بأن الإسلام هو الدين الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ أي ليس لك من دون الله وليّ ولا ناصر فينقذك منه ويقيك من عذابه إن أراد عذابك والخطاب هنا للنبي محمد ﷺ والمقصود أمته لأن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ، ويكون ما في الآية وعيداً لأهل العلم إن هم حادوا عن طريق الحق واتبعوا سبل أهل الضلالة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾ هذه الآية رد على الذين عابوا على النبي ﷺ تعدد نسائه، فأجاب الله بهذه الآية التي فيها إشارة إلى النبيّ سليمان والنبي داود اللذين كانت لهما زوجات كثيرات. والنبي محمد ﷺ تزوج بإحدى عشرة امرأة وهو استثناء خاص به دون قومه. والمتأمل في حياة النبي يرى أن حياته الأولى اقتصرت على زوجة واحدة إلى أن بلغ الثالثة والخمسين من عمره، فلمّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة حدثت أمور اقتضت أن يصاهر القبائل لمصلحة الإسلام، وبعض نساء المؤمنين قتل أزواجهن في ساحة الحرب فتزوجهن النبي ﷺ لأنهن أصبحن بلا معيل، وإحدى زوجاته تزوجها النبيّ لإبطال تشريع معمول في الجاهلية قبل الإسلام وهو التبني.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هنا يردّ الله على قول بعض الكفار الذين قالوا: لو كان محمد رسول الله حقًّا لجاء بالمعجزات التي طلبناها منه فكان جواب الله لهم: ما صحّ وما استقام لرسول من الرسل أن يأتي لقومه بمعجزة إلاّ بإذن الله وإرادته فهو وحده يحكم بما يشاء ويفعل ما يريد ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب كتبه في اللوح المحفوظ، ولكل وقت حكم يكتب على الناس حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية فلا المعجزات التي اقترحها الكفار بنازلة قبل أوانها ولا العذاب الذي خُوِّفوا به بواقع في غير وقته، وليس لضرّ أو فتح أن يحصل قبل أوانه.وقيل معنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل وقت من الزمان، أو لكل جيل كتاب من عند الله فيه تشريع يناسب حالهم، فالأحكام ينزلها الله على رسله بحيث يراعى فيها الصالح العام لقومهم بما تقتضيه الحكمة الإلَهية.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي يمحو الله ما يشاء من الشرائع والأحكام بنسخها وإبطال حكمها، ويُبقي ما يشاء منها ثابتاً فلا يبدلها بغيرها، والشرائع التي تتبدل هي كأحكام الحلال والحرام وأصول المعاملات، أما العقائد وأصول الأخلاق فلا تتبدل ولا تختلف من رسول إلى رسول.

وقيل المراد من الآية: إن الله يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، والمحو يشمل الأقدار من مصائب وأرزاق وأعمار وسعادة وشقاء، ويبدّل هذا بهذا، والدعاء يفيد في رد البلاء، وقد يؤخر في أجله إلى الوقت الذي قضى فيه عليه بالموت بسبب صلة الرحم والبر بوالديه، وقد جاء في الحديث الشريف: «من سَرَّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره[١] فليَصِلْ رحمه»[٢].

وقد روي أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف ببيت الله الحرام وهو يبكي: اللهم إن كنتَ كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامْحُه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. ورُوي عن ابن مسعود أنه كان يقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل الشقاء فامحني وأثبتني في أهل السعادة.

وهناك تفسير لابن عباس يخالف ذلك وهو قوله: إن الله يدبر أمر العباد فيمحو ما يشاء ويثبت إلاّ الشقاء والسعادة والموت والحياة.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ وأم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما خلْقه عاملون، وقيل المراد بـ أم الكتاب أصل الكتب المنزلة على أنبيائه وهو اللوح المحفوظ الذي لا يُغيّر ولا يبدل، وسمي اللوح المحفوظ بـ أم الكتاب لأن جميع الأشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب الإلهية المنزلة على رسل الله، وأن العلوم كلها تنسب إليه وتتولد منه، وأن كل كائن مكتوب فيه.

---

(١) ينسأ له في أثره: يؤخّر له في أجله.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ
وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ
يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ
لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ
كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

شرح المفردات

من أطرافها: من جوانبها.

لا معقّب لحكمه: أي لا رادّ لما يحكم.

مكر: المكر هو تدبير الشر خفيه.

فللّه المكر جميعاً: أي أنه تعالى يعلم المكر كله فلا تخفى منه خافيه، وعنده جزاء مكرهم.

عُقبى الدار: عاقبة دار الدنيا.

علم الكتاب: علم التوراة والإنجيل.

نبوءة للقرآن باندحار الكافرين

وأخيراً يخبر الله رسوله محمداً بما ينتظره من نصر وما سيصيب المشركين من عذاب وهلاك:

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي وإن أريناك يا محمد في حال حياتك بعض ما أوعدنا به هؤلاء المشركين من إنزال العذاب فيهم عقاباً على كفرهم، أو توفّيناك قبل أن نريك ذلك **﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾** فما عليك يا محمد إلاّ تبليغ دعوة الإسلام وعلينا وحدنا حسابهم وجزاؤهم على كفرهم ومعاصيهم في الدنيا والآخرة في الوقت الذي تقتضيه حكمتنا. وفي قوله سبحانه:

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّك بَعْضَ الّذي نَعِدُهُمْ﴾ إشارة واضحة بأن الله سيري رسوله محمداً بعض الذي أوعد المشركين به من الهزائم ونزول العذاب بهم وهو ما تحقق فعلاً في غزوة بدر وغيرها من الغزوات.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أعمي هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار؟ ألم ينظروا كيف أننا نأتي أرض الكفر فنفتحها للمسلمين باستيلاء المسلمين عليها شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الإسلام ونصيب أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ والله قد حكم بالغلبة للمسلمين على أعدائهم ما داموا على طاعة الله لا يعقِّب أحد غيره على حكمه بتغيير ولا نقض ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ والله سريع الانتقام ممن عصاه في الدنيا ومحاسبهم على أعمالهم في الآخرة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِم﴾ المكر هو تدبير الشر خفية، أي قد مكر الكفار من قبل برسل الله كما مكر كفار مكة برسول الله ومن معه من المؤمنين ﴿فَلِلَّهِ المَكْرُ جَمِيعاً﴾ فالله سبحانه محيط بمكرهم فلا يغيب عن علمه شيء منه، وهو قادر على إحباطه، وعنده سبحانه جزاء مكرهم ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي يعلم ربك يا محمد ما يعمل هؤلاء الكفار من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، كما يعلم جميع أعمال الخلق لا يخفى عليه شيء منها ﴿وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ﴾ وسيعلم الكفار أن العاقبة الحميدة في دار الدنيا ودار الآخرة ستكون للمؤمنين. هذه الآية تبشر المؤمنين بالنصر على أعدائهم وهو ما تحقق فعلاً بعد سنوات قليلة من نزول هذه الآية، مما يعطينا الدليل القاطع على أن القرآن وحي إلَهي إذ لا يعلم الغيب إلاّ الله.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ ويقول الكفار من قومك يا محمد بأنك لست رسولاً من عند الله تكذيباً منهم لك وجحوداً لنبوتك رغم كل البراهين والحجج التي تشهد أنك رسول الله حقاً ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بيني وبَيْنَكُم﴾ قل يا

محمد لهؤلاء حسبي الله شاهداً لي على صدقي بأني رسول من عنده، وشاهداً عليكم أيها الكفار في ما تفترونه من البهتان ﴿وَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتَابِ﴾ كما يشهد بصدقي من أسلم من أهل الكتاب الذين عندهم علم بالتوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداريّ والنجاشي وأصحابه، لما رأوا في كتبهم من البشارات على مجيء نبي تنطبق صفاته على صفاتك يا محمد ولِما رأوا في القرآن الكريم من حقائق تشهد بأنه كتاب مُنْزَلٌ من عند الله.

تعريف بسورة إبراهيم

سورة إبراهيم هي سورة مكية أي نزلت بمكة، وسمّيت بهذا الاسم لاشتمالها على الدعوات الطيبات التي تضرَّع بها إبراهيم عليه السلام إلى ربه. وموضوع هذه السورة الأساسي هو العقيدة بفروعها التي تشمل: وحدانية الله، والإيمان بالرسل والبعث والجزاء على الأعمال في الآخرة.

تبدأ السورة ببيان وظيفة رسول الله محمد ﷺ الذي أَنزل الله عليه القرآن ليخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان، ثم تذكر السورة نبذة عن رسول الله موسى عليه السلام مع قومه وكيف كان يدعوهم إلى شكر الله على نعمه ويحذرهم من الكفر، كما تذكر السورة نبذة عن أخبار رسل الله مع أقوامهم، وكيف تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بالنصر والاستخلاف في الأرض، والهزيمة والهلاك للكافرين.

وتتحدث السورة عن شدة عذاب الله للكافرين في الآخرة، وبطلان أعمالهم التي عملوها في دنياهم لأنهم لم يؤمنوا بالله، ولم يبتغوا بأعمالهم وجه الله والتقرب منه.

وفي هذه السورة تعداد لبعض نعم الله على الإنسان التي فيها استمرار حياتهم ومتطلبات معيشتهم مع تذكيرهم بأن نعم الله لا تحصى. كما تتضمن السورة مشهداً من مشاهد القيامة وما يكون فيه من محاورة بين الكفار وزعمائهم وبينهم وبين الشيطان الذي أغواهم.

وتذكر السورة الكلمة الطيبة وهي كلمة الإيمان (لا إله إلا الله) وتشبهها بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، والتي تؤتي ثمارها كل وقت بإذن ربها، كما تشبّه كلمة الكفر بالشجرة الخبيثة التي طعمها مر ولا تثبت في الأرض.

وأخيراً تنذر السورة الظالمين وتبين ما أعد الله لهم من عذاب أليم.

سورة ابراهيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ
إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن
يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

شرح المفردات

الظلمات: الضلالات لأنها ظلمات معنوية.

إلى النور: إلى الهدى لأنه نور معنوي يهدي إلى الحق.

صراط: طريق.

الحميد: المستحق للحمد وإن لم يحمده الناس.

ويل: الويل بمعنى الهلاك.

يستحبون: يختارون ويؤثرون.

ويصدّون عن سبيل الله: يمنعون الناس عن دين الله.

ويبغونها عوجاً: يطلبون لسبيل الله العوج.

بلسان قومه: بلغة قومه.

القرآن هداية للناس من الضلال

تستهل هذه السورة آياتها بالتنويه بالقرآن وأثره في هداية البشر:

﴿الٓر[1] كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ أي هذا كتاب عظيم القدر وهو القرآن أنزله الله إليك يا محمد لِتُخرج الناس جميعاً من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية والحق. وقد جعل الله الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور عن طريق الاستعارة، كما عبّر الله عن الظلمات بصيغة الجمع لأن طرق الضلال كثيرة، وعبّر عن الإيمان والهدى بصيغة المفرد لأن طريق الهدى والإيمان طريق واحد ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي إنك يا محمد تُخرِجُ الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله ومشيئته ﴿إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الله المستقيم وهو الإسلام الذي شَرَعَهُ الله القوي الغالب لكل ما سواه، المستحق للحمد لذاته في كل أفعاله.

﴿اللَّهِ الَّذي لَهُ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ﴾ أي وإن الله سبحانه الذي تدعو الناسَ إليه يا محمد له ما في الكون خلقاً ومُلكاً وتصرّفاً لا يشاركه في ذلك أحد ﴿وَوَيْلٌ للكَافِرينَ مِنْ عَذَابٍ شَديدٍ﴾ وهلاك وعذاب شديد للكافرين يوم القيامة الذين لا يهتدون بما أنزله الله من القرآن على رسوله محمد ﷺ.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلى الآخِرَةِ﴾ وهؤلاء الكافرون هم الذين يختارون الحياة الدنيا ويؤثرون لذائذها الفانية وشهواتها المهلكة على الآخرة وما فيها من نعيم دائم وخيرات لا تزول ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ ويصرفون الناس عن دين الله الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ويرغبون أن تصير شريعة الله في نظر الناس معوجّة بإلقاء الشكوك والشبهات عليها والطعن فيها لإرضاء أهوائهم وشهواتهم ﴿أُولَئِكَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك الموصوفون بما ذُكر في ضلال بعيد عن الحق.

(١) الٓر: راجع ما كتبناه في سورة الرعد بصدد معاني هذه الأحرف.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي وما أرسل الله من رسول إلى قومه إلاّ باللغة التي يتكلمون بها ليفهموا ما يبلّغهم به رسول الله من شريعة ربهم ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فيضل الله الظّالمين الخارجين عن طاعته، ويهدي الله سبحانه من اتّبع سبيل الرشاد ورجع إلى الله بالتوبة والطاعة. ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ وهو الله سبحانه القوي الغالب الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ، الحكيم في أفعاله يهدي من هو مستحق للهداية من خلقه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

شرح المفردات

بأيام الله: أيام الله تشمل النِّعم والنقم على خلقه.

صبَّار: كثير الصبر على بلاء الله (من أبنية المبالغة).

شكور: كثير الشكر على نعماء الله (من أبنية المبالغة).

يسومونكم سوء العذاب: سام بمعنى ظلم مع الإذلال أي يكلفونكم التكاليف الشاقة مع الإذلال والتعذيب السيىء.

يستحيون نساءكم: يتركون نساءكم أحياء للخدمة.

بلاء من ربكم: ابتلاء واختبار من ربكم.

تأذّن: آذن بمعنى أعلم، وصيغة «تفعّل» تفيد المبالغة في الإعلام.

موسى عليه السلام يعظ قومه

وبعد أن بيّن الله أنه أَنزل القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، أتبع ذلك بذكر رسالة موسى إلى قومه وما وعظهم به من المواعظ لتكون دروساً وعِبَراً للقوم الذين أرسل الله إليهم محمداً ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ولقد أرسلنا موسى بمعجزاتنا إلى قومه، ومعجزات موسى هي: العصا، واليد، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر، وإظلال الجبل، وإنزال المنّ والسلوى.

ومن المفسرين من يرى أن المقصود هنا بالآيات التوراة التي أعطاها الله لموسى عليه السلام، ولا مانع من أن تشمل الآيات: المعجزات وآيات التوراة فكلها كانت تأييداً لموسى عليه السلام ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ما ذكر من الآيات السابقة هدفها أن تُخرج يا موسى قومك بني إسرائيل من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ والتذكير إزالة نسيان الشيء، أي ذكّرهم تذكير عظة بأيّام الله الماضية. وأيام الله تشمل النِّعم والنقم، أي ذكرهم بنعم الله عليهم حيث أنجاهم من آل فرعون، وذكّرهم بما حصل من انتقام الله لمن كذّب رسله وعاندهم مثل ما حلّ بقوم عاد وثمود وقوم لوط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي إن في تلك الأيام لدلائل وعبراً على وحدانية الله وقدرته وفضله ورحمته ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ لمن كان كثير الصبر على طاعة الله وعلى البلايا التي تصيبه ﴿شكور﴾ كثير الشكر على نِعَمِ اللّه. وتخصيص الصبور والشكور بالذكر لأن المتصف بهما هو المنتفع بالعظة والعبرة من ذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قال موسى لبني إسرائيل: اذكروا نعمة الله التي أسبغها عليكم ﴿إِذْ أَنْجَاكُم من آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي حين أنجاكم من حاشية فرعون وأتباعه،

وفرعون لقب لملك مصر في ذلك الوقت، فقد كانوا يُكلفون بني إسرائيل التكاليف الشاقة مع القهر والإذلال والتعذيب الشديدِ ﴿وَيُذَبِّحُون أَبْنَاءَكُم وَيَسْتَحْيُون نِسَاءَكُمْ﴾ أي ويذبحون أبناءكم الذكور ويستبقون إناثكم أحياء للخدمة ذليلات ﴿وفي ذَلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظِيمٌ﴾ أي وفي ما ذُكِرَ ابتلاء واختبار عظيم من ربكم.

وهكذا يبتلي الله عباده: أحياناً بالخير ليرى هل يشكرون أم يخرجون عن طاعته، وقد يبتليهم بالمحن ليرى أيصبرون أم يكفرون، وفي كلتا الحالتين يثيب الله الشاكر على نِعَمِه، كما يثيب الصابر على مِحَنِه ويعاقب الكافر على كفره.

ومن جملة ما قال موسى لقومه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم﴾ أي واذكروا حين أعْلم ربكم إعلاماً بليغاً لا شبهة فيه: لئن شكرتم ربكم على ما أنعم عليكم من نعمة النجاة من اضطهاد فرعون وقمتم بطاعته في ما أمركم به وما نهاكم عنه فإنه سبحانه يزيدكم من نعمه وفضله ﴿وَلَئِن كَفَرْتُم إِنَّ عَذَابي لَشَديدٌ﴾ ولئن كفرتم نعمة الله بإنكار نسبتها إليه سبحانه أو عدم استعمالها بطاعته أو قصّرتم بشكرها فترقّبوا عَذاب الله إن عذابه لشديد.

فهذه الآية تنص على أن شكر الله سبب لزيادة النِّعم كما أن كفرانها سبب لمزيد من النِّقَم، هذه حقيقة ذكرها الله لعباده ليروا من خلالها ما يؤدي إلى سعادتهم أو ما يؤول إلى شقائهم.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «وإنّ الرجُلَ ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»(١).

---

(١) رواه ابن ماجه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ
٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي
شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ
فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ
وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾

شرح المفردات

حميد: مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد.

نبأ: خبر.

بالبينات: بالمعجزات والحجج الواضحة على صدقهم.

فردوا أيديهم في أفواههم: عضوا على أصابعهم غيظاً من الرسل.

مريب: المتصف بقلق في النفس وعدم اطمئنانها إلى الأمر.

فاطر السماوات والأرض: خالقهما على غير مثال سابق.

تصدوننا: تمنعوننا.

بسلطان مبين: ببرهان وحجة بينة واضحة.

موسى يحذّر قومه من الكفر

ويتابع القرآن فيذكر تحذير موسى لقومه من الكفر:

﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُروا أَنْتُم وَمَنْ في الأَرْض جَميعاً﴾ أي إن تجحدوا نعم الله عليكم ولم تشكروها بعبادة الله وطاعته، إن فعلتم ذلك يا بني إسرائيل وفعل

ذلك معكم من في الأرض جميعاً فلن تضروا الله شيئاً، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعم الله المعرض عن طاعته حيث يحرمه الله من مزيد نعمه ويتعرض لعذابه الشديد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾فإن الله غني عن شكركم وعبادتكم، مستحق للحمد لذاته فإن لم تشكروه يشكره غيركم من الملائكة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِين مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ الخطاب هنا من الله لأهل مكة، ويحتمل أن يكون من تمام كلام موسى لقومه كما يحكيه الله لنا، والمعنى: ألم يأتكم خبر الأمم الذين كانوا قبلكم وما حل بهم من الهلاك بسبب كفرهم كقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود ﴿وَالَّذِين مِنْ بَعْدِهِم لا يَعْلَمُهُم إلاَّ اللَّهُ﴾ والذين جاءوا من بعدهم من الأقوام لا يعلم عددهم وأحوالهم إلاّ الله ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم رسل الله بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة من عند الله ﴿فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي فوضع الكفار أناملهم في أفواههم فعضوها غيظاً وبغضاً مما جاء به الرسل، وقد يكون المعنى: وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم وقالوا لهم بغضب ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي إننا كفرنا بما جئتم به من المعجزات وبمن أرسلكم إلينا فاغربوا عن وجوهنا واتركونا وشأننا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإننا نشك ونرتاب في حقيقة ما تدعوننا إليه من أن للكون خالقاً واحداً لا شريك له.

ثم بيّن سبحانه جواب رسل الله على المكذبين من أقوامهم على سبيل الإنكار والتوبيخ لهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ أي أفي وجود الله شك وهو خالق السماوات والأرض ومبدعهما ومبدع ما يوجد فيهما من كائنات على أحكم نظام وعلى غير مثال سابق.

هذا برهان ودليل على وجود الله في غاية الإقناع والوضوح.

إن الفطرة الإنسانية السليمة منذ أقدم العصور إلى الآن أقرّت بوجود الله كما دلّ على ذلك تاريخ الأديان، وإن قانون السببية الذي يقول إن لكل صنعة صانعاً ينطبق على الكون، فهذه السماء وما تحتويه من بلايين النجوم المشعة، والكواكب

السيَّارة التي يحفظها قانون الجاذبية الذي وضعه الله في الكون ويحول دون أن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكبنا الأرضي فينسفه، وهذه الأرض التي نعيش عليها وما فيها من نبات وحيوان وسهول وجبال وبحار وأنهار كل ذلك يسير على سنن ونواميس في نهاية الحكمة، كل ذلك من البراهين القوية التي تدل على وجود قدرة إلَهية حكيمة وعلى بطلان مزاعم الماديين الذين يدّعون بأن الكون وُجِدَ اتفاقاً وصدفة.

وبعد أن بَيَّن رسل الله لأقوامهم أن وجود الله ليس مجال شك أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿**يَدْعُوكُم لِيَغْفِرَ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ أي الله يدعوكم إلى الإيمان به وترك الذنوب والآثام ليغفر لكم بعض ذنوبكم التي وقعت منكم قبل الإيمان وهي التي تتعلق بحقوق الله وحده، أما حقوق العباد فإنها مبنية على ردّ الحقوق لأهلها ﴿**وَيُؤَخِّرَكُم إلى أجَلٍ مُسَمًّى**﴾ أي ويؤخر موتكم فتتمتعون بالحياة الدنيا إلى حين انتهاء آجالكم وهذه نعمة من الله عليكم فلم يستأصلكم بالعذاب والهلاك العاجل كما فعل بالأمم السابقة التي أصرت على الكفر والمعاصي وتكذيب رسل الله.

لم تؤثّر موعظة رسل الله في أقوامهم بل أجابوهم عناداً ومكابرة ﴿**قَالُوا إنْ أنْتُم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا**﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا في الصورة والهيئة فلا فضل لكم علينا يؤهلكم لأن تكونوا رسل الله ﴿**تُرِيدُون أن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤنَا**﴾ فأنتم بصنيعكم هذا تريدون أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا ﴿**فَأْتُونا بِسُلْطَانٍ مُبينٍ**﴾ فأتونا بحجة واضحة تؤيد صحة ما تدعوننا إليه حتى نترك عبادة آلهتنا التي وجدنا عليها آباءنا.

إن تلك الأمم كانت عبادتهم لآلهتهم من أصنام وغيرها تقوم على التقليد الأعمى للآباء بدون النظر والبحث والتماس الدليل. هكذا كانت حال الشعوب في الماضي البعيد، وها نحن اليوم في عصر العلم في مطلع القرن الواحد والعشرين لا نزال نرى الملايين من البشر تقوم عبادتهم على تقليد الآباء رغم ما في عبادتهم من الشرك بالله.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

يمنُّ عَلَى من يشاء من عباده: أي يمن بالنبوة على من يختار من عباده.

بسلطان: بحجة وبرهان يشهد على صدق نبوّتنا.

فليتوكل المؤمنون: فليعتمدوا على الله ويفوضوا أمورهم إليه.

وما لنا: وأيّ عذر لنا.

هدانا سبلنا: هدانا إلى طريق الله المستقيم الذي يجب سلوكه.

ملتنا: ديننا.

خاف وعيد: خاف ما أوعد الله به الكفار من العذاب.

تأييد الله لرسله وإهلاكه الظالمين

وبعد الرفض والتكذيب الذي لاقاه رسل الله من أقوامهم لأنهم بشر مثلهم، وكأن رسل الله في نظرهم لا يصح أن يكونوا من البشر وإنما يجب أن يكونوا من الملائكة، يحكي لنا القرآن ما كان جواب رسل الله على المعاندين لهم بالمنطق والأسلوب المهذب: **﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾** إن: حرف نفي بمعنى «ما» أي ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم، ولكن هذه المماثلة بيننا وبينكم في

البشرية لا تمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوّة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولكن الله ينعم على من يشاء من عباده بنعمة النبوة ويصطفيه لرسالته، ويخصّه بمحض فضله. وتابع رسل الله قولهم:

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وليس باستطاعتنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على أننا رسل من عند الله غير ما أجراه الله على أيدينا من المعجزات إلاّ بإذن الله وتيسيره. وهذا ردٌّ من الرسل على ما حكاه الله سابقاً عن المكذبين لهم بقوله: ﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبينٍ﴾.

ثم أكد الرسل تمسّكهم بالمضيّ في دعوتهم بقولهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ المؤْمِنونَ﴾ والتوكل على الله معناه: الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه مع العمل بالأسباب التي أمر الله بها للوصول إلى الأهداف المرتجاة.

كما حكى لنا القرآن ما قاله رسل الله لمن كذّبوهم: ﴿وَمَالَنَا ألاَّ نَتوكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ وأيّ عُذْر لنا في ترك التوكل على الله وحده ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وقد هدانا لأَقْوَمِ الطرق وهو إخلاص العبادة له وحده والاعتماد عليه في كل شؤوننا ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ولنصبرن: اللام لام القسم، أي: والله لنصبرن على ما نلقى منكم من المكروه والاضطهاد بسبب دعوتنا إياكم إلى دين الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ المتوكِّلُون﴾ وعلى الله فليعتمد المتوكلون عليه ويفوّضوا أمورهم إليه فهو الذي ينصرهم وبيده وحده هزيمة أعدائهم.

فالتوكل على الله الذي ورد في موضعين سابقاً ليس فيه تكرار، فالأول جاء على لسان الرسل للمؤمنين عقب تعنت الكفار في طلب المعجزات. والثاني جاء عقب معاناة المؤمنين الأذى من الكفار.

لم يكتف الكفار بمعاندة رسل الله ورفضهم الانصياع إلى كلمة الحق بل أقسموا على أمرين أرادوا تنفيذهما:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ أي

وقال الذين كفروا لرسلهم على سبيل التهديد: والله لنخرجنكم[١] من أرضنا أو لتعودن في ديننا.

والتعبير بقوله سبحانه ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يفيد بظاهره أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها، وهذا محال فإن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الكبائر فضلاً عن الشرك بالله قبل النبوة وبعدها. والخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون الذين كانوا قبل اتباع رسُل الله على ملّة قومهم ثم تركوها.

ثم تأتي بعد ذلك بشارة من الله لرسله بالنصر على أعدائهم: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِم رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي أخبر الله رسله عن طريق الوحي بأنه سيهلك الظالمين، ووصفهم بالظالمين لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وعبادة الأصنام، وظلموا الرسل والمؤمنين بالأذى والاضطهاد، وأكد الله سبحانه على ذلك بقوله ﴿لنهلكن﴾ بلام القسم ونون التوكيد ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي ولنسكننكم أيها المؤمنون أرض هؤلاء الكافرين بعد إهلاكهم عقوبة لهم في الدنيا على قولهم لرسل الله والمؤمنين ﴿لنخرجَنَّكُم مِنْ أرضِنَا﴾ فانعكست الآية فكانوا هم المخرجين من أرضهم ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي إن ما قضى الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم هو حق لمن خاف الموقف الذي يقف به العباد بين يدي الله للحساب يوم القيامة، أو خاف قيام الله عليه بحفظ أعماله ومراقبته إياه ﴿وَخَافَ وعيدِ﴾ وخاف وعيد الله بالعذاب لمن عصاه.

فالله يخبرنا أن سنّته جرت بأن ينصر رسله ومن آمن معهم على الكافرين، كما أن في ذلك إنذاراً للمشركين العرب بسوء العاقبة وتثبيتاً لقلب رسول الله محمد وبشرى له بأن النصر سيؤول إليه وهو ما تحقق فعلاً.

---

(١) لنخرجنكم: اللام في لنخرجنكم هي الموطئة للقسم.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ
وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ
﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ
ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

شرح المفردات

استفتحوا: طلب الرسل النصر من الله.

خَابَ كل جبار: خسر وهلك كل متعاظم متكبر.

عنيد: معاند للحق مجانب له.

ماء صديد: ما يسيل من أجساد أهل النار، وأصل الصديد الماء الرقيق الذي يخرج من الجرح.

يتجرعه: يتكلف بلعه مرة بعد أخرى.

ولا يكاد يسيغه: ولا يقارب أن يبتلعه بسهولة لقبحه وكراهته. يقال ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره فيه.

عاصف: شديد الريح.

لا يقدرون مما كسبوا على شيء: لا يجد الكفار ثواباً لما عملوه في الدنيا.

وما ذلك على الله بعزيز: وليس ذلك بأمر صعب يتعذر على الله.

شدة عذاب الكافرين في الآخرة وبطلان أعمالهم

ويتابع القرآن فيخبرنا عما آلت إليه الأمم المكذبة لرسل الله من خسران في الدنيا وعذاب في الآخرة:

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي لجأ الرسل إلى ربهم وسألوه الفتح

والنصر على عدوهم فاستجاب الله لرسله ونصرهم، وخسر أعداؤهم وهلكوا جزاء تكبرهم وتعاظمهم عن عبادة الله وطاعته وانحرافهم عن الحق **﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾** الوراء: من الأضداد يقع على الخلف والأمام، أي ومن أمام كل جبار عنيد جهنم ليعذب بنارها **﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾** الصديد: هو القيح المختلط بالدم أو ما يسيل من أجساد أهل النار، هذا هو شراب الكفار في جهنم **﴿يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾** أي يتناول الكافر المشروب جُرعة جُرعة كُرهاً وذلك لشدة كراهته له ولا يقدر على ابتلاعه لحرارته ومرارته بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة ويشربه على هذه الحال تارة أخرى ويصل بعض الشراب إلى جوفه فيقطع أمعاءه **﴿وَيأْتِيهِ الموْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾** وتأتيه أسباب الموت من الشدائد وأنواع العذاب والآلام من كل موضع من أعضاء جسده وما هو بميّت فيستريح **﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾** ومن أمامه عذاب شديد وهو الخلود في عذاب النار.

ثم يبين القرآن أن ما عمله الكافرون في دنياهم من أعمال سواء أكانت من أعمال الخير، أو ما قَدَّموه لآلهتهم من قرابين ونذور فإنها كلها لا تنفعهم يوم القيامة. وقد صوّر الله بطلانها، بهذا التشبيه البليغ:

﴿مَثَلُ الّذين كفروا بِرَبِّهِم أَعْمَالُهُم كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾

تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال، فأعمالهم مَثَلُها كمثل الرماد وقد هبت عليه رياح عاصفة فبددته ولم تبق له أثراً. ووجه الشبه: الضياع والتفرق وعدم الانتفاع مما عملوا، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثوراً، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تذهب سدى لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان بالله وإخلاص العبادة له **﴿لا يَقْدِرُون مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾** لا يقدرون يوم القيامة على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البرّ والخير لأن كفرهم أحبط أعمالهم فذهبت سدى دون أن يستفيدوا من ثوابها شيئاً **﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾** أي ذلك الكفر الذي أضاع أعمالهم هو الضلال، البعيد عن طريق الحق، المخالف لمنهج الصواب.

ثم يبيّن الله سبحانه بعض مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ألم تر: الاستفهام للتقرير، أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث وخلقها بالوجه الصحيح الذي تقتضيه إرادته؟ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن يشأ يهلككم أيها الناس ويأتِ بخلق جديد يعترفون بوجوده ويقرون بوحدانيته ويطيعونه في أمره ونهيه ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما إهلاككم والإتيان بغيركم أمر يصعب على الله أو يتعذر عليه لأنه سبحانه لا يعجزه شيء.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

شرح المفردات

وبرزوا لله جميعاً: ظهروا لله جميعاً للحساب بعد خروجهم أحياء من القبور.

كنا لكم تبعاً: كنا أتباعاً لكم تأمروننا فنطيعكم.

مغنون عنا: تدفعون عنا.

سواء: سيّان.

جزعنا: الجزع نقيض الصبر، كما أنه حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده.

محيص: مهرب وملجأ.

سلطان: تسلُّط أقهركم به على طاعتي.

بمصرخكم: بمغيثكم.

بما أشركتمون من قبل: بإشراككم إياي مع الله في العبادة من قبل، أي في الدنيا.

محاورة بين أهل الضلال وبين الشيطان

ولما كان الكفار يستترون عن العيون عند ارتكاب الفواحش في دنياهم، ويظنون أنهم بمنأى من أن يراهم ويحاسبهم أحد، بيّن الله فساد ظنهم بقوله: **﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جميعاً﴾** أي وخرجتِ الخلائق كلها من قبورهم يوم القيامة إلى أرض المحشر، وظهروا لله تعالى ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. وقد ذكر الله **﴿برزوا﴾** بصيغة الفعل الماضي وإن كان المعنى أنه سيحصل في المستقبل لأن كل ما أخبر الله تعالى به فهو متحقق الوقوع كائن لا محالة.

وفي هذا الموقف الرهيب حيث تبرز الخلائق لله الواحد القهار يأتي هذا الحوار بين الرؤساء الطغاة المستكبرين وبين أتباعهم الذين أطلق عليهم القرآن اسم «الضعفاء» لأنهم ضعاف الرأي، ضعاف التفكير، وضعاف الشخصية، وهم الكثرة الساحقة في كل أمة فيستعبدهم الرؤساء عن طريق المال والسلطة ويجعلونهم تبعاً لإرادتهم:

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذين ٱسْتَكْبَرُوا﴾ أي يقول الضعفاء وهم العوام والأتباع لسادتهم ورؤسائهم المستكبرين **﴿إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعاً﴾** أي إننا كنا أتباعكم في الدنيا نأتمر بأوامركم في تكذيب الرسل وفي كل ما تريدونه منا **﴿فَهَلْ أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** فهل أنتم تدفعون عنا اليوم شيئاً من عذاب الله الذي حل بنا؟ **﴿قالوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾** أي وقال الرؤساء لأتباعهم: لو هدانا الله إلى

الإيمان لهديناكم لكننا ضللنا فأضللناكم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ أي سيّان علينا الجزع مما نحن فيه من العذاب والصبر عليه. والجزع: حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ ليس لنا مهرب ولا خلاص من عذاب الله.

ثم يحكي الله لنا ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي وقال الشيطان لأتباعه الذين أطاعوه بعد أن قضى الله بين عباده فأُدخل المؤمنون الجنة وأُدخل الكافرون النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الْحَقِّ﴾ إن الله وعدكم على ألسنة رسله أن يبعثكم أحياء يوم القيامة ويحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُم﴾ ووعدتكم عن طريق الكذب والبهتان بأنه لا بعث ولا جزاء فأخلفتكم وعدي ﴿وَمَا كَانَ لي عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وما كان لي عليكم من قهر وتسلط لأجبركم على اتّباعي ﴿إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لي﴾ أي ما كان مني إلا مجرد دعوة لكم إلى الغواية والضلال فسارعتم إلى إجابتي تلبية لشهواتكم ﴿فَلاَ تَلُومُوني وَلُوموا أَنْفُسَكُم﴾ فلا تلوموني بوسوستي لكم ودعوتكم إلى الضلال ولوموا أنفسكم باستجابتكم لي وترككم اتّباع الرسل ﴿مَا أَنا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ فما أنا اليوم بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، ولستم بمغيثيّ مما أنا فيه من عذاب الإضلال لكم ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي إني تبرأت من إشراككم إيَّاي مع الله في الدنيا حيث أطعتموني في الشر كما يُطاع الله في الخير كأني معبود معه ﴿إِنَّ الظَّالمينَ لهم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهنا اعتراف من الشيطان على نفسه وعلى أتباعه بالظلم بسبب ما هم عليه من الضلال وأنهم مستحقون بسبب ذلك العذاب الأليم في الآخرة.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ
خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾

شرح المفردات

ألم تر: أي ألم تعلم؟ والاستفهام هنا للتقرير.

ضرب الله مثلاً: أي أعطى الله مثلاً ووضعه في المكان اللائق به.

كلمة طيبة: المراد بها هنا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

تؤتي أُكُلها كُلّ حين: تعطي ثمرها الذي يؤكل في كل وقت.

يتذكرون: يعتبرون ويتعظون.

اجتثّت: قُطعت واستؤصلت من جذورها.

من قرار: من ثبات في الأرض.

مزايا الإيمان وثمراته

وبعد أن بيّن الله سوء عاقبة الكافرين ذكر ما أعد للمؤمنين من ثواب جزيل: **﴿وَأُدْخِلَ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أي وأدخل الله تعالى في هذا اليوم وهو يوم القيامة الذين صدّقوا بوحدانيته وبكل ما يجب الإيمان به وعملوا بطاعته وانتهوا عما نهاهم عنه **﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** أي أدخلهم الله إلى بساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة **﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** أي ماكثين فيها أبداً لا

يخرجون منها ولا يخرجهم منها أحد، بأمر الله وفضله وهدايته لهم. وجاء التعبير بـ (أدخل)بصيغة الماضي لتحقق الوقوع وتعجيل البشارة لهم ﴿تَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلامٌ﴾ أي تحيتهم في الجنات سلام لهم من الله ومن الملائكة ومن بعضهم إلى بعض.

ويتابع القرآن فيمثّل كلمة الإيمان بهذا المثال البليغ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي ألم تعلم أيها الرسول أو أيها المخاطب كيف بيّن الله مثلاً تُعرف به منزلة التوحيد في الإسلام وهذا المثل هو ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ والكلمة الطيّبة كما جاء تفسيرها هي شهادة المؤمن أن لا إله إلا الله التي هي الأساس الأول للإسلام وما يصدر عن المؤمن من أعمال صالحة وثناء على الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي ومثال كلمة التوحيد كشجرة طيبة المنفعة وهي شجرة النخلة كما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا في السَّمَاءِ﴾ وهذه النخلة أَصلها ضارب عروقه في الأرض متمكن فيها وفرعها ـ أي أعلاها ورأسها ـ مرتفع إلى السماء. ومتى كانت الشجرة مرتفعة كانت ثمراتها نقية بعيدة عن التلوث. ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته ثابت في قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة في الأرض، والمراد بـ «فرعها في السماء» أي أن ما يصدر عن المؤمن من كلمة التوحيد وأعمال صالحة وأفعال زكية تُرفع إلى الله كما جاء في القرآن ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

وصعود الكلم الطيّب إلى الله قبوله والرضا به من الله والإثابة عليه، وهكذا شبّه الله ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروع النخلة ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي يؤكل ثمرها في كل وقت، فثمر النخيل يؤكل في كل وقت صيفاً وشتاء فيؤكل منه البلح والبسر والرطب والتمر مع ما في ذلك من منافع جمة، وكذلك المؤمن

كله خير وبركة لا يصدر عنه في كل وقت إلاّ كل نفع وصلاح لنفسه ولأمّته وعشيرته ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويبيّن الله الأمثال للناس فيشبّه المعاني السامية بالصور المحسوسات ليتعظوا ويعتبروا.

وبعد أن أعطى الله مثلاً على كلمة الإيمان أتبع ذلك بذكر مثالٍ لكلمة الكفر:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خبيثَةٍ﴾ والكلمة الخبيثة المراد بها هنا كلمة الكفر والشرك بالله وما يستتبع ذلك من آثام وعصيان لله ﴿كَشَجَرةٍ خَبيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة المشهورة بمرارتها أو هي كل شجرة لا يطيب لها ثمر ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ استؤصلت من فوق الأرض بسهولة لكون عروقها قريبة منها ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات في الأرض ولا استقرار.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِين آمنوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يثبت الله المؤمنين بوحدانيته وبرسوله محمد على دينهم في الحياة الدنيا فلا تخالط عقيدتهم الشكوك بدينهم، كما يثبتهم الله على الخير والعمل الصالح ﴿وَفي الآخِرَةِ﴾ أما تثبيتهم في الآخرة فذلك يكون بعد الموت فلا يتلعثمون إذا سألتهم الملائكة في قبورهم عن معتقدهم بل يُعلنون كلمة التوحيد. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[1] فذلك قوله تعالى ﴿يَثَبِّتُ اللَّهُ الّذين آمنوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي يصرفهم الله عن الهدى ويتخلى عنهم لإصرارهم على العناد والكفر ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل الله ما يريد من تثبيت أهل الإيمان وإثابتهم على إيمانهم وطاعتهم له ويخذل أهل الكفر ويعاقبهم على ظلمهم.

---

(١) رواه الشيخان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ
ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ
أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾
قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

شرح المفردات

دار البوار: دار الهلاك وهي جهنم.

يصلونها: يدخلونها ويقاسون حرّها.

بئس القرار: بئس المستقر.

أنداداً: جمع ندّ وهو الشريك والشبيه. والمقصود بالأنداد الأصنام التي يعبدونها.

مصيركم: مرجعكم ومآلكم.

لا خلال: جميع خليل، أي لا صداقة تنفع يوم القيامة.

مآل الكفر بنعم الله

ويتابع القرآن فيذكر على سبيل التعجب حال قوم بدّلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِين بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً﴾** أي ألم تنظر يا محمد أو أيها المخاطب نظرة تعجب واستنكار إلى أهل مكة الذين أسكنهم الله حرمه الآمن[1] وجعل عيشهم في سعة، وبعث فيهم محمداً رسولاً من عنده، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، فبدلاً من أن يشكروا الله على نِعمه وذلك بعبادته، والتصديق برسوله محمد أشركوا مع الله آلهة أخرى وآذوا رسوله، أو بدّلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً بها

(١) حرمه الآمن: الحرم يطلق على مكة وما حولها، ووجه تسميتها بالحرم هو أن الله حرّم فيها أموراً ليست بمحرّمة على غيرها من البلدان كالصيد وقطع النبات والغارات والقتال إلا في حالات خاصة كالدفاع عن النفس والقصاص.

بإهمالها وعصيان الله، فسلبهم الله إياها وحرمهم منها، فأصابهم القحط، وعوقبوا بالقتل والأسر يوم معركة بدر ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[(١)] أي وأنزل قادة قريش قومهم الذين شايعوهم في الكفر دار الهلاك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي إن دار الهلاك هي جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرّها وبئس المقر جهنم.

والنص القرآني ليس خاصًا بكفار مكة، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل قوم يبدلون نعمة الله عليهم كفراً بها يستحقون الهلاك.

كما أن هذا النص ينطبق في جملة ما ينطبق على الفئات المستبدّة التي تمارس طغياناً على من بيدها أمرهم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾ أي ومن العجب أن الكفار جعلوا لله الواحد أمثالاً وأشباهاً في التسمية حيث سموا الأصنام آلهة وعبدوها من دون الله ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي لإضلال قومهم عن سبيل الله وهو توحيده والتوجه إليه وحده بالعبادة والدعاء ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُم إِلَى النَّارِ﴾ أي قل لهم يا محمد استمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات واتِّبَاعِ الأهواء فإنّ مرجعكم ومآلكم إلى نار جهنم، وهذا تهديد ووعيد لهم على سلوكهم الضال.

وبعد هذا التهديد والوعيد للكافرين يأمر الله رسوله بأن يوصي المؤمنين بالصلاة والزكاة: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيموا الصَّلاَةَ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين استجابوا لدعوة الإيمان فآمنوا بربهم، وفي إضافة العباد إلى الله (عبادي) تشريف لهم وتنويه بهم، قل لهم: أن يداوموا على الصلاة وأدائها بأركانها وشروطها في أوقاتها ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ وقل لهم يا محمد أيضاً أن ينفقوا بعض ما رزقهم الله من الأموال على المحتاجين والمعوزين سواء في السر أو في العلانية. والتعبير بقوله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ يشعرهم بأن المال الذي في أيديهم ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر بأن

---

(١) البوار: أصل البوار فرط الكساد لأنه يفضي إلى الفساد المؤدي إلى الهلاك.

ينفقوا جزءاً منها في وجوه الخير. وقدّم الله إنفاق السرّ على العلانية للتنبيه على أنه أوْلى من العلانية لبعده عن الرياء ولأنه أستر للمتصدّق عليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلالٌ﴾ أي فلينفقوا قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ذلك اليوم الذي لا يتسنى فيه لمقصّر في طاعة ربه أن يتلافى تقصيره هذا أو يفتدي نفسه المقصرة بما يكسبه من بيع أو شراء، فإنه لا بيع في هذا اليوم ولا شراء. وقوله تعالى: ﴿ولا خِلال﴾ أي لا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه إذا لم تكن أعماله شافعة له.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى
ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ
مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

وأنزل من السماء ماء: وأنزل الله من السماء مطراً، وكل ما علا الإنسان فهو سماء.

رزقاً لكم: هو كل ما ينتفع به الإنسان مما يطعم أو يشرب.

سخّر: ذلّل.

الفلك: السفن.

دائبين: دائمين.

لا تحصوها: لا تستطيعون حصرها وعدّها.

فضل الله على الناس

بعد أن ذكر الله أحوال الكافرين ومصيرهم في الآخرة شرع يبين فضله على الناس بما سخّر لهم في حياتهم الدنيا ما ينتفعون به مع بيان قدرته الشاملة:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرضَ﴾ فالله وحده هو الذي خلق السماوات وأبدع صنعها وأوجد فيها البلايين من النجوم المشعّة كما خلق الله الكواكب ومن ضمنها الأرض التي نعيش عليها وما تحتويه من سهول وجبال وبحار وأنهر وصنوف النبات ومخلوقات حية. هذه السماوات والأرض لا يمكن أن تنشأ صدفة بل هي تشهد بما فيها من عظمة وإبداع على وجود خالق عظيم حكيم هو الله سبحانه ﴿وَأَنْزَلَ مِن السَّمَاءِ مَاءَ﴾ المراد بالسماء هنا السحاب وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء، أي أنزل الله من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُم﴾ أي فأخرج بهذا المطر أنواعاً شتى من النبات من خضار وبقول وأشجار تعطي ثماراً مختلفة الطعوم والأحجام والمنافع لتكون رزقاً وغذاء للناس.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بأَمْرِهِ﴾ أي ذلل الله لكم أيضاً السفن لتجري في البحر بمشيئته بأن جعلكم قادرين على صنع السفن بما هيأ لكم من الأشجار الصلبة والمعادن المختلفة، وبأن جعل الماء بهذه الكثافة المعهودة بحيث تطفو عليه السفن، وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك للوصول إلى ما تريد الانتفاع به فهو مسخّر لك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ أي ذلّلها لكم لتشربوا منها ولتسقوا زروعكم ودوابّكم، وقد ذكر الأنهار عقب البحر لأن البحر لا ينتفع به في الشرب ولا في الريّ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ وذلّل الله الشمس والقمر يجريان دائماً في مدارهما في ما يعود بالخير والمنفعة على مصالح العباد وهما لا يفتران في سيرهما ولا في تأثيرهما النافع على الكائنات الحية وعالم النبات، ولولا الشمس لانعدمت الحياة كليًا على وجه الأرض ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَيْلَ والنَّهارَ﴾ وجعل الله

الليل والنهار يتعاقبان، ففي الليل يستريح الناس من عناء العمل ويستردّون قوّتهم ونشاطهم، وفي النهار يسعون لتحصيل أرزاقهم.

﴿وَآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم الله ما تحتاجون إليه في جميع شؤونكم من كل ما هو جدير بسؤالكم سواء سألتموه أم لم تسألوه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾وإن أردتم تعداد النعم التي أعطاها الله لكم فلن تستطيعوا إحصاءها لكثرتها فهي لا يلمّ بها الحصر ولا يحيط بها العدّ، وفي كل فترة من الزمن يستكشف العلماء بعض الأسرار والحكم التي أودعها الله في هذا الكون لمنفعة الإنسان بالذات ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ هاتان الصفتان هما من صيغ المبالغة أي أن الإنسان كثير الظلم وشديد الكفر لِنِعم الله عليه. بهاتين الكلمتين يصف الله طبيعة الإنسان، فالظلم صفة متأصلة فيه، فكل ما ترى في الكون من مآس سببها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، كما أن الإنسان في أكثر حالاته شديد الكفر لنعم الله عليه فبدلاً من أن تكون هذه النعم سبباً لطاعة الله والثناء عليه نراه يتخذ من هذه النعم سبيلاً لارتكاب الفواحش والمعاصي.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن
نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ
مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن
ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ
يَشۡكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن
شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي
مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي
وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ (٤١)﴾

شرح المفردات

البلد: المراد به هنا مكة.

اجنبني: أبعدني واعصمني.

المحرّم: الذي حرِّمت التعرّض له بسوء.

تهوي: تسرع في ميل وحنين.

ما نخفي: ما نضمر في نفوسنا ونستر.

وَهَبَ لي على الكِبَر: رزقني ولداً مع تقدمي في السن.

ومن ذريتي: واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة.

يوم يقوم الحساب: يوم يقوم الناس أحياء للحساب يوم القيامة.

من تضرعات إبراهيم لربه وإخلاصه له

وبعد أن بيَّن القرآن الدلائل والبراهين على وحدانية الله وأن لا معبود سواه،

حكى عن إبراهيم عليه السلام تشدده في إنكار عبادة الأصنام وذلك من خلال هذا الدعاء بعد أن أسكن ولده إسماعيل وأمه هاجر بوادي مكة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ أي واذكر يا محمد وقت أن دعا إبراهيم ربه فقال: يا رب اجعل هذا البلد ـ أي مكة ـ ذا أمن حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. والأمن أعظم النعم بعد الحياة ويليه سائر أنواع النعم والخيرات، ولا يتم شيء من مصالح الدين وأمور الدنيا إلا به. فاستجاب الله دعاء إبراهيم فكان الخائف إذا التجأ إلى مكة أمن من الخوف، وكان بعض الناس مع شدة العداوة فيما بينهم يتلاقون فلا يخاف بعضهم بعضاً ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أي أبعدني يا رب وأبعد ذريتي عن عبادة الأصنام، والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من عبادتك وحدك، وإنما سأل إبراهيم ربه ذلك مع أن الأنبياء معصومون عن عبادة الأصنام للإيذان بأن عصمة الأنبياء هي بفضل الله وتوفيقه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ اَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ إنهن: أي الأصنام: وإنما أسند إبراهيم الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل ولا تتكلم لأنها سبب في ضلال الناس فكأنها أضلّتهم. وهذا شبيه بما يقال: فتنتهم الدنيا وغرتهم، وإنما هم فتنوا بها واغتروا بها ﴿فَمَن تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنّي وَمَنْ عَصَاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن تبعني في عبادة الله والخضوع له والاستسلام لأوامره فإنه متصل بي ديناً، ومن عصاني بإعراضه عن طاعة الله وإصراره على المعاصي فإنك يا رب أهل للغفران الشامل والرحمة الواسعة. والآية لا يفهم منها الدعاء بالمغفرة لمن عصى الله وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم. ودعاء إبراهيم نستشف منه رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع في العذاب الأليم. وهذا شبيه بما حكاه الله عن عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

وقبل أن نتابع تفسير الآيات التالية نمهد لها بذكر بعض الأحداث التي تلقي الضوء عليها:

من المعروف أن إبراهيم ترك بلدة حران في العراق حيث نشأ ونزل بأرض الشام ومعه زوجته ساره، وبسبب ضائقة اقتصادية حلت به سافر إلى مصر التي لبث فيها فترة قصيرة من الزمن ثم عاد إلى فلسطين ومعه زوجته (ساره) وجارية لها تدعى (هاجر) وهبها ملك مصر لها، وهي بدورها وهبتها لإبراهيم عليه السلام حيث أنجب منها ولداً سمّياه اسماعيل. عندئذ دبت الغيرة في نفس سارة لأنها لم تكن قد أنجبت ولداً حتى ذلك الوقت، فطلبت من إبراهيم إقصاءهما عن وجهها، ولأمر يريده الله أوحى إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة وقد كان رضيعاً، ثم أمره الله بالتوقف في أرض خلاء بعيدة عن العمران في المكان الذي سيبنى فيه البيت الحرام بوحي من ربه. أنزل إبراهيم هاجر وطفلها اسماعيل في هذا المكان المقفر ووضع عندها وعاء فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل راجعاً فتبعته أم اسماعيل وقالت له: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي المقفر الذي لا أنيس فيه ولا شيء؟ ولمّا لم يجبها قالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا. ثم أنبع الله ماء زمزم لإسماعيل وأمه بعد أن نفد الماء منهما وكاد العطش يفتك بهما.

وانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان بمكان بحيث لا تراه زوجته استقبل بوجهه المكان الذي سيُبنى فيه البيت الحرام ثم دعا بهذه الدعوات:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيرِ ذي زَرعٍ عِندَ بَيتِكَ المُحَرَّمِ﴾ أي يا ربنا إني أسكنت بعض ذريتي بوادٍ لا ماء فيه ولا زرع عند بيتك المحرّم الذي قد جرى في سابق علمك أنه يبنى هنا، والمحرّم هو الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره من القتال والصيد، أو أنه البلد المحرّم أن تنتهك حرمته ويُستخفَّ به، وقد أقدمْت على ذلك يا رب استجابةً لأمرك، وثقةً مني بأنك سترعى ذريتي وتحوطها بعنايتك ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي يا ربنا ما أسكنت بعض ذريتي في هذا الوادي إلاّ لإقامة الصلاة عنده ليعمروه بذكرك وعبادتك، والتعبير بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿لِيُقِيموا الصَّلاة﴾ مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل وأمه هاجر فيه إيذان

من الله بأنه سيكون لإسماعيل ذرية كثيرة ﴿فَاجعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فاجعل قلوب بعض الناس تحنّ إليهم وتسرع إليهم شوقاً وودًا. ولم يقل القرآن فاجعل الناس، وإنما قال: فاجعل أفئدة من الناس للإشارة إلى أن سعي الناس إلى بيت الله الحرام يكون منبعثاً عن شوق ومحبة حتى لكأن الذي يقصد بيت الله الحرام هو القلب والروح وليس الجسد وحده ﴿وَٱرزُقْهُم مِنَ الثَّمَراتِ﴾ أي وارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار ﴿لَعَلَّهُم يَشْكُرونَ﴾ رجاء أن يشكروك على نعمك بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية لك.

وأول آثار دعوة إبراهيم أن الله تعالى أنبع ماء زمزم لهما، ثم مرت رفقة من جرهم وهم قبيلة من اليمن قريبة منهم فرأوا الطير تحوم فوقهم، فقالوا: لا طير إلاّ حيث يوجد الماء، ثم تراءى لهم اسماعيل وأمه وعندهم عين ماء فتقدموا من هاجر وقالوا لها: أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ففعلت، فحطوا الرحال بالقرب منها. وشب إسماعيل وتزوج منهم. كما استجاب الله دعاء إبراهيم حيث رزق ذريته من صنوف الفاكهة المختلفة في القرى القريبة من مكة كالطائف، أو ما يجلب لهم من الأقطار البعيدة من مختلف الثمرات على يد ملايين الحجاج وصدق الله إذ قال: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].

كما نستشفّ من الآية أن الذين يقيمون الصلاة بخشوع تقرّباً إلى الله يجزيهم الله بأن تحن إليهم قلوب الناس ويدرّ عليهم الرزق.

ويتابع إبراهيم دعاءه ربه ﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفي وَمَا نُعلِنُ﴾ أي يا ربنا إنك تعلم كل أحوالنا فتعلم ما نخفيه وما نعلنه، وتعلم ما أخفيه من الحزن بسبب فراقي اسماعيل وأمه ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيءٍ في الأرضِ وَلا في السَّمَاءِ﴾ ولا يخفى على الله شيء في الكون لأنه خالقه ومدبره. هذه الكلمات صدرت من قلب إبراهيم المتفطر حزناً على فراق أهله، ولعلَّه كان يكفكف دمعه عندما ناجى بها

ربه، فما أحرانا عندما تداهمنا المصائب أن نردد هذه الكلمات مناجين بها ربنا فهو يعلم ما نحن عليه من شدة وضر، وهو القادر على إغاثتنا مما نحن فيه من بلاء، وعلى تخفيف أحزاننا ومواساتنا بنور منه يقذفه في قلوبنا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ﴾ أي الثناء مني على الله والشكر له حيث منحني مع كبر سني اسماعيل وإسحق. والآية لم تذكر عمره حين رزق بولديه، ولكن كتب السيرة تذكر أنه ولد لإبراهيم اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحٰق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ سميع: من أبنية المبالغة، أي إن ربي كثير إجابة الدعاء لمن دعاه، والآية عبرت عن إجابة الدعاء بسماع الله إياه.

ويتابع إبراهيم دعاءه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي وفّقني يا رب إلى دوام المحافظة على إقامة الصلاة والخشوع فيها والقيام بأركانها، واجعل من ذريّتي من يقيمها وأراد بهم المؤمنين من ذريته لعلمه من وحي الله تعالى أن من ذريته من لا يقيم الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي ربّنا تقبّل دعائي بتحقيق ما طلبته منك، وقيل المراد بالدعاء هنا: العبادة، وإنما يجوز أن يسمى الدعاء عبادة لأن الدعاء جزء من كل عبادة.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ دعا إبراهيم ربه أن يغفر له ذنبه مع أنه معصوم لم يرتكب ذنباً ليكون قوله هذا تعليماً لأمته أن يطلبوا الغفران من ربهم على ما ارتكبوه من خطايا أو أن إبراهيم طلب الغفران من ربه على ما صدر عنه من هفوات، كما طلب الغفران لوالديه، وذلك قبل أن يثبت له أن أباه عدو لله، ولا يبعد أن تكون أمه مؤمنة لأن إبراهيم تبرأ من أبيه دون أمه عندما تبين له أن أباه عدو لله، كما ذكر القرآن ذلك في موضع آخر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ كما طلب إبراهيم من ربه أن يغفر للمؤمنين جميعاً حينما يقومون من قبورهم أحياء للحساب والجزاء على أعمالهم يوم القيامة، وهذه شفاعة من إبراهيم للمؤمنين والله سبحانه لا يردّ دعاء خليله إبراهيم عليه السلام.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ
فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

شرح المفردات

تشخص فيه الأبصار: تكون فيه الأبصار مفتوحة لا تَطْرِف من الهول.

مهطعين: مسرعين إلى الداعي ومقبلين عليه.

مقنعي رؤوسهم: رافعي رؤوسهم.

طرْفهم: بصرهم.

أفئدتهم هواء: قلوبهم خالية لا تعي شيئاً لفرط الحيرة والفزع.

وأنذر الناس: وخوّف الناس يا محمد.

أخرنا إلى أجل قريب: أجِّل عقابنا وأعِدنا إلى الدنيا إلى حدٍّ من الزمان قريب.

ما لكم من زوال: ما لكم من انتقال من الدنيا للآخرة للجزاء.

ضربنا لكم الأمثال: بيّنّا لكم صفة وأحوال من كذبوا الرسل قبلكم.

مكروا: المكر هو تدبير الشر للغير خفية، ومكْر الكفار بالرسل هو القدح في دعوتهم وتدبير المعوقات عن الاستجابة لهم ومحاولة الفتك بهم.

وعند اللّٰه مكرهم: وعند الله جزاء مكرهم وعقابهم.

الظلم وعواقبه الوخيمة

ويتابع القرآن فيبين مصير الظالمين وما ينتظرهم من عذاب في الآخرة:

﴿وَلا تَحسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ولا تظنن يا محمد أن الله يسهو ويغفل عما يعمل الظالمون فهو سبحانه لا يخفى عليه أمرهم ولن يتركهم بلا عقوبة ﴿إِنَّمَا يُؤخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ إنما يؤخر الله عقابهم وإنزال العذاب بهم إلى يوم القيامة حيث تكون أعينهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من شدة الخوف والفزع.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي وهو الملك إسرافيل وقيل جبريل الذي يدعوهم إلى الاجتماع في المحشر[1]، وهذا ما ورد في القرآن أيضاً ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر]. ﴿مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر من غير التفات إلى شيء ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِم طَرْفُهُم﴾ أي لا ينطبق لهم جفن لعظم الهول وهو تأكيد لشخوص البصر ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ وقلوبهم خاوية ليس فيها فهم ولا عقل لفرط الحيرة والدهشة كأنها نفس الهواء الذي ليس فيه شيء.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ﴾ وخوّف يا محمد الناس من أهوال يوم القيامة، ومن قبل أن يحل عذاب الله بالظالمين ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله والمعاصي: يا ربنا أعدنا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى وأخّر حسابنا إلى وقت قريب ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أي إذا أعدتنا إلى الدنيا فإنّا نستجيب لدعوتك التي أمرتنا بها ونُخلص العبادة لك ونتبع رسلك في كل ما أمرونا به، وجيء بلفظ الرسل بصيغة الجمع لأن الحديث هنا عن يوم القيامة حيث يجمع الله الرسل مع أممهم، وحيث إن الرسل جميعاً

(١) المحشر: هو المكان الذي يُحشر الناس فيه يوم القيامة.

جاءوا برسالة واحدة وهي إخلاص العبادة لله والدعوة إلى مكارم الأخلاق ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِنْ زَوَالٍ﴾ أي ألم تكونوا في الدنيا تحلفون أنكم لا تزولون ولا تتحولون من قبوركم إلى دار أخرى، وأنكم تموتون ولا تبعثون، وهذا ما حكاه الله عنهم في موضع آخر من القرآن: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل] ﴿وَسَكَنْتُم في مَسَاكِنِ الَّذين ظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ والمراد بالسكنى الحلول فترة قصيرة في أماكن الظالمين، فقد كان كفار قريش يمرون بديار قوم ثمود في رحلتهم إلى الشام وكانوا يحطّون رحالهم هناك، كما كانوا يمرّون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن ويحطّون رحالهم أيضاً هناك للاستراحة من وعثاء السفر فهم لم يسكنوا تلك الأماكن وإنما مروا بها ورأوا ما حل بأهلها ﴿وَتَبيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِم﴾ أي وشاهدتم الآثار الباقية من الدمار الذي حل بهم كقوم ثمود وعاد ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ وبيَّنا لكم في القرآن صفات ما فعلوا وما حلّ بهم والتي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لتكون لكم فيها عظة وعبرة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم﴾ والمكر هو تدبير الشر خفية للغير مع الاحتيال لإيقاع الأذى به. فهؤلاء الكفار مكروا برسل الله وذلك بالطعن في ما جاءوا به من عند الله وتدبير المعوقات في وجههم وإثارة الشبهات حول دعوتهم لصرف الناس عن الاستجابة لهم ومحاولة الفتك بهم، وجاوزوا بمكرهم كل حد سعياً في إبطال الحق ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي وعند الله علم مكرهم، أو عند الله جزاء مكرهم ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾ أي وإن كان مكرهم في الشدة بحيث يزيل الجبال فإن الله ينصر دينه ويبطل مكرهم. وفسرت (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بمعنى (ما) النافية. أي وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، والجبال المراد بها شريعة الإسلام فهي راسخة وثابتة ثبوت الجبال الراسيات لأن الله وعد رسوله محمداً بإظهار دينه على كل الأديان.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ
﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ
﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم
مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟
بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

شرح المفردات

وبرزوا لله: خرجوا من قبورهم أحياء ليحاسبهم الله على أعمالهم.

مقرّنين: شُدَّ بعضهم إلى بعض.

الأصفاد: القيود أو الأغلال، والقيد هو الذي يوضع في الرِّجْل، والغُل الذي تضم به اليد والرجل إلى العنق.

سرابيلهم: قمصانهم أو ثيابهم.

قطران: سائل كريه الرائحة وهو عصارة شجر الأرز تطبخ وتدهن بها الإبل إذا جربت وهو شديد الاشتعال.

تغشى وجوههم النار: تعلو النار وجوههم وتحيط بها.

أولو الألباب: أصحاب العقول السليمة.

بيان مصير المجرمين في الآخرة

ويختم الله هذه السورة بهذه الآيات التي تبشر رسوله محمداً بالنصر على أعدائه كما تبين مصير المجرمين في الآخرة وما أعد الله لهم من عذاب أليم:

﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ فلا تحسبنّ يا محمد أن الله سيخلف ما وعد به رسله من النصر على أعدائهم، فدم على ما أنت عليه من الثقة واليقين بإنجاز الله وعده **﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾** إن الله هو القويّ الغالب لأعدائه فينتقم لرسله من أعدائهم الذين يسيئون إليهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰواتُ﴾ أي أن الله ينتقم من الظالمين بتعذيبهم يوم تبدل الأرض يوم القيامة فتصبح أرضاً غير التي يعرفها البشر، كما تُبَدّل السماوات فتصبح على غير الحالة التي كانت عليها، وفي غمرة هذا الانقلاب العجيب في الكون ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ أي خرج الخلائق من قبورهم أحياء ليجازوا على أعمالهم، سواء كانت ظاهرة، أو خفيّة وهي تلك التي عملوها سرًّا وظنوا أنها لا يعلمها أحد. وعبّر القرآن عن البروز بصيغة الماضي لتحقق وقوع ذلك، وفي وصف الله بالوحدانية والقهر إشعار بأن لا مغيث لأحد سوى الله.

﴿وَتَرى المجْرِمينَ يَوْمئِذٍ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفَادِ﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين بعضهم إلى بعض بالقيود والأغلال وهذا مشهد مذلّ مهين لهم، يضاف إلى ذلك أنّ ﴿سَرَابِيلُهُم مِنْ قَطِرَانٍ﴾ أي قمصانهم من قطران وهو سائل أسود منتن الرائحة يساعد على سرعة اشتعال النار في أجسامهم ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وتعلو وجوههم النار وتحيط بها كما تحيط بأجسامهم، وفي تخصيص الوجوه بالذكر تنبيه بأن الوجوه وهي أعز أعضائهم الظاهرة تحيط بها النار.

﴿لِيَجزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت﴾ أي أن الله سبحانه يجزي كل نفس بما عملت فيعاقب كل نفس مجرمة على ما اقترفت من كفر وعصيان لله ويثيب الله كل نفس مؤمنة ما عملت من خير ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ فالله سبحانه لا يشغله شأن من شأن ولا يحتاج إلى تأمل وتدبر في إصدار حكمه بل يتمه في أسرع وقت.

﴿هَذَا بلاغٌ لِلنَّاسِ﴾ هذا القرآن فيه التبليغ الكافي لهداية الناس ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ وفيه إنذار وتخويف من عقاب الله إن استمروا على كفرهم وعصيانهم لله ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ﴾ وليعلموا أن في القرآن الدلائل والبراهين الساطعة، والحجج الواضحة على وجود الله وأنه سبحانه إلَه واحد لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب﴾ وليتعظ أصحاب العقول، وفي تخصيص أصحاب العقول بالعظة حَضٌّ للناس على أن يستخدموا عقولهم عند دراسة القرآن لينتفعوا به لا أن يقرأوه قراءة سطحية بدون تَدَبُّرٍ أو تَفَهُّم.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي.

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي.

تفسير جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري.

تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي.

حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي.

زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج الجوزي.

فتح القدير للشوكاني.

تفسير الكشاف للزمخشري

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.

تفسير سورة الرعد للأستاذ إبراهيم الجبالي. مجلة نور الإسلام. السنة السادسة.

التفسير الوسيط. تأليف لجنة من العلماء. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي.

تفسير المراغي لفضيلة الأستاذ أحمد مصطفى المراغي.

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر.

مؤتمر سورة يوسف للشيخ عبد اللّٰه العلمي الغزي الدمشقي.

المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

المحتويات

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

كلمة شكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب دار العلم للملايين الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين يوسف غزال

وإلى فضيلة الشيخ محمد شريف خليل سكر

والدكتوره هدى سنو

لما قدموه لي من معونة وملاحظات قيّمة

وإلى جامعة بيروت العربية لما قدّمته لي مكتبة كلية الآداب فيها

من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه

وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

المؤلف

تصميم الغلاف: **علي شوربا**

طباعة الكتاب: **مطبعة علي موسى**

تنضيد الأحرف والتركيب: **المركز العربي للمطبوعات**

هاتف: **٧٣٩٣٥٣** بيروت ـ لبنان

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي
باللغة الإنكليزية

روح القرآن
صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم

روح القرآن

تفسير

• سُورَة الحِجْر
• سُورَة النَحْل
• سُورَة الإسْراء

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّارة

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين

روح القرآن

تفسير

الجزء الرابع عشر وقسم من الجزء الخامس عشر

• سُورَة الحِجْر

• سُورَة النَّحْل

• سُورَة الإسْراء

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى

أيلول ١٩٩٨

الإهـــداء

إلى سماحة الشيخ محمَّد توفيق خالد يَرحمهُ اللَّه

مفتي الجمهورية اللبنانية السابق

وفاء وعرفاناً بالجميل لما أسداه إليّ وإلى إخواني الطلبة من عناية وسهر وعطف وتشجيع في:

الكلية الشرعية في بيروت

التي أنشأها ورعاها بجهده وتضحياته، والتي تخرّج منها جلّ المفتين والقضاة والوعّاظ في لبنان.

ولقد خلّف ذرية خيّرة كان لها الفضل العظيم على هذا الوطن منهم **الدكتور محمد خالد** يرحمه الله الذي انشأ:

مؤسسات الخدمات الإجتماعية بالأوزاعي

ومنهم الدكتور محمود خالد الذي رعى هذه المؤسسة أطال الله في عمره.

ساْئلاً الله أن يجزيهم خير الجزاء لما أسدوه من عمل صالح.

عفيف عبد الفتاح طباره

تعريف بسورة الحِجْر

سميت سورة «الحِجْر» بهذا الاسم لما ورد فيها من الكلام عن أصحاب الحجر وهم قوم ثمود، وما أصابهم من هلاك جزاء كفرهم وتكذيبهم للرسول الذي أرسله الله إليهم، والحِجْر هو وادٍ بين المدينة المنورة والشام كان يسكن فيه هؤلاء القوم ولذا سمّوا بأصحاب الحِجْر.

وهذه السورة مكية ـ أي نزلت بمكة ـ وهي تتناول موضوعات شتى منها:

ـ تمني الكفار يوم القيامة لو كانوا مسلمين عندما يرون ما عليه المسلمون من نعيم وما هم مقبلون عليه من عذاب.

ـ بيان أن الله نزّل على محمد ﷺ القرآن، الذي حفظه الله من التحريف.

ـ لفت الأنظار إلى بعض المظاهر الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، كخلقه نجوم السماء، ومدّه الأرض وإرسائها بالجبال، وإنبات مختلف النباتات، وإرسال الرياح لواقح، وإنزال الماء من السماء.

ـ بيان أن مبدأ تكوين الإنسان كان من صلصال من حمإٍ مسنون حيث أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه سجود تكريم لا سجود عبادة فسجدوا إلاّ إبليس، فطرده الله من الجنة لتكبره وعصيانه أمره.

ـ تعهّد إبليس أن يغري بني آدم ويضلهم إلاّ عباد الله المخلصين.

ـ ذكر قصة إبراهيم وأضيافه الملائكة الذين بشروه وزوجته بولد وكان يومئذ عجوزاً في سن الشيخوخة وكانت زوجته عقيماً عجوزاً.

ـ ذكر قصة قوم لوط وما أصابهم من هلاك جزاء إجرامهم وانغماسهم في الفواحش، مع ذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجْر الذين أهلكهم الله.

ـ نهي النبي محمد ﷺ عن الحزن على المشركين بسبب عدم إيمانهم وتصديقهم بنبوته، مع الوصية له بلين الجانب والتواضع للمؤمنين، وأن يبلّغ ما أمره بتبليغه من الدين إلى قومه، وأن يظل على عبادة ربه حتى يأتيه الموت.

وهناك مواضيع أخرى في هذه السورة سيأتي الكلام عنها.

سُورَةُ الحِجْر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ
أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا
بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا
مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾

شرح المفردات

ذرهم: اتركهم ودعهم.

يلههم الأمل: يشغلهم عن طاعة الله.

من قرية: من أهل قرية.

كتاب معلوم: أجل مؤقت لإهلاكها يعلمه الله.

ما تسبق من أمة أجلها: ما تموت أمة قبل الأجل المقدّر لها.

وما يستأخرون: وما يتأخرون عنه.

الذِّكر: هو القرآن الكريم.

لَوْمَا تأتينا بالملائكة: لَوْمَا حرف تحضيض وحث مثل هلاّ، أي هلاّ تأتينا يا محمد بالملائكة ليشهدوا أنك رسول الله؟

إذاً: أي حينئذ.

منظرين: مؤخرين في العذاب.

إنذارٌ من اللَّه للكافرين

يستهل الله هذه السورة ببيان مكانة القرآن ومنزلته العليا بين الكتب السماوية :

﴿الٓر[(١)] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي تلك السورة بعض آيات من هذا الكتاب الجامع لكمالات الكتب السماوية، وتلك السورة أيضاً بعض آيات قرآن عظيم، مبيّن شريعة الله التي ختم بها الشرائع. فالله أطلق على الوحي المنزل على رسوله محمد ﷺ اسم الكتاب، أي الكتاب الكامل في كل شيء، كما أطلق عليه اسم القرآن. والقرآن يحمل معنى الجمع وكل شيء جمعته فقد قرأته. وسمي القرآن بذلك لأنه جمع القصص والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، والحِكَم والأحكام، وجمع السور والآيات بعضها إلى بعض.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِين كفروا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ربما: حرف يستعمل للتقليل تارة وللتكثير تارة أخرى، أي أن الكفار سوف يتمنون كثيراً في الآخرة لو كانوا مسلمين في دنياهم لكي ينجوا من استمرار العذاب الذي يقاسونه في الآخرة، وذلك أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب في الآخرة ورأى ما عليه المسلم من نعيم تحسّر وتمنى لو أنه كان من أهل الإسلام.

﴿ذَرْهُمْ يأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقد أديت واجبك يا محمد بدعوة الكفار إلى الهدى، ونلت منهم الأذى الشيء الكثير ولم يستجيبوا لك، فدعهم في غيهم يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون بشهوات الدنيا وملاذّها، ويشغلهم

---

(١) الٓر: قيل إنها اسم للسورة، وقيل هي أسرار محجوبة هي في علم الله. وقيل إن بدء الكلام بهذه الأحرف وما فيها من غرابة داعية إلى الانتباه واستماع ما يليها مما تحتويه آيات القرآن من الهدى والرشاد. وقيل إن هذه الأحرف تشير إلى تحدي القرآن لمنكريه، ذاك أن القرآن مركب من كلمات ذات حروف كهذه الحروف التي ينظم منها العرب كلامهم كمثل (الر) وغيرها من الأحرف فإن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً قد افترى القرآن فليأتوا بمثله وهم أئمة الفصاحة والبلاغة فإن عجزوا فعجزهم دليل على أن القرآن وحي إلهي.

الأمل عن طاعة الله وعن التزود للآخرة بالعمل الصالح، فسوف يعلمون سوء صنيعهم حين يعاينون عذاب الله. والآية بمجملها تهديد للكفار ووعيد لهم بسوء المصير.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي وما أهلك الله أهل قرية من القرى بسبب عصيانهم أوامره وتمردهم على رسله، إلاّ ولهذه القرية أجل مقدر وموقت لإهلاكها مكتوب في اللوح المحفوظ **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أجلها الذي حدده الله لهلاكها، ولا يتأخر هلاكها لأي سبب من الأسباب بل يجيئها الهلاك في الوقت الذي كتبه الله لها.

وبعد أن هدّد الله الكافرين العرب بالهلاك شرع يذكر بعض تهجماتهم على رسوله محمد ﷺ: **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** أي قالوا استهزاء وتهكماً لرسول الله: يا من تزعم أنه نُزِّل عليك القرآن إن ما تقوله أملاه عليك الجنون، وقد أكدوا قولهم: بـ إن واللام، وهما من حروف التوكيد مبالغة في الاستهزاء **﴿لَوْمَا تَأْتِينَا بِالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** أي هلاّ تأتينا يا محمد بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك إن كنت صادقاً أنك نبي، أو يشاركونك في إنذارك لنا كقوله تعالى حكاية عنهم أيضاً: **﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾** [الفرقان: ٧] وقد أجاب الله على اقتراحهم بقوله:

﴿مَا نُنَزِّلُ الملائكةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي ما ننزل ملائكتنا إلاّ تنزيلاً مقروناً بالحكمة والفائدة، ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً ترونهم ويشهدون لكم بصدق رسولنا محمد، لأن الملائكة إما أن يأتوا على صورتهم الحقيقية وعندها فلا يُرون، وإما أن يأتوا على صورة بشر فيلتبس أمرهم عليهم ويظنونهم بشراً حقيقيين **﴿وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾** أي وما كان الكفار حينئذ ممهلين ومؤخر العذاب عنهم حين ينزِّل الله الملائكة ويصروا على كفرهم، بل يحل عليهم العذاب إذا لم يؤمنوا، لأن

سُنَّة الله في الأمم السابقة أنه إذا أعطى أمة المعجزات التي يقترحونها ثم لم يؤمنوا بعد ذلك استأصلهم الله بالهلاك، وقد علم الله سبحانه أن كفار مكة سيكون منهم مؤمنون وستؤمن ذريتهم لذا لم يشأ الله أن ينزل عليهم ملائكته صيانة لهم من الهلاك.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

شرح المفردات

الذِّكْر: هو القرآن الكريم.

شِيَع الأولين: جماعات الأمم السابقة.

نسلكه: ندخله.

خلت: مضت.

سنَّة الأوَّلين: طريقة الله وعادته في إهلاك المكذبين.

يعرجون: يصعدون.

سُكِّرت أبصارنا: غشِّيت وغطيت ومنعت عن الرؤية والنظر.

قوم مسحورون: قوم أصابنا محمد بسحره.

سلامة القرآن من التحريف

ويتابع القرآن فيبين ما خص الله به القرآن من الحفظ والسلامة من التحريف:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فالله سبحانه يقول: إنّا نحن نزلنا

القرآن عليك يا محمد وإنا نحن لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع. والقرآن وصل إلينا متواتراً[١] فقد كانت تنزل الآية أو الآيات من القرآن فيحفظها النبي ﷺ عن ظهر قلب ثم يتلوها ساعة نزولها على المحيطين به ثم يأمر كتبة الوحي بتدوين ما أنزل إليه، كما أن النبي ﷺ كان يحتفظ بنسخة مما كتب في داره. ثم إن القرآن قبل أن يجمع في زمن أبي بكر رضي الله عنه كانت أجزاؤه المكتوبة موجودة عند النبي ﷺ وكثير من الصحابة وكان هؤلاء يتلونه في بيوتهم، ولمّا جمعه عثمان بن عفان أخيراً كان أكثر كتّابه وحفّاظه لا يزالون على قيد الحياة، فكيف أمام كل هذا يمكن أن يتطرق إليه التحريف؟ أما بالنسبة إلى التوراة والإنجيل فقد ضاع أصلهما ودوِّنا بعد فترة طويلة من نزولهما، وهذا مما يفتح باب الشك على كثير من نصوصهما. بالإضافة إلى ما أساء الأحبار والرهبان من تأويلهم لما جاء في كتب الله.

فحفظ القرآن من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا برهان قوي على أنه من عند الله.

موقف الكفار من رسل اللّه

ثم تأتي الآيات مواسية رسول الله محمداً ﷺ بسبب ما يلاقيه من قومه من تكذيب واستهزاء:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في أمم الأولين الذين يشايع بعضهم بعضاً في الكفر والضلال، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على مذهب يتبعونه.

﴿وَمَا يَـأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِـهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وما يأتي كل أمة رسول

---

(١) متواتراً: هو ما رواه جمع من الناس عن جمع كثير مثلهم وهكذا إلى يومنا هذا. وهذا الجمع الغفير يستحيل تواطؤهم على الكذب.

من الله لهدايتهم إلاّ كانوا به يسخرون، كما يفعل بك جهال قومك يا محمد فلا تحزن من سخريتهم منك.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ﴾ أي كما أنزلنا من قبل الكتب الإلهية على رسلنا فلم يقبلها قومهم واستهزأوا بها كذلك نلقي القرآن وندخله في قلوب المجرمين من قومك يا محمد ويكون غير مقبول لديهم مُستهزأً به ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لا يصدقون بأن القرآن من عند الله لأن نفوسهم ليس فيها استعداد لتلقي الحق ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ وقد مضت طريقة الله في المكذبين الأولين من الإهلاك والاستئصال بسبب كفرهم. وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّماءِ[1] فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين باباً من السماء ومكناهم من الصعود فيه ورأوا ما فيها من العجائب ورأوا الملائكة ﴿لَقَالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ لقالوا لفرط مكابرتهم: إنما غُشِّيت أبصارنا فلم نشاهد حقيقة الأشياء بل نحن قوم مسحورون سحرنا محمد حتى تخيّلنا ما نراه.

---

(١) باباً من السماء: هذا التعبير يلفت النظر إلى حقيقة علمية ظهرت في العصر الحاضر، فكل من يريد النفاذ إلى الفضاء الخارجي بواسطة المركبات الفضائية والتخلص من جاذبية الأرض يجب أن ينطلق من زاوية معينة وفي مسار معين هما باب إلى السماء، كما أن على المركبات الفضائية خلال عودتها إلى الأرض من الفضاء الخارجي الدخول والسلوك من فتحات وطرائق وارتفاعات معينة وإلاّ بقيت في الفضاء الخارجي أو احترقت قبل وصولها إلى الأرض. وهناك مئات الأدمغة الإلكترونية تصحح سير المركبات الفضائية كلما ضلت عن مسارها.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ
رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ
بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا
لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

شرح المفردات

بروجاً: مجموعات من النجوم.

شيطان رجيم: شيطان مطرود من رحمة الله.

استرق السمع: تلقى خفية ما يسمع من كلام الملائكة.

شهاب: شعلة ساطعة من نار.

والأرض مددناها: بسطناها ووسعناها.

رواسي: جبالاً ثوابت.

معايش: واحدها معيشة، أي المطاعم والمشارب وأسباب الرزق التي يعيشون بها.

بقدر معلوم: بمقدار يعلمه الله وتقتضيه حكمته.

لواقح: ملقحات للشجر أو للسحب.

نحن الوارثون: أي الباقون بعد فناء الخلق.

يحشرهم: يجمعهم يوم القيامة.

من مظاهر قدرة الله التي تشهد بوحدانيته

أمام تعنّت الكفّار وعنادهم توجه الآيات التالية الأنظار إلى ما في الكون من أسرار وعجائب لعلّ النفوس المكابرة تعمل فكرها فتتعرف على الخالق ومن هنا

تأتي الآيات فتلفت الأنظار إلى السماء وما فيها من مجموعات نجمية تشهد بعظمة خالقها:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُـرُوجاً﴾ بروجاً: جمع برج وهو في الأصل بمعنى القصر أو الحصن. والمراد بالبروج مجموعات نجمية هي كالقصور أو الحصون تمر خلالها الأرض والكواكب في أثناء دورتها حول الشمس، فكأن هذه المجموعات النجمية(١) كالمنازل لهذه الكواكب السيارة ﴿وَزَيَّـنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي وزين الله السماء بالنجوم والكواكب لينظر إليها الناس معتبرين مستدلين بها على وحدانية الله وقدرته المبدعة. وهنا لفتة إلى جمال الكون، والجمال عنصر فعال للإيمان بالخالق ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وإن الله سبحانه حفظ السماء ومنعها من كل شيطان مطرود من رحمته ﴿إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ومن حاول من هؤلاء الشياطين أن يتجه نحو السماء ويختلس بعض الكلام المسموع الذي تتداوله الملائكة فيما بينها من أمور الغيب التي أطلعهم الله عليها، لحق ذلك الشيطان وأصابه شهاب(٢) ظاهر فيقتله أو يخبله.

وقد كان الكهان عند العرب يدّعون معرفة الغيب وأن الشياطين تنقل إليهم من أخبار الأرض مما سمعوه في السماء، فلما بعث الله محمداً رسولاً اشتدت حراسة السماء بالملائكة والشهب وتعذر على الشياطين الاطلاع على أمور الغيب. جاء في القرآن حكاية عما يقوله شياطين الجن:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨].

وإن وجود الجن وماهية استراقهم السمع من السماء من الأمور الغيبية التي

---

(١) رصد الأقدمون هذه المجموعات النجمية وأطلقوا عليها اسم: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء أو (السنبلة)، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

(٢) شهاب: يجمع على شهب وهي أجزاء حجرية انفصلت عن الكواكب وجعلت تدور في الفضاء فإذا وصلت إلى جاذبية الأرض اشتعلت وتوهجت باحتكاكها بالغلاف الجوي المشتمل على الأوكسجين الذي يساعد على الاحتراق.

يقررها القرآن فيجب الإيمان بها ولو لم تدركها الحواس البشرية، هذا مع العلم أن العقل البشري يقر بأنه ما يزال عاجزاً عن إدراك كنه كثير من أسرار الكون.

﴿وَالأَرْضَ مددْنَاهَا﴾ أي أن الأرض قد بسطها الله ووسعها بحيث تكون صالحة للسكن. ولفظة مددناها يفهم منها كروية الأرض، فأينما نظرنا إلى الأرض وأينما سرنا فيها وفي أي اتجاه وجدناها ممتدة أمامنا في جميع القارات وهذا لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا كانت الأرض كروية، فلو أن الأرض مسطحة أو مكعبة أو غير ذلك من الأشكال الهندسية لوصلنا فيها إلى حافة وحيث لم يحصل ذلك فهذا يدل على أن الأرض كروية ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وخلق الله في الأرض جبالاً ثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الشاهد هنا لفظة (موزون) فإن العلماء الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة هي من الدقة بحيث لا يمكن ضبطها إلاّ بأدق الموازين، وعناصر كل نبات تختلف بعضها عن بعض وتتميز من نبات إلى آخر بما تشتمل عليه من المواد النشوية أو السكرية أو البروتينية، فسبحان من خلق كل شيء بحكمة لفائدة البشر والحيوان ﴿وَجَعَلْـنَا لَـكُم فِيها مَعَايشَ﴾ وجعل الله في الأرض أسباب المعيشة الميسرة للناس ففيها الحجارة التي يبنون منها المساكن وفيها المعادن المختلفة لحاجاتهم الملحة، والحيوان والطير والأسماك التي يقتاتون بلحومها، وفيها النبات والثمار التي يتغذون بها، والأشجار التي ينتفعون بخشبها ﴿وَمَن لَسْتُم لَـهُ بِرَازِقِينَ﴾ وفي الأرض أسباب المعيشة لمن يكونون تحت كنفكم ـ أيها الناس ـ من خدم وأولاد ودواب وحيوانات وتظنون أنتم المتكفلون برزقها ولكن الله هو الذي يرزقها.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خزَائِنُـهُ﴾ أي وما من شيء من الخير عندنا الذي ينتفع به الخلائق إلاّ هو كالخزائن المملوءة بالنفائس من حيث حفظه وتقديمه إلى العباد وفق حاجتهم إليه وليس المقصود من الخزائن حقيقتها فإنه تعالى لا تختزن عطاءاته في خزائن بل الآية فيها أسلوب بلاغي عن طريق الاستعارة التمثيلية ﴿وَمَا نُـنَزِّلُـهُ

إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وما نعطيه للعباد إلاّ بمقدار محدد وفق حكمتنا في تدبير الكون.

نعم كل شيء في هذا الكون بمقدار فمثلاً إن نسبة الأوكسجين تحدد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة.

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية ولو أنها زادته بمقدار النصف لاحترقت وأصبحت رماداً. هذه بعض الأمثلة من كثير يستلزم الإفاضة فيها عدة مجلدات.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ هذه الآية سبقت ما توصل إليه العلم من أن الرياح عامل هام في تلقيح النبات إذ تنقل حبوب اللقاح الذكرية في الزهر إلى الأعضاء المؤنثة في النبات ليتم بذلك عقد الثمار.

والرياح عامل في تلقيح السحاب الذي يتولد منه المطر، فالرياح هي التي تدأب على تلقيح السحاب بإمداده ببخار الماء وبجسيمات نوى التكاثف لكي يجود السحاب بالمطر. ولكي يحدث تكاثف السحاب بمجرد أن تنخفض حرارة الهواء فإنه لا بد من وجود شيء يحدث هذا التكاثف عليه أي لا بد لكل قطرة صغيرة من الماء من الحصول على ذرة دقيقة من الغبار تتخذها نواة لتتكاثف عليها. والرياح هي العامل الأساسي لكل ذلك ﴿فَأَنزَلْنَا من السماء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماء عذباً لسقياكم وري زروعكم وشرب مواشيكم ﴿وَمَا أَنتُم لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي إن هذا المطر لم تختزنوه أنتم بل الله هو الذي يختزنه لكم في البحيرات والأنهر والعيون والآبار ثم تتبخر المياه وتنشأ السحب التي تجود بالمطر وهكذا تستمر دورة الحياة على الأرض بالماء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ وإنا لنحن ننشئكم من العدم ونجعلكم أحياء ترزقون ونحن نميتكم وننزع الروح من أجسادكم ﴿وَنَحْنُ الوَارِثُونَ﴾ ونحن الوارثون

لكم ولأموالكم ولكل شيء في الوجود بعد هلاك الخلق ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ ولقد علمنا من سبقوكم من بني جنسكم ممن هلك ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ كما أننا على علم بالمتأخرين ممن هم أحياء أو ممن سيوجدون بعدكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وإن ربك يا محمد هو الذي يجمعهم للحساب والجزاء يوم القيامة إنه حكيم في تدبيره، عليم بأعمال خلقه.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ
مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات

صلصال: هو الطين اليابس كالفخار الذي إذا نُقِرَ يكون له صوت.

حمإ: طين أسود متغيّر من مجاورة الماء له.

مسنون: مصور على هيئة إنسان.

نار السموم: النار التي لا دخان فيها.

سوّيته: أتممت خلقه وجعلته سوياً وهيأته لنفخ الروح فيه.

رجيم: مطرود من كل خير وبركة.

اللعنة: الإبعاد على سبيل السخط.

عصيان إبليس لربه وطرده من الجنــة

ويتابع القرآن فيذكر قصة آدم مع إبليس ليعرف البشر مدى عداوته لهم فيحذروا وساوسه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ قد يراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام أو جنس بني آدم كله تبعاً لأصله. ولقد خلقه الله ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وهو الطين اليابس الذي إذا نقر يكون له صوت ﴿مِنْ حَمإٍ﴾ أي متغير إلى السواد من طول مجاورة الماء ﴿مَسْنُونٍ﴾ أي المصور، وقيل: المنتن، وقيل المصبوب.

فالإنسان أساسه الأول هو التراب كما جاء في القرآن: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

فلما اختلط التراب بالماء صار طيناً، ثم اسود من طول مجاورة الماء له، ثم صوره الله بهذا الشكل الإنساني المعهود.

﴿وَالجَانَّ خَلَقَنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وخلق الله الجن قبل آدم وإبليس هو من الجن كما جاء في القرآن:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقد خلق الله إبليس والجن من نار شديدة الحرارة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّـكَ للملائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشراً مِنْ صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة إني سأخلق إنساناً من طين يابس مسود مصور على هيئة إنسان ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُـهُ﴾ فإذا عدّلت صورته وأتممت خلقه وجعلته لحماً وعظماً ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأفضت عليه من الروح التي هي من أمري، والروح سرٌّ من أسرار الله تحيا به الأبدان حينما يتصل بها وتموت حينما ينفصل عنها، وفي إضافة الروح إلى الله (روحي) التي أفاضها على الإنسان تشريف وتكريم

له، وأرواح العباد منسوبة إلى الله عن طريق الخلق وليست جزءاً من الله فهو سبحانه منزّه عن التجزئة ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فإذا أتممت خلق الإنسان وأصبح بشراً فاسقطوا على الأرض ساجدين له سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، وهذا مما يبين مرتبة الإنسان وتكريم الله له، وتفضيله على سائر المخلوقات.

﴿فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُونَ﴾ فسجد الملائكة جميعهم لآدم بعد تمام خلقه ونَفْخِ الروح فيه تنفيذاً لأمر الله لهم ﴿إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى أَنْ يكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أما إبليس فإنه امتنع أن يسجد لآدم كما فعل الملائكة.

﴿قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَـكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي قال الله لإبليس توبيخاً له: ما سبب امتناعك عن السجود لآدم استجابة لأمري ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي أجاب إبليس: لا يصح مني ولا يليق بحالي أن أسجد لبشر خلقته من طين يابس أسود، زاعماً بذلك أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم فهو مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار في زعمه أشرف من الطين ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّك رَجيمٌ﴾ أي قال الله لإبليس بعد أن أعلن تكبره على آدم: اخرج من الجنة التي كنت فيها فإنك مرجوم ومطرود من كل خير وكرامة ﴿وَإِنَّ عَـلَيْـكَ اللَّعْنَـةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ وإن عليك غضب الله والطرد من رحمته إلى يوم الجزاء وهو يوم القيامة.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا
سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

شرح المفردات

فأنظرني: فأمهلني ولا تمتني.

لأزينن لهم في الأرض: لأحسِّنَنَّ لهم المعاصي.

لأغوينهم: لأضلنهم.

سلطان: تسلّط وقدرة.

جزء مقسوم: فريق معين مفروز من غيره.

آدم وغواية الشيطان

وبعد أن سمع إبليس حكم الله عليه بالطرد من رحمته وبشديد عقوبته عليه سأل ربه أن يؤخر موته إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته للجزاء:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قال إبليس: ربِّ أخِّر موتي إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم لتجازيهم على أعمالهم، وقد أراد بذلك أن يتسع له المدى لإغوائهم ويشتركوا معه في سوء المصير **﴿قَالَ فَإِنَّك مِنَ المنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المعْلُومِ﴾** قال الله: فإنك ممن أُخِّر هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولى حيث تموت جميع الخلائق يوم القيامة كما قال سبحانه:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وبعد أن سمع إبليس الحكم من الله بإمهاله إلى يوم البعث خاطب ربه قائلاً:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بسبب حكمك عليّ يا رب بالغواية من أجل آدم، والغواية هي الضلال والخيبة(١) ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي لأُحسِّنن لذرية آدم المعاصي ولأحببنها لهم ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إلاّ عِبَادَكَ مِنْهُم المخْلَصِينَ﴾ ولأضلنهم أجمعين عن سبيل الرشاد إلاّ من أخلص منهم لطاعتك يا رب، ووفقته لهدايتك فإنهم لا سبيل لي عليهم، وإنما استثناهم إبليس لأنه علم أن وسوسته لا تؤثر فيهم.

ولمّا استثنى إبليس المخلصين لله من بني آدم من التأثر بإغوائه لِما أدركه فيهم من الحصانة الدينية، قال الله مؤكداً حمايته لهم من وسوسته: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي قلته أنت يا إبليس من أن المخلصين لا سبيل لك عليهم هو طريق ومنهج مستقيم، عليَّ أن ألتزم به نحوهم فلا أسلطك عليهم، بل أحميهم من وسوستك وإضلالك إياهم. وقيل المراد بالآية التهديد والوعيد كقولك لمن تهدده طريقك عليَّ وأنا على طريقك لا مهرب لك مني فأجازي كلاًّ بعمله.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ﴾ إن عبادي المخلصين ليس لك يا إبليس تسلّط عليهم وقدرة على إضلالهم ﴿إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ أي ولكن من اتبعك من الضالين فإنه يخضع لسلطانك ويتأثر بإضلالك.

ثم يتوعّد الله المصرين على الضلال بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَموعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وإن نار جهنم موعد لجميع من اتبع إبليس وهي مقرّ لهم لا يتخلف عنها منهم أحد، وهي ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي أن جهنم لها سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والضلالة وقد يراد بالأبواب معناها المعروف وإنما تعددت لكثرة من

(١) والمراد من إغواء الله إياه قضاؤه عليه بالغواية والضلال بسبب تكبره وعصيانه أمر به، أو لما كانت هذه الغواية نتجت عن عصيان أمر الله فقد أسندت الغواية إلى الله مجازاً ﴿بما أغويتني﴾، والله لا يضل إلاّ الخارجين عن طاعته كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

يدخل النار ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُم جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي لكل طبقة أو لكل باب يدخل فيه فريق معين من أتباع إبليس بحسب أعمالهم ومعاصيهم وظلمهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

شرح المفردات

عيون: المراد بها أنهار الجنة.

غلّ: عداوة وضغينة.

بسلام: بسلامة من الآفات.

سرير: جمع سرير وهو المقعد المريح الذي تستقر فيه أعضاء الجسم كما يطلق على الذي يضطجع عليه.

نصب: تعب وإعياء.

نبيء: خبِّر وبلِّغ.

أحوال المتقين في الآخرة

وبعد أن أنذر الله الذين يتبعون الشيطان بسوء المصير تأتي البشرى لمن اتقى ربه بالنعيم في الآخرة:

﴿إِنَّ المتَّقِينَ في جَنَّات وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الشرك والكفر وأطاعوا الله وتجنبوا المعاصي هم في الآخرة في جنات فيها كل أنواع الثمار ومن حولهم عيون وينابيع تجري مياهها بين أشجارها ومساكنها ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ ويقال لهؤلاء

المتقين عند دخولهم الجنة: ادخلوها سالمين فيها من الآفات التي تصيب الناس في الدنيا، آمنين من أن يطرأ عليكم ما يخيفكم، أو ادخلوها مسلَّماً عليكم مرحّباً بكم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾ أي وأخرجنا ما في صدورهم من حقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي وأصبحوا إخواناً متحابين يجلسون على أسرّة متقابلين ينظر بعضهم إلى وجوه بعض بصفاء ومودة ﴿لا يَمَسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب لعدم وجود ما يسبب ذلك في الجنة ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لا يخرجهم أحد من الجنة ونعيمها فهم خالدون فيها أبداً.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يأمر الله رسوله محمداً بأن يبلّغ أمته جميعاً أن الله هو العظيم الغفران الواسع الرحمة ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ وأن عذاب الله هو العذاب الأليم البالغ الغاية في الشدة.

هاتان الآيتان ينبثق عنهما المعاني الآتية:

قوله تعالى: ﴿نبيء عبادي﴾ حيث أضاف العباد إلى نفسه وفي هذا تشريف لهم وتكريم، وكل من أقر بالعبودية لله شمله هذا التكريم.

ومنها: أن الله لما ذكر المغفرة والرحمة أكد عليهما بألفاظ ثلاثة: **أولها**: قوله ﴿أني﴾ **ثانيها**: ﴿أنا﴾ **ثالثها**: إدخال الألف واللام على المغفرة والرحمة ﴿الغفور الرحيم﴾ وهذا كله يدل على رجحان جانب المغفرة والرحمة.

ثم إن الله سبحانه لما ذكرالعذاب لم يقل إني المعذب المؤلم على وجه المقابلة مع المغفرة والرحمة، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ على سبيل الإخبار، وهذا كله يدل على ترجيح جانب المغفرة والرحمة، وفي هذا يقول رسول الله محمد ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

فعلى الإنسان أن يجمع بين الرجاء والخوف من الله وأن يكونا في مستوى واحد، فإن المبالغة في الرجاء بمغفرة الله ورحمته تفضي إلى تسويف الأعمال الصالحة وإهمالها أو تأخير التوبة من المعاصي، والمبالغة في الخوف من عذاب الله تفضي إلى القنوط واليأس من رحمة الله.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ
تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن
رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ
إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

وجلون: خائفون.

مسّني الكِبر: أدركني كِبَرُ السنّ.

القانطين: اليائسين.

فما خطبكم؟: فما شأنكم الخطير؟

قدّرنا: حكمنا وقضينا.

الغابرين: الباقين في العذاب مع أمثالها.

الملائكة تبشِّر إبراهيم بولد

ويتابع القرآن فيذكر ما خصَّ الله به نبيه إبراهيم من فضله ورحمته ومن ذلك تبشيره بولد:

﴿وَنَبِّئْهُم عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أخبر يا محمد أمتك عن ضيف إبراهيم. والضيف يطلق على الواحد والجمع في كلام العرب، والمراد بضيف إبراهيم رسل من الملائكة وهم جبريل وملكان معه وقيل أكثر من ذلك، وكانوا في صورة شبان حسان الوجوه.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً﴾ أي واذكر يا محمد حين دخل هؤلاء الملائكة على إبراهيم فقالوا سلاماً، أي قالوا له هذا اللفظ تحية له ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم عليه السلام للملائكة لما استقروا عنده: إنا منكم خائفون، وسبب خوفه من ضيوفه أنه قدّم لهم عجلاً مشوياً فلم تمتد أيديهم إلى الأكل منه فارتاب بشأنهم وأوجس منهم خيفة، والقرآن لم يذكر ذلك هنا اكتفاء بما ذُكِرَ في سورة هود والقرآن يكمل بعضه بعضاً: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩، ٧٠] وقد جرت العادة عند قوم إبراهيم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير.

طمأنت الملائكة إبراهيم بما يزيل خوفه: ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ أي لا تخف منّا فإنا ملائكة ربك جئناك لنبشرك بغلام سيهبه الله لك وسيكون في شبابه عظيم القدر كثير العلم وهو إسحق عليه السلام ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمونِي عَلى أَن مَسَّنِيَ الكِبَرُ﴾ أي قال إبراهيم متعجباً من تبشيرهم إياه بالولد مع كبر سنه وشيخوخته، وكبر سنّ امرأته، ثم أكد تعجبه بصيغة الاستفهام التعجبي ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرونني، لأن البشارة إذا جاءت بما لم تَجْرِ به العادة

كانت أمراً يدعو إلى العجب. فأجابته الملائكة: ﴿قَالوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَـكُن مِنَ القَانِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه وبالأمر المحقق الثابت فلا تكن من الآيسين من الخير ﴿قَالَ وَمَنْ يَـقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضَّالُّونَ﴾ قال إبراهيم: ولا ييأس من رحمة ربه إلاّ الخاطئون المنصرفون عن طريق الصواب الذين لا يعرفون فضل الله وسعة رحمته.

وبعد أن اطمأنَّ إبراهيم إلىٰ ضيوفه بعدما علم حقيقتهم أدرك بفراسته أن وجودهم عنده ليس مقتصراً على تبشيره بولد، والبشارة يكفي فيها واحد وهم ذوو عدد لذا خاطبهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُـكُم أَيُّهَا المُرسَلُونَ﴾ أي ما هو أمركم وشأنكم الخطير الذي أُرسلتم به سوى بشارتي بولد؟ وقد كانت إجابتهم مصدقة لفراسته حيث قالت الملائكة: ﴿قَالوا إِنَّا أُرْسِلْـنَـا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي إن الله أرسلنا إلى قوم مجرمين لمعاقبتهم، والقرآن في هذه السورة لَم يفصِّل سبب إرسالهم والمهمة الموكولة إليهم على سبيل الإيجاز اكتفاء بما ذُكِرَ في سورة الذاريات: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣].

ثم تابعت الملائكة قولها: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُم أَجْمعِينَ﴾ أي إن عذاب الله لن يصيب آل لوط وهم من آمن بالله وأطاعه من قومه، ولو كانوا من غير قرابته فهؤلاء سننجيهم من العذاب أجمعين ﴿إِلاَّ ٱمْرَأَتَـهُ قَدَّرْنَا إِنَّها لَمِنَ الغَابِـرِينَ﴾ أما امرأة لوط فقد حكمنا وقضينا بأنها من الباقين في العذاب والهلاك مع الكفرة المجرمين، وإنما أسند الملائكة القضاء بهلاكهم إلى أنفسهم مع أن الله هو الذي قدَّر وقضى ذلك لأنهم هم المنفذون لأمر الله فيهم بالهلاك.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ
بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ
ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

شرح المفردات

منكرون: أي أنكم مجهولون لديّ ولا أعرفكم.

يمترون: يشكّون.

فأسر بأهلك: فسر بأهلك ليلاً.

اتبع أدبارهم: سر خلفهم.

وقضينا إليه: أوحينا إليه.

دابر هؤلاء: آخرهم والمراد جميعهم.

مقطوع مصبحين: أي يتم استئصالهم وإهلاكهم في الصباح.

حُكْمُ اللَّهِ بهلاك قوم لوط

ترك الملائكة إبراهيم عليه السلام بعد أن بشَّروه بولد، وتوجهوا إلى مدينة «سدوم» وحلوا ضيوفاً على النبي لوط عليه السلام بصورة بشر وهو يجهل حقيقتهم.

وكان أهل مدينة «سدوم» من أفجر الناس وأكفرهم يقطعون الطرق للسلب والنهب، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين وهي الشذوذ الجنسي، فأرسل الله إليهم نبيه لوطاً بالرسالة الإلهية محذراً لهم من عذاب الله إن استمروا على ما هم عليه من إجرام وفسوق. هذا وسُمي الشذوذ الجنسي الذكري لواطاً لأنه انتشر في قوم النبي لوط، والقرآن سمى هذا العمل: إتيان الرجال.

والقرآن يذكر قصة لوط مع قومه في مواضع متعددة، وهنا في هذه السورة يخبرنا بأن الله قد قضى بإهلاك قوم لوط.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي بعد أن خرج الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا قرية سدوم ونزلوا ضيوفاً على لوط وآله ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي قال لوط لضيوفه: إني لا أعرفكم فمن أنتم، ولأي أمر جئتم؟ قال لهم ذلك لأنهم ليسوا من أهل مدينته ولا تبدو عليهم آثار السفر.

ويحكي الله سبحانه إجابتهم للوط على سؤاله لكي يطمئنوه ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فيه يَمْتَرُونَ﴾ أي ما جئناك بما يسوؤك بل جئناك بما فيه سرورك ونصرك على أعداء الله، وهو إيقاع العذاب بقومك الذي كنت تتوعدهم بنزوله وكانوا يشكون في وقوعه، وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه. قالوا له ذلك بعد أن كشفوا عن حقيقتهم وأنهم من صنف الملائكة أرسلهم الله لإهلاك قومه المجرمين. ثم أكدوا بشارتهم هذه بقولهم: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذي لا مجال للشك فيه وهو إنزال العذاب بهم، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به.

ثم تابعت الملائكة قولها للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي سِرْ واذهب بأهلك في جزء من الليل أو في آخره. ولم يذكر القرآن استثناء امرأته من السير معه اكتفاء بما ذكر في آيات أُخر ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي كن من ورائهم وسر خلفهم، لتطّلع على أحوالهم، وتبعث الطمأنينة في نفوسهم ﴿ولا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا تلتفت أنت يا لوط ومن معك لئلا تروا ما وراءكم من هول العذاب فلا تطيقونه، وقيل: المراد بعدم الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن الملتفت قلما يخلو من أدنى وقفة، وموقفهم هو موقف خطر وهم عليهم الهرب من العذاب ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وسيروا إلى المكان الذي يأمركم ربكم بالسفر إليه، قيل إن هذا المكان هو الشام، أو الأردن، أو مصر.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أي وأوحى الله إلى لوط أنه سبحانه حكم وقدّر

على قومه حكماً لا مردّ له وهو: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ دابر: أي آخر، ومقطوع: أي مستأصل، ويكون المعنى: إن قوم لوط يستأصلون بالعذاب عن آخرهم وهم داخلون في وقت الصباح فلا يبقى منهم أحد على قيد الحياة.

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ
فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا
عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

شرح المفردات

ولا تخزونِ: ولا تهينوني.

لعمرك: قسم من الله بحياة نبينا محمد ﷺ.

سكرتهم: غفلتهم الشديدة أو ضلالتهم التي جعلتهم كالسكارى.

يعمهون: يترددون ويتحيرون.

الصيحة: الصوت الشديد المزعج، والمراد به العذاب الذي أهلكهم الله به.

مشرقين: داخلين في وقت شروق الشمس.

سجّيل: طين متحجّر.

للمتوسّمين: للذين في نظرهم فراسة فيعرفون حقيقة الشيء بسمته وعلامته.

لبسبيل مقيم: لفي طريق واضح ليس بخفي.

يوم عصيب مرَّ على لوط

وهنا تعود بنا الآيات لتصف بعض المواقف الحرجة التي صادفها لوط عليه السلام عندما دخل الملائكة ضيوفاً عليه بصورة فتيان حسان وهو يجهل أنهم من الملائكة، فضاق بهم ذرعاً وخاف عليهم من اعتداء قومه عليهم بفعل الفاحشة بهم، وواجب الضيافة يحتم عليه أن يحميهم من كل أذى.

ثم شرع القرآن يذكر ما صدر من القوم حين علموا بقدوم ضيوف حسان الوجوه على لوط:

﴿وَجَاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾أي وجاء أهل مدينة سدوم منزل لوط مستبشرين فرحين حين علموا أن عنده ضيوفاً غرباء في نهاية الحسن والجمال. **﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْـفِي فلا تَفْضَحُونِ﴾**أي قال لوط لقومه الذين قصدوا بيته ليأخذوا هؤلاء الضيوف ويفعلوا فيهم الفاحشة وهي اللواط: إن هؤلاء أضيافي فحق عليَّ أن أبذل غاية وسعي في إكرامهم وحمايتهم فلا تتعرضوا لهم بسوء، ولا تفضحوني بفضيحة ضيفي لأن الإساءة إلى الضيف إساءة إلى المضيف **﴿واتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ﴾** أي خافوا الله في أمرهم ولا ترتكبوا الفاحشة في ضيفي فتوقعوني في الذل والهوان أمام الأضياف.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْـهَكَ عَنِ العَالَمِينَ﴾ أي قال قوم لوط: ألم ننهك يا لوط أن تضيف أحداً من الناس أو تؤويه في قريتنا، إذ إنهم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء، أو بمعنى: ألم نتقدم إليك وننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.

ولما رأى لوط أن قومه مصرون على فعل الفاحشة بضيوفه قال لهم: **﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتي إِنْ كُنْـتُم فَاعِلِينَ﴾** أي هؤلاء بناتي أزوجكم إياهن إن اتبعتم ما أمرتكم به من الدِّين، أراد أن يحمي أضيافه ببناته، وقد كان لوط من قبل إذا طلبوهن منه لا يرضى بهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، وقيل: أراد بقوله بناتي نساء قومه فإن نبي كل

أمة بمنزلة أبيهم وأولاد الأُمّـة أولاده، أي تزوجوهن ولا تفعلوا ما قد حرّم الله عليكم من إتيان الرجال، إن كنتم راغبين في قضاء شهوتكم فاقضوها بما أحله الله لكم عن طريق الزواج بالبنات.

والقرآن في هذا السياق يقدم لنا توجيهاً كريماً في المحافظة على الضيف وإكرامه وحمايته من الأذى، وذلك أخذاً من التصرف الكريم الذي فعله لوط مع ضيوفه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل بأن هذا قَسَمٌ من الله بحياة نبيه لوط عليه السلام بأن قومه في غفلة وضلالة جعلتهم كالسكارى يتحيرون ويترددون فكيف يستمعون للنصح أو يستجيبون لداعي الهدى. ويرى بعض المفسرين أنه قسم بحياة النبي محمد ﷺ حيث قال ابن عباس: ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، وتكون الضمائر عائدة على قريش ويكون القسم جملة معترضة في قصة لوط.

ثم يذكر القرآن ما حلّ بقوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فأهلكتهم صيحة العذاب مع شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فأمر الله ملائكته بجعل عالي أرضهم سافلها ودمرها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وأرسل الله عليهم طيناً متحجراً كالمطر المتتابع زيادة في عذابهم وإتماماً لهلاكهم بحيث قضى عليهم جميعاً.

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للمتوسِّمِينَ﴾ إن في ذلك لعلامات ودلائل للناظرين المعتبرين الذي يتأملون الأشياء فيعرفون حقيقتها ﴿وَإِنَّها لَبِسَبيلٍ مُقِيمٍ﴾ وإن مدينة سدوم التي أصابها الهلاك لتقع على طريق واضح لا يخفى على أحد، فإن السالك في الطريق من المدينة المنورة إلى الشام يرى آثار هذا العذاب من الخراب والدمار الذي حلَّ بقوم لوط ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً للمؤْمِنينَ﴾ إن في صنيع الله بقوم لوط لعلامة بينة ودلالته واضحة لمن آمن بالله وأيقن أن ما حلّ بهم هو بسبب مقت الله إياهم لإجرامهم وسوء صنيعهم.

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

شرح المفردات

أصحاب الأيكة: سكان بقعة كثيفة الأشجار الملتف بعضها على بعض.

لبإمام مبين: لفي طريق بيِّن واضح يؤتَمُّ به.

أصحاب الحجر: هم ثمود قوم النبي صالح.

معرضين: متولين عن طريق الحق.

الصيحة: الصوت الشديد المزعج.

مصبحين: داخلين وقت الصباح.

فما أغنى عنهم: فما دفع عنهم وما نفعهم.

الساعة: القيامة.

أصحاب الأيْكَةِ وأصحاب الْحِجْرِ

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن أصحاب الأيكة وهم كانوا أهل غيضة وشجر مثمر، والغيضة هي الموضع الكثير الشجر والماء، كما أن الأيكة تطلق على الشجر الملتف الكثيف. وأصحاب الأيكة هم قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وسائر المعاصي، فأرسل الله إليهم رسوله شعيباً لينذرهم من عذاب الله إن استمروا في كفرهم وعصيانهم لله. يقول الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أي إن حال الكفر والعصيان الذي كان عليه قوم لوط هو أيضاً حال أصحاب الأيكة، فقد كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ وقد كان انتقام الله منهم بأن سلّط عليهم الحرّ سبعة

أيام حتى أخذ بأنفاسهم واقتربوا من الهلاك فبعث الله عليهم سحابة كالظلّة[١] فالتجأوا إليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الراحة والظل فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم. وقد ذكر القرآن في موضع آخر ما حلَّ بأصحاب الأيكة: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن مساكن قوم لوط ومساكن أصحاب الأيكة لفي طريق واضح يبصر آثار الخراب والدمار فيهما كل من يمرّ بديارهم، وسمي الطريق هنا إماماً لأنه يؤم ويتبع لأن الإنسان إذا أراد الانتقال من موضع إلى آخر فإنه يأتم بالطريق حتى يصل إلى الموضع الذي يريده.

وأخيراً يأتي الكلام عن أصحاب الحِجْر الذين سميت هذه السورة باسمهم، ويطلق عليهم قوم ثمود، والحِجْر هو واد بين المدينة المنورة والشام كان يمر به المسافرون من الحجاز إلى الشام، وقد أرسل الله إليهم رسوله صالحاً ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد كذّب أصحاب الحجر ـ وهم قوم ثمود ـ رسول الله إليهم «صالحاً» فكأنهم بتكذيبهم إياه مكذبين لرسل الله جميعاً لأن رسالتهم واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده وترك الأفعال السيئة ﴿وَآتَيْنَاهُم آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي أعطاهم الله الحجج والعلامات الدالة على أن «صالحاً» رسول من عنده وأيده بمعجزة الناقة فكانوا عنها معرضين إعراضاً كلياً غير معتبرين ولا متعظين. وقد ذكر الله الآيات وهي المعجزات بصيغة الجمع والناقة وإن كانت آية واحدة إلاّ أنها اشتملت على آيات كخروجها من الصخرة وعظم جثتها وغزارة لبنها.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً حصينة حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها ثم يبنون منها بيوتهم ليعيشوا فيها آمنين من الهدم وعلى أنفسهم من عدوان الغير عليهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فأهلكتهم صيحة العذاب وزلزلت الأرض

---

(١) الظلة: ما أظل من حر الشمس من سحاب أو شجر أو بناء.

بهم كما في سورة الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفة هي الزلزلة. وكان هلاكهم وقت الصبح ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال وما يبنون من البيوت الثابتة في الجبال.

وقد روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال لأصحابه: لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلاّ أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن[1] يصيبكم مثل ما أصابهم[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزل الحجر أرض ثمود في غزوة تبوك أمر أصحابه ألاّ يشربوا من مائها ولا يستقوا منها.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

شرح المفردات

الساعة: القيامة.

سبعاً من المثاني: سورة الفاتحة التي هي سبع آيات.

أزواجاً: أصنافاً.

واخفض جناحك: تواضع وألن جانبك.

---

(١) أن: بمعنى لئلا.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

توجيهات من اللّه إلى رسوله محمد ﷺ

وبعد أن ذكر القرآن ما أصاب الأمم السابقة من هلاك جزاء كفرها عقّب على ذلك ببيان الحكمة الإلهية من ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي وما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما من العناصر إلاّ بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور، فالله سبحانه لا يظلم أحداً من الأمم التي أصابها العذاب والهلاك، فالذين كذبوا رسل الله وعاثوا في الأرض فساداً قضت حكمة الله وعدالته أن يهلكهم أمثال الأمم التي سبق ذكرها، وذلك تطهيراً للأرض من شرورهم وفسادهم، هذا جزاؤهم في الدنيا، أما في الآخرة ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ وإن القيامة لآتية حيث يعذبهم الله في النار ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجمِيلَ﴾ أي اعف يا محمد عن الذين يناصبونك العداء من قومك عفواً حسناً لا يخالطه حقد ولا ضغينة، عفواً تترفع فيه عن الانتقام منهم، عفواً يخلو من العتاب والمنّة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾وإن ربك هو الذي خلقهم وخلق كل شيء فهو عالم بهم وبما يأتون من الأفعال.

﴿وَلَقَدْ آتيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي والقُرآنَ العَظِيمَ﴾ أكثر المفسرين قالوا: إن المراد بالسبع المثاني (فاتحة الكتاب) فهي سبع آيات «تُثَنَّى» أي تكرر في كل صلاة لأنها جمعت أصول الشريعة. والمثاني أيضاً جمع مثناة أو مثنية مأخوذة من الثناء والفاتحة تشتمل على ما هو ثناء على الله. وقد ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له: «لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن» ثم قال له (الحمد لله رب العالمين. . .) إلى آخر سورة الفاتحة، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته.

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها يعني: أم القرآن (أي الفاتحة)

وإنها لهي السبع المثاني التي آتاني الله تعالى[1] ﴿والقُرآنَ العَظِيمَ﴾ والقرآن كما يطلق على كتاب الله يطلق على بعضه فكان عطف القرآن على سورة الفاتحة تعميماً بعد تخصيص.

وقيل: المراد بالمثاني السور السبع الطوال، وسميت بالمثاني لما فيها من تكرار القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، وهذه السور هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. والقول الأول بأنها فاتحة الكتاب هو أرجح والله أعلم.

ولا يمنع من وصف القرآن كله بأنه مثاني وقد جاء في القرآن:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولما كانت متع الدنيا ضئيلة جداً بالنسبة إلى ما أنعم الله به على نبيه من نعمة القرآن خاطبه الله قائلاً: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُم﴾ أي لا تنظر يا محمد نظرة تَمَنٍّ ورغبة، ولا تطمح نفسك إلى مثل ما أوتيه أصناف من الكفار من المال والجاه ومتع الحياة وزينتها فإن القرآن أعظم من هذا كله فهو عز الدنيا والآخرة ﴿ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن على الكفار ولا تتحسّر إذا لم يؤمنوا فما عليك إلاّ البلاغ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ للمؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لمن اتبعك من المؤمنين وارفق بهم. فخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، وهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه على فرخه وضمه إليه برفق وعطف وحنان فجعل ذلك وصفاً للتواضع، والجناحان من الإنسان جانباه.

---

(١) عن تفسير الطبري.

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟
ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا
تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

شرح المفردات

عضين: أعضاء وأجزاء متفرقة وعضين جمع عضة أي جزء.

فاصدع بما تؤمر: فاجهر بما تؤمر وأظهره.

كفيناك المستهزئين: تولينا إهلاكهم.

من الساجدين: من المصلين.

اليقين: الموت، وعبر عنه باليقين لتحققه.

إنذارٌ من الله للكافرين

وأخيراً يخاطب الله رسوله محمداً بأن ينذر الكافرين ويحذرهم من التمادي في ضلالهم والوقوف في وجه الدعوة الإسلامية لئلا يصيبهم الهلاك العاجل: ﴿وَقُلْ إني أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ أي ـ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: إني أنا المحذر لكم من عذاب الله ببرهان ووضوح ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المقتَسِمِينَ﴾ أي هذا العذاب الذي أنذركم به هو مثل العذاب الذي أنزله الله على المقتسمين. والمقتسمون هم ستة عشر رجلاً أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام موسم الحج فاقتسموا طرق مكة ومداخلها يقولون لمن سلكوها: لا تغتروا بهذا الخارج منا عن ديننا يدّعي النبوّة فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، وسموا مقتسمين لأنهم اقتسموا مداخل مكة، فانتقم الله منهم وأماتهم شر ميتة ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ﴾ أي الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة فقال بعضهم في القرآن إنه سحر،

وبعضهم قالوا إنه كهانة، وبعضهم قالوا إنه شعر، وبعضهم قالوا إنه أساطير الأولين ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أقسم الله بنفسه أنه سيسأل هؤلاء المقتسمين يوم القيامة عما كانوا يعملون في دنياهم من كفر وتكذيب وافتراء، وليس سؤال الله لهم سؤال استفهام واستعلام وإنما هو سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي فاجهر يا محمد بما تؤمر به وأظهره، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً. وتأتي كلمة الصدع بمعنى الشق والتفريق، أي افرق بالقرآن بين الحق والباطل. هذه الجملة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فيها من جزالة اللفظ وبلاغة المعنى ما تنحني لإعجازه البلغاء إكباراً وتعظيماً له، ويحكى أن بعض العرب سمع قارئاً يقرأها فسجد لله، فقيل له في ذلك فقال سجدت لبلاغة هذا الكلام ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تبال بالمشركين وأذاهم فالله حافظك وناصرك عليهم.

ولما كان المستهزئون بالدعوة الإسلامية هم أكبرالمعوقين لها من الانتشار وعد الله رسوله محمداً بأن يهلكهم ويكفيه شرهم فقال سبحانه:

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي إننا تولينا إهلاك المستهزئين الذين يستهزئون بك يا محمد وبالقرآن الذي أنزلناه عليك. وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة نفر يبالغون في إيذاء رسول الله والاستهزاء به وهم: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاصي بن وائل السّهميّ، والأسود بن الطيب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، وقد كانوا ذوي قوة وشوكة ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ وهؤلاء لم يقتصروا على الاستهزاء برسول الله بل اجترأوا على إثم عظيم وهو الإشراك بالله وجعلهم معه إلٰهاً آخر ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد لهم من رب العالمين، أي فسوف يعلمون ما يحل بهم من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقد تحقق وعد الله فيهم فأماتهم شر ميتة. هذه بشرى عظيمة ومعجزة كبيرة بانتصار دين الله وتغلبه على كل من ناوأه وفوق هذا سلامة رسول الله ﷺ من كيد المشركين والمؤامرات ضده. أيّ برهان أعظم من ذلك يشهد بأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي أن الله يعلم ما يصيبك يا محمد من انقباض في صدرك، وشدة كربك بسبب ما يقوله المشركون فيك وفي القرآن من الاستهزاء والكذب ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فالجأ إلى ربك فيما يصيبك من ضيق الصدر بالتسبيح له سبحانه منزهاً له عن النقائص مقروناً ذلك بحمده، أي قل: سبحان الله والحمد لله. أو فنزهه سبحانه عما يقول هؤلاء المشركون من أن لله شريكاً في ملكه، واحمد الله على أن هداك للحق ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي كن من المصلين، لأن السجود ركن من أركان الصلاة، فهو تعبير بالجزء عن الكل، حيث عبّر بالسجود وهو جزء عن الصلاة وهي كلٌّ. والسجود أفضل أجزاء الصلاة لما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» وذلك لأن السجود فيه الخضوع والاستسلام والذلة لله رب العالمين. فكأن الله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ تعليماً له ولأمته من بعده: كن من المصلين الخاشعين لله يكشف همك وغمك ويزول الضيق الذي تجده في صدرك ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ واعبد ربك في جميع أوقاتك، ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك. وعُبِّر عن الموت باليقين لأنه متيقن اللحوق بكل حي على وجه الأرض وفسِّر اليقين أيضاً بالنصر على الكافرين الذي وعد الله به رسوله.

والجدير بالذكر أن القرآن دعا بعد ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده والقيام بالصلاة والانكباب على عبادة الله لأن ذلك يؤدي إلى زوال الإحساس بالضيق عنه، وتخفيف ما يصيب النفس من أحزان، ذلك أن العبادة تنكشف فيها أضواء عالم ربوبية الله وجلال عظمته، وسعة رحمته، فينشرح الصدر، وتطمئن النفس، وعند ذلك يدرك المتعبد لله قدر الدنيا وحقارة شأنها فلا يلتفت إليها ولا يتحسر على ما فاته من نعيمها وملذاتها، فيزول الهم والحزن والغم عن القلب يقيناً بأن الآخرة أفضل من الدنيا، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين.

تعريف بسورة النحل

هذه السورة مكية ما عدا الآيات الثلاث الأخيرة فإنها مدنية، وسميت سورة النحل بهذا الاسم للشأن العجيب المدهش في أمر النحل وصنعها للعسل، والتي تعمل بإلهام من الله.

وهذه السورة تتناول النِّعَم العديدة التي أسبغها الله على خلقه، ولهذا سُمِّيت أيضاً بسورة «النِّعَم». فمن هذه النعم أن الله خلق الأنعام لينتفع الناس بأصوافها وأوبارها وألبانها ولحومها، كما أنه سبحانه هيأ للناس استخدام الإبل للركوب عليها وحمل أمتعتهم وغيرها إلى مكان بعيد، وذلك قبل أن يلهم الله الإنسان الاهتداء إلى وسائل النقل الحديثة.

ومن نِعَمِ الله على الإنسان أنه أنزل المطر من السماء ليشرب منه الإنسان ولينبت به الزرع وأنواع الثمار، كما سخّر الله الليل والنهار وذلك يحصل بدوران الأرض حول محورها، ولولا الليل والنهار لما صلح عالم النبات ولما انتظمت حياة الإنسان.

كما سخّر الله البحر للإنسان ليأكل منه لحماً طرياً ولتجري به السفن لمنفعة الإنسان في المواصلات والتجارة والصيد.

ومن نعم الله على الإنسان أن خلق له أزواجاً من جنسه ليسكن إليهن ورزقه منهن بنين وحفدة، كما منحه نعمة السمع والبصر والعقل.

والنعم التي أعطاها الله للإنسان تزول بالكفران بها كما حصل لقرية ما فأذاقها الله لباس الخوف والجوع.

وفي هذه السورة يأمر الله الناس بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، وينهاهم عن الآثام والمنكرات والظلم، كما يأمرهم بالوفاء بالعهود، وألا ينقضوا ما أبرموه منها، وألا يتخذوا العهود وسيلة للخداع والتمويه.

ثم يوجه الله رسوله محمداً ﷺ والمؤمنين إلى الدعوة إلى الله بالرفق والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

هذا بعض ما تحتويه السورة من موضوعات اقتصرنا عليها خوفاً من التطويل.

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ
مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

شرح المفردات

تعالى: تعاظم بذاته وصفاته الجليلة.

بالروح: بالوحي الإلهي.

أنذروا: الإنذار إخبار فيه تخويف.

إنذار من اللّه للمشركين

كان رسول الله محمد ﷺ في دعوته إلى الإسلام يخوّف المشركين وينذرهم بعذاب الدنيا تارة، وبعذاب يوم القيامة تارة أخرى إذا استمروا على كفرهم بعبادة الأصنام. ولما كان المشركون لم يصبهم شيء من العذاب طلبوا من رسول الله استعجال العذاب فيهم سخرية منهم وتكذيباً لرسول الله، فنزل قول الله تعالى:

﴿أَتَى أَمْرُ اللّه فَلاَ تَسْتَعْجِلوهُ﴾ أي نزل قضاء الله وحكمه بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين إذا أصروا على الكفر والعصيان، وإذا كان قضاء الله نافذاً لا محالة في الوقت الذي قدَّره الله سبحانه فلا داعي أن تستعجلوا وقوعه أيها المشركون.

وعبّر القرآن عن المستقبل بلفظ الماضي: ﴿أتى أَمْرُ اللَّه﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقد حصل هذا العذاب وتحقق بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية، حيث قُتل سبعون من رؤوس الكفر من قريش في معركة بدر ﴿سُبْحَانَـهُ وتَـعَالى عَمَّا يُـشْرِكُونَ﴾ تنزّه الله وعلا عن أن يكون له شريك في مُلكه وخلقه.

﴿يُـنَـزِّلُ الملائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ﴾ ينزّل الله الملائكة بالوحي الإلهي المشتمل على الشرائع السماوية والأخلاق السامية بإرادته وأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَـادِهِ﴾ على من يصطفيهم الله من عباده ليكونوا رسلاً منه إلى الناس ليبلّغوهم الوحي الإلهي. وعبّر الله عن الوحي بكلمة «الروح» كما عبّر عنه بالقرآن لأنه يحيـي موات القلوب التي أماتها الجهل والضلال فيحييها بالهداية، كما تحيي الأرواح الأبدان، وفي هذا المعنى يخاطب الله رسوله محمداً ﷺ كما جاء في القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومهمة رُسل الله التي كلّفوا بها: ﴿أنْ أَنْذِرُوا أَنَّـهُ لا إِلَه إلاَّ أَنَا فَاتَّـقُونِ﴾ أي خوّفوا الناس من مخالفة أمر الله، وبيّنوا لهم أنه لا إله إلاّ الله، وأن عليهم أن يعبدوه وحده، وأن يحذروا غضبه إن هم عصوه.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ
مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ
أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

شرح المفردات

نطفة: ماء الرجل والمرأة أي منيّهما.

خصيم: شديد المخاصمة والمجادلة بالباطل.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز.

تريحون: ترجعونها من المراعي إلى الحظائر آخر النهار.

تسرحون: تذهبون بها إلى المراعي باكراً أول النهار.

تحمل أثقالكم: تحمل الإبل أحمالكم الثقيلة.

بشق الأنفس: بمشقة وتعب.

قصد السبيل: بيان الطريق المستقيم.

جائر: مائل عن طريق الحق والهدى.

من مظاهر قُدْرَةِ الله ونِعَمِهِ على خلقه

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن بعض مظاهر قدرة الله تعالى في هذا الكون فيقول: **﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ والأَرْضَ بالْحَقِّ﴾** أي الله خلق السماوات والأرض بالحق وعلى أساس من الحكمة والتقدير المحكم، للدلالة على قدرته وأن يعبده الناس

وحده، فيجب أن لا يميلوا عن عبادة الله إلى معبودات باطلة لأن في ذلك شقاءهم ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ترفّع وتقدّس الله عن أن يكون له شريك في ملكه.

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ والله خلق الإنسان من نطفة وهي منيّ الرجل الذي يحتوي على الحيوانات المنوية، ومنيّ المرأة الذي فيه البويضة التي تُلقّح بإحدى الحيوانات المنويّة، وهذه أولى مراحل خلق الإنسان. ومن المعلوم أن منيّ الرجل يخرج من مخرج البول وهذه إشارة إلى مهانة نشأته حتى لا يغتر بنفسه ويتكبّر في الأرض ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي فإذا هذا الإنسان بعد تكامله بشراً مخاصم لخالقه، منكر له، كافر بنعمته، مجادل في حصول البعث وأمور الدين، وهو ظاهر الخصومة واضحها.

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُم﴾ والإبل والبقر والغنم والماعز خلقها الله لكم أيها الناس ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ فيها تتدفأون من البرد بما تتخذون من أصوافها وأوبارها ملابس وأغطية وسواها، وفيها منافع من ركوب ظهور الإبل للسفر، واستعمال البقر في الحرث والريّ، والانتفاع بألبانها ونسلها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومن لحومها كلها تأكلون.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ ولكم في الأنعام زينة وجمال وقت ترجعونها إلى مأواها مساء ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ووقت خروجها صباحاً إلى المرعى.

فالقرآن يلفت نظر الإنسان إلى الجمال المتمثّل بهذه الأنعام، وليست النعمة منها مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل أيضاً إمتاع النظر بما فيها من جمال يذكّر الإنسان بخالقه وعظمة إبداعه.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لم تكونُوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ أي وتحمل الأنعام ولا سيما الإبل أحمالكم الثقيلة إلى بلد لم تكونوا لتصلوا إليه بدونها إلا بجهد وإرهاق ومشقّة ﴿إِنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربكم رؤوف بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع وهو عظيم الرحمة بهم حين سخرها لهم.

﴿وَالْخَيْـلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ومن نِعَمِ الله عليكم أيها الناس أن خلق لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوا ظهورها في تنقّلاتكم وسفركم، وجعلها زينة لكم تُدخل السرور إلى قلوبكم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه الجملة فيها إعجاز للقرآن حيث إنها جاءت معطوفة على وسائل الركوب من الحيوانات المذكورة، أي أن الله سيجعل للناس وسائل للركوب في المستقبل غير التي كانت معروفة في عصر نزول القرآن منذ أربعة عشر قرناً، وها هو الإنسان يتوصل إلى اختراع السيارات والقاطرات والطائرات التي يستخدمها في تنقلاته وسفره بما ألهمه الله لصنعها، وبما سخّر له من المعادن والطاقة من نفط وفحم حجري وكهرباء وذرّة وغيرها. ولا يكتفي القرآن بذكر الركوب بل يضيف إليه الزينة، وها نحن الآن نشاهد كثيراً من الزينة التي تضاف إلى السيارات بما يجعلها متعة للنظر ﴿وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وعلى الله بمقتضى فضله ورحمته أن يبيّن لكم الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومن الطرق ما هي مائلة ومنحرفة عن الحق وهي طرق ملل أهل الكفر ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو شاء الله هدايتكم جميعاً أيها الناس لهداكم وحملكم على الطريق المستقيم، ولكنه خلق لكم عقولاً تميّزون بها بين الخير والشر، وترككم لاختياركم ليحصل لكم من أعمالكم الثواب والعقاب في الآخرة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا
وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن
فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ
وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ
كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

شرح المفردات

تسيمون: ترعون أنعامكم.

ذرأ: خلق.

يذكّرون: يتعظون «أصلها يتذكرون».

مواخر فيه: تجري فيه السفن جرياً تشق الماء بصدورها.

ولتبتغوا: ولتطلبوا.

رواسي: جبالاً ثوابت.

أن تميد بكم: لئلا تتحرك وتضطرب بكم.

علامات: معالم للطرق تهتدون بها.

سبلاً: طرقاً.

من نِعَمِ اللَّه على الناس

ويتابع القرآن فيذكر بعض نعم الله على الناس بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْـزَلَ مِن السَّماءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي أن الله سبحانه هو الذي أنزل من السحاب ماء لتشربوا منه وتشرب دواب الأرض ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فيه تُسِيمونَ﴾ ومن الماء ينبت الشجر، والعشب الذي ترعاه مواشيكم، فكل ما ينبت من الأرض فهو شجر أكان له ساق أم لا.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْـتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾ ومن الماء ينبت الله الزرع وقدّم القرآن ذِكْرَهُ على غيره لأنه أصل الأغذية وهو الحبوب والخضار التي يقتات بها أكثر الناس. وأتبعه بالزيتون لمنافعه الكثيرة. ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة، ثم أتبعه بذكر العنب لفوائده الجمة، وأتى بالعنب بصيغة الجمع (أعناب) لاشتماله على الأصناف المختلفة في الحجم واللون والمذاق الطيب ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمراتِ﴾ لم يعدّد القرآن كافة الثمرات لأنها كثيرة، وبالأخص فإن كل منطقة تختص بثمار خاصّة بها ولذا عمَّمَ القرآن فقال: من كل الثمرات ليشمل كل ثمار الأرض ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن ما ذُكِرَ سابقاً لدليل وبرهان على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته لقوم يتدبّرون في أسرار النبات الذي خلقه الله على هذا الشكل والخواص.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهارَ﴾ وسخّر لكم أيها الناس الليل والنهار يتعاقبان عليكم فجعل الليل لسكنكم وراحتكم، كما جعل النهار لتتصرفوا فيه للحصول على رزقكم وإنجاز أعمالكم ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ﴾ وذلّل الله لكم الشمس التي تمدكم بالدفء والضوء، والقمر لتعرفوا به عدد الأشهر والسنين ﴿والنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ وخلق الله النجوم مذللات تحت إرادته وأمره لتهتدوا بها في الظلمات في سفركم ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في ذلك لعلامات وأدلّة على وجود الله ووحدانيته للذين لهم عقول ينتفعون بها، وليعلموا أن الذي خلق ذلك وأبدعه هو الله سبحانه. والجدير بالذكر أن كلمة (الآيات) هنا جاءت بصيغة الجمع لسعة آفاق هذه العوالم الكونية.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُم في الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلوانُهُ﴾ وما خلق الله لكم في الأرض من أنواع الحيوانات والنبات والجماد، وما جعل في جوف الأرض من المعادن المختلفة الألوان والفوائد، جعل لكم ذلك لمنافعكم ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ إن في هذا كله لأدلة على قدرة الله وحكمته ورحمته لكلّ من تَدبّر فاتعظ بما رآه.

﴿وَهُوَ الّذي سَخَّر الْبَحْرَ﴾ وهو الله الذي ذلل البحر، وجعله في خدمتكم أيها الناس لتنتفعوا به للتجارة والسفر والصيد ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا﴾ ومن البحر تأكلون لحم الأسماك طريّـاً، والسمك يعتبر الغذاء الأساسي لكثير من الشعوب لما يحتويه من بروتينات وفيتامينات وفوائد جمة ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجوا من البحر اللؤلؤ والمرجان تصنعون بهما حليًّا لتتزين بها نساؤكم ﴿وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِر فيهِ﴾ وترى السفن تشق عباب الماء مقبلة ومدبرة.

تأمل أيها القارىء كيف استعمل القرآن السفن المواخر بصيغة الجمع للدلالة على السفن الكثيرة، وهذا المعنى لم يظهر جليًّا إلا في هذا العصر حيث كثرت السفن كثرة عظيمة، إما لاستخدامها للسفر ولشحن البضائع والصيد، وإما لاستعمالها في الأغراض البحرية، فمنذ أربعة عشر قرناً ـ زمن نزول القرآن ـ لم يكن للبحر هذا الطابع الحالي المميّز بكثرة البواخر، كل ذلك يعطينا البرهان على أن القرآن وحي إلهي ليس من كلام بشر، لأنه تحدّث قديماً عن أشياء ستتحقق في المستقبل وهذا ما حصل. ثم يتابع القرآن كلامه عن البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله في البحر كثيراً من المنافع لكم ﴿وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ أي لتعرفوا نِعَمَ الله عليكم فتقوموا بالشكر له.

﴿وَأَلْقى في الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُم وَأَنْهَاراً﴾ وجعل الله في الأرض جبالاً ثابتة تحفظ اتزانها في دورانها حتى لا تضطرب في حركتها، كما جعل في الأرض أنهاراً عذبة لينتفع بها الإنسان والحيوان ولتوفّر الريّ للنبات ﴿وَسُبُلاً لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾ وجعل لكم ربكم في الأرض طرقاً كثيرة ممهدة تسلكونها لكي تهتدوا بتلك الطرق إلى مآربكم من تجارة وغيرها مما يدرّ عليكم الرزق.

﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وجعل في الأرض علامات يستدل بها الناس على الطريق المطلوب سلوكه كالجبال والأنهار وغير ذلك، وهم بالليل يستعينون بالنجوم في أسفارهم في البر والبحر إلى البلد الذي يقصدون الوصول إليه، هذا ما كان يحصل في زمن نزول القرآن قبل اختراع البوصلة ووسائل النقل السريعة، واللاسلكي، والعقل الألكتروني الذي يرسم للطائرات والسفن الطريق أو الجهة المراد سلوكها.

ثم يعقب الله على ذلك كله بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ هذه الآية جاءت على سبيل الإنكار لمن ترك عبادة الله وتوجه إلى عبادة غير الله من أصنام وغيرها. ومعنى الآية: أفمن يخلق السماوات والأرض ومن فيهن وهو الله عز وجل كمن لا يخلق شيئاً وهو مخلوق لله لا يملك النفع ولا الضر لنفسه أو لغيره، هل من العقل والمنطق أن تساووا بين من يخلق كل شيء وبين من لا يخلق شيئاً ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تلاحظون ذلك فتتعظوا وتعرفوا خطأ ما أنتم عليه من اعتقادات باطلة، وفي التذكر كفاية لمن له عقل فيعتبر.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ بهذه الآية الموجزة يبين الله فضله على الإنسان لكي يقوم بواجب الشكر والثناء له سبحانه ويخصه بالعبادة دون سواه. ومهما حاول الإنسان تعداد النعم التي أنعم الله بها عليه فلن يستطيع إحصاءها، ولكن لا بأس أن نشير إلى بعض هذه النعم القريبة من المشاهدة وهي: السمع والبصر والعقل واليدان والأصابع والرجلان التي يستعين بها الإنسان على قضاء حوائجه، بالإضافة إلى ما سخره الله للإنسان من نبات وحيوان وبحار وأنهار ومَعَادن شتى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك مع استحقاقكم للحرمان منها بسبب عدم شكره سبحانه وعصيانكم له.

﴿واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ والله يعلم ما تضمرونه في قلوبكم من الأمور وما تظهرونه منها لا يخفى عليه شيء من سركم وجهركم فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

شرح المفردات

يَدْعُونَ من دون الله : يعبدون غير الله.

أيّان : متى.

يُبعثون : يُحيون من جديد بعد الموت يوم القيامة للحساب.

لا جرم : حقاً، أو لا محالة.

أساطير الأولين : أباطيل وخرافات سطّرها الأقدمون.

أوزارهم : ذنوبهم.

ساء ما يزرون : ساءت الذنوب التي يحملونها.

مناقشة المشركين بالله

ويتابع القرآن فيناقش المشركين العرب الذين يعبدون الأصنام:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شيئاً﴾ يدعون هنا بمعنى: يعبدون، أي والذين يعبدهم المشركون من غير الله من أصنام هي عاجزة عن أن تخلق أي شيء لأنها جمادات **﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾** وهي مخلوقة وليست بخالقة صنعها النحاتون، وهذا ما قاله إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥] **﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾** أي هذه الأصنام هي أموات لا تعتريها الحياة بوجه من الوجوه، فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل **﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾** وما تدري

هذه الأصنام متى يبعث عابدوها أحياء من القبور يوم القيامة، وفي ذلك تهكم على المشركين من جهة أن أصنامهم التي يعبدونها لا تعلم وقت بعثهم أحياء بعد الموت ليجازوا على عبادتهم إياها فكيف يرتجون منها الثواب والعقاب؟

وبعد أن ثبت بطلان ألوهية غير الله خاطب الله الناس بقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فإلهكم إلّه واحد لا شريك له فأخلصوا له العبادة ولا تجعلوا له شريكاً ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ فالذين لا يصدقون بالحياة الآخرة وما فيها من عقاب على الشرك بالله، قلوبهم جاحدة لوحدانية الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وهم مستكبرون عن قبول الحق لا يؤثر فيهم وعظ.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي لا محالة أن الله تعالى يعلم ما يخفونه وما يعلنونه من عقائد وأقوال وأفعال وسيحاسبهم على كل ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ إن الله لا يحب المستكبرين الذين لا يقرون بوحدانية الله ولا يستجيبون لأنبيائه. والاستكبار رفع النفس فوق قدرها والتعالي على الناس وجحود الحق، وأمثال هؤلاء لا يرجى منهم نفع.

ثم يبين القرآن محاولات المشركين الإساءة إلى الإسلام، فقد كان الوافدون على مكة للحج أو للتجارة يسألون كفار مكة عن هذا النبي الذي ظهر بينهم ورأيهم فيه فكانوا يسيئون إلى النبي ﷺ وإلى القرآن في جوابهم لينفّروهم من الاستماع إليه واتّباعه وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإذا سئل هؤلاء المشركون عما أنزله الله من الوحي على محمد ﷺ زعموا أنها حكايات ملفّقة وخرافات سطّرها السابقون فنقلها محمد عنهم وصار يرددها.

وهذا ما يردده حالياً بعض الملحدين والمتعصبين من أهل الملل الأخرى زوراً وبهتاناً بدون أن يتحققوا مما يشتمل عليه القرآن من الهدى والحق والبراهين الواضحة التي تثبت أنه وحي إلّهي.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي لتكون عاقبة أمرهم على موقفهم هذا أن يحملوا ثقل ذنوبهم التي اقترفوها تامة يوم القيامة ليعاقبوا عليها ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِين يُضِلُّونَهُم﴾ أي وسيحملون أيضاً بعض ذنوب من أضلوهم وأبعدوهم عن الإسلام ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعونهم إليه هو طريق الضلال، والتنبيه على أن جهلهم لن يكون لهم به عُذْرٌ عند الله، إذ كان عليهم أن يميزوا بين الحق والباطل ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس ما يحملونه من الذنوب، ذنوبهم وذنوب من أضلّوهم. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء».

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

شرح المفردات

مكر: دبّر الشر خفية.

فأتى الله بنيانهم من القواعد: فقوض الله بنيانهم من أساسه.

يخزيهم: يذلهم ويهينهم بالعذاب.

تشاقّون: تخاصمون وتعادون الأنبياء والمؤمنين بسببهم.

الخزي: الذل والإهانة.

فألقوا السلم: أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان.

مثوى المتكبرين: مأواهم ومقامهم.

مصير الكفار الذين يضطهدون رسُلَ اللَّه

وبعد أن بيّن القرآن محاولات كفار مكة لصرف الناس عن الإسلام تأتي الآيات محذّرة لهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة من هلاك جزاء تآمرهم على رسُل اللَّه: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي قد مكر الكفار الذين عاشوا قبل كفار مكة برسل الله فجحدوا دعوتهم ودبروا الشر خفية للقضاء عليهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ القَوَاعِدِ﴾ فكان عاقبة مكرهم أن خرّب الله بناءهم من أصوله وأساسه بزلزال أو غيره ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فسقط عليهم السقف وكانوا تحته بعد تصدع قواعد البناء فهلكوا شر هلاك ﴿وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ وأتاهم عذاب اللَّه من حيث يظنون أنفسهم في أمان ومن حيث لا يتوقعون.

قد يكون ذلك وصفاً لحقيقة إهلاكهم، وقد يكون في ذلك تشبيه لفساد ما دبروا من المكايد، وما أبرموا من هدم دين الله، فأحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانهم فوقهم فهلكوا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِم﴾ وبالإضافة إلى عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي فيه الذل والهوان لهم، ولهم مع ذلك العذاب التوبيخ لهم من الله حيث يقول لهم: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذين كُنْتُم تُشَاقُّونَ فِيهِم﴾ أي أين هؤلاء الذين اتخذتموهم شركاء لي في العبادة والذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم وترفضون دعوتهم، لِمَ لا يحضرون معكم ليشفعوا لكم ويدفعوا عنكم ما ينزل بكم من العذاب ﴿قَالَ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الخِزْيَ الْيَوْمَ والسُّوءَ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ قال الذين يعلمون الحق من الأنبياء والمؤمنين والملائكة: إن الذل والهوان والعذاب اليوم واقع على الكافرين بالله ورسله، لقد قالوا لهم ذلك شماتة بهم.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المشركين عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم

لقبض أرواحهم: ﴿الَّذِين تَتَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظالمي أَنفُسِهِمْ﴾ أي هؤلاء الكافرون تقبض أرواحهم الملائكة وهم ظالمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي استسلموا للحق وانقادوا لأمر الله حين عاينوا العذاب قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي ما كنا نعمل في الدنيا من معصية، وما كنا نشرك بربنا أحداً، قالوا ذلك من شدة الخوف ولتخليص نفوسهم من العذاب ﴿بلى﴾ رَدٌّ عليهم من قِبَلِ الله أو من قِبَلِ الملائكة، أي بلى قد كنتم تعملون السوء ﴿إِنَّ اللّه عَلِيمٌ بمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ والله عالم بما كنتم تعملونه من المعاصي والكفر.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّم خَالِدينَ فِيهَا﴾ قد يكون المراد بالدخول شهود أرواحهم دار العذاب، أو دخولهم جهنم يوم مماتهم بأرواحهم وتعذب أجسادهم في قبورهم، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ودخلوا جهنم من أبوابها السبعة التي أُعدّت للكفار والعصاة ليبقوا فيها خالدين لا يبرحونها أبداً ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوى المتَكَبِّرينَ﴾ فبئست جهنم مقراً ومقاماً لكل متكبر عن الانصياع للحق ومترفع عن عبادة الله وحده والاستجابة لرسله.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا
حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن
تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

شرح المفردات

جنات عدن: جنات استقرار واطمئنان، وجنات جمع جنة وهي اسم لدار النعيم في الآخرة.

طيبين: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

المتقين: اتقاء الله هو تجنب عذابه بالعمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه.

هل ينظرون: هل يتوقعون.

حاق بهم: أحاط أو نزل بهم.

مصير المتقين في الآخرة

وفي مقابل الكافرين الذين سبق ذكرهم يعرض لنا القرآن صورة عن المؤمنين المخلصين الذين يستحقون نعيم الجنة في الآخرة:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وسأل الوافدون على مكة المؤمنين المتّقين ربهم عن حقيقة ما أنزل الله على محمد بقولهم: **﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُم قَالُوا خَيْراً﴾** أي ما الذي أنزله ربكم على محمد؟ فأجابوا بقولهم: أنزل خيراً كثيراً وهو القرآن، ففيه الخير كله فهو هدى ورحمة لمن عمل به. **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾** الكلام هنا مستأنف ليس من جملة كلام الذين اتقوا ربهم بل هو ابتداء كلام من الله، وفيه يثني

على من أجابوا السائلين عن القرآن بأن الله أنزل خيراً، كما وصفهم الله بأنهم أحسنوا في هذه الدنيا إحساناً كريماً ووعدهم على ذلك بحسنة منه وهي الحياة الطيبة في الدنيا واستحقاق المدح والثناء منه وغير ذلك من المكرمات ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وثوابهم في الآخرة خير مما أُوتوا في الدنيا وهو الجنة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ المتَّقِينَ﴾ ولنعم الجنة دار المتقين الذين اتقوا عقاب ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي أن الدار التي وُعِدَ بها المتقون هي جنات إقامة واستقرار يدخلونها ليتمتعوا بنعيمها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنْهارُ﴾ تجري من خلال قصورها وأشجارها الأنهار ﴿لَهُم فِيهَا مَا يشَاؤُون﴾ لهم في هذه الجنات ما تشتهيه أنفسهم وتقرّ به أعينهم ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المتَّقِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوْفى يجزي الله كل من يتقي ربه بالابتعاد عن الشرك والمعاصي.

﴿الَّذِين تَتَوفَّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي هؤلاء المتقون تتوفاهم الملائكة طيبة نفوسهم بالخصال الحميدة ﴿يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ أي تقول لهم الملائكة: أمان لكم وتحية لكم من الله ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ ادخلوا الجنة فإنها معدة لكم بسبب ما وفقكم الله إليه من ثباتكم على التقوى وبما قدمتموه من عمل صالح.

ثم تعود بنا الآيات إلى إنذار المشركين: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائِكَةُ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون إلاّ أن تأتيهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أو يأتي أمر الله بإهلاكهم جميعاً ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب لآيات الله فَعَلَهُ الكفار من الأمم السابقة فأتاهم أمْرُ الله بإهلاكهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ أي بإحلال سخطه عليهم وإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ﴾ بما ارتكبوا من القبائح وبما عصوا ربهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فأصابهم عقوبة ذنوبهم وأعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم العذاب الذي كانوا ينكرونه ويستهزئون به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

شرح المفردات

من دونه: من غيره.

فهل على الرسل: فهل من واجب الرسل.

بعثنا: أرسلنا.

اجتنبوا الطاغوت: اتركوا كل معبود غير الله وكل داعٍ إلى ضلالة.

حقّت: ثبتت ووجبت.

حقيقة المشيئة الإلهية في خلقه

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على المشركين الذين يزعمون أن مشيئة الله هي التي ارتضت لهم ولآبائهم عبادة الأصنام وتحريم ما أحله الله لهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيءٍ نَحْنُ ولا آباؤنا﴾ أي وقال الذين أشركوا وهم الذين عبدوا الأوثان والأصنام من دون الله: ما نعبد هذه الأصنام نحن وآباؤنا الذين نقتدي بهم في عبادتهم إياها، إلاّ لأن الله قد رضي عن عبادتنا لها ولو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره لما عبدنا ذلك **﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيءٍ﴾** ولا حرّمنا أكل بعض الذبائح والأطعمة إلاّ لأنه قد رضي ذلك منا، ولو كان كارهاً ذلك لَمَا تركنا نفعل ذلك، ولم يمكّنّا من عبادة الأصنام، وتحريم ما حرمنا

على أنفسنا من الأطعمة. وإنما قالوا ذلك تكذيباً لرسول الله واستهزاء به، وللاحتجاج بالمشيئة الإلهية على سلوكهم السيىء.

واعتقادهم هذا هو خطأ في فهم المشيئة الإلهية وتجريد للإنسان من أهم خصائصه وهو العقل الذي على ضوئه وضوء الشرائع التي أنزلها الله على رسله عليه أن يختار سلوك الطريق السليم، فمشيئة الله تتجلى في إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم سبيل الهدى والتحذير من سلوك سبل الضلال، ومشيئة الإنسان تتوضح في اختياره لأحد السبيلين. وقد جاء في القرآن في الكلام عن الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وجاء في القرآن أيضاً: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فالقرآن ينفي بهذا النص السابق عقيدة الجبر ـ أي أن الإنسان مجبر في أفعاله مسيّر ـ التي ذهب إليها كثير من العصاة والمنحرفين لتبرير سلوكهم السيىء. فالله لا يأمر عباده إلاّ بالخير، ولا ينهاهم إلاّ عن الشر، وهو سبحانه يعاقب المذنبين أحياناً في الدنيا بالإضافة إلى معاقبتهم في الآخرة، ولو كان الإنسان مجبراً في أفعاله لانتفى الثواب والعقاب في الآخرة من أساسه، وتأكيداً لهذا نرى في القرآن قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ويقول تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

ثم نعود إلى تتمة الآية ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذين مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي مثل هذا الزعم الباطل فعل الذين من قبلهم من الأمم الذين أشركوا بالله وحرّموا ما أحله الله لهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُل إلاّ البلاغُ المبينُ﴾ فما كانت وظيفة الرسل إلاّ إبلاغ الرسالة الإلهية وإيضاح طريق الحق ولم يكن من وظيفتهم إجبار الناس على الإيمان.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ أي ولقد أرسلنا في كل أمة من الأمم السابقة رسولاً خاصاً بهم كما أرسلنا فيكم رسولاً ﴿أَنِ اعْبُدوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا

﴿الطَّاغُوتَ﴾ وكان كل رسول يقول لقومه: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وأخلصوا له العبادة واحذروا أن يغويكم الشيطان وكل من يدعونكم إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فمن تلك الأمم من يسَّر الله لهم الهداية إلى الحق فعبدوا الله وحده وأطاعوه ﴿ومِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ ومنهم من وجبت وثبتت عليه الضلالة والبعد عن الحق لإصرارهم على الكفر والعناد ﴿فَسِيرُوا في الأرض فانظروا كيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ المكذِّبينَ﴾ فسيروا أيها المشركون في الأرض وانظروا إلى آثار العذاب والهلاك الذي حلّ بالقوم الظالمين كقوم عاد وثمود وقوم لوط لعلّكم تعتبرون بما حلّ بهم.

﴿إنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإن اللَّه لا يهدي من يُضِلُّ﴾ أي إن تطلب يا محمد بجهدك هداية هؤلاء المشركين إلى الإيمان بالله فإن ذلك لا ينفعهم، لأن الله لا يهدي من اختار طريق الضلالة وترك طريق الهدى ﴿ومَا لَهُم مِنْ نَاصِرينَ﴾ وهؤلاء الذين اختاروا طريق الضلالة ليس لهم من ناصرين ينصرونهم من الله إذا أراد عقوبتهم.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

شرح المفردات

جهد أيْمانهم: أي مجتهدين في الحلف مبالغين فيه.

لنبوئنهم في الدنيا حسنة: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة.

وعلى ربهم يتوكلون: أي يفوضون إليه أمرهم ويعتمدون عليه.

مدى قُدْرة اللّه

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الذين لا يعتقدون بحصول البعث مبيناً لهم بطلان رأيهم:

﴿وَأَقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي اقسموا بالله غاية طاقتهم في القسم ﴿لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ أي لا يقع بعث بعد الموت، وهذا استبعاد منهم لحصوله من حيث إن الميت يتحلل جسمه وتفنى عظامه. ويروى في أسباب نزول هذه الآية أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ حَلَفَ عند رجل من المكذبين بالبعث فقال: والذي يرسل الروح من بعد الموت، فقال الملحد: وإنك لتزعم أنك مبعوث من بعد الموت، وأقسم بالله مشدّداً في حلفه مبالغاً فيه: لا يبعث الله من يموت ﴿بَلَى﴾ وهذا رد عليه وعليهم، أي بلى يبعثهم الله ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حقًّا﴾ أي وَعَدَ الله بذلك وعْداً حقاً لا خلف فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم قدرة الله وصفات كماله.

نعم إن كثيراً من الناس على وجه الأرض ينكرون البعث والثواب والعقاب في الآخرة على ما فعلوه في دنياهم وهذا مما أشاع المنكرات والظلم بين الأفراد والجماعات.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي إن الله يبعث كل من يموت من البشر، مؤمنين وكافرين، ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه وليعلم المؤمنون أنهم على حق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِين كَفَرُوا أَنَّهُم كانوا كَاذِبين﴾ وليعلم الكافرون أنهم كاذبون في قسمهم إن الله لا يبعث من يموت.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيءٍ إِذَا أَرَدناهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ في هذه الآية من بيان القدرة الإلهية وجزالة اللفظ وقصر العبارة ما يبهر العقول، ففيها تمثيل لسهولة إيجاد الشيء من الله وسرعة حصوله. وليس المراد أن الله إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون فإنه تعالى ليس بحاجة لذلك. فإذا كان بمقدور الله أن يوجد أي شيء بهذه

السهولة والسرعة التي لا تتصورها العقول فكيف يصعب عليه أن يبعث الموتى أحياء يوم القيامة؟ هذا وقد صوَّر القرآن مبلغ قدرة الله على الخلق والبعث في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال الله سبحانه: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثناء من اللّه على المهاجرين في سبيله

ولمّا كان المشركون قد اضطهدوا المسلمين حتى ألجأوهم إلى الهجرة من ديارهم بيّن الله ما أعد للمهاجرين من خير في الدنيا وثواب في الآخرة فقال:

﴿وَالَّذِين هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي والذين فارقوا قومهم ومنازلهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لنيل الأجر من الله، واكتساباً لرضائه من بعد ما نالهم الأذى من الكفار ﴿لَنُبَوِّئَنَّهم في الدُّنيَا حَسَنَةً﴾ لنرزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً، ولنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها.

هذه الآية تبين معجزة من معجزات القرآن في حصول أمر غيبي تحقق بعد فترة وجيزة من الزمن، فبعد هجرة المسلمين من مكة بسبب ما نالهم من ظلم حصل أن استقبلهم إخوانهم المسلمون في المدينة المنورة خير استقبال، وتقاسموا وإياهم السكن والأموال، كما أنّ المهاجرين إلى الحبشة لقوا الترحاب والضيافة والحماية من مليكها. كذلك يفهم من الآية انتصار المسلمين على عدوهم وهذا ما تحقق فعلاً ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وهذه بشرى أيضاً للمهاجرين بأن جزاء أعمالهم في الآخرة أفضل مما سيحصلون عليه في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون ما سينالون من خير لكان صبرهم أشد، ولما تألموا لِمَا أصابهم من آلام الهجرة ومشاقها.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهم يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهؤلاء المهاجرون هم الذين صبروا على تحمّل العذاب في سبيل الله وفوضوا أمرهم إلى الله وحده، وعليه كانوا يعتمدون في أن يصرف عنهم أذى الكفار واضطهادهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا
تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ
ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ
يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ
ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ
وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾

شرح المفردات

أهل الذكر: العلماء بالتوراة والإنجيل.

بالبينات: بالحجج والبراهين الواضحات.

والزبر: الكتب السماوية.

الذكر: القرآن.

مكروا السيئات: عملوا السيئات بمكر وخبث.

أن يخسف الله بهم الأرض: أي يجعل الله الأرض تنشق وتبتلعهم.

في تقلّبهم: أي في أسفارهم للتجارة.

فما هم بمعجزين: فليسوا بممتنعين على الله وليس الله عاجزاً عن معاقبتهم.

على تخوّف: متخوفين متوقعين للهلاك.

يتفيأ ظلاله: تميل ظلاله وتنتقل من جانب إلى آخر.

سجّداً لله: خاضعين له.

داخرون: منقادون له صاغرون خاضعون.

حقيقة النبوة وإنذار للكافرين

ثم ينتقل القرآن إلى دحض شبهة أثارها منكرو النبوة وهي قولهم: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله إلى خلقه من البشر بل يجب أن يكون من الملائكة، وهنا يأتي الردّ عليهم بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجالاً نُوحي إلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى أيِّ أُمة من الأمم رسُلاً منَّا يدعونهم إلى عبادتنا وحدنا وطاعتنا إلاّ كانوا رجالاً من بني آدم نُوحي إليهم بالشريعة التي يجب أن يأخذوا بها ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾ فاسألوا علماء التوراة والإنجيل ليخبروكم أن الله ما أرسل إلى الأمم السابقة رسلاً إلاّ كانوا بشراً لا ملائكة إن كنتم لا تعلمون ذلك. وأرسلنا الرسل ﴿بالبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين الشاهدة على نبوتهم ﴿والزُّبُر﴾ أي وأنزلنا عليهم الكتب السماوية التي فيها الشرائع التي بلّغوها إلى قومهم ﴿وَأَنْزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ والذكر: هو القرآن. أي وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن تذكيراً للناس وعظة لهم ﴿لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ﴾ لتبين للناس كافة ما يشتمل عليه القرآن من العقائد والشرائع وما التبس عليهم من الأحكام ﴿وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ﴾ وليتأملوا ما يحتويه القرآن من الحقائق والعبر فيتعظوا به.

ولنقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون﴾ ففيه دعوة للتفكر بما يحتويه القرآن من آداب وأحكام ومعاملات للوقوف على أسرارها ومنافعها فيكون إيمان المسلمين بدينهم أصلب لا تزعزعه الشبهات والأباطيل وليكون ذلك أطوع للعمل بما فيه وعدم استبداله بالشرائع الوضعية.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِين مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي هل أَمِنَ كفار مكة الذين دبروا الشر خفية لرسول الله وتآمروا لقتله، وسعوا في إيذاء صحابته، ودبروا المؤامرات للقضاء على الإسلام؟ هل أغراهم حلم الله بهم، فاعتقدوا أنهم في مأمن من عذاب الله كما أصاب قبلهم المكذبين للرسل؟ والاستفهام في الآية بمعنى الإنكار أي يجب أن لا يأمنوا من عذاب الله، ثم هددهم الله بأربعة أنواع من العذاب:

أولاً: ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ أي أن يغوّر الله بهم الأرض فيصبحوا في جوفها كما خسف الله بقارون الذي اغتر بمالِهِ وبغى على قومه.

ثانياً: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأتيهم العذاب فجأة فيهلكوا كما فعل الله بقوم لوط.

ثالثاً: ﴿أو يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِم﴾ أو يهلكهم الله وهم في أسفارهم، أو في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم في الليل والنهار ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فلا يستطيعون الإفلات من عقاب الله، لأنه لا يعجزه شيء يريده.

رابعاً: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُم عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أو ينزل بهم العذاب في أنفسهم وأموالهم قليلاً قليلاً وهم في كل لحظة في عذاب من الخوف حتى يأتي الفناء عليهم جميعاً، أو بمعنى: أو يأخذ العذاب طائفة فتخاف التي تليها أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها ﴿فَإِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يعجل الله عقوبتكم بل يمهلكم رأفة منه ورحمة بكم مع استحقاقكم لعقوبته.

﴿أَوَلَمْ يَرَوا إلى مَا خَلَقَ اللَّه مِن شَيءٍ﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم ينظروا إلى ما خَلَقَ الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال والأبنية ونحوها ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ﴾ والفيء هو الرجوع، فتفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار إلى غير الجهة التي كانت عليها ﴿عَنِ اليَمينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ وهذه الظلال تمتد تارة يميناً وتارة شمالاً تابعة في ذلك حركة الشمس نهاراً والقمر ليلاً، ففي أول النهار يكون الظل على حال ثم يتقلص الظل وقت زوال الشمس ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار ﴿سُجّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهذه الظلال مستسلمة خاضعة للّه ومنقادة لأمره وهم صاغرون أذلاء.

وقد جعلت الظلال ساجدة لله إما لكونها منقادة لإرادته خاضعة لتدبيره أو لكونها واقعة على الأرض متلصقة بها على هيئة الساجدين، ولما كانت هيئة الظلال شبيهة بهيئة الساجدين أطلق عليها لفظ السجود على سبيل الاستعارة، والسجود ليس خاصاً بالظلال بل كل ما في الكون يسجد لله وهذا ما ذكرته الآية الكريمة عقب ذلك:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ مِنْ دَابَّـةٍ والملائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَـكْبِرُونَ﴾ أي ولله يخضع ما في السماوات وما في الأرض مما يدب عليها من الحيوانات التي تشمل الإنسان، وكذلك تسجد الملائكة الذين في السماء وهم لا يستكبرون عن عبادة الله والخضوع له. فسجود المؤمنين والملائكة لله تعالى سجود طاعة وعبادة، وسجود غيرهم سجود خضوع وتسخير بمعنى أنها لا تستطيع أن تستعصي على ما يريد الله منها.

ولنقف أمام قوله تعالى: **﴿وَلِلَّه يَسْجدُ ما في السَّمٰوات ومَا في الأرض مِنْ دابة﴾** فالقرآن يشير إلى وجود كائنات حية في السماوات وهذا ما يحاول العلماء كشفه ولا ندري هل يوفقون في ذلك أم لا، والمحاولات مستمرة لسبر هذا السر العظيم الذي كشف عنه القرآن.

ثم يتبع الله الآية السابقة بقوله: **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِنْ فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾** أي يخاف هؤلاء الملائكة ربهم الذي هو فوقهم بالقهر إن هم عصوه ويفعلون ما يأمرهم به.

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ
إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ
يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

شرح المفردات

فارهبون: فخافونِ واخشوا عقابي إن خالفتم أمري.

له الدين: وله الطاعة والانقياد أو الجزاء.

واصباً: واجباً لازماً.

الضر: الفقر والمرض.

تجأرون: تتضرعون ليكشف عنكم الضر.

تقرير وحدانية الله

بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة خضوع جميع الكائنات له أتبع ذلك بالنهي عن اتخاذ شريك له بقوله:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي وقال الله لعباده لا تتخذوا لي شريكاً ولا تعبدوا إلَهين اثنين إنما أنا إله واحد ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾فإياي فاتقوني وخافوا عقابي إن عصيتموني وعبدتم غيري.

وقد كان الشرك شائعاً قبل الإسلام عند كثير من الأمم، كما كان المشركون العرب يعترفون بألوهية الله ولكنهم كانوا يتخذون معه شركاء من الأصنام يعبدونها لتقربهم إلى الله.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾ وله سبحانه ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً فهو الذي خلق الخلق وهو الذي يتصرف بهم كما يريد ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ وله الطاعة والانقياد والجزاء ثابتاً واجباً ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ هنا استفهام على سبيل التعجب، والمعنى: إنكم بعدما عرفتم أن إلَه العالم واحد، وأن كل ما في السماوات والأرض يخضع لله وأن الطاعة واجبة له، وأن الجزاء له وحده يوم القيامة، أفبعد العلم بهذا كله كيف يعقل أن يكون للإنسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة.

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وما أحاط بكم ـ أيها الناس ـ من نعمة في أبدانكم من عافية وصحة، وفي أموالكم من نماء ووفرة، فالله هو المنعم بها عليكم والمتفضل بها وحده دون سواه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي إذا مسكم المرض والبلاء والحاجة وكل ما تتضررون به ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي فإلى الله تتضرعون في كشف الضر عنكم ولا تلجأون إلى غيره.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ ثم إذا رفع عنكم ما أصابكم من الضر كالمرض

في أبدانكم، والشدة في معاشكم، وَفَرَّج البلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنكُم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ﴾ أي ينسى بعضكم حق الله عليه بعبادته وحده فيجعلون له شريكاً ويعبدون معه غيره.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾[١] أي ذلك يحدث منهم لتكون عاقبة أمرهم إنكار فضلنا عليهم ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فتمتعوا في هذه الدنيا إلى انتهاء آجالكم فسوف تعلمون عاجلاً أو آجلاً عاقبة أمركم حين ينزل بكم العذاب الشديد جزاء كفركم، وهذا وعيد من الله وتهديد لهم.

ويفهم مما سبق أن الناس عند كشف الضر عنهم ينقسمون إلى فريقين: فريق يبقى على مثل ما ظهر منه حال الضر من الالتجاء إلى الله فلا يغير موقفه هذا عند كشف البلاء، وفريق يتغير حالهم فيشركون بالله عند كشف البلاء، وهذا غاية الجهل والضلالة، لأنه لما شهدت الفطرة الإنسانية عند نزول البلاء والضر بأنه لا ملجأ إلاّ الله فعند زوال البلاء يجب أن يستمر الإنسان في صلته بربه ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.

(١) ليكفروا: اللام الداخلة على يكفروا هي لام العاقبة والصيرورة.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ
فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ
ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

تالله : قسم بالله .

تفترون : تختلقون من الأكاذيب .

مسوداً : المراد من اسوداده كآبته وظهورالغم عليه .

كظيم : ممتلىء غيظاً .

أيمسكه على هون : ايبقيه عنده على هوان؟

يدسه بالتراب : يخفيه ويدفنه فيه .

مثل السوء : الصفة القبيحة .

من ضلالات المشركين وقبح أعمالهم

ويتابع القرآن الكلام على المشركين فيذكر بعض ضلالاتهم :

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُون نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ أي أن المشركين حين يكشف الله الضر عنهم بعد تضرعهم إليه يعودون فجأة إلى الشرك ويجعلون لأصنامهم التي لا يعلمون حقيقتها ومدى خسّتها، أو يسمونها بغير علم آلهة، يجعلون لها نصيباً مما أعطاهم الله من الزروع والأنعام وسائر الأرزاق تقرباً إليها **﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُم تَفْتَرُونَ﴾** أقسم الله بذاته الكريمة أنه سيسألهم يوم القيامة عن الذي اختلقوه من الكذب بأن الأصنام هي آلهة جديرة بالتقرّب إليها واستحقاقها للعبادة مع الله، والسؤال هنا سؤال تقريع وتوبيخ .

﴿وَيَجْعَلُون لِلَّهِ البَنَاتِ﴾ ومن جهل المشركين وتفاهة عقولهم أنهم جعلوا

الملائكة بنات الله، وهذا ما كان يقول به بعض القبائل العربية كقبيلة خزاعة وقبيلة كنانة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن هذا الزعم الفاسد ﴿وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ﴾ ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين وهم الذكور. فهؤلاء المشركون يكرهون أن يُرزقوا بالبنات فكيف يرضون أن ينسبوهنّ إلى الله، ويختاروا لأنفسهم أفضل مما يختارون لربهم، في حين أن الله منزّه عن الولد ذكراً كان أم أنثى.

ويصوّر الله كره المشركين للبنات بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بولادة أنثى له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي صار وجهه قاتم اللون كأنما علاه السواد من شدة الغم والكرب والحزن ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهو ممتلىء غيظاً وغضباً ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ يحاول الاختفاء عن أعين الناس لئلا يروا كآبته من الألم الذي أصابه بسبب ما بُشّر به من ولادة الأنثى ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي أيُبقي هذا المولود الأنثى حيّاً فلا يقتله وهو يشعر بالمهانة فلا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يئد ابنته هذه وذلك بأن يدفنها في التراب وهي على قيد الحياة ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ألا قَبُحَ حكمهم بوأد بناتهم، وقبح حكمهم حين ادعوا أن الملائكة بنات الله.

وقد كان وأد البنات موجوداً عند العرب فحرّمه الإسلام أشد التحريم وأوعد عليه بالعذاب يوم القيامة.

وقد كان سبب كره العرب للإناث أن البنات لا يقاتلن في الحروب، ولا يكسبن المال، وقد يقعن في السبي من جراء الغارات المستمرة المتبادلة عندهم فيجلبن لأهليهن العار، ولأنهن يعشن عبئاً على أهليهن ويتسببن في فقرهم كما يزعمون، أما بخصوص مسألة الفقر فقد جاء الخطاب في القرآن لهؤلاء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

هذه صور من الهمجية التي كانت عند بعض العرب قبل الإسلام فجاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها ضمن مخطط الإصلاح العام لكل المساوىء التي كانت عندهم. فالأنثى نفس إنسانية تقوم عليها حياة الناس جميعاً، لأن الناس يولدون من

ذكر وأنثى، فإهانتها إهانة للجنس البشري بمجمله ووأدها قضاء على النسل البشري.

﴿للذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ﴾ أي للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي صفة القبح المشتملة على كراهتم للإناث ووأدهن خشية الفقر ووصفهم لله بأن له البنات ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأعْلَى﴾ ولله سبحانه أعلى الصفات من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم الواسع وغير ذلك من صفات الكمال ﴿وَهُوَ العَزِيز الحَكِيمُ﴾ والله سبحانه هو القوي الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ، الحكيم في أفعاله وتدبيره لخلقه.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

شرح المفردات

يؤخرهم إلى أجل مسمى: أي يؤخر الله موتهم إلى وقت حدّده لذلك فلا يموتون قبله.

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون: لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل وقت ولا يتقدمون عنه.

ويجعلون لله ما يكرهون: أي ينسبون إليه البنات التي يكرهونها لأنفسهم.

أن لهم الحسنى: أن لهم العاقبة الحسنى في الآخرة.

لا جرم: حقاً أو لا محالة.

مفرطون: مقدّمون ومعجل بهم إلى النار.

زُيِّن: حسَّن.

وليهم: متولّي إغوائهم.

حلم الله على الظالمين

ثم ينتقل القرآن إلى بيان حلم الله على الناس وأنه سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة بسبب ظلمهم:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي لو يعاقب الله الكفار على معاصيهم وكفرهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرهُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولكن الله يمهلهم إلى وقت معين فلا يعاجلهم بالعقوبة لعلَّهم يطيعون ربهم وينجون من عذابه ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم﴾ فإذا جاء الوقت الذي عينه الله لهلاكهم ﴿لا يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل وقت، ولا يتقدم عذابهم عن الوقت المحدد لهم. والتعبير عنه بالساعة لأنها في لغة العرب مَثَلٌ في القلّة، وليس المراد بها الساعة المعروفة عندنا والمقدّرة بستين دقيقة لأن ذلك اصطلاحٌ مستحدثٌ.

﴿وَيَجْعَلُون لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ وينسبون إلى الله سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات حيث يقولون: الملائكة بنات الله، وهو تكرار لما تقدم زيادة في توبيخهم ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُم الْكَذِبَ﴾ وتقول ألسنتهم الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي حقاً إن لهؤلاء الذين يفترون الكذب عذاب النار يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُم مُفْرَطُونَ﴾ وأنهم مقدمون إلى النار معجَّلون للوصول إليها، أو بمعنى: منسيّون متروكون في النار.

ضلال الأمم السابقة

ثم يبين الله لرسوله محمد ﷺ أحوال الأمم السابقة وما كانوا عليه من ضلال:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يقسم الله بنفسه العليّة بأنه أرسل قبل محمد رسلاً إلى قومهم يدعونهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وطاعته وعدم اتخاذ شريك له ونبذ عبادة الأصنام ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم﴾ فحسّن الشيطان

لهذه الأمم ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ فهو متولي إغوائهم في العصر الذي كانوا يعيشون فيه، أو ناصرهم في الدنيا على زعمهم، ويحتمل أن يكون المراد يوم القيامة، وهو تهكم بهم ونفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه لأن الشيطان ليس بمقدوره نصرة أحد ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اخْتَلفُوا فِيهِ﴾ المراد بالكتاب القرآن. أي وما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من الدين كوحدانية الله والحلال والحرام وسائر الأحكام الشرعية ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وليكون هداية تامة ورحمة عامة لقوم يؤمنون بالله، وبالقرآن الذي أنزلناه عليك.

ولقد طال الزمن على الكتب السماوية السابقة وتناولتها الأيدي بالتبديل والتحريف، وبلغت الاختلافات الدينية مبلغاً كبيراً أدت إلى صراعات دامية، ودخل الشك إلى قلوب أتباع الديانات حول كتب الدّين التي بين أيديهم، وأصبح العالم في حاجة إلى وحي من الله يجنبه مواطن الضلال ويبين له الحق من الباطل، فأرسل الله رسوله محمداً إلى الناس جميعاً وأنزل عليه القرآن ليظهر لهم ما أشكل عليهم من أمر الدين.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

شرح المفردات

أنزل من السماء ماء: أي أنزل من السحاب ماء، وكل ما علاك يطلق عليه سماء.

بعد موتها: بعد يبسها وجفافها.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز.

فرث: ما في الكرش من فضلات الطعام.

سائغاً: سهل البلع في الحلق لا يغص به شاربه.

سكراً: العصير الحلو الحلال.

رزقاً حسناً: جميع ما يؤكل طازجاً غير متخمر من التمر والعنب.

من الدلائل على وجود الله ووحدانيته

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الأنظار إلى بعض مظاهر قدرة الله التي تشهد بوحدانيته وفضله على الناس:

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والله سبحانه أنزل من السحاب مطراً **﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** أي فأحيا الأرض بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة فيها **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾** إن في ذلك دليلاً على وجود مدبر حكيم لقوم يسمعون فيتدبرونه ويعقلونه.

فالأرض المجدبة الخالية من الماء هي كالميتة لا تنبت شجراً ولا نباتاً ويهجرها الحيوان والطير ولكن بعد نزول المطر تدب الحياة في أرجائها بأنواع الزرع والنبات ويقصدها الحيوان ليرعى من نباتها.

وبعد أن بيّن الله تأثير الماء في إحياء الأرض دعا الناس إلى التأمل في الأنعام التي يشرب الناس من ألبانها: ﴿وَإِنَّ لَكُم فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإن لكم أيها الناس في الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز لموعظة تتعظون بها حيث ﴿نُسْقِيكم مِمَّا في بطونه مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ والفرث هي الفضلات التي تخرج من الحيوان وتسمى الروث. أي نسقيكم من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبناً خالصاً صافياً ﴿سَائِغاً للشَّارِبينَ﴾ أي سهلاً يجري في الحلق لا يغص به شاربه.

نعم إن في تكوّن اللبن لعبرة تشهد بوجود خالق حكيم، ففي ضروع[1] الماشية توجد غدد خاصة لإفراز اللبن، هذه الغدد تمدها الأوعية الشريانية بخليط مكوّن من الدم والكيلوز. والكيلوز هذا عبارة عن الغذاء المهضوم من النبات قبل أن يصبح فرثاً. وبديهي أن كلاً من الدم والكيلوز غير مستساغ طعماً، ولكن تقوم الغدد اللبنية باستخلاص هذين السائلين، كما تضيف إليهما عصارات خاصة تحولها جميعاً إلى اللبن الخالص، فلا ترى في بياضه حمرة الدم، ولا في طعمه أثراً لطعوم الأعلاف والدماء والفرث، ولا تحس برائحة كريهة من هذه الروائح التي احتبست في أجوافها، بل تجده لبناً سائغاً للشاربين.

ويحتوي اللبن على نسبة مرتفعة من البروتين الغني بالكبريت والكلسيوم وبعض الفيتامينات مما يجعل اللبن أهم غذاء للنمو وسلامة العظام والأسنان لاحتياجها للكلسيوم، كما أن اللبن عامل فعال للوقاية من ترقق العظم. وإذا كان الشعر يتساقط بسبب نقص الكلسيوم فإن شرب اللبن دواء وعلاج له.

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على الناس بما رزقهم من أنواع الثمار:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ أي ولكم أيضاً عبرة فيما نرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب «جمع عنب» ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ السكر: هو

---

(١) الضروع: جمع ضرع وهو بمنزلة الثدي للمرأة.

العصير الحلو الحلال مما يتخذ من ثمر النخيل والكرم، وسمي سكراً لأنه قد يصير مسكراً إذا تخمر وبقي مدة من الزمن فإذا بلغ حد الإسكار حرم. والرزق الحسن: سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في ذلك لدلالة لمن يستعمل العقل فيستدل بهذه الآية على كمال قدرة الله ووحدانيته وأن لهذه الأشياء خالقاً مدبراً حكيماً.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

شرح المفردات

وأوحى: ألهم.

ومما يعرشون: ومما يبني الناس من الخلايا للنحل.

ذللاً: مذللة لا يصعب عليها ارتيادها.

عظمة الإبداع الإلهي في النحل

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن عظمة القدرة الإلهية المتمثلة بالنحل وما خصه الله بها من إلهام:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ والوحي المراد به هنا الإلهام الذي وضعه الله في الحيوانات والطيور والحشرات وغيرها، وقد كتب العلماء المجلدات الكثيرة عن هذا الإلهام وما تتمتع به هذه المخلوقات من غرائز وأسرار مدهشة. ومعنى الآية: وألهم ربك النحل أن تختار من الجبال بيوتاً في كهوفها ومغاراتها، وتتخذ من الشجر داخل أجواف جذوعها وبين أغصانها بيوتاً أيضاً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ومما يهيئه الناس لها من العرائش والخلايا التي يبنونها لها

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم كلي أيتها النحل بعضاً من كل الثمرات وهو رحيق الأزهار ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ فاذهبي في طرق ربك التي توصلك إلى الحدائق والبساتين مذللة لك الطرق، مسهلاً لك سلوكها، لا يصعب عليك ارتيادها، ولا تضلين عند العودة منها إلى بيوتك وإن بعدت ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يخرج من بطون النحل عسل بعد أن تتناول غذاءها من كل زهور الثمرات المختلفة الألوان، وقد عبّر الله عنه بالشراب لأنه مما يشرب ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لم يعمم الله في لفظ الشفاء إذ لم يقل: فيه الشفاء للناس بل قال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ بتنكير شفاء للتبعيض بمعنى فيه الشفاء لكثير من الأمراض لا كل الأمراض، فقد يشفي العسل مرضاً معيناً ولكنه لا يشفي مرضاً آخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في إلهام ربك إلى النحل وفي صنعها العجيب للعسل لدليلاً قوياً، وحجة واضحة لقوم يتفكرون في عظمة خالقها وبديع إلهامه لها.

من أسرار مجتمع النحل

يعيش النحل في مجتمع يبلغ عدد أفراده عشرة آلاف نحلة على أقل تقدير وقد تضم الخلية ثمانين أو مئة ألف نحلة أحياناً. وينقسم مجتمع النحل إلى ثلاث طبقات:

١ ـ الملكة الأم وهي أم لأفراد مستعمرة النحل كلها وتمتاز عن غيرها بحجمها الكبير، والملكة وحدها تضع البيض ويبلغ مجموع ما تضعه في اليوم الواحد خمسة عشر ألف بيضة وهي تعيش على غذاء خاص يُدعى الهُلام الملكي الذي تنتجه إناث النحل العواقر.

٢ ـ ذكور النحل الذين لا يستطيعون المشاركة في أعمال الخلية المهمة، ومهمتهم الوحيدة النافعة هي إخصاب الملكة.

٣ ـ العاملات وهي تقسم إلى فرق: فهناك فرقة الجانيات التي تجني الرحيق من الأزهار، وهناك فرقة العاسلات التي تتناول الرحيق الذي تأتي به الجانيات وتتداوله لتخميره وتبخير ما فيه من ماء، والعسل لا يعدو أن يكون رحيقاً ازدردته

النحلة وهضمته جزئياً ثم تقيأته، وهناك فرقة المراقبة وهي ملحقة بخدمة الملكة تعنى بنظافتها وتنظم غذاءها لكي تعطي من البيض المقدار الذي تقتضيه الحاجة وتحميها من الأخطار التي تهددها، وهناك فرقة البانيات التي تفرز الشمع من غددها الخاصة وتبني بها مخازن للعسل.

وهناك فرقة التنظيفات التي تنقل إلى خارج الخلية جثث النحل التي يفاجئها الموت داخل الخلية؛ وهناك فرقة الحراسة التي تقف عند مدخل الخلية تتفحص كل مخلوق يدخل الخلية وكل نحلة غريبة عن الخلية وتمنع كل لص طماع كالزنابير ونحوها من الدخول، وهناك فرقة تقوم بالتهوية بأجنحتها لتبريد داخل الخلية عند اشتداد الحر.

كل هذا التنظيم العجيب لمملكة النحل وبناء أقراص العسل من مسدسات متساوية الأضلاع لا خلل فيها لا يمكن للإنسان أن يصنع مثلها إلا بالمساطر والأشكال الهندسية، وفي غدوّ النحل لاقتطاف رحيق الأزهار ورجوعها إلى خلياتها من مسافات بعيدة دون أن تخطئها كل ذلك يعطينا البرهان الساطع على وجود قدرة إلهية حكيمة ألهمت النحل ليعيش على هذا الشكل العجيب. هذا بعض ما اختصرناه عن مملكة النحل ولو أردنا الإسهاب لاحتاج ذلك إلى مجلد.

معجزة القرآن في العسل

فالقرآن يقرر أن الشراب الذي يخرج من بطون النحل ﴿**فيه شفاء للناس**﴾ من بعض أمراضهم وهذه معجزة من معجزات القرآن أثبتها الطب حديثاً.

١ـ فالعسل يحتوي على كثير من الفيتامينات التي لها دور فعال في صحة الجسم بما توفره من نشاط وقوة ووقاية من بعض الأمراض. فهو يحتوي على ڤيتامينات ب١ ـ ب٢ ـ ب٣ ـ ب٦ ـ وڤيتامين ج ـ كما أن العسل يحتوي على كثير من الخمائر، والأحماض العضوية والأملاح المعدنية والأحماض الأمينية التي هي غزيرة الفائدة للإنسان. وللعسل دور فعال للشفاء من الأمراض الآتية:

أمراض الجهاز التنفسي: استعمل العسل في حالات السل الرئوي فساعد على امتصاص الرطوبة، وتهدئة السعال، وخفض سرعة التفل إلى الحد الطبيعي وزيادة الوزن.

ووصف العسل لمعالجة السعال الديكي والتهاب القصبات والشعب، وذات الرئة المزمنة والربو.

فقر الدم: وللعسل تأثير كبير في معالجة فقر الدم بسبب ما يأتي به من زيادة في الكريات الحمراء، ورفع نسبة الخضاب في الدم، وزيادة القابلية للطعام، وزيادة الوزن والحيوية والقوة.

أمراض القلب: لسكر الفواكه وسكر العنب تأثير كبير في تغذية عضلة القلب وإعطائها القوة الحرارية لتستمر في نشاطها وعملها الذي يجب ألا يتوقف، وهما موفوران في العسل، فضلاً عن أن العسل يوسع الأوعية الإكليلية، ويرفع الضغط المنخفض، ويساعد القلب على الشفاء في كثير من الحالات المرضية.

أمراض الكلى: إذا أعطي العسل مع بعض الأدوية الخاصة باضطراب الكلى فإنه يزيد من فائدتها، وينظم انتقال الماء عبر الأغشية الحيوية ويساعد على ضبط توازن الضغط الحلولي (Osmosis).

النزلات الشعبية: يمكن الاعتماد اعتماداً قوياً على العسل في الشفاء التام من النزلات الشعبية كالانفلونزا والكريب، وهو مخفض للحرارة الزائدة ومزيل للعُصيّات الجرثومية من اللوزتين.

أمراض الهضم: وكذلك فإن العسل يكافح الإمساك ويقضي على الجراثيم المضرة في الأمعاء، وينقص الحموضة الزائدة في المعدة، ويفيد في أمراض الكبد.

الجراح والحروق: ثبت أن العسل إذا ضمدت به الجراح، يطهرها من الجراثيم ويساعد على زيادة إفراز مادة الغلوتاثيون (Glutathion) وهي أساسية في عملية الأكسدة والترميم الخلويّ والتجديد فتنمو الخلايا ويلتئم الجرح، كما أنه

يفيد في بعض الأمراض الجلدية، ويطيل فترة شباب الجلد وحيويته ورونقه ويبعد عنه مظاهر الشيخوخة.

الأطفال: فائدة العسل في طب الأطفال تظهر في زيادة الخضاب الدموي (الهيموغلوبين) والتنمية وزيادة الوزن والوقاية من التعفنات المعوية الخاصة والمساعدة على ظهور الأسنان بيسر وعلى نمو العظام وإعطاء الأطفال صحة جيدة ووقاية من المرض، ويمنع من التهابات اللثة، إضافة إلى فوائد أخرى كثيرة للعسل لم نذكرها خوف الإطالة[١].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ
ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أرذل العمر: كبر السن المقرون بالخرف.

ملكت أيمانهم: مماليكهم (أي العبيد).

حفدة: أولاد الأولاد.

فلا تضربوا لله الأمثال: فلا تشبهوا الله بخلقه.

---

(١) نقلاً باختصار عن «الموسوعة في علم النحل» للأستاذ محمد خليل الباشا.

الأعْمَار والأرزاق بيد الله

ويتابع القرآن فيذكر مراحل عمر الإنسان التي يمر بها في دنياه وفقاً لإرادة الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم﴾ والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم من العدم ثم يميتكم بعد انتهاء آجالكم ﴿وَمِنكُم مَنْ يُـرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ﴾ ومنكم من يهرم فيصير إلى أرذل العمر وهو أردؤه حيث تنقص فيه القوى وتضعف الحواس ويكون حال الإنسان فيه كحالته وقت الطفولة من ضعف العقل والقوة ﴿لِكَي لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئاً﴾ ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه فينتابه النسيان وقد يفقد ذاكرته بالتمام فلا يعلم شيئاً ﴿إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي عليم بكل ما يكون، قدير لا يعجزه شيء أراده.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ في الرِّزْقِ﴾ والله سبحانه فضل بعضكم على بعض في الرزق، فهذا غني، وذاك فقير ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا برادِّي رِزْقِهِم عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَهُم فِيه سَوَاءٌ﴾ أي فليس الأسياد بمعطين ما رزقهم الله من المال لعبيدهم المملوكين لهم حتى يصير المال شراكة بينهم بحيث يتساوون في ملكيته والتصرف فيه. فإذا كان هؤلاء الكفار لا يرضون أن يشاركهم عبيدهم في الرزق مع أنهم بشر مثلهم، فكيف جعلوا عباد الله من البشر ومخلوقاته شركاء له في ملكه ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي أيجحدون هذه النعم التي أفاضها الله عليهم ويخصون غيره بالعبادة، مع أن الله الخالق الرزاق لكل شيء في الوجود.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجاً﴾ والله جعل لكم من جنس أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وجعل لكم منهن أولاداً وأولاد أولاد ﴿وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقكم الله من لذيذ المآكل والمشارب ﴿أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أيكفرون بالله الذي شأنه هذا، ويؤمنون بالباطل وهو اعتقادهم بأن أصنامهم تضر وتنفع ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّه هُمْ يَكْفُرونَ﴾ وهم بنعم الله يجحدون حيث يضيفونها إلى غير الله وينسبون موجدها إلى الأصنام والأوثان.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ

﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون من غير الله أوثاناً لا تملك لهم رزقاً من السماوات فلا تقدر على إنزال المطر لإحياء الأرض الميتة فيخرج منها النبات والحبوب والثمار لغذائهم، ولا تقدر على فعل شيء فيه نفع لهم أو ضر ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا لله مثيلاً، ولا تشبهوه بخلقه فإنه ليس له مثيل ولا شبيه ولا تجعلوا مع الله إلٓهاً غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُم لا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم ما كان وما سيكون وأنتم لا تعلمون مقدار عظمته حين جعلتم له شركاء في ملكه، كما أنكم لا تعلمون ما في عبادة غير الله من سوء العاقبة.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

شرح المفردات

ضرب الله مثلاً: أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل.

هل يستوون: المراد أنهم لا يتساوون.

أبكم: لا يقدر على الكلام وهو غالباً لا يسمع.

كَلٌّ على مولاه: عالة وعبء على سيده الذي يتولى أمره.

يوجهه: يبعثه في مهم من الأمر.

الساعة: المراد بها يوم القيامة.

كلمح البصر: النظرة الخاطفة.

مقارنة بين عبادة الله وعبادة الأصنام

ويتابع القرآن فيقدم مثالاً لحال الكافر وآخر لحال المؤمن بقوله تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾ هذا مثل ضربه الله لحال الكافر، رزقه مالاً فلم ينتفع به في خير، ولم يعمل فيه بطاعة الله، فمثله في ذلك كالعبد المملوك الذي لا يملك مالاً ولا يقدر على فعل شيء فهو مسخر بإرادة سيده ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً﴾ وهذا مثل لحال المؤمن بالله فإنه يعمل بطاعة الله وينفق ماله الذي رزقه الله في سبيله في السر والعلانية، فهو حرٌّ في ماله يتصرف فيه كيف يشاء.

وقيل المراد مما سبق أن هذا المثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء وبيده الرزق وهو وحده المتصرف في الكون كيف يشاء، بينما الأوثان هي كالعبد المملوك لا تقدر على شيء فهي عاجزة عن التصرف، فكيف يجعلها المشركون شركاء لله ﴿هَلْ يَسْتَوونَ﴾ أي هل يعقل أن يتساوى الكافر المنغمس بمعاصي الله مع المؤمن المطيع لله؟ أو هل تتساوى الأوثان العاجزة مع الله الخالق الرازق؟ وإذا كانا لا يتساويان فكيف يخص المشركون أوثانهم بالعبادة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الثناء الكامل والشكر التام لله وحده لأنه المستحق للعبادة دون سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون ذلك فهم بجهلهم يجعلون الأوثان شركاء لله في العبادة.

ثم يقدم القرآن مثالاً يوضح فيه فساد ما يعبده المشركون من أصنام:

﴿وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي وذكر الله مثلاً آخر يوضح فيه فساد مساواة المشركين أصنامهم بالله، وهو يظهر في رجلين. **أحدهما**: رجل أبكم أي أخرس أصم يَفهم ولا يُفهِم. وكذلك الأصنام فإنها لا تنطق ولا تَفهم ولا تُفهِم لأنها إمّا من خشب منحوت أو من نحاس مصنوع أو حجر منحوت ﴿لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وهذا الأبكم لا يقدر على شيء لنفسه أو لغيره من جلب نفع أو دفع ضر.

وكذلك الأصنام لا تقدر على شيء لأنها جماد من صنع البشر ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ وهذا الأبكم عالة وعبء على سيده أو من يلي أمره، وكذلك الأصنام هي عالة على من يعبدها، فهي تحتاج إلى من يحملها وينظفها ويخدمها ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لاَ يأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وهذا الأبكم أينما يرسله مولاه في مهمة لا يأت بمنفعة لأنه لا يقدر أن يُعبّر عما في نفسه وعما يريده، وكذلك الصنم لا يعقل ولا ينطق.

أما ثانيهما: فرجل عاقل له رأي صائب وفكر ثاقب وهو سليم الحواس يأمر الناس بالإنصاف والعدل ﴿هَلْ يَسْتوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ﴾ أي هل يتساوى ويتماثل هذا الأبكم الذي لا يأتي بخير مع رجل سديد العقل يدعو إلى الحق والرشاد؟ وإذا كانا لا يتماثلان فكيف يسوي المشركون الصنم الأصم الأبكم العاجز بالله القادر على كل شيء الذي يفيض على عباده الكثير من آثار فضله ورحمته ويأمرهم بالعدل في توحيده وطاعته ﴿وَهُوَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ وهو على طريق مستقيم غير معوج وهو الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى سلوك الطريق المستقيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ والله وحده يعلم ما غاب عن العباد في السماوات والأرض وما خفي عليهم علمه ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وما أمر مجيء يوم القيامة وبعث الناس أحياء بعد مماتهم في السرعة إلاّ كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها بل هو أقرب عند الله في الحقيقة ﴿إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ إن الله عظيم القدرة لا يمتنع عليه شيء أراده.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى
جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ
وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ
سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ
نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

شرح المفردات

لعلّكم تشكرون: لكي تشكروا ربكم.

الطير مسخرات: أي مذلّلات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة.

تستخفّونها: تجدونها خفيفة الحمل.

يوم ظعنكم: يوم رحيلكم.

أوبارها: جمع وبر وهو شعر الإبل.

أشعارها: جمع شعر والمراد به شعر الماعز.

أثاثاً: فُرُشاً وملابس وغطاء وبسطاً وغير ذلك.

متاعاً إلى حين: ما يتمتع وينتفع به إلى وقت انقضاء حاجتكم.

أكناناً: جمع كِنٍّ وهو ما يستتر به ويسكن فيه كالكهوف.

سرابيل: هي الثياب.

سرابيل تقيكم بأسكم: هي ما يلبس في الحروب من دروع وسواها.

تولوا: أعرضوا وأبوا.

نِعَمُ اللَّه على خلقه

بعد أن بين القرآن فساد الشرك باتخاذ الأوثان شركاء لله في العبادة شرع في ذِكْرِ عدد من دلائل قدرة الله وجليل نعمه على عباده التي تستوجب أن يُعبد وحده دون سواه:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُون شَيْئاً﴾ أي أن الله أخرجكم من أرحام أمهاتكم عند الولادة لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿وَجَعَل لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ وجعل لكم حاستي السمع والبصر لكي تحصِّلوا بهما العلم والمعرفة، وجعل لكم الأفئدة لكي تحصلوا العلم وتميزوا بين الخير والشر. والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، والقرآن يجعل القلب بمنزلة العقل لأنه هو السبب المباشر في حياة المخ ونشاطه، فلو توقف القلب عن النبض لتوقف عمل المخ وفارق الإنسان الحياة ﴿لَعَلَّكم تَشْكُرونَ﴾ أي فعلنا ذلك لكم أيها الناس لكي تشكروا الله وتعرفوا فضله عليكم.

هذه الآية صريحة في أن المعرفة تعتمد على السمع والبصر والعقل، فلو أُخِذَ طفل وحبس عن العالم إلا فيما يكفي لحياته من طعام وشراب فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ سن الرجولة فإنه لا ينمو عقله عن عقل الطفولة، بهذا يقول علماء التربية لأن ما يحصله الإنسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل وهذا ما أثبته القرآن. ومما يلفت النظر هو الترتيب الذي ذكرته الآية القرآنية حيث ابتدأت بالسمع ثم بالبصر ثم بالعقل، هذا الترتيب الذي يشهد بعظمة القرآن، فقد أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جداً في حياة الطفل[١]، ثم يليها البصر، أما الفؤاد وهو الإدراك والتمييز فلا يتم إلا بعد ذلك.

ومن الدلائل التي تشهد بوجود الله ووحدانيته:

---

(١) ثبت علمياً أن الطفل يسمع وهو في بطن أمه.

﴿أَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللَّهُ﴾ أي ألم ينظر الناس إلى الطير مذللات للطيران في جو السماء بما زودها الله من أجنحة أوسع من جسمها مكسوة بالريش الخفيف الوزن، وبما زودها من جسم انسيابي، وأكياس هوائية بين الأحشاء متعلقة بالرئتين تمتلىء بالهواء عند الطيران فيخف وزن الجسم، فما يمسكهن في الجوّ إلاّ الله الذي خلق للطير كل هذه العوامل التي تتيح له الطيران في الجو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في ذلك لعلامات ودلالات لقوم يؤمنون بوحدانية الله وعظيم قدرته، وخص القرآن المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالنظر والتدبر دون غيرهم. فالطير وما يكتنف تكوينه من أسرار لا يمكن أن ينشأ صدفة أو عبر تطورات ألوف السنين كما يدعي الماديون الملحدون، بل إن الذي أبدع ذلك هو الله العليم الحكيم.

﴿واللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُـيُوتِكُم سَكَناً﴾ أي الله هو الذي هداكم إلى اتخاذ البيوت لكي تسكنوا فيها ولم يترككم تأوون إلى الغابات. هذا ما يمنّ الله به على الناس، فبيوت السكن تقوم حالياً على عشرات المواد الأولية التي خلقها الله في الأرض وعلى كثير من الصناعات التي ألهم الله الإنسان لإنشائها، وبيوت السكن هي أول ما يتوجه إليه اهتمام الإنسان في بنائها لحاجته الضرورية لها، والناس لكثرة ما ألفوا ذلك غفلوا عن هذه النعمة الجليلة ولم يتوجهوا بالشكر لربهم عليها. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾ أي وجعل الله لكم من جلود الإبل والبقر والغنم بيوتاً كالخيام ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُم﴾ أي تجدونها خفيفة الحمل وقت ترحالكم وسفركم ووقت إقامتكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعارِهَا أَثَاثاً﴾ أي وهداكم الله أن تتخذوا من صوف الغنم ووبر الجمل وشعر الماعز أثاث المنازل من البسط والسجاد والفرش والكساء والغطاء ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ أي تنتفعون بها إلى وقت انقضاء حاجاتكم، أو إلى انتهاء آجالكم.

﴿وَاللَّهُ جَعَل لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ والله جعل لكم من الأشياء التي خلقها كالأشجار والجبال وغيرها ظلالاً تقيكم حرّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَـكُم مِنَ الجِبَالِ

﴿أَكْنَاناً﴾ كما جعل لكم من الجبال ما تسكنون فيه أو تأوون إليه عند الحاجة من المغارات والكهوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ومن نعم الله تعالى أن ألهمكم إلى اتخاذ ملابس من القطن والكتان والصوف تستر أجسامكم وتقيكم حر الشمس وبرد الشتاء، وقد استغنت الآية بذكر الوقاية من الحر عن ذكر الوقاية من البرد لأن العرب تستغني في لغتها كثيراً بذكر أحد المتقابلين عن ذِكرِ الآخر ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كما أرشدكم ربكم أن تصنعوا من الحديد دروعاً تقي أجسام المتقاتلين من ضربات السيوف وطعنات الرماح والسهام ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾. أي كما أنعم الله عليكم بهذه الأشياء فكذلك يتم نعمته عليكم بالدّين القيّم لكي تخضعوا له بالطاعة وتخلصوا له العبادة دون غيره.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ المبينُ﴾ أي فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أُرسلت به من الحق ولم يستجيبوا لك فلا لوم عليك لأنك قد أديت ما أُمرت به وما عليك إلاّ إبلاغ رسالة ربك الواضحة.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثم ينكرونها﴾ أي يعرف المشركون نعم الله عليهم ولكنهم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ﴾ وأكثر أهل مكة كفروا بربهم حين عبدوا غير الله وأعرضوا عن الحق، أما القليل منهم فقد آمنوا بوحدانية الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا
نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ
يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

شرح المفردات

نبعث: نرسل أو نحضر.

أمة: الجماعة العظيمة من الناس تشترك في شيء مميز عن سواها كاللغة مثلاً.

شهيداً: نبياً يشهد على أمته بكفرهم أو إيمانهم.

ولا هم يُستعتبون: ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة.

يُنظرون: يمهلون ويؤخر عذابهم.

وألقوا إلى الله يومئذ السَّلم: استسلموا وخضعوا لحكم الله.

وضلَّ عنهم: وغاب عنهم.

يفترون: يختلقون ويكذبون.

صدّوا: منعوا.

الكتاب: المراد به القرآن.

أحوال المشركين يوم القيامة

ثم تنتقل الآيات إلى وصف أحوال المشركين يوم القيامة وما يلاقونه من عذاب:
﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي واذكر يا محمد للناس يوم القيامة، ونبههم

إلى ما يقع فيه من الأهوال، يوم نحضر من كل أمة نبياً عاش بين أفرادها ليشهد عليها بما أجابوه به إما بالإيمان وإما بالكفر حسبما علمه عن أمته في حياته ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذين كَفرُوا﴾ أي ثم لا يؤذن للذين كفروا بالاعتذار إذ لا عذر لهم يومذاك ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يكلفون بأن يرضوا ربهم بتوبة أو عمل صالح، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ليصلحوا فسادهم السابق في الدنيا، ولكنها دار يحاسب فيها الإنسان على ما عمله في دنياه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذين ظَلَمُوا العَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي وإذا رأى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي عذاب جهنم وطلبوا من الملائكة الموكلين بهم تخفيف العذاب عنهم فلن يخفف عنهم ذلك العذاب ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا هم يمهلون ويؤخرون ليتوبوا إذ لا توبة في الآخرة، ولا تُقبل التوبة إلاّ في الدنيا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذين أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ شركاءهم: هم الذين اتخذهم المشركون شركاء لله من صنم ووثن وآدمي وغير ذلك، وقد أضيفت للذين أشركوا بالله لكونهم هم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿قَالُوا رَبَّنا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أي قال المشركون: ربنا هؤلاء الأرباب الذين كنا نتوجه إليهم بالعبادة متجاوزين عبادتك هم الذين أضلونا وحملونا على عبادتهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فأنطق الله الأصنام والأوثان قائلين لهم: إنكم لكاذبون أيها المشركون، فيما زعمتم أننا شركاء لله كما كذبتم في ادعائكم أننا أضللناكم ودعوناكم إلى عبادتنا ﴿وأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي استسلم المشركون وانقادوا إلى أمر الله وحكمه بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم في آلهتهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وغاب عنهم وبطل ما كانوا يختلقونه من الكذب من أن لِلَّهِ شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم.

﴿الَّذِين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله ومنعوا الناس من الدخول في دينه والتصديق برسوله محمد ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي زادهم الله عذاباً لأجل إضلالهم لغيرهم وصدهم الناس عن دين الله، فوق

العذاب الذي استحقوه لأجل كفرهم وضلالهم ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بسبب استمرارهم على الإفساد في الأرض، وإصرارهم على الضلال.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي واذكر يا محمد يوم القيامة حيث نحضر من كل أمة نبيها الذي عاش بينها في الدنيا وبلغها رسالة الله ليشهد لمن أطاع الله واستجاب له من أمته، وعلى من عصى وأعرض عن دين الله. وهنا تكرار لما سبق من التهديد والوعيد لمن يعرض عن دين الله ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ﴾ وأحضرناك يا محمد يومئذ شهيداً على أمتك تشهد عليهم كما يشهد كل نبي على أمته، أو بمعنى: وجئنا بك يا محمد شهيداً على الأمم بما لاقوا به رسل الله من إيمان وتصديق واتباع لهم أو إنكار وتكذيب على ما أعلمك ربك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ﴾ أي وأنزلنا عليك القرآن يا محمد وفيه بيان لأحكام كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وفيه هداية من الضلال، وبيان الحلال من الحرام، ورحمة لمن صدّق به وعمل بما فِيه من حدود الله، وهو بشرى للمسلمين الذين أطاعوا الله وخضعوا لوحدانيته بجزيل الثواب في الآخرة.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يأمر بالعدل: يأمر بالإنصاف وعدم الظلم.

الإحسان: هو إتقان العمل وإكماله وإيصال الخير إلى الناس، والإحسان ضد الإساءة.

إيتاء ذي القربى: إعطاء ذوي القرابة ما تدعو إليه حاجتهم.

الفحشاء: ما عظم قبحه من الذنوب كالزنا مثلاً.

المنكر: ما أنكره الشرع والعقل وهو يعم جميع المعاصي.

البغي: الطغيان والعدوان والظلم والتجبر على الناس.

يعظكم: الموعظة هي النصح والتذكير بالعواقب فيما يرق له القلب.

صفات الخير وصفات الشر

ويتابع القرآن فيدعو إلى الفضائل التي فيها الخير للإنسان والإنسانية جمعاء:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ فالله سبحانه يأمر بالعدل وهو ضد الجوْر والظلم، لأن الظالم مال عن طريق الحق. فالعدل هو الحكم بالحق وإعطاء كل ذي حق حقه. والعدل يغرس في الإنسان حب الاستقامة والمساواة وإنصاف الغير من نفسه وإنصاف الناس بعضهم بعضاً.

كما يأمر الله بالإحسان وهو الإتيان بالعمل على الوجه الحسن المتقن، ومنه إحسان العبادة وذلك بالقيام بها على الوجه الأفضل وفي هذا يقول رسول الله محمد ﷺ عندما سُئل عن الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وأراد بالإحسان هنا الإشارة إلى المراقبة والإخلاص لله فمن راقب الله حَسُنَ عمله.

كما يأتي الإحسان بمعنى الإنعام على الغير والتفضّل عليه بما يحتاجه من الصدقات. يقول الراغب الأصفهاني: الإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يُعطي المرء ما عليه ويأخذ ما لَهُ، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقلّ ممّا لَـهُ.

ثم يأمر الله بصلة الأقارب بقوله: ﴿وَإِيتَاءِ ذي الْقُرْبَى﴾ أي إعطاء ذوي القرابة في النسب حقهم من الصلة والبر. وصلة الأقارب تكون بإيصال ما أمكن من الخير لهم ودفع ما أمكن من الشرّ عنهم، ومعاونة محتاجهم بالمال، وعيادة مرضاهم وتخفيف آلامهم. والإحسان إلى الأقارب من أعظم الوسائل في نشر المحبة وتوثيق الروابط بين أفراد الأسرة، هذا وقد حذّر رسول الله ﷺ من قطع صِلَة الرَّحم بقوله: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وبعد أن ذكرت الآية الأمور الثلاثة التي أمر الله بها عقب على ذلك بذكر ثلاثة أمور نهى الله عنها:

﴿وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمنكَرِ وَالبَغْيِ﴾ أي وينهى الله عن الفحشاء قولاً وفعلاً والفحشاء تطلق على الذنوب المفرطة في القبح ويغلب إطلاقها على الزنا.

وينهى الله عن المنكر وهو كل فعل أو قول تحكم العقول الصحيحة بقبحه وكل ما أنكره الشرع بالنهي عنه فهو منكر وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها.

وينهى الله عن البغي وهو الظلم والتطاول على الناس واغتصاب حقوقهم واحتقارهم والعجب والخيلاء.

ويختم الله هذه الآية بقوله ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ أي ينصحكم الله أيها الناس بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه لتتذكروا فضله في حسن توجيهكم إلى الخير وإبعادكم عن الشر وتعملوا بما جاء بها.

هذه الآية على إيجازها بينت أعظم ما يحتاج إليه الناس لسلامتهم وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم حيث أوضحت لهم الخير من الشر، وميّزت الحق من الباطل وأنارت لهم طريق الهدى، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشرّ، ولو لم يكن فيه غيرها لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى.

ولعظيم مكانة هذه الآية الكريمة اختار الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يختم بها الخطبة الثانية من يوم الجمعة، وما زال متبعاً حتى يومنا هذا.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ
ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ
أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى
مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

وأوْفوا بعهد الله: العهد ما ألزم الإنسان به نفسه أو ألزمه به غيره ووافق عليه، وعهد الله يدخل فيه المبايعة على الإسلام.

ولا تنقضوا الأيْمان: ولا تنقضوا العهود التي تحلفون بالله عليها عند عقدها.

بعد توكيدها: بعد توثيقها.

كفيلاً: شاهداً أو رقيباً بالوفاء.

نقضت غزلها: حلّته بعد فتله وإحكامه.

من بعد قوّة: من بعد إبرام وإحكام فتل.

أنكاثاً: جمع نِكْث وهو الصوف بعد حله.

دخلاً بينكم: فساداً ومكراً وخديعة.

أربى من أمة: أكثر وأوفر عدداً.

إنّما يبلوكم الله به: إنما يختبركم الله هل تفون بعهودكم.

الدعوة إلى الوفاء بالعهود

ثم ينتقل القرآن إلى دعوة المؤمنين للوفاء بالعهود سواء بينهم وبين ربهم أو بينهم وبين الناس:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُّمْ﴾ فالأمر في الآية شامل للوفاء بكل عهد التزم به

صاحبه. فالعهد هو ما يجري بين طرفين من التزام متبادل بأن يقوم كل منهما لصاحبه بعمل نظير قيام الآخر له بما يقابله، وأكثر ما يجري ذلك مصحوباً باليمين بالله، أو إشهاد الله على ما يصنعون، أو إضافة العهد لله بقولهم: هذا عهد الله، ولذا عبّر الله عن العهد بقوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وإضافة العهد إلى الله تنويه بشأنه وتعظيم لخطره وأهميته.

ومن أهم العهود عهد البيعة على الإسلام، فقد كان المسلمون يعاهدون رسول الله على الجهاد والإسلام، ويبسط كلٌّ يده اليمنى مع الحلف بالله، مشهدين الله على الوفاء بالعهد وفي هذا نزلت الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠].

ويتابع القرآن فينهى عن نقض العهود: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي ولا تنقضوا العهود وتحنثوا في الأيمان التي حلفتم بها عند العهود أو عند المبايعة ﴿بَعْدَ توكيدِهَا﴾ أي بعد توثيقها وتأكيدها باسم الله، وتوكيد اليمين هو أن يحلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً﴾ وقد جعلتم الله شاهداً ورقيباً عليكم بالوفاء بالعهد.

وهنا يلفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أنهم دخلوا في كفالة الله وضمانته ليكتسبوا به الثقة فلا يجوز لهم أن يخونوا هذه الثقة ويغدروا بمن عاهدوه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي إن الله يعلم أتبرّون في العهود أم تنقضونها وسيجازيكم حسب أعمالكم.

هذا وإن الإنسان الذي يُعرف بالوفاء بما تعهّد به تجد كل مصالحه ميسّرة، ولا يكاد يدخل في معاملة إلا ويتسابق الناس إلى ترجيحه، وتفضيله على سواه، أما من عُرِف بالغدر فإنه يحرم نفسه من ثقة الناس فينبذه المجتمع، وبالتالي تتوقف مصالحه.

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ أي ولا تكونوا في نقضكم للعهود كالمرأة الحمقاء التي تغزل غزلها قوياً متماسكاً ثم تنقضه من بعد إحكام له وإبرام (أنكاثاً) وهو الغزل إذا تفككت طاقاته وعراه وذلك بفك أجزائه بعضها عن بعض ونفشها لتعاود غزله من جديد وتلك حماقة لا تعدلها حماقة، ويراد من هذا التشبيه التنفير من نقض العهود بتمثيل ناقض العهد بحال هذه المرأة المعتوهة. هذا وإن التي نقضت غزلها قيل هي امرأة من قريش كانت تسمى ريطة وكانت حمقاء تغزل الغزل هي وجواريها فإذا أبرمته أمرتهن بنقض ما غزلن، فضرب بها المثل في الحمق ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها لمن عاهدتموه وسيلة للغدر والخيانة والغش، وكان من حقها عليكم أن تكون سبيلاً إلى الوفاء والالتزام بما عاهدتم الله عليه ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي لا تنقضوا العهود طمعاً في التحالف مع جماعة أكثر عدداً وأوفر مالاً من الجماعة التي حالفتموها وعقدتم العهد معها. وهكذا كانت تفعل قبيلة قريش فكانوا ينقضون العهود مع حلفائهم ويحالفون أعداءهم إذا ما رأوا فيهم قوة ومنعة. كما أن في الآية تحذيراً مبطناً للمؤمنين من أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه من الثبات على الإسلام وينضموا إلى قريش ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي إنما يختبركم الله بالوفاء بالعهد ليظهر ما تضمرونه من غدر أو وفاء ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ مَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وليبين الله لكم يوم القيامة حقيقة ما كنتم تختلفون عليه في الدنيا ويجازيكم حسب أعمالكم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ولو شاء الله لجعلكم جماعة واحدة وأهل ملة واحدة وهي ملة الإسلام لا تختلفون ولا تفترقون. هذه الآية تفيد على أنه لا يُكره أحدٌ على أن يكون مسلماً، لأن اختلاف الناس في المعتقدات الدينية هو من طبيعة البشر التي تختلف عقولها في تقبل الحقائق ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ولكن الله جعلكم أهل ملل شتى، وجعل لكم عقولاً لتميزوا بين الخير والشر، وبين الخطأ والصواب، فمن اختار الضلال على الهدى وشهوات الدنيا على

طاعة ربه تركه الله وما يريد، ومن اختار رضا الله بالعمل الصالح فسار على طريق الهدى وفقه الله لذلك ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ وستسألون جميعاً أيها الناس يوم القيامة عن جميع أعمالكم في الدنيا لينال كل إنسان جزاء عمله ثواباً أو عقاباً.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

شرح المفردات

دَخَلاً بينكم: الدخل هو الغدر والمكر والخديعة.

فتزل قَدَمٌ بعد ثبوتها: زَلل القدم يكنى به عن الوقوع في البلاء والمحنة بعد العافية.

السوء: المكروه.

بما صددتم عن سبيل الله: بسبب إعراضكم عن أحكام دينه.

التحذير من نقض العهود وبيان ثمرة العمل الصالح

ويتابع القرآن فيحذِّر المؤمنين من نقض العهود التي أبرموها مع غيرهم.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُم دَخَلاً بَيْنَكُم﴾ أي ولا تتخذوا العهود التي تقسمون على الوفاء بها خديعة ومكراً تغرون بها الناس، كرّر القرآن الآية تأكيداً على الوفاء بالعهد، وقد يراد من هذه الآية نهي خاص عن نقض العهد موجه إلى الذين بايعوا رسول الله على الإسلام ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ وهنا استعارة لمن كان مستقيماً

ووقع في الضلال وسقط فيه لأن القدم إذا زلت أدت بصاحبها إلى الوقوع في البلاء والمحنة، والمعنى المراد: أي إذا نكثتم بالعهود تزل أقدامكم عن شريعة الإسلام بعد ثبوتها عليه ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتذوقوا العذاب السيىء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً بسبب إعراضكم عن دين الله، أو بما تسببتم فيه من إعراض غيركم عن سبيل الله، وسبيل الله هو صراطه المستقيم، وشرعه الذي شرعه للعالمين. وإنما سمّى القرآن نقض العهد صدًّا عن سبيل الله لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له ثقة بدين الإسلام، فيصده ذلك عن الدخول فيه ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكم يا من تنقضون العهد عذاب شديد في الآخرة لا يعلم مداه إلاّ الله، وتنكير العذاب مع وصفه بالعِظم هو لتهويل أمره وبيان شدته.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله مقابل مبلغ من المال لنقض العهد والارتداد عن الإسلام، وهو ما كان يفعله كفار قبيلة قريش مع بعض المؤمنين الذين عاهدوا رسول الله محمداً ﷺ على الإسلام، فكانوا يغرونهم بالمال ليرتدوا عن الإسلام، والحكم هنا عام في كل الأزمان للذين ينقضون العهد بسبب إغراءات مالية معينة ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي إن ما عند الله من الأجر والثواب هو خير لكم من هذا الثمن القليل الذي يعدونكم به لإغرائكم بنقض العهود ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم الذين يعرفون قيم الأشياء على حقيقتها.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ما تملكونه أيها الناس من متاع الدنيا ينتهي ويفنى مهما طال به الأمد، وما عند الله من الثواب للمطيعين لله فهو الباقي الدائم فاحرصوا على الباقي الذي لا يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ وليثيبنَّ الله الصابرين على طاعتهم لله، والصابرون هم الذين ضبطوا أنفسهم فلم تخدعهم الدنيا وزخارفها، ولم يميلوا عن دينهم لأجلها ولم يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أنه سبحانه سيجزيهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم كما قال

سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] أو بمعنى أن الله سيعطيهم الأجر الجزيل جزاء الأدنى من أعمالهم كعطائه لهم الأجر الجزيل على الأعلى من أعمالهم تفضلاً منه وكرماً.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحيينَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فالله يحث المؤمنين والمؤمنات على العمل الصالح مبيناً لهم ما ينشأ عنه من حياة طيبة هنيئة، والحياة الطيبة هي الحياة السعيدة التي لا تنغيص فيها حيث ينعم أصحابها بالسعة في المال والبركة في الصحة والعيال والرزق والحلال والقناعة والمعرفة بالله وحلاوة طاعته ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي يعمل العمل الصالح وهو مصدق بالله ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لأمره.

هذا وإن المؤمن الذي يعمل العمل الصالح تطيب حياته مهما صادفه من مصاعب وأهوال لأنه يدرك أن ما يصيبه من مصائب هو بقضاء ربه، وأنه سبحانه لا يفعل ذلك إلاّ لحكمة، فبذلك يخف عليه وقع المصيبة ويجد فيها خيراً إذ يرى في ذلك تكفيراً عن سيئاته كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ. وإن من شأن المؤمن القناعة والزهد في لذائذ الدنيا والرضى بما قسم الله له، وهذه الأشياء تطيب بها الحياة، وإن المرء مهما كبرت ثروته إذا لم يرزق القناعة والرضى بما أُوتي فإنه يظل منغص العيش أبداً.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليجزينهم الله في الآخرة جزاء موافقاً لأحسن أعمالهم. وقد ذكر الجزاء في الآية السابقة خاصاً بالصابرين، وهنا ذُكِرَ عامًّا لكل من يعمل عملاً خالصاً لوجه الله، فلا تكرار في الآيات حيث اختلف المقصود في كل منهما.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ
وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن
رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ
نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فاستعذ بالله: فاعتصم بالله والتجىء إليه.

الرجيم: المطرود من رحمة الله.

سلطان: تسلّط وولاية.

يتولّونه: يتخذونه ولياً مطاعاً.

مفتر: مختلق وكاذب.

روح القدس: هو الملك جبريل.

يلحدون إليه: يميلون إليه وينسبون إليه أنه يعلّمه.

أعجمي: هو الذي في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي، والعجمة هي اللكنة وعدم الإفصاح في الكلام.

تجنب وساوس الشيطان

وبعد أن بَيَّن القرآن ما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من حياة طيبة دعا إلى ما يصون العمل الصالح من شوائب، منها تجنب وساوس الشيطان.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي فإذا شرعت في قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله، فقل قبل القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقراءة القرآن من الأعمال الصالحة، وتخصيص قراءة القرآن بالاستعاذة تنبيه على أنها مستحبة لسائر الأعمال الصالحة عند الشروع بها لأنها قد يشوبها السمعة والرياء وحب الظهور والمكانة عند الناس، وهذه أمور من وساوس الشيطان، بينما الأعمال الصالحة لا يقبلها الله ولا يثيب فاعلها إلا إذا كانت عن إخلاص يبتغي فاعلها وجه الله فقط دون غيره.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إن الشيطان ليس له تسلط وتأثير في إغواء الذين عمرت قلوبهم بالإيمان وفوضوا أمورهم إلى الله في كل قول وفعل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ إنما تسلطه وتأثيره في الإغواء يكون على الذين يطيعونه في وساوسه ويستجيبون لإغوائه والذين هم بسبب وسوسته مشركون بالله، أو هم أشركوا الشيطان في أعمالهم.

دحض شبهة عن رسول الله

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على المشركين الذين يطعنون بنبوة محمد ﷺ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانها حكم آية أخرى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغيّر من أحكامه ويعلم وجه مناسبته لزمانه، فلكل وقت من الأحكام والآيات ما يناسبه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي قال المشركون ما أنت يا محمد إلاّ مفتر كاذب، وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثرهم لا يعلمون حقيقة الأمر. فقد يكون فيما ينزله الله من الشرع مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم لأن بعضهم كان يعلم يقيناً صدق نبوة محمد ﷺ.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين

الذين يتهمونك بافتراء القرآن: إن القرآن نَـزَل عليَّ من ربي بالحق بواسطة روح القدس جبريل أي الروح المطهر من أدناس البشرية ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِين آمَنُوا﴾ ليثبت قلوب المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين ﴿وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُسْلِمينَ﴾ وهداية من الضلالة، وبشرى بثواب الله للذين خضعوا لشرع الله وانقادوا لأحكامه.

وإمعاناً من قريش في رفض دعوة النبي ﷺ لهم إلى الإسلام بحثوا عن سبب يتعللون به في رفضهم دعوته، فقالوا إن الذي يعلّم محمداً هذا القرآن هو بشر وليس ملكاً من ملائكة السماء كما يدّعي. ولإثبات حجتهم الواهية اضطروا أن يلتمسوا شخصاً يشترط فيه أن يكون من غير جنسهم وملتهم حتى يمكن أن يقال فيه إنه تفرّد بعلم لا يعلمه سكان مكة، ولكن يا للعجب أين وجدوا ضالتهم؟ وجدوها في حدّاد رومي قيل اسمه بلعام وكان نصرانياً أعجمي اللسان كان رسول الله يدخل عليه ليعلمه الإسلام فاتهمته قريش أنه يتعلم منه، وقيل اسمه جبْر وكان يعمل في صنع السيوف وهو غلام رومي نصراني وكان صاحب كتب.

فالله سبحانه يدحض هذه الشبهة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُم يَـقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي إننا لنعلم ما يقوله كفّار مكة أنه لا يعلّم هذا القرآن إلا رجل من البشر مثله وقولهم هذا باطل ﴿لِسَانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إِليْهِ أَعْجَميٌّ﴾ لأن هذا الذي يميلون ويشيرون إليه بأنه يعلّم النبي ﷺ لغته أعجمية، والأعجميّ هو الذي لا يفصح في كلامه، والذي في لسانه عجمة أي لكنة ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبيٌّ مُبِينٌ﴾ وهذا القرآن الذي تدّعون أن محمداً تعلّمه من أعجميّ إنما هو كلام عربي واضح بلغ القمة في البيان والفصاحة، وعجزت العرب عن محاكاته عندما تحداهم أن يأتوا بمثله، فكيف تجعلون القرآن من تعليم بشر أعجميّ؟

﴿إِنَّ الَّذين لا يُؤْمِنُون بِآياتِ اللَّهِ﴾ أي إن الذين لا يصدقون بآيات القرآن بأنها من عند الله ﴿لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أي لا يهديهم الله إلى طريق الرشاد ولا يوفقهم لإصابة الحق ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَليمٌ﴾ ولهم يوم القيامة عذاب مؤلم موجع ﴿إِنَّمَا يَفْتري الكَذِبَ الَّذين لا يُؤْمِنون بآيَاتِ الله﴾ أي إنما يجرؤ على افتراء الكذب على الله هم الذين لا

يصدقون بآيات الله المنزلة على رسوله محمد الدالة على وحدانيته وصدق رسوله ولا يتوقعون العقاب على كذبهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبونَ﴾ وأولئك هم وحدهم الذين يفترون الكذب لا أنت يا محمد.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِن بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ
وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ
وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ
جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي
كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ١١١ ﴾

شرح المفردات

استحبوا الحياة الدنيا: اختاروها وآثروها على الآخرة.

طبع: ختم.

لا جرم: حقاً أو لا محالة.

فتنوا: عذِّبوا حتى تلفّظوا بالكفر عن إكراه.

تُوَفَّى: يعطى كل إنسان جزاء عمله وافياً.

حكم التلفظ بالكفر عن إكراه أو عن تعمد

ثم يبين الله حكم المكره على الكفر: ﴿مَنْ كَفَرَ باللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ﴾ أي من أشرك بالله وارتد عن دينه من بعد إيمانه ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ إلاّ من

أكره على الكفر فنطق لسانه بكلمة الكفر وقلبه موقن بالإيمان لينجو من عذاب عدوه ويسلم بروحه فلا حرج عليه إن نطق بكلمة الكفر(١).

﴿وَلَكِن مَنْ شَرَحَ بِالكُفرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكن من انشرح صدره بالكفر وآثره على الإيمان فأمثال هؤلاء عليهم سخط الله ولهم عذاب أليم في الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اَسْتَحَبُّوا الحَياةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ وذلك الذي استحقوه من غضب الله وعذابه إنما كان بسبب حبهم الشديد لنعيم الدنيا ومتاعها الزائل وتفضيلها على نعيم الآخرة الدائم إما لمتابعة عشيرتهم على ضلالهم وإما لمغانم يحصلون عليها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ والله لا يهدي أمثال هؤلاء الذين يصرون على الكفر ولا يستجيبون لدعوة الإيمان.

﴿أُولَئِكَ الَّذينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ هؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بغطاء معنوي، فقلوبهم لا تقبل الحق والهدى وآذانهم لا تسمع سماع فهم وتدبر لآيات الله كأنهم صمٌّ، وأبصارهم لا ترى ما في الكون من عبر ودلالات على وحدانية الله كأنهم عمي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ أولئك هم الكاملون في الغفلة إذ غفلوا عن تدبر العواقب ﴿لا جَرَمَ أَنَّهم في الآخرة هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ أي حقاً إنهم الخاسرون في الآخرة حيث استحقوا عذاب الله بسبب عدم قبولهم للحق.

﴿ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلّذين هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ هذه الآية نزلت في قوم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة المنورة بعد أن فتنهم المشركون

---

(١) نزلت هذه الآية في «عمار بن ياسر» وذلك أن المشركين بمكة أخذوه وأباه «ياسراً» وأمه «سمية» فعذبوهم ليفتنوهم عن الدين. أما ياسر وسمية فماتا تحت العذاب وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، وأخبر رسول الله بأن عماراً كفر فقال: كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله وهو يبكي فقال له الرسول ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال مطمئناً بالإيمان، فقال الرسول: إن عادوا فعد.

عن دينهم وعذبوهم وأكرهوهم على التلفظ بالكفر، وبعد هجرتهم جاهدوا الكفار وقاتلوهم وصبروا على مشاق الجهاد وعلى ما يلاقونه في سبيل دينهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي هؤلاء لهم من ربهم غفران لذنوبهم جزاء جهادهم وصبرهم، وهو رحيم بهم فلا يؤاخذهم على ما أُكرهوا عليه فنطقوا بالكفر تحت تأثير العذاب.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ وأنذر المشركين يا محمد حيث تأتي كل نفس يوم القيامة تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول: نفسي نفسي ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ وتنال كل نفس جزاء عملها في الدنيا من طاعة لله أو معصية له ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينالون إلا ما يستحقونه فلا يبخس محسن جزاء إحسانه ولا يعاقب مسيء إلا على عمله.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

شرح المفردات

رغداً: طيباً هنيئاً لا عناء فيه.

فأخذهم العذاب: فأهلكهم العذاب.

كفران نعم الله وعواقبه الوخيمة

ويتابع القرآن فيبين العواقب الوخيمة التي تترتب على الكفر بنعم الله:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ أي وجعل الله مثلاً لأهل مكة أو لكل قوم أبطرتهم النعمة هو قصة قرية من القرى كان أهلها آمنين من كل المخاوف،

مطمئنين لا يزعجهم مزعج كما يحدث في بعض القرى من الفتن بين أهاليها، والصراعات الداخلية، وإغارة الأعداء عليها ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يأتي هذه القرية الرزق الوفير من كل نواحيها ومن سائر البلدان ﴿فَكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي جحد أهل هذه القرية نعم الله عليهم فقابلوها بالكفران بدل الشكر.

وكفران النعم له مظاهر شتى: فالذي ينكر أن للكون خالقاً أنعم على الإنسان بنعمة الوجود ورزقه من نعمه التي لا تحصى فهو كافر بنعم الله.

وإن الذي لا يشكر الله على نعمه بلسانه وقلبه ويجحد فضله فهو كافر بنعم الله عليه.

والذي يعصي الله ويتخذ من نعم الله عليه طريقاً إلى البغي واقتراف الفواحش والمنكرات فهو كافر بنعم الله.

والذي يسرف بما أعطاه الله من المال الوفير على ملذاته الشخصية وأنواع الترف ويحرم أبناء وطنه بعضاً مما أعطاه الله فهو كافر بنعم الله.

هذه المظاهر لكفران النعمة إذا شاعت في الأمة حلّ عليها عذاب الله كما قال سبحانه: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ والْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي سلط الله عليها عذابه، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف هذا التعبير هو عن طريق الاستعارة لأنهم لمّا فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع، وجعل الله اللباس مستعاراً لما غشيهم من الجوع والخوف وأحاط بهم من كل الجهات فشبهه الله باللباس. هذا المثل الذي يسوقه الله ينطبق على كل قرية تكفر بأنعم الله. وقد كانت مكة قبل الإسلام ينطبق عليها هذا الوصف، كذّبوا رسول الله محمداً ﷺ، واضطهدوا المؤمنين، وكفروا بأنعم الله عليهم، فعذبهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف، وأما الخوف الذي أصابهم فهو خوفهم من سرايا[1] رسول الله التي كانت تغير عليهم.

(١) سرايا: جمع سرية وهي الفرقة التي كانت تغير على الكفار بإيعاز من النبي أو بقيادة غيره.

والجوع والخوف ذاقهما كثير من أمم الأرض في الحروب العالمية والأهلية من جراء كفرانها بنعم الله، وذاقته أمم أخرى من جراء كوارث طبيعية لا عهد لها بها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم رَسُولٌ مِنْهُم فَكَذَّبُوه﴾ ولقد جاء أهل مكة رسول من عند الله من وسطهم ومن نفس بلدهم يعرفون نسبه وصدقه وهو محمد ﷺ فأنكروا نبوته وكذبوه ولم يقبلوا ما جاءهم به من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فعاقبهم الله بالجوع والخوف وأصناف من العذاب بسبب سوء صنيعهم.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

شرح المفردات

وما أُهِلَّ لغير الله به: أي وما ذكر اسم غير الله عند ذبحه.

غير باغ: غير ظالم لغيره.

ولا عادٍ: ولا متجاوز ما يسد رمقه ويدفع جوعه.

الحلال والحرام من المآكل

ثم يبيّن الله فضله على عباده بما أحلّ لهم من المآكل الطيبة:

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ فكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الحلال الطيب كالأنعام التي أحلّ لكم أكلها ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ واشكروا الله على نِعَمِه التي أنعم بها عليكم إن كنتم تخصون ربكم وحده بالعبادة وتطيعونه فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

أما المآكل التي حرمها الله على المؤمنين فهي التي ينشأ منها الضرر وقد عددتها الآية التالية:

﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ﴾ فالله حرّم أكل الميتة لأن الحيوان الذي يموت ميتة طبيعية ظاهريًا فإنه لا يموت إلاّ نتيجة لمرض وهذا ما يجعل أكل لحمه ضارًّا، وقد يكون مرضه معدياً وهنا الخطر على صحة الإنسان. كما حرم الله تناول الدم والمراد به المسفوح أي المائع الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه وإن جمد بعد ذلك بخلاف الدم الكامن في اللحم كالطحال والكبد فإنه يجوز أكلهما.

والدم ضار بالصحة إذا استعمل غذاء فالتحليل له يثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» وهو مادة تضر بصحة الإنسان إذا استعملت غذاء، وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات بعض الأمراض المعدية وهنا يكمن الخطر، وهذا هو السرّ في فرض الإسلام ذبح المواشي من الوريد الرئيسي في العنق حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان.

﴿وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ﴾ وحرّم الله أكل لحم الخنزير لما ينشأ عنه من أضرار شتى، فقد ثبت أن لحم الخنزير يأوي إليه عدد كبير من الطفيليات الضارة، كما يُصاب الخنزير بأمراض شتى، وهذه الطفيليات والأمراض تنتقل إلى الإنسان إذا أكل لحمه وتصيبه بأمراض خطيرة يمكن أن تودي بحياته.

فمن الأمراض الفتاكة التي تصيب الخنزير: كوليرا الخنزير وهو مرض مُعْدٍ ينتشر بين كافة الخنازير على اختلاف أنواعها. ومنها الحمّى المتموجة Brucellosis التي تتميز بإصابات مركزة وخاصة في الفقرات الظهرية والمفاصل والخصية بحيث لا يجدي فيها العلاج نفعاً.

ومن أخطر الطفيليات في لحم الخنزير: الديدان السلكية المدورة، وأشدها ضرراً الصُفَّريّة أو حية البطن، وكذلك ديدان الرئة وهي مؤذية أيضاً إذ تسكن في القنوات الشعبية، وكذلك الدودة السوطية التي تلتصق بجدار المصران الأعور، ومنها أيضاً دودة الكلية التي تؤذي الكبد والكليتين.

ومن الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير (الترخينة) Trichinella Spiralis، وهي نوع من الديدان السلكية المدورة، وتوجد الديدان البالغة منها في الأمعاء بينما تقطن اليرقات في أنسجة العضلات حيث تسبب داء مميتاً يُدعى داء الشعرية أو داء الترخينة، وهذا الداء من أشد الأمراض أذى لجسم الإنسان.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والإهلال: هو الصياح ورفع الصوت، فقد كان المشركون إذا ذبحوا ذبيحة لأكلها رفعوا أصواتهم بقولهم: باسم اللات، أو باسم العُزّى وهي أسماء لأصنام كانوا يعبدونها، لهذا حرّم الإسلام أكل هذه اللحوم، والحكمة من تحريمها أن فيها مشاركة للمشركين ومشايعة لهم في معتقدهم، والإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الإشراك بالله لأن الذبائح لا تكون إلاّ باسم الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١٨٨].

وذهب جماعة من التابعين وأهل العلم إلى أن المراد بما أُهِلَّ لغير الله به: ما ذبح للأصنام لا ما ذكر عليه اسم المسيح أو عُزير لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥] . فالمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم. أما مطلق الطعام كالخبز والفاكهة فإنه يحل من أي كافر كان. وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي والنصراني فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل فإذا غاب عنك فكل فقد أحلّ الله تعالى لك.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن دعته الضرورة الملحة إلى تناول شيء من هذه المحرمات لمجاعة حلّت به غير ظالم لمضطر آخر فلا ينتزع منه نصيبه، ولا متجاوز قدر الضرورة وسدّ الرمق، فإن الله واسع الغفران شامل الرحمة ولا إثم عليه لاضطراره لذلك.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

شرح المفردات

لتفتروا: لتختلقوا الكذب.

لا يفلحون: لا يفوزون بمحبوب.

متاع قليل: انتفاع قليل لا يدوم.

هادوا: اليهود.

عملوا السوء بجهالة: عملوا السوء جاهلين الحرمة.

التحذير من تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله

وبعد أن حصر الله المحرمات في الآية السابقة في أمورٍ أربعة انتقد طريقة الكفار في تحليل وتحريم أشياء لم يأذن الله بها ولم يُنزِّل فيها شرعاً من عنده، فقال سبحانه:

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي ولا تقولوا في شأن الذبائح من الأنعام هذا حلال أكله عند الله وهذا حرام لكي تصف ألسنتكم الكذب بذلك القول الذي لا دليل لكم به في وحي الله وشرعه. فقد كان الكفار يقولون ما في بطون الأنعام خالص لذكورنا ومحرّم على أزواجنا **﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ﴾** أي إن قولكم هذا حلال وهذا حرام بدون حق هو افتراء وكذب على الله **﴿إِنَّ الّذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفلِحُونَ﴾** إن الذين يكذبون على الله لا

يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإذا كانوا يفعلون ذلك لنيل نفع أو للحصول على مغنم فمتاعهم في هذه الدنيا بنعيمها وزخرفها هو متاع قليل زائل ولهم في الآخرة عذاب شديد الإيلام.

ويدخل في هذا الوعيد الشديد كل من أحل ما حرّم الله أو حرّم ما أحل الله انسياقاً مع رأيه وهواه أو طمعاً في مغنم مادي، كما يدخل ضمن هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، ولهذا ورد عن النبي ﷺ قوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»(١) أي إثمه عليه وعمله مردود عليه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرّمنا ما أنبأناك عنه يا محمد في سورة الأنعام حيث قال سبحانه:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والمعنى: وحرمنا على اليهود أكل اللحم والشحم وغيرهما من كل ما ليس له ظفر، أي ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، وحرمنا عليهم من البقر والغنم شحومها لا لحومها إلاّ الشحم الذي فوق الظهر أو الحوايا (أي الأمعاء) أو الشحم الذي اختلط بعظم فهو ليس بمحرّم، وهذا التحريم عقاب لهم على ظلمهم.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بتحريم ذلك عليهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده فحرّم الله عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

ثم يبين الله مصير التائبين بقوله:

---

(١) رواه مسلم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذين عَمِلوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ﴾ والسوء هو ما يسيء صاحبه من كفر أو معصية أو ذنب، وإنما خص القرآن من يعمل السوء بجهالة لأن أكثر من يأتي السيئات يعملها وهو جاهل بعظمة الله وعقابه للمسيئين، أو يأتيها من غير تبصر وفكر في عاقبة الأمر، أو عند غلبة الشهوة عليهم أو الجهل بأن ما يعمله هو من السوء الذي يبغضه الله ﴿ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم ندموا على ما فعلوا من سوء ورجعوا عن ذنوبهم إلى طاعة الله وطلبوا الغفران منه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي أصلحوا نفوسهم وأعمالهم وساروا على درب الاستقامة ﴿إِنَّ رَبَّك مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربك من بعد من يتوب من ذنبه كثير الغفران لهم وواسع الرحمة بهم.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

شرح المفردات

كان أمة: الأمة، الجماعة الكثيرة، والمراد أنه كان بمنزلة أمة في الإيمان بالله والعبادة له حيث كان رائد التوحيد في أمة تعبد الأصنام.

قانتاً لله: أي مطيعاً خاضعاً لله سبحانه.

حنيفاً: موحداً لله مخلصاً له مائلاً عن الباطل إلى الحق.

اجتباه: اختاره واصطفاه.

ملة إبراهيم: شريعة إبراهيم وهي شريعة التوحيد.

الثناء على إبراهيم عليه السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن النبي إبراهيم عليه السلام وما خصه الله به من مزايا فاضلة:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي كان عنده من الخير ما كان عند أمة، فهو وحده أمة من الأمم وذلك لاستجماعه من الخيرات والفضائل ما لا يكاد يوجد إلا متفرقاً في أمة عظيمة، أو بمعنى مأموم أي قدوة يقصده الناس ليأخذوا منه الخير ويقتدوا به ﴿قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً﴾ والقانت هو المطيع لله سبحانه القائم بما أمره الله به من الطاعات، والحنيف هو المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهنا ردٌّ على المشركين واليهود والنصارى الذين يدّعون أنهم على دين إبراهيم وهم بخلاف ذلك فقد خالطت معتقداتهم الشرك بالله بينما إبراهيم عليه السلام كان موحداً لله مخلصاً له وحده في العبودية ﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾ أي كان إبراهيم شاكراً لِنعَمِ ربه لم يقصّر بشكر نعمة منها ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ اصطفاه الله واختاره للنبوة وهداه إلى دين لا اعوجاج فيه وهو عبادة الله وحده وهو دين الإسلام الذي أرسل به جميع الرسل.

﴿وآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي أعطاه الله في الدنيا حالة حسنة من الذِّكْر الجميل، والثناء عليه من الناس قاطبة، كما رزقه الله أولاداً طيبين أبراراً، وعمراً طويلاً أمضاه في طاعة الله، ورزقه دعاء الناس له بالخير والبركات ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنه في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية في الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي ثم أوحينا إليك يا محمد وأمرناك باتباع دين إبراهيم فيما دعا إليه من عبادة الله وحده وإيراد الدلائل العقلية على ذلك، والبعد عن الأديان الباطلة، فإن إبراهيم لم يكن من الذين يجعلون لله شريكاً كما يفعل المشركون من قومك يا محمد.

﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِين اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ كان اليهود يزعمون أن تعظيم يوم

السبت والتخلي عن العمل فيه للتفرغ للعبادة من شعائر ملة إبراهيم فكذبهم الله وبين أنه ما فرض تقديس يوم السبت إلا على الذين اختلفوا في تقديسه مع نبيهم حيث أمرهم بتعظيم يوم الجمعة فاختاروا يوم السبت فألزمهم الله بهذا اليوم وشدَّد عليهم بتحريم الصيد فيه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ﴾ وتأكد يا محمد بأن ربك سيقضي بينهم يوم القيامة في الأمور التي اختلفوا فيها وسيجازي كل إنسان بعمله.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ
إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

وجادلهم بالتي هي أحسن: وحاورهم بالطريقة التي هي أحسن، طريقة المجادلة بالرفق وحسن الكلام.

ولا تك في ضيق مما يمكرون: ولا تجعل نفسك في حزن وضيق صدر من مكرهم.

اتقوا: اتقاء الله هو تجنب عذابه بالعمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

منهج الدعوة إلى الإسلام

ثم يختم الله هذه السورة بآيات تبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الداعي إلى الإسلام:

﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ فالله سبحانه يأمر رسوله

محمداً وكلّ من يدعو إلى سبيل الله ـ وهو الإسلام ـ بالحكمة، والحكمة تطلق على كل من يتحقق فيه الصواب من القول والعمل، كما جاء في معنى الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل أو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة. هذا هو الوجه الأول للدعوة إلى دين الله، يتبعه الوجه الثاني وهو قوله تعالى: ﴿والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ والوعظ: هو النصح والتذكير بالعواقب من ثواب وعقاب. ويصف الله الموعظة بالحسنة أي التي تعتمد على اللين والرفق والدلائل الإقناعية.

ثم يأتي الوجه الثالث للدعوة إلى دين الله وهو قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والجدال هو الحوار في الرأي ولكن بالطريقة التي هي أحسن بلا تحامل على الذي تجادله ولا تسفيه لرأيه ولا عنف ولا غلظة حتى يطمئن المستمع إلى الداعي ويشعر منه بأن هدفه ليس الغلبة والجدل العقيم ولكن هدفه هو الإقناع والوصول إلى الحق، ويشمل الجدال بالتي هي أحسن الإعراض عما يصادفه الداعي من الأذى ممن يجادله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك يا محمد تبليغ الناس دين الله وترك أمرهم بعد ذلك إلى ربك فهو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى إلى دين الله.

هذا هو المنهج الحكيم للدعوة إلى الله إذا سارت الأمور على طبيعتها، أما إذا وقع الاعتداء على أهل الإسلام فإن الاعتداء عندئذ يقابل بمثله:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون عقاب من يصدكم عن دين الله ويعتدي عليكم ويظلمكم فعاقبوه بمثل ما فعل بكم، وإنما سمي اعتداء العدو عقاباً من باب مماثلة الكلام ومشاكلته[1]. ولم يقتصر القرآن على طلب المماثلة في العقوبة بل حث على العفو والصبر على المعتدي: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ﴾ ولئن صبرتم أيها الداعون إلى الله تعالى على أذى عدوكم

---

(١) المشاكلة هي التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته وهو فن من فنون البلاغة.

فصبركم هذا هو خير لكم لأن الصبر والعفو من أمهات الفضائل ويجعل عدوكم صديقاً حميماً.

يروى في أسباب نزول هذه الآية أنه بعد معركة أحد التي قُتل فيها حمزة عم النبي ﷺ ومُثِّلَ بجثته، فقال النبي: لئن ظهرنا عليهم «أي انتصرنا» لنمثِّلَنّ بثلاثين رجلاً مثلهم، فلما سمع المسلمون بذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثَّلَنّ بهم مُثْلَةً[1] لم يمثّلها أحد من العرب، فأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: نصبر ولا نعاقب.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ واصبر يا محمد على الأذى في سبيل ربك، وما صبرك إلا بمعونته وتوفيقه، وهنا تأكيد للأمر بالصبر ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِم﴾ ولا تحزن من إعراض المشركين عن دعوتك لهم إلى الإسلام. أو بمعنى: ولا تحزن على قتلى معركة أُحُد فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله ﴿وَلا تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا يضق صدرك ويصيبك الغم مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الأذى إليك.

﴿إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِين اتَّقَوْا والَّذِين هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إن الله مع المتقين والمحسنين بالنصر والتأييد والحفظ. والمتقون هم الذين اجتنبوا ما حرّم الله، والمحسنون هم الذين يأتون بالأعمال على الوجه اللائق، ويشفقون على خلق الله فيمدونهم بما يسد حاجتهم، ومن ذلك نستشف أن من تخلّق بالتقوى والإحسان نال معية الله له بالنصر والتأييد والحفظ.

---

(١) المثلة: تشويه جثة المحارب بعد موته.

تعريف بسورة الإسراء

سورة الإسراء سميت بذلك نظراً لذكر معجزة إسراء النبي ـ أي انتقاله ليلاً ـ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس في فترة قصيرة من الزمن.

وهذه السورة مكية ـ أي نزلت بمكة ـ وهي تعنى عناية خاصة بمكارم الأخلاق التي هي من الأهداف الأساسية التي جاء الإسلام لأجلها.

ففي هذه السورة دعوة إلى الإحسان إلى الوالدين، وصلة الرحم، والعطف على المسكين وابن السبيل، ونهي عن تبذير الأموال بغير حق، وتحريم قتل الأنفس ظلماً وعدواناً، ونهي عن الزنا والغش في المكاييل والموازين. كما نهت السورة عن أكل مال اليتيم والكبر والبطر.

وفي السورة موضوعات شتى نشير إلى بعضها بما يلي:

- تاريخ بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض ومعاقبة الله إياهم.
- بيان أن كل ما في السموات والأرض ومن فيهن من شيء يسبح بحمد الله ويقدسه ولكن لا نفقه تسبيحهم.
- الكلام عن البعث مع إقامة الأدلة على أن حصوله كائن وكذلك الحساب.
- الحكمة من عدم إنزال المعجزات التي اقترحها المشركون على رسول الله محمد ﷺ.
- قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس عن السجود له.
- تعداد بعض نعم الله على خلقه التي تستوجب شكره.
- بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله.
- تأييد الله موسى بالمعجزات وإهلاكه فرعون وجنده غرقاً.

هذه بعض موضوعات هذه السورة، إضافة إلى موضوعات أخرى تحدثنا عنها في موضعها.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ
نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

شرح المفردات

سبحان: تنزه وتعالى عن النقائص.

أسرى: الإسراء هو السير والانتقال ليلاً.

المسجد الأقصى: مسجد بيت المقدس.

باركنا حوله: أحللنا البركة حوله بالثمار والأنهار.

لنريه من آياتنا: لنطلعه على بعض عجائب قدرتنا تكريماً له.

آتينا: أعطينا.

الكتاب: المراد بالكتاب هنا التوراة.

وكيلاً: ناصراً ومعيناً تفوضون أمركم إليه.

ذرية: نسل.

معجزة الإسراء

يستهل الله هذه السورة بالإخبار عن حدث عظيم ومعجزة خص الله بها رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[١] أي تقدس وتنزه الله عن النقص وعما لا يليق بجلاله من السوء، فهو سبحانه أسرى برسوله محمد ليلاً، والإسراء هو السير والانتقال في جزء من الليل، ووصف محمداً بالعبودية لله (بعبده) وإضافة رسوله إليه تشريف له وتكريم، واعلاء لمنزلته، وإشعار بأن محمداً كان يقوم بواجب العبودية لله حيث بلغ فيها غاية الغايات ونهاية النهايات، والعبودية لله هي أشرف الصفات وأعلى المراتب، كما أن في وصف محمد ﷺ بالعبودية لله سداً لباب الغلوّ فيه من أتباعه كما وقع للنصارى في نبيهم عيسى عليه السلام.

والله سبحانه أسرى بعبده محمد ﷺ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي مسجد مكة المكرمة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[٢] وهو مسجد بيت المقدس[٣] وكان يعرف بهيكل سليمان.

ومعنى الأقصى: أي الأبعد وقد سمي بذلك لبعده عن مكة ﴿الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ والبركة هي الخير والنماء، فالله أحاطه ببركات الدين والدنيا، لأن القدس مقر الأنبياء ومهبط الوحي الإلهي، كما أن هذه الأرض وما حولها من أرض الشام بارك الله فيها بالأنهار والأشجار والثمار، وفي قوله تعالى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ثناء عظيم على المسجد الأقصى لأنه إذا كان الله بارك ما حول المسجد الأقصى فإن بركة المسجد لا تعد ولا تحصى.

---

(١) ذكر الليل هنا للتأكيد، لأن الإسراء لا يكون إلاّ بالليل.

(٢) المسجد الأقصى: كان المسجد الأقصى في زمن إسراء النبي محمد ﷺ خراباً، لأن النبي سليمان بناه على مكان الصخرة ثم خُرِّب فكيف أطلق عليه اسم المسجد؟ والجواب على ذلك أن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً باعتبار ما كان عليه وما وضع له، وكل مكان يقام لعبادة الله والسجود له يطلق عليه اسم مسجد.

(٣) بيت المقدس: هي القدس وتسمى أيضاً إيلياء.

والمسجد الأقصى هو أولى القبلتين[١] وثالث الحرمين بعد مسجدي مكة والمدينة المنورة التي تشد الرحال إليها (أي السفر إليها للعبادة) وقد بناه نبي الله يعقوب وجدّد بناءه نبي الله سليمان عليهما السلام.

وقد بيّن الله الحكمة من الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَـهُ مِنْ آيَـاتِنَا﴾ أي لكي نُري محمداً الآيات العظمى الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعظمة ملكنا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فالله هو السميع لأقوال عباده البصير بأفعالهم.

وقد كان الإسراء بالجسد والروح[٢] معاً يقظة لا بالمنام كما ادعى البعض.

وقد روي أن النبي ﷺ جاءه جبريل وميكائيل عليهما السلام وهو مضطجع في الحجر[٣] فحملته الملائكة وجاءوا به إلى نبع زمزم، وألقوه على ظهره، وشق جبريل صدره ثم قال لميكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم، فأتاه به فاستخرج قلب النبي ﷺ وغسله ثلاث مرات ثم أعاده إلى مكانه ممتلئاً إيماناً وحكمة وختم عليه ثم خرج بالنبي إلى باب المسجد.

وبعدها يقول النبي ﷺ: أُتيت بالبراق (وهو دابة) أبيض حجمه فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه (أي نظره)، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة[٤] التي يربط بها الأنبياء دوابهم ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، وفي رواية أنه قال: مُثِّل لي الأنبياء فصليت بهم، ثم خرجت

---

(١) القِبلتين: القبلة هي الجهة التي يتوجه إليها المصلي في صلاته. وقد كان محمد في أول رسالته يتوجه في صلاته نحو بيت المقدس.

(٢) والأدلة على أن الإسراء بالروح والجسد: أولاً: إن بدء السورة بالتسبيح يدل على أن الأمر هو خارق للعادة. ثانياً: قوله: ﴿أسرى بعبده﴾ والإسراء هو السير ليلاً ولفظ العبد هو مجموع الروح والجسد. ثالثاً: ركوب النبي على البراق وهو دابة والدابة تحمل الجسد لا الروح. رابعاً: لو كان الإسراء بالمنام لما كذبته قريش كما سيأتي. خامساً: ذكر الله المكان فقال: ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ كما بين الله الغاية ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي من عجائب قدرتنا. وهذا لا يحصل إلا بالجسد والروح معاً.

(٣) الحجر: ويقال له حجر اسماعيل وهو تابع للكعبة ملاصق لها.

(٤) الحلقة: المراد بها حلقة باب مسجد بيت المقدس، وفي ربط البراق هوالأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب.

فجاءني الملك جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة[١] ثم عُرِج[٢] بي إلى السماء.

وقد رُوي أن الملك جبريل صعد بالنبي محمد ﷺ من سماء إلى سماء ورأى بعض النبيين إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى حيث تجلى الله على رسوله بما تجلى، وأوحى إليه ما أوحى، وفرضت عليه هناك الصلوات الخمس، وهذا يدل على علو مكانة الصلاة وسمو فضلها.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام في مكة من ليلته هذه فصلى بالمسلمين صلاة الصبح ثم حدّث قومه من قريش بما جرى له فارتد بعض الناس عن الإسلام بعدما أسلموا، وأتى أناس إلى أبي بكر الصدِّيق وقالوا له: هل لك في صاحبك (أي محمد) إنه يزعم أنه أُسري به إلى بيت المقدس ثم رجع في ليلة واحدة، قال أبو بكر: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأشهد إن كان قال ذلك لقد صدق، إني أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء (أي بالوحي الإلهي الذي ينزل عليه) فسُمي أبو بكر منذ ذلك الوقت بالصدِّيق.

وطلبت جماعة من قريش ممن سافروا إلى بيت المقدس من رسول الله ﷺ أن يصف ما شاهده هناك فطفق يصفه لهم وصفاً دقيقاً، فقالوا: أما الوصف فقد أصبت فيه ولكن أخبرنا عن عيرنا (إبلنا) التي في الطريق فأخبرهم بعدد إبلها وأحوالها، وقال: إنها تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق (أي رمادي) عليه غرارتان (كيسان) مخيطتان، فلما خرجوا ينشدون الإبل في اليوم الذي عينه رسول الله وجدوها كما أخبر، ومع هذا لم يؤمنوا وقالوا: إن هذا إلاّ سحر مبين.

والإسراء وقع لرسول الله وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة المنورة، وقد كان المسلمون يومئذ بمكة قلة مضطهدة تلاقي من كفار مكة أنواع العذاب، ولم يكن لبني اسرائيل يومئذ صلة ولا شأن مع المسلمين فما السرّ في إسراء النبي وذكره في

---

(١) الفطرة: فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة.

(٢) عرج: صعد.

القرآن؟ السر في ذلك أن المسلمين سينتصرون يوماً حتى تصبح مكة والقدس تحت سيطرتهم، والقرآن لم يقل من مكة إلى بيت المقدس إذ إن الكعبة في مكة لم تكن آنذاك مسجداً وإنما كانت بيتاً تقام حوله عبادة الأصنام. ولم يكن هيكل سليمان في ذاك الوقت مسجداً وإنما كان أنقاضاً، ولكن الله حين ذكر هذا الإسراء عبّر عنه بأنه انتقال من مسجد إلى مسجد وذلك بشارة للمسلمين بأن دعوتهم ستنتشر وتعلو حتى يصبح البلد الذي فيه يُضطهدون والذي تُعبد الأصنام(١) فيه مسجداً لله، وأن نفوذهم سيمتد حتى يصبح هيكل سليمان مسجداً كذلك، وهذا ما تحقق فعلاً.

كما أن حادثة الإسراء كانت تثبيتاً لقلب النبي ﷺ وذلك بعد ما ناله من أذى أهل مكة وإعراضهم عن قبول الحق.

وبعد أن بيَّن الله إكرامه رسوله محمداً بالإسراء بيّن بعد ذلك إكرامه موسى بإعطائه التوراة:

﴿وآتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِـي إِسْرَائيلَ﴾ أي وأعطينا موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ الذي جعلناه هدى لبني اسرائيل ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ألاَّ تَـتَّخِذُوا مِنْ دُوني وَكِيلاً﴾ وذلك كي لا تتخذوا غيري إلٓهاً تتوكلون عليه وكفيلاً تفوضون أموركم إليه.

ثم يبيّن الله منّته على بني إسرائيل بقوله: ﴿ذُرِّيَّـةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي أنتم يا بني اسرائيل ذريّة من حملنا مع نوح في الفلك حيث أنجيناهم من الغرق بسبب إيمانهم واتباعهم رسولنا نوحاً ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ إن نوحاً كان متصفاً بالعبودية لنا، وإن نجاته من الغرق ومن معه في السفينة كانت ببركة شكره وإخلاصه لنا فاقتدوا به يا بني إسرائيل، وفي هذا إيماء بأن الشكر لله من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات لله.

---

(١) دخلت عبادة الأصنام إلى بيت الله الحرام في مكة بعد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ولما أرسل الله رسوله محمداً بدين الإسلام حطّم كل الأصنام التي كانت في الكعبة ودعا إلى عبادة الله وحده.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟
خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم
بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

شرح المفردات

قضينا : حكمنا، وقيل أوحينا إليهم.

في الكتاب : في التوراة.

ولتعلن علوّاً كبيراً: تستكبرون عن طاعة الله وتبغون بغياً عظيماً.

فإذا جاء وعد أولاهما : فإذا جاء وعد عقاب المرة الأولى من افسادكم يا بني اسرائيل.

بعثنا عليكم : سلطنا عليكم.

أولي بأس : أصحاب قوة في الحرب والبطش.

فجاسوا خلال الديار : فطافوا خلال دياركم يمعنون فيكم قتلاً وسبياً.

رددنا لكم الكرة عليهم : وجعلنا لكم الغلبة عليهم بعد أن كانت لهم.

أكثر نفيراً: أكثر عدداً مما كنتم.

ليسوءوا وجوهكم : ليجعلوا الحزن بادياً على وجوهكم.

وليتبّروا ما علوا تتبيرا : وليدمروا ويهلكوا ما استولوا عليه إهلاكاً شديداً.

حصيراً: محبساً وسجناً وبساطاً.

تحذير بني إسرائيل من مغبة الإفساد في الأرض

ثم يبيّن القرآن ما أصاب بني إسرائيل من اضطهاد جزاء إفسادهم في الأرض: ﴿وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إسرائيل في الكِتَابِ﴾ أي وحكمنا بما قضينا على بني إسرائيل فيما كتبناه في سابق علمنا في اللوح المحفوظ ﴿لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي سيحصل منكم الإفساد في أرض فلسطين والشام مرتين ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ أي لتستكبرن عن طاعة الله وتظلمون الناس ظلماً شديداً ﴿فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ فإذا جاء موعد عقاب أولى المرتين على إفسادكم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُم عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أرسلنا عليكم عباداً لنا ذوي بطش شديد في الحروب ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ فطافوا خلال مساكنكم يقتلون رجالكم ويسبون نساءكم ويسلبون أموالكم ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ وكان هذا العذاب الذي سلطه الله عليكم وعداً محققاً، والله لا يخلف وعده، هذا وقد كان إفسادهم في المرة الأولى قتلهم شعياء وارتكابهم المعاصي، فسلط الله عليهم بختنصّر البابلي.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِم﴾ ثم رددنا لكم الغلبة على أعدائكم بعد أن تبتم عن ارتكاب المعاصي وذلك بمعونة الفرس على يد كورش ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبنينَ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوافرة ﴿وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لأَنْفُسِكُم﴾ إن أحسنتم أعمالكم - يا بني إسرائيل - فأطعتم ربكم وأصلحتم نفوسكم نفعتم أنفسكم فيفتح الله لكم أبواب رحمته ويدفع عنكم السوء ﴿وَإِنْ أَسَأْتُم فَلَهَا﴾ وإن عصيتم ربكم فإنما تسيئون لأنفسكم حيث تستوجبون عقاب الله وسخطه ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ فإذا جاء وقت عقاب المرة الثانية على إفسادكم وكان ذلك بسبب قتلهم النبي يحيى عليه السلام ﴿لِيَسوءوا وُجُوهَكُم﴾ أي أرسلنا عليكم أعداءكم ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم ويجعلوا آثار الكآبة بادية عليكم بما يلحقكم من الحزن والحسرة والذل ﴿وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كما دَخَلوهُ أَوَّلَ مرة﴾ وليدخل أعداؤكم مسجد بيت المقدس كما دخلوه أول مرة حين

أفسدتم في الأرض ﴿وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أي ويدمروا ويهلكوا ما تغلّبوا عليه من بلاد بني إسرائيل إهلاكاً شديداً لا يوصف.

وقد تم ذلك في عهد حكم الروم أيام القائد طيطس فقد قصد بيت المقدس وأوقع باليهود وأمعن فيهم أسراً وقتلاً للأنفس، ونهباً للأموال[١].

﴿عَسَى رَبُّكُم أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُّم عُدْنَا﴾ أي لعلَّ ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل إن تبتم عن معاصيكم ولازمتم طاعته، وإن عدتم إلى عصيان ربكم وقتل رسله والإفساد في الأرض عاقبكم الله بذنوبكم ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي جعل الله جهنم مهاداً وفراشاً للكافرين، وقيل: محبساً وسجناً لهم فلا مهرب لهم منه.

وقد عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض في عهد النبي محمد ﷺ فحاكوا المؤامرات ضده وحرضوا المشركين على حرب المسلمين بعد أن تحالفوا معهم، كما حاولوا قتل النبي ﷺ، فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم الكثير، وبعد وفاة النبي وتولّي عمر الخلافة أجلاهم عن جزيرة العرب كلها جزاء غدرهم بالنبي ﷺ والمسلمين.

ثم في نهاية القرن الثالث عشر بعد الميلاد توالت الاضطهادات على اليهود من دول أوروبا لفسادهم وسوء أفعالهم فطردوا من إسبانيا والبرتغال وانكلترا وفرنسا والنمسا وهولندا وغيرها من الدول. وفي روسيا طُردوا سنة ١٥١٠ م ثم عادوا إليها وكانوا معرَّضين لأنواع شتى من الاضطهادات أبرزها الذي حصل في أوكرانيا طيلة عام ١٩١٩، حيث ذبح أكثر من مائة ألف يهودي رجالاً ونساء وأطفالاً[٢].

---

(١) اضطربت الروايات فيمن سلّط الله على بني اسرائيل في المرة الأولى وفي المرة الثانية، والقرآن لا ينص على جنسية هؤلاء المغيرين على بني اسرائيل والمقصود في ذلك بيان سنة الله في خلقه بأن كل شعب يعيث في الأرض فساداً يسلّط الله عليه من يسومه سوء العذاب.

(٢) راجع كتاب (اليهود في القرآن) للمؤلف.

وفي ألمانيا كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم.

وها هم اليوم في القرن العشرين يعودون إلى فسادهم في الأرض فأخرجوا العرب من ديارهم وساموهم أنواع العذاب، وتفاقم خطرهم على جميع الدول العربية التي تحيط بهم وقد صار حالهم كما وصفهم الله سابقاً قبل حلول العذاب بهم ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكم بِأَمْوَالٍ وَبنينَ وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ نعم فالأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض من تعويضات حصلوا عليها من ألمانيا وأموال تتدفق عليهم باستمرار من الولايات المتحدة ومن الجاليات اليهودية في العالم، كما أمدهم الله ببنين وهم المهاجرون المقاتلون الذين يتدفقون على إسرائيل باستمرار.

ولكن عليهم أن لا يغتروا بما وصلوا إليه من قوة فسيسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ﴿وَإِن عُدْتُّم عُدْنا﴾ أي وإن عدتم إلى فسادكم فسنعود إلى معاقبتكم والانتقام منكم. وسُنَّة الله في خلقه لا تتغير.

وإن تسلط اليهود حالياً على أرض فلسطين وإخراج العرب من ديارهم وتشريدهم كان سببه الفرقة والخيانة التي شاعت فيهم وإعراضهم عن دينهم وتآمر الدول الكبرى عليهم. ولكن عندما يعود العرب إلى دينهم وتتوحد كلمتهم ويرفعون شعار الجهاد عندئذ ستتغير معايير القوى وستتحقق آنذاك كلمة الله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ
لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ
ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ
فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟
عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

شرح المفردات

يهدي للتي هي أقوم: يرشد للطريقة التي هي أعدل.

أجراً: ثواباً.

أعتدنا: هيأنا.

عجولا: أي بالدعاء على نفسه بالشر ولا ينظر إلى عاقبته.

آيتين: علامتين على وجود الله.

فضلاً من ربكم: لتطلبوا رزقاً من خالقكم.

فمحونا آية الليل: فجعلنا آية الليل وهي القمر وقد طمسنا النور عنه.

فضل اللّه على الناس

ثم يبيّن الله فضله على الناس بإنزال القرآن:

﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي إن هذا القرآن الذي أنزلناه على رسولنا محمد يرشد الناس إلى الملّة التي هي أقوم الملل وأعدلها وذلك لما تحتويه من عقائد وعبادات وتشريعات في محيط الأسرة والمجتمع والعلاقات بين الأفراد والأمم، وفي نظام الحكم، ومحاربة الإجرام والفساد **﴿وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾** كما يبشر المؤمنين الذين يؤمنون بوحدانية الله وبرسوله محمد ﷺ ويعملون صالح الأعمال التي أمرهم بها **﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾** والجزاء

الكبير الذي بشرهم الله به هو الجنة ونعيمها في الآخرة ﴿وأن الذينَ لا يُؤمِنون بالآخِرَة﴾ وإن الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة ﴿أعْتَدْنَا لَهُم عَذَاباً أليماً﴾ أي هيأ الله لهم في جهنم عذاباً شديد الألم.

فالاعتقاد بالآخرة هو ركن من أركان الدين وعنصر فعال لخير الإنسان. فالذي يلجم الإنسان عن الشرور والآثام هو الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت حيث يكافأ فيها على أعماله الصالحة ويعاقب على أعماله السيئة، أما المنكر للآخرة فكثيراً ما يطلق العنان لشهواته، ولا يبالي بما يقترفه من آثام لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب بعد الموت. بالإضافة إلى ذلك فهو يعيش في فراغ روحي ليس له العزاء بما يصيبه من مصائب يؤجر الصابر عليها عند الله.

ثم يبيّن الله طبيعة الإنسان في اللجوء إلى الدعاء في بعض الظروف الطارئة:

﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي ويدعو الإنسان ربه بالشر على نفسه وأهله عند الغضب مثل دعائه بالخير، ولو استجيب له في الدعاء بالشر كما يستجاب له في الخير لوقع في المصائب والبلايا. وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يدعو على نفسه وأولاده بالشر مهما اشتد به الغضب ومهما صادفه من سوء وبلاء، لأنه قد يستجاب دعاؤه في الشر فيقع في الهلاك ﴿وَكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً﴾ أي وإن في طبع الإنسان العجلة في تنفيذ رغائبه دون التفكير في العواقب، فحريٌّ بالإنسان أن يتقبل كل ما يصادفه من مصائب بروية وصبر ولا يتسرع في تصرفاته لئلا يقع في محاذير لا تحمد عقباها.

ويتابع القرآن فيبيّن فضل الله على الناس بخلق الليل والنهار حيث يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلْـنَا اللَّيْـلَ والنَّهارَ آيتين﴾ أي وجعلنا الليل والنهار بهيئآتهما وتعاقبهما علامتين تدلان على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَمَحَوْنا آية الليل﴾ فجعلنا آية الليل وهي القمر خالية من الأشعة فكان الظلام للاستراحة والسكون فيه ﴿وَجَعَلْـنَا آية النَّهارِ

﴿مُبْصِرَةً﴾ وجعلنا آية النهار وهي الشمس مشعّة مضيئة ليبصر الناس ما يحتاجونه لمعاشهم ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُم﴾ لتطلبوا الرزق فيه من فضل الله وتنجزوا فيه مصالحكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ﴾ ولتعلموا من تعاقب الليل والنهار عدد السنين وحساب الأشهر والأيام والساعات، وبهذا النظام انتظمت حياة الإنسان وبنى عليها أسس حياته سواء في تعيين وقت العبادات أو وقت العمل في المؤسسات، أو المصانع، أو المصالح المختلفة، أو المدارس والجامعات.

﴿وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ وكل شيء تفتقرون إليه أيها الناس مِمّا فيه منافع لكم في مصالح دينكم ودنياكم قد بيّناه بياناً واضحاً لا التباس فيه.

أما لو كانت الدنيا نهاراً مستمراً ليس فيها ليل أو العكس بأن كانت ليلاً مستمراً ليس فيها نهار لما انتظمت عجلة الحياة ولدب فيها الفوضى، فسبحان من خلق كل شيء بحكمة، وفي هذا يذكر الله منّته العظمى على خلقه بقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾
ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

ألزمناه طائره في عنقه: أي علقنا في رقبته كتابه المحصي لحسناته وسيئاته بحيث لا يفارقه.

منشوراً: نشره أي بسطه ضد طواه.

حسيباً: محاسباً وشاهداً على نفسك.

ولا تزر وازرة وزر أخرى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى.

ففسقوا فيها: فخرجوا عن طاعة الله وعصوا رسله.

وكم أهلكنا من القرون: وكثيراً ما أهلك الله من الأمم.

مجازاة الإنسان على أعماله

ثم يبيّن الله تعالى أن الإنسان محاسب على أعماله يوم القيامة:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ﴾ الطائر هنا هو العمل، وسمي العمل طائراً لأن العرب كانوا إذا أرادوا فِعْل أمر ما أو القيام بسفر اطلقوا طائراً ونظروا إليه، فإذا طار يمنة تفاءلوا وأقدموا على ذلك الأمر وإذا طار يسرة تشاءموا وامتنعوا عن فعل ما عزموا عليه، فلما كثر منهم ذلك سموا عمل الإنسان من خير أو شرّ بالطائر بطريق الاستعارة. أما ذِكْر العنق فالمراد به أن عمل الإنسان ملازم له ملازمة القلادة أو الغلّ للعنق، وإنما خص الله العنق من بين سائر الأعضاء لأن عمل الإنسان إما أن يكون خيراً فيزينه، أو شرّاً فيشينه، وما يزينه يكون كالحلي في العنق والذي يشينه فهو كالغلّ ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ ونظهر له يوم القيامة ـ يوم

البعث والجزاء ـ كتاباً مدونة فيه أعماله فيراه جلياً لا يملك إخفاءه أو إنكاره ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ويقال له: اقرأ كتابك المدوّنة فيه اعمالك، حسبك أن تكون نفسك اليوم شاهدة على أعمالك حاسبة عليك سيئاتك، وحاسبة عليك حسناتك ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ من اتبع هدى الله وسلك طريق الحق فهو في ذلك ينفع نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ضل عن هدى الله أو أعرض عن الحق فإن إثم ضلاله يصيبه هو لا يتجاوزه إلى غيره، فكل إنسان محاسب عن نفسه مجزيٌّ على طاعة ربه ومعاقب على معصيته إياه ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى، ولا تؤاخذ نفس بذنب غيرها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ولا يعاقب الله الناس على ظلمهم وآثامهم إلا من بعد أن يبعث فيهم رسولاً من عنده يهديهم إلى الحق وينذرهم من عذاب ربهم، فإن أصروا على عصيانهم عاقبهم الله بما يستحقونه من عذاب في الدنيا والآخرة.

ثم يبيّن الله أسباب إهلاكه الأمم بقوله:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي وإذا أردنا أن نهلك أهل قرية بسبب مخالفتهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وفي معنى (أمرنا) ثلاثة أقوال:

الأول: في الكلام إضمار تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة فلم يمتثلوا ولكن فسقوا أي خرجوا عن طاعتنا.

الثاني: بمعنى أكثرنا عدد المترفين في القرية. يقال: أمرت الشيء وآمرته (بمد الألف) بمعنى كثّرته.

الثالث: قرئت (أمّرنا) بتشديد الميم أي جعلنا مترفيها أمراء متسلطين على قومهم.

فالمترفون هم المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش. وقد خص الله المترفين بالذكر لما جرت به العادة من أن سواهم يكونون تبعاً لهم، وأن عامة الشعب يقلدونهم في أفعالهم، كما أنهم اسرع إلى الفجور واقدر على الوصول إلى سبله.

فالترف يؤدي إلى فساد الأمة وميوعتها، وإلى انكبابها على شهواتها وملذاتها،

فتستهتر بالقيم والمقدسات، وتستبيح الظلم في سبيل تحقيق مآربها والحصول على شهواتها، فتخرج الأمة بذلك عن طاعة ربها وتستحق العذاب كما قال تعالى ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي ثبت ووجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ أي أهلكناها إهلاكاً تاماً.

ويتابع الله قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وكم: بمعنى كثير، والقرون جمع قرن وهي الأمة التي تأتي بعد الأمة، وقيل أهل زمان واحد. والمعنى: وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة الظالمة من بعد زمن نوح كأمم: عاد، وثمود، وفرعون وجنده، وقوم لوط ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ وكفى أن يكون ربك يا محمد خبيراً بذنوب خلقه مطلعاً عليهم فلا يخفى عليه شيء، وهنا إشارة إلى أن انتشار الذنوب في قوم هو نذير بهلاكهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

شرح المفردات

العاجلة: الدار العاجلة والمراد بها الدنيا.

يصلاها: يدخلها ويقاسي حرها.

مذموماً: ملوماً، ناله الذم.

مدحوراً: مطروداً من رحمة الله.

محظوراً: ممنوعاً عن أحد.

فتقعد: القعود هنا بمعنى الصيرورة أي ويصير حالك.

مخذولاً: غير منصور ولا معان من الله.

الدعوة إلى تفضيل الآخرة على الدنيا

وبعد أن بيّن القرآن بأن الذنوب تؤدي إلى هلاك الأمم دعا بعد ذلك إلى تفضيل الآخرة على الدنيا:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ﴾ العاجلة: هي الحياة الدنيا، أي من كان يريد بعمله الدنيا، لها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقن بالآخرة، ولا يرجو ثواباً من الله، ولا يخشى عقاباً منه ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ﴾ أي عجّل الله له فيها لمن يريد له ذلك من السعة في العيش والوفرة في المال. فليس كل من طلب الدنيا وملذاتها يحصل على ما يريد، لأن العطاء في الدنيا مقيد بمشيئة الله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ أي وبعدها أعد الله له في الآخرة جهنم يدخلها ليقاسي حرها، وهو ملوم بما عمل من سوء، مطرود من رحمة الله.

﴿ومَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن قصد بعمله الآخرة فأطاع الله وعمل بما يرضيه وهو مصدق بالله وبجزائه ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً﴾ فأولئك كان عملهم مقبولاً عند الله ينالون الثواب عليه بحسن الجزاء ﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي كل واحد من الفريقين: الفريق الذي سعى للدنيا فقط، والفريق الذي سعى للآخرة، هذان الفريقان يمدهما الله بعطائه فيرزقهما جميعاً من رزقه في الدنيا إلى استيفاء أجلهم ثم يختلف مصيرهما في الآخرة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ وما كان عطاء ربك ممنوعاً عن أحد سواء أكان الناس مؤمنين أم كافرين ما داموا قد اتخذوا الأسباب للحصول على الرزق.

﴿انْظُر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ انظر بعين الاعتبار كيف فضلنا بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب والمراتب، فمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وعالم وجاهل، وعاقل وأحمق، كل ذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها ﴿وللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وأكبرُ تَفْضِيلاً﴾ والتفاوت في الآخرة أكبر وأعظم لتفاوت منازلهم في الجنة حسب أعمالهم، فينبغي ابتغاء الآخرة التي يكون فيها التفاضل الحقيقي.

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ[1] مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً له في ألوهيته، فأخلص العبادة لله وحده، فإنك إن جعلت معه إلَهاً آخر وعبدت معه سواه تصبح ملوماً على ما ضيعت من شكر الله على ما أنعم به عليك من نعمه، مخذولاً لا ينصرك ربك بل يتركك إلى من عبدته معه وهو لا يملك لك ضرّاً ولا نفعاً.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر وصايا للإنسان وحِكَم تعود عليه بالخير في دينه ودنياه في الآيات التي ستأتي فيما بعد، وقد ذكر الله منها اثنتي عشرة حكمة كما يلي:

١ ـ عدم الشرك بالله، أي الإقرار بوحدانية الله وعبادته وحده.
٢ ـ الإحسان للوالدين.
٣ ـ الإحسان إلى الأقارب وغيرهم.
٤ ـ عدم التبذير في الأموال وعدم البخل والوقوف في موقف وسط بينهما.
٥ ـ عدم قتل الأولاد خشية الفقر.
٦ ـ النهي عن الزنا.
٧ ـ النهي عن قتل النفس بغير حق.
٨ ـ النهي عن أكل مال اليتيم.
٩ ـ الدعوة إلى الوفاء بالعهد.
١٠ ـ الدعوة إلى إيفاء الوزن والكيل بالعدل.
١١ ـ النهي عن اتباع الإنسان ما لا علم له به.
١٢ ـ النهي عن التكبر.

ثم يشير الله إلى هذه الوصايا جميعها بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ هذا ولما كان الشرك بالله أهم هذه الوصايا فقد عاد القرآن فذكره في آخر هذه الوصايا بقوله: ﴿ولا تَجْعَلْ مَعَ اللَّه إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ وبهذا يكون النهي عن الشرك قد ذكر مرتين، مرة في أول الوصايا ومرة في آخرها للأهمية في ذلك. وإليكم تفصيل ذلك في الآيات التالية:

---

(١) لفظ (فتقعد) يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد، ويلقي ظل الضعف، فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزاً. لأن القعود لا يوحي بالحركة ولا تغيّر الوضع (عن كتاب في ظلال القرآن).

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ
أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا
ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ
ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

قضى ربك: أوجب وألزم.

أف: صوت يدل على التضجر والاستثقال.

تنهرهما: تزجرهما.

قولاً كريماً: قولاً حسناً جميلاً.

واخفض لهما جناح الذل: ألن جانبك لهما تواضعاً وتذللاً.

للأوابين: الراجعين إلى الله بالتوبة وترك السيئات والعمل بطاعة الله.

وآت ذا القربى حقه: وأعط القريب في النسب حقه من البر والصدقة.

ابن السبيل: المسافر الذي انقطع عن اهله ونفذ منه المال.

تبذّر: التبذير هو الإسراف في إنفاق المال دون حق.

ابتغاء: طلباً ورغبة.

ترجوها: تتمناها.

قولاً ميسوراً: قولاً ليناً تطيب به نفوسهم.

الإحسان إلى الوالدين والأقارب والمحتاجين

ويتابع القرآن فيأمر الإنسان بأن يخص ربه وحده بالعبادة مع البر والعطف على الوالدين بصورة بليغة لا تجد ما يوازيها تأثيراً وروعة في أي كتاب ديني:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْن إحْسَاناً﴾ أي أمر ربك أمراً جازماً وأوجب ألا تعبدوا إلاّ إياه دون سواه، ومع عبادة الله أن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما. والملفت للنظر أن الله قرن الإحسان إلى الوالدين بعبادته وفي هذا منتهى التوقير لهما والاعتناء بهما، وذلك لما قد بذلا من جهد في تربية أولادهما وتنشئتهم في جو من الحنان والعطف مما يستلزم بالغ الشكر لهما، ولهذا نرى أن الله قرن الشكر له سبحانه بالشكر لهما حيث قال في موضع آخر من القرآن:

﴿ وَوَصَّينَا ٱلإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيهِ حَمَلَتهُ أُمُّهُۥ وَهنًا عَلَىٰ وَهنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَينِ أَنِ ٱشكُر لِي وَلِوَٰلِدَيكَ إِلَيَّ ٱلمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

فالأم حملتك أيها الإنسان تسعة أشهر وأنت جنين، وعانت الشدائد في السهر عليك بعد الولادة وأرهقت نفسها في حفظك، والأب كد في طلب الرزق للإنفاق عليك فكان لزاماً على البشر مكافأتهما ورد الجميل بالإحسان إليهما.

ثم فصّل القرآن ما يجب من الإحسان إلى الوالدين عندما يصلان معاً أو يصل أحدهما إلى حال الضعف أو العجز عند تقدمهما في السنّ، وأمر أن يتبع معهما أموراً خمسة هي غاية ما يصدر عن الإنسان من المعاملة الحسنة:

١ ـ ﴿إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أو كِلاهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي إذا بلغ الوالدان أو أحدهما الكبر في السن وهما في كنفك فلا تقل لهما: أُفٍّ، وهو صوت ينبىء عن الضجر من الأبوين والاستثقال منهما عندما يرى الولد منهما أموراً لا يستسيغها أو عندما يعينهما على قضاء حوائجهما.

٢ ـ ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما عندما ترى منهما أمراً لا يعجبك.

٣ ـ ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ وقل لهما كلاماً حسناً جميلاً طيباً مقروناً بالاحترام.

٤ ـ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي ألن جانبك متذلّلاً لهما تواضعاً وشفقة بهما، وقد مَثّل القرآن كيفية هذا التواضع بحال الطائر الذي إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه، وإذا أراد النزول خفض جناحيه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وعدم التكبر. وليكن خفض جناحك لهما بغية رحمتك لهما وعطفك عليهما. فالقرآن يرشد الإنسان بأن تكون عشرته لوالديه في حدود التذلل لهما في أقواله وأفعاله ومعاملته.

٥ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ ارحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أي ولما كنت أيها الإنسان لا تستطيع أن تفي حق الوالدين مهما بالغت في البر بهما، كان خليقاً بك أن تطلب من الله أن يرحمهما جراء ما بذلاه من تضحية وجهد في تربيتهما لك.

﴿رَبُّكُم أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُم إِنْ تَكُونوا صَالِحِينَ﴾ أي إن الله الذي خلقكم ورباكم بنعمه وفضله هو أعلم بما في ضمائركم من تعظيم شأن الآباء والأمهات والبر بهم أو الاستخفاف بحقوقهم، فإن تكونوا قاصدين طاعة الله بالبر بالوالدين ثم صدرت منكم بعض الهفوات والأذى في حقهم ﴿فَإِنَّهُ كَانَ للأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ فإن الله يغفر للذين يرجعون عن ذنوبهم ويتوبون إلى الله عما صدر منهم من هفوات أو أذى نحو والديهم.

ثم أوصى الله بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم بقوله:

﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي وأعط الأقارب حقهم من الإحسان، والأقارب هم من تصلهم بالإنسان صلة النسب عن طريق الأب أو الأم، كالإخوة والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم. وحق الأقارب يكون في صلتهم وحسن معاشرتهم والبرّ بهم وأداء ما أمكن من الخير لهم، ودفع ما أمكن من الشر عنهم، وإعانة محتاجهم بالمال. ثم أضاف الله قوله: ﴿وَالمِسْكِينَ وابنَ السَّبِيلِ﴾ والمسكين

هو المحتاج الذي يسأل الناس، وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال يسد حاجته، وقد أمر الله باعطائهما حقهما من المال وغيره بما يسد حاجتهما.

ثم ينهى القرآن عن التبذير بصورة بليغة: ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ والتبذير هو إنفاق المال بإسراف فيما لا ينبغي كإنفاقه في المعاصي والشهوات ويعلل الله ذلك بقوله: ﴿إِنّ المبذِّرِينَ كانوا إخْوانَ الشَّيَاطينِ﴾ والمراد بإخوَّة الشياطين المماثلة لهم في كل ما لا خير فيه من صفات السوء التي من جملتها التبذير، وهذا الوصف للمبذر هو حض له على ترك التبذير لأن الإنسان العاقل يأنف أن يكون أخاً للشيطان. فالإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله الإنسان فإنه يكون بذلك قد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ وذلك بسبب عصيانه لربه وإفساده في الأرض وإضلاله للناس، وكذلك كل من رزقه الله مالاً فأنفقه في غير مرضاة الله وفي غير موضعه كان كفوراً لنعمة الله عليه.

﴿وإما تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ ربِّكَ تَرْجُوهَا﴾ وإن أعرضت عن هؤلاء الأقارب والمساكين وأبناء السبيل الذين أمرتك بالإحسان إليهم، وذلك لعسر أصابك أو فقر نزل بك وأنت ترجو رحمة من ربك أن ييسر لك ويرزقك واثقاً بفضله وكرمه ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ فقل لهم قولاً حسناً يبعث فيهم الأمل، مع الوعد الجميل ببرهم عندما يزول عسرك وأنت بهذا القول تدخل السرور إلى نفوسهم وتفتح باب الرجاء أمامهم.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ
أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ
ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ
وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ
مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾﴾

شرح المفردات

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك: أي لا تبخل بخلاً شديداً.

محسوراً: نادماً أو منقطعاً لا شيء عندك.

تبسطها كل البسط: تفتحها للإنفاق دون حساب.

يبسط الرزق: يوسع في الرزق.

خشية إملاق: خوف الفقر.

خِطأ كبيراً: إثماً عظيماً.

فاحشة: فعلاً شديد القبح.

وساء سبيلاً: وبئس طريقاً في الحياة.

لوليه: لوارثه.

سلطاناً: صاحب حق على القاتل بالقصاص منه أو أخذ الدية.

وصايا حكيمة من الله

ويتابع القرآن فيذكر بعض الوصايا التي تعود بالخير على الإنسان:

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تبخل بخلاً شديداً، واليد المغلولة: هي المقيدة بالغلّ، والغلّ هو القيد وهو طوق من حديد أو جلد يجعل في العنق أو اليد. وهنا استعارة تمثيلية للبخل حيث مُثِّل البخيل الذي امتنعت يده عن

الإنفاق والعطاء بمن قيّدت يده في عنقه بحيث لا يقدر على مدها لإنفاق المال، وهكذا شأن البخيل يمسك يده عن التصرف في ماله فلا ينفق منه شيئاً إلاّ النزر اليسير، ويقتّر على أهله ويمنع ماله عن الخير العام ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾ ولا تفتح يدك فتنفق كل ما عندك وقد عبّر الله عنها باستعارة تمثيلية أيضاً حيث شبه الله الإسراف في المال بمن يمد يده كل المد في الإنفاق بحيث لا يبقى معه شيء من المال ﴿فَـتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس في الحالين، يلومك الناس ويذمونك بسبب بخلك، أو يلومونك على إتلاف مالك. محسوراً: والحسرة الغم على ما فاته والندم عليه[١].

وتأمل قوله تعالى: ﴿فتقعد﴾ فهي تصور حالة الملوم المغموم لأن القعود يوحي بالعجز عن طلب المرام ﴿إنَّ ربَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إن ربك يا محمد يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء لحكمة بالغة، فمن الناس من يصلحهم الفقر ويفسدهم الغنى، كما وأن من الناس من يصلحهم الغنى ويفسدهم الفقر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التوسعة في الرزق على الإنسان ليست دليلاً على أنه مكرم عند الله كما أن التضييق في الرزق لا يعدّ دليلاً على سخط الله عليه ﴿إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً﴾ إنه سبحانه الخبير بأحوال الناس البصير بما فيه مصالحهم.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أولادكُم خَشْيَـةَ إمْلاَقٍ﴾ أي لا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر، وقد كان بعض العرب في الجاهلية يئدون بناتهم ـ أي يدفنونهن أحياء ـ خوف الفقر وبعضهم خوف العار، فنهاهم الله عن ذلك وضمن لهم أرزاقهم بقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإيَّاكُم﴾ فالله قدم الاهتمام برزق الأولاد على رزق الآباء لإدخال الطمأنينة إلى قلوبهم ﴿إنَّ قَتْلَهُم كَانَ خِطأً كبيراً﴾ إن قتلهم هو ذنب عظيم.

﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ أي لا تقربوا الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه، وهو أبلغ من

---

(١) تقول العرب للبعير: محسور إذا انقطع سيره أي تصبح منقطعاً عن تحقيق رغائبك بالمال.

القول (ولا تزنوا) لأن كلمة تقربوا تفيد النهي عن الاقتراب عن مقدمات الزنا ودواعيه من إدامة النظر بشهوة إلى محاسن المرأة ولمسها وتقبيلها والاختلاء بها فهذه أمور لا تحمد عقباها. لذا أمر الله كلاًّ من المؤمنين والمؤمنات بغض البصر كلٍّ إلى الآخر كما نهى الله المرأة أن تبدي زينتها لرجل لا يحل له ذلك منها ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ إن الزنا رذيلة واضحة القبح ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ وبئس طريقاً لما يؤدي إلى نتائج وخيمة. هذا وإن الزنا من كبائر الإثم التي أوعد الله عليها بالعذاب يوم القيامة.

ومما يلفت النظر أن النهي عن الزنا توسط بين النهي عن قتل الأولاد وعن النهي عن قتل النفس الإنسانية حيث قال الله سبحانه بعد النهي عن الزنا ﴿ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّم الله﴾ وذلك لأن الزنا يحمل معنى القتل من نواحٍ شتى وإليك البيان:

فالزنا قد ينشأ عنه الحبل ويتبع ذلك الرغبة في الإجهاض الذي هو قتل للجنين للتخلص من العار، والزنا قتل للأسرة وما تحمل من روابط الود والرحمة، فسهولة قضاء الشهوة عن طريق الزنا تجعل الإنسان يتحلل من روابط الأسرة عن طريق الزواج وفي هذا هدم لقداسة الأسرة التي هي الدعامة الأولى لتماسك المجتمع.

هذا وإن المرأة إذا باشرت الزنا أصابها الذل والمهانة والتعاسة وينفر الناس من الاقتران بها وفي هذا قتل لكرامتها وسعادتها ومستقبلها.

والزنا فيه قتل للنفس الإنسانية عن طريق التقاط مرض فقدان المناعة المكتسبة المسمى بـ (السيدا) فقد ينقل هذا المرض الرجل المصاب به إلى المرأة التي يزني بها وتنقله المرأة إلى كل ولد تنجبه، أو يلتقط الرجل السليم هذا المرض من المرأة التي يزني بها المصابة بهذا المرض. وهذا المرض من أخطر الأمراض التي تصيب البشر حالياً، ولم ينفع له علاج حتى الآن، وقد انتشر هذا المرض انتشاراً مريعاً في العالم وذلك بسبب الزنا الذي هو من أهم العوامل لانتشاره.

وفي شيوع الزنا اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي ولدته الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته، أو تعهده فيقتل مستقبله.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالْحَقِّ﴾ أي ولا تعتدوا بالقتل على النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها، ما لم ترتكب جرماً يستوجب قتلها كما إذا ارتد مسلم عن دينه أو قتل مؤمناً عمداً أو ثبت زناه بعد إحصان، وفي هذا يقول النبي ﷺ: لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة[١].

ثم يبين الله ما يترتب على من قُتِلَ مظلوماً: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي ومن قتل ظلماً بغير حق فقد جعل الله لوليه وهو من له حق المطالبة بدمه ممن يرثه سلطة على القاتل بالاقتصاص منه، أو العفو عنه مقابل أخذ الدية من القاتل، أو التنازل عن الدية ﴿فَلا يُسْرِفْ في القَتْلِ﴾ وبهذا الحق الذي أعطاه الله لولي القتيل يكون الواجب عليه ألاّ يسرف في القتل فيقتل غير القاتل أو يقتل قتيلين ﴿إنَّه كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي فحسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص على خصمه فلا يبغ ما وراء حقه.

ولا بد من الإشارة إلى أن إنزال القصاص بالقاتل لا يقيمه إلاّ الحاكم أو من ينوب عنه ولا يجوز لأحد أن يقتص من أحد.

والحكمة في جعل مصير القاتل بين يدي الورثة وينفذه الحاكم هي الحيلولة دون الأخذ بالثأر أو الانتقام بأن يقتل أهل القتيل بدلاً من القاتل عدة أفراد من عائلته كما كان يفعل العرب في الجاهلية قبل الإسلام وكما يجرى الآن في بعض المجتمعات المتخلفة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ
كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ
طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

شرح المفردات

يبلغ أشده: يبلغ حد الرجولة في الجسم والعقل.

بالقسطاس المستقيم: بالميزان العدل.

أحسن تأويلاً: أحسن مآلاً وعاقبة.

لا تقف: لا تتبع، مأخوذ من قولهم قفوت فلاناً إذا تتبعت أثره.

مرحاً: فرحاً واختيالاً وفخراً وتكبراً.

مدحوراً: مُبْعداً من رحمة الله.

من وصايا الله أيضاً

ويتابع القرآن الكريم فيوصي باليتيم خيراً، قال تعالى:

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاّ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الخطاب هنا لأولياء اليتيم الذين يقومون بكفالته، وفي النهي عن مقاربة مال اليتيم مبالغة في النهي عن التعرض لما يقتنيه من مال أو تبذيره، والمراد بالتي هي أحسن أي بالطريقة المثلى التي يكون فيها حفظ ماله واستثماره بالتجارة وغيرها، وكذلك بأن لا يشتري منه ولا يستقرض من ماله ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يبلغ قوّته، وتكون بسن البلوغ كما جاء في قوله تعالى:
﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٦]

وابتلاء اليتامى يكون باختبارهم والتبصر في أخلاقهم وتصرفاتهم وذلك بأن يُدفع إليهم شيء يسير من مالهم فإن توسموا الخير فيهم وأحسنوا التصرف فليسلم الولي إليهم أموالهم ولا يستمر بالحجر عليهم.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ وحافظوا على كل عهد التزمتموه سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم من الناس. أما التزام العهد بين الإنسان وربه فهو القيام بكل ما أمر الله به والابتعاد عما نهى عنه. وأما العهد بين الناس فهو يشمل كل عقد من العقود التي توافقوا عليها كعقد البيع، وعقد الشراكة، وعقد الإيجارات، وعقد الزواج، وعقد الصلح بين الأمم وغير ذلك، فهي كلها عهود أو عقود يفرض الوفاء بها والقيام بمقتضاها. ثم بين الله مكانة العهد بقوله: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ أي إن الله سائل ناقض العهد يوم القيامة على سبيل التوبيخ واللوم: لِمَ نكثت عهدك وضيعته ولم توفِ به؟

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ واجعلوا الكيل وافياً عادلاً إذا كلتم لغيركم ولا تنقصوا شيئاً منه ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي استعملوا في وزن البضاعة المباعة الميزان السوي العدل الذي ليس فيه اعوجاج، ولا خداع، ولا غش ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي إن إيفاء الكيل والوزن وإعطاء الناس حقوقهم خير لصاحبه ولمن يعامله، وأحسن عاقبة.

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ولا تتبع ما لا علم لك به. بهذه الكلمات القليلة بيّن القرآن المنهج الذي يجب أن يسلكه الإنسان ليأمن من الخطأ ويسلك سبيل الرشاد وليجتنب الظنون والأوهام التي تؤدي به إلى منعطفات خطيرة لا يأتي منها إلا الضرر والخسران.

هذه القاعدة الكلية يندرج تحتها نهي المشركين عن اتباع المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلّهيات والعقائد والعبادات بسبب تقليد آبائهم. هذه القاعدة بعدم اتباع ما لا علم لك به، فيها نهي عن شهادة الزور فلا تشهد أيها الإنسان إلاّ بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك.

هذه القاعدة فيها أيضاً نهي عن الكذب فلا تقل أيها الإنسان إنك سمعت وأنت لم تسمع أو إنك رأيت وأنت لم تر، أو إنك علمت وأنت لم تعلم ثم يوضح الله ما سبق بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أي أن كل عضو من أعضاء السمع والبصر والقلب صاحبه مسؤول عنه فلا يحل له استعمالها في غير ما أحله الله تعالى، فلا تصغ أيها الإنسان بسمعك إلى ما لا يحل من فحش القول والغيبة، أو إلى ما يلهيك عن عبادة ربك، ولا تمد بصرك بالنظر إلى ما حرمه الله من المناظر الفاحشة أو النظر إلى عورات الناس أو تنظر نظرة حسد إلى ما متع الله به غيرك من متاع الدنيا، أما قلبك فاحفظه من خاطرات السوء ومن وساوس الشيطان ومن الحقد والبغضاء.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي ولا تمش في الأرض مختالاً متكبراً مسرفاً في فرحك ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾ أي كيف تتكبر أيها الإنسان في الأرض وأنت لا تقدر أن تنقبها وتجعل فيها شقاً من شدة وطئك عليها بقدميك؟ وكيف تتعاظم وتتطاول على الناس ولن تبلغ مدى الجبال في الارتفاع، فأنت أضعف منها بكثير فلا يليق بك التكبر، وهذا تهكم بالمتكبر الذي يتطاول على الناس ﴿كُلُّ ذلكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ أي كل تلك الخصال التي نهى الله عنها مكروهة عند الله فاجتنبها ـ أيها الإنسان ـ لتحوز رضا ربك ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي أمرناك به يا محمد وأمرنا به قومك من الأخلاق السامية هو مما أوحينا إليك من المواعظ والحكمة، وسميت حكمة لأنها كلام محكم يرشد إلى الحق والخير، ولأنها شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ ولا تجعل مع الله إلَهاً غيره فيعاقبك الله بالإلقاء في جهنم لتعذب بنارها، تلومك نفسك والملائكة، مطروداً من رحمة الله.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ
إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أفأصفاكم ربكم بالبنين: هل خصكم ربكم فآثركم بصفوة الأولاد.

صرّفنا: بينّا المعاني بصور مختلفة.

ليذّكّروا: ليتعظوا.

نفوراً: إعراضاً.

لابتغوا: لطلبوا.

لا تفقهون: لا تفهمون.

تنزيه الله عن الولد، وتقديس كل ما في الكون له

وبعد أن أمر الله بتوحيده ونهى عن اتخاذ شريك له أتبع ذلك بالتوبيخ والذم للمشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله فخاطبهم الله بقوله:

﴿أَفَأَصْفَاكُم رَبُّكُم بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثاً﴾ أي أخصكم ربكم بالبنين واختار لنفسه من الملائكة بنات له، كيف تزعمون ذلك وأنتم تكرهون البنات وبذلك تفضلون أنفسكم على الله باختصاصكم بالبنين دونه؟ مع أنه الله سبحانه ليس له أولاد سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً **﴿إِنَّكُم لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾** إنكم أيها المشركون لتقولون قولاً منكراً بالغاً في الإثم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا في هَذَا القُرآنِ لِيَذَّكَّروا﴾ أي ولقد بينّا في هذا القرآن بأساليب متنوعة: الأحكام والحجج والوعد والوعيد والحق من الباطل ليتعظ الناس فيهتدوا

إلى الحق ﴿وَمَا يَزِيدُهُم إلاّ نفُوراً﴾ وما يزيدهم تذكيرنا لهم إلاّ ابتعاداً عن الحق.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلهةٌ كَمَا يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً﴾ أي قل يا محمد للمشركين: لو كان مع الله آلهة أخرى كما تزعمون لطلب هؤلاء الآلهة بكل جهدهم أن يسلكوا طريقاً إلى الله صاحب الملك ليشاركوه الأمر وينازعوه السلطة، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن لأن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله هي أصنام عاجزة لا تقدر على خير أو شر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً لذا بطل تعدد الآلهة وثبتت وحدانية الله ﴿سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَى عَمَّا يقولونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ تنزه الله عن أن يكون له شريك في ملكه، وعلا علوًّا كبيراً عن الشريك وعما يفتري المشركون من الكذب على الله تعالى.

﴿تُسَبِّحُ لَـهُ السَّمٰواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ والسماوات: جمع سماء، والسماء في اللغة تقال لكل ما ارتفع وعلا، وما يعلونا هو الكواكب والنجوم والمجرات. والسماوات السبع المراد بها التكثير والتضعيف كما جاء في لسان العرب لا من باب حصر العدد.

ومن الكتّاب من يقول: إن المراد بها الكواكب السيارة السبعة في المجموعة الشمسية غير الأرض[1].

فهذه السماوات السبع والأرض ومن فيهن من الإنس والجن والمخلوقات الحية والنبات والجماد كلها تنزه الله سبحانه من النقص وتبرئه من العيب وتدل على أنه الواحد المتصف بجميع صفات الكمال؛ فالإنسان المؤمن بخالقه يسبِّح الله ويحمده ويعظمه ويبرئه من كل عيب عندما يتأمل أسرار الخلق وما فيها من الحكمة الربانية.

والكائنات الحية وغير الحية تسبّح الله بلسانها الخاص وبما ألهمها الله، فالطير يسبّح الله كما جاء في القرآن: ﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ

---

(١) هذا ما ذهب إليه الدكتور داود السعدي في كتابه (أسرار الكون في القرآن) وهذه الكواكب هي: عطارد - الزهرة - المريخ - المشتري - زحل - اورانوس - نبتون - أما كوكب بلوتو الذي اكتشف أخيراً فتقول أقوى النظريات إنه ليس كوكباً سياراً بل هو قمر هارب من نبتون.

صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] والرعد يسبّح الله كما جاء في القرآن: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

والجبال كانت تسبّح الله مع نبي الله داود ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

والكون كله يسبّح الله كما جاء في تتمة الآية السابقة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُم﴾ وإن: هنا نافية بمعنى ما، أي ما من شيء من الأشياء إلاّ ينزه الله ويعظمه. مقروناً بحمده وشكره ولكن نحن لا نفهم ولا ندرك تسبيحهم. ولفظة «شيء» تشمل الرمال والصخور والأشجار والمعادن والمياه وغير ذلك من المخلوقات غير العاقلة.

ومما يثير العجب أن العلم قد اكتشف حركة دائبة في ذرات أيّ عنصر من عناصر الكون فقد ثبت علمياً أن مادة أي عنصر من عناصر الكون تتألف من ذرات وكل ذرة تتألف من عنصرين هما (النيوترون) و(البروتون) وهذان العنصران يطلق عليهما (نواة الذرة) يضاف إليهما عنصر ثالث هو (الالكترونات) حيث تدور حول النواة في سبع مدارات محددة تسمى مستويات الطاقة، ودورانها حول النواة من يسار إلى يمين أي ضد اتجاه دوران عقارب الساعة. وهذا الترتيب وما فيه من نظام يشبه النظام الشمسي حيث تدور الكواكب السيارة والأرض حول الشمس في الاتجاه ذاته أي من يسار إلى يمين عكس دوران عقارب الساعة، وكذلك المجاميع النجمية فهي في دوران أيضاً في الاتجاه ذاته حول محورها.

وهنا نتساءل هل هذه الحركة الدائبة في ذرات كل شيء هي تسبيح لله؟

ومن المدهش أن الطواف حول الكعبة في الحج أو العمرة أو في غيرهما يكون اتجاهه مثل اتجاه دوران الالكترونات أي عكس اتجاه دوران عقارب الساعة وعدد الطواف هو سبع مرات والطواف من أهم المظاهر لعبادة الخالق وتعظيمه وإجلاله.

ويختم الله هذه الآيات بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ إنه سبحانه حليم لا يعجل العقوبة على خلقه الذين يخالفون أمره، غفور لمن تاب.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ
وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ
يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾
۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن
يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

شرح المفردات

حجاباً مستوراً: أي حجاباً ساتراً عن الرؤية.

أكنة: جمع كنان وهو الغطاء.

أن يفقهوه: لئلا يفهموه.

وفي آذانهم وقراً: وفي آذانهم ثقلاً وصمماً مانعاً من سماعه.

ولّوا على ادبارهم نفوراً: انصرفوا على اعقابهم هاربين نافرين عن استماعه.

إذ هم نجوى: يتحدثون سراً.

رفاتاً: حطاماً وهو ما تكسر من كل شيء.

أو خلقاً مما يكبر في صدوركم: أو خلقاً مما تستبعدون قبوله للحياة.

فطركم: خلقكم.

فسينغضون إليك رؤوسهم: يحركونها تعجباً واستهزاء.

موقف المشركين من القرآن والبعث

ويتابع القرآن فيبين موقف المشركين من القرآن:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت ولا يقرون بالثواب والعقاب من الله جعلنا بينك وبينهم حجاباً معنوياً يحول بينهم وبين فهم القرآن وإدراك ما فيه من الهدى عقوبة لهم من الله على كفرهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي وجعلنا بمقتضى حكمتنا في الإضلال والهداية على قلوب هؤلاء المشركين أغطية تمنعهم عن فهم القرآن ﴿وفي آذانِهِم وَقْراً﴾ وجعلنا في آذانهم صمماً وثقلاً يمنعهم عن سماع القرآن سماع فهم وتدبّر.

هذا الحجاب ينطبق حالياً على الذين يعتنقون المذاهب المادية التي تنكر الآخرة والثواب والعقاب من الله فلا يريدون سماع القرآن وتقصي حقائقه ولا الاهتداء بهديه لأنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي وإذا سمعك هؤلاء المشركون تقرأ من القرآن الكريم ما ينطق بتوحيد الله وذم الأصنام ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِم نُفُوراً﴾ هربوا نفوراً وانزعاجاً من سماع كلمة وحدانية الله لأنها تنفّرهم من أصنامهم وتنهاهم عن عبادتها. وهم مصممون على ضلالهم.

فعقيدة وحدانية الله كانت تهدد المشركين في مكانتهم الاجتماعية وفي امتيازاتهم فقد كان مشركو مكة سدنة البيت الحرام، وكان آنذاك قد انتشرت فيه عبادة الأصنام، وكانت سدانتهم لبيت الله الحرام تدر عليهم المال الوفير والزعامة، لذا كانوا ينفرون من كلمة وحدانية الله لأنها كانت تقضي على زعاماتهم الموروثة القائمة على عبادة الأوثان.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُون إِلَيْكَ﴾ والله أعلم بالهدف الذي يستمعون من أجله القرآن وهو الهزء والسخرية واللغو حين استماعهم إليك يا محمد وأنت تقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ والله أعلم بما يتشاورون في أمرك سراً ﴿إِذْ يَقُولُ

الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُون إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ حين يقول هؤلاء الظالمون لبعضهم البعض: إن اتبعتم محمداً فأنتم لا تتبعون إلاّ رجلاً قد أصابه السحر فذهب عقله.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ تأمل يا محمد واعتبر كيف مثّلوا لك الأمثال، وشبهوك مرة بشاعر، وتارة بساحر، وتارة بمجنون مع اعتقادهم في صميم قلبهم بخلاف ذلك ﴿فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعونَ سَبِيلاً﴾ فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إلى الهدى ولا يقدرون على الخروج من الكفر ولا النيل منك.

ويتابع القرآن فيذكر إنكار المشركين للبعث:

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ ولقد قالوا: أنُبعث أحياء بعد أن نصير عظاماً وحطاماً مفتتاً في قبورنا فنكون خلقاً جديداً ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً. أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد لو صرتم حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر غيرهما مما تنكر عقولكم قبوله للحياة فالله قادر على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ أي سيقولون في دهشة واستنكار من يبعثنا أحياء بعد الموت ﴿قُلِ الَّذي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل لهم يا محمد: يعيدكم أحياء الذي أوجدكم من العدم أول مرة على وجه الأرض، والقادر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حيّاً ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤوسَهُم﴾ أي يحركون رؤوسهم نحوك تعجباً واستهزاء بعد سماعهم قولك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكونَ قَرِيباً﴾ أي يقولون إنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث؟ قل لهم يا محمد: لعله يكون قريباً فإن كل ما هو آت قريب وإن طال الزمن.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكم فتستجيبون بِحَمْدِهِ﴾ أي أن هذا البعث القريب يكون يوم يدعوكم ربكم بالخروج من قبوركم أحياء على لسان الملك إسرافيل فتجتمعون في أرض المحشر للحساب وأنتم تلهجون بحمد ربكم مدركين عظمته وقدرته ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُم إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وتحسبون أنكم ما لبثتم في الأرض إلاّ زمناً قليلاً لهول ما ترون من أهوال يوم القيامة.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ
لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ
أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

شرح المفردات

ينزغ بينهم: يفسد بينهم ويثير الشر والخصام.

وكيلاً: موكولاً إليك أمرهم.

زبوراً: وهو كتاب داود المعروف بالمزامير.

من دونه: من غير الله.

ولا تحويلا: ولا تحويل الضر عنكم إلى غيركم.

الوسيلة: القربة إلى الله بما يرضيه من العبادة والأعمال الصالحة.

كان محذوراً: جديراً بأن يحذره كل إنسان.

توجيهات للمؤمنين

ثم يوصي الله المؤمنين بأن يقولوا الكلام الحسن في مخاطبة الناس:

﴿وَقُل لِعِبادي يَـقُولوا الّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين بأن يقولوا الكلمة التي هي أحسن الكلام عند محاورتهم المشركين وغيرهم وذلك بأن يجتنبوا الشتم والسب والمخاشنة في الكلام. فالكلمة الطيبة لها منفذها إلى القلب في الاقناع، ولها تأثيرها السحري في توثيق الروابط بين الناس **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَـنْـزَغُ بَـيْنَـهُم﴾** إن الشيطان يفسد بين الناس ويثير بينهم العدواة والبغضاء بسبب الغلظة بالكلام **﴿إِنَّ الشَّيْطَان كَانَ للإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً﴾** إن الشيطان عدو لبني آدم وعداوته ظاهرة واضحة تمتد إلى القِدَم منذ أغوى أباهم آدم وأخرجه من الجنة.

ومن الكلام الحسن أن تقولوا للمشركين: ﴿رَبُّكُم أَعْلَمُ بِكُم﴾ أي ربكم أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن يستحق الضلالة ﴿إِن يَشَأ يَرْحَمْكُم﴾ إن يشأ ربكم يرحمكم بالتوفيق للإيمان فيتوب عليكم ﴿أَو إِن يَشَأ يُعَذِّبْكُم﴾ أو إن يشأ يخذلكم ويصرفكم عن الإيمان فتموتوا على الكفر فيعذبكم الله يوم القيامة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمَ وَكيلاً﴾ وما أرسلناك يا محمد كفيلاً لهم تتولى أمرهم وتجبرهم على الإسلام، وإنما أرسلناك مبشراً بثواب الله لمن أطاعه ومنذراً بعقاب الله لمن عصاه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن في السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ وربك يا محمد أعلم بكل من في السماوات والأرض وأعلم بأحوال الناس وما يصلحهم فيختار منهم لنبوته من يشاء، وقد اختارك لرسالته فلا يصح أن يستكثروا عليك النبوة ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيّين عَلَى بَعْضٍ﴾ وكان تفضيل هذا البعض يعود لما يتحلون به من الفضائل النفسية والروحية والخلقية لا بكثرة الأموال والأتباع، فاتخذ الله ابراهيم خليلاً، وخص موسى بكلامه، وجعل عيسى كمثل آدم من غير أب، خلقه من تراب ثم قال له كن فكان، وأعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأسرى بك ربك يا محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في برهة قصيرة من الليل وعرج بك إلى السماوات العلى وأعطاك القرآن المعجز للبشر بأسلوبه وهديه ﴿وآتينا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ وهو الكتاب المعروف عند أهل الكتاب بمزامير داود الذي يشتمل على أدعية وثناء على الله وتمجيد له. وقد يسأل سائل: لِمَ خص الله داود بالذكر باعطائه الزبور؟ والجواب أن داود مع كونه ملكاً عظيماً لم يذكر الله تعالى ما آتاه من المُلك بل ذكر ما آتاه من كتاب وهو الزبور للتنبيه على أن تفضيل بعض النبيين على بعض يعود إلى التفضيل بالعلم والدين والفضائل النفسية لا بالملك وسعة المال.

﴿قُلِ ادعُوا الَّذِين زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ﴾ أي قل يا محمد للذين يعبدون غير الله ويزعمون أنها آلهة كالملائكة[١] والمسيح وعزير، ادعوهم حين ينزل بكم الضر

---

(١) كان من قبائل العرب من يعبد الملائكة ويقولون هم بنات الله.

﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم وَلا تَحْوِيلا﴾ فلا يستطيعون إزالة المرض والفقر والقحط وغيرها عنكم وتحويل العسر إلى يسر ﴿أُولَئِكَ الَّذِين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى ربِّهم الوسِيلَةَ﴾ أي أولئك الذين يتخذونهم آلهة ويعبدونهم من غير الله هم أنفسهم يطلبون الدرجة والمنزلة عنده بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ويحرصون على أن يكونوا أقرب إلى الله بالطاعة وازدياد الخير فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ويطمعون في رحمة الله ويرهبون عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ إن عذاب ربك ينبغي أن يحذره كل إنسان ويخاف منه.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

مسطوراً: مكتوباً.

بالآيات: بالمعجزات.

وآتينا ثمود الناقة مبصرة: وأعطينا قبيلة ثمود معجزة (الناقة) بينة واضحة.

فظلموا بها: فكفروا بها واعتدوا عليها.

أحاط بالناس: أي أحاط بالناس علماً وقدرة، فهم في قبضته.

الشجرة الملعونة: شجرة الزقوم.

طغياناً: تجاوزاً للحد في الكفر وتمرداً على رسول الله.

تحذير المشركين من عذاب الله

ثم ينتقل القرآن إلى تحذير المشركين من عذاب الله فيقول الله تعالى :

﴿وَإِن مِنْ قَرْيَةٍ إلاّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ وإن : نافية بمعنى ما، أي ما من قرية من قرى الكفار إلا سيهلكها الله بأن يبيد أهلها جميعاً قبل يوم القيامة ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ أو يعذب الله أهلها عذاباً شديداً دون الإهلاك ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك الإهلاك والتعذيب مكتوباً في اللوح المحفوظ[١] لتنفيذه في الأجل المحدد.

ثم يأتي الرد الإلهي على المشركين الذين طلبوا معجزات من النبي ﷺ، من ذلك أن يجعل لهم جبل الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال التي حولهم فيزرعوا مكانها، فقال سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرسِلَ بِالآيَاتِ إلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوّلُون﴾ أي وما أحجمنا عن أن نعطي هؤلاء الكفار المعجزات التي طلبوها، إلاّ صيانة لهم بأن يكون حالهم كحال من سبقهم من الأمم، حيث اقترحوا على أنبيائهم بعض المعجزات، فأعطيناهم إياها ولكنهم لم يؤمنوا، وكذبوا أنبياءهم فاستحقوا بكفرهم مع وجود المعجزات عذاب الاستئصال لهم، ولكننا لم نُرِد أن نعذب قوم محمد لأننا نعلم أن فيهم من سيؤمن، ويؤمن أولادهم لهذا لم نجبهم إلى طلبهم.

﴿وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ وممن سبقهم من الأمم التي أهلكها الله قوم ثمود، حيث طلبوا من نبيهم صالح أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه رسول الله، فأتاهم بالناقة معجزة واضحة أدركها الناس بأبصارهم، وقد خلقها الله على غير المألوف، وأمرهم على لسان نبيهم صالح بأن لا يمسوها بسوء ولا يذبحوها، فخالفوا أمر الله وذبحوها فحق عليهم عذاب الله وأبادهم جميعاً ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ

(١) اللوح المحفوظ : وهو المعبّر عنه أيضاً في القرآن بأم الكتاب ويوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وقدّر أن يعمله.

﴿إلاَّ تَخْويفاً﴾ وما يرسل الله المعجزات على أيدي رُسله إلاّ تخويفاً كي يترك الناس المعاصي، وإنذاراً للمكذبين برسله بسوء العاقبة.

﴿وَإذْ قُلْنَا لَكَ إنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ واذكر يا محمد إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بالقوم الذين يكذبونك علماً وقدرة، فهم في قبضتنا فلا تبال بهم وامض في دعوتك وبلّغ ما أرسلت به فإننا نعصمك منهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا التي أَرَيْنَاكَ إلاّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إياها يا محمد ليلة الإسراء وما شاهدته فيها من العجائب التي ذكرتها لقومك إلاّ اختباراً لهم فمنهم من أنكر عليك قولك وارتد عن الإسلام ومنهم من صدّقك ﴿والشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرْآنِ﴾ الشجرة معطوفة على الرؤيا، أي وما جعلنا رؤيتك الشجرة الملعونة إلاّ اختباراً لإيمان الناس أيضاً، والشجرة الملعونة المراد بها شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٤].

فعندما أُسري بالنبي ﷺ أخبر النبي قومه أنه أُسري به إلى البيت المقدس ثم عُرِجَ به إلى السماء، ورأى الجنة والنار، ورأى في النار شجرة الزقوم، فكذّب المشركون ذلك، وسخر البعض منه، وقالوا: كيف تنبت شجرة في النار، والنار تأكل الشجر؟ وقد جهلوا أن هذا ليس مستحيلاً على الله، فالذي خلق كل شيء في هذا الكون لا يصعب عليه أن يجعل شجرة بخصائص معينة لا تأكلها النيران، هذا مع العلم أن هناك بعض المواد في الطبيعة لا تؤثر فيها النيران ﴿وَنُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُم إلاَّ طُغْيَاناً كَبيراً﴾ ونخوف المشركين بالعذاب أو الهلاك، فما يزيدهم تخويفنا إياهم إلا زيادة في الكفر واستمراراً في الضلال.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ
طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ
جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ
عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

شرح المفردات

اسجدوا لآدم: حيوه بالانحناء له تكريماً له لا سجود عبادة.

أرأيتك: أي أخبرني.

لأحتنكن ذريته: لأستولين عليهم بالإغواء.

موفوراً: كاملاً.

واستفزز: أي استخف وازعج.

وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلِكَ: اجمع عليهم خيلك والمشاة من جندك.

غروراً: باطلاً وخداعاً.

سلطان: تسلط وقدرة على إغوائهم.

غواية إبليس لبني آدم

ولما كان الباعث على إعراض المشركين عن الإسلام الكبرياء والحسد للنبي ﷺ بيّن القرآن أن هاتين الصفتين من صفات إبليس الذي أعلن عزمه على غواية بني آدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلملائكةِ اسْجُدوا لآدمَ فَسَجدوا إلاّ إبليسَ﴾ أي واذكر أيها النبي حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لما له من الفضائل المستوجبة

لذلك فسجدوا كلهم إلاّ إبليس الذي كان من صنف الجن فاستكبر وخرج عن طاعة ربه ﴿قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ أي قال إبليس منكراً: هل أسجد لمن خلقته من طين؟ كما بيّن القرآن رفض إبليس للسجود لآدم في موضع آخر: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وتابع إبليس قوله: ﴿قال أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي أخبرني عن هذا الذي فضّلته عليّ بأن أمرتني بالسجود له لِمَ كرمته عليَّ ﴿لَئِن أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ لئن: لام قسم، أَقسم عدو الله إبليس وقال: لئن أبقيتني حياً يا رب إلى يوم القيامة ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَتَهُ إلاَّ قليلاً﴾ أي لأستولين على بني آدم بالإغواء والإضلال ولأستميلنهم إليّ إلاّ قليلاً منهم ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ إن قوله تعالى: اذهب ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وإنما معناه امضِ لشأنك الذي اخترته ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنهُم فَإِنَّ جَهَنَّم جَزَاؤُكُم جَزَاءً مَوْفوراً﴾ فمن أطاعك من ذرية آدم على الضلالة فإن عذاب جهنم جزاؤك وجزاؤهم جزاء كاملاً لا ينقص منه شيء.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ واستخف وأزعج من استطعت منهم بوسوستك ودعائك لهم إلى الشر والمعصية ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واجمع عليهم فرسان جندك ومشاتهم، والمراد التسلط عليهم بكل ما يقدر عليه من أساليب الإغواء مستخدماً كل أتباعه ﴿وَشَارِكْهُم في الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ﴾ أي بتحريضهم على كسب الأموال بالربا والرشوة والاغتصاب والغش وإنفاقها في معصية الله، أما المشاركة في الأولاد فهي إنجاب الأولاد عن طريق الزنا، وعدم تنشئة الأولاد على الصلاح والتربية الفاضلة فينحرفون نحو الفواحش والمنكرات التي يزينها لهم الشيطان، أو تنشئتهم على الكفر والعصيان والضلال ﴿وَعِدْهُم وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُروراً﴾ وقدم لهم الوعود الكاذبة كالوعد بشفاعة الأصنام والأولياء والقديسين ليظلوا في كفرهم وضلالهم، وقدم الوعد بالعفو والمغفرة من الله مع الاسترسال في المعاصي وعدم التوبة، وما يعد الشيطان أتباعه إلاّ وعداً باطلاً بتزيين الخطأ وإظهار أنه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ﴾ إن عبادي المخلصين ليس لك يا إبليس قدرة على إغوائهم لأنهم في حفظي ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ وكفى بالله حافظاً من كيدك ونصيراً للمؤمنين الذين يكلون أمرهم إلى ربهم ويطيعونه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه. ومعنى ذلك أن الذين يعرضون عن عبادة ربهم وطاعته هم أقرب إلى إغواء الشيطان لهم واستيلائه على قلوبهم.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ
فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ
تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يُزجي: يجري ويسوق برفق.

الضر: الشدة، وهنا خوف الغرق بتقاذف الأمواج.

أن يخسف بكم جانب البر: يغيّبكم تحت الثرى.

حاصباً: الحاصب، الريح المهلكة بالحصى أو غيره.

وكيلاً: حافظاً ونصيراً.

قاصفاً من الريح: ريحاً عاصفة مهلكة.

تبيعاً: نصيراً ومعيناً، أو مطالباً بالثأر.

فضل الله على الناس

ثم يبين الله فضله على الناس بتسيير السفن في البحر لمنافعهم:

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي ربكم - أيها الناس - هو الذي يسيّر ويجري بقدرته السفن في البحر بفعل الرياح، وهذا يتمثّل بالسفن الشراعية قديماً، أما غيرها من السفن فتسير بفعل المحركات التي ألهم الله الإنسان لصنعها، والتي تعمل بما سخره الله للإنسان من طاقة كالنفط أو الفحم الحجري أو غير ذلك، فالله هو خالق ما تسير به السفن ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتنالوا من رزقه سواء بالتجارة أو الصيد أو غير ذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ وإنما يسَّر الله للناس ذلك لفضله عليهم ورحمته بهم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وإذا أصابتكم الشدة وتعرضتم للغرق في البحر ذهب عن أذهانكم كل ما تعبدون من غير الله ولجأتم إلى الله وحده فلم تجدوا مغيثاً سواه.

هذه هي الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى ربها عند الشدة وتتضرع إليه وحده عند الخطر الشديد وتنبذ كل الأوهام والأساطير والعقائد الباطلة الموروثة عن آبائها، يستوي في ذلك المؤمنون والملحدون لأنهم يدركون في تلك اللحظات الرهيبة التي يشرفون فيها على الغرق القوة الخفية التي أبدعت الكون وحاجتهم لها لتنقذهم مما هم فيه.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُم﴾ أي فلما أنجاكم ربكم من خطر الغرق وأوصلكم إلى شاطىء السلامة أعرضتم عن ذكره وعبادته، وجحدتم فضله عليكم ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ وكان الإنسان جحوداً لنعم الله عليه، وهذه هي الطبيعة البشرية لكثير من الناس.

﴿أَفَأَمِنتُم أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ﴾[1] أي أنجوتم من الغرق فأصبحتم في أمان فحملكم ذلك على الإعراض عن ربكم؟ فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بأن يخسف بكم الأرض ويغيبكم في أعماقها ﴿أو يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أَوْ يُرْسِلَ عليكم ريحاً شديدة ترمي بالحصى الصغار يرجمكم بها. أو بمعنى: يرسل عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ ثم لا تجدوا لكم حافظاً ونصيراً يمنعكم من عذاب الله ﴿أَمْ أَمِنتُم أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى﴾ بل أأمنتم أيها القوم أن يعيدكم إلى ركوب البحر مرة ثانية لدواعٍ وحاجات تلزمكم ذلك فتركبوا السفن ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُم قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ فيرسل عليكم ريحاً شديدة عاصفة لا تمر بشيء إلا حطمته ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُم﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم وإعراضكم عن عبادة ربكم ﴿ثُمَّ لا تجدوا لَكُم عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ ثم لا تجدوا لكم حينئذ نصيراً أو منقذاً يتابعكم ليدفع الأخطار عنكم، أو متابعاً لنا يأخذ لكم بالثأر منا.

ثم يبين القرآن منزلة بني آدم التي خصهم الله بها:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بني آدَمَ﴾ هذه الآية لا نرى ما يوازيها شمولية في الاعتراف بحقوق الإنسان، فالله قد كرم بني آدم جميعاً دون استثناء، وفضلهم على كثير من مخلوقاته، لقد كرّمهم الله بحسن الصورة والعقل والمنطق، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ويقول سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

هذا التكريم الإلهي يجب أن يعيه الإنسان فيكرم أخاه الإنسان مهما كان لونه أو مذهبه أو بلده، فلا يهينه، ولا يذله، ولا يعتدي عليه، ولا يغتصب أمواله ولا ينتقص من كرامته. هذا وإن كل التشريعات التي سنتها المنظمات الدولية في العصر الحاضر تدور على كيفية المحافظة على كرامة الإنسان والمحافظة على حقوقه،

---

(١) أفأمنتم: الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم.

والإسلام له السبق في ذلك حيث اعترف بكرامة الإنسان مطلقاً ودعا إلى صيانة حقوقه.

﴿وَحَمَلْنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ هنا وصف لمظهر من مظاهر التكريم لبني آدم حيث سخر الله لهم في البر والبحر ما يحملهم وينقلهم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى آخر.

ففي زمن نزول القرآن كانت الدواب للنقل البري، والسفن الشراعية للنقل البحري، أما الآن فإننا نفهم هذا الحمل على شموليته بما ألهم الله الإنسان لاختراعه من أدوات النقل الأخرى كالطائرات والقاطرات والسيارات والبواخر الضخمة.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فهنا تصوير للمستوى الرفيع الذي عليه بنو آدم حيث رزقهم الله لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ لقد أجمل الله هذا الكثير من التفضيل ولم يبين أنواعه، فأفاد هذا التعميم أن بني آدم فضلهم الله على كثير من مخلوقاته بخصائص لم تتوفر لغيرهم من المخلوقات الحية، وسخر لهم ما في السماوات والأرض لمنافعهم، وفي هذا تكريم للنوع الإنساني وعلو منزلته في الأرض، وهذا مما يستوجب من الناس الشكر لخالقهم.

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ
وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا
غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا
قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا
يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

شرح المفردات

بإمامهم: بمن كانوا يأتمون به أو بأنبيائهم أو بكتابهم الذي أُنزل عليهم.

ولا يظلمون فتيلاً: أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء.

ليفتنونك: ليوقعونك في الفتنة وليصرفونك عن دعوتك.

لتفتري علينا غيره: لتختلق وتتقول علينا غير القرآن.

خليلاً: صديقاً ومحباً.

ولولا أن ثبتناك: ولولا أن عصمناك وثبتناك على الحق.

تركن إليهم: تميل إليهم.

ضعف الحياة وضعف الممات: ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة.

ليستفزونك: ليزعجونك بمعاداتهم ومكرهم.

خِلافك: بعدك.

سنّة: السنّـة هي الطريقة والخطة المتبعة.

تحويلاً: تبديلاً وتغييراً.

أحوال الناس في الآخرة وتثبيت اللّه لرسوله في الدنيا

ثم ينتقل القرآن إلى بيان أحوال الناس في الآخرة وهم في موقف الحساب: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي واذكر أيها النبي يوم ندعو كل أناس يوم القيامة باسم إمامهم الذي ائتموا به واتبعوه من نبيّ مرسل إليهم، أو كتاب سماوي أُنزل عليهم، فيقال: يا أمة إبراهيم، ويا أمة موسى، ويا أمة عيسى، ويا أمة محمد، أو يقال: يا أهل التوراة، ويا أهل الإنجيل، ويا أهل القرآن. وقيل: ينادى بكتاب أعمالهم فيقال: يا أصحاب الخير، ويا أصحاب الشر، فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتاب أعمالهم بأيديهم اليمنى، ثم ينادي: يا أتباع فرعون ويا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلالة وأكابر الكفار فيأخذون كتب أعمالهم بأيديهم اليسرى تحقيراً لهم.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بيمينهِ﴾ أي فمن أعطي كتاب أعماله فأخذه بيمينه كان ذلك بشرى له بنعيم الآخرة ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرأونَ كِتَابَهُم﴾ فهؤلاء يقرأون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من حسنات ﴿وَلا يُظلَمُون فَتِيلاً﴾ ولا ينقص من ثوابهم ولو بقدر الفتيل، والفتيل هو الخيط الذي في قلب نواة البلح، وهو مثل في نهاية القلة.

﴿وَمَنْ كَانَ في هَذِهِ أَعْمَى﴾ ومن كان في هذه الدنيا أعمى البصيرة عن حجج الله وبيناته ولا يهتدى إلى الحق والهدى ﴿فَهُوَ في الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾ فهو في الآخرة أعمى لا يهتدي إلى ما ينجيه، وأضل طريقاً عن طريق السعادة، وإذا تاب في الآخرة فلن تقبل توبته، وقد كان عليه أن يتوب في الدنيا.

ثم يبين الله محاولة المشركين فتنة النبي ﷺ وإبعاده عن الطريق الذي رسمه الله له: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَينا إلَيْكَ﴾ أي وإن المشركين قاربوا بخداعهم لك يا محمد أن يوقعوك في الفتنة لصرفك عما أوحينا إليك من الأحكام.

يروى في سبب نزول الآية أن وفد قبيلة ثقيف أتوا النبي ﷺ فقالوا: متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، ومنها قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء الفقراء والعبيد من مجلسك حتى نجلس معك ونسمع

منك ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتختلق علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك صفياً وصاحباً لهم ﴿وَلَوْلا أن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي ولولا تثبيتنا إياك على الحق وعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً﴾ لقد قاربت أن تميل قليلاً إلى اتباع مرادهم لشدة احتيالهم عليك وخداعهم لك. وهذا صريح في أن النبي ﷺ لم يهمّ أبداً بإجابتهم إلى ما دعوه إليه مع قوة الداعي إليها.

وقد كان رسول الله معصوماً ولكنه تخويف لأمته لئلا يركن أحد من المؤمنين ويستجيب لإغراءات المشركين في ترك شيء من أحكام الله وشرائعه.

﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ أي لو فعلت ذلك من الميل والاطمئنان إليهم لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ أي لا تجد من ينصرك ويدفع عنك العذاب.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي ولقد قارب أهل مكة بإزعاجهم لك بعداوتهم ومكرهم ليخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي ولئن أخرجت من أرض مكة لا يلبثون بعد إخراجك منها وهم سالمين إلاّ زمناً يسيراً.

هذا وعد من الله بإهلاك هؤلاء الكافرين، وقد تحقق وعد الله فيهم، فإن النبي لما اشتد الأذى عليه من كفار مكة وحاولوا قتله أمره الله بالهجرة إلى المدينة المنورة، ثم لم تمض سنة ونصف بعد هجرته حتى التحم النبي ﷺ مع كفار مكة في معركة بدر وقتل منهم زهاء سبعين رجلاً.

أيّ برهان أوضح من ذلك مما يشهد أن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقٌّ؟

ثم يقول سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي هذه عادتنا وطريقتنا مع الذين يؤذون رسلنا ويخرجونهم من ديارهم بأن نهلكهم ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ ولا تجد لطريقة الله في إهلاك من يخرج الرسل من بينهم تبديلاً وتغييراً.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾﴾

شرح المفردات

لدلوك الشمس: أي من وقت زوال الشمس وانتقالها من وسط السماء إلى ناحية الغرب.

غسق الليل: ظلمة الليل.

قرآن الفجر: قراءته والمراد بها صلاة الفجر.

كان مشهوداً: تشهده الملائكة.

فتهجد: استيقظ ليلاً للصلاة.

نافلة: صلاة زائدة على الفريضة.

سلطاناً: حجة لها سلطة على العقل بقوتها.

جاء الحق وزهق الباطل: جاء الإسلام بالدعوة إلى وحدانية الله وزال الشرك وعبادة الأصنام.

زهوقاً: مضمحلاً باطلاً.

خساراً: خسارة وهلاكاً بسبب كفرهم.

دعوة إلى إقامة الصلاة

وبعد أن بيّن الله تعنت المشركين وعدم استجابتهم لدعوة النبي ﷺ أمره الله كما أمر قومه بإقامة الصلاة تثبيتاً للقلب، فقال سبحان:

﴿أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَيْلِ﴾ أي أدِّ الصلوات المفروضة كاملة مستوفية أركانها من وقت زوال الشمس في وسط السماء إلى سواد الليل

﴿وقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ وأدِّ صلاة الفجر. وعبر عن صلاة الفجر بالقرآن لأنها يطلب فيها تطويل القراءة عن غيرها من الصلوات ﴿إِنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ إن صلاة الصبح تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار كما جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر»[1].

هذا وإن قراءة القرآن في الفجر لها خصوصية لا تتوفر لغيرها من الأوقات حيث تكون النفس أخذت قسطها من الراحة وابتعدت عن مشاغل الحياة فتقبل على الصلاة بخشوع ولذة روحية يوفرها سكون الليل وانتفاء الضجيج، وسحر الطبيعة.

هذه الآية السابقة جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها، (فدلوك الشمس) يتناول صلاتي الظهر والعصر، و (غسق الليل) يتناول صلاتي المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) هو صلاة الصبح.

فالإنسان في هذه الحياة الدنيا تعتريه الهموم والأحزان، لذا كانت الصلاة مخففة لأحزانه يستلهم منها الصبر والثبات واليقين بما تحتويه من ذكر الله وشكره وتعظيمه والاستعانة به وقراءة للقرآن، كما أنها في الوقت نفسه تكون رادعة عن الشرور والآثام لما يستشعره الإنسان من الرهبة والخشوع عند الوقوف في حضرة الله في الصلاة فترتدع نفسه عن كل ما يراودها من اقتراف الشرور والآثام.

﴿وَمِنَ الليْلِ فَتَهَجَّد بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ، أي قم بعد نومك للصلاة بعض الليل، وهذا هو معنى التهجّد. أما النافلة فهي الزيادة، أي أن صلاة الليل فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصَّك الله بها يا محمد من بين أمتك حيث تكون صلاة الليل بالنسبة لهم مندوبة وتطوعاً. وقيل: إن صلاة الليل ليست من الفرائض في حق النبي ﷺ بل هي تطوّع لرفع درجاته في الآخرة، كما أنها

(١) رواه البخاري ومسلم.

مظهر من مظاهر الشكر لله على نعمائه ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ لفظة عسى من الله تفيد التحقق، لأن عسى يفيد معناها اللغوي: الترجي في الأمر المحبوب والطمع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه منه كان عيباً في حقه، والله ذو الفضل العظيم على عباده، فهو أكرم وأجلّ من أن يُطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه إياه. والمعنى: تهجّد بالصلاة في الليل عبادة زائدة على الصلوات الخمس، رجاء أن يرفعك ربك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق، والمقام المحمود هو مقام الشفاعة من النبي ﷺ لأمته كما جاء في الحديث الصحيح عنه، وقيل المقام المحمود ينتظم به كل مقام يتضمن كرامة له.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وقل يا محمد داعياً ربك: رب أدخلني فيما أمرتني به من الطاعات إدخالاً مرضياً منك لا رياء فيه ويوصف صاحبه بأنه صادق في قوله وفعله ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وأخرجني يا رب من كل ما نهيتني عنه مخرج صدق يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق. وقيل: إن الله علمه أن يدعوه بأن يخرجه من دار المشركين دار الإيذاء والغدر، وأن يدخله موطناً فيه الطمأنينة والأمن فدعا ربه كما أمره فكان أن أخرجه من مكة وأدخله المدينة المنورة ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ السلطان: يأتي بمعنى الحجة والبرهان، كما يأتي بمعنى القهر والغلبة، والمعنى: واجعل لي يا رب حجة ثابتة وبرهاناً بيّناً أهدي به الناس، واجعل لي يا رب قوة تنصرني بها على من عاداني وقاتلني، وقد استجاب الله دعاء رسوله محمد ﷺ وقهر جميع أعدائه، وأظهر دينه على الأديان كلها وعصمه من أذى أعدائه وكيدهم.

﴿وَقُلْ جاءَ الحَقُّ﴾ وقل يا محمد جاء الحق وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم الداعي إلى الحق والهدى ﴿وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ أي ذهب وهلك الشرك المتمثل بعبادة الأصنام ﴿إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ إن الباطل كان مضمحلاً لا بقاء له مهما طال به الزمن. وقد روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحاً لها كان حول البيت الحرام ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الحَقُّ

وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ فما بقي منها صنم إلاّ خرّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت.

القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين

ثم يبين الله تأثير القرآن على النفس الإنسانية وفضائله الجمة فيقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنينَ﴾ فالقرآن شفاء لأمراض المجتمع من الحسد والبغضاء والنفاق والبغي والظلم، كما أنه شفاء لأمراض النفس. والقرآن أيضاً رحمة للمؤمنين لما يشتمل عليه من تشريعات وقوانين تقوم على اليسر والعدالة وتحقيق مصالح الناس وسلامتهم ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمينَ إلاَّ خَسَاراً﴾ أي أن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر لا ينتفعون به ولا يعونه، ولا يزيدهم سماع القرآن إلا بعداً عن الإيمان لتأصل الكفر في نفوسهم، وصدق الله إذ قال في وصف القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقفة تأمل عند قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ فالقرآن شفاء للنفس لأنه يدعو إلى الإيمان بوحدانية الله والعمل الصالح، ويبين أن الحياة الدنيا فانية ومتاعها قليل، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة التي لا تزول، هذا هو المنهج الإلهي لعلاج أمراض النفس وفي مقدمتها القلق وتوفير الطمأنينة للإنسان وإذا وعى الإنسان هذا المنهج فإن القلق لن يعرف الطريق إلى قلبه، فالمنهج القرآني يقتلع مشكلة القلق من قلب الإنسان بتعميق الصلة بينه وبين ربه، ففي ساعة اليأس يتذكر المؤمن أن هناك ملاذاً يلجأ إليه وأن ربه قادر على معونته وكشف الضر عنه فتطمئن نفسه وصدق الله حيث يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والقلق يشكل القاسم المشترك لكل الأمراض النفسية، وهو ينتج إما عن خوف من المستقبل أو توقع مصيبة ما، أو عن صراع داخل النفس سببه اعتبارات

شتى. والقلق له آثار مدمرة على صحة الإنسان فإذا اشتدّ قد يؤدي إلى أمراض القلب، أو قرحة المعـدة، أو ارتفاع ضغط الدم والربو، ويعالج الطب الحديث القلق بوسائـل عدة؛ إما بواسطة العقاقير المهدئة أو بالعلاج النفسي الذي يعتمد على تطبيق أسس ومناهج علم النفس، ولكن هذه الوسائل لا تنفع إلا في نطاق محدود وفي الغالب لا تؤتي ثمارها على النفس لأنها علاج لأعراض الحالة المرضية وليست علاجاً لأسبابها وجذورها.

أما العلاج القرآني لأمراض النفس فهو أقوى أثراً لأنه يعالج أسباب القلق ومنشأه. ولنعط أمثلة على ذلك:

من أهم أسباب القلق: الخوف من الفقر، والقرآن يخاطب الناس: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فعلى المؤمن أن يتخذ من الوسائل والعمل ما يقيه الفقر والجوع ثم يترك الأمر بيد الله الذي سيوفر له أسباب الرزق.

ومن دواعي القلق: الخوف من مصائب الحياة والجزع عند حلولها والقرآن يوضح الحقيقة في ذلك بقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] فإذا وقعت المصيبة فهي مقدّرة من الله. وإذا كان لا بد من وقوعها فعلينا الاستسلام لإرادة الله والتحلي بالصبر واحتساب الأجر من الله.

ومن أسبـاب القلق: الشعور البالغ بعقدة الذنب والقرآن يبين المخرج من ذلك بقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟[١] عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟[٢] مِن

---

(١) أسرفوا: تجاوزوا الحد في المعاصي.

(٢) لا تقنطوا: لا تيأسوا.

رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ومن **أسباب القلق**: ما يصادفه الإنسان من خيبة أمل أو إحباط في عمله، والقرآن يعالج هذه الخيبة بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن **أسباب القلق**: استحكام اليأس في النفس بسبب ما تصادفه من عقبات وفشل ذريع والقرآن يجيب على تلك الحالة المرضية ويفتح باب الأمل على مصراعيه بقوله: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ(١) إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [سورة الشرح: ٦].

هذا بعض ما يحتويه القرآن من علاج لبعض أمراض النفس اقتصرنا عليه خوفاً من التطويل(٢).

---

(١) روح الله: رحمته وفرجه.

(٢) رجعنا في هذا البحث إلى كتاب (القلق وكيف تتخلص منه) تأليف: د. زهير احمد السباعي، و د. شيخ إدريس عبد الرحيم.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ
يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ
ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ
كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

شرح المفردات

أعرض: ولّى ومال عن ذكر الله وشكره.
نأى بجانبه: نأى: بعد، والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره استكباراً.
يعمل على شاكلته: يعمل على مذهبه وطريقته التي تشابه حاله في الهدى أو الضلالة.
لنذهبن بالذي أوحينا اليك: لنمحون ما أنزلنا عليك من القرآن من الصدور والمصاحف.
وكيلا: ناصراً ومعيناً.

طبيعة الإنسان في الخير أو الشر

وينتقل القرآن إلى بيان طبيعة الإنسان عند النعمة وعند الشر فيقول سبحانه:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي وإذا أنعم الله على الإنسان بالمال والصحة ونال ما يتمنى أعرض عن ذكر الله وطاعته، وبَعُدَ عن عبادته تكبراً أو أعرض عن الناس وبعُد عنهم تكبراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ وإذا أصابه الشر كالمرض والفقر أو نزلت به كارثة ما، كان شديد اليأس من الفرج الذي وعد الله به عباده عند الضيق. وكلمة (يئوساً) بصيغة المبالغة تدل على لزوم اليأس وإيغاله في النفس، وأن كلمة (مسه) تفيد أن الإصابة بالشر ولو خفيفة تجعل النفس يائسة.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قل يا محمد لكفار قريش قطعاً لإثارة الجدال: كل واحد يعمل على طريقته ومذهبه وأخلاقه التي ألفها في الهدى أو الضلال، فإذا كانت نفسه خيّرة طاهرة صدرت عنها أفعال فاضلة، وإذا كانت نفسه خبيثة سيئة

صدرت عنها أفعال خسيسة شريرة ﴿فَرَبُّكُم أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ فربكم الذي خلقكم هو أعلم بمن هو أرشد طريقاً إلى الهدى والحق.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن حقيقة الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره، وكيف يكون امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به. نزلت هذه الآية حينما قالت قريش لليهود اقترحوا علينا اسئلة معجزة نمتحن بها نبوة هذا الرجل (محمد)، فقالوا لهم: سلوه عن الروح، فأجابهم النبي ﷺ بما أوحى الله إليه ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قل هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى استأثره الله به في علمه، فهو من الأسرار الخفية التي تعجز عن إدراكها عقول البشر ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً﴾ وما أعطيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً في جنب علم الله. وما المكتشفات العلمية التي تطالعنا بها الأنباء فترة بعد فترة من الزمن إلا دليل على أن علم الإنسان قاصر عن الإحاطة بكل أسرار هذا الكون.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ فالله يقول: ولئن شئنا لمحونا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً ﴿ثُمَّ لا تجدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكيلاً﴾ أي لا تجد لك من يتوكل علينا في رد شيء من القرآن بعد أن ذهبنا به ﴿إلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لكنه تعالى لم يشأ ذلك تفضلاً منه عليك بإبقائه في صدرك وصدور المؤمنين ومصاحفهم رحمة بعباده ﴿إنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبيراً﴾ وذلك بأن اصطفاك وجعلك رسولاً إلى خلقه، وأنزل عليك القرآن وتكفل بحفظه وبقائه، وأعطاك المقام المحمود وهو الشفاعة يوم القيامة، وختم النبيين بك.

وإن الفضل الأكبر على رسول الله محمد هو إنزال القرآن عليه وتبليغه للناس بواسطته وتعليمه لهم، وكل من يقوم بتعلم القرآن والعمل به وتعليمه للناس فقد حاز على جانب من هذا الفضل الرباني وانطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فالفوائد المستقاة من القرآن ليس لها حد فهو السبيل إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وصدق رسول الله ﷺ حين قال مخاطباً قومه «إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه» (رواه البخاري).

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾

شرح المفردات

ظهيراً: معيناً ومساعداً.

صرّفنا: بيّـنّا أو كررنا بأساليب مختلفه.

فأبى: رفض.

كفوراً: جحوداً للحق.

القرآن يتحدى الناس جميعاً

ثم يبين الله أن القرآن الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَـأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.

أي قل يا محمد للكافرين الذين لا يقرون بنبوّتك متحدياً لهم: لو اجتمع البشر جميعاً واختاروا صفوة من كتّابهم ومفكريهم وعلمائهم وفلاسفتهم وشعرائهم وانكبوا على تأليف كتاب مثل هذا القرآن ـ تأمل كيف قال: بمثل، ولم يقل بأحسن وهذا من باب التحدي البالغ وبيان مدى عجزهم أي لو اجتمع هؤلاء واشترك معهم في تأليف هذا الكتاب عالم الجن، وذكر الجن هو من باب الافتراض، لأن الجن لا يُرون ولكن من المعروف عنهم أنهم يأتون بالأعمال الخارقة كما كان يسخّرهم في ذلك نبي الله سليمان. أي لو اجتمع البشر جميعاً والجن معهم وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.

لقد مضى على نزول هذه الآية خمسة عشر قرناً حين تلاها محمد ﷺ على أسماع العرب ثم تلاها الملايين من بعده إلى الآن، ولم نسمع أن شخصاً ما أو جماعة مهما علت مقدرتهم في البلاغة وعلم الشرائع قد استطاعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وليست هذه الآية هي الوحيدة التي تحمل طابع التحدي للبشر فقد جاء في القرآن أيضاً: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ هذا الجزم القاطع بأنهم لن يأتوا بسورة من مثله وهو ما تحقق إلى الآن هو دليل على أن القرآن وحي إلهي.

وجاء في سورة هود ردٌّ على الكفار الذين ادعوا أن محمداً افترى على الله كذباً حين قال إن القرآن مُنزل عليه من الله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[هود: ١٣ ـ ١٤].

لقد كان التحدي للكفار بأن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن وكان عجزهم عن ذلك برهاناً قاطعاً يثبت أن القرآن منزّل من عند الله وأنه سبحانه لا إلّه غيره.

فالقرآن هو المعجزة الأولى الأساسية لمحمد ﷺ وهو دليله القوي على أنه رسول الله وأن القرآن وحي من عند الله. والمعجزة في حد ذاتها إما حسية أو عقلية، والمعجزة الحسية وقتية يتأثر بها من شاهدها كالمعجزات التي جاءت على يد رسل الله السابقين ولكن بعد وفاتهم تعد هذه المعجزات من جملة الأخبار ويضعف تأثيرها على الشعوب التي تأتي بعدهم، أما معجزة محمد فهي عقلية أبدية تتميز

بالخلود وتتمثل في القرآن الكريم الذي يقدم في كل وقت وفي كل عصر البرهان الواضح الجلي على صدق نبوة محمد ﷺ.

وإن عظمة القرآن وإعجازه يتمثلان في بلاغته وفصاحته وأسلوبه المخالف لأساليب العرب في شعرها ونثرها حيث يرتقي إلى أعلى درجات البيان من حيث لفظه، ومن حيث معانيه ومن حيث الصور البيانية التي تحويها ألفاظه وعباراته. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدعي الذين ينكرون نبوته لجاء القرآن على نمط من عاصر النبي من الشعراء والبلغاء وقلدهم في كلامهم المعهود مع العلم أن كل من سمعه من العرب صدمته الدهشة من وقع كلام القرآن وبهرتهم بلاغته ومعانيه وهم فرسان البلاغة والبيان يستوى في ذلك المؤمنون والكافرون، فهذا عمر بن الخطاب يقول: فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام، وهذا الوليد بن المغيرة أحد ألدّ أعداء الإسلام يقول مرة: لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

وإن عظمة القرآن تظهر بما اشتمل عليه من العلوم الدينية وأصول العقائد وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية ومن الشرائع الوضعية ومن الآداب الفلسفية.

ثم بيّن الله سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله استمروا على كفرهم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد بيّنا وكررنا في هذا القرآن القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والحجج والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي، وقصص الأولين ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ فأبى أكثر أهل مكة إلا جحوداً للحق، وإنكاراً لكون القرآن وحياً من الله.

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ
فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ
إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ
بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

شرح المفردات

تفجر : تشق له طريقاً .

ينبوعاً : عيناً لا ينضب ماؤها .

جنه : بستان .

كسفاً : قطعاً .

قبيلا : مقابلة ومعاينة .

من زخرف : الزخرف ، هو الذهب والزينة .

ترقى : تصعد .

المشركون يطلبون معجزات من رسول الله

ولما تبين عجز المشركين عن الإتيان بمثل القرآن وأنهم غُلبوا على أمرهم أخذوا يقترحون على النبي ﷺ الإتيان بمعجزات أخرى غير القرآن إمعاناً في إنكار نبوته وتحدياً له :

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ وقال المشركون: لن نصدقك يا محمد بأنك نبي حتى تخرج لنا من أرضنا هذه عيناً من الماء تتدفق باستمرار ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أو يكون لك بستان يحتوي على أشجار النخيل وكروم العنب ﴿فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالَها تَفْجِيراً﴾ فتجري مياه الأنهار من خلال أشجار هذا البستان بتدفق وغزارة ﴿أَو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أو تسقط السماء علينا قطعاً قطعاً كما زعمت أن ربك يفعل ذلك إن شاء ﴿أَو تَأْتِيَ بِاللهِ والمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾، أو تأتي بالله والملائكة نقابلهم معاينة ومواجهة ليشهدوا بصحة ما تدعيه ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ﴾ أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب ﴿أَو تَرْقَى في السَّمَاءِ﴾ أو تصعد في سلّم إلى السماء ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتَاباً نقرؤه﴾ وعلى فرض أنك صعدت في السماء فلن نؤمن لك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه يصدقك ويدل على نبوتك ﴿قُلْ سُبْحَان ربِّي﴾ أي قل يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم واسترسالهم في الطلبات: تنزيهاً لله عن أن يعجز عن فعل شيء ﴿هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً﴾ هل أنا إلا واحد من البشر، ورسول من رسل الله؟ وكان رسل الله لا يأتون قومهم بالمعجزات إلاّ بما يخصهم الله به ويظهره على أيديهم، ولم يكن أمر المعجزات موكولاً إليهم إنما هي من الله تعالى فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور وهي ليست بمقدوري؟

وبعد أن بين الله تعنّت المشركين واقتراحاتهم في طلب المعجزات بيّن الله بعد ذلك بعض شبهاتهم على نبوة محمد ﷺ.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى﴾ وما منع المشركين من أهل مكة أن يصدقوا بأن محمداً رسول الله إذ جاءهم بالوحي من الله وهو القرآن المشتمل على الهدى ﴿إلاّ أَنْ قَالُوا: أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ أي كان السبب في عدم إيمانهم هو استبعادهم أن يكون رسول الله إليهم بشراً بدلاً من أن يكون من الملائكة.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ في الأَرْضِ مَلائَكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو وجد وثبت أن في الأرض ملائكة بدل من فيها من البشر، وهؤلاء

الملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي البشر مطمئنين مستقرين ساكنين بها. والمراد بكونهم ماشين على الأقدام أي أنهم غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها وسمعوا منها ما يجب معرفته ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ أي لو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم من السماء رسولاً من عنده من جنس الملائكة، وهذا إعلام من الله بأن رسل الله إلى خلقه ينبغي أن يكونوا من جنس المرسل إليهم، فلما كان سكان الأرض من البشر فقد أرسل الله إليهم رسلاً من جنسهم، إذ لو أرسل الله إليهم رسلاً من جنس الملائكة فإنهم لا يرونهم ولا يستطيعون مخاطبتهم ولا الأخذ عنهم.

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾ قل لهم يا محمد: كفى بالله وحده العالم المطلع على أني رسول الله إليكم وأنكم كذبتم ما أوحاه الله إليَّ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ إن الله بعباده ذو خبرة وعلم بأمورهم بصير بما يفعلون لا يخفى عليه شيء من أمورهم وهو مجازيهم على أفعالهم.

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ
سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ
عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ
أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ
قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

شرح المفردات

أولياء: نصراء.

نحشرهم: نجمعهم.

عمياً: جمع أعمى وهو الذي لا يبصر.

بكماً: جمع أبكم وهو الذي لا ينطق.

صماً: جمع اصمّ وهو الذي لا يسمع.

كلما خبت: كلما سكن لهيبها.

سعيراً: لهباً وتوقداً.

رفاتاً: حطاماً بالية.

لمبعوثون: لراجعون إلى الحياة يوم القيامة.

أجلاً: وقتاً للبعث.

قتوراً: مبالغاً في البخل.

مصير الكافرين في الآخرة

وبعد أن أجاب القرآن على شبهات المنكرين لنبوة محمد بيّن حُكْمَ الله في خلقه: ﴿وَمَنْ يَـهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان لطيب سريرته ورجوعه إلى الله بالتوبة فهو المهتدي المصيب للحق ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ

﴿دُونِهِ﴾ ومن يضللهم الله ويخذلهم عن إصابة الحق بسبب إعراضهم عن الهدى فلن تجد لهم من ينصرهم وينقذهم من عقابه والله سبحانه يضل الظالمين الخارجين عن طاعته ﴿وَنَحْشُرُهُم يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي ويجمع الله الكفار يوم القيامة عندما يقومون من قبورهم مسحوبين على وجوههم إلى موقف الحساب ثم إلى جهنم كما جاء في القرآن ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾[1] [القمر: ٤٨] وهم في حالتهم هذه ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ أي لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم الاعتذار، ولا يسمعون شيئاً يسرهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مستقرهم ومسكنهم هو جهنم ليعذبوا بنارها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهم سَعيراً﴾ كلما سكن لهبها وضعف، زادها الله تلهباً واشتعالاً.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ذلك الجزاء الذي وصفناه بسبب أنهم جحدوا أدلتنا وحججنا الدالة على صدق رسلنا ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وبقولهم إذا دعوا إلى الإيمان بالآخرة، وثواب الله وعقابه فيها، إما إلى الجنة وإما إلى النار: هل إذا كنا عظاماً نخرة وأصبحت أجسادنا حطاماً بالية ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ أي أنبعث بعد ذلك خلقاً جديداً آخر تدب الحياة فيه؟ قالوا ذلك استنكاراً واستعظاماً لذلك.

وهنا يأتي الرد الإلهي عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي أغفلوا ولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض من العدم مع عظمهما وعلى غير مثال سابق، قادر على أن يبعثهم ويعيد خلقهم كما بدأهم أول مرة ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيه﴾ وجعل الله لبعث الناس أحياء بعد مماتهم وقتاً معيناً وهو يوم القيامة الذي لا شك في وقوعه ﴿فَأَبَى الظَّالِمُون إلاَّ كُفُوراً﴾ أي فامتنع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر عن الإيمان بالبعث جحوداً وعناداً منهم واستمراراً بالكفر.

---

(١) سقر: جهنم.

وبعد أن بين القرآن إنكار المشركين للبعث جاءت الآية التالية تبين مدى بخلهم وحرصهم على المال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله وسائر نعمه التي أفاضها على خلقه ﴿إذاً لأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ إذاً لبخلتم وأمسكتم عن الإنفاق منها على عباد الله، فلم تعطوا أحداً شيئاً مخافة نفادها مع أنها عند الله لا تنفد ولا تفرغ أبداً ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قتوراً﴾ وكان الإنسان شديد البخل والحرص على المال.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

شرح المفردات

تسع آيات بينات: تسع معجزات واضحات الدلالة على نبوته.

بصائر: جمع بصيرة وهي الحجة التي تبصّر بالحق وتهدي إليه.

مثبوراً: مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشر. أو بمعنى: هالكاً.

فأراد أن يستفزهم: فأراد أن يزعجهم ليخرجهم من الأرض بالقتل والاستئصال.

لفيفاً: مجتمعين مختلطين.

معجزات موسى وهلاك فرعون

وبعد أن طلب المشركون معجزات من محمد ﷺ بيّن الله في الآيات التالية أنه أعطى موسى تسع معجزات، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وقومه وظلوا على كفرهم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ولقد أعطى الله موسى تسع معجزات واضحات تشهد على صدقه بأنه رسول الله، وهذه المعجزات هي:

١ ـ عصاه التي حولها الله إلى ثعبان وابتلعت حبال السحرة وعصيهم.

٢ ـ يده التي كان يضعها تحت إبطه فتصبح بيضاء متلألئة تشع كشعاع الشمس.

٣ ـ الجراد الذي قضى على الزروع والثمار.

٤ ـ القُمَّل وهو نوع من القُراد، كان يخالط طعامهم وملابسهم واجسامهم، وقيل هو القمل المعروف.

٥ ـ الضفادع التي ملأت بيوتهم وامتدت إلى طعامهم.

٦ ـ الدم، فصارت مياههم دماً أو اصيبوا بالرعاف.

٧ ـ السنون، والمراد بها سنوات القحط والجدب بانقطاع الأمطار وانخفاض ماء النيل.

٨ ـ نقص الثمرات بكثرة العاهات والآفات.

٩ ـ الطوفان، وهو فيضان الماء الذي غشى منازلهم ومزارعهم.

هذه الآفات كان يرسلها الله على آل فرعون متتابعة ولكنهم بالرغم من ذلك لم يؤمنوا وظلوا على كفرهم وضلالهم.

وهناك معجزات أخرى أَيَّد الله بها موسى كانفلاق البحر، ونبع الماء من الحجر، ورفع الجبل فوق بني اسرائيل.

﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فاسأل يا محمد بني اسرائيل عن تلك المعجزات فإنهم يعلمونها بما لديهم من التوراة لتزداد يقيناً وطمأنينة ويظهر للمشركين صدقك حين جاء موسى إلى فرعون وقومه مبلغاً لهم رسالة الله، مؤيداً بتلك المعجزات ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا موسى مَسْحُوراً﴾ أي إني لأظنك يا موسى أن الناس سحروك فأصبحت مختل العقل.

وهنا يردّ موسى على فرعون بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إلاّ رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي لقد علمت يا فرعون أن الذي أنزل هذه المعجزات هو رب السماوات والأرض، وهذه المعجزات تبصرك صدقي وأني رسول من عند الله. ثم أضاف موسى قائلاً ﴿وَإِني لأَظُنُّكَ يَا فِرعونُ مَثْبُوراً﴾ المراد من الظن هنا العلم، وقد عبّر به موسى عنه تلطفاً مع فرعون، أي وإني لأعلم يا فرعون أنك هالك، أو مصروف عن الخير إلى الشر بسوء فعلك وطغيانك.

﴿فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جمعياً﴾ فأراد فرعون أن يزعج موسى وقومه من أرض مصر التي هم فيها بالقتل والاستئصال فأغرق الله فرعون وجنده جميعاً في البحر ونَجّى الله موسى ومن آمن معه.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبني إسْرَائيلَ﴾ أي وقلنا من بعد إغراق فرعون ـ على لسان موسى ـ لبني اسرائيل ﴿اسْكُنوا الأَرْضَ﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ فإذا جاء يوم القيامة الذي وعد الله الناس به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ واللفيف الجمع الكثير من قبائل شتى، أي جئنا بكم أيها الناس من بعد بعثكم من قبوركم أحياء إلى موقف القيامة مجتمعين، فيكم المؤمن والكافر، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم.

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾

شرح المفردات

فرقناه: انزلناه مفرقاً أو بيناه وفصلناه.

على مكث: على تؤدة وتأنّ.

لا تجهر بصلاتك: لا ترفع صوتك أثناء صلاتك.

ولا تخافت بها: ولا تخفض صوتك في الصلاة فلا يسمعك من خلفك في الصلاة.

وابتغ بين ذلك سبيلاً: واقصد طريقاً وسطا بين الجهر وخفض الصوت.

القرآن هو الحق المبين

ثم يبين الله أن القرآن الذي أنزله على رسوله محمد هو الحق الذي لا يأتيه الباطل:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ والتكرار هنا للتأكيد، وقيل المراد بالحق هنا أي بمحمد نزل عليه، أو بمعنى: وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل. فالحق هو الأمر الثابت الذي لا يتبدل ولا يزول، كما أن الباطل هو الزائل الذاهب. فهذا القرآن مشتمل على أشياء لا تزول لأنه مشتمل على الدلائل على وحدانية الله وصفات جلاله وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات البعث، ومشتمل على شريعة كاملة لا يتطرق إليها النقص

والتحريف، كما أنه مشتمل على العدل والإنصاف والأخلاق الفاضلة، إضافة إلى النهي عن الظلم والفحشاء والمنكر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسل الله رسوله محمداً إلى الناس إلا مبشراً من أطاعه بنعيم الجنة في الآخرة، ومحذراً من عصاه وخالف أمره بعذاب النار في جهنم.

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾ أي فرقنا فيه بين الحق والباطل، أو أنزلناه مفرقاً آية بعد آية وسورة بعد سورة في مدة ثلاث وعشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ لتقرأه يا محمد على الناس على مهل وتؤدة وتثبّت فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ ونزّلناه مفرّقاً حسب المصالح والأحوال، والوقائع والمناسبات التي تقتضي نزوله.

﴿قُلْ آمنوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ قل يا محمد للكافرين: سيّان إيمانكم بالقرآن وعدم إيمانكم به، فإن إيمانكم بأن القرآن وحي إلهي لا يزيده كمالاً وامتناعكم عن الإيمان به لا يورثه نقصاً ﴿إِنَّ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم علماء أهل الكتاب الذين قرأوا الكتب السماوية السابقة قبل إنزال القرآن ورأوا فيها نعتك يا محمد، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل كعبد الله بن سلام وغيره ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم يَخِرُّون لِلأَذْقَان سُجَّداً﴾ إذا قرىء عليهم القرآن يقعون على وجوههم إلى الأرض ساجدين لله تعظيماً لأمره وشكراً له لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب الدينية السابقة ببعثة محمد ﷺ رسولاً من الله إلى الناس كافة. والتعبير عن سجودهم على وجوههم بالأذقان للإيذان بكمال تذللهم وخضوعهم لله وشكره على إنزال هذا القرآن العظيم.

﴿وَيَقُولُون سُبْحَانَ رَبِّنَا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ ويقولون في سجودهم تنزه ربنا أن يخلف وعده، إن وعد ربنا كائن لا محالة، وهذا الوعد هو إنزال القرآن وبعثة محمد ﷺ نبياً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيزيدهُم خُشُوعاً﴾ أي يقعون على وجوههم ساجدين لله وهم يبكون، ويزيدهم القرآن تذللاً وخضوعاً لله، كما يزيدهم علماً ويقيناً.

وقد كرر القرآن السجود لاختلاف السبب فالسجود الأول كان لتعظيم أمر الله، والسجود الثاني وهم يبكون بسبب ما أثر فيهم من مواعظ القرآن ـ وهذا السجود يحصل للمؤمنين على مر الأيام والسنين لمن أوتي العلم بدقائق اللغة العربية، وقرأ الكتب الدينية السابقة فإنه إذا قرأ القرآن وادرك بلاغته واستوعب معانيه فإنه يسجد لله معظماً له حامداً على نعمة إنزاله القرآن باكياً من خشية الله، لما يجد فيه من الحقائق المطلقة مما لم يوجد في أي كتاب ديني قبله.

ويتابع القرآن فيزيل بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول أسماء الله، فقد رُوي عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان بمكة ذات يوم فدعا الله فقال في دعائه: يا ألله يا رحمن فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلّهين وهو يدعو إلّهين!! فنزلت الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماءُ الْحُسْنَى﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن هذين الاسمين الكريمين: ألله والرحمن، هما اسمان لمسمًّى واحد هو الإله المعبود بالحق جل جلاله، فسمّوه أو ادعوه أو اذكروه بكلا هذين الاسمين أو بأحدهما وأيًّا من هذين الاسمين سميتم فهو تسمية حسنة. والحسنى تأنيث الأحسن، وكون أسماء الله حسنى لدلالتها على صفات التقديس والجلال والتعظيم ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِك﴾ أي ولا ترفع صوتك بتلاوة القرآن حين تصلي بحيث يسمع المشركون فإن ذلك يحملهم على سبّ القرآن ومن أنزله ﴿ولا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا تخفض صوتك بالقراءة فتقرأها سرّاً بحيث لا يسمع من يصلي خلفك من المؤمنين ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبيلاً﴾ ولتكن قراءتك للقرآن وسطاً بين الجهر والإخفاء.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ وقل يا محمد: ثناء وشكراً لله الذي لم يتخذ ولداً لعدم حاجته إليه، وهذا ردٌّ على مزاعم اليهود الذين قالوا عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وبعض العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ في الْمُلْكِ﴾ ولم يكن له شريك في ملكه للكون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي ليس لله سبحانه ناصر يحميه من الذل ويتعزز به لأنه سبحانه عزيز بنفسه ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ وعظِّمه تعظيماً بليغاً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
تفسير البيضاوي
تفسير القرآن العظيم لابن كثير
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي
تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي
تفسير الكشاف للزمخشري
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
تفسير القرآن لمحمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق
جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
حاشية الصاوي على تفسير الجلالين
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي
زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج الجوزي
فتح القدير للشوكاني
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر
المفردات في غريب القرآن للأصفهاني

الفهرس

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب دار العلم للملايين الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين يوسف غزال

وإلى فضيلة الشيخ محمد شريف خليل سكر

والدكتوره هدى سنو

لما قدموه لي من معونة وملاحظات قيّمة

وإلى جامعة بيروت العربية لما قدّمته لي مكتبة كلية الآداب فيها

من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه

وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

المؤلف

تصميم الغلاف: علي شوربا

طباعة الكتاب: مطبعة علي موسى

تنضيد الأحرف والتركيب: المركز العربي للمطبوعات

هاتف: ٧٣٩٣٥٣ بيروت ـ لبنان

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر : الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء

روح القرآن الكريم

تفسير سور
الكهف
مريم - طه

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّاره

توزيع
دار العلم للملايين

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر اعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

قال محمد رسول الله ﷺ:

إنَّ أفضلكم من تعلّم القرآنَ وعَلّمه

رُوحُ القرآن الكريم

تفسير سُوَر

الكهف - مريم - طه

الجزء السادس عشر وقسم من الجزء الخامس عشر

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّارة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مَدْخَل

عزيزي القارىء

ها أنا أضع بين يديك تفسير ثلاث سُوَرٍ من القرآن الكريم وهي: الكهف، ومريم، وطه؛ هذه السُوَر الثلاث تشهد بأن القرآن الكريم هو وحي إلَهي ليس من كلام البشر، كما تشهد بذلك جميع سُوَرِ القرآن.

ومن الغريب أن أتباع الأديان الأخرى لا يعترفون بأن محمداً رسول الله، وبأن القرآن وحي إلهي، ويزعمون أن القرآن من تأليف محمد. إن هذا الاعتقاد قائم على الجهل، وعلى معلومات مغلوطة تلقوها من صغرهم، ورسخت في عقولهم، وذلك على أيدي أساتذتهم وآبائهم ورجال دينهم. وإني أرى أنه لزاماً عليّ دحض هذا الاعتقاد الخاطىء بالدليل القاطع، والبرهان الجليّ في هذه الصفحات القليلة لعلَّ الذين لديهم طاقة من العقل والفهم يرجعون إلى عقولهم، ويفكرون تفكيراً هادئاً مجرداً من التعصب الأعمى ليصلوا إلى الحقيقة المجردة.

إن افتراض أن القرآن من تأليف محمد يستتبع أن محمداً مفترٍ ومدعي النبوة كذباً وهذا مما يخالف الواقع، فقد كان معروفاً بالصدق في قومه قبل أن يعلن نبوته وهو في الأربعين من عمره، وكان يلقب بالصادق الأمين، «وما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[١].

والدلائل على صدق نبوة محمد كثيرة لا مجال هنا للإسهاب فيها، وها أنا في هذه

---

(١) هذا ما قاله هرقل إمبراطور الروم لأبي سفيان، الذي كان حينذاك من خصوم محمد ﷺ. وكان قد استدعاه إلى قصره حين كان في تجارة له في الشام، فسأله عن محمد وأحواله جملة أسئلة، منها: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول إنه نبي؟» فأجابه أبو سفيان: «ما جرّبنا عليه كذباً»، فكان أن قال هرقل: «إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله» راجع صحيح البخاري ـ باب الوحي.

الصفحات القليلة أعرض الحقائق الآتية التي تشهد أن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقًّا.

١ ـ ما احتواه القرآن من الأخبار عن قصص الأنبياء كقصة آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وسليمان وداود وعيسى ابن مريم وغيرهم من الأنبياء، وهي قصص تطول وتقصر في سُورٍ شتى بأساليب منوعة ذُكِرَ بعضها في التوراة، وبعضها في الإنجيل وبعضها لم يذكر أصلاً فيهما، وذلك مغايرٌ لمنهجهما في العرض، لأنه يتوخى في سرد هذه القصص العبرة والموعظة. كما أن القرآن أجاب عن الأسئلة التي وجهها لمحمد بعض العرب المنكرون لنبوّته بما تحدوه به من خبر أهل الكهف وحال ذي القرنين، فأجابهم محمد بالخبر اليقين عنهم بما أوحى الله إليه، وأكثر قصص الأنبياء إن لم نقل جميعها نزلت على النبي بمكة حيث لم يكن هناك وجود لليهود والنصارى، ولم يكن فيها علماء ليتلقى العلم عنهم، كما أن هذه القصص كانت خافية على العرب ولم تكن متداولة على ألسنتهم.

٢ ـ ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الدعوة إلى وحدانية الله، وتنزيهه جل وعلا عن صفات السوء والنقصان، والدعوة إلى طاعته، وبيان منهاج عبادته من صلاة وصيام وحج، وما دعا إليه من الإيمان بالبعث والحساب والجزاء يوم القيامة، بالإضافة إلى ما فيه من إرشاد إلى الحلال والحرام وإلى محاسن الأخلاق، والزجر عن مساوئها، وهي نفس الأهداف التي جاءت بها الأديان السابقة، بالإضافة إلى ما يحويه من الحِكَمِ البالغة والتشريعات في الأسرة والمجتمع والعلاقات بين الأفراد والأمم، وهذه كلها لم تجر العادة بأن تصدر جميعها من أميّ، فقد كان محمد لا يقرأ ولا يكتب حتى باعتراف خصومه. هذا مع العلم أن البيئة التي نشأ فيها محمد لم يكن فيها مدارس ولا جامعات، ولا نهضة علمية، كما كانت عليه بعض الأمم السابقة.

٣ ـ أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب العرب، ومناهج شعرها ونثرها، فأسلوب القرآن يتسم بدقة التصوير واستخدام التشبيه والاستعارة مع الإيجاز، كما يتميز بذلك الجمال الصوتي الناشىء من تخيّر الألفاظ العذبة، وتآلف حروفها في النغم، والبعد عن الغريب والوحشي من الكلام، واطراد الفاصلة في آياته على نسق خاص يؤلف مجموعها لحناً جميلاً مطرباً يجذب السامع إلى ما فيها من روعة وقوة بيان.

والمراد بالفاصلة التي ذكرناها الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية، وموقعها في الآية

يشبه موقع القافية في البيت الشعري، وهي ترد في الآيات القرآنية حاملة دفعتين وهدفين في آن واحد: دفعة من النغم الجميل، وأخرى متممة لمعاني الآية، بحيث لو أزيلت الفاصلة الموضوعة في آخر الآية أو استبدلت بكلمة مرادفة لها لاختل المعنى واضطرب السياق.

ولو أمعنّا النظر في فواصل القرآن وتأملنا أكثر الحروف الأبجدية التي تنتهي بها لوجدناها الحروف الآتية: النون والميم والألف والواو والياء، وهذه الأحرف جميعها تحمل لحناً إيقاعيًا، ونغماً له وقعه في الأذن. كما أن فواصل القرآن تنتهي أواخرها بأحرف أخرى تضفي جمال النغم وقوته على الآية.

ونتأمل سورة الكهف فنرى فواصلها كلها تنتهي بالألف الممدودة مثل: حسناً، أبداً، عجباً، أمداً، رعباً، أحداً، الخ.. باستثناء فاصلة واحدة انتهت بالألف المقصورة وهي: هدى.

وتأمل أيها القارىء سورة مريم فترى السلاسة في فواصلها في المواضع التي تستدعي التفكير الهادىء والعبرة المؤثرة مثل الفواصل الآتية: سويًا، تقيًا، زكيًا، سريًا، جنيًا، إنسيًا، شقيًا الخ...

أما إذا جاءت الفاصلة في موطن إنذار ووصف عذاب، أو إنكار لمعتقدات باطلة فتأتي على حرف الدال أو الزاي المشدد المنتهي بالألف مثل: مدًا، ضِدًا، عزًا، أزًا، لُدًا.

أما سورة طَه فنرى فواصلها تنتهي بالألف المقصورة أو الألف الممدودة مثل: العلى، استوى، الثرى، أخفى، ذكراً، حِملاً، زرقاً، عشراً، الخ... فالفاصلة هي مفتاح وزن القرآن وجمال نظمه.

ولقد تحدى الله الناس جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يأْتُون بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً**﴾. [الإسراء: ٨٨] وها قد مضى على هذا التحدي خمسة عشر قرناً ولم يظهر أي أديب عربي أو غير عربي أتى بمثل هذا القرآن فصاحة وبلاغة ومعنى وتشريعاً، أي حجة أقوى من ذلك تثبت أن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقًا.

٤ ـ ما تلمس في آياته من جلال العظمة الإلهية والرهبة الربانية البعيدة عن الصبغة

الإنسانية، فمن البديهي أن الكلام ينبىء عن شخصية المتكلم، كما أنه من الصعب أن يتجرد الكاتب من طبيعته البشرية ثم يجعل نفسه إلّهاً يتكلم عن نفسه بصفة الألوهية، وهذا ما لم يعهد في أساليب الكلام قديماً وحديثاً، ولنعط مثالاً على ذلك ما جاء في سورة طه حيث يخاطب الله موسى:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَه إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفسٍ بِمَا تَسْعَى. فلا يَصُدَّنَّك عَنها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [الآيات: ١٤ ـ ١٦].

ومثالاً آخر من سورة مريم: **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم والشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُم حَوْلَ جَهَنَّم جِثِيًّا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُم أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِين هُمْ أَوْلى بِهَا صِلِيًّا. وَإِن مِنْكُم إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾** [الآيات: ٦٨ ـ ٧١].

٥ ـ إذا تمعّنا في كلام محمد الموجه إلى قومه آمراً وناهياً وواعظاً ومتعبّداً، والمدون في الكتب الآتية: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، ومسند الإمام أحمد، وغيرها من كتب الأحاديث الشريفة، وقارنّاه بكلام القرآن نراه يختلف اختلافاً كليًّا عنه في أسلوبه وطبيعته، فكلام النبيّ محمد ﷺ ترى فيه الصبغة الإنسانية بكافة مشاعرها، وضعفها ولجوئها إلى الله في كافة أحوالها، بينما في القرآن نرى فيه الصبغة الإلهية وما تتصف به من القدرة والعزة والحكمة والسلطة الشاملة على المخلوقات والعلم المحيط بالكون. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدعي البعض لما صحّت دعواهم بحال، لأنه من المتعذر على الكاتب والأديب أن يكون له أسلوبان ومنهجان في بيانه وتفكيره.

هذه بعض الدلائل على أن القرآن وحي إلهي أضعها أمام المرتابين في نبوّة محمد ﷺ عسى أن يعيدوا النظر في معتقداتهم الخاطئة ويكتشفوا ذلك بأنفسهم بالتأمل والدراسة المجردة في القرآن الكريم. وصدق الله إذ قال مخاطباً رسوله محمداً: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾** [يونس: ١٠٨].

تعريف بسورة الكهف

تضمنت سورة الكهف ثلاث قصص توجيهية، ومثلين من صميم الحياة، مع مواضيع أخرى سيأتي بيانها في محلها.

القصة الأولى: هي قصة أهل الكهف التي تتحدث عن فتية من النصارى آمنوا بربهم وهجروا ما عليه قومهم من الشرك بالله وعبادة الأصنام، فاتفقوا فيما بينهم على الفرار بدينهم من اضطهاد مليكهم وملاحقته لهم، واللجوء إلى كهف يعبدون الله فيه مُؤْثِرِينَ ذلك على كل مُتَعِ الحياة الدنيا، فأنامهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم أيقظهم من نومهم على أحسن ما يكونون صحة، وأطلع الله الناس على أمرهم، ليكون حالهم هذا آية على حدوث البعث يوم القيامة، وأمثولة في التضحية في سبيل الثبات على دين الله.

القصة الثانية: هي قصة نبي الله موسى عليه السلام مع خادمه، وما جرى له مع الخضر عليه السلام، فهي قصة رحلة في طلب العلم وتحمّل المشقات في سبيله، ودرس في آداب طالب العلم مع أستاذه. وأن علم الإنسان محدود، وأن وراء الأحداث التي يعايشها جملة من الحِكَم والأسرار، عَلَّم الله بعضها من يشاء من خلقه، ومنهم الخضر عليه السلام.

القصة الثالثة: هي قصة ذي القرنين وقد مكّنه الله في الأرض فبسط نفوذه فيها، وآتاه من كل شيء بما يتوصل به إلى مبتغاه، فَضَرَب على أيدي المفسدين الذين يعيثون في الأرض فساداً، ومنهم يأجوج ومأجوج، فبنى ذو القرنين سداً

يحول بينهم وبين تعدّيهم على جيرانهم، وفي هذا درس للأمم القوية للضرب على أيدي المفسدين، ورفع الظلم عن الأمم المقهورة المغلوبة على أمرها.

أما المثلان فهما:

أولاً ـ هو حال رجلين: أحدهما غنيّ اغْتَرَّ بثروته، وكفر بِنِعَمِ الله عليه، وأنكر البعث، والثاني كان فقيراً مؤمناً بربه، مدركاً لطبيعة الحياة الدنيا التي لا تدوم لأحد. وقد تطاول الغنيّ على صاحبه الفقير، وافتخر بما أنعم الله عليه من المال، فحذره الفقير من مآل كفره وبطره فما ارعوى وما اتعظ، فكان أن أرسل الله على بستانه جائحة سماوية قضت على كل ما أنفق على بستانه. وفي هذا درس يقدمه القرآن لمن يتمادى في كفره، ويتكبر على المستضعفين من عباد الله.

ثانياً ـ بيان أن الحياة الدنيا في نضرتها وبهائها، وسرعة زوالها، شبيهة بماء أنزله الله من السماء، فأنبت به صنوف النبات، ثم لا يلبث هذا النبات أن يجفّ ويتكسر، وتفرقه الرياح في الجو مبددة إياه. وهذا توجيه للناس بعدم الاطمئنان إلى هذه الدنيا والركون إليها.

كما تحذر السورة من طاعة إبليس. وتنذر بالعذاب الأليم الذين يدّعون أن لله ولداً. كما تدعو المؤمنين إلى معاشرة الأخيار وعدم طاعة أهل الهوى والشهوات المعرضين عن ذكر الله لسوء مغبة ذلك.

وأخيراً تبين السورة ما أعد الله للمؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال ما سينالون من نعيم في الآخرة، وما أعدّ الله للكافرين من عذاب أليم.

سُورَةُ الكَهْف

مكية ، وآياتها ١١٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا
شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا
لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا
عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

شرح المفردات

لم يجعل له عوجاً: لم يجعل الله فيه تناقضاً واختلافاً في معانيه وألفاظه.

قيّماً: مستقيماً.

لينذر بأساً شديداً من لدنه: ليخوف الله بعذاب شديد من عنده.

أجراً حسناً: أجراً عظيماً يوم القيامة وهو الجنة.

ماكثين فيه أبداً: باقين في الجنة مخلدين.

كبُرت كلمة: عَظُمَ إثم الكلمة التي قالوها بأن لله ولداً.

باخع نفسك: قاتل نفسك ومهلكها حزناً.

على آثارهم: من بعد توليهم عن الإيمان.

أسفاً: حسرة وحزناً عليهم (لحرصك على إيمانهم).

لنبلوهم: لنختبرهم.

صعيداً: وجه الأرض.

جُرُزاً: يابسة لا نبات فيها.

إنذار للذين يدّعون أن لله ولداً

تبتدىء هذه السورة بالثناء والشكر على الله لإنزاله القرآن الكريم على محمد ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَنْـزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ﴾ الحمد لله: هو الشكر لله والثناء عليه. والحمد أعم من الشكر لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح. وإدخال الألف واللام الحصرية على ـ حمد ـ فأصبح (الحمد لله) هو اعتراف بأن الله هو مصدر كل نعمة وإحسان في الوجود. و (الحمد لله) في الآية جاء على نعمة إنزاله الكتاب، والمراد بالكتاب: القرآن الذي أنزله الله سبحانه على عبده محمد ﷺ. ووصف محمد بالعبودية لله هو لإغلاق الباب على من يأتي بعده من الأمم، فلا يجعلونه ابناً لله كما جرى لغيره من الأنبياء.

والقرآن أعظم نعمة من الله على الناس تستوجب الشكر له سبحانه، لأنه أخرج الملايين منهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَـهُ عِوَجاً﴾ ولم يجعل الله في القرآن اختلافاً ولا تناقضاً ولا خللاً في ألفاظه ومعانيه، ولم يخرج منه شيء عن دائرة الحكمة.

﴿قَيِّماً لِيُـنْـذِرَ بَـأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْـهُ﴾ وهذا القرآن جعله الله مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط. ويأتي قيّماً بمعنى: مهيمناً على مصالح الناس وعلى سائر الكتب الدينية. كما أن هذا القرآن يحذّر الكافرين ويخوفهم من عذاب شديد من عند الله سبحانه ﴿وَيُـبَـشِّرَ[١] المؤمنين الَّذِينَ يَـعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَـهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ أي ويبشر المصدقين بوحدانية الله وبرسوله محمد الذين يعملون صالح الأعمال التي أمرهم الله بها بأن ثوابهم في الآخرة هو الجنة ﴿ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ خالدين في الجنة إلى الأبد لا ينتقلون عنها.

---

(١) التبشير إخبار عما سيأتي من أمور سارة، كما أن الإنذار إخبار فيه تخويف.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِين قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ ويخوف الله الذين قالوا إن لله ولداً من عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة.

والذين نسبوا ولداً لله هم بعض اليهود حيث قالوا: عُزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وبعض العرب الذين ادعوا أن الملائكة بنات الله.

﴿مَا لَهُمْ بِـهِ مِنْ عِلْمٍ ولا لآبائهم﴾ نفى الله عن الحاضرين من هؤلاء والأقدمين من أسلافهم الذين ادعوا أن لله ولداً أن يكون لهم به شيء من العلم اليقيني في ذلك ﴿كَبُـرَتْ كَلِمَةً تَخْرجُ مِنْ أفواههم إن يقولونَ إلاَّ كَذِباً﴾ أي عظمت تلك الكلمة التي يلفظونها بأن لله ولداً، فما هذا القول إلاّ مجرد كلام كاذب لا حقيقة له أصلاً.

﴿فَلَـعَلَّك بَـاخِـعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثارهم إنْ لَمْ يؤمنوا بهَذَا الحديثِ أسَفاً﴾ فلعلك يا محمد مهلك نفسك أسىً وحزناً على قومك من بعد توليهم عنك وإعراضهم عما جئت به من القرآن. ولفظ (لعلَّ) جاء هنا في موضع النهي والإنكار، أي لا تهلك نفسك أسفاً وحسرة عليهم، بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه.

﴿إنَّا جَعَلْنا مَا عَلى الأَرْضِ زينةً لَها﴾ أي إننا جعلنا ما على الأرض من زخارفها ومفاتنها زينة لها ومنفعة لأهلها ﴿لِنَـبْلُوَهُم أيُّـهُم أحْسَنُ عَملاً﴾ لنعاملهم معاملة المختبِر لهم ونمتحنهم بالخير والشر ليظهر منهم الأصلح عملاً ﴿وَإنَّا لَجاعِلُون مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ وإنا لجاعلون ما على الأرض من الزينة ـ عند انتهاء عمرها ـ خراباً ودماراً، فتصبح الأرض حينئذ مستوية لا نبات فيها ولا عمران.

هذه العبرة مما تؤول إليه الدنيا يضعها الله أمام أنظارنا حتى لا نغترّ بها، فنعيم الدنيا إلى زوال، وعمر الإنسان على هذه الأرض يمتد لفترة قصيرة، ثم يعقبه حساب ومجازاة على أعماله يوم القيامة.

قصة أهل الكهف

أسباب نزول قصة أهل الكهف

روي أن قبيلة قريش أرسلت إلى اليهود أفراداً منها ليسألوها عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فقال اليهود: سلوه عن فتية (أي أهل الكهف) ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب. وسلوه عن رجل طوّاف (أي ذي القرنين) بَـلَغَ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح (أي الروح الإنسانية)؛ فإن أخبركم بذلك فهو نبي، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل (أي مدّع للنبوة). ثم جاءوا إلى رسول الله وسألوه عن هذه الأمور، فقال رسول الله: «أخبركم بما سألتم غداً» ولم يستثن (أي لم يقل إن شاء الله) فانصرفوا. وأبطأ نزول الوحي عليه خمسة عشر يوماً فأحزنه ذلك، وكذّبته قريش، ثم جاءه الملك جبريل من عند الله بنبأ أصحاب الكهف، وخبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف، وخبر الروح التي جاء ذكرها في سورة أخرى.

وقبل أن نعرض آيات القرآن التي ذكرت قصة أصحاب الكهف نذكر ملخصاً مما جاء في كتب التفسير عنهم:

أهل الكهف

كان أهل مدينة أفسوس[١] يتبعون دين عيسى عليه السلام، ثم إن ملكاً جباراً يقال له دقينوس ظهر على مدائن الروم ومنها أفسوس فأمر أهلها بعبادة الأصنام، واشتد في اضطهاده حتى كان يقتل كل من يخالفه، ويعلق جثته على سور المدينة.

ولكن سبعة فتية من أشراف الروم عز عليهم ترك دين عيسى فأخذوا يعبدون

---

(١) أفسوس: وقيل أفسس، وهي مدينة قديمة العهد قائمة على بحر إيجيه أحد متفرعات البحر الأبيض المتوسط.

الله سرًّا، فعلم أمرهم هذا الملك الطاغية، فاستحضرهم إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه، فرفضوا وقالوا له: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً أبداً، ولن نقرّ بهذا الذي تدعونا إليه فاصنع بنا ما بدا لك. فلما سمع دقينوس منهم ذلك نزع عنهم ثياباً كانت عليهم من ثياب عظمائهم ثم قال: أما إذا فعلتم ذلك فإني سأؤخّر إيقاع العقوبة بكم، وما يمنعني أن أعجل لكم إلاّ أني أراكم فتياناً لم تنضج عقولكم، وإني أمهلكم وقتاً تفكرون فيه. ثم أُخرجوا من عنده، وذهب دقينوس إلى مدينة أخرى.

فلما رأى الفتية دقينوس قد خرج من مدينتهم، خافوا إذا رجع إلى المدينة أن ينفذ ما هددهم به، فتشاوروا، وقرّ رأيهم على أن يهربوا من المدينة ويلتجئوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له بنجلوس ويمكثوا فيه يعبدون الله وحده.

وصلوا إلى الكهف ثم اضطجعوا قليلاً ليأخذوا قسطاً من الراحة فألقى الله النوم عليهم.

افتقدهم دقينوس بعد أيام فلم يجدهم. وبعد التحري عنهم علم أنهم فروا منه إلى كهف في جبل بنجلوس، فقال دقينوس: دعوا هؤلاء الفتية الذين تركوا آلهتي يموتون في الكهف عطشاً وجوعاً. وأمر أن يسد عليهم باب الكهف بالحجارة فلا يستطيعون الخروج منه أبداً.

ثم إن رجلين مؤمنين كانا في بيت الملك دقينوس يكتمان إيمانهما اتفقا على أن يكتبا قصة الفتية أصحاب الكهف وأسماءهم وأسماء آبائهم على لوحين من الرصاص، ثم يصنعا تابوتاً من نحاس ويجعلا اللوحين فيه ثم يضعاه على باب الكهف لعل قوماً مؤمنين يظهرون على هؤلاء الفتية فيعلمون بخبرهم.

وبعد ثلاثمائة وتسع سنين والفتية نيام في الكهف بأمر الله حدث أنّ راعياً أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحتُ هذا الكهف وأدخلت غنمي فوقيتها من

المطر. فاستأجر عاملين فنزعا تلك الحجارة وفتحا باب الكهف ولم يدخلاه. وأيقظ الله الفتية من نومهم في الغد حين أصبحوا وهم لا يكادون يمسكون أنفسهم من الجوع، وقال واحد منهم: يخيّل إليّ أنّا رقدنا ساعات طويلة فما تظنون يا رفاق؟ فقالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. ثم أرسلوا رفيقهم يمليخا إلى المدينة مصحوباً بالنقود الفضية التي معهم ليحضر لهم طعاماً، وأوصوه بالحذر حتى لا يعرفه أحد، وإلاّ انكشف أمرهم وقبض عليهم.

ذهب يمليخا إلى المدينة متنكراً بكساء، فظهر له أن المدينة ليست بالمدينة التي كان يعرف، ورأى أناساً كثيرين يذكرون عيسى فقال في نفسه: لم يكن في هذه المدينة من يذكر عيسى إلاّ قتل، واليوم أسمعهم يذكرونه! لعلَّ هذه ليست المدينة التي أعرف! فجعل يمشي ويعجب بينه وبين نفسه ويخيل إليه أنه في حلم. ثم إن يمليخا دنا من أحد الذين يبيعون الطعام، وأخرج النقود التي كانت معه وأعطاه إياها وقال: بعني بهذه النقود طعاماً، فأخذها الرجل فنظر إلى نقشها فعجب منها، وطرحها إلى رجل آخر من أصحابه فنظر إليها. ثم جعلوا يتداولونها بينهم ويقول بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد وجد كنزاً في الأرض، ثم قالوا له: من أنت يا فتى وما شأنك؟ والله لقد وجدتَ كنزاً من كنوز الأولين فأرنا إياه وشاركنا فيه، فإن لم تفعل نأت بك إلى الملك فنسلمك إليه. فلما سمع قولهم عجب في نفسه وقال: لقد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه.

وخاف خوفاً شديداً حتى انعقد لسانه ولم يستطع الكلام، فلما رأوه لا يتكلم ساقوه إلى رئيسي المدينة اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان أحدهما يسمى أريوس، واسم الآخر أسطيوس، فلما مَثُلَ يمليخا بين أيديهما سألاه: أين الكنز الذي وجدت فيه هذه النقود، إنها تشهد عليك أنك وجدت كنزاً، فقال يمليخا: ما وجدت كنزاً؟ ولكن هذه النقود هي نقود آبائي، ثم سألاه: فمن أبوك ومن يعرفك بهذه المدينة؟ فأنبأهم باسم أبيه، فلم يجدوا أحداً يعرفه. . . فقال له أحدهما: أنت

رجل كذاب لا تنبئنا بالحق وإني سآمر بك فتعذَّب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدت. فأجاب يمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عما عندي: أرأيتم دقينوس الملك الذي كان في هذه المدينة عشية أمس ما فعل؟ فقال له الرجل: ليس على وجه الأرض رجل اسمه دقينوس، ولم يكن إلاّ ملك قد هلك منذ زمان ودهر طويل. فأخبرهم يمليخا قصته وقصة رفاقه حيث فروا من طغيان مليكهم دقينوس الذي أكرههم على عبادة الأوثان فلجأوا إلى الكهف حيث ناموا فيه، فلما استيقظوا وشعروا بالجوع خرج ليشتري لهم طعاماً. ثم طلب يمليخا منهم الانطلاق معه إلى الكهف ليريهم أصحابه.

فلما سمع أريوس ما يقول يمليخا قال لمن حوله: يا قوم لعلَّ هذه آية من آيات الله جعلها لكم على يدي هذا الفتى، فلننطلق معه يُرنا أصحابه. ولما وصلوا إلى الكهف قال يمليخا دعوني حتى أتقدمكم لأعلم أصحابي. فدخل عليهم وهو يبكي، فسألوه عن شأنه فأخبرهم خبره، وقص عليهم النبأ كله، فأدركوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله، وإنما أيقظهم الله من نومهم ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث. ثم دخل على أثر يمليخا أريوس ومعه جمع من الناس فرأوا تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة، ففتحوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص وفيهما أسماء هؤلاء الفتية، وأنهم هربوا من ملكهم دقينوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم، وأنهم دخلوا هذا الكهف. فلما سمع الجمع ذلك حمدوا الله الذي أراهم آية للبعث، ورفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه وتمجيده، ثم دخلوا على الفتية في الكهف فوجدوهم جلوساً مشرقة وجوههم، فخرّ أريوس وأصحابه سجوداً لله وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته.

ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا رسلاً إلى ملكهم الصالح تيذوسيس: أن عجّل بالمجيء لعلَّك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها على هؤلاء الفتية، فلما بلغ الملك تيذوسيس الخبر أسرع بالمجيء ومعه أهل المدينة حتى أتوا إلى الكهف، فلما رأى

الفتية الملك تيذوسيس فرحوا به وخرّوا سجّداً لله على وجوههم. وقام تيذوسيس قدامهم وعانقهم وبكى. ثم قال الفتية لتيذوسيس: إنا نودعك، والسلام عليك ورحمة الله، حفظك الله وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شر الجن والإنس.

فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا، وتوفى الله أنفسهم بأمره، وحجبهم الله حين خرج القوم من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر الملك فجعل على كهفهم أو على بابه مسجداً يصلى فيه، وجعل لهم عيداً عظيماً، وأمر أن يؤتى كل سنة.

* * *

والقرآن ذكر قصة أهل الكهف بالاقتصار على مختارات من وقائعها الهامة التي فيها العظة والإرشاد على لسان أبطالها بدون تسميتهم ومن غير أن يبسط القول بذكر أحداثها مرتبة مستوفاة الأطراف كما نراها في القصص المعهودة.

وإليكم ما جاء في صددها:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾
فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ
ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ
ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

شرح المفردات

أم حسبت: بل أظننت.

الكهف: المغارة الواسعة المجوفة في الجبل.

الرقيم: اللوح المكتوب فيه شأنهم.

أوى الفتية إلى الكهف: التجأوا إليه محافظة على دينهم.

وهيىء لنا من أمرنا رشداً: ويسّر لنا الاهتداء إلى طريق الحق.

فضربنا على آذانهم: عطَّلنا حاسة السمع عندهم وأنمناهم.

بعثناهم: أيقظناهم من نومهم.

وربطنا على قلوبهم: قوّينا قلوبهم وألهمناهم الصبر.

شططاً: قولاً مفرطاً في الظلم والكفر.

لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن: هلاّ يأتون على صحة عبادتهم للأصنام بحجة واضحة.

فمن أظلم: لا أحد أظلم.

إيمان الفتية بربهم

يستهل الله الكلام على أصحاب الكهف بقوله:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنَا عَجَباً﴾ أي أظننت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من العلامات الدالة على قدرة الله التي تثير العجب وحدها دون سواها، فلا تحسبن ذلك ففي صفحات الكون من العجائب الدالة على قدرة الله ما يفوق قصة أصحاب الكهف.

وقد سمى الله هؤلاء الفتية أصحاب الكهف لأنهم لجأوا إلى كهف[١] في الجبل وسماهم بأصحاب الرقيم لأن أمرهم وشأنهم قد رُقِّم وكُتِبَ كما تُكتب الآثار والغرائب على ألواح من نحاس أو رصاص.

---

(١) ليس هناك دليل ثابت على مكان وجود الكهف الذي تحدث عنه القرآن على الرغم من أن هناك العديد من البلدان في الشرق والغرب تدعي وجود هذا الكهف في أراضيها.

﴿إِذْ أَوى الفِتْـيَـةُ إِلَى الكَهْفِ﴾ واذكر يا محمد حين لجأ هؤلاء الفتية إلى الكهف فراراً من ملكهم الظالم لئلا يفتنهم عن دينهم، وقالوا حين دخلوا الكهف: ﴿فَقَالُوا رَبَّـنَـا آتِنَـا مِنْ لَدُنْـكَ رَحْمَةً وهيِّـىء لَـنَـا مِنْ أَمْرِنَـا رَشَداً﴾ هذا الدعاء على اختصاره يجمع كل نواحي الخير التي ينشدها الإنسان، أحدها: أن يشملهم الله برحمة من عنده، وهي عنايته بهم ورعايته لهم وتوفيقهم إلى طاعته. والأمر الثاني: أن يؤتيهم الله الرشد وهو نقيض الضلال والغيّ، ومن خصه الله برحمته وهداه إلى مسالك الخير فاز بالمطلوب، ويجمل بكل مؤمن أن يدعو ربه بهذا الدعاء عند كل أمر عسير، وعند كل ضيق لا يجد له مخرجاً منه.

وقد أجاب الله دعاء هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف فنشر عليهم رحمته بإلقاء النوم عليهم، وجنبهم عذاب العزلة، ومقاساة الوحشة، وهيأ لهم في الوقت نفسه من أمرهم رشداً، إذ نجاهم من الكفر وحال بينهم وبين الفتك بهم وتعذيبهم على يد مليكهم الظالم، وأعلى ذكرهم على مر السنين.

﴿فَضَرَبْـنَـا عَلَى آذانِـهِمْ في الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ أي ضرب الله على آذانهم حجاباً يمنع عنهم حاسة السمع أن تؤدي دورها سنين عديدة، والضرب على الآذان كناية عن النوم الثقيل، حيث أنامهم الله فلم يوقظهم صوت.

فالذي لا ينام في الحواس هو السمع، لأن الإنسان حين يغمض عينيه لا يرى ما حوله ولكنه لا يستطيع أن يصم أذنيه لأن الأُذن تؤدي وظيفتها دائماً سواء أراد الإنسان أم لم يُرِد، وإذ أراد الله أن يجعل أهل الكهف يستغرقون في سباتهم العميق سنين عديدة دون أن يشعروا بما حولهم فقد منع عنهم حاسة السمع ﴿ثُمَّ بَعَثْـنَـاهُمْ﴾ أي ثمَّ أيقظهم الله من نومهم، ولمّا كان النوم شبيهاً بالموت عبّر الله عن ذلك بالبعث. ولفظ البعث جرى التعبير به عن إحياء الله الموتى يوم القيامة ﴿لِنَعْلَمَ أيُّ الْحِزْبيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثوا أمداً﴾ أي لإظهار ما تعلق به علم الله أزلاً وبيان أيِّ من الحزبين أدق إحصاء للمدة التي مكثها الفتية في الكهف.

والحزب الأول: هم الفتية إذ ظنوا أنهم لبثوا في الكهف يوماً أو بعض يوم، والحزب الثاني: أهل المدينة الذين بُعِث الفتية من الكهف على عهدهم، وعندهم تاريخ أمر الفتية فظهر لهم في ذلك آية من آيات الله.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالحَقِّ﴾ نحن نخبرك خبر هؤلاء الفتية على وجه الحق الذي لا يعتريه زيغ ولا بطلان ﴿إِنَّهم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهم وَزِدْنَاهُم هُدًى﴾ إنهم شبان آمنوا بربهم الواحد الذي لا شريك له، وزادهم الله يقيناً وتثبيتاً في إيمانهم.

في هذه الآية ثناء على الشباب الذين آمنوا بربهم والتزموا طاعته فهم دعامة الأمة وركنها المتين. وما انتقلت أمة من مواطن الضعف والتخلف إلى مصاف الأمم الراقية إلاّ بأيدي شبانها الصلحاء، وهذا ما يحدونا إلى الاعتناء والسهر على الشبان وتنشئتهم على الفضيلة والخلق القويم، وتثبيت الإيمان في قلوبهم لأن مستقبل الأمة وازدهارها يقومان على سواعدهم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ فالله سبحانه يقول: وقوينا عزائمهم وثبّتناهم على عقيدتهم وصبّرناهم على مخالفة قومهم حتى تركوا ما كانوا عليه من العيش الرغيد، وقالوا حين قاموا بين يدي مليكهم الطاغي معلنين إيمانهم بجرأة: ﴿فَقَالوا: ربُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ استدلوا على وحدانية الله بالدليل الفطري الذي خلق الله الناس عليه، ولم تفسد طبيعتهم التعاليم الفاسدة من عبادة الأصنام، ثم قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهاً﴾ لن: تفيد استمرار النفي إلى الأبد، أي إذا كان الله هو رب السماوات والأرض فلن يأتي وقت نعبد فيه غيره ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ أي إذا عبدنا غيره نكون قد بعدنا عن الحق والصواب وقلنا قولاً باطلاً وكذباً.

ثم يذكر القرآن حديث الفتية بعضهم لبعضهم الآخر: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي إن قومنا اتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها وتركوا عبادة الله

المستحق وحده للعبادة ﴿لَوْلاَ يأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي هلاّ يأتي هؤلاء بحجة ظاهرة على ألوهية من يعبدونهم من غير الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممّن اختلق على الله كذباً بأن نسب له شريكاً أو ادعى الألوهية لغيره.

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾

شرح المفردات

اعتزلتموهم: تجنبتموهم.

فأووا إلى الكهف: فالتجأوا إليه.

ينشر لكم ربكم من رحمته: يبسط ويوسع عليكم من رحمته.

مِرْفقاً: ما تنتفعون به.

تزاوَرُ: تميل.

تقرِضُهُم: تتركهم وتتجاوز عنهم.

في فجوة منه: في متسع من الكهف ووسطه.

بالوصيد: بفناء الكهف أو عتبة بابه.

لولّيت منهم فراراً: لأعرضت عنهم وهربت منهم مسرعاً.

لجوء الفتية إلى الكهف

ثم يبين القرآن فرار الفتية من مليكهم وقومهم ولجوءهم إلى كهف يختبئون فيه: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي وقال الفتية بعضهم لبعض: ما دمتم قد فارقتم قومكم وتجنبتم ما يعبدون من الآلهة سوى الله ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي فالتجئوا إلى الكهف[1] فراراً بدينكم واستخفاء منهم يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿وَيُهَيِّىءْ لَكُم مِنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً﴾ ويهيىء لكم ما تنتفعون به مما تحتاجون إليه من طعام وغيره.

﴿وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِم ذَاتَ اليمينِ﴾ هنا كلام فيه حذف دل عليه ما تقدم، والتقدير: فالتجأوا إلى الكهف، فألقى الله عليهم النوم. فكانت الشمس في وقت طلوعها تميل وتنحرف عن كهفهم ناحية يمين الكهف ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي وفي وقت غروب الشمس تتجاوزهم وتتعداهم إلى ناحية شمال الكهف أي أنهم غير معرّضين مباشرة لأشعة الشمس ويكون أغلب الأشعة إلى جانبي الكهف فتخفف من رطوبته وتعدّل من هوائه، وهذا يعني أن باب الكهف كان مفتوحاً إلى جهة الشمال[2] ﴿وَهُم في فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ وهم في متسع من الكهف ووسطه

---

(١) هؤلاء الفتية اعتزلوا قومهم وهربوا بدينهم من طغيان مليكهم إلى الكهف، والجدير بكل منا عند شيوع الكفر والفساد وانتشار الفواحش والمنكرات أن يعتزل القوم الفاسدين، ولكن ليس من المفروض أن نذهب إلى الكهوف في الجبال بل إن كهف المؤمن هو عالمه الخاص الذي التزمه وآمن به، وهو عقيدته بالإيمان بربه واتباع شريعته وعدم مجاراة القوم المفسدين في أفعالهم والبعد عنهم. أما عند استفحال الفتن والخوف على النفس والأهل من الانجرار في المعاصي فالهجرة من تلك البلدان أسلم لمن يستطيع ذلك. وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شَعَفَ (أي رؤوس) الجبال ومواقع القطر (أي الماء) يفرّ بدينه من الفتن» أخرجه البخاري.

(٢) أخبر الله أن الشمس تدخل عليهم في الكهف صباحاً ومساءً وهذا يعني أن باب الكهف كان مفتوحاً. ولو كان باب الكهف قد سُدَّ عليهم كما رُوي سابقاً فلا تصل الشمس إليهم. في هذه الحالة هناك رأيان في نظري، الرأي الأول أن يكون في أعلى الكهف فجوة يدخل منها نور =

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَـاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الحفظ الذي حفظهم الله في ذلك الغار تلك المدة الطويلة وهم أحياء هو من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ﴾ من يوفقه الله للإيمان بوحدانيته ويرشده إلى طريق الهدى والحق فهو المهتدي حقاً ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً﴾ ومن يضلله الله لسوء عمله وظلمه فلن تجد له حليفاً وناصراً يرشده إلى الخير والصلاح.

﴿وَتَحْسَبُهم أيْـقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وتظنهم أيها الناظر إليهم يقظين غير نيام والحال أنهم نيام ﴿وَنُـقَلِّـبُهم ذَاتَ اليمينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ في هذا القول قاعدة من قواعد الصحة للرقاد الطويل، فالأطباء يوصون المريض أو أهل المريض الذي يضطره المرض للرقاد وقتاً طويلاً أن يتقلب يميناً ويساراً فترة بعد فترة حتى لا يصاب جسمه بالقروح، أو يحدث له انسدادات في الدورة الدموية في القسم الأسفل من الجسم، فقبل أن يكتشف العلم هذه الحقيقة بين لنا القرآن أن هؤلاء الفتية قد جرى تقليبهم يميناً ويساراً محافظة على حياتهم(١).

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْـهِ بِـالْوَصِيدِ﴾ أي وكان كلبهم الذي تبعهم باسطاً ذراعيه بساحة الكهف أو ببابه، وهو على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين منتبه ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُم رُعْباً﴾ أي لو شاهدتهم على حالتهم التي كانوا عليها من الهيبة التي أسبغها الله عليهم لفررت مبتعداً عنهم لما ملأ صدرك من الخوف والرعب من مرآهم.

= الشمس، فالفجوة تأتي في اللغة أيضاً بمعنى الفرجة والمتسع بين الشيئين، والرأي الآخر أن باب الكهف لم يُسَدَّ عليهم، فهناك رواية تقول: إنهم بعد أن ذهبوا إلى الكهف وأنامهم الله فيه افتقدهم أهلهم وقومهم فبعثوا رجالاً منهم يبحثون عنهم، فأعمى الله عنهم الأبصار فلم يطلع عليهم أحد، فلما لم يقدروا على العثور عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح ووضعوه في خزانة الملك.

(١) باختصار عن كتاب (معجزة القرآن) ـ للشيخ محمد متولي الشعراوي. دار العودة، بيروت.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ
لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم
بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ
وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ
أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ
لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ
أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ
لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ ﴾

شرح المفردات

بعثناهم: أيقظناهم من نومهم.

بورقكم: الوَرِق نقود من الفضة.

أزكى: أجود.

يظهروا عليكم: يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم.

يرجموكم: يقتلوكم رمياً بالحجارة.

ملتهم: دينهم.

أعثرنا عليهم: أطلعنا الناس عليهم.

وأن الساعة لا ريب فيها: وأن القيامة آتية لا شك فيها.

إذ يتنازعون بينهم أمرهم: إذ يختلف القوم في أمر الفتية بعد موتهم.

قال الذين غلبوا على أمرهم: أي قال أصحاب النفوذ وهم الملك وأصحابه.

استيقاظ الفتية من نومهم الطويل

ثم يبيّن القرآن كيف استيقظ الفتية من نومهم بعد مئات السنين: ﴿وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُم[١] لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي وكما أنمناهم نوماً طويلاً وحفظنا أجسادهم من التحلل أيقظناهم من النوم ليسأل بعضهم بعضاً: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم كَمْ لَبِثْتُم﴾ أي قال أحدهم: كم بقيتم نياماً في الكهف؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال قسم منهم: قد استغرقنا في النوم يوماً كاملاً أو بعضاً من يوم، ولكن القسم الآخر أجاب: ﴿قَالُوا رَبُّكُم أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُم﴾ أي ربكم أعلم بالوقت الذي لبثتم فيه نياماً، وهذا ينبىء عن ترددهم في تقدير المدة التي ظلوا فيها نياماً لأنهم لما أفاقوا رأوا بعضهم بعضاً بصورة تغاير الصورة التي كانوا عليها يوم دخلوا الكهف.

ثم قال بعضهم لبعض بعد أن شعروا بالجوع: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى المَدِينَةِ﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم ومعه النقود الفضية التي معكم إلى المدينة ﴿فَلْيَنْظُر أَيُّها أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي وليتخير أي الحلال من الأطعمة والأطيب والأنفع فليحضر مقداراً مناسباً منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ أي وليتخذ وسائل التخفي والتنكر حتى لا ينكشف أمرنا للناس على يده ﴿إِنَّهُم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُم يَرْجُمُوكُمْ﴾ إن الملك وأتباعه إن يطلعوا على مكانكم يقبضوا عليكم ويقتلوكم رجماً بالحجارة ﴿أو يُعيدُوكُم في مِلَّتِهِمْ﴾ أو يجبروكم على العودة إلى دينهم ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إذاً أبداً﴾ ولن تفوزوا عندئذ برضاء الله أبداً إن عدتم إلى دينهم من عبادة الأصنام.

هذه هي مواقف البطولة الحقة من هؤلاء الفتية في سبيل الدفاع عن عقيدتهم

---

(١) البعث: هنا هو الإيقاظ من النوم وقد سماه الله بعثاً لطول امتداد نومهم الشبيه بالموت وحيث يبعث الله الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة للحساب والمجازاة على أعمالهم.

بربهم التي جعلتهم يستميتون في سبيلها فكانوا نبراساً للأجيال التي تأتي من بعدهم ليأخذوا منهم درساً في التضحية بالغالي والنفيس في سبيل الله.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِم﴾ أي وكما أنمنا الفتية تلك الفترة الطويلة ثم أيقظناهم من نومهم، كذلك أطلعنا الناس على أمرهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ليعلم الذين اطلعوا على أمرهم أن وعد الله حق بحصول البعث يوم القيامة لأنه شبيه بما حصل لهم ﴿وأنَّ السَّاعَة لا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن حدوث القيامة أمر لا شك فيه.

فأهل الكهف في استغراقهم في النوم سنين عديدة، ثم استيقاظهم من نومهم وهم أحياء، دليل على قدرة الله، وبرهان جليّ على حصول البعث يوم القيامة.

وقد كان اطلاع الناس على حقيقة أمرهم بواسطة النقود التي كان يحملها رفيقهم الذي ذهب ليشتري لهم بها طعاماً، حيث قال له البائع: هذه النقود غير موجودة في زماننا هذا، وإنما كانت موجودة قبل هـذا الزمن بمدة طويلة، ولا بد أنك وجدت كنزاً؛ وتجمهر الناس حوله إلى أن ساقوه إلى القائمين على شؤون البلدة فقص عليهم قصته مع رفاقه، وأدركوا حينذاك حقيقة أمر هؤلاء الفتية ﴿إِذْ يَتَنَازَعُون بَيْنَهُم أَمْرَهُم﴾ والتنازع هو التخاصم، وقد كان الناس في ذلك الزمن يتنازعون في صحة البعث، فمن مقرّ به وجاحد، ومن قائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد، وآخر يقول ببعثهما معاً، وربما كان التنازع في كيفية تكريمهم بعد موتهم ﴿فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم لئلا يدخل عليهم أحد، ضنًّا بتربتهم ومحافظة عليهم ﴿رَبُّهُم أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي ربهم أعلم بما تنازع الناس في أحوالهم وفي مدة وجودهم في الكهف ﴿قَالَ الَّذِين غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجداً﴾ قال أصحاب النفوذ وهم الملك وحاشيته: لنتخذن على باب الكهف مسجداً[١] نعبد الله فيه.

---

(١) المسجد: الموضع الذي يُتعبد فيه ويسجد فيه لله، ومن هنا جاء التعبير بالمسجد على مكان العبادة عند المسلمين.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا
تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ
ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

شرح المفردات

رَجْماً بالغيب: القول بالظن والتخمين الذي لا دليل عليه.

بِعِدَّتِهِم: بعددهم.

فلا تمار: فلا تجادل.

ولا تستفت فيهم منهم أحداً: ولا تسأل أحداً عن قصتهم ولا تطلب الفتيا منهم.

رشداً: هداية.

أَبْصِرْ به وَأَسْمِعْ: ما أبصر الله وما أسمعه لأنه لا يغيب عن نظره وسمعه أي شيء!

مَا لَهُم مِنْ دُونه مِنْ وليٍّ: ما لهم من غير الله من ناصر ومتولٍّ لأمورهم.

عدد الفتية ومدة استغراقهم في النوم

ثم يبين القرآن اختلاف الناس في تقدير عدد الفتية:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُم﴾ أي سيقول هؤلاء الذين يذكرون قصتهم في عهد النبي محمد ﷺ من أهل الكتاب: إن عددهم ثلاثة، والرابع هو كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهم﴾ ويقول البعض: هم خمسة فتيان والسادس هو

كلبهم ﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾ والرجم بالغيب هو القول بالظن من غير تثبت ولا يقين، وهو تصوير بديع واستعارة للذي يرجم «أي يرمي بالحجارة» على شيء مغيب عنه، وليس أمامه شيء محدّد يرميه.

﴿ويَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهم كَلْبُهم﴾ وهذا هو القول الراجح ـ والله أعلم ـ لأن الله لمّا ذكر القولين الأولين أتبعهما بقوله: ﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾ فلمّا ذكر القول الثالث لم يعقّب عليه بشيء ﴿قُلْ رَبّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي قل يا محمد لمن سألك عن عددهم: الله ربي أعلم بعددهم ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَليلٌ﴾ ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس أطلعهم الله على عددهم ﴿فَلا تُمارِ فيهم إلاَّ مِراءً ظَاهِراً﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلاّ جدالاً هيناً يسيراً من غير عنف ﴿ولا تَسْتَفتِ فيهم مِنْهُم أَحداً﴾ ولا تسأل أحداً من اليهود عن قصتهم فإنهم لا علم لهم بذلك عن يقين ومعرفة.

﴿ولا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إنّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً. إلاَّ أن يَشاءَ اللَّهُ﴾ هذا إرشاد من الله لرسوله محمد ولكافة المؤمنين بأنهم إذا عزموا على فعل شيء ما في غدهم أو في المستقبل، فعليهم أن يردّوه إلى مشيئة الله عزّ وجل علاَّم الغيوب لأن الإنسان لا يعلم ما سيجري له في غدٍ، ولا يدري هل الذي عزم على فعله سيتحقق أم لا؟ والمراد من الآية النهي عن اعتداد الإنسان بقوته ونسيان إرادة الله المسيطرة على قدراته. هذا وقد ذكرنا أسباب نزول هذه الآية في مطلع السورة ﴿واذْكُرْ رَبَّك إِذا نَسِيتَ﴾ واذكر ربك إذا نسيت ذكره، واذكره عند العزم على فعلٍ ما، وقل: إن شاء الله، وإذا نسيت أن تقول ذلك ثم تذكرت فقلها ولو بعد مدة من الزمن ﴿وَقُلْ عَسَى أنْ يَهْدِيَنِ ربِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشداً﴾ أي وقل: لعلَّ الله يؤتيني من البينات والحجج على أني نبي صادق بما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل الله ذلك حين آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك مما يشهد أنه رسول الله حقًّا.

﴿وَلَبِثُوا في كَهْفِهِم ثَلاثَ مِائَـةٍ سِنينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ أي ومكث الفتية في كهفهم نياماً ثلاثمائة سنة مع زيادة تسع سنوات. وقفة هنا لنقول: لماذا لم يقل القرآن ثلاثماية وتسع سنين؟ ولماذا قال: وازدادوا تسعاً؟ هنا إشارة إلى عدد السنين بالنسبة إلى السنة القمرية، فثلاثمائة سنة شمسية تقابلها ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية. وقد سبقت هذه الآية علم الفلك. فإلى الذين يدّعون أن القرآن من تأليف محمد بهتاناً وجهلاً نقول إن محمداً لم يكن عالماً بالحساب الفلكي، ولم يدرس في معاهد العلم ولكنه أتى بحقيقة علمية تشهد أنه رسول الله يأتيه الوحي من الله.

﴿قُلِ اللَّهُ أعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي قل يا محمد: الله أعلم بالزمن الذي مكث فيه الفتية نياماً في الكهف ﴿لَـهُ غَيْبُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ له سبحانه علم ما خفي وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء ﴿أَبْصِرْ بِـهِ وَأَسْمِـعْ﴾، أفاد هذا التعجب أن شأنه سبحانه في علم المبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك الناس وسائر خلقه لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِـهِ مَنْ وَلِيٍّ﴾ ما لهم من غير الله من ناصر ينصرهم ويتولى أمرهم ﴿ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أحداً﴾ ولا يجعل الله شريكاً له في قضائه وحكمه في خلقه بل هو المنفرد بالحكم والقضاء بينهم.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

شرح المفردات

واتلُ: واقرأ.
ملتحداً: ملجأ تلجأ إليه.
واصبر نفسك: احبسها وثبتها.
الغداة: ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس أي أول النهار.
العشيّ: آخر النهار.
ولا تَعْدُ عيناك عنهم: أي لا يجاوز نظرك إلى غيرهم والمراد لا تهمل شأنهم.
فُرطاً: متجاوزاً عن الحق.

تلاوة القرآن وملازمة الأخيار

ثم يأمر الله رسوله محمداً بأن يواظب على تلاوة القرآن الموحى إليه من الله: **﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّـكَ﴾** هذا الطلب بقراءة القرآن يشمل المؤمنين جميعاً وذلك بتدارسه وفهم معانيه واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، وتبليغ ما فيه من هدى إلى الناس **﴿لا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ﴾** لا مغيّر ولا محرِّفَ لكلمات القرآن، هذه الحقيقة أعلنها القرآن منذ خمسة عشر قرناً، وها هي كلمات القرآن باقية على حالها وقد وصلت إلينا بالتواتر لم يطرأ عليها تحريف ولا تبديل **﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِـهِ مُلْتَحَداً﴾** ولن تجد من غير الله موئلاً ولا ملجأ تركن إليه.

ويتابع الله خطابه لرسوله محمد ﷺ: **﴿واصْبِرْ نَـفْسَكَ مع الذين يدْعونَ ربهم بالغَدَاةِ والعَشيِّ يُريدون وَجْهَهُ﴾** هذه الآية نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم مع الضعفاء من أصحابه الفقراء كبلال، وصهيب، وخبّاب. ومعنى الآية: واحتفظ ـ أيها الرسول ـ بصحبة صحابتك من المؤمنين الذين يعبدون الله وحده في الصباح والمساء، والمراد جميع الأوقات، سواء أكانوا فقراء أو أغنياء أو ضعفاء، يريدون رضوان الله **﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم تُريدُ زِينَـةَ الحيَاةِ الدُّنيا﴾** ولا تصرف عينيك عن هؤلاء الضعفاء وتنصاع إلى الكفار، تبتغي بمجالستهم الشرف والجاه والتمتع معهم بزينة الحياة الدنيا. هذا وإن النبي

ﷺ لم يرد الحياة الدنيا وزينتها ولكن كان الخطاب موجهاً إليه لكي يحترس المؤمنون من استهواء الدنيا وطلب زينتها ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي ولا تطع يا محمد من يريد طرد فقراء المؤمنين من مجلسك ممن جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا لسوء طويته، واتبع هواه وآثره على الحق وكان أمره ضياعاً وهلاكاً وإسرافاً.

فشر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً من ذكر الله مملوءاً بالهوى والشهوات، ومثل هذا الصنف من الناس لا ينبغي طاعته لأنه لا يأتي بخير ولا يرشد إلى هدى.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

شرح المفردات

أعتدنا: أعددنا وهيأنا.

سرادقها: السرادق الخيمة وكل ما أحاط بالشيء أو ما يمد فوق ساحة البيت.

المهل: عكَر الزيت، أو ما أذيب من النحاس والرصاص.

ساءت مرتفقاً: ساءت متكأ ومنتفعاً.

جنات عدن: جنات ذات إقامة دائمة.

سُندس: رقيق الحرير الملون.

إستبرق: ما غلظ من الحرير.

الأرائك: السرر الفاخرة.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

ثم يبين الله أن الدين الذي أنزله على رسوله هو الحق: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم﴾ أي قل يا محمد للناس: إن هذا الدين الذي جئتكم به من ربكم هو الحق، والحق هو بغية كل عاقل وغاية كل منصف ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ فمن شاء أن يؤمن بهذا الحق فليؤمن فذلك خير له، ومن شاء أن يكفر به فله ما يشاء. ولا يُفهم من ذلك أنه تخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد، والدليل على ذلك ما جاء في القرآن عقب ذلك ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالِمينَ نَاراً أَحاطَ بهم سُرَادِقُهَا﴾ أي إن الله أعد وهيأ للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والإنكار لأنبيائه ناراً تحيط بهم كالسرادق، والسرادق هو الخيمة وكل ما أحاط بالشيء من سور أو نحوه ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثوا يُغَاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوي الوجوهَ﴾ وإن يطلب هؤلاء الظالمون الإغاثة من عذاب النار يُغاثوا بماء شديد الحرارة لونه كعكر الزيت أو كالمعادن المذابة من شدة الحرارة يشوي وجوههم ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ قَبُحَ هذا الشراب لهم ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وساءت هذه النار متكأ ومنتفعاً.

وبعد هذا التهديد للكافرين تأتي البشارة من الله للمؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ أي إن الذين آمنوا بالله وبالدين الحق الذي أنزله على رسوله محمد، وعملوا بصالح الأعمال، هؤلاء لهم ثوابهم عند ربهم، والله لا يضيع ثواب المحسنين على أعمالهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أما ثوابهم فهو الدخول إلى جنات ذات إقامة دائمة، منعَّمين فيها، وتنساب الأنهار من بين أشجارها وقصورها ﴿يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يتزينون في الجنة بأساور من ذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي يلبسون الثياب الخضر من الحرير على اختلاف أنواعه مما رق منه وما غلظ ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرائِكِ﴾ ويتكئون على السرر الفاخرة ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ

وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ نعم هذا النعيم الذي أثابهم الله عليه وحسنت الجنة لهم منتفعاً ومسكناً وراحة يجدون فيها كل ما يطلبون.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا
خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

شرح المفردات

واضرب لهم مثلاً: واذكر لهم مثلاً.
جنتين: بستانين.
أعناب: جمع عِنَب وهو ثمر الكَرْم.
وحففناهما بنخل: جعلنا النخل محيطاً بالبستانين.
آتت أكلها: أعطت ثمرها الذي يؤكل.
ولم تظلم منه شيئاً: ولم تنقص من أُكُلِها شيئاً.
يحاوره: المحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.
أعَزُّ نفراً: أقوى أعواناً وعشيرة.
تبيد: تهلك وتفنى.
منقلباً: مرجعاً وعاقبة.

مثال من الغرور والبطر

بعد أن أمر الله رسوله محمداً بملازمة أصحابه الفقراء وعدم الاستجابة لمطالب المشركين بطرد الفقراء منهم من مجلسه، طلب منه بعد ذلك أن يقدم

لهؤلاء الأغنياء من المشركين مثلاً لعلَّهم يعتبرون به، وهذا المثل هو: أن رجلين أحدهما كافر مستكبر قد أبطرته النعمة فلم يعد قابلاً للنصح والإرشاد، والثاني: رجل فقير مؤمن بربه مدرك طبيعة هذه الحياة التي لا تستقر على حال:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أي واضرب مثلاً يا محمد لهؤلاء المشركين حال رجلين جعل الله لأحدهما بستانين من كروم العنب محاطين بشجر النخيل وفي أرجائهما الزروع من الأشجار المثمرة والخضار.

﴿كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيئاً﴾ وقد أثمرت كل واحدة من هاتين الجنتين ثمرها ناضجاً موفوراً، ولم تنقص منه شيئاً في كل عام **﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾** أي وشققنا نهراً وأجريناه ينساب بين أشجار البستانين لسقي هذه الزروع **﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾** وكان لصاحب البستانين أنواع أخرى من المال، كالنقدين: الذهب والفضة، والمواشي؛ وسُمِّي ثمراً لأنه يثمر: أي يزيد **﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾** أي قال الغني لصاحبه الفقير وهو يجادله: أنا أكثر منك ثروة وأقوى عشيرة.

لقد نسي هذا الغني أنه مخلوق ضعيف يحتاج إلى رحمة الله في كل لحظة، وفاخر بماله وعشيرته امرأً فقيراً، وكان مقتضى الحال أن يشكر الله على نعمه لا أن يغتر بها، كما كان من مقتضى الأدب والذوق أن لا يفاخر بما عنده من مال على صاحبه الفقير لأن ذلك يوقع الحسرة والألم في قلبه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدى ذلك إلى المفاخرة الفعلية المشحونة بالبطر والغرور:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ: مَا أَظُنُّ أَنْ تبيدَ هَذِه أبداً﴾ أي ودخل الكافر أحد البستانين اللذين يملكهما برفقة صاحبه المؤمن الفقير وهو مأخوذ بغروره

ظالم لنفسه بالكفر قائلاً: ما أعتقد أن هذا البستان يفنى أبداً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وما أعتقد أن القيامة كائنة وحاصلة ﴿وَلَئِنْ رُدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْـقَلَباً﴾ ولئن فرض بأن هناك بعثاً ورجعت إلى ربي كما تزعم لأعطاني ربي في الآخرة خيراً من هذا البستان جزاء لي ولكرامتي عنده، ولولا استحقاقي ذلك ما أغناني الله في الدنيا.

ليس في الوجود أجهل من زَعْمِ الإنسان عند غناه بأنه يتميز في ذاته وتكوينه على سواه، والله سبحانه يردّ على أمثال هؤلاء الأغنياء بما جاء في سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [آية: ٣٦، ٣٧].

فالغنى ليس علامة الرضا من الله، والفقر ليس علامة السخط من الله، بل إن كلاًّ من الغنى والفقر هما امتحان من الله للإنسان ليرى سبحانه مبلغ صدق الإنسان في إيمانه عند الغنى، ومدى صبره عند الفقر.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ
بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ
ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

شرح المفردات

يحاوره: يراجعه في الكلام ويجادله.

نطفة: ما يتخلّق من اجتماع بويضة المرأة ومنيّ الرجل.

جنتك: بستانك.

ويرسل عليها حسباناً من السماء: ويرسل على جنتك آفة من السماء تتلفها كالصواعق.

صعيداً زلقاً: أرضاً ملساء تزلّ فيها القدم لملاستها بعد استئصال نباتها وأشجارها.

ماؤها غوراً: ماؤها غائراً في الأرض.

وأحيط بثمره: أهلكت الأشجار مع ثمارها.

فأصبح يقلّب كفيه: فأصبح نادماً متحسّراً.

خاوية على عروشها: سقطت الدعائم على الأرض وسقطت كروم العنب فوقها. والعروش: جمع عرش، وعرش الكرم تدعيمه بالخشب وغيره لتمتد عليه قضبان الكرم.

هنالك الولاية لله الحق: في ذلك المقام تكون النصرة لله الحق.

عقباً: عاقبة.

نهاية البطر

وبعد كلام الكافر الذي يشعّ منه الطغيان والبطر والخيلاء يأتي كلام المؤمن الفقير المشتمل على التواضع والحكمة والموعظة الحسنة:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أي قال المؤمن لصاحبه الغنيّ وهو يراجعه في الكلام ويجادله: أتسوّغ لنفسك أن تكفر بربك حيث أنكرت القيامة، لأنه شك في قدرة الله، وما كان ينبغي أن تكفر بخالقك الذي أوجدك من تراب، فأصلك من آدم، وآدم خلق من تراب، وغذاء الإنسان من النبات والحيوان الذي يتغذى بالنبات، والنبات أصله من التراب؛ وينشأ من الغذاء نطفة (أي منيّ الرجل والمرأة) حيث يحصل من التقائهما تلقيح إحدى الحيوانات المنوية بويضة الأنثى، وسرعان ما تنقسم البويضة وتتحول إلى مجموعات كبيرة من الخلايا، وبعد تطورات شتى في رحم المرأة تصبح

جنيناً ثم إنساناً تام الخلقة، فالذي استطاع أن يخلق الإنسان على هذا الشكل المعجز كيف يُستبعد على قدرته أن يبعث الخلق أحياء يوم القيامة؟

ويتابع المؤمن قوله: ﴿لكنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أحداً﴾ لكن شأني الإيمان بالله فهو ربي الذي خلقني فأنا معترف بربوبيته، ولا يخالجني شك في قدرته، ولا أشرك به أحداً في عبادته.

ويقول المؤمن لصاحبه الغني: ﴿وَلَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ أي هلاّ قلت عند دخولك جنتك «أي بستانك» والنظر إلى ما رزقك الله منها من الثمرات: ﴿مَا شَاءَ اللَّه﴾ اعترافاً منك بأن ما فيها من أشجار مثمرة وزروع إنما حصل بمشيئة الله وفضله. وهلاّ قلت: ﴿لا قُوَّة إلاَّ باللَّهِ﴾ اعترافاً بعجزك وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبيرها والحصول على ثمراتها إنما هو بفضل الله تعالى؟ وهذا تعليم لنا بأنه إذا أعجبنا شيء من المقتنيات أو المال أو ما رزقنا من الولد فلنقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ فهذا القول يديم النعم ويحفظها من الزوال بإذن الله.

ثم أجاب المؤمن الورع صاحبه الغني بشأن افتخاره عليه بالمال والولد:

﴿إنْ تَرَنِ أنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلداً﴾ أي إن كنتُ أقل منك مالاً وأولاداً في الدنيا ﴿فَعَسَى رَبِّي أنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ لعل ربي أن يعطيني خيراً من بستانك هذا في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل على بستانك عذاباً من السماء كصواعق تحرقه أو ريحاً شديدة تقلع زرعه وتتلف شجره ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ فيصبح بستانك أرضاً ملساء لا نبات عليه ولا شجر ﴿أو يُصْبِحَ مَاؤهَا غَوْراً﴾ أو يصبح ماؤها غائراً في الأرض لا تناله الأيدي بعد أن كان يسيل على وجه الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ فلن تستطيع الوصول إليه.

وصح ما توقعه المؤمن الفقير، فأصبح الغني يوماً فإذا أشجار جنته وزروعها

قد أصابها التلف من جائحة سماوية أتت على كل ما فيها وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وأُحِيطَ بِثَمرِهِ﴾ أي أهلكت هذه الجائحة ثمار جنته واتلفتها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر على ما أنفق عليها من جهد ومال ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي سقطت دعائم كروم العنب على الأرض وسقطت كروم العنب فوقها ﴿وَيَقُولُ: يا ليتَني لَمْ أُشْرِك بِرَبِّي أحَداً﴾ أي تمنى عند مشاهدته هلاك جنته أنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وعند هذه المحنة لم تكن له عشيرة تنصره بدفع الهلاك عن ممتلكاته متجاوزة قدرة الله وإرادته ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ وما كان قادراً على نصرة نفسه ولم تنصره عشيرة انتسب إليها أو ولد من أولاده الذين سبق أن افتخر بهم واعتز ﴿هُنَالِكَ الوَلاية لِلَّه الْحَقّ﴾ في هذه الشدة تكون النصرة لله ذي الحق ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ والله خير لمن آمن به وأطاعه فيكافئه على إيمانه وأعماله الصالحة، وهو خير عاقبة لمن رجاه واعتمد عليه وعمل بما أمره وانتهى عما نهاه عنه.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

شرح المفردات

هشيماً: يابساً متكسراً.
تذروه: تنثره وتفرقه.
مقتدراً: قادراً.
الباقيات الصالحات: أعمال الخير والعبادات وذكر الله، ثوابها باقٍ عند الله.
نُسيِّر الجبال: نقلع الجبال ونذهب بها عن وجه الأرض.
وترى الأرض بارزة: أي ظاهرة لا يسترها شيء مما كان عليها من جبال وأشجار.
وحشرناهم: وجمعناهم للحساب على أعمالهم.
فلم نغادر: فلم نترك.
موعداً: وعداً بالبعث.
مشفقين: خائفين.

نعيم الدنيا زائل ومصير المجرمين

ثم ينتقل القرآن إلى إعطاء صورة عن الحياة الدنيا للمغترّين بها:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك مثلاً للحياة الدنيا في نضرتها وبهجتها، ثم في سرعة فنائها كماء أنزله الله من السماء فارتوى به نبات الأرض واختلط بعضه ببعض فاخضرّ وأينع وأصبح في غاية الحسن والزينة من كل لون وثمر **﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾** أي لم يلبث طويلاً حتى جفّ وصار يابساً مفتتاً تفرّقه الرياح ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن. فعلى العاقل أن لا يغتر بالحياة الدنيا فإنها فانية ولو طالت مدتها، وزائلة ولو أعجبت الناس زينتها **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾** وكان الله قادراً على كل شيء إنشاءً وإفناءً.

﴿المالُ وَالبَنونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا أي في حسنها وبهجتها لأن في المال نفعاً بما يمكّن المرء من النعيم والترف

والحصول على ما يشتهيه. وفي البنين مصدر حبور وعز لوالديهم بما يقومون به عنهم بكثير من أعباء الحياة وتلبية حاجاتهم والقيام بخدمتهم عند سنين العجز والهرم.

وتقديم المال على البنين لأنه أقدر على تلبية الحاجات وتحقيق معنى الزينة في البنين، والبنون بدون المال يضفي وجودهم على الأسرة البؤس والشقاء.

ومن روعة القرآن أنه لا يصادم الطبيعة الإنسانية ولا ينكرها إذ يقرر أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، ولكنه يحذر من الافتتان بهما بما يلهي عن ذكر الله وطاعته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ثم يقول سبحانه بعد ذِكْرِ المال والبنين: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ فهذه الآية تجمع كل معاني الخير والعمل الصالح والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وتمجيد لله[1]، فكل هذه الأمور وغيرها من أعمال البر هي من الباقيات الصالحات، فهي خير بما يجزل عليها الله سبحانه من الثواب والأجر الجزيل يوم القيامة، وهي خير أملاً في الآخرة من المال والبنين، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية.

ثم ينتقل القرآن إلى إعطائنا صورة عن يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي واذكر يا محمد حين نقلع الجبال من أماكنها يوم القيامة ونسيّرها في الجو على هيئاتها، أو نسيّر أجزاءها بعد

---

(١) من الصيغ لتمجيد الله بما روي عن النبي ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلاّ الله، والله أكبر».

أن نجعلها هباء متفرقاً، وترى الأرض ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل أو شجر أو بنيان ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُم أَحَداً﴾ ونجمع الناس جميعاً الأولين والآخرين للحساب فلا نترك منهم أحداً بلا جزاء ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ حيث يعرض الناس في هذا اليوم في جموع مصفوفة أمام ربهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ويقول الله تعالى: لقد بعثناكم أحياء كما أوجدناكم أول مرة عراة لا شيء معكم من المال والولد ﴿بَلْ زَعَمْتُم أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً﴾ أي بل زعمتم في الدنيا أنكم لن تُبعثوا أحياء يوم القيامة، وأننا لن نجعل لكم موعداً نجازيكم فيه على أعمالكم.

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المجرمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي ووضع في يد كل إنسان كتاب أعماله فترى المجرمين من الكفار خائفين مما دُوِّن فيه من أعمالهم السيئة، وخائفين من ظهور ذلك على الملأ ﴿وَيقُولُونَ: يا وَيْلَتَنَا مالِ هَذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصَاهَا﴾ ويقولون: وافضيحتاه! أي شيء هذا الكتاب الذي لم يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلاّ أثبته وسجله ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ ووجدوا ما عملوا في الدنيا من السيئات مكتوباً مثبتاً في كتابهم، وقيل: رأوا جزاءه حاضراً ﴿ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَداً﴾ ولا يظلم ربك أحداً من عباده فلا يعاقب أحداً بغير ذنب اقترفه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ
بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ
مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم

﴿مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

شرح المفردات

ففسق عن أمر ربه: خرج عن طاعة ربه.
عضداً: أعواناً في الخلق.
موبقاً: مهلكاً.
فظنوا: فأيقنوا.
مواقعوها: داخلوها أو واقعون فيها.
مصرفاً: معدلاً ومكاناً ينصرفون إليه هرباً من النار.
جدلاً: المنازعة في الرأي على سبيل المغالبة والمخاصمة.

النهي عن طاعة إبليس

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن عصيان إبليس لربه:

﴿وإذْ قُلْنَـا لِلملائِكَةِ اْسجدوا لآدَمَ﴾ أي واذكر يا محمد وقت قولنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم **﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ﴾** فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، فخرج عن طاعة ربه بمخالفة أمره تكبُّراً، فكأن الله يقول لأولئك الكافرين المتكبرين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وعشيرتهم: إنكم اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم. وسبب رفض إبليس السجود لآدم اغتراره بأصله حيث قال لربه كما ذكر القرآن: **﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾** [ص: ٧٦].

﴿أفَتَـتَّخِذُونَـهُ وَذُرِّيَّتَـهُ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُم عَدُوٌّ﴾أي أتتخذون إبليس وذريته نصراء يلون أمركم فتطيعونهم بدل طاعة الله والحال أن إبليس وذريته أعداء

لكم؟ ﴿بِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً﴾ أي بئس للمستبدلين طاعة ربهم بطاعة الشيطان، ووصفهم بالظلم لأن الظلم في اللغة هو الجوْر ومجاوزة الحد ووضع الشيء في غير موضعه.

﴿مَا أَشْهَدتُّهُم خَلْقَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ﴾ الضمير يعود على إبليس وذريته والمشركين وعلى جميع الخلق. والمعنى: ما أحضرتهم لأستعين بهم في خلق السماوات والأرض وأشاورهم في تدبير أمرهما حين خلقتهما ﴿وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِم﴾ ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ولم يشاهدوا ذلك. وفي هذا إشارة إلى غنى الله تعالى ونفي مشاركتهم له سبحانه في الألوهية، وردّ على المنجّمين الذين يتنبأون بمصائر الناس ويخترعون الأقوال الكاذبة في شأن الأبراج وتأثيرها على الناس، فعلم الغيب اختص به الله سبحانه لا يشاركه فيه أحد من خلقه ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً﴾ أي وما كان الله متخذ الضالّين المضلِّين أنصاراً وأعواناً.

﴿وَيَوْمَ يَـقولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِين زَعَمْتُم﴾ أي ويوم القيامة يقول الله للمشركين توبيخاً لهم وتعجيزاً: نادوا الذين زعمتم أنهم شركائي لينفعوكم ويشفعوا لكم، أضاف الله الشركاء إليه تهكماً بهم لزعمهم بأن لله شريكاً، والله سبحانه منزه عن الشريك وله الحكم وحده ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فاستغاث المشركون بمن يزعمون أنهم شركاء لله فلم يبالوا بهم ولم ينصروهم ﴿وَجَعَلْنَا بَـيْنَهُم مَوْبِقاً﴾ وجعل الله ما بينهم في الدنيا من تواصل وعبادة مهلكاً لهم في الآخرة.

﴿وَرَأَى المجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي ورأى الكفار النار في الآخرة ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا﴾ فأيقنوا أنهم واقعون فيها ومخالطوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ ولم يجدوا مكاناً ينصرفون إليه أو ملجأ يلجأون إليه لأن النار أحاطت بهم من كل جانب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا في هَذَا القرآنِ للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينّا وردّدنا في هذا

القرآن للناس من كل مثل ليتعظوا به ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شيءٍ جَدَلاً﴾ والجدل: المنازعة في الرأي على سبيل المغالبة والخصومة بالباطل، هذه هي الطبيعة البشرية في كثير من الناس حيث ترى التنازع بينهم في الرأي والجدال بالباطل يظهر على ألسنتهم في مجتمعاتهم أو في أنديتهم أو في محافلهم السياسية، أو يظهر كتابة على صفحات الصحف بأساليب ملتوية لا يبتغون من جدالهم وجه الله، ولا كلمة الحق بل الحصول على منافعهم الذاتية ومغانمهم الشخصية.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ
سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى
وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا
كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

شرح المفردات

سُنَّة الأولين: عذاب الأمم السالفة أو هلاكها بسبب ظلمها وكفرها.

يأتيهم العذاب قُبُلاً: أي تأتيهم ضروب العذاب تتواصل عليهم عياناً ومواجهة.

هزواً: استهزاء وسخرية.

ليدحضوا: ليبطلوا.

ما قدّمت يداه: ما عمل من الكفر والمعاصي.

أكنّة: أغطية.

يفقهوه: يفهموه.
وفي آذانهم وقراً: أي صمماً معنويًـا يمنعهم أن يستمعوا إليه وينتفعوا به.
لو يؤاخذهم: لو يعاقبهم.
بما كسبوا: بما عملوا من المعاصي.
موئلاً: منجى وملجأ.

إنذار للظالمين

ثم تأتي الآيات وفيها التهديد والوعيد لمن يعرض عن هدى الله:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُـؤْمِنُوا إذْ جَاءَهُمُ الهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُم﴾ أي وما منع كفار قريش من إيمانهم بوحدانية الله وترك ما هم عليه من الشرك بالله حين جاءهم محمد بالقرآن الذي فيه الهدى من ربهم، وما منعهم من الاستغفار لذنوبهم والتوبة منها **﴿إلاَّ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ سُنَّـةُ الأَوَّلِينَ﴾** أي تأتيهم سُنَّة الله وطريقته في الأمم الماضية وهي أنهم إذا لم يؤمنوا وأصرّوا على الإفساد في الأرض عُذِّبوا **﴿أو يأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُـلاً﴾** أو تأتيهم ضروب العذاب تتواصل عليهم عياناً ومواجهة، هكذا كان الأمر المتبع في الأمم السابقة التي لم تؤمن بما جاء به رسل الله، وهذا ما سيصيب كل من يرفض هدى الله.

﴿وَمَا نُرْسِلُ المُرسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وما يرسل الله رسله إلى الناس إلاّ ليبشروا المؤمنين المتقين ربهم بالثواب، ويخوِّفوا الكافرين العاصين ربهم بالعقاب **﴿وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالبَاطِلِ لِيُـدْحِضُوا بِـهِ الْحَقَّ﴾** أي ويجادل الذين كفروا رسل الله بالباطل حيث يقولون: ما أنتم إلاّ بشر مثلنا، ولو شاء لأنزل ملائكة، وذلك ليزيلوا ويبطلوا بهذا الجدال ما جاء به رسل الله من الحق **﴿وَاتَّخَذُوا آياتي وَمَا أُنْذِروا هُزُواً﴾** واتخذوا حجج الله والمعجزات التي أيد الله بها رسله وما خوِّفوا به من عذاب الله سخرية واستهزاء، وهذه هي نفس الطريقة التي سلكها كفار مكة **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ﴾** أي ومن أشد ظلماً ممن وُعِظَ بآيات القرآن **﴿فـأَعْرَضَ عَنْهَا**

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي فامتنع عنها وولاّها ظهره ولم يتدبّرها، ونسي ما عمله من الكفر والمعاصي **﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ﴾** أي إن الله جعل على قلوبهم أغطية تحول دون وصول الهدى إليها بسبب سوء طويتهم وتكبرهم **﴿وفي آذانهم وَقْراً﴾** وجعل الله في آذانهم صمماً معنويًّا يمنعهم من سماع الرشاد **﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾** وإن تدعهم إلى طريق الفلاح وهو دين الإسلام فلن يستجيبوا لك أبداً. هذه طبيعة كثير من الناس الذين آثروا الضلال على الهدى اتباعاً منهم لآبائهم الضالين، أو إيثاراً لأهوائهم وشهواتهم، فمهما وضعت أمام هؤلاء من الحجج الدامغة على فساد سلوكهم فلن يغيروا ما هم عليه من ضلال.

﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذو الرَّحْمةِ﴾ والغفور من صيغ المبالغة، أي إن الله واسع المغفرة لذنوب عباده وهو المتصف بالرحمة. وهذا ما يفتح باب التوبة على مصراعيه أمام النفوس المذنبة بما ترتجي من مغفرة الله ورحمته **﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعجَّل لَهُمُ العَذَابَ﴾** أي لو شاء الله أن يؤاخذ الكافرين بما عملوا من السيئات والمعاصي لعجّل لهم العذاب في الدنيا من غير إمهال **﴿بَلْ لَهُم مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾** بل لهم موعد لعذابهم لن يجدوا من غير الله منجى ولا ملجأ يبعدهم عنه، وهذا العذاب هو عذاب الآخرة، وقد يكون في الدنيا كما حصل يوم معركة بدر حيث قتل سبعون من كفار قريش.

ثم يوجه القرآن الأنظار إلى مصارع الأمم السابقة التي حلّ بها الهلاك بسبب ظلمها: **﴿وَتِلْكَ القُرَى أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا﴾** أي وأمم تلك القرى كعاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكهم الله لمّا وقع منهم الظلم، والظلم هو التعدي على حدود الله بالكفر والمعاصي واستباحة حقوق الناس **﴿وَجَعَلْنَا لِمهلِكهم مَوْعِداً﴾** أي وجعل الله لهلاكهم موعداً لا يتأخرون عنه. فكذلك حال الظالمين من قومك يا محمد فإن لهم موعداً لهلاكهم إذا استمروا على كفرهم وعصيانهم لربهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ
إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ
لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ
صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ
لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

شرح المفردات

لا أبرح: لا أزال أسير.

مجمع البحرين: ملتقاهما.

أمضي حقباً: أسير زمناً طويلاً. والحقبة: ثمانون سنة، أو دهراً.

سرباً: مسلكاً ومنفذاً.

نصباً: تعباً وشدة.

أوينا: التجأنا.

ذلك ما كنا نبغ: ذلك ما كنا نطلب.

فارتدّا على آثارهما قصصاً: فرجعا على طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان آثارهما.

من لدنّا علماً: علماً من عند الله.

رشداً: صواباً أرشد به وأحصل به على الخير.

لم تحط به خبراً: لم تعرف أسراره.

قصة النبي موسى مع الخضر عليهما السلام

بعد أن ذكر الله سبحانه حال المشركين الأغنياء الذين افتخروا على فقراء المؤمنين أتبع ذلك بذكر قصة موسى نبيّ بني إسرائيل مع العبد الصالح الذي يلقب بالخضر(١) ليبين بهذه القصة بأن موسى عليه السلام مع كونه رسول الله الذي اصطفاه الله بكلامه ورسالته إلى الناس، أمره الله سبحانه أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه علماً خاصًا لا يعلمه، وليفهمه أن الإنسان مهما علا شأنه في العلم فإن في عباد الله من يفوقه علماً في نواحٍ أخرى لم يصل إليها علمه، وهذا درس يقدمه لنا القرآن في هذه القصة للتواضع وعدم الفخر والتكبر على عباد الله، وصدق الله إذ قال: **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾**.

والسبب الذي أمر الله به موسى للاجتماع بالخضر هو أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئِل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى اللَّهُ إليه: إن لي عبداً(٢) بمجمع البحرين(٣) هو أَعْلَمُ منك، قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال تأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً(٤) فتجعَلُهُ في مِكْتَلٍ(٥) فحيثما فَقَدْتَ الحوت فهو ثَمَّ (أي هو هناك)، فأخذ موسى حوتاً فجعله في مِكْتَلٍ ثم انطلق وانطلق معه فتاه(٦) يوشع بن نُون، حتى إذا أتيا الصخرة. . . قال موسى لفتاه: لا أُكلفك إلاَّ أن تُخبرني حيث يفارقك الحوت. . ثم أخذت موسى سِنة من النوم،

---

(١) سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء. والفروة هي أرض بيضاء ليس فيها نبات.

(٢) ليس المراد بالعبد المعنى المتعارف عليه بأن لونه أسود أو أنه مسترقّ ولكن العبد هنا بمعنى عبدالله.

(٣) مجمع البحرين: ملتقى البحرين.

(٤) الحوت في اللغة يطلق على السمكة كبيرة كانت أم صغيرة.

(٥) مكتل: قفة لحمل السمك.

(٦) فتاه: خادمه.

وبينما كان يوشع في ظل هذه الصخرة اضطرب الحوت في المكتل فخرج منه وسقط في البحر، وموسى نائم، فقال يوشع في نفسه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره[١].

* * *

بعد هذا التمهيد الذي روي عن النبي ﷺ ننتقل إلى ذِكْرِ ما جاء في القرآن في هذا الصدد:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْـرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرينِ أو أَمضِيَ حُقُباً﴾ أي واذكر يا محمد حين قال موسى لفتاه سأستمر بالسير حتى أصل إلى المكان الذي فيه ملتقى البحرين ولو سرت زمناً طويلاً. ومجمع البحرين هو مكان اجتماع البحرين ليصيرا بحراً واحداً، وفي تحديد المكان أقوال، منها ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي عند باب المندب، ومنها، ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق، ومنها أنه التقاء رافدي نهر النيل قرب مدينة الخرطوم؛ ويطلق البحر على كل نهر عظيم.

وفي قول موسى **﴿أو أَمْضِيَ حُقُباً﴾** أي أسير دهراً، هو صورة عن تصميم العزم على متابعة السير للالتقاء بالخضر وطلب العلم منه مهما كلف ذلك موسى من مشاقّ واستغرقه من زمن.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْـنِهِمَا نَسِيَـا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبيلَـهُ في الْبَحْر سَرَباً﴾ أي فانطلق موسى ويوشع يمشيان حتى وصلا إلى مكان اجتماع البحرين واستراحا عند صخرة هناك حيث نسيا في ذلك المكان حوتهما الذي حملاه معهما بأمر الله، وعند الصخرة اضطرب الحوت وعاودته الحياة فاتخذ طريقه في البحر مسلكاً.

---

(١) باختصار عن صحيح البخاري.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ فلما تخطى موسى وفتاه يوشع في سيرهما ملتقى البحرين حيث تركا الحوت، وابتعدا عن هذا المكان، أحسا بالجوع والتعب، فقال موسى لفتاه: أعطنا غداءنا لنأكله، لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً ومشقة.

﴿قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبيلَهُ في البحر عَجَباً﴾ أي قال يوشع لموسى: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة في ملتقى البحرين حيث أخذَتْكَ سِنَةٌ من النوم؟ لقد نسيت أن أخبرك ما حدث للحوت، فإنه قد دبت فيه الحياة واضطرب ووقع في البحر واتخذ طريقه في الماء مسلكاً عجيباً حيث انجاب(١) الماء عن مسلك الحوت حتى أصبح مثل النفق داخل الماء وصار الماء عليه كالقنطرة(٢)، وما أنساني أن أذكر لك ذلك إلا الشيطان ووساوسه في قلبي.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثارِهِما قَصَصاً﴾ أي قال موسى: ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو ما كنا نطلبه ونسعى إليه لأنه علامة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر؛ فرجعا في الطريق الذي سلكاه سابقاً يتتبعان آثار أقدامهما إلى أن وصلا إلى الصخرة حيث فقدا الحوت.

﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبَادِنا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ أي فوجد موسى وفتاه عند الصخرة عبداً من عباد الله وهو: الخضر، مغطّى بثوب أبيض، وقد وصف الله هذا الرجل بثلاث صفات: أولاً أنه من عباد الله الصالحين، كما أضافه الله إلى ذاته حيث قال: (من عبادنا) وهذا تكريم له. ثانياً: أعطاه الله

---

(١) انجاب: انشق، انكشف.

(٢) جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «وأمسك الله عن الحوت جزية الماء فصار عليه مثل الطاق» والطاق ما جعل من الأبنية كالقوس في القناطر والنوافذ.

رحمة من عنده ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ والمراد بها الوحي والنبوّة، وقد تكرر في القرآن إطلاق الرحمة على النبوّة. ثالثاً: علّمه الله من عنده علماً مباشراً بدون تعليم معلم ﴿وعلَّمنَـاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ وهذه الصفة من صفات النبوة[١] في رأي بعض العلماء، وهذا العلم هو علم الغيوب والأسرار الخفية التي لا يعلمها إلاّ الله، وهذا العلم الرباني هو ثمرة الإخلاص لله والتقوى يؤتيه الله من يشاء من عباده.

وعندما التقى موسى بالخضر سلّم عليه، «فقال الخضر: هل بأرضي من سلام[٢]؟ من أنت؟ قال: أنا موسى، قال الخضر: موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال الخضر: فما شأنك؟ قال موسى: جئت لتعلمني مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟ وأضاف الخضر قوله: «إني على عِلْمٍ من علم الله عَلَّمنيهِ لا تعلمه أنت، وأنت على عِلْمٍ من عِلْمِ الله عَلَّمَكَ الله لا أَعْلَمُهُ؛ فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال الخضر: والله ما علمي ولا علمك في جنب علم الله إلاّ كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر»[٣].

ولنرجع إلى نص القرآن: ﴿قال له موسى: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُـعَلِّمَن مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ أي هل أسير في صحبتك لتعلّمني مما علَّمك الله شيئاً من العلم أسترشد به في ديني من علم نافع وعمل صالح؟

هنا نرى أن موسى راعى جملة من الآداب عندما طلب العلم من الخضر، منها: أنه لم يورد طلبه من الخضر التعلم منه في صورة الأمر، وإنما في صورة الاستفهام، وجعل نفسه تبعاً له حيث قال: ﴿هَلْ أتبِعُكَ﴾، ثم أضاف موسى: ﴿عَلَى أنْ تُـعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار منه بجهله واتصاف أستاذه بالعلم، وفي هذا منتهى

---

(١) يرى أكثر العلماء أن الخضر ليس نبيًّا بل وليًّا من أولياء الله.
(٢) أي من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام.
(٣) عن صحيح البخاري، باب التفسير.

التواضع. ثم أضاف موسى قوله أخيراً ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ فهو طلب العلم منه للرشد والهداية، ولا خير في علم لا رُشد فيه ولا هداية، لأن العلم قد ينقلب إلى فتنة وضلال وظلم وبغي، إذا لم تكن غايته الرشد والهداية.

ماذا كان جواب الخضر على طلب موسى مصاحبته؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ لقد استبعد الخضر استطاعة موسى الصبر وهو في صحبته على وجه التأكيد والنفي المطلق بما سيرى منه من أعمال، وأضاف الخضر قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِط بِـهِ خُبْراً﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبيّ على ما أقوم به من أمور لم يحط علمك بها، ظواهرها منكرة، وبواطنها مجهولة، والرجل الصالح لا يملك نفسه إذا رأى منكراً أن يصبر عليه؟

أجابه موسى: ﴿قال سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أمراً﴾ لقد أعطاه وعداً بالصبر معه والطاعة وعدم عصيانه.

ثم ختم الخضر وصيته لموسى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّـبَعْتَني فلا تَسْأَلْني عَنْ شَيْءٍ حتى أُحْدِث لَكَ مِنْـهُ ذِكْراً﴾ أي إن اخترت يا موسى اتباعي والسير في صحبتي فلا تسألني عن شيء أعمله ولا تعترض عليه حتى أبين لك سرّه وخبره، فقبل موسى هذا الشرط مراعاة منه لأدب المتعلم مع أستاذه وحرصاً على الاستفادة منه.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ
شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي

عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾﴾

شرح المفردات

خرقها: ثقبها.
شيئاً إمراً: شيئاً عظيماً منكراً.
ولا ترهقني من أمري عسراً: لا تعسّر عليَّ متابعتك ويسّرها عليّ بالإغضاء واليُسر.
نفساً زكيّة: بريئة غير جانية.
شيئاً نكراً: شيئاً منكراً، تنكره العقول.
قد بلغت من لدنّي عذراً: قد وجدت عذراً لك لفراقك إياي.
استطعما أهلها: طلبا من أهل القرية طعاماً على سبيل الضيافة.
يريد أن ينقضّ: يكاد يسقط.
فأقامه: فبناه.

تصرفات مبهمة من الخضر

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما صدر عن الخضر من تصرفات غريبة بظاهرها لم يستطع موسى القبول بها:

﴿فانطَلَقَا حتَّى إذَا رَكِبَا في السَّفينة خَرَقَها﴾ أي فانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر فوجدا سفينة، فكلّما أصحابها، وطلبا منهم الإذن بالركوب معهم في السفينة، وعرف أصحاب السفينة الخضر فسمحوا لهما بالركوب بدون أجر. ثم إن الخضر غافل أصحاب السفينة وقلع لوحاً من ألواحها، والظاهر أنه فعل ذلك في موضع بحيث يميل قسم من السفينة في الماء ولا تغرق. لم يتمالك موسى نفسه صبراً على ما رآه وقال مستنكراً على الخضر فعله: **﴿قال: أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً﴾** أي أجعلت فيها ثقباً لتغرق أصحابها لقد أتيت شيئاً

عظيماً منكراً! فأجابه الخضر: ﴿**قال: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾ أي ألم أقل لك فيما مضى إنك لن تستطيع الصبر على مصاحبتي؟

﴿**قَالَ: لا تؤاخذني بِمَا نَسِيتُ**﴾ أي قال موسى معتذراً: لا تؤاخذني على نسيان وصيتك، وهذا أمر طبيعي، فإن الإنسان إذا جابهته العجائب بهرته وأدت به إلى نسيان سابق أمره. ثم أضاف موسى قوله: ﴿**ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً**﴾ أي ولا تكلفني عسراً ومشقة في صحبتي إياك، فموسى يلتمس بهذا القول ألاَّ يشدد عليه الخضر في صحبته بل يعامله بالتساهل والمسامحة.

﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ**﴾ في الكلام هنا حذف للإيجاز، والتقدير: فخرجا من السفينة وانطلقا يمشيان. حتى إذا لقيا في طريقهما صبيًّا فقتله الخضر، فقال موسى مستنكراً: ﴿**قالَ: أقتلت نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً**﴾ أي أتقتل نفساً طاهرة بريئة من الذنوب لم تقتل أحداً حتى يُقتصّ منها، لقد فعلت فعلاً منكراً!

﴿**قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾ قال الخضر لموسى ما قاله له سابقاً بأنه لن يستطيع معه صبراً، ولكن الآية هنا فيها زيادة لفظة (لك) ﴿**ألم أقل لك**﴾ وذلك لتوكيد لومه له.

﴿**قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَن شيءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً**﴾ أي قال موسى: إن سألتك عن شيء بعد الذي جرى بيني وبينك وأنكرتُ عليك ما ستفعله ففارقني ولا تصاحبني لأنك قد بلغت الغاية التي تُعذر بها في فراقي.

﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُمَا**﴾ وتابعا سيرهما حتى وصلا إلى قرية فطلبا من أهلها طعاماً فرفضوا إطعامهما وإضافتهما. ولا شك أن قوماً مستقرّين في قرية يأتي إليهم ضيفان مسافران ثم يطلبان الطعام منهم لحاجتهم إليه، ولكنهم يأبون مجرد إضافتهما ولو بدون طعام، إن هؤلاء القوم

قد بلغوا الغاية القصوى في اللؤم والبخل وقساوة القلب ﴿فوَجدا فِيهَا جِداراً يُريدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ وبعد هذا الرد غير اللائق من أهل القرية لهما وجدا جداراً متداعياً يوشك أن ينهار فهدمه الخضر ثم بناه ثانية ﴿قَالَ: لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي قال موسى للخضر: ليتك طلبت أجراً على بناء الجدار لنحصل على الطعام، فهم لم يقوموا بواجب ضيافتنا فلا ينبغي أن تحسن إليهم ببناء هذا الجدار مجاناً لهم.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ
كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا
فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

شرح المفردات

سأنبئك: سأخبرك.

تأويل: تفسير.

غصباً: سلباً بغير حق.

يرهقهما: يغشيهما ويدفعهما.

زكاة: طهارة من السوء، أو دِيناً وصلاحاً.

وأقرب رحماً: أقرب برًا ورحمة بوالديه.

يبلغا أشدهما: يبلغا قوّتهما، وهي سن البلوغ والرشد.

أسرار أفعال الخضر

وبعد أن خالف موسى عليه السلام الاتفاق الذي جرى بينه وبين الخضر ولم يتقيد به أعلن الخضر فراقه لموسى:

﴿قال: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي هذا الإنكار منك لي، والاعتراضات المتكررة على أفعالي هي التي جعلتني أبادر إلى فراقك، ولكن قبل الفراق سأخبرك بتفسير وحكمة ما فعلت من الأمور التي خفي عليك سرّها ولم تطق صبراً على تقبّلها:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمسَاكِينَ يَعْمَلُون في البَحْرِ﴾ أما سبب خرقي للسفينة فلأنها كانت لمساكين ضعفاء يكتسبون بها ممن يستأجرها منهم أو يعملون بها لنقل الركاب، ولم يكن لهم من مورد غير تلك السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أن أَعيبَهَا﴾ فأردت بحكم الله وإرادته أن أجعل فيها عيباً يمكن إصلاحه فيما بعد ﴿وَكانَ وَرَاءهم[1] مَلِكُ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ وكان رجوعهم في سيرهم يصادف المرور على ملك ظالم يستولي على كل سفينة جيدة ويأخذها من أصحابها غصباً فإذا رأى فيها عيباً تركها فيصلحها أصحابها وتسلم لهم، فكان هذا العيب في السفينة هو لصرف الملك عن الاستيلاء عليها[2].

﴿وَأَمَّا الغُلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤمِنَيْنِ فَخَشِينَا أنْ يُرهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته[3] فكان أبواه مؤمنين صالحين فخفنا أو علمنا أن يغشي هذا الولد والديه المؤمنين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه بهما، أو

---

(١) وراء: تأتي في اللغة أيضاً بمعنى أمام. وهناك قراءة لأبيّ بن كعب (وكان أمامهم ملك).

(٢) العبرة هنا تفيد أن الله لا يتخلى عن المساكين بل يحفظهم من عاديات الزمن ويسخّر لهم من يقوم بأمرهم والدفاع عنهم.

(٣) أشكل على بعض العلماء قتل الخضر لهذا الغلام، فقيل إنه كان بالغاً، وقد استحق القتل بكفره وقيل كان يقطع الطريق، وقد علم بذلك الخضر دون موسى فاستحق القتل لذلك.

يعديهما بدائه وهو الكفر ويضلهما بضلاله. فالخضر علم بإعلام الله إياه أن الغلام حين يبلغ سيكون كافراً ويتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما. فإنه ليس هناك فتنة أضر على الأبوين من الأبناء لأن عاطفة الحب التي يكنّها الآباء لهم وانحيازهم العاطفي لتصرفاتهم قد توردهم المهالك وهم لا يشعرون.

فهذا الولد الذي قتله الخضر فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي حيًّا لكان فيه هلاكهما وتعاستهما، فليرض المرء بقضاء الله، لأن قضاء الله للمؤمن خير له مما يحب ويرضى، وعلى الإنسان أن لا يأخذه الحزن المهلك لموت ولد له قضاء وقدراً، فقد يكون موته خيراً له ولوالديه في علم الله.

وتابع الخضر قوله: ﴿**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً**﴾ فأردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولداً آخر يكون خيراً من هذا الولد الذي قتلته: ولداً ذا ديانة، وصلاح، وأقرب عطفاً ورحمة على والديه.

﴿**وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يتيمَيْنِ في المدينَةِ**﴾ وأما الجدار الذي بنيته دون أن آخذ عليه أجراً فكان لغلامين يتيمين من أهل المدينة ﴿**وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أبوهُمَا صَالِحاً**﴾ وكان تحت هذا الجدار كنز من المال تركه أبوهما لهما وكان رجلاً صالحاً، وقد يكون الأب وصى بغلاميه صديقه بعد موته وأخبره بموقع الكنز، واتفق أن غاب الوصي وأشرف الجدار في غيبته على السقوط، ولو سقط لانكشف الكنز ونُهب ما فيه من أموال ﴿**فَأَرَادَ رَبُّك أن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ويستخرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**﴾ فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا سن الرشد ويستخرجاه رحمة من ربك بهما، وتكريماً لأبيهما في ذريته لصلاحه، وهذا دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته لمن شاء الله له ذلك، وتشمل بركة عبادته لله أولاده في الدنيا ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أمْري**﴾ وما رأيتني أفعله لم يكن باجتهادي وإنما فعلته بأمر الله ووحيه ﴿**ذَلِكَ تَأْويلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً**﴾ هذا تفسير وحكمة ما خفي عليك يا موسى مما فعلت ولم تستطع الصبر عليه.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى
ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن
تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

شرح المفردات

سأتلو عليكم منه ذكراً: سأقص عليكم منه خبراً.
مكنّا له في الأرض: أعطيناه ملكاً عظيماً وتصرفاً في الأرض كيف يشاء.
سبباً: طريقاً يوصله إلى مراده.
فأتبع سبباً: فاتبع طريقاً يوصله إلى غرضه.
تغرب في عين حمئة: تغرب في عين ذات طين أسود بحسب رأي العين.
إما أن تعذب: إما أن تعذب هؤلاء القوم بالقتل.
حُسناً: وهو الدعوة إلى الحق والهدى.
عذاباً نكراً: منكراً فظيعاً.
فله جزاء الحسنى: فله جزاء الجنة والمثوبة الحسنة.
أحطنا بما لديه خبراً: أحطنا علماً بما لديه من الجنود وآلات الحرب.

ذو القرنين

ثم ينتقل القرآن إلى الإجابة على سؤال الكفار عن ذي القرنين:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذي القرنين قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي يسألك يا محمد بعض الكفار عن نبأ ذي القرنين فقل لهم سأقص عليكم بعض أخباره بما أوحى الله

إليّ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَـهُ في الأَرْضِ﴾ وتمكين الله لإنسان من خلقه في الأرض هو إيتاؤه السلطان والقوة فيها والتصرف فيها كيف يشاء ﴿وآتَـيْنَـاهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ سَبَباً﴾ وأعطيناه من كل شيء أراده لبسط سلطانه طريقاً يوصله إليه من قدرة وعلم وآلة ﴿فَأَتْـبَعَ سَبَباً﴾ فاختار طريقاً وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي حتى إذا وصل إلى بلاد في أقصى الغرب بالنسبة لمن نزل عليهم القرآن «أهل الجزيرة العربية» ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَـةٍ﴾ وجد الشمس في رأي العين كأنها تغرب في مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ وبالقرب من هذه العين وجد ذو القرنين قوماً كافرين ﴿قُلْنَـا يا ذَا القَرْنَـيْنِ إِمَّا أن تُـعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَـتَّخِذَ فِيهِم حُسْناً﴾ أي فألهمه الله أن يتخذ فيهم أحد أمرين: إما أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على الكفر ولم يجيبوا داعي الإيمان وإما أن يعاملهم بالحسنى إن أعلنوا إيمانهم بعد دعوتهم إلى الإيمان والهدى.

﴿قَالَ: أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُـعَذِّبُـهُ ثُمَّ يُـرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَـيُـعَذِّبُـهُ عَذاباً نُـكْراً﴾ أي قال لهم: أما من لم يقبل دعوتي إلى الإيمان بالله وأصر على الشرك بالله فسوف نأمر بتعذيبه في الدنيا بالقتل ثم يرجع إلى ربه بعد الموت فيعذبه عذاباً شديداً في الآخرة بنار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَـقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسراً﴾ وأما من صدّق بالله ووحدانيته وعمل عملاً صالحاً فله الجزاء الحسن في الآخرة وسنعامله في الدنيا برفق ويسر ولا نكلفه أمراً يشق عليه.

﴿ثُمَّ أَتْـبَعَ سَبَباً. حَتّى إذَا بَلَغَ مَطْلِـعَ الشَّمْسِ﴾ أي ثم سلك طريقاً موصلاً إلى مشرق الشمس في نهاية ما وصل إليه العمران ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ أي وجد الشمس تشرق على قوم يعيشون على الفطرة الأولى لا يسترهم من حرّ الشمس ساتر من شجر وغابات كأن تكون مناطق صحراوية، أو هم عراة لا لباس لهم ولا بناء.

ويرى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن اللباس والبناء لا يستران الشمس، فالشمس موجودة خارج المنزل، ولكن الذي يستر الشمس في أي موضع من الأوضاع هو الظلام، هو الليل، فذو القرنين وصل إلى مناطق في الأرض بعيدة لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة، وهي تنطبق على القطب الشمالي والقطب الجنوبي، فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالي مدة ستة شهور وعن القطب الجنوبي كذلك.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي كذلك فعل ذو القرنين بأهل المشرق من آمن تركه، ومن كفر قتله، والله مطلع على جميع أحواله وأحوال خلقه لا يخفى عليه شيء منها.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ
خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

شرح المفردات

بين السدين: بين الجبلين.
من دونهما: من ورائهما.
يأجوج ومأجوج: قبيلتان كانتا تعيثان الفساد في الأرض.
خرجاً: عطاء من أموالنا.
ردماً: حاجزاً حصيناً.

زبر الحديد: قطع الحديد.
بين الصدفين: بين جانبي الجبلين.
قطراً: نحاساً مذاباً.
يظهروه: يعلوا على ظهره لارتفاعه.
نقباً: خرقاً وثقباً لصلابته وثخانته.
جعله دكاء: جعله مدكوكاً مُسوًّى بالأرض.
يموج: يختلط ويضطرب.
الصور: البوق.

ذو القرنين يبني السد

ويتابع القرآن الكلام على ذي القرنين في ذكر بنائه السد:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي ثم سلك طريقاً آخر بين الشرق والغرب حتى إذا وصل بين جبلين مرتفعين، قيل هما جبلا: آذربيجان وأرمينيا **﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يكَادُون يَفْقَهُون قَوْلاً﴾** أي وجد من وراء الجبلين قوماً لا يكادون يفهمون لغة غير لغتهم إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها أو بواسطة الترجمان.

﴿قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إنَّ يأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُون في الأَرْضِ﴾ أي قال القوم لذي القرنين بعد أن آنسوا فيه التقى والقوة والقدرة: يا ذا القرنين إن قبيلتي يأجوج ومأجوج يغيرون علينا فيعملون فينا قتلاً وسلباً **﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سَدًّا﴾** فهل نعطيك جزءاً من أموالنا مكافأة لك مقابل أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا يحمينا من غاراتهم وشرّهم؟ **﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فيه ربِّي خَيْرٌ﴾** قال ذو القرنين: ما أعطاني الله من المال والملك وما أبتغي من ثواب الله خير مما تريدون أن تبذلوه لي، وأنا سأقوم بعمل السد تبرّعاً مني لكم **﴿فَأَعِينُوني بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُم وبَيْنَهُم رَدْماً﴾** فأعينوني بكل ما تستطيعون من رجال وأدوات لأجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً فلا يستطيعون الوصول إليكم.

﴿آتوني زُبَـرَ الحديدِ﴾ أعطوني قطع الحديد، فأتوه بالكثير منها ﴿حتَّى إذا سَاوى بَـيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ والصدفان: هما جانب الجبلين، أي حتى إذا ساوى البناء بين حافتي الجبلين بقطع الحديد أوقد بينها حطباً ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَاراً﴾ ثم قال للعمال انفخوا على النار بالأكيار(١) حتى إذا صار الحديد محمرًّا كالنار من شدة الحرارة ﴿قَالَ: آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ قال: هاتوا لي نحاساً ذائباً من كثرة غليانه أفرغه على الحديد المحمى؛ فدخل ذائب النحاس بين الحديد فالتأم ولصق بعضه ببعض ﴿فَمَا اسْطَاعُوا(٢) أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ فما استطاعت قبيلتا يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد بالصعود فوقه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطاعُوا لَـهُ نَقْباً﴾ وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وسمكه.

﴿قَالَ: هذا رَحْمَةٌ مِنْ ربّي﴾ أي قال ذو القرنين لأهل تلك الديار: هذا السد نعمة وأثر من آثار رحمة ربي إذ صار حاجزاً بينكم وبين يأجوج ومأجوج حيث يمنعهم من الإفساد في الأرض ﴿فَإِذا جَاءَ وَعْدُ ربي جَعَلَـهُ دَكَّاءَ﴾ فإذا حلّ الأجل الذي عيّنه ربي بخروج يأجوج ومأجوج من وراء السدّ جعله ربي بقدرته مدكوكاً مسوّى بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ ربّي حَقًّا﴾ وكان كل ما يعد به ربي حقًّا ثابتاً لا ريب في تحقُّقه.

وتم فعلاً خروج جنكيزخان وسلالته من وراء السد (وسيأتي الكلام عليهم) فعاثوا في الأرض فساداً في الشرق ودمروا معالم الحضارة الإسلامية. وقد قالت زينب زوج النبي ﷺ: «استيقظ النبي ﷺ وهو يقول: لا إلّه إلاّ الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم(٣) يأجوج ومأجوج... قلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم إذا كثر الخبث»(٤).

---

(١) الأكيار: جمع كير وهو ما يستعمله الحداد لتحمية النار.

(٢) اسطاعوا: أصلها استطاعوا حذفت التاء تخفيفاً.

(٣) ردم: سدّ.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

فالمغول والتتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري هم جزء صغير من يأجوج ومأجوج، وسوف يتلوه الظهور الكلي لهم عند اقتراب قيام الساعة (أي القيامة).

﴿وتركْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ﴾ أي وتركنا الناس يوم فتح السد، وخروج يأجوج ومأجوج يضطرب ويختلط بعضهم ببعض من شدة الهول والفزع. أو بمعنى: وتركنا جميع الخلائق يوم القيامة يضطربون حيارى من شدة الهلع والخوف.

وقفة عند قوله تعالى: (يموج) يُقال: ماج البحر يموج موجاً إذا اضطربت أمواجه[١]، «فكلمه يموج لا تقف عند حد استعارتها لمعنى الاضطراب، بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموّج واضطراب»[٢] ﴿وَنُفِـخَ في الصُّورِ﴾ والصور هو قرن ينفخ فيه كهيئة البوق ينفخ فيه الملك إسرافيل النفخة الثانية حيث يقوم الناس أحياء بعد مماتهم لرب العالمين ﴿فَجَمَعْنَاهُم جَمْعاً﴾ أي جمعنا الخلائق لموقف الحساب على صعيد واحد لا يتخلف منهم أحد.

من هو ذو القرنين

ذهب كثير من المفسرين إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني الملقب بالإسكندر الكبير الذي بلغت فتوحاته أرجاء الأرض، ولكن ما ينفي أن يكون ذلك هو أن ذا القرنين الموصوف في القرآن كان مؤمناً بالله واليوم الآخر وهو دين

---

(١) لسان العرب.

(٢) عن كتاب: من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوي.

التوحيد، وكان من صالحي عباد الله، بينما كان الإسكندر معدداً للآلهة، وسيرته يشوبها بعض المثالب كما جاء في بعض المصادر التاريخية.

ويقول تقي الدين المقريزي في كتابه المعروف بالخطط المقريزية:

«اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز قد كثر ذكره في أشعار العرب، وأن اسمه: الصعب بن ذي مراثد بن الحارث... وأنه ملك من ملوك حمير... وقد غلط من ظن أن الإسكندر بن فيليبوس هو ذو القرنين الذي بنى السد فإن لفظة (ذو) عربية وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك أي إسكندر، هو رومي يوناني».

وقيل: إن ذا القرنين هو كورش أحد ملوك فارس وهو الذي أسس الأمبراطورية الإيرانية، وهو الذي أذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم، وإن ما وصفه القرآن من ذي القرنين منطبق على هذا الملك، فقد كان مؤمناً بالله على دين التوحيد عادلاً في رعيته كما جاء في بعض الروايات، وبلغت فتوحاته أقاصي الأرض والظاهر أنه بنى السد في مضيق داريال في سلسلة جبال قوقاز في جمهورية جورجيا السوفياتية الآن.

وهناك روايات تدل على وثنية كورش وتعظيمه للآلهة وإفساح المجال لعبادتها لكل الشعوب المقدسة لها[١]، ولا ندري مدى صحتها.

وقد يكون ذو القرنين غير هؤلاء الذين ورد ذكرهم لأن النص القرآني لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، وليس من أهداف القرآن ذكر الوقائع التاريخية، وإنما المقصود هو العبرة المستفادة من قصة ذي القرنين وإعطاء مثل عن الحاكم الصالح الذي يمد يد العون للشعوب المقهورة.

وسمي ذو القرنين لأنه ملك قرني الأرض وهما المشرق والمغرب، وقيل لأنه

---

(١) راجع كتاب (ذو القرنين) لمحمد خير رمضان يوسف.

كان على تاجه قرنان من ذهب، وقيل لأنه كان له ضفيرتان. ويحتمل أنه لُقِّب بذي القرنين لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع لأنه ينطح أقرانه.

من هم يأجوج ومأجوج

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح، وهذان اللفظان مأخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها وفي ذلك ما يشير إلى كثرتهم وشدتهم. ويرى بعض المؤرخين أن يأجوج هم التتر، ومأجوج، هم المغول وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك)، وكانوا يسكنون الجزء الشمالي من آسيا، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد التركستان.

وقد ذكر المؤرخون أن هذه الأمم كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض ودمروا البلدان التي فتحوها... ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن نبوة محمد ﷺ إلى أن ظهر فيهم رجل يسمى (تموجين) الذي لقّب نفسه (جنكيز خان) وقد خرج هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع للهجرة فإنه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولاً، ثم ذهب إلى بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خُوارزم، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يُسمع بمثله في التاريخ. وجاء من بعده عدة ملوك استمروا في فتح البلدان المجاورة لهم وتدميرها، إلى أن جاء (هولاكو) فزحف على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله، فأخذ بغداد عنوة في أواسط القرن السابع للهجرة. وعرضها للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهاراً، وطرح جنوده كتب العلم في دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد[١].

---

(١) عن تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، وتفسير الجواهر لطنطاوي جوهري باختصار.

هذا بعض ما يـروى عن فتوحاتهم وفظائعهم. لا نأخذها مأخذ اليقين بأنهم هم المقصودون بيأجوج ومأجوج. ولكن نذكرها كرأي من الآراء التي قيلت في شأنهم.

﴿ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي
وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ
أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ
سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ
بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ
جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا
لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠
بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا
صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾

شرح المفردات

وعرضنا جهنم: أظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها.

غطاء: غشاوة محيطة بها.

نُـزُلاً: ما يقام للنزيل، وهو الضيف وهذا من باب الاستهزاء بالكافرين.

أعتدنا: هيأنا وأعددنا.

ضل سعيهم: ضاع عملهم وبطل.

فحبطت أعمالهم: بطل ثواب أعمالهم.

فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً: فلا يكون لهم عندنا لهم وزن واعتبار في ذلك اليوم.

هزواً: سخرية واستهزاء.

جنات الفردوس: أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها.
لا يبغون عنها حِوَلا: لا يريدون تحولاً وانتقالاً عنها.
مداداً: الحبر الذي يكتب به.
مدداً: عوناً وزيادة.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

ثم يبين الله مصير الكافرين يوم القيامة وما ينتظرهم من عذاب:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ للكافرين عَرْضاً﴾ أي وأظهرنا جهنم لهم حتى شاهدوها يوم جمعنا الخلائق للحساب إظهاراً هائلاً بحيث يسمعون زفيرها **﴿الذين كانت أَعْيُنُهم في غِطاءٍ عَنْ ذِكْرى﴾** أي الذين كانت أعينهم عمياً عن التبصر والنظر في ملكوت السماوات والأرض المؤدي إلى توحيد الله وذكره وتمجيده **﴿وَكَانُوا لا يستطيعون سَمْعاً﴾** وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله ومواعظه وبيانه التي بيّنها لهم في آيات القرآن الكريم.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذين كفروا أن يَتَّخِذوا عِبَادي من دُوني أَوْلِيَاءَ﴾ أفظن الذين كفروا أن اتخاذهم آلهة من عبادي الذين هم في قبضتي وتحت سلطاني، كالملائكة وعيسى، معبودات من دوني تجديهم نفعاً وتصرف عنهم العذاب؟ كلا لا تنفعهم تلك المعبودات **﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً﴾** إنا هيأنا لهم جهنم مقرًّا ينالون فيها ما يستحقون من عذاب جزاء كفرهم.

﴿قُل هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرين أعْمَالاً﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: هل أخبركم بأشد الناس خسراناً لأعمالهم يوم القيامة وحرماناً من ثوابها؟ **﴿الَّذين ضَلَّ سَعْيُهُم في الحَياةِ الدُّنْيَا﴾** أي الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به فأشركوا بربهم وابتدعوا في دينهم **﴿وَهُمْ يَحْسَبُون أَنَّهُم يُحْسِنُون صُنْعاً﴾** وهم يظنون أنهم يحسنون في أفعالهم، بينما هي في الحقيقة توجب المقت والسخط من الله **﴿أُولئِكَ الَّذين كَفَروا بآيَاتِ رَبِّهم وَلِقَائِه﴾** أي أولئك الذين

كفروا بحجج ربهم الدالة على وحدانيته، وكفروا بآيات القرآن المنزلة من عنده ولم يقروا بأنها من عند الله ولم يعتقدوا بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُم﴾ فبطلت أعمالهم فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها في الآخرة ﴿فَلا نُقيمُ لَهُم يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً﴾ فلا يقام وزن لأعمالهم لأنها غير مقبولة منه سبحانه.

وهكذا نرى مئات الملايين من البشر يدينون بأديان شتى ويرهقون أنفسهم بأداء شعائرها ولكن عباداتهم غير مقبولة عند الله لما خالطها من معتقدات باطلة كالشرك بالله، حيث حذر الله منه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

فكل من يدعي الألوهية لغير الله فهو مشرك، وكل من يتوجه بالدعاء لغير الله لكشف الضرّ عنه فهو مشرك بالله. والشرك محبط للأعمال ومبطلها وليس لها ثواب ينفع أصحابها كما جاء في القرآن حيث خاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٥].

﴿ذَلِكَ جَزاؤهم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَروا واتَّخذُوا آياتي وَرُسُلي هُزواً﴾ أي ذلك الذي ذَكَرَهُ الله وفصّله من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة وهو عذاب جهنم وذلك بسبب كفرهم واتخاذهم آيات القرآن ورسله هزواً وسخرية.

وبعد أن بين القرآن مصير الكافرين في الآخرة أتبع ذلك ببيان مصير المؤمنين:

﴿إنَّ الَّذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَانت لَهُم جَنَّاتُ الفِرْدَوسِ نُزُلاً﴾ أي إن الذين صدّقوا بوحدانية الله ورسوله محمد ﷺ وعملوا بطاعة الله وما أمرهم به من صالح الأعمال كانت لهم جنات الفردوس منزلاً مُعَدًّا لهم. والفردوس أعلى درجات الجنة، وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ومنه تفجّر الأنهار».

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا﴾ مقيمين فيها أبداً منعمين لا يبغون عنها بديلاً ولا يختارون غيرها.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قل يا محمد للناس: إن علم الله محيط بكل شيء، ولو كان ماء البحر حبراً، والشجر كله أقلام[1] وجلس الكتاب يسجلون بتلك الأقلام كلمات الله الدالة على علمه وصفاته، وعجائب صنعه وقدرته، فماذا تكون النتيجة؟ ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أي لنفد ماء البحر قبل أن يفرغوا من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء زيادة فيه لنفد أيضاً قبل أن تنفد كلمات الله.

ثم يأتي ختام هذه السورة متناغماً مع أولها من حيث تقرير وحدانية الله وإنذار الذين ادعوا أن لله ولداً:

﴿قُلْ إِنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إلهكُم إلهٌ واحدٌ﴾ أي قل يا محمد لقومك بأنك بشر مثلهم ليس فيك صفة الألوهية، وقل لهم: إن الله أوحى إليّ أن لا إلّه في الكون إلاّ الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿فَمَنْ كَان يَرْجُو لِقَاءَ ربِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشرِكْ بِعبَادَةِ ربِّه أحداً﴾.

أي فمن كان يرجو لقاء ربه وهو راضٍ عنه طامعاً في ثوابه، ناجياً من عذابه فليتقرب إليه بصالح الأعمال، وليجتنب الشرك بعبادة الله.

والشرك نوعان: الشرك الأكبر كعبادة الأوثان وعبادة الأنبياء وغيرهم مع عبادة الله. والشرك الأصغر: وهو أن يعبد الله رياء وسمعة وشهرة بين الناس لا يبتغي بعبادته وجه الله وحده بل يبتغي الثناء من الناس لمنفعة له من ذلك.

---

(١) وهذا ما ذكره القرآن: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

تعريف بسورة مريم

سورة مريم من السُّوَر المكية «أي التي نزلت بمكة» وغرضها تقرير وحدانية الله وتنزيهه عن الولد، كما تقرّر عقيدة البعث والجزاء بعد الموت. وقد سُميت هذه السورة سورة مريم لورود قصة مريم فيها.

وتعرض هذه السورة فيما تعرض قصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة النبي زكريا عليه السلام الذي كان شيخاً هرماً، وكانت امرأته عاقراً، فسأل الله أن يهبه ولداً ليخلفه في قومه بالدعوة إلى الله بعد وفاته، لأنه لم ير بين أقربائه من يصلح لذلك، فاستجاب الله لدعائه ووهبه ولداً اسمه يحيى فكانت ولادته من أب هرم وأم عقيم معجزة خص الله بها زكريا.

ثم تعرض السورة قصة مريم حيث جاءها الملك جبريل ونفخ في صدرها فحملت بعيسى عليه السلام. وبعد ولادته خرجت على قومها وهي تحمله فكان التأنيب والاتهام لها بالفاحشة فالتزمت الصمت وأشارت إليهم بإلهام من الله أن يكلموا وليدها، فأنطق الله عيسى وهو رضيع في المهد مبرئاً أمه. فكانت ولادته بدون أب معجزة، ونطقه في المهد معجزة أخرى من معجزات الله سبحانه خص بها عيسى عليه السلام.

ثم تأتي بعد ذلك قصة النبي إبراهيم عليه السلام حيث وعظ أباه ليترك عبادة الأصنام بأسلوب يسيل أدباً ورقة وعطفاً على والده، فما كان من الأب إلاّ أن قابل ابنه بالغلظة والجفوة والتهديد.

ثم تذكر السورة موسى عليه السلام وما كان عليه من إخلاص القلب لله، وتذكر إسماعيل عليه السلام وما كان يتصف به من صدق الوعد وأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

كما تذكر إدريس عليه السلام وما كان عليه من بالغ الصدق مع ربه ومع الناس.

وفي السورة ردّ على المشركين الذين ينكرون البعث، كما تعرض الدلائل على حدوثه، مع عرض بعض مشاهد القيامة وأحوال المشركين حيث يُعذبون بنار جهنم.

وتختتم السورة بالتهديد والوعيد لمن يدعي بأن لله ولداً مبينة فظاعة هذا الادعاء الباطل الذي تكاد السماوات أن يتشققن، والأرض أن تنخسف، والجبال أن تنهدم لشدة نكران هذا القول الباطل بأن لله ولداً.

سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية، وآياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ
رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

شرح المفردات

نداءً خفيًّا: دعاء سريًّا لم يسمعه أحد.

وهن العظم: ضعف العظم.

اشتعل الرأس شيباً: انتشر الشيب في الرأس.

شقيًّا: ولم أكن محروماً ضائع المسعى.

خفتُ الموالي من ورائي: خفت الأقارب وبني العم من بعد موتي أن يضيعوا الدين.

لَـدُنْك: عندك.

وَلـيًّا: ابناً من صلبي.

ويرث من آل يعقوب: أي يرثهم في العلم والفقه في الدين والمُلْك.

رضيًّا: مرضياً في أخلاقه وأفعاله.

زكريا يسأل الله أن يرزقه ولداً

تبتدىء هذه السورة بالكلام على زكريا عليه السلام:

﴿كٓهيعٓصٓ[١]. ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي هذا حديثٌ وقصة لرحمة ربك التي شملت عبده زكريا.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ النداء هنا بمعنى الدعاء، وقد دعا زكريا ربه سرًّا في جوف الليل، والسبب في دعائه خفية عن الناس لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿قَالَ: ربِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي﴾ أي قال في دعائه: إني ضَعُفَ العظم مني، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وقوامه، وضعف العظم كناية عن الهرم والتقدم في السنّ ﴿وَاشْتَعَلَ الرأْسُ شَيْباً﴾ والاشتعال: انتشار شعاع النار، وهنا استعارة تبرز بلاغة القرآن، فالاشتعال خاص بالنار ولكنه استعار النار للشيب حيث ينتشر في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يشمله فكأن الشيب بمنزلة النار التي تشتعل في الحطب في دأب واستمرار حتى تأتي عليه ويصبح رماداً أبيض، والشبه واضح بين ضوء النار والرماد وبياض الشيب ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربِّ شَقِيًّا﴾ ولم تكن لتخيب دعائي إذا دعوتك في أي وقت من الأوقات، بل عهدتك كلما دعوتك استجبت لي دعائي ﴿وَإِنِّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرَائي﴾ والموالي هنا الأقارب وبنو العم الذين يلونه في النسب. ومعنى: من ورائي، أي من بعد موتي، أي أن زكريا خاف أن يخلفه أقاربه بعد موته في الحكم وإمامة الناس ـ وكانوا من شرار بني إسرائيل ـ وكان خوفه أن يضيّعوا

---

(١) كهيعص: قيل إن كل حرف يرمز إلى معنى خاص أي: الله كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده. وقيل: كهيعص اسم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: إن هذه الحروف هي لتنبيه الكفار إلى أن القرآن ألّفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلمات العرب فلم ينزل القرآن بكلمات غريبة عنهم ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فعجزهم هذا دليل على أن القرآن منزّل من عند الله. وقيل: إن هذه الأحرف هي سر ولا يعلمها إلاّ الله.

الدين، ويهملوا القيام بشعائره ﴿وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً﴾ وكانت زوجتي عقيماً لا تلد ﴿فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وليّاً﴾ فارزقني من عندك ولداً يخلفني في قومي ﴿يرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يرثني في نبوتي وعلمي ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله إلى طلبه وأورثه النبوة والعلم دون الملك ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ واجعل يا رب هذا الولد الذي تهبه لي مُرضِياً في أخلاقه وأفعاله عندي وعند الناس ورجلاً صالحاً ترضى عنه.

هذه الآية فيها إيحاء للمؤمن أن يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً، وأن يحرص على تربية أبنائه على تقوى الله والصلاح، فالولد الصالح ذُخْرٌ لوالديه في الحياة وبعد الممات. وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث»، وذكر من ضمنها: «ولد صالح يدعو له»(١).

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ
عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ
شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ
وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ
عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

شرح المفردات

لم نجعل له من قبل سميًّا: لم يُسمَّ باسم يحيى قبله أحد.
بلغت من الكبر عتيًّا: بلغت نهاية العمر.
اجعل لي آية: اجعل لي علامة.
سويًّا: سليماً خالياً من العلل.
المحراب: المصلّى أو الغرفة التي يُتعبّد فيها.
فأوحى إليهم: أومأ برأسه أو أشار بيديه.
سبّحوا بُكرةً وعشيًّا: صلّوا أوائل النهار وأواخره.
وآتيناه الحكم: وأعطيناه الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين.
وحنَاناً من لَدُنَّا: وآتيناه رحمة ورقة قلب.
وبرًّا بوالديه: محسناً إليهما غير عاقٍّ.
جبّاراً عصيًّا: متكبراً مخالفاً أمر ربه.

البشرى لزكريا بولد اسمه يحيى

استجاب الله دعاء نبيه زكريا وبشّره بغلام على لسان ملائكته:

﴿يا زكريًّا إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي أن اسم يحيى لم يُسمَّ به أحد من قَبْلُ بهذا الاسم، وهذه خاصية له حيث كانت تسميته مباشرة من الله، وقد قيل: إن معنى تسميته يحيى: إن الله أحيا قلبه بالإيمان والطاعة فلم يعص ربه.

تعجب زكريا من هذه البشرى: **﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وكانت امرأتي عَاقِراً﴾** أي قال: كيف يكون لي يا رب ولد وزوجتي عقيم لا تلد **﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا﴾** وقد بلغت الغاية في كِبَرِ السنّ وضعف العظم واليباس في جسمي **﴿قَالَ: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾** أي أوحى الله إليه: إن الأمر كما بُشِّرتَ به، وإن منْحَكَ الولد مع كِبَرِ سنِّك وعُقْمِ زوجتك هو هيّن عليَّ **﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ**

تَكُ شَيئاً﴾ وقد خلقتك يا زكريا من قبل أن أُوجِدَ لك الغلام الذي طلبته وذلك يوم خلقت آدم وجعلتك من نسله ولم تك إذ ذاك شيئاً موجوداً.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيَـةً﴾ أي قال زكريا: يا رب اجعل لي علامة تدل على حصول ما بشرتني به من الولد ﴿قَالَ آيتُكَ ألاَّ تُـكَلِّمَ النَّاسَ ثلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي قال الله تعالى: علامتك أن ينحبس لسانك عن الكلام فلا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويّ الخلق صحيح الجسم سليم الحواس ليست بك عاهة الخرس.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ﴾ فخرج زكريا على قومه من مصلّاه في الوقت الذي حملت فيه امرأته بيحيـى، وهو منعقد اللسان لا يستطيع الكلام ﴿فَأَوْحَى إلَيْهِم أن سَبِّحُوا بُـكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فأومأ برأسه، أو أشار بيديه أن صلّوا لله صباحاً ومساء. والتسبيح كما يكون بمعنى الصلاة يكون أيضاً بمعنى تنزيه الله عن النقصان والشريك وتقديسه وتعظيمه.

ولد يحيـى عليه السلام وترعرع ولمّا بلغ مبلغ الصبا أوحى الله إليه: ﴿يَا يَحْيَـى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي خذ التوراة بجد واجتهاد، واعمل بما فيها، وخطاب الله له إيذان بنبوته ﴿وآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وأعطاه الله الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين وهو صبي، يروى أن عمره آنذاك كان سبع سنين ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ الحنان: الرحمة والشفقة والعطف، أي أعطاه الله رحمة كائنة من عنده وتعطفاً منه عليه، أو بمعنى: أعطاه رحمة في قلبه يتحنن بها على الناس، وشفقة على والديه ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِـيًّـا﴾ كما جعله الله طاهراً من الذنوب والآثام متجنباً للمعاصي مطيعاً له لم يعمل خطيئة ما ﴿وَبرًّا بِوَالِدَيْـهِ﴾ أي مطيعاً لهما رفيقاً بهما، محسناً إليهما ﴿وَلَمْ يَـكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّـا﴾ المراد وصفه بالتواضع ولين الجانب فلم يكن متكبراً متطاولاً على الخلق، ولم يكن مخالفاً أمر الله عز وجل عاصياً له ﴿وَسَلامٌ

عَلَيه يَـوْمَ وُلِـدَ وَيَـوْمَ يموتُ وَيَـوْمَ يُـبْعَثُ حَيًّا﴾ أي أمان من الله له يوم ولد من أن يناله الشيطان بوساوسـه كما ينال سائر بني آدم، وأمان من الله عليه يوم يموت من وحشة فراق الدنيا أو من عذاب القبر، وأمان من الله له من أهوال يوم القيامة وعذاب النار.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾

شرح المفردات

انتبذت: اعتزلت وانفردت.

مكاناً شرقيًّا: أتت مكاناً شرقي بيت المقدس اختلت فيه للعبادة.

فاتخذت من دونهم حجاباً: جعلت بينها وبين الناس حجاباً يسترها عنهم.

رُوحنا: هو الملك جبريل عليه السلام.

بشراً سويًّا: إنساناً تام الخلق.

غلاماً زكيًّا: ولداً طاهراً من كل ما يدنس البشر نامياً على الخير والبركة.

ولم يمسسني بشر: ولم يمسني بشر بنكاح أصلاً.

بغيًّا: زانية.

قصيًّا: بعيداً.

قصة مريم

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر قصة مريم وفيها من الغرائب والمعجزات ما يفوق معجزة ولادة يحيـى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر يا محمد ما في القرآن من قصة مريم ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا﴾ أي حين اعتزلت وانفردت من أهلها وأتت مكاناً شرقيًّا من بيت المقدس أو من دارها ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِم حِجَاباً﴾ فاتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس لتتفرغ للعبادة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ والروح الذي أرسله الله لمريم هو الملك جبريل عليه السلام، وسمّي روحاً لأنه روحاني، وإضافة الروح إلى الله للتشريف. وقيل: أطلق الروح على جبريل تشبيهاً له بالروح لأنه سبب لحياة الدين كما أن الروح سبب لحياة البدن، أو سماه الله بروحه على المجاز محبة له وقرباً كقولك: أنت روحي لمن تحب ﴿فَتَمَثَّلَ[1] لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾ فظهر لها جبريل على صورة شاب حسن الوجه تام الخلق، كامل البنية وذلك لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه، إذ لو ظهر لها بصورته الأصلية الملكية لنفرت منه خوفاً ولم تقدر على استماع كلامه.

ظنت مريم أن هذا الشخص الذي جاءها يريدها بسوء فالتجأت إلى الله ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمٰنِ[2] مِنْكَ﴾ قالت: أستجير بالله وألتجىء إليه منك من أن تنال مني ما حرّمه الله، واستعاذتها بالله منه تدل على عفافها وطهرها وورعها، ثم أضافت

(١) الملائكة لها القدرة على التمثل بصورة البشر، وقد كان الملك جبريل يتمثّل لمحمد ﷺ على هيئة أحد صحابته وهو دحية الكلبي، كما تمثلت الملائكة بصورة فتيان حسان عندما ذهبوا إلى لوط عليه السلام.

(٢) الرحمن: صفة من صفات الله، ولا يطلق الرحمن إلاّ على الله، ومعناه: الذي وسع كل شيء رحمة، ومريم ذكرت هذه الصفة للمبالغة في الاستعاذة بالله وطلب رحمته.

قائلة: ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنت ممن يخاف الله ويتقيه فلا تتعرض لي بالشر ولا تمسني بسوء.

ولمّا رأى جبريل ما أصاب مريم من الخوف والذعر كشف لها عن حقيقته: ﴿قَالَ: إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّك لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾ أي إنني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وإنما أنا رسول من عند ربك أرسلني إليك لأهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب. وقد أسند جبريل هبة الغلام إلى نفسه من حيث إن الله وهب الغلام لمريم بواسطته، ولكونه منفّذاً لهذه الهبة، ويجوز أن يكون ضمير ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ راجعاً إلى الله ويكون جبريل حاكياً لها كلام ربها.

تعجبت مريم مما سمعت ﴿قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام ولم يمسني رجل بنكاح حلال ﴿وَلَمْ أَكُ بغيًّا﴾ ولم أكن زانية ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي قال لها جبريل: الأمر كما تقولين من أنك لم يمسسك بشر ولست بزانية ولكن ربك قال: خَلْقُ هذا الغلام هو هيّن عليه، وقد وهبه لك من غير زوج ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً للنَّاسِ﴾ وقال الله: لنجعل خلق عيسى كذلك دلالة على قدرتنا من حيث إيجادنا إياه من غير أب، كما خلقنا آدم من غير أب ولا أم ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ولنجعل عيسى رحمة منا لمن آمن به واهتدى بهديه ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ وكان خلق عيسى أمراً قد قضيناه وحكمنا بوقوعه في سابق الأزل.

نفخ جبريل في جيب[1] درعها[2]، أي من جهة صدرها، أو نفخ في كمها أو في فمها، فوصلت النفخة إلى الرحم فحملت بعيسى عليه السلام ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا﴾ أي لمّا صارت حاملاً اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً عن قومها فراراً من تعيير قومها بَحَبَلٍ من غير زوج.

---

(١) الجيب: فتحة القميص الذي يدخل منه الرأس عند لبسه.
(٢) الدرع: قميص تلبسه المرأة.

ولمّا حملت بعيسى عليه السلام كان معها في المسجد رجل صالح من أقربائها يخدم معها في البيت المقدّس اسمه يوسف النجار، ويقال إنه خطيبها، فلما رأى علامة الحبل فيها أنكر ذلك من أمرها، ثم صرف شكه من قلبه لما يعلم من براءتها وعفتها ودينها وعبادتها. . . ولكنه قال لها: قد وقع في نفسي شيء من أمرك وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري، فقالت مريم: قل قولاً جميلاً، فقال: هل يكون شجر من غير حَب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه. أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر. أما هل يكون ولد من غير أب فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله تعالى وزالت التهمة عن قلبه ثم صار يوسف ينوب عنها في خدمة المسجد لغلبة الضعف عليها بسبب الحمل.

ولمّا دنا أوان الولادة أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بك عيّروك وقتلوا ولدك فخرجت من المدينة إلى قرية يقال لها بيت لحم.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا
مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ
إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا
تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ
إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

شرح المفردات

فَـأَجاءها المخاض: ألجأها وجع الولادة واضطرها.
نسياً منسيًّا: شيئاً تافهاً من شأنه أن ينسى ولا يخطر ببال.
سريًّا: جدول ماء.
رُطَباً: ثمر النخل إذا نضج.
جنيًّا: المقطوف طريًّا.
وقرّي عيناً: وطيبي نفساً وابعدي عنك الهم والحزن.
إنسيًّا: إنساناً.
لقد جئت شيئاً فريًّا: لقد فعلت أمراً منكراً.
بغيًّا: زانية.

ولادة عيسى عليه السلام

ولمّا آن وقت ولادة مريم ووجدت ما تجده المرأة من آلام الطلق **﴿فَـأَجاءهَا المخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾** أي ألجأها وجع الولادة إلى جذع نخلة لتعتمد عليه وكان يابساً فاخضرّ رأسه وأثمر لوقته. وأمام آلام الوضع **﴿قَالَتْ يا ليْتَني مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾** أي يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه **﴿وَكُنْتُ نَسْياً منسِيًّا﴾** وكنت شيئاً متروكاً لا يُعرف ولا يُذكر ولم أكن في الأرض شيئاً قط.

لقد أيقنت مريم أنها ستعيّر بهذا الولد وأن الناس لن يصدّقوها فيما حصل لها، فبعد أن كانت في نظرهم ناسكة طاهرة ستصبح زانية عاهرة، فلهذا تمنت أنها لم تكن في الأرض شيئاً قط.

ووسط هذه المحنة الصعبة سمعت مريم صوتاً يناديها: **﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ألاَّ تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّـكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾** أي فناداها المولود عيسى من تحتها أن لا تحزني يا أماه قد جعل ربك تحتك جدولاً من الماء، وكان قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم. وقيل إن الذي ناداها هو الملك جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من

البقعة التي كانت عليها ﴿وهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي حركي جذع النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطباً جنيًّا﴾ تساقط: أي تتساقط فأدغم التاء في السين، والرطب: ثمر النخل إذا نضج وقبل أن يصير تمراً. ومعنى جنيًّا: ثمراً طريًّا لم ييبس ولم يجفّ ولم يبعد عن يدي مجتنيه. وهذه آية أخرى لمريم حيث رزقها الله بالرطب في غير أوانه، كما أن في ذلك توجيهاً في اتخاذ الأسباب لتحصيل الرزق حيث أُمرت بهز جذع النخلة، ولم يتساقط الرطب عليها بدون أن تهزّ جذع النخلة.

هذا وقد ثبت علميًّا أن البلح الرطب يحتوي على المواد الرئيسية التي يحتاجها الجسم في صورة مركزة سهلة الهضم، وأنه بذلك يناسب النفساء، فإذا عسرت الولادة لم يكن للمرأة خير من الرطب.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ فكلي من ذلك الرطب، واشربي من ذلك الماء وطيبي نفساً، وابعدي عنك الأحزان ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ فإذا رأيت إنساناً يسألك عن أمرك وأمر ولدك ﴿فَقُولِي إِنِي نَذَرْتُ للرحمٰن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسيًّا﴾ أي فقولي إشارة لا كلاماً إنك نذرت لله الصوم عن الكلام ولن تتحدثي اليوم إلى إنسان قط.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فجاءت مريم إلى أهلها وهي تحمل الطفل عيسى ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ أي قالوا لها في دهشة واستنكار: لقد فعلت أمراً فظيعاً منكراً، متهمين إياها بالفاحشة، ثم زادوا تأكيداً في توبيخها: ﴿يَا أُخْتَ هارونَ﴾ أي يا من أنت من نسل النبي هارون، وقيل المراد بهارون هنا رجل صالح من بني إسرائيل، أي يا من كنا نراك شبيهة بهارون في العبادة والصلاح[1] ﴿مَا كَانَ

---

(١) أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون (يا أخت هارون) وموسى وهارون قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله، فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟ وهذا يرشد إلى أن هارون هو رجل صالح كان في زمان مريم.

﴿أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ وما كانت أمك زانية، وهذا تنبيه على أن الفاحشة لا تصدر من ذرية الصالحين.

وما ذكره القرآن على لسان أهل مريم هو بيان لنظرية الوراثة وأثرها في النسل وهي من المسلَّمات في علم سلالات البشر.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ
ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ
ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦
فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ
وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ
قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا
يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾

شرح المفردات

المهد: الفراش يهيأ للصبي ليرقد فيه وينام.

آتاني الكتاب: سينزل عليّ كتاباً من عند الله.

وبرًّا بوالدتي: محسناً إليها ومكرماً.

جبّاراً: متكبراً.

يمترون: يشكّون أو يتجادلون بالباطل.

إذا قضى أمراً: إذا أراد أن يحدث أمراً.

أَسْمِـعْ بهم وأَبْصر: أي ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة.

يوم الحسرة: يوم القيامة.

عيسى ينطق في المهد

وبعد اتهام قوم مريم إياها بالسوء عند رؤيتهم إياها تحمل طفلها، وبخاصة أنها لم يكن لها زوج، ألهم الله مريم أن تشير إلى طفلها ليكلموه ويجيب على اتهاماتهم لها: ﴿**فَـأَشَارَتْ إِلَيْهِ**﴾ فأشارت إلى طفلها عيسى أن كلِّموه، والظاهر أنها حينئذ بيّنت لهم أنها نذرت الصوم عن الكلام ﴿**قالوا كَيْفَ نُـكَلِّمُ مَنْ كَانَ في الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب، أي كيف نكلم صبياً رضيعاً في حضن أمه لا يعقل ولا يستطيع الكلام؟

هنا تظهر المعجزة حيث أنطق الله عيسى بتبرئة أمه، وبيان نبوته المستقبلية بالآيات التالية:

﴿**قال إني عَبْدُ اللَّهِ**﴾ هذا أول ما نطق به عيسى عليه السلام وهو الاعتراف بعبوديته لله، ومن كان عبداً لله لا يُتخذ إلّهاً من دونه، وهذا ردّ على من أسبغ صفة الألوهية عليه، وأضاف عيسى قائلاً ﴿**آتاني الكتاب وَجَعَلني نَبِيًّا**﴾ أي قضى ربي فيما قضى بإعطائي في مستقبل الأيام الإنجيل والنبوة. وهذا القول براءة لأمه لأن الله لا يصطفي لنبوته أولاد سفاح ﴿**وَجَعَلَني مُبَـاركاً أينما كُنْتُ**﴾ وجعلني معلماً للخير، نفَّاعاً للعباد حيثما كنت وفي أي مكان نزلت ﴿**وَأَوْصَاني بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حيًّا**﴾ وأمرني بإقامة الصلاة، ومن يصلي لإلّه فليس بإله، كما أمرني بإيتاء زكاة المال للمحتاجين من عباد الله ما دمت على قيد الحياة، وفي هذا دلالة بينة على أن الإنسان ما دام حيًّا لا تسقط عنه التكاليف الشرعية والعبادات. وما أمره الله بالصلاة والزكاة لا يدل على أدائهما في الحال بل بعد بلوغه سن التكليف، هذا وكل ما نطق

به عيسى عليه السلام هو الإخبار عن أمور سبق في قضاء الله أنها ستقع ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ كما أمرني بالإحسان إلى والدتي وأن أكرّمها وأعظّمها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ ولم يجعلني متكبراً على الناس متعالياً عليهم، ولا شقيًّا بمعصية الله.

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ وأمان من الله لي من أن ينالني الشيطان بمكروه يوم ولدت ﴿وَيَـوْمَ أَمُوتُ﴾ وأمان من الله لي من شدائد الموت وما بعده من عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وأمان من الله لي من أهوال يوم القيامة ومن عذاب النار، وهذا بيان بأن عيسى سيموت ثم يُبعث حيًّا، وأنه بشر كسائر البشر خصه الله بالنبوة وليس إلّهاً لأن الإلّه الحق حي لا يموت أبداً.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أي ذلك الموصوف بتلك الصفات هو عيسى ابن مريم وهو قول الحق في شأنه ﴿الَّذي فِيهِ يَمْتَـرُونَ﴾ الذي يتنازع فيه المتنازعون، ويشك في أمر نبوّته الشاكّون، فقالت اليهود: هو ساحر وكذّبوا نبوّته، وقالت النصارى: ابن الله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَـتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما صح ولا استقام في العقل أن يتخذ الله ولداً ﴿سُبْحانه﴾ تنزه الله وتقدس عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّما يَقولُ لَـهُ كُنْ فَيَـكُونُ﴾ إذا قضى الله خلق شيء نفذت إرادته لا محالة بلفظة «كن» فيتحقق في الوجود حادثاً كائناً. وعلى هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فإذا كان خلق عيسى بدون أب، فخلق آدم أعظم لأنه خُلق بدون أب ولا أم.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّـكُم فاعْبُدُوهُ﴾ الكلام هنا لعيسى عليه السلام، أي إن الله هو ربي وربكم لا شريك له ولا رب سواه، وهو وحده المدبر للخلائق فاعبدوه وحده ﴿هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا دين قويم لا اعوجاج فيه.

﴿فاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَـيْنِهِم﴾ فاختلفت الفرق من أهل الكتاب «أي اليهود

والنصارى» في شأن عيسى فكذّبه اليهود، وافترقت النصارى في شأنه وصاروا أحزاباً متفرقين، فقالت النسطورية منهم هو ابن الله، وقالت الملكانية هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية هو الله تعالى، كما أن هناك فِرَقاً أخرى ﴿فَوَيْلٌ للذين كَفَروا من مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظيمٍ﴾ فويل: كلمة تهديد تفيد تشديد العذاب للذين كفروا وادعوا بأن عيسى إلَه وابن الله حيث يشاهدون يوماً عظيم الهول وهو يوم القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِم وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أشد سمعهم وأقوى بصرهم بالحق يوم يلقون الله بعد أن كانوا في الدنيا صمًّا عن سماع كلمة الحق، وعمياً عن رؤية طريق الرشاد ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم أنفسهم بالكفر هم في ضلال ظاهر لا يخفى.

﴿وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وخوّف ـ يا محمد ـ هؤلاء الظالمين من يوم القيامة، يوم يتحسرون ويندمون على ما فعلوا في دنياهم، أما المسيء فعلى إساءته، وأما المحسن فسيتحسر على قلة إحسانه وأنه لم يزدد منه.

وفي سياق هذه الآية رُوي عن النبي ﷺ قوله: يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح(١) فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون(٢) وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح(٣). ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت(٤). ثم قرأ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة. . .﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿إذ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي إذ يقضي الله يوم القيامة بين الخلق: فريق في نعيم الجنة، وفريق في عذاب النار ﴿وَهُمْ في غَفْلَةٍ﴾ والمشركون في دنياهم

---

(١) الأملح: ما كان البياض فيه أكثر.
(٢) فيشرئبون: يمدون أعناقهم لينظروا.
(٣) فيذبح: المقصود منه التمثيل وبيان أنه لا يموت أحد بعد ذلك.
(٤) أخرجه البخاري.

غافلون عما هم مقبلون عليه من حساب وعقاب ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم لا يصدّقون بالقيامة والبعث.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فالله هو الوارث للأرض ومن عليها من الخلق حيث يموتون جميعاً ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿وإِلَيْنَا يُرْجَعونَ﴾ وإلى الله مصيرهم جميعاً فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا
يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ
يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ
وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى
حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ
بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ
عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

شرح المفردات

صدِّيقاً: بالغ الصدق في أقواله وأفعاله.
أهدك صراطاً سويًّا: أرشدك طريقاً مستقيماً.
عصيًّا: كثير العصيان.
فتكون للشيطان وليًّا: فتكون ناصراً وقريناً له في النار.

أراغب: أمعرض.
اهجرني مليًّا: فارقني زماناً طويلاً.
أعتزلكم: أفارقكم.
وأدعو ربي: وأعبد ربي.
لسان صدق عليًّا: ثناء حسناً رفيع القدر على ألسنة الناس.

إبراهيم يعظ أباه بترك عبادة الأصنام

وبعد أن بيّن القرآن بطلان الزعم بألوهية عيسى عليه السلام، انتقل إلى الرد على المشركين العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام، وقد جاء الرد على لسان النبي إبراهيم عليه السلام، حيث يحكي لنا القرآن كيف وعظ أباه بترك عبادة الأصنام.

والموعظة التي تأتي على لسان إبراهيم عليه السلام لها أثرها النافذ المؤثر في قلوب العرب فهو أبوهم (أي جدهم) لأن العرب من نسل ابنه إسماعيل.

هذا وقد كان العرب يحتجون على عبادتهم للأصنام بأنهم يقلدون آباءهم في ذلك بما حكى القرآن على لسانهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ[1] وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فبيّن القرآن بأن أشرف آبائهم وأجلهم قدراً وهو إبراهيم عليه السلام ترك دين أبيه القائم على عبادة الأصنام وأبطل عبادتها بالبرهان والدليل المفحم. اقرأ قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ في الكِتَابِ إبراهيم﴾ أي واذكر يا محمد ما في القرآن من قصة إبراهيم وبلّغ قومك ما كان من خبره **﴿إنَّه كَانَ صِدِّيقاً نبيًّا﴾** أي إنه كان ملازماً للصدق في كل أفعاله وأقواله لم يكذب قط، والصدّيق من أبنية المبالغة في اللغة، والمراد كثرة صدقه في كل أحواله، كما أنه كان نبيًّا، وملاك أمر النبوة هو الصدق.

---

(١) أمة: ملة ودين.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيه: يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ﴾ لقد نادى إبراهيم أباه بلفظ (يا أبت) استعطافاً له وتودداً إليه، ثم استفهم عن السبب الذي حمل أباه على عبادة الأصنام بقوله: لماذا تعبد هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تميز من يطيعها ممن يعصيها؟ وإذا كانت الأصنام لا تسمع دعاء الداعي فأي منفعة تجنى من عبادتها، وإذا كانت لا تبصر من يتقرب إليها، فأي منفعة من التقرب إليها؟ ﴿وَلاَ يُغْني عَنْكَ شَيئاً﴾ أي والذي تعبده من دون الله لا يقدر على أن ينفعك بشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿يَا أَبَتِ إنّي قَدْ جَاءني مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يأْتِكَ﴾ لم يصف إبراهيم نفسه بالعلم الفائق حتى لا يظهر منه العلو على والده فينفر منه، وإنما أثبت لنفسه علماً لم يصل إلى سمع أبيه ﴿فاتّبِعْني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَويًّا﴾ أي اتبع ما أعلمه في شأن ترك عبادة الأصنام لأرشدك إلى طريق مستقيم يوصلك إلى الحق ويجنبك الضلال.

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيطانَ﴾ أي إن عبادتك للأصنام هي عبادة للشيطان فهو الذي يغريك ويدفعك إلى عبادتها ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للرحمٰن عَصِيًّا﴾ إنه كان عاصياً لربه، ومن جملة عصيانه إباؤه السجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، فطرده الله من رحمته، ومن المعلوم أن طاعة الفاسقين تورث النقم وزوال النعم.

وتابع إبراهيم وعظه لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إنِّي أَخَافُ أن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحمٰن﴾ أي إني أخشى إن أصررت على الكفر أن يصيبك عذاب من الله. هنا يراعي إبراهيم حسن الأدب في تحذير والده من عبادة الأصنام حيث لم يصرّح له بأن العذاب لاصق به ولكنه قال: ﴿أخاف أن يمسّك﴾. كما وصف إبراهيم الله سبحانه بصفة (الرحمن) ومعناه: الذي وسعت رحمته كل شيء وفي هذا الوصف دعوة إلى عبادة الله وحده للفوز برحمته. وينهي إبراهيم وعظه لأبيه بقوله: ﴿فَتَكُونَ للشَّيْطَانِ وليًّا﴾ أي إذا عبدت الأصنام تكن ناصراً للشيطان وقريناً له في نار جهنم مستحقًّا للطرد من رحمة الله.

والملفت للنظر أن إبراهيم كان يصدّر وعظه لأبيه بكلمة (يا أبت) التي تنبىء عن شدة حبه له ورغبته في صونه من عقاب الله.

وبعد هذه الموعظة من إبراهيم يأتي جواب الأب:

﴿قَالَ: أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهتي يا إبْراهيمُ﴾ استفهام للإنكار والتهديد، أي أمعرض يا إبراهيم ومنصرف عن عبادة آلهتي؟ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ لئن لم تكفّ عن عيبها وتمتنع عن طلبك مني ترك عبادتها لأقذفنك بالحجارة، وقد يراد بالرجم هنا الشتم والذم ﴿واهْجُرْني مَلِيًّا﴾ واهجرني زمناً طويلاً لا أراك فيه ولا يصيبك مني أذى.

والملفت للنظر أن الأب قابل ابنه إبراهيم بالعنف فلم يقل له يا بنيّ، كما قال له إبراهيم يا أبت، بل قابل نصحه بالوعيد والتهديد، وفي هذا مواساة لمحمد ﷺ لما يلاقيه من قومه من أذى جزاء نصحه لهم بترك عبادة الأصنام.

أمام هذا التهديد أجاب إبراهيم والده: ﴿قَالَ: سلام عليك سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[1] أي سلام عليك مني سلامَ مفارق لك ومودّع، وسأطلب من الله أن يغفر لك ويتوب عليك ويهديك ﴿إنَّه كَانَ بي حَفِيًّا﴾ إنه كان بي رحيماً بارًّا، وقد عوّدني الإجابة إذا دعوته ﴿وَأَعْتَزِلُكُم وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وها أنذا أهجركم وأجتنب ما تدعون من دون الله من الأصنام ﴿وأدْعُوا رَبِّي﴾ والدعاء هنا بمعنى العبادة، أي وأعبد ربي وحده ﴿عَسَى ألاَّ أكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شقيًّا﴾ راجياً أن يقبل عبادتي ويجيب

---

(١) لقد استغفر إبراهيم لأبيه بناءً على وعد سابق منه أن يؤمن كما جاء في القرآن ﴿وَمَا كَانَ استغْفَارُ ابراهيم لأبيه إلاّ عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيّاه فلمّا تبيّن له أنَّـهُ عدوٌّ لِلّهِ تبرأ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. هذا وإن طلب الهداية للكفار في حال الحياة جائز، أما من مات على الكفر والشرك بالله فلا يدعو له بالرحمة، من هنا عُدّ قول بعض الناس المرحوم فلان أو المغفور له، وهو يعلم أنه مات كافراً، غير جائز.

دعائي ولا يخيّب رجائي. وكلمة (عسى) فيها من التواضع والرجاء من الله بأن يشمله برضوانه.

﴿فَلَمَّا اعتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فلمّا فارق إبراهيم أباه وقومه ووطنه ﴿وَهَبْنَا لَـهُ إسحٰق وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نبيًّا﴾ أي أكرمه الله بذرية صالحة وهما ابنه إسحق، وحفيده منه يعقوب، وكلٌّ من إسحق ويعقوب جعله الله نبيًّا، وأوحى إليهما بوحيه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وأعطيناهم الخير من العلم والمنزلة العالية في الدنيا، والنعيم في الآخرة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ورزقناهم الثناء الحسن والذكر الجميل، فراح الناس يذكرونهم ويثنون عليهم في حياتهم وبعد مماتهم.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي
ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ
صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن
ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

شرح المفردات

مُخْلَصاً: اختاره الله واصطفاه.

الطُّور: جبل بين مصر ومدْين.

وقرّبناه نجيًّا: شرّفناه بمناجاتنا.

صِدِّيقاً: ملتزماً الصدق في جميع أحواله.

ورفعناه مكاناً عليًا: أعلينا مكانته بشرف النبوة، ورفعنا منزلته.
اجتبينا: اصطفينا.
خرّوا سجّداً: صاروا في حال السجود لله واضعين جباههم على الأرض.
بكيًا: دامعة عيونهم من خشية الله.

من فضائل الأنبياء

وبعد الحديث عن إبراهيم وإسحق ويعقوب تنتقل بنا الآيات للكلام عن طائفة من الأنبياء:

﴿وَاذْكُر فِي الكِتَابِ مُوسَى﴾ أي واتل يا محمد على الناس ما في القرآن من قصة موسى ﴿إِنَّه كَانَ مُخْلَصاً﴾ بفتح اللام، أي اختاره الله واصطفاه، وقرئت (مُخلِصاً) بكسر اللام بمعنى: أخلص عبادته لله وحده، وأفرده بالألوهية، فلم يجعل له شريكاً، ولم يراء في عبادته لله ﴿وَكَانَ رَسُولاً نبيًّا﴾ وكان رسولاً من الله إلى فرعون ونبيًا أوحى الله إليه بالتوراة ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّور الأَيْمَنِ﴾ وكلّمه الله من جانب الطور الأيمن، أي جانب يمين موسى. فقد ترك موسى مدْين قاصداً مصر فنودي من جهة الشجرة، وكانت في جانب الجبل عن يمين موسى، وقد تكون كلمة الأيمن مشتقة من اليمن وهو البركة، أي من جانب الطور المبارك ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ وأدنيناه لمناجاتنا تقريب تشريف وتكريم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ومنحنا موسى من رحمتنا حيث اخترنا معه أخاه هارون نبيًا. وكان موسى قد طلب من ربه أن يعاونه أخوه هارون في تبليغ رسالة الله إلى فرعون لأنه أفصح منه لساناً، فاستجاب الله له.

وبعد الكلام على موسى يأتي الكلام على إسماعيل وهو ابن نبيّ الله إبراهيم عليهما السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ أي واتل يا محمد على الناس ما في القرآن من قصة إسماعيل ﴿إِنَّه كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي كان صادق الوعد مع ربه ومع الناس لم يخلف وعداً وعده لأحد.

وصدق الوعد من أهم ما تتصف به الشعوب المتمدنة، فتراهم يحرصون على مواعيدهم أشد الحرص، ويحتقرون من لا يراعيها، وبهذا انتظمت أمورهم، وحلّت الثقة فيما بينهم، أما خُلْفُ الوعد فهو مظهر من مظاهر التخلف والشخصية الضعيفة، كما أنه علامة من علامات النفاق، فالذي يخلف الوعد لا يراعي حرمة أحد، ولا يبالي بالوقت المهدور سدى عند الغير(١). ومن أهداف القرآن أنه يذكر الصفات السامية في أنبيائه لتكون أمثولة وقدوة يقتدي بها المؤمنون ليفوزوا في حياتهم ولينالوا الرضى من ربهم ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ وبالإضافة إلى كون إسماعيل صادق الوعد فقد اصطفاه الله لرسالته إلى الناس وكان نبيًّا يأتيه الوحي من عند الله.

كما أن من صفات إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ والصلاة والزكاة هما أهم أركان الدِّين، وقد كان أنبياء الله يأمرون قومهم بهما. فالصلاة هي القيام بواجب العبادة للخالق والثناء عليه والشكر له، وطلب المعونة والهداية منه، وبهذا يظل الإنسان موصولاً بخالقه، لا يحيد عن الطريق الذي رسمه له، أما الزكاة فهي الصدقة على المحرومين من عباد الله بشكل منظم مفروض، وبهذا تسود روح الأخوّة والتعاطف في المجتمع، وينتفي الظلم والحسد بينهم.

فإسماعيل كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة لأنهم أقرب الناس إليه وأطوعهم للاستجابة له، وهذا توجيه لنا بأن نأمر أهلنا على الدوام بالمحافظة على هاتين الفريضتين لما فيهما من الخير العميم ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي وكان إسماعيل في مقام كريم من رضا ربه. تأمّل كيف رتّب الله على صفات إسماعيل: من صدق الوعد، ومن أمْرِ أهله بالصلاة والزكاة، رضا الله عليه، ومعنى ذلك أن المؤمن إذا قام بهذه الصفات حاز رضوان الله سبحانه.

---

(١) جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

ثم تنتقل بنا الآيات للحديث عن إدريس عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إدْريس﴾ أي واتل يا محمد على الناس ما في القرآن من قصة إدريس ﴿إنَّه كَانَ صِدِّيقاً نبيًّا﴾ إنه كان شأنه الصدق قولاً وفعلاً، وقد منحه الله شرف النبوّة. وصدّيق: من صيغ المبالغة أي كثير الصدق، فهذا ثناء من الله عليه لكثرة صدقه، والصدق من أهم الصفات الخُلُقيَّة في الإنسان، ومن الدعائم التي تقوم عليها سلامة المجتمع وازدهاره، وما شاع الكذب في قوم إلاّ فسدت العلاقات بينهم وانعدمت الثقة بين بعضهم البعض، وهو من مقوّضات المجتمع، وكانت نتيجة صدق إدريس أن رفع الله قدره ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾ والمكان العليّ هو شرف النبوة والقربى من الله.

ثم وصف الله هؤلاء الأنبياء جميعاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبيين مِنْ ذُرِّيَّـةِ آدمَ﴾ أي أولئك الذين سلف ذكرهم ممن أنعم الله عليهم بشرف النبوّة من نسل آدم الذين اصطفاهم من بين عباده ليكونوا قدوة حسنة للناس، وذكر من ذرية آدم إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرية مَن نجّاه الله مع نوح في السفينة، ويريد بهم إبراهيم لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّـةِ إِبْراهيمَ﴾ ويريد بهم إسحق ويعقوب وإسماعيل ﴿وإسْرائيل﴾ هو يعقوب، ومن ذريته: يوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وقد فرّق الله تعالى بين أنسابهم وإن كان أبوهم كلهم آدم ﴿وَمِمَّن هَدَيْنَا واجْتَـبَيْنَا﴾ أي هم من جملة من هديناهم إلى الحق واصطفيناهم للنبوة والكرامة ﴿إِذَا تُـتْلَى عَلَيْهِم آياتُ الرَّحمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ إذا سمعوا كلام الله يُقرأ عليهم من كتبهم المنزلة عليهم سجدوا لربهم واضعين جباههم على الأرض، خضوعاً وتذللاً له وهم يبكون من خشيته ومن تصوّر عظمته، وحذراً من عقابه.

هذا هو الإيمان الحقيقي الذي خالط القلوب واستحوذ على المشاعر، وتغلغل في النفوس. ما أبعدنا عن هذا المفهوم، وما أقسى قلوبنا إذ نسمع كلام الله فلا تخشع له قلوبنا ولا نبكي عند سماعه، ولا يثير في نفوسنا ذلك التأثير الذي كان يستشعره أنبياء الله!

﴿فَخَلَفَ مِن بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ
غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ
شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا
يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ
مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا
وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ
وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾

شرح المفردات

فخلف من بعدهم: فجاء بعدهم.

أضاعوا الصلاة: تركوا الصلاة المفروضة.

يلقون غيًّا: يلقون شرًّا وخسراناً.

ولا يُظلمون شيئاً: ولا يُنْقَصون من جزاء أعمالهم شيئاً.

جنات عدن: جنات استقرار واطمئنان.

وعد الرحمن عباده بالغيب: وعدهم الله إياها وهي غائبة عنهم.

مأتيًّا: آتياً لا ريب فيه.

لغواً: اللغو من الكلام هو القبيح والساقط وما لا يحصل منه على نفع.

بُكرة وعشيًّا: صباحاً ومساءً.

هل تعلم له سميًّا: هل تعلم أحداً سُمّي باسم الله غيره.

أهل الضلال وأهل الهدى

وبعد أن بيّن الله صفات بعض أنبيائه وما يتحلون به من الفضائل ذكر في مقابلهم صفات أهل الضلال:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ أي ثم جاء من

بعد هؤلاء الأنبياء الذين سبق ذكرهم أجيال من الناس أضاعوا الصلاة بأن أخروها عن وقتها، أو تركوها، أو قاموا لأدائها بلا خضوع وخشوع، واتبعوا الشهوات مثل شرب الخمر واللهو والانهماك في فنون المعاصي ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ فسوف يلقون شرًّا وضلالاً. فالله جعل إضاعة الصلاة واتباع الشهوات سبباً للضلال والوقوع في الشر، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والشهوات تقضي على المواهب العقلية وتضعف الجسد، وتؤدي إلى سخط الله، وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «حُفّت الجنَّة بالمكاره وحُفَّتِ النار بالشهوات»[١].

﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ يقال: تاب إلى الله أي رجع عن المعصية إلى طاعة الله، فمن رجع عن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات، وصدق في إيمانه وعمل صالحاً ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الجَنَّـةَ ولا يُظْلَمون شَيئاً﴾ فأولئك يقبل الله توبتهم ويدخلون الجنة ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ جنات ذات الإقامة الدائمة ﴿الَّتي وَعَدَ الرَّحمٰنُ عِبادَهُ بالغَيْبِ﴾ وهي التي وعدهم بها ربهم الرحمن، وهي من الغيب التي يؤمنون بوجودها في الآخرة ﴿إِنَّه كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي إن وعد الله آتٍ لا محالة.

﴿لا يَسْمَعُون فِيها لَغْواً إلاَّ سلاماً﴾ أي لا يسمعون في الجنة الكلام الساقط القبيح الذي لا يحصل منه فائدة ونفع، ولا يسمعون في الجنة إلاّ تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ولهم في الجنة رزقهم من المآكل والمشارب على مقدار الوقت الممتد بين أول النهار وآخره بالنسبة إلى نهار الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار في الجنة لأنهم في النور أبداً، والمراد بذلك دوام الرزق لهم.

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

﴿تِلْكَ الجنَّـةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ هذه هي الجنة وهذه هي صفاتهـا يورثهـا الله لعبـاده المتقين له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَمَا نَـتَـنزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّـكَ﴾ هذه الآية حكاية لما جرى بين رسول الله محمد ﷺ وبين الملك جبريل عليـه السلام حين أبطأ نزول الوحي عليه من الله، فقال النبي ﷺ لجبريل الموكل بنقل الوحي إليه: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»؟ فنزلت هذه الآية حكاية لقول جبريل: وما ننزل بالوحي وقتاً بعد وقت إلاّ بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ﴿لَـهُ مَا بَـيْـنَ أَيْـدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي يعلم ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب، ويعلم ما خلفنا فيما مضى من عمر الدنيا ﴿وَمَا بَـيْنَ ذَلِـكَ﴾ ويعلم سبحانه ما بين الدنيا والآخرة وأحوال الناس فيها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّـكَ نَسِيًّا﴾ وما نسيك ربك يا محمد عند انقطاع الوحي عليك هذه الفترة القصيرة ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَـيْـنَهمَا﴾ أي خالقهما والمتصرف فيهما والمدبر لما بينهما من الخلق، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز عليه النسيان ﴿فَاعْبُـدْهُ واصْطَبِـرْ لِعِبَـادتِـهِ﴾ أي فاخضع له وتذلَّل وائتمر بما أمرك الله واصبر على تكاليف العبادة واثبت عليها ﴿هَلْ تَـعْلَمُ لَـهُ سَمِيًّـا﴾ أي لا تعلم أحداً سُمِّي باسم الله غيره، والعرب كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه، كما أنه سبحانه ليس له مثيل.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ
لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾﴾

شرح المفردات

أخرج حيًّا: أخرج من قبري يوم القيامة حيًّا.
لنحشرنهم: لنجمعنهم.
جثيًّا: باركين على الرّكب.
لننزعن: نزع الشيء: جذبه من مكانه بقوة.
شيعة: جماعة مرتبطة بمذهب من المذاهب.
عتيًّا: عصياناً وتمرداً.
أوْلى بها: أحق بجهنم بها.
صليًّا: احتراقاً.
الفريقين: المؤمنين والكافرين.
مقاماً: مكاناً ومسكناً.
نديًّا: مجلساً ومجتمعاً.
أثاثاً: متاع البيت.
ورِئياً: منظراً وهيئة.

البرهان على حصول البعث ومصير الكافرين

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى ذِكْرِ ما يتعلل به الكفار لإنكار البعث:

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ والمراد بالإنسان هنا جماعة معينون من الكفار المنكرون للبعث، فقد قال أحدهم على سبيل الإنكار والتعجب: هل إذا مت وتحلل جسمي وأصبحت تراباً لسوف أُبعث حيًّا من القبر للحساب والجزاء؟ وسبب نزول هذه الآية أنّ أُبيّ بن خلف أخذ عظماً بالياً فجعل يفتّه بيديه ويذريه في الريح ويقول: زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي!

ولكن الرد القرآني أتى مفحماً لهؤلاء المنكرين للبعث بأبلغ حجة حيث يقول تعالى: ﴿أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً﴾ أي ألم يتفكر هذا المنكر للبعث أن الله خلقه قبل مماته من العدم قبل أن يكون شيئاً موجوداً؟ فكيف يستبعد هذا الإنسان إعادة خلقه؟ وينقل الفخر الرازي عن بعض العلماء هذا القول: «لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها إذ لا شك أن الإعادة أهون من الإيجاد أولاً» ونظير ذلك ما جاء في القرآن في إثبات البعث ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧] فكلا الخلق والإعادة هيّن على الله والإعادة أهون في نظرنا نحن البشر.

ثم يهدد الله الكافرين المنكرين للبعث: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم وَالشَّيَاطِينَ﴾ فوربك: أقسم الله باسمه وأضاف إليه رسوله محمداً تعظيماً لشأنه، فالله يقسم بأنه سيبعث هؤلاء المنكرين للبعث وسيحشرهم مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُم حَوْلَ جَهَنَّم جِثِيًّا﴾ ثم يؤكد الله بأنه سيحضرهم حول جهنم قاعدين على ركبهم إهانة لهم فيرى السعداء ما نجاهم الله منه من عذاب جهنم فيزدادون غبطة وسروراً ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتيًّا﴾ ثم يخرج الله من كل جماعة وطائفة من طوائف الضلال والفساد من هم أشد كفراً، وأكثرهم تكبراً وتعدّياً على حدود الله فيدفع بهم قبل سواهم في نار جهنم، وهكذا تظهر لنا عدالة الله التي لا تسوّي بين المجرمين في العقاب وإنما لكلٍّ درجات في العذاب بحسب جرمهم ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالَّذِين هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ والله أعلم بمن هو أحق بالسبق في دخول جهنم والاصطلاء بحرّها.

﴿وَإِنْ مِنْـكُم إلاَّ وَارِدُهَا﴾ أي ما منكم من أحد أيها الناس إلاّ ويمرّ على جهنم مسلماً كان أم كافراً، أما المسلم فتكون عليه برداً وسلاماً ثم يبعد عنها كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وأما الكافر فيظل فيها ليعذّب بنارها.

وقيل: المراد بقوله تعالى: واردها، هو المرور فوق الجسر المنصوب على جهنم وهو المسمى بالصراط فيسلم أهل الجنة ويهوي الكفار في النار.

وهناك قول آخر وهو أن دخول النار يختص بالكفار فلا يَرِدُها المؤمن ﴿**كَانَ عَلَى ربِّـك حتْماً مقْضِيًّا**﴾ وكان هذا الأمر واقع حتماً جرى به قضاء الله ﴿**ثُمَّ نُـنَجِّي الّذينَ اتّقَوا وَنَذَرُ الظالمينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ ثم يشمل الله المتقين برحمته فينجيهم من جهنم ويترك الذين كفروا فيها قاعدين على ركبهم لا يستطيعون الخروج منها.

﴿**وإذَا تُـتْلى عَلَيْهِم آياتُـنَا بيِّـنَاتٍ**﴾وإذا قرئت على الكفار آيات القرآن الواضحة البرهان، الظاهرة الحجة على حصول البعث ﴿**قَالَ الّذِينَ كفروا لِلّذينَ آمنوا أيُّ الفريقين خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**﴾ أي قال الذين كفروا مفتخرين على المؤمنين: أيّ الفريقين منا ومنكم أفضل مكانة ومنزلة، وأيٌّ منا ومنكم أحسن مجلساً ومجتمعاً نحن أم أنتم؟ وغرضهم من هذا القول زعزعة عقائد المسلمين مُوهِمين الفقراء منهم بأن من يملك المال والجاه فالحق والصواب في جانبه.

ولكنّ الله يردّ على مزاعمهم الباطلة هذه بقوله: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً**﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المفتخرين بغناهم وجاههم من الأمم السابقة حيث كانوا أحسن منهم (أثاثاً) وهو متاع البيت من الفرش والثياب (ورئياً) وأبهى منظراً، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس أو حسن الأبدان ونضارتها أو مجموعهما.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ
عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ
عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا
ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ
نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا
يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

شرح المفردات

فليمدد له الرحمن مدًّا: يمهله الله بطول العمر وإعطاء المال ليزداد إثماً.

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

الباقيات الصالحات: الأعمال الصالحات يبقى ثوابها عند الله.

مردًّا: مرجعاً وعاقبة.

ونمدّ له من العذاب مدًّا: نزيده عذاباً فوق عذاب.

ويأتينا يوم القيامة فرداً: أي يأتي يوم القيامة وحيداً لا مال له ولا ولد ولا جاه.

عزًّا: منعة وقوة وشفعاء.

تؤزّهم أزًّا: تهيجهم على المعاصي وتغريهم بها.

فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدًّا: فلا تعجل بهلاكم فلم يبق لهم إلا أيام معدودة على عقابهم.

وفداً: جمع وافد، بمعنى الراكب.

وِرْداً: عطاشاً.

عَهْداً: أي عهداً بتوحيد الله وطاعته.

عاقبة الضلال

ثم ينذر الله الذين يسلكون سبل الضلال بسوء العاقبة:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدًّا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء

الكافرين المفتخرين بمكانتهم الاجتماعية: من كان مستغرقاً في الضلالة فإن الله يمهله في غيّه ويدعه في طغيانه ليزداد إثماً ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُون إِمَّا العَذَابَ وإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي حتى إذا شاهدوا ما وعدهم به ربهم من عذاب عاجل كما حصل يوم معركة بدر حيث قُتل سبعون من كفار قريش، أو يلقوا ربهم فيعذبهم يوم القيامة بما اقترفوه من آثام ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ أي حينئذ ستتبين لهم حقيقة وضعهم المزري وسيعلمون من هو شر مكانة ومنزلاً وأضعف أنصاراً وأعواناً.

هذه الآيات نزلت بمكة حيث كان الإسلام ضعيفاً محارباً من سادات قريش، ولكننا نرى في هذه الآيات تهديداً ووعيداً للكافرين بنزول العذاب بهم ووعداً إلَهيًّا للمؤمنين بالنصر عليهم، هذا الوعد تحقق بانتصار المسلمين عليهم حينما هاجروا إلى المدينة المنورة والتحموا مع الكفار في معركة بدر وانتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً بالرغم من وفرة عدد الكفار وكثرة سلاحهم، بالإضافة إلى معارك أخرى حيث قضي عليهم. فأيُّ دليل أقوى من ذلك، وأيّ برهان أوضح يشهد أن القرآن وحي إلَهي، وأن محمداً رسول الله حقًّا؟

هذا مصير الكافرين، أما حال المؤمنين فهو: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين إيماناً ويقيناً وبصيرة ﴿والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ والأعمال الصالحات والطاعات التي أمر الله بها عباده هي خير لمن عمل بها عند ربه لما ينال بها من الثواب والأجر الجزيل، وهي أحسن عاقبة ومرجعاً لأن عاقبتها المسرّة الأبدية والنعيم المقيم.

ثم يأتي الكلام على رجل من المشركين ينكر البعث ويسخر من المعتقدين به وهو (العاصي بن وائل) فقد جاءه رجال من أصحاب رسول الله يطالبونه بدَيْن لهم عنده، فقال: «ألستم تزعمون أن في الجنة فضة وذهباً وحريراً، ومن كل الثمرات؟»

قالوا: «بلى»، فقال: «فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتينّ مالاً وولداً، ولأوتينّ مثل كتابكم الذي جئتم به» فنزلت الآيات التالية في حقه:

﴿أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بآياتِنَا﴾ أي انظر يا محمد إلى حال هذا الكافر، واعجب من جرأته على الله حيث كفر بآيات القرآن وبخاصة الآيات التي أثبتت البعث ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلداً﴾ أي وقال مستهزئاً مصدّراً كلامه باليمين الكاذبة قائلاً: لأعطين في الآخرة مالاً وولداً ﴿أَطَّلَعَ ٱلغَيْبَ﴾ الهمزة للاستفهام وأصله: أأطلع، والمعنى: هل بلغ من عِظَمِ الشأن أن ارتقى إلى علم الغيب الذي استأثر الله به حين ادعى أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ وهل أخذ من الله عهداً أنه حين يُبعث يكرمه الله فيؤتيه المال والولد؟ ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ كلا: كلمة ردع، أي ليس الأمر كما يقول، فهو لم يطّلع على الغيب ولا اتخذ عند الله عهداً. سنكتب ما يقول لنعاقبه على افتراءاته، وسنطيل له العذاب ونجعل بعضه إثر بعض ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ويحرمه الله ما تمناه في الآخرة من مال وولد ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ ويأتي ربه يوم القيامة وحيداً بلا مال ولا ولد ولا ناصر.

المتمعّن في هذه الآيات المذكورة سابقاً يرى فيها الصبغة الإلٰهية لا الصبغة الإنسانية، فالقرآن وحي من الله وليس من تأليف محمد كما يدّعي الذين ينكرون نبوّته عن جهل وعناد.

ثم يعود القرآن لمناقشة المشركين من قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام:

﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي واتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها وهي الأصنام ﴿لِيَكُونُوا لَهُم عِزًّا﴾ أي لينالوا بها العز والمنعة ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرونَ بِعِبَادَتِهِم﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل سيكفرون بها يوم القيامة بعد أن كانوا يعبدونها، وقد يكون الضمير للمعبود حيث تتبرأ الآلهة من عبادتهم لها ﴿ويَكونون عَلَيْهِم ضِدًّا﴾ وسيكونون عليهم ضدًّا وخصماً وذلاً لا عزًّا كما كانوا يزعمون.

﴿ألَمْ تَـرَ أنَّا أرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكافرينَ تَؤُزُّهُم أزًّا﴾ أي ألم تعلم يا محمد أننا سلّطنا الشياطين على الكافرين تحثّهم على المعاصي وتغريهم بها حتى يقعوا فيها ﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيهِم﴾ فلا تطلب سرعة العذاب لهم ﴿إنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ إننا نعدّ عليهم الأيام والليالي والأنفاس إلى حين انتهاء آجالهم وهم صائرون إلى العذاب لا محالة.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المتَّقِين إلى الرَّحمٰنِ وَفْداً﴾ أي اذكر يا محمد يوم القيامة الذي يجمع الله فيه المتقين إلى جنة الرحمن ـ الذي وسعت رحمته كل شيء ـ وفوداً وجماعات مكرمين ﴿وَنَسُوقُ المجْرِمِين إلَى جَهَنَّم وِرْداً﴾ ويدفع الله في هذا اليوم المجرمين إلى جهنم عطاشاً كاندفاع الدواب العطاش الملهوفة إلى الماء ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يملك أحد أن يشفع لهؤلاء المشركين ولا يستحقون أن يشفع لهم ﴿إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحمٰنِ عَهْداً﴾ ولكن يستحق الشفاعة من اتخذ عند الله عهداً بأن كان موحداً لله مطيعاً له مؤمناً برسوله محمد متبعاً له، وأذن الله أن يشفع له.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا
يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي
ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا
يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا
قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

شرح المفردات

إدّاً: منكراً عظيماً.
يتفطّرن: يتشققن.
تنشقّ الأرض: تنخسف.
تخرّ الجبال هدًّا: تسقط متهدمة.
وما ينبغي: وما يليق.
لقد أحصاهم: حدد عددهم وأحاط بهم.
وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً: وكل واحد منهم آتٍ يوم القيامة وحيداً لا أتباع له ولا أنصار.
سيجعل لهم الرحمن ودًّا: سيجعل الله لهم في قلوب عباده مودة لهم.
لدًّا: معاندين مبالغين في الخصومة.
ركزاً: صوتاً خفيًّا.

جرم الإدعاء بأن لله ولداً

ثم يأتي ختام السورة وفيه الوعيد الشديد لمن يدعي بأن لله ولداً:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً﴾ أي وقال بعض اليهود: عزير ابن الله، وقال أكثر النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض المشركين العرب: الملائكة بنات الله. ﴿لَقَدْ جِئْتُم شَيئاً إدًّا﴾ لقد جئتم يا من تقولون ذلك بقول منكر عظيم ﴿تَكادُ السَّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ تكاد السماوات يتفتّتن ويتقطّعن من هول هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ﴾ وتكاد الأرض تنخسف ﴿وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا﴾ وتكاد الجبال تسقط وتتهدّم ﴿أنْ دَعَوْا للرَّحْمٰنِ وَلَداً﴾ بسبب ادعائهم أن لله ولداً.

أي إن هول هذه الكلمة ـ بأن لله ولداً ـ وعظمها، بحيث لو تصوّر بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتشققت من شدة جرم قائلها، ولأن فظاعتها مجلبة لغضب الله، ولولا حلمه لخرّب العالم غضباً على من تفوّه بها، والله لا يعجل بالعقوبة على من يعصيه.

ثم يبين القرآن حقيقة ذات الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أن يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي ولا يليق بالله الذي وسعت رحمته كل شيء أن يتخذ ولداً، لأن التوالد مستحيل بالنسبة لله، ولم يكن لله زوجة، ولأن الولد يقتضي جنسية الأب والحدوث والله سبحانه منزّه عن ذلك.

﴿إنْ كُلُّ مَنْ في السَّمٰواتِ وَالأرْضِ إلاّ آتي الرحمٰن عَبْداً﴾ إن: بمعنى ما. أي ما كل ما في السماوات والأرض من الخلائق إلاّ وهو سيأتي إلى الله يوم القيامة مقرًا له بالعبودية خاضعاً له وذليلاً ﴿لَقَدْ أحْصَاهُم وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ لقد علم الله عددهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن دائرة علمه وقبضة إرادته ﴿وَكُلُّهُم آتيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ أي كل واحد منهم آتٍ إلى الله تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار، وبلا مال وولد.

﴿إنَّ الّذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ورسله وصدّقوا بما جاءهم من عند ربهم من الهدى وعملوا بصالح الأعمال التي أمرهم بها سيحبهم الله ويحبّبهم إلى خلقه. وقد كان عثمان بن عفان أحد الخلفاء الراشدين يقول: ما من الناس عبد يعمل خيراً أو شرًا إلا كساه الله رداء عمله.

وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً، فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[1] ﴿فَإنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ به المتَّقِينَ﴾ فإنما

---

(١) أخرجه البخاري.

يسّرنا هذا القرآن بلسانك يا محمد لتقرأه على قومك وتبشّر به المتقين بالجنة ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ وتنذر بسخط الله وعذابه القوم الذين يخاصمونك بشدة ولا يقبلون الحق عناداً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم من أَحَدٍ أَو تَسْمَعُ لَهُم رِكْزاً﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا من الأمم السابقة الذين عاشوا قبل المشركين من قومك يا محمد وقد كان هلاكهم لكفرهم بآيات الله وتكذيبهم رسله، فهل ترى منهم أحداً بعد هلاكهم أو تسمع لهم صوتاً خفيًّا؟ والمراد أنهم هلكوا وخلت منهم الديار.

هذا إنذار من الله بهلاك المشركين، وقد جاء هذا الإنذار لهم في مكة حيث كان الإسلام ضعيفاً والمسلمون مضطهدين، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى اندحر المشركون في معارك شتى وقتل منهم الكثير وارتفعت راية الإسلام ورفرفت فوق ربوع جزيرة العرب.

تعريف بسورة طه

سورة طه من السور المكية، وقد نزلت لشد أزر رسول الله محمد ﷺ وتثبيتاً لقلبه بسبب ما كان يلاقيه من كيد وعناء واضطهاد من كفار قومه.

ومطلع هذه السورة فيه وصف لجلال ربوبية الله وعظمته بما تخشع له القلوب، فهو مالك السماوات والأرض وهو الذي يعلم السرّ وما هو أخفى منه.

وأكثر محتويات هذه السورة يدور فيها الكلام على موسى بجملة من الصور البيانية التي تحتوي على كثير من المواعظ والعبر:

منها: موقف المناجاة بين موسى وربه واختياره رسولاً منه إلى فرعون.

ومنها: تأييده بمعجزة العصا التي تتحول إلى ثعبان، ويده التي كان إذ يضعها تحت إبطه فتصبح بيضاء متلألئة كشعاع الشمس.

ومنها: طلب موسىٍ من ربه أن يكون أخوه هارون نبيًّا مثله ليؤازره في دعوة فرعون إلى الإيمان بالله فاستجاب الله لطلبه.

ومنها: بيان فضل الله على موسى منذ ولادته إلى أن أصبح رسولاً من الله.

ومنها: وصية الله لموسى وهارون بجملة من الأمور قبل ذهابهما إلى فرعون.

ومنها: الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون حول ربوبية الله.

ومنها: المبارزة بين موسى والسحرة وانتصار موسى عليهم حيث ابتلعت عصاه كل أدوات السحر التي قدموها فأعلن السحرة إيمانهم برب موسى.

ومنها: بيان فضل الله على بني إسرائيل حيث أنجاهم من فرعون.

ومنها: فتنة السامري لبني إسرائيل ودعوته إياهم إلى عبادة العجل.

وفي السورة بيان لمصير الكافرين يوم القيامة، ووصف بعض المظاهر الكونية له. كما تذكر السورة قصة آدم وغواية الشيطان له، مع إنذار الكافرين بالهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

سورة طه

مكية، وآياتها ١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ
يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

شرح المفردات

طه: من أسماء النبي محمد ﷺ.

لتشقى: لتقاسي العناء.

تذكرة: تذكيراً وموعظة.

العرش: كرسي الملك وهنا كناية عن الملك.

استوى: استولى وعلا، بمعنى تصرف فيه على مقتضى حكمته.

الثرى: التراب.

له الأسماء الحسنى: له الأسماء الفاضلة الكريمة.

إني آنست ناراً: إني أبصرت ناراً.

عظمة الله وشمول ملكه

استهل الله هذه السورة ببيان الغاية من القرآن وأنه مصدر سعادة لا مصدر شقاء: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى﴾ طه: قيل في تفسيرها جملة أقوال، منها: إن معناها يا رجل، كما جاء في بعض لغات العرب، والمقصود بالرجل هنا

النبي محمد ﷺ، وقيل: إن طه اسم من أسماء النبي محمد ﷺ. والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد بطريق الوحي لتتعب وتقاسي العناء لفرط تأسفك على قومك بسبب عدم إيمانهم ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ ولكن الله أنزل عليك القرآن رحمة ونوراً وعظة لمن يخشى عقاب الله فيتقيه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَاتِ الْعُلَى﴾ العلى: جمع العليا، ولم يقل الله: «السماء العليا» وهي التي تظهر للعيان في عصر نزول القرآن وإنما قال: السماوات، ووصفها بالعُلى بصيغة الجمع يتجلى فيها إعجاز علمي للقرآن. فقد توصل علماء الفلك حديثاً بواسطة المراقب المتطورة إلى أن في الكون ملايين المجرات، وأن كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم، وأبعادها لا تقاس بالمقاييس المعتادة، لذا اعتمد علماء الفلك سرعة الضوء وحدة لقياس أبعادها، وسرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل في الثانية، وقد شاهد العلماء بواسطة المراقب الضخمة مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي سنة ضوئية. فما ذكره القرآن بأن الله خالق ﴿السَّمَٰوَاتِ الْعُلَى﴾ هو تبيان لحقيقة علمية كان يجهلها البشر منذ أربعة عشر قرناً وأدرك علماء الفلك أسرارها في القرن العشرين للميلاد.

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ومُنزل القرآن هو الله الذي وسع كل شيء رحمة، وهو الذي علا أو استولى على العرش من غير تشبيه ولا تكييف، والعرش كرسي الملك لدى البشر وهو هنا كناية عن المُلْك، وعرش الله لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وقد قال الإمام مالك رحمه الله لمن سأله عن تفسير هذه الآية: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي إن الله سبحانه يملك ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما من الموجودات والكائنات ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ ويملك سبحانه ما تحت التراب من كنوز ومعادن ونفط وغيرها.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بالْقَوْلِ فَإِنَّـهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وإن تجهر يا محمد في أقوالك أو تخفها في نفسك فإن الله يعلم السرّ، وهو ما يحدّث الإنسان به غيره في خفاء، أما أخفى من السرّ فهو خواطره النفسية التي لا يحدّث بها أحداً. وإذا علم الإنسان هذه الحقيقة كان ذلك باعثاً له على التخلص من خواطره السيئة لأنه سيحاسب عليها كما ذكرته الآية الكريمة: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. هذا وإن خاطرات السوء تتجسد في سلوك الإنسان إذا استسلم لها، أما إذا جاهد الإنسان نفسه للتخلص منها فإنه يبلغ مرتبة الطهارة النفسية والسمو الخلقي.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فالله هو المعبود بحق الذي لا تصلح العبادة إلاّ له فاعبدوه أيها الناس دون سواه ﴿لَـهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الحسنى: تأنيث الأحسن، أي أن الله له محاسن الأسماء لدلالتها على معاني الإحسان والتقديس والرأفة والرحمة وغير ذلك من الصفات الحميدة.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا
يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ
ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن
لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

شرح المفردات

آنست: أبصرت.

بقبس: بشعلة من نار.

هدى: هادياً يدلني على الطريق.

المقدّس: المطهر أو المبارك.

طُوى: اسم الوادي حيث رأى موسى النار.

اخترتك: اصطفيتك للنبوة.

الساعة: الوقت الذي تقوم به القيامة.

أكاد أخفيها: أريد إخفاء وقتها.

لتجزى: لتنال كل نفس جزاء عملها.

تسعى: تعمل.

يَصُدَّنَّـك: يمنعك ويصرفك.

فَتَرْدَى: فتهلك.

تكليم الله لموسى

بعد أن بيّن القرآن عظمة الذات الإلَهية أتبع ذلك بالكلام على موسى ومناجاته لربه. وقبل الحديث عنها نمهد بذكر الأحداث التي سبقتها فنقول: إن موسى فرّ من مصر خوفاً ممّا يبيّت له من محاكمة وعقاب بسبب قتله أحد رعايا فرعون خطأ، فقصد قرية (مدين) حيث تعرّف على شيخ جليل نزل بضيافته، وكان لهذا الشيخ فتاتان زوّجه إحداهما لقاء قيامه بخدمته ثماني سنوات أو عشراً[١]. فلما قضى موسى المدة في خدمة الشيخ استأذنه بالرحيل وسار بأهله قاصداً بلده مصر التي ولد فيها وترعرع بعدما طالت غيبته عنها واشتاق لأهله، وفي طريقه في الصحراء ليلاً ضل الطريق، وكانت ليلة شاتية باردة مظلمة، فجعل موسى يقدح النار فلم تُورِ المقدحة

(١) هذا ما ذكرته سورة القصص.

شيئاً، فبينما هو على تلك الحالة رأى عن بُعْدٍ ناراً. ونقف هنا لتحدثنا آيات هذه السورة عما جرى لموسى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَديثُ مُوسى. إِذْ رَأَى نَاراً﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق، أي هل بلغك يا محمد خبر موسى حين أبصر ناراً؟ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي قال لزوجه ومن معها من الولد والخدم: أقيموا في مكانكم وانتظروني ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبسٍ﴾ أي إني أبصرت ناراً لعلي أحضر لكم من أصحاب هذه النار شعلة توقدون بها ناراً تصطلون بها ﴿أو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أو أجد عند النار مرشداً يدلني على الطريق الذي ضللت عنه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودي يا موسَى﴾ فلما توجه موسى نحو النار، إذا به يجدها في شجرة عناب، فوقف متعجباً من حسن ذلك الضوء وشدة خضرة تلك الشجرة، إذ لم تغير شدة حر النار حسن خضرة الشجرة، وقيل إن النار كانت في شجرة من العليق، فقصدها فتأخرت عنه، فتراجع موسى وأوجس في نفسه خيفة، فسمع نداء من جهتها يقول: ﴿إني أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره الله تعالى بأن ينزع نعليه من رجليه ليباشر بقدميه بركة الوادي إذ كان وادياً مقدساً، ولأن ذلك أبلغ في التواضع وحسن الأدب والخشوع عند مناجاة الله تعالى ﴿إِنَّكَ بالوادِ المُقَدَّسِ طُوىً﴾ إنك يا موسى بالوادي المقدس المطهر المسمى (طوى).

موقف لا أروع منه ولا أحلى، فها هو يسمع من ناحية الشجرة كلام ربه الذي يخصه به في هذه الليلة الموحشة الباردة، وإذا الوحشة تنقلب إلى أنس، وإذا الخوف يتحول إلى طمأنينة.

ويتابع الله قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وأنا الله قد اصطفيتك للنبوة يا موسى لتحمل رسالتي إلى فرعون فاستمع لوحينا الذي نوحيه إليك(١).

---

(١) الوحي هو تلقي الأنبياء الأوامر والشرائع من الله إما بأن يسمع النبي كلام الله دون أن يراه كما جرى لموسى عليه السلام، وإما أن يرسل الله الوحي إلى رسوله بواسطة الملك جبريل، وقد يكون الوحي برؤيا في المنام. =

ثم يبين القرآن ما أوحاه الله إلى موسى: ﴿إنني أنا اللَّهُ لا إلَه إلاّ أنا فَاعْبُدْني﴾ فهنا إثبات لألوهية الله ووحدانيته والدعوة إلى الإيمان به ونفيها عما سواه. وعبادة الله هي طاعته والخضوع له مع التذلل والانقياد لأمره ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ وأقم الصلاة لتذكرني بها بإخلاص لا ترائي بها ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتِيَـةٌ﴾ والساعة هنا المراد بها الوقت الذي تقوم به القيامة وهي آتية لا محالة ﴿أكادُ أُخْفيها﴾ أي أكاد أخفيها من نفسي فكيف أعلنها لكم؟ وهذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضاً إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون: كتمته حتى من نفسي. أو بمعنى: أريد إخفاء وقتها عن الخلق ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ لتثاب أو تعاقب كل نفس بما عملت من خير وشر ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ فلا يصرفنك يا موسى عن التأهب للقيامة والاستعداد لها بالعمل الصالح من لا يصدِّق بها من الكفرة، ولا يرجو ثواباً من الله ولا يخاف عقاباً منه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ واتبع هوى نفسه وانغمس في المعاصي وخالف أمر الله ونهيه ﴿فَتَرْدَى﴾ فإنك إن تفعل ذلك تهلك، والهلاك هنا المراد به هو سخط الله عليه ودخوله النار يوم القيامة. والخطاب ليس مقصوراً على موسى، وإنما هو شامل لكل الناس، فكل من غفل عن الآخرة واتبع شهواته وأهواءه كان في جملة الهالكين.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا
عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ
حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ
يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا
ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ
أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾

هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات

أهشّ بها على غنمي: أضرب بها ورق الشجر ليتساقط فتأكله غنمي.

مآرب أخرى: حاجات ومنافع أخرى.

حية تسعى: ثعبان عظيم يمشي على بطنه سريعاً.

سيرتها الأولى: حالتها الأولى وهي كونها عصا.

واضمم يدك إلى جناحك: واجمع كفك الأيمن وضعه إلى جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط.

من غير سُوءٍ: من غير عاهة كالبرص.

آية أخرى: معجزة أخرى.

طغى: تجاوز الحد في العصيان والكفر والشر.

اشرح لي صدري: وسّعه لأتحمَّل أعباء النبوة.

احلل عقدة من لساني: أزل لثغة في لساني تمنعني من النطق السليم.

وزيراً: معيناً.

اشدد به أزري: قوِّ به ظهري.

وأشركه في أمري: اجعله شريكاً لي في النبوة.

أوتيتَ سُؤْلك: أُجيب طلبك.

من المعجزات التي أيد الله بها موسى

بعد أن ذكر الله سبحانه مكالمته لموسى أتبع ذلك بذكر بعض المعجزات التي أيده الله بها فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بيمينِكَ يَا مُوسَى﴾ أي وما تلك التي تحملها بيدك اليمنى يا موسى؟ هنا استفهام يتضمن بياناً لما سيريه الله من المعجزات التي سيؤيده بها، فأجاب موسى: ﴿قَالَ: هِيَ عَصَايَ﴾ هذا هو الجواب الوافي لما سأله ربه، وبقيّة المعاني والفوائد عن العصا تُفهم، ولكن موسى ذكر للعصا ما فيها من الفوائد لأنه أحب أن تطول مكالمته لربه وليستمتع بمناجاته فقال: ﴿أَتَوكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد

على عصاي في المشي عند التعب أو الوقوف ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غنمي﴾ وأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها ويصبح في متناول غنمي فتأكله ﴿وَلِيَ فيهَا مَآرِبُ أُخْرى﴾ ولي في العصا حاجات ومنافع أخرى. ومنافع العصا كثيرة كما هو معلوم، منها: الدفاع عن النفس من الحيوانات والزواحف الضارة، وحمل الزاد والحوائج على الكتف، وغير ذلك.

ثم أمر الله موسى بإلقاء عصاه على الأرض ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حيَّةٌ تَسْعَى﴾ فألقى موسى عصاه على الأرض فإذا هي تتحول في الحال إلى ثعبان عظيم يتحرك ويمشي، فانتابه الخوف وأسرع بالهرب، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ[1] وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ [النمل: ١٠]. عند ذلك ناداه ربه: ﴿قَالَ خُذْهَا ولا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أي تناولها دون خوف فإننا سنعيدها إلى حالتها الأولى ونردها عصا كما كانت.

ثم أتبع الله معجزة العصا بمعجزة أخرى، فقال لموسى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ وجناح الإنسان جنبه وعضده إلى إبطه، وهو مستعار من جناحي الطائر، حتى إذا أدخل موسى يده اليمنى تحت إبطه الأيسر وأخرجها غدت بيضاء تشعّ كشعاع الشمس تغشي البصر، ثم إذا ردّها إلى جنبه عادت إلى حالتها الطبيعية ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[2] من غير برص ولا داء ﴿آيَـةً أُخْرى﴾ أي معجزة أخرى مع معجزة العصا ﴿لِنُرِيَـكَ مِنْ آيَاتِنَـا الكُبْـرَى﴾ لنريك يا موسى من معجزاتنا الكبرى

---

(١) جانّ: ضرب من الحيّات.

(٢) من غير سوء: هو رد على ما جاء في كتب اليهود، ففي سفر الخروج (٤ : ٦): «وقال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عُبّك، فأدخل يده في عُبّه ثم أخرجها فإذا يده برصاء كالثلج». ولكن نقول: متى كان البرص وهو مرض منفّر يتخذه الله معجزة لرسله، وهل الغاية من معجزات الله إلاّ الترغيب في الإقناع بدين الله؟ فما جاء في كتبهم هو نتيجة التحريفات والإضافات التي أدخلت عليها.

الدالة على أنك رسول من عندنا حقًّا إلى فرعون، والعصا واليد هما من ضمن تسع معجزات أيّد الله بها موسى عليه السلام.

﴿ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طَغَى﴾ أي اذهب يا موسى إلى فرعون رسولاً من عندنا وادعه إلى عبادة الله وحده فإنه قد كفر وتجبر وتجاوز حده بادِّعاء الألوهية.

ولمّا كان المثول بين يدي فرعون أمراً شاقًّا لا يحتمله إلا ذو قلب رابط الجأش واسع الصدر فقد دعا ربه: ﴿قال: رَبِّ ٱشْرَحْ لي صَدْري﴾ رب وسع لي صدري لتحمّل أعباء النبوة، ولمجابهة طغيان فرعون بجميل الصبر وحسن الثبات ﴿وَيَسِّر لي أَمْرِي﴾ وسهّل عليَّ ما أمرتني به من تبليغ رسالتك ﴿وٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَاني. يَفْقَهُوا قَوْلي﴾ وأطلق عقدة من لساني ليفهم الناس فهماً دقيقاً ما أقوله لهم. وقد كان في لسان موسى لثغة تعوقه عن النطق السليم[١] ﴿وٱجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أهْلي. هَارونَ أخي﴾ واجعل لي معيناً من أهل بيتي هارون أخي ﴿ٱشْدُدْ بِـهِ أَزْري﴾ قوِّ به ظهري وأعنِّي به ﴿وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي﴾ واجعله نبيًّا كما جعلتني نبيًّا، وأرسله معي إلى فرعون ﴿كي نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ كي نعظّمك وننزهك عما لا يليق بك من صفات النقص والسوء، أو بمعنى: كي نصلّي لك كثيراً، لأن التسبيح يأتي بمعنى الصلاة ﴿وَنَذْكُرَكَ كثيراً﴾ أي ونذكرك كثيراً بالدعاء والثناء عليك، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال والجلال ﴿إنَّكَ كُنْتَ بنَا بَصِيراً﴾ إنك كنت عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء.

(١) سبب هذه اللثغة كما قيل إنه كان ذات مرة في حضن فرعون وهو طفل فأخذ بلحيته فنتفها، فغضب فرعون وأراد قتله، فقالت له زوجته: إنه صغير لا يعقل، ثم أشارت عليه بأن يمتحنه، فأُتي له بطشت فيه جواهر وبطشت فيه جمر، فالتقط موسى جمرة ووضعها في فيه فاحترق لسانه فكانت بلسانه عقدة، وكان هذا سبب نجاته من فتك فرعون به.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ
أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ
أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا
تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾

شرح المفردات

مننّا: أنعمنا.

أوحينا: ألهمنا.

التابوت: صندوق من خشب.

فاقذفيه في اليم: فألقيه واطرحيه في نهر النيل.

وَلِتُصنع على عيني: ولتتربى برعايتي وتوجيهي وإشرافي.

من يكفله: من يقوم بأمره ويربيه.

تقرّ عينها: تُسَرُّ بلقائك ورجوعك إليها.

فنجّيناك من الغم: أنقذناك من الحزن والخوف من فرعون.

وفتنّاك فتوناً: اختبرناك وابتليناك مرة بعد أخرى.

جئت على قَدَرٍ: جئت في الوقت الذي أردنا فيه إرسالك إلى فرعون.

واصطنعتك لنفسي: واصطفيتك للنبوة.

بآياتي: بالحجج والمعجزات التي أيدتك بها.

ولا تنيا في ذكري: ولا تفترا ولا تضعفا في تبليغ رسالتي إلى فرعون.

فضل الله على موسى

وبعد أن طلب موسى من ربه توسيع صدره وتيسير أمره وحلّ عقدة لسانه وجعل أخاه هارون نبيًّا مثله ومعيناً له، أجابه الله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي قد أجبناك يا موسى إلى ما سألتني من هذه الأمور ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي ولقد أنعمنا عليك بفضلنا بنعم كثيرة قبل النبوة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ ما يُوحَى. أَنِ اقْذِفيه في التَّابُوتِ فَاقْذِفيهِ في الْيَمِّ﴾ أي حين ألهمنا أمك عندما كنت رضيعاً أن تضعك في صندوق وتلقيك في نهر النيل خوفاً من أن يقتلك آل فرعون إذ كانوا يذبحون أبناء بني إسرائيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بالسَّاحِلِ يَـأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ أي صدرت إرادة الله أن يلقي النهر الصندوق على الشاطىء أمام قصر فرعون. فبينما كان فرعون جالساً في مجلسه وبصحبته زوجته آسية وهو يطل على نهر النيل رأى ذاك الصندوق فقال: هناك شيء في الماء فأتوني به، فأتوه به ففتح الصندوق فإذا فيه صبيّ جميل الوجه، فأخذه عدوّ الله فرعون، وهو أيضاً عدوّ لك يا موسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيك مَحبَّةً مِنّي﴾ وحبّبتك إلى عبادي فكل من رآك أحبك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبتك زوجته آسية فتبنّتك، ومن أحبه الله أوقع في قلوب عباده محبته ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْني﴾ ولتتربى برعايتي وتحت حفظي، وقد جعل الله العين مجازاً وتعبيراً عن الرعاية والحراسة فإن الناظر إلى الشيء يحرسه مما لا يريد في حقه.

﴿إِذْ تَمشي أُخْتُكَ فَـتَقولُ: هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى مَنْ يَـكْفُلُهُ﴾ ولمّا ألقت أم موسى الصندوق الذي في داخله ابنها موسى في نهر النيل قالت لأخته: تتبّعي أثره، فسارت على مقربة منه حتى رأت آل فرعون يلتقطونه، ثم تتبعت أخباره فعلمت أنهم يطلبون له مرضعاً، وكانوا كلما قدّموا له مرضعاً يأنف الرضاع من ثديها، فقالت أخته لحاشية فرعون لمّا علمت ذلك: هل أدلّكم على من يربّيه ويرضعه؟ فوافقوا على ذلك، فجاءت بأمه، فكان أن التقط موسى ثديها بشغف ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْـنُـهَا وَلا تَحْزَنَ﴾ أي كان رجوعك إلى أمك كي تطيب نفسها وتسر بلقياك ولا

تحزن لفراقك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فنجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ وقتلت يا موسى قبطيًا خطأ بلكمة منك له عندما كان يتشاجر مع إسرائيلي من شيعتك الذي استغاث بك فنجيناك من الغم والحزن الحاصل بذلك، وسهّلنا لك الفرار إلى مدين لتسلم من القصاص على يد فرعون ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي وابتليناك بلاء إثر بلاء، فأنقذناك منه مرة بعد أخرى ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ في أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فمكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ ثم جئت في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك فيه وأجعلك رسولاً مني إلى فرعون لهدايته ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي﴾ واخترتك لأن تكون رسولي تبلّغ عبادي ما أوحيه إليك من شريعة الدين.

﴿اْذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بآياتي﴾ اذهب يا موسى أنت وأخوك هارون إلى فرعون بالحجج والمعجزات التي أيدتك بها التي تشهد بأنك رسول من عندنا ﴿ولا تَنِيَا في ذِكْري﴾ ولا تقصّرا في تبليغ رسالتي إلى فرعون.

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا
رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ
وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ
جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ
ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

شرح المفردات

طغى: جاوز الحد في الكفر والشر.

قولاً ليناً: قولاً لا خشونة فيه ولا غلظة.

يتذكّر: يتعظ فيذعن للحق ويؤمن بالله.

يخشى: يخاف عقاب الله وعذابه.

يفرط: يعجل ويبادرنا بالعقوبة.

إنني معكما: حافظكما وناصركما.
جئناك بآية: جئناك بمعجزة تشهد أننا رسولان من عند الله.
والسلام على من اتبع الهدى: والسلامة من العذاب الإلهي لمن سار على درب هدى الله.
تولّى: أعرض عن هدى الله.

وصية الله لموسى وهارون

ثم أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لتبليغه رسالة ربه إليه:

﴿**اْذهبا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طَغَى**﴾ اذهبا إلى فرعون إنه قد تجاوز الحد في العصيان والمغالاة في الكفر حيث ادعى الألوهية، وجاوز الحد في الشر حيث سخّر بني إسرائيل في الأعمال الشاقة وقتّل أبناءهم.

﴿**فَقُولا لَـهُ قَوْلاً لَـيِّناً**﴾ أي كلّماه بكلام رقيق لا خشونة فيه ولا عنف، وبالترغيب قبل الترهيب. هذا ما أمر الله به موسى وهارون بوعظ أعتى رجل على وجه الأرض، وهو درس للوعّاظ والمصلحين بأن يستعملوا أسلوب اللين في وعظ الظالمين فهو أشد فعالية وتأثيراً في نفوسهم، وفي هذا المقام نذكر ما قاله بعض المتصوفة في ذلك: يا رب هذا رفقك بمن عاداك فكيف رفْقك بمن والاك؟ ﴿**لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى**﴾ أي لعلَّه بهذا الكلام الليّن يتذكر أن له إلَهاً، وأنه عبد من عبيده، أو لعلَّه يخشى عاقبة كفره وظلمه فيرتدع عما هو فيه.

﴿**قَالاَ: ربَّنَا إنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أو أَن يَطْغَى**﴾ أي قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف من فرعون إذا دعوناه أن لا يتسع صدره لسماعنا ويستولي عليه الغضب فيعجل بعقابنا ويبادر إلى البطش بنا.

﴿**قَالَ: لا تخَافَا إنَّني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ فطمأنهما ربهما بقوله: لا تخافا من فرعون وجبروته إنني معكما بالرعاية والحفظ أسمع ما يجري بينكما من قول، وأرى ما يحصل منه، فلا أمكّنه من إيذائكما ﴿**فَأْتِيَـاهُ فقولا: إِنَّا رسُولا رَبِّـكَ**﴾ فاذهبا إليه وقولا له: إن ربك أرسلنا إليك لندعوك إلى الإيمان به. وفي قولهما ﴿**ربك**﴾ إشارة

إلى أن الرب الحقيقي هو الله، وأن ادعاءه الألوهية لا معنى له ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إسْرائيل ولا تُعَذِّبْهُم﴾ أي فأطلق سراح بني إسرائيل من الأسر والعبودية ليذهبوا معنا إلى أرض الميعاد «أي فلسطين» ولا تعذبهم باضطهادك لهم ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ﴾ قد جئناك بمعجزة وعلامة تدل على أن الله أرسلنا إليك حقًّا ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى﴾ والسلامة من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة لمن اتبع هدى الله.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ وقولا لفرعون: إن الله أوحى إلينا بأن عذابه سيصيب من كذّب رسله وأعرض عن قبول الحق وما ندعو إليه من الإيمان بالله الواحد وطاعته.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

شرح المفردات

فما بال: ما هو حال.

القرون الأولى: الأمم السابقة.

لا يضل ربي: لا يخطىء ربي ولا يغيب عن علمه شيء.

مهداً: ممهدة مبسطة يسهل العيش عليها.

سلك لكم فيها سبلاً: أنفذ فيها طرقاً.

شتى: مختلفة الأنواع.

أنعامكم: الإبل والبقر والغنم والماعز.

لأولي النهي: لأصحاب العقول.

الحوار مع فرعون

امتثل موسى وهارون أمر ربهما وتوجها إلى فرعون، وبلّغاه ما أوصاهما الله به، عندئذ سألهما فرعون: ﴿قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أضاف فرعون الرب إليهما ولم يضفه إلى نفسه لجحوده ربوبية الله للناس جميعاً. وخص فرعون موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة الإلّهية، فأجاب موسى: ﴿قَالَ: رَبُّنَا الّذي أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي ربنا الذي أعطى كل شيء من المخلوقات صورته وشكله الذي يطابق كماله، وناط به من الخواص والمنافع ما يليق به ويتميز به عن غيره، ثم هداهم الله إلى طرق الانتفاع والحفاظ على نوعهم وبقائهم بما أعطاهم من الحواس والغرائز.

ثم تابع فرعون حديثه: ﴿قَالَ: فَمَا بَالُ القُرونِ الأُولَى﴾ أي فما شأن الأمم التي كانت قبلنا، فإنها لم تؤمن بمثل ما تدعو إليه، ولم تخلص العبادة لله، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان، فأجاب موسى: ﴿قَالَ: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي في كِتَابٍ﴾ أي علم أحوال الأمم الماضية مكتوب عند الله في كتاب ويسمى اللوح المحفوظ ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي ولا يَنْسَى﴾ لا يخطىء ربي في تدبيره لخلقه، وهو سبحانه منزه عن النسيان لا ينسى ما علمه منها، فعلمه محيط بكل شيء من الأشياء.

هنا ينتهي ما حكاه الله على لسان موسى. ثم يوجه الله خطابه للناس جميعاً مبيناً فضله عليهم: ﴿الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾ أي هو الله الذي جعل لكم الأرض ممهدة فبسطها بقدرته للاستقرار عليها ﴿وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً﴾ وشق لكم فيها طرقاً تسلكونها لقضاء حوائجكم، والطرق هي الشريان الحياتي لكافة الشعوب، فلو كانت الأرض في وضع يصعب شق الطرق عليها لما ازدهرت هذه الشعوب وعمرت بمئات الملايين من البشر وحصل تبادل المنافع بينها، وهذا من فضل الله على الناس ﴿وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ وأنزل الله لكم من السماء مطراً ﴿فَأَخْرَجْنـا به

أزواجاً مِنْ نَـبَاتٍ شَتَّى﴾ فأخرج الله بذلك المطر أصنافاً من النبات والثمار مختلفة الطعم والشكل والرائحة متعددة الفائدة، بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم. ثم عقّب الله على ذلك: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُم﴾ أي كلوا أيها الناس مما أنبتت الأرض من الثمار والنباتات والحبوب وارعوا أنعامكم من نباتها ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لأولي النُّهَى﴾ أي إن في ما ذكر لدلالات وحججاً لأصحاب العقول السليمة يستدلّون بها على وجود الله ووحدانيته.

﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُم﴾ ومن تراب هذه الأرض خلق الله آدم وذريته، فإذا حللنا العناصر التي يتكون منها الإنسان نراها نفس العناصر التي تحتويها تربة الأرض ﴿وَفيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وإلى الأرض مصيركم بعد مماتكم فتُدفنون فيها فتتحلل أجسادكم وتصيرون من جنس الأرض تراباً ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تارةً أُخْرَى﴾ ومن قبوركم في الأرض نخرجكم يوم البعث أحياء بعد مماتكم مرة أخرى للحساب والمجازاة على أعمالكم.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا
نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ
ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا
تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟
أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟
صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أريناه آياتنا كلها: بصّرنا فرعون المعجزات التسع التي أيدنا بها موسى.
أبى: امتنع عن الإيمان بالله وطاعته.
لا نخلفه: لا نخلف هذا الوعد بل نفي به.
مكاناً سُوًى: مكاناً وسطاً تستوي مسافته بين الفريقين.
يوم الزينة: هو يوم عيد يتزينون فيه.
ضحى: وقت ارتفاع النهار وامتداده.
فتولى فرعون: أدبر وذهب.
كيده: الكيد هو الوسيلة التي يتذرع بها الكائد للوصول إلى غرضه وإلحاق الضرر بعدوه.
لا تفتروا على الله كذباً: لا تختلقوا الكذب على الله.
فيسحتكم بعذاب: فيستأصلكم بالإهلاك.
خاب: خسر.
فتنازعوا أمرهم: فتفاوضوا وتشاوروا في أمر موسى.
أسرّوا النجوى: أخفوا ما تحدثوا به وبالغوا في إخفائه.
بطريقتكم المثلى: بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب.
أفلح اليوم من استعلى: فاز اليوم من غلب.

عناد فرعون ولقاء موسى بالسحرة

ثم يذكر القرآن عناد فرعون ورفضه دعوة الحق على لسان موسى وهارون:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْـنَـاهُ آياتِنا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبى﴾ أي ولقد وضع الله أمام أنظار فرعون المعجزات الدالة على نبوة موسى والحجج الدالة على وحدانية الله وربوبيته للكون ولكنه كذّب موسى وأبى أن يؤمن بالله واستمر على كفره وطغيانه.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِن أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـا مُوسَى﴾ أي قال فرعون: أجئت يا موسى بسحرك لتوهم الناس أنك نبيّ يجب عليهم اتباعك ولتخرجنا من أرضنا مصر لتحلّ محلنا ويكون لك الملك فيها؟ وإنما قال ذلك القول ليحمل قومه على

السخط على موسى بإظهار أن مراده ليس إنقاذ بني إسرائيل من العبودية والظلم، بل هو إخراج قوم فرعون من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملاكهم.

وتابع فرعون قوله لموسى متحدياً إياه: ﴿**فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ**﴾ فلنأتينك: اللام هي الموطئة للقسم، أي قسماً لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر ﴿**فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ ولا أَنْتَ**﴾ وحدّد لنا يوماً ومكاناً معلوماً لا يتخلف عنه أحد منا، ويكون ﴿**مَكاناً سُوًى**﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي فيه المسافة بين من يجيء إليه من الطرفين المتبارزين.

حدّد موسى موعد الاجتماع والمبارزة: ﴿**قَالَ: مَوْعِدُكُم يَوْمُ الزِّينَةِ**﴾ ويوم الزينة هو يوم عيد لهم يجتمع الناس فيه ويتزينون ويتفرغون فيه فلا يعملون﴿**وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك اليوم، والضحى هو حين تطلع الشمس فيغلب ضوؤها. وإنما عيّن موسى ذلك اليوم في الوقت الذي يحتشد الناس ويروا بأم أعينهم معجزة موسى ويشيع بين الناس ما رأوا.

وبعد الاتفاق على هذا الموعد ﴿**فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى**﴾ أي انصرف فرعون وشرع في جمع السحرة وأتى بهم مصحوبين بأدوات السحر في الموعد المتفق عليه.

أقبل فرعون في الموعد المحدد وجلس في مقصورته ومعه أشراف مملكته، وجاء موسى ومعه أخوه هارون حتى أتيا إلى المكان الذي تجمّع فيه السحرة: ﴿**قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُم لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾ أي قال موسى: الهلاك والعذاب من الله إن زعمتم أن المعجزة التي ستظهر على يديّ هي سحر كما ادعى فرعون ﴿**فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ**﴾ فيستأصلكم بعذاب فيهلككم ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**﴾ وقد خسر وهلك من افترى على الله الكذب.

لمّا سمع السحرة تحذير موسى سرى الخوف في نفوسهم ﴿**فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم**

بَيْنَهُم وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أي اختلفوا فيما بينهم وتشاوروا، وبالغوا في إخفاء الكلام بينهم.

﴿قالوا: إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِما﴾ إن موسى وهارون ليسا إلا ساحرين يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بسحرهما **﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المُثْلَى﴾** ويبطلا مذهبكم وعقيدتكم التي هي أفضل المذاهب والأديان.

ثم قال السحرة بعضهم لبعض: **﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُم ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾** أي اجعلوا ما تكيدون به موسى أمراً موحداً متفقاً عليه ثم احضروا مصطفّين مجتمعين ليكون ذلك أنظم لأموركم وأشد لهيبتكم في نفوس المشاهدين **﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾** وقد فاز اليوم وظفر بالمراد من غلب وانتصر على خصمه، وأرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من المكافأة السخية والهدايا الوافرة إذا تغلبوا على موسى.

**﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا
لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ
سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ
وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾**

شرح المفردات

تسعى: تمشي وتسير.

فأوجس: أحس وشعر.

تلقف: تبتلع بسرعة.

كيد ساحر: حيلة ساحر.

إيمان السحرة

ثم يصف الله حال السحرة وقد استعدّوا للمبارزة مع موسى :

﴿قَالُوا يا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَـكُونَ أَوَّلَ من أَلْقَى﴾ لقد خيّروا موسى بين أن يبدأ بالمبارزة فيلقي ما عنده من سحر في زعمهم أو أن يكونوا هم أول البادئين بسحرهم ثقة منهم بالتغلب على موسى : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي قال لهم موسى بل ألقوا سحركم أولاً ﴿فَإِذَا حِبَـالُهُم وَعِصِيُّهم يُخَيَّـلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِم أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي فألقوا حبالهم وعصيهم فإذا هي من عظمة السحر قد خيّل لموسى ومن رآها من الناس أنها حيات حقيقية تتحرك زاحفة على بطونها ﴿فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي سرى الخوف في نفسه مما رأى حيث إن سحرهم من جنس معجزته وخشي أن يلتبس أمره على الناس فلا يصدقون أنه رسول الله .

وهنا أتى الوحي الإلّهي لموسى تثبيتاً لقلبه : ﴿قُلْـنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ أي لا تَخْشَ يا موسى شيئاً مما رأيت ، إنك أنت الغالب المنتصر على باطلهم ﴿وَأَلْقِ مَا في يمينِكَ تَلْـقَفْ مَا صَنَـعُوا﴾ وألق يا موسى عصاك التي في يمينك فتتحول إلى حية عظيمة تبتلع بسرعة حبالهم وعصيهم التي صنعوا بها السحر ، والتعبير عنها ﴿بمَا صَنَعُوا﴾ للتحقير بما فعلوه من التمويه والتزوير ﴿إِنَّما صَنَـعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وما صنعوه من السحر ما هو إلاّ مكر وخداع ساحر ﴿ولا يُفْلِـحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ولا يظفر الساحر ولا ينال مراده حيث ما كان ومن أي مكان أقبل .

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ في الكلام هنا حذف استغني عن ذكره بدلالة ما ذكر قبله ، وفحواه أن موسى ألقى عصاه فابتلعت عصيهم وحبالهم فألقى السحرة جباههم على الأرض خضوعاً لله وتوبة عما صنعوا بعد أن تحققوا من أن موسى ليس بساحر ، وأن ما أتى به ليس من صنعة السحر بل هو معجزة من الله قائلين ﴿قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هارونَ وَمُوسَى﴾ يا للروعة والعجب! لقد ألقوا حبالهم وعصيهم من قبل تأييداً

للكفر والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة شكراً لله وإيماناً به. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح المفردات

كبيركم: زعيمكم ومعلّمكم.

فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف: قطع الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى.

لن نؤثرك: لن نختارك ونفضلك.

البينات: المعجزات الواضحات.

فطرنا: خلقنا وأوجدنا من العدم.

فاقض ما أنت قاضٍ: احكم بما تشاء.

إنما تقضي هذه الحياة الدنيا: إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا.

الدرجات العلى: المنازل الرفيعة في الجنة.

تزكّى: تطهَّر من أدناس الكفر والذنوب.

اضطهاد فرعون للسحرة

ولمّا خاف فرعون أن يقتدي الناس بالسحرة في إيمانهم بالله مارس على السحرة سطوته وجبروته ﴿قَالَ: آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ هذا القول يظهر مدى

طغيان فرعون حيث حدد للناس دائرة معتقداتهم فليس لأحد منهم أن يؤمن بشيء إلاّ بإذنه، ثم أضاف فرعون قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن موسى هو رئيسكم الذي علّمكم السحر، قال هذا مع علمه أن موسى لم يكن يعرفهم ولم يسبق له أن اجتمع بهم، ولكنه قال ذلك ليسفّه إيمان السحرة وليغطي فشله أمام قومه، ثم تابع قوله مهدداً السحرة: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيدِيَكُم وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾ والقطع من خلاف هو: قطع اليد اليمنى والرِّجْلِ اليسرى، أو قطع اليد اليسرى والرِّجْل اليمنى، وهذا أشد أنواع التمثيل فظاعة إذ لا يستطيع الإنسان فيه أن ينتفع بأعضائه ويقوم بحوائجه ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُم في جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي لأعلقنكم على جذوع النخل بعد التمثيل بكم زيادة في إيلامكم، وإنما اختار جذوع النخل لخشونتها وأذاها على الجسم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقَى﴾ وستعلمون هل أنا أشد عذاباً لكم وأَدْوَمَ أم رب موسى.

وبعد هذا التهديد والوعيد أجاب السَّحَرَةُ فرعون: ﴿قَالوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذي فَطَرَنَا﴾ أي لن نختارك ونفضلك على ما جاءنا من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعانا إليه موسى من عبادة الله وحده الذي خلقنا وأنشأنا من العدم ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع بنا وما بدا لك ﴿إِنَّما تَقضِي هَذِهِ الحيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تقدر أن تعذبنا في هذه الحياة الدنيا الفانية، وسلطانك فيها دون الآخرة ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ إنَّا صدّقنا بالله ربنا الواحد ليغفر لنا ذنوبنا فيسترها علينا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وما أمرتنا أن نتعلمه من السحر قسراً ﴿وَاللَّهُ خَيرٌ وَأَبْقَى﴾ والله خير منك ثواباً إن أطعناه، وهو أبقى عذاباً إن عصيناه.

أمثولة من التضحيات الجسام وتحمل أقسى أنواع العذاب في سبيل العقيدة بالله يضعها القرآن أمام أنظارنا لنقتدي بها، ولنتقبل كل أنواع الاضطهاد الذي قد يصيبنا على أيدي الظالمين في سبيل الله.

وبعدما حكاه الله من قول السحرة أتبع ذلك ببيان مصير المؤمن والمجرم يوم القيامة: ﴿إِنَّه مَنْ يَـأْتِ رَبَّـهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَـهُ جَهَنَّم لا يَموتُ فِيهَا ولا يَحْيـىَ﴾ أي من مات على الكفر والمعاصي، ويلقى ربه مجرماً بكفره ومعاصيه، فجزاؤه جهنم لا يموت فيها فيستريح من العذاب ولا يحيا حياة طيبة يتمتع فيها بنعيم ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ ومن يلقَ ربه مصدّقاً به قد عمل بطاعته وما أمره به من الأعمال الصالحة وكفّ نفسه عما نهاه عنه ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى﴾ فأولئك لهم بإيمانهم وعملهم الصالح المنازل العالية الرفيعة، ومكان نزولهم ﴿جَنَّاتُ عَدْن تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها﴾ جنات استقرار واطمئنان تجري بين أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَـزَكّى﴾ وذلك النعيم هو ثواب من تطهر من الكفر والذنوب وعمل بطاعة ربه ولم يدنّس نفسه بالمعاصي.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا
تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾
وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ
وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى
لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أسْرِ بعبادي: سِرْ ليلاً ببني إسرائيل.

فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً: فاضرب يا موسى البحر بعصاك فيجعل الله فيه طريقاً يابساً لا ماء فيه.

لا تخاف دَرَكاً: لا تخاف أن يدركك فرعون بجنوده.

ولا تخشى: ولا تخف غرقاً.

فغشيهم من اليمّ ما غشيهم: فغطاهم وغمرهم ماء البحر فأغرقهم.

الطور: جبل في سيناء.

المن: ندى يشبه العسل في طعمه ينزل من السماء على ورق الشجر، وقيل هو صمغ حلو.

السلوى: طائر السماني.

لا تطغوا فيه: ولا تكفروا النعمة ولا يظلم فيه بعضكم بعضاً.

فضل الله على بني إسرائيل

بعد أن تمادى فرعون في طغيانه أمر الله موسى بأن يخرج ومن معه من المؤمنين من أرض مصر: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادي﴾ أي أمر الله موسى عن طريق الوحي بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلاً إلى فلسطين دون أن يشعر بهم أحد.

امتثل موسى أمر ربه وانطلق بقومه بني إسرائيل قاصداً فلسطين وانطلق فرعون وجنوده مقتفين أثرهم للقضاء عليهم فأدركهم عند ساحل البحر الأحمر، حينئذ أمر الله موسى قائلاً ﴿فَاضْرِبْ لهم طَرِيقاً في البحر يَبَساً﴾ أي اضرب بعصاك البحر ليصبح لهم فيه طريقاً يابساً لا ماء فيه يمرون عليه ليتابعوا سيرهم وينجوا من فرعون ﴿لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى﴾ أي لا تخاف يا موسى أن يدركك فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً في البحر.

ضرب موسى بعصاه الحجر فانشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل وانحسر الماء عن جانبيها كالجبل العالي، فسار بنو إسرائيل في هذه الطرق في البحر ﴿فَأَتْبَعَهُم فِرعونُ بجنودِهِ﴾ أي ولمّا رأى فرعون وجنوده هذه الطرق في البحر التي اجتازها بنو إسرائيل ساروا فيها ليلحقوا بهم، ولمّا أصبحوا في عرض البحر كان بنو إسرائيل قد اجتازوا البحر إلى اليابسة عندئذ أطبق الله البحر على فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُم﴾ أي غمرهم وعلاهم من البحر ما

أغرقهم جميعاً ﴿وَأَضَـلَّ فِرعَـونُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ وأضل فرعون قومه عن سبيل الرشد وما هداهم إلى خير.

وبعد هلاك فرعون خاطب الله بني إسرائيل مبيناً فضله عليهم بعد أن استنقذهم من الاضطهاد والعذاب: ﴿يا بني إسْرائيلَ قَدْ أَنْجيناكم مِنْ عَدُوِّكُم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل نعمة الله عليكم بأن أنجاكم من عدوكم فرعون وجنوده ﴿وَوَاعَدْناكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ أي وعدناكم بواسطة نبيكم، والموعودون هم النقباء السبعون الذين اختارهم موسى لسماع مخاطبة الله له ونزول التوراة عليه وكان الجبل عن يمين موسى إذ أتاه لمناجاة الله ﴿وَنَزَّلْـنَا عَلَيْـكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وكفل الله أرزاقهم في صحراء التيه حيث أنزل عليهم المنّ، وهو ندى يشبه العسل جامد ينزل من السماء، وقيل هو صمغ حلو، وأما السلوى فهو طائر السماني ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّـبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي كلوا من هذه الطيبات التي رزقناكم إياها دون جهد منكم ﴿ولا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ طغى: جاوز الحد في الكفر والمعصية، أي لا تتجاوزوا الحد فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي على حدود الله فيه بالإسراف والبطر والاستعانة به على معاصي الله، ومنع الحقوق الواجبة فيه للغير، أو بأن تأخذوه من صاحبه بغير حق. وهذا تحذير يسري على الناس في كل زمان، وبالأخص للذين يسرفون في المآكل والمآدب بحيث يفيض الكثير منها عن حاجاتهم ويكون طريقها إلى القمامة، كل ذلك على حساب الفقير المعوز وثروة البلد القومية ﴿فَيحِلَّ عَلَيْـكُم غَضَبي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبي فَقَدْ هَوَى﴾ فينزل عليكم غضبي إذا عصيتموني ومن ينزل عليه غضبي فقد هلك وشقي ﴿وإنِّي لغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعمِلَ صَالحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ وإني لعظيم الغفران لمن رجع عن كفره وندم على معاصيه وحسن إيمانه وعمل صالح الأعمال ثم استقام على هداي.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ
رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ
مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ
أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ
فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ
هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ
لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ
إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

شرح المفردات

وما أعجلك عن قومك: وما سبب عجلتك في المجيء إلى جبل الطور متقدماً قومك.

على أثري: بالقرب مني ينتظرون عودتي إليهم.

فتنّا قومك: اختبرناهم وابتليناهم بعبادة العجل.

أسِفاً: شديد الحزن.

وعداً حسناً: إعطاؤهم التوراة.

العهد: أي وقت الإنجاز ومدة مفارقتي لكم.

ما أخلفنا موعدك بملكنا: ما أخلفنا الوعد بقدرتنا واختيارنا.

أوزاراً: أثقالاً أو آثاماً.

فقذفناها: فطرحناها في النار.

جسداً: جسماً جامداً لا حركة له.

فنسي: أي غفل عنه موسى وذهب يطلبه في جبل الطور.

لا يرجع إليهم قولاً: لا يكلمهم.

فتنتم به: وقعتم في الضلال وابتليتم به.
لن نبرح: لن نزال.
عاكفين: مقيمين على عبادة العجل.

فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل

لمّا أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب الذي فيه الشريعة ليعمل بها بنو إسرائيل، فأمره سبحانه أن يوافيه في جبل الطور في موعد حدده له، وأمره بصيام ثلاثين يوماً زيدت بعدها عشرة أيام يعطيه التوراة عند تمامها.

انطلق موسى لملاقاة ربه في الموعد الذي حدّده الله له وبصحبته سبعون رجلاً من وجوه القوم من بني إسرائيل، وأخبر الباقين أن غيبته لن تطول أكثر من شهر، واستخلف عليهم أخاه هارون. ولمّا وصل موسى إلى جبل الطور أمر من معه من النقباء السبعين أن ينتظروه أسفل الجبل ثم صعد موسى إلى الجبل، فكلمه ربه وسأله: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾ أي ما الذي حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم؟ هذا السؤال قد يكون المراد منه ـ والله أعلم ـ تعليم موسى أدب السفر وأن رئيس القوم لا ينبغي أن يعتزلهم أو يتميز عنهم، خصوصاً إذا كانوا ذاهبين إلى مقام كريم ﴿**قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي**﴾ قال موسى: هم بالقرب مني ولم يبعدوا عني وإن تقدّمي عليهم هو بخطى يسيرة، ثم أضاف قائلاً ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِتَرْضَى**﴾ وسارعت إليك يا رب لتزداد عني رضا بذلك، وشوقاً لمناجاتك.

ثم بين الله لموسى ما آل إليه قومه بعد فراقه إياهم وهم الذين تركهم في عهدة أخيه هارون ﴿**قَالَ: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ أي قد ابتلينا القوم الذين تركتهم مع هارون بعبادة العجل ـ إلاّ قليلاً منهم ـ حيث أطاعوا السامري فيما دعاهم إليه.

وبيان ذلك: أن موسى أخبر قومه الذين تركهم تحت إمرة هارون قبل الذهاب

إلى جبل الطور أن غيبته عنهم لن تطول أكثر من ثلاثين يوماً يتعبد فيها، ثم زيدت عشرة أيام أنزلت بعدها التوراة، قال تعالى: ﴿وواعَدْنَا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أربعين ليلة﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فلما طالت غيبة موسى عن قومه استبطأوه وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده، عندئذ تحركت نزوة الشر في نفس رجل منهم اسمه السامريّ، وكان من عظمائهم من قبيلة تعرف بالسَّامرة اشتهرت بعبادة البقر، فدخل السامري في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر، وقد كانت عبادة العجل شائعة عند المصريين فكانت العجول إذا ماتت حنطوها ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة تسمى (سرابيوم).

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ فعاد موسى من جبل الطور إلى قومه غضبان شديد الحزن بعد أن أخبره ربه بعبادة قومه للعجل ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، أي ألم يعدكم ربكم على لساني أن ينزل عليكم التوراة فتعملوا بما فيها فتحوزوا رضاء ربكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ فهل طال عليكم الزمان فنسيتم وعدكم إياي بالثبات على دينكم؟ ولكن لم يطل عهدي بمفارقتكم فكيف نسيتم ما وصيتكم به؟ ﴿أمْ أردتُّم أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من الله فيعاقبكم لعبادتكم العجل ﴿فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾ فنقضتم العهد بيني وبينكم بالتزام طاعة الله إلى حين الرجوع إليكم من جبل الطور.

بعد هذا الإنكار والتوبيخ من موسى لهم قالوا معتذرين: ﴿قَالُوا: مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي ما أخلفنا موعدك بقدرتنا واختيارنا ورغبتنا ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً[١] مِن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ ولكننا حَمَلْنَا حين خرجنا من مصر أثقالاً من حليّ

---

(١) الوزر: الحمل، ويأتي ذلك في الأحمال الثقيلة. ويطلق اللفظ على سبيل المجاز على ارتكاب الذنوب والآثام.

المصريين استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر وأوهمناهم أننا سنتزين بها في عيدنا وهي آثام في حوزتنا لأننا لم نردّها إليهم. فقال السامري: إن تأخر عودة موسى إليكم لشؤم حرمتها لأنه لا يحلّ لكم أخذها وهي ليست لكم، والرأي أن تقذفوا بها في النار التي أوقدتها لكم في حفرة فيرضى ربكم ويرجع موسى إليكم، فصدقناه وقذفنا الحليّ في ناره، وكذلك فعل السامري، فقذف ما معه من حليّ في النار. قال تعالى: ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيّ﴾.

وكان السامري قد خبأ في حفرة النار قالب عجل، أخرج لهم السامري من حليهم تمثالاً لعجل جامد لا حركة له وصاغه بطريقة هندسية خاصة تجعل الريح إذا دخلته تصدر منه أصواتاً في فمه كخوار البقر لتتم الخديعة به ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ ثم قال السامري وأتباعه لبني إسرائيل: ﴿فقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُم وإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي هذا العجل هو إلَهكم وإله موسى فاعبدوه ولكن موسى نسي أن يخبركم أن هذا إلهكم، أو نسي موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند جبل الطور.

ثم وبخ الله الذين يعبدون العجل بقوله: ﴿أَفلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِم قَوْلاً﴾ أي أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلَههم وإلَه موسى لا يكلمهم وإن كلموه لا يجيبهم ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ولا نَفْعاً﴾ ولا يقدر على ضر ولا نفع، فكيف من كانت هذه صفاته أن يكون إلَهاً يُعبد؟ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُم بِهِ﴾ أي ولقد قال هارون لعبدة العجل من قبل رجوع موسى إليهم: يا قوم إنما وقعتم في الفتنة وغواية السامري لكم وضللتم عن طريق الحق ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فاتَّبِعُوني وَأَطيعُوا أمْرِي﴾ وإن ربكم الذي يُعبد هو الله المتصف بالرحمة والمنعم عليكم بنعمه فاتبعوني فيما أنصحكم به وامتثلوا أمري بالامتناع عن عبادة العجل ﴿قَالُوا: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أي قالوا: لا نقبل حجتك وسنظل باقين على عبادته حتى يعود إلينا موسى.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ
يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ
بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى
نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ
لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ
كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

شرح المفردات

لم ترقب: لم تحفظ ولم تراع.

فما خطبك: فما شأنك.

بصرت بما لم يبصروا: علمت بما لم يعلموا.

فنبذتها: فألقيتها وطرحتها.

سوّلت لي نفسي: زيّنت وحسّنت لي نفسي.

لا مساس: لا تقربني ولا تمسّني كناية عن عدم المخالطة.

ظلت: أصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً، أي استمريت ودمت على فعله.

لننسفنّه في اليمّ: نذريه في البحر.

لوم هارون وتهديد السامري

وبعد أن بيّن موسى للذين عبدوا العجل سوء فعلهم خاطب أخاه هارون:

﴿قَالَ يا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُم ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي ما منعك يا هارون إذ رأيتهم ضلّوا عن دين الله وعبدوا العجل من دون الله أن تلحق بي

بمن معك من المؤمنين الذين لم يُفتنوا بعبادة العجل، أخالفت أمري، وتركت وصيتي بنصحهم كما عهدت إليك؟

﴿قَالَ يا ابن أُمَّ لا تأْخُذْ بِلِحْيتي ولا بِرَأْسِي﴾ في الكلام هنا حذف تُرِكَ ذِكْره بدلالة الكلام عليه وهو: ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، فقال هارون: لا تعاجلني بغضبك ولا تمسك بلحيتي يا ابن أمي، وهارون أخوه لأبيه وأمه، وإنما خاطبه بنَسَبِهِ إلى أمه استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ولأن الأم هي عنوان الحنوّ والرحمة. ثم علّل هارون موقفه من قومه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَـقُولَ فَرَّقْتَ بَـيْنَ بنَي إسرائيل وَلَمْ تَـرْقُبْ قَوْلي﴾ أي إني خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا، فتقول إني فرّقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلّف مع السامريّ آخرون، وربما أفضى ذلك إلى الاقتتال بينهم، وحينئذ تقول: لم تعمل بوصيتي لك فيهم بالإصلاح بينهم.

وبعد أن سمع موسى وجهة نظر أخيه ودفاعه عن نفسه توجه باللوم إلى السامري: ﴿قَال: فَمَا خَطْبُـكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي فما شأنك يا سامري وما دعاك إلى ما فعلته من دعوتك بني إسرائيل إلى عبادة العجل ﴿قال: بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَـبْصُروا به﴾ أي عرفت ما لم يعرفه القوم ﴿فَقَبضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنبذْتُها﴾ والرسول المراد به هنا هو موسى عليه السلام، وأثره: سنّته، أي أخذت بقية من سنّتك ودينك أيها الرسول فطرحتها وأهملتها ولم أعمل بها. وإنما أورد السامريّ اسم الرسول بلفظ الإخبار عن غائب من باب التعظيم له ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لي نَفْسِي﴾ وكذلك فعلتُ بما حدثتني به نفسي.

وبعد أن انتهى السامري من كلامه قال له موسى: ﴿قال: فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ في الحيَاةِ أن تَـقُولَ لا مِسَاسَ﴾ أي اخرج من جماعتنا وابعد عنا، وأمر موسى بني إسرائيل ألاّ يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. وإن الله عاقبه بأن يقول في حياته: (لا مساس) فكان يتألم من مس إنسان له ويطلب أن لا يمسه أحد.

ثم تابع موسى خطابه للسامري: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وإن لك وعداً لعذابك في الآخرة وهو كائن لا محالة ﴿وانْظُر إلى إلَهِكَ الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَـنُحَرِّقَنَّهُ﴾ وانظر إلى إلَهك الذي لازمت عبادته لنحرقنه بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفاً﴾ ثم نفرّق أجزاءه ونذروها في البحر.

ثم توجه موسى إلى بني إسرائيل مخاطباً لهم: ﴿إِنَّما إلَهُكُم اللَّهُ الّذي لا إلَه إلاّ هُوَ﴾ أي إن إلَهكم المعبود بحق هو الله الذي لا تصلح العبادة لغيره ولا تنبغي أن تكون إلاّ له سبحانه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلْماً﴾ أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ
أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أنباء ما قد سبق: أخبار الأمم السابقة.
آتيناك من لدنّا ذكراً: أنزلنا عليك من عندنا قرآناً.
وزراً: إثماً عظيماً.
الصور: البوق.
زرقاً: زرق العيون أو عمياناً.
يتخافتون: يتهامسون.
إن لبثتم إلاّ عشراً: ما لبثتم في الدنيا إلاّ عشرة أيام.
أمثلهم طريقة: أعدلهم قولاً وأعقلهم.

مصير المعرضين عن هدى الله يوم القيامة

وبعد أن ذكر الله قصة موسى وما رافقها من أحداث خاطب الله رسوله محمداً بقوله:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد من أخبار موسى وفرعون وبني إسرائيل كذلك نخبرك من أنباء الأمم التي سبقتك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ وقد أعطيناك يا محمد من عندنا كتاباً وهو هذا القرآن، فيه العظة وفيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً﴾ أي من تولّى عنه فلم يصدّق بأنه من عند الله رغم وضوح الأدلة على ذلك، أو لم يعمل بما فيه من الهدى فإنه يحمل يوم القيامة إثماً وعقوبة ثقيلة ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين على الدوام في العذاب جزاء ذنوبهم ﴿وَسَاءَ لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ وبئس ذلك الحمل الثقيل من الإثم حملاً لهم. فالوزر في اللغة: الحمل الثقيل ويأتي بمعنى الذنب، والذنوب تسمى أوزاراً لأنها أحمال تثقل مرتكبيها وتكون سبباً للعقاب في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ﴾ أي يوم القيامة هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور النفخة الثانية فيبعث الناس من قبورهم أحياء ثم يساقون إلى أرض المحشر ليحاسبوا على أعمالهم ﴿وَنَحْشُرُ المجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ أي ويسوق الله المجرمين وهم الكفار والعصاة إلى جهنم عمياً أو شاخصة أبصارهم من شدة الخوف، أو زرق العيون من شدة العطش ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُم إنْ لَبِثْتُم إلاَّ عَشْراً﴾ أي يخفضون أصواتهم ويتسارّون فيما بينهم فيقول بعضهم لبعض: ما لبثنا في الحياة الدنيا إلاّ عشرة أيام بالمقارنة بأيام الآخرة الطويلة الأمد ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُون إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إنْ لَبِثْتُم إلاَّ يَوْماً﴾ والله أعلم بما يتسارّون فيما بينهم إذ يقول أرجحهم عقلاً وأوفاهم فهماً: ما لبثتم في الدنيا إلاّ يوماً واحداً، وهذا هو التقدير الصواب لِقِصَر الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة.

فهؤلاء المجرمون لمّا عاينوا شدائد الآخرة وما شاهدوا فيها من الرعب والهول، وما هم مقبلون عليه من الحساب والعقاب، تذكّروا أيام النعمة والسرور في الدنيا فوصفوها بأنها أيام معدودة، وهذا الذي ذكره القرآن هو إيحاء للإنسان بأن لا يغترّ بنعيم الدنيا الزائل بل يتزود للآخرة بالعمل الصالح وطاعة الله.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا
تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ
ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَـٰلَى
ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل
رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ينسفها ربي نسفاً: يقتلعها الله من جذورها ويفتتها ثم يبدد ذراتها.

يذرها: يتركها.

قاعاً: أرضاً ملساء لا نبات فيها ولا بناء.

صفصفاً: مستوية كأن أجزاءها على صف واحد.

أمتاً: ارتفاعاً.

خشعت: سكنت.

عنت الوجوه: ذلت وخضعت.

القيّوم: هو الله القائم بتدبير خلقه.

خاب: خسر.

هضماً: نقصاً من حسناته.

صرّفنا فيه من الوعيد: بيّنّا فيه الإنذار والتخويف.

ذكراً: عبرة.

من مظاهر القيامة

يسأل كفار قريش النبي محمداً ﷺ عما يفعل الله بالجبال يوم القيامة سؤال استهزاء لأنهم ينكرون القيامة، فينزل الوحي الإلهي ردًّا على سؤالهم: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً**﴾ أي يوم القيامة يقتلع الجبال من أصولها ويفرق أجزاءها من رمال وحجارة وحصى في الجو ﴿**فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً**﴾ أي يدع الأرض التي كانت عليها الجبال أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿**لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً**﴾ ولا ترى في الأرض مكاناً منخفضاً ولا مكاناً مرتفعاً ولا مَيْلاً عن الاستواء ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ**﴾ وفي هذا اليوم يتبع الناس صوت الداعي إلى موقف الحساب وهو الملك إسرافيل، فلا يقدرون أن يزيغوا عنه أو ينحرفوا بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه ﴿**وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرَّحْمٰنِ فلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً**﴾ وخضعت أصوات الخلائق وسكنت من مهابة الله جل جلاله فلا تسمع إلاّ أصواتاً خفيفة خافتة ﴿**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ أي في ذلك اليوم لا تنفع شفاعة أحد إلا شفاعة من أذن له الرحمن ورضي قوله في الشفاعة.

﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ أي يعلم ما تقدم من أمورهم وأعمالهم في دنياهم ﴿**وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ ويعلم ما خلفهم من أمر الآخرة وما هم مقدمون عليه من ثواب وعقاب ﴿**وَلاَ يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ ولا تحيط علومهم بذات الله ولا بتدبيره وحكمته.

﴿وَعَنَتِ الوجوهُ(١) للحيِّ القيُّومِ﴾ وخضعت وجوه الخلق وذلّت لله الحي الباقي الذي لا يموت القائم بتدبير خلقه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ وقد خسر من حمل شيئاً من الظلم من الشرك بالله والكفر به والعمل بمعصيته.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن يعمل من صالحات الأعمال وأداء فرائض الله التي فرضها على عباده وهو مصدق بوحدانية الله ﴿فلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾ فلا يخاف ظلماً بأن يزاد في سيئاته ولا هضماً بأن ينقص من حسناته.

﴿وَكَذَلِك أنـزَلْـنَـاه قُرْآناً عَربيًّا﴾ ومثل ذلك الإنزال لآيات القرآن التي فيها الوعد الحسن لأهل الإيمان والوعيد لأهل الكفر أنزلنا القرآن كله بلسان عربي فصيح ليفهمه العرب ﴿وَصَرَّفنَا فيه مِنَ الوعيدِ﴾ وبيّنا فيه أنواع الوعيد وكررناه تخويفاً وتهديداً ﴿لَعَلَّهُم يَـتَّـقُون أو يُحْدِثُ لَهُم ذِكْراً﴾ لعلّهم يخافون الله فيجتنبوا معاصيه، أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة وعظة يعتبرون بها.

﴿فَتـعَالى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ أي تنزه وتقدس الله الملك الحق في ربوبيته وفي وعده ووعيده لخلقه ﴿ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أن يُـقْضَى إلَيْـكَ وَحْيُـهُ﴾ ولا تعجل يا محمد بالقرآن فتقرأه على الناس من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلماً﴾ هذا الدعاء الذي أمرنا الله به فيه بيان لمنزلة العلم وفضله، كما أن فيه الدعوة إلى التزود من العلم بفرعيه الديني والدنيوي، فالدين والعلم توأمان يكمل بعضهما بعضاً، والدين لا يتنافى مع العلم ولا يجافيه، لأن العلم يرقى بالإنسان، ورقيّ الإنسان من الأهداف الأساسية للدين. والعلماء أشد خشية من غيرهم لله سبحانه كما جاء في القرآن: ﴿إنما يَخْشَى اللَّهَ من عِبَادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) الوجوه: المراد بالوجه الذات الإنسانية لأن الوجه أشرف الأعضاء الظاهرة للإنسان وآثار الذل أول ما تظهر على الوجوه.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا
عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا
تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ
يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ
ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

شرح المفردات

عهدنا إلى آدم: أمرناه ووصّيناه بأن لا يأكل من الشجرة.

عزماً: تصميماً في الرأي وثباتاً في الأمور.

أبى: توقف عن الامتثال لأمر الله ولم يسجد لآدم.

لا تعرى: أي لا تعرى من الملابس.

لا تظمأ: لا تعطش.

لا تضحَى: لا يصيبك حر الشمس.

شجرة الخلد: الشجرة التي يخلد من يأكل منها.

لا يبلى: لا يفنى ولا يزول.

سوآتهما: عوراتهما من القُبُل والدُّبر، وسمّي كل منهما سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه.

طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة: جعلا يلزقان على سوآتهما ورق الشجر لسترها.

فغوى: ضل عن سبيل الرشاد.

اجتباه: اصطفاه وقرّبه إليه.

قصة آدم وغواية الشيطان له

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن آدم وغواية الشيطان له ليبين من خلال ذلك أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ أي ولقد وصينا آدم قبل هذا الزمان وأمرناه ألاّ يخالف لنا أمراً فنسي العهد وخالف أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ولم نجد له تصميم رأي ولا ثبات قدم.

وهذا العهد الذي أوصى الله آدم بحفظه، هو أن له أن يأكل من ثمرات الجنة على اختلاف أنواعها ما يشاء باستثناء شجرة واحدة، عليه أن لا يقرب منها هو وزوجه حواء، وهذا ما ذكره الله في سورة الأعراف: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

هذا هو العهد بالنسبة إلى آدم، أما بالنسبة إلى سائر الناس فكل أمر أو نهي من الله يعتبر عهداً لا يجب أن يتخطاه الإنسان، وعليه الالتزام به.

﴿وَإِذ قُلْنَا للملائِكَةِ اسْجُدوا لآدم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أَبى﴾ فسجد الملائكة إلا إبليس امتنع ورفض مشاركة الملائكة في السجود ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي قلنا لآدم إن إبليس عدو لك ولزوجك فاحذراه ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّـكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي ولا تكن طاعتكما له سبباً لإخراجكما من الجنة ﴿فتشقى﴾ فتتعب يا آدم في حياتك الدنيا في تحصيل وسائل العيش. وإنما اقتصر الخطاب على آدم هنا لأن ابتداء الخطاب في الآية كان لآدم، ولأن في شقائه شقاء زوجته.

﴿إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيهَا ولا تَعْرَى﴾ إن لك في الجنة تمتعاً بأنواع المآكل الشهية

والملابس البهية، فلا تجوع فيها ولا تصبح عرياناً من الملابس. هنا قرن الله بين الجوع والعري لأن في الجوع ذل الباطن وألمه، وفي العري ذل الظاهر وبؤسه ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى﴾ وأن لا يصيبك عطش في الجنة ولا يؤذيك حر الشمس بما نهيئه لك من المسكن الذي يؤويك. تأمل هاتين الآيتين كيف جمعتا أصول معايش الإنسان من طعام وشراب وملبس ومأوى.

ثم يبين الله وقوع آدم في حبائل الشيطان وانقياده لوساوسه:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَال: يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ الوسوسة: هي الخاطرة الرديئة والهمس الخفيّ والإغراء بالمعصية، فالشيطان أغرى آدم وقال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت ونلت الملك الدائم الذي لا يزول أبداً؟ فدلّهما على الشجرة المحرّمة ﴿فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهمَا﴾ فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس وخالفا أمر ربهما، فانكشفت لهما عوراتهما وكانت مستورة عن أعينهما ﴿وَطَفِقَا يخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّة﴾ وأقبلا يغطيان سَوْءاتِهما بورق الجنة ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وخالف آدم أمر ربه، فغوى: أي جهل موضع رشده، وتأتي بمعنى خاب أو فسد عيشه.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّـهُ فَتَابَ عَلَيْـهِ وَهَدَى﴾ ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع عن المعصية إلى ما يرضى عنه بالعمل بطاعته، وهداه للتوبة فوفقه لها.

﴿قَالَ: اهْبِطَا مِنْهَا جَميعاً﴾ أي قال الله لآدم وحواء انزلا إلى الأرض معاً ﴿بَعْضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ﴾ وستكون العداوة بين ذريتكما، وهذا مُشاهَد، فمنذ بدء الخليقة إلى الآن لا نزال نرى الصراعات بين الأمم والجماعات والأفراد، والعداوة متأصلة بين بني آدم بعضهم من بعض، إما بطغيان بعضهم لبعض، وإما بسبب الظلم والأطماع المتغلغلة في النفوس، وإما بسبب الحسد الذي ينهش قلوب الكثيرين

منهم ﴿فإمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى﴾ فإن يأتكم أيها الناس هدى من الله من جهة رُسُله إليكم ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾ أي فمن تمسّك بشريعة الله فلا يضل في الدنيا في أودية الضلال، ولا يقع في المآثم، ولا يشقى بسببها في الدنيا والآخرة بعذاب الله. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: تضمّن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألاّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ
ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ
وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ
لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

شرح المفردات

معيشة ضنكاً: عيشاً ضيقاً.

أتتك آياتنا: أتتك دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا.

أسرف: انهمك في الشهوات واسترسل فيها.

أبقى: أدوم وأثبت.

أفلم يهد لهم: أفلم يتبين لهم.

كم أهلكنا قبلهم من القرون: كثرة ما أهلكنا من الأمم التي سلفت قبلهم.

لآيات لأولي النهى: لدلائل وعِبَر لأصحاب العقول.

لكان لزاماً: لكان العذاب ملازماً لهم.

أجل مسمى: وقت معين.

إنذار للمعرضين عن هدى الله

ثم يبين الله مآل المعرضين عن هدى الله:

﴿وَمَن أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري﴾ ومن خالف أمر الله وما أنزله على رسله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ فإن له معيشة ضيقة منغصة ذات شقاء فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعمى﴾ ويجمعه الله مع من هم على شاكلته من الناس في موقف الحساب أعمى البصر وأعمى البصيرة عن وجهات الخير فلا يهتدي لشيء منها ﴿قَال: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ أي قال هذا الذي أعرض عن هدى الله: لماذا جمعتني يا رب في موقف الحساب أعمى وقد كنت بصيراً في الدنيا، فيجاب: ﴿قَالَ: كَذَلِكَ أَتتْكَ آياتُنَا فَنَسِيتها﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت، أتتك آيات القرآن واضحة جليّة فتعاميت عنها ولم تنظر إليها بعين المعتبِر بل تركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي ومثل ذلك فعلنا بك في الآخرة حيث بعثناك أعمى لتُترك منسيًا في العذاب والهوان.

﴿وَكَذَلِكَ نَجزي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بآياتِ رَبِّهِ﴾ ومثل هذا الجزاء من المعيشة الضيقة المنغصة في الدنيا والعمى يوم الحشر في الآخرة نجزي كل من جاوز الحد فأسرف في المعاصي وانهمك في الشهوات ولم يصدّق بوحدانية الله وآيات القرآن ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وعذاب الآخرة أشد ألماً وأدوم مما كان في الدنيا لأنه ليس له نهاية.

ثم ينتقل القرآن إلى إنذار الكافرين ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بمن قبلهم من الأمم من هلاك جزاء كفرهم:

﴿أفَلَمْ يهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ القُرونِ﴾ أي أفلم يتبين لقومك يا محمد كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم كقوم عاد وثمود ولوط ﴿يَمْشُونَ في مسَاكِنِهم﴾

يمرّون بمساكنهم ويرون آثار الدمار والخراب الذي أصاب تلك الأمم من جراء كفرها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ إن في ما يرون من آثار الدمار لهذه الأمم المكذبة لرسل الله لدلالات وعبراً لأصحاب العقول الراجحة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا حُكْمٌ سبق من ربك يا محمد بتأخير العذاب عن المكذبين لك من قومك إلى وقت هو يوم القيامة، لكان العذاب أثبت وأدوم لهم في الدنيا لا يفارقهم كما لازم كفار الأمم الماضية.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ
آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا
بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ
أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾
وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ
أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ
مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات

آناء الليل: ساعات الليل.

أزواجاً منهم: أصنافاً منهم.

زهرة الحياة الدنيا: زينتها وبهجتها.

لنفتنهم: لنبتليهم ونختبرهم.

والعاقبة للتقوى: والعاقبة المحمودة للذين يتقون الله باجتناب المعاصي.

بآية من ربه: بمعجزة من ربه.

الصحف الأولى: التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية.

نذل ونخزى: نذل بالعذاب ونفتضح على رؤوس الأشهاد.

متربص: منتظر لما يؤول إليه الأمر.

الصراط السوي: الطريق المستقيم.

الأمر بالصلاة وبيان أن القرآن معجزة من الله

ثم يدعو الله رسوله محمداً إلى الصبر على ما يلاقيه من الأذى: **﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يقولُونَ﴾** فاصبر يا محمد على ما يقوله هؤلاء المكذبون لك من قومك من أنك ساحر، أو مجنون، أو شاعر، ونحو ذلك من الأقوال التي يصفونك بها ظلماً **﴿وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾** والتسبيح يأتي بمعنى تنزيه الله تعالى عن السوء أو الشريك أو الزوجة أو الولد، والمعنى: نزه ربك عن الشريك وسائر ما يصفون الله جل جلاله به من النقائص حامداً له على ما خصّك به من الهدى؛ ومن الصيغ التي وردت عن النبي في تسبيح الله «سبحان الله وبحمده».

ويأتي التسبيح بمعنى الصلاة، وهو المراد به هنا، والمعنى: صلِّ لله وأنت حامد له على هدايته وتوفيقه في الأوقات التالية: **﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾** أي صلِّ صلاة الفجر **﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾** وهي صلاة العصر **﴿وَمِنْ آناءِ الليل فَسَبِّحْ﴾** ومن ساعات الليل صلِّ، والمراد بذلك صلاة العشاء وصلاة التهجد وقيل: صلاة المغرب أيضاً **﴿وأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾** أي صلاة الظهر والمغرب لأن وقت صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأول، والمغرب في آخر الطرف الثاني من النهار **﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾** رجاء أن تنال عند الله من الثواب ما ترضى به نفسك ويُسَرُّ به قلبك.

والصلاة أعظم دواء لإزالة الهموم والأحزان، ولذا كان النبي ﷺ إذا حزبه[١] أمر فزع[٢] إلى الصلاة.

﴿ولا تَمُدَّنَّ عَينيكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجاً مِنْهُم﴾ أي لا ترسل نظر عينيك بطريق الرغبة والميل والاستحسان والتمني إلى ما يتمتع به أصناف من الكافرين من ملذات الحياة الدنيا وشهواتها من الملابس والقصور والمراكب الفخمة والمآكل الشهية، وهذه هي: ﴿زَهْرَةَ الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ لأن هذا المتاع زينة الحياة الدنيا وبهجتها. شبّه القرآن نعم الدنيا بزهر النبات، والزهر له منظر حسن لكنه ما يلبث أن يذبل ويضمحلّ، وهكذا فإن متع الحياة الدنيا لا تدوم ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾ ليمتحنهم الله بهذه النعم ويختبرهم بها ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وثواب الله وما ادخره للصالحين من عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا، وهو لا ينقطع، بينما نعيم الدنيا زائل لا يدوم.

ففي هذه الآية نهي عن الافتتان بمتع الدنيا وزينتها والرغبة فيها بحيث يلهي ذلك عن عبادة الله وتكون الشاغل للإنسان، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، لأن النبي كان أزهد الناس وأبعدهم عن التطلع لشهوات الدنيا.

وقد يكون ما يرفل به الكفار من النعيم هو نوع من العذاب لهم في الدنيا كما قال سبحانه: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وأمر يا محمد أهل بيتك بالصلاة، واصبر وداوم على القيام بها والدعوة لها ﴿لا نَسأَلُكَ رِزْقاً نَحنُ نَرْزُقك﴾ لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك فنحن متكفلون برزقك ﴿وَالعَاقِبَةُ للتَّقْوَى﴾ والعاقبة

---

(١) حزبه أمر: اشتد عليه.

(٢) فزع: لجأ.

المحمودة في الدنيا والآخرة مكفولة لأهل الصلاح والتقوى.

وليس معنى هذا ترك السعي والعمل لطلب الرزق، ولقد قال الله في موضع آخر من القرآن في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ. . .﴾ [النور: ٣٧].

وفي ختام هذه السورة يردّ القرآن على بعض ما يطلبه الكفار من النبي ﷺ: ﴿**وقالوا لولا يَـأْتِينَا بآيةٍ مِنْ ربه**﴾ وقال المشركون: هلاّ يأتينا محمد بمعجزة من ربه إن كانَ صادقاً أنه رسول من عند الله؟ ﴿**أَوَلَمْ تَـأْتِهِم بيِّـنَةُ ما في الصُّحُف الأُولى**﴾ أي ألم يأتهم محمد بالقرآن المشتمل على ما في الكتب الإلّهية السابقة من أنباء الأمم الماضية وقصص الأنبياء مع أقوامهم؟ وهذه معجزة واضحة لأنه لم يتصل برجال الدين في عصره ولم يشتغل بدراسة الكتب السماوية، فقد كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

﴿**وَلَوْ أنَّا أهلكنَاهُم بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ**﴾ ولو أهلك الله هؤلاء الكافرين قبل أن يرسل الله إليهم رسولاً ﴿**لقالوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إلينا رسُولاً**﴾ لقالوا يوم القيامة: يا ربنا هلاّ كنت ارسلت إلينا رسولاً في الدنيا ﴿**فَنَـتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أن نَذِلَّ ونَخْزَى**﴾: فنتبع الآيات التي تنزلها على رسولك من قبل أن نذل بالعذاب الدنيوي ونفتضح بدخول النار في الآخرة ﴿**قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ**﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿**فتَرَبَّصُوا**﴾ أي فترقبوا وانتظروا، وهذا تهديد لهم ﴿**فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ**﴾ فستعلمون عن قريب من هو على الطريق المستقيم والدين الحق أنحن أم أنتم ﴿**وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ**﴾ وستعلمون من هو المهتدي بهدى الله ومن هو الضال.

هذه السورة نزلت بمكة في بدء الإسلام حيث كان الكفار يضطهدون المسلمين، فيها البشرى للمؤمنين بالنصر وفيها التهديد للكفار، ولم تمض بضع سنين حتى انتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية واندحر الكفر وصدق الله وعده.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
تفسير البيضاوي
تفسير القرآن العظيم لابن كثير
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي
تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي
تفسيرالقاسمي المسمى محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
تفسير الكشاف للزمخشري
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
تفسير القرآن لمحمود حمزه وحسن علوان ومحمد برانق
التعبير الفني في القرآن الكريم للدكتور بكري شيخ أمين
جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
حاشية الصاوي على تفسير الجلالين
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي
زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج الجوزي
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف
صفوة التفاسير للأستاذ محمد علي الصابوني
فتح القدير للشوكاني
القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف للشيخ محمد المدني
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـــ مصر
المفردات في غريب القرآن للأصفهاني
المعجزة الكبرى : القرآن الكريم للعلامة الشيخ محمد أبو زهرة
من روائع القرآن الكريم للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفهـرس

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

كلمة شكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة الشيخ **محمد شريف خليل سكر**

والدكتوره **هدى سنو**

والأستاذ **شفيق اللبان**

لما قدموه لي من معونة وملاحظات قيّمة

وإلى **جامعة بيروت العربية** لما قدّمته لي مكتبة كلية الآداب فيها

من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه

وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

المؤلف

تنضيد الأحرف والتركيب: **المركز العربي للمطبوعات**

هاتف: ٧٣٩٣٥٣ ـ ٧٤٣٢٥٦ ـ بيروت ـ لبنان

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في نظر الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية

روح الدين الإسلامي
باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن :

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طـه

روح القرآن الكريم

تفسير جزء

الأنبياء

وفيه سور : الأنبياء - الحج - المؤمنون

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

توزيع
دار العلم للملايين

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسرين من السلف الصالح وآراء المفسرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسطة بعيدة عن التطويل الممل والإيجاز المخل.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنة النبوية وفقه اللغة.
- يبين التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر اعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسر المجمل من الآيات بما هو مفصل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسر أجزاء القرآن مفردة أو مزدوجة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن وهذا الجزء (السابع عشر) يبتدىء بسورة الأنبياء وينتهي بسورة الحج.

ولما كنا قد فسّرنا سابقاً سورة النور في كتاب مستقل بقيت سورة المؤمنون التي هي من ضمن الجزء (الثامن عشر) بدون تفسير لذا ألحقنا تفسيرها في هذا الجزء.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم (جزء عمّ) و (جزء تبارك) إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها.

روح القرآن الكريم

تفسير

جُزْءِ الأَنْبِيَاءِ

الجزء السابع عشر مع سورة المؤمنون

بقلم
عَفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب، ١٠٨٥ - تلفون، ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤

برقيا، ملايين - تلكس، ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك .

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم :

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى

كانون الاول ١٩٩٦

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

تعريف بسورة الأنبياء

سميت هذه السورة بسورة الأنبياء لأن الله ذكر فيها طائفة من قصص الأنبياء وجهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله، وقد جاء ذكرهم في استعراض سريع يطول أحياناً في قصة إبراهيم مع قومه ودعوته لهم إلى ترك عبادة الأصنام وتحطيمه لها والحكم عليه بالإحراق ونجاته من ذلك، وقصة نوح، وقصة داود وسليمان وحكمهما في قضية الزرع، كما يأتي ذكر الأنبياء الآخرين بإيجاز وهم موسى وهارون ولوط وإسماعيل وإدريس وزكريا ويحيى وعيس وذو الكفل ويونس وأيوب عليهم السلام.

تبتدىء السورة بالحديث عن القيامة وما يكون فيها من الحساب ومجازاة الناس على أعمالهم بينما هم في غفلة عن هذا اليوم، منغمسين في الشهوات والمعاصي لا يستعدون لهذا اليوم ـ الذي يلاقون فيه ربهم ـ بالإيمان والعمل الصالح.

وتتحدث السورة عن تهجم الكفار على القرآن والطعن فيه والسخرية من نبوة محمد وتكذيبه، مع تهديد الكفار وإنذارهم بالهلاك كما حصل للأمم السابقة حين كذّبت رسل الله إليها مبينة انتصار الحق على الباطل.

وتذكر السورة البراهين والأدلة الدامغة على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة مع لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله التي أبدعت هذا الكون من سمائه وأرضه الأمر الذي يشهد بوجوده ووحدانيته وأن كل شيء بنظام دقيق فلم يخلق الله شيئاً لهواً وعبثاً، بل لغاية جليلة.

وفي السورة بيان عن عدم خلود أيّ إنسان على وجه الأرض، وأن الإنسان خلقه الله لامتحانه بصنوف الابتلاء ليظهر مدى صدقه في إيمانه وليثاب على صبره في الآخرة.

وتذكر السورة بعض أمارات يوم القيامة ومصير المؤمنين في نعيم الجنة ومصير الكافرين في عذاب النار حيث لا يجدون نصيراً يدفع عنهم العذاب.

وتختتم السورة بوعد المؤمنين الصالحين بالاستخلاف في الأرض وبيان أن رسول الله محمداً أرسله الله رحمة للناس جميعاً مع إنذار من يعرض عن هديه.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ
مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

شرح المفردات

ذِكْرٍ: الذِّكر هو القرآن.

مُحْدَثٍ: جديد في إنزاله بأعتبار الألفاظ المنزلة على محمد ﷺ.

لاهية قلوبهم: غافلة قلوبهم عن معاني القرآن.

أَسَرُّوا النجوى: بالغوا في إخفاء الكلام بينهم.

غفلة المشركين عن الآخرة

يستهل الله هذه السورة ببيان غفلة الناس عن يوم الحساب في الآخرة:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم﴾ أي اقترب للناس وقت حسابهم على أعمالهم يوم القيامة، ولكن ما المراد بهذا القرب وقد مضى زمن طويل على نزول القرآن ولم تأتِ ساعة القيامة، الجواب عن ذلك هو أن كل آتٍ قَريب، كما أن استشعار الناس بقرب يوم

الحساب يكون داعياً لتلافي الذنوب والتحرُّر منها. هذا وإن القيامة قريبة لما مضى من الزمان فما بقي من الدنيا أقل مما مضى، ومن مات فقد قامت قيامته. وبعد الموت قد تمضي ألوف سنين لا يحس بها الميت إلى أن يبعثه الله يوم القيامة حياً للحساب والمجازاة على أعماله، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ والناس في حياتهم ساهون غافلون، مُعرِضُون عن التأهُّب ليوم الحساب بالعمل الصالح والكف عن الفواحش والمنكرات.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ من ربِّهم مُحْدَثٍ إلاّ استَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لاهِيَـةً قُلُوبُهُم﴾.

الذكر: هو القرآن. ومحدث: أي جديد بألفاظه المنزلة على رسول الله محمد وقتاً بعد وقت، وآية بعد آية، وسورة بعد سورة للتذكير والموعظة. والمعنى: ما يأتي أولئك الكفار من قرآنٍ جديدٍ إنزالُه إلاّ استمعوه وهم يلعبون، لاهون عن مواعظه ساخرون منه.

هذا كان حال المشركين في عهد النبيّ ﷺ وهذا حال كثير من المسلمين اليوم، حيث أعرضوا عن التأمل في القرآن والعمل بمواعظه وأحكامه وحيث أصبح القرآن بالنسبة لهم للتبرك وتلاوته على الأموات، والتغني به بالأنغام المعهودة أو قراءته في المآذن بواسطة مكبرات الصوت ـ وهذا من غير السُّنَّـة ـ والناس لاهون عنه بتجارتهم ولعبهم وأحاديثهم، بينما أنزل الله القرآن للتأمل والتفكّر بآياته والاتعاظ بها والعمل بموجبها، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلْـنَاهُ إلَيْـكَ مُبَـارَكٌ ليدبَّروا آياتِه ولِيَـتَذكَّرَ أُولوا الألْبَاب﴾ [ص: ٢٩]. وبجانب لهو الكفار عن الاستماع إلى القرآن فهم أيضاً ﴿وأَسَرُّوا النَّجْوى الَّذِينَ ظلموا﴾ والنجوى: اسم من التناجي، والتناجي لا يكون إلا سرّاً، فمعنى إسرار النجوى هو مبالغة كفار مكة الظالمين في إخفاء تآمرهم على النبي وعلى القرآن، قائلين فيما بينهم: ﴿هَلْ هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾ أي هل محمد الذي يزعم أنه رسول من الله إليكم إلاّ بشر مثلكم لا يتميز عليكم بشيء، قالوا ذلك على سبيل التعجب والإنكار لأنهم يعتقدون أن رسول الله لا يكون إلاّ ملكاً من الملائكة وهذا جهل منهم وهروب من الواقع، فلو أرسل الله إليهم ملكاً من الملائكة لما عُلِمَ كونه نبياً لأن الملائكة لا ترى

ولما كان له تأثير على الناس ولقد اقتضت حكمة الله أن يكون رسله إلى الخلق من البشر أنفسهم فيكون سلوكهم طبقاً للشريعة التي ينزلها الله عليهم حتى يمكن الاقتداء بهم، كما أنهم يتعرضون للابتلاء بأنواع البلاء والأذى من قومهم، فيكون صبرهم وجهادهم هو لتعليم البشر كيف يتسامون فوق الآلام وكيف يصبرون على المحن.

ويتابع الكفار قولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُم تُبْصِرُونَ﴾ أي إذا كان محمد بشراً مثلكم وكان الذي جاء به سحراً فكيف تصدقون محمداً وتتبعونه وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فالعرب كانوا أرباب الفصاحة ولهم سليقة خاصة في تذوق الكلام البليغ ولقد بهرهم القرآن عندما تُلي عليهم، واستحوذ على مشاعرهم بما يحتويه من الكلام البليغ الذي يفوق كلام فصحائهم في بلاغته، فبعضهم آمن والبعض الآخر أعرض عن الإيمان تكبراً وتعنتاً فادّعوا بأن ما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن هو سحر تمويهاً على ضعفائهم ليصرفوهم عن الإيمان به ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ في السَّمَاءِ والأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي قال النبيّ لهم وقد أطلعه الله على حديثهم الذي أسروه: ربي يعلم كل ما يقال في السماء والأرض لا تخفى عليه خافية، وهو السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وهذا يتضمن الوعيد لهم.

بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا
جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ
فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ
ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

شرح المفردات

أضغاث أحلام: أخلاط أحلام رآها في منامه.
افتراه: اختلقه ونسبه إلى الله.
بآية: بمعجزة.
أهل الذِّكرِ: العلماء بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب.
ذِكْرُكم: شرفكم.

تهجم الكفار على القرآن والطعن فيه

ثم يخبرنا الله عن تخبط الكفار في ضلالهم وترددهم في وصف القرآن: ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَـأْتِنَا بآيَةٍ كما أُرْسِلَ الأَوَّلون**﴾ أي بل قالوا: إن ما جاء به من القرآن هو أخلاط منامات رآها في منامه، بل اختلق القرآن ونسبه كذباً إلى الله، بل إن محمداً هو شاعر وأن ما جاء به من القرآن هو شعر، فليأتنا بمعجزة مادية دالة على صدقه كما أُرسل الأنبياء الأولون مؤيدون بالمعجزات.

أما ادعاؤهم بأن محمداً هو شاعر فهو مغالطة منهم فقد كانوا يعلمون أن النبيّ ﷺ لم ينطق بالشعر قبل النبوة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نظم القرآن ليس شعراً لأنه لم يجر على الأوزان والقوافي والخيال التي جرى عليه الشعراء، ولم يشارك في الموضوعات التي ألفها شعراء العرب في قصائدهم. أما طلبهم معجزة من النبي كما جاءت على يد الرسل السابقين، فقد أيد الله رسوله محمداً ﷺ بالقرآن المعجز للبشر

بألفاظه ومعانيه ونظمه فقد تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة منه وهم الحريصون على إبطال دعوة النبيّ ﷺ فلما عجزوا عن معارضته دل على أن القرآن معجزة.

ثم يبيّن القرآن مدى تعنتهم وإصرارهم على الكفر:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لم تؤمن أمة من الأمم قبل كفار مكة بعد أن طلبوا من أنبيائهم المعجزات وعاهدوهم أن يؤمنوا عند مجيئها، فلما جاءتهم المعجزات نكثوا العهد، وخالفوا أنبياءهم فأهلكهم الله. أفهؤلاء الكفار من قومك يا محمد يؤمنون لو أُجيبوا إلى ما سألوا، وفي ذلك تنبيه بأن الله لو أجابهم إلى ما طلبوا من المعجزات وظلوا على كفرهم لأهلكم الله، فعدم تلبية رغباتهم إنما هو لسلامتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى الناس من الرسل إلاّ رجالاً من البشر نوحي إليهم شرائعنا **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾** أي إن كنتم في شك من كون جميع الرسل بشراً فاسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون ذلك **﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يأكلون الطَّعَامَ﴾** وما جعلنا رسلنا إلى الناس ذات أجساد تخالف أجساد البشر يعيشون بلا طعام **﴿وَمَا كانُوا خَالِدِينَ﴾** وما كانوا باقين مخلدين في الدنيا بل أدركهم الموت كما أدرك غيرهم **﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيناهُم وَمَنْ نَشَاءُ﴾** أي ثم صدقناهم في الوعد بالغلبة على أعدائهم فأنجيناهم وأنجينا معهم من أردنا نجاتهم من المؤمنين **﴿وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ﴾** أي المجاوزين الحدود في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنْـزَلْنَا إِلَيْـكُم كِتَاباً﴾ أي ولقد أنزلنا إليكم القرآن **﴿فيه ذِكْرُكُمْ﴾** ومعنى الذكر: الشرف، أي فيه شرف لكم. ووصف الله القرآن في آية أخرى **﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾** أي وإن القرآن لشرف لك يا محمد ولقومك **﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** أفلا تتدبرون ما فيه من المواعظ والأحكام فتؤمنوا به وتعملوا بهديه.

هذه الآية من الأنباء الغيبية، فالقرآن كان سبباً لشرف العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فلم يكن لهم من قبله ذِكْرٌ ولا مكانة بين الأمم، ولم يكن لهم قبل القرآن ما يقدمونه للإنسانية من فضائل ومثل عليا، بل كانوا في حالة من الفوضى والظلم

الاجتماعي والتناحر لأوهى الأسباب ولكن بعد نزول القرآن والعمل بأحكامه والسير على هديه تبدلت حالة العرب فتوحدت قلوبهم وصلحت أحوالهم وشاع العدل في مجتمعهم فأصبحوا أمة موحدة ثم لم يلبثوا أن بسطوا سلطانهم على الأمم المجاورة لهم ونشروا فيها هدي القرآن فسعدوا جميعاً بما فيه من دعوة إلى الحق والخير والإحسان. وإن الإنسانية جمعاء لم تعرف حضارة العرب إلاّ من خلال شريعتهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمدة من ذلك الكتاب العظيم.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ
أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ
بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

شرح المفردات

كم قصمنا: كثيراً ما أهلكنا
بأسنا: عذابنا.
حصيداً: هلكى كالنبات المحصود بالمناجل.
خامدين: ميتين كالنار التي سكن لهبها.
من لدنا: من عندنا.
فيدمغه: يذهبه ويهلكه.
زاهق: هالك وزائل.
يستحسرون: لا يكلون ولا يتعبون.
لا يفترون: لا يضعفون.

إهلاك القرى الظالمة

وبعد أن بين الله اعتراضات المشركين على نبوة محمد حذرهم من العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم إذا استمروا على كفرهم.

﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَـةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كم: هي الخبرية التي تفيد الكثرة. والقرية المراد بها أهلها إذ لا توصف القرية بالظلم. والمعنى: وكثيراً ما أهلكنا من أهل قرية كانت ظالمة. والقصم في اللغة كسر الشيء حتى تنفصل أجزاؤه، وفي هذا اللفظ دلالة على قوة الغضب وشدة السخط من الله ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ وأوجدنا بعد إهلاكهم قوماً آخرين مكانهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بأْسَنَا﴾ فلما عاينوا عذابنا وأحسوا به ﴿إذا هُمْ منها يَرْكُضُونَ﴾ والضمير في منها يعود إلى القرية. والركض في اللغة: الهرب والفرار، يقال: رَكَضَ الدَّابَّةَ: أي ضرب جنبيها برجليه لتسرع في عدْوها، والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يحثونها في الإسراع هاربين منهزمين ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه وَمَسَاكِنِـكُمْ﴾ أي تقول لهم الملائكة على سبيل التهكم والاستهزاء: لا تهربوا من العذاب الذي نزل بكم، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من الرفاهية والبطر بالنعمة، وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تتنعمون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ لعل أحداً يسألكم عما نزل بكم من العقوبة فتخبروا به ﴿قالوا: يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا إنا كنا ظالمين بالشرك بالله وتكذيبنا لرسله، وهذا الاعتراف ينبيء عن ندمهم حين لا ينفع الندم ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُم﴾ فما زالت دعوتهم على أنفسهم بالهلاك يرددونها خلاصاً من العذاب الأليم الذي نزل بهم ﴿حتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ شبه الله استئصالهم وإهلاكهم بحصيد الزرع الذي انعدمت فيه قابلية النمو والحياة وضربه الجفاف. وشبه موتهم بخمود النار التي اطفئت وانعدم تأثيرها.

وبعد أن بين القرآن إهلاك أهل القرى لأجل تكذيبهم أنبيائهم أتبع ذلك بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا وأن أفعال الله قائمة على الحكمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبينَ﴾ أي وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما من عناصر ومخلوقات بهذا النظام المحكم والصنع البديع عبثاً وباطلاً للَّعب بل جعلناها قائمة على قواعد الحكمة والغايات الجليلة **﴿لَوْ أَرَدْنَا أن نَـتَّخِذَ لهواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** اللهو: هو الترويح عن النفس بما تتشاغل به عن الجد، أي لو أردنا اتخاذ اللهو لكان ذلك من جهة إرادتنا وما تحت مُلكنا ولكن ذلك مستحيل استحالة ذاتية منا ومنافٍ للحكمة فلم نفعله. وفُسِّر اللهو هنا بالمرأة والولد.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ على البَاطِلِ فَيَدْمَغُه فَإذَا هُوَ زاهِقٌ﴾ بل أمرنا الذي يليق بنا أن نورد الحق بشدة على الباطل فيدحضه ويُذهبه فإذا هو زائل وهالك.

وفي الآية استعارة تشهد ببلاغة القرآن. فالقذف الذي هو الرمي الشديد بجرم صلب استعير ليصور القوة التي يهبط بها الحق على الباطل، واستعير الدمغ للقضاء على الباطل. والدمغ هو كسر الشيء الرخو وإصابة الدماغ بالضرب حيث يشق غشاءه المؤدي إلى إزهاق الروح **﴿فإذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** فإذا هو زائل وهالك. ثم عقب الله على ذلك قوله: **﴿وَلَـكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾** ولكم يا معشر الكفار العذاب والهلاك من وصفكم ربكم بغير صفته وافترائكم بأنه اتخذ زوجة وولداً.

﴿وَلَـهُ مَنْ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ ولله سبحانه جميع من في السموات والأرض من المخلوقات مُلْكاً وخلْقاً وتصرفاً **﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَـكْبِرُون عَنْ عِبَادَتِـهِ﴾** ومن عنده من الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله ـ تنزه عن ذلك ـ لا يستكبرون عن عبادته والخضوع له **﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾** ولا يكلون ولا يتعبون **﴿يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يَـفْتُرُونَ﴾** ينزهون الله عن النقص ويمجدونه ليل نهار لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون، ويأتي التسبيح بمعنى الصلاة أي يصلّون للّه الليل والنهار.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ
يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن
قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ
ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ
فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ۞

شرح المفردات:

ينشرون: يحيون الموتى.

هذا ذكر من معي: أي هذا القرآن عظة لأمتي.

وذكر من قبلي: والكتب السماوية المنزلة على الأمم قبلي عظة لهم.

مكرمون: مقرّبون عند الله.

مشفقون: خائفون.

تقرير وحدانية الله

ثم تأتي الآيات في بيان وحدانية الله ونفي الشركاء عنه:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، لا ليس الأمر كذلك فقد اتخذوا آلهة من الأصنام لا تتصف بالقدرة على شيء، بل الله وحده هو الذي يحيي ويميت وهو وحده المستحق للعبادة.

ويتابع القرآن فيقدم دليلاً في نهاية الروعة على وحدانية الله: ﴿لَوْ كَانَ فيهما آلِهَةٌ إلاَّ الله لَـفَسَدَتَـا﴾ أي لو كان يتولى أمر السماوات والأرض آلهة شتى ـ كما زعم المشركون ـ غير الله الواحد الأحد الذي هو خالقهما لفسدتا.

فلو تعددت الآلهة لاختلفت أفعالهم باختلاف علومهم وإرادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ويكون لكل إلّه التصرف في المخلوقات على حسب علمه وإرادته، فتتضارب أفعال الآلهة حسب التضارب في علومهم وإرادتهم فيفسد نظام الكون، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة فدل على أن للكون إلّهاً واحداً لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

«إن هذا النظام المحكم المستمر، والاتساق البديع الدائم، والارتباط بين أجزاء العالم العُلويّ والسُّفليّ، والآثار الكونية المترتبة على ذلك ـ لا يمكن أن يصدر إلاّ عن صانع قادر، حكيم مدبِّر، منفرد بالإيجاد والإبداع والتدبير، لا شريك له في فعله، ولا مُعقِّب لحكمه، ولا رادّ لأمره. إذ إن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم في الأفعال، والتصادم في الإرادات، فيختل النظام، ويضطرب الأمر، ويخْرب العالَم. ولما كان المشاهد غير ذلك، دلَّ على وحدة الإله المتصرِّف المدبِّر القدير»[1]. ﴿فسُبْحَانَ الله رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فتنزيهاً لله وتبرئة له من أن يكون له شريك في الملك أو يكون له ولد كما يصفه بذلك الجاهلون فهو رب العرش العظيم المحيط بالكون. ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي لا يسأل أحد الله عما يفعل فهو الحاكم الذي لا يعترض على حكمه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه، وإنما يسأل الله الناس عن أفعالهم كما جاء في القرآن ﴿فَوَرَبِّك لَنَسْأَلَنَّهم أجمعين عمَّا كانوا يَعْمَلُون﴾ [الحِجر: ٩٢] ويعقب الزمخشري في تفسيره على ذلك بقوله: إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم أحد عن أفعالهم... تهيباً وإجلالاً مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم

(١) عن تفسير صفوة البيان لمعاني القران للشيخ حسنين مخلوف.

أوْلى بأن لا يُسئل عن أفعاله، مع ما عُلِم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ولا يجوز عليه الخطأ. . .

ويتابع القرآن الكلام عن المشركين: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ كرَّر هذا الإنكار على المشركين باتخاذهم آلهة من غير الله مبالغة في توبيخهم واستعظاماً لكفرهم حيث اتخذوا الأصنام آلهة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾ قل لهم يا محمد ائتوني بالبرهان والدليل على وجود آلهة غير الله. ﴿هَذا ذِكْرُ مَنْ مَعِي﴾ أي هذا الذي جئتكم به من عند الله هو عظة لأمتي ﴿وَذِكْرُ مَنْ قبلي﴾ والكتب السماوية المنزلة على الأمم قبلي هي عظة لهم ليس في واحد منها أن مع الله إلهاً آخر وإنما فيها الدعوة إلى وحدانية الله. وقد يكون المعنى: هذا القرآن عظة للذين معي من قومي وعظة لأمم الأنبياء قبلي ﴿بل أكثرُهُم لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي أن أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل فهم مستمرون على الإعراض عن توحيد الله واتباع النبيّ ﷺ.

ويذكر القرآن أن رسل الله جميعاً دعوا إلى وحدانية الله وعبادته وحده:

﴿وَمَا أَرْسلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لا إِلَه إلاَّ أَنا فاعْبُدُونِ﴾ أي وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلاّ نوحي إليه أن لا معبود في السماوات والأرض تصلح له العبادة سواي فأخلصوا لي العبادة.

﴿وَقَالُوا اتَّخذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَـهُ﴾ وقالت طائفة من العرب: الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ بل الملائكة والرسل عباد الله مكرمون بتكريمه لهم ومقربون عنده ﴿لا يَسْبِقُونَـهُ بالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً إلاّ بما يقوله لهم ولا يسبق قولهم قوله ﴿وَهُمْ بأمره يعملون﴾ وهم يعملون بما يأمرهم به من الطاعات ولا يخالفونه فيما يأمرهم به ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهم وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم ما بين أيدي ملائكته ما هم فيه قائلون وعاملون، ويعلم من أعمالهم ما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ولا يقومون بالشفاعة إلا لمن علموا أن الله راض عنه ويأذن لهم بالشفاعة له ويقبل شفاعتهم

فيه ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ والخشية هي الخوف مع التعظيم، والإشفاق هو الخوف مع الحذر، أي هم خائفون حذرون من أن يعملوا عملاً فيه إغضاب لربهم ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنهُم إِنِّي إِلَه مِنْ دُونِهِ﴾ ومن يقل من الملائكة أو من الأنبياء إني إلَه يُعبد من غير الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزيه جَهَنَّم﴾ فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمينَ﴾ وهكذا يجزي الله كل من ظلم نفسه فكفر بالله وعبد غيره.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

شرح المفردات

كانتا رَتْقاً: كانتا ملتصقتين.

ففتقناهما: ففصلناهما.

رواسي: جبالاً ثوابت.

أن تميد بهم: لئلا تتحرك بهم.

فجاجاً سبلا: طرقاً واسعة مسلوكة.

سقفاً محفوظاً: سقفاً للأرض مصوناً من الوقوع والتغير.

وهم عن آياتها: وهم عن علاماتها الدالة على وجود الله ووحدانيته.

معرضون: لا يتفكرون فيها.

يَسْبَحُونَ: يسيرون ويدورون في أفلاكهم.

من مظاهر ربوبية الله في الكون

ثم يعرض القرآن بعض مظاهر ربوبية الله للكون:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّموات وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي ألم يتفكر

الذين كفروا ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة ففصلنا بعضها عن بعض ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شيء حَيّ﴾ وخلقنا من الماء كل مخلوق حيّ ﴿أفلا يُؤْمِنُونَ﴾ أفلا يُصدقون بعد هذه الحقائق بأنه لا إلَه إلاّ الله.

وهنا وقفة قصيرة حيث يقول الله تعالى بأن الأرض والسماوات ﴿كَانَتَا رَتْقاً﴾ والرتق الضم والالتحام، أي كانتا شيئاً واحداً. وهذا ما ما اعترف به العلم وهناك عدة نظريات في ذلك منها: أن جميع أجرام السماء ومحتوياتها بما فيها المجموعة الشمسية والأرض كانت مكدسة تكديساً شديداً في كتلة واحدة، ثم حدث انفجار هائل ناثراً أجزاء هذه المادة في الفضاء في جميع الجهات انتهت بتكوين مختلف أجرام السماء بما فيها المجموعة الشمسية والأرض وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَاهُما﴾ أي ففصلناهما.

ومما يؤيد هذا فقد اكتشف حتى الآن أن في الشمس ٦٧ عنصراً من عناصر الأرض البالغة نحواً من ٩٢ عنصراً، وسيزيد المستدل عليه من العناصر في الشمس إذا ما ذللت الصعوبات في هذا الشأن، والشمس نجم كسائر نجوم السماء، ومن النجوم والمذنبات والكواكب ـ ومن ضمنها كوكبنا الأرض ـ يتألف الكون. هذا وقد لاحظ العلماء حديثاً أن النيازك والأتربة القمرية التي حصل عليها العلماء من الفضاء الخارجي تحتوي من العناصر ما هو شائع في الأرض.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حيّ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية أدهشت العلماء. فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية، والخلية كما هو معروف عنها: هي وحدة البناء في كل كائن حي على وجه الأرض حيواناً كان أو نباتاً، كما أثبت علم الكيمياء إن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الكائنات الحيوانية ونحوها بما فيها الإنسان طبعاً، كما أن الماء هو العنصر الأساسي لنمو النبات والنبات مصدر حياة الإنسان.

والماء يغطي نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض ويبقى سائلاً فترة طويلة من الزمن،

وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض على معدّل ثابت ويصونها من التقلبات العنيفة ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الحياة على الأرض إلى حد كبير.

فهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القرآن وحي إلّهي وعلى صدق نبوة محمد، فالقرآن ابتدأ بعرض هذه الحقائق عن وحدة الكون وسرّ الماء بمخاطبة الذين يكفرون بوجود الله بهذه الدلائل العلمية الدامغة التي تدل على وجوده والتي لم يدرك العرب في الماضي أسرارها بل أدركها العلم اليوم بعد جهود استغرقت أجيالاً في مجالات هذا الكون وهذا ما هدفت إليه هذه الآية القرآنية حينما خُتمت بهذا القول ﴿**أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ أي ألا يكفي ذلك دليلاً للإيمان برب العالمين.

﴿**وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**﴾ أي وخلقنا في الأرض جبالاً لإرساء الأرض بها وتثبيتها لئلا تضطرب بالناس وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها.

فالله سبحانه جعل الجبال رواسي: أي ذات جذور ممتدة في داخل القشرة الأرضية، وقد تبين أن عمق الجذور يفوق ارتفاع الجبال أربع مرات ونصف المرة فهي كأنها أوتاد، وهذا ما ذكره القرآن ﴿**والجِبَال أوتاداً**﴾. كما جعل كثافة هذه الارتفاعات والجذور أقلّ من كثافة القشرة الأرضية المحيطة بها كل ذلك حتى يتوزع الضغط على القشرة الأرضية العميقة. بحيث يكون مساوياً في جميع أنحائها فلا تميد أو تتصدع. وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها لمِمَّا يحقق الوضع الذي عليه الأرض ويحفظ توازن الكرة الأرضية. ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ**﴾ أي وخلقنا في الأرض بين الجبال طرقاً واسعة يسلكها الناس ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم وأمورهم المعيشية.

﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً**﴾ أي وخلقنا السماء فوق الأرض كالسقف المرفوع وحفظناها من أن تقع أو أن يقع ما فيها عليهم.

والسماء هي كل ما علانا تبدأ بالغلاف الهوائي الذي يحمي أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء مثل الشهب والنيازك. كما أن الهواء يشكل حاجزاً حول الأرض يمنع

كميات كبيرة من أشعة الشمس من الوصول إلى الأرض وإحراق كل شيء عليها، وفوق الغلاف الهوائي أجرام السماء على أبعاد مختلفة تحتفظ بنظام دوراتها وكيانها وعدم ارتطامها بالكرة الأرضية بقانون الجاذبية. هذا النظام البديع الذي وصف فيه القرآن السماء ﴿سقفاً محفوظاً﴾ يشهد بوجود الله ووحدانيته وقدرته العظيمة ﴿وَهُمْ عَن آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وهم منصرفون عن النظر والاعتبار بما فيها من الدلائل والعبر الدالة على قدرتنا وحكمتنا ورحمتنا.

ويتابع القرآن فيلفت الأنظار إلى بعض الظواهر الطبيعية التي تشهد بعظيم قدرة الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّـهَارَ وَالشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي وهو الله سبحانه خلق الليل والنهار والشمس والقمر وكل ذلك يجري في مجاله الذي قدّره الله ويَسْبَحُ في فلكه فلا يحيد عنه.

والليل والنهار يحصلان من دوران الأرض حول محورها مرة كل ٢٤ ساعة. كما تدور الأرض أيضاً حول الشمس في مدار مستغرقة سنة كاملة مسببة الفصول الأربعة.

والشمس تدور حول مركز مجموعتنا النجمية في الفضاء وهي تسير بسرعة ٢١٦ كيلومتراً في الثانية. والقمر كالأرض يدور حول محوره كما يدور في مداره حول الأرض وتستغرق دورته الكاملة حول الأرض نحو ٢٩ يوماً ونصف اليوم. فسبحان الذي كشف أسرار الخلق قبل أن يتوصل العلم إلى كشفه بمئات السنين.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم
بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى
فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾
لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

شرح المفردات

الخلد: البقاء في الدنيا.
ونبلوكم: نختبركم.
فتنة: ابتلاء وامتحاناً.
هزواً: سخرية.
سأوريكم آياتي: سأريكم عقابي.
لا يكفون: لا يدفعون.
فتبهتهم: تحيرهم وتدهشم.
يُنظرون: يمهلون لتوبة أو معذرة.

اختبار الإنسان وعاقبة الكفر

وبعد أن ذكر القرآن الأدلة على وجود الخالق بيّن أن مصير الناس إلى زوال في الدنيا وأنهم خُلقوا للابتلاء امتحاناً من الله لهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإن مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾ أي وما جعل الله لبشر

من قبلك يا محمد دوام البقاء في الدنيا أفإن مت يا محمد أفهم الخالدون في الدنيا لا يموتون.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموتِ﴾ هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة، فالموت هو نهاية رحلة العمر لكل إنسان والتي تتفاوت في الطول والقصر بين حي وآخر ﴿وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخير فِتْنَةً﴾ أي وما يصيب الإنسان في رحلة العمر من شرٍ أو خير فهو اختبار له وامتحان ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ومصير الناس بعد مماتهم إلى الله حيث يجازيهم الله على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخيرِ فِتْنَةً﴾ فمسألة الابتلاء ردّدها القرآن في كثير من الآيات مبيناً أن الإنسان خلق على هذه الأرض لهذا الغرض ليتبين جوهر صدقه ومبلغ إيمانه وطاعته لربه، جاء في القرآن: ﴿الذي خَلَقَ الموتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

فاختبار الله للإنسان بالشر كالفقر والمرض والمصائب والآلام وسائر الشدائد هو ليظهر مدى احتماله وصبره ومبلغ ثقته ورجائه في رحمة ربه.

أما اختبار الله للإنسان بالخير فهو أصعب لأن مغرياته كثيرةٌ كالمال والجاه والسلطة وهي قد تؤدي بالإنسان إلى الكبرياء والبخل والظلم والإعراض عن ذِكْرِ الله وعبادته.

فاختبار الله للإنسان بالمال هو ليظهر شكره على نعم الله عليه فينفق على المعوزين من عباد الله وفي وجوه الخير، لا أن يهدر أمواله على الشهوات والترف والمعاصي وبناء القصور للعبث والتباهي بها، ولا أن يكدس أمواله في الخزائن والبنوك، فلا يجعلها في صالح المجتمع وخيره كما هو المشاهد عند كثير من الأغنياء الذين أبطرتهم النعمة، فابتعدوا عن الله وحُرِموا من رحمته.

وبعد ذِكْرِ ابتلاء الإنسان بالخير والشر تأتي الآيات مواسية لرسول الله محمد ﷺ

بسبب ما يلاقيه من سخرية من قومه: ﴿وإذا رآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إن يتَّخذونك إلا هُزُواً﴾ إن بمعنى ما. والمعنى: وإذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلاَّ سخرية ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ ويقولون استنكاراً وتعجباً: أهذا الذي يعيب آلهتكم ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم بذكر الله وما يجب أن يُذكر به من وحدانيته ونعمه التي أفاضها عليهم هم منكرون. فهم أحق أن يهزأ بهم لأنهم عبدوا أصناماً لا تنفع ولا تضر.

﴿خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي إن جنس الإنسان خلق ومن طبيعته العجلة والتسرع في كافة أموره ومتطلباته وتحدياته، ومن ذلك ما تحدى الكفار به النبي ﷺ بأن يأتيهم بالعذاب الذي أوعدهم به، فيكون جواب الله لهم: ﴿سَأُورِيكُمْ آياتي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ سأريكم نقماتي عليكم بالهلاك المعجّل في الدنيا والعذاب في الآخرة فلا تستعجلون بحلول العذاب فيكم فإنه سيأتيكم لا محالة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول هؤلاء الكفار على سبيل الاستهزاء والإنكار للنبي وللمؤمنين متى حدوث هذا العذاب الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين في ما أخبرتمونا به ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِين كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم حين يدخلون جهنم وتحيط بهم نيرانها من كل الجهات فلا يستطيعون دفعها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ولا يجدون من ينصرهم بدفع النار عنهم. وجواب ﴿لو﴾ في صدر الآية محذوف تقديره: أي لو يعلم الكفار فداحة العذاب الذي سيصيبهم في جهنم لما كانوا على تلك الصفة من الكفر والاستعجال لعذاب الله ﴿بَل تَأْتِيهم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ ولا تأتيهم القيامة على انتظار وتوقع، بل تأتيهم فجأة فتحيرهم وتدهشهم ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها ولا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا يقدرون على صرفها عنهم، ولا هم يمهلون لتوبة أو اعتذار لفوات الوقت.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن
ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ
ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا
حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

شرح المفردات

فحاق: فنزل أو أحاط.

يكلؤكم: يحفظكم ويحرسكم.

يُصحبون: يجارون ويمنعون.

نفحة: نصيب يسير.

القسط: العدل.

مواساة النبيّ ﷺ وإنذار الكفار

ثم تأتي الآيات تواسي الرسول محمداً بما كان يلاقيه من قومه من استهزاء وسخرية: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ولك يا محمد قدوة فيما جرى لرسل الله قبلك حين استهزىء قومهم بهم ﴿فَحَاقَ بالّذين سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فنزل بهؤلاء المستهزئين برسل الله العذابُ جزاءَ استهزائهم بهم، وهؤلاء المستهزئون بك يا محمد سينالون عذاب الله كما جرى لأسلافهم.

﴿قُلْ مَنْ يكلؤكُم بالليل والنَّهارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين: من يحفظكم بالليل والنهار من عذاب الله إن نزل بكم. وفي صفة (الرحمن) لله سبحانه تنبيه على أنه لا حفظ لهم من الله إلاّ برحمته ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِم مُعْرِضُونَ﴾ بل هم عن القرآن، أو مواعظ ربهم لاهون غافلون لا يتفكرون فيها ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُوننا﴾ استفهام لإنكار أن يكون لهم آلهة. أي ألهم آلهة تمنعهم من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليهم واثقون بحفظها لهم ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْر أَنْفُسِهِم﴾ وهذه الآلهة التي يعولون عليها لا تستطيع أن تنصر نفسها فكيف تنصر غيرها ﴿وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ولا هم من الله يحفظون وينقذون.

ثم يبين الله تفضله على هؤلاء الكفار: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وآباءَهُم حتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ بل متعنا هؤلاء وآباءهم بالحياة الدنيا وأمهلناهم فلم نعاقبهم على كفرهم حتى طالت أعمارهم فاغتروا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون مستمرون على ذلك لا يغلبهم غالب.

﴿أَفَلاَ يَـرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أفلا يرى هؤلاء الكفار آثار قدرتنا في إتيان أرض الكفر ننقصها باستيلاء المؤمنين عليها فيفتحونها بلداً بعد بلد. فمعنى نقص أطرافها دخول المسلمين فيها واتساع رقعة الإسلام، وهذا ما كان قبل فتح مكة فقد استولى المسلمون على كثير من البلاد حول المدينة المنورة التي كانت معقل الإسلام ﴿أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ استفهام للإنكار والتقريع، أي كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرض الكفر من أطرافها.

هذا ما ذهب إليه المفسرون القدامى. والمعجز في تعابير القرآن أنها لا تصادم النظريات الثابتة التي توصل إليها العلم فالقرآن يفسر في كل عصر بما يفهمه أهله. وقد فهم العلماء المُحْدَثُون من هذه الآية عن الأرض ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما طالعتنا به

النظرية العلمية التي تقول بأن الأرض ليست كاملة الاستدارة إذ أنها مسطحة عند القطبين ومنتفخة بعض الشيء عند خط الاستواء وأن نصف القطر الاستوائي يزيد على نصف القطر القطبي بمقدار ٢١,٥ كيلومتراً تقريباً، أي إن الأرض قد نقصت من أطرافها الممثلة في القطبين الشمالي والجنوبي، فتأمل إعجاز القرآن.

﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُم بالْوَحْيِ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أحذركم ولا أُخوّفكم بكلام من عندي وإنما أخوفكم وأحذركم بالقرآن الذي هو كلام ربكم **﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾** ولكنكم أيها الكافرون لشدة جهلكم وعنادكم كالصم الذين فقدوا حاسة السمع. ولا يسمع من بهم صمم الوعظ والإنذار حين يُخَوَّفون بعذاب الله. إذ ليس الغرض بالإنذار السماع بل الاتعاظ به فإذا لم يحصل هذا الغرض صار المستمع كأنه لم يسمع **﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾** ولئن أصابهم شيء قليل من عذاب الله أو طرف منه **﴿لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** أي يقولون: يا هلاكنا إن كنا ظالمين في عبادتنا للأصنام وتركنا عبادة الله الذي خلقنا.

﴿وَنَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي ونضع الموازين العادلة التي توزن بها أعمال الإنسان يوم القيامة، فمن ثقلت حسناته على سيئاته فهو في عيشة راضية ومن خفت حسناته وثقلت سيئاته فهو في عذاب الله **﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيئاً﴾** أي لا ينقص من إحسان محسن، ولا يزاد في إساءة مسيء **﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾** أي وإن كان العمل الذي عمله الإنسان زنة حبة من خردل أحصيناه وجازيناه به. **﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** وكفى بربك أن يكون حاسباً لأعمال الناس فلا يظلمون شيئاً مما عملوه.

وهنا نقف عند قوله تعالى: **﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾** لنتساءل لماذا اختار القرآن حبة الخردل في الثقل من بين حبوب النبات الأخرى، هنا إعجاز للقرآن ظهرت أسرار ذلك فيما يلي: فقد أثبتت التجارب العلمية أن الكيلوغرام من حبوب الخردل يحتوي على ٩١٢ ألف حبة، وهذه أصغر وزن لحبة نبات عرفت حتى الآن.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ
أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ
عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

شرح المفردات

الفرقان: التوراة التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.

مشفقون: خائفون.

وهذا ذكر: أي القرآن تذكير وعظة.

رشده: اهتداءه لوجوه الخير والصلاح.

التماثيل: الأصنام المصنوعة من الخشب وغيره.

عاكفون: مقيمون على عبادتها.

فطرهن: خلقهن.

موسى وهارون وإبراهيم عليهم السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن بعض أنبياء الله الذين أرسلهم سبحانه هداة للبشر:

﴿ولَقَدْ آتينا مُوسَى وهَارونَ الفُرْقَان﴾ والمراد بالفرقان: التوراة، وسميت بذلك لأنها تفرق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام **﴿وَضِياءً وذِكْراً للمُتَّقِينَ﴾** وهذه التوراة كانت تضيء لليهود أمرَ دينهم وتوصلهم إلى طرق الهدى وسبل النجاة. وهي أيضاً تذكير وموعظة لمن اتقى الله بطاعته وأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وخص الله المتقين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بهدي الله **﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب﴾**

وهؤلاء المتقون يخافون ربهم في خلواتهم إذا غابوا عن الناس، أو بمعنى: يخافون ربهم دون أن يروه ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وهم من عذاب يوم القيامة وأهوالها خائفون ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي وهذا القرآن الكريم تذكير وعظة، كما أنه مبارك أي كثير الخير والنفع أنزله الله على رسوله محمد كما أنزل التوراة على موسى ﴿أَفَأَنْتُم لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ في هذا الاستفهام الإنكاري توبيخ لهم بأنه لا ينبغي إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه وعدم استطاعة أحد أن يأتي بمثله.

وبعد ذِكْرِ التوراة والإنجيل يقول سبحانه في شأن إبراهيم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي ولقد أعطينا إبراهيم هداه وما فيه صلاحه في الدين والدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمينَ﴾ وكنا عالمين بأحواله وفضائله التي تؤهله للنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لأَبيهِ وقَوْمِهِ مَا هذِهِ التَّماثيلُ التي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ واذكر يا محمد ما قال إبراهيم لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم مقيمون على عبادتها. استفهام فيه تحقير لأوثانهم وتوبيخ لهم بسبب إقبالهم على عبادتها، وتنبيه أذهانهم إلى التأمل في شأنها حيث إنها لا تنفع ولا تضر. وإبراهيم لم يقل إنها آلهة وإنما سمى تلك الأحجار والخشب باسمها حيث قال: ﴿ما هذه التماثيل﴾. فكان جوابهم: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدينَ﴾ هذه هي حجتهم الواهية في عبادتهم للأوثان وهي أنهم مقلدون لآبائهم فحسب. فيقول لهم إبراهيم منكراً لهم سلوكهم: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي أنتم وآباؤكم في ضلال ظاهر لا يخفى على أحد من العقلاء. فالتقليد الأعمى للآباء بدون إمعان فكر هو آفة المجتمعات البشرية فيَ كل العصور لأنه يقف حاجزاً بينها وبين الرضوخ للحق وإصلاح ما هي عليه من خطأ، ويحول بينها وبين التطور نحو الأحسن.

فإبراهيم عليه السلام بنص القرآن هو أول من جاهر بالثورة على التقاليد البالية ودعا إلى التحاكم إلى العقل في شأن عبادة قومه للأوثان.

ولما سمع القوم تسفيه إبراهيم لعقائدهم ووصفه إياهم بالضلال أجابوه: ﴿قَالُوا: أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبينَ﴾ أي أجئتنا في هذا الذي تقوله بما تعتقد أنه الحق أم أنت بهذا الكلام من الذين يلهون ويلعبون؟ سؤالهم هذا ينم عن عدم اليقين في عبادتهم للأوثان.

ولكن إبراهيم يجيبهم جواب المتيقن بعقيدته التي لا يعتريها شك: ﴿قَالَ: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الذي فَطَرَهُنَّ وَأَنا عَلَى ذَلِكُم مِنَ الشَّاهِدينَ﴾ فالإله المعبود بحق هو رب واحد، ربُّ السموات والأرض الذي خلقهن، لا لعبادة الأوثان التي لا تخلق شيئاً. ثم أردف إبراهيم قوله: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِنَ الشاهِدِينَ﴾ وهو مبالغة منه في التأكيد على عقيدته، فإبراهيم لم يشهد خلق السماوات والأرض، ولكن الأمر عنده من الوضوح واليقين على ذلك بما لا يعتريه شك.

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ
أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

شرح المفردات

لأكيدن: لأجتهدن في كسرها، والكيد في اللغة الاحتيال في الإضرار.

جذاذاً: قطعاً أو فتاتاً.

نكسوا على رؤوسهم: رجعوا إلى كفرهم وعنادهم.

افٌ لكم: كلمة تضجُّر وتبرم وكراهية.

تحطيم إبراهيم للأصنام

ثم يعلن إبراهيم لمن حوله أمراً قد قرر تنفيذه في شأن أصنام قومه: ﴿**وَتَالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَنْ تُولُّوا مُدْبِرِينَ**﴾ أي والله لاحتالن في إيصال الضرر لأصنامكم بعد أن ترجعوا من عبادتها مبتعدين عنها. فسمعه رجل منهم فأفشاه إلى غيره، وكان قوم إبراهيم قد ذهبوا إلى الاحتفال بعيد لهم وتخلف إبراهيم عن الحضور بداعي السقم. ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إلاَّ كَبيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ**﴾ أي كسَّر الأصنام قطعاً إلاَّ الصنم

الكبير[١] فإنه لم يكسره وتركه على حاله لعلهم يرجعون إليه فيسألونه عمن كسّر الأصنام فيتبين لهم عجزه عن النطق فضلاً عن حماية الأصنام الأخرى، فتقوم الحجة عندئذ عليهم بأن آلهتهم وهي الأصنام التي يخصونها بالعبادة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تدافع عن الغير.

وتحطيم إبراهيم للأصنام إنما كان لإقامة الدليل الحسي على قومه في بطلان عبادة الأصنام، إذ لو كانت آلهة حقيقية كما يعتقدون لدافعت عن نفسها، وألحقت الضرر بمن أرادها بسوء.

رجع قوم إبراهيم بعد أن احتفلوا بعيدهم وعرّجوا على أصنامهم فرأوا ما حلّ بها من تحطيم فراعهم ذلك وتساءلوا ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من فعل هذا التحطيم بآلهتنا لشديد الظلم حيث تجرأ على إهانتها ﴿قَالوا سَمِعْنَا فتى يَذْكُرُهم يُقال لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال بعض منهم ممن سمع تهديد إبراهيم لآلهتهم: سمعنا شاباً يعيبهم ويهدد بالنيل منهم يسمى إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي فأتوا بإبراهيم على مشهد من الناس ﴿لَعَلَّهُم يَشْهَدُونَ﴾ لعلهم يشهدون محاكمته وتنفيذ العقوبة به ﴿قَالوا: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بآلِهتِنا يَا إبراهيمُ﴾ قالوا لإبراهيم: أأنت حطمت هذه الأصنام؟

ويشعر إبراهيم بأن الفرصة قد سنحت له ليبلغ مأربه، وليصل إلى الحقيقة التي أراد أن يقروا بها، فبأسلوب حكيم يجيبهم عن سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَه كبيرُهُمْ هَذَا﴾ وأن الشاهد على فعله هو بقية الأصنام ﴿فَاسْأَلوهُمْ إنْ كَانُوا

---

(١) يفهم من قوله تعالى: ﴿إلاَّ كَبيراً لَهُم﴾ أنه كان لقوم إبراهيم إلّه كبير بجانب آلهتهم من الأصنام وهو الذي أبقى عليه إبراهيم فلم يحطمه ويذكر (ول ديوارنت) في كتابه قصة الحضارة عن بابل التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام: (بأن مردك كان يعتبر كبير الآلهة عند أهل بابل وإنه كان بجانب هذا الإلّه كثير من الآلهة.).
ونعقب على ذلك فنقول: إن هذه الحقائق التي ذكرها القرآن في معتقدات أهل بابل والتي أيدتها الدراسات الحديثة في تاريخ الأمم السابقة تشهد بأن القرآن وحي إلّهي وصدق نبوة محمد ﷺ.

﴿يَـنْطِقُونَ﴾ ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد أثار فيهم شيئاً من الروية والصواب ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّـكُم أَنْـتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع من انقطعت حجّته المقر لحجة خصمه قائلين فيما بينهم: أنتم الظالمون أنفسكم بعبادة ما لا ينطق وما ليس باستطاعته الدفاع عن نفسه.

ولكن لم تكن إلاّ ومضة فكر نيّر أعقبها ظلام الجهل ﴿ثُمَّ نُـكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى جهلهم وعنادهم. يُقال نكسته أي قلبته فجعلت أعلاه أسفله، فقد شبه الله سبحانه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة. ثم قالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ هذه هي النتيجة التي توخاها إبراهيم وهي أن يقروا بأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تنفع ولا تضر. وهنا تبرز حجة إبراهيم داوية مجلجلة تقرع آذانهم وتخرس ألسنتهم بهذا الجواب البليغ:

﴿قَالَ أَفَـتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لا يَنْفَعُكُم شَيئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾ أي أتعبدون من غير الله جمادات لا تنفعكم إذا طلبتم منها شيئاً ولا تضركم إذا أهملتم عبادتها ﴿أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله أَفَلا تَعْقِلُون﴾ أفّ: لفظ إذا صوِّت به علم أن صاحبه متضجر. إن إبراهيم أصابه الضجر بعدما رأى من قومه ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق فتأفف منهم. وتأمل كيف ختم إبراهيم قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فلو كان عندهم ذرة من عقل لما أصروا على عبادتهم للأصنام.

وما جاء على لسان إبراهيم يبين تفاهة وحقارة الذين يقدسون الأصنام ويعبدونها من دون الله. ومن الغريب أن بعض الديانات في العالم تقيم الأصنام في معابدها على الرغم مما وصل إليه العقل البشري من رقي، ولكن تقليد الآباء طغى على كل مقومات العقل.

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

شرح المفردات:

نافلة: عطية أو زيادة على ما سأل وهو ولد الولد.

تعمل الخبائث: أي الأعمال الخبيثة كاللواط وغيره.

نجاة إبراهيم ولوط

ولما رأى قوم إبراهيم أنهم غُلبوا على أمرهم ولم تبق لهم حجة عمدوا إلى القوة يسترون بها فضيحتهم فأصدروا حكمهم عليه بالموت: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُم إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ أي إحرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرة لها إن كنتم ناصريها حقاً. ولكن ما هذه الآلهة التي ينصرها من يعبدها، فقد بلغوا من السخف وانعدام العقل بحيث لا يميزون بين الباطل والصواب.

وهنا تأتي العناية الإلهية ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ في الكلام حذف: أي أوقدوا له ناراً ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقال الله للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. يقول ابن عباس: لو لم يتبع الله بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدة بردها.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسَرِينَ﴾ وأرادوا أن يبطشوا به فجعلناهم أشد الناس خسراناً حيث بطل سعيهم في إطفاء نور الحق، وظهر لهم أن إبراهيم هو المنتصر الأكبر بتأييد الله له.

وهكذا ينجي الله المؤمنين من أعدائهم ويخفف عنهم من أهوال الحياة ومصائبها فيضفي عليها برداً وسلاماً بلطفه وإحسانه وكرمه.

وبعد نجاة إبراهيم من محاولة إحراقه بالنار خرج من أرض العراق ومعه ابن أخيه لوط يلتمس الفرار بدينه والأمان في عبادة ربه فنزل بحرّان ثم هاجر إلى مصر ثم رجع إلى فلسطين من أرض الشام وترك لوطاً بقرية المؤتفكة وتسمى سدوم وهي في مكان قرب البحر الميّت. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فيها للعَالمين﴾ وصف الله أرض الشام التي تشمل فلسطين بالأرض المباركة لكثرة ما بعث فيها من الأنبياء التي انتشرت شرائعهم في العالمين، كما بارك الله فيها بخصوبة أراضيها وكثرة أشجارها وأنهارها فاجتمع فيها خير الدنيا والآخرة.

﴿وَوَهَبْنا لَهُ إسحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي وهب الله لإبراهيم ولداً اسمه إسحق كما وهب له يعقوب ابن ابنه إسحق، لأن ولد الولد كالولد ﴿وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي وجعل الله كُلًّا من إبراهيم وإسحق ويعقوب من أهل الخير والصلاح مطيعين لربهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وجعلهم الله أئمة يقتدى بهم يدعون الناس إلى دين الله بأمره وإذن منه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِم فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وأوحى الله إليهم أن يفعلوا الخيرات وهي الأعمال الصالحات من فعل الطاعات وترك المحرمات وأن يقيموا الصلاة وهي أداؤها كاملة مستوفية لشروطها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ وكانوا لله خاضعين طائعين له بإخلاص. ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي وأعطى الله لوطاً الحُكْمَ: وهو حسن الفصل في الخصومات بين الناس، وكذلك آتاه علماً بأمر دينه وما يجب عليه لله تعالى من واجب الطاعة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القَرْيَـةِ التي كَانَت تَعْمَلُ الخَبَائِثَ﴾ أي ونجاه الله من عذابه الذي عذب به أهل قرية سدوم حيث أهلكها الله وجعل عاليها سافلها بسبب ما كانوا يرتكبونه من فاحشة اللواط

وقطع الطرقات ﴿إِنَّهم كَانُوا قَوْم سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ إنهم كانوا قوماً أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ في رَحْمَتِنَا إنَّهُ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ وجعل الله لوطاً من جملة الذين يستحقون رحمته بإدخاله الجنة لأنه كان من أهل الصلاح والتقوى.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا
حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ
عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

شرح المفردات

الكرب العظيم: الغم الشديد، والمراد النجاة من الطوفان.

الحرث: هو زرع أو كَرْمٌ.

نفشت فيه غنم القوم: رعته ليلاً بلا راع.

صنعة لبوس: عمل الدروع التي تُلبس في الحرب.

من بأسكم: من حربكم مع أعدائكم.

الريح عاصفة: شديدة الهبوب.

يغوصون له: أي يغوصون في البحار لاستخراج الجواهر.

نوح وداود وسليمان عليهم السلام

ويتابع القرآن الكلام عن الأنبياء فيذكر بإيجاز ما جرى لنوح عليه السلام: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي واذكر يا محمد نوحاً إذ نادى ربه من قبلك ومن قبل إبراهيم ولوط وسأله أن يهلك الذين عصوا الله وكذبوا نبوته وما جاء به من الحق من عند ربه فاستجبنا دعاءه وأرسلنا عليهم الطوفان فأغرقناهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ فَنجيناه وأهل الإيمان من قومه من الغرق والغم العظيم الذي حل بالمكذبين له ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا الدالة على أنه رسول من عندنا ﴿إِنَّهُم كَانُوا قَوْم سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِينَ﴾ إنهم كانوا أصحاب شر يسيئون الأعمال فأغرقناهم جميعاً.

ويذكر الله ما جرى لداود وسليمان في قضية أصدرا الحكم فيها: ﴿وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ في الْحَرْثِ﴾ أي واذكر يا محمد داود وسليمان حين كانا يحكمان في شأن الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ إذ انتشرت فيه غنم القوم من غير أصحابه وأكلت زرعه ليلاً ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وكنا لحكمهم في القضية المتعلقة بالزرع عالمين ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي ففهمنا القضية سليمان دون داود ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وكلاً منهما أعطيناه حِكمَة وَعِلماً كثيراً.

وهذه القضية كما ذكرها المفسرون: إن غنماً أقبلت ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعيها فأكلت الزرع. فاحتكم أصحاب المزرعة إلى داود قائلين: يا نبي الله إنا حرثنا أرضنا وزرعناها وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتى لم يبق منه شيء. فقال داود لأصحاب المزرعة: كم تقدرون ثمن زرعكم فذكروا له الثمن، ثم قال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمن أغنامكم فقدروه بثمن ما، فلما رأى داود الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم. وكان ابنه سليمان حاضراً يشهد هذه المحاكمة فابتدره قائلاً: لي رأي في هذه القضية: وهو أن يدفع أصحاب الغنم

أغنامهم إلى أصحاب المزرعة فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتى يستوي الزرع فإذا حان وقت حصاده سلموا المزرعة إلى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم، فرضي الجميع بهذا الحكم، وقال داود: وُفِّقْتَ يا بنيّ بهذا الحكم وحكم بما أفتى به سليمان.

ففي قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ دليل على أن سليمان هو المصيب للحق ولولا ذلك لما خصصه الله بالفهم، وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داود لجواز كون كل واحد منهما مصيباً وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً﴾.

وقد استدلَّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد في الأحكام، وأن المجتهد قد يخطىء وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم، وأن للحاكم الرجوع عن حكمه من اجتهاد له إلى أرجح منه إذا تبين له ذلك.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُد الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ وسخرنا: أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح، فكان داود إذا سبح ربه أجابته الجبال، وتقف الطير في الهواء مجاوبة له في تسبيحه بصوت يتمثل له، والتسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وكنا قادرين على أن نفعل هذا وإن كان غريباً عنكم أيها الناس ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَـةَ لَـبُوسٍ لَكُمْ﴾ وعلمنا داود صناعة الدروع، واللبوس عند العرب السلاح كله درعاً كان أو سيفاً أو رمحاً، والمراد في الآية الدروع خاصة ﴿لِتُحْصِنَـكُم مِنْ بَأْسِكُم﴾ لتقيكم إذا لبستموها أذى الحرب من قتل وجرح ﴿فَهَلْ أَنْـتُمْ شَاكِرُونَ﴾ والاستفهام هنا في معنى الأمر، أي اشكروا الله على هذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم. ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجري بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة الشديدة السرعة، وجعلناها طائعة له فهي تجري بأمره وتنقله إلى أجزاء الأرض المقدسة المباركة وهي أرض الشام، وهذا أمر ليس بمستبعد في عصرنا الحاضر الذي سخر فيه الإنسان العلم لإغراضه باختراع الطائرات التي تنقل الإنسان إلى أقاصي الأرض في مدة وجيزة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمينَ﴾ وكان الله عالماً بكل شيء في هذا

الكون لا تخفى عليه خافية. وقد رويت في كيفية تسخير الرياح لسليمان روايات هي من الإسرائيليات التي لا يعتد بها ولا أساس لها من الصحة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ من يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في أعماق البحر يستخرجون له الجواهر واللآلىء ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ ويعملون أعمالاً أخرى غير ذلك كبناء القصور والمعابد وما يحتاجه سليمان من كافة الصناعات المختلفة التي يعجز عنها الإنسان ﴿وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ﴾ وكنا لهم مراقبين لأعمالهم فلا ينالون أحداً بسوء، ولا يتمردون على أمر سليمان.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً
مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ
إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ
أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

شرح المفردات

الضُّرُّ: الضرر والشدّة في الجسم من مرض وهزال.

ذا النون: هو يونس بن متى.

لن نقدر عليه: لن نضيّق عليه.

أيوب وإسماعيل وإدريس ويونس عليهم السلام

وبعد الكلام عن سليمان وما خصه به من معجزات يأتي الكلام عن أيوب عليه السلام:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي واذكر يا محمد أيوب حين دعا ربه قائلاً: إني مَسَّنِيَ الضُّر وأنت يا رب أرحم الرحماء. والضر كل ما كان من سوء حال وفقر ومرض شديد. ودعاء أيوب فيه تلطف في الدعاء حيث وصف نفسه بما يوجب الرحمة، ووصف ربه بغاية الرحمة. مع ما في دعائه من علامات الرضا والتسليم بقضاء الله ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ فاستجبنا دعاءه ورفعنا عنه الضر وعافيناه في بدنه ﴿وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُم﴾ أي وأعطيناه أولاداً بقدر من مات من أولاده وزدناه مثلهم ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى للعَابِدِينَ﴾ أي رحمة به من فضلنا وتذكيراً لغيره ممن يعبدوننا ليصبروا كما صبر ويطمعوا في رحمة الله.

وأيوب عليه السلام هو نبي من أنبياء الله ومن ذرية إبراهيم عليه السلام وأمه من ولد لوط عليه السلام، وسمي أيوب لأنه آب إلى الله في كل حال.

ويروي علماء التفسير والتاريخ أن أيوب كان كثير المال من سائر صنوفه، وكان له أولاد وأهلون فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم البيت عليهم وذهاب أمواله وإصابته بمرض في بدنه ثماني عشرة سنة وقيل أقلّ من ذلك، ويروى أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوت الله تعالى، فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله إن أصبر له سبعين سنة.

ويروي المؤرخون والمفسرون عن أيوب حكايات كثيرة أخذوها من مصادر شتى بأسانيد واهية ولكن لا يوثق بها لأنها تتنافى مع سيرة الأنبياء وما عصمهم الله من كل سوء.

أما ما يروى عن المرض الذي أصابه وأن الناس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامه إلى ظاهر المدينة في موضع الكناسة فهذا من الإسرائيليات والأكاذيب التي ليس لها سند صحيح يؤيدها لأن من شروط النبوة عندنا ألاَّ يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه ولأنه متى كان كما يدّعون لا يستطيع الاتصال بالناس وتبليغهم شرع الله.

وخلاصة القول: إن البلاء لم ينج منه الأنبياء بل هم أشد الناس بلاءً كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وابن ماجه عن النبي ﷺ «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». والسعادة والشقاء في هذه الدنيا لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هي دار امتحان وإن عاقبة الصبر هي توفية الأجر ومضاعفة العطاء، فإن أيوب لما امتحن بما فقد من أرزاقه وأهله، وبما عاناه من آلام في جسده صبر وشكر ربه فكان أن رحمه سبحانه فشفاه الله من مرضه وأعطاه أضعاف ما فقد من مال وولد ولذا قال سبحانه عقب قصة أيوب ﴿**وذكرى للعابدين**﴾ أي تذكرة لغيره ممن يعبدون الله ليصبروا كما صبر.

ويتابع القرآن فيذكر بعض الأنبياء الذين صبروا على ما أصابهم من المحن والشدائد وهم:

﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كلٌّ مِنَ الصَّابِـرِينَ**﴾ أي واذكر يا محمد لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس وذي الكفل وكلٌّ من هؤلاء كانوا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة. وذو الكفل قال عنه البعض إنه رجل صالح غير نبي، والظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلاّ وهو نبي. وسبب تسميته بهذا الاسم فلأنه تكفل لنبي من أنبياء بني إسرائيل ببعض العبادات فوفى بها. ويروى إن ذا الكفل هو الياس. ﴿**وَأَدْخَلْنَاهُمْ في رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ أي وجعلناهم من الذين يستحقون رحمتنا وهي دخول الجنة إنهم من أهل الصلاح والتقوى.

ويتابع القرآن فيذكر ما جرى للنبي يونس عليه السلام:

﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى في الظُّـلُماتِ أن لا إِلَه إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ**﴾ أي واذكر يا محمد (ذا النون) وهو لقب ليونس ابن متى عليه السلام وسمي بذلك لابتلاع النون إياه، والنون هو الحوت ﴿**إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً**﴾ إذ فارق قومه وهو غضبان عليهم بسبب كفرهم، والمؤمن يغضب لِلَّه عز وجل إذا رأى أحداً يعصيه ويجحده، وقد فارق يونس قومه بدون أن يأمره الله بفراقهم، وكان من واجبه الصبر على قومه وعدم مفارقتهم إلاّ بعد أن يأذن الله له. ﴿**فَظَنَّ أَنْ لَنْ**

﴿نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فالقدر هو القضاء والحكم، أي ظن يونس أن لن يقضي الله عليه بالعقوبة. وتأتي قَدِرَ بمعنى ضيق، أي ظن أن لن يضيق الله عليه ويعاقبه على ترك قومه.

فيونس عليه السلام أرسله الله إلى أهل نينوى وهي قرية من أرض الموصل في العراق فدعاهم إلى عبادة الله وترك عبادة غيره والإقلاع عن الذنوب والمعاصي فأبوا وتمادوا في ضلالهم فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم بعد أن توعد قومه بنزول العذاب عليهم في وقت معلوم. وبعد مفارقتهم أظلتهم أمارات العذاب فخرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ثم تضرعوا إلى الله وتابوا عن معاصيهم فقبل الله توبتهم ورفع عنهم العذاب. ولم يعلم يونس بتوبتهم.

وبعد أن ترك يونس قومه وصل إلى ساحل البحر فرأى سفينة على أهبة السفر فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم في السفينة ففعلوا. أقلعت السفينة به وسارت في عرْضِ البحر ولكنَّ أمواجاً هائلة ضربت السفينة وأشرفت على الغرق، فأرادوا أن يخففوا من حمولتها فاقترعوا على رجل يُلقونَه من بينهم فوقعت القرعة على يونس، فقام يونس وتجرد من ثيابه وألقى بنفسه في البحر فأرسل الله سبحانه إليه من البحر حوتاً يشق البحر فالتقمه، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، وهنا يصف الله حالة يونس وهو في بطن الحوت: **﴿فَنَادَى في الظُّلُمَاتِ أن لا إلَهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَك إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ﴾**. أي دعا ربه في أعماق الظلمات المخيمة عليه: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل أن لا معبود بحق إلاَّ أنت تنزيهاً لك من أن يُعجزك شيء إني كنت من الظالمين بمعصيتك ومخالفة أمرك. ثم قال سبحانه بعد دعاء يونس: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَـهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾** أي استجبنا لتضرعه ونجيناه من الضيق والكرب بإخراجه من بطن الحوت **﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمنينَ﴾** أي وكما نجينا يونس من تلك المحنة والكرب ننجي المؤمنين من كل كرب وشدة إذا لجأوا إلينا واستغاثوا بنا ورجعوا إلينا بالتوبة. يقول النبيّ ﷺ: دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: «لا إلَه إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلاّ استجاب له» أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا
رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

شرح المفردات

لا تذرني فرداً: لا تتركني وحيداً بلا ولد.
رَغَباً: طمعاً في رحمة الله.
رَهَبَاً: خوفاً من عذاب الله.
خاشعين: متذللين خاضعين.
من رُوحِنَا: من جهة روحنا وهو جبريل.
أمّتُكُم: ملّتكم.
تقطعوا أمرهم: تفرقوا في دينهم.
حرام على قرية: ممتنع البتة على أهل قرية.

زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن زكريا عليه السلام:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ: رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ أي واذكر يا محمد زكريا إذ دعا ربه: رب لا تتركني وحيداً لا ولد لي ولا وارث ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾ وأنت يا رب

خير من يبقى بعد كل من يموت ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى﴾ فأجبنا دعاءه ورزقناه ولداً اسمه يحيى ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً. وقيل: كانت سيئة الخلق سليطة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق، ويحتمل المعنيان معاً، فجعلت حسنة الخلق ولوداً ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسَارِعُونَ في الْخَيْرَاتِ﴾ أي إن زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا والعمل بما يقربهم إلينا ويحتمل رجوع الكناية بالضمير إلى الأنبياء المذكورين سابقاً ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ الدعاء هنا العبادة، أي كانوا يعبدوننا رغبة منهم فيما يرجون من رحمتنا وفضلنا عليهم، كما كانوا يعبدوننا رهبة من عذابنا وعقابنا فلا يقربون المعاصي.

ثم يأتي الكلام عن مريم لا لأنها من الأنبياء وإنما تمهيداً لذكر عيسى عليه السلام:

﴿والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَها﴾ واذكر يا محمد مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها من الزنا وعفّت فامتنعت عن الفاحشة، كما أحصنت فرجها من الحلال ولم يمسسها بشر ﴿فَنَفَخْنَا فيها مِنْ رُوحِنَا﴾ أي نفخنا الروح في عيسى فيها بأن أحييناه في جوفها، لأن نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه. والروح يطلق أيضاً على الملك جبريل عليه السلام بمعنى: أي فعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل لأنه نفخ في فتحة القميص من جهة الصدر فوصل النفخ إلى جوفها فحملت بعيسى عليه السلام. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وابْنَهَا آيَةً لِلعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا مريم وابنها عيسى عبرة لعالمي زمانها وأعجوبة للخلق، وأمارة لنبوة عيسى ودلالة على عظيم قدرتنا. وكان من آيتهما إيتاء الرزق لمريم من عند الله عن طريق ملائكته ونطق ابنها عيسى في المهد وإجراء المعجزات على يديه بعد نبوته كإبراء الأكمه (الأعمى) وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات.

وبعد الكلام عن طائفة من الأنبياء عقب الله ذلك بقوله:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إن دينكم أيها الناس دين واحد وهو الإسلام الذي

هو في مجمله التصديق بوحدانية الله والخضوع والانقياد لوصاياه والإخلاص له ﴿وَأَنَا رَبُّكُم فَاعْبُدُونِ﴾ وأنا ربكم جميعاً فخصُّوني بالعبادة ولا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وتفرق الناس في دينهم الذي أمرهم الله به ودعاهم إليه فصاروا فيه أحزاباً ومللاً ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي إن مرجع أهل الأديان إلى الله وهو مجازيهم على أعمالهم، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من يعمل بما أمره الله من العمل الصالح، وأطاعه في أمره ونهيه وهو مقرٌّ بوحدانية الله ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا جحود لعمله بل الله يشكر عمله ويثيبه في الآخرة أفضل الجزاء ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ والله يأمر ملائكته بكتابة أعماله الصالحة في صحيفة أعماله ليثاب عليها يوم القيامة.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ وممتنع على أهل قرية أهلكهم الله بسبب طغيانهم وتمردهم على طاعة ربهم أنهم لا يرجعون إليه يوم القيامة بل لا بد من رجوعهم إليه لمحاسبتهم على سوء أفعالهم.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ
كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ
فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا
مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا

يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ
لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

شرح المفردات

حدب: مرتفع من الأرض.
ينسلون: يسرعون.
شاخصة: مرتفعة أجفانها لا تطرف من شدة الهول.
حصب جهنم: وقودها.
أنتم لها واردون: داخلون فيها.
زفير: أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف.
حسيسها: صوت لهبها.
السجل: الصحيفة المكتوب فيها الكلام.

من أمارات يوم القيامة ومصير الكفار والمؤمنين

ثم ينتقل بنا القرآن إلى ذكر بعض أمارت يوم القيامة:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي حتى إذا فتحت أبواب الشر والفساد وأخذ قوم يأجوج ومأجوج يسرعون في غزوهم ويتدفقون من كل مرتفع في الأرض على الأمم المجاورة لإشاعة الفساد فيها.

ويأجوج ومأجوج أقوام عُرفوا بالفساد والإفساد في الأرض منذ قديم الزمان، وقد أقام ذو القرنين عليهم سداً منيعاً يحجزهم عن إشاعة الفساد والخراب في البلاد والعباد، فإذا قَرُبَ قيام الساعة يأذن الله تعالى لهم بالخروج، ويكون من أمرهم ما ذكره القرآن هنا.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ واقترب مجيء يوم القيامة **﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** فيفاجأ الذين كفروا من هول ما يرون فتظل أعينهم مفتحة فلا تغمض جفونهم من شدة الفزع **﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** أي يقولون:

يا هلاكنا قد كنا في الدنيا غافلين لاهين عن مجيء هذا اليوم، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكفر والعناد. ثم يبين القرآن حال معبود الكفار يوم القيامة:

﴿إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وَارِدُونَ﴾ أي يقال لهؤلاء الكفار: إنكم والآلهة التي عبدتموها من غير الله وقود لنار جهنم التي أنتم داخلون فيها لتعذبوا بها، وقد جمع الله الكفار مع آلهتهم من الأوثان والأصنام لزيادة غمهم، وعجز آلهتهم عن نصرتهم ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوها﴾ أي لو كانت أَصنامهم آلهة كما يزعمون ما دخلوا النار معهم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وكل من العابدين لهؤلاء الآلهة ومعبوداتهم هم في النار ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ وللكفار في النار أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف لما يلاقونه من شدة العذاب والكرب، وهم فيها لا يسمعون ما يسرهم، وسماع الأشياء فيها أنس وتسلية فمنع ذلك عن الكفار.

وبعد ذِكْرِ حال أهل النار يأتي وصف حال المؤمنين السعداء:

﴿إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ إن الذين وفقهم الله لطاعته وعبادته وعمل الخير، وبَشَّرَهم بدخول الجنة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أولئك مبعدون عن دخول النار ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ لا يسمعون صوت لهبها ﴿وَهُمْ في مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُم خَالِدُونَ﴾ وهم في الجنة أبداً مقيمون لهم فيها ما تشتهيه الأنفس من نعيمها ولذاتها ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ لا يغمهم أهوال يوم القيامة والبعث، وذلك عندما ينفخ في الصور النفخة الثانية وهي التي وصفها الله سبحانه بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ من في السَّمٰوات وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ الله﴾ [النمل: ٨٧] ثم يقول سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وتستقبلهم الملائكة مرحبين بهم على أبواب الجنة قائلين لهم: هذا يومكم الذي وعدتم به في الدنيا فيه الكرامة من الله والثواب الجزيل فأبشروا بهذا النعيم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ﴾ وفي هذا اليوم يوم الفزع الأكبر حيث

يكون المؤمنون بِمَنْأًى من الخوف يطوي الله السماء طيّاً كما تطوى صحيفة الكتابة. ثم يبتدىء الله الكلام عما هو فاعل بخلقه يومئذ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي نعيد الخلق أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم كما بدأنا خلقهم أول مرة في بطون أمهاتهم ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وعدنا بذلك وعداً حقاً علينا أن نوفّي به، إنّا كنا فاعلين ما وعدناكم من ذلك أيها الناس.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ
ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ
أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ
ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

شرح المفردات

الزبور: الكتب التي أنزلت على الأنبياء.

لبلاغاً: لكفاية.

آذنتكم على سواء: أعلمتكم بأني محارب لكم على تساوٍ وتعادل في الإعلام.

وإن أدري: إن بمعنى ما، أي ما أدري.

فتنة: اختبار وامتحان.

محمد رحمة للناس جميعاً

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أعده الله لعباده الصالحين من الاستخلاف في الأرض والفوز بنعيم الجنة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ

﴿الصَّالِحُونَ﴾ الزبور: الكتاب، وهو اسم جنس لكتب الأنبياء كلها التي أنزلها الله عليهم. كما يطلق الزبور على كتاب داود. ومعنى الذكر: هو أم الكتاب ويسمى اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل ما هو كائن من قبل خلق السماوات والأرض. والمعنى: ولقد بينا في الكتب التي أنزلناها على رسلنا من بعد ما كتبنا في اللوح المحفوظ أزلاً، إن الأرض يرثها عبادي الصالحون لعمارتها وتيسير أسباب الحياة الطيبة فيها وإقامة العدل في أرجائها. وتشمل الأرض أرض الدنيا وأرض الجنة كما جاء في القرآن **﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾** [الزمر: ٧٤].

وقد أورث الله عباده الصالحين أرض الدنيا في أزمنة مختلفة فقد أورث بني إسرائيل المستضعفين الأرض المقدسة كما قال تعالى: **﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** [الأعراف: ١٣٧] وأورث الله أمَّة محمد كثيراً من بقاع الأرض بناء على الوعد الإلهي لهم: **﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا منكم وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾** [النور: ٥٥].

ثم يبين الله بأن القرآن فيه الكفاية لمن يبتغي عبادة ربه: **﴿إِنَّ في هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾** البلاغ: الكفاية وما تبلغ به البغية، أي إن هذا القرآن وما فيه من المواعظ والحكم وأنواع العبادات لكفاية لقوم مستعدين لعبادة الله وحده بما فيها من الفرائض كصوم رمضان، والصلوات الخمس وحج بيت الله الحرام **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾** أي وما أرسلناك يا محمد إلاّ رحمة لكافة البشر مؤمنهم وكافرهم فأما مؤمنهم الذي صدق بما جاء به محمد من الهدى من عند ربه وعمل به فله الجنة وأما كافرهم فإن الله دفع بمجيء محمد عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة لرسلها. والدارس لشريعة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ من عند ربه يرى فيها كل مقومات الرحمة، فما من أمر فيه نفع وخير للناس إلاّ دعت إليه ورغبت فيه، وما من شر وظلم إلاّ حذّرت منه ووقفت في مجابهته، فشريعة الإسلام رحمة للعباد.

ثم يأمر الله رسوله في الآيات التالية بأن يخاطب المشركين على سبيل الإنذار:

﴿قُلْ إِنَّما يُوحى إليَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ واحِدٌ﴾ أي إن ما أوحى إليّ ربي أن الإله المعبود بحق هو الله الواحد الذي لا إله غيره ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم منقادون وخاضعون له وحده ومتبرئون من عبادة الأوثان والأصنام ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الاستجابة لك وعبادة الله وحده وترك عبادة غير الله ﴿فقُلْ آذَنْتُكُم عَلى سَواءٍ﴾ آذنتكم: أعلمتكم ما أمرت به. وكثر استعمال هذه اللفظة في الإنذار والحرب، وقد جاء في القرآن ﴿فأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] فيكون المعنى: أعلمتكم بأني محارب لكم ﴿عَلى سَواءٍ﴾ أي متساوين في العلم بنقض الصلح لتستعدوا لذلك، فلا أُنسب أنا للغدر ﴿وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ إن: بمعنى ما. أي وما أدري متى سيأتي الوقت الذي يحل بكم عقاب الله الذي وعدكم به، أقريب مجيئه أم بعيد ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمونَ﴾ وقل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله يعلم كل ما يقال مما تجهرون به، ويعلم مما تخفونه من القول مما تكتمونه، فهو لا يخفى عليه شيء.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُم وَمَتَاعٌ إِلَى حينٍ﴾ وما أدري لعل إمهالكم وتأخير العذاب عنكم هو اختبار يمتحنكم الله به، ويمتعكم فيه بلذائذ الحياة إلى أجل قدره الله حسَبَ حكمته ﴿قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي قال النبي: يا رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قريش بالحق والعدل. بتأييدي بالنصر عليهم ﴿وَرَبُّنَا الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وقال لهم: وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته استعين به عليكم فيما تفترون بأن لِلَّهِ ولداً وأن له شريكاً، وفيما تتهمونني بأني ساحر وإني شاعر وأني مفترٍ على الله، وحاشا لرسول الله ﷺ من كل ذلك.

سُورَةُ الحَجِّ

تعريف بسورة الحج

بُدئت هذه السورة بعرض أهوال يوم القيامة وعقّبت على ذلك بعرض البراهين على حصول البعث مأخوذة من تطور خلق الإنسان في الرحم وإنبات النبات في الأرض.

ثم تتحدث السورة عن الذين يجادلون في الله بغير علم ويصرفون الناس عن دين الله، هؤلاء ينذرهم القرآن بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وتذكر السورة فئة من الناس تزن عقيدتهم بالله بميزان الربح والخسارة فإن أصابهم خير اطمأنوا، وإن أصابهم شر ارتدوا إلى الكفر، هؤلاء الذين خسروا الدنيا والآخرة.

وتتحدث السورة عن خضوع الكون لإرادة الله طوعاً وكرهاً، فكل ما في الكون منقاد لإرادة الله، كما تتحدث بعد ذلك عن مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة مع ذِكْرِ صفات المؤمنين المقربين إلى الله.

وفي السورة كلام عن مكانة بيت الله الحرام وقصة بنائه والدعوة إلى الحج وبيان بعض شعائره مع ذم الشرك بالله وبيان عاقبته الوخيمة.

وفي السورة مشروعية القتال للدفاع عن النفس والعقيدة، وبيان السلوك الواجب اتباعه بعد النصر، مع إنذار للكفار بالهلاك كما حصل للأمم السابقة.

وتتعرض السورة إلى ذكر مؤامرات الكفار في إلقاء الشبهات على دين الله، ثم تبشر المهاجرين الذين فروا بدينهم من الفتن بالثواب الجزيل.

وفي السورة بيان فضل الله على عباده، ودعوة أصحاب الملل إلى الإسلام وتسفيه عبادة الأصنام.

وتختتم السورة بدعوة المؤمنين إلى الصلاة والزكاة والجهاد في سبيل الله والاعتصام به مذكرة المؤمنين بنعمة الإسلام التي هي ملة رسول الله إبراهيم عليه السلام.

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ
تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ
حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ
عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾

شرح المفردات

زلزلة: الزلزلة هي الحركة الشديدة للأرض.

الساعة: القيامة.

تذهل: الذهول هو الذهاب عن الأمر بدهشة بسبب ما يطرأ من خوف وحزن.

حملها: جنينها.

يجادل: الجدال هو المنازعة في الرأي والمحاورة على سبيل المغالبة.

أهوال يوم القيامة

يبتدأ الله هذه السورةَ بوصف أهوال يوم القيامة ومظاهر الخوف الذي يصيب الناس آنذاك بقوله:

﴿ياأيُّها النَّاسُ اتَّـقُوا رَبَّـكُم إنَّ زَلْزَلَـةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ﴾ يخاطب الله الناس جميعاً ولا يخاطب شعباً بعينه لأن القرآن أنزل للناس كافة والله سبحانه هو ربهم

جميعاً، هذه هي عالمية الإسلام التي تميزه عن الأديان السابقة. لقد خاطبهم بقوله: ﴿اتَّـقوا رَبَّـكُم﴾ أي احذروا عقابه، وذلك بفعل ما أمركم به من الواجبات والطاعات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ﴿إنَّ زَلْزَلَـةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عظيمٌ﴾ والزلزلة: هي التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرار بحيث يزيل الأشياء عن مواضعها، والساعة: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وزلزلة الساعة يكون وقتها يوم القيامة في آخر عمر الدنيا. والمعنى: اتقوا ربكم أيها الناس لتأمنوا من الخوف يوم القيامة، فإن من أطاع الله واجتنب معصيته أَمَّنَهُ الله من كل ما يزعج، فالتقوى تقتضي دفع مثل هذا البلاء والضرر الفادح عن النفس.

﴿يَوْمَ تَـرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ في هذا اليوم تغفل كل امرأة عن رضيعها الذي ترضعه ـ وهو أحب الناس إليها ـ من شدة كربها ودهشتها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وتسقط الحامل ما في بطنها من جنين قبل أوان ولادته ﴿وَتَـرَى النَّـاسَ سُكَارَى﴾ وترى الناس يتمايلون كالسكارى من شدة الهلع والخوف الذي أصابهم ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ وما هم بسكارى من الخمر ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكن أهوال يوم القيامة وشدائدها والخوف من عذاب الله أذهب عقولهم، وسلب وعيهم، وأفقدهم توازنهم.

ثم يبين القرآن صنفاً من الناس يجادلون في أمور الغيب بغير علم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض الناس من ينازع ويخاصم في صفات الله وأفعاله وقدرته على البعث بغير علم صحيح. هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث الذي كان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وأن الله غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً. والآية حكمها عام لكل من تعاطى الجدال فيما لا يجوز لله من الصفات والأفعال ﴿وَيَـتَّبِـعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ويتبع فيما يقوله ويحتج به كل متمرد على طاعة ربه متجرد للفساد، والمراد به إبليس وجنوده ورؤساء الكفر ومفكريهم الذين يدعون أتباعهم إلى الكفر والفساد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّـهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّـهُ يُضِلُّهُ﴾ قضي على الشيطان أن يضل من اتبعه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعير﴾ ويسوقه إلى عذاب جهنم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ
ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ
مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ
مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ
وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي
ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾

شرح المفردات:

البعث: إحياء الله الموتى يوم القيامة.

مخلَّقة: تامة الخلقة.

أرذل العمر: الخرف والهرم.

هامدة: ميتة يابسة.

اهتزت: اضطربت.

وربت: زادت.

من كل زوج بهيج: من كل صنف من النبات يسر الناظرين.

الساعة: القيامة.

البراهين على حصول البعث

ثم يقدم القرآن البراهين على حصول البعث بإعطاء صورة عن خلق الإنسان ونشأة النبات:

﴿يَاأَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ﴾ ياأيها الناس إن كنتم في شك من بعثنا إياكم أحياء بعد مماتكم يوم القيامة **﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾** فقد خلقنا أصلكم

وهو آدم من تراب؛ أما خلق الإنسان من تراب فذلك ما يؤيده الواقع ويقره العلم فلو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها التحاليل لوجدتها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض، وتنتقل هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الإنسان بما يتناوله المرء من النبات أو من اللحوم التي تعيش على أكل النبات والنبات أصله من التراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعل نسل الإنسان من المنيّ، وسمي نطفة لقلته، فالنطفة في اللغة القليل من الماء ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الجامد المتكوّن من تلقيح الحيوان المنوي للرجل ببويضة الأنثى التي تتضاعف خلاياها ولا تمر سبعة أيام إلاّ وقد صارت مثل ثمرة التوتة، وسميت علقة لأنها تعلق بجدار الرحم. ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم تصبح العلقة قطعة لحم. وطور المضغة يبدأ من الأسبوع الثالث من حياة الجنين فتعطيه شكل اللحم الممضوغ الذي لاكته الألسن ثم قذفته. والمضغة تنقسم إلى قسمين: ﴿مُخَلَّقَة﴾ أي تامة الخلق ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غير تامة الخلق. فطور المضغة يمر بمرحلتين، المرحلة الأولى حيث لم يتشكل أي عضو أو أي جهاز وتسمى المضغة غير المخلّقة. والمرحلة الثانية حيث تم فيها تمييز الأجهزة المختلفة وتسمى مرحلة المضغة المخلّقة. ويبدأ التمايز في بداية الأسبوع الخامس وهو ما يؤدي إلى ظهور الأعضاء والأجهزة. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النمط البديع والتدرج في الخلقة لنبين لكم كمال قدرتنا ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ونثبت ما نشاء من الأجنة في الأرحام حتى تكتمل مدة الحمل وتلد المرأة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلاً﴾ ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم﴾ ثم لتصلوا شيئاً فشيئاً إلى سنّ فيه كمال عقولكم وتمام قواكم الجسدية ﴿وَمِنكُم مَنْ يُتَوَفَّى﴾ عند بلوغ السن الذي فيه كمالكم في القوة والعقل أو قبله أو بعده ﴿وَمِنكُم مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ﴾ ومنكم من يمد الله في عمره حتى يبلغ إلى سن الهرم والخرف ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً﴾ أي يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم.

وخلاصة ما تقدم يبين القرآن للناس أن الله الذي خلقهم على هذه الصورة المدهشة لا تعجزه إعادتهم أحياء يوم القيامة بعد مماتهم وتحلل أجسادهم.

ثم يبيّن القرآن الدليل الثاني على حصول البعث: ﴿وَتَرى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي وترى أيها الإنسان الأرض قاحلة يابسة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْـنَا عَلَيْهَا الماءَ اهتَـزَّت وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت وزادت. وقد دلت البحوث في الأرض أنّ لها مساماً يتخللها الهواء، وأن نزول الماء على الأرض يدفع الهواء ويحل محله، وعند امتلاءِ مسامِّ الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين بقوة دفع الماء في المسام وهذا معنى قوله تعالى ﴿اهتزّت﴾. كما أثبتت البحوث في طبيعة الأرض أن الطين يتمدد بالماء وينكمش بالجفاف، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَرَبَتْ﴾ أي زادت ﴿وأَنْبَتَت مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ﴾ أي وأنبتت الأرض من أصناف النبات ما يروق مظهره ويبهر حسنه.

وبعد أن بيّن الله هذين البرهانين على إمكان إحياء الموتى يوم القيامة رتب عليهما النتائج الآتية:

١ ـ ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي إن الذي فعل ذلك بخلق الإنسان وخلق النبات هو الله المعبود بحق، وأن ما يعبدون من دونه هو الباطل.

٢ ـ ﴿وَأَنَّـهُ يُحْيِـي الْمَوْتَى﴾ وأن الله الذي يَقْدِر على هذه الأشياء البديعة لا يمتنع عليه إحياء الموتى.

٣ ـ ﴿وَأَنَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ وإن فاعل ذلك قادر على كل شيء، ومن ذلك قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة.

٤ ـ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَـةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ وأن القيامة التي وعد الله فيها عباده آتية لا شك فيها.

٥ ـ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبُورِ﴾ وإن الله يبعث من في القبور أحياء ليجازيهم على أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾
ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ
مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

ثانيَ عِطفِهِ: متكبراً معرضاً عن سماع الهدى.

حَرْفٍ: طرف الشيء.

فتنة: شدة وبلاء.

لبئس: لقبح.

المولى: الناصر.

العشير: الصاحب والخليل.

الجدال بالباطل والإيمان المتردّد

وبعد أن أثبت القرآن قدرة الله على البعث بيّن حال الذين يخاصمون في الإسلام بالباطل عن جهل وغطرسة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ ومن الناس من يجادل في صفات الله وقدرته عن طريق الخصام والمغالبة **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾** وجداله قائم على غير أساس علمي ومن غير دليل من كتاب منزل من عند الله مظهر للحق.

هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث وقيل في أبي جهل، وقيل هي عامة لكل من

يتصدى للجدال بالباطل ويسعى لإضلال الناس وإغوائهم. وقد قيل إن المراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية السابقة، والتكرار للمبالغة في الذم.

ثم وصف الله هذا المجادل بالباطل بهذه الصورة البليغة ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ الثني: اللَّيّ. والعطف: الجانب عن يمين وشمال. والمراد منه الإعراض عن الحق تكبراً لأن شأن من أعرض عن شيء لوى جنبه، فشبه عدم التمسك بالحق والإعراض عنه كِبْراً وخيلاء بليِّ الجانب عن طريق الاستعارة. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وغرضه في الجدال بالباطل هو أن يوقع غيره في الضلال، ويصرفه عن دين الله وشرعه. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ فجزاؤه الذلُّ والهوانُ في الدنيا ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ويذيقه الله يوم القيامة عذاب حريق جهنم. ثم يُقال له عن طريق التبكيت: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي ذلك الذي تلقاه من العذاب هو بما قدمت يداك من المعاصي والكفر والإعراض عن دين الله وصد الناس عنه. والالتفات من الكلام عن الغائب إلى مخاطبة الكافر وجهاً لوجه فيه تأكيد الوعيد وتشديد التهديد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وأن الله عادل ليس بمعذبٍ أحداً من عبيده بغير ذنب اقترفه.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف نفسية ضعاف الإيمان الذين لا ثبات لهم في عقيدتهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ وحرف كل شيء طرفه. والمعنى: ومن الناس من يعبد الله على طرف من الدين لا ثبات له ولا استقرار، فمثله كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظفر اطمأن وقاتل مع الجيش، وإن أحس بهزيمة فرّ من الجيش. وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ فإن أصابه خير دنيوي من خير وعافية ووفرة مال ثبت على دينه واستمر على عبادة ربه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وإن أصابه ابتلاء في جسمه، أو ضيق في معيشته، أو نقص في ماله ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ ارتد ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ خسر الدنيا لأنه ليس له فيها ما يغنمه من عمل صالح لآخرته، وخسر راحة الاطمئنان إلى قضاء الله وما

أَعده من ثواب للصابرين على البلاء. كما خسر الآخرة وما فيها من نعيم لارتداده إلى الكفر وإعراضه عن عبادة ربه ﴿ذَلِكَ هُوَ الخُسْرانُ المبينُ﴾ ذلك هو الخسران الواضح الذي لا يخفى على كل ذي بصيرة.

﴿يَـدْعو مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَمَا لا ينفَعُهُ﴾ أي هذا الكافر يعبد من غير الله أصناماً لا تضره إن لم يعبدها ولا تنفعه إذا عبدها ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ أي ذلك الضلال البعيد عن الحق والهدى ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي يعبد من ضرره بعبادته أقرب من نفعه في الآخرة لأنه بعبادته دخل النار ولم ير منه نفعاً أصلاً ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ أي يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده لبئس الناصر أنت ولبئس الصاحب.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا
يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

شرح المفردات

بسبب: السبب هو الوسيلة وكل ما يتوصل به إلى شيء.
كيده: الكيد هو الاحتيال في إلحاق الضرر بالخصم.

نُصرةُ الله لرسوله محمد ﷺ

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير المؤمنين في الآخرة:

﴿إِنَّ اللَّـهَ يُدخِلُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ فالله وعد الذين صدّقوا بوجوده ووحدانيته وعملوا بما أمرهم به من الطاعات والأعمال

الصالحة بأن يدخلهم دار النعيم وهي جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيعطي ما يشاء من الكرامة لأهل طاعته، وما شاء من الهوان والعذاب للعاصين.

وبعد هذا الوعد للمؤمنين يأتي التأكيد بنصرة الله لرسوله محمد ﷺ:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي من ظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي فليطلب سبباً وحيلة يصل بهما إلى السماء ثم ليقطع نصرالله عن رسوله محمد إن تهيأ له ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي فلينظر هل تنفعه حيلته وكيده وغيظه في منع نُصرة الله لرسوله محمد ﷺ.

والفائدة مما ذكر أنه إذا لم يتهيأ له الكيد بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر عن رسول الله، كما أن في ذلك زجراً للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه لأن الله سيؤيد رسوله محمداً حتماً بنصره. وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت إذ لم تمضِ سنوات قليلة حتى دانت الجزيرة العربية لرسول الله، وانتشر الإسلام بين الأمم المجاورة، وأصبح عدد أتباع محمد يبلغ الملايين. فأيّ حجة أقوى من ذلك في الدلالة على صدق نبوة محمد وعلى أن القرآن وحي إلهي.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آياتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال للآية السابقة الواضحة أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على أنه من عند الله لتقوم الحجة على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدي مَنْ يُرِيدُ﴾ وأن الله يثبت على الهدى من يريد هدايته من خلقه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ
أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ
وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

هادوا: أي اليهود.
الصابئين: عبّاد النجوم أو عبّاد الملائكة.
المجوس: عبّاد الشمس والقمر والنيران.
أشركوا: عبّاد الأوثان.
يفصل بينهم: يقضي بينهم لإظهار المحق من المبطل.
شهيد: عالم بكل الأشياء ومراقب لها.

خضوع الكون لإرادة الله

ويتابع القرآن فيذكر بعض الملل التي يدين بها الكثير من البشر:

﴿إِنَّ الّذين آمَنُوا وَالّذين هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارى والمجوسَ والَّذين أشركوا﴾ فالذين **﴿آمنوا﴾** أي صدقوا بوجود الله ووحدانيته ورسله واليوم الآخر **﴿والذين هادوا﴾** هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام **﴿والصَّابِئينَ﴾** وهم قوم يعبدون النجوم وقيل: يعبدون الملائكة **﴿والنصارى﴾** وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام **﴿والمجوس﴾** وهم الذين يعبدون النار ويقولون إن للعالم أصلين النور والظلمة **﴿والَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** أي الذين يعبدون الأصنام أو يعبدون آلهة مع الله **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بينهم يَوْمَ القِيَامَةِ﴾** إن الله يقضي بينهم يوم القيامة بقضائه العادل فيدخل المؤمنين الذين

اتبعوا رسله الجنة، ويدخل الكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ﴾ إن الله عالم مطلع على أعمال خلقه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

هذا بالنسبة للملل التي كانت قبل الإسلام، أما بعد مجيء الإسلام، فلن يُقبل من أي إنسان دين غير الدين الذي جاء به محمد ﷺ عن ربه وقد جاء في القرآن ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وهو في الآخِرَة مِن الخاسِرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم يذكر القرآن بأن كل ما في الكون ساجد لعظمة الله طوعاً أو كرهاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْضِ﴾ ألم تر: الرؤية هنا بمعنى العلم، أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السماوات وهم الملائكة. ومن في الأرض وهم الإنس والجن، والمراد بالسجود لله دخول الأشياء المذكورة تحت تسخيره وإرادته وأمره الكوني. فالكون كله خاضع لأمر الله تعالى وهو القائل في القرآن ﴿إنّما قَوْلُنا لِشَيءٍ إذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وكل ما في الكون يعبد الله بكيفية لا ندري كنهها كما جاء في القرآن: ﴿وَإِن مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والسجود نوعان:

١ ـ سجود باختيار وليس ذلك إلاّ للإنسان وبه يستحق الثواب من الله نحو قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدوا لِلَّهِ وَاعْبُدوا﴾ [النجم: ٦٢] أي فاخضعوا له وأفردوه بالعبادة، ويشمل السجود هنا ما عرف شرعاً بوضع الجبهة على الأرض سواء في الصلاة، أو في سجود التلاوة أو الشكر تذللاً لله وخضوعاً له.

٢ ـ سجود تسخير وانقياد لأمر الله الكوني، ويشمل الإنسان والحيوانات والنباتات والأجرام السماوية كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّمٰوات والأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: ١٥].

ويتابع القرآن فيذكر الأشياء التي تسجد لله سبحانه وهي: ﴿وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ

والنُّجُومُ وَالجِبَالُ والشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ خص الله هذه الأشياء بالذكر لأنها عُبدت من غير الله عند بعض الشعوب، فكيف يخصونها بالعبادة وهي تسجد لله منقادة لأمره مطيعة له عابدة إياه بكيفية لا ندري كنهها ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد لله كثير من الناس يعبدون الله طوعاً وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْـهِ العَذَابُ﴾ وكثير من الناس وجب عليهم عذاب الله بكفرهم وإبائهم السجود لله والخضوع له ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ومن يلحق الله به الذل والهوان فليس له من أحد يكرمه ويسعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إن الله يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة وإكرام لأن الخلق خلقه والأمر أمره.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم
مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات:

الحميم: الماء الشديد الحرارة.

يُصْهَرُ: يذاب.

مقامع: أسواط.

الغم: الحزن الشديد.

وهُدوا: أُرشدوا.

صِراط الحميد: هو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

ثم يقدم لنا القرآن وصفاً عن أهل الجحيم وما يقاسونه من عذاب في الآخرة:

﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾ عَنَى بالخصمين جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا وجميع المؤمنين. فهذان الخصمان اختصموا في دين ربهم، واختصامهم في ذلك معاداة كلِّ فريق منهما الآخر ومحاربته إياه على دينه ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ**﴾ فالكافرون أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسادهم وهنا استعارة تمثيلية حيث شبه إحاطة النار بهم بتفصيل ثياب لهم يرتدونها ويسترون بها أبدانهم ﴿**يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمِ الْحَمِيمُ**﴾ والحميم هو الماء البالغ غاية الحرارة الذي يصب على رؤوسهم زيادة في تعذيبهم ﴿**يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ**﴾ يذيب الحميم ما في بطونهم ويحرق جلودهم فتتساقط ﴿**وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**﴾ ولهم سياط من حديد يُضربون بها ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ كلما أراد الكفار الخروج من النار ـ مما نالهم من الكرب والحزن ـ ردتهم الملائكة إلى النار بالمقامع وقالت لهم ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ الحرِيقِ**﴾ أي ذوقوا عذاب النار المحرقة جزاء كفركم.

وبالمقابل يذكر القرآن المؤمنين وما ينالونه من نعيم في الآخرة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات جَنَّات تَجْري مِنْ تحتِها الأنْهَارُ**﴾ فالذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته وبما جاء به رسوله محمد من الهدى واقترن إيمانهم بالعمل الصالح يدخلهم ربهم جنات النعيم تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿**يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤلؤاً**﴾ تزينهم الملائكة بأساور الذهب واللؤلؤ ﴿**وَلِبَاسُهُم فيها حَرِيرٌ**﴾ ولباسهم المعتاد في الجنة هو الحرير زيادة في نعيمهم ﴿**وَهُدُوا إلى الطيِّبِ من الْقَوْلِ**﴾ وهداهم الله في الجنة إلى القول الطيب الذي فيه تقديس الله وتوحيده والاعتراف بفضله والثناء عليه وإلى كل كلمة تنبىء عن الخلق الرفيع ﴿**وَهُدُوا إلى صِراطِ الحَمِيدِ**﴾ كما هداهم ربهم إلى الذي يحمد من الأفعال في معاشرة بعضهم فلا غل ولا حسد بل أخوة صافية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ
سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ
بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ
ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ
ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ
وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

يصدون عن سبيل الله : يمنعون الناس عن دين الله .

العاكف : المقيم فيه .

الباد : الزائر الآتي من البادية .

بإلحاد : ميل إلى الظلم وبعد عن الحق .

بوّأنا : بينّا له .

رجَالاً : جمع راجل وهو الماشي .

وعلى كل ضامر : أي راكبين الإبل التي هزلت من كثرة السفر .

ليـَقضوا : ليزيلوا .

تفثهم : الوسخ ، وأريد به حلق الشعر وتقليم الأظافر والغسل .

حنفاء لِلَّه : مخلصين لله ، مائلين عن الضلال إلى الاستقامة .

تهوي : تسقط .

مكان سحيق : موضع بعيد مهلك .

الحج إلى بيت الله الحرام

وبعد أن بين القرآن مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة أنكر على الكفار منعهم المؤمنين من زيارة المسجد الحرام في مكة لأداء عبادتهم فيه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ الذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي إن الذين جحدوا ما جاءهم من ربهم من الهدى ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ودخول المسجد الحرام، الذي جعله الله للمؤمنين كافة يصلون فيه وينقطعون عنده للعبادة ﴿سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ﴾ يستوي في العبادة فيه المقيم في مكة والقادم إليه من البادية ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ﴾ أي ومن يرغب في المسجد الحرام أن يميل إلى الظلم فيعصي الله فيه ويتعدى على الغير نُذقه يوم القيامة عذاباً موجعاً.

هذه الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدّوا رسول الله والمؤمنين عام الحديبية من زيارة المسجد الحرام، وكان رسول الله محرماً ومن معه من المؤمنين بنية أداء العمرة، ثم صالحوه على أن يعود لأداء العمرة في العام القادم.

ثم يتابع القرآن مبيناً مكانة المسجد الحرام: ﴿وإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ واذكر أيها النبي حين بينّا لإبراهيم وأرشدناه إلى المكان الذي سيبني فيه الكعبة ﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بي شَيئاً﴾ أي لا تجعل لله شريكاً في عبادته ﴿وَطَهِّرْ بَيتِيَ للطَّائِفِينَ والقَائِمينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وطهر الكعبة من عبادة الأوثان والأقذار للذين يطوفون حولها وللذين يُصلُّون وقد عبّر عن الصلاة بأركانها ومنها القيام والركوع والسجود.

﴿وَأَذِّنْ في النَّاسِ بِالحَجِّ﴾ ونادِ في الناس أن حجوا بيت الله الحرام. رُوي عن ابن عباس قال: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أَذِّن في النَّاس بالحج، قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعلي البلاغ، فنادى إبراهيم: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبُّون.

وروي عن سعيد بن جبير قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أوحى الله إليه: ان أذن في الناس بالحج، قال: فخرج فنادى في الناس: ياأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فلم يسمعه يومئذ من إنس ولا جن ولا شجر، ولا أَكَمة، ولا تراب ولا جبل ولا ماء، ولا شيء إلاّ قال: لبّيك اللهم لبيك.

والحج قصْد بيت الله الحرام لأداء العبادة فيه بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة. ثم قال سبحانه: ﴿يَأْتوكَ رِجَالاً﴾ يأتوك مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ويأتوك ركباناً على الإبل، وقد كانت الإبل هي أداة السفر الطويل في البرِّ قبل اختراع الطائرات والسيارات ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ﴾ أي تأتي هذه الإبل من كل طريق ومكان بعيد.

ثم بين الله الغاية من الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وإنما لم يذكر القرآن هذه المنافع ولم يحددها لكثرتها. والمنافع من الحج دينية ودنيوية، فالحج بمناسكه تمرين على طاعة الله المطلقة، وامتثال لأمره، فالحاج يتردد بين مكة ومنى وعرفات والمزدلفة يقيم ويرحل، يؤدي مناسك معدودة، وهو يلبي بقوله: (لبيك اللهم لبيك... الخ) فيكون ذلك تطبيعاً له لطاعة ربه في كافة أحواله ونيل الأجر في الآخرة.

واجتماع الحجاج بهذا الحشد الكبير الذي لا نظير له على وجه الأرض ورؤيتهم وهم يدعون ربهم ويصلون له، ويطوفون حول الكعبة، ويزحفون بالملايين إلى عرفات ووقوفهم هناك وهم يتضرعون ويذرفون الدمع خوفاً من الله وندماً على خطاياهم، وتدفق الحجاج كالسيل إلى رمي الجمرات كل هذه المشاهد مع المشاركة لهم بأداء هذه المناسك لها أثرها القوي على القلوب فتتفجر فيها ينابيع الإيمان وتغمرها مشاعر التقوى، والقلوب تحتاج إلى شحن مستمر بالطاقة الإيمانية لتصبح النفوس في منتهى الكمال الإنساني.

وفي الحج مران للنفوس على فضائل الأخلاق والسيطرة على أهوائها وغرائزها فمن مقاصد الحج التي ذكرها القرآن ﴿فَلا رَفَثَ وَلاَ فُسُوق ولا جِدال في الحج﴾ [البقرة: ١٩٧] فالرفث هو ممارسة العلاقة الجنسية والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، والجدال: هو المخاصمة الكلامية بين الناس.

ومن منافع الحج تعارف المسلمين وتوثيق الوحدة بين شعوبهم التي هي أساس قوتهم، والتشاور فيما ينفعهم، وإبرام صنوف المعاهدات بينهم من دفاعية واقتصادية وتجارية.

ومن منافع الحج تعويد المؤمنين على حياة الخشونة ومعاناة الصبر حيث تجشموا مشاق السفر وتركوا المخيط من الثياب وكفوا أنفسهم عن كل الملاذ والشهوات، وهذه الأمور تعكس فوائد جمة على الشخصية الإنسانية حيث تصقلها وتجعلها أصلب عوداً في تحمل مصائب الحياة.

ويتابع القرآن قوله: **﴿وَيَذْكُروا اسْمَ اللَّهِ في أَيَّـامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾** أي يذكرون الله سبحانه بالحمد والثناء والتكبير في يوم عيد النحر وهو يوم عيد الأضحى والأيام الثلاثة بعده أو يومان بعده في قول آخر. وقيل: هي الأيام العشرة من ذي الحجة وآخرها يوم النحر وقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشرة فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» **﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾** على ما رزقهم الله من الإبل والبقر والغنم **﴿فكلوا مِنْهَا وأَطعِمُوا البائس الفقيرَ﴾** فكلوا من لحومها وأطعموا البائس الذي به ضر الجوع والحاجة، والفقير الذي لا شيء له. والأمر هنا للاستحباب فيستحب للرجل أن يأكل من أضحيته ومن هديه (أي الذبائح التي يهديها إلى الحرم) وأن يتصدق بأكثرها.

أما الذبائح التي تجب على الحاج كفارة لما خالف فيه من أمور الحج، أو كانت نذراً فلا يجوز الأكل منها.

﴿ثُمَّ لْيَـقْضُوا تَفَثَهُم﴾ ثم ليقضوا ما بقي عليهم من أمر الحج بالتحلل من الإحرام بحلق الرأس والعانة وشعر الإبط والتخفيف من الشارب واللحية ولبس الثياب وقص الأظافر ورمي الجمار **﴿وَلْيُوفوا نُـذُورَهُمْ﴾** التي نذروها تقرباً إلى الله تعالى من أعمال البر **﴿وَلْـيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾** وهو المسمى طواف الزيارة أو طواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحج. وسمي بيت الله الحرام بالبيت العتيق، أي القديم، لأنه أول بيت

وضع للناس لعبادة الله وحده بناه آدم ثم جدد بناءه إبراهيم عليه السلام، وقيل سمي عتيقاً لأن الله اعتقه من تسلط الجبابرة عليه، وقيل: سمي عتيقاً لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي افعلوا ذلك، ومن يلتزم أوامر الله ونواهيه في مناسك الحج وغيرها تعظيماً لها في نفسه بمراعاتها والعمل بموجبها واجتناب المحرمات فهو خير له ويُثاب به عند ربه في الآخرة **﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إلاّ ما يُتْلَى عَلَيْكُم﴾** وقد أحل الله لكم أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلاّ في حالات تعرفونها مما يقرأ عليكم من القرآن كأكل الميتة ولحم الخنزير وغير ذلك **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثَانِ﴾** فابتعدوا عن عبادة الأوثان لأن عبادتها قذارة عقلية ومعنوية **﴿واجتنبوا قَوْلَ الزُّورِ﴾** وابتعدوا عن الكذب وشهادة الزور.

فعبادة الأوثان من باب الشرك بالله، واقتران الكذب وشهادة الزور بالشرك بالله يبين القرآن مبلغ إثمهما. وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «عدلت (أي ساوت) شهادة الزور الإشراك بالله، ثم تلا قوله تعالى: **﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثَانِ واجتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾**.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ مخلصين لله مائلين إلى الإسلام ثابتين عليه غير متخذين أي شريك لله في العبادة **﴿وَمَنْ يُشْرِك بالله فَكأَنَّما خرَّ مِن السَّماءِ﴾** ومن يتخذ شريكاً لله فكأنما سقط من السماء **﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾** أي تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها **﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ﴾** أو تسقطه الرياح في مكان بعيد لا يرجى خلاصه.

تشبيه رائع شبه القرآن فيه الإيمان بالله ووحدانيته في علوه ورفعته بمن يتربع في السماء. كما شبه من اتخذ شريكاً لله بالساقط من السماء. وشبه الأهواء الباطلة التي تتنازع أفكار المشرك بالطير المختطفة لأجزاء لحمه، كما شبه الشيطان الذي يدفعه إلى الشر والضلال بالريح التي تهوي بمن عصفت به في بعض المهاوي المهلكة.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ
وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا
وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ
لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

شعائر: مفردها شعيرة وهي كل ما شرعه الله لعباده وجعله علامة رضاه.

منسَكاً: متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله من ذبح الأنعام وإطعام المساكين منها.

المخبتين: الخاضعين لله بالطاعة المذعنين له بالعبودية.

وجِلَت قلوبهم: خافت هيبة من الله تعالى.

البُدْنَ: جمع بُدنه وهي الإبل المهداة إلى الحرم.

صوَافّ: قائمات على ثلاثة أرجل معقولة إحدى يديها.

وجبت جنوبها: سقطت على الأرض ميتة بعد النحر.

القانع: القانع الذي يقنع بما أعطي. أو بما عنده ولا يسأل.

المعترّ: المحتاج الذي يسأل.

صفات المقربين إلى الله

ثم تنتقل بنا الآيات دَاعية إلى تعظيم شعائر الله:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ذلك: أي ذلك أمر الله وشعائر الحج: معالمه ومناسكه التي يُؤمر المسلم بالقيام بها، مثل الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والهدايا من الأنعام إلى الحرم، فمن يعظم دين الله وفرائض الحج وأعماله والهدايا من الأنعام التي يسوقها إلى فقراء الحرم فيختارها صحيحة الجسم سمينة لا عيب فيها فقد اتقى الله، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب المؤمنة، وعلامة من علامات الإخلاص لله. ﴿لكُم فِيهَا مَنَافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسمًّى﴾ أي لكم في تعظيم شعائر الله منافع بالأجر والثواب في الآخرة. ولكم في الهدايا من الأنعام إلى أن تنحر منافع دنيوية فتشربون من ألبانها وتركبون الإبل ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى البَيْتِ العَتيقِ﴾ ثم إن هذه المنافع من هذه الأنعام مستمرة إلى محل نحرها عند البيت الحرام وما يليه من الحرم إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام. أو بمعنى: إن شعائر الحج تنتهي عند البيت الحرام والطواف حوله وهو ما يُسمى بطواف الإفاضة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾ ولكل جماعة من أهل الإيمان جعلنا لهم متعبداً وقرابين يتقربون بها إلى الله عن طريق ذبح الأنعام والتصدق بلحومها ﴿لِيَذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعام﴾ ليذكروا اسم الله سبحانه ويعظمونه عند ذبحها شكراً له على ما أنعم عليهم من بهائم الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وإنما قيل لها بهائم لأنها لا تتكلم ﴿فَإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ فإلهكم إله واحد لا شريك له فإياه فاعبدوا وله أخلصوا، وأخضعوا له بالطاعة ﴿وَبشِّرِ الْمُخْبِتينَ﴾ وبشر يا محمد المطمئنين بذكر الله المتواضعين الخاشعين له بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه.

ثم وصف الله هؤلاء المخبتين: ﴿الَّذِين إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلُوبُهمْ﴾ أي إذا ذُكِرَ الله اعتراهم الخوف هيبة منه، وخوفاً من سخطه وعقوبته عند مخالفته وعصيانه، وحصول الوجل عند ذكر الله دليل على كمال يقينهم بالله وقوة إيمانهم ﴿وَالصَّابِرِينَ

عَلَى مَا أَصَابَـهُمْ﴾ من مصائب وأحزان وأمراض، ومشاق في طاعة الله ونصرة دينه ﴿والْمُقِيمي الصَّلاةِ﴾ أي الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة الأركان مع الخشوع لله تعالى ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُـنْفِقُونَ﴾ فالمال في الأصل مال الله الذي رزقهم إياه وهم يتصدقون منه وينفقون بعضه في وجوه الخير.

﴿والبُـدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البدن: جمع بَدَنَة وتطلق على الإبل خاصة وبعض الأئمة أطلقها على البقر أيضاً، وهي من شعائر الله أي مناسك الحج وعلاماته وأعماله حيث تُهدى إلى الحرم وتُذبح هناك ويتصدق بلحومها على الفقراء ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْـرٌ﴾ وهو الأجر في الآخرة بنحرها والتصدق بها، وفي الدنيا بركوبها وحمل أمتعتكم عليها بجانب الاستفادة من ألبانها ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي فاذكروا اسم الله عليها عند نحركم إياها وهي مصطفة للنحر قائمة على ثلاثة قوائم معقولة إحدى يديها. وذِكْرُ الله عليها عند النحر أن يُـقال: بسم الله والله أكبر لا إلّه إلا الله، اللهم منك ولك. ﴿فَإِذَا وَجبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فإذا سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الأرض وهو كناية عن موتها ﴿فَـكلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِـعَ﴾ فكلوا بعضها إن أردتم وأطعموا القانع المتعفف عن السؤال ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي الذي دعته الفاقة إلى ذل السؤال ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم﴾ أي من أجل هذا ذللها الله لكم وجعلها منقادة لكم إن شئتم ركبتم عليها، وإن شئتم استفدتم من حليبها ولحومها ﴿لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا الله على تسخيرها لكم لمنفعتكم.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لَحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا﴾ أي لن ترفع إلى الله لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْـكُم﴾ ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص وهو ما أريد به وجه الله وتعظيم شعائره. وقد كان أهل الجاهلية قبل الإسلام إذا ذبحوا الأنعام لآلهتهم وضعوا على الكعبة من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فقال الله: ﴿لَنْ يَنالَ اللَّه لحومُها ولا دماؤُها﴾ ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُم لِتُـكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم﴾ أي هكذا سخّر لكم البدن كي تعظموا الله على توفيقه إياكم لدينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ وبشر بالجنة يا محمد الذين أحسنوا في طاعة الله.

۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ
لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ
مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ
وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

شرح المفردات

خَوَّان كفور: خائن للأمانات جاحد للنعم. وخوان وكفور صيغتان للمبالغة.
صوامع: معابد رهبان النصارى.
بِيَعَ: كنائس النصارى.
صلوات: كنائس اليهود.
مساجد: أماكن العبادة عند المسلمين.
مكنّاهم في الأرض: نصر الله المؤمنين على عدوهم.
ولله عاقبة الأمور: ولله مصير أمور الخلق في الثواب والعقاب.

الإذن بالقتال للدفاع عن النفس

كان المشركون من أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله بأنواع من الأَذَى ليفتنوهم عن دينهم، فلا يزالون يجيئون إلى رسول الله ما بين مضروب ومشجوج ويشكون إليه حالهم فيقول لهم رسول الله محمد ﷺ: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، وكان يدعوهم إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فراراً من أذاهم فهاجر إليها الكثير من أصحابه. ثم لما اشتد أذى المشركين على رسول الله وحاولوا قتله هاجر إلى المدينة المنورة ملتحقاً بأصحابه البررة.

وما لاقاه رسول الله وأصحابه من أذى وصمودهم على دينهم هو أقوى حجة بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يدعي أعداؤه، فهذه النخبة من المؤمنين الذين قاسوا الاضطهاد لم يكن إيمانهم إلاّ عن عقيدة واقتناع لا عن إكراه.

وقد كان المؤمنون في المدينة المنورة في وضع مأساوي يحيط بهم الأعداء من كل جانب، ففي هذا الجو القاتم المفعم بالأخطار نزلت الآيات التالية تُطمئن المؤمنين وتأمرهم بالقتال دفاعاً عن النفس:

﴿إِن اللَّه يُدَافِـعُ عَنِ الَّذِين آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ. أُذِنَ لِلَّذِين يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَـقَدِيرٌ﴾.

فالله سبحانه يقول: **﴿إِنَّ اللَّه يُدَافِـعُ عَنِ الَّذِين آمَنُوا﴾** ودفاع الله عن المؤمنين يشمل كل نواحي الحياة فيلهمهم الله إلى ارتياد سبل النجاة ويجنبهم المخاطر والمهالك ويدافع عنهم من كيد الأعداء **﴿إِن اللَّه لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾** إن الله لا يحب كل خوان يخون الله فيخالف أمره ونهيه ويعصيه، ويخون أمته، وخوّان وكفور من صيغ المبالغة، أي المفرط في الخيانة والكفر.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُـقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا﴾ هنا يوجد حذف، أي أُذن بالقتال للمؤمنين بسبب ما نالهم من ظلم بقتال المشركين لهم **﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهم لَقَدِيرٌ﴾** وإن الله لقدير على نصر المؤمنين. فالمؤمنون الذين كانوا قلة مضطهدة في بدء الإسلام يعدهم الله بالنصر على المشركين، وقد صدق الله وعده وتحقق النصر لهم بعد سنوات قليلة من نزول هذه الآية، وقد نزل من القرآن آيات بهذا المعنى منها قوله تعالى: **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ﴾**. وإنّ هذا النصر الذي تحقق يشهد بأن القرآن وحي إلهي وبصدق نبوة محمد إذ لا يعلم الغيب إلا الله.

﴿الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حقٍّ إلاَّ أنْ يَـقُولوا رَبُّـنَا اللَّهُ﴾ فالمشركون أرغموا المؤمنين على ترك وطنهم مكة والهجرة منها بغير حق وما كان لهم من ذنب في نظر المشركين إلاّ قولهم: ربنا الله وحده هو الذي نعبده ولا نشرك بعبادته أحداً غيره

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ولولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال أعداء الدين وتسليط المؤمنين على المشركين في كل عصر ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ والصوامع هي معابد الرهبان، والبيع هي ما معابد النصارى، والصلوات هي كنائس اليهود والمساجد هي جوامع المسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كثيراً﴾ الضمير في (فيها) يعود إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات في الآية لأن غير المساجد من بيع وكنائس يشرك فيها مع الله. أما على القول بأن الضمير يعود إلى كافة المعابد فذلك قبل أن يُغَيِّر أتباع الأديان ويبدّلوا في دين الله الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام.

فالنص القرآني يشير إلى حرمة جميع المعابد والدفاع عنها وعدم مسها بسوء، ولكن السؤال هل ما يجري فيها من طقوس دينية مقبولة من الله؟ الجواب عن ذلك هو أن القرآن انتقد ما في هذه المعابد من الأمورالدينية فأثبت أن أصحاب الملل التابعين لهذه المعابد قد غيروا وبدلوا في دينهم وأن بعض ما يدعونه ويعلنونه هو من الكفر الصراح ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

كما أعلن القرآن لأصحاب الملل بأنه جاءهم بالحقيقة التي ضلوا عنها وأنه أتى بإصلاح الدين مما خالطه من بدع وشوائب.

ثم يتابع القرآن قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ والله ينصر من ينصر دينه ورسوله، إن الله لقوي على نصرة من جاهد في سبيله لا يغالبه أحد من خلقه.

ثم يبين القرآن السلوك الواجب على المؤمنين بعد حصولهم على النصر وهو أنهم يؤدون شعائر الله ويقيمون صرح العدالة، لا كما يفعل غيرهم من إذلال العباد وسلبهم خيراتهم وهدم منازلهم ومعابدهم:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ﴾ فالمؤمنون الذين إن نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من السيطرة على عدوهم فهم يقومون بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ والصلاة هي صلة بين الإنسان وربه فهي تطهر نفوس المؤمنين وتنهاهم عن الفحشاء والمنكر.

٢ ـ ﴿آتَـوُاْ الزَّكَاةَ﴾ والزكاة هي حصة من المال تفرض على الأغنياء بالنسبة لأموالهم للإنفاق على الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوي الحاجة وبهذا تتحقق العدالة الاجتماعية.

٣ ـ ﴿وأَمَـرُوا بالْمعروفِ﴾ والمعروف اسم لكل فِعْلٍ يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه، فالمعروف كلمة جامعة لكل أعمال الخير.

٤ ـ ﴿وَنَـهَوْا عَنِ الْمنكَرِ﴾ والمنكر هو كل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه وهو ضد المعروف. فالمؤمنون يدعون الناس إلى الخير وينهونهم عن الشر والفساد إذا تمكنوا من السيطرة على بلد ما. هذه هي المثالية التي دعا القرآن إليها وهي مما لا نجدها في أي فلسفة أو مذهب أخلاقي، ثم يختم الله هذه الآيات: ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَـةُ الأُمُورِ﴾ ولله مصير أمور الخلق فيثيب من أطاعه بحسن الجزاء ويعاقب من يعصيه بِعَذَابِ يَوْم القيامة.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ
لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن
تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ
وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

شرح المفردات

فأمليت: الإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة بعد ذلك.

فكأيِّن: اسم يفيد كثرة العدد.

نكير: إنكاري عليهم بإبدالهم النعمة نقمة والعمران خراباً.

فهي خاوية: ساقطة.

على عروشها: على سقوفها.

بئر معطلة: متروكة بموت أهلها.

قصر مشيد: قصر رفيع أو مجصص.

أخذتها: عاقبتها بالعذاب.

إنذار للكفار بالهلاك

ثم تأتي الآيات التالية وفيها يواسي الله رسولَهُ محمداً بسبب ما كان يقاسيه من آلام واضطهاد من قومه:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَوْمُ نُوحٍ وعَادٌ وَثَمُودُ﴾ وإذا كنت تلاقي يا محمد تكذيباً وإيذاء من قومك فلا تحزن، وتأمل في تاريخ الأنبياء قبلك فقد كذب قوم نوح نبيهم نوحاً، وكذّب قوم عاد نبيهم هوداً، وكذبت ثمود نبيهم صالحاً ﴿وَقَوْمُ إبراهيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ وكذَّب قوم إبراهيم نبيهم إبراهيم كما كذّب قوم لوط نبيهم لوطاً ﴿وأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ كما كذَّب أهل مدين نبيهم شعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ وكذب فرعون وقومه نبيهم موسى. تأمل كيف أن القرآن لم يقل قوم موسى كما ذكر عن الأنبياء قبله لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط وفرعون وآله ﴿فَأَمْلَيْتُ للكافرين﴾ أي أمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ثم أخذتهم بالعذاب والهلاك فكيف كان إنكاري عليهم حيث أبدلتهم بالنعم عليهم زوالاً لها، وبالحياة هلاكاً لهم، وبعمارة بلدانهم خراباً.

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكثير من القرى أهلكنا أهلها وهي ظالمة بسبب تكذيبها لرسل الله واضطهادها لهم ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ والخاوية هي الساقطة وعروشها هي سقوفها، أي سقطت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. وتأتي خاوية بمعنى خالية. أي خالية من أهلها لهلاكهم مع بقاء عروشها وسلامتها.

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ وبئر مهجورة لا يستقي منها أحد لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَشيدٍ﴾ وقصر مهجور أيضاً لهلاك ساكنيه. ومعنى مشيد: أي مطلي بالجص. وقيل هو المرفوع البنيان. ثم يدعو القرآن كفار مكة إلى الاعتبار بمن كان قبلهم من الأمم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ﴾ أي أفلم يسافر كفار مكة في الأرض ليشاهدوا آثار من كان قبلهم من الأمم الذين أهلكهم الله جزاء كفرهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلونَ بِهَا﴾

فيكون لهم من ذلك العبرة فتستيقظ قلوبهم من غفلتها وتتفكر فيما جئت به يا محمد من الهدى. وقد أسند القرآن الفكر إلى القلب بينما محله الدماغ لأن القلب هو الذي يمد الدماغ بالدم والحياة، ويعبر عن القلب بأنه مركز الأحاسيس الإنسانية العاطفية ﴿**أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ فيقلعوا عن كفرهم ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ولَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ**﴾ أي لكنهم لم ينظروا ولم يعتبروا بما أصاب قبلهم من الأمم، لا لأنهم عُمي البصر وإنما هم عُمي البصائر، فليس الخلل في حواسِّهم وإنما الخلل في عقولهم التي لا تدرك الحق ولا تعتبر بما تشاهده.

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**﴾ ويستعجلك يا محمد هؤلاء الكفارُ بمجيء العذاب الذي حذرتهم منه إنكاراً منهم واستهزاء بمجيئه ﴿**وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ وقد وعد الله بنزول العذاب فيهم وما وعد به كائن لا محالة ولكن في موعدٍ قدَّره الله في الدنيا والآخرة ﴿**وَإِنَّ يَوماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ وإن يوماً عند الله يساوي ألف سنة مما تقدِّرون وتحسبون من الزمن. هذه الآية قررت أن الزمن نسبي وهو ما توصل إليه العلم واعتبره من منجزاته.

﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾ وكثير من أهل القرى أمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقاب مع استمرار ظلمهم ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المَصِيرُ**﴾ ثم أخذتها بالعذاب والهلاك، وإليّ مرجع جميع الخلق فأجازيهم بما عملوا يوم القيامة.

﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ قل يا محمد لكفار مكة ليس من مهمتي أن أجازيكم على أعمالكم وإنما أنا محذركم ومخوفكم من عقاب الله تحذيراً واضحاً.

﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ فالذين صدقوا بوحدانية الله وبرسوله محمد وعملوا بما دعاهم إليه من الأعمال الصالحة لهم مغفرة من ربهم لما سبق من سيئاتهم ولهم رزق كريم في الجنة.

﴿**وَالَّذِينَ سَعَوا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ**﴾ والذين اجتهدوا في صد الناس عن آيات

القرآن وقالوا: إنها سحر، وأساطير الأولين مغالبين لرسول الله ليقهروه ﴿**أولئك أصحاب الجحيم**﴾ أولئك ملازمو النار، وشبههم بأصحاب الجحيم كما يكون الصاحب الملازم لصاحبه دائماً في صحبته.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ
فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾
لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾
وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ
عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾

شرح المفردات

تمنّى: قرأ الآيات المنزلة عليه.
أمنيته: قراءته.
فينسخ: يبطل ويزيل.
يُحْكِمُ الله آياته: يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال.
فتنة: ابتلاء واختباراً.
شقاق بعيد: عداوة شديدة.
فَتُخْبِتَ له قلوبهم: تطمئن وتسكن وتخضع.
في مِرْيَـة: في شك.
يوم عقيم: يوم لا خير فيه ولا يوم بعده وهو يوم القيامة.
مهين: مذل.

إلقاء الشبهات على دين الله

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر مؤامرات الكفار على آيات القرآن وإلقاء الشبه والأباطيل حولها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّى﴾أي وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول من رسلنا ولا نبي من أنبيائنا إلاّ إذا تلى وقرأ كتاب الله على قومه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمنِيَّتِهِ﴾ وكلما قرأ عليهم كتاب الله تصدى له شياطين الإنس والجنّ لتشكيك الناس فيما يتلوه من كتاب الله ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيبطل الله ما يلقون من الشبهات ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم يثبت الله آياته بأن يقيض للدين من يدافع عنه ويدحض الشبهات، والله عليم بكل شيء، حكيم في أفعاله.

هذا ما كان في الماضي وما أشبه اليومَ بالبارحة حيث دَأَب أعداء الإسلام إلى إلقاء الشبهات على القرآن وتأويل آياته تأويلاً يؤيد مقاصدهم الخبيثة ولكن محاولاتهم باءت بالفشل وظلت آيات الله محكمة ثابتة شاهدة على بطلان أكاذيبهم.

﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ وإذا مكن الله المتمردين على الحق من شياطين الإنس والجنّ من إلقاء الشبه على دعوة الإسلام فإنما يكون ذلك امتحاناً واختباراً ﴿لِلّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ وهم المنافقون ﴿وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ وهم الكافرون الذين جحدوا نبوة محمد ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ وإن هؤلاء الظالمين من المنافقين والكفار لفي خلافٍ وعداوةٍ شديدةٍ مع النبي والمؤمنين، وبُعدٍ عن الحق والصواب.

﴿وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ولكي يعلم أهل العلم بشرع الله أن الذي أنزله الله على رسوله محمد هو الحق ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فيصدّقوا به فتطمئن له قلوبهم وتخضع ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله محمد إلى طريق قويم يوصلهم إلى مرضاته بالعمل بأوامره الذي يوصلهم إلى نعيم الآخرة.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا في مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ ولا يزال الذين كفروا في شك من أمر هذا القرآن أو في نبوة محمد ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى يأتيهم الوقت الذي تقوم به

القيامة فجأة ﴿أَو يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم القيامة الذي لا خير فيه ولا ثمرة ترجى منه. ولفظ عقيم يطلق على المرأة التي لا تلد، وهنا استعير هذا اللفظ ليوم القيامة الذي لا يوم بعده من أيام الدنيا.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُم﴾ السلطان والتصرف المطلق لله وحده يوم القيامة يحكم بينهم بالحق ويجازي كل إنسان على عمله ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فالذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وبرسوله محمد وعملوا الأعمال الصالحة التي دعا إليها القرآن، هؤلاء في الآخرة لهم جنات تتوافر فيها كل صنوف النعيم ﴿وَالَّذِين كَفَرُوا وَكَذَّبوا بآياتِنَا﴾ والذين جحدوا وكذَّبوا بآيات القرآن ﴿فَأُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فأولئك لهم عند ربهم عذاب مُذِلّ في جهنم.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا
حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا
يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا
عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

شرح المفردات

هاجروا في سبيل الله: تركوا أوطانهم في طاعة الله من مكة إلى المدينة المنورة.

رزقاً حسناً: وهو الجنة.

بغي عليه: ظلم.

يولج: يدخل.

بشرى للمهاجرين

ثم يبشر الله المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة فراراً من اضطهاد قريش بالثواب الجزيل:

﴿والَّذِينَ هَاجَرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي والذين تركوا أوطانهم لإعلاء شأن دينهم وفي سبيل رضاء الله وطاعته ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أو مَاتُوا﴾ ثم قتلوا في ميدان الجهاد أو ماتوا على فراشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ ليرزقنهم الله يوم القيامة الثواب الجزيل بإدخالهم الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّه لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقينَ﴾ وإن الله لهو خير من يعطي الثواب الجزيل.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ وليدخل الله هؤلاء المهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا جنات النعيم يكرمون فيها بما يرضونه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعلِيمٌ حَليمٌ﴾ وإن الله لعليم بأعمالهم، حليم لا يعاجل أعداءهم بالعقوبة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَب بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾ ذلك شأننا في مجازاة الناس، والمؤمن الذي يقتص ممن جنى عليه ويجازيه بمثل اعتدائه دون زيادة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أي ثم يتمادى الجاني في الاعتداء على المؤمن بعد ذلك فإن الله سينصره على من اعتدى عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وإن الله يصفح عن المؤمنين ذنوبهم ويغفر لهم خطأهم حيث قاتلوا الكفار في الشهر الحرام. وفي ذلك تعريض بالحث على العفو والصفح فإن الله مع كمال قدرته على الانتقام يعفو فغيره أولى بذلك.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله يُولِجُ الليْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في الليْلِ﴾ ذلك النصر من الله هو أنه قادر على كل شيء فهو سبحانه يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل فيتعاقبان وذلك من تأثر دوران الأرض حول نفسها، كما يتفاوت طول الليل وطول النهار حسب الفصول الأربعة من تأثير دوران الأرض حول الشمس، هذا الدوران للأرض حول نفسها وحول الشمس هو من أثر القدرة الإلهية ﴿وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأعمالهم لا تخفى عليه خافية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ ذلك التصرف من الله في الكون مرجعه بأن الله هو الإله الحق لا إلَه غيره ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾ وأن ما يعبدون من الآلهة هو الباطل لأنها لا تقدر على أي شيء ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ وأن الله فوق كل شيء وهو الكبير على أن يكون له شريك، إذ لا شيء أعلى منه شأناً ولا أكبر سلطاناً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

فضل الله على عباده

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر بعض نعم الله على عباده التي تشهد بعظم قدرته ووحدانيته: ﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب ان الله أنزل من السحاب المطر ﴿فَـتُصْبِـحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فتصبح الأرض مخضرة بالنبات بعد أن كانت يابسة مجدبة، تأمل كلمة ﴿فَـتُصْبِـحُ﴾ جاءت بصيغة فعل المضارع التي تفيد الاستمرار وإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ إن الله رفيق بعباده خبير بمصالح خلقه ومنافعهم ﴿لَهُ ما في السَّمٰوات والأَرْض﴾ له سبحانه ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو سبحانه غني عن عباده المستحق للحمد والثناء بتمجيده وتعظيمه.

﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا في الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْري في البَحْر بأَمْرِهِ﴾ أي أَلَمْ

تَعْلَم أن الله ذلَّل للناس ما في الأرض من حيوان ونبات وجماد لينتفعوا بها، وهيأ لهم البحر فتسير فيه السفن بمشيئته ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلاَّ بإِذْنِهِ﴾ والسماء هي كل ما علانا وتشمل الكواكب والنجوم والمذنبات فقد أمسكها الله بقدرته وبما وضع لها من نظام الجاذبية حتى لا يختل نظامها أو ترتطم بالأرض فتدمرها إلاّ إذا اقتضت إرادته ذلك ﴿إنَّ الله بِالنَّاسِ لرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله سبحانه واسع الرأفة والرحمة بالناس فيهيىء لهم كل أسباب الحياة الطيبة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُميتُـكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وهو الله سبحانه وهب لكم الحياة أيها الناس بعد أن كنتم في حكم العدم، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ثم يعيد لكم الحياة يوم البعث لمجازاتكم على أعمالكم ﴿إنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ﴾ إن الإنسان لكثير الجحود لنعم الله عليه لا يقوم بواجب العبادة والشكر لخالقه، والمراد: جنس الإنسان المتمادي في كفره.

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

شرح المفردات

منسكاً: شريعة ومنهاجاً.

هم ناسكوه: عاملون به.

دعوة أتباع الملل إلى الإسلام

ثم يبيّن القرآن بأن لكل أمة شريعةً خاصةً: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي لكل جماعة من الناس ولكل قوم من الأقوام شريعة هم يعملون بها. فالأمة التي كانت من بعثة موسى عليه السلام إلى بعثة عيسى عليه السلام منسكهم (أي شريعتهم) هي التوراة ومن بعثة عيسى عليه السلام إلى بعثة محمد ﷺ منسكهم الإنجيل. ومن بعثة محمد ﷺ إلى يوم القيامة منسكهم القرآن. ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ في الأَمْرِ﴾ فلا ينازعنك يا محمد هؤلاء الأمم في أمر دينك زعماً منهم أن شريعتهم باقية لم تنسخ، فإن التوراة والإنجيل شريعتان لمن مضى من الأمم قبل بعثة محمد ﷺ ومن وقت بعثته انتسخ كل شرع سوى الشرع الذي جاء به محمد من عند الله ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وادع يا محمد هذه الملل جميعها إلى شريعتك ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ إنك على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يرشدهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿وإِن جَادَلُوكَ فَقُل الله اعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن أبوا إلا الجدال عن طريق المخاصمة فيما دعوتهم إليه من الدين الذي أوحاه الله إليك فدع أمرهم إلى الله وقل لهم: الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها من الجزاء. ﴿الله يَحْكُم بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الله يقضي بينكم يوم القيامة فيما اختلفتم فيه من أمور دينكم فيثيب المهتدي ويعاقب الضال.

﴿أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ الله يَعْلَمُ ما في السَّماءِ والأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقرير، أي قد علمت يا محمد أن الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ في كِتَابٍ﴾ إن علمه في ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ لا يعلم حقيقته إلا الله ويوصف بأنه مستودع ما كان ويكون مما يعلمه الله. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسيرٌ﴾ إن علم الله بجميع ذلك سهل هيِّن عليه.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ
أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾

شرح المفردات

ويعبدون من دون الله : أي يعبدون غير الله .

سلطاناً : أي حجة وبرهاناً .

بيِّنات : واضحات الدلالة على كونها من عند الله .

المنكر : الكراهة والعبوس .

يسطون : يبطشون بهم من شدة الغيظ .

بطلان عبادة غير الله

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن عبدة الأصنام : **﴿وَيَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾** أي ويعبد المشركون غير الله أصناماً لم يأتِ بعبادتها حجة في كتاب سماوي منزل من عند الله **﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾** ولا حملهم على عبادتها أي دليل عقلي بأنها آلهة **﴿وَمَا للظَّالِمِينَ مِنْ نَصيرٍ﴾** وليس للظالمين بعبادتهم غير الله من ناصر ينصرهم يوم القيامة ويرفع عنهم عذاب الله .

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا تلا أحد على مسامع المشركين آيات القرآن واضحة الأدلة على عبادة الله وحده وعلى بطلان عبادة الأصنام **﴿تَعْرِفُ في وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ﴾** تلحظ في وجوههم الحنق والغيظ **﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيهِم آيَاتِنَا﴾** أي يكادون من شدة غيظهم يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آيات القرآن **﴿قُلْ أفأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُم النَّارُ وَعَدَها الله الَّذِين كَفَرُوا﴾** أي قل لهم يا محمد على وجه الوعيد والتقريع : أفأخبركم بشيء هو أشد عليكم شراً من الغيظ الذي يحرق نفوسكم هي النار التي وعدكم بها يوم القيامة جزاء كفركم **﴿وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾** وبئس النار مصيراً ومقاماً .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾

تسفيه عبادة الأصنام

ثم يقدم لنا القرآن مثالاً في غاية في الروعة على بطلان عبادة الأصنام:

﴿يا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَـهُ﴾ يا أيها الناس إنّا نبين لكم حالة في الغرابة هي حقيقة بأن تسمى مثلاً، فاستمعوا لهذا المثل استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ الَّذين تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَنْ يَخلُـقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي إن الذين تعبدون من غير الله وهي الأصنام لن يستطيعوا أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا وتعاونوا على ذلك، هذا إذا كانوا مجتمعين فكيف إذا كانوا منفردين، ولقد ضرب الله المثل بالذباب لمهانته وضعفه وقذارته. والخطاب في الآية وإن كان لأهل مكة إلاَّ أن المراد به عموم من كان يعبد الأصنام ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ﴾ فكأن الله يقول: أَتْرُكُ أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه، فإن الذباب إن سلب منهم شيئاً فهي لا تقدر على استنقاذ الشيء من الذباب. وقد رُوِي أنهم كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران ورؤوسها بالعسل فإذا سلبهم الذباب شيئاً عجزت الأصنام عن استرداده. والعجز يسري حتى على العقلاء فإذا سلب الذباب شيئاً يسكب عليه لعاباً بمجرد أن يأخذه ويحوله إلى مادة أخرى ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلوبُ﴾ ضعف الصنم باسترداد ما سلب منه وضعف المطلوب وهو الذباب، وقيل المقصود بالطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم.

﴿مَا قَـدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته وما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام شركاء الله في العبادة ﴿إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إن الله لقوي على خلق كل شيء غالب ينتقم من أعدائه، لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين فإنها جماد ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء.

﴿الله يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ ويختار رسلاً من البشر كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وهذا ردٌّ على المشركين الذين أنكروا أن يكون الرسول إلى الناس من البشر ﴿إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إن الله سميع لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمال الناس ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم﴾ أي يعلم الله علماً تاماً بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين من عباد الله ما مضى من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْـفَهُم﴾ ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ وإلى الله يوم القيامة مرجع أمور الخلق كلِّها، فلا أمر ولا نهي لأحد سواه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

شرح المفردات

حق جهاده: أي جهاداً حقاً خالصاً لوجه الله.

هو اجتباكم: هو اختاركم لدينه وعبادته ونصرته.

حرج: ضيق بتكليفكم بما يشق عليكم ويعسر.

مولاكم: ناصركم ومتولي أموركم.

نداء للأمة الإسلامية

ثم يخاطب الله أمة الإسلام بهذا الخطاب التي يتركز فيه معنى العبودية لله والتحلي بالفضائل والقيم السامية التي تسعد البشرية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا ارْكَعُوا واسْجُدوا﴾ أي صلّوا الصلاة التي شرعها لكم، وقد كان الناس أول إسلامهم يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فأُمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، فكان ذكرهما جارياً مجرى ذِكْرِ الصلاة ﴿وَاَعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تشركوا بعبادته أحداً، والعبادة تشمل الفرائض كلها التي أوجبها الله على عباده وتزيد عليها كل عمل يعمله الإنسان يبتغي به وجه الله، فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب إلى الله وابتغى به وجهه ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ والخير كلمة جامعة تشمل صلة الرحم ومكارم الأخلاق والصدقة على الفقراء وحسن الخلق مع الناس ﴿لعلَّكُم تُفْلِحُون﴾ لتفوزوا بنعيم الآخرة. و(لعل) كلمة تحمل معنى الرجاء. والإنسان قلما يخلو في أداء فرائض الله وفعل الخير من تقصير، وهو ليس على يقين من أنّ الذي أتى به مقبولٌ عند الله فكان التعبير بكلمة ﴿لَعَلَّكُم﴾ التي فيها الرجاء من الله بقبول عمله.

﴿وَجَاهِدُوا في الله حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جاهدوا في سبيل الله بأنفسكم وألسنتكم وأموالكم، والجهاد لغة: محاربة الأعداء وبذل ما في الوسع والطاقة في ذلك. والجهاد على أنواع:

مجاهدة العدو الظاهر الذي يقاتل المسلمين.
ومجاهدة الشيطان الذي يأمر بالفحشاء.

ومجاهدة هوى النفس، فقد رجع النبي ﷺ من إحدى الغزوات وقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، يقصد به جهاد النفس.

ومعنى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جهاداً خالصاً لوجه الله ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ هو اختاركم لدينه ونصرته ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وما جعل عليكم في أوامر الدين

من ضيق وما كلفكم ما لا تطيقون. وقد جاء في القرآن بما يؤيد هذا المعنى: ﴿يُرِيدُ الله بِكُم اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول النبي ﷺ: «إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ ولن يشادَّ الدينَ أحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ».

وعلى هذا فمن لم يستطع الصلاة قائماً صلى قاعداً، ومن لم يستطع الصوم أفطر وقضى أو أخرج الفدية، كما قد شرع الكفارات لمن أخطأ في العبادات وشرع الديات في الجرائم لمن أراد العفو من أولياء القتيل.

﴿مِلَّة أبيكم إبراهيمَ﴾ والملة هي الدِّين، أي دينكم أيها المسلمون هو نفس دين إبراهيم عليه السلام القائم على عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام وإنما جعل الله إبراهيم أبا العرب لأن النبي محمد ﷺ ينحدر نسبه من إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، ومحمد هو كالأب لأمته، فالأبوة هنا أبوة دين ومنهاج ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ المسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي الله سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن في الكتب التي أنزلها على رسله ﴿وفي هَذَا﴾ أي وفي القرآن سماكم الله يا أتباع محمد مسلمين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ ليكون الرسول محمد يوم القيامة شاهداً عليكم بأنه بلغكم شرع الله ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس﴾ وتكونوا شهداء على الناس في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاةَ﴾ فأدوا الصلاة المفروضة لله عليكم واعطوا الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم لمستحقيها ﴿وَاعْتَصِمُوا بالله﴾ أي ثقوا بالله في كل أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلاّ منه ﴿هُوَ مَوْلاكُم﴾ هو سبحانه ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ نعم الله المتولي أموركم ونعم الناصر ولا ناصر لكم سواه.

سورة المؤمنون

تعريف بسورة المؤمنون

سميت هذه السورة بـ (سورة المؤمنون) لما ذكرت من صفاتهم التي يتحلون بها وما أعد الله لهم من جزيل الثواب والنعيم في الآخرة.

ثم ذكرت السورة الدلائل على وجود الله ووحدانيته وقدرته الباهرة المتمثلة بخلقه للإنسان وتطوره في الرحم إلى أن يصبح بشراً سوياً، وخلقه سبحانه للسماوات وإنزاله للمطر لإنبات صنوف الثمار التي يقتات منها الإنسان، وَخَلْقِهِ سبحانه للأنعام ذات المنافع الكثيرة للإنسان.

ثم أوردت السورة بعض قصص الأنبياء كقصة نوح وصالح وموسى وهارون وما حلّ بقومهم من هلاك وخسران جزاء تكذيبهم لهم وإصرارهم على الكفر وفي هذا مواساة لرسول الله محمد ﷺ وما كان يلقاه من أذى من قومه. هذا مع الإشارة إلى عيسى وأمه مريم، ودعوة الرسل والمؤمنين إلى الأكل من الطيبات والعمل الصالح وبيان وحدة الرسالة الإلهية.

وفي السورة مناقشة لكفار مكة ودعوتهم بالعقل والحوار إلى التصديق بنبوة محمد ﷺ وإثبات البعث ووحدانية الله بالبرهان الجلي الواضح.

وفي السورة أيضاً بيان مصير الكفار وهم يُعذبون في جهنم مع توبيخهم على ما فعلوه في دنياهم من أذى للمؤمنين.

وهناك بعض الوقائع والأحداث سيأتي ذكرها في هذه السورة ولم نشر إليها خوفاً من التطويل.

سُورَةُ المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

شرح المفردات

أفلح: فاز وظفر بالمراد.

خاشعون: متذللون لله خائفون منه.

اللغو: ما لا فائدة منه من قول أو فعل ولا يحصل منه على نفع.

لفروجهم حافظون: الفرج سوءة الرجل والمرأة. وحفظ الفرج التعفف عن الزنا.

ملكت أيمانهم: تملكهم الإماء، والإماء، جمع أَمَة وهي المرأة المملوكة.

العادون: المعتدون المجاوزون حدود الشرع.

راعون: حافظون.

الفردوس: أعلى الجنة.

صفات المؤمنين

يبتدأ الله هذه السورة ببيان صفات المؤمنين الفائزين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ المؤْمِنُونَ﴾ قد: حرف يفيد التحقيق، والفلاح هو الفوز بالمرام والنجاة من المكروه، أي تحقق فوز المؤمنين بمطلوبهم في الآخرة ونجاتهم مما يكرهون. والمؤمنون: هم الذين صدَّقوا بنبوة محمد ﷺ وبما جاء به من شريعة الله. والإخبار عن فلاح المؤمنين بصيغة الفعل الماضي للدلالة على تحقق فوزهم لا محالة.

﴿الَّذِين هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُونَ﴾ والخشوع هو الضراعة والخوف والتذلل لله ويستتبع الخشوع سكون الجوارح، فيكون الخاشع في الصلاة ناظراً إلى موضع سجوده لا يلتفت يميناً ولا شمالاً معرضاً عما سوى الله، متدبراً فيما يجري على لسانه من قراءة القرآن وَذِكْرِ الله.

﴿والَّذين هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ واللغو: هو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ولا يحصل منه على نفع، كالهزل واللعب والمزاح غير المشروع، وضياع الأوقات بدون فائدة، والتوغل في الشهوات والكلام القبيح، وغير ذلك مما نهى الله عنه. والإعراض عن اللغو: صد النفس عنه وتجاوزه واجتنابه، فالمؤمنون حياتهم محفوفة بالعمل المفيد المثمر، لا يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع منه ولا فائدة.

﴿والَّذِين هُم للزَّكَاةِ فَاعِلونَ﴾ والزكاة هي الحصة من المال التي يدفعها المؤمنون للفقراء والمساكين وغيرهم ممن يستحقون الزكاة، وبهذا تحقق الزكاة التكافل الاجتماعي وتجنب المجتمع الثورات والقلاقل التي يولدها الفقر والحرمان.

﴿والَّذِين هُمْ لِفُروجِهِم حَافِظُونَ﴾ والفروج جمع فَرْج، وهو سوءة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج هو التعفف عن الزنا. ﴿إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي أن المؤمنين يقصرون علاقتهم الجنسية على أزواجهم. أو ما ملكت أيمانهم: وهن الرقيقات المملوكات ويطلق عليهن الإماء والجواري. والآية بصدد الرجال خاصة، لأن المرأة لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومينَ﴾ أي من

أقتصر بعلاقته الجنسية على زوجته وما يملك من الإماء فلا لوم عليه ولا حرج ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ أي ومن طلب غير ذلك من الزوجات والإماء بالزنا فأولئك هم المتناهون في العدوان المتجاوزون لحدود الله.

أما ما يثار من الكلام حول الإستمتاع بالأمة، فقد كان الرق شائعاً في العالم عند مجيء الإسلام، وكانت الرقيقة مستباحة للجميع في الاستمتاع بها جنسياً فحصر الإسلام ذلك في من يملكها فقط، ولكن بالرغم من ذلك شرع كثيراً من الأمور لتحريرها، فإذا ولدت من سيدها ولداً أصبحت حرة بعد وفاة سيدها، كما جعل الإسلام حصة من الزكاة لتصرف في تحرير الأرقاء، كما جعل الكثير من الكفَّارات التي يُكفِّر بها المؤمن عن أخطائه في العبادات وغيرها عن طريق عتق الأرقاء.

والزنا أصبح اليوم في أواخر القرن العشرين آفة المجتمعات البشرية ونشأ عنه الملايين من اللقطاء الذين أصبحوا عبئاً على الدولة التي تعيلهم، مع ما يستتبع ذلك من مشاكل اجتماعية، كما أن المرأة هي الضحية في حالة الزنا، وبالأخص عندما تحمل في أحشائها ثمرة العلاقة الجنسية الآثمة، فكثيراً ما يتخلى شريكها في الزنا عنها أو ينكر أبوة ولدها فتتحمل هي وحدها عبء تربية ولدها. وكثيراً ما يؤدي زنا أحد الزوجين إلى أخطار جمة فلربما قتل الزوج زوجته أو شريكها في الزنا، أو بالعكس وأخطر مآسي الزنا هو اختلاط الأنساب، فلربما تزوج الإنسان أخته وهو لا يدري نسبها. وأخيراً نذكر أن الزنا هو السبيل إلى انتقال الأمراض الجنسية إلى الأصحاء ومضاعفاتها الخطيرة، وأخطر هذه الأمراض هو مرض فقدان المناعة المكتسبة (السيدا) وهذا المرض يؤدي إلى الموت ولم ينفع له علاج حتى الآن. فالمجتمع الذي يجتنب الزنا هو مجتمع فائز بعيد عن كل الأخطار التي تهدده.

﴿والَّذين هُمْ لِأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والأمانة هي كل ما يُؤتمن عليه الإنسان سواء نحو ربه كالتكاليف الشرعية، أو نحو الناس كودائع الأموال، والعهد هو كل ما التزمه الإنسان نحو ربه كالعبادات والنذور، أو نحو الناس كالعقود والوعود والمعاهدات، فالمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانة على وجهها الكامل وإذا عاهدوا لم يغدروا ولم ينكثوا العهد.

﴿والَّذين هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهم يُحَافِظونَ﴾ أي والذين يواظبون على الصلاة ويؤدونها كاملة في أوقاتها مستوفية أركانها وشروطها. وقد افتتح الله ذكر صفات المؤمنين بالصلاة واختتمها بالصلاة لأهميتها وعظيم فضلها. فالصلاة توثّق الإنسان بخالقه وتذكّره دوماً بأنه محاسب على أعماله يوم القيامة فترتدع نفسه عن كل ما نهاه الله عنه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إنَّ الصَّلاة تنهى عَنِ الفَحْشَاءِ والمنْكَرِ﴾ كما أن الصلاة وما فيها من دعاء واتصال بالله تقوي قلب الإنسان عند المحن والمصائب وهذا ما ذكره القرآن ﴿ياأَيُّهَا الذين آمنوا اسْتَعِينوا بالصَّبْر وَالصَّلاةِ إِنَّ الله مَعَ الصَّابرين﴾[البقرة: ١٥٣].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾ وأصل الإرث أخذ الشيء عن الغير من غير عقد بيع ولا هبة ولا غير ذلك ثم استعمل في مطلق استحقاق الشيء أي أولئك المتصفون بهذه الخلال المذكورة هم الوارثون الذين يرثون أعلى منازل الجنة الخالدون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون، وقد عبّر القرآن بالإرث دون الاستحقاق لأن الإرث مُلك دائم.

هذه الآيات التي ذكرناها ورد في فضلها ما روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله الوحي يُسمع عند وجهه كدويّ النحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللّهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا ثم قال: لقد أُنزل عليّ عشر آيات من أقامهن[1] دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم عشر آيات.

---

(١) أقامهن: عمل بهن ولم يخالف ما فيهن.

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾
ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا
فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ
إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾

شرح المفردات

سُلالة: الخلاصة التي استخرجت من غيرها.
نطفة: ماء الرجل والمرأة أي مَنِيِّهما.
قرار مكين: أي مستقر حصين وهو الرحم.
علَقَة: القطعة الجامدة من الدم.
مضْغَة: القطعة من اللحم الشبيهة بما مضغت في الفم.
فتبارك الله: فتعالى وتكاثر خيره وإحسانه.
تُبعثون: البعث إحياء الله الموتى يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

روعة خلق الإنسان

ثم ينتقل القرآن إلى بيان عظمة القدرة الإلهية المتمثلة بخلق الإنسان والمراحل التي تقلَّب فيها قبل أن يُصبح بشراً كامل الخلقة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالةٍ مِنْ طِينٍ﴾ فالإنسان خلقه الله من سلالة من طين، والسلالة هي انتزاع الشيء وإخراجه في رفق. فهذه السلالة انتزعت عن طريق التغذية التي أصلها الطين، والطين هو الماء والتراب. أما إن أصل الإنسان من الماء والتراب فذلك ما يؤيده الواقع؛ فلو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عملية التحاليل لوجدتها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض بالإضافة إلى الماء.

ثم يقول تعالى بعد ذلك عن خلق الإنسان: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ﴾**

والمراد بالنطفة في الآية هو منيّ الرجل الذي يحتوي على ملايين الحييات المنوية وأحدى هذه الحييات المنوية هي التي تُلقِّح بويضة الأُنثى الموجودة في الرحم وهنا تكون أول عملية تكوين الجنين.

ورحم المرأة وصفه القرآن بأنه ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ والقرار هو المستقر والمكين أي متمكن وثابت لا يتزحزح عن موضعه. هذا الوصف يبرز حقيقةً علميةً؛ لأن رحم المرأة موضوع في حوضها الذي يحمي الرحم من كل عدوان خارجي، فالحوض هو مجموعة عظام متصلة بعضها ببعض اتصالاً دقيقاً محكماً فيكون مثل الصندوق يحفظ للمرأة أجهزتها التناسلية. ثم إن هناك عضلات الحوض التي تحفظ الرحم، بالإضافة إلى نسيج ليفي غشائي يحيط بأعضاء الحوض وأوعيته تعرف بالأربطة تحفظ الرحم في مكانه الطبيعي.

ثم يأتي الطور الثاني من تكوين الجنين وهو الذي سمَّاه الله: علقة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ والعلقة في ما ذكره المفسرون: الدم الجامد، والعلقة في اللغة تطلق على كل ما ينشب ويعلق. فبويضة الأنثى الملقَّحة بالحيوان المنوي للرجل تبدأ بالانقسام وتتضاعف خلاياها ولا تمر سبعة أيام إلاّ وقد صارت مثل ثمرة التوتة فتنشب وتعلق بجدار الرحم، ولهذا سميت علقة.

ثم يأتي الطور الثالث من تكوين الجنين حيث وصفه الله ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وطور المضغة يبدأ من الأسبوع الثالث من حياة الجنين وخلاله تظهر في الجنين الكتل البدنية فتعطيه شكل اللحم الممضوغ الذي لاكته الألسن.

ثم يأتي الطور الرابع من تُخلُّق الجنين وفيه تتكون العظام وهي مرحلة تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع حيث يتحول قسم من الكتل البدنية التي أعطت الجنين شكل المضغة من أنسجة غضروفية إلى أنسجة عظمية لتشكل العمود الفقري وبقية الهيكل العظمي وهذا ما ذكره القرآن: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾.

ثم يأتي بعد ذلك الطور الخامس الذي يبدأ من الأسبوع الثامن من الحمل حيث

يتحول القسم الباقي من الكتل البدنية إلى عضلات تكسو العمود الفقري وعظام الأطراف. وهذا ما أعلنه القرآن: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لحماً﴾ فالعظام يبدأ تكوينها قبل العضلات.

وأخيراً يأتي الطور السادس من تكوين الجنين وهو إعطاؤه الشكل الإنساني وقد بيّن علم الإجنة أن مختلف الأجنة عند الحيوانات ذات العظام الفقرية تمر في مرحلة معينة من تطورها لا يستطيع أي عالم أجنة أن يفرق فيما بينها في الشكل حتى الأسبوع السابع أو الثامن وبعد ذلك يأخذ الجنين عند الإنسان شكله الإنساني الذي يميزه عن بقية أجنة الحيوانات ذات العظام الفقرية وهنا يكمن الإعجاز العلمي في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾.

أمام هذه الحقائق التي ذكرها القرآن عن خلق الإنسان لا نملك إلا أن نردد ما جاء في آخر هذه الآيات ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ أي تعالى الله وتعاظم وتقدس فهو سبحانه أحسن الصانعين صنعاً.

من هذا كله يتبين لنا بوضوح أن أطوار الجنين المذكورة في القرآن هي نفس الحقائق التي اكتشفها العلم حديثاً، ألا يكفي ذلك دليلاً وبرهاناً ساطعاً على أن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً.

ثم يبين القرآن مآل الإنسان ﴿ثم إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِك لَمَيِّتُون﴾ أي ثم إنكم بعد هذه الخلقة والعمر المقدر لكم في دنياكم لصائرون إلى الموت ﴿ثم إِنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون من قبوركم أحياءً للمجازاة على أعمالكم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

شرح المفردات

سَبْعَ طَرَائِقَ: سبع سماوات.
بِقَدَرٍ: بمقدار معين.
جَنات: بساتين.
طور سيناء: هو جبل الطور الذي ناجى عليه موسى ربه.
بالدهن: أي بالزيت.
وصِبْغ: سمي الزيت صبغاً لأن الخبز يصبغ به عندما يغمس فيه.
الأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز.

من فضل الله على الناس

ثم يبين الله بعضاً من نعمه على الناس بما يستوجب عبادته وحده:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُم سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ والطرائق هي السماوات وسميت بذلك لأن بعضها فوق بعض. والطرائق جمع طريقة وكل ما فوقه مثله فهو طريقة.

وحقيقة السماوات السبع لاتزال مجهولة لدينا إلى الآن وما قاله المفسرون في ذلك فلا يخرج عن كونه اجتهادات لهم وليست حقائق ثابتة، ومن أقوالهم أن السماوات السبع مراد بها ما كان مفهوماً عند العرب زمن تنزيل القرآن وهي الكواكب الخمسة الآتية المعروفة لهم وهي: عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى، زحل، يضاف إليها

الشمس والقمر. فالقرآن أُنزل بلغة العرب فخوطبوا عن أمر السماء بما وصلت إليه عقولهم. هذا مع العلم أنه اكتشف أخيراً كواكب أخرى بعد اختراع المناظير القوية وهي: أورانوس، ونبتون، وبلوتو.

وهناك تفسير آخر وهو أن «السبع» ليس المراد منها العدد الحصري، فقد تكرر في القرآن السبعة والسبعون والسبعمائة وهذه في لغة العرب المراد منها التضعيف والتكثير على ما جاء في لسان العرب، أي أن هناك كثيراً من الأجرام السماوية، والقرآن أنزل بلغة العرب يفهمه المعاصرون له، وتفهمه الأمم التي تأتي بعدهم. وقد طالعنا العلم أن في السماوات ملايين المجرات وكل مجرة تحتوي على ملايين النجوم بالإضافة إلى ما فيها من كواكب. ويمكن أن يكون المقصود بالعدد السبع هو نفس العدد ولكن لا ندري ما المقصود به والله أعلم.

﴿وما كُنَّا عَنِ الخَلْق غَافِلِينَ﴾ أي وما كان الله غافلاً عما خلقه في الكون فهو يحفظه من الزوال ومن الفوضى ومن اصطدام النجوم والكواكب بعضها ببعض أو بأرضنا فتدمرنا.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ في الأَرضِ﴾ وأنزل الله من السماء ماء عذباً بمقادير معينة بما فيه حاجة العباد. والمراد بالسماء هنا السحب وكل ما علا الإنسان فهو سماء، والسحب التي ينزل منها المطر تنشأ من عمليات التبخر من البحار والأنهر. والمطر هو أساس المياه العذبة على سطح الأرض والعنصر الأساسي للحياة عليها، ومن الأمطار تتغذى الأنهر بواسطة الينابيع وتهب الحياة للمناطق القاحلة ثم هي أخيراً تصب في البحار غير أن بعض مياه الأمطار في أثناء هذه الدورة الطبيعية يتسرب إلى باطن القشرة الأرضية مكوناً المياه الجوفية التي تنتقل من مكان إلى آخر، وهذه المياه الجوفية ينتفع منها الإنسان بواسطة الآبار وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنّاهُ في الأَرْضِ﴾. ثم يعقب الله على ذلك ﴿وإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ به لَقَادِرُونَ﴾ أي وإن الله لقادر على إزالة هذا الماء العذب، وعدم تمكين الناس من الانتفاع به فيغور في الأرض، فاشكروا أيها الناسُ نِعَمَ الله عليكم.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِن نَخيلٍ وأعْنَابٍ﴾ أي جعل الله لكم بهذا الماء بساتين من نخيل وأعناب وخصهما الله بالذكر لأَن هذين النوعين كانا أعظم ثمار الحجاز، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف، فذكّر القرآن العرب بما يعرفون من نعم الله عليهم، بالإضافة إلى فوائدها الجمة ﴿لكم فيها فَوَاكِهُ كَثِيرةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلونَ﴾ لكم في هذه البساتين فواكه متنوعة كثيرة من جميع الثمار عدا النخيل والأعناب وتأكلون من ثمارها.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء﴾ أي وأنشأنا لكم أيها الناس شجرة الزيتون التي تنبت في منطقة طورسيناء من أرض فلسطين القريبة من بلاد العرب. والطور هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، ومعنى سيناء: الحسن أو المبارك وينسب الزيتون إليه لكثرته هناك. ﴿تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وَصِبْغٍ للآكلينَ﴾ أي من ثمار الزيتون تستخرجون زيتاً تنتفعون به وهو إدام للآكلين، وكل إدام يُؤتدم به فهو صبغ، وصبغَ اللقمة دهنَها وغمسَها، وخص الله شجرة الزيتون بالذكر لعظيم منافعها، فالزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة ففيه نسبة كبيرة من البروتيين، كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفوسفورية، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوي على ڤيتامين (أ) و (ب) وزيت الزيتون له فوائد عديدة فهو يفيد الجهاز الهضمي والكبد خاصة. وهو مفضل على كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية إذ لا يسبب أمراضاً للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهون الأخرى.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ في الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، فهذه المخلوقات تدل على قدرة الله وفضله على الناس ﴿نُسْقِيكم مِمَّا في بُطونِهَا﴾ نسقيكم أيها الناس لبناً مستخرجاً مما في بطونها. واللبن (أي الحليب) ومشتقاته يعتبر من أهم عناصر التغذية للبشر ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الإبل والسفن تركبون وتحملون عليها أمتعتكم. وقد كانت الإبل في عصر نزول القرآن من الوسائل للسفر في البر قبل اختراع الطائرات والسيارات، فذكّر الله العرب الذي أنزل عليهم القرآن بهذه النعم التي هي أمام أنظارهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ
عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ
هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ
أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

تتقون: تخافون عقوبة الله.

الملأ: الزعماء والأشراف.

جِنّة: جنون.

فتربَّصوا: انتظروا.

حتى حين: إلى زمن يفيق من جنونه.

فأوحينا إليه: أمرناه.

بأعيننا: تحت رعايتنا وحفظنا.

فإذا جاء أمرنا: أي قضاؤنا بنزول العذاب بهم.

وفار التنور: نبع الماء من تنور الخبز.

فاسْلك: أُدخلْ.

سبق عليه القول: سبق قضاء الله بهلاكه.

استويت: عَلَوْتَ واستقريت.

لمبتلين: لمختبرين.

قصة نوح عليه السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن رسول الله نوح وما لاقى من صدود قومه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ﴾ ونوح عليه السلام هو أول رسول من عند الله ـ بعد نبوة آدم ـ أرسله الله لهداية قومه الذين فشت فيهم عبادة الأصنام ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعبدُوا اللَّه مَالَكُم مِنْ إلَهٍ غيْرُهُ﴾ هذا هو أساس دعوة رسل الله إلى أقوامهم في جميع العصور، وهي عبادة الله وحده ونبذ كل مظاهر العبودية لغير الله. فالعبودية لله وحده تحرر الإنسان من كل الأغلال والأباطيل والخرافات التي كبلت عقل الإنسان على مر العصور وحادت به عن حقيقة الوجود وهي أن لا معبود بحقٍّ إلاّ الله فهو خالق الكون، وهو المنعم على الناس بنعمه التي لا تحصى، وهو المحيي والمميت، وهو وحده الذي يكشف الضر ﴿أفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخشون عقابه وعذابه بعبادتكم غيره.

﴿فَقَالَ الملأُ الَّذين كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾ الملأ: هم الأشراف وكبراء القوم الذين اعترضوا على نبوة نوح، وقالوا لعامة الناس: إن نوحاً إنسان مثلكم ﴿يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُم﴾ يريد أن يتميَّز عليكم ويسودكم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائكَةً﴾ لو شاء الله لجعل رسوله إلى الناس مَلَكاً من الملائكة. هؤلاء الأشراف رأوا في دعوة نوح خطراً على مكانتهم الاجتماعية، لأن رسالة نوح من ربه تحمل في طيَّاتها المساواة بين الناس وعدم استعلاء بعضهم على بعض ولذا كان همّ الأشراف صرف الناس عن ما يدعو إليه نوح والحؤول دون وصول صوته إلى قلوب الناس.

وتابع الأشراف قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا في آبَائِنَا الأوَّلين﴾ أي ما سمعنا بمثل دعوة نوح في آبائنا وأجدادنا الذين كانوا قبلنا. هذا القول ينبىء عن تقيدهم بسيرة آبائهم وأجدادهم، وتقليدهم تقليداً أعمى. فالتقليد الأعمى هو آفة المجتمعات البشرية التي كثيراً ما جعلها ضمن دائرة الخرافات والتخلف والنظم البالية، ورفض نداء العقل، وكل ما من شأنه أن يدفعها إلى الرقي والانصياع إلى الحق.

كما قال الأشراف في شأن نوح: ﴿إن هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي ما نوح إلاّ رجل مجنون فيما يزعمه أن الله أرسله إليكم ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ فانتظروا حتى ينكشف جنونه، أو يحين وقت موته.

ولما رأى نوح تمادي قومه في ضلالهم دعا ربه: ﴿رَبِّ انْصُرْني بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي رب انصرني عليهم بإهلاكهم بسبب تكذيبهم إياي بأني رسول من عندك. فاستجاب الله دعاءه وأمره بصنع السفينة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي أمرناه بأن يصنع السفينة برعايتنا، وبحفظنا، وتعليمنا إياه صنعها، وقد روي أن الله أرسل إليه جبريل فعلمه صنعها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فإذا جاء قضاؤنا بإنزال العذاب بهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي نبع الماء من التنور، والتنور هو الذي يخبز فيه الخبز، وقيل التنور: هو وجه الأرض، وقد جعل الله فوران الماء علامة على بدء الطوفان. فإذا رأيت هذه العلامات يا نوح ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي فأدخل في السفينة من كل أصناف الحيوان والطير زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ إلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ مِنْهُم﴾ أي واحمل في السفينة أهلك الذين آمنوا معك إلاّ من سبق قضاء الله عليهم بالإغراق لبقائهم على الكفر، فلا تحمله معك في السفينة وهما: زوجته وابنه المسمى كنعان ﴿ولا تُخَاطِبْني في الَّذين ظَلَمُوا إنَّهُم مُغْرَقُون﴾ ولا تسألني بطلب النجاة من الغرق للذين كفروا فإنهم لا يستحقون أن تشفع لهم.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ﴾ فإذا استقريت أنت ومن معك من المؤمنين على ظهر السفينة ﴿فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظالمين﴾ أي فاشكر الله يا نوح ومن آمن معك على تخليصكم من هؤلاء الكافرين الظالمين.

ثم أمر الله نوحاً أن يدعو بهذا الدعاء حين خروجه من السفينة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أنزلني مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ﴾ مُنزَلاً: بضم الميم وفتح الزاي بمعنى الإنزال، أي أنزلني إنزالاً مباركاً. وقُرئت مَنزِلاً بفتح الميم وكسر الزاي بمعنى المكان، أي أنزلني مكاناً مباركاً. والبركة معناها الخير ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ وأنت يا رب خير من أنزل عباده المنازل الطيبة لأنك تحفظ من أنزلته وتغمره بفضلك وترد عنه كل مكروه. هذا الدعاء يستحسن الدعاء به لكل من نزل مكاناً يريد الإقامة فيه، وفضل الله ليس له حدود.

﴿إنّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ وإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي إن في قصة نوح عبراً ومواعظ، وإنّا نختبر العباد بهذه الآيات لننظر من يعتبر ويتذكر عاقبة الكفر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ
مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا
مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ
هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ
عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا
بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

قرناً: أمة.

الملأ: أشراف القوم ورؤساؤهم.

أترفناهم: نعّمناهم بسعة الرزق وغيره.

هيهات: اسم فعل بمعنى بَعُدَ.

إنْ هِيَ: إن: حرف نفي بمعنى ما، أي ما هي.

بمبعوثين: البعث هو إخراج الناس أحياء من قبورهم يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

الصيحة: هي الصوت الشديد المزعج التي نشأ عنها الهلاك والعذاب.

فجعلناهم غثاء: فجعلناهم هلكى كالغثاء وهو ما يحمله السيل من العيدان وورق الشجر والأشياء البالية.

فَـبُعْداً: فهلاكاً وطرداً من رحمة الله.

تترى: تباعاً.

إهلاك الأمم بسبب كفرها

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ أي ثم أحدثنا من بعد مهلك قوم نوح قوماً آخرين هم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِم رَسُولاً مِنْهُم﴾ فأرسلنا في قوم ثمود رسولاً من عشيرتهم وهو صالح ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِنْ إلهٍ غَيْـرُهُ﴾ وقلنا لهم على لسانه: اعبدوا الله وحده فليس لكم إلّه يستحق العبادة غيره ﴿أَفلا تَـتَّـقُونَ﴾ افلا تخافون عذاب الله وانتقامه إن كفرتم بربكم وأعرضتم عن عبادته.

﴿وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أي وقال الأشراف من قوم صالح الذين جحدوا وحدانية الله وعبدوا الأصنام وكذبوا بالبعث يوم القيامة ﴿وَأَتْرَفْنَاهُم في الحيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا عليهم في الأرزاق والنعم فبطروا ﴿مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكلونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي قال الأشراف لعامة الناس: ما صالح الذي يدّعي أنه رسول من عند الله إلاّ بشر مماثل لكم في البشرية، يأكل من جنس ما تأكلون، ويشرب من جنس ما تشربون، ومثل هذا لا يكون رسولاً لعدم تميزه عليكم، ثم حذروهم بقولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُم إِنَّـكُم إذاً لخَاسِرونَ﴾ أي وإن أطعتم رجلاً يماثلكم في البشرية أصابكم الغبن والخسران بسبب ترككم دين آبائكم.

ثم طعن الأشراف في وجود البعث ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّـكُم إِذَا مِتُّمْ وكنتُم تُرَاباً وَعِظاماً أَنَّـكُم مُخْرَجُونَ﴾ استفهام على وجه الاستهزاء: أي أيقدم لكم الوعد بأن تخرجوا من قبوركم أحياء يوم القيامة بعد تحلل أجسادكم إلى تراب وأصبحتم عظاماً نخرة ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَات لِمَا تُوعَدُونَ﴾ إن ما وعدكم به بعيد جداً ولن يكون أبداً.

ثم أكدوا إنكارهم للبعث ﴿إِنْ هِيَ إلاّ حَيَاتُنَـا الدُّنْيَـا نَمُوتُ وَنَحْيَـا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾أي ليس هناك إلا حياة واحدة هي هذه الحياة الدنيا يموت البعض فيها ويولد البعض، ولن نبعث أحياء بعد الموت أبداً.

هذا ما قاله الأشراف من قوم رسول الله صالح، وهذا ما يقوله كثير من الناس في عصرنا الحاضر الذين يعتنقون المذاهب المادية التي تقول بأنه ليس هناك بعث بعد

الموت ولا جزاء على الأعمال، ولا حياة إلاّ الحياة الدنيا، هذا المفهوم أدى إلى الانغماس في الشهوات الضارة، وفتح للأطماع البشرية أبواباً للشرور لتلبية رغباتها بأي وسيلة كانت مما أدى إلى الظلم والعدوان على الغير والفساد في الأرض، فالاعتقاد بالبعث هو الدافع الأكبر الذي يلجم النفوس عن الشر.

وتابع الأشراف قولهم عن صالح: **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾** أي ما هو إلا رجل اختلق على الله الكذب وادعى أنه رسول من عنده **﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾** وما نحن بمصدقين له فيما يدعيه ويزعم بأن هناك حياة أخرى بعد الموت.

ولما أصر القوم على الكفر دعا صالح ربه: **﴿قال: ربِّ انْصُرني بِمَا كَذَّبُونِ﴾** أي رب انصرني على قومي وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إياي، فأجابه ربه إلى ما سأل: **﴿قَالَ: عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾** أي عما قليل من الزمن ليصبحن نادمين على إصرارهم على الكفر وذلك حينما يرون ظهور علامات العذاب والهلاك لهم **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾** أي نزل بهم عذاب الله وسخطه فصاح بهم جبريل صيحة شديدة أهلكهم الله بها وكان هلاكهم عدلاً من الله لا ظلماً **﴿فَجَعَلْنَاهُم غُثَاءً﴾** أي أصبحوا هلكى كغثاء السيل، والغثاء ما يحمله السيل مما بَلِيَ واسوَدّ من ورق الشجر والعيدان. تشبيه بليغ لما آل إليه أمرهم من حقارة وتفاهة كغثاء السيل الذي لا نفع منه **﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** فهلاكاً لهم وطرداً لهم من رحمة الله.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِم قُرُوناً آخَرِينَ﴾ أي ثم أوجدنا بعد هلاك قوم ثمود أقواماً آخرين. وفي الكلام حذف، أي فكذبوا أنبياءهم فأهلكهم الله **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** أي لا يقضى على أمة بسبب كفرها قبل الوقت الذي عُيِّن لهلاكها، ولا يتأخر هلاكها عن الوقت المقدّرلها، فوقت الهلاك محدد لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يأتي الاستئصال لهم من الله إلاّ بعد علمه تعالى أنهم لا يزدادون إلاّ كُفراً وأنهم لا يلدون مؤمناً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ثم أرسلنا رسلنا من البشر إلى الناس متتابعين يتبع

بعضهم بعضاً ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوه﴾ كلما جاء رسول من الله إلى أمة بشريعة من ربه كذبوه ورفضوا دعوته ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً﴾ أي فأتبع الله بعضهم بعضاً بالهلاك. ﴿وَجَعَلْنَاهُم أَحَادِيثَ﴾ وجعل الله هلاكهم أحاديث يرددها الناس على سبيل التعجب والعبرة. ﴿فَبُعْداً لِقَوْم لا يُؤْمِنُونَ﴾ فبعداً عن رحمة الله وهلاكاً لقوم لا يصدقون بما جاء به رسل الله. فهذه الآية وردت على سبيل الذم والتوبيخ والوعيد لكل كافر لا يُذعن لشريعة الله.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

شرح المفردات

بآياتنا: بعلامات نبوته وهي المعجزات التسع كالعصا واليد والضفادع والدم وغيرها.

سلطان مبين: حجة واضحة.

عالين: متكبرين.

إلى ربوة: هي المكان المرتفع.

ذاتِ قرار: ذات استقرار لما فيها من الزرع والثمار.

معين: ماء جار.

أمتكم: ملتكم ودينكم.

فتقطَّعوا أمرهم: افترقوا في أمر دينهم.

زُبُراً: فرقاً وطوائف.

موسى وهارون وعيسى عليهم السلام

وبعد الكلام عن بعض رسل الله وما حل بقومهم من هلاك جزاء تكذيبهم لهم يأتي الكلام عن موسى وهارون:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هارون بآياتنا﴾ أي ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بالمعجزات كالعصا واليد والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ونقص من الثمرات التي أصابت قوم فرعون ﴿وَسُلْطَانٍ مُبين﴾ وهذه المعجزات حجة واضحة تبين أنهما رسولان من عندنا ﴿إلى فِرْعَوْنَ وَملإِهِ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون وأشراف قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ فاستكبروا عن الإيمان بالله وعبادته وحده وكانوا قوماً متكبرين ومتطاولين على الناس بالبغي والظلم ﴿فقالوا: أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي قالوا في تعجب وإنكار: أنصدق وننقاد لرجلين مثلنا في البشرية ونتبعهما ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ وقومهما بنو إسرائيل خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا وينقادون لأمرنا ﴿فَكَذَّبوهُمَا فَكَانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ﴾ فكذبوا موسى وهارون في دعوتهما لهم إلى عبادة الله وحده فكان مصيرهم الهلاك ﴿وَلَقَدْ آتينَا مُوسَى الكِتَاب لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ﴾ ولقد أنزلنا على موسى التوراة ليهتدي بها بنو إسرائيل.

وبعد الكلام عن موسى وهارون يأتي الكلام عن رسول الله عيسى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَـةً﴾ أي وجعلنا عيسى وأمه مريم معجزة دالة على قدرتنا إذ حملت به من غير أن يمسها بشر وأنطقناه في المهد وأجرينا على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ﴿وآويناهُما إلى رَبْوَةٍ﴾ واسكناهما في مكان مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي يستقر من يأوي إليها لما فيها من الأمن والثمار والزروع ﴿وَمَعِينٍ﴾ ومأواهما كان قرب ماءٍ جارٍ ظاهر للعيون. قيل إن هذا المكان هو بيت المقدس وقيل بغوطة دمشق.

وسبب الإيواء أن مريم فرت بابنها عيسى إلى هذه الربوة وبقيت بها ردحاً من الزمن وقد ذهب بهما ابن عمها يوسف النجار ثم رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم.

وبعد الكلام عن موسى وعيسى يوجه الله الخطاب إلى رسله: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً﴾ والأكل من الطيبات يشمل تحري الحلال منها وما يستلذ

ويستطاب من المآكل والمشارب التي أحلها الله. كما أمر الله الرسل بأن يعملوا بصالح الأعمال. وتقديم قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن الطَّيِّباتِ﴾ على قوله ﴿واعْمَلُوا صَالِحاً﴾ فيه دلالة على أن العمل الصالح لا بد أن يكون مسبوقاً بأكل الحلال. وهذا الأمر إلى رسل الله يشمل أتباعهم وأممهم وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي أن رسول الله محمداً ﷺ قال: ياأيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلاّ طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يأيها الرُّسُل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾.

ثم يعقب الله على ذلك قوله: ﴿إني بِمَا تَعْمَلُون عَليمٌ﴾ أي إني بأعمالكم أيها الناس عليم لا يخفى عليَّ شيء منها ومجازيكم عليها.

ويخاطب الله رسله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وإن دينكم أَيها الرُّسل دين واحد وملة واحدة وهي الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله وعبادته وحده ونبذ كل المعبودات من دونه واتقاء معصيته. ﴿وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُونِ﴾ وأنا ربكم أيها الناس لا شريك لي في الربوبية فخافوا عذابي ولا تعصوني.

أما الشرائع التي أُنزلت على رسل الله فتختلف بأحوال الأمم وتطورها ودرجة استعدادها العقلي وقد بيَّن الله ذلك بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكم شِرْعَةً وَمِنهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨] إلى أن جاء خاتم الأنبياء محمد ﷺ بشريعة كاملة للبشرية جمعاء وهي الشريعة التي لا يقبل الله غيرها إلى يوم القيامة.

ثم يبيِّن القرآن أن الأمم التي أرسل الله إليها رسله اختلفوا في أمر دينهم: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بينهم زُبُراً﴾ فتقطعوا: أي افترقوا. ولفظ تقطعوا فيه المبالغة لشدة اختلافهم حول دينهم حيث جعلوه قطعاً بدل أن يكون شريعة واحدة كما أنزلها الله على رسله. وأمرُهم: أي أمر دينهم. وزبراً: واحدها زبور، وهي الفرقة والطائفة؛ فأَتْبَاع الأديان فَرَّقوا أَمْرَ دينهم قطعاً وصاروا فرقاً وطوائف ﴿كُلُّ حِزْبٍ بمَا لَدَيهم فَرِحُونَ﴾ كل فريق مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجباً به يرى الحق في جانبه والباطل في سواه. فما أروعَ هذا الوصفَ الذي يجسد حقيقة الوضع الذي عليه طوائف الأديان الحاضرة.

فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ
لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ
هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ
ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا
سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا
عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ
إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾

شرح المفردات

فَذَرهُم في غمرتهم: فاتركهم بما يغمرهم من جهل وغفلة.

حتى حينٍ: إلى الزمن المقدر لهلاكهم.

مُشفقون: خائفون حذرون.

يُؤتُون ما آتوا: يُعطُونَ ما أَعطَوْا من الصدقات.

يجأرون: يصرخون مستغيثين.

على أعقابكم تنكصون: تعرضون مدبرين عن سماعها.

سامرا: متحدثين ليلاً.

تهجرون: يقولون في القرآن والنبيِّ الباطلَ والهزلَ من الكلام.

من صفات المؤمنين والكافرين

﴿فَذَرْهُم في غَمْرَتِهِم حَتَّى حِينٍ﴾ أي فاترك يا محمد هؤلاء الكفار في جهلهم وضلالهم إلى حين أن يقضي الله فيهم بالهلاك والعذاب، والغمرة في اللغة ما يغمرك ويعلوك، والغمْر الماء الكثير لأنه يغطي الأرض، وقد شبهوا بالغمرة وصفاً لحالهم حين ستر الجهل والضلال عقولهم بحال من غمره الماء وغطاه.

ولما كان الكفار في نعم وافرة جاز أن يظنوا أن تلك النعم هي كالثواب المعجل لهم فبيَّن الله سبحانه أن الأمر بخلاف ذلك: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وبنين. نُسَارِعُ لهم في الخيراتِ بَلْ لا يَشْعرونَ﴾ أي أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم نسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي كلا ليس الأمر كما يزعمون، بل لا يشعرون بأن هذا الإكرام ليس إلاّ استدراجاً لهم في المعاصي واستجراراً لهم في زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة في الإحسان إليهم.

وفي مقابل هؤلاء يذكر الله بعض صفات المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَـةِ رَبِّهم مُشْفِقُون﴾ والإشفاق يتضمن معنى الخشية مع زيادة رقة وضعف. وقد جمع بين الخشية والإشفاق للتأكيد، ومن العلماء من حمل معنى الإشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة، ويكون المعنى: والذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته.

﴿والّذين هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ﴾ وآيات الله تعالى هي المخلوقات التي يستدل به المؤمنون على وجود الله من سماءٍ وأرض وما عليها من كائنات، وقد يراد بآيات الله: آياتُ القرآن المنزلةُ على محمد ﷺ فالمؤمنون يُصدِّقون بأنها من عند الله.

﴿والَّذِين هُمْ بربِّهم لا يُشركون﴾ ومن صفاتهم أنهم يعبدون ربهم ويخلصون له العبادة ولا يشركون بعبادته أحداً.

﴿والَّذين يُـؤْتُونَ ما آتَوْا وقلُوبهم وَجِلَـةٌ﴾ ومن صفاتهم أنهم يُعْطُون ما أَعْطَوْه من الصدقات والزكاة وقلوبهم خائفة من أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق لأنهم يعتقدون أنهم راجعون إلى الله ومحاسبون على أعمالهم.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ في الخيراتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أُولئك المتصفون بتلك الصفات يبادرون إلى فعل الطاعات وأعمال الخير ويتعجلون ثوابها وهم سابقون الناس لأجلها.

﴿ولا نُكَلِّفُ نَفساً إلاّ وُسْعَهَا﴾ أي أن سنة الله قضت ألاَّ يكلف الناس بالطاعات إلا بما في وسعهم، وقدر طاقتهم. فمثلاً: من لم يستطع أن يؤديَ الصلاة قائماً يصلي قاعداً، ومن لم يستطع الصوم لمرض أو لسفر يفطر، ويقضي أو يخرج الفدية وهكذا في كل التكاليف الشرعية. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بالحقِّ﴾ وعند الله كتاب دونت فيه أعمال الناس ليجازوا عليها ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص في الثواب أو زيادة في العقاب ﴿بَلْ قُلُوبُهم في غَمْرَةٍ﴾ بل قلوب الكفار يغمرها الضلال والجهل ويغطيها ﴿وَلَهُمْ أعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ ولهم أعمال سيئة غير الكفر بالله والشرك به ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وهم لا بد أن يعملوها لأنها ثابتة في علم الله، ويدخلوا النار بسببها يوم القيامة.

﴿حَتَّى إذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالعَذَابِ﴾ ومترفيهم أي المتنعمين منهم وهم رؤساؤهم وأغنياؤهم، والعذاب الذي أصابهم هو يوم معركة بدر حيث قتل الكثير منهم وأُسر بعضهم وجرح من جرح منهم، وقد يراد بالعذاب هنا عذاب يوم القيامة ﴿إذا هُمْ يَجْأَرونَ﴾ أي يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه.

ثم يقال لهم على وجه التبكيت ﴿لا تجأَرُوا اليَوْمَ إِنَّكُم مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تصرخوا اليوم ولا تستغيثوا فلن تفلتوا من عذاب الله ولن تأتيكم نصرة من ربكم تحول بينكم وبين العذاب. وخصص الله المترفين بالعذاب مع أن العذاب يعم الكفار جميعاً المترفين وغير المترفين، وذلك لتصوير الواقع الأليم الذي آلوا إليه فانتقلوا من النعيم التام إلى الشقاء الخالص.

ثم يبين الله عدم النصرة لهم: ﴿قَدْ كَانَتْ آياتي تُتْلى عَلَيْكُم﴾ أي قد كانت آيات القرآن تُقرأُ عليكم ﴿فَكُنْتُم على أَعْقَابِكُم تَنْكِصُونَ﴾ والنكوص: الرجوع إلى خلف، والعقب مؤخر الرِّجْلِ وهو كناية عن إعراضهم عن سماع آيات القرآن فضلاً عن التصديق بها ﴿مُسْتَكْبِرينَ بِهِ﴾ أي مستكبرين ببيت الله الحرام ومفتخرين بولايته وكانوا يقولون لا

يغلبنا أحد فيه أو مستكبرين عن التصديق بأن القرآن من عند الله ﴿سَامِراً تَهْجُرونَ﴾ سامراً: مشتق من السَّمَر وهو الحديث ليلاً. ومعنى تهجرون بفتح التاء: الهذيان، واللغو من الكلام. وقرئت تُهجرون بضم التاء وهو الفحش من الكلام، فقد كان كفار مكة يجتمعون حول بيت الله الحرام ليلاً وكان عامة حديثهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وأنه أساطير الأولين.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ
بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ
رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن
ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

شرح المفردات

أفلم يدَّبَّروا القول: أفلم يتأملوا بمعاني القرآن الدالة على صدق النبي ﷺ.

جنة: جنون.

ذكرهم: هو القرآن الذي به فخرهم وشرفهم.

خَرْجاً: أجراً على اداء رسالة الله.

الصراط: الطريق الذي لا ميل فيه ولا اعوجاج.

لناكبون: لعادلون مبتعدون.

للجوا: لتمادَوْا.

يعمهون: يتحيرون ويترددون.

فما استكانوا: فما خضعوا ولا انقادوا.

مبلسون: يائسون من كل خير، متحيرون.

مكابرة الكافرين وإعراضهم عن الحق

ثم يبين الله سبب إعراض الكافرين عن التصديق بأن القرآن كتاب الله وأن محمداً رسول الله الذي يعود إلى الجهل والعناد والمكابرة عن الإقرار بالحق:

أولاً: عدم تأملهم معاني القرآن ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ والقول المراد به هنا القرآن، وسمي القرآن قولاً لأنهم خوطبوا به. والمعنى: أفلم يتأملوا في القرآن ويتبصّروا بما فيه؛ فيعلموا أنه كلام الله حقاً. هذا هو السبب لعدم تصديقهم بأن القرآن كتاب الله وهو أنهم لم يتدبروا القرآن ولم يتأملوا معانيه. وهذا هو السبب الجوهري في عصرنا الحاضر لعدم اعتناق أتباع الأديان للإسلام. فلو تأمل أي إنسان غريب عن الإسلام آيات القرآن وتفكر بمعانيها بعقل منفتح وبتجرد تام وقارنها بجميع الكتب الدينية الأخرى لآمن بأن القرآن هو كلام الله الحق، واعتنق الإسلام عن اقتناع ويقين.

فالقرآن هو الكتاب المُعْجِز للبشر بأسلوبه وفصاحته وبما اشتمل عليه من الهداية والتشريعات العادلة وبما بيّن فيه من حقائق الألوهية والأمور الغيبية التي اختلف الناس حولها، وبما ذكر من أخبار رسل الله مع قومهم التي كانت خافية على الناس، كل هذه الأمور وغيرها تشهد بأن القرآن وحي إلهي.

ثانياً: إرسال الله للرسل ليس غريباً عن أسماعهم ﴿أَمْ جَاءَهُم مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم: بمعنى بل التي تفيد الانتقال من معنى إلى آخر، أي بل جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين فلذلك أنكروه، لا ليس كذلك، فقد وصلت إلى أسماعهم الكثير من أخبار رسل الله الذين أنزل عليهم الكتب الإلهية، فلماذا يستبعدون إنزال القرآن على محمد ويظلون على كفرهم وضلالهم.

ثالثاً: معرفتهم حق المعرفة بسيرة محمد، ومع هذه المعرفة جحدوا نبوته: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُم فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي بل أنهم لم يعرفوا سيرة رسول الله محمد إليهم، فلذلك جحدوا نبوته، وهذا خلاف الواقع فقد كانوا عالمين بسيرته وما يتحلى به

من اخلاق رفيعة وأمانة وصدق حتى لقبوه بالأمين، ومن كان يتحلى بهذه الصفات لا يمكن أن يدّعي النبوة كذباً.

وإني أتوجه إلى كل مفكر حرّ من أتباع الأديان الأخرى أن يقوم بدراسة سيرة محمد بتجرّد وما تشتمل عليه من مثل عليا وتضحيات جمة وقيادة رشيدة، ووصايا لقومه دُوِّنت في عشرات المجلدات وهي التي تسمى كتب الأحاديث الشريفة فسيجد فيها كل طالب للحقيقة البرهان الساطع بأن محمداً رسول الله حقاً إلى البشرية جمعاء.

رابعاً: انتفاء الجنون عن النبي ﷺ: ﴿أم يَقُولُونَ به جِنَّةٌ﴾ أي بل يقولون إن محمداً مجنون، وهذا من أغرب الافتراءات منهم، فقد كانوا يعرفون أن محمداً كان أرجح الناس عقلاً، وأحسنهم رأياً، وأوفرهم رزانة. ثم يقول تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالحَقِّ﴾ بل جاءهم محمد بالدين الحق ﴿وَأَكْثَرُهُم لِلحقِّ كَارِهُونَ﴾ وأكثرهم يكرهون الإسلام وذلك لما جُبلوا عليه من التعصب والانحراف عن الصواب. وظاهر النص القرآني أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفاً من الكارهين له وهم الأكثرية.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُم لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ والحق ضد الباطل. قيل المراد به الله سبحانه وقيل المراد به الإسلام، فلو اتبع الحق ما يهوى الناس من اتخاذِ آلهة مع الله وأتباعٍ للشهوات من إباحة الظلم وإهمال القيم الخلقية لوقع الفساد في الأرض بسبب تنافر الآلهة وسيطرة البعض على الآخر واختلاف تدبيرهم، ولفسد المجتمع بشيوع المنكرات، وإذا فسدت السماوات والأرض فسد من فيها من الخلق ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ والمراد بالذِّكْرِ هنا هو القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ﴾ فهم عن هذا القرآن معرضون وكان اللائق بهم الأخذ به وتعظيمه لأن فيه عزهم وفخرهم.

﴿أم تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ استفهام توبيخ، أي أتسألهم يا محمد مالاً مقابل هدايتك لهم، وهذا لم يحصل قط، ولم تطلب مالاً منهم على ذلك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّك خَيْرٌ﴾ فرزق

ربك الذي يرزقك في الدنيا وثوابه الذي يعطيك إياه في الآخرة خير لك من المال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وهو سبحانه خير من يرزق ولا يساويه أحد في التفضل على عباده.

وهنا إشارة إلى أن العلماء بالله الراسخين في العلم يترفعون عن أخذ الأجرة فيما يدعون به الخلق إلى الله إذا كانوا في كفاف من العيش لا تحوجهم إلى أخذ الراتب أجرة على وعظهم، فإنه ما من نبي دعا إلى الله إلاّ قال: إن أجري إلا على الله.

ثم يوجه الله خطابه إلى رسوله محمد: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك لتدعوهم يا محمد إلى طريق مستقيم وهو دين الإسلام التي تشهد العقول السليمة باستقامته الذي يوصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ وإن الذين لا يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت هم عن الطريق المستقيم لعادلون عنه ومائلون. فإنكار الآخرة هو الذي يفتح للإنسان باب الشهوات على مصراعيه ويسوغ له فعل منكر قبيح لأنه يظن أنْ لا حسابَ ولا جزاءَ على ما عمله في دنياه، أما التصديق بوجود الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال فهو الذي يردع الإنسان عن الشرور والمنكرات.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُم وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِنْ ضُرٍّ﴾ ولو رحمهم الله وأزال عنهم ما نزل بهم من ضرٍّ في أبدانهم، ونقص في أموالهم، وقحط في مزروعاتهم ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾ لتمادوا في ضلالهم، واستمروا في عنادهم يترددون متحيِّرين ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالعَذَابِ﴾ ولقد أصابهم الله بالعذاب، والعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم في سنين القحط، أو الذي نالهم يوم معركة بدر من القتل والأسر ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِم وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما خضعوا لربهم ولا تذللوا له ولم يحصل منهم رجوع إلى الله والتجاء إليه ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من الله عذاب شديد في جهنم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون يائسون من كل خير لا يدرون ما يصنعون.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا
وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ
مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ
بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾

شرح المفردات

أنشأ: الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته.

ذرأكم: خلقكم وبثكم في الأرض بالتناسل فيها.

تحشرون: تجمعون يوم القيامة للحساب على أعمالكم والمجازاة عليها.

أساطير الأولين: ما سطره الأولون من الأكاذيب.

تذكّرون: تَـتَّعِظُون.

ملكوت: المُلك، وزيادة التاء للمبالغة.

يُجِيرُ: يغيث من يستجير به.

ولا يُجار عليه: ولا يُغاث من يريد الله تعذيبه بمنع العذاب عنه.

فأنّى تُسحرون: فكيف تخدعون وتُصرفون عن طاعة الله وتوحيده.

إثبات البعث ووحدانية الله

ثم يبين الله فضله على عباده والنِّعَم التي خصهم بها بقوله:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُم السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ وهو الله الذي أعطاكم السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والقلوب التي تفقهون بها. وإنما خص الله السمع والأبصار والأفئدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الله شكراً قليلاً غير معتدٍّ به في مقابلِ تلك النعم الجليلة. أو بمعنى أنهم لا يشكرونه ألبتة، كما يقال لجاحد النعمة: ما أقلَّ شكرَه: أي لا يشكر البتة.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُم في الأَرْضِ﴾ وهو الله سبحانه خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإلى الله تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

﴿وهُوَ الَّذي يُحيـي ويُميتُ﴾ وهو الله سبحانه يحيـي خلقه بعد أن كانوا أمواتاً بنفخ الروح فيهم ثم يميتهم بعد أن أحياهم ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْل والنَّهارِ﴾ وهو سبحانه سخر الليل والنهار وجعلهما متعاقبين ويختلفان في الطول والقصر حسب الفصول الأربعة ﴿أفلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكرون في هذه الظواهر الدالة على قدرة الله العظيمة.

ثم يبين الله إنكار المشركين للبعث: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُون﴾ أي بل قلد المشركون الأمم السابقة في إنكار البعث ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لمبعُوثون﴾ أي أنبعث أحياءً بعد أن نموتَ وتتحلل أجسادنا ونصيرَ تراباً وعظاماً ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وأباؤنَا هَذَا مِنْ قبْلُ﴾ لقد وُعدنا بالحياة بعد الموت ووُعد آباؤنا من قبلنا بذلك ولم نر له حقيقة ﴿إن هَذَا إلاَّ أَسَاطيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعد إلاّ أكاذيب كتبها الأولون مما لا حقيقة لها.

ولما كان الكفار في بلاد العرب قبل مجيء الإسلام يتظاهرون بالإقرار بوجود الله ولكنهم كانوا يعبدون الأصنام ويقولون: ﴿مَا نَعْبدهُمْ إلاَّ لِيُـقَرِّبُونَا إلى الله زُلفى﴾

[الزمر: ٣٩]. كما أنكروا إحياء الموتى يوم القيامة، لذا أمر الله رسوله أن يسأل هؤلاء الكفار عن القضايا الآتية ليكون الجواب المتضمن لها بطلان لمعتقداتهم:

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: من الذي ملك الأرض ومن فيها من الناس وسائر المخلوقات، إن كان لكم علم فأجيبوني **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾** أي أنهم سيقرون بأن الأرض ومن فيها ملكاً لله دون غيره **﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** افلا تتعظون بأن من خلق الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إعادتها ثانية، فإن الإعادة كما هو معلوم أهون من البدء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نفي لعبادة الأصنام لأن الله هو المتفرد بخلق الأرض ومن عليها فلا موجب لعبادة غير الله.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوات السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ وقل لهم يا محمد من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، والعرش كني به عن العز والسلطان والمملكة وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم **﴿سَيَقُولُون لِلَّهِ﴾** سيقرون بأن الله هو ربها وخالقها **﴿أفَلاَ تَتَّقُونَ﴾** أي أفلا تخافون عذاب الله وتتركون عبادة الأصنام وغيرها.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ﴾ وقل لهم يا محمد من بيده ملك كل شيء ومن له الحكم المطلق في كل شيء **﴿وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** وهو يغيث من يشاء، ولا يستطيع أن يمنع أحد أحداً من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته **﴿إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾** إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك **﴿سَيَقُولُونَ للَّهِ﴾** أي سيعترفون بما دل عليه العقل والفطرة السليمة بأن ذلك كل لله وحده مُلكاً وتدبيراً **﴿قُلْ فأنّى تُسْحَرُونَ﴾** وقل لهم يا محمد فكيف تصرفون عن الحق وتخدعون، وكيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً كمن كان مسحوراً مختل العقل **﴿بَلْ أتيناهُم بالحَقِّ﴾** بل بينا لهم على لسان رسولنا محمد بأن الله واحد لا شريك له **﴿وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾** فيما ينسبونه إلى الله من الولد والشريك والتقرب إليه بعبادة الأصنام.

ثم ينفي الله عن نفسه الولد والشريك ببرهان ساطع وحجة واضحة:

﴿ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ الله من ولد كما يقول النصارى والقائلون من العرب بأن الملائكة بنات الله ﴿وَمَا كانَ مَعَهُ مِنْ إلَهٍ﴾ وما كان معه من إلَه يشاركه في الألوهية كما يقول عبدة الأصنام وغيرهم ﴿إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ إذ لو كان له شريك لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولغلب بعضهم بعضاً كما يُرى في حال ملوك الأرض، وحينئذ لا يستحق أن يكون الضعيف المغلوب إلَهاً.

هذا الدليل القرآني كما دل على نفي الشريك لله فإنه يدل أيضاً على نفي الولد، لأن الولد قد ينازع أباه في ملكه كما هو مشاهد في الدنيا. ولو تعددت الآلهة لعم الفساد في الأرض والسماء كما جاء في القرآن أيضاً عند الكلام عن السماء والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهة إلاَّ الله لَفَسَدتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وبما أن الكون منتظم في غاية الانتظام في سيْرِه وسننه فتكون النتيجة الحتمية التي يقرّ بها كل عقل سليم بأن الله واحد لا شريك له، ثم يأتي ختام هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصفونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عن الشريك والولد ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم الله ما يغيب عن أنظار المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فتقدَّسَ الله وتنزه عما يقول المفترون بأن لله شريكاً وولداً.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾
وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ
أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ
صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ
فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

شرح المفردات

همزات الشياطين: وساوسهم التي تفسد الإنسان وتدفعه إلى معصية الله.

بَرْزَخ: ما بين الموت والقيامة.

الصّور: البوق.

ثقُلت موازينه: أي موزوناته من الحسنات.

تلفح: تحرق.

كالحون: عابسون في غم وحزن.

خسارة الكافرين في الآخرة

وبعد تقرير وحدانية الله ونفي الشريك عنه أمر الله رسوله محمداً بأن يلتجىء إليه عند حلول العذاب بالكافرين:

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي قل يا محمد: رب إن أنزلت بالكافرين ما أوعدتهم من العذاب في الدنيا وأنا موجود بينهم **﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْني في القَوْمِ الظَّالمين﴾**

فأتوسل إليك ألاّ تجعلني قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم. وكُرّرت لفظة (رب) مرتين تعليماً للرسول والمؤمنين للمبالغة في التضرع عند ظهور أمارات العذاب. ومعلوم أن الرسول معصوم عن الظلم ولكنه أُمر بالدعاء إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أي ونحن قادرون يا محمد على أن نريك العذاب الذي أوعدناهم به.

ثم أرشد الله رسوله محمداً إلى كيفية معاملة الكفار إذا لحقه الأذى منهم:

﴿ٱدْفَعْ بالتي هِيَ أَحْسَنُ السَّيئة﴾ أي اصفح عن إساءتهم وقابِلْها بما أمكن من الإحسان ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ الله اعلم بما يصفونك فيه من قبيح الصفات وما يصفون دعوتك من سوء وافتراء وسنجازيهم على ذلك.

ثم أمر الله رسوله محمداً بأن يستعيذ به من وساوس الشياطين ﴿وَقُلْ رَبِّ أعوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَـاطِينِ﴾ أي ألوذ بك يا رب وألتجىء من خطرات الشياطين ووساوسهم التي تدفع إلى المعاصي والعمل بما لا يرضيك ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ وألتجىء إليك يا رب أن يكونوا معي في حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا لم يكن لهم عمل إلاّ الإغراء على معصيتك.

ثم أخبر الله عما يقوله الكافرون حين معاينة الموت:

﴿حتَّى إذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموتُ قَالَ: ربِّ ارْجِعُونِ﴾ حتى إذا جاء الموتُ أحدَ الكفار وظهرت له أحوال الآخرة قال متحسراً نادماً: رب ردني حيًا إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فيما تَرَكْتُ﴾ لعلي اعمل عملاً صالحاً فيما تركته من مالي، وما قصَّرت فيه من عبادتك وحدك ﴿كَلاَّ إنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلا: كلمة ردع وزجر، أي لا يجيبه الله إلى طلبه، وتلك كلمة لا بد أن يقولها كل محتضر ظالم، ولا فائدة من رجوعه إلى الدنيا، لأنه لو أُجيب إلى ما يطلب لما وفى بما يقول ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ والموت حاجز بينهم وبين ما يتمنون إلى أن يبعثهم الله أحياء يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الصور هو بوق ينفخ فيه نفختان يوم القيامة فيُسمع صوت عظيم عند كل نفخة. النفخة الأولى في البوق تموت عندها الخلائق في السماوات والأرض، والنفخة الثانية تحيا عندها المخلوقات وتقوم من القبور وعندئذ يساقون إلى الحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿فلا أَنْسَابَ بَيْنَهُم﴾ أي حينئذ يتعطل التفاخر بالأنساب، كما هو حالهم في الدنيا ولا ينفع الإنسان في هذا الموقف العصيب غير إيمانه وعمله الصالح ﴿وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه، فلكل منهم يومئذ من الهم ما يشغله عن سواه. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ فمن ثقلت موزوناته من أعمال صالحة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ فأولئك الذين فازوا بالمرام فنجوا من عذاب النار وأُدخلوا الجنة دار النعيم ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي من الحسنات ورجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم في الكفر والمعاصي ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ومآلهم أن يمكثوا في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تَلْفَحُ وجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ تحرق وجوههم، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف أعضاء الإنسان ﴿وَهُمْ فيها كَالِحُونَ﴾ وهم في جهنم عابسون مشوّهو المنظر.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ
ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى
وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ
ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ
لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾

شرح المفردات

غلبت علينا شقوتنا: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا.

اخسئوا: أي ابعُدوا وانزجِرُوا.

العادّين: الذين يتمكنون من عد أيامها.

عبثاً: لا لفائدة ولا لحكمة.

حسابه: جزاؤه.

توبيخ الكافرين في الآخرة

وبعد أن بين الله مصير الكافرين في النار ذكر ما يُقال لهم على سبيل التوبيخ:

﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تُكذّبونَ﴾ أي ألم تكن آيات القرآن تقرأ عليكم فكنتم تكذبون بها وتعرضون عنها **﴿قالوا: ربَّنا غَلبتْ علينا شِقْوَتُنا﴾** فيجيبون مقرين بخطئهم: ربنا طغت علينا لذاتنا وأهواؤنا فساقتنا إلى هذه الشقاوة، والشقاوة هي

سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أفعالهم ﴿وَكُنَّا قوماً ضَالِّينَ﴾ وكنا قوماً ضالين عن الهدى وطريق الحق ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ربنا أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الدنيا فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي فإننا متعدُّون على حدودك ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيها ولا تُكَلِّمُونِ﴾ اخسئوا: لفظة تستعمل في الزجر والإبعاد أي انزجروا وابعُدوا ولا تكلمونِ في رفع العذاب عنكم.

ثم بين الله السبب فيما نالهم من العذاب فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادي يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لنَا وارْحَمْنَا وأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي إن فريقاً من عباد الله ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر يقولون في الدنيا: ربنا صدقنا بوحدانيتك ورسلك فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك وأنت خير من يرحم عبادك ﴿فَاتَّخَذْتموهم سِخْرِيًّا حتى أَنْسَوْكُم ذِكْري وَكُنْتُم مِنهُم تَضْحَكُون﴾ أي فكنتم تسخرون من المؤمنين في الدنيا حتى أنساكم الاشتغالُ بالسخريةِ منهم، عن ذكري وعبادتي وطاعتي وكنتم منهم تضحكون استهزاءً من عبادتهم لي ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَروا إِنَّهُم هُمُ الفَائِزُونَ﴾ إني جازيتهم يوم القيامة بما صبروا على أذاكم بالدخول إلى الجنة إنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم.

وبعدما ذكرت الآياتُ ـ من قبلُ ـ طلبَ الكفار الرجوعَ إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم من طاعة الله وأخبرهم الله أن ذلك غير كائن، ذكر الله تعالى هنا أنهم يسألون وهم في النار سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم في الأرض. ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ في الأرض عدد سنين﴾ والمراد ما لبثوه وهم أحياء على وجه الأرض، فيكون جوابهم: ﴿قَالوا لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقد نسوا المدة التي لبثوها في الدنيا لعظم ما هم عليه من الأهوال والعذاب حتى ظنوا أن المدة يومٌ واحدٌ أو بعض يوم. وتابع الكفار قولهم: ﴿فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾ فاسأل المتمكنين في معرفة العدد من الملائكة.

﴿قَالَ: إِن لَبِثْتُم إلاَّ قَليلاً لَوْ أَنَّكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي قال لهم المَلك: ما عشتم في الدنيا إلاّ زمناً قليلاً، ولو انكم كنتم تعلمون عاقبة الكفر والعصيان لآمنتم وأطعتم ربكم.

فسؤال الكفار عن مدة لبثهم في الدنيا هو تعريفهم قلة أيام الدنيا وسرعة انقضائها في مقابل أيام الآخرة الخالدة.

ثم يشدد الله التوبيخ على الكافرين لغفلتهم عن الآخرة: ﴿أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنا لا تُرجَعُونَ﴾ أي أظننتم أنما خلقناكم لعباً وباطلاً بلا قصد ولا حكمة وأنكم بعد مماتكم لا تُبعثون أحياء ولا ترجعون إلى الله. كلا إنما خلقناكم لعبادتنا ولنختبركم على أعمالكم لتجزون عنها في الآخرة ﴿فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الحَقُّ﴾ فتقدس الله أن يخلق شيئاً عبثاً فهو مالك الملك كله الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه ﴿لا إِلَه إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الكريم﴾ لا معبود بحقٍّ إلاّ الله رب العرش المحيط بجميع المخلوقات الذي يدبر فيه نظام الكون. ووصف العرش بالكريم لأن الرحمة تتنزل منه والخير والبركة.

ثم يأتي الرد الإلهي على من يعبد إلّهاً آخر مع الله بصيغة التهديد والوعيد:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخر لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي ومن يعبد مع الله إلّهاً آخر لا بينة له به ولا حجة فيما يعبده من دون الله سبحانه ﴿فَإِنَّما حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّه﴾ فإنما جزاؤه عند ربه يوم القيامة ﴿إِنَّهُ لا يُفلحُ الكافِرُونَ﴾ إنه لا ينجح أهل الكفر ولا يدركون الخلود في النعيم، وهذا يقابل افتتاح هذه السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وهنا خَتَم بخيبة الكافرين.

ثم يأتي الخطاب لرسول الله ولكل مؤمن في ختام هذه السورة: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي رب استر ذنوبي بعفوك وارحمني بقبول توبتي وأنت خير من رحم. هذا الختام للسورة ﴿وَأَنت خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ رد قاطع على من اتهم الإسلام بأنه يصف الله بالجبروت والقهر فحسب؛ فالله في الإسلام هو ارحم الراحمين بخلقه والرحمة هي المدخل إلى محبة الله، والاطمئنان إلى عدله، والرجوع إليه عند كل نائبة.

من المراجع

جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
تفسير الكشاف للزمخشري
فتح القدير لمحمد بن علي محمد الشوكاني
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
حاشية الصاوي على تفسير الجلالين لأحمد بن محمد الصاوي
تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
المنتخب في تفسير القرآن ـ وزارة الأوقاف، مصر ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
صفوة البيان لمعاني القرآن لحسين مخلوف
صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني
تفسير القاسمي ـ محاسن التأويل ـ لمحمد جمال الدين القاسمي
في ظلال القرآن لسيد قطب
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني
خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار

الفهرس

سورة المؤمنون ٩٣

كلمة الشكر

أقدم شكري وامتناني
لفضيلة الأستاذ الشيخ شريف خليل سكر
وفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حلو
لما قدما لي من معونة وملاحظات قيمة
سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة دينه

المؤلف

كتب للمؤلف:

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية

روح الدين الإسلامي
باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء

رُوحُ القرآن الكريم

تفسير
سُورة النُّور
وأحكامها

بقلم
عَفيف عَبد الفتّاح طبّاره

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسرين من السلف الصالح وآراء المفسرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقةٍ مبسطة بعيدة عن التطويل الممل والإيجاز المخل.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنة النبوية وفقه اللغة.
- يبين التفسير العلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوبٍ سهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسر المجمل من الآياتِ بما هو مفصل في آياتٍ أخرى.

دراسات إسلامية 2.5 ISBN 9953-9-0537-1
9 789953 905372 2

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

رُوحُ القرآن الكريم

تفسير

سُورَةُ النُّورِ

وأحكامها

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

الطبعة الثالثة

شباط/فبراير ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لفضيلة الأستاذ
الشيخ شريف شكر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

إن سُوَر القرآن الكريم أنزلها الله معجزة في أسلوبها، معجزة في أحكامها ومواعظها وقصصها، وغير ذلك من المواضيع التي تطرّق إليها القرآن، والتي بمجموعها تؤهل المؤمن لنيل رضا الرحمن، وتبلغه جنة الرضوان.

وسورة النور من السُّوَر المدنية التي اشتملت على الأحكام التي تعود بالنفع على الفرد والأسرة والمجتمع، وتلزم المؤمن والمؤمنة بضوابط خلقية، ولا ريب في أن الانضباط الخلقي ضروري للفرد المسلم كي يكون عضواً صالحاً في أسرته، ومن ثَمَّ في مجتمعه.

وأبرز أحكام سورة النور يدور حول ضبط الغريزة الجنسية من الشطط، أي الممارسة لها بغير الوجه الذي خلقت لأجله وهو عمارة الكون وبناء الأسرة الصالحة.

ولقد ضلت المدنية الحديثة في مفهوم الغريزة الجنسية ووضعتها في مستوى الحرية الشخصية، ولهذا انطلق الكثير من الناس في إشباع رغباتهم الجنسية بدون وازع من دين أو ضمير أو قانون مما جرَّ على الدول التي تدعي

الحضارة كوارث اجتماعية تتمثل بكثرة اللقطاء كثرة مذهلة، وانتشار الأمراض عن طريق العلاقات الجنسية الآثمة وفي طليعتها المرض القتّال «السيدا». كما أدت هذه الحرية الشخصية إلى كثرة الخيانات الزوجية مما أدى إلى تفكك الأُسر وانعدام المسؤولية.

ومن روائع هذه السورة أنها تصدت لهذه الإباحية القديمة على شكل محدود، والإباحية المعاصرة غير المحدودة، فشرعت العقوبات الرادعة للزناة من الجنسين، كما شرعت العقوبة الشديدة أيضاً لمن يتهم الغير بالزنا بدون دليل، وهو ما يطلق عليه اسم القذف.

وفي موضوع القذف تتحدث سورة النور عن قصة الإفك التي اتهمت بها عائشة أم المؤمنين في عفتها وطهارتها، والتي قاسى منها رسول الله وزوجه عائشة وأهلها القلق والآلام النفسية المبرحة، وكان ممن أثار هذه التهمة الباطلة كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ وغرضه من ذلك الإساءة إلى الإسلام في شخص رسول والطعن في عرض أقرب الناس إلى قلبه، ثم نزل الوحي الإلّهي ببراءة السيدة عائشة، وبعدها أقام رسول الله عقوبة القذف على المفترين.

وقصة الإفك يعرضها المؤلف كما روتها السيدة عائشة ويشرحها شرحاً وافياً، معقباً عليها بالعِبَر المستفادة منها.

وفي السورة أيضاً أحكام اللعان وهو يحصل عند اتهام الزوج زوجته بالزنا وضبطها بالجرم المشهود وتعذر وجود الشهود الأربعة، واللعان مخرج للزوج من الولد الذي يأتي عن طريق السفاح وتلصقه به زوجته الزانية زوراً وبهتاناً.

وفي سبيل الحد والتخفيف من طغيان الشهوة الجنسية دعت هذه

السورة المؤمنين والمؤمنات إلى غض أبصارهم وعدم إدامة النظر إلى بعضهم بعضاً، لأن النظر هو المدخل لإثارة الغريزة الجنسية، كما حددت للمرأة المسلمة لباسها وزينتها أمام الغرباء عنها أو أمام أقاربها بما يكفل طهارتها وعفتها.

ولحفظ الشبان والشابات العزّاب من الزنا دعت هذه السورة أولياءهم إلى المساعدة على تزويجهم، كما دعت الشباب إلى الالتزام بمبدأ العفة عند عدم القدرة على نفقات الزواج انتظاراً حتى يغنيهم الله من فضله.

ودعت هذه السورة السادة إلى تزويج من يصلح من عبيدهم للزواج والنهي عن إجبار إمائهم على الزنا للتكسب من ذلك ، ثم تمضي السورة فتقدم لنا بعض الأحكام في تحرير الإرقاء حيث كان الرق سائداً آنذاك.

ومن روعة هذه السورة أنها تقدم لنا أحكاماً في آداب الاستئذان عند دخولهم بيوت الغير وتأمر بإلقاء التحية عليهم، وكذلك تبين آداب الاستئذان داخل بيوتهم بالنسبة لمماليكهم وأطفالهم في أوقات معلومة.

ومن المواضيع التي تطرقت إليها هذه السورة بيان بعض معجزات القرآن التي تشهد أن القرآن وحي إلٓهي وأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، ومن هذه المعجزات ما وعد الله المسلمين بخلافة الأرض والسيادة على الأمم المجاورة وقد تحقق هذا الوعد بعد فترة قصيرة من نزول الآية التي تبشر المؤمنين بذلك.

وهذه السورة تتحدث أيضاً عن مظاهر قدرة الله في الطبيعة. من ذلك تكوين السحاب ووصفه بالجبال وهو ما يشاهد في الطبقات العليا من الجو، ووصف عوارض البرق مما كشفته الدراسات الحديثة في العلوم الطبيعية وكذلك وصف المحيطات أصدق وصف، والكلام عن المخلوقات الحية

وتكوينها مما كشفه علم الأحياء، هذه الأمور لم تكن معلومة في عهد محمد ﷺ وَذِكْرُ هذه الأمور العلمية دليل على صدق نبوته، مما يفتح آفاقاً جديدة أمام أتباع الأديان الأخرى إلى دراسة الإسلام دراسة مجردة واعتناقه عن علم ويقين.

وهناك مواضيع أخرى تطرقت إليها هذه السورة يضيق بنا الكلام عنها ويراها القارىء في هذا الكتاب.

هذه لمحة سريعة عن بعض محتويات هذه السورة التي عالجها الأستاذ الصديق عفيف طباره بأسلوبه السهل الواضح ودراسته لها بالعمق، وتبويبه المشوّق الذي لا يمل القارىء من مطالعتها.

وأخيراً نذكر أنه رُوي في فضائل هذه السورة حديثاً نصه: «علموا نساءكم سورة النور»[١] وذلك لأن هذه السورة تنير للمرأة الطريق السليم للمحافظة على عفتها وكرامتها، ويجنبها من العثار والسقوط في مخالب الشر وبراثن السوء.

جزى الله المؤلف كل خير وأعانه الله لإتمام تفسير القرآن كله ووفقنا الله جميعاً للعمل بشريعته.

---

(١) نص هذا الحديث: «علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور» وقد أخرجه سعيد بن منصور في «سننه»، والبيهقي في «شعب الإيمان» وهو مُرسل عن مجاهد وعند البيهقي موقوف على عمر. وقد رمز السيوطي في «الجامع الصغير» إلى ضعفه وأيده على ذلك المناوي في «الفيض» و«التيسير». وقد يُقال إن الحديث المشار إليه حسن بالنظر إلى خلاف المحدّثين في تضعيف بعض رواته. وهذا الحديث ذكره الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

سُورَةُ النُّور

مدنية وآياتها ٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

ايضـاح و دروس

يستهل الله تعالى هذه السورة بوجوب الأخذ بأحكامها:

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفرضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾

فالله سبحانه يقول: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ والسورة[1] هي كل مجموعة من الآيات القرآنية وردت بترتيب مُعيّن مُجمع عليه مبتدئة بالبسملة وهي تشتمل على آيات أقلها ثلاث.

---

(١) السورة في لغة العرب تعني تفوق الموصوف بصفات الكمال على نظائره، كما تعني الرفعة والمنزلة، ولهذا سمّي كل نص في القرآن من البسملة إلى آخر آية فيه سورة لإجلالها ولكمالها لفظاً ومعنى وتفوقها على غيرها من كلام الناس.

أنزل الله هذه السورة وحياً منه على رسوله محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل أو بدونه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوْحى الله هذه السورة وفرض أحكامها على المؤمنين، وكلمة: فرضناها توحي في الأخذ بأحكامها بقوة وشدة بلا تهاون ولا تقاعس، لأن فيها حياة المجتمع وسلامته من الشرور والفساد.

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ والآيات جمع آية وهي كل جملة في القرآن بين فاصلتين، علامة على ما تضمنته من أحكام وآداب ونحوها، ومعنى بيّنات: أي واضحات الفهم لا لُبْس فيها ولا غموض. وتكرار لفظ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ لكمال العناية بإنزال هذه السورة لما اشتملت عليه من الأحكام ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾ أي لتتذكروا هذه الآيات وتستحضروها في أذهانكم وتعملوا بموجبها وتتعظوا بها.

حدُّ الزنا

ثم يأتي أول حكم في هذه السورة وهو المتعلق بحدّ[1] الزاني والزانية:

---

(١) الحد وجمعه حدود هو العقوبات على ذنوب يغلب فيها حق الله على حقوق العباد لذلك حدّد الإسلام هذه العقوبات بنص في القرآن أو السنة. والحدود التي تستوجب العقوبة هي: الزنا ـ قذف المحصنات ـ البغي ـ السرقة ـ قطع الطرق ـ شرب الخمر ـ الارتداد عن الإسلام.

وهناك عقوبات تسمى القصاص عند اقتراف جريمة القتل أو الجروح وهي تغلب فيها حقوق العباد لأن للمجني عليه الحق في أن يعفو عن الجاني.

وهناك عقوبات أخرى تسمى التعزير وذلك عند بعض التعديات على الغير والتي لم يأتِ نص في تحديد العقوبة لها بل ترك ذلك للحاكم أو القاضي في تحديد العقوبة لها.

﴿الزَّانِيَةُ والزَّاني فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ في دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المؤمِنينَ[1]﴾ (٢).

والزنا هو اسم لوطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح (أي عقد زواج) ولا شبهة نكاح بمطاوعتها.

فالقرآن قدم ذكر الزانية على الزاني ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّاني﴾ وذلك مراعاة للأصل في الفعل، فالمرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية لأنها لو لم تُطمع الرجل وتغريه بها وتمكنه من نفسها لم يقاربها الرجل، فلما كانت السبب في ذلك بدأ بذكرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الزنا في المرأة أظهر للعار من أجل ما يترتب على ذلك من الحمل والولادة، ولأن المرأة إذا زنت ذهب حياؤها فسارت في درب الفجور وحرّضت الرجال على الزنا بها بما تملك من فتنة وإغراء.

وعقوبة الزانية والزاني هي: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والجلد هو الضرب بالسوط، ويشترط أن يكون السوط وسطاً، أي لا شديداً ولا ليناً. وقد اختلف العلماء في المواضع التي يُضرب بها فقيل لا تضرب إلاّ

(١) هذه الآية تنسخ حُكْمَ ما جاء قبلها في سورة النساء: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً﴾ آية ١٦.

فكان حد المرأة إذا زنت الحبس في البيت حتى تموت والأذى بالتعيير والتوبيخ، وكان حد الرجل إذا زنى: الأذى بالتعيير والتوبيخ وبالضرب بالنعال ثم نسخ هذا الحكم عن غير المحصن بما جاء في سورة النور بجلد الزانيين ونسخ عن المحصن بالرجم، وذلك لما روي عن النبي ﷺ: خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم.

في الظهر، وقيل سائر الجسد، ويُتقى الوجه والفرج، ويجرد الرجل من ثيابه حيث ينبغي أن يُضرب ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب، والجلد يكون معتدلاً بحيث لا يتجاوز ألم الضرب إلى اللحم والعظام إذ الغاية منه الزجر والردع والتشهير وليس القتل ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ والرأفة هي الشفقة والرحمة، ومعنى النهي عن الرأفة هنا هو عدم تعطيل الحكم بترك الضرب مثلاً، أو أن يكتفي الضارب بشيء من الجلدات المائة، أو تخفيف الضرب من غير ايجاع ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي في شرع الله وتنفيذ أحكامه. والملفت للنظر أن القرآن يعبِّر عن قانونه الجنائي والتشريعي بدين الله مما يفيد أن الصلاة والزكاة والصوم والحج ليست وحدها الدين بل يتبعها تنفيذ شريعة الله التي منها عقوبة الزنا[١] ﴿إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُون بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله والبعث يوم القيامة حيث تجازون على أعمالكم فلا تعطلوا تنفيذ العقوبة على الزناة[٢] ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طَائِفَةٌ مِنَ المؤْمِنِينَ﴾ الشهود: الحضور. والمراد بالعذاب عقاب الجَلْد وما يترتب عليه من ألم، أي ليشهد تنفيذ العقوبة بهما جماعة من المؤمنين، وحضور جماعة من المؤمنين فيه تشهير وفضيحة للزناة، ويستحب أن لا يقل عدد المؤمنين الذين يشهدون هذه العقوبة عن أربعة.

---

(١) ألحق الفقهاء بالزنا: اللواط والمساحقة وإتيان البهائم، أما اللواط فالإتيان في دبر الرجال، والمساحقة تكون بين النساء. وللفقهاء في اللواط اجتهادات فقهية، فقال أبو حنيفة لا عقوبة محددة بل يُعزّر ويُؤدب بالعقوبة التي يرتئيها القاضي. وقال مالك والشافعي يُرجم الفاعل والمفعول به سواء أُحصنا بالزواج أو لم يُحصنا لقول الرسول: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال غيرهم من العلماء عقوبة اللواط كعقوبة الزنا. أما عقوبة المساحقة فهي التعزير. أما عقوبة إتيان البهائم فقد رُوي عن رسول الله قوله: ومن وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة» رواه ابن ماجه.

(٢) روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إقامة حدٍّ من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة في بلاد الله عز وجل» رواه ابن ماجه.

فالقرآن ذكر عقوبة الجلد وهي خاصة بالزناة العُزّاب، أما المحصن (أي المتزوج) فعقوبته الرجم حتى الموت سواء للرجل أو للمرأة لأن انغماسهما في الزنا بعد التجربة الطاهرة التي مارساها بالزواج يدل على فساد فطرتهما بحيث لا يجدي معهما زجر ولا تأديب بعقوبة الجلد، وقد ثبت الرجم بالسنة النبوية وبإجماع الأئمة.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أَنْزَلَ اللَّهُ آية الرجم[١]، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيِّنة، أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف[٢].

وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «لا يحل دم رجل مسلم يشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث: الثيب[٣] الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٤].

وروي عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن ابني كان عسيفاً (أي أجيراً) في أهل هذا (يريد رجلاً بعينه) فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم، وإني سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة جلدة وتغريب[٥] عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال

---

(١) آية الرجم هي ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾ ثم نسخ لفظها وبقي حكمها.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) الثيب: من ليس ببكر ويقال امرأة ثيب ورجل ثيب إذا تزوجا زواجاً فيه دخول.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.
(٥) تغريب: نفي.

النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: المائة شاة والخادم ردٌّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة (جلدة) وتغريب عام، ثم قال لرجل: «يا أُنَيْس اغدُ على امرأة هذا فسلها فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها»[1].

شروط الرجم

وشروط الإحصان الموجبة للحد (أي لعقوبة الرجم) ستة: الإسلام، الحرية[2]، العقل[3]، البلوغ[4]، التزوج بعقد صحيح، الدخول بالمرأة بعد زواجه منها.

والإسلام احتاط في تنفيذ عقوبة الزنا، فلا يوقعها إلاّ في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها، إما بشهادة أربعة شهود عدول يُقرّون برؤية الجماع رؤية حقيقية (كالميل في المكحلة) أو اعترافاً من الزاني الراغب في تطهير نفسه بإقامة الحد عليه، وجميع حالات الرجم التي حصلت على عهد رسول الله ﷺ كانت باعتراف الجاني.

والإسلام يدرأ الحد (أي يمنع حدوث العقوبة) ما كان هناك مخرج منه لقول رسول الله ﷺ: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[5].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) الحرية: أي أن يكون الجاني حرًّا غير رقيق.
(٣) العقل شرط للعقوبة فالمجنون لا يخاطب بالشريعة لفقدان عقله.
(٤) البلوغ يكون بالاحتلام، فالصبي لا تنفّذ عليه العقوبة.
(٥) رواه الترمذي.

والزاني المحصن إذا مات في عقوبة الرجم يعامل معاملة موتى المسلمين فيغسَّل ويُكفَّن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين ويُدعى له بالمغفرة، ولا يجوز لأحد أن يذكره بسوء كشتم ولعن ونحوه.

وإليكم هذه الحادثة التي حصلت في عهد رسول الله والتي تعطينا درساً في درء الحدود عن الجاني والدعاء له بالمغفرة بعد إقامة الحد عليه:

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: طهرني، فقال ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله: طهرني، فقال رسول الله: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله: طهرني فقال النبي مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله: فيمَ أطهرك فقال من الزنا، فسأل رسول الله: أبه جنون؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون فقال: أشرب الخمر؟ فقام رجل فاستنكهه[1] فلم يجد منه ريح خمر. فقال رسول الله: أزنيت فقال: نعم فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز أنه جاء إلى النبي فوضع يده في يده ثم قال اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال استغفروا لماعز بن مالك. . . لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم[2]»[3].

والحامل لا ينفذ عليها عقوبة الجلد إلّا بعد أن تضع حملها، فقد رُوي

---

(١) فاستنكهه: شم رائحة فمه.

(٢) لوسعتهم: لشملتهم.

(٣) رواه مسلم.

عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة(١) أتت النبي وهي حُبلى من الزنا (وكانت محصنة) فقالت يا نبي الله أصبت حدًّا(٢) فأقمه عليّ فدعا النبي ﷺ وليّها(٣) فقال أحسن إليها فإذا وضعت (أي وَلَدت) فأتني بها. ففعل فأمر بها نبّي الله فشكت(٤) عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال له عمر تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت فقال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أنها جادت بنفسها(٥) لله تعالى»(٦).

وإقامة الحد على الزاني سواء أكان محصناً أم لا هو كفارة له عن خطيئته. عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله قال وحوله عِصَابة(٧) من أصحابه «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تَعْصُوا في معروف فمن وَفَى منكُم فأجْرُهُ على الله ومن أصَابَ مِنْ ذٰلِكَ شيئاً فَعُوقب في الدنيا فهو كفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئاً ثم سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إلَى اللَّهِ إنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وإنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فبايْعنَاهُ على ذَلِكَ»(٨).

---

(١) جهينة: قبيلة عربية.
(٢) أصبت حدًّا: عملت ما يوجب الحد (العقوبة).
(٣) وليها: المسؤول عنها الذي قد يكون أباً أو زوجاً أو أخاً.
(٤) فشكت: شدت عليها ثيابها بحيث لا تنكشف عورتها في تقلبها عند الرجم.
(٥) جادت بنفسها: ماتت.
(٦) رواه مسلم.
(٧) عصابة: الجماعة ما بين العشرة إلى الأربعين.
(٨) رواه البخاري ومسلم.

الزِّنَا مِنْ كَبَائِرِ الإِثْم

وإن من يتأمل في مطلع هذه السورة حيث أوجبت العقوبة الزاجرة لجريمة الزنا، والنهي عن الرأفة في شأن الزناة، يرى أن ذلك يدل على أن الزنا من كبائر الإثم.

فالقرآن استهجن الزنا أشد الاستهجان فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ الإسراء: ٣٢. لقد وصف الله الزنا بأنه فاحشة، والفاحشة ما اشتد قبحه من الذنوب، كما وصفه بأنه طريق السوء فبئس من يسلكه، والملاحظ في هذه الآية أن الله لم ينهَ عن الزنا فقط بل نهى عن الاقتراب من الزنا وذلك بتجنب دواعيه وأسبابه من نظر ولمس وما شابه ذلك.

كما أن الله أوعد الزناة بالعذاب الشديد يوم القيامة في حال إصرارهم وعدم توبتهم ﴿... ولا يزنون. وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أثاماً. يُضَاعفْ لَهُ العَذَابُ يوْمَ القِيَامةِ وَيَخْلُدْ فيه مُهَاناً﴾ (الفرقان: ٦٨، ٦٩).

والرسول محمد ﷺ حذَّر من الزنا بقوله:

«يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال: ثلاثاً في الدنيا وثلاثاً في الآخرة، أما التي في الدنيا: فَيُذْهِبُ البهاء[١]، ويورث الفقر، وينقص العمر[٢]؛ وأما التي في الآخرة: فسخط الله، وسوء الحساب، وعذاب النار»[٣].

---

(١) يذهب البهاء: يحرم صاحبه من صفاء النفس وجمال الروح.

(٢) ينقص العمر: بما يعنى ضياع صحة الزاني وإنهاك بدنه باللذات مما يستنفد نشاطه الحيوي ويعرضه للأمراض الزهرية والقلب والإيدز مما يجعله عرضة للموت الباكر.

(٣) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير ورواه الخرائطي والبيهقي.

وروي عن الرسول قوله: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم[1] عذاب الله»[2].

والإيمان والزنا لا يجتمعان على صعيد واحد، لأن الإيمان الحقيقي ينتج عنه شعور المؤمن بأن الله مُطّلع عليه وأنه سيحاسبه يوم القيامة على سيئاته، وهذا يحول بين المؤمن وبين عصيانه لربه، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[3].

وقد حُكي أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فامتنعت عليه فقال: ماذا تخشين ولا أحد يرانا سوى الكواكب؟ فقالت: فأين مكوكبها؟ فكاد يصعق وفرّ هارباً منها خائفاً من الله تعالى[4].

---

(١) أحلوا بأنفسهم: أنزلوا بأنفسهم.

(٢) رواه الطبراني والحاكم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) إن إدراك المؤمن والمؤمنة المحصنين بالزواج بأنه في حال زناهما قد يصدر عليهما الحكم الإلهي بالموت رجماً، أو الجلد عند عدم الإحصان، إن وضع هذا التصور أمام أعينهما لمما يردعهما عن الزنا. وفي حالة أن تضطرم الشهوة الجامحة تحت تأثير إغراء ما وتهمّ النفس بمعصية الله سراً عليك أيها المؤمن والمؤمنة أن تهرعا إلى الصلاة طالبين من الله أن يعصمكما من الخطيئة وتستعيذا به من الشيطان الرجيم حتى تحافظا على مرضاة ربكما، وتذكرا قول الله تعالى ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

واعلموا أيها المؤمنون أن ارتياد الأماكن التي يجري فيها الرقص والغناء والتبرج الصارخ وشرب الخمور يؤدي بكم إلى الوقوع في المحرمات والمعصية، وقد حذرنا رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: «ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه،ألا وإن حمى الله محارمه».

أضرار الزنا في العالم

والزنا أصبح في هذا العصر عند أمم الغرب من مظاهر الحرية الشخصية فلا يعاقب الزناة غير المتزوجين إذا كان فعلهما برضى منهما وبلغا سنّ الرشد. أما الزنا بالنسبة للمتزوجين فيختلف باختلاف قوانين البلدان ولا تتعدى عقوبة الزنا الحبس والتعويض المالي هذا إذا ادّعى أحدهما على الآخر وثبت عليه ذلك.

هذا التهاون والتراخي بالعقوبة بحق الزناة جرّ على أمم الغرب كوارث اجتماعية فادحة وأضراراً لا تحصى، فأبرز هذه الأضرار الناتجة عن الزنا وجود ملايين الأولاد غير الشرعيين، ووجود طفل غير شرعي هو جناية متعددة النواحي.

فهو جناية على المولود الذي لا يعرف أباه ولا أمه، وما يستتبع ذلك ما يعانيه من ألم مكبوت يصاحبه مدى عمره عندما يعلم حقيقة أمره، فعلى الرغم من نشوئه في ميتم يوفر له العناية فإن ذلك لا يوفر له السعادة والحنان اللذين يوفرهما نشوؤه في أسرة هو فرد منها يتضافر على العناية به والداه في ظل إخوة له يتبادلون الحب والسلوى، بالإضافة إلى ذلك ما ينشأ عنده من عقد نفسية قد توجهه نحو الانحراف وسلوك طريق الإجرام والحقد على المجتمع الذي يعيش فيه.

والزنا جناية على المرأة إذ قد ينشأ عن هذه العلاقة الآثمة بينها وبين الرجل الحبل وما يحمل من معاني الفضيحة لها، وقد تحتفظ المرأة بوليدها بعد أن يتركها الرجل الذي ضاجعها أو ينكر علاقته بها فيكون في ذلك ظلم فادح لها إذ يجعلها وحدها تتحمل أعباء تربية وليدها وتنشئته بدون أن يشاركها في هذا العبء الرجل الذي كان سبباً في ذلك.

والزنا جناية على الدولة إذ عليها أن توفر الأموال الطائلة في سبيل الإنفاق على هؤلاء الأطفال غير الشرعيين الذي هو في الأساس من واجبات آبائهم الذين يتحتم عليهم الإنفاق عليهم.

بالإضافة إلى ذلك ما يحصل من اختلاط الأنساب عن طريق التبني المعمول به في أنظمة الأمم الغربية وإلحاق اللقيط بعائلة لا يمتّ إليها بصلة ويحمل اسمها، وكذلك ما ينشأ عن الزنا من أخطار القتل للزاني على يد الزوج عندما يراه في فراشه.

وأخيراً نذكر أن من أضرار الزنا تفشي الأمراض الجنسية كالزهري والسيلان ومرض الإيدز، وهذه الأمراض تنتقل من المصاب بها إلى صحيح الجسم عند الاتصال الجنسي، وقد انتشرت هذه الأمراض انتشاراً مريعاً في العالم بسبب تفشي الزنا.

السِّينما والتلفزيون مَصْدَران للشرور

والزنا في نهاية القرن العشرين أصبح له دعاة يرغبون فيه علانية ويزينونه في النفوس ويعرضون ما فيه من ملذات وشهوات عن طريق الأفلام السينمائية والشاشة الصغيرة المرئية (التلفزيون) فيراها كل أفراد الأسرة، فهم يمهدون لذلك بإظهار محاسن المرأة وتبرجها الصارخ واختلائها بالرجل الأجنبي عنها، ومراودتها له عن نفسه، أو غواية الرجل لها، واشتراكهما في احتساء الخمرة، والقبلات الطويلة، مما ينتهي بهما إلى سرير واحد وهم عراة الأجسام يمارسون فيه الفاحشة على مرأى الأنظار.

كما تعرض هذه الأفلام صوراً من الخيانة الزوجية كأنها شيء طبيعي غير مستهجن، وأخبار الذين يحترفون الزنا ومغامراتهم.

هذه المشاهد جميعها تحرض الشباب والشابات على الرذيلة، وتضرم الشهوة في نفوسهم وتكون لهم قدوة سوء، وبالأخص أنهم يشاهدون هذه المشاهد المخزية يوميًّا تقريباً في التلفزيون في قنواته المتعددة والنفس ترغب في مشاهدة كل ما يثير الغريزة الجنسية وصدق الله إذ قال ﴿إن النفس لأمَّارَةٌ بالسوء إلاّ مَا رحِمَ ربي﴾.

وبالإضافة إلى هذا، ما يعرض من مشاهد الرقص الشرقي الذي تلوي فيه الراقصات أجسادهن وتحرك مواضع الفتنة منها وهن شبه عاريات بطريقة تلهب الشهوة الجنسية في نفوس المشاهدين وتجعلهم أسرى هذا الانفعال الذي يمكن تحت تأثيره أن يفعلوا أموراً شائنة. ولقد أصبح لهذا الرقص المثير للغرائز الجنسية دعاة ومشجعون، والغريب أن هذا الرقص كان محصوراً في (البارات، وعلب الليل) فأصبح يعرض في التلفزيون لتشاهده الأُسر المحافظة، ويشاهده المراهقون، فَبَدلَ أن يكون (التلفزيون) أداة تثقيف وتوجيه صالح وتسلية بريئة أصبح أداة للشرور وإثارة للغرائز الجنسية.

لذا ننصح الأهل أن يكونوا رقباء على أولادهم فلا يتركونهم يشاهدون هذه المناظر المخزية التي يترتب عليها انعكاسات سيئة على نفوسهم.

والإسلام إذ حرّم الزنا فإنه شرع أموراً وقائية منه وهي: النهي عن تبرج المرأة أمام الغرباء وارتدائها اللباس الشفاف الضيق القصير الذي يكشف عن مفاتن جسمها، كما نهى عن اختلائها بالرجل والسفر وحدها بدون محرم(١)، كما دعا المرأة والرجل إلى غض البصر بالنسبة لبعضهما البعض، بالإضافة

---

(١) محرم: هو الذي يحرم على المرأة أن تتزوجه كالأب والابن والأخ والعم والخال وغيرهم وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلاّ مع ذي محرم» رواه مسلم. وروي عن النبي ﷺ قوله: «لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» رواه الترمذي.

إلى ذلك فإن الإسلام شجع على الزواج وأباح الطلاق عند استحكام النفرة بين الزوجين، وحرّم شرب الخمر(١) تحريماً قاطعاً، وسيأتي الكلام عن بعض هذه الأمور فيما بعد.

الزنا وطهارة الإيمان لا يجتمعان

ويتابع القرآن فيبين أن الزواج من الزناة محرم على المؤمنين:

﴿الزَّاني لا يَنْكِحُ(٢) إلاَّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أو مُشْرِكٍ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المؤْمِنينَ﴾ (٣).

نزلت هذه الآية في بعض المؤمنين الذين استأذنوا رسول الله في نكاح نسوة كن معروفات بالزنا من أهل الشرك فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوج المرأة منهن لتنفق عليه.

ومعنى الآية: إن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في الزواج من الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو امرأة مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في الزواج منها الصلحاء من الرجال بل ينفرون منها، وإنما يرغب فيها الذي هو من جنسها من الفسقة.

فالمشرك لا إيمان له يزجره عن الفواحش، والزاني يدعوه فجوره إلى الفواحش، والرجل الزاني لا تكون امرأته ـ كما هو حال بعض النساء ـ في منزلة العفة فتتشوق إلى غيره ويكون الباعث لها الانتقام منه ومقابلته بالمثل، ولذا يُقال: «عُفُّوا تَعُفُّ نِساؤكم» والرجل إذا رضي أن يتزوج زانية فقد رضي

---

(١) يقول النبي ﷺ: «لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر» رواه ابن ماجه. فالإنسان إذا شرب الخمر سكر ففقد عقله وانهار بذلك الضابط الأخلاقي فيه فيزني دون أن يتبصر بالعواقب السيئة التي تنشأ عن الزنا.

(٢) ينكح: نكح الرجل المرأة تزوجها بعقد الزواج، ويقال: نكح الرجل امرأته وطئها وجامعها.

عملها، والمرأة إذا تزوجت زانياً فقد رضيت عمله. ومن رضي بالزنا فهو بمنزلة الزاني، وفي الحديث النبوي: «المرء على دين خليله» وأعظم الخلة خلة الزوجين.

والزنى من المرأة يفضي إلى الاشتباه بالمولود الذي تنجبه هل هو من زوجها أو من الذي زنى بها.

فالراغب في الزواج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه فهو بهذا مؤمن، وإما أن لا يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بالزواج إلاّ مِنْ مشركة مثله.

ومن هنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أنه لا يصح عقد الزواج من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تتوب إلى الله، فإن تابت صح العقد عليها وإلاّ فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر الزاني حتى يتوب إلى الله توبة صحيحة.

ولا يفهم من الآية أنه لا يصح عقد الزواج بين الزانيين، فمن زنى بامرأة فله أن يتزوجها، فقد رُوي أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر فجلدهما مائة جلدة ثم زوج أحدهما من الآخر ونفاهما سنة.

ويرى الإمام مالك أنه لا يتزوجها حتى يستبرئها[1] من مائه (أي منيّه) الفاسد الذي يحصل عن طريق الزنا لأن النكاح (أي الزواج) له حرمة ومن حرمته ألاّ يُصبَّ على ماء السِّفاح؛ فيختلط الحرام بالحلال، ويمتزج ماء المهانة بماء العزة.

أما تتمة الآية ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المؤْمِنينَ﴾ أي حرم الله نكاح البغايا على المؤمنين وحرَّم الزنا مطلقاً فحيثما زنى الرجل أو المرأة فعليهما العقوبة.

---

(١) الاستبراء من المرأة يكون بالامتناع عن الاتصال بها جنسيًّا حتى تحيض حيضة ثم تطهر ثم يتصل زوجها بعد ذلك.

وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ
جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ
أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ
عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ
أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ
ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

شَــرح المفـردَات

يَرمون المحْصنَات: يتهمون النساء العفيفات بالزنا.

شهداء: شهود.

الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله.

يرمون أزواجهم: يتهمون زوجاتهم بالزنا.

يَدْرأ عنها العذاب: يدفع عنها عقوبة الرجم.

حد القذف[1]

والتشديد في عقوبة الزنا لا يغني وحده في صيانة المجتمع من الفساد ما لم تسبقه ضمانات وقائية منها: محاربة الإشاعات الكاذبة ولجم ألسنة السوء عن إطلاق التهم الباطلة وفي هذا المنحى يقول تعالى:

﴿والَّذِينَ يَرْمُونَ[2] المُحْصَنَاتِ[3] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فاجْلِدُوهُمْ ثمانين جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُم شَهَادةً أبداً وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿والَّذِين يَرْمُونَ المحْصَنَاتِ﴾ أي والذين يشتمون المسلمات العفيفات فيتهمونهن بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهداءَ﴾ أي ثم لم يأتوا بإثبات على ما اتهموهن به أربعة شهود عدول يشهدون عليهن أنهم رَأَوْهُن يفعلن ذلك ﴿فاجْلِدُوهُم ثَمانين جَلْدَةً﴾ فاجلدوا الذين اتهموهن بالزنا ثمانين جلدة، وهذه عقوبة جسدية لهم مقابل إيذائهم للغير ﴿ولا تَقْبَلُوا لَهُم شَهَادَةً أبداً﴾ أي وأسقطوا شهاداتهم ولا تقبلوها أبداً، وهذا الإسقاط لشهاداتهم هو عقوبة معنوية تصيب كرامتهم فلا يعتدّ بقولهم بين الناس ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون﴾ أي الذين خالفوا أمر الله وخرجوا عن طاعته.

---

(١) القذف: اتهام المرأة بالزنا بدون دليل.

(٢) يرمون: الرمي هو الإلقاء والقذف بحجر أو سهم أو نحوهما مما يضر ويؤذى، ثم استعير للسب وتوجيه العيوب. والمراد هنا في الآية التعيير بالزنا خاصة وذلك لتقدم ذكر الزنا في الآيات السابقة، ولأنه سبحانه وتعالى ذكر المحصنات وهن العفيفات فدل على أن المراد رميها بضد العفاف وهو الزنا ويسمى (القذف) ولأن الآية اشترطت أن يكون عدد الشهود أربعة وهذا العدد غير مشروط إلاّ في الزنا.

(٣) المحصنات: أصلها في اللغة المصونات، من الحصن، وهو الموضع المنيع الذي لا يمكن الوصول إلى داخله. عُبِّر بهذا اللفظ عن العفيفات إشارة إلى أنهن منيعات عن اقتراف الفواحش.

وحكم القذف يعمّ المرأة والرجل، وإنما خص القرآن النساء بالذكر (المحصنات) لأن قذفهن يكون غالباً أكثر من الرجال وضرره عليهن وعلى أقربائهن أقسى وأشد[١].

وفي التعبير بالإحصان (أي العفة) إشارة إلى أن من قذف شخصاً معروفاً بالفسق والفجور لا يعاقب بعقوبة القذف لأن الفاسق لا كرامة له.

ثم يقول تعالى تعقيباً على آية القذف:

﴿إِلَّا الَّذِين تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥).

أي إن الذين رجعوا عما قالوا من القذف وندموا عليه من بعد ما اجترحوا ذلك الإثم وصَلُح حالهم فإن الله ساتر على هؤلاء ذنوبهم بعفوه عنهم ورحمته لهم.

ويبقى السؤال: هل تقبل شهادة القاذف بعد إقامة الحد عليه وبعد توبته؟ يقول بعض الفقهاء في ذلك: إذا تاب القاذف ـ وتوبته أن يكذب نفسه ـ وصلح حاله وندم على ما فرط منه يُردّ له اعتباره وتُقبل شهادته. وهم يرون أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِين تَابُوا﴾ يعود إلى جملة الآية كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوه وردوا شهادته وفسّقوه إلّا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا أنفسهم فإن الله غفور رحيم، فيصيرون بذلك غير مردودي

---

(١) الألفاظ الموجبة لحد القذف تنقسم إلى صريح، وكناية، وتعريض. فالصريح أن يقول لها: يا زانية أو زنيتِ وما شابه ذلك. أما الكناية فمثل أن يقول لها: يا فاسقة، يا فاجرة، يا ابنة الحرام، أو امرأتي لا ترد يد لامس، فهذا لا يكون قذفاً إلّا أن يريده القاذف مع التلفظ باليمين. أما التعريض فليس بقذف مثل قوله: أما أنا فما زنيت، وليست أمي بزانية وهذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي والأمام أبو حنيفة، أما الإمام مالك فيرى أنه قذف يجب فيه العقوبة.

الشهادة وليسوا معتبرين من الفسقة[1].

وهناك فقهاء يقولون: إن القاذف لا تقبل شهادته بعد إقامة الحدّ عليه وإن تاب، وإنما توبته فيما بينه وبين ربه، وهم يرون أن الاستثناء في الآية ﴿إلّا الذين تابوا﴾ يعود فقط على الفاسقين، فالتوبة ترفع عن القاذف صفة الفسق ويبقى مردود الشهادة[2].

وحكم شهادة أربعة أشخاص عدول على شخص ما بالزنا أن تكون على معاينة منهم يشهدون أنهم عاينوا الإدخال بالفعل، كالمِرْوَدِ في المكحلة، وأن تكون الشهادة من الشهود في موطن واحد[3] على قول الإمام مالك ومتفقة في الرؤية فإن اضطربت شهادة أحد الشهود أو امتنع عن الشهادة جُلِدَ الثلاثة الآخرون حدَّ القذف، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب في أمر المغيرة بن شُعبة حيث شهد عليه ثلاثة بالزنا وتوقفت شهادة الرابع فَجَلَد عمر الثلاثة.

وشروط القذف عند العلماء تسعة: شرطان في القاذف وهما: العقل والبلوغ. وشرطان في الشيء المقذوف به وهو أن يقذف شخصاً بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنا أو اللواط، أو ينفي نسبه من أبيه. وخمسة في المقذوف وهي: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها سواء كان عفيفاً من غيرها أم لا.

واختلف الفقهاء في حد القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الناس، فالإمام أبو حنيفة يرى أنه من حقوق الله بمعنى أن أمر القاذف إذا

---

(١) هذا رأي الإمام مالك والشافعي.
(٢) هذا رأي الإمام أبي حنيفة.
(٣) يرى الشافعية عدم اشتراط هذا الشرط فإن شهدوا مجتمعين أو متفرقين فإن شهادتهم تُقبل.

وصل إلى الإمام أقام الحدَّ عليه وإن لم يطلب ذلك المقذوف.

ويرى الإمام مالك والإمام الشافعي أن حدَّ القاذف هو من حقوق الناس بمعنى أن الإمام لا يقيمه إلاّ بمطالبة المقذوف ويسقط بعفوه.

فتشريع القرآن يظهر لنا سموه في مجابهة أهل السوء في إطلاق الإشاعات الكاذبة التي فيها خراب للبيوت، والطعن بأعراض الناس، ولا أشد إيلاماً للنفس من الاتهام بالزنا، ومن هنا شدد الإسلام العقوبة على من يتهمون الناس بالزنا زوراً وبهتاناً.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن من رأى بأم عينيه أحداً يزني فعليه أن يلزم السكوت ولا يفضحه بين الناس لقول رسول الله ﷺ: «ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة»[١].

أما إذا شاركه في الرؤية ثلاثة شهود فهذا معناه أن الزاني لا يتورع عن الستر وأن أمره قد استفحل شره وذاع خبره فلا بدَّ له من العقاب حتى يكون عبرة لغيره.

كما أن انتشار اتهام الأفراد بالزنا يقضي على جو الطهر في المجتمع ويجعل بعض النفوس الضعيفة الإيمان في وضع يهون عليها ارتكاب الزنا بحجة أن أكثر الناس يفعلون ذلك ولا بأس بالانجراف في تيارهم ومجاراتهم في أفعالهم. لذا كانت الحكمة بالغة في إقامة الحد على كل من يتهم آخَرَ بالزنا ويلوك في عرضه إذا لم يأتِ بأربعة شهود عدول يقرون أنهم رأوا هذا المتهم يقترف هذه الفاحشة.

---

(١) رواه الترمذي.

اللعان (عند اتهام الزوج زوجته بالزنا)

مر معنا أن جريمة الزنا تثبت بأربعة شهود، ولكن للزوج ظروفاً خاصة لا تتوفر لغيره لأن من شأنه أن يتصل بزوجته على انفراد، وفي حالات نادرة جداً قد يفاجىء زوجته بجريمة الزنا مع شخص آخر فيشق عليه إثبات ذلك بإحضار أربعة شهود، فإن سكت على هذا الأمر سكت على أمر جلل لا يتحمله، فيه امتهان لكرامته والاعتداء على حقه، وإلحاق ولد أجنبي عنه بنسبه يتوجب الإنفاق عليه ويرثه ويحمل اسمه.

لذا شرع الله حُكم اللِّعان بين الزوجين ليكون مخرجاً للزوج من هذا المأزق الذي وقع فيه، وأباح له أن يستقل بإثبات جريمة الزنا على زوجته بدون وجود الشهود الأربعة وبدون إقامة الحدّ عليه عند عدم توفر الشهود، كما أن الله شرع للزوجة مخرجاً من العقاب إذا اتهمها زوجها بالزنا.

وقبل أن نذكر الآيات القرآنية التي نزلت في هذا الصدد نذكر بعض الأحداث التي سبقت ذلك.

يروى أنه لما نزلت آية القذف ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ قال عاصم بن عدي: جعلني الله فداك يا رسول الله إن وجد رجل مع امرأته فأخبر بذلك جُلد ثمانين جلدة ورُدَّت شهادته أبداً وفُسِّق، وإن ضربه بالسيف قُتِلَ (أي قتل به قصاصاً) وإن سكت، سكت على غيظ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء (أي شهود) يكون قد قضى الرجل حاجته ومضى...

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال: يا رسول الله إن وجدت مع امرأتي رجلاً لا أمهله حتى آتي بأربعة شهداء، والله لأضربنه بالسيف غير مصفح عنه.

وبعد وقت قصير جاء هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ فقال: إني جئت

أهلى عشاء فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ما أتاه به (أي الخبر) وثقُل عليه جداً حتى عُرِفَ ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم إني لصادق، وما قلت إلّا حقًّا، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً. واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد بن معاذ، أيُجلد هلال بن أمية وتبطل شهادته في المسلمين (بسبب أنه لم يأتِ بأربعة شهود) فهمّ رسول الله بضربه (أي جلده ثمانين جلدة) فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه إذ نزل الوحي الإلّهي عليه فأمسك أصحاب رسول الله عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُم وَلَمْ يَكُن لَهُم شُهَدَاءُ إلَّا أنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهادَاتٍ بِاللَّه إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. والخَامِسَةُ أنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبينَ. وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّه إنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبينَ. والخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦ ـ ٩).

وبعد نزول هذه الآيات قال رسول الله ﷺ: أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله لأصحابه: أرسلوا إليها (أي احضروا زوجة هلال) فجاءت فلما اجتمعت بزوجها عند رسول الله قيل لها. . . (أي ما اتهمها به زوجها من الزنا) فكذّبت قول زوجها، فقال رسول الله: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب، فقال هلال: يا رسول الله بأبي وأمي (أي فداك أبي وأمي) لقد صَدَقْتُ وما قلت إلَّا حقًّا، فقال رسول الله لاعنوا بينهما. . . فتلاعنا أمام رسول الله.

ولنعد إلى تفسير الآيات، فالله سبحانه يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي والذين يتهمون زوجاتهم بالزنا فيقول لزوجته: يا زانية، أو هذا

الولد أو الحمل الذي في بطنك ليس مني ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُم شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُم﴾ أي لم يكن لهم شهود على ما رأوا إلّا أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّه إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فتكون البينة على ما رأى هو أن يُحضر زوجته إلى الإمام أو القاضي المختص فيدّعي عليها بما اتهمها به من الزنا فيحلّفه الإمام أو القاضي أربع شهادات بالله وتكون هذه الشهادات في مقابلة أربعة شهود بأن يقول: أشهد بالله إني لرأيتها تزني، وما وطئتها بعد رؤيتي لها أو بعد زناها، أو يقول: ما هذا الولد أو هذا الحمل في بطنها مني، وإني لمن الصادقين في قولي هذا عليها، ويكرر هذا أربع مَرَّات ﴿وَالخَامِسَـةُ(١) أَنَّ لَعْنَةَ اللَّه عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبينَ﴾ أي يقول في شهادته الخامسة: عليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين. فإذا قال الزوج ذلك القول سقط عنه الحد (أي عقوبة القذف) وانتفى عنه الولد ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ﴾ أي تسقط عن الزوجة عقوبة الزنا وهي الرجم حتى الموت بصفتها محصنة بالزواج ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكاذِبينَ﴾ أي تقول الزوجة: أشهد بالله إن زوجي كاذب فيما ادَّعاه عَلَيَّ وَذَكَرَ عني مما اتهمني به، وهذا الولد منه وإن كانت حاملاً تقول: وإن حملي هذا منه، وتكرّر قولها هذا أربع مرات ﴿وَالخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقينَ﴾ أي تقول في شهادتها الخامسة: عليَّ غضب اللّه إن كان صادقاً فيما رماني به من الزنا.

وبتمام اللعان بين الزوجين تقع الفرقة بينهما (أي الطلاق) فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبداً، أما الولد الذي أنكر الزوج أبوته من زوجته فيقضى للزوجة ويرث أمه وترث منه ولا يُدعى لأبيه ولا

---

(١) يروى أن رسول الله قال لهلال قبل الشهادة الخامسة: يا هلال اتق الله فإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإنها الموجبة التي توجب عليك العذاب (أي أن الشهادة الخامسة موجبة للعذاب يوم القيامة إن كانت كاذبة) وهذا ما قاله رسول الله أيضاً لزوجة هلال.

يُرمى (أي لا يقال له ابن زنى). أما إذا أكذب الزوج نفسه بعد اتهامها بالزنا جُلِدَ ثمانين جلدة (وهي حد القذف) ولحق به الولد (أي انتسب لاسمه) ولم ترجع إليه زوجته أبداً(١).

فالحياة الزوجية تقوم على المودة والرحمة، والمودة لا تقوم إلا على الثقة بين الزوجين، وبعد الاتهام الفاضح الصادر عن الزوج لزوجته، وتكذيب كل واحد من الزوجين لصاحبه انهارت الثقة والود بينهما، لهذا أوجب الإسلام الفراق الأبدي بينهما.

ويختم الله آيات اللعان بقوله:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠).

أي ولولا تفضل الله عليكم ورحمته بكم وأنه كثير قبول التوبة من عباده وحكيم في كل أفعاله لما شرع الله لكم هذه الأحكام، وجواب لولا محذوف للإيجاز تقديره: لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة، فالحكمة من تشريع اللعان هو رفع عقوبة القذف عن الزوج إذا فاجأ وحده زوجته بجريمة الزنا واتهمها به، ورفع التهمة عن الزوجة إذا كان زوجها مفترياً عليها لضغينة أو سبب ما فجعل الله اللعان فاصلاً وحكماً بينهما.

---

(١) يرى الإمام أبو حنيفة أن الزوج إذا أكذب نفسه وجُلد ثمانين جلدة في حد القذف زال تحريم العقد (أي عقد الزواج) وحَلَّت له زوجته بنكاح جديد (أي عقد جديد) إذا قبلت امرأته الرجوع إليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ
لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ
ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ
ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢
لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ
ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ
بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا
وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ
أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن
تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
١٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠

شرح المفردات

الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.

تولى كبرهُ: تحمل معظم الإثم.

أفضْتُم فيه: خضتم فيه من حديث الإفك.

تَلَقَّوْنَهُ: تقبلونه ويرويه بعضكم عن بعض.

هَذَا بُهتَانٌ عظيم: هذا كذب يدهش سامعه لفظاعته.

تشيع: تنتشر.

قِصَّةُ الأفْكَ

قصة الإفك تتلخص بتهمة السوء والطعن في عفة عائشة زوجة رسول الله ﷺ، وهذه التهمة الباطلة أطلقها زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ ورددها بعض المسلمين، ثم نزلت براءة عائشة بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ من آيات القرآن الكريم.

وقصة الإفك اكتنفها بعض الوقائع نترك الكلام عنها لعائشة ترويها بلسانها، وقد أخذنا كلامها من روايات شتى مع بعض الاختصار، تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع[1] بين نسائه فأيتهن خرج سهمها (أي نصيبها) خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي عليهن فخرجت مع رسول الله وذلك بعد نزول آية الحجاب، فحملت في هودجي[2] وسرنا حتى إذا فرغ رسول الله من غزوه نزل منزلاً[3] فبات بعض الليل ثم آذن بالرحيل[4]، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني[5] أقبلت إلى رحلي[6] فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جَزْع ظَفَار[7] قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه[8]، وأقبل

---

(١) أقرع: ضرب القرعة والقرعة هي السهم والنصيب (أي سحب الأسماء بالقرعة).

(٢) الهودج: محمل له قبة يوضع على ظهر الجمل تركب فيه النساء ولا يراهن أحد.

(٣) نزل منزلاً: حل في مكان ما.

(٤) آذن بالرحيل: أي نادى بالرحيل.

(٥) قضيت شأني: الشأن الحاجة، وكان النساء إذ ذاك يقضين شأنهن في الأماكن المنخفضة البعيدة عن أعين الناس.

(٦) رحلي: الرحل ما يوضع على الجمل ليركب، أي رجعت إلى هودجها.

(٧) جزع ظفار: خرز ينسب إلى ظفار، وهي مدينة باليمن.

(٨) حبسني ابتغاؤه: أعاقني التفتيش عليه.

الرهط[1] الذين كانوا يرحلون[2] بي فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه لخفتي ووضعوه على ظهر الجمل، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن إنما يأكلن العلقة[3] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن[4] فبعثوا الجمل[5] وساروا باتجاه المدينة.

فلما رجعت بعد أن وجدت عقدي لم أجد في المكان أحداً، فجلست في المكان الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ. فبينما أنا في مكاني غلبتني عيني فنمت.

وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي من وراء الجيش فادَّلج[6] فأصبح عند منزلي (أي مكان نزولي) فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه (أي قوله إنا لله وإنا إليه راجعون) حين عرفني فخمَّرت وجهي بجلبابي[7] ووالله ما كلمني كلمة، حتى أناخ راحلته[8] فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش.

وتكلم الناس وخاض أهل الباطل في حديثي وكان الذي يثير الإفك[9] والبهتان عبدالله بن أُبيّ الذي رأى صفوان آخذاً بزمام ناقتي[10] عند رجوعي

---

(١) الرهط: الجماعة.

(٢) يرحلون: يجمعون الرحل على البعير، والرَّحل ما يوضع على ظهر البعير ليركب.

(٣) العلقة: القليل.

(٤) جارية حديثة السن: فتاة شابة في أول عمرها.

(٥) فبعثوا الجمل: حلوا عقاله وأطلقوه.

(٦) فادّلج: سار آخر الليل.

(٧) خمرت وجهي بجلبابي: غطيت وجهي بإزاري.

(٨) أناخ راحلته: أبرك جمله.

(٩) الإفك: الكذب.

(١٠) زمام الناقة: حبل الناقة (رسنها).

إلى الجيش وهو الذي كان يقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، وشايعه في باطله وكذبه حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

وقدمنا إلى المدينة فاشتكيت[١] شهراً والناس يفيضون[٢] في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وكان مما يريبني[٣] في مرضي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي من المرض، فكنت إذا اشتكيت رحمني ولَطُفَ بي فلم يفعل ذلك في شكواي تلك فأنكرت ذلك.

وفي بعض الليالي خرجت مع أم مسطح جهة المناصع[٤]، وفي الطريق عثرت أم مسطح في مِرْطها (أي كسائها) فقالت: تعس[٥] مسطح فأنكرتُ ذلك وقلت أتسبين رجلاً شهد بدراً[٦]، فقلت: أوَ ما بلغك الخبر؟ قلت لها: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك الذين منهم مسطح فازددت مرضاً على مرض. فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم ثم قال: كيف تيكم[٧]؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قِبَلهما. فَأَذِن لي رسول الله فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: ماذا يتحدث الناس؟ قالت يا بنيَّة هوّني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة[٨]

(١) فاشتكيت: مرضت.
(٢) يفيضون: فاض القول شاع وانتشر.
(٣) يريبني: الريب هو الشك مع تهمة.
(٤) المناصع: مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها قبل استعمال المراحيض.
(٥) تعس: يقال في الدعاء على الإنسان بمعنى سقط على وجهه أو هلك.
(٦) شهد بدراً: أي قاتل في معركة بدر.
(٧) تيكم: إشارة إلى المؤنثة.
(٨) وضيئة: جميلة.

عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاَّ كَثَّرن فيها[١] فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا. فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ[٢] لي دمع، ولا أكتحل بنوم[٣]، ثم أصبحت أبكي.

ثم دعا رسول الله علي بن أبي طالب، وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحي (أي ابطأ نزوله) يستشيرهما في فراق أهله (أي في طلاقها) فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله وقال: أهلك ولا نعلم إلاَّ خيراً. وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية[٤] تصدقك[٥]، فدعا رسول الله بريرة وسألها عن أمري، وقال: هل رأيت من شيء يريبك من عائشة، قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أَغْمِصُهُ[٦] عليها أكثر من أنها حديثة السن تنام[٧] عن عجين أهلها فتأتي الداجن[٨] فتأكله.

ثم قام رسول الله إلى المنبر مخاطباً المسلمين: وكان مما قال: من يعذرني من رجل[٩] قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت من أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً[١٠] ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط إلاّ

---

(١) كثَّرن فيها: أي أكثرن القول في عيبها ونقصها.

(٢) لا يرقأ: لا يجف.

(٣) أكتحل بنوم: أي لا أنام.

(٤) الجارية: الخادمة أو العبدة.

(٥) تصدقك: تورد لك الحديث على حقيقته بلا كذب.

(٦) أغمصه: أعيبه.

(٧) تنام: تغفل.

(٨) الداجن: كل ما ألف البيوت وأقام بها من حيوان وطير.

(٩) من يعذرني من رجل: من ينصرني منه، أو من يعاقبه على سوء فعله وهو عبد الله بن أُبيّ.

(١٠) ذكروا رجلاً: أي ذكروه بالسوء وهو صفوان.

وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلاّ غاب معي.

ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ دخل علينا رسول الله فسَلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل فيَّ ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحي الله إليه في شأني شيئاً، ثم قال: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممتِ[1] بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله مقالته فاض دمعي ثم قلت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم إني بريئة ـ لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لَتُصدِّقونني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ قول والد يوسف (أي يعقوب عليه السلام): ﴿فَصَبْرٌ جَميلٌ واللَّهُ المسْتَعانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله سيبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أنه سينزل فيَّ قرآن يُتلى، ولَشَأْني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بآية تتلى، ولكني كنت أرجو أن يُري رسول الله رؤيا في النوم يبرئني الله بها.

وتضيف عائشة: فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي عليه فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء (أي الشدة) حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان[2] من العرق وهو في يوم شاتٍ من

---

(١) ألممتِ بذنب: قاربتِ ذنباً.

(٢) الجمان: اللؤلؤ.

ثقل القول الذي أُنزل عليه، فلما سرِّي عن رسول الله (أي انكشف الوحي عليه) سرِّي عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة، إن الله قد برأك، فقال لي أبواي قومي إليه. فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي...» وأنزل الله الآيات العشر في ذلك والتي سيأتي ذكرها.

العبرة من قصة الإفك

لقد كانت حادثة الإفك امتحاناً وابتلاء لرسول الله ﷺ وأهل بيته وصحابته ليرفع بها أقواماً ويضع بها آخرين، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن يبطىء نزول الوحي على رسول الله شهراً في شأن عائشة ليزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته، ويزداد المنافقون كذباً ونفاقاً، ولتتم العبودية الحقة في شأن عائشة، ولينقطع رجاؤها من الخلق، ولهذا وفّت لهذا المقام حقه لما قال لها أبواها قومي إلى رسول الله لتحمده بعد أن نزل الوحي الإلٓهي ببراءتها فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلّا الله الذي أنزل براءتي. وهذا يدل على رزانتها ومبلغ إيمانها بالله.

ومن نواحي الخير في قصة الإفك أنها تكشف على مدى الدهر أن القرآن وحي إلٓهي وأن محمداً رسول الله حقًّا. لقد خاض المنافقون ومن شايعهم في عِرْض رسول الله الذي عانى من ذلك من الألم ما يفتت الصخر، ولكن لم تُؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، وكان قوله لكل من سأله في شأن عائشة: «والله ما علمت من أهلي إلّا خيراً» ولقد استشار أصحابه وما كان جوابهم: ما علمنا عليها من سوء، كما أن رسول الله قال لعائشة: «فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن

كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب، تاب الله عليه».

هذا الكلام هو من وحي ضمير رسول الله وهو كما نرى من كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل الوحي الإلّهي عليه معلناً براءة زوجته، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن من تأليفه كما يدعي أعداؤه أن يعلن براءة زوجته من أول يوم ليحمي عرضه، ويرفع عن أهله شائعات السوء شهراً كاملاً، ولكن محمداً ﷺ هو الصادق الأمين الذي لا يتكلم إلّا بما يوحيه إليه ربه[١].

وحادثة الإفك تشهد بعظمه رسول الله فبالرغم مما عانى من آلام مضنية حيث اتُهمت زوجته بالسوء فإنه أمام ذلك اعتصم بالصبر وكظم غيظه نحو الذين يشيعون ذلك، وكانت إشارة منه تكفي لقيام المسلمين بضرب أعناق القاذفين بالزور والبهتان في حق زوجته، وعندما نزل عليه الوحي الإلّهي بتبرئتها لم يتجاوز حده بل أقام عقوبة القذف (ثمانين جلدة) في حق الأفراد الذين تكلموا بهذا البهتان[٢]، وهي العقوبة التي حددها الله في ذلك الأمر.

---

(١) نقلاً باختصار وتصرف عن كتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز.

(٢) من الذين نالوا عقوبة القذف حسان بن ثابت، وبعد أن نزلت الآيات ببراءة عائشة ندم حسان واعتذر وقال يمدحها في أبيات مطلعها:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غَرْثى من لحوم الغوافل

حَصان: أي عفيفة. رزان: أي ذات ثبات ووقار وعفاف. لا تزنّ بريبة: أي لا تتهم بسوء ظن وشك. غَرْثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة وهي المرأة العفيفة السليمة المصدر. والمراد أن عائشة لا تغتاب العفائف ولو كانت مغتابة لكانت آكلة من لحمهن فتكون شبعانة لأن الغيبة شبّهها القرآن بأكل لحم الميتة.

الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة

﴿إنَّ الَّذينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُم لا تحسَبُوهُ شرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم لِكُلِّ امرىءٍ منهم ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لولا إِذْ سَمِعْتُموه ظَنَّ المؤمِنُونَ وَالمؤمناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبينٌ. لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يأْتُوا بالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبونَ﴾ (١١ ـ ١٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم﴾ الإفك: هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والإفك ما قُذفت به عائشة من السوء في حقها، والعصبة: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة أشخاص، فالذين جاءوا بهذا الكذب والبهتان في حق عائشة واتهموها بعلاقة آثمة مع صفوان هم جماعة منكم أيها المؤمنون ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم﴾ أي لا تظنوا يا من تضررتم بهذه الحادثة أنها شرٌّ لكم بل هي خير لكم عند الله لما نلتم من ثواب الله العظيم على ما تحملتم من الألم والمعاناة، والذي تضرر وساءه ذلك هم المؤمنون وبالأخص رسول الله وأبي بكر وعائشة وصفوان. وفي هذه الحادثة خير وإعلاء لشأن عائشة لما نالت من براءة الله لها وكفى بذلك فخراً ﴿لِكُلِّ امرىء مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْم﴾ لكل امرىء من هذه الجماعة التي خاضت بحديث الإفك جزاؤه عند الله على مقدار اشتراكه في الخوض فيه ﴿وَالَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عظيم﴾ والذي قام بمعظم الإفك وبدأ به هو المنافق عبدالله بن أُبيّ الذي له عذاب النار في الآخرة لعظم جرمه.

﴿لولا إذ سَمِعْتُموهُ ظَنَّ المؤمنونَ بِأَنفُسِهِم خَيْراً﴾ لولا: هي للحض بمعنى: هلّا، تأكيداً للتوبيخ ومبالغة في العتاب، أي هلّا إذ سمع المسلمون

الطعن في عائشة وصفوان أن يظنوا خيراً بهما ﴿وَقَالوا: هٰذَا إِفْكٌ مُبينٌ﴾ أي قالوا عند سماعهم هذه الإشاعة: هذا كذب ظاهر واضح.

تأمل كيف عبّر القرآن عن عائشة وصفوان بقوله ﴿بأَنفسهم﴾ لأن المؤمنين في نظر القرآن هم كنفس واحدة ما يصيب الفرد يصيب الآخر[١] لذا أوجب الله على المؤمنين إذا سمعوا رجلاً يتهم أحداً بالسوء ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروه ويظنوا به خيراً.

ثم إن على المؤمنين أن يقيسوا هذا الأمر على أنفسهم فإن كان هذا العمل لا يليق بهم فهو في حق أم المؤمنين عائشة أَوْلى، وهذا ما أدركه أبو أيوب خالد بن زيد إذ قالت له امرأته: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة قال: بلى وذلك الكذب، ثم خاطب زوجته: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله ما كنت لأفعله، فأجابها زوجها: فعائشة والله خير منك. فإذا كانت أم أيوب تأنف ذلك فبالأحرى أم المؤمنين عائشة لأنها خير منها وأفضل.

﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ﴾ أي هلاّ جاء هؤلاء المفترون بأربعة شهود يشهدون على صحة ما يدّعون، فإذا لم يأتوا بأربعة شهود ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبونَ﴾ فهم في حكم الله وشريعته كاذبون، وهذا توبيخ للذين سمعوا الإفك فلم يحرصوا على دفعه وإنكاره وتكذيبه وطلب البينة من المفترين وبالأخص فإن المتهمة هي عائشة أم المؤمنين زوجة رسول الله وبنت الصديق أبي بكر.

---

(١) أورد القرآن هذه الحقيقة في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي لا يطعن بعضكم ببعض. وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً.

فالمبدأ الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي هو أن كل رجل بريء لا إثم عليه ما لم يكن هناك بيّنة واضحة تدل على جُرمه.

وتتابع الآيات في تبرئة عائشة وذم الذين تكلموا بالباطل فيها:

﴿وَلَوْلا[1] فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ في الدُّنيا وَالآخرةِ لَمَسَّكُم في مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم وَتَقُولون بِأَفْواهِكُم مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحانَك هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودوا لِمِثْلِهِ أبداً إِنْ كُنْتُم مُؤمنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٤ - ١٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ أي ولولا أن تفضّل الله عليكم ببيان الأحكام التي فيها خيركم ﴿وَرَحْمَتُه في الدُّنْيا والآخِرة﴾ ورحمته لكم في الدنيا بعدم تعجيل العقاب لعفوه عنكم، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً ﴿لَمَسَّكُم في مَا أَفَضْتُم[2] فيه عذاب عَظِيمٌ﴾ لنزل بكم عذاب عظيم بسبب خوضكم في هذه التهمة النكراء ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ[3] بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أصلها تتلقونه حُذف من الفعل إحدى التائين أي تقبلون هذا الإفك ويرويه بعضكم عن بعض، وقد رُوي أن الرجل المنافق كان يلقى الآخر فيقول: أو ما بلغك كذا وكذا عن عائشة ليشيع عليها بذلك الفاحشة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هيِّناً﴾ وتظنون

---

(١) لولا: حرف امتناع لوجود، أي دلت على عدم مسهم العذاب بوجود فضل الله ورحمته.

(٢) أفضتم: الإفاضة هي الخوض في الكلام مع الإكثار فيه كأنهم زادوا في حديثهم حتى فاض من جوانبهم كما يفيض الماء من إنائه.

(٣) روي عن عائشة أنها كانت تقرأها (إذ تَلِقُونَهُ) وتقول إنما هي ولْق القول يعني الكذب.

أن قولكم ذلك وروايتكم لما سمعتموه هين سهل لا إثم عليكم فيه ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وهذا الحديث الذي تتناقلونه في شأنها عظيم ذنبه وعقابه.

﴿وَتَقُولُونَ بأفواهكم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم من الأمر الذي تتحدثون به، وفي ذلك دلالة على أنه لا يجوز الإخبار عن أمر ما إلّا مع العلم اليقيني. وفي قوله سبحانه: (بأفواهكم) دليل أن كلامهم يجري على الألسن بدون أن يكون له أصل ومعتقد في القلب بل هو حديث سطحي تتناقله الألسن وهو حديث لا يعتد به.

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّم بِهَذَا﴾ أي هلّا إذا سمعتم حديث الإفك قلتم لهؤلاء المفترين: ما ينبغي أن نتكلم بهذا الحديث ولا يحلُّ لنا أن نتفوّه به ﴿سُبْحَانك هذا بُهْتَانٌ عَظيمٌ﴾ سبحانك: (ذكرت هنا بمعنى التعجب) أي تنزيهاً لك يا رب أن تكون امرأة رسولك فاجرة، وما يتحدثون به هو كذب عظيم افتراؤه ﴿ يَعِظُكُم اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أبداً﴾ ينصحكم الله وينهاكم أن تعودوا لمثل هذا القذف أبداً في حق المؤمنين بدون بيِّنة ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مؤمنين بالله حقيقة تتعظون بنصائحه وتأتمرون بأوامره ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ ويوضح الله لكم الآيات الدالة على الأحكام والآداب لتعملوا بها ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه عالم بكل شيء حكيم في تدبير خلقه.

ثم يبين الله مبلغ الجرم الذي يرتكبه الذين يعملون على تشويه سمعة المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ في الَّذين آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ وأَنَّ اللَّهَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩ ـ ٢٠).

والمعنى: إن الذين يحبون أن ينتشر خبر الزنا والمنكرات في الذين آمنوا كذباً بدون بينة لهم عذاب أليم موجع في الدنيا بحد القذف الذي شرعه الله وهو ثمانون جلدة، ولهم في الآخرة عذاب جهنم إن ماتوا مصرّين على ذلك غير تائبين منه، والله يعلم جميع أحوالكم الظاهرة والباطنة وأنتم لا تعلمون ما يعلمه.

فشيوع تهمة الزنا في الذين آمنوا ظلماً وعدواناً هو تعدٍّ على حرماتهم وإيلام لهم، ولا أشد إيلاماً للنفس من إلصاق تهمة باطلة بها، ولهذا حذّر الله الذين يشوهون سمعة المؤمنين بأشد العذاب.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ أي ولولا أن تفضل الله عليكم أيها الناس ورحمكم بتوفيقكم للتوبة التي تمحو الذنوب، وجواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي لعجل لكم العقوبة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ والله ذو رأفة ورحمة للتائبين من عباده، وهذا مما يفتح باب الرجاء أمام المؤمنين فلا يقنطون من رحمة الله وغفرانه لهم.

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ
فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ
مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ
دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ
وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ
أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

خطوات الشيطان: طرقه ومذاهبه.

الفحشاء: ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال.

المنكر: كل ما قبّحه شرع الله وحرّمه وكرهه، وهو ضد المعروف.

ما زكى: ما تطهّر من دنس المعصية.

لا يأتلِ: لا يحلف.

أولو الفضل: أصحاب الأيادي الجميلة والخير والإحسان.

والسَّعة: الغنى وكثرة المال.

المحصنات الغافلات: العفيفات اللاتي لا يخطر ببالهن ما اتهمن به.

يُوفِّيهِمُ: يعطيهم حقهم كاملاً.

دِينَهُمُ الحَق: جزاءهم الحق العادل.

ويتابع القرآن فيحذر المؤمنين من السير في طرق الشيطان:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحشاءِ وَالمنْكَرِ، وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه مَا زَكَى مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١).

والمعنى: يا من صدقتم بوحدانية الله ورسوله محمد لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا، ومن يقتفي آثار الشيطان ويتبعه فقد عصى ربه لأنه يأمر بالفحشاء، وهي كل ما اشتد قبحه من الأعمال والأقوال، كما يأمر الشيطان بالمنكر، وهو الذي ينكره شرع الله وتنفر منه العقول السليمة ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ببيان الأحكام وقبول توبة العصاة ﴿مَا زَكَى مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أَبداً﴾ ما تطهر منكم من أحدٍ أبداً من ذنوبه وآثامه ولا اهتدى إلى شيء من الخير ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاء﴾ ولكن الله يطهر من يشاء من عباده من الذنوب والآثام بالأحكام والشرائع التي ينزلها على رسله، ويوفقهم للتوبة ﴿وَاللَّهُ سَميعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لأقوال الناس عليم بأفعالهم.

ثم يدعو الله المؤمنين إلى العفو عمن أساء اليهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وهذا ما حصل من ذيول قصة الإفك:

وَلَا يأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُم وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤتُوا أُولي القُرْبى والمسَاكِينَ وَالمهَاجِرينَ في سَبيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّون أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿ولا يأْتَلِ أُولو الفَضلِ مِنْكُم والسَّعَةِ﴾ أي ولا يحلف بالله أصحاب الإحسان والفضائل والسعة في المال ﴿أن يُؤتُوا أُولي القربى﴾ أن لا يحسنوا إلى ذوي قرابتهم ﴿والمسَاكين والمهَاجِرينَ في سَبيلِ

اللَّهِ﴾ أي ولا يحلفوا على أن لا ينفقوا على المحتاجين والمهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بعقيدتهم من اضطهاد قريش ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي وليعفوا على من آذاهم فلا يحرمون عطاءهم لهم، والعفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب، أما الصفح فهو ترك اللوم والتعيير بالذنب. وصفحتُ عنه: أوليتُه مني صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه. والصفح أبلغ من العفو ﴿أَلا تُحِبُّون أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم، والغفران من الله هو أن يصون الإنسان من أن يمسه العذاب يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله مبالغ في المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم.

هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق حيث كان يتصدق وينفق على ابن خالته «مسطح» وهو من المهاجرين وأحد الذين قذفوا ابنته عائشة بالفاحشة. فلما نزلت الآيات في براءة عائشة وجلد رسول الله مسطح ثمانين جلدة جزاء قذفه، قال أبو بكر الصديق: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال في عائشة.

وبعد نزول هذه الآية يظهر لنا العنصر الطيب المؤمن في أبي بكر الصديق الذي ما كاد يسمع هذه الآية التي تأمر بمقابلة الإساءة بالإحسان، وتعد بغفران الله لمن يفعل ذلك حتى ترك دواعي السخط والانتقام جانباً وقال «واللَّهِ إني لأُحب أن يغفر الله لي» جواباً على ما ذكرته الآية ﴿ألا تحبُّون أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم﴾ وأعاد أبو بكر النفقة التي كان ينفقها على مسطح وقال: لا أنزعها منه أبداً.

ويتابع القرآن فيبين الإثم الكبير لمن يقذف العفيفات بالزنا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المؤْمِنَاتِ لُعِنُوا في الدُّنيا والآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُم وَأَيدِيهِم وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانوا يَعْمَلُون. يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُون أَنَّ اللَّهَ هو الحقُّ المبينُ﴾ (٢٣ - ٢٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المحْصَنَاتِ﴾ أي إن الذين يقذفون العفيفات بالزنا ﴿الغَافِلاتِ﴾ أي الغافلات عن الفواحش السليمات الصدور، النقيات القلوب ﴿المؤمِنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان وبكل ما يجب أن يؤمن به ويُعمل من الواجبات ويترك من المحظورات ﴿لُعِنُوا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أُبعدوا وطردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب جهنم.

ويوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم وجوارحهم بما تكلموا وعملوا به من ذنوب في دنياهم حين يجدون ما عملوا حاضراً أمامهم مكتوباً في صحائفهم التي دونتها الملائكة ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ دينهم: أي حسابهم، أي يوم القيامة يعطيهم الله ثواب وجزاء أعمالهم حقًّا لا شك في ثبوته ﴿وَيَعْلَمُون أنَّ اللَّهَ هُوَ الحقُّ المبينُ﴾ ويعلمون يومئذ أن الله هو الحق الذي لا يوصف بباطل، وأن وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جَوْر فيه.

هذه الآيات قيل إنها نزلت في خصوص من قذف عائشة بالفاحشة ولكن حكمها عامٌّ في كل من يقذف مؤمنة عفيفة لم تقارف سوءاً والقذف يشمل الرجال والنساء.

يقول ابن كثير في تفسيره: أجمع العلماء قاطبة على أن من سبّ عائشة بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذُكر في هذه الآيات فإنه كافر لأنه معاند للقرآن.

وعلى ضوء ما تقدم يبين القرآن أن الرجال والنساء ينجذبان إلى بعضهما البعض حسب صفاتهما وميولهما:

﴿الخبيثَاتُ لِلْخَبيثينَ وَالخبِيثُونَ لِلْخبيثَاتِ، والطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبِينَ والطَّيِّبونَ للطَّيِّباتِ أُولٰئِكَ مَبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولونَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ أي الخبيثات من النساء لا يستأهلن إلّا الأزواج الخبيثين، فمن طابت نفسه من الرجال واجتنب الإثم والفواحش فمحال عليه أن يميل إلى امرأة خبيثة ساقطة ليجعلها رفيقة عمره، وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلّا خبائث النساء ولا يميلون إلّا إليهن.

وقد تحتمل الآية معنى آخر وهو أن الخبيثات من القول ـ أي قبيحه وسيئه ـ تقال للخبيثين من الرجال والنساء ولا تقال للطيبين منهم، والخبيثون من الناس يقولون الكلمات الخبيثة التي فيها الكذب والطعن بالناس.

﴿والطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبين والطَّيِّبُونَ للطَّيِّباتِ﴾ أي أن الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، أو بمعنى الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

وإذا كان رسول الله محمد ﷺ أطيب الطيبين تبين كون زوجته عائشة أطيب الطيبات واتضح بطلان ما رُميت به من كذب وافتراء ﴿أُولٰئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي أن عائشة وصفوان مبرآن مما أشيع عنهما من الأقوال الخبيثة ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولهؤلاء الطيبين من الناس مغفرة من الله وصونٌ لهم من عذاب الآخرة، ورزق وافر لهم في الجنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

تَسْتَأْنِسُوا: تستأذنوا.
أزكى لكم: أطهر لكم.
جُناح: إثم.

أحْكَامُ الاسْتِئْذَانِ

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الأدب الذي يتوجب على المؤمنين الأخذ به حين الدخول إلى بيوت بعضهم البعض حفاظاً على حرمتها، ووقاية من أن تقع الأعين على عورات الرجال والنساء، وهذا الأدب يتمثل في الاستئذان من أصحاب البيوت قبل الدخول عليهم ثم إلقاء التحية عليهم. وهاتان الصفتان هما اليوم من الآداب التي تعد من مميزات المدنيّة الحديثة فتراهم يحرصون عليهما ولا يتسامحون في الإخلال بهما، والإسلام له السبق في ذلك، إذ يقول تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمنوا لا تَدْخُلوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧).

رُوي في أسباب نزول هذه الآية: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فنزلت تلك الآية.

فما من أحد إلّا وهو عرضة لأن يكون على حالة لا يحب أن يراه فيها أحد، فإذا فوجىء وهو على هذه الحالة بدخول زائر عليه تألم وامتعض من دخوله عليه قبل الاستئذان منه.

فالله يأمر المؤمنين بألَّا يدخلوا إلى بيوت بعضهم بعضاً ﴿حَتَّى تستأنسوا﴾ أي حتى تستأذنوا فتعلموا أيريد أهل البيت أن تدخلوا عليهم أم يرفضون.

وتستأنسوا هي من الاستئناس: خلاف الوحشة، والأَنَسُ والأُنْسُ الطمأنينة، فالذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفايا الحال عليه، فإذا أُذِنَ له استأنس وزالت وحشته، هذا بالنسبة إلى الطارق؛ أما بالنسبة لأهل البيت فهو يحدث في نفوسهم أُنساً وطمأنينة واستعداداً لمقابلته.

وقد تكون ﴿تستأنسوا﴾ من آنس الشيء إذا رآه وأبصره، أي حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال وتعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم، وأنه قد أَذن بدخولكم.

والاستئذان يكون بوسائل متعارفة كدقّ الباب، أو قرع الجرس، أو النداء لمن في البيت، أو صريح الاستئذان، أو التنحنح أو التسبيح وما يجري مجرى ذلك.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ أي إذا استأذنت فقل السلام عليكم فإذا رُدَّ

عليك السلام فقل: أأدخل، أو هل تسمحون بدخولي، فإن أذن لك فادخل، وإن لم تسمع إجابة فاستأذن ثلاثاً فإذا لم يؤذن لك بعد ثلاثٍ ظهر لك أن رب المنزل لا يريد الإذن لك، أو يمنعه عن إجابتك عذر لا يمكنه قطعه، فينبغي حينئذ الانصراف لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، ولا ينبغي أن تزيد في الاستئذان على ثلاث إلّا أن تتحقق أن من في البيت لا يسمعك. ﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم﴾ أي ذلك الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول على الناس بغتة بدون استئذان ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ لعلكم تتعظون وتعملون بهذه الآداب الرشيدة.

وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته: حييتم صباحاً، وحييتم مساء ثم يدخل البيت بدون استئذان، فربما رأى الرجلَ مع امرأته في حالة خاصة، وقد تكون المرأة مكشوفة العورة هي أو الرجل، وكان ذلك يؤذي ويجرح شعور أهل البيت، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها، كما يعرض النفوس من هنا وهناك للفتنة حين تقع الأعين على ما لا يُسِرّ.

والاستئذان يسري حتى على الأم في غرفتها، فقد رُوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال النبي ﷺ: نعم، قال الرجل: إنها ليس لها خادم غيري أفأستاذن عليها كلما دخلت؟ قال النبي ﷺ: أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، فقال النبي ﷺ: فاستأذن عليها.

ويتابع القرآن توضيح بعض أمور الاستئذان:

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُم، وَإِن قِيلَ لَكُم ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُم وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٨ ـ ٢٩).

فالله يأمر المؤمنين بأنهم إذا لم يجدوا في البيوت أحداً من الناس يأذن لهم بالدخول إليها ﴿فَلَا تَدْخُلوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي فلا تدخلوا هذه البيوت لأنها ليست لكم فلا يحلّ لكم دخولها إلَّا بإذن أصحابها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُم ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وإن كان في هذه البيوت أناس ولم يسمحوا لكم بالدخول وطلبوا منكم الرجوع فارجعوا ولا تُلحّوا في طلب الإذن ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُم﴾ أي فإن الرجوع أكرم لكم وأطهر لنفوسكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ والله مطلع على كل أحوالكم ومجازيكم عليها فلا تخالفوا إرشاداته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ﴾ ليس عليكم إثم ولا حرج ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُم﴾ والمتاع يطلق في اللغة على المنفعة وعلى الغرض والحاجة، والبيوت غير المسكونة التي فيها منفعة وحاجة مثل الحوانيت والفنادق ودور العبادة والبيوت المعدة للضيافة بعيداً عن السكن فهذه وأمثالها لا إثم في دخولها بغير إذن. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ والله عالم بجميع أعمالكم الظاهرة والباطنة فاتقوا مخالفة أمره.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ

يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ
وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ
أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

يغضّوا من أبصارهم: يكفوا أنظارهم عما لا يحلّ النظر إليه.

يحفظوا فروجهم: الفرج سوأة الرجل أو المرأة أي يحفظوها من الزنا.

خُمُرهن: جمع خمار وهو غطاء الرأس للمرأة.

جيوبهن: جمع جيب وهو فتحة في أعلى القميص يظهر منه الصدر.

بعولتهن: جمع بعل وهو الزوج.

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ: ما تملك أيديهم من العبيد والإماء.

أولو الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجال: الرجال الذين لديهم الرغبة الجنسية.

لم يظهروا على عَوْراتِ النِّساء: لم يبلغوا سن الشهوة الجنسية.

أحْكَامُ غضِّ البَصَرِ، وَحُدودُ زِينَةِ المرأَة

ولما كان النظر هو المدخل الأساسي لإثارة الشهوة الجنسية في النفوس سواء في الرجل أو المرأة لذا قيده القرآن بطريقة تحفظ طهارة النفس وعفتها كما أمر المرأة بعدم إظهار زينتها للغرباء عنها، يقول تعالى:

﴿قُلْ لِلْمؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بُخُمرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...﴾ (٣٠ - ٣١).

أمر الله المؤمنين والمؤمنات بالغض من البصر، وغض البصر هو خفضه وكفه عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وليس المراد أن يكون الإنسان مطرقاً رأسه فلا ينظر رجل إلى امرأة أو العكس لأن هذا مما يتعذر بل لا يستطاع ولذلك أمر الله بالغض منه. و(من) للتبعيض وهو يحصل بعدم إدامة النظر وإطلاقه إلى ما يحرم النظر إليه من العورات بالنسبة للرجل والمرأة، وهذا ما سنفصله فيما بعد.

فالقرآن يعالج الفساد في الناحية الجنسية من بداية الطريق لأن الإنسان ليس له القدرة على لجم نفسه أمام طغيان الشهوة بل عليه واجب الاحتياط ومنع المقدمات التي تثيرها وهي صيانة النظر عن المغريات.

فالنظر هو المدخل الأساسي لتسرب الشهوة الجنسية إلى النفس لذا نهى القرآن المؤمنين والمؤمنات أن ينظر أحدهم إلى الجنس الآخر ويديم النظر إذا كان هذا الآخر أجنبيًّا غير محرم.

وعلى تأثير نظر الرجل إلى المرأة أو العكس يحضرنا قول الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشررِ
كم نظرة فعلت في قلب فاعلها فعل السهام بلا قوس ولا وترِ

وكما يقول آخر:

وأنت إذا أرسلت طَرْفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

لذا كان القرآن دقيقاً عندما عقّب على غض النظر بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم﴾ بالنسبة للرجل ﴿وَيَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ﴾بالنسبة للمرأة،والفرج كني به عن السوأة عند الرجل والمرأة، وحفظ الفرج هو حفظه من النظر ومن الزنا.

ثم إن غض النظر يترتب عليه فوائد كثيرة فسرها القرآن بقوله: ﴿ذلك أزكى لهم﴾أي هو أطهر لقلوب المؤمنين والمؤمنات ومشاعرهم فلا تتلوث بإثارة الشهوات والوقوع في المحرمات.

وتأتي ﴿أزكى﴾ في اللغة بمعنى النماء، أي إن غض النظر عن الشهوات وحفظ الفرج من الزنا ينمي مواهب الإنسان ويحفظ له قدراته الجسدية التي يعود خيرها عليه.

ثم يقول تعالى: ﴿ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي لا يُظهر النساء زينتهن للرجال الأجانب ﴿إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ والزينة الظاهرة هي الوجه والكفان بدون أصباغ على الوجه والشفتين(١).

---

(١) إن وضع الأصباغ على الوجوه والشفاه كما تفعل النساء حاليًا والظهور في ذلك أمام الرجال الأجانب هو من التبرج الذي نهى الله عنه.

ويرى ابن عباس أن الزينة الظاهرة التي يجوز كشفها من المرأة هي: الوجه وكحل العينين وخضاب الكف والخاتم وهذا ما رجّحه الطبري.

والدليل على إباحة كشف الوجه واليدين ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله وقال لها: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض[1] لم يصلح أن يُرى منها إلّا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه[2].

ودليل آخر على إباحة الوجه والكفين هو أن المرأة تصلي وتؤدي شعائر الحج مكشوفة الوجه والكفين، كما أن المرأة مضطرة إلى مزاولة أعمالها بيدها، ومن ثمَّ كانت الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة وعقود الزواج وسواها، وتضطر إلى المشي في الطرقات لشراء حاجاتها ومزاولة العمل في المعامل والمدارس والمستشفيات وغير ذلك.

وقد قيّد العلماء إباحة كشف المرأة وجهها وكفيها إذا لم يترتب على كشفهما فتنة الرجل أو المرأة أما إذا خيف عليها من الفتنة وإلحاق الأذى بها والاعتداء عليها عندئذ وجب عليها ستر ذلك.

ذكرنا فيما سبق أن ظاهر الزينة هو الوجه والكفان فيخرج من ذلك ما خفي من الزينة كالسوار[3]، والخلخال[4]، والدملج[5]، والقلادة[6]،

---

(١) بلغت المحيض: أي بلغت السن التي تحيض به وتتجاوز به حد الطفولة.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) يرى ابن جرير الطبري أن السوار من الزينة الظاهرة الذي يجوز إظهاره.
(٤) الخلخال: حلية من فضة أو نحوها تجعلها المرأة في رجلها.
(٥) الدُّملج: حلية تحيط بمعصم اليد.
(٦) القلادة: ما يجعل في العنق من الحليّ (العقد).

والإكليل[1] والقرط[2]، فلا تُبدي المرأة هذه الزينة للرجال إلّا من استثنت الآية التي سيأتي بيانها.

فهذه الزينة الخفية التي ذكرناها واقعة على مواضع من الجسد لا يصحُّ إظهارها للرجال الغرباء عنها وهي: الذراع، والساق، والعضد، والعنق، والشعر، والصدر، والأذنين، فذكر هذه الزينة غير الظاهرة دون ذكر الموقع الذي تقع فيه للمبالغة في التستر، لأن هذه الزينة تقع على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها من الغرباء.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيوبِهِنَّ﴾ الضرب هنا بمعنى التغطية والإلقاء، والخُمُر: جمع خمار وهو غطاء من قماش تغطي به المرأة رأسها، والجيوب: جمع جيب[3] وهو فتحة الصدر في الثوب الذي يدخل منه الرأس. وقد كانت العادة عند العرب قبل الإسلام أن يضعن الخُمر على رأسهن ويسدلنها على ظهورهن فتبقى نحورهن وصدورهن عارية فأمرهم الله بستر نحورهن[4] وصدورهن حتى لا يُرى منها شيء لأنها موضع الفتنة من المرأة.

ثم يبين القرآن الفئات الذين يحق للمرأة أن تظهر أمامهم بزينتها الخفية:

---

(١) الإكليل: تاج يوضع على الرأس.
(٢) القرط: الزينة التي تعلق في شحمة الأُذن (الحلق).
(٣) إن اطلاق اسم الجيب على ما يكون من جنب الثوب لوضع الدراهم ونحوها كما هو الشائع حالياً فليس من كلام العرب.
(٤) نحورهن: جمع نحر وهو أعلى الصدر موضع القلادة.

﴿... وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَو آباء بُعُولَتِهِنَّ أو أبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بعُولَتِهِنَّ أَو إِخْوَانِهِنَّ أو بني إِخْوَانِهِنَّ أَو بَني أَخَوَاتِهِن أَو نِسَائِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولي الإرْبَةِ مِنَّ الرِّجَالِ أَو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّساءِ ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وَتُوبوا إلى اللَّهِ جَميعاً أَيُّهَ المؤمِنُونَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلا يُبْدينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية أي غير الظاهرة كالسوار والخلخال والقرط والدُّمْلُج والقلادة والإكليل التي تقع في مواقع من البدن معينة مثل الذراع والساق والعضد[1] والعنق والشعر والصدر والأذنين وما أُمرت بتغطيته بخمارها من صدرها ورأسها، فهذه الزينة الخفية لا يحل للنساء كشفها ﴿إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جمع بعل وهو الزوج، إلاّ أن للزوج خاصية عن غيره وهي رؤية كامل بدن امرأته، وكذلك المرأة بالنسبة لزوجها ﴿أو آبَائِهِنَّ﴾ وكذلك يحل للمرأة أن تظهر زينتها الخفية للآباء وتشمل آباء الآباء وآباء الأمهات.

﴿أو آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أي آباء الأزواج.

﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ وتشمل الأولاد وأولاد الأبناء والبنات.

﴿أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وهم أبناء الزوج من زوجته الأخرى، فللمرأة أن تبدي زينتها لأبناء زوجها مثل ما تبدي من زينتها لأبنائها.

﴿أو إِخْوَانِهِنَّ﴾ وهم الإخوة سواء أكانوا من الأب أو من الأم أو منهما معاً.

---

(١) العضد: الساعد، وهو من المرفق إلى الكتف.

﴿أو بَني إِخْوَانِهِنَّ﴾ أي أبناء الإخوة سواء أكان الإخوة من جهة الأب أو من جهة الأم أو منهما معاً وهو الأخ الشقيق.

﴿أو بني أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أي أبناء الأخوات سواء أكانت الأخوات من الأب أو من الأم أو منهما معاً.

﴿أو نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات، أما غير المسلمات فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها لهن، كما يرى ذلك بعض العلماء لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن لرجالهن، وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات.

ويرى بعض الفقهاء أن المراد بنسائهن هن المختصات بالصحبة والخدمة والتعارف سواء كن مسلمات أو غير مسلمات، وأن الغرض استثناء الأجنبيات اللاتي لا يُعرف شيء عن أخلاقهن وآدابهن، أو تكون أحوالهن الظاهرة مشتبه بها غير موثوقة، فليست العبرة بالاختلاف الديني بل العبرة بالاختلاف الخلقي، وما رُوي عن السلف من منع تكشُّفِ المسلمات لغير المسلمات فهو محمول على الاستحباب والأفضل.

﴿أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي ما تملكون من الرقيق من عبيد وإماء، وقيل: إنما عَنى بذلك الإماء دون العبيد، وقالوا: يُكره أن ينظر العبد إلى شعر مولاته.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ غير أولي الإربة: أي غير أولي الحاجة إلى النساء، قيل هو الذي يتبعك ليصيب من طعامك ولا حاجة له في النساء، وقيل هو العنين، والشيخ الطاعن في السن أو الأبله أو المعتوه، أو الأحمق الذي لا تشتهيه المرأة ولا يُغار عليه من الرجل، أو المخنث.

﴿أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْراتِ النِّساءِ﴾ المراد بهم الأطفال الصغار الذين لم يدركوا الشهوة ولا يثير لهم جسمُ المرأة شعوراً بالجنس نحوهن. أما إذا بلغوا سن المراهقة وصاروا يفرقون بين الشوهاء والحسناء وثار فيهم شعور بالجنس نحوهن فلا تبدي لهم المرأة زينتها ولو كانوا دون سن البلوغ.

﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ لقد كانت المرأة عند العرب قبل الإسلام تمشي في الطريق وفي رِجلها خلخال فكانت تضرب الأرض برجلها ليسمع صوت خلاخيلها تعرضاً للرجال ولفتاً للأنظار إلى ما خفي من زينتها فنهى الله عن ذلك، وسماع صوت الزينة في المرأة يثير في الرجال الشعور بالجنس نحوهن. ومن هذا الحكم يؤخذ أن كل فعل أو حركة أو مشية مصطنعة من المرأة تثير غريزة الرجال الجنسية نحوها فهو منهي عنه. وبالأخص خروجها متعطرة إلى الأسواق، وقد نهى رسول الله عن ذلك.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَميعاً أَيُّها المؤمِنونَ﴾ وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، والتوبة من الإنسان تكون بترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ألا يعود إليه ﴿لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا وتدركوا طلباتكم لدى الله سبحانه، إذا أنتم أطعتموه، وتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

أحكام النظر إلى العورات

ذكرنا فيما سبق أن القرآن حرم النظر إلى العورات لقوله تعالى: ﴿قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارِهم﴾ ﴿وَقُلْ للمؤمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبْصَارِهنَّ﴾.

فالعورة هي ما يجب على الإنسان أن يستره من جسمه ديانة وحياء ويحرم أن يكشفها للغير، وقد جعل الإسلام حدوداً للعورة بالنسبة لجسم الرجل والمرأة، والعورة تنقسم إلى أربعة أقسام:

١) عورة الرجل مع الرجل. ٢) عورة المرأة مع المرأة. ٣) عورة المرأة مع الرجل. ٤) عورة الرجل مع المرأة. وإليكم تفصيل ذلك:

١ ـ فأما عورة الرجل مع الرجل التي لا يجوز النظر إليها فهي ما بين السُّرّة والركبة[١]، والسرة والركبة ليستا بعورة على الأصح، وقيل هما عورة. وقد روي عن حذيفة أن النبي ﷺ مرَّ به في المسجد وهو كاشف عن فخذه، فقال النبي ﷺ: «غطِّ فخذك فإنها من العورة» كذلك يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة سواء كان نظره بشهوة أم لا.

٢ ـ عورة المرأة مع المرأة فهي كعورة الرجل مع الرجل أي ما بين السرة والركبة، ولا يجوز للمرأة أن تنظر إلى عورة امرأة أخرى لقول النبي ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة امرأة»[٢] ويجوز

---

(١) إذا كانت عورة الرجل ما بين السرة والركبة فهذا لا يعني أنه يباح له دون حرج أن يسير كاشفاً صدره وظهره في الطرقات وعلى الشرفات فهذا الأمر مكروه وهو مخالف للمروءة إلاّ إذا دعت الضرورة لذلك كعمل ونحوه، هذا مع العلم أن عورة الرجل بالنسبة للمرأة تختلف عن عورة الرجل بالنسبة للرجل كما سيأتي.

(٢) رواه مسلم.

للمرأة المسلمة النظر إلى بدن المرأة المسلمة ما عدا عورتها[١]، أما نظر غير المسلمة إلى بدن المسلمة فقد سبق أن ذكرناه في صفحة: ٦١ عند تفسير (أو نسائهن).

٣ - عورة المرأة مع الرجل فهي تختلف باختلاف الصلة بينهما، فإذا كان الرجل مَحْرَماً (أي من أقاربها الذين يحرم عليها الزواج بهم) فعورتها معه جميع بدنها ما عدا الوجه والأطراف وهي: الرأس والعنق واليدان والرِّجلان[٢].

أما إذا كان الرجل أجنبياً عنها فجميع بدنها عورة ولا يجوز للرجل الأجنبي عنها أن ينظر إلى شيء منها إلّا الوجه والكفين، وهذا النظر مقيد بأمور: منها أن ينظر إليها عرضاً ودون قصد، وإذا وقع بصره عليها يغض بصره لأن إدامة النظر مَنْهِيٌّ عنها لقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية»[٣].

---

(١) إذا كان للمرأة المسلمة أن تستر ما بين السرة والركبة لأنها من العورة بالنسبة للنساء فأين هذا ما تفعله كثير من النساء المسلمات في بعض البلدان العربية حيث يرتدين الملابس القصيرة التي تكشف عن قسم من أفخاذهن ويسرن في الشوارع على مرأى من جميع الناس بمن فيهم رجال السوء متعللين بذلك بأنها هي (الموضة) والموضة كما هي معروفة تأتي من بلاد الغرب التي استحلت الزنا، والذين يصنعون الموضة هم بعض شياطين دور الأزياء الذين لا يبتغون من ذلك إلَّا تبرج المرأة وإبراز مفاتنها وترويج بضاعتهم وازدهار مؤسساتهم، فتتقبل بعض النساء المسلمات هذه الموضة ويرتدينها عن خفة في العقل وضعف في الدين وانهيار في الأخلاق وانعدام الحياء فيهن وخلو رجالهن أو آبائهن أو أمهاتهن من الشرف والمروءة وضعف سلطتهم عليهن.

(٢) هذا رأي المالكية نقلاً عن كتاب الفقه على المذاهب الأربعة لفضيلة الأستاذ عبد الرحمن الجزيري.

(٣) رواه مسلم وأحمد.

ويجوز إدامة النظر إلى المرأة إذا كان يريد أن يخطبها، كما يجوز للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة عند تحمل الشهادة، وللطبيب الأمين عند المعالجة. ولو وقعت المرأة في خطر الغرق والحريق وسوى ذلك فلا حرج عليه إذا وقع نظره على بدنها لتخليصها.

أما النظر إلى المرأة بشهوة وإدامة النظر إليها للتلذذ فهو حرام لقول النبي ﷺ: «العينان تزنيان وزناهما النظر»[١].

٤ ـ عورة الرجل مع المرأة تختلف باختلاف الناظر إليه، فبالنسبة للنساء المحارم فهي ما بين سرته وركبته، أما بالنسبة للأجنبية عنه فهي جميع بدنه باستثناء الوجه والأطراف وهي الرأس واليدان والرجلان فيجوز للأجنبية النظر إليها عند أمن الشهوة وإلاَّ منع[٢].

وحرم بعض الأئمة النظر إلى ذلك مطلقاً، وقد روي عن أم سلمة أنها كانت عند النبي ﷺ ومعها ميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم (وهو أعمى) فقال النبي ﷺ: احتجبا عنه، فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا، فقال النبي ﷺ: أفعُمياوان أنتما، ألستما تبصرانه؟[٣].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) هذا رأي المالكية نقلاً عن كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، المرجع السابق.

(٣) أخرجه الترمذي وأبو داود.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ
وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا
حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا
تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)
وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

شرح المفردات

أَنْكِحُوا الأَيَامي: زوجوا العزَّاب من الرجال والنساء.

عبادكم: عبيدكم.

لا يَجدونَ نِكاحاً: لا يجدون القدرة على الزواج من مهر ونفقة.

يَبْتَغُون الكتاب: يطلبون التعاقد معكم لشراء حريتهم مقابل مال أو عمل.

ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء: ولا تجبروا إماءكم على الزنا واحترافه.

إن أردن تحصُّناً: إن أردن تعففاً وبُعداً عن الزنا

لتبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا: لتأخذوا من أُجورهم على ذلك.

ثم ينتقل القرآن إلى الدعوة والمساعدة على تزويج العزاب لأنه من الوسائل الناجعة لصرف الشباب عن الزنا:

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢).

أنكحوا: زوِّجوا، والأيامى: جمع أيِّم وهو العازب يُوصف به الذكر والأنثى يُقال رجل أيِّم وامرأة أيِّمة إذا لم يكن لأحدهما زوج، والمعنى زوِّجوا العزّاب من الرجال والنساء، وليس المراد بالتزويج إجراء عقد الزواج وإنما المراد به الإعانة والمساعدة على الزواج وإزالة العوائق المالية وغيرها من طريقهم، والأمر في الآية للاستحباب لا للوجوب.

﴿والصَّالِحينَ(١) مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُم﴾ المراد بالعباد هنا العبيد، والإماء: جمع أمة وهي العبدة وتسمى الرقيقة، والمراد بالصلاح أي الذين يصلحون للزواج ورعاية حقوقه والقدرة على تحمل أعباء الزوجية، والصالحون بالإيمان وحسن الخلق، وقد كان الرق شائعاً في زمن الدعوة الإسلامية، وكان المسلمون في حوزتهم كثير من الأرقاء، فدعا الإسلام إلى تزويجهم، كما دعا إلى تحريرهم في كثير من تشريعاته وسيأتي الكلام عن ذلك فيما بعد.

والزواج، رغَّب فيه النبي ﷺ وحثّ الناس عليه، فقد جاء نفر من المسلمين إليه يتباهون بعبادتهم وادعى أحدهم أنه يعتزل النساء، فقال النبي

---

(١) اشترط الله الصلاح في الأرقاء دون الأحرار لأن سيدهم يتحمل كل التبعة من تزويجهم بخلاف الأحرار الذين تنحصر مسؤولياتهم على أنفسهم لا على أوليائهم بعد الزواج.

ﷺ: إني لأخشاكم بالله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر، وأُصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب[1] عن سنتي فليس مني»[2].

وقال عمر بن الخطاب في مناسبة ما لأحد العزاب المسلمين: «ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور».

ثم يعقِّب القرآن على الدعوة إلى الزواج بقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم من عزّاب رجالكم ونسائكم وعبيدكم فقراء فإن الله سيغنيهم من فضله ويهيىء لهم وسائل العيش الكريم.

هذه الآية فيها وعد من الله بالغنى بعد الفقر لمن طلب رضا الله بالزواج وأراد به التحصن من الزنا، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب[3] الذي يريد الأداء، والناكح[4] الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»[5].

وهذا ما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ فقد قال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح (أي الزواج) وتلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: عجبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح، وتلا الآية نفسها، ورُوي عن أبي بكر الصديق قوله: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى.

---

(١) رغب: تركه متعمداً وزهد فيه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) المكاتَب: هو العبد الذي يتفق مع سيده على أداء مال له مقابل عتقه.
(٤) الناكح: المتزوج.
(٥) رواه النسائي.

ويختم الله هذه الآية بقوله: ﴿واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هنا تقرير لهذا الوعد الكريم فسعة فضل الله لا تضيق برزق زوجين فلا نفاد لنعمته، وهو عليم بخلقه يرزق من يشاء منهم بمقتضى حكمته.

وقد يقال بأن بعض المتزوجين الفقراء يظلون على فقرهم بعد الزواج، وقد أجاب القرآن على ذلك وبيَّن أن الغنى يرجع لمشيئة الله كما جاء في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُم عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إنْ شَاءَ﴾ (التوبة: ٢٨).

والفقر لا يجب أن يكون عائقاً عن الزواج، وأولياء الفتاة لا يصح أن تكون نظرتهم مركزة على المال بل عليهم إذا تقدم لخطبة ابنتهم من طابت سيرته وحسن خلقه أن يجيبوا طلبه ولو كان فقيراً إذا كان يملك القدرة على الإنفاق على زوجته، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وَخُلُقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[2].

والراغب في الزواج ليس عليه أن يؤخر أمر زواجه انتظاراً للمزيد من الغنى واليسر بل عليه أن يقدم على الزواج متوكلاً على ربه، واثقاً من عونه فإن الزواج كثيراً ما يكون سبباً في السعة في المال، لأن الإنسان ـ بعد الزواج ـ يشعر بتبعات أكبر فيبذل في التكسب جهداً أكثر مما كان يبذله قبل الزواج وبذلك يزيد إنتاجه في العمل.

كما أن للهدوء النفسي الذي يوفره الزواج الأثر الكبير على الزوج في إحسان عمله وإتقانه مما يعود عليه بالخير، كما أن من المشاهد أن للزوجة

---

(١) عيلة: فقراً.

(٢) رواه الترمذي.

الأثر الكبير في حث زوجها على السعي والعمل الدؤوب، ونفخ روح العزيمة فيه مما يضاعف همة الزوج في تحصيل الرزق.

ويتابع القرآن فيدعو إلى العفة لأنها هي المدخل لحياة سعيدة:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجدونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. . .﴾ (٣٣).

العفة: الكف عما لا يَحل ولا يَجْمُل، والاستعفاف: الاجتهاد في العفة من ضبط النفس وحفظها عن إتيان ما حرّم الله عليها من الفواحش.

﴿الذين لا يَجِدونَ نِكَاحاً﴾ أي الذين لا يملكون القدرة على نفقات الزواج من مهر ومسكن وإنفاق على الزوجة ﴿حَتَّى يُغْنِيهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يفهم من هذه الآية أن العفة هي من الوسائل إلى الغنى.

وقد أرشد النبي ﷺ الشباب إلى طريقة تعصمهم من الفواحش فقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[١] فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[٢]»[٣].

وثواب العفة عظيم فقد ذكر رسول الله سبعة يظلهم الله في ظله[٤] يوم

---

(١) الباءة: مؤن الزواج من نفقات مالية ومسكن.
(٢) وجاء: قاطع للشهوة الجنسية.
(٣) رواه البخاري.
(٤) يظلهم الله في ظله: إما بمعنى إيوائهم إلى ظل عرشه يوم تدنو الشمس من الوجوه يوم القيامة، وإما بمعنى أنه يحميهم بحمايته ويؤمنهم مما يخافون من أهوال يوم القيامة، ويشملهم برحمته.

لا ظل إلاَّ ظله، وَذَكَرَ منهم: ورجل طلبته امرأة[1] ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين.

فالطلب كان من المرأة وهذه أولى درجات الإغراء وهي أيضاً ذات منصب أي ذات حسب ونسب فلا تأنف النفس من الاتصال بمثلها ولا تحتقرها، وأضاف أيضاً بأنها ذات جمال، فإذا امتنع عن ذلك مخافة الله استحق بذلك رضوان الله عليه وثوابه العظيم.

(١) ورجل طلبته امرأة: أي طلبته امرأة غريبة ليعاشرها بدون عقد زواج.

أَحْكَامٌ في تَحرير الأَرِقَّاء

ثم ينتقل القرآن إلى معالجة الرق[1]، ودعوة المسلمين إلى تحرير ما يملكون من الأرقاء، وقبل أن نذكر الآية التي جاءت في هذه السورة في هذا الصدد نمهد الكلام عن الرق بصورة عامة وموقف الإسلام منه.

لما جاء الإسلام كان الرق سائداً في العالم وبالأخص في جزيرة العرب وكانت مصادر الرق ما يلي:

١ ـ الأسارى الذين يُسترقون عن طريق الحرب.

٢ ـ الأرقاء الذين ولدوا من آباء أرقاء فهم عبيد وراثة.

٣ ـ الأحرار الذين كانوا يسترقون بعد خطفهم على أيدي العصابات التي تُغير على قوافل المسافرين في البر والبحر أو على القرى النائية.

٤ ـ المدينون الذين افتقروا وليس لديهم ما يوفون به ديونهم فيسترقون وفاء لديونهم.

٥ ـ المذنبون الذين يسترقون جزاء ارتكابهم بعض الجرائم كالسرقة مثلاً أو ما يخل بنظام الدولة.

٦ ـ الأولاد الذين اضطر آباؤهم لبيعهم لشدة فقرهم.

فلما جاء الإسلام جعل للرق مصدراً وحيداً وهو عن طريق الأسرى الذين يؤخذون من حرب مشروعة تقوم على من يعترض دعوة الإسلام أو

---

(١) رجعنا في هذا البحث إلى كتاب (الرق) للدكتور عبد السلام الترمانيني.

يقاومها أو يعتدي على المسلمين[1] كما أقرّ الرق في أبناء الأرقاء الذين يتبعون آباءهم في الرق، وألغى ما سواه من المصادر الأخرى التي كانت سائدة في العالم، وبالمقابل فقد حضّ المسلمين على عتق الأرقاء الذين تحت أيديهم، وجعل عتقهم كفارة لبعض الذنوب، كما جعل عتقهم من أعظم القربات عند الله، وهكذا شرع الإسلام في إلغاء الرق تدريجيًّا وعلى دفعات لأن الرق كان نظاماً عالمياً مشروعاً عند أمم العالم أجمع، فهو عماد الحركة التجارية، وعليه المعول في تحسين الحياة الزراعية والعمرانية، فلو ألغى الإسلام الرق دفعة واحدة لتعرض الوضع الاقتصادي إلى الخلل.

فالإسلام لم يشرع الرق كما شرعته الأمم الأخرى فجعلت منه نظاماً طبيعياً أو إلّهياً، وإنما شَرَعَ العتق ورغَّب فيه، وكان في تشريعه هذا يعالج حالة استثنائية مؤقتة.

ومما شرعه الإسلام لعتق الأرقاء هو قوله تعالى في هذه السورة:

﴿. . . وَالَّذِين يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُم فِيهِم خَيْراً وَآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ. . .﴾ (٣٣).

الكتاب والمكاتبة سواء، والمراد بالكتاب العقد الذي يكتبه السيد

---

(١) إن الآية الوحيدة التي تعرضت لأسرى الحرب حددت مصيرهم في أمرين: إما المن على الأسرى بالحرية دون مقابل أو فك أسرهم مقابل فدية كما جاء في القرآن: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإماً مَنًّا بعد وإما فِداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (محمد: ٤) فهذه الآية لم تذكر استرقاق الأسرى حتى لا يكون هذا تشريعاً للبشرية في المدى البعيد. والإسلام بإباحته الاسترقاق أحياناً عن طريق الحرب المشروعة فإن هذا الحكم هو مجرد إباحة ولا يعني الإلزام وإنما هو متروك لحكمة إمام المسلمين لمعاملة أعداء الإسلام بالمثل لأن الرق لا يمكن إلغاؤه من جانب واحد بينما المسلمون يُستَرَقّون على أيدي أعدائهم.

لعبده بأن يكون حرًّا من العبودية مقابل مال يدفعه له أو عمل ما يقوم به، ومعنى: ﴿مما ملكت أيمانكم﴾ أي مما تملكون وما تحت أيديكم من العبيد والإماء[1].

ومعنى الآية: والأرقاء الذين هم تحت سيطرتكم أيها المؤمنون ويطلبون منكم تعاقداً معكم على دفع عوض من المال مقابل عتقهم واسترداد حريتهم ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ فتعاقدوا مع عبيدكم على أن تحرروهم من الرق في نظير شيء يدفعونه لكم إن علمتم فيهم قوة على احتراف مهنة ما، وقدرة على اكتساب المال من وجه حلال، وصدق في الوفاء بما ألزموا أنفسهم به، وصلاح في الدين فلا يكونوا عبئاً على المجتمع وخطراً عليه.

والمكاتبة واجبة لكل من أرادها من العبيد عند جمهور الصحابة وبعض المفسرين كالإمام الطبري وذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبوهُمْ﴾ ظاهره أمر، وأمر الله فرض يجب التقيد به، وقال بعض الفقهاء إنه أمر استحباب كما ذهب الإمام مالك.

وصيغة الكتاب أو المكاتبة أن يكتب السيد لعبده في العقد: كاتبتك على كذا وكذا، ويعين المال والمدة والأقساط المتفق عليها، ثم يضيف: فإذا أديتها فأنت حر. واختلف الفقهاء في جواز دفع المال حالاً أو مؤجلاً على أقساط، فقال أبو حنيفة: يجوز دفع المال حالاً أو مؤجلاً، وقال الشافعي: لا يجوز على أقل من ثلاثة أقساط.

ثم يقول تعالى: ﴿وآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذي آتَاكُم﴾ أمْرٌ من الله للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة الأرقاء المكاتبين وإعطائهم من مال الله

---

(١) الإماء: جمع أمة وهي العبدة.

الذي آتاهم، فالمال في الحقيقة هو مال الله الذي استودعهم إياه وهم سيتركونه بعد مماتهم فلا يجمل بهم أن يبخلوا به بعد أن أمرهم الله ببذله في تحرير الأرقاء.

وإعانة الأرقاء تكون بأن يترك السيد من كل قسط بعض المال المتفق عليه، وقيل يوضع عن العبد بعض المال عن آخر قسط أو يتنازل عنه، أو يوضع عنه من أوله، وقيل: يوضع ربع المكاتبة كما رُوي عن علي رضي الله عنه.

وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿وآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذي آتَاكُم﴾ هو إعطاؤهم حصتهم التي جعلها الله لهم من بيت المال في الصدقات التي وردت في الآية الكريمة:

﴿إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمسَاكِينِ والعَاملينَ عَلَيْهَا والمؤلَّفَةِ قُلُوبُهُم وفي الرِّقَاب وَالغَارِمين[1] وفي سَبيلِ اللَّهِ وابْنِ السبيل. . .﴾(التوبة: ٦٠).

فقوله تعالى ﴿وفي الرِّقَابِ﴾ أي في إطلاق الرقاب من قيود الرق وفي هذا التعبير تصوير للرق بأنه بمثابة الأغلال التي توضع في الرقاب وتصوير لمن صار حرًّا بأنه استرد رقبته أي استعاد حريته وإنسانيته.

هذا وإن الإسلام دعا إلى الإحسان إلى فئات من الناس كان الأرقاء من جملتهم:

﴿وآعْبدُوا اللَّه وَلا تُشرِكوا بِهِ شَيئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً وَبذي القُرْبى واليتامى والمساكينِ وَالجارِ ذِي القُرْبى وَالجارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وابنِ السَّبيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُم. . .﴾ (النساء: ٣٦).

---

(١) الغارمين: المدينين، وقد جعل الإسلام للمدين المعسر حصة في بيت مال المسلمين بينما كانت الأمم القديمة تسترق المدين العاجز عن تسديد ديونه.

ونهى الإسلام أن يقول الرجل هذا عبدي وهذه أمتي، بل يقول: هذا فتاي وهذه فتاتي وبهذه التسمية وردت تسميتهم في القرآن[1].

وروي أن رسول الله خاطب أبا ذرّ الغفاري حين علم أنه عَيّر عبده بأمه الأعجمية: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم وخولكم ـ أي أتباعكم ـ فمن كان تحت يده (عبدٌ) فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم» وقد رؤي أبو ذر بعد ذلك يلبس حلة وعلى عبده مثلها.

وقد حضَّ النبي ﷺ على حُسن رعاية الأَمَة فقال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كانت له جَاريةٌ فَأَدَّبها فَأَحْسَنَ تأديبها وأَعْتَقها وَتَزَوَّجها فَلَهُ أَجْرَانِ»[2].

وفي الفقه الإسلامي أحكام كثيرة تتعلق بحسن معاملة الرقيق ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير منها.

هذا وإن الإسلام جعل عتق الرقيق كفارة لبعض الذنوب:

ففي قتل المؤمن خطأ، أو كان المقتول خطأ غير مؤمن وبينه وبين المسلمين عهد وميثاق فكفارة ذلك تحرير إنسان مؤمن من الرق ودية مُسَلَّمَة إلى أهله.

وفي الحنث باليمين خَيَّر الإسلام المسلم للتكفير عن اليمين بين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير إنسان من الرق ومن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

---

(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ (النساء: ٢٥).

(٢) رواه البخاري.

وفي يمين الظهار وهو نوع من الطلاق كان شائعاً عند العرب في الجاهلية، فقد كان الرجل يقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي ويترتب على ذلك طلاق يوجب حرمة مؤبدة لا رجعة فيه، فجعل الإسلام كفارة ذلك تحرير رقبة من الرق فمن لم يملك رقيقاً فصيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

كما جعل الإسلام كفارة الإفطار عمداً في شهر رمضان عن طريق اتصال الرجل جنسيًا بامرأته تحرير إنسان من الرق أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً.

ويقع عتق الرقيق بالوصية بأن يقول السيد لعبده: أنت حر بعد موتي ويسمى ذلك العتق: التدبير، فيصير العبد حرًّا بعد موت سيده ويمتنع على السيد بعد ذلك التصرف فيه.

ومن صور التدبير أن تلد الأمة من سيدها ولداً فتصبح بذلك أم ولد فلا يجوز بيعها وتكمل حريتها بعد موت سيدها.

تَحريمُ البِغَاء

كان البغاء عند العرب قبل الإسلام على عدة وجوه:

منها: أنه كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها (أي حيضها) أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه[1] ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها، فإذا تبين، أصابها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد.

---

(١) فاستبضعي منه: أي اطلبي منه الجماع لتنالي به الولد فقط.

ومنها: ما كان يفعله بعض النسوة حيث كانت إحداهن تجلس في بيت وتتفق في آن واحد مع عدة رجال على أن ينفقوا عليها ويقضوا منها حاجتهم الجنسية فإذا حملت من سفاح ووضعت وليدها أرسلت إليهم حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت وهذا الولد هو ابنك يا فلان فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها.

ومنها: ما كان يجري بواسطة بعض النسوة المحترفات للبغاء حيث كنّ يضعن على أبواب بيوتهن رايات يعرفن بها وكانوا يدعون القليقيات.

فلما جاء الإسلام حرم كُلَّ ذلك، وشرع الزواج المعمول به في نظامه وقرر العقوبة للزاني والزانية كما سبق ذكرها.

ومن صور البغاء التي حرمها الإسلام هو ما كان شائعاً بواسطة الإماء حيث كان أسيادهن يجبرونهن على البغاء طلباً للتكسب من هذا العمل وكان من أبرز الأسياد الذين كانوا يجبرون إماءهم على الزنا هو عبد الله بن أُبيّ وكانت له جاريتان (أي أمتان) إحداهما تسمى معاذة والأخرى مسيكة فكان يجبرهما على الزنا ويضربهما عليه ابتغاء الأجر من زناهما وكسب الولد منهما، فأتت مسيكة إلى النبي ﷺ فشكت ذلك فأنزل الله قوله:

﴿.. وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُم عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحيَاةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣).

الإكراه: هو الإجبار بالقوة. والفتيات هنا المراد بهن: الإماء.

والبغاء: هو زنى المرأة خاصة. والمعنى: لا تجبروا إماءكم على الزنا ﴿إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ والتحصن: الامتناع عن الزنا والتعفف عنه، فإن لم ترد الأمة التحصن لا يصح أن يقال أنها مكرهة على الزنا ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ أي لتلتمسوا متاع الدنيا الزائل من رياشها وزينتها وأموالها، والمراد ما تكسبه الأمة من المال فيأخذه منها سيدها.

﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنّ فَإنَّ اللَّه مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي فإن أكرهتموهن على الزنا فإن الله غفور لمن أكرهتموهن والإثم يقع على من أكرههن وإن الله سيقبل توبة التائب منهم.

والإكراه في الإسلام لا يؤاخذ عليه الإنسان، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ: «رُفع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما اسْتُكْرهوا عليه».

فالآية القرآنية لا ترمي إلى منع الأسياد من إكراه إمائهم على البغاء فحسب بل تريد أن تقرر أن احتراف البغاء محرم في الإسلام.

والرسول ﷺ نهى عن مهر البغي، كما روي عنه قوله: مهر البغي خبيث، ثم يعقب الله قوله على آية تحريم البغاء:

﴿وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إلَيْكُم آيَاتٍ مُبيِّنَاتٍ وَمثَلاً مِنَ الَّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

أي ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات من القرآن واضحات مفصلات الحق من الباطل ﴿وَمَثلاً مِنَ الّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم﴾ وخبراً عن الأمم الماضية وما حلَّ بهم من عقاب بسبب ظلمهم وعصيانهم أمر ربهم ﴿وَمَوْعِظَةً للمتقين﴾ وموعظة وعبرة للذين يتقون غضب الله باتباع أوامره.

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ
يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ
أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ
ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ
ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ
حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ
مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ
يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

شرح المفردات

مشكاة: كوة في الحائط غير نافذة.

كوكب دُرّي: كوكب مضيء مشرق منسوب إلى الدر (اللؤلؤ).

مباركة: كثيرة المنافع

يضرب الله الأمثال: يبين للناس الأشباه والأمثال

بيوت: أي المساجد

أَذِنَ الله: أي أمر الله
أن تُرفع: أن تبنى وتعظم
يسبّح: يصلي
الغدوّ والآصال: أول النهار وآخره.
تتقلَّبُ فيه القلوب والأبصار: تقع في حيرة واضطراب من شدة الفزع.
السراب: هو ما يتراءى في الأرض المنبسطة عند اشتداد الحر ويبدو كأنه ماء.
القيعة: منبسط من الأرض (فلاة).
فوفَّاه حِسَابَهُ: جازاه على أعماله في الدنيا.
بحر لُجّي: بحر عميق الماء.

* * *

تَمثيل لِلقُدْرَةِ الإلَهيَّة وأَثرُهَا في الكوْن

وبعد الكلام عن التشريع القرآني في محيط الأسرة الذي يحفظ المجتمع من الزلل والانهيار الخلقي انتقل القرآن إلى الكلام عن شمول قدرة الله في هذا الكون:

﴿اللَّه نورُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُوره مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥).

فالله سبحانه يقول عن نفسه: ﴿اللَّهُ نُور السموات والأرض﴾ والنور هو الضياء الذي تصل به المبصرات إلى مبصراتها بانعكاسه على الشبكة في العين. وكلمة النور حين تضاف إلى الله تعالى يستحيل أن تطلق عليه بهذا المعنى المحسوس، فالله سمى نفسه نوراً من حيث أنه المنوّر للسماوات والأرض وتسميته بذلك لمبالغة فعله.

والله سبحانه يتحدث عن قدرته: ﴿وَجعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور﴾ أي خلق الظلمات والنور، فكيف يمكن أن يكون نوراً كخلقه.

وقد يراد بالنور المعنى المجازي بمعنى المدبر، فهو الذي يدبر شؤون السماوات والأرض ويجري سننهما على مقتضى الحكمة.

وقد يراد بالنور استعارته لمعنى الهداية، فهو سبحانه هدى أهل السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن إلى نور الإيمان بما أنزل من الشرائع على خلقه.

والقرآن الذي أنزله الله لهدى الناس أُطلق عليه لفظ النور كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُم وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُم نُوراً مبيناً﴾ (النساء: ١٧٤).

وقال سبحانه: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنُّور الذي أنْزَلْنَا﴾ (التغابن: ٨) والنور الذي أنزله هو القرآن الذي هو هُدًى للناس[١].

وجاء في القرآن: ﴿اللَّهُ وَليُّ الّذين آمنوا يُخرجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور﴾ (البقرة: ٢٥٧) والظلمات كما جاء في تفسيرها هي الضلالة، والنور هو الهدى.

ومجمل القول: فالله مُنَوِّرُ السماوات بالشمس والقمر والنجوم ومُدَبِّرٌ لشؤونهم، وهو سبحانه مُنَوِّرُ الأرض بالشرائع التي تهدي الناس إلى الصراط المستقيم.

وما أروع دعاء رسول الله عندما آذاه أهل الطائف، حين قال: «أعوذ

(١) جاء في القرآن ﴿ذلك الكتاب (أي القرآن) لا ريب فيه هدى للمتقين﴾.

بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك».

وهذا ما فهمه صحابة رسول الله. فعن ابن عباس قوله في تفسير ﴿الله نور السموات والأرض﴾ الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض. ويقول أنس بن مالك: إن إلّهي يقول: نوري هُداي.

ثم يمثل الله هداه في قلوب المؤمنين: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي صفة نوره ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ والمشكاة هي الكوة الصغيرة في الحائط التي لا منفذ فيها يوضع فيها المصباح، والمصباح هو الفتيل موقداً أي السراج ﴿المِصْبَاحُ في زُجاجَةٍ﴾ وهذا السراج الموقد موضوع في قنديل من الزجاج الشفاف الصافي ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾(١) وزجاجة هذا المصباح تتلألأ بالنور كأنها كوكب مضي متلألىء من دراري الكواكب.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي يوقد هذا المصباح من زيت شجرة مباركة من شجر الزيتون.

﴿لا شَرْقيَّةٍ ولا غَرْبيَّة﴾ الشجرة الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا أشرقت ولا تصيبها إذا غربت، والغربية هي التي تصيبها الشمس إذا غربت ولا تصيبها إذا أشرقت لفاصل من ظل يحجبها عن الشمس وقت الشروق أو الغروب كأن تكون الشجرة على حافة جبل. فهذه الشجرة لا شرقية فتحرم نور الشمس وحرارتها آخر النهار ولا هي غربية فتحرم من الشمس أول النهار بل هذه الشجرة شرقية وغربية فهي على قمة جبل أو في فضاء الأرض تفيد

---

(١) الدُّرُّ: اللآلىء العظيمة والدراري من الكواكب هي المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ.

من الشمس في جميع أجزاء النهار، وشجرة هذا شأنها يكون زيتها أصفى الزيوت وأجودها.

﴿يَكَادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يكاد زيت هذه الشجرة لصفائه وجودته يضيء بغير احتراق وبغير مساس نار ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو نور متضاعف من غير تحديد فنوره أقوى ما يكون.

﴿يَهْدي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يوفق الله لاستقبال نور هدايته من يشاء من عباده وهم الذين تفتحت قلوبهم لهدايته.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ والله يقدم الأمثلة المحسوسة ليسهل إدراك الأمور المعقولة ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم أحوال الناس ويرشدهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

وإننا نرى في هذا التصوير القرآني من إبراز النور في أكمل وجه ممثلاً له في المصباح الموضوع في كوة في حائط التي تعكس الضوء فتزيد في قوة النور، وكذلك جعل السراج في زجاجة مما يزيد في لمعانه وصفائه[1]، ووصفت الزجاجة بأنها كالكوكب المتلألىء المتألق الذي يتموج شعاعه، وهذا المصباح مادته من أجود الزيوت، ويختم الله قوله: ﴿نُورٌ علَى نُورٍ﴾ فهو تصوير لهداية الله فإنك من أي النواحي أتيتها وجدت نورها ظاهراً، وهو نور متضاعف يبهرك كلما نظرت إليه.

---

(١) إذا علمنا أن هذه الحقيقة أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً ـ وقت نزول القرآن ـ حيث ما كان يعرف حصر المصباح في زجاجة تحيط به ليصفو ضوؤه ويخلو من الدخان، وإذا علمنا أن اختراع الزجاج المحيط بالفتيلة قريب ليس بالبعيد آمنّا بأن هذا الكلام هو كلام الله.

ثَنَاءٌ عَلى عِبَادةِ المؤمنين

وبعد أن بيّن الله تعالى أنه يهدي لنوره من يشاء من عباده ذكر بعد ذلك صفات المؤمنين الذين حصلت لهم الهداية بذلك النور الإلّهي :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيه القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ. لِيَجْزِيهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٦ ـ ٣٨).

فالبيوت التي أذن الله (أي أمر الله) أن تُرفع، قيل: هي المساجد التي بنيت لعبادة الله وهو قول أكثر المفسرين. والمراد بالرفع في الآية هو الرفع المعنوي بمعنى أن تُعظَّم وتكرم وتطهر من الأنجاس والمعاصي واللغو من الأقوال، وقيل المراد برفعها: بناء المساجد. وقد بين رسول الله ثواب ذلك بقوله: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[١].

وقد تشمل المساجد بيوت كل المؤمنين التي تقام فيها الصلوات ويُذكر فيها اسم الله بالتعظيم والتقديس وتُتلى فيها آيات القرآن، فهذه البيوت يُعلي الله من قدرها ويرفع من شأنها ويخص ساكنيها بفضله ورحمته.

وعودة إلى المساجد فقد أمر رسول الله ﷺ أن تنظف المساجد وتُطَيَّب، كما أمر بأن تجنب المساجد دخول ذوي الروائح الكريهة لما في ذلك من إيذاء العابدين فقد رُوي عنه قوله: من أكل الثوم والبصل والكرَّاث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

ونهى رسول الله ﷺ عن البيع والشراء في المسجد فقال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك»(١).

كما روي عن رسول الله قوله: «جنّبوا المساجد صبيانكم(٢) ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسلّ سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر(٣) وجمّروها(٤) في الجُمُع»(٥).

وفي النهي عن رفع الأصوات أيضاً في المسجد يقول رسول الله ﷺ: «إن المصلي يناجي ربه فلينظر بِمَ يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن»(٦).

وقد بيّن رسول الله ﷺ ثواب الصلاة في المسجد فقال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف (أي تزيد) على صلاته في بيته وفي سوقه خمسة وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلّا رُفعت له بها درجة وحُطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه(٧) ما دام في مُصلّاه: اللّهم صل

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) تجنيب الصبيان للمساجد لأنهم يلعبون بها ويشوشون على المصلين صلاتهم واستماعهم لخطبة الجمعة، أما إذا تجاوز الصبي حد الطفولة وكان بإشراف والده ورقابته ويعلم آداب المسجد وآداب الاستماع إلى خطبة الجمعة فلا بأس في حضوره إلى المسجد لكي يعتاد على الصلاة وينشأ نشأة صالحة، هذا مع العلم أن صلاة الجمعة لا تجب إلّا على من صار في سن البلوغ.

(٣) المطاهر: هي المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة.

(٤) جمروها: بخروها بالطيب.

(٥) رواه ابن ماجه.

(٦) رواه الإمام أحمد.

(٧) الصلاة من الملائكة للإنسان هي الاستغفار له والصلاة من الله هي الرحمة له.

عليه، اللّهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة[1].

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ التسبيح هو تمجيد الله وتنزيهه عن النقص. وفُسِّر التسبيح بالصلاة لاشتمال الصلاة عليه، ولهذا يقول ابن عباس: كل تسبيح ورد في القرآن هو الصلاة. والغدو: جمع غداة وهي أول النهار ما بين الفجر وطلوع الشمس. والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار. وإفراد طرفي النهار بالذكر لقيامهما مقام كل النهار وهو ما يقع فيه الاشتغال بالأعمال الدنيوية والقيام بواجب العبادة التي تشمل الصلوات الخمس.

﴿رِجَالٌ لا تُلْهيهم تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجالٌ: فاعل يسبح، أي هؤلاء الرجال يصلون لله ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والتجارة تشمل البيع والشراء ولكنه ذكر البيع لأنه أكثر إلهاءً عن غيره، والربح الحاصل بالبيع متيقن بخلاف الشراء الذي يعتريه الشك في الربح ﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾ كما لا يلهيهم عائق عن إقامة الصلاة في مواقيتها من غير تأخير ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي ولا يشغلهم شاغل عن إعطاء المال الذي فُرِض عليهم إخراجه للمستحقين من عباد الله ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ واليوم الذي يخافون منه المراد به يوم القيامة الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ وَتَقَلُّب القلوب هو قلقها واضطرابها من الهول والفزع يوم القيامة، وتقلب الأبصار هو شخوصها من أهواله ومن الفزع الذي يصيب الأنفس.

﴿لِيَجزيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ليجزيهم: اللام للعاقبة والصيرورة، أي إن مآل أمرهم وعاقبته الجزاء الحسن، فيجازون على كل عمل حسن ولا يجازون على ما سبق من العمل القبيح قبل إسلامهم، ويزيدهم الله في

---

(١) متفق عليه.

الثواب: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم يعدهم بها، ولم يخطر ببالهم كيفياتها.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تنبيه بأن اشتغالهم بالتجارة مع عدم نسيان الله وعدم إهمال الصلوات سبب لوفرة الرزق، لأن الله وحده هو الرزاق، وهو الذي بيده خزائن السماوات والأرض فمن اشتغل بطاعة الله وقام بواجباته نحوه بجانب السعي في تحصيل الرزق فالله لا يحرمه من فضله.

خَيْبَةُ الكفَّارِ في الدنيا والآخرة

وبعد أن وصف الله حال المؤمنين في الدنيا وفوزهم بالنعيم الدائم في الآخرة أعقب على ذلك وصف حال الكافرين حيث يكونون في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات معطياً لكل من ذلك مثلاً. فالمثال على خيبتهم في الآخرة قوله تعالى:

﴿والَّذِين كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ (٣٩).

فالذين كفروا يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات هي مفيدة في نظرهم تجلب لهم الخير ولكن في حقيقة الأمر ليسوا على شيء مما يجديهم نفعاً عند خالقهم، فأعمالهم في حقيقة الأمر هي ﴿كَسَرابٍ بقيعَةٍ﴾ والسراب[1] هو ما يتراءى للناظر أنه ماء وليس كذلك، والقيعة: هي الأرض

---

(١) السراب: هو مجرد ظاهرة وهمية سببها انعكاس أشعة الشمس وارتدادها من سطح أرض فسيحة حين ترتفع درجة الحرارة أثناء النهار فيتراءى للناظر بحيرة من الماء، وهي تشاهد عادة في الصحارى والمناطق المنبسطة والطرق الصحراوية المعبدة بالأسفلت.

المستوية المتسعة المنبسطة ومنها يكون السراب ﴿يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً﴾ أي فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء قصده ليروي عطشه فلما انتهى إليه لم يجد ماءً ﴿حَتّى إذَا جَاءَهُ لم يَجِدْه شَيئاً﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه عمل في دنياه عملاً ينفعه في الآخرة فإذا أقبل على ربه يوم القيامة وحاسبه على أعماله لم يجد شيئاً من عمله قد قُبل إما لعدم الإخلاص أو لعدم العمل بشريعة الله، فأعماله كالسراب يحسبها نافعة له ولكنها لا شيء فهي وَهْمٌ في وَهْم لا تجديه نفعاً ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أي وجد حكمه تعالى وقضاءه العادل ﴿فَوفَّاه حِسَابه﴾ أعطاه جزاءه وافياً من العقاب الذي توعّده به ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ فالله عالم بكل أعمال الخلق لا يحتاج إلى زمن للفصل في الأحكام بل حكمه سريع ناجز ليس فيه تأخير ولا بطء.

ويتابع القرآن فيصور حال الكافرين وتخبطهم في الضلال في الدنيا:

﴿أو كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

فهذه الآية تصور تعامي الكفار عن نور الله وهدايته فهم في ظلمات تشبه ظلمات ﴿بَحْرٍ لُجيٍّ﴾ أي بحر كثير الماء عميقه ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي يستره ويغطيه موج ﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج موج آخر ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج السطحي سحاب يستر أضواء القمر والنجوم ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها على بعض وهذا بيان لشدة الظلمات ﴿إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ وفي وسط هذه الظلمات يكاد راكب البحر أن لا يرى يده لو نظر إليها ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ كذلك الكافرون لا يخرجون من

عمايتهم وضلالهم إلاّ بنور الإيمان، ومن لم يوفقه الله لنور الإيمان فليس له نور يهديه إلى الخير.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ فهذه الآية تشير إلى الأمواج الداخلية والسطحية التي تحصل في المحيطات «فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعباً هي أمواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحر.. وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى «بالماءِ الميت» والذي عرف الآن أنه أمواج داخلية. وفي أوائل عام ١٩٠٠ لفت الأنظار كثير من مساحي البحار الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء.. والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جداً فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها الأمواج السطحية على قذف السفن، ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق..»(١).

فقوله تعالى ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية ويؤيد هذا ما وصفه القرآن للبحر بأنه (لجيّ) أي كثير الماء عميقه، وفي هذا إشارة إلى المحيطات لا إلى الشواطىء. ومن المعلوم أن البحر المحيط القريب من القطب الشمالي يقل به وهج الشمس، فما بالك باجتماع السحاب الذي تكثر فيه الظلمة ويصبح الوضع كما وصفه القرآن: ﴿إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا﴾.

فما وصفه القرآن ينطبق على البحر المحيط أصدق وصف، وليس له علاقة بالوسط الجغرافي الذي عاش فيه رسول الله محمد ﷺ، فلو افترضنا أن محمداً رأى في شبابه منظر البحر فلن يعدو رؤية شواطىء البحر الأحمر المتاخمة لأراضي جزيرة العرب. فالوصف الذي جاء به القرآن المطابق للبحر المحيط آية على كونه وحياً إلٰهياً وبرهاناً واضحاً على صدق نبوة محمد ﷺ.

---

(١) عن كتاب «البحر المحيط بنا» تأليف راشل ل. كارسون.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ
ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن
مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

شرح المفردات

والطير صافات: باسطات أجنحتهن في الهواء دون حركة.

يُزجي سَحَاباً: يدفع السحاب ويسوقه برفق.

يُؤَلِّفُ بينه: يجمع بعضه على بعض.

يجعله رُكَاماً: أي يجعل بعضه فوق بعض.

الودْقَ: المطر.

سَنَا بَرْقه: ضوء البرق.

يقلّب اللّه الليلَ والنَّهارَ: يغير أحوالهما من قصر أو طول ونور أو ظلام.

رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ للكون

ثم تنتقل بنا الآيات إلى بيان تفرد الله بالوجود والخلق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السماوات والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسبيحَهُ واللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ. وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ المصيرُ﴾ (٤١ - ٤٢).

التسبيح لله: هو تمجيده وتعظيمه وتنزيهه عن النقص والسوء وعن كل ما لا ينبغي أن يوصف به، وقد يكون بمعنى الصلاة له وذكره وحمده.

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّه يُسَبِّحُ لَهُ من في السموات والأرض﴾ أي أن الله يمجّده ويعظّمه ويصلي له من هو مستقرٌّ في السموات والأرض من العقلاء كالملائكة والجن والإنس، وغير العقلاء كالحيوان والطير والجماد. وتسبيح الطير ما يسمع من تغريدها وأصواتها وإن كنا لا ندري كنه تسبيحها وعبادتها لله، أما الجماد فما يشاهد من آثار الصنعة الإلّهية فيها الناطقة باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزهه عن صفات النقص، كما أن في الجماد أسراراً[1] قد تكون مظهراً من مظاهر العبادة للخالق.

---

(١) الجماد يحتوي على عناصر كثيرة تقارب المائة مثل الحديد والفوسفور والهيدروجين وغيرها وهي موجودة في الأجرام السماوية والأرض. وكل عنصر من هذه العناصر مكونة من ذرات وكل ذرة تحتوي على البروتون والنيوترون ويطلق عليهما نواة الذرة يضاف إليهما عنصر ثالث هو الإلكترون الذي يدور حول نواة الذرة. وهذا النظام في الذرة يشبه النظام الشمسي، فنواة الذرة تقابلها الشمس، والإلكترون الذي يدور حول نواة الذرة يقابله الكواكب السيارة. كذلك بينت الدراسات العلمية أن مجموعتنا النجمية وغيرها تدور ببطء حول محورها المركزي فهل هذه الحركة الدائمة في الكون هي نوع من التسبيح والتقديس لله قد يكون ذلك والله أعلم والله سبحانه يقول: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ والمسلمون في طوافهم حول الكعبة يشاركون الكون كله في عبادة الله، ويشبهون الذرة في حركاتها.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ وكل المخلوقات أرشدها الله وألهمها لعبادته وتمجيده بصلاة خاصة بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ والله سبحانه عالم أتم العلم بصلاة كل مصلّ وتسبيح كل مسبح له.

وإذا كان كل شيء في الوجود يقدس الله ويصلي له فمن الجحود والكفران أن يغفل الإنسان عن ذكر ربه وبالأخص أنه سبحانه خصه بالنعم التي لا تحصى وفضّله على كثير ممن خلق.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ والله سبحانه المالك لما في السموات والأرض، الحاكم المتصرف فيهما، الإلٓه المعبود الذي لا تنبغي أن تكون العبادة إلّا له سبحانه ﴿وَإِلَى اللَّهِ المَصِيرُ﴾ وكل الخلق راجع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالهم.

ويتابع القرآن الكلام عن القدرة الإلٓهية المتمثلة في تكوين السحاب، ونزول المطر، وعواصف الرعد، واختلاف الليل والنهار:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ (٤٣).

تسبق هذه الآية في السحاب ركاب العلم فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية، أي المتراكمة بعضها فوق بعض وخصائصها.

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾ أي ألم تعلم أن الله يدفع السحاب لينساق برفق إلى حيث يشاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ ثم يجمع بين أجزائه. وتأليف السحاب هو إعداده بطريقة ما للاجتماع بواسطة الرياح إما

سحاب من صنف واحد في كل سحابة منه دقائق مائية بحالتين متضادتيْ الكهربائية سالبة وموجبة مختلط بعضها ببعض، أو إعداد كتل سحاب من صنفين أحدهما كتل موجبة التكهرب والثاني كتل سالبة التكهرب. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ ثم يجعل هذا السحاب متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرى الوَدْقَ يخرجُ مِن خِلالِهِ﴾ أي فترى المطر يخرج من خلال السحاب وذلك من تأثير التجاذب بين التيارات الكهربائية في السحاب، السالبة والموجبة، التي تحول بخار الماء إلى قطرات دقيقة من الماء تكبر شيئاً فشيئاً إلى أن تسقط مطراً.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ من جِبَالٍ فيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي والله ينزل من مجموعات السحب المتكاثفة التي تشبه الجبال برداً (أي قطع الماء المتجمدة). إن تشبيه هذه السحب بالجبال معجزة للقرآن، فالسحب الركامية تنمو في الاتجاه الرأسي وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلومتراً فتبدو كالجبال الشامخة، ولا يعرف التشابه بين السحب الركامية والجبال إلّا من يركب طائرة تعلو به فوق السحاب فيراها من فوقه كالجبال، وإذا لم تكن الطائرات في عصر محمد ﷺ فإنه يكون هذا دليلاً على أن القرآن من عند الله.

والآية تقول إن هذه السحب هي وحدها التي تجود بالبَرَد ﴿منْ جِبَالٍ فيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ وهذه حقيقة علمية أخرى يعلنها القرآن، وقصة نشوء البَرَد هو أنه بعد أن تتكون نقط المطر تعمل تيارات الهواء الصاعد على حملها إلى مناطق التجمد في ارتفاعات شاهقة تنخفض فيها الحرارة إلى ٤٠ أو ٥٠ درجة تحت الصفر، وتلك مرحلة تتحول فيها نقط المطر إلى ثلج كما تجمع حولها أغشية من بلورات الثلج التي تحولت إلى جليد، وهذه المكونات الثلجية يجتمع بعضها ببعض عن طريق التصادم فتنمو ويزداد حجمها بحيث

لا يقوى الهواء على حملها فتسقط إلى الأرض على شكل البَرَد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهذا البرد ينزل على قوم فينفعهم أو يضرهم تبعاً لإرادته ولا ينزل على آخرين تبعاً لمشيئته إذ ربما يحول تيار الهواء الصاعد دون نزوله في مكان معين حتى إذا ما ضعف هذا التيار هوى هذا البرد على هيئات زخات.

وهناك حقيقة علمية أخرى ذكرتها الآية وهي أن السحب الركامية هي وحدها التي يمكن أن يتولد منها البرق ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي يكاد ضوء البرق الذي في السحاب يذهب بالأبصار من شدة بريقه وزيادة لمعانه.

والبرق ما هو إلّا شرارة كهربائية هائلة، ولكن ما مصدر هذه الشرارات الكهربائية الهائلة؟ إن مصدرها هو شحنات الكهرباء في نقط الماء التي تكون داخل السحب وكذلك الهواء الذي من حولها، وكذلك فإن في نموّ البَرَدِ داخل السحب يصحبه حتماً انفصال شحنات كهربائية عظمى، وتنشأ عن هذه الشحنات ضغوط كهربائية لا تزال تتراكم وتزداد حتى لا يقوى الهواء على عزلها فيتم التفريغ الكهربائي، وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة (٤٠ تفريغاً في الدقيقة الواحدة) ومن أظهر أضرار البرق الإصابة بالعمى المؤقت ولعلَّ الطيارين هم أكثر الناس تعرضاً لذلك وخصوصاً عند تحليقهم داخل السحب الركامية مما يشكل خطراً على الطيران.

فهذا الوصف الدقيق لهذه العواصف الرعدية وأضرارها آية على صدق نبوه محمد ﷺ.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يغير الله أحوال الليل والنهار بالطول والقصر والبدء والانتهاء بتعاقبهما وذلك من جراء السنن الإلّهية بدوران

الأرض حول الشمس ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الأبصارِ﴾ وإن في هذه الظواهر الكونية لدلائل وعبراً لذوي العقول السليمة الذين يبصرون الحقائق ويؤمنون عن طريقها بالله الخالق كل شيء.

ويتابع القرآن الكلام عن القدرة الإلّهية المتمثلة في مخلوقات الله التي خُلقت من الماء:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُم مَنْ يَمشي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَنْ يَمشي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمشي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥).

فالله خلق كل دابة من ماء، والدابة كل ما دب على الأرض من حيوان وزواحف ﴿فَمِنْهُم مَنْ يَمشي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحيات ﴿وَمِنْهُم مَن يمشي عَلَى رِجْلَينِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَمْشي عَلَى أَرْبع﴾ كسائر الحيوانات، ولم يتعرض القرآن لما يمشي على أكثر من أربع لقلته ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من هذه المخلوقات وغيرها من الجمادات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، فكل مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾ الذي يكشف عن سرٍّ من أسرار الحياة أدركه العلماء حديثاً، فعلماء الأحياء يعتقدون أن الحياة بدأت في مياه المحيطات المالحة الأولى، ولكن قليلاً منهم يعتقدون نظرية أن الحياة بدأت في الماء العذب.

والحياة لم تبدأ في الماء فحسب بل يمكننا أن نقول دون أن نحيد كثيراً عن الدقة العلمية: إن الحياة لم تترك الماء قط، فجميع صور الحياة تستمر بفضل البروتوبلازم وتمارس نشاطها داخله. فالبروتوبلازم مادة لزجة معظمها من الماء وهي تعتبر قوام الخلايا الحية وعليها يعتمد النمو والتكاثر وهي تتمتع

بخصائص متعددة حصيلتها الحياة نفسها، وتتألف الوحدة البروتوبلازمية من النواة والحشوة والغشاء البلازمي، فالماء أساسي للبروتوبلازم والبروتوبلازم أساس الحياة. وجسم الإنسان يشتمل على ألف مليار خلية في تقدير العلماء، وكل خلية معظمها من سائل مائي.

وصدق الله إذ قال ﴿واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ الذي يظهر إعجازاً علمياً للقرآن لم تظهر أسراره إلَّا منذ قريب بعد أن تبحر العلماء في كشف أسرار الخلية، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في موضع آخر من هذه السورة إذ جاء فيه ﴿وَجَعَلْنا مِنْ المَاءِ كُلَّ شيء حَيّ﴾ ثم يعقب القرآن على ذلك بقوله:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ واللَّهُ يَهْدي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦).

أي لقد أنزلنا أيها الناس هذه الآيات القرآنية الواضحة الدالة على طريق الحق وسبيل الرشاد، والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه وهدايته إلى دين الإسلام، ذلك الدين هو الطريق المستقيم الذي يوصل إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن
يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ
قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا
عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

يتولّى: يعرض.

مذعنين: مقرين خاضعين.

يَحِيفَ: يظلم ويجور.

جَهْدَ أَيْمَانِهِم: غاية قسمهم.

صفَاتُ المنَافِقين:

ثم يخبرنا القرآن عن بعض تصرفات المنافقين مع رسول الله ﷺ، والمنافقون هم فئة كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر:

﴿وَيَقُولُونَ آمنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالمؤمنين. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبهم مَرَضٌ أَمْ ارتَابُوا أَم يَخَافُونَ أَنْ يحيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧ - ٥٠).

فالمنافقون يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالرَّسُولِ﴾ أي صدقنا بوحدانية الله وبرسوله محمد، يقولون ذلك من غير يقين ولا إخلاص ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعنا الله ورسوله في أحكام الشرع ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم يُعرض فريق منهم عن طاعة الله ورسوله ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالمؤْمنينَ﴾ فإعراضهم عن طاعة الله ورسوله هو الدليل الأكبر على كذبهم في ادعائهم للإيمان، ورسول الله لا يحكم إلاَّ بما أنزل الله.

فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم توافق أفعالُهم أقوالَهم، وحقيقة إيمانهم يظهر في استجابتهم لشرع الله.

وإني أتساءل هل الدول الإسلامية الحاضرة تسير بموجب تشريعات الإسلام، نقول إن أكثرها تطبق الإسلام في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث وبعض النواحي الاجتماعية الأخرى بينما تتغافل عن تنفيذ عقوبات الإسلام في القتل والسرقة والزنى والقذف والفساد في الأرض وشرب الخمر، وتسير في قوانينها في هذا الصدد حسب القوانين الغربية التي

تسرف في الحرية الشخصية، هذه الحرية التي جرَّت عليها ويلات كثيرة من كثرة الإجرام والإفراط في السرقة والتعدي على حقوق الغير، بينما الإسلام يجعل حرية الشخص مقيدة بمصلحة الجماعة ولا يسمح بالتعدي عليها بحال من الأحوال.

فنظام الإسلام يقدم الخير للمجتمعات، ولنا مثالٌ في المملكة العربية السعودية التي عندما طبقت نظام العقوبات التي شرعها الإسلام انتفى الإجرام منها كليًّا وانعدمت السرقة وأصبح الفرد فيها آمناً على نفسه وماله. وإني أُذكِّر الجميع بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ (المائدة: ٤٥).

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيحَكُم بَيْنَهُمْ﴾ أي ومن أحوال المنافقين أنهم إذا طُلبوا من خصومهم التحاكم أمام رسول الله بمقتضى شرع الله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ﴾ إذا: هي الفجائية، أي فاجأ فريق من المنافقين من دعاهم إلى التحاكم أمام رسول الله بالإعراض إذا عرفوا أن الحق في جانب خصومهم ﴿وَإِنْ يَكُن لَهُمُ الحقُّ يَأْتوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أما إذا عرفوا أن الحق في جانبهم فهم يأتون إلى رسول الله طائعين خاضعين، وقيل: مسرعين.

هذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يُقال له بِشْر وكانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة، وكان اليهودي يدعوه إلى التحاكم عند النبي، وكان المنافق يدعوه إلى كعب بن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا (أي يجور) وكان المنافق إذا رأى الحق في جانب خصمه دعا إلى غير النبي، وإذا كان له الحق دعاه إلى التحاكم إلى رسول الله ليستوفيه له.

وهذا نمط من النفاق يسري على كثير من الناس الذين لا يبتغون الحق

بل يريدون الاستيلاء على حقوق الغير ظلماً متجاوزين شرع الله وغير عابئين بسخط الله عليهم وحسابه لهم يوم القيامة.

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين بصيغة الذم والتوبيخ: ﴿أَفي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ أي هل سبب إعراضهم عن التحاكم عند رسول الله أنهم مرضى القلوب؟ نعم هذا هو السبب.

فالقلوب كما تُصاب بأمراض عضوية. فهي أيضاً تصاب بأمراض نفسية وتعقيدات شتى تفقدها إنسانيتها ووازع ضميرها فلا يؤثر فيها وعظ ولا ترى للحق سبيلاً إلى نفسها.

﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أم سبب إعراضهم أَنهم شكُّوا في نبوة محمد ﷺ مع ظهور الدلائل على صدقها.

﴿أمْ يَخَافُونَ أن يحيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولُهُ﴾ والحيف هو الميْل في الحكم إلى أحد الخصمين والجوْر. أي كيف يخافون الظلم من الله ورسوله وهم يعلمون أن رسول الله يحكم بينهم بالعدل وبما أنزل الله من القرآن، والدليل على إقرارهم بعدالة رسول الله أنهم يعرضون عن التحاكم عند رسول الله حين يكونون ظالمين، ويأتون إلى رسول الله مسرعين حين يكونون محقين، فهم في الحقيقة لا يخشون في حكم الله جوْراً ولكنهم لا يريدون الحق ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ أي لا يخافون أن يظلمهم رسول الله لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون لأنهم يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم.

وإذا كان هذا حال المنافقين فإن واجبات الإيمان تستدعي طاعة الله ورسوله التي تؤدي إلى الفوز برضوان الله:

﴿إِنَّما كَانَ قَولَ المؤمنينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أَنْ يَقُولوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ (٥١ ـ ٥٢).

فالمؤمنون الصادقون يقفون موقف السمع والطاعة إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سواء أكان الحق في جانبهم أم بجانب خصومهم، ومن ثَمّ كانوا ﴿هُمُ المفلِحُونَ﴾ أي الفائزون برضا الله لأنهم خضعوا لحكم الله.

ومن يطعِ الله ورسوله في كل أمر ونهي ويخشى الله فلا يرتكب من الأفعال والأقوال ما يغضبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ وتقوى الله هي تجنب عذابه بطاعته وامتثال أوامره وحفظ نفسه عن الآثام ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ وفوزهم يكون بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم في الآخرة.

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ أَمَرْتَهُم لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. قُلْ أَطِيعُوا اللَّه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم وَإِن تُطِيعُوهُ تَهتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ المبينُ﴾ (٥٣ ـ ٥٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم﴾ أيْمانهم: جمع يمين، وهو الحلف والقَسَم. ومعنى: جهد أيْمانهم: أي بالغوا في القسم إلى أقصاه ومنتهاه ﴿لَئِن أَمَرْتَهُم لَيَخْرُجُنَّ﴾ هنا جواب القسم، والمراد بالخروج هو الخروج للجهاد، أي لئن أمرهم رسول الله بالجهاد لخرجوا إليه ﴿قل لا تُقْسِمُوا﴾ ردٌّ عليهم وتبكيت لهم وكشفٌ لخداعهم ﴿طَاعَةٌ مَعْروفَةٌ﴾ أي لا تقسموا فأنتم كاذبون في قَسَمكم لأن طاعتكم معروفة بأنها طاعة قولية

لا فعلية، أو بمعنى: ليكن منكم طاعة معروفة بإخلاص القلب ولا حاجة لكم إلى اليمين الكاذبة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إنه تعالى لا تخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيها وما تبطنونه من الكفر.

﴿قُل[1] أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي قل لهم يا محمد أطيعوا الله فيما يأمركم به، وأطيعوا الرسول لأنه يأمركم بما أنزل الله ﴿فَإِنَّما عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي فإنما على الرسول ما حُمِّل من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم﴾ وعليكم ما أُمرتم به من طاعة الله ورسوله، والتعبير بالحمل للإشعار بعبء مسؤولية أوامر الله ونواهيه التي تستوجب مجاهدة النفس وتحمّل المشاق في سبيلها ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وإن تطيعوا رسول الله تصيبوا الحق ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البلاغُ المبينُ﴾ وما على رسول الله محمد إلّا إبلاغكم ما أمر الله بتبليغه لكم من البلاغ الواضح الظاهر الذي لا يشك أحد في أنه الحق من عند الله.

(١) وقفة قصيرة عند قوله تعالى (قل) هذه اللفظة تشهد أن القرآن وحي إلّهي فلو كان القرآن من تأليف محمد لعدل عن هذا الأسلوب وقال مثلاً: أطيعوا الله وأطيعوني ولكن تخصيص الآية بـ«قل» وتخصيص اسم محمد بلفظ الرسول شاهد على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر لأن محمداً ليس يقدّم القرآن من ذاتية نفسه بل يتلو ما يوحي الله إليه.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

شرح المفردات

ليستخلفنّهم في الأرض: يجعلهم خلفاء وولاة في الأرض يتصرفون فيها.

وليمكننَّ لهم دينهم: ويثبت ويقوي دين الإسلام.

ارتضى لهم: رضي واختاره لهم.

معجزين: فائتين وهاربين من عذاب الله.

مُعجزةُ القرآنِ
الوَعْـدُ الذي تحـقّق

وبعد الكلام عن المنافقين ينتقل القرآن إلى تبشير المؤمنين بخلافة الأرض والغَلَبة على كثير من أمم الأرض وهذا وعد تحقق فعلاً بعد فترة وجيزة، وهذا الوعد يتمثل بهذه الآية الكريمة:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفهم أَمْناً يَعْبدونني لا يُشرِكونَ بي شيئاً وَمَنْ كفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (٥٥).

مكث النبي عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سراً وجهراً، ثم أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة فمكث بها وأصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون، فقال رجل: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح؟ فقال النبي ﷺ: لن تصبروا إلَّا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ(١) العظيم محتبياً(٢) ليس معه حديدة(٣)، وأنزل الله هذه الآية.

فالله وعد رسوله ومن معه من المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال التي أمرهم بها ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ﴾ أي يجعلهم خلفاء في الأرض يتصرفون فيها بأمره فيكونون فيها أئمة للناس وولاتها ووعد الله ناجز لا محالة وقد ناطه بالإيمان وعمل الصالحات ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ كما

---

(١) الملأ: الجماعة، وتطلق على أشراف القوم.
(٢) محتبياً: جالساً على أليتيه ضاماً فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.
(٣) حديدة: قطعة سلاح.

فعل سبحانه ببني إسرائيل حين أورثهم أرض مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة من قوم فرعون وغيرهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الذي ارتضَى لَهُم﴾ أي وليجعلن دين الإسلام راسخاً قوياً ثابت القدم ﴿وَلَيُبَدلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهم أَمْناً﴾ وليغيرنَّ حال المسلمين مما هم عليه من خوف إلى أمن ﴿يَعْبُدونني لا يُشْركون بي شَيئاً﴾ هذا ما اشترطه الله لاستخلافهم في الأرض وهو جزاء إخلاصهم لله في العبادة: أنهم لا يشركون بعبادته أحداً من خلقه ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ومن كفر وجحد هذه النعم أو ترك العمل بدين الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله ومرضاته.

هذا الوعد الإلّهي تحقق بعد مدة وجيزة، فإن النبي ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، والمقوقس عظيم مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

ثم لما توفي رسول الله ﷺ قام بالأمر بعده خلفاؤه ففتحوا بلاد فارس والعراق والمغرب والأندلس والروم، كما امتد الزحف الإسلامي إلى أقصى بلاد الصين وحدود فرنسا.

وليست هذه الآية التي نحن في صددها هي الوحيدة التي تبشر المؤمنين بالنصر ففي القرآن آيات كثيرة في هذا المعنى نذكر منها:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعَبادِنا المُرْسَلِينَ. إِنَّهم لَهُمُ المنْصُورونَ. وإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١ - ١٧٣).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْم يَقُوم الأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١).

﴿وكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنينَ﴾ (الروم: ٤٧).

هذه الآيات الأخيرة نزلت في مكة حيث كان المسلمون قلة في غاية الضعف يلاقون صنوف الاضطهاد من قريش، ولكن لم تمضِ فترة وجيزة حتى نصر الله المؤمنين واستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم. كل ذلك من الأنباء الغيبية التي تحققت، والتي تشهد أن القرآن وحي إلٓهي وأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً.

وكلمة أخيرة نقولها بأن الفتوحات التي قام بها المسلمون غايتها إيصال دعوة الإسلام إلى أُمم الأرض وإصلاح الفساد والظلم المستشري فيها.

والرسول ﷺ ومن جاء بعده من قادة المسلمين كانوا قبل أن يغزوا بلاداً يخيّرون أهلها بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، والجزية هي ضريبة تعادل تقريباً ضريبة الزكاة التي فرضها الله على المسلمين مقابل حمايتهم ومقابل الخدمات التي تؤمنها الدولة الإسلامية لهم.

وواجبات المسلمين بعد النصر تتركز على الأمور الآتية التي أمر الله المسلمين بها:

﴿الذين إِنْ مَكَّنَّاهُم[1] في الأَرْض أَقَامُوا الصَّلاةَ، وآتوا الزَّكَاةَ، وأَمَرُوا بالمعرُوفِ، وَنَهوا عَنِ المنْكَرِ..﴾ (الحج: ٤١).

فليست الغاية من النصر توسعاً في الملك ولا وضع اليد على موارد الثروات ولا علوًّا ولا استكباراً في الأرض ولا إذلال العباد، ولكن المؤمنين إن انتصروا حققوا الأمور الآتية ﴿أقامُوا الصَّلاةَ﴾ أي أنهم توجهوا إلى السمو الروحي من عبادة الله وتطهير أنفسهم من الفواحش والمنكرات ﴿وآتوا الزَّكَاةَ﴾ أي حققوا العدالة الاجتماعية من إعطاء المحتاجين حقهم في هذه الحياة ﴿وَأَمَروا بالمعْرُوفِ﴾ أي أشاعوا الخير والحق بين الناس ﴿وَنَهوْا عَنِ

---

(١) مكناهم: يقال مكّن فلان في الشيء جعله متسلطاً عليه يتصرف فيه وتنطلق يده فيه.

﴿الْمُنْكَرِ﴾ أي حاربوا الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع.

وبعد أن وعد الله المؤمنين بخلافة الأرض دعاهم إلى طاعة رسوله:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاةَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. لا تَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفروا مُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ﴾.

فالله سبحانه يأمر المسلمين بإقامة الصلاة، وإقامتها هو الإتيان بها إتياناً كاملاً من توفية أركانها وشروطها مع الخشوع والإخلاص لله والمحافظة عليها في مواعيدها وعدم التقصير بها ﴿وآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأعطوا الزكاة للمستحقين لها. والزكاة هي الصدقة المفروضة على الموسرين للطبقة الفقيرة، والزكاة تقوي الأواصر بين المؤمنين وتطهر الأنفس من رذيلة الشح، وتحفظ المجتمع من القلاقل والفتن والصراعات والإجرام التي يثيرها الفقر والحاجة ﴿وأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وأطيعوا رسول الله محمد في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ ليكون لكم رجاء في رحمة الله ورضوانه، ومفهوم ذلك أن الصلاة والزكاة وطاعة الرسول مدخل لنيل رحمة الله، ومن رَحِمَهُ الله فقد يسر أموره وأحياه حياة طيبة. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيجنبه عذاب جهنم ويدخله دار النعيم.

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفَرُوا مُعْجِزينَ في الأَرْضِ﴾ الإعجاز: الفوْت والسبق عن أن تلحق بهم قدرته تعالى والهرب من وصول أثرها إليهم، أي لا تظنن يا محمد أن الكافرين سيُعجزون الله عن طلبهم وإدراكهم، وهم مهما ذهبوا في الأرض فهم في دائرة سلطانه، ففي هذه الآية إزاحة لخوف المؤمنين الناشىء من استعظام شأن أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم كثرة في العدد والعتاد فجاءت هذه الآية مزيلة لهذا الهاجس من أذهانهم ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ والمكان الذي سينزلون فيه يوم القيامة هو النار ﴿وَلَبِئسَ المَصِيرُ﴾ وبئس هذا المكان الذي ينتهون إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ
وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ
جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

شــرح المفــردات

لم يَبْلُغوا الحُلُمَ: لم يصلوا إلى سن البلوغ والرجولة.

عورات: جمع عورة وهي كل ما يستره الإنسان من أعضائه أنفة وحياء.

طوّافون عليكم: كثيرو التردد عليكم.

القواعد: وهي المرأة الكبيرة المسنّة التي انقطعت عن الأزواج والحيض والولد.

التبرّج: إظهار زينة المرأة للأجانب والخروج عن الحشمة.

أحْكَامُ الاستئذان دَاخل الأسرة

سبق أن ذكرنا أن القرآن أمر المؤمنين بأن لا يدخلوا بيوتاً حتى يطلبوا الإذن من أصحابها. وهنا يفصل القرآن بعض النواحي التي لها تعلق بالاستئذان داخل الأسرة والتي تتمثل من ناحية المماليك والأطفال، وذلك أن اندماج المماليك أو الخدم في خدمة أسيادهم وكذلك الصبيان قد يتجاوز بهم الاحتشام في المخالطة فيدخلون على أفراد الأسرة بدون استئذان في أوقات هي مظنّة للتعري من اللباس. لذا أمر الله المؤمنين بأن يوصوا مماليكهم وأطفالهم بأن لا يدخلوا عليهم بدون استئذان في الأوقات الآتية:

﴿يا أيُّهَا الَّذين آمَنُوا لِيَسْتَأذِنكُمُ الّذِين مَلَكَتْ أَيْمانُكُم وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُم ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاَةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُم وَلا عَلَيْهِم جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨).

فالله سبحانه يقول: **﴿لِيَسْتَأذِنكُمْ﴾** أي ليطلب الإذن منكم قبل الدخول عليكم **﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾** أي ما تحت أيديكم من العبيد والإماء **﴿وَالَّذين لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ﴾**[1] أي وليطلب الإذن منكم صبيانكم الذين لم

---

(١) الحلم: هو بلوغ سن الرجولة، والبلوغ من الصبي يكون بالاحتلام، والاحتلام هو خروج المني سواء في اليقظة أو المنام، ولما كان في الغالب لا يحصل إلاّ في النوم بحلم أُطلق عليه الحلم والاحتلام. وعلامة البلوغ في الأنثى مجيء الحيض لها. وأكثر الفقهاء يقولون: إذا بلغ الصغير خمس عشرة سنة ولم يحتلم فهو بالغ حكماً وكذلك البنت، أما الإمام أبو حنيفة فيجعل السن ثماني عشرة سنة للغلام وللبنت سبع عشرة سنة.

يدركوا سن البلوغ ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ وهذا الإذن مقيد بثلاثة أوقات ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ﴾ فقبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وخلع ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي وحين تخلعون ثيابكم وقت الظهيرة، وهو وقت اشتداد الحر في منتصف النهار فإن الإنسان يخفف كثيراً من ملابسه وبالأخص في المناطق الحارة كمنطقة جزيرة العرب ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ﴾ وفي هذا الوقت يخلع الإنسان ثياب العمل ويلبس لباس النوم، أو ينام مع زوجته في سرير واحد ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ وعورة الرجل والمرأة سوءاتهما، وكل أمر يُستحيا منه فهو عورة، والعورة تطلق على الخلل، أي في هذه الأوقات الثلاث يختل تستركم وتحفظكم، فقد يُقَبِّلُ الرجل منكم زوجته أو يعانقها وقد ينكشف من أجسامكما ما تخجلان من ظهوره.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُم ولا عَلَيْهِم جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي ليس عليكم معشر أرباب البيوت ولا على مماليككم وصبيانكم الصغار إثم في الدخول عليكم بدون إذن في غير هذه الأوقات الثلاثة ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُم عَلَى بَعْضٍ﴾ أي يحومون حولكم ويكثرون من الدخول عليكم ويتردد بعضكم على بعض، فلو فرض الاستئذان في كل الأوقات لأدى إلى التضييق عليكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّه لَكُمُ الآياتِ﴾ وبمثل هذا التوضيح يوضح الله لكم آيات القرآن لبيان الأحكام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه يعلم ما يصلح لعباده عظيم الحكمة فيما يشرِّعُهُ لهم من الأحكام والآداب.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ﴾ وإذا وصل أطفالكم إلى سن البلوغ ﴿فَلْيَسْتَأذِنُوا كَمَا اسْتأْذَنَ الَّذين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي وجب عليهم أن يستأذنوا للدخول عليكم في جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أُمروا بالاستئذان من غير استثناء ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آياتِهِ﴾ وهكذا

يبين الله لكم أحكامه وشرائع دينه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بما يصلح خلقه بالغ الحكمة فيما يشرِّعه لهم من الأحكام.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بأن يطلبوا من مماليكهم وأطفالهم الاستئذان قبل الدخول عليهم في أوقات ثلاثة قد تنكشف فيها العورات، بيَّن بعد ذلك حكم المرأة المسنّة في تسترها أمام الغرباء:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠).

القواعد: جمع قاعد وهي المرأة الكبيرة المسنّة التي انقطع عنها الحيض ولا تلد ﴿لا يرجون نكاحاً﴾ لا يطمعن في الأزواج لموت شهوتهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ فليس عليهن إثم ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أن ينزعن بعض ثيابهن الخارجية بين يدي الرجال الأجانب[١]، والثياب التي أُبيح لهن أن ينزعنها هي القناع[٢] فوق الخمار الذي يوضع على الرأس. والجلباب[٣] والرداء[٤] في بيتها على شرط أن لا تنكشف عورتها، وهذا من باب اليسر

---

(١) قال القرطبي: «قال قوم: الكبيرة التي أيست من النكاح لو بدا شعرها فلا بأس فعلى هذا يجوز لها نزع الخمار، والصحيح أنها كالشابة في التستر». وجاء في أحكام القرآن للجصاص: «لا خلاف في أن شعر العجوز عورة لا يجوز للأجنبي النظر إليه كشعر الشابة، وأنها إن صلت مكشوفة الرأس كانت كالشابة في فساد صلاتها».

واليوم نرى الشابات والعجائز يصبغن شعرهن ويتفنن في تصفيفه مما يزيد من حسنهن ويلفت الأنظار لهن، لذلك ندرك الحكمة من النهي عن كشف شعرهن أمام الرجال الأجانب صوناً لهن من كل ما يمس بطهارتهن وعفتهن أو إلحاق الأذى بهن.

(٢) القناع: غطاء الرأس.

(٣) الجلباب: الملاءة أو الثوب السابغ الذي يغطي الجسد كله.

(٤) الرِّداء: الثوب الذي يستر الجزء الأعلى من الجسم.

عليها ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي من غير أن يردن بنزع هذه الثياب الخارجية أن تُرى زينتهن الخفية التي سبق أن نُهي عن إظهارها للرجال الأجانب. والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي أن تستره، ومن التبرج أن تلبس المرأة ثوباً رقيقاً أو ضيقاً يصف جسمها ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ وأن يتركن نزع ثيابهن الخارجية فهو خير لهن ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لقولهن عليم بفعلهن وقصدهن.

لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا
مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا
عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم
بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ

شرح المفردات

ما ملكتم مفاتحه: ما كان في تصرفكم من وكالة أو حفظ أموال الغير.

أشتاتاً: متفرقين.

أمر جامع: أمر مهم يجب اجتماعهم له للتشاور أو لتدبير ما يلزم له.

دعاء الرسول: دعوته لكم للاجتماع.

يتسللون: يخرجون خفية.

لواذاً: يتستر بعضهم ببعض.

فتنة: بلاء ومحنة في الدنيا.

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾
أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

توثيق الصلة بين الأقارب والأصدقاء:

ثم يدعو القرآن إلى توثيق الصلة بين الأقارب والأصدقاء عن طريق المؤاكلة عند بعضهم بعضاً:

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ولا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريضِ حَرَجٌ ولا عَلَى أَنْفُسِكُم أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُم أَو بُيُوتِ آبائِكُم أَو بيوتِ أُمَّهَاتِكُم أو بيُوتِ إِخْوانِكُم أو بُيُوتِ أَخَوَاتِكُم أَوْ بُيُوتِ أعْمامِكُم أو بُيُوتِ عمَّاتِكُم أو بُيوتِ أَخْوَالِكُم أو بُيُوت خَالاتِكُم أو مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحَهُ أَو صَدِيقكُم لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَأْكُلوا جَمِيعاً أو أَشْتَاتاً فإذا دخلتم بُيُوتاً فَسلِّموا على أَنْفُسِكُم تَحِيَّةً مِنْ عِنْد اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَات لَعَلَّكُم تَعْقِلونَ﴾ (٦١).

ورد في أسباب نزول هذه الآية عدة روايات نذكر منها:

قيل لما نزلت الآية الكريمة: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال المسلمون إن الله تعالى قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وإن الطعام من أفضل أموالنا ولا يحلُّ لأحد أن يأكل عند أحد فكفَّ الناس عن ذلك فأنزل الله هذه الآية.

وفي رواية أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زَمِناهم (أي ضعفاءهم)

في بيوتهم ودفعوا إليهم المفاتيح وقالوا قد أحللنا لكم أن تأكلوا منها فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم.

وروي في أسباب النزول: أن أهل المدينة كانوا قبل أن يُبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام والمريض لا يستوفي الطعام، كما يستوفي الصحيح، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت الآية رخصة في مؤاكلتهم.

وقيل إن هذه الآية نزلت رخصة للأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد والتخلف عنه، ويكون الكلام ﴿ولا على أنفسكم﴾ وما بعده كلاماً مستأنفاً خوطب به جميع الناس.

وإني اختار هذه الرواية الأخيرة التي تفسر الآية في شطرها الأول بأنه لا إثم على أصحاب العلل في تخلفهم عن الجهاد، أما في الشطر الثاني فإني أفهم منها بأنها دعوة إلى الترابط العائلي وتوثيق روابط الصداقة عن طريق الطعام. والإنسان كما هو معلوم لا يأكل عند أحد إلاّ إذا استضافه واستقبله بترحاب وببشاشة فالآية فيها دعوة للمؤمنين بأن يرحبوا بأقاربهم وأصدقائهم ويدعوهم لمشاركتهم الطعام عن طيب نفس وكرم في الضيافة.

فالله سبحانه يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ولا عَلَى الأعْرجِ حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾ فالحرج هو الإثم، أي لا إثم على هذه الفئات الثلاث في القعود عن الجهاد أو ترك بعض التكاليف الشرعية التي يتعذر عليهم القيام بها لما بهم من عذر ﴿ولا على أنْفُسِكُم أن تأكلوا من بيُوتكم﴾ أي وليس عليكم أيها الأصحاء إثم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل في ذلك بيوت الأولاد لأنهم أقرب الطوائف اتصالاً بهم. وقد

روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إن لي مالاً وولداً وإن والدي يحتاج مالي، قال رسول الله: «أنت ومالُك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»(١) وكثير من أصحاب رسول الله قالوا إن يد الوالد مبسوطة في مال ولده وقال بعضهم لا يأخذ من ماله إلّا عند الحاجة إليه.

ثم عدد القرآن بيوت الأقرباء التي لا إثم في الأكل عندهم وهي: بيوت الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، وأضاف بعدها ﴿أو مَا مَلكْتُم مَفَاتِحَهُ﴾ أي البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها كما إذا كنتم وكلاءهم والقيمين على أرزاقهم والخازنين على أموالهم ﴿أو صَديقكم﴾ أي لا إثم عليكم أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم إذا علمتم أن ذلك لا يسوءهم ولا يكرهون ذلك.

لقد قرن الله الصديق بالقرابة المحضة، يقول جعفر الصادق: من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وترك الحشمة بمنزلة النفس والأب والابن والأخ. وفي المثل: «أيهما أحب إليك أخوك أم صديقك» قال: أخي إذا كان صديقي.

ويروى عن ابن عباس قوله: الصديق أوكد (أشد) من القرابة، ألا ترى استغاثة أهل جهنم: ﴿فما لنا مِنْ شَافعين. ولا صَديقٍ حَميم﴾ فلم يستغيثوا بالآباء والأمهات وغيرهم بل يستغيثون بأصدقائهم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي ليس عليكم إثم أن تأكلوا مجتمعين أو تأكلوا منفردين، فقد كان رجال من بعض أحياء العرب لا

---

(١) رواه أبو داود.

يأكلون طعامهم حتى يجدوا من يشاركهم فيه[١] فرخص لهم القرآن في الأكل كيف شاءوا منفردين أو مجتمعين.

وكلمة أخيرة نقولها: إن نفي الحرج في الأكل من هذه البيوت إنما هو إذا علم أو ظن أن ذلك موضع رضا منهم، فإذا غلب على الظن أن بعض هؤلاء بلغ منه الشح مبلغاً كبيراً بحيث يتأذى من أكل الغير طعامه لم يحل له الأكل عنده لقول الرسول ﷺ: «لا يحل مال أمرىء مسلم إلّا عن طيب نفس منه».

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّموا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي فإذا دخلتم بيوتاً من تلك البيوت التي أذن الله بالأكل فيها فعليكم بأن تبدأوا دخولكم بالسلام على أهل تلك البيوت فهم في المودة ولحمة القرابة بمنزلة أنفسكم، فإذا سلمتم عليهم فكأنما تسلمون على أنفسكم ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ والتحية في كلام العرب ما يحيِّي به الناس بعضهم بعضاً وهي بمعنى السلام، وأصل التحية مأخوذة من قولهم حياك الله أي أبقاك فكأنها طلب الحياة أو طلب صفوها وسعادتها، ومعنى أنها من عند الله أي تحية مشروعة من عند الله ثابتة بأمره ﴿مُبَارَكَةً﴾ مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما ﴿طَيِّبَةً﴾ أي تطيب بها نفس من تحبونه ويستريح لها.

وصيغة السلام التي تلقى على أهل البيوت: السلام عليكم، فإذا لم يكن في البيت أحداً فيقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّه لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ أي هكذا يوضح الله لكم معالم دينكم لتعقلوا ما فيها من العظات والأحكام وتعملوا بها.

---

(١) وقد قال أحدهم لزوجته في ذلك:

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي

الالتزامُ بمَصْلَحَةِ الجمَاعَة

ثم يبين القرآن أن على المسلمين أن يلتقوا حول رسول الله عند كل أمر هام:

﴿إِنَّما المؤمنون الَّذين آمنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ، إِنَّ الَّذِين يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذين يُؤمنون بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَن لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُم واسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٢).

فالآية ذكرت الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون وحصرتها بأمور ثلاثة: التصديق بوحدانية الله، وبرسول الله محمد، والالتفاف حوله في كل ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي الأمر الداعي للاجتماع، فيشمل الأمور الدينية والدنيوية كالاجتماع لمقاتلة العدو والتشاور عند كل خطب جلل والاستئناس بآراء أهل التجارب والعلم والخبرة فيما يعود بالخير على الأمة. أما في الشؤون الدينية فهو الاجتماع لصلاة الجمعة والعيدين.

فالابتعاد عن الجماعة جناية على المسلمين المجتمعين لخير بلدهم لأنه يفتّ في عضدهم وخصوصاً إذا كان الأمر مما يدعو إلى التساند فيما بينهم في الأمور الدنيوية، كما هو إيذاء لهم في شعورهم في تعظيم الشعائر الدينية واحترامها، وإيذاء لرسول الله الحريص على هداهم وسعادتهم وعلى توحيد صفوف الأمة.

فلا جرم بعد كل ما تقدم أن جعل القرآن الإيمان الكامل منوطاً بالتمسك بالجماعة الإسلامية ومنع الانصراف عنها إلّا بإذن من رسول الله وهي التي ذكرها: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وإن الذين يستأذنون رسول الله هم المؤمنون حقاً عن عقيدة لا عن نفاق.

ثم أمر الله رسوله إذا استأذنه أحد من المسلمين لبعض أموره الهامة أن يأذن له إن شاء ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فالاستئذان لا ينبغي أن يكون لكل شأن طرأ بل ينبغي قصره على بعض الشؤون التي فيها ضرورة ما، وإن الإذن وعدم الإذن موكول إلى مشيئة النبي ﷺ التي له فيها رأي صائب وتغليب للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وقد أذن رسول الله لعمر بن الخطاب في الرجوع إلى أهله حين خرج معه في غزوة تبوك وقال له: انطلق فوالله ما أنت بمنافق.

ويختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يفهم من هذا أن الأجدر بالمؤمنين أن يتحاشوا الانصراف عن الجماعة ولو بإذن من رسول الله في الشؤون الشخصية لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، وإن الاستئذان والموافقة عليه من حقه أن يستغفر منه، فاطلب يا محمد المغفرة لهم من الله على انصرافهم الذي ما كان يليق أبداً، إن الله واسع المغفرة والرحمة.

وهذا الحكم وإن كان ينطبق على النبي ﷺ فإن هذا الحكم ينطبق أيضاً على كل من له ولاية عامة على جماعة المسلمين في كل أمر ديني أو دنيوي، بحيث يجب عليهم طاعتهم في ذلك إذا كانوا معه على أمر جامع يجمع المسلمين فليس لأحد أن ينصرف حتى يستأذن منه ويأذن له.

ثم يحذّر الله الذين يخالفون أوامر رسوله محمد ﷺ:

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً، فَلْيَحْذَرِ الَّذِين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَو يُصيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣).

أي احرصوا على احترام دعوة الرسول لكم إلى الاجتماع للأمور الهامة

واستجيبوا لها ولا تجعلوها كدعوة بعضكم بعضاً في جواز التهاون بها والانصراف عنها. وقد يكون المعنى: لا تسموا رسول الله إذا دعوتموه يا محمد أو يا ابن عبد الله ولكن وقّروه في ندائكم فقولوا يا نبي الله أو يا رسول الله مع غاية التكريم والتعظيم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذين يَتَسَلَّلُون مِنْكُم لِوَاذاً﴾ فالتسلل: هو الانطلاق في استخفاء، ولواذاً أي تستراً بغيرهم. فهنا وعيد من الله لمن تحدثه نفسه بالانصراف خفية وخلسة مبيناً لهم أنه سبحانه يعلم هؤلاء المتسللين وهم المنافقون الذين كانوا يثقل عليهم المقام في مجلس رسول الله فكان الواحد منهم يختلق عذراً للانصراف فينصرف ثم يتبعه غيره متستراً به. وكان يحصل ذلك عند خطبة يوم الجمعة فينصرفون خفية متسترين بغيرهم من غير استئذان من النبي ﷺ، وقيل: كانوا يتسللون من الصف في القتال.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالِفُون عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي فليحذر من يخالف أمر رسوله الله ومنهاجه وسنته وشريعته، وبمقتضى هذا التحذير الإلّهي فإنه يتوجّب على المؤمنين أن يزنوا أقوالهم وأعمالهم بأقوال النبي ﷺ وأفعاله فما وافق ذلك قُبِلَ وعمل به، وما خالفه فهو مردود على قائله، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ» فليحذر من يخالف شريعة النبي ﷺ ﴿أن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ﴾ والفتنة التي حذرهم الله من إصابتهم بها هي في الدنيا كالقتل والزلازل وتسلط سلطان جائر عليهم، وقيل الفتنة تأتي بمعنى الكفر، لأن مخالفة منهج رسول الله وبالأخص فيما يتعلق بالعقائد توجب الكفر.

وإننا اليوم في ضوء ما يصيب الأمم الإسلامية من محن ومصائب وتسلط الأعداء عليهم نرى ذلك بسبب مخالفة أوامر رسول الله الذي دعا إلى الوحدة والتكاتف والالتزام بأوامر الله، وعندما خالف المسلمون أوامر رسول الله وتنازعوا فيما بينهم حلت بهم الفتنة التي حذرنا الله منها.

﴿أو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب الأليم هو عذاب النار في الآخرة. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن بني إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلّا ملة واحدة، قالوا ومن هي يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابي»[1].

ويختم الله هذه السورة ببيان ملكيته لهذا الكون وعلمه بأعمال كل إنسان:

﴿ألا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُون إِلَيْهِ فَيُنبئُهُم بِمَا عَمِلُوا واللَّهُ بِكُلِّ شَيء عَلِيمٌ﴾ (٦٤).

فالله له ملك السموات والأرض فلا ينبغي لأي إنسان أن يخالف أمر خالقه فيعصيه فيستوجب بذلك عقوبته ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ﴾ أي يعلم الله ما أنتم عليه أيها الناس من مخالفة أمر الله وأمر رسوله، وهنا تهديد ووعيد للمنافقين وإدخال لفظ «قد» على العلم لتأكيد علمه ﴿ويوم يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون أمره ﴿فَيُنَبِئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ فيخبرهم حينئذ بما عملوا في الدنيا ثم يجازيهم على أفعالهم ﴿واللَّهُ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾ والله ذو علم بكل شيء عملتموه أيها الناس لا يخفى عليه شيء.

هذه الحقيقة إذا وعاها الناس هي من أهم الدوافع لردع الإنسان عن فجوره وظلمه، لأنه مهما عاش فالموت آتيه وسيرجع إلى ربه حيث يجازيه على أفعاله.

---

(١) رواه الترمذي.

المراجع

جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي
البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي
التفسير الكبير للفخر الرازي
تفسير القرآن لابن كثير
تفسير الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
تفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني
صحيح البخارى ـ صحيح مسلم
سنن أبي داود ـ سنن النسائي ـ سنن ابن ماجه ـ سنن الترمذي
أحكام القرآن لابن العربي
أحكام القرآن للجصاص
تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي
تفسير سورة النور لابراهيم الجبالي ـ مجلة نور الإسلام ـ مصر
تفسير سورة النور لمحمد الأباصيري خليفة ـ مجلة الوعي الإسلامي ـ الكويت
قبسات عن سورة النور لمحمود كامل أحمد

وهناك بعض المراجع أوردناها في ثنايا الكتاب.

الفهرس

كلمة شكر

وفي الختام أُقدم شكري للأساتذة:

الشيخ شريف سكر

مصطفى قصاص

شفيق اللبان

على ما أبدوه لي من معونة وملاحظات قيمة
كما أُقدم شكري **لجامعة بيروت العربية** لما قدمته لي
مكتبتها العامرة من خدمات ومراجع قيمة.

سائلاً الله أن يجزيهم خير الجزاء
ويوفقنا سبحانه لخدمة دينه

عفيف طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن
صدر منه حتى الآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يسٓ
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير ربع يسٓ في مجلدين.

روح القرآن الكريم

تفسير جزءي

الفُرقان والنَّمْل

وفيهما سُوَر : الفرقان - الشعراء - النمل - القصص

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

توزيع

دار العلم للملايين

هذا التفسير

• يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .

• يعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .

• يبيّن التفسير العلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .

• يعرض التفسير بأسلوبٍ سهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع .

• يفسّر المجمل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت . لبنان . ص ب ١٠٨٥

روح القرآن الكريم

تفسير جزءي

الفرقان والنمل

وفيهما سور: الفرقان - الشعراء - النمل - القصص

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢

توضيح

هذا التفسير الذي بين أيدينا يجمع الجزء التاسع عشر والجزء العشرين، فالجزء التاسع عشر يبتدىء بالآية ٢١ من سورة الفرقان وينتهي بالآية ٥٥ من سورة النمل. أما الجزء العشرون فيبتدىء بالآية ٥٦ من سورة النمل وينتهي بالآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للفائدة لهذا فسرّنا سورة الفرقان كاملة في الجزء التاسع عشر، أما في الجزء العشرين فقد تركنا تفسير الآيات من سورة العنكبوت إلى الجزء الذي سبق أن فسرناه وهو الجزء الحادي والعشرون.

وقد ارتأينا تسمية هذين الجزءين باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء أي جزء الفرقان وجزء النمل.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كُتب التفسير وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم «جزء عم» و«جزء تبارك» إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها، وقد سمّيتُ هذين الجزءين باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

هذه السورة تذكر تفرُّد الله بالربوبية والملك لهذا الكون والردّ على كفار العرب ومعتقداتهم الباطلة حيث كانوا يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

وتبيّن السورة اعتراضات الكفار على نبوة محمد ﷺ بحجة أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويطلبون، تعنتاً، ملائكة تبلّغهم رسالة الله.

وتذكر السورة بعض مظاهر القيامة وأحوال الكفار فيها وندمهم حيث لا ينفع الندم، ومعاناتهم أشدّ أنواع العذاب مع توبيخهم وتقريعهم، بينما يكون المتقون في جنة الخلد حيث يقاسون ألوان النعيم.

وتذكر السورة تعنّت المشركين وشبهاتِهم على القرآن وسخريتهم برسول الله محمد وتكذيبه وادعاءهم بأنه افترى القرآن من عند نفسه وأعانه عليه قوم آخرون.

وتبين السورة ما أصاب الأمم السابقة من هلاك وعذاب من جراء كفرهم وتكذيبهم برسل الله كفرعون وقومه، وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.

وفي هذه السورة دعوة إلى التأمل في بعض المظاهر الطبيعية التي تشهد بعظمة الله وتفرّده بالخلق والإيجاد وفضله على الناس مما يوجب عبادته وحده وعدم إشراك أحد معه في العبادة.

وتختتم هذه السورة بذكر صفات عباد الله الذين يحوزون رضاه ويستحقون نعيم الجنة في الآخرة.

سُورَةُ الفُرقَان

آياتها ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ
فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ
فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا

شرح المفردات

تَبَارك: تعالى الله وتعاظم وتكاثر خيره.

الفُرقان: القرآن، وسُمّي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل.

عبده: المقصود به رسول الله محمد ﷺ.

للعَالَمِينَ: للإنس والجن.

نَذِيراً: مخوفاً من عذاب الله للكافرين والعصاة.

فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً: فهيأه لما يصلح له ويليق به.

نُشُوراً: بعثاً للأموات أحياء في الآخرة.

إفْكٌ ٱفْتَراهُ: كذب اختلقه.

زُوراً: كذباً.

أساطير الأوّلين: ما سطره الأولون من الأكاذيب والخرافات.

اكْتَتَبَها: أمر بكتابتها.

فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا
﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا
مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

شَرح المفردات

تُمْلى عَلَيْه: تُلقى عليه وتُقرأ ليحفظها.

بُكْرةً وَأَصِيلاً: صباحاً ومساء.

جَنَّةٌ يأكُلُ مِنْها: بستان يأكل من ثماره.

رجُلاً مَسْحُوراً: غلب السحر على عقله فاختلّ.

ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ: ذكروا لك هذه الأقاويل العجيبة الجارية مجرى الأمثال لغرابتها.

فلا يستطيعون سَبيلاً: فلا يجدون طريقاً إلى الحق.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

ايضـاح و دروس

تستهل هذه السورة بتقديس الله وبيان أن رسالة محمد جاءت لكافة البشر، مع بيان تفرّد الله بالمُلك وأنه لا ولد له ولا شريك:

﴿تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً. الذي له مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (١-٢).

تبارك: هذه اللفظة وصف لعدة كمالات لله وهي بمعنى: تقدّس وتعالى وقيل: تبارك صيغة تفاعل من البركة وهي كثرة الخير، أي تزايد خيره سبحانه وتكاثر.

فالله سبحانه الذي اختص بهذه الأوصاف هو الذي نَزَّل الفرقان، والفرقان هنا المراد به القرآن، والفرق: الفصل بين الشيئين، وكل ما فرّق به بين الحق والباطل فهو فرقان، أي أن القرآن فارق بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام.

هذا الوصف للقرآن بأنه فرقان يراه المتمعن في كل آية من آياته، فلا ترى في القرآن هزلاً، ولا إسفافاً في المعنى، ولا باطلاً من القول، بل كله جدٌّ يتمحور حول عبادة الله وحده، والدعوة إلى الإيمان بالآخرة، والتزوّد لها بالأعمال الصالحة، مع بيان مكارم الأخلاق والترغيب في التحلي بها مع تشريعات شهد بعدالتها علماء القانون في أمم الغرب.

فالله نزّل الفرقان ﴿عَلَى عَبْدِه﴾ والمراد به محمد ﷺ وهذا الوصف له بالعبودية لله لتشريفه، والتنبيه على أن رسول الله إلى خلقه لا يكون إلّا عبداً لله، وهذا ردٌّ على النصارى الذين أسبغوا صفة الألوهية على عيسى

عليه السلام. ولقد أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﴿لِيَكُونَ للعَالَمِين نَذِيراً﴾ والعالمين: هم الإنس والجن، والنذير: هو الرسول من عند الله المحذّر والمخوّف عباد الله من عاقبة الكفر والظلم والانغماس في معاصي الله وما يترتب عليها من عقابه. فالرسول محمد بهذا النص جاء للناس جميعاً ولم يأتِ لقومه فقط كما كانت رسالة الأنبياء قبله.

وذلك الذي نزّل القرآن على رسوله محمد ﷺ هو الله جل شأنه ﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السموات والأرض ينفّذ في جميعها أمره وقضاءه إيجاداً وإحياء وإماتة وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته، فمن كان كذلك كان على أهل مملكته أن يطيعوه ولا يعصوه ﴿وَلَمْ يتَّخِذْ وَلَداً﴾ وهو سبحانه لم يكن له ولد وهذا تكذيب للمشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، واليهود الذين قالوا: عُزَيْر ابن الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ شَريكٌ في الْمُلْكِ﴾ تكذيب أيضاً لمن كان يضيف وصف الألوهية إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب ﴿وَخَلَق كُلَّ شيءٍ﴾ وخلق الله سبحانه كل شيء فأخلصوا له العبادة ـ أيها الناس ـ دون غيره ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ فسوّى كل ما خلق وهيأه لما يصلح له فلا خلل في المخلوقات ولا فوضى.

والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى، منها، إن نسبة الأوكسجين توجد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة، فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة.

ومنها: أن الأوكسجين يمتصه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات تكوينه منه، فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسجين

أو كل ثاني أوكسيد الكربون وحينئذ يذوي النبات ويموت الحيوان.

ومنها: أن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب، وحين تنمو الحشرات وتكبر لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها... وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة، ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض، وتصور إنساناً يلاقي دبوراً يضاهي الأسد في ضخامته، أو عنكبوتاً مثل هذا الحجم.

هذه أمثلة معدودة وهناك مئات ومئات الأمثلة ذكرها علماء الطبيعة تبين الأسرار التي أودعها الله في هذا الكون، وتدبيره المحكم فيه، وتظهر أبعاد هذه الآية: ﴿وَخَلَق كُلَّ شيء فَقَدَّرَهُ تَقْديراً﴾.

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على كفار العرب ومعتقداتهم الباطلة وافتراءاتهم في حق رسول الله محمد ﷺ:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُون لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً ولا يَمْلِكُون مَوْتاً ولا حَيَاةً ولا نُشُوراً. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكتَتَبها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٣-٦).

فهؤلاء الكفار العرب اتخذوا من غير الله الذي له ملك السموات والأرض ﴿آلِهَةً﴾ وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهذه الأصنام لا تخلق أي مخلوق كان، والإلّه يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد، بل هذه الأصنام هي مخلوقة بمعنى أنها مصنوعة ومنحوتة بأيدي البشر. ﴿ولا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِم ضَرًّا ولا نَفْعاً﴾

وهذه الأصنام التي يعبدونها لا تملك دفع الضر عن أنفسها ممن أرادها بضرّ، ولا تستطيع أن تجرّ النفع لنفسها، فكيف هي بالأحرى تستطيع دفع الضر وجلب النفع لغيرها، وبهذا المفهوم سقط الحافز لعبادتها ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَيَاةً ولا نُشُوراً﴾ وهذه الأصنام لا تملك إماتة حي، ولا إحياء ميت، ولا بعثه حيًّا بعد مماته.

﴿وَقَالَ الَّذين كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ آفْتَرَاهُ﴾ وقال هؤلاء الكافرون بالله الذين اتخذوا من دونه آلهة: ما هذا القرآن الذي جاءنا به محمد إلّا كذب وبهتان اختلقه محمد من عند نفسه ونَسَبه إلى الله ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون﴾ وأعان محمداً على هذا الكذب بعضُ اليهود ﴿فَقَدْ جاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ فقد أتوا بالظلم والكذب، والظلم هنا هو وصفهم الشيء في غير موضعه حيث نسبوا هذه التهمة الباطلة إلى محمد ﷺ وهو البريء منها، هذه التهمة التى ألصقها كفّار العرب بمحمد ﷺ وهي أنه مدّعٍ للنّبوة وأنه اختلق القرآن وَنَسَبَهُ إلى الله زوراً وبهتاناً، هي تهمة خطيرة باطلة لأن النبوة لا يقوم على ادعائها كذباً إلّا رجل واسع الأطماع، جريء على الله تكتنف حياته المآثم، فهل كان محمد من هذا الصنف؟ لا، فقد كان على جانب عظيم من الاستقامة ومكارم الأخلاق، حتى لقد سماه قومه الصادق الأمين، فلم تُعرف عنه خصلة ذميمة، ولا سلوك شائن، ولو عُرِفَ عن محمد ﷺ أنه يتلقى القرآن من أحد من اليهود لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة في حياته إلّا ودوّنوها في كتب السيرة، والأحاديث الشريفة، هذا مع العلم أن مدة نزول القرآن هي ثلاث وعشرون سنة وهي مدة طويلة كافية لفضح محمد لو كان يتلقى القرآن من أحد.

ثم إن محمداً كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشاهد في منزله أو خارجه قبل النبوة أو بعدها أنه كان يستعمل قرطاساً أو قلماً في تأليف شيء أو تدوينه.

ونضيف إلى ذلك بأن القرآن جاء بأفصح أسلوب من الكلام، وأبلغ عبارة، بينما اليهود هم من الأعاجم لا يتقنون اللغة العربية ولا ينطقونها نطقاً سليماً.

وكلمة أخيرة نقولها: إن القرآن اشتمل على أكمل ما يعرفه رجال الدين في عصره وبعد عصره، فقد اشتمل على أحكام وتشريعات لا يمكن أن تكون مستمدة من أحد، فالقرآن خالف اليهود في كثير مما جاء في كتبهم، وصحح الأباطيل التي ألصقوها بأنبيائهم، وعاب عليهم أفعالهم، ووصفهم بأنهم حرَّفوا وبدّلوا بالتوراة التي بين أيديهم، وهي أمور لا يمكن أن يقولها يهودي في دينه، ولو فعل فإنه لا يسلم من عقاب ملته.

ونعود إلى متابعة الآيات فنرى الكفار يضيفون تهمة أخرى إلى القرآن وهي قولهم: ﴿وَقَالوا أَسَاطِيرُ الأَولين اكْتَتَبَها﴾ وأساطير الأولين هي خرافات وأكاذيب الشعوب السابقة، فالنبي في زعمهم أَمَرَ بكتابة هذه الأساطير بواسطة أحد الكتّاب لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب. إنها تهمة باطلة لا تحتاج إلى ردّ لأن القرآن اشتمل على حقائق الحياة، ورسم للأمم والأفراد طريق الخلاص من المشاكل والنزاعات بينهم، وأتى بالتشريعات العادلة في محيط الأسرة والجماعة. ودعا إلى عبادة الله وحده، فهل هذه الأمور وغيرها التي جاء بها القرآن هي من أساطير الأولين، لا، ولا يقول بذلك عاقل أبداً.

وهذه الأساطير في زعمهم ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ فهي تقرأ عليه ليحفظها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي صباحاً ومساءً ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين اتهموك بالكذب إن الذي أنزل القرآن هو الله الذي يعلم كل سرٍّ خفي في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فهو سبحانه غفور لمن تاب رحيم بعباده المؤمنين.

ويتابع القرآن فيذكر اعتراضات الكفار على نُبوة محمد ﷺ:

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لولا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحوراً. آنظُر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُونَ سَبيلاً. تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً﴾ (٧-١٠).

فالله يذكر ما قاله الكفار: ﴿وقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ أي ما شأن هذا الربسول الذي يأكل الطعام كما نأكل نحن، وسموا محمداً رسولاً استهزاء وسخرية لأنهم كانوا لا يعتقدون بأنه رسول الله ﴿وَيَمشي في الأَسْوَاقِ﴾ ويرتاد الأسواق لكسب عيشه كما يفعل سائر الناس ﴿لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُـونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ أي هلّا أنزل الله إليه ملكاً من السماء يساعده على تبليغ رسالة الله ويكون شاهداً على صدق ما يدعيه ﴿أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أو يأتيه كنز من السماء فيكفيه داعي العمل فينفق منه ما يحتاج إليه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أو يجعل له حديقة يقتات من ثمارها ﴿وَقَالَ الظَّالِمُون إن تَتَّبِعُون إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ وقال الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً عقله ـ يقصدون محمداً ـ فهو يهذي بما لا حقيقة له ﴿انْظُر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ أي تعجب يا محمد من وصف هؤلاء لك بتلك الأوصاف الجارية لغرابتها مجرى الأمثال فتارة يقولون عنك شاعر، وتارة ساحر، وتارة مجنون ﴿فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُونَ سَبيلاً﴾ فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه.

﴿تَبَارَكَ الَّذي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْـراً مِنْ ذَلِكَ﴾ أي تعالى الله وتكاثر خيره فهو الذي إن شاء جعل لك في الدنيا خيراً من ذلك الذي اقترحوه ﴿جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ أي لو شاء الله لأعطاك في الدنيا حدائق تسير في جنباتها الأنهار لا حديقة واحدة كما اقترحوا ﴿وَيَجْعل لَكَ

قُصُوراً﴾ ويجعل لك قصوراً مشيدة تسكن فيها. إنها الحكمة الإلّهية في أن يكون رسوله إلى الناس من البشر يصطفيه من بين خلقه فيعيش بين قومه متخلقاً بالأخلاق والتكاليف الشرعية التي يبلّغها الله إليه فيكون بشخصه مثالاً كاملاً للعقيدة والشريعة التي يحملها فيسهل على قومه تقليده، ولو كان ملكاً من الملائكة ما فكروا في تقليده لأنهم يشعرون بأن طبيعته غير طبيعتهم، ولم يرضَ الله لرسوله أن يكون له كنز، ولا أن تكون له جنة يأكل منها، لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ينهض بتكاليف الرسالة الإلّهية وهو في الوقت نفسه يسعى لرزقه كما يسعى سائر الناس، فلا يعترض أحد يعيش على كده فيقول: رسول الله مكفيّ الحاجة لا يعاني هموم العيش وأتعابه ومن ثمَّ فرغ لعقيدته وتكاليف شريعته فلم يَعُقْهُ عائق مما أعاني.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا
رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا
مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا
وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى
وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ
خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ
ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ
مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ
وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ
صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ

شرح المفردات

سَعِيراً: ناراً شديدة الاشتعال.

تَغَيُّظاً: إظهار صوت الغيظ.

زَفيراً: أرسل نفسَه ممدوداً من غيظ.

مُقَرَّنين: مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال.

دَعَوْا هُنَالِك ثُبُوراً: دعوا على أنفسهم بالهلاك.

الذِّكر: ما ذكّر به الناس على ألسنة أنبيائهم من المواعظ.

قوماً بوراً: قوماً هالكين أو فاسدين.

فما تستطيعون صرفاً: فما يستطيع الكفار دفع عذاب الله عن أنفسهم حين ينزل بهم.

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾
* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ
لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ
لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا
عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ
خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ
الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي
اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

فتنة: ابتلاء ومحنة.

وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان.

ويقولون حِجْراً محجوراً: أي تقول الملائكة للمجرمين: حراماً محرماً عليكم البشرى يوم القيامة.

وقَدِمْنَا: عمدنا وقصدنا.

هبَاء: التراب الدقيق في الهواء الذي يُرى في ضوء الشمس.

مَقِيلاً: المكان الذي يستريح فيه الإنسان وقت القيلولة وهي نصف النهار.

الغمام: السحاب.

يوم يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ: أي يوم يندم الظالم ندماً شديداً.

سَبِيلاً: طريقاً، وهو طريق الحق.

خليلاً: صديقاً وحبيباً.

تَابع سُورَةِ الفُرقَان

ويتابع القرآن فيبين مصير الكافرين ومصير المتقين في الآخرة:

بَلْ كَذَّبوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيراً. إذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ سَمِعوا لَهَا تَغَيُّظاً[١] وَزَفيراً[٢]. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبوراً كَثِيراً. قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المتَّقُون كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً. لَهُم فِيهَا مَا يَشَاءُون خَالِدِينَ كَان عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾ (١١-١٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ﴾ بل كَذَّب هؤلاء الكفار بالقيامة وبَعْثِ الله للأموات أحياء للحساب والثواب والعقاب. وهذا التكذيب منهم هو الدافع لهم لإنكار نبوّتك يا محمد والتعلّل بهذه المطالب ليصرفوا الناس عن اتِّباعك والتصديق بنبوتك ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّب بالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ وهيأنا لمن كذب بالقيامة ناراً ملتهبة يُعذبون بها ﴿إِذَا رَأَتْهم مِنْ مَكَانٍ بَعيدٍ﴾ إذا رأت هذه النار الكافرين من مكان بعيد ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ سمعوا صوت غليان هذه النار وتوقدها الشديد كصوت المتغيظ وصوت الزفير ﴿وإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ وإذا أُلقي هؤلاء المكذبون بالقيامة في النار في مكان ضيق منها يتناسب مع جرمهم، والمكان الضيق الملتهب بالنار يوحي بشدة العذاب لأن النار تكون محصورة مما يزيد في شدة التهابها ﴿مُقَرَّنينَ﴾ أي مصفدين بالسلاسل والأغلال قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبوراً﴾ الثبور: الهلاك، أي دعوا طالبين تعجيل هلاكهم ليستريحوا من هول العذاب وشدته ﴿لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبوراً وَادْعُوا ثُبوراً كبيراً﴾ أي يُقال لهم توبيخاً: لا تطلبوا هلاكاً واحداً بل اطلبوه مِراراً

---

(١) تغيظاً: التغيظ إظهار الغيظ والغضب.

(٢) زفيراً: الزفير هو الصوت الناشيء عن إخراج النفس من الجوف حزناً أو غضباً.

فلن تجدوا خلاصاً مما أنتم فيه.

صورة مرعبة يرسمها القرآن لعذاب الآخرة ليرتدع عن غيه كل منكر للثواب والعقاب في الآخرة الذي أرخى العنان لشهواته وإجرامه ظناً منه أن الحياة الدنيا هي غاية المطاف وأن لا حياة بعد هذه الحياة يحاسب عليها بما اقترفت يداه.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلْدِ﴾ أي قل يا محمد لقومك الكافرين على وجه التقريع والتوبيخ أذلك العذاب في الآخرة خير أم نعيم الجنة الخالدة ﴿التي وُعِدَ المتَّقُونَ﴾ التي وَعَدَ الله بها من آتقى عذابه في الدنيا بطاعته فيما أمره وفيما نهاه ﴿كَانَت لَهُم جَزَاءً ومَصِيراً﴾ كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم ومرجعاً يصيرون إليه ﴿لَهُم فيها ما يشَاءُون خَالِدِينَ﴾ لهم في الجنة ما يشاءون من ألوان النعيم ماكثين فيها أبداً بلا انقطاع ولا زوال ﴿كَانَ عَلَى ربِّك وَعْداً مَسْئُولاً﴾ وكان هذا النعيم وعداً من الله لهم على طاعتهم إياه في الدنيا وإجابة لدعائهم الذي سألوا به ربهم في الدنيا: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة﴾.

ثم يخبرنا الله عما يقع يوم القيامة من تقريع للكفار لعبادتهم غير الله سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم وَمَا يَعْبُدون مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُم أضْلَلْتُم عِبَادي هَؤُلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبيلَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ ينبغي لنا أن نَتَّخِذَ مِنْ دُونِك مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَتَّعْتَهُم وآباءَهُم حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً. فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِم مِنْكُم نُذِقْهُ عَذَاباً كبيراً﴾ (١٧-١٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر لهم يا محمد للعظة يوم يجمع الله المشركين للحساب يوم القيامة مع

من عبدوهم في الدنيا من غير الله كعيسى وَعُزَيْر والملائكة وغيرهم من المعبودين ﴿فَيَقُول أَأَنْتُم أَضْلَلْتُم عِبَادي هَؤُلاءِ﴾ فيقول الله تعالى للمعبودين تقريعاً لمن كان يعبدهم: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم ﴿أم هُمْ ضَلُّوا السَّبيلَ﴾ أم هم ضلّوا طريق الهدى باختيارهم فعبدوكم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال المعبودون تعجباً مما قيل لهم: تنزهت يا رب عن الشركاء ﴿مَا كَانَ يَنْبَغي لَنَا أَن نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ما كان يحقّ لنا أبداً أن نطلب من غيرك وليًّا ينصرنا ويتولى أمرنا فكيف مع هذا ندعو أحداً أن يعبدنا دونك، فإننا عبيد لك فقراء إليك ﴿وَلَكِن مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُم﴾ ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك وأنك لا شريك لك ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي هالكين بسبب كفرهم لا خير فيهم.

ثم يُقال للمشركين تقريعاً لهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي لقد كذبكم من عبدتموهم وزعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقرّبونكم إلى الله بعبادتكم إياهم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً﴾ فما تملكون دفعاً للعذاب عنكم ولا الانتصار لأنفسكم من هذا البلاء النازل بكم ﴿وَمَنْ يَظْلِم مِنْكُم نُذِقْهُ عَذَاباً كَبيراً﴾ أي ومن يظلم منكم نفسه في الدنيا ـ أيها الناس ـ بالشرك بالله والكفر والطغيان فإننا نعذبه عذاباً كبيراً في الآخرة وهو عذاب النار.

ثم يعود بنا القرآن إلى الحديث عن رُسُل الله، وعن تعنّت الكافرين وعنادهم وبطلان أعمالهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلاَّ إِنَّهم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيمشُونَ في الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً. وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائِكَةُ أو نَرى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا

في أَنْفُسِهِم وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبيراً. يَوْمَ يَرَوْنَ الملائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلمُجْرِمينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً .وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً. أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ (٢٠-٢٤).

فالله سبحانه يَقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرْسَلِينَ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل لهداية قومه ﴿إِلَّا إِنَّهُم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ﴾ إلّا إنهم كانوا بشراً يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك يقدح في سلوكهم ومنصبهم فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والمعجزات الباهرة ما يستدل به كل ذي عقل على صدق ما جاءوا به من عند الله، وهذا جواب على قول المشركين من قبل في شأن محمد: مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُم لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ والفتنة: هي البلاء والاختبار والامتحان فالله جعل الدنيا دار ابتلاء واختبار وامتحان للناس بعضهم ببعض فالمريض يقول: لِمَ لَمْ أُجعل كصحيح الجسم، والأعمى يقول لِمَ لَمْ أُجعل كالبصير وهكذا كل صاحب آفة. فصحيح الجسم ممتحن بالمريض فعليه أن لا يضجر منه ولا يحقره. والغني ممتحن بالفقير فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغني فعليه ألّا يحسده ولا يأخذ منه إلّا ما أعطاه. والفتنة: تأتي بمعنى الإيذاء والمحنة والبلاء، فبعض الناس من طبعهم البغي والعدوان على حقوق الغير لمنافعهم الذاتية، وكثير من الناس يقابلون الإحسان بالعقوق، والعقوق إيذاء للمحسن. ثم عقّب القرآن على ذكر الفتنة قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الأمر أي اصبروا، وقد يراد بالاستفهام على حقيقته بمعنى: جعل الله بعضكم لبعض فتنة لينظر هل يحصل منكم صبر فيجازيكم عليه أم لا تصبرون على ذلك ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ وعد كريم من الله لرسوله محمد بالأجر الجزيل لصبره على ما يلقاه من الأذى

من قومه، فهو سبحانه وتعالى بصير بأحواله، مع مزيد تشريف له بإضافته إلى اسمه (ربك). هذا وقد كان محمد ممتحناً بالحسد من أشراف قومه حيث جاء في القرآن على لسانهم: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقال المشركون الذين لا يخافون لقاء الله ولا يخشون عقابه ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائِكَةُ﴾ أي هلاَّ أنزل الله علينا الملائكة فتخبرنا أن محمداً صادق فيما يَدّعي أنه رسول الله وأن ما جاءنا به صدق ﴿أو نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَروا في أَنْفُسِهم وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً﴾ أي والله لقد دخلت الكبرياء إلى نفوسهم حيث تفوهوا بهذه الكلمات، وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان إلى أقصى غاياته ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الملائِكَةَ لا بُشْرى للمُجْرمينَ﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه بل على وجه آخر، يرونهم عند الموت حين تنزل لقبض أرواحهم، أو يرونهم يوم القيامة، ولكن لا تبشرهم بالنعيم كما تبشّر المتقين بل تخبرهم بما يُعدّ لهم من العذاب ﴿وَيَقُولونَ حِجْراً مَحْجوراً﴾ وتقول الملائكة للمجرمين: حرام محرم أن تكون لكم البشرى اليوم حين رأيتمونا.

﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مَنْ عَمَلٍ﴾ وعمدنا إلى ما عمل هؤلاء المجرمون من عمل صالح ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[١] مَنْثُوراً[٢]﴾ أي فجعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه رغبة في رضاء الله لأنهم لم يؤمنوا به، وإنما عملوه

---

(١) الهباء: هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوّة إلى غرفة مظلمة يحسبه الناظر غباراً وهو ليس بشيء تقبض عليه الأيدي أو تمسه. وقيل: الهباء هو ما تسفيه الرياح من التراب أو الغبار أو الرماد.

(٢) منثوراً: مفرقاً. فالله لم يكتف بتشبيه أعمالهم بالهباء حتى وصفها بأن متفرقة متبددة فهنا تشبيه بليغ لبطلان أعمالهم وعدم نفعها.

للشيطان وحبًّا للظهور وللسمعة، مثال ذلك ما كان يعملونه في الدنيا من صلة رحم، وإغاثة ملهوف وإكرام ضيف ومنٍّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم التي لو عملوها مع إيمانهم بالله مبتغين بها وجهه لنالوا ثوابها وأجرها منه ﴿أَصْحَابُ الجنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أهل الجنة وهم المؤمنون بالله الذين أطاعوه وانتهوا عن نواهيه في يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ هم في خير مكان يتمتعون ويستقرون فيه في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وأحسن مأوى ومنزلاً، والمقيل مصدر قيلولة وهي الاستراحة في نصف النهار عند شدة الحر.

ويتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القيامة وأحوال الكفار فيها، وندمهم حيث لا ينفع الندم:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ[1] السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً. المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرحمٰن وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً. وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبيلاً. يَا وَيْلَتَا لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خليلاً. لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَني وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (٢٥-٢٦).

فالله يصف بعض مظاهر القيامة: ﴿يَوْم تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ﴾ أي يوم القيامة تتفتح السماء بسبب طلوع الغمام منها، قد يكون الغمام - والله أعلم - هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة التي نزلت بالكون ﴿وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ وتنزل ملائكة السموات يومئذ نزولاً مؤكداً فيحيطون بالخلائق ومعهم صحائف أعمال العباد في مقام المحشر[2] ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحمٰن﴾ أي الملك الحق يومئذ خالص لله الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وبطلت الممالك سوى ملكه، وبطلت

---

(١) تشقق: أصلها تتشقق حذفت التاء الأولى تخفيفاً.

(٢) المحشر: هو المكان الذي يُجمع فيه الناس يوم القيامة.

العروش سوى عرشه ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً﴾ وكان ذلك اليوم على أهل الكفر صعباً شديداً هائلاً ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ويوم القيامة يعض الظالم(١) على يديه ندماً وحسرة على ما فرط في جنب الله بسلوك طريق الكفر وتكذيب رسل الله ﴿يقول يَا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبيلاً﴾ أي يقول: يا ليتني اتخذت مع رسول الله محمد طريقاً إلى الهدى سلكته معه ينجيني من عذاب الله ﴿يَا وَيْلَتَا لَيْتَني لم أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ يا حسرتي ليتني لم أتخذ فلاناً صديقاً(١) ﴿لَقَدْ(٢) أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بعدَ إِذْ جَاءَني﴾ والله لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن بعد إذ جاءني من عند الله فصدني عنه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإنسانِ خَذُولاً﴾ والخذل: الترك من الإعانة، والشيطان هو كل من صد عن سبيل الله ودعا إلى عصيانه سواء أكان إبليس أم كان من الإنس. فهذا الشيطان هو خذول للضال عند نزول العذاب به فهو لا ينشله من الهلاك ولا يعينه على ما هو فيه من البلاء.

---

(١) الظالم هو عقبة بن أبي معيط لأنه ارتد بعد إسلامه إرضاء لصديقه أُبيّ بن خلف الذي طلب منه ذلك.

(٢) لقد: اللام الداخلة على قد للقسم وقد صدرت الجملة بالقسم للمبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾
وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ

شَـرح المفـردات

الذِّكْرِ: هو القرآن المنزل من عند الله.

خَذُولًا: متخلياً عن النصرة والإغاثة.

جُمْلَةً واحِدَةً: دفعة واحدة.

لنثبِّتَ بِهِ فُؤَادَك: لنقوي به قلبك.

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا: أنزلنا بعضه إثر بعض وبيناه وفصّلناه.

فَدَمَّرْنَاهُم: فأهلكناهم.

وَأَعْتَدْنَا: وهيأنا.

أَصْحابُ الرَّسِّ: الرس اسم بئر وأصحابها هم الذين قتلوا نبيهم ورموه فيها.

تَبَّرْنَا تَتْبِيراً: أهلكناهم ودمرناهم.

ٱلَّتِىٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾
وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾
إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ
يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ
تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ
إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

شَرح المفردَات

مَطَرَ السَّوْءِ: حجارة تساقطت من السماء فأهلكتهم.
نُشُوراً: بعثهم أحياء بعد مماتهم يوم القيامة.
وَكيلاً: حافظاً تحفظه من اتباع هواه.
الأنْعام: الإبل والبقر والغنم.

تَابع سُورَة الفُرقان

وبعد الكلام عن الظالم وحسرته وندمه يوم القيامة ينتقل بنا القرآن إلى بيان موقف المشركين من القرآن:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَومِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهْجُوراً. وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ (٣٠-٣١).

فرسول الله محمد توجه إلى ربه قائلاً: يا رب إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك واتباع شريعتك قد هجروا هذا القرآن وقالوا فيه غير الحق، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعون إليه بل أوصى بعضهم بعضاً بما ذكره القرآن ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا

لهذا القرآن وآلغوا فيه..﴾ فصلت: ٢٦. فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه، فهذا مثل من هجرانه. وعدم التصديق منهم بأنه من عند الله هو من هجرانه، وترك تدبّره وفهمه والعمل به هو من هجرانه، والعدول عن غيره من شعر أو غناء أو لهو هو من هجرانه. ومن أهم العوامل التي تؤدي إلى هجرانه هو الانقياد الكلي لشهوات الدنيا والغفلة عن ذكر الله، وعدم فهم القرآن فهماً صحيحاً، فالذي يفهم القرآن ويتذوق دقائق معانيه وبلاغته الفائقة ينجذب إليه تلقائيًّا ويستحوذ على مشاعره فيكون سلوته في الليل وفي أوقات الفراغ في النهار وذلك لما يرى فيه من شفاء للنفس من هموم الحياة وما أكثرها، ولهذا جاء في القرآن ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ القرآن ما هُو شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ للمؤمِنِين﴾ ولا يعرف أثر القرآن في النفس الإنسانية إلاّ الذين صفت نفوسهم وتجردت أرواحهم من أوضار المادة وأدركوا تفاهة الحياة وسرعة زوال نعيمها.

وفي قوله تعالى: ﴿اتّخذوا هٰذَا القرآن مَهْجُوراً﴾ هو تلويح للمؤمنين بأن يكونوا كثيري التعاهد لقراءة القرآن والعمل بآدابه وأحكامه لئلا ينطبق عليهم وصف هجران القرآن، هذا الوصف الذي أطلقه الله على مشركي العرب الذين أوعدهم الله بالعذاب يوم القيامة، فإذا كان القرآن ذمّ الكفار على هجران القرآن فإن المسلمين إذا هجروه كان إثمهم أكبر لأنهم عرفوا الحق من الباطل.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا من المجرمين﴾ أي وكما جعلنا لك يا محمد أعداء لك من كفار قومك كذلك جعلنا لكل نبي من الأنبياء قبلك عدواً من مجرمي قومه فاصبر لما نالك من الأذى كما صبروا ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ وكفاك يا محمد بربك هادياً يهديك إلى الحق ويبصرك الرشد وناصراً لك على أعدائك وهذا وعد من الله لنبيه بالنصر الذي تحقق بعد سنوات قليلة.

إن هذا الوعد الكريم من الله لرسوله محمد بالنصر الذي تحقق هو دليل على أن القرآن وحي إلّهي وعلى صدق نبوة محمد ﷺ والله لا يؤيد منْ يدعي النبوة كذباً، ويكذب على عباد الله أجمعين.

ويتابع القرآن فيذكر تعنّت الكفار وشبهاتهم على القرآن إمعاناً منهم في الرفض لدين الله.

﴿وَقَالَ الَّذين كَفَروا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ ترتيلاً. ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلَّا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً. الّذين يُحْشَرُون عَلَى وُجُوهِهِم إلى جَهَنَّم أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾ (٣٢-٣٤).

فكفار مكة قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ أي هلاَّ أُنزل القرآن على محمد دفعة واحدة، فأجابهم الله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرتَّلنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي مثل ذلك التنزيل المفرق للقرآن الذي طعنوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه على هذه الصفة لنقوي بهذا التنزيل قلبك يا محمد وقلوب المؤمنين بتيسير حفظه، وضبطه، وفهم معانيه والوقوف على تفاصيل ما روعي فيه من الأحكام ﴿وَرَتَّلنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي أنزلناه مفرقاً آية بعد آية وبيّناه تبييناً، أو قرأناه عليك بلسان جبريل شيئاً فشيئاً على تؤدة وتمهل حتى تحفظه.

والمتمعن المنصف بنزول القرآن على هذه الصفة يرى فيه برهاناً على أن القرآن وحي من الله لا من تأليف محمد كما يظن بعض أتباع الأديان الأخرى وإليكم البيان:

فالقرآن لم يأتِ به محمد جملة واحدة كما يفعل الأدباء والكتّاب الذين ينكبون على مؤلفاتهم السنين الطوال ثم يضعونها بين أيدي الناس بعد أن يشبعوها مراجعة وتنقيحاً مما يمكن أن يدخل الظن إلى بعض النفوس من أن القرآن من تأليفه، بل كان القرآن تنزل آياته حسب الوقائع

والحوادث أو ردًّا على أسئلة كانت تلقى على محمد سواء أكانت من المشركين العرب أو من يهود، أو من نصارى، وقد استمرت مدة نزول القرآن ثلاثاً وعشرين سنة، وكان القرآن ينزل بهذه الفصاحة المعهودة التي بهرت الأسماع والعقول. واستحوذت على شعور العرب فآمن من آمن، ودخل الريب إلى قلوب البعض، فجاء التحدي الرباني لهؤلاء المرتابين بما ذكره القرآن: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾.

فمحمد لم يكن قبل النبوة من بلغاء العرب وفصحائهم، ثم ها هو بعد النبوة يتلو عليهم هذا القرآن بهذه الفصاحة، فإذا كنتم أيها العرب في شك من أن القرآن كلام الله فقدّموا لنا نظماً وتأليفاً سورة من مثل سُوَر القرآن. هذا التحدي كان على أسماع العرب أجمعين وفيهم كثير من البلغاء والشعراء الذين يناصبون محمداً العداء، ولكنهم عجزوا وعجز بعدهم كل البلغاء الذين ينطقون العربية من أتباع الأديان الأخرى الذين ينكرون رسالة محمد أنفة وكبرياء، أو اتباعاً وتقليداً لما ورثوه عن آبائهم من الدين بدون تحقيق، أو محافظة على المكانة الاجتماعية في قومهم، لأن في إعلان إسلامهم الذي اقتنعوا به في قلوبهم هو تعيير لهم من أبناء ملتهم.

ونزول القرآن مفرقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة فيه حكمة من الله العليم الخبير لأن القرآن جاء ليربي أمة وينشىء مجتمعاً فاضلاً والتربية تحتاج إلى زمن، وبالأخص فإن العرب قبل الإسلام كانوا في إباحة مطلقة من شيوع الفواحش والمنكرات، وظلم اجتماعي يقوم على تسلط الأقوياء وأكل حقوق الضعفاء والتناحر والتقاتل لأوهى الأسباب، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي .ولقد جاء القرآن بمنهج شامل للحياة لذلك جاء مفرقاً

فترة بعد فترة وفق الحاجات الملحة للمجتمع، جاء ليكون منهج سلوك وتربية، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ للمعرفة المجردة، جاء لينفذ كلمة كلمة، ولقد حقق القرآن بمنهجه أعجوبة في إصلاح العرب ـ زمن نزول القرآن ـ وجعلهم خير الأمم، ولكن من جاء بعدهم من الأمم غفلوا عن منهج القرآن، واتخذوه متعة للثقافة، أو اتخذوه كتاباً يُتْلى للتعبد أو للتبرك تغيب عنهم أكثر معانيه، ثم هم لا ينتفعون من هدي هذا القرآن إلاّ نزراً يسيراً، وهم بهذا خرجوا عن منهجه الذي جاء لأجله.

ونعود إلى تتمة الآيات فيقول سبحانه ﴿ولا يَأْتُونَكَ بَمَثَلٍ إلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ولا يأتيك يا محمد هؤلاء الكفار بكلام عجيب هو مثل في البطلان يريدون به القدح بنبوتك وبالقرآن إلاّ جئناك بالجواب الحق الذي يدمغ به باطلهم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ وأحسن بياناً وتفصيلاً ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُون عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمْ﴾ أي إن الذين كفروا برسالتك من الله يا محمد سيجمعون ويساقون على وجوههم إلى النار، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه «أن رجلاً قال يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة، فقال: إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾ أولئك شر الناس منزلة وأخطأ طريقاً.

ثم ينتقل القرآن إلى التهديد والوعيد للمكذبين بنبوة محمد محذراً لهم من عقاب الله وأليم عذابه كما حل بالأمم الماضية التي كذبت رسل الله وعصت أوامره سبحانه. ومن هذه الأمم قوم فرعون:

﴿وَلَقَدْ آتيْنا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخَاهُ هرونَ وَزِيراً. فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِنا فَدَمَّرْنَاهُم تَدْمِيراً﴾ (٣٥ـ٣٦).

أي لقد أعطينا موسى التوراة وجعلناه رسولاً منا إلى فرعون وأيدناه

بأخيه هارون معيناً له ومؤيداً وناصراً فقلنا لهم حينئذ ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بالدلائل المودعة في الكون الدالة على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ﴿فَدَمَّرْنَاهُم تَدْمِيراً﴾ في الكلام هنا حذف أي فذهبا إليهم فكذبوهما فأهلكناهم إهلاكاً شديداً هائلاً.

ويبيّن الله ما أصاب قوم نوح عليه السلام:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُل أَغْرقْنَاهُم وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا للظَّالِمينَ عَذاباً أليماً﴾(٣٧).

أي واذكر يا محمد قوم نوح لما كذبوا رسول الله نوحاً فأغرقناهم بالطوفان وجعلناهم عبرة للناس، وجاءت صيغة الرسول في الآية بصيغة الجمع ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ وهم لم يكذبوا إلّا رسولاً واحداً وهو نوح وذلك إيماءً بأن من كذّب رسولاً فقد كذّب جميع رسل الله لأن دعوتهم واحدة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمينَ عَذَاباً أليماً﴾ وهيأنا لهؤلاء الذين أغرقناهم عذاباً شديداً أليماً وهو عذاب النار.

ثم يبين الله ما أصاب عاداً وثمود وأصحاب الرسّ وقوم لوط من هلاك:

﴿وَعَاداً[١] وَثَمُودَ وَأصحاب الرَّسّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كثيراً. وَكلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وكُلاًّ تبَّرْنَا تَتْبيراً. وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونوا يَرَوْنَها بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ (٣٨-٤٠).

فالله سبحانه يقول: ودمرنا ـ أي أهلكنا ـ قوم عاد وَقَوْمَ ثمود[٢]

---

(١) عاداً: معطوفة على المضمر في دمرناهم التي سبق ذكرها أو على المضمر في جعلناهم، أو على الظالمين.

(٢) قوم عاد وقوم ثمود: هما قبيلتان من العرب البائدة.

وأصحاب الرس(٣) ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ أي وأهلكنا أُمماً كثيرة كانوا بين الأمم التي مرَّ ذكرها ﴿وكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ وكُلاًّ من هذه الأمم التي أهلكناها، سميناها لكم أو لم نسمها، ذكرنا لهم العظات، وبيّنّا لهم الحجج والأمثال الصحيحة النافعة ولكنهم لم يتعظوا ﴿وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ وكل هؤلاء الذين ذكرنا أمرهم استأصلناهم وأهلكناهم جميعاً ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ التي أُمْطِرت مَطَرَ السَّوْءِ﴾ ولقد أتى كفار قريش على قرية سدوم في أسفارهم إلى الشام، ومطر السوء هي الحجارة التي أمطرها الله فأهلكهم بها ﴿أَفَلَمْ يكونوا يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم الاعتبار والاتعاظ، أي ألم يكونوا ينظرون إلى هذه القرية فيعتبروا بما حلّ بأهلها من عذاب جزاء فحشهم وعصيانهم رسول ربهم ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ بل كان هؤلاء الكفار لا يعتبرون، لأنهم لم يكونوا يخافون نشورا وبعثاً بعد الممات، ولا يوقنون بالعقاب والثواب في الآخرة، فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله.

ويتابع القرآن فيذكر سخرية الكفار برسول الله محمد واعترافهم بتأثير وعظه عليهم:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ الاَّ هُزُواً أَهٰذَا الَّذي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً. إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنِ آلهتِنَا لَوْلا أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُون حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ (٤١-٤٢).

فالله سبحانه يقول:﴿وإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾إن: بمعنى

---

(٣) أصحاب الرسّ: الرسّ، في اللغة، كل محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك، قيل هم أصحاب الأخدود الذين عذبوا المؤمنين حرقاً في الأخدود فأهلكهم الله جزاء ظلمهم وقيل: الرس هي بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار الذي قال لقومه: ﴿اتبعوا المرسلين﴾ فأهلك الله قومه بصيحة من السماء. وقيل: إنها قرية باليمامة يقال لها فلج كذّب أهلها نبيهم ورموه في بئر حيًّا حتى مات.

ما. أي وإذا أبصرك هؤلاء الكفار يا محمد ما يتخذونك إلّا موضع هزء وسخرية ﴿أَهٰذَا الَّذي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ أي أهذا الذي بعثه الله رسولاً إلينا نتبعه ونسير وراءه، واستعمالهم اسم الإشارة: أهذا، دلالة على احتقارهم له وتهكمهم به، ولكن هل هذه السخرية من محمد عليه السلام كانت عن اقتناع منهم، لا، إنما كانت خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من شأنه ليقل تأثير القرآن على الناس وكان عملهم هذا وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية، وتلغي الامتيازات الخاصة بهم.

ويتابع الكفار قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلهتِنَا﴾ إن كاد محمد ليصرفنا عن عبادة الأصنام ﴿لَوْلا أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها. هذا الاعتراف منهم ينبىء عن اجتهاد محمد في الدعوة إلى الإسلام وعن مبلغ الحجج التي كان يقدمها لقومه، وعن جاذبية القرآن وتأثيره في النفوس بحيث لا يملك أحد سمعه إلّا غزا الإيمان قلبه وأدرك أنه كتاب الله حقًّا. كما أن اعترافهم بالصبر على آلهتهم وعدم ترك عبادتها يصور المقاومة العنيفة التي كانت تحصل في باطن نفوسهم بين الاستجابة لهذا الدين الجديد وبين الاستمرار على ديانتهم الوثنية.

ولكن إسنادهم الضلال لمحمد ﷺ بقولهم: ﴿إِنَّ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلهتنا﴾ يقابله من الله التهديد والوعيد لهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ أي سيعلمون حقيقة الأمر حين يرون عذاب الله يوم القيامة حيث سيتبين لهم من يسلك طريق الضلال، أهم أم المؤمنون؟

ثم يخاطب الله رسوله محمداً معزياً ومخففاً من حزنه بسبب ما يلاقيه من الكفار من استهزاء وأذًى مصوراً لهم بأحط الأوصاف وأدناها:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ (٤٣-٤٤).

أي أرأيت يا محمد من جعل هواه إلّهاً لنفسه فما استحسن من شيء ورآه حسناً كان دينه ومذهبه، وهكذا كان الرجل في الجاهلية قبل الإسلام يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبده وترك الأول.

وهكذا نرى في كل زمن كثيراً من الناس يعبدون ما يروق لهم من أهوائهم وشهواتهم فلا يقرون بحق ولا يخضعون لمنطق فهم أسارى أهوائهم لا تجدي فيهم الموعظة ولا تؤثر فيهم الحجة والبرهان. فالله يصف لرسوله محمد هذا الصنف من الناس ليطيّب من خاطره ويخفف من أحزانه بسبب عدم إيمانهم ولذلك يقول له في تتمة الآية السابقة: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أي أبعد ما شاهدت يا محمد غلوّ هذا الذي اتخذ إلّهه هواه أتستطيع أن تكون عليه حفيظاً تزجره عما هو عليه من الضلال وترده إلى الإيمان، لا، لست تقدر على ذلك فالهداية ليست موكولة إلى مشيئتك.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أكثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي أتحسب يا محمد أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن والمواعظ يعقلون معانيها حتى تطمع في إيمانهم. ومن دقة التعبير القرآني أنه لا يعمم بل يقول: ﴿أكثرهم﴾ إذ هناك قلة كانت تعي الحقيقة وتتدبرها ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ وهؤلاء الأكثرية لا ينتفعون بما يسمعونه منك فهم كالبهائم التي هي مسلوبة الفهم والعقل فلا تطمع في إيمانهم ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ بل هم أضل من الأنعام طريقاً، فالبهائم تعرف سيدها وتهتدي إلى مراعيها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء لها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه إليهم ولا يميزون بين النافع والضار.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ
مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾
ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا
وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا
بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً
مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا
﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ

شرح المفردات

مَدَّ الظِّلَّ: بسط الظل ومده أثناء النهار.

ثم قَبَضْنَاهُ إلينا: أخذناه ونسخناه بعد غروب الشمس.

جعل لكم الليْل لبَاساً: جعله ساتراً لكم بظلامه كاللباس.

النوم سُباتاً: راحة تستريح به أبدانكم.

النَّهار نُشُوراً: يقظة لكم من النوم لابتغاء أرزاقكم.

أَنَاسِيَّ: بَشَراً.

صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُم: أنزلنا المطر في أنحاء مختلفة.

جَاهِدْهُم: جاهد، بذل وسعه في المدافعة والمغالبة.

مَرَجَ البحرين: أرسل البحرين المالح والعذب متجاورين غير متمازجين.

كُفُوراً: جحوداً لنعم الله عليهم.

عَذْبٌ فُرَاتٌ: حلو شديد العذوبة.

مِلْحٌ أُجَاجٌ: شديد الملوحة والمرارة.

بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن
شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ
فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ
لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا
وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

شرح المفردات

بَرْزَخاً: حاجزاً فلا يختلط أحدهما بالآخر.

حِجْراً مَحْجُوراً: حراماً محرماً تغير صفاتهما.

نَسَباً: قرابة ينسبون إلى الذكور.

صِهْراً: قرابة النكاح من جهة البنات.

على ربِّهِ ظَهيراً: معيناً على عصيان ربه.

استوى على العرش: استولى على العرش بلا كيف استواء يليق به.

زَادَهُم نُفُوراً: تباعداً عن الإيمان.

بُرُوجاً: النجوم الكبار.

خِلْفَةً: يخلف أحدهما الآخر ويتعاقبان.

يذكَّر: يعتبر ويتعظ.

تابع سُورَةِ الفُرقان

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى بعض المظاهر الطبيعية ليرى فيها الإنسان عظمة القدرة الإلٓهية المبدعة، ولتكون مادة للتدبر والتفكر في أسرار الكون والاتصال بالله عن طريق الاتصال بما صنعت يداه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً. وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (٤٥-٥٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مدَّ الظِّلَّ﴾ أي ألم تنظر يا محمد إلى صنع ربك كيف أنشأ الظل من طلوع الشمس حتى غروبها فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشدة حرارتها، ومد الظل يحصل من دوران الأرض حول محورها وعلى ميل محور دورانها حول الشمس، والظل نعمة من الله على خلقه فلو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وُجِدَ الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التي تحتاج إليه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ ولو شاء الله لجعل الظل ثابتاً على حال واحدة لا تتغير، وهذا يكون لو أن الأرض سكنت بحيث أنها ظلت غير متحركة حول الشمس، وكذلك انعدام دورانها حول محورها فتكون أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض بينما يظل النصف الآخر ليلاً مما يحدث اختلاف التوازن الحراري ويؤدي إلى انعدام الحياة على الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهور الظل فلولا الشمس لما عُرِف الظل ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي أزلناه شيئاً فشيئاً

بعدما أنشأناه ممتداً ولم يكن تقلصه دفعة واحدة وفي ذلك منافع للناس. وذلك أن الشمس إذا طلعت ظهر الظل لكل ناظر إلى المغرب فكلما ارتفعت في الأفق نقص الظل شيئاً فشيئاً إلى أن تصل الشمس وسط السماء فعند ذلك ينتهي نقص الظل فإذا زالت الشمس عن وسط السماء زاد الظل جهة المشرق فشيئاً حتى تغرب الشمس.

﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُم اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ أي وهو الله سبحانه جعل لكم ـ أيها الناس ـ الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿والنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ السبت: القطع أي أن الله جعل الليلَ قاطعاً للأعمال والحركة لراحة الأبدان ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ أي جعل الله النهار زمن يقظة لينتشر الناس فيه لمعايشهم وابتغاء رزقهم فالنوم في الليل شبيه بالموت، واليقظة في النهار شبيهة بالنشور[1] بعد الممات.

﴿وَهُو الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو الله سبحانه الذي سخّر الرياح فتسوق السحب وتبشر الناس بالمطر الذي هو رحمة من الله لهم ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ والله أنزل من السماء ماء طاهراً صالحاً للشرب مطهراً للأنجاس والجراثيم، وهذه حقيقة علمية، فالماء يعتبر أهم عنصر للطهارة من الجراثيم ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أي ليحيي الله بهذا المطر أرضاً ميتة جف زرعها ويبس، وما أصدق وصف الأرض بالميتة عند جفافها الشديد حيث يهجرها كل حيوان وطير، ووصفها بالحياة بعد نزول المطر حيث تكتسي بالنبات والاخضرار ويرتادها الحيوان والطير ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ أي ويسقي الله بهذا المطر الأنعام وكثيراً من الناس. والأناسي: جمع إنسان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُم لِيَذَّكَّرُوا﴾ ولقد قسم الله هذا الماء بينهم وحوّله من جهة إلى جهة ليدركوا نِعَمَ

---

(١) النشور: هو الانبعاث والحياة بعد الموت يوم القيامة.

الله عليهم ويتعظوا ويشكروا فضله وإحسانه ﴿فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفُوراً﴾ ولكن أكثر الناس امتنع عن الشكر والاتعاظ وأصر على الكفر.

ثم يبين الله أن رسالة محمد هي للبشر كافة وأن عليه بذل غاية وسعه في سبيل نشر الإسلام:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً. فَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾ (٥٢).

أي ولو شئنا لأرسلنا في كل قرية نبيًّا يدعوهم إلى الله ويخوفهم عذابنا على كفرهم بنا فيخفف عنك كثيراً من أعباء الرسالة، ولكن خصصناك يا محمد بالرسالة إلى جميع أهل الأرض لتنال بذلك ما أعده الله لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ وابذل وسعك في نشر الإسلام والدفاع عنه قولاً وفعلاً، أو جاهدهم بهذا القرآن غاية جهدك بتلاوة ما يحتويه من الزواجر والمواعظ والتذكير بأحوال الأمم المكذبة لرسلها حتى ينقادوا إلى العمل بفرائض الله وأوامره.

هذا الجهاد في نشر الإسلام وهدي القرآن ليس قاصراً على رسول الله محمد، بل هذا الواجب يترتب على المسلمين من بعده، فالإسلام هو الترياق لكل ما يشكو منه العالم اليوم من مآسٍ وصراعات دموية وقلاقل تسبب الشقاء للجنس البشري. فالمسلمون مدعوون اليوم لحمل راية الإسلام ونشر مبادئه في العالم وخصوصاً في هذا العصر الذي انتشرت فيه أجهزة الإعلام انتشاراً مذهلاً، وأصبح سهلاً إيصال هدي القرآن إلى أقاصي المعمورة بأسهل السبل، وإن أكبر جهاد في سبيل الإسلام يكون بأن يتخلق المسلمون بتعاليم دينهم ويكونوا الأمثولة الحية له، كما كان سلفهم الصالح في مطلع الإسلام فكانوا خير أُمة أُخرجت للناس. أما ما

عليه أكثر المسلمين من سلوك يتنافى مع الإسلام فإنهم بذلك يصدون الناس عن دينهم، لأن العالم اليوم يحكم على دين ما حسب سلوك الشعب الذي يدين به.

ويتابع القرآن فيبين فضل الله على الناس بالماء الذي جعله أساس حياتهم:

﴿وَهُوَ الّذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَجَعلَ بَيْنَهُمـا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً. وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ (٥٣-٥٤).

فالله هو الذي ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ومعنى مرج: أي أرسلهما متجاورين غير متمازجين، والبحرين هما الماء العذب والماء المالح، فالماء العذب كالأنهار والعيون والآبار، والماء المالح المتمثل بالبحار ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ هذا ماء مستساغ طيب بارد شديد العذوبة ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهذا ماء شديد الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي وجعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزاً بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر. ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الأرض الفاصلة، فالأرض الفاصلة لم تمنع من انصباب الأنهار في المحيطات، وإنما يتمثل في القوانين الطبيعية التي أنشأها الله في هذه الأرض بجعل المحيطات في منخفض من الأرض وجعل الأنهار والعيون تسيل من أعالي الجبال، ومن ثَمَّ فالنهر العذب هو الذي يصب في البحر المالح، وبهذا التقدير الدقيق لا يطغى البحر على المياه العذبة فيفسدها والتي هي أساس حياة أكثر الكائنات الحية ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي وجعل كلاً من البحرين المالح والعذب حراماً محرماً على الآخر أن يغير من طبيعته فلا ينقلب الماء العذب في مكانه ماء ملحاً، ولا

ينقلب الماء المالح في مكانه ماء عذباً[١] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً﴾ قد يكون المراد من الماء: الماء الطبيعي الذي خلق منه كل أنواع الحيوان، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنَ مَاءٍ﴾ وقد يراد بالماء: النطفة وهي ماء الرجل وماء المرأة أي منيهما عند اتصالهما الجنسي، فمن ملايين الحيوانات المنوية التي يقذفها الرجل في رحم المرأة هناك حيوان منوي واحد ينفصل عن مجموعته ويلقح بويضة الأنثى ويكون ذلك باكورة تخلّق الجنين، فالحيوان المنوي عند الرجل، والبويضة عند الأنثى يحملان وحدات الوراثة ويتشابهان عند البشر جميعاً وينشأ منهما الذكور والإناث بطريقة عجيبة في نموهما لا يدرك البشر سرها ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ والنسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين الناس. فبني آدم ينقسمون إلى قسمين قرابة نسب فيقال: فلان ابن فلان أو فلانة بنت فلان، وقرابة صهر الناشئة عن الزواج واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته فكل من الزوجين قد خالط صاحبه. وصهر الرجل زوج ابنته وأخو الزوج وأبوه وعمه، وصهر الزوج أقارب زوجته المحارم لها ـ أي ممن لا يحلون الزواج بها ـ كالأبوين والأخوة وأولادهم والأعمام والأخوال، وصهر المرأة أقارب زوجها المحارم. فالنسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ هذه الكلمات التي جاءت عقب خلق الإنسان وجعل

---

(١) ومن التقديرات الإلّهية أن جعلت القمر على هذا البعد المعهود عن الأرض وهو ٢٤٠٠٠٠ ميل والذي يحدث مداً (بفعل جاذبية القمر) هذا المد هو بمقدار معين لا يحدث طغيان الماء المالح على الماء العذب. ولو كان القمر أقرب إلينا مما هو الآن ويبعد عنا ٥٠٠٠٠ ميل مثلاً، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب المياه كانت تغمر مرتين في اليوم بماء مندفع يزيح الجبال نفسها، وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت فإن معدل عمق الماء فوق الكرة الأرضية يكون نحو ميل ونصف وعندئذ تنعدم الحياة على هذه الأرض بسبب طغيان البحار على المياه العذبة وإفساده بالأملاح والمرورة.

منه نسباً وصهراً تبين قدرة الله العظيمة في خلق الكائنات وإبداعها على أكمل الوجوه فمن مادة واحدة عند الرجل والمرأة لا ترى بالعين المجردة ـ أي الحيوان المنوي والبويضة ـ خلق الله بشراً ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وألوان متعددة وجعله قسمين متقابلين: الذكر والأنثى.

وبعد الآيات السابقة الدالة على وحدانية الله وقدرته العظيمة في إبداع الكائنات يعود بنا القرآن فيعيب ما عليه المشركون من عبادات باطلة:

﴿وَيَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يضُرُّهمْ وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهيراً. وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً. قُل مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إلاَّ مَنْ شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إلَى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ (٥٥ـ٥٧).

فالله يخبرنا عن جهل المشركين حيث كانوا يعبدون الأصنام وهي ﴿ما لا يَنْفَعهم ولا يَضُرُّهُمْ﴾ فإذا انتفى النفع من عبادة الأصنام، وإذا كانت لا تملك إيصال الضرر لأحد فلا موجب لعبادتها، لأن الحافز للعبادة يكون رجاء منفعة أو ثواب، أو خوفاً من عقاب ﴿وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهيراً﴾ والظهير: هو المعين، أي وكان الكافر عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك والمعصية، لأن عبادة الكافر للأصنام معاونة للشيطان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسلناك يا محمد إلّا مبشراً بالثواب الجزيل في الآخرة لمن آمن بك وصدقك بالذي جئتهم به من عند الله من الهدى وعمل به، ومخوفاً بعقاب الله من كذبك ولم يصدق بما جئتهم به من عند الله من الهدى فلم يعمل به ﴿قُـلْ مَا أسألُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ رسالة الله أجراً، فليس لكم عذر بأن تقولوا: إنما يدعونا إلى عبادة الله ليأخذ أموالنا. هكذا تكون الدعوة إلى الله مجردة من كل غاية دنيوية لتعطي ثمرها في النفوس وتستحوذ على العقول ﴿إلَّا مَنْ شَاءَ أن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيـلاً﴾ ولكن من شاء أن يهتدي منكم ويسلك

سبيل ربه والتقرب إليه بالإيمان به وطاعته والإنفاق في سبيله من الصدقة وسبل الخير فليفعل.

ثم تأتي الآيات التالية داعية إلى التوكل على الله وعبادته فهو الحي الذي لا يموت وهو وحده خالق السموات والأرض:

﴿وَتَوكَّل عَلَى الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً. الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرحمٰنُ فَاسأل بِهِ خَبيراً. وَإِذَا قِيلَ لهم اسْجُدوا للرحمٰن قَالُوا وَمَا الرحمٰن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادهم نُفُوراً. تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السماء بُرُوجاً وَجَعَلَ فيها سِرَاجاً وَقَمراً منيراً. وَهُو الَّذي جَعَلَ الليْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَن يذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُوراً﴾ (٥٨-٦٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَتوكَّل عَلَى الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ﴾ واعتمد على الله يا محمد الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها، فثق به وفوّض الأمر إليه، وفي قوله سبحانه عن ذاته بأنه (الحي) إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل الإنسان على من لا يتصف بالحياة من صنم ولا على من لا بَقَاء له ممن يموت، لأنه إذا مات بطل من توكل عليه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ واعبد الله شكراً منك على ما أنعم به عليك من النبوة ﴿وَكَفَى بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي حسبك بربك خبيراً بذنوب خلقه لا يخفي عليه شيء منها وهو محصٍ لها عليهم حتى يجازيهم بها يوم القيامة ﴿الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالله هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من نجوم وشموس وكواكب وأقمار وأتربة كونية وغازات يتألف الكون منها ﴿في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وليس المراد بالأيام كأيامنا هذه فأيامنا تعرف بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وقبل خلق الشمس لم يكن هناك نهار وليل، فالمراد بذلك ست مراحل أو أزمان مقدارها في علم الله وحده ﴿ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استقام كل ما في السموات والأرض على مراده سبحانه بتسويته إياه، وقيل ملك وعلا فوق العرش علوًّا يليق بجلاله ﴿الرَّحمٰنُ﴾ أي الله هو الذي وسع كل شيء رحمة، ولا يطلق اسم الرحمن إلاّ على الله ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبيراً﴾ أي فسل عنه من هو خبير عارف بجلاله ورحمته وعلمه وحكمته ﴿وَإِذَا قِيلَ لهُم اسجُدُوا للَّرحْمٰنِ﴾ أي وإذا قيل للمشركين الذين يعبدون الأصنام: اخضعوا للرحمن واعبدوه ﴿قالوا: وَمَا الرَّحْمٰن﴾ أي قالوا منكرين: من هو الرحمن؟ لا نعلمه حتى نسجد له، قالوا ذلك لأنهم ما كانوا يطلقون اسم الرحمن على الله، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره سبحانه ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُـرُنَا﴾ نحن لا نعلمه حتى نسجد له، فهل نخضع لأمرك وحسب ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ وزادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً من الإيمان وبعداً عنه.

﴿تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾[١] تقدس الله وتعاظم، وتزايد فضله وخيره فهو الذي جعل في السماء بروجاً، والبروج في الأصل: القصور، والمراد بها مجموعات من النجوم ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ وجعل الله في السماء شمساً مضيئـة وقمراً منيراً، وقد شبه الله الشمس بالسراج وهو المصباح الذي يضاء بالزيت أو الكحول أو الكاز، والسراج له ضوء ذاتي كما أن له لهباً يصدر بواسطة الفتيل، وقد بيّن العلم أن الشمس كتلة غازية ملتهبة وأنها تستمد طاقتها من تفاعلات وانفجارات نووية. والقمر ينير بضياء الشمس المرتد من سطحه وإن في وصف الشمس

---

(١) البروج هي هذه المجموعات من مواقع النجوم التي تظهر على أشكال مختلفة في السماء مقسمة إلى اثني عشر قسماً تمر خلالها الأرض والكواكب في أثناء دورتها حول الشمس فكأنها كالمنازل الرفيعة لسكانها والقصور، وهي أيضاً كأنها منازل للشمس في دورانها أثناء السنة، وقد رصدها العرب قديماً وأعطوها أسماء حسب أشكالها وهي: الحمل ـ الثور ـ الجوزاء ـ السرطان ـ الأسد ـ السنبلة ـ الميزان ـ العقرب ـ القوس ـ الجدي ـ الدلو ـ الحوت.

بأنها سراج ووصف القمر بعدها بأنه منير إشارة إلى أن نوره مستمد من نور الشمس.

﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً﴾ وهو الله سبحانه الذي جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر، وتعاقب الليل والنهار ينشأ من دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بهذا النظام المعهود وهذه الدقة المتناهية المحسوبة بالثواني ﴿لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ وقد دبر الله تعاقب الليل والنهار لمن أراد أن يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر في بدائع صنعه فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم رحيم بالعباد ﴿أو أَرَادَ شُكوراً﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم، وليكون تعاقبهما وقتين للذاكرين لله فمن فاته ذكر الله في النهار تداركه في الليل.

فالذي يتأمل تعاقب الليل والنهار ويعيش موصول القلب مع الله ليل نهار يملك السعادة الحقيقية التي يفتقدها كثير من البشر ويحوز على طمأنينة النفس، وينتفي عنه القلق والهم والخوف من الغد لأن له سنداً قويًا وهو خالق السموات والأرض. وما غفل البشر عن هذه الحكمة التي هي أمام أنظارهم إلاّ بسبب وجودهم في المدن وما فيها من زحمة العمل والضوضاء الطاغية والتنازع المستمر على مكاسب المادة التي أنست الإنسان نفسه وألهته عن ربه وجعلته أسير الخوف والقلق والهموم التي هي عوامل لتدمير النفس الإنسانية وإصابتها بشتى الأمراض النفسية والعضوية كما شهد بذلك الطب الحديث.

وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ
يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ
عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا
وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ
ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾
يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ

شرح المفردات

هَوْناً: بسكينة وتواضع ووقار.

الجَاهِلُون: السفهاء.

قالوا سَلاماً: أي أماناً منا لكم لا نقابل السفه بمثله.

يبيتُونَ: بات الرجل إذا أدركه الليل نام أو لم ينم.

سُجَّداً وَقِياماً: ساجدين قائمين بالصلاة، (والقيام الوقوف منتصباً).

كَانَ غَراماً: ملازماً للمعذب لا يفارقه.

سَاءَت مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً: بئست منزلاً يثبت فيه ويقيم به.

يَقْتُرُوا: لم يبخلوا ولم يقصروا عن النفقة في الحق.

قَواماً: عدلاً ووسطاً بين الإسراف والبخل.

يَلْقَ أَثاماً: عقاباً وجزاء في الآخرة.

إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ
مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾
قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

شَـرح المفـردَات

وإذا مَرُّوا باللغْوِ مَرُّوا كِرَاماً: وإذا مروا بالباطل أو سمعوه أعرضوا عنه.

قُرَّة أعْيُنٍ: مسرَّة وفرح.

إمَاماً: أئمَّة يُقتدي بنا.

يُجزون الْغُرْفَةَ: يثابون بالدرجة العليا في الجنة.

دُعاؤكم: عبادتكم له تعالى.

فَسَوْف يَكونُ لِزَاماً: فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة.

تَابع سُورَة الفُرقَان

ويختم الله هذه السورة بذكر صفات عباده المؤمنين الذين يحوزون رضاه ويستحقون نعيمه في الآخرة، هذه الصفات هي صفات مثالية لو تخلّق الناس بها لصلح مجتمعهم ولحازوا على الأمن والسلام والسعادة في حياتهم.

فالله سبحانه يذكر من صفاتهم التواضع وكرم الخلق.

﴿وَعِبَادُ الرَّحمن الذين يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سلاماً﴾ (٦٣).

لقد نسب الله إليهم صفة الرحمة فسماهم عباد الرحمن وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً. فهم يمشون على الأرض ﴿هَوْناً﴾ أي مشياً هيناً برفق وتواضع وسكينة ووقار لا يتكبرون على الناس ولا يتجبرون عليهم وإذا خاطبهم ﴿الجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء الطائشون، الجاهلون بالسلوك الإنساني الفاضل، الجاهلون بحقوق الناس عليهم وما يتوجب عليهم من الاحترام لهم ﴿قَالُوا سَلاماً﴾ قالوا سداداً من القول، ولم يقابلوهم بالمثل بل عفوا وصفحوا عنهم ولم ينزلوا إلى منزلتهم ويجاروهم في سفههم وطيشهم، فالمؤمن حليم، وإن جُهِلَ عليه لم يجهل.

ومن صفات عباد الرحمن طلبهم منه أن يجنبهم عذاب النار:

﴿والَّذين يَبِيتُونَ[١] لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ (٦٤-٦٦).

---

(١) يبيتون: بات الرجل إذا أدركه الليل نام أو لم ينم.

فعباد الرحمن إذا أدركهم الليل يعبدون ربهم ويصلّون له، وتتراوح عبادتهم بين سجود لله وقيام له، وخص الله العبادة بالليل لأنها أبعد عن الرياء، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن في ذلك إيحاء للمؤمنين بأن يكون الليل بالنسبة لهم في بعض فتراته وقتاً للعبادة لا أن يكون مصدر لهو ومعصية لله وغفلة عن ذكر الله.

وعباد الرحمن مع اجتهادهم في العبادة في الليل هم خائفون حذرون من عقاب الله فهم يبتهلون له أن يصرف عنهم عذابه في جهنم، وجهنم هي النار التي يُعذَّب بها في الآخرة ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ إن عذاب جهنم كان لازماً دائماً غير مفارق من عُذِّب به من الكفار ﴿إِنَّها سَاءَت مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ إنها بئس المكان الذي يُنزل فيه وبئس الموضع للإقامة والاستقرار.

ثم يذكر القرآن من صفاتهم العدل والاعتدال في الإنفاق:

﴿والذين إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ (٦٧).

فهم إذا أنفقوا فهم ليسوا بالمبذرين ولا ينفقون المال فوق الحاجة، وكل شيء ينفق في غير طاعة الله فهو إسراف. والإقتار: هو البخل والتضييق على العيال في النفقة، والتقصير عما أمر الله به من الإنفاق ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ والقوام هو الشيء بين الشيئين، والمراد النفقة بالمعروف والعدل لا مجاوزة عن حدّ الله، ولا تقصيراً عما فرضه الله ولكن وسطاً بين ذلك وخير الأمور أوساطها.

ومن صفاتهم أنهم يعبدون الله وحده، وأنهم يقدرون الحياة الإنسانية حق قدرها ويحافظون على الشرف والعرض.

﴿والَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُون وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِك يَلْقَ أَثاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً. إلَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالحاً فَإِنَّهُ يَتُوب إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ (٦٨-٧١).

هؤلاء الذين أثنى الله عليهم لا يعبدون مع الله إلّهاً آخر فيشركون في عبادتهم إياه أحداً حيًّا أو ميتاً، فهم يخلصون لله العبادة ويفردونه بالطاعة لأن كل ما عداه لا يضر ولا ينفع، ولا يحيي ولا يميت، ولا يملك أحد الشفاعة عنده إلّا بإذنه فهو وحده المعبود وهو وحده المستعان وهو وحده المقصود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف السوء ﴿وَلا يَقْتُلُون النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلّا بالحق فلا يتعدون على حياة غيرهم ما لم يكن القتل في قصاص، أو خروج على إمام، أو ردة بعد إسلام، أو سعي في الأرض بالفساد، أو زنا بعد إحصان (أي زنا المتزوج).

كما أن من صفاتهم: ﴿ولا يَزْنُونَ﴾ أي تجنبوا الزنا وقصروا أنفسهم على الحلال.

وأعظم أنواع الزنا إثماً كما قال محمد ﷺ (أن تزاني حليلة جارك) والحليلة هي الزوجة، لأن الجار يتوقع من جاره الأمان والمحافظة على عرضه.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً﴾ أي ومن يقترف الأمور السابقة يلق جزاء عمله وعقاب الله له يوم القيامة، والأثام في كلام العرب: العقاب، وقيل الأثام والإثم واحد، والمراد هنا جزاء الآثام ﴿يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ

القِيَامَةِ﴾ أي يضاعف عقابه بسبب هذه المعاصي ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ أي يخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً إلى أبد الآبدين ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ والتوبة هي الرجوع عن المعاصي إلى طاعة الله والندم على ما اقترفه منها، والعزيمة على ألا يعود إلى معصية الله ﴿وَآمَنَ﴾ وصدق بوحدانية الله وما جاء به رسوله محمد من الهدى ﴿وَعَمِلَ عَملاً صَالِحاً﴾ وعمل بما أمره الله من الأعمال وترك ما نهاه عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ﴾ فهؤلاء يغفر الله سيئاتهم رحمة منه بعد توبتهم وعملهم الصالح وطاعتهم له، ويجعل لهم مكان السيئات السالفة حسنات يثيبهم عليها أجزل الثواب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رحيماً﴾ وكان الله واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ كررهما القرآن لأهميتهما وتأكيداً بأن العمل الصالح شرط في صحة التوبة وقبولها وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح ﴿فَإِنَّهُ يَتُوب إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ فإنه بذلك يعد تائباً إلى الله توبة مرضية عنها مكفرة للخطايا.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يلتزمون الحق ولا يحضرون مجالس أهل الباطل:

﴿والَّذين لا يَشْهَدُون الزُّورَ. وِإِذَا مَرُّوا بِاللغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ (٧٢).

والزور: هو الكذب، فهم لا يؤدون شهادة الزور، بل يشهدون دائماً بالصدق والحق، وهم يجتنبون مجالسة أهل الشر والباطل والضلال واللهو الآثم والغناء ﴿وإِذَا مَرُّوا باللغْوِ﴾ واللغو: السقط[١] وما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع، كما يطلق على الباطل أو على ما يستقبح من الأعمال والأقوال، فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا

---

(١) السقط: الخسيس من كل شيء أو الرديء الذي لا خير فيه.

حقيقة فهو من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الأماكن فهو من اللغو ﴿مَرُّوا كِراماً﴾ مروا معرضين عنه منكرين له فلم يجاروا أهل اللغو في باطلهم ولم يخوضوا معهم في أحاديثهم.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يتلقون آيات القرآن بآذان صاغية:

﴿والَّذِين إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً﴾ (٧٣).

فهم إذا ذكرهم مُذكِّر بمواعظ الله وأحكامه الواردة في القرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً﴾ أي لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها بل يتلقونها بقلوب منفتحة يفكرون فيها ويفهمون عن الله ما يذكرهم به.

ومن صفات عباد الرحمن أن يطلبوا من الله أن يرزقهم أزواجاً وذرية صالحة ويجعلهم أئمة للمتقين:

وَالَّذِين يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أعْيُنٍ، واجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إمَاماً﴾ (٧٤).

فهم يسألون ربهم أن يجعل نساءهم وأولادهم موضع سرور في أنفسهم بتوفيقهم لطاعة الله وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في عبادة الله وطاعته به تقر عينه لما يشاهد من مشايعتهم له في مناهج الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة ﴿وَاجْعَلْنَا للمتَّقِينَ إمَـاماً﴾ وهم يسألون ربهم أن يجعلهم أئمة يُقتدى بهم في إقامة شعائر الله بما يفيض عليهم من العلم الرباني، وبما يوفقهم إليه من صالح الأعمال، وأن يكونوا هداة آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

وأخيراً يبين الله ما أعد لهؤلاء المؤمنين من نعيم في الآخرة:

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً. خَالِدِينَ فيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً. قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُم رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ (٧٥-٧٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي هؤلاء الذين وصف الله صفاتهم من عباده يثابون على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا بالدرجة العالية من المنازل في الجنة بصبرهم على مشاق الطاعات واجتنابهم للمنكرات ومجاهدتهم للشهوات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً[1] وَسَلاماً﴾ وتتلقاهم الملائكة في الجنة بالتحية والسلام، وتدعو لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُم﴾ أي لا وزن لكم عند الله لولا عبادتكم له، وشكركم على إحسانه، وتضرعكم إليه، وعلى هذا يفهم أن من لا يعبد الله ولا يطيعه، ولا يشكره على إحسانه، ولا يستغيث به في الشدائد فلا وزن له عند الله، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ويقول سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعذَابِكم إِنْ شَكَرْتُم﴾ كما يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكم ادعُوني اسْتَجِب لَكُم﴾.

ثم تُختتم هذه السورة بالوعيد للكافرين: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي فقد كذبتم أيها الكافرون بنبوة محمد ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه الله إليه، فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة لا يفارقكم.

نسأل الله أن يجعلنا الله من عباده المقربين الذين ذكر صفاتهم في هذه السورة لننال بذلك ثواب الله العظيم.

---

(١) التحية: من معانيها: السلام، البقاء، السلامة من الآفات.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سميت هذه السورة بسورة الشعراء لأن الله ذَكَرَ فيها صفات الشعراء وذلك في معرض ردّه على المشركين حين زعموا أن محمداً شاعر، وأن القرآن هو من قبيل الشعر، فردَّ الله عليهم أن محمداً ليس بشاعر، وأن الشعراء يتبعهم الضالون عن الحق، لأنهم يهيمون في كل وادٍ من وديان الشعور الكاذب والخيال الجامح، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، ومن كان كذلك فلا يكون مصدر هداية للناس.

وهذه السورة تلفت الأنظار إلى الأرض وما عليها من صنوف النبات التي تشهد بوجود الله، وعظيم قدرته. كما تتحدث السورة عن نبي الله موسى حيث خصه الله برسالته إلى فرعون وأيده بالمعجزات، وما جرى بينه وبين فرعون من حوار، ثم عقاب الله لفرعون وقومه. كما تذكر السورة نبي الله إبراهيم ومحاجّته لقومه في بطلان عبادة الأصنام.

وتتحدث السورة عن أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب وما وعظوا به قومهم، وما حلّ بالمكذبين الضالين من هلاك جزاء كفرهم وعصيانهم أمر ربهم.

وتذكر السورة بعض الدلائل التي تشهد بأن القرآن وحي إلٓهي وهي أنه جاء بلسان عربي مبين يخالف لسان أهل الكتاب وبهذا ينتفى اقتباسه منهم، كما أن بعض علماء بني أسرائيل أسلموا وأقروا بأن القرآن كتاب الله.

وفي السورة تحذير للمشركين العرب من الركون إلى الدنيا وملذاتها غير عابئين بما ينتظرهم من عذاب الله جزاء كفرهم وإعراضهم عن عبادة ربهم.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

آياتها ٢٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا
يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ
إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟
مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ

شَـرح المفـرَدات

بَاخِعٌ نَفْسَك: قاتل نفسك غمًّا وحزناً.

أَعْنَاقُهُم: جماعاتهم أو رؤساؤهم وكبراؤهم.

ذِكْرٍ من الرحمن مُحدث: موعظة من الله جديدة.

زَوْجٍ كريم: صنف حسن كثير النفع.

لآيَةً: لدلالة على كمال قدرة الله.

إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا
بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ
مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ
لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ
لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

وَليداً: صغيراً قريباً من الولادة بعد فطامه.

مِنَ الضَّالين: من الجاهلين بأن الوكزة تؤدي إلى القتل.

حُكما: علماً وفهماً.

مِنَ الْمُرْسَلين: من رسل الله إلى خلقه.

عَبَّدتَ بني إسرائيل: استعبدت بني إسرائيل وقتلت ولدانهم.

سُورَةُ الشُّعَراء

ايضــاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالكلام عن رسوله محمد ﷺ وما يعانيه من الحزن والغم بسبب إعراض قومه عن دعوته، ولو شاء الله لساقهم إلى الإيمان قهراً:

﴿طسٓمٓ(١). تِلْك آياتُ الكِتَابِ المبينِ. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يكونوا مُؤمنينَ. إنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّت أعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ. وَمَا يَأْتيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰن مُحْدَثٍ إلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضينَ. فَقَد كَذَّبُوا فَسَيَأْتيهم أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١-٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ تلك: هي للإشارة إلى البعيد أو العالي المنزلة، والكتاب: المراد به القرآن. المبين: أي الظاهر الواضح إعجازه وأنه من عند الله. والإشارة إليه بـ (تلك) لبيان عُلُوّ منزلة القرآن في الفضل والشرف.

﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾ لعلك قَاتل نفسك ومهلكها حزناً وغمًّا ﴿أَلاَّ يكونُوا مُؤمنينَ﴾ لترك قومك الإيمان بوحدانية الله. فهنا يبيّن الله مدى إخلاص رسوله محمد لدين الله، فكأن الله يقول له: لا تبالغ يا محمد بالحزن والأسى على قومك لأنك إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلاً، فالله عزّاه وعرّفه أن غمه وحزنه على قومه لا يُجدي نفعاً. ومثل هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿فلا تَذْهب نَفْسُك عَلَيهم حَسَرَاتٍ﴾.

---

(١) طسم: ذكرنا ما قيل في تفسير هذه الأحرف في مطلع سورة النمل.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّل عَلَيْهم مِن السماءِ آيةً﴾ أي إن يشأ الله ينزل عليهم من السماء معجزة تلجئهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فيظلون خاضعين للإيمان قهراً، وعبّر عن الخضوع بالأعناق لأنها موضع الخضوع، وقيل المراد بالأعناق الرؤساء والجماعات، يُقال في اللغة جاء عنق من الناس أي فوج منهم، أي فظلّ سادتهم وكبراؤهم وجماعاتهم للمعجزة خاضعين. فالله سبحانه لو أراد أن يسوقهم للإيمان قهراً لفعل، ولكن لا يريد من عباده إلّا الإيمان الاختياري، ولهذا قضت حكمته وقامت حجته على خلقه بإرسال الرسل وإنزال الكتب الإلٰهية.

﴿وَمَا يَأتيهم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ أي ما يأتي هؤلاء المشركين موعظة من المواعظ القرآنية من عند ربك يا محمد تذكرهم بها إلى ما فيه خيرهم بمقتضى رحمته سبحانه ﴿مُحْدَثٍ﴾ أي تتجدد حالاً بعد حال حسبما تقتضيه الحكمة الإلٰهية ﴿إلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرضينَ﴾ إلّا أعرضوا عن استماع القرآن غير متدبرين ولا متفكرين فيه إصراراً منهم على كفرهم ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ فقد كذب هؤلاء المشركون بالقرآن الذي أتاهم من عند الله ﴿فَسَيَأْتيهم أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هنا وعيد للمشركين، أي ستأتيهم أخبار هامة تبين عاقبة ما كذبوا وما استهزأوا به.

ثم يقدم القرآن دليلاً على وجود الله ووحدانيته وقدرته على بعث الأجسام حية بعد الممات:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . إِنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمنين . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٨-٩).

والمعنى: أأعرضوا عن آيات الله وكذبوا واستهزأوا بها ولم ينظروا إلى الأرض وعجائبها كيف أنبت الله فيها صنوف النبات التي تنقسم إلى مذكر ومؤنث، وهذا النبات: كريم، أي مرضي كثير المنافع ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ

لآيَةً﴾ إن في إنبات النبات بأصنافه العديدة لعلامة واضحة على وحدانية الله[١] وسعة علمه وحكمته وقدرته على إحياء الموتى يوم البعث للحساب ﴿وَمَا كَانَ أكثَرُهُم مُؤمنين﴾ وما كان أكثر الناس مؤمنين بهذه الحجج الواضحة الظاهرة للأعين لفرط تماديهم في الضلال ﴿وَإِنَّ رَبَّك لَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾ وإن ربك لهو القوي الغالب، الرحيم بخلقه فلا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

ثم يحذر الله المشركين أن يصيبهم مثل ما أصاب الظالمين المكذبين لنبيهم وهم فرعون وقومه. وفي هذه السورة يقص علينا القرآن قصتهم بأسلوب يرتقي إلى أعلى درجات البلاغة لا يستطيع أحد مجاراته في بلاغته. والملفت للنظر أن قصة موسى وردت مكررة في مواضع شتى من القرآن[٢]، وهذا التكرار لا يتناول القصة كلها وإنما بعض حلقاتها، وسبب ذلك أن المعاني الدينية هي مقصود القرآن من قصصه، فليس المقصود سرد المواد التاريخية، بل المواعظ والعبر التي تدلّ عليها. كما أن الغاية

---

(١) يتساءل الدكتور لستر جون زمرمان أستاذ الزراعة بكلية جوشن بأميركا:

لا يكفي أن يكون هناك ضوء ومواد كيميائية وماء وهواء لكي ينمو النبات. إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة والتي تعمل في توافق عجيب. والبذرة التي بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات تكون فرداً جديداً يشق طريقه في الحياة ويكون مشابهاً للنبات الذي أنتجه بحيث لا تنتج حبة القمح إلاّ قمحاً ولا بذرة البلوط إلاّ شجرة البلوط. . .

ويقول: فمن الذي أوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً وهو: من أين جاءت النباتات الأولى. ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا.

(٢) قصة موسى مع فرعون جاءت في السور الآتية: القصص، طَه، الشعراء، النمل، النازعات، الأعراف، الزخرف، غافر، الدخان، يونس.

من قصص القرآن الدعوة إلى هدى الله والتحذير من معصيته، والبشارة بثواب الله مع اختلاف الأساليب البيانية، فتارة يكون أسلوب القرآن مسهباً، وفي موطن آخر يكون موجزاً مع اختلاف الفواصل[١] من موطن لآخر، مع التنوع بالعبارات البليغة والألفاظ العذبة، وأنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة، وبذلك تتجلى بلاغته وفنونه الرفيعة في التعبير.

هذا التكرار البليغ في عرض قصص القرآن برهان على كونه وحياً إلّهياً، فالشاعر أو الأديب إذا كرر قولاً لا يكون كلامه في مستوى واحد من البلاغة، بخلاف القرآن الذي حافظ على بلاغته العالية في سائر ما كرره من قصص ومواعظ ووصف.

بعد هذه المقدمة نشرع في قصة موسى مع فرعون فيطالعنا أولاً مناداة الله لموسى وتكليفه برسالته إلى فرعون وقومه ليرتدعوا عن كفرهم وظلمهم للعباد:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمينَ. قَوْمَ فِرْعَونَ أَلا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِي أَخافُ أَنْ يكَذِّبُونِ، وَيَضيقُ صَدْري وَلا يَنْطَلِقُ لِسَاني فَأَرْسِلْ إِلَى هَارون. وَلَهُم عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ. قَالَ كَلَّا فاذْهَبَا بِآياتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُسْتَمِعُونَ. فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائيل﴾ (١٠-١٧).

فالله سبحانه يقول: واذكر يا محمد إذ نادى رَبُّك موسى وكلفه بالرسالة الإلّهية وقال له ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمينَ. قَوْمَ فِرْعونَ﴾ أن اذهب إلى القوم الظالمين وهم قوم فرعون، وقد استحقوا وصف الظلم من

---

(١) الفاصلة: هي الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية ولها قيمتها في إتمام المعنى ولها أثرها الصوتي في نظم الكلام. وأكثر الفواصل في هذه السورة يتمثل آخرها بحرف النون يتخللها الفواصل التي آخرها حرف الميم واللام فتأمل أيها القارىء بلاغة القرآن وفنونه الرفيعة في الأداء والتعبير. ووقع جماله الصوتي على الأذن.

جهتين: ظلمهم لأنفسهم بالكفر وظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم وقتل ولدانهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وقل لهم يا موسى ألا تخافون عقاب الله على كفركم وظلمكم. أجاب موسى ربه: ﴿قَالَ: رَبِّ إِنّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي يكذبون نبوتي وأنك أرسلتني إليهم ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي لا ينطلق لساني بالكلام الذي أمرتني بتبليغه. فبعض الناس إذا اشتد بهم الغم وضاق منهم الصدر تلجلجت ألسنتهم حتى لا تكاد تبين عن مقصدهم، بالإضافة إلى ذلك هناك علة في لسانه ﴿فَأَرْسِل إلى هَارُونَ﴾ أي أرسل إلى هارون الملك جبريل بالوحي واجعله رسولاً منك معي ليؤازرني ويعاونني ﴿وَلَهُمْ عليَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أن يَقْتُلُونِ﴾ والذنب الذي اقترفه موسى هو قتله للقبطي خطأ وسماه ذنباً بحسب زعمهم فخاف موسى أن يقتلوه قصاصاً به، فأجابه الله: ﴿قال: كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ كلَّا: حرف ردع وزجر عن خوف القتل، أي كلا لن يقتلك قوم فرعون، فاذهب يا موسى أنت وأخوك إلى فرعون مؤيدين بمعجزاتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُسْتَمِعُونَ﴾ أي إننا معكما نستمع ما يجري بينكما وبينه، وهذا وعد من الله لهما بالحفظ والإعانة وتثبيت لقلوبهما، ومن كان الله معه فلا يخاف شيئاً في الوجود ﴿فأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ فتوجّه يا موسى مع أخيك هارون إلى فرعون وقولا له: إننا مرسلان إليك من رب العالمين برسالة لك مضمونها وفحواها: ﴿أن أرْسِل مَعَنَا بني إسْرائيلَ﴾ أي اطلق سراح بني إسرائيل من عبوديتك وخلِّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين.

ويتابع القرآن فيذكر المحاورة التي جرت بين فرعون وموسى بعد تبليغه رسالة الله إليه:

﴿قالَ ألَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِك سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ. قَالَ فَعَلْتُها إذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ.

فَفَرَرْتُ مِنْكُم لَمَّا خِفْتُكُم فَوَهَبَ لي رَبّي حُكْماً وَجَعَلَني مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَليَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَني إسرائيلَ. قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ. قَالَ ربُّ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إِلَيْكُم لَمَجْنونٌ. قَال ربُّ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ. قَال لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غيري لأَجْعَلَنَّك مِنَ المَسْجُونينَ﴾ (١٨-٢٩).

فالله سبحانه يذكر ما قال فرعون لموسى بعد أن بلّغه رسالة ربه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليداً﴾ أراد بذلك المنّ عليه، أي ربيناك لدينا صغيراً ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال الإسرائيليين، فهل جزاء معروفنا أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ﴿وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِك سِنينَ﴾ وفي هذه السنين الطوال التي مكثتها عندنا لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوة التي تقوم بها اليوم، قيل إنه مكث عندهم ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلت وأَنْتَ مِنَ الكافرينَ﴾ فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفساً وكفرت نعمتنا عليك وإحساننا إليك ﴿قَال: فَعَلْتُها إذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ﴾ فقال موسى: كان قتلي للقبطي خطأ وعن جهل بأن اللكمة له ستؤدي إلى قتله ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُم لمَّا خِفْتُكُم﴾ ففررت منكم لما خفت أن تقتلوني بقتلي القتيل منكم ﴿فَوَهَبَ لي رَبّي حُكْماً﴾ أي أعطاني نبوة وعلماً وفهماً ﴿وَجَعَلَني مِنْ المرسَلِينَ﴾ وجعلني من أنبيائه الذين أرسلهم الله لهداية خلقه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بني إِسرائيلَ﴾ أي أتمنُّ عَليَّ إحسانك إليَّ وتربيتك لي وقد أسأت إلى قومي بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تستخدمهم في أشق الأعمال وقتلت أبناءهم. هذا القول من موسى هو حَمْلة منه على العبودية، وتقريع لفرعون المتكبر المستبد، وانتقاد عنيف لتصرفاته.

وبعد هذه المحاورة انتقل فرعون إلى سؤال موسى عن صميم دعوته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمينَ﴾ وذلك أن فرعون كان يقول لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لكم مِنْ إلَه غَيْري﴾ فلما قال له موسى إني رسول رب العالمين قال فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين؟ عندئذ أجاب موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُما﴾[١] أي أن الله خالق الأشياء كلها: عالم السمٰاء وما فيه من نجوم وكواكب وغيرها، وعالم الأرض وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار ونبات وحيوانات، وما بينهما من هواء وأشعة وأبخرة وغازات ﴿إِن كُنْتُم مُوقِنينَ﴾ إن كان يُرجى منكم الإيمان بوجود الخالق عن علم ثابت الذي يؤدي إليه النظر الصحيح.

سمع فرعون كلام موسى فالتفت إلى من حوله من الأشراف قائلاً لهم على سبيل الاستهزاء: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ فيجيبهم موسى قائلاً: ﴿رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلين﴾[٢] أي أنه خالقكم وخالق آبائكم وأجدادكم مِنْ قبلكم، ولكن فرعون لا يقتنع بكلام موسى فيقول لمن حوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنونٌ﴾ وقد سمى فرعون موسى رسولاً من باب السخرية له لأنه لا يعتقد بأنه رسول الله مؤكداً سخريته له بوصفه

---

(١) هذا النص القرآني ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ رد على المعتقدات المصرية القديمة التي كانت شائعة إذ ذاك. فقد كان للسماء إلاهة اسمها نوت (Nout) تصوروها امرأة عملاقة جسمها مقوس فوق الأرض على شكل قبة. وقد كان للأرض إلّه اسمه غب (Gheb) وهو زوج نوت وهناك إلّه اسمه (Chou) ويمثل الفضاء الجاف الذي بين السماء والأرض (عن كتاب: مصر، تأليف دريوتون وجاك فانديه ـ تعريب الأستاذ عباس بيومي).

(٢) هذا القول نفي لألوهية فرعون كما أنه رد على المعتقدات المصرية التي كانت تقول بوجود آلهة للموتى أمثال الإلّه (سكر) إلّه جبانة منف، والإلّه (خنتي أمنتيو) إلّه جبانة (ابجو). كما أن هذه الآية تنكر عبادة الملوك الموتى «فعند موت الملك يقام له بجوار قبره معبد تستمر فيه عبادته باعتباره إلّهاً مُتوفىً» (عن كتاب مصر تأليف دريوتون وجاك فانديه).

بالجنون. ولكن موسى يتابع قوله في وصف ربوبية الله غير مكترث بسخريته: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ وَالمغْربِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُم تَعْقِلُون﴾ فالمشرق والمغرب كناية عن الشمس ونورها وهذا النظام السائد في الكرة الأرضية حيث تدور حول محورها أمام الشمس فتشرق الشمس في المكان المواجه لها من الأرض وتغيب في المكان المقابل، وكلمة ﴿مَا بينهما﴾ كناية على ما تشرق عليه الشمس من مدن وقرى(١).

ضاق فرعون بموسى ذرعاً فانتقل إلى تهديده: ﴿قَالَ: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهاً غيري لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسْجُونينَ﴾ أي لئن اتخذت يا موسى رباً غيري لأجعلنك من جملة من عرفت أحوالهم في سجوني.

هذا التصريح القرآني بألوهية فرعون هو حقيقة تاريخية فقد كان الملك عند المصريين الفراعنة إلَهاً وكان على الدوام ابن (آمون رع) لا يحكم مصر بحقه الإلَهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلَهي، فهو إلَه رضي أن تكون الأرض موطناً له إلى حين(٢).

ونستخلص مما تقدم أنه كان للمصريين القدماء عدة آلهة بجانب تأليههم لملوكهم، وقد أشار القرآن إلى ذلك إشارة صريحة في سورة الأعراف: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك. . .﴾ الآية رقم ١٢٧.

كل هذه الحقائق التي جاء بها النبي الأمي محمد ﷺ من عند ربه هي دليل واضح على صدق نبوّته وأن القرآن وحي إلَهي.

---

(١) هذا رد على المعتقدات السائدة آنذاك عند المصريين الذين جعلوا لكل مقاطعة ولكل بلدة رباً مختصاً بها.

(٢) قصة الحضارة (ول ديورانت).

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ
أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا
لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

ثُعْبَانٌ مُبِينٌ: ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل.

وَنَزَعَ يده: أخرجها من طوق قميصه.

فإذا هي بَيْضَاءُ للناظرين: بياضاً نورانيًّا يغشي الأبصار.

فماذا تأمرون: فبم تشيرون؟

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ: أخّر أمرهما ولا تعجل بعقوبتهما.

حاشِرِينَ: من يجمع الناس من شرطة وجند.

لِميقَاتِ يَوْمٍ مَعْلوم: لموعد يوم محدد.

بِعزَّةِ فِرْعَوْنَ: بقوة فرعون وعظمته.

تَلْقَفُ: تبتلع بسرعة.

يَأفِكُون: يكذبون ويُصرفون عن الحق إلى الباطل.

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا

شَــرح المفــرَدات

لأُقطعنّ أيديكم وأرجلكم مِنْ خِلافٍ: أي أقطع أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى.

لا ضَيْرَ: لا ضرر علينا فيما هددتنا به.

أسْرِ بعبادي: سر يا موسى ليلاً ببني إسرائيل.

إنَّكُم مُتَّبَعُونَ: ملاحقون من فرعون وجنده.

لَشِرْذِمَةٌ: طائفة قليلة.

لغَائظون: فعلوا أفعالاً تغضبنا وتغيظنا.

حاذرون: متيقظون من دأبنا الحذر.

مَقَامٍ كَريمٍ: مساكن حسنة.

أورثْنَاهَا: ملكناهم إياها تمليك الميراث.

فَأَتْبَعوهم مُشْرِقين: فلحقوا بهم وقت شروق الشمس.

تراءى الجمعَانِ: رأى كل جمع منهما الآخر.

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

شرح المفردات

لَمُدْرَكون: سيلحقون بنا.

فانْفَلَق: فانشق إلى آثني عشر طريقاً.

كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العَظِيمِ: كل قطعة من البحر على جانبي كل طريق كالجبل الضخم.

أَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ: قربنا هنالك فرعون من البحر.

تَابع سُورَة الشعَراء

ولما قهر موسى فرعون بالحجج الواضحة، وجابهه فرعون بالتهديد بالسجن أعلن موسى أنه يملك الدلائل الحسية على صدق نبوته:

﴿قَالَ أوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُبينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنزَعَ يَدَهُ فَإذَا هِيَ بَيضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ للملأِ حَوْلَهُ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمرونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأخَاهُ وَابعَثْ في المدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَليمٍ﴾ (٣٠-٣٧).

فموسى يقول لفرعون: أتسجنني ولو جئتك ببرهان قاطع واضح على صدق نبوتي فأجابه فرعون: فأتِ بهذا البرهان إن كنت محقاً فيما تقول ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبينٌ﴾ فألقى موسى عصاه على الأرض فإذا بها تتحول إلى ثعبان ظاهر واضح غاية الوضوح ﴿وَنَزَع يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ للنَّاظِرينَ﴾ أي أدخل يده في فتحة قميصه عند الصدر ووضعها تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي تشعّ بشعاع يكاد يغشي الأبصار ﴿قَالَ لِلملأِ حَوْلَهُ﴾ قال فرعون لأشراف قومه لما رأى هذه العجائب من موسى ﴿إنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إن موسى لبارع في فن السحر وهو ﴿يُريدُ أنْ يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ أي يريد أن يستحوذ على قلوب الناس بسحره فيكثر أعوانه وأنصاره ليأخذ البلاد منكم ويخرجكم من سلطانكم وحكمكم، وقد يكون المعنى: إنما يريد أن يُخرج خدمكم وعبيدكم بني إسرائيل بسحره من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فأي شيء تأمرون في شأن موسى وماذا تشيرون فيه؟ ﴿قَالُوا: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قال الأشراف: أخّر أمرك في موسى وهارون ﴿وَابْعَثْ في المَدائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وأرسل إلى أقاليم مصر أعوانك وجندك ليجمعوا لك السحرة المهرة لتجابه بهم سحر موسى.

ثم يبيّن القرآن المباراة بين السحرة وبين المعجزة التي أيّد الله بها موسى:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِميقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُم مُجْتَمِعُون. لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إذاً لَمِنَ المقرّبينَ. قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالوا: بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إنَّا لَنَحْنُ الغَالِبونَ. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإذا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا: آمنَّا بِربِّ العَالَمينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارونَ﴾ (٣٨-٤٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِميقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي جَمَعَ أعوانُ فرعون السحرةَ من كل الأقاليم لموعد حدّدوه وهو يوم الزينة وهو يوم عيد عند أهل مصر وحدّدوا وقت الضحى موعداً له وذلك ثقة من فرعون وحاشيته بالغلبة على موسى وتخطيطاً منهم بأن تكون المنازلة على مرأى جمع غفير من الناس ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُم مُجْتَمِعُونَ﴾ أي وقال الناس يحث بعضهم بعضاً على الاجتماع في هذا اليوم المعلوم: هل أنتم مجتمعون لتنظروا لمن تكون الغلبة لموسى أو للسحرة ﴿لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانوا هُمُ الغَالِبينَ﴾ كي نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين لموسى، والمراد باتباع السحرة في دينهم هو الاستمرار على ما كانوا عليه من الدين لأن السحرة كانوا على دين فرعون، والمقصود المخالفة لما دعاهم موسى إليه، وعند ذلك طلب السحرة من فرعون مكافأة إن هم تغلبوا على موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَونَ: أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبينَ﴾ فأجابهم فرعون إلى ما طلبوا، وزاد على هذا الوعد ﴿قَالَ: نعم وإنَّكُم إذاً لَمِنَ المقَرَّبينَ﴾ وستكونون من جلسائي وخاصة بطانتي.

ثم طلب موسى من السحرة أن يلقوا ما بأيديهم من السحر ويعرضوه على أنظار الجماهير ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ﴾ أي ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر مما يكون حجة لكم على إبطال ما لديَّ من المعجزات ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُم وَعِصِيَّهُم﴾ أي فألقوا ما معهم من الحبال والعصي فظهرت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض وهذا ما ذكرته الآية: ﴿.. فَإِذَا حِبَالُهُم وَعِصِيُّهم يُخَيّل إليه مِنْ سِحْرهم أَنَّها تَسْعَى﴾ طه: ٦٦. ثم أضاف السحرة قائلين ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ﴾ وهو قسم بقوة فرعون وسلطانه بأنهم الغالبون لموسى.

جاء دور موسى في منازلة السحرة ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي فألقى موسى عصاه بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فإذا هي تبتلع كل ما افتروه من السحر الذي لا حقيقة له والذي هو تخييل وخداع، وكلمة تلقف تعني الإسراع في الابتلاع.

والسحر في مفهوم السحرة هو تخييل للنظر، ولو كان ما جاء به موسى سحراً لبقيت حبالهم وعصيهم في الأرض بعد أن خُيّل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها، ولكنهم ينظرون ويتحققون في المكان الذي ألقوا فيه حبالهم وعصيهم فلا يجدون لها أثراً، عندئذ لا يملك السحرة إلّا أن يذعنوا للحق الواضح وهم أعرف الناس بحقيقة السحر ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي خرّوا سُجّداً لله لأنهم علموا أن الذي جاءهم به موسى لا يقدر عليه أحد غير الله ﴿قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ قال السحرة: صدّقنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارونَ﴾ تأكيد منهم لربوبية الله.

وهكذا انقلب السحرة المأجورون مؤمنين بالله على مرأى الجموع المحتشدة من كل مكان لا يفكرون بالأخطار المحدقة بهم من جراء إيمانهم بالله، وقد صوّر عالم النحو الأخفش هذه الحادثة بوصف بليغ إذ

قال: «ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر، والجحود. ثم ألقوا رؤوسهم بعد فترة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين».

ويتابع القرآن فيذكر تهديد فرعون للسحرة بالقتل وبأشد العذاب من جراء إيمانهم بالله:

﴿قَالَ آمنْتُم لَهُ قَبْلَ أن آذَنَ لَكُم إنَّه لَكِبيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْر فَلَسَوْفَ تَعْلَمُون. لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وَأرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعينَ. قَالُوا: لا ضَيْر إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إنَّا نَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أن كُنَّا أوَّلَ المؤْمِنِينَ﴾ (٤٩-٥١).

ففرعون يقول للسحرة: ﴿قَالَ: آمَنْتُم لَهُ قَبْل أَن آذَنَ لَكُم﴾ أي أصدقتم بأن ما جاء به موسى هو حق قبل أن أعطيكم الإذن بذلك، إن قول فرعون مثال للطغيان فهو الذي قيد عقائد الناس وعقولهم فليس لأحد منهم أن يؤمن بشيء إلا بإذنه ﴿إنَّه لكَبيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السَّحْر﴾ إن موسى هو رئيسكم في السحر وهو الذي علّمكم إياه ولذلك آمنتم به. لقد اعترف فرعون بكون موسى كبيرَهم مع كونه لا يحب الاعتراف بأمر يرتفع به شأن موسى لأن الذي جاء على يده يفوق ما جاء به كل السحرة فأراد أن يشكك الناس بما رأوه مُدّعياً بأن موسى ليس نبيًّا بل هو كبيرهم وأستاذهم في السحر، وهي تهمة يعرف الجميع بطلانها، ثم توعد فرعون السحرة قائلًا: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف تعلمون عند عقابي إياكم وبال ما فعلتم من الإيمان بما جاء به موسى، ثم بيّن نوع تهديده قائلاً: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾ والقطع من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُم أَجْمَعينَ﴾ ثم لأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه مسمراً عليها حتى الموت ﴿قَالُوا: لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا من ذلك ﴿إنَّا إلى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي إننا إلى ربنا راجعون. وكلمة السحرة تظهر أنهم قد بلغوا من الإيمان مبلغاً كبيراً جعلهم يستهينون

بأرواحهم ويضحون بها في سبيل مرضاة ربهم، هذه الكلمة تجعلهم يستقبلون الموت بقبول ورضا فالإنسان مرجعه إلى الله عاجلاً أم آجلاً ولا بأس بالتعجيل بلقياه إذا كان في ذلك رضاه ونيل ثوابه العظيم. ثم أضاف السحرة قولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا ربُّنَا خَطَايَانَا﴾ إننا نرجو أن يصفح لنا ربنا عن خطايانا التي سلفت قبل إيماننا فلا يعاقبنا عليها ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المؤْمِنينَ﴾ لأننا كنا أول من آمن بأن موسى رسول الله وصدقنا بما جاء به من الوحي من عند ربه.

ثم تأتي خاتمة قصة موسى وفيها نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون وهلاك فرعون وجنده:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بعبَادي إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ في المَدائِنِ حَاشِرينَ. إنَّ هَؤلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَليلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَميعٌ حَاذِرُونَ. فَأَخْرَجْنَاهُم مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَريمٍ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني اسرائيل. فَأَتْبَعُوهُم مُشْرِقينَ. فَلَمَّا تَراءى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أنِ آضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكثَرُهُم مُؤْمِنينَ. وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيمُ﴾ (٥٢-٦٨).

بعد أن أقام موسى بمصر زمناً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويظهر لهم المعجزات الدالة على صدق ما جاء به من الحق، وفرعون وقومه يكابرون ويرفضون دعوته، ويتمادون في غيهم وظلمهم، لذا أمر الله موسى أن يُخرج بني إسرائيل من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُؤمر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلَى مُوسَى أن أسْرِ بِعِبَادي﴾ أي أمر الله موسى وحياً بأن يسير ليلاً بالمؤمنين من بني إسرائيل وأخبره: ﴿إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ﴾ أي إن

فرعون وجنده سيسيرون خلفهم ليحولوا بينهم وبين الخروج من مصر.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ في المَدائِنِ حَاشِرِينَ﴾ في الكلام هنا حذف، أي أنه سار كما أمره الله، فلما علم فرعون بذلك أرسل جنده وأعوانه إلى مدائن مملكته يجمعون له الأشداء من قومه للحاق بموسى وقومه والحؤول بينهم وبين الخروج من مصر، ثم قال فرعون لجنده بعد التعبئة العامة: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي إن بني إسرائيل الذين فروا مع موسى هم طائفة قليلة حقيرة، يريد بقوله هذا إثارة الحمية في نفوس جنده. ﴿وَإِنَّا لَجَميعٌ حَاذِرُونَ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي فأخرج الله فرعون وجنده من أرض مصر وفيها البساتين وعيون الماء، أخرجهم من مصر وهم يلحقون بموسى ومن معه من بني إسرائيل ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وتركوا وراءهم ما كانوا يقتنون من كنوز الذهب والفضة والقصور والمنازل الحسنة التي كانوا منعمين فيها ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائيلَ﴾ أي مثل هذا النعيم الذي وصفه الله ملّكه لبني إسرائيل على طريقة تمليك مال المورث للوارث ﴿فَأَتْبَعُوهم مُشْرِقينَ﴾ فلحق فرعون وجنده ببني إسرائيل وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَراءَى الْجَمْعَانِ﴾ فلما رأى الجمعان بعضهما بعضاً، جماعة بني إسرائيل، وجماعة فرعون وجنده ﴿قَالَ أَصْحَاب مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي قال بنو إسرائيل لموسى: إن فرعون وجنده سيدركوننا وينزلون بنا الهلاك، قالوا ذلك بعد أن وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر فلم يروا إلّا البحر أمامهم وفرعون وجنده خلفهم ﴿قَالَ: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي قال موسى: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا إنكم لن تُدرَكوا، إن معي ربي سيهديني إلى طريق أنجو فيه من فرعون وجنده وقد وعدني ذلك ولن يخلف وعده. هذه الجملة: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ما أحرى أن يرددها المؤمنون عندما يرون الخطر يحدق بهم، والمصائب والمحن تتوالى عليهم فتخفف من جزعهم وغمهم وتلهمهم الصبر والاتكال على الله يقيناً منهم بأن الله قادر

على كشف البلاء وفتح أبواب الفرج للمكروبين، والله لن ينسى عباده المؤمنين من فضله ورحمته.

﴿فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أنِ آضْرِبْ بِعَصَاكَ البحر﴾ أي أمر الله موسى عن طريق الوحي[١] أن يضرب بعصاه البحر فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ فانشق البحر إلى اثني عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ فكان كل قسم من الماء على جانبي الطريق عالياً كالجبل العظيم، وبعد أن صار البحر على هذا الشكل أمر موسى بني إسرائيل بمتابعة السير في الطرق المنشقة في البحر ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ وقرّب الله فرعون وجنده إلى البحر وساروا في هذه الطرق وراء موسى وبني إسرائيل ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعينَ﴾ وأنجى الله موسى ومن معه بحفظ البحر متماسكاً حتى تم عبورهم إياه وخروجهم إلى الشاطىء الآخر ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ ثم أغرق الله فرعون وجنده بإطباق البحر عليهم فلم ينجُ منهم أحد ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن في قصة موسى لعبرة لمن يعتبر ﴿وَمَا كَان أَكْثَرُهُم مُؤمِنينَ﴾ وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام يا محمد بمصدقين بما جئت به من الحق ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾ وإن ربك لهو القوى الغالب للمكذبين رسله الرحيم بعباده المؤمنين.

---

(١) الوحي هي الكلمة الإلّهية التي تُلقى وتُبلّغ إلى أنبيائه وهي على أنواع: إما برسول مشاهد تُرى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ الملك جبريل للرسول محمد في صورة معينة، أو بسماع كلام الله من غير رؤيته كما حصل لموسى، وإما بإلقاء الكلام في الروع كما قال الرسول محمد: «إن روح القدس نفث في روعي» والروع هو القلب أو الذهن أو العقل. وقد يكون الوحي بإلهام كما حصل لأم موسى، وقد يكون الوحي من الله لأنبيائه عن طريق رؤيا في المنام.

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا
عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ
﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا
كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ
إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي
وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾
رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ
فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ
وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ

شرح المفردات

فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ: فنستمر على القيام بعبادتها.

حكماً: فهماً وعلماً، أو نبوة ورسالة إلى الخلق.

لِسَانَ صِدْقٍ: ثناء حسناً وذكراً جميلاً.

في الآخرين: في من يأتي بعد موتي من المؤمنين.

ولا تُخزني يَوْمَ يُبْعثُون: ولا تفضحني وتعذبني يوم القيامة.

أُزْلِفَت الجَنَّةُ: قُرّبت بحيث يُرى نعيمها.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا
فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا
يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾
وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

شــرح المفـردَات

بُرِّزَت الجحيم: أُظهرت جهنم بحيث تُرى أهوالها.

للغَاوين: للضالين عن سبيل الله.

فَكُبْكِبُوا فيها: فألقوا على وجوههم.

تالّله: والله (التاء حرف قسم).

حميم: قريب مشفق.

كَرَّةً: رجعة.

تـابع سُورَة الشـعَراء

وبعد قصة موسى ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قصة إبراهيم ومحنته مع أبيه وقومه الذين كانوا يقترفون الآثام التي توجب غضب الله ولا يستجيبون لنصحه، وهي نفس المحنة التي كان يعاني منها محمد ﷺ مع قومه:

﴿وَآتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْراهيمَ. إِذْ قَالَ لأَبيه وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدونَ. قَالُوا نَعْبُدُ

أَصْناماً فَنظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُون. أو يَنْفَعُونكُم أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ. أَنْتُم وآباؤكم الأَقْدَمُون. فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لي إلَّا رَبَّ العَالَمِينَ﴾ (٦٩-٧٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْراهيمَ﴾ أي واقصص على قومك من المشركين يا محمد خبر إبراهيم ﴿إذْ قَالَ لأبيه وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدونَ﴾ حين قال إبراهيم لأبيه وقومه: أي شيء تعبدون؟ لقد سألهم عن عبادتهم وكان يعلم أنهم عبدة أصنام، وإنما فعل ذلك ليتخذ من جوابهم دليلاً يفحمهم به بأن ما يعبدون لا يستحق العبادة بأي وجه من الوجوه.

لقد أجاب قوم إبراهيم: ﴿قَالوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً﴾ أقرّوا بأنهم يعبدون أصناماً، وهذه الأصنام من صنع أيديهم، وكان بعضها من ذهب أو فضة أو نحاس أو خشب ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ فنستمر مقيمين على عبادتها وخدمتها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار بعبادتها، فأجابهم إبراهيم بهذا الجواب المفحم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء وتستغيثون بهم، ولن يستطيع أحد أن يدّعي بأنها تسمع لأنها جماد من الجمادات، ثم أضاف إبراهيم قوله: ﴿أو يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وهل يقدمون لكم نفعاً أو يضرونكم بترككم لعبادتها، فعند هذه الحجة الدامغة لم يجد قومه حجة يستندون لها إلّا قولهم: ﴿قالوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِك يَفْعَلُونَ﴾ هذه هي الحجة التي تعللوا بها إنها التقليد الأعمى للآباء والأجداد بدون روية ولا تفكير، فالتقليد للآباء هو أكبر عقبة لهم للقبول بالحق، فالآباء والأجداد كانوا في بداهة من التفكير والعقل ثُم تابعهم الأبناء والأحفاد في معتقداتهم الباطلة. ثم يقول إبراهيم لهم ﴿ أَفرَأَيْتُم مَا كُنْتُم تَعْبُدونَ﴾ أي فهل أبصرتم وتفكرتم في ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام ﴿أَنْتُم وآباؤكُمُ الأَقْدَمونَ﴾ وقد وصف

إبراهيم آباءهم بالأقدمين دلالة على تقادم عبادة الأصنام عندهم فهم ليسوا حديثي العهد بعبادتها ﴿فَإنهم عَدُوٌّ لي إلّا رَبَّ العَالَمِينَ﴾ أي إني فكرت في أمري فَرَأَيْتُ عبادتي للأصنام هي عبادة للعدو فاجتنبتها، لقد صرح بذلك تعريضاً بهم، وهذا أبلغ في الوعظ من التصريح بأن الأصنام أعداء لهم، فالأصنام هي أعداء لعابديها لأنهم يتجشمون المشقات في طقوس العبادة لها بحيث لا يعود عليهم نفع من ذلك، كما أنها تكبّل العقل بالأوهام والخرافات التي تجلب الشقاء والحيرة، بالإضافة إلى ذلك فإن عبادة الأصنام تستوجب غضب الله وعذابه في الآخرة بسبب الانصراف عن عبادة الله المستحق وحده للعبادة.

ثم يصور القرآن إيمان إبراهيم العميق بربه وصلته الوثيقة به:

﴿الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ. والَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فهو يَشْفِينِ. والَّذي يميتني ثُمَّ يحيينِ. والَّذي أَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لي خَطيئتي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلْحِقْني بالصَّالِحينَ. وَاجْعَل لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرين. واجْعَلني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيم. وَاغْفِر لأَبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّين. وَلَا تُخْزني يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ. إلَّا مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾ (٧٨-٨٩).

فالله تعالى يذكر ما قال إبراهيم لقومه عن ربه الذي خصه بالعبادة ﴿الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدينِ﴾ أي الله وحده هو الذي يهديني إلى الصواب في القول والعمل ويسددني للرشاد ﴿وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقِينِ﴾ وهو الذي يرزقني الطعام والشراب، وعلى المؤمن أن يستشعر هذه الحقيقة فالله وحده هو الذي يرزقه فلا يذلّ لأحد ولا يهدر كرامته في سبيل الحصول على الرزق ولا يخاف من الموت جوعاً فإن الله سيرزقه كما يرزق كل مخلوق على وجه الأرض ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأَرض إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

﴿وإذا مَرِضْتُ فهُو يَشْفِينِ﴾ وإذا سقم جسمي واعتل فهو يبرئه

ويعافيه، نعم إنه الإيمان الوثيق بربه الذي يفعل العجائب، فكم من مريض أعيا علاجه نطس الأطباء ثم برىء وشفي من مرضه بفضل إيمانه العميق ويقينه بالله، هذه حقيقة ذكرها كثير من الأطباء في سجلّ حياتهم ورأوا فيها العجائب التي يحدثها الإيمان بالله في شفاء الأمراض، وإنما قال إبراهيم: مرضت دون أمرضني أدباً مع ربه حين نسب الخير لله والسيّىء لنفسه، وكذلك لأن كثيراً من أسباب المرض راجعة إلى سلوك الإنسان بتفريطه في الأكل، والإرهاق الشديد في العمل والإسراف في معاصي الله، هذا مع العلم أن إبراهيم منزه عن عصيان الله.

﴿والذي يُميتُني ثم يُحْيينِ﴾ فالله يميتني في الوقت الذي يشاء ويحييني بعد الممات يوم البعث للحساب والمجازاة ﴿وَالَّذي أطْمَعُ أن يَغْفِرَ لي خَطيئتي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهو الذي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الجزاء في الآخرة، وخطايا إبراهيم هي خطايا الأبرار وهي ليست خطايا بالنسبة لعامة الناس لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب، وفي طلب إبراهيم المغفرة من ربه تعليم لأمته بأن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حَذَرٍ منها وأن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ويقروا بخطاياهم ويندموا عليها، وأن يحاسبوا أنفسهم على أعمالهم ﴿رَبِّ هَبْ لي حُكْماً﴾ رب امنحني الحكمة والحكم بين الناس بالحق ﴿وألحقني بالصّالِحينَ﴾ ووفقني للأعمال التي أنتظم بها في فئة الصالحين من عبادك ﴿وَاجْعَل لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ﴾ واجعل لي يا رب ثناء حسناً وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي، ولقد أجاب الله دعاءه فكل أمة تثني عليه محبة له وتدعي أنها على ملته، وفي الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل ﴿وَاجْعلني من وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم﴾ واجعلني يا رب ممن يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها ﴿وَاغْفِرْ لأبي إنَّه كانَ مِنَّ الضَّالِّين﴾ أي اصفح عن أبي واغفر له ذنوبه إنه كان ضالاً عن طريق الهدى، وقد كان إبراهيم قد

وعده أبوه أن يؤمن بالله ويترك عبادة الأصنام فلذلك استغفر له، فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه. ثم تابع إبراهيم دعاء ربه: ﴿وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا تذلني ولا تهني بعقابك يوم تبعث عبادك من قبورهم أحياء للوقوف بين يديك للحساب والمجازاة على أفعالهم ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ﴾ يوم لا ينفع من كفر بك يا رب وعصاك في الدنيا مال قد جمعه، ولا بنون له فيدفع ذلك عنه عقاب الله إذا عاقبه ﴿إلاَّ مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾ والقلب السليم هو القلب الخالص لله وحده، السليم من آفات الكفر والمعاصي والنفاق والأخلاق السيئة، فمن جاء بهذا القلب السليم الطاهر فهو من الناجين من عذاب الله بمشيئته.

ويتابع القرآن فيذكر مصير المتقين ومصير الضالين يوم القيامة:

﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِلغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم تَعْبُدونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ ينصُرُونَكُم أو يَنْتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوون. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ. قَالوا وَهْم فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إنْ كُنَّا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ. إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمينَ. وَمَا أَضَلَّنَا إلاَّ المجرِمُونَ. فما لَنَا مِنْ شَافِعينَ. وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلو أنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنينَ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنينَ. وَإِنَّ رَبَّك لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٠-١٠٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقينَ﴾ أي قربت الجنة وأدنيت للمتقين ليدخلوها وهم الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا والكف عما نهاهم عنه ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلغَاوينَ﴾ وأُظهرت النار للذين كفروا وضلوا عن هدى الله بحيث يرون ما فيها من أنواع العذاب ويوقنون بأنهم سيعذبون بها ليشتد حزنهم وغمهم ﴿وَقيل لهم: أين مَا كُنْتُم تَعْبُدون من دُونِ اللَّهِ﴾ ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أين أصنامكم التي كنتم تزعمون في الدنيا أنها شفعاؤكم في هذا الموقف

الرهيب من غير الله ﴿هَل يَنْصُرونَكُم﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنْتَصِرُون﴾ أو ينفعونكم بانتصارهم. فهم كانوا في الدنيا لا ينفعونهم ولا يضرونهم فبالأحرى يوم القيامة ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي جمعوا وطرحوا في النار على وجوههم ﴿وَالغَاوون﴾ وطرح معهم في النار قادتهم المضلون الذين أوقعوهم في الغي والضلال ﴿وَجُنُودُ إبليس أجمعون﴾ وطرح في النار كذلك أتباع إبليس من ذريته أو من ذرية آدم الذين اتبعوه في الضلال ﴿قَالُوا وَهُم فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ قال هؤلاء جميعاً وهم في النار يتنازعون وَيتخَاصَمُون ﴿تَاللَّهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في دنيانا في ضلال واضح، لقد صرّحوا بذلك لإظهار ندمهم وتحسرهم وعظم خطئهم مع وضوح الحق ﴿إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالمِينَ﴾ إذ نسويكم أيها المعبودين من دون الله برب العالمين في استحقاق العبادة مع عجزكم وقدرته ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إلاَّ المجرِمُونَ﴾ وما أضلنا عن الهدى إلاّ رؤساؤنا المجرمون الذين حسَّنوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فَما لَنَا مِنْ شَافِعينَ﴾ فليس لنا في هذا اليوم من شفيع يشفع لنا ويخلّصنا من العذاب ﴿وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ وليس لنا من صديق خالص الود لأنه لا يتصادق في الآخرة إلاّ المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم العداوة والبغضاء ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنين﴾ فلو أن لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنطيع ربنا ونحسن عملنا ونكون من جملة المؤمنين الناجين من عذاب الله ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن ما ذكر من قصة إبراهيم لعظة وعبرة لمن يعتبر ﴿وَمَا كان أَكْثَرُهُم مُؤمنينَ﴾ وما كان أكثر قومك يا محمد مذعنين لدعوتك، أو ما آمن أكثر الناس بل كذّبوا رُسُله وخالفوا أمره ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو القوى الغالب لمن عصاه، الرحيم بمن تاب من عباده ورجع إليه بالطاعة.

كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ١١٠ * قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١
قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ
١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥ قَالُواْ لَئِن
لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧
فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ١٢٢ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦
وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبۡنُونَ

شَرح المفردات

الأَرْذَلُونَ: الأقلون جاهاً ومالاً.

المرجُومين: رجمه، رماه بالحجارة ويستعمل في القتل مطلقاً.

فَافتح: فاحكم.

في الفُلْكِ المشْحُونِ: في السفينة المملوءة بالناس والحيوان والطير.

بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ
ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ
﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ

شرح المفردات

رِيعٍ: طريق أو مكان مرتفع.
آيَة: قصراً مشيداً عالياً.
تَعْبَثُون: تعملون ما لا فائدة فيه.
مَصَانِعَ: حصوناً وقصوراً وحياضاً للماء.
بَطَشْتُم: تقتلون عند الغضب.
جَبَّارين: مستكبرين متسلطين بلا رأفة.
أمدَّكُم: أعطاكم.
خُلُقُ الأَوّلين: طبيعة وعادة الأولين الذين كانوا قبلنا.
طَلْعُهَا: ما يبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها.
هَضِيم: اللطيف الدقيق أو اليانع النضيج.

مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ
أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ
إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ
مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

شَـرح المفـردَات

فارهين: حاذقين بنحتها أو بطرين.

من المسحَّرين: من الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم.

شِرْبٌ: نصيب.

فَعَقَروها: فذبحوها.

تابع سُورَة الشعَراء

وبعد الكلام عن إبراهيم عليه السلام ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن نوح وما صادف من قومه من إعراض عن دعوته وتهديد له:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُم أخوهم نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إنِّي لكم رَسُولٌ أمينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطيعُونِ. وَمَا أسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعُونِ. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إنْ حِسَابُهُمْ إلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرونَ. وَمَا أَنا بِطَارِدِ المُؤمِنينَ. إِنْ أَنَا إلَّا نَذِيرٌ مُبينٌ. قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيني وَبَيْنَهُم فَتْحاً وَنَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤْمِنينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ المشْحُونِ. ثُمَّ أغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكْثَرُهُم مُؤمنينَ. وَإن رَبَّك لَهُو العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٥-١٢٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرْسَلِينَ﴾ أي كذب قوم نوح رسول الله نوحاً، وإنما قال المرسلين بصيغة الجمع لأن من كذب رسولاً من عند الله فكأنه كذب رسل الله جميعاً لأن رسالتهم من الله واحدة إلى الخلق ﴿إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم نُوحٌ﴾ والأخوة هنا أخوة نسب لا أخوة دين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله فتحذروا عقابه على كفركم ﴿إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إني رسول من الله صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى أمين على وحيه إليَّ ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فاتقوا عقاب الله على كفركم وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَما أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم على نصيحتي لكم من ثواب وجزاء ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وما ثوابي وجزائي إلّا على الله رب العالمين. هكذا تكون الدعوة إلى الله ليس فيها أجر ومكافأة من الخلق بل هي تضحية يبتغي بها الداعي وجه الله وبذلك يكون

لها الأثر الفعال في نفوس من يعظهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعُونِ﴾ كرَّر نوح هذا القول تأكيداً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه. فأجابه الأشراف من قومه: ﴿قَالُوا: أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي كيف نصدقك ونتبعك يا نوح والحال أنه قد اتبعك الأرذلون أي الأقلون جاهاً ومالاً من أهل الصناعات وأصحاب الحرف، وهم كانوا يقصدون أن الذين اتبعوا نوحاً إنما فعلوا ذلك طمعاً في العزة والمال. إن قولهم هذا ينبىء عن تكبر وتعجرف منهم بسبب جاههم وغناهم وأنهم لا يريدون المساواة مع غيرهم من الطبقات الفقيرة، بينما دين الله يسوّي بين الناس جميعاً. أجابهم نوح عليه السلام ﴿قَالَ: وَمَا عِلْمي بِمَا كـانوا يَعْمَلُونَ﴾ لقد قال: أي شيء أعلمني ما هم عليه من باطن أمرهم، وإنما لي ظاهر أمرهم فمن أظهر قبولاً واستجابة للإيمان ظننت به حسناً، ومن أظهر سيئاً ظننت به سوءًا ﴿إنْ حِسَابُهُمْ إلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرونَ﴾ أي وما حسابهم وجزاؤهم إلاّ على الله المطلع على ما يسرّون وما يعلنون، ولو أدركتم أن حسابهم على ربهم لما نظرتم إليهم نظرة احتقار بسبب أنهم دونكم في الجاه والمال ﴿وَمَا أنَا بِطَارِدِ المؤمنين﴾ وما أنا بمبعد هؤلاء المؤمنين الفقراء عني.

هذا نفس ما كان يفعله رؤساء قريش الذين طلبوا من رسول الله محمد ﷺ أن يطرد من آمن به من الضعفاء والفقراء، فالله يقص هذه الآيات على لسان نوح ليأخذ منها كبراء قريش وأغنياؤهم العبرة والدرس المفيد فلا يستكبرون على من دونهم في المال والجاه. وتابع نوح قوله: ﴿إنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبينٌ﴾ إن بمعنى ما، أي ما أنا إلّا مخوف لكم من عذاب الله موضح لكم ما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إياكم ﴿قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِن المرْجُومِينَ﴾ أي إن لم تترك يا نوح الطعن في ديننا لتكونن من المرجومين بالحجارة، وقيل: من المقتولين، فلما سمع نوح تهديدهم لجأ إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إنَّ قَوْمي كَذَّبُونِ﴾ أي إن قومي أصروا على

تكذيبي ولم يسمعوا قولي ولا أجابوا دعائي ﴿فَافْتَحْ بَينِي وَبَيْنَهُم فَتْحاً﴾ أي احكم بيني وبينهم حكماً تنتقم به ممن كفر بك ﴿ونَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤْمِنينَ﴾ وأنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ومن العذاب الذي ستلحقهم به ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ المشْحونِ﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة المثقلة بالمتاع والحيوان حين حصل الطوفان ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بعْدُ البَاقِينَ﴾ أي ثم بعد إنجاء المؤمنين أغرقنا الباقين من قوم نوح الذين ظلوا على كفرهم ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً﴾ إن في ذلك لعبرة للناس بأن من سنة الله تنجية رسله وأتباعهم المؤمنين وإهلاك الكفرة المكذبين لرسله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر الذين تتلو عليهم هذه الآيات يا محمد مؤمنين بما جئت به من الحق ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك يا محمد لهو القوي الغالب لمن كفر به الرحيم بمن آمن وتاب فلا يعاقبه بعد توبته.

وبعد الكلام عن نوح ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن رسول الله هود وما وعظ به قومه عاد من المواعظ البليغة:

﴿كَذَّبَتْ عَادُ المرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُون﴾ (١٢٣-١٢٩).

مطلع هذه الآيات وفاتحة قصة نوح واحدة فلا فائدة في إعادة التفسير ونبدأ بما وعظ به هود قومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ ريعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق، أو واد. ومعنى آية: البناء العالي، أي أتبنون بكل مكان مرتفع من الأرض، أو بكل طريق بناء شامخاً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ والعبث: اللعب والعمل بما لا فائدة فيه.

فقوم هود ما كانوا يبنون للحاجة بل لمجرد العبث وإظهار الغنى والجاه. فالنبي هود ينكر على قومه ذلك لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان من غير فائدة واشتغال بما لا يجدي نفعاً في الآخرة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ﴾ والمصانع تطلق على القصور والحصون وحياض الماء، فهم يبنونها كأنهم خالدون باقون في الأرض.

ما أكثر الذين يبنون للعبث والفخر في زماننا هذا وما أضيع المال بين أيدي هؤلاء المسرفين، وما أحوجهم إلى أوصياء يحجرون على أموالهم ويحولون بينهم وبين العبث في البنيان. ما فائدة الأمة من ذلك القصر الذي أنفق على بنائه الملايين من الأموال ليتمتع بسكناه رجل ثري وعائلته وحوله عشرات الألوف من أبناء ملته ووطنه لا يجدون ما يأكلون، ولا السكن الذي إليه يأوون، أما كان بالأحرى أن يسكن ذلك الثري في بيت متوسط التكاليف يهيىء له أسباب الراحة ويوفر هذه الأموال الطائلة ويضعها في سبيل الله وفي مرافق الأمة! لماذا هذا التبذير الفاحش على الأبنية والقصور ووضع أثمن الأمتعة فيها والأثاث والتحف؟ أيحسب الذين يفعلون ذلك أنهم مخلدون في الأرض؟ ولكن ألم يعلموا أن الخلود في الأرض محال، وأن متاع الدنيا قليل، وأن الموت متربص بكل إنسان حيث سيرجع إلى ربه، وأن الناس سيسألون يوم الحساب عن النعيم الذي كانون يرفلون به في دنياهم؟!

هذا التبذير الفاحش على الأبنية والقصور التي توفّر أسباب الترف البالغ للإنسان هي التي تغريه بالخروج عن طاعة الله، وهي من أهم أسباب هلاك الأمم، وقد جاء في القرآن: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرفيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدِميراً﴾.

ويتابع هود الإنكار على قومه وتحذيرهم من عذاب الله:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ. إِنْ هٰذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُم إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٣٠-١٤٠).

فالنبي هود يخاطب قومه ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ﴾ أي وإذا أردتم معاقبة الغير وقهره أخذتموه بالعنف والشدة فتقتلون وتضربون غاضبين بلا رأفة ولا قصد تأديب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ أي اتقوا عقاب الله بترك هذه الأفعال وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من الهدى ﴿وَاتَّقُوا الّذي أَمَدَّكُم بمَا تَعْلَمُونَ﴾ واحذروا سخط الله الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون من أنواع النعم والخيرات ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنينَ﴾ أعطاكم الإبل والبقر والغنم والبنين ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ والبساتين وعيون الماء التي تحتاجون إليها ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظيمٍ﴾ إني أخشى عليكم عذاب يوم شديد في الدنيا ثم يدخلكم الله في الآخرة نار جهنم بسبب كفركم ﴿قَالُوا: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُن مِنَ الوَاعِظِينَ﴾ أي قالوا استخفافاً به: يستوي عندنا وعظك وعدمه فإننا لن نرعوي عما نحن عليه ﴿إِنْ هٰذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما نحن عليه من سلوك ما هو إلّا خُلُقُ الأولين وعادتهم من آبائنا وأجدادنا ونحن بهم مقتدون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وما نحن بمعذبين على ما يصدر منا من عمل ﴿فَكَذَّبُوه فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ فكذبت عاد رسول ربهم فأهلكها الله بريح شديدة قارسة البرد ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ نفس الخاتمة التي ختمت بها الآيات السابقة.

وبعد الكلام عن قبيلة عاد ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قبيلة ثمود

وما حلَّ بها من عذاب جزاء كفرها وتكذيبها لرسول الله صالح :

﴿كَذَّبَتْ ثمودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم صَالِح أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمينٌ. فَاتَّقوا اللَّهَ وَأطيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَتُتْرَكُونَ في مَا هٰهُنَا آمنينَ. في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوع وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُون مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (١٤١-١٥٠).

مطلع هذه الآيات نفس المطلع الذي ورد في قصة نوح للتنبيه على أن دعوة رسل الله واحدة فلا فائدة من إعادة التفسير:

فرسول الله صالح يقول لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ في مَا هٰهُنَا آمِنينَ﴾ أنكر عليهم اعتقادهم البقاء فيما هم فيه من النعيم كأنهم باقون في الدنيا بلا موت آمنين من عذاب الله في الدنيا والآخرة إذا استمروا على كفرهم. ثم بَيَّن القرآن ما هم عليه من نعيم الدنيا ﴿في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي عندهم حدائق مثمرات وعيون تجري بالماء﴿وزروع﴾وبساتين فيها أنواع الزروع ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ والطلع هو أول ما يبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها، والهضيم: ثمر النخل اللين الناضج المتلاصق بعضه ببعض ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهينَ﴾ وتتخذون من الجبال بيوتاً حاذقين بنحتها. وقرئت: فَرِهين بمعنى بطرين فرحين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله - أيها القوم - بترك معصية ربكم. وظاهر هذه الآيات التي تكلمت عن ثمود هو طغيان اللذات المادية من المأكل والمشرب والمساكن الطيبة والانغماس في معاصي الله.

ويتابع القرآن الكلام عن قبيلة ثمود وما جرى من حوار بينها وبين النبي صالح :

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥١-١٥٩).

فالنبي صالح يقول مخاطباً قومه ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا تطيعوا ما يأمركم به المسرفون الذين يسرفون في الشهوات والمعاصي. وكلمة (المسرفين) تشير إلى أنه يحسن الاكتفاء من الدنيا بالقدر الوسط من العيش وعدم التوسع في طلبها إلى حد الاستكثار من لذاتها وشهواتها، فالإسراف يهدر ثروات الأمة ويجعل النفوس أسيرة لشهواتها، وبذلك يشيع الفساد في الأمة ويدب الوهن فيها. وهؤلاء المسرفون وصفهم الله بالمفسدين ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي الذين من عادتهم وطبعهم الإفساد في الأرض بمعاصي الله ولا يقومون فيها بإصلاح تسعد به البلاد.

وبعد هذا الوعظ من صالح أجابه قومه: ﴿قَالُوا: إِنَّما أَنْتَ مِنَ المسَحَّرِينَ﴾ أي إنك من الذين سحروا كثيراً حتى غُلب على عقلك ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ما أنت يا صالح إلّا رجل مثلنا فكيف تزعم أنك رسول الله؟ وهذا ما كان يقوله مشركو العرب لمحمد ﷺ معتقدين أن رسول الله يجب أن يكون ملكاً من الملائكة غير مدركين حكمة الله في أن يكون الرسول بشراً يصطفيه من بني قومه ليكون قدوة لهم، ولأنه أقدر في بشريته على وعظهم وإقناعهم والنفاذ إلى قلوبهم لأنه يعلم منهج تفكيرهم وسلوكهم. وتابع القوم قولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأت يا صالح بمعجزة وحجة تشهد أنك رسول الله ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي قال لهم

صالح حينما أعطاه الله الناقة معجزة له: هذه ناقة الله، يقال: إن الله أخرجها من صخرة أو هضبة ﴿لَهَا شِرْبٌ ولَكَمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ والشِّرب: النصيب من الماء، أي لها نصيب من الماء ولكم نصيب منه معلوم فليس لكم أن تأخذوا الماء في اليوم الذي هو نصيبها منه ولا هي ترتاد الماء في اليوم الذي هو نصيبكم منه، ويروى أنه إذا كان يوم شربها شربت الماء كله أول النهار وسقتهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان الماء لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ﴿ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ وأوصاهم صالح أن لا يمسوا هذه الناقة بأذى من عقر وضرب، أو شيء مما يسوؤها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيحل بكم من الله عذاب يوم، عظيم عذابه فيهلككم فيه ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فذبحوا الناقة ونسب ذبحها إلى جميعهم مع أن الذي ذبحها واحد منهم وذلك لأنهم كانوا راضين عن هذا العمل ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمينَ﴾ ولم يكن ندمهم ندم توبة بل ندم خوف من أن يحل بهم العذاب ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ فأهلكهم العذاب الذي توعدهم به صالح وكان عذابهم صيحة من السماء أهلكتهم جميعاً ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكثرهم مُؤمنين. وَإن رَبَّكَ لَهُوَ العَزيز الرَّحيمُ﴾ نفس الخاتمة التي ختم الله بها قصص بعض الأمم السابقة التي كذبت رسل الله تنبيهاً للقلوب الغافلة وتأكيداً على الاعتبار بما آل إليه أمرهم من هلاك.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ
مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾
قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾
كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا

شــرح المفـردات

الذُّكْرَان: جمع ذكر خلاف الأنثى وهو خلاف الأنثى.

تَذَرُونَ: تتركون.

قوم عَادُون: معتدون متجاوزون الحلال إلى الحرام.

مِنَ المخْرَجين: من المطرودين.

القَالِينَ: المبغضين.

الغَابِرينَ: الباقين في العذاب.

الأيْكَةِ: موضع كثير الشجر والماء قرب مَدْين.

تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ
أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا
كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

شرح المفردات

القِسْطَاسِ : الميزان.

ولا تبخسوا النَّاسَ أشْيَاءَهم: لا تنقصوا الناس من حقهم.

ولا تَعْثَوْا: ولا تفسدوا أشد الإفساد.

الجبِلَّةِ الأَوَّلِينَ: الخليقة والأمم السابقة.

كِسَفاً مِنَ السَّماء: قطعاً من السماء (أرادوا إنزال العذاب عليهم).

عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة: سحابة أظلتهم بعد حر شديد فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً.

تـابع سُورَةِ الشعَراء

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قوم لوط الذين هم أول من ابتدعوا فاحشة اللواط:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُم[١] لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِين. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ. وَتَذَرُون مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم مِن أَزْواجِكُم بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (١٦٠-١٦٦).

مطلع قصة لوط هي نفس الكلمات التي وردت من قبل في قصص الأنبياء للتأكيد على أن دعوة رسل الله واحدة وغايتها لا تفترق عن غيرها من دعوات الرسل.

فالنبي لوط يقول لقومه الذين انتشرت فيهم فاحشة اللواط: ﴿أَتَأْتُون الذُّكْرانَ مِنَ العَالَمينَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ. والذكران: جمع ذكر مقابل الأنثى، وإتيان الذكران كناية عن وطء الرجال في أدبارهن. أي أأنتم دون الناس جميعاً تطؤون الذكور وتفعلون هذه الفعلة الشنعاء ﴿وَتَذَرُون مَا خَلَقَ لكم ربكم مِنْ أَزْوَاجِكُم﴾ وتتركون ما أباح لكم ربكم من الاتصال بالإناث عن طريق الزواج تستمتعون بهن ويستمتعن بكم. والمراد بقوله تعالى ﴿ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ العضو المباح أي الوطء في الفرج المؤدي إلى النسل لأنهم كانوا يستمتعون بنسائهم في أدبارهن بجانب استمتاعهم بالرجال وفي ذلك دليل على تحريم أدبار الزوجات ﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ عَادُون﴾ بل أنتم متجاوزون الحد في عصيان الله معتدون على ما حرم عليكم.

---

(١) أخوهم: أي في البلد والسكنى لا في الدين ولا في النسب لأنه ابن أخي إبراهيم وهما من أرض بابل في العراق.

ويتابع القرآن فيذكر ما حل بقوم لوط من هلاك بسبب إصرارهم على معاصي الله.

قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنْ المخْرَجِينَ. قَالَ إنِّي لِعَمَلِكُم مِنَ القَالِينَ. رَبِّ نَجّني وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إلاَّ عَجُوزاً في الغَابِرينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكثرهُم مُؤمنين. وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيز الرَّحِيمُ﴾ (١٦٧-١٧٥).

فقوم لوط يهددون نبيهم: ﴿قَالوا: لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ أي لئن لم تترك نهينا عن إتيان الذكور ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ المخْرَجِينَ﴾ لتكون من المنفيين من بلدنا، ويفهم من هذا أنهم كانوا يخرجون من بلدهم من ينتقدهم في أفعالهم ﴿قَالَ: إنِّي لِعَمَلِكم مِنَ القَالِينَ﴾ قال لوط: إني لعملكم القبيح من المبغضين له، المنكرين فعله.

وفي قول لوط لقومه ﴿إني لعملكم من القالين﴾ دليل على أن المؤمن عليه أن ينكر المنكر بما يستطيع، فلوط لم يكن يقدر على إنكار عملهم بالفعل لأنهم كانوا كثيرين وكان وحيداً ولهذا انتقل الإنكار في حقه من الفعل إلى القول.

وبعد أن توعّد القوم لوطاً بالإخراج من بلدهم استغاث لوط بربه قائلاً ﴿رَبِّ نجني وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي نجني يا رب وأهلي من عقابك الذي ستصيبهم به ومن عملهم الخبيث، فأجاب الله دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أجْمَعِينَ﴾ أي نَجّى الله لوطاً وأهل بيته ومن تابعه على دينه من العقاب الذي عاقب به القوم الضالين ﴿إلاَّ عَجُوزاً في الغَابِرينَ﴾ إلاّ امرأته العجوز فإنها كانت من الباقين في العذاب، وقد هلكت فيمن هلك من قومها لرضاها عن فعلهم وبسبب الإساءة إلى زوجها وخيانته.

ونجاة لوط جاءت بعد أن أمرته الملائكة بأن يخرج من قرية سدوم ليلاً بمن معه من أهله وأتباعه المؤمنين، وأن لا يلتفتوا خلفهم لئلا يروا هول العذاب الذي سيصيب القرية، وأن موعد هلاك قوم لوط هو الصبح، وبعد خروج لوط ومن معه من القرية والابتعاد عنها قلب الله أرض القرية بمن فيها وجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرنا عَلَيْهم مَطَراً﴾ أي أمطر الله على هؤلاء المجرمين حجارة من السماء أهلكت من ظلّ منهم على قيد الحياة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ المنذَرِينَ﴾ فبئس هذا المطر الذي تساقط على هؤلاء الذين أنذرهم نبيهم وخوّفهم من عذاب الله، ولكن لم يلقوا لها آذاناً صاغية بعد إنذاره إياهم ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكْثَرُهُم مُؤمنينَ. وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ نفس الخاتمة التي ختمت بها قصص الأمم المكذبة لرسلها لإثارة الرعب والخوف من عصيان الله.

تعقيب على قصة لوط:

لقد وصف القرآن قوم لوط وأفعالهم بأنهم ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي أنهم تعدّوْا على حدود الشريعة الإلّهية وتعدَّوْا على قيم الحق والخير، وتعَدُّوْا على الفطرة الإنسانية وناموس الحياة، فقد جعل الله امتداد الحياة يقوم على التقاء الذكر بالأنثى سواء في الإنسان أو الحيوان، وجعل في تكوين كل منهما خصائص تجعلهما يميلان وينجذبان إلى بعضهما البعض غريزياً، وجعل هذا الاتصال عند البشر يقوم بواسطة الزواج الذي جعل أساسه بين الزوجين: الحب والرحمة ﴿وَجَعَل بينكم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وبهذا تنشأ الأُسَر، وتقوم المسؤولية في تربية الأطفال وعدم اختلاط الأنساب. أما اللواط فيهدم كل هذه المفاهيم ويجعل الرجال ينصرفون عن النساء وفي ذلك من الفساد ما لا يمكن وصفه وتحديده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اللواط عامل فعال لانتشار الأمراض السارية التي تنتشر بالعدوى عند الاتصال الجنسي. كما أن اللواط يحدث بالشرج (مكان البراز) علامات

منها ضعف العضلة العاصرة حتى أنها تفقد السيطرة على عملية التبرز فيحدث من غير إرادة كما تحدث تمزق بالشرج، والشرج مليء بالميكروبات التي قد تنتقل إلى عضو الجاني فتحدث فيه التهابات بالبول، وقد يصبح المجني عليه مخنثاً إذا لازمته هذه العادة من صغره. وآخر ما طالعتنا به الأخبار الطبية عن مرض خطير هو مرض فقدان المناعة المكتسبة ويسمى (الإيدز) وقد اكتشف أن هذا المرض يصيب أكثر الذين يمارسون الشذوذ الجنسي، وينتقل هذا المرض من الرجل المصاب به إلى المرأة عند الاتصال الجنسي ولهذا كان من حكمة الله أن أرسل العذاب على قوم لوط فاستأصلهم كافة ليطهر الجنس البشري منهم.

* * *

وبعد الكلام عن قوم لوط ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قوم شعيب وما كانوا عليه من تطفيف للكيل والميزان وفساد في الأرض:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المرسَلِينَ. إذْ قَالَ لَهُم شُعَيْبُ أَلاَ تَتَّقُونَ. إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطيعُونِ. وَمَا أَسَألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَوْفُوا الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المخْسَرِينَ. وَزِنُوا بِالقِسْطاسِ المسْتَقيمِ. وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْيَاءَهُم وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٧٦-١٨٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿كَذَّبَ أصْحَابُ الأَيْكَةِ المرْسلِينَ﴾ والأيكة هي الموضع الكثير الشجر الملتف، وأصحاب الأيكة هم أهل مَدْين في رأي بعض المفسرين، ويرى البعض الآخر أنهم غير أهل مدين وأنهم ينسبون إلى غيضة كانوا يسكنونها، وأن شعيباً أرسله الله إليهم كما أرسله إلى أهل مدين. ثم وعظهم شعيب نفس العظة التي وعظها الأنبياء السابقون الذين سبق ذكرهم في هذه السورة، ثم أضاف إلى وعظهم ما كان شائعاً فيهم من

المعاصي: ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المخْسِرِينَ﴾ أي أعطوا الناس حقوقهم في الكيل ولا تنقصوا الناس حقوقهم عن الواجب المستحق لهم ﴿وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المسْتَقِيمِ﴾ وزنوا للناس بالميزان السوي الحق الذي لا ظلم فيه ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم التي يستحقونها. هذه الآية حكمها عام، فالشيء في الآية يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان، كما يشمل غصب أرض الغير والتصرف فيها بغير إذنه، وأكل أموال الناس بالباطل، والابتزاز، كما تشمل الآية النواحي المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب علمهم وفضلهم ومعطياتهم وتضحياتهم للمجتمع ﴿وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تفسدوا في الأرض أشد الإفساد بالقتل والغارة وقطع الطرق ونحو ذلك مما كانوا يفعلونه.

ثم يبين القرآن تكذيبهم لرسول الله إليهم وما أصابهم من هلاك جزاء كفرهم وعصيانهم أمر بهم:

﴿وَاتَّقُوا الَّذي خَلَقَكُم وَالجِبِلَّة الأَوَّلِينَ. قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ المسَحَّرينَ. وَمَا أَنْتَ إلَّا بَشَـرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَظُنَّكَ لِمَنَ الكَاذِبينَ. فَأَسْقِط عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظيمٍ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنينَ. وِإنَّ رَبكَّ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨٤-١٩١).

فالله سبحانه يذكر ما قاله شعيب لأصحاب الأيْكَة: ﴿وَاتَّقُوا الذي خَلَقَكُم وَالجِبِلَّة الأَوَّلِين﴾ أي وخافوا الله واتقوا عقابه بترك المعاصي فهو الذي خلقكم وأنشأكم من العدم كما خلق الخلائق والأمم الماضية التي سبقتكم.

﴿قَالُوا إنَّما أنْتَ مِنَ المسَحَّرِينَ﴾ أي ما أنت يا شعيب إلّا من

المسحورين الذين غَلَبَ السحر على عقولهم ﴿وَمَا أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وما أنت إلّا إنسان مثلنا تأكل وتشرب ولست رسولاً من عند الله ﴿وَإِن نَظُنُّك لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ فيما تدعيه أنك رسول الله، فإن كنت صادقاً في دعواك ﴿فَأَسْقِط عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي فأسقط علينا قطعاً من السحاب يكون فيه العذاب لنا ﴿إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً في دعواك بأنك رسول الله. قالوا ذلك إمعاناً في التكذيب، واستبعادهم لوقوع العذاب بهم، فإذا لم يقع العذاب ظهر كذب شعيب، فأجابهم شعيب: ﴿قَالَ: رَبِّي أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليه من العقاب ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ والظلة: سحابة تظلل، وأكثر ما وردت في القرآن فيما يكره، وعذاب الظلة هو أن الله بعث عليهم حرًّا شديداً فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم من الشمس فوجدوا تحتها برداً وانتعاشاً، ونادى بعضهم بعضاً ليستظلوا بها، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ﴿إنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي في الشدة والهول. ثم خُتمت قصة هؤلاء القوم بما خُتمت به القصص السابقة.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ
﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ
﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ

شرح المفردات

الرُّوحِ الأَمينُ: الملك جبريل عليه السلام.
زُبُرِ الأَوَّلين: كتب رسل الله السابقين.
الأعجَمينَ: جمع أعجم وهو من في لسانه لكنة وعدم إفصاح في الكلام عربياً كان أو غيرعربي.
سَلَكْنَاهُ: أدخلناه.
بغتة: فجأة.
مُنْظَرُونَ: مُمْهلون ومؤخرون.
متَّعْنَاهُم سنين: أي أطال الله حياتهم في عافية وخير.

لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾
وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ
كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ
وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

شـرح المفـردات

لمعْزُولون: عزله، أي نحاه جانباً.

عَشيرتَكَ: أهْلَك الأقربين.

واخفِضْ جَنَاحَك: ألِنْ جانبك وتواضع.

تَقَلُّبَكَ في الساجدين: تحركك من قيام وسجود بين المصلين.

أفَّاكٍ: كثير الكذب.

الغَاوون: الضالون.

في كل واد يَهيمون: يذهبون كل مذهب في الكلام لا يتحرّوْن وجه الحق.

أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبونَ: أي مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

تـابع سُورَةِ الشعَراء

وبعد الكلام عن الأمم السابقة وما حل بها من عذاب بسبب عصيانها أمر ربها تأتي الآيات التالية مؤكدة أن القرآن وحي إلّهي وأن علماء اليهود أدركوا حقيقة ذلك:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عربي مبين. وَإِنَّه لَفي زُبُرِ الأَوَّلِينَ. أَوَ لَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَني إسْرائيلَ﴾ (١٩٢-١٩٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ هذه الآية تؤكد أن القرآن منزل من عند الله، وهذا التأكيد يتمثل بـ «إن» و «اللام» الداخلة على تنزيل. ويتجلى ذلك في فصاحته وبلاغته التي لم يستطع أحد من البشر مجاراته في هذا السبيل مع ما اشتمل عليه من الهدى ومكارم الأخلاق والتشريع العادل وأخبار الأمم الماضية والأنباء الغيبية ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ وهذا القرآن نزل به الملك جبريل، وسماه القرآن روحاً حيث أنه من الروح، كما سماه أميناً لأنه مؤتمن على ما يلقنه للأنبياء ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ولقد نَزَل جبريل بهذا القرآن على قلبك يا محمد لتكون من رسل الله الذين ينذرون قومهم ويخوفونهم من عاقبة كفرهم ويدعونهم إلى عبادة الله وحده ﴿بِلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ﴾ وهذا القرآن نزل بلسان عربي واضح يفهمه قومك يا محمد ليكون ذلـك قاطعاً للعذر، لأنه لو أُنزل القرآن بغير اللسان العربي لاحتجوا وقالوا ما فائدة كلام لا نفهمه ﴿وَإِنَّهُ لَفي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ زبر: كتب، أي أن ذِكْرَ القرآن وخبره، أو صفة محمد ﷺ والبشارة بمجيئه ورد في كتب الأنبياء السابقين ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ أي أغفلوا عن ذلك ولم يعلموا أن لهم دليلاً على أن القرآن وحي من الله، وأن محمداً رسول الله ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَني إسْرائيلَ﴾ أي أن يعلم هذه الحقيقة علماء بني إسرائيل الذين وجدوا ذكر هذا القرآن وصفة محمد

النبي ﷺ في كتبهم. وتفصيل الأمر: أن جماعة من علماء بني إسرائيل اعتنقوا الإسلام كعبد الله بن سلام وغيره، وقد حدّدوا مواضع في التوراة ذُكِرَ فيها الرسول محمد ﷺ بصفته ونعته، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذه الأخبار.

ويتابع القرآن فيذكر رفض المشركين التصديق بأن القرآن كتاب الله وأنهم لا يؤمنون حتى يروا عذاب الله، ولكن لا ينفعهم الإيمان آنذاك:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمينَ. فَقَرأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ في قُلُوبِ المجْرِمينَ. لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوا الْعَذَابَ الأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَيَقُولوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ. أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. أَفَرأَيْتَ إن مَتَّعْنَاهُم سِنينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَا كَانوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ. وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ. ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمينَ﴾ (١٩٨-٢٠٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بنظمه المعجز وبلاغته المعهودة على رجل من الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ولا يتصوّر اتهامه بتأليفه وإنشائه لعجمته ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فقرأه عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادة لكفروا به ولسموه سحراً. أو بمعنى: لو أنزل الله هذا القرآن بلغة العجم ـ أي غير اللغة العربية ـ على رجل أعجمي فقرأه على العرب لم يؤمنوا به حيث لم يفهموه.

فهؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل والبراهين فقد أنزل الله هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله وانضم إلى ذلك بشارة كتب الأنبياء به ومع هذا لم يؤمنوا بأن القرآن وحي إلّهي وسموه شعراً تارة، وسحراً تارة أُخرى فكيف بهم لو أُنزل هذا القرآن بلغة الأعاجم ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ في قُلُوبِ

المجْرِمينَ﴾ والسلك: الإدخال والمجرمين هنا المراد بهم المشركون من العرب. أي ومثل هذه البراهين الواضحة على أن القرآن وحي إلٓهي أدخلناها إلى قلوب المشركين العرب حيث فهموا معاني القرآن وأدركوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية ولكنهم لم يؤمنوا بأن القرآن وحي إلٓهي بل استمروا على ما هم عليه من الكفر ﴿لا يُؤْمِنُون بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فسنّة الله فيهم أن لا يؤمنوا بوحدانية الله ويصدقوا برسوله محمد حتى يروا العذاب الأليم يصيبهم، عندئذ لا ينفعهم الإيمان بعد حلول العذاب فيهم ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُم لا يَشْعُرونَ﴾ فيأتيهم العذاب فجأة وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه، عندئذ تنطق شفاههم بالحسرة والندم ﴿فَيَقُولونَ: هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ هل نحن ممهلون ومُؤخَّر عنا العذاب حتى نتوب ونرجع إلى الإيمان بالله وطاعته ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فهذا توبيخ للمشركين على استعجالهم عذاب الله. وكانوا يقولون لرسول الله محمد ﷺ إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟! واستعجالهم للعذاب هو لاعتقادهم أنه غير كائن وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، ولذا تأتي الآية التالية تنفي عنهم اعتقادهم هذا: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ﴾ هل فكرت فعلمت إن متعناهم سنين طوالاً بلذائذ الحياة مع وفور الصحة ورغد العيش ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ثم نزل بهم العذاب الذي وُعدوا به على كفرهم ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُون﴾(١) أي ماذا ينفعهم

---

(١) رُوي أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ ثم يبكي ويقول:

نهـارُك يا مغـرورُ سهـوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نـومٌ والـرَّدى لَـكَ لازمُ
فلا أنت في الأيقاظ يقظانُ حَازمُ ... ولا أنت في النُّوَّام ناجٍ فسـالمُ
تُسَـرُّ بما يفنى وتفـرح بـالمنى ... كما سُرّ باللذات في النوم حالمُ
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

هذا النعيم الذي متعناهم به في الحياة الدنيا، وهل ينفعهم هذا النعيم والتأخير في آجالهم غير ازدياد آثامهم والاستمرار في كفرهم، ومدة التمتع في الدنيا قليلة زائلة ومدة العذاب التي تعقب ذلك في الآخرة طويلة دائمة ولا خير في نعيم قليل يعقبه عذاب دائم.

هذه الآية تقرع آذان الغافلين عن ربهم الذين غرّتهم الحياة الدنيا بشهواتها ولذائذها فاقترفوا في سبيلها الآثام غير عابئين بالموت وما ينتظرهم من حساب في الآخرة، وما أحوج الإنسان إلى تذكيره بهذه الحقيقة مرة بعد مرة في مسيرة العمر ليحاسب نفسه ويفكر في مصيره بعد الموت.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلَّا لَهَا مُنْذِرُون﴾ وسنة الله في الأمم جميعاً أنه لا ينزل الهلاك بأمة إلّا بعد أن يرسل إليها رسلاً ينذرونها عذاب الله على كفرها ﴿ذِكْرَى﴾ أي تذكرة وموعظة على ما فيه النجاة من عذاب الله ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمينَ﴾ وما كان الله ظالماً في تعذيبهم وإهلاكهم وإنما كان عذابهم بسبب كفرهم وعبرة لغيرهم.

هذا ومن الشُّبَه التي أثارها المشركون على القرآن هي أنه من وحي الشياطين حيث كانوا يعتقدون أن الشياطين كانت تنزل بالأخبار على الكهنة العرب. والكاهن عند العرب ليس رجل دين بل كان يدّعي معرفة الأسرار والإطلاع على الغيب للتكسب المادي ولم يكن الكاهن عندهم صاحب دعوة إلى الله، وأن محمداً على زعمهم هذا هو كالكهنة العرب فنفى الله هذا الزعم الباطل وبيّن أن محمداً كان يتلقى الوحي من الله وأنه صاحب دعوة إلى عبادة الله وحده:

﴿وَمَا تَنَزَّلتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنْبَغي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُون. إِنَّهُم عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ. فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذَّبِينَ. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُل إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّل عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذي

يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ في السَاجِدينَ. إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (٢١٠-٢٢٠).

فالله سبحانه يَقُولُ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أي وما نزلت الشياطين بهذا القرآن، بل نزل به جبريل على قلب رسول الله محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنْبَغي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ما يصح وما يستقيم لهم ذلك لأن سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا القرآن هو هُدًى للناس ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إن الشياطين ممنوعون من استراق السمع من السماء، لأن السماء ملئت حرساً من الملائكة وشهباً تنقضّ على من يحاول استراق السمع من الشياطين.

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهَ إلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعَذَّبينَ﴾ أي لا تعبد يا محمد مع الله إلَهاً غيره فينزل بك من العذاب ما نزل بأولئك الذين خالفوا أمره وعبدوا غيره. لقد حذره الله من الشرك وهو أبعد ما يكون عنه ليكون غيره أولى بالحذر منه، وليكون حثًّا له ولغيره على زيادة الإخلاص لله.

﴿وَأَنْذِرْ عَشيرتَكَ الأَقْربينَ﴾ والعشيرة أهل الرجل الذين يتكثّر بهم. أي خَوِّف يا محمد أهلك الأقربين لك من العذاب الذي يستتبعه الإشراك بالله والعصيان لله باقتراف الآثام. وهذا الخطاب الموجه إلى النبي هو موجّه أيضاً إلى الدعاة إلى الله بأن يبدأوا بإرشاد الأقربين لهم في النسب لأنهم أقرب الناس إلى فهمهم وهم أحق أن يعينوهم وينافحوا عنهم، وكل دعوة إلى الله في الأرض تحتاج في مهدها إلى إعانة ونصرة، ومن أحق بالإعانة والنصرة من أهل الداعي؟!

وقد روي أنه لما أنزل الله ﴿وَأَنْذِر عَشيرتَك الأَقرِبينَ﴾ أتى النبي جبل الصفا فصعد عليه ثم نادى: ياصباحاه فاجتمع الناس إليه... فقال: يا بني عبد المطلب يا بني فهر يابني لُؤَيّ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا نعم. قال: فإني

نذير لكم بين يدي عذاب شديد. وبعد أن أمر الله رسوله محمد بإنذار عشيرته الأقربين أمره بالتواضع للمؤمنين: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع يا محمد وَأَلِنْ جانبك لمن صَدّقك واتّبعك من المؤمنين فلا تتكبر عليهم. فخفض الجناح هو استعارة للتواضع ولين الجانب لأن الطائر يخفض جناحيه حين يهمّ بالهبوط على الأرض والهبوط هو خلاف العلو والعلو هو التكبر ولذا قيل عن فرعون المتكبر ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. ولقد كان محمد ﷺ مثالاً للين والتواضع مع قومه مما جعلهم يلتفون حوله ويطيعونه في كل ما يأمرهم به من أمور دينهم.

ثم يبين الله كيف يعامل العصاة من قومه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإذا كان محمد بريئاً من معاصيهم فإن ذلك يوجب أن الله بريء من عملهم.

ثم يبين الله صلة الرعاية التي يخص بها رسوله محمد ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فَوّض أمرك يا محمد إلى من يملك أمرك ويقدر على نفعك وضرك فهو القوي الغالب الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فهو سبحانه يراك حين تقوم للعبادة في الليل أو حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ويرى تصرفك في المصلين بركوعك وسجودك إذا كنت إماماً لهم أو إذا كنت تصلي منفرداً ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنه سبحانه سميع لما تقوله من الأقوال، عليم بما تخفيه من الأمور.

ثم يعود القرآن إلى توضيح ما ذكره سابقاً من أن القرآن ليس من وحي الشياطين:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٢١-٢٢٣).

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك: هل أخبركم على من تنزّل الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثيمٍ﴾ والإفك هو الكذب، والأفّاك هو كثير الكذب، والإثم هو الذنب، والأثيم هو كثير الذنوب، والأفاك الأثيم المقصود به الكاهن عند العرب ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُم كَاذِبونَ﴾ أي يلقون أسماعهم إلى الشياطين فينقلون منهم ظنوناً وأكثرهم كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين. فالكهنة من طبعهم الكذب وهم يعظمون الشياطين، والتصديق بهم جري وراء الأوهام والخرافات، وهم لا يَدْعُون إلى هُدًى ولا يأمرون بمعروف، أما محمد فلم يظهر من أحواله إلّا الصدق والدعوة إلى الله والقيام بعبادته، فكيف يكون حال محمد والكاهن سواء؟!

ثم يأتي ختام السورة وفيها نفي لأن يكون محمد شاعراً، فالمشركون كانوا يقولون عن القرآن أحياناً إنه شعر، ويقولون عن محمد بأنه شاعر، مع العلم أن القرآن لم يلتزم بأوزان الشعر ولم يطرق المواضيع التي كان ينطق بها الشعراء العرب قبل الإسلام من الغزل والهجاء والوقوف على الأطلال، كما أن محمداً قبل النبوة لم ينطق ببيت من الشعر، ولكن هذه التهمة أطلقوها لتكذيبه زوراً وبهتاناً، ولكن القرآن يبيّن لهم حقيقة الشعراء ومسلكهم الذي يختلف عن مسلك محمد جملة وتفصيلاً:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إلَّا الَّذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، وَسَيَعْلَمُ الَّذين ظَلَمُوا أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٤-٢٢٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ﴾ أي أن الشعراء يَتّبعهم ويسلك مسلكهم الضالون عن الحق لا أهل الرشاد والهدى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تر أنهم يهيمون على وجوههم في كل وادٍ من وديان الشعور والتصوّر والخيال وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في

لحظة من اللحظات وتحت تأثير مؤثر من المؤثرات. إنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وهم يفرطون في المدح إذا أُعطوا وفي الذم إذا مُنعوا، وتارة يأتون من المجون ما يمجه الذوق والطبيعة السليمة، وتارة يرغّبون في فعل المحرّمات ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما نسمعه في أشعارهم في مدح الخمر والترغيب بالزنا والتشبيب بالنساء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ وأنهم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها، يرغّبون في الكرم ويعرضون عنه، وينفّرون من البخل ويصرون عليه، ولا يطلبون بشعرهم الحق والصدق، ولذا كان العرب يقولون: أكذب الشعر أعذبه، أو أجمل الشعر أكذبه.

ويقتضي أن لا يفهم من هذه الآيات المتحدثة عن الشعراء بأن الإسلام يحارب الشعر، لا، ولكن يحارب المنهج الذي سار عليه كثير من الشعراء، منهج الركون إلى الأحلام والأوهام والخيالات التي ليس لها وجود في دنيا الواقع، منهج إفساد الناس وإرضاء نزواتهم البهيمية، منهج التعدي على أعراض الناس وكرامتهم.

والشعر باب من الكلام فحسنه حسن، وقبيحه قبح، وروي أن رسول الله ﷺ قال «إن من الشعر لحكمة»، كما روي عن أبي هريرة أنه قال سمعت رسول الله على المنبر يقول: أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل وكـل نعيم لا محـالـة زائـل

كما أن الشعر يكون مرغوباً به في الحكمة والموعظة والدعوة إلى الزهد في الدنيا والتنفير من الركون إليها وعدم الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها. وكذلك من فضائل الشعر نشر محاسن رسول الله ومدحه ومدح آله وصحبه وما أجمل ما قيل في رسول الله وخلفائه الأربعة:

حُبُّ النبيِّ رسـول اللَّه مفتـرض وحب أصحـابـه نُـور ببرهـان
من كـان يعلم أن اللَّه خـالقـه لا يـرمينّ أبـا بكـر ببهتـان
ولا أبـا حفص الفـاروق صـاحبه ولا الخليفـة عثمـان بن عفـان
أمـا علـيٍّ فمشهـور فضـائله والبيـت لا يستـوى إلّا بـأركـان

ثم يستثني القرآن من ذلك الوصف العام للشعراء وأوصافهم الذميمة هذه من تمتع بهذه الأمور الأربعة:

أولاً: ﴿إلَّا الَّذينَ آمَنُوا﴾ فهم الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته فكانت حياتهم مرآة لإيمانهم فلم يقترفوا سيىء الأعمال خيفة من الله.

ثانياً: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾ أي الذين اتجهت كل طاقاتهم إلى عمل الخير واجتناب الشر فلم يسيئوا إلى أحد في أشعارهم.

ثالثاً: ﴿وَذكَرُوا اللَّه كَثِيراً﴾ أي أكثروا من ذكر الله في أشعارهم وأثنوا عليه وحثوا الناس على طاعته والترغيب فيما عنده من الثواب.

رابعاً: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي لم يذكروا هجو أحد إلّا على سبيل الانتصار على من يهجونهم. وفي هذا المعنى ورد في القرآن: ﴿إنَّ اللَّه لا يُحب الجهْرَ بالسُّوء مِنَ الْقَوْلِ إلّا مَنْ ظُلم﴾.

ومن الشعراء الذين حملوا راية الدفاع عن الإسلام وعن رسول الله محمد بشعرهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وقد روي عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له: «أهجهم ـ أي الكفار ـ فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل».

وتُختتم السورة بالوعيد الشديد للظالمين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذين ظَلَمُوا أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبونَ﴾ أي سيعلم الذين ظلموا أنفسهم بجعل شريك لله وتعدوا على عباد الله بالظلم أي مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم فإن مصيرهم إلى عذاب النار.

سُورَةُ النَّمْلِ

سُمّيت هذه السورة بسورة النمل لأن الله ذَكَرَ فيها كلام النملة إلى بني جنسها بالدخول إلى مساكنهم خوفاً من أن يدوسهم سليمان وجنده بأرجلهم، وقد فهم سليمان كلام النملة بما أعطاه الله من معجزة خارقة لإدراك وفهم كلام النمل ومنطق الطير.

وهذه السورة تذكر جانباً من قصة موسى عليه السلام حيث خصّه الله برسالته إلى فرعون وتأييده بالمعجزات، ولكن فرعون وقومه جحدوا رسالته وأصروا على طغيانهم فحاق بهم الهلاك.

وتذكر السورة أحوال مملكة سبأ وعبادة أهلها للشمس ووصول هذه الأخبار إلى سليمان بواسطة الهدهد، ثم ما كان من إرسال سليمان بكتاب إلى ملكة سبأ وما جرى بعد ذلك من أحداث مثيرة منها معجزة إحضار عرشها من اليمن إلى قصر سليمان بسرعة لا تخطر ببال بشر، ثم مجيئها وأشراف قومها إلى سليمان حيث أعلنت إسلامها وخضوعها لرب العالمين.

وفي السورة الكلام عن قوم ثمود وما حلّ بهم من هلاك جزاء كفرهم ومكرهم بنبيهم صالح، والكلام أيضاً عن قوم نبي الله لوط حيث حلَّ بهم عذاب الله جزاء اقترافهم الشذوذ الجنسي وعصيانهم أوامر ربهم.

وتذكر السورة الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الله وانتفاء شريك له وتبين أن القرآن فيه القول الفصل لكل ما اختلف فيه بنو اسرائيل من أمور الدين. كما تذكر السورة بعض أمارات يوم القيامة حيث يؤنب الكفار على تكذيبهم بآيات الله.

سُورَةُ النَّمل

آياتها ٩٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦
إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم
بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن
فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ

شرح المفردات

يُوقِنُون: يعلمون علماً راسخاً خالياً من الشكوك والشُّبَه.

زيَّنَّا لهم أعمالهم: جعلنا أعمالهم السيئة حسنة في نظرهم.

يعمهون: يتحيرون ويترددون في ضلالتهم.

لَتُلَقَّى القرآن: ليتنزل عليك القرآن.

مِنْ لَدُنْ: من عند.

آنَسْتُ نَاراً: أحسست وأبصرت ناراً.

آتيكم بشهاب قبس: آتيكم بشعلة نار اقتبسها منها.

تَصْطَلُون: تستدفئون.

أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى
تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا
جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا
وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

شَرح المفردات

جَانٌّ: ضرب من الحيات العظام السريعة الحركة.

وَلَّى مُدْبِراً: جعل ظهره للحيّة وجرى خائفاً (ولّى هارباً).

ولم يُعَقِّب: ولم يرجع.

جيبك: فتحة القميص حيث يدخل الرأس (طوق القميص).

بيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوء: ذات شعاع كالشمس من غير برص.

في تسع آيات: في تسع معجزات.

جحدوا بها: أنكروها.

استيقنتها أنفسهم: علمتها أنفسهم علماً يقينيًا.

سُورَةُ النَّمْلِ

ايضاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالتنويه بأهمِّية القرآن الكريم ومنزلته، وما فيه من هداية للمؤمنين مع الوعيد للكافرين:

﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُبينٍ. هُدًى وَبُشْرَى لِلمُؤمِنينَ. الَّذِينَ يُقِيمُون الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُم في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (١ ـ ٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿طسٓ[١] تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ﴾ تلك: اسم إشارة للبعيد وللمرتفع حسيًّا ومعنويًّا والإشارة بها إلى آيات القرآن لبيان بُعْدِ منزلة القرآن في الفضل والشرف. والقرآن اسم للكتاب المنزل من الله على محمد، وهو مشتق من القرء وهو الجمع، وسمي الكلام المنزل على محمد قرآناً لكونه جامعاً لثمرة كتب الله بل لجمعه ثمرة جميع العلوم ﴿وَكِتَابٍ مُبينٍ﴾ والمراد به القرآن وهو معطوف على القرآن وتنكيره للتعظيم. وهو مبين: أي واضح يظهر لمن تدبره وفكر فيه بعقل نيِّر أنه من

---

(١) طسم: قيل في هذه الأحرف إنها قسم أقسمه الله وأنها اسم من أسماء الله، وقيل اسم من أسماء القرآن. وقيل إنها أسماء حروف يتركب منها الكلام افتتحت بها بعض السور إيقاظاً لمن تحداهم الله بالقرآن، وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم ممن ينظمون به كلامهم فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن. وقيل إن هذه الأحرف سرٌّ استأثر الله بعلمه. وقيل المراد بهذه الأحرف تنبيه القارىء للاستماع للقرآن، فقد كان بعض العرب يميلون وينصرفون عند استماعهم للقرآن فلما نزلت هذه الأحرف التي تتصدر بعض السور صدمتهم هذه الألفاظ وتاقت أنفسهم إلى معرفة ما يتلوه رسول الله من القرآن والوقوف على معانيه وأغراضه فلما أنصتوا أقبل عليهم رسول الله يتلو عليهم القرآن.

عند الله ﴿هُدًى وَبُشْرَى للمُؤمِنينَ﴾ فالقرآن هو إرشاد للمؤمنين إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وهو بشرى للمؤمنين يبشرهم بالثواب الجزيل يوم القيامة إذا ساروا على درب الهدى. وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة سافرة وهي أن القرآن ليس كتاب علم نظري ولا كتاب تسلية، إنما القرآن كتاب هداية يخاطب القلب، وكلما كان القلب مشبعاً بالإيمان بالله وبأن القرآن وحي منه زاد تذوقه لحلاوة القرآن وزاد تأثيره في النفس، بينما المنكر لوجود الله، والمنكر بأن القرآن وحي منه لا ينتفع به ولا يذوق حلاوته، ولا يستشعر به البشرى التي وعد الله بها عباده الصالحين يوم القيامة.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُون الصَّلاة﴾ فالمؤمنون من صفاتهم إقامة الصلاة، والصلاة هي المظهر الأول لعبادة الإنسان لخالقه لما تحتويه الصلاة من تقديس لله وتنزيهه عن صفات النقص، والثناء عليه والشكر له، ومن تلاوة للقرآن، ومن ركوع وسجود له ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ كما أن من صفات المؤمنين إعطاء الزكاة وهي الصدقة المفروضة على المستحقين من عباد الله ﴿ وَهُم بالآخِرَةِ هُمْ يُوقُنونَ﴾ واليقين: هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك، أي يؤمنون إيماناً جازماً لا ريب فيه بأن هناك حياة أخرى يوم القيامة، حيث يجازي الله الناس على أعمالهم إنْ خيراً فخير، وإنْ شرًّا فشر، والإيمان بالآخرة يحول بين الإنسان وبين اقتراف الشرور خوفاً من عقاب الله، والذي لا يعتقد بوجوب الآخرة لا يرعوي عن شر أو سوء ﴿إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ﴾ أي إن الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء على الأعمال بعد الممات ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ﴾ حبّبنا إليهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة وذلك جزاء على كفرهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُون﴾ فهم في ضلال أعمالهم يترددون حيارى يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذّ لها ولو كان في ذلك إضرار للنفس أو المجتمع، ولا يلجمها

عن ذلك إلّا الاهتداء بهدى الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِين لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾ من عذاب مادّي أو نفسي يصيبهم في الدنيا ﴿وَهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ وهم يوم القيامة هم الخاسرون بما يقاسونه من عذاب النار.

ثم يبين الله دليلاً على صدق نبوة محمد وهو الأمي الذي لم يتلقَّ العلم من أحد، ولكنه جاء بأنباء الأمم الماضية بواسطة الوحي الإلّهي، ومن هذه الأنباء قصة رسول الله موسى مع قوم فرعون:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَليمٍ. إذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إنِّي آنَسْتُ نَاراً سآتِيكُم مِنْهَا بَخَبَرٍ أَوْ آتيكم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِي أنْ بُورِكَ مَن في النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمينَ. يا موسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (٦-٩).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً: ﴿وَإِنَّك لَتُلَقَّى القُرآنَ﴾ أي وإنك لتتلقى القرآن وينزل عليك ﴿مِنْ لَدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند الله الحكيم بتدبير خلقه وإيجاده للأشياء على غاية الإحكام، العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والعليم بأخبار الأمم الماضية.

واللافت للنظر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ﴾ هو التأكيد على ذلك بأنّ واللام الداخلة على «تلقى» وذلك أن العرب في بدء الإسلام كان أكثرهم يشكّ في أن القرآن وحي إلّهي؛ ولكن بعد توالي نزوله عليهم والتمعن في آياته والتفكر فيها آمن أكثرهم عن اقتناع بأنه كلام الله لأنهم رأوا فيه كلاماً فصيحاً لا يشبه أساليبهم في الكلام، فهو ينقض معتقداتهم الباطلة ويدعوهم إلى عبادة الله وحده والتحلي بمكارم الأخلاق، ويسنّ لهم التشريعات العادلة، ويقضي على المنازعات بينهم حتى أنهم في فترة قصيرة أصبحوا أمة موحدة تتحلى بالقيم السامية، بعد أن كانوا قبائل

متناحرة يشيع فيها الظلم والفساد والعدوان على حقوق الضعفاء.

والقضية ذاتها تطرح على أتباع الديانات الأخرى ليدرسوا القرآن دراسة مجردة فسيظهر لهم أن القرآن كلام الله حقًّا فيه الهدى للناس جميعاً.

ثم يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ أي واذكر حين قال موسى لأهله وهو في سيناء حيث كان متوجهاً بهم إلى مصر وقد آذاهم برد الليل وضلوا طريقهم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ إني أبصرت ورأيت ناراً ﴿سَآتيكم مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ سآتيكم من أصحابها بخبر عن الطريق ﴿أو آتيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أو آتيكم بشعلة نارٍ أقتبسها من أصلها ﴿لَعَلكَّم تَصْطَلُونَ﴾ كي تستدفئوا بها من البرد ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ من في النَّارِ﴾ فلما وصل موسى إلى النار رآها نوراً تتوهج ـ وهي نور رب العالمين ـ فأسمعه الله تعالى كلامه من ناحيتها بأن ناداه: قُدِّس وبُورك من في النار، أي نور الله تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومن حول النار وهو موسى عليه السلام والملائكة ﴿وسُبْحَانَ الله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وتقدّس الله وتنزّه عن كل سوء وعما يصفه به الظالمون من نقص في ربوبيته وعن مماثلته لشيء ما(١).

ولنرجع إلى كلمة (بُورك). وأصل البركة ثبوت الخير الإلٓهي في الشيء. والخير هنا تكليم الله لموسى وإرساله إلى فرعون وتأييده بالمعجزات التي تثبت أنه رسول الله حقًّا.

والمكان الذي ناداه الله به هو البقعة المباركة المذكورة في قوله

---

(١) من البشارات التي وردت في التوراة بإنزال الوحي الإلٓهي على محمد ﷺ ما ورد في سفر تثنية الاشتراع: «أقبل الرب من سيناء. وأشرق لهم من سِعير. وسطع من جبل فاران».
فإقباله له من سيناء بعثة موسى منها رسولاً؛ وإشراقه من سِعير بعثة المسيح منها؛ وسطوعه من فاران بعثة محمد ﷺ وفاران كما هو مشهور في التوراة جبل من جبال مكة.

تعالى: ﴿نُودي مِنْ شاطِىء الوادي الأيْمَن في البُقْعَةِ المبَارَكَة﴾ أما قوله تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فقد يراد به أيضاً أرض الشام المعروفة بسوريا وفلسطين والموصوفة في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إلى الأَرْض التي بَارَكْنَا فِيهَا للعَالَمِين﴾ وحُقَّت أن تكون مباركة فهي مبعث الأنبياء ومهبط الوحي والتي ضمت الأنبياء أحياء وأمواتاً، وابتداء نداء الله لموسى بذلك المكان بشارة له بأنه قد قضى الله أمراً عظيماً بأن تنتشر البركة في أرض الشام كلها.

ومما سمعه موسى من النداء: ﴿يَا مُوسَى إِنَّه أَنَا اللَّهُ العَزيز الحكَيم﴾ قد يكون هذا القول جواباً لموسى حيث قال من الذي ناداني، فأجابه الله: إنه أنا الله القوي الغالب لأعدائه، الحكيم في تدبير أمور خلقه.

ويتابع القرآن فيذكر المعجزات التي أيد الله بها رسوله موسى:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَأَدْخِل يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سوءٍ في تِسْعِ آيَاتٍ إلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالوا هَذَا سِحْرٌ مُبينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠-١٤).

فالله سبحانه يخاطب موسى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ في الكلام هنا حذف للإيجاز وهو: فألقى عصاه فصارت حية تتحرك حركة شديدة فلما رآها على هذه الصفة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ كأنها حية عظيمة سريعة الحركة ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ انطلق موسى هارباً خوفاً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع ويلتفت لخوف أصابه، فناداه الله: ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنَّهُ لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُون﴾ أي لا تخف من هذه الحية لأنه لا يخاف عندي الرُّسُل

الذين خصصتُهم بالرسالة الإلّهية ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّل حُسْناً بَعْدَ سُوء﴾ أي لكن من ظلم من سائر عباد الله فإنه يخاف عاقبة ظلمه، إلَّا إذا تاب وبدَّل عمله السيِّىء بالعمل الصالح ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإني عظيم المغفرة، واسع الرحمة. وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين، وذلك أن من كان على عمل سيِّء ثم أقلع عن ذنبه، ورجع إلى الله تائباً طالباً الغفران من الله فإن الله يغفر له ذنوبه كما قال سبحانه: ﴿وَإِني لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتدى﴾.

وقد يكون في الآية تعريض لطيف بما حصل من موسى من ظلم حيث وكز (لكم) القبطي فكان وكزه سبباً في مقتله، ثم ندم موسى على فعلته غير المقصودة، وطلب الغفران من ربه فغفر له.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جيبك﴾ أي أدخل يدك اليمنى في فتحة قميصك عند أعلى الصدر واجعلها تحت عضدك[١] الأيسر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تخرج اليد بيضاء مُشِعّة كشعاع الشمس من غير مرض أو برص بينما التوراة وصفت يد موسى بالبرص[٢] ﴿في تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان: العصا واليد، هما ضمن تسع[٣]

---

(١) العضد: ما بين المرفق إلى الكتف.

(٢) جاء في سفر الخروج ٤: ٦ «أدخل يدك في عبِّك، فأدخلها في عبِّه ثم أخرجها فإذا يده برصاء كالثلج» ولكن متى كان البرص وهو مرض مخيف منفِّر يتخذه الله معجزة لرسله، وهل الغاية من معجزات الله إلّا الترغيب والتشجيع على الإقناع بدين الله، ونتساءل هل في البرص ما يشجع على الإيمان، لا، ليس فيه إلا التنفير والبعد عن الإقناع، ولا شك أن في هذا التعبير خطأً وهو نتيجة التحريفات التي أُدخلت على كتاب الله. بينما القرآن كنّى عن البرص بالسوء، ووصف معجزة موسى وهي اليد بأنها من غير سوء أي من غير برص.

(٣) بقية المعجزات هي: الجراد، والقمَّل، والضفادع، والطوفان، والدم، والحجر، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم بأن أهلكها الله وأذهب آثارها ومحاها.

معجزات أيدتك بها، وجعلتها برهاناً على أنك رسول من عندي إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ إن قوم فرعون خارجون عن طاعة الله ممعنون في الكفر والضلال.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُم آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ فلما جاءت فرعون وقومه معجزات الله الواضحة الظاهرة الدالة على صدق نبوة موسى ﴿قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قالوا إنها سحر واضح ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا هذه المعجزات ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي علمتها أنفسهم علماً يقينيًّا بأنها ليست من السحر ﴿ظُلْماً﴾ تعدياً على الحق حيث أنزلوها عن رتبتها وسموها سحراً ﴿وَعُلُوًّا﴾ وترفعاً واستكباراً عن الإيمان ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فانظر يا محمد نظرة تأمل واعتبار كيف كان مصير هؤلاء الذين كذبوا بمعجزات الله وما حلّ بهم من جراء إفسادهم في الأرض، ومعصيتهم لله، أن أهلكهم في الدنيا بإغراقهم في البحر وهم في الآخرة في عذاب النار. وفحوى الآية كأنها تقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من الوحي من عند ربه أن يصيبكم مثل ما أصاب فرعون وقومه إذا أنتم أصررتم على كفركم.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعَلوًّا﴾ هذه طبيعة كثير من الناس يرون الحقيقة ساطعة واضحة، ولكن جذور الكبرياء المتغلغلة في نفوسهم والظلم المترسخ بهم يحول بينهم وبين الإقرار بالحق والقبول به. وكذلك كان كبراء قريش من العرب يستقبلون القرآن، فهم أيقنوا أنه الحق، ولكنهم كانوا يجحدونه ظلماً وتكبراً، لأنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم الوثنية، لما فيها من مغانم دنيوية لهم، ومن جاه تسبغه عليهم لأنهم كانوا القيمين على معبد الأوثان والأصنام والإسلام جاء للقضاء على عبادتها.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى
عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ
كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

شـرح المفـردات

مَنْطِقَ الطير: لغة الطير.

يُوزَعُون: يكف أوائلهم عن المسير بانتظار أن يلحق بهم المتأخرون ليجتمع الشمل.

لا يَحْطِمنَّكُم: أي لا تمكثوا حيث أنتم فيهلككم جنود سليمان، والحَطْمُ: كسر الشيء.

أوزعني: ألهمني ووفقني.

تَفقَّد الطيْرَ: بحث عن جماعة الطير ما غاب منها وما حضر.

بِسُلْطان مُبين: بحجة ظاهرة واضحة.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعيد: فأقام في غيبته وقتاً غير طويل.

أحَطْتُ بِمَا لم تُحِطْ به: علمت ما لم تعلمه من الأمر.

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾
۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى
هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

عرش: سرير الملك.

زَيَّن لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمَالَهم: أغواهم الشيطان وحبب إليهم عبادة الشمس.

فَصَدَّهُم عَنِ السَّبيل: فصرفهم عن طريق الحق والهدى، وهو دين الله.

يُخرج الخبء: يظهر المخبوء والمستور من النبات والمطر.

تَوَلَّ عنهم: تنحَّ عنهم قليلاً.

يرجعون: يرد ويجيب بالقول بعضهم على بعض.

الملأ: أشراف القوم وخاصة الملك.

تـابع سُورَة النَّـمْل

ثم ينتقل القرآن بنا إلى الكلام عن النبي سليمان وما خصه الله به من فهم لغة الطير:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ للَّهِ الذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤمنين. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاودَ وَقَالَ يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتينَا مِنْ كُلِّ شَيء إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ (١٥-١٦).

فالله سبحانه أعطى داود وسليمان علماً بالدين والشرائع والأحكام، وغير ذلك من العلوم التي اختص بها كلًّا منهما ﴿وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤْمنين﴾ لقد أثنيا على الله بما أنعم عليهما من العلم، وفي هذه الآية إشارة واضحة على فضل العلم وشرف أهله، وتنبيه للعلماء على أن يحمدوا الله على ما آتاهم من فضله، ويستشعروا أن منزلة العلم لا يوازيها شيء من النِّعَم. ثم إن هذين النبيَّيْن لم يفضِّلا أنفسهما على كل الناس وذلك يدل على حسن تواضعهما، وأن من الناس من هو مفضل عليهما ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاودَ﴾ أي وورث سليمان أباه في الملك والنبوة دون سائر أبنائه ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي وقال سليمان متحدثاً بنعمة الله عليه: يا أيها الناس قد أكرمني الله فعلمني لسان الطير، وهذه معجزة لسليمان لم يعطها الله لأحد من البشر، وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن لكل جنس من الطير طريقة خاصة يتفاهم بها أفرادها، منها: اللمس، ومنها الصوت، ومنها الإشارة ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيء﴾ وأعطاني الله من كل شيء من خيرات الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المبينُ﴾ أي إن ما خصني الله به هو الفضل الواضح الجلي، قال سليمان ذلك على سبيل الشكر لربه، لا على سبيل الاختيال والكبر.

وبالإضافة إلى فهم سليمان لسان الطير فقد خصّه الله بفهم لسان

النمل كما سخر الله الجن لخدمته:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إذا أَتَوْا عَلَى وَادي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يحطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْني أنْ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحينَ﴾ (١٧-١٩).

فالله سبحانه يقول: بأنه جُمِعَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسير لهم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي تحبس صفوفهم الأولى وتمنع من السير حتى يلحقهم أواخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد لكثرتهم ﴿حَتَّى إذَا أَتَوْا عَلَى وَادي النَّمْلِ﴾ أي حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَة: يَا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها: ادخلوا بيوتكم[1] قالت ذلك لما رأت جيش سليمان الكبير ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ أي من عدل سليمان وفضله، وفضل جنوده بأن لا يحطموا ويهلكوا نملة فما فوقها من مخلوقات الله الحية غير المؤذية إلاّ وهم لا

---

(١) يتضح من هذه الآية أن النمل يعيش في جماعات وأن من خصائصه اليقظة والحذر وقد عرف عن النمل أن له مجتمعاً منظماً وأنه على قدر كبير من الذكاء وحب العمل والمثابرة. ومجتمع النمل هو الوحيد بين االمخلوقات الحية بعد الإنسان الذي يقوم بدفن موتاه. ومن مظاهر مجتمع النمل المترابط قيامه بمشروعات جماعية مثل إقامة الطرق الطويلة. ولأعضاء مجتمع النمل في جمع المواد الغذائية وحملها وتخزينها والمحافظة عليها طرق فريدة في نوعها فإذا لم تستطع النملة حمل ما جمعته في فمها كعادتها لكبر حجمه حرّكته بأرجلها الخلفية ورفعته بذراعيها. ومن عادتها أن تقضم الجذور وتفلق بعض الحبوب قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى وتجزىء البذور الكبيرة لكي يسهل عليها إدخالها في مستودعاتها. وإذا ما ابتلت بفعل المطر أخرجتها إلى الهواء والشمس لتجف.

يشعرون. فالنملة بما ألهمها الله أثنت على سليمان، ونفت عنه الظلم وأخبرت رفيقاتها بأن سليمان وجنوده يتحرزون عن أن يدوسوهم عمداً بأقدامهم.

سمع سليمان قول النملة بما خصه الله من معجزة ذات شقين، أولاً: سماعه لصوت النملة الذي هو في منتهى الخفوت، وثانياً: فهمه لما يعنيه صوتها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً﴾ أي تبسم إلى حد الشروع في الضحك، داعياً ربه قائلاً: ﴿ربِّ أَوْزِعْني أن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ﴾ أي ربِّ ألهمني واجعلني أقوم بواجب شكرك على نعمائك التي أنعمتها عليَّ وعلى والديَّ، وفي الإشارة إلى والديه اعتراف منه بأن انتساب الابن إلى أب شريف صالح نعمة من الله على الابن ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ﴾ ووفقني لعمل الخير الذي ترضاه ويقربني منك ﴿وَأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحينَ﴾ وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين، والصالح من عباد الله هو الذي لا يعصي الله ولا يهمّ بمعصية.

فأول طلب طلبه سليمان في دعائه هو أن يلهمه الله الشكر على نعمائه، والشكور من عباد الله هو الذي يثني على ربه بلسانه بما أولاه إياه من الإحسان مع المحبة والامتنان له. ويبذل غاية وسعه في طاعته وأداء ما كلّفه به من عبادته فلا يتخذ نِعَمَ الله عليه وسيلة للمعصية والإضرار بالناس. فالشكر هو أول واجب يقوم به الإنسان لخالقه على نعمه التي لا تحصى، ولا يغفل عن نِعَمِ الله ولا يؤدي شكرها إلّا إنسان عقوق للإحسان كفور بالنعمة جحود لفضل الله عليه.

فهذا الدعاء الذي ذكره القرآن على لسان سليمان هو أمثولة للمؤمنين ودعوة لهم ليدعوا ربهم بهذا الدعاء أو بمثله، والدعاء هو الرغبة في الحصول على شيء ما، فبمجرد رغبة المؤمنين بالحصول على هذه

الخصال الكريمة التي اشتمل عليها هذا الدعاء هو إيحاءٌ لهم، وحفزٌ لهم للقيام بما دعوا به ربهم.

ولما كان سليمان خصه الله بفهم لسان الطير فهنا يذكر القرآن لنا ما أخبر به الهدهد سليمان من أنباء عن مملكة سبأ:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ: مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأ بِنَبإٍ يَقينٍ. إنِّي وَجَدْتُ آمْرَأَةً تَمْلِكُهُم وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٠-٢٣).

فسليمان ﴿تَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتَفَقُّدُه للطير هو تطلب ما غاب عنه منها، وتعرُّف أحوالها، وكانت الطير تصحبه في سفره، وتظلله من حر الشمس بأجنحتها. ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبينَ﴾ أي أأخطأه بصري فلم أره أم غاب فلم يحضر دون إذن بالغياب ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ فلما أخبر سليمان بأن الهدهد لم يحضر أقسم بأنه سيعذبه عذاباً شديداً، وكان تعذيبه للطير أن ينتف ريشها أو أجنحتها ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ أو لأقتلنه ﴿أوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبينٍ﴾ أو ليأتيني بحجة واضحة أو عذر أعذُره فيه ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فمكث الهدهد غائباً زمناً غير طويل ثم حضر ﴿فقَالَ: أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي قال الهدهد لسليمان بعد أن عوتب على غيابه: علمت بما لم تعلمه من الأمر، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبَإٍ يَقينٍ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ بخبر مؤكد ذي شأن، فسليمان خفي عليه ما علمه الهدهد ذلك الطائر الضعيف الذي تحدى سليمان بقوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ الذي فيه من التحدي له ولعلمه الشيء الكثير، وفي هذا درس بالغ، لأن الإنسان مهما بلغ من العلم فلا بُدَّ أن يجد في أضعف خلق الله من يفوقه علماً في ناحية

ما من نواحي المعرفة.

وتابع الهدهد قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امرأة تَمْلِكُهُم﴾ أي إني وجدت مملكة سبأ تحكمها ملكة، وهذا الخبر غريب لأن الممالك يحكمها الرجال عادة، وهذه الملكة: ﴿وَأُوتِيَت مِنْ كُلِّ شَيءٍ﴾ أي قد أُعطيت من كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ والعرش سرير أو كرسي الملك وسمي بذلك لأنه كان عظيماً في حجمه محلًّى بالذهب والفضة مرصعاً بالأحجار الكريمة.

وتابع الهدهد حديثه مع سليمان مخبراً له ما شاهده من عبادة مملكة سبأ للشمس:

﴿وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا للَّهِ الَّذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ في السَّموات وَالأرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللهُ لا إِلَه إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ العَظِيمِ﴾ (٢٤-٢٦).

لقد قال الهدهد لسليمان: لقد وجدت ملكة سبأ وشعبها يسجدون للشمس[١] فيعبدونها متجاوزين عبادة الله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهُم﴾ أي وحسَّن لهم إبليس عبادتهم للشمس وسجودهم لها وحبَّبَ ذلك إليهم

---

(١) يسجدون للشمس: أما أن السبئيين كانوا يعبدون الشمس فذلك ما كشفت عنه الدراسات العلمية وأثبتت صحته، فمن الآلهة المعروفة عند السبئيين: (عثتر) و (المقه) و (هبس) و (ذات حميم) و (ذات بعدان) فعثتر هو ولد الشمس التي يطلق عليها (أم عثتر) وهي تعتبر آلهة البركة والخصب والحبل. و (ذات حميم) معناها ذات الأشعة التي تشبه الحميم. و (ذات بعدان) أي ذات البعد وقصد بها الشمس حيث تكون بعيدة عن الأرض (تاريخ العرب قبل الإسلام تأليف الدكتور جواد علي جـ٢ و جـ٥) وهذا سَبْق علمي للقرآن يضاف إلى جملة معجزاته في كشف الحقائق التي كانت خافية عن الناس.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فصرفهم الشيطان عن طرق الهداية والخير ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ فهم في ضلالهم يتيهون لا يهتدون إلى الحق ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾(١) أي وحبَّب لهم الشيطان أعمالهم لئلّا يسجدوا لله ﴿الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السَّموات والأَرْضِ﴾ الذي يظهر ما هو مخفي ومستور في السموات من مطر وما في الأرض من نبات، كما يظهر المخفي من أسرار الكائنات التي يهدي إلى كشفها من يشاء من عباده ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم الله سبحانه السرّ من أمور خلقه وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم ﴿الله لا إله إلَّا هُوَ﴾ الله الذي لا تصلح العبادة إلّا له، فهو لا إله غيره فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالطاعة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ العَظِيمِ﴾ مالك العرش العظيم الذي يتعالى عرشه عن كل عرش في الأرض ولا شبيه له، وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلَّا بالاسم وهو أعظم المخلوقات.

ويتابع القرآن فيذكر رسالة سليمان إلى ملكة سبأ وَوَقْع هذه الرسالة عليها وعلى شعبها:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ. اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَولَّ عَنهُمْ فَانْظُر مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّها الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُوني مُسْلِمِينَ﴾ (٢٧-٣١).

فسليمان خاطب الهدهد بعد أن زوَّده بأخبار مملكة سبأ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبينَ﴾ أي سنتحرى ما أخبرتنا به ونعرف

---

(١) (ألا يسجدوا لله) هذه الجملة في موقع مفعول به لكلمة (وزين) أي وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله. و (ألّا) بالتشديد مكونة من «أن» و «لا» وقد تكون «لا» زائدة والجملة في موقع المفعول به لكلمة «يهتدون» بمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا لله.

حقيقته أأنت صادق فيه أم أنت كاذب ﴿اذْهَب بِكتَابي هَذَا فَأَلْقِه إلَيْهِم﴾ أي اذهب بهذه الرسالة فألقها إلى أهل سبأ ﴿ثُمَّ تَولَّ عَنْهُم فَانْظُر مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ثم بعد إلقاء الرسالة تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه لتعرف ماذا يقول بعضهم لبعض، وماذا يتبادلون الرأي.

ولم يذكر القرآن تفاصيل إلقاء الرسالة وكيف عثرت عليها ملكة سبأ ولكن الآيات تنقلنا إلى وصف الحوار بين ملكة سبأ وأشراف قومها ﴿قَالَتْ: يَا أَيُّهَا الملأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفت الرسالة بهذا الوصف لاشتمالها على كلام حسن ولما تضمنته من لين الكلام والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله ﴿إِنَّه مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ﴾ وهذا الكتاب مُرْسَلٌ من سليمان ومفتتح بالتسمية التي هي إثبات لوحدانية الله وكونه رحماناً رحيماً ﴿ألَّا تَعْلُوا عليَّ﴾ أن لا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه ﴿وَأْتُوني مُسْلِمِينَ﴾ وأقبلوا عليَّ مؤمنين مذعنين لله بالوحدانية والطاعة.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾
قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟
أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ
بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾
ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً
وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ
وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ

شرح المفردات

أفتوني: أشيروا عليَّ.

مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمراً: لا أنفذ حكماً، ولا أبرم أمراً.

تَشْهَدُونِ: تحضروني.

أُولو بَأسٍ شديد: أصحاب شدة في الحرب.

لا قِبَلَ لَهُم بِهَا: لا طاقة لهم بمقاومتها.

صَاغِرُونَ: مهانون محتقرون أذلاء.

عِفْرِيتٌ من الجنّ: شيطان مارد قوي.

قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ: قبل أن تنصرف من مجلسك.

قَبْل أن يَرْتَدّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ: ما يصل إليك من الرؤية قبل تحريك أجفانك.

مُسْتَقِرًّا: ثابتاً عنده ومستقراً أمامه.

هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا
عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا
جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا
وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ
مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ
لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ
رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

ليبلوني: ليختبرني ويمتحني.

نَكِّروا لها عرشها: غيروه إلى حال أخرى فتنكره إذا رأته.

الصرح: القصر.

حسبته لُجَّةً: ظنته وخيل إليها أنه ماء غزير.

مُمَرَّدٌ من قَوَارِيرَ: مستوٍ مملسٌ من زجاج شَفّاف.

تَابع سُورَةِ النَّمْل

ويتابع القرآن فيذكر وقع رسالة سليمان على ملكة سبأ وشعبها وما تداولوا في شأنها:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا: نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الملوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٢-٣٥).

لقد قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليَّ وبيّنوا لي الصواب في أمر رسالة سليمان ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما كنت مبرمة أمراً حتى تحضروا عندي وتشيروا عليَّ.

هذا هو الحكم الحصيف القائم على مبدأ الشورى وعدم الاستبداد بالحكم. ذكره القرآن على لسان ملكة سبأ ليكون أمثولة لحكام الدول في كافة العصور. فالشورى دعامة من دعائم الحكم الصالح يجلب الخير للأمة ويجنبها الأضرار التي يمكن أن تصدر عن أهواء قادتها ومطامعهم وغاياتهم الشخصية، فالحكم القائم على مبدأ الشورى أثبت صلاحيته لخير الأمم، فرأي الجماعة أرجح وأصوب من رأي الفرد، وَعُقُول مجتمعة أنفع من عقل واحد، فمبدأ الشورى قررته ملكة سبأ، وألزمت به نفسها، كما نَوَّه الإسلام بمبدأ الشورى ودعا إلى الأَخذ به، ففي القرآن يخاطب الله رسوله محمداً: ﴿وَشَاوِرْهُم فِي الأَمْرِ﴾ ويثني الله على المؤمنين الذين من صفاتهم ﴿وَأَمْرُهُم شُورى بَيْنَهم﴾.

وبعد أن طلبت بلقيس المشورة من أشراف قومها أجابوها: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوْةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن أصحاب قوة وشدة في الحرب

وكثرة في الرجال والعتاد ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي وأمرنا إليك فتأملي ماذا تأمريننا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون لك. فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها قالت هذه الكلمة الموجزة التي نرى مصداقيتها في كافة العصور: ﴿إِنَّ الملوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي خربوا مبانيها ونهبوا أموالها وفرّقوا أهلها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وأهانُوا أَشرافها وأَمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وحبساً ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير. إن قول ملكة سبأ هذا ينبىء عن حصافة عقلها وتبصرها بالعواقب الوخيمة التي تجلبها الحروب. ثم أوضحت وجه الرأي عندها بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي إني سأبعث لسليمان وقومه بهدية وأنظر فيما يرجع به رسلي من الخبر هل يقبل الهدية منا ويكفّ عنا أو يفرض علينا ضريبة نحملها إليه في كل عام ونلتزم له بذلك.

ثم يذكر القرآن جواب سليمان على الهدية التي أرسلتها ملكة سبأ إليه:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ. ارْجِعْ إِلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٦-٣٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُليمانَ﴾ في الكلام هنا حذف، أي فأرسلت بلقيس الهدية إلى سليمان فلما جاء رسول بلقيس ومن معه بالهدية إلى سليمان ﴿قَالَ: أَتُمِدُّونني بِمَالٍ﴾ أي قَالَ سُليمان عَلَى سِبيلِ الإِنكار: أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مَمَّا آتَاكُم﴾ فَمَا أعطاني الله، من النبوة والهداية والملك العظيم، خير ممَّا أعطاكم الله من المال ﴿بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ﴾ بل أنتم تفرحون بما يُهدى إليكم فرح افتخار وخيلاء لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها.

وقفة عند قول سليمان: ﴿فَمَا آتاني اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكم﴾ كلمة قالها لتكون قدوة من بعده يقولها كل مصلح وكل زعيم وكل قاضٍ عندما يعرض أهل الباطل عليهم رشوة للسكوت عن ظلمهم وفسادهم في الأرض، فهدية بلقيس ما هي في الحقيقة إلّا رشوة أَرادت بها التأثير على سليمان لتركها وشأنها في مملكتها والإغضاء عما كانت تقوم به وقومها من عبادة الشمس. ثم خاطب سليمان رسول بلقيس: ﴿اِرْجِعْ إِلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي ارجع إلى قومك حاملاً معك الهدايا فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ولنخرجهم من أرضهم أذلاء مُهانين مُستعبَدين.

أُخبرت بلقيس بما جرى لرسولها عند سليمان فأيقنت أنه نبي لأن من عادة الملوك أن يرضوا بالهدايا والجزية، فلما رفض الهدية أصلاً ولم يطلب المزيد من المال فهذا موقف لا يقفه ملوك الأرض، ثم أرسلت إليه من يخبره بأنها قادمة إليه مع أشراف قومها لينظروا في ما يدعو إليه من دين الله ثم غادرت مملكتها بعد أن استوثقت من الحراسة على عرشها.

ويتابع القرآن فيذكر معجزة إحضار عرش بلقيس إلى سليمان بسرعة متناهية:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُم يَأْتِيني بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسْلِمينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِني عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذي عِنْده عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَني أَأَشْكُرُ أم أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٣٨-٤٠).

عرف سليمان بمسيرة بلقيس إليه فأراد أن يُريها بعض ما خصه الله به من معجزات ليكون ذلك دليلاً على نبوته، فقال لمن حوله من الإنس

والجن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُم يَأْتيني بِعَرْشِهَا﴾ أي واحدٍ منكم يأتيني بعرش بلقيس العظيم ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسلِمين﴾ قبل أن يأتوني طائعين منقادين لأمري ﴿قَالَ عِفْريتٌ مِنَ الجِنِّ﴾ قال رئيس من الجن مارد قوي ﴿أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي جلست فيه للحكم بين الناس، وكان سليمان يمكث من أول النهار إلى انتصافه في مجلسه ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَويٌّ أمينٌ﴾ وإني قادر وقوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر ﴿قَالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ﴾ قال رجل من الإنس عنده علم من كتاب الله يعلم اسم الله الأعظم(١) الذي إذا دُعي به أجاب، وقيل هو الملك جبريل عليه السلام، وقيل هو ملك من الملائكة أيد الله به سليمان، وقيل هو النبي سليمان نفسه حيث خاطب العفريت من الجن الذي أظهر استعداده بأن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مجلسه وقال له ﴿أَنَا آتيكِ بهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي أنا آتيك بالعرش قبل أن يصل إليك من الرؤية ما كان منك على مدّ البصر قبل تحريك جفنيك ﴿فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْل رَبِّي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى عرش بلقيس بين يديه قال هذا من فضل الله ونعمته عليّ ﴿لِيَبْلُوني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ليختبرني أأشكر إنعامه عليَّ أم أجحد فضله وإحسانه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن يشكر الله على إحسانه فإن ذلك الشكر عائد ثوابه ومنفعته للشاكر إذ يضمن استمرار نعم الله عليه ويستمد المزيد منها ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَريمٌ﴾ ومن كفر فإن مغبة كفره تعود بالوبال عليه وإن ربي غني لا ينفعه شكر الشاكرين ولا يضره كفر الكافرين وهو سبحانه كريم ينعم على عباده وإن قابلوا نعمه بالكفر.

ثم يصف القرآن وصول بلقيس إلى مملكة سليمان وتعرّفها على

---

(١) ليس هناك أمر ثابت في تحديد اسم الله الذي دعا به، وإن قيل إنه: «يا إلّهنا وإلّه كل شيء إلّهاً واحداً لا إلّه إلاّ أنت ائتني بعرشها». وقيل هو: «يا ذا الجلال والإكرام».

عرشها عنده:

﴿قَالَ نَكِّروا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤١-٤٣).

ولما جيء سليمان بعرش بلقيس أمر رجاله بتغيير معالمه ﴿قَالَ: نَكِّروا لَهَا عَرْشَهَا﴾ والتنكير: التغيير، أي أن يغيروا في صفاته وشكله بالزيادة والنقصان، وذلك ليختبر معرفتها وجودة ذهنها ﴿نَنظُر أَتَهتدي أمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِين لا يَهْتَدونَ﴾ أي لننظر إذا رأته هل تهتدي بأنه عرشها أم لا، وقد يكون المعنى: أتهتدي إلى الإيمان بالله من جراء هذه المعجزة، أم تكون من الذين لا يهتدون، فسليمان أراد أن تستدلَّ بعرشها عنده على صدق نبوته حيث أيده الله بهذه المعجزة من أحضار عرش بلقيس إليه من مسافة شاسعة وبسرعة لا تخطر ببال بشر بالرغم من إغلاق الأبواب عليه وتكليف الحرس بالسهر عليه.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قيل: أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان أظهر لها عرشها وقال لها: أمثل هذا العرش الذي رأيته هو عرشك الذي تركته ببلادك، ولم يأتِ السؤال: أهذا عرشك بل جاء بكاف التشبيه لئلا يكون ذلك تلقيناً لها، فلا يتم الاختبار لعقلها، ولما رأته على هيئة لا تعرفها فيه رغم التشابه بينهما قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلم تقل نعم هو، ولا ليس به شبه، بل قابلت تشبيههم بتشبيهها وهذا غاية في الذكاء والحزم، وهي أيقنت أنه عرشها، وأَدركت أن حضور العرش عند سليمان هو معجزة له ﴿وَأُوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمينَ﴾ أي قال سليمان لمن حوله مثنياً على الله متحدثاً بنعمه: إنها وإن هديت إلى العلم بجلال الله وقدرته لكننا أوتينا العلم بذلك من قبل أن تُؤتى هي العلم، وكنا مسلمين لله خاضعين

له. وقد يكون هذا الكلام من بلقيس بمعنى: أنها أُوتيت العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة وكانت مسلمة من ذلك الوقت ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعبُدُ مِنْ دونِ اللَّهِ﴾ أي صرفها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وأبان لها الحقيقة التي يجب أن تسلكها وهي عبادة الله وحده، وقد يكون المعنى: وصرفها عن عبادة الله عبادة الشمس ﴿إِنَّها كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ إنها قد كانت على دين قومها وآبائها فاتبعت آثارهم في الكفر.

ثم يقدم لنا القرآن صورة عن عظمة الهندسة في قصر سليمان:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفسي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُليمانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ (٤٤).

وليري سليمان بلقيس روعة الهندسة التي اختص بها دونها فقد أمر المهرة من الصناع من الإنس والجن ببناء قصر فصُنعت أرض بهوه ـ أي ساحة القصر ـ من زجاج شفيف مستو أملس، وأمر بإرسال الماء تحت الزجاج ووضع فيه السمك فبدا البهو كأنه بركة ماء ثم جلس سليمان في صدر البهو، ثم طلب من بلقيس أن تدخل القصر ﴿قيل لَهَا ادْخلي الصَّرْح﴾ فدخلته إلى أن بلغت ساحته ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي فلما رأت ساحة القصر حسبته ماء غزيراً ﴿وَكَشَفَت عَنْ سَاقَيْهَا﴾ وكشفت الثياب عن ساقيها لتخوض فيه ولتتجنب البلل فيها، عندئذ قال سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ إنه قصر مملس من زجاج لا يحجب وراءه، فراعها ذلك المنظر المادي وعلمت أن مُلكها لا يساوي شيئاً بجوار مُلك سليمان فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي إني ظلمت نفسي بعبادة الشمس وترك عبادة الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُليمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وخضعت مع سليمان لله مذعنة له بالوحدانية، مفردة له بالألوهية والربوبية دون.كل ما سواه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ
قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟
بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً

شَـرح المفـردَات

بالسّيئة قَبْلَ الحَسَنَة: بالعذاب قبل الرحمة.

أَطَّيَّرْنَا: تشاءمنا «أصله تطيّرنا».

طَائِرُكُم: شؤمكم.

تُفْتَنُون: تختبرون بالخير والشر.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: تسعة رجال.

تَقَاسَمُوا بالله: احلفوا بالله.

لَنُبيتنَّه وأهله: لنقتلنه وأهله ليلاً.

وليِّه: أقرباء القتيل الذين لهم الحق بالمطالبة بالقصاص والدية.

دَمَّرنَاهُم: أهلكناهم.

خَاوِيَة: خالية خربة.

مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧ وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨

شَرح المفردَات

قَدَّرْنَاهَا: جعلناها بتقديرنا وحكمنا عليها.

مِنَ الغَابرين: من الباقين في العذاب.

تَابع سُورَةِ النَّمْل

وبعد الكلام عن سليمان وما خَصّه الله به من معجزات ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قوم ثمود:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّه فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمونَ. قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ. قَالُوا اَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُم عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٥-٤٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً﴾[١] أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم في النسب وهو صالح عليه السلام الذي خصَّه الله بالنبوة والرسالة إلى قومه، وقد لخص القرآن دعوة صالح: ﴿أَنِ اعبدوا الله﴾ أي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه إلَهاً آخر، والعبادة هي غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الإفضال على العباد وهو الله سبحانه وتعالى، ويستتبع العبادة العمل بشرع الله الذي ينزله على رسوله والذي فيه الحق والعدل والخير للإنسان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فلما أتاهم صالح برسالة الله داعياً لهم إلى عبادته صار قومه من دعوته فريقان: فريق مصدِّق بما جاء به مؤمن بوحدانية الله، وفريق مكذب به كافر، وصار كل فريق يخاصم الآخر على ما هو فيه ويزعم أن الحق معه ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلونَ بِالسَّيِّئة قبل الحَسَنَةِ﴾ المراد بالسيئة هنا: العذاب. والحسنة المراد بها الرحمة، فرسول الله صالح يقول لقومه الذين رفضوا دعوته: لِمَ ترفضون الإيمان بوحدانية الله وتطيعونه بما يجلب لكم ثوابه ورحمته، وتستمرون على الكفر الذي يجلب لكم العقاب والعذاب ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُون

---

(١) كانت ثمود تعبد الأصنام وهذه الأصنام كان يطلق عليها اسماء: (ود) و (شمس) و (مناف) و (اللات) وغيرها. (عن تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي).

الله لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ أي هَلاَّ تَطْلُبون المغفرة من ربِّكم وتتوبون إليه مما كنتم تعبدون من دونه حتى تنالوا رحمته. فالرجوع إلى الله بالتوبة وطلب الغفران من الله عن المعاصي والذنوب يرفع البلاء ويكشف العذاب ويجلب الرحمات من الله سبحانه(١).

﴿قَالُوا: ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ﴾ أي تشاءمنا منك يا صالح وبمن اتبعك من المؤمنين. والشؤم: النحس، ولا شيء أضر بالرأي، ولا أفسد للتدبير من اعتقاد النحس في بعض الأمور. وقد كانت العرب تتشاءم في كثير من الأمور فإذا أراد أحدهم سفراً نفّر طائراً فإذا طار يمنة سار وتيّمن أي اعتقد خيراً، وإن طار يَسْرة رجع وتشاءم، وكل ذلك من قصور في العقل ﴿قَالَ: طَائِرُكُم عِنْدَ الله﴾ أي قال صالح لقومه: إن شؤمكم بسبب ما ينالكم من الشر هو من جرَّاء كفركم، وهو عند الله علمه وبقضائه وقدره إن شاء رزقكم وإن شاء رحمكم، وسبب تشاؤمهم أنهم أصابهم القحط فتشاءموا بصالح ومن معه من المؤمنين ﴿بَلْ أَنْتم قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بل أنتم تُمتحنون وتُختبرون مِنْ ربكم إذ أرسلني إليكم أَتطيعونه فيجزيكم الثواب الجزيل أم تعصونه فيحل بكم العقاب الأليم.

ويتابع القرآن فيذكر ما حل بثمود من هلاك جزاء كفرهم:

﴿وَكَانَ في المدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلا يُصْلِحونَ. قَالُوا تقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّه وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهْم لا يَشعُرونَ. فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِم أَنَّا دَمَّرْنَاهُم وَقومَهُم أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَموا إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجيْنَا الَّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٤٨-٥٣).

---

(١) وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿.. وما كان اللَّهُ مُعَذِّبهم وَهُمْ يَسْتَغْفِرون﴾.

أي وكان في المدينة التي يسكنها ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة رجال من أشرافهم وأغنيائهم ﴿يُفْسِدون في الأَرْض وَلا يُصْلِحُون﴾ أي يعيثون في الأرض فساداً ولا يعملون فيها صلاحاً ألبتة، وإنما خص الله هؤلاء التسعة بالخبر عنهم لأنهم سعوا وتعاونوا على عقر الناقة التي نهى الله عن مسها بسوء ﴿قالوا: تقاسَمُوا بالله﴾ أي قال هؤلاء التسعة لبعضهم البعض احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنأتين صالحاً ومن آمن معه في الليل فنقتلهم، يقال: بيّت القوم العدو أوقعوا به ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنّ لِوَليّه﴾ أي يقولون لذوي قرابة صالح ومن يطالبون بدمه، بمعنى المطالبة بالقصاص ممن قتله ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ في الكلام هنا حذف يدل عليه ما قبله، والتقدير: ما شهدنا مهلك أهله ولا شهدنا مهلكه. ودل عليه ما جاء في الآية ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلُه﴾ ثم قالوا بعد ذلك ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي يقولون لوليه: ونحن صادقون بأننا ما شهدنا مهلكه ولا مهلك أهله.

﴿ومكروا مكراً﴾ مكر الإنسان: دبَّر الشر لغيره في خفية واحتال لإيقاع الأذى به، فالكفار من قوم ثمود دبَّروا الفتك بصالح وبأهله خفية. ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ هنا أضيف المكر إلى الله والمراد إيقاع السوء بهم، والمكر هنا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ دون المعنى، لأن المكر من صفات الضعفاء والخبثاء والله تعالى هو القوي الغالب ويتنزه عن مشابهة الخلق وليس من صفاته المكر[١]، ولكن الله سمى عقابهم على أعمالهم باسم ابتداء فعلهم وهو المكر ﴿وَهُم لا يَشْعُرُونَ﴾ أي جازاهم الله على مكرهم من حيث لا يشعرون ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِم﴾ فتفكر يا محمد كيف كان مصير غدر ثمود بنبيهم صالح ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُم وَقَوْمَهُم أَجْمَعِينَ﴾ أي أن الله أهلك التسعة الرجال الذين يفسدون في الأرض وقومهم من ثمود

---

(١) وقد يكون تسمية عقوبة الله لهم مكراً لأنها جاءتهم بغتة من حيث لا يشعرون.

أجمعين ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهم خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ فتلك مساكنهم خالية أو ساقطة متهدمة بسبب ظلمهم ﴿إنَّ في ذٰلَكَ لآيَةً﴾ إن في ما ذكر من التدمير العجيب لهم بسبب ظلمهم لعبرة عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون ما فعل الله بهم فيتعظون ويقلعون عن كفرهم ﴿وَأنْجينَا الَّذِين آمَنُوا﴾ أي ونجَّى الله من نقمته وعذابه الذي نزل بثمود نبيه صالحاً ومن آمن معه ﴿وَكَانُوا يتَّقُونَ﴾ وكان صالح ومن آمن معه يتجنبون سخط الله وعذابه بإطاعته في أمره ونهيه.

ويتابع القرآن فيذكر ما حلَّ بقوم لوط من عذاب من جراء اقترافهم الشذوذ الجنسي وعصيانهم أوامر ربهم:

﴿وَلُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُم تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلَّا أَنْ قَالوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُم إنَّهم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلَّا امرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَر الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٤ـ٥٨).

فالله سُبحانه يقول: ﴿وَلُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر يا محمد إذ أرسلنا لوطاً إلى قومه أهل سدوم في الأردن وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ والفاحشة ما قبح فعله من الذنوب، والفاحشة التي كانوا يتعاطونها هي اللواط ﴿وأنْتُم تُبْصِرُونَ﴾ بمعنى بصر الفكر والعقل أي إنكم تفعلون الفاحشة وأنتم تعلمون وتعقلون سوء فعلكم. فالله خلق الأنثى للذكر، والذكر للأنثى في قضاء الشهوة وعمارة الكون، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى وهي قاعدة بني عليها جميع الكائنات الحية على وجه الأرض. وقد يكون معنى ﴿تُبْصِرون﴾ أي يبصر بعضكم بعضاً عند تعاطي الفاحشة، وقد كان قوم لوط يرتكبون الفواحش علانية كما يرتكبها حالياً

بعض دعاة السوء في الدول الغربية ويصورونها لتعرض على الشاشة المرئية بواسطة (الفيديو) فيراها أهل السوء ويقتدون بها. ثم قال لوط لقومه ﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ تَجهلون﴾ والجهل هو ضد العلم، أي تجهلون عاقبة فعلكم، ويأتي الجهل بمعنى السَّفَاهَة وَالمَجانَة، أي أنتم سُفهاء ماجنون مخالفون بذلك أمر الله تعالى بنهيكم عن هذه الفاحشة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلَّا أن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتَكِمُ﴾ أي فلم يكن لقوم لوط من جواب على مانهاهم عنه لوط من إتيان الرجال دون النساء إلَّا أن قالوا أخرجوا أتباع لوط وأهله من قريتكم ﴿إِنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرونَ﴾ أي إنهم يتطهرون من أعمال السوء قالوا ذلك استهزاء بهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي فخلصنا لوطاً وأهله من العذاب الذي أنزلناه على قومه ﴿إلَّا امرأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرينَ﴾ إلّا امرأة لوط جعلناها بقضائنا وتقديرنا من الباقين الماكثين في العذاب، فهلكت بسبب خيانتها لزوجها، ولم ينفعها أنها امرأة نبي من الأنبياء ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً﴾ والمطر قد فسره القرآن في موضع آخر فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارةً مِنْ سِجّيل مَنْضُودٍ﴾ والسجيل هو الطين المتحجّر، والمنضود هو المتتابع ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فبئس ذلك المطر الذي أمطره الله عليهم بسبب عصيانهم له والذي أهلكهم وأبادهم جميعاً، وبالإضافة إلى ذلك قلب الله بهم قريتهم وجعل عاليها سافلها.

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ
عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ
وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ
ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ

شَــرح المفـردَات

اصطفى: اختار.

حَدائِقَ ذَاتَ بَهْجَة: بساتين ذات حسن ورونق.

قَوْمٌ يَعْدلون: ينحرفون عن الحق إلى الباطل.

الأرض قراراً: أي تستقرون عليها.

رواسي: جبالاً.

المضطر: المكروب الذي مسَّه الضر.

إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ
بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا
تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ
إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ
مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾
قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

شَــرح المفــرَدات

بل ادَّارَك عِلْمُهم في الآخرة: أي ضل علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم.

رَدِفَ لكم: اقترب لكم ودنا.

تُكِنُّ صُدُورهم: تخفي ضمائرهم.

تـابع سُورَة النَّمْل

ثم يأتي الرد القرآني على المشركين بذكر ما خَلَقَهُ الله في السموات والأرض وتعداد نعمه على خلقه، فكيف يليق بالمشرك أن يعبد الأصنام ويترك عبادة الله الخالق كل شيء:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىءآللَّهُ خَيْـرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ خلَق السَّموات وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لكُم أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّن جَعَلَ الأَرْض قَراراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهاراً وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بين البَحْرينِ حَاجزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أكثرُهُم لا يَعْلَمُون﴾ (٥٩-٦١).

فالله سبحانه يقول: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبادِه الَّذِين اصْطَفَى﴾ هذه الآية متعلقة بما قبلها التي ذكر فيها هلاك قوم صالح وقوم لوط، والمعنى: الحمد لله والثناء عليه بأن أهلكهم وطهّر الأرض من فسادهم، وأمان من الله وتحية للذين اجتباهم واختارهم من بين خلقه وهم أنبياء الله ورسله وأتباعهم وأصحاب رسول الله محمد وأمته.

هذا الافتتاح بالسلام على عباد الله الذين اصطفاهم هو تعليم حسن، وتذكرة للمؤمنين للسير على آثارهم، واعتراف بجهادهم وفضلهم. ولقد توارث العلماء والوعاظ هذا الأدب الرباني فحمدوا الله وصلّوا على رسوله محمد «أي دعوا له بالرحمة» في مفتتح كل خطبة وقبل كل موعظة وفي أوائل كتبهم، وفي تخصيص عباد الله المؤمنين بالسلام والتحية توبيخ للمعاصرين من الكفار ﴿آلله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ آلله: بمد الألف أصلها أألله أُدْغمت همزة الاستفهام بالألف. والمعنى: هل الله خير لمن عبده وحده أم عبادة المشركين للأصنام والأوثان التي يشركونها مع الله في العبادة، وهذا

تهكم بالمشركين وتسفيه لآرائهم وتنبيه على خطئهم إذ لا وجه للمقارنة بين عبادة الله وعبادة الأصنام.

ثم يردُّ الله على عبدة الأصنام والأوثان بجملة أمور من مظاهر الكون يرونها أمام أعينهم وهي شاهدة على وجود الله ووحدانيته وانفراده سبحانه بالخلق والإيجاد: ﴿أَمَّن خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْض﴾ فالله يخاطب المشركين: أعبادة أصنامكم وأوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خيرٌ، أم عبادة من خلق السموات والأرض ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وأنزل الله لكم بقدرته المطر من السحاب ﴿فَأَنْبَتْنَا به حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ فأنبت الله بهذا الماء النازل من السماء حدائق[1] ذات منظر حسن. ﴿مَا كَانَ لَكُم أن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي ما كان للبشر وليس بمقدوهم أن ينبتوا شجرها.

تأمل كيف لفت القرآن الأنظار إلى جمال الحدائق ذات المناظر الخلابة بما تحتويه من أنواع الشجر الوارفة الظلال والثمار المتعددة والزهور المختلفة الألوان، إن التأمل في ذلك من أهم العوامل للتذكير بالخالق وتمجيده والثناء عليه، فالطبيعة خصت بجمال ساحر يستحوذ على النفس والوجدان وتصل الإنسان بالخالق.

ثم يتابع الله قوله: ﴿أَإِلَه مَعَ اللَّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ، أي أغيره يقرن به سبحانه ويجعل شريكاً له في العبادة مع تفرّده تعالى بالخلق والتكوين ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بل هم قوم يشركون بالله ويسوّون به غيره، أو بمعنى: بل هم قوم يعدلون عن الحق إلى الباطل.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرارًا﴾ أعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع خير

---

(١) الحدائق: جمع حديقة وهي البستان الذي عليه حائط محوط.

أم عبادة الله الذي مهّد الأرض للإقامة فيها والاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهاراً﴾ وجعل في شعابها الأنهار العذبة التي تروي الأرض ويُسقى منها النبات والشجر ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ والرواسي المراد بها الجبال، وهي ثابتة مستقرة في الأرض وهي في الغالب مصادر الأنهر لأن الينابيع تتفجر منها. ومن الينابيع تتكون الأنهار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحرينِ حَاجِزاً﴾ والمراد بالبحرين الماء العذب والماء المالح وقد جعل الله بينهما حاجزاً من طبيعة الأرض بحيث لا يفيض البحر على النهر فيفسده. هذا وإن أكثر مجاري الأنهر أعلى من مستوى سطح البحر ﴿أإلَه مَعَ اللَّهِ﴾ وما يملك أحد أن يُقرّ بأن هناك إلَه مع الله لأن وحدة التصميم في الكون شاهدة على وحدانية الله ﴿بَلْ أكثرُهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثرَ المشركين لا يعلمون مقدار عظمة الله فلهذا يشركون به غيره في العبادة.

ويتابع القرآن فيذكر أدلة وبراهين على وحدانية الله وانتفاء شريك له:

﴿أَمَّن يُجيبُ الْمضطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإلَه مَعَ اللَّه قَليلًا مَا تَذَكَّرونَ. أَمَّن يَهْدِيكُم في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإلَهٌ مَعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَإِلَه مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إن كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ (٦٢-٦٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ المضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي أعبادة ما تعبدون من أصنامكم وأوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير أم عبادة الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويكشف الضر النازل به.

فالمضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو حادث خطير من حوادث الدهر إلى الالتجاء إلى الله والتضرع إليه فيدعوه لكشف ما اعتراه من الضر

وإزالته عنه، وقد لا يجاب دعاء المضطر لمانع رباني يمنع من إجابة دعائه، ولكن الله ضمن أجابه دعاء المضطر إذا دعاه عن إخلاص في الدين، وقطع العلائق عما دون الله.

ودعاء المظلوم مستجاب وقد قال محمد ﷺ لمعاذ بن جبل لما وجهه إلى أرض اليمن: «واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب»، ومن أشد اضطراراً إلى الدعاء من المظلوم.

فالمضطر في لحظات كربه لا يجد ملجأ يلجأ إليه غير الله يدعوه ليكشف الضر الذي نزل به، إنها الفطرة التي خلق الله الناس عليها بأن لا تعرف عند الشدة إلاّ خالقها وحده لأنه القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، وكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء فيلجأون إلى عبادة معبودات باطلة، ولكن عند الشدائد تنهار كل هذه المعبودات ولا يبقى من ملجأ إلاّ الله. والقرآن يذكر هذه الحقائق للمشركين في مجال الحقائق الكونية، فكما أن خلق السماء والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات النبات وغير ذلك مما هو شاهد على وحدانية الله فكذلك الفطرة الإنسانية في مقابل ذلك شاهدة أيضاً على وحدانية الله.

ويتابع القرآن قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ وذلك بتوارث الناس سكنى الأرض جيلاً بعد جيل والتصرف فيها قرناً بعد قرن، يخلف بعضهم بعضاً، يهلك الله قوماً وينشىء آخرين، ولو عاش الأولون لضاقت الأرض بهم ولأبطأ تطور الإنسان نحو الأفضل لأن تجدّد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والمحاولات في سُلّم الرقي ﴿أَإِلَه مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه ﴿قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما أقل تذكركم واتعاظكم فيما تشاهدون من فضل الله عليكم ﴿أَمَّن يَهْدِيكُم في ظُلُماتِ البَرِّ

والْبَحْرِ﴾ أعبادة الأصنام خير أم عبادة الله الذي يرشدكم إلى السير في ظلام الليل برًّا وبحراً بما خلق لكم من نجوم في السماء تهتدون بها إلى مواقع سفركم، ومن يرشدكم بوسائل العلم التي وفقكم الله إلى ابتداعها كآلات الرصد والإبرة الممغنطة وغيرها مما تهتدون به إلى وجهة سفركم ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمتِهِ﴾ وهو الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر الذي هو رحمة للعباد ﴿أَإِله مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله مع الله أودع في الإنسان تلك القوى المدركة التي يرتاد بها البلدان وأرسل الرياح محملة بالمطر إلى البلاد، لا، ليس هنالك إله غيره ﴿تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله وتقدس عن وجود شريك له.

﴿أمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُه﴾ أي أعبادة الأصنام خير أم عبادة الله الذي ينشىء الخلق ابتداء ثم يوجده بعد فنائه، فبدء الخلق هو حقيقة لا يمكن تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته، فالتناسق المطلق في الكون ما يجزم بالإرادة الواحدة والقدرة الواحدة، والقادر على أن يوجده من العدم قادر على أن يعيده بعد فنائه ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ أي ومن الذي ينزّل لَكُم الرِّزْق مِنَ السَّماء وَالأَرض، هل غير الله يفعل ذلك. والرزق من السماء هو المطر وما ترسله الشمس من نور وحرارة وطاقة، أما الرزق من الأرض فكثير كالنبات والثمر والحيوان والهواء ﴿أَإِله مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله مع الله يفعل ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقينَ﴾ أي أن كان لكم إله سوى الله فقدموا لنا حجة على ذلك إن كنتم تزعمون أنكم صادقون في دعواكم.

ثم يبين القرآن شبهات المشركين على البعث واستبعادهم لوجود حياة أخرى بعد الممات:

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمٰوات وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُم في الآخِرَةِ بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَأباؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٦٥-٦٨).

فالله سبحانه يقول: قل يا محمد للسائلين من المشركين عن الوقت الذي تقوم به القيامة: لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه وحجب عنه خلقه إلاّ هو سبحانه ﴿وَمَا يَشْعُرون أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما يدري الناس متى هم مبعوثون من قبورهم أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿بل ادَّارَكَ عِلْمُهُم﴾ بل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة ومُكِّنوا من معرفتها بما سمعوا من الدلائل على حصولها ﴿بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْهَا﴾ بل هم في شكّ وريب من حصولها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ بل هم في عماية وجهل عظيم من أمرها وعن كل ما يوصلهم إلى الحق في شأنها ﴿وَقَالَ الَّذين كَفَرُوا أإذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنَا أئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي وقال الكافرون منكرين للبعث أإذا صرنَا تراباً بعد أن بليت أجسادنا وأجساد آبائنا السابقين هل سنخرج من قبورنا أحياء؟ وتكرار همزة الاستفهام الداخلة على إذا، وإن، إنكار على إنكار، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وآباؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي لقد وعَدَنَا محمد بهذا البعث كما وعد الرسل السابقون آباءنا فلم نرَ لذلك حقيقة ولم نتبيّن له صحة ﴿إِنْ هٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعد إلاّ ما سطره الأولون من الأكاذيب في كتبهم فتحدثوا به من غير أن يكون له صحة.

وبعد موقف العناد من الكافرين يأتي عقب ذلك التهديد الرباني لهم:

﴿قُلْ سِيرُوا في الأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ. وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِم وَلا تَكُن في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُم صَادِقِينَ. قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذي تَسْتَعْجِلُونَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٩-٧٣).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً: قل لهؤلاء المكذبين لك من قومك: سيروا في الأرض وانظروا نظرة اعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ﴾ كيف كان مآل ومصير المجرمين الذين أجرموا بالكفر وعصيان الله، ألم يهلكهم ويدمّر مساكنهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن يا محمد على قومك لإصرارهم على الكفر والتكذيب لك ﴿وَلا تَكُنْ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا يكن في صدرك ضيق من مكرهم وكيدهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أي يقولون: متى يحين العذاب الذي هددتمونا به إن كنتم صادقين في أن العذاب سيحلّ بنا ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد عسى أن يكون قد اقترب منكم العذاب ودنا الذي تستعجلون وقوعه.

هذه الآية من الأنباء الغيبية التي تحققت والتي تشهد أن القرآن وحي إلّهي. فبعد فترة قصيرة من نزول هذه الآية حصلت معركة بدر التي قتل فيها سبعون من كفار قريش. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وإن ربك يا محمد لذو فضل على الناس بترك تعجيل العقوبة بهم على معاصيهم وكفرهم، وذو إحسان إليهم حين يمهلهم بعض الوقت ليتوبوا إليه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَشْكُرونَ﴾ ولكن أكثرهم لا يشكرون الله على إحسانه وفضله عليهم.

ثم يبين القرآن مدى علم الله الذي لا تخفى عليه خافية في الكون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُم وَمَا يُعْلِنُون. وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ في السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إلَّا في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤-٧٥).

أي وإن ربك يا محمد ليعلم ما تخفي صدورهم من النيات والرغبات وما يعلنون من الأقوال والأفعال وهو محصيها عليكم ليجازيكم عليها، وفي هذا المعنى ورد في القرآن: ﴿وإن تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُم أَوْ تُخْفُوه يُحَاسِبُكُم به الله﴾ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ في السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ وما من خافية تغيب عن أبصار الناظرين وعلمهم سواء أكانت في السماء أو في الأرض ﴿إلَّا في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ والكتاب المبين هو: أُمّ الكتاب الذي أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من لدن ابتداء خلقه إلى يوم القيامة يخرجه للأجل المؤجل عنده، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل معين لا يتأخر عنه ولا يتقدم، والمراد بقوله تعالى: ﴿مُبِين﴾ أي هو ظاهر واضح لمن ينظر فيه من الملائكة.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ
أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا
عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ
لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ
فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ

شرح المفردات

وَقَعَ الْقَوْل: حق العذاب.

نَحْشُر: نجمع.

فَوْجاً: جماعة.

دَاخِرِين: صاغرين أذلاء.

ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ
فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ
أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

شرح المفردات

فَكُبَّت وجوههم في النَّار: يُطرحون ويُلقون فيها على وجوههم.

تَابع سُورَة النَّمْل

وبعد الكلام عن القدرة الإلّهية التي تحيط علماً بكل خفي يأتي الكلام عن القرآن الذي فيه القول الفصل لكل ما اختلف فيه بنو اسرائيل من أمور دينهم:

﴿إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمِنينَ. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ العَلِيمُ﴾ (٧٦-٧٨).

فالله سبحانه يقول: إن هذا القرآن الذي أنزلته عليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل ـ سواء أكانوا يهوداً أم نصارى ـ الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك مثلَ اختلافهم في أمر عيسى عليه السلام وغير ذلك من الأمور، فقد قالت اليهود في شأن عيسى بأن أُمَّهُ زانية وأنه ابن زنى ثم أنكروا بعثته، وأنكروا بالتالي دعاوى النصارى من أنه ابن الله وأنه إلّه، وحكموا على عيسى بأنه وثني وساحر ومجنون ويهودي مرتد، وادّعوا بأنهم قتلوه وأنهم صلبوه. أما النصارى فقد اختلفوا في شأن عيسى اختلافاً كبيراً، فقالت جماعة: إن المسيح إنسان محض كما ذهب إلى ذلك آريوس وأتباعه وأكثر كنائس الشرق وفي فلسطين وكثرة من كنائس مصر.

ومن النصارى من كان يقول: المسيح ومريم إلّهان من دون الله وهم المريمانية.

ولما أعلن الملك قسطنطين اعتناق النصرانية عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ فأعلن أكثر المجتمعين أُلوهية المسيح ثم انعقدت بعد ذلك مجامع اتخذت من القرارات ما أضاف إلى النصرانية ما لم يكن منها فأضيف إلى منصب الألوهية منصب روح القدس، ولكن ذلك لم يحسم الأمر كليًّا فقد

ظلت تظهر هنا وهناك أقوال ترفض قرارات مجمع نيقية وتقول بأن المسيح ليس ابناً لله بالحقيقة فهو ابن بالنعمة والمحبة لا بالألوهية، كما ظهرت مذاهب أخرى لو أردنا استعراضها لضاق بنا المجال، كما اختلف النصارى في شأن صلب المسيح وغير ذلك من الأمور.

أما نظرة القرآن إلى عيسى فهو أنه بشر خلقه الله بدون أب شبيه خلقه بخلق آدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١).

وأنه رسول الله إلى بني اسرائيل، جاء في القرآن:

﴿وَإِذْ قَالَ عيسى ابنُ مَرْيَم: يا بني اسرائيل إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أحمد﴾(٢).

وجاء في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المسيحُ: يَا بني إسرائيل اعْبُدوا اللَّه رَبِّي وَرَبُّكُم إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّم اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّة وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا للظَّالِمينَ مِنْ أنصار. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَة وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ...﴾(٣).

وبشأن صلب المسيح فقد جاء في القرآن:

﴿وَقَوْلِهِم إِنَّا قَتَلْنا المسِيحَ عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذينَ اختلَفُوا فِيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩.
(٢) سورة الصف الآية ٦.
(٣) سورة المائدة: الآيتان ٧٢، ٧٣.
(٤) سورة النساء: الآية ١٥٧.

وبعد هذا الاستطراد نرجع إلى متابعة الآيات فيقول تعالى: ﴿وإِنَّه لَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لهو المرشد إلى الحق في الدين وإنه رحمة للمؤمنين لأنهم وحدهم الذين ينتفعون به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ أي إن ربه يقضي بينهم بعدله في الآخرة فيما اختلفوا فيه فيثيب من كان على الحق ويعاقب من كان على الباطل ﴿وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ وهو القوي الغالب لأعدائه، عليم بمن كان على هُدًى أو كان على ضلال.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً مبيناً له أن سبيله هو الحق وأنه لا يملك هداية من كانوا بلا عقل فهم كالموتى أو الصم أو العمي:

﴿فَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ إنَّكَ عَلَى الْحَقِّ المُبِين. إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْيِ عَنْ ضَلالَتهم إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُون﴾ (٧٩-٨١).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَتوكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ففوّض إلى الله أمورك يا محمد وثق به فإنه كافيك ﴿إِنَّك عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾ إنك على الحق الظاهر الواضح دون ما عليه النصارى واليهود المختلفون في أمور دينهم ودون ما عليه أهل الأوثان المكذبون فيما أتيتهم به من الحق.

لقد وصف الله الإسلام بأنه الحق الواضح وهو وصف يميزه عن غيره من أديان الأرض. هذا الحق يظهر بالعقيدة الصافية التي جاء بها من توحيد الله وعبادته وحده والبعد عن جميع المظاهر الوثنية وعبادة الشخصية، هذا الحق الواضح المتمثل بما جاء به من التشريع العادل الذي يراعي مصلحة الإنسان المادية والروحية والمساواة بين البشر.

هذا الحق الذي يتمثل بتحليل الإسلام للطيبات وتحريم الخبائث.

هذا الحق الذي بدأت تباشيره تظهر في العالم بعد أن طُمِسَ في العصور الماضية على يد المبشرين وأعدائه بما أثاروا عليه من الأكاذيب والشبهات.

﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموْتَى﴾ إنك يا محمد لا تقدر أن تُسْمِع الكفار هدى الله لانعدام الفهم والتدبُّر عندهم، فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل ﴿ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرينَ﴾ لقد شبَّه الله الكفار بالصُّمِّ لأنهم لا يسمعون المواعظ ولا ينتفعون بها، وتأمل تعبير القرآن وتصويره لهم حيث أن الأصم يمكن أن تخاطبه بالإشارة فيفهم منك بعض ما تشير إليه. ولكن إذا ولى مدبراً: أي أعرض عنك مولياً ظهره لك مسرعاً في الابتعاد عنك فإنه لا يسمع قولك ولا يرى ما تشير إليه من الكلام ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِم﴾ وما أنت يا محمد بَهادٍ من أعماه الله عن الهدى والرشاد وجعل على بصره غشاوة فآثر الكفر على الإيمان ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع السامع نفعاً ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا﴾ إلّا لمن آمن بآيات القرآن بأنها من عند الله وآمن بالأدلة والحجج التي جاء بها ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء هم منقادون خاضعون لدين الله يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه ويعملون به.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف بعض أمارات يوم القيامة حيث يؤنب الكفار على تكذيبهم بآيات الله:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ. وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُم يُوزَعُون. حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كنْتُم تَعْمَلُون. وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُم لا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٢-٨٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ﴾ أي وإذا قَرُب أن يتحقق وَعْدُ الله بمجيء السَّاعة التي تقوم بها القيامة وأن يقع العَذَاب على الكافرين أخرج الله للناس دابة[1] من الأرض غير الدواب المعهودة ويكون خروجها معجزة من معجزات الله. وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله تعالى وتبديلهم لدين الله الحق وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحيث لا يبقى منيب إلى الله ولا تائب ﴿تُكَلِّمُهُم أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ وهذه الدابة تحدّث الناس وتقول لهم من جملة ما تقول: إن الكفار كانوا بمعجزات الله وحججه على خلقه وباليوم الآخر لا يصدقون، وقد أيقنوا الآن ما كانوا يكذبون فها هي أمارات القيامة واضحة ظاهرة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ واذكر يا محمد يوم نجمع للحساب يوم القيامة من كل أمة جماعة فهم ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ ممن يكذّب بأنبيائنا وآيات كتبنا المنزلة عليهم ﴿فَهُم يُوزَعُون﴾ فهم يحبس أولهم ويرد على آخرهم ليجتمع شملهم وفي ذلك دلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءوا قَالَ: أَكَذَّبْتُم بِآيَاتي﴾ حتى إذا جاء من كل أمة فوج ممن يكذب بآيات الله فاجتمعوا على صعيد واحد، قال الله: أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي ﴿وَلَمْ تُحِيطوا بِهَا عِلْماً﴾ بل كذبتم بها بادىء الأمر جاهلين لها غير متدبّرين فيها تمرداً وعناداً، وأثبتّم على أنفسكم الجهل لأن من كذّب بشيء ولم يُحط به عِلْماً نادى على نفسه بالجهل

---

(١) جاء في الحديث الشريف أن خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول أمارات يوم القيامة.

أما ما روي في كيفية صورتها والمكان الذي تخرج منه مما ذكره المفسرون فهي أقوال غريبة لا يعول عليها وليس لها سند قاطع عن رسول الله ﷺ.

وسوء الفهم ﴿أم مَاذَا كُنْتُم تَعْمَلُون﴾ تقريع وتوبيخ لهم، أي ماذا كنتم تعملون في الدنيا غير التكذيب والعناد على الكفر ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي ووجب عليهم العذاب بسبب ظلم أنفسهم بالكفر ﴿فَهَمُ لا يَنْطِقُونَ﴾ فهم ليس لهم عذر ولا حجة.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلّهية التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله ووحدانيته:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الليلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبْصِراً إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون. وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ. وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ إنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٦ـ٨٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار فجعلنا الليل سكناً للعباد ينامون فيه لراحة أبدانهم من تعب النهار ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ وجعلنا النهار مضيئاً يبصرون فيه الأشياء لقضاء أمورهم وحاجاتهم ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن فيما ذُكِرَ لدلالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إحياء الأموات بعد الممات ﴿وَيَوْم يُنْفَخُ في الصُّورِ﴾ أي واذكر يا محمد يوم ينفخ الملك إسرافيل في البوق إيذاناً بيوم القيامة ﴿فَفَزِعَ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْضِ﴾ فيصيب الرعب والخوف من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الإنس والجن ﴿إلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل هم الشهداء والأنبياء وطائفة من الملائكة والمؤمنين مما شاء الله أن يقيهم من الفزع﴿وكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرينَ﴾ وكل المخلوقات يأتون ربهم أذلّاء منقادين له.

﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جامِدَةً﴾ أي وَتَرى أيها المخاطب الجبال

تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي فعل الله ذلك بقدرته الذي أتقن كل ما خلق[١] ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ إنه عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه. هذه الآية نص صريح بأن الأرض تدور[٢] فإذا كانت الجبال تمر مرّ السحاب، وبما أن الجبال ملتصقة بالأرض فهذا نص صريح بدوران الكرة الأرضية.

ثم يبيّن القرآن مصير المحسنين والمسيئين في الآخرة:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُم مِنْ فَزَع يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ. وَمَنْ

---

(١) يرى بعض المفسرين أن هذه الآية تصف بعض عوارض يوم القيامة وإننا نخالفهم في ذلك ونقول إن هذه الآية متعلقة بالآية السابقة ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل... الخ﴾ وذلك في معرض الدلالة على قدرة الله ووحدانيته وقدرته في إبداع هذا النظام العام في الكون والدليل على ذلك ما جاء عقب الآية ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أما في الآخرة فينفرط عقد الكون ويختل نظامه وتتنافى فيه صفة الإتقان حيث تزلزل الأرض وتفجَّر البحار وتتساقط الكواكب والنجوم وتتبدل مظاهر الأرض والسماء ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ إبراهيم: ٤٨. أما الجبال فتكون في الآخرة كما وصفها القرآن: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ ﴿وإذا الجبال نسفت﴾. وحقيق أنه ورد أيضاً في وصف أمارات القيامة: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم﴾ ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ فالجبال تقتلع من الأرض وتسير عشوائيًّا منفصلة عن الأرض بحيث يراها الرائي على هذه الصفة لا كما وصفها القرآن في الدنيا للرائي ﴿تحسبها جامدة﴾.

(٢) دوران الأرض وهو حقيقة علمية، فالأرض تدور حول محورها كل ٢٤ ساعة وتدور بالوقت نفسه حول الشمس في مدة ٣٦٥ يوماً. وبالرغم من أن (اريستاخورس الفلكي السكندري ٣١٠ـ٢٣٠ قبل الميلاد) كتب في موضوع دوران الأرض حول نفسها فإن هذه الكتابات العلمية القديمة لم تصل إلى العرب في الوقت الذي عاش فيه محمد حتى يقال إن محمداً نقل هذه النظرية العلمية إلى قومه على افتراض أن القرآن من تأليف محمد كما يدعي أعداؤه ومن ينكر نبوته. ثم إن هذه المعلومات عن دوران الأرض أول من نقلها إلى العرب هو البيروني عام ألف للميلاد بعد حركة الترجمة في العصر العباسي.

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُم في النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنها﴾ أي من جاء ربه يوم القيامة وكان في دنياه يشهد أن لا إلَه إلَّا الله ويعمل الأعمال الصالحة التي أمره الله بها ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي فله خير حاصل من جهتها وهو أن يثيبه الله الجنة، وعلى هذا لا تكون كلمة خير بمعنى أفضل، إذ لا شيء أفضل من كلمة التوحيد ﴿وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ﴾ ومن جاء ربه يوم القيامة وكان في دنياه مشركاً بالله مقترفاً سيّىء الأعمال ﴿فَكُبَّت وُجُوهُهُم في النَّارِ﴾ فألقيت وجوههم وطُرحت في النار جزاء أعمالهم السيئة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ أي ويُقال لهم: هل هذا إلّا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا مما يسخط ربكم.

ويختم الله هذه السورة بالدعوة إلى عبادة الله وحده وتلاوة القرآن الذي فيه الهداية للناس مع التنبؤ بالكشوفات العلمية التي سيحصل عليها الإنسان في الأجيال القادمة والتي ستظهر عظمة القدرة الإلَهية.

﴿إنَّما أُمِرْتُ أنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيء وَأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أتْلُوَا القُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّما يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إنَّما أنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُريكم آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تعْمَلُونَ﴾ (٩١-٩٣).

فالله سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يقول لقومه ﴿إنَّمَا أُمِرْتُ أنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ أي أُمرت من الله أن أخصه وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكاً، والبلدة المقصودة هنا هي مكة التي اختصها الله من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب البلاد إليه وأكرمها عليه ﴿الَّذي حَرَّمَهَا﴾ أي

حرمها على خلقه بأن يسفكوا فيها دماً حراماً أو يظلموا فيها أحداً، ولا يجز حشيشها ولا يقطع شجرها ولا ينفّر صيدها واللاجىء إليها آمن ﴿وَلَهُ كُلُّ شيء﴾ وهو رب البلاد كلها. فالله أراد أن يعرّف المشركين من أهل مكة نعمته عليهم وإحسانه إليهم حيث جعل بلدهم حرماً آمناً بينما كان الناس في سائر البلاد يغزو بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ المسْلِمِينَ﴾ وأمرت أن أكون من الموحّدين لله على دين إبراهيم الخاضعين له المنقادين لأمره ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ وأمرت أن أقرأ القرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن اهتدى بالقرآن فله ثواب هدايته ويأمن نقمة الله في الدنيا وعذابه في الآخرة ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَّا مِنَ الْمُنْذِرِين﴾ ومن ضل عن طريق الهدى فقل يا محمد إنما أنا ممّن يخوِّف قومه عذاب الله وسخطه ممن يشرك بالله ويعصيه ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقل يا محمد: الشكر لله على ما خصنا من نعمه وهدايته ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ سيريكم الله دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السموات والأرض فتعرفون عظمة القدرة الإلّهية. وصدق الله العظيم ففي كل يوم يُري الله عباده بعض آياته ودلائل قدرته وحكمته في هذا الكون، ويكشف لهم عن بعض أسراره الخفية وبالأخص في هذا العصر بعد أن تبحّر الإنسان في علوم الكون والحياة ووصل إلى كثير من أسرار هذا الوجود التي كانت مخفية عنه فيما مضى ﴿وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربك يا محمد بغافل عن أعمال العباد بل هو شهيد على كل شيء. وإذا علم الإنسان أن الله لا يغفل عن أعماله كان ذلك رادعاً له عن كل سوء أو شر.

هذه العقيدة الإسلامية تصحح كثيراً من المعتقدات البشرية التي ترى أن الله لا شأن له بالإنسان بعد خلقه، بينما العقيدة الإسلامية تغرس في الفرد دائماً بأنه تحت الرقابة الإلّهية العالمة بأمره والتي ستحاسبه يوم القيامة عن كل صغيرة وكبيرة يقترفها.

سُورَةُ القَصَصِ

أبرز ما تعالجه هذه السورة هو الطغيان بكافة مظاهره: طغيان السلطة وطغيان المال، وطغيان الأمة.

فطغيان السلطة يتمثل بفرعون الذي أذلَّ العباد، وقتل الأبرياء، واستكبر في الأرض. وطغيان المال يتمثّل بقارون الذي احتكر الأموال وبخل بها وتفاخر بها على قومه. وطغيان الأمة يتمثّل بالبطر، وهو الطغيان عند النعمة وطول الغنى وعدم الشكر لله. وكانت النهاية وخيمة لهؤلاء الثلاثة جميعاً.

وهذه السورة سميت بسورة القصص لأن الله ذكر فيها قصص نبي الله موسى بإسهاب فهي تفصّل ما ذكر قبلاً في القرآن في شأنه. فتذكر قصة ولادته وإلقائه في نهر النيل والتقاط آل فرعون إياه واستبقائه حياً بإيعاز من زوجة فرعون حيث ألقى الله محبته في قلبها، ثم ترعرعه ونشأته في بلاط فرعون إلى أن بلغ مبلغ الرجال، ثم فراره إلى مدين بعد قتله خطأً أحد المصريين، ثم زواجه بعد ذلك، ومخاطبة الله له في جانب جبل الطور وتأييده بالمعجزات، وإرساله إلى فرعون حيث بلّغه رسالة ربه، ولكن فرعون استكبر وظلَّ على طغيانه إلى أن أغرقه الله وقومه في البحر.

وفي السورة ثناء على الذين يصدّقون برسالة محمد من أهل الكتاب، وتعدهم بمضاعفة الأجر والثواب لهم.

كما تذكر السورة فضل الله على البشر حيث جعل الليل والنهار يتعاقبان بما فيه مصالح العباد ودوام مسيرة الحياة. كما تذكر السورة أحداثاً أخرى سيأتي بيانها.

سُورَةُ القَصَصِ

آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ

شرح المفردات

المبين: الواضح الجلي.
نَبأ: الخبر ذو الشأن.
علا في الأرض: تجبر واستكبر.
شِيَعًا: فِرقاً وأحزاباً.
يستضعِف: يجعلهم ضعفاء مقهورين.
وَيَسْتَحْيي نِسَاءَهم: يترك بناتهم أحياء للخدمة.
نَمُنُّ: نتفضل.
أَئِمَّة: ملوكاً وولاة أمر.
الوَارِثِينَ: أي يرثون ملك فرعون.
وَنُمَكِّن لَهُم في الأَرْض: ونجعلهم يستولون على أرض مصر ويتصرفون فيها.
يَحْذَرون: يخافون من ذهاب ملكهم.

عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ
لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ
فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ
مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ
لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

وَأَوْحَيْنا: ألهمنا.

فَأَلْقِيهِ في اليمِّ: فألقيه في نهر النيل.

حزَناً: وقُرِئت حُزناً (بضم الحاء) وهما متقاربان في المعنى: أي غمًّا وهمًّا.

قُرَّةُ عَيْنٍ: كناية عن السرور والفرح.

فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارغاً: أي قلبها خالياً من كل ما سوى موسى.

لَتُبْدِي به: لتظهر وتكشف أن موسى ابنها.

رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا: قوّينا قلبها ليسكن بالصبر والشجاعة.

قُصِّيهِ: اقتفي أثره وتتبعي خبره.

عن جُنُبٍ: من مكان بعيد.

حَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَراضِعَ: منعناه من قبول ثدي مرضعة غير أمه.

يكفلونه لَكُم: يقومون بتربيته لكم.

وَهُمْ لَهُ نَاصِحُون: مخلصون له في تربيته والسهر عليه.

تمهيـد لقصة موسى مع فرعون

قبل الشروع في تفسير هذه السورة، نمهد الكلام عن بني إسرائيل ومعاملة فرعون لهم في مصر. فقد جاء بنو إسرائيل على عهد يوسف عليه السلام حيث استقدم أباه يعقوب وأولاده وأحفاده للإقامة في مصر. ثم دار الزمان وتكاثر بنو إسرائيل فرأى فرعون مصر (رعمسيس الثاني) أن تضاعف عددهم وتزايد نسلهم يمكن أن يكون خطراً على ملكه، فاستخدمهم في أشقّ الأعمال لإضعاف قوتهم، وأمعن في تفريقهم فِرَقاً وأحزاباً. وقيل: إن الكهنة أخبروا فرعون بناء على رؤيا رآها في منامه بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود من بني إسرائيل، فأمر بقتل كل ذكر من أولادهم. وكان لفرعون قوابل يدرن على النساء فمن رأينها حملت في بطنها جنيناً أحصوا اسمها، فإذا ولدت بنتاً تركنها وإن ولدت ذكراً قتلوه. وكان هذا العمل مبعث قلق على الأقباط الذين خافوا أن يفنى بنو إسرئيل فيلون هم ما كانوا يقومون به من الأعمال الشاقة. فقال رؤساؤهم لفرعون إن الموت وقع في الكبار من بني إسرائيل وأنت تقتل صغارهم فيوشك أن يقع العمل الشاق علينا. فأمر بقتل الغلمان سنة وأن يُتركوا أحياء سنة حتى لا يهلك جميع بني إسرائيل. وفي السنة التي يصادف فيها قتل الذكور حملت أم موسى به عليه السلام ولم يظهر عليها أمارات الحمل كغيرها، ولم تفطن لها القوابل. فلما ولدته خبأته عن العيون فلم يتسرب خبره إلى رجال فرعون.

هذه هي الأحداث التي رافقت ولادة موسى التي يقصها علينا القرآن بإيجاز.

سُورَةُ القَصَص

ايضـــاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بوصف طغيان فرعون:

﴿طَسَم(١). تِلْك(٢) آيَاتُ الكِتَابِ المبينِ. نَتْلوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالحقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ في الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُم وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُم إِنَّه كَانَ مِنَ المفْسِدينَ﴾ (١-٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المبينِ﴾ أي هذه آيات القرآن التي أنزلناها عليك يا محمد الواضحة أنها من عند الله لا من تأليفك، الكاشفة لأمور الدين وأخبار الأولين ﴿نَتْلوا عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفرْعَوْنَ بالحَقِّ﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الملك جبريل بعضاً من خبر موسى وفرعون المشتمل على الحق في بيانه لأخبار الأولين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ﴾ لقوم يصدقون بأن القرآن كلام الله، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به دون سواهم ﴿إِنّ فرعون عَلاَ في الأَرْضِ﴾ أي علا استكباراً في نفسه عن عبادة ربه وادّعى الربوبية واستكبر وتجبّر على عباد الله ﴿وَجعَلَ أَهْلَها شِيَعاً﴾ وجعل سكانها فِرَقاً متخاصمين يعادي بعضهم بعضاً. وتلك عادة الطغاة في كل زمان ومكان لا يدعون شعبهم يتماسك ويتّحد متخذين من هذا المبدأ ـ فَرِّقْ تَسُد ـ أسلوباً لهم في الحكم ليسهل السيطرة على شعبهم وتسخيره لمآربهم وشهواتهم ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم﴾ أي

---

(١) طَسَم: ثلاثة أحرف ابتدأت بها هذه السورة وسبق أن شرحنا معناها في سورة النمل.

(٢) تلك: اسم إشارة للمؤنث البعيد والإشارة بها إلى آيات القرآن لبيان بُعْد منزلة القرآن في الفضل والشرف.

يستعبد ويستذل فريقاً منهم ويسخرهم في أشق الأعمال، وهذا الفريق هم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يُقَتِّل أبناءهم الذكور، ويترك الإناث منهم على قيد الحياة، وذلك شأن الطغاة دائماً يقتلون نخوة الأمة بقتل شبابها الذين يخالفونهم في الرأي أو زجّهم في غيابات السجون من غير محاكمة أو جرم ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفْسِدينَ﴾ والفساد نقيض الصَّلاح، وفساد فرعون هو قتله الأبرياء واستعباده للناس وتكبره عليهم، وقد أكد وصف الإفساد فيه بـ (إن) و(كان) الدالة على أن الفساد كان فيه في الماضي ومستمر في الحاضر وأنه داخل ضمن المفسدين في الأرض.

ثم يبين الله فضله على بني إسرائيل:

﴿وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الذين اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلهُمُ الوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْن وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٥-٦).

فالله يريد أن يتفضّل على بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وأذلهم واستعبدهم ﴿وَنَجْعَلَهُم أَئِمَّةً﴾ فيجعلهم الله قادة في الخير، وولاة في الأمر، ويجعل منهم ملوكاً ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ ويجعلهم الله ورّاث آل فرعون يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي يجعلهم الله يستولون على أرض الشام ومصر يتصرفون فيها كيف شاءوا ﴿وَنُرِيَ فِرعَون وَهَامَانَ وَجُنودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُون﴾ ويريهم الله حقيقة ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل وهو موسى عليه السلام، ولن ينفع حذر من قدر قدَّره الله فهذا الغلام ـ أي موسى ـ الذي احترزوا من وجوده بينهم وقتلوا بسببه ألوفاً من الولدان، وكان منشؤه ومرباه في دارهم، وغذاؤه من طعامهم، كان الوسيلة لهلاكهم على يديه، ليعلموا أن رب السموات والأرض هو القوي القاهر الغالب الذي لا تُردّ مشيئته.

وبعد الكلام عن طغيان فرعون وفضل الله على بني إسرائيل تنتقل بنا الآيات إلى وصف ولادة موسى وما رافقها من ظروف صعبة:

﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعيهِ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْه فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ وَلاَ تَخَافي وَلاَ تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فرعون لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خَاطِئينَ. وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَةُّ عَيْنٍ لي وَلَكَ لا تَقْتلوهُ عَسَى أن يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ (٧-٩).

حملت أم موسى به ولم تظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات اللواتي وكّلهن فرعون بتقصي أخبار الحبالى، ولكن لما وضعت ما في بطنها وكان ذكراً وهو موسى ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً من أن يقتله جنود فرعون، ولكن جاءها الوحي[1] من الله وذلك بأن ألهمها في سرّها، أو ألقى في خلدها، أو نفث في روعها بأن ترضع وليدها بعد ولادته، فأرضعته أشهراً أو أسابيع، وكان من ضمن ما أوحى الله إليها: ﴿فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ﴾ أي فإذا خفت عليه من فرعون وجنده فألقيه في نهر النيل، وهكذا فعلت فهيأت تابوتاً وطلته بالقار ومهدت فيه فراشاً وضعت موسى فيه وألقته في نهر النيل بعد أن طمأنها الله بقوله: ﴿وَلاَ تَخَافي وَلاَ تَحْزَني﴾ أي لا تخافي عليه من الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين﴾[2] إنا سنرجعه إليك

---

(١) وقد يكون الوحي لها رؤيا في منامها، أو كان ذلك بواسطة ملك من الملائكة أرسله إليها. والوحي لها ليس بوحي نبوة.

(٢) روي الأصمعي أنه سمع جارية تنشد أبياتاً من الشعر فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك قالت أَوَ بعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أُم موسى... إلى قوله تعالى: وجاعلوه من المرسلين﴾ فجمع في آية واحدة بين أمرين: ﴿أرضعيه وألقيه﴾ ونهيين: ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾ وخبرين متضمنين بشارتين ﴿رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

لترضعيه، وسنجعله في مقتبل عمره رسولاً منا إلى هذا الطاغية فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة والذي التقط التابوت وعثر عليه هن جواري قصر فرعون أو ابنته أو أعوانه الذين فتحوا التابوت في حضور امرأة فرعون فرأوا فيه الطفل موسى فألقى الله محبته في قلب امرأة فرعون واستبقته ﴿لِيَكُونَ(١) لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ أي ليكون لآل فرعون في المستقبل عدواً لهم وسبب همٍّ وغمٍّ لهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ إنهم كانوا عاصين لربهم آثمين، أو بمعنى: إنهم كانوا مخطئين من حيث أنهم ربُّوا من سيصير عدوهم ويلقون حتفهم على يديه ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْن قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ﴾ لقد قالت لزوجها فرعون: هذا الغلام مبعث سرور لي ولك، فأجابها فرعون: هو قرة عين لكِ، أما لي فلا ﴿لا تقتلوه﴾ خاطبت زوجها فرعون بصيغة الجمع تعظيماً له ليساعدها فيما تريد بعد أن لمست منه رغبة في قتله، وتابعت قولها له: ﴿عَسَى أن يَنْفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ رجاء أن ننتفع به في تدبير شأننا أو نتبناه ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعر الناس بأننا التقطناه.

ثم يصف القرآن الهلع الذي أصاب أم موسى بعد أن علمت التقاطه من آل فرعون، وفضل الله عليها بإرجاع طفلها لها ليتربى في حجرها:

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَت لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبها لِتَكُون مِنَ المؤمنينَ. وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَت بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ وَلَكِنَّ أَكثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠-١٣).

---

(١) ليكون: اللام الداخلة على يكون هي لام العاقبة ولام الصيرورة، فهم أخذوا موسى ليكون مبعث سرور لهم فكان عاقبة ذلك أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاء.

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ موسَى فَارِغاً﴾ أي وأصبح قلب أم موسى فارغاً من كل شيء إلّا من ذكر موسى، لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة له على تصريف الأمور لما داهمها من الجزع والخوف عند التقاطه من آل فرعون ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ إن كادت لتعلن وتُخبر الناس أن الطفل الذي التُقط هو ابنها ﴿لَوْلا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ لولا أن عصمها الله أن تظهر للناس أنه ابنها، وألهمها الصبر وثبّت قلبها ﴿لِتَكُونَ مِنَ المؤمِنينَ﴾ لتكون من الموقنين بوعد الله بحفظه وإرجاعه إليها لإرضاعه.

﴿وَقَالَتْ لأخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ وقالت أم موسى لأخته: اتْبعي أثره وتقصّي خبره ﴿فَبصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ فرأت أخاها موسى عن بُعْد ولم تَدْنُ منه لئلا يُعلم أن لها صلة به ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرون﴾ أنها تتبع أثره وأنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضِعَ﴾ وبعد التقاط موسى طلبت امرأة فرعون له المرضعات فعافهن جميعاً، ولم يلتقم ثدي أي امرأة منهن بسبب منع الله إياه من الرضاع ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل أن يرده الله لأمه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي قالت أخت موسى عندما علمت أن أخاها رفض ثدي المرضعات: هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وهم له مشفقون لا يقصرون في إرضاعه وتربيته(١).

فلما قالت ذلك ذهبوا معها إلى منزلها فدخلوا بموسى على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. وأخبرت امرأة فرعون بذلك فاستدعت أم موسى وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه، ثم سألتها امرأة فرعون أن تقيم عندها في القصر فترضعه فأبت وقالت: إن لي زوجاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في

---

(١) رُوي أن أخت موسى سُئلت: هل أمك لها لبن، قالت: نعم لبن أخي هارون وكان قد وُلد في سنة لا يقتل فيها الصبيان.

بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والمال الجزيل، فرجعت أم موسى إلى بيتها بصحبة وليدها في عزّ وجاه ورزق وفير، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كي تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ﴾ أي فرددنا موسى إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون كي تطيب نفسها وتفرح بعودته إليها ولا تحزن لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ولتتحقق من صدق وعد الله إليها بردّه إليها ﴿وَلَكِنّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ أَي لا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس ولكنه يحمل في طياته الخير الكثير.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ
ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ
حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ
وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ
يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن
يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا
قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ

شرح المفردات

ولمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى: استكمل قوته الجسدية واعتدل عقله وكَمُل.

حكماً: حكمة.

مِنْ شيعتِهِ: أي ممن شايعه وتابعه في الدين وهم بنو إسرائيل.

فَوَكَزَهُ مُوسَى: ضربه بجمع كفه.

ظَهيراً: معيناً.

يَتَرَقَّب: يتوقع المكروه.

يستصرخه: يستغيث به.

لَغَوِيٌّ مُبين: ضال عن الرشد، ظاهر الضلالة.

يبطش: يتناول الشيء بالقهر والغلبة.

أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا
وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن
دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ
يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا
جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

شَـرح المفـرَدات

يسعى: يسرع في مشيه.

الملأ: أشراف القوم ووجوههم.

يأْتَمِرون: يتشاورون ويأمر بعضهم بعضاً فيما يجب عمله.

تِلْقَاءَ مَدْيَنَ: جهة مدين وناحيتها.

سَوَاءَ السَّبيل: الطريق السهل الوسط الذي فيه النجاة.

أُمَّةً مِنَ النَّاسِ: جماعة من الناس.

تَذُودانِ: تمنعان ماشيتهما عن الماء.

مَا خَطْبُكُمَا؟: ما شأنكما؟

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ: ينصرف الرعاة عن الماء بعد سقي مواشيهم (الرعاء، الرعاة، والرعيان جمع راعٍ).

تمشى على استحياء: تمشى بحياء وخجل.

قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ
حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ
قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ *

شَــرح المفــردَات

أُنْكِحَكَ: أزوجك.

حُجج: سنين.

أَشُقَّ عَلَيْك: أوقعك في التعب والمشقة.

الأَجَلَيْن: الأجل هو المدة والزمن.

فلا عُدْوَان: فلا ظلم ولا تعدٍّ.

وَكيل: رقيب مطلع وشاهد.

تابع سورة القصص

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن موسى وما جرى له من حدث بارز في مقتبل عمره قبل النبوة:

﴿ولَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْنَاه حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزي المحْسِنينَ. وَدَخَل المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثه الذي مِنْ شِيعتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فوكَزَهُ مُوسَى فَقَضى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قَالَ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي فَغَفر لَهُ إنّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أكُون ظَهِيراً لِلمُجْرِمِينَ﴾ (١٤-١٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي ولما بلغ موسى طور الشباب وأصبح شديد البنية واعتدل جسمه في سن يقارب بضعاً وثلاثين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ أعطاه الله حكمة وفهماً في الدين وكان ذلك قبل النبوة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزي المحْسِنينَ﴾ ومثل ذلك الإحسان الذي أحسن الله به إلى موسى وأمه كذلك يكافأ الله المحسنين على إحسانهم.

﴿وَدَخَلَ المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهلها﴾ والمدينة التي دخلها موسى هي مدينة (مَنْف) من مصر وقيل مدينة غيرها، دخلها موسى مستخفياً من فرعون وقومه لأنه قد خالفهم في دينهم وعاب ما كانوا عليه من عبادة لغير الله، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى تهديده، فكان في خوف منهم. وكان لموسى أتباع من بني إسرائيل يقتدون به، والوقت الذي دخل به المدينة قيل هو مساء وقيل دخلها نصف النهار والناس يخلدون للراحة عند القيلولة. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ أي يتدافعان ويتضاربان ﴿هَذَا مِنْ شِيعتِهِ﴾ أي إن أحد المتخاصمين من بني إسرائيل ﴿وَهَذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾

والآخر من القبط من قوم فرعون ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدوِّهِ﴾ أي فطلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره ويعينه على خصمه القبطي من آل فرعون ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي ضربه بجمع كفه المضمومة الأصابع ضربة شديدة على صدره ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي قتله ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾(١) هذه العبارة تشعر بالندم الشديد من موسى لأنه لم يقصد قتل القبطي وإنما قصد دفع أذاه عن الإسرائيلي فكان قتله خطأ ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان عدو لابن آدم مضل له عن سبيل الرشاد ظاهر العداوة له ﴿قَالَ رَبِّ إِني ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي﴾ أي قال موسى: ربي إني ظلمت نفسي بقتل نفسٍ لا تستحق القتل فاغفر لي ذنبي ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فَغَفَر لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فأجاب الله دعاءه إنه عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿قَالَ: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنْ أَكُون ظَهِيراً لِلمُجرمينَ﴾ أي فلن أكون أبداً معيناً للمجرمين، وإني وإن أسأت في هذا القتل الذي صدر عن خطأ فلن أترك نصرة المؤمنين على المجرمين، فترك نصرة المؤمنين من المجرمين هو إعانة للإجرام. وموسى لم يستثن عندما قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ ولم يقل: إن شاء الله فابتلي بهذا الذي استنصره مرة أخرى كما ذكرته الآيات التالية:

(١) جعل الله أنبياءه أكمل البشر خلقاً وشملهم بعنايته وهدايته وعصمهم من الوقوع في الذنوب لأن حياتهم لم تكن لأنفسهم بل كانوا قدوة يقتدى بهم. وهنا يستوقفنا كيفية قتل موسى للقبطي فهو وكزه ليدفع أذاه عن الإسرائيلي فكانت لكمته هي القاضية عليه، فقتله كان خطأ لا عن إصرار وعمد والخطأ لا يؤاخذ عليه الإنسان عند الله وبالرغم من خطأه فقد وصف موسى عمله هذا من عمل الشيطان وطلب المغفرة من ربه. أما التوراة فتصور مقتل القبطي عن إصرار وعمد وهذا قدح في سيرته. وقد جاء في سفر الخروج: «ورأى رجلاً مصريًا يضرب رجلاً عبرانيًا من أخوته فالتفت إلى هنا وهناك فلم ير أحداً فقتل المصري وطمره في الرمل. . ».

﴿فأَصْبَحَ في المدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فإذَا الَّذي اسْتنصَرهُ بالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أن يَبْطِشَ بالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْسِ إنْ تُرِيدُ إلاَّ اَنْ تَكونَ جَبَّاراً في الأَرْضِ وَمَا تُريدُ أن تَكُونَ مِنَ المُصْلِحينَ﴾ (١٨-١٩).

أصبح موسى في تلك المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه ﴿يَتَرَقَّب﴾ أي يترقب الأخبار وينتظر ما الذي يتحدث به الناس وما هم صانعون في أمره ﴿فإذا الذي استنصَرَهُ بالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي فإذا الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يتشاجر مع قبطي آخر، فلما رأى موسى أخذ يصيح مستغيثاً به لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُ موسَى إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي إنك مفسد ضالّ ظاهر الفساد ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالّذي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي فلما أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدو له وللإسرائيلي والبطش هو الأخذ بعنف وشدة. وقيل: إن الإسرائيلي هو الذي أراد أن يبطش بالقبطي فنهاه موسى وأقبل للحيلولة بينهما، فظن الإسرائيلي أن موسى يريد قتله بعد أن سمع منه قوله: إنك لغوي مبين، فقال لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أن تقتلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس﴾ ولما سمع القبطي قول الإسرائيلي هذا علم أن موسى هو الذي قتل قتيل الأمس، وتابع الإسرائيلي كلامه لموسى: ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ إن: وقعت في موضع ما. أي ما تريد ﴿إلاَّ أن تَكُون جَبَّاراً في الأَرْضِ﴾ إلّا أن تكون قتّالاً للناس بغير حق متسلطاً عليهم ﴿وَمَا تُريدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ المصْلِحينَ﴾ وما تريد أن تكون ممن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها.

انطلق القبطي الذي كان يتشاجر مع الإسرائيلي إلى قومه فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي بأن موسى هو الذي قتل قتيل الأمس فأرسلوا في طلبه للقبض عليه والاقتصاص منه.

ثم يبين القرآن فرار موسى من مصر ووصوله إلى مدين:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المدينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ إِنّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نجني مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ. وَلَمَّا تَوَجَّه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُما قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا[١] ثُمَّ تَوَلّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِني لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٠-٢٤).

لقد جاء رجل مؤمن من أقصى المدينة حيث انتشر نبأ قتل موسى للمصري فاختصر طريقاً حتى سبق آل فرعون إلى موسى وأعلمه بما يدبّر له القوم وقال له: ﴿إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي إن أشراف قوم فرعون ورؤساءهم يتشاورون ويأمر بعضهم بعضاً بقتلك **﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾** فاخرج من مصر قبل أن يدركوك فإني لك من الناصحين للنجاة منهم **﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَترقَّبُ﴾** فخرج موسى من مصر يترقب أن يلحق به أعوان فرعون فيدركوه، فهو ينظر يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً يترقّب من يأتيه من أمامه ومن خلفه، ثم لجأ إلى ربه بالدعاء: **﴿قَالَ: رَبِّ نجني مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾** أي خلّصني يا رب واحفظني من هؤلاء القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلموا العباد بطغيانهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾[٢] ولما جعل موسى وجهة سيره نحو مدين

(١) في الآيات هنا إيجاز بليغ، والإيجاز هو اختصار بعض الألفاظ ليأتي الكلام وجيزاً بليغاً بحبث لو اقتصها أحد غير القرآن لأتى بأكثر من تلك الألفاظ كقوله تعالى ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي يسقون مواشيهم وقوله: ﴿تذودان﴾ أي تكفان مواشيهما عن الماء. وقوله: ﴿فسقى لهما﴾ أي ماشيتهما.

(٢) مدين: قرية كانت بين المدينة المنورة والشام في الجهة الغربية على البحر الأحمر.

﴿قَالَ عَسَى ربي أن يَهْدِيَني سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي لعل الله أن يرشدني إلى الطريق القويم الذي يوصلني إلى مَدْيَنَ، فهو يرجو ربه ومن يرجو ربه لا يخيب ظنه فبعث إليه ملكاً من الملائكة فأرشده إلى الطريق المستقيم إليها، وقد خرج موسى بلا زاد ولا دابة فكان يقتات بالعشب وورق الشجر ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ولما وصل موسى إلى مدينة مدين وقصد الماء فيها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وجد على البئر جماعة من الناس يسقون مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ﴾ أي وجد سوى هؤلاء الناس امرأتين تمنعان ما معهما من الأغنام عن التفرق وتكفانهما عن التقدم إلى السقي من الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ قال موسى: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كبيرٌ﴾ أي من عادتنا أننا لا نسقي حتى ينصرف الرعاة عن الماء وأبونا من كبر سنه وضعفه لا يستطيع أن يسقي ماشيته ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ فأتى موسى إلى البئر وزاحم الناس وغلبهم بقوته في الوصول إلى الماء وسقى لهما ماشيتهما، وقيل: عمد موسى إلى بئر كانت مغطاة بحجر والناس يسقون من غيرها وكان حجرها لا يرفعه إلاّ جماعة من الناس فرفعه وسقى للمرأتين ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ ثم انصرف إلى ظل شجرة يستظل بها من شدة حرارة الشمس وهو جائع ﴿فَقَالَ: رَبِّ إني لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي رب لما أنزلت إليَّ من خيرك وفضلك فقير الآن ومحتاج لما تنزله إليَّ من أي شيء كان قليلاً أو كثيراً، والخير الذي أنزله الله عليه أن خصه بالهداية كما أنه كان في غنى وبحبوحة في العيش لأنه تربى في بلاط فرعون وهو الآن بعد فراره لا يملك شيئاً جائعاً يحتاج إلى لقيمات يسدُّ بها رمقه.

يطالعنا فيما سبق أمران يلفتان النظر، أولهما: أن الفتاتين أحجمتا عن مزاحمة الرعاة على الماء كي لا تختلطا بهم حفظاً لعفتهما. وثانيهما: هو الشهامة التي تحلى بها موسى، فبالرغم من التعب الشديد الذي لاقاه

من وعثاء السفر مع ما يشكو منه من جوع فإن مروءته لم تخنه بل أسرع إلى سقي ماشيتهما شفقة بهما، وهذا أدب اجتماعي ودرس لنا بأن نؤثر الجنس الآخر على أنفسنا لأنه الجنس الضعيف ونقدم الخدمات له قبل إنجاز حاجتنا.

ثم يصف القرآن الظروف التي رافقت زواج موسى من أحدى الفتاتين:

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمينُ. قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أنْ تَأْجُرَني ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِن أتمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدك وَمَا أُريدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْني وَبَيْنَك أَيَّما الأَجلَيْنِ قَضَيْتُ فلا عُدْوَانَ عَليَّ و اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٢٥ـ٢٨).

رجعت الفتاتان إلى البيت باكراً فتعجب والدهما من سرعة رجوعهما وسألهما عن سرّ ذلك فأخبرتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ماشيتهما فأمر إحدى ابنتيه باستدعائه فانطلقت في طلبه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي على اسْتِحياءٍ﴾ جاءت إلى موسى تمشي بحياء وخجل. فالقرآن يرسم الصورة المثلى للفتاة، فهي لم تمشِ مِشية الإغراء بل مشت نحوه بخفَر وحياء، فالحياء أجمل صفات الأنثى التي يصونها من الزلل ويضفي عليها أنوثة تستهوي فضلاء الرجال، فالقرآن ذكر هذه الصفة تنويهاً وثناء على الفتيات المتحلّيات بها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي ليكافئك جزاء ما سقيت لنا من ماشيتنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ﴾ فلما حضر موسى أمام والد الفتاتين وأخبره خبر فرعون وآله وما هم عليه من كُفر وطغيان وتآمرهم على قتله ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ

﴿الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ قال لموسى: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجوت من كيد المجرمين.

أما والد الفتاتين فقد قيل إن اسمه يثرون كاهن مدين وهو ابن النبي شعيب وقيل هو النبي شعيب نفسه، وقيل غيره، والله أعلم.

وكان موسى فتيًّا نبيلاً أثار في نفس الشيخ وابنتيه عوامل الإعجاب ولذا قالت إحدى ابنتيه: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ إن أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً(١)، كلام جامع حكيم لا يزاد عليه، لأن من اجتمعت فيه هاتان الخصلتان فقد فرغ بالك وتم مرادك من استئجاره.

ولقد شعر الوالد من طلب ابنته استئجار موسى والثناء عليه أنها تستلطفه ويحوز على إعجابها، ولقد شاركها في الإعجاب لذا خاطب موسى: ﴿قال إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي إني أرغب في أن أُزوجك إحدى ابنتي هاتين ولم يخصص أحداهن بل ترك الاختيار لموسى، واشترط على ذلك ﴿عَلَى أنْ تَأْجُرَني ثَمَاني حِجَجٍ﴾ أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين ﴿فإِن أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فإن أكملتهن يا موسى بزيادة الخدمة سنتين فهذا تفضّل من عندك، وإلاّ ففي الثماني سنين كفاية ﴿وَمَا أُرِيدُ أنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط رعي الغنم عشر سنين (سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ أي في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد، والمراد بالاستثناء هنا بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ للتبرك وتفويض أمره إلى توفيق الله تعالى لا تعليق صلاحه على مشيئة الله.

---

(١) يروى أن والدها قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت له ما رأته من قوته عندما سقى لهما ماشيتهما. وذكرت من أمانته ما قال لها: امشي خلفي وأنا أمامك كراهية أن يرى شيئاً من خلفها وكان يوماً فيه ريح شديدة تلصق الثياب على البدن.

ولقد قبل موسى بهذا العرض ﴿قَالَ ذَلِكَ بيني وَبَيْنَكَ﴾ أي إن ما تعاهدنا عليه قائم بيني وبينك ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي المدتين الثماني أو العشر سنين أديتُها لك في الخدمة فليس لك أن تعتدي عليَّ فتطالبني بأكثر من ذلك ﴿وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله شهيد على ما تعاقدنا عليه.

يستوقفنا بما سبق عرض شعيب إحدى ابنتيه على موسى وهو عرض يمكن أن نستشف منه درساً بأنه لا يعيب الرجل أن يعرض بناته على رجل صالح ولو كان فقيراً إذا توسّم فيه التقوى والخلق الكريم، وأن تعرض امرأة نفسها على رجل صالح للزواج منها فهذه سنة متبعة في سلفنا الصالح، فقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت خديجة نفسها على محمد ﷺ للزواج منه قبل نبوّته.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى
ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟
إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ
أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ
يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ

شَـرح المفـردَات

الطُّور: جبل الطور .

آنَسْتُ ناراً: أبصرت من بعيد.

جَذْوةٍ مِنَ النار: جمرة ملتهبة.

تصطلون: تستدفئون من البرد.

شاطِىء الوَادي: طرف وجانب الوادي.

البُقْعَة: القطعة من الأرض تتميز عمّا حولها.

جانّ: ضرب من الحيات عظام سريعة الحركة.

وَلَّى مُدبراً: هرب منهزماً.

ولم يُعَقِّب: ولم يلتفت، ولم يرجع.

اسلك يَدَكَ في جَيْبِكَ: أدخل يدك في طوق قميصك.

بيضاء من غير سُوء: بيضاء مشعة من غير برص.

واضمم إليك جناحك مِنَ الرَّهْب : **الجناح**: اليد. **والرهب**: الخوف والفزع. أي إذا فزعت من رؤية الحية فاضمم يديك إلى صدرك، اليمنى تحت عضد اليسرى يذهب عنك الخوف.

بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ
هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا
فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا
بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ
مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ
عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ

شَـرح المفـردَات

ملئه: جماعة القوم وأشرافهم.
رِدْءًا: معينًا.
سنشدّ عَضُدَكَ: سنقويك ونعينك.
سلطاناً: غلبة وحجة.
مُفْتَرى: مختلق كاذب.
عاقبة الدار: عاقبة الدنيا المحمودة وهي الجنة.
صرحاً: قصراً عالياً.
فنبذناهم في اليـمِّ: فألقيناهم وأغرقناهم في البحر.

فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ
الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا
إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا
فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا
وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

شرح المفردات

عاقبة الظالمين: خاتمة الظالمين وجزاؤهم.

من المقبوحين: من المبعدين أو المشوهين في الخِلقة.

آتينا موسى الكتاب: أنزلنا عليه التوراة.

القرون الأولى: الأمم السابقة.

بصَائِرَ للنَّاسِ: أنواراً لقلوبهم يبصرون بها الحقائق.

يتذكَّرون: يَتَّعِظون.

قضينا إلى موسى الأمر: عهدنا وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون.

ثاوياً: مقيماً.

تابع سُورَةِ القَصَص

ولقد ذكر القرآن المرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام لينتقل بنا بعد ذلك إلى الكلام عن بدء الرسالة الإلّهية التي خصه بها:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسى الأَجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ناراً قَالَ لأَهْلِهِ مكثُوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلّي آتيكم مِنْهَا بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الَوادِ الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المبَارَكَةِ مِن الشَّجَرةِ أن يَا مُوسى إنِّي أنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ (٢٩-٣٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفق فيها مع شعيب لرعي غنمه لقاء تزويجه بنته، وقد روي أنه أتم وأكمل العشر السنين في خدمته ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ إلى مصر وكان قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية خوفاً من فرعون وقومه، فسار بأهله ومعه من الغنم التي وهبها له شعيب، وفي ليلة ممطرة مظلمة باردة أعوزه فيها الوقود ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّور نَاراً﴾ أي أحسَّ وأبصر من الجهة التي تلي جبل الطور ناراً ﴿قال لأهله امكثوا إني آنَسْتُ ناراً﴾ أي تمهلوا وانتظروا إني أبصرت ناراً ﴿لَعَلّي آتيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ لعلي آتيكم منها بخبر الطريق، وكان قد ضلَّ الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أو عُود من الحطب فيه نار ﴿لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ﴾ لعلكم تستدفئون من البرد ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِىءِ الوَادِ الأَيْمَنِ﴾ فلما أتى موسى إلى النار التي أبصرها سمع من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه ﴿في البُقْعَةِ المَبارَكَةِ﴾ في المكان المبارك عند الشجرة. وسميت مباركة لما وقع فيها من تكليم الله لموسى وتكليفه برسالته إلى فرعون ﴿أنْ يَا مُوسى إنّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ أي سمع من ذلك المكان نداءً علوياً يخاطبه: يا موسى إني أنا الله رب الإنس والجن والخلائق أجمعين لا إلّه سواي.

ثم يذكر القرآن المعجزات التي أيّد الله بها موسى عليه السلام:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّب يا مُوسَى أَقْبِل وَلَا تَخَفْ إِنَّك مِنَ الآمنينَ. آسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِك تَخْرُج بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِك بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّك إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلئِهِ إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (٣١-٣٢).

فالله سبحانه يخاطب موسى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ في الكلام هنا حذف تقديره فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان: نوع من الحيات العظام، ولما رأى موسى ذلك انتابه الرعب ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ أي ولّى موسى هارباً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يلتفت من الخوف ﴿يَا مُوسى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ أي ناداه الله: أقبل ولا تخف من الذي تهرب منه فأنت آمن من المخاوف. وتابع الله نداءه لموسى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ﴾[1] أي أدخل يدك في فتحة ثوبك عند صدرك ﴿تَخْرُج بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ثم أخرج يدك من جيب قميصك فإذا هي لامعة مشعة كشعاع الشمس من غير عيب ولا مرض ﴿وَاضْمُم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ واضمم يدك إلى صدرك يذهب عنك الفزع عند رؤية عصاك تتحول إلى ثعبان، والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحيْ الطائر وإذا أدخل الإنسان يده اليمنى تحت عضد[2] يده اليسرى فقد ضم جناحيه إليه، ويراد بضم جناحه تجلده وضبط نفسه وتشديد عزيمته عند تحول العصا إلى ثعبان، وهذا التعبير هو استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلّا فجناحاه مضمومان إليه ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ فهاتان المعجزتان: اليد البيضاء المشعة، والعصا التي

---

(١) الجيب: الفتحة في القميص ونحوه من حيث يخرج الرأس.
(٢) العضد: ما بين مرفق اليد إلى الكتف.

تتحول إلى ثعبان هما حجتان تدلان على أنك رسول من رب العالمين ﴿إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ إلى فرعون وأشراف قومه إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ونهيه.

وبعد تأييد الله لموسى بهاتين المعجزتين ذهب إلى فرعون مدعوماً بأخيه هارون ولكن فرعون كذب بنبوَّة موسى وأصرّ على كفره:

﴿قَالَ رَبِّ إنّي قَتَلْتُ مِنْهم نَفْساً فَأَخَافُ أن يَقْتُلُونِ. وَأَخي هَارونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً فَأرْسِلْهُ مَعِيَ رِدءاً يُصَدِّقُني إنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فلا يَصِلُونَ إلَيْكُمَا بآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُون. فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا في آبائِنَا الأَوَّلِينَ. وَقَال مُوسَى ربِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إنَّهُ لا يُفْلحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٣-٣٧).

لقد شكا موسى إلى ربه ما يعانيه من الخوف بقوله: يا رب إني قتلت نفساً من قوم فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني ﴿وَأخي هَارونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً﴾ أي هو أوضح بياناً وأطلق لساناً لأن موسى في لسانه لثغة[1] لا يبين معها ما يريده من الكلام ﴿فَأَرسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني﴾ فأرسله معي عوناً في تبليغ رسالتك إلى فرعون. وليس معنى يصدقني أن يقول له: صدقت، وإنما المراد أنه لزيادة فصاحته يبالغ في التبيان وفي الإجابة عن الشبهات وفي جداله لهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الاثنين إذا اجتمعا على إعلان خبر ما كانت النفس إلى تصديقهما أكثر من تلقي الخبر من الواحد ﴿قالَ: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيك﴾[2] فأجابه الله على

---

(١) لثغة: ثقل اللسان بالكلام.

(٢) سنشد عضدك: تقول العرب إذا أعز رجل رجلاً وأعانه ومنعه ممن أراده بظلم قد شد فلان على عضد فلان.

طلبه وقال له: سنقويك ونعينك بأخيك هارون ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فلا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء ﴿بآياتنا(١) أَنْتُما وَمَنِ اتَّبعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾ أي أنتما ومن اتبعكما الغالبون لفرعون وقومه بمعجزاتنا وسلطاننا الذي نجعله لكما، وفي هذا تبشير لهما بالنصر على فرعون وتثبيت لقلوبهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فلما واجه موسى فرعون وقومه بالحجج البالغة، والمعجزات الواضحة الدالة على صدق نبوته ﴿قالوا: مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحر تعلمته ثم افتريته على الله ﴿وَمَا سَمِعْنا بِهَذَا في آبائنا الأَوّلين﴾ وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه من عبادة الله وحده في آبائنا الأَوَّلين الذين مضوا قبلنا ﴿وَقَالَ مُوسَى: رَبي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي ربي أعلم بالمحقّ منا ـ يا فرعون من المبطل ومن جعله نبيًّا وبعثه بالهدى ﴿وَمَنْ تَكُون لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ومن تكون له عاقبة الدنيا المحمودة وهي الجنة في الآخرة ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ إنه لا يفوز من كان ظالماً كاذباً على الله، ولا ينجح من كان كافراً بالله.

ويتابع القرآن فيذكر إصرار فرعون على كفره وعقاب الله له في الدنيا بجانب مصيره السيّيء في الآخرة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الملأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إلَه غيري فَأَوْقِدْ لي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعَلّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنودُهُ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهم إِلَيْنا لا يُرْجَعُون. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنودَهُ فَنَبَذْنَاهُم في اليَمِّ فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمينَ. وَجَعَلْنَاهُم أَئمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهم في هَذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِنَ المقْبُوحِينَ﴾ (٣٨-٤٢).

---

(١) بآياتنا: قد تكون متعلقة بمحذوف تقديره: إذهبا بآياتنا.

لقد قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِن إِلَه غيري﴾ فكيف تصدقون موسى من أن لكم ربًّا غيري ومعبوداً سواي ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ والطين هو الوحل المعروف يطبخ ويصبح آجُرًّا صلباً يبنى به، وهامان هو وزير فرعون الذي يُصرِّف أموره ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾ فاجعل لي من هذا الآجرّ قصراً عالياً ﴿لَعَلِّي أَطَّلِع إِلَى إِلَه مُوسَى﴾ لعلي أرى وأشاهد إله موسى، قال ذلك على سبيل التهكم، وأضاف قائلاً: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء ربًّا، وإذا ظن فرعون أن موسى كاذب في إثباته إلَهاً غيره، فقد ظن أن في الوجود إلَهاً غيره.

ويروي المفسرون أنه لما بني له القصر ارتقى فوقه فأمر بنشابة لطخها بالدم خفية عن القوم ورمى بها نحو السماء، فلما عادت إليه ملطخة بالدم قال: لقد قتلت إله موسى، وهكذا استجهل قومه واستصغر عقولهم.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنودُهُ في الأَرْضِ﴾ أي واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر عن تصديق موسى بأنه رسول الله وعن اتباعه والسير فيما دعاهم إليه من التصديق بوحدانية الله والإقرار بالعبودية له وحده، كما أنهم استكبروا على عباد الله وأذلوهم وسخروهم لمآربهم ﴿بِغَيْرِ الحقّ﴾ تعدياً وعتوًّا على ربهم وعلى الناس ﴿وَظَنُّوا أنهم إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون أحياء لمجازاتهم على أعمالهم، وأنه لا ثواب ولا عقاب لهم في الآخرة.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنودَهُ فَنَبَذْنَاهُم في اليَمِّ﴾ أي فجمعنا فرعون وجنوده فألقيناهم جميعاً في البحر فأغرقناهم فيه ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمينَ﴾ فانظر يا محمد نظر تأمل واعتبار كيف كان مصير وخاتمة أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلموا العباد، فحل بهم الهلاك جزاء ظلمهم ﴿وَجَعَلْنَاهُم أَئمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ﴾ أي صيّرناهم رؤساء متبوعين مطاعين

في الكافرين فهم يدعون أتباعهم إلى عذاب النار في الآخرة لأنهم اقتدوا بهم وأطاعوهم. يفهم من هذا أن على الشعوب أن تتماسك وتتمرد على قادتها المضلين المفسدين ولا تنقاد لهم انقياد النعاج فإن الانقياد لهم، والإنصياع لأوامرهم يترتب عليه الخسران في الدنيا والآخرة.

ثم يبين الله مصيرهم في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ﴾ أي لا ينصرهم ناصر يَوْمَ القِيامَة ولا يمنعهم مانع من عذاب الله ﴿وَأَتْبَعْنَاهُم في هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزياً وغضباً منا عليهم وطرداً وبُعداً من رحمتنا ﴿وَيَوْم القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المقْبُوحِينَ﴾ أي من الذين قبحهم الله وأبعدهم عن كل خير.

ويتابع القرآن فيذكر نعمة الله على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم مبيناً بعد ذلك ما خصّ الله به محمداً ﷺ من أنباء غيبية عن الأمم السالفة:

﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولى بَصَائِرَ للنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُروناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تتلو عَلَيْهِم آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّور إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِر قَوْماً مَا أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾ (٤٣-٤٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولى﴾ من بعد ما أهلكنا الأمم السالفة بسبب كفرهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ﴿بَصَائِرَ للنَّاسِ﴾ أي جعلنا التوراة أنواراً لقلوب الناس تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل والخير والشر، فالبصيرة نور القلب الذي به يستبصر به الخير والحق، كما أن البصر نور العين الذي به يبصر المرئيات

﴿وَهُدًى﴾ وجعلنا التوراة إرشاداً لما هم فيه من ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ وجعلناها رحمة للناس ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾ أي يتذكرون نِعَمَ الله عليهم فيشكرونه على ذلك.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبيِّ﴾ أي وما كنت حاضراً بجانب غربي جبل الطور ﴿إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأَمْرَ﴾ إذ كلفناه أمرنا وألزمناه عهدنا بإرساله إلى فرعون وقومه لهدايتهم ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ولم تكن يا محمد معاصراً لموسى ولا شاهداً بجعله رسولاً من الله إلى فرعون وقومه ﴿وَلكنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً﴾ أي خلقنا أمماً كثيرة من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ فتطاول عليهم الزمن، فَحُرِّفت وصايا الله وتغيّرت الشرائع، وقست القلوب، وكفر الناس ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وما كنت يا محمد مقيماً في بلدة مدين فتعلم أخبار موسى وشعيب وابنتيه ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِم آياتِنَا﴾ لتقرأ على قومك آيات القرآن التي تقصّ أخبارهم ﴿وَلَكِنْ كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكن أرسلناك يا محمد رسولاً منا إلى قومك وأخبرناك عن كل هذه الأمور عن طريق الوحي إليك ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ وما كنت يا محمد بجانب جبل الطور حين نادينا موسى واصطفيناه للنبوة والرسالة ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن الله أعلمك بهذا عن طريق الوحي رحمة بك وبقومك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ لتبلّغه قومك وتخوفهم عاقبة كفرهم ﴿ما أتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي لم يأتهم رسول من قبلك يا محمد إليهم ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون بإنذارك لهم ويتذكرون خطأ ما هم عليه من الكفر والضلال.

فالله سبحانه يشير بالآيات السابقة إلى صدق نبوة محمد حيث أخبر عن أحوال الأمم الماضية ومنها أخبار موسى التي نحن في صددها، وهو أُمّي لا يقرأ ولا يكتب ولا تتلمذ على أيدي الأحبار والرهبان في عصره وهي أمور ثابتة يشهد بها قومه الذين عاش بينهم وعرفوا كل صغيرة وكبيرة عنه.

ولنفرض جدلاً ـ كما يدّعي أعداؤه ـ أنه مدّعٍ للنبوة وأنه تلقى ما تلقاه من أخبار الأمم الماضية عن الأحبار والرهبان إذًن لرأينا عند ذاك أن أقوال القرآن وأقوال التوراة لا تختلفان في شيء، ولكن عند المقارنة نرى أن القرآن يخالف كثيراً مما أوردته التوراة ويصحح ما جاء فيها من أقوال لا يُعقل صدورها عن الله سبحانه، بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن يروي أحداثاً لم تأتِ على ذكرها التوراة، هذا مع العلم بأن لسان الأحبار والرهبان وأُسلوب التوراة يخالف لسان وأسلوب القرآن.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ
مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ
تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ
فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ

شرح المفردات

سِحران تظاهرا: أي التوراة والقرآن سحران تعاونا

وصَّلْنَا لهم القول: أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً بعضه إثر بعض.

ويدرؤون بالحَسَنةِ السَّيِّئَة: يدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالكلمة الطيبة.

اللغو: الشتم والكلام القبيح الباطل.

سلام عليكم: سلمتم منا لا نعارضكم ولا نقابلكم بالشتم والأذى

لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى
مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ
نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ
رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا
نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

شـرح المفـردات

لا نبتغي الجاهلين: لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل.

نُتَخَطَّف من أرضنا: ننتزع منها بسرعة.

اَوَ لَمْ نُمَكِّن لَهُم حَرَماً آمناً: ألم نجعل مكانهم في مكة آمناً لا تنتهك ولا يسفك الدماء فيها.

يُجْبَى إِلَيْهِ: يجلب ويحمل إليه.

رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا: رزقاً يرزقونه من عندنا.

بَطِرَتْ مَعيشتها: طغت وكفرت بنعمة الله.

يَبعث: يرسل.

في أمها: في أعظمها وعاصمتها التي فيها القادة والرؤساء.

تـابع سُورَة القَصَص

ثم ينتقل القرآن إلى وصف تعنت المشركين إزاء دعوة الإسلام:

﴿وَلَوْلا[١] أن تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهم فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبعَ آيَاتِك وَنَكُون مِنَ المؤْمِنينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُروا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَان تَظَاهَرَا وَقَالُوا إنَّا بكلٍّ كَافِرُون﴾ (٤٧-٤٨).

والمعنى: ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلتك إليهم يا محمد حين تصيبهم عقوبة بسبب كفرهم ﴿لَوْلا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً﴾ أي يقولون معتذرين عن كفرهم: هَلَّا أرسلت إلينا يا رب رسولاً من قبل أن يحل بنا سخطك وينزل بنا عذابك ﴿فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنينَ﴾ فنتبع آيات كتابك الذي أنزلته على رسولك محمد، ونكون من المؤمنين بوحدانيتك المصدقين رسولك فيما أمرتنا به ونهيتنا عنه. والمعنى المراد: أنه لولا احتجاجهم بعدم إرسال الرسل لما أرسلناك يا محمد إليهم من عندنا ولعاجلناهم بالعقوبة ولكن جرت سنتنا بأن لا نُعذب قوماً إلّا بعد أن نُرسل إليهم رسولاً من عندنا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نبعث رسُولاً﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ فلما جاءهم محمد بالرسالة من الله إليهم مؤيَّداً من القرآن الذي هو معجزة من الله، قالوا تمرّداً على الله وتمادياً في الغي: ﴿لَوْلَا أُوتي مِثْلَ مَا أُوتي مُوسى﴾ أي هلَّا أُعطي محمد معجزات مثل معجزات موسى من العصا التي تحولت ثعباناً واليد البيضا وفَلْق البحر وغيرها من المعجزات ﴿أَوَلَمْ يَكْفُروا بِمَا أُوتيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أو لم يكفر كفّار قريش من قبل بموسى ومعجزاته وما

---

(١) لولا: هي امتناعية وجوابها محذوف تقديره: لما ارسلناك إليهم رسولاً، أو لعاجلناهم بالعقوبة أما (لولا) الثانية فهي تحضيضية بمعنى: هلّا.

أنزل عليه من التوراة ﴿وَقَالُوا سِحْرَان تَظَاهَرا﴾ أي أن التوراة والقرآن هما سحران تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر. وذلك أن كفار قريش بعثوا جماعة منهم إلى رؤساء اليهود فسألوهم عن شأن النبي ﷺ، فقالوا: إنا نجد نعته وصفته في التوراة، فلما رجعت الجماعة وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك. وهناك قراءة للآية: ﴿سَاحِران تظاهرا﴾ يقصد بهما موسى ومحمد ﴿وَقَالُوا إنَّا بِكُلٍّ كَافِرونَ﴾ أي جاحدون بكل من التوراة والقرآن، أو جاحدون بموسى ومحمد، وهذا القول منهم: تأكيد لكفرهم وتماديهم في طغيانهم.

وبعد إقرار المشركين بالجحود بكتابي الله يأتي التحدي الرباني لهم بأن يأتوا بكتاب هو أهدى منهما للبشر:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. فَإن لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمِينَ. وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهم يَتَذَكَّرونَ﴾ (٤٩-٥١).

أي قل يا محمد للقائلين بأن التوراة والقرآن هما سحران تعاونا: هاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما[١] لطريق الحق ولسبيل الرشاد

(١) وصف الله التوراة بجانب القرآن بأنهما يشتملان على الهدى الرباني والمراد بذلك التوراة الأصلية التي أنزلت على موسى. فالتوراة الحالية قد طرأ عليها التحريف والتبديل والإضافات الغريبة وهي ليس لها سند متصل بموسى. وقد ذكر القرآن عن اليهود بأنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ وذلك في كتبهم الدينية. هذا مع العلم أن الرسول محمد حدد القول الفصل في كتب أهل الكتاب حيث قال: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بما أُنزل إلينا وأُنزل إليكم) وهذا يعني أن التوراة لا تخلو من وصايا الله كما لم تَخْلُ من بعض الإضافات الغريبة التي أُلحقت بها، وأن القرآن يصرح أنه بعد مجيء الإسلام ذلك الدين الذي جاء به رسول الله محمد من عند ربه فإن الله لا يقبل من إنسان ديناً غيره يوم الحساب ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة لمن الخاسرين﴾.

﴿أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ اتمسك به وأسير على موجبه إن كنتم صادقين أن هذين الكتابين سحران وأن الحق في غيرهما ﴿فَإن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فإن هم لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم من إتيان كتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُم﴾ أي فاعلم أنما يتبعون في تكذيبك يا محمد وما جئت به من عند الله أهواء نفوسهم تاركين الحق مكابرة وعناداً ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي لا أحد أكثر ضلالاً ممن اتبع هواه في الدِّين بغير رشاد من الله ﴿إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالِمينَ﴾ والله لا يوفق إلى الحق من كان معانداً ظالماً لنفسه باتباع الباطل ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ ولقد أنزلنا القرآن إنزالاً متواصلاً متتابعاً بعضه إثر بعض وبينّا فيه الوعد والوعيد والمواعظ والنصائح والأحكام ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾ ليتذكر قومك يا محمد ويتعظوا ويؤمنوا به.

هذا هو التحدي السافر بأن يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن أعلنه محمد ﷺ على قومه بواسطة الوحي الإلّهي وهو النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وها هي سنون تمضي وقرون يتبع بعضها بعضاً ويظل هذا التحدي يقرع أسماع شعوب الأرض التي يجحد بعضها بأن القرآن هو كتاب الله حقًا وأن محمداً رسول الله. فالبشرية في تاريخها الطويل لم تعرف كتاباً فيه حقائق الوجود ودستور سعادة الأمم مثل القرآن. وها نحن في الزمن الذي أُدوّن فيه هذه الكلمات أي بعد خمسة عشر قرناً من نزول القرآن لم نسمع عن كاتب أو مجموعة من الكتاب أتوا بكتاب اشتمل على الهداية بما يفوق القرآن أو يوازيه، هذه الحقائق نعرضها لكل طالب حق ليؤمن بنبوة محمد عن يقين واقتناع.

ثم بيَّن القرآن بعد ذلك دليلًا على أنه وحي إلّهي وهو اعتناق بعض علماء النصارى واليهود للإسلام بعدما لمسوا في القرآن الحقائق الثابتة التي تشهد أنه من عند الله:

﴿الَّذِينَ آتيناهُمُ الكِتَاب مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُم سَلام عَلَيْكُم لا نَبْتَغي الجَاهِلِينَ﴾ (٥٢-٥٥).

أخبر الله بهذه الآيات أن قوماً ممن أُوتوا الكتاب دخلوا في الإسلام، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، منهم من كان من علماء بني إسرائيل ومنهم من كان من علماء النصارى، فنزلت هذه الآيات تنوّه بهم وتَعِدُهم بالأجر الجزيل يوم القيامة.

فالله سبحانه يقول: ﴿الَّذِينَ آتينَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ هم يصدّقون بأن القرآن كتاب الله وأن محمداً رسوله ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ وإذا قرىء عليهم القرآن قالوا صدّقنا بأنه من عند الله ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ إنه الحق المنزل من عند ربنا ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قِبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إنَّا كنا قبل نزول القرآن مسلمين، أي موحدين لله خاضعين له مؤمنين بما جاء به الأنبياء قبل مجيء محمد، ومؤمنين بأن الله سيبعث محمداً رسولاً لِمَا قرأنا من نعته في التوراة والإنجيل ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أولئك يُعْطَوْن ثوابهم مضاعفاً، مرة على صبرهم وثباتهم على دينهم الأول، ومرة على اعتناقهم للإسلام وصبرهم على ما يلحقهم من أذى في سبيله، وقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: «ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين، وذكر منهم: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي».

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب يقابلون السيئة بالإحسان والعفو والصفح، ويقابلون الكلام

القبيح كالسب والشتم بالكلمة الطيبة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ وينفقون في سبيل الخير مما رزقهم الله من مال.

وأريد أن أوضح حقيقة تخفى على البعض وهي أن الإسلام ليس بدين جديد بل هو الدين الذي أوحى به الله إلى نوح والنبيين من بعده الذي أساسه توحيد الله وعبادته وحده، والإيمان بالجزاء على الأعمال في الآخرة، والعمل بشريعة الله. وكانت الشرائع تختلف من نبي إلى نبي حسب حال الأمم ودرجة استعدادها العقلي، ثم شاء الله بعد أن اختلف الناس حول الدين ودخلت عليه التحريفات والشروحات الباطلة أن يرسل الله محمداً بالدين الحق ويجعله خاتم الأنبياء، ويخصه بشريعة توافق تطور الأمم وتصلح لكل زمان ومكان، وهذه الشريعة ترفع عن كاهل الأمم الواجبات الدينية التي أثقلتهم، وهذا ما أعلنه القرآن: ﴿الذين يَتَّبِعُون الرَّسولَ النبيَّ الأُميَّ (أي محمد) الذي يَجِدونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهم في التَّوْرَاةِ والإِنجيل يأمُرُهُم بِالمعْروفِ وَيَنْهاهُم عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيباتِ وَيُحرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُم[١] وَالأَغْلالَ التي كَانَتْ عَلَيْهِم. . .﴾

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى متابعة الآيات السابقة:

﴿وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي وإذا سمع هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من اليهود والنصارى الباطل من القول الذي فيه الشتم والأذى لهم من قومهم ﴿أعْرَضُوا عَنْهُ﴾ انصرفوا عنه ولم يصغوا إليه ولم يستمعوا إليه، وقيل المراد باللغو هنا ما ألحقه أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل مما ليس هو منه ﴿وَقَالُوا: لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ قد رضينا بها لأنفسنا لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء ﴿وَلَكُم أعْمَالُكُمْ﴾ قد رضيتم بها لأنفسكم لا يلحقكم نفع من إيماننا شيء ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ولكن

---

(١) إصرهم: التكاليف الشاقة.

سلام المتاركة والأمان من أن يسمعوا منهم سبًّا أو مما لا يحبونه من القول ﴿لا نبتغي الجَاهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه برد الكلام القبيح بمثله.

ثم يبين القرآن بأن الرسول محمد لا يملك هداية من أحب مع بيان أعذار المشركين التي يتعللون بها لرفضهم الإسلام:

﴿إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّه يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ. وَقَالوا إن نَتَّبعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أكْثَرُهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٦-٥٧).

فالله يخاطب رسوله محمداً: ﴿إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر أن تُدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وأهلك وغيرهم ﴿وَلَكِنَّ اللَه يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بمن يريد أن يهديه بتوفيقه للإيمان به وبرسوله محمد ويشرح صدره للإسلام ﴿وَهُوَ أعْلَمُ بِالْمُهتَدِينَ﴾ والله أعلم لمن قُدِّر له أن يهتدي إلى الرشاد. هذه الآية وإن كان حكمها عاماً فإنها نزلت في عم النبي ﷺ (أبي طالب) فقد كان يحوط النبي بعطفه وينصره ويحبه حبًّا شديداً، فلما حضرته الوفاة دعاه النبي ﷺ إلى الإيمان بالله والدخول في الإسلام وقال له: قل لا إلّه إلا الله أشهد لك بها عند الله، فأبى أبو طالب خيفة أن يعيّره كفار قريش وتقول: ما حمله على إيمانه إلّا جزع الموت، ومات على كفره. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَان لِلنَّبيِّ وَالَّذين آمَنُوا أن يَسْتَغْفِروا لِلمشْرِكينَ وَلَوْ كَانُوا أُولي قُرْبى﴾ التوبة: ١١٣ وفي هذا عبرة للذين يؤثرون الجاه والمكانة في قومهم على الاستجابة لدعوة الحق وإعلان رأيهم بدون خوف ولا وجل.

ويذكر القرآن ما قاله الكفار للنبي ﷺ: ﴿إن نَتَّبعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ

مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به يا محمد من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن ينتزعنا الناس من أرضنا ويهلكونا بسرعة، فأجابهم الله على قولهم هذا ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ فالله يمتنّ عليهم بأن جعل بلدهم مكة حرماً مكيناً ثابتاً حرمته. والحرم: ما لا يحل انتهاكه وبهذا سميت مكة وما حولها حرماً لوجود بيت الله الحرام فيها حيث حرم الله على الناس في هذا البلد من عهد إبراهيم سفك الدماء ومنعهم أيضاً أن ينالوا سكانه بسوء. لذا كان العرب يحترمون مكة وما كانوا يصيبون سكانها مطلقاً بالأذى، بينما كان العرب حولهم يشتغلون بالسلب والنهب والغارات فيما بينهم، فكيف يكون هذا البلد الذي يسكنون فيه حرماً آمناً لهم في حال كفرهم ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا البلد يجمع ويُحمل إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة، وهذه النعم والخيرات على مكة لانزال نرى آثارها إلى اليوم ببركة بيت الله الحرام ﴿رِزْقاً من لَدُنَّا﴾ أي رزقاً من عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون بأن الله الذي رزقهم وأعطاهم الأمن حال كفرهم، يرزقهم ويعطيهم الأمن حال إسلامهم.

وبعد أن بيَّن الله لأهل مكة ما خصَّهم به من النِّعَم أتْبَعَ ذلك ببيان عاقبة البطر الذي يؤدي إلى هلاك الأمم وخرابها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحنُ الْوَارِثِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ في أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِم آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إلاَّ وَأَهْلُها ظَالِمُونَ﴾ (٥٨ـ٥٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ[١] معيشَتَهَا﴾ أي

(١) البطر: التبختر، وقيل الطغيان عند النعمة وطول الغنى. وبطر النعمة لم يشكرها.

وكثيراً ما أهلك الله أهل قرية بسبب بطرها في معيشتها، والبطر: كفران النعمة وعصيان الله فيها والإعراض عن شكر الله وعبادته ومجاوزة الحد في الزهو والكبرياء في الأرض ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلَّا قَلِيلاً﴾ فتلك منازل القوم الذين بطروا لم تسكن منازلهم من بعد هلاكهم إلّا فترات عابرة للمارّين بها، أو لقلة منهم رجعوا إلى مساكنهم وظلّوا على قيد الحياة بعدما أهلك الله تلك القرية بجائحة سماوية أو بحرب طاحنة أو غير ذلك من الأسباب ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي ولم يكن لتلك القرى التي هلكت من وارث ولا مالك لها إلّا الله الذي له ميراث السموات والأرض.

ما أصدق هذه الآية وانطباقها على كثير من الأمم التي هلكت بسبب بطرها وإعراضها عن هدى ربها.

هذه الآية من أهم الإنذارات للأمم التي تسير في طريق البطر يغرها في ذلك ثرواتها الهائلة وتحسب أنها بمنجى من غائلات الزمن، وأن المال يضمن لها استمرار النعيم والخلود في الأرض.

هذه الآية هي قاعدة جليلة أحرى أن توضع في علم الاجتماع تبين أسباب سقوط الأمم وخرابها ويحتاج بيان أبعادها إلى صفحات كثيرة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حَتَّى يَبْعَثَ في أُمِّهَا رَسُولاً﴾ حتى يرسل إلى عاصمتها وأصلها وأعظمها رسولاً من البشر إليها وقد أرسل الله إلى مكة رسوله محمداً ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِنَا﴾ يقرأ عليهم آيات كتابنا ﴿وَمَا كُنَّا مُهلكي القُرى إلَّا وَأَهْلُها ظَالِمون﴾ وما كان الله مهلك القرى إلّا وقد استحق أهلها الهلاك بسبب ظلمهم. والظلم قسمان: ظلم للنفس بكفرانها للخالق وعصيان أوامره والتعدي على حدوده التي رسمها لعباده، وظلم للغير بالتعدي على ماله وعرضه ودمه وكرامته. والله لا يظلم أحداً كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلك القُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن
مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ٦١
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٦٢
قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ٦٥
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ٦٧ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٧٠ قُلْ أَرَءَيْتُمْ

شرح المفردات

من المحضرين: من الذين أُحضروا للنار.

حَقَّ عليهم الْقَوْلُ: وجب عليهم عذاب الله.

أغْوَيْنَاهم كَمَا غَوَيْنَا: أضللناهم كما ضللنا.

الخِيَرة: الاختيار في الشيء.

تُكِنُّ صُدورهم: تضمره قلوبهم.

إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

شـرح المفـردات

سَرْمَداً : دائماً متصلاً .

نَزَعْنَا : أخرجنا .

تـابع سُورَة القَصَص

ولما كان الأخذ بدين الله يستلزم التضحية بكثير من مشتهيات النفس وملذاتها، لذا بيّن القرآن بأن ما عند الله من ثواب خير من نعيم الدنيا الفانية:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيء فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦٠-٦١).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وما أُعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والخيرات والأولاد في الدنيا فإنما هو متاع محدود ونعيم زائل ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وما عند اللّه من ثواب في الآخرة أفضل وأدوم من نعيم الدنيا الزائل ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكرون وتدركون بأن الباقي الدائم أفضل من الزائل الفاني.

فالله يخبر عن حقارة الدنيا وزوال نعيمها بالنسبة إلى ما أعده الله في الآخرة لعباده من النعيم المقيم.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ أي أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله به على صالح الأعمال بالجنة ﴿فَهُوَ لاقِيهِ﴾ فهو مدركه لا محالة، فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ كمن متعناه بلذائذ الحياة الدنيا، ونسي العمل الصالح الذي أمرنا به عبادنا، وكفر وعمل سيئاً ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي يحضره الله يوم القيامة للعذاب فى النار.

والاستفهام في مطلع الآية للإنكار، أي ليس حال المؤمن والكافر سواء فإن المؤمن المطيع لربه مصيره بأن يظفر بما وُعِدَ به من الجنة، والكافر الذي آثر الحياة الدنيا وترك طاعة الله فهو صائر إلى عذاب النار.

ثم ينتقل القرآن إلى تصوير حال المشركين وهم في موقف الحساب بين يدي الله يوم القيامة حيث يُوبَّخون على عقائدهم الباطلة:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِم الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيانا يَعْبُدونَ. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ كَانُوا يَهْتَدُونَ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ. فَأَمَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِن الْمفلِحِينَ﴾ (٦٢-٦٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِم فَيَقُول أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُم تَزْعُمُون﴾ أي واذكر ـ أيها النبي ـ يوم ينادي الله المشركين في موقف الحساب يوم القيامة يناديهم نداء توبيخ لهم: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الحياة الدنيا وتزعمون أنها شريكة لله؟ ليدافعوا عنكم أو ليشفعوا بكم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ قال الشياطين الذين ثبت عليهم غضب الله ووعيده ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أَغْوَيناهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أضللناهم كما ضللنا وهم ضلوا باختيارهم لا عن طريق القسر والإكراه ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبرأنا منهم ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي لم يعبدونا نحن بل عبدوا أهواءهم وأطاعوا شهواتهم ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ وقيل للكفار استغيثوا بآلهتكم التي زعمتم أنها شريكة لله لينصروكم، قيل لهم ذلك على سبيل التهكم بهم ﴿فَدَعَوْهم﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ولم ينفعوهم في شيء ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُون﴾ أي أبصروا العذاب نازلاً بهم، وتمنوا لو كانوا مهتدين في الدنيا لَمّا رأوا العذاب في الآخرة. ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِم فَيَقُولُ: مَاذَا أَجَبْتُم الْمُرْسَلين﴾ توبيخ آخر للمشركين، أي يوم ينادي الله المشركين أيضاً ويسألهم ماذا أجبتم رسلي

الذين أرسلناهم إليكم من دعائكم إلى توحيدنا والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام ﴿فَعَمِيت عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ والمراد بالأنباء: الحجج، أي خفيت عليهم الحجج فلم يدروا بما يحتجون لأنهم أُبلغوا رسالة الله إليهم في دنياهم فلم يهتدوا ﴿فَهُمْ لا يتسَاءَلُونَ﴾ فهم لا يسأل بعضهم بعضاً ولا ينطقون بحجة ولا يدرون عما يجيبون.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ فأما من تاب من الشرك بالله وأخلص له الألوهية ورجع عن ذنبه وصدّق برسول الله محمد ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وعمل بما أمره الله بعمله في القرآن وعلى لسان رسوله محمد من الأعمال الصالحة ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ المفْلِحِينَ﴾ وعسى تفيد التحقيق على عادة الكرام والله أكرم الأكرمين. وقد تكون عسى للترجّي من قبل التائب وطمعه في رحمة الله بمعنى: فليتوقع التائب المؤمن الفوز برحمة الله.

وبعد توبيخ المشركين على عبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع يبيّن القرآن أن أمر العباد ومصيرهم بيد الله فهو الذي يختار لهم ما يشاء في حياتهم:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحَان اللَّهِ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ. وَهُوَ اللَّهُ لا إلَه إلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ في الأُولى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٦٨).

فالله سبحانه هو المنفرد بالخلق والاختيار ليس له في ذلك منازع وهو أعلم بوجوه الحكمة في اختياره، يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، ويختار للنبوة من يشاء من خلقه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ ما: أي ليس لهم الاختيار على ما اختاره الله لهم، فاختيار الله فيه وجوه الحكمة لعباده والخير لهم واختيارهم لأنفسهم قد يسبب لهم الخسران.

ولهذا لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا الهامة حتى يسأل الله الخيرة في ذلك، فقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا أراد أمراً قال: «اللهم خِرْ لي واخترْ لي».

وروي عن جابر بن عبدالله أنه قال: كـان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدِر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمى حاجته) خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه. اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدُر لي الخير حيث كان ثم رضّني به»(١).

﴿سُبْحَانَ اللَّهَ وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزّه الله عن أن ينازعه أحد في ملكه أو يشاركه في اختياره وحكمه أحد.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ والله يعلم ما تخفي صدور خلقه، كما يعلم ما يضمر المشركون من عداوة للنبي ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من أقوال ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وربك يا محمد هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له ﴿لَهُ الْحَمْدُ في الأُولى وَالآخِرَةِ﴾ له الثناء والشكر في الدنيا والآخرة على ما تفضّل به على عباده ﴿وَلَهُ الحُكْمُ﴾ وله القضاء النافذ يقضي بين عباده بما شاء من غير أن يشاركه أحد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه وحده مرجع الخلق حيث يبعثهم أحياء يوم القيامة ويجازي كل محسن بأحسانه وكل مسيء بإساءته.

---

(١) رواه البخاري.

ثم يبيّن القرآن بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمة الله وقدرته وفضله على الناس حيث جعل الليل والنهار يتعاقبان بهذا النظام المعهود.

﴿قُل أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتيكم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ. قل أَرَأَيْتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأْتيكم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِه جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيه وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ (٧١-٧٣).

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً إلى يوم القيامة: ﴿مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتيكم بِضِيَاءٍ﴾ أي هل لكم إلَه من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ونور لتسعوْا فيه إلى معيشتكم وتبصروا فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به ثماركم، وتنمو به زروعكم، وترعى فيه أنعامكم ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وتدبّر وتفكّر ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي قل لهم يا محمد أيضاً: أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائماً مستمرًّا إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَه غَيْرُ اللَّهِ يَأْتيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي من إلَه من الآلهة التي تعبدونها غير الله يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدأون لراحة أبدانكم من التعب مما تزاولون من طلب المعاش والكسب. فسكون الليل من الضجيج والظلمة التي تخيم على كل شيء هما عاملان يساعدان على النوم العميق، ومهما نام الإنسان في نهاره فلا يعوّض تعبه ويريح أعصابه مثل نوم الليل، والنوم ضرورة حياتية لجميع الأحياء فكل مخلوق حي يفقد النوم أو نمنعه عنه لا يلبث عاجلاً أو آجلاً أن يموت ﴿أفلا تُبْصِرُونَ﴾ أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار وما فيهما من رحمة للناس فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلّا لمن أنعم عليكم بذلك.

ومن الملفت للنظر أن القرآن قال فيما سبق تعقيباً على ذكر الليل ﴿أفَلا تَسْمَعُونَ﴾ وهنا يقول تعقيباً على ذكر النهار ﴿أفَلا تُبْصِرُونَ﴾ وذلك أن السمع حاسة الليل والبصر حاسة النهار فتأمل دقة التعبير في القرآن.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ ومن مظاهر رحمته بكم أيها الناس أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقة ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا بالليل من تعب الحياة ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولتلتمسوا رزق الله في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا الله على إنعامه عليكم بذلك بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو فاته بالنهار استدركه بالليل.

فاختلاف الليل والنهار هو من تأثير دوران الأرض حول محورها مقابل الشمس. ولنفرض أن الأرض ثابتة لا تدور لحدثت بذلك تغييرات جوهريةٍ، منها استمرار الظلام في نصفها، واستمرار ضياء الشمس في نصفها الآخر المواجه للشمس، وبهذا ترتفع الحرارة في النصف المضاء ارتفاعاً لا يطاق، وتشتعل الحرائق في كل مكان ويتجمد النصف المظلم، ويصبح العيش على سطح الكرة الأرضية صعباً للغاية. أما نظام الأرض الحالي بدورانها حول محورها بهذه الدقة المعهودة فإنه يكفل تعاقب الليل والنهار ويتهيأ الجو الصالح لحياة الإنسان والحيوان والنبات، وهذا يدل على القصد ووجود قدرة إلّهية حكيمة، وينفي ادّعاء الذين يقولون بقيام الكون على المصادفة والمادة العمياء، فالمصادفة والمادة العمياء لا تصنعان هذه الأرض المؤاتية للحياة القائمة على نهاية الحكمة.

وبعد بيان فضل الله على الناس يعود القرآن لتوبيخ المشركين على عبادتهم آلهة غير الله:

﴿وَيَوْم يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ: أين شُرَكَائِيَ الَّذينَ كُنْتُم تَزْعُمُونَ. وَنَزَعْنَا مِنْ

كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً، فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّ الحقَّ لِلَّهِ، وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٤-٧٥).

أي واذكر كذلك - أيها النبي - يوم يُنادَى المشركون من جانب الله تعالى نداء توبيخ فَيُقال لهم: أين شركائي من الأصنام وغيرها مما كنتم تزعمون أنها آلهة تنصركم أو تشفع لكم؟ وهذا تكرار لما سبق وتوبيخ إثر توبيخ لأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده وإفراده بالعبادة ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً﴾ أي وأحضرنا من كل أمة شهيداً وهو رسول الله إليها يشهد عليها بما كان من أعمال لها في الدنيا وبما أجابته أمته ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾ أي هاتوا حجتكم على إشراككم بالله، فعند ذلك خرسوا عن إقامة البرهان ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الحقَّ لِلَّه﴾ فعلموا حينئذٍ أن لله الحجة البالغة عليهم وأن الحق لله في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم وبطل ما كانوا يختلقون من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة.

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ
مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا
تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ
ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ
عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ
قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ

شـرح المفـردات

شَهيداً: شاهداً.

مَفَاتِحَهُ: خزائنه.

لتنوء بالعصبة: ليثقل حملها على جماعة من الناس.

القرون: الأمم السابقة.

يُلقَّاهَا: يوفق للعمل بها.

فئة: جماعة.

وَيْكَأَنَّ: ألم تر.

يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن
جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ
مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ
رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

شرح المفردات

يَبْسُط الرِّزْق: يوسعه.

وَيَقْدِر: يضيق.

لرادُّكَ إلى مَعادٍ: لمعيدك إلى مكة.

ظهيراً: مُعيناً.

يَصُدُّنَّكَ: يمنعك ويصرفك.

تابع سُورَة القَصَص

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قارون وما حلّ به من هلاك بسبب بطره وكبريائه واعتزازه بماله:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِم وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبةِ أُولي القُوَّةِ إذا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ. وابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنَيا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ في الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المفْسِدِينَ﴾ (٧٦-٧٧).

فقارون كان من قوم موسى أي من بني إسرائيل. ويروى أنه كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَى عَلَيْهِم﴾ أي تجاوز الحدّ في الكِبرياء والتجبّر والظلم على قومه، وسببُ هذا البغي هو كثرة ماله ﴿وآتَيْنَاه مِنَ الكُنُوزِ﴾ أي وأعطاه الله كثيراً من الأموال، والكنوز: جمع كنز وهو ما يجمع ويدخر من مال أو نحوه ويحفظ ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ مفاتح جمع مِفتح وهو ما يفتح به. وقيل هي جمع مَفتح بفتح الميم وهي الخزائن في قول أكثر المفسرين ﴿لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ﴾ أي أن خزائنه ليثقل ويعجز عن حملها جماعة أقوياء من الرجال، والعصبة ما بين العشرة إلى الأربعين رجلاً، وهذا يصوّر مدى ثرائه وغناه الفاحش ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ﴾ إذ وعظه المؤمنون من قومه: لا تبطر بما أنت فيه ولا تكن من الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ﴿إِنَّ اللَّه لا يُحِبُّ الفَرِحينَ﴾ إن الله لا يحب الفرحين بأموالهم الذين يفخرون به على الناس ويتباهون به، لأن الفرح والتباهي به يؤذي عباد الله الذين لا يجدون الكفاف من العيش، كما أن الفرح والتباهي بالمال يجعل صاحبه حريصاً عليه بخيلاً به لا يؤدي حقه للمساكين.

وتابع المؤمنون وعظهم لقارون ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾

أي والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بإنفاق مالك في سبيل الله، وفيما يرضيه من وجوه الإنفاق في طاعته وفي حاجات المحرومين من الناس ﴿ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ولا تضيع حظك من دنياك مما أباح الله لك من الطيبات ووجوه الحلال في التمتع به من المآكل والمشارب والملابس والمسكن بدون إسراف ولا تبذير ولا مباهاة. أو بمعنى: لا تنس أن تعمل في دنياك لآخرتك بطاعة الله ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وأحسن في الدنيا بإنفاق مالك الذي أعطاك الله إياه على عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم بك عليك من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ في الأَرْضِ﴾ ولا تلتمس الإفساد في الأرض بإنفاق المال في غير وجهه وفي معاصي الله ﴿إِنَّ الله لا يُحِبُّ الْمُفْسِدينَ﴾ إنَّ الله لا يحب الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فيها.

ثم يذكر القرآن غرور قارون وإدعائه بأن غناه هو لفضل فيه على غيره:

﴿قَالَ إِنَّما أُوتيته عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَم أنَّ اللَّه قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ولا يُسْأَل عَن ذُنُوبهم المجْرِمُونَ﴾ (٧٨).

لقد أجاب قارون الذين وعظوه: ﴿قَالَ إِنَّما أُوتيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي لقد أُعطيتُ هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوّع لي جمعه، وقد حصلت عليه بجهدي الخاص ولولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال.

فالقرآن يصف نفسية قارون ومنهج تفكيره بما ينطبق على أكثر الأغنياء البطرين في الأرض فلو أننا حاججنا غنيًّا من أمثال هؤلاء لما خرج قوله على قول قارون، ناسياً أن الله الذي له ملك السموات والأرض هو

الذي رزقه هذا المال وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويضيّق الرزق على من يشاء لا على سبيل استحقاق له أو رضا أو مقت منه ولكن على سبيل الامتحان والابتلاء ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المجرِمُونَ﴾ ولا تسأل الملائكة عن ذنوب هؤلاء المجرمين الذين أهلكهم الله بسبب بطرهم وبغيهم في الأرض لأنهم يعرفون بسيماهم وهم يدخلون النار بغير حساب على أعمالهم.

ويتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر البطر في قارون ونهايته التعيسة:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُون الْحَياةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمنتَصِرينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِين تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن منَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ (٧٩ـ٨٢).

فقارون خرج على قومه في موكب فخم وزينة عظيمة يحيط به خدمه الذين يمتطون الخيول المكسوة بالديباج ﴿قَالَ الَّذين يُريدُون الحَياةَ الدُّنْيَا﴾ أي قال الذين يريدون الحياة الدنيا وملذاتها وتفتنهم زينتها عند مرأى موكب قارون ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ﴾ تَمَنُّوا أن يكون لهم من المال والثراء مثل ما أُعطي قارون ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إن قارون لذو حظ كبير فيما أُعطي من مال ونعيم، هذا ما قالوه في أنفسهم وفيما تداولوا بينهم من كلام.

ولكن هناك أناساً لا تغرهم هذه المظاهر الخلابة لأن عندهم قيماً أخرى غير قيم المال وهم الذين ﴿أُوتُوا العِلْمَ﴾ وهم أحبارُ بني إسرائيل

المطلعون على كتاب الله ﴿وَقَالَ الذين أُوتُوا العِلْمَ وَيْلكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لقد قالوا للذين تمنوا أن يكونوا مثل قارون: ارتدعوا وانزجروا عن تمنياتكم هذه فثواب الله وجزاؤه في الآخرة خير مما أُعطي قارون من مال في الدنيا ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ لمن صدّق بوحدانية الله وعمل صالح الأعمال مما أمر الله به ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إلَّا الصَّابِرُونَ﴾ ولا يوفق للعمل بها إلّا الصابرون على طاعة الله الذين آثروا ما عند الله من جزيل الثواب على لذات الدنيا وشهواتها الزائلة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدارِه الأَرْضَ﴾ أي جعل الله الأرض تغور به وبكنوزه وتغيبهم فيها ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فئة يَنْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فما كان له من جماعة من غير الله ينصرونه مما نزل به من عقاب الله له ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمنتَصِرينَ﴾ وما كان من الممتنعين من عذاب الله. ﴿وَأَصْبَحَ الَّذين تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ وأصبح الذين تمنّوا مكان قارون ومنزلته في الدنيا وغناه يقولون لما حلَّ به الهلاك ﴿يَقولون: وَيْكأَنَّ(١) اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي ألم ترَ أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لفضل منزلته عنده، ويضيق الرزق على من يشاء من خلقه امتحاناً لهم وابتلاء ليظهر حقيقة إيمانهم ﴿لَوْلَا أنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخسفَ بِنَا﴾ أي لولا أن تفضّل الله علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لكان مصيرنا مصير قارون وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿وَيْكأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرون﴾ ألم تعلم أنه لا يفوز الكافرون في دنياهم وآخرتهم.

وبعد الكلام عن طغيان قارون وما حلَّ به من سخط الله عليه يبين القرآن صفات الذين يشملهم الله بثوابه وأجره الجزيل يوم القيامة:

---

(١) ويكأن: بمعنى ألم يعلم، أو ألم تر، وقيل: إنهما كلمتان. وي بمعنى التندم أو التعجب ثم استأنف قوله: كأن.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذين لا يُريدون عُلُوًّا في الأَرْض وَلا فَسَاداً والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذين عَمِلُوا السَّيئَاتِ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٣-٨٤).

أي فنعيم الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون تكبّراً ولا عُلوًّا في الأرض ولا تجبّراً ولا ظلماً للناس بغير الحق ولا عملاً بمعاصي الله التي تفسد الأرض. هذه هي القيم الخيِّرة التي أراد الله أن يغرسها في نفوس البشر لتصلح حياتهم وتستقيم بها أمورهم. فإذا تقصينا كل المشاكل التي تنتاب الإنسانية لرأيناها تنجم عن التكبّر والعلو في الأرض سواء في الأفراد أو الجماعات، وما منشأ الحروب المدمرة التي تقضي على الملايين إلاّ التكبُّر والعلو في الأرض من دول على دول أخرى. وما اجتاح الفساد أمة إلاّ قضى على كل مقومات الحضارة والخير فيها ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلْمتَّقينَ﴾ والخاتمة الطيبة هي للمتقين الخائفين لله الذين اجتنبوا معاصي الله وأدوا فرائضه.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ والحسنة المراد منها كلمة التوحيد ﴿لا إلَه إلاَّ الله﴾ وفعل الخير وطاعة الله وأداء فرائضه، فمن جاء بالحسنة يوم القيامة فله منها خير وهو الجنة، وثواب الله خير من حسنة العبد، والله يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ﴿وَمَنَ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيئَاتِ إلاَّ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والسيئة ضد الحسنة وتشمل الشرك بالله والذنوب والفعلة القبيحة. فمن جاء بالسيئة يوم القيامة فلا يُجزى إلاّ بمثل ما عمل من سوء وهذا من عدالة الله وفضله على خلقه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات.

ثم يأتي ختام السورة وفيها تطمين لرسول الله ﷺ بإرجاعه إلى مكة مع توجيهات خاصة له وللمؤمنين بالتوجه إلى الله وحده وإفراده بالعبادة لأن

المصير إليه:

﴿إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكَافِرِينَ. وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَه إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥-٨٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ﴾ أي إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد وفرض عليك تبليغه للناس والتمسك به ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ والمعاد هو المكان الذي يعود إليه الإنسان. أي إن ربك يا محمد سيردك ويرجعك إلى مكة التي ولدت فيها وأُخرجت منها، وقد روي أن النبي ﷺ لما خرج من مكة فبلغ مكاناً يدعى «الجُحفة» اشتاق إلى مكة فأنزل عليه هذه الآية. وهذا من الأنباء الغيبية التي أعلنها القرآن وتحققت بعد فترة وجيزة حيث رجع النبي إلى مكة مظفراً بعد أن أخرجه قومه منها.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ربي أعلم من جاء بالهدى الذي من سلكه نجا ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ومن هو واقع في الضلال الواضح الظاهر الذي يدركه كل ذي عقل سليم ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ﴾ وما كنت يا محمد تأمل وتنتظر أن ينزَّل عليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن الله أنزله عليك من عنده رحمة بك وبأمتك وبالناس أجمعين. هذه الآيات تدل على عدم تطلع محمد إلى النبوة، ولقد كان من حوله كثير من العرب ومن بني إسرائيل يتطلعون بأن يخصهم الله بنبوته، كما أن هذه الآيات تعلن عن

مصدرها الإلّهي وعن صدق نبوة محمد، فلو كان محمد مدّع للنبوة كما يدّعي أعداؤه والمغرضون لما أعلن هذه الحقيقة بهذه الصراحة وهذا التجرّد من كل طمع في النبوة.

ثم يأتي الأمر الإلّهي لمحمد ﷺ: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي فلا تكن أنت ولا من اتبعك عوناً للكافرين على كفرهم بربك بمداراتهم ﴿ولا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَت إِلَيْكَ﴾ ولا يصرفنك يا محمد هؤلاء الكفار بأذاهم عن تبليغ آيات القرآن والعمل بها بعد أن نزل الوحي عليك من الله ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وادعُ إلى عبادة الله وحده وسلوك سبيله ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المشْرِكينَ﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم، وهذا الأمر للنبي ﷺ تعريض بغيره لأنه لا يكون من المشركين بحال من الأحوال ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ﴾ ولا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر سواه ﴿لا إِلَهَ إلَّا هُوَ﴾ لا معبود تصلح له العبادة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ كل شيء هالك إلّا هو، والوجه يعبر به عن الذات، فكل شيء زائل: المال، والجاه، والسلطان والقوة، وهذه الأرض ومن عليها، وهذا الكون كله ما نعلمه منه ونجهله، نعم كل ذلك هالك فلا يبقى إلّا وجه الله الكريم متفرداً بالبقاء. وقد يراد بمعنى الآية: كل عمل هو باطل إذا لم يقصد به وجه الله، وهذه دعوة باجتناب الرياء والعمل لأجل السمعة بين الناس لا لطلب رضوان الله ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ له سبحانه القضاء النافذ بين خلقه في الدنيا والآخرة لا يشاركه في حكمه أحد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تُردون بعد مماتكم فيقضي بينكم بالعدل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الفهرس

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
التفسير الكبير للفخر الرازي.
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي.
تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي.
روح المعاني للألوسي.
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي.
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف.
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون االإسلامية ـ القاهرة.
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب.
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق.
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني.
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني.

روح القرآن الكريم

تفسير جزء العنكبوت

وفيه سور: العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَـذَا التَّفْسِيْرُ

• يعَرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بَعيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون :

دَارُ العِلْمِ للمَلايِيْن

بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

توضيـــح

كانت العادة التي جـرينا عليهـا أن نفسّر أجـزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء بـاسم السورة التي يبتـدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة وهذا الجزء الحادي والعشرون يبتدىء بالآية ٤٦ من سورة العنكبوت وينتهي بالآية ٣٠ من سورة الأحـزاب ولما كنـا حـريصين على تفسير السـور كاملة في كـل جزء إتمـامـاً للمنفعة فلهذا فسّرنا سورة العنكبوت كـاملة وتركنـا تفسير سورة الأحزاب بكاملها للجزء الثاني والعشرين وسمينا هذا الجزء «جزء العنكبوت» تجوزاً ليميزه القراء عـن غيره من الأجزاء.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهـودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العـرف بها لاحقـاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم «جزء عم» و «جزء تبارك» إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها. ونحن ارتأينا تسمية هذا الجزء باسم السورة التي يبتدىء بها هذا الجزء.

روح القرآن الكريم

تفسير جزء

العنكبوت

وفيه سور: العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة

الجزء الحادي والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

سُميت هذه السورة بسورة العنكبوت لأن اللَّه مثَّل فيها من اتخذ من غيره إلٰهاً كالعنكبوت اتخذت بيتاً، مع العلم أن بيت العنكبوت هو أضعف البيوت لا يحمي ساكنه من حرّ أو برد ولا يصمد لريح شديدة أو مطر.

استُهلت هذه السورة ببيان أنه لا بدّ من اختبار المؤمنين بالشدائد والمحن ليظهر الصادق منهم في إيمانه من الكاذب، وأن جهاد المؤمن لنفسه في طاعة اللَّه وجهاده لأعداء اللَّه إنما يعود نفعه عليه.

وأوصت السورة المؤمنين بالبِرّ بالوالدين وطاعتهما ما لم يأمرا بمعصية، كما تحدثت السورة عن المنافقين وعقيدتهم المزعزعة التي لا تصمد أمام أذى الكفار، كما تحدثت عن الكفار وأساليبهم الملتوية في إضلال المؤمنين.

وذكرت السورة ما أصاب الأمم السابقة من عقاب إلٰهي جزاء كفرها وإفسادها في الأرض.

وفي السورة بيان لأدب المجادلة مع اليهود والنصارى، ودعْوةٌ لأن تكون المجادلة في أمور الدين بالحسنى واللِّين من الكلام.

وتظهر السورة علامة من علامات صدق نبوة محمد ﷺ وهي كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك فقد جاء بكتاب فيه من الهدى والتشريع ما يعلو به عن الكتب الدينية السابقة وأنه معجزة في حد ذاته للذين يطلبون المعجزات من نبي الإسلام.

كما تأمر السورة المؤمنين بمغادرة أوطانهم عند استفحال الكفر والرذيلة مطمئنة إياهم بتوفير الرزق لهم أينما حلوا مع تبشيرهم بثواب الآخرة.

سُورَةُ ٱلعَنكَبُوتِ

آياتها ٦٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ
فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾
أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾
مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾
وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ
ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن

شرح المفردات

أَحَسِبَ الناس : أظن الناس، والاستفهام للتقرير والتوبيخ.

لا يُفتنون : لا يُختبرون ويُمتَحنون بما يظهر حقيقة إيمانهم.

أن يَسْبِقونا : أن يفلتوا من طلبنا.

يَرْجُو لقَاء اللَّهِ : يطمع في ثوابه.

أَجَلَ اللَّه : الوقت المعين للبعث والجزاء يوم القيامة.

جَاهَدَ : بذل وسعه في الدفاع عن الإسلام وعن الامتناع عن المعاصي.

لَنُكفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم : لنغفرنَّ لهم ذنوبهم.

ووصَّينا الإنسان : أمرنا الإنسان وفرضنا عليه.

بوالديه حُسناً : بما يستحسن من الأعمال بَرّاً بهما.

جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ
أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ
لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ
ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

شَرح المفردَات

جاهداك : بذلا وسعهما وطاقتهما.

فِتْنَة النَّاس : أذى الناس له.

أَثْقَالَهُم : أوزار أنفسهم وآثامها.

يَفْتَرون : يختلقون من الأكاذيب.

سُورَةُ العَنكبُوت

يستهل اللَّه هذه السورة موضحاً أن الإيمان ليس كلمةً تقال وادعاءً يُعلن بل هو عقيدة ذات أعباء وتضحيات جسام وجهاد:

﴿الٓمٓ(١). أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ (١ ـ ٣).

الفتنة هنا بمعنى: الاختبار والامتحان والابتلاء، والمعنى: أظنَّ الناس أنهم يتركون وشأنهم لمجرد أن نطقوا بالشهادتين: شهادة الإيمان بوجود اللَّه ووحدانيته، وشهادة الإيمان برسوله محمد ﷺ دون أن يُختَبروا ويُمتَحنوا في إيمانهم، لا، بل لا بدّ من امتحانهم للتثبت من إيمانهم.

---

(١) الٓمٓ: قيل إن هذه الأحرف وما شابهها من الأحرف في فواتح السُّور هي من المتشابه الذي انفرد اللَّه تعالى بعلمه. وقيل: إنما ذكر اللَّه تعالى هذه الأحرف احتجاجاً على الكفار وذلك أن النبي ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشرِ سُوَر، أو بسورة من مثله فعجزوا عنه أنزلت هذه الأحرف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلاَّ من هذه الحروف وأنتم قادرون على صياغة الكلام منها وعارفون بقوانين الفصاحة فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، ولما عجزتم عنه دلَّ على أنه من عند اللَّه. وقيل: إن الكفار لما قالوا ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ وتواصوا بالإعراض عنه فأنزل اللَّه هذه الأحرف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين اسمعوا إلى ما جاء به محمد فإذا أصغوا توالت عليهم آيات القرآن فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقاً إلى انتفاعهم. وقيل: كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء اللَّه تعالى أو صفة من صفاته. وهناك أقوال كثيرة قيلت في هذه الأحرف وهناك رأي لبعض المحدثين أبداه مستعيناً «بالكمبيوتر» وهي أن الأحرف الأبجدية التي تتصدر بعض سور القرآن تتوارد بمعدلات أعلى من باقي الحروف في السورة التي ترد بها هذه الأحرف.

فالإيمان عقيدة ذات تكاليف وأعباء تحتاج إلى صبر ومجاهدة للنفس وتضحية بمشتهيات الحياة ومقتنياتها، فإن اجتاز المؤمنون الامتحان الإلٓهي لهم بثبات وتضحية وصبر خرجوا بنجاح واستحقوا أن يكونوا مؤمنين حقيقيين وينالوا مراتب السعادة في الآخرة.

ومن الفتن التي يتعرض لها المؤمن ويخرج منها منتصراً:

ابتلاء اللّه للمؤمن بضروب المحن والمصائب في الأنفس والأموال فيحتسب المصيبة صابراً لوجه اللّه فلا يجزع ولا يعترض على قضاء اللّه.

ومنها: إغداق اللّه النعم على المؤمن أو تضييق الرزق عليه فلايطغى عند الغنى، ولا يكفر عند الفقر.

ومنها: قيام المؤمن بأعباء التكاليف الشرعية وما فيها من مشاقّ بلا تذمُّر ولا تهاون.

ومنها: مجاهدة المؤمن لنفسه الأمّارة بالسوء عندما تراوده المرأة عن نفسها أو عند إغراءات الجاه والسلطان وعدم الانسياق وراء الظلم والطغيان.

ومنها: الصمود أمام مغريات الزوجة والولد فلا يصرفه ذلك عن واجباته نحو ربّه ووالديه.

ومنها: أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله فلا تتزعزع عقيدته ولا يحيد عن هدفه.

وقد ذُكر أن الآية السابقة نزلت في قوم من المسلمين عذبهم المشركون ففتن بعضهم وصبر البعض الآخر حتى أتاهم اللّه بفرج من عنده.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أن الاختبار سُنّة قديمة، فلقد اختبر اللّه الأمم القديمة بضروب المحن، فقد ابتُلي بنو إسرائيل بفرعون، وابتُلي

أتباع عيسى بأعدائهم، فكذلك ابتُلي أتباع محمد بمن يضطهدهم ويعذبهم من المشركين.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ ليظهرن اللَّه ما سبق في علمه القديم صدق الصادقين في إيمانهم من الكاذبين منهم، وليميزن اللَّه بينهم.

وقد روي عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول اللَّه (أي شكوا إليه ما يلاقونه من اضطهاد) وهو متوسد بردة[١] له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه»[٢].

وجاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء».

«وحاشا للَّه أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلّا بالمعاناة العملية للمشاق وإلّا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلّا بالصبر الحقيقي على الآلام وإلّا بالثقة الحقيقية في نصر اللَّه أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء»[٣].

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث كما تصهر النار الذهب،

---

(١) توسَّد بردة: جعلها تحت رأسه، والبردة كساء مخطط يلتحف به.

(٢) رواه البخاري.

(٣) عن كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب.

وتنفي عنه الرديء منه، هذا مع العلم أن أصل معنى فتن في اللغة إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وكذلك الفتنة في الأنفس تميز الأنفس الطيبة من الأنفس الرديئة.

ثم يتحدث القرآن عن الذين يعملون السيئات ثم عن الذين يعملون الصالحات من الأعمال مبيناً مصير كل منهم في الآخرة:

﴿أَمْ حَسِبَ الّذين يَعْمَلُون السَّيئَاتِ أنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يحكمونَ. مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّه فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ (٤ ـ ٦).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي أظن الذين يشركون باللَّه ويقترفون سيّىء الأعمال ﴿أن يَسْبِقُونَا﴾ أن يعجزونا فلا نقدر عليهم، ويفلتوا من طلبنا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمون﴾ بئس حكمهم الذي يحكمون بأننا عاجزون عن الانتقام منهم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ من كان يؤمن بالبعث ويرجو رحمه اللَّه وثوابه ويخاف عقابه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ فإن اليوم الموعود وهو يوم القيامة آتٍ لا محالة، فليبادر الإِنسان إلى العمل الصالح وطاعة اللَّه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ فاللَّه سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ ومن جاهد الكفار في سبيل إعلاء كلمة اللَّه، وجاهد نفسه بالصبر على طاعة اللَّه والامتناع عن المعاصي والذنوب ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ فإن ثواب جهاده يعود نفعه عليه ولا يرجع إلى اللَّه سبحانه نفع من ذلك ﴿إِنَّ اللَّه لَغَنِيٌّ عَن العَالَمينَ﴾ إن اللَّه غني عن جميع خلقه لا تنفعه طاعتهم إياه ولا يَضره عصيانهم له.

﴿وَالَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية اللَّه

وبنبوّة محمد، وصح إيمانهم عند ابتلاء اللَّه لهم وعملوا بطاعته ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِم﴾ أي لنمحُوَنَّ عنهم سيئاتهم فلا نعاقبهم عليها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولنجزينهم أوفى جزاء على أعمالهم الصالحة ولنثيبنّهم بأكثر مما عملوا وأحسن منه.

ويتابع القرآن فيذكر نوعاً من الفتنة التي يتعرض لها المؤمن من جهة والديه:

﴿وَوَصَّيْنَا الإنْسَان بِوَالِدَيهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بي ما ليس لك به عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إليَّ مَرْجِعُكم فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلونَ. وَالَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُم في الصَّالِحِينَ﴾ (٨ ـ ٩).

فاللَّه سبحانه أوصى الإنسان بالإحسان إلى والديه وذلك بالبرّ بهما والعطف عليهما، والإنفاق عليهما، وطاعتهما بالمعروف ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ وإن بذل والداك وسعهما وحثّاك ﴿لِتُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ أي لتتخذ مع اللَّه إلَهاً آخر لا تعلم بوجوده ولا تقرُّ بألوهيته فلا تطعهما في ذلك، فإذا كان الإنسان علم بالعقل والدليل عدم وجود شريك للَّه فلا يتوجب عليه عبادة غير اللَّه، لأن ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه ﴿إليّ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلى اللَّه معادكم ومصيركم ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْملونَ﴾ فيخبركم اللَّه يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيئها فيجازيكم عليها.

﴿والَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية اللَّه وبنبوة محمد وعملوا الصالحات من الأعمال على اختلاف أنواعها وأهمها أداء فرائض اللَّه واجتناب نواهيه ﴿لَنُدْخِلَنَّهُم في الصَّالِحِينَ﴾ أي يحشرهم اللَّه في زمرة عباده الصالحين من الأنبياء والأولياء ويكون مجاوراً لهم في

الدرجات العالية في الجنة.

ثم يتحدَّث القرآن عن نوع آخر من الفتنة لم يصمد لها المنافقون الذين أعلنوا الإيمان بألسنتهم لا عن اقتناع منهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (١٠ ـ ١١).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللَّهِ﴾ أي ومن الناس الذين يدّعون الإسلامَ من يقول: أقررنا وصدقنا بوجود اللَّه ووحدانيته ﴿فإذا أُوذِيَ في اللَّه﴾ فإذا آذاه المشركون بسبب إقراره بوحدانية اللَّه ﴿جعل فتنة الناس كعذاب اللَّه﴾ أي جعل ما يقع عليه من أذى المشركين في الشدة كعذاب اللَّه في الآخرة فارتدَّ عن إيمانه راجعاً إلى الكفر، وكان أذى الكفار صارفاً له عن الإيمان، كما أن الخوف من عذاب اللَّه صارف للمؤمن عن الكفر باللَّه ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولئن نصر اللَّه المؤمنين وأعطاهم الغنائم اعترض هؤلاء المنافقون وقالوا للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُم﴾ أي إنا كنا مشايعين لكم في دينكم فأعطونا نصيبنا من الغنائم ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا في صُدور العَالَمِينَ﴾ هذا الاستفهام معناه التقرير، أي قد علم اللَّه ما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، ومن إخلاص ونفاق، فكيف يخادع الإنسان ربه الذي لا تخفى عليه خافية ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِين آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المنَافِقينَ﴾ أي ليختبرن اللَّه الناس بالضراء والسراء ليتميز من يطيع اللَّه عن صدق وإخلاص، ومن يطيعه رياءً ونفاقاً فيظهر اللَّه للناس صدق من صدق في إيمانه ويفضح اللَّه المنافق منهم

ويتابع القرآن فيذكر نوعاً آخر من الفتنة التي يتعرض لها المؤمنون على

يد الكافرين الذين يحاولون إضلالهم بادعاءات باطلة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذين آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُم وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِنْ شَيء إنَّهُم لَكَاذِبونَ. وَلَيَحْملُنَّ أثْقَالَهُم وَأَثْقَالاً مَعَ أثْقَالِهِمْ وَلَيُسأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُون﴾ (١٢ ـ ١٣).

فالذين كفروا باللّه يقولون للذين آمنوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبيلَنَا﴾ والمراد باتباع سبيل الكافرين هي طريقتهم التي كانوا عليها من عبادة الأصنام، والتكذيب بالبعث بعد الممات، وجحود الثواب والعقاب في الآخرة ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُم﴾ أي إنكم إن اتبعتم طريقتنا في ذلك فَبُعِثْتُم بعد الممات وجوزيتم على أعمالكم فإنا نتحمل آثام خطاياكم حينئذٍ. ولكن اللّه يرد عليهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِنْ شَيء﴾ أي وما هم بحاملين من آثام خطايا المؤمنين من شيء ﴿وَإنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ وإنهم لكاذبون في دعواهم وما وعدوا المؤمنين به ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أثْقَالَهُم وَأَثْقَالاً مَعَ أثْقَالِهِمْ﴾ أي سيحمل هؤلاء المشركون باللّه الذين حاولوا إضلال المؤمنين خطايا أنفسهم وخطايا من أضلوا وصدوا عن سبيل اللّه مع خطاياهم. والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بمقدار ثقلها عليهم يوم القيامة لما سيحاسبون عليها حساباً عسيراً ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرونَ﴾ عما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر الفتنة التي ابتلي بها أنبياء اللّه مع أقوامهم، وما لاقوه منهم من ألوان المكاره والإيذاء، بما فيه قدوة وعزاء للمؤمنين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلَّا خَمسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجيناهُ وَأَصْحَابَ السَّفينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلعالَمِينَ﴾ (١٤ ـ ١٥).

أي لا يحزنك يا محمد وأصحابك ما تلقون من الأذى من المشركين فإن مصيرهم إلى الهلاك، ومصيرك ومصير المؤمنين إلى الفوز والنجاة، كما فعل ربك مع نوح عليه السلام إذ أرسله اللّٰه إلى قومه فلبث فيهم تسعمئة وخمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة اللّٰه وحده وَتَرْكِ عبادة الأصنام والأوثان، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلّا ابتعاداً عنه ورفضاً لدعوته، إلى أن أهلكهم اللّٰه غرقاً بالطوفان. وهو الماء الكثير الذي غمرهم فأهلكهم ﴿وَهُمْ ظَالِمونَ﴾ وهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم واستمرارهم عليه ﴿وَأَنْجيناه وَأَصْحَابَ السَّفِينة﴾ أي أنجى اللّٰه نوحاً ومن معه في السفينة من أولاده وأزواجهم ومن أتباعه المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيةً لِلعَالَمين﴾ أي وجعل اللّٰه السفينة عبرة عظيمة للناس الذين جاءوا بعدهم، حيث أنجى اللّٰه المؤمنين وأهلك الكافرين، أو جعلها حجة وآية حيث بقيت مدة طويلة على جبل الجودي بعد انحسار الماء ورآها الكثير من الناس.

واختُلِفَ في مبلغ عمر نوح عليه السلام فقيل: كان عمره ألف سنة إلّا خمسين عاماً، وقيل إن هذه المدة كانت المدة التي دعا فيها قومه إلى عبادة اللّٰه، وأن هناك مدة إضافية من الزمن قبل دعوته قومه إلى عبادة اللّٰه ومدة بعد هلاك قومه بالطوفان، واختلف في تعيين هذه المدة، وقيل إن المدة المذكورة في القرآن هي مدة إقامته في قومه من لدن مولده إلى غرق قومه فقط.

أما طول عمر نوح عليه السلام والذي يبدو لنا غير مألوف، فإنا نتلقاه بقبول لأنه صادر من رب العالمين، ويمكن أن نجد له تفسيراً ـ واللّٰه أعلم ـ هو أن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً، فليس ببعيد أن يعوض اللّٰه تلك الأجيال بطول العمر لعمارة الأرض. وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير

من الأحياء فكلما قلَّ العدد، وقلَّ النسل طالت الأعمار، كما في النسور وبعض الزواحف حتى ليبلغ عُمر بعضها مئات السنين بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين فهو قصير العمر.

هذا مع العلم أن تلوث البيئة لم يكن قد حل بالكرة الأرضية وما يستتبع ذلك من أمراض وآفات، ولكن بالرغم من ذلك فإن العمر عطاء رباني لا يخضع لأي اعتبار.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم

شرح المفردات

تَخلُقُون إِفكاً : وتصنعون أصناماً وتفترون كذباً بأنها آلهة.

فابْتَغوا : فاطلبوا.

تُقْلَبُونَ : تُردّون وترجعون.

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين ربكم عن إدراككم.

بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥
۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦
وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ
وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ وَلُوطًا
إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ
فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ
ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠
وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ
ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ
بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ

شرح المفردات

مأواكم : منزلكم الذي تأوونَ إليه.

والكتاب : أي الكتب المقدسة التي أُنزلت على الأنبياء.

الفَاحِشَةَ : المراد بها هنا اللواط.

تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ : تسطون على المسافرين وتأتون الفاحشة بهم.

وَتَأْتُون في نَاديكم المنكر : وتأتون في مجلسكم المنكر والفواحش علناً.

من الغَابرين : من الهالكين.

رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ
إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ
عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا
مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾

شرح المفردات

رُسُلُنَا : أي ما أرسله اللّٰه من الملائكة.

سِيءَ بهم : ساءه مجيئهم.

ضَاقَ بهم ذَرْعاً : ضاق صدره عن تدبير أمرهم.

رجزاً : عذاباً.

يَفْسُقُون : يخرجون عن طاعة اللّٰه ويرتكبون المعاصي.

آيةً بَيِّنَةً : علامة وآثاراً واضحة تدل عليهم.

تابع سورة العنكبوت

وبعد الكلام عن نبي اللّه نوح يأتي الكلام عن نبي اللّه إبراهيم:

﴿وإبْراهيمَ إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ واتَّقُوه ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُم تَعْلَمُونَ. إنَّما تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُون إفكاً إنَّ الّذِينَ تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللّهِ لا يملكون لَكُمْ رِزْقاً فابْتَغوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُروا لَهُ إلَيهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٦ ـ ١٧).

أي واذكر يا محمد أيضاً نبي اللّه إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا اللّه دون غيره من الأوثان والأصنام فإنه لا إلَه لكم غيره ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى خير لكم مما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتميزون أحدهما عن الآخر.

﴿إنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوثاناً﴾ والأوثان: جمع وثن وهو الصنم، وقيل: الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو من معدن آخر، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة، فعبادة الأوثان عبادة سخيفة بل تُعدُّ تحقيراً للعقل البشري، فكيف يعبد الإنسان صنماً من صنعه ويفتري كذباً بأنه إلَه لذا تقول الآية ﴿وَتَخْلُقُونَ إفْكاً﴾ تخلقون: تعملون وتنحتون، وتأتي بمعنى: تكذبون. والإفك هو الكذب. فيكون المعنى: إنكم تعملون الأصنام وتنحتونها للكذب أو بمعنى إنكم تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة وتدّعون أنها شفعاؤكم عند اللّه. ﴿إنَّ الَّذِين تَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ﴾ أي إن أوثانكم التي تعبدونها من دون اللّه ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ لا تقدر أن ترزقكم شيئاً ﴿فابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ﴾ فالتمسوا الرزق عند اللّه تُدركوا ما تطلبون ﴿وَاعْبُدُوه وَاشكروا لَهُ﴾ واخضعوا له وحده وتذللوا له، واشكروا اللّه على

نعمه التي أعطاكم إياها ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى اللَّهِ تُرَدُّون بعد مماتكم فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم لغيره سبحانه.

ثم تأتي الآيات التالية معترضة بين الكلام عن إبراهيم، وهذه الآيات موجهة إلى المشركين وإلى كل مُنكِر للَّه، مُنكِر للقائه بعد الممات:

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُم وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البلاغُ المُبِينُ. أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّه مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ. وَالَّذِين كَفَرُوا بآيات اللَّه وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨ ـ ٢٣).

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ أي وإن تكذبوا أيها المشركون رسول اللَّه محمداً فيما دعاكم إليه من عبادة ربكم وحده، والبراءة من الأوثان التي تعبدونها ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقد كذبت جماعاتٌ من الأمم قبلكم رسلَ اللَّه فيما دعتهم إليه من عبادة اللَّه وحده فحلّ بهذه الأمم سخط اللَّه ونزل بها عاجل عقوبته ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ المبينُ﴾ وما على محمد إلّا أن يبلّغكم عن اللَّه ما أُمِرَ به ببلاغ واضح.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هذا الكلام للإنكار على المشركين لتكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله. والمعنى: ألم ينظروا ويعلموا كيف يخلقهم اللَّه ابتداءً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم ينفخ فيهم الروح ثم يخرجهم إلى الدنيا ثم يتوفاهم بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات، وهكذا تستمر دورة الحياة منذ بدء الخليقة ما دامت الدنيا على

نظامها المعهود. هؤلاء المكذبون بالبعث نظروا وعلموا ذلك فكيف يستبعدون قدرة اللَّه على إعادة الموتى أحياء يوم البعث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إنَّ ذلك سهل هيِّن على اللَّه.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ أي قل يا محمد للمنكرين للبعث سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ اللَّه خلق الأشياء على كثرتها واختلاف ألوانها وطبائعها وانظروا إلى آثار مساكن القرون الماضية والأمم الخالية لتعلموا بذلك كمال قدرة اللَّه. هذه الآية أقامت صرح علم «الجيولوجيا» قبل أن يلد هذا العلم، فبعد قرون كثيرة من نزول القرآن أعلن عالم إسكتلندي اسمه هاتون نتائج أبحاثه قائلاً: إن تاريخ الأرض وما عليها مكتوب بين طيات قشرتها. ومنذ ذلك الوقت ولد علم الجيولوجيا الذي يقوم على الحفريات في الأرض واستكشاف تاريخ الخليقة منذ بدئها حتى الآن.

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ ثم ينشىء اللَّه الحياة الآخرة حيث يبعث الناس أحياء بعد فنائهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن اللَّه قادر على خلق كل شيء بدءاً وإعادةً لا يعجزه شيء أراده ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَم مَنْ يَشَاءُ﴾ وبعد أن يعيد اللَّه الناس أحياء بعد فنائهم يعذب من يشاء منهم على ما أجرموا في حياتهم الدنيا ويرحم من يشاء منهم ممن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ وإلى اللَّه ترجعون وتردون بعد الممات.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ولستم أيها المكذبون بالبعث بغالبين لقدرة اللَّه، ولا تفوتونه إن هربتم من حكمه سواء كنتم في الأرض أو في السماء ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصيرٌ﴾ وليس لكم أيها الناس غير اللَّه من ولي يلي أموركم ولا نصير يدفع عنكم عذابه.

﴿وَالَّذِين كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ والذين جحدوا آياتِ القرآن والدلائلَ على وحدانية اللَّه وكذبوا رسله وأنكروا لقاء اللَّه والبعث والحساب ﴿أُولَئِكَ يَئسوا مِنْ رَحْمَتي﴾ أولئك يئسوا من رحمة اللَّه ودخول الجنة في الآخرة عندما يعاينون ما أعد اللَّه لهم من العذاب ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ﴾ وأولئك لهم عذاب موجع، ووصف العذاب بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة.

ثم يعود بنا القرآن للكلام عن نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام وإتمام قصته:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وَقَالَ إِنَّما اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللَّه أَوثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُم في الحَياةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم ببَعْض وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّار وَما لَكُم مِنْ نَاصِرينَ﴾ (٢٤ ـ ٢٥).

أي فلم يكن جواب قوم إبراهيم عندما قال لهم: اعبدوا الله واتقوه إلّا أن قال بعضهم لبعض اقتلوه أو حرّقوه بالنار، ففعلوا وأرادوا إحراقه فأضرموا له النار وألقوه فيها فأنجاه اللَّه منها بأن قال: ﴿يَا نَارُ كوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبراهيم﴾.

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ إن في إنجاء اللَّه لإبراهيم من النار بعد أن أُلقي فيها لدلائل وعبر وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة اللَّه، وإنما خص اللَّه المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين يتعظون دون غيرهم.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوثَاناً﴾ وقال إبراهيم إنما اتخذتم الأوثان آلهة تعبدونها متجاوزين عبادة اللَّه وحده ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتتحابوا فيما بينكم وتتواصلوا على عبادتها وخدمتها. فهم

ما اتخذوا الأوثان آلهة اعتقاداً واقتناعاً بأنها جديرة بالعبادة، إنما يجامل بعضهم بعضاً على هذه العبادة استبقاء لما بينهم من مودة ولمنافع ذاتية يبتغونها ولكن على حساب الحق.

﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ ثم يوم القيامة ـ أيها المتوادّون على عبادة الأوثان ـ عندما تحشرون إلى ربكم وتعاينون ما أُعدّ لكم من العذاب ينكر بعضكم بعضاً فيتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكم بَعْضاً﴾ أي يسب ويدعو بعضكم على بعض بالبعد من الخير أومن رحمة اللّه. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ ومصيركم جميعاً إلى النار ﴿وَمَا لَكُم مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وما لكم من أنصار ينصرونكم من اللّه حين يصليكم نار جهنم فينقذونكم من عذابه:

ويتابع القرآن الكلام عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إنّي مُهَاجِرٌ إلى رَبِّي إنَّهُ هُوَ العَزِيز الحكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إسحٰق وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والكِتَابَ وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنْيَا وَإنَّه في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ﴾ (٢٦ ـ ٢٧).

لوط هو أول من صدّق بنبوة إبراهيم حين رأى النار برداً وسلاماً عليه وكان ابن أخيه ﴿وَقَالَ إنِّي مُهَاجِرٌ إلَى رَبِّي﴾ القائل بذلك هو إبراهيم وهو أول من هاجر من أرض الكفر إلى أرض يعبد اللّه فيها بسلام، هاجر من قرى ما بين النهرين في العراق إلى (حرّان) في أقصى ما بين النهرين غرباً ثم إلى فلسطين ومعه ابن أخيه لوط.

تأمل قول إبراهيم: ﴿إني مُهَاجِرٌ إلَى رَبِّي﴾ إنه لم يهاجر للتجارة أو إلى أي غرض دنيوي، وإنما هاجر إلى ربه متقرباً إليه، ملتجئاً إلى حِماه، وهكذا على المؤمن عندما تضيق في وجهه أبواب الفرج، عليه أن يهاجر إلى

اللَّه بقلبه وكيانه ليكشف الضُّرّ عنه، وأن يهاجر من بلده عندما يخاف الفتنة على نفسه وولده عند استفحال الفواحش والمنكرات إلى بلد يجد فيه الأمن على نفسه وولده ﴿إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ إن ربي هو القوي الغالب الحكيم في تدبير خلقه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إسحٰق وَيَعْقُوبَ﴾ وبعد فراق إبراهيم قومه منَّ اللَّه عليه بالأولاد فوهب له إسحٰق ولداً بعد إسماعيل ويعقوب من إسحٰق أي حفيده ﴿وَجَعَلْنَا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته والكتاب: اسم جنس للكتب الإلٰهية التي أُنزلت على ذريته من الأنبياء. فالزبور أُنزل على داود عليه السلام، والتوراة أُنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل أُنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن أُنزل على محمد ﷺ وهؤلاء الأنبياء كلهم من ذرية إبراهيم، ومحمد يرجع نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنْيَا﴾ وهو الثناء الحسن عليه من أهل كل الأديان: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، فكل أتباع الأديان يحبونه ويذكرونه بالخير وينتمون إليه ﴿وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ﴾ وهو في الحياة الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح الذين لهم الدرجات العليا في الجنة.

ثم تأتي قصة لوط عقب قصة إبراهيم، فقد هاجر لوط مع إبراهيم إلى فلسطين وبعدها إلى مصر، وعند رجوعهما من مصر اختار لوط بقعة الأرض التي تقوم عليها مدينتا سدوم وعمورة في وادي الأردن وأقام بمدينة سدوم.

وكان أهل مدينة سدوم أفجرَ الناس وأكفرَهم وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي اللواط، فأرسل اللَّه نبيه لوطاً إليهم بالرسالة الإلٰهية لهدايتهم وتحذيرهم من سوء أفعالهم، إقرأوا قوله تعالى:

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّ انْصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨ - ٣٠).

أي واذكر يا محمد إذ أرسلنا لوطاً إلى قومه فدعاهم إلى عبادة اللَّه وحده وأنكر عليهم العمل الفاحش الذي كانوا يفعلونه - وهو اللواط - الذي لم يسبق إلى فعله أحد من خلق اللَّه وقال لهم: ﴿أَئِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي إنكم تفعلون الفاحشة بالرجال في أدبارهم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وقطع السبيل عمل قطاع الطرق من قتل الأنفس وأخذ الأموال، كما كانوا يفعلون الفاحشة بمن مرَّ عليهم من المسافرين ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَر﴾ النادي: المجلس، أي كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم علناً، وإضافة إلى ذلك كانوا يرمون المارة بالحصى ويسخرون بهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين نصحهم بالكف عن معاصيهم وحذرهم من عذاب اللَّه ﴿إلَّا أن قَالوا آئْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء آئتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً فيما تهددنا من نزول العذاب، أمام هذا التبجح والتحدي المصحوب بالتكذيب توجه لوط إلى ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدينَ﴾.

ويتابع القرآن فيذكر الأحداث التي سبقت هلاك قوم لوط من إرسال اللَّه ملائكة نزلوا ضيوفاً على إبراهيم متنكرين بصورة فتيان فبشروه بولد سَيُرْزَقُهُ، وأخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاك قوم لوط، فارتاع من ذلك لأن فيهم ابن أخيه لوط، فطمأنته الملائكة بنجاته من العذاب:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ (٣١ - ٣٢).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا جاءت رُسُلُنَا إبْرَاهيمَ بِالبُشْرَى﴾ أي وحين جاءت الملائكة المرسلة من اللّه إلى إبراهيم بالبشرى بولد سيرزقه اسمه إسحق وولد الولد يعقوب ﴿قَالوا إِنّا مُهلِكوا أهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ﴾ أي قالت الملائكة لإبراهيم إن اللّه أمرهم بإهلاك قرية سدوم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانوا ظَالِمينَ﴾ تعليل لسبب إهلاكهم بإصرارهم على الظلم وتماديهم في الفحش وأنواع المعاصي ﴿قال إنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ أي قال إبراهيم إن في قرية سدوم لوطاً فكيف تهلكونها ﴿قالوا نَحنَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ فأجابته الملائكة بأنهم يعلمون من فيها وغير غافلين عن مكان لوط ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ اللام الداخلة على لننجينه لام القسم أي واللّه لننجينه وأهله من الهلاك الذي هو نازل بقريته ﴿إلَّا امرأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي كانت من الباقين في العذاب أو في القرية التي سينزل بها العذاب ولا ينجيها كونها امرأة لوط لأنها ساء عملها وخانت زوجها وأصرت على كفرها.

ثم يصف القرآن نجاة لوط وهلاك قومه:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ. إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٣ - ٣٥).

أي وبعد فراق الملائكة إبراهيم ومجيئهم إلى لوط ﴿سِيءَ بِهِم﴾ أي ساءه مجيئهم لأنه ظنهم من البشر وهم جاءوه متنكرين بصورة شباب حسان الوجوه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ أي وضاق بشأنهم طاقته ووسعه خوفاً من اعتداء

قومه عليهم بالفاحشة ﴿وقالوا: لا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وقالت الملائكة للوط لما رأوا عليه أمارات القلق لا تخف من قومك علينا، ولا تحزن لأجلنا، فإننا ملائكةٌ ولسنا بشراً فلا قدرة لهم للوصول إلينا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿إلَّا امْرَأَتَك كَانَتْ مِنَ الغَابِرِين﴾ أي من الهالكين ﴿إِنَّا مُنْزِلُون عَلَى هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً[1] مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي إنّا منزلون على هذه القرية عذاباً من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بما كانوا يأتون من معصية اللّه ويخرجون عن طاعته.

ولما آن وقت العذاب الذي قدره اللّه عليهم بعث الملك جبريل فاقتلع قراهم من قرار الأرض ثم قلبها عليهم، وأرسل عليهم حجارةً من طين متحجر صلب كانت تنهال عليهم متتابعة منتظمة ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي ولقد أبقينا من قراهم علامة ودلالة بينة هي قصتهم العجيبة ومصيرهم الأسود وآثار الخراب في ديارهم الذي هو عظة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾ لقوم يتفكرون في مواعظ اللّه ويعتبرون بما جرى لقوم لوط.

والبقعة التي أصابها العذاب هي البقعة التي تعرف اليوم بالبحر الميت، ويرى بعض العلماء أن البحر الميت لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث، وإنما حدث من الزلزال ما جعل أعالي البلاد سافلها وصارت منخفضة عن سطح البحر بنحو أربعمائة متر، وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن لوط على حافة البحر الميت.

---

(١) الرجز: ويقال الرجس، وهو العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وما أشبه العذاب الذي يأتي من السماء بما يحصل حالياً في الحروب من سقوط القنابل والصواريخ على المدن فتلقي في نفوس الناس الرعب والاضطراب وتلحق بهم العذاب والخراب والهلاك، والسماء ما يقابل الأرض وكل ما علاك فأظلك يقال له سماء.

وكلمة صريحة نقولها: إن القرآن استهجن فاحشة اللواط وأوعد مرتكبها بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، ولكن العار هو أن بعض الدول الغربية التي تدعي الحضارة أباحت مزاولة هذه الفاحشة متعللة بالحرية الشخصية، ولكن هل الحرية الشخصية هدم الفطرة الإنسانية والخروج بها عن طبيعتها السامية وإتيان الشهوة في الموضع الذي تتقزز منه النفس ويأنف منه الحيوان؟

هل الحرية إباحة هذه الفاحشة التي تسيء إلى النساء وتجني عليهن بسبب انصراف الرجال عنهن، وتعطل النسل وتقضي على نظام الأسرة وما فيها من سعادة وطمأنينة؟

ولكن الحكمة الإلّهية لا تترك الفساد يستشري بلا عقاب فقد طالعتنا الأخبار الطبية منذ زمن ليس ببعيد عن وجود مرض خطير فتّاك بدأ ينتشر ويهدد العالم المتحضر بشر الويلات وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة عند الإنسان (الإيدز) وهذا المرض أكثر ما يصيب الذين يمارسون الشذوذ الجنسي، ويصيب أيضاً الذين ينتقل إليهم دم من متبرعين مصابين بفقدان المناعة، وكذلك ينتشر هذا المرض بالعدوى عند الاتصال الجنسي وبواسطة حقن المخدرات.

والإسلام جعل أقصى العقوبة على من يزاول اللواط فقد قال رسول الله محمد ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١). وذلك لتطهير الأرض منهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ
يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧ وَعَادٗا
وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ
وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ
حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ
وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ٤٠ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ

شرح المفردات

ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفسدين : ولا تكثروا من الفساد في الأرض.

فَأَخذَتْهُمُ الرَّجْفَة : فأهلكتهم زلزلة شديدة.

جَاثِمِين : موتى هامدين لا يتحركون.

وَزَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم : وحسَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي.

فَصَدَّهُمْ عَن السَّبِيلِ : فصرفهم عن سبيل الله.

وكانوا مُسْتبصرين : وكانوا عقلاء متمكنين من التدبر والفهم.

سَابِقينَ : مفلتين من الطلب.

أَخَذْنَا بذنبه : جازاه الله وأهلكه بذنبه.

حَاصباً : ريحاً عاصفة فيها حصىً.

أَخَذَتْهُ الصيحة : أهلكته صيحة من السماء مدوية مرعبة.

أولياء : المقصود الأصنام التي كانوا يبغون منها النفع (جمع ولي).

ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ
إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ
وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ *

شرح المفردات

أَوْهَن : أضعف.

يَدْعون من دُونه : يعبدون غيره.

نَضْربها : نجعلها مثلاً ونمثّلها.

الفَحْشاء : الزنا وكل فعل قبيح منكر.

المنكر : أنواع المعاصي. وكل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه.

تابع سورة العنكبوت

وبعد الكلام عن لوط ينتقل القرآن إلى الكلام عن النبي شعيب عليه السلام، وقومه هم أهالي (مدين) وهي قرية تقع في أرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز وهم عرب ينتسبون إلى مدين بن إبراهيم الخليل.

وكان أهل مدين لا يؤمنون باللّه ويعبدون سواه ويفسدون في الأرض. وكانوا من أسوأ الناس معاملةً ينقصون الكيل والميزان إذا باعوا، ويبخسون الناس أشياءهم، وقد تكلم القرآن عنهم في سورة هود وسورة الأعراف وهو في هذه السورة يوجز الكلام عنهم:

﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً فَقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّه وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٣٦ ـ ٣٧).

فاللّه تعالى يقول: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيباً﴾** أي وإلى مدين أرسلنا أخاهم شعيباً، وَسُمّي أَخاهم لأن شعيباً هو من ذرية مدين بن إبراهيم الذي هو أبو القبيلة التي تسمى المدينة باسمه، فكما أن شعيباً ينسب لمدين فكذلك قومه كذلك سموا بأهل مدين **﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدوا اللّهَ﴾** فقال شعيب لقومه: اعبدوا اللّه وحده وأخلصوا له العبادة والطاعة **﴿وارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾** والرجاء يأتي بمعنى: تَوَقُّعُ أمرٍ فيه مسرّة، كما يأتي بمعنى: الخوف، والمعنى: وارْجُوا بعبادة ربكم وابتعادكم عن الذنوب ثواب ربكم في اليوم الآخر بعد الممات. أو بمعنى: وخافوا عقاب اللّه في اليوم الآخر، هذا وقد كان القوم ينكرون ذلك اليوم **﴿وَلَا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** العُثُوُّ والعِثِيّ: أشد الفساد، أي لا تكثروا الفساد في الأرض وعصيان اللّه فيها، بل توبوا إلى اللّه من ذنوبكم وارجعوا إليه بالطاعة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فكذب أهل مدين شعيباً فيما جاءهم به من عند اللَّه من الأوامر والنواهي فكان عقابهم أن أهلكتهم الزلزلة الشديدة التي نشأت من صيحة الملك جبريل ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فأصبحوا في بلدهم ومنازلهم موتى هامدين لا يتحركون.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم عاد، وقوم ثمود، وما أصابهم من هلاك جزاء كفرهم:

﴿وَعَاداً وَثَمُود وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨).

فقوله تعالى: ﴿وَعَاداً وثمود﴾ منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ما قبله، أي وأهلكنا[١] عاداً وثمودَ ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي وقد تبين لكم أيها المشركون من آثار مساكنهم الخَرِبة كيف أهلكهم اللَّه وأبادهم وذلك عند ذهابكم إلى الشام أو الإياب منها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وَحَسَّن لهم الشيطان سوءَ أعمالهم من الكفر باللَّه وتكذيبهم رسله فرأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فمنعهم الشيطان وصرفهم عن طرق الهداية والحق والخير ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ وكانوا عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر ولكنهم لم يفعلوا ذلك، أو بمعنى: وكانوا مستبصرين في ضلالتهم يحسبون أنهم على هدى وصواب وهم كانوا على ضلال.

ثم يذكر القرآن قارون وفرعون وهامان:

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (٣٩).

---

(١) لأن قوله تعالى فيما سبق ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك.

الآية معطوفة على ما قبلها، أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامـان. أما قـارون فقد ورد الكـلام عنه في سـورة القصص وكان من قـوم موسى فبغى عليهم بثرائه ولم يستمع إلى نصح الناصحين من وجوب الإحسان إلى الفقراء وعدم البغي والفساد في الأرض.

وأما فرعون فكان طاغياً غشوماً يرتكب أبشع الجرائم، كقتله ذكور بني إسرائيل ظلماً، وتسخير الناس لمطامعه وشهواته وجعلهم فِرقاً، وهامان كان وزيره المدبر لمكائده المعين له على ظلمه ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي لقـد جاء مـوسى إلى هؤلاء جميعاً بـالحجج الـواضحـة، والمعجـزات الظاهرة التي تشهد أنه رسول اللَّه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ﴾ فاستكبروا عن عبادة اللَّه وعن اتباع موسى فيما جاء به عن ربه ﴿وَمَا كانُوا سَابِقِينَ﴾ وما كانوا ليفوتوا ويفلتوا من عقاب اللَّه بل كان مقتدراً عليهم.

ثم يبين اللَّه أنواع العذاب الذي ألحقه بهذه الأمم السابقة:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمهم وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ أخذنا: معناها عاقبنـا، أي فكلًّا من الأمم السالفة العاصية التي جاء ذكرها عاقبها اللَّه بذنبها ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصباً﴾ وهم قـوم لوط، والحـاصب هي الريـح العاصف التي تحمل لشدتها الحصى الصغار ﴿ومِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ أي ومنهم من أهلكته صيحة العذاب وهُمْ ثَمود قوم النبي صالح وأهل مدين قـوم النبي شعيب ﴿وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ كما حصل لقارون حيث جعل اللَّه الأرض تغور به وتغيبه فيها ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح حيث أُغرقوا بالطوفـان،

وفرعون وجنده الذين أُغرقوا بالبحر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ وما كان اللّه ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ﴾ بارتكابهم الذنوب التي تعرضهم لعقاب اللّه.

فاللّه سبحانه يعاقب الأمم على ما تقترفه من الذنوب، هذه هي الحقيقة التي أراد اللّه أن يضعها أمام أعين الناس جميعاً على مرّ العصور لتكون على بصيرة من أمرها، وقد وضع القرآن أمثلة حية على ذلك مأخوذة من وقائع التاريخ بما أصاب بعض الأمم من عقاب بسبب ذنوبها.

فالكفر باللّه والظلم، والبغي والكبرياء في الأرض وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء عليهم بالقتل والسلب وقطع الطرق وشيوع اللواط والزنا والفساد في الأرض هذه كلها وغيرها من الذنوب تستوجب عقاب اللّه في الدنيا مع عقاب الآخرة.

ونرى اليوم ما يصيب الأمم من حروب مدمرة فتتساقط القنابل على الناس في ديارهم فتثير الرعب والخراب والقتل في صفوفهم، ومن حروب أهلية تأتي على الأخضر واليابس، ونسمع ونرى على الشاشة المرئية ما أصاب بعض المدن من زلزال محاها من الوجود، ومن أعاصير وسيول تدمر وتقتلع ما أمضى الإنسان معظم عمره في تشييده وغرسه، ونسمع ونقرأ عن انتشار أمراض فتاكة لم تكن معروفة من قبل، كل ذلك بسبب ظلم الإنسان لنفسه وخروجه عن هدى الله وطاعته.

وبعد أن بيَّن اللّه مصير الذين أشركوا باللّه واقترفوا السيئات بَيَّن بعد ذلك أن الاعتماد على آلهة غير اللّه هو اعتماد ضعيف واهن شبيه بضعفه ببيت العنكبوت:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّه أَولِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً

وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. إِنَّ اللَّه يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم. وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُها إِلَّا العَالِمونَ. خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضَ بِالْحَقِّ إِنَّ في ذَلِكَ لآيةً للمؤمنين﴾ (٤١ ـ ٤٤).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾[١] أي مَثَلُ الذين اتخذوا من غير اللَّه آلهة يرجون نفعها ونصرها ويلجأون إليها في الشدائد ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بيْتاً﴾ فهم في حالهم هذا كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فبيت العنكبوت ضعيف لا يصمد لريح أو مطر غزير ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان المشركون يعلمون أن عبادتهم للأوثان شبيهة ببيت العنكبوت في ضعفه لأقلعوا عن عبادتهم هذه، ولظهر لهم أن عبادتهم باطلة لا تنفعهم في شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي الآية معانٍ خفية تظهر إعجاز القرآن وبلاغته يشع في كل كلمة من كلماتها:

فالقرآن يختار صفة التأنيث عندما يتحدث عن العنكبوت فيقول: ﴿اتَّخَذَت بَيْتاً﴾ وقد كشف العلم أخيراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر وهذه حقيقة لم يكن يعلمها الناس في زمن نزول القرآن.

وحقيقة أخرى هي وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ولم يقل القرآن خيط العنكبوت وإنما قال بيت العنكبوت، وهي مسألة لها دلالتها

---

(١) أولياء: جمع ولي وهو النصير الذي يهيىء للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه. والأولياء هنا المراد بها أصنام المشركين الذين كانوا يتخذونها آلهة ويعبدونها ويرجون منها الخير والنفع.

والعلم كشف الآن أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات وأقوى من خيط الحرير وأكثر منه مرونـة، وهو أدق خيط معـروف إلى اليوم قطره يبلغ نحو ثلاثة أعشار جزء من ألف من المليمتر.

وحقيقة أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ﴾ فبيت العنكبوت أبعد البيـوت من صفة البيت بمـا يستلزمه من أمـان وسكينة واطمئنان، فالعنكبوت الأنثى تقتل ذكرها بعد أن يلقحها لذا يعمد الذكر إلى الفـرار بجلده بعد أن يلقحهـا، وصغار العنـاكب يأكـل بعضهـا بعضـاً بعـد الخـروج من البيض، وتغزل أنثى العنكبـوت بيتها ليكـون فخاً وكمينـاً لكل حشرة صغيرة وكل من يدخل البيت من حشرات يقتل ويلتهم، إنه ليس بيتاً بل مكانـاً يخيم عليه الجبن والخـوف والشراسـة وهو أوهن(١) البيـوت لمن يحاول أن يتخذ منه مأوى(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَـا يَدْعُـونَ مِنْ دُونِـهِ مِنْ شَيءٍ﴾ مـا: بمعنى الـذي. ويدعون: بمعنى: يعبدون. فاللَّه يعلم الذين يعبدون غيره من أصنام وأوثان ومظاهر طبيعيـة وغير ذلـك ﴿وَهُوَ العَـزِيزُ الحَكِيمُ﴾ هـذه الأوصاف الإِلَهيـة تجهيل لعبدة الأصنام حيث عبدوا مـا لا يستحق العبادة، وتـركوا عبـادة اللَّه ﴿العزيز﴾ أي القـوي الغالب ﴿الحكيم﴾ والحكمـة من اللَّه معرفـة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام.

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ﴾ أي هذا المثل الذي أورده اللَّه عن العنكبوت وغيره من الأمثال يمثلها اللَّه للناس ويبينها لهم ليأخذوا منها العبرة ﴿وَمَا يَعْقِلُها إلاَّ العَالِمونَ﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلّا الراسخون في العلم.

---

(١) أوهن: الوهن الضَّعف من حيث الخَلْق والخُلُق، ويقال وهن الرجل جبن من لقاء العدو. ووهن: ضعف في الأمر والعمل والبدن.

(٢) عن كتاب «القرآن» للأستاذ مصطفى محمود.

وهنا يعترضنا سؤال: ما علاقة المثل الذي ضربه اللّٰه للناس ببيت العنكبوت والذي يدركه الراسخون في العلم، سؤال نجيب عنه باختصار، فالعناكب فيها من إبداع الصنعة الإلٓهية الشيء الكثير، سواء من ناحية تكوينها الجسدي من القناة الهضمية ودورة الدم وجهاز التنفس والأحاسيس والبصر والجهاز الهضمي بما يضيق بنا المجال في الكلام عنها بإسهاب. ولكن ما تختص به العنكبوت دون سائر حشرات الأرض هو النسيج التي تصنعه بأشكال هندسية وبه تصطاد فريستها.

فالعناكب لها مغازل موضعها في البطن في مؤخرتها وهي عادة ثلاثة أزواج أو أربعة أزواج وكل مغزل من هذه به ثقوب عدة، وهذه الثقوب تتصل من الداخل بالغدد التي تفرز السائل الذي يتحول إلى خيط بمجرد تعرضه للهواء. واتصال هذه الثقوب بالغدد يكون عن طريق قنوات. وهذا الجهاز الذي نسميه المغزل في العنكبوت أشبه بالجهاز الذي نسميه الثدي في المرأة. وفي مغازل العنكبوت عدد من الثقوب بل عدد من الأنابيب الغازلة كبير جداً يبلغ أحياناً الألف، ولكن في البعض الآخر من أنواع العناكب تقل الأنابيب الغازلة عن المائة. ولكل فصيلة من فصائل العناكب شكل لبيته، وأكثر هذه الأشكال تعقيداً وتركيباً وحسن صنعة الهندسي الدائري. وينتج جهاز الغزل هذا نوعين من هذه الخيوط الحريرية: نوعاً جافاً لا مرونة فيه وهو لإقامة الهيكل الذي يَعمد البيت، ونوعاً آخر لزجاً يلصق به كل ما يمسّه والذي تقع الضحية عليه من الحشرات غذاء للعنكبوت(١).

ويقف الإنسان العاقل المتأمل حائراً متسائلاً:

من عَلّم العنكبوت كيف تنسج؟ ومن علّمها الهندسة التي تصمم بها

---

(١) باختصار عن كتاب (في سبيل موسوعة علمية) للدكتور أحمد زكي.

بيتها؟ ومن علّمها ما يلزمها من خيوط لزجة وجافة وما تضمنهما من أهداف. والمغازل ليست كلها تنتج صنفاً واحداً فكيف درى العنكبوت بأن صنفاً اكتفى منه فأوقف مغزله، وأن آخر احتاجه فأطلق غدده لنسج خيوطه. هذه الأسرار في العنكبوت أدركها العلماء ورأوا فيها يد القدرة الإلٓهية المبدعة، وصدق اللَّه إذ قال في المثل الذي مثّله في العنكبوت ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ﴾.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ أي خلقهما اللَّه بالعدل مراعياً لِلحِكم ومصالح العباد، فالحق دعامة من دعائم الكون التي قام عليها نظامه المعهود. وعلى الناس أن يعوا هذه الحقيقة فيجعلوا الحق هو الحكم بينهم، وما خرج قوم عن سبيل الحق إلاّ كان مصيرهم الخسران ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤمنينَ﴾ إن في ذلك لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته وتفرّده بالألوهية.

ثم يبيّن القرآن العلاج لتطهير النفس من آثامها والحؤول دون تدنيسها:

﴿آتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

فاللَّه سبحانه يخاطب رسوله محمداً قائلاً: ﴿آتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ﴾ أي اقرأ ما أوحاه اللَّه إليك من القرآن تذكراً لما فيه من العظات وعملاً بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب. وخطاب اللَّه لرسوله محمد يشمل أيضاً كل مؤمن لتلاوة القرآن والاستفادة منه مما ذكر ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ وإقامة الصلاة وهو الإتيان بها إتياناً كاملاً يحقق المقصود منها، وهو التوجه الكلي إلى اللَّه والخشوع الحقيقي له وتوفية شروطها وأركانها والمحافظة

عليها في أوقاتها ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمنْكَرِ﴾ والفحشاء والفاحشة ما يشتد قبحه من الذنوب وكثيراً ما يراد بالفاحشة: الزنا. والمنكر: معاصي اللَّه وما تستقبحه العقول السليمة من الأقوال والأفعال. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة ومن ترغيب في طاعة اللَّه وترهيب من معصيته، فإذا شرع المصلي في صلاته وخشع لربه وتذكّر أنه واقف بين يديه وأنه مطلع عليه ويراه، صَلُحت لذلك نفسُه وأصبح إيمانه قوة فعالة في حياته. وقد روي عن بعض السلف الصالحين أنه إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرّ لونه. فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي اللَّه تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي لَذِكْرُ الإنسان ربه في الصلاة أكبر من الصلاة، فليس المقصود من الصلاة حركاتها من ركوع وسجود بل أكبر شيء وأهمه فيها ذكر اللَّه واستحضار عظمته وتقديسه وتنزيهه عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال والجلال ﴿وَاللَّه يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ واللَّه يعلم ما تصنعون في صلاتكم من ذِكْرِ اللَّه والقيام بأركانها فيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء.

وقيل في معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ولذكركم اللَّه أفضل من كل شيء، ولا شيء أفضل مِنْ ذِكْرِ اللَّه.

وقيل أيضاً في معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ذِكْرُ اللَّه إياكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذِكْرِكُم إياه، لأن المؤمن إذا ذَكَرَ اللَّه ذَكَرَهُ اللَّه فيمن عنده من الملائكة، وَذَكَره بلطفه ورحمته وإفاضة الهدى عليه، ولهذا يقول تعالى: ﴿فَاذْكُروني أذْكُرْكُم﴾.

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ
ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ
أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ
وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ
تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾
بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ
عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

شرح المفردات

أهل الكتاب : اليهود والنصارى.

ونَحْنُ له مُسلمون : ونحن له خاضعون.

لارْتَابَ المبْطِلُون : لدخل الشك قلوب أهل الباطل.

يجحد : يكفر وينكر.

شهيداً : عالماً مطلعاً.

تابع سورة العنكبوت

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الأدب في مجادلة اليهود والنصارى مثنياً على الذين آمنوا منهم:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِين ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَاب فَالَّذِين آتَيْنَاهُمْ الكِتَاب يُؤْمِنونَ بِهِ وَمِنْ هؤلاء مَنْ يُؤْمِن بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ﴾ (٤٦ ـ ٤٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتَابِ﴾ والمجادلة هي المناقشة والمناظرة والمنازعة في الرأي، وقد يكون الجدال بالباطل ليصرف عن الحق، وقد يكون بالحق ليدحض الباطل وهو المقصود هنا. وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى وسماهم الله أهل الكتاب لأنه سبحانه أنزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿إلَّا بالتي هي أحْسَنُ﴾ أي لا تجادلوهم إلّا بالخصلة التي هي أحسن الأساليب، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله بما فسّرته الآية التالية ﴿أُدْعُ إلَى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْموعِظَةِ الْحَسَنة وَجَادِلْهُم بالتي هي أَحْسَن﴾ فمجادلتهم تكون بالكلام الليّن المدعوم بالبراهين والحجج رجاء إقناعهم بالإسلام ﴿إلَّا الَّذين ظلموا مِنْهُم﴾ بأن أفرطوا في الاعتداء والغدر وتهجموا على الإسلام وتعدوا حدود الله فإنهم يجادلون بأسلوب صارم يبيّن فساد ادعاءاتهم، ويظهر موطن جهالتهم، والضلال الذي خالط دينهم، ويعاملون بالطريقة التي تردعهم عن ظلمهم.

فالمجادلة بالتي هي أحسن هي مظهر من تسامح الإسلام، وتطور في المفهوم الديني، بينما كانت الجماعات الدينية في القرون الوسطى وما بعدها تستعمل جميع طرق الإكراه مع مخالفيها في الدين، ولا تسمح

لرأي مخالف في مجادلتها وإلاّ أصبح في غياهب السجون.

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بالذي أُنْزِلَ إلَيْنَا وَأُنْزِلَ إلَيْكُم﴾ أي قولوا أيها المسلمون لأهل الكتاب: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل اللذين أُنزلا إليكم. وقد روي أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال محمد ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم»[١].

﴿وإلَهنا وَإلَهكم وَاحد﴾ ومعبودنا ومعبودكم واحد وهو اللّٰه الواحد الأحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن له خاضعون متذللون بالطاعة فيما أمرنا ونهانا عنه.

فاجتماع هذه الديانات الثلاث على هدف واحد وهو عبادة اللّٰه وحده من شأنه أن يُقرّب بين هذه الديانات وأن ينزع عن أتباعها نزعة التباغض والتشاجر في الدين.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ﴾ أي كما أنزلنا الكتب الإلَهية على الأنبياء أنزلنا إليك يا محمد القرآن ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهم الكِتَاب يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فالذين آتاهم اللّٰه الكتب المنزلة من عنده ممن سبقوا محمداً زماناً[٢] من المؤمنين والأنبياء يؤمنون بهذه الكتب ويعملون بها ﴿وَمِنْ هَؤلاءِ مَنْ يُؤمِنُ بِهِ﴾ ومن أهل الكتاب على عهد الرسول محمد من يؤمن بأن القرآن وحي إلَهي كعبد اللّٰه بن سلام وكان من أحبار اليهود وغيره من اليهود، وكذلك من آمن من قريش والعرب وغيرهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا﴾ أي وما ينكر آيات القرآن أو الحجج والأدلة على وحدانية اللّٰه ونبوة محمد ﴿إلَّا القَوْم الكافرون﴾ إلاّ

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٢) وقد يكون المراد هم أهل الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ.

القوم المصرون على الكفر، هذا وإن الجحود لا يكون إلّا بعد المعرفة.

ثم يقدم القرآن دليلاً على نبوة محمد وهو أنه أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وبالرغم من ذلك فقد جاء بكتاب لم يستطع الأولون والآخرون مجاراته في فصاحته وهديه وهو شاهد على نبوته:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمبطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٨ ـ ٤٩).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي وما كنت تقرأ من كتاب قبل نزول القرآن عليك يا محمد لأنك أُمّي ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمينكَ﴾ وما كانت عادتك أن تكتب بيدك اليمنى لأنك لا تجيد الكتابة ﴿إِذاً لارْتَابَ الْمبْطِلُونَ﴾ ولو كنت تحسن القراءة والكتابة لشكّ أهل الباطل في أن القرآن من عند اللّه.

سمع العرب هذه الآية التي تذكر أمية محمد ﷺ وأنه لا يجيد القراءة والكتابة، وكان كثير منهم يناصبونه العداء، فلو كانوا يعلمون أن محمداً يجيد القراءة والكتابة لكان لهم السبيل إلى نفي قوله ولقامت لهم الحجة على تكذيبه في أقوى برهان.

ثم لنفرض جدلاً أن النبي ﷺ تعلم القراءة والكتابة فإن التعلم يحتاج إلى زمن طويل ولا يتم في الخفاء ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين العرب أن محمداً يتعلم العلوم من فلان والعلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لا يحصل إلّا إذا كان المعلم في غاية المعرفة، فلو حصل أن في العرب إنساناً بلغ من العلم هذا المبلغ لكان مشاراً إليه بالبنان ولاضطر النبي ﷺ إلى تقديمه إلى أصحابه ولفاه المعلم لبعض الناس بذلك كما هو معهود وهذا

ما لم يحصل قط، هذا مع العلم أن القرآن كان ينزل متتابعاً حسب الوقائع والحوادث التي تجري، فلم يقدم محمد القرآن إلى قومه مكتوباً جملة واحدة كما يفعل الكُتّاب في مؤلفاتهم التي يشبعونها مراجعة وتنقيحاً. فأمية محمد ﷺ والطريقة التي نزل بها القرآن برهان قاطع على أن القرآن وحي إلٰهي، وبالأخص ما اشتمل عليه القرآن من التشريعات العادلة المخالفة لعادات العرب. وما أتى به من الحِكَم والآداب والعبادات والعقائد وأخبار الأنبياء والأمم الماضية، وأنباء غيبية تحققت.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ أي بل القرآن هو آيات واضحات الإعجاز محفوظة في صدور المؤمنين الذين آتاهم اللّٰه العلم، ووصفهم اللّٰه بالعلم لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام اللّٰه وكلام البشر.

وقيل الضمير ﴿ هو ﴾ عُني به محمد أي أن وجود صفة محمد في التوراة وأنه لا يقرأ ولا يكتب هي دلائل واضحة على صدق نبوته في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب الذين صدقوا بنبوته(١).

---

(١) جاء في كتب أهل الكتاب مبشرات عن نبي سيأتي لا يقرأ ولا يكتب تنطبق صفاته على النبي محمد نذكر أحدها. «ففي الفصل الثامن من تثنية الاشتراع من التوراة: (١٧) فقال لي الرب قد أحسنوا فيما قالوا (١٨) أُقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك وألقي كلامي في فيه فيخاطبهم بجميع ما آمره به».

وقع في هذه البشارة بأن الرب سيقيم لبني إسرائيل نبياً من بين إخوتهم وهو دليل على أنه ليس من بني إسرائيل، فلفظ إخوتهم مقصود به أبناء إسماعيل بن إبراهيم الذين منهم محمد ﷺ بينما بنو إسرائيل ينحدرون من إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام. ولفظ ﴿مثلك﴾ معناه أن الرب سيقيم لهم نبيًّا مثل موسى، فموسى صاحب كتاب وشريعة ومحمد مثل موسى صاحب كتاب وشريعة أتمها. ووقع في هذه البشارة لفظ ﴿وأُلقي كلامي في فيه﴾ وهو إشارة إلى أن ذلك النبي الذي ينزل عليه الوحي هو أُمّي لا يعرف الكتابة بل حافظاً للكلام وهذا ما ينطبق على صفات رسول الله محمد ﷺ.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ أي فما ينكر القرآن بأنه كلام اللّه وينكر نبوة محمد إلاّ القوم الظالمون الذين تجاوزوا حدود الحق.

وبعد أن بيَّن القرآن دليلاً على نبوة محمد مستقى من أميته أردف بذكر دليل آخر وهو القرآن الذي أُنزل عليه والذي هو معجزة تفوق معجزات الأنبياء:

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّما الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما في السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَالَّذينَ آمنوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ (٥٠ ـ ٥٢).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي وقال المشركون من قريش: هلاَّ أُنزل على محمد معجزات من ربه تكون حجة للّه علينا، كما جعلت معجزة الناقة للنبي صالح، ومعجزة المائدة للنبي عيسى، ومعجزة العصا للنبي موسى ﴿قُلْ إِنَّما الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد إنما المعجزات عند اللّه لا يقدر على الإتيان بها غيره ينزلها على من يشاء من عباده ﴿وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقل لهم: ليس لي أن أقترح على اللّه شيئاً ليس هذا من شأني ولا من أدبي إنما أنا نذير أُخوِّفكم من عقاب اللّه لكم على كفركم وأوضح لكم ما ينبغي أن تعملوه.

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ(١) أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي أَقَصُرَ نظر المشركين ولم يكفهم من المعجزات التي اقترحوها وطالبوا بها: هذا القرآن

---

(١) أو لم يكفهم: كلام مستأنف من جهته تعالى رداً على اقتراحهم. والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. أي أَقَصُرَ نظرهم ولم تكفهم معجزة القرآن.

الذي يُقرأ عليهم؟ إنه المعجزة التي تحديتَهم بها، فقد أمرك اللّه يا محمد بأن تطالبهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، بل بعشر سور من مثله، بل بسورة من مثله ولكنهم عجزوا أمام هذا التحدي وقامت الحجة عليهم، ولو أتيتهم بمعجزات شبيهة بمعجزات الأنبياء لما آمنوا.

فمعجزة محمد هي القرآن فهي أعلى وأظهر من كل معجزات الأنبياء السابقين. فمعجزات الأنبياء رآها الذين عاصروهم من قومهم، أما معجزة القرآن فرآها وسمعها الذين عاصروا محمداً ورآها ووعاها جميع شعوب العالم من بعده إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها. فالقرآن هو الكتاب المعجز للبشر بأسلوبه وفصاحته وهدايته وتشريعه، وما اشتمل عليه من أنباء غيبية تحققت ومن إشارة إلى حقائق علمية توصل الإنسان إلى اكتشافها بعد قرون كثيرة من نزول القرآن. ألا يكفي الذين ينشدون المعجزات لإيمانهم أن يتأملوا في القرآن ويدرسوا ما فيه عن تجرد وإخلاص فيرون فيه كل حقائق الوجود فيدخل الإيمان في قلوبهم عن اقتناع ويقين بأن القرآن كلام اللّه وأن محمداً رسول اللّه.

هذا وقد ورد في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ما من الأنبياء من نبي إلّا قد أُعطي من الآيات «المعجزات» ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً ـ أي القرآن ـ أوحاه اللّه إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنزال القرآن عليك يا محمد لرحمة بهم وبالأجيال من بعدهم وتذكرة نافعة للحق والخير لقوم شأنهم أن يؤمنوا إذا توضحت لهم سبل الهداية.

---

(١) أخرجه الشيخان.

﴿قُـلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْني وَبَيْنَكُمْ شَهيـداً﴾ أي قُل يـا محمـد للمكـذبين بنبوتك كفى باللَّه شهيداً ورقيباً بما جرى بيني وبينكم لأنه يعلم المحق منا من المبطل ﴿يَعْلَمُ مَا في السَّمٰـوات وَالأَرض﴾ فهو سبحـانه مـطلع على أمري وأمركم لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿وَالَّذِين آمَنُوا بِالبَاطِلِ﴾ والذين آمنوا بوجود شركاء للَّه وعبدوهم ﴿وَكَفَروا بـاللَّهِ﴾ وجحدوا وحـدانية اللَّه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ أي الخاسرون يوم القيـامة حيث سيحـاسبهم اللَّه على أعمالهم ومعتقداتهم الباطلة.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ
ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى
وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ
غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ
صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا
ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ

شرح المفردات

بَغْتَةً : فجأة.

يَغْشَاهُمُ العذاب : يغطيهم ويحيط بهم.

لَنُبَوِّئَنَّهُم : لننزلنَّهم.

دابة : كل ذي حياة يدب على وجه الأرض عقل أو لم يعقل.

فَأَنَّى يُؤفكون : فكيف يصرفون عن توحيد الله.

وَيَقْدِرُ له : ويضيق الرزق على من يشاء.

ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا
وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ
أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

شرح المفردات

لَهِيَ الحيوان : لهي الحياة الدائمة التي لا زوال لها.

الفلك : السفن. (للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع).

مُخلصين له الدِّين : مخلصين للّه الدعاء لا يدعون معه غيره.

حَرَماً آمناً : أي مكاناً حرم اللّه على الناس أن يدخلوه بغارة أو حرب.

يُتَخَطَّفُ الناس: يُسلب الناس من حولهم ويسبي بعضهم بعضاً.

لَنَهدينَّهم سُبُلَنَا : لنوفقنهم إلى طرق الوصول إلى مرضاتنا.

تابع سورة العنكبوت

ثم يبين القرآن استعجال المشركين لعذاب اللّه الذي أنذرهم به النبي استهزاء به وتكذيباً له:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّم لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣ ـ ٥٥).

فهؤلاء المشركون يستعجلون العذاب الذي أنذرهم به رسول اللّه استهزاءً به وتكذيباً، وقد كانوا يقولون كما نقل عنهم القرآن: ﴿اللهم إن كَانَ هَذَا هُوَ الحق مِنْ عِندك فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارة مِنَ السَّمَاءِ أو ائْتِنَا بِعَذابٍ أليم﴾ ولكن اللّه يردّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُسمًّى لَجَاءَهُم العَذَابُ﴾ أي ولولا وقت محدد قدره اللّه لهلاكهم لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرون﴾ ولجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبه فجأة حال كونهم لا يعلمون بوقت مجيئه.

ثم كرر القرآن استعجالهم للعذاب للتأكيد على عنادهم: ﴿يَسْتَعْجِلُونَك بِالعَذَابِ﴾ أي في الدنيا وهذا تعجب من تعنتهم وإصرارهم على الكفر ﴿وإن جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكَافِرِينَ﴾ أي وكيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطة بهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِم وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي يوم يغطيهم عذاب النار ويغمرهم من جميع جهاتهم ﴿وَنَقُولُ ذُوقوا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ القائل بذلك هو اللّه سبحانه أو بعض ملائكته بأمره تعالى أي ذوقوا عاقبة ما كنتم فيه من الكفر وما كنتم

تقترفونه من المعاصي، يقال لهم ذلك على سبيل الإهانة والتوبيخ،وهذا عذاب معنوي بجانب العذاب الحسي.

وبعد الكلام عن المشركين باللَّه وما سيقاسونه من عذاب في الآخرة يخاطب اللَّه المؤمنين الذين يتعرضون للفتنة في دينهم والاضطهاد من أعدائهم، يدعوهم إلى ترك أوطانهم في نداء مشبع بالقربى منه، مطمئناً لهم بتوفير الرزق لهم:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِين آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ. والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ. وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (٥٦ - ٦٠).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضاف اللَّه المؤمنين إليه مع خطابه لهم تشريفاً وتكريماً ﴿إِنَّ أَرضي وَاسِعَةٌ﴾ إن أرض اللَّه واسعة لا تضيق بأحد، فإذا لم تتسهّل لكم العبادة في بلد فهاجروا إلى بلد يتسنى لكم فيه ذلك. وكذلك يجب على كل من كان في بلد يُعمل فيه بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أو يخاف الفتنة على نفسه وأهله أن يهاجر إلى بلد يأمن فيه من الفتنة ويعبد اللَّه فيه بسلام فالأرض كلها أرض اللَّه.

فالذي يحرص على رضاء ربه وتربية ذريته تربية صالحة عليه أن يختار البلد والمكان الصالح الذي يستقر فيه إذا كان يملك القدرة على ذلك، لأن البلد الذي تكثر فيه الفواحش والمنكرات ويشيع فيه الظلم والفساد ينعكس سلباً على ساكنه ويصرفه عن طاعة اللَّه وعبادته، ويصبح العيش فيه لوناً من ألوان العذاب.

والغاية كلها من مغادرة الأوطان عند استفحال الظلم والفساد هو فسح المجال لعبادة اللَّه لأنها غاية وجود الإنسان على الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ﴾.

فاللَّه سبحانه خاطب المؤمنين في الآية السابقة بقوله: ﴿يَا عِبادِيَ﴾ ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿فَاعْبُدونِ﴾ أي يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل، ويا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري.

فكل وقت يفوت من عمر الإنسان لا يعبد اللَّه فيه هو خسارة وندم يصاحبه يوم القيامة ولذا يذكِّر اللَّه الإنسان بأن العمر فائت والمرجع إلى اللَّه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتَ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون﴾ ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بدّ من عبادة ربه وطاعته والتزود للآخرة بصالح الأعمال، فكل إنسان في سفر إلى الدار الآخرة مهما طال لبثه في الدنيا.

﴿وَالَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدّقوا باللَّه وكتبه ورسله وعملوا بما أمرهم اللَّه فأطاعوه وانتهوا عمَّا نهاهم عنه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ أي لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِين فِيهَا﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿نِعْمَ أجر العاملين﴾ نِعْم جزاءُ العاملين بطاعة اللَّه ﴿الَّذِين صَبَرُوا﴾ الذين صبروا على أذى المشركين في الدنيا وعلى العمل بطاعة اللَّه وما يرضيه ﴿وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُون﴾ وعلى اللَّه يعتمدون في جميع أمورهم ويفوضون الأمر إليه في أرزاقهم وجهاد أعدائهم ثقة منهم بأن اللَّه مُعْلٍ كلمته، وأن ما قسم لهم من الرزق فلن يفوتهم.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ كأيّن: اسم يفيد الكثرة، أي وكثير من دواب الأرض لا تستطع أن تدّخر شيئاً لغد ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ اللَّه

يرزق تلك الدواب الضعاف كما يرزقكم أيها الناس، فلا تخافوا الفقر فإنه سبحانه يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم كما يرزق كل مخلوق على وجه الأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وهو السميع لأقوالكم العليم بما في أنفسكم وما إليه صائر أمركم لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

فالنبي ﷺ لما أمر المسلمين بالهجرة من مكة خافوا الفقر فكان الرجل منهم يقول: كيف أقدم على بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت هذه الآية.

وقد كان المشركون العرب يعتقدون بأن اللّٰه خالق الكون ولكنهم كانوا يشركون بعبادة اللّٰه الأصنام والأوثان فأراد القرآن أن يُبيّن بطلان عبادتهم للأصنام والأوثان بحجة منتزعة من اعترافاتهم كما نراه في الآيات التالية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ. اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (٦١ - ٦٣).

والمعنى: ولئن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين باللّٰه من قومك من خلق السموات والأرض فسوّاهن، وذلّل الشمس والقمر لمصالح العباد فسيقولون: إنه هو اللّٰه ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد اللّٰه ويشركون به غيره في العبادة مع إقرارهم بأنه خالق السموات.

﴿اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ اللّٰه يوسع رزقه لمن يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويضيق الرزق ويقتره لمن يشاء منهم، فأرزاق العباد بيد اللّٰه وحده فلا تخصوا غيره في العبادة ﴿إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إن اللّٰه عليم بمصالح العباد ومن يصلح له البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلّا

التقتير عليه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين باللّه من نـزّل المطر من السحاب ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا فأحيا اللّه الأرض بهذا المطر بعد أن أصابها القحط والجفاف فأنبتت صنوف النبات ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فسيقولون: إن الذي فعل ذلك هو اللّه ﴿بَل أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين باللّه لا يعقلون ما فيه النفع لهم من أمر دينهم وما فيه الضرر لهم.

فإذا كان اللّه خالق كل شيء وأصنامهم لم تخلق شيئاً بل هي من صنع أيديهم فَلِمَ يخصونها بالعبادة. أمور منطقية عرضها القرآن على عقول المشركين ليرجعوا عن ضلالهم ويثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بأن اللّه وحده هو الجدير بالعبادة.

وبعد أن بيّن القرآن اعترافاتهم بأن اللّه خالق كل شيء بيّن أن أسباب تركهم عبادته هو انغماسهم بشهوات الدنيا الزائلة وغفلتهم عن الآخرة، ولكن عند الشدة يلجأون إلى اللّه وحده مستغيثين به:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون. فَإِذَا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُون. لِيَكْفُروا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤ ـ ٦٦).

فالقرآن يعلن بأن الحياة الدنيا ما هي إلّا لعب ولهو إذا قيست بالآخرة فهي كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون، وما هي إلّا ساعات لهو تنقضي.

فهذا الوصف الذي أطلقه اللّه على الدنيا هو تصغير لأمرها، وازدراء لها، وبيان لسرعة زوالها عن أهلها، ومفارقتهم لها بالموت ﴿وَإِنَّ الدَّارَ

الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾[١] والدار الآخرة هي الحياة الباقية الخالدة التي لا موت فيها ﴿لَوْ كَانوا يَعْلَمُونَ﴾ جواب لو محذوف، أي لو كانوا يعلمون حقيقة ذلك لما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا في الفُلْكِ﴾ فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر وطغت الأمواج فخافوا الغرق والهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ توجهوا إلى اللَّه وحده مخلصين له الطاعة والعبادة، وانقادوا لفطرتهم التي تشهد بوحدانية اللَّه فلم يستغيثوا بأصنامهم وأوثانهم ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُم إلى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فلما نجّاهم من الغرق ووصلوا إلى البر سارعوا بالعودة إلى الإشراك باللَّه ﴿لِيَكفروا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾ لكي يجحدوا نعمة اللَّه التي أنعمها عليهم في أنفسهم وأموالهم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾[٢] ولكي يتمتعوا بما يرضي هواهم في هذه الحياة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُون﴾ فسوف يعلمون عاقبة كفرهم حينما يشاهدون العذاب الأليم.

ثم يذكّر القرآن المشركين بنعمة اللَّه عليهم حيث يعيشون حول البيت الحرام في مكة آمنين لا يمسهم الناس بسوء بينما الناس حولهم يتقاتلون ويسبي بعضهم بعضاً. والبيت الحرام هو أول بيت وضع لعبادة اللَّه وحده بناه إبراهيم عليه السلام بوحي من اللَّه. وقد حرّم اللَّه انتهاك البيت الحرام وجعله مقدساً ومن دخله كان آمناً، وظلت هذه القداسة معمولاً بها طوال

---

(١) الحيوان: الحيوان والحياة بمعنى واحد، والحيوان مصدر حي سمي به كل ذي حياة، والحيوان أصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً لكسر ما قبلها وجاءت على مصدر فعلان لأنه يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والطوفان، والحي كثير الاضطراب والحركة، ولذلك اختير لفظ حيوان على لفظ حياة مبالغة في معنى الحياة.

(٢) قرئت ﴿وليتمتعوا﴾ بسكون اللام بمعنى لام الأمر على وجه الوعيد والتوبيخ أما القراءة بكسر اللام فهي بمعنى لام كي.

العهـود عند العـرب، فلا يقتـل ولا يسلب ولا يُسبى من يسكن حـول البيت الحرام:

﴿أَوَ لَمْ يَـرَوْا أَنَّـا جَعَلْنَـا حَـرَمـاً آمِنـاً وَيُتَخَـطَّفُ النَّـاسُ مِنْ حَـوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِـلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَـةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبـاً أَوْ كَـذَّبَ بِـالْـحَـقِّ لَـمَّـا جَـاءَهُ أَلَـيْسَ فـي جَـهَـنَّـمَ مَـثْـوًى لِلكَافِرِينَ﴾ (٦٧ ـ ٦٨).

والمعنى: أعموا ولم يَرَ هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من نعمتنا عليهم دون سائر عبادنا فيشكرونا على ذلك، وينزجروا عن كفرهم بنـا فقد جعلنـا بلدهم مكة ﴿حَـرَماً آمنـاً﴾ أي حرّمنـا على الناس انتهـاكـه والدخول إليه بغارة أو حرب ويأمن فيه من سكنه من السباء والخوف والقتل ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ بينما تسلب الناس من حولهم ويقتل ويسبي بعضهم بعضاً ﴿أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بألوهية الأوثان يقرون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرونَ﴾ وبنعمة اللَّه التي أسبغها عليهم من إنزال القـرآن وإرسال محمـد هادياً لهم يجحدون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّه كَذِباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبـد غير اللَّه وكذب بالقرآن واختلق على اللَّه كذباً من الناس الذين قالوا إذا فعلوا فاحشة: وجدنا عليها آباءنـا واللَّه أمرنـا بها. ﴿أَوَ كَـذَّبَ بالْحَقِّ لَمَّـا جَاءَهُ﴾ أو كذب بما جـاء به رسـول اللَّه محمد من الهـدى ﴿أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مثوى لِلكَافِرينَ﴾ أليس في النار مستقر ومسكن لمن كفر باللَّه وجحد توحيده وكذّب رسوله محمد فيما جاء به من عند ربه، والاستفهام هنا تقرير، أي أخبر اللَّه أن للكافرين مسكناً في النار.

ثم يأتي ختام السورة منسجماً مع مطلعها الذي جـاء الكلام فيـه عن

الامتحان الرباني للمؤمنين ليظهر الصادق منهم في إيمانه من الكاذب منهم:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩).

والجهاد في الآية يحتمل قتال الكفار الذين يحاربون المسلمين، ويحتمل نصرة دين الإسلام، والدعوة إليه، والدفاع عنه بالمال والكتابة والوعظ، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف في وجه الظلم والظالمين، أو مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء وحملها على طاعة اللَّه وعدم الانجراف في معصية اللَّه. والمراد بقوله تعالى: ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في طلب مرضاتنا ومن أجلنا.

فالجهاد في سبيل مرضاة اللَّه يحتاج إلى تضحية وصبر ولكن ما يبذله الإنسان في سبيل مرضاة ربه لا يذهب سُدًى كما قال سبحانه ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنوفقنّهم لإصابة الطرق المستقيمة التي توصل إلى مرضاتنا ونزيدهم هداية إلى سبيل الخير والثواب. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وإن اللَّه مع المؤمنين بالتأييد والعون والنصرة لمن أحسنوا أعمالهم في سبيل مرضاة ربهم، هذه المعية من اللَّه للمؤمنين المجاهدين هي أثمن عطاء في الوجود، ومن كان ربُّ العالمين معه فقد ملك كل مقومات السعادة في الدنيا والآخرة وانتفت عنه كل أنواع الخوف والقلق والحزن.

سورة الروم

سميت هذه السورة بسورة الروم لأن اللَّه ذكر فيها نبأً غيبيًا وهو أن دولة الروم ستنتصر على دولة الفرس في بضع سنين بعد أن مُنيت بالهزيمة أمام الفرس. وقد تحقق هذا النبأ الغيبي مما يظهر معجزة للقرآن بالإضافة إلى معجزاته الكثيرة.

ودعت هذه السورة الناس إلى التفكر في أمر أنفسهم ليعرفوا مصيرهم لأن اللَّه لم يخلق السموات والأرض إلّا بالحق، ومن الحق وجود حساب وجزاء بعد الموت، كما دعتهم إلى السير في الأرض والنظر في آثار الأمم البائدة التي أهلكها اللَّه بسبب ذنوبها وتكذيبها لرسل اللَّه، كما ذكرت السورة مصير المجرمين في الآخرة حيث يقاسون العذاب الأليم، بينما المؤمنون في جنّة اللَّه يُنَعَّمُون وَيُكَرَّمُون.

كما دعت هذه السورة المؤمنين إلى تسبيح اللَّه وعبادته آناء اللَّيل وأطراف النهار مع بيان فضل اللَّه عليهم، وعرضت السورة بعض الدلائل والبراهين على وحدانيه اللَّه واستحقاقه للعبادة.

وتدعو السورة إلى الإحسان إلى الأقارب والمساكين وابن السبيل لأن في ذلك قربى إلى اللَّه تعالى.

وتبين السورة أن الفساد في الأرض عاقبته وخيمة وأن اللَّه لن يترك المفسدين بلا عقاب على أعمالهم السيئة.

وتختتم السورة بالنصح للنبي ﷺ بأن يثبت على الحق ويصبر على ما يلقى من أذى قومه فإن وعد اللَّه له بالنصر آتٍ لا محالة.

سُورَةُ الرُّومِ

آياتها ٦٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥
وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦
يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨
أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

شرح المفردات

أدنى الأرض : أقرب أرض كانت للروم بالنسبة لبلاد العرب.

غَلَبِهِم : اندحارهم وانهزامهم.

بضع سنين : فترة ثلاث إلى تسع سنوات.

أَجَلٍ مُسمًّى : وقت مقدر أزلاً لبقائها.

عاقبة : خاتمة ومصير.

أثاروا الأرض : حرثوها وقلبوها للزراعة.

وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم
مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾

شرح المفردات

البيِّنات : جمع بيِّنة وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية كالمعجزات.

السُّوأى : العقوبة المتناهية في السوء.

تَقُومُ السَّاعة : تجيء القيامة.

يُبْلِس المجرمون : تنقطع حجتهم أو ييأسون.

شركائهم : أصنامهم ممن أشركوها بعبادة اللّه.

في رَوْضَةٍ يُحْبرون : في جنة يُكرَّمُون ويُسَرُّون.

محضرون : مقيمون لا يغيبون عنه.

سُورَةُ الرُّومِ

ايضـــاح و دروس

مطلع هذه السورة يشير إلى الصـراع بين الروم والفـرس، فقد اقتتـل الروم وفارس فَهُزِمت الروم[١]، فبلغ خبر هذه الهـزيمة النبي ﷺ وأصحـابه فشقَّ عليهم أن يتغلب المجوسُ الوثنيون على أهل الكتاب من الروم، ففرح كفّار مكة وشمتـوا بالمؤمنين وقـالوا لهم: إنكم أهـل كتاب والنصـارى أهل كتاب وقد تغلب أهل فارس على أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنهزمنكم فأنزل اللّٰه تعالى قوله:

﴿الٓمٓ[١]. غُلِبَتِ الـرُّومُ. في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْـدِ غَـلَبِهِـمْ سَيَغْلِبُونَ. في بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١ ـ ٦).

---

(١) في عام ٦١٤م استولى الفرس على أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للأمبراطورية الرومانيـة على يد كسـرى أبرويـز ثم على دمشق وحاصـروا مدينـة بيت المقدس إلى أن سقطت في أيديهم، وهذا النصر كان مبعث فرح للمشـركين. ثم إن هرقـل قيصر الـروم الذي مني جيشه بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر فأخذ يعد نفسه لمعركة تمحو عنه عار الهزيمة حتى إذا كان العام ٦٢٢م (أي العـام الهجري الأول) أرغم الفـرس على خوض معركة على أرض أرمينيـة وكان النصـر حليف الروم. ثم تتـابعت انتصاراتهم ممـا اضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية المحتلة وهكذا تحقق وعد اللّٰه بانتصار الروم على الفرس. وثمة نبأ يفهم من سيـاق الآيات القـرآنية كـان مبعث فرح للمسلمين وهو انتصارهم على مشركي قريش في غزوة بدر التي وقعـت من العام الثاني الهجري في الوقت الذي كانت تحصل فيه انتصارات الروم.

(٢) الٓمٓ: راجع ما ورد عن هذه الأحرف الأبجدية في مطلع سورة العنكبوت.

عند نزول هذه الآيات خرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم أن غُلبت الروم فإن نبينا أخبرنا عن اللَّه تعالى أنهم سيغلبون فارس في بضع سنين فقام إليه أُبيّ بن خلف وغيره فقالوا لأبي بكر: يا أبا فصيل[١] يعرّضون بكنيته استهزاءً، فلنتراهن في ذلك فراهنهم أبو بكر ـ وكان ذلك قبل تحريم الرهان وجعلوا الرهان خمس قلائص[٢] والأجل ثلاث سنين ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «فهلّا احتطت فإن البضع ما بين الثلاث والتسع ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل». ففعل أبو بكر فجعلوا الرهان مائة قلوص والأجل تسعة أعوام فغلبت الروم فارس أثناء هذه المدة ففرح المؤمنون بهذا النصر.

فما أخبر به القرآن من هذا الأمر الغيبي الذي تحقق لدليل ساطع على أن القرآن وحي إلٰهي، فلو لم يتحقق ما وعد به القرآن من نصر الروم على الفرس لكان في ذلك تقويض الإسلام من أساسه بسبب دخول الريب إلى قلوب المؤمنين من صحة دينهم، ولكان للمشركين الذين يناصبون الإسلام العداء حجة قوية للتشكيك في نبوة محمد، ولسرى الشك إلى يومنا هذا ولكان لأعداء الإسلام الكثيرين في كل زمان حجة في الطعن بأن القرآن وحي إلٰهي.

فاللَّه سبحانه يقول في الآيات السابقة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أدنى: أقرب. والأرض هي أرض العرب، أي غُلبت الروم في مكان أقرب ما يكون إلى أرض العرب، وكان ذلك في أطراف الشام، وقيل في الأردن أو فلسطين ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ والروم من بعد غلبة

---

(١) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.
(٢) القلائص: جمع القلوص، وهي الفتية من الإبل.

فارس إياهم سيغلبونهم وينتصرون عليهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث والتسع سنوات ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي إن اللّٰه هو المنفرد بالقدرة وإنفاذ الأحكام حين غُلبت الروم من فارس، وحين يغلبونها، فهو يقضي في خلقه ما يشاء وهو القائل بما جاء في سورة آل عمران: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ(١) المؤمنونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وفي فترة انتصارات الروم على فارس انتصر المسلمون في معركة بدر على المشركين ففرح المؤمنون بهذا النصر المزدوج ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمن شاء اللّٰه أن ينصره نصره، ومن شاء أن يخذله ويذله أذله، فلا يمكن لأحد أن يجزم بالنصر في حربه مع الآخرين، وإن كانت هناك بوادر تشير إلى رجحان الكفة بسبب جودة السلاح ووفرة الجند، ولكن في حالات كثيرة رأيناها في حروب الأمم أن النصر كان يأتي بحيث لم يكن متوقعاً ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وهو اللّٰه القوي الغالب المبالغ في الرحمة يصيب بها من يشاء من عباده ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ تأكيد لما وعد به من نصر الروم على الفرس ونصر المؤمنين على المشركين ﴿وَلَكِنَّ أكثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون هذه الحقائق التي تشهد بأن القرآن وحي إلّهي حيث أخبر بنصر الروم على الفرس ونصر

---

(١) إن الفرح الذي أصاب المؤمنين من انتصار الروم المسيحيين على الفرس المجوس، والذي بشر به القرآن يوحي بهذه الرابطة الوثيقة التي تجمع بين المسيحية والإسلام، لأن الإسلام هو امتداد للأديان المنزلة: اليهودية والنصرانية، وهو مصدّق بأنبيائها وخاتمها ومكملها ومصلح لها، وهو الدين المقبول عند اللّٰه الذي لا يقبل غيره بعد نزوله. هذه الحقيقة يجب أن تعيها الأمم التي تدين بالمسيحية ويدفعها إلى دراسة الإسلام دراسة مجردة، ومد يد المعونة والمحبة إلى المسلمين لأن المسلمين ليسوا بأعدائهم فهم يفرحون بفرحهم ويسوؤهم ما يصيبهم من ضر، هذا إذا كانوا مسالمين صادقين في معاملتهم للمسلمين.

المؤمنين على المشركين وتحقق هذا الوعد الرباني.

ثم ينكر الله على المشركين الذين يكذبون بالبعث قصر نظرهم، واقتصار علمهم على ظاهر الحياة الدنيا وغفلتهم عن الآخرة:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عن الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون. أَوَ لَمْ يَتَفَكَّروا في أَنْفُسِهِم مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسمًّى وَإِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاس بلقاءِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٧ ـ ٨).

إن كثيراً من الناس الذين أعرضوا عن هدى الله يعلمون ظاهراً من هذه الحياة الدنيا وهو ما يشاهدون من زخارفها والتمتع بملاذها وتدبير معايشهم فيها من زراعة وصناعة وتجارة وتحصيل علومها ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون﴾ هم لا يتفكرون في الآخرة ولا يعملون لها بما يرضي ربهم وينجي من عذابه من عبادة له وعمل صالح واستقامة، وابتعاد عن الخطايا.

ما أشد انطباق هذه الآية على عصرنا الحاضر فأكثر شعوب العالم طغت عليها النوازع المادية فاستسلمت للرغبات الجسدية وارتمت في أوحال الرذيلة فلم تلتفت إلى نداء الروح والتفكير الجدي لما بعد الموت ووجود حياة أخرى يحاسبون فيها على أعمالهم.

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّروا[١] في أَنْفُسِهِم﴾ أي أَطُمِسَ على أعينهم وقلوبهم ولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وما تحتويه أجسادهم من أسرار وبدائع الصنعة فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على أن يعيدهم أحياء بعد موتهم وفناء أجسادهم خلقاً جديداً ﴿مَا خَلَقَ

---

(١) أولم يتفكروا: الهمزة للإنكار عليهم داخلة على محذوف والواو معطوفة عليه، والتقدير: أعموا ولم يتفكروا.

اللَّهُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق السموات والأرض وما بينهما من عوالم إلّا مقرونة بالجدّ مصحوبة بالحق ﴿وَأَجَلٍ مُسمًّى﴾ أي للسموات والأرض وقت تنتهي به إلى فناء وهو يوم القيامة ثم يبعث اللّه الناس أحياءً للحساب والثواب والعقاب. إن طبيعة هذا الكون بمخلوقاته قائم على الحق وعلى نظام دقيق محكم غاية الإحكام، ومن مقتضيات هذا الحق أن تكون هناك حياة أخرى يتم فيها الجزاء على العمل ويلقى الخير والشر جزاءه ﴿وَإِنَّ كثيراً من الناس بِلِقَاءِ رَبِّهِم لكَافِرونَ﴾ وإن كثيراً من الناس بلقاء اللّه وقيام القيامة لجاحدون، حيث يظنون أن الحياة الدنيا هي الغاية التي لأجلها يعيشون فلا حياة بعد الموت.

ثم يدعو القرآن إلى التأمل في أحوال الأمم السابقة وما كانت عليه من عز وسلطان ثم ما آلت إليه من دمار وهلاك بسبب سوء أفعالها وعصيانها أوامر ربها:

﴿أَوَ لَمْ يَسيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَروهَا أَكثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٩ ـ ١٠).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَسيروا[١] في الأَرْضِ فَيَنْظُروا﴾ أي أَلَزِمُوا مساكنهم ولم يسيروا في أرجاء الأرض؟ بلى، إنهم ساروا في الأرض وشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف كان مصير وخاتمة الذين

---

(١) أَوَلم يسيروا: الهمزة للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والواو عاطفة عليه والتقدير: أَلَزِمُوا مساكنهم ولم يسيروا. . .

كانوا قبلهم من الأمم الذين أصابهم الهلاك والدمار جزاء تكذيبهم رسل اللَّه واقترافهم سيئات الأعمال ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا أقوى أجساداً من قريش ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ أي قلبوا الأرض للزراعة واستخراج الماء والمعادن والكنوز ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي عمروا ديارهم بفنون العمارات واستغلوا ما عمروه من زراعة وغرس وبناء أكثر مما قامت به قريش ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ وجاءتهم رسل اللَّه بالأحكام الشرعية والمعجزات الواضحة التي تشهد أنهم رسل اللَّه حقًّا ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم﴾ في الكلام هنا حذف، أي كذبوا رسل اللَّه فأهلكهم، فما كان اللَّه ليهلكهم من غير جرم اقترفوه، وما كان اللَّه ليعاملهم معاملة الظالم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلمونَ﴾ من حيث إصرارهم على الشرك باللَّه بعبادة غيره وعصيانهم رسل اللَّه واقترافهم المعاصي ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِين أَسَاءُوا﴾ ثم كانت عقوبة الذين عملوا السيئات ﴿السُّوأىَ﴾ هي تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، أي كانت عقوبتهم التي هي أقبح العقوبات في الآخرة وهي جهنم ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ وسبب تعذيبهم لأنهم كذَّبوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي شرائع اللَّه المنزلة على رسله، أو المعجزات الظاهرة على أيديهم ﴿وَكَانوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وكانوا برسل اللَّه وما جاءوا به من الهدى يسخرون.

ثم يبين القرآن مصير الناس يوم القيامة حيث يعيدهم أحياء بعد مماتهم لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم:

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ المجْرِمُونَ. وَلَمْ يَكُن لَهُم مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتفرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُم في رَوْضَةٍ يُحْبَرون. وَأَمَّا الَّذِين كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولقاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١١ - ١٦).

فاللَّه سبحانه ﴿يَبْدَأُ الخلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي ينشيء خلق الناس ابتداءً ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى ربهم يحشرون للحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويوم تجيء القيامة، وتأتي الساعة التي يحكم اللَّه فيها بين خلقه ﴿يُبْلِسُ المجْرِمُونَ﴾ ييأس الذين أشركوا باللَّه واكتسبوا سيِّىء الأعمال. وقيل في معنى يبلس: يسكتون وتنقطع حجتهم، وقيل: يفتضح ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ وشركاؤهم هم أصنامهم التي جعلوها شريكة للَّه، أي ولم يكن لهم من أصنامهم وأوثانهم التي يعبدونها من غير اللَّه شفعاء يستنقذونهم من عذاب اللَّه ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِم كَافِرِينَ﴾ وكانوا في ذلك الوقت بآلهتهم التي جعلوها شركاء للَّه جاحدين لها لعلمهم إذ ذاك أنها لا تنفع ولا تضر، أو بمعنى: وكانوا بسببها في الدنيا كافرين ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ويوم تقع القيامة ويحل موعدها ويحشر فيها الخلق إلى اللَّه للمجازاة على أعمالهم يتفرق أهل الإيمان باللَّه، وأهل الكفر به، فأمَّا أَهل الإيمان فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ﴿فَأَمَّا الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فأما الذين صدَّقوا بوحدانية اللَّه وصدَّقوا برسوله محمد وعملوا بما أمرهم اللَّه به من صالح الأعمال ﴿فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرونَ﴾ والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة، والمراد بها الجنة التي وعد اللَّه بها عباده المؤمنين، وهم في الجنة ﴿يُحْبَرون﴾ أي يُسَرُّون، وقيل: يكرّمون وينعّمون ﴿وَأَمَّا الَّذِين كَفَروا وَكَذَّبُوا بآياتِنَا﴾ وأما الذين جحدوا وحدانية اللَّه، وأنكروا نبوّة محمد، وكَذَّبوا بما أُنزل عليه من آيات القرآن ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ وأنكروا وجود حياة أخرى بعد الموت يجازون فيها على أعمالهم ﴿فَأُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ فأولئك في عذاب جهنم مقيمون لا يغيبون عنها أبداً.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ
تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم
مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن
فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

شرح المفردات

فَسُبْحَانَ اللَّهِ : فسبِّحوا اللّه وَصَلُّوا له.

حِينَ تُمْسُون : وقت حلول المساء.

وحينَ تُصبحون : وقت الصباح.

وَعَشِيّاً : بعد زوال الشمس وقبل المساء.

وحِينَ تُظْهِرُون : وقت الظهيرة.

ومن آياته : ومن العلامات والأدلة على وحدانية اللّه وقدرته العظيمة.

وابتغاؤكم من فضله : وطلبكم والتماسكم من رزق ربكم.

بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

قانتون : مطيعون خاضعون.

لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى : له الوصف الأعلى في الكمال والجلال.

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم : ملكت أيديكم من العبيد والإماء.

تابع سورة الروم

وبعد أن بيّن القرآن مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة، بيَّن بعد ذلك الوسيلة للنجاة من العذاب والفوز برضوان اللَّه وذلك بتمجيده وعبادته في أوقات مخصوصة من الليل والنهار:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوات والأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٧ ـ ١٨).

ومعنى ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي نزهوا اللَّه عن صفات النقص، ومجّدوه وأثنوا عليه بالخير، وقيل المراد بالتسبيح هنا هو الصلاة لأن تنزيه اللَّه وتقديسه يكون باللسان والقلب والجوارح، ولا شيء أجمع لذلك من الصلاة التي تشتمل على كل ذلك. وقد قيل لابن عباس رضي اللَّه عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وتلا هذه الآية. فمعنى قوله سبحانه ﴿حِينَ تُمسُونَ﴾ أي نَزِّهوا اللَّه ومجِّدوه وصلوا له حين حلول وقت المساء والمراد بذلك القيام بصلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي ونزِّهوا اللَّه وَصَلُّوا له وقت الصباح والمراد القيام بصلاة الفجر ﴿وَلَهُ الحَمْدُ في السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ وله الثناء والشكر من جميع خلقه من سكان السموات من الملائكة ومن سكان الأرض من المخلوقات، وهذه الجملة معترضة بين الكلام الداعي إلى تسبيح اللَّه للإيذان بمشروعية الجمع بين تسبيح اللَّه وحمده كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ﴾ ثم أضاف اللَّه قوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ والعَشِيُّ من زوال الشمس إلى الصباح، أي نزهوا اللَّه وصلّوا له وقت العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ونزِّهوا اللَّه وصلوا له حين تدخلون وقت الظهيرة والمراد بذلك القيام بصلاة الظهر.

ثم يبين القرآن أن هذا التسبيح يستحقه الله وحده الذي يحيي ويميت:

﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ وَيُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ وَيُحيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٩).

فاللَّه سبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي[١]، هذه هي العملية المستمرة التي لا تقف لحظة في مسيرة الحياة، ففي كل لحظة ييبس نبات أو شجر ثم يتحول إلى حطام ومن خلاله توجد النوى المنبثقة عنه المتهيأة للحياة، وفي كل لحظة يفقس البيض عن طيور وأحياء مائية ثم يصيبها الردى بعد ذلك.

﴿ويُحْيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما أنه سبحانه يحيى الأرض بعد موتها بإنزال المطر عليها فتدب فيها الحياة، وينبت فيها أنواع النبات، فتخضرّ ساحاتها ويرتادها الطير والحيوان بعد أن كانت جافة قد يبس زرعها وهجرها كل حيوان﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي ومثل إخراج النبات من الأرض الميتة بواسطة المطر كذلك تخرجون ـ أيها الناس ـ من قبوركم أحياء يوم البعث، فالقادر على إخراج النبات من الأرض الميتة قادر على إخراجكم أحياء بعد مماتكم.

ثم يستعرض القرآن بعض الدلائل على ربوبية اللَّه وحده، وقدرته العظيمة في خلقه للإنسان المتمثل في الرجل والمرأة لبقاء النوع عن طريق التزاوج:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَاب ثُمَّ إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ

---

(١) في جسم الحيوانات وحتى في جسم الإنسان تموت بعض الخلايا الحية أولاً بأول ولكن يجدد الجسم بناءها وسريعاً ما ينقل الدم الخلايا الميتة إلى أجهزة الإفراز لتخرج مع الفضلات وهكذا يخرج اللَّه الميت من الحي.

في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ﴾ (٢٠ ـ ٢١).

أي ومن الدلائل والعلامات على ربوبية اللّه لهذا الكون ووحدانيته وأنه القادر على كل شيء ﴿أَن خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ﴾ أن خلقكم أيها الناس من تراب. فاللّه خلق أباهم آدم من تراب ثم نفخ فيه الروح، والفرع وهم الجنس البشري كالأصل. وقد يُراد أن تكوين الإنسان من تراب، لأن عملية تغذية الإنسان تحصل من النبات والحيوان، والحيوان مصدره النبات، فالنبات قوام الكائنات الحية والنبات مصدره التراب. ﴿ثُمَّ إذَا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم أيها الناس عقلاء ناطقون تتفرقون في الأرض فيما هو قوام معيشتكم وتحصيل أرزاقكم، وصُدّرت الآية بحرف (إذا) للمفاجأة حيث تحول التراب الساكن فجأة بقدرة اللّه إلى صورة الإنسان المتحرك العاقل بانتقال يثير التأمل في صنع اللّه ويحرك القلب لتمجيده وتعظيمه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي ومن دلائل ربوبيته وكمال قدرته ورحمته أن خلق لكم ـ أيها الرجال ـ زوجات من جنسكم ﴿لِتَسْكُنُوا إلَيْهَا﴾ لتطمئنوا إليها وتألفوها، فالسكينة التي تحصل من اجتماع الجنسين المتوافقين في شعورهما المشترك كل نحو الآخر تعطيهما طمأنينة وراحة نفسية بالغة القدر، وتحيطهما بجو من السعادة يفتقدها كل عازب. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بينكم وبينهن حبًا وهوى وشفقة وتراحماً ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في ذلك لعبراً وعظات للذين يتفكرون في صنع اللّه الذي خلق كلًّا من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، يلبي رغباته النفسية والجنسية، فيعلمون أنه سبحانه هو الإلّه الذي خلق كل شيء وفق الحكمة، ولولا هذه الألفة والحب والتراحم في العلاقات الزوجية لما استمر بقاء النوع الإنساني على هذا الترابط المحكم.

فالقرآن يوضح بأن العلاقة الزوجية يجب أن تقوم على الاطمئنان

والألفة والحب والتراحم، هـذه الأمور هي التي تحفظ الحيـاة الزوجيـة من الزلل والاختلاف، وهذه الأمور هي التي تبني الأسر على أُسس متينة يظللها الوفاق والسعادة، ويوفـر لها الاستمرار والديمومة، تـأمل كيف قـرنت الآية الحب بالرحمة، فالحب وحده لا يبني الحياة الزوجية ما لم يَقترن بالرحمة، والرحمة تستدعي التضحية والإيثار وانتفاء القسوة والعنف والأنانية في معاملة بعضهما البعض.

ويتابع القرآن تبيان مظاهر القدرة الإلٓهية في خلق السمـوات والأرض وبعض المظاهر الطبيعية وفي خلق الإنسان وما يتمتع به من صفات:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ ألسِنَتِكُم وَأَلْوَانِكُم إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للعَالِمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل وَالنَّهَارِ وَابْتِغاؤُكم مِنْ فَضْلِهِ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَمِنْ آيَـاتِهِ يُـريكُمُ الْبَرْقَ خَـوْفاً وَطَمَعـاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مَاءً فيحيي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢ ـ ٢٤).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ أي ومن عـلامـات وحـدانيـة اللّه وقـدرتـه على البعث خلقـه السمـوات والأرض، فالسموات وما فيها من بلايين النجوم والكواكب والتناسق العجيب بينها مما يحفـظها من التصـادم، وما بينهـا من مسافـات وأبعاد يـظهر عـظمة القـدرة الإلٓهية، وكذلك الأرض وما تحتويه من جبال ووديان وسهـول وأنهار وبحـار وملايين المخلوقات البرية والبحـرية كـل ذلك عـلامة من عـلامات القـدرة الإلٓهية العظيمة القادرة على كل شيء ﴿واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم﴾ والألسنة يحتمل معناها اللغات المنتشرة بين البشر، أو أجناس النـطق وأشكالـه التي تختلف من شخص لآخـر حتى لا تكـاد تسمـع منـطقين متفقين في همس واحـد

أو جهارة أو رخاوة أو شدة أو في كيفية ما ﴿وَأَلْوَانِكُم﴾ واختلاف الألوان يظهر ببياض الجلد واسوداده وتوسطه فيما بينهما أو في حمرة الجلد واصفراره ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للعَالِمِينَ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان دلائل على قدرة اللّه العظيمة يدرك العلماء أسرارها لما يرون فيها من عظمة وإبداع تشهد بوجود الخالق وقدرته على كل شيء، هذا وقد اكتشف العلم أن المورثة أو الناسلة الموجودة في خلية الإنسان هي التي تتحكم في اختلاف الألوان؛ وهذه المورثة على قدر كبير من الدقة والصغر بحيث لا ترى إلّا بأعظم المجاهر[١]، فهذه الصنعة الإلّهية يقف العالِم أمامها خاشعاً مبهوراً من عظمة الإبداع الإلّهي.

﴿وَمِنْ آيَاته مَنَامُكُم بِاللَيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي ومن الدلائل على وحدانية اللّه وقدرته على بعث الناس أحياء بعد مماتهم يوم القيامة أنكم تنامون أيها الناس بالليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة، وقيل في الكلام تقديم وتأخير على معنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، والمناسبة من ذكر النوم وطلب الرزق وجعلهما من جملة الأدلة على حصول البعث يوم القيامة هو أن النوم شبيه بالموت، وابتغاء الرزق والسعي إلى كسب العيش شبيه بالحياة بعد الموت ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾ إن في ذلك لدلائل وعبر لقوم يسمعون حجج اللّه سماع تدبر وفهم فيتعظون بها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُريكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ ومن الدلائل الباهرة على القدرة

---

(١) يقول العلامة كريسي موريسون في كتابة «الإنسان لا يقوم وحده» عن المورثة (Genes) المسببة للمخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها أنها من الدقة بحيث لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم الكشتبان (قمع يغطي إصبع الخياط ليقيه وخز الإبرة).

الإلَهية أن يريكم البرق فيكون ذلك خوفاً لكم من الصواعق وطمعاً في الغيث أو خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحِيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويحيي اللَّه الأرض بالمطر النازل من السحاب[١] فينبت فيها أصناف النبات بعد أن يبس زرعها وغابت عنها معالم الحياة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في ذلك لدلائل وعبر لذوي العقول الذين يستدلون بها على قدرة اللَّه الباهرة.

ويتابع القرآن بيان قدرة اللَّه العظيمة القادرة على بعث الناس أحياءً يوم القيامة:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُم تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (٢٥ ـ ٢٧).

أي ومن الدلائل على القدرة الإلَهية العظيمة قيام السماء والأرض واستمرارها على ما هي عليه، فلا تتصادم أجرام السماء وكواكبها، ولا تختل مظاهر الحياة على الأرض ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُم تَخْرُجُونَ﴾ ثم إذا دُعيتم إلى الخروج من القبور أحياء فوجئتم بالخروج منها بسرعة من غير إبطاء للجزاء والحساب وذلك حين ينفخ إسرافيل في البوق

(١) ما هي العلاقة التي تربط بين البرق ونزول المطر إلى الأرض وإحيائها بالنبات، وهل حياة الأرض ترتكز على الماء فقط؟ لا فهناك عنصر أساسي لنمو النباتات وهو غاز النتروجين (الآزوت) الذي بدونه في شكل ما لايمكن أن ينمو أي نبات. ومن الوسائل التي يدخل بها النتروجين إلى التربة الزراعية هي عواصف الرعد فكلما أومض برق وحد بين قدر قليل من الأوكسجين والنتروجين فيسقطهما المطر إلى الأرض كنتروجين مركب ويقدر أحد خبراء الصواعق أن إنتاج البرق من النتروجين يوازي عشرة أضعاف ما تنتجه معامل الأسمدة في العالم.

ويقول: يا أهل القبور قوموا فلا يبقى خلق من الناس من الأولين والآخرين إلا قاموا ينظرون ما يحل بهم. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ وله سبحانه الملك والتدبير والسيطرة على كل ما في السموات من ملائكة، وما في الأرض من إنسٍ وجن ومخلوقات ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ كل هؤلاء له منقادون مطيعون لا يمتنع عليه شيء من ذلك.

﴿وَهُوَ الَّذي يَبْدَأُ الْخَلْق ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهو اللّٰه سبحانه يبدأ الخلق من غير أصل فينشئه ويوجده بعد أن لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك ثم يعيد خلقه كما بدأه بعد إفنائه ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي وهو أسهل وأيسر عليه، فبدء الخلق وإعادته سيان وهو القائل: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ ولكن اللّٰه يخاطب الناس حسب إدراكهم ومفهومهم، ففي طبيعة الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته، فالإنسان مثلاً قد لاقى جهوداً مضنية وتجارب شتى في اختراع سيارة أو طائرة أو ساعة أو أية صنعة ما فإعادة صنعها هي أهون عليه من بدء اختراعها، فما بال المنكرين للبعث يرون إعادة الناس أحياءً بعد مماتهم عسيرة على اللّٰه بينما هي في طبيعتها أيسر وأهون.

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ وله سبحانه الوصف الأعلى من القدرة الشاملة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التي ليست لغيره منها ما يشبهها ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ وهو القوي الغالب في ملكه الحكيم في فعله وتقديره.

ثم ينتقل القرآن إلى نفي الشريك عن اللّٰه بأسلوب منطقي مقنع:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُم مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ في مَا رَزَقْنَاكُم فَأَنْتُم فِيهِ سَوَاءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُم كَذَلِكَ

نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. بَلِ اتَّبَعَ الَّذِين ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٨ ـ ٢٩).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُم﴾ أي بيَّن اللَّه لكم مثلاً منتزعاً من طبيعة أنفسكم ﴿هَلْ لَكُم مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ﴾ أي هل لكم مما تملكون من العبيد والإِماء شركاء ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي في ما أعطيناكم من الخير والأموال ﴿فَأَنْتُم فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فأنتم وعبيدكم شركاء متساوون في التصرف في أموالكم ﴿تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُم أَنْفُسِكُم﴾ وأنتم في ذلك تخافون أن يقاسموكم ذلك المال، أو تخافون هؤلاء العبيد فلا تتصرفون في شيء مما تملكونه دون إذنهم كما يخاف الأحرار بعضهم بعضاً من مقاسمة الشريك شريكه المال الذي بينهما عند الفراق. فإِذا كنتم أيها المشركون لا ترضون الشركة مع عبيدكم، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء للَّه تتقاسم وإياه الملك مع أنها جماد لا تضر ولا تنفع. فإِذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ـ والخلق كلهم عبيد اللَّه ـ بطل بالأحرى أن يكون في الكون شريك للَّه في ملكه وأفعاله ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك التفصيل الواضح بضرب الأمثال نبين الآيات ونوضحها لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمور فيعتبرون ويتعظون مما بيناه من حجج على وحدانية اللَّه وانتفاء شريك له.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذين ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بل اتبع الذين كفروا أهواءهم التي ليس لها أساس من الصحة غير القائمة على علم ودليل ﴿فَمَنَ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فلا أحد يهدي من أضله اللَّه، ولا أحد يقدر على هدايته لأن الرشاد والهداية بتقدير من اللَّه وإرادته، واللَّه لا يهدي القوم الظالمين ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يُخَلِّصُونَهُم من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ
فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا
كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ

شرح المفردات

فأقم وجهك للدِّين : أخلص في دينك وعبادتك.

حنيفاً : مستقيماً عليه مائلاً عن الأديان الضالة.

فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها : صنعة اللَّه التي خلق الناس عليها.

ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ : ذلك الدين المستقيم الذي لا عوج فيه.

منيبين إليه : راجعين إلى اللَّه بالتوبة والإخلاص.

كانوا شِيَعاً : فِرَقاً وأحزاباً متفرقة.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُون: كل جماعة منهم مسرورون بما ابتدعوا من مذاهب في الدين.

مَسَّ الناس ضرٌّ : أصاب الناس شدة من مرض أو فقر أو قحط.

سُلْطاناً : كتاباً فيه حجج وأدلة.

يَقْنَطُونَ : ييأسون من رحمة اللَّه.

ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧ فَـَٔاتِ ذَا
ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ
أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ
ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ
ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ
سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ
أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١

شرح المفردات

يَقْدِرُ : يُضيِّق.

ابن السبيل : المسافر الذي ليس لديه من المال ما يكفيه للعودة إلى بلاده.

لِيَرْبُوا : ليزيد.

المضعفون : الذين تضاعف لهم الحسنات.

شُركائكم : المراد بها أصنامهم التي جعلوها شريكة للّه.

سُبحانه : تنزيهاً له عن الشريك والزوجة والولد.

تابع سورة الروم

ثم يبين القرآن بأن الإسلام القائم على توحيد اللَّه وعدم الإشراك به هو فطرة في النفس الإنسانية فيجب التزام هذا الدين وعدم التفرق والاختلاف فيه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللَّه التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تبديلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنّ أكثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ. مُنيبينَ إلَيْهِ واتَّقُوه وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تكُونُوا مِنَ المشرِكينَ. مِنَ الَّذِينَ فرَّقُوا دِينَهُم وَكَانوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ﴾ (٣٠ - ٣٢).

فاللَّه سبحانه يخاطب رسوله محمداً ويشمل الخطاب أمته: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ﴾** أي ابذل الهمة ظاهراً وباطناً في الدين وأقبل عليه، وقد مثل اللَّه ذلك بإقامة الوجه فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وقوم له وجهه مقبلاً به عليه، وهذا كناية عن الإخلاص في التدين وعبادة اللَّه وحده، والدين المراد به هو دين الإسلام **﴿حَنيفاً[١]﴾** أي مائلاً إلى الإسلام مستقيماً عليه موحداً للَّه غير ملتفت إلى غيره من الأديان المحرفة المنسوخة **﴿فِطْرَةَ[٢] اللَّهِ﴾** أي التزموا فطرة اللَّه والفطرة في الأصل هي الخِلقة والمراد بها هنا الملة وهي الإسلام والتوحيد **﴿التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** التي خلق اللَّه الناس عليها من معرفته وأنه لا إلَه غيره حيث أخرجهم اللَّه سبحانه من ظهر أبيهم

---

(١) حنيفاً: الحنيف هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم وهي توحيد اللَّه ومن كان على دين إبراهيم فهو حنيف لعدوله عن الشرك باللَّه. وقيل: الحنيف هو المسلم المخلص للَّه الذي أسلم أمره للَّه وكل من أسلم لأمر اللَّه فهو حنيف، والحَنَفُ: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

(٢) الفطرة: الخِلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه وتطلق على طبيعة الإنسان السليمة التي لم تُشَب بعيب.

آدم وسألهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكم؟ قالوا: بلى[١] ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير، أو بمعنى: لا تبديل لدين اللَّه، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الإسلام ﴿وَلَكِنَّ أكثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾ أي لا يعلمون أن الإنسان بفطرته يشهد بوحدانية اللَّه[٢] وأن الإسلام هو دين الفطرة.

فاللَّه خلق الناس بفطرتهم على الإسلام القائم على وحدانية اللَّه لكونه يتجاوب مع حاجات الروح ومتطلبات الجسد، حتى لو أن الناس تُركوا وشأنهم بدون أي مؤثر من البيئة أو العائلة لما اختاروا على الإسلام ديناً آخر، ومن ضلَّ عنه فبتأثيرات المجتمع ووساوس الشيطان ولهذا يقول النبي محمد ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه أو ينصِّرانه»[٣]، كما يقول النبي ﷺ بما ينقله عن ربه «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم (أي أدارتهم) الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[٤].

﴿مُنيبين إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إلى اللَّه بالتوبة من الذنوب مخلصين له العبادة ﴿وَاتَّقُوه وَأقيموا الصَّلاةَ﴾. وخافوا اللَّه بالقيام بطاعته واجتناب معصيته وحافظوا على الصلاة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ المشرِكينَ﴾ ولا تكونوا ممن أشرك باللَّه وعبد مع اللَّه غيره ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً﴾ من الذين

---

(١) جاء في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّك مِن بني آدَمَ مِنْ ظُهُورهم ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبكم قَالُوا بلى...﴾.

(٢) كشفت الدراسات الدينية الحديثة أن التدين صفة عامة لجميع البشر، وأن الاعتقاد بإله واحد هو عقيدة فطرية عند أكثر الشعوب قديماً وحديثاً.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه مسلم.

اختلفوا في دينهم وغيروا وَبَدَّلُوا في أُصـوله وانحـرفوا عن حقـائقه كـاليهود والنصارى فأصبحوا طوائف وأحزاباً ﴿كُلُّ حِزْبٍ[١] بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ﴾ كـل طائفة وفـرقة بمـا ابتدعتـه من الدين مسـرورة به مبتهجـة. فالقـرآن يبين أن الاختلاف في الدين إثمه عظيم، يجعل الذين يختلفون في دينهم في مرتبة المشركين في الإثم والضلال، فالاختلاف في الدين يجعل أتباعه متباغضين متنـاحرين، بينمـا الدين لم يـأتِ إلّا لإرساء قـواعد الـوحـدة والمحبـة بين المؤمنين.

ويتـابـع القـرآن فيقـدم دليـلاً على وحـدانيـة اللَّه مستقى من الفـطرة الإنسانية:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إذا فريق منهم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُروا بمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانوا بِهِ يُشْرِكُون﴾ (٣٣ ـ ٣٥).

والمعنى: وإذا أصـاب هؤلاء المشركين ضـرٌّ من شدة وفقـر ومـرض وقحط دعوا اللَّه وحده واستغاثوا به تائبين إليه من ذنوبهم ليكشف الضر عنهم ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم[٢] مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلـك الضر وأسبغ عليهم النعم والعافية ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ﴾ إذا: للمفـاجأة، أي سارع جماعة منهم إلى الشرك باللَّه بعبادة الأصنام والأوثان بعد أن كشف اللَّه عنهم الضر ﴿لِيَكْفُروا بمَا آتَيْنَاهُم﴾ اللام الداخلة على يكفروا للتهديد، وقيل للعاقبة، أي لتكـون عـاقبـة أمـرهم أن يكفـروا بمـا أعـطاهم اللَّه من النِّعم

---

(١) الحزب: كل طائفة جمعها الاتجاه إلى غرض واحد.

(٢) عبّر القرآن عن الرحمة بالذوق وهي التي تقال في القليل من الطعام الذي يُختبر إشعاراً بأن الرحمة لهم ليست مستمرة بل لهم في الآخرة عذاب أليم وأن الرحمة غير مطلقة بل هي خاصة بذلك الضر وحده.

﴿فَتَمَتَّعُوا(١) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي انتفعوا والتذوا بما طاب لكم من دنياكم أيها الذين أشركتم بالله فسوف تعلمون عاقبة كفركم.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطاناً﴾ أم: بمعنى بل والهمزة للاستفهام والإنكار، والسلطان هو البرهان والحجة من كتاب ونحوه، والمعنى: بل أأنزلنا عليهم كتاباً من السماء ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا الكتاب يشهد بصحة إشراكهم بالله، وإنما يعني الله سبحانه أنه لم ينزل عليهم كتاباً ولا أرسل رسولاً يؤيد صحة إشراكهم بل ما فعلوه ما هو إلاّ بدعة وضلال اتباعاً منهم لأهوائهم.

ثم يصور القرآن طبيعة النفس الإنسانية أمام الرخاء والشدة:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيديهم إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ. أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٦ ـ ٣٧).

والمعنى: وإذا أصاب الله الناس رحمة منه من خصب ورخاء وعافية في الأبدان، ووفرة في الأموال، فرحوا بذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ﴾ وإن يصبهم شيء يسوءهم من قحط وبلاء في الأموال والأولاد ﴿بِمَا قَدَّمَت أَيْدِيهم﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ رأيتهم ييأسون من الفرج.

هذه هي طبيعة أكثر الناس يفرحون بالنعمة حين تصيبهم فَرَحَ بَطَرٍ لا يشكرون عليها الخالق، حتى إذا شاء الله أن يعاقبهم بما اقترفت أيديهم

---

(١) هذا الالتفاف من الكلام عنهم غيباً ﴿ليكفروا﴾ ثم مخاطبتهم مباشرة بقوله: ﴿فتمتّعوا﴾ هو للمبالغة في التهديد والزجر لهم بما هم عليه من الكفر.

من سيّء الأعمال يئسوا من فرجه غير مدركين حكمة اللَّه في خلقه في أن الابتلاء بالشدة يجب أن يكون حافزاً لهم للإقلاع عن ذنبهم وتغيير ما بهم من سيّىء الأعمال.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديهم﴾ إيماءً بأن ما يصيب الإنسان من تعاسة وشقاء وضر وآفات في عقله وصحته هو بسبب سلوكه السيّىء وإفراطه في الفواحش وإدمانه على المعاصي والمحرمات، فليحرص الإنسان على أن يتحرى طريق الخير الذي أراده اللَّه لعباده ليصل إلى ما يصبو إليه من سعادة وصحة في جسده وعقله. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ألم يعلموا أن اللَّه يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً لهم ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاءً لهم، وفي امتحان اللَّه لعباده بالنعم وابتلائهم بتضييق الرزق عليهم يظهر الصادق منهم من الكاذب في إيمانه ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في ذلك دلالة واضحة للذين يؤمنون باللَّه ويدركون حكمة اللَّه في خلقه.

وإذا كان اللَّه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء من عباده لذا أمر اللَّه الموسرين أن يوصلوا إلى الأقارب والفقراء كفايتهم من العيش:

﴿فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذين يُريدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ. وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً لِيَرْبُوا في أَمْوالِ النَّاسِ فلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المضْعِفُونَ﴾ (٣٨ ـ ٣٩).

فاللَّه سبحانه يخاطب رسوله محمداً والمؤمنين بأن يعطوا أقاربهم الفقراء حقهم من الصدقة والصلة والبرّ، وخير الصدقة ما كان على القريب ﴿وَالمسْكِينَ﴾ وهو الفقير الذي أخضعه ذل الفقر فَيُعْطَى أيضاً حقه من

الصدقة، وكذلك ﴿وابْنَ السَّبيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع الذي لا مال له يكفيه للوصول إلى ما يقصد وهذا يُعْطَى من الصدقة ما يوصله إلى بلده. وقد أخذ الإمام أبو حنيفة من هذه الآية وجوب النفقة على أولي الأرحام ـ أي الأقارب ـ إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي ذلك الإنفاق على هؤلاء المحتاجين خير للذين يريدون بعملهم وجه اللَّه والتقرب منه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ وأولئك هم الفائزون الظافرون بمطلبهم من الثواب في الآخرة والقربى من اللَّه.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا في أَمْوالِ النَّاسِ﴾ قد يكون المراد هنا هو الربا المحرم وهو الاستدانة بفائدة فهذه الفائدة التي يأخذها الدائن هي من كبائر الإثم لا يبارك اللَّه فيها لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبي الصَّدَقَاتِ﴾ والمعنى: وما أعطيتم أكلة الربا من مال ليزيد في أموالهم ﴿فلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فلا يزكو عند اللَّه ولا يبارك فيه. وقد يكون المراد من الآية: هو أن يُعطي الرجل العطيَّة من المال أو الهدية يُريد أن يُعطى أكثر منها، أو يُكافأ عليها فهذا العمل لا يؤجر فيه صاحبه ولا إثم عليه، وعلى هذا يكون المعنى: وما أعطيتم أيها الناس بعضكم بعضاً من هدية أو عطية تطلبون المكافأة عليها بأفضل منها لتزيد في أموالكم فإن ذلك لا يقبله اللَّه ولا يزيد في ثوابه لكم عنده لأنكم لم تقصدوا بهذه العطية وجه اللَّه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وما أعطيتم من صدقة تريدون بها التقرب إلى اللَّه ﴿فأولئك هُمُ المضْعِفُونَ﴾ فأولئك الذين تضاعف حسناتهم وثوابهم عند اللَّه بعشر أمثالها وأكثر من ذلك.

ثم يبين القرآن بعض مظاهر القدرة الإلٓهية التي يختص بها وحده:

﴿اللَّه الَّذي خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يحييكُم هَلْ مِنْ

شَرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

فاللَّه سبحانه يخاطب المشركين توبيخاً لهم: اللَّه وحده الذي تصح العبادة له ولا ينبغي أن تكون لغيره، فهو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً ثم رزقكم ما تقتاتون به وأعطاكم المال وما تتمتعون به في دنياكم ثم هو يميتكم من بعد أن خلقكم أحياء ثم يحييكم من بعد مماتكم يوم القيامة ﴿هَلْ مِنْ شُركائِكُم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُم مِنْ شَيءٍ﴾ وشركاؤهم: المراد بها الأصنام التي كان يعبدها المشركون. وإنما أضاف اللَّه الشركاء لهم لأنهم هم الذين كانوا يسمونها آلهة ويجعلونها شريكة للَّه، والمعنى: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونها شركاء للَّه تفعل من ذلكم من شيء فتخلق أو ترزق أو تميت أو تبعث الناس أحياء يوم القيامة، وبما أن هذه الآلهة في نظر المشركين لا تفعل شيئاً من ذلك فكيف يعبدونها من دون اللَّه. ثم برّأ اللَّه نفسه عن الشريك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ أي تنزه اللَّه وتقدس وعلا أن يكون له شريك في ملكه فهو الذي لا إلّه غيره.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان أن الذنوب والآثام التي يقترفها البشر تعود بالويلات والخراب عليهم:

﴿ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدي النَّاسِ لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ (٤١).

والفساد الذي أشار القرآن إلى ظهوره يحتمل أن يكون راجعاً إلى المعاصي التي اقترفها الناس، وشيوع الفواحش والمنكرات والظلم فيهم، ويحتمل أن يكون الفساد راجعاً إلى عقاب اللَّه للعباد بسبب ذنوبهم: كالخوف والجوع والقحط ونقصان البركة وقلة الأمطار وغلاء الأسعار وكثرة الحرق والغرق. والمراد بقوله تعالى: ﴿في البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ فالبَرّ يشمل المدن

والقرى البعيدة عن الأنهار والبحار، وأما البحر فيشمل القرى والمدن القائمة على سواحل الأنهر والبحار أو الجزر أو في البحر نفسه ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم.

هذه الآية نزلت قبل أربعة عشر قرناً واليوم نقول: ظهر الفساد في البر والبحر بانتشار الفواحش والمخدرات والمسكرات والجرائم والرشاوي. وفي ذكر الفساد في البحر تصوير دقيق لواقعنا اليوم إذ لـم يكن معهوداً من قبـل فقد كثرت الفواحش والمنكرات وأصبحت النسـاء تستحم عاريـات ونصف عاريات بالإضافة إلى ذلك ما يحصل في السفن السياحية من منكرات يندى الجبين من ذكرها، فذكر الفساد في البحر بجانب الفساد في البرّ لهو نبـوءة للقرآن لما سيحصل في المستقبل من فساد في البحر.

﴿لِيُـذِيقَهُم بَعْضَ الَّذي عَمِلُوا﴾ أي يـذيقهم اللّه جزاء بعض عملهم السيِّىء بنقص الأموال والثمرات والحروب والزلازل والفيضانات، أو ليذيقهم اللّه ما ينشأ عن المعاصي من أضرار صحية واجتماعية[1] تجعل حياتهم في بؤس وشقـاء ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُـونَ﴾ عمَّا هم فيـه من المعاصي ويتـوبـون إلى ربهم.

فالفساد في المجتمع يقوض أسباب رقيه وسعادته وأمنه ويؤدي به إلى الخراب.

---

(١) ونشير إلى ما ينشأ من الزنا من انتشار الأولاد غيـر الشرعيين الـذي انتشر انتشـاراً مذهـلاً وما يترتب عليه من جناية على المرأة وتخلخل في كيان الأسرة وأعباء مـادية بـاهظة على الدولة وهذا ما يحصل في دول العالم المتمدن حتى أن بعض البلدان بلغ ثلث سكانها من الأولاد غير الشرعيين.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ
لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ
صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ
وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

شرح المفردات

للدِّين القَيِّم : للدين المستقيم وهو دين الإسلام.

يَصَّدَّعُونَ : يتفرقون بعد الحساب قسم إلى الجنة وقسم إلى النار.

فلأنفُسِهِم يَمْهَدُونَ : يهيئون لأنفسهم ما ينفعهم في الآخرة.

فَتُثِيرُ سَحاباً : تحرك وتنشر السحاب.

يجعله كِسَفاً : يجعله قطعاً متفرقة.

الوَدْقَ : المطر.

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ
إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا
لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ
ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ *

شرح المفردات

لَمُبْلِسينَ : ليائسين قانطين .
وَلَّوْا مُدْبِرِينَ : ذهبوا وانصرفوا .
مُسلمون : مطيعون خاضعون للّٰه .

تابع سورة الروم

وبعد أن بيّن القرآن عاقبة الفساد في الأرض دعا إلى التأمل والنظر في مصير الأمم السابقة التي أهلكها اللّه جزاء كفرها:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مشركين﴾ (٤٢).

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك سيروا في الأرض وانظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلكم وشاهدوا كيف كان مصيرهم، ألم يهلكهم اللّه بعذابه ويجعلهم عبرة لمن اعتبر، فمنازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة كقوم عاد وثمود وقوم لوط ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُشْرِكِينَ﴾ فعل اللّه بهم ذلك لأن أكثرهم مشركين باللّه. ويفهم من ذلك أن بعضاً منهم لم يكن مشركاً باللّه ولكن العذاب يشمل الجميع عندما يطغى الكفر على الإيمان.

وإذا كان الفساد في الأرض والشرك باللّه يؤديان إلى العذاب والهلاك فإن اللّه في الآيات التالية يرسم الخلاص من عذابه والفوز برضوانه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين القَيِّم مِنْ قَبْلِ أن يَأتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِم يَمْهدُونَ. ليجْزِيَ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إنَّهُ لاَ يُحبُّ الكافرينَ﴾ (٤٣ ـ ٤٥).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ﴾ أي وجِّه وجهك بإخلاص لدين الإسلام ﴿القَيِّم﴾ أي البالغ الاستقامة الذي لا عوج فيه ﴿من قَبْلِ أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَردَّ لَهُ﴾ من قبل مجيء يوم القيامة الذي لا يرده أحد لأن اللّه قضى

بمجيئه فهو لا محالة آت ﴿يَومَئِذٍ يَصَّدَّعُون﴾[١] يومئذٍ يتفرق الناس حسب أعمالهم ويفصل بينهم ففريق إلى نعيم اللَّه في الجنة وفريق إلى عذاب اللَّه في النار.

﴿مَن كَفَرَ﴾ وكفر تحتمل عدة معان: أي من أنكر وجود اللَّه أو وحدانيته فلم يؤمن به، ومن كفر برسوله محمد فلم يصدقه، ومن كفر بكتاب اللَّه وهو القرآن فلم يصدق أنه من عند اللَّه، ومن أخلَّ بشريعة اللَّه أو ترك ما لزمه من شكر اللَّه عليه ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فعليه أوزار وآثام كفره، إنها كلمة جامعة تفيد الحصر وشمول الضرر بالكافر وحده ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ ومن أطاع اللَّه فعمل بما أمره به في الدنيا وانتهى عما نهاه عنه ﴿فلأنْفُسِهِم يَمْهَدُون﴾ مهّد الشيء: وطّأه وجعله سهلاً تقول: مهد الفراش جعله ليناً يسهل النوم عليه، وتقول: مهد لنفسه، نظر لها وهيأ لها ما ينفعها، فالذي يعمل العمل الصالح فإنه يمهد لنفسه ويدبر لها ما ينفعها في الآخرة ويسهل لها أسباب الراحة والنعيم فيها، كما أن الفراش الممهد يُسَهِّلُ الراحة لمن يضطجع عليه.

﴿ليجْزِيَ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليكافىء اللَّه الذين صدقوا بوجوده ووحدانيته، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة بما يستحقونه من نعيم في الآخرة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من ثوابه الذي وعد به من أطاعه، وعبّر عن ذلك بالتفضل لا الوجوب لأن اللَّه هو المتفضل على الخلائق جميعاً ليس ملزماً بشيء على الإطلاق، فاللَّه لا يكافىء الناس على عملهم وإنما يكافئهم من فضله، وهذا مما يزيد الرجاء في رحمة اللَّه ويضاعف الهمم في

---

(١) يصدعون: أصلها يتصدعون أبدلت التاء صاداً وأدغمت في الصاد، والصدع: الشق في الشيء الصلب، ومعنوياً: الفصل بين الحق والباطل.

العبادة، وفضل اللّٰه ليس له حد ولا نهاية ﴿إِنَّهُ لا يحبُّ الكافرينَ﴾ إنه سبحانه لا يحب الكافرين ولا يخصهم بفضله بل يبغضهم وبغض اللّٰه لإنسان أمر هائل لا يوازيه عقوبة من العقوبات.

ثم يبين القرآن فضل اللّٰه على الناس التي تستوجب الشكر لا الكفر:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم من رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون﴾ (٤٦).

أي ومن الدلائل على قدرة اللّٰه ورحمته وأنه لا إلّه غيره ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أن يطلق الرياح مبشرات بنزول المطر، فالرياح هي السبب الجوهري لنزول المطر لأنها تكوّن السحاب وتكثفه في الطبقات العليا من الجو حيث تنخفض الحرارة ثم يتساقط على الأرض مطراً ﴿وَلِيُذيقَكُم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وليهبكم اللّٰه من فيض إحسانه المنافع التي نشأت من نزول المطر ﴿وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ ولتجري السفن بأمر اللّٰه وقدرته بأن تطفو على سطح الماء وفق قوانين خاصة سنها اللّٰه في مادة السفن والمياه والرياح[1] التي تُسيِّر السفن الشراعية ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولتطلبوا الرزق من فضله بالتجارة والرحلات واستغلال ما في البحر من ثروة حيوانية ﴿وَلَعَلَّكم تَشْكُرونَ﴾ ولتشكروا اللّٰه على نعمه عليكم بعبادته إياه وطاعته.

ومثل إرسال الرياح مبشرات بنزول المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو إرسال اللّٰه للرسل بالهدى الذي يحيي موات القلوب:

---

(١) كانت السفن الشراعية التي تسير بواسطة الرياح والمجداف هما الوسيلة الوحيدة لتسيير السفن قديماً قبل اختراع المحركات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِم فَجَاءُوهُم بِالبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الّذِينَ أَجْرَمُوا وكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمِنِينَ﴾ (٤٧).

فاللَّه يخاطب رسوله محمداً مخففاً عنه الأسى: ولقد أرسلنا قبلك يا محمد رسلاً إلى قومهم الكفرة ﴿فَجَاءُوهُم بالبَيِّنَاتِ﴾ فجاءُوهم بالمعجزات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم بأنهم رسل اللَّه ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِين أَجْرَمُوا﴾ الكلام هنا عطف على محذوف تقديره: وآمن بالرسل بعض قومهم وكذب البعض الآخر فانتقم اللَّه من الذين أجرموا الآثام وفعلوا السيئات. فالمجرمون مهما صالوا وجالوا في الأرض ومهما بلغوا من قوة وسؤدد وغنى فإنهم لن يفلتوا من عقاب اللَّه وبطشه ـ واللَّه يمهل ولا يهمل ـ وإن بطش ربك بالمجرمين لشديد ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤْمِنِينَ﴾ هذا الوعد الإلٓهي فيه مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين، ووعد من اللَّه لهم بالنصر على أعدائهم، وفي لفظة ﴿حَقًّا﴾ تأكيد في حتمية النصر لهم.

فاللَّه سبحانه بشّر رسوله محمداً والمؤمنين بالنصر في وقت كانوا فيه مستضعفين يحيط بهم أعداؤهم من كل جانب ويفوقونهم عُدَّة وعدداً، ولكن بالرغم من ذلك جاء النصر للمؤمنين وانتشر الإسلام في كافة جزيرة العرب وامتد إلى البلاد المجاورة فانتصر المسلمون على دولتي الفرس والروم أقوى دولتين مجاورتين لهم في ذلك الزمن، كل ذلك يشهد بأن القرآن وحي إلٓهي لا ريب فيه.

ونكرر قوله تعالى: ﴿وَكَان حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية هي نبراس للمؤمنين في كل العصور للتضحية والمثابرة والصبر في مسيرة الإيمان وموجباته، فاللَّه من عليائه يكلأهم برحمته وعنايته، ولن تذهب جهودهم وتضحياتهم سدى، فاللَّه وعدهم النصر ولن يخلف اللَّه وعده.

ويعود القرآن فيبين فضل اللّه وقدرته بإنزال المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها الذي هو شبيه بإحياء اللّه للموتى يوم القيامة:

﴿اللَّه الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانْظُر إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّه كَيْفَ يُحيي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لمحيي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٨ ـ ٥٠).

فالقرآن يقول: ﴿اللَّهُ الّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ فاللّه وحده هو الذي يطلق الرياح مسخرة لأمره ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ فتحرك هذه الرياح السحاب وتنشره ﴿فَيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فينشره اللّه ويجمعه في السماء كيف يشاء ﴿ويجعله كسفاً﴾[1] ويجعل اللّه السحاب قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فترى المطر يخرج من خلال السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا أنزل اللّه المطر على من يشاء من خلقه ﴿إِذَا هُم يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا هم يفرحون، ولا يعرف حقيقة الفرح من نزول المطر كما

---

(١) القرآن أول كتاب قرر أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح، وقد كانت الفكرة السائدة قديماً أن المطر يأتي من مخزون في السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ. ففي العهد الذي نزل فيه القرآن لم يكن أحد من الناس يعرف أن الهواء يحمل مقادير وافرة من الماء على هيئة بخار وأن هذا البخار هو الذي يُكَوّن السحب ويعطي المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى، وفي طبقات الجو العليا حيث يقل الضغط وترتفع درجات البرودة يصير بخار الماء فوق مقداره المشبع فيتكاثف على هيئة سحاب ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علمياً باسم (ندى التكاثف) وعند تكاثف السحاب واشتداد البرودة عليه لا يقوى الهواء على حمله فيسقط إلى الأرض مطراً.

يعرفه الذين يعيشون مباشرة على نزول المطر ﴿وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ وإن كان هؤلاء القوم قبل أن ينزل عليهم المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي قبل نزول المطر وهو تكرار للتأكيد ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لمكتئبين حزينين يائسين من احتباس المطر عليهم ﴿فَانْظُر إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فانظر أيها المستمع نظرة اعتبار إلى آثار رحمة اللّه المتمثلة بنزول المطر الذي ينبت النبات والمراعي ويعطي الثمار والحبوب ﴿كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف أحيا اللّه الأرض بصنوف النبات بعد أن كانت مواتاً جافة لا حياة فيها ﴿إِنَّ ذَلِكَ لمحيي الْمَوْتَى﴾ إن الذي فعل ذلك وأحيا الأرض بعد موتها هو اللّه سبحانه الذي سيحيي الأموات يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ وهو سبحانه عظيم القدرة لا يعزّ عليه شيء أراده ولا يمتنع عليه فعل شيء أن ينفذه.

ويتابع القرآن فيصف فئة من الناس جاحدة لفضل اللّه عليها لا تدرك حكمته في خلقه ولا يؤثر فيها وعظ ولا إرشاد:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا[1] لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ. فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عن ضَلالَتِهِم إن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بآياتِنَا فَهُم مُسْلِمُونَ﴾ (٥١ ـ ٥٣).

---

(١) وقد يكون المنعوت في مصفراً راجعاً إلى الرياح التي تكون جافة ساخنة قارية لا تعطي مطراً بل هي عقيمة بسبب حملها للرمال والأتربة، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفراً نظراً لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفراً علامة للجفاف والجدب.

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ ولئن: اللام لام القسم، والضمير في ﴿فرأوه﴾ يرجع إلى النبات، والمعْنى: وأقسم لئن أرسلنا ريحاً ضارةً بالنبات فرأوا النبات مصفراً بسببها بعد اخضراره ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ لظلوا: جواب القسم، أي لصاروا من بعد اصفرار النبات يجحدون نعمة اللَّه ويكفرون به وهذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف إيمانهم بدلاً من أن يستسلموا لقضاء اللَّه ويتوجهوا إليه بالضراعة والتوبة ليرفع عنهم البلاء.

﴿فَإِنَّك لا تُسْمِعُ الموتَى﴾ أي فلا تحزن يا محمد من عناد الكافرين فإنهم كالموتى، والميت لا يسمع شيئاً عندما تدعوه للخير والهدى ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرينَ﴾ وهذا الكلام هو في نهاية الدقة والروعة يبين مدى إعراض الكافرين عن الهدى، فالأصم إن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة ولكن إذا ولى مدبراً أي إذا أدار ظهره مسرعاً في الابتعاد عنك فإنه لا يسمع ولا يفهم، وهكذا شأن الكافرين الذين لا يسمعون ما ترشدهم إليه من الهدى، فتأمل بلاغة الوصف القرآني.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِم﴾ وما أنت يا محمد بمرشد من أعماه اللَّه عن الاستقامة، ولم يوفقه لإصابة الرشد، ليس ذلك بيدك ولا يقدر على ذلك أحد غير اللَّه ﴿إن تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا﴾ أي ما تسمع الوعظ الذي ينتفع به إلّا من يصدق بآيات القرآن، أو يصغي إلى أدلة التوحيد، لأنه عند سماع آيات اللَّه يتدبرها ويتعظ بها ﴿فَهُم مُسْلِمُونَ﴾ فهم خاضعون للَّه بطاعته.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا
وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا
يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

شرح المفردات

شَيْبَةً : حال الشيخوخة والهرم.

يُؤْفَكُونَ : يصرفون عن الحق.

ولا هُمْ يُسْتَعْتَبون : لا يطلب منهم استرضاء اللّٰه بالتوبة والطاعة.

وَلَئِنْ جِئْتَهُم بآيَةٍ : ولئن جئتهم بمعجزة.

مُبْطِلون : تدّعون باطلاً من القول.

يَطْبَعُ : يختم.

لا يستخِفَّنَّك : لا يحملنك على الخفة والطيش.

تابع سورة الروم

ثم يعرض القرآن دليلاً ظاهراً على أنظار الجميع متمثلاً في خلق اللّه للإنسان ذاكراً أحواله في مسيرة العمر:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾ (٥٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿اللَّهُ الذي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ﴾ فمصدر الإنسان هو الخلية الحية التي تنشأ من تلقيح الحيوان المنوي من الرجل مع بويضة الأنثى وهذه الخلية الملقحة هي في نهاية الصِّغر لا ترى بالعين المجردة، ثم يتطور الإنسان في الخِلقة في رحم المرأة حتى يصبح جنيناً ثم بشراً سويّاً، ثم يتدرج في مراحل الطفولة وهي كلها ضعف على ضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم جعل اللّه من بعد هذا الضعف قوة وهي مراحل الشباب وفتوته ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ ثم جعل اللّه من بعد هذه القوة التي تتمتعون بها في شبابكم ضعف الشيخوخة عند الكبر في السن، ومع الشيخوخة ظهور الشيب تشخيصاً لها ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إنَّ هذه المراحل التي يمر بها الإنسان لتشهد بأنها من صنع القدرة الإلّهية التي تخلق ما تشاء، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره وفق علم وثيق وقدرة فائقة وهذا ما ختمت به الآية ﴿وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾ فاللّه عليم بكل المخلوقات قادر على كل شيء، والعليم والقدير صفتان من صفات المبالغة في العلم والقدرة.

فاللّه سبحانه إذ يعرض هذه المراحل من خلق الإنسان فإنه بذلك يبين للمكذبين بالبعث بأنه قادر على كل شيء فكما أن اللّه خلق الإنسان ابتداءً، فهو قادر على إعادته حياً بعد مماته يوم البعث.

ثم يبين القرآن بعد ذلك مصير المجرمين في الآخرة:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِين أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ في كِتَابِ اللَّهِ إلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُم كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ. فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِين ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُم وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٥ ـ ٥٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي ويوم تقوم القيامة وتتحقق وقد سميت بالساعة لأنها تقع في آخر ساعة من ساعات الدنيا ﴿يُقْسِمُ المجْرِمُونَ﴾ يحلف المجرمون وهم الذين كانوا يكفرون باللَّه ويقترفون الذنوب وسيئات الأعمال ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ما لبثوا في القبر أو في الدنيا إلّا فترة وجيزة من الوقت، فما قاسوه من عذاب القبر يعتبر مدة وجيزة لما شاهدوه من أهوال عذاب جهنم وحيث تتضاءل أمام أنظارهم الحياة الدنيا وملذاتها فكأنها برهة وجيزة من الوقت قضوها فيها ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يؤفكون: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، وعن الصدق في المقال إلى الكذب، والمعنى: كما صرفوا في الآخرة عن الحق والصدق في قسمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة في الدنيا أو في القبر مع أنهم لبثوا حقبة طويلة كذلك كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا ويكذبون بأنه لا بعث ولا جزاء بعد الموت.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَان﴾ أي يقول الذين آتاهم اللَّه العلم والإيمان من الملائكة والأنبياء وعلماء الأمم رداً على الكفار ﴿لَقَدْ لَبِثْتُم فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي لقد لبثتم في حكم اللَّه وقضائه، أو فيما كتب اللَّه مما سبق في علمه أنكم تلبثونه في حياتكم وفي مثواكم في القبر ﴿إلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ إلى اليوم الذي يبعث اللَّه فيه الناس أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم

وهـذه المدة هي ولا ريب مـدة مديـدة ﴿فَهَذَا[١] يَـوْمُ الْبَعْثِ﴾ أي إن كنتم منكـرين البعث فهـذا يـوم البعث ﴿وَلَكِنَّكُم كُنْتُم لاَ تَعْلَمُـونَ﴾ أي كنتم لا تعلمون في الدنيا بأنه حق بل كنتم تنكرونه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُم﴾ أي يوم البعث لا ينفع الكافرين المكذبين بالبعث اعتذارهم عن إنكـارهم للبعث في الـدنيـا وتكـذيبهم لـرسـول اللَّه ﴿وَلا هُم يُسْتَعْتَبُـونَ﴾ ولا يسمح لهم بإزالة غضب اللَّه عليهم وإرضائـه بتوبـة وطاعـة، وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا للتوبة والطاعة لا يجابون إلى طلبهم.

ثم يختم اللَّه هذه السورة مصوراً عناد الكافرين مع دعوة رسوله محمد إلى الصبر ووعده بالنصر:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُـلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بـآيَةٍ ليقولَنَّ الَّذِين كَفرُوا إن أَنْتُم إلاَّ مُبْطِلُونَ. كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَـعْلَمُـونَ. فَـاصْبِـرْ إنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ وَلاَ يَسْتَـخِـفَّـنَّـكَ الَّـذِيـن لا يُوقِنُونَ﴾ (٥٨ ـ ٦٠).

والمعنى: ولقد مثّل اللَّه للناس في هذا القرآن من كل مثل وبيّن لهم كل حجة تظهر لهم وحدانية اللَّه وصدق رسوله محمد. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ ولئن جئتهم يا محمد بآية من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو جئتهم بمعجزة جاءت بها الرسل ﴿ليقُولَنَّ الذين كَفرُوا﴾ مخاطبين محمـداً وأصحابـه ﴿إِن أَنْتُم إلاَّ مُبْطلُونَ﴾ إن: بمعنى ما، أي ما أنتم يا معشر المؤمنين إلاّ أصحاب أباطيل فيما تجيئوننا من هذه الأمور من دينكم.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ طبع: ختم، فالختم

---

(١) فهذا: الفاء هي واقعة في جواب لشرط محذوف دل عليه الكلام.

كناية عن قسوة قلوبهم وإصابتها بصدأ وغشاوة بحيث لا ينفع فيهم موعظة، ولا تؤثر فيهم حجة، فما ألفه الكافرون من الضلال صار طبيعة فيهم وعادة بحيث يتعذر صرفه عنهم. والمعنى: فبمثل هذا الختم على قلوب الكافرين يختم اللَّه على قلوب الجهلة الذين لا يعلمون حقائق الأمور ولا يتحرون الحق والصواب بل يصرون على خرافات ورثوها عن آبائهم وأكاذيب ابتدعوها.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر يا محمد لما ينالك من الأذى من قومك، واصبر على ما تسمع منهم من الأقوال الباطلة، وما تشاهد منهم من الأفعال السيئة فإن ما وعدك اللَّه من النصر هو حق لا بد من إنجازه والوفاء به. هذه الآية من الدلائل على صحة نبوة محمد ففيها تأكيد على حتمية النصر على قومه الكافرين وهو ما تحقق فعلاً بعد فترة وجيزة من هذا الوعد الإلٓهي.

﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِين لا يُوقِنُونَ﴾ يقال: استخف فلان فلاناً استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ، أي لا يحملنك على الخفة والطيش والقلق هؤلاء المشركون باللَّه الذين لا يوقنون بوحدانية اللَّه ولا يصدقون بالبعث ولا يثبطونك عن أمر اللَّه وتبليغ ما أُمرت بتبليغه من شريعة اللَّه بما يغرونك به من المغانم والجاه.

وهكذا يختتم اللَّه هذه السورة بتأكيد النصر لرسوله محمد وللمؤمنين ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وتتناسق هذه الخاتمة مع ما جاء في وسط السورة ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلينا نَصْرُ الْمُؤمنين﴾ ومع ما جاء في مطلعها من الوعد بنصر الروم على الفرس ونصر المؤمنين على المشركين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ هذه الانتصارات الموعودة فيها تقوية لأرواح المؤمنين ودفع لهم للثبات في مجال العقيدة.

سورة لقمان

سميت هذه السورة بسورة لقمان لأن اللَّه ذكر فيها لقمان الحكيم وإرشاداته ووصيته لابنه.

استهلت هذه السورة بالحديث عن القرآن الذي هو هدى ورحمة للمحسنين مع بيان صفاتهم، وتلا ذلك ذكر المضللين الذين يصرفون الناس عن هدى اللَّه. ولفتت السورة الأنظار إلى الآيات الكونية والمظاهر الطبيعية التي تدل على قدرة اللَّه تعالى وحكمته ووحدانيته، وتحدت المشركين أن يبينوا ما خلقته آلهتهم في هذا الوجود.

ثم انتقلت السورة إلى ذكر موعظة لقمان الحكيم إلى ابنه وما تشتمل عليه من أمهات الأخلاق السامية، وما اندمج فيها من وصية اللَّه بالوالدين إحساناً، كما بينت أن اللَّه سخّر للإنسان ما في السمٰوات وما في الأرض وأتم عليه نِعَمَهُ الظاهرة والباطنة مما يستوجب عبادته وحده، بينما المشركون يجادلون في وحدانية اللَّه بغير علم.

وتنتزع السورة إقراراً من المشركين بأن اللَّه وحده خالق السموات والأرض وهذا يستوجب عبادته وحده وعدم إشراك أحد معه في العبادة، ثم تشير السورة إلى شمول علم اللَّه وقدرته وحكمته مما لا يمكن وصفها وتعدادها.

وتختتم السورة بتحذير الناس من يوم القيامة حيث لا ينفع والد ولده ولا ولد ينفع أباه، مع بيان علم اللَّه بالمغيبات التي تخفى عن علم الإنسان.

سُورَةُ لُقْمَان

آياتها ٣٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا
كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ
وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ

شرح المفردات

الكِتَاب الحَكِيم : هو القرآن الكريم المشتمل على الحكمة.

هُدى : طريق الحق.

لَهْوَ الحديث : الحديث الباطل الملهي عن الخير والعبادة.

هُزُواً : سخرية.

عَذَاب مُهين : عذاب يهينهم ويذلهم.

تُتْلى عَلَيْه آياتنا : يقرأ عليه القرآن.

وَقْراً : صمماً.

عَمَدٍ : جمع عمود وهو ما يُرتَكز عليه ويسنَد به.

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ
يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا
الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ
اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

شرح المفردات

رَوَاسي : جبال ثابتات في الأرض.

أن تَميدَ بكم : لئلا تضطرب بكم.

بثّ فيها : نشر وفرّق فيها.

دَابّة : هي كل ما يدب على الأرض من المخلوقات.

كريم : كثير المنفعة.

يَعظه : يذكره بالخير الذي يرق له القلب.

وَهْناً عَلَى وَهْن : ضعفاً على ضعف.

فِصَاله : فطامه من الرضاع.

جَاهدَاك : بذلا معك جهدهما وطاقتهما.

مَعروفاً : المعروف هو المستحسن من الأعمال والأقوال.

سُورَةُ لُقْمَانَ

ايضـــاح و دروس

يستهلُّ اللَّه هذه السورة ببيان أن القرآن هدًى ورحمـةً للذين يحسنون العمل بما أمر اللَّه به:

﴿الٓمٓ(١). تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ. هُـدًى وَرَحْمَـةً للمُحْسِنِينَ. الَّذين يُقيمُونَ الصَّلاة وَيُؤْتُون الزكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ (١ ـ ٥).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ فالآيات: جمع آية وهي العلامة الظاهـرة ثم أُطلقت على كل قسم من الأقسام التي تتألف منها سُوَر القرآن وهي المقصودة هنا والتي يفصل بعضها عن بعض بالـوقف في التلاوة، وفي الكتابة بنقط أو أرقام. والكتاب: المراد به القرآن الكريم. والحكيم: أي المشتمـل على الحكمـة، والحكمـة إصابـة الحق بـالعلم والعقل، هذا بالنسبة إلى الإنسان، أما الحكمة بالنسبة إلى اللَّه فهي معرفـة الأشيـاء وإيجادهـا على غايـة الإحكام، ووصف القـرآن بالحكيم في هـذه السورة لأن فيها بعضاً من حِكَمِ لقمان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي هذه الآيات هي هداية كاملة إلى ما يُبتَغى من ثواب الآخرة وسبب في رحمـة اللَّه لمن عمل بها، والرحمـة من اللَّه هي الإحسان المجـرد والإنعام والتفضـل على عبده ﴿لِلمحْسِنينَ﴾ للذين يعملون الحسنات ويحسنـون العمل بمـا أنزل اللَّه من القرآن.

﴿الَّذين يُقيمونَ الصَّلاةَ﴾ فمن صفات المحسنين أنهم يؤدون الصلاة

---

(١) الٓمٓ: راجع ما ورد عن هذه الأحرف في مطلع سورة العنكبوت.

المفروضة عليهم ويداومون عليها مستوفية لشروطها بما يتحقق المقصود منها، وهو التوجه الكلي إلى اللَّه مع الخشوع مما ينقل النفس من أرجاس الدنيا إلى عالم الطُّهر ويحول بين الإنسان وبين اقتراف الفواحش والمنكرات.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فالزكاة هي الصدقة المفروضة التي أوجبها اللَّه على الموسرين لإغاثة الطبقة الفقيرة بما يوفر لها أسباب العيش الكريم ويحفظ كرامتها وغير ذلك من الفئات التي حددتها الآية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِين وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا(١) والمؤلَّفَةِ قُلُوبُهُم(٢) وفي الرِّقَاب(٣) والغَارِمينَ(٤) وفي سَبيل اللَّه(٥) وابْنِ السَّبيل(٦)﴾ (التوبة: ٦٠).

وإذا صلح حال الطبقة الفقيرة ازدهر المجتمع وتوحدت قلوب أبنائه وانتفت عنه الفتن والثورات التي يثيرها الفقر.

﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبه. أي ومن صفات المحسنين أنهم يعلمون حقاً ويؤمنون إيماناً جازماً بالبعث والحساب والثواب والعقاب بعد هذه الحياة. ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ هؤلاء المحسنون الذين ذكرت بعض أوصافهم هم السائرون على هدى اللَّه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ وأولئك هم الفائزون بثواب ربهم يوم القيامة.

---

(١) والعاملين عليها: هم الذين يعملون في الزكاة يجمعونها ويوزعونها على مستحقيها.
(٢) المؤلفة قلوبهم: هم الذين يراد كسبهم نحو الإسلام أو درء مخاطرهم.
(٣) وفي الرقاب: أي في فك وتحرير أسر الأرقاء.
(٤) الغارمون: هم الذين استدانوا لضرورة ولم ينفقوا أموالهم على المحرمات ولم يستطيعوا وفاء دينهم.
(٥) في سبيل اللَّه: الإنفاق على الجهاد في سبيل اللَّه.
(٦) ابن السبيل: المسافر الذي ليس لديه من المال مايكفيه للعودة إلى بلاده.

ثم يعطي القرآن صورتين متقابلتين للضال والمهتدي فيقول سبحانه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ. خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦ ـ ٩).

فالله سبحانه يقول: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾** واللهو كل باطل يلهي عن الخير، ولهو الحديث هو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، وفضول الكلام وما يلهي عن الحق والهدى وذكر الله، وكذلك الغناء[١] كما نص على ذلك ابن عباس وابن مسعود من صحابة رسول الله ﷺ. يروى أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار، فكان يجلس بمكة؛ فإذا قال بعض رجال قريش: إن محمداً قال كذا ضحك منه وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس

---

(١) الغناء المحرم هو الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والمجون وارتكاب الآثام بما فيه من كلام فاحش وتشبيب بالمرأة وذكر الخمور والدعوة إلى احتسائها وغير ذلك من الآثام، ويجوز الغناء خالياً مما ذكر في أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة. وما ابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة والمعازف والأوتار في حلقات الذكر فحرام، أما الدف فمباح.

والغناء أصبح اليوم من مفسدات الجيل الجديد في نهاية القرن العشرين وقد أثار أحد الكتاب في أميركا أغاني الروك أندرول وما تحتويه كلمات أغنياتها من تمجيد كل ما في السلوك المنحرف بدءاً بالاغتصاب وسفاح القربى واللواط والشهوات البهيمية واحتساء الكحول وتعاطي المخدرات والثورة العنيفة ابتداءً بكراهية الأهل والمعلمين وصولاً إلى الانتحار. وقد وجد أن ٦٠٪ من كلمات هذه الأغنيات تحتوي على تعابير قذرة والجيل الجديد يتأثر بكلمات هذه الأغنيات مما بات يشكل أكبر خطر على الجيل الجديد في أميركا وفي العالم.

ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد. ويروى أيضاً أنه كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلاّ انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد. . .

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يفعل ذلك ليصدّ الناس عن القرآن والإسلام جهلاً منه بالحق أو بالذنب الذي يقترفه ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ ويتخذ دين اللَّه وآيات القرآن سخرية ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أولئك الذين يفعلون ما ذُكِرَ، لهم عذاب يهينهم ويذلهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قرئت على هذا الضال آيات القرآن الواضحات الدالة على أنها مُنَزّلة من عند اللَّه ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ أعرض عنها متكبراً وحاله في ذلك حال من لم يسمع هذه الآيات، وفي ذلك رَمْزٌ إلى أن من سمعها لا يتصور منه الاستكبار والإعراض عنها ﴿كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ كأن في أذنيه صمماً ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أليمٍ﴾ والبشارة بالعذاب جرت مجرى السخرية والتهكم به لأن البشرى لا تقال إلاّ في الخبر السار.

﴿إنَّ الَّذين آمَنُوا﴾ إن الذين آمنوا بالله فَوَحَّدُوهُ وَصَدَّقُوا برسوله محمد ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعملوا بما أمرهم اللَّه به في كتابه من الأعمال الحسنة وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ لهم بساتين النعيم وهي دار الأبرار في الآخرة ﴿خَالِدينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً﴾ وهذا الجزاء وعدهم اللَّه به وعداً حقاً لا شك فيه ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ وهو القوي الغالب الحكيم في تدبير خلقه.

ثم يلفت القرآن إلى بعض مظاهر قدرة اللَّه في الكون التي تشهد بوحدانيته وعظيم قدرته وحكمته:

﴿خلَقَ السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَميدَ بِكمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِن السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ كَريمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُوني مَاذَا خَلَقَ الّذِين مِنْ دُونِهِ بَـلِ الظَّالِمُـونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ (١٠ ـ ١١).

هذه الآيات التي تلفت الأنظار إلى الكون وما فيه من أسـرار مدهشـة هي التي يعتمد عليها القرآن في الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيتـه، وفي القرآن كثير من الآيات في ذلك الموضوع.

واليوم نرى العلمـاء المتخصصين في كل مجـال من مجالات الحيـاة يعترفون بأن إيمانهم باللّه ينبع من تأمل ودراسة أسرار هذا الكون وما فيه من مخلوقات شتى، هذا وإن من البديهيات في العقل الإنساني أن لا صنعة بدون صانع فكيف بهذا الكون وما فيه من ملايين المخلوقات القـائمة على نهـاية الحكمة والإبداع أن توجد بلا صانع ولا خالق.

فاللّه سبحانه يقول: ﴿خَلَقَ السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَـا﴾ فالسمـوات هي مجموع ما نراه فوقنا في الفضاء من كواكب سيارة ونجـوم تبلغ البلايين مما لا يمكن إحصاؤها وهي مرتبة بعضها فوق بعض دائرة في الفضاء الفسيح كل شيء منها في مكانه المقـدر له بـالنامـوس الإلّهي ونظام الجـاذبية غيـر المرئي، فليس لها عمد تعتمد عليه كالبناء بل اللّه هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها عند فناء الكون.

﴿وَأَلْقَى في الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ﴾ أي وجعل اللّه في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تضطرب بكم الأرض، فالجبال من أهم وظـائفها الـطبيعية

أنها تحفظ توازن القشرة الأرضية(١) ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ونشر في الأرض وفرّق فيها من كل الحيوانات التي تدبّ عليها وتتحرك. فالكائنات الحية تتكون من وحدات أساسية هي الخلايا، فالخلية هي الوحدة المتناهية في الصغر والتي لا تُرى إلّا بالمجهر والتي تحتوي على مادة الحياة وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً، وفي كل خلية وحدات الوراثة التي تحافظ على كل نوع من أنواع الكائنات الحية فلا اضطراب ولا فوضى ولا خلل في مخلوقات اللّه، هذا وإن بلايين البلايين من الخلايا الموجودة على سطح الأرض لتشهد بعظمة القدرة الإلّهية ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ وإنزال الماء من السماء وفق قوانين ثابتة يدل على يد القدرة الإلّهية المبدعة، فالماء النازل من السماء هو ماء البحار الذي يتبخّر بواسطة ناموس الحرارة فيصير سحاباً، ثم ينزل مطراً يُحيي به اللّه الأرض بعد موتها ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبت اللّه في الأرض من كل زوج من النبات: ذكر وأنثى، وهذا النبات ﴿كريم﴾ أي نافع يكثر خيره حسن المنظر. فقد جعل اللّه في كل الثمرات الذكر والأنثى حتى يتم تلقيح الأعضاء بطريق حبوب اللقاح الموجودة بالأعضاء الذكرية وبذلك تتوالد الأنواع وتتكاثر، فقد يكون الذكر وحده والأنثى وحدها كالنخل، وقد

---

(١) القشرة الأرضية في تغيرات مستمرة على وجه الأرض ولكنها تغيرات بطيئة لدرجة تحول دون ملاحظتها خلال آلاف السنين ويحدث التغير البطيء على سطح الأرض نتيجة لنشاط العوامل الجوية أو الطبيعية، ويطلق عليها (عوامل التعرية) فعوامل التعرية تنحت الجبال حتى تزيلها بمرور الزمن ثم ترسب فتاتها على قيعان البحار والمحيطات حتى تفيض مياهها فتغمر القارات وحتى تنوء بأثقالها من الرواسب فتتمخض عن ثورات جامحة وظهور سلاسل جديدة شاهقة من الجبال تزول هي الأخرى بعد أزمنة جيولوجية طويلة. وأحدث هذه الثورات ما نتجت عنه جبال الهملايا وجبال الألب. وقشرة الأرض ميزان دقيق حساس فكل مكان فيه بمثابة كفة متزنة مع كل مكان آخر حتى ولو كان الحال أعلى الجبال وكان الآخر قاعاً لأعمق البحار.

تكون الشجرة مشتملة على زهرتين إحداهما ذكر والأخرى أنثى، وقد تكون الزهرة مشتملة على الذكر والأنثى معاً، فعالم النبات كعالم الحيوان لا بد فيه من التزاوج لبقاء النسل في الأنواع.

ثم يأتي التعقيب على ما سبق بصيغة التحدي: ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِين مِنْ دُونِهِ﴾ أي ذلك الذي ذُكِرَ هو من خلق اللّه وحده، فأروني أيها المشركون شيئاً خلقه هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من غير اللّه، ولا يمكن أن يكون الجواب سوى أنه لا يوجد شيء خلقه هؤلاء الآلهة، وبهذا تبطل حجتهم في عبادتهم للأصنام وتقوم الحجة عليهم ﴿بَل الظَّالِمُونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي ما عبد هؤلاء المشركون الأوثان والأصنام من أجل أنها تخلق شيئاً ولكن دعاهم إلى عبادتها ضلالهم الواضح الظاهر، وقد وصف اللّه المشركين بالظلم بسبب تعديهم وخروجهم عن الحق.

وبعد هذه الجولة في الكون ينتقل القرآن إلى الكلام عن لقمان وما خصه اللّه به من حكمة. ولقمان ٱخْتُلِفَ في هويته، والقرآن لم يحدد شيئاً من ذلك، وقد قيل إن لقمان كان رجلاً صالحاً ولم يكن نبيّاً، وقيل كان لقمان رجلاً أسودَ من سودان مصر. وقيل: كان عبداً حبشيّاً، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل، وقيل غير ذلك.

فاللّه سبحانه يقول في شأن لقمان وحكمته:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أنِ اشْكُرِ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّه غَنِيٌّ حَمِيدٌ. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢ ـ ١٣).

فاللّه سبحانه خص لقمان بالحكمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل وإدراك صواب الأمور. والحكمة تبعد

صاحبها عن مواطن الزلل وتسوقه إلى مواطن الخير فيكون نافعاً لنفسه، ونافعاً للناس، والحكمة أكثر ما تكون عطاءً من اللّه وهبةً منه، وقد وصف اللّه في القرآن مكانة الحكمة التي يخص بها من يشاء من عباده: ﴿يُؤْتي الحكمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤتَ الحكمَةَ فَقَد أُوتيَ خَيْراً كَثيراً﴾(البقرة: ٢٦٩).

﴿أن اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن آشكر اللّه يا لقمان على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصّك اللّه بالحكمة. والشكر للّه هو على ثلاثة أنواع: شكر القلب وهو تصور النعمة واعترافاً بها ومحبة للّه الذي أسداها، وشكر اللسان وهو الثناء عليه سبحانه، وشكر سائر الجوارح بالاشتغال بطاعته ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لَنَفْسِهِ﴾ أي إن عاقبة الشكر ليست عائدة إلى اللّه تعالى فإنه سبحانه لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين، بل إن عاقبة الشكر عائدة على الشاكر لأن اللّه يجزل الثواب له، وينقذه من الهلاك والعذاب، هذا وإن الشكر يحفظ اللّه به النعمة على عبده ويزيدها له، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّن رَبُّكُم لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧).

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّه غَنِيٌّ حَميدٌ﴾ ومن كفر نِعَمَ اللّه عليه أساء لنفسه لأن اللّه معاقبه على كفره بالآخرة وقد يكون في الدنيا أيضاً كما قال سبحانه عن إحدى القرى: ﴿فَكَفَرت بِأَنْعُم اللَّهِ فَأَذَاقَها اللَّهُ لِبَاس الجُوع وَالْخَوْفِ﴾ (النحل: ١١٢). واللّه سبحانه غني عن العباد لا يضره كفر الكافرين، وهو سبحانه ﴿حَميد﴾ أي مستحق الحمد لذاته محمود على كل حال سواء كفر العبد بربه أم شكره.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي واذكر حين نصح لقمان ابنه وأرشده إلى عبادة اللّه وحده فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِك بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والشرك هو جعل معبود آخر مع اللّه سواء أكان صنماً أو إنساناً

أو مظهراً من المظاهر الطبيعية أو المخلوقات الحية كما هو مشاهد في بقـاع الأرض عند بعض الشعوب. وإنما كان الشرك باللَّه ظلماً عظيماً لأنه خروج عن الحق وتسوية بين المخلوق والخالق الذي منه كل النِّعم على الأرض، كما ان الشرك باللَّه ظلم للنفس الإنسانية حيث تذل لمخلوق مثلها أو دونها لا يملك لها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا رزقاً.

ثم تأتي هذه الوصية من اللَّه بالوالدين وقد جاءت معترضة على كلام لقمان على سبيل الاستطراد مبينة أن شكر الوالـدين يأتي مبـاشرة بعـد شكر اللَّه:

﴿ووَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إليَّ المصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاك عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفاً واتَّبع سَبيلَ مَنْ أَنَابَ إِليَّ ثُمَّ إِليَّ مَرْجِعُكُم فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾(١٤ ـ ١٥).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هذه الـوصية من اللَّه ببرِّ الوالدين والإِحسان إليهما على الإِنسان أن يراعيها حق المراعاة وبالأخص أنها صادرة من رب العالمين ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ خصَّ اللَّه الأم في صُلب الوصية للوالدين لبيان أن حقَّها على ولدها أعظمُ من حق الأب على ولده فقد نبّه اللَّه الولد إلى أن أُمه حملتـه في بطنهـا وهو جنين ضعفـاً على ضعف كلما نما الجنين وازداد وزناً، بالإِضافة إلى آلام الوضع ﴿وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ﴾ أي وفطامه في تمام عـامين، وفي هذين العـامين تعاني الأم مشقـة رضاعه، ومشقـة نظافتـه والسهر عليـه وحفظه من كـل سوء ﴿أن آشْكُـرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تأمل كيف قرن اللَّه شكره بشكر الوالدين لمـزيد الاعتنـاء بهما واحترامهما وتبجيلهمـا. وشكر اللَّه وشكـر الوالـدين يستلزم من الإِنسان أن يشكـر كل من أسـدى إليه معـروفاً وإحسـاناً. وفي الحديث: لا يشكر اللَّه من

لا يشكـر الناس. ﴿إِلَيَّ المَصِيـرُ﴾ إلى اللّه المرجـع والمآب فيجـازي كـل إنسان على عمله.

﴿وَإِنْ جَـاهَدَاك عَلَى أَنْ تُشْـرِكَ بي﴾[١] أي وإن بذل والـداك ـ أيهـا الإنسان ـ وسعهما وطاقتهما ليحمـلاك على أن تشرك بعبـادة ربك إلّهـاً آخر ﴿مَـا لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ﴾ أي مما لا تعلم أنـه للّه شريـك ـ ولا شـريـك للّه سبحانه ـ هذا الكلام يفهم منـه أن على الإنسان أن يـأخذ عقيـدته عن علم وفكر واقتناع لا أن يأخذها تقليداً وجهلاً ومسايرة لأحد فالانقياد لأي شخص بـدون روية ولا تفكيـر بصواب مـا يدعـو إليه قـد يقوده ذلـك إلى الخسران والضلال ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾ أي لا تطع والديك فيما يأمرانك به من الشرك باللّه ﴿وَصَـاحِبْهُمَا في الـدُّنْيَا مَعْـرُوفاً﴾ أي وعـاشرهمـا في الدنيـا عشـرة جميلة ومستحسنة ـ ولو كانا مشركين باللّه ـ ويكون ذلك بإطعامهما وكسوتهما وعدم جفائهما وانتهارهما، وعيادتهما إذا مرضا.

﴿واتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ واسلك ـ أيها الإنسان ـ طريق من رجع إلى اللّه بالطاعة والتوبة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إلى اللّه مصيركم ومعادكم بعد مماتكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ فأخبركم بجميـع ما كنتم تعملون في دنياكم من خير أو شر.

---

(١) نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص فقد قال: لما أسلمت حلفت أمي لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً قال: فناشدتها أول يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتهـا فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبَت فقلت: والله لو كانت لك مئة نفس لخرجت قبل أن أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك وعرفت أني لست فاعلاً أكلت.

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ
وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ

شرح المفردات

وَأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر : المعروف هو كل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حُسْنه، والمنكر هو ما يُنكر بهما.

عَزْمِ الأُمور : الأمور الجادة التي يجب عقد القلب على إمضائها.

تُصَعِّر خدَّك للنَّاس : لا تُمِلْ وجهك عنهم تكبراً.

مرحاً : فرحاً وبطراً وخيلاء.

فخور : مباه بماله وجاهه.

واقْصِدْ في مشيك : توسّط في مشيتك بين الإسراع والإبطاء بتواضع.

واغضض من صوتك : اخفض من صوتك ولا ترفعه عالياً.

أنكَرَ الأَصْواتِ : أقبح الأصوات.

سخَّر لكم : ذلّل لكم وجعله صالحاً للانتفاع به.

أَسْبَغَ : أتم وأكمل.

كتاب منير : واضح الدلالة.

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾
۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا
ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ
ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ
وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

شرح المفردات

يُسْلِمْ وَجْهه إلى الله : يخلص نفسه لله.

مُحْسِن : عامل للحسنات، تارك للسيئات.

اسْتَمْسَك بالعُروة الوثقى : تمسك برضاء الله.

عَاقِبةُ الأُمور : نهايتها ومرجعها.

نَضْطَرُّهُم : نلزمهم ونسوقهم سوقاً.

عَذَابٍ غليظ : شديد ثقيل (عذاب النار).

يَمُدُّه : يزيده.

كلمات الله : الألفاظ التي تصف علم الله وقدرته وحكمته وعجائب صنعه.

بَعْثُكُمْ : إحياؤكم بعد موتكم يوم القيامة.

تابع سورة لقمان

ويتابع القرآن فيذكر ما وصّى به لقمان ابنه من صفات الخير والحكم البالغة والآداب السامية:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّموات أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمنكرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ (١٦ ـ ١٩).

فالله يذكر ما قاله لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾(١) الضمير في ﴿إنها﴾ يرجع على أعمال الانسان من طاعة ومعصية وخير وشر، والمعنى: يا بني إن ما يعمله الإنسان من خير أو شر وإن كان في الصغر والقلة زنة حبة من خردل ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوات أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي فتكن تلك الفعلة الحسنة أو السيئة في أخفى مكان كجوف الصخرة، أو كانت في آفاق السموات أو بقاع الأرض يظهرها الله ويحاسب فاعلها عليها، وهذا تمثيل لسعة علم الله وشمول قدرته وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ واللطيف هو العالم بدقائق الأمور الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه خبير بكل شيء لا يغيب عنه شيء.

---

(١) خردل: أثبتت التجارب العلمية أن الكيلو غرام من الخردل يحتوي على ٩١٣ ألف حبة وتكون الحبة حوالى جزء من ألف جزء من الغرام تقريباً وهذا أصغر وزن لحبة نبات عرف حتى الآن. فتأمل كلمات القرآن كل كلمة منه محسوبة مقصودة بدقة متناهية تظهر إعجازه.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ وإقامة الصلاة أداؤها، والصلاة هي القيام بواجب العبودية للَّه والثناء عليه وتوثيق الصلة به، وكلها أمور تطهر النفس من نوازع السوء وتحول بينها وبين اقتراف الفواحش والمنكرات.

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْروفِ وَانْهَ عَنِ الْمنكَرِ﴾ وطلب لقمان من ابنه أن يكون نافعاً للخلق وعضواً مفيداً في الجماعة الإنسانية وذلك بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والمعروف: اسم لكل فعل يُعرف حُسْنُه بالعقل أو بما شرعه اللَّه، وهو خلاف المنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما الدعامتان لصلاح المجتمع، وحاجز دون تسرب الفساد إليه، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا شاعت فيهم الفواحش والمنكرات واستحقوا بذلك لعنة اللَّه كما حلت بالذين كفروا من بني إسرائيل حيث قال سبحانه: ﴿لُعِنَ الذين كفروا مِنْ بَني إسرائيلَ عَلَى لِسانِ دَاودَ وعيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِما عَصَوْا وكانوا يَعْتدُون. كانوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكرٍ فعَلُوه....﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩).

﴿واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أمر لقمان ابنه بالصبر على المصائب وعلى شدائد الدنيا من مرض وفقر وإيذاء من الغير وغير ذلك، وفي ذكر الصبر عقب النهي عن المنكر إشارة إلى أن الناهي عن المنكر يصاب بالأذى ويتعرض للضرر أحياناً من دعاة الرذيلة والفساد فلا يجب أن يثنيه ذلك عن مهمته بل يتسلح بسلاح الصبر. ﴿إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ العزم والعزيمة هو عقد القلب على إمضاء الأمر وتنفيذه، أي أن الصبر من الأمور الواجبة التي أمر اللَّه بها، والذي يجب عقد القلب على إمضائه وتنفيذه وهو من عزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة.

﴿ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ﴾ أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا

كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ولكن أَلِنْ جانبك وابسط وجهك إليهم، والصَّعَر في الأصل داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه، وفي وصف المتكبر بلفظ الصعر تحقيرٌ من شأنه فالكبرياء داء معنوي كداء البعير الحسي ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ ولا تمشِ في الأرض متبختراً متكبراً معجباً بنفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إن الله لا يحب كل متكبر فخور على الناس يعدد كل ما أُعطي من مال أو قوة أو جاه.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ والقصد في المشي ما بين الإسراع والإبطاء، ويقال قَصَدَ الطريق: استقام، فيكون المعنى: استقم في مشيك متواضعاً ولا تخالطه بالاختيال والكبرياء ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ واخفض من صوتك ولا ترفعه، فإن الجهر بالصوت بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ إن أقبح الأصوات هو نهيق الحمير، فالجهر بالصوت ليس بمحمود وقد شبهه بنهيق الحمير للتنفير والبعد عن رفع الصوت، والحمار مثل في الذم والشتيمة ونهيقه مثل في الشناعة، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعزّ في نظرهم، فنهى الله عن هذا الخلق وهذه العادة الجاهلية.

وهكذا يؤدب الله عباده بأشرف الخصال ومكارم الأخلاق بما جاء على لسان لقمان الحكيم والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أينما كانت.

وبعد أن بيَّن القرآن فيما سبق أن الشرك هو ظلم عظيم انتقل إلى عرض الدلائل والبراهين التي تشهد بوحدانية الله:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم ما في السَّموات وَمَا في الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنيرٍ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢٠ ـ ٢١).

فاللَّه سخّر للإنسان ما في السموات والأرض. ومعنى سخَّر: ذلّل وأخضع وساقه قهراً إلى غرض معين والمراد بتسخيرها للناس هو الانتفاع بها. هذا التسخير لم يظهر في أجلى مظاهره كما ظهر في هذا العصر حيث سخّر الإنسان الأرض للزراعة المتطورة واستخرج ما فيها من معادن ونفط وسخّر الهواء لتنقلاته بواسطة وسائل النقل الجوي وارتاد الفضاء ووضع فيه الأقمار الصناعية للاتصالات اللاسلكية والصور المرئية كما سخَّر البحار للمواصلات واستخرج ما فيها من ثروة حيوانية وغير ذلك مما استفاده الإنسان، وهذا ما يظهر نِعَمَ اللَّه على الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي أتمّ وأكمل عليكم أيها الناس نعم اللَّه الكثيرة منها الظاهرة التي تدرك بالعقل والحواس، ومنها النّعم الباطنة كالمعرفة والعقل أو التي لا يدركها الناس وتخفى عليهم، هذا وإن الكشوفات العلمية بينت لنا كثيراً من منافع الكون التي كانت مغيبة عنا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ومن الناس من يخاصم ويجادل في وجود اللَّه ووحدانيته وإخلاص الطاعة والعبادة له بغير علم ﴿وَلاَ هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنيرٍ﴾ أي ولا هدًى من نبي ولا كتاب منزل من عند اللَّه نيّر واضح الدلالة.

نعم من الناس من يجادل في وجود اللَّه بغير علم فيفسر قيام الكون على المادة العمياء، ومنهم من يفسره بالتطورات المتوالية عبر ملايين السنين، وليس في تلك النظريات أشياء ثابتة بل هي تخمينات لا تلبث أن تتبخر أمام أسرار الحياة وحقائقها التي تشهد بوجود قدرة إلّهية حكيمة أحسنت خلق كل شيء.

نعم إن من الناس من يجادل في وحدانية اللَّه بغير علم فينساق إلى الأوهام والأساطير فيعدد الآلهة ويضفي على الأصنام والمظاهر الطبيعية وبعض المخلوقات والناس صفات الألوهية فيغرق في أوحال الخرافات التي تذله وتستعبده وتجعل حياته مضطربة تعيسة شاقة بما يقوم به من شعائر العبادات المرهقة والتضحيات الجسام.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في وحدانية اللَّه جهلاً منهم بعظمة اللَّه: اتبعوا ما أنزل اللَّه على رسوله محمد من الوحي وصدّقوا برسالته ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا﴾ هذا هو الدليل الذي يعتمد عليه المشركون في عبادتهم للأصنام وهو التقليد الأعمى للآباء والأجداد، فالتقليد للآباء هو العائق لكل دعوة إصلاحية يمكن أن تؤتي ثمارها الطيبة، فقد يكون الآباء على ضلال في العقيدة وفساد في السلوك فالاقتداء بهم هو استمرار للضلال المستحكم بهم، فالإسلام جاء مخاطباً للعقل ومثيراً للفكر للتخلي عن المعتقدات والعادات الباطلة التي ورثها الأبناء عن الآباء والأجداد ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي أيتبعون الشيطان بما حسّن لهم من سوء أعمالهم، والحال أنه يدعوهم إلى عذاب النار يوم القيامة.

ثم يقارن القرآن بين المؤمن المطيع للَّه وبين الكافر باللَّه:

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٢ ـ ٢٤).

فالآية تقول: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ومن يخلص للَّه العبادة

والعمل وينقاد لأمره ويتبع شرعه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهو عامل للحسنات تارك للسيئات فيطيع اللَّه في كل أموره ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾[1] فقد مثل اللَّه المتمسك بالدين بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن تعلق بأوثق عروة من حبل متين لا يخاف انقطاعه، وإنما يعني ذلك أنه قد تمسك برضا اللَّه مما لا يخاف معه عذاب يوم القيامة ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ وإلى اللَّه المرجع ومصير كل الأمور فيثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ ومن كفر باللَّه بأن أشرك الأصنام والأوثان معه في العبادة، ولم يخلص له العبادة وحده، ولم يُصدّق أن محمداً رسوله، وأن القرآن كتاب اللَّه، فلا يحزنك كفره يا محمد ولا تهلك نفسك عليه حسرة وغماً ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى اللَّه مرجعهم ومصيرهم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ فيخبرهم اللَّه ويحاسبهم بما عملوا من السيئات في الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن اللَّه عليم بدخائل نفوسهم فكيف بظواهر الأعمال ﴿نُمَتِّعُهُم قَلِيلاً﴾ نتركهم يتنعمون منا قليلاً في دنياهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ثم نُلجئهم على كُرْهٍ مِنْهم إلى عذاب شديد لا يُحتمل وذلك هو عذاب النار، شبه اللَّه إلزامهم التعذيب بحال المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفصال عنه.

ثم يقيم القرآن الحجة على المشركين من اعترافهم بربوبية اللَّه وحده:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمٰوات والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُل الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ. لِلَّهِ مَا في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ

---

(١) العروة الوثقى: العروة ما يتعلق به من عراه أي من ناحيته، وقيل هي موضع التعليق. وعروة وثقى، أي عروة قوية محكمة لا تنقطع ولا تنفصم.

الحَمِيدُ﴾ (٢٥ ـ ٢٦).

فاللَّه سبحانه يقول: إنـك إن سألت يـا محمد هؤلاء المشـركين باللَّه الذين يجعلون مع اللَّه آلهة أخرى: من خلق السمـوات والأرض؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي يعترفون بأن اللَّه هو الذي خلقهم إذ لا يستطيعون إنكاراً لـوضوح الأدلة في ذلك مؤيدةً بالفطرة الإنسانية، وهذا الاعتراف من المشركين أقـام الحجـة عليهم وأوجب القيام بـالعبادة للَّه وحـده ونقض معتقداتهم البـاطلة ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أوجد من دلائل وحدانيته ما يبطل كل عبـادة لغيره سبحـانه ﴿بَـلْ أَكثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ ولكن أكثـر المشـركين لا يعلمـون أنهم بإقرارهم هذا قد أقـاموا الحجـة على أنفسهم بفساد عقيـدتهم، فالتفـرد في الخلق يوجب التفرد في العبادة.

﴿لِلَّهِ مَـا في السَّمٰواتِ وَمَـا في الأَرْضِ﴾ أي وللَّه مـا في السمـوات والأرض خلقـاً وتصرفـاً وتدبيـراً فكيف يتركـون عبادتـه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إن اللَّه هو الغني عن خلقه وعن عبادتهم له، المحمود بذاته الجدير بالثناء عليه من عباده.

وبعد أن بيَّن القرآن بأن اللَّه خالق السموات والأرض ومالكها بيَّن بعد ذلك أن قدرة اللَّه لا تقف عند هذا الحد وأنه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له.

﴿وَلَوْ أَنَّما في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْـرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْـدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَت كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَـزِيزٌ حَكِيمٌ. مَـا خَلْقُكم وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٢٧ ـ ٢٨).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ أي ولو أن شجـر الأرض كلها بـريت أقلامـاً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُـدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَـةُ أَبْحُرٍ﴾

وتحول البحر إلى مداد[١] يكتب به وزيد هذا البحر بسبعة أبحر[٢] وتحولت جميعها إلى حبر ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ في الكلام هنا حذف للإيجاز، والمعنى: ولو جلس الكتاب يسجلون بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات اللَّه الدالة على علمه وعجائب صنعه وقدرته وحكمته وعظمته وصفاته، فماذا تكون النتيجة؟ إنها فناء الأقلام ونفاد المداد قبل أن تنفد كلمات اللَّه، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي[٣] لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ[٤] مَدَداً[٥]﴾ (١٠٩).

فقدرة اللَّه تعالى لا تقف عند حد خلق السموات والأرض بل هو سبحانه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن اللَّه قوي غالب لا يعجزه شيء، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته شيء.

﴿مَا خَلْقُكُم وَلَا بَعْثُكُم إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي ما خلقكم ابتداء أيها الناس جميعاً ولا بعثكم بعد مماتكم أحياء أمام قدرة اللَّه إلّا كخلق نفسٍ واحدة أو بعثها حية ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إن اللَّه سميع لأقوال عباده، بصير بما يعملون وهو مجازيهم على أعمالهم.

---

(١) المداد: هو الحبر السائل الذي يكتب به.
(٢) سبعة أبحر: تحديد العدد بسبعة المراد منه الكثرة لا تخصيص العدد المذكور.
(٣) لكلمات ربي: أي يسطر بها كلمات ربي.
(٤) بمثله: ليس المراد آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ثم هلم جرّاً.
(٥) مدداً: زيادة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا
لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ

شرح المفردات

يُولج : يدخل.

إلى أَجَلٍ مُسمًّى : إلى الوقت الذي حُدّد لفناء الكون.

الفلك : السفينة.

غَشِيَهُم مَوْجٌ كالظُّلل : علاهم وغطاهم موج كالسحاب يُظلّهم.

مُخلصين له الدِّين : مخلصين له العبادة والطاعة.

مُقْتَصِد : معتدل لاينحرف إلى الإفراط ولا إلى التفريط.

خَتَّار : شديد الغدر.

كفور : جاحد ناكر (صيغة مبالغة للكافر).

لا يجزي : لا يقضي ولا يكفي ولا ينفع.

لا تغُرنَّكُم: لا تخدعنكم.

الغَرُور : ما يخدع من إنسان أو شيطان أو وسوسة النفس.

عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا
تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

تابع سورة لقمان

ويتابع القرآن الكلام على قدرة اللَّه فيوجه الأنظار إلى بعض المظاهر الطبيعية التي أبدعها اللَّه مما هي نعمة على عباده والتي تشهد بوحدانيته واستحقاق العبادة له وحده:

﴿ألم تَرَ أنَّ اللَّهَ يُولِجُ الليْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في الليل وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْري إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُون مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الْكَبِيرُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تجري في الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيكُم مِنْ آيَاتِهِ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٢٩ - ٣١).

فالآية تخاطب الإنسان: ألم تعلم وتنظر نظرة اعتبار أن اللَّه يُدخل كُلًّا من الليل والنهار في الآخر فيجعل الليلَ يحل مكان النهار والعكس بالعكس، وهذا يحصل من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس فيتبادل كل من الليل والنهار مكان الآخر لأن الأرض كروية فالجهة المعرضة للشمس تكون نهاراً، يعاكسها الجهة المحجوبة عن الشمس فتكون ليلاً.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْس وَالْقَمَرَ﴾ أي وذلل اللَّه الشمس والقمر لمصالحكم أيها الناس، فالشمس تعطي من الطاقة والأشعة المحسوبة ما به قوام حياة الإنسان والنبات والحيوان ولولاها لانعدمت الحياة على الأرض، فلو كانت حرارة الشمس أكثر مما هي عليه لأحرقت كل حيٍّ على الأرض ولو كانت حرارتها أقل مما هي عليه لأصبحت الأرض كلها جليداً يتعذر الحياة عليها،

والقمر سخّره اللّه ليعلم الناس عدد السنين والحساب ولتستفيد بعض الكائنات الحية من نوره الباهت ﴿كُلٌّ يَجْري إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي كل من الشمس والقمر يجري إلى الأجل والوقت الذي حدده اللّه لفناء الكون وهو يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وأن اللّه خبير بما تعملونه أيها الناس من الأعمال لا تخفى عليه خافية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾ ذلك: إشارة إلى كل ما سبق في هذه السورة مما ذكرته من خلق اللّه للسموات بغير عمد، وإنزاله الماء من السماء، وبث الدواب في الأرض، وإنبات أزواج النبات، وتسخير الشمس والقمر، كل ذلك لتعلموا أيها الناس بأن اللّه هو الخالق الذي لا يزول، المستغني عن كل شيء فهو الموجود الحق والإلّه الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ وكل ما سواه من الآلهة التي يتوجهون إليها بالعبادة لا تستطيع أن تخلق ذبابة ولا تملك ضراً ولا نفعاً لغيرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وأن اللّه هو العلي في مكانته على كل شيء ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْري في الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ ألم تنظر ـ أيها الإنسان ـ إلى السفن تجري في البحر نعمة من اللّه ورحمة على خلقه وذلك حسب سنته التي سنها في الطبيعة وهو مابيّنه قانون الأجسام الطافية. وما أكثر النِّعم التي يحملها البحر حيث تنقل السفن الناس من بلد إلى بلد، وتحمل منتجات قطر إلى قطر آخر، بالإضافة إلى الثروة الحيوانية في البحر التي أصبحت من أهم مصادر القوت لكثير من الشعوب ﴿لِيُرِيكُم مِنْ آيَاتِهِ﴾ ليظهر لكم بذلك بعض عجائب صنعه ودلائل قدرته وحججه عليكم. فللبحر روعة تثير النفس ويذكرها بالخالق وبالأخص عند هيجانه. والبحر يبلغ حجمه ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ويحتوي من عجائب المخلوقات البحرية ذات الألوان المتعددة والأحجام المختلفة والخصائص المتنوعة بما يشهد

بوجود اللَّه وعظمته وقدرته الحكيمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في ذلك لدلائل وعبراً لكل من صبّر نفسه عن إتيان محارم اللَّه وصبّر نفسه في الضراء، وشكر اللَّه على نعمه.

وفي مناسبة الكلام عن البحر يعرض القرآن دليلاً على وجوب إخلاص العبادة للَّه وحده، هذا الدليل مستقًى من الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى اللَّه وحده عند الخوف من الغرق بسبب تعاظم الموج:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُم إِلَى البَرِّ فَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٣٢).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي وإذا كان الناس في البحر، وأدركهم الموج العالي يتدافع بعضه خلف بعض فغطاهم وظللهم كالسحاب ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ابتهلوا إلى اللَّه بالدعاء وتركوا كل ما عداه مما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان.

هذه هي الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى اللَّه وحده عند اشتداد الكرب والوقوع في براثن الخطر. فالإنسان كما يصل إلى معرفة اللَّه بعقله والتفكر فيما يراه من المخلوقات الدالة على وجود الخالق، كذلك يعرف الإنسان ربه بفطرته، وهذه الفطرة أبرز ما تظهر عند اشتداد الحاجة عند الإنسان إلى منقذ ومعين ينشله من الضر والهلاك، حتى الذين ينكرون وجود اللَّه رأينا الكثير منهم يدعون اللَّه ويلجأون إليه عند اشتداد الخطر على حياتهم، ألا يكفي هذا الإحساس الفطري في الإنسان بأن ينبذ كل مظاهر عبادة غير اللَّه.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ فَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ﴾ أي فلما نجّى اللَّه من في البحر ممن كاد أن يدركهم الغرق انقسموا إلى قسمين ﴿فَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ﴾ أي موفٍ بما عاهد اللَّه عليه في البحر من إخلاص الدين له والعبادة والتمسك

بالتوحيد والطاعة، وفي الكلام حذف تقديره: فمنهم مقتصد، ومنهم كافر. وقيل مقتصد بمعنى: معتدل لا ينحرف نحو الإفراط ولا نحو التفريط ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ وما ينكر هذه الدلائل والحجج عن استحقاق العبادة للّه وحده ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ[١] كَفُورٍ﴾ إلّا كل غدارٍ مبالغ في الكفر، جحودٍ لِنِعَمِ ربه عليه.

وبمناسبة ذكر أهوال البحر يذكّر اللّه الناس بالهول الأكبر وهو هول يوم القيامة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ (٣٣).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ أي يا أيها الناس اجعلوا بينكم وبين اللّه وقاية من عذابه بأن تخصوه وحده بالعبادة وتطيعوه ﴿وَاخْشَوا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ وخافوا أن يحلَّ بكم سخطه وعقابه - إن عصيتموه - يوم القيامة حيث لا يغني ولا يكفي والد عن ولده ولا ينفعه بوجه من الوجوه لاشتغاله بنفسه، فلا تنفع عند اللّه الشفاعة لإنسان إلّا وسيلة من صالح الأعمال أسلفها في الدنيا ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيئاً﴾ ولا ولد يغني ويكفي عن والده شيئاً[٢] ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن ما وعد اللّه بالبعث حق، وما وعد بثواب الجنة حق، ووعيده بعذاب النار حق ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنكم زينة الحياة ولذاتها وتتركوا الاستعداد والعمل لما فيه خلاصكم ونجاتكم من عقاب اللّه ﴿وَلَا يَغُرنَّكم

---

(١) الختر: أقبح الغدر.

(٢) من الملاحظ أن الآية الكريمة قدمت رعاية الوالد لولده على رعاية الولد لوالده لأن شفقة الأب على ولده أعظم وأتم.

بِاللَّهِ الغَرورُ﴾ ولا يخدعنكم خادع سواء أكان من الناس، أم كان الشيطان، أو وسوسة النفس وأهواءها فيمنيكم بعفو اللَّه ورحمته فيقول: تمتع بـالدنيـا حلالها وحرامها فرحمة اللَّه واسعة.

ثم يأتي ختام هذه السورة وفيه تصوير لعلم اللَّه الشامل وإثبات لعجز الإنسان وضعفه:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا في الأَرْحَامِ وَمَا تَدْري نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً وَمَا تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ خَبِيرٌ[1]﴾ (٣٤).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ والساعة هنا هي القيامة فاللَّه يعلم الوقت الذي تأتي فيه فليحذر الناس أن تأتي القيامة وهم يرتكبون المعاصي وليستعدوا لها بطاعة اللَّه ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وينزل اللَّه المطر من السماء، وقد يعرف الناس بآلات الرصد قرب نزوله، وقد يستطيعون بأسباب كيميائية أن يحولوا سحابة إلى مطر ضمن إطار ضيق بتكاليف باهظة ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه، فاللَّه سبحانه هو الذي ينزل الغيث في كافة المعمورة وهو المنشىء للأسباب الكونية التي تكوّنه من تبخر المياه بواسطة أشعة الشمس وتجمعه في سحاب بواسطة الرياح ثم تنقله إلى البلد الذي يريد اللَّه أن ينزل به المطر بفعل برودة الجو وغير ذلك من الأسباب.

﴿وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ﴾ فاللَّه وحده يعلم ما في أرحام الإناث ونوع هذا الحمل ذكراً كان أو أنثى ويعلم مصيره ورزقه وأجله وشقي أم سعيد.

---

(١) عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال، قال رسول اللَّه ﷺ مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلاّ اللَّه وقرأ هذه الآية (أخرجه البخاري والإمام أحمد).

وهذا لا يمنع الإنسان من معرفة ما في الأرحام من حمل ذكراً كان أم أنثى فلو أراد اللّه أن لا يعلم الإنسان شيئاً عما في الأرحام لما أنزل في القرآن كثيراً من الآيات التي وصفت مختلف أطوار الجنين، هذا وإن معرفة الإنسان ما في الأرحام ليست معرفة غيبية فهذه الأشياء موجودة عند التلقيح ولكن العلم كشفها في الجنين بعد فترة ما من تكونه وقد أمكن ذلك بواسطة الصورة الصوتية التي تحدد نوع الجنين مع عقبات تعترض كشف نوع الجنين وذلك في حال وجود التوائم وفي بعض حالات وضع الجنين.

ولكن نتساءل هل إن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ﴾ مقصود بها الذكورة والأنوثة فقط في الجنين؟ لا، هنالك مدلولات شتى لها، فاللّه يعلم مستقبل الجنين وما يطرأ عليه من صحة ومرض، وطول في العمر أو قصره، ومن غنى أو فقر، ومن شقاء له أو سعادة. وهذه أمور غيبية هي في علم اللّه وحده. وقد أشار الحديث الشريف إلى ذلك فقد رُوي عن رسول اللّه ﷺ قوله: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل اللّه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر (أي الملك) بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» رواه البخاري ومسلم.

ونتابع التساؤل فنقول: هل كل امرأة حامل تسأل عما في بطنها ليخبرها الطبيب المختص أذكر هو أم أنثى، وهل هناك طبيب واحد في الدنيا تذهب إليه كل نساء الأرض ليخبرهن عن نوع الجنين الذي في بطنهن، وهل هذا الطبيب يكون مصيباً في تحديد نوع الذكورة والأنوثة بدون خطأ؟ لا، هذا مما لم يقل به إنسان، وشتان ما بين علم اللّه وعلم الإنسان.

ثم إن هذه الأمور الغيبية الثلاثة التي في علم اللّه لم تنفِ الآية علمها عن الخلق إلّا بخصوص علم الساعة لذا قال سبحانه: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

ولم يقل: يعلم الساعة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أما العلم بنزول الغيث، والعلم بما في الأرحام ـ هذا إذا كان المراد منه تحديد نوع الذكورة والأنوثة ـ فإن ذلك لم تنفها الآية عن الخلق.

ثم تأتي بقية المغيبات التي استأثر اللَّه بها بجانب علمه بالساعة والتي نفى إمكان التعرف عليها بأسلوب النفي القاطع وهما: كسب الإنسان في غده ومكان موته.

فاللَّه يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً﴾ والكسب هنا عام سواء الكسب المادي كالحصول على المال أو كسب الأعمال كفعل الخير والشر، أو ما يصيب النفس من صحة ومرض وعسر ويسر، وهذا مشاهد في حياة الإنسان فهو معرض في كل وقت إلى مفاجآت وأحداث تخرج به عن برنامج عمله وتخطيطه فلا يملك الإنسان السيطرة عليها وتوجيهها حسب رغباته وتطلعاته.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تموتُ﴾ هذه هي الحقيقة البادية للعيان التي قهرت الإنسان وأظهرت مدى ضعفه أمام قوة اللَّه القاهرة، نعم لا يدري الإنسان ـ ملكاً أو صعلوكاً، غنياً أو فقيراً ـ أين يكون حتفه في الجو أو في أعماق البحر(١)، في السهل أو الجبل، في فراشه أو موضع عمله، في بلده أو في بلد من بلدان العالم، كل ذلك يجهله الإنسان جهلاً تاماً.

ثم يأتي التعقيب على هذه الأسرار الكونية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فاللَّه عالم بكل أمور الكون، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

---

(١) يذكرنا ذلك بأحد أثرياء لبنان الذي شاد قبراً فخماً في حديقته وأنفق عليه الأموال الباهظة ليكون مأوى له في مثواه الأخير. وفي إحدى رحلاته سقط بطائرته الخاصة في البحر واختفت آثاره رغم الاستعانة بشركات عالمية مختصة بالغوص في المياه، ولم تفلح كل الجهود في العثور على جثته لتدفن في القبر الذي شاده فكان مثواه الأخير في البحر.

سُورَةُ السَّجْدَة

سُميت هذه السورة بسورة السجدة لأن اللّٰه ذكر فيها أوصاف المؤمنين الذين إذا سمعوا آيات القرآن تُتلى عليهم خرّوا سجَّداً للّٰه تعظيماً لجلاله وحمداً له على نعمة الإيمان.

تُستهل هذه السورة ببيان أن القرآن مُنزّل من عند اللّٰه وليس من تأليف محمد، وهو كتاب يشتمل على الحق والهداية للناس.

ثم تحدثت السورة عن قدرة اللّٰه العظيمة في الكائنات العلوية، ثم انتقلت إلى خلق اللّٰه للإنسان وما خصه من نعمة السمع والبصر والإدراك.

وتذكر السورة مصير المجرمين في الآخرة حيث يقفون بين يدي ربهم مطأطئي الرؤوس حياءً وخجلاً متمنين على ربهم أن يعيدهم إلى الدنيا ليعملوا الأعمال الصالحة ولكن فات الأوان وحقت كلمة اللّٰه عليهم أن يُعذّبوا في النار.

وتذكر السورة صفات المؤمنين الأبرار وكيف كانت تتباعد أجسامهم عن مضاجعهم في الليل ويقومون بالعبادة والصلاة خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه فأعطاهم اللّٰه في الآخرة ما تقرّ به أعينهم ثواباً لهم على أعمالهم الصالحة.

وتحدثت السورة عن إعطاء اللّٰه التوراة لموسى التي كانت هدى لبني إسرائيل وقد جعل منهم أئمة في الدين حين صبروا على طاعة اللّٰه وصدَّقوا بآيات اللّٰه عن يقين. كما تدعو السورة إلى الاعتبار بالأمم الخالية وما أصابها من هلاك جزاء كفرها.

سُورَةُ السَّجْدَة

آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾
ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ
شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ

شَرح المفردات

لا ريب فيه : لا شك فيه.

افْتَراه : اختلقه.

اسْتَوى على العرش : استولى واستقر بلا كيف. وهذا كناية عن التملك، فالله ليس كالأجسام الحالة في مكان دون مكان.

يَعْرُجُ إليه : يصعد الأمر إليه بعد تدبيره.

مِمَّا تَعُدُّونَ : مما تحسبون من أيامكم الزمنية في الدنيا.

عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ : عالم بما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بها.

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ : أحكم وأتقن كل شيء تولى خلقه.

مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا
فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾
۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا
كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا
نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

شرح المفردات

مَاءٍ مَهِين : ماء ضعيف وهو النطفة (مَنِيّ الرجل والمرأة).

سَوَّاهُ : قوّمه بتصوير أعضائه وتكميلها.

وَنَفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ : بعث الله فيه الحياة، والروح أمر رباني.

ضَلَلْنَا في الأَرْضِ : ضعنا فيها بأن صرنا تراباً مختلطاً بترابها.

أئِنَّا لفي خَلْقٍ جديد : أنبعث أحياء بعد الموت ونعود خلقاً جديداً.

وُكِّلَ بِكُم : عهد إليه قبض أرواحكم.

ناكِسُو رؤوسهم : مطرقو رؤوسهم ذلاً وحياءً.

إنَّا مُوقنون : إنا أصبحنا مؤمنين إيماناً لا شك فيه بأن البعث حق.

لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا : لهيأنا لها سبيل الهداية.

الجِنَّة : الجن.

فذوقوا بما نسيتم لِقاءَ يَوْمِكُم هَذَا : فقاسوا العذاب بسبب إغفالكم لقاء يوم البعث.

إنَّا نسيناكم : إنا تركناكم تقاسون العذاب ترك المنسي.

عذاب الخلد : عذاب النار الدائم.

سُورَةُ السَّجدَة

ايضــاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن مُنَزَّلٌ من عند اللّه وأن رسوله محمداً ﷺ صادق فيما جاء به من الوحي من عند ربه:

﴿الٓمٓ. تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَآ أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١ - ٣).

فاللّه سبحانه يقول بأن القرآن الذي أُنزل على محمد لا شك فيه إنه من اللّه رب العالمين ومدبر أمورهم ﴿أَمْ[١] يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون اختلق محمد القرآن ونسبه إلى اللّه، ما كان لهم أن يقولوا هذا، والقائل بهذا القول بعض العرب الذين حاربوا الإسلام استبقاء لمغانم مادية، ومناصب رئاسية يحرصون على استمرارها لهم ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فليس القرآن كما يزعمون من تأليف محمد بل هو الحق والصدق من عند ربك يا محمد أنزله عليك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ لتخوّف قومك من عذاب اللّه وسطوته أن يحل بهم بسبب كفرهم ﴿مآ أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي لم يأتِ هؤلاء القوم من قريش والعرب الذين أرسلك ربك يا محمد إليهم رسول من اللّه قبلك من عهد إسماعيل إلى عهدك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لعلهم يتبصرون سبيل الهدى فيسيرون الى نهجه.

فقضية الايمان بأن القرآن منزل من عند اللّه هي التي أراد اللّه إعلانها

---

(١) أم: تقدر ببل وألف الاستفهام، أي بل أيقولون.

في مطلع هذه السورة لينفي الشك عن قلوب بعض العرب الذين كانوا يتهمون القرآن بأنه أساطير الأولين وأنه شعر، وأن محمداً قد اختلقه.

فالقرآن له نظمه الخاص وليس بشعر لأنه لم يلتزم بأوزان الشعر وقوافيه، ولم ينظم محمد بيتاً من الشعر في حياته، والقرآن ليس من أساطير الأولين، والأساطير كما هي معلومة مجموعة من الأكاذيب والخرافات المتداولة.

فالقرآن هو الحق من عند اللّٰه لأنه جاء لمحاربة عبادة الأصنام والدعوة إلى عبادة اللّٰه وحده، والإيمان بكتب اللّٰه ورسله واليوم الآخر، كما دعا إلى العدل والإحسان ومكارم الأخلاق، ونهى عن الفحشاء والمنكر والتقاتل والتظالم وأكل حقوق الضعفاء.

واليوم نرى أن القضية ذاتها تراود أذهان كثير من أتباع الديانات الأخرى الذين يفترون زوراً وبطلاناً بأن القرآن من تأليف محمد ولكنهم لو درسوا القرآن بتجرد وكان لهم إلمام باللغة العربية لآمنوا من أعماق نفوسهم وأيقنوا أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر لأنه يخالف كل الكتب المعهودة عند البشر قديماً وحديثاً وليس هناك كتاب يوازيه هداية وإصلاحاً وخيراً للبشرية وغذاءً للروح، بالإضافة ما يتميز به القرآن من بلاغة وفصاحة في الكلام عجز بلغاء العرب عن مجاراته في كل العصور.

ثم إن محمداً في مدى عمره لم يعهد عنه الكذب في أقواله وفي معاشرته للناس فكيف يصدق مع الناس ويكذب مع اللّٰه ويدّعي النبوة كذباً وبهتاناً وهي أخطر قضايا الوجود التي لا يدّعيها ويفتريها زوراً إلاّ رجل خبيث النفس، واسع الأطماع، محب للجاه والمال والسلطة، يسخر الناس لشهواته. وهذه كلها أمور كانت بعيدة عن أخلاق الرسول، فمحمد لم يَدّعِ

النبوّة بل كان رسول اللّه حقاً تشهد على ذلك حياته كلها.

والقرآن تستشعر من آياته جلال ربوبية اللّه وعظمتـه فليس فيه صبغـة كلام الناس وما درجوا عليه في كلامهم وكتاباتهم، تأمل هذه الآيات التـالية التي أعقبت مطلع هذه السورة:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَالَكُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفلا تَتَذَكَّرُونَ. يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ. ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٣-٦).

فالمعبود الذي تصلح له العبادة هو اللّه وحده ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهـو سبحانـه خلق بلايين الأجـرام السماويـة، وخلق الأرض ومـا فيها من مـلايين الكائنـات الحية، ومـا بين السماء والأرض من غلاف الأرض الجوي، وما يحتوي من إشعاعات مختلفـة وغازات، وأتـربة كونية، وكتل هوائية، وأبخرة مائية ﴿في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في أطوار أو مراحل أو دهور ـ واللّه أعلم ـ وليست هذه الأيام كما هي في عـرفنا الحـاضر فيـوم الأرض يحصل من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، أمـا قبل خلق الشمس فلم يكن ليل ونهار، وأيام اللّه غير أيام الناس كما جاء في القرآن: ﴿وإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).

﴿ثُمَّ استوى عَلَى العَرْشِ﴾ أي استقام كل ما في السموات والأرض على مراده سبحانه بتسويته إياه، وقيـل: مَلَكَ وعلا فـوق العرش علوّاً يليق بجلاله.

والعرش كُنِّيَ به عن العز والسلطان والمملكة، وعرش اللّه ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلّا بالاسم، وليس المراد كما تذهب إليه أوهام العامة من

أن اللّٰه جالس على العرش، فلو كان كذلك لكان العرش حاملاً للّٰه تعالى واللّٰه يقول: ﴿إِنَّ اللَّه يُمْسِكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ أن تَزُولا﴾ (فاطر: ٤١).

فاستواء اللّٰه على العرش هو بلا كيف، واللّٰه لا يشبه شيء من خلقه كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء﴾.

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ﴾ أي يدبر اللّٰه شؤون الخلق من السماء إلى الأرض بالملائكة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[١] ثم يصعد إليه أَمرها ﴿في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي في يوم كان مقداره ألف سنة[٢] مما تحسبون من أيامكم الزمنية في الدنيا خمسمائة سنة في النزول وخمسمائة في الصعود ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ذلك المدَبِّر لأمور الخلق هو اللّٰه سبحانه العالم بكل شيء، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين مما لا يبصرونه، ويعلم ما هو مشاهد لهم مما يبصرونه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ القوي الغالب الشديد في انتقامه ممن كفر به، الرحيم بعباده الذين تابوا عن ضلالتهم وعملوا بطاعته.

---

(١) عبّر القرآن عن الصعود في السماء بلفظ (يعرج) والعروج هو الصعود ويأتي في اللغة بمعنى: الميل، يقال للطريق إذا مال قد انعرج، وانعرج القوم عن الطريق: مالوا عنه، وانعرج: انعطف أي مال، ومال بمعنى: زال عن استوائه واستقامته، وهذه حقيقة علمية فالفضاء الكوني لا يعرف الخط المستقيم، فالسبح في الفضاء بعيداً عن الأرض يتم في مسارات منحنية.

(٢) القرآن يشير إلى نظرية النسبية بالنسبة إلى الزمان، أي أن الزمان نسبي وهذا ما توصل إلى إدراكه العلماء الكونيون من قريب، فكل مكان في الوجود له زمنه الخاص به، ومن أقرب الأمثلة على ذلك السنة على كل كوكب من الكواكب السيارة التي تتبع الشمس، والمقصود بالسنة الفترة الزمنية التي يتم فيها الكوكب دورة كاملة حول الشمس وهي تختلف إلى حد كبير من كوكب إلى آخر، فالسنة على الأرض تحسب بمقدار الزمن الذي تقطع فيه الأرض دورة كاملة حول الشمس أي في نحو ٣٦٥ يوماً، على حين أن الكوكب عطارد يقطع دورته حول الشمس في ٨٨ يوماً والكوكب بلوتو يتم دورته حول الشمس في ٢٥٠ سنة بالنسبة إلى سنواتنا على الأرض.

ويتابع القرآن فيذكر نوعاً من إبداع اللّه في خلقه متمثلاً في خلقه للإنسان:

﴿الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧ ـ ٩).

فاللّه سبحانه هو ﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾ أي أتقن كل شيء وأحكمه، فلم يجعل صورة البهائم تماثل صورة البشر، ولا صورة البشر تماثل أشكال البهائم.

فكل أنواع المخلوقات من أصغر حشرة إلى أكبر الحيوانات التي تدب على الأرض انتقالاً إلى أنواع الطيور المختلفة والأسماك التي تسبح في أعماق البحار، كل منها إذا تأملتها في شكلها وألوانها المتناسبة ونظام حياتها، والمحافظة على نوعها، وتركيب أعضائها لرأيت في ذلك كله مدى الحكمة الإلّهية التي أبدعت وأحسنت خَلْق كل شيء ﴿فتبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالقين﴾.

والإنسان مع ما بلغه من علم وما أقام من مختبرات لم يستطع أن يخلق أبسط حشرة، ولم يتوصل إلى إبداع خلية واحدة، هذا هو التحدّي الرباني للإنسان ليعرف حدوده فلا يأخذه الغرور عندما يصل إلى درجة متقدمة من العلم.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ والمراد بالإنسان هنا آدم الذي انحدر منه الجنس البشري الذي خلقه اللّه من طين ثم قال له: كن فكان، والطين هو التراب المختلط بالماء.

وخلق الإنسان من تراب هو حقيقة لا ريب فيها، فلو أُخِذَت قطعة من

جسم الإنسان، وأُجْرِيت عليها عمليات التحليل لوجد أنها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض. وجسم الإنسان يحوي مليارات الخلايا كل منها قطرة من البروتوبلازما، والبروتوبلازما مادة لزجة شفافة تسعة أعشارها من الماء والبقية من كل أنواع التراكمات الجزيئية وأهمها البروتينات، فالإنسان خلق من طين أي من تراب وماء ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ثم جعل اللَّه ذرية آدم ﴿مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ فالسلالة في اللغة: ما استل من الشيء وانتزع منه برفق، والماء المهين هو النطفة الضعيفة، والمراد بها ماء الرجل وماء المرأة أي منيّهما. فالسلالة هي الحيوان المنوي في ماء الرجل، والبويضة في ماء المرأة، فمنيّ الرجل يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية، وحيوان واحد ينسل منها ليلقح بويضة الأنثى التي تنسل من حويصلة البويضة وبذلك تنشأ البويضة الملقحة التي هي أول أطوار الجنين ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ ثم إنه سبحانه عدّل خلق الإنسان وسوّى شكله وناسب بين أعضائه، وصوّره على ما ينبغي أن يكون في رحم أمه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ فدبّت فيه الحياة، ولقد أضاف اللَّه الروح إليه سبحانه التي نفخها في الإنسان للتشريف والتكريم له، وأنه مَيَّزَه عن غيره من المخلوقات، والروح أمر رباني لم يعطِ اللَّه سرّها لأحد، ولم يتوصل الإنسان إلى معرفة كنهها، وقد سُئل رسول اللَّه محمد ﷺ عن الروح فنزل الوحي الإلّهي مجيباً عن ذلك: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥).

ويتابع القرآن تعداد فضل اللَّه على الإنسان: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فالترتيب الذي ذكره القرآن ابتداءً من السمع ثم البصر ثم الأفئدة هو ترتيب ممارسة هذه الحواس، فحاسة السمع تبدأ مبكرة جداً في حياة الجنين في الأسابيع القليلة الأولى، وأما البصر فيبدأ في الشهر

الثالث، وأما الفؤاد وهو الإدراك والتمييز فلا يتم إلّا بعد ذلك[١].

والأفئدة هي القلوب والمراد منها العقول وقد جعلها اللَّه موطن الإدراك والفهم والفكر، هذا مع العلم أن الدماغ هو موطن الإدراك، ولكن بما أن القلب يغذي الدماغ بالدم وأن حياة الدماغ ونشاطه متوقفان على القلب، لذا جعل اللَّه القلب موطن الإدراك والفهم والفكر. ﴿قَليلاً مَا تَشْكُرونَ﴾ بيان لكفرهم لِنِعَمِ اللَّه وتركهم للشكر لها، إلّا فيما ندر من الأحوال، والشاكرون لِنِعَمِ اللَّه عليهم هم قلة من البشر ولذا يقول تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشُّكُور﴾.

ثم بيَّن القرآن اعتراضات المشركين على البعث بقوله:

﴿وَقالوا أَئِذَا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ أئِنَّا لَفي خَلْقٍ جَدِيد بَلْ هُم بِلقَاءِ رَبِّهِم كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. (١٠ ـ ١١).

فالمشركون باللَّه قالوا معترضين على البعث: ﴿وَقَالُوا: أَئِذَا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ﴾ أي إذا هلكت أجسادنا في الأرض وتحللت وصارت تراباً مخلوطاً بتراب الأرض وغابت فيه ولم تتميز عنه ﴿أَئِنَّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ﴾ أي أَنُبْعَثُ أحياءً بعد الموت، والاستفهام لإنكار البعث ﴿بلْ[٢] هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِم كَافِرُونَ﴾ انتقال من جحودهم للبعث إلى بيان جحودهم للقاء اللَّه، لأن

(١) ومن جهة أخرى فإن بدء تخلق السمع في الجنين يبدأ من الأسبوع الثالث من الحمل، أما العينان فيبدأ تخلقهما في الأسبوع الرابع من الحمل... ومن الوجهة الوظيفية فإن حاسة السمع أهم من حاسة البصر في تنمية القدرات العقلية والشعورية عند الطفل، فمن الأسباب الرئيسية للتخلف العقلي ـ ٣٠٪ بحسب الإحصاءات ـ تعطل آلة السمع عند المولود. (عن كتاب: من علم الطب القرآني للدكتور عدنان الشريف).

(٢) بل: تفيد الانتقال من معنى إلى آخر وتسمى إضراباً انتقالياً.

لقاءهم للّه يستوجب محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وهم يريدون التهرب وإبعاد هذه الفكرة من أذهانهم ليتمادوا في غيهم وضلالهم ﴿قُلْ يَتَوفَّاكُمْ مَلَكُ الموْتِ الذي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين باللّه بأن ملك الموت الذي فوّضه اللّه ووكّله بكم هو الذي يميتكم بقبض أرواحكم عند استيفاء آجالكم ومعه أعوان من الملائكة ﴿ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى ربكم يوم القيامة تُرَدُّون أحياء فيجازي منكم المحسن على إحسانه والمسيء عن إساءته.

فالقرآن ينبه الإنسان إلى الموت الذي ينتظره على يد ملك الموت حيث ترجع الأرواح إلى خالقها، فليست الدنيا نهاية المطاف بل هناك بعث وجزاء، هذه الحقيقة إذا وعاها الإنسان دفعته إلى تغيير سلوكه نحو الأحسن والأفضل والكف عن كل ظلم أو إجرام يزاوله خوفاً من العقاب الإلٓهي بعد الممات.

وبعد تقرير هذه الحقيقة التي يغفل عنها الكثير من الناس يلفت القرآن الأنظار إلى مصير المجرمين في الآخرة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المجْرِمُونَ نَاكِسوا رُؤُوسهم عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إنَّا مُوقِنُونَ. وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. فَذُوقوا بِمَا نَسِيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (١٢ ـ ١٤).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِم عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لو: حرف يفيد هنا معنيان إما التمني بمعنى: وليتك ترى يا محمد هؤلاء المجرمين في موقف الحساب بين يدي ربهم على تلك الحالة المزرية

من الخزي والغم لَشَمِتَّ بهم، والتمني لرسول اللّه أن يراهم على تلك الحالة المزرية لأنه لاقى منهم صنوف الأذى والاضطهاد. وقد يكون حرف «لو» للامتناع حذف جوابه وتقديره: لرأيت أمراً عظيماً. والمعنى: لو أُتيح لك أن ترى المجرمين في موقف الحساب أمام ربهم لرأيت أمراً عظيماً، إذ المجرمون مطأطئو رؤوسهم من الندم وحياءً من ربهم بسبب معاصيهم التي اقترفوها في دنياهم ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ إنهم يقولون: ربنا أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا ﴿فارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ فارددنا يا رب إلى الدنيا لنعمل فيها بطاعتك ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي إننا نعلم علماً لا شك فيه ما كنا جاهلين به من وحدانيتك، وأنه لا يصح أن يُعبد سواك وأنك تحيي الموتى بعد فناء أجسادهم، وأنك تحاسبهم وتجازيهم على ما اقترفوا في دنياهم من المعاصي، وهذا اعتراف منهم بذنبهم ولكن بعد فوات الأوان.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ أي لو شاء اللّه لأعطى كل نفس رشدها ووفَّقها للإيمان به فهدى الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد، ولكن إرادة اللّه اقتضت أن يكون لهذا المخلوق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها التمييز بين الهدى والضلال ويختار أحدهما، ويؤدي دوره في هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التي خلقه اللّه عليها لحكمة يريدها سبحانه: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ولكن وجب العذاب من اللّه لأهل الضلال ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي ليملأن اللّه جهنم من إبليس وأتباعه من الجن والناس جميعاً لعلمه سبحانه أن أكثرهم سيختارون الضلال على الهدى وأنهم سيكونون من أهل الشقاوة.

هذه هي الحقيقة التي نراها واضحة عند أكثر الناس في بقاع الأرض فنراهم قد حادوا عن سبيل اللّه وانغمسوا في الشرور والآثام وأعرضوا عن

عبادة ربهم الواحد الأحد وعبدوا آلـهة غير اللَّه، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللَّه، وجعلوا أموالهم وأهواءهم معبـودات لهم غير مكتـرثين لوصايا ربهم، ولهذا ضلوا وسلكوا طريق الشيطان واستحقوا عذاب اللَّه في الآخرة.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا﴾ أي يقال لهؤلاء المشركين باللَّه المنكرين للبعث على سبيل التقريع والتوبيخ لهم عند دخولهم النـار: ذوقوا عذاب اللَّه بما نسيتم لقاء هذا اليوم الذي لم تستعدوا له بالعمل الصالح ﴿إِنّا نَسينَـاكُمْ﴾ أي إنا تـركناكم اليـوم في العذاب تـرك المنسي ـ واللَّه لا ينسى أحداً ـ يعاملون معاملة المهملين المنسيين ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ هنا تكرار لما سبق للتأكيـد على عذابهم وأنـه عذاب دائم خـالد بسبب ما عملوه في الدنيا من المعاصي والآثام.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا
كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ

شرح المفردات

خَرُّوا سُجَّداً : سجدوا للّه والسجود وضع الجبهة على الأرض.

سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهم : نزهوا اللّه عن النقائص وقدسوه متلبسين بحمده.

تتجافى : ترتفع وتبتعد.

جُنُوبُهم : جمع جنب وهو شق الإنسان وناحيته التي ينام عليها.

المَضَاجِعِ : الفُرُش.

يَدْعُونَ رَبَّهم : يعبدون ربهم.

مِنْ قُرَّةِ أعين : من موجبات المسرة والفرح.

نُزُلاً : النزل ما يُهيَّأ للضيف وفيه يأكل وينام.

العَذَابِ الأدنى : عذاب الدنيا.

دون العذاب الأكبر : غير عذاب الآخرة في النار.

مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ
هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ
وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ
ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢٦﴾
أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ
أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

في مِرْيَةٍ : في شك وتردد.

يَهْدُون بِأَمْرِنَا : يدعون الناس إلى الهدى بأمر الله.

يُوقنون : يعلمون علماً لا شك فيه.

الأرض الجُرُز : الأرض اليابسة التي لا نبات فيها.

الفَتْح : النصر.

يُنْظَرون : يمهلون ويؤخرون لتوبة وعمل صالح.

تابع سُورَة السَّجْدَة

وفي هذا الجو القاتم من عذاب المجرمين ينقلنا القرآن إلى الحديث عن المؤمنين وما كانوا يقومون به من عبادة للّه في الدنيا وإحسان يؤهلهم إلى ثواب اللّه ورضوانه:

﴿إنَّما يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِم وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ. تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥ - ١٧).

فاللّه سبحانه يقول: إنما يُصدِّق بآيات القرآن وينتفع بها المؤمنون الذين إذا وُعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ سجدوا للّه تذلُّلاً له واستكانة لعظمته وإقراراً له بالعبودية. والسجود هو ملاصقة جبهة الإنسان بالأرض وهو منتهى الخضوع للّه وهو غير جائز لغيره سبحانه. ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ونزَّهوا اللّه عن النقائص وبرأوه مما يصفه به أهل الكفر وينسبون إليه من الزوجة والولد والشركاء، وأثنوا عليه حامدين له على نعمه ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهم لا يستكبرون عن عبادته وعن السجود له.

وفي القرآن كثير من الآيات فيها الحث على السجود للّه أو فيها الثناء على عباد اللّه المتقين الأبرار الذين من صفاتهم كثرة السجود للّه، وإن من واجبات المؤمن الذي خالط الإيمان شعاب قلبه واستشعر عظمة اللّه أن ينفعل ويخشع إذا أُمِرَ بالسجود للّه فيخر على الفور ساجداً للّه مسبّحاً بحمده، ولهذا كان من الأمور المستحبة في الإسلام أن من قرأ آية في القرآن فيها سجود للّه أو سمعها يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ثم يكبر للرفع

وهذا ما يُسمى سجود التلاوة(١).

ومواضع السجود في القرآن خمسة عشر موضعاً منها الآية التي مرَّ ذِكرها وهي من عزائم سجود القرآن.

ولا ريب أن السجود للَّه هو أعلى مراتب العبودية له، وفي السجود تعلو منزلة الإنسان عند اللَّه ويكون في ذلك من المقربين له، وقد جاء في القرآن: ﴿وَاسْجُد وَاقْتَرِب﴾ وروي عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد(٢) من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»(٣).

ويتابع اللَّه وصف الأبرار: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ﴾ أي تتباعد وتتنحى جنوبهم عن مواضع الاضطجاع، والجنوب: جمع جنب وهو شق الإنسان وغيره وهو ما تحت الإبط إلى الكشح(٤). والمراد بذلك التباعد عن المضاجع هو هجرهم النوم وقيامهم آناء الليل وأوقاته للتهجد والعبادة وصلاة النوافل في وقت منام الناس المعروف، ويشمل ذلك صلاة النوافل بعد صلاة المغرب وانتظار صلاة العشاء حتى يصليها قبل أن ينام ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ يعبدون ربهم ويصلّون له خوفاً من عذابه وطمعاً في ثوابه.

---

(١) لاَ تَشَهُّد في سجود التلاوة ولا تسليم كما يُفعل في الصلاة هذا عند الأئمة الحنفية والمالكية أما عند الشافعية والحنابلة فيسلم التسليمة الأولى.

(٢) العبد: المراد به الإنسان بالنسبة إلى عبوديته للَّه وليس المراد به العبد الرقيق الذي هو خلاف الحر.

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(٤) الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «ألا أَدُلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة[١]، والصدقة تُكفِّر الخطيئة، وقيام الرجل (أي للعبادة) في جوف الليل ثم قرأ رسول اللّه قول اللّه تعالى: ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ . . . إلى قوله: يعملون﴾[٢].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ ومن صفات المؤمنين الأبرار إنفاقهم المال الذي رزقهم اللّه به في وجوه الخير صدقة وزكاة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ فلا تعلم نفس مقدار ما أعدّه اللّه وأخفاه لهؤلاء من النعيم العظيم مما تسرّ به قلوبهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثواباً لهم بما كانوا يعملون من طاعة اللّه والأعمال الصالحة.

وقد رُوي عن رسول اللّه ﷺ قوله: «قال اللّه: أعددت لعبادي الصالحين مَا لَا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ[٣]، واقرأوا إن شئتم قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى المقارنة بين المؤمنين الطائعين للّه وبين المذنبين الخارجين عن طاعة اللّه مبيّناً مصير كل منهما في الآخرة:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوونَ. أَمَّا الَّذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا

---

(١) الصوم جُنَّة: أي الصوم وقاية من الشهوات.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الذي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٨ - ٢٠).

فاللَّه سبحانه يقول: أفمن كان مؤمناً باللَّه مصدّقاً بوعده ووعيده مطيعاً له في أمره ونهيه ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾ كمن كان كافراً مكذباً بوعد اللَّه ووعيده خارجاً عن طاعة ربه ﴿لَا يَسْتَوون﴾ أي لا يتماثلون عند اللَّه في الجزاء والثواب والعقاب ﴿أَمَّا الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أما الذين صدقوا بوحدانية اللَّه وبرسوله محمد وعملوا بما أمرهم اللَّه به من صالح الأعمال ﴿فَلَهُم جَنَّاتُ المأوى﴾ فلهم الجنات التي فيها المساكن التي يأوون إليها، والمأوى كلمة تدل على الراحة والاستقرار، وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل زائل مرتحل عنه لا محالة ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والنُّزُل ما يعدُّ للضيف من طعام وغيره، أي ثواباً معدًّا لإكرامهم بما قدموه من صالح الأعمال ﴿وَأَمَّا الَّذِين فَسَقُوا[١] فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وأما الذين خرجوا عن طاعة اللَّه فمنزلهم في النار ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي كلما أرادوا الخروج من النار رُدّوا إليها مرغمين مكرهين ﴿وَقِيل لَهُمْ ذُوقوا[٢] عَذَابَ النَّار الَّذي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المؤلم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزءون منه وتنكرونه.

ويتابع اللَّه تهديده للفاسقين الموغلين في الكفر والضلال:

---

(١) فسقوا: الفسق هو الإفحاش في الخروج عن طاعة اللَّه واستعمل الفسق بمعنى الكفر والضلال. والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كان كثيراً.

(٢) ذوقوا: ذاق الشيء أدرك طعمه في فمه ويستعمل لغة في الإحساس العام الذي تشترك فيه جميع قوى الحس.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العَذَابِ الأَدْنى دُونَ العَذَابِ الأكْبَرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ المجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٢١ - ٢٢).

فاللَّه ينذر العصاة الخارجين عن طاعته بأنه سيذيقهم ﴿العَذَاب الأَدْنى﴾ من مصائب الدنيا وأسقامها وبلائها ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ أي قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي قبل عذاب يوم القيامة، ولقد عذب اللَّه المشركين بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال فأوفى لهم بما وعدهم به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وُعِظ بحجج اللَّه وآيات القرآن ﴿ثم أعْرَضَ عَنْهَا﴾ ثم أعرض عن ذلك كله فلم يتعظ بمواعظ اللَّه ولكنه استكبر عنها فهو أظلم من كل ظالم لأنه رأى الحق فلم يتبعه ﴿إِنَّا مِنَ المجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ إن اللَّه يعاقب الذين اكتسبوا السيئات واجترحوا الآثام.

فآيات القرآن تدعو إلى الخير المطلق وتنهى عن كافة أنواع الشرور وتأمر بالعدالة الكاملة، فالإعراض عن هذا الهدى الربّاني هو إجرام في حق الإنسان والجماعة والإنسانية، واللَّه لن يترك المجرم بلا عقاب.

ثم يتحدث القرآن عن نبوة موسى الذي أنزل اللَّه عليه التوراة وإلى اصطفاء اللَّه للصابرين من قومه الموقنين بآيات اللَّه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فلا تَكُن في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَني إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ. إنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٣ - ٢٥).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة كما أعطيناك يا محمد القرآن ﴿فَلَا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ فلا تكن في شك من أنك لقيت موسى ليلة أسري بك إلى بيت المقدس، كما رأيت غيره من الأنبياء، كما قد رآه أيضاً ليلة المعراج عندما صعد إلى السماء وقيل بمعنى: فلا تكن يا محمد في شك من تلقيك القرآن كما تلقى موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي جعلنا التوراة هداية لبني إسرائيل من الضلالة. وقيل إن الضمير في جعلناه راجع إلى موسى، أي وجعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ وجعلنا من بني إسرائيل أئمة في الدين، وقادة في الخير يُقتدى بهم ويُهتدى بهديهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدعون الخلق إلى ديننا وطاعتنا بأمرنا وتكليفنا لهم بذلك ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ لصبرهم على مصائب الدنيا وعزوفهم عن شهواتها ولذاتها، واجتهادهم في طاعتنا والتزامهم العمل بالتوراة ومقاساة الشدائد في نصرة الدين ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وكانوا يصدِّقون بآيات اللَّه المنزلة على رسله ويعلمون بأنها حق لا ريب فيها، لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم بها.

فالصبر على طاعة اللَّه والعزوف عن الدنيا وملاذها في سبيل اللَّه ومقاساة الشدائد في نصرة الدين، والعمل بشريعة اللَّه وأحكامها مع اليقين بها يؤهل المتصف بذلك إلى أرفع الرتب الدنيوية وهي الإمامة في الدين التي تلي رتبة النبوة، هذه الإمامة التي يكون صاحبها مؤيداً بتوفيق اللَّه مقرّباً منه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين الأنبياء وأممهم يوم القيامة ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين فيفرق بينهم بقضاء فاصل فيدخل أهل الحق الجنة، وأهل الباطل النار.

ثم ينتقل القرآن إلى تهديد المشركين مبيناً مصير الذين كانوا على شاكلتهم من الأمم السابقة مع بيان قدرة اللّه على البعث:

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الْقُرُونِ[1] يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ. أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الماءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُم أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٦ ـ ٢٧).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي أغفلوا ولم يتبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ﴾ كثرة إهلاكنا القرون الخالية من قبلهم كقوم عاد وثمود وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِم﴾ أي يمر المشركون من العرب على ديار هؤلاء الأمم البائدة في رحلاتهم التجارية ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي أفلا يسمعون عظات اللّه سماع تدبر واتعاظ.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ أَعَمُوا ولم يروا أن اللّه بقدرته يدفع السحب التي تجود بالمطر ﴿إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ﴾ إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ فيخرج اللّه بذلك المطر الذي يسوقه إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها زرعاً أخضر تأكل منه مواشيهم وتتغذى به أبدانهم ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أفلا يرون ذلك بأعينهم فيعلموا أن القدرة الإلّهية التي فعلت ذلك لا يتعذر عليها إحياء الموتى يوم القيامة للحساب والمجازاة.

---

(١) القرون: جمع قرن والقرن من الناس أهل زمان واحد.

ثم يختم اللّٰه هذه السورة مبيناً استعجال الكفار لوقوع العذاب بهم استبعاداً وتكذيباً مع تطمين المؤمنين بالنصر على أعدائهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَع الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُم وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِر إِنَّهُم مُنْتَظِرُون﴾ (٢٨ ـ ٣٠).

فالمسلمون كانوا يقولون إن اللّٰه سيفتح لنا على المشركين ويفصل بيننا وبينهم، وكان المشركون يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي متى تنصرون علينا، أو متى يفصل اللّٰه بالحكم بيننا وبينكم ﴿إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ في دعواكم من أننا معاقبون على تكذيبنا محمداً وعبادتنا للآلهة والأوثان ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِين كَفَرُوا إيمانُهُم﴾ فيوم الفتح وهو يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم حيث لا ينفع الكفار تصديقهم باللّٰه ورسوله محمد واستعدادهم للعمل الصالح، فالإيمان مكانه في الدنيا قبل الممات، وقد يراد بيوم الفتح يوم معركة بدر التي قتل فيها سبعون من كفار قريش، فهؤلاء الذين قتلوا لا ينفعهم إيمانهم في حال إشرافهم على الموت كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إشرافه على الغرق ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا هم يمهلون ويؤخرون في العذاب ﴿فَأَعْرِض عَنْهُم﴾ فأعرض يا محمد عن ضلالهم وتكذيبهم ولا تجبهم إلّا بما أُمرت به ﴿وَانْتَظِرْ﴾ أي انتظر صدق ما وعدك ربك فيهم من النصر عليهم ﴿إِنَّهُم مُنْتَظِرُونَ﴾ إن الكفار منتظرون الغلبة عليكم أيها المسلمون، أو إنهم منتظرون ما تعدهم به يا محمد من العذاب، أو منتظرون يا محمد حادث موت أو قتل يصيبك.

وقد تحقق انتظار النبي بالنصر وخاب انتظار الكفار بدحر المؤمنين.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر بن جرير الطبري .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

التفسير الكبير للفخر الرازي .

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .

فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .

تفسير الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري .

تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي .

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .

في ظلال القرآن لسيِّد قطب .

حديث رمضان للشيخ محمد مصطفى المراغي ـ دار الهلال بمصر .

المفردات في غريب القرآن للأصبهاني .

معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة .

القرآن ـ محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود ـ دار الشروق .

الله والكون للدكتور محمد جمال الدين الفندي .

كُتُب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي.
- روح الدين الإسلامي (باللغة الإنكليزية).
- مع الأنبياء في القرآن الكريم.
- روح الصلاة في الإسلام.
- الخطايا في نظر الإسلام.
- اليهود في القرآن.
- الحكمة النبوية.
- تفسير جزء عم.
- تفسير جزء تبارك.
- تفسير جزء قد سمع.
- تفسير جزء والذاريات.
- تفسير جزء الأحقاف.
- تفسير جزء الشورى.
- تفسير جزء الزمر.
- تفسير جزء يٓس.
- تفسير جزء الأحزاب.
- تفسير ربع يٓس (مجلدان).

روح القرآن الكريم

تفسير جزء الأحزاب

وفيه سُوَر : الأحزاب - سَبأ - فاطر

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذَا التَّفْسِيرُ

• يعَرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرِض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجـزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السـورة. وهذا الجزء الثاني والعشرون يبتدىء بالآيـة ٣١ من سورة الأحـزاب وينتهي بـالآيـة ٢٧ من سـورة يسٓ. ولمـا كنـا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا فسّرنا سورة الأحزاب كاملة وتركنا تفسيـر سورة يسٓ بكاملها للجزء الثالث والعشرين وسمينا هذا الجزء «جـزء الأحزاب» تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العـرف بها لاحقـاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم «جزء عم» و «جزء تبارك» إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها. ونحن ارتأينا تسمية هذا الجزء باسم السورة التي يبتدىء بها هذا الجزء.

روح القرآن الكريم

تفسير

جزء الأحزاب

وفيه سُوَر : الأحزاب - سَبأ - فاطر

الجزء الثاني والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

آب (أغسطس) ١٩٨٩

سُورَةُ الأَحْزَابِ

هذه السورة تعالج كثيراً من القضايا، أبرزها: غزوة الأحزاب حيث اجتمع المشركون بأحزابهم وضربوا حصاراً على المدينة المنورة ليستأصلوا النبي ﷺ وصحبه من المؤمنين ولكن اللَّه رد كيدهم في نحورهم وهزم جموعهم بالريح والملائكة التي أرسلها فكانت معجزة ظاهرة لتأييد اللَّه لرسوله وللمؤمنين ومن أجل ذلك سميت هذه السورة بسورةالأحزاب.

وهذه السورة أبطلت التبني الذي كان شائعاً قبل الإسلام وأبطلت ما كان ينشأ عنه من أحكام كحرمة تزوج المتبنِّي بزوجة المتبنَّى. كما أبطلت الظهار وهو أن يقول للزوجة أنت عليَّ كظهر أمي فتحرم عليه حرمة أبدية.

وتبيِّن السورة الآداب التي يجب مراعاتها عند دخولهم بيوت النبي ﷺ لطعام وفي انصرافهم عقبه، وفي سؤالهم أزواجه عن بعض قضايا الدين وما يحتجن إليه وأن يسألنهن من وراء حجاب. كما طالبت أزواج النبي ﷺ والمؤمنات بأن يسدلن عليهن من اللباس ما يستر أجسادهن ولا يتبرجن ويظهرن محاسنهن للرجال لئلا يؤذين من أصحاب السوء.

وتدعو السورة إلى الإكثار من ذكر اللَّه وتبين ثوابه العظيم، كما تتحدث عن المنافقين والمشيعين للأخبار الكاذبة وتنذرهم بسوء المصير.

وتذكر السورة أهوال يوم القيامة وتنصح بالتقوى والقول السديد، وتختتم بالحديث عن الأمانة التي حملها الإنسان ولم تطق حملها السموات والأرض والجبال.

سُورَةُ الأَحْزَاب

مدنية وآياتها ٧٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ
لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ
أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ
وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ
أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ

شرح المفردات

توكل على اللّه : اعتمد عليه وفوّض أمرك إليه.

وكفى باللّه وكيلاً: أي اكتفِ به أن يتولى أمرك...

تظاهرون : الظِّهار أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أُمي، أي أنها محرمة عليه.

أدعياءكم : جمع دَعيّ وهو الولد المتبَنّى الذي يُدعى لغير أبيه.

يهدي السبيل : يهدي إلى طريق الحق.

أقسط : أعدل.

مواليكم : مولى المرء من له به صلة لصداقة أو قرابة.

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ
أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ
ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ
وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

شَرح المفـردَات

جُناح : إثم .

أوْلى: أحق وأجدر وأرأف .

أولو الأرحام : ذوو القرابات من النسب .

مسطوراً : مكتوباً .

ميثاقاً غليظاً: عهداً مؤكداً على الوفاء به .

أعدّ : هيأ .

سُورَةُ الأحْزابُ

ايضـــاح و دروس

تبتدىء هذه السورة بدعوة النبي ﷺ إلى تقوى اللّه وعدم طاعة الكافرين والمنافقين:

﴿يا أيُّهَا النَّبِيُّ آتَّقِ اللَّهَ ولا تُطِعِ الْكَافِرينَ وَالمنَافِقينَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمـاً. واتَّبِعْ مَـا يُوحَى إلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ إنَّ اللَّهَ كَـانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيـراً. وَتوكَّل عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّه وَكِيلاً﴾ (١ ـ ٣).

فاللّه سبحانه ينادي محمداً بصفة النبوة لا باسمه إجلالاً لـه وتعظيمـاً، ويأمره سبحانه بتقواه. والمراد بذلك الثبات على التقوى والاستمرار عليها، أو المراد بذلك دعوة أمة محمد للتقوى من باب تنبيه الأعلى ليستقيم الأدنى، فإن النبي إذا كان مأموراً بالتقوى كان من دونه مأموراً بها بطريق أولى، وتقوى اللّه هي العمل بطاعته رجـاء ثوابـه وترك معصيتـه مخافـة عذابـه ﴿وَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَالمُنَـافِقِينَ﴾ أي لا تستجب لقولهم ولا تستشرهم ولا تُجَارِهم في معتقداتهم ﴿إنَّ اللّه كَانَ عَليماً حكيماً﴾ إن اللّه عليم بكفـرهم، حكيم بما يأمرهم به وينهاهم عنه. ﴿واتَّبِعْ مَـا يُوحَى إلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ واتبـاع الوحي هو العمل به وعدم مخالفته، وإضافة النبي إلى اللّه سبحانه ﴿رَبِّكَ﴾ للإشعار بفضل اللّه عليه في اختياره للنبوة ﴿إنَّ اللّه كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾ إن اللّه بما تعمل أيها النبي وأصحابك وأمور عباده خبير لا تخفى عليه خافية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ واعتمد على اللّه وفوّض أمرك إليه ﴿وَكَفَى بـاللّه وَكِيلاً﴾ وكفى باللّه حافظاً يحفظ من توكل عليه.

ثم ينتقل القرآن إلى إبـطال بعض التشريعـات التي كانت سـائدة عنـد العرب:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَولُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُم فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُم وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٤ ـ ٥).

فاللَّه سبحانه يقول بأنه لم يخلق لأحد من الناس قلبين في صدره[١]، وهذه حقيقة لا يماري فيها أحد، كما أن هناك حقيقة أخرى وهي: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُم﴾ أي وما جعل زوجة أحدكم حين يقول لها: «أنتِ عليَّ كظهر أمي» أُمًّا له. والظِّهار نوع من الطلاق كان سائداً في الجاهلية قبل الإسلام ومؤداه هو أن يحلف الرجل عند خصامه امرأته أنها عليه كظهر أمه، فإذا فعل حرم عليه الاتصال بها جنسيًّا ثم تبقى معلقة فلا هي مطلقة فتتزوج غيره ولا هي زوجة فعلية فتحل له.وكان في هذا الظِّهار من القسوة ما فيه على المرأة، فلما أخذ الإسلام يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية في محيط الأسرة رفع هذا الخسف وأثبت أن قول الرجل لامرأته أنتِ عليّ كظهر أُمي لا يغير الحقيقة الثابتة وهي أن الأم غير الزوجة، وأن القول باللسان لا يغير الحقيقة المطلقة، وهذا من عدالة التشريع الإسلامي الذي جعل حرمة الظهار مؤقتة حتى يؤدي كفارة.

ثم ينتقل القرآن إلى مسألة التبني ودعوة الأبناء إلى غير آبائهم، والتبني معروف عند مختلف الشعوب منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم، وكان العرب يلجأون إليه لزيادة قوة القبيلة، وكان المتعارف عليه عندهم أن الولد المتبنَّى

(١) قيل إن هذه الآية نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد.

يدخل في عائلة المتبنِّي، ويستفيد من حقوق، كثيراً ما كانت مماثلة لحقوق الولد الشرعي، وهذا ما يحصل الآن في الشرائع الوضعية، وكان العرب يعاملون الذين تبنوهم معاملة الأبناء من كل وجه كالخلوة بالمحارم(١) والميراث وغير ذلك. وكان أكثر ما يقع التبنّي في الحروب حين يؤخذ الأطفال والفتيان في السبي، فمن شاء من المحاربين أو من غيرهم أن يُلحِق بنسبه واحداً من هؤلاء ويدعوه ابنه فعل ذلك وأطلق عليه اسمه وتصبح له بذلك حقوق البنوة وما يترتب عليها. ومن هؤلاء زيد بن حارثة الكلبي وهو من قبيلة عربية سُبي صغيراً في غارة أيام الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام ووهبه لعمته خديجة، فلما تزوج رسول اللَّه خديجة وهبت له زيداً ثم طلبه أبوه وعمه، فخيّره رسول اللَّه بين بقائه عنده أو الرجوع إلى أهله، فاختار زيد رسول اللَّه الذي أعتقه وتبناه، وكان العرب يقولون عنه زيد بن محمد.

ولما نزلت الآيات التي تبطل حكم التبني أبطلت بالتالي ما يتوجب عليه من حقوق، فلا يجوز للمتبنَّى الخلوة بمحارم متبنِّيه ولا يحرم عليه الزواج منهن، ولا هو يرث الذين تبنوه ولا هم يرثونه إلى غير ذلك من حقوق البنوة الحقيقة، ورد الإسلام علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية فقال:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُم(٢) أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي وما جعل الأولاد الذين تتبنونهم أبناء لكم يأخذون حكم الأبناء من النسب ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي أن اعتبارهم أبناء لكم هو قول يصدر من أفواهكم ولا حقيقة شرعية له ولا حكم يترتب عليه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ واللَّه يقول القول الثابت المحقق وهو يرشد إلى طريق الحق ﴿ أُدْعُوهُمْ لآبَائِهِم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

---

(١) محارم الرجل هن النساء اللاتي يحرم عليه الزواج بهن مثل الأخت والعمة والخالة.

(١) أدعياءكم: جمع دعيّ وهو الذي يَدّعي ابناً لغير أبيه.

والقسط هو العدل، أي أنه أعدل عند اللّه أن يدعى الولد لأبيه الحقيقي وقد روي عن رسول اللّه قوله: «ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلّا كفر»(١).

والخصائص الوراثية ثابتة علمية، فالولد يحمل خصائص والديه وأجداده وطبائعهم، فإدخال ابن غريب يختلف بموروثاته على عائلة ما، وإلحاقه بها نسباً هو مخالف لواقع الحياة وسننها وتزوير لهذا الواقع. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المتبنًّى عند بعض الطوائف من غير المسلمين يرث من الذي تبناه، هذا الإرث هو تَعَدٍّ على حقوق أقرباء المتبنِّي وحرمانهم من نصيبهم من الميراث الذين هم أحق به من سواهم(٢).

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين بأن كانوا لقطاء أو غير ذلك ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فادعوهم بالأخوة الدينية ﴿ومواليكم﴾ جمع مولى، والمولى للمرء من له به صلة لصداقة أو قرابة. ويطلق على المتبنًّى الذي لا يعلم له أبٌ اسم مولى للمؤمنين لعلاقة الدين التي هي كعلاقة القرابة. فالإسلام يضفي على مجهولي الأب صفة الاحترام ليرفع من إنسانيتهم ولم يجعلهم منبوذين بسبب الوضع الاجتماعي الذي جار عليهم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي وليس عليكم إثم فيما صدر

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) وناحية جديرة بالاهتمام فإن التبني عند بعض الطوائف الدينية من غير المسلمين يرون أن يكون عمر المتبنِّي أربعين سنة وأن يكون بين المتبنِّي والمتبنَّى فرق في السن قدره ١٨ سنة على الأقل، ولنفرض أن الزوجة تصغر زوجها بعشر سنوات أو أكثر ووجود المتبنًّى مع الزوجة في بيت واحد يطلع فيه على زينتها يكون باعثاً على اضطرام الشهوة بين الزوجة وبين المتبنًّى مما يهدد بعلاقة غرامية تقضي على الأسرة وبالأخص فهذا الابن بالتبني ليس كالابن الصلب فهو لم يرضع منها ولم يتربَّ في حجرها مما يولد عاطفة البنوة الحقيقية التي هي بعيدة عن العلاقات الجنسية.

منكم من خطأ قبل تحريم التبني ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم فيما تقصده قلوبكم عمداً من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يغفر للمخطىء ويرحمه ويتجاوز عنه.

ثم يبين القرآن منزلة محمد ﷺ وأزواجه بالنسبة للمؤمنين مع نسخ نظام المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين وما نشأ عنه من التزامات:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ المؤمِنِينَ وَالمهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَولِيَائِكُم مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطوراً﴾ (٦).

لقد علم اللّه تعالى شفقة رسوله محمد ﷺ على أمته ونُصْحه لهم فجعله أحق بهم من أنفسهم، يحكم فيهم بما يشاء من الحق في كل أمر من أُمور الدين والدنيا لأنه لا يأمرهم إلّا بما فيه صلاحهم. وقد قال الرسول ﷺ: «ما من مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمؤمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته[١] من كانوا وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً[٢] فليأتني فأنا مولاه[٣]»[٤].

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم﴾ أي أن لنساء النبي ﷺ على كل مؤمن مثل ما لأمّه عليه من التوقير والتعظيم والإكرام ومن الحرمة والاحترام، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له أن يتزوج بأمه، ولكن لا يسري هذا التحريم إلى بناتهن وأخواتهن.

---

(١) عصبته: بنوه وأقرباؤه الذين يرثونه.
(٢) ضياعاً: الضائع هو الفقير ذو العيال.
(٣) مولاه: أتولى أمره وأقوم بكفالته.
(٤) أخرجه البخاري.

ثم ينسخ القرآن أحكام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وما كان ينشأ عنها من أحكام كالميراث وغير ذلك. وأسباب هذه المؤاخاة هو أنه لما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة المنورة هرباً من اضطهاد قريش تاركين وراءهم كل ما يملكونه من مال وعتاد، حلّوا ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة الذين استقبلوهم بترحاب شديد، عندئذٍ آخى رسول الله ﷺ بين رجال من المهاجرين ورجال من الأنصار، وقام هذا التآخي مقام أخوة النسب فكان يشمل التوارث والتكافل في الديات.

ولما استقرت الأمور في المدينة المنورة وتوفر الرزق للمسلمين بعد الغنائم التي غنموها نسخ القرآن هذه الأحكام وردّ الإرث إلى قرابة النسب، فقال سبحانه: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ أي أن ذوي القرابات أحق بالإرث من المهاجرين والأنصار ﴿في كِتابِ اللَّهِ﴾ في القرآن الذي بَيَّن فيه المواريث ﴿إلَّا أَن تَفْعلُوا إلَى أَوْلِيَائِكُم مَعْرُوفاً﴾ أي يجوز أن تقدموا معروفاً إلى من واليتم وآخيتم في الدين من غير الأقارب فتعطوه أو توصوا له بجزء من أموالكم ﴿كَانَ ذَلِكَ في الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك التوارث بين الأقارب في اللوح المحفوظ أو في القرآن مكتوباً.

ثم يبيِّن اللَّه ما أخذه على النبيين من العهود لتبليغ رسالته إلى البشر:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً. لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلكَافِرِينَ عَذَاباً أليماً﴾ (٧ ـ ٨).

أي واذكر يا محمد حين أخذنا من النبيين العهد المؤكد على أن يعبدوا اللَّه ويقيموا دينه ويبلغوا رسالته، ويصدق بعضهم بعضاً ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبراهيمَ وَمُوسَى وَعيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾ وتخصيص هؤلاء بالذكر مع أنهم

مندرجون في جملة الأنبياء للإيذان بمزيد فضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع الإلّهية وأُولي العزم من الرسل، وتقديم محمد عليهم لإبانة منزلته العظيمة ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ أي أخذنا على هؤلاء الأنبياء عهداً عظيم الشأن كبيراً على الوفاء بما حملهم اللَّه به من الوحي ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي ليسأل اللَّه الأنبياء يوم القيامة الذين صدقوا عهدهم مع اللَّه عما قالوا لقومهم، وعما كان من أُممهم معهم تصديقاً وتكذيباً، والسؤال هو تبكيت لأقوام الرسل الذين كذبوهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أليماً﴾ والعذاب الأليم الذي هيأه اللَّه للكافرين هو عذاب جهنم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم
مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ
ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ
يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا

شرح المفردات

زاغت الأبصار : مالت عن سننها حيرة ودهشة.

الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم.

ابتُلِي : اختُبِرَ وامتُحِن.

زُلْزِلوا زِلزالاً شديداً : أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة.

غُروراً : خداعاً.

يثرب : من أسماء المدينة المنورة قديماً.

لا مُقَامَ لَكُم : لا إقامة لكم هنا.

بيوتنا عَوْرَة : غير حصينة يخشى عليها من اللصوص.

أَقْطَارِهَا : جمع قُطر وهو الناحية والجانب.

سُئِلوا الفتنة : طلب منهم الارتداد عن الدين.

لأتوْهَا: لفعلوها.

تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم
مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم
مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ
لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ
فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ
عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ

شَرح المفردات

تلبَّثوا : تأخروا وأبطأوا.

يُولّون الأدبار : يفرون من القتال.

يَعْصِمكم : يمنعكم ويجيركم.

المعوِّقين : المثبطين للعزائم، يقال عاقه : صرفه عن الوجه الذي يريد. .

البأس : القتال.

أَشِحَّة : جمع شحيح وهو البخيل الحريص على المال.

يُغْشَى عَلَيْه مِنَ الموت : وهو الذي ينزل به الموت وتغشاه سكراته فيذهل ويشخص بصره.

سلقوكم : آذوكم بكلام تكرهونه.

بألسِنَةٍ حِدَاد : بألسنة طويلة قاطعة كالسيوف.

أَحْبَطَ : أبطل.

يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ
فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ وَلَمَّا
رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسْلِيمٗا ٢٢ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ
مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ
تَبْدِيلٗا ٢٣ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن
شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقٗا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضٗا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٖ قَدِيرٗا ٢٧

شرح المفردات

بادون : مقيمون في البادية.

الأعراب : جمع أعرابي وهو الذي يسكن البادية.

قضى نحبه : مات في سبيل الله.

ظاهروهم من أهل الكتاب : عاونوهم من اليهود (بنو قريظة).

صياصيهم : حصونهم، مفردها صيصية.

تَابع سُورَة الأحْزاب

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن غزوة الأحزاب وما كابد فيها المسلمون من ألوان البلاء وما رافق هذه الغزوة من تأييد رباني للمسلمين. وقبل أن نعرض الآيات القرآنية التي نزلت في تلك الغزوة يحسن بنا الكلام عنها وما رافقها من أحداث مثيرة:

كان الداعي إلى تلك الغزوة هو أن نفراً من أشراف اليهود الذين أجلاهم رسول اللَّه من المدينة المنورة إلى خيبر هالهم أن يستتب الأمر للمسلمين في المدينة المنورة ورأوا في ذلك خطراً على وجودهم ومصالحهم في جزيرة العرب، لهذا أخذوا يؤلبون قبائل العرب على حرب محمد وجماعته، فخرج هؤلاء اليهود واجتمعوا بأشراف قريش وحرضوهم على حرب النبي ﷺ ووعدوهم بأن ينصروهم ويعينوهم في حربهم فأجابتهم قريش على دعوتهم هذه، ثم قدم هؤلاء اليهود إلى قبيلة غطفان وحرضوهم على حرب المسلمين ورشوهم بمحصول تمر خيبر سنة وأخبروهم بما أجمعت عليه قريش من الرأي في حرب النبي ﷺ فاستجابوا لهم.

فخرجت قبيلة قريش إلى حرب الرسول وقائدها أبو سفيان وخرجت قبيلة غطفان وقائدها عيينة بن حصين وخرج معهما الحارث بن عوف ومعه قومه من بني مرة ومسعود بن رخيلة ومعه قومه من بني أشجع إلى حرب الرسول في جند يبلغ زهاء العشرة آلاف محارب.

ولما بلغ النبي ﷺ خروج هذا الجيش لمقاتلته دعا أصحابه للجهاد فكان عددهم ثلاثة آلاف محارب. وبينما كان المسلمون ينتظرون قدوم المشركين أشار سلمان الفارسي على النبي ﷺ أن يتقي المغيرين بحفر خندق على عادة قومه فقبل النبي هذه المشورة وأمر بحفره وساهم بنفسه في ذلك العمل فكان ينقل التراب حتى اغبرَّ بطنه وهو يرتجز بكلمات عبد اللَّه بن رواحة:

اللهم لـولا أنت مـا اهتـدينـا ولا تـصـدقنـا ولا صـلينـا
فـأنـزِلْـن سـكـينـة عـلينـا وثـبـت الأقـدام إن لاقـينـا
إن الأُلـى قـد بغـوا عـلينـا وإن أرادوا فـتـنـةً أبـينـا

وكان رسول اللَّه يرى المسلمين وهم يحفرون الخندق وينقلون التراب بجهد حثيث فكان يقول: اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة فاغفر للمهاجـرين والأنصار، وكان سلمان الفارسي يعمل عمل بضعة أشخاص مدفوعاً بشدة إيمانه فتنافس فيه المسلمـون فقال الأنصـار: سلمان منـا، وقال المهـاجرون: بـل هو منـا، فقـال النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

وجـاء المشركـون فنزلـوا شرقي المـدينة المنـورة قريبـاً من جبـل أحـد وفي أطرافها، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع والخندق يفصلهم عن المشركين.

وفي هذه الأثناء ذهب حيي بن أخـطب اليهودي إلى كعب بن أسـد القرظي سيـد قبيلة بني قريـظة من اليهود فمـا زال بـه حتى أغـراه على نقض عهـده مـع المسلمين والانضمام إلى القبائل المتحالفة لقتال المسلمين فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان عليه من العهد مع رسول اللَّه.

عند ذلك عظم البلاء على المسلمين وجاهر المنافقون بما تكنُّه صدورهم، فقال بعضهم: كان محمد يرى أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى **الغائط**.

وقف المشركون حيال الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه. وكان كبـار قادتهم يتنـاوبون عليـه ينـاوشـون المسلمين، ولم تكن الحـرب بينهم وبين المسلمين إلّا بواسطة الرمي بالنبال، كما جرت محاولات لاقتحام الخندق باءت بالفشل وقتل بسببها بعض المشركين.

وأتى رسول اللّه نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان فقال: يا رسول اللّه إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول اللّه: إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذّلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعة، وهكذا فعل ففرّق بين المشركين وبين اليهود.

وكان رسول اللّه في هذا البلاء يدعو اللّه.فمن دعائه: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا». «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، الله اهزمهم وزلزلهم».

وبينما الجيشان على تلك الحال والمسلمون في قلتهم مستسلمون لقبول ما قُدّر عليهم مع ترابطهم ترابطاً لا تفصم له عروة إذ هبت ريح عاصفة في ليالٍ شديدة البرد فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتقلع خيامهم، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر وقد أقاموا إزاء الخندق هذه المدة الطويلة التي تقارب الشهر ولم يجدوا وسيلة لاقتحامه فقرروا العدول عن الحرب وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال:

يا معشر قريش واللّه إنكم لستم بدار مقام وقد هلك الكراع[١] والخف[٢] وأخلفتنا[٣] بنو قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس: ارحلوا، ارحلوا، فجعلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ونجّى اللّه المؤمنين من هذا الخطر العظيم.

---

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٢) الخف: الإبل.
(٣) أخلفتنا: غدرت بنا.

فاللَّه سبحانه يتحدث عن هذه الغزوة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً. إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (٩ ـ ١١).

فاللَّه سبحانه ينادي المؤمنين بأن يذكروا نعمة اللَّه عليهم يوم غزوة الأحزاب، وذكر النعمة يقتضي شكرها ﴿إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ﴾ والمراد بالجنود الذين جاءوا لمحاربة المسلمين هم جموع قريش وغطفان ويهود بني قريظة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً وَجُنوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأرسل اللَّه على هذه الجموع من الكفار ريحاً عاصفة في ليال شديدة البرد. أما الجنود التي أمد اللَّه بها المؤمنين ولم يروها فهي الملائكة التي ألقت في قلوبهم الرعب ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ فالذين جاءوا المؤمنين من فوقهم هم جموع قريش وغطفان ومن شايعهم من القبائل، والذين جاءوا من أسفل منهم هم بنو قريظة من اليهود ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ أي مالت الأبصار عن سننها وانحرفت عن مستوى بصرها من شدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي استبد الخوف والفزع بالقلوب فانتقلت من مكانها إلى مكان الحناجر وهي نهاية الحلقوم وهذا التعبير مجازي يدل على منتهى اضطراب القلوب من عظم الفزع ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي الظنون المختلفة، ظن المنافقون أن المسلمين سينهزمون، وأيقن المؤمنون حقًّا أن وعد اللَّه حق وأنهم هم المنصورون ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا بالخوف والقتال والجوع والحصار، وفي هذا الامتحان تميز المؤمن الحق من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ وحركوا بالخوف

تحريكاً شديداً من شدة ما دهاهم حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم.

ثم تأتي الآيات التالية تصف نفسية المنافقين وهم تحت الحصار:

﴿وَإِذْ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالَّذِين في قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلَّا غُرُوراً. وَإِذْ قَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُم يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا، وَيَسْتَأذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُون إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُون إلَّا فِرَاراً﴾ (١٢ - ١٣).

فالمنافقون هم الذين يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر، أما الذين في قلوبهم مرض فهم ضعفاء العقيدة من المؤمنين، هؤلاء جميعاً يقولون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلَّا غُرُوراً﴾ أي ما وعدهم اللَّه ورسوله من النصر ليس حقاً إنما هو لون من ألوان الخداع في الوعد، أو هو باطل في القول ﴿وَإِذْ قَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا﴾ أي واذكر يا محمد إذ قالت جماعة من المنافقين: يا أهل يثرب لا بقاء لكم في مواجهة الكفار ففروا، أو لا بقاء لكم على الإسلام فعودوا إلى الشرك، ويثرب هي الاسم الذي كان يطلق على المدينة المنورة ﴿وَيَسْتَأذِنُ فَرِيقٌ مِنهم النَّبِي﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الانصراف متعللين بالأعذار ﴿ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ يريدون أنها غير حصينة وأنها معرضة لأن يهاجمها العدو وأن يسلب اللصوص ما فيها من أموالهم فلا مفر من الذهاب لتحصينها، ولكن اللَّه ينفي دعواهم هذه بأسلوب التوكيد بالباء الزائدة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرة﴾ ويبيِّن الباعث على ذلك ﴿إنْ يُريدونَ إلَّا فِراراً﴾ أي ما مقصدهم إلّا الهرب من القتال والفرار من الجهاد.

ويتابع القرآن فيصف وَهَنَ عقيدة المنافقين وتقاعسهم عن الجهاد:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إلَّا

يَسيراً. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُم مِنَ المَوتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً. قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُم مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُون لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً﴾ (١٤ - ١٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَو دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي لو دخل المشركون على هؤلاء المنافقين من جوانب المدينة ونواحيها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ والفتنة هنا تحتمل معنيين: إما قتال المسلمين، وإما الرجوع إلى الكفر، أي إذا طلب من هؤلاء المنافقين قتال المسلمين أو الرجوع إلى الكفر لفعلوا ذلك ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ أي ما أبطأوا وما تأخروا عمَّا طلب منهم بل أسرعوا إلى ذلك ﴿ولقد كانوا عاهدوا اللَّه من قبل لا يولُّون الأدبار﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل ألا يفروا من القتال[١] ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤولاً﴾ وكان عهد اللَّه مسؤولاً عنه ومطلوباً من صاحبه الوفاء به ومجازى على ترك الوفاء به ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُم الفِرَارُ مِنَ الْمَوْتِ أو القَتْلِ﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الهرب إن هربتم من الموت أو القتل، إن فراركم لن يطيل أعماركم لأن من حضر أجله مات أينما كانت أرضه ﴿وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وإذا لم تنته أعماركم وبقيتم على قيد الحياة لا تتمتعون في الدنيا إلّا المدة التي قدرها اللَّه لعمركم، ومتاع الدنيا قليل ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُم مِنَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: من ذا الذي يمنعكم من اللَّه ويحميكم ﴿إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ أي هلاكاً ﴿أو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي خيراً ونصراً وعافية ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِنْ

(١) هم قوم غابوا عن معركة بدر ورأوا ما أعطى اللَّه أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا لئن أشهدنا اللَّه قتالاً لنقاتلن.

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ ولا يجدون غير اللَّه قريباً ينفعهم ولا ناصراً يدفع السوء عنهم.

ويتابع القرآن الكلام عن هؤلاء المنافقين كاشفاً خفايا قلوبهم ونياتهم:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المعَوِّقِينَ مِنْكُم وَالقَائِلينَ لإِخْوانِهِم هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ البَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً. أَشِحَّةً عَلَيْكُم فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُم يَنْظُرونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الموْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (١٨ ـ ١٩).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المعَوِّقِينَ مِنْكُم﴾ والمعوقون هم المنافقون الصارفون الناس عن نصرة الرسول المثبطون للعزائم، هؤلاء يعلم اللَّه أعمالهم ﴿وَالقَائِلينَ لإِخْوَانِهِم هَلُمَّ إِلينَا﴾ وهم يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق تعالوا إلينا، ولا تشهدوا مع محمد قتالاً، فإنا نخاف عليكم الهلاك ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قليلاً﴾ ولا يأتون الحرب إلّا زمناً قليلاً، فقد كانوا لا يأتون إلى معسكر المسلمين إلّا ليراهم المخلصون فإذا غفلوا عنهم تسللوا تباعاً وعادوا إلى بيوتهم ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُم﴾ أشحة: جمع شحيح وهو البخيل والحريص، أي بخلاء عليكم أيها المؤمنون بالنصرة والنفقة في سبيل اللَّه ﴿فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ﴾ من جهة العدو أو من جهة خوفهم من النبي ﷺ بسبب انكشاف نفاقهم ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهم﴾ رأيت يا محمد هؤلاء المنافقين تدور أعينهم في أحداقهم يميناً وشمالاً من شدة الرعب ﴿كالذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الموت﴾ كالذي نزل به الموت وغطته أسبابه فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف. ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ﴾ فإذا ذهب الخوف عن

هؤلاء المنافقين وانجلت المعركة ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ آذوكم أيها المؤمنون بالكلام بألسنة سليطة. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ فإن قلباً لم ينبثق منه نور الإيمان لا ينتظر منه في ساعة الشدة إلّا الجزع، وهو ليس عنده ذلك الدافع الذي يحفزه إلى بذل المال في سبيل اللَّه ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ هؤلاء الذين لم يؤمنوا أبطل اللَّه أعمالهم وأذهب ما كان ينتظرها من ثواب، لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال الحسنة عند اللَّه.

ويتابع القرآن الكلام عن هؤلاء المنافقين مبيناً مدى جبنهم.

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٢٠).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يظن هؤلاء المنافقون أن جيوش الكفار لا تزال تحاصر المدينة مع أنهم انصرفوا ﴿وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُون فِي الأَعْرَابِ﴾ وإن يأت الأحزاب كرة أخرى للقتال يتمنون أن لو كانوا يعيشون في البادية مع الأعراب حتى لا ينالهم أذى ولا مكروه، ليس بينهم وبين المسلمين صلة ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي يسألون عن أخباركم وما جرى لكم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَا قَاتَلُوا إِلَّا قليلاً﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت احتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلّا قتالاً قليلاً رياءً وجبناً منهم.

وإذا كانت هذه حال المنافقين في الوقت الذي حاصرت فيه الأحزاب المدينة المنورة، فقد كان للمؤمنين في تلك الظروف الشديدة موقف آخر هو اليقين بنصر اللَّه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثيراً. وَلَمَّا رَأَى المؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إيمَاناً وَتَسْليماً﴾ (٢١ - ٢٢).

فرسول اللَّه كان عظيم الثقة بربه وبأنه محقق وعده، وناصر دعوته، وكان صبوراً على شدائد القتال، إن رسول اللَّه هو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي قدوة حسنة ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّه وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب اللَّه ويخاف عقابه يوم الحساب ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كثيراً﴾ أي وأكثر من ذكر ربه بلسانه وقلبه، والمراد بذكر اللَّه اللجوء إليه وطلب العون منه حين الخوف والشدة وعند الأمن والرخاء ﴿وَلَمَّا رَأَى المؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ ولما رأى المؤمنون جماعات الكفار تحاصرهم وتهددهم بالإبادة ﴿قالَوُا: هذا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي هذا ما وعدنا اللَّه ورسوله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ظهر صدق خبر اللَّه تعالى ورسوله في النصرة والثواب، وقد كان رسول اللَّه أخبرهم عند حفر الخندق بأن النصر حليفهم ﴿وَمَا زَادَهُم إلّا إيماناً وتسليماً﴾ وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلّا إيماناً باللَّه وتسليماً لقضائه وأمره، ويقيناً بالنصر(١).

---

(١) بينما كان المسلمون يحفرون الخندق عرضت للمسلمين صخرة فكسرت معاولهم فشكوا إلى رسول اللَّه فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخر ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة (أي جانبيها) حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبر رسول اللَّه وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية والثالثة فكانت تبرق وتضيء مثل الضربة الأولى، فسأل المسلمون رسول اللَّه عن ذلك فقال: أُضيئت لي في الضربة الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها (أي غالبة). وأُضيئت لي في الضربة الثانية قصور قيصر من أرض الروم... وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. وأُضيئت لي في الضربة الثالثة قصور صنعاء.. وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا بالنصر. فاستبشر المؤمنون، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللَّه ورسوله من النصر..

وكيف يكون عجيباً أن ينتصر المؤمنون بفضل إيمانهم وهم قد جعلوا أرواحهم على أكفهم فداء للدعوة الإسلامية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّه كَان غَفُوراً رَحيماً﴾ (٢٣ ـ ٢٤).

لقد كان من المؤمنين رجال صادقون عاهدوا اللَّه على الثبات مع رسول اللَّه لمقاتلة أعداء الدين، ونذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول اللَّه ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا أو يحوزوا على النصر ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ والنحب: يأتي بمعنى النذر، أو بمعنى الموت، وقضاء النذر هو الوفاء به، والمعنى: فمنهم من وفى بنذره وعهده مع رسول اللَّه من الثبات معه والجهاد في سبيل اللَّه، أو منهم من استشهد في سبيل اللَّه، بعضهم قُتِلَ يوم معركة بدر، وبعضهم يوم معركة أُحد[1]، وبعضهم قُتِلَ في غير ذلك من المواطن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر﴾ ومنهم من ينتظر الاستشهاد في سبيل اللَّه أو النصر ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ وما غيروا ما عاهدوا اللَّه عليه ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ ليجزي اللَّه هؤلاء بأحسن الجزاء والثواب ﴿وَيُعَذِّبَ المنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لقد علق القرآن فعل التعذيب على مشيئة اللَّه، فهو إن شاء في الدنيا ـ وقبل أن يعذبهم في الآخرة ـ تركهم على ضلالهم فماتوا على النفاق، وإن شاء لهم الهداية إلى الإيمان قبل موتهم هداهم فلم يقع عليهم العذاب في الآخرة لموتهم على الإيمان ﴿إِنَّ اللَّه كَانَ غَفُوراً رَحيماً﴾ غفوراً

---

(١) روي أن أنس بن النضر تغيب عن قتال بدر فقال: تغيبت عن أول مشهد شهده رسول اللَّه ﷺ لئن رأيت قتالاً لَيَرَيَنَّ اللَّه ما أصنع، فلما كان يوم أُحُد وهُزم الناس، لقي سعد بن معاذ فقال: واللَّه إني لأجد ريح الجنة فتقدم فقاتل حتى قُتل فنزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه. . .﴾.

حيث ستر ذنوبهم، ورحيماً حيث رحمهم ورزقهم التوبة والإيمان قبل موتهم.

ثم تعود بنا السورة إلى قصة غزوة الأحزاب لتذكر خاتمتها فتذكر أولاً ما أصاب الأحزاب من جند المشركين من خيبة أمل:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾ (٢٥).

فاللَّه سبحانه يذكرنا بما نالت جموع قريش وغطفان ومن عاونهم من القبائل من هزيمة فهم قد عادوا إلى معاقلهم وقد ملأ نفوسهم الغيظ بعد أن أخفقوا كل الإخفاق ولم ينالوا أي خير، فلا هم أبادوا المسلمين واستأصلوهم كما كانوا يحلمون، ولا هم كسبوا المعركة وعادوا مثقلين بما مَنُّوا به أنفسهم من غنائم الحرب ﴿وَكَفَى اللَّهُ المؤمِنينَ القِتَالَ﴾ وكفى اللَّه المؤمنين مشقة القتال وأخطاره بما سلط على الكفار من الريح والملائكة بما جعلهم يولون الأدبار ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾ قويًّا على تنفيذ ما يريد، عزيزاً لا يغلبه غالب.

ثم تذكر الآيات أخيراً ما أصاب يهود بني قريظة من خاتمة سيئة، فبعد انضمام بني قريظة إلى جيوش الأحزاب ونقضهم المعاهدة مع المسلمين مما هدّد المسلمين بالإبادة، أراد رسول اللَّه أن يتخلص من هذا العدو الغدار الذي يجاوره في الدار فبدأ بحصار بني قريظة في اليوم الذي انسحبت فيه الأحزاب. وبعد حصار دام خمساً وعشرين ليلة استسلمت بنو قريظة وقبلت أن تنزل على حكم الرسول الذي حكّم فيهم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس التي كانت حليفة لبني قريظة فَحَكَم فيهم أن يُقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسبى الذراري والنساء، وإن ما حكم به سعد بن معاذ هو نفس ما كان

ستفعله الأحزاب بالمسلمين لو انتصروا بخيانة بني قريظة. وفي هؤلاء اليهود نزلت الآيات التالية:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَم تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيراً﴾ (٢٦ ـ ٢٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَأَنْزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ **ظاهروهم: عاونوهم، وأهل الكتاب هم يهود بني قريظة الذين عاونوا الأحزاب** فقد أنزلهم اللَّه ﴿مِنْ صَيَاصِيهِم﴾ من قلاعهم التي كانوا يتحصنون بها مستسلمين للمسلمين ﴿وَقَذَفَ في قُلُوبِهِم الرُّعْبَ﴾ وألقى اللَّه في قلوبهم الرعب بعد أن شدّد المؤمنون عليهم الحصار بعد رحيل الأحزاب ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ أي مكن اللَّه المؤمنين منهم فقتلوا رجالهم وأسروا نساءهم وأطفالهم ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُم وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ وملككم أَرضهم ومساكنهم وأموالهم ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ أي ومكّن اللَّه المسلمين الاستيلاء على أرض أُخرى لم تطأْها أقدامهم وهي أرض خيبر لأنها أُخِذَت بعد أرض بني قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك كأرض فارس والروم.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ فهي من الأنباء الغيبية التي تشهد بأن القرآن وحي إلّهي، لقد أنبأ القرآن عن أنباء غيبية تحققت في وقت كانت القوة العسكرية والبشرية التي جابهت النبي والمسلمين هي الأقوى والأكثر، ولكن اللَّه أراد أن يحقق وعده وينصر دينه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ
يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
* وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ
وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ
ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

شرح المفردات

أُمَتِّعكن : أعطيكنَّ متعة الطلاق من مال وثياب جبراً لوحشة الفراق.

يَقْنُت : يطيع.

تَخْضَعْنَ بالقول : لا تلنَّ القول وتُرَقِّقَنَّهُ للرجال مما يغري بكنّ.

وَقَرْنَ في بيوتِكُنَّ : إلزمن بيوتكن.

تبرجْنَ: التبرج إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال.

الرجس : الإثم.

لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ
ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥

شَرح المفـرَدَات

الخاشعين : الخشوع هو التذلل والخضوع والخوف من اللّٰه .

تابع سُورَة الأحْزاب

نشير إلى ما سبق في هذه السورة بأن النبي ﷺ هو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرجُو اللَّهَ وَالْيَومَ الآخِرَ﴾ ولذا يقدم القرآن مثالاً عملياً وقدوة صالحة لكل قادة الأمة وأفرادها في الترفع عن المادة وملذات الحياة في سبيل رضاء اللَّه. وهذا المثال مأخوذ من حياة النبي ﷺ الخاصة مع أزواجه، وقبل أن نذكر الآيات الكريمة في هذا الصدد نمهّد بالكلام عن أزواج النبي ﷺ وكيف كن يعشن حياتهن الخاصة.

من المعلوم أن النبي ﷺ اختار لنفسه وأهل بيته معيشة الكفاف فقد قالت عائشة زوج النبي ﷺ: «وإن كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار إن هو (أي الطعام) إلّا التمر والماء»[١].

ويُروى عن ابن عباس أنه قال: كان رسول اللَّه يبيت الليالي طاوياً[٢] هو وأهله لا يجدون عشاءً وكان أكثر خبزهم الشعير»[٣].

أما بيوت أزواج النبي فقد كانت على أبسط ما تكون فهي مبنية من الطين وجريد النخل وعلى أبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال.

لم يكن ذلك من النبي فقراً وعجزاً عن الحصول على ملذات الحياة وطيباتها، فقد فتحت له البلدان وتدفقت عليه غنائمها فكان يصرفها على المسلمين وبالأخص الفقراء منهم. ولكن نساء النبي كن نساء من البشر يستهويهن متاع الحياة الدنيا وبهرجها فلما رأين الغنائم تتدفق على المسلمين وخصوصاً غنائم بني قريظة راجعن النبي في هذه الغنائم وطلبن الاستزادة من النفقة والزينة كما يفعل غيرهن من النساء وخاصة حين يكون الزوج هو رسول اللَّه وهو الآمر الناهي

(١) أخرجه مسلم.
(٢) طاوياً: جائعاً.
(٣) أخرجه الترمذي.

وحين تكون تحت يده أموال المسلمين يصرفها كيف يشاء، وفي وسعه أن يغدق على أهله بغير حساب. لذا قلن للنبي: بنات كسرى وقيصر في الحلى والحلل ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم.

ولقد بلغ الأسى برسول اللَّه أشده مما طالبته به نساؤه إلى حد أن احتجب عن أصحابه. روى البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد اللَّه، قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول اللَّه فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال: واللَّه لأقولن شيئاً أُضحك رسولَ اللَّه، فقال: يا رسول اللَّه لو رأيت بنت خارجة (أي ابنته) سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت [١] عنقها؛ فضحك رسول اللَّه وقال: هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول اللَّه ما ليس عنده! فقلن: واللَّه لا نسأل رسول اللَّه شيئاً أبداً ليس عنده ثم اعتزلهن رسول اللَّه شهراً أو تسعةً وعشرين يوماً ثم نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً. وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٢٨ ـ ٢٩).

فاللَّه سبحانه يقول: يا أيها النبي قل لأزواجك ناصحاً لهن: إن كنتن تردن الحياة الدنيا ورفاهيتها والتوسع في التنعم بها فأقبلن لأدفع لكن من المال متعة الطلاق بما يخفف وحشته، وأطلقكن طلاقاً لا إساءة معه. وإن كنتن تؤثرن حب اللَّه ورسوله ونعيم الدار الآخرة وترضين بما أنتن فيه من خشونة العيش فإن اللَّه أعدَّ لأمثالكن من المحسنات في أعمالهن أجراً

---

(١) وجأ العنق: دفعه بجمع كفه

لا يقدر قدره.

ثم بدأ رسول اللّٰه بتخيير عائشة فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألّا تعجلي حتى تستشيري أبويك، قالت وما هو يا رسول اللّٰه؟ فتلا عليها ما نزل من القرآن في ذلك، قالت: أفيك يا رسول اللّٰه أستشير أبوي، بل اختار اللّٰه ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألّا تخبر امرأة من نسائك. لقد طلبت عائشة ألّا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن رغبة ليظهر تفردها في هذا الاختيار وميزتها على بقية نسائه، وهنا نلمح إلى عظمة النبوة في رد رسول اللّٰه وهو يجيبها على طلبها: إن اللّٰه لم يبعثني مُعنتاً[١] ولا متعنتاً[٢] ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني واحدة منهن عما اخترت إلّا أخبرتها، فالرسول لا يود أن يحجب عن إحدى نسائه ما قد يعينها على الخير والتخلص من مغريات الحياة، ثم تابع الرسول تخيير نسائه جميعاً ففعلن مثل ما فعلت عائشة واخترن اللّٰه ورسوله والرضى بما هن عليه من شظف العيش وعدم التطلع إلى زينة الحياة الدنيا.

هذه الحادثة يسجلها القرآن ويضعها على الأسماع لتكون أمثولة للرجال والنساء للصمود أمام مغريات الحياة. فالترف يصرف الإنسان عن خالقه وعن القيم الإنسانية السامية، كما يكون داعياً للأنانية وقسوة القلب.

هذه الحادثة من أعلام النبوة، فلو كان الرسول ﷺ من طالبي السلطة أو مُدَّعياً النبوة كذباً لسار على سيرة من سبقه من الزعماء والملوك والأمراء الذين كانوا يستأثرون بالغنائم لهم ولنسائهم وحاشيتهم، هذا مع العلم أن طبيعة أكثر النساء تميل إلى البذخ والإسراف في الزينة واللباس والتباهي بها على أقرانهن، والزوج سريع التأثر بمطالب زوجته حريص على إرضائها مهما كلفه ذلك من أموال، أما بالنسبة إلى الرسول فقد اصطدمت مطالب نسائه بزيادة النفقة والزينة من الغنائم

(١) معنتاً: مشدداً ملزماً ما يصعب عليه أداؤه.
(٢) متعنتاً: طالب الزلة.

التي تدفقت عليه بجدار من الرفض مع ما صاحبه من غضب وهجر لهن.

وبعد ذلك يأتي نداء اللّه لنساء النبي مبيناً مكانتهن بالنسبة لغيرهن من النساء والواجب المترتب عليهن نحو ربهن وفي هذا النداء إظهار لفضلهن وعظم قدرهن عند اللّه:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يسيراً. وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ (٣٠ - ٣١).

فهاتان الآيتان وعظ لنساء النبي ﷺ مع عصمة اللّه لهن وطهارتهن من كل سوء، أي من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح يضاعف عقابها، فإن المعصية من العالِم ورفيع الشأن أشد قبحاً فناسب أن يضاعف جزاؤها لأن فيها الجحود والكفران بنعم اللّه عليهن بسبب قربهن من رسول اللّه وفيها إيذاء لرسول اللّه وما أعظمه جرماً عند اللّه ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ أي وكان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على اللّه ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ومن تُطع اللّه ورسوله منكن وتعمل بما أمر اللّه ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعطها اللّه ثواب عملها مثليْ ثواب عمل غيرها من سائر النساء ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كريماً﴾ وهيأنا لها في الآخرة عيشاً هنيئاً في الجنة.

ثم يبيّن القرآن حقيقة الوضع الديني والاجتماعي الذي يجب أن تسلكه نساء النبي ﷺ:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً. وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى، وَأَقِمْنَ الصَّلاة وَآتينَ الزكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٢ - ٣٣).

فـاللَّه سبحانـه يقرر أن نسـاء النبي لسن كأحـد من النساء في الفضـل والشرف، ففضلهن وشرفهن يزيد على غيـرهن من النساء ﴿إن اتَّقَيْتُنَّ﴾ إن اتقين اللَّه فيما أمر به ونهى عنه، فقد أُتيحت لهن فرص لم ينلها غيرهن وهي مشاركة الرسول ﷺ في حياته والاهتداء بهديه عن كثب، وبركة نزول الوحي عليه في بيوتهن، ومن هذه الحقيقة ينبع المنهج السلوكي الذي رسمه لهن. منـه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِـالْقَوْلِ﴾ نهـاهم اللَّه عن إلانة القـول وتـرقيقـه عنـد مخاطبة الرجال ﴿**فيطمع الذي في قلبِهِ مـرض**﴾ **أي فيطمـع الذي في قلبـه** ضعـف، إما عن نفاق أو تهاون في إتيان الفـواحش، وإن القلوب المريضـة التي تتأثر بالمرأة التي تلين صوتها وتطمع فيها موجودة في كل عهد وتجاه كل امرأة ولو كانت هي زوج النبي ﷺ ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ أي قلن قولاً جميلاً حسناً متعارفاً في الخير. فموضوع الحديث قد يطمع في المرأة فلا ينبغي أن يكـون بين المرأة والـرجل الغـريب هذر ولا غـزل ولا دعـابـة ولا مـزح كي لا يكون مدخلاً إلى شيء آخر وراءه من قريب أو بعيد.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمنها فلا تخرجن لغير حاجة مشروعة ومثلهن في ذلك سائر نساء المؤمنين.

والحكمة فيها: أن ينصرفن إلى رعاية شؤون بيوتهن وتوفير وسائل الحياة المنـزلية التي هي من خصـائصهن وإلى تربيـة الأولاد. ومما أبيـح للنسـاء الخروج لأجله: الحج مع محرم، والصلاة في المسجد، وزيارة الوالدين، وعيادة المريض، وتعزية الأقارب والعلاج ونحو ذلك، ويباح للمرأة العمـل للحـاجة في الأمكنـة التي تأمن فيهـا من الفتنة،وخـروجهـا يجب أن يكـون باللباس المحتشم الذي حدده الشرع غير متطيبة ولا متزينة. أما خروج المرأة لغيـر هذه الأمـور للتسكـع في الـطرقـات والنـوادي والمجتمعـات وإهمـال شؤون البيت فهو الذي يؤدي إلى الفساد والخلل في المجتمع.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى﴾ التبرج هو إظهار الزينة وإبراز المرأة محاسنها للرجال والتبختر والتكسر في المشي ولبس الثياب التي تصف جسدها أو تكشف عنه لرقتها وشفافيتها، ويشير النص القرآني إلى تبرج الجاهلية الأولى ، قيل المقصود بالأولى ما بين آدم وعيسى أي التي قبل الإسلام ، والجاهلية مشتقة من الجهل بمعنى: الخلو من المعرفة والطيش والسفه، وهي حالة اجتماعية ذات سلوك شائن يمكن أن توجد في أي زمان ومكان.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ فإقامة الصلاة أي أداء الصلاةالمفروضة مع مراعاة الخشوع فيها واستحضار عظمة اللَّه وإقامة الصلاة ليست مفروضة على نساء النبي وحدهن فكل مؤمن ومؤمنة مطالب على الحتم والإلزام بإقامة الصلاة، وقد حث القرآن على إقامة الصلاة لأثرها في تربية النفس وتطهيرها من أدران الخطايا والنهي عن الفحشاء والمنكر. وإيتاء الزكاة[1] ليس مفروضاً على أزواج النبي ﷺ فقط فهي كالصلاة إحدى دعائم الإسلام الخمس مفروضة على كل مسلم ومسلمة ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وامتثلن أمر اللَّه ورسوله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾ والرجس المراد به الذنوب والآثام والفحشاء. وأهل البيت: يراد به نساء النبي وأهله مثل عليّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان اللَّه عليهم، والذين حُرمت عليهم الصدقة بعده وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ أي ويطهركم من أوضار الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً. وفي الآية إشارة لطيفة

---

(١) أطلق القرآن على المال الذي يبذل للفقراء اسم الزكاة لأمرين يتصل كلاهما بالاستعمال اللغوي لها وهي تستعمل في اللغة بمعنى النماء ومعنى الطهر، ذلك أن إيتاءها يطهر النفس من رذيلة الشح ومن الذنوب، أما النماء فلأن الزكاة تزيد من رصيد المسلم من الأعمال الصالحة وتبارك له في ماله الذي أخرجها منه.

ورعاية كريمة فاللَّه بذاته يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم وهي رعاية علوية تبين لنا مدى هذا التكريم العظيم من رب العالمين لأهل بيت رسول اللَّه ﷺ.

ثم يأتي التوجيه الإلٓهي لنساء النبي بتدارس القرآن والانتفاع به:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطيفاً خَبيراً﴾ (٣٤).

لفظ ﴿واذكرن﴾ يحتمل فيه عدة معانٍ، منها: واذكرن نعمة اللَّه عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات اللَّه والحكمة. أو بمعنى: اذكرن آيات اللَّه وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ اللَّه. أو بمعنى: اذكرن آيات اللَّه للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهديها، وآيات اللَّه هي كتابه الكريم وهو القرآن. والمراد بالحكمة سنة رسول اللَّه وهي ما أوحي إلى رسول اللَّه من أحكام دين اللَّه ولم ينزل به قرآن. وقيل: إن الحكمة هي القرآن نفسه أيضاً لأنه يحتوي على الحكمة في الشرائع والأوامر والنواهي والعظات ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خبيراً﴾ إن اللَّه كان عالماً بغوامض الأشياء فاحذرن مخالفته ومعصية رسوله.

وإذا كان هذا هو المنهج السلوكي الذي ارتضاه اللَّه لنساء النبي فإن القرآن يرسم أيضاً المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون والمؤمنات:

﴿إِنَّ المسْلِمِينَ وَالمسْلِمَاتِ وَالمؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِراتِ والخَاشِعِينَ والخَاشِعَاتِ والمُتَصَدِّقِينَ والمُتصدِّقَاتِ والصَّائمينَ وَالصَّائِماتِ والحَافِظِينَ فُرُوجَهُم والحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (٣٥).

روي في أسباب نزول هذه الآية أن أم سلمة رضي اللَّه عنها قالت

للنبي ﷺ : يا نبي اللَّه، ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن فأنزل اللَّه هذه الآية. فاللَّه سبحانه ذكر عشر صفات من تحلى بها من الرجال والنساء، نال الأجر العظيم، وهي:

﴿إن المسْلِمِينَ وَالمسْلِمَاتِ﴾ والإسلام هو الانقياد للَّه ولما جاء من عنده من الشرائع والأحكام والعبادات.

﴿والمؤمِنين وَالمؤْمِنَاتِ﴾ والمؤمن هو المصدق باللَّه ورسوله والمذعن لما أمر اللَّه به ونهى عنه. وجعل النبي ﷺ أصل الإيمان ستة أشياء في خبر جبريل حيث سأله عن الإيمان فقال النبي ﷺ : أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من اللَّه.

﴿والقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ﴾ والقانت هو العابد المطيع للَّه فيما أمر به ونهى عنه ويأتي القنوت بمعنى إطالة القيام في الصلاة.

﴿والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ﴾ والصدق مطابقة الخبر للواقع ويكون في القول وفي العمل جميعاً، والصدق يكون مع اللَّه ومع العباد، أما مع اللَّه فهم الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه وساروا على هديه بإخلاص وصدق، والصدق علامة الإيمان كما أن الكذب من علامات النفاق.

﴿والصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والصبر هو حبس النفس على ما تكره أو عما تحب وهو أنواع ثلاثة: صبر على الشدائد، وصبر في الملمات، وصبر على ما تشتهيه النفس.

فأما الصبر على الشدائد فتمثله الطاعة للَّه ورسوله وما تقتضيه من احتمال مظاهر العبودية وأعباء العبادات، وأما الصبر في الملمات فيتمثل في التجلد أمام الكوارث والمحن والفواجع التي لا تكاد تخلو منها حياة إنسان كموت عزيز أو اشتداد وطأة مرض أو فقد مال. وأما الصبر على ما تشتهيه

النفس فيتضح في كبح الشهوة سواء أكانت شهوة نفس كالانتقام، أم كانت شهوة بطن كأكل الحرام وشرب المسكر، أو كانت شهوة فرج.

﴿والخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ﴾ والخشوع هو الإخبات والتواضع والخوف من اللَّه والاستكانة له.

﴿وَالمتَصَدِّقِينَ والمتَصَدِّقَاتِ﴾ والمتصدق هو الذي يعطي الصدقة، والصدقة ما تصدقت به على مسكين لسد فاقته ابتغاء رضوان اللَّه وحسن مثوبته.

﴿ والصَّائِمِينَ وَالصَّائمات﴾ والمراد صوم رمضان الذي فرضه اللَّه على المسلمين ويؤجر الإنسان على صوم التطوع، والصوم يسهم في تهذيب نفس المسلم وفي غرس معاني الخير فيه.

﴿والحَافِظِينَ فُروجَهُم والحَافِظَاتِ﴾ والفرج هنا السوأة من الرجال والنساء. أي والمتعففين الممتنعين عن الزنا والحرام إلاّ عن المباح وهم أزواجهم وما يحل لهم من الإماء. ومن هنا حرم الإسلام على الرجل الخلوة بالمرأة الأجنبية، وحرم على المرأة أن تخلو بغير زوجها أو محارمها، ونهى الرجل والمرأة كليهما عن أن يتعرض أحدهما للآخر تعرض من يشتهيه فيحتال لبلوغ غرضه بقصد إشباع شهوته، وأول ذلك وأدناه النظر بشهوة ومن أجل ذلك اعتبره الرسول زنا أصغر فقال: «وزنا العين النظر».

﴿والذَّاكِرينَ اللَّهَ كَثيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي الذاكرين اللَّه كثيراً بقلوبهم وألسنتهم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم في كل الأوقات.

هؤلاء الرجال والنساء المتصفون بتلك الصفات يعدهم اللَّه بثوابه العظيم بقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظيماً﴾ أي هيأ اللَّه لهم مغفرة لذنوبهم وثواباً في الآخرة على أعمالهم وهو الجنة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ
ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ
أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ
أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ
سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾
ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

شرح المفردات

الخيرة : الاختيار.

وطراً : حاجة (أي لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها).

حسيباً : كافياً للمخاوف، ومحاسباً على الأعمال.

حرج : إثم أو ضيق.

قَدَراً مقدوراً : قضاء محكماً وحكماً مبرماً.

بكرة وأصيلاً : أول النهار وآخره.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ
أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

تَابع سُورَة الأحْزاب

ثم يعود بنا القرآن إلى التبني الذي عالجه في الآيات السابقة، يعود ليبطله بطريق التشريع العملي بعد أن أبطله بالبرهان النظري، وكان لهذا الإلغاء قصّة:

كانت زينب بنت جحش ابنة عمة رسول اللَّه من ذوات الحسب والنسب فخطبها رسول اللَّه لمتبناه زيد بن حارثة بإلهام من اللَّه لحكم أراد تنفيذه هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية للقضاء على نظام الطبقات لأن المجتمع العربي قبل الإسلام كان يستنكر أن يتزوج الموالي ـ وهم الرقيق المحرر ـ من النساء الشريفات ذوات الحسب والنسب. ماذا كان جواب زينب على طلب النبي ﷺ منها الزواج من زيد؟ لقد استنكفت وامتنعت وامتنع أخوها عبد اللَّه لنسبها من قريش ولأن زيداً كان بالأمس عبداً فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبيناً﴾ (٣٦).

فأمر اللَّه واجب أن يطاع من كل مؤمن ومؤمنة ولا مجال أن يكون لهم حق الاختيار فيما أمر به، فالاختيار للَّه أصلاً فليس لأحد مخالفته، ورسول اللَّه يبلغ عن اللَّه وينفذ الشريعة التي وكِّل إليه تنفيذها، وعصيان اللَّه ورسوله هو الضلال البيِّن الواضح.

استجابت زينب للزواج من زيد بعد هذا الأمر الإلـهي، ولكن كانت حياته معها سلسلة من المنغصات فكانت تتعاظم عليه بنسبها وتؤذيه بلسانها فكان زيد يشكو لرسول اللَّه ما يلقاه من الأذى ورسول اللَّه يأمره بأن يمسك عليه زوجته فلا يطلقها، ثم ساءت الأمور إلى حد اضطر معه زيد أن يطلق زينب، فأمر اللَّه رسوله عندئذٍ أن يتزوجها ليبطل بطريقة عملية الأحكام التي تنشأ عن

التبني في عرف العرب وهي أن زوجة المتبنَّى المطلقة لا يجوز أن يتزوجها من تبناه، وفي ذلك نزل الوحي الإلٓهي:

﴿وَإِذْ تَقولُ للَّذي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي في نَفْسِكَ مَا اللَّه مُبْدِيه وَتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيدُ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يكونَ عَلَى المؤْمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِم إذا قَضَوْا منهن وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (٣٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَإِذْ تَقُول لِلَّذي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي واذكر يا محمد إذ تقول لزيد بن حارثة الذي أنعم اللَّه عليه بأن هداه للإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ وأنعمت عليه يا محمد بالعتق والحرية والتربية ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي تقول يا محمد لزيد: أمسك عليك زوجتك في عصمتك ولا تطلقها، واتق اللَّه واخشه في أمرها فإن الطلاق يشينها، أو اتق اللَّه فلا تذمها إذ تصفها بالكبرياء ﴿وتُخْفي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وما أخفاه رسول اللَّه في نفسه هو ما أعلمه اللَّه له عن طريق الوحي بأن اللَّه سيزوجه زينب بعد أن يطلقها زيد ليبطل بهذا الزواج ما كان يدين به العرب في الجاهلية من تحريم الزواج بين المتبنِّي وبين مطلقة المتبنَّى فلم يخبر النبي ﷺ زيداً بذلك استحياءً من أن يقول له: إن زوجتك التي في عصمتك ستكون زوجتي، ومن أن يقول الناس: إنه يتزوج مطلقة ابنه بالتبني فعاتبه اللَّه على إخفاء ذلك ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ فخشية النبي للناس كان مظهرها التوجس من مواجهة الناس بهذا الإلهام من اللَّه قبل أن يصبح أمراً من اللَّه وينزل به قرآناً ﴿واللَّهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ﴾ واللَّه هو الجدير بأن تخافه ولو كان في ذلك مشقة عليك فتفعل ما أباحه لك وأذن لك فيه، وتبديه ولا تخفيه.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدُ مِنْهَا وَطراً﴾ أي فلما بلغ زيد حاجته من الزواج منها،

وقيل: قضاء الوطر كناية عن الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجـة. والمعنى: فلما طلقهـا زيد وانقضت عـدتها ﴿زَوَّجْنَـاكَهَا﴾ أي جعلناها زوجةً لك بلا عقد ومهر وشهود وهذا من خصوصيات النبي ﷺ وكان ذلك في سنة خمس من الهجرة، وكان عمر زينب خمساً وثلاثين سنة وكانت صوّامة قوّامة تقوم الليل بالعبادة وتتصدق على الفقراء، وكـانت زينب تفخر على أزواج النبي فتقول:زوجكن أهاليكن، وزوجني اللَّه تعالى من فوق سبع سماوات ﴿لِكي لا يكونَ عَلَى المؤمِنينَ حَرَجٌ﴾ لكي لا يكون على المؤمنين ضيق وإثم ﴿في أزْوَاجِ أدْعِيَائِهِم﴾ في التزوج بزوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن، هذا بخلاف الابن من صلب الإنسان فإن امرأته تحرم على الأب بعد العقد عليها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ وكـان أمر اللَّه الـذي يريـده واقعاً لا محالة.

ويتابع القرآن عن هذا التشريع الإلّهي ووظيفةالأنبياء:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. الَّذينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلَّا اللَّهَ وَكَفَى باللَّهِ حَسيباً﴾ (٣٨ ـ ٣٩).

فاللَّه سبحانـه ينفي الإثم عن الرسـول ﷺ في زواجه بـزينب ويبين أن الزواج هذا قد فرضه اللَّه فما كان لمحمد أن يتخلف عن تنفيـذه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ في الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا حكم اللَّه وما جرى به نـظامه في خلقـه، فلم يكن ليـأمر الأنبيـاء بشيء وعليهم في ذلـك إثم ﴿وَكَـانَ أَمْـرُ اللَّهِ قَـدَراً مَقْدُوراً﴾ وكان أمر اللَّه الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ﴿الّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ﴾ فهؤلاء الأنبياء السابقون بلغوا رسالات اللَّه كما أنزلها إلى من أرسلوا إليهم ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلَّا اللَّه﴾ ويخافون اللَّه في تركهم تبليغ رسالته ولا يخافون أحداً إلّا اللَّه فكن يا محمد مثلهم ولا تخشَ

أحداً إلّا اللَّه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ وكفى أن يكون اللَّه كافياً للناس لمخاوفهم ومحاسباً على أعمالهم فلا ينبغي أن يخشى غيره.

ويتابع القرآن فيعطينا حجة منطقية تزيل ما وقع في النفوس من شبهات حول الرسول ﷺ مع إقرار حقيقة أكد الزمن على صدقها:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبيين وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾ (٤٠).

لما تزوج رسول اللَّه زينب قال الناس: تزوج محمد امرأة ابنه فنزلت هذه الآية التي مؤداها أن زيداً ليس ابنه من صلبه حتى تحرم عليه زوجته، وبهذا ردَّ اللَّه على ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم من شبهات حول هذا الزواج.

والقرآن لم يقصد بهذه الآية أن النبي لم يكن له ولد، فقد ولد له أولاد ذكور هم: إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهر، ولكنه لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً بل ماتوا صغاراً، ثم إنهم من ناحيةٍ أخرى رجاله لا رجالهم، كما قال سبحانه: ﴿أبا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم﴾.

أما قوله تعالى عن محمد: ﴿وَخَاتَم النَّبِيِّينَ﴾ فهو معجزة للقرآن. وخاتم النبيين أي خَتَمَ النبوة وتمّمها بمجيئه، وتسمية محمد خاتم الأنبياء لأن الخاتم آخر القوم.

فالقرآن حكم بأن لا نبي بعد محمد مع أنه مضى على البشرية قبل محمد آلاف السنين والأنبياء يتعاقبون فيها نبيًّا بعد نبي وكانت في كتب هؤلاء الأنبياء بشارات بأنه سيأتي أنبياء بعدهم، وكل هذا كان يدعو محمداً لأن يحجم عن قطع عهد النبوة من بعده لو كان القرآن من تأليفه لا من عند اللَّه،

ولأتى ببشارة من البشارات كما جاء على لسان الأنبياء قبله.

ولقد مضى على نزول هذه الآية أربعة عشر قرناً ولم نسمع بمجيء نبي بعد محمد، وإذا كان هناك بعض أتباع الأديان لا تعترف بأن محمداً رسول اللَّه حقًّا وأنه هو النبي الذي بَشَّر به الأنبياء السابقون ولا تزال تنتظر مجيء نبي فإن هذه المدة الطويلة التي مضت على نبوة محمد ولم نسمع بعدها بمجيء نبي بعده كافية في إقناع من يرتاب في نبوته، وبالأخص عند التأمل في النجاح الذي حققه محمد في أمته والعالم المحيط به حيث حوّل أمته من جاهلية جهلاء وما فيها من فرقة وتقاتل وانغماس في الفواحش والمنكرات واعتداء على حقوق الضعفاء إلى أمة متماسكة متحدة تتحلى بالفضائل النفسية والأدبية تدعو إلى الخير وتحارب الشر وتدافع عن حقوق الضعفاء وتحكم بالعدل والمساواة. دعك من أتباعه الذين بلغوا مئات الملايين، كل ذلك من أقوى الأدلة على صدق ما جاء به محمد عن ربه وأنه هو خاتم الأنبياء.

ومن الغريب أن بعض الطوائف التي خرجت عن الإسلام واختارت طريق الكفر كالقاديانية تفسر خاتم الأنبياء بأنه ليس آخرهم بل معناه أفضلهم، وتفسر الخاتم أيضاً بمعنى المهر يعني أنه يمهر الناس، وبمهره يصير الواحد نبيًّا.

والمذهب البهائي الباطل الذي يجاريه في الكفر يرى أن كلمة خاتم ليس معناها أنه آخر الأنبياء ولكن معناه الخاتم الذي تزدان به أصابع النبوة فهو ليس آخرهم ولكنه زينتهم.

فهذه تأويلات فاسدة بعيدة عن اللغة وعن الواقع يفسرون فيها آيات القرآن على مزاجهم ليروجوا لمذهبهم الباطل بين الناس.

ثم يخاطب اللَّه المؤمنين داعياً إياهم إلى الإكثار من ذكره وتمجيده وتعظيمه لينالوا ثوابه العظيم في الآخرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ وَكَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُم أَجْراً كريماً﴾ (٤١ ـ ٤٤).

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللَّه بقلوبكم وألسنتكم ذكراً كثيراً بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، وفي السر والعلانية ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي نزهوه عما لا يليق به ومجّدوه وعظّموه أول النهار وآخره. وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما وبسبب تنزل الملائكة فيهما كما قيل. وقيل المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر وبالتسبيح أصيلاً: صلاة العصر. أو صلاة العصر والمغرب والعشاء، والصلاة تحتوي على تسبيح اللَّه.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فالصلاة من اللَّه للمؤمنين: الرحمة لهم والثناء عليهم عند ملائكته. والصلاة من الملائكة للمؤمنين: الدعاء والاستغفار لهم ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم اللَّه ـ أيها المؤمنون ـ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الضلالة إلى نور الهدى ﴿وَكَانَ بالْمؤمِنِينَ رَحِيماً﴾ فاللَّه يريد برحمته للمؤمنين إيصال الخير إليهم وتجنيبهم عذاب الآخرة ﴿**تحيتهم يوم يلقونه سلام**﴾ أي يحيّي المؤمنون بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون اللَّه في الدار الآخرة. وقيل إن الملائكة تسلم على المؤمنين عند الموت أو عند الخروج من القبور أو عند دخولهم الجنة وقيل هذه التحية بالسلام هي من اللَّه يوم القيامة عند دخولهم

الجنة فيسلّمهم اللّه من الآفات ويبشرهم بالأمن من المخاوف ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ وهيأ اللّه لهم جزاء كريماً وهو الجنة.

ذكر اللّه وثوابه العظيم:

فاللّه سبحانه يأمر المؤمنين بالإكثار من ذكره وتسبيحه بكرة وأصيلاً ويعدهم إذا فعلوا ذلك بأن يرحمهم ويثني عليهم وتخصهم ملائكته بالدعاء والاستغفار كما أن اللّه وعد الذاكرين له كثيراً والذاكرات في هذه السورة بأن لهم ﴿مَغْفِرَةً وَأجراً عَظِيماً﴾. وَبَيَّن اللّه في القرآن بأنه يذكر المؤمنين إذا ذكروه ﴿فاذكروني أذكركم﴾ وأثنى اللّه على المؤمنين الذين لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه فقال: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهم تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ووعد اللّه الذاكرين له كثيراً بالفلاح والفوز: ﴿وَٱذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُون﴾.

وبَيَّن القرآن أن الإعراض عن ذكر اللّه يؤدي بالإنسان إلى الخسران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنوا لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم وَلَا أولادُكم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِك فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾.

كما وصف القرآن المعرضين عن ذكر اللّه بأنهم من حزب الشيطان: ﴿إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِم الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُم ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئك حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخَاسِرون﴾.

ولنستطرد قليلاً في الكلام عن ذكر اللّه وما وراءه من أبعاد وآفاق مذهلة تقربنا من اللّه وتجعلنا في قمة التسامي والسعادة النفسية.

فذكر اللّه يراد به ذكر أُلوهيته التي لا يشركه فيها أحد، وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء وقدرته التي تتناول كل ما في الكون وإنعامه على عباده بالخلق والرزق. ولذلك من الصيغ التي نذكر اللّه بها قولنا: ﴿لا إلٰه إلاّ اللّه﴾ أي لا خالق ولا محيي ولا مميت ولا رازق إلاّ اللّه. وجاء في الحديث الشريف: «وفي كل

تهليلة صدقة» أي قولنا: لا إلّه إلاّ اللّه.

وذكر اللّه ينبع من إيمـاننا بـاللّه ومحبته وشكـره على ما أنعم علينـا من نعم لا تحصى، فما أحرى بنا أن نشكر اللّه على نعمه ونثني على إفضاله وقد جاء في الحديث الشريف: «وفي كل تحميدة صدقة» أي قولنا: الحمد لله.

وذكر اللّه يبعد الخوف والقلق والهمَّ عن قلوبنا، فشعورنا واعتقادنا بـأن اللّه معنا وأننا لسنا وحيدين أمام كوارث الحياة وأنه سبحانه قادر على كشف الضرِّ عنا هو الذي يضفي طمأنينة علينـا وينفي الخوف والقلق عنـا. وقد جـاء في القرآن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتطمئن قُلُوبُهم بِذِكْرِ اللَّهِ ألا بِذِكْرِ اللّه تَطمئن القلوب﴾.

وذكر اللّه هو وسيلة لصحتنا النفسية، فكثيـر من مشاكلنـا النفسية يـرجع إلى شعورنا بالذنب على أعمال ارتكبناها، وهذه المشاعر تثير فينا عقداً نفسية تسبب لنا كثيراً من المتاعب.

والإسلام دعا كل إنسان أن يتوجه إلى ربـه مباشـرة بدون وسيط نـادماً طـالباً المغفرة منه فيفتح اللّه بابه ويمنحه عفـوه ورحمته. وقـد جاء في القـرآن: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أو يَظْلِم نَفْسَه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِد اللّه غَفُوراً رَحيماً﴾.

فشعورنا بأن اللّه سيغفر لنا وأنه غفور رحيم ينزع عنا الشعور بالذنب ويدخل إلى نفوسنا الطمأنينة.

وذكـر اللّه ينبع من قلوبنـا ويفيض من شعورنـا عندمـا نتأمـل جمال الـطبيعة الخلاب وما يوحي به إلينا من عظمة الخالق.

فعندما نتأمل زهرة جميلة متناسقة الألوان تعبق بالرائحة الزكية، أو عندما نرتاد الجبال العالية ونشرف على الوديان السحيقة أو السهول المنبسطة ونرى ما يغطيها من أشجار ونبات مختلف الأصناف، أو عندما نرنـو إلى السماء في أيـام الصيف ونرى قبة السماء تتلألأ بالنجوم كالمصابيـح ونرى البـدر يشع فيهـا بسحره ونـوره

الباهت، أو عند التأمل في البحار والأنهار والبحيـرات وما فيهـا من أسماك جميلة متعـددة الألوان والأشكـال، أو مـا على الأرض من حيـوانـات وحشـرات وطيـور وزواحف، أو عندما تصغي آذاننا إلى تغريد الطيور ونقيق الضفادع، عنـدما نـرى ونسمع كل ذلك ينطلق لسانا بتمجيد اللَّه وتسبيحه مشاركين الكون كله في ذلك التسبيح الذي أعلنه القرآن.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمـواتُ السَّبْعُ وَالأَرض وَمَـنْ فيهِنَّ وَإِن مِنْ شَيء إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُم﴾ (الإسراء : ٤٤).

هـذا وقد أثنى اللَّه على الـذين يتأملون أسـرار الكون ويـرون فيه يـد القدرة الإلَهية المبدعة فينطلق لسانهم بذكر اللَّه وتمجيده:

﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتُ وَالأَرض وَاخْتِلاف اللَّيل وَالنَّهار لآياتٍ لأُولي الألباب. الـذين يَذكـرُون اللَّهَ قِيامـاً وَقُعودا وَعَلَى جَنُـوبهم وَيَتَفَكَّـرُون في خَلْقِ السَّمـوات وَالأَرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَاب النَّارِ﴾.

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في فضائل وثواب ذكر اللَّه نذكر منها ما يلي:

«مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكرهُ مَثَلُ الحيِّ والميِّت»(١).

«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان(٢)، حبيبَتان إلى الرحمٰن: سُبْحان اللَّه وبحمده، سُبحان اللَّه العظيم»(٣).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي ميزان حسنات الإنسان.

(٣) رواه البخاري.

«أحب الكلام إلى اللَّه تعالى أربعٌ «سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إلَه إلاّ اللَّه، واللَّه أكبر لا يضرك بأيهن بَدَأْتَ»[١].

«من قال لا إلَه إلاّ اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»[٢].

«مَنْ لَزِمَ الاستغفار[٣] جعل اللَّه له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همٍّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٤].

* * *

وبعد هذا الاستطراد في ذكر اللَّه وثوابه العظيم نرجع إلى تفسير بقية هذه السورة فنرى الآيات التالية التي تبين حقيقة رسالة محمد، والتي تبشر المؤمنين بالثواب الكبير، وتنذر الكافرين بالعقاب مع توجيهات خاصة للنبي ﷺ:

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إلى اللَّه بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنيراً. وَبشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً. وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُم وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (٤٥ ـ ٤٨).

فاللَّه سبحانه أرسل محمداً ﴿شَاهِداً﴾ على من أرسل إليهم يراقب أحوالهم ويشاهد أعمالهم، كما يشهد يوم القيامة على من صدقه من قومه وآمن به، وعلى من كفر به وكذبه ﴿وَمُبَشِّراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب وهو الجنة، والبشارة هي الخبر السار ﴿وَنَذِيراً﴾ أي محذراً الكافرين

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) الاستغفار: طلب الغفران من اللَّه.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.

من وبيل العقاب يوم القيامة ﴿وداعياً إلى اللَّه﴾ أي داعياً يا محمد الناس إلى وحدانية اللَّه والتصديق بما جئت به من الدين ﴿بإذنه﴾ بأمر اللَّه إياك يا محمد بذلك ﴿وَسِرَاجاً منيراً﴾ شبه اللَّه رسوله محمداً بالسراج المنير لأنه يستضاء به في ظلمات الجهالة والغواية، ويُهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية ﴿وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ أي بشر المؤمنين بأن لهم ثواباً من اللَّه زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان ﴿وَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمنَافِقِينَ﴾ نهى اللَّه رسوله عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب معهم، وهنا تعريض لغيره من أمته لأن النبي معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون عليه ﴿وَدَعْ أَذَاهُم﴾ أي لا تبال بما يصدر منهم من الأذى واصبر عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوّض إلى اللَّه أمورك وثق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ وكفى باللَّه ناصراً ومعيناً وحافظاً لك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ
وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ
نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ
وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ

شرح المفردات

عدَّة : عدة المرأة ما تعده من أيام أو قرء لتخلص من زواج سابق وتستطيع الزواج بعدها.

تعتدُّونها : تعدُّوها.

ما ملكت يمينك : ما كان تحت يدك من الإماء (والأمة هي الرقيقة خلاف الحرة).

يَسْتنكحها : يتزوجها.

تُرْجي : تؤخر العلاقة الزوجية.

وتؤوي إليك : وتضم إليك وتضاجع.

ابتغيت : طلبت.

عَزَلْتَ : تجنبت ونحيتها جانباً.

يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ
مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟
بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا
دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا
سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا
أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ
وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

شَـرح المفـردَات

غير ناظرين : غير منتظرين.

إِنَاه : نضجه.

سألتموهُنَّ متاعاً : سألتموهن حاجة ينتفع بها.

إِنَّ اللَّهَ وملائكته يُصَلُّونَ على النبي : الصلاة من اللّه رحمة، ومن الملائكة دعاء واستغفار، ومن المؤمنين دعاء بالرحمة.

تابع سورة الأحزاب

ثم تعود بنا الآيات مبينة بعض الأحكام المترتبة على الطلاق قبل الاتصال الجنسي :

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ[1] المؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُم عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ[2] تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (٤٩) .

والمعنى : يا أيها الذين صدقوا باللّه ورسوله إذا عقدتم على المؤمنات بعقد الزواج ، وإنما خص اللّه المؤمنات بالذكر تنبيهاً على أن المؤمن لا ينبغي أن يختار لنطفته إلّا المؤمنة ، وإن كان للمؤمن التزوج من كتابية : يهودية أو نصرانية ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَالَكُم عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها﴾ فليس لكم أيها المؤمنون على نسائكم عدة تستوفون عددها ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ فأعطوهن عند الطلاق ما يستمتعن به من مال أو غير ذلك من ثياب أو حلي جبراً لخاطرهن من وحشة الفراق ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا﴾ فخلوا سبيلهن إلى أهلهن تخلية بالمعروف من غير إضرار ولا إيذاء ولا مطالبة بما أعطيتموهن .

---

(١) نكح الرجل المرأة : عقد عليها بعقد الزواج ، ولفظ النكاح في كتاب اللّه لم يرد إلّا في العقد ، ولم يستعملها بمعنى الوطء إلّا في قوله تعالى : ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ والوطء كنى عنه بالمس ، وبالملامسة ، وبالتغشي ، وبالإفضاء ، وبالمباشرة ، وبالدخول ، وبإتيان الحرث ، وبالقربان ، وبالاستمتاع ، وبالرفث . . . وهذا من الأدب العالي الذي يعلمنا اللّه إياه في كتابه الكريم .

(٢) العدة فترة من الزمن لا يصح للمرأة التي دخل بها زوجها وطلقها أن تتزوج في أثنائها من غير زوجها وهذه الفترة بالنسبة للمرأة من ذوات الحيض مدتها ثلاث دورات كاملة من الحيض والطهر أما التي انقطع عنها الحيض فعدتها ثلاثة أشهر ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام .

ثم يبين القرآن بعض أحكام الزواج الخاصة بالنبي ﷺ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزواجَكَ اللَّاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمينُك مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبناتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِك وَبَنَات خَالِـكَ وَبنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَـا للنبي إنْ أَرادَ النَّبِيُّ أن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المؤمنين قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنا عَلَيْهِم في أَزْواجِهم وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَـانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٥٠).

فاللَّه يخاطب نبيه محمداً بقوله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ أي أبحنا لك يا محمد أزواجك اللاتي هن في عصمتـك لأنهن قد اختـرنك على الـدنيا وزينتهـا ﴿اللاَّتي آتيْتَ أُجُـورَهُنَّ﴾ اللاتي أعـطيتهن مهـورهن ﴿وَمَـا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وما ملكته يدك من الإماء[1] مما غنمته في حربك مع الكفار من نسائهم ﴿وَبَنَاتِ عَمِّك وَبَنَاتِ عَمَّاتِك وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ هذه الآية أباحت لرسول اللَّه الزواج من هؤلاء الأقارب إذا هاجرن معه من مكة إلى المدينـة المنورة دون غيـرهن ممن لم يهاجرن، والمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة، فمن هاجـر حلّ له، سواء كن في صحبته أو لم يكنَّ. وهذا إيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر، وقد كان المسلمـون يهاجـرون من مكة إلى المـدينة للخـلاص من اضطهاد قريش، وللقيام بشعائر دينهم بحرية ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنَّبِيِّ﴾ أي وأبحنا لك أيها النبي الزواج من امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها لك بغير مهر تقرباً منك ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ إن أراد النبي أن يتزوجها بتلك الهبة بدون مهر ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ﴾ أي هذه

---

(١) الإماء جمع أمة أي المملوكة وهي خلاف المرأة الحرة.

الإباحة هي خاصة بك دون غيرك من المؤمنين، فلا ينعقد الزواج بهبة المرأة نفسها بدون مهر ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِم في أَزْوَاجِهِم وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم﴾ قد علم اللَّه ما فرض على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم من أحكام، وكان مما فرض اللَّه عليهم أن لا تزوج امرأة حرّة إلّا بولي ومهر وعقد بحضور شاهدي عدل ولا يحل لهم من النساء أكثر من أربع ﴿لِكَيْ لا يكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي أبحنا لك أزواجك وما ملكت يمينك من الإماء والموهوبة لكي لا يكون عليك ضيق ومشقة فيما شرعناه لك ﴿وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَحيماً﴾ وكان اللَّه غفوراً لذنوب عباده رحيماً بهم.

هذا وقد كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه في العلاقة الزوجية بالعدل فيخصص لكل زوجة دورها في المبيت إلى أن جعله اللَّه في حِلٍّ من ذلك، فقال سبحانه:

﴿تُرْجي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤوي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّن عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ولاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتيتَهُنَّ كُلُّهُنّ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا في قُلُوبِكُم وَكَان اللَّهُ عَلِيماً حَليماً﴾ (٥١).

فاللَّه يخاطب النبي بقوله: ﴿تُرْجي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخر العلاقة الزوجية ممن تشاء من أزواجك ﴿وَتُؤوي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تضم وتتصل بمن تشاء منهن وتبيت عندها ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّن عَزَلْتَ﴾ الابتغاء: الطلب، وعزل الشيء: نحاه عنه وأبعده. والمعنى: ومن طلبت من زوجاتك ممن أبعدتها عن القسمة وضممتها إليك ﴿فَلا جُنَاح عَلَيْكَ﴾ فلا إثم عليك ولا لوم. والخلاصة أن اللَّه سبحانه فوض الأمر إلى النبي يصنع في زوجاته ما شاء من ضم وتأخير إن شاء أن يقسم بينهن في العلاقات الزوجية قسم، وإن شاء أن يترك القَسْمَ ترك ﴿ذَلِكَ أَدْنى أن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي ذلك التفويض

إلى مشيئة النبي ﷺ أقرب لسرورهن لأنه حكم اللَّه تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي يرضين كلهن بما تعاملهن من ضم وتأخير وإيواء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما في قُلُوبِكُم﴾ واللَّه يعلم بكل ما تضمره قلوبكم من تذمر أو رضا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حليماً﴾ وكان اللَّه واسع العلم حليماً لا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

ثم يعود الكلام إلى نساء النبي فبعد أن خيَّرهن النبي بين الدنيا وزينتها وبين اللَّه ورسوله والدار الآخرة واخترن حينئذٍ اللَّه ورسوله، فمكافأة لهن على ذلك حرم اللَّه على رسوله التزوج بغيرهن:

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ (٥٢) .

والمعنى: لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد نسائك اللاتي خيرتهن ولا أن تبدل بأزواجك اللواتي في عصمتك أزواجاً غيرهن بأن تطلقهن وتتزوج غيرهن ولو أعجبك جمالهن ﴿إلَّا مَا مَلَكَتْ يَمينُكَ﴾ ولكن اللَّه أحل لك ما تملكه يدك من الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ رَقِيباً﴾ أي مطلعاً على كل شيء حافظاً له.

ثم يبين القرآن الآداب والأحكام الواجب التزامها مع رسول اللَّه حين يكون في أحد بيوته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُم إلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُم فَادْخُلوا فَإذا طَعِمْتُم فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِين لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُم كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتحي مِنْكُم وَاللَّهُ لا يَستحِي مِنَ الْحَقِّ وَإذا سَأَلْتُموهُنَّ مَتَاعاً فَاسْئَلُوهُنّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُم وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُم أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّه وَلَا أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ

أبداً إنَّ ذَلِكُم كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً. إنْ تُبدوا شَيئاً أو تَخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّه كَان بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٥٣ ـ ٥٤).

فاللَّه سبحانه يخاطب أصحاب النبي بقوله: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله لا تدخلوا بيوت النبي[١] إلّا أن تُدعوا إلى طعام تطعمونه ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ أي غير منتظرين ﴿إِنَاهُ﴾ أي نضجه وإدراكه وبلوغه. فاللَّه يأمر المؤمنين بأن لا يبكروا بالحضور إلى الوليمة ينتظرون صنع الطعام ونضجه ﴿إِلَّا أنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي لا تأتوا إلى بيوت النبي بقصد الطعام إلا إذا دعاكم النبي لتناول الطعام. فقد كان بعض الطفيليين يدخلون منازل النبي بغير إذن فيتحينون وقت الطعام فيدخلون إلى بيوت النبي ويشاركون أهل البيت في تناول الطعام ﴿وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُم فَادْخُلوا﴾ ولكن إذا دعاكم رسول اللَّه إلى الطعام فادخلوا البيت الذي أُذن لكم بدخوله ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشُروا﴾ فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم لأكله فتفرقوا وانصرفوا من منزله ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولا تمكثوا طويلاً بعد فراغكم من تناول الطعام مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ﴾ إن صنيعكم هذا يؤذي النبي ويضايقه ويمنعه من قضاء كثير من أموره، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف لخلقه الرفيع ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحي مِنَ الْحَقِّ﴾ واللَّه لا يمنعه من الجهر بالحق ما يمنع المخلوقين.

فليس من السائغ أن يتطفل المسلمون على النبي ﷺ فيعمدوا إلى الذهاب إلى أحد بيوته دون إذن منه ولا دعوة عند حلول وقت الطعام. وليس مقبولاً كذلك أن يضايقوا أهل بيت النبي بالمكوث فترة طويلة في انتظار أن ينضج الطعام ولو كانوا مدعوين إليه فإن هذا يثقل على أهل البيت عادة،

---

(١) بيوت النبي: هي البيوت التي أعدها رسول اللَّه لزوجاته فلما توفين ضمت إلى مسجده.

وليس من المستحسن إذا كانوا مدعوين إلى طعام أن يمكثوا فترة طويلة بعد تناوله مستأنسين بحديث بعضهم البعض فإن هذا مما يشق على أهل البيت ويحجز حريتهم وبالأخص أن البيوت في ذلك الزمن كانت صغيرة محدودة .

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾ وإذا سألتم ـ أيها المؤمنون ـ نساء النبي ما ينتفع به من لوازم البيت أو الحاجات الضرورية، أو ما ينتفع به من العلم أو الفتوى في الأمور الدينية ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فاطلبوا ذلك من وراء حاجز وحجاب ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ذلكم الأمر أكثر تطهيراً لقلوبكم وقلوبهن من الريبة وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء عادة وللنساء في أمر الرجال، وأحرى بأن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل. هذه آية الحجاب، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث منها قولي لرسول اللَّه: لو ضربت على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب .

﴿وَمَا كَانَ لَكُم أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ وما ينبغي لكم وما يصح أن تؤذوا رسول اللَّه في أي نوع من الإيذاء ﴿وَلا أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ أي ولا يحق لكم أبداً أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته لأنهن أمهات المؤمنين بالتوقير والتعظيم ﴿إِنَّ ذَلِكُم كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعد وفاته هو إثم عظيم عند اللَّه ولا ذنب أعظم منه. وسبب نزول الآية أن رجلاً قال: لئن مات محمد لأتزوجن امرأة من نسائه سماها فأنزل اللَّه هذه الآية.

﴿إِنْ تُبْدُوا شَيئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إن تظهروا شيئاً أو تخفوه في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بكل شَيء عليماً﴾ فإن اللَّه محيط علمه بكل شيء في الوجود لا يخفى عليه شيء .

وبعد نزول آية الحجاب قال الآباء والأبنـاء والأقارب للنبي ﷺ : ونحن أيضاً نكلم نساءك من وراء حجاب فنزلت الآية التالية :

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ في آبائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيداً﴾ (٥٥) .

لا جناح : أي لا إثم . فالقرآن ينفي الإثم عن نساء النبي في جواز ترك الاحتجـاب مع الآبـاء والأبناء والإخـوة وأبنائهم وأبنـاء الأخـوات ، والنسـاء والمـراد بهن المؤمنات خـاصة بـدليل الإضـافة إلى ضميـرهن ، وما ملكت أيمـانهم من الرقيق من رجـال ونساء ، وقيـل من النساء فقط ﴿واتَّقِينَ اللَّهَ﴾ واخشين اللَّه والْزَمْنَ طاعته في الخلوة والعلانية .

وبعد أن أمر اللَّه المؤمنين بالاستئذان عند دخول بيوت النبي وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً له ، بَيَّن بعد ذلك مكانة النبي ومنزلته عند اللَّه :

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَـلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـا أَيُّها الَّـذِين آمنوا صَلُّوا عَلَيْـهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٥٦) .

بهذه الآية شرّف اللَّه رسوله محمداً في حياته وبعد مماته وَبَيَّن للمؤمنين واجباتهم تجاه رسوله ، فاللَّه سبحانه يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ وصـلاة اللَّه على رسولـه محمد رحمتـه له وحسن ثنـائه عليـه عنـد ملائكته . والصلاة من الملائكة : الدعاء والاستغفار لـه . والملفت للنظر أن اللَّه لم يقل : والملائكة ، وإنما أضافهم إلى ذاته بقوله : ﴿وَمَلاَئِكَتَهُ﴾ إشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم وهذا يستلزم تعظيم النبي بما يصل إليه من الدعاء .

﴿يَـا أَيُّهَا الَّـذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْـهِ﴾ والصلاة من المؤمنين على النبيّ :

الدعاء له بالرحمة، وقد سئل رسول اللَّه من بعض أصحابه: يا رسول اللَّه قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

أما قول المؤمنين: اللهم صل على محمد، فمعناه: يا أللَّه ارحم محمداً وعظمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار[1] دعوته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وتضعيف أجره ومثوبته.

وصلاة الملائكة والمؤمنين على النبي تشريفهم بذلك حيث اقتدوا باللَّه في مطلق الصلاة، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم.

﴿وَسلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي حيّوا النبي بتحية الإسلام بأن تقولوا: السلام عليك أيها النبي، ومعنى هذه التحية: أنالك اللَّه السلامة من النقائص والآفات، وأسبغ عليك الحفظ والرعاية والسلامة من كل مكروه حيًّا وميتاً وعند البعث يوم القيامة، وذكر كلمة ﴿تسليماً﴾ للتأكيد، وقيل معنى ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي انقادوا لأوامر النبي، فالسلام من التسليم وهو الانقياد.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة فضل الصلاة على النبي، فقد قال النبي ﷺ:

«من صلى عليّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلّى عليّ»[2].

«من صلّى عليّ صلاة صلى اللَّه عليه بها عشراً»[3].

---

(١) إظهار: تقوية وتمكين.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ
ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ
وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ
لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟
وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ
لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ

شرح المفردات

احتملوا بُهْتَاناً : حَمَّلُوا أَنفسهم أشد الكذب.

يُدْنِينَ : يسدلن.

جلابيبهن : جمع جلباب وهي الملاءة التي تستر بها المرأة جميع بدنها.

أدنى : أقرب.

المرجفون : المشيعون للأخبار الكاذبة.

لَنُغْرِينَّك بهم : لنسلطنك عليهم.

لا يجاورونك : لا يساكنونك.

أينما ثُقِفُوا : أينما وجدوا.

خَلَوْا مِنْ قَبْلُ : مضوا من الأمم السابقة.

الساعة : القيامة.

اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ
وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا
السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

شَـرح المفـرَدات

سادتنا : الذين يتولون شؤون البلاد من الملوك والولاة.

فأضلُّونَا السبيلا : فأضلونا طرق الخير والهداية.

وجيهاً : ذا شرف ومنزلة.

سديداً : صواباً وصدقاً.

وأشفقن منها : وخفن منها.

تَابع سُورَة الأحْزاب

ثم يبيّن اللّه بعد ذلك مدى الإثم العظيم لمن يؤذي اللّه ورسوله والمؤمنين:

﴿إنَّ الَّذين يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهيناً. وَالَّذين يُؤْذُون المؤمنينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (٥٧ ـ ٥٨).

والمراد بإيذاء اللّه هو فعل الإنسان ما يكرهه سبحانه من الكفر والمعاصي مجازاً لاستحالة حقيقة التأذي في حق اللّه، وهذا الإيذاء مثل قول اليهود: يد اللّه مغلولة. وقول النصارى: إن اللّه ثالث ثلاثة، والمسيح ابن اللّه. وقول المشركين: الملائكة بنات اللّه والأصنام شركاؤه تعالى. وهناك نوع من الإيذاء بيّنه النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يقول اللّه عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره»[١] ومعنى هذا أن بعض العرب قبل الإسلام كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا فيسندون أفعال اللّه تعالى إلى الدهر ويسبونه وإنما الفاعل ذلك هو اللّه.

وأما إيذاء الرسول فيشمل كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال كقولهم فيه بأنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون، أو الذين طعنوا فيه حين اتخذ صفية زوجة له[٢]. أما الأفعال فكان يوم أن كسرت رباعيته وشج رأسه يوم معركة أُحد.

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم.

(٢) صفية بنت زعيم بني النضير من اليهود، ولما قتل سبيت بنته صفية فأرسل النبي بلالاً فجاءه بها بعد أن كانت موضع تنازع في الغنيمة فألقى النبي عليها رداءه ليؤذنها بأنه اختارها لنفسه ثم خيرها بين الإسلام أو أن تبقى على دينها فاختارت الإسلام وأعتقها ثم تزوجها فأثارت بجمالها وحكمتها غيرة نسائه فقال بعضهن: تزوج رسول اللّه يهودية فآذى ذلك النبي.

وقد حكم اللَّه على هؤلاء الذين يؤذون اللَّه ورسوله باللعن: أي الطرد والإبعاد من رحمة اللَّه، ثم جعل هذا اللعن يلازمهم في الدنيا والآخرة ليؤكد أن لا رجاء في قربهم من اللَّه وسعادتهم برحمته، وليس هذا فحسب بل لهم في الآخرة عذاب يهينهم فيه بالخلود فيه وهو عذاب جهنم.

أما الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير ما عملوا وبغير سبب يستحقون بها الأذية ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً﴾ فقد حملوا أنفسهم بهتاناً، والبهتان هو أفحش الكذب وأشنعه كما أنهم اقترفوا ﴿إِثْماً مُبيناً﴾ أي ذنباً واضحاً جليًّا.

فالبهتان في حق المؤمنين والمؤمنات هو أن ينقل عنهم ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص من قدرهم وفضلهم. وممن ينطبق عليهم هذا الوصف بعض الجهلة الذين يتنقصون من قدر الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم اللَّه منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر اللَّه عنهم، فإن اللَّه قد أخبر بأنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار، كما أثنى عليهم وحذر من إيذائهم، فليحذر كل من يتطاول عليهم بالطعن.

وقد روي عن قتادة وهو من أئمة التابعين لصحابة رسول اللَّه قوله: إياكم وأذى المؤمن فإن اللَّه يحوطه ويغضب له.

ولما تحدثت الآيات السابقة عن إيذاء المؤمنين ناسب أن يؤمر المؤمنات بأن يرتدين الثياب المحتشمة بما يمنع عنهن أذى الفسقة وأهل السوء:

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٥٩).

فاللَّه سبحانه يخاطب نبيه محمداً بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين

بأن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ والجلابيب: جمع جلباب وهو الثوب الذي تلبسه المرأة فوق ثيابها ويستر جميع البدن ويعرف حالياً بالملاءة. ومعنى يدنين: أي يرخين هذا الثوب ويسدلنه على أجسامهن فيستر الصدر ومعظم الوجه ويلوينه فوق الجبين ويعطفنه على الأنف بحيث تظهر عينا المرأة، وقال الحسن تغطي نصف وجهها. هذه المبالغة في ستر الوجه هو عند تعرضهن للأذى من قِبَلِ الفساق، أما عند أمْن الفتنة فإن للمرأة أن تظهر وجهها وكفيها وبهذا نطقت الآية الكريمة ﴿ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وفسِّر ذلك بإظهار الوجه والكفين ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أن يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ﴾ أي ذلك التستر باللباس هو أقرب أن يُعرفن بالعفة فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد بخلاف المتبرجة التي هي عرضة للمعاكسة والطمع فيها، أو أن يعرفن بأنهن حرائر ويتميزن عن الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً﴾ غفوراً لما سلف منهن من آثام رحيماً فلا يعاقب التائب عن ذنبه. وأسباب نزول هذه الآية أنه كانت المرأة الحرة والأمة تخرجان ليلاً لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل من غير فرق بينهن ولم يكن قد استحدثت في ذلك الزمن غرف ملحقة بالبيوت لذلك الغرض، وكان في المدينة فساق يعاكسون الإماء ويتعرضون لهن وربما تعرضوا للحرائر، فإذا أُنِّب الفساق يقولون حسبناهن إماء فأُمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر فلا يطمع فيهن أحد.

فهذا التستر الذي أمر به الإسلام عند استفحال الرذيلة هو الذي يصون المرأة ويحفظ لها شرفها وكرامتها وعفتها، فاللباس الذي تلبسه المرأة في العالم الغربي والذي بدأ يتسرّب إلى العالم الإسلامي من لباس شفاف ضيق يبرز محاسن الجسم مع إبراز الأذرع والسيقان وقسمٍ من الأفخاذ مع التفنن في تسريح الشعر واستعمال أنواع العطور المثيرة كل ذلك مما يفتح باب الإغراء على مصراعيه ويحدو بالفساق وأصحاب الفواحش بأن يعتدوا على

المرأة بالمعاكسة والخطف والاغتصاب، أو يغرونها بالانحراف ويسلبونها أعزَّ ما تملك في هذه الحياة، وهذا ما يحصل حاليًّا في كل دول العالم بحالات كثيرة تثير المخاوف.

وبعد أن أمر اللَّه المؤمنات بالتستر والاحتشام أنـذر سبحانـه المنافقين والفسقة بسوء المصير إذا لم يكفوا عن إيذائهم للمؤمنين:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المنَافِقُـون وَالَّذين في قُلوبهم مَـرَضٌ وَالْمُـرْجِفُـون في المدينة لَنُغْرِينَّكَ بِهِم ثُمَّ لا يُجاورونَكَ فِيهَا إلاَّ قليلاً. مَلْعُـونِينَ أَيْنَما ثُقِفُـوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً. سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذين خَلَوْا مِنْ قَبْـلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّـةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (٦٠ ـ ٦٢).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿لَئِن لَمْ يَنْتَهِ المنَافِقُونَ﴾ لئن: اللام لام القسم، والمنافقون هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسـلام ﴿وَالَّذِين في قلوبهم مَرَضٌ﴾ وهم أصحاب الفواحش الذين كانوا يتحرشون بنساء المدينة حبًّا في الفجور ﴿وَالمرجِفُونَ في المدينَةِ﴾ والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل، وقد كان هؤلاء المرجفون يخبرون النـاس عن سرايـا[1] المسلمين بأنهم هـزموا وتـارة بأنهم قتلوا. ومعنى مـا سبق: أقسم إن لم يكف المنـافقـون والـزنـاة وأصحـاب الإشاعـات والأخبار الكـاذبة عن عـدائهم للمسلمين ﴿لَنُغْرِيَنَّـكَ بِهِم﴾ هذه الجملة جواب القسم، أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل، أو لنحـرضنـك عليهم بحيث تضـطرهم إلى الجـلاء عن المـدينـة ﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرونَكَ فِيهَا إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي ثم لايكون لهم بقاء بجوارك في المدينة إلا

---

(١) سرايا: مفردها سرية وهي قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة وقيل هي من الخيل نحو أربعمائة سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السري النفيس.

عـدداً قليلاً منهم، أو زمنـاً قليلاً ريثمـا يتأهبون للخروج منهـا ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين من رحمة اللَّه ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ أينما وجدوا أُسروا وأُخذوا على وجه الغلبة والقهر وقتِّلوا أبلغ قتل.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا ما جرى بـه نظام اللَّه في خلقـه مع الـذين نافقـوا الأنبياء من قبل، أن يسلط اللَّه عليهم أهل الإيمـان فيذلوهم ويقهروهم ويجلوهم عن ديارهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْديلاً﴾ ولن تجد يا محمد لطريقة اللَّه التي سنها في خلقه تغييراً.

هؤلاء هم الطابور الخامس الذي يشيع في الأمة الفساد ويبث فيها روح الهزيمة ويوهن العقيدة، هؤلاء إن لم يكفوا عن مؤامراتهم الدنيئة فهم أحرى بأن تطهر الأرض منهم وبذلك يسلم المجتمع من أضرارهم.

وبعد تهديد المنافقين والزناة ودعاة الهزيمة بسوء المصيـر نرى بعضهم يسأل عن القيامة وموعدها استبعاداً لحصولها فيأتي الرد عليهم واضحاً مقترناً ببيان العاقبة الوخيمة التي ستحل بالكافرين يوم القيامة:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْـدَ اللَّهِ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً. إِنَّ اللَّه لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً. خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُون وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً. يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم في النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ (٦٣ ـ ٦٦).

الساعة: هي القيامة، فقد كان المشركون يسألون رسول اللَّه عن وقت قيامها استعجالاً على سبيل الاستهزاء ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن علم القيامة عند اللَّه لا يعلم وقت قيامها غيره ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبـاً﴾ أي وما يعلمـك وما يـدريك بهـا أحد، والمعنى على

النفي، لعل القيامة قد قَرُبَ وقتها، وفي هذا الرد تهديد ووعيد للمنكرين لها ﴿إنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكـافِرِينَ﴾ إن اللَّه طـرد الكـافـرين من رحمتـه ﴿وَأَعَـدَّ لَهُم سَعِيراً﴾ وهيأ لهم في الآخرة ناراً شديدة الاتقاء ليعذبوا بها ﴿خَـالِدِينَ فِيهَـا أَبَداً﴾ ماكثين في عذاب النار أبداً إلى غير نهاية ﴿لا يَجدونَ وَلِيًّا﴾ لا يجدون صاحباً أو قريباً يستنقـذهم من عذاب النـار ﴿وَلَا نصيراً﴾ ولا أحـد ينصرهم وينجيهم من عقاب اللَّه ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم في النَّارِ﴾ أي تقلب من ناحية إلى أخرى ليذوقوا العذاب من الناحيتين، وخصصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع للإنسان من جسده ﴿يَقُولُـون: يا لَيْتَنَـا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَـا الرَّسُـولا﴾ يا ليتنا أطعنا اللَّه في الدنيا وأطعنا رسوله محمداً فيما جاءنا بـه من عند اللَّه لنكون من أهل الجنة.

ثم يبين القرآن أسباب الضلال الذي أوردهم هذا العذاب:

﴿وَقَالوا رَبَّنَـا إنَّا أَطَعْنَـا سَادَتَنَـا وَكُبَرَاءَنَـا فَأَضَلُّونَـا السَّبيلا. رَبَّنَـا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (٦٧ ـ ٦٨).

لقد اعترفوا بأنهم أطاعوا سادتهم، وهم ملوكهم وولاتهم، كما أطـاعوا كبـراءهم وهم زعماؤهم، وطـاعتهم كانت بـامتثال أمـرهم والاقتـداء بهم، وتقليدهم تقليداً أعمى ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيـلا﴾ أي فأبعـدوهم عن طريق الحق والهـدى ﴿رَبَّنَا آتهم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَـذَابِ﴾ هذا هـو دعـاء الكـافـرين على سـادتهم وكبرائهم، أي عَـذّبهم من العذاب مثليْ عـذابنا الـذي تعذبنـا بـه ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنـاً كبِيراً﴾ واطـردهم من رحمتك واخـزهم خزيـاً كبيراً بمقـدار إثمهم وجرمهم.

هذا الهدي الرباني حرب على الديكتاتورية الطاغيـة وعبادة الشخصيـة التي أدت إلى إضعاف الأمة ومعاناتها ألواناً من الشقاء والتعاسة.

فكم من الملوك والأمراء والزعماء الذين استباحوا الظلم والمنكرات وساروا على طريق الضلال غير مراعين حرمة لدين أو ضمير فأطاعتهم شعوبهم طاعة عمياء فكان مصيرهم الخسران والضياع.

فالإسلام جاء بثورة على الحكام الظالمين الضالين ونبّه الشعوب بأن تقف سداً أمام تصرفاتهم الرعناء وألا تطيعهم وتجاريهم في ضلالهم، وأنه لا ينفعهم العذر يوم القيامة بأنهم كانوا أداة طيعة في أيديهم فكلهم في العذاب سواء.

وبعد أن حذر القرآن الكافرين من طاعة رؤسائهم انتقل إلى تحذير المؤمنين من إيذاء رسول اللّه بأي نوع من الإيذاء:

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنوا لا تكُونوا كَالَّذِين آذوا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجيهاً. يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُم أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٦٩ ـ ٧١).

فاللّه سبحانه يخاطب المؤمنين بأن لا يؤذوا رسول اللّه محمداً بقول يكرهه منهم، ولا بفعل لا يحبه، ولا يكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي اللّه فرموه بعيب في جسده كذباً وباطلاً فبرأه اللّه مما نسبوه إليه ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ والوجيه عند اللّه العظيم القدر الرفيع المنزلة.

وما أُوذي به النبي ﷺ على ما رواه الرواة أنه قسّم قسماً ـ أي نصيباً من الغنائم ـ فقال رجل هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه تعالى فغضب النبي من ذلك وقال: يرحم اللّه موسى فقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر.

وأما الأذى الذي تعرض له موسى من قومه فقد روي في ذلك حديث

عن النبي ﷺ قوله: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلّا من عيب في جلده إما برص وإما إدرة[١] وإما آفة، وإن اللّٰه أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر واغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر «أي دع ثوبي يا حجر» حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق اللّٰه وأبراه اللّٰه مما يقولون»[٢].

ومما آذاه قومه هو اتهامهم له عندما مات هارون وهو معه فوق الجبل بأنه قد قتله.

ثم يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ والتقوى هي أن يحذروا غضب اللّٰه وعقابه في كل ما يأتون ويذرون من الأفعال والأقوال ومن ذلك تناول سيرة النبي ﷺ بما يؤذيه وبما هو بريء منه ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ والقول السديد هو قول الصدق والحق والصواب. واللّٰه يعدهم أنهم إن فعلوا ذلك بقوله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي يوفقهم اللّٰه لصالح الأعمال، وإضافة إلى ذلك ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم﴾ أي ويعفُ عن ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ باتباع ما أمرا به واجتناب ما نهيا عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ فقد ظفر بالكرامة العظمى عند اللّٰه.

ثم يبيّن القرآن عظمة التكاليف الشرعية التي وضعها اللّٰه للناس:

---

(١) إدرة: انتفاخ في الخصية.

(٢) رواه البخاري.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوات وَالأَرضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٧٢) .

المراد بالأمانة: الطاعة، طاعة اللَّه من أمر ونهي والتكاليف الشرعية التي فرضها على الإنسان، وَشَرْعُ اللَّه كله أمانة ائتمنه عليه ودعاه للمحافظة عليه وأدائه بغير إخلال بشيء من حقوقه.

لقد عرض اللَّه الأمانة على السموات والأرض والجبال قبل أن يعرضها على آدم وذريته فلم تطقها، فقال لآدم: إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فما مكث آدم في الجنة إلاّ مقدار ما بين العصر إلى غروب الشمس حتى عمل بالمعصية فأُخرج منها.

وعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال هو من قبيل ضرب الأمثال، أي أنها على كبر أجرامها لو أنها بحيث يجوز تكليفها بالفرائض الشرعية لثقل عليها تحملها لما فيها من الثواب والعقاب. وقيل: يجوز أن يكون اللَّه قد خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقة فخافت منها، وامتنعت عن تحملها لا امتناع استكبار وعصيان ولكن امتناع استصغار لأنفسهن، وامتناع خشية لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً، وحملها الإنسان ليظهر اللَّه فضله على الخلائق تشريفاً له، ولقد جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بني آدم وَحَمَلْنَاهُم في البَرِّ وَالبَحْرِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾.

فما كلِّف به الإنسان بلغ من عِظَمِ وثِقَلِ محمله أن عرض على أعظم ما خلق اللَّه من الأجرام السماوية والأرض ﴿فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا﴾ فأعرضن

عن حملها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخِفْنَ من تحمل الأمانة ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ أي قَبِلَ تحمّلها والقيام بها، وعبّر عن قبولها بالحمل لإبراز معنى الصعوبة في القيام بها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة ﴿إنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ وصف الإنسان بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة والقيام بحقها، وبالجهل لجهله ما يسعده مع قدرته على أدائها.

ويختم اللَّه هذه السورة بتحذير المنافقين والمشركين من مغبة كفرهم مع تبشير المؤمنين بحسن العاقبة:

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ المنَافِقِينَ وَالمنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المؤمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٧٣).

ليعذب: اللام للعاقبة، أي كان عاقبة حمل الإنسان للأمانة أن يعذب اللَّه المنافقين والمشركين لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن طاعة اللَّه. ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المؤمِنينَ﴾ أي يقبل اللَّه توبة المؤمنين ويغفر لهم لأنهم أدوا الأمانة حقها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ غفوراً لذنوب المؤمنين والمؤمنات رحيماً أن يعذبهم بها بعد توبتهم منها.

وهكذا تختتم هذه السورة بتحذير المنافقين والمشركين من عذاب الآخرة متوافقة مع مطلعها الذي فيه النهي عن طاعتهم.

سورة سبأ

هذه السورة من السور التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية في تقرير وحدانية اللّٰه ووجود اليوم الآخر وإثبات نبوة محمد ﷺ.

سميت هذه السورة بسورة سبأ لأن فيها قصة أهل مدينة سبأ الذين أعطاهم اللّٰه كثيراً من النعم فأبطرتهم النعمة وكذبوا رسل اللّٰه فجازاهم اللّٰه بما يجازي كل كفور بأن أرسل عليهم سيلاً جارفاً دمر السد الذي كانوا يسقون منه مزروعاتهم وجرف بالتالي بيوتهم وأشجارهم، فأجدبت أرضهم بعد خراب السد وتفرقوا بعد ذلك في البلاد المجاورة كل تفرق.

وتتحدث السورة عن بعض أنبياء بني إسرائيل الذين قاموا بواجب الشكر للّٰه فتخص داود وسليمان بالذكر، وتذكر النعم والمعجزات التي خصهم اللّٰه بها.

وتذكر السورة أن المترفين في كل أمة أعداء الرسل وأعداء كل إصلاح لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم واعتقادهم أن ما آتاهم اللّٰه من النعم هو بسبب رضاء اللّٰه عليهم فتنفي السورة هذا الوهم الباطل.

وتذكر السورة إنكار المشركين للقرآن بأنه منزل من عند اللّٰه وإنكارهم لنبوة محمد الذي يتهمونه بالجنون وأنه يريد أن يصدهم عن دين الآباء فتأمر السورة المشركين بأن يلتزموا جادة العقل ويفكروا في أمر نبوته، وهو لم يعهد ولم يشاهد به جنون بل هو رسول من اللّٰه لهم لهدايتهم.

سُورَةُ سَبَأ
مكية وآياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾
وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ

شرح المفردات

يلج في الأرض: يدخل فيها.

يَعْرُجُ: يصعد.

يَعْزُبُ عنه: لا يفوت ولا يغيب عن علمه.

مُعاجزين: مسابقين يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم.

رجز: أشد العذاب وأسوئه.

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ
﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ
أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ
فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

شرح المفردات

صراط : طريق.

الحميد : المحمود في جميع شؤونه.

مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّق : قطعتم وصرتم رفاتاً وتراباً.

أفترى : اختلق كذباً (الهمزة للاستفهام أصله أإفترى).

جِنَّة : جنون.

كِسَفاً : قطعاً.

منيب : راجع إلى ربه بالتوبة مطيع له.

أوِّبي معه : رجعي معه التسبيح ورددبه.

وَأَلَنَّا له الحديد : جعلناه ليناً في يده كالشمع أو العجين.

سابغات : جمع سابغة وهي الدرع التي تغطي المقاتل غطاءً وافياً.

وَقَدِّر في السَّرْد : أحكم صنعتك في نسج الدروع واجعلها على قدر الحاجة.

سُورَةُ سَبَأ

ايضـــاح و دروس

تُستهل هذه السورة بالثنـاء على اللَّه الذي لـه ما في السمـوات وما في الأرض:

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذي لَهُ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ وَلَـهُ الْحَمْدُ في الآخِـرَةِ وَهُوَ الحكِيمُ الخبيـرُ. يَعْلَمُ مَـا يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَـا يَخْـرُجُ مِنْهَـا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحيم الغَفُورُ﴾ (١ ـ ٢).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء عليه بتمجيده وتعظيمه وشكره. والحمد والشكر متقاربان والحمد أعم. فالشكر لا يقال إلاّ في مقابلة نعمة، والحمد قد يكون شكراً للنعمة وقد يكون للثناء على شخص ابتداء، فحمد اللَّه هو الثناء عليه، ويكون شكراً لنعمه التي شملت كل ما في الوجود.

فاللَّه لما عَلِمَ عجز خلقه عن كنه حمده حَمِدَ نفسه فقال: ﴿الحمد للَّه﴾ وأمرهم أن يحمدوه بحمد موافق لحمده لأنه سبحانه ﴿لَـهُ ما في السَّمٰـوات وَمَا في الأَرض﴾ خلقاً وملكاً وتدبيراً ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ في الآخِرَةِ﴾ وله الثناء في الآخرة وهي دار البقاء يوم القيامة التي ينقسم فيها النـاس بين منعم ومعذب جسب أعمالهم ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وهو الحكيم في تدبير خلقه، الخبير بما عملوا وبما يصلحهم.

﴿يَعْلَمُ مَـا يلجُ في الأَرضِ﴾ أي يعلم اللَّه ما يـدخـل في الأرض من حبوب النبات والزواحف وما يتراكم في جوفها من أموات وما يتسرب داخلها من مياه ﴿وَمَا يخرجُ منها﴾ كما يعلم سبحانه ما يخرج من الأرض من شجر ونبات وعيون مـاء وبراكين ونفط ومعـادن مختلفة ﴿وَمَـا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَـاءِ﴾

ويعلم اللَّه ما ينزل من السمـاء من أمطار وثلوج ونيـازك وإشعاعـات مختلفة ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي ويعلم ما يصعد في السماء من الملائكة وأرواح العباد وأعمالهم، وما يصعد فيها من أبخرة ودخان وما استحدثه الإنسان للصعود في طبقات الجو.

فالقرآن وصف علم اللَّه الشامل بكلمـات قليلة تشهد بمصـدره الإلٰهي فمثل هذا الوصف لا يخطر في عقل بشر ولا هو من طبيعة تفكيره، هذا مع العلم أن أهل الأرض لو وقفوا حياتهم يـرصدون ويحصـون ما ذكـره القرآن لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه.

ويتابع القرآن تصوير علم اللَّه المحيط بالكون مع التأكيد على حصول القيامة:

﴿وَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَـالُ ذَرَّةٍ في السَّمٰوات وَلا في الأَرْضِ ولا أَصْغَـرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ (٣).

والساعة هنا: هي القيامة، لقد أنكر الكفار حصولها، واستعجلوا قيامها استهزاءً بها وتكذيباً ﴿قُـلْ: بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قـل لهم ـ أيها الـرسول ـ أقسم بربي لتأتينكم، والقسم هنا توكيد لحصولها وأنها كائنة لا محالة ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾ فاللَّه يعلم مـا يغيب عن حواس الناس وعقولهم، ولا يعلم مجـيء القيـامة أحـد سواه ﴿لا يَعْـزُبُ عَنهُ﴾ لا يغيب عنـه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ زنـة ذرة، والـذرة أصغر جـزء في أي عنصر من العنـاصـر(١) ﴿في السَّمٰـوات وَلاَ في الأَرْضِ﴾ أي كائناً ما كان وجود هذه الذرة سواء في السموات أو في الأرض

(١) قبل أن تتكشف حقائق الذرة كان الأقدمون يعرفون الذرة بأنها ما يـرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة من دقيق الغبار.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ أي ولا يغيب عن علم اللّه أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إلّا ويعلمه اللّه وهو مدوّن في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ يوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه اللّه وَقَدَّر أن يعمله.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ في الكلام عن الذرة، وفي هذا التعبير إعجاز وسبق علمي للقرآن، فمنذ أربعة عشر قرناً عهد نزول القرآن كان الاعتقاد السائد أن الذرة هي أصغر جزء في عنصر ما وأن الذرة غير قابلة للتجزئة، وظل هذا الاعتقاد سائداً إلى القرن التاسع عشر، ومن بعدها، وخلال عشرات السنين الماضية حوّل كثير من رجال الطبيعة اهتمامهم إلى مشكلة تقسيم الذرة ووفقوا إلى ذلك ووجدوها تحتوي على الدقائق الآتية: البروتون ـ النيوترون ـ الألكترون. فكلمة (أصغر) من الذرة في الآية تنبؤ علمي بتجزئة الذرة ووجود ما هو أصغر منها.

والملفت للنظر في معرض الكلام عن الذرة قوله تعالى: ﴿في السمٰوات ولا في الأَرْضِ﴾ أي أن خواص الذرة لأي عنصر ما في السماوات هو مثيل لما هو كائن في الأرض. وهذه حقيقة علمية، فقد اكتشف العلماء أن في الشمس التي تعتبر نجماً كسائر نجوم السماء عشرات العناصر الموجودة في الأرض مثل الهيدروجين والكربون والآزوت والأوكسجين والفوسفور وغير ذلك من العناصر وكل من هذه العناصر لها ذرات، بالإضافة إلى كواكب السماء التي تماثل في عناصرها الكوكب الأرضي.

وبعد أن بيّن القرآن مدى علم اللّه انتقل إلى بيان الحكمة الإلٓهية من وجود الآخرة:

﴿لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ آمنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ أُولَئِـكَ لَهُم مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِين سَعَوْا في آيَاتِنَا مُعَاجِـزِينَ أُولَئِك لَهُمْ عَـذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ. وَيَرى الَّذِين أُوتوا العِلْمَ الذي أُنْـزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبِّـكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْـدِي إلى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٤ ـ ٦).

فاللّه سبحانـه يقول: ﴿لِيَجْـزِيَ الَّذين آمنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ﴾ أي ليثيب الذين صدّقوا بوحدانية اللّه ونبوة محمد وعملوا بما أمرهم اللّه ورسوله وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾ أي لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وعيش هنيء في الجنة.

﴿والذين سَعَوْا في آيَـاتِنَا﴾ والـذين عملوا على إبطال آيـات اللّه وصد الناس عنها بادعاء أنها سحر أو شعر أو أساطيـر الأولين ﴿مُعَاجِـزِينَ﴾ ظانين ومقدرين عجزنا بأنّا لا نقدر عليهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أولئك لهم أسوأ العذاب المؤلم.

﴿وَيَـرَى الَّذِينَ أُوتُـوا العِلْمَ﴾ قيل هم مؤمنـو أهل الكتـاب، وقيـل هم أصحاب رسول اللّه ومن شايعهم من علماء الأمة، والآية تشمل كل ذي علم ﴿الذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ أي الذي أنزل عليك يـا محمد من القرآن هو الحق الـذي لا ريب فيه ﴿وَيَهْـدِي إِلَى صِرَاطِ العَـزِيزِ الْحَمِيـدِ﴾ ويهدي إلى طريق اللّه الغالب كل شيء المستحق لكل ثناء.

نعم إن الـذين أوتـوا العلم يعلمـون أن مـا جـاء بـه محمـد من الـدين هـو الحق، فما كـانت عليه العـرب من تشريعـات فاسـدة وعقائـد بـاليـة، وما كانت عليه الأديان من تناقض واختلاف، وما جاء به الإِسلام من حقائق حول الألوهيـة وحول مـا اختلفت به الأديـان، وما سنّـه من عبادات تهـذب الإِنسـان وتشريعـات عادلـة تتناول الأسـرة والعلاقـات العامـة ونظام الحكم

والتصرف في الأموال كل ذلك دلائـل واضحة على أن القـرآن هو حق وأنـه صادر من عند اللّه.

ثم يعرض القرآن شبهات الكفار على حصول القيامة وبعث الناس أحياءً للحساب:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُم إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنكُم لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ﴾ (٧ ـ ٨).

فـالذين كفـروا أنكـروا البعث والقيـامـة، وكـان يقـول بعضهم لبعض استهزاءً: ﴿هَلْ نَدلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون به محمداً ﷺ ﴿يُنبئكُم إِذَا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يخبركم ويحدثكم بأنكم إذا متم وفرقت أجسـادكم كل تفـريق وصارت تراباً وحطاماً بِفِعْلِ البلى ﴿إنكم لَفِي خَلْقٍ جَديدٍ﴾ أي إنكم لتبعثون من قبـوركم أحياء وتنشـأون خلقـاً جـديـداً ﴿أَفْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبـاً﴾ أي أهو كاذب فيما نسبه إلى ربه من إحيائه للموتى ﴿أَمْ بِـهِ جِنَّة﴾ أم بـه جنون بحيث لا يعقل ما يقوله ﴿بَلِ الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخرة﴾ بل: أداة للإضراب تبطل المعنى الذي قبلها وترد على ما بعدها، أي ليس الأمر كما يزعمون من أن محمداً كاذب أو مجنون، بل الذين يجحدون البعث ولا يصدقون بالآخرة هم ﴿في الْعَـذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيـدِ﴾ أي مصيرهم في العـذاب الدائم في الآخرة وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد، وتقديم العـذاب على ما يوجبه وهو الضلال للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلَهية القادرة على كل شيء:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أيديهم وَمَا خَلْفَهُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ

عَبْدٍ مُنيبٍ﴾ (٩).

والمعنى: أعموا فلم ينظروا إلى ما هو أمامهم وما هو وراءهم ﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ فيروا ما في السماء من كواكب ونجوم، وما في الأرض من جبال وسهول وأنهار وبحار وأصناف النبات والحيوان فيستدلوا بذلك على عِظَم قدرة اللَّه القادرة على إحياء الموتى ﴿إنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ إن يشأ اللَّه يخسف بهم الأرض بأن يجعلها تغور بهم وتغيبهم فيها ﴿أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو يسقط اللَّه عليهم قطعاً من أجرام السماء كالنيازك تهلكهم أو بقطع من النار تحرقهم ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن في ذلك لدلالة ظاهرة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ﴾ لكل عبد تائب رجاع إلى اللَّه بقلبه منتفع بفكره في حجج اللَّه وآياته، معترف بوحدانيته، مذعن لطاعته.

وبعد أن بيَّن القرآن أن من ينتفع بآيات اللَّه هو من ينيب إلى اللَّه ذكر من هؤلاء المنيبين داود عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ آتينا دَاودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إنِّي بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ﴾ (١٠ - ١١).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَقد[1] آتينا دَاودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ واللَّه: قد أعطينا داود مِنَّا فضلاً، والفضل الذي أعطاه اللَّه لداود كثير: ويشمل النبوة، وكتاب الزبور - المعروف بالمزامير - والملك والصوت الحسن ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبي مَعَهُ﴾ يا جبال رجّعي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال: أن اللَّه يخلق فيها تسبيحاً له، فيُسمع منها ما يسمع من المسبح للَّه ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي وأمر اللَّه الطير أن

---

(١) ولقد: اللام الداخلة على قد موطئة لقسم محذوف وقد للتوكيد.

تسبح مع داود وترجع تسبيحه إذا شرع في تسبيح اللّه. وتسبيح اللّه هو تنزيهه عن النقصان وبراءته من السوء وتقديسه وتمجيده.

فالقرآن يذكر من فضل اللّه على داود أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في عبادة اللّه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات فتجاوبت معه الجبال والطير في تسبيح الخالق جل وعلا، وأدرك داود هذا التسبيح وسمعه بما أعطاه اللّه من إشراق وصفاء روحي. هذا مع العلم أن الجبال والطير وكل شيء في الكون يسبح الخالق كما جاء في القرآن.

﴿تُسَبِّحُ له[1] السَّمٰوات السبعُ والأرض وَمَنْ فيهنَّ وإن منْ شيء إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْده وَلكن لا تفقهون تَسبيحهم. . .﴾ (الإسراء: ٤٤).

وجاء في القرآن: **﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾** النور

فإذا كان كل شيء في الكون يسبح الخالق ويمجده، فما أحرى وأجدر بالإنسان الذي كرمه اللّه وفضله على كثير من خلقه أن يتجاوب مع الكون وأن يكون في مقدمة الذين يسبحون الخالق ويقدسونه.

ويتابع القرآن ذكر ما خص اللّه به داود من المعجزات: **﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدُ﴾** أي جعل اللّه الحديد ليناً في يده كالشمع أو العجين يتصرف فيه كيف يشاء من غير إحماء بنار أو ضرب بمطرقة معجزة له **﴿أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾** أي اعمل دروعاً واسعة تحمي من بأس الأعداء **﴿وَقَدِّرْ في السَّرْدِ﴾** السرد: نسج حَلَق الدروع، أي أحكم نسجها بتداخل حلقاتها على مقادير متناسبة، فلا تعمل حلقاتها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدرع على

---

(١) له: أي للّه سبحانه.

الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها ويناله الأذى من خلال حلقاتها. وداود أول من اتخذ الدروع حلقات[1] وكانت قبل ذلك صفائح ثقالاً، وهذا النوع من الدروع لا يعوق لابسها عن الحركة كما يعوق الدرع الذي يتكوّن من صفيحة واحدة ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ والصلاح ضد الفساد كما جعله القرآن مقابل السيئة، فالعمل الصالح هو العمل النافع الذي فيه الخير للإنسان ولمجتمعه.

تأمل كيف أن اللّه بعد أن أوصى داود بصنع الدروع أمره وأمر أتباعه بالعمل الصالح لخير دنياهم وآخرتهم لأن الدنيا والآخرة مترابطان في نظر الدين كل منهما تكمل الأخرى، فكما أن القوة العسكرية تحمي الأمة من الأعداء وتقيها ذل الاستعمار فكذلك الإيمان والعمل الصالح يصلح الأمة ويحول بينها وبين الفساد.

---

(١) يروى أن داود كان يتنكر ويسأل الناس عن حاله فعرض له ملك في صورة إنسان فسأله عن داود فقال: نِعْمَ العبد لولا خلة فيه، فقال: وما هي؟ فقال يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده تمت فضائله، فدعا اللّه فعلمه صنعة الدروع. وروي عن النبي محمد ﷺ قوله: إن داود كان لا يأكل إلاّ من عمل يده.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ
مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ
كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟
فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ
وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ

شرح المفردات

غُدُوُّها شهر : أي سير الريح من الصباح إلى الزوال مسيرة شهر للسائر المجد.

رَوَاحها شهر : أي سيرها من الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.

أسَلْنَا : أذبنا.

عين القطر : عين النحاس المذاب.

يَزِغ : يعدل.

مَحَارِيبَ : قصور ومساجد.

جفان : جمع جفنة وهي القصعة التي يؤكل فيها.

الجواب : الحياض الكبيرة.

قُدورٍ رَاسِيَاتٍ : آنية يطبخ فيها ثابتة على المواقد لعظمها.

دابة الأرض : سوسة تأكل الخشب تسمى الأرضة.

مِنسأته : عصاه.

جنتان : بستانان.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ
بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ
وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

﴿١٥﴾ at start of first line.

شَـرح المفـردَات

فأعرضوا : مالوا عن شكر اللّه وكذبوا رسله.

العرم : اسم للسد أو للسيل أو للمطر الشديد.

أُكُلٍ خَمْطٍ : كل نبت مرّ حامض تعافه النفس.

أَثْل : شجر يشبه شجر الطرفاء.

سِدْر : شجر النبق.

قرى ظاهرة : قرى متواصلة من اليمن إلى الشام.

قدَّرنا فيها السير : حددنا مسافات السير بينها بمراحل متقاربة لا يحتاج المسافر إلى زاد.

فجعلناهم أحاديث : أي صيرهم اللّه أحاديث للناس يعتبر بها.

مَزَّقْنَاهم كُلَّ مُمَزَّق : فرقناهم في البلاد كل تفريق.

صبَّار : المبالغ في الصبر أي الذي يصبر عن المعاصي.

صدَّق عليهم ظنه : حقق عليهم ظنه.

من سُلْطَانٍ : من تسلط عليهم بالوسوسة والإغراء.

تابع سورة سبأ

وبعد الكلام عن داود عليه السلام تتحدث الآيات عن ابنه سليمان وما خصه اللَّه به من معجزات:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّه وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاودَ شُكراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١٢ ـ ١٣).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي وسخر اللَّه لسليمان الريح تجري بأمره فتنقله مع جنوده إلى حيث يشاء من البلدان، فتقطع في سيرها من الصباح إلى الظهر المسافة التي يقطعها السائر المجد في سيره مدة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ وتسير به الريح من الظهر إلى الغروب مسيرة شهر، أي أن الريح تقطع بسليمان في يوم المدة التي يقطعها السائر في شهرين.

أما كيفية تنقل سليمان مع جنوده، سواء أكان جالساً على بساط أو مركب كما ذكر بعض المفسرين، فهذا مما لم يشر إليه القرآن، وعلى هذا فلا يحسن أن نحدّد نوع المركوب الذي يسير بواسطة الريح الذي كان ينقل سليمان وجنوده. وتسخير الريح لسليمان هو من المعجزات التي خصه اللَّه بها، واليوم قد وفق اللَّه الإنسان بعد جهود مريرة إلى تسخير الريح في تنقلاته فاخترع الطائرة النفاثة التي تنقله إلى أقاصي المعمورة في أيام كان في الماضي يقطعها في أشهر.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ أي وجعل اللَّه له النحاس الذائب يسيل من

عين كأنه عين ماء ﴿وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي وسخر اللَّه لسليمان من الجن من يعمل له البنايات وغيرها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره تعالى الجن أن يطيعوا سليمان ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنهِمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ ومن يعدل من الجن عن أمر اللَّه فيمتنع عن طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي يذيقه اللَّه سبحانه عذاب نار جهنم الموقدة في الآخرة، وقيل ذلك في الدنيا وذلك أن اللَّه وكّل بالجن ملكاً بيده سوط من نار فمن استعصى عن أمر سليمان ضربه الملك بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه تعذيباً له. ﴿يَعْمَلُون لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ محاريب: جمع محراب، ويطلق على صدر البيت، والمسجد، والقصر، والبناء الحسن المرتفع، وكان مما عمل الجن لسليمان بيت المقدس ﴿وَتَماثِيلَ﴾ كما عمل الجن لسليمان تماثيل من نحاس ورخام وزجاج للحيوانات والطيور وغيرها ﴿وَجِفَانٍ﴾ جفان: جمع جفنة وهي القصعة التي يؤكل فيها ﴿كَالجَوَابِ﴾ والجوابي: جمع جابية وهي الحوض الكبير، أي أن الجن عملت لسليمان الآنية الكبيرة التي يوضع فيها الطعام وتكفي لعشرات الناس وهي من الكبر والضخامة كالحياض الكبيرة التي يجبى فيها الماء. ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ وكذلك عمل الجن لسليمان أواني للطبخ ثابتات على قواعدها وأماكنها لا تتحول ولا تتحرك لكبرها وعظمها ﴿اعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْراً﴾ اعملوا بطاعة اللَّه يا آل داود شكراً له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه.

والشكر على ثلاثة أنواع: شكر القلب وهو الإقرار بالنعمة بأنها من اللَّه مقرونة بالحب والامتنان، وشكر الجوارح وذلك باستعمالها في طاعة اللَّه وتقواه، وشكر اللسان ويكون بالثناء على اللَّه. ووفاء شكر اللَّه صعب لا يوفق له إلا القليل من الناس ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وقد روي عن ابن عباس قوله: الشكور: من يشكر على أحواله كلهـا. أي في السراء والضراء، والغنى والفقر، والصحة والمرض.

وبعد أن بيَّن اللَّه مدى ملك سليمان بيّن بعد ذلك أنه لم ينج من الموت وأن الموت مآل كل إنسان:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموْتَ مَـا دَلَّهُم عَلَى مَوْتِـهِ إلَّا دَابَّةُ الأرْضِ تَـأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون الغَيْبَ مَا لَبِثُوا في العَذَابِ المُهِينِ﴾ (١٤).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموتَ﴾ أي فلمـا حكمنا على سليمان بالموت ﴿مَا دَلَّهُم عَلَى مَوْتِهِ إلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ أي ما دل الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي السوسة ويطلق عليهـا الأرضة ﴿تـأْكُلُ مِنسَـأَتَهُ﴾ تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ فلمـا سقط سليمان عن عصـاه ميتاً ﴿تَبينَتِ الجِنُّ أنْ لَـوْ كَـانُـوا يَعْلَمُـون الغَيْبَ﴾ عنـدئـذٍ علم الجن بمـوت سليمـان، وانكشف لهم أن لـو كانـوا يعلمون مـا يغيب عنهم ﴿مَـا لَبِثُـوا في العَـذَابِ المهينِ﴾ مـا لبثـوا في العــذاب الشـاق من تسخيــر سليمـان لهم في أشق الأعمال.

وتوضيح ذلـك أن داود عليه السـلام أسس مسجد بيت المقـدس وقبل وفاته أوصى سليمان في إتمام بناء المسجد فأمر سليمـان الجن به. ثم لمـا أحس سليمـان بـدنـو أجله قــال لأهله لا تخبـروهم بمـوتي حتى يتم بنـاء المسجد. وكان من عادة سليمان أن يقوم بعبادة ربه متكئاً على عصاه، وتوفي سليمان وهو متكىء على عصاه وبقي كذلك زمناً ما والجن مسخرة بـالعمل ظانين أن سليمان حي إلى أن تم بناء المسجد. ثم إن السوس دب في عصا سليمان فنخرته فانكسـرت وسقط سليمان على الأرض، عنـدئذٍ علم الجن

بموت سليمان. وقد تكون السوسة بدأت نخرها في العصا في حياة سليمان وتابعت نخرها بعد وفاته إلى حين اهترائها وانكسارها.

وبعد أن بيّن اللّه حال الشاكرين لنعمه مثل داود وسليمان، بيّن بعد ذلك حال الكافرين لنعمه وهم قوم سبأ.

وسبأ هي أرض باليمن مدينتها مأرب، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبى السبي من ملوك العرب وأدخل إلى اليمن السبايا، وذكر بعض الإخباريين أنه بنى مدينة سبأ وسد مأرب، وقيل إن السد بُني على يد بلقيس ملكة سبأ.

وقد بني سد مأرب في مضيق بين جبلين وبُني في عرضه سور عظيم عُرِف بسد مأرب أو بسد العرم وبين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحته وما يحيط به من سفوح وجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء فأصبحت بعد بناء السد غياضاً وبساتين تجود بالثمر الكثير على سفحي الجبلين، وهي المعبر عنها بالجنتين، الجنة اليمنى والجنة اليسرى.

ثم لما كذّب قوم سبأ الرسل سلّط اللّه عليهم فأراً وقيل جُرذاً يسمى الخلد فثقب السد من أسفله مما سبب في انهياره وفاض السيل جارفاً كل مزروعاتهم وبيوتهم، وأتى على أرزاقهم. وقيل إن الذي كسر السد سيل كثير ملأ الوادي.

ويرى بعض المؤرخين العرب أن السد تهدم نحو القرن السادس للميلاد وقيل في القرن الخامس.

ولقد تحدث القرآن عن قوم سبأ وسد مأرب بقوله :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِم آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُم وَاشْكُروا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيءٍ مِنْ سِدْرٍ قَليلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَروا وَهَلْ نُجَازي إلاَّ الكفُورَ﴾ (١٥ ـ ١٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبإٍ فِي مَسْكَنِهِم آيَةٌ﴾ أقسم: قد كان لأهل سبأ في مسكنهم باليمن علامة تدل على أن من بطر النعمة سلبه اللَّه إياها وبدله بها بؤساً وشقاءً ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يمينٍ وَشِمالٍ﴾ وليس المراد بستانين فحسب وإنما أراد مجموعتين من البساتين: مجموعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها، وكانت كل واحدة من المجموعتين في تقاربها كأنها جنة واحدة ﴿كُلوا مِن رِزْقِ رَبِّكم﴾ الذي يرزقكم من تلك الجنتين ﴿وَاشكروا لَهُ﴾ واشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم من رزقه ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي كريمة التربة، حسنة الهواء، رغدة النعم، سليمة من الهوام والحشرات والزواحف الضارة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ورب غفور لذنوبكم إن أنتم عبدتموه وحده وأطعتموه ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن عبادة اللَّه وحده وعن شكره على ما أنعم به عليهم وعبدوا الشمس وهذا ما ذكره القرآن على لسان الهدهد عن وضع سبأ عندما قال لسليمان: ﴿وَجَدْتُها وَقَومَهَا يَسْجُدونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (النحل: ٢٤).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ﴾ أي فأطلق اللَّه عليهم السيل الجارف، فحطم السد وخربه فأتلف مزروعاتهم ودمر مبانيهم. وفي معنى العرم جملة أقوال: الماء الغزير الشديد. أو اسم للوادي الذي كان يأتي السيل منه. أو اسم للسد ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بجنتيهم جَنَّتَيْن﴾ وبدلهم اللَّه بجنتيهم المثمرتين

جنتين ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي صاحبتي نبت مر تعافه النفس ﴿وَأَثْلٍ﴾ وهو شجر الطرفاء، وقيل شجر يشبهه، أغصانه كثيرة التعقد، وثمره حب أحمر لا يؤكل ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر هو شجر النبق وهو نوعان: بري لا ينتفع به وله ثمر عفص لا يؤكل، ونوع له ثمر فيه حلاوة، ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، فبينما كان شجرهم من خير الشجر إذ صيّره اللّه من شر الشجر جزاء أعمالهم. ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم الذي خرّب جناتهم هو جزاء منا على كفرهم وتكذيبهم رسلنا ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ﴾ أي وما نجازي هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفر.

ويتابع القرآن الكلام عن قوم سبأ:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ القُرى التي بَارَكْنَا فيها قُرًى ظَاهِرَة وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمنين. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُم فَجَعَلْنَاهُم أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٨ - ١٩).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ القُرى التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي وجعل اللّه بين بلاد سبأ وبين القرى التي بارك فيها وهي: الشام والأردن وفلسطين ﴿قُرى ظَاهِرة﴾ قرى متصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين أهلها ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْر﴾ وجعلنا هذه القرى على قدر معلوم من المسافة، فكانت نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين بحيث أن المسافر باكراً يصل ظهراً إلى قرية وإذا تابع سيره ظهراً يبيت في أخرى لا يحتاج إلى زاد وماء ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمنينَ﴾ سيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً، وقدم

القرآن ذكر الليالي لأنها مظنة الخوف ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ هذا الدعاء فيه بطر بالنعمة، فإنهم لما سئموا أطيب العيش وأسهله طلبوا الكد والتعب وسألوا ربهم أن يجعل بينهم وبين مقصدهم إلى الشام أو بيت المقدس صحارى وأراضي مقفرة لا ماء فيها فلا يحتاجون للمبيت والتزود من قرية بل يعدوا الجمال الخاصة بالسفر ويهيئوا الزاد للمسافات البعيدة، وهذا لا يكون إلّا للأغنياء، وذلك ليتطاولوا ويفتخروا على الفقراء منهم، فعجل اللَّه إجابة دعائهم بتخريب تلك القرى المتوسطة التي كانوا يبيتون فيها ويتزودون منها ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيب الرسل والبطر بالنعمة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي صيرهم اللَّه أحاديث للناس يتحدث بأخبارهم ويعتبر بعاقبتهم ويضرب الأمثال بهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي وفرقناهم تفريقاً اتخذه الناس مضرب المثل، فيقال: تفرق القوم أيادي سبأ، وأيدي سبأ، واليد هنا: الطريق، أي فرقتهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في جهات مختلفة، فلحقت كل قبيلة منهم بجهة، فمنهم غسان لحق بالشام، والأوس والخزرج بيثرب، والأزد بعُمان، وخزاعة بتهامة، وآل خزيمة بالعراق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في ذلك علامات يتعظ بها كل صبار عن المعاصي، ملتزم طاعة ربه شكور لنعمه.

ثم يبين القرآن بأن ما أصاب قوم سبأ من شقاء سببه اتباع الشيطان:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِم إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ المؤمنين. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾ (٢٠ - ٢١).

فإبليس صدّق على قوم سبأ ظنه أي حقق عليهم ما توقع من إغوائهم وهناك قراءة «صَدَقَ» بتخفيف الدال أي صدق في ظنه. فإبليس قال في بني

آدم حين أخـرجه اللّٰه من الجنـة: ﴿ثُمَّ لآتينَّهم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهم وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أَيْمَانِهم وَعَنْ شَمَائِلهم وَلا تَجِدُ أكثَرَهُمْ شَاكِرينَ﴾ (الأعراف : ١٧).

لقد ظن إبليس بقوم سبأ أنهم يطيعونه في معصية اللّٰه فصدق ظنه فيهم حين أطاعوه وعصوا ربهم ﴿إلاَّ فَرِيقاً مِنَ المؤمنين﴾ فإنهم ثبتوا على طاعـة اللّٰه ومخالفة إبليس ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وما كـان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها أو قوة يخضعهم بهـا ﴿إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّن هُوَ في شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي ولكن ابتليناهم بوسوسة الشيطان ليظهر من يؤمن بـالآخرة ومـا فيها من جـزاء وحساب ممن هـو في شك وريبـة من وقوعها ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾ وربك ـ أيها النبي ـ على كـل شيء رقيب مهيمن يرعاه ويصونه.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ
ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ
رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ
أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ
لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

حفيظ : رقيب مهيمن.

شِرك : شراكة.

ظهير : معين.

فُزِّع عن قلوبهم : أزيل عنها الفزع والخوف.

الفتَّاح : القاضي والحاكم.

يرجع : يرد.

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ
إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ
أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى
قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

شرح المفردات

مَكْر الليل والنهار : خداعكم لنا بالليل والنهار.

أَسَرُّوا الندامة : أخفوا الندم أو أظهروه.

الأغلال : القيود.

مُتْرَفُوهَا : المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة.

وَيَقْدِر : ويضيق.

تابع سورة سبأ

ثم يبين القرآن للمشركين تفاهة عبادتهم للأصنام وبطلان ما كانوا يعتقدون أنها شريكة للّه أو شفيعة لهم عنده:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمٰوات وَلاَ في الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهيرٍ. وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَن أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم قَالوا مَاذَا قَالَ رَبُّكم قَالوا الحقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكبيرُ﴾ (٢٢ ـ ٢٣).

فاللّه سبحانه يقول توبيخاً للمشركين: ﴿قُلِ ادْعُوا الذين زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا أصنامكم الذين زعمتم أنها آلهة من دون اللّه لتكشف عنكم الضر أو لتجلب لكم النفع، وهم لا يجيبونكم لأنهم ﴿لا يَمْلِكونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمٰوات وَلا في الأرضِ﴾ أي ليس لأصنامهم قدرة على خير ولا شرّ، ولا على جلب نفع أو دفع ضر، لأنهم لا يملكون وزن ذرة سواء أكانت في السموات أو في الأرض ﴿وَمَا لهم فِيهمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ أي ولا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهيرٍ﴾ وليس للّه سبحانه من تلك الآلهة التي يعبدونها من دونه من يعينه على خلق شيء ولا على حفظه.

﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لعظمته سبحانه وجلاله لا يجترىء أحد من الملائكة والنبيين أن يشفع عنده سبحانه في شيء إلّا بعد إذنه له في الشفاعة، وهؤلاء لا يشفعون إلّا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين، وهذا ردٌّ على المشركين الذين زعموا أن أصنامهم تشفع لهم ﴿حتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي فإذا أذن اللّه للذين ارتضاهم أن يشفعوا

فزعوا لسماع الإذن لهم لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أُذن لهم من تقصير، حتى إذا جلي عن قلوبهم وكشف الفزع عنهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ ربُّكم﴾ أي قالوا للملائكة أو قال بعضهم لبعض: ماذا أمر اللَّه به؟ فتقول الملائكة: ﴿قَالوا: الحقَّ وَهُوَ العَليُّ الكبيرُ﴾ أي قالوا: قال اللَّه قول الحق وهو وحده صاحب العلو والكبرياء فله أن يحكم في عباده بما يشاء ويفعل ما يريد.

ثم يقدم القرآن الحجة تلو الحجة على استحقاق اللَّه وحده للعبادة وعلى بطلان عبادة الأصنام:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكم مِنَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّـا أَوْ إِيَّاكم لَعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبينٍ. قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحقِّ وَهُوَ الفَتَّاحُ العَليمُ. قُل أَرُوني الذينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ، كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ العَزيزُ الحكيمُ﴾ (٢٤ ـ ٢٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿قُـلْ مَنْ يَرْزُقكم مِنَ السَّمـاءِ وَالأرضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي يرزقكم من السماء بإنزال المطر وأشعة الشمس وبدونهما تنعدم الحياة على الأرض، ومن الذي يرزقكم من الأرض من نبات وثمر ولحوم الأنعام لتقتاتوا بها. وإنما أَمر اللَّه النبي أن يسأل الكفار لتقوم الحجة عليهم بأن الذي يرزق الناس من السماء والأرض هو المستحق للعبادة لا آلهتهم من الأصنام التي لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولـذا كـان الجواب: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمـد إن اللَّه هو الـرزاق وهو وحـده الجدير بالعبادة من دون آلهتكم، ويضيف القرآن قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي أن واحداً من الفريقين: المؤمنين أو المشركين هو على هدى أو في ضلال ظاهر. ثم يترك القرآن تحديد المهتدي والضال

منهما ليثير في المشركين التفكر في أمرهم في هدوء لا يشينه تعصب ولا رغبة في الجدال العقيم، وفي هذا نقد مبطن لضلالهم وهو أبلغ من الرد عليهم صراحة، وبديهي أن من عبد اللّٰه وحده كان مهتدياً ومن عبد غيره كان ضالاً، ﴿قُلْ لا تُسْأَلُون عَمَّا أَجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي قل يا محمد للمشركين لا تؤاخذون على ما ارتكبنا من إجرام ولا نؤاخذ نحن بما اقترفتموه من أعمال، ومن المعلوم أن المسلمين كانوا أبعد الناس عن الإجرام وكان سلوك المشركين هو الإجرام بعينه حيث كانوا يضطهدون المسلمين ويعذبونهم. فهذا الأسلوب في الجدال أحرى أن يؤثر فيهم ويدعوهم إلى مراجعة النفس والانسياق إلى وازع الضمير والحق.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قل لهم يا محمد: اللّٰه يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة ثم يحكم بيننا ويفصل بالحق ﴿وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ﴾ وهو الحاكم الذي يحكم عن علم ومعرفة بين أهل الحق والباطل ﴿قُلْ أَروني الَّذِين أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي قل يا محمد للمشركين: عرفوني على أصنامكم التي جعلتموها شركاء للّٰه هل شاركت في خلق شيء؟ فبينوا ما هو ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ العَزِيزُ الحكيمُ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم فليس للّٰه نظير ولا شريك بل هو اللّٰه الواحد القوي الغالب الحكيم في تدبير خلقه.

ثم يبين القرآن بأن اللّٰه أرسل محمداً لهداية البشرية جمعاء:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشيراً وَنَذيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون. وَيَقُولونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُم صَادِقِين. قُل لَكُم مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرونَ عَنْهُ سَاعَةً ولا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٨ ـ ٣٠).

فاللّٰه سبحانه يقول: وما أرسلناك يا محمد إلى قومك خاصة ولكن أرسلناك للناس جميعاً، مبشراً من أطاعك وأطاع اللّٰه بنعيم الجنة ومنذراً من

عصاك وعصى اللّه بعذاب النار في جهنم.

إن عموم رسالة محمد واضحة جلية إلى حد أن أكثر الآيات في القرآن لم توجه إلى العرب خاصة وكل ما فيه موجه إلى الناس كافة، بحيث أن تالي القرآن من أية ملة كان لا يشعر بأن هذا القرآن نزل بين ظهراني أمة غير أمته.

ورسالة محمد تختلف عن رسالة الأنبياء قبله، فكل نبي أرسله اللّه إلى قومه خاصة، فموسى أرسله اللّه إلى بني إسرائيل وكذلك عيسى، ثم أراد اللّه أن يختم عهد النبوات فأرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وخصه بشريعة تامة توافق تطور الأمم وتصلح لكل زمان ومكان، هذه الخصوصية التي استأثر بها محمد يجهلها كثير من الناس كما قال سبحانه: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

نعم إن أكثر الناس من غير المسلمين يجهلون عموم رسالة محمد ويجهلون بالأحرى مبادىء الإسلام وأصوله الخالدة، بل في أذهانهم صورة مشوهة عنه بسبب الشبه والأباطيل التي روجها أعداء الإسلام فيه، هذا من جهة ومن جهةٍ أخرىٍ سوء حال كثير من المسلمين الذين لم يتخلقوا بأخلاقه ولم يسيروا على هداه بل تلقوا الإسلام وراثة بدون عقيدة ولا فهم.

ولكن اليوم بانتشار الثقافة الإسلامية في العالم بدأت تظهر حقائق الإسلام جلية للأعين وبدأ الكثيرون من أتباع الأديان الأخرى يدخلون في الإسلام بعد أن رأوا فيه ضالتهم المنشودة.

وإذا كان النبي ﷺ بشر المطيعين للّه بالثواب العظيم في الآخرة وأنذر العاصين بالعذاب الأليم، فإن المشركين الذين أنكروا الآخرة وما فيها من جزاء على الأعمال خاطبوا النبي والمسلمين: ﴿وَيَقُولُونَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُم صَادِقِين﴾ اي متى هذا الوعد الذي وعدتمونا بـه من أننا نـدخل النـار وتدخلون الجنة إن كنتم صادقين في وعدكم به ﴿قُلْ لَكُم مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ قـل لهم يا محمد: لكم ميعاد يوم معلوم وهو يوم القيامة ﴿لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يؤخر ساعة لرجاء أحد ولا يقدم ساعة لرغبة أحد بل له أجل معين.

ثم يـذكر القـرآن ما يكـون من حوار يـوم القيامـة بين المستضعفين من الكفار وبين رؤسائهم الذين أضلوهم:

﴿وَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القرآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِم يَرْجِعُ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الذين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَـوْلا أَنْتُم لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَـالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَـرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُـوا أَنَحْنُ صَـدَدْنَـاكُم عَنِ الهُـدَى بَعْـدَ إِذْ جَـاءَكُم بَــلْ كُنْتُم مُجْرِمِينَ﴾ (٣١ ـ ٣٢).

فاللّه سبحانه يحكي عما كان من إنكار الكافرين للكتب الإلّهية المنزلة فهم يقولون: ﴿لَنْ نُؤمِنَ بِهَذَا القُرآنِ وَلا بِـالَّذي بَيْنَ يَـدَيْهِ﴾ أي أنهم قـالوا بأنهم لن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند اللّه، ولن يؤمنوا بالكتب المنزلة قبله كالتوراة والإنجيـل ولا فيما تـأمر بـه هذه الكتب وتـدعو إليـه ﴿وَلَوْ تَـرَى إِذِ الـظَّالِمُونَ مَـوْقُوفـونَ عِنْدَ رَبِّهِم﴾ أي ولـو تـرى يـا محمـد هؤلاء الـظالمين المنكرين للقرآن والبعث والجـزاء في موقف الحسـاب وهم محبوسـون بين يدي ربهم. وجواب «لو» ومفعول «ترى» محذوفان والتقدير: لرأيت العجـب في موقفهم. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بعْضٍ القَوْلَ﴾ أي حين يردُّ بعضهم إلى بعض القول ويتحاورون ﴿يَقُولُ الَّذِين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذين اسْتَكْبَرُوا﴾ أي يقول المستضعفون للمستعلين عليهم من رؤسائهم الذين كانوا يتبعونهم في الغي

والضلال ﴿لَوْلا أَنتُم لَكنَّا مُؤمنينَ﴾ لولاْ أنتم ـ بتسلطكم علينا ـ لكنا مؤمنين باللَّه وآياته، قالوا ذلك غير وجلين منهم بعد أن سقطت كل الفوارق الزائفة بينهم وأصبحوا سواء في موقف الحساب ﴿قَالَ الَّذِين اسْتَكْبَرُوا لِلذّين اسْتُضْعِفُوا﴾ مجيبين عليهم ومستنكرين لما قالوه ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُم عَن الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ أي أنحن منعناكم عن الهدى بعد أن جاءكم من عند اللَّه، لا، بل أنتم منعتم أنفسكم عنه ﴿بَلْ كُنْتُم مُجْرِمينَ﴾ في حق أنفسكم حين آثرتم الضلالة على الهدى.

ويتابع القرآن فيذكر رد المستضعفين على الرؤساء مبيناً مدى حسرة الفريقين عند مرأى العذاب الذي ينتظرهم:

﴿وَقَالَ الَّذين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذين اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ في أَعْنَاقِ الَّذِين كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣).

فالمستضعفون يقولون لرؤسائهم المستعلين عليهم: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهار﴾ المكر: هو الخديعة والحيلة، أي بل خداعكم لنا في الليل والنهار أوقعنا في التهلكة وصدّنا عن الإيمان ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نكفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي حين كنتم تطلبون منا أن نكفر باللَّه ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً﴾ ونجعل له شركاء وأمثالاً في الألوهية ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي أخفى كل منهم الندم والحسرة على ما فعله في الدنيا من الكفر والمعاصي مخافة أن يعيره الآخر، وقيل: أسرّوا الندامة بمعنى أظهروها، ولفظة أسرّوا هي من الأضداد، تكون مرة بمعنى الإخفاء ومرة بمعنى الإظهار ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لما عاينوا عذاب اللَّه الذي أعده لهم ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ في أَعْنَاقِ الَّذِين كَفَرُوا﴾ أي وجعل اللَّه أغلالاً

من حديد في أعناق هؤلاء الكافرين زيادة في تعذيبهم وإذلالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفي، أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها من الكفر والإجرام.

فالمستكبرون لهم ذنبهم وعليهم مسؤولية إضلال الآخرين، والمستضعفون لهم ذنبهم باتباعهم رؤساءهم الضالين لا يعفيهم من المسؤولية أنهم مستضعفون، لقد كرمهم اللّه بالعقل والحرية فتنازلوا عنها ورضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيداً مستذلين لرؤسائهم الذين أضلوهم فاستحقوا العذاب جميعاً، وهكذا يطلق القرآن دعوة التحرير من تبعية الرؤساء الظالمين الضالين ويدعو إلى عدم الانصياع لهم مهما عظمت التضحيات، فكل إنسان مسؤول عن عمله يوم القيامة، لا يعفيه من ذنبه أنه أطاع رؤساءه فأضلوه.

ثم يبين القرآن بعد ذلك بأن المترفين هم أعداء الرسل في كل عصر:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كافِرونَ. وَقَالوا نَحْنُ أكْثَرُ أَمْوالاً وَأَولاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. قُلْ إنَّ ربِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤ ـ ٣٦).

فاللّه سبحانه يقول بأنه ما أرسل رسولاً إلى أهل قرية يدعوهم إلى الحق والهدى إلاّ قال المترفون من أهلها للرسل: إنا بما جئتم به من الدين مكذبون.

فالمترفون هم الذين أبطرتهم النعمة وهم المتنعمون المتوسعون في ملاذ الدنيا وشهواتها، فهم أعداء كل إصلاح، وهم خصوم الحق يقفون ضده، فلا يستجيبون لدعوة الرسل الذين يرسلهم اللّه للإصلاح والهداية لأن في اتباع الرسل تنازلاً عن ترفهم لصالح الطبقة المحرومة، والرسالات الإلّهية هي ضد الترف المفرط، وضد الامتيازات الباطلة التي تخولهم

استغلال الغير لمآربهم الشخصية.

ثم يكشف القرآن عن أوهامهم الباطلة: ﴿وَقَالُوا: نَحْنُ أكثَرُ أموالاً وَأولاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبينَ﴾ فالمترفون قالوا للمؤمنين: إن اللَّه فضلنا عليكم بكثرة المال والولد وذلك يدل على رضا اللَّه على ما نحن عليه، ولو لم يكن اللَّه عنا راضياً لما أعطانا هذا، وما نحن بمعذبين في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، وهذا ادعاء باطل، ولذا يأتي الجواب: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ أي قل يا محمد إن اللَّه يوسع الرزق على من يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيق الرزق على من يشاء. فهو سبحانه قد يبسط الرزق ويوسعه على الكافر والعاصي استدراجاً له وإمهالاً ليزداد سوءاً وبطراً وبهذا يتضاعف رصيده من الإثم ثم يأتي عقاب اللَّه عظيماً، وقد يعجل اللَّه له العذاب في الدنيا بالإضافة إلى عذاب الآخرة. هذا وقد يصيب اللَّه المؤمن بالفقر ليمتحن صبره على الحرمان وثقته بربه واطمئنانه إلى ما قَسَمَ اللَّه له، وبهذا يحظى المؤمن بثواب اللَّه ورضوانه عليه.

فليس مجرد كثرة الرزق لدى إنسان دليلاً على أن اللَّه خصه بكرامته ورضاه، كما أن تقتير الرزق على إنسان ليس دليل نقمة من اللَّه عليه، فاللَّه يعطي المال الكثير لمن يحب من عباده ولمن لا يحب، ويفقر من يشاء منهم ﴿وَلَكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَ أكثر الناس لا يعلمون حكمة اللَّه في بسط الرزق لهم والحرمان منه.

وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم
مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ
يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ
أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم
مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ
لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ
يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ
يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ

شــرح المفــردات

تُقَرِّبكم عندنا زُلفى : تدنيكم منا وتجعلكم موضع عطفنا ورعايتنا .

يبسط الرزق : يوسعه .

يُخْلفه : يرد عليهم من المال ما ذهب منه .

يَصُدُّكم : يصرفكم .

إفكٌ مفترى : كذب مختلق .

وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾
۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا
مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي
وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا
فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

كان نكيري : إنكاري عليهم بالعقوبة والهلاك.

من جِنَّة : من جنون.

فلا فَوْتَ : فلا مهرب ولا نجاة من العذاب.

التناوش : تناول الإيمان والتوبة.

وَيَقْذِفُونَ بالغيب : يرجمون بالظنون التي لا أساس لها.

بأشياعهم : بأمثالهم من الكفار.

مريب : أي في قلق في النفس وعدم طمأنينتها.

تابع سورة سبأ

ثم ينفي القرآن أن تكون كثرة المال والولد دليلاً على رضاء اللّه على الإنسان بل الذي يقربه من ربه هو إيمانه وعمله الصالح :

﴿وَمَا أَمْوالُكُم وَلاَ أولادُكُم بِالَّتي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنَا زُلْفى إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ في الغُرُفَاتِ آمِنُونَ. وَالَّذِين يَسْعَوْنَ في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ في الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ شيء فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقينَ﴾ (٣٧ ـ ٣٩).

فالقرآن ينفي أن يكون المال أو الولد يقرب الإنسان من اللّه ﴿زُلْفى﴾ أي قربة تدنيهم من اللّه وتجعلهم موضع عطفه ورعايته ﴿إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ أي إن الذي يقربكم ـ أيها الناس ـ من اللّه هو الإيمان والعمل الصالح، فتقربكم أموالكم إلى ربكم بإعطاء الزكاة والصدقة للمستحقين لها، وتقربكم أولادكم إلى ربكم بتعليمهم الخير، وتربيتهم على الصلاح والتقوى وأداء شعائر اللّه وفرائضه ﴿أُولَئِكَ لَهُم جَزاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ فأولئك أي المتصفون بالإيمان والعمل الصالح يجازون على أعمالهم أضعاف ما عملوا من الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُم في الغُرُفَاتِ آمِنونَ﴾ أي وهم في غرفات الجنات آمنون من عذاب اللّه ومن المكاره ﴿وَالّذين يَسْعَوْنَ في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ والذين يعملون في الصد عن سبيل اللّه واتباع رسله والطعن بآيات القرآن ظانين أنهم يعجزون اللّه فلا يقدر عليهم ﴿أُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ هؤلاء ستحضرهم ملائكة العذاب إلى جهنم يوم القيامة ﴿قُلْ: إِنَّما رَبِّي يَبْسُط الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدر له﴾ أي قل أيها النبي: إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ويضيق عليه. وكلمة العباد المضافة لمشيئة اللّه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ﴾ تشعر بأن المراد بها المؤمنون بينما في الآية السابقة كانت الصيغة فقط ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فنعيم الآخرة لا ينافي التنعم في الدنيا من الطيبات التي أباحها اللّٰه، فالصالحون قد يغدق اللّٰه عليهم الأرزاق كما يغدقها على غيرهم ﴿وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ شَيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم من شيء من أموالكم في سبيل اللّٰه وفيما أمركم به فإنه سبحانه يرده عليكم ويعوضه إما في الدنيا فيكون بالبدل منه، وإما في الآخرة فيكون بالثواب على ما أنفقتم. وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً»[1] ﴿وَهُو خير الرازقين﴾ وهو سبحانه خير من يرزق، وهو يرزق من يشاء بغير حساب.

ثم يصور القرآن مشهداً من مشاهد القيامة حيث يؤنب اللّٰه الكفار على عبادتهم غيره:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَميعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلملاَئِكَةِ: أهؤلاءِ إِيَّاكم كَانُوا يَعْبُدونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُونَ. فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضكُم لِبَعْضٍ نَفعاً وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذين ظَلَموا ذُوقُوا عَذَابَ النَّار التي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبونَ﴾ (٤٠ ـ ٤٢).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَميعاً﴾ أي واذكر ـ أيها النبي ـ يوم يجمع اللّٰه يوم القيامة العابدين والمعبودين من دون اللّٰه ﴿ثمّ يَقُولُ للملائكة: أهؤلاءِ إِيَّاكم كانوا يَعْبدُونَ﴾ أي ثم يقول اللّٰه للملائكة أمام من كانوا يعبدونهم: أهؤلاء المشركون الذين كانوا يعبدونكم من دوني، وفي خطاب اللّٰه للملائكة على مسمع من المشركين تقريع للمشركين وتبكيت

---

(١) رواه مسلم.

لهم على عبادتهم الملائكة ﴿قَالُوا سُبْحانَكَ﴾ قالت الملائكة: تعـاليت ربنا وتقدست وتنزهت من أن يكون معك إلّـه وشريـك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِم﴾ أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونخلص له العبادة لا نتخذ ولياً غيرك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُـدون الجِنَّ﴾ العبـادة هنـا مـراد بهـا الـطاعـة، والجن: هم الشيـاطين. فالشياطين زينوا للكفار عبادة الملائكة فأطاعوهم في ذلـك فكانت طـاعتهم للشياطين عبادة لهم. وقيل إن حيّاً من أحياء العرب يقال لهم بنو مُليح كانوا يعبدون الجن ويزعمون أن الجن تتراءى لهم وأنهم بنات اللَّه ﴿أكثرُهُم بهم مُؤْمِنُـونَ﴾ أي أكثرهم بـالجن مصدقـون يزعمـون أنهم بنات اللَّه ﴿فَـالْيَـوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضرّاً﴾ أي الأمـر في ذلك اليـوم ـ أي يوم الحسـاب ـ للَّه وحـده فـلا ينفـع العـابـدون ولا المعبـودون بعضهم بعضـاً لا بشفـاعة ونجـاة ولا دفع ضـر من عذاب وهـلاك ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِين ظَلَمُـوا﴾ ويقول اللَّه للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير اللَّه ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ التي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيـا فها أنتم قـد وردتموها، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

ثم تحكي لنا آيات القرآن تكذيب المشركين بنبوة محمد وللوحي الذي أنزله اللَّه عليه:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُـرِيدُ أن يَصُـدَّكُم عَمَّا كَان يَعْبُدُ آباؤُكُم وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْك مُفْتَرى وَقَالَ الَّذين كَفروا لِلحقِّ لَمَّا جَاءَهُم إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قُرئت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة على أنها حق من عند اللَّه ﴿قَالُـوا: مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُريدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤكم﴾ أي قالوا: لا تتبعوا

محمداً فما هو إلاّ رجل يريد أن يصرفكم ويمنعكم عما كان يعبد آباؤكم.

ولكن هذا وحده لا يكفي فإن مجرد أنه يخالف ما كان عليه الآباء ليس طعناً ترتاح له كل النفوس لذا أضافوا إلى هذا الطعن ادعاء آخر يمس أمانة النبي ﷺ ويطعن بنبوته وهو: ﴿وَقَالوا: مَا هَذَا إلَّا إفْكٌ مُفْتَرى﴾ أي ما هذا الذي تقرأه علينا يا محمد من القرآن إلاّ كذب مختلق على اللّه. ثم مضوا يصفون القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذين كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إنْ هَذَا إلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الحق: المراد به هو القرآن الكريم، ووصف المشركين للقرآن بأنه سحر هو إقرار منهم بتأثيره في النفوس بما اشتمل عليه من المعاني الفائقة وفصاحة الكلام، ومن المعروف أن العرب كانوا فرسان البلاغة في الأدب والشعر والخطابة ينبىء عن ذلك ما وصلنا من شعرهم ونثرهم وخطبهم في العصر الجاهلي قبل الإسلام، لذا لما سمع القرآن فصحاؤهم وبلغاؤهم انبهروا من بلاغته ونظمه وتأثيره في النفوس فوصفه زعماء الشرك بأنه ﴿سحر مبين﴾ أي سحر واضح ظاهر. وهذا إقرار منهم بأن القرآنَ يعلو على كلام الناس وفوق مستواهم. هذا مع العلم أن السحر يكون في الأشياء المرئية لا في الأشياء السمعية التي تستتبع فكراً وتأملاً، فوصفهم للقرآن بأنه سحر هو اعتراف ضمني منهم بأن القرآن ليس من كلام البشر لأنه لم يعهد في صناعة الكلام وجود السحر.

ثم يبين القرآن وَهَنَ الحجة التي يعتمد عليها المشركون في اتخاذهم شركاء للّه مع إنذارهم بالعذاب:

﴿وَمَا آتَيْنَاهم مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إلَيْهم قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ. وَكَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم وَمَا بَلَغُوا مِعْشَار مَا آتينَاهُم فَكَذَّبُوا رُسُلي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٤ ، ٤٥).

فاللّه يذكر بأنه ما أنزل على العرب من كتب يقرأونها ويتدارسونها

ويهتدون بها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ وما أرسل اللَّه إليهم قبلك يا محمد من نبي يحذرهم عاقبةكفرهم. إذن فما هو المصدر الذي استقى منه المشركون عقائدهم وشعائرهم الباطلة؟ وما هي الدلائل والبراهين التي تشهد بصحتها؟ ومن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذي يرشد إلى صحة الإشراك باللَّه؟ لا شيء من ذلك كله سوى تقليد الآباء، وعلى هذا فليس لتكذيبهم بنبوة محمد حجة بل على العكس فقد رأوا من دلائل نبوته الشيء الكثير.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِم﴾ وكذب الذين سبقوهم من الأمم رسل اللَّه ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ ما آتيناهم﴾ وما بلغ كفار مكة عُشْر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من قوة وغنى وطول عمر وتمكين في الأرض ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلي فَكَيْفَ كَان نكيرِ(١)﴾ وحين كذبوا رسل اللَّه جاءهم إنكار اللَّه عليهم بالعقاب والتدمير والإهلاك فليحذر كفار مكة أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الظالمة المكذبة لرسل اللَّه.

وبعد تحذير كفار مكة وإنذارهم بالعذاب يقدم القرآن هذا المنهج الفكري للوصول إلى حقيقة نبوة محمد:

﴿قُل إنَّما أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تتفكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديدٍ﴾ (٤٦).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وليس المراد بالقيام للَّه الذي هو خلاف القعود، ولكن المراد القيام بطلب الحق والنهوض فيه بالهمة والفكرة الصائبة. والمعنى: قل لهم يا محمد إني أنصحكم بخصلة واحدة وهي أن تقوموا بطلب الحق لوجه اللَّه ﴿مثنى

---

(١) نكير: يقال نكرت على فلان وأنكرت إذا فعلت به فعلاً يردعه، والنكير تغيير المنكر بعقوبة فاعلة.

وَفُرادى﴾ أي متفرقين: اثنين اثنين، أو واحداً واحداً ﴿ثُمّ تَتَفَكَّرُوا﴾ ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به من الدين تفكراً يؤدي للمعرفة الحقة ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ﴾ جنّة: أي جنون، أي ما بصاحبكم محمد من جنون حينما قام بأمر النبوة، وعبّر القرآن عن محمد بصاحبهم لأنهم كانوا أدرى الناس بعشرته ورجاحة عقله وأمانته وصدقه ونزاهته.

هذا الأسلوب الفكري من قيامهم اثنين اثنين، ومناقشة أمر نبوة محمد بحوار هادىء يوصل الإنسان إلى الرأي الصائب، والحقيقة الخالصة في شأنه، والتفكر فرادى بالأمر بين المرء ونفسه بدون ضغط أو تأثير جانبي يجعل له استقلالاً فكرياً وحرية في الرأي يصل بواسطتهما إلى نتيجة ترتاح إليها النفس ويقتنع بها العقل.

فهذا الأسلوب الفكري هو نوع من تقصي الحقائق يحول دون الانجراف في تيار الجماعة التي تتكوّن من كثير من الناس يغلب عليهم طابع الغوغائية وينقادون غريزياً لأهوائهم وعاداتهم وتقاليدهم انقياداً أعمى بدون روية ولا فكر.

فالأمر الذي قام به محمد من أنه رسول من عند اللّه لا يتصدى للقيام به إلّا رجلان: إما مجنون مخبول العقل لا يبالي بافتضاح أمره إذا أعياه الدليل وطولب بالبرهان على صحة نبوته، وإما عاقل راجح الرأي لا يدعيه إلّا بعد أن ثبت له بالبرهان والحجة صدق نبوته، وإلّا فما يجدي على العاقل إدعاء النبوة وليس عنده بينة ولا برهان، وما يجدي عليه المخاطرة بأمر لا بد أن ينكشف صدقه من كذبه عاجلاً أم آجلاً.

هذا وقد علم عقلاء العرب أن محمداً ليس به مسٌّ من جنون، فقد كان أرجح العرب عقلاً، وأرزنهم حلماً، وأصوبهم رأياً، وأنزههم نفساً، ثم إنهم

رأوا في القرآن الذي جاءهم به كلاماً يعلو على كلام البشر، يرشدهم إلى مكارم الأخلاق، وينهاهم عن الفواحش والمنكرات ويصحح عقائدهم الباطلة، وتشريعاتهم الجائرة، فهل من يقوم بهذه الأمور به مس من جنون؟

ثم يبين القرآن الحقيقة في شأن محمد: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فمحمد ليس به جنون، وما هو إلّا نذير للكافرين يخوفهم عاقبة كفرهم بعذاب مخيف مقبل عليهم إن لم يصدقوا به ويتبعوا دينه.

ثم يأمر اللّه رسوله محمداً بأن يقدم للمشركين هذه الحقائق حول أهداف رسالته:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الغُيُوبِ. قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ. قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٤٧ ـ ٥٠).

هذه الآيات المتتالية ذات الوقع الخاص على النفس تستهل بلفظة (قل) وهي تشهد بمصدرها الإلٓهي، فلو كان القرآن من تأليف محمد لكان الأسلوب يختلف كليّاً عن أسلوب القرآن. فمحمد كان ينقل حرفيّاً ما يوحى إليه من ربه، ولم يبتدع كلاماً وينسبه زوراً وبهتاناً إلى ربه كما يعتقد بعض أتباع الديانات الأخرى.

فاللّه سبحانه يقول: ﴿قُل مَا سَأَلْتكم مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل يا محمد ما أسألكم أجراً ألبتة على دعوتي إياكم إلى الهدى ﴿فَهُوَ لَكُم﴾ والمراد نفي الأجر أصلاً كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً فخذه. وقيل معنى: ﴿فهو لكم﴾ أي ثمرته وثوابه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما ثوابي على دعوتكم للإيمان باللّه والعمل بطاعته إلّا على اللّه وحده ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ واللّٰه على حقيقة ما أقول مطلع، يعلم صدقي، وشهيد على غير ذلك من الأشياء كلها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي قل يا محمد إن ربي يلقي وينزل الحق ـ وهو الوحي ـ على من يجتبيه من عباده، أو يرمي بالحق على الباطل فيصرعه(١) ﴿عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾ أي أن اللّٰه عالم بما غاب وخفي عن الخلق. ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ والحق يراد به القرآن والإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي هلك الباطل والشرك هلاكاً بالمرة بحيث لم يبق منه شيء لا بداية ولا إعادة.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي قل لهم يا محمد: إن انحرفت عن الحق فإنما ضرر ذلك عائد على نفسي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ وإن اهتديت واستقمت على الحق فهو بفضل وحي اللّٰه الذي أوحاه إليَّ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ إن ربي سميع لما أقول لكم قريب من كل متكلم يسمع كل ما ينطق به.

وأخيراً تختتم السورة بتصوير حال المشركين يوم القيامة وقد بانت لهم الحقيقة ساطعة فيريدون الرجوع عن خطأهم للنجاة من العذاب:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ. وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَحِيلَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهم كانوا في شَكٍّ مُرِيبٍ﴾.

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين من قومك حين فزعوا من معاينة عذاب اللّٰه يوم القيامة وجواب (لو)

---

(١) وقد جاء في القرآن: ﴿وقل جاء الحق وَزَهَقَ البَاطل﴾

محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلا فَوْتَ﴾ فلا مهرب لهم ولا نجاة ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وأخذهم اللَّه بعذابه من موضع قريب، لأنهم حيث كانوا فهم من اللَّه قريب لا يبعدون عنه ﴿وَقَالوا: آمَنَّا بِهِ﴾ أي قالوا: صدقنا بأن القرآن كلام اللَّه وبنبوة محمد قالوا ذلك وقت نزول العذاب بهم ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التناوش: هو التناول، أي وأنّى لهم تناول الإيمان من مكان بعيد عن محله إذ هم في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيدة عن الآخرة ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي والحال أنهم عندما كانوا في الدنيا جحدوا أن القرآن منزل من عند اللَّه، وجحدوا نبوة محمد ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يرمون بالظن الباطل، ويتكلمون عن الحياة الآخرة بما لا يعرفون رجماً بالغيب، فيقولون: لا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار، ويقولون في القرآن أقوالاً باطلة من أنه سحر وشعر، ويقولون في محمد بأنه ساحر وشاعر وكاهن ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعيدٍ﴾ من مكان بعيد عن الصواب ليس فيه مستند لظنهم الباطل، فالعرب تقول لكل من يتكلم بما لا يعرف: يقذف ويرجم بالغيب على جهة التمثيل لمن يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد ولا مجال للنظر في لحوقه. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وفُصِلَ بينهم وبين ما يشتهون من إيمان ينفعهم أو رجوع إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا صالحاً ﴿كما فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِنْ قَبْلُ﴾ كما فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ﴿إِنَّهم كَانوا في شَكٍّ مُريب﴾ إنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا في شك من نزول العذاب الذي نزل بهم، وقد وصف الشك بأنه مريب للتأكيد، فالشك المريب هو أقوى ما يكون من الشك.

وهكذا تختتم هذه السورة بمشهد من مشاهد القيامة تثبت القضية التي تركز عليها السورة وهي الإيمان باللَّه واليوم الآخر والحساب والجزاء على الأعمال.

سُورَةُ فَاطِر

سميت هذه السورة بسورة فاطر لذكر هذا اللفظ في وصف قدرة اللَّه، فهو سبحانه فاطر السموات والأرض أي مُبْدِئُهما ومبدعهما، كما أنه سبحانه خلق الملائكة وجعلهم أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وهو سبحانه يملك خزائن الرحمة. فمن شملته رحمة اللَّه فلا أحد يستطيع منعها، ومن حجبها عنه فلا مرسل لها من بعده.

وتطلب السورة من الناس أن يذكروا نِعَمَ اللَّه عليهم ليشكروها وتحذرهم من وساوس الشيطان التي تقودهم إلى عذاب النار.

ثم تعرض السورة بعض مظاهر القدرة الإلٓهية، فاللَّه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقي به بلداً ميتاً فيحيا بأنواع النبات والثمر، ومن أحيا الأرض يُحْيِي الأموات للحساب والجزاء، كما أنه سبحانه خلق الإنسان من تراب ثم جعل منه الذكر والأنثى لبقاء النوع، وأنه سبحانه سخّر البحر المالح والعذب لحياة الإنسان ومنهما يأكل لحماً طريًّا. كما أنه سبحانه سخّر الشمس والقمر وأدخل الليل في النهار والنهار في الليل.

ومن دلائل القدرة الإلهية أنه سبحانه يخرج بالماء الثمرات المختلفة الألوان، كما أن اختلاف الألوان يظهر في الجبال والدواب، هذه الأمور يدرك أسرارها العلماء فتعتريهم خشية اللَّه عندما تتكشف لهم حقائقها ومدى إبداع الصنعة الإلٓهية فيها.

وتعد هذه السورة، بالثواب الجزيل، الذين يداومون على قراءة القرآن وإقامة الصلاة والإنفاق على المحتاجين الفقراء.

سُورَةُ فَاطِر

مكية وآياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا
مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ
كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟

شرح المفردات

فَاطِرِ السَّموات والأرض : خالقهما ومبدعهما ومُبدِئُهما.

ما يفتَحِ اللَّه : ما يرسل اللَّه.

فأنَّى تُؤفكون : فكيف تصرفون عن توحيد اللَّه.

تَغُرَّنكم الحياة الدنيا : تخدعنكم بزينتها وشهواتها.

الغَرور : ما يخدع، كالشيطان وغيره.

مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا
بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ
فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ
وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ
﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ
مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

شَرح المفردَات

فلا تذهب نَفْسُك عليهم حسرات : فلا تهلك نفسك عليهم غمًّا وحزناً لكفرهم.

فتثير سحاباً : تحركه وتهيجه.

النشور : بعث الموتى من القبور أحياء للجزاء.

الكَلِمُ الطيب : كلمة التوحيد وذكر اللّه وحمده وتنزيهه عن السوء.

يبور : يفسد ويبطل.

وما يُعَمَّر من مُعَمَّر : وما يزاد في عمر طويل العمر.

سُورَةُ فَاطِرٍ

ايضـاح و دروس

تستهل هذه السـورة بالثنـاء على اللّه الذي شمـل الناس والمخلوقـات برحمته وفضله:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (١ ـ ٢).

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) الحمد: نقيض الذم، والحمد للّه هو الثناء عليه بتمجيده وتعظيمه، لقد حمد اللّه نفسـه تعظيمـاً لنفسه، وتعليمـاً لخلقه كيفيـة الثناء عليه، وحكمة افتتاح الحمد بهذه السورة هو أن فيها تفصيـلاً للنعم الدينيـة والدنيوية ﴿فَاطِرِ السَّمٰوات وَالأَرْض﴾ أي مبدئهما وخالقهما على غيـر مثال سبق ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ أي خالق الملائكة وسائط بينه وبين رسله من البشر يبلّغون أقوامهم رسالات اللّه بواسطة الوحي ﴿أُولي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ وهؤلاء الملائكة أصحاب أجنحة: منهم من له جناحان، ومنهم من لـه ثلاثـة ومنهم له أربعـة(١) ﴿يَزِيـدُ فِي الخَلْقِ مَـا يَشَـاءُ﴾ يـزيـد في خلق الأجنحة وفي غير ذلك من خلقه ما تقتضيه مشيئته، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول في القـامة، واعتـدال في الصورة وحصـافة في العقل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ فاللّه لا يعجزه شيء وهو عظيم القدرة على كل شيء.

فالإشارة إلى زيادة عدد الأجنحة إيماء للقدرة في سرعة تنفيذ أوامر اللّه

(١) وقيل المراد بالأجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

وتبليغ رسالته إلى من يشاء من خلقه، كما يفيد أن الملائكة تتفاوت أقدارهم عند اللَّه، وقد روي أن النبي ﷺ رأى المَلَك جبريل عليه السلام وله ستمائة جناح[١].

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ استعير لفظ يفتح للإرسال والإعطاء إشارة إلى أن الرحمة التي يفتحها اللَّه للناس شيء عزيز شأنه أن يوضع في خزائن وهو يفتحها لمن يشاء من خلقه، وأتى بالرحمة نكرة لتعم كل رحمة دنيوية وأخروية. ومن آثار رحمة اللَّه: نعمة الرزق، والصحة، والمال، والذرية، وغير ذلك من النعم التي لا تحصى ﴿فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي إذا أعطى اللَّه رحمته من يشاء من عباده فلا يستطيع أحد منعها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وإذا منع اللَّه أثراً من آثار رحمته عن أحد فلا يستطيع غيره سبحانه أن يعطيه له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو القوي الغالب، الحكيم الذي يعطي خلقه ما يشاء عن حكمة وعلم.

«ورحمة اللَّه تتمثل في مظاهر لا يحصيها عدّ، يجدها الإنسان في نفسه ومشاعره، ويجدها فيما حوله وحيثما كان، وما من نعمة تتجرد من رحمة اللَّه حتى تنقلب إلى نقمة، وما من محنة تحفّها رحمة اللَّه حتى تكون هي بذاتها نعمة، ولا ضيق مع رحمة اللَّه ولو كان صاحبها في غياهب السجون أو في أعطاف المرض، أو في الفقر المدقع، فمن داخل النفس إذا لامستها رحمة اللَّه تتفجر ينابيع السعادة والطمأنينة.

المال والولد والصحة والجاه تصبح مصادر قلق وتعب ونكد إذا أمسك اللَّه عنها رحمته، فإذا فتح اللَّه أبواب رحمته كان فيها الطمأنينة والراحة

---

(١) رواه مسلم.

والسعادة»[١]. ورحمة اللَّه وجدها أنبياء اللَّه وعباده الصالحون وهم في أصعب المواقف وأشدها خطورة فكانت رحمة اللَّه لهم غياثاً من كل مكروه صادفوه.

وقد أوضح اللَّه في القرآن بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يريد الحصول على رحمة اللَّه فقال سبحانه: ﴿وَرَحمتي وَسِعَت كُلَّ شيء فَسَأكتُبُهَا لِلّذين يَتَّقُونَ وَيُؤتُونَ الزكاةَ وَالذين هُمْ بآياتنا يُؤمنون﴾ الأعراف: ١٥٦ ﴿لولا تَسْتَغفرون اللَّهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُون﴾ النمل: ٤٦ ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ المحسِنين﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُون﴾ الحجرات: ١٠.

وبعد الكلام عن رحمة اللَّه يتوجه خطاب اللَّه إلى الناس جميعاً وبالأخص إلى المشركين الذين كذبوا بنبوة محمد ﷺ:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماء وَالأَرْضِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم باللَّه الغَرُورُ﴾ (٣ ـ ٥).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اذكروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ ونعم اللَّه كثيرة على الإنسان: كالعقل والسمع والبصر والكلام والأطراف وغير ذلك من النعم التي لا تحصى، والمراد بذكر النعمة الثناء على خالقها والاعتراف بفضلها، وحفظها من الكفران والمعاصي، وطاعة اللَّه فيها. ثم نفى اللَّه أن يكون في الوجود إله غيره فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ وهو استفهام تقرير، أي لا خالق غيره سبحانه ﴿يَرْزُقكم مِنَ السَّمَاءِ والأرضِ﴾ والرزق هو ما ينتفع منه، فالرزق من السماء هو المطر الذي فيه حياة الكائنات،

---

(١) عن كتاب (في ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب باختصار وتصرف.

والرزق من الأرض هو ما يخرج منها من نبات وحب وثمر يقتات الناس به ﴿لا إلَه إلَّا هُوَ﴾ فلا إلَه غيره، ولا خالق غيره، ولا رازق غيره ﴿فَأَنَّى تُؤفَكُونَ﴾ أفك: صرف عن، أو كذب. والمعنى: من أي وجه تصرفون عن توحيد اللَّه وتشركون به غيره من الآلهة، أو من أين يقع لكم التكذيب بوحدانية اللَّه ﴿وَإِن يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وإن يكذبك يا محمد قومك بما جئت به من الدين فالرسل الذين سبقوك قد لاقوا من التكذيب من قومهم مثل ما تلاقيه من قومك، وهذه مواساة للنبي ﷺ لما يلاقيه من أذى من قومه ﴿وإلى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإلى اللَّه تصير الأمور فيجازي كلًّا بما يستحقه من ثواب وعقاب.

﴿يَا أيها النَّاسُ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا وعظ للمكذبين للنبي ﷺ مخبراً لهم أن البعث يوم القيامة والثواب والعقاب هو حق متحقق الحصول، أو أن ما وعدهم اللَّه من نزول العذاب فيهم في الدنيا هو حق جزاء إصرارهم على الكفر ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيَا﴾ أي فلا تخدعنكم الدنيا بزخرفها ونعيمها وشهواتها عن العمل للآخرة ﴿ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُور﴾(١) أي ولا يخدعنكم الشيطان فيمنِّيكم المغفرة ويقول لكم اعملوا ما شئتم من المعاصي، فإن اللَّه غفور رحيم يغفر الذنوب جميعاً، ويحملكم على الإصرار على الكفر.

ويتابع القرآن فيحذر الناس من الاستجابة إلى وساوس الشيطان:

﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوًّا إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ ليكونوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعيرِ. الذينَ كفروا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (٦ ـ ٧).

فالشيطان هو عدو للناس وعداوته ابتدأت بأبيهم آدم حيث أخرجه من

---

(١) الغرور: الشيطان.

الجنة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي عـاملوا الشيطان معـاملة العدو وذلـك بمخالفـة ما يدعو إليه والحذر منه لأن العدو لا يدعو إلى خير، ومعـاداته تكـون أيضاً بطاعة اللَّه لأن الطاعة تكيده وتعود بالنفع على المـطيع ﴿إِنَّمـا يَدْعُـو حِزْبَـهُ ليكونوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ إنما يدعو أشياعه والمطيعين له إلى معـاصي اللَّه لأجل أن يكونوا من أهل النار ﴿الَّذِينَ كَفَروا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالذين جحدوا بوجود اللَّه أو وحدانيته وكذبوا بنبوة محمد لهم عذاب شديد من اللَّه وهو عذاب النار ﴿وَالذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْـرٌ كريمٌ﴾ والذين صدّقوا باللَّه ورسوله محمـد وعملوا بما أمـرهم اللَّه به من الأعمـال الصالحة وانتهوا عما نهى اللَّه عنه لهم من اللَّه مغفرة لـذنوبهم وثـواب كبير على أعمالهم وهو الجنة.

ثم يصور القرآن نفسية بعض الناس الذين يلتبس عليهم التمييز بين الهدى والضلال فهؤلاء لا يجدي فيهم نصح ولا إرشاد:

﴿أَفمن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿أَفَمَن(١) زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي أفمن حُسِّن لـه سوء عمله فرآه حسناً بأن رأى البـاطل حقًّا والقبيح حسنـاً كمن هداه اللَّه، وتحسين العمل السيىء يكون من وسوسة الشيطان، ومن أهواء النفس الأمارة بالسوء.

فموطن الداء هو أن يعجب الإنسان بما يصدر عنه من أفعال سيئة فيظنها حسنـة ولا يفتح أذنيـه للموعـظة ولا يراجـع نفسه لـيـرى موضـع الخطأ في تّصرفـاتـه، فهـذا الصنف من النـاس لا يجـدي معهم نصـح ولا إرشـاد،

---

(١) أفمن: الاستفهام للإنكار ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره: كمن هداه اللَّه.

ولا موجب للتحسر على تصرفاتهم.

ثم يردُّ اللَّه على منكري البعث ويبين إمكان وقوعه بتلك الصورة المأخوذة من المظاهر الطبيعية التي هي على مرأى أنظارهم:

﴿وَاللَّهُ الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاه إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩).

فاللَّه سبحانه أرسل الرياح مسخرة منه ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ فتنشر وتحرك سحاباً تراكم من أبخرة المياه ﴿فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ فدفعه اللَّه بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة فذهب إلى حيث يريد اللَّه أن يصل، إلى بلد مجدب قاحل ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأحيا اللَّه بهذا السحاب ـ بعد هطوله مطراً ـ صنوف النبات بعد أن كانت الأرض مواتاً يابسة ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ كذلك تحيون ـ أيها الناس ـ بعدما مِتُّم، كما أحيا اللَّه الأرض بعد موتها.

وقد روي أنه إذا أراد اللَّه بعث الأجسام أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض.

ثم يبيّن القرآن حقيقة العزة والرفعة وكيفية السعي للحصول عليها، متصدياً للأساليب الباطلة التي يسير عليها المشركون والمنافقون:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ والَّذِين يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّة جَمِيعاً﴾ أي من أراد العزة لنفسه فليطلبها من اللَّه وحده، فإن العزة كلها مختصة به سبحانه: عزّة

الدنيا، وعزة الآخرة، ليس لغيره منها شيء، وطلب العزة يكون بطاعة اللَّه.

فمن طلب العزة من اللَّه بافتقار وذل وطاعة وجدها عنده سبحانه غير ممنوعة فهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وقد جاء في القرآن: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين﴾ فالعزة الحقيقة هي للَّه، والعزة لرسول اللَّه محمد لقربه من اللَّه، والعزة للمؤمنين لأنهم أطاعوا اللَّه ورسوله.

والكلام عن العزة كان المراد بها تصحيح المفاهيم الباطلة عند المشركين والمنافقين، فقد كان المشركون يتمسكون بعقيدتهم الوثنية استبقاء لمكانتهم الدينية في مكة وما تقوم عليه من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة، فقد كانوا سدنة[1] الأوثان، وكانت هذه السدانة تحقق لهم مغانم متعددة الألوان وعزة ومنعة وقد قال اللَّه فيهم في القرآن: ﴿واتَّخذوا مِنْ دُونِ اللَّه آلِهَةً ليكونوا لهم عِزًّا﴾ مريم: ٨١.

وكان المنافقون يتعززون بالمشركين ويظهرون الولاء لهم ليتعززوا بهم فأنّبهم اللَّه على ذلك بقوله: ﴿الَّذِين يَتَّخِذُونَ الكَافِرينَ أَولياء مِنْ دُونِ المؤمنين أيبتغون عندهم العِزَّة﴾ الأنبياء: ١٣٩.

فاللَّه سبحانه يريد من الإنسان أن يستعلي على مطامعه وشهواته ومخاوفه وتذلله للناس ابتغاء العزة، وأن يكون مرفوع الرأس لا يذل إلّا لخالقه، فالعزة كلها مصدرها من اللَّه ونيلها يكون بطاعته.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ والكلم: جمع كلمة، والكلم الطيب هو توحيد اللَّه والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، وذكر اللَّه، كأن يقول:

---

(١) سدنة: خدّام الكعبة. مفردها سادِن.

سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إلَه إلا اللَّه واللَّه أكبر، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصعود الكلم الطيب إلى اللَّه هو قبوله والرضا به.

﴿وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي وثواب الكلم الطيب يرفعه إلى اللَّه عمل الإنسان الصالح وهو العمل بطاعة اللَّه وأداء فرائضه والانتهاء عما نهى عنه، فمن قال كلاماً طيباً وعمل عملاً غير صالح ردَّ اللَّه عليه قوله، والإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، وقيل المراد بالعمل الصالح هنا، العمل الخالص لوجه اللَّه وذلك أن الإخلاص سبب في قبول الأعمال.

وقيل: العمل الصالح يرفع من يعمله ويشرفه، أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً.

﴿والذين يَمْكُرونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ مكر: دبر الشر لغيره في خفية واحتال لإيقاع الأذى به، فالذين يحتالون ويدبرون السوء والأذى لرسول اللَّه ولدين اللَّه لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبور: أي يبطل ويذهب هباء. ولفظة بار يبور تستعمل في معنى الأرض التي تركت فلم تزرع، أي أن تدبير المشركين الأذى لرسول اللَّه لا يحيا ولا يثمر، وذلك تنسيقاً مع إحياء اللَّه للأرض وإثمارها في الآية السابقة.

والآية هي من الأنباء الغيبية التي تحققت، فقد مكر المشركون برسول اللَّه حين اجتمعوا في دار الندوة وقرروا قتله فنجّاه اللَّه منهم وانقلب مكرهم عليهم فقتل سبعون منهم في معركة بدر بعد فترة وجيزة من تدبير مكرهم وتآمرهم على قتل رسول اللَّه.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى خلق الإنسان وما في ذلك من عظمة الإبداع لقدرة اللَّه التي تشهد بوحدانيته:

﴿وَاللَّهُ خلَقَكم مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جعَلَكُم أَزْواجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا في كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١).

فاللَّه سبحانه يقول بأنه خلق الإنسان من تراب وهذا حق فإن النطفة في كل من الذكر والأنثى التي يتكوّن منها الجنين هي وليدة التغذية التي يتغذى بها الإنسان وأصل هذه التغذية هو التراب، وقد يراد أن آدم وهو أول إنسان انحدر منه الجنس البشري الحالي خلق من تراب[١].

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُم أَزْوَاجاً﴾ ثم خلق اللَّه الإنسان من نطفة، والنطفة هي مني الرجل الذي يحتوي على ملايين الحييات المنوية وعند الاتصال بالمرأة فإن إحدى هذه الحييات المنوية التي يقذفها الرجل في رحم المرأة يخرق بويضة الأنثى ويمتزج بها وهذه أول عملية تكوين الجنين ثم تحصل تطورات يصبح بعدها الجنين ذكراً أو أنثى ثم يرى النور في الوقت المحدد للولادة، وفي سن الشباب عند التقاء الذكر والأنثى عند التزاوج تتكرر عملية التكاثر للنوع الإنساني وكذلك العملية ذاتها تتكرر في عوالم الكائنات الحية.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين ولا تلده إلا بعلم اللَّه تعالى. وتصوير علم اللَّه المطلق بكل أنثى على وجه الأرض بأنها تحمل في بطنها جنيناً وتضعه في وقت معلوم يشهد بأن القرآن مصدره من اللَّه لأنه ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتطرق إلى هذه الأمور الغيبية ويصف اللَّه بهذا الوصف.

---

(١) جاء في القرآن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ اللَّه كمثل آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فيكون﴾.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّـرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ في كِتَـابٍ﴾ أي لا يكون عمر أناس طويلاً وعمر آخرين قصيراً إلّا وهو مكتوب عند اللّه في كتاب، وقد فسِّر الكتاب بأنه اللوح المحفوظ، وقيل صحيفـة كل إنسـان، وقيل المـراد بالكتاب هو العلم الأزلي.

فليس لأحد قضى اللَّه له طول العمر والحياة إلّا وهو بالغ ما قدّر له من العمر لا يزاد عليه، وينتهي إلى الوقت الذي كتب أنه سيبلغـه، وليس لأحد قضى اللَّه أنه قصير العمر والحياة ببالغ أكثر من عمره المكتوب، ولا ريب في أن هذا المفهوم بأن عمر الإنسان محدَّد يمد الإنسان بالشجاعـة والقوة عنـد الدفاع عن وطنه، كما أن ذلك يلطف من عميق حزنه عند مصابه بفقد أحد أفراد عائلته وأحبائه ﴿إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إحصاء طويل الأعمار وقصيرها سهل على اللّه لا يخفى عليه شيء منها.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ
هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ
لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ
مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ
مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

شرح المفردات

عذب : مستساغ.

فرات : أشد الماء عذوبة.

سائغ شرابه: سهل مدخله في الحلق.

ملح أُجاج : شديد الملوحة والمرارة.

الفلك : السفن.

مواخر : تشق الماء بمُقَدَّمِها.

يولج : يدخل.

لأجل مسمى : لوقت مقدر لفنائهما (يوم القيامة).

قِطْمِير: القشرة الرقيقة التي على نواة التمر.

بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا
لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا
ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا
ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾
إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

لا تزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى : لا تؤاخذ نفس بذنب نفس أخرى.

مُثْقَلَةٌ : نفس أثقلتها الذنوب.

تَزَكَّى : تطهر من الشر والآثام.

الأعمى والبصير : المراد بهما الكافر والمؤمن.

الحَرُور : الريح الحارة أو هو الحر بعينه.

خلا : مضى وسلف.

الزُّبُر : الكتب الإلٓهية المكتوبة كصحف إبراهيم.

أَخذْتُ : أهلكت.

كيف كان نكير : كيف كان إنكاري عليهم بالعقاب والهلاك.

تابع سورة فاطر

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى البحار والأنهار والبحيرات وما فيها من آيات القدرة الإلّهية:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلونَ لحماً طريًّا وتستخرجونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ولِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرونَ﴾ (١٢).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرانِ﴾ أي لا يتماثل ولا يتعادل البحران والمراد بهما البحر العذب والبحر المالح، وحسب الاصطلاح الحديث ليس هناك بحار حلوة وإنما هي بحيرات ولكن العرب تسمي الماء الكثير بحراً ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ هذا ماء مستساغ شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ يسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهذا ماء شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا﴾ ومن كل من البحرين العذب والمالح تأكلون السمك والحيوانات البحرية الطرية على اختلاف أنواعها ﴿وَتَسْتَخْرِجونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ أي وتستخرجون من الماء المالح والعذب اللؤلؤ والمرجان وغيرهما للتحلي والتزين[1] ﴿وَتَرى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ الضمير في «فيه» يعود إلى الماء المالح ولولا ذلك لقال:

---

(١) من المعلوم أن بعض الحلي تستخرج من البحر المالح وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدراً للحلي أيضاً، ولكن الواقع أثبت غير ذلك. فاللؤلؤ كما يستخرج من البحر يستخرج أيضاً من الأنهار فتوجد اللآلىء في المياه العذبة في إنجلترا وتشيكوسلوفاكيا واليابان، ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن الصلبة التي تتخذ للزينة كالماس الذي يستخرج من رواسب الأنهار الجافة وكذلك الياقوت يوجد في الرواسب النهرية في بورما العليا وفي سيام وسيلان. والزيركون حجر كريم يستخرج من الرواسب النهرية.

فيهما. أي وترى السفن تشق مياه البحر بجريها فيه ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا شيئاً من فضل اللَّه بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُم تَشْكُرونَ﴾ ولكي تشكروا ربكم على تسخير البحار والأنهار لمنفعتكم.

ويتابع القرآن فيلفت الأنظار إلى بعض المظاهر الطبيعية التي أوجدها اللَّه في الكون وتتوقف عليها حياة الكائنات مفنداً بعد ذلك عبادةالأوثان:

﴿يُولجُ اللَّيلَ في النَّهارِ وَيُولجُ النَّهار في الليل وَسَخَّر الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لِأَجلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ المُلْكُ والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إنْ تَدْعُوهُم لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرونَ بِشرْكِكُم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٣ ـ ١٤).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿يُولج الليل في النَّهارِ﴾ أولج: أدخل، واللَّه يدخل بعض زمن الليل في النهار فيزيد النهار وينقص الليل ﴿وَيولجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ﴾ ويدخل بعض وقت النهار إلى وقت الليل فيزيد الليل وينقص النهار حسب الفصول التي تنشأ من دوران الأرض حول الشمس، كما أن الليل والنهار ينشآن من دوران الأرض حول نفسها، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغير ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة والتطور كما يدعي الماديون وإنما هو من صنع اللَّه الذي أتقن كل شيء خلقه.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَر﴾ وذلّل اللَّه الشمس والقمر لمصلحة عباده ﴿كُلٌّ يَجْري لِأَجلٍ مُسَمًّى﴾ كل منهما يجري في فلكه مدة دورته حسب حركته الخاصة جرياناً مستمرًّا إلى أجل قدّره اللَّه وهو فناء العالم فينقطع حينئذٍ جريانهما ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ ربكم لَهُ المُلْكُ﴾ فالذي يفعل هذه الأفعال

هـو ربكم أيها النـاس الذي لا تصـح العبادة إلّا لـه، له الملك التـام وكـل الكائنات في ملكه وسلطانه ﴿والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ والذين تعبدون أيها الناس من دون اللَّه من آلهة وأصنام ﴿مَا يَملكون مِنْ قِطْمير﴾ قِطْمير: القشرة الرقيقة الملتفة على نواة التمرة، تُضرب مثلاً للتافه القليل القيمة، والغرض أنهم لا يملكون شيئاً ﴿إنْ تَدْعُوهم لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم﴾ إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة من الأصنام التي تعبدونها من دون اللَّه لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تسمع ما تقولون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُم﴾ ولو سمعوا دعاءكم على سبيل الفرض والتمثيل لم يجيبوكم إلى ما تدعونهم ولم ينفعوكم ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُم﴾ ويوم القيامة يتبرأون منكم ومن عبادتكم إياها ومن أنها كانت شريكاً للَّه بأن ينطقها كما أنطق كل شيء ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبيرٍ﴾ ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمر من عبدها يوم القيامة مثل ذي خبرة بأمرهم وأمرها، وذلك الخبير هو اللَّه سبحانه.

ثم يبين القرآن بأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان اللَّه وفضله، وأنه سبحانه غني عمن سواه.

﴿يَا أَيُّها النَّـاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ. إِنْ يَشَـأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَديدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٥ ـ ١٧).

فاللَّه سبحانه يخاطب الناس جميعاً بأنهم هم الفقراء وأولو الحاجة إلى اللَّه، فإياه فليعبدوا وفي رضائه فليسرعوا، وفي تعريف الفقراء بالألف واللام في وصف الناس للمبالغـة في وصف فقرهم بـالنسبة إلى اللَّه. ﴿واللَّهُ هُـوَ الغَنِيُّ الحَمِيـدُ﴾ واللَّه غني عن عبـادتهم إيـاه وهـو المنفـرد بـالغنى وحـده وهو الحميد: أي مستحقٌّ للحمد من عباده بإحسانه إليهم، فكل النِّعم منـه سبحانه فله الحمد والشكر ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إن يشأ يهلككم أيها الناس

﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويأتِ بدلكم بخلق جديد يطيعونه ولا يعصونه، أو يأتي بنوع من أنواع الخلق غير ما تعرفون ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما ذلك الأمر بممتنع ولا متعسر بل ذلك عليه يسير سهل، وهذا تهديد ووعيد لهم إن ظلوا على كفرهم.

فالناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة لئلا يركبهم الغرور في معرض دعوتهم إلى الهدى، وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته والعمل الصالح فإن اللَّه غني عنهم، وأن عبادتهم له لا تزيد في ملكه شيئاً، وأنهم لا يعجزون اللَّه فهو إن شاء أن يهلكهم ويأتي بخلق جديد لفعل، فاللَّه سبحانه حين دعا الناس إلى الهدى كانت دعوته لهم رأفة بهم لينشلهم من درب الشقاء إلى درب السعادة.

ثم يبين القرآن أن الإنسان وحده يتحمل مسؤولية عمله وأن ترفعه عن الآثام يعود بالخير والنفع عليه:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(١) أي ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، بل كل نفس وحدها تتحمل مسؤولية ما ارتكبته من آثام، ولا يؤخذ بريء بجريرة ظالم.

هذه هي العدالة الإلّهية، وهذا ما أراد اللَّه أن يعيه الإنسان ويسير بموجبه. ولقد ضلت البشرية حقبة طويلة من الزمن عن هذا المفهوم العادل،

---

(١) ولا تَزِرُ: ولا تحمل. وَازِرَة: نفس آثمة. وزِر: ذنب، إثم.

فكم من حوادث الأخذ بالثأر ارتكبت، وكم من الانتقامات ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، كل ذلك خروج عن الهدي الإلّهي.

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا﴾ وإن تسأل نفس مثقلة بالذنوب وتطلب من أحد أن يحمل عنها ذنوبها ليخفف عنها ما تعانيه منها ﴿لا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ لم تجد من يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولو كان الذي سألته ذا قرابة كأب أو أخ أو ابن، لأن لكل امرىء يوم القيمة شأناً يغنيه.

فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله لا يحمل عنه أحد ذنبه ولا يعفيه منه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه على كل إثم يقترفه، مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء غير عمله الصالح.

﴿إنَّما تُنْذِرُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي إن إنذارك يا محمد في قومك يجدي وينفع الذي يخافون ربهم في خلواتهم بعيدين عن الناس، أو يخشون عذاب اللّه وهو غائب عنهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها وخشوعها على ما فرضها اللّه عليهم ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ ومن تطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى اللّه والعمل بطاعته ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ فإن ثمرة ذلك ونفعه يعود عليه لأنه بذلك يثاب برضا اللّه والفوز بنعيم الجنة والنجاة من عذاب النار ﴿وَإِلى اللَّهِ المصيرُ﴾ وإلى اللّه المرجع والمآب يجزي كل عامل بعمله.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف نفسية الكافرين فهم في ضلالة كالعمي، وطريقهم الظلمة، وهم كالأموات لا ينتفعون بشيء:

﴿وَمَا يَسْتوي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ. ولا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ. ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ. وَمَا يَسْتَوي الأَحْيَاءُ ولا الأَمْوَاتُ إنَّ اللَّه يُسْمِعُ منْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُورِ. إنْ أَنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ﴾ (١٩ ـ ٢٣).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ مثّل اللَّه الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير، والأعمى والبصير لا يتماثلان. فالكافر أعمى لأنه لم يبصر دلائل الحق في دين الإسلام ولم يسترشد بهداه، والمؤمن بصير لأنه أبصر الدين الحق فاتبع محمداً وصدقه فيما جاء به من عند ربه.

﴿وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ﴾ أي لا تتماثل الظلمات مع النور، فالظلمات إشارة إلى الباطل، والنور إشارة إلى الحق. وجاءت صيغة الظلمات بالجمع والنور بالمفرد لتعدد فنون الباطل ووحدة الحق. فالكفر هو الباطل وهو ظلمة في القلب والرؤية، يجعل صاحبه في حيرة واضطراب وتعثر مستمر، والإسلام هو الحق وهو النور الذي يسترشد به الإنسان في طريقه إلى الفوز والفلاح.

﴿ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ﴾(١) أي لا يتماثل أيضاً الظل وما فيه من برودة مع الحر الشديد، والظل إشارة إلى الثواب، والحرور إشارة إلى العقاب، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة ونعيم في الآخرة، والكافر بكفره في حرٍّ وتعب وعذاب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْواتُ﴾ الأحياء هم المؤمنون الذين دخلوا في دين الإسلام، والأموات هم الكافرون الذين أصروا على الكفر والضلال. والأحياء والأموات لا يتماثلان، فالإيمان حياة في القلوب، ويقظة في الضمائر يحيي المجتمعات بما يوحي من مبادىء سامية، والكفر هو موت في الضمائر وتدمير للقيم السامية وفساد في النفوس.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إن اللَّه يُسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق

---

(١) الحرور: الحر الشديد وسمي حروراً مبالغة في شدة الحر لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

فيشرح صدره للإسلام ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار هدى اللَّه لأنهم في عدم إصغائهم إلى سماع كلمة الحق هم بمنزلة من قد ماتوا ودفنوا في قبورهم، فكما أن من مات لا يسمع فكذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون لأنهم أموات القلوب ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وما أنت يا محمد إلّا رسول من اللَّه تخوّف هؤلاء الكفار من عذاب النار إن أصروا على كفرهم. وفي هذا البيان تسرية لأحزان النبي ﷺ بسبب عدم استجابة قومه له.

وبعد هذه المقارنة بين المؤمن والكافر يخاطب اللَّه رسوله محمداً مبيناً له واجبه في الدعوة إلى دين اللَّه، مع إنذار المكذبين بنبوة محمد ﷺ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ. وَإِن يُكَذِّبوكَ فَقَدْ كذَّبَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم جَاءَتْهُم رُسُلُهم بِالبَيِّنَات وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المنيرِ. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِين كَفَروا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٢٤ ـ ٢٦).

فاللَّه سبحانه يقول: إنا أرسلناك يا محمد للناس جميعاً بالدين الحق مبشراً بنعيم الجنة من صدقك واتبع دين الإسلام، ومنذراً بعذاب النار من كذبك وكفر بالإسلام ﴿وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ والأمة: الجماعة الكثيرة، ويقال لأهل كل عصر أمة. أي وما من أمة مضت من بني آدم إلّا وقد بعث اللَّه فيهم رسولاً يخوفهم سوء عاقبة الكفر والظلم والطغيان، وهذا من حكمة اللَّه في خلقه حتى لا يكون للضالين عذر يوم القيامة فيقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا فيبين لنا طريق الحق، ولذا وصف اللَّه الغاية من إرسال الرسل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.﴾ النساء: ١٦٥.

﴿وَإِن يُكذِّبوكَ فَقَدْ كذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهم﴾ وَإن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم، فلا تحزن يا محمد ولا تغتم من تكذيبهم لك ﴿جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم رسل اللَّه بالمعجزات والحجج الواضحة الدالة على نبوتهم ﴿وَبِالزُّبُر﴾ وبالكتب من عند اللَّه ﴿وَبالكتَابِ المنيرِ﴾ وجاءهم من اللَّه الكتاب المنير الذي يظهر لمن تأمله وتدبره أنه الحق. قيل المراد بالزبر: صحف إبراهيم، وبالكتاب المنير: التوراة والإنجيل ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِين كَفَرُوا﴾ ثم أهلك اللَّه الذين جحدوا رسالة رسله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير، فإنهم قد علموا شدة إنكار اللَّه عليهم بالتدمير والهلاك والعذاب. وهذا إنذار للأمم الكافرة ـ في كافة العصور ـ بأن يحل عليها من العذاب والهلاك مثل ما حل بالأمم السابقة التي عصت أوامر ربها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ
لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا

شرح المفردات

جُدَدٌ : طرائق مختلفة الألوان.

غرابيب سود : شديدة السواد.

لن تبور : لن تكسد ولن تهلك.

مقتصد : استوت حسناته وسيئاته.

أذهب : أزال.

الحَزَن : الهم والغم.

دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ
عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ
فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧
إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ
ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ
إِلَّا خَسَارًا ٣٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى
مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ
عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠

شَرح المفـردَات

دار المقَامة : دار الإقامة الدائمة (الجنة).

نَصَبٌ : تعب ومشقة.

لُغُوب : أشد الإعياء وأقصى التعب.

يصطرخون : يستغيثون ويصيحون بشدّة.

خلائف في الأرض : خلفاء من كان قبلكم من الأمم.

مقتاً : أشد البغض.

أم لهم شِرك : أم لهم شركة مع اللَّه في الخلق.

غُرُوراً : باطلاً أو خداعاً.

تابع سورة فاطر

ثم يلفت القرآن أنظارنا إلى بعض المظاهر الطبيعية والمخلوقات الحية التي تشهد بوجود اللّه ووحدانيته وعظيم قدرته:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّه أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمراتٍ مُختلِفاً أَلوانُها وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغرابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ، إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ إنّ اللَّه عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٧ ـ ٢٨).

والمعنى: ألم تعلم ـ أيها المخاطب ـ أن اللّه أنزل من السماء مطراً فسقيناه نباتات وأشجاراً في الأرض فأخرجنا به من تلك النباتات والأشجار ثمرات مختلفاً ألوانها: منها الأحمر، ومنها الأسود، ومنها الأصفر، ومنها الأخضر، ومنها غير ذلك من الألوان.

﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَد[1] بيضٌ وَحُمْرٌ مُختَلفٌ ألوانُها﴾ ومن الجبال طرائق وخطوط بعضها بلون البياض، وبعضها بلون الحمرة، مختلفة ألوانها بالشدة والضعف ﴿وَغرابيب سُود﴾ أي ومن الجبال طرائق سود شديدة السواد، وغرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد، والغربيب تأكيد للأسود، وإنما قدمه عليه للمبالغة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنْعَامِ مُختلفٌ ألوانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي كذلك هذا التنوع في الألوان نجده في الجنس البشري، فمنهم الأبيض والأسمر والأحمر والأسود والأصفر. وكذلك تنوع الألوان نجده في الدواب، والدواب جمع دابة وهي كل حيوان يدب على الأرض، والأنعام: هي الإبل والبقر

---

(١) جدد: جمع جُدَّة وهي الطريقة الظاهرة، والطريقة والطريق بمعنى واحد.

والغنم والماعز خصها القرآن بالذكر لألفتها للإنسان.

﴿إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلماءُ﴾ أي ما يتدبر هـذا الصنع العجيب ويخشى صـانعه إلاّ العلمـاءُ الذين يـدركون أسـرار هـذه الصنعـة، ومن ثم يعرفون اللَّه معرفة حقيقية ويستشعرون حقيقة عظمته ومن ثمّ يخشونه حقًّا عن علم وبصيرة ويتقونه حقًّا ﴿إن اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ إن اللَّه هو القـوي الغالب، غفور لمن يرجع إليه بالتوبة والطاعة.

فالقرآن يصف هذا التنوع في الألـوان: في الثمر، والجبـال، والإنسان والحيـوان بكلمات قليلة تشهـد بمصدرهـا الإلّهي. ومن الملفت للنـظر أن مصدر كل تنوع في الألوان من كل صنف يصدر من مصدر واحد، فالثمرات المختلفة الألوان مصدرها تربة واحدة وماء واحد، والجبال الحمر والبيض والسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة أصل معينها من بـاطن الأرض ويسميها علماء الجيولوجيا بالصهارة، وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق في أماكن مختلفـة من الأرض يعتري تـركيبها الاختـلاف فتتصلب آخر الأمـر في كتل أو جبال مختلفة المادة والألوان، فالصخور التي تتألف من حديد يكون اللون السائد فيها أحمر، والتي تتألف من فحم أو منغنيز يكون اللون السائـد فيها أسود، وهكذا...

أما اختلاف الألـوان في الناس والـدواب والأنعام فمصـدرها الخـلايا، فالخلية هي الوحدة المتناهية في الصغر والتي تحتوي على مادة الحياة، وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً، وفي نواة خلية كل ذكر وأنثى يوجد وحـدات الوراثـة التي يطلق عليهـا «جينات» وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً من حيث خصائصها الفرديـة وألـوانها وأجنـاسها، فهـل هي الصدفـة العمياء التي أنشـأت الخلايـا؟ لا،

لا يقول بهذا عاقل أبداً بل الذي أنشأها اللّٰه خالق كل شيء، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وبعد هذه الجولة في أسرار الطبيعة وفي مخلوقات اللّٰه يأتي عقب ذلك الوعد بالأجر الجزيل لقراء القرآن وللذين يقومون بواجب العبادة:

﴿إِنَّ الذينَ يَتْلُون كِتَابَ اللّٰهِ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَنْفقُوا مِمَّا رَزَقْناهُم سِـرًّا وَعَلانيةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوَفِّيهُم أُجُورَهُم وَيَـزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّـهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٩ ـ ٣٠).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الذينَ يَتْلُون كِتَاب اللّٰهِ﴾ أي إن الذين يقرأون كتـاب اللّٰه وهو القـرآن الذي أنـزلناه على محمـد، ويداومـون على قراءتـه ويعلمون ما فيه ويعملون به ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ وأدوا الصلاة المفـروضة في أوقاتها كاملة بخشوع مستوفية لشروطها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ أي وتصدقوا بما أعطيناهم من الأموال سرًّا في خفاء وجهاراً قاصدين بذلك وجه اللّٰه لا للرياء والسمعة ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ يتوقعون معـاملة مع اللّٰه لنيـل الربح وهو الثواب ﴿لَنْ تَبور﴾ لن يُصيب هذه التجارة الكساد ولا الخسران.

وقد اشتهر عن هذه الآية بأنها آية القراء لما وعدت بـه قراء القـرآن من الثواب الجزيل بجانب الصلاة والصدقة.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُم﴾ أي سيعطيهم اللّٰه أجور أعمـالهم الصالحـة كاملة ﴿وَيَـزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويـزيدهم على ثـواب أعمالهم من خـزائن رحمتـه ما يشاء ﴿إنه غفور شكور﴾ إنه غفـور لذنـوب عباده إذا تـابوا عنهـا، شكور لحسناتهم ومثيبهم عليها.

ثم يبين اللّٰه سبحانه العلاقة التي تربط القرآن بالكتب الإلٰهية السابقة مع

التنويه بأمة محمد التي أورثها القرآن للعمل به:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ. ثُمَّ أورثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصطفيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ (٣١ - ٣٢).

والمعنى: والذي أوحينا إليك يا محمد من القرآن هو الحق الذي لا شبهة فيه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلّهية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور وذلك لاتفاق أصولها ﴿إِنَّ اللَّه بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ إن اللَّه عالم ببواطن الأمور لعباده، بصير لا تخفى عليه خافية من شؤونهم.

فالعلاقة التي تربط الإسلام بالديانتين الإلّهيتين: اليهودية والنصرانية في صورتهما الأولى الحقيقية التي أنزلت على موسى وعيسى هي علاقة تصديق، وعلاقته بهما في صورتهما الحاضرة التي وصلت إلينا هي علاقة تصديق لما بقي من أجزائهما الأصلية، فما ورد في القرآن من العقائد إن كان في التوراة والإنجيل ما يماثله فهو حق، وما يخالفه من العقائد فهو باطل وهو من التحريفات التي أُدخلت عليها. أما الشرائع فهي تختلف من رسول إلى آخر. وقد جاء في القرآن: ﴿لكلٍّ جَعَلْنا منكم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ النساء: ٤٨. أي لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة وطريقاً واضحاً في الدين يمشي عليه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ﴾ ثم أعطينا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد ميراثاً منك لأمتك فأتحنا لهم حفظه وعلمه والعمل به ﴿الّذِينَ اصطَفَينَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وعبادنا المراد بهم أمة محمد من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم إلى

يوم القيامة. ومعنى اصطفائهم: اختيارهم واستخلاصهم. وفي التعبير بالاصطفاء تنويه بفضل أمة محمد على سائر الأمم، إذ خصهم اللّٰه بكرامته وجعلهم أتباع سيد الرسل وخصهم بالقرآن أفضل الكتب المُنزلة.

ثم قسّم اللّٰه أتباع محمد إلى فئات ثلاث: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ باقترافه الصغائر من الذنوب والمعاصي التي هي دون النفاق والشرك باللّٰه، وقيل الظالم نفسه هو الذي رجحت سيئاته على حسناته ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو غير المبالغ في طاعة ربه الذي استوت سيئاته وحسناته ﴿وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته، وسبق الناس إلى الأعمال الصالحة وخدمة ربه وأداء ما لزمه من الفرائض ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيق اللّٰه إياه لذلك ﴿ذَلِكَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ ذلك السبق بالخيرات هو الفوز الكبير من اللّٰه.

وقيل في معنى ما سبق: الظالم الذي أخذ بالقرآن ولم يعمل به، والمقتصد الذي عمل به، والسابق بالخيرات الذي أخذه وعمل به وبيَّن للناس العمل به فعملوا به.

ثم بيَّن القرآن مصير الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الحمْدُ لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يمسُّنا فيها نصبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣٣ ـ ٣٥).

فهؤلاء الثلاثة جزاؤهم في الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات استقرار واطمئنان، يتزينون فيها بأساور من ذهب ولؤلؤ، وثيابهم في الجنة من حرير. وقد قيل ـ واللّٰه أعلم ـ إن السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب،

والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً، والظالم لنفسه يدخل الجنة بعد عقوبة اللّه إياه على ذنوبه التي أصابها في الدنيا مع التوبيخ لما صدر منه.

﴿وَقَالُوا الحمْدُ لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ والحَزَن: الهم والغم، لقد أثنوا على ربهم عند دخولهم الجنة لأنه أزال عنهم الهم والغم ﴿إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إن ربنا غفور لذنوب عباده شكور لهم على حسناتهم وطاعتهم إياه ومثيبهم عليها ﴿الذي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْله﴾ الذي أنزلنا دار النعيم المقيم الذي لا انتقال منه ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبنا فيها تعب ﴿ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ﴾ ولا يصيبنا فيها إعياء وعناء.

وبعد الكلام عن مصير المؤمنين في الجنة يأتي الكلام عن الكافرين في النار:

﴿وَالذينَ كفروا لَهُم نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهم فَيموتُوا وَلا يُخَفَّفُ عنهم مِنْ عَذَابِها كَذَلِكَ نجزي كُلَّ كفورٍ. وَهُم يَصْطَرِخُونَ فيهَا رَبَّنَا أخرجْنَا نَعْمَلْ صَالحاً غير الذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فيه مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقوا فَمَا للظَّالمينَ مِنْ نَصِيرٍ. إنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمْوات وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٦ - ٣٨).

فاللّه سبحانه يقول: والذين جحدوا بآيات اللّه وكذبوا رسله فلهم في الآخرة عذاب النار في جهنم ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهم فيموتوا﴾ لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿ولا يُخَفَّفُ عَنْهم مِنْ عَذَابِهَا﴾ ولا يخفف عنهم شيء من عذاب الحريق بل هم في عذاب مستمر ﴿كَذَلِكَ نَجْزي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي بمثل هذا العذاب يجازي اللّه كل كفور به جاحد لنعمه مكذب برسله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُون[1] فِيهَا﴾ وهم يستغيثون في النار

---

(١) يصطرخون: اصطرخ (افتعل) من الصراخ وهو الصوت العالي. والصارخ المستغيث.

بأصوات عالية ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ربنا أخرجنا من عذاب النار ورُدَّنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً غير الذين كنا نعمل، وقولهم هذا فيه تحسّر على ما عملوه من السيئات واعتراف منهم بأن أعمالهم كانت غير صالحة. أمام هذه الاستغاثة منهم والاعتراف بسيئاتهم يجيبهم اللّه: ﴿أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يتذكرُ[١] فيه من تَذَكَّرَ﴾ أي ألم نُطِلْ أعماركم زمناً يتمكن فيه من التدبر والتفكر من يريد أن يستحضره في ذهنه ويتدبره بأن مصيره إلى اللّه وأن هناك حساباً وعقاباً، وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «أعذر[٢] اللّه إلى امرىءٍ أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة»[٣] والمعنى: أن من عمره اللّه ستين سنة لم يبق له عذر ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ والنذير بمعنى الإنذار واختلف في معناه فقيل هو الرسول محمد ﷺ، وقيل هو القرآن، وقيل هو الشيب لأن الشيب نذير الموت، وقيل موت الأهل والأقارب ﴿فَذُوقوا فَمَا لِلظَّالمينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ فذوقوا عذاب جهنم لأنكم لم تعتبروا، فليس لكم نصير يمنعكم من عذاب اللّه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّموات وَالأَرضِ﴾ إن اللّه مُطَّلع على كل غائب في السموات والأرض لا يغيب عن علمه شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ﴾ إن اللّه عليم بخفايا الصدور من النزعات والميول.

ويتابع القرآن فيذكر أن الكفر يعود على صاحبه بالبغض من اللّه والخسران:

﴿هُوَ الّذي جَعَلكُمْ خَلائِفَ في الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ولا يزيدُ الكافرين كُفْرُهُم عِنْدَ رَبِّهم إلاَّ مَقْتاً وَلا يَزيدُ الكافرين كُفْرُهُم إلاَّ

---

(١) أوَ لم نعمركم ما يتذكر: الهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام و «ما» الداخلة على يتذكر هي نكرة موصوفة بمعنى: وقت.

(٢) أعذر: بلغ به أقصى العذر.

(٣) أخرجه البخاري.

خساراً﴾ (٣٩).

فـاللَّه سبحـانـه يقـول: ﴿هُـوَ الـذي جَعَلَكُم خَـلاَئِفَ في الأَرْضِ﴾ خلائف: جمع خليفة وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه، فاللَّه جعلكم ـ أيها الكفار ـ كما جعل غيركم من الناس خلائف في الأرض لِمن مضى قبلكم من الأمم، أو جعلكم خلفاءه في أرضه لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كَفَـرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فمن كفـر باللَّه فعليـه وزر كفره لا يضـر بذلـك غير نفسـه لأنه المعاقب عليه دون غيـره ﴿وَلا يَزيـدُ الكافـرين كُفْرُهُم عِنْـدَ رَبِّهم إلاَّ مَقْتاً﴾ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ بُعداً عن رحمة اللَّه وبغضاً شديداً منه ﴿وَلا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُم إلاَّ خَسَاراً﴾ ولا يزيد الكافرين كفـرهم باللَّه إلاّ هلاكاً وضلالاً.

وبعد أن بيَّن القرآن مصير الكافرين في الآخرة انتقل إلى طلب الدليـل منهم على صحة عبادتهم للأصنام:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم شُركَاءكم الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَروني مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَم لَهُم شِرْكٌ في السَّمٰوات أم آتيناهم كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بيِّنَةٍ مِنْهُ بل إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهم بَعْضاً إلاَّ غُروراً﴾ (٤٠).

فـاللَّه سبحـانـه يقـول: ﴿قُـلْ أَرَأَيْتُم شُـرَكَـاءَكُم﴾ أي قـل يـا محمـد للمشركين: أخبروني عن شركائكم. وشركاؤهم هم أصنـامهم التي جعلوها شريكة للَّه، وإنما أضاف الشركاء إليهم من حيث أن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء للَّه وإنما هم الذين جعلوها شركاء للَّه ﴿الذين تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي هذه الأصنام التي تعبدونها متجاوزين اللَّه في العبادة ﴿أَرُوني مَاذَا خَلَقُـوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أروني قدرتهـا في الأرض وأي شيء خلقت فيها ﴿أَمْ لَهُم شِرْكٌ في السَّموات﴾ أم لهم شركة مع اللَّه في خلق السموات والتصرف

فيها. فقد كان المشركون يقولون: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة، والملائكة شركاء للّه في خلق السموات وهذه الأصنام هي صورة لها أو رمز لها ﴿أَمْ آتيناهم كِتَاباً فَهُم عَلَى بيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أم هل أعطينا المشركين كتاباً من عندنا بأن آلهتهم شركاء للّه فهم على بيان منه وحجة بأن مع اللّه شريكاً ﴿بَل إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهم بَعْضاً إلا غُروراً﴾ أي وما يعد الظالمون بعضهم بشفاعة الأصنام ما هو إلاّ خداع وطمع في الباطل فقد كان الرؤساء يقولون لأتباعهم أن الأصنام تقربهم إلى اللّه وتنفعهم وتشفع لهم، وقد وصف اللّه المشركين بالظلم لتعديهم على الحق بعبادتهم للأصنام.

فعبادتهم للأصنام ليس لها سند من العقل، وليس فيها حجة يعتمدون عليها، بل هي امتهان للعقل وتحقير له، فكيف يعبد الإنسان تماثيل من صنعه ويقدم لها النذور والهدايا؟ ولا تزال التماثيل والأصنام تعبد في كثير من بقاع الأرض فهي في نظر عابديها تشفع لهم، وهي تجسد من يعبدونهم من أنبياء أو قديسين أو ملوك أو مظاهر طبيعية كل ذلك حاربه الإسلام واعتبره من كبائر الإثم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ
أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ
لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا
زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ
ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ
ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾
وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

جَهْدَ أيْمانهم : بالغوا في القسم غاية اجتهادهم فيه.

نُفُوراً : تباعداً عن الهدى وفراراً منه.

مَكْرَ السَّيِّىء : المكر في آيات اللَّه هو التكذيب بها، وتدبير الشر للغير خفية.

يحيق : يحيط وينزل.

ينظرون : ينتظرون ويتوقعون.

سُنَّةَ الأولين : طريقة اللَّه فيهم من تعذيبهم لتكذيبهم رسله.

لِيُعْجزه : ليسبقه ويفوته.

أَجل مسمى : وقت محدّد للحساب (يوم القيامة).

تابع سورة فاطر

وبعد أن بيّن القرآن أن الأصنام لا تقدر على خلق شيء في السموات والأرض بيّن بعد ذلك أن اللّه وحده هو خالقهما وممسكهما من الزوال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوات وَالأرضَ أنْ تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَليماً غَفُوراً﴾ (٤١).

فاللّه سبحانه يمسك السموات والأرض بقانون الجاذبية الذي أوجده وأبدعه ويمنعهما من الزوال والسقوط ﴿وَلَئِن زَالتا﴾ ولئن قُدِّر للسموات والأرض الزوال ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي ما أمسكهما ومنعهما من الزوال أحد بعد اللّه، فالسموات والأرض قائمتان بقدرة اللّه تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ إنه سبحانه كان حليماً لا يعاجل بالعقوبة المخالفين لأوامره، غفوراً لذنوب الراجعين إليه بالتوبة والطاعة.

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المشركين وما كانوا يتطلعون إليه من طموحات قبل الإسلام، فقد كانوا يجاورون اليهود في جزيرة العرب ويسمعون من تاريخ اليهود وعصيانهم لأنبيائهم الشيء الكثير، لذلك أقسموا لئن جاءهم نبي ليكونن أهدى منهم وهذا ما يقصه علينا القرآن:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُم نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَم فَلَمَّا جَاءَهُم نَذِيرٌ مَا زَادَهُم إِلَّا نُفُوراً. اسْتِكْبَاراً في الأَرض وَمَكْرَ السَّيِّىء وَلا يَحيقُ المكرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْويلاً﴾ (٤٢ ـ ٤٣).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيمانهم﴾ الأَيْمان: مفردها يمين وهو القسم، أي وأقسم المشركون باللّه وبالغوا في القسم جاهدين في

ذلك ﴿لَئِنْ جاءَهُم نَذِيرٌ﴾ لئن جاءهم نبي ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَم﴾ أي ليكونن أكثر هداية من الأمم التي كذبت الرسل من أهل الكتاب ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم نَذِيرٌ مَا زَادَهُم إلاَّ نُفُوراً﴾ فلما جاءهم نذير منهم وهو محمد ﷺ ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى ﴿اسْتِكْباراً في الأَرْضِ﴾ ونفورهم كان بسبب استكبارهم عن الانصياع للحق وعلوهم في الأرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّىء﴾ والمكر: هو الحيلة والخداع والعمل القبيح، ومكرهم السيىء هو عزمهم على قتل النبي ﷺ واضطهادهم من آمن بدعوته ﴿وَلَا يحيقُ المكرُ السَّيِّىء إلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ يحيق: يحيط وينزل، أي لا ينزل المكر السيىء إلا بالذين يدبرونه، وقد صدق اللَّه فبعد فترة وجيزة من محاولتهم قتل النبي ﷺ حصلت معركة بدر التي قتل فيها سبعون من المشركين.

﴿فَهَلْ يَنْظُرون إلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِين﴾ ينظرون بمعنى ينتظرون، أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا ما جرى به نظام اللَّه في خلقه في الأمم المتقدمة من تعذيب وإهلاك بسبب تكذيبها لأنبيائهم واضطهادهم مع من آمن معهم ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ فلن تجد لطريقة اللَّه في معاملة الأمم المكذبة لرسلها تغييراً ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ ولن تجد لطريقة اللَّه تحويلاً عن اتجاهها، أي بتحويل العذاب عنهم إلى غيرهم.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى ما كانت عليه بعض الأمم السالفة من قوة ثم ما آلت إليه بعد تكذيب الرسل من هلاك:

﴿أَوَ لَمْ يَسيروا في الأَرضِ فَينظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذين مِنْ قَبْلِهِم وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْء في السَّمٰواتِ ولا في الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ (٤٤).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَسيروا في الأَرْضِ[1]﴾ أي أقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض، لا بل ساروا في الأرض ﴿فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قَبْلِهم﴾ ونظروا بأعينهم آثار الهلاك والدمار الذي أنزل على من كان قبلهم من الأمم عقاباً لكفرهم وتكذيبهم للرسل كقوم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً﴾ وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً وأطول أعماراً وأكثر منهم أموالاً ﴿وَمَا كان اللَّه لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيءٍ في السَّمٰوات وَلَا في الأَرْضِ﴾ وما كان اللَّه ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء سواء كان في السموات أو في الأرض ﴿إِنَّه كَانَ عَليماً قَدِيراً﴾ إن اللَّه كان عليماً بخلقه ومن هو المستحق منهم للعقاب، قدير على الانتقام ممن شاء منهم.

هذه الدعوة إلى النظر في أسباب سقوط الأمم وانهيارها إذا وعتها الشعوب ودرست أسبابها ومسبباتها وتجنبت أخطاءها فإن ذلك يوفر عليها كثيراً من الويلات والخراب الذي أصاب من كان قبلها من الأمم.

فالمجتمعات يشقيها الكفر والظلم وشيوع الفواحش والمنكرات فيها، كما أن المجتمعات يسعدها الإيمان واتباع أوامر اللَّه الداعية إلى العدل والإحسان والخير، هذه طريقة اللَّه في خلقه التي لا تتبدل ولا تتغير.

وأخيراً يختم اللَّه هذه السورة ببيان حلمه على المسيئين من خلقه، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولكن يمهلهم إلى وقت معين:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّه النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُم إِلَى أَجَلٍ مُسمًّى فَإِذا جَاءَ أَجَلُهُم فَإِن اللَّه كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (٤٥).

---

(١) أوَلم يسيروا في الأرض: الهمزة للإنكار والنفي، ونفي النفي إثبات، والواو للعطف على محذوف تقديره: أقعدوا في مساكنهم.

والمعنى: ولو يؤاخذ اللَّه الناس ويجازيهم بما عملوا من الذنوب والمعاصي في دنياهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها من إنسان وحيوان ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا من المعاصي ﴿إِلى أَجَلٍ مُسمًّى﴾ إلى وقت معين وهو يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا أيضاً بجانب عقاب الآخرة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم﴾ فإذا جاء هذا الوقت لعذابهم ﴿فَإِن اللَّه كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ أي بصيراً بمن يستحق أن يُعاقب منهم وبمن الذي يستوجب النجاة.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

التفسير الكبير للفخر الرازي

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي.

لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن.

فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.

تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي.

روح المعاني للألوسي.

تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي.

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف.

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.

في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب.

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق.

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني.

صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني.

سورة الأحزاب للأستاذ مصطفى زيد.

الفهرس

وفي الختام أقدم شكري للأساتذة:

القاضي الشيخ حسين غزال.

الشيخ شريف سكر.

مصطفى قصاص.

على ما أبدوه لي من ملاحظات قيمة.

كما أقدم شكري **لجامعة بيروت العربية** التي أتاحت لي الاطلاع على المراجع اللازمة في مكتبتها العامرة.

وأخص بالشكر **جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت** لما أسدته مطابعها والعاملون عليها من جهد في تنضيد أحرف هذا الجزء من التفسير بهذه الحلة الجميلة.

راجياً من اللّه أن يتقبل هذا العمل وأن ييسر لي العمل على إكمال تفسير القرآن الكريم.

روح القرآن الكريم

تفسير

جزء يس

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذَا التَّفْسِيرُ

• يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .

• يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصَّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون:

دَارُ العِلْمِ للمَلايِين

بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة . وهذا الجزء الثالث والعشرون يبتدىء بالآية ٢٨ من سورة يسٓ وينتهي بالآية ٣١ من سورة الزمر . ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا فسرنا سورة يسٓ كاملة وتركنا تفسير سورة الزمر بكاملها للجزء الرابع والعشرين . وسمينا هذا الجزء « جزء يسٓ » تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم « جزء عم » و « جزء تبارك » إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها .

رُوحُ القرآنِ الكريمِ

تفسير

جُزْءِ يسٓ

الجزء الثالث والعشرون

بقلم

عَفيف عَبد الفتّاح طَبّارَه

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

الطبعة الرابعة

نيسان/أبريل ٢٠٠٠

كلمة شكر

أقدم شكري وامتناني إلى الأساتذة الكرام:

القاضي الشيخ حسين غزال
الشيخ شريف سكر
مصطفى قصاص.

على ما قدموه لي من معونة وملاحظات قيمة على هذا الجزء من التفسير.

كما أقدم شكري لجامعة بيروت العربية لما قدمته لي مكتبتها العامرة والمشرفون عليها من خدمات كريمة لا تحصى.

راجياً من الله أن يتقبل هذا العمل وأن ييسر لي العمل على إكمال تفسير القرآن الكريم

المؤلف

سُورَةُ يسٓ

سميت هذه السورة باسم يٓس « ياسين » لافتتاحها بها .

تشتمل هذه السورة على إثبات وحدانية اللّٰه ، ورسالته إلى خلقه بواسطة رسل من البشر ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وبيان أن أعمال الإنسان مدونة محصاة ليحاسب عليها يوم الجزاء .

كما تبين السورة عاقبة الكفر الوخيمة ، فتقدم مثالاً لما جرى لمدينة أنطاكيا عندما كذّبت رسل اللّٰه ، واضطهدت من آمن باللّٰه .

وتهدد السورة المعرضين عن هدى اللّٰه ، الممسكين أيديهم عن الإنفاق على المساكين ، وتصف عذاب الكفار في جهنم ، ونعيم المؤمنين في الجنة .

وتتعرض السورة لقضية البعث(١) وهو أهم مواضيع السورة فتقدم الدليل على عدم استحالته ، وتُقرّبه إلى العقول بأمثلة محسوسة ، لافتة الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٰهية المتمثلة بما خلقه اللّٰه من صنوف الحَبّ والثمر الذي يخرج من الأرض الميتة ، ووجود الزوجية في كل شيء ، واختلاف الليل والنهار ، وتحركات الشمس والقمر بهذا النظام البديع ، ومشهد الفلك التي تسير في البحر لمنفعة الإنسان ، ووجود الأنعام المسخرة لفائدة الإنسان ، وأسرار النطفة التي تتحول إلى إنسان ، ومشهد الشجر الأخضر الذي يتحول إلى نار ، هذه القدرة الإلٰهية التي خلقت كل ذلك وخلقت السماوات والأرض لا يعجزها إعادة الإنسان حياً بعد الممات يوم القيامة .

---

(١) البعث : بَعْث اللّٰه للموتى أي إحياؤهم ، ويوم البعث هو يوم القيامة .

سُورَةُ يسٓ

مكيّة الا آية ٤٥ فمدنية وآياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ
فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾
إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾
وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ
فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

شرح المفردات

يسٓ : وتلفظ (ياسين) وهي اسم من أسماء محمد ﷺ .

لَمِنَ المرْسَلِينَ : من رسل الله الكرام .

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ : طريق مستقيم (دين الإسلام) .

لِتُنْذِرَ قَوْماً : لتخوفهم وتحذرهم من عاقبة الكفر والمعاصي .

حَقَّ الْقَوْلُ : وجب العذاب .

أغْلالاً : جمع غُل وهو القيد .

مُقْمَحُونَ : المقمح هو الذي يرفع رأسه ويغض بصره .

سَدّاً : حاجزاً ومانعاً .

فَأَغْشَيْنَاهُم : فغطينا أبصارهم وأعميناهم عن الهدى .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِم : أي يتساوى الأمران عندهم الإنذار وعدم الإنذار .

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟
وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

شَرح المفـرَدات

إنَّما تُنْذِرُ : إنما تحصل البُغية بإنذراك وينتفع به .

اتَّبَعَ الذِّكْرَ : اتبع الوعظ .

آثارَهُم : أعمالهم التي يبقى أثرها بعد وفاتهم .

أَحْصَيْنَاهُ : سجلناه وحفظناه .

إمَامٍ مُبينٍ : هو اللوح المحفوظ ويوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه اللّه وقدر أن يعمله .

سورة يس
ايضاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة مؤكداً أن محمداً رسوله حقاً ، أرسله إلى قومه وإلى الناس جميعاً لينذرهم من عذاب اللّه إن اختاروا طريق الضلال :

﴿يسٓ . وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١ ـ ٧) .

﴿ يٓس ﴾[١] إسم من أسماء النبي ﷺ وقيل غير ذلك ﴿ وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ﴾ الواو للقسم ، والقرآن مقسم به ، والقسم بالقرآن تنويه بشأنه ، وتعظيم لقدره . وقد وصف اللّه القرآن بالحكيم ، أي الناطق بالحكمة[٢] ، أو بمعنى : المحكم الذي لا يعتريه تناقض أو بطلان ﴿ إِنَّك لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هذه الآية جواب للقسم ، وإن : حرف توكيد ، واللام في لفظة « لمن » هي أيضاً تفيد التوكيد ، فيكون المعنى : أقسم بالقرآن الحكيم وأؤكد أنك يا محمد من جملة الرسل الذين أرسلتهم لهداية الخلق ، وهذا التأكيد على نبوة محمد ﷺ هو رَدّ من اللّه على الكفار حيث قالوا للنبي ﷺ : لست مرسلاً من اللّه .

---

(١) يسٓ ، وتلفظ (ياسين) وهي اسم من أسماء النبي ﷺ والدليل على ذلك قوله تعالى بعد يسٓ : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ . وقيل : يٓس معناه : يا إنسان بالحبشية وفي لغة طيّىء ، وأصله في لغة طيّىء يا أنيسين فكثر النداء على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، وقيل : يٓس قسم أقسم اللّه به وهو من أسماء اللّه ، وقيل : إن كلمة يسٓ هي اسم للسورة ، وقيل : إن كلمة يٓس مكونة من حرفين : الياء ، والسين ، فهي من الحروف الرمزية التي افتتحت بها بعض سور القرآن الشريف مثل : الٓم ، حمٓ ، وغير ذلك .

(٢) الحكمة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم .

وبعد هذا التأكيد على أن محمداً رسول اللّه ، وصف اللّه دعوته بأنها ﴿ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ أي إنك يا محمد على طريق ونهج مستقيم لا انحراف فيه ولا اعوجاج وهو دين الإسلام ﴿ تَنْزِيلَ[١] العَزِيزِ الرَّحيمِ ﴾ وهذا القرآن منزل من اللّه القوي الغالب لأهل الكفر ، الرحيم بعباده المؤمنين ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً[٢] مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ[٣] ﴾ أي إن اللّه أرسلك يا محمد لتخوف قومك وغيرهم وتحذرهم من عذاب اللّه إن أصروا على الكفر ، والمراد بالآباء هم الآباء والأجداد الأقربون ﴿ فَهُم غَافِلونَ ﴾ عن الإيمان والرشد ﴿ لَقَدْ[٤] حَقَّ الْقَوْلُ[٥] عَلَى أَكْثَرِهِم ﴾ أي قد سبق في علم اللّه وجوب العذاب على أكثر هؤلاء الكافرين لسوء فطرتهم ، وفساد جبلتهم ، باختيارهم الكفر على الإيمان ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ أي لا يصدقون بنبوتك يا محمد .

ثم يصور القرآن الكافرين بهذه الصورة المعيبة التي تنبىء عن فساد جِبِلّتهم ، وعدم إذعانهم لدعوة الإسلام :

﴿ إنَّا جَعَلْنَا في أَعْنَاقِهِم أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ .

---

(١) تنزيل : التنزيل يفيد الإنزال مفرقاً مرة بعد أخرى وهكذا القرآن فإنه نزل مفرقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة .

(٢) قوماً : نكرة تفيد العموم .

(٣) ما أنذر آباؤهم : « ما » هنا نافية . وقد تكون « ما » موصولة بمعنى الذي ، أي لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم . وقد تكون « ما » مصدرية ، بمعنى : لتنذر قوماً إنذار آبائهم وعلى معنى « ما » مصدرية أو موصولة يراد بالآباء آباؤهم الأقدمون من ولد إسماعيل .

(٤) لقد : اللام الداخلة على قد جواب القسم .

(٥) حق القول : المراد بالقول . هو قوله تعالى لإبليس : ﴿لأملأنَّ جهَنّم مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمعين ﴾ ولما كان كفار مكة قد علم اللّه منهم إصرارهم على الكفر وعلى اتباع إبليس فقد وجب عليهم مضمون هذا القول وهذا العذاب .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أيْديهم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِم سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَا يُبْصِرون ﴾ (٨ ، ٩) .

فاللَّه يقول بأنه جعل في أعناق هؤلاء الكافرين من قوم محمد أغلالاً(١) وهي جمع غُلّ ، والغل مختص بما يقيد به فتُشد به اليد إلى العنق مع الإحاطة به للتعذيب والتشديد ﴿ فَهِيَ إلَى الأَذْقانِ ﴾ فهذه الأغلال عريضة تبلغ بطرفيها الأذقان ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ فهم رافعو رؤوسهم من تأثير هذه الأغلال لا يستطيعون خفضها ، وهذا تمثيل لحال هؤلاء الكافرين الذين لا ينتهجون سبيل الرشاد ويستكبرون عن اتباع الحق ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، والمتكبر يوصف بانتصاب العنق .

ويتابع القرآن وصف هؤلاء الكافرين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً ﴾ أي وجعل اللَّه أمامهم حاجزاً ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِم سدّاً ﴾ وجعل من ورائهم حاجزاً ، والأمام والوراء كناية عن جميع الجهات ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فغطى اللَّه بتلك الحواجز أبصارهم فهم لايقدرون على رؤية شيء ، وهذا تصوير لحال هؤلاء الكافرين المحاطين بسدود من الغي والضلال والتقاليد تحول بينهم وبين الهدى والإيمان ، وتحرمهم النظر في آيات اللَّه وتدبّرها .

وإننا لنرى كثيراً من الجماعات البشرية الضالة ـ في كافة العصور ـ

---

(١) قد تكون الأغلال والسدود من بين أيدي الكافرين ومن خلفهم وصف لحالة الذين أرادوا السوء برسول اللَّه فكف اللَّه أيديهم عن إلحاق الأذى به فقد أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبي يقرأ القرآن في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه (ليعاقبوه) وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا هم لا يبصرون فجاءوا إلى النبي فقالوا : ننشدك اللَّه والرحم . . . فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت سورة ﴿ يسٓ . والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

ينطبق عليها هذا الوصف ، فإذا قُدِّمَ لها شرْعُ اللّه وهديه بوسائل الإقناع والمنطق ، نراها ترفض هذا الهدى إيثاراً منها لما هي عليه من عادات وتقاليد بالية ، ونظم فاسدة تحجب أنظارهم عن رؤية الحق ثم الانقياد له .

وعن مدى تشبثهم بالباطل يخبر اللّه رسوله محمداً بأن إنذاره لهؤلاء الكافرين سيذهب سدى لأنهم لن يستجيبوا لدعوته :

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أم لم تُنذِرْهُم لا يُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجرٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٠ ـ ١١) .

أي سيان عند هؤلاء الكافرين تخويفك لهم يا محمد من عذاب اللّه وعدمه ، فهم لا يصدقون بما جئت به من الهدى ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد ﴿ مَن اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ والذكر هنا قد يراد به القرآن أو الوعظ ، والمعنى : إنما ينفع إنذارك من اتبع القرآن ، أو اتعظ بإنذارك ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي وخشي اللّه المتصف بالرحمة وهو لم يره ، أو خاف اللّه في خلوته بعيداً عن أعين الناس ، هذا المؤمن : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجرٍ كَرِيمٍ ﴾ والتبشير إخبار فيه سرور ، أي فبشر يا محمد من اتبع القرآن وخشي الرحمٰن بالغيب بأمرين : بالعفو عن ذنوبه التي سلفت ، وبثواب حسن في الآخرة وهو الجنة .

ثم يبيّن القرآن بأن إنذار النبي ﷺ للكافرين ، وبشارته للمؤمنين هو بسبب وجود حياة أخرى بعد الموت يُجازى فيها الإنسان على عمله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيي الموتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إِمَامٍ مُبينٍ ﴾ (١٢) .

فاللَّه يخبرنا بأنه يحيي الموتى يوم القيامة ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ وتكتب الملائكة ما عملوا في الدنيا من خير أو شرّ بأمر اللَّه ﴿ وآثَارَهُمْ ﴾ وتكتب الملائكة أيضاً ما تركوه بعد وفاتهم من أثر حسن ، كوقفٍ تبرعوا به يعود ريعه على الفقراء ، أو علم ينتفع به من كتب وغيرها ، أو بناء مستشفى ومستوصف للمعوزين ، كما تكتب الملائكة ما تركوه من أثر سيىء بما استحدثوه من أنواع الشرِّ والفساد في الأرض من أندية للقمار ، وملاهٍ يُعصى اللَّه فيها ، أو ما استحدثوه من قوانين فيها ظلم للعباد ، وكتابة ما قَدَّموا ، وآثارهم ، هو كناية عن مجازاتهم عليه إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ﴿ وَكُلَّ شَيءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إِمَامٍ مُبينٍ ﴾ وكل شيء من أعمال العباد وغيرها كائناً ما كان أثبته اللَّه وحفظه في كتاب موضح فيه كل شيء ، قيل المراد به ما يسمى : اللوح المحفوظ الذي ورد ذكره في القرآن ، ويوصف بأنه مستودع مشيئات اللَّه تعالى (١) .

---

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من سنّ في الإسلام سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم .

وَٱضۡرِبۡ لَهُم
مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ
ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾
قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ
إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ
بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ
يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ
﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

شرح المفردات

فَعَزَّزْنَا : فقوينا وشددنا .

البَلَاغُ المبينُ : تبليغ رسالة اللّٰه بالأدلة الواضحة .

تَطَيَّرْنَا بِكُم : تشاءمنا منكم إن أصابنا شرٌّ فهو منكم .

لَنَرْجُمَنَّكُم : لنقتلنكم رجماً بالحجارة .

طائِرُكُم مَعَكُمْ : سبب شؤمكم معكم وهو كفركم .

أئن ذكِّرْتُم : أئن وعظتم تشاءمتم .

مُسْرِفون : مفرطون في المعاصي والضلال .

يَسْعَى : يسرع في مشيه .

المرسَلِين : رسل اللّٰه .

فَطَرَني : خلقني وأنشأني من العدم .

ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ
﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي
مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ
خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ
إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾

شرح المفردات

لا تُغْني : لا تدفع عني .

إنْ كَانَت إلَّا صيْحَةً وَاحِدَةً : أي ما كان هلاكهم إلّا بصيحة واحدة .

يَا حَسْرَةً : يَا نَدامة ويَا أسفاً .

كَمْ أَهْلَكْنَا : (كم خبرية دالة على الكثرة) أي كثيراً ما أهلكنا .

القُرُون : جمع قرن وهو أهل زمان واحد (الأمم السابقة) .

وَإِنْ كُلٌّ : إن (نافية) أي ما كل الأمم .

لَمَّا جَميعٌ : إلّا مجموعون .

مُحْضَرون : يحضرون بين يدي اللّٰه للحساب والجزاء .

تابع سورة يس[٧]

وبعد أن بين اللَّه أن أعمالَ العباد محصيةٌ ، أمر رسوله محمداً بأن يحذّر قومه من عذاب اللَّه لئلا يحل بهم مثل ما حلّ بتلك القرية التي رفضت دعوة الرسل :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَاالْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ (١٣ ـ ١٤) .

فاللَّه تعالى يقول : اذكر يا محمد للكافرين من قومك مثلاً لعاقبة الكفر الوخيمة تلك القرية[١] إذ جاءها المُرسَلُون[٢] تدعو أهلها إلى عبادة اللَّه وحده وترك عبادة الأصنام ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ إذ أرسل اللَّه لأهل تلك القرية رسولين معاً فكذبوهما ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ فقواهما اللَّه برسول ثالث ، فقال هؤلاء الرسل الثلاثة لقومهم : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ ﴾ أي إننا مرسلون إليكم من عند ربكم لهدايتكم .

أجاب أهل هذه القرية هؤلاء الرسل الثلاثة ، منكرين بأنهم رسل اللَّه :

﴿قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيءٍ إن أنتم إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥) .

أي قالوا للرسل : ما أنتم إلا أناس مثلنا فلا مزية لكم علينا ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شيءٍ ﴾ وما أنزل اللَّه المتصف بالرحمة من رسالة ولا كتاب

---

(١) قيل هي أنطاكيا .
(٢) قيل إنهم أنبياء أرسلهم اللَّه . وقيل هم رسل لعيسى بن مريم بأمر اللَّه .

إلى الناس ﴿ إِنْ(١) أَنْتُم إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ما أنتم إلّا تكذبون بأنكم رسل من اللَّه . وظاهر قولهم يقتضي إقرارهم بالألوهية ، لكنهم ينكرون رسالة اللّه للبشر بواسطة بعض الناس .

وبعد هذا الرفض من أهل القرية عاد الرسل مؤكدين لهم بأنهم رسل من اللَّه :

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا البَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦ ، ١٧) .

لقد قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ استشهدوا بعلم اللّه ، وهو يجري مجرى القسم ، ثم أكدوا صدقهم بقولهم : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ(٢) ﴾ أي إننا مرسلون من اللَّه إليكم لهدايتكم ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ وما مهمتنا إلّا تبليغكم رسالة اللّه بالأدلة الواضحة .

لم يقتنع أهل القرية بكلام الرسل بل قابلوهم بالتهديد والوعيد :

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨) .

لقد قال أهل القرية للرسل : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي إننا تشاءمنا(٣) منكم فإن أصابنا بلاءٌ وشرٌ فإنما هو حاصل من قدومكم علينا ﴿ لَئِنْ(٤) لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ ونقسم إن لم تكفوا عن بَثّ دعوتكم فينا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ لنرمينّكم

---

(١) إن : بمعنى « ما » النافية .

(٢) ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ إن : حرف توكيد ، واللام في ﴿ لمرسلون ﴾ تفيد التأكيد أيضاً .

(٣) قيل إن تشاؤمهم كان بسبب احتباس المطر عنهم ، وقيل أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل .

(٤) لئن : اللام في لئن لام القسم .

بالحجارة إيذاءً أو قتلاً ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وليصيبنكم مِنّا عذاب شديد الألم ، هذا وقد كان الرجم بالحجارة قديماً أداة من أدوات القتل والتعذيب .

أجاب الرسل بجرأة غير مبالين بتهديدهم :

﴿ قَالُوا : طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ (١٩) .

قال الرسل لأهل القرية : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي سبب شؤمكم موجود معكم وليس منا ، وهو نابع من سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم ﴿ أَئِنْ[١] ذُكِّرْتُمْ ﴾ أي هل إن وعظتم بما فيه سعادتكم تتشاءموا منا وتهددونا بالعذاب ﴿ بَلْ[٢] أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ بل أنتم قوم مسرفون في العصيان متجاوزون الحق والعدل .

ولئن رفض أهل تلك القرية دعوة الرسل فقد كان هناك رجل يسكن في مكان ناءٍ في المدينة آمن بدعوتهم وعلم ما يتهددهم من خطر فهب مسرعاً إلى قومه ناصحاً إياهم مدافعاً عن الرسل :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المدينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُم أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢٠ ـ ٢١) .

لقد جاء هذا الرجل[٣] من أبعد مكان من المدينة ، ويُروى أنه كان

---

(١) أئن : الهمزة الأولى للاستفهام وإن للشرط وجواب الشرط مضمر تقديره : تطيرتم .

(٢) بل : حرف إضراب يدل على الانتقال من كلام إلى آخر .

(٣) يروى أن اسمه حبيب النجار من أهالي أنطاكيا وكان يعمل في صناعة الحرير ، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند باب من أبواب المدينة قاصياً ، وكان مؤمناً ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين ، فيطعم نصفاً عياله ، ويتصدق بنصف ، فلم يهمه سقمه ولا عمله ولا ضعفه عن عمل ربه ، فلما أجمع قومه على قتل الرسل جاء يسعى إليهم يذكرهم بالله ويدعوهم إلى اتباع الرسل .

في غار من الجبل يعبد اللّه فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر إيمانه وقال لقومه : ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي اتبعوا الهدى الذي جاءكم به هؤلاء الرسل ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ اتبعوا وأطيعوا من لا يطلب منكم أجراً وجزاءً على نصحكم وإرشادكم[١] ﴿ وَهُمْ مُهتَدُونَ ﴾ أي مهتدون إلى الحق في دعوتهم .

لقد قال هذا الرجل ذلك بعد أن علم أن هؤلاء الرسل لم يطلبوا الأجر[١] على دعوتهم ، وهذا أمر يجب أخذه بعين الاعتبار .

ثم شرع هذا الرجل يستميل قومه إلى اتّباع الرُّسُل وينصحهم ، فأبرز ذلك النصح في صورة نصحه لنفسه ليتلطف بهم في الوعظ ، مشعراً إياهم بأنه يريد لهم من الخير ما يريده لنفسه فقال :

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُم شَيئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبينٍ ﴾ (٢٢ ـ ٢٤) .

فهذا الرجل المؤمن يخاطب قومه : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَني ﴾ وأي شيء يمنعني أن أعبد اللّه الذي خلقني وأوجدني من العدم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإليه تردون بعد الممات فيجازيكم يوم المعاد على أعمالكم ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ استفهام فيه إنكار ونفي ، أي هل يصح أن أتخذ من دون اللّه آلهة ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ ﴾ إن أراد اللّه أن يضرني

---

(١) وهكذا كل دعوة إلى اللّه في الأرض يجب أن تتجرّد من الأجر والجزاء . وهذا ما سار عليه أنبياء اللّه فعلى كل من يرغب في أن يسير على سيرتهم أن يجعل هذا المفهوم نصب عينيه ، وأن يجعل دعوته إلى اللّه بدون مقابل احتساباً لوجه اللّه ليكون لها التأثير الفعال في نفوس السامعين .

﴿ لا تُغْنِ عني شَفَاعَتُهُمْ شَيئاً ﴾ لا تنفعني شفاعة هؤلاء الآلهة عند اللَّه شيئاً على فرض أنهم سيشفعون ﴿ وَلاَ يُنْقِذُونِ ﴾ وليس عندهم قوة لينقذوني من العذاب والبلاء إن نزل بي ﴿ إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ إني إذا عبدت آلهة غير اللَّه أكون في ضلال واضح ظاهر .

وبعد ذلك جهر هذا المؤمن بكلمة الحق مدويَّة معلناً إيمانه غير مبال بالخطر الذي يتهدده :

﴿ إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ . قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي وَجَعَلَني مِنَ المكْرَمِينَ ﴾ (٢٥ ـ ٢٧) .

فهذا المؤمن يقول : ﴿ إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ يحتمل أنه قال مقالته هذه لقومه ليعلمهم إيمانه باللَّه ، ويحتمل أنه قالها للرسل . وعلى فرض أنه قالها للرسل فيكون المعنى : إني آمنت بربكم واتبعتكم فاسمعوا قولي لتشهدوا لي بذلك عند ربي .

وقد ذكر أنه لما أعلن إيمانه على أهل القرية وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات ، وفي رواية أن مقتله كان رجماً بالحجارة ، ويُروى غير ذلك في مقتله .

فلما مات جاءته البشرى من اللَّه على لسان الملائكة : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّة ﴾ فدخل دار النعيم حيًّا يرزق فيها قد أذهب اللَّه عنه سقم الدنيا وحزنها وتعبها ، عندئذٍ تمنى على اللَّه أن يعلم قومه بما لقيه من كرامة اللَّه وفضله : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي وَجَعَلني مِنْ المكْرَمِينَ ﴾ أي يا ليت قومي يعلمون السبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي وأكرمني بدخول الجنة ، وإنما تمنّى ذلك ليعلم قومه بحاله

وليحملهم ذلك على التوبة من الكفر وعلى الطاعة لما جاء به هؤلاء الرسل من الهدى ، وليعلموا أنهم كانوا في خطأ عظيم من أمره ، وأنه كان على صواب في نصحه لهم . وتأمل كيف تمنى لقومه الخير بعد قتلهم له وبعد أن أحياه اللَّه وأدخله الجنة ، وهذه مزية أولياء اللَّه الصالحين لا يقابلون السيئة بالضغينة وإرادة السوء والانتقام ، وقد قال ابن عباس في ذلك الرجل : نصح القوم في حياته ونصحهم بعد مماته .

وبعد أن قتل أهل القرية هذا الرجل المؤمن حلّ غضب اللَّه عليهم :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنـزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِءونَ ﴾ (٢٨ ـ ٣٠) .

فاللَّه سبحانه يقول : إنه ما احتاج في إهلاك هؤلاء القوم ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد مقتله ﴿ مِنْ جُنْدٍ ﴾ من ملائكة لتعذيبهم أو إهلاكهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ وما كان اللَّه لينزل ملائكة ، بل كان أمرهم أصغر وأحقر من ذلك ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ إن : نافية بمعنى ما ، أي ما كانت عقوبتهم إلّا صيحة واحدة صاح بها الملك جبريل ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾(١) فإذا هم ميتون تشبيهاً لهم بالرماد الخامد الذي انتفت الحرارة عنه .

---

(١) نستطيع أن نضرب مثلاً بانفجار القنبلة الذرية ، فالمعروف أن معظم ضحايا القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على اليابان في أواخر الحرب العالمية الماضية كانت بسبب موجة التضاغط الشديدة التي صحبت الانفجار على هيئة صيحة واحدة عارمة تهلك وتحرق ضحاياها .
وتأمل لفظة (خامدون) التي جاءت عقب الصيحة وفيها دقة في التعبير ، يقال : خمدت النار خموداً : سكن لهبها ولم يطفأ جمرها ، وقوم خامدون هم ساكتون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد من تأثير الصيحة .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلى العِبَادِ ﴾ الحسرة : هي الغم على ما فات ، والندم الشديد عليه ، والمراد بالعباد هنا مكذبو الرسل ، والمعنى : يا لشدة ندامة العباد على أنفسهم على ما ضيعوا من أمر اللّٰه ، وفرطوا في حقه ، ويا حسرتهم على أنفسهم عندما يعاينون عذاب اللّٰه يوم القيامة ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ ما يجيئهم من رسول من عند اللّٰه يدعوهم إلى الهدى إلّا كذبوه واستهزأوا به

وبعد أن أعطى اللّٰه مثلاً عن عاقبة الكفر والاستهزاء بالرسل عقّب على ذلك بإنذاره لكفار مكة :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهم إِلَيْهِم لا يَرْجِعُونَ . وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

فاللّٰه سبحانه يقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوا(١) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أي ألم يعتبر هؤلاء الكفرة بالأمم الكثيرة السابقة التي أهلكناها ﴿ أنهم إِلَيْهِمْ لا يرجعون ﴾ أنهم لا يعودون كرة أخرى إلى حياتهم الدنيا بعد هلاكهم ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا(٢) جَميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي ما كل الأمم الماضية والآتية إلّا مجموعون يوم القيامة محضرون للحساب ، فاللّٰه سبحانه لا يترك الكافرين بعد هلاكهم في الدنيا بل يبعثهم أحياء يوم القيامة للحساب والجزاء .

---

(١) يروا : ليست بصرية وإنما هي للاعتبار : أي ألم يعلموا ويعتبروا .

(٢) وإن كل لمّا : إن : هي نافية . وكل : بمعنى كلهم . ولمّا : بمعنى إلّا .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ
مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن
تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم
مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ
يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

سُبْحَان : سبحان اللّه معناه تعظيم اللّه وتنزيهه عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به .

الأَزْوَاجَ : مفردها زوج ويطلق على الذكور والإناث وعلى الأصناف والأنواع .

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ : نكشف وننزع ضوءه عنه .

لِمُسْتَقَرٍّ لَها : لتصل إلى زمان تستقرّ فيه وهو يوم القيامة .

مَنَازِلَ : جمع منزل والمراد هنا المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة .

فَلَكٍ : مدار الشمس أو القمر .

يَسْبَحُونَ : يسيرون في الفضاء مسيرة الفلك في البحر .

المشْحُونِ : المملوء ، المثقل .

فلا صَريخَ لَهُم : فلا مغيث لهم ولا مجير .

تابع سورة يس[٧]

بعد ذلك يتوجه القرآن إلى الإنسان ليفتح منافذ عقله وفكره في سجل الكون المفتوح عارضاً أمامه الأدلة والبراهين على وحدانية اللّه وقدرته الشاملة في هذا الكون ، وبالتالي القدرة على إعادة الإنسان حيّاً بعد الموت ، وقد تنوعت هذه الأدلة والبراهين مأخوذة من مظاهر الطبيعة أرضاً وجواً ، وإنساناً وحيواناً ، في أساليب شتى من البيان ، وتبدأ هذه الأدلة بلفت الأنظار إلى عالم النبات :

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فاللّه سبحانه يقول : ودليل لهؤلاء المشركين على قدرتنا على البعث والنشور هو الأرض الجدباء التي نحييها بالماء ونخرج منها أنواع الحبوب ليقتات به الناس ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ أي وأنشأنا فيها بساتين من النخيل وبساتين من كروم العنب ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ وشققنا في الأرض من عيون الماء ما يروي شجرها ويخرج ثمارها ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر ، أو بمعنى : ليأكلوا مما خلقه اللّه من الثمر ﴿ وَمَا عَمِلَتْه أَيْدِيهم ﴾ وما عملته أيديهم من الغرس والسقي أو العصير والدبس ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ فهلّا يشكرون اللّه على ما تفضل به عليهم من هذه النعم .

ثم نزه اللّه نفسه عن كل نقص وعن وجود شريك له :

﴿ سُبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ

وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) .

فاللَّه سبحانه نزه نفسه عن كل ما وصفه بـه المشركـون مما لا يليق بـه من الصفات فهو سبحانه ﴿ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـا ﴾ فالأزواج جمـع زوج وهو الذكر والأنثى ، ويقال لكل ما يقرن بآخر مماثلاً له أو مضاداً : زوج ﴿ مِمَّـا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي أن اللَّه جعل الذكـورة والأنوثـة في النبات والإنســان ﴿ وَمِمَّـا لَا يَعْلَمُــونَ ﴾ أي وخلق الأزواج في أمـور أخـرى لم يطلعهم عليها في وقت نزول القرآن[١] .

ويتابع القرآن ذكر الأدلة على عظمة القدرة الإلٓهيـة مأخـوذة من تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَـرٍّ لَهَا ذَلِـكَ تَقْدِيـرُ العَزِيـزِ العَلِيمِ . وَالقَمَرَ قَـدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْلُ سَـابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣٧ ـ ٤٠) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَآيَةٌ[٢] لَهُمُ اللَّيْلُ ﴾ أي وعلامة لهم دالة على قدرة اللَّه وعظمته وإبداعه في أمور الكون هي الليل ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أي نكشف

---

(١) بعد نزول القرآن بمدة طويلة اكتشفت الكهرباء التي تحتوي على سالب وموجب ، ثم اكتشف العلماء طبيعة الذرة فوجدوا في نواتها عدداً من البروتونات بها شحنة كهربائية موجبة يدور حولها عدد من الإلكترونات شحنتها الكهربائية سالبة ، كما اكتشف بواسطة المراقب عدد ضخم من النجوم المزدوجة يدور كل منهما حول الآخر ، وبعض الفلكيين يقرر بأن نصف جميع النجوم الموجودة في الفضاء هي نجوم مزدوجة وهذا ما جاء في كتاب (النجوم) تأليف آن تري هوايت ترجمة اسماعيل حقي .

(٢) آية : الآية بمعنى العلامة والدليل .

وننـزع عنه النهـار ﴿ فَـإِذَا هُمْ مُـظْلِمُـونَ ﴾ فـإذا هم داخلون في الـظلام ، وظاهر هذا التعبير يشعر بأن النهار طارىء على الليل[١] .

وتأمل هذا التعبير الدقيق الذي أعطاه القرآن لنزع النور وهو « السلخ » على طـريق الاستعارة ، وهـذا اللفظ يستعمل غـالبـاً لإزالـة جلد الشـاة أو الحية ، يقال : شاة سليخ إذا كشط عنها جلدها ، ولما كان انسـلاخ الجلد عن اللحم يحصل شيئاً فشيئاً جعل انفصال النهار عن الليل شيئاً فشيئاً حتى يتكامل الظلام .

﴿ وَالشَّمْسُ[٢] تَجْـرِي ﴾ أي وعـلامــة للمشـركين ودليــل لهم على وحدانية اللّٰه وقدرته على البعث هي خلقـه الشمس التي تسير سيـراً سريعـاً في الفضـاء ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَـا ﴾ أي للمكان المخصص لهـا في الفضـاء . أو لحد معين ينتهي إليه دورها وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

والملفت للنظر هو قوله تعـالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ أي تسيـر سيراً

---

(١) الفضاء الكوني مظلم رغم وجود الشمس والنجوم فيه ، فضوء النهار إنمـا يحدث فقط في طبقات الغلاف الجوي للأرض القريبة من سطحها ، وإن سبب ذلك ظاهرة طبيعية تسمى التنـاثر أو التشتت لأشعـة الشمس عندمـا تقابـل جو الأرض وهي طبقـة لا يعـدو سمكهـا ١٥٠ ـ ٢٠٠ كيلو متر فقط . فالنور يغطي الظلام كما يغـطي جلد الحيوان لحمـه ، وهذا الجلد قليل السماكة بالنسبة لجسم الحيوان وهكذا الغلاف الجوي للأرض الذي يسبب النور للأرض هو قليل السماكة بالنسبة للأبعاد الهائلة بين الأرض والشمس ، فتأمل دقـة التعبير القرآني .

(٢) والشمس معطوفة على الليل في قولـه تعالى : ﴿ وآيـة لهم الليل ﴾ والتقـدير : وآيـة لهم الشمس .

سريعاً ، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة في الفضاء[١] .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أي وعلامة دالة لهم على وحدانية اللّٰه وقدرته على البعث هو القمر ، الذي قدّر اللّٰه لسيره منازل ، والمنازل جمع منزل والمراد به هنا المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة وهي ثمانية وعشرون منزلاً ، لأن القمر يظهر في الأفق في ثمان وعشرين ليلة ويختفي ليلتين إذا كان الشهر ثلاثين يوماً ، ويختفي ليلة إذا كان تسعة وعشرين يوماً[٢] .

وبعد تبيان أن القمر قدره اللّٰه منازل عقب القرآن على ذلك : ﴿ حَتَّى

---

(١) إن شمسنا تابعة لمجرة اسمها درب التبانة التي تحتوي تقريباً على ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم وشكل هذه المجرة شكل الرغيف استدارة وتقبباً ، وشمسنا تقع من هذه المجرة على بعد ٢٥,٠٠٠ سنة ضوئية من مركز هذه المجرة أو محورها . وهذه المجرة بنجومها تدور حول محورها أو مركزها وسرعة هذه النجوم تقل كلما بعدت عن محور الدوران ، وقدرت سرعة شمسنا بـ ١٧٠ ميلاً في الثانية ، وليس هذا فحسب فالشمس تتحرك تحركاً محلياً بالنسبة لما حولها من النجوم وهي تسير بسرعة ١٩ كيلو متراً في الثانية في اتجاه نقطة تقع في مكان ما في كوكبة الجاثي كما ذكر ذلك الدكتور جامو في كتابه (الشمس) هذا مع العلم أن الكواكب التابعة للشمس ومنها أرضنا والقمر فإنها تسير مع الشمس حيثما سارت .

(٢) القمر تابع للأرض أي أنه يدور في مدار حول الأرض كما تدور الأرض حول الشمس ، وتستغرق دورته الكاملة حول الأرض ٢٩ يوماً ونصف اليوم أي ما يقرب من شهر ، ولما لم يكن للقمر نوره الذاتي بل يضيء بانعكاس نور الشمس عليه فإنه يبدو لنا أنه يغير شكله في الفضاء وهو يدور حول الأرض ، فإذا كان القمر في نفس القسم من الفضاء حيث تكون الشمس كان جانبه المظلم هو الذي يواجهنا ولذلك لا ينعكس أي نور نراه به وهذا ما يدعى بالقمر المحاق ، وفي الليل التالي يكون القمر قد تحرك قليلاً في مداره فاسحاً لحرف رقيق بشكل هلال أن يعكس نور الشمس ، وفي الليل التالي يتسع الهلال ويستمر ذلك ليلة بعد ليلة حتى ينتقل إلى جهة مقابلة للشمس يمكن منها أن نرى قرص القمر كله يعكس نور الشمس عند ذلك ندعوه بالبدر ثم يعود إلى النقصان ليلة بعد ليلة إلى أن يتحول هلالاً رقيقاً ، فقمراً محاقاً مرة أخرى .

عَـادَ كَالْعُـرْجُونِ الْقَـدِيمِ ﴾ أي صار القمـر في أواخر سيـره في رأي العين عندما يصير هلالاً ، كـأصل عنقـود النخل الـذي ييبس ويعوج وتنقـطع منه الأغصـان التي عليهـا البلح وهـو أصفـر اللون . ووجـه الشبـه بين الهـلال والعرجون هو الاصفرار وقلة العرض والانحناء في كل منهما .

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبغي لَهَـا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَـرَ ﴾ أي لا يصح للشمس وغيـر مسموح لها أن تدرك القمر وتجتمـع معه لأنـه تعالى حـدد لكل منهمـا وقتاً معيناً يظهـران فيه ﴿ وَلَا اللَيْـلُ سَابِقُ النَّهَارِ[1] ﴾ أي كل من الليـل والنهار يجيء بوقته ولا يسبق صـاحبه ﴿ وَكُـلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وكـل من القمر والشمس في مدار يجري فيه لا يتخطاه .

ويتـابـع القـرآن بيـان قـدرة اللّه سبحـانــه فيلفت الأنـظار إلى السفن المسخرة في البحر لمنفعة الناس :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَـا ذُرِّيَّتَهُمْ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَـا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُـونَ . وَإِن نَشَأْ نُغْـرِقْهُمْ فَلَا صَـرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَـذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلى حِينٍ ﴾ (٤١ ـ ٤٤) .

---

(١) يرى الشيخ متولي الشعراوي في هذه الآية إثباتاً لكروية الأرض فيقول ما ملخصه : العرب كانوا يقولون إن الليل يسبق النهار ، واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس فجاء القرآن ينفي أن الليل يسبق النهار بقوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ وإذا كان العرب يقولون إن الليل يسبق النهار فمعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل ، وبتعبير آخر إن الليل والنهار يوجدان معاً في وقت واحد على الأرض وهذا لا يتأتى إلّا إذا كانت الأرض كروية ، فحين خلق اللّه الشمس والأرض وجد الليل والنهار معاً فنصف الأرض المواجه للشمس صار نهاراً والنصف الآخر صار ليلاً ثم دارت الأرض فأصبح الليل نهاراً والنهار ليلاً وهكذا دواليك . . فلو أن الأرض مبسوطة غير كروية فإن الأمر لا يخرج عن حـالتين ، الحالـة الأولى إن اللّه خلق الشمس مواجهة للأرض المسطحة وفي هذه الحالة يكون النهار موجوداً أولاً ، أو إنه سبحانه خلق الشمس غير مواجهة لسطح الأرض وفي هذه الحالة يكون الليل موجوداً أولاً .

أي ودليل للمشركين على قدرة اللَّه أيضاً ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَتَهُمْ ﴾ أي أنه سبحانه حمل بني الإنسان ﴿ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ في السفن المملوءة بهم وبأمتعتهم وأرْزاقهم .

والذرية : هي النسل وتطلق على الأولاد كما تطلق على الآباء ، فإذا كان المراد بالذرية الأبناء خاصة فيكون المراد هو الامتنان على الناس إذ يحملون معهم في السفن أبناءهم إذا سافروا أو يرسلونهم للإبحار في السفن للسفر أو التجارة ، والسفن اليوم من أهم سبل المواصلات في العالم ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أي وخلق اللَّه من مثل ما يركبونه في الفلك مراكب أخرى قد يكون سفناً وقد يكون شيئاً آخر[١] .

وإذا كان المراد بالذرية الآباء[٢] فيكون المقصود بها الذرية التي حملها نوح معه في سفينته وهي التي أنجاها اللَّه من الغرق ، وهؤلاء المشركون وغيرهم من المؤمنين كانوا من نسلهم وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل تلك السفينة ما يركبون وهي الإبل ويطلق عليها عند العرب سفائن البر .

وبعد الكلام على السفن عقب القرآن على ذلك : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ أي إن شاء اللَّه يغرقهم وهم يركبون السفن ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾

---

(١) لم يعين القرآن نوع ما يركبونه للإشارة إلى ما سيظهر في عالم الوجود من أدوات الركوب التي ألهم اللَّه الإنسان لصنعها مثل الطائرات فهي شبيهة بالفلك فهي تسبح في الفضاء كما تسبح الفلك في الماء وقد أضاف اللَّه الخلق له لأن الإنسان الذي صنعها مخلوق من اللَّه الذي وهبه العقل والقدرة على الابتكار وهذه السفن والطائرات تصنع من المواد التي خلقها اللَّه سبحانه .

(٢) سمي الآباء ذرية لأن منهم ذرء الأبناء والذرية تطلق على الآباء والأبناء والأولاد .

فـلا معيث لـهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ ولا منقـذ ينقذهم وينجيهم من الغـرق ﴿ إِلَّا رَحْمَـةً مِنَّا وَمَتَـاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ إلّا أن تتـداركهم رحمة اللّه ، وإلّا أن تكـون لهم بقية من أجـل ليمتعوا بحيـاتهم فيؤخر اللّه مـوتهم إلى أن يحين الوقت المحدد لانتهاء أعمارهم .

فالإنسان مهمـا بنى من السفن الكبيرة المـزودة بجميع وسـائل الأمـان فإنها عرضة للغرق ، وكثير من السفن غـرق فعلاً بمن فيهـا ، إما من تـأثير الأمـواج العـاتيـة أو من اصـطدامهـا بجبـال الثلج[1] ، أو بفعـل الحـروب والقذائف المدمرة .

---

(١) وهذا ما حصل للباخرة الضخمة تيتانيك التي قال عنها صانعوها : لا تغرق ولا تحرق .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم
مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ
يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ
وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

شرح المفردات

يَخِصِّمُونَ : يختصمون .

وَنُفِخَ في الصُّور : ونفخ في البوق .

الأَجْدَاثِ : القبور واحدها جدث .

يَنْسِلُونَ : يسيرون مسرعين .

شُغُلٍ : نعيم عظيم يشغلهم عما سواه .

فَاكِهُونَ : ناعمون بطيب العيش مسرورون .

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟
ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟
ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾
هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ
فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ
مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

شرح المفردات

مَا يَدَّعُونَ : ما يتمنون ويشتهون .

امتازوا : انفصلوا وانعزلوا عن المؤمنين .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم : ألم أوصكم وآخذ عليكم العهد .

جبلًّا : خلقاً .

ٱصْلَوْهَا : ادخلوها وقاسوا حرها .

نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم : نطبع على أفواههم فلا يستطيعون الكلام .

لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِم : لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق أو أثر .

فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ : فبادروا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه .

فَأَنَّى ؟ : فكيف ؟

لَمَسَخْنَاهُمْ : لحولنا خلقتهم إلى قردة أو خنازير أو جماد .

مَكانتهم : مكان اجتراحهم للمعاصي .

مضيًّا : ذهاباً إلى مقاصدهم .

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المشركين وإعراضهم عن هدى اللّه ، واحتجاجهم بالمشيئة الإلٰهية للتملص من إنفاق بعض أموالهم على المحتاجين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ[1] ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤٥ ـ ٤٧).

فالكافرون إذا قيل لهم من قِبَلِ رسول اللّه ووحيه : ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي اتقوا عقوبة ما بين أيديكم من ذنوبكم وكفركم بالتوبة منها وطاعة اللّه ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي وما ينتظركم من العذاب المعد لكم في الآخرة إن بقيتم على كفركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لعل اللّه باتقائكم ذلك يرحمكم وينجيكم من عذابه ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين من حجة من حجج اللّه وعلامة دالة على وحدانية اللّه وصدق رسوله محمد ﷺ ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ إلّا كانوا مائلين عنها لا يتأملونها ولا يقبلونها ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهم أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وإذا أمروا بالإنفاق من مالهم الذي رزقهم اللّه به وأن يؤدوا منه ما فرض عليهم للمساكين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ لقد قالوا استهزاءً : أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين حرمهم اللّه من الرزق ، لا لن نفعل ولو شاء اللّه لأغناهم ونحن بعدم الإنفاق عليهم

---

(١) جواب ﴿ إذا قيل لهم ﴾ محذوف يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ إلّا كانوا عنها معرضين ﴾ .

نوافق مشيئة اللَّه على تركهم في عوزهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا في ضَلَالٍ مُبينٍ ﴾ ما أنتم أيها القوم الذين تأمروننا بالإنفاق على المساكين هؤلاء إلاّ في ضلال واضح غاية الوضوح .

فالمشركون سمعوا المسلمين يقولون : إن الرزاق هو اللَّه ، وأنه يغني من يشاء ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بقولهم هذا إحراج المسلمين فقالوا : نحن نوافق مشيئة اللَّه فلا نطعم من لم يطعمه اللَّه ، وهذه مغالطة ومجادلة بالباطل ، فإن اللَّه أغنى بعض خلقه امتحاناً لهم ليتبين مدى ثباتهم على إيمانهم وطاعتهم لربهم ورحمته بعباده ، وأفقر بعض خلقه امتحاناً لهم ليختبر سبحانه مدى التراحم والتعاطف بين الخلق ، وهذه مشيئة اللَّه في خلقه ، لا المشيئة التي يتعلّل بها المشركون للبخل بأموالهم على المحتاجين ، فالواجب تنفيذ أمر اللَّه وعدم التعرض للمشيئة الإلّهية ، لأنها ليست من اختصاصات البشر ، وهي فوق مستوى عقولهم .

ثم يتحدث القرآن عن إنكار المشركين للقيامة فيعطي للمشركين صورة عن بعض وقائعها وأهوالها :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤٨ ـ ٥٠) .

فالمشركون يقولون للمؤمنين على وجه الاستهزاء والسخرية : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي متى يوم القيامة التي تعدوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولونه ؟ ويأتي الجواب مشهداً من مشاهد يوم القيامة : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار ، أي ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي نفخة الملك إسرافيل في البوق التي يصعق من جرائها من

في السموات والأرض ، ولما كانت هذه الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[١] ﴾ تهلكم وهم يختصمون ويتنازعون في متاجرهم وأسواقهم وأنديتهم لا يخطر ببالهم شيء من اقتراب حدوثها ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي فلا يستطيع أحدهم أن يوصي الآخر بشيء في أمور الدنيا وما له أو عليه من حقوق ، أو لا يستطيع أن يوصي الإنسان غيره بالتوبة والإقلاع عن المعاصي ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع من ذلك ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا[٢] .

وبعد الصيحة الأولى التي يموت بها أهل الأرض تأتي النفخة في البوق وبها يبعث اللّه الناس أحياءً للحساب والجزاء :

﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا : يَا وَيْلَنَا ، مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥١ ـ ٥٤) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَنُفِخَ[٣] في الصُّورِ ﴾ وهي النفخة الثانية في البوق التي يبعث اللّه بها الناس أحياءً من قبورهم ، وقيل إن بينها وبين النفخة الأولى في البوق أربعين سنة ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ

---

(١) يخصمون : أصلها يختصمون فسكنت التاء وأدغمت في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين فصارت يخصمون .

(٢) روي عن النبي ﷺ قوله : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه (أي يطيّنه) فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يَطْعمها » ، أخرجه البخاري .

(٣) ونفخ : بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع .

يَنْسِلُونَ ﴾ الأجداث : هي القبور ، والنسلان : الإسراع في المشي ، أي فإذا هم يخرجون من قبورهم سراعاً إلى ربهم للحساب ونيل الثواب أو العقاب ﴿ قَالُوا : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ فالكافرون يتنادون بالهلاك على أنفسهم ويسأل بعضهم بعضاً : من أيقظهم من نومهم[١] ، فيأتي الجواب على لسان الملائكة أو المؤمنين : ﴿هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ ﴾ هذا يوم البعث الذي وعد الرحمٰن به عباده ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وصدق رسل اللّٰه فيما أخبروا عنه ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ أي ما كان بعثهم وإحياؤهم إلّا بصيحة واحدة صاح بها الملك إسرافيل وهي قوله : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والشعور المتمزقة إن اللّٰه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء[٢] ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ فإذا هم مجموعون محضرون للحساب بين يدي رب العالمين . وإن هذا الحساب يتصف بالعدل : ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ أي ففي يوم القيامة لا تظلم نفس شيئاً سواء أكانت من الأبرار أو الفجار بل كلٌّ يجازى حسب عمله ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا تكافأون أيها الناس إلّا حسب أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا .

ثم يبين القرآن ما يلقاه عباد اللّٰه الصالحون في ذلك اليوم من نعيم :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ في ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ . لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ . سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ (٥٥ ـ ٥٨) .

---

(١) لقد شبه القرآن موتهم بالرقاد ، والتعبير بالرقاد هنا أبلغ وأوقع في النفس من التعبير بالموت لأن الإنسان يتكرر عليه النوم واليقظة وليس كذلك الموت ، ولما تكررت عليهم اليقظة بعد الموت شبه اللّٰه موتهم بالرقاد الذي بعثوا بعده أحياء .

(٢) فصل القضاء : حكم اللّٰه وقضاؤه .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ ﴾ سمى اللّه المؤمنين بذلك الاسم تمكيناً لهم منها وإطلاقاً لأيديهم بالتصرف في كل شيء في الجنة شأنهم في هذا شأن المالك فيما ملك ، وهم يوم القيامة ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أي إن المؤمنين مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي وما هم فيه من عذاب ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ فهم وأزواجهم الصالحات يتمتعون بنعيم الجنة في ظلالها الوارفة(١) وهم على السرر المزينة متكئون ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ لهم في الجنة من كل أنواع الفاكهة ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ ولهم فيها كل ما يطلبون أو يتمنون ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ يقال لهم : سلام من جهة رب رحيم ، فاللّه يسلم عليه بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في إكرامهم ، أو لهم سلام وأمان خالص في الجنة لا يشوبه كدر ولا تنغيص .

وبعد أن بيّن اللّه أحوال أهل النعيم في الآخرة بيّن بالمقابل أحوال المجرمين :

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥٩ ـ ٦٥) .

---

(١) ليس في الجنة شمس ولكن التعبير القرآني يرمي إلى الإشارة إلى ما هم عليه من نعيم لا يكدر صفوه حرارة الشمس .

فالكافرون يُنادون يوم القيامة : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي انفصلوا وانعزلوا عن المؤمنين ، ثم يقال لهم عن طريق التقريع والتبكيت ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ والعهد هو الوصية ، أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسنة رسلي ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدوا الشَّيْطَانَ ﴾ والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويحسنه لهم ، وقد عبر القرآن عن الطاعة بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير من الاستجابة لوسوسة الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ إن عداوته لكم ظاهرة واضحة وهي بعيدة القِدَم تصل إلى عهد أبويكم آدم وحواء حيث أخرجهما من الجنة ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ وأن اعبدوا اللَّه وحده بتوحيده وطاعته ﴿ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذه العبادة للَّه وحده هي الدين الصحيح والطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ، وتنكير صراط هو للتفخيم ، أي هو طريق بليغ في استقامته ، جامع لكل خير ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ﴾ أي ولقد أضل الشيطان خلقاً كثيراً منكم يا بني آدم عن طاعة اللَّه ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم .

ثم يُقال للكافرين وهم على شفير جهنم ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ ﴾ هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم باللَّه وتكذيبكم لرسله ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي ادخلوا جهنم وذوقوا حرها اليوم بسبب عدم إيمانكم باللَّه وعدم تصديقكم ما جاء على لسان رسله في الدنيا ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وفي ذلك اليوم نطبع على أفواه الكافرين فلا يستطيعون الكلام ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِم ﴾ بما عملوا في الدنيا من معاصي اللَّه ﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وتشهد أرجلهم عليهم بما كانوا يفعلونه في دنياهم ، فإقرار جوارحهم في الآخرة بما عملوا في الدنيا هو تحذير لهم بأن أعضاءهم التي اشتركت في معاصي

اللَّه صارت شهوداً عليهم ، وهذا أبلغ في الحجة عليهم من النطق .

ويتابع اللَّه سبحانه تهديده للمشركين بسبب تكذيبهم لما جاء به رسوله محمد ﷺ من الهدى :

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٦ ـ ٦٧) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ﴾ أي لو نشاء لعاقبناهم على كفرهم عقاباً عاجلاً فأذهبنا أعينهم بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن فصاروا بذلك عمياً لا يبصرون طريقاً يسلكون فيه ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ فتسابقوا وتسارعوا إلى الطريق المسلوك لهم ليمضوا فيه ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ فكيف يبصرون الطريق ولا أبصارَ لهم ، وقد يكون المراد بالطمس على الأعين هو حجبهم عن الهدى فكيف بعد ذلك يهتدون إلى الحق .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِم(١) ﴾ المسخ : تحويل صورة الشيء إلى صورة أقبح منها أو إلى صورة أخرى ، والمعنى : ولو نشاء تغيير صورهم لغيرناهم إلى قردة وخنازير أو جماد في المكان الذي اجترأوا فيه على المعصية ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ، ولا أن يرجعوا وراءهم ، لأن البهيمة لا تعقل موضعاً تقصده ، وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر .

---

(١) مكانتهم : المكانة والمكان بمعنى واحد .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ
فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا
فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ
لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ
﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي
جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ

شرح المفردات

نعمّره : نطيل عمره .

ننكّسه في الخلق : نصيره إلى حال الضعف والعجز والهرم .

وما ينبغي له : ما يصح له ولا يجدر به .

أنعاماً : المواشي من الإبل والبقر والغنم .

وذلّلناها لهم : جعلناها مسخرة منقادة لهم .

خصيم : شديد الخصومة .

رميم : بالية أشد البلى .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ
ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

شرح المفردات

ملكوت : هو الملك التام .

تابع سورة يس ٧

ثم يبين اللّه بعد ذلك مدى ضعف الإنسان الذي يتبدى بعوارض الشيخوخة التي تصيبه :

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ أي ومن نمدّ له في العمر ونجعله مسناً ﴿ نُنَكِّسْهُ في الْخَلْقِ ﴾ يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . والنكس قلب الشيء على رأسه وجعل أعلاه أسفله ، أي أن قوة الإنسان في شبابه يبدلها اللّه في حال هرمه ويجعلها تسير على عكسها[1] ،

---

(١) حياة الإنسان تأخذ ثلاث مراحل : أولاً ، النمو . ثانياً : النضج . ثالثاً : ضمور النسيج الحشوي في الكلى والكبد والغدة الدرقية والبنكرياس وهذا له أثر في إضعاف الجسم كله . وتبدأ كذلك الشرايين في التصلب والضمور وبذلك يقل الدم الذاهب إلى جميع أعضاء الجسد فيزيده ضعفاً على ضعف . ومن أسباب الشيخوخة زيادة قوى الهدم على قوى البناء في الجسم وذلك أن خلايا الجسم كلها في تغير مستمر وتجدد وكذلك خلايا الدم ، فإذا زادت نسبة هلاك الخلايا على تجددها ظهرت عوارض الشيخوخة ، وكلما تقدم الإنسان في السن تضاءلت نسبة تجدد الخلايا في الجسم . (عن كتاب المنتخب في تفسير القرآن باختصار) .

فتتناقص قوته وتضعف بنيته ويتغير شكله ، ويعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل ، وفي هذا المعنى جاء في القرآن : ﴿ وَمِنْكُم مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُر لِكي لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيئاً ﴾ الحج : ٥ . ثم يعقّب القرآن على الآية السابقة ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا يشحذ هؤلاء الكفار عقولهم فيدركوا مدى قدرة اللّٰه وضعف الإنسان.

ثم ينفي اللّٰه صفة الشعر عن رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْر وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مبين . لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ (٦٩ ـ ٧٠) .

فاللّٰه سبحانه يقول : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ أي وما علمنا رسولنا محمداً الشعر ﴿ وَمَا يَنْبَغي لَهُ ﴾ ولا يصح ولا يليق ـ لمكانته ومنزلته ـ أن يكون شاعراً ﴿ إِنْ(١) هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أي ما القرآن المنزل عليه إلّا عظة وتذكير من اللّٰه لعباده وإرشاد لهم ، وكتاب سماوي واضح يظهر لمن تدبره أنه تنزيل من اللّٰه ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حيّاً ﴾ ليخوف اللّٰه به من كان حي القلب يعقل ما يقال له ، ويفهم ما يبيّن له ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين المصرين على الكفر ، وفي ذكر الكافرين مقابل الأحياء الذين ينتفعون بالقرآن إشارة بأن الكافرين في بُعدهم عن الاتعاظ والفهم والاعتبار هم في حكم الأموات لأنهم لا يفهمون ولا يدركون ولا يتعظون بما يقال لهم .

فالقرآن نفى تعليم محمد للشعر ، وإذا لم يكن محمد شاعراً لم يكن القرآن شعراً البتة ، وهذا رد لقول بعض العرب المنكرين لنبوة محمد ﷺ

---

(١) إن : حرف نفي بمعنى ما .

القائلين : إن القرآن شعر ، وأن محمداً هو شاعر ، ومقصدهم بذلك إثبات أن القرآن من نظم محمد وليس وحياً من اللّه ، وهي شبهة كانت تتردد عند الكفار من العرب بدون علم ولا تحقيق .

ولكن لماذا قارنوا قديماً القرآن بالشعر ؟ إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك الجمال الصوتي البديع ، والوزن الخاص الذي اختص به من تآلف الحروف في النغم ، وتراصف الكلمات بعضها إلى بعض في سلاسة وعذوبة بآيات تنتهي بفاصلة[1] ، تَطّردُ هذه الفاصلة على ألفاظ معينة ، أو تتغير في نسق خاص ، فالفاصلة هي مفتاح الوزن القرآني وموسيقى نغمه .

ولكن الذي يقارن بين نظم القرآن والشعر يرى أن القرآن ليس بشعر ، فالشعر كما هو معروف يلتزم بالقافية ، وهو محدد بحدود معينة من الأعاريض المعروفة لا تخرج عنها قصيدة عربية ، وقصيدة الشعر تتفق كلها على وزن خاص وروي مشترك من مطلعها إلى ختامها ، ولا يسمى شعراً كل ما يقال على ألسنة الناس أو العامة ، فالشعر لا يقع إلاّ من شاعر عالم به قاصد إلى وزنه وتقفيته بينما القرآن يختلف اختلافاً بيّناً في نظمه وأعاريضه وفنونه وطرقه .

هذا من ناحية الوزن ، أما من ناحية المعنى فإن الشعر يسير مع العواطف والأهواء ، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق ، ومن ثم كان الشعر مستقر الأكاذيب بما فيه من المباهاة والفخر بالباطل ، ولهذا قيل أعذب الشعر أكذبه . ومن المعروف عند كثير من الشعراء أنهم إذا غضبوا بالغوا في الذم والهجاء وضربوا بالحقيقة عرض الحائط ، وإذا استرضوا بعد قليل

---

(١) الفاصلة : هي آخر كلمة في الآية .

رفعوا الشخص الذي هجوه إلى أعلى المنازل ، وأدخلوه في زمرة العظماء ، وكان من طبيعة الشعراء قديماً إذكاء الحمية في قومهم ، والمنافسة في تعداد فضائلهم . وإذا كان الشعر على ما وصفنا خاضعاً لانفعالات الإنسان وأهوائه مما يجعله متقلباً من حال إلى حال ، فبالمقابل فإن الوحي المنزل على قلب النبي ﷺ لا يتقلب مع الأهواء بل يسير على منهج الحق وعلى طريق مستقيم ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى القرآن لم يشارك ما ألفه العرب في أشعارهم لا في مطالعها ولا في موضوعاتها ، فهو لا يصف الأطلال والربوع ، ولا يصف الحنين إلى الأحبة ، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال ، وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء ، بل القرآن يصف جلال ربوبية اللَّه ، ويذكر أسماء اللَّه الحسنى وأحوال اليوم الآخر من نعيم للمتقين وعذاب للفجار ، كما يقص علينا القرآن أخبار الرسل مع أقوامهم ، ويقدم التشريعات المثلى العادلة التي تنقض عادات العرب ، ويعرض لمكارم الأخلاق .

فلو كان محمد ﷺ شاعراً لذهب مذاهب العرب في نظم الشعر ، ولطرق المواضيع التي توحي بها طبيعة أرضهم ، ومنهج حياتهم ، ولتكلف في نظم القول ولجاراهم في ذلك وفي ما هم عليه من المنافسة والإغراق في الوصف ، والجنوح في الخيال والأوهام ، وتحسين ما ليس بحسن ، وتقبيح ما ليس بقبيح .

وقد كان النبي ﷺ إذا تمثل ببيت من الشعر يكسره فلا يقيم وزنه مع أنه كان أفصح العرب فلم يكن ينشد بيتاً تاماً على وزنه . أنشد مرة صدر بيت الشعر المشهور للبيد وهو قوله :

« ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل » فسكت عن عجزه « وكل نعيم

لا محالة زائل » .

وأنشد البيت ـ السائر على الألسنة ـ لطرفة على هذه الصورة :

« ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً » وأكمل الشطر الثاني على هذه الصورة :

« ويأتيك من لم تزوده بالأخبار » وأصله : « ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ » .

ولم يجرِ على لسان النبي مما صح وزنه إلّا ضربان من الرجز المنهوك والمشطور كقوله يوم غزوة أحد :

أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبد المطلبْ

والثاني قوله عندما دميت إصبعه :

هل أنت إلا إصبع دميتِ وفي سبيل اللّه ما لقيتِ

وإنما اتفق له ذلك لأن الرجز في أصله ليس بشعر إنما هو وزن كأوزان السجع ، وإنما جعل الرجز من الشعر بسبب تتابع أبياته ، وجمع النفس عليه واستعماله في المفاخرات وهو كلام من جنس كلام العرب الذي يتكلم به على طبيعته من غير صنعة ولا قصد إلى وزن مما لا يعد شعراً .

ولكن لا بد أن نشير إلى أن النبي ﷺ كان له شعراء فحول يمدحونه ويدافعون عنه فكان يكرمهم ويسبغ عليهم هداياه وكان يفعل ذلك رداً لكيد أعدائه من الشعراء الذين يتطاولون عليه .

وبجانب ذلك يعتبر الشعر عنصراً هاماً في فهم القرآن يقول ابن عباس

رضي اللَّه عنه : إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب .

وبعد أن نفى اللَّه صفة الشعر عن رسوله محمد ﷺ أتبع ذلك بالكلام عن الأنعام وما فيها من أسرار تشهد بربوبيته سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٧١ ـ ٧٣) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ والرؤية علمية لا بصرية لأن المشركين لم يشاهدوا خلق الأنعام ، والمعنى : ألم يعلم ويتفكر هؤلاء المشركون أننا خلقنا لأجلهم وانتفاعهم ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً ﴾ أي مما تولينا صنعه بلا معين ولا شريك ، وعبّر اللَّه عن صنعها باليد ليقرّب المعنى إلى أفهامهم ، واللَّه سبحانه منزه عن اليد وعن كل ما اقتضى التشبيه . والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم ، ولقد خصها القرآن بالذكر لما لها من الفوائد الجمة وبالأخص عند العرب الذين نزل القرآن فيهم وقد كانت دعامة حياتهم ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ أي فهم قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي سخرناها لهم حتى أن الصبي الصغير ليقود الجمل الضخم ويضربه ويصرفه كيف شاء لا يخرج عن طاعته ، ثم تفصل الآية أوجه المنافع : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي من هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار كالإبل ، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم والإبل ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ والمنافع معروفة كالانتفاع بجلودها وأصوافها وأوبارها ، وحراثة الأرض

بواسطة الثيران ، أما المشارب فهي ألبانها ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي أفلا يشكرون نعمتي هذه عليهم ويقابلون إحساني إليهم بطاعتي وإفرادي وحدي بالألوهية والعبادة .

المتأمل في خلق الأنعام(١) وتذليلها لمنفعة الناس بالذات يجد فيها آية كبرى على وجود اللّٰه وتصرفه الحكيم في هذا الكون ، ويرى بطلان ما ذهب إليه الماديون الملحدون من قيام هذا الكون على المادة وحدها .

إن الماديين يقولون إن الماء والتراب والنار قد اختلطت ونضجت في فرن الأشعة الشمسية والكونية فتطورت إلى الملايين من البشر والحيوانات والطيور والأسماك والحشرات والأشجار ، بهذا المنطق الغريب يدّعون قيام المخلوقات نافين وجود الخالق ، إنهم لا يجدون إلّا مادة تتطور من مادة صماء إلى مادة عاقلة . ولكن لماذا لا نقوم نحن أنفسنا بعملية من هذا النوع فنضع تراباً في المختبرات ونسلط عليه الأشعة اللازمة وننتظر أن يخرج منه ببغاء أو قرد أو إنسان أو زهور ، ولماذا لا تتطور هذه الكائنات مرة أخرى وعلى مرأى منا جميعاً ، أسئلة كثيرة نضعها أمام الماديين لعلهم يزيلون من أذهانهم هذه الأباطيل والشبهات على وجود الخالق .

وبعد الكلام عن الأنعام وتذليلها لمنفعة الناس والتي تشهد بوجود خالق حكيم لها ، يعيب اللّٰه على المشركين اتخاذهم الأصنام آلهة من دون

---

(١) من أكبر فوائد الأنعام أنها تعطينا اللبن الذي نشربه ، واللبن غذاء كامل . وتوجد في ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن ، هذه الغدد تمدها الأوعية الشريانية بخليط مكون من الدم والغليكوز ، والغليكوز هذا عبارة عن الغذاء المهضوم من الفرث (أي ما في الكرش) . وبديهي أن كلًّا من الدم والغليكوز غير مستساغ طعماً ، ولكن تقوم الغدد اللبنية باستخلاص عناصر اللبن من هذين السائلين ، كما تضيف إليها عصارات تحولها إلى اللبن الخالص السائغ للشاربين .

اللَّه ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ . فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٤ ـ ٧٦) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ أي واتخذ المشركون من غير اللَّه أصناماً جعلوها آلهة يعبدونها ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ طمعاً أن تنصرهم تلك الآلهة من عقاب اللَّه وعذابه ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ لا تستطيع هذه الآلهة نصرهم من اللَّه إن أراد بهم سوءاً ولا تدفع عنهم ضراً ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ وهؤلاء المشركون لآلهتهم العاجزة بمنزلة الجند يحرسونها ويغضبون لمن يمسها بسوء ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم سوءاً فكيف يستطيع المحروس العاجز أن ينصرهم ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فلا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين أنك شاعر أو ساحر أو مجنون ، ولا يحزنك تكذيبهم بآيات اللَّه وجحودهم نبوتك ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ إن اللَّه يعلم ما يخفون من أقوالهم عنك وما يعلنون منها ، وسيجازيهم على أفعالهم .

ويتابع اللَّه سبحانه مناقشة المنكرين للبعث بالأدلة العقلية :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٧ ـ ٧٩) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ ﴾ والرؤية هنا لا يقصد منها مجرد البصر بل النظر المقترن بالاعتبار والتدبّر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾

والنطفة هي ماء الرجل وماء المرأة أي منيّهما فماء الرجل يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية وأحد هذه الحيوانات يلقح ببيضة الأنثى وعند تلقيحها تبدأ أول مراحل تكوين الجنين ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ فإذا هو بعد أن يكبر وتشتد قواه يصبح شديد الخصومة والجدال بالباطل ، فالقدرة الإلّهية التي خلقت الإنسان بهذه الصورة المدهشة لا يصعب عليها إعادة الإنسان حياً يوم القيامة ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ وساق لنا هذا المُنْكِرُ للبعث مثلاً ينكر به قدرة اللّه على البعث ، ونسي أن اللّه خلقه من نطفةٍ ﴿ قَالَ : مَنْ يُحيي العِظَام وَهِيَ رَمِيمٌ(١) ﴾ أي لقد قال هذا المنكر للبعث وهو يحمل العظم البالي : من يحيي هذه العظام البالية المتفتتة ويعيدها إلى حالتها السابقة ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قل يا محمد لهذا المنكر للبعث إن اللّه يحيي العظام الذي أوجدها من العدم أول مرة ، ولا ريب أن الإعادة أهون من الإنشاء في عرف الناس ، فكل من أنشأ شيئاً أولاً قادر على إنشائه وإحيائه(٢) ، إنه دليل منطقي رائع لا يمكن للعقل إلّا أن يسلم به ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ وهو سبحانه عليم بجميع خلقه .

ثم يقدم القرآن مثالاً آخر على قدرة اللّه :

﴿ الّـذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٨٠) .

---

(١) يروى في أسباب نزول الآية : أن العاص بن وائل السهمي جاء إلى رسول اللّه حاملاً عظماً حائلاً (بالياً) بين يديه فقال : يا محمد أيبعث اللّه هذا حياً بعدما أرمّ (أي بلى) ؟ قال : نعم يبعث اللّه هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم .

(٢) وقد جاء في القرآن في وصف القدرة الإلّهية ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ الروم : ٢٧ .

ثم كيف تتكون الأشجار وتتحول إلى نار ؟ إن طاقة الشمس تنتقل إلى جسم النبات بعملية التمثيل الضوئي إذ تمتص خلايا الأوراق المحتوية على مـادة اليخضور « الكلوروفيـل » ثاني أوكسيـد الكربـون من الهواء فتجـزئـه وتـأخذ منـه الكربـون فتكون بـواسطتـه المواد الهيـدروكاربـونية التي تؤلف النشـويات وبـاقي المواد العضـوية . فخشب الأشجـار يتكون معـظمـه من الكربون والأوكسجين والهيـدروجين ومواد عضـوية مصـدرها التـربة ، ومن عنصر الكربون نحصل على النار . فلفظ الاخضرار في الآية ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً ﴾ هو إشارة إلى مادة « الكلوروفيل » هذه التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي والتي هي من العناصر المهمـة لتكوين النبـات بأجزائه وثماره ، وهي من الأسرار التي كشف عنها القـرآن قبل أربعـة عشر قرناً .

فهل هذا أيهـا الماديـون من صنع المـادة العمياء ، لا ، لا يقـول بهذا عاقل أبداً ، بل ذلك من صنع وتدبير القدرة الإلٓهية الحكيمة المبدعة .

ثم يختم اللّه هذه السورة بهذا البرهان المفحم على قدرته على إعـادة الأجسام حيّة بعد موتها للحساب والجزاء :

﴿ **أَوَ لَيْسَ الَّـذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (٨١ ـ ٨٣) .

فـاللّه يقـرر بـأن من خلق السمـوات المحتـويـة على بـلايين الأجـرام السماوية ، وأن من خلق الأرض ومـا فيها من جبـال ووديان وسهـول وبحار وأنهـار وأشجار ونبـات وما يعيش فيهـا من مـلايين المـلايين من الكـائنـات

الحية ، نعم إن من خلق ذلك كله قادر على إعادة الإنسان حيّاً ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ والخلاق والعليم صفتان للّه مبالغة من الخلق والعلم ، فاللّه هو الكثير الخلق، المحيط علمه بكل شيء لا يخفى عليه خافية ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ أي إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بإحداث شيء وتكوينه ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أن يقول له : أحدث فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً ولا على أي سبب ما ، وليس هناك تعبير يوازي هذا التعبير إحاطة في وصف عظمة القدرة الإلّهية التي هي فوق التصور والإدراك .

﴿ فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فتنزيهاً وتقديساً للّه الذي بقدرته ملك كل شيء ، وملكوت في اللغة صفة مبالغة في الملك . هذه الصفة للّه تشعرنا بعظمته المتجلية بملكيته لكل شيء في هذا الوجود وسيطرته القاهرة على كل ما فيه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي إنكم أيها الناس في خاتمة المطاف وعند انتهاء أعماركم تعودون إلى اللّه وحده .

وهكذا تنتهي السورة بتذكير الإنسان بأن مآله إلى اللّه فليحاسِبْ نفسه قبل أن يُحاسَبَ ، وليكبح جماح أهوائه ، ويقلع عن فجوره ، قبل أن يقف بين يدي اللّه الديَّان يوم الحساب والجزاء فيحاسبه على ما قدمت يداه .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها القسم بالصافات ، والمراد بها الملائكة التي تقف صفوفاً في العبادة ، أو تصف أجنحتها في الهواء امتثالاً وانتظاراً لتلقّي أمر اللّه .

هذه السورة تستهدف غرس عقيدة توحيد اللّه في النفوس وتخليصها من شوائب الشرك باللّه التي كانت سائدة في البيئة العربية قبل الإسلام .

وتتحدث السورة عن الشياطين المردة وتعرضهم للرجم بالشهب عند الصعود إلى السماء كي لا يقربوا من الملائكة ويسمعوا ما يدور بينهم من أحاديث .

وتقرر السورة إمكانية حصول البعث الذي كان المشركون يستبعدونه ويستهزئون به مبينة ما يلاقيه المكذبون به من عذاب اللّه يوم القيامة جزاء عصيانهم لربهم ، وما يلاقيه المؤمنون من نعيم اللّه في الجنة جزاء طاعتهم لربهم .

وتعرض السورة بعض قصص رسل اللّه في لمحات سريعة واصفة طرفاً من كفاحهم وصبرهم وتضحياتهم في سبيل رضاء ربهم .

وأخيراً تفنّد السورة أُسطورة القرابة بين اللّه والجن وأن الملائكة بنات اللّه وترد على هذه المزاعم الباطلة مبينة أن اللّه يتنزه عن كل ما يصفه به المشركون من صفات النقص ، وأنه الواحد الأحد صاحب العزة لا ينازعه فيها أحد ، وأن له الحمد وحده على ربوبيته لهذا الكون .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وآياتها ١٨٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣
إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن
كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ

شرح المفردات

والصَّافَاتِ صَفّاً : الواو للقسم ، أقسم اللّٰه بالملائكة التي تقوم صفوفاً في العبادة

فالزَّاجِرَات زَجْراً : أقسم اللّٰه بالملائكة الذين يزجرون النـاس عن المعاصي .

فَالتَّالِيَات ذِكْراً : أقسم اللّٰه بالملائكة الذين يتلون كتب اللّٰه على أنبيائه .

شَيْطَانٍ مَارِدٍ : عتا وازداد في الشر وتعرى من الخيرات .

لا يَسَّمَّعُون : أصلها لا يتسمعون (أدغمت التاء في السين)

الملأ الأعلى : أشراف الملائكة .

يُقْذَفُونَ : يرجمون .

دُحُوراً : مطرودين ، مبعدين .

عَذَابٌ وَاصِبٌ : عذاب دائم لا ينقطع .

خَطِفَ الخَطْفَة : اختلس الكلمة مسارقة بسرعة .

ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

شِهَابٌ : شعلة ساطعة من النار .

ثَاقِبٌ : مضيء .

فاسْتَفْتِهِمْ : فاستخبرهم وسلهم .

طِينٍ لازِبٍ : شديد متماسك الأجزاء .

وإذا ذكِّروا لا يذكرون : وإذا وُعظوا لا يتعظون .

يستسخرون : يسألون غيرهم أن يسخروا .

دَاخِرُونَ : منقادون أذلاء .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

إيضــاح و دروس

يستهـل اللَّه هذه السـورة بالتـأكيد على وحـدانيته بـالقسم بجمـاعـات وطوائف متعددة ، واللَّه يقسم بما شاء تنويهاً بشأن المقسَم به :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً . إنَّ إلَهكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ ﴾ (١ ـ ٥) .

فـاللَّه سبحـانـه يقـول : ﴿ والصَّـافَّـاتِ صَفّـاً ﴾[١] الـواو للقسم . الصـافات : قيـل هم الملائكـة المصطفـون في السمـاء صفـوفـاً يعبـدونـه ويسبحون بحمده ، وقيل المراد بالصافات : جماعات المؤمنين المصطفين في الصلاة جماعة .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ﴾ الزجر : المنع والنهي ، قيل هم الملائكة الذين يزجرون بني آدم عن المعاصي بإلهامهم الخير ، وقيل المراد بالزاجـرات : آيات القرآن لتضمنها أوامر تنهى عن الأفعال المنكرة ، وقد يراد بالزاجـرات كل من زجر عن معاصي اللَّه من المؤمنين الداعين إلى الخير .

﴿ فَـالتَّالِيَـاتِ ذِكْراً ﴾[٢] قيـل هم الملائكـة الـذين يقـرأون كتـاب اللَّه تعالى ، وقيل : هم قرّاء القرآن . وقيـل : هم الأنبياء يتلون كتب اللَّه على أممهم .

---

(١) الصف : أن يجعل الشيء على خط مستقيم وجمعه صفوف ، يقال صف القوم يصفون صفاً واصطفوا صاروا صفاً .

(٢) الذِّكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء ذِكرٌ .

لقد أقسم اللّٰه في مستهل هذه السورة بهذه الأمور التي ذكرناها ، ووقوع القسم في ابتداء السورة له أثره النفسي حيث يجذب انتباه السامع لما يحدثه القسم في نفسه من الرهبة ، ولما يصاحب ذلك من تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال[١] . ولكن ما هو المقسم عليه ، أو بعبارة أخرى ما هو جواب القسم ؟ إنه الآية التالية : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ أي إن إلٰهكم المعبود بحق هو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، واحد لا شريك له ، ليس له شبيهٌ ولا مثيل .

ثم عقَّب القرآن على الوحدانية بوصف عظمة القدرة الإلٰهية ﴿ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ والرب هو المالك والسيد والمربي ، فهو سبحانه مالك السموات والأرض وما بينهما من موجودات ، كما أنه سبحانه مالك المشارق ، وهي مشارق الشمس إذ أنها في كل يوم تشرق من مشرق ، وتغرب من مغرب يختلف قليلاً عن المكان الذي أشرقت منه ، وذلك بما سنّه اللّٰه في النظام الشمسي من قوانين حيث تدور الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق كل يوم وليلة مرة ، وتدور في فلكها الإهْليلَجي حول الشمس مرة كل سنة أي في مدة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم .

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى سماء الدنيا التي يراها الناس وقد زينها اللّٰه بالكواكب التي تشهد بربوبيته ووحدانيته :

---

(١) ورد مثلُ هذا القسم في القرآن كثيراً ، لأنه جاء بلغة العرب وأساليبهم وكان من عادتهم إذا سمعوا الرجل يقسم يعلمون أنه سيقول كلاماً هاماً يجب الإصغاء إليه ، وسبب ذلك أنهم كانوا يخافون من القسم الكاذب ويعتقدون أنه يخرب الديار . فلهذا كانوا يستقبلون الكلام المبتدأ بالقسم باهتمام خاص . هذا وقد تكلمنا عن أسرار القسم في القرآن عند تفسيرنا لسورة النازعات .

﴿ إِنَّـا زَيَّنَّا السَّمَـاءَ الدُّنْيَـا بِزِينَـةٍ الكَوَاكِبِ . وَحِفْـظاً مِنْ كُـلِّ شَيْـطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسَّـمَّـعُونَ إِلَى الملإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُـونَ مِنْ كُلِّ جَـانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَـذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَـطِفَ الخَـطْفَـةَ فَـأَتْبَعَـهُ شِهَـابٌ ثَـاقِبٌ ﴾ (٦ - ١٠) .

فالسماء الـدنيا هي أقـرب سماء لأهـل الأرض ، وهذه السمـاء زينها اللَّه بنور الكواكب[١] . فالنظر إلى السماء ، وتأمل ما فيها من أجرام مضيئة في الليـالي الصافيـة التي يغيب فيها القمـر عن الأنظار لمشهـدٌ يبعث على الإيمان والإجلال لعـظمة الخـالق ، ويظهـر ضآلـة النفس أمام هـذا الكون الفسيح الذي لا يُعدّ الإنسان أمامه شيئاً يُذكـر .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وَحِفْظاً مِنْ كُـلِّ شَيْطانٍ مَـارِدٍ ﴾ أي وحفظ اللَّه السماء من كل شيطان مارد ، والمارد : هو المقبـل على الشر المتمـرد عن طاعة الله ، المتعري من الخيرات ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ[٢] إِلَى الملأ[٣] الأَعْلَى ﴾

---

(١) الكواكب : جمع كوكب وهو في عرف القرآن ـ والله أعلم ـ كل جرم مضيء سواء أكان كوكباً من جنس الأرض ، أو كان نجماً مشتعلاً كالشمس ، لأن النجوم شموس كشمسنا ، بينما الكواكب في عرف علماء الفلك تطلق على الأجرام المعروفة الشبيهة بالأرض وهي التي تضاء بانعكاس نور الشمس عليها كالمشتري والمريخ ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة . وبعد صنع المراقب القوية أمكن اكتشاف الواكب الآتية : أورانوس ، ونبتون ، وبلوتو .
والقرآن لفت الأنظار في آيات أخرى إلى هذه الزينة الظاهـرة في السماء بقـوله : ﴿ أفلم ينظـروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وليس من المعقول أن يكون المراد بزينة الكواكب هي الكـواكب الخمسة التي تتـراءى بالمنـظر المجرد والتي كانت مرئية في عهد نزول القرآن ويغفل عن ألـوف النجوم التي ترى بالعين المجردة . هذا وقد أشار القرآن إلى النجوم بقوله : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ ﴿ هـو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ ﴿ والنجم الثاقب ﴾ .
(٢) يسَّمّعون : أصلها يتسمعون فأدغمت التاء في السين ، والتسمع طلب السماع .
(٣) الملأ : يطلق في اللغة على الأشراف والجماعة .

والمراد بالملأ الأعلى هنا الملائكة لأنهم يسكنون السموات ، والإنس والجن هم الملأ الأدنى لأنهم سُكان الأرض ، فاللَّه سبحانه حفظ السماء من تنصت الشياطين لسماع كلام الملائكة، فقد كانت الشياطين يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع إلى كلام الملائكة ، وما أُخبروا به من أمور الغيب ، وما قضى اللَّه به ، فتوحي الشياطين بهذه الأخبار إلى الكهّان ، فمنعهم اللَّه من الصعود إلى السماء بعد بعثة محمد ﷺ ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي يُرمون ويُرجمون بالشهب من كل ناحية من نواحي السماء وجهاتها إذا أرادوا استراق السمع ﴿ دُحُوراً ﴾ أي مطرودين مبعدين من السماء ﴿ وَلَهُم عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ ولهم عذاب موجع أو دائم ﴿ إلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ﴾ إلاّ من استرق السمع من الشياطين واختلس من الملائكة بعض الكلام مسارقة ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ فلحقه شهاب مضيء يحرقه حين يُرمى به .

وبعد لفت الأنظار إلى السماء وما فيها من أجرام تزيّن السماء انتقل القرآن إلى الرد على المنكرين للبعث :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِنْ طِينٍ لازِب . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرونَ . وَقَالوا إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آباؤنا الأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُم دَاخِرُونَ ﴾ (١١ ـ ١٨) .

فاللَّه يخاطب رسوله محمداً : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أي سل هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث واستخبر منهم : هل هم أقوى خلقة وأشد إيجاداً ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ أم ما خلق اللَّه من السمٰوات والأرض

وما فيهما من كائنات وخلائق ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِب ﴾ أي إن اللَّه خلقهم من طين لاصق بعضه ببعض ، والمراد به التراب المخلوط بالماء ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ بل عجبت يا محمد من قدرة اللَّه على إيجاد هذه الخلائق العظيمة ويسخرون منك بسبب تعجبك ﴿ وإِذَا ذُكِّروا لا يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا وُعظوا بموعظة من مواعظ اللَّه لا يتعظون ولا ينتفعون بها ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرونَ ﴾[1] وإذا رأوا حجة ودلالة على نبوتك يا محمد يبالغون في السخرية ، أو يسألون غيرهم من المشركين أن يسخروا من النبي ﴿ وَقَالوا : إنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي وقال المشركون ما هذا الذي تأتينا به يا محمد إلّا سحر واضح ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لمبْعُوثُونَ ﴾ الاستفهام منهم على سبيل الإنكار والاستهزاء ، أي أَنُبعث أحياء بعد الموت وقد تحلّلت أجسامنا إلى تراب وعظام ﴿ أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلُون ﴾ وهل آباؤنا الأولون أيضاً مبعوثون ، وهذا زيادة منهم في استبعاد حصول البعث لأن آباءهم أقدم منهم ، وأجسامهم قد زاد فيها البلى والتحلل ﴿ قُلْ نَعم وَأَنتُم دَاخِرون ﴾ أي قل لهم يا محمد نعم ستبعثون أحياءً يوم القيامة وَأَنتُم صاغرون أذلاء .

---

(١) السين في يستسخرون للسؤال والطلب .

(٢) إنْ : حرف نفي بمعنى ما .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ
ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ
﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا
قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ

شرح المفردات

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ : وما أمر البعث إلّا صيحة واحدة .

يا ويلنا : كلام يقوله المتحسرون ومعناه : يا هلاكنا .

يَوْمُ الدِّين : يوم الجزاء .

يَوْمُ الفَصْلِ : يوم القيامة ، حيث يفصل فيه بين أهل الحق والباطل .

وَأَزْوَاجَهُمْ : وأشكالهم .

فَاهْدُوهم إلى صِرَاطِ الجَحِيمِ : سوقوهم ودلوهم إلى طريق جهنم .

وَقِفُوهُمْ : احبسوهم في موقف الحساب .

مسؤولُونَ : محاسبون .

تأتونَنَا عَن اليَمِينِ : تخدعوننا وتفتنوننا عن طاعة اللّه .

سُلْطَانٍ : حجة وبرهان .

فَأَغْوَيْنَاكُمْ : دعوناكم إلى الضلال .

كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا
لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾
إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ
وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾
يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا
غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾

شَرح المفرَدات

بِكَأْسٍ مِنْ مِعِين : بكأس خمر من نهر ظاهر للعيون .

غَوْلٌ : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به .

ولا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون : لا تذهب الخمر عقولهم بالسكر .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : نساء قصرن أبصارهن على الأزواج ولم يطمعن في غيرهم .

عِين : حسان العيون .

كَأَنَّهن بَيْضٌ مَكْنُونٌ : العرب تشبه النساء الجميلات ببيض النعام المصون من الغبار .

تابع سورة الصافات

وبعد هذا الرفض من المشركين لعقيدة البعث وإمعانهم في الاستهزاء به يثبت القرآن وقوعه ويعطي صورة موجزة عنه وعن مصير المكذبين به :

﴿ فإنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فإِذَا هُمْ يَنظُرونَ . وَقَالوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الذي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . احْشُرُوا الذينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُم إلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهم مَسْئُولُونَ . مَا لَكم لا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (١٩ ـ ٢٦) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ[١] وَاحِدَةٌ ﴾ أي إنما قصة البعث تكون بصيحة واحدة تحصل عندما ينفخ الملك إسرافيل في البوق ﴿ فَإذَا هُمْ يَنْظُرونَ ﴾ فإذا هم يقومون من قبورهم أحياء شاخصة أبصارهم ينظرون إلى ما كانوا يوعدون به من البعث ، وقد تأتي ينظرون بمعنى الانتظار ، أي ينتظرون ما يفعل اللّه بهم ﴿ وَقَالوا : يَا وَيْلَنَا ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل ، والويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر تقال لمن يستحق الهلكة لسوء فعله ، لقد نادوا على أنفسهم بالويل لأنهم استفاقوا على أمر قد كذّبوا به وقالوا : ﴿ هَذَا يَوْمُ الدِّين ﴾ هذا يوم الجزاء على الأعمال ﴿ هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الذي كُنتم بِهِ تُكَذِّبون ﴾ ويوم الفصل هو يوم القيامة ، وسمي كذلك لأن اللّه يفصل فيه ويحكم بين المحسن والمسيء بالعدل ، إن هذا اليوم هو الذي كذّب به المشركون .

---

(١) سمّى القرآنُ الصيحةَ زجرةً من قولنا زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فخافت منه .

ثم يخاطب اللَّه ملائكته : ﴿ احْشُروا الذين ظَلَمُوا ﴾ أي اجمعوا الذين ظلموا وهم الكافرون ﴿ وَأَزْوَاجَهُم ﴾ وأشباههم ومن هم على شاكلتهم في الكفر ، وقيل أزواجهم بمعنى نساءهم اللاتي على دينهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي واحشروا معهم ما كانوا يعبدون معهم من دون اللَّه من أصنام وطغاة وشياطين ﴿ فَاهْدُوهُم إلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ ﴾ فوجهوهم وسوقوهم إلى طريق جهنم، والهداية هي الإرشاد والدلالة إلى الحق والخير فأطلقت الهداية هنا للدلالة على العقاب والعذاب تهكماً بهم . وقبل أن تسوقهم الملائكة إلى جهنم يأتي الأمر الإلّهي لهم : ﴿ وَقِفُوهُم ﴾ أي امنعوهم عن مواصلة السير واحبسوهم في هذا الموقف ﴿ إنّهُم مَسْئُولُونَ ﴾ إنهم محاسبون ، أو إنهم سيسألون السؤال التالي المذكور في الآية التالية ﴿ مَالَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ وسؤالهم هو سؤال توبيخ لإيجاب الحجة عليهم لأن اللَّه عالم بأعمالهم ، أي لماذا لا تنصركم آلهتكم ولماذا لا ينصر بعضكم بعضاً ؟ وهم أحوج الناس إلى النصرة في هذا الموقف العصيب ﴿ بَلْ هُمُ اليَوم مُسْتَسْلِمونَ ﴾ بل هم اليوم منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد طريق النجاة أمامهم .

ثم يحكي القرآن لنا ما يكون يوم القيامة من حوار بين الرؤساء والأتباع الذين اختاروا الضلالة على الهدى وهم على مشارف العذاب :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُم تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُم يَوْمَئِذٍ في الْعَذَابِ مُشْتَركون . إِنَّا كَذَلِكَ نفعل بالمجرمين ﴾ (٢٧ ـ ٣٤) .

فـاللَّه سبحانـه يقول : ﴿ وَأَقْبَـلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُـونَ ﴾ أي صار الأتباع والرؤساء يلوم بعضهم بعضاً ويتخاصمون ﴿ قَالُـوا : إِنَّكُم كُنْتُم تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمين ﴾ هذا قول الأتباع للرؤساء الذين أضلوهم ، وليس المراد باليمين : اليد اليمنى بل استعيرت لجهـة الحق والخير لأن أفضـل الأعمال يباشرها الإنسان بيده اليمنى ، والعرب كـانوا يتفـاءلون ويتـرقبون اليُمن من جهة اليمين ، فالأتباع يقولون لرؤسائهم : إنكم كنتم تأتوننا من الناحية التي فيها الحق والخير وهي الدين تهونون أمره علينا وتصرفوننا عنـه وتزينـون لنا الضلالة . وتأتي اليمين بمعنى القدرة والقوة لأن اليد اليمنى موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، أي إنكم كنتم تأتوننا بالقوة والقهـر لتحملونا على سلوك طـريق الضلال ﴿ قَـالُوا : بَـلْ لَمْ تَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال الـرؤساء : بـل لم تكـونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منـه إلى الكفـر ﴿ وَمَـا كَـانَ لَنَـا عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي وما كان لنا من حجة على صحة ما دعوناكم إليـه ﴿ بَلْ كُنْتُم قَـوْماً طَـاغِينَ ﴾ بل كـان فيكم طغيـان ومجـاوزة للحق فلهـذا استجبتم لنـا ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ فوجب علينا عـذاب ربنا إنـا لذائقـون العذاب نحن وأنتم بسبب ذنوبنا ومعصيتنا للَّه ﴿ فَـأَغْوَيْنَـاكُمْ ﴾ فأضللنـاكم عن سبيل اللَّه ﴿ إِنَّا كُنَّـا غَاوِينَ ﴾ إنّـا كنا ضـالين فلا عتب علينـا لإغوائكم ﴿ فَـإِنَّهُمْ يَوْمَئِـذٍ في الْعَذَابِ مُشْتَـرِكُونَ ﴾ فـإنهم يوم القيـامة مشتـركون في العـذاب كما كـانوا في الـدنيا مشتـركين في الضلالـة ﴿ إِنَّا كَـذَلِـكَ نَفْعَـلُ بـالمجْرِمِينَ ﴾ أي مثـل ذلك الفعـل والعقاب الأليم يفعـل اللَّه بالمجـرمين الذين أجرموا في حق اللَّه باتخاذهم شريكاً له وفعلهم المعاصي .

ثم يبيّن القرآن طرفاً من ضلالهم الذي أوردهم عذاب اللَّه :

﴿ إِنَّهُمْ كَـانُوا إِذَا قِيـلَ لَهُمْ لا إِلَه إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِـرُونَ . وَيَقُولُـونَ أَئِنَّـا

لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُم لَذَائِقُوا العَذَابِ الأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٥ ـ ٣٩) .

فهؤلاء المشركون استحقوا عذاب اللَّه لأنهم كانوا مكذبين بوحدانية اللَّه وبنبوّة محمد ﷺ ، أما التكذيب بوحدانية اللَّه فتصوره الآية : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُم لا إِلَه إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُون ﴾ إنهم ينكرون وحدانية اللَّه ويتعصبون لإثبات شريك للَّه كبرياءً وترفعاً عن قبول الحق ، وأما تكذيبهم بنبوة محمد فيتمثل في قولهم : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ لقد أنكروا أن القرآن من عند اللَّه بل هو من كلام محمد ﷺ ، ولكن رأوا في القرآن ما أدهشهم من ناحية بلاغته ونظمه وجماله الصوتي مما حملهم بادىء ذي بدء على الظن بأنه شعر وبالأحرى أن النبي هو شاعر ، ولكن ظنهم هذا ما لبث أن تبدد إذ رأوا أن لا شبه بين القرآن وبين الشعر من ناحية نظمه ومن ناحية المواضيع التي يطرقها . ثم ما لبثوا أن وصموا النبي بالجنون ، ولكن أي جنون هذا يمكن أن يوصم به النبي ﷺ وهو الناطق بالحكمة المتخلق بالأخلاق السامية ، المترفع عن الدنايا والمنكرات ، المشهور بينهم بالصدق والأمانة والرزانة ثم هل لمجنون أن يأتي بمثل هذا القرآن المتضمن لشرائع الأمم ودساتير الأخلاق وأصول الحكمة ، ودعوة الأنبياء .

وبعد ادعاءات المشركين الواهية يأتي الرد الإلٓهي ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ فما جاء به محمد من القرآن هو من عند اللَّه ، فهو الحق لا ريب فيه ، فهو ليس بشاعر وليس به جنون ﴿ وَصَدَّق المرْسَلِينَ ﴾ أي وَصَدَّقَ رسل اللَّه فيما جاءوا به من وحدانية اللَّه وإثبات الدار الآخرة والدعوة إلى العمل الصالح وترك المنكرات . ثم يأتي التهديد الرباني في خطاب مواجهة لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ ﴾ أي إنكم أيها المشركون لذائقو

العذاب الأليم يوم القيامة بسبب إشراككم بعبادة اللَّه آلهة أخرى وتكذيبكم لنبوة محمد ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن استحقاقكم العذاب هو بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من معاصي اللَّه وإنكاركم لدينه .

وبعد أن بيّن القرآن المصير السيىء للمشركين أردف بذكر مصير المؤمنين وما ينتظرهم من نعيم في الآخرة :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمخلَصِينَ . أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ . فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . في جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِنْ مَعِين . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٤٠ ـ ٤٩) .

فاللَّه سبحانه استثنى عباده المخلصين من عذاب الآخرة بقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّه المخلَصِينَ ﴾ والمخلصين بفتح اللام بمعنى : أخلصهم اللَّه واختارهم لطاعته ، وفي قراءة وردت المخلصين بكسر اللام بمعنى : أخلصوا دينهم للَّه فلم تشُبه شائبة من شرك أو رياء . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ أي لهؤلاء المخلَصين رزق في الجنة معروف في حسنه وطيبه وعدم انقطاعه ﴿ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُون ﴾ والفاكهة هي الثمار كلها وتخصيصها بالذكر لأنها أطيب ما يأكلونه وألذ ما تشتهيه أنفسهم ، وهم مكرّمون بكرامة اللَّه التي أكرمهم بها ، فليس في الجنة تنغيص بالأمراض والهموم والتعب وهم ﴿ عَلَى سُرُرٍ[1] مُتَقَابِلينَ ﴾ أي جالسون على سرر يقابل فيها بعضهم بعضاً مواجهة لا ينظرون إلى أقفية بعضهم البعض وذلك زيادة في الأنس والسرور ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِين ﴾ يطوف عليهم

---

(١) سُرُر : جمع سرير وهو الذي يجلس عليه أو يضطجع عليه .

الخدم بكأس من خمر من أنهار جارية ظاهرة للعيون[١] ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبينَ ﴾ أي هذه الخمر هي بيضاء اللون ، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ الغول : حقيقته الإهلاك ، أي لا ينشأ من شربها أذى أو مكروه من صداع أو ألم معدة أو ضرر ﴿ ولا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون ﴾[٢] أي ولا تذهب هذه الخمر بعقولهم من السكر . ومن الملفت للنظر أن القرآن جمع معايب الخمر ومساوئها بلفظين فقط : غول ، وينزفون . وهذا من بلاغة القرآن التي اختص بها ﴿ وَعِنْدَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْف عِينٌ ﴾ وعندهم زيادة في نعيمهم نساء قصرن أبصارهن عليهن فلا يمددنها إلى غيرهم لفرط محبتهن لهم . وعين : جمع عيناء وهي الواسعة العينين في جمال ، وقيل : الشديدات بياض العين ، الشديدات سوادها ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْض مَكْنُونٌ ﴾[٣] البيْض المراد به بيض النعام . والمكنون : المصون . فهؤلاء النسوة شبهن ببيض النعام الذي يغطيه الريش والمصون من الغبار ونحوه ، والعرب تشبه المرأة الحسناء بالبيضة لصفائها وبياضها ، وقيل المراد به : اللؤلؤ المكنون شبهت النساء به لبياضه وصفائه .

---

(١) جاء في القرآن : ﴿ وانهار من خمر لذة للشاربين ﴾ .
(٢) نزف الشارب : ذهب عقله وأضاع رشده .
(٣) خص تشبيههن ببيض النعام على عادة العرب في تشبيه النساء به وهو مشهور بصفائه وكونه أحسن منظراً من غيره ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ
﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا
فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا
فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ
رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ
﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

شرح المفردات

قَرِينٌ : صديق .

أئِنَّا لَمَدِينُونَ : أئنا لمجزيون على أعمالنا ومحاسبون .

سَوَاءِ الجَحيم : وسط جهنم .

إن كِدْتَ لَتُرْدِينِ : أي قاربت أن تهلكني بإغوائك .

لَكُنْتُ مِن المحْضَرِينَ : لكنت من الذين أُحضروا معك إلى النار .

نُزُلاً : ضيافة وتكرمة ورزقاً .

فِتْنَةً للظالمين : محنة لهم بإرغامهم على أكلها وعذاباً لهم .

طَلْعُهَا : ثمرها .

لشَوْباً مِنْ حَمِيم : أي خلطاً من الماء الحار يشربونه عليها .

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ
ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

شرح المفردات

أَلْفَوْا : وجدوا .

يُهْرَعُونَ : يسرعون .

مُنْذِرِين : رسلاً يخوفونهم عقاب اللّه على عصيانه.

تابع سورة الصافات

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك ما يدور بين أهل الجنة من حوار حول أهل النار :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنّي كَانَ لي قَرِينٌ . يَقُولُ أءِنك لَمِنَ المصَدِّقِينَ . أءِذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرآهُ في سَوَاءِ الجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبي لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ ﴾ (٥٠-٥٧) .

فأهل الجنة يقبل بعضهم على بعض هناك ويتذاكرون عما جرى لهم في الدنيا ، فيقول قائل منهم : ﴿ إنّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أي كان لي في الدنيا صديق وصاحب يلازمني ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ المصَدِّقينَ ﴾ وكان هذا القرين يقول لي : أأنت تصدّق بالبعث والحساب والجزاء ، يقول ذلك على وجه التعجب والاستبعاد والكفر ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي أَءِذَا متنا وتحلَّلت أجسادنا إلى تراب وعظام هل نحن مجزيون ومحاسبون بعد الموت ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ ﴾ أي قال هذا

المؤمن لإخوانه في الجنة : اطلعوا إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ فاطلع هذا المؤمن إلى النار فرأى هذا القرين المنكر للبعث في وسط جهنم يعذب بنارها ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾ قال هذا المؤمن لقرينه الذي حاول إغواءَه في الدنيا : واللّه إنك كنت على وشك أن تهلكني بما وسوست لي من عدم التصديق بالبعث إذن لكنت هلكت مثلك ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ ولولا رحمة ربي وإنعامه عليَّ بالهداية لكنت من المحضرين معك في النار .

هذه الأمور التي ستقع يوم القيامة يصوّرها القرآن بهذه الصورة المريعة للتحذير من عاقبة الكفر بالله واليوم الآخر ، ومن جهةٍ أخرى فيها دعوة لتجنب القرين الفاسد الضال ، ذلك أن القرين إن كان صالحاً كان له التأثير الحسن والعاقبة المحمودة على صاحبه ، وإن كان هذا القرين فاسداً ساعد على إضلال صاحبه بتزيينه له المعاصي والآثام ، فالقرين له تأثير لا يستهان به على من يعاشره .

ويتابع القرآن فيذكر ما يقوله هذا المؤمن لإخوانه في الجنة بعد أن فرغ من مخاطبة قرينه الذي يُعذب في النار :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (٥٨ ـ ٦١) .

فهذا المؤمن يقول مبتهجاً بما أتاح اللّه له ولإخوانه من الفضل العظيم ﴿ أَفَمَا[١] نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ أي أنحن مخلدون منعمون ؟ فما نحن بميتين

---

(١) أفما : الهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام : أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين .

بمن شأنه الموت ﴿ إلاَّ مَوْتَتَنا الأُولَى ﴾ إلاّ الموتة الأولى التي كانت في الدنيا[١] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وما نحن بمعذبين كما يُعذَّبُ الكفار ، فنجاتهم من العذاب نعمة جليلة تستوجب التحدث بها ﴿ إنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ إن هذا الذي هم عليه من النعيم لهو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ أي لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا لينالوا ما حصل عليه المؤمنون بطاعة ربهم .

وبعد أن ذَكَرَ القرآن نعيم المؤمنين في الجنة وما هم عليه من مأكل ومشرب انتقل إلى وصف أحوال الكفار في جهنم ومأكلهم ومشربهم فيها :

﴿ أَذلِكَ خَيرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحيم . طَلْعُهَا كَأنه رُءُوسُ الشياطينِ . فَإنَّهُم لآكِلُونَ مِنْهَا فَمالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ . ثُمَّ إنَّ لَهُم عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإلَى الجحِيمِ ﴾ (٦٢ ـ ٦٨) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً ﴾[٢] أي أذلك الرزق لأهل الجنة وما فيها من فواكه ومشارب وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ أم شجرة الزقوم المعدة لطعام أهل النار ﴿ إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً للظَّالِمِينَ ﴾ أي إنا جعلناها محنة وعذاباً للمشركين ﴿ إنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحِيمِ ﴾ إنها شجرة منبتها في أسفل النار وقعرها ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ثمرها الذي يطلع منها هو في تناهي قبحه وكراهيته كأنه رؤوس الشياطين في قبح منظرها وبشاعتها ، يُجبر أهل النار

---

(١) إن عِلْمَ المؤمنين بأنهم لا يموتون ناشىء عن قول الملائكة لهم حين دخولهم الجنة ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

(٢) نزلاً : النزل يطلق على المنزل أو ما يعد للضيف من طعام وغيره .

على أكله ، والعرب تشبه قبيح الصورة بـالشيطان . والتشبيـه بالشيـطان هو تشبيه بما يتخيله الوهم وإن لم يره الإنسـان ، لأن الشيطان مكـروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض ، لهذا جرت العادة على تصـوير الشيطان بأن له أنياباً ورؤوساً بشعـة تثير الهلع في النفـوس ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فإن المشركين لآكلون من ثمر الزقوم هذه فهذا هو طعامهم وفاكهتهم ، وإنهم لشدة جوعهم يملأون منهـا بطونهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب : الخلط والمزج . والحميم : الماء الحار الذي تناهى حره[1] ، أي أنهم إذا شبعوا واشتد عطشهم يسقون من الماء الشديد الحرارة فيختلط بالزقوم ويمتزج به في أمعائهم ويقطعها ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَـرْجِعَهُمْ لإِلى الْجَحِيمِ ﴾ ثم إن مآبهم ومصيـرهم إلى عـذاب النـار ، ذلك أن الزقوم والحميم يقدم إليهم قبل دخول النار ثم يـردون إليها .

ويتابع القـرآن فيذكـر أن استحقاق المشـركين لهذا العـذاب هو بسبب اتباعهم الأعمى لآبائهم في الكفر :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُم ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِم يُهْـرَعُونَ . وَلَقَـدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُنْذِرِينَ . فَـانْظُرْ كَيْفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ المنْذَرِينَ . إلاَّ عِبادَ اللَّهِ المخْلَصِينَ ﴾ (٦٩ - ٧٤) .

فاللَّه سبحانـه يبين أسباب ضـلال المشركين الـذين أوردهم العذاب : ﴿ إِنَّهُم أَلْفَـوْا آبَاءَهُم ضَـالِّينَ ﴾ أي إنهم وجدوا آبـاءهم ضالين ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِم يُهْرَعُـونَ ﴾ فهم يسرعـون الخطى على آثـارهم مقلدين لهم من غير تدبر ولا بصيرة ، وكان بالأحرى أن لا يجاروهم على ضلالهم . وتأمل كيف

---

(١) جاء في القرآن : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ .

وصف اللَّه المشركين بالإسراع في تقليد الآباء ، وهذا كناية عن التقليد الأعمى بدون روية ولا إمعان فكر . لأنهم لو استعملوا عقولهم لترددوا كثيراً في مجاراة آبائهم في ضلالهم .

فتقليد الآباء هو أشد ما ابتليت به الجماعات البشرية في تاريخها القديم والحديث ، فكثير من الجماعات اعتنقت عقائد باطلة فورثها الأبناء عن الآباء تقليداً لهم بدون تمحيص ولا إمعان فكر ، فظلت هذه الشعوب على ضلالها لا تحيد عنه ، وجاء الإسلام ففجر ثورة على التقليد للآباء بدون روية ولا دليل ، وحث العقل والفكر والتأمل أن يأخذوا دورهم في عدم تقبل عقائد الآباء والأجداد التي ثبت ضلالها ، وتخطيها إلى العقيدة الصحيحة التي تَتَمشى مع العقل والمنطق .

ويتابع القرآن الكلام عن المشركين من أهل مكة : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي ولقد ضل عن طريق الإيمان قبل كفار مكة أكثر الأمم الماضية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُنْذِرِينَ ﴾ ولقد أرسل الله في الأمم الماضية رسلاً من عنده منذرين يخوفونهم عاقبة الكفر ، فأبوا الإيمان وكذبوا رسل اللَّه ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنْذَرِينَ ﴾ فانظر وتأمل يا محمد كيف كان مآل هذه الأمم التي أنذرها رسلها ولم ترتدع ، ألم يهلكهم اللَّه ويجعلهم للناس من بعدهم عبرة وعظة ﴿ إلَّا عِبَادَ اللَّهِ المخْلَصِينَ ﴾ إلّا الذين آمنوا منهم وأخلصهم اللَّه لدينه واختارهم لطاعته فهؤلاء نجوا من عقاب اللَّه وفازوا بثوابه في الجنة .

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ
لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟
عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ
لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ

شرح المفردات

تَرَكْنَا عليه في الآخرين : أبقينا عليه ذكراً حسناً فيمن جاء بعده .

شيعَته : من سار على دينه ومنهجه .

أَإِفْكاً : أكذباً وباطلاً ؟ .

فَمَا ظَنُّكُمْ بِربِّ العالمين : أي إذا عبدتم غيره هل يتركم بلا عقاب ، لا !

فَتَوَلَّوا عَنْهُ مُدْبِرينَ : فأعرضوا عنه مولين له ظهورهم .

فَرَاغَ إلَى آلهتِهِم : فمال خفية إلى آلهتهم .

يَزِفُّونَ : يسرعون المشي .

فأرادوا به كيداً : فأرادوا به شراً وهو أن يحرقوه .

ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ
قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ
لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾
كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ
بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

شرح المفردات

فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ : أي المقهورين حيث سلَّم اللَّه إبراهيم من الحريق .

بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ : بلغ السن التي يساعد فيها أباه في حوائجه .

فَلَمَّا أَسْلَمَا : فلما استسلما وانقادا لأمر اللَّه .

تَلَّهُ للجَبِينِ : أضجعه على جبينه على الأرض .

البَلاءُ المبينُ : الاختبار الظاهر الواضح .

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ : بكبش ضخم الجثة .

تَابع سُورَة الصَّافّات

ثم شرع القرآن في ذكر سبع قصص تعرض بإيجاز سيرة بعض رسل الله الذين أرسلهم سبحانه إلى الأمم الغابرة ، مبيناً حسن العاقبة التي تمت لهم ، وسوء العاقبة التي لحقت بأممهم الذين آثروا الضلال على الهدى ، وأول هذه القصص قصة نوح :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبُونَ . وَنَجّيْنَاهُ وأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ . وَجَعلْنَا ذُرِّيتَهُ هُمُ البَاقِينَ . وَتَركْنَا عَلَيْهِ في الآخِرينَ . سَلامٌ عَلَى نُوحٍ في العَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزي المحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ (٧٥ ـ ٨٢) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾[(١)] والمراد بنداء نوح ربه هو دعاؤه له والاستغاثة به حين يئس من قومه ﴿ فَلَنِعْم المجيبون ﴾[(٢)] أي فوالله لنعم المجيبون نحن ، إنا أجبناه أحسن الإجابة ، ونصرناه على أعدائه ، وأهلكنا قومه بالطوفان ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ ﴾ أي ونجينا نوحاً والذين آمنوا معه من الغرق والطوفان ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ ﴾ وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه . وكان لنوح ثلاثة أولاد : سام ويافث وحام ، فالعجم والعرب أولاد سام ، والترك والصقالبة أولاد يافث ، والسودان والسند والهند والنوب والزنج والحبشة والبربر أولاد حام . بالإضافة إلى ولد رابع لنوح غرق في الطوفان .

---

(١) دعاء نوح ذكره القرآن بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ ، ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ .

(٢) فلنعم المجيبون : اللام الداخلة على نِعْمَ جواب قسم محذوف التقدير : والله لنعم المجيبون والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : نحن .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ أي وأبقينا على نوح ذكراً جميلاً وثناءً حسناً فيمن تأخر بعده من الناس يذكرونه بالخير حيث يقولون : ﴿ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ ﴾ تحية سلام من الإنس والجن والملائكة على نوح إلى آخر الدهر ، والسلام على نوح بمعنى الثناء عليه والدعاء له بالرحمة ، وسلامة له من أن يُذكر بسوء ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجزِي المحْسِنينَ ﴾ علل اللَّه هذه التحية له بأنه كان محسناً يطيع اللَّه ويصبر على الأذى في سبيله ، ثم علل الإحسان بـ ﴿ إِنَّه مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ أي إنه كان قائماً بحق العبودية للَّه مؤمناً به وموحداً له ، وفي هذا تنويه بالإيمان وقدره العظيم ليحرص الناس على بلوغه ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ ثم أغرق اللَّه كفار قوم نوح أجمعين .

وبعد قصة نوح تأتي قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإبرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبيه وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٨٣ ـ ٨٧) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإبراهيمَ ﴾ أي من أهل دين نوح ومنهاجه وسنته إبراهيم عليه السلام ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بَقَلْبٍ سَليمٍ ﴾ والمراد بمجيئه إلى ربه بقلبه : إخلاص قلبه له ، والقلب السليم هو القلب السالم من جميع الآفات كفساد العقائد ، والنيات السيئة ، والصفات القبيحة ﴿ إِذْ قَالَ لأَبيه وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي حين قال لأبيه وقومه : أي شيء تعبدونه ؟ يقصد بهذا السؤال توبيخهم وإنكار ما هم عليه من عبادة الأصنام . وتابع إبراهيم قوله : ﴿ أَئِفْكاً آلهَةً دُونَ اللَّهِ تُريدونَ ﴾ الإفك : أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، أي أتريدون آلهة من دون الله كذباً

وافتراءً في جعلها آلهة تُعبد ؟ ثم وجه إليهم هذا السؤال : ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالمينَ ﴾ أي فما ظنكم أيها القوم أن اللَّه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أن يترككم بلا عقاب ، لا .

وبعد أن وبخهم إبراهيم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، فبيّت في نفسه أمراً ، ولما كان الغد وكان يوم عيد عندهم دعوه لمرافقتهم فأبى معتذراً عن عدم حضور الاحتفال ، ومقرراً العزم على تحطيم أصنامهم إذا خلا بها ، وهذا ما حصل :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً في النّجوم . فقَال إِني سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرين . فَرَاغَ إِلَى آلهتهم فقَالَ ألا تَأْكُلُونَ . مَالكم لا تَنْطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِم ضَرْباً باليمين ﴾ (٨٨ ـ ٩٣) .

لقد كان قوم إبراهيم يتعاطون التنجيم فاستدل به كما هو متعارف بينهم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً في النجوم ﴾ أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم بعلم النجوم(١) فأوهمهم أنه استدل بالنظر إليها على أنه سيمرض ﴿ فَقَال إِنّي سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للمرض وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عندهم وكانوا يخافون منه العدوى ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرينَ ﴾ أي أعرضوا عنه مسرعين في الابتعاد عنه .

---

(١) إن مولد إبراهيم عليه السلام كان في بابل في بلاد ما بين النهرين على شاطىء الفرات وكان أهل بابل يتعاطون التنجيم فقد جاء في كتاب قصة الحضارة تأليف ودل ديورانت : « فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على مسير القوافل والسفن بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين . . . وأضحت الجهود التي تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين » جـ ٢ ص ١١ وما بعدها .

ونظرة إبراهيم إلى النجوم لم تكن نظرة قومه إليها بل كان نظره إليها نظرة اعتبار وإيمان بالخالق ، نظر إليها ليرى عظمة الله في خلقها .

أما قول إبراهيم بأنه سقيم ، والحال أنه لم يكن سقيماً قد يكون بأنه قصد بأنه سقيم القلب من عبادتهم للأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، أو أنه قصد بأنه سيسقم وإن كل إنسان لا بدّ أن يسقم وهذا ما يسمى في علم البلاغة بالتورية التي يؤدي ظاهرها إلى معنى يفهمه السامع ، ويريد منها المتكلم معنى آخر ليتفادى به المرء الأخطار .

ثم يذكر القرآن كيف حاور إبراهيم أصنام قومه : ﴿ فَرَاغَ إلى آلهتهم فَقَال ألا تأكلونَ ﴾ أي ذهب إبراهيم خفية إلى أصنامهم التي يعبدونها وقال لها على سبيل الاستهزاء ألا تأكلون . وكان قوم إبراهيم يضعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى أصنامهم قرباناً لها ولتبارك فيه على زعمهم[1] .

وتابع إبراهيم مخاطباً الأصنام ﴿ مَا لَكُم لا تَنْطِقُونَ ﴾ أي ما لكم لا تجيبون ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِم ضَرْباً بِاليمين ﴾ أي مال خفية على الأصنام يضربها ويحطمها بيده اليمنى : وقيل المراد باليمين : القوة ، أي يضربها بكمال قوته ، لأن اليد اليمنى أكمل قوة .

فإبراهيم بتحطيمه الأصنام أقام دليلاً حسياً لقومه على بطلان عبادتها ،

---

(١) جاء في كتاب قصة الحضارة : « وكان الملوك في بابل يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة فشادوا لها الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام . . . وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرّب من القرابين » نفس المصدر السابق .
إن هذه الحقائق التي ذكرها القرآن عن أهل بابل والتي اعترف بها المؤرخون من قريب لهي نصر علمي للقرآن فهي لم تكن معلومة في عصر محمد وفي بيئته ولم يكشف عن أسرارها إلاّ منذ أمد قريب وذلك بعد أن قام العلماء بالحفريات في أرض بابل وعثروا على الألواح التي كتب عليها باللغة المسمارية معتقدات أهل بابل آنذاك .

فلو كانت آلهة حقيقية كما يعتقدون لدافعت عن نفسها ولأصابت بالضرر من أرادها بسوء(١)

وبعد تحطيم إبراهيم للأصنام رجع قومه إلى المعبد فرأوا ما حل بأصنامهم من تحطيم وتكسير لها فتحرّوا عن الفاعل فعلموا أنه إبراهيم وهنا يعرض القرآن لمحة سريعة عن محاكمته وعن دفاعه عن نفسه وتأنيبه لقومه :

﴿ فَأَقْبَلُوا إليهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٤ - ٩٦) .

فاللّه سبحانه يقول: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي فأقبل قوم إبراهيم إليه بعد رجوعهم من عيدهم مسرعين ، وفي الكلام إيجاز وحذف تقديره : نحن نعبدها وأنت تكسرها يا إبراهيم ، فأنبهم إبراهيم على عبادتهم للأصنام بهذه الكلمة الرائعة : ﴿ أتعبُدونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بهذا الإيجاز المدهش والدليل المفحم بَيّن إبراهيم حقارة عبادة الأصنام وبطلانها(٢) .

. ثم يتابع إبراهيم قوله لقومه : ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن اللّه خلقكم أيها القوم وما تعملونه من أصنام ، أي خلق المادة التي

---

(١) هذه الحقيقة فطن لها الامبراطور (هيديوشي) إمبراطور اليابان فقد شيد هذا الأمبراطور تمثالاً ضخماً لبوذا . . . ولم يكد يتم بناؤه حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ ميلادية فألقت به على الأرض هشيماً ، ويُروى في اليابان ان (هيديوشي) رمى الصنم المحطم بسهم قائلاً له في ازدراء : لقد أقمتك ها هنا بباهظ النفقات فلم تستطع حتى حماية معبدك (قصة الحضارة ـ ول ديورانت . جـ ٥ ص ١٣٣) .

(٢) قرأنا في الأمثال الصينية : « ليس من صانعي تماثيل الآلهة من يعبدها فإنهم يعرفون من أي مادة تصنع » .

منها تصنعون أصنامكم ، فكيف يعبد الإنسان المخلوق مخلوقاً مثله ، أما كان الأجدر أن يعبد اللَّه الخالق لا الصنم المخلوق .

ولما رأى القوم أنهم غُلِبوا على أمرهم ، عمدوا إلى البطش يسترون به فضيحتهم فأصدروا حكمهم على إبراهيم بالموت حرقاً :

﴿ قالوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ في الجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ . وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٩٧ ـ ٩٩) .

فهؤلاء القوم قرّ رأيهم على أن يبنوا لإبراهيم بنياناً من الحجارة ويملأوه حطباً ويوقدوه ﴿ فَأَلْقُوهُ في الجحيم ﴾ أي فاطرحوه في تلك النار المتأججة ، والجحيم في اللغة : جمر النار بعضه على بعض ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ أي احتالوا لإهلاكه ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ فجعلناهم المقهورين المغلوبين ، لأن النار لم تحقق غايتهم ، وذلك أن اللَّه خاطب النار كما جاء في سورة الأنبياء : ﴿ وَقُلْنَا يَا نَار كوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبراهيم ﴾ فلم تصب النار إبراهيم بأي أذى وكان ذلك معجزة خصه اللَّه بها .

وبعد أن نجّاه اللَّه من الموت حرقاً قرر الهجرة من أرض قومه فقال : ﴿ إني ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي إني مهاجر من بلدة قومي إلى المكان الذي أتمكن فيه من عبادة ربي ، إن ربي سيهديني إلى المكان الذي سأهاجر إليه وإلى ما فيه صلاح ديني ، قيل إن هذا المكان الذي هاجر إليه هو أرض الشام . وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي إني متوجه إلى ربي بقلبي كي يهديني ، وليس المقصود الهجرة بالمكان لأن اللَّه تعالى ليس موجوداً في مكان معين ليقصده إبراهيم عليه السلام .

إن قول إبراهيم : ﴿ إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبّي سَيَهْدِين ﴾ فيه من العبودية للَّه أعمق معانيها ، وفيه الانسلاخ من رغبات النفس وأهوائها إلى الانسجام مع إرادة الخالق ، قول ما أحرى بالمؤمن أن يردده بلسانه ويتطبّع به في توجهاته عندما تكفهر في حياته المحن ، ويسد في وجهه باب الفرج ، أو عندما يضطهد في دينه ، فالهجرة إلى اللَّه بالقلب تضفي على النفس طمأنينة وسكينة وتمدها بالقوة والعزيمة لأنها تصلها بالخالق مصدر القوة والخير ، هذا من الناحية الروحية ، أما من الناحية المادية فإن أرض اللَّه واسعة وعلى الإنسان أن يهاجر إلى المكان الذي يكون فيه آمناً على نفسه في عبادته ، بعيداً عن الفتن وعن كل ما يهدد عقيدته وحريته في أداء شعائر اللَّه ، والمحافظة على أسرته إذا تيسّر له ذلك .

وبعد هجرة إبراهيم يذكر القرآن بأنه سأل ربه أن يرزقه ولداً يؤنس وحدته في غربته ، فاستجاب اللَّه دعاءه :

﴿ رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحين . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إنّي أَرَى في المَنَامِ أنّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرينَ ﴾ (١٠٠-١٠٢) .

فإبراهيم دعا ربه ﴿ رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحين ﴾ أي أعطني يا رب ولداً صالحاً يطيعك ولا يعصيك ، ويصلح في الأرض ولا يفسد ، وهنا نتوقف لنتعظ بأن دعاء إبراهيم هو أمثولة يجب أن يقتدي بها كل مؤمن ، وأن يسأل ربه ـ عندما يرغب بالولد ـ أن يرزقه الولد الصالح ، وأن يحرص على توجيهه وتربيته التربية الصالحة ، إذ بذلك يكون الولد قرة أعين والديه ، أما الولد الفاسد فهو مصيبة وعبء ثقيل على والديه ، وخطر على مجتمعه .

استجاب اللَّه دعاء إبراهيم : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ أي بشّر اللَّه إبراهيم بغلام حليم ، والمراد أنه سيكون حليماً عند كبره فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حيّاً حتى يكبر ويصير حليماً ، لأن الصغير لا يوصف بالحلم ، والحلم نقيض السفه ، ومن معنى الحلم : الأناة والتثبت في الأمور ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ في هذه الآية حذف تقديره : فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه ، ويعمل معه في أمور دنياه ، وقيل المراد بالسعي : العمل للَّه وهو العبادة ، أي أصبح في سن يشارك أباه في العبادة ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ فقول إبراهيم : يا بني ، نداء فيه شفقة وترحم ، ورؤيا إبراهيم بالنسبة إليه هي وحي من اللَّه ، وقول إبراهيم لابنه : إني أذبحك أي أمرت من الله بذبحك . وتابع إبراهيم قوله : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ أي فانظر يا بنيّ في الأمر وما رأيك فيه ، وإنما شاور إبراهيم ابنه بالأمر ليختبر إيمانه وصبره وعزمه على طاعة اللَّه ، وليهون عليه فعل ما أمره اللَّه تعالى ، وهو في الأحوال كلها ماضٍ لتنفيذ أمر اللَّه .

وماذا كان جواب الابن على ذلك الأمر العظيم ؟ لقد قال : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ ما تؤمر سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي نفّذ ما أمرك اللَّه به ستجدني إن شاء اللَّه صابراً على الذبح وعلى قضاء اللَّه . هذا القول يتمثل فيه الرضى بتضحية النفس في سبيل اللَّه ، يقابل ذلك تضحية الوالد بولده وهو الحريص على بقائه وقد رُزق به في شيخوخته ، ما أعظم هذه التضحية المزدوجة وما أجلها .

ثم يتحدث القرآن عن شروع إبراهيم في عملية الذبح وما أعقب ذلك من أحداث :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إبراهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نجزي المحْسِنين . إنَّ هَـذَا لَهُوَ البـلاءُ المبينُ . وَفَدَيْنَـاهُ بِذِبْـحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَـا عَلَيْهِ في الآخِـرِينَ . سَلاَمٌ على إبـراهيم . كَذَلِـكَ نَجْزي المحْسِنينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بإِسحٰق نبياً مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَـارَكْنَـا عَلَيْـهِ وَعَلى إسحٰق وَمِنْ ذرِّيتِهِمَـا مُحْسِنٌ وَظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ مُبينٌ ﴾ (١٠٣ ـ ١١٣) .

فاللّه سبحانـه يقول : ﴿ فَلَمَّـا أَسْلَمَا ﴾ أي لمـا استسلم إبراهيم وابنـه لأمـر اللّه ورضيا بقضـائـه وخضعـا لمشيئتـه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي وطـرحـه على الأرض على جبينه وأراد أن يذبحه ، وقيل إنه أعمل السكين في رقبته فلم تقـطع ، وقيل كبّـه على وجهه كي لا تقـع عينه على عين أبيـه فتدركـه الرحمة فيتردد في إطاعـة أمر ربـه ﴿ وَنَادَيْنَـاهُ أَنْ يَا إبـراهيمُ ﴾ أي ناداه من خلفـه ملك من الملائكـة مرسـل من اللّه يبلّغه ﴿ أن قَـدْ صَدَّقْتَ الـرُّؤيَا ﴾ وتصـديق إبراهيم للرؤيـا هي توفية حقها من العمـل ، وبـذل الـوسـع في إيقاعها فحصـل المقصود منهـا ، وأن اللّه صرف ذلـك عنه ومنعـه من ذبح ولـده ﴿ إنا كَذَلِكَ نَجْـزي المحْسِنينَ ﴾ تعليل لتفـريج تلك الكـربة عنهمـا بسبب إحسـانهما ، واللّه يجـزي المحسنين في أعمالهم الصـادقين مع اللّه في نـواياهم بـالخلاص من الشـدائد والسـلامة من المحن ﴿ إنَّ هَـذَا لَهُـوَ البَلاَءُ المبينُ ﴾ أي إن هذا الذبح الذي أمر اللّه به إبراهيم لابنه لهو ابتـلاء واختبار بيّن واضح يتميز فيه المخلص من غيره .

فالحكمة من الأمر بالذبح هو اختبار إيمان إبراهيم وابنه وإظهار مـا كان منهمـا من الصبر والتسليم والإذعـان لأمر اللّه والـرضا بقضـائـه ﴿ وَفَـدَيْنَـاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي وفدى اللّه ولد إبراهيم بكبش عظيم الجثة سمين يذبحه

بدلاً وفداءً عن ولده[١] ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي وأبقى اللَّه على إبراهيم ذكراً جميلاً وثناءً حسناً فيمن جاء بعده من الناس يذكرونه بالخير ﴿ سَلاَمٌ عَلَى إبراهيمَ ﴾ ثناءً على إبراهيم بالجميل ودعاء له بالرحمة، وسلامة له من أن يُذكر بسوء ﴿ كَذَلِكَ نَجْزي المحْسِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم يجزي اللَّه من انقاد لأمره ، وخضع لمشيئته ﴿ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنينَ ﴾ إنه من الذين أعطوا العبودية حقها للَّه سبحانه ، وكان راسخاً في إيمانه باللَّه تعالى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بإسحٰق نبياً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي بشرنا إبراهيم بولد يولد له اسمه إسحٰق ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك ، وفي وصف إسحٰق بالصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه ﴿ وَبارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلى إسحٰق ﴾ البركة : هي الخير والنماء ، أي باركنا عليهما بإفاضة خيرات الدنيا والآخرة وأخرجنا من صلبيهما كثيراً من الأنبياء ﴿ وَمِنْ ذُرِّيتهمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ أي ومن ذريتهما من هو محسن في عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة ومنهم من هو ظاهر ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي ، وفي هذا تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلال ، وأن الظلم والضلال في ذريتهما لا يعود عليهما بمنقصة أو عيب .

(١) روي أن هذا الكبش رعى أربعين سنة في الجنة .

من الذبيح ؟ إسماعيل أم إسحٰق :

لم ينص القرآن على تعيين اسم الذبيح ، ولكن يفهم من آيات القرآن أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، وهذا ما يتراءى لنا من الوجوه الآتية :

أولًا : إن اللّه عندما وهب لإبراهيم غلاماً وصفه بالغلام الحليم ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ ثم ذكر قصة الذبح ، وبعدها قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بإسحٰق نبيّاً ﴾ فالإتيان بالبشرى بإسحٰق بعد ذكر قصة الذبح صريح في أن إسحٰق غير الغلام الذي ابتلي إبراهيم بذبحه . هذا ولما بشَّرت الملائكة إبراهيم بإسحٰق قالوا له كما جاء في القرآن : ﴿ إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَليم ﴾ بينما الولد الذبيح جاء وصفه في القرآن : ﴿ فبشرناه بغُلامٍ حَليم ﴾ .

ثانياً : إن البشارة بإسحٰق وقعت مقرونة بولادة يعقوب منه كما قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاه بإسحٰق وَمِن وَرَاءِ إسحٰق يَعْقوبَ ﴾ أي بشر الله إبراهيم بالولد وولد الولد ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور الأمر بذبح إسحٰق مراهقاً قبل ولادة ولده يعقوب ، ووعد اللّه حق ، ولا يخلف اللّه وعده .

ثالثاً : وصف اللّه إسماعيل بالصبر ، جاء في القرآن ﴿ وإسْمَاعيلَ وَإدْريسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابرين ﴾ ولم يصف اللّه إسحٰق بصفة الصبر . ووصف إسماعيل بالصبر ينسجم ويتوافق مع قول الذبيح : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرينَ ﴾ وعلى هذا يتعين أن الذبيح هو إسماعيل المتحلي بصفة الصبر .

وهناك أمور أخرى تعزز هذا الرأي :

منها : أن ما وقع من حادث الذبح كان بضاحية مكة ـ منى ـ

وإسماعيل هاجر إليها مع والده وهو صغير ، وعندما كبر قليلاً رفع قواعد الكعبة مع والده إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعيل ﴾ .

ومنها : أن قرني الكبش الذي فدى اللَّه إبراهيم به ولده كانا معلقين في الكعبة حتى احترقا أيام حصار الحجاج عبد اللَّه بن الزبير ، وكانا قد توارثتهما قريش خلفاً عن سلف ، والظاهر أن ذلك لم يكن منهم إلاّ للفخر ، ولا يتم لهم الفخر إذا كان الكبش فداء لإسحٰق .

ومنها : أن إعرابياً قال للرسول محمد ﷺ « يا ابن الذبيحين » فتبسم رسول اللَّه إقراراً بذلك ولم ينكر عليه ، والذبيحان أحدهما جده إسماعيل الذي يطلق عليه لقب الأب ، والآخر أبوه عبد اللَّه . وتوضيح ذلك أن جد النبي ﷺ عبد المطلب والد عبد اللَّه نذر ذبح ولد له فخرج السهم ـ أي القرعة ـ على عبد اللَّه فمنعه أخواله وقالوا له : افتدِ ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بها .

أما اليهود فيدعون أن الذبيح هو إسحٰق ، جاء في سفر التكوين(١) ما نصه : « قال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحٰق وامض إلى أرض مورية(٢) . . فلما أفضيا إلى الموضع الذي أشار له اللَّه إليه بنى إبراهيم هنا المذبح ونضد الحطب، وأوثق إسحٰق ابنه وألقاه على المذبح فوق الحطب ، ومد إبراهيم يده فأخذ السكين ليذبح ولده » .

وقد رد الإمام ابن كثير على هذا الادعاء فقال : لفظ إسحٰق هنا

---

(١) الفصل ٢٢ (١ ـ ١٠) .
(٢) مورية : مكان في القدس .

مقحم لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر[١] ، وإنما ذاك هو إسماعيل ، وإنما حمل اليهود على هذا الزعم حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول اللّٰه محمد ﷺ ، أما إسحٰق فهو والد يعقوب الذي يطلق عليه اسم إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا الكلام وزادوا فيه[٢] .

---

(١) اليهود يعترفون بأن إسماعيل ولد قبل إسحٰق فقد جاء في سفر التكوين (١٦ : ١٦) أن عمر إبراهيم كان ستاً وثمانين سنة حين ولدت هاجر إسماعيل . وأن إبراهيم بشر بإسحٰق وعمره مائة سنة (١٧ : ١٨) فكيف يقولون عن إسحٰق إنه وحيد إبراهيم ، بل إن وحيده حسب نص سفر التكوين هو إسماعيل الذي ولد قبل إسحٰق .

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ ١ ، ص ١٥٩ .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾
وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ
إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

شرح المفردات

الكتاب المسْتَبِين : البالغ النهاية في البيان والتفصيل وهو التوراة .

أَتَدْعُونَ بَعْلاً : أتعبدون صنماً اسمه بعل .

وَتَذَرُونَ : وتتركون .

في الغَابِرين : أي من الباقين في العذاب .

دَمَّرْنَا الآخرينَ : أهلكنا غير المؤمنين .

مُصْبِحينَ : داخلين في وقت الصباح .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ
بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ
إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

شرح المفردات

أبق : هرب من سيده .

المشحون : المملوء .

فَسَاهَمَ : فاقترع .

الْمُدْحَضِينَ : المغلوبين بالقرعة .

فالتَقَمَهُ : فابتلعه .

مُليم : مذنب وفاعل بما يُلام عليه .

المسبّحين : المصلين ، أو الذاكرين اللّه بالتسبيح .

فَنَبَذْنَاه بالعَرَاءِ : فألقيناه في أرض خالية من الشجر .

شَجَرةً مِنْ يَقْطِينٍ : شجر لا يقوم على ساق (القرع)

تابع سورة الصّافّات

ولنعد إلى متابعة السورة فبعد الكلام عن إبراهيم وذريته يأتي الكلام عن قصة موسى وهارون عليهما السلام :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارونَ . وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانوا هُمُ الغَالِبِينَ . وآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّراطَ المسْتَقِيمَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا في الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نجزي المحسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤْمِنِينَ ﴾ (١١٤ ـ ١٢٢) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ[١] مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أي وعزتنا وجلالنا قد تفضلنا وأنعمنا على موسى وهارون بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ ﴾ المراد بقوم موسى وهارون هم المؤمنون من بني إسرائيل ، ونجاتهم من الكرب العظيم تشمل أمرين : الأول : نجاتهم مما هم فيه من استعباد فرعون إياهم ، وما كان يلحقهم من ذلك من البلاء ، والثاني : أن اللّه نجاهم من الغرق الذي أصاب فرعون وقومه ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ ﴾ أي ونصرناهم على عدوهم فكانوا بسبب ذلك هم الغالبين على عدوهم بعد أن كانوا مستعبدين لهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المسْتَبِينَ ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، والمستبين : البليغ البيان فيما أتى به من الحدود والأحكام ، أو الظاهر الواضح في أحكامه ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّراطَ المستَقِيمَ ﴾ أي أرشدناهما إلى الدين الحق ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهما في الآخِرِينَ ﴾ أي وأبقينا على موسى وهارون

---

(١) ولقد : معطوف على ما قبله عطف قصة على قصة ، واللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزتنا وجلالنا قد أنعمنا على موسى وهارون . .

بعد وفاتهما ثناءً حسناً يذكرهما الناس بالخير ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارون ﴾ أي جعلهما اللّه بحيث يُثنى عليهما ويُدعى لهما بالرحمة ، أو أمان لهما من اللّه في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الحسن يجزي اللّه المؤمنين المحسنين أعمالهم العاملين بما يرضي اللّه عنهم .

وبعد الكلام عن موسى وهارون عليهما السلام يأتي الكلام عن قصة إلياس عليه السلام :

﴿ وَإِنَّ إِليَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ . اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهم لَمُحضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . وَتَركْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِين . إِنَّا كَذَلِكَ نجزي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٣ ـ ١٣٢) .

إلياس : هو نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو من سبط هارون عليه السلام ، وقد أرسله اللّه لتبليغ دين اللّه ، وإخراج قومه من الظلمات إلى النور ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ألا تَتَّقُونَ ﴾ أي اذكر حين قال لقومه[1] : ألا تتّقون ، وهو استفهام بمعنى الأمر ، أي اتقوا اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتدعون : بمعنى أتعبدون . وبعل : اسم صنم لقوم إلياس كانوا يعبدونه من دون اللّه . وقيل بعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذا الدار ؟ أي من ربها ، والمعنى على هذا : أتعبدون بعض البعول عملتموها رباً ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ ﴾ وتتركون عبادة اللّه وهو

---

(١) قوم الياس سبط من بني إسرائيل ، ولما فتح الشام يوشع أسكنهم المدينة المعروفة اليوم باسم مدينة « بعلبك » .

الـذي خلقكم وأوجدكم وهـو أحسن من يُقال لـه خـالق ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ اللَّه خالقكم وخالق آبائكم وأجدادكم الذين سبقـوكم فهو وحده الجدير بالعبادة ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴾ فكذبـوا إلياس فيمـا دعـاهم إليه من عبـادة اللَّه وحده ، وبسبب تكـذيبهم لـه فـإنهم يحضـرون للعـذاب يوم الجـزاء ﴿ إلاّ عِبَـادَ اللَّهِ المخْلَصِين ﴾إلاّ الـذين أخلصهم اللَّه لدينه وطاعته فإنهم نجوا من العذاب ﴿ سَلاَمٌ عَلى إلْ يَاسين ﴾(١) أمان من اللَّه ورحمـة على إلياس ﴿ إنَّـا كَـذَلِـكَ نَجْـزي الْمُحسِنِينَ ﴾ إن مثـل هـذا الجـزاء الذي جـازينا بـه هذا النبي بـالسلام عليـه نجزي كـل محسن على إحسانه ﴿ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمِنينَ ﴾ إن إلياس عبـد من عبادنـا الذين آمنـوا فوحّدونا ولم يشركوا بنا أحداً في العبادة .

وبعد الكلام عن إلياس عليه السـلام يأتي الكـلام عن قصة لـوط عليه السلام :

﴿ وإنَّ لُـوطاً لَمِنَ الْمُـرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إلَّا عَجُـوزاً في الغَـابِـرِينَ . ثُمَّ دَمَّـرْنَـا الآخَـرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتمُـرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٣٣ ـ ١٣٨) .

فاللَّه سبحانـه يقول : ﴿ وَإِنَّ لُـوطاً لَمِنَ الْمُـرسَلِينَ ﴾ أي إن لوطـاً من جملة رسل اللَّه الذين أرسلهم سبحانه لهدايـة قومهم ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي اذكـر يا محمـد حين نجينا لـوطاً وأهله الـذين آمنوا معـه من العذاب الذي حـلّ بقومـه ﴿ إلَّا عَجُوزاً في الغَـابِرِينَ ﴾ استثنى اللَّه امـرأته

---

(١) إل ياسين : فيها قراءتان : « آل ياسين » و « إلْ ياسين » فمن قرأ « آل ياسين » أراد به : آل محمد . ومن قرأ : إلْ ياسين ففي ذلك وجهان : أحدهما أن يكون لغة في إلياس كما يقال : ميكال وميكائيل . والثاني أن تكون كلمة إل ياسين جمع إلياس أريد به هو وأتباعه المؤمنين .

التي لم تنجُ من العذاب ، والغابر : بمعنى الماضي أو الباقي ، أي امرأته كانت من الباقين في العذاب أو الماضين الهالكين ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم المدمرة من آثار العذاب أثناء أسفاركم إلى الشام وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ وتمرون عليهم أيضاً في الليل ، أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون في هذه المنازل المدمرة وكيف دمرها اللَّه على أهلها بسبب كفرهم فيداخلكم الخوف من أنه من سلك سبيل الكفر وتكذيب رسل اللَّه لا بدّ أن يكون مصيره كمصير قوم لوط .

وبعد الكلام عن لوط عليه السلام تأتي القصة السابعة والأخيرة وهي قصة يونس عليه السلام :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ . وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (١٣٩ ـ ١٤٨) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي أن يونس هو رسول من جملة رسل اللَّه الذين أرسلهم سبحانه لهداية قومهم . وكان قوم يونس من أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ، وأُطلق على يونس اسم : « ذا النون » أيضاً ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أي كان من أمره أنه أبق وهجر قومه بغير إذن ربه ، والإباق هرب العبد من سيده ، ولما كان هرب يونس من قومه بغير إذن ربه سمى اللَّه هربه إباقاً لأن اللَّه سيده وهو عبد له ، وكان من المفروض أن يأخذ الإذن من اللَّه قبل أن يغادر قومه ﴿ إِلَى

الفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي بعد أن هجر قومه ركب في سفينة مملوءة بالركاب والأمتعة . ويروى أن السفينة التي ركبها يونس قد لعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرف ركابها على الغرق فقال الملاحون : بيننا رجل عصى ربه ، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقائه في البحر فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس ، وهذا ما ذكره سبحانه : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي فاقترع فكان من المغلوبين في القرعة ، فألقي في البحر على حسب عرفهم في ذلك الحين ﴿ فَالْتَقَمَهُ الحوتُ وَهُو مُلِيمٌ ﴾ فابتلعه الحوت وهو مستحق للملامة جزاء هروبه من الدعوة إلى اللّه والصبر على ذلك ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِين ﴾ أي فلولا أن يونس كان من المصلين الذاكرين اللّه كثيراً المنزهين له عن النقص والسوء ﴿ لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة ولكن لأنه كان من المسبحين لذا فقد أنقذه اللّه ونجاه من بطن الحوت ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعَراءِ ﴾ أي فألقاه اللّه من بطن الحوت إلى أرض خالية من الشجر على أحد السواحل ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ وهو عليل مريض بما ناله من الكرب والخوف ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ أي وأنبت اللّه قربه شجرة ليس لها ساق ولها ورق عريض لتظله وتقيه حر الشمس ، وكلمة « عليه » تدل على ذلك ، ويرجح أن تكون هذه نبتة القرع ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدونَ ﴾ أي وأرسل اللّه يونس بعد ذلك إلى قومه الذين هجرهم وكان عددهم زهاء مائة ألف أو زيادة على ذلك ﴿ فآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ ﴾ آمنوا بعد أن رأوا أمارات العذاب الذي حذرهم منه يونس ، فمتعهم اللّه في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم . وقد روي أنهم لما رأوا أمارات العذاب خرجوا بالأطفال والبهائم وفرقوا بينها وبين الأمهات وناحوا إلى ربهم وضجوا بالبكاء وأخلصوا للّه ورجعوا عن الشر والظلم ، فرفع اللّه عنهم العذاب .

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ
﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ
ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ
ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾
لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾
فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾
إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

شرح المفردات

إفكهم : كذبهم على الله .

أفلا تَذَكَّرونَ : أفلا تتعظون .

سُلْطانٌ مُبينٌ : حجة بينة واضحة .

الجِنَّة : الملائكة وقيل شياطين الجن .

بفَاتِنينَ : بمضلين أحداً .

ذِكراً مِنَ الأَوَّلين : كتاباً من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل .

المخلَصِين : أي من الذين أخلصهم الله لطاعته .

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾
فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

شرح المفردات

فَتَوَلَّ عَنْهُم حَتَّى حِينٍ : فأعرض عنهم إلى مدة يسيرة .

بسَاحَتِهِم : بِفناء دارهم ، أي بهم .

رَبِّ العِزَّة : رب الغلبة والقدرة .

تابع سُورة الصَّافات

وبعد الكلام عن يونس عليه السلام يعود بنا القرآن إلى الحديث عن كفار مكة وما هم عليه من معتقدات باطلة :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البنَاتُ وَلَهُمُ البَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الملائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شَاهِدونَ . أَلا إِنَّهُم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لكاذِبونَ . أَصْطَفَى البنَاتِ عَلَى البنين . مَا لَكُم كَيْفَ تحكُمونَ . أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُم سُلْطانٌ مُبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ (١٤٩ ـ ١٥٧) .

لما كانت قريش وبعض قبائل العرب يزعمون أن الملائكة بنات اللَّه وكانوا يعبدونها، أمر اللَّه رسوله محمداً بمخاطبتهم : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُونَ ﴾ أي سل هؤلاء المشركين على جهة التوبيخ والتقريع : ألربي البنات ولكم البنون ، أي كيف ينسبون البنات إلى اللَّه ويخصون أنفسهم بالذكور . وكان الشائع عندهم أنهم يرغبون في البنين

ويحبونهم ، بينما كانوا يكرهون البنات ويدفنونهن أحياء عند الولادة ، فهم بهذا يكونون فضلوا أنفسهم على اللَّه ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدونَ ﴾ أي هل خلق اللَّه الملائكة من الإناث وهم يشاهدون خلقهم ، وهذا استهزاء بهم وتجهيل لهم ، فإن ادعاءهم بأن الملائكة بنات اللَّه لهو أمر لا يُعلم إلّا بالمشاهدة ، وهم لم يشهدوا خلقها ، فكيف يدّعون هذا الادعاء الغريب القائم على البهتان ﴿ أَلا إِنَّهُم مِنْ إفكِهِمْ لَيَقُولُون وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي تنبه أيها السامع لحديثهم إنهم من كذبهم ليقولون وَلَدَ اللَّه ـ وهو المنزه عن الولد ـ وإنهم لكاذبون في حديثهم هذا ﴿ أَصْطَفَى[1] البَنَاتِ عَلَى البنينَ ﴾ استفهام على طريقة الإنكار والاستبعاد ، أي أنهم ما كفاهم أن قالوا وَلَدَ اللَّه حتى جعلوا ذلك الولد من جنس الإناث واختارهن على البنين ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تحكُمُونَ ﴾ ماذا أصاب عقولكم حين حكمتم بهذا الحكم الباطل ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تتدبرون ما تقولون فتعرفوا خطأه وتنتهوا عن قولكم هذا ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبينٌ ﴾ أم لكم حجة واضحة على مزاعمكم هذه ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ فأتوا بحجتكم من كتاب جاءكم من عند اللَّه إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حجة تؤيد مزاعمكم .

ويتابع القرآن مناقشة المشركين في عقائدهم الباطلة :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّه الْمُخْلَصِينَ . فَإِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ (١٥٨ ـ ١٦٣) .

---

(١) أصطفى : أي اختار والأصل أأصطفى فحذفت همزة الفعل اكتفاءً بهمزة الاستفهام .

فاللَّه سبحانه يستنكر أسطورة القرابة بين اللَّه والجن التي ابتدعها المشركون بقوله : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً ﴾ ومن هم الجِنَّة، قيل هم الشياطين ، فالمشركون زعموا أن اللَّه صاهر سروات الجن (أي أشرافهم) فخرج من نسلهم الملائكة ، وقالوا : إن اللَّه وإبليس أخوان . وقيل المراد بالجنة : الملائكة ، قيل لهم جِنَّة لأنهم لا يُرون ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وباللَّه لقد علمت الجنة أن المشركين لمحضرون إلى النار ليعذبوا بها لكذبهم وافترائهم على زعمهم هذا[1] ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تعالى وتقدّس وتنزه اللَّه عن أن يكون له ولد ﴿ إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثنى اللَّه عباده المخلصين الذين أخلصهم اللَّه واختارهم لطاعته فإنهم لا يصفونه إلاّ بأرفع الصفات وينزهونه عن الولد ويبرئونه من كل عيب ونقص ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فإنكم أيها المشركون وما تعبدون من دون اللَّه من أصنام وأوثان وملائكة ﴿ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ بفَاتِنِينَ ﴾ أي ما أنتم بمضلين أحداً من عباد اللَّه ولا قادرين على إفساده ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ ﴾[2] إلاّ من قدَّر اللَّه أن يضل وعلم أنه يختار الكفر ويصير من أهل النار .

ثم تحكي لنا الآيات اعتراف الملائكة بعبادتها للَّه وتنزيهه عن كل ما يصفه المشركون وفي هذا ردٌّ على من جعلهم بنات اللَّه :

﴿وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٤ ـ ١٦٦) .

---

(١) وقد يكون الاستثناء من كلمة (لمحضرون) على معنى أن المخلصين غير محضرين للعذاب .

(٢) صال الجحيم : يدخلها ويقاسي حرها .

في هذه الآيات يجري كلام الملائكة مورد التأكيد في العبادة لإبراز صدورها عنهم بكامل الرغبة والنشاط ولنفي من ادعى قرابتهم من اللّه فهم يقولون : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ في هذه الآية حذف والتقدير : وما منا من ملك إلّا له مكان ومقام معلوم في عبادة اللّه ، وفي هذا يقول النبي ﷺ : « ما في سماء الدنيا موضع قدم إلّا عليه ملك ساجد أو قائم » .

وتقول الملائكة أيضاً : ﴿ وَإِنَّا(١) لَنَحْنُ(٢) الصَّافُّونَ ﴾ أي وإننا نحن الملائكة نقوم صفوفاً في السماء لعبادة اللّه ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون ﴾ أي ونحن المصلون للّه المنزهون له عما نسب إليه المشركون من الولد والسوء .

ثم تعود بنا الآيات للكلام عن المشركين فتذكر ما كانوا يقولون بالمقارنة بينهم وبين أهل الكتاب :

﴿ لو أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلين . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٨ ـ ١٧٠) .

فالمشركون كانوا يقولون قبل أن يرسل اللّه إليهم رسوله محمداً لهدايتهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي لو أن عندنا كتاباً أُنزل من السماء كالتوراة والإنجيل ، أو لو بُعِثَ إلينا نبي ببيان الشرائع لاتبعناه ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِين ﴾ أي لكنا عباد اللّه الذين أخلصهم لعبادته واختارهم لطاعته ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ هنا يوجد كلام محذوف ، أي لما جاءهم

---

(١) إنّا : مركب من « إن » حرف التأكيد و « نا » الضمير .

(٢) لنحن : اللام في نحن حرف تأكيد .

رسول من عند اللّه وأنزل عليه القرآن كفروا به ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذه الكلمة فيها تهديد ووعيد ، أي فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ومغبته الوخيمة .

وفي معرض الوعيد للكفار تأتي البشرى من اللّه لرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين بالنصر على الأعداء بصورة التأكيد تثبيتاً للقلوب وتطميناً للنفوس :

﴿ ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلينَ . إِنَّهم لَهُمُ المنصورونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُون ﴾ (١٧١ ـ ١٧٣) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينِ﴾ أي وباللّه لقد سبق وعدنا وقضاؤنا لرسلنا الذين أرسلناهم لهداية قومهم ﴿ إِنَّهمْ لَهُمُ المنْصُورونَ ﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ والمراد بجند اللّه : هم الرسل وأتباعهم من المؤمنين ، فهؤلاء لهم الغلبة على أعداء اللّه .

ولقد تضافرت الآيات القرآنية على الوعد بنصرة رسل اللّه والمؤمنين ، كقول اللّه تعالى : ﴿ كَتَبَ اللّه لأَغلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي ﴾ المجادلة : ٢١ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ غافر : ٥١ .

هذه الآيات كلها نزلت بمكة حيث كان المسلمون قلة مستضعفة تقاسي أشد الاضطهاد والعذاب من دعاة الكفر ، فلم تمضِ سنوات قليلة حتى انتصر محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين على أعدائهم وعمَّ الإسلام جزيرة العرب وانتشر خارجها ، ولا ريب أن هذا الوعد الذي تحقق يعتبر من أهم الدلائل وأعظمها على كون القرآن وحياً إلّهياً وعلى صدق نبوة محمد ﷺ .

وأمام وعد اللَّه الحاسم بنصرة نبيه يخاطبه سبحانه بأن يترك هؤلاء المشركين لوعيد اللَّه ويرتقب ما سيحل بهم من هلاك :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُم حَتَّى حِين . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُون . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُم حَتَّى حِين . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧٤ - ١٧٩) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي اصبر على أذى المشركين وأعرض عنهم مدة يسيرة إلى حين مجيء عذاب اللَّه ونزوله بهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ أي أبصر ما ينالهم من الأسر والقتل ، وجاء الفعل « أبصر » بصيغة الأمر للدلالة على أنه كائن واقع لا محالة ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي يبصرون عاقبة كفرهم وما يقضى لك يا محمد من النصرة وحسن العاقبة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ استفهام فيه تهديد ، أي أيستعجل قومك يا محمد نزول العذاب فيهم تحدياً واستهزاءً ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِم ﴾ الساحة : المكان الواسع وتطلق الساحة على فناء الدار . فاللَّه سبحانه مثّل العذاب النازل بهم بجيش أطبق عليهم فجأة فحل بفناء دارهم فلم يأخذوا أهبتهم له ، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم من هذه المباغتة ، ففرق جمعهم وبدد شملهم ، إنه تصوير رائع يظهر بلاغة القرآن وعلو فصاحته ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ فبئس صباح الذين أُنذروا بالعذاب ، وتخصيص الصباح بالذكر لكثرة الغارات التي كانت تحصل فيهم في الصباح .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرونَ ﴾ كرّر اللَّه هاتين الآيتين للتأكيد على النبي أن لا يبالي بهم وعلى أن النصر حليفه وعلى أن العذاب واقع بالمشركين ، وفي هذا تطييب لنفس النبي ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين وتثبيت لأقدامهم في مجال الدعوة إلى الإسلام ، فاللَّه وعدهم

بالنصر والتأييد ولن يخلف اللَّه وعده .

ثم تختتم هذه السورة بتقديس اللَّه تعالى وحمده :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (١٨٠ ـ ١٨٢) .

سبحان ربك : أي تنزيه لربك يا محمد عن كل سوء وعن كل ما يصفه به المشركون من أن له صاحبة وولداً أو شريكاً ، وأضيف الرب إلى العزة ﴿ رَبِّ العِزَّةِ ﴾ لاختصاصه بها وأنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلاّ وهو ربها ومالكها . وتأمل كيف أضاف اللَّه رسوله محمداً إليه بقوله : ﴿ ربِّكَ ﴾ وعقَّب على ذلك بقوله : ﴿ ربِّ العِزَّة ﴾ إشعاراً بأن اللَّه سيعزه وينصره على أعدائه ، وسيكون رسوله معززاً مكرّماً لأنه مُرْسَلٌ من رب العزة ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى المرسَلين ﴾ هذا السلام تشريف لهم ولرسوله محمد وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون من كل المكاره وهم في أمان اللَّه ﴿ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمين ﴾ الحمد : هو الثناء الجميل على الإحسان بقصد التعظيم فاللَّه يستحق الحمد على نعمه التي لا تحصى ، وهو يستحق الحمد على إرسال رسله إلى الناس لينقذوهم من درب التعاسة والشقاء ، يأخذوا بيدهم إلى درب السعادة في الدارين : دار الدنيا ، ودار الآخرة .

سُورَةُ صٓ

يصور اللَّه في هذه السورة عناد المشركين وعجبهم لدعوة النبي ﷺ إلى وحدانية اللَّه وترك عبادة الأصنام ، وحسدهم على إكرام اللَّه تعالى للنبي ﷺ بالنبوة ونزول القرآن عليه . ثم يهدد اللَّه المشركين بالعذاب والهلاك في الدنيا جزاء تكذيبهم لرسوله محمد ﷺ كما حصل للأمم السابقة .

وفي هذه السورة يطلب اللَّه من رسوله محمد الصبر على أعباء النبوة ، ويقص عليه سِيَر الأنبياء قبله الذين ابتلاهم اللَّه وامتحنهم بأنواع الضر والمكاره فصبروا وأنابوا إليه بالتوبة والطاعة فحازوا على رضوان اللَّه لهم .

ثم يبين اللَّه ما أعد للمؤمنين المتقين ربهم من نعيم في الجنة ، وما أعد للكافرين الطغاة من عذاب شديد في جهنم حيث هناك يتخاصمون هم وأتباعهم ويلوم بعضهم بعضاً على أفعالهم التي أودت بهم إلى هذا المصير السيّىء .

وفي هذه السورة بعض أنباء الغيب التي لا تعرف إلّا بالوحي الإلٓهي وهي تخاصم الملائكة في شأن آدم ، ودعوة اللَّه لإبليس بالسجود له وامتناع إبليس عن السجود له وطرده من الجنة .

ويختم اللَّه السورة بتذكير الناس بأن القرآن هو عظة للناس جميعاً وأنهم سيعلمون صدق ما اشتمل عليه من وعد ووعيد وأخبار مستقبلية ستظهر بعد وقت قريب من نزوله .

سُورَةُ صٓ

مكية وآياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾
وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ
﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا

شَرح المفردَات

ذي الذِّكْر : ذي الشرف ، وذي الموعظة .

عِزَّة : تكبر وامتناع عن قبول الحق .

شِقَاق : مخالفة وعداوة للّه ورسوله .

قَرْن : أمة (أهل زمان واحد) .

فَنادَوْا : فاستغاثوا باللّه عند نزول العذاب بهم .

وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ : ليس الوقت وقت فرار وخلاص من العذاب .

مُنْذِرٌ مِنْهُم : نبي من جنسهم يخوفهم عذاب اللّه .

عُجَابٌ : بالغ الغاية في العجب .

الملأ مِنْهُم : أشراف قريش ووجوههم .

آمْشوا : امضوا على ما كنتم عليه .

لَشَيءٌ يُرَادُ : أي ما يريده محمد هو الانقياد له ليعلو علينا .

بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ
بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ
رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ
١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ
وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤

شرح المفردات

الْمِلَّة الآخِرَةِ : دين النصارى أو دين قريش .

اخْتِلاَقٌ : كذب وافتراء .

الذِّكْرُ : هو القرآن .

مِنْ ذِكْري : من القرآن .

لَمَّا يَذُوقوا عَذَابِ : لم ينزل بهم عذاب اللّٰه ولو ذاقوه لعلموا حقيقة ما هم به مكذبون .

فَلْيَرْتَقُوا في الأَسْبَابِ : فليصعدوا في المصاعد التي توصلهم إلى السماوات .

الأحزاب : الجماعات المجتمعة على معاصي اللّٰه والكفر به .

فرعونُ ذو الأَوْتَادِ : ذو الجنود الكثيرة ، أو معذِّب الناس بالأوتاد .

أَصْحَابُ الأَيْكَةِ : الأيكة هي الشجر الكثيف الملتف . وأصحاب الأيكة قوم شعيب كانت مساكنهم كثيفة الأشجار .

فَحَقَّ عِقَابِ : فوجب عقاب اللّٰه لهم .

سُورَةُ صٓ

إيضــاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة ببيان منزلة القرآن العاليـة مع التهـديد والـوعيد للكافرين :

﴿ صٓ وَالْقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفرُوا في عِـزَّةٍ وَشِـقَـاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ فَنادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (١ ـ ٣) .

تبدأ هذه السورة بحرف « ص »[١] على عادة القرآن في بدء بعض السور بحروف الهجاء ، ثم أقسم اللّه بالقرآن ﴿ وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ الواو للقسم ، والقسم بالقرآن تنبيـه على شرف قـدره وعظيم مكـانته . ومعنى : ﴿ ذِي الـذِّكْرِ ﴾ أي صـاحب التذكـرة والمـوعـظة للنـاس والهـدايـة لهم . وقيل : ﴿ ذي الذِّكْر ﴾ أي ذي الشرف . فمن آمن بـالقرآن وعمـل به كـان شـرفاً لـه في الدارين ، كمـا قال تعـالى في وصـف القرآن : ﴿ لَقَـدْ أَنْزَلْنَـا إِلَيْكم كِتَاباً فيه ذِكْرُكُم ﴾ أي فيه شرفكم .

﴿ بَلِ[٢] الَّذِين كَفَرُوا في عِزَّةٍ ﴾ بـل الذين كفـروا في تكبر وامتنـاع

---

(١) ص : حـرف من حروف الهجـاء ذكر هنـا على عادة القـرآن باستهـلال بعض السور بأحرف الهجاء وفي تفسير ذلـك عدة أقـوال ، منها : أنه إشارة إلى إعجـاز القرآن ، وأن القـرآن المعجز بـأسلوبه وهـديه هـو مُؤلَّف من هذه الأحـرف . ومـع هـذا عجـز العـرب وغيرهم عن الإتيان بمثله ، فعجزهم هذا دليل على أن القـرآن وحي إلهي . وقيـل : ص هـو اسم من أسماء القـرآن أقسم اللّه به . وقيـل هو قَسَم أقسم اللّه بـه وهـو من أسمـاء اللّه . وقيـل : ص ، بمعنى صدق اللّه . وقيـل : هو مفتـاح أسماء اللّه تعـالى صمـد ، وصانع المصنوعات وصادق الوعد ، وقيل : هو مما استأثر اللّه بعلمه .

(٢) بل : حرف استعمل هنا للإضراب أي ترك شيء من الكلام والانتقال إلى غيره .

عن قبول الحق ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي مخالفة ومعاداة للّه ورسوله ﴿ كَمْ[١] أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كثيراً ما أهلكنا قبل الكفار من قريش ﴿ مِنْ قَرْنٍ ﴾ من أمم سلكوا سبيلهم في تكذيب رسل اللّه ﴿ فَنَادوا ﴾ فاستغاثوا باللّه وتابوا إليه حين نزل العذاب بهم ، ولكن ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ لات : بمعنى ليس ، والمناص : المفر والخلاص ، أي ليس هذا بوقت فرار وخلاص من عذاب اللّه ، فهؤلاء الكفار من الأمم السالفة تابوا إلى اللّه حين عاينوا عذاب اللّه فلم تقبل توبتهم آنذاك ، لأنه كان الواجب عليهم أن يتوبوا عندما أمرتهم رسل اللّه بالتوبة قبل حلول العذاب فيهم ، وكان حالهم كما قال الشاعر :

ندم البغاة ولات ساعة مندم　　　والبغي مرتع مبتغيه وخيم

ثم يبين القرآن تعجب الكافرين من أن يكون محمد هو رسول اللّه إليهم وهو بشر مثلهم :

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا ساحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ . وَآنطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا في المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ ﴾ (٤ ـ ٧) .

لقد تعجب الكفار ﴿ أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنهم ﴾ وهو محمد ﷺ يحذرهم ويخوفهم من عذاب اللّه ، ولم يأتهم ملك من السماء كما طلبوا ذلك ﴿ وَقَالَ الكَافِرُونَ : هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وصف الكفار محمداً بالساحر والكذّاب ، فَوَصْفُهُم له بأنه ساحر هو بسبب ما كان يتلو عليهم من القرآن الذي أفحمهم بفصاحته وبلاغته ومعانيه التي تتسم بالإعجاز فدخل كثير من

---

(١) كم : هي الخبرية الدالة على الكثرة وليست للاستفهام .

الناس في الإسلام بعد أن سمعوا القرآن وتأثروا به ، ولما كان الكافرون ينكرون أن القرآن وحي إلّهي ويدّعون بأنه من كلام محمد لذا وصفوه مرة بالساحر ومرة بالكذاب فهو في عرفهم مدّعٍ للنبوة وهذه مغالطة منهم ، فهم قد عاشروا محمداً قبل النبوة وكان مشهوراً بينهم بالصدق والأمانة حتى لقد لقبوه بالصادق الأمين . ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلّهاً وَاحِداً ﴾[1] لقد قال كفار قريش : أجعل محمد المعبودات كلها إلّهاً واحداً يسمع دعاءنا جميعاً ويعلم عبادة كل واحد منا ﴿ إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ إن هذا الأمر لشيء يتجاوز حد العجب ، وموضع العجب فيه أنه خلاف ما وجدوا عليه آباءهم من الدين ومن تعدد الآلهة . ﴿ وانْطَلَقَ الملأُ مِنْهُم ﴾ الانطلاق هو الذهاب بسرعة ، والملأ هم طبقة الأشراف ، أي انطلق الأشراف من كفار قريش مسرعين من مجلس أبي طالب بعد أن أفحمهم النبي ﷺ بالجواب الحاسم والإصرار الجازم على الدعوة إلى وحدانية اللّه وترك عبادة الأصنام ، لقد انطلقوا وبعضهم يقول لبعض ﴿ أَنِ آمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلهتِكُمْ ﴾ أي سيروا على طريقتكم واثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿ إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ إن هذا الذي يدعونا إليه محمد من عبادة الله وحده هو شيء يريد به الشرف والترؤس علينا ، وأن نكون له أتباعاً . أو بمعنى : إن ما يدعونا إليه محمد هو أمر يريد تنفيذه وإمضاءه لا محالة لا يثنيه عن عزمه وساطة أحد

---

(١) روي في أسباب نزول هذه الآية : أنه لما مرض عم النبي أبو طالب دخل عليه رهط (أي جماعة) من قريش فيهم (أبو جهل) فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل . . . فلو بعثت إليه فنهيته . فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم . . . فتكلم النبي ﷺ فقال : « يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجَمُ الجزية ، فقال : وما هي ؟ قال : لا إلّه إلاّ اللّه . فقام هؤلاء الجماعة من كفار قريش وهم يقولون : « أجعل الآلهة إلّهاً واحداً . إن هذا لشيء عجاب » .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ ﴾ الملة : هي الدين ، حقاً كان أو باطلاً . والمعنى الذي قصده المشركون : ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد في دين النصارى لأنها آخر الملل ، وقد يراد بالملة الآخرة : ملة قريش وما كان عليه آباؤهم من الدين وعبادة الأصنام ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ إن : حرف نفي بمعنى : ما ، أي ما جاء به محمد من الدعوة إلى وحدانية الله ما هو إلّا كذب وافتراء .

ثم يبين القرآن السبب الذي يحتج به المشركون لرفض ما جاء به محمد من الهدى :

﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ (٨) .

فاللّه سبحانه يقول مخبراً عما يقوله هؤلاء المشركون : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ الاستفهام هنا للإنكار ، والذكر : معناه هنا القرآن . فهم أنكروا أن يخص اللّه محمداً بالنبوة من بين أشرافهم ، وينزل عليه القرآن ، وفيهم من هو أعظم جاهاً وأكثر ثراءً ، ولكنهم غفلوا عن أن اللّه يتفضل بوحيه على من يختاره من عباده ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ بل هم في ريب من أن القرآن وحي إلّهي ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ لما : بمعنى لم ، أي بل لم يذوقوا عذاب اللّه الموعود في القرآن ولذلك شكوا فيه ، فإذا ذاقوا العذاب زال الشك وسارعوا إلى الإيمان ولكنه لا يقبل منهم حينئذٍ .

وبعد شك الكفار برسالة محمد وأن هناك من هو أجدر منه ، تتساءل الآيات التالية على سبيل الاستهزاء بهم بأي حق يعترضون ومن أي موقع يتكلمون :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ . أم لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأَرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا في الأَسْبَابِ . جُنْدٌ ما هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ (٩ ـ ١١) .

فاللَّه سبحانه يقول : بل نسأل هؤلاء المشركين الحاسدين لك يا محمد أعندهم مفاتيح خزائن رحمة ربك فيتصرفون فيها حسبما يشاءون ؟ لا ، فهذا الأمر ليس لهم ، فالنبوة عطية من اللَّه يتفضل بها على من يشاء من عباده . وإضافة اسم الرب إلى النبي ﷺ ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ للتشريف والعطف ، لأن اللَّه سبحانه هو المربي والمكمل للشيء والحافظ ، فهذه الإضافة تشعر النبي ﷺ بأنه في كنف ربه وحمايته وحفظه ، وأن ربه هو ﴿ العزيز الوهاب ﴾ أي القوي الغالب ، الواهب لمن يشاء النبوة والملك .

﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي بل نسأل هؤلاء المشركين : ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يكون لهم حق الاعتراض والتدخل في الأمور الربانية التي يستأثر بها رب العالمين ، لا ليس لهم ملك في ذلك ليعترضوا على إعطاء اللَّه سبحانه النبوة لمن يشاء ﴿ فَلْيَرْتَقُوا في الأَسْبَابِ ﴾ أي إن كان لهم ما ذكر من المُلك فليصعدوا في أبواب السماء وطرقها التي توصلهم إلى السماء وإلى العرش ليحكموا بما يريدون ، ويدبروا أمر العالم وملكوت اللَّه ، ويخصوا بالنبوة من يختارون من عباد اللَّه ، والأمر هنا على سبيل التوبيخ والتهكم بهم .

﴿ جُنْدٌ ما[١] هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ إنهم جند حقير كغيرهم من الكفار الذين تحزبوا وتجمعوا على الرسل بالتكذيب ، هؤلاء سينهزمون

---

(١) ما : مزيدة وفيها معنى التقليل والتحقير .

فلا تبالِ يا محمد بما يقولون ولا تكترث بهم ، وهذا وعد من الله سبحانه لنبيه محمد بالنصر على الكفار . وقد تحقق وعد الله بعد سنوات قليلة من نزول هذه الآية فتوالت الهزائم على الكفار ، ودانت جزيرة العرب لرسول الله . وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت والتي تشهد بأن القرآن كلام الله حقاً إذ لا يعلم الغيب إلا الله .

ثم يعرض القرآن أسماء بعض الأمم التي كذبت رسل اللّه فحل بها عذاب اللّه :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ . إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (١٢ ـ ١٤) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي كذب رسل اللّه قبل هؤلاء المشركين من قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهم الذين أهلكهم اللّه بالطوفان ﴿ وَعَادٌ ﴾ عاد : من قبائل العرب البائدة التي كذبت رسول اللّه هوداً فأهلكم اللّه بريح صرصر عاتية ﴿ وَفِرْعَونُ ذو الأَوْتَادِ ﴾ وهو الذي كذب رسول اللّه موسى فأهلكه اللّه مع جنوده غرقاً في البحر . والأوتاد : فسرت بالأهرام فإنها خاصة بفراعنة مصر ، وإنما جاز تسميتها أوتاداً تشبيهاً لها بالجبال في الرسوخ والارتفاع . وقيل : الأوتاد كناية عن كثرة جنود فرعون فقد كانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام التي كانوا ينصبونها . وقيل : كان فرعون يعذب الناس ويسمرهم في الأرض بالأوتاد . ﴿ وثمود ﴾ وهم قوم من العرب البائدة كذّبوا رسول اللّه إليهم « صالحاً » فأهلكهم اللّه بصاعقة من السماء . ﴿ وَقَوْمُ لُوط ﴾ وقد كذبوا رسول اللّه إليهم لوطاً فأهلكهم اللّه جزاء فسقهم وعصيانهم بأن قلب قريتهم عليهم ،

وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل زيادة في إهلاكهم . ﴿ وَأَصْحَـابُ الأَيْكَةِ ﴾ والأيكـة : غيضـة من شجـر ملتف وكـان فيهـا قـوم يتـلاعبون بـالمكاييـل والأوزان فأرسـل اللَّه إليهم رسولـه « شعيباً » فكـذبوه فأهلكهم اللَّه بعذاب يوم الظلة، إذ أصابهم حر شديد فأرسل عليهم سحابة فاستبشروا بها واستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا أمطرت عليهم ناراً فأحـرقتهم ﴿ أُولَئِـكَ الأَحْزَابُ ﴾ أي هؤلاء الـذين ذكرنـاهم سابقـاً هم الذين تحـزبوا وتجمعـوا على معاصي اللَّه ، والكفـر به ، وتكـذيب رسله . ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ إن: نافية بمعنى ما، أي ما كل حزب من هذه الأحزاب إلّا كذب الرسول الذي أرسله اللَّه إليهم ﴿ فَحَقَّ عِقَـابِ ﴾ فثبتت ووجب عليه عقاب اللَّه لهم .

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٖ ١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦ ٱصۡبِرۡ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا
سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ
كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ
ٱلۡخِطَابِ ٢٠ * وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١
إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا

شرح المفردات

وما ينظر : بمعنى ينتظر .

مَا لَهَا مِنْ فواقٍ : ليس لها من ترداد .

عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا : عجل لنا حظنا أو نصيبنا من العذاب أو النعيم .

ذَا الأَيْد : ذا القوة في طاعة اللّه والعبادة .

أَوَّابٌ : رجّاع إلى اللّه بالتوبة مطيع للّه كثير الصلاة .

سَخَّرْنَا : ذللنا .

العَشِيِّ : ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها .

الإِشْرَاقِ : أي حين تضيء الشمس ويصفو شعاعها بعد إشراقها .

والطَّيْرَ مَحْشُورَةً : مجموعة له تسبح اللّه معه .

كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ : كل له مطيع مسبح اللّه .

شَدَدْنَا مُلْكَهُ : قوينا ملكه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود .

فَصْلَ الخِطَاب : علم القضاء وتمييز الحق من الباطل .

نَبَأُ الْخَصْمِ : خبر تحاكم الخصمين .

تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ : تسلقوا حائط غرفته ونزلوا إليه .

بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ : تعدى أحدنا على صاحبه بغير حق .

عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا
وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ
إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

وَلَا تُشْطِطْ : ولا تظلم وتتجاوز الحق .

وٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاط : وأرشدنا إلى طريق الحق .

أَكْفِلْنِيها : ملكنيها وانزل لي عنها .

عَزَّني في الخِطَابِ : غلبني وقهرني في القول والحجة .

الْخُلَطَاءِ : الشركاء .

لَيَبْغِي : ليظلم ويتعدى .

فَتَنَّاهُ : ابتليناه وامتحناه .

خَرَّ راكعاً : سجد .

وَأَنَابَ : رجع إلى اللّه بالتوبة .

لَزُلْفَى : لقربة ومكانة .

حُسْنَ مآب : حسن مرجع في الآخرة وهو الجنة .

سبيل اللّه : دين اللّه وطريقه .

تابع سورة ص

ثم يأتي الكلام عن المشركين العرب بقالب التهديد بعد ذكر ما حل بالمكذبين قبلهم من العقاب :

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ . وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١٥ ـ ١٦) .

ينظر : بمعنى ينتظر ، والصيحة هنا بمعنى العذاب ، أي ما ينتظر هؤلاء المشركون إلّا عذاباً يهلكهم ﴿ مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ليس لهم بعد هذا الهلاك إفاقة ولا رجوع إلى الدنيا .

وقد يراد بالصيحة نفخة الملك إسرافيل في البوق النفخة الأولى يوم القيامة وهي التي يطلق عليها نفخة الفزع ، وهذه الصيحة ﴿ ما لها من فواق ﴾ أي ما لها من رجوع ولا ارتداد ، فكأن في ذلك إشعاراً الكفار قريش بأنهم إذا لم يذوقوا عذاب اللّه في الدنيا فهناك عذاب يوم القيامة .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا ﴾ أي قال المشركون : ربنا عجل لنا حظنا ونصيبنا من العذاب ، أو نصيبنا من نعيم الجنة في الدنيا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي ولا تؤخره إلى يوم القيامة ، قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف والاستهزاء .

وبعد الكلام عن استهزاء المشركين بيوم الحساب أمر اللّه رسوله محمداً بالصبر على أذاهم وطيّب نفسه بذكر ما حصل للأنبياء قبله من المشاقّ والمحن فصبروا حتى فرّج اللّه عنهم مبتدئاً بقصة داود :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ . وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (١٧ ـ ٢٠) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي اصبر يا محمد على ما يقوله المشركون فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا من قبلك ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاودَ ﴾ وتذكر قصة عبدنا داود[١] - أي النبي داود - وَوَصْفُ داود بالعبودية وإضافته إلى اللَّه إظهار لشرفه ، وإشعار بأنه حقق معنى العبودية للَّه بسبب اجتهاده في طاعة اللَّه ، فقد كان ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ أي ذا القوة في طاعة اللَّه ، والقوة في العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أواب على صيغة فعّال تدل على المبالغة في الشيء أي أنه كثير الرجوع إلى اللَّه بالتوبة والطاعة وفي جميع أموره وشؤونه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ ﴾ أي إننا ذللنا الجبال مع داود وذلك يتمثل بطريق الاقتداء به في عبادة اللَّه ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ وتسبيح الجبال مع داود بمعنى يقدسن اللَّه سبحانه وينزهنه عما لا يليق به ، فداود إذا ذكر اللَّه وقدّسه ذكرت الجبال معه ذلك إما بصوت يتمثل له أو بلسان الحال ، وكان يفقه تسبيح الجبال[٢] . والمراد بالعشي وقت غروب الشمس ، أما الإشراق فهو بعد أن تشرق الشمس بقليل حيث تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى .

وتخصيص هذين الوقتين بالذكر يدل على اختصاصهما بمزيد شرف فيصلح التخصيص لأن يكون سبباً للحرص على تسبيح اللَّه في هذين الوقتين فإن للأزمنة والأمكنة أثراً في استشعار عظمة اللَّه وتقديسه ، فعند

---

(١) أخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال : كان النبي ﷺ إذا ذكر داود وحدّث عنه قال : كان أعبد البشر . وجاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : أحب الصلاة إلى اللَّه صلاة داود وأحب الصيام إلى اللَّه صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر (أي من العدو) إذا لاقى وإنه كان أواباً » .

(٢) أثبت القرآن أن الكون كله يسبح اللَّه ولكن لا نفقه تسبيحه : ﴿ وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

مغيب الشمس وغشيان الليل تصفو النفوس وترنو إلى التأمل في الطبيعة وقد غمرها السكون ، وتراءت النجوم في سمائها متلألئة مشعة مما يطلق النفس من قيودها التي سببتها ضجة العمل وزحمة العيش ، ويجعلها تهفو إلى خالقها مسبحة بحمده ، ممجدة لعظمته . وكذلك وقت شروق الشمس حيث تظهر الطبيعة في أجلى مظاهرها وقد اغرورقت بالندى ، وتحرك كل ما فيها من إنسان وطير وحيوان ، كل ذلك يثير الإحساس الروحي في قلب الإنسان ويدعوه إلى تمجيد خالقه .

ويتابع القرآن ذكر ما خصَّ اللَّه به داود ﴿ والطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي وذلّل اللَّه لداود الطير مجموعة إليه تسبح اللَّه معه وتقدس اللَّه بتقديسه ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كل من الجبال والطير مطيع لداود بالتسبيح للَّه وبالترجيع لتسبيحه هذا على إسناد الضمير لداود ، أما إذا أسندنا الضمير للَّه تعالى فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير مطيع للَّه تعالى مقدس له . ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قوّاه اللَّه بكثرة الجنود والنصرة على الأعداء والتأييد له ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي وأعطاه اللَّه النبوة والفهم وكمال العلم الذي يصحبه حسن التصرف في الأمور ﴿ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ الفصل : الحاجز بين الشيئين ، والخطاب : الكلام ، وفصل الخطاب هو الكلام الفاصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل ، وهو علم القضاء والعدل وتدابير الملك والمشورات .

ثم يبين لنا القرآن خبر الخصمين اللذين تخاصما إلى داود :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّروا المِحْرَابَ . إِذْ دَخلُوا عَلَى دَاودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ ولا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أخي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً

وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ ﴾ (٢١ ـ ٢٣) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ[(١)]﴾ أي وهل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين ؟ هذا الاستفهام لإثارة العجب وتشويق السامع إلى ما يلقى عليه من الكلام ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إذ تسلقوا سور غرفته التي كان يتعبد فيها ونزلوا من أعلى السور إليه ، والسور : الحائط المرتفع ، والمحراب : صدْر البيت وأكرم موضع فيه ، وأرفع مكان في المسجد ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ وإنما فزع داود لأنهم دخلوا عليه من غير الباب وبدون إذنه ، وفي وقت خصصه للعبادة لا في الوقت المخصص للفصل بين الناس في منازعاتهم على الرغم من الأوامر للحرس بعدم السماح بدخول أحد عليه .

وقد روي أن داود جَزّأ وقته أربعة أجزاء فجعل يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً لجميع بني إسرائيل يعظهم فيه ، فجاءه هذان الخصمان في الوقت المخصص لغير القضاء ففزع منهما .

ويروى أن هذين الخصمين كانا من الملائكة وظهرا في صورة إنسانين ، وعندما شاهدوه قد فزع طمأنوه بقولهم : ﴿ قَالُوا : لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ وخصمان خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره : نحن خصمان ، ثم طلبا منه ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل ولا تتجاوزه في الحكم ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ وأرشدنا إلى طريق الحق الذي لا ميل فيه لا إلى هذه الجهة ولا إلى الجهة

---

(١) الخصم : يطلق على الواحد وعلى الجمع ، والمخاصمة : المنازعة ، قيل الخصم هنا اثنان وتجوز في العبارة فأخبر عنهما إخبار ما زاد على اثنين .

المقابلة ، أي إلى القضاء العادل ﴿ إِنَّ هَذَا أَخي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي قال أحد الخصمين وأشار إلى خصمه : إن هذا أخي في الدين أو في الصحبة يملك تسعاً وتسعين نعجة وأنا أملك نعجة واحدة ، والنعجة هي الأنثى من الضأن ﴿ فَقَال أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي انزل لي عنها ، وضمّها إِلَيَّ ﴿ وَعَزَّني في الخِطَابِ ﴾ وغلبني وقهرني في الكلام وكان أقوى مني حجة فضم نعجتي إلى نعاجه .

ثم يذكر لنا القرآن الحكم الذي حكم به داود بين هذين الخصمين ، والموعظة التي وعظهما بها :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلاَّ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فغفرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢٤ ـ ٢٥) .

فداود قال للخصم المتظلم من صاحبه : لقد ظلمك صاحبك بسؤاله طلب ضمِّ نعجتك إلى نعاجه . ويظهر أن في زمان داود كان يكثر فيه الظلم والاعتداء على حقوق الغير لذلك وعظهما بقوله : ﴿ وَإِنّ كثيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ أي وإن كثيراً من الشركاء الذين خلطوا أموالهم بينهم ﴿ لَيَبْغي بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ ﴾ ليتعدى ويأخذ بعضهم من نصيب شريكه بغير حق ﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فهؤلاء الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعة الله لا يظلمون أحداً ﴿ وَقَليلٌ مَا هُمْ ﴾ أي قليل هم ، و « ما » مزيدة للتعجب من قلتهم[١] .

---

(١) سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال أردت قول الله تعالى : ﴿ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر .

وهنا تنبه داود إلى أن اللّٰه اختبره بهذه الحادثة التي حكم فيها بين الخصمين ﴿ وَظَنَّ دَاوودُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ﴾ وأن المراد التعريض به ولفت نظره إلى خطأ وقع فيه ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي طلب الغفران من ربه لما بدر منه من ذنب أو خطأ ، وسجد للّٰه خضوعاً له ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ورجع إلى اللّٰه بالتوبة ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي فعفا اللّٰه عن ذلك الذنب الذي استغفر منه داود وصفح عنه ولم يؤاخذه بذنبه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ وإن له عند اللّٰه لقربة وكرامة يوم القيامة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وحسن مصير ومرجع في الآخرة وهو الجنة .

ما هي فتنة داود ؟

قيل إن الفتنة المقصودة هي أن داود حجب نفسه عن الناس ، والواجب على القاضي أن يعد نفسه للقضاء دائماً ولا يضع بينه وبين المتخاصمين حجاباً ، مما أدى بالمتخاصمين إلى تسوّر المحراب والدخول على داود . وقيل هي قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما وقبل أن يسمع حجة الآخر . وقيل : إن الفتنة كانت في استشعار داود الملك والسلطان فرأى في ذلك فتنة واختباراً من اللّٰه فخاف من الوقوع في الظلم شأن كثير من الحكام .

أما تصوير الفتنة كما جاء في التوراة[١] وتأثر بها بعض المفسرين[٢]

---

(١) راجع الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الثاني من العهد القديم .

(٢) بعض المفسرين يذكر هذه القصة بما لا يقدح بشرف النبوة فيقول : إن عين داود وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأل زوجها النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل ، هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة إلّا أنه لا يليق بالأنبياء . وقال آخرون : إن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه مع كثرة نسائه .

وخلاصتها أن داود عشق امرأة قائده « أوريا الحثي » وزنى بها ثم تسبب بقتل زوجها ، فهذه الأمور نضرب عنها صفحاً ونستهجنها أشد الاستهجان إذ فيها تهديم لأسس الحق والدين وجعل الكتب المقدسة أداة عبث وضلال واتخاذ الأنبياء قدوة سوء .

فما ورد في القرآن الكريم من صفات داود ينفي جملة وتفصيلاً ما ورد في التوراة من افتراءات باطلة ، فقد وصف اللّٰه دَاوُد ـ كما ذكرنا من قبل ـ بالعبودية للّٰه والقوة في الدين وأنه رَجّاع إلى اللّٰه بالتوبة كثير التسبيح له ، وأن اللّٰه آتاه الحكمة وإصابة العدل في الحكم ، وأنه مقرب إليه ، فهذه الصفات كلها تتنافى مع إقدامه على المعصية وتجعل داود مترفعاً عن الفواحش والمنكرات بعيداً عن كل ما يخل بالمروءة .

فالرسل في نظر الإسلام معصومون عن الخطايا والآثام ، إذ لو جوّزنا عليهم شيئاً من الآثام لبطلت شرائع اللّٰه ، ولم نعد نثق بشيء مما يذكرونه ، لذلك فإن ما جاء في التوراة بحق داود يعتبر غضاً من منصب النبوة وهو من التحريفات التي ألحقت بالتوراة .

وبعد ذكر قصة الحكم بين الخصمين دعا اللّٰه داود إلى الحكم بين الناس بالحق :

﴿ يَا داوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (٢٦) .

فاللّٰه سبحانه جعل داود خليفة في الأرض وهذا يدل على مكانته عليه السلام عند اللّٰه واصطفائه له ، ويدفع كل الترهات والأكاذيب التي نسبت إليه . ومعنى : خليفة في الأرض ، أي إن اللّٰه ولاه الملك والحكم فيما

بين الناس ، أو جعله خليفة يخلف من كان قبله من الأنبياء القائمين بالحق ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل الذي هو حكم اللّه بين عباده ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي لا تتبع يا داود ما يميل إليه طبعك ويدعو إليه هواك إذا كان مخالفاً ذلك للحق ، فإنك إذا اتبعت ذلك مال بك الهوى عن سبيل الحق الذي هو سبيل اللّه .

هذه دعوة لداود وهي في الوقت نفسه دعوة لجميع الحكام للسير على هذا الهدي الإلٓهي .

نعم إن الذي يصرف الحاكم عن سبيل اللّه هو هوى النفس الذي يتمثل بالمظاهر الآتية : حب الانتقام من الخصم ، ومحاباة الأشراف والأقرباء والأصدقاء ، والجور على الضعفاء والأعداء ، وإرضاء نزوات النفس من حب الاستعلاء والشهرة ، وهذه الأمور أظهر ما تكون عند بعض الحكام .

ويتابع اللّه قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي إن الذين يعدلون عن العمل بما أمرهم اللّه به ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أي إن سبب الضلال المفضي إلى العذاب الشديد يوم القيامة هو نسيان يوم الحساب ، لأن الإنسان لو كان متذكراً لهذا اليوم لما أعرض عن إعداد الزاد له ، ولما صار مستغرقاً في شهوات الدنيا ولذاتها المحرمة .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾
أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ
إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ
فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ

شرح المفردات

الفُجَّار : جمع فاجر وهو المنغمس في المعاصي .

مُبَارَكٌ : كثير خيره ونفعه .

لِيَدَّبَّروا آياته : ليتفكروا في آياته .

وَلِيَتَذَكَّر : وليتعظ .

أولو الألبَاب : أصحاب العقول .

بالعَشِيِّ : ما بعد زوال الشمس إلى الغروب .

الصَّافِنَاتُ : الخيل الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .

الْجِيَادُ : الخيل السريعة العدو .

أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ : آثرت حب الخيل .

عَنْ ذِكْرِ رَبِّي : أي أحب الخيل لأمر اللّه وتقوية دينه .

تَوارَتْ بِالْحِجَابِ : توارت الخيل عن الأنظار .

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ : فشرع يمسح سيقانها وأعناقها تشريفاً لها .

فَتَنَّا سُليمَانَ : ابتليناه وامتحناه .

كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى
لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ
رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ
عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ
ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

لا ينبغي لأَحَدٍ مِنْ بعدي : لا يكون لأحد من بعدي .

فَسَخَّرْنَا : فذللنا .

رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ : لينة الهبوب طيعة له حيث أراد .

كُلَّ بَنَّاءٍ : يبنون له ما يشاء من المباني .

وَغَوَّاصٍ : يغوصون في البحر فيستخرجون له اللآلىء .

وَآخرِينَ مُقَرَّنِينَ بالأَصْفَادِ : وآخرين مكبلين بالسلاسل وهم مردة الجن .

فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ : أحسن إلى من شئت وامنع من شئت .

نُصْبٍ : الداء والبلاء وما يوجب التعب .

هَذَا مُغْتَسَلٌ : هذا ماء تغتسل فيه يكون فيه شفاؤك .

ضِغْثاً : قبضة من قضبان مختلفة .

ولا تَحْنَثْ : ولا تأثم في يمينك وقسمك بل تتحلل منه .

تابع سورة ص

ثم يبين القرآن بأن يوم الحساب آتٍ لا ريب فيه ، وأنه سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً بدون غاية ولا حكمة :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٢٧) .

أي ما خلق اللّه السماء والأرض وما بينهما من موجودات باطلاً ومجرداً خلقها من الحكمة ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِين كَفَرُوا ﴾ ذلك ما يظنه الكافرون بأن الكون لم يخلق لغرض ولا لحكمة ، وأنه لا ثواب ولا عقاب بعد الممات ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كفروا مِنَ النَّار ﴾ فويل للكافرين من النار المعدة لهم يوم القيامة جزاء عصيانهم لربهم ، وظنهم الفاسد بأنه لا ثواب ولا عقاب بعد الممات .

فخلق السماء والأرض قام على الحق ، وخلق الإنسان قام على الحق كذلك، ومن الحق أن يكافأ المحسن على إحسانه ، وأن يعاقب المسيء على إساءته إن لم يكن في هذه الحياة الدنيا ففي حياة أخرى ، فإنا نرى كثيراً من الظالمين المفسدين في الأرض يرتعون في بحبوحة من العيش وألوان من الترف على حساب البائسين المظلومين المتقين للّه ، فلو كانت الدنيا نهاية المطاف لكان هناك شك في العدالة الإلّهية .

فاللّه لم يخلق الخلق عبثاً مجرداً عن الحكمة ، ومن الحكمة التي أخبرنا اللّه بها أن هناك حياة بعد الموت في دار أخرى يُدان الناس فيها بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا ما ذكره القرآن في الآية التالية رداً على الذين ظنوا بأنه لا ثواب ولا عقاب :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كالْمُفْسِدِينَ في الأَرْضِ أم نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ ﴾ (٢٨) .

أم : الهمزة استفهام للإنكار ، فاللَّه ينكر من يسوي في حسن العاقبة بين فئتين من الناس فيقول بما معناه : أيليق بحكمتنا وعدلنا أن نسوي بين المؤمنين الذين يعملون الصالح من الأعمال وبين المفسدين في الأرض ، أم يليق أن نسوي بين المتقين الذين اجتنبوا ما حرّم اللَّه وبين الفجار المنغمسين في المعاصي ؟ لا ، فكل من الفريقين له منزلته ومقامه في الآخرة .

فالذين آمنوا باللَّه وعملوا الصالحات لهم عز الدنيا وسعادتها كما أن لهم نعيم الآخرة ، فالإيمان باللَّه وحده يصلح النفوس ويحقق الخير للمجتمع ، ذلك أن الاعتقاد بإله واحد يثيب الناس على أعمالهم يجعلهم في رقابة ذاتية على أعمالهم ، يعملون الصالحات ابتغاء وجه اللَّه وابتغاء ثوابه في الآخرة ، فينشأ من ذلك مجتمع فاضل يفيض بالخير وينعم بالسعادة ، أما المجتمع الذي يُعرض أفراده عن الإيمان باللَّه والعمل الصالح ، ويطلقون لشهواتهم العنان ويسعون في الأرض فساداً فهو مجتمع هالك مضمحل لا محالة، بسبب تصدع بنيته ويكون مصير أبنائه يوم القيامة عذاب النار .

ثم يبين اللَّه بعد ذلك الحكمة المتوخاة من نزول القرآن :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢٩) .

فالقرآن كتاب منزل من عند اللَّه على رسوله محمد ﷺ ليعلمه قومه، وهذا الكتاب ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أي كثير المنافع الدينية والدنيوية . وهذا القرآن

الغاية منه ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي ليتفكروا في آياته وما تحتويه من المعاني الفائقة ليهتدوا بها ويتبعوا ما فيها من أوامر ونواهٍ ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولوا الأَلْبَابِ ﴾ وليتعظ بالقرآن ذوو العقول السليمة .

هذه الآية حجة ضد الذين جعلوا القرآن فقط للتبرك وتلاوته على الأموات ، فالقرآن أنزله اللّه دستوراً للمسلمين ينظم علاقاتهم فيما بينهم ثم علاقتهم مع الآخرين ويعرّفهم كيف ينبغي أن تكون صلتهم بربهم . ولقد وصف اللّه القرآن ﴿ هُدى للمتقين ﴾ ووصفه اللّه بأنه ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمنين ﴾ شفاء : لأنه يعالج الانحرافات والفساد في المجتمع . ورحمة لأنه جاء بكل التشريعات والآداب التي تسعد الناس في دنياهم وآخرتهم ، كما وصف اللّه القرآن بأنه أنزل لإنذار الأحياء لا الأموات ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ .

وإن في قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ دعوة صريحة لتدارسه وفهم معانيه بالرجوع إلى التفاسير[١] لا لتعلم قراءته وأحكام تجويده فقط كما يفعل الآن كثير من المسلمين ، فعلم قراءته وتجويده مطلوبة ، ولكن يجب أن تقترن بالتفكر والتدبر في معانيه لا لمجرد التلاوة بدون تدبر .

---

(١) إن فهم القرآن فهماً حقيقياً يعجز عنه الكثيرون حتى المتخصصين في اللغة العربية بدون الرجوع إلى التفاسير وإن كان ذلك يساعدهم على فهمه أكثر من غيرهم من العامة لأن القرآن كتاب عربي أنزل بلغة العرب ، وفهمهِ يحتاج إلى معرفة أسباب نزول الآيات لأن القرآن نزل مفرقاً حسب الوقائع والحوادث ، كما يحتاج فهمه الى علم الحديث النبوي الذي كشف عن بعض معاني الآيات وأحكامها وأسرارها ، وتتبع ما قاله الصحابة والتابعون في تفسير كثير من الآيات التي يصعب إدراك معانيها . مع الرجوع إلى السيرة النبوية المتضمنة لكثير من أسباب نزول الآيات . وكذلك الإلمام بتاريخ العرب قبل الإسلام وما كانوا عليه من معتقدات وعادات ، والإلمام بعقائد الملل والنحل قبل الإسلام .

وإن في قـوله تعـالى : ﴿ لِيَدَّبَّـرُوا آيَاتِـهِ ﴾ حجة ضـد الـذين يجعلون القـرآن يتلى بواسـطة مكبرات الصـوت سواء في المـآذن أو الطرقـات فهذا ينافي أدب قراءة القرآن لأن الإنسان وهو في زحمة العمل والانشغال بهمومه المعيشية لا يلتفت إلى معاني القرآن ولا التفكر في آياته ولا الاستمـاع له ، فضـلاً عمـا في ذلـك من قلة الاحتـرام والخشـوع الـواجب تـوفـرهمـا في المستمع إلى آيات اللّه وقد جاء في القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقرآن فاستَمِعُوا لَـهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُـرْحَمُونَ ﴾ الأعـراف : ٢٠٤ هـذا مـع العلم أن قـراءة القـرآن بواسـطة المكبرات الصـوتيـة لا تصـل واضحـة جليّـة إلى الآذان ، وبـالأخص إذا كان الإنسـان بعيداً عن مصـدر الصوت ، فـلا يسمع حينئذٍ إلّا ضجيجـاً لا يميز بـه ما يتلى من القـرآن ، فضلاً عن أن هـذا الضجيـج يضيع على طلبة العلم تحصيـل علمهم ، ويفوت على المـريض أن يأخـذ حظه من الراحة .

وإن في قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ حجة ضـد الذين يسـرفون في تنغيم القـرآن والتكلف في ذلك ممـا يجعله أداة طرب لا أداة تفكـر واعتبار بأحكامه ومواعظه .

وبعد بيان الحكمة من نزول القـرآن تنتقل بنـا الآيات إلى الكـلام عن النبي سليمان عليه السلام :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّـهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْـهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَـوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوق وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (٣٠ ـ ٣٣) .

فاللّه سبحانـه يقول : ﴿ وَوَهَبْنَـا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـانَ ﴾ أي وهب اللّه لداود ابنـاً ، والمراد بـالهبة هنـا النبوة لأنـه كان لـه بنون غيـره ﴿ نِعْمَ الْعَبْـدُ إِنَّـه

أَوَّابٌ ﴾ ثناءً على سليمان بأنه كثير الرجوع إلى اللّه بالطاعة والتوبة والعبادة[١] ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ أي اذكر من أخبار سليمان أنه عُرض على مرأى نظره بعد الظهر الخيل الأصيلة الشديدة العدو ، والصافنات من الجياد هي التي تقوم على ثلاث وتثني سنبك الرابعة وهي من علامات الأصالة في الخيل ، والجياد : هي الخيل السريعة الجري ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ أراد بالخير هنا الخيل ، والعرب تسمي الخيل خيراً ، كما كان العرب يسمون المال خيراً أيضاً ، والمعنى : أحببت الخيل حبّاً ﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أي هذه المحبة إنما حصلت عن ذكر اللّه وأمره ولإعلاء شأن دينه باعتبار أنها للجهاد في سبيله ، فقد كانت الخيل في تلك الأزمان عدة القتال الأولى في الحروب . فسليمان أحبها لهذه الأمور ، وهذا درس للمؤمن بأن يكون حبه للّه ، فإذا أحب شيئاً في هذه الحياة فلأنه يعينه على ذكر اللّه وشكره وإذا كره شيئاً فلأنه يصرفه عن سبيل ربه .

ثم انطلقت الخيل تتسابق ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ أي حتى غابت عن الأنظار . وأمر سليمان السائسين لهذه الخيل أن يردوها عليه : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ وبعد أن ردوها عليه ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ فجعل يمسح سيقانها وأعناقها بيده ترفقاً بها واستحساناً لها ، وليظهر أنه في ضبط السياسة والملك بحيث يباشر أكثر الأمور بنفسه ، بالإضافة إلى ذلك أنه كان عالماً بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ليعلم إن كان

---

(١) هذا الثناء ينطبق على كل مؤمن كثير الرجوع إلى الله لأن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف معرفة اللّه تعالى والاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلاّ بإعانة اللّه تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى اللّه فكان أوّاباً ، ومن كان أواباً إلى اللّه استحق لقب (نعم العبد) .

فيها ما يدل على أمارات المرض .

ويتابع القرآن فيشير إلى أن اللّه ابتلى سليمان ببعض الأمور امتحاناً له :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٣٤) .

فتنّا سليمان : أي ابتليناه واختبرناه ، وقد روى المفسرون في حقيقة هذه الفتنة بعض التفسيرات المنقولة عن الاسرائيليات التي لا صحة لها ، وهذه الفتنة يحوطها الغموض وأقرب التفسيرات لذلك ما روي عن النبي ﷺ : «قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّه ، فقال له صاحبه : قل إن شاء اللّه ، فلم يقل إن شاء اللّه ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلّا امرأة واحدة جاءت بشق رجل[١] ، وآيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيله ، فرساناً أجمعون »[٢] .

فالمراد بالجسد الذي ألقي على كرسيه هو جسد المولود الذي ألقته القابلة على كرسيه حين عرضته عليه ليراه .

وهناك تفسير آخر وهو أن اللّه امتحنه بمرض شديد أصابه حتى صار إذا جلس على كرسيه ظهر وكأنه جسد بلا روح ، والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على وضم[٣] وجسم بلا روح ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى حال الصحة .

---

(١) شق رجل : أي غير كامل البنية .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) الوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقى به من الأرض .

ويتابع القرآن الكلام عن سليمان فيذكر ما خصه اللَّه به من معجزات :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِك بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب ﴾ (٣٥ ـ ٤٠) .

فسليمان دعا ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لي ﴾ أي طلب من ربه أن يغفر له ما لم يستحسن منه من صغائر الذنوب لأن الأنبياء معصومون عن كبائر الإثم . ثم أردف قائلاً : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا ينبغي لِأَحدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ أي أعطني يا رب ملكاً لا يكون ولا يتسهل لأحد من بعدي من الناس ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ إنك يا رب كثير الهبات لا يتعاظم عندك هبة .

والملفت للنظر أن سليمان طلب أولاً المغفرة من اللَّه ثم طلب ثانياً الملك وهذا إرشاد للحرص على الدين قبل الحرص على الدنيا ، ومن جهة أخرى فإن في ذلك إعلاماً لنا بأن طلب الغفران من اللَّه سبب لإفاضة الخير والرزق في الدنيا .

هذا وإنما طلب سليمان من ربه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده لأنه نشأ في بيت الملك والنبوة ، وكان وارثاً لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة على حسب ما ألفه وهو ملك زائد على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلاً على نبوته ، فاستجاب اللَّه دعاءه . وكان مما أنعم اللَّه عليه أيضاً : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْري بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ أي فذلل اللَّه الريح لطاعته تجري ليّنة طيبة ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي وسخّر اللَّه لسليمان الشياطين يبنون

لـه ما يشـاء من المبـاني ، ومنهم من يغـوص في البحـار لاستخـراج اللؤلؤ والأحجار الكريمـة ﴿ وَآخَرِينَ مُقَـرَّنِينَ في الأَصْفَادِ ﴾ وهم مـردة الشياطين قيّدهم سليمان بالأغلال حتى لا يؤذوا الناس(١) ﴿ هَذَا عَطاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي هذا الذي أعـطيناك يـا سليمان من الملك العـظيم فأعطِ من شئت وامنع عطاءك من شئت ﴿ وَإِنَّ لَـهُ عِنْدَنَـا لَزُلْفَى ﴾ وإن لسليمـان لقـربة وكـرامة عنـد اللَّه ﴿ وَحُسْنَ مآب ﴾ وحسن مـرجـع في الآخـرة وهـو الجنة .

وبعد أن ذكر اللَّه قصـة داود وسليمان عقب عليهمـا بقصة أيـوب عليه السلام وما وقع له من البلاء ، وما قابله من الصبر والاحتمال، ليبيِّن لرسـوله محمد ﷺ أن من سُنَّة اللَّه أن يبتلي أنبيـاءه ، وفي هذا إيعاز لـه كي يصبر على ما يلاقيه من أذى قومه :

﴿ وَاذْكُـرْ عَبْـدَنَـا أَيُـوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّـهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْـطَانُ بِنُصْبٍ وَعـذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـذَا مُغْتَسـلٌ بَـارِدٌ وَشَـرَابٌ . وَوَهَبْنَـا لَـهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤١ ـ ٤٤) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ أي تـذكر يـا محمد حـال عبدنا أيوب وما أصيب بـه من البلاء واصبـر كما صبـر ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أي نـاداه مستغيثاً بـه فيما تعـرض لـه من البـلاء ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ

---

(١) وإنا لا نعلم حقيقة تلك القيود ولا كيف تكون العقوبة ، كما لا نعلم كيف يعمل الشياطين وكيف يبنون أو يغوصون ؟ فكل ذلك في عالم لا ندرك شيئاً من أحواله وان علينا أن نؤمن بأن سليمان لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليهم . (عن تفسير المراغي) .

وَعَـذَابٍ ﴾ المس : هو الإصـابة ، والنُصْب بضم النـون وسكون الصـاد : التعب والمشقـة . . وقد أراد أيـوب بمـا مَسّـه الشيـطان ـ واللَّه أعلم ـ هـو ما كان يوسوس به إليه في مـرضه من تعـظيم ما نـزل به من البـلاء ويدفعـه على التخلي عن الصبر وكره ما نزل بـه فالتجـأ إلى اللَّه في أن يكفيه ذلـك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل .

فقد روي أن اللَّه ابتلى أيوب في ضر في جسده ومـاله وولـده حتى لم يبق من جسـده مغرز إبـرة سليماً سـوى قلبه ، ولم يبق لـه من الدنيـا شيء يستعين به على مرضه وما نزل به ، غير أن زوجته حفظت وُدّه لإيمانها باللَّه تعالى فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخـدمه نحـواً من ثماني عشـرة سنـة ، وقد كـان قبل ذلـك في بحبوحـة من المال وسعـة طائلة من الـدنيـا فسلب جميع ذلك .

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَـلٌ بَارِدٌ وَشَـرَابٌ ﴾ أي بعد استغـاثته بـربه استجاب له وقال له : اركض بـرجلك أي اضرب بـرجلك الأرض[١] ففعل أيوب ذلك فنبعت عينان من الماء فاغتسل من إحـداهما فـأذهب اللَّه تعالى عنه ظاهر دائه وشـرب من الأخرى فـأذهب اللَّه تعالى بـاطن دائه ، وبهـذا المغتسل والمشرب أَذهب اللَّه عنه كل ما كان عليـه من البلاء ﴿ وَوَهَبْنَـا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ قيـل إن اللَّه تعالى أحيـا من مات من أهله وعـافى المرضى وجمـع عليـه من تفرق منهم ، وقيـل : رزقـه اللَّه أولاداً وذريـة بـدل ذريتـه الـذين هلكـوا ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أي زاده مثلهم فكانـوا ضعفي ما كـانوا عليـه من قبـل ابتلائـه ﴿ رَحْمَةً مِنَّـا وَذِكْرَى لِأُولِي الأَلبَـابِ ﴾ أي وهب اللَّه لـه هـذه

(١) قيل إن هذا الموضع بأرض الشام يقال له الجابية .

الذرية لأجل رحمته إياه ، وليكون ذلك تذكرة وعظة يتعظ بها أصحاب العقول فيصبروا على الشدائد كما صبر .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ في الكلام هنا حذف، بيانه : أن أيوب كان قد حلف ليضربن امرأته مئة ضربة إن شفي لسبب حصل منها ، ولما كانت محسنة جعل اللّٰه لأيوب مخرجاً ليمينه بقوله له : خذ بيدك ضغثاً ، والضغث : قبضة من قضبان مختلفة ، أو حزمة من الحشيش ، فجمع أيوب قبضة تقدر بمئة من العيدان الرطبة فضرب بها امرأته ضربة واحدة برفق ، فبرّ بذلك اليمين الذي أقسم به وتحلل منه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ أي أن اللّٰه وجد أيوب صابراً على البلاء الذي ابتلاه به ولذا مدحه بقوله : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ ﴾ نِعْمَ : كلمة تقال في المدح ، لقد مدحه اللّٰه بسبب صبره وبسبب أنه أواب أي كثير الرجوع إلى اللّٰه بالتوبة والعبادة والطاعة وهذا معناه أن كل مؤمن يتصف بصفة الصبر والرجوع إلى اللّٰه بالتوبة والطاعة يستحق الثناء من اللّٰه .

وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي
وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ
عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ
وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾
جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا
بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا
مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾
هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾

شرح المفردات

أُولي الأيدي : أصحاب النعم على الناس والإحسان إليهم .

والأبصار : أي العلم والمعرفة في الدين .

أَخْلَصْناهم بخَالِصَةٍ : اصطفيناهم بسبب خلة خاصة .

ذِكْرَى الدَّارِ : تذكرة الدار الآخرة .

الْمُصْطَفين : المختارين .

هذا ذِكْرٌ : أي هذا المذكور من محاسنهم هو شرف لهم .

جَنَّاتِ عَدْنٍ : بساتين إقامة واستقرار .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : نساء قصرن طرفهن على أزواجهن .

أَتْرَابٌ : متساويات في السن .

للطَّاغِينَ : للذين تمردوا على ربهم فعصوا أمره .

لَشَرَّ مآبٍ : لشر مرجع ومصير .

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها ويقاسون حرها .

فَبِئْسَ المِهَادُ : فبئس الفراش .

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟
بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا
مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ
رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ
عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠
مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

شرح المفردات

حَمِيمٌ : الماء الذي بلغ نهاية الحرارة .

غسَّاقٌ : صديد أهل النار .

أزْواج : أَصْناف أُخر من العذاب .

هَذَا فَوْجٌ : هذا جمع من أتباعكم أيها القادة .

مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ : الاقتحام الدخول في الشيء بشدة أي داخل معكم النار .

لا مَرْحَباً بِهِم : لا رحبت بهم دار العذاب .

صَالوا النَّارِ : واردو النار وداخلوها .

فَبِئْسَ الْقَرار : فبئس ما يستقرون به في جهنم .

زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَار : انحرفت عن رؤيتهم .

تابع سورة ص [٧]

وبعد الكلام عن أيوب عليه السلام يأتي الكلام عن إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُم عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٤٥ ـ ٤٧) .

فاللّه يأمر رسوله محمداً بأن يذكر ما حصل لهؤلاء الأنبياء معتبراً بما كانوا يتحلون به من الصفات فهم ﴿ أولي الأيدي ﴾ أي القوة في عبادة اللّه وطاعته ، وقيل : أصحاب النعم على الناس بما أحسنوا وقدموا من خير لهم ﴿ والأبصار ﴾ أي الفقه في الدين والبصر في الحق .

ولما كانت اليد آلة لأكثر الأعمال ، والبصر آلة لأقوى الإدراكات جاء الجمال في التعبير عن العمل باليد ، وفي التعبير عن الإدراك والفهم بالبصر .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي إنا خصصناهم واصطفيناهم بسبب خلة خاصة فيهم وهي تذكرهم للدار الآخرة والعمل لها ، وتذكيرهم الناس بها بدعوتهم للإيمان باللّه والعمل الصالح ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ الاصطفاء : الاختيار ، أي أنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار وهم الفضلاء .

ويتابع القرآن فيثني أيضاً على أنبياء أُخر :

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٤٨ ـ ٤٩) .

فاللّه سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يذكر بالإضافة إلى من سبق هؤلاء الأنبياء الذين صبروا وتحملوا الشدائد في سبيل دين اللّه ليصبر على أذى قومه كما صبروا ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾ وكلهم من الأنبياء الذين اختارهم اللّه لنبوته ، واصطفاهم من خلقه ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به أبداً ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ ﴾ وإن للمتقين الذين اتقوا اللّه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه لحسن مرجع يرجعون إليه في الآخرة وهو الجنة .

ويتابع القرآن فيذكر ما أعد اللّه للمتقين من نعيم في الآخرة :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ . مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرةٍ وَشَرَابٍ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوم الْحِسَابِ . إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (٥٠ ـ ٥٤) .

فاللّه سبحانه أعد للمتقين : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوابُ ﴾ في هذه الجنان إقامة دائمة واستقرار لا يزول قد فتحت لهم أبوابها بانتظار قدومهم ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أي يجلسون فيها متمكنين مستقرين على الأسرّة ﴿ يَدْعُون فِيهَا بفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ أي يطلبون إحضار الفاكهة الكثيرة والشراب الكثير ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي وعندهم نساء قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يلتفتن إلى غيرهم ، وهؤلاء النسوة ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي متساويات في السن والجمال ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي هذا الذي ذكر اللّه من صفة الجنة هي التي وعد اللّه بها عباده المتقين والتي سيصيرون إليها يوم الجزاء ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أي ما ذكر من الجنات وأوصافها هي مما يتفضل اللّه به على عباده المتقين ما له من انقطاع أبداً .

وبعد ذكر نعيم المتقين يأتي ذكر ما أعد اللّه للطغاة من العذاب الأليم :

﴿ هَـذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مـآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَـادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ (٥٥ ـ ٥٧) .

فاللّه سبحانه يقول : ﴿ هَـذَا وَإِن لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَـآبٍ ﴾ هذا : إشارة إلى ما سبق مما خص به المتقين من نعيم ، أي هذا جزاؤهم ، وإن الطغاة الذين تجاوزوا الحد في العصيان والشر لهـم شر مرجع ومصير في الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَـا ﴾ جهنم : هي دار العذاب في الآخـرة التي تتأجـج بالنيران يدخلها الطغاة ليكتووا بنارها ﴿ فَبِئْس المِهَادُ ﴾ فبئس الفراش جهنم يفترشونها ﴿ هَذَا فَلْيَـذُوقوهُ حَمِيمٌ وَغسَّـاق ﴾ أي هذا العـذاب فليذوقوه ، منـه حميم : وهو المـاء الشديـد الحرارة يلجأون إلى شربـه إذا أصـابهم الظمأ . ومن شرابهم أيضاً الغسّاق: وهو ما يسيل من جلود أهل جهنم من صديد بفعل النيران ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ الشكل : الشبيه ، أي ولهم أنواع أخرى من العذاب شبيهة بما ذكر في الفظاعـة والهول ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي هـذا العذاب ألوان وأنواع .

ثم ينتقل القرآن إلى وصف حـوار يكـون في جهنم بين أسيـاد الكفـر وأتباعهم :

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَـرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّـارِ . قَالُـوا بَلْ أَنْتُم لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَـزِدْهُ عَذَابـاً ضِعْفاً في النَّـارِ . وَقَالُـوا مَا لَنَـا لَا نَرَى رِجَـالاً كُنَّا نَعُـدُّهُم مِنَ الأَشْـرَارِ . أَتَّخَـذْنَـاهُم سِخْرِيّـاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَـارُ إِنَّ ذَلِـكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (٥٩ ـ ٦٤) .

فـاللَّه سبحانـه يقـول : ﴿ هَـذَا فَـوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ أي هـذه فـرقـة وجماعة مقتحمة معكم ، أيها الطاغون ، النار . هذا القول حكاية لما تقوله خـزنة جهنم لـرؤساء الكـافرين بعـد أن يدخلوا النـار ، ثم يدخـل أتبـاعهم بعـدهم إلى النار ويلحقـوا بهم . فيجيب الـرؤسـاء : ﴿ لَا مَـرْحَبـاً بِهِمْ ﴾ ومرحباً تستعمل في تحية الـوارد والدعـاء بالخيـر ، أي أتيت رحباً وسعـة ، وأنزل في الرحب(١) والسعة فإذا أردت الدعاء بالسوء والـطرد أدخلت عليها « لا » كمـا في الآية أي لا اتسعت منـازلهم في النار ولا استحقـوا تكـريمـاً ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ إنهم داخلو النار ومقاسو حرها مثلنا ﴿ قَالُوا : بَلْ أَنْتُم لا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي قال الأتباع لرؤسائهم : بـل أنتم لا رَحُبت بكم الأرض ولا اتسعت، وهذا ينبىء على ما بينهم من نفو ر وكراهية شديدة ، ويضيف الأتبـاع قائلين : ﴿ أَنْتُمْ قَـدَّمْتُمُوهُ لَنَـا ﴾ أي أنتم قـدمتـم لنـا هـذا العـذاب بـدعائكم إيـاناً إلى الكفـر ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ فبئس المكـان جهنم لنا ولكم ﴿ قالوا : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَـا هَذَا ﴾ أي قـال الأتباع مخـاطبين ربهم : يا رب من قدم لنا هذا العذاب بدعوته إيانا إلى المعاصي ﴿ فَزِدْهُ عَذَابـاً ضِعْفاً في النَّـار ﴾ والضعف من العذاب أن يـزيـد عليـه مثله ، أي فضـاعف يـا رب العذاب في النار لمن أغوانا .

فـي هـذه الآيات إرشـاد للنـاس بـأن لا يتبعـوا قـادتهم وحكـامهم في معصية اللَّه لأن ذلك يوردهم عذاب اللَّه في الآخرة . ومن وصايا النبي ﷺ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

﴿ وَقَالُوا : مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأَشْرَارِ ﴾ هذا من قـول رؤساء الكافـرين ينظرون إلى النـار فلا يـرون من كان يخـالفهم في العقيدة

---

(١) الرحب والرحيب : الشيء الواسع .

من المؤمنين الذين كانوا في نظرهم من الأشرار ، أمثال : عمار ، وخباب ،وصهيب ، وبلال ، وسلمان . ويضيف الرؤساء قولهم : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قالوا ذلك إنكاراً على أنفسهم وتوبيخاً لها من السخرية بالمؤمنين ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ هذا القول متصل بقولهم : ما لنا لا نرى ، والمعنى : ما لنا لا نرى هؤلاء المؤمنين في النار أليسوا هم فيها فلذلك لا نراهم ، أم هم دخلوا النار فاضطربت أنظارنا وانحرفت عن رؤيتهم ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ ﴾ أي إن الذي حكي من أحوالهم لحقٌّ لا بد أن يتكلموا به ولا بد من وقوعه ، وهو : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي الخصومة والنزاع بين الرؤساء والمتبوعين في جهنم .

ثم يخاطب اللّه رسوله محمداً بأن يحذر قومه من عاقبة الكفر ، وأن يدعوهم للإيمان باللّه وحده :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾ (٦٥ ، ٦٦) .

أي قل يا محمد لقومك المشركين ﴿ إِنمـا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ أي مخوف لكم من عقاب اللّه على كفركم فبادروا إلى التوبة ﴿ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وما من معبود تصلح له العبادة وتنبغي له الربوبية إلاّ اللّه الذي يدين له كل شيء ﴿ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الواحد الذي لا ينبغي أن يكون له في ملكه شريك ، القهار : أي الغالب جميع الخلق الذي قهرهم بسلطانه وقدرته . وقهّار صيغة للمبالغة ﴿ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي مالك السموات والأرض وما بينهما من خلائق ﴿ العَزِيزُ ﴾ أي القوي الغالب في نقمته على أهل الكفر ﴿ الغَفَّارُ ﴾ الساتر لذنوب عبادة التائبين المتجاوز عن خطاياهم . وغفار صيغة للمبالغة أي كثير الغفران .

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ
مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى
خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ
مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ

شرح المفردات

هُو نَبأٌ عَظِيمٌ : هذا القرآن خبر عظيم .

الملأ الأعلى : هم الملائكة .

يَخْتَصِمُونَ : يتجادلون في شأن آدم وخلافته .

سَوَّيْتُهُ : أَتممت خلقه بالصورة الإنسانية .

مِنْ رُوحي : من قدرتي .

سَاجِدِين : سجود تحية لا سجود عبادة .

رَجِيمٌ : مطرود من كل خير وبركة ملعون من اللّه .

فَأَنْظِرْني : فأمهلني في الأجل .

يوم الوقت المعلوم : أي يوم تبعث خلقك .

ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ
وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

شرح المفردات

فَبِعِزَّتِكَ : قَسَمٌ بسلطان اللّٰه وقهره وقدرته .

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين : لأضلن بني آدم أجمعين .

الْمُخْلَصِين : الذين أخلصتهم يا رب لعبادتك .

الْمُتَكَلِّفِينَ : المتصنعين المفترين على اللّٰه بادعاء النبوة .

نَبَأَهُ : صدق أخباره .

تابع سورة ص

ثم يعرض القرآن ذلك الحوار الذي كان بين الملائكة في شأن خلق آدم ويبين كيفية خلقه، ودعوة اللّه للملائكة للسجود له وامتناع إبليس ، وهذه أمور لا تعرف إلّا عن طريق الوحي الإلّهي الذي أوحاه اللّه لرسوله محمد ﷺ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إِنّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ (٦٧ - ٧٤) .

فاللّه سبحانه يقول: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي قل يا محمد لقومك المكذبين بما جئت به من عند اللّه بأن هذا القرآن هو خبر عظيم ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُون ﴾ أنتم عنه منصرفون لا تعملون به ، ولا تصدقون بما فيه من حجج اللّه وآياته ﴿ مَا كَان لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالملإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى : هم الملائكة ، أي وقل لهم ما كان لي من علم بأخبار الملائكة وقت اختصامهم[1] في شأن آدم وامتناع إبليس عن السجود له ، والاختصام هنا بمعنى الحوار والمجادلة . ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي إنما علمت بهذه المخاصمة بوحي من اللّه تعالى لأنني نبي ،

---

(١) الخصومة في اللغة : الجدل ، يقال خاصمه خصاماً ومخاصمة غلبه بالحجة . ومجادلة الملائكة تمثل حين قال اللّه تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ فقال الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فهذا السؤال والجواب شبيه بالمخاصمة على سبيل المجاز .

وقد أوحى اللّه إليَّ أن أنذركم وأُخوفكم من عصيان اللّه وأبيّن لكم ما يجب أن تؤمنوا به من العقائد وما يجب أن تأتوه من الأعمال أو تجتنبوه .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ﴾ أي آذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة بأنه سيخلق إنساناً ـ وهو آدم ـ من طين ، والطين هو التراب المختلط بالماء ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي ﴾ أي فإذا سويت خلقه ، وعدّلت صورته ، ونفخت فيه من قدرتي ، أو بعبارة أخرى : فإذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري[1] ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[2] فخروا له ساجدين سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة لأن سجود العبادة لا يكون إلاّ للّه سبحانه ﴿ فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فلما سوّى اللّه خلق ذلك البشر وهو آدم ، ونفخ فيه من روحه ، سجد له الملائكة كلهم أجمعون ، وقد أكد القرآن ذلك بلفظين مبالغة في التعميم وهو لفظ كلهم ، ولفظ أجمعون . فكلهم تفيد الشمول وأجمعون تفيد أنهم سجدوا في وقت واحد لا على فترات ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ غير إن إبليس فإنه لم يسجد تعظماً وتكبراً ﴿ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ وكان إبليس ممن جحد ربوبية اللّه وأنكر ما يجب الإقرار له من الإذعان والطاعة .

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله اللّه سبحانه لإبليس عندما تمرد على أمره بالسجود له :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَك أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ

---

(١) جاء في القرآن : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ .

(٢) سجد يسجد سجوداً وضع جبهته على الأرض ، ويكون السجود على جهة الخضوع والانقياد والتذلل .

مِنَ العَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٧٥ ـ ٧٨) .

فاللَّه سبحانه يقول مخاطباً إبليس : ما صرفك وصدَّك عن أن تسجد لآدم وقد أمرتك به ، ولم يذكر هنا آدم وإنما قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي لما توليت خلقه بيدي ، وقد أضاف اللَّه خلق الإنسان إلى نفسه تكريماً لآدم ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ أي أتعظمت بنفسك عن السجود لآدم فتركت السجود له استكباراً عليه ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود له ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ﴾ أي قال إبليس : فعلت ذلك فلم أسجد لآدم لأني خير منه فقد خلقتني من نار ﴿ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[1] وخلقت آدم من تراب وماء ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي قال اللَّه لإبليس : اخرج من الجنة فإنك مشتوم ملعون مطرود من كل خير وكرامة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة اللَّه ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم .

ثم يحكي لنا القرآن بعد ذلك جواب إبليس بعد أن طرده اللَّه من الجنة وخصه بلعنته :

---

(١) إن قول ابليس هذا هو ادعاء لا أساس له من الصحة ، فالنار والطين من مخلوقات اللَّه ، والأفضلية تكون بتفضيل اللَّه لا باختياره سواه . فالطين مؤلف من مادتين ماء وتراب ومنهما خلق اللَّه الإنسان والحيوان والنبات.والنار ليس لها إلا الاشتعال من مادة الأرض وهي الحطب والفحم وسوى ذلك .

ولنفرض أن إبليس خير من آدم فإن أمر اللَّه مقدم على كل اعتبار ومن هنا كان عدم امتثاله لأمر ربه سبباً لطرده من رحمة اللَّه .

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ المعْلُومِ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٧٩ ـ ٨٥) .

فإبليس يخاطب ربه : ﴿ قَالَ ربِّ فَأَنظِرني ﴾ أي لا تهلكني عاجلاً وأخرني في الأجل ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ إلى يومٍ تبعث خلقك من قبورهم ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أي قال اللّه : إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمة التكوين ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ إلى ذلك الوقت الذي جعله اللّه أجلاً ووقتاً لهلاكه وفناء الخلائق ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الباء الداخلة على عزتك للقسم أي حلف إبليس بعزة اللّه وسلطانه وجلاله على أن يُضِلّ بني آدم أجمعين بتزيين الشهوات لهم وإدخال الشبه عليهم ، ثم استثنى إبليس من لا يستطيع إضلاله ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمخلَصِينَ ﴾ أي إلّا من أخلصته منهم يا رب لعبادتك ، وعصمته من إضلالي ولم تجعل لي عليه سبيلاً فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي قال اللّه : الحق مني ، وأقول الحق ، أو بمعنى : أنا الحق والحق أقول ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لأملأن جهنم منك يا إبليس وممن تبعك من ذرية آدم أجمعين بسبب ما زينته لهم من الضلال .

ويختم اللّه هذه السورة مؤكداً نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي من عند اللّه :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٨٦ ـ ٨٨) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي قل يا محمد لقومك ما أسألكم على ما أمرت بتبليغه إليكم من وحي اللّه أجراً ولا مكافأة ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وما أنا من المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله فأنتحل النبوة وأدعوكم إلى غير ما أمرني اللّه بالدعوة إليه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي إن القرآن الذي أنزل عليَّ ما هو إلاّ تذكير من اللّه وعظة للعالمين جميعاً ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ولتعلمن أيها المكذبون به صدق ما اشتمل عليه من وعد ووعيد وإخبار عن أمور مستقبلة وآيات كونية بعد وقت قريب . هذه الآية التي اختتمت بها هذه السورة معجزة من معجزات القرآن ، لقد نزلت هذه الآية بمكة حيث كان الإسلام ضعيفاً مضطهداً من أسياد الكفر ، ولكن بعد فترة وجيزة عزَّ الإسلام واندحر الكافرون، وهلك أو أسلم الكثير من أسيادهم ، ورفرفت راية الإسلام خفاقة في سائر جزيرة العرب وامتدت بعد ذلك إلى أنحاء العالم ، وها هو القرآن الآن في عصر العلم والذرة يظهر إعجازه بما نبّأ به من وعد ووعيد ، ومن إشارات إلى كثير من حقائق الكون التي كانت مجهولة في عصر تنزيل القرآن ، أضف إلى ذلك ما حواه من آداب وتشريع بذَّ فيه الكتب الإلّهية السابقة ، وتفوق به على أساطين المشرعين من قبله ومن بعده ، وما ذلك إلّا لأنه كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .

حول قراءة سورة يسٓ عند الموت

من الملاحظ أن كثيراً من المسلمين يقرأون هذه السورة عند موت أقاربهم ويهدون ثوابها لهم . فما مصدر ذلك ؟ إنهم يفعلون هذا مسترشدين بأحاديث وردت عن رسول اللّٰه ﷺ في هذا السبيل كقوله :

« يسٓ قلب القرآن لا يقرؤها عبد يريد اللّٰه والدار الآخرة إلّا غفر له ما تقدم من ذنبه فاقرأوها على موتاكم »(١) .

« ما من ميت يقرأ عنده يٓس إلّا هوّن اللّٰه عليه »(٢) .

« سورة يٓس تدعى في التوراة المُعِمّة تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة وتكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة »(٣) .

« من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة فقرأ عندهما يٓس غفر اللّٰه بعدد كل حرف منها »(٤) .

هذه الأحاديث الواردة في فضل قراءة هذه السورة أسانيدها ضعيفة ولكن يقوي بعضها بعضاً والعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال لا مانع منه فعليه إذا قرئت هذه السورة لإيصال ثوابها إلى الأموات فلا مانع من ذلك ، وكل الأعمال الصالحة من حج وصدقة وبر إذا أراد فاعلها إهداء ثوابها للميت فإنه يصل ، والشواهد على ذلك كثيرة في الأحاديث الشريفة .

ولا يجوز أن يفهم من هذا أن قراءة القرآن وإهداء ثوابه إلى الميت يغسل كل ذنوبه صغيرها وكبيرها ويسقط ما عليه من حقوق للعباد أو تقصير في أداء فرائض اللّٰه ، إن من يفهم هذا يكون مسرفاً في ظنه مغالياً في تقديره ذلك أن

---

(١) أخرج هذا الحديث أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطبراني .

(٢) أخرجه ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء . (٣) أخرجه البيهقي .

(٤) أخرجه ابن النجار في تاريخه عن أبي بكر الصديق .

اللَّه عز وجل يغفر الصغائر بتجنب الكبائر . أما الكبائر فأمرها متروك إلى عفو اللَّه ورحمته وعلى هذا ينبغي أن يظل المؤمن في مقام الخوف من عقاب اللَّه والرجاء في رحمة اللَّه وأن لا يركن إلى أن عملاً من الأعمال الصالحة يزيل إثم الكبائر ويمحو آثارها باستثناء توبة الإنسان النصوح المقترنة بالإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على عدم العودة إليه . ومع أن التوبة الخالصة تمحو الذنوب فإنها لا تسقط حقوق العباد ومظالمهم فإن هذه لا تسقط إلّا برد الحقوق إلى أصحابها أو بعفو أصحاب هذه الحقوق عمن ظلمهم وأساء إليهم .

إذا تقرر هذا فإن الرجاء في اللَّه أن تكون قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت مخففة لذنوبه أو زيادة في حسناته واللَّه أعلم .

وبهذه المناسبة نتعرض إلى ما يفعله الناس من وضع الأشرطة المسجلة لقراءة القرآن في السيارات الحاملة للجنائز والمتقدمة عليهم فهذا شيء لا أصل له في الدين ولا يحسن فعله الآن لأن الناس أصبحوا يتشاءمون من هذه الأصوات إذ أنهم يعدونها نذير شؤم من الموت . ومثل ذلك مكبرات الصوت التي يضعها البعض على شرفات المنازل لإسماع أهل الحي بموت قريبهم ، فهذا لم يكن من الدين يوماً ما ولا أصل له ، كما أن ذلك يجعل القرآن مناسبة للموت فقط مما يجعل في نفوس الناس كراهية سماع القرآن والنفور منه . فقراءة القرآن هي أفضل الأعمال الصالحة التي يُتقرب بها إلى اللَّه وهي تحتاج إلى أدب واحترام وإنصات ، وإمعان فكر من السامعين في كلام اللَّه لا كما يفعله الناس عند تلاوة القرآن في مكبرات الصوت ، فنراهم منهمكين في الكلام الدنيوي والإعراض عن سماع القرآن والتفكر في معانيه ، وهذا الحكم المنوه به لا يختلف عن وضع الناس لمكبرات الصوت في مآذن المساجد وتلاوة القرآن فيها حيث يذهب الصوت بلا فائدة في ضجيج السيارات وزحمة العمل ولا يفهم منه المستمع شيئاً بل يكون هذا الصوت سبباً في تفويت كثير من الفوائد على من يصلي في بيته أو في مسجده أو من يقرأ القرآن منفرداً ، أو لطالب علم مستغرق في درسه فلكل هذه الحيثيات يجب الإقلاع عن التلاوة المذاعة .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .
لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .
روح المعاني للألوسي .
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

كتب للمؤلف

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طه

الفهرس

روح القرآن الكريم

تفسير جزء الزمر

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذَا التَّفْسِيرُ

- يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحاضر .
- يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بعَيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون :
دار العِلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة . وهذا الجزء الرابع والعشريون يبتدىء بالآية ٣٢ من سورة الزمر وينتهي بالآية ٤٦ من سورة فصلت ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا أتممنا تفسير سورة الزمر وسورة فصلت وسمينا هذا الجزء « جزء الزمر » تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم « جزء عم » و « جزء تبارك » إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها . ونحن ارتأينا تسمية هذا الجزء باسم السورةالتي يبتدىء بها هذا الجزء .

روح القرآن الكريم

تفسير جزء الزمر

الجزء الرابع والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

دار العلم للملايين

ص.ب : ١٠٨٥ - بيروت

تلكس : ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩

كلمة شكر

أقدم شكري وامتناني للأساتذة :

القاضي الشيخ حسين غزال

الشيخ شريف سكر

مصطفى قصاص

على ما أبدوه لي من ملاحظات قيمة

راجياً من الله أن يجزيهم خير الجزاء

المؤلف

سُورَةُ الزُّمَر

تدعو هذه السورة في كثير من آياتها إلى إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان وأشباههما .

كما تتحدث السورة عن مظاهر قدرة الله في الطبيعة وفي خلق الإنسان والحيوان .

وتصور السورة طبيعة الإنسان في الشدة والنعمة ، وبالتالي توجهه نحو خالقه ، مع المقارنة بين المطيع لله العابد له ، وبين الجاحد له .

وتتحدث السورة عن مصير الإنسان في الآخرة حيث أعدّ الله للعصاة عذاب النار ، مع بيان مصير المتقين وما أعد الله لهم من ألوان النعيم .

وتتحدث السورة كذلك عن القرآن ومزاياه وتأثيره في قلوب الذين يخشون ربهم . وتبشر السورة العصاة بالمغفرة إذا رجعوا إلى ربهم بالتوبة والعمل الصالح مهما كثرت ذنوبهم .

وتختتم السورة ببيان عظمة الله الذي له القدرة التامة على التصرف في الكون حيث تطوى السماوات يوم القيامة بقدرته ، وحيث يأمر الله الملك إسرافيل بالنفخ في البوق فيصعق من في السموات ومن في الأرض من مخلوقات . ثم ينفخ في البوق نفخة أخرى فإذا الأموات يبعثون من قبورهم أحياء ، ثم يحكم الله بين الناس جميعاً بالعدل ، وعندها يساق الكافرون جماعات إلى عذاب النار ، ويساق المتقون إلى نعيم الجنة .

سميت هذه السورة بسورة الزمر لقوله تعالى فيها : ﴿ وَسِيقَ الَّذينَ اتّقوا رَبَّهُم إلَى الجَنَّةِ زُمَراً ﴾ كما تسمى هذه السورة سورة الغرف لقوله تعالى فيها : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَف ﴾ .

سُورَةُ الزُّمَر

مكية وآياتها ٧٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ
بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ
سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ
يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ

شرح المفردات

فاعبُدِ الله مخلِصاً له الدِّين : فاعبد الله مفرداً له العبادة لا يشوبها شرك ولا رياء .

ألا لِلَّه الدِّينُ الخالص : ألا لله العبادة والطاعة الخالصة له وحده .

أولياء : آلهة ونصراء .

زُلْفى : قربى .

لاصطفى : لاختار .

سبحانه : تنزه الله عن اتخاذ الشريك والولد .

يكوِّر الليل على النهار : التكوير هو اللف والجمع ، أي يلف الليل على النهار ويحجبه .

سخَّر الشمس والقمر : ذلّلهما لمنفعة الإنسان والحيوان .

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ
وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا
رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ
مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ
إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا

شرح المفردات

أنزل : أنشأ وأحدث .

الأنعام : الإبل والبقر والغنم .

فَأَنَّى تُصْرفون : فكيف تنصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره .

ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى بل كل يؤاخذ بذنبه .

ضُرٌّ : شدة من أي نوع كانت .

منيباً إليه : راجعاً إليه ، مطيعاً له ، مستغيثاً به .

خَوَّلَه : ملّكه ومنحه .

وجعل لله أنداداً : وجعل لله شركاء في العبادة مشابهين له ومساوين .

قانت : مطيع لله مصلٍّ له .

آناء الليل : ساعات الليل ، أوله ووسطه وآخره .

يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ
وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ
ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ
أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾
قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ
مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾
لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ
عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا
وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

يحذر الآخرة : يخاف عذاب الآخرة .

إنَّما يتذكّر أولو الألباب : إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة .

اتقوا ربكم : خافوا ربكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

يوفَّى : يُعطون حقهم كاملاً .

بغير حساب : أي من الكثرة والعِظم بحيث لا يمكن حصره .

ظلل : طبقات من النار .

الطاغوت : الشيطان وكل معبود غير الله .

وأنابوا إلى الله : رجعوا إلى عبادته وحده تائبين من ذنوبهم .

سُورَةُ الزُّمَرِ

ايضـــاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن منزل من عنده على رسوله محمد ﷺ :

﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (١ ، ٢) .

فالله سبحانه يقول : إن هذا الكتاب والمقصود به القرآن ، هو منزّل من عنده ، فهو سبحانه من صفاته : ﴿ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ أي القوي الغالب كل شيء ، الذي يفعل ما يشاء بحكمة وإتقان .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالْحَقِّ ﴾ أي أنزلنا إليك القرآن يا محمد مقروناً بالحق ، فكل ما في القرآن حق يجب الإيمان والعمل به .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ والدين معناه هنا : الطاعة والعبادة[1] ، والمراد بإخلاص الطاعة والعبادة أن يكون الباعث إلى إتيانهما الانقياد والامتثال لأمر الله من غير أن يشوبهما شيء من الشرك والرياء .

والملفت للنظر أن الله كرّر لفظ إنزال القرآن من عنده : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ ﴾ للتأكيد على أن القرآن ليس من تأليف محمد كما كان يدّعي بعض الناس في زمن الرسول محمد ﷺ ، وكما يدّعي الآن كثير من أتباع الديانات الأخرى بدون علم ولا دراية ، بل عن تجنٍّ وافتراء بقصد الإساءة إلى نبوّة محمد ﷺ وطمسها ، ولكن أي

---

(١) ومن معاني الدين الجزاء والشريعة .

إنسان يتحلّى بالتفكير الحرّ المنصف ، ويلمّ بأصول اللغة العربية ، إذا درس القرآن بتجرّد عن التعصب والهوى ، وبعقل متفتح إلى المعرفة ، لا يلبث أن يقتنع بأن القرآن ليس من تأليف بشر ، بل هو بحق كتاب مُنْزَلٌ من عند الله .

فما يحتويه القرآن من صفات الله المتسمة بالكمال والقوة والجلال التي لا تليق إلّا بذاته تعالى ، وما فيه من أسرار أمور الآخرة وعدالة الحساب والجزاء ، وما يشتمل عليه من المبادىء السامية ، والتشريعات العادلة ، وما فيه من إشارات إلى حقائق الكون سمائه وأرضه ، وإنسانه وحيوانه ، وما فيه من قصص الأنبياء السابقين المشحونة بالدروس والعبر ، ثم تصحيحه لعقائد الأمم وأصحاب الديانات الأخرى ، كل ذلك وغيره يشهد بأن القرآن هو كلام الله وليس من كلام إنسان ، لأنه ليس في جميع الكتب الحاضرة كتاب يوازيه هداية وروعة ، وجلالاً وتأثيراً في النفس .

أضف إلى ذلك ما ينطوي عليه القرآن من بلاغة السبك وتناسق الألفاظ وروعة النغم الصوتي بما لم يستطع أحد من البلغاء مجاراة فصاحته إلى الآن .

ثم نعود إلى متابعة آيات هذه السورة فنراها تستنكر توجّه بعض الناس إلى غير الله في العبادة والطاعة :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ والخالص والمخلص بمعنى واحد ، أي أن العبادة والطاعة الخالصة إنما تكون لله وحده دون أن

يكون معه أحد سواه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ وأولياء جمع وليّ وهو الذي يهيئ للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه ، والمراد بالأولياء هنا : الأوثان والأصنام فقد عبدها المشركون من دون الله وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي ما نعبد هؤلاء الأصنام إلاّ ليقربونا إلى الله قربة ويشفعوا لنا . فالمشركون إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فَيُقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ فيقولون : نعبدها لتقرّبنا إلى الله وتشفع لنا .

فالمشركون ابتدعوا أسطورة بنوّة الملائكة لله سبحانه ، ثم صاغوا للملائكة تماثيل من وحي خيالهم يعبدونها من خلالها ، وأطلقوا عليها أسماء : اللات والعُزّى ومناة ، وغيرها ، وهي آلهة في نظرهم تشفع لهم عند الله .

واليوم نرى عند اتباع الأديان الأخرى عبادة الأنبياء والقديسين ، فقد صاغوا لها تماثيل ، وجعلوها في دور العبادة ، وعبدوها مع الله زاعمين أنها تشفع لهم وتقربهم إلى الله ، فما أشبه الجماعات الحاضرة بالجماعات السالفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إن الله يحكم بين الخلائق فيما اختلفوا فيه من الدين ويجازي كل عامل بعمله ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ إن الله لا يرشد إلى الهداية من قَصْدُه الكذب والافتراء على الله ، كفّار : أي مبالغ في الكفر وذلك بعبادته للأصنام .

ثم يبين القرآن استحالة أن يكون لله ولد، فهو وحده خالق الكون:

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا

﴿هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ (٤ ، ٥) .

فالله سبحانه يقول : إنه لو شاء اتخاذ ولد ﴿لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لاختار من خلقه ما يشاء إذ يستحيل أن يكون له ولد بطريق التوالد المعروف ، ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ أي إن الله منزه عن المثيل والشبيه فهو سبحانه قهر كل شيء بقدرته .

﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ فهو سبحانه خلق السموات والأرض وما فيهما من الموجودات والكائنات الحية بالحق والصواب ، ومن كان هذا خَلْقُهُ فحقه أن يُفرد بالعبادة لا أن يُشرك معه أحد من خلقه .

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ هذا النص القرآني يشير إلى ما كشف عن كروية الأرض ، والقرآن أول من أشار إلى ذلك منذ أربعة عشر قرناً حين كان هذا الأمر مجهولاً لدى البشر .

فإذا أخذنا مادة كوّر رأينا أنه يقال : كوّر الشيء يكوره تكويراً لفّه على شيء آخر مستدير ، فيقال كار العمامة على رأسه لفها وأدارها . فالأرض كروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكوّر يغمره الضوء فيكون نهاراً ، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور ، وكلما دارت بدأ الليل يغمر سطح الأرض الذي كان عليه النهار ، وهذا السطح من الأرض مكوّر (أي في شكل دائري) فالنهار كان عليه مكوّراً ، والليل يتبعه مكوّراً كذلك ، وهكذا في حركة دائبة لاستمرار دوران الأرض ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ الذي هو نص صريح على كروية الأرض .

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ذللهما الله

للسير على ما أراد . فالشمس تسير في مدارها ، وكذلك القمر إلى الوقت الذي حدده الله لفناء العالم ، إن منطق العقل لا يقبل أن تسير الشمس والقمر في مدارهما صدفة ـ كما يدعي الماديون ـ بلا مؤثر ولا خالق يدبرهما بمثل هذا النظام الدقيق على مدى ملايين السنين من عمر الكون .

﴿ ألا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾ صدرت هذه الجملة بحرف التنبيه : ألا ، للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها ، والمعنى : تنبهوا يا عباد الله فإنه سبحانه هو ﴿ العزيز ﴾ أي القوي الغالب الذي يعاجل بالعقوبة المبتعدين عن طاعته ، وهو سبحانه : ﴿ الغَفَّار ﴾ وهي صيغة مبالغة تدل على الغفران الذي ليس له حدود ، فهو سبحانه يغفر ذنوب عباده التائبين عن ذنوبهم .

وأمام عظمة خلق السموات والأرض يلفت القرآن الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٓهية المتمثلة في خلق الإنسان والأنعام :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (٦) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي خلقكم الله أيها الناس من نفس واحدة وهي نفس آدم ، فَخَلْقُ الإنسان ابتداء وما فيه من أسرار الخِلْقَة وإبداعها يدل على عظمة الخالق ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي وخلق الله من نفس آدم حواء ، فخلق الذكر بجانب الأنثى للتكاثر ، وبقاء النوع الإنساني هو آية على عظمة الإبداع الإلٓهي .

ووجود الذكر بجانب الأنثى للتناسل هو في الأنعام أيضاً ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وأنزل بمعنى : أنشأ وجعل . ولكم : بمعنى

لمنفعتكم ، والثمانية أَزواج هي : زوجان من الإبل ، وزوجان من البقر ، وزوجان من الضأن ، وزوجان من الماعز . فهذه الأنعام وما فيها من وجوه المنافع للإنسان من لحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها وغير ذلك تدل على وجود القصد والحكمة من خلقها ، فهي لم تخلق صدفة ، والصدفة لا تأتي مقصودة لمنفعة الإنسان ، كما أن وجود الأنثى بجانب الذكر لكل من هذه الأنعام للتوالد يدل على وجود المدبر الحكيم . هذا ومن المعروف بداهة أن كل أثر يدل على مؤثر ، فخلق هذه الأنعام يدل على خالق حكيم .

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى خلق الإنسان ﴿ يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي يخلقكم الله أيها الناس في بطون أمهاتكم طوراً بعد طور ، فتكوين الإنسان بدءاً بالنطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظامٍ ، ثم يكسو الله العظام لحماً ، ثم ينشئه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وهذا الخلق للإنسان في بطن أمه يكون في ﴿ ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ وهذه الظلمات الثلاث هي :

الظلمة الأولى : ظلمة تجويف قناة الرحم :
(Obscurité de la cavité tubaire) حيث يبدأ أول التخلق بالتقاء الحيوان المنوي بالبويضة وهذه مرحلةالتلقيح .

الظلمة الثانية : هي ظلمة تجويف الرحم :
(Obscurité de la cavité uterine) عندما تتعلق البويضة الملقحة التي بدأت بالتكاثر والانقسام بالغشاء الداخلي للرحم .

الظلمة الثالثة : هي ظلمة السائل الأمنيوني :
(Obscurité de la liquide amniotique) الذي يسبح فيه الجنين

ويحده الغشاء الأمنيوني أو غشاء السلي[١] .

وقيل المراد بالظلمات الثلاث : المبيض ، وقناة فالوب ، والرحم .

والقرآن أومأ إلى هذه الحقيقة العلمية في زمن لم يكن قد نشأ فيه علم التشريح[٢] ، ولم يكن قد تطور إلى هذا الحد الذي عرفت فيه هذه الحقائق .

ثم عقب القرآن على خلق الإنسان بقوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أي هذا الذي خلق هذا الخلق أيها الناس هو ربكم له الملك ، ملك الدنيا والآخرة ﴿ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا ينبغي أن يكون معبود سواه ، ولا تصلح العبادة إلّا له ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تنصرف عقولكم عن رؤ ية هذه الحقيقة فتتوجهون إلى غيره كما فعل الذين عبدوا الأصنام ، أو تنكرون وجوده كما فعل الملاحدة .

وأمام عظمة الإبداع الإلّهي ونعمه على الإنسان يجعل القرآن الإنسان على عتبة الاختيار بين الاتجاه نحو الله وطاعته وما ينشأ عن ذلك من ثواب أو اختيار طريق الكفر وما يستتبع ذلك من عقاب في الآخرة :

﴿ إِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٧) .

فالله سبحانه يقول : إن تكفروا أيها الناس فإن الله غني عن إيمانكم

---

(١) عن مجلة الفكر الإسلامي للدكتور عدنان الشريف .

(٢) علم التشريح يتطلب وجود مجهر وهذا لم يكتشفه الإنسان قبل القرن السابع عشر .

وعبادتكم إياه ولا يرضى لعباده الكفر به ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرض شكركم له ، وهذا الشكر كناية عن إيمانهم بالله وطاعتهم إياه والثناء عليه .

ومما يجب التنبيه إليه أن رضاء الله على شكر الناس وعدم رضاه عنهم لكفرهم به لا يرجع إلى أن الله بحاجة إلى شكرهم أو يضره كفرهم فإن الله غني عن العالمين ، وإنما مردّ ذلك إلى أَن الله لا يرضى لعباده الكفر من باب الرحمة بهم حتى لا يقعوا في الهلاك ، كما أنه يرضى لهم شكره وعبادته لأنهما السبب في نجاتهم وفوزهم .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى ، ولا تؤاخذ نفس بذنب غيرها بل كل إنسان مجزيٌّ بعمله . هذا النص القرآني صريح في مبدأ شخصية العقوبة ، وهو المبدأ الذي لم يستقر في فقه القانون إلاّ في العصور الحديثة ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ ﴾ ثم إلى الله مصيركم أيها الناس بعد وفاتكم ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خير وشر فيجازيكم على كل ما فعلتموه ، فيجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بما يستحقه من عقاب ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ ﴾ إنه سبحانه يعلم ما تضمره صدوركم سرّاً ، فكيف بما تعملونه جهاراً .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان طبيعة بعض الناس نحو خالقهم في الرخاء والشدة مع التحذير من الإنزلاق في بؤرة الكفر :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَليلاً إِنَّك مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (٨) .

فالله سبحانه يقول :﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ أي إذا أصاب الإنسان بلاء في جسده من مرض أو عاهة ، أو شدة في معيشته ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أي استغاث بربه ، ورغب إليه في كشف ما نزل به من الضر والشدة ، راجعاً إليه وحده بالعبادة والطاعة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ ثم إذا ملّكه ربه نعمة منه فكشف عنه ضره ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء ، وبالفقر غنى ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه من قبل ، أو نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ وجعل لله شركاء في العبادة وأمثالاً له وأشباهاً ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ليضل نفسه وغيره عن طريق الله ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيــلاً ﴾ هذا القول فيه تهديد من الله ووعيد ، أي تمتع بهذه الحياة الفانية وأنت على هذا الكفر . ولفظ«قليلاً»يرمز إلى سرعة انقضاء العمر ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ إنك صائر من أهل النار الماكثين فيها أبداً .

فالإنسان بفطرته يلجأ إلى الله وحده عند اشتداد المرض وعند حلول الأخطار ، ولكن حين يذهب الضر عنه وينكشف البلاء ينسى تضرعه إلى ربه ويجعل لله شركاء من آلهة شتى يعبدها : إما أصناماً ، وإما مالاً ، وإما أهواء النفس ، وإما أشخاصاً أو حكاماً يجعلهم في مصاف الآلهة .

هذه الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى الله وحده عند اشتداد الضر من أقوى الدلائل على وجوب تخصيص الله بالعبادة وعدم الإشراك معه أحداً في عبادته .

وإلى جانب هذا الإنسان الذي يضل عن سبيل الله ويجعل له شركاء في العبادة يصوّر القرآن مسلك المؤمن بالله وحده المطيع له :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٩) .

أمّن : بمعنى : « أم من » وهو استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه ، والمعنى : هذا القانت لله أفضل أم الذي أشرك بالله ؟ والقانت لله : هو الذاكر لله سبحانه ، العابد له ، المطيع له بجميع ما أمر به ، ويقال للمصلي : قانت . وآناء الليل : هي ساعات الليل ، أوله ووسطه وآخره ﴿ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ فالمؤمن يقنت ساجداً لله تارة وأحياناً قائماً في الصلاة ﴿ يَحْـذَرُ الآخِرَةَ ﴾ أي يخاف عقاب الآخرة ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ويرجو أن يرحمه الله فيـدخله الجنة ﴿ قُـلْ هَلْ يَسْتَـوِي الَّذِينَ يَعْلَمـون وَالَّذِين لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي قل يا محمد لقومك هل يتساوى العالم والجاهل ، وهل يتساوى الذين يعلمون بما في طاعتهم لربهم من الثواب ، وما في معصيتهم إياه من العقاب مع الذين لا يعلمون ذلك فهم غُفْل لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً ، ولا يخافون بِسيِّئها شراً .

وسياق هذه الآية يوحي بأن المقبلين على الله هم وحدهم العالمون ، وأن المبتعدين عن الله هم الجاهلون . فليس العالم هو الذي يجمع العلوم وحسب وإنما هو الذي يخاف الله ويرجو رحمته ، وان الجاهل هو الذي يسلك سبيلاً لا يوصل إلى الله ، وشتان بين فريق وفريق . ومما يؤ يد ذلك ما جاء في القرآن ﴿ إنما يخشى اللَّهَ مِنْ عِبادِه العُلماءُ ﴾ فاطر : ٢٨ .

والآية السابقة يستفاد منها بيان فضيلة العلم وميزة العلماء على غيرهم من الجهلة .ثم يُعَقِّب الله على ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ بذلك أهل العقول السليمة الذين يخافون ربهم ويتقربون إليه .

وبعد ذلك يأتي هذا النداء الرباني بدعوة المؤمنين إلى التقوى واعداً إياهم سبحانه بالأجر الجزيل جزاء إحسانهم وصبرهم :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِين أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٠) .

ففي نداء الله للمؤمنين ﴿ يا عِبادِ ﴾ تشريف لهم حيث أضافهم إلى نفسه ، ووصفهم بالعبودية داعياً إياهم للاستجابة لأمره . ولقد أمرهم الله سبحانه بالتقوى ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ وهي طاعته واجتناب معاصيه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي للذين أحسنوا العمل في الدنيا بطاعة الله لهم حسنة في الآخرة عظيمة وهي الجنة ، وقد تكون الحسنة في الدنيا أيضاً كأن ينعم بالصحة والعافية والظفر بمبتغاه والحياة الطيبة .

أما قوله سبحانه : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهي إرشاد للمؤمنين بأنهم إذا اضطهدوا في بلدهم من جهة الكافرين ، أو خافوا على دينهم من الفتن فليهاجروا إلى دار الإيمان ، ولا يقيموا في أرض يُعْمَلُ فيها بالمعاصي ، ولا يستطيعون فيها إقامة شعائر الله ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إنما يعطي الله أهل الصبر على ما لقوا في الدنيا من بلاء وأحزان أجرهم يوم القيامة بغير حساب بحيث يكون من الكثرة بما لا يمكن حصره ، وهذه بشرى للصابرين ، وبيان لمنزلتهم الكريمة عند الله ، وما ينتظرهم من حسن الجزاء ووافر الثواب .

ثم يأتي خطاب الله للنبي ﷺ بالسير على درب الإخلاص لله وحده ، وهذا الخطاب هو في الوقت ذاته خطاب لأمته ليسيروا على خطى نبيهم :

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

المسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ اعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِيني ﴾ (١١ ـ ١٤) .

أي قل يا محمد للمشركين من قومك : إن الله أمرني ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ أي أن أعبده سبحانه مفرداً له الطاعة مخلصاً له العبادة وحده لا شريك له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسْلِمِينَ ﴾ أي وأمرني الله بأن أكون أول من أسلم منكم فخضع له بالتوحيد ، وأخلص له العبادة ، وكذلك كان ، فإن محمداً ﷺ كان أول من خالف دين آبائه ونبذ الأصنام ، وآمن بالله ودعا الناس إلى عبادته سبحانه .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَاب يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقل يا محمد لقومك المشركين إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته عذاب يوم القيامة-ذلك اليوم الذي يعظم هوله . فالله سبحانه أمر رسوله محمداً ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ، لأنه عليه السلام مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً من معصية الله فغيره بذلك أولى .

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ وقل يا محمد لقومك : إني أعبد الله وحده مبرئاً عبادتي من الشرك والرياء . هذا وإن تقديم لفظ الجلالة ـ الله ـ على الفعل (أعبد) يدل في اللغة على الحصر ، أي اني أحصر عبادتي بالله وحده لا أعبد أحداً سواه .

والملفت للنظر في الآيات التي سبقت أنه قد تردد لفظ (قل) مرات عديدة في خطاب القرآن للنبي ﷺ كما تردد هذا اللفظ كثيراً في القرآن ، وهو ما يشير إلى أن القرآن ليس من ذاتية محمد أو من تأليفه بل هو وحي إلّهي فلو كان القرآن من تأليفه كما يدعي المفترون لما تردد هذا اللفظ على

لسانه ، لأن من المشاهد في صفات المفترين أن يسبغوا على أنفسهم صفة الجلال والعظمة . فلفظ (قل) يرمز إلى الطاعة والانقياد لأمر ما ، كما يرمز إلى أن القرآن منزل عليه من الله وهو مكلف بتبليغه إلى الناس .

وبعد أن أعلن النبي ﷺ منهجه الذي يتحدد بعبادة الله وحده ، تأتي الآيات التالية تحمل طابع التهديد والوعيد للمشركين الذين يتوجهون إلى غير الله في العبادة .

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسرَانُ الْمبينُ . لَهُم مِنْ فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٥ ، ١٦) .

فالله سبحانه يأمر رسوله أن يخاطب المشركين قائلاً : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ ﴾ هذا الخطاب للمشركين ليس المراد منه أمرهم بعبادة غير الله ، ولكن المراد منه التهديد والوعيد للمشركين حيث ظلوا على كفرهم ﴿ قُلْ أِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي قل يا محمد إن الخاسرين الخسارة الكبرى هم الذين خسروا أنفسهم بوقوعهم في الهلاك وعذاب النار جزاء ضلالهم ، وخسروا أهليهم أيضاً ، لأنهم إن كانوا كافرين فمصيرهم مشترك في عذاب النار . أما إن كان أهلهم مؤمنين فقد خسروهم كذلك لأن هؤلاء في نعيم الله وأولئك في عذاب الله . ﴿ أَلا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرانُ المبِينُ ﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الظاهر الذي ليس بعده خسران .

﴿ لَهُم مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ الظلل جمع ظُلَّة

وأصلها السحابة تظلّ ما تحتها وتسميتها ظلة تهكم بهم لأنها محرقة والظلة تقي من الحر . والمراد بالظلل هنا ما يعلوهم ويحيط بهم من نار جهنم فهي أطباق من النار تغشاهم وتحرقهم من فوقهم ومن تحتهم . إنه موقف يثير الرعب والهلع ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ذلك العذاب الهائل الذي يحذر الله به عباده ليبتعدوا عن معاصي الله ويستجيبوا لأمره ونهيه ﴿ يَا عِبَادِي فَاتَّقُونِ ﴾ أي يا عبادي اتقوني بأداء ما فرضته عليكم واجتناب ما حرمته عليكم لتنجوا من عذابي وسخطي . وهذا الخطاب من الله إلى العباد وإضافتهم إليه سبحانه ـ يا عبادي ـ تنجلي فيه الرحمة والرأفة فما أحرى بعباد الله أن يستجيبوا لنداء ربهم الذي فيه فلاحهم .

وبعد أن ذكر الله سبحانه وعيده لعبدة الأصنام والأوثان ذكر بعد ذلك وعده الحسن لمن اجتنب عبادتها :

﴿ وَالَّذِين اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِين يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١٧ ، ١٨) .

والطاغوت : قيل المراد به الأصنام والأوثان ، وقيل : هو الشيطان لأنه الداعي إلى عبادة الأصنام ، وقيل : الطاغوت كل ما يعبد ويطاع من دون الله . فالذين ﴿ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ أي ابتعدوا عنها وعن عبادتها ، وأعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله ﴿ وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وتابوا إلى الله ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ لهم البشرى في الدنيا بنعيم الجنة في الآخرة ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أرشده وأهداه إلى الحق ﴿ أُولَئِكَ الَّذِين هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أولئك الذين وفقهم الله للرشاد والوصول إلى

الصواب ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أولُوا الأَلْبَابِ ﴾ وأولئك هم أهل العقول الراجحة والبصائر النيِّرة .

فاتباع الأحسن في كل شيء يفتح باب الرقي على مصراعيه أمام الجماعة الإسلامية ، ويأخذ بيدهم إلى استحداث أرقى النظم المعيشية في حياتهم الدنيوية بجانب الأخذ بأحسن الأمور التي توصلهم إلى رضاء ربهم وسعادتهم في الآخرة .

فمبدأ الأخذ بالأحسن من الأقوال والأفعال يحمي الإنسان من الجمود والتحجر العقلي لأن بعض الناس يتخذ مما سمعه في أول عهده بالنظر ، وما قرأه في بعض ما كُتِب ممن يحسن الظن بهم سدوداً أمام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب الصحيحة ، فلهذا يظل على ضلاله لا يحيد عنه ، وكان الأجدر به ـ حسب التوجيه القرآني ـ أن يفسح صدره لمختلف الآراء ليوازن بينها ثم يختار أحسنها ، هذا إذا لم يرد في ذلك نص شرعي .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ
قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات

حَقَّ عليه : وجب وثبت عليه .

فسلكه ينابيع : فأدخله في عيون الأرض .

يهيج : ييبس .

يجعله حطاماً : يصيّره فتاتاً متكسراً .

فويل : هلاك وشدة عذاب .

كتاباً متشابهاً : قرآناً تتشابه آياته في السَّبْك والفصاحة والهدى .

مَثَانِيَ : تتكرر فيه الأحكام والمواعظ والقصص بأساليب شتى .

تقشعرّ : تضطرب وترتعد .

تلين جلودهم : تسكن وتطمئن .

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾
فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ
مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ * فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ
عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي
عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ
بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾
وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

الخزي : الذل والهوان .

يتذكَّرون : يتعظون .

شركاء مُتشَاكِسُون : شركاء مختلفون متنازعون سيئة أخلاقهم .

سَلَماً لرجل : خالصاً لسيد واحد .

هل يستويان : هل يتماثلان ويتساويان .

مثوى : مأوى ومقام لهم .

أليس الله بِكافٍ عَبْده : الاستفهام تقريري ، أي أن الله حفظ رسوله محمداً من كل شر .

وبعد أن أثنى الله على الذين أقروا بتوحيده واجتنبوا عبادة الطاغوت أخبر الله النبي ﷺ بأنه لا يقدر على إنقاذ الكافرين من عذاب الآخرة :

﴿ أَفَمَنْ(١) حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ في النَّارِ ﴾(١٩) .

والمعنى : أأنت مالك أمر الناس ؟ فمن وجبت عليه كلمة العذاب بسبب كفره وعبادته للشيطان أفأنت تنقذ يا محمد من هو في النار ، لا لست على ذلك بقادر وليس أمر الناس بيدك بل بيد الله سبحانه .

هذه الآية عزاء لرسول الله ﷺ لما كان فيه من همّ ، فقد كان حريصاً على إيمان قومه متألماً من إعراضهم عن دعوته فأعلمه الله أن من وجبت عليه كلمة العذاب بسبب كفره فلا يقدر هو أن ينقذه من نار جهنم .

والمراد بكلمة العذاب ما جاء في قوله تعالى في حق الشيطان إبليس ومن اتبعه من الإنس والجن في إغوائه لهم ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكَ وَمن اتَّبَعك مِنْهُم أَجْمَعين ﴾ .

ويتابع القرآن فيذكر بعد ذلك أحوال المتقين في الآخرة وما هم فيه من نعيم :

﴿ لَكِنِ الذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ المِيعَادَ ﴾ (٢٠) .

أي لكن الذين اتقوا ربهم باستجابتهم إليه وخضوعهم لأمره واجتنابهم لما حرّم عليهم ، لهم في الجنة غرف من فوقها غرف مبنية بعضها فوق

---

(١) أفمن : الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء معطوفة على جملة محذوفة تقديرها : أأنت مالك أمر الناس .

بعض تجري من تحت أشجار بساتينها الأنهار ، هذا ما وعد الله به عباده المتقين والله لا يخلف وعده .

ثم ينتقل القرآن إلى لفت الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٓهية المتمثلة في نظام الماء في الطبيعة حيث ينزل إلى الأرض ويخرج بسببه أنواع النبات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثم يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢١) .

هذه الآية بيان للقدرة الإلٓهية الحكيمة ، كما أنها تصوير للحياة الدنيا في سرعة زوالها بما ذكر من أحوال الزرع ترغيباً في البُعْد عن زخارفها وزينتها ، وتحذيراً من الاغترار بها اغتراراً يصرف الإنسان عن واجباته نحو خالقه .

فالله يقول : ألم تر أيها الإنسان أن الله أنزل من السماء ماء ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فأدخله في الأرض وأسكنه فيها ،ثم أجراه عيوناً في الأرض ثم أنبت بذلك الماء[1] ﴿ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أي زروعاً شتى لها ألوان مختلفة : من حمرة ، وصفرة ، وزرقة ، وخضرة ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ثم ييبس ذلك الزرع ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ فالزرع إذا يبس أصفر لونه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ﴾ أي فتاتاً متكسراً .

فهذا الماء النازل من السماء الذي هو مصدر الحياة على هذه الأرض

---

(١) دورة المياه في الطبيعة من السماء إلى الأرض حيث تسلك فيها عيوناً لم تعرف قبل أواسط القرن الثامن ، حيث أن الفكرة التي كانت سائدة قبل ذلك تقول : إن ماء العيون والأنهار يتفجر من باطن الأرض آتياً إليه من حفر وآبار في قيعان البحار .

ما هو وكيف نزل ؟ ما توصلنا إلى معرفته أنه ينشأ من اتحاد ذرتي إيدروجين بذرة أوكسجين تحت ظروف معينـة . وهذا المـاء يتبخّر من الأنهـار والمحيطات تحت تأثير أشعة الشمس ثم ينزل إلى الأرض في فصول معينة ، ونزول الماء تعقبه الحياة النباتية التي هي قوام حياة الإنسان والحيوان .

هذا كله يدعونا إلى السؤال : من أوجد الماء ودورته في الطبيعة ؟

ومن أوجد هذه القوانين في نمو النبات وفي وراثة الصفات التي ورثها عن النبات الذي قبله ؟ ومن أين جاءت النباتات الأولى ، ونحن لا نستطيع أن نصل بعقولنا إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ، هذه التساؤلات تقودنا إلى أن التسليم بوجود الخالق يعتبر أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا .

وكما يُنْزِلُ الله من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ويُخرج به صنوف النبات ، كذلك يُنزل الوحي الإلَهي على البشر فتتلقاه النفوس المؤمنة بالقبول فتشرق قلوبهم وتتفتح بنور المعرفة والهداية بينما تتلقاه القلوب الجاحدة بالجفاء والإعراض وقساوة القلب كما تتلقى الصخرة الماء فلا يترتب عليها حياة ولا ينبت فيها نبات ، إقرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ(١) شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

---

(١) أفمن : الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء هي للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، والتقدير : أكل الناس سواء . ومن مبتدأ وخبره محذوف تقديره : كمن طبع الله على قلبه فلم يهتد .

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٢٢ ، ٢٣) .

والمعنى : أكل الناس سواء ؟ فمن وسَّع الله صدره للإسلام والنور والهدى فهو على هدى من ربه ، فهو ليس كالذي طبع الله على قلبه فلم يهتدِ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي فهلاك وعذاب للذين قست قلوبهم عند سماع ذكر الله الذي من حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب ، وقد يراد بذكر الله : القرآن الذي أعرضوا عنه ﴿ أُولَئِكَ في ضَلَالٍ مُبينٍ ﴾ أولئك القساة القلوب في ضلال ظاهر بسبب إعراضهم عن الحق .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ فالله سبحانه وصف القرآن بأنه أحسن الحديث وهذا ما يتراءى من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، فمن جهة اللفظ فالقرآن هو من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه ، أما من جهة المعنى فهو كتاب مشتمل على صفات الله وعلى التكاليف المتوجبة على الإنسان نحو ربه ، ومعرفة البعث والقيامة والحساب والجزاء ، ومآل الإنسان يوم القيامة إما إلى نعيم وإما إلى عذاب .

كما يشتمل القرآن على أخبار من مضوا من الأمم والرسل وما في حياتهم من دروس وَعِبَر ، بالإضافة إلى ما في القرآن من آداب وأخلاق وتشريعات تصلح لكل زمان ومكان ، كل ذلك يجعل من القرآن أحسن الحديث بالنسبة إلى غيره من الكتب .

ووصف الله القرآن أيضاً : ﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ أي يشبه بعضه بعضاً ، ويصدّق بعضه بعضاً ، فليس فيه اختلاف ولا تناقض ، وهو كتاب متشابه في حسن النظم ، وجزالة اللفظ ، وجودة المعاني . ووصف القرآن بأنه : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ جمع مثنى من التثنية بمعنى مردد ومكرر ، فقد تكررت فيه

القصص والفرائض والثواب والعقاب ، والأحكام ، والمواعظ ، والأوامر والنواهي بأساليب شتى ، كما أن القارىء يكرره في التلاوة فلا يمل منه ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ فالمؤمنون إذا سمعوا القرآن وما فيه من آيات الوعيد أخذتهم رعدة وقشعريرة في جلودهم خشية من الله سبحانه ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله لما وعد به المؤمنين من الثواب والجنة ، ولما يرجون ويؤملون من رحمة الله وفضله ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي ذلك القرآن سبب في هداية الخلق يهدي به الله من يشاء هدايته من خلقه بأن يوفقه سبحانه للسير بموجب أوامره ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي ومن يضلل الله من عباده بسبب إصراره على الكفر ، وعدم اعتباره واتعاظه بآيات الله فما له من هاد إلى طريق الله .

ثم يبين الله بعد ذلك ما أعد للكافرين من عذاب شديد يوم القيامة :

﴿ أَفَمَن[1] يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤ ـ ٢٦) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ والمعنى : هل كل الناس سواء ؟ هل مَثَلُ الكافر الذي يتقي بوجهه شدة عذاب النار يوم القيامة كمثل المؤمن الذي يدخل الجنة ؟ ولكن ما المراد

---

(١) أفمن : الهمزة للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف ، والفاء عاطفة عليه ، والتقدير أكل الناس سواء ، و « من » اسم موصول مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : كمن يدخل الجنة .

باتقاء العذاب بالوجه في الآية القرآنية ؟ المراد منه أن الإنسان إذا صادفه خطر داهم استقبله بيديه وردّ به عن وجهه لأنه أعز أعضائه ، والكافر الذي يُلقى في النار تكون يداه مكبلتين بالأغلال فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلّا بوجهه ، وهذا تصوير للموقف الهائل والعذاب الشديد الذي يصادف الكافر يوم القيامة ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي يُقال للكافرين ذوقوا جزاء ما كسبتم في دنياكم من أعمال سيئة ﴿ كَذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذب الكفار الذين عاشوا قبل كفار مكة رسل الله ولم يتبعوا ما جاءوهم به من الهدى ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرونَ ﴾ فأتاهم العذاب بغتة من حيث لم يخطر لهم ببال ، ومن الجهة التي توقعوا الأمن منها ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الخِزْيَ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فأذاقهم الله الذل والهوان في الدنيا بأنواع العذاب كخسف الأرض بهم ، والحروب المدمرة ، والأسر ، والإجلاء عن الأوطان وغير ذلك ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ ولعذاب يوم القيامة المعد لهم أكبر لشدته وديمومته ﴿ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كانوا يعلمون حقيقة ذلك لاعتبروا وأقلعوا عن تكذيبهم لرسل الله .

فهذا إنذار لكفار مكة بأنهم إذا لم يعودوا عن غيهم ويرجعوا عن تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ فإنهم سيلقون نفس المصير الذي حل بالأمم السابقة جزاء تكذيبها لرسل الله .

وبعد أن بيّن القرآن ما أعد الله للكافرين من عذاب الدنيا والآخرة أشار إلى ما يحتويه القرآن من الأمثال التي فيها عظة وعبرة لكل معتبر :

﴿ وَلَقَدْ(١) ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ في هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ . قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢٧ ، ٢٨) .

---

(١) ولقد : اللام وقد للتوكيد وتقوية المعنى .

أي لقد بيَّنا وأوضحنا للناس في هذا القرآن الأفكار والعِبَر بضرب الأمثال[١] وذلك لأن المثل يقرب الموضوع إلى الأذهان ويجعل فهمه سهلاً ، والمراد بضرب الأمثال : اعتبار الشيء بغيره ، وتطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يتعظون فيعملون بالحكمة المأخوذة من المثل .

ففي القرآن كثير من الأمثال سواء في الحِكَم أو في أحوال الأمم الغابرة للبيان والتوضيح وتقرير الحجة .

﴿ قُرْآناً عَرَبيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ فهذا القرآن نزل بلغة العرب لا اختلال فيه من أي وجه من الوجوه ولا تناقض ، وما ذلك إلاّ ليفهموا ما فيه من مواعظ ، ويعتبروا بما فيه من حكم وتقوم عليهم الحجة ، فالقرآن هو في أعلى درجات الفصاحة وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور ، أو بسورة منه ، ولكن لم يستطع أحد منهم مجاراته في بلاغته ، وهذا دليل واضح على كونه وحياً إلّهياً . ثم عقب القرآن على ذلك قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون ﴾ أي لعلهم على هدى هذه الدلائل المقنعة يتقون الكفر والضلال ويسيرون على هدى الله .

وبعد أن أشار الله سبحانه بأنه ضرب في القرآن من كل مثل للعظة قدم مثالاً للمؤمن الموحد لله ، وآخر للمشرك الذي يعدّد الآلهة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩) .

---

(١) المثل : هو الشيء الذي يقاس به فيجعل مثله ، ويأتي المثل بمعنى الشبه والعبرة ، وقد يكون المثل جملة من القول فيها عظة مقتطعة من كلام تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة بحالة أخرى .

فالمشرك الذي يعبد الأصنام ويعدّد الآلهة مثله كمثل رجل مملوك لشركاء ﴿ مُتَشَاكِسُون ﴾ أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم ، فهم يتجاذبونه[١] في حاجاتهم وهو حائر في أمره ، إذا هو أرضى أحدهم أغضب الباقين ، ولا يقدر أن يبلغ رضاهم أجمعين ، وإذا احتاج إليهم في أمر هام رده كل منهم إلى الآخرين ، فهذا الرجل في عذاب دائم وتعب مستمر .

أما الذي يعبد إلّهاً واحداً فقد مثلته الآية بمثل رجل مملوك لسيد واحد ﴿ سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصاً له وحده لا ينازعه فيه أحد . فهذا الإنسان المملوك لسيد واحد هو في راحة بال لأنه يعرف ما يرضي سيده وما يسخطه ، إذا أطاعه عرف سيده منه ذلك فكافأه على عمله ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، وإذا احتاج إلى أمر ما رجع إلى سيده وحده بالطلب . ويعقب القرآن على هذا المثال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ أي هل يتساوى هذان الرجلان صفة وشبهاً في حصول المنفعة وحسن العاقبة ، لا ، إنهما لا يتساويان ، فالمملوك لسيد واحد يستحق من معونة سيده وإحسانه ما لا يستحقه ذلك الرجل المملوك لشركاء متنازعون مختلفون .

فهذا المثل الذي أورده القرآن يرمي إلى بطلان وجود شركاء لله ، ويثبت أنه لا إلّه إلّا هو الواحد الأحد ، ولما ثبت ذلك بالعقل السليم ثبت أن الحمد لله وحده لا لغيره ، ولهذا ختم الله الآية بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ نعم إن أكثر المشركين لا يعلمون أن الحمد يستحقه الله وحده .

فالمؤمن بالله وحده يقطع رحلة العمر على بصيرة وهدى ، فهو يعرف أن له رباً واحداً فيتوجه نحوه بالعبادة ، ويستمد منه العون ، إنه يعرف

---

(١) تجاذبوا الشيء : تنازعوه .

ما يرضي ربه فيفعله ، وما يغضبه فيتقيه ، بينما المشرك بالله الذي يعبد آلهة شتى يكون فكره موزعاً ، وعقله مشتتاً بينهم جميعاً لا يدري أي واحدٍ يُرضي ولا لأي منهم يتوجه بالعبادة .

ولما كان كثير من المشركين بالله لم ينتفعوا بهذا المثل ، بيّن القرآن بأن مصيرهم جميعاً هو الموت ، ثم يعرضون على ربهم وهناك يستبين المحق والمبطل ، والضال والمهتدي :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم ميِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّب بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلكَافِرِينَ ﴾ (٣٠ ـ ٣٢) .

أي إنك يا محمد ، وإنكم أيها الناس ستموتون . والموت ليس نهاية المطاف ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أي ثم إنكم جميعاً أيها الناس يوم القيامة تتنازعون عند ربكم ، مؤمنكم وكافركم ، وظالمكم ومظلومكم ، فيؤخذ للمظلوم منكم حقه من الظالم ، ويفصل الله بينكم بالحق . ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن زعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ وكذب بالقرآن الذي أنزله الله على محمد ، وأنكر قول : لا إله إلاّ الله ﴿ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافِرينَ ﴾ أي أليس في النار مأوى ومسكن لمن كفر بالله ، وامتنع عن تصديق محمد ﷺ في ما يدعو إليه من الهدى . والاستفهام هنا للتقرير والإثبات ، والمعنى : يوجد في جهنم مكان للكافرين ، وأنتم تستحقون جهنم لأنكم كفرتم برسالة محمد ﷺ .

وبعد هذا الوعيد للمكذبين برسالة محمد ﷺ يأتي الثناء من الله على الذين صدَّقوا برسالة محمد ، وصدقوا بالقرآن الذي أنزله الله عليه :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ المحسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فالذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ ، والصدق الذي جاء به هو القرآن ودعوة لا إلّه إلا الله ، ويشمل من جاء بالصدق الأنبياء ، والذي صدّق به هم المؤمنون أتباعهم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ ﴾ هؤلاء الذين اتقوا الله بتوحيده ، والبراءة من الأوثان واتخاذ شريك لله ، واجتنبوا معاصيه ، ﴿ لَهُمْ مَا يـشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ لهم عند ربهم يوم القيامة ما تشتهيه أنفسهم من ألوان النعيم ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذا جزاء كل من أحسن في الدنيا فأطاع الله واتبع أمره ، وانتهى عما نهاه عنه ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذي عَمِلُوا ﴾ ليمحوَ الله عنهم أسوأ ما عملوا في الدنيا من الأعمال القبيحة فلا يعاقبهم عليها ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كَانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي يجزيهم الله بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء ، أو بمعنى : يعطيهم جزاءهم بأحسن من الذي عملوه ، وذلك الجزاء هو الجنة .

وبعد أن بيَّن الله ثواب الذين صدقوا بالقرآن وساروا على منهجه أتبع ذلك بتطمين رسوله محمد ﷺ بحفظه من كل مكروه وأذى من قومه :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ[١] وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

---

(١) ﴿ أَلَيْسَ الله بكافٍ عبده ﴾ : أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي (ليس) فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها والكفاية هي الوقاية والحفظ ، و (عبده) مراد به رسول الله ﷺ . وهناك قراءة للقرآن (عباده) ويشمل ذلك الأنبياء والمؤمنون . فكل إنسان مؤمن بالله متبع طريق الإسلام قائم بحق العبودية لله وحده كفاه الله وحفظه ما أهمه في دنياه وحفظه من كل شر وأذى .

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ (٣٦ ، ٣٧) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ والمعنى : الله وحده حافظ رسوله محمداً من كل شر . نعم والله لقد حفظ الله عبده محمداً من كل شر وأذى من قومه الذين رفضوا دعوته ، وأعزه الله ونصره عليهم ، ويعتبر هذا من الأنباء الغيبية التي تحققت مما يثبت أن القرآن كتاب الله حقاً لا ريب فيه ، هذا مع العلم أن هذه الآية نزلت بمكة حيث كان الإسلام ضعيفاً مضطهداً وأعداؤه كُثُر يحيطون به من كل جانب .

﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي يخوفونك يا محمد بالأصنام التي اتخذوها آلهة من غير الله أن تصيبك بأذى ، فقد رُوي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ لتكفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منهم خبل أو جنون .

فالتخويف بغير الله هو عبث وباطل ، لأن كل ما في الأرض من خلق الله لا يضرون الإنسان إلاّ بإذنه تعالى ، ومن أراد الله حفظه فليس هناك قوة في الأرض تطاله .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ومن يخذله الله فيضله عن طريق الحق وسبيل الرشد فما له سواه من مرشد ومسدّد إلى طريق الحق ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان به والعمل بكتابه فما له من مُضِلّ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ أليس الله هو القوي الغالب المنتقم من أعدائه الذي يكفي رسوله محمداً شر أعدائه ، وهذا وعيد للمشركين بالخسران والهزيمة ، ووعد للمؤمنين بالنصر ، وهذا ما تحقق بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية .

وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي
بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ
﴿٣٨﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ
عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ
فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾
قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ
﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ
وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

شرح المفردات

حَسْبِيَ الله : الله كافيني وكفيل بي .

المتوكلون : الذين يعتمدون على الله ويفوضون الأمر إليه .

مكانتكم : حالتكم المتمكنين منها .

عذاب مقيم : عذاب دائم لا يتغير ولا يتحول .

وما أنت عليهم بوكيل : ولست حفيظاً عليهم ولا مسؤولاً عن ضلالهم .

اشمأزت : انقبضت ونفرت .

فاطر السماوات والأرض : خالق السماوات والأرض .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ
فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا
وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ
ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ
نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾
فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ
مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ
أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

شرح المفردات

عالم الغيب والشهادة : العالم بما يغيب عن الأنظار وما يُشاهد .

حاق بهم : نزل بهم .

مسَّ الإنسان ضر : أصاب الإنسان شدة .

خوَّلناه : منحناه متفضلين عليه .

فأصابهم سيآت ما كسبوا : فأصابهم الله جزاء سيئاتهم التي اقترفوها .

وما هُمْ بمعجزين : وما هم بمفلتين من عذاب الله .

يَقْدِر : يضيق .

لا تقنطوا : لا تيأسوا .

تابع سورة الزمر

ثم ينتقل القرآن إلى تفنيد مزاعم المشركين بأن أصنامهم تنفع أو تضر :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣٨) .

فالمشركون على عهد رسول الله ﷺ كانوا يقرون بأن الله خالق السماوات والأرض ولكنهم كانوا رغم ذلك يشركون بعبادة الله أصنامهم وأوثانهم مدّعين بأنها تنفع وتضر وتقربهم إلى الله زلفى .

والقرآن يقرر فساد عبادتهم للأصنام من جهتين :

الأولى : إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض كما يعترفون : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ فهل بعد هذا الإقرار يستطيع أحد في هذا الكون أن يكشف ضراً أو يجلب نفعاً .

والثانية : أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، والنفع والضر ، وإذا كان الأمر كذلك كما يقر كل عاقل فإن عبادة الله هي المطلوبة ، وعبادة الأصنام هي العبادة الباطلة . فالله سبحانه يقول : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد للمشركين : أخبروني عن آلهتكم هذه التي تعبدونها متجاوزين في ذلك عبادة الله وحده ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ إن أرادني الله أن يصيبني بشدة من مرض أو فقر أو مصيبة هل تقدر آلهتكم على كشف ما أراده الله بي من الضر ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ أو أراد ربي أن يرحمني بسعة في

معيشتي ، وكثرة في مالي ، وعافية في بدني ، هل آلهتكم مانعاتٌ عني رحمته ، والقرآن ترك الجواب على ذلك لمعرفة السامع بحقيقة الواقع وهو أن هذه الآلهة لا تملك كشف الضر ، ومنع الخير ، وإذا تقرر ذلك ثبت بأن الله وحده الجدير بالعبادة . ثم يعقب الله على ذلك قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي قل يا محمد إن الله كافيني وكفيل بي ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتَوَكِّلُونَ ﴾ وإلى الله فليفوض أمره من هو متوكل عليه ، وعليه فليعتمد لا على غيره .

وبعد إقامة الحجة على المشركين في بطلان عبادة الأصنام يأتي التهديد الرباني لمن يظل على كفره :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٣٩) .

فالله سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يخاطب المشركين متوعداً لهم : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي اعملوا على طريقتكم أو على حالكم التي أنتم عليها من العداوة لهذا الدين ﴿ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ إني عامل على طريقتي فسوف تعلمون عاقبة كفركم ووباله عليكم ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فسوف تدركون من منا الذي يأتيه عذاب يهينه ويذله ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ وينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه . وهذا وعد من الله بنصرة رسوله محمد ﷺ ، كما أنه وعيد للمشركين بالخزي والعذاب ، وقد تحقق هذا الوعد بعد فترة وجيزة بنصرة محمد ﷺ في معركة بدر على المشركين الذين قتل منهم الكثير وأسر بعضهم فذاقوا مرارة ذل الأسر .

ولما كان يعظم على رسول الله ويؤلمه إصرار المشركين على الكفر أخبره الله سبحانه بأنه لم يكلف إلّا ببيان هدى الله ولم يوكل إليه أمر الإجبار

على ذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (٤١) .

فالله أنزل على رسوله محمد القرآن لنفع الناس وهدايتهم ، وجعل إنزاله مقروناً بالحق ، فهو حق في منهجه وتشريعه ، فمن اهتدى بهذا القرآن فإنما يعود نفع ذلك عليه ، ومن ضل عن هدي القرآن فإنما ضلاله يعود عليه بالخسران ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وما أنت يا محمد بحفيظ تحفظ على قومك أعمالهم ، ولا أنت بمسؤول عن أمرهم ، وإنما عليك بلاغ شرع الله ، وعلى الله مجازاة من أعرض عنه .

ثم يعرض القرآن بعض مظاهر القدرة الإلٓهية التي تحيي وتميت والتي هي أحق بالعبادة من أصنامهم التي لا تملك موتاً ولا حياة :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ في مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٢) .

فالله سبحانه ﴿ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي يقبض أرواحها حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بالجسد ظاهراً وباطناً ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ كما يتوفى الله الأنفس حين تنام فيحول بينها وبين التصرف في الجسد مع بقاء الروح متصلة بالجسد . فالله شبّه النائمين بالموتى حيث يفقد الإنسان الإحساس بما حوله كما أن الموتى كذلك ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ فيمسك الله الأرواح التي قضى في الأزل عليها الموت في الوقت المحدد لها ، ولا يردها إلى أبدانها بل يحبسها عنده ﴿ وَيُرْسِلُ

الْأُخْرَى ﴾ ويرسل الأنفس النائمة إلى أبـدانها فتعود إلى إحساسها السابق ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى الوقت الذي حدد لانتهاء عمرها وهو وقت الموت ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إن في قبض الله نفس النائم والميت ، وإرجاع النائم إلى إحساسه السابق لعبرة وعظة لمن يعتقد بأن الله يحيي من يشاء ، ويميت من يشاء .

فالموت هو السلطان المسلط على البشر كافّة والأحياء كافّة ، وكل المحاولات التي أُجريت في سبيل تجنب الموت باءت بالفشل ، فالله سبحانه قهر العباد بالموت ، والموت والحياة هما من خلق الله كما جاء في القرآن : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الموْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَـلاً ﴾ الملك : ٢ .

والنوم هو آية من آيات القدرة الإلّهية ، ودليل على ضعف الإنسان ، وقد جعل الله النوم ليسترجع فيه الإنسان نشاطه الذي هدره في يومه ، فالموت والنوم من جنس واحد من حيث غيبوبة الإنسان عما حوله ، إلّا أن الموت مفارقة الروح للجسد وانقطاع تام عن الحياة ، بينما في النوم تستمر معه حياة الإنسان ولكنه يكون في غيبوبة موقتة عما حوله .

ثم ينتقل القرآن إلى ذم المشركين في اتخاذهم أصنامهم شفعاء لهم عند الله :

﴿ أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُـلْ أَوَلَـوْ كَانوا لا يَمْلِكُـونَ شَيْئـاً وَلَا يَعْقِلونَ . قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَـهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤٣ ، ٤٤) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أي بل اتخذ المشركون من غير الله وبدون إذنه شفعاء لهم عند الله ، وهي أصنامهم التي

يعبدونها ﴿ قُلْ أَوَلَوْ[١] كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي قل لهم يا محمد : أتشفع أصنامكم ولو كانت لا تملك شيئاً من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ، بل هي جمادات فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ قل لهم يا محمد إن الشفاعة لله وحده ، ولا تنفع الشفاعة عند الله إلّا لمن رضي عنه وأذن له ، جاء في القرآن : ﴿ مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِـإِذْنِهِ ﴾ البقرة: ٢٢٥ . ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَن ارتَضَى[٢] ﴾ الأنبياء : ٢٨ .

وبعد تقرير أن الشفاعة لله جميعاً يقول القرآن : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي لله سلطان السماوات والأرض وملكها ، وما تعبدون أيها المشركون من غير الله فهو ملك له فاعبدوا المالك لا المملوك ﴿ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ثم إلى الله مصيركم بعد الموت وهو معاقبكم على إشراككم به .

فالعرب قبل الإسلام كانوا يعتبرون الأصنام من جملة الشفعاء التي تشفع لهم عند الله وكانوا يتوجهون إليها بالعبادة .

والشفاعة عقيدة عند كثير من أتباع الأديان حيث يتوجهون إلى القديسين والأولياء فصاغوا لهم تماثيل وقدموا لهم النذور والقرابين لتكون شفيعة لأصحابها في استجابة مطالبهم .

أما عقيدة الإسلام فهي العقيدة الصحيحة التي تقبلها الفطرة الإنسانية وتحول بين كل الخرافات والأساطير التي دخلت على العقل البشري ،

---

(١) أَوَ : الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره : أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأمر . .

(٢) ارتضى : أي لمن رضي الله عنه .

فخالق الكون هو الله سبحانه وحده ، والشفاعة جميعاً ملك له ، ولا تكون الشفاعة لأحد من خلقه إلاّ من بعد إذن له ، وبما أن إذن الله غير معروف لأحد من الخلق فبهذا قطع القرآن السبيل على الذين يتوجهون إلى غير الله بالعبادة رجاء الشفاعة منهم .

وبعد أن بين القرآن بطلان شفاعة الأصنام وصف بعد ذلك مشاعر المشركين إزاء الدعوة للإيمان والخضوع واللجوء إلى الله وحده :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِين مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تحكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ في مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٥ ، ٤٦) .

فإذا ذُكِرَ الله وحده بأنه لا إلّه إلا هو لا شريك له ظهرت آثار النفرة والانقباض في قلوب المشركين ووجوههم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والاستبشار عليهم ، وهذا يدل على فرط جهالتهم وحمقهم . وهذه سمة نفسية تتكرر في شتى البلاد وعلى مختلف الأزمان فمن الناس من تشمئز قلوبهم كلما دعوا إلى عبادة الله وحده وإلى العمل بشريعته ، ولكن إذا ذكرت الأنظمة المادية الملحدة هشوا لذكرها واستبشروا .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي قل لهم يا محمد : يا ألله يا خالق السماوات والأرض و ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي تعلم ما يغيب عن أنظار العباد وما يشاهدونه ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أنت يا رب تحكم بين عبادك فتفصل بينهم بالحق يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه من أمور الدين .

وتتابع الآيات تهديدها للمشركين متوعدة إياهم بعذاب يفوق الوصف في الآخرة إذا ظلوا على ضلالهم :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا في الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَبَدا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ ﴾ (٤٧ ، ٤٨) .

أي لو أن هؤلاء المشركين ملكوا كل ما في الأرض من الأموال ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ وملكوا مثله معه ﴿ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد يوم القيامة ﴿ وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من عذاب الله الذي أعده لهم ما لم يكن في حسبانهم ، وهذا غاية في الوعيد لهم .

فالمشركون كانوا في غفلة من عذاب الآخرة فإذا رأوا ذلك العذاب وجدوا فيه ما لم يخطر ببالهم ، أو أنهم كانوا يرجون القربى من الله بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدا لهم ما لم يكن في حسبانهم . ثم يضيف القرآن قوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ وظهر لهم يوم القيامة سوء عملهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ ﴾ وأحاط ونزل بهم من العذاب ما كانوا به يستهزئون من دعوة الإسلام .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان طبيعة الإنسان حيال خالقه عند الشدة والنعمة :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا والَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٤٩ ـ ٥١) .

فالله سبحانه يقول : فإذا أصاب الإنسان بؤس وشدة وسوء حال دعانا مستغيثاً بنا ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ﴾ ثم إذا أعطيناه فرجاً مما هو فيه من الضر بأن أبدلناه بالضر رخاءً وسعةً في المال ، وبالسقم صحةً وعافيةً ﴿ قَالَ: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال : إنما أُعطيت ذلك على علم من الله بأني أهل لرضاه بعملي عنده واستحقاقي له ، أو بمعنى : على علم عندي بوجوه المكاسب وبما أنفقت من جهد ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ليس الأمر كما يظن ويزعم ، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبر مبلغ إيمانه بطاعة ربه أو معصيته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن النِّعم هي اختبار لهم من الله ليُظهر حقيقةَ إيمانهم ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قد قال هذه المقالة كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ والذين كفروا بالله يا محمد من قومك ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ سيصيبهم جزاء كفرهم كما أصاب الذين من قبلهم ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ وما هم بناجين من عقاب الله .

فالفطرة الإنسانية بطبيعتها تلجأ إلى الله وحده عند الشدة ، هذه الفطرة التي جُبل عليها البشر جميعاً هي من أكبر الدلائل على وجود الخالق ، فالإنسان مهما تبجح بقوته فإنه سيصل إلى موقف يرى فيه عجزه وضعفه بادياً للعيان ، ويعلم أن فوق قدرته يداً أقوى وأقدر ، ففي مواقف المرض الشديد ، أو عند حلول الكوارث الطبيعية ترى الإنسان يلجأ إلى الله وحده يستمد منه العون ويطلب منه كشف البلاء ، ولكن عند حلول النعمة هناك نفوس تنسى ما كان في فطرتها من اللجوء إلى الله وحده في الشدة ، فتجعل لها ملجأ غير الله ، إما أشخاصاً تظن أن بيدهم النفع ، وإما مالاً يرد عنهم مصائب الدهر ، وإما أصناماً من اختراع أوهامهم تظن أنها تذود عنهم .

ويتابع القرآن فيبين بأن أرزاق العباد هي بيد الله يوسعها على من يشاء ويقترها على آخرين :

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) .

أي أو لم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ ﴾ ويضيقه على من يشاء ﴿ إنّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن في توسيع الله الرزق لمن يشاء وتقتيره على من أراد لدلالات وحججاً لقوم يصدقون بالحق ويقرون بأن الرازق والمانع هو الله وحده دون سواه .

هذه الحقيقة نراها بادية للعيان عند التأمل في أحوال الناس المعيشية ، فكم من الناس على حظ وافر من الذكاء والعلم والنشاط نرى أرزاقهم في حدود معينة لا يتجاوزونها ، بينما هناك أناس دونهم في الذكاء والعلم نراهم وصلوا إلى مرتبة عالية من الغنى والثراء بعد أن كانوا فقراء لا يملكون شيئاً بفضل ظروف معينة لم تكن في الحسبان ، وهذا يدل على أن إرادة الله هي التي قسمت الأرزاق بين العباد لحكمة يريدها سبحانه في خلقه .

وبعد أن بينت الآيات السابقة ما أعد الله للكافرين من العذاب يوم القيامة تأتي الآية التالية مبينة كمال رحمة الله وفضله على من تاب عن كفره وأقلع عن ذنوبه :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِين أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ [١] ﴾ (٥٣) .

---

(١) جاء في أسباب نزول هذه الآية ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة.فنزلت هذه الآية وغيرها .

أي قل ـ يا محمد ـ مبلغاً عن ربك : يا عبادي الذين أكثروا من ارتكاب المعاصي ﴿ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾[١] لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿ إنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ إن الله يغفر الذنوب لمن تاب ورجع إليه بالطاعة وإن كثرت ذنوبه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ هذه الجملة مؤكدة بـ « إن » وضمير الفصل « هو » للإشارة إلى أنه تعالى من أخص صفاته الغفران والرحمة . والمراد بمغفرة الذنوب عدم المؤاخذة بها ومحوها من الصحائف التي تكتبها الملائكة وصون مقترفها من العذاب .

أما من مات مسلماً ولم يتب من ذنوبه فأمره مفوض إلى ربه إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه بقدر جرمه ، وأما من مات مشركاً بالله ولم يتب من شركه قبل وفاته فلا يغفر الله له لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . (النساء : ٤٨)

وإن تصريح القرآن بأن الله يغفر الذنوب جميعاً هو عنصر فعال في سلامة النفس وصحتها ، فقد أثبت علم النفس أن كثيراً من مشاكلنا النفسية وأمراضنا العصبية ناشئة عن أمراض الضمير ، تحدث كوسيلة للهروب من تعذيب النفس أو تأنيبها ، فالذي يعلم أنه يناله الصفح من الله إذا تاب من ذنوبه لا ريب أن ذلك ينزع عنه الشعور بالإثم ويضفي عليه الطمأنينة التي هي المدخل إلى الصحة النفسية .

أما الذي يعلم أن ذنوبه ستظل معلقة به لا خلاص له منها ولا غفران فإن ذلك يكون له عاملاً من عوامل اضطراب النفس ، ومعاناة آلام الشعور بالإثم .

---

(١) النهي عن القنوط من رحمة الله يفهم منه الأمر بالرجاء برحمة الله ، ولهذا يرى بعض العلماء أن هذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله .

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن
قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾
أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ
ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ
قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ
ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

شرح المفردات

وأنيبوا إلى ربكم : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

أسلموا له : انقادوا واخضعوا له .

بغتة : فجأة .

يا حسرتا : يا ندامتي ويا حزني .

فَرَّطْتُ : قصرت .

في جَنْبِ الله : في طاعة الله وأمره .

كرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

مثوى : مأوى ومقام .

بمفَازتهم : بفوزهم وظفرهم بالبغية .

وهو على كل شيء وكيل : وهو القائم بحفظ كل شيء الكفيل بأرزاق العباد .

وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ
﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا
قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ
فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا
وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ

شـرح المفردات

له مَقاليدُ السمٰوات والأرض : له مفاتيحها وخزائنها .

لَيَحبطنَّ عملك : ليبطلن عملك .

نُفِخَ في الصور : نفخ الملك إسرافيل في البوق .

فصعق : فمات .

قبضته : في ملكه ومقدوره وتصرفه .

مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ
فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ
وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾
وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ
بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

شرح المفردات

زُمَراً : مفردها زُمرة وهي الطائفة .

حقَّت : وجبت وثبتت .

طِبْتُم : طهرتم من دنس المعاصي .

نتبوأ : ننزل .

حافِّين : يطوفون أو يحدقون[١] .

تابع سورة الزُّمَر

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَأنيبُوا إلَى ربِّكُم ﴾ والإنابة هي الرجوع إلى الله بالتوبة مع الالتزام بطاعته ، ويقول سبحانه : ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي انقادوا لأمر الله وأخلصوا له العبادة ﴿ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ أي من قبل أن يأتيكم العذاب من عند الله على كفركم ومعاصيكم ثم لا يعود لكم أمل بخلاصكم ، ولا يستطيع ناصر أن ينقذكم مِنْ عذاب الله النازل بكم ﴿ واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُم ﴾ والأحسن هو القرآن ، فقد

(١) يحدقون : أحدق ، استدار بشيء وأحاط به .

أنزل الله كتباً كالتوراة والإنجيل والزبور ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن ، أو بمعنى : أن أوامر الله اشتملت كلها على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض فأمروا أن يأخذوا بالأحسن ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ أي من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لا تعلمون به حتى ينزل بكم ، ولا يخفى ما في هذا من تهديد ووعيد .

ثم يبين القرآن مدى الحسرة التي تصيب العصاة يوم القيامة عندما يرون سوء العذاب النازل بهم :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ (٥٦ ـ ٥٩) .

أي بادروا أيها العصاة إلى التوبة والعمل الصالح قبل ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾أي لئلا تقول نفس يوم القيامة ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ أي يا ندمي على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به ، وقصرت في الدنيا بطاعة الله ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ وإن كنت من المستهزئين بأمر الله وكتابه ورسوله والمؤمنين به ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أو تقول لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي المعاصي والشرك بالله ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ ﴾ أو تقول حين ترى عذاب جهنم ﴿ لَوْ أن لي كَرَّةً ﴾ لو أن لي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأكون من المؤمنين بالله الموحدين له المهتدين بهديه المحسنين في أعمالهم .

ثم يأتي الجواب الرباني على تحسرات كل مذنب : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ

آيَاتي ﴾ بلى قد جاءك الهدى من الله بإرسال رسوله محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ فكذبت بآيات القرآن وقلت بأنها ليست من عند الله وتكبرت عن الإيمان وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويتبع منهاجهم .

ثم يعطينا القرآن صورتين من صور يوم القيامة : صورة قاتمة للمذنب ، وصورة مفرحة للمتقي ربه :

﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ في جَهَنَّم مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ . وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٠ ، ٦١) .

أي وفي يوم القيامة ترى يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ فزعموا أن له ولداً ، وأن له شريكاً ، وعبدوا آلهة من دونه ﴿ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ﴾ أي ترى وجوههم مسودة لما أحاط بها من العذاب ، وبما نالها من الشدة ﴿ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أليس في جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله فامتنع عن توحيده وطاعته .

﴿ وَيُنَجّي اللَّهُ الَّذِين اتَّقَوْا ﴾ أي وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه في الدنيا ﴿ بِمَفَازَتِهِم ﴾ والمفازة من الفوز والظفر ، فيكون المعنى : وينجي الله المتقين بسبب دخولهم في مكان ظفرهم بمقصودهم وهو الجنة ﴿ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ لا يمس المتقين من أذى جهنم شيء ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ ولا هم يحزنون على ما فاتهم من مآرب الدنيا إذ صاروا إلى كرامة الله ونعيم الجنان .

ثم تعود بنا الآيات إلى الكلام عن تفرد الله بخلق الكون الجدير وحده بالعبادة :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ والَّذين كفَرُوا بآيَاتِ الله أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ . قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ﴾ (٦٢ ـ ٦٤) .

فالله سبحانه هو الخالق للأشياء جميعها ، وإذا كانت هذه صفته فهو وحده الجدير بالعبادة ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ وهو على كل شيء قيم بحفظه ، الكفيل بأرزاق العباد ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ ﴾ له مفاتيح خزائن السماوات والأرض ، ومن له المفاتيح له الخزائن ، وهذا كناية عن شدة التمكن والتصرف في كل شيء في السماوات والأرض ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي والذين جحدوا بحجج الله التي تشهد بوحدانية الله فكذبوا بها ، أو جحدوا بآيات القرآن وكذبوا بها فأولئك الذين خسروا نعيم الآخرة واستحقوا عذاب النار ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ أي قل يا محمد لقومك : أفتأمروني أيها الجاهلون أن أعبد غير الله من أصنام وأوثان وأترك عبادة الله الذي لا تجب العبادة لأحد سواه .

نعم إن عبادة غير الله هي عين الجهل فكيف يعبد الإنسان جمادات لا تعي ولا تسمع ولا تبصر ، وكيف يعبد الإنسان بعض مظاهر الطبيعة وبعض الأشخاص الذين هم من خلق الله ويترك عبادة الله الواحد الأحد خالق كل شيء ، أمور منطقية يعرضها القرآن على العقل البشري ليجتنب كل العبادات الباطلة لغير الله .

ثم يبين القرآن بعد ذلك ما يترتب على اتخاذ شريك مع الله من خسران في الآخرة :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتُكونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . وَمَا قَدَرُوا

اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّمٰواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٥ - ٦٧) .

فالله يخاطب رسوله محمداً مؤكداً : لقد أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل لئن أشركت بالله شيئاً في العبادة ليبطلن عملك ولا تنال به ثواباً ، بل تنال بذلك إثم من أشرك بالله ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ ولتكونن من الهالكين إن أشركت به شيئاً من خلقه .

هذا الكلام سيق على سبيل الافتراض لتنفير المخاطب من عاقبة الإشراك بالله ، وما سيحل بالمشرك من هلاك وخسران ، كما أنه لا مجال لتصور الإشراك من جانب النبي ﷺ .

ويتابع الله خطابه لرسوله ﷺ ﴿ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ﴾ إن تقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر ، أي احصر العبادة بالله وحده ولا تعبد ما أمرك به قومك بل اعبده دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وكن من الشاكرين لربك لإنعامه عليك بما هداك إليه من توحيده ، وما اختصك به من الرسالة الإلٰهية .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ والحال أنه موصوف بهذه العظمة ، فالأرض مع سعتها وكثافتها في مقدوره تعالى وملكه وتصرفه كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه ﴿ والسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينِهِ ﴾ واليمين في كلام العرب تكون بمعنى القدرة والملك ، والطي إدراج الشيء في بعضه وضده النشر ، والمعنى : فالسماوات تطوى بقدرة الله تعالى ، والمقصود من الآية تصوير عظمة الله التي لا يحيط بها الوصف وبالغ قدرته التي ليس لها حدود

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه الله وتقدس عما يجعلون له شركاء مع هذه القدرة العظيمة والحكمة الباهرة .

ويتابع القرآن فيذكر حدثين خطيرين إيذاناً بالقيامة ، ويتبع ذلك بذكر جلال الله المسيطر على الخلائق آنذاك حيث يُحاسب الناس بما عملوا من أعمال صالحة أو سيئة :

﴿ وَنُفِخَ في الصُّور فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْض إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ[١] . وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بالنَّبِيّين وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمـا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦٨ ـ ٧٠) .

والصور هو البوق والذي ينفخ فيه هو الملك إسرافيل ، وعند النفخ فيه ﴿ فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ ﴾ أي يموت الخلق كلهم ﴿ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قيل إن المستثنى هم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش من الملائكة ، ثم يقبض الله أرواح هؤلاء حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وفي رواية أن آخر من يموت هو جبريل ، وينفرد الله الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي بالديمومة والبقاء ويقول : ﴿ لِمَن المُلْكُ اليوم ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول :

---

(١) ظاهر الآية يفيد أن هناك نفختين : نفخة يصعق بها المخلوقات ونفخة البعث ، وقيل إن النفخ ثلاث مرات : فالنفخة الأولى تطول وتكون بها الزلزلة وتكوير الشمس وانكدار النجوم والناس أحياء يرون ذلك فزعين . وقد جاء في القرآن : ﴿ يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ﴾ وقد فسرت هذه بالنفخة الأولى . والنفخة الثانية يكون بها الصعق وعندها يموت جميع الأحياء إلاّ من شاء الله . والنفخة الثالثة نفخة قيام الخلق من القبور أحياء والمدة بين هاتين النفختين أربعون سنة .

﴿ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّار ﴾ ثم يحيي الله أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرونَ ﴾ أي يصير الخلق أحياء بعد أن كانوا عظاماً ورفاتاً ينظرون أمر الله فيهم ، وقيل المراد بالنظر الانتظار ، أي ينتظرون ماذا سيفعل الله بهم ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ﴾ إشراق الأرض إضاءتها ، ومعنى : ﴿ بِنُورِ رَبِّها ﴾ أي بعدل ربها ، أو بحكم ربها ، أي أضاءت وأنارت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده ، والظلم ظلمات ، والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾ أي ووضعت الكتب والصحف التي فيها أعمال بني آدم ﴿ وَجِيءَ بالنَّبِيِّين ﴾ أي جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أُممهم ، ويشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَالشُّهَداء ﴾ أي وجيء بالشهداء الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد[١] ، وقد يراد بالشهداء الملائكة الحفظة[٢] الذين يشهدون على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ ﴾ أي وقضي بين العباد بالصدق والعدل ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾ لا بنقص من حسناتهم وثوابهم ، ولا بزيادة على سيئاتهم وما يستحقونه من عقاب ﴿ وَوُفِّيَت كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ أي أعطى الله كل نفس جزاء عملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وهو سبحانه أعلم بما كانوا يفعلونه في الدنيا فلا حاجة به إلى كتاب أو إلى شاهد .

---

(١) قال تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جعلناكم أمةً وَسَطاً لتكونوا شهداء عَلَى النَّاس ﴾ .

(٢) قال تعالى في شأن هؤلاء الحفظة من الملائكة ﴿ وَجَاءت كُلُّ نَفْس مَعَها سائِقٌ وشهيد ﴾ أي جاءت كل نفس من الناس ومعها سائق من الملائكة يسوقها إلى الحساب وشاهد من الملائكة يشهد عليها بما عملت .

ثم يعرض القرآن مشهدين عن مصير الناس يوم القيامة ، مشهداً للكفار حيث يساقون إلى عذاب النار ، ومشهداً للمتقين وهم يساقون إلى نعيم الجنة ، أما مشهد الكفار فهو على الشكل الآتي :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُون عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالوا : بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِين فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧١ ، ٧٢) .

فالكافرون يساقون ، أي يدفعون ويحثون على السير بعنف إلى جهنم ﴿ زُمَراً ﴾ أي جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوابُها ﴾ حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً ليدخلوها ، كأبواب السجون المغلقة دائماً حتى يأتي أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها فإذا دخلوها أغلقت عليهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي قالت لهم الملائكة القائمون بأمور جهنم الموكلون بتعذيب الكفار فيها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُون عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ ألم يأتكم رسل ـ أي سفراء ـ من عند الله من جنسكم وهم الأنبياء يقرأون عليكم كتب الله المنزلة من عنده ، هذا القول من خزنة جهنم هو على سبيل التوبيخ والتقريع . فيجيب الكفار : ﴿ قالوا : بَلَى ﴾ نعم قد جاءونا وأنذرونا من عذاب الله ولكن كذبناهم وخالفنا ما وعظونا به ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ ولكن وجبت كلمة العذاب على الكافرين لاختيارهم الكفر على الإيمان . وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف يقال لهم زيادة في توبيخهم وإيلامهم ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ادخلوا جهنم ـ دار العذاب ـ لتكتووا بنارها ماكثين فيها مكوثاً أبدياً لا تنتقلون عنها إلى غيرها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس هذا المسكن وهو جهنم للمتكبرين عن

الإيمان بالله المتولين عن طاعته .

وإن وصف الكافرين بالكبرياء هو لفت للأنظار بأن أكبر عائق يحول بين الإنسان وبين اتّباع الحق هو الكبرياء التي هي العلة لأكثر الآفات الاجتماعية ، فلو تخلى الإنسان عن كبريائه وأصغى بتواضع لكلمة الحق ونداء العقل لقاده ذلك إلى الإيمان بالله والإذعان لهدايته .

وبعد هذا المشهد الرهيب لمصير الكافرين يأتي مشهد النعيم الذي خص الله به المتقين :

﴿ وَسِيقَ الَّذِين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمراً حَتَّى إِذَا جَاءُوها وَفُتِحَت أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبوّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ (٧٣ ، ٧٤) .

فالمتقون يساقون برفق إلى الجنة جماعة إثر جماعة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[١] أي حتى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها الثمانية كما يفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه ، وتقف منتظرة حضوره فرحة بمقدمه وفي ذلك من الاحترام والإكرام له ما فيه . ﴿ وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا ﴾ وقال لهم حراسها والقائمون بأمرها ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ هذه التحية ترمز إلى الأمان من جميع المكاره والآلام ، وتبعث في نفوسهم الطمأنينة والرضى . وتضيف الملائكة إلى السلام قولهم : ﴿ طِبْتُم ﴾ أي طابت

---

(١) قال تعالى في صفة جهنم : ﴿ فُتِحت أبوابها ﴾ بينما قال سبحانه في صفة الجنة ﴿ وفُتِحَت أبوابها ﴾ بزيادة الواو . قيل الحكمة في ذلك هو أن أبواب جهنم تكون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، وفي هذا من الإذلال والتحقير له ما فيه بخلاف أبواب الجنة التي زيد فيها (الواو) التي ترمز إلى أن أبواب الجنة تفتح لهم مسبقاً إكراماً لهم .

أعمالكم أيها المؤمنون ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ فادخلوا الجنة ماكثين فيها مكوثاً أبدياً لا خروج لكم منها.

وعندما يرى المتقون نعيم الجنة الذي خصهم الله به تنطلق ألسنتهم بالثناء على الله : ﴿ وَقَالوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي صَدَقَنا وَعْدَهُ ﴾ أي الشكر لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة ﴿ وَأَوْرَثَنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ وجعلنا نتصرف في أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث وننزل فيها حيث نشاء ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ فنعمت الجنة أجراً للذين كانوا في دنياهم يعملون بطاعة الله .

ثم يأتي ختام السورة على هذا الشكل الذي يثير الحب والإجلال لرب العالمين المستحق للشكر والثناء :

﴿ وَتَرَى الملائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٧٥) .

أي وترى يا محمد أو أيها الرائي الملائكة ﴿ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ ﴾ أي محيطين ومحدقين حول عرش الله ﴿ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ أي يصلون حول عرش الله شكراً له ، أو ينزهون الله عما لا يليق به وهم يقرنون التسبيح بالحمد ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقِّ ﴾ أي حكم الله وقضى بين العباد بالعدل فأدخل بعضهم الجنة ، وبعضهم النار ﴿ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ هذه الكلمة الناطقة بالحمد يقولها المؤمنون وتقولها الملائكة في آخر المطاف بعد الحكم بين الناس بالعدل .

فكلمة الثناء على الله انطلقت حين خلق الله السماوات والأرض كما جاء في القرآن : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَق السَّمواتِ وَالأرضَ ﴾ كما انطلقت كلمة الثناء في العالم الآخر ، فللَّه الحمد أولاً وآخراً .

سُورَة غَافِر

تتحدث سورة غافر عن الصراع الدائر بين الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، والدعوة إلى دين الله ، وقضية العلو في الأرض ، والتجبر بغير الحق ، وعذاب الله الذي يصيب المتجبرين الطاغين في الدنيا والآخرة .

كما تلمُّ السورة بموقف المؤمنين من هدى الله ونصرة الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم واستجابة الله لدعائهم ، وتخصيصهم بالنعيم في الآخرة .

ومن أبرز صور الصراع بين الإيمان والطغيان قصة موسى مع فرعون الطاغية ، وفي ثنايا القصة تُعرض قصة مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه فيصدع بكلمة الحق بأسلوب مؤثر مقنع محذراً آل فرعون عذاب الله .

وفي السورة مواقف كثيرة تذم المنكرين لآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، وصدق رسالة نبيه محمد ﷺ ، فتعرض السورة مظاهر من قدرة الله كإنزال المطر من السماء الذي هو سبب أرزاق العباد ، كما تلفت أنظار الناس إلى خلق السماء وما فيها من عوالم ، والأرض وما فيها من كائنات ، وكذلك اختلاف الليل والنهار ، وخلق الإنسان والتطورات التي تطرأ عليه منذ ابتداء تكوينه في بطن أمه إلى أن يصبح شيخاً هرماً .

كما نرى في السورة مواقف مرعبة من هول ما يصيب الطغاة والمشركين من عذاب يفوق الوصف والتصور .

سميت هذه السورة « سورة غافر » لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الذي هو من صفات الله الحسنى في مطلع هذه السورة ﴿ غافر الذنب وقابل التوْب ﴾ وتسمى هذه السورة « سورة المؤمن » لما اشتملت عليه من قصة مؤمن آل فرعون .

سُورَةُ غَافِر

مكية ، وآياتها ٨٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ
ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾
مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟

شرح المفردات

غَافِرِ الذنب : الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم بالعفو عنها .

قابل التَّوب : يقبل توبة العصاة لمن تاب منهم عن ذنوبه ويغفر لهم .

ذي الطَّوْل : صاحب الغنى والإنعام والتفضل .

إليه المصير : إليه المرجع والمآب .

ما يجادل : ما يخاصم .

يَغرُرْك : يخدعك .

تقلُّبهم في البلاد : تنقلهم في البلاد سعياً وراء الكسب المادي .

الأحزاب : هم الطوائف التي اجتمعت على محاربة الأنبياء .

وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه : وتعرضت كل أمة لرسول الله ليقتلوه أو يعذبوه .

فأخذتهم : فأهلكتهم .

حقَّت : وجبت .

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ
كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن
صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾
وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا
ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ
مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ
تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

العرش : سرير الملك ويكنى به عن العز والسلطان ، وعرش الله من أمور الغيب .

يسبحون بحمد ربهم : يصلون لربهم حامدين شاكرين له .

واتبعوا سبيلك : واتبعوا طريقك وهو طريق التوحيد .

وقهم عذاب الجحيم : واحفظهم من عذاب النار يوم القيامة .

جنات عدن : بساتين الإقامة الدائمة .

لَمَقْتُ الله : لغضب الله الشديد .

فهل إلى خروج من سبيل : فهل نردّ إلى الدنيا ثانية لنعمل بطاعة الله .

من يُنيب : من يرجع إلى الله بالتوبة .

سورة غافر

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تبأ بالحرفين (ح.م)[١] إشارة إلى أن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه مكون من مثل هذين الحرفين من حروف الأبجدية فعجز الناطقين باللغة العربية عن أن يأتوا بمثله دليل على أن القرآن وحي إلّهي .

ثم يبين الله سبحانه بأن القرآن مُنزل من عنده ، وأنه سبحانه وتعالى يتصف بمحاسن الصفات :

﴿ حمٓ . تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١ ـ ٣) .

فصفات الله المذكورة هنا يغلب عليها سمات العظمة والجلال ، فهي

---

(١) حمٓ : هذان الحرفان وغيرهما من الأحرف التي جاءت في أوائل السور هي من المتشابه في القرآن ، وقد ذهب العلماء في تفسير المراد منها مذاهب مختلفة ، فقال البيضاوي : إنها أسماء حروف يتركب منها الكلام افتتحت بها بعض السور إيقاظاً لمن تحداهم الله بالقرآن وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون به كلامهم ، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم ـ مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم ـ عن الإتيان بما يدانيه . وقيل : إن (حمٓ) اسم من أسماء القرآن . وقيل إن (حمٓ) قسم أقسمه الله تعالى به وهو إسم من أسماء الله . وقيل : إنها سرٌّ استأثر الله بعلمه . وقيل المراد بها تنبيه القارىء للاستماع للقرآن ، فقد كان بعض العرب يعرضون عند استماعهم للقرآن فلما نزلت (الٓم) (حمٓ) وغير ذلك من فواتح السور صدمتهم هذه الألفاظ وتاقت أنفسهم إلى معرفة ما يتلوه رسول الله من القرآن والوقوف على معانيه وأغراضه ، فلما أنصتوا أقبل عليهم رسول الله ﷺ يتلوه على أسماعهم ويقيم الحجة عليهم ، فهذه الأحرف ذكرت في أوائل السور لاستدراج العرب حتى يقبلوا عليه ويستمعوا له .

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن هذه الأحرف التي في بداية بعض السور تتكرر في السورة ذاتها أكثر من غيرها من الأحرف وتتفوق حساباً على غيرها .

تشعر الناس بأنهم في قبضة الله لا مهربَ لهم منه ، ومن ناحية أخرى فهي تثير رجاء الناس وطمعهم في ثواب الله وتحذرهم من عصيانه ، وتدعوهم إلى الإصغاء إلى ما تحتويه السورة من أوامر ونواهٍ ـ فمن صفاته سبحانه :

﴿ العَزيز ﴾ أي القوي القادر الذي يَغلِبُ ولا يُغلب .

﴿ العَلِيم ﴾ صيغة مبالغة من العلم ، فهو سبحانه يصرّف الكون عن علم وإحاطة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾[١] أي الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم يقبل توبة العصاة تفضلاً منه إذا رجعوا إليه بالندم على ما فات والعمل الصالح .

﴿ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ شديد العقوبة لمن عصاه وتمرد على أوامره .

﴿ ذي الطَّوْلِ ﴾ ذي الإنعام على عباده والتفضل عليهم ، وقيل : ذي القدرة والغنى .

﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبودَ أهلاً للعبادة إلّا هو فلا إلّه غيره ولا ربَّ سواه .

﴿ إِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ إلى الله المرجع فيجازي كل إنسان بعمله .

ولقد كان أصحاب المِلل السابقة قبل الإسلام يعبدون آلهة متعددة ، يتقربون إليها بالصلوات والأدعية والقرابين ، ويحيطونها بهالة من الخرافات والأساطير ، فجاء الإسلام بالتوحيد الخالص لله ، وعرف المسلمين بصفاته الحسنى ، وبيَّن لهم كيف يتقربون إليه وكيف يتقون عذابه .

---

(١) التوب : مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب توبة وتوباً ، وقيل هو جمع توبة .

وبعد أن بيّن القرآن بعض صفات الله التي تضع الإنسان على بينة من أمره تحدث عن فئات من الناس آثرت الكفر على الإيمان :

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ (٤) .

المراد بالجدال المخاصمة والنِّقاش بالباطل . فالجدال في آيات الله [أي آيات القرآن الكريم] هو أن يقال مرة إنها سحر ، ومرة إنها شعر ، ومرة إنها من قول الكهنة ، ومرة إنها أساطير الأولين ، ومرة إنها من تعليم البشر ، وقد قيل كل ذلك في عهد النبي ﷺ ، والقرآن في حقيقة الأمر مخالف لكل ذلك بما شهد به ويشهد كل ذي علم .

وقد يراد بآيات الله : حجج الله والأدلة على وحدانيته ، فالذين جادلوا في آيات الله وخاصموا بها هم الذين كفروا وأعرضوا عن الحق عن عناد وعمى في قلوبهم .

وفي شأن هؤلاء المجادلين بالباطل يخاطب الله نبيه ﷺ : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ والتقلب في البلاد المراد به هنا الخروج من أرض إلى أرض سعياً وراء الكسب المادي ، فالله يقول للنبي ﷺ : لا ينبغي أن تغتر يا محمد بأن الله يمهل الكافرين ويتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتصرفون في البلاد للتجارة وطلب المعاش ، فإني وإن أمهلتهم عاجلاً فإني سأنتقم منهم آجلاً ، وهكذا كانت قبيلة قريش في بدء الدعوة الإسلامية فهي لم تذعن للحق وكذبت بدعوة محمد وأنكرت رسالته ، وكان أفراد هذه القبيلة يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال الوفيرة يتجرون بها .

ويتابع القرآن فيذكر ما حل بالأمم المكذِّبة لأنبيائها من هلاك وعذاب

ليتعظ بذلك كفار مكة وليحذروا أن يحلَّ بهم ما حلَّ بسواهم من الكفرة:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ . وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِين كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٥ ، ٦) .

فالله سبحانه يقول : كذبت دعوة رسل الله قبل قومك يا محمد أمم شتى ، منهم : قوم نوح ﴿ والأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي والأحزاب الذين تحزبوا وتجمعوا ضد أنبيائهم كقوم عاد وثمود ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّة بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ وقصدت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم المرسل إليهم من الله ليقتلوه ، أو ليعذبوه ، أو ليحبسوه ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ وخاصمت كل أمة رسولها بإيراد الشبهات على رسالته ليزيلوا بذلك الحق الذي جاء به ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي فأنزل الله بهم من الهلاك جزاء ما قاموا به من اضطهاد لرسل الله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي ألم ينظروا إلى آثار الهلاك التي أوقعها الله بهم ليكون في ذلك عبـرة وعظة لمن بعدهم ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي وكما وجب وثبت حكم الله تعالى بإهلاك الأمم الماضية المكذبة لرسل الله وجب أيضاً الهلاك على الذين كفروا من قومك يا محمد بالعذاب الذي يستأصلهم في الدنيا ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ وبجانب عذاب الدنيا لهم في الآخرة عذاب النار .

وبعد أن بيَّن القرآن مصير المكذبين برسل الله يأتي مقابلهم بيان لمكانة المؤمنين وما أعد الله لهم من كرامة حيث جعل الملائكة حملة العرش تتضرع إلى الله لهم بالدعاء أن يغفر لهم ويدخلهم جنات النعيم ، وفي ذلك تطمين للمؤمنين على ما ينتظرهم من ثواب الله وتقوية لنفوسهم لتقبُّل كل

التضحيات في سبيل دينهم :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٧) .

فأفضل الملائكة هم الذين يحملون عرش[١] الله ومن حوله من الملائكة ، فهؤلاء ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي له ، والحمد هو الثناء على الله والاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ، وقيل إن المعنى : إن الملائكة يصلون لربهم حمداً له وشكراً ﴿ وَيُؤْمِنُون بِهِ ﴾ أي يصدقون بوجوده وبأنه لا إلّه لهم سواه ، وتخصيص الملائكة بالإيمان به في هذه الآية مع أن جميع الملائكة يؤمنون به هو لإظهار فضيلة الإيمان بالله وبيان شرفه والترغيب فيه ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهؤلاء الملائكة يسألون ربهم أن يغفر للذين أقروا بأنه لا إلّه إلّا الله ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ ربنا وسعت رحمتك كل شيء فأسبغت عليه الخيرات ، فالحيوان يغدو ويروح برحمتك ، والإنسان يمسي ويصبح متقلباً في نعمتك ، كما وسع علمك كل شيء فلا يغيب عنك مثقال ذرة في السماوات والأرض لأنك خالقه ومبدعه فعلمك يا رب محيط بجميع أعمال الناس وأقوالهم . وفي وصف الله بالرحمة والعلم ـ قبل الدعاء ـ تعليم للناس أدب السؤال والدعاء ، وذلك بأن يبدأوا الدعاء بالثناء على الله

---

(١) العرش : هو سرير الملك ويكنى به عن العز والسلطان ، أما عرش الله فهو من الأمور الغيبية التي نؤمن بها ولا ندري عن كنهها شيئاً . وإن حمل الملائكة لعرش الله لا يستدعي أن يكون جالساً عليه وإلّا لكان الملائكة حاملين لله سبحانه ، ولكان الله جسماً محدداً ، والله يتنزه عن ذلك ، فالله سبحانه كما جاء في القرآن ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ولهذا لا يجوز تشبيه الله بما هو متعارف .

ثم يستمطروا إحسانه وفضله .

وتتابع الملائكة دعاءها : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أي فاصفح يا رب وٱعفُ عن المسيئين من عبادك المؤمنين إذا تابوا وأقلعوا عن اقتراف السيئات ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات ، وترك المنكرات ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أي وٱحفظهم يا رب من عذاب النار جزاء إيمانهم وإخلاصهم لك .

وبعد دعاء الملائكة ربهم بأن يغفر للمؤمنين سيئاتهم يسألونه أيضاً بأن يخص المؤمنين بنعيم الآخرة ، وفي هذا بشرى للمؤمنين بما ينتظرهم من ثواب الله لأن الملائكة لا تدعو إلّا بعد اليقين من استجابة الله لهم :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٨ ، ٩) .

فالملائكة تقول : يا ربنا أدخل المؤمنين جنات النعيم والإقامة الدائمة فيها التي وعدتهم بها ، وأدخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وأولادهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليتم سرورهم بهم وتقر أعينهم باجتماعهم بهم في الجنة ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ إنك يا ربنا القوي الغالب ، الحكيم في تدبيره لخلقه ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي اصرف يا رب عن المؤمنين عاقبة سيئاتهم التي اقترفوها قبل توبتهم فلا تؤاخذهم عليها ، ولا تعذبهم بها ، أو بمعنى : احفظهم يا ربنا من فعل المنكرات والفواحش حتى لا يعاقبوا عليها ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ ومن تجنبه جزاء السيئات أو فعل السيئات فقد شملته برحمتك . فالسيئات هي التي تورد الناس مورد التهلكة فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها فقد

وقاهم نتائجها وعواقبها الوخيمة في الآخرة ، وكان ذلك سبباً لنيل رحمة الله والحصول على جنات النعيم في الآخرة ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وذلك هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله .

ثم تعود بنا الآيات إلى الحديث عن الكفار ، فتذكر اعترافهم بذنوبهم أمام ربهم في الآخرة ، وسؤالهم له أن يرجعهم إلى الدنيا ليتلافوا ما صدر منهم من كفر ومعصية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَان فَتَكْفُرُونَ . قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ ﴾ (١٠ ـ ١٢) .

فالذين كفروا بالله يُعذبون في النار يوم القيامة فيبغضون أنفسهم غاية البغض بسبب عصيانهم لله ، فتناديهم الملائكة : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي إن بغض الله تعالى لهم في الدنيا كان أشد من بغضهم لأنفسهم في هذا اليوم العصيب ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَان فَتَكْفُرُونَ ﴾ إذ : هي تعليل لما سبق أي ذلك المقت من الله كان بسبب أنكم كان يُعرض عليكم الإيمان فتأبون إلا كفراً .

ثم يخاطب الكفار ربهم : ﴿ قَالُوا : رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ فالموتة الأولى هي التي كانوا فيها في العدم قبل أن يُخلقوا ، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا بعد خلقهم . وبالنسبة للحياة فالحياة الأولى هي حين أحياهم الله في الدنيا ، والحياة الثانية هي حياة البعث يوم القيامة[1] حين

(١) أشار القرآن إلى ذلك في سورة البقرة آية ٢٨ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُم أَمْواتاً فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُميتكُم ثُمَّ يُحييكُم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ .

يخرجون من قبورهم أحياء للحساب ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبيلٍ ﴾ أي فأقررنا بما عملنا من الذنوب فهل لنا وسيلة للخروج من النار والعودة إلى الدنيا كي نعمل غير الذي كنا نعمل في دنيانا السابقة ونسلك عندئذٍ طريق الأبرار ، هنا يأتي الجواب الإلّهي : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه لأن شأنكم في الدنيا كان إذا عُبِدَ الله وحده كفرتم بوحدانيته ، وإن أشرك بعبادته مشرك صدقتموه وآمنتم بأن له شريكاً وبذلك استحققتم العذاب من ربكم ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ ﴾ فالقضاء لله وحده دون غيره وهو العلي على كل شيء ، الكبير الذي كل شيء سواه ذليل له ، محتاج إليه .

ثم تأتي الآية التالية داعية إلى التفكر في المظاهر الكونية التي تدل على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) .

فالله سبحانه يُري الناسَ ﴿ آيَاتِهِ ﴾ أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وربوبيته من خلال ما يشاهدون في الأرض وفي السماء من مظاهر قدرة الله التي تجعل الناس يذعنون لعظمة الخالق وإبداعه ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ﴾ أي وينزل لكم أيها الناس من السماء مطراً الذي هو سبب الرزق من ثمار وحبوب وخضار ونبات ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَنْ يُنِيبُ ﴾ وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة إلّا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله وحده بالإخلاص له والإقبال على طاعته .

فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي
ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم
بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ
﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ
مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا
تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي

شرح المفردات

رفيع الدرجات : رفيع الصفات المستحق لأعلى درجات المدح والثناء .

ذو العرش : مالك العرش وخالقه والمتصرف فيه .

يُلقي الروح : ينزل الوحي ، وهو ما يبلغ الله به رسله من الشرائع .

يوم التلاق : يوم القيامة حيث يلتقي فيه الأولون والآخرون من البشر .

بارزون : خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء .

يوم الآزفة : يوم القيامة .

الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم .

كاظمين : انطوت نفوسهم على غم وكرب .

من حميم : من قريب ينفع .

يعلم خائنة الأعين : يعلم الله مسارقة النظر إلى المحرمات .

ما تُخفي الصدور : ما تكنه وتضمره القلوب .

يَدْعون من دونه : يعبدون غير الله .

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا
كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ
وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا
قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ
ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ
وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ
ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

شـرح المفـردات

عاقبة : الخاتمة والمصير .

مِنْ وَاق : من حافظ يحفظهم من عذاب الله .

بآياتنا : بمعجزاتنا .

وسلطان مبين : وحجة واضحة بينة .

كَيْدُ : هو الاحتيال في إلحاق الضرر بالغير .

ضلال : بطلان وضياع .

عُذْتُ بربي : اعتصمت والتجأت إلى ربي .

تابع سورة غافر

ويتابع القرآن فيدعو إلى عبادة الله وحده بإخلاص لأنه المتفرد بالعظمة والكمال :

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُون لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٤ ـ ١٧) .

والمعنى : فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة غير مشركين به شيئاً ، ولو كره الكافرون عبادتكم وإخلاصكم لله وغاظهم ذلك .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ فالرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع أو المرتفع ، فإذا حملناه على معنى المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال لا شيء أرفع قدراً منه ، وهو المستحق لأعلى درجات المدح والثناء . أما إذا حملنا رفيع على معنى الرافع : فهو سبحانه يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ، أو هو سبحانه رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة . ﴿ ذو الْعَرْشِ ﴾ مالك العرش ومدبره وخالقه ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ ينزل الوحي الإلّهي أو الكتب المنزلة من عنده بقضائه ، وقد سمى الله الوحي روحاً لأن الناس يحيون به من موت الكفر والضلال ، كما تحيا الأبدان بالأرواح ، وهو سبحانه ينزل الوحي ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممن اصطفاهم للنبوة والرسالة ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾ ليخوف الناس ويحذرهم من يوم القيامة ، وسمي يوم القيامة بيوم التلاق لأنه تتلاقى فيه العباد للحساب والجزاء ، أو يلقى فيه الإنسان جزاء

عمله ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ يوم هم ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُم شَيء ﴾ لا يخفى على الله شيء من أعمالهم وأسرارهم ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ حكاية لما يقع حينئذٍ من السؤال والجواب ، قيل : إن السائل والمجيب هو الله سبحانه وقد يكون السائل جمعاً من الملائكة والمجيب جمعاً آخرين ، أو يكون السائل ملكاً من الملائكة والمجيب الناس جميعاً . نعم فالملك لله وحده الذي قهر كل شيء وغلبه .

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فيوم القيامة يُجازى كل إنسان بعمله ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ فلا يُظلم أحد في هذا اليوم لا بنقص في الثواب ، ولا بزيادة في العقاب ﴿ إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إن الله سريع حسابه ، فيحاسب الخلائق على أعمالهم التي عملوها في الدنيا . وسرعة الحساب مع العدالة دليل على قدرة الله سبحانه لأن اجتماع الخلائق من لدن آدم إلى يوم القيامة ثم محاسبتهم يستغرق وفق مفهومنا آجالاً طويلة ، ولكن قدرة الله وعلمه تجعل الحساب سريعاً . وكما قيل يحاسب الخلق جميعاً في وقت واحد لا يشغله حساب من حساب ، وأنه سبحانه كما يرزق الخلق في وقت واحد يحاسبهم كذلك .

ويتابع القرآن الكلام عن القيامة وأحوال الناس فيها والعدالة الإلّهية في مجازاة الناس :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ . ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ . يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . واللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيء إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (١٨ ـ ٢٠) .

فالله يخاطب رسوله محمداً قائلاً : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ أي وحذر قومك وخوّفهم من يوم القيامة ، وقد سمى الله القيامة آزفة لقربها بالنسبة لما مضى من عمر الدنيا ، يقال أزف الوقت أي قرب ، وقيل : الآزفة هي المنية وحضور الأجل ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ إذ القلوب ترتفع من أماكنها وتقف في الحناجر(١) من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ، يحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازاً عبّر به عن شدة الخوف . ومعنى كاظمين : مكروبين ممتلئين غماً لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ليس للظالمين من قريب ينفعهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أي إن الله يعلم النظرة الخائنة ، كاستراق النظر إلى المحرمات وما نهى الله عنه ، كما يعلم سبحانه ما تكنّه الصدور وما تخفيه من الخواطر والأسرار .

هذه الحقيقة التي يعلنها القرآن تبين مدى شمول المراقبة الإلٓهية للإنسان ، فإذا آمن بذلك الإنسان ووعاه حق الوعي كان من أهم المؤثرات التربوية التي تدفعه لسلوك الطريق القويم وتجعله مواطناً صالحاً . فالمؤمن إذا هَمَّ بمعصية أو إثم وأدرك أنه على مرأى من الله وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء فيغلبه الحياء عندئذٍ من أن يراه الله حيث نهاه عنه ، فيتراجع عن إثمه وعصيانه لله .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ واللَّهُ يَقْضِي بالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بالعدل ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُون بِشَيءٍ ﴾ والذين تعبدونهم من غير الله لا يحكمون بشيء ، وليس من شأنهم أن يحكموا لا عدلاً ولا ظلماً ، وهذا

(١) الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم .

تهكم بالمشركين فإن ما يعبدون من أصنام وغيرها لا تقدر على فعل شيء فكيف يتخذونها آلهة ويخصونها بالعبادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فهو السميع لأقوال الناس البصير بأفعالهم ، بينما آلهتهم لا تسمع ولا تبصر .

ثم يصرح القرآن بعد ذلك بأن هلاك الأمم وسقوطها هو بسبب ما تقترفه من ذنوب :

﴿ أَوَ لَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً في الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ (٢١ ، ٢٢) .

فالله سبحانه يقول : أَوَ لم يَسِرْ في الأرض هؤلاء المشركون بالله ، المكذبون رسوله محمداً بما جاء به من الوحي ، فيعتبروا بما يرون من آثار الأمم التي مضت قبلهم والذين سلكوا طريق الكفر والمعاصي ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ كانت تلك الأمم أشد من قومك يا محمد بطشاً ﴿ وَآثَاراً في الأَرْضِ ﴾ وأقوى آثاراً في الأرض بما عمروا فيها من الحصون والقصور ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ والذنب هو الإثم والجرم والمعصية ، أي أهلكهم الله بما أجرموا واكتسبوا من آثام ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ وما كان لهم من يصونهم ويحميهم من عذاب الله إذ جاءهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانت تَأْتِيهمُ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي ذلك العذاب سببه أنه كانت تأتيهم رسل الله بالبيّنات الواضحة على وحدانية الله ووجوب طاعته فأنكروا تلك الوحدانية واستمروا على عصيانهم لله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي أهلكهم الله بعذابه بسبب خطاياهم ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ إن الله ذو قوة لا يقهره شيء ، ولا يغلبه أحد ، شديد عقابه لمن عصاه من خلقه .

فالذي دعا إليه القرآن من السير في الأرض والاعتبار بما حل بالأمم السابقة من هلاك بسبب ذنوبها ومعاصيها هو درس للأمم اللاحقة لتستفيد مما حلَّ بأسلافهم من دمار وهلاك فتجتنب الأخطاء والذنوب التي وقعوا فيها .

وبعد الكلام عن الأمم السابقة التي أصابها الهلاك بسبب ذنوبها يقدم القرآن مثالاً على موقف الطغاة من دعاة الحق وذلك بعرض جانب من قصة موسى مع فرعون .

وتجدر الإشارة إلى أن قصة موسى مع فرعون وردت في كثير من السُّوَر بأساليب شتى يتوخى القرآن في ذكرها العظة والاعتبار ، أما في هذه السورة فإننا نرى القرآن يقدم بعض الوقائع التي تشبه ما وقع مع النبي ﷺ من حيث الدعوة إلى الله والمعارضة الشديدة التي لقيها كل منهما ، مع ذكر بعض حوادث اضطهاد لقيها موسى تشبه ما كان يلقاه محمد ﷺ من قومه أيضاً ، وفي ذلك تثبيت لقلب محمد ومن معه من المؤمنين ، وتبشيرهم بأن العاقبة الحسنة ستكون لهم كما كانت لأتباع موسى .

يستهل الله قصة موسى مع فرعون بهذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢٣ ـ ٢٥) .

فالله سبحانه يقول بأنه أرسل رسوله موسى ﴿ بآيَاتِنا ﴾[1] أي بمعجزات

---

(١) هي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ وهي العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم .

الله الدالة على أنه رسول من الله حقاً ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبينٍ ﴾ أي بحجة واضحة ظاهرة ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَان وَقَارُونَ ﴾ ففرعون هو ملك مصر في زمن موسى ، وهامان هو وزيره ، وقارون هو صاحب الأموال الوفيرة والكنوز الثمينة ، وقد ذكر الله قارون وهامان مع فرعون لأن هامان كان الوزير الذي يشجع الملك على الكفر والضلال والتسلط ، وقارون كان صاحب الأموال المستغل للشعب المتعدي على حقوقه . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لقد قالوا عن موسى إنه ساحر كذاب لما عجزوا عن معارضة موسى ومجابهة ما أتى به من المعجزات ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ فلما جاءهم موسى بالبرهان القاطع الدال على أنه رسول الله حقاً ، لم يكتفوا بجحود رسالته بل ﴿ قَالُوا : اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِين آمنوا مَعَهُ ﴾ أي اقتلوا أبناء الذين آمنوا مع موسى لئلا ينشأوا على دينه فيقوى بهم ﴿ واسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ واتركوا نساءهم أحياء للخدمة ﴿ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إلاّ في ضلالٍ ﴾ أي وما احتيال الكافرين ومكرهم إلاّ في ضياع وبطلان .

ويتطور العداء لموسى والاضطهاد له إلى عزم فرعون على قتل موسى للإجهاز على دعوته :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُوني أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أو أنْ يُظْهِرَ في الأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى إني عُذْتُ بِرَبي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٢٦ ـ ٢٧) .

لقد قال فرعون : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ أي اتركوني حتى أقتل موسى وأخلصكم منه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ولينادِ موسى ربه حتى ينقذه مني ﴿ إِني أَخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ إني أخاف إن تركتُهُ حيّاً أن يغير دينكم الذي أنتم عليه بسحره ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ في الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ أو أن يظهر في الأرض

ـ أرض مصر ـ عبادة الله التي يدعوكم إليها، وهذه الدعوة في نظره هي الفساد في الأرض .

هذه كلمة يقولها كل طاغية في وجه دعاة الإصلاح بأن دعوتهم هي الفساد في الأرض . فالطغيان في منطق الطغاة هو الحق لأن في ذلك استمراراً لما هم عليه من السلطة والتسلط على أموال الأمة وتسخيرهم جماهير الشعب لمنافعهم وشهواتهم الخاصة ، بينما دعوة الحق والعدالة التي جاءت على لسان رسل الله هي في نظر الطغاة فساد في زعمهم .

أمام هذا الطغيان من فرعون لجأ موسى إلى ربه مستجيراً به : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ لقد استجار موسى بربه ورب قوم فرعون ، وفي هذا إقرار بربوبية الله وحده لهذا الكون ودعوة لقوم فرعون لأن يقتدوا به في هذا الإقرار بالربوبية لله وحده . وبجانب هذا الإقرار وصف موسى فرعون بخصلتين : الأولى هي التكبر ، والثانية هي إنكاره ليوم الحساب . فالتكبر يؤدي بالحاكم إلى الاستبداد والظلم وعدم الإصغاء لكلمة الحق ، أما نكران يوم الحساب فيجعل الحاكم أسير شهواته ونزواته فلا يتورع عن فعل كل قبيح لأنه في ظنه لا حساب ولا جزاء بعد هذه الحياة .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ
إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن
رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم
بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ
ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ
قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾
وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾
مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ
يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

شَـرح المفـردَات

ظاهرين في الأرض : غالبين عالين في الأرض .

بأس الله : عذاب الله .

ما أُريكم : ما أشير عليكم .

دأب : جزاء .

يوم التناد : يوم القيامة .

تُولُّون مدبرين : تفرون هاربين .

عاصم : حافظ وواقٍ .

مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ
مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ
مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ
ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا
كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ
سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ
هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا
مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا

شرح المفردات

مرتاب : شاكّ في دين الله ووحدانيته .

بغير سلطان : بغير برهان وحجة .

كبُر مَقْتاً : عَظُمَ بغضاً .

يَطْبَعُ الله : يختم الله .

صَرْحاً : قصراً أو بناء عالياً ظاهراً .

لعلي أبلُغ الأسباب : لعلي أصل إلى طرق السموات وأبوابها .

وصُدَّ عن السبيل : وأعرض فرعون عن سبيل الله .

تباب : هلاك وخسران .

سبيل الرشاد : طريق الهداية .

متاع : ما تستطيبه النفوس في هذه الحياة كالمال والنساء والولد .

دار القرار : دار الاستقرار والخلود .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ
إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾
فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟
ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

شرح المفردات

لا جرم : حقاً .

ليس له دعوة : ليس له استجابة دعوة لأحد .

مردَّنا : مرجعنا .

المسرفين : المراد بذلك هنا السفاكون للدماء المتكبرون أو المشركون .

أُفوِّض أمري إلى الله : أرد وأسلم أمري إلى الله .

ما مكروا : ما أرادوا به من الشر .

حاق بهم : نزل بهم وأصابهم .

غدُوًّا وعشياً : صباحاً ومساءً .

تقوم الساعة : تقوم القيامة .

تابع سورة غافر

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الحديث عن قصة مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يعظ قوم فرعون بالوعظ المؤيد بالعقل والمنطق ، الهادف إلى مجابهة الطغيان . هذا المؤمن يدافع عن موسى ويصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر بادىء الأمر ثم في صراحة وجرأة في آخر الأمر ، يقول تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُم وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢٨) .

هذا الرجل المؤمن هو من قوم فرعون ، قيل إنه ابن عم فرعون وكان قد آمن بدعوة موسى سراً وكتم إيمانه ، هذا المؤمن استدرج قومه بنصحهم بأسلوب حكيم فلم يقل لهم : أتقتلون نبي الله ، أو أتقتلون رجلاً مؤمناً ، وإنما قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[١] وتنكير : رجلاً ليوهم قومه أنه لا يعرف موسى . ثم يقول هذا المؤمن : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقد جاءكم موسى بالمعجزات الظاهرة لكم المشاهدة منكم الدالة على صحة نبوته .

ثم وضع هذا المؤمن قضية موسى أمام احتمالين : الاحتمال الأول هو

---

(١) هذه الحادثة التي جرت في زمن فرعون جرى مثلها في زمن محمد ﷺ ، فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينا رسول الله يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : « أتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله » .

قوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي إن كان موسى كاذباً فإنه وحده يتحمل تبعة كذبه ، لقد قدم هذا المؤمن افتراض الكذب على موسى ليبعد عن نفسه تهمة الإيمان وأنه مؤيد له .

أما الاحتمال الثاني فقوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُم ﴾ أي إن يكن صادقاً في نبوته يصبكم ما وعدكم به من العذاب إن بقيتم على عقيدتكم فلا فائدة لكم بقتله بل إنكم تزيدون في عقوبة ربكم عليكم . ويمكن أن يكون المعنى : إن آمنتم بصدقه يصيبكم بعض ما وعدكم به من الخير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ إن الله لا يوفق للحق ولا يؤيد من هو مسرف في المعاصي والخطايا ، كذاب بادعاء النبوة . هذا القول تأييد لموسى ، فلو كان موسى مسرفاً كذاباً لما أيده الله بالمعجزات الباهرة بل كان قد خذله ، كما أن في هذا القول تعريضاً بفرعون لأنه كان مسرفاً في القتل والظلم ، كذاباً بادعاء الألوهية ووجود شريك لله .

ويتابع هذا المؤمن من آل فرعون نصحه لقومه ولكنه يجابه بمعارضة فرعون له :

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ في الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٢٩) .

هذا المؤمن يذكِّر قومه بما هم فيه من الملك ليشكروا الله على نعمه عليهم ولا يتمادوا في كفرهم فيقول لهم : يا قوم لكم السلطان اليوم والملك عالين وغالبين بني إسرائيل في أرض مصر ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ فمن يدفع عنا عذاب الله وسطوته إن حلَّ بنا ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ :

مَا أُرِيكُمْ إلَّا مَا أَرَى ﴾ أي قال فرعون مجيباً هذا المؤمن الناهي عن قتل موسى : ما أشير عليكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلّا ما أراه مناسباً وهو قتل موسى ﴿ وَمَا أَهدِيكُمْ إلَّا سَبيلَ الرَّشَادِ ﴾ وما أدعوكم إلّا إلى طريق الحق والصواب .

ثم يحذر هذا المؤمن قومه من عذاب الله في الدنيا والآخرة إن أصروا على كفرهم وطغيانهم :

﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ يَا قَوْمِ إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِين مِنْ بَعْدِهِم وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٣٠ ـ ٣٣) .

هذا المؤمن يحذر قومه قائلاً : إني أخاف عليكم إن قتلتم موسى أن يحل بكم ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾ أي مثل يوم عذاب الأمم الماضية ، والأحزاب جمع حزب وهو الطائفة من الناس التي تجتمع على رأي واحد ، والأحزاب هنا هم الطوائف التي اجتمعت على محاربة الأنبياء ، وقد ذكر القرآن بعض هذه الطوائف بقوله : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي مثل حال أو مثل جزاء الذين قاموا بتكذيب الأنبياء ومحاربتهم وهم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم كقوم لوط ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ أي لا يعاقب الله العباد بدون ذنب اقترفوه ، فعقاب الله لهؤلاء كان عدلاً بسبب إجرامهم وكفرهم ، وتأمل كيف نفى سبحانه إرادة الظلم عن نفسه ، ومن كان بعيداً عن إرادة الظلم كان عن الظلم أبعد .

ويتابع مؤمن آل فرعون قوله : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ ويوم التنادي هو يوم القيامة لأن الناس فيه ينادون بعضهم بعضاً للاستغاثة من جراء ما يرون من أهوال يوم القيامة(١) ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي يوم تشرعون بالفرار من هول عذاب جهنم ولكن لا فرار لكم ، أو يوم تذهبون وتنصرفون بعد موقف الحساب إلى جهنم ﴿ مَا لَكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ما لكم من ناصر ينصركم ويعصمكم من عذاب الله ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ومن يخذله الله فلم يوفقه للرشد فما له من موفق يوفقه له .

ثم يذكرهم هذا المؤمن بموقفهم وموقف من كان قبلهم من رسالة يوسف عليه السلام ، مع تحذيرهم من التمادي في الباطل :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ في شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِين آمَنوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٣٤ ، ٣٥) .

فهذا المؤمن يقول لقومه : ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى ﴿ بالبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الواضحات والدلالات الظاهرات على نبوته وصحة رسالته ﴿ فَمَا زِلْتُم في شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أي فبقيتم مرتابين فيما أتاكم به يوسف ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ حتى إذا توفاه الله ﴿ قُلْتُم : لَنْ

---

(١) جاء في القرآن أن أهل النار ينادون أهل الجنة مستغيثين : ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ وأن أهل الجنة ينادون أهل النار معاتبين إياهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ .

يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أي قلتم لن يرسل الله من بعد موته رسولاً ، وهذا القول ليس تصديقاً بنبوة يوسف ، وإنما هو تكذيب بنبوة من يجيء بعده من الرسل ، فأضافوا تكذيب نبي مضى إلى تكذيب نبي آتٍ ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في المعاصي شاك في حقيقة رسالة رسله ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ[1] بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويخاصمون حجج الله بغير دليل وحجة معهم من الله ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي عظم بغضاً عند الله وعند الذين آمنوا هذا الجدال بالباطل ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ الطبع : الختم ، بمعنى أن يقفل على القلوب باب العقل والفهم فلا تقبل الحق ، والمعنى : وكما ختم الله على قلوب هؤلاء المجادلين بالباطل ، كذلك يختم الله على كل قلب متكبر على الله فلا يوحده ، ولا يصدق بما جاء به الرسل من الهدى ، جبار : أي متعظم عن اتباع الحق ، عديم الشفقة على عباد الله .

ويبدو أن حجة هذا المؤمن من آل فرعون كان لها من التأثير على قوم فرعون بحيث لم يستطع فرعون تجاهلها ، لذا اتخذ لنفسه مخرجاً بما بينته الآيات التالية :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ[2]

---

(١) آيات الله : هي حجج الله التي أنزلها على أنبيائه وفيها الدلائل على وحدانية الله وصدق أنبيائه ، سواء أكانت هذه الحجج نصوصاً من كتاب الله ، أو كانت معجزات جاءت على أيدي هؤلاء الأنبياء مما أيدهم الله بها .

(٢) إن قيل : ما فائدة تكرار « أسباب » مع أن القول بأسباب السموات كان كافياً . قيل في ذلك إنه إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان ذلك تفخيماً لشأنه .

السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إلَى إلَه مُوسَى وَإني لأَظُنُّهُ كَاذباً وَكَذلِك زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاَّ في تَبَابٍ ﴾ (٣٦ ، ٣٧) .

ففرعون بلغ من عتوه وغروره أن أمر وزيره هامان أن يبني له ﴿ صرحاً ﴾ وهو القصر العالي الشاهق الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، طلب ذلك من وزيره وهو على يقين من عجزه ، ولكنه أراد أن يموِّه على عقول قومه ، وقد بيّن فرعون الغاية التي يقصدها : ﴿ لَعَلّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إلَى إلَهِ مُوسَى ﴾ أي لعلي أصل إلى أسباب السماوات وهي طرقها أو أبوابها أو منازلها فأستطيع رؤ ية إلٓه موسى وأطلع على حاله ﴿ وَأنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعي من أن له إلٓهاً في السماء ﴿ وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ وهكذا حُسِّن وجُمِّل في نظر فرعون قبيح عمله فرآه حسناً ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَبيلِ ﴾ وأعرض فرعون عن طريق الهداية ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاَّ في تَبَابٍ ﴾ وما تدبير فرعون السيء هذا ومكره إلّا في خسران وضلال .

أمام هذا العناد من فرعون وإصراره على الكفر تابع هذا المؤمن من آل فرعون النصح لقومه مبيناً لهم تفاهة الحياة الدنيا :

﴿ وَقَالَ الَّذي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبيلَ الرَّشَادِ . يا قَوْمِ إنَّما هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجزَى إلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُون فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٨ ـ ٤٠) .

فهذا المؤمن يقول لقومه : ﴿ اتَّبِعُوني أَهْدِكُمْ سَبيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي امتثلوا أمري واسلكوا طريقي أرشدكم إلى طريق الصواب والهدى . بينما كان فرعون يقول من قبل ﴿ وَمَا أهديكم إلاّ سَبيلَ الرَّشَادِ ﴾ فهذا هو التحدي

الصريح بكلمة الحق التي لا يخشى فيها هذا المؤمن سلطان فرعون وجبروته .

ويتابع المؤمن قوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّما هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا مَتَاعٌ ﴾ أي هذه الحياة يتمتع بها الإنسان قليلاً ثم تنقطع وتزول ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ وأن الحياة الآخرة هي دار البقاء والدوام التي يستقر بها البررة في جنات النعيم فلا يموتون ولا يزول النعيم عنهم . فالدنيا منقضية والحياة الآخرة باقية دائمة ، والدائم خير من المنقضي . ثم يضيف المؤمن قوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي من عمل بمعصية الله في هذه الحياة الدنيا فلا يجزيه الله في الآخرة إلا سيئة مثلها وذلك بأن يعاقبه عليها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ومن عمل بطاعة الله في الدنيا سواء كان رجلاً أو امرأة وهو مصدق بوجود الله ووحدانيته ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُون الجَنَّةَ ﴾ فهؤلاء يدخلون في الآخرة الجنة التي هي دار النعيم ﴿ يُرْزَقُون فِيهَا بِغَيْرِ حِسابٍ ﴾ أي يرزقهم الله في الجنة من ثمارها وما فيها من نعيم رزقاً لا انقضاء له ولا نفاد .

وأخيراً يختم هذا المؤمن نصحه لقومه بصراحة وجرأة مظهراً إيمانه :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونني إِلَى النَّار . تَدْعُونني لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ . لاَ جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونني إِلَيْهِ لَيس لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيَا وَلاَ في الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤١ ـ ٤٤) .

هذا المؤمن يقول لقومه : ما لي أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله وذلك بالإيمان به واتباع رسوله موسى فيما جاءكم به من الهدى من عند

ربه ، وتدعونني إلى عمل أهل النار لأعذب بها يوم القيامة ﴿ تَدْعُونني لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ ﴾ تدعونني للكفر بوحدانية الله وإشراك آلهة معه في العبادة ليس لي بها علم بربوبيتها لأنها آلهة من تسميات البشر وأوهامهم ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ ﴾ وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد القوي الذي يغلِبُ ولا يُغلب ، الغفار لذنوب العباد إذا تابوا. عنها ﴿ لَا جَرَمَ(١) أَنَّما تَدْعُونني إِلَيْهِ ﴾ أي حقاً إن الذي تدعونني إليه من عبادة الآلهة والأصنام ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيَا وَلَا في الآخِرَةِ ﴾ أي هذا المعبود لا يستجيب دعاء من يدعوه ، أو بمعنى : ليس لهذا المعبود دعوة يدعو بها العباد إلى عبادته ، فهو لا يدعي الربوبية ، وفي الآخرة يتبرأ كل معبود من عابده ، هذا وقد كان فرعون يدعو الناس إلى عبادة الأصنام والبقر ، ثم دعاهم إلى عبادة شخصه فقال : أنا ربكم الأعلى .

ويتابع هذا المؤمن مخاطباً قومه : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ وأن مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وأن المستكثرين من معاصي الله ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ هم أصحاب جهنم يعذبون بنارها يوم القيامة ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ فستذكرون أيها القوم إذا عاينتم عقاب الله وعذابه حقيقة ما أخبركم به ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وأسلم أمري إلى الله وأتوكل عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ إن الله عالم بأمور عباده لا يخفى عليه شيء .

ولما تمم هذا المؤمن نصحه لقومه ، وأظهر إيمانه قصدوا قتله فهرب منهم ونجاه الله من مكرهم ، وحلَّ عذاب الله بفرعون وقومه :

---

(١) لا جرم : لا منفصلة عن جرم وهي نفي لما سيق من الكلام أي لا لدعوتكم لي إلى الكفر والشرك وتأتي بعدها ـ جرم ـ وهي فعل بمعنى حقَّ .

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُروا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٥ ـ ٤٦) .

فالله سبحانه وقى هذا المؤمن ما أرادوا به من المكر السيء ، وكان من جملة من نجاه الله مع بني إسرائيل ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أي وحلّ ونزل بآل فرعون العذاب السيّىء وهو إغراقهم في البحر ، والمراد بآل فرعون أتباعه وقومه الذين دانوا له بالطاعة . وبجانب غرقهم في البحر هناك عذاب آخر لهم في الدنيا ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي تُعرض أرواحهم على النار صباحاً ومساء ما دامت الدنيا قائمة إلى أن تقوم القيامة إذلالًا لهم وتوبيخاً . هذه الآية تدل على وجود عذاب القبر في الدنيا بعد الممات وهو ما يسمى بعالم البرزخ . ويدل على ذلك الآية التي جاءت بعدها : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أي يوم تقوم القيامة يُقال للملائكة أَدخلوا قوم فرعون وأتباعه أشد العذاب في جهنم ، من هذا يثبت أن النار التي يُعرض عليها آل فرعون صباحاً ومساء هي في الدنيا وليس المراد منها يوم القيامة ، فإذا جاءت الآخرة يدخلون أشد العذاب .

هذا وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله : « أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق »[١] .

---

(١) رُوي هذا الحديث بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم .

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا
مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ
عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ
قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ
لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ
لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

شرح المفردات

يتحاجُّون : يختصمون .

مُغْنُون عنَّا : متحملون عنا .

يوم يقوم الأشهاد : يوم القيامة حيث تشهد الملائكة والرسل والمؤمنون على أعمال العباد .

لهم اللعنة : لهم الطرد من رحمة الله .

سُوءُ الدار : المراد بها جهنم .

لأولي الألباب : لأصحاب العقول السليمة .

العشي : أواخر النهار .

الإبكار : أوائل النهار .

بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ
بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ
﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

شرح المفردات

يجادلون : يخاصمون .

سلطان : حجة وبرهان .

الساعة : المراد بها القيامة .

داخرين : أذلاء .

تُؤفكون : تُصرفون عن الحق .

قراراً : مستقراً لكم .

فتبارك الله : تعالى وتمجد وكثر خيره .

رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

تابع سورة غافر

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما يكون من نزاع وخصام بين الكفار يوم القيامة وهم يعذبون في نار جهنم :

﴿ وَإِذْ يَتحاجُّونَ في النَّارِ فَيقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَلْ أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِين اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ (٤٧ ، ٤٨) .

فالله سبحانه يقول : واذكر لهم يا محمد حين يختصم الرؤساء والأتباع وهم في نار جهنم ﴿ فَيقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ فيقول الأتباع للرؤساء والأسياد ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً ﴾ إنا كنا لكم أتباعاً ننقاد لأوامركم ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ ﴾ فهل تقدرون أيها الرؤساء والكبراء أن تدفعوا عنا قسماً من العذاب . وهؤلاء الأتباع الضعفاء يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصدهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم ، فيجيب هؤلاء الكبار : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي إننا كلنا واقعون في هذا العذاب ، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه أولاً عن أنفسنا ، ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ إن الله قد قضى بين عباده ، وأعطى كل واحد منهم ما يستحقه من نعيم أو عذاب .

هذه ثورة على التبعية العمياء يوحي بها القرآن للمستضعفين في الأرض ضد المستكبرين والطغاة ، فالانصياع لهؤلاء السادة المستكبرين فيما يدعون إليه من الباطل يجر إلى عذاب الله في الدنيا والآخرة . فالإنسان الذي ميزه الله بالعقل والكرامة والحرية عليه ألا يتنازل طوعاً عن هذه الميزات إرضاء لأحد بل عليه أن يسلك سبيل الله ، سبيل الحق والعدل مهما صادف في ذلك من تضحيات ، فلو تكتل الضعفاء والمقهورون وكانوا يداً واحدة أمام الطغاة وجابهوهم بكلمة الحق لكان في ذلك سدٌّ منيع أمام طغيانهم وفسادهم .

ويتابع القرآن فيذكر ما يقاسي الكفار من شدة العذاب في النار يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٤٩ ، ٥٠) .

فالله سبحانه يقول إن الكفار في جهنم يستغيثون من عظيم ما هم فيه من البلاء بحفظة جهنم قائلين لهم : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العذابِ ﴾ أي ادعوا ربكم لنا ليخفف عنا يوماً واحداً من العذاب مقدار يوم واحد من أيام الدنيا لأن في الآخرة يوماً لا ليل فيه ، فيجيبهم خزنة جهنم ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالبَيِّنَاتِ ﴾ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أي ألم تجئكم في الدنيا رسل الله بالبينات والحجج التي تدل على وحدانية الله فتوحدوه وتؤمنوا به وتتبرأوا مما دونه من الآلهة ﴿ قَالُوا : بَلَى ﴾ قالوا : نعم قد أتتنا رسل الله بذلك ﴿ قَالُوا : فَادْعُوا ﴾ أي قالت لهم خزنة جهنم ادعوا إذن ربكم فإنا لا ندعو لمن كفر بالله وكذّب رسله بعد مجيئهم بالحجج

الواضحة ، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلَّا في ضَلَالٍ ﴾ أي وما دعاء الكافرين إلّا في ضياع وبطلان فهو لا ينفع ولا يجدي شيئاً .

وبعد مشهد العذاب للكافرين يأتي الوعد الإلٓهي لرسل الله وللمؤمنين بالنصر في الدنيا والعاقبة الحسنة في الآخرة :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِين آمنوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٥١ ـ ٥٢) .

فالله سبحانه يؤيد بنصره رسله ومن اتبعهم من المؤمنين في الدنيا على من ناوأهم وعاداهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[١] أي وينصرهم كذلك يوم القيامة بأن ينجيهم من العذاب يوم يشهد الشهود العدول على من كفر وعصى .

نعم لقد صدق الله وعده فنصر رسوله محمداً ومن معه من المؤمنين على أعدائهم ، ودانت لرسول الله محمد ﷺ جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ثم قام خلفاؤه من بعده فبلّغوا دين الله للناس كافة وفتحوا البلاد حتى وصلوا داخل فرنسا وانتشرت دعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) الاشهاد : جمع شاهد والمراد بهم الذين يقومون يوم القيامة للشهادة على أعمال العباد من ملائكة وأنبياء ومؤمنين . أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا ، وأما الأنبياء فإنهم يحضرون يوم القيامة ليشهدوا على الأمم بالتصديق والتكذيب قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وأما المؤمنون فإنهم يشهدون على الناس أيضاً يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

ومما لا ريب فيه أن هذا الوعد الإلٓهي بنصر الرسل والمؤمنين من شأنه أن يبعث اليقين والقوة والجرأة في قلب كل مؤمن يدعو إلى دين الله ويناضل في سبيل ذلك موقناً بنصر الله وتأييده .

أما مصير الظالمين يوم القيامة فهو سيّىء للغاية وهو ما عبرت عنه الآية : ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمينَ مَعْذِرَتُهُم ﴾ فهم لا ينفعهم اعتذارهم عما فَرَّطوا في الدنيا من ظلم ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ ولهم الإبعاد والطرد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ولهم الدار السيئة وهي جهنم .

وبعد أن بيّن الله أنه ينصر رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ، ضرب المثل في ذلك بحال موسى الذي نصره الله على فرعون مع تطمين محمد ﷺ بأن الله ناصره كما نصر الأنبياء قبله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنا بَني إسْرَائيلَ الكِتابَ . هُدًى وَذِكْرَى لأُولي الأَلْبَابِ . فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٥٣ ـ ٥٥) .

فالله أعطى موسى الهداية إلى الحق ﴿ وَأَوْرَثْنَا بنِي إسْرَائِيلَ الكِتَابَ ﴾ أي وجعل سبحانه التوراة إرثاً موروثاً لبني إسرائيل بعد وفاة موسى يتوارثونها خلفاً عن سلف ﴿ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولي الأَلْبَابِ ﴾ وهذه التوراة هدى لبني إسرائيل من الضلالة وبياناً لأمر دينهم ، وتذكيراً وموعظة لأصحاب العقول السليمة . تأمل كيف نوّه الله بأصحاب العقول لأنهم هم الذين يميزون بين الحق والباطل ، وهم أسرع الناس استجابة لهدى الله ، وما انحرف المنحرفون إلّا عن فساد وضعف في عقولهم لعدم تمييزهم بين ما ينفعهم وما يضرهم .

ثم يخاطب الله رسوله محمداً : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدِ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي اصبر على أذى الكفار والمشركين وبلِّغ قومك ما أُمرت بتبليغهم مما أنزله عليك

من الوحي ، وأيقن بحقيقة وَعْدِ الله الذي وعدك به من نُصرتك ونصرة من صدقك وآمن بك ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ واطلب الغفران من ربك ؛ ولكن يُقال إن الأنبياء معصومون عن الذنوب ، قيل المراد بذلك محض التعبد ، أو تعليم من محمد ﷺ لأمته بطلب الاستغفار ، أو الاستغفار لذنوب أمته ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزّه ربك عن كل ما لا يليق به من الصفات والأفعال مقترناً ذلك بالشكر والثناء عليه ﴿ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ والعشي هو وقت زوال الشمس إلى الليل أو آخر النهار ، والإبكار : هو وقت طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس ، بمعنى أول النهار .

ثم ينتقل القرآن إلى ذم الذين يعرضون عن الحق ويسيرون في درب الباطل :

﴿ إنَّ الذينَ يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ بغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إن في صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٥٦) .

فالذين يجادلون ، أي يخاصمون ﴿ في آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي في العلامات الدالة على وحدانية الله ، أو وحيه الإلٰهي المنزل على أنبيائه في الكتب السماوية ، أو ما أظهره سبحانه على أيدي رسله من المعجزات كل ذلك يفهم من كلمة (آيات الله) ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُم ﴾ بغير حجة أو دليل جاءهم من عند الله ﴿ إنْ في صُدُورِهم إلَّا كِبْرٌ ﴾ إن بمعنى : ما ، النافية ، والمراد بالصدور : القلوب . والكبر : هو التكبر والتعاظم . والمعنى : ما في صدورهم إلّا تكبر عن الحق الذي أتيتهم به يا محمد حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله إياه والكرامة التي خصك بها في النبوة ، فكفار قريش يريدون أن تكون الرئاسة بيدهم ، وباتباعهم للنبي محمد ﷺ لا تبقى لهم رئاسة ، وهذا يفسّر معارضتهم لرسالة محمد ﷺ ، ولكن هيهات كما تقول الآية : ﴿ مَا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ أي ما هم ببالغي تلك الرئاسة والوجاهة التي قصدوها لأن الله مذلهم بسبب إصرارهم على الكفر ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فالتجئ يا محمد إلى الله من شر هؤلاء المجادلين بالباطل إنه هو السميع لما يقولونه من أباطيل ، البصير بما يعملونه ، لا يخفى عليه شيء .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مدى قدرة الله العظيمة التي لا تعجز عن إعادة الإنسان حياً يوم القيامة :

﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ . إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٧ ـ ٥٩) .

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها فهي ردٌّ على أولئك المجادلين في آيات الله ومن جدالهم إنكارهم للبعث ، وإعادة الناس أحياء يوم القيامة ، فهذه الآيات تقول : إن ما أبدعه الله وأنشأه من السموات والأرض من غير مثال سبق أعظم من إبداعه وإنشائه الناس ، لأن الإنسان مخلوق واحد من بين عشرات الألوف من المخلوقات من الحيوان والطير والحشرات والأسماك وكل مخلوق فيه من الأسرار ما لا يحصى ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي أن أكثر الناس لا يدركون هذه المقارنة بين خلق السموات والأرض وخلق الناس لقلة تبصّرهم وعدم استعمال عقولهم ، وكان من المفروض أن يدركوا أن إعادة خلق الإنسان حياً يوم القيامة هيّن على الله .

فمنذ أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ كان العرب وغيرهم من الأمم لا يعرفون شيئاً عن عظمة الكون واتساع الكرة الأرضية ، وما تحتويه من مخلوقات شتى ، بسبب قلة المواصلات ، وما كانوا يدركون إلّا المخلوقات التي هي على مرأى من أنظارهم ، وما كانوا يرون إلّا القليل . وكان الفضاء الخارجي آنذاك مجهولاً عند الناس سوى ما يرونه من أضواء خافتة في السماء تبلغ الآلاف بالنظر المجرد ، ولكن بعد اختراع المناظير القوية التي

كشفت عن عظمة الفضاء الخارجي وما فيه من بلايين النجوم وأحجامها التي تبلغ ملايين حجم الأرض وما فيها من كواكب ضخمة ومذنبات ، ظهر جلياً عظمة قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ثم كان التعبير القرآني عقب ذلك مدهشاً ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ نعم إن أكثر الناس لم يكونوا يعلمون حقائق الفضاء في عصر القرآن ثم تبدت لهم هذه الحقائق تباعاً فيما بعد، بعد أكثر من ألف سنة من نزول القرآن عند اختراع المناظير القوية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ ﴾ لقد مثّل الله الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، فالكافر لا يرى حجج الله ولا يفكر فيها ولا يعتبر بها كي يدرك وحدانية الله وقدرته على خلق كل شيء فيؤمن به ، فمثل الكافر كمثل الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، أما المؤمن فيرى بعينيه ، ويدرك بقلبه حجج الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، فيتعظ ويسلك سبيل الله فهو بهذا بصير ، وعلى هذا فالمؤمن والكافر لا يتماثلان في المنزلة والقيمة الإنسانية .

ثم يتابع القرآن قوله : ﴿ وَالَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا المُسِيءُ ﴾[1] هنا عطف جملة على جملة مع حذف الفعل للدلالة عليه ويكون المعنى : لا يتماثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع المسيء وهو الكافر بربه العاصي له ﴿ قَليلاً مَا تَتَذَكَّرون ﴾ قليلاً ما تتذكرون أيها الناس حجج الله فتعتبرون بها وتتعظون ، وتدركون ما أنتم عليه من خطأ في اتخاذكم شريكاً لله ، وإنكاركم قدرة الله في إحياء الموتى يوم القيامة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ إن الساعة التي تقوم فيها القيامة ويحيي الله فيها الموتى للثواب والعقاب لآتية أيها الناس لا شك في مجيئها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالبعث بعد الموت يوم

(١) المراد بالمسيء هنا المسيئون فهي من الألفاظ المفردة لفظاً ، الجمع معنى .

القيامة . نعم هذه الحقيقة تتبدى أشد ما يكون في عصرنا الحاضر بسبب طغيان المذاهب المادية ، وسريان الإلحاد المستشري بين كثير من الناس .

وبعد أن بيّن القرآن أن يوم القيامة حق وصدق كان من الطبيعي أن الإنسان لا ينفعه في ذلك اليوم إلّا طاعة الله وعبادته ، ومن أشرف أنواع العبادات الدعاء والتضرع لله وحده ، ولهذا أمر به سبحانه فقال :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٦٠) .

قيل في معنى الدعاء في هذه الآية : العبادة ، وقيل : الدعاء هو السؤال بجلب النفع ودفع الضر .

فإذا كان الدعاء بمعنى العبادة فيكون المعنى : وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم ﴿ إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتي ﴾ إن الذين يتكبرون عن إفرادي بالعبادة ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ ﴾ سيدخلون دار العذاب في الآخرة أذلاء حقيرين .

وإذا ركزنا على الدعاء بمعنى السؤال فيكـون المعنى : ادعوني وأَخلصوا لي الدعاء ولا تلجأوا إلى غيري في الدعاء من أوثان وأصنام وغير ذلك ، فالدعاء بهذا المعنى نوع من العبودية لله لأنه اعتراف الإنسان بالذلة والحاجة أمام خالقه ، فكأن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية لله سبحانه .

هذا وقد ورد عن النبي محمد ﷺ قوله : « إن الدعاء[١] هو العبادة »[٢] وقال : « الدعاء مخ العبادة »[٣] .

---

(١) الدعاء لا يقتصر على الطلب كقول الداعي : اللهم ارحمني واغفر لي بل قد يكون حمداً وشكراً لله ، قال تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٣) أخرجه الترمذي .

فدعاء الإنسان ربه دليل على يقينه بأن الذي يدعوه هو الإله المعبود بحق ، القادر على كشف الضر عنه ، وإعطائه ما يبتغيه من خير ، فالإنسان ضعيف أمام متقلبات الحياة ، معرض للأخطار والأمراض والخسارة ، وفقدان الأحبة ، هذه الأمور يكون وقعها شديداً عليه بدون الاعتماد على الخالق ، فيجتاحه الحزن والتشاؤم واليأس ، ويصبح عرضة للأمراض النفسية التي تنعكس عليه أمراضاً جسدية كما أقر بذلك الطب الحديث .

فيقين الإنسان بأن الله يستجيب دعاءه ويكشف الضر عنه يعطيه طمأنينة في القلب ، وسكينة في النفس لشدّ ما يحتاجها الإنسان أمام المصائب .

لقد وعد الله المؤمن باستجابة الدعاء ، ولكن قد يدعو الإنسان كثيراً فلا يستجاب له ، وقد ذكر العلماء شروطاً لاستجابة الدعاء مقتبسة من هدي القرآن والسنة ، من هذه الشروط : الإخلاص في الدعاء ، وأن لا يدعو الإنسان وقلبه مشغول بغير الدعاء ، وأن لا يكون في الدعاء قطيعة رحم ، وأن يكون قائماً بطاعة الله ، وأن لا يستعجل إجابة الدعاء فيقول : دعوت ربي فما استجاب لي ، وأن لا يدعو بإثم ، وأن يكون الداعي مطعمه ومشربه من الحلال ، فالمطعم والمشرب الحرام يحول دون إجابة الدعاء.

وبعد أن دعا القرآن الناس أن يتوجهوا إلى الله وحده في الدعاء والعبادة ذكر بعد ذلك بعض مظاهر قدرة الله وفضله العميم على الناس :

﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إنَّ اللَّهَ لَذو فَضْلٍ عَلَى النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٦١ ـ ٦٣) .

فالله يقول : إنه جعل لنا الليل لنهدأ فيه ونستريح من عناء العمل ، كما جعل لنا النهار مضيئاً لنعمل فيه ، إن الله لصاحب فضل عظيم على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالإيمان به وحده ، وبالطاعة والإخلاص في

العبادة . وهنا لا بد من وقفة تأمل عند قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ فالسكون في الليل ضرورة لكل حي ، ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية ، فلا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون بل لا بد من ليل ، فالخلية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بالقسط الضروري من السكون . أما التعبير القرآني الذي جاء عقب ذلك ﴿ والنَّهارَ مُبْصِراً ﴾ فهو من باب إسناد الشيء إلى وقته لأن النهار وقت الإبصار ، وفيه يبصر الناس ، ويكون المعنى : وجعل لكم الليل وقتاً للإبصار ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ﴾ أي إن الذي فعل هذه الأشياء هو الله ربكم الواحد خالق كل شيء ﴿ لا إلَه إلاّ هُوَ ﴾ لا إلّه غيره ، ولا رب سواه ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أفك : صرف ، أي من أي وجه تُصرفون عن عبادة الله وحده ، وتعبدون غيره من أصنام لا تخلق شيئاً وهي من صنع الإنسان ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي كما ضل هؤلاء المشركون من قوم محمد بعبادة غير الله ، كذلك صُرِفَ عن عبادة الله من كان قبلهم من الأمم فعبدوا غيره بلا دليل وبرهان ، بل لمجرد الهوى والجهل .

ويتابع القرآن تعداد نعم الله على الإنسان التي تستوجب عبادته وحده بإخلاص والثناء عليه :

﴿ اللَّهُ الّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً والسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ . هُوَ الحَيُّ لَآ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٦٤ ـ ٦٥) .

فالله سبحانه جعل للناس ﴿ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ أي يستقرون عليها ، ويسكنون فوقها ويتصرفون فيها ﴿ والسَّماءَ بِناءً ﴾ أي وجعل الله السماء بناء ورفعها فوقكم ـ أيها الناس ـ سقفاً قائمـاً ثابتاً بغير عَمَدٍ ترونها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي خلقكم الله ـ أيها الناس ـ في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور متناسبي الأعضاء ، وفي أحسن تقويم بأن جعل هاماتكم مرفوعة ولم يجعلها منكسة كالبهائم ﴿ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وأعطاكم من فضله سبحانه طيبات المآكل والمشارب ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي ذلك الذي تفضل بهذه النعم هو الله ربكم الذي لا تصلح الربوبية لغيره ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ فتعالى وتقدس رب جميع الخلق ومالكهم ﴿ هُوَ الحَيُّ ﴾ الذي لا يموت ، الدائم الحياة ﴿ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلّا هو سبحانه ، ولا تصلح الألوهية إلّا له ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فاعبدوه مخلصين له الطاعة لا تشركوا في عبادته شيئاً سواه ، قـائلين : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ ﴾ أي مثنين على الله بتمجيده وتعظيمه ، فهو المالك والمنعم على الخلق أجمعين .

وقد كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال « لا إله إلّا الله » أن يُتبع ذلك فيقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ آخذين ذلك من سياق هذه الآيات الداعية إلى الثناء على الله عقب الإقرار بوحدانيته .

وبعد تبيان صفات العظمة والجلال لله يأمر الله سبحانه رسوله محمداً بدعوة قومه إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان والتوجه إلى عبادة الله وحده :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِنْ رَبّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٦) .

أي قل يا محمد للمشركين من قومك إن الله نهاني أن أعبد غيره من الآلهة التي تدعون إليها ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ حين جاءتني الآيات الواضحات من عند ربي وهي آيات القرآن الكريم التي أنزلها عليَّ المتضمنة الأدلة العقلية على تفرّد الله بالعظمة والحكمة ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ وأمرت أن أخضع لمالك الخلق وسيدهم بالطاعة دون غيره .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ
وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن
نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ
تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

شرح المفردات

نطفة : ماء الرجل وماء المرأة .

تَبْلُغوا أشدكم : تبلغوا كمال قوتكم وعقلكم .

قضى أمراً : أراد إيجاد أمر .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

يُسجرون : يُحرقون .

ضلُّوا عنا : غابوا وتخلوا عنا .

تمرحون : تبطرون .

مثوى : مأواهم ومقامهم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم
مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾
وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ
وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ
سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

شرح المفردات

المبطلون : المتمسكون بالباطل .

حاق بهم : أحاط أو نزل بهم .

رأوا بأسنا : عاينوا عذاب الله .

سُنَّة الله : نظام الله في خلقه .

خلت : مضت .

تابع سُورَة غَافِر

ثم يورد القرآن مظهراً من مظاهر قدرة الله متمثلة في خلقه للإنسان وتدرجه في التكوين الذي هو معجزة من معجزات الخلق :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٦٧ - ٦٨) .

فالله سبحانه يقول بأنه خلق الجنس البشري من تراب ، وهذه حقيقة معترف بها ؛ فإن النطفة وهي ماء الرجل وماء المرأة التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الإنسان من النبات والحيوان ، وأصل هذه التغذية ومنشؤها هو التراب .

وبعد أن يقذف الرجل منيه المحتوي على ملايين الحييات المنوية تتسابق هذه لتنال بويضة الأنثى ، وأحد هذه الحييات يمتزج بالبويضة وهذه أول عملية تكوين الجنين ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وحالما تخصب البويضة بإحدى الحييات المنوية تتكون النطفة الأمشاج ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالانشطار : فتنشطر الخلية إلى خليتين ، والخليتين إلى أربع وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت وفي غضون خمسة أيام أو أسبوع تكون النطفة الأمشاج قد وصلت إلى الرحم فتنشب فيه وتعلق بجداره ، ومن ذلك سميت علقة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي يمد في آجالكم لتبلغوا سن الكمال في القوة والعقل ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ﴾ أي ثم لتصبحوا في سن الهرم والشيخوخة ﴿ وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ أي يموت قبل سن الشباب والشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى ﴾ ولتصلوا إلى وقت محدد لانتهاء

آجالكم لا تتجاوزونه وهو الموت ، فلكل مخلوق أجلُ قَدَّرَهُ اللَّهُ فمتى بلغ أجله تنتهي حياته ، وهذا الأجل المسمى قد يكون في أي مرحلة من مراحل الحياة : طفولة ، أو شباباً ، أو شيخوخة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولكي تدركوا الأشياء على حقيقتها وتعلموا دلائل قدرة الله وان لا إلّه غيره .

ثم يبين القرآن عظمة القدرة الإلّهية : ﴿ هُوَ الذي يُحْيي وَيُمِيتُ ﴾ فهو سبحانه يحيي ما كان ميتاً ويميت ما كان حيّاً ﴿ فَإِذَا قَضَى أمْراً ﴾ فإذا أراد أن يكوِّن أمراً من الأمور ﴿ فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فهذا تمثيل لتأثير قدرة الله سبحانه على الكائنات ، وتصوير لسرعة إيجادها بناءً على كلمة ﴿ كن ﴾ فيكون ما يشاء الله أن يكون من مخلوقات وكائنات وأجرام سماوية ، ولا نعلم تعبيراً موجزاً يمثل عظمة الله وكمال القدرة الإلّهية كهذا التعبير : ﴿ كن فيكون ﴾ .

وبعد بيان كمال القدرة الإلّهية التي لا تبقي شكّاً لمرتاب تأتي الآيات مهددة المشركين بالعذاب الأليم يوم القيامة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (٦٩ - ٧٢) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ ﴾ هذا الاستفهام يدعونا للنظر كأنه سبحانه يقول : تأمل موقف هؤلاء المشركين الذي يدعو للدهشة والاستغراب ، أفبعد الذي بيّنه الله من عظمة قدرته لا يزالون يخاصمونك في حجج الله الواضحة الدالة على وحدانيته ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ كيف يتحولون عن الهداية ويعدلون عن الرشد ﴿ الذين كَذَّبُوا بالكِتَابِ ﴾ الذين كذبوا بالقرآن ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ وبما أرسل الله به رسله من الدعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، والتبرؤ من الآلهة

والشركاء له ، والإقرار بالبعث يوم القيامة . وهذا تأكيد على وحدة الرسالة الإلٓهية إلى رسله من البشر ، فتكذيب المشركين بالقرآن هو تكذيب بكافة رسل الله ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ هذه الجملة فيها تهديد ووعيد للمشركين ، نعم فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم بالقرآن ﴿ إِذِ(١) الأَغْلَالُ(٢) في أَعْنَاقِهِمْ والسَلاسل(٣) يُسْحَبُون ﴾ هذا هوالتهديد الربّاني حيث ستوضع الأغلال والسلاسل في أعناقهم ، ثم يسحبون بالسلاسل من قِبَلِ ملائكة العذاب ﴿ في الحَمِيمِ ﴾ أي إلى الماء الذي بلغ الغاية القصوى من الحرارة ﴿ ثُمَّ في النَّارِ يُسْجَرُون ﴾ ثم بعد ذلك يحرقون في النار .

ثم تأتي الآيات وفيها تبكيت للمشركين وتوبيخ لهم على إشراكهم بالله وتكبرهم في الأرض الذي أدى بهم إلى أسوأ مصير :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ . ذَلِكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُم تَمْرَحُونَ . ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧٣ - ٧٦) .

فالمشركون يُقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُم تُشْرِكُون . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شريكة لله متجاوزين في ذلك عبادة الله وحده ﴿ قَالُوا : ضَلُّوا عَنّا ﴾ هكذا أجاب المشركون بأن

---

(١) إذ : ظرف يدل على الاستقبال وعبر بذلك على تحقق وقوع العذاب .

(٢) الأغلال : جمع غل وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ، والغل يقال للقيد الذي يقيد به فيجعل الأعضاء في وسطه . وقد يراد بالأغلال في أعناقهم : أعمالهم السيئة التي هي كالأغلال .

(٣) السلاسل : جمع سلسلة وهي حلق من حديد ونحوه يدخل بعضها في بعض.

آلهتهم التي كانوا يعبدونها غابوا عنهم وتركوهم في هذا البلاء ، وأضافوا قائلين : ﴿ بَلْ لَمْ نكُنْ ندعوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي بل تبين لهم أنهم كانوا يعبدون شيئاً لا يعتد به ولا يرجى منه نفع وأن عبادتهم للأصنام كانت عبادة باطلة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ ﴾ أي كما فعل الله سبحانه بهؤلاء من الإضلال بسبب تنكبهم عن الحق يفعل سبحانه بكل كافر فلا يرحمه ولا ينجيه من عذاب النار ﴿ ذَلِكُم ﴾ أي ذلك العذاب الذي نزل بكم سببه : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بما كنتم تفرحون في الأرض بطغيانكم وخيلائكم وخطاياكم ، وبشرككم بالله ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ والمرح المقصود به البطر ، وقيل التمادي في المعاصي . ونتيجة لطغيانكم وبطركم ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ادخلوا أبواب جهنم مكتوباً لكم الخلود فيها تعذبون بنارها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس مستقر المتكبرين جهنم ، فالكبرياء والترفع عن قبول الحق أوردهم العذاب في الآخرة .

وبعد هذا التهديد والوعيد للكافرين تأتي البشرى لمحمد ﷺ بالنصر على أعدائه :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٧٧) .

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً بقوله : فاصبر على هؤلاء المشركين في ما يخاصمونك فيه من آيات الله وعلى تكذيبهم بنبوتك وما أنزل عليك من الوحي فإن الله منجز لك ما وعدك به من الظفر عليهم والعلو عليهم ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ فإما أن نريك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب والخزي مثل القتل

والأسر ـ وهذا ما تحقق فعلاً يوم معركة بدر ـ فذاك ما يستحقونه ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وإما أن نتوفاك قبل إنزال العذاب فيهم ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فإلى الله يرجعون بعد وفاتك فيذيقهم أشد العذاب في الآخرة .

وقفة تأمل عند قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ التي تكررت هذه الجملة مرتين من باب التأكيد ، نعم لقد وعد الله رسوله محمداً بالنصر ، وتحقق هذا النصر بعد سنوات قلائل ، هذا الوعد الإلٓهي من أعظم الدلائل على كون القرآن من عند الله وعلى صدق نبوة محمد ﷺ ، فلو كان محمد مدعياً النبوة كما يقول المفترون المكذبون لرسالته ، لما وجّه إلى نفسه هذا الخطاب وهو واثق بالنصر متأكد من الفوز ، وبالأخص ان هذه السورة ومنها هذه الآية التي ذكرناها نزلت في مكة حين كان الإسلام ضعيفاً والمسلمون قلة مضطهدة يلاقون ألوان العذاب على أيدي الكفار وحين كان محمد ﷺ في أحرج الظروف حيث كانت دعوته تجابه أكثر الأخطار ضراوة .

من هنا نفهم أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فيه البشرى لمحمد ﷺ بالنصر وقد تحقق النصر بعد سنوات قليلة مما يشهد بصدق نبوته وأنه مؤيد من الله . إن كثيراً من عظماء التاريخ كانوا يمنون أنفسهم بالنصر ويعدون قومهم به وهم في أوج قوتهم ، ولكنهم اندحروا في خاتمة المطاف ، أما محمد ﷺ فقد نقل عن ربه وعده بالنصر في أصعب المواقف وأخطرها ، وقد صدق الله وعده وانتصر محمد ﷺ على خصومه .

وبعد هذا الوعد بالنصر تأتي الآية التالية مبينة أن حال الرسول محمد ﷺ مع قومه كحال الرسل قبله وأن التأييد الرباني لرسله يسير وفق الحكمة الإلٓهية :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٧٨) .

فالله سبحانه يقول بأنه أرسل رسلاً إلى قومهم قبل رسالة محمد ، منهم من أنبأ محمداً بأخبارهم في القرآن وهم خمسة وعشرون نبياً ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ومن هؤلاء الرسل من لم يحك الله لمحمد عنهم شيئاً ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي وما كان لرسول من عند الله أن يأتي بمعجزة دالة على صدق رسالته إلاّ بإذن الله وأمره ، وهذا رد على كفار قريش حيث اقترحوا على الرسول محمد ﷺ أن يأتيهم ببعض المعجزات . فالله يريد أن يبين للناس أن الرسل هم بشر مثلهم اختارهم من بين الخلق ، وحدد وظيفتهم وهي إبلاغ رسالة الله إلى الناس ، وأن الرسل ليسوا بقادرين على أن يتجاوزوا حدود هذه الوظيفة ويأتوا بالمعجزات حسب طلبهم .

ويتابع الله قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ أي فإذا جاء أمر الله لمحاسبة الخلق قضي بينهم بالعدل ، ففي الدنيا ينجي الله رسله والذين آمنوا معهم من الخزي والعذاب في الدنيا ويثيبهم في الآخرة بجنات النعيم ، أما الذين كفروا فيصيبهم الله بعذاب الآخرة حيث الخسارة الكبرى ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي خسر الذين اتبعوا الباطل واجتنبوا الحق ، هذا وقد يصيب الله الكافرين بعذاب الدنيا قبل الآخرة .

ثم تعود بنا الآيات لافتة الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٓهية التي هي على مرأى الأنظار ، وقد غفل الناس عن الاعتبار بها لطول مجاورتها لهم :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ (٧٩ ـ ٨١) .

فالله سبحانه يمتنُّ على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي : الإبل والبقر والغنم ، وما جعل لهم فيها من منافع : فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تُركب وتُؤكل وتُحلب ويُحمل عليها الأثقال في الأسفار الطويلة ، والبقر والغنم تُؤكل ويُشرب لبنها ، والجميع يُجز صوفها وشعرها ووبرها فيتخذ منها الثياب وبعض الأمتعة : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي وتنجزوا بالإبل رغبة في صدوركم وهي حمل أثقالكم من أمتعة وتجارة من بلد إلى بلد ، وقد كانت الإبل قديماً قبل اختراع وسائل المواصلات الحديثة الأداة الوحيدة للأسفار البعيدة عند العرب وغيرهم من الشعوب لما تتحمل من المشقات وخصوصاً في الصحاري ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي وعلى الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر تُحملون في أسفاركم . وقد جمعت الآية بين الإبل والفلك في الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت الإبل سفائن البر ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي ويريكم ربكم حججه وبراهينه الدالة على وجوده ووحدانيته وحكمته ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ أي إن آيات الله على كثرتها لا يمكنكم أن تنكروا واحدة منها فهي من الظهور والوضوح بحيث لا يستطيع أن يجحدها جاحد .

المتمعن بخلق الإبل والبقر والغنم يرى أنها خلقت لمنفعة الإنسان ويرى فيها يد القدرة الإلَهية المبدعة الحكيمة ، وينفي قيام هذه المخلوقات صدفة عن طريق المادة وحدها كما يدعي الماديون الملحدون ، فالمادة العمياء لا تخلق حيوانات لمنفعة الإنسان بالذات وفي سبيل توفير القوت

والراحة له ، فوجود القصد والنفع للإنسان من هذه الأنعام له دلالة على وجود خالق حكيم وهو الله سبحانه .

ويتابع القرآن فيدعو المشركين المكذبين لرسالة محمد ﷺ إلى النظر والاعتبار بما حل ببعض الأمم السابقة من هلاك جزاء تكذيبهم لرسل الله :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً في الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَات فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٨٣) .

فالله سبحانه يقول : ألم يَسِر هؤلاء المشركون في البلاد فينظروا ويعتبروا بما حلّ بالأمم قبلهم من المكذبين لرسل الله كقوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقد كان المشركون من قوم محمد ﷺ يتعاطون التجارة فيرحلون إلى الشام صيفاً ، وإلى اليمن شتاء ، وكانوا أثناء رحلاتهم يمرون بالبلاد التي دمرها الله على رؤوس المكذبين لرسل الله ، ويرون آثار الدمار البادي بعد هلاكهم ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُم وَأَشَدَّ قُوَّةً وآثاراً في الأَرْضِ ﴾ كان هؤلاء أكثر عدداً ، وأشد بطشاً من قومك يا محمد ، وأبقى في الأرض آثاراً ، يدل على ذلك ما بقي من آثارهم من أبنية وقصور وجبال منحوتة ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي فما نفعهم وما دفع عنهم عذاب الله ما كسبوه من مال وقوة وسلطان ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ ﴾ فلما جاءتهم رسل الله بالمعجزات الواضحات ، والحجج الدامغات الدالة على وجود الله ووحدانيته ووجوب طاعته ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ ﴾ لقد فرحوا بما عندهم من العلم الدنيوي وظلوا على ما هم فيه من ضلال وموبقات ونكران للبعث والجزاء يوم القيامة حتى استحقوا العذاب ﴿ وَحَاقَ

بِهِم مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ونزل بهم من عذاب الله جزاء كفرهم واستهزائهم برسل الله وشريعته .

وما أكثر الذين أنكروا الأديان وألحدوا بوجود الخالق في عصرنا الحاضر فرحين مبهورين بما وصلت إليه المدنية من علم وحضارة ، ولكن أي علم هو ، إنه علم عن ظاهر من الحياة الدنيا لم يكشف لهم شيئاً ما بعد الموت ولم يوفر لهم سكينة النفس ولم يهذب النفس الإنسانية ويحد من أطماعها وأنانيتها وإجرامها بما جاء الدين لأجله .

ثم يأتي ختام السورة وفيه بيان لمصير المستهزئين برسل الله وشرع الله حيث سيصيبهم الله بعذاب الدنيا قبل الآخرة :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرُونَ ﴾ (٨٤ ـ ٨٥) .

فهؤلاء المستهزئون برسل الله ودين الله عندما رأوا بأس الله أي العذاب الذي أصابهم ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أي أقروا بربوبية الله وحده عند رؤ ية العذاب وجحدوا ما أشركوا مع الله من أوثان وأصنام وآلهة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ فلم ينفعهم هذا الإيمان عندما حلّ بهم عذاب الله لأنه إيمان ينبىء عن يأس واضطرار وقهر لا إيمان استجابة طوعية ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ أي هذا ما جرى به نظام الله في خلقه إنه من تاب بعد رؤ ية العذاب لم تنفعه توبته ، كما حصل مع فرعون عندما أدركه الغرق قال آمنت ، فلم ينفعه هذا الإيمان ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُون ﴾ وهلك الجاحدون بتوحيد الله المتخذون من غيره آلهة .

سُورَةُ فُصِّلَتْ

قضية العقيدة الإسلامية بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة من الإيمان بالله وحده الخالق لكل الموجودات ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، والإيمان بالوحي الإلهي الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ والمتمثل بهذا القرآن .

وتبين السورة طريقة الدعوة إلى الله ، والصفات المتوجبة في الداعي إلى الله ، مع بيان لمنزلة الاستقامة وما ينشأ عنها من رضاء الله .

كما تتحدث هذه السورة عن بعض الأقوام السابقين وما حلَّ بهم من هلاك وعذاب بسبب تكذيبهم رسل الله وإصرارهم على الكفر .

هذه القضايا يعرضها القرآن بأسلوب مقنع ينفذ إلى أعماق النفس ، ففي قضية الإيمان بالله يعرض القرآن بعض المظاهر الكونية وما فيها من براهين ودلائل على وجود خالق لها ، وفي قضية الحياة الآخرة وإحياء الموتى يقرب القرآن ذلك إلى الأفهام بالأرض الموات التي تحيا بالمطر وتنمو فيها أنواع النبات ، وفي قضية الوحي الإلهي تصور السورة بعض محاولات المشركين للتشويش عليه للحؤول دون وصوله إلى الأسماع . وتُختتم السورة بأن الله سَيُري الأجيال القادمة الدلائل على عظمة القدرة الإلهية متمثلة في آفاق السماء والأرض وفي أسرار النفس الإنسانية وهذا ما تحقق فعلاً عن طريق الكشوفات العلمية الحديثة .

سميت هذه السورة (فُصّلت) لأن الله فصل فيها الآيات ووضح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته ، وأقام البراهين على عظمته ، كما سميت بسورة (السجدة) لما احتوته من سجدة التلاوة ، كما تسمى سورة حـم السجدة ، وسورة المصابيح .

سُورَةُ فُصِّلَت
مكية وآياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا
وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ
وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا

شرح المفردات

فُصِّلت : بينت ووضحت .

بشيراً ونذيراً : مبشراً المؤمنين بنعيم الجنة ومخوفاً الكافرين من عذاب النار .

أكِنَّة : جمع كنان وهو الغطاء .

وقر : صمم .

حجاب : ستر يمنعنا من تقبل دعوتك .

غير ممنون : دائم غير منقطع .

أنداداً : جمع نِدّ وهو المثيل ، والمراد تجعلون لله شركاء في العبادة .

ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا
وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ
فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ
صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ
أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

شرح المفردات

رواسي : جبال ثوابت .

أقواتها : أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم .

سواء : كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة .

استوى إلى السماء : توجهت إرادته إلى خلق السماء .

ائتيا : افعلا ما أمرتكما به وجيئا به .

فقضاهن : أحكم وأبدع خلقهن .

وأوحى في كل سماء أمرها : كوّن وأوجد في كل سماء ما هي مهيأة له من خلق .

أنذرتكم صاعقة : خوفتكم عذاباً شديداً ينزل بكم .

صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ
فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ
يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ
وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

شرح المفردات

ريحاً صرصراً : ريحاً مزمجرة شديدة البرودة .

نَحِسَاتٍ : مشؤومات .

لنذيقهم عذاب الخزي : لنعذبهم عذاب الذل والإهانة .

فهديناهم : بيّنا لهم طريقي الضلالة والهدى .

فاستحبوا العمى على الهدى : فاختاروا الكفر على الإيمان .

فَأَخَذَتْهم : فأهلكتهم .

العَذاب الهُونِ : العذاب المهين المذل .

يُحْشَرُ : يجمع .

يُوزعون : يجعل عليهم وازعاً ينظمهم ويمنعهم من الانتشار قبل اكتمال تجمعهم .

سُورَةُ فُصِّلَتْ

ايضـــاح و دروس

استهلت هذه السورة بالحديث عن القرآن وما فيه من خصائص مميزة :

﴿ حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾(١) (١ ـ ٤) .

---

(١) يتميز القرآن بأسلوبه الخاص به ، ولو كان القرآن من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب ، هذا الأسلوب الخاص بالقرآن هو الذي أفحم العرب وكان سبباً في إسلامهم لما رأوا فيه من بلاغة وفصاحة وتأثير في النفس . ولقد جاء في كتب السيرة في خصوص هذه السورة أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً في قومه قال يوماً وهو جالس في نادي قريش : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ، فقام عتبة إلى رسول الله ﷺ حتى جلس عنده فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم (أي عقولهم) وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . . . إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه (أي من الجن) لا تستطيع رده طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : أفرغت يا أبا الوليد ، قال : نعم ، قال اسمع ، ثم قرأ عليه رسول الله هذه السورة حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ فسجد ، ثم قال رسول الله : قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض عندما رأوه : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا ما وراءك ؟ قال ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوا لي واجعلوها لي خلواً (أي تركاً) وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

فالله تعالى يقول بأن هذا القرآن منزل من عنده على نبيه محمد ﷺ فهو سبحانه ﴿ الرَّحْمٰن الرَّحِيمِ ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمٰن هو الذي وسعت رحمته كل شيء ، والرحيم هو الذي كثرت رحمته ، والرحمٰن اسم مختص لله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ، والرحيم يوصف به غير الله تعالى فيقال رجل رحيم ، والرحمة في الإنسان تعني رقة القلب وعطفه ، أما رحمة الله تعالى فتعني إفضاله وإحسانه ورزقه للعباد .

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ فهذا القرآن كتاب قد فُرِّقت آياته وجُعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة : فبعضها في وصف ذات الله تعالى وكمال علمه وقدرته وحكمته ، وبعضها في عجائب خلقه للسماوات والأرض ، وبعضها في خلقه للنبات والحيوان ، وبعضها تتكلم عن عبادة الخالق ، وبعضها في الثواب والعقاب ، وبعضها في الشرائع ، وبعضها في المواعظ والنصائح ، وبعضها في قصص الأولين التي فيها العبرة والعظة للأمم ، وبالجملة فمن أنصف من الناس أدرك أنه ليس هناك كتاب اجتمعت فيه العلوم المختلفة مثل ما اجتمعت في القرآن ، فهو ﴿ قُرْآناً عَرَبِيًّا ﴾ أي أنزله الله بلسان العرب حتى يسهل فهمه عليهم ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى أن القرآن ينتفع به أهل العلم أكثر من غيرهم ، لما يرون فيه من الحقائق الساطعةالتي تُثبت أنه وحي إلٰهي فيه كل مقومات السعادة للأمم .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وهذا القرآن يبشِّر المطيعين ربهم بما يسرهم من الثواب الجزيل والخير العميم ، ويخوف الكافرين والعاصين ربهم بالعقاب الأليم في الآخرة ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ فأعرض أكثر الذين جاءهم القرآن هادياً عن تدبّر آياته التي ترشد إلى الحق وتهدي إلى الخير ، فهم بسبب هذا الإعراض لا يسمعون آيات القرآن سماع تدبر واستفادة .

ثم يبين القرآن موقف الكافرين من دعوتهم إلى الحق :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (٥) .

أكنة : جمع كنان ، وهو الغشاء والغطاء ، فإنهم قالوا : قلوبنا مغلفة بأغشية متكاثفة فلا ينفذ إليها يا محمد ما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده واتباع هديه ﴿ وفي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وفي آذاننا صمم يمنعنا عن استماع قولك فأنت في طريق ونحن في طريق ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أي اعمل على دينك يا محمد واستمر عليه وهو التوحيد ، أما نحن فإننا مستمرون على ديننا وهو الإشراك بالله .

هذا القول يقوله كثير من الناس عندما يُوَاجهون بالحقيقة الساطعة فالتقليد للآباء والمحافظة على التراث الاجتماعي الموروث يحجب النظر عن رؤية الحقائق وسماع كلمة الهدى لأنها تحمل طابع التغيير ، وهم لا يريدون تغيير ما هم عليه من معتقدات وعادات .

وبعد رفض المشركين لدعوة النبي ﷺ تأتي الآيات مهددة لهم بالعذاب بسبب إشراكهم بالله ومنعهم الزكاة وجحودهم للحياة الآخرة :

﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُون الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (٦ ـ ٨) .

فالله يأمر رسوله أن يقول لمشركي مكة : ما أنا إلّا بشر مثلكم بلَّغني الله بواسطة وحيه : أن لا معبود تصح عبادته إلّا هو وحده سبحانه ، فأخلصوا له العبادة ، وسيروا على الطريق المستقيم الذي رسمه لكم ، وسلوه العفو عن

ذنوبكم التي سلفت منكم ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر تقال لمن يستحق الهلاك لسوء فعله ، أي هلاك للمشركين بسبب إشراكهم آلهة مع الله ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وصف الله المشركين بأنهم لا يؤتون زكاة أموالهم للمحتاجين ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهم منكرون للقيامة حيث يبعث الله الخلق أحياء من قبورهم للحساب والجزاء .

يستوقفنا هنا وصف المشركين بأنهم لا يؤتون الزكاة كي يتنبه المؤمنون ويقوموا بأدائها حتى لا يكونوا في منزلتهم .

ولكن لماذا خص الله تعالى وصف المشركين بمنع الزكاة مقروناً بالكفر في الآخرة ؟ أجيب على ذلك بأن أحب شيء إلى الإنسان مَالُهُ ، فإذا بذله في سبيل الله فذاك أقوى دليل على إيمانه بالله واليوم الآخر ، بينما منع الزكاة يشعر بعدم الإيمان وبالتالي يدل على كفر الإنسان باليوم الآخر حيث الجزاء على الأعمال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي إن الذين صَدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وعملوا بما أمرهم الله به من صالح الأعمال ، ونهوا أنفسهم عما حرمه عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهم عند ربهم جزاء دائم غير منقطع ولا ممنون به عليهم .

ثم يبين القرآن عظمة الله الذي خلق هذا الكون أرضه وسماءه ، وهذا مما يستدعي الانقياد لله وحده بالطاعة والعبادة :

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَو كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

سَمٰوَاتٍ في يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى في كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٩ ـ ١٢) .

فالله سبحانه يوجه الخطاب إلى الكفار بشكل استفهام ينطوي على التوبيخ والإنكار لكفرهم[١] ، فيأمر رسوله محمداً أن يقول لهم : كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ أي وتجعلون أيها الكفار لله شركاء تعبدونها معه وتساوونها به ، والأنداد : جمع نِدّ وهو المِثل والنظير ، والعرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله إلّا أنهم لا يرون أنها تبلغ مبلغ الله في عظمته وقدرته ، ولكن عبادتهم لها تجعلها مساوية لله . ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ العالمين : جمع عالم ، ومعنى العالمين كل ما خلق الله ، وقيل المراد بهم الإنس والجن ، والمعنى : ذلك الإلّه العظيم الشأن الذي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ[٢] هو رب العالمين فهو سيدهم ومربيهم ومالك التصرف فيهم وحده .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ أي وجعل الله في الأرض جبالاً ثوابت كائنة من فوقها ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي وكَثَّر الخير في الأرض بأنواع النبات وأنواع الحيوانات وكثرة المياه وغير ذلك من الفوائد التي لا تخفى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ وجعل في الأرض أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من المنافع والمطر ﴿ في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في مدة

---

(١) مظاهر كفرهم تتمثل بادعاءاتهم بأن الله لا يقدر على إحياء الموتى وفي إضافة الأولاد والشركاء له وفي إنكار نبوة محمد .

(٢) اليوم كما هو معروف عبارة عن دوران الأرض حول نفسها ويتم في نهار وليلة . وقبل خلق الأرض لم يكن هناك شمس ولا يوم ، ولهذا كان المراد من اليوم هنا مدة من الزمن ، أو طوراً من الأطوار الذي خلق الله فيه الأرض لا يعلم تحديده إلّا الله ، وقد جاء في القرآن بأن اليوم يفهم منه أزمنة طويلة مثل قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كانَ مِقدارُه خمسين ألف سنة ﴾ .

أربعة أيام من حين ابتداء الخلق ، أي خلق الله الأرض في يومين ، وخلق الجبال وأقوات الأرض في يومين فيصبح المجموع أربعة أيام ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ سواء : أي مستوية كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، للسائلين : أي لطالبي الأقوات المحتاجين إليها ، أو بمعنى : للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها من مخلوقات .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ثم عمد سبحانه إلى خلق السماء وتسويتها وكانت طبيعتها كطبيعة الدخان ، أو شبه ذلك ، فخلق سبحانه السماوات خلقاً إبداعياً حسب ما اقتضته حكمته .

إن تصريح القرآن بأن الكون في بدء نشوئه كان دخاناً لمما يثير الدهشة ويوجب وقفة تأمل، ولنلق نظرة خاطفة إلى بعض النظريات العلمية(١) التي

---

(١) يقول الدكتور جامو Dr.George Gamow أستاذ الطبيعة النظرية بجامعة واشنطن : إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظماً . . . إنه غاز يبلغ من الكثافة ودرجة الحرارة حداً لا يمكن تصوره ، وفي هذا الغاز حدثت عمليات التحول النووي في مختلف العناصر ، وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينبسط ويتحدد وأخذت كثافة المادة ودرجة حرارتها تهبطان في بطء ، وفي مرحلة معينة من مراحل التمدد تكثف الغاز المنتشر إلى سحب مفردة غير منتظمة في شكلها ، ولا متساوية في أحجامها مكونة نجوماً مفردة . . . » .

ويقول العالم الفلكي سيرجيمس جينز في كتابه النجوم في مسالكها : الراجح أن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام وأن السدائم (مجموعة هائلة من النجوم) خلقت من تكاثف هذا الغاز .

ويقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي والدكتور محمد يوسف حسن في كتابهما قصة الكون : إن كوننا بدأ في صورة سحابة هائلة أو سديم (سحابة) من دخان هو أشبه ما يكون بالقرص الضخم أو الدوامة العظمى التي كانت تدور في الفضاء ، وقد لعب غاز الإيدروجين وهو أبسط أنواع المادة تقريباً وأهمها في تكوين الماء دوراً هاماً في تكوين ذلك السديم ، وما تمخض عنه بعد ذلك من تكوين المجرة إذ انقشع الغاز عن بعض الأجزاء وتراكم في بؤرات خاصة فولدت النجوم والشموس .

قيلت في بدء نشوء الأجرام السماوية نسردها من باب المعرفة لا من باب المقارنة ، فالقرآن هو كتاب هداية وليس كتاباً لسرد النظريات العلمية .

وإن وصف السماء في بدء تكوينها بالدخان يشير إلى أن المادة التي تكونت منها السماء كان لها من الصفات الهامة ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران ، أي أنها كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء ، خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب ، وكان هذا الدخان ساخناً إلى حد ما إذ الدخان لا يصدر إلاّ من أصل ناري ، وهذا ما يفهم من لفظ دخان ، وإن كان المفسرون القدامى فسروا الدخان ببخار الماء .

وبعد أن دعا داعي الحكمة إلى خلق السماء والأرض جاء النداء الرباني لهما : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً ﴾ أي ائتيا وجيئا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف طوعاً أو كرهاً ، أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك وكواكبك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما شئت أن يكون فيك من بحار وأنهار وأشجار وثمار ونبات وحيوان وسهول وجبال ﴿ قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي جئنا منقادين لأمرك مطيعين لما أحدثت فينا من الخلق وما كان لنا أن نخالف أمرك .

فإذا كان هذا الكون بسمائه وأرضه قد انقاد إلى أمر الله طوعاً فما أحرى بالإنسان أن ينقاد إلى أمر الله طوعاً ، وأن يستجيب إلى طاعته والسير وفق شريعته ، ولا يتمرد على خالقه ، فإنه طوعاً أو كرهاً في يد القدرة الإلٓهية التي تتصرف في مقدراته ، والإنسان ضعيف معرض للأخطار والأمراض المستعصية ، والكوارث الطبيعية ، والنهاية التي تنتظره هي الموت ، فلا يجدر به أن يجعل للغرور سبيلاً إلى نفسه ، وأن يتكبر على طاعة ربه ، فالانقياد الطوعي لخالقه ، واتباع منهجه وشريعته يسبغ عليه رضى

وطمأنينة ، ويضفي عليه نوراً يهديه في ظلمات هذه الحياة ، ويوصله إلى الرحمات الإلّهية .

ويتابع القرآن مبيناً مدة خلق السماوات : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يَوْمَيْنِ ﴾ أي صنعهن وأبدع خلقهن سبع سماوات في يومين فيكون مجموع مدة خلق السماوات والأرض ستة أيام ، وهي يومان لخلق الأرض ويومان لخلق الجبال وأقوات الأرض ويومان لخلق السماوات . ﴿ وَأَوْحَى في كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي رتَّب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من العناصر التي لا يعلمها إلاّ هو ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أي وزيّن الله السماء الدنيا بالنجوم والكواكب التي تبدو في الليل كالمصابيح ، ﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظها الله من الآفات ومن الارتطام ببعضها البعض ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي إن خلق السماء والأرض وحفظها هو تقدير الله القوي الغالب ، العليم بسرائر عباده وعلانيتهم .

وبعد أن بينت الآيات السابقة عظمة القدرة الإلّهية تأتي الآيات التالية مهددة المشركين بهلاك شبيه بما حلَّ بالأمم السابقة جزاء رفضها ما جاء به رسل الله من الهدى :

﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١٣ ، ١٤) .

فالله يقول : إن ولّى ورفض هؤلاء المشركون ما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان ، ولم يصدِّقوا بما جئتهم به من الهدى بعد عرض كل ما تقدم من الحجج الباهرة الدالة على قدرة الله ، فقل لهم : أُخوّفكم أيها الناس وأُحذركم من ﴿ صَاعِقَةً ﴾ أي عذاب يصيبكم مثل العذاب الذي حلّ بقوم

عاد وثمود ، والصاعقة هي الصوت الشديد من الجو يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت .

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي جاءتهم رسل الله هود وصالح من جميع الجهات واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة ، وقد يُراد بتعبير ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهم ﴾ الزمن الماضي وبما خلفهم المستقبل أي جاءهم رسل الله بالإنذار عما جرى لأمثالهم الكفرة في الماضي من الهلاك ، وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة من العذاب . وقد قالت لهم الرسل : ﴿ أَلَّا تَعْبُدوا إلَّا اللَّهَ﴾ أي دعتهم رسل الله بأن لا يعبدوا إلاّ الله وحده لا شريك له . ولكن ماذا كان جواب هؤلاء الأقوام : ﴿ قَالوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً ﴾ أي أجابوا رسل الله الذين دعوهم للإقرار بوحدانية الله : لو شاء ربنا أن نوحده ، ولا نعبد أحداً غيره لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلاً يأمروننا بما تدعوننا إليه ، ولم يرسل لنا بشراً مثلكم ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فإننا بالذي أرسلكم به ربكم من الدعوة إلى دينكم لجاحدون .

هذا ما كان يتعلل به الأقوام السابقون من رفض ما يدعوهم إليه رسل الله من الهدى ، وهذا هو نفس السبب الذي كان يتعلل به مشركو قريش ، والقرآن حين يذكر هذه الأمور عن الأمم السابقة إنما يفعل ذلك تحذيراً للمشركين من قريش من عذاب الله وتثبيتاً لقلب محمد مما يقاسيه من قومه من إعراض ، فقومه شبيهون بتلك الأمم التي حل بها عذاب الله .

ثم يذكر القرآن نوع العذاب الذي حل بقوم عاد :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً في أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ﴾ (١٥ ـ ١٦) .

فقوم (عاد) من الشعوب العربية البائدة ، وقد أرسل الله إليهم رسوله هوداً فلم يستجيبوا لنداء الله بل أصروا على كفرهم ، فالله يصفهم بأنهم استكبروا على ربهم وتجبروا في الأرض بغير حق ، وقالوا مغترين بأنفسهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ولكن ألم يعلموا علماً جلياً مبنياً على المشاهدة والعيان أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴿ وَكَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي وكانوا بمعجزات الله أو بالأدلة والحجج الدالّة على وحدانية الله يجحدون ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ فالله سبحانه أرسل عليهم ريحاً صرصراً وهي الريح الشديدة ، وقيل : الريح الشديدة البرودة التي لها صوت من شدتها ﴿ في أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ في أيام ذات شر وشؤم ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي ليذيقهم الله عذاب الإهانة والافتضاح في الحياة الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ﴾ ولعذاب الآخرة أشد إهانة لهم وهم لا ينصرهم ناصر يومئذٍ .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما حل بثمود جزاء كفرهم ، وثمود هم أيضاً من الشعوب العربية البائدة :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَنَجَّيْنَا الَّذِين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١٧ ، ١٨) .

فالله يقول : وأما ثمود فقد بيّنا لهم طريق الخير وطريق الشر وأمرناهم أن يتبعوا الهدى ولكنهم فضّلوا الضلالة على الهدى فأصابتهم صاعقة أهلكتهم بعذاب مذل مهين لهم ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ أي

ونجى الله من العذاب الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته وكانوا يخافونه ويجتنبون ما نهى عنه من الكفر والإثم .

وهكذا يعلن القرآن أن المؤمنين المتقين ربهم هم في حفظ من العناية الإلٓهية ، وفي هذا ترغيب للناس للانخراط في سلك المؤمنين .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الكافرين في الآخرة ، وما يقاسونه آنذاك من خزي وعذاب :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّم عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٩ ـ ٢١) .

أي ويوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء ، يُجمع أعداء الله إلى النار ليعذبوا بها ﴿ فَهُمْ يُـوزَعُون﴾ أي يقوم بين صفوف الكفار الوازعون من الملائكة فيمنعون من تقدم من جموع الكفار إلى الانطلاق وإكمال السير حتى يلحق بهم من تأخر ، وهذا يدل على كثرة أهل النار الهائلة ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ حتى إذا ما جاءوا إلى النار وسُئلوا عما ارتكبوا من آثام وأرادوا الإنكار ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُم وَجُلُودُهم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي شهدت عليهم بما كانوا يعملونه في الدنيا من آثام . ثم حكى الله عنهم أنهم يسألون تلك الحواس سؤال توبيخ : ﴿ لِمَ شِهدتُّم عَلَيْنَا ﴾ فتكون الإجابة ﴿ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أن نطقنا ليس بعجيب ولا مستبعد على قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل شيء ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فالذي أوجدكم من العدم قادر على إنطاق حواسكم في الحياة الآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإلى الله مصيركم بعد الممات .

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ
أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ
أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن
يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم
مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

شرح المفردات

تستترون : تستخفون .

أرداكم : أهلككم .

مثوى : مقام ومنزل .

يستعتبوا : وإن يطلبوا الرجوع إلى الدنيا لإرضاء الله بالإيمان والعمل الصالح .

قيضنا : سلّطنا ووكلنا .

قرناء : جمع قرين وهو الصاحب وهؤلاء الأصحاب ، من الشياطين وغواة الإنس .

فزَيَّنوا : فحسنوا وجملوا .

حق عليهم القول : ثبت وتقرر عليهم العذاب .

خلت : مضت .

وَالْغُوا فيه : عارضوه وشوشوا عليه بالكلام الباطل .

يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟
وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ
فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن
دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى
ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ
عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

شَرح المفردات

استقاموا : عملوا بطاعة الله وأخلصوا له .

نحن أولياؤكم : نحن نصراؤكم وأحباؤكم .

ما تَدَّعون : ما تتمنون وتطلبون .

نُزُلاً : النُّزُل ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله وهو المنزل أيضاً .

لا تستوي : لا تتساوى وتتماثل .

ادفع : رُدَّ .

ولي حميم : صديق قريب يهتم لأمرك .

ما يلقّاها : لا يوفق إلى هذه الخصلة الشريفة ولا ينعم عليه بها .

ينزغنَّك : النزغ هو ما يوسوس به الشيطان من فعل السوء والشر .

فاستعذ بالله : لُذْ إلى الله والجأ إليه .

تابع سورة فصّلت

ويتابع القرآن الكلام عن أعداء الله وما يقاسونه في الآخرة من عذاب وخزي :

﴿ وَمَا كُنْتُم تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جَلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُم أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (٢٢ ـ ٢٤) .

فالله سبحانه يخاطب الكافرين توبيخاً وتقريعاً : وما كنتم تستخفون من حواسكم وجوارحكم عند فعل المعاصي كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الفضيحة لأنه لم يكن يخطر ببالكم أنها ستشهد عليكم يوم القيامة وكنتم تظنون أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم السيئة بسبب إتيانها في الخفاء ولذلك اجترأتم على المعاصي والآثام ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ وذلك الظن الفاسد الذي ظننتموه بربكم ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أهلككم وأدخلكم النار ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ فأصبحتم يوم القيامة من الخاسرين الذين خسروا نعيم الآخرة واستحقوا عذاب النار ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ فإن أمسك هؤلاء عن الاستغاثة وصبروا لفرج ينتظرونه لم يجدوا فرجاً بل تكون النار مقاماً لهم ومنزلاً ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ وإن يطلبوا العودة إلى الدنيا للرجوع عن أعمالهم السيئة واسترضاء الله ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِين ﴾ فما هم بالمسموح لهم بالرجوع عن الإساءة واسترضاء الله .

ويبين القرآن أن إصرار الكافرين على كفرهم جرّ عليهم أوخم العواقب :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرنَاءَ فزَيَّنُوا لَهُم مَا بَيْنَ أَيدِيهم وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُم كَـانوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢٥) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ أي هيأنا وسلطنا على الكفرة في الدنيا أصحاباً يلازمونهم من شياطين الجن والإنس ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهم ﴾ فحسنوا وجمَّلوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وما هم عليه من الأعمال القبيحة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمور الآخرة حيث دعوهم إلى التكذيب بالبعث وأنه لا ثواب ولا عقاب بعد هذه الحياة ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي ثبتت وتقرر عليهم كلمة العذاب ﴿ في أُمَمٍ قَدْ خَلَت مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ أي مع أمم قد مضت قبلهم بعضهم من الجن وبعضهم من الإنس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ خاسرين بإبدالهم رضاء الله ونعيمه بسخطه وعذابه في الدنيا والآخرة .

ثم ينتقل القرآن إلى وصف ما كان يفعله الكفار من العرب للتشويش على القرآن حتى لا يصل كلامه إلى الأسماع ، ولا يبلغ هداه القلوب :

﴿ وَقَالَ الَّذِين كَفرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ والْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغلِبُونَ ﴾ (٢٦) .

فكفار قريش عندما سحرهم القرآن بروعة بيانه وبديع إعجازه خافوا أن يفتن قومهم كما حصل في الحادثة المذكورة في مطلع هذه السورة مع عتبة بن ربيعة ولذلك أوصى بعضهم بعضاً عندما يتلو محمد أو أصحابه القرآن بأن لا يستمعوا إليه وأن يأتوا باللغو عند تلاوته ، واللغو : هو الكلام القبيح والكلام الهزل ، وما لا جدوى فيه من الأعمال والأقوال ﴿ لَعَلَّكم تَغْلِبُون ﴾ أي لعلكم تغلبون محمداً عند قراءته ، وقراءة أصحابه .

لقد أمر كفار قريش بعضهم بعضاً برفع الأصوات عند قراءة القرآن برواية الخرافات والكلمات الباطلة مع الصفير حتى يشوشوا على القارىء قراءته وتصبح قراءته غير مفهومة للناس فبهذه الوسيلة يغلبون محمداً بزعمهم ، وهذا اعتراف ضمني منهم بتأثير القرآن على السامعين ، وإقرار منهم بالجهل لأنهم اعترفوا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من الكلام .

فكفار قريش علموا أن القرآن في أعلى مراتب البلاغة ، وأن كل من سمعه انبهر بجزالة ألفاظه وروعة معانيه ولهذا تآمروا على منع وصول آيات القرآن إلى الأسماع ، لأن السمع كان الوسيلة الوحيدة في نشر المعرفة والهداية في ذلك الوقت ، فلم تستحدث آنذاك المطابع والورق وكانت الكتابة نادرة الاستعمال تـدوّن على الجلود والخشب والحجر الـرقيق والعظام .

ثم يأتي بعد ذلك تهديد الله لهؤلاء الكفار بالعذاب الأليم يوم القيامة :

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِين كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٧ ـ ٢٨) .

فالله ينذر الذين كفروا بأن يذيقهم عذاباً شديداً ، والذوق إنما يستعمل في كمية قليلة لأجل التجربة والفحص ، فإذا كان الذوق في القليل عذاباً شديداً ، فكيف يكون الحال في الكثير منه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فالجزاء : هو المكافأة على الشيء ، ويكون في مقابل الخير ثواباً ، ويكون في مقابل الشر عقاباً ، والمراد هنا أن الله سيعاقبهم بشر أعملهم وسيّىء أفعالهم ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ وهذا العذاب الشديد هو النار الذي سيجزي الله بها هؤلاء الكفار الذين هم أعداء الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا

دَارُ الْخُلْدِ ﴾ لهم في النار مسكن دائم إلى غير نهاية ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بآيَاتِنا يَجْحَدُونَ ﴾ وهذا العذاب الخالد هو جزاء لهم بسبب إنكارهم آيات القرآن التي هي كلام الله ، مع علمهم أنه لا يمكن أن تكون هذه الآيات من كلام بشر ، فالجحود معناه : إنكار الشيء مع علم المنكر أنه حق ، ونفي لما اقتنعت به النفس إمعاناً في العناد والكفر ، ولهذا جاء في القرآن في موضع آخر : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ النحل : ١٤ .

ثم يصور القرآن نفسية الكفار يوم القيامة وما تنطوي عليه من بغض وكراهية لمن كان سبباً في إضلالهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩) .

فالذين كفروا بالله ورسوله محمد ﷺ يقولون يوم القيامة بعد أن أُدخلوا جهنم : يا ربنا أرنا اللذين أضلانا من خلقك من عالمي الجن والإنس ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدامِنَا ﴾ أي لنجعلهما تحت أقدامنا وأسفل منا بالعذاب ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِين ﴾ أي ذلاً ومهانة ومكانة ، أو ليكونا أشد عذاباً منا ، قالوا ذلك حباً في التشفي والانتقام منهم لأنهم كانوا سبباً في إضلالهم .

وبعد أن بين القرآن مصير الكافرين في الآخرة عقب على ذلك بذكر مصير المؤمنين الذين استقاموا على ما أمرهم الله به من الطاعات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفي الآخِرَةِ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٣٠ ـ ٣٢) .

فالذين قالوا ﴿ رَبُّنَا الله ﴾ إيماناً بربوبيته وإقراراً واعترافاً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ثم ثبتوا على ذلك الإقرار واستقاموا عليه فلم تَزِلَّ أقدامهم ، ولم يرجعوا إلى الشرك بالله ، واستمروا على طاعة الله فامتثلوا لأوامره واجتنبوا معاصيه ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملاَئِكَةُ ﴾ أي تهبط عليهم الملائكة عند الموت وفي القبر وعند البعث ، وقيل تتنزل الملائكة على المؤمنين في حياتهم الدنيا فيما يعنُّ ويطرأ عليهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام .

وبعد أن تتنزل الملائكة على المؤمنين تطمئنهم : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ والخوف هو غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه في المستقبل ، أي لا تخافوا على ما أنتم قادمون عليه من أمور الآخرة ﴿ وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ ، أي لا تحزنوا ولا تأسفوا على ما خلفتموه وراءكم من أهل وولد ومتاع فإن الله خليفتكم عليهم . وتضيف الملائكة قائلة : ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتي كُنْتُم تُوعَدُون ﴾ أي اهنأوا وافرحوا بحصولكم على الجنة التي وعدكم الله بها بسبب إيمانكم به واستقامتكم ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرَةِ ﴾ أي نحن أعوانكم ونصراؤكم في الحياة الدنيا نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ، ونمدكم بالشفاعة ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أي لكم في الجنة جميع ماتختارون مما تشتهيه نفوسكم وتقرّ به أعينكم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ولكم في الجنة ما تتمنون وتطلبون ﴿ نُزُلاً مِنْ غفُورٍ رَحيمٍ ﴾ والنزل ما يقدم إلى النزيل وهو الضيف ، ويكون المعنى إن الأشياء التي تقدم لكم في الآخرة مما تشتهيه أنفسكم هي ضيافة وعطاء وإنعام من رب غفور لذنوبكم رحيم بكم .

هذا كله جزاء الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، إنهما كلمتان تجمعان معاني الإسلام اعتقاداً وعملاً ، لأن الإسلام هو توحيد الله وطاعته ، فالتوحيد حاصل بالجملة الأولى : ﴿ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ والطاعة بجميع أنواعها حاصلة بالجملة الثانية : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ لأن الاستقامة امتثال كل مأمور به من الله واجتناب كل منهي عنه .

وفي هذا المعنى يقول الرسول محمد ﷺ عندما طلب منه أحد صحابته أن يقول له في الإسلام قولاً لا يسأل عنه أحداً بعده ، فأجابه بعبارة هي غاية في الروعة والإيجاز : « قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم .

وبعد أن بيّن القرآن فضل الإيمان والاستقامة وجزاءهما عند الله بيّن بعد ذلك ثواب الدعوة إلى الإيمان بالله وطاعته :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) .

فالله يقول : لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، أو بتعبير آخر : إن أرفع مراتب القول هو الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان بوحدانيته وخشيته وعبادته وطاعته ، ويضيف القرآن إلى ذلك قوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالحاً ﴾ لأن الدعوة إلى الله لا ثمرة لها إذا لم تقترن بالعمل الصالح ، وكون الداعي إلى الله هو القدوة في أقواله وأعماله الصالحة ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي قال معتزاً إضافةً إلى ما سبق : إنني ممن خضع لله بالطاعة، وذل له بالعبودية ، وخضع له بالإيمان بوحدانيته .

والدعوة إلى الله ثوابها جزيل ، وأجرها عظيم ، يتبين لنا ذلك عندما أرسل النبي ﷺ عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه بالراية لمقاتلة اليهود في

خيبر بعد أن اعتدوا على المسلمين ، قال علي بن أبي طالب : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا « أي يصبحوا مسلمين » فقال له النبي ﷺ : على رِسلك « أي على مهلك » حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النَّعَم »(١) .

هذا وإن القرآن رسم للدعاة إلى الله طريقاً يسلكونه فقال في موضع آخر من هذه السورة : ﴿ آدْعُ إلَى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالموعِظَةِ الحَسَنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَن ﴾ .

ثم يبين القرآن بأن الدعوة إلى الدين الحق لا تتساوى مع الأفعال السيئة :

﴿ وَلَا تَسْتَوي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفع بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ فَإذَا الذي بَيْنَك وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٤ ـ ٣٥) .

فالله يقول : إن الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها لا تتماثل ولا تتساوى مع السيئة التي يكرهها ويعاقب عليها ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات وذلك بمقابلة ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، واعتدائه بالحلم ، وإساءته بالإحسان ﴿ فَإذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي إنك إذا قابلت الاساءة بالإحسان انقلبت العداوة إلى محبة ، وأصبح العدو كالصديق المحب ، والقريب المشفق .

(١) حمر النعم : هي الإبل الحمر ، وكانت عند العرب من أحب الأموال لديهم .

فمقابلة السيئة بالحسنة تقضي على العداوة بين الناس ، وتحول عداءهم إلى مودة ، بينما مقابلة الشر بالشر ، والسيئة بالسيئة فيها تأجيج للعداوة ، وتوسيع لمداها مما يجعل لها جذوراً في النفس يصعب اقتلاعها .

ثم يبيّن القرآن أن مقابلة الإساءة بالإحسان يترتب عليها بعض الصفات الإنسانية : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي وما يؤتى هذه الخصلة الشريفة إلاّ الذين في طبيعتهم الصبر واحتمال المكروه ، ومجاهدة النفس ، ولا يظن الإنسان أنه بهذه المجاهدة للنفس والصبر على إساءة الغير يكون هو الخاسر ، بل هو الرابح ، كما ذكر الشطر الأخير من الآية : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي وما يؤتى هذه الخصلة الكريمة إلاّ ذو نصيب عظيم من الخير ، وكمال النفس ، وحسن العاقبة .

ولما كانت النفس الإنسانية تراودها في كثير من الأحيان بعض الخواطر الشريرة التي تدفعها إلى العدول عن مقابلة الإساءة بالإحسان ، بل أكثر من ذلك مقابلة السيئة بأضعافها بداعي الانتقام والتشفي من المسيء ، هنا تأتي الآية الكريمة تبين أن هذه الخواطر هي من وسوسة الشيطان :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٦) .

فالنزغ : هو ما يوسوس به الشيطان إلى الإنسان ويتوصل به إلى فعل السوء والشر ، والاستعاذة بالله : هي الاستجارة به واللجوء إليه ، فالله يقول : وإن يوسوس لك الشيطان بالعدول عن مقابلة الإساءة بالإحسان إلى مقابلة الشر بالشر فالتجئ إلى الله من شره ليصرفه عنك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ إنه سبحانه سميع لاستجارتك عليم بما في نفسك .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ
وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ۩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ
تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا
مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ

شرح المفردات

لا يسأمون : لا يملون التسبيح .

الأرض خاشعة : يابسة لم تنبت .

ربت : زادت ونمت .

يُلحدون في آياتنا : يميلون عن الحق بالنسبة إلى القرآن أو الدلائل على وحدانية الله .

كفروا بالذِّكْرِ : جحدوا بالقرآن .

عزيز : منيع لا يستطيع أحد أن ينال منه مطعناً .

أعجمياً : بغير لغة العرب .

ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ
﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ
عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ
وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ
مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟
مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ

شرح المفردات

كلمة سبقت من ربك : هي وعده سبحانه بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة .

لقُضِي بينهم : لحكم بإهلاكهم في الدنيا .

مُريب : موجب للقلق والاضطراب .

عِلْمُ السَّاعة : عِلْمُ وقت قيام القيامة .

أكمامها : جمع كم وهو الغطاء الذي يكون على الثمرة قبل ظهورها .

آذنَّاكَ : أعلمناك .

وظنُّوا مالهم مِنْ محيصٍ : وأيقنوا ما لهم من مهرب .

لا يسأم : لا يملُّ .

دُعاء الخير : طلب المال الكثير والصحة والجاه .

ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ
رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ
وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾
سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

قنوط : ظاهر عليه آثار اليأس من الحزن والانكسار .

للحسنى : أي الجنة أو الكرامة ، واللام للتأكيد .

أعرض : ولّى ظهره وانصرف عن شكر ربه وطاعته .

ونأى بجانبه : استكبر عن الانقياد لأوامر الله .

دعاء عريض : دعاء كثير مستمر .

من أضل : لا أحدَ أشد ضلالاً .

شقاق : مخالفة لأمر الله .

الآفاق : جمع أُفُق وهو ما ظهر من نواحي السماء وأطراف الأرض .

شهيد : مُطَّلِع .

مِرْيَة : شك .

تـابع سُورَة فُصِّلتْ

وبعد هذه الدعوة السامية إلى الإيمان بالله والعمل الصالح ، والسلوك الفاضل تأتي الآيات التالية لافتة أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله في المظاهر الطبيعية ، ومصححة لبعض العقائد الفاسدة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ (٣٧ ، ٣٨) .

فالله تعالى يقول : ومن حجج الله على خلقه ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه تعاقب الليل والنهار ، وخلقه الشمس والقمر ، لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر ، فالله هو الذي خلقهما وهو الذي سخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم فهو أولى بالعبادة وأحق بالسجود ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ فإن استكبر ، يا محمد ، هؤلاء المشركون عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ﴿ فَالَّذِين عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ باللَّيلِ وَالنَّهَارِ ﴾ فالملائكة الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادة الله بل ينزهونه عن النقص ويقدسونه ويصلّون له ليلاً ونهاراً ﴿ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ وهم لا يفترون عن عبادته ، ولا يملون عن تنزيهه والصلاة له .

فالقرآن يعرض أدلة على وجود الخالق وعظيم قدرته جديرة بإمعان النظر وهي تعاقب الليل والنهار ووجود الشمس والقمر ، فالليل والنهار يحصلان من تأثير دوران الأرض حول نفسها ، هذا الدوران من الآيات الباهرة التي تدل على عظمة القدرة الإلّهية وذلك لما يتراءى للناظر من الدقة في دوران الأرض بحيث لا تخطئ مقدار ثانية واحدة .

والشمس هي الآية الكبرى على وجود خالق لها سخرها سبحانه لحياة الكائنات الأرضية ، هذه الشمس من أين تأتي بوقودها ؟ إن كانت تنفق من مختزن في باطنها لانخفضت درجة حرارتها عاماً بعد عام ، ولكن إذا نظرنا إلى الماضي السحيق لرأينا أن الشمس تعطي الأرض من الحرارة بمقدار لا يزيد ولا ينقص في المقدار التي يعيش فيها النبات والحيوان والإنسان ، لا بد إذن من وجود خالق يمكّن الشمس أن تعطي من الحرارة ما تفقد ، ويستمر في إمدادها بمقدار معين بما فيه حاجة الكائنات الحية .

هذا وإن الشمس تعتبر في طبيعة تكوينها وخصائصها . نجماً متوسط الحجم من بين ملايين النجوم المنتشرة في السماء ، وما نراها كبيرة إلّا لقربها منا ، وهناك نجوم أكبر من الشمس بملايين المرات ، فأي عاقل يقول إن الشمس خلقت شموساً أكبر منها ، وخلقت بلايين الشموس الموزعة في هذا الكون الهائل الرحيب ، وخلقت الكواكب ومنها كوكبنا الأرضي كما يدعي عبدة الشمس .

والقمر آية من آيات القدرة الإلّهية فهو يستمد نوره من الشمس ، هذا النور الذي فيه نفع لكثير من الكائنات الحية ، وتأمل اختلاف حجم القمر على أيام الشهر كيف جعله الله لمعرفة الناس حساب الأشهر والسنين ، فهل الصدفة أوجدت الشمس والقمر ؟ وهل التطور عبر ملايين السنين أوجدهما على هذه الخصائص المعهودة كما يدعي الماديون الملحدون ؟ اللهم لا يقول بذلك عاقل أبداً ، فالصدفة لا تأتي بأشياء قائمة على نهاية الحكمة والمنفعة المقصودة للناس والخلق .

أما قوله تعالى : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ فهو أمر معروف ، فعبادة القمر انتشرت عند العرب الجنوبيين قبل الإسلام ، كما انتشرت عبادة

الشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . . . وعبدها قوم آخرون من غير العرب الساميين مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين ، وقد أُشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس ، ومع ذلك عبدت في مدن يهوذا ، وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ « بيت شمس » .

فالسجود والعبادة لا تكون للشمس ولا للقمر بل هي لله وحده الذي خلقهن وخلق كل موجود : ﴿ وَاسْجُدوا لِلَّهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

ويتابع القرآن عرض الدلائل على وجود الله وقدرته فيلفت الأنظار إلى الأرض وما فيها من خصائص لحياة النباتات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إنَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٩) .

أي من العلامات الدالة على وجود الله وقدرته أنك ـ أيها الإنسان ـ ترى الأرض ساكنة لم تنبت ، فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت بالنبات وازدادت ونمت ، إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها بالمطر الذي أنزله عليها لقادر على أن يحيي الأموات من بني آدم بعد وفاتهم ، إنه سبحانه قادر على كل شيء .

هذه الآية جديرة بإمعان النظر لما فيها من الحقائق العلمية ، فقد دلت البحوث العلمية على أن الأرض فيها مسامٌ يتخللها الهواء ، وأن نزول الماء على الأرض يدفع الهواء ويحل محله ، وعند امتلاء مسامِّ الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين بقوة دفع الماء في المسام، ومن المعلوم أن الطين يتمدد بالماء ، وينكمش بالجفاف ، فالأرض عندما ينزل عليها الماء تتحرك

وتزداد في الحجم ، وقد أمكن قياس الأرض إذا ما أصابها الماء ، كما أمكن معرفة الزيادة في حجمها .

وبعد هذه الدلائل على وجود الله وصحة البعث تعود الآيات مهددة من يرفض هذه الدلائل ويحاول إلقاء الشبهات عليها :

﴿ إنَّ الَّذِين يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى في النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. إنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٤٠ ـ ٤٢) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُون في آيَاتِنَا ﴾ أي إن الذين يميلون عن الحق في حجج الله والأدلة التي وضعها في الكون التي تشهد بربوبيته أو يطعنون في صحة آيات القرآن ولا يؤمنون بالله الذي أنزلها ، هؤلاء : ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فالله على علم تام بأمرهم وليس هناك غطاء يخفيهم عنه وإنهم لمحاسبون على موقفهم ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى في النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأتي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ هنا لا بد من التوقف أمام هذا الأسلوب القرآني الرائع حيث تعدل الآية عن مجابهة هؤلاء الملحدين بالعقاب الذي يستحقون إلى مخاطبة عقولهم كي يقارنوا بين مصير ومصير ، مصير من يلقى في نار جهنم ومصير من يأتي آمناً تزف إليه البشرى بجنات النعيم ، وهل هناك عاقل لا يميز بين المصيرين ولا يعرف أيهما خير. ثم يأتي التهديد الرباني للكافرين : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ ﴾ والآية تبدأ بالأمر الذي ينطوي على التهديد ، أي بعد أن علمتم مصير كل من الفريقين فلا عذرَ لكم فاعملوا ما تريدون ونحن لكم بالمرصاد فالله بأعمالكم التي تعملونها خبير عليم لا يخفى عليه منها شيء .

﴿ إنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ المراد بالذِّكْرِ القرآن الكريم وسمي بذلك لأنه يذكّر الناس بالله ودينه ، والمعنى : إن الذين كفروا يجحدون بالقرآن الكريم ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ وإنه لكتاب أعزه الله لأنه كلامه ، وحفظه من الباطل ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يتطرق إليه الباطل في أي جهة من الجهات ولا يستطيع أعداؤه تغييره بكيدهم وتحريفه ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ هذا القرآن منزل من عند الله ، الحكيم في تدبيره لخلقه ، المحمود على نعمه عليهم .

ثم يبين الله بعض مواقف المشركين من النبي ﷺ ومن القرآن الذي أُنزل عليه :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آياته ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِين لا يُؤْمِنُون في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٤٣ ـ ٤٤) .

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً : إن الذي يقوله أعداؤك فيك من شتم وتكذيب شبيه بما قيل للرسل من قبلك من أعدائهم ، إن خالقك ومربيك لذو مغفرة للناس إذا تابوا ، وذو عقاب بالغ في الشدة إذا أصروا على كفرهم ، وفي الآية احتمال آخر في التفسير على معنى : إن الذي يقوله لك الله هو نفسه الذي قاله للرسل من قبلك من أن ربك ﴿ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا ﴾ والعَجَمُ : خلاف لسان العرب ، أي لو جعل الله القرآن بغير لغة العرب بناءً على طلب بعض المشركين حيث قالوا : هلاَّ نزل بلغة العجم ، ولكن ماذا سيكون موقف

المشركين لو نزل بلغة العجم ؟ يجيب القرآن على ذلك : ﴿ لَقَالُوا : لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي لقالوا على وجه التعنت والعناد : هلاَّ بينت آياته بلغة العرب حتى نفهمه ، ثم لأضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي أقرآن أعجمي ، ولسان المشركين المنزل عليهم هذا القرآن هو عربي .

قد يراد بطلب المشركين نزول القرآن بغير اللغة العربية نزوله بلغة الكتب السماوية السابقة ما دامت كلها من عند الله ، فردت الآيات رداً منطقياً بأنه لو أُنزِلَ القرآن بلغة العجم ما كانوا يستطيعون فهمه واقتباس الهدى منه ، ولكان لهم في ذلك حجة لرفضهم القرآن .

فالقرآن أنزله الله بلسان عربي في أعلى درجات الفصاحة ليتقرر إعجازه إذ كان العرب وخاصة عند نزول القرآن أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً ، وإذا عجزوا عن الإتيان بمثله كان من أقوى الأدلة على أنه من عند الله ، ويفهم من هذا أن القرآن إذا نُقِلَ إلى اللغات الأخرى لم يكن قرآناً بل يكون شرحاً وتفسيراً لمعناه حسب اجتهاد المترجم ، فالترجمة تفقد القرآن إعجازه اللغوي الذي لا يظهر إلاّ باللغة العربية التي نزل بها .

وبعد هذا البيان يأتي الجواب الرباني عن ميزات القرآن التي يجب أن تُقابل بالقبول لا بالرفض : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذين آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا القرآن هو هدى للمؤمنين من الضلالة ، وشفاء لما في النفوس من مرض الكفر وسائر الأمراض الاجتماعية ﴿ والَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ والذين لا يصدقون بهذا القرآن في آذانهم صمم عن سماعه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ فهم كالعميان لا ينظرون إلى ما في القرآن من الهدى والحقائق التي تسعدهم ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هذه الآية تمثيل في عدم قبولهم دعوة الإسلام ورفضهم الاستماع للقرآن كمن يُنادي بهم من

مسافة نائية بعيدة فلا يكاد يسمع صوته ، ولا يفهم قوله لبعد المسافة .

ثم يبين القرآن أن الاختلاف في شأن الكتب الإلٓهية والشك فيها هو عادة قديمة جرت عليها الأمم السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤٥ ـ ٤٦) .

فالله سبحانه يخبر نبيه محمداً ﷺ بأن الأذى الذي يصيبه من قومه ليس منفرداً به وأن معارضة الكفار ليست خاصة به وحده بل هذا شأن كل الأنبياء قبله ، فلقد أعطى سبحانه موسى التوراة فقبلها بعضهم وردها آخرون ، فكذلك أعطى الله سبحانه محمداً هذا القرآن فقبله بعضهم ورفضه آخرون ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي ولولا ما سبق في قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لعجل لهم العذاب في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ وإن هؤلاء الكفار لفي شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ فمن عمل بطاعة الله في هذه الدنيا فأتمر بأمره وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه عمل ذلك العمل الصالح لأنه يجازى عليه الجزاء الحسن بدخول الجنة ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ومن عمل سيئاً في الدنيا فعلى نفسه جنى لأنه أكسبها بذلك سخط الله وعقابه الأليم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ والله لا يعاقب أحداً إلّا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلّا بعد قيام الحجة عليه وإرسال رسول من عنده ، فالله سبحانه نفى الظلم عن نفسه فهو الحكم العدل لا يرضى الظلم ويكره الظالمين .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها بيان بشمول علم الله لكل شيء فلا يخفى

عليه أي عمل يقترفه الإنسان في دنياه :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ . وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَالَهُم مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٤٧ ، ٤٨) .

فالله سبحانه يجيب على أسئلة السائلين عن موعد القيامة ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فالساعة هي القيامة فالله سبحانه يعلم موعد قيامها لا يعلمها أحد غيره ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي أن خروج كل ثمرة من الثمرات من غلافها ووعائها التي كانت فيه مستترة مندرج في علم الله كذلك . وعلم الله محيط بتوالد البشر : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي إن كل أنثى وما تحمل من جنين في بطنها وتلده فهو داخل في علم الله .

ثم يبين القرآن أحوال المشركين يوم القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِم أَيْنَ شركائي ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين نداء فيه تقريع وتهكم بهم : أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة ؟ أين هم الآن لينقذوكم من العذاب ﴿ قَالُوا : آذَنَّاكَ ﴾ آذن بمعنى أعلم ، أي قالوا : أعلمناك أو أسمعناك ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْل ﴾ أي وغاب عن هؤلاء المشركين ما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي وأيقنوا حينئذٍ أنهم لا مهرب لهم من عذاب الله .

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن طبيعة بعض الناس أمام ما يصادفهم من خير أو شر ، وعن موقفهم تجاه القيامة والحساب والجزاء :

﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إلَى رَبِّي إنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذين كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (٤٩ ـ ٥١) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ ﴾ يسأم : يمل ويفتر ، والإنسان المراد به هنا الكافر ، والمعنى : لا يمل الكافر ولا يفتر ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ من طلب الخير الدنيوي من مال وعافية وسعة في النعمة ﴿ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وإن أصابه البلاء أو المرض أو الفقر ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ واليأس قطع الرجاء من رحمة الله ، والقنوط ظهور آثاره على الوجه ، وهذان اللفظان من الألفاظ المترادفة جمع بينهما للمبالغة في قطع الرجاء ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافر ما أصابه من سقم في نفسه ، وشدة في معيشته رحمة منا ، فوهبنا له العافية بعد السقم ، ورزقناه المال من بعد الضيق ووسعنا عليه في معيشته ، فإنه في هذه الحالة يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة :

أولها : انه يقول : ﴿ هَذَا لي ﴾ أي هذا حقي استحقه لِما لِيَ من الفضل والعمل لا تفضّل من الله ، وهذاالكلام فيه من المغالطة والغرور الشيء الكثير لأنه يتمتع برزق الله الذي رزقه إياه ، وبالنعمة التي تفضل الله بها عليه .

ثانيها : أن يقول : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي وما أحسب أن تقوم القيامة بعد الممات ، يقول هذا لأنه شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة من الآخرة .

ثالثها : أن يقول : ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي ولئن كان حقاً أن هناك بعثاً وجزاء فإن لي عنده الحالة الحسنى من الكرامة .

وبعد أن حكى الله تعالى عنه ذلك قال : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي فلنخبرن هؤلاء الكافرين يوم القيامة بما عملوا في دنياهم من المعاصي ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وسنجازيهم على موقفهم هذا بعذاب شديد الوقع لا يمكنهم التخلص منه .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي وإذا أنعم الله على الكافر بما يريحه ويحسّن حاله ويرفه عيشه ، أعرض عن شكر الله وطاعته واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وإذا أصابه المكروه من ضر وفقر ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ فذو دعاء كثير ، فمن طبع الكافر أن يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء .

وأمام تكذيب الكفار لكتاب الله يتوجه القرآن إليهم بسؤال يحرك فيهم العقل والمنطق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) .

أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم جحدتم به ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّن هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي لا أحد أضل من الذي هو في خلاف للحق بعيد عن الرشاد .

ثم يختم الله هذه السورة ببرهان جلي يشهد بوحدانية الله وعظيم قدرته ستتكشف حقائقه للأجيال المقبلة :

﴿ سَنُرِيهم آيَاتِنَا[١] في الآفَاقِ وَفي أَنْفُسِهم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلَا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِم أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (٥٣ ـ ٥٤) .

فالله سبحانه يقول للمنكرين لوحدانيته أو وجوده بأنه سيريهم ـ أي في المستقبل ـ العلامات الدالة على قدرته في نواحي السماء والأرض وفي النفس الإنسانية .

هذه الحقيقة المعلنة هي من أعظم الدلائل على أن القرآن وحي إلٓهي وأن محمداً رسول الله حقاً . ففي وقت نزول القرآن لم يكن قد اكتشف المرقب « التلسكوب » الذي كشف عن عجائب السماء الشيء الكثير وعظمة القدرة الإلٓهية .

فقبل اكتشاف المرقب كان الناس يعتقدون أن النجوم ليست سوى مصابيح صغيرة ، وكان عدد النجوم التي يمكن رؤ يتها من على سطح الأرض بالعين المجردة لا يزيد عن ٦ آلاف نجم ، ولما كنا لا نرى سوى نصف الكرة السماوية تقريباً فمن البديهي أن لا نشاهد أكثر من نصف هذا العدد .

وأول من صنع المرقب غاليلو عام ١٦٠٩م ثم تطورت صناعته منذ ذلك الحين مما مكّن العلماء بواسطته من رؤ ية المزيد من الكواكب والنجوم .

فبواسطة المرقب تبدّى لنا أن الشمس وما نراه من نجوم هي تابعة لمجرة واحدة يطلق عليها اسم درب التبانة وهي تتألف من مجموعات شتى من النجوم قدرت بنحو ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم ، وعدد المجرات التي

---

(١) آياتنا : الآيات جمع آية وهي العلامة الواضحة وتأتي بمعنى المعجزة ، وقد سمى الله ما خلقه في الكون آيات لأنها علامات على وجوده وقدرته وحكمته .

تم اكتشافها بواسطة مرقب جبل بالومار بكاليفورنيا بلغ حوالي ١٠٠٠ مليون مجرة بكل منها في المتوسط ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم تقريباً ، وأنه يوجد في الكون أضعاف ما رآه العلماء من مجرات .

أما آيات الله في آفاق الأرض فإنها لم تظهر على حقيقتها إلّا بعد اختراع سبل المواصلات الحديثة التي ربطت بين أقطار الأرض وبينت للإنسان ما كان مجهولاً لديه ، وبعد هذه الحضارة التي بلغها في هذا العصر حيث استكشف الإنسان أسرار عوالم الأرض الجيولوجية وعالم النبات والحيوان والحشرات والطير وغير ذلك مما يشهد بوجود خالق حكيم .

وبعد أن بيّن الله أنه سيريهم آياته في الآفاق بيّن بعد ذلك بأنه سيريهم آياته ﴿ في أَنْفُسِهِم ﴾ أي في النفس الإنسانية .

وقد كشف الطب الحديث أن في جسم الإنسان من الأجهزة المتعددة المتشعبة ما يحتاج كل جهاز فيه إلى دراسات مستفيضة تجعل الإنسان يقف أمامها مبهوراً مندهشاً ، فلا ندري من أين نبدأ ولا عن أي جهاز من أجهزة الجسم نتحدث وما فيها من أسرار مدهشة وحِكَم .

هل نتحدث عن بدء تكوين الإنسان في الرحم بالتقاء إحدى الحيوانات المنوية(١) ببويضة الأنثى ثم تدرجه في التكوين إلى أن يصبح بشراً سويّاً ؟

---

(١) تفرز خصية الرجل مئات الملايين من الحيوانات المنوية في كل دفقة مني وقد قدرت بـ ١٠٠ مليون حيوان منوي في السنتمتر المكعب.وكل حيوان منوي له رأس مصفح مدبب وله عنق صغير وله ذيل يتحرك بواسطته . ورأس الحيوان المنوي يحتوي على أسرار الوراثة كاملة ينقلها الأب إلى الابن والبنت على هيئة ٢٣ جسيماً ملوناً . وأحد هذه الحيوانات المنوية فقط يفلح في اختراق بويضة الأنثى التي تحتوي أيضاً على ٢٣ من الصبغيات الوراثية.وبالتقاء الحيوان المنوي ببويضة الأنثى يبدأ تكوين الإنسان .

أم نتحدث عن قلب الإنسان ووظيفته المعجزة[١] ؟ أم نتحدث عن شرايين الإنسان والأوردة التي تنقل الدم إلى سائر أعضاء الإنسان وأطرافه ؟ هل نتحدث عن عظام الإنسان وما فيها من تنوع وَحِكَم ؟ أم نتحدث عن عضلات الإنسان المنتشرة من أعلى الرأس إلى أسفل القدم ؟ هل نتحدث عن الجهاز العصبي واللمفاوي ؟ أم نتحدث عن غدد الإنسان ووظيفتها ؟ هل نتحدث عن سمع الإنسان وبصره وتكوين كل من الأذن والعين ؟ أم نتحدث عن حاسة الشم والذوق واللمس ؟ هل نتحدث عن الجهاز الهضمي وما فيه من معدة وكبد ومرارة وأمعاء دقيقة وغليظة ؟ أم نتحدث عن الجهاز البولي والكليتين ؟ هل نتحدث عن الجهاز التناسلي الذي يختلف فيه الرجل عن المرأة ؟ أم نتحدث عن جهاز التنفس وكيف يتوقف عليه تنقية الدم وحياة الإنسان . . هل نتحدث عن مخ[٢] الإنسان وتكوينه وعظمة إبداعه ؟ أم نتحدث عن تركيب أسنان الإنسان وتنوعها حسب الوظيفة المتوخاة منها . . أم عن أظافر الإنسان وشعره وجلده ، كل هذه وغيرها لو شرحت وبينت أسرارها لاقتضى ذلك عشرات المجلدات الضخمة على يد عشرات الأخصائيين في كل فرع من فروع علم الطب .

---

(١) قلب الإنسان أعجب وأتقن المضخات يعمل بدون توقف منذ الأسبوع الرابع من وقت تلقيح الأنثى وحتى موته ، وينبض عادة ما بين ٦٠ إلى ١٠٠ ضربة في الدقيقة ويضخ ٥ ليترات دم في الدقيقة ، وهذه المضخة المعجزة توصل الدم إلى شبكة من الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية التي إذا وضعت جنباً إلى جنب في خط مستقيم فإن طولها يتجاوز ستين ألف ميل .

(٢) الدماغ آلة العقل عدد خلاياه العصبية اثنا عشر ملياراً تقريباً وفي كل ثانية تفكير أو قراءة تتدخل شبكة خلايا يقرب تعدادها من مائة مليار خلية في كل منها يحصل ما يقرب من خمسة عشر ألف تفاعل كيميائي وكهربائي في الثانية . ولو أراد العلماء تقليد هذه الصنعة الإلّهية بآلة كمبيوتر تعمل كالدماغ للزم بناء مؤلف من عشر طبقات مشاد على مساحة ٧٠٠ ألف كلم^2 علماً أن برمجة الجزء الرئيسي منه فقط تستغرق عدة سنين .

هذا في جانب الجسم الإنساني أما في جانب النفس الإنسانية جانب الشعور والوجدان ، جانب العقل الواعي واللاواعي ، هل نتكلم عن حب الإنسان للمعرفة واستكشافه للمجهول أم نتكلم عن ما في نفسه من شعور وعاطفة ، وألم ولذة ، وحب وبغض ، وحزن وسرور ، وطموح وخيال ، وضمير ووجدان ، وغرائز شتى ، أم نتكلم عما أودع في فطرة الإنسان من التوجه إلى الخالق بالعبادة ، واللجوء إليه عند الشدائد ، ألا يكفي هذا كله دلالة على عظمة الخالق الذي أبدع الإنسان على هذه الميزات الفريدة التي تشهد بوجود الخالق ووحدانيته وعظمته ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

ثم يتابع القرآن قوله بعد لفت الأنظار إلى آيات الله في الكون : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي حتى يتبين لهم أن القرآن من عند الله ، وأن وجود الله ووحدانيته لا مجال للشك فيها ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي أو لم يكن الله سبحانه كافياً في أنه على كل شيء شهيد. والاستفهام للتقرير ، وهو سبحانه يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عن ربه ﴿ أَلا إِنَّهُم في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِم ﴾ أي إن المشركين في شك عظيم من حصول البعث والجزاء في الآخرة لا يستعدون لها بالعمل الصالح ، ولا يحاسبون أنفسهم على ما اقترفوا من منكرات ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ ألا فانتبهوا أيها الكفار فإنه تعالى عالم بجميع الأعمال التي تعملونها بجملتها وبتفاصيلها ، بظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية وهو مجازيكم على كفركم وآثامكم بالعذاب الذي تستحقونه .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .
لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .
روح المعاني للألوسي .
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

كلمة شكر

أخص بالشكر **جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت** لما أسدته مطابعها والعاملون عليها من جهد في تنضيد أحرف هذا الكتاب وأخص بالشكر أيضاً الصديق السيد **علي موسى** على ما بذله من عناية وتضحية في طبع هذا الكتاب في مطبعة العلوم .

الفهرس

روح القرآن الكريم

تفسير

جزء الشورى

الجزء الخامس والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

توزيع
دار العلم للملايين

هَـذَا التَّفْسِيرُ

• يعَرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون :

دار العِلم للملايين

بيروت ـ لبنان ـ ص ب ١٠٨٥

توضيح

كـانت العادة التي جـرينا عليهـا أن نفسر أجـزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السـورة التي يبتدىء بها كل جزء من القرآن.

وهذا الجزء الخـامس والعشرون يبتـدىء بالآيـة ٤٧ من سورة فصلت وينتهي بآخـر سورة الجـاثية، ولما كنا حريصين على تفسير السـور كاملةً في كـل جـزء تركنـا تفسير الآيـات من سورة فصلت للجـزء الرابع والعشـرين وبدأنـا تفسير هـذا الجزء من أول سورة الشورى وسميناه جزء الشـورى تجوزاً ليميـزه القراء عن غيره من الأجزاء .

ولا بـد من أن نشير إلى أن هـذه التسمية ليست معهودة في كتب تفاسير القرآن وإنمـا جرى العـرف بهـا لاحقاً بين النـاس على تـداول تسميـة الأجـزاء بجـزء عم، وجزء تبـارك إلى غير ذلـك من أسمـاء الأجزاء المعروفة بأوائل سورها.

روح القرآن الكريم

تفسير

جُزْءُ الشُّورَى

الجزء الخامس والعشرون

بقلم

عَفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة الرابعة

تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠١

سورة الشورى

سميت هـذه السورة بـاسم الشورى لإرشـاد المؤمنين إلى أن يعتمـدوا نظام الشورى في أمورهم العامة والخاصة .

تبتدىء السورة بالتنويه بالقرآن الذي أوحاه اللَّه إلى رسوله محمد ﷺ ، كما أوحي للرسل من قبله ، هذا القرآن هو هداية للبشر ، وإنذار لأهل مكة ومن حولها من القرى من هول يوم القيامـة حيث يحاسب النـاس بما عملوا ويتقرر مصيرهم إما إلى نعيم الجنة أو إلى عذاب النار .

وفي هـذه السورة دعـوة إلى إفراد اللَّه بـالعبـادة وتـرك عبـادة غيـره من أصنـام وغيـرهـا ، فهـو سبحـانـه يحيي ويميت ، وهـو خـالق السمـاوات والأرض ، كما خلق الإنسان والأنعام أزواجاً لتتكاثر ويستمر بقاؤها .

وهـذه السورة تبين كـذلك وحـدة الرسـالة الإلٰهيـة التي جاء بهـا رسل اللَّه ، ولكن الناس اختلفوا في مضمونها فأرسل اللَّه رسوله محمـداً برسـالة توفق بين المتخالفين وتظهر حقيقة الدين الذي حادوا عنه .

وهذه السورة تظهر أيضاً قبول اللَّه توبة التـائبين ، والحكمة في تـوزيع الرزق بتدبيـر محكم ، مع عـرض لبعض مظاهـر القدرة الإلٰهيـة ، وأسباب المصـائب التي تجتاح الإنسـان ، وتذكـر هذه السـورة بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون لنيل رضاء اللَّه ومنها صفة الشورى .

وتشيـر السـورة إلى أن اللَّه يهب لمن يشـاء من النـاس ذكـوراً ويهب آخرين إناثاً كما يجعل من يشاء عقيماً .

ثم يختم اللَّه السـورة ببيان أنـواع الوحي الإلٰهي الـذي خص به رسله مع التنويه بشأن القرآن ورسوله محمد ﷺ .

سُورَةُ الشُّورَى

مكية، وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ
﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ
رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ
ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ
وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن

شرح المفردات

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن من جلال الله وعظمته .

يُسَبِّحُون بحَمْد رَبِّهِمْ : ينزهون ربهم عما لا يليق بجلاله متلبسين بحمده .

اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِم : الله رقيب على أعمالهم .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بوكيل : أمرهم ليس موكولاً إليك .

أُمَّ القُرَى : مكة المكرمة .

يَوْمَ الْجَمْع : يوم القيامة .

لا رَيْب فيه : لا شك في وقوعه .

فَرِيقٌ في السَّعير : فريق في عذاب النار المستعرة .

يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ
٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ
يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ١٢

شرح المفردات

وَلِيٍّ : محب وصديق وناصر .

إِلَيْه أُنيبُ : ارجع إلى اللّه واعتمد عليه .

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض : خالق السماوات والأرض ومبدعهما .

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْواجاً: جعل من جنسكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً .

الأَنْعَام : الإِبل والبقر والغنم .

يَذْرؤكم : يخلقكم ويكثركم بسبب هذا الازدواج .

مقاليد السمٰوات والأرض : خزائنها ومفاتيحها .

يبسط : يوسع .

يَقْدر : يضيق ويقتّر .

سُورَةُ الشُّورَىٰ

ايضـــاح و دروس

بيِّن القرآن في مستهل هذه السورة أن اللّٰه سبحانه أوحى لرسوله محمد ﷺ من الشريعة مثل ما أوحى إلى الأنبياء من قبله من الدعوة إلى توحيده ، وإفراده بالعبادة ، وتمجيد عظمته :

﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ . كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ . لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقهن وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُون لِمَن في الأَرْضِ ألا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١ ـ ٥) .

﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾ ذكر اللّٰه هذه الأحرف للتنبيه على إعجاز القرآن المؤلف من هذه الحروف وغيرها من حروف الهجاء التي يتكلم بها الناس ، ولكن عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن دليل على أنه وحي إلٰهي .

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي بمثل ما جاء في هذه السورة من المعاني التي أوحاها اللّٰه إليك يا محمد من الدعوة إلى توحيد اللّٰه وعبادته والدعوة إلى الهدى والحق ، أُوحي إليك في غيرها من سور القرآن ، كما أُوحي بهذه المعاني إلى الرسل من قبلك ، والذي خصك بهذا الوحي ﴿ اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ أي القوي الغالب ، الحكيم في أفعاله وتدبيره ، ﴿ لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ ﴾ فكل ما في السماوات من أجرام مرئية وغير مرئية ، وكل ما في الأرض من سهول وجبال وبحار وأنهار وكائنات حية إنما هي للّٰه خلقاً وملكاً لا ينازعه في ذلك

أحـد ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ العَـظِيمُ ﴾ المتفرد بعلو الشـأن والكبريـاء على جميع خلقه .

﴿ تَكَـادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَـطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أي تكـاد السماوات يتشققن من فـوق الأرضين من عظمـة اللَّه وهيبته وجـلالـه ، كمـا تتشقق من هـول ما تدعيه الفرق والجماعات الضالة التي تعيش على وجـه الأرض ، وتنسب إلى اللَّه ما لا يليق بجلاله من وجود شـريك لـه في الملك ، أو ما ينسبـون إليه زوراً من وجود ولـد له وزوجـة ﴿ وَالْمَلاَئِكَـةُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ ﴾ فالتسبيح هو تنزيه اللَّه عن السوء والنقص والعيب . والحمد للَّه : هو الثناء عليه والشكر لنعمه التي شملت جميع خلقـه . فالمـلائكة ينـزهون اللَّه عن كـل سـوء متلبسين بحمـده على نعمـه ﴿ وَيَسْتَغْفِـرُونَ لِمَنْ في الأَرْضِ ﴾ ويسـألون ربهم المغفـرة لذنـوب مَنْ في الأرض من أهل الإيمـان ﴿ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ألا : حرف تنبيه أي تنبهوا أيها الناس فـاللَّه واسع المغفرة لمن تاب ، كثيـر الرحمـة ، فما من مخلوق إلّا ولـه حظ عظيم من مغفرته ورحمته .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها تحديـد لمهمة رسـول اللَّه محمد ﷺ وهي إنذار قومه من يوم القيامة حيث يجازى فيه الناس على أعمالهم :

﴿ والَّـذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَـاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ في الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ في السَّعِيرِ ﴾ (٦ ـ ٧) .

والمعنى : والذين اتخذوا من غير اللَّه «أَوْلِيَاءَ » وهي الأصنام التي كان المشركون يعبـدونها في زمن النبي ﷺ وقبله ، ويبتغـون منها الخيـر والنفع ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ اللَّه شهيدٌ على أعمالهم ورقيبٌ عليها لا يخفى عليه

شيء منها يحصيها عليهم ليجازيهم بها يوم القيامة ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وليس موكولاً إليك أمر إيمانهم يا محمد ولا إجبارهم عليه وإنما وظيفتك الإنذار .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبيًّا ﴾ أي وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك كتباً سماوية كالتوراة والإنجيل أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسان قومك ليفهموا ما فيه من الهدى والخير ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ﴾(١) لتخوف وتحذر أهل مكة ، وسميت مكة أم القرى إجلالاً لها لأن فيها البيت الحرام ومقام إبراهيم ، والعرب تسمي أصل الشيء أُماً ، حتى أنه يقال : هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي من حول مكة من سائر بلاد العرب ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي تخوف الناس وتحذرهم من يوم الجمع وهو يوم القيامة ، وسمي بذلك لأن اللَّه يجمع فيه الخلائق للحساب ، وهذا اليوم لا شك في وقوعه ، والناس فيه فريقان ﴿ فَرِيقٌ في الْجَنَّةِ ﴾ وهم الذين آمنوا باللَّه ، واتبعوا ما جاءهم به رسل اللَّه من الهدى ﴿ وَفَرِيقٌ في السَّعِيرِ ﴾ وفريق في جهنم وهم الذين كفروا باللَّه وساروا في طريق الضلال معرضين عما جاءهم به رسل اللَّه .

ثم يبين القرآن طبيعة البشر حيال هدى اللَّه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ في رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ (٨) .

والمعنى : لو أراد اللَّه أن يجمع خلقه على الهدى ، ويجعلهم أهل ملّة واحدة يجتمعون على دين واحد لفعل ، ولكنه سبحانه يُدخل من يشاء

---

(١) أم القرى : هي مكة وقد أراد القرآن بذلك أهلها كما في قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهلها .

من عباده فيّ رحمته بتوفيقه للدخول في الإسلام والكافرون بـاللّه ليس لهم صديق ينفعهم يوم القيامة ، ولا نصير ينقذهم من عذاب اللّه .

ثم يستنكر القرآن عمل الذين اتخذوا من دون اللّه آلهة يعبدونها ويبتغون فيها الخير والنفع :

﴿ أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُـوَ الْوَلِيُّ وَهُـوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُـوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيـهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٩ ـ ١٠) .

فـاللّه ينكـر على المشـركين اتخـاذهم آلهـة من دون اللّه يبغـون منهـا النفع ، ويخبر أنه هو الولي : أي المتولي لأمور العالم والخلائق ، المدبـر لشؤونهـا الذي لا تنبغي العبـادة إلّا له وحـده ، فإنـه هو القـادر على إحيـاء الموتى للحساب وهو على كل شيءٍ قدير .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ حكاية لقـول محمد ﷺ للمؤمنين : أي ومـا اختلفتم مـع الكفـار من أمـور الـدين ﴿ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فـالحكم الفصل فيه يرجع إلى الله ، وقد حكم أن الدين عند اللّه الإسلام ، وأمـور الشرائع تؤخذ من القرآن ، فالحلال هو ما أحلّه اللّه ، والحرام هو ما حرّمـه اللّه[١] ﴿ ذَلِــكُمُ اللَّهُ رَبّي ﴾ أي قـل يـا محمـد : ذلكم الحـاكم العـظيم الشأن هو ربي ومالك أمري ﴿ عَلَيْهِ تَـوَكّلْتُ ﴾ على اللّه وحده اعتمـدت ، وفوضت أمري إليه ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ وإليه أرجع في أموري كلها وأتـوب إليه من ذنوبي .

ويتـابع القـرآن فيعلن أن الذي يستحق العبـادة هو اللّه وحـده ، خالق

---

(١) وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ **وإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى اللّه والرسول** ﴾ .

السماوات والأرض ، وخالق الإنسان والأنعام الـذي ليس له شبيـه ومثيل ، والذي بيده مفاتيح الرحمة والرزق :

﴿ فَـاطِـرُ السَّمَـاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَـلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجـاً وَمِنَ الأَنْعَـامِ أَزْوَاجاً يَـذْرَؤُكُم فِيـهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُـوَ السَّمِيـعُ البَصِيـرُ . لَـهُ مَقَـالِيدُ السَّمَـاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّـهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١-١٢) .

فاللّه سبحانه يقول بـأنه هـو خالق ومبـدع السماوات والأرض ﴿ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجـاً ﴾ أي خلق لكم من جنسكم نســاء فـأصبحتم بالتوالد ذكوراً وإناثاً ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾ أي وخلق لكم من الأنعـام[١] وهي الإبـل والبقر والغنم والمعـز أصنافـاً من الذكـور والإنـاث ﴿ يَـذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ يخلقكم ويكثركم بواسطة هذه الزوجية نسلاً بعـد نسل من النـاس أو الأنعام .

فتناسل الإنسان والحيوان واستمرار ذلك من أعظم الدلائـل على وجود خالق مبدع ، لننظر إلى ساعة اليد مثلاً فلا يعتقد إنسان أنهـا خُلِقت بنفسها بل أن هناك صانعاً لها ، ثم لنفرض أن هذه الساعة قد مُنحت القـدرة على إيجاد ساعات أُخرى فـإن ذلك لا يفـوق معجزة تـوالد الإنسـان والحيوان . فكل إنسان أو حيوان يرث عن والديه صفـاتهما وأسلوب حيـاتهما ، فهـذه الأمـور لا يمكن أن تحصل صـدفة ، بـل هنـالـك يـد القـدرة الإلٰهيـة التي أبـدعت الإنسان وعـالم الحيوان وزودتهمـا بملايين الأسـرار المـذهلة التي وقف العلم أمامها مبهوراً عندمـا بدأ يستكشف بعض أسـرارها ويـطلع على

---

(١) اقتصر القرآن على ذكر الأنعام لأن العرب كانوا أول المخاطبين بالقرآن وكانت الأنعام هي قوام حياتهم وعلى مرأى أنظارهم دائماً فلهذا لفت الأنظار إليها .

عظمة الإبداع الإلّهي .

ثم تـأتي الآية تصف اللّه سبحـانـه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ[١] شَيءٌ ﴾ أي أن اللّه في عـظمته وكبـريائـه وملكـوتـه وأفعـالـه وصفـاتـه لا يشبهـه شيء من مخلوقاته ، وهو سبحانه لا يشبه شيئـاً منها ، فـإن قيل إن اللّه عـالم وبصير وغيـر ذلك من الصفـات ، فهذه الصفـات وغيـرهـا وإن كـانت تـطلق على الإنسان فإنها تأتي من ناحية الموافقة اللفـظية فقط ، أمـا صفات اللّه فـإنها تتنـزه عن مشابهـة صفات المخلوقين ﴿ وَهُـوَ السَّمِيعُ البَصِيـرُ ﴾ أي أن اللّه سميع لأقوال العباد بصير بأفعالهـم .

﴿ لَـهُ مَقَالِيـدُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي لـه مفاتيـح خزائن السمٰـوات والأرض والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن ، فمـا يفتح اللّه للنـاس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فـلا مرسـل له من بعـده ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع رزقـه وفضله على من يشاء من خلقـه ، ويقتّر على من يشاء منهم فيفقره ﴿ إنَّ اللَّهَ بِكُـلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ فهو سبحـانه يعلم الذي تصلحه توسعة الـرزق عليه أو تفسـده ، كما يعلم من يصلحـه التقتير عليـه أو يفسده ، فيـوسع ويقتّـر حسبما يعلم من حـالة الشخص ، فيعـطي لحكمة ، ويمنع لحكمة تخفى على العباد .

(١) كمثله : الكاف هنا زائدة للتوكيد ، أي ليس مثله شيء .

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟
فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ
ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ

شرح المفردات

شَرَعَ لكم : بيِّن وسنّ لكم طريقاً واضحاً .

ما وصَّى به : ما أمر به وألزم .

أقيموا الدِّينَ : اتبعوا دين الإسلام ، ووفوه حقه من علم وعمل .

كَبُرَ : عظم وشقّ .

يَجْتبي : يختار ويصطفي .

يُنيب : يرجع إلى الله بالتوبة ويقبل على طاعته.

بَغْياً بَيْنَهُمْ : ظلماً وحسداً وميلاً عن الحق .

أَجَلٍ مُسَمًّى : وقت معين وهو يوم القيامة .

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ : لأنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا .

أورثُوا الكتَاب : هم اليهود والنصارى .

مُرِيب : مرتابين شاكين .

واسْتَقم كما أُمرتَ : أثبت على الدين الذي أمرت به .

لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ
بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ
حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ
﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ
قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ
مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ
بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ
ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

شــرح المفـردات

لا حُجَّةَ : لا خصومة .

إليه المصير : إليه المرجع يوم القيامة .

يُحاجُّون في اللّه : يخاصمون في دين اللّه .

استُجيبَ لَهُ : استجاب له الناس وأذعنوا لأحكامه .

حُجَّتُهُم دَاحِضَةٌ : خصومتهم بَاطلة .

أَنْزَل الكتَابَ : أنزل القرآن وسائر الكتب الإلٰهية المنزلة .

والميزان : المراد به العدل .

مُشْفقُونَ : خائفون .

يُمَارونَ في السَّاعَةِ : يجادلون في القيامة شاكين فيها .

اللّه لطيف بعباده : رفيق بهم يحسن إليهم وينجيهم من الشدائد .

حَرْثَ الآخرة : عمل الآخرة وثوابها .

تابع سورة الشورى

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان أن الإسلام ليس بدين جديد بل هو استمرار لما جاء به الأنبياء والرسل من قبل ، خالياً من البدع ، ومحتوياً على الحقائق التي اختلف أتباع الأديان حولها ، مع شريعة توافق التطور البشري :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) .

فاللّٰه يخاطب أمة محمد بأنه بيّن لهم وأوضح من الشريعة الإلٰهية ما أمر به أمة نوح ، وأمم إبراهيم وموسى وعيسى .

لقد اقتصرت هذه الآية على ذكر هؤلاء الأنبياء - مع أن شريعة اللّٰه نادى بها أنبياء اللّٰه جميعاً ودعوا أقوامهم إليها - لأن الأنبياء المذكورين هم مشاهيرهم ، فنوح عليه السلام يقترن اسمه بأكبر حادثة في التاريخ وهي حادثة الطوفان ، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده ، وموسى عليه السلام جاء بالتوراة ، وعيسى عليه السلام جاء بالإنجيل .

والمراد بالشريعة الواحدة التي أوصى بها هؤلاء الأنبياء ومنهم محمداً تلك الأمور التي لا بد منها لكمال النوع الإنساني ، وهي العقيدة بوحدانية اللّٰه ووجود اليوم الآخر ، والعمل بالفضائل التي تعود على المجتمع الإنساني بالخير والفلاح ، والقيام بالعبادات المهذبة للنفوس .

أما صور العبادات ورسومها ، وما في الشرائع من قوانين منظمة

للتعامل ومحققة للمصالح فقد اختلفت في الشرائع حسب اختلاف استعداد الأمم كما هو معروف الآن في اختلاف الشرائع الوضعية ، ولهذا يقول تعالى في هذا الصدد :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (المائدة : ٤٨) .

ويتابع القرآن خطابه لأمة محمد : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقوا فِيهِ ﴾ أي اعملوا بما شرعه اللّه لكم من الدين ولا تختلفوا فيما أمرتم به من شرع اللّه .

والملفت للنظر أن القرآن حذّر من الاختلاف قبل أن تظهر بوادره وهذه نبوءة للقرآن بأن التفرق سيجتاح أمة محمد كما اجتاح الأمم السابقة . وهذا التفرق الحاصل اليوم بين المسلمين هو الذي أدى إلى ضعفهم وإذلالهم من قِبَلِ أعدائهم ، بينما نرى القرآن في كثير من وصاياه يشدد على الوحدة ويحذر من التفرقة .

﴿ كَبُرَ عَلَى المشْرِكينَ مَا تَدْعُوهُم إلَيْهِ ﴾ أي شق وعظم على المشركين دعوة النبي لهم بترك عبادة الأصنام ، وظهرت آثار ذلك في أقوالهم وأفعالهم ، فقد آذوا النبي ﷺ بأنواع الأذى ، ووصموه بالسحر والجنون ﴿ اللَّه يَجْتَبِي إلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يصطفي لدينه من يشاء من عباده ﴿ وَيَهْدِي إلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ويوفق للهداية من يرجع إليه بالطاعة والتوبة . فالخطوة الأولى تكون من الإنسان بالرجوع إلى اللّه بالتوبة وعندها يمنُّ اللّه عليه بالهداية .

ثم يبين القرآن أسباب التفرق بين اتباع الأديان السابقة وتأثير هذا التفرق على الدين نفسه :

﴿ وَمَـا تَفَرَّقُـوا إلاّ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَـاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ وَلَـوْلاَ كَلِمَـةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّـكَ إلَى أَجَلٍ مُسَمّى لَقُضِيَ بَيْنَهُم وَإنَّ الَّـذِينَ أُورِثُوا الكِتَـابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفي شَكّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١٤) .

فالذين اتبعـوا كل نبي تفـرقوا في دينهم ، وذهب كـل فريق إلى رأي يخالف رأي الآخرين من بعد ما جاءهم العلم أن الفرقـة في الدين مخـالفة لأمر اللَّه ، وهذه الفرقة إنما حصلت بسبب البغي بينهم كما يقول القرآن ، والبغي في اللغة هو العدول عن الحق والظلم والحسد ﴿ وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّـكَ إلَى أجَـلٍ مُسمّى ﴾ أي لـولا الكلمـة السابقـة من اللَّه بتـأخير حسـابهم وعـذابهم إلى يـوم القيـامـة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي لقضى اللَّه بهلاكهم وعجل عذابهم في الدنيا ﴿ وَإنَّ الّذِين أُورِثُوا الكِتَابَ ﴾ وإن أهـل الكتـاب الذين ورثـوا التوراة والإنجيـل ﴿ مِنْ بَعْدِهم ﴾ من بعـد أسـلافهم الذين تفرقوا في دينهم ﴿ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ لفي شك من صحة التوراة والإنجيل . وهذه حقيقة ملموسة فكثير من اتباع المسيحية واليهودية يشكون في صحـة ما بين أيـديهم من المدين بسبب كثـرة الخـلافـات والفـرق التي استحدثت ، وبسبب البدع والشروحات المبهمـة التي طرأت على أديـانهم مما حدا بالكثير منهم إلى نكران الأديان عامة وسلوك طريق الإلحاد .

وبعـد تقـريـر هـذه الحقـائق التي أدت إلى الشـك في دين اللَّه يـأتي الخطاب إلى النبي ﷺ والمؤمنين بالالتزام بأمور هامـة فيها صـلاحهم وهي مكونة من عشر فقرات كل واحدة منها منفصلة عما قبلها :

﴿ فَلِذَلِـكَ فَادْعُ واسْتَقِمْ كَمَـا أُمِرتَ ولا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُم وَقُـلْ آمَنْتُ بما أنْزَلَ اللَّه من كِتابٍ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمَـالُنَا وَلَكُمْ أَعْمالكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١٥) .

فـاللَّه يقول : ﴿ فَلِذَلِـكَ فَادْعُ ﴾ أي فـادع يا محمـد إلى دين الإسلام الذي أوحاه اللَّه إليك ﴿ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِـرْتَ ﴾ واستقم أنت ومن اتبعك من قـومك على عبـادة اللَّه والعمل بـالإسلام كمـا أمرك اللَّه تعـالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكوا في الحق الذي شرعه اللَّه لكم من أهل الملل الأخرى الذين ارتابوا في دينهم ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَـا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَـابٍ ﴾ أي قـل : آمنت بكتب اللَّه المنــزلـة كلهــا ، وذلـك أن المتفـرقين آمنـوا ببعض الكتب وكفـروا ببعضهـا الآخـر ﴿ وَأُمِـرْتُ لأَعْـدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي وأمــرت لأقضي بينكم بـالحق إذا تخــاصمتم فتحـاكمتم إليَّ ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ هنا إعلان لمسـاواة الناس جميعـاً ، وبطلان استعـلاء بعضهم على بعض ، فـاللَّه خـالق ومـالـك لجميـع النـاس على مختلف طبقاتهم لا ميزة لأحدهم على الآخر إلّا بالعمل الصـالح ، وفي هـذا النص القرآني نفي لما كـان يدعيـه اليهود من أن اللَّه يحـابيهم ويفضلهم على من سواهم من الأمم ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي لنا ثواب ما اكتسبناه من الأعمال ولكم ثواب ما اكتسبتم منها ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم ، وهذه دعوة إلى المسالمة والتسامح مع من يخالف المسلمين في دينهم ﴿ اللَّهُ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا ﴾ اللَّه يجمـع بيننـا يـوم القيـامــة فيقضي بيننا بالحق ويجازي كل إنسـان بما عمـل ﴿ وَإِلَيْهِ المصِيـرُ ﴾ وإليه المرجع بعد الممات .

ثم تأتي الآية التالية وفيهـا تهديـد للذين يخاصمـون الإسلام ويعـادونه بالعذاب يوم القيامة :

﴿ والَّـذِينَ يُحاجُّـونَ في اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَـا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَـةٌ عِنْدَ رَبِّهِم وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٦) .

والمعنى : والـذين يخـاصمـون في دين اللَّه وهـو الإسـلام بحججهم البـاطلة من بعد مـا استجاب النـاس لهـذا الـدين ﴿ حجتهم دَاحِضَـةٌ عِنْـدَ رَبِّهم ﴾ فخصومتهم باطلة عند ربهم ولا أساس لها من الحق وعليهم غضبٌ من الله ولهم في الآخرة عذاب شديد في جهنم . هذا الآية قيل إنها نـزلت في قـوم من اليهـود خـاصمـوا أصحـاب رسـول اللَّه في دينهم وطمعـوا أن يصدوهم عنه .

ثم يبين القـرآن بـأن اللَّه أنـزل الكتب الإلٰهيـة بـالحق والعـدل ، وأن القيـامة آتيـة لا ريب في وقوعهـا حيث يحيي اللَّه المـوتى ويجـازيهم على ما فعلوه في دنياهم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَـابَ بِالحَقِّ والمِيـزَانَ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّاعَـةَ قَـرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَـا الَّذِين لا يؤمِنُـون بِهَا وَالَّـذين آمنـوا مُشْفقُـونَ مِنْهَـا وَيَعْلَمُـون أَنَّهـا الحَقُّ ألا إنَّ الـذين يُمـارُون في السَّـاعَـةِ لَفي ضَـلالٍ بَعيدٍ ﴾ (١٧ ـ ١٨) .

فاللَّه سبحانه أنزل الكتاب والمراد به القرآن وسائر الكتب الإلٰهيـة التي هي مشتملة على الحق في أحكامها ، كما أنه سبحانه أنزل (الميزان) وهو العـدل لأن الميزان آلـة الإنصاف والعـدل ، ليقضي بين الناس بـالإنصـاف ويحكم فيهم بحكم اللَّه ﴿ وَمَـا يُدْريـكَ لَعَلَّ السَّـاعَـةَ قَـرِيبٌ ﴾ وأي شيء يعلمك يا محمد لعل الساعة التي تقوم فيها القيامة قريبة الوقوع . والمناسبة من ذكر القرآن لاقتراب القيامة مع إنزال الكتب الإلٰهية بالحق والعدل، هـو العمل بشرائـع اللَّه قبل أن يفـاجأ النـاس بيوم الحسـاب وهم منغمسون في المعاصي ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَـا الَّذِين لا يُؤْمِنُـونَ بِهَا ﴾ أي يستعجلك يـا محمد بمجيء القيامة الذين لا يوقنـون بحدوثهـا استبعاداً لهـا وكفراً بهـا واستهزاءً

﴿ والَّذينَ آمَنُوا مُشْفِقُون مِنْهَا ﴾ والذين صدقوا بوقوعها خائفون من مجيئهـا لأنهم لا يـدرون ماذا سيكـون مصيـرهم فيهـا ، فهم يجتهـدون في العمـل الصالح ومع ذلك يخافون أن لا يكون مقبولاً عند اللَّه ولهذا فهم دائماً على خـوف وحذر ﴿ وَيَـعْـلَـمُـونَ أَنَّهـا الْحَقُّ ﴾ ويوقنـون أن مجيء القيامـة حق لا محـالة ﴿ ألا إِنَّ الَّـذِين يُمَارُون في السَّـاعَةِ ﴾ ألا إن الـذين يشكون في القيامة ويجادلون بهـا ﴿ لفي ضَلالٍ بَعِيـدٍ ﴾ لفي بُعْدٍ عن الهـدى ، وزيغ عن سبيل الحق والرشاد .

وبعد الكلام عن القيامة وموقف البعض منها ينتقل القرآن إلى الحديث عن الرزق الذي يتفضل به اللَّه على عباده في هذه الدنيا ، هذه الدنيا التي يجب أن لا يغتر بها الإنسان وأن لا تصرفه عن العمل للآخرة .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ . مَنْ كَانَ يُريـدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَـزِدْ لَهُ في حَـرْثِهِ . وَمَنْ كَـانَ يُريـدُ حَرْثَ الـدُّنْيَا نُؤْتِـهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (١٩ ـ ٢٠) .

فاللَّه سبحانـه لطيف بعبـاده أي رفيق بهم يرزق من يشـاء فيوسّـع عليه الرزق ، ويقتّر على من يشاء منهم وهو ﴿ القَـويّ ﴾ الباهـر القدرة الغـالب على كل شيء ﴿ العَزِيز ﴾ أي المنيع الذي لا يغلب .

﴿ مَنْ كَانَ يُريدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ﴾ الحرث في اللغة : العمل في الأرض لتهيئتهـا للزرع وإلقـاء البـذر في الأرض ، ويـطلق على الـزرع الحـاصـل منهـا . ويستعمل الحـرث في ثمرات الأعمـال ونتائجهـا بطريق الاستعـارة المأخوذة من تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور . والمعنى : من كان يريد ثواب الآخرة ونصيبه منها من الأجر ﴿ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ﴾ أي نضاعف له ثوابه فنجعل له بالحسنة الواحدة عشراً وزيادة .

﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أي ومن كان يريد متاع الدنيا وطيباتها ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي نعـطه منها حسبمـا قسمنا لـه لا ما يـريده لنفسـه ويبتغيه ﴿ وَمَا لَهُ في الآخِـرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ وليس له في الآخـرة حظ من النعيم لأن همـه وعمله كان لأجـل دنياه فقط . وتـأمـل الفـرق بين التعبيـرين بجـانب الآخرة والدنيا ، ففي جانب الآخرة تقول الآيـة ﴿ نَزِدْ لَـهُ في حَرْثِـهِ ﴾ وفي جانب الدنيا ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي لا يبلغ كل ما يريد وإنما يؤتيه اللَّه جزءاً مما يريد .

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟
شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى
رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ
﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً
نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

شرعوا : ابتدعوا .

كلمة الفَصْلِ : القضاء السابق بأن الجزاء يوم القيامة .

إلا المودّة في القربى : إلّا أن تحبوني لقرابتي منكم .

يقترف حسنة : يعمل بطاعة اللّه .

نَزِد لَهُ فيها حُسناً : نضاعف له ثوابها .

افترى : اختلق وكذب .

يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ : يطبع على قلبك فينسيك القرآن .

وَيَسْتَجِيبُ الذين آمنوا : أي يستجيب اللّه دعاءهم إذا دعوه .

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن
يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ
ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ
عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

بَسَطَ : وسَّع .

لَبغَوْا : لطغوا وتكبروا وظلموا.

يُنزِّلُ بقَدَرٍ : حدّد اللّه مقدار الرزق حسب تدبيره .

يُنزِّلُ الغيْث : ينزل المطر .

قَنطُوا : يئسوا .

ينشر رحمته : يبسطها ويمنحها .

بَثَّ فيهما : فرق ونشر .

بمُعْجزينَ : لا تستطيعون أن تفلتوا من العقاب .

تـابع سُورَة الشُّورَى

ثم ينتقل القرآن إلى المقارنة بين ما شرعه اللَّه للإنسـان من الدين ممـا بـه سعادتـه ، وبين ما استحـدثه الإنسـان من البـدع والضـلالات التي بهـا شقاؤه :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَـأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَـوْلا كَلِمة الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢١) .

فـاللَّه تعـالى يقـول : ﴿ أَمْ لَهُم شُرَكَـاءُ ﴾ أي : بـل ألهم شـركـاء والاستفهام للتقرير والتوبيخ ، والشركاء هم شركاؤهم في الكفر كـالشياطين والمغوين من الناس وهؤلاء الشركاء ابتدعوا لهم من الدين ﴿ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ مـا لم يبح اللَّه لهم ابتـداعـه ، علمـاً بـأن اللَّه وحـده هـو المشـرّع ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي ولولا القضـاء والحكم السابق من اللَّه بتأخير العقاب والثواب إلى يوم القيامـة لقضي بين الكافـرين والمؤمنين بالجزاء في الدنيا ﴿ وَإِنَّ الظَّالمين لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهؤلاء الـذين عدلـوا عن شـرع اللَّه هم ظـالمـون ، وقـد استحقـوا العـذاب الأليم في الآخـرة لـظلمهم ، فقـد ظلمـوا الحق حين اتخـذوا أربـابـاً من دون اللَّه ، وحين اتخـذوا له شـركاء ، كمـا أنهم ظالمـون لأنفسهم حين كفروا بـربوبيـة اللَّه وحده وجلبوا لأنفسهم العذاب الأليم الموجع في نار جهنم .

ويتابع القرآن فيبين مصير الظالمين والمؤمنين في الآخرة :

﴿ تَـرَى الظَّالِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّـا كَسَبُـوا وَهُـوَ وَاقـعٌ بِهِمْ وَالَّـذِينَ آمنـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في رَوْضَاتِ الجنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاءُون عِنْدَ رَبِّهِم ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

قُلْ : لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

فاللَّه يقول : ترى يا محمد الكافرين باللَّه يوم القيامة ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي وجلين خائفين من عقاب اللَّه على ما كسبوا في الدنيا من أعمالهم السيئة ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي أن عقاب اللَّه نازلٌ بهم وهم ذائقوه لا محالة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والذين صدقوا بوجود اللَّه ووحدانيته وأطاعوه فيما أمر به ونهى عنه هم ﴿ في رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ ﴾ أي هم في روضات البساتين في الآخرة ، وروضات جمع روضة وهي الأرض ذات الخضرة والبستان الحسن ، والمكان الذي يجتمع فيه الماء ويكثر نبته ويعجب زهره ﴿لَهُمْ مَا يشاءون عِنْدَ رَبِّهِم ﴾ مما تشتهيه أنفسهم من النعيم ، والتعبير بـ ﴿ يشاءون ﴾ يعطي معنى الانفتاح على إطلاقه بلا حدود وهو يصور بذلك نعيماً لا يحده الوصف . ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة .

﴿ ذَلِكَ الَّذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ أي ذلك النعيم المشار إليه في الآية السابقة هو الذي يبشر اللَّه به عباده الذين وصفهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وذلك ليزدادوا طاعة للَّه وطمأنينة على مصيرهم في الآخرة ، والملفت للنظر أن اللَّه قرن الإيمان بالعمل الصالح ، فالإيمان وحده لا يكفي وكذلك العمل الصالح ، بل لا بد من اقترانهما معاً ليحوز الإنسان رضاء ربه .

﴿قلْ لا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أجراً إلاّ المودَّة في القُرْبَى ﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم أجراً على تبليغ رسالة اللَّه لكم ، ولكني أذكركم المودة في القربى التي بيني وبينكم . وقد كان لرسول اللَّه محمد قرابة في جميع

أفراد قبيلة قريش فلما كذبوه في بدء الدعوة الإسلامية وأبوا أن يبايعوه على الإسلام طلب منهم أن لا يؤذوه ويحفظوا حرمة هذه القرابة التي تستوجب المودة لا العداوة والخصام . وقيل المراد بالقربى التقرب إلى اللَّه بالطاعات ، والمعنى : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تتوددوا إلى اللَّه فيما يقربكم إليه بالعمل الصالح . ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ ومن يعمل حسنة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ نضاعف له الحسنة بعشر أمثالها وما يزيد على ذلك من الجزاء الحسن والثواب ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ إن اللَّه غفور لذنوب عباده التائبين ، شكور لحسناتهم وطاعتهم إياه .

ثم ينتقل القرآن إلى دحض شبهة أثارها المشركون وهي أن القرآن من تأليف محمد وليس وحياً من عند اللَّه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِك وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٤) .

أم : بمعنى بل ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والمعنى : بل أيقول كفار مكة بأن محمداً اختلق على اللَّه كذباً حين ادعى أن القرآن من عند اللَّه ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ إن يشأ اللَّه يطبع على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معاني القرآن وبحيث لا تستطيع أن تنطق بحرف من حروفه لو كنت مفترياً ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي ويُذهب اللَّه الباطل ويثبت الحق وينشره بين الناس بالوحي الذي أنزله اللَّه عليك يا محمد ، وهذا تأكيد على أن محمداً ليس مفترياً ، فكيف يفتري ومن عادته سبحانه محو الباطل ، وهذه الآية وعد للرسول بأن اللَّه سيهزم الباطل الذي كان عليه الكفار وينصر الحق الذي بعثه اللَّه به ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إن اللَّه ذو علم بما في صدور خلقه لا تخفى عليه خافية .

ثم يبين القرآن بأن اللّه يقبل توبة التائبين ويعفو عن السيئات ويستجيب دعاء المؤمنين :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٥ ـ ٢٦) .

فاللّه سبحانه يقبل توبة المذنبين من عباده مما عملوا من المعاصي واقترفوا من السيئات، والتوبة هي الندم على فعل المعصية والعزم على عدم المعاودة لها ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ويعلم ربكم أيها الناس ما تفعلونه من خير أو شر ﴿ وَيَسْتَجِيبُ[١] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي يستجيب اللّه لهم ، والمراد إجابة دعائهم والإثابة على طاعتهم ، وقيل إن المعنى : يستجيبون للّه بالطاعة ويلبون نداءه إذا دعاهم إليها ﴿ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بأن يعطيهم زيادة على ما يستحقون من ثواب وما دعوا به ربهم ﴿ وَالكَافِرونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ والكافرون باللّه لهم يوم القيامة عذاب شديد على كفرهم به إذا لم يبادروا إلى التوبة ويستجيبوا للّه بالطاعة .

وبعد أن بيّن القرآن بأن اللّه يجيب دعاء المؤمنين أردف بعد ذلك بأن اللّه لا يعطي عباده كل ما يطلبونه من الأرزاق ، بل يخصهم بالقدر الذي فيه مصلحتهم ، وأنه سبحانه مصدر الأرزاق جميعاً :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا في الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٧ ـ ٢٨) .

---

(١) ويستجيب الذين : التقدير للذين فحذفت اللام كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم ﴾ أي كالوا لهم . واستجاب وأجاب بمعنى واحد والسين لتوكيد الفعل .

فاللَّه يقول : بأن توسعة الرزق على الناس تؤدي بهم إلى البغي في الأرض . والبغي في اللغة : العدول عن الحق ، والاستطالة على الناس والكبر والفساد ، هذه المعاني تعكس لفظة البغي ، وهذا أدق تصوير للطبيعة الإنسانية عندما تملك ناصية الثروة حيث نرى كثيراً من الناس الذين اغتنوا بعد فقر يبغون في الأرض ويعيثون فيها فساداً ويتكبرون على عباد اللَّه . وكما نشاهد ذلك في الأفراد نشاهد ذلك في الأمم ، والتاريخ أعظم شاهد على ذلك فكم من أمم قوية غنية اجتاحت أمماً ضعيفة فأذاقتها ألوان العسف والظلم وأشاعت فيها الفساد والخراب .

ثم يبين اللَّه بأنه أعطى الناس الرزق بمقادير متفاوتة ﴿ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾ فهو سبحانه يخصهم من الرزق بما يختاره لهم مما فيه صلاحهم أو مما فيه ابتلاء لهم ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ إنه سبحانه عالم بأحوال عباده وطبائعهم وعواقب أمورهم ، فيعطي بقدر ويمنع بقدر ويوسع على فريق ويقتر على فريق ووراء ذلك حكمة اللَّه البالغة .

ولا ريب أن هذا المفهوم القرآني فيه عزاء وسلوى للذين عاشوا عمرهم في الفاقة بالرغم من تلمسهم أسباب الغنى ، فاللَّه سبحانه قد قسم الأرزاق بين عباده لحكمة يدركها وحده ، فقد يكون الفقر نعمة على المرء إذ فيه يلتزم حدود ربه ويعمل بطاعته ، وقد يكون الغنى سبباً في الإعراض عن أوامر ربه والإسراف في الشهوات والملذات المحرمة مما يغضب ربه .

ثم يبين اللَّه فضله على الناس : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فالغيث هو المطر وسمي بذلك لأنه يغيث الناس وسائر المخلوقات من الجوع والعطش ، ولولا المطر لجفت الينابيع والأنهر ، ولأصبحت الأرض قفراء مجدبة ، وهلك ما عليها من حيوان ونبات ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ من بعد

ما يئسوا[١] من نزول المطر ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي يبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ وهو الذي يتولى عباده بإحسانه ، وهو المحمود على كل حال التي شملت نعمه كل الكائنات .

وبعد بيان فضل اللّٰه بإنزال المطر يلفت القرآن الأنظار إلى آيات اللّٰه في الكون مما يشهد بعظمة القدرة الإلٰهية :

﴿ وَمِنْ آياته خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) .

أي من العلامات الدالة على وجود اللّٰه وسلطانه العظيم وقدرته الباهرة خلق السماوات والأرض ﴿ وَمَا بَثَّ فيهمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾[٢] أي وما نشره وفرقه فيهما من مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ وهو القادر على جمع العقلاء في الوقت الذي يشاء بعثهم أحياء يوم القيامة بعد مماتهم للحساب والجزاء .

وبعد هذا ينتقل القرآن إلى بيان أن كثيراً من مصائب الإنسان هي من كسب يده :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ

---

(١) قيل إن هذه الآية نزلت عندما حبس اللّٰه المطر عن أهل مكة سنين عديدة حتى قنطوا ثم أنزل اللّٰه المطر .

(٢) وفي الإشارة إلى خلقه سبحانه جميعَ أصناف الحيوانات المبثوثة في السماوات والأرض بيان إلى أن هنالك نوعاً من الحياة في عوالم السماء لا ندري كنهها ، ولعل التطورات في غزو الفضاء تكشف أسرار هذا النوع من الحيوان الذي يسكن في بعض كواكب السماء ، ولكن سواء توصل الإنسان للكشف عن ذلك أم لا فإننا نؤمن بهذه الحقائق التي أشار إليها القرآن ونفوض العلم فيها إلى اللّٰه سبحانه .

وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٣٠ ٣١) .

أي وما يصيبكم أيها الناس من مصيبةٍ في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم فإنما يصيبكم ذلك عقوبةً من اللَّه لكم بسبب ما اقترفتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم ، ويعفو ربكم عن كثير من آثامكم فلا يعاقبكم بها ﴿ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ولستم بقادرين أن تعجزوا اللَّه عن إنزال المصائب بكم عقاباً لكم وإن هربتم في الأرض كل مهرب ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وليس لكم من غير اللَّه من يتولاكم بالرحمة ، ولا نصير ينصركم ويرد عنكم عقاب اللَّه .

فالمعاصي سبب لإصابة الإنسان بالمصائب وإليكم بعض الأمثلة : فالزاني يهدر ماله وصحته على الغواني بالإضافة إلى ما يتعرض له من أمراض تناسلية تقضي على نسله وتصيبه بشر الأمراض كالعمى والعقم والزهري والسفلس والإيدز الذي يؤدي إلى فقدان المناعة عند الإنسان ويقضي عليه . والسارق والمجرم يعرض كل منهما نفسه للمخاطر وتنتهي حياتهما في السجن والعار ، والمدمن على الخمر يصاب بكثير من الأمراض الجسمية والعقلية ويسبب كثيراً من حوادث السير التي ينعكس خطرها عليه وعلى الغير .

هذا في الأفراد أما في الجماعات فكثير من المصائب التي تنزل بها تكون هي التي تسببت في حدوثها . فالأمة التي يكثر فيها الظلم من حكامها وأثريائها تكون عرضةً للإنقلابات والنزاعات الدامية . والأمة التي تدب فيها الفرقة والتنازع يكون ذلك سبباً لضعفها وغزوها من جيرانها .

هذا وليست كل المصائب من عمل الإنسان فهناك مصائب لا دخل للإنسان فيها يصيب اللَّه بها من يشاء من عباده ابتلاءً وامتحاناً لهم .

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي
ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ
وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم
مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ
يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ
﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ
لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم
مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ

شرح المفردات

الجَوار في البَحْر كَالأَعْلام : السفن الجارية في البحر كالجبال .

فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ : فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر .

يُوبِقْهنَّ: يغرقهن ويهلك من فيهن .

بِمَا كَسَبُوا : بسبب ما ارتكبوا من سيئات .

مَا لَهُم مِنْ مَحِيصٍ : ما لهم من مهرب ومخلص من العذاب .

استجابوا لربهم : أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته .

أَصَابهم البَغْيُ : نالهم الظلم والعدوان.

ما عليهم مِنْ سَبيل : ما عليهم من مؤاخذة أو معاقبة .

فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ
ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ
يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ
أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾
ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن
مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾

شرح المفردات

غَفَرَ : تجاوز عن ظالمه .

مِن عَزْمِ الأمور : من الأمور الجادة المطلوبة شرعاً .

هَل إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيل : هل من طريق للرجوع إلى الدنيا لطاعة اللّه .

ينظرون مِن طَرْفٍ خفيّ : يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها .

عَذَابٌ مُقيم : عذاب دائم لا ينقطع .

وما لكم مِنْ نكير : لا تقدرون أن تنكروا شيئاً من أعمالكم .

وبعد الكلام عن المصائب وأسبابها ينتقل القرآن إلى الكلام عن مظاهر قدرة الله العظيمة المتمثلة في خلق البحار التي تجري السفن عليها :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ[1] فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ . وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣٢ ـ ٣٥) .

والمعنى : ومن العلامات الدالة على وجود الله وقدرته : تسخيره البحار لتجري فيها السفن الشبيهة بالجبال .

هذه البحار من أنشأها ومن أودع فيها خصائصها من كثافة وعمق وضغط حتى تحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها الأولية سواء أكانت من خشب أو حديد أو غير ذلك من المعادن ؟ هذا التساؤل يحملنا على الإيمان بالخالق جل وعلا لأن هذه الأشياء لا يعقل أن تخلق نفسها أو تنشأ صدفة ، فكما أن السفن شاهدة على أن يد الإنسان صنعتها فكذلك مادة السفن والبحار وما فيهما من خصائص شاهدة على يد القدرة الإلٰهية .

هذا وإن عالم البحار عالم يزخر بما لا يحصى من الأحياء المائية

---

(١) الجوار : هي السفن ، والأعلام : جمع علم وهو الجبل ، فوصف السفن بالجبال هو من نبوءات القرآن فاليوم بعد بناء السفن التجارية والسياحية الضخمة وحاملات الطائرات والبوارج الشبيهة كلها من حيث الضخامة بالجبال لا يسعنا إلّا أن نحني رؤوسنا لهذا الوصف القرآني الذي برز وضوحاً بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن .

المتنوعة الشكل واللون والحجم التي تشهد على وجود الخالق لها ، ولا سبيل إلى استكشاف عجائب البحار إلّا بواسطة السفن فلهذا كانت السفن آية من آيات اللَّه التي بواسطتها نستكشف عظمة القدرة الإلٰهية في عالم البحار .

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أي إن يشأ اللَّه يسكن الريح فتظل السفن ثابتة على ظهر الماء لا تجري براكبيها إلى مقاصدهم وهنا يشير القرآن إلى عامل الريح في تسيير السفن في زمن نزول القرآن حيث كانت السفن شراعية ، هذه الريح لا يد للإنسان فيها بل أنشأها اللَّه وجعل لها مواسم في هبوبها وسكونها ﴿ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن في جريان هذه السفن في البحار لعظة وعبرة لكل ذي صبر على طاعة اللَّه شكور لنعمه وأياديه عنده ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أو يغرقهن ويهلك من فيها وذلك بسبب ذنوب أهلها ، ويعفو اللَّه سبحانه عن كثيرٍ من ذنوب عباده فلا يحاسبهم عليها .

هنا يستوقفنا ويثير فينا التأمل في عدد السفن التي غرقت وهلك أكثر من فيها بسبب الأعاصير ، أو من ارتطام السفن بجبال من الثلج ، أو من اصطدام بعضها ببعض ، أو بسبب إصابتها بالقنابل والصواريخ ، كل ذلك يشهد على ضعف الإنسان وأن فوقه قدرة اللَّه المسيطرة على مقدراته .

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيَاتِنَا ﴾ أي وليعلم الذين يخاصمون اللَّه في آياته وعبره وأدلته على توحيده وقدرته . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي ليس لهم ملجأ أو مهرب من العذاب .

ثم يبين القرآن بأن نعيم الدنيا متاع زائل بينما نعيم الآخرة هو نعيم

دائم لا يزول يستحقه المؤمنون الذين يتصفون بصفات خاصة بينتها الآيات التالية :

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣٦ ـ ٣٨) .

فاللَّه يقول : فما أُعطيتم أيها الناس من متاع الدنيا وزينتها من مال وولد فهو متاع زائل تتمتعون به في الحياة الدنيا ولا ينفعكم في الآخرة ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وما عند اللَّه من ثواب في الآخرة لأهل طاعته خير من متاع الدنيا وأدوم لأن نعيم الآخرة باقٍ لا يزول كما يزول نعيم الدنيا . ﴿ لِلَّذِينَ آمنوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي وهذا النعيم خاص بالذين آمنوا باللَّه وعلى ربهم يعتمدون ويفوضون إليه أمورهم .

ومن صفات هؤلاء المؤمنين : ﴿ وَالَّذِين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ إنهم يجتنبون كبائر الذنوب فلا يقربونها ، كما يجتنبون الفواحش ، والفواحش جمع فاحشة وهي ما يشتد قبحه من الذنوب ، وكثيراً ما يراد بالفاحشة : الزنا .

وكبائر الإثم هي : ما نص القرآن على تحريمه ، أو ما وجب فيه حد (أي عقوبة) أو ما ورد فيه توعّد بالعذاب يوم القيامة ، أو بالغضب من اللَّه ، أو ما وجب فيه لعنة ، أو ما ورد فيه وعيد شديد ، أو وصف فاعله بالفسق . وقد نصت الأحاديث الشريفة على بعض كبائر الإثم وهي : الشرك باللَّه ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، وقتل النفس البريئة بغير حق ، والربا ، والتسبب في سب الوالدين كأن يسب أحد رجلاً

فيسب ذلك الرجل والديه ، والفرار من المعركة عند الإلتحام مع العدو ، وأكل مال اليتيم ، وتعاطي السحر واتهام المحصنات المؤمنات بالفاحشة .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي عند الغضب يصفحون ويحلمون عمن ظلمهم ، فلا ينتقمون منه حال غضبهم ، والغضب غريزة من الغرائز الطبيعية ركبها اللّٰه في الإنسان ليصون بها عرضه ويحمي بها نفسه ، ويحفظ حرمته ، ولكن الإنسان تنكب عن طريقها المشروع واستعملها في هوى النفس ، وسخرها لطغيان العاطفة ، وجعل أول عوارض الغضب الانتقام من الخصم . والإنسان عند الغضب لا يستطيع كبح جماح نفسه فيسرف في الانتقام ، ولذا مدح اللّٰه الذين يغفرون لمن أثار غضبهم .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي أنهم أجابوا دعوة ربهم حين دعاهم إلى توحيده وطاعته وتركوا سيء الأعمال .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ وإقامة الشيء توفيته حقه من علم وعمل ،وإقامة الصلاة أداؤها مع توفيتها حقها من خشوع وإخبات للّٰه ومراقبة له ، وهذا يؤدي إلى الإقلاع عن المنكر خيفة من اللّٰه ، ولهذا ورد في القرآن : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمنكَرِ ﴾ .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أي وإذا اشتد عليهم أمر أو قاموا بعمل ما تشاوروا فيما بينهم .

فالقرآن إذ جعل الشورى من صفات المؤمنين فما ذلك إلّا ليجنبهم طريق الزلل والخسران في حياتهم ، ويدفعهم إلى سلوك الطريق القويم الذي فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويباعد بينهم وبين الاستبداد بالحكم والرأي الذي طالما جرّ إلى أوخم العواقب وأعظم الكوارث على الأمم من قِبَلِ

زعمائها . ورسول اللَّه قال : « لا ندم من استشار » وذلك أن المؤمن أو الحاكم عندما يستطلع رأي من هم أهل للشورى من أهل الخبرة فإنه يستفيد من حصيلة ما عند هؤلاء من التجارب والعلم ، وفي هذا من الفائدة والنفع على الأمة ما لا يخفى ، ففي أي ميدان من ميادين الحياة هناك أناس نبغوا في اختصاصاتهم وسبروا العلم الذي تفرغوا له وعرفوا أسراره فعند استشارتهم يُستنبط الرأي الصواب . وقد قال علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه : « الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه » .

والجدير بالذكر أن الإسلام لم يضع نظاماً خاصاً للشورى وذلك لأنها من الشؤون التي تتغير فيها وجهة النظر بتغير الأجيال والتقدم الحضاري للأمم بل ترك أمر الشورى للأمم والجماعات تنتقي من نظمها ما يتوافق مع مصالحها ومع ما يتناسب من الأمور المتطورة في حياتها ، وها نحن نرى أكثر الدول المتحضرة تعتمد نظام الشورى في تصريف أمورها ؛ وقد استحدثت لذلك عدة تسميات لها في مجالس خاصة لإدارة شؤون الدولة .

فإقرار قانون الشورى في القرآن وجعله من صفات المؤمنين يبين لنا عظمة التشريع القرآني الذي يصلح لكل زمان ومكان .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ ﴾ أي ينفقون مما رزقهم اللَّه من الأموال في الزكاة والصدقة وسبل الخير . فالآية حثت على الإنفاق باعتدال وعدم البخل ، فالمؤمنون ينفقون من الذي رزقهم اللَّه إياه ، ولا ينفقونه كله كما أنهم لا يبخلون به ولا يكنزونه .

ويتابع القرآن الكلام عن صفات المؤمنين ، وكيف يواجهون المعتدين ، مع التحذير لهم من الظلم والتعدي على الغير :

﴿ وَالَّذِين إذَا أَصَابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِنْ سَبِيلٍ . إنَّما السَّبيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٣٩ ـ ٤٣) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَالَّذِين إذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ ﴾ أي وإذا أصاب المؤمنين الظلم والاعتداء ﴿ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ هم ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا ، فالمؤمنون في نظر القرآن هم المؤمنون الأقوياء الذين يستطيعون الانتصاف ممن يظلمهم وينتصرون عليه ، وهذا يعني أن من واجبات الإِيمان الأخذ بأسباب القوة والتمرس بها ، وإعداد قوة السلاح بحيث تكون الجماعة المؤمنة على أتم الاستعداد لردع الخصم عندما يحاول أن يعتدي عليها . فالمؤمن في نظر القرآن ليس بالذليل المستضعف الذي يقبل الإهانة والذل من الخصم الباغي ، بل يجب أن يكون من القوة بحيث يستطيع أن ينتصر على المعتدي عند أي اعتداءٍ منه وهذا ما تدعو إليه الآية القرآنية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم ﴾ .

وعند اعتداء الغير لا يكون رد الاعتداء بحرق الأخضر واليابس وإبادته وتدمير مرافقه والإِنتقام منه بأضعاف اعتدائه ، وإنما يكون بمقابلة الإساءة بمثلها كما تدعو بذلك الآية التالية : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ومقابلة المسيء بالمثل جاء في نصوص قرآنية أخرى كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعاقِبُوا بِمثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ .

ولكن لا يقتصر القرآن على هذا المفهوم العادل ، بل يمضي قُدُماً فيرغّب في العفو(١) بعد الدعوة إلى مقابلة الإساءة بمثلها ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي من عفا عن المسيء إليه وأصلح ما بينه وبين من يعاديه بالعفو عما صدر منه فيجزيه اللَّه سبحانه أعظم الجزاء ، ثم يضيف القرآن قوله : ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يحب اللَّه المعتدين البادئين بالسيئة .

ولا بد من الإشارة إلى أن العفو لا يكون إلّا مع القدرة على ردع المعتدي ومبادلته بالمثل فهنا يكون للعفو مكانته ووقعه المؤثر عند الخصم لأنه العفو عند المقدرة لا عفو الضعف والذل ، فالمعتدي حين يرى أن العفو جاء تفضلاً وكرماً يخجل من نفسه ويتحول اعتداؤه إلى مودة واحترام لمن بادله بالعفو .

ويتابع القرآن الكلام عن مقابلة الإساءة بمثلها فيقول : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي ولمن انتصر لنفسه بعد ظلم الظالم إياه وعاقبه بمثل ما عوقب به ﴿ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم حرج ولا مؤاخذة ولا لوم ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أي إنما سبيل الحرج واللوم يكون على المعتدين الذين يبدأون الناس بالظلم ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي ويتكبرون في الأرض ويفسدون

---

(١) الناظر في شريعة الإسلام يراها سلكت طريق الحق والعدل بين شرائع الأديان السماوية ، فشريعة موسى قالت : العين بالعين ، وشريعة عيسى قالت : «لا تقاموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر» أما شريعة الإسلام فقد سلكت طريقاً وسطاً حيث دعت إلى مقابلة المسيء بمثل إساءته مع ترجيح العفو وبيان أجره وثوابه عند اللَّه . أما العفو المفرط كما هو عند النصارى فهو يجرىء المعتدين على اعتداءاتهم ويجعل لهم طمعاً في جماعة المؤمنين ، ويجعل ليد الشر سلطاناً على قيم الحق والخير .

فيها ويعتدون على النـاس بغير الحق ﴿ أُولَئِـكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذابٌ شديد موجع في الآخرة وهـو عذاب النـار ، ويضيف القرآن قـوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَـرَ وَغَفَـرَ ﴾ أي ومن صبـر على الأذى وعفـا عن الإسـاءة ﴿ إِنَّ ذَلِـكَ لَمِنْ عَزْمِ [١] الأُمُـورِ ﴾ أي ذلك من الأمـور التي يجب أن يـأخـذهـا الإنسان مأخذ الجِدِّ أو الصبر أو الفعل .

ثم يبين القـرآن مصير الضـالين في الآخرة ومـا يتمنونـه من رجوع إلى الدنيا لسلوك الطريق القويم الذي ينجيهم من عذاب الآخرة :

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْـدِهِ وَتَرَى الـظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤٤) .

أي من خذله اللَّه بسبب كفره وعناده وبُعده عن طريق الرشاد فليس لـه من ناصر يتولاه بعد إضلال اللَّه إياه ، واللَّه سبحانه يضل من فسدت جبلته وساءت أفعاله ، وقد أشار القرآن إلى أن الإضلال يكون من اللَّه عن سابقة استحقاق لمن تمادى في الكفر والظلم كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُضِـلّ اللَّهُ الظَّالمين ﴾ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقين﴾ .

ثم يقول سبحانـه في تتمة الآيـة السابقـة : ﴿ وَتَرَى الـظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي وترى يا محمد الكافرين باللَّه يوم القيامة لمـا عاينـوا العذاب ﴿ يَقُولُونَ هَـلْ إِلَى مَردٍّ مِنْ سَبِيـلٍ ﴾ إنهم يقولـون : هل تتـاح لنا الفـرصة يـا رب للرجوع إلى الـدنيا ثـانيةً كي يتبـدل سلوكنا ونعـود للإيمـان والعمل الصـالح ، إنهـا صرخـة اليائسين ، تَلْمِسُ في خـطابهم التلهف والحسرة ، ولكن لا سبيل إلى العودة أو النجاة .

---

(١) العزم : هو الصبر أو الجِدُّ أو إرادة الفعل .

ثم يصف القرآن حال الكفار في جهنم وما هم عليه من ذل وعذاب :

- ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمنوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ في عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ (٤٥) .

والمعنى : وتراهم يا محمد يعرضون على النار خاضعين ساكنين من الذل بعد أن كانوا في دنياهم متكبرين ﴿ يَنْظُرونَ مِنْ طَرْفٍ خَفيٍّ ﴾ ، يسارقون النظر إلى النار من شدة الخوف ، وقال المؤمنون وهم في الجنة لما رأوا ما حل بالكفار من خزي : ﴿ إِنّ الخَاسِرِينَ الّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وَأَهْليهم يَوْمَ القيامة ﴾ أي هؤلاء الكفار خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المخلد في النار كما خسروا أهليهم ، لأن الأهل إن كانوا يشاركونهم في العذاب فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بين هؤلاء الكفار وبين أهلهم ﴿ ألا إنَّ الظَّالِمينَ في عَذابٍ مُقيم ﴾ ألا إن الكافرين في عذاب دائم لا يزول ولا يخف .

وفي هذا الجو الرهيب تتوجه الآيات التالية إلى الكفار في عهد النبي تدعوهم إلى الاستجابة لدعوة النبي ﷺ رحمةً بأنفسهم قبل أن يحل بهم العذاب يوم القيامة :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرونَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ . اسْتَجِيبوا لِرَبكُم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مردَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (٤٦ ـ ٤٧) .

فاللَّه يقول: وما كان لهؤلاء الكفار ﴿ مِنْ أَولِيَاء ﴾ أي من أعوان وأنصار ﴿ يَنْصُرونَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يمنعونهم من عذاب اللَّه وينقذونهم منه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبيلٍ ﴾ أي ومن يخذله اللَّه عن طريق

الحق بسبب كفره فليس له من طريق للوصول إليه وليس له طريق ينجيه من سوء المصير ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبكم ﴾ أجيبوا أيها الناس داعي اللَّه محمداً بما دعاكم إليه من الإيمان والطاعة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة حيث لا شيء يرد مجيئه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأ يَومَئِذٍ ﴾ ويومها ليس لكم من ملجأ ينجيكم من العذاب إذا ظللتم على كفركم ﴿ وَمَا لَكُم مِنْ نكِيرٍ ﴾ ولا تستطيعون إنكار ما اقترفتموه من آثام لأنها مدونة في صحائف أعمالكم وتأتي النكير بمعنى التغيير ، أي لا تقدرون على تغيير ما يحل بكم من عقاب اللَّه يومئذٍ ولا على الانتصار منه .

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً
فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ
﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ
مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ
إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى
مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

شرح المفردات

يُزوّجهم ذُكراناً وإناثاً : أي يهب الذكور والإناث معاً مجتمعين .

وَحْياً : إلهاماً، أو قذفاً في القلب، أو رؤيا في المنام .

وَرَاءِ حجَاب : أي يسمع كلام اللّه دون أن يراه .

رَسُولاً : ملكاً من الملائكة .

رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا : هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الأرواح للأبدان .

مَا الكِتَاب : أي ما هو القرآن .

صِراطٍ مُستقيم : دين قويم وهو دين الإسلام .

تابع سورة الشورى

ثم يحدد القرآن مهمة النبي ﷺ في قومه وهي إبلاغهم هدى اللَّه ، مع إعطاء صورة عن طبيعة الإنسان أمام ما يصيبه من أحداث :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إلاّ البَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم فَإِنَّ الإِنْسَان كَفُورٌ ﴾ (٤٨) .

فإن أعرض هؤلاء المشركون عن الإيمان الذي جئتهم به يا محمد ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ فاللَّه لم يرسلك يا محمد رقيباً ومهيمناً على أعمالهم ﴿ إنْ عَلَيْكَ إلاّ البَلاغُ ﴾ ما عليك إلاّ أن تبلغ قومك ما أُرسلت به من الهدى ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ فاللَّه إذا أعطى الإنسان في الدنيا نعمةً من رزق ومال وصحة فرح بها وَعَظُم غروره ، وهذه النعم لا تساوي في الحقيقة شيئاً يسيراً من نِعَمِ الآخرة ولذلك سماها اللَّه ذوقاً لسرعة انقضائها ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ وإن يصبهم ما يسوءهم من مرض وبلاء وشدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهم ﴾ بما صدر منهم من السيئات ﴿ فَإِنَّ الإِنْسَان كَفُورٌ ﴾ أي جحود لنعم ربه ، والكفور الذي يكون مبالغاً في الكفران .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مدى عظمة القدرة الإلهية التي تملك السماوات والأرض وتهب لمن تشاء الذكور أو الإناث .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٤٩ ـ ٥٠) .

فاللَّه أراد أن يُعْلم الإنسان أن للَّه وحده ملك السماوات والأرض حتى لا يغترّ الإنسان بما في يده من مال وعقار أو جاه وعافية وسوى ذلك ، وليعرف قدره الحقيقي فلا يطغى ويتكبر على عباد اللَّه ، وهو سبحانه ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لا يقدر أحد أن يعترض عليه في ملكه وإرادته ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إناثاً ﴾ أي يخص البعض بالإناث ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ ويخص البعض بالذكور ﴿ أو يُزَوِّجُهُم ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ أو يعطي سبحانه من يشاء الصنفين معاً ذكوراً وإناثاً ، والتزويج هنا معناه : الجمع بين البنين والبنات ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ أي يحرم الذرية بعض الناس ، والعقيم الذي لا يولد له ولد . والتعبير بـ (يَشاءُ) التي تكررت توحي للإنسان بأن يُسلم أمره لمشيئة اللَّه التي تعطي لحكمة وتمنع لحكمة ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ إنه سبحانه ذو علم بما يخلق وعلمه محيط بكل شيء ، وهو القادر على خلق ما يشاء . هذه الآية فيها توجيه للمؤمنين بأن لا يكتئبوا أو يتشاءموا من نسائهم عندما يرزقون بالبنات، فالولد هو هبة من اللَّه سواء أكان ذكراً أم أنثى ولا دخل للزوجة في نوع الجنين من قريب أو بعيد وهذا ما أثبته الطب ، أما العقم فقد تصاب به المرأة كما يصاب به الرجل .

ولما كانت السورة افتتحت بالكلام عن الوحي عادت هنا لتوضح كيفية الوحي الذي أوحاه اللَّه إلى أنبيائه وأنواعه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاّ وَحْياً أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَليٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٥١) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَمَا كَان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾[١] وهو

---

(١) الوحي : لغة الإشارة والكتابة والرسالة ، والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك . وأصل الوحي في اللغة : إعلام في خفاء . أما الوحي في عُرف الشرع فهو ما يلقيه اللّه إلى أنبيائه ورسله ما يريد أن يعلموه من المعارف الدينية .

الإلهام ، أو القذف في القلب ، أو الرؤيا في المنام ﴿ أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وهو أن يسمع كلام اللَّه من حيث لا يراه كما كلَّم اللَّه موسى عليه السلام ﴿ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يُرسل اللَّه رسولاً من الملائكة تُرى ذاته ويُسمع كلامه من قِبَلِ ذلك النبي ، كتبليغ الملك جبريل للنبي محمد ﷺ ما ألقاه إليه من الوحي وبلّغه إياه ، والهاء في (بإذنه) تعود إلى اللَّه سبحانه أي فيوحي ذلك الملاك إلى النبي بإذن اللَّه ما يريده اللَّه سبحانه . ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ إنه سبحانه ذو علوّ على كل شيءٍ ومتعالٍ عن صفات النقص ، حكيم في كل أفعاله .

وبعد الكلام عن مراتب الوحي يختم اللَّه هذه السورة بما بدأها بالكلام عن الوحي الذي خص به رسوله محمداً ، وما يتصف به هذا الوحي من خصائص مميزة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا في السَّماواتِ وَمَا في الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصيرُ الأُمُورِ ﴾ (٥٢ ـ ٥٣) .

فاللَّه يقول : وكذلك ، أي ومثل الذي أوحينا إلى الرسل قبلك يا محمد ، أوحينا إليك ﴿ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أي وحياً من أمرنا وهو القرآن الذي هو للقلوب والنفوس بمنزلة الروح للأبدان .

فاللَّه سبحانه جعل القرآن (رُوحاً) لأنه يحيي به نفوس الخلق ، فله أثر الأرواح على الأجساد، فكما أن الجسم يفقد خاصية الحياة عندما تفارقه الروح وينتابه التحلل والفساد ، فكذلك المجتمع الإنساني يفسد

ويفقد خاصية البقاء عندما يُعرض عن روحانية القرآن ، وأكبر مثال على ذلك أولئك العرب الساكنون في شبه جزيرة العرب الذين كانوا قبل نبوة محمد ﷺ ونزول القرآن مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية أو قومية يتناحرون لأوهى الأسباب ، ويستحلون الفواحش ، يعتدي القوي على الضعيف ، ويأكل الغني مال الفقير بالربا الفاحش ، لا سلطان لكلمة الحق فيهم بل السلطان كله للزعامات التقليدية القائمة على الأنساب التي لا تعرف إلّا مصالحها الذاتية ، هؤلاء العرب انقلب حالهم بعد مجيء القرآن والعمل بمبادئه إلى أمة موحدة تأخذ بمكارم الأخلاق وتتحلى بالقيم السامية ، ثم لم تلبث أن بسطت سيادتها على الأمم المجاورة التي تفوقها قوة وعدداً ، فنشرت راية الحق والعدل بين الناس مما كان له أطيب الأثر عند هذه الأمم التي سارعت إلى اعتناق الإسلام عن طواعية تظللهم جميعاً أخوة الإسلام ، وقد تم ذلك في فترة لا تصدق في حدود ربع قرن تقريباً .

﴿ ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإيمَانُ ﴾ أي ما كنت تدري يا محمد ما هو القرآن وما هي أسس الإيمان وصفات اللّه ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي ولكن جعل اللّه القرآن نوراً يهدي اللّه به من يشاء من عباده ممن اختار الهدى . فاللّه شبه القرآن بالنور من باب الاستعارة بمعنى الهدى ، لأن النور مشاهد محسوس بالبصر يهتدي به السائر على الطريق المقصود في الظلمات ويحصل به الإنسان على ما يبتغيه من نفع ، فكذلك القرآن هو نور في ظلمات هذه الحياة يسترشد به الإنسان الطريق الصحيح المؤدي إلى سعادته في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وإنك لتهدي يا محمد بهذا القرآن إلى طريق مستقيم ﴿ صِرَاطِ اللّهِ الَّذي لَهُ ما في السَّماوات وَمَا في الأَرْضِ ﴾ أي

طريق اللَّه الذي له وحده ملك السماوات والأرض خلقاً وتدبيراً ﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورِ ﴾ ألا إلى اللَّه تصير أموركم أيها الناس في الآخرة فيقضي بينكم بالعدل ويكافىء المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته .

سورة الزخرف

بدأت هذه السورة ببيان منزلة القرآن عند الله ، وموقف المستهزئين بالرسالات الإلّهية ، ثم ساقت السورةُ أدلةً على وحدانية الله ، ولكن المشركين رفضوا هذه الأدلة ، وظلوا على عبادتهم للأصنام والملائكة .

ثم تَحدَّثت السورة عن تبرؤ نبي اللَّه إبراهيم من قومه بسبب عبادتهم الأصنام ، كما تحدثت عن تعجب كفار مكة من نزول القرآن على محمد ﷺ ، وهو الفقير ، وعدم نزوله على عظيم من عظماء المدينتين : مكة والطائف .

ثم قررت السورة أنه لولا كراهة أن يكفر الناس جميعاً لأعطى اللَّه الكافر كل ما في الدنيا من متاع وزخرف ومال لأنها متاع زائل ، أما الآخرة فإن اللَّه يعطيها للمتقين خاصة .

ثم بيَّنت السورة أن من يُعرض عْن ذِكْر اللَّه يُسَلّط اللَّه عليه شيطاناً يقوده إلى الهلاك .

كما تَعرض السورة قصة موسى وفرعون ، وغرور فرعون بملكه ، وكفره ، وما نزل به وبقومه من هلاك جزاء كفرهم ، كما أتبعت السورة الحديث عن عيسى عليه السلام ، وما أيَّده اللَّه به من المعجزات الواضحات ، وما أعطاه من الحكمة ، ولكن النصارى اختلفوا في أمره بعد موته وادعوا أنه إلّه مع أنه رسول من رب العالمين .

ثم تنتقل السورة إلى التحذير من عذاب يوم القيامة الذي أعده اللَّه للمجرمين ، كما أنها ساقت البشرى للمؤمنين المتقين بما أعد اللَّه لهم من نعيم .

سُورَةُ الزُّخْرُف

مكية ، وآياتها تسع وثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)
وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ
صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ
(٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ
مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

شرح المفردات

والكِتَاب : الواو واو القسم ، أي قَسَماً بالكتاب الذي هو القرآن الكريم .

الْمُبِين : الواضح في إرشاده المبين لطريق الهدى .

لَعَلَّكُم تعْقلون : لكي تفهموا معانيه .

أمِّ الكتاب : أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي هو مستودع مشيئات الله .

لَعَلِيٌّ : أي هذا القرآن ذو رفعة وشرف بين الكتب السماوية .

أَفَنَضْرِبُ عنكم الذِّكْر صَفحاً : أفنترك تذكيركم بالقرآن إعراضاً عنكم .

كَمْ أرسَلْنا : مَا أكثر ما أرسلنا ، وكم حرف يفيد الكثرة .

في الأولين : في الأمم السابقة .

بطشاً : قوةً وجبروتاً .

وَمَضَى مَثَلُ الأوَّلين : وسبق ذكر ما حلّ بالأولين العاصين ما أصبح مثلاً يُضرب .

مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾
وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ
﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

شرح المفردات

مَهْداً : ممهدة مبسطة يسهل العيش عليها .

سُبُلًا : طرقاً .

مَاءً بِقَدَرٍ : بقدر ما تحتاجه الأرض وما عليها من أحياء .

فَأَنْشَرْنَا : فأحيينا .

تُخْرجُون : أي تخرجون من قبوركم أحياء للحساب .

الفُلْك : السفينة .

الأنعام : الإبل وكل ما يركب من حيوان .

سخَّر : ذلَّل وأَخضع .

وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرنين : وما كنا على تسخيره قادرين أو مطيقين .

لَمُنْقَلِبُون : لراجعون .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ايضــاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بالكلام عن القرآن وما فيه من مزايا عالية :

﴿ حمٓ . وَالكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ في أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ ﴾(١ ـ ٥) .

﴿ حمٓ ﴾(١) : حرفان من حروف الهجاء وفيهما إشارة إلى أن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه هو مؤلف من الحروف التي بها يتكلم العرب مثل هذين الحرفين ، ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله عندما تَحدَّاهم القرآن بذلك وهم فرسان البلاغة ، وأمراء البيان ، فعجزهم عن الإتيان بمثله دليل واضح على أن القرآن وحي إلٓهي .

﴿ وَالكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الواو : هي واو القسم ، والكتاب المقصود به هو القرآن . ومعنى المبين : أي الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، كما أبان الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، فاللّه أقسم بالقرآن المبين لتعظيمه وبيان أهميته ، ولفتاً للأنظار إليه لتدبُّر معانيه ، والعمل بهديه .

---

(١) حم : للمفسرين آراء شتى في تفسير ذلك ، فقال بعضهم إسم من أسماء اللّه تعالى ، وقيل إسم من أسماء القرآن . وقيل : الحاء افتتاح أسماء اللّه حميد ، حنان ، حليم ، حكيم . والميم افتتاح أسمائه : ملك ، مجيد ، منان ، متكبر . وقال بعض المحدثين إن هذين الحرفين يتكرران أكثر من سواهما في هذه السورة وأكثر عدداً من غيرهما من الحروف وقد استعان لتقرير دعواه بالكمبيوتر . وقيل غير ذلك واللّه أعلم .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذه الآية جواب القسم بالقرآن ، فاللَّه أنزل القرآن بلغة العرب ليعقلوا معانيه ، ويفهموا مراميه . ﴿ وَإِنَّهُ في أمِّ الكِتابِ ﴾ أي أن أصل القرآن هو أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي هو مستودع مشيئات اللَّه وكل العلوم منسوبة إليه . ﴿ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي أن القرآن عند اللَّه رفيع القدر بين الكتب السماوية ، وذو حكمة بالغة يهدي إلى طريق الرشاد .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنْتُم قَوْماً مُسْرِفِينَ ﴾ أَفنضرب عنكم : أي أنعرض عنكم ؟ وهو استفهام للإنكار والتوبيخ . والذكر : المراد به القرآن ، أو العذاب ، والمعنى : أنعرض عنكم ونمسك عن إنزال القرآن من أجل إنكم أسرفتم في كفركم ، لا ، لن يكون ذلك أبداً بل لا بد من تذكيركم لإقامة الحجة عليكم . وقد يكون المعنى : أنرد عنكم عذاب اللَّه ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ، لا بل سنعاقبكم على كفركم .

ويتابع القرآن فيذكر تهديد اللَّه بالعذاب للذين يسخرون بما جاء به الأنبياء من الهدى :

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ في الأَوَّلِينَ . وَمَا يأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٦ ـ ٨) .

فالله تعالى يقول : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء إلى الأمم السالفة ، وما يجيئهم نبي من عند اللَّه ليرشدهم إلى طريق الحق إلّا كانوا به يسخرون ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً ﴾ أي فأهلك اللَّه قوماً كانوا أشد قوة من كفار قريش ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي وسبق أن تحدث القرآن عن أنواع العذاب الذي أصابهم مما جعلهم عبرة لغيرهم .

في هذه الآيات تطمين لمحمد ﷺ وعزاء لآلامه مع قومه ؛ فكأن اللَّه يقول له : إن ما تلاقيه من قومك من إعراض وسخرية قد لاقاه الأنبياء قبلك من قومهم ، فكان مصيرهم الهلاك ، كما أن في هذه الآيات تهديداً لكفار قريش من أن يكون مصيرهم كمصير الأمم السابقة التي كذبت أنبياءها .

ثم ينتقل القرآن إلى تصحيح معتقدات العرب في شأن الألوهية ، فقد كان كثير منهم قبل الإسلام يقرّون بوجود إلٓه واحد خلق الكون ، ولكنهم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لتقربهم إلى الله ، ويقدسونها تقديساً يجعلها في حكم الشركاء للَّه :

﴿ وَلِئِنْ[1] سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ (٩) .

والمعنى : وأقسم إن سألت أيها النبي كفار قومك عمن خلق السماوات والأرض ليقولن ـ جواباً على ذلك ـ خلقهن الله العزيز الغالب الذي لا يُغلب ، العليم بكل شيء .

فإذا كان اللَّه وحده هو خالق السماوات والأرض باعتراف المشركين فلا معنى لاتخاذ شريك له في العبادة .

ويتابع القرآن فيلفت الأنظار إلى خلق اللَّه للأرض وما فيها من طرق تشهد بعظمة التدبير الإلٓهي :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠) .

فاللَّه جعل الأرض مهداً ، والمهد في الأصل هو الفراش الذي يهيأ

---

(١) ولئن : اللام لام القسم .

للصبي ،- فاللَّه سبحانه جعل الأرض ممهدة يسهل العيش عليها كمهد الصبي ، فلم يجعل طبيعتها كطبيعة القمر الذي يتكون من نتوءات وبراكين وصخور لا تصلح لسكنى الإنسان ، كما أن اللَّه جعل في الأرض (سبلاً) أي طُرقاً ليسير عليها الإنسان بيسر وسهولة في تنقلاته ، وقد طوّر الإنسان هذه الطرق ومهدها مما يشهد بنعم اللَّه الفائقة على الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ نبوءة من نبوءات القرآن لم تظهر في أجلى معانيها إلّا بعد قرون عديدة من نزول القرآن ، حيث شُقت الطرق وأنشئت الجسور و « الأوتوسترادات » وتوصل الإنسان بإلهام من اللَّه إلى اختراع القاطرة والسيارة التي سهلت له التنقل في هذه الأرض بواسطة هذه الطرق التي أصبحت من مظاهر حضارة الإنسان . ثم يأتي التعقيب القرآني على هذه الطرق : ﴿ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ ﴾ أي كي تهتدوا إلى الأمكنة التي تقصدونها ، أو لعلكم تعرفون نعمة اللَّه عليكم .

ويتابع القرآن فيذكر فضل اللَّه على الإنسان بإنزال المطر الذي يحيي به الأرض بعد موتها ، مستطرداً إلى ذكر إحياء اللَّه للموتى يوم الحساب :

﴿ والَّذي نَزَّل مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً ميْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١١) .

فاللَّه سبحانه أنزل من السماء ﴿ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار وكمية محدّدة ، فلو كان الماء الذي ينزل من السماء فوق حاجة الأرض ، وحاجة ما عليها من نبات وحيوان لأحدثت سيولاً تتلف كل شيء ، وهذا من حكمة اللَّه العظيمة التي تقدِّر لكل شيء قَدْرَ ما يحتاجه ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً ميتاً ﴾ أي أحيا اللَّه بهذا المطر بلدة لا حياة فيها . ما أصدق هذا الوصف للأرض حين جفافها حيث يذوي كل نبات على سطحها ، وتتشقق بفعل هذا

الجفاف ، ويهجرها كل حيوان وطير وإنسان ، وتصبح الأرض مواتاً غير صالحة للحياة ، ولكن بعد نزول المطر تدبُّ الحياة في الأرض ، فينبت النبات ، وتورق الأشجار وتثمر ، وتصبح الأرض مرتعاً للإنسان والحيوان والطير .

ثم تأمل في هذه النتيجة التي خَلُص إليها القرآن بعد نزول المطر وإحياء الأرض ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي كذلك تُخرجون أيها الناس من قبوركم يوم القيامة للحساب والجزاء . فالبعث الذي كان ينكره بعض العرب قبل الإسلام يُقرِّبُهُ القرآن إلى الأذهان بهذه الصورة الجلية الواضحة ، فالقادر على إحياء الأرض هو بالأحرى قادر على إحياء الموتى من الناس ، لأن الإنسان خلقه اللَّه من تراب ، ومكونات جسمه من النبات الذي يتغذى من التراب .

ويتابع القرآن فيذكر فضل اللَّه على الإنسان بخلقه أصناف النبات والحيوان وما يسّر للإنسان من أدوات الركوب :

﴿ والَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وَتَقُولوا سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ (١٢ ـ ١٤)

فاللَّه سبحانه ﴿ خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ والأزواج هي المخلوقات التي تتكون وتتكاثر من ذكرٍ وأنثى ، ولفظ (كلها) يوحي بالتعميم ، فبالإضافة إلى أَن الزوجية تعم الناحية النباتية والحيوانية ، فقد كشف لنا العلم أن كل ذرة من أي عنصر من عناصر الكون تحوي قلباً صغيراً يسمى النواة ، وهذه النواة تحوي وحدتين أساسيتين من وحدات البناء وهما : البروتون

والنيوترون .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾(١) أي جعل اللّه من السفن ما تركبونه في البحار إلى حيث قصدتم السفر ، وجعل لكم من الإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبونه في البر ﴿ لِتَسْتَووا عَلَى ظُهُورِه ﴾ أي لتستقروا على ظهور مركوب البحر والبرّ ﴿ ثُمَّ تَذْكروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ ﴾ أي ثم تتذكروا نعمة اللّه عليكم بتسخيره ذلك لكم ، وهذا توجيه لقلوب الناس ليشكروا نِعَم اللّه عليهم كلما استقروا على مركوب ما ﴿ وتقولوا سُبْحَان الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أي تقولوا عند الركوب : تنزَّه اللّه وتقدَّس الذي ذلَّل لنا هذا المركوب ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي وما كنا قادرين ولا مطيقين ركوبه وتذليله لولا أن سخَّره اللّه لنا ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ وإنا إلى ربنا بعد موتنا لراجعون إليه . فالإنسان مهما سافر وانتقل في ميادين الأرض ، فالمرجع والمنقلب إلى اللّه ، وهذا تذكير للإنسان بالمصير الذي ينتظره بعد الموت حتى لا يطغى ويتعدى الحدود التي رسمها اللّه له .

---

(١) هذه هي وسائل الركوب التي كانت في عهد نزول القرآن منذ أربعة عشر قرناً ذكرها القرآن لبيان فضل اللّه على الإنسان . وقد استحدث الإنسان أدوات أخرى للركوب كالقطار والسيارة والطائرة، لقد صنعها الإنسان بما وهبه اللّه من عقل . وبما أن العقل من صنع اللّه فالمصدر واحد مهما تنوعت أدوات الركوب ، وهذا المصدر هو اللّه سبحانه .

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ
شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم
بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ
مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم
مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

شرح المفردات

جُزْءاً : نصيباً .

وأصْفَاكم : اختصكم وآثركم .

بما ضَرَب للرحمٰن مَثَلاً : بما مُثِّلَ لِلَّه من أن له بنات .

كظيم : مملوء غماً وحزناً .

يُنَشَّأُ في الحِلْيَة : يُربى ويشب في الزينة والنعمة وهن البنات .

في الخِصَام غَيْرُ مُبين : ضعيف الحجة في النزاع والخصام .

يَخْرصُون : يكذبون .

نَذِير : نبي يحذرهم عصيان ربهم .

مُتْرَفُوهَا : متنعموها الذين أبطرتهم النعمة .

على أُمَّةٍ: على دين.

* قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ
مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ
بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ
حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا
سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

بَرَاءٌ : بريء .

فَطَرَني : خلقني .

كَلِمَةً بَاقِيَةً : كلمة توحيد الله (لا إله إلاّ الله) .

عَقِبِه : ذريته .

مَتَّعْتُ هَؤُلَاء : أي أهل مكة بأن مدَّ لهم في الحياة مع إسباغ النعم وتجنيب النقم .

جَاءَهُمُ الحق : جاءهم القرآن .

تـابع سُورَة الزُّخْـرُف

ثم ينتقـل القرآن إلى تفنيـد بعض المعتقـدات البـاطلة التي كـانت في أذهان العرب قبل الإسلام كاعتقادهم أن الملائكة هن بنات اللّه :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإنْسَان لَكَفُـورٌ مُبِينٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّـا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَـدُهُم بِمَا ضَـرَبَ للرحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَ مَن يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وَهُوَ في الخِصَامِ غيْرُ مُبينٍ ﴾ (١٥ ـ ١٨) .

فالمشركون جعلوا من بعض عباد اللّه جزءاً ونصيباً منه حيث قالوا إن الملائكة هم بنات اللّه ، فكما أن الـولد هـو جُزء من أبيـه فكذلـك اعتبروا الملائكة جزءًا من اللّه وبالتـالي هن بناتـه ﴿ إِنَّ الإنْسَانَ لَكَفُـورٌ مُبِينٌ ﴾ إن من يقـول هذا القـول لجاحـد باللّه واضـح الكفـر ﴿ أَمِ اتَّخَـذَ مِمَّـا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ لقلة عقولهم حيث زعموا أن اللّه اتخذ لنفسه البنـات ﴿ وَأَصْفَاكُم بِـالبَنِينَ ﴾ وخصكم أيُّها الكـافـرون بـالبنين ، فمـع أن الولد محال صدوره من اللّه فهو سبحانه لو أراد أن يتخذ ولداً لاختـار جنس الذكورة ، أما ادعاؤهم بأنه اتخـذ لنفسه البنـات وأعطى البنين لعبـاده فيلزم أن يكون الإنسان أكمل وأفضل من اللّه وهـذا مرفـوض في بداهـة العقل . ﴿ وَإِذَا بُشِّر أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ للرَّحْمٰنِ مَثَلاً ﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بولادة بنت له كالبنـات اللاتي نسبهن إلى اللّه ﴿ ظَـلَّ وَجْهُهُ مُسْـوَدًّا وَهُوَ كَـظِيمٌ ﴾ صـار وجهه مسـودًّا من الكآبـة وهو حـزين لكـراهيته البنـات ، فكيف بهم ينسبون إلى اللّه ما يمقتـونه لأنفسهم . ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّـأُ في الحِلْيَةِ ﴾ الهمـزة للإنكار والتوبيخ ، والمعنى : أَوَ جعلوا لله البنـات اللاتي يـربين في الزينـة والنعمة ، فالأنثى من طبيعتهـا التزيّن لاستمـالة الجنس الآخـر نحوهـا لأنها

لا تشعر بالأمان إلّا بحماية الرجل لها ﴿ وَهُوَ في الخِصَام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي أن الأنثى في النزاع والمجادلة ضعيفة الحجة غير قادرة على تقرير دعواها ، فالأنثى تحكمها العاطفة فلا تنتصر على الخصم بالبرهان والحجة[1] فهل هذه الصفات في الأنثى يمكن أن تضفي عليها صفات الألوهية وتنسب إلى الله ؟

ثم يطلب القرآن من المشركين الدليل على أن الملائكة من جنس الإناث :

﴿ وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١٩) .

فالله يقول إن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عباده من جنس الإناث وَادَّعَوْا أنهم بنات الله ، فهل شهدوا خلقهم ورأوا ذلك بأعينهم ، والجواب بالنفي ، فهذه الشهادة الباطلة منهم لا تستند إلى دليل ﴿ سَتُكْتَبُ شَهادتهم ويُسْأَلون ﴾ ستكتب هذه الشهادة في كتاب أعمالهم وسيسألون عنها يوم القيامة ويحاسبون لأنها شهادة زور وبطلان .

ثم يحكي القرآن عن لسانهم ما يتعللون به لعبادتهم الملائكة والأوثان :

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾(٢٠ ـ ٢٢) .

---

(١) هذه الصفة هي الغالبة لهن وإن كان من الإناث من هن متفوقات في العقل والكمال الإنساني .

فهؤلاء المشركون يقولون : لو شاء الرحمٰن ما عبدنا الأوثان والملائكة ، وهم لا يستندون في هذا القول إلى علم ما ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي إنما يقولون ذلك كذباً وبهتاناً ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي هل وجدوا ذلك الزعم الباطل في كتاب منزّل من عند اللّه قبل القرآن ﴿ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ فهم يأخذون بما فيه ويعولون عليه ، وليس لهم دليل يستندون إليه إلّا التقليد الأعمى للآباء ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ أي لم يأتوا بدليل على ادعائهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين وملة ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وإننا متبعون لهم ومقلدون .

ثم يبيّن القرآن أن أشد الناس تقليداً للآباء هم المترفون لأن في ذلك استمراراً لما هم عليه من الترف :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون ﴾(٢٣) .

أي وكما فعل المشركون من قريش فعل قبلهم أهل الكفر من الأمم السابقة ، فلم يرسل اللّه قبل محمد إلى أهل قرية ضالة نبيًّا ينذرهم ويخوفهم عاقبة كفرهم إلّا قال المترفون من أهل تلك القرية الذين أبطرتهم النعمة ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أي إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ وإنّا على منهاجهم وطريقتهم متبعون مقلِّدون .

فالتقليد صفة مشتركة بين الأمم ماضيها وحاضرها وعندما تتشبث الأمة بالتقليد تغلق على نفسها منافذ العقل والنظر فلا تفكر ولا تهتدي . فالتقليد من آفات الأمم وسبب ضلالها وجمود الفكر فيها ، فالشعب المقلد لآبائه تقليداً أعمى لا يستجيب لأي دعوة إصلاحية ، ولا يتطور نحو الأحسن في

مجال العيش ، ويعظم الخطر إذا كان الآباء منغمسين بالفواحش والمنكرات وسار الأبناء على سيرة آبائهم .

ثم يأتي بعد ذلك تهديد اللَّه بالعذاب للمقلدين آباءهم في الباطل الذين اختاروا الكفر على الهدى بعد إقامة الحجة عليهم :

﴿ قَال : أَوَلَوْ جِئتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ ﴾ (٢٤ـ٢٥) .

فالآية تطرح عليهم سؤالاً على لسان النبي : لو أتيتكم بما هو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم من الضلال ألا تتبعونه؟ لقد كان المفروض أن يستجيبوا لنداء العقل ولكنهم أَصروا على كفرهم وقالوا كما قال الذين من قبلهم من الأمم لرسل الله : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي إننا بما أرسلتم به من أمور الدين جاحدون منكرون . وهؤلاء انتقم الله منهم كما تقول الآية ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ وذلك بإحلال العقوبة بهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ ﴾ فانظر يا محمد كيف كان مصير المكذبين لرسل اللَّه المتبعين آباءهم على الكفر والضلالة، وليحذر قومك أن يحل بهم ما حل بالأمم السالفة من عقاب اللَّه .

ويتابع القرآن فيذكر أن الدعوة إلى توحيد اللَّه ونبذ عبادة الأصنام ليست دعوة جديدة يقوم بها محمد ﷺ بل سبقه إليها نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّني بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٦ـ٢٨) .

أي واذكر يا محمد للمشركين من قومك كيف قال إبراهيم لأبيه وقومه: إنني بريء من عبادة آلهتكم الباطلة ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فإنه سَيَهْدِينِ ﴾ فإني لا أعبد إلّا اللّه الذي خلقني فإنه سيرشدني للدين الحق، ويوفقني لاتباع سبيل الرشد ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴾ أي وجعل كلمة التوحيد وهي: لا إلّه إلّا اللّه ﴿ بَاقِيَةً في عَقِبِهِ ﴾ أي باقية في ذريته حيث وصاهم بها، ومن ذريته آل محمد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ويتوبون من كفرهم وذنوبهم .

هذه هي دعوة التوحيد التي قام بها إبراهيم عليه السلام ، ولكن مرور الزمن طمس هذه العقيدة في قلوب كثير من الناس بما ابتدعه دعاة الباطل ، ولهذا أرسل اللّه رسوله محمداً بالدين الحق مجدداً دعوة إبراهيم :

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ، قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

فاللّه يقول بأنه متَّع هؤلاء المشركين من قوم محمد بالحياة وأنواع النعم كما متع آباءهم من قبلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة عى كفرهم حتى ﴿ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ هو محمد ﷺ واضح الرسالة مبين التوحيد بالحجج الباهرة ، ولكن لما جاءهم الحق ﴿ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ ﴾ أي قالوا إن هذا القرآن هو سحر وليس وحياً من اللّه ﴿ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وأنهم به جاحدون له ومنكرون .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ
ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم
مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا
مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا
عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ
شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ

شرح المفردات

القريتين : المراد بهما الطائف ومكة .

أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَةَ ربِّك : أهم الذين يوزعون النبوة فيضعونها حيث شاؤوا .

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا : ليستخدم بعضهم بعضاً في العمل .

مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرون : مصاعد عليها يعلون .

سُرُراً : جمع سرير وهو ما يضطجع أو يجلس عليه .

زُخْرُفاً : ذهباً وقيل نقوشاً مزينة .

لَمَّا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا : ما هو إلّا ما يستمتع به أهل الدنيا من مشتهيات .

يَعْشُ : يعرض أو يتعامى .

ذِكْر الرحمٰن : القرآن ، أو ذكر الله .

نُقَيِّض لَهُ : نهيِّيء له .

قَرِين : صاحب ملازم له .

لَيَصُدُّونَهُم عَنَ السَّبيل : يصرفونهم عن طريق الحق والهدى (اللام للتوكيد) .

أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ
ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ
فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن
كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ
بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ
وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

بُعْدَ المشرقين : بُعد ما بين المشرق والمغرب .

فإمَّا نَذْهَبَنَّ بكَ : فإما نتوفينَّك .

وَعَدْنَاهُمْ : أي ما وعدهم اللَّه به من العذاب .

صِراطٍ مُسْتَقيم : طريق قويم لا عوج فيه .

وَإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلقَوْمِكَ : وإن القرآن لشرف لك يا محمد ولقومك .

وَسَوْفَ تُسأَلون : ستسألون على ما آتاكم اللَّه وعما عملتم .

تابع سورة الزخرف

وبعد أن وصف المشركون القرآنَ بأنه سحر أرادوا أن يضيفوا إلى رفضهم نبوة محمد سبباً آخر ، وهو أن محمداً ليس من عظمائهم وأغنيائهم حتى يتقبَّلوا منه هذا الدين الذي جاءهم به :

﴿ وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣١ ، ٣٢) .

أي وقال المشركون : هلاّ أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم[١] من إحدى القريتين : مكة والطائف ، ومحمد ﷺ كان فقيراً يتيماً ولم يكن من رؤسائهم وعظمائهم قبل البعثة النبوية . ويردّ اللَّه عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أهؤلاء يقسمون رحمة ربك يا محمد بين خلقه ، فيجعلون كرامته لمن شاءوا ، وفضله لمن أرادوا ؟ أم اللَّه الذي يحق له أن يقسم ذلك فيعطيه من أحب ، ويحرمه من شاء .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فاللَّه يقول : نحن قسمنا بينهم الرزق في الحياة الدنيا ، فقتّرنا الرزق على قومٍ ، ووسعنا الرزق على آخرين كما قسمنا رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا ، فنجعل من نشاء رسولاً نبياً ، فإذا كان اللَّه هو مقسم الأرزاق بين عباده فإن هذا المفهوم يقدم عزاءً للذين يصادفون ضيق العيش ، ويضفي عليهم يقيناً يخفف عنهم ما يعتريهم من حزنٍ وغم بسبب عدم تمكّنهم من الحصول

---

(١) قيل المقصود بهما : الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي .

على ما يبتغون من رزقٍ بالرغم من سعيهم للحصول عليه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي فاضلنا بينهم في القِيَم والأرزاق ، فمن خادم ومخدوم ، ومن رئيس ومرؤوس ، وحاكم ومحكوم وغني وفقير ، هذا هو ناموس الحياة ، وقد أرادت بعض الأنظمة المعاصرة أن تسوّي بين الناس جميعاً ففشلت لأن الناس يتفاوتون في المواهب العقلية والاستعدادات الجسدية . وليس من العدل أن يتساوى القادر والعاجز ، والنشيط والكسلان ؛ وإذا تساووا أصبح الكسلان يكسل ولا يخاف على مستقبله ، وأصبح النشيط لا يطمح إلى مستقبلٍ أفضل ، وبهذا يقلُّ الإنتاج ويدخل إلى النفوس فتور الهمة والاتكال على الغير . ويتابع القرآن قوله : ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا ﴾ السخريَّة هنا بمعنى الاستخدام ، فكل فرد في المجتمع هو مسخر لخدمة الآخرين والآخرون مسخرون لخدمته ، ولا تستقيم الحياة إلّا بهذا الأسلوب وهكذا يكون الناس بعضهم سبباً لمعاش بعض .

﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ﴾ الآية هنا تلفت النظر إلى أمر مهم جداً وهو إذا كان الناس يتنافسون فيما بينهم على حطام الدنيا الذي قسمه اللَّه بين الناس وجعلهم فيه درجات ، فإن هناك أمراً جديراً بالاهتمام والتسابق على نيله والحصول عليه ألا وهو رحمة اللَّه التي هي خير وأفضل من كل ما على الدنيا من متاع زائل ، لأن رحمة اللَّه إذا أصابت إنساناً جعلته في حمى ربه فردت عنه كيد الكائدين وأسبغت عليه السعادة النفسية ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة وهو الجنة .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الآية الكريمة ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ﴾ تستحق أن يتأملها الإنسان ملياً ويقف على أبعادها ، فهي

تجعل الإنسان يتعالى عن كل شهوات الحياة ومغرياتها لأن هناك ما هو أفضل من ذلك وأعلى شأناً ألا وهو نيل رحمة اللَّه التي لا يوازيها أي مغنم في هذه الدنيا ، هذه الآية تقدم العزاء والسلوى عندما يصاب الإنسان بخسارة مادية ، أو يُحرم من مغنم مادي فهناك ما هو أفضل من ذلك إذا ابتغى الإنسان في أعماله رضاء ربه وسعى إلى نيل رحمته .

وبعد أن بيّن اللَّه بأنه قد قسم الأرزاق بين عباده ، بيّن الحكمة في تفاوت الناس في الثروة فقال :

﴿ وَلَوْلا أنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُون . وَلِبُيُوتِهِمْ أبْواباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفاً وَإنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فاللَّه سبحانه يقول : ولولا أن يكون الناس أمةً واحدة على الكفر ويختاروا الدنيا على الآخرة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن في الدنيا سطوح بيوتهم من فضة ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُون ﴾ أي أن السلم أو الدرج التي يرتقون عليها ويصعدون بها إلى بيوتهم وغرفهم من فضة كذلك ﴿ وَلِبُيوتهم أبواباً وَسُرُراً عَلَيْها يتكئون ﴾ أي وأبواب بيوتهم والأسرّة التي يجلسون عليها من فضة أيضاً ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ أي ذهباً ، يعني بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، وقيل : الزخرف هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الفُرُش والأمتعة والنقوش والزينة ﴿ وإنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إن : هي نافية بمعنى : ما . ولما بمعنى : إلاّ . أي وما كل ذلك النعيم الذي ذُكر إلاّ متاع الحياة الدنيا ، والمتاع هو ما تستطيبه النفوس في هذه الحياة ويأتي عليه الفناء ﴿ وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي وثواب الآخرة وما فيها من

أنواع النعيم معدة للمتقين الذين اتقوا عـذاب اللَّه بامتثـال أوامره واجتنـاب نواهيه .

فالآيات السابقة سيقت لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها وأنها لولا أن يُفتن بها الناس ويعتبروا أن الكفر مقتـرن بالـرخاء لخص نعيمهـا بالكـافرين دون المؤمنين لأن الآخرة وما فيها من نعيم هي للمؤمنين المتقين ربهم ، فلذلك كـان من حكمـة اللَّه أن أغنى بعض الكفـار وأفقـر بعضهم ، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم اختباراً لجـوهر الإيمـان في قلوبهم . وفي الحديث الشريف المروي عن النبي ﷺ قوله : « لو كانت الدنيا تزن عند اللَّه جنـاح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء »(١) .

وبعد بيان حقيقة الفقر والغنى في الأرض وأثرهما في النفوس تنتقل بنا الآيات إلى بيان عاقبة الإعراض عن ذكر اللّه وما يؤدي إلى شقاء الإنسان :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ(٢) عَنْ ذِكْـرِ(٣) الـرَّحْمٰنِ(٤) نُقَيِّضْ لَـهُ شَيْـطَانـاً فَهُـوَ لَـهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيـلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَـدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَـالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَـكَ بُعْدَ المَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُم أَنَّكُم في الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٦ ـ ٣٩) .

فاللَّه سبحانه يقول : ومن يعـرض أو يتعامى عن القـرآن ، أو بمعنى :

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) يعش : العشا سوء البصر بالليل والنهار يجعـل صاحبـه كالأعمى ، فيكـون بمعنى يتعامى ويقال عشا بمعنى تغافل وأعرض .

(٣) ذكر : الذِّكر قد يراد به القرآن لأنه يذكّر الناس باللّه والدين ، وقد يراد بالذكر الاستحضار في القلب مع التدبر .

(٤) الرحمٰن : إسم من أسماء اللّه ومعناه ذو الرحمة التي لا غايـة بعدهـا في الرحمـة والذي وسعت رحمته كل شيء ولا يطلق اسم الرحمٰن إلاّ على اللّه سبحانه .

من يعرض عن أن يذكر اللّه ويستحضر عظمته ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ أي يهيىء له اللّه شيطاناً يوسوس له ويضله فهو يصاحبه ويلازمه ﴿ وَإِنَّهُم لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وإن الشياطين ليصرفون هؤلاء عن طريق الهدى والحق ، فيزينون لهم الضلالة ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ويظنون أنهم على الحق والصواب . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا ﴾ أي فإذا جاء الكافر ربه يوم القيامة وحده أو مع قرينه الشيطان ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشْرِقَيْنِ ﴾ أي قال الكافر مخاطباً قرينه الشيطان : يا ليت بيني وبينك من البعد مثل ما بين المشرق والمغرب . لأن المشرقين هما المشرق والمغرب ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ فبئس الصاحب كنت لي أذ أوقعتني في عذاب اللّه ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ ولن يخفف العذاب عنكم يوم القيامة حين ظلمتم أنفسكم بالكفر ﴿ أَنَّكُم في العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي لن ينفعكم ولن يخفف العذاب عنكم كما ينفع في الدنيا تعاون الشريكين على أزمات الحياة ، لأن كلاً يعاني من العذاب ما يثقله .

ثم تأتي الآيات مخففة آلام النبي ﷺ بسبب إعراض قومه عن سماع صوت الحق . ومؤكدة بأن انتقام اللّه سيحل بهم بسبب سوء أفعالهم .

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدي العُمْيَ وَمَنْ كَانَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَو نُرِيَنَّكَ الّذي وَعَدْنَاهُم فَإِنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٤٠ ـ ٤٢) .

والمعنى : أتقدر يا محمد أن تُسمع هؤلاء الكفار صوت الحق وهم بلغوا من النفور منك ومن دينك بحيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصمّ لا يسمعون ، وإذا أريتهم المعجزات والحجج كانوا كالعميان الذين فقدوا

أبصارهم . أتقدر يـا محمد أن تهـدي من سلك غير طـريق الحق ومن كان في ضلالٍ واضح . لا ، ليس لـك القدرة على ذلـك إن الذي يقـدر على ذلك هو اللَّه وحده ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِـكَ ﴾ فإن نخـرجنك يـا محمد من مكـة إنقـاذاً لك من أذى قـريش ﴿ فَإِنَّـا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُـونَ ﴾ فـإنـا سننتقم منهم في الـدنيا والآخـرة ﴿ أو نُرِيَنَّـكَ بَعْضَ الّذي وَعَـدْنَاهُم ﴾ أو نـرينك يـا محمد مـا وعـدنـاهم من حلول العـذاب بهم ﴿ فَـإِنَّـا عَلَيْهِم مُقْتَـدِرُون ﴾ فـإننـا مسيطرون عليهم بقدرتنا وقهرنا .

هذه الآيات نزلت بمكة ، وبعـد الهجرة إلى المـدينة المنـورة حصلت معركة بدر التي قتل فيها سبعون من كفار قريش ، فهـذه الآيات من الأنبـاء الغيبية التي تحققت بعد مدة وجيزة من نزولها .

ثم تأتي الآيات مخاطبة النبي محمداً ﷺ بدعوته إلى التمسك بالقـرآن وما فيه من الهدى والرشاد ، وأن في التمسك به شرفاً له ولأمته :

﴿ فَاسْتَمْسِك بالَّذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ وَسَوْفَ تُسـأَلُـونَ . واسْـأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَـا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَـا أَجَعَلْنَا مِنْ دُون الرَّحْمٰن آلهةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٣ ـ ٤٥) .

فاللَّه سبحانه يقول : فتمسك يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه إليك إنك على طريق الحق القويم ﴿ وَإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي وإن القرآن لشرفٌ لك ولأمتك وشرفٌ لكل من اتبعه ﴿ وَسَوْفَ تُسأَلُونَ ﴾ وسـوف تسألـون يوم القيامة عن حقه وعن شكر هذه النعمة.

صدق اللَّه إذ قال إن القرآن شرفٌ لمن اتبعه ، فعندما اتخذ المسلمون الأوائـل القرآن دستـوراً لهم في كافـة شؤونهم الدينيـة والروحيـة والخلقيـة

أصبحوا أمةً قوية موحدة متحلية بالفضائل ، بعد أن كانوا قبل الإسلام قبائل متقاتلة منغمسة بالفواحش والمنكرات ، ثم سيطروا على أقوى الدول التي تجاورهم ، كل ذلك بفضل القرآن .

ثم يقول سبحانه : ﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ المقصود بسؤال الرسل سؤال أممهم من أهل التوراة والإنجيل الذين أرسلنا إليهم رسلنا من قبلك يا محمد ، ويكون سؤال الرسل في الآية إنما هو على سبيل المجاز ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي هل جاءتهم رسل اللّٰه بدعوة غير الدعوة إلى توحيد اللّٰه وعبادته وحده ، وهل عبادة الأوثان والملائكة جاءت في عقيدة من عقائدهم ؟ هذا السؤال المراد منه الاستشهاد بإجماع الأنبياء على وحدانية اللّٰه ، والتنبيه إلى أن ما جاء به رسول اللّٰه محمد من الهدى ليس بدعة ابتدعها حتى يكذِّبَه قومُه ويُعادُوهُ .

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا
هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ
يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا
تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾
فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا

شرح المفردات

بآيَاتِنَا : بمعجزاتنا .
وَمَلَئِه : وأشراف قومه.
بما عَهِدَ عِنْدَك : بعهد اللَّه عندك من أن دعوتك مستجابة .
يَنْكُثُون : ينقضون العهد .
مَهِينٌ : ضعيف حقير .
ولا يكاد يُبين : ولا يكاد يفصح لسانه عن كلام واضح .
مُقْتَرنين : متتابعين .
فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ : فاستجهل قومه ، أو وجدهم خفاف العقول .
فَاسِقين : خارجين عن طاعة اللَّه .
آسَفُونَا : اغضبوا اللَّه .

ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾
وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ
﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ
لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ
قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

شرح المفردات

فَجَعَلْنَاهم سَلَفاً : فجعلهم الله سابقين كفار مكة بالعذاب .

وَمَثَلاً للآخِرين : عبرة وعظة لمن جاء بعدهم من الأمم .

يَصِدُّون : يضجون ويستغربون ضحكاً وتقرأ بضم الصاد بمعنى يعرضون .

مَا ضَرَبُوه إلاَّ جَدَلاً : أي ما ضربوا هذا المثل إلاّ لأجل الجدل والخصام .

خَصِمُون : مجادلون بالباطل .

وإنه لَعِلْمٌ للسَّاعَة : وأن نزول عيسى على الأرض علامة على قرب القيامة .

فلا تَمْتَرُنَّ بها : فلا تَشُكُوا بالقيامة .

بالبينات : بالأدلة والمعجزات .

تابع سورة الزُخْرُف

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن رسول اللَّه موسى الذي بلّغ رسالة اللَّه إلى فرعون وقومه فقابلوها بالسخرية والرفض فكان أن حلّ بهم العذاب جزّاء رفضهم هدى اللَّه ، ذكر ذلك القرآن تثبيتاً لقلب النبي محمد ﷺ وتهديداً لكفار قريش وغيرهم من أن يحل بهم ما حلّ بقوم فرعون :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَونَ وَمَلَئِهِ فَقَال إِني رَسُولُ رَبِّ العَالَمين . فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْها يَضْحَكُون . وَمَا نُرِيهم مِنْ آيَةٍ إلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَقَالوا يَا أَيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لمهتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُم العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (٤٦ ـ ٥٠) .

فاللَّه سبحانه أرسل موسى ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي مؤيداً بالمعجزات الإلّهية والحجج التي تثبت أنه رسول من اللَّه ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ والملأ أشراف القوم ووجوههم أطلق على الجماعة بجملتهم ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فقال لهم موسى إني رسول اللَّه إليكم أرسلني اللَّه لأدعوكم إلى عبادة اللَّه وحده ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ فلما جاءهم موسى بالمعجزات والحجج الدالة على صدق نبوته ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أي يسخرون ﴿ وَمَا نُرِيهم مِنْ آيَةٍ ﴾ أي وما يريهم اللَّه من معجزة فيها حجة على نبوة موسى ﴿ إلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ إلّا أعقبها بمعجزة بالغة الغاية في الإعجاز وأعظم في الحجة عليهم بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالعَذَابِ ﴾ أي عاقبهم اللَّه بأنواع العذاب كالطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والسنين التي فيها جدب وشدة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ رجاءَ أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر ﴿ وَقَالو

يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ أي يا أيها العالم وهو لقب تقدير عندهم وكان الساحر فيهم يحظى بمكانة مرموقة ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أي اسأل ربك بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة ، أو بعهده الذي عهد إليك من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ إننا مصدقوك فيما جئتنا به ومتبعوك ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ ﴾ أي فلما رفع اللَّه العذاب عنهم ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر .

ويتابع القرآن فيقدم لنا صورة عن موقف فرعون مع موسى مشابهةً لموقف الكفار مع محمد ﷺ في رفض نبوته ، فكما رفضت قريش نبوة محمد بسبب فقره فكذلك رفض فرعون نبوة موسى لنفس السبب ، وكانت النهاية هلاك فرعون وجماعته :

﴿ وَنَادَى فِرْعَونُ في قَوْمِهِ قَال : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تحتي أَفلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الّذي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أو جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِين . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهم كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾ (٥١ ـ ٥٦) .

أي ونادى فرعون في قومه معلناً قوته وسطوته : أليس لي وحدي ملك مصر ، وهذه الأنهار ـ أي روافد النيل ـ تجري من تحت قصري ومن خلال جنائني ، أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي ، وتابع فرعون قائلاً : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ أي بل أنا خير ﴿ مِنْ هَذَا الذي هُوَ مَهِينٌ ﴾ من موسى الذي هو ضعيف حقير ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِين ﴾ ولا يكاد يفصح عن كلامه للثغة كانت في

لسانه(١) ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أي فهلاّ أُلقي على موسى أسورة من ذهب إن كان صادقاً بأنه نبي(٢) ﴿ أَوْ جَاءَ مَعُه المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أو جاء مع موسى الملائكة مجتمعين أو متتابعين يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي فاستجهل فرعون قومه فأطاعوه لخفة في عقولهم ﴿ إِنَّهُم كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة اللَّه ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي فلما أغضبوا ربهم انتقم منهم بعذابٍ عاجل ﴿ فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً ﴾ أي فجعلهم اللَّه سابقين ومتقدمين كفار مكة إلى عذاب النار ﴿ وَمثلاً لِلآخِرينَ ﴾ وعبرة وعظة يتعظ بهم من جاء متأخراً بعدهم من الأمم .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الكلام عن رسول اللَّه عيسى ونظرة كفار مكة إليه :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَومُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوم خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ ﴾ (٥٧ ـ ٥٩) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَلَمَّا ضُرِب ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ أي ولما أورد اللَّه المثل بأن خلق عيسى بدون أب شبيه بخلق آدم الذي خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون(٣) ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ إذا قومك يا محمد من ذلك

---

(١) وقد حلّ اللَّه هذه اللثغة في لسانه فيما بعد إجابة لدعائه ﴿ واحلل عُقْدَةً مِنْ لساني يَفْقهُوا قَوْلي ﴾ .

(٢) كان قوم فرعون إذا أرادوا أن يجعلوا رئيساً عليهم سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته .

(٣) جاء في القرآن : ﴿ إن مثل عيسى عند اللَّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

المثل يضجون(١) ، أو يعدلون عن الحق ، ويقولون : ما يريد محمد منا إلّا أن نتخذه إلَهاً نعبده كما عبدت النصارى المسيح ﴿ وَقَالوا : أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي قال المشركون : أآلهتنا التي نعبدها خير أم محمد ؟ فنعبد محمداً ونترك آلهتنا ﴿ مَا ضَرَبُوه لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي ما أورد المشركون ذلك المثل إلّا لأجل الجدال والخصومة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي هم قوم يلتمسون الخصومة بالباطل ﴿ إن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي فما عيسى إلّا عبد من عباد اللّه أنعم اللّه عليه بالرسالة الإلَهية ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إسْرائيل ﴾ أي وجعله اللّه آية وعبرة لبني إسرائيل حيث أيده بالمعجزات الباهرة ، وليس كما تقول النصارى « ابن اللّه »(٢) .

---

(١) ضج : صاح وأحدث جلبة .

(٢) ويرى بعض المفسرين في أسباب نزول هذه الآيات السابقة هو أنه لما تلا رسول الله على المشركين ﴿ إنّكم وَمَا تعبدون مِنْ دُونِ اللّه حَصَب جهنم ﴾ أي إنكم أيها المشركون والآلهة التي عبدتموها من غير اللّه ستكونون وقوداً لجهنم ، ولما سمع عبد اللّه بن الزبعري هذه الآية قال لرسول اللّه ـ قبل إسلامه ـ أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ، فقال رسول اللّه : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال ابن الزبعري : قد خصمتك ورب الكعبة ، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود يعبدون عزيراً ، وبنو فلان يعبدون الملائكة ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت النبي انتظاراً لنزول الوحي عليه فظنوا أنه ألزم الحجة فضحكوا وارتفعت أصواتهم وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولمَّا ضُرِبَ ابن مريم مَثَلاً إذا قَومُكَ منه يصِدُّون ﴾ ثم قال المشركون : ﴿ أآلهتنا خَيْرٌ أم هُوَ ﴾ أي آلهتنا خير أم عيسى فإذا كان هو في النار فلنكن وآلهتنا معه . ثم أنزل اللّه بعد ذلك هذه الآية رداً عليهم : ﴿ إنَّ الذين سَبَقَتْ لَهم مِنَّا الحُسْنَى أولئك عنها مُبْعَدون﴾ أي إن الذين وفقناهم لاتباع الحق وعمل الخير ، ووعدناهم بالعاقبة الحسنى كالأنبياء والصالحين أولئك من جهنم وعذابها مبعدون .

هذا وقد روي أنه قيل لابن الزبعري « ما أجهلك بلغة قومك » فإن « ما » في قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون اللّه ﴾ هي تقال لما لا يعقل (بخلاف مَنْ التي تقال للعاقل) وحينئذٍ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهةً من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما عنى بذلك الأصنام التي عبدوها .

ثم تـأتي الآيات نـافية الألـوهية عن المـلائكة ، مـع الدعـوة للإيمـان بـالقيامـة التي يعتبر نـزول المسيح إلى الأرض في آخـر الزمـان علامـة من علاماتها :

﴿ وَلَـوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَـا مِنْكُم مَلائِكَـةً في الأَرض يَخْلُفُـونَ . وَإِنَّـهُ لَعِلمٌ للسَّاعَة فلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلاَ يَصُـدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦٠ ـ ٦٢) .

فاللَّه يقول : ولونشاء يا معشر بني آدم أهلكناكم وجعلنا بـدلاً منكم في الأرض مـلائكةً يخلفـونكم فيها ليعبـدوني . وقيـل إن المعنى : ولـو نشـاء لجعلنا منكم بطريق التوالد ملائكة يخلفـونكم كما يخلفكم أولادكم ، وإذا كان هذا شـأن الملائكـة فكيف يخصهم البعض بالعبـادة وينسبهم إلى اللَّه عن طريق البنوة .

﴿ وإنَّه لَعِلْمٌ[١] للسَّاعَة ﴾ الساعة : هي القيامة ، والضمير في (إنـه) يعـود على القرآن ، أي أن القـرآن يعلمكم بالقيـامـة ويخبـركم عنهـا وعن أهوالها .

وقيل إن الضمير في (إنه) يرجـع إلى محمد ﷺ وإن محمـداً لعلامـة للساعة بدليل قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى .

وقيـل إن الضميـر في (إنـه) يعـود على عيسى عليـه السـلام أي أن

(١) وفي قراءة (لَعَلَم للساعة) بفتح العين واللام بمعنى أمارة .

حدوثه بغير أب وبإحيائه الموتى دليل على صحة البعث . أو بمعنى أن نزول عيسى على الأرض[١] في آخر الزمان علامة من علامات القيامة ، وقد وردت في ذلك أحاديث عن النبي بلغت مبلغ التواتر معنى منها :

عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « والذي نفسي بيده ليوشكن[٢] أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً[٣] فيكسر الصليب[٤] ويقتل الخنزير[٥] ويضع الحرب[٦] ويفيض المال[٨] حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَإِن[٨] مِنْ أَهْلِ الكِتَاب إلّا ليؤمنن بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾[٩] .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي اللّٰه عنه قال : « اطلع النبي علينا

---

(١) والحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء هي : الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه وبذلك يبين اللّٰه كذبهم ، ومنها : أن نزوله عليه السلام لدنوِّ أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت ويدفن في غير التراب . ومنها : تكذيبه للذين ادعوا أنه إلّه فما هو إلّا رسول من رب العالمين .

(٢) ليوشكن : ليقربن وتوكيد الفعل بالنون يؤكد حتمية نزوله عليه السلام .

(٣) حكماً عدلاً : حاكماً عادلاً .

(٤) فيكسر الصليب : أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمة .

(٥) ويقتل الخنزير : يأمر بإعدام الخنزير مبالغة في تحريم أكله .

(٦) ويضع الحرب : لشيوع الإسلام وانقراض الكفر .

(٧) ويفيض المال : أي يكثر المال جداً وسبب كثرته نزول البركات وتوالي الخيرات بسبب العدل .

(٨) إنْ : نافية بمعنى ما . ومعنى الآية : ما من أهل الكتاب أحد من الموجودين منهم عند نزول عيسى إلّا ليؤمنن بأنه عبد اللّٰه ورسوله قبل موته عليه السلام .

(٩) رواه البخاري ومسلم .

ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات[١] وعدَّدَها وذكر منها : نزول عيسى بن مريم »[٢] .

ثم نعود إلى تتمة الآية فيقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي فلا تشكُّوا وترتابوا في حصول القيامة ﴿ واتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فاللَّه يقول : أطيعوني أيها الناس فاعملوا بما أمرتكم به وانتهوا عما نهيتكم عنه هذا طريق قويم لا اعوجاج فيه . وقد يراد به قول النبي مأموراً به من جهة اللَّه سبحانه : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُم الشَّيْطَانُ ﴾ ولا يمنعكم الشيطان ويصرفكم عن شرع اللَّه ﴿ إِنَّهُ لَكُم عَدوٌّ مُبِينٌ ﴾ إنَّه لكم عدو ظاهر العداوة .

ويتابع القرآن الكلام عن عيسى عليه السلام وعن دعوته إلى الدين الحق :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لكم بعض الذي تَخْتَلِفُون فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه هَذَا صَراطٌ مُستَقِيمٌ ﴾ (٦٣ ـ ٦٤) .

فاللَّه يقول : ولما جاء عيسى بالأدلة الواضحة على أنه رسول من اللَّه ، وقد يراد بالبينات : الإنجيل ﴿ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ ﴾ لقد جاءهم بالنبوة ، وما تقتضيه الحكمة الإلَهية من الشرائع ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذي تَخْتَلِفُون فِيهِ ﴾ أي وقال لهم : ولأبيِّن لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فاتقوا

---

(١) آيات : علامات .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

ربكم أيها الناس بطاعته ، وخافوه باجتناب معاصيه ، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد اللَّه واتباع أمره ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ إن اللَّه الذي تفرّد بالألوهية هو ربي وربكم جميعاً فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا معه في عبادته شيئاً ﴿ هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ هذا الذي أمرتكم به من تقوى اللَّه وطاعته وإفراده بالألوهية هو الطريق القويم ، وهو دين اللَّه الذي لا يقبل من أحد من عباده أن يختار ديناً غيره .

ثم يبين القرآن اختلاف الناس في عيسى بعد موته :

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذين ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾(٦٥ ، ٦٦) .

المراد بالأحزاب : الفرق التي تناظرت في أمر عيسى واختلفت فيه من اليهود والنصارى ، فمنهم من أقر بأنه عبد اللَّه ورسوله ، ومنهم من قال إنه ابن اللَّه وأنه إلّه ، ومنهم من أنكر نبوته ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِين ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ فهلاكٌ للظالمين الذين كفروا بإسناد صفات الألوهية لعيسى وعذاب مؤلم لهم يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي ماذا ينتظر هؤلاء المخالفون للحق حتى يرجعوا إلى الصواب هل سيظلون على عنادهم ويستمرون على كفرهم حتى تأتيهم القيامة فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرون ﴾ وهم غافلون عنها غير مستعدين لها فحينئذٍ يندمون كل الندم على افتراءاتهمْ هذه .

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾
يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ
وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ
فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ
عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ
لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا

شرح المفردات

الأَخِلَّاءُ : الأصدقاء الأحباء .

تُحْبَرُون : تسرون سروراً يظهر أثره على وجوهكم .

بِصِحَافٍ : صحون وآنية .

لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ : لا يخفف عنهم العذاب .

مُبْلِسُون : يائسون من رحمة الله .

مالك : إسم خازن النار .

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ : أدع ربك أن يميتنا .

أَبْرَموا أَمْراً : أحكموا أمراً للكيد بالنبي .

لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ
وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

شرح المفردات

وَنَجْوَاهُم : ما يتحدثون به فيما بينهم خفية .

وَرُسُلُنَا : أي ملائكة اللّٰه .

ذَرْهُمْ : أتركهم .

يَخُوضُوا : يتكلموا بالكذب والباطل .

يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ : يوم القيامة الذي وعدهم اللّٰه به .

تَبَارَكَ : تقدس وتكاثر خيره .

فَأَنَّى يُؤْفَكُون : فكيف ينصرفون عن عبادة خالقهم .

فاصفح عنهم : فأعرض عنهم .

تـابع سُورَة الزُخْـرُف

ثم ينتقل القرآن إلى بيـان خطر صـداقة السـوء القائمـة على المعاصي هـذه الصداقـة التي تنقلب إلى عداوة يـوم القيامـة بخلاف صـداقة المتقين لأنها تؤدي بهم إلى نعيم اللّه ورضوانه :

﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِـذٍ بَعْضُهُـمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتَّقِينَ . يَـا عِبَادِ لا خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُون . الَّذِين آمنوا بِآيَاتِنَا وَكَانوا مُسْلِمِينَ . أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُون** ﴾ (٦٧ ـ ٧٠) .

فـالأخلاء وهم الأصـدقـاء والأحبـاء يكـون بعضهم لبعض أعـداء يـوم القيامة إذا كانت صداقتهم قائمة على معصية اللّه ، لأنهم آنذاك في عذاب اللّه . أما الذين قـامت صداقتهم ومحبتهم على تقـوى اللّه وطاعتـه ، فهذه المحبة راسخة غير قابلة للتغييـر ، بل تصيـر في الآخرة أقـوى وأفضل ممـا كانت عليه في الدنيا لأنها أوصلتهم إلى نعيم اللّه ورضوانه .

ثم يأتي خطاب اللّه للمتقين يـوم القيامـة : ﴿ يَا عِبَـاد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُونَ ﴾ هذه الآية تشيع البهجة في نفوس المؤمنين وتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم من عدة وجوه ، منها : أن اللّه خاطبهم بنفسه من غير واسـطة ، ومنها : أنـه تعالى وصفهم بـأنهم عباده ، وهـذا تشـريف عـظيم لهم ، بـدليل أنـه سبحانـه لما أراد أن يشـرف محمـداً ليلة الإسـراء قـال : ﴿ سُبْحَان الَّذي أَسْـرَى بِعَبْدِهِ ﴾ . ومنها قوله: ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم ﴾ أي من عقـابي فـأنتم في أمن منـه بـرضـاي عنكم . ومنهـا قـولـه : ﴿ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُونَ ﴾ أي على فراق الدنيا فإن الذي قدمتم عليه من نعيم الآخرة خيـر لكم وأبقى من الدنيا التي فارقتموها . وهؤلاء الذين نـالوا رضـاء اللّه هم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانوا مُسْلِمِين ﴾ أي صدّقوا بوجود اللّه ، وكانوا

منقادين خاضعين لأوامره التي جاءت بواسطة رسُل اللَّه ، ثم يقال لهؤلاء المؤمنين : ﴿ أُدْخُلوا الجَنَّـةَ أَنْتُم وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُون ﴾ أي أدخلوا الجنة أنتم مع أزواجكم المؤمنات تنعمون أو تكرمون بما أعطاكم اليوم ربكم من نعيم .

ويتابع القرآن وصف نعيم هؤلاء المتقين في الجنة :

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُس وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٧١ - ٧٣) .

فهؤلاء المؤمنون يُطاف عليهم بأطباق من ذهب فيها ألوان الأطعمة مع أقداح من ذهب فيها ألوان الشراب. وفي الجنة : ﴿ كُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ ﴾ من أنواع اللذائذ والمشتهيات ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ من أنواع المناظر الجميلة . ثم يُقال لهم إكمالاً لسعادتهم ﴿ وَأَنْتُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي أنتم في الجنة باقون دائمون ، وهذا اكمال لسرورهم لأن كل نعيم زائل يعتريه القلق من خوف الزوال . ثم يُقال للمتقين خطاباً لهم : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُموها بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ أي فهذه الجنة أسكنكم اللَّه إياها ثواباً وجزاءً لما كنتم تعملونه في دنياكم من خيرات ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لكم في الجنة كل ما تشتهونه من أنواع الفاكهة الكثيرة .

ثم ينتقل القرآن إلى وصف هول العذاب الذي يصيب الكافرين المجرمين :

﴿ إنَّ المجْرِمينَ في عَذابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِنْ كَانوا هُمُ الظَّالِمينَ . وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ : إِنكُم مَاكِثُون . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُم لِلْحَقِّ

كَارِهُونَ ﴾ (٧٤ ـ ٧٨) .

فالمجرمون في عذاب النار ماكثون فيها لا يخرجون منها أبداً . وهم ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف عنهم العذاب ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ وهم في هذا العذاب يائسون من أن يصيبهم عفو من اللّه وذلك بسبب ما جنته أيديهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي وما ظلمهم اللّه حين أدخلهم جهنم ، ولكن ظلموا أنفسهم بكفرهم باللّه وجحودهم وحدانيته وعبادتهم غيره .

وبعد دخول الكافرين النار يستغيثون بخازن جهنم واسمه مالك وينادونه قائلين : ﴿ وَنَادَوا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي سل ربك أن يميتنا حتى نستريح من العذاب ، إنهم لا يطلبون النجاة لأنهم يائسون من ذلك ، وإنما يطلبون الموت السريع للخلاص ، وهذا يكشف عن مدى الهول الذي يلاقونه ، ويأتيهم الجواب : ﴿ إِنَّكُم مَاكِثُونَ ﴾ إنكم باقون في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه بموت أو غفران . ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكم بالْحقِّ ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وهو خطاب توبيخ وتقريع لهم من جهة اللّه تعالى مبين لسبب مكوثهم في العذاب ﴿ وَلَكِنَّ أَكثركم لِلْحَق كَارِهُون ﴾ ولكن أكثركم لما جاء به محمد من الحق كارهون ، معرضون عنه .

وبعد تهديد الكافرين بسوء المصير انتقل القرآن إلى تحذيرهم من الكيد للنبي ﷺ لأن اللّه قادر على رد كيدهم وهو سبحانه يسمع كل ما يدبرونه في الخفاء :

﴿ أَمْ أَبْرمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ . أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبونَ ﴾ (٧٩ ـ ٨٠) .

والمعنى : أم ترى المشركين قد أحكموا كيدهم ومكرهم بالنبي يريدون قتله وإيذاءه فإن اللَّه تعالى ليس بغافلٍ عنهم لذلك فقد أحكم أمره في مجازاتهم ونصرة النبي ﷺ عليهم ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهم وَنَجواهُم ﴾ وهل يظنون أن اللَّه لا يسمع ما يتكلمون به من الأحاديث سرًّا بينهم في تدبير الأذى بالنبي ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ بلى إن اللَّه يسمع سرهم ونجواهم ، والملائكة الحفظة الموكلة بهم تلازمهم وتكتب كل ما يصدر منهم من أفعال وأقوال .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها النفي القاطع بأن للَّه ولداً :

﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحْمٰن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ . سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُون ﴾ (٨١ ـ ٨٣) .

والمعنى : قل يا محمد للذين يدّعون أن للَّه ولداً : إن ثبت أن للَّه ولداً لكنت أول من يعبد هذا الولد ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، ولكن لم يصح بالحجة والبرهان أن للَّه ولداً . وقيل إن المعنى : إن كان للرحْمٰن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين للَّه تعالى . ﴿ سُبْحَان رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي تنزّه وتَقَدَّس رب السماوات والأرض مما ينسبون إليه من الولد ﴿ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، وعرش اللَّه لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالإسم ، فالعرش إشارة إلى ملكه وسلطانه ولا يدل على المقر ، فاللَّه سبحانه منزه عن المكان . ﴿ فَذَرْهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أي اترك يا محمد هؤلاء المفترين على اللَّه بأن له ولداً ، فموقفهم ظاهر البطلان لا يستحق أن تدخل معهم في جدل بأمره فاتركهم يخوضوا في

باطلهمْ ويلعبوا في دنياهم ﴿ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُونَ ﴾ حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوا به وهو يوم القيامة حيث يحاسبون على افترائهم الكذب على اللَّه .

ثم تأتي الآيات التالية بعد الرد على افتراء المفترين لتمجد الخالق وتصف مدى عظمة القدرة الإلٓهية :

﴿ وَهُوَ الَّذي في السَّمَاءِ إلَٓهٌ وَفي الأَرْضِ إلَٓهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ . وَتَبَارَكَ الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَعِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ وَإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ (٨٤ ـ ٨٥) .

فاللَّه له الألوهية في السماء والأرض وهو المعبود بحق فيهما ، وهو الحكيم في تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي ﴾ أي وتقدس اللَّه وكثر خيره ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ ﴾ له ملك ما في السماوات من أجرام سماوية وما في الأرض من سهول وجبال وكائنات حية . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعة ﴾ أي عنده سبحانه علم الوقت الذي تقوم فيه القيامة ﴿ وَإلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ أي إليه تُردُّون أيها الناس بعد مماتكم فيجازيكم على أعمالكم .

ثم تختتم السورة بتحذير المشركين من الاستمرار في عقائدهم الباطلة ، مع تهديدهم بسوء المصير :

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذين يَدْعُون مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُم : مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَقِيلِهِ يَا ربِّ إنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُون . فَاصْفَحْ عَنْهُم وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦ ـ ٨٩) .

فالذين يدعونهم ويعبدونهم من دون اللَّه هم عيسى ، وعزير ،

والملائكة ، فهؤلاء لا يملكون الشفاعة إلّا لمن ﴿ شَهِدَ بالحقِّ ﴾ وآمن عن علم وبصيرة . والشهادة بالحق هي شهادة أن لا إلٰه إلّا اللَّه وأن محمداً رسولُ اللَّه وإطاعة اللَّه . فعيسى كان يعبده النصارى ، وعُزير كان يعبده اليهود ، والملائكة كان يعبدها بعض العرب ، فهؤلاء الذين هم في الحقيقة عباد اللَّه لا تصح عبادتهم ، وهم يملكون الشفاعة عند اللَّه بإذنه لهم لمن يرتضيه من خلقه .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين باللَّه من قومك : من خلقهم ؟ لقالوا اللَّه خلقنا ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ فبأي وجه يُصرفون عن عبادة الذي خلقهم وينصرفون إلى عبادة الأصنام والملائكة مع اعترافهم بأن اللَّه هو الذي خلقهم ﴿ وَقِيله[١] : يَا ربِّ إنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون ﴾ أي أن اللَّه يعلم قول نبيه محمد وهو يشكو إليه قومه : يا رب إن هؤلاء القوم الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعوتهم إلى عبادتك لا يؤمنون بأنك واحد أحد لا شريك لك . وهنا يأتي التوجيه الإلٰهي للنبي ﷺ بأن يقابل موقفهم بالصفح وعدم الاكتراث لأمرهم ، مع الشعور بالثقة باللَّه : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُم ﴾ أي تجاوز عن ذنوبهم وأعرض عنهم ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ أي أمري معكم أيها المشركون سلام ، لا أريد غير السلامة ، سلام وداع ومفارقة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ هذه الجملة من الآية فيها تهديد ووعيد للكفار بسوء المصير . وقد تحقق فعلاً هذا الوعد فقتل أكثر المشركين المناوئين للنبي ﷺ ، وانتصرت راية الإيمان على راية الكفر ، هذا مع العلم أن هذه السورة مكية نزلت بمكة حيث كان المسلمون قلةً مستضعفين ، وهذا مما يثبت أن القرآن وحي إلٰهي وليس بكلام بشر إذ لا يعلم الغيب إلّا اللَّه .

(١) وقيله : أي قول النبي وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿ وعنده عِلْمُ الساعة ﴾ .

سورة الدخان

سُمِّيت هذه السورة سورة الدُّخان لأن الله ذكر فيها علامة من علامات القيامة وهي الدخان الذي يظهر في العالم آخر الزمان ، أو أنه علامة من علامات العذاب يصيب اللَّه به عباده المسيئين .

استُهلَّتِ السورة بالقسم بالقرآن الذي أنزله اللَّه إلى السماء الدنيا في ليلة مباركة ، ثم تحدّثت عن موقف المشركين من هذا القرآن وأنهم في شكٍ وارتيابٍ من أمره ، رغم الأدلة التي تشهد أنه وحي إلّهي .

ثم تحدّثت عن قوم فرعون وما حلّ بهم من العذاب نتيجة طغيانهم وإجرامهم ، وعمَّا تركوه بعد هلاكهم من قصور عامرة ، وجنائن ناضرة .

كما تذكر السورة فضل اللَّه على بني إسرائيل حين نجاهم من اضطهاد فرعون وأعطاهم من النِّعم الشيءَ الكثير .

ثم تتناول السورة قضية البعث الذي ينكره المشركون وتؤكد وقوعه ، وتنذر المشركين بالهلاك إن استمروا على كفرهم ، ثم تبين السورة مصير الكافرين في الآخرة وما يقاسونه من عذاب أليم ، كما تبين مصير المؤمنين وما يثابون عليه من النعيم .

والملفت للنظر أن هذه السورة يتدفّق أسلوبها ويندفع في جمل قصيرة محدثة إيقاعاً في الأذن ، مثيرة بذلك الانفعال السريع العنيف لما فيها من أحداث مثيرة تقرع القلب . كما يتميز أسلوبها بهذا الانسجام الصوتي ، والتعبير البليغ من اتفاق الفاصلة في آياتها على أحرف معينة ، ووزن خاص ، والفاصلة تُطلق على الكلمة التي تختتم بها الآية من القرآن ، فمكانها في الآية مكان القافية في الشعر ، لها قيمتها في إتمام المعنى ، ولها أثرها في الجمال الصوتي لنظم القرآن .

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية ، وآياتها تسع وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾
فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ
وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

شرح المفردات

والكِتَاب المبين : يقسم اللّه بالقرآن المبين لطريق الهدى .

لَيْلَةٍ مباركة : أي كثيرة الخير وهي ليلة القدر التي تقع في شهر رمضان .

مُنْذِرين : مخوّفين ومحذِّرين من العقاب .

يُفْرَقُ : يبين ويُفصل .

مُوقنين : متأكدين .

مُبين : واضح ظاهر .

أَنّى لَهُمُ الذِّكْرَى : كيف يتذكرون ويتعظون .

تَوَلَّوْا عنه : أعرضوا عنه وتركوه .

مُعَلَّمٌ : يُعَلِّمُهُ بَشَر .

إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ
ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾
وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ
ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات

يومَ نَبْطِشُ : يوم نأخذهم بعنف وشدة لإهلاكهم ، وهويوم معركة بدر .

فَتَنَّا : ابتلينا واختبرنا .

رَسُول كَرِيمٌ : هوموسى عليه السلام .

أَدّوا إِليَّ عِبَاد اللَّه : سلموا إلي بني إسرائيل .

أَلّا تَعْلوا على اللَّه : أن لا تتكبروا على اللَّه ولا تترفعوا عن طاعته .

بسُلْطَانٍ مُبين : بحجة واضحة وبرهان ظاهر .

إني عُذْتُ بربي : استجرت به والتجأت إليه .

تَرْجُمون : تقتلوني رجماً بالحجارة .

فَأَسْر بِعِبَادي لَيْلاً : سر ليلاً ببني إسرائيل .

إنَّكُم مُتَّبَعُونَ : ملاحقون من فرعون وجنوده .

رَهْواً : ساكناً أو منفرجاً .

سُورَةُ الدُّخَانْ

ايضـــاح و دروس

استهـل اللَّه هذه السـورة بالكـلام عن القرآن الكـريم الذي أنـزله اللَّه تعالى في ليلة مباركة لتحذير الناس من عصيان ربهم :

﴿ حمٓ . وَالكِتَابِ الْمبينِ . إنَّا أنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إنَّا كُنَّا مُنـذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُـلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ . أمْـراً مِنْ عِنْدِنَـا إنَّا كُنَّـا مُرْسِلِينَ . رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ (١ ـ ٦) .

﴿ حمٓ ﴾ حرفان من حـروف الهجاء العـربية تـألّف القرآن منهمـا ومن سائر الحروف الأبجدية الأخرى ، ذكرهما القـرآن في بدء السـورة من باب تحدي المشركين وإظهار عجزهم عن الإتيان بمثل هـذا القرآن المؤلف من الحـروف التي بها يتكلمون .

﴿ وَالكِتَـابِ الْمُبِينِ ﴾ الواو هي واو القسم ، والكتـاب هنا هـو القـرآن الكريم ، والمبين : الواضـح الظاهـر الذي يبين سبيـل الحق . فاللَّه أقسم بالقرآن المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة .

﴿ إنَّـا أنزلنَـاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَـةٍ ﴾ هذه الآيـة هي جواب القسم ، فـاللَّه يقسم بالقرآن بأنه أنزله في ليلةٍ مباركة أي كثيرة الخير وهي ليلة القـدر على الأرجح والتي تقع في شهر رمضان ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ إنَّا أنـزلناه في لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ . وقيل إن المراد بها ليلة الخامس عشر من شهر شعبان ، ووصفهـا اللَّه بالبـركة لـزيادة خيـرها ، ولمـا يُنَزِّل اللَّه فيهـا على عباده من البـركات والخيـرات . والمراد بـإنزال القـرآن ابتداء نـزوله ، وقيـل : أُنزل

القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم أُنزل متفرقاً في مدى ثلاث وعشرين سنة حسب المواقف التي تستدعي نزول القرآن .

﴿ إِنَّا كُنَّا منذِرين ﴾ أي أنزل اللَّه القرآن لتحذير الناس وإنذارهم من مغبة الكفر والعصيان الذي يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة .

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيم ﴾ أي في هذه الليلة المباركة يُقضى ويُفصل كل أمر أحكمه اللَّه تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى من خلق أو رزق أو أجل أو مصيبة ، أو نحو هذا مما تقتضيه الحكمة الإلٓهية .

﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الأمر هو القرآن أنزله اللَّه من عنده ، أي إن هذا الإنزال للكتاب هو بإرادة اللَّه ومشيئته ، وقد نسبه اللَّه إليه ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ للدلالة على شرفه ، وقيل المراد بالأمر : ما قضاه اللَّه في هذه الليلة المباركة من أحوال عباده ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين ﴾ أي أن اللَّه أرسل رسوله محمداً إلى عباده ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ لرحمتهم وهدايتهم إلى ما فيه خيرهم ، وتتجلى الرحمة برسالة النبي ﷺ وبالقرآن الذي أُنْزِلَ عليه حَامِلاً إلى البشر سبل الخير والفلاح والهدى . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾ إنه سبحانه يسمع ما يقوله المشركون في القرآن من مفتريات ، ويعلم بما تنطوي عليه ضمائرهم .

ويتابع القرآن فيبين عظمة اللَّه وقدرته المسيطرة على هذا الكون والتي تستوجب طاعته والخضوع لأوامره ونواهيه :

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ . لا إلٓه إلاّ هُوَ

يُحْيي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ . بَلْ هُمْ في شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ (٧ ـ ٩) .

فالرب في أصل اللغة : التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ولا يُقال لفظ (الرب) مطلقاً إلاّ للّه ، ويأتي الرب بمعنى المالك . فاللّه هو المربي والمالك للسماوات وما تحتويه من بلايين النجوم والكواكب وغيرها ، وهو مالك الأرض ، وما عليها من جماد ومياه ونبات وحيوان ، كما أنه سبحانه مالك ما بين السماوات والأرض من عناصر كالهواء والأثير والأشعة وغير ذلك ﴿ إنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ ﴾ إن كنتم تُقرُّون بأن للسماوات والأرض ربًّا خالقاً عن عِلْمٍ ويقين ﴿ لا إِلَـهَ إِلاّ هُوَ ﴾ لا معبود لكم أيها الناس غير رب السماوات والأرض فلا تعبدوا غيره ﴿ يُحْيِي وَيُميتُ ﴾ فهو سبحانه يحيي ما يشاء ويميت ما يشاء مما كان حيًّا ﴿ رَبُّكُم وَرَبُّ آبائِكم الأوَّلِينَ ﴾ فهو سبحانه مالككم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأولين الذين قضوا نحبهم ، فمن كانت هذه صفاته فاعبدوه ـ أيها المشركون ـ دون آلهتكم التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ﴿ بَلْ هُمْ في شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أي ما هم موقنين بحقيقة ما يقال لهم وما يخبرون به من هذه الحقائق ، والمقصود هنا مشركو قريش ومن سار على نهجهم ، فهم يشكون في رسالة محمد ويلهون في معتقداتهم الباطلة التي لا تقوم على حجة ودليل ، معرضون عن مواعظ ربهم ، ومن كانت هذه حاله فلينتظر الهلاك والعذاب من اللّه سبحانه ، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية :

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تأتي السَّماءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذا عَذابٌ أليمٌ . رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا العَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالوا مُعَلَّمٌ مَجْنونٌ . إِنَّا كاشِفُو العَذابِ قَلِيلاً

إِنَّكُم عَائِدونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُون ﴾ (١٠ ـ ١٦) .

فاللَّه يقول : فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماء بـدُخَانٍ ظـاهر ، وقد ورد أنه لما استعصت قريش على النبي ﷺ وأبى أكثـرهم الإسلام دعـا عليهم بسنين « أي بسنين من القحط » كسنيّ يـوسف عـليـه السـلام ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتـة ، وجعل الـرجل ينـظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينهـا كهيئة الـدخان من الجَهْـد[1] ، وتعليل ذلـك أن الجـوع الشديـد تعرض فيـه للبصـر ظلمـة من شـدة الضعف ، حتى يـرى صـاحبه فيمـا بينه وبين السمـاء كهيئة الـدُّخان ، أو لأن الهـواء يتكدر سنـة الجدب بكثرة الغبـار الذي يشبـه الدخـان بسبب قلة الأمطار المسكنـة له ، هذا مع العلم أن جو الجزيرة العربية حافل بمواسم يثور فيه الغبار الشديد.

وقيـل ـ وهو الأقـرب إلى الصواب ـ إن الـدخـان هـو من أمـارات يـوم القيامة وهو لم يجىء بعد ، فهـو يأخـذ بأنفـاس الكفار ، ويصيب المؤمنين منـه كالـزكام ﴿ يَغْشَى النَّـاسَ هَذَا عَـذَابٌ أليم ﴾ أي يحيط هـذا العـذاب بالناس من كل جانب فيقولون : هذا عذاب مؤلم أشـد الألم ﴿ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُون ﴾ يتضرع هؤلاء الكفار مستغيثين باللَّه : إننا سنؤمن إن كشفت عنا عذاب الجوع أو الدخان .

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أي من أين لهم التذكُّـر والاتعاظ بعد نزول هذا البلاء وقد جـاءهم رسول من اللَّه ظـاهر الصـدق ، مؤيد بالحجج الظاهرة وهو محمد ﷺ ، ومع هذا لم يؤمنوا ولم يتعـظوا لما جاءهم به من الهدى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّـوْا عَنْهُ ﴾ ثم أعـرضوا عن محمـد ولم يقبلوا قوله ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أي وقالوا : هناك من يعلمه من البشر ، وهـو مجنون وليس برسول من عند اللَّه .

﴿ إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُم عَائِدُونَ ﴾ إنا سنرفع عنكم العذاب وقتاً قليلاً ولكنكم لن تفوا بما عاهدتم عليه ربكم من الإيمان ، وستعودون إلى ما كنتم عليه من الضلال والبغي ، أو إنكم عائدون إلى اللّه بعد الممات .

وقد روي أنه لما حلَّ القحط والجوع في قريش أتى أبو سفيان النبي ﷺ فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا فادعُ اللّهَ لهم ، فدعا اللّه فنزل المطر من السماء وزال ما بهم من ضرّ ، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالتهم السابقة فأنزل اللّه بعد ذلك : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ . والبطشة الكبرى هي يوم معركة بدر التي قتل فيها كثير من كفار قريش .

وعلى تفسير الدخان بأنه من أمارات يوم القيامة كما سبقت الإشارة إليه يأخذ تفسير الآيات منحى آخر ، فالكفار في ظل هذا المشهد الرهيب من العذاب الذي يأخذ الناس يقال لهم : إن أمامكم فرصة للنجاة ﴿إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً ﴾ فإذا لم تغتنموها بالرجوع إلى اللّه والإيمان به وبرسوله محمد ﷺ وكتابه ، فانتظروا البطشة الكبرى وهي الانتقام الرهيب يوم القيامة ، وسواء أكان هذا العذاب أو ذاك فإن اللّه انتقم أو سينتقم من أعدائه .

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم فرعون ، حيث جاءهم موسى بالهدى من اللّه ، فأبوا تَقَبُّل الهدى ، وأصروا على ضلالهم ، فأنزل اللّه بهم الهلاك جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسوله موسى ، والقرآن يذكر ذلك باختصار متوخياً العظة والعبرة ، فهذه الآيات هي من جهة إنذارٌ للذين يكذبون برسالة محمد ﷺ من أن يصيبهم الهلاك مثل ما أصاب فرعون

وقومه ، ومن جهةٍ ثانية تثبيت لقلب محمد ﷺ ووعده بالفوز على الكافرين كما فاز موسى من قبل على فرعون وقومه . يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ . وَإِنْ لَمْ تُؤمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ . وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ (١٧ ـ ٢٤) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُم قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي ولقد اختبرنا وامتحنا قبل مشركي مكة قوم فرعون ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ والرسول الكريم هو موسى عليه السلام ، فهو كريم في قومه ، كريم الخُلُق ، أو كريم على ربه إذ خصّه اللَّه بالنبوة وبكلامه ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ فموسى يقول لفرعون وقومه : أرسلوا معي عباد اللَّه وأطلقوهم من العذاب وهم بنو إسرائيل ، وبنو إسرائيل كان يستعبدهم فرعون وقومه ويسومونهم سوء العذاب ، ويستخدمونهم في أشق الأعمال ، والتعبير عنهم بعباد اللَّه للإشارة إلى أن استعبادهم إياهم هو ظلم ، وأن العبودية يجب أن تكون للَّه وحده ، ولا يحق لأحد أن يستعبد أحداً من خَلْق اللَّه .

ويجوز أن يكون المعنى : استجيبوا يا قوم فرعون إلى ما أدعوكم إليه من الحق يا عباد اللَّه ، وعلل موسى ذلك بقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمين ﴾ أي إني لكم رسولٌ من اللَّه أرسلني إليكم ، أمين على وحيه ورسالته التي أرسلني بها إليكم ﴿ إِنّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ لأني آتيكم بمعجزة أو حجة واضحة تبين صدق نبوتي ورسالتي ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ وإني ألتجىء إلى اللَّه وألوذ به وأعتصم من أن

تقتلوني رجماً بالحجارة وفقاً لما كنتم تهددونني به ، كما ألتجىء إلى اللَّه من كل أذى أو مكروه يصلني منكم ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ وإن لم تُصدّقوني على مَا جئتكم مِنْ عند ربي فاعتزلون : أي أنتم بحالكم وأنا بحالي ، لكم شأنكم ولي شأني ، وليس من العدل أن تؤذوني لأني دعوتكم إلى ما فيه سعادتكم .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ فدعا موسى ربه قائلاً بعد أن كذبه قومه وهموا بقتله : إن هؤلاء قومٌ مجرمون . وفي الآية إيجاز وكأن موسى يقول : إن هؤلاء قومٌ تناهى أمرهم في الكفر إلى حد الإجرام والتعدي فافعل بهم يا رب ما يستحقونه من عقاب ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ وهنا إيجاز أيضاً ، والمعنى : أجاب اللَّه دعاء موسى وأوحى إليه أن سر ببني إسرائيل ليلاً ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ إن فرعون وقومه متبعوكم ليقضوا عليكم .

امتثل موسى أمر ربه ، وانطلق بقومه بني إسرائيل سرًّا من أرض مصر قاصداً فلسطين ليلاً . علم فرعون وجنوده بأمر خروج موسى ومن آمن معه فأسرعوا وراءهم ليردوهم إلى عبوديتهم ،ويستمروا في اضطهادهم ، فأدركوهم على ساحل البحر الأحمر ، فأمر اللَّه تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه فانفلق اثني عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينهما كالجبل العظيم ، فسلك موسى ومن معه من بني إسرائيل هذه الطرق ، ثم أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن آمن معه من بني إسرائيل أن يضربه بعصاه حتى يلتئم، كما ضربه أولاً فانفلق لئلا يتبعه فرعون وجنوده ، وهنا يأتي الأمر الإلٓهي في تتمة الآيات السابقة ﴿وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً﴾ أي اترك البحر ساكناً على هيئته وحاله

التي اجتزتها منفرجاً ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ أي إن فرعون وجنـوده مغرقهم اللَّه ، وبيان ذلك : أن فـرعون وجنـوده لما رأوا البحـر منفرجـاً ساروا فيـه مقتفين أثـر موسى وبني إسـرائيل ، ولمـا أصبحـوا في وسط اليمّ أطبق اللَّه البحر عليهم وغرقوا جميعاً ، بينما كان مـوسى قد اجتـاز هو وبنـو إسرائيـل البحر كما ذكرنا .

لقد هلك فرعون وجنوده تاركين وراءهم ما كانوا يتمتعون به من ألـوان النعيم .

كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ
﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ
عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾
إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ
﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ

شرح المفردات

مَقام كَرِيم : مساكن حسنة .

وَنَعْمَةٍ كانوا فِيها فاكهين : تَرَفُّهٍ في العيش كانوا ناعمين فيه .

مُنْظَرِين : ممهلين بالعذاب إلى وقتٍ آخر .

كَانَ عالياً : كان متكبراً جباراً .

وَلَقَدِ اخترناهم عَلى عِلْمٍ على العَالمين : اصطفاهم اللّه على علمٍ منه على أهل زمانهم .

الآيَات : الحجج والبراهين .

بَلاءٌ مُبين : اختبارٌ وامتحانٌ ظاهر .

بِمُنْشَرين : بمبعوثين أحياء بعد الموت للحساب .

قَوْمُ تُبَّع : أهل اليمن ، وَتُبّع لقب ملوك اليمن .

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ
لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ
هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾
كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ
سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

يَوْمَ الفَصْل : يوم القيامة ..

لا يُغْني : لا ينفع ، ولا يكفي عن غيره أو يقوم مقامه .

مَوْلًى : من يتصل بالمرء بقرابة أو صداقة أو غيرهما .

كالْمُهْل : كالنحاس المذاب من شدة الحرارة .

الحَميم : الماء البالغ غاية الحرارة .

فَاعْتلُوهُ : خذوه بقوة وشدة .

سَوَاءِ الجحيم : وسط النار .

تَمْتَرون : تشكون وترتابون .

مَقَامَ : مكان ومجلس .

سُنْدُس : الحرير الرقيق .

إسْتَبْرَق : الحرير السميك.

حُور : نساء الجنة البيض الحسان .

عين : واسعات الأعين .

يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ
إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

شرح المفردات

فَارْتَقِبْ : انتظر .

تابع سُورَة الدُّخَان

وبعد هلاك فرعون وقومه غرقاً في اليمّ يقدم لنا القرآن هذه الصورة البليغة عنهم المفعمة بالعبر:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كانوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢٥ ـ ٢٩) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ كم : هي للتكثير ، أي لقد ترك قوم فرعون بعد إغراقهم كثيراً من البساتين الناضرة والعيون الجارية . ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ كما تركوا الزروع المتنوعة والمساكن الحسنة ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ وعيشة مترفة كانوا يتنعمون فهيا فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي هكذا بمثل هذه الصورة المخزنة تمّ نزعهم من النعيم ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ أي وتلك النِّعَم التي فقدها فرعون وقومه ملّكها اللَّه قوماً آخرين ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ هذه الآية تدعو إلى وقفة تأمل فهي توحي بأن هذه النكبة الفادحة لو حلّت بقوم غيرهم صالحين لبكى عليهم أهل السماء والأرض ، أما هؤلاء فالتعبير القرآني يوحي بأنهم هلكوا غير مأسوف عليهم كهلاك كل طاغٍ متجبرٍ في الأرض يرجو الناس الخلاص منه .

أما بشأن بكاء السماء والأرض عليهم فالعرب تقول عند موت السيد منهم بكت له السماء والأرض ، أي عمت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه ، أما بشأن فرعون وقومه فإنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ، ولم يُوجد لهم فقدٌ ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ وما كانوا مؤخّرين بالعقوبة التي حلت بهم ، ولكن عوجلوا بها بسبب أنهم أسخطوا ربهم .

ويتابع القرآن فيذكر فضل اللّه على بني إسرائيل حيث نجاهم من عذاب فرعون وقومه ، وفي هذا تثبيت لقلوب أتباع محمد المستضعفين الذين كانوا أيضاً يقاسون العذاب من كفار قريش ، ووعدهم بالخلاص من هذا الاضطهاد والعذاب .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ . وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُم عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٠ ـ ٣٣) .

فاللّه يقول : إنه نجّى بني إسرائيل من العذاب الذي كان فرعون وقومه يعذبونهم به ، إنه عذاب مهين أي مذل لهم ، من قتل أبنائهم وتكليفهم أشق الأعمال ، لقد نجاهم اللّه ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي نجاهم من طغيان فرعون الذي كان جباراً مستعلياً على

النـاس مستكبراً على ربـه مسرفـاً في الكفر والإجـرام ﴿ ولقد اخْتَـرْنَاهُم ﴾ ولقـد اصطفـاهم اللَّه وشرفهم ﴿ عَلى عِلْمٍ ﴾ على علمٍ منـه باستحقـاقهم لذلك ﴿ عَلى العَالَمِين ﴾ على عالم زمانهم يومئذٍ، وذلك زمن موسى عليه السلام ، أما أفضل الناس فهم أمة محمد بصريح القرآن : ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت للنَّاسِ ﴾ آل عمران : ١١٠ .

﴿ وَآتَيْنَـاهُـم مِن الآيـات ﴾ أي وأعـطى الـلَّه بني إسـرائيـل مـن المعجزات : من فلق البحر ، وتظليل الغمـام لهم ، وإنزال الْمَنِّ والسلوى عليهم وغيـر ذلك من المعجـزات ، ﴿ مَا فِيـهِ بَـلاءٌ مُبينٌ ﴾ مـا فيـه اختبـار بالنعم ظاهر ، وامتحان واضح . وهكذا فإن أفراد الناس والشعوب يعـطيهم اللَّه من النعم من باب الاختبار والامتحان ليرى هل يقومون بواجب الشكـر للخالق والطاعة له ، أم يقابلون هذه النعم بالكفر والطغيان ، والقـرآن يبين عاقبة كل فريق من هؤلاء بقوله : ﴿ وَلَئِن شَكَـرْتُم لأَزِيدَنَّكُم ، وَلَئِنْ كَفَـرْتُمْ إنَّ عَذَابي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم : ٧) .

فـالشاكـرون لهم مزيـد من النعم والكافـرون بنعم ربهم ينتظرهم يـوم القيامة عذاب شديد .

وبعـد الكلام عن بني إسـرائيل ينتقـل القرآن إلى الكـلام عن مشركي قـريش ، وعن نكرانهم الآخـرة ، مع تهـديدهم بـالهلاك إن هم ظلُّوا على كفرهم :

﴿ إنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ : إنْ هِيَ إلَّا مَـوْتَتُنَا الأُولَى وَمَـا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ . فَـأْتُوا بِـآبَائِنَـا إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . أَهُمْ خَيْـرٌ أَمْ قَـومُ تُبَّـعٍ وَالَّـذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُم إِنَّهم كَانوا مُجْرِمين ﴾ (٣٤ ـ ٣٧) .

فهؤلاء المشركون العرب يزعمون أن نهاية المطاف هي مـوتتهم الأولى

التي يموتونها في الدنيا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ أي مبعوثين بعد الموت ، ويضيفون إلى ذلك : ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ أي أعيدوا لنا آباءنا أحياء بعد موتهم إن كنتم صادقين فيما تقولون من أن هناك بعثاً وجزاءً بعد هذه الحياة .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ أهم خير : استفهام إنكار وتوبيخ لمشركي قريش ، وليس المقصود بالخير هنا على إطلاقه لأنه لا خير في الفريقين ، وإنما المراد بالخير جانب القوة والشدة ، ويكون المعنى : أَهُمْ خيرٌ في القوة والشدة أم قوم تُبّعٍ. وتُبّعٍ لقب لملوك اليمن وقد نسب إليهم أهل اليمن في القديم وكانوا أصحاب منعة[1] ونعمة ، ولعل المراد ملك معين من ملوك التبابعة كانت العرب تعرفه أشد معرفة من غيره ، ويُروى أنه كان ملكاً صالحاً وكان قومه موغلين في الإجرام . أما قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فهم قوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم التي هلكت بسبب سوء أفعالها ﴿ أَهْلَكْنَاهُم إِنَّهم كَانوا مُجْرِمِينَ ﴾ هنا تعليل لإهلاك كل هؤلاء وأن هلاكهم كان بسبب إجرامهم ، وهكذا يكون مصير كل شعب يوغل أفراده في الإجرام .

ثم ينتقل القرآن إلى إيراد بعض الدلائل على صحة وقوع البعث :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ . إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ . يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلى عَنْ مَولًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصرونَ . إلاّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٨ ـ ٤٢) .

فاللّه يقول بأنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما ﴿ لاعِبين ﴾ أي عبثاً ولهواً من غير أن يكون في خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاّ بِالحق وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فاللّه لم يخلقهما عبثاً ولكن خلقهما بالحق ، ومن الحق إثابة المطيع على طاعته ، ومجازاة العاصي على معصيته ، ولكن أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة ، فيكذبون بالآخرة ، ولا يخافون عقاب اللّه على ما يفعلون من إجرام ومعصية .

فالمتأمل في خلق السماوات والأرض ، وما فيها من حكمة ظاهرة ، وتناسق دقيق يوحي أن لهذا الخلق غاية فلا لعب فيه ولا لهو ، وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه ، وأن له نهاية لم تأت بعد .

واللّه سبحانه الذي خلق الإنسان وخصه بهذا العقل الفريد دون الكائنات جميعاً ، وأعطاه شتى الميول والغرائز لم يخلقه لتكون حياته مقتصرة على الحياة الدنيا وإلاّ لكان ذلك من البعث الذي يتعالى اللّه عنه ، ولكان الإنسان حينئذٍ يطلق لميوله وغرائزه العنان دون حسيب أو رقيب ، مما يؤدي إلى طغيان الشر وفساد الكون ، لهذا جاء في القرآن : ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لا تُرْجَعُون ﴾ (المؤمنون: ١١٥).
لا تُرْجَعُون ﴾ (المؤمنون : ١١٥) .

والإعتقاد بوجود إلّه عادل يستتبع حتماً جزاءً على الخير والشر ، فإن لم يتم العدل في عالم الأرض ، فلا بد أن يتم هناك في عالم آخر ؛ هذا وإن الذي يجعل الإنسان متسامحاً صبوراً محسناً باذلاً نفسه لخدمة الغير ، كابحاً نفسه عن فعل الشر هو ما يتراءى له من حياة أبدية بعد هذه الحياة يُجازى فيها على ما فعله في دنياه .

وفي ضوء ما تقدم تأتي الآية التالية مؤكدة وقوع يوم القيامة لمحاسبة الخلق : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ويوم الفصل هو يوم القيامة

وسمي بذلك لأن اللَّه يفصل فيه بين أهل الحق وأهل الباطل . ويجازي كُلَّ إنسانٍ على عمله ، فيوم القيامة هوميقاتهم أجمعين أي وقت موعدهم جميعاً ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيئاً ﴾ يوم لا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صاحب عن صاحبه شيئاً من عقوبة اللَّه أو ينفعه ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ ولا ينصر بعضهم بعضاً كما كانوا يفعلون في الدنيا ﴿ إلّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ أي إلّا من استحق رحمة اللَّه وهي الفئة التي استجابت للحق فآمنت باللَّه واتبعت ما أُنزل على رسوله محمد ﷺ . فهؤلاء يشفع لهم الأنبياء والملائكة للعفو عنهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فاللَّه هو القوي الغالب لأعدائه ، الرحيم بالمؤمنين الطائعين .

وبعد أن قررت الآيات السابقة حتمية الجزاء في الآخرة تأتي الآيات التالية لتعرض صورة قاتمة من العذاب الرهيب الذي ينتهي إليه العصاة :

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي في البُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إلى سَواءِ الجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ (٤٣ ـ ٥٠) .

فشجرة الزقوم هي شجرة ذات ثمر مُرٍّ تنبت بتهامة شبهت بها الشجرة التي تنبت في مقر جهنم ، وهذه الشجرة هي طعام الأثيم : أي كثير الآثام ، والمراد به الكافر لدلالة الآيات السابقة عليه ؛ وهذا الطعام ﴿ كَالمهْلِ يَغْلي في البُطُون ﴾ والمهل هو المذاب من النحاس والحديد وغيرهما من المعادن ، أو الزيت المغلي ، الذي يغلي في البطون ، وغليانه ﴿ كَغَلْيِ الحَميمِ ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة . وذلك أن أهل النار عندما يجوعون يلجأون إلى هذه الشجرة التي تنبت في جهنم ،

فإذا أكلوا منها أخذت تغلي في بطونهم كغلي الحميم . ثم يُقال للملائكة الموكلة بالتعذيب : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ أي خذوا هذا الأثيم فادفعوه وسوقوه بعنفٍ وغلظة ﴿ إِلَى سَوَاءِ الجحيمِ ﴾ إلى وسط جهنم ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميمِ ﴾ ثم صبوا على رأسه الماء الساخن الذي تناهى حره ، ثم يقال له استهزاءً به وتقريعاً : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ نزلت هذه الآية في أبي جهل حين قال: ما بين جبليها ـ أي مكة ـ رجل أعز ولا أكرم مني ، فيقال له في الآخرة وهو يُعذب بالنار ذق هذا الهوان اليوم فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ﴿ إِنَّ هَذَا ما كُنْتُم به تمترونَ ﴾ أي هذا العذاب الذي كنتم تَشُكُّونَ فيه فذوقوه . والآية جاءت بصيغة الجمع لأن هذا ما يقال لكل أثيم متكبر طاغٍ وهو يعذب في نار جهنم .

وبعد أن بيَّن القرآن ما يقاسيه الكافر من عذاب عقب على ذلك بذكر ألوان النعيم للمتقين :

﴿ إِنَّ المتَّقِينَ في مَقَامٍ أَمينٍ . في جَنَّاتٍ وَعُيونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ متَقَابِلِين . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ . لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوتَةَ الأُولى وَوَقَاهُم عَذَابَ الجَحِيمِ . فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (٥١ ـ ٥٧) .

فالذين اتقوا ربهم بالعمل بطاعته ، واجتناب ما نهى عنه هم في ﴿ مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي في موضع إقامة أَمِنوا فيه من كل هَمٍّ وَحُزن ومصيبة ، فهم ينعمون ﴿ في جنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في بساتين ناضرة وعيون جارية ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ والسندس ما رَقّ من الحرير ، والإستبرق هو السميك منه ، فهم يلبسون الحرير ويجلسون ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً ليتم الأنس بينهم ﴿ كَذَلِكَ وَزَوّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

أي هكـذا بمثـل هـذا النعيم أكـرمهم اللَّه ، وزوجهم بحـور عين[١] من النساء ، ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمنينَ ﴾ أي يطلبـون ويأمـرون بإحضـار كل ما يشتهونه من الفاكهة آمنين من انقطاع ذلك عنهم ونفـاده ، وآمنين من كل أذى من تناولها ﴿ لا يذوقُونَ فِيها الْموتَ إلّا الْمَوتَة الأُولى ﴾ فلا يـذوق هؤلاء المتقـون في الجنة المـوت بعد المـوتة الأولى التي التي ذاقـوهـا في الـدنيـا ﴿ وَوَقَـاهُم عَـذَابَ الجَحِيمِ ﴾ أي ونجـاهم اللَّه من عـذاب النـار ﴿ فَضْـلاً مِنْ رَبِّـكَ ﴾ أي أن وقـايتهم من عـذاب الجحيم كـانت تفضـلاً يـا محمد من ربـك عليهم وإحسانـاً منه إليهم ﴿ ذَلِـكَ هو الفَـوْزُ العَظِيمُ ﴾ ذلك الظفـر العظيم بمـا كانـوا يطلبـون نيله في الدنيـا بأعمـالهم الصالحـة وطاعتهم لربهم .

ويختم اللَّه السـورة ببيان أن القـرآن أنزل للعـظة والاعتبار مـع تطمين النبي ﷺ بالنصر على أعدائه :

﴿ فَـإِنَّمَـا يَسّـرْنَـاهُ بِلِسَـانِـكَ لَعَلَّهُم يَتَـذَكَّـرُونَ . فَـارْتَقِبْ إِنَّهم مُرْتَقِبُونَ ﴾ (٥٨ ، ٥٩) .

فـاللَّه يقـول : إنمـا سهلنـا قـراءة هـذا القـرآن ـ الـذي أنـزلنـاه إليـك يا محمد ـ بلغتك ولغة قومك ليفهموه ويتعظوا بعظاته ، ويتفكـروا في آياتـه ﴿ فارتقب إِنَّهم مُرتَقِبُـونَ ﴾ فانتـظر يا محمـد النصر على هؤلاء المشـركين بـاللَّه ، إنهم منتظرون قهـرك وغلبتك ، وَشَتَّـان ما بين انتـظارين ، فانتـظار النبي قـائم على الـوعـد الإلّهي بـالغلبـة والنصـر على أعـدائـه ، وانتــظار المشركين قائمٌ على الوعيد الإلّهي بالخزي والهلاك وسوء المصير .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

أبرز ما تعالجه هذه السورة هو إثبات البعث والجزاء على الأعمال يوم القيامة ، ولهذا سُمِّيت هذه السورة (الجاثية) لأن اللَّه ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكونون عليه من الفزع ، فيجثون على الرُّكَب من شدة ما يصيبهم من الفزع والهول .

كما تبيّن هذه السورة الدلائل على وجود اللَّه من خلال لفت الأنظار إلى عوالم السماء ، وإلى عوالم الأرض وما عليها من مظاهر الحياة من نبات وحيوان ، ثم تُنْذر السورة الذين يتعامون عن هذه الدلائل ، ويصرّون على الكفر .

كما تلفت السورة الأنظار إلى فضل اللَّه على النوع الإِنساني حيث سخّر له البحر والسماء والأرض لحاجاته واستمرار حياته ، وهذا يستوجب الشكر للخالق لا الكفر به .

ثم تشير السورة إلى فضل اللَّه على بني إسرائيل حين خصّهم بالكتب الإِلَهية من التوراة والإِنجيل ، كما خصّهم بكثير من الأنبياء ، ولكنهم أعرضوا عن هدى اللَّه ظلماً وتعدياً على الحق ، ثم خص اللَّه نبيه محمداً بشريعة تهدي إلى الحق .

ثم تحذّر السورة الذين اتخذوا أهواءهم آلهة وأعرضوا عن الحق وعن عبادة اللَّه وحده .

كما تتحدث عن الدهريين الذين أنكروا الخالق والبعث والجزاء ، مبيّنة أن الجزاء بعد الموت واقع حتماً ، فالذين كفروا في عذاب النار ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات نعيم .

سُورَةُ الجَاثِيَة

مكية، وآياتها سبع وثلاثون الآية ١٤ فمدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ
بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ

شرح المفردات

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّه : الكتاب هو القرآن الكريم وهو منزل من اللَّه تعالى .

لآياتٍ للمؤمنين : لعلامات واضحات على وجود اللَّه ووحدانيته للذين آمنوا به .

يَبُثُّ : ينشر ويفرّق .

يُوقنون : يعلمون ويتحققون بدون شك .

رِزْقٍ : مطر ، وهو سبب الرزق من نبات وثمر .

تَصْرِيف الرِّياح : تحويلها من جهةٍ إلى جهة .

نَتْلُوهَا : نقرأها .

فَبأَيِّ حَديثٍ بَعْدَ اللَّه : فبأي حديث بعد حديث اللَّه .

ويْلٌ : كلمة عذاب ودعاء بالشر تقال لمن يستحق الهلاك لسوء فعله .

أَفَّاكٍ أثيم : كذاب كثير الإثم .

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا
هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

يُصرُّ مستكبراً : يتمادى في كفره ، وهو متكبر عن الإيمان .

اتخذها هُزُواً : اتخذها سخريةً .

عذاب مهين : عذاب مذل ومخزٍ .

ولا يُغني عنهم ما كسبوا شيئاً : ولا ينفعهم ما جمعوا من مال لدفع العذاب عنهم .

أولياء : آلهة ونصراء .

هَذا هُدىً : هذا القرآن هدى .

كفروا بآيات ربهم : جحدوا حجج ربهم .

رجْزٍ أليم : عذاب شديد مؤلم .

سخَّر لكم : ذَلَّلَ وأخضع لكم .

الفُلْك : السفن.

وَلتبتغوا مِنْ فَضْله : ولتطلبوا الأرزاق من فضل اللّه في البحر .

لعلكم تشكرون : لكي تشكروا ربكم .

سُورَةُ الجَاثِيَة

ايضـاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن هو كتاب مُنزل من عند اللّه لا من تأليف بشر :

﴿ حمٓ . تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ (١ ٢) .

﴿ حمٓ ﴾ حرفان من حروف الهجاء ذكرهما اللّه في مطلع هذه السورة كما ذَكر حروفاً غيرهما في مطلع كثير من السور ، وَذِكْرُ هذه الحروف إشارة إلى أن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه مصوغ من مثل هذين الحرفين وغيرهما التي بها يتكلمون ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بمثله ، فعجزهم هذا دليل واضح على أن القرآن مُنزل من عند اللّه .

﴿ تنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي أن القرآن هو كتاب مُنزل من اللّه لهداية الناس ، واللّه سبحانه هو ﴿ العَزِيز ﴾ أي القوي الغالب ﴿ الحَكِيم ﴾ الذي يفعل كل شيء بحكمة .

ولما كان بعض الناس يرتابون في وجود اللّه الذي أنزل القرآن ، لذلك جاءت الآيات التالية تُقَدِّم البراهين المقنعة على وجود اللّه :

﴿ إنّ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنينَ . وَفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣ ـ ٥) .

منهج خاص للإقناع بوجود اللَّه انفرد به القرآن عن الكتب السماوية السابقة ، وذلك بلفت الأنظار إلى الكون : سمائه وأرضه ، وما على الأرض من مظاهر الحياة الحيوانية والنباتية ، التي لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن توجد صُدفة ، بل إن ما فيها من دقائق الصُّنع ، ووجوه الحكمة ، ليدل على صانع حكيم ألا وهو اللَّه سبحانه .

وكثير من العلماء الكونيين اعترفوا بأن إيمانهم باللَّه حصل من خلال دراساتهم أسرار هذا الكون ، وما انطوى عليه من أعاجيب تبهر العقول . فاللَّه يقول : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَات وَالأَرْضِ لآياتٍ لِلْمُؤمِنِينَ ﴾ وتقدير الكلام في الآية : إن في خلق السماوات والأرض دلائل وعلامات للذين يؤمنون بوجود اللَّه ووحدانيته . فالسماوات تحتوي على بلايين النجوم وغيرها من الأجرام السماوية ، والأرض تحتوي على سهول وجبال ووديان وبحار وأنهار ومعادن مختلفة ، ومخلوقات حية ، وإن في كل ذلك ﴿ لآيَاتٍ لِلْمؤمنين ﴾ الآيات : جمع آية وهي العلامة الواضحة ، ولقد سمى اللَّه خلق السماء والأرضْ آيات لأنها علامات على وجود الخالق ، فهذه الآيات على مرأى جميع الناس ، ولكن لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيفت للمؤمنين لأنهم هم الذين يستشعرون يد القدرة الإلٓهية عند التأمل في خلق السماء والأرض وما فيهما من عظمة الإبداع الإلٓهي .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس وما تحتويه أجسامكم من عقل وحواس ، وأجهزة مختلفة ، كالجهاز الهضمي والتنفسي والعظمي والعصبي والتناسلي وغير ذلك مما يتكون منه الإنسان ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي ما نشره اللَّه وفرَّقه على الأرض من الحيوانات غير العاقلة ، كل

ذلك عقّب عليه القرآن بقوله : ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ أي علامات للذين يريدون أن يؤمنوا إيماناً راسخاً لا شك فيه ، لأن اليقين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبهات ، وقد جاءت هنا لفظة ﴿ يُوقنون ﴾ لأنها واردة في مقام العلم المفضي إلى اليقين .

هذا وإن عالم الحيوان عالم مليء بالأسرار ، فكل حيوان له نظامه الخاص في تكاثره وتحصيل عيشه ، وفي الدفاع عن نفسه ، مما جعل العلماء المتخصصين في سبر معيشة كل حيوان على حِدة يذهلون من تصرفاته القائمة على الحكمة ، ويؤلفون في ذلك المجلدات الكثيرة ، فكل هذه الخصائص لعالم الحيوان لا يمكن أن تنشأ صدفة ، بل تشهد على القدرة الإلّهية المبدعة الحكيمة .

ويتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القدرة الإلّهية فيقول : ﴿ واخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهار ﴾ أي وإن في اختلاف الليل والنهار آية على وجود اللّه . واختلاف الليل والنهار هما ظاهرتان تنشأان من تأثير دوران الأرض حول نفسها بانتظام ، وهذا الدوران له تأثير على تحركات الرياح التي تنقل بخار الماء من المحيطات إلى أراضٍ بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف ويتحول إلى مطر ؛ والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة . ومن المدهش أن القرآن أشار إلى ذلك عقب ذكره اختلاف الليل والنهار فقال : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيف الرِّيَاحِ ﴾ سمى اللّه المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق من خضار وحبوب وفواكه ، ولولا المطر لظلت الأرض قاحلة لا أثر فيها للحياة .

أما تصريف الرياح فهو تحويلها من جهة إلى جهة ومن حال إلى حال

وفق نظام معيّن ينشأ عنه هطول المطر في الأماكن التي حددها اللّه ، كل ذلك عقّب عليه القرآن : ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ أي علامات للذين يستخدمون عقولهم ويعلمون أن الكون لا بد له من موجد أوجده ، وهذا الموجد هو الله وحده .

والجدير بالذكر أن الآيات القرآنية السابقة التي عددت المظاهر الكونية الدالة على وجود اللّه خُتمت أولاً بقوله تعالى : ﴿ لآيَاتٍ للمؤمنين ﴾ . فإن كان المشاهدون لآيات اللّه الكونية ليسوا من المؤمنين بل من طلاب العلم واليقين لذا خُتمت الآية القرآنية التالية بعد لفت النظر إلى خلق الإنسان وعالم الحيوان : ﴿ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنون ﴾ . أما إذا كان المخاطبون ليسوا من المؤمنين ولا من طلاب العلم واليقين ، فلا أقل أن يكون في رؤوسهم شيء من العقل ليدركوا به أن خلق الكون على هذه الحكمة الفائقة لا يمكن أن يحصل صدفة بدون خالق ولذا ختم اللّه الآيات الكونية بقوله : ﴿ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ فإنكار الخالق لا يمكن أن يحصل إلاّ لمن تخلّى عن عقله واشتط في الكفر والعناد .

ثم تأمل هذه النتيجة التي انتهى إليها القرآن بعد ذكر هذه المقدمة :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) .

أي هذه الآيات التي بيّنت الدلائل على وجود اللّه ووحدانيته يسردها اللّه سبحانه على رسوله محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل ، وهي مشتملة على الحق ، فبأي حديث بعد حديث الله يؤمن به المنكرون لوجود اللّه أو وحدانيته .

وبعد هذه الجولة في ملكـوت اللَّه تأتي الآيـات التاليـة متوعِّـدة الذين يختارون الضلال بدلاً من الهدى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ . يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِـرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَليمٍ ﴾ (٧ ـ ٨) .

فالويل والهلاك للذي أنكر الآيات الـدالة على وجـود اللَّه فهو ﴿ أَفَّـاكٍ أثيم ﴾ أي مبـالغٍ في الكـذب والإثم ، وعلامـة إفكه وإثمـه أنـه ﴿ يَسْمَـعُ آيـاتِ اللَّه تتلى عَلَيْهِ ﴾ أي يسمـع آيات القـرآن تُقـرأ عليـه نـاطقـة بـالحق فـلا يستجيب لمـا فيهـا من الهـدى ﴿ ثُمَّ يُصِـرُّ ﴾ على كفـره ويتمسـك بـه ولا يتـزحزح عن مـوقفه الآثم ثم يمضي ﴿ مُسْتَكْبِـراً ﴾ على ربه أن يـذعن لأمره ونهيه ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ كأن لم يسمع ما يتلى عليه من آيات كتاب اللَّه بإصراره على الكفر ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أليم ﴾ والبشارة تكون للخبر السار ولكن البشـرى هنا وردت مجـازاً في غير مـوضعه لأنهـا بمعرض السخـرية والتهديد له بعذاب موجع في نار جهنم يوم القيامة .

ويتابع القرآن الكلام عن هذا الصنف من الناس مع التهديد لهم بأشـد أنواع العذاب يوم القيامة :

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ولا يُغْني عَنْهُم مَـا كَسَبُـوا شَيْئـاً وَلاَ مَـا اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَـاءَ وَلَهُمْ عذَابٌ عَـظِيمٌ . هَذا هُـدىً وَالَّـذِين كَفـرُوا بِـآيَـاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَليمٌ ﴾ (٩ ـ ١١) .

هـذا الكـذّاب الأثيم وأمثـالـه لا يكتفي بـالإعـراض عن سمـاع آيـات القرآن ، بل يتخذ مما سمعه مادة للسخرية ، فالحياة عند هؤلاء المعرضين عن الحق لا مجال فيها للجد وتقبُّل الحق ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي

عذاب مخزٍ مُذل لهم في نار جهنم .

هـذه الصورة التي يـرسمها القـرآن لهـذا الصنف من النـاس في عهـد النبي ﷺ تتكرر في أيامنا هذه ، فمن النـاس من إذا ذكَّرتهم بـآيات القـرآن أعرضوا عنها استكباراً واستهزاءً ، إيثاراً لمـا هم عليـه من الضـلال ، وكثير من المسلمين يسمعون آيات القرآن تقرأ عليهم فلا ينتفعون بهـا ولا تستحوذ على مشاعرهم شأنهم في ذلك شأن من لم يسمع هذه الآيات .

هؤلاء المستهزئون بـآيات القـرآن ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ ولفظة : وراء تحتمـل في اللغة معنى : خلف وأمـام ، واختيار هـذه اللفـظة تبين صـورة العـذاب الذي يحيط بهؤلاء يـوم القيامـة سواء من أمـامهم أو من خلفهم . وجهنم : هي إسم للنار التي يُعذب بها من يستحق العذاب يوم القيامة .

﴿ وَلا يُغْني عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيئاً ﴾ أي ولا ينفعهم ما كسبـوا في الدنيـا من مـالٍ وجاهٍ وولـد ﴿ وَلا مَا اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّه أَوْلِيَاءَ ﴾ أي لن تنفعهم آلهتهم التي عبدوها من دون اللَّه ولن ينفعهم رؤساؤهم الذين أطاعوهم في الكفر باللَّه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ كما أن لهؤلاء عذاباً مؤلماً لا يحد .

﴿ هَذَا هُدىً ﴾ أي هذا القرآن يهـدي من اتبعه وعمـل به إلى الـطريق القويم ﴿ والَّذين كَفَـروا بِآيَـاتِ رَبِّهِم ﴾ والذين جحـدوا بما في القـرآن من الآيـات الدالـة على الحق ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْـزٍ أَليم ﴾ والرجـز هو أشـد العـذاب ، ولفظة أليم تـأكيد لهـذا العذاب المـوجع الـذي سيقاسـونه يـوم القيامة .

وبعد هذا التهـديد للكـافرين تـأتي الآية التـالية مـذكّرة بنعم اللَّه على الإنسان التي يجب أن تُقابل بالشكر لا بالجحود والنكران :

﴿ اللَّهُ الَّـذي سَخَّر لَكُمُ البَحْـرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيـهِ بِأَمْـرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾ (١٢) .

سخّـر : ذلل وأخضـع ، فالله خلق البحـار وطوّعهـا لخدمـة الإنسـان وذللهـا لمنافعـه ، فجعلها صـالحة للمـلاحة وذلـك بما أودع في المـاء من خصائص استغلها الإنسان في صنع السفن التي تخوض عباب المـاء بإذنـه سبحانه ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ والابتغاء هو الطلب ، والفضل هو الخيـر ، أي ولتطلبوا خيرات اللّه التي أودعها اللّه في البحر .

والبحـر مصدر القـوت الأسـاسي لكثيـر من الشعـوب التي تعتمـد في غـذائها على أحيـائه ، كمـا أن البحر يعتبـر من أهم طرق المـواصـلات ، بالإضافة إلى ما يستخرج منه من أدوات الزينة كاللؤلؤ والمرجـان ، ومـا فيـه من متعة للإنسان بالاستحمام به في أيام الحر . ويعقِّب القرآن على منافـع البحـر بقولـه : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ أي كي تشكـروا ربكم على تسخيـر البحر لكم ، وتشكروه عند كل منفعة تنالونها من البحـر ، فتعبدوه وتـطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

وبـالإضـافـة إلى البحرّ فقـد سخّـر اللّه لـلإنسـان مـا في السمـاوات والأرض :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرون ﴾ (١٣) .

فاللّه سبحانه سخّر للناس جميعاً مـا في السماوات من شمس وقمـر ونجوم ، وسخّر لهم ما في الأرض من حيوان ونبـات وجبال وسهـول وأنهار وبحـار ، لقد سخـرها اللّه ﴿ جَميعـاً مِنْه ﴾ أي هي جميعـاً منه سبحـانه ،

ومخلوقة منه تفضّل بإنعامها عليكم أيها الناس ، فلا تجعلوا له شريكاً في العبادة ، فإنه لا إلّه لكم سواه .

فالآية : ﴿ وَسَخَّر لَكُم مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْض ﴾ هي توجيه للمؤمنين بأن يستغلوا كل طاقاتهم في عمارة الأرض ، وتحسين مستوى معيشتهم بشتى الأساليب التقنية ، والطرق العلمية ، التي تعود عليهم بالنفع في شتى مجالاتهم الصناعية والعمرانية والحضارية . فدين الإسلام ليس دين رهبانية وتواكل ، وانقطاع عن ملذات الحياة المشروعة ، كما أنه ليس بدين مخدر للشعوب كما يزعم دعاة المادية .

وإن النهضة الحضارية التي قامت في القرن العشرين تتوافق مع توجيهات الإسلام هذه التي نوهنا بها ، فقد سخّر الإنسان السماء لمنفعته بواسطة ما استحدث من مخترعات ألهم اللّه الإنسان لصنعها كالطائرات والأقمار الصناعية والمركبات الفضائية ، كما سخر الأرض لمنفعته بواسطة الآلات الحديثة سواء أكان في ميدان الزراعة حيث تضاعف الإنتاج الزراعي ، أم في الحفريات التي قام بها الإنسان في جوف الأرض وحصل بذلك على المعادن والنفط في سبيل منفعته ، فكل ذلك من توجيهات الإسلام التي تقاعس عنها المسلمون وسبقتهم إليها الأمم الأخرى . ثم يختم اللّه الآية السابقة التي نحن بصددها : ﴿ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ أي إن في تلك الأمور علامات ودلالات للذين يتفكرون في بدائع صنع اللّه فيستدلون بها على وجوده ووحدانيته .

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا
يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ
فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ
لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ

شرح المفردات

يَغفِروا : يعفوا ويصفحوا .

لا يرجُون أيَّام اللَّه : لا يأملون ثواب اللَّه.

ليَجْزيَ : ليحاسب ، فيثيب أو يعاقب .

الكتاب والحكم : التوراة ، والفصل بين الناس في الخصومات .

وَفضلناهم على العالمين : وفضلهم الله على أهل زمانهم .

بيِّنَاتٍ مِنَ الأمر : شرائع واضحة في الحلال والحرام .

بغياً بينهم : ظلماً وحسداً بينهم .

يقضي : يحكم ويفصل .

شريعةٍ مِنَ الأمر : منهاج واضح من أمر الدين .

لن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّه شيئاً : لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب اللَّه .

أولياء : أصدقاء وأنصار وأحباب .

وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٢٢﴾

شرح المفردات

هَذا بَصَائر للنَّاس : هذا القرآن يبصّر للناس الحق من الباطل ويعرفهم سبيل الرشاد .

اجْتَرحُوا السيئات : عملوا الذنوب .

سَواء : متساوين .

خَتَمَ عَلَى سَمعْه : طبع اللّه على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ولا يفهم الهدى .

وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غشاوةً : جعل على بصره غطاءً حتى لا يبصر الرشد .

أفلا تذكَّرُون : أفلا تتعظون .

تابع سورة الجاثية

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى العفو والصفح عمن يسيئون إليهم من الذين حُرموا نعمة الإيمان ولم يدركوا عظمة القدرة الإلّهية التي بيدها الثواب والعقاب :

﴿ قُلْ لِلَّذين آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِين لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ ﴾ (١٤ ـ ١٥) .

فاللَّه سبحانه يخاطب رسوله محمداً : قل للمؤمنين الذين صدّقوا بوجود اللَّه واتبعوا دينك أن يصفحوا عن الأذى الذي أصابهم من الذين ﴿ لا يَرْجُونَ(١) أَيَّامَ(٢) اللَّه ﴾ أي لا يأملون ثواب اللَّه ونصره لعباده الصالحين ، وذلك ناشىء من عدم إيمانهم بوعد اللَّه ، أو بمعنى : لا يخافون عقاب اللَّه لأعدائه ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ليجزي الكفار بما عملوا من السيئات كما أنه سيجزي المؤمنين بما عملوا من الحسنات .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي من عمل من عباد اللَّه بطاعته وانزجر لنهيه فلنفسه عمل ذلك العمل الصالح لأنه خلّص نفسه من عذاب اللَّه ، واللَّه غني عن عمل كل إنسان ، ومن أساء عمله في الدنيا

---

(١) لا يرجون : الرجاء توقع الشيء وفيه مسرّة ، ويأتي الرجاء بمعنى الخوف .

(٢) أيام اللَّه : اليوم زمن مقرون به حدث من الأحداث قلَّ أو كثُر ، فيأتي اليوم بمعنى النقمة على العصاة كأيام اللَّه مع عاد وثمود ، ومن هذا القبيل قولهم : أيام العرب أي حروبهم ووقائعهم ، ويأتي اليوم بمعنى النِعَم التي يسبغها اللَّه على عباده .

فعصى ربه فعلى نفسه جنى لأنه بذلك أسخط ربه ولم يضر أحداً سوى نفسه ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ ﴾ ثم أنتم أيها الناس تصيرون من بعد مماتكم إلى ربكم فيجَازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

ثم تنتقل بنا السورة إلى الحديث عن بني إسرائيل حين خصهم اللَّه في الماضي بكثير من النبوات ، ولكنهم اختلفوا في مضمونها :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الكِتَابَ وَالحكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ القِيامَةَ فِيمَا كَانوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦ ـ ١٧) .

فاللَّه أعطى بني إسرائيل (الكِتَابَ) وهو التوراة ، وأعطاهم بعد ذلك الإنجيل ، كما أَعطاهم (الحُكْمَ) يعني الفهم بالكتاب ، ومعرفة أحكام اللَّه فيه . وقيل معنى الحكم : العلم بفصل الخصومات بين الناس والقضاء ، فقد كان منهم قضاة كثيرون . كما أن اللَّه جعل فيهم أنبياء كثيرين، ورزقهم اللَّه من طيبات الأرض من الثمار والأطعمة والمنّ والسلوى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ أي فضَّلهم اللَّه على سائر الناس الذين كانوا في زمانهم حيث خصّهم بالشريعة الإِلٓهية ، كما أن اللَّه أعطاهم ﴿ بيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ ﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام ، ولكنهم اختلفوا في أمور دينهم .

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم ﴾ أي ما وقع الخلاف بينهم في أمور الدّين إلّا من بعد أن جاءهم العلم بحقيقة الدين وأحكامه ، وهذا الخلاف كان بسبب البغي بينهم ، والبغي يطلق على

الظلم والتكبر والحسد ، أي ان اختلافهم كان تجاوزاً عن الحق وظلماً وتحاسداً ، وحبًّا للرياسة والسلطة .

﴿ إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي إن اللّٰه يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين بعد العلم بحقيقته .

وبعد أن انتهت النبوّة في بني إسرائيل بسبب ظلمهم يبيّن اللّٰهُ أنه جعلها في رسوله محمد ﷺ حيث خصّه سبحانه بشريعة تبين الحق الذي اختلف فيه الناس وتردُّهم إلى جادة الصواب :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِين لا يَعْلَمُون . إِنَّهُم لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ المتَّقِينَ . هَـذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١٨ ـ ٢٠) .

فاللّٰه يقول : ثم جعلناك يا محمد على طريقة ومنهاج من أمر الدين وهي ملة الإسلام فاتبع هذه الشريعة، ولا تتبع أهواء الجهّال كالمشركين وغيرهم من طوائف اليهود . فالقضية واضحة لا لُبْسَ فيها وهي أمران لا ثالث لهما ، فإما اتباع شريعة اللّٰه التي تعتمد على الحق والعدل ، وإما اتباع أهواء الذين لا يعلمون الذين يعتمدون على نزوات النفس، ولا يراعون الحق والعدل . ويتابع القرآن مخاطبة النبي : ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّٰه شَيْئاً ﴾ أي أن هؤلاء الجاهلين بربهم لن ينفعوك يا محمد إن أنت اتبعت أهواءهم وخالفت شريعة ربك ، ولن يدفعوا عنك عقاب اللّٰه إن هو عاقبك إذا اتبعت أهواءهم ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ والوليُّ للمرء هو المحب والصديق والنصير ، فالظالمون فيما بينهم هم أصدقاء

وأنصار وأحباب لبعضهم البعض ﴿ واللَّه وَليُّ المتَّقِينَ ﴾ واللَّه ناصر ومعين المؤمنين الذين اتقوا ربهم ، واتقاء اللَّه هو تجنب عذابه وذلك بالعمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه . ولا بُدَّ من الإشارة إلى ما توحي هذه الجملة ﴿ واللَّهُ وَلِيُّ المتَّقِينَ ﴾ من دلالات في التوجيه ، فإن فيها إيحاءً للنبي وللمؤمنين بأنه إذا كان الظالمون يتناصرون بينهم ضد النبي وضد المؤمنين وضد شريعة اللَّه فلا يَدَعُوا الوهن والخوف يتسرّب إلى نفوسهم لأن اللَّه معهم وناصرهم ومؤيدهم ، ومن كان اللَّه معه فلن يُغلب أبداً .

﴿ هَذَا بَصَائِرُ للنَّاس ﴾ فاللَّه يقول : هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد هو بصائر للناس يبصرون به الحق من الباطل ، ويعرفون به سبيل الرشاد . والبصائر : جمع بصيرة ، وهي نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به يبصر ، والمعنى المجازي للبصيرة : البيان ، والحجة الواضحة ، والعبرة يعتبر بها . فالقرآن بما فيه من البيانات الشافية ، والحجج الواضحة بمنزلة البصائر في القلوب ، كما أن القرآن ﴿ هُدىً ﴾ أي رشاد للذين يتخبطون في الضلالة ، وهو أيضاً ﴿ رَحْمَةٌ ﴾ لهم بما فيه من مبادىء العدالة والخير ﴿ لقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ واليقين هو العلم الذي لا يتطرق إليه شك ، وإذا أيقن الإنسان بخصائص القرآن هذه تمسك به ، وسار على هديه ، فكان له نوراً في ظلمات هذه الحياة .

ثم يُبيّن القرآن أن المؤمن لا يتساوى مع الكافر لا في هذه الحياة ولا بعد الممات :

﴿ أمْ حَسِبَ الَّذين اجْترَحُوا السَّيِّئَاتِ أنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) .

فاللَّه يقول : أيظن الذين اكتسبوا السيئات من الأعمال في الدنيا

وكذبوا رسل اللَّه وخالفوا أمر ربهم وعبدوا غيره أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا باللَّه وصدقوا رسله وعملوا الصالحات من الأعمال ، كلا ! ما كان اللَّه ليجعلم كذلك ﴿ سَواءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ ﴾ فاللَّه لا يسوي بين الكافر والمؤمن في الحياة وما بعد الموت . ففي الحياة نرى المؤمن منشرح الصدر ، مطمئن الضمير ، يعمل الصالحات التي ينعكس خيرها على المجتمع ، بينما المسيء نراه مظلم القلب ، مضطرب النفس ، تكون أعماله شراً على مجتمعه ، واللَّه سيُعلي شأن المؤمن في الآخرة كما أنه سيخزي المسيء ، وكل نفس ستجزى بأعمالها يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي سَاء حُكم الكافرين في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين ، ولقد ميّز اللَّه بين الفريقين فجعل المؤمنين في جنات النعيم ، والكافرين في النار .

وتسوية المؤمن بالكافر هو ظلم ؛ والسماوات والأرض قامتا على الحق كما تصرّح بذلك الآية التالية :

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٢) .

فاللَّه يقول إنه خلق السماوات والأرض بالحق ، ومن الحق أن يكون الوضع مختلفاً في الحكم على كلٍ من المسيء والمحسن . واللَّه يجزي كل إنسان بما عمل : المحسن بالإحسان ، والمسيء بالعقاب ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي بنقص في ثواب المحسن ولا يزاد في عقاب المسيء .

ولا بد من التمهل قليلاً عند كلمة « الحق » فاللَّه سبحانه حين قال : إنه خلق السماوات والأرض بالحق فما ذلك إلّا ليبين أن قانون الحياة كله قائم على الحق ، وكل من أراد أن يتجاوزه كان ذلك خروجاً على طبيعة

الكون . والجدير بالذكر أن القرآن ذكر كلمة الحق في كثير من الآيات ، فرسالة محمد قائمة على الحق : ﴿ إنَّا أَرْسَلْناك بِالحَقِّ بَشيراً وَنَذِيراً ﴾ (البقرة : ١١٩) .

والقرآن قائم على دعوة الحق : ﴿ وَبِالحقّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء : ١٠٥) .

ورسل اللَّه جاءت شرائعهم من اللَّه بالحق ﴿ لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحق ﴾ (يونس : ٣٢) .

والقرآن وصف اللَّه سبحانه بأنه الحق : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ ربُّكُم الحق ﴾ (الأعراف : ٤٣) . ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الملِكُ الحق ﴾ (طَه : ١١٤) وكل معبود سواه هو الباطل .

واللَّه أمر بالحق عند الفصل في المنازعات : ﴿ يا داودُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرْض فاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بالحق ﴾ (صٓ : ٢٦) .

وكلمة « الحق » هي نقيض الضلال كما هي نقيض الباطل وليس بينهما صلة وصل وارتباط ﴿ فماذا بَعدَ الحقِّ إلَّا الضلال ﴾ (يونس : ٣٢) . ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ﴾ (الإسراء : ٨١) .

هذه هي نظرة الإسلام إلى الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض ، فمن تمسك به فاز ومن أعرض عنه كان في خسران كما صرحت بذلك (سورة العصر) .

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
(٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ
وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥)
قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ
كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا
كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

شرح المفردات

وما يُهلكنا إلّا الدَّهر : وما يميتنا إلّا مرور السنين والأيام .

المبْطلون : السائرون على طريق الباطل .

أُمَّة : مجموعة من الناس تربطهم لغة أو ملة .

جاثية : جالسة على الركب .

إنّا كُنَّا نَستنسخ : أي إن اللّه يأمر الملائكة أن تكتب .

فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا
وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

وَعْدَ اللَّه حق : أي ما وعد اللَّه من حصول البعث هو كائن حقاً .

والسَّاعة لا ريب فيها : والقيامة لا شك في وقوعها .

وبدا لهم سيئات ما عملوا : وظهر لهم جزاء السيئات التي عملوها في دنياهم .

وَحَاقَ بهم : نزل بهم وأحاط .

هُزُواً : سخرية .

مَأْواكُمُ النَّارُ : مسكنكم ومستقركم .

غَرَّتْكُمُ الحياةُ الدنيا : خدعتكم بأباطيلها وزخارفها .

يُسْتَعْتَبونَ : أي لا يطلب منهم أن يُرضُوا ربهم بالتوبة والعمل الصالح .

تَابع سُورَة الجَاثِيَة

وبعد أن قررت الآية السابقة اعتماد الحق وهو أصل جوهري في منهج الإسلام تأتي الآية التالية مندّدة بمن يحيد عن هذا الأصل ويجنح عن الحق إلى اتباع الأهواء إلى حد العبادة :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ على عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٣) .

فاللَّه يقول : أنظرتَ يا محمد حال ذلك الإنسان الذي اتخذ هواه إلَهاً له ، فلا يهوى شيئاً ويستحسنه إلا عبده واتخذه إلَهاً ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي أضله في سابق علمه ، أو بإضافة العلم للضال ، بمعنى أضله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه بأن عبادة غير اللَّه كفر وضلال .

﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي طبع اللَّه على سمعه فلا يعي ما يسمع من مواعظ ليعتبر بها ، ولا يفكر بما فيها من النور والهدى ، كما طبع على قلبه فلا يعقل به شيئاً ولا يعي به حقاً ، والمراد بالقلب هنا العقل ، وكثيراً ما يذكر القرآن القلب ويقصد به العقل لأنه موطن الإدراك كما في قوله تعالى ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ .

﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَة ﴾ أي وجعل على بصره غطاء فلا يبصر به حجج اللَّه فيستدل بها على وحدانيته ويعلم أن لا معبود سواه ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ فمن يوفقه لاتباع الحق وإدراك الرشد بعد إضلال اللَّه إياهُ وذلك بسلوكه طريق الضلال ﴿ أَفلا تَذَكَّرُون ﴾ أي أفلا تتعظون فتخصّوا ربكم وحده بالعبادة وتتركوا عبادة أهوائكم ، لأن من تذكّر رجع إلى صوابه

فاتبع الحق وترك عبادة الهوى .

والهوى ما يميل إليه الإنسان مما يحب ، فالبعض يميل إلى الشهرة ، والبعض إلى المال ، والبعض إلى النساء ، والبعض إلى حب السيطرة . وإذا سيطر الهوى على النفس هجر المرء طاعة ربه ، وأصبح الهوى معبوده يملي عليه رغباته فيطيعه كما يطيع المرء ربه ، وفي ذلك إفساد للمجتمع ، لأن الهوى(١) يصدر من حب الذات والأنانية المفرطة ، وإذا انقاد الناس إلى أهوائهم وعبدوها من دون اللَّه كان ذلك مثار التنازع والضلال ، أما في اجتماعهم على عبادة اللَّه وحده التي هي اجتماع على كلمة الحق ومصلحة المجموع فإن ذلك داعٍ إلى توحيد قلوبهم وسلوك الطريق المؤدي بهم إلى سعادتهم .

ثم ينتقل القرآن إلى تفنيد عقيدة راسخة في نفوس كثير من الجاهليين العرب قبل الإسلام الذين كانوا يقولون بتأثير الدهر ، ونكران البعث والخالق والرسل وينسبون حدوث كل شيء إلى فعل الدهر ، وهم الذين أطلق عليهم إسم « الدهرية » وهؤلاء كانوا يضيفون النوازل التي تنزل بهم من موت أو هرم إلى الدهر فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر فاعلاً لكل ذلك فيذمونه ويسبونه ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم .

والمعنى الذي نفهمه من « الدهر » في الشعر الجاهلي هو الأبدية مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم ، ولهذا أضافوا إليه بعض الألفاظ التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة ، فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ،

---

(١) الهوى يمكن أن يكون مشروعاً إذا ما مال المرء وأحب ما هو مشروع ومباح قال عليه السلام : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

وعدواء الدهر ، وأمثال ذلك من تعابير ، فنسبوا إليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه .

والقرآن يبين أن معتقدات الدهريين قائمة على الظنون والأوهام ، ولا دليل لهم في إثبات معتقدهم :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلمٍ إنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢٤) .

فهم يقولون : ما هي إلّا حياتنا الدنيا نحياها ، فليس هناك بعث ، ولا حساب ولا جزاء بعد الموت ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي نموت نحن في هذه الحياة ويحيا أولادنا ، أو يموت بعضنا ويحيا البعض ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي وما يهلكنا إلّا مرور الزمان وتعاقب الأيام . فالدهريون يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي ، وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر اللّه . ولو أن الدهر هو الذي يميت الناس لكان ينبغي أن يكون له نظام وأجل محدد يميت الناس فيه ، ولما كان ينبغي أن يموت الأطفال لأن الدهر لم يُجْرِ تجربته عليهم ، وعلى هذا فالدهر بمعنى توالي الأيام لا يصلح سبباً للموت ، ولذا قالت الآية ﴿ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس عندهم لهذه المعتقدات مستند علمي يبنون عليه معتقدهم ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فمعتقداتهم ما هي إلّا مجرد ظنون وأوهام ليس لها من الحقيقة سند .

والرسول محمد ﷺ ناقش معتقدات الدهريين بقوله فيما يرويه عن ربه : « يقول اللّه : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر أُقَلِّب ليله ونهاره » .

فالعرب في جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة

الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو اللَّه ، فكأنهم سبوا اللَّه لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى الرسول عن سب الدهر بهذا الاعتبار .

وبعد أن عالج القرآن معتقدات الدهريين نقل عن لسانهم أموراً تعجيزية طالبوا بها وناقشهم القرآن بشأنها :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يَجْمَعُكُم إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ (٢٥ ـ ٢٦) .

والمعنى : وإذا قرئت على المشركين والدهريين آيات القرآن وهي واضحات الدلالة على إثبات قدرة اللَّه على بعث الأجسام بعد الموت للحساب ، ما كانت الحجة التي يتعللون بها إلّا قولهم أحيوا آباءنا الأموات إن كنتم صادقين أن هناك بعثاً وجزاءً . وهنا يأتي الجواب مفحماً لا يترك مجالاً للرد ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُم ثُمَّ يُمِيتكم ﴾ أي قل لهم يا محمد : اللَّه يحييكم في الدنيا من العدم ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم . فطلبهم الذي أعلنوه وهو إحياء آبائهم وإثبات قدرة اللَّه هي ظاهرة تشاهد وتتجدد أمام أعينهم كل يوم فلا داعي لإنكار قدرة اللَّه ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُم إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي ثم يجمعكم في يوم القيامة أحياء للحساب كما أحياكم في الدنيا ، فالقادر على الإحياء أول مرة قادر على إعادتكم أحياء بعد الموت ﴿ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ فأكثر الناس لا يعلمون أن هناك حساباً وجزاءً بعد هذه الحياة .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها تأكيد لوقوع البعث الذي ينكرونه مع وصف بعض مشاهده:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُون . وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَومَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧ ـ ٢٩) .

أي و للّه وحده ملك السماوات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً ، وحين تقوم ﴿ السَّاعة ﴾ أي القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبْطِلونَ ﴾ حينذاك يخسرُ الذين اتبعوا الباطل وأنكروا هذا اليوم . ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثية ﴾ أي وترى يوم القيامة أهل كل دين أو ملة جالسة على الركب من هول الموقف ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدعى إلى كِتَابِهَا ﴾ أي أهل كل دين يُدعون إلى الحساب بموجب صحائف أعمالهم التي سجلتها الملائكة في حياتهم الدنيا ، وقد ذُكر الكتاب مفرداً وأريد به الجنس لأن كل واحد من أفراد الأمة له كتاب خاص فيه سجلُّ أعماله ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي هذا الكتاب الذي فيه سجل أعمالهم يشهد عليهم بما عملوا شهادة صدق ، وقد أضيف الكتاب إلى اللّه وإن كان المراد به كتاب كل إنسان ، لأن اللّه هو مالكه ، وهو الآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال العباد ﴿ إِنَّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ أي أن اللّه كان يأمر ملائكته بكتابة كل ما يعمله الناس في الدنيا من أعمال ليحاسبهم عليها يوم القيامة .

وبعد أن بيّن اللّه أن أعمال كل إنسان مسجلة في كتاب عقّب على ذلك ببيان مصير المؤمنين في الآخرة وما أعد اللّه لهم من ثواب :

﴿ فَأَمَّا الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ في رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٠) .

فاللَّه تعالى يقول : فأما الذين صدّقوا بوجود اللَّه ولم يشركوا به شيئاً ﴿ وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي وعملوا بما أمرهم اللَّه به وانتهوا عمّا نهاهم عنه فيدخلهم ربهم ﴿ في رَحْمَتِهِ ﴾ أي في جنته جزاءً لهم ،وسميت الجنة باسم الرحمة مجازاً لأن الجنة مكان للرحمة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ المبِينُ ﴾ أي أن دخول المؤمن في رحمة ربه وجنته هو الفوز البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه .

أما الكافرون فيضعهم اللَّه في الآخرة أمام واقعهم المؤلم ، ويذكّرهم بما كان منهم في الدنيا من إجرام ونكران للآخرة :

﴿ وَأمَا الَّذِين كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجرِمينَ . وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ والسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْري ما السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقنينَ ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

فالذين جحدوا وحدانية اللَّه يقال لهم توبيخاً وتقريعاً : أما قرئت عليكم آيات القرآن فاستكبرتم عن الاستماع إليها والإيمان بها ، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم من الكفر باللَّه ، واقتراف الآثام ، والتكذيب بالبعث ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حقٌّ ﴾ أي وإذا قيل للكافرين إن وعد اللَّه حق ، وهو أنه محيي عباده بعد مماتهم للجزاء ﴿ والسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي والقيامة آتية لا شك فيها ﴿ قُلْتُم مَا نَدري ما السَّاعة ﴾ أي قلتم استغراباً واستبعاداً لها : أي شيء هي القيامة ﴿ إنْ نَظُنُّ إلَّا ظَنًّا ﴾ أي لا نعتقد بوقوعها إلّا على سبيل الظن ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقنين ﴾ أي لسنا على يقين من وقوعها .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مصير الكافرين وما أعدّ اللَّه لهم من عذاب دائم في الآخرة :

﴿ وَبَدا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون . وَقِيلَ الْيَومَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ نَاصِرِين . ذَلِكُم بِأَنَّكُم اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ، وَغَرَّتْكُمُ الحَياةُ الدُّنيَا ، فَالْيومَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فاللَّه تعالى يقول : وظهر لهؤلاء الكفرة في الآخرة أعمالهم القبيحة ، ونزل بهم من عذاب اللَّه حينئذٍ ما كانوا يسخرون به في الدنيا ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُم ﴾ وقيل لهؤلاء الكفرة : اليوم نهملكم ونتركم في عذاب جهنم ﴿ كما نَسِيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا ﴾ كما تركتم العمل الصالح الذي تلقون به ربكم يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُم اتَّخَذْتُم آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ أي هذا الذي حل بكم من عذاب اللَّه سببه أنكم في الدنيا اتخذتم آيات القرآن سخرية تستهزئون بها ﴿ وَغَرّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ وخدعتكم زينة الحياة الدنيا فآثرتموها على العمل بما ينجيكم يوم القيامة من عذاب اللَّه ﴿ فَالْيَومَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي فاليوم لا يستطيع أحد إخراج هؤلاء من النار ﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْبَونَ ﴾ ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم وذلك بأن يردوا إلى الدنيا ليتوبوا ويرجعوا إلى طاعة اللَّه لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة .

وبعد هذا المصير الرهيب للكافرين تختتم هذه السورة بالحمد والتمجيد للَّه رب العالمين :

﴿فللَّه الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاواتِ وَرَبِّ الأَرْض رَبِّ العَالمين . وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض وَهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٣٦ ـ ٣٧) .

﴿ فَللَّهِ الْحَمْدُ ﴾ أي الثناء على اللَّه بتمجيده وتعظيمه لنعمه على

خلقه ﴿ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الأَرْض رَبِّ العَالمين ﴾ كرر القرآن لفظة الربوبية للّه ثلاث مرات للتأكيد على ربوبيته للكون سمائه وأرضه وإنسه وجنه . والرب يطلق في اللغة على المالك والسيد المطاع والمدبّر والمربي والقيم ولا يطلق غير مضاف إلاَّ على اللّه، فربوبية اللّه للكون تستوجب الثناء عليه .

وبعد بيان ربوبية اللّه للكون يأتي بيان الكبرياء للّه ﴿وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ﴾ والكبرياء الترفع عن الانقياد وذلك لا يكون إلّا للّه وحده ، وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربه : « يقول اللّه تعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري »[١] .

كما أنه سبحانه هو ﴿ العزيز ﴾ أي القوي الغالب الذي يَقهر ولا يُقهر وهو سبحانه ﴿ الحكيم ﴾ والحكمة من اللّه معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ، فهذا الكون أقامه اللّه بحكمته وتدبيره على هذه الحكمة الباهرة الظاهرة في كل مخلوق من مخلوقات اللّه .

ويلاحظ أن السورة قد ختمت بمثل ما افتتحت من وصف اللّه : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ وهذا يضفي على السورة روعةً وجلالاً وتترك الفكر مأخوذاً مبهوراً بعظمة اللّه القاهرة وحكمته الشاملة .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
التفسير الكبير للفخر الرازي
تفسير القرآن لابن كثير
تفسير فتح القدير للشوكاني
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد بن محمد العمادي
تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي
تفسير روح المعاني للألوسي
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .

الفهرس

روح القرآن الكريم

تفسير جزء الأحقاف

الجزء السادس والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَـذَا التَّفْسِيْر

• يعَرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرِض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصَّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون:
دَارُ العِلمِ للمَلايِين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

تـــوضيح

الجزء السادس والعشرون هذا يبتدىء بسورة الأحقاف ، وينتهي بالآية ٣٠ من سورة الذاريات ، التي فسرناها كاملة في كتابنا السابق : تفسير جزء والذاريات (الجزء السابع والعشرون) ، لذلك اقتضى التنويه .

روح القرآن الكريم

تفسير جزء الأحقاف

الجزء السادس والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

آذار (مارس) ١٩٨٩

سورة الأحقاف

هذه السورة تبين أن القرآن منزل من عند اللَّه الواحد الذي لا شريك له ، كما تبين بطلان عبادة الأصنام بأدلة عقلية لا تقبل النقض ، مع الاستخفاف بها وبعابديها ، ثم تذكر السورة إنكار الكافرين للقرآن ولنبوة محمد ﷺ ، وما يتعللون به من أباطيل ، فتردُّ على إنكارهم ومفترياتهم بأبلغ بيان ، كما تَذْكُرُ وعد اللَّه للمستقيم بحسن الجزاء مستطردة بذكر مِثال للمستقيم البارّ بوالديه ، ومثال آخر لغير المستقيم العاق بوالديه .

وهذه السورة اشتملت كذلك على وعيد اللَّه للكافرين بالهلاك مع ذكر ما وقع لأمثالهم من الأمم السابقة من العذاب والهلاك . كما عرضت السورة قصة نفر من الجن آمنوا بالقرآن حين استمعوا له ورأوا ما فيه من الهدى والحق ، ثم أعقبت ذلك بإثبات البعث ، وإقامة الدليل عليه ، ثم ختمت السورة بدعوة النبي ﷺ إلى الصبر على ما يلاقيه من قومه من أذى .

وهذه السورة إحدى سبع سُور تستهل بـ « حم » ويطلق على هذه السُّور « الحواميم » أو « آل حم » وقد ذُكِرَ عن الصحابة بعض فضائل هذه السور فقال ابن مسعود : آل حم ديباج القرآن . وقال ابن عباس : إن لكل شيء لِباباً وَلِبَابُ[1] القرآن الحواميم .

---

(١) اللباب : المختار الخالص من كل شيء .

سُورَةُ الأَحْقَاف

مكيّة، وآياتها خمسٌ وثلاثون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ
أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي
مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ
هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ
غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ

شرح المفردات

أَجَل مُسَمًّى : الوقت الذي ينتهي إليه فناء الكون وهو يوم القيامة .

أُنْذِرُوا : خُوّفوا وحُذِّروا من عقاب اللَّه .

مُعْرِضُونَ : منصرفون عنه ، لا يؤمنون به ولا يهتمون له .

مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ : ما تعبدون من أصنام وغيرها من دون اللَّه .

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّمَاوَاتِ : أم لهم شركة ونصيب مع اللَّه في خلق السماوات .

أَثَارَةٍ مِنْ عِلْم : بقية من علم مكتوب وصلت إليكم من علم السابقين .

وَمَنْ أَضَلُّ : ولا أحد أشد ضلالاً .

مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ : من لا يجيب دعاءه ولا يحقق رجاءه وهي الأصنام .

حُشِرَ النَّاسُ : جُمِعَ الناس للحساب يوم القيامة .

كَٰفِرِينَ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا
تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ
أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ
يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢

شرح المفردات

وإذا تُتْلَى عَلَيْهِم آياتُنا بيِّنَاتٍ : وإذا قُرئت عليهم آيات القرآن الواضحة الظاهرة .

افْتَرَاه : اختلق القرآن من تلقاء نفسه .

فَلَا تَمْلِكُون لي مِنَ اللَّهِ شيئاً : لا تقدرون أن تردّوا عني عذاب اللّه .

تُفِيضُون فيهِ : تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن .

شهيداً : رقيباً .

مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُل : ما أنا بأول رسول من اللّه إلى الناس .

إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : إن كان القرآن من عند اللّه .

هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ : هذا كذب وأساطير قديمة .

إِمَاماً : قدوة يُؤتمّ به في دين اللّه وشرائعه كما يؤتم بالإمام .

وَهَذَا كِتابٌ مُصَدِّقٌ : وهذا القرآن مصدّق لما سبقه من الكتب السماوية .

سُورَةُ الأَحْقَافِ

ايضـــاح و دروس

يَستهلُّ اللّه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن منزل من عنده :

﴿ حمٓ[١] . تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ . مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ (١ ـ ٣) .

تبدأ هذه السورة بالحرفين (حم)[١] وهي بداية تكررت بعينها في ست سُور سابقة ، وكأنها تقول : إن هذا القرآن مؤلف من مثل هذين الحرفين وغيرهما من حروف الأبجدية التي تتكلمون بها ، ولكنه معجز لا تستطيعون الإتيان بمثله ، لأنه كتاب مُنزل من عند الله : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ وتنزيله من اللّه جاء تأكيده في كثير من الآيات القرآنية كما في قوله تعالى : ﴿ وَبالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبالحَقِّ نَزَل ﴾ الإسراء : ١٠٥ . هذا التأكيد من اللّه يأتي لإبعاد كل شك يتسرّب إلى النفوس في أن القرآن من تأليف محمد . وقبيلة قريش كان تكذيبها للنبي ﷺ في أوائل نزول القرآن متجهاً إلى نُكران أن القرآن مُنْزَلٌ من رب العالمين ، لذلك وصفوا محمداً بأنه شاعر ، وتارةً بأنه ساحر ، وتارةً أخرى

---

(١) حم : اختلف العلماء في تأويل هذين الحرفين فقيل إنهما من حروف أسماء الله ، وقيل : حمّ قسم أقسمه وهو اسم من أسماء الله . وقيل : حم هو اسم من أسماء القرآن . وقيل : حم معناه : قُضي ما هو كائن كأن القائل بذلك أراد الإشارة إلى تهجي حم لأنها تصير حُمّ أي قضي ووقع .

بأنه كاهن ، عندما سمعوه يتلو عليهم القرآن الكريم الذي استهواهم ببلاغته وفصاحته ومعانيه . والقرآن يريد أن يَنْزِعَ هذا الوهم والشك من رؤوسهم ، فالذي أنزل القرآن هو اللَّه خالق السماوات والأرض ، كما تُعلن بذلك الآية التالية : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ فاللَّه خلق هذا الكون بالحق أي خلقاً متصفاً بالحق الذي تقتضيه الحكمة الإلٰهيَّة ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي جعل اللَّه لهذا الكون غاية ووقتاً بحيث ينتهي مداه يوم القيامة ، حيث تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات أيضاً .

أما الماديون الملحدون فيدّعون أن هذا الكون وُجِدَ صدفة فلا بداية له ولا نهاية .

والعقل البشري لا يمكن أن يَتَقَبَّل شيئاً حادثاً دون أن يكون له مُحدث ، فهو إذا رأى أية صناعة من الصناعات التي لا تحصى كالساعة والسيارة وآلة الحياكة مثلاً ، لا يمكن أن يتصور أنها صنعت نفسها أو صُنِعت بدون صانع ، فكيف يمكن أن يتصوَّر عاقل أن هذا الكون بسمائه وأرضه ، وما فيه من عجائب الصنع وإعجاز الخلق قد أوجد نفسه ، أو خُلِقَ صدفةً واتفاقاً .

فكلا الكتابين : كتاب (القرآن) المعجز بأسلوبه وهديه وتشريعه ، وكتاب (الكون) وما فيه من عظمة الخلق والحكمة والتدبير ، كل ذلك ينطق بوجود اللَّه ووحدانيته ، ويشهد بحكمته وعظمته ، ولكن بالرغم من هذه البراهين المفحمة فإن ﴿ الَّذين كَفرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ فهؤلاء الذين جحدوا وجود اللَّه ووحدانيته هم عن إنذار اللَّه إياهم منصرفون لا يتعظون ولا يعتبرون ، فلو أنهم تدبّروا وأمعنوا الفكر في كتاب اللَّه

لعلموا أنه كلام اللَّه الواحد الأحد لا كلام البشر ، ولو أنهم تفكروا مليًّا في أسرار خلق السماوات والأرض لآمنوا بوجود اللَّه ووحدانيته وتركوا عقائدهم الفاسدة من عبادة الأصنام وغيرها .

ثم ينتقل القرآن إلى إنكار ما كان عليه مشركو العرب من عبادة الأصنام والشرك باللَّه . وفي القرآن إشارات إلى أنواع من الشرك كان عليها العرب قبل الإسلام .

منها : عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب والمعادن .

ومنها : عبادة الجن الذين هم شركاء اللَّه في زعمهم .

ومنها : عبادة الملائكة التي يعتبرونها بنات اللَّه .

ومنها : عبادتهم لبعض النجوم كالشعرى ، وعبادتهم للشمس والقمر .

هذا وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الأصنام شفيعة لهم عند اللَّه فهم يعبدونها لتقرّبهم إلى اللَّه ، وقد كانت عبادة الأصنام منتشرة انتشاراً واسعاً في جزيرة العرب قبل الإسلام حتى كان أهل كل دار يتخذون صنماً في دارهم يعبدونه .

والقرآن يأمر رسوله محمداً ﷺ بأن يطلب من المشركين وعبدة الأصنام الدليل والبرهان على أن معبوداتهم تستحق العبادة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُم شِركُ في السَّمٰوَاتِ ؟ آئتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أو أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

هـذه الآية لا نملك إلاّ أن نقف أمـامها بـإجلال لمـا تشتمـل عليـه من الأدلة الساطعة على بطلان المعبودات المختلفة التي كان يعبدها العرب في الجـاهليـة ، فهي تـطلب منهم الـدليـل تلو الـدليـل على صحـة ألــوهيـة معبـوداتهم . ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُم مَـا تَـدْعُــونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قـل لهم أيهــا الرسول : أخبروني عن حال آلهتكم التي تعبدونها ﴿ أَرُونِي مَـاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أعلموني ماذا خلقوا مما على الأرض من جمـاد ونبات وحيـوان ﴿ أَمْ لَهُمْ شِـرْكٌ فِي السَّماوَاتِ ﴾ أم لهم نصيب وشـركـة مـع اللَّه في خلق السماوات ﴿ ائْتُونِي بِكَتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أعطوني كتاباً منزّلاً من عند اللَّه من قبل هذا القرآن الذي أُنـزل عليّ يدلّ على صحـة دينكم ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أو بقيَّة مِنْ عِلْمِ الأولين مكتوبة تشهد باستحقاقها العبادة ﴿ إن كُنْتُم صادِقِينَ ﴾ بأن هذه المعبودات هي جديرة بالعبادة .

وهكـذا نرى أن القـرآن يستثير فيهم منـطق العقل القـائم على الحجـة والبـرهان ليصلوا من خـلال ذلك إلى الإعتقـاد بوحـدانيـة اللَّه ونبـذ عبـادة الأصنام .

ثم يبيّن القـرآن بعـد ذلــك بـأن هــذه الآلهـة المعبــودة من دون اللَّه لا تستجيب لـدعائهم إذا دعـوها ولا تشعـر بهم ، وأن الذين يعبـدونهـا هم أجهل خلق اللَّه .

﴿ وَمَنْ[١] أَضَـلُّ مِمَّن يَدْعُـو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَـوْمِ القِيَـامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعـائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِـرَ النَّاسُ كـانوا لَهُمْ أَعْـدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كافِرِينَ ﴾ (٥ ـ ٦) .

---

(١) من : استفهامية ولكن الاستفهام هنا للإنكار والنفي لأن يكون أحد يساوي عبدة الأصنام في الضلال .

والمعنى : لا أحد أضلّ وأجهل من هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والملائكة والجن لأنهم تركوا عبادة اللّه السميع المجيب القادر على كل شيء ، ودعوا هذه المعبودات التي لا قدرة لها على استجابة دعائهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ، وهذه المعبودات في غفلة عن دعائهم ﴿ وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ وإذا قامت القيامة وجُمِعَ الناس للحساب على أعمالهم كانت هذه المعبودات لهم أعداء فتتبرأ منهم ، وتكفر بعبادتهم لها .

فإن قيل : كيف تتكلم هذه الأصنام وهي من الجمادات ؟ يُجاب عن ذلك : بأن اللّه سبحانه قد يضع فيها الحياة لتجابههم بالعداء وتتبرأ منهم .

ثم يبين اللّه موقف المشركين من القرآن ومن نبوّة محمد ﷺ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لي مِنَ اللَّهِ شَيئاً ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧ ـ ٨) .

فهؤلاء المشركون حينما يُقرأ عليهم القرآن مبيّنة فيه الأدلة الواضحة على أنه وحي إلّهي كانوا يصفون القرآن وهو الحق : إنه سحر يخدع من سمعه ، وأن خداعه ظاهر واضح

ولا يكتفي المشركون بذلك بل يضيفون تهمة الكذب للنبي ﷺ ولهذا ينكر اللّه عليهم ذلك بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » للإنكار والتعجب ، وافتراه : أي اختلقه ، والمعنى : عجباً للذين ينسبون الكذب للنبي ﷺ ويقولون : إن القرآن من تأليفه لا من عند اللّه . أمام هذا الافتراء

يأمر اللّه النبي أن يخاطب قومه : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكونَ لي مِنْ اللّهِ شَيْئاً ﴾ أي لو كذبت على اللّه ـ كما تدّعون ـ لعاجلني بعقوبة الإفتراء عليه ، ولن يقدر أحد من أهل الأرض أن يدفع عني عقابه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فيه ﴾ هو أعلم بما تخوضون فيه من الطعن بالوحي الإلٰهي ﴿ كَفى بِهِ شَهيداً بَيْني وَبَيْنَكُمْ ﴾ فهو سبحانه يشهد لي بالصدق في تبليغ الوحي الإلٰهي ، ويشهد عليكم بالكذب والافتراء على وحيه ﴿ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم ﴾ وفي هذا ترغيب لمن يبغي العودة إلى الحق حيث يجد عند اللّه المغفرة والرحمة .

وبعد ذلك يأمر اللّه رسوله محمداً بأن يبلّغ قومه حقيقة رسالته :

﴿ قُلْ : مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي ما يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٩) .

أي قل لقومك يا محمد : ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعاً[١] من الرُّسُل ﴾ أي ما أنا بأول رسول من اللّه إلى خلقه فقد سبقني كثير من الرسل أُرسلوا إلى أمم قبلكم ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكُمْ ﴾ وقل لهم : ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم يوم القيامة ، أو بما يصير إليه أمري وأمركم في هذه الدنيا . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أي ما أتبع إلاّ القرآن الذي أوحاه اللّه إليّ ﴿ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مَبِينٌ ﴾ وما أنا إلاّ محذّر ومخوف لكم عقاب اللّه بالحجج الواضحة إن بقيتم على كفركم .

ثم يدعو القرآن المشركين إلى التمعّن في حقيقة الإسلام لافتاً النظر إلى إسلام بعض علماء اليهود الَّذِينَ درسوا الأديان السابقة فاستمالهم

---

(١) بدعاً : البدع والبديع من الأشياء ما لم يُرَ مثله سابقاً .

الإسلام لِمَا فيه من الهدى والحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ[١] عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) .

ومعنى الآية : قل يا محمد للذين زعموا أنك اختلقت القرآن : أخبروني عن حالكم عند الله إن ثبت أن القرآن وحي إلّهي وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل المطّلعين على التوراة ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أي على نزول مثل القرآن على موسى وهي : التوراة المطابقة لما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وفيها مكتوب صفة النبي الموعود وهو محمد ﷺ مثل ما هو مكتوب في القرآن أنه نبي . ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فآمن هذا الشاهد بالقرآن لَمَّا عَلِمَ أنه وحي إلّهي واستكبرتم عن الإيمان ، ألا تكونون في هذه الحال من الظالمين لأنفسكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يوفق الظالمين إلى الهدى والحق .

---

(١) روي في أسباب نزول هذه الآية : أنه لما أراد عبد الله بن سلام أن يُسلم قال يا رسول الله : قد علمت اليهود أني من علمائهم ، وأن أبي كان من علمائهم وإني أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوباً عندهم في التوراة ، فأرسل إلى فلان وفلان ، ومن سماه من اليهود ، وخبئني في بيتك وسلهم عني ، وعن أبي ، فإنهم سيحدثونك أني أعلمهم ، وأن أبي من أعلمهم ، وإني سأخرج إليهم ، فأشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوباً عندهم في التوراة ، وأنك بُعثت بالهدى ودين الحق ، قال : ففعل رسول الله فخبأه في بيته ، وأرسل إلى اليهود ، فدخلوا عليه ، فقال رسول الله : ما عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : أعلمنا نفساً ، وأعلمنا أباً . فقال رسول الله : أرأيتم إن أسْلَمَ تُسلمون ؟ قالوا : لا يُسلم (ثلاث مرات) فدعاه الرسول فخرج ، ثم قال : أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوباً عندهم في التوراة ، وأنك بُعثت بالهدى ودين الحق ، فقالت اليهود : ما كنا نخشاك على هذا يا عبد الله بن سلام ، قال : فخرجوا كفّاراً . (عن الطبري) .

والسبب الـذي كان يتعلل بـه سادات قـريش لرفضهم الإسـلام هو أن أكثر الذين اعتنقوا الإسلام في مستهل الدعـوة الإسلاميـة كانـوا من الفقراء المستضعفين ، بينما هم أصحاب الجـاه والغنى ، وهذا مـا بيّنه القـرآن في الآية التالية :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْـهِ ، وَإِذْ لم يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (١١) .

فكفار قريش قـالوا في شـأن المؤمنين : لو كـان ما جـاء به محمـد من القـرآن والدِين خيـراً ما سبقنـا إليه هؤلاء الفقـراء الضعفاء ونحن أصحـاب الجـاه والغنى ﴿ وإِذْ لَمْ يَهْتَـدوا بِـهِ ﴾ وإذ لم يهتـدوا بـالقـرآن لكبـريـائهم فسيقولون فيه إضافة لما سبق : ﴿ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي هذا القرآن أكاذيب قديمة لا أساس لها من الصحة .

فـالإسلام جـاء ليجمع الأقـوياء والضعفـاء والأغنياء في بـوتقـة واحـدة لا تباين ولا تفاضل بينهم إلا بميزان التقوى والعمل الصـالح ، لكن الكفـار من سـادات العرب الَّـذِينَ تملكتهم نـزعـة الكبـريـاء شق عليهم الـدخـول بـالإسلام ، لمـا يفرضـه من مساواة بينهم وبين الفقـراء المستضعفين فأبـوا الاستجابة لهذا الدِّين الجديد .

ثم يبيّن اللّه أنَّ القـرآن الـذي أُنـزِلَ على محمـد ﷺ ليس أول كتـاب سماوي ، فقد سبقته من قبل التوراة ، وجاء القرآن بلسان عربي مصدقاً لها ومتمماً :

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَـرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢) .

أي من قبل نزول القرآن أَنْزَلَ اللَّه التوراة ﴿ إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ أي قـدوة ورحمة للآخذينَ بها ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ﴾ وهذا القرآن مصدّق للتوراة أو للنبي ﷺ ﴿ لِسَاناً عَرَبِيًّا ﴾ وهو بلسان عربي فصيح تفهمونه ﴿ لِيُنْـذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا ﴾ ليخوّف ويحـذّر الظالمين المعـرضين عن الهدى بعـذاب من اللَّه ﴿ وَبُشْـرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ ومبشـراً للمؤمنين الــذين يفعلون الخيـر بــالنعيم الأبدي .

تـأمل كيف عبّـر عن المؤمنين بالمحسنين ليقـابـل بلفظ الإحسـان لفظ الظلم الذي أطلقه من قبل على الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا
حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى
فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ
عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ
وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ
أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ

شرح المفردات

وضعته : ولدته .

كُرْهاً : مشقة .

فِصَالُهُ : فطامه .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : بلغ كمال قوته وعقله .

أَوْزِعْني : ألهمني ووفقني .

وَإِني مِنَ الْمُسْلِمين : وإني من الخاضعين لك بالطاعة .

وَنَتَجاوزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ : نصفح عن سيئاتهم .

في أَصْحَابِ الجنَّة : أي مع أصحاب الجنة .

أن أُخْرَجَ : أن أُبعث بعد موتي حيًّا يوم القيامة .

خَلَتِ القُرونُ : مضت الأمم .

وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

شَـرح المفـردَات

أَسَاطِيرُ الأَوَّلين : أحاديث وخرافات كتبها السابقون لا أساس لها من الصحة .
حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ : وجب عليهم العذاب .
في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ : في أمم سبقت ومضت .
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ : ولكل قوم منازل ومراتب عند الله .
وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ : وليعطيهم جزاء أعمالهم .
عَذَابَ الهُونِ : عذاب الهوان والذل .
تَفْسُقُون : تخرجون عن طاعة اللّه .

تـابع سُورَة الأحقَاف

ثم يبين القرآن حقيقة الإيمان وما يجب أن يلازمه من سلوك خاص :

﴿ إِنَّ الَّـذِينَ قَـالُـوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَـامُـوا فَـلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْـزَنُـونَ . أُولَئِـكَ أَصْحَـابُ الجَنَّــةِ خَـالِــدِينَ فِيهَـا جَــزَاءً بِمَـا كَـانُـوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣ ـ ١٤) .

فاللّه يثني على المؤمنين الذين قالوا : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ قالوا ذلك مؤمنين بـألوهيـة اللّه وحده وربـوبيته الشـاملة لهـذا الكـون ، فله العبـادة ، وعليـه الاعتماد . وهؤلاء المؤمنون قرنوا الإيمان بالاستقامة ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أي سلكوا الطريق القويم .

فهاتان العبارتان تجمعان معاني الإسلام اعتقاداً وعملاً ، لأن الإسلام توحيد وطاعة ، فالتوحيد مستقى من الجملة الأولى ﴿ قالوا : ربُّنَا اللّه ﴾ والطاعة بجميع أنواعها مستقاة من الجملة الثانية ﴿ ثم استقاموا ﴾ لأن الاستقامة امتثال لكل ما أمر اللّه به ، واجتناب كل ما نهى عنه .

وفي هـذا المعنى رُوي عن سفيـان بن عبـد الله الثقفي قـال : قلت يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قـل آمنت باللّه ثم استقم(١) .

وجـزاء الذين سـاروا على درب الإيمـان والاستقـامـة : ﴿ فَـلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله وعذاب الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلَّفوا وراءهم بعـد مماتهم ، كمـا أن هؤلاء هم أهل الجنـة ماكثين

---

(١) رواه مسلم .

فيها أبداً ، يتنعمون بها جزاء بما قدّموه من عمل صالح في دنياهم .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى الوصيّة بالوالدين والإحسان إليهما ، مع تقديم صورة للمؤمن الحقيقي الذي عرف فضل ربه عليه فعمل بما يرضيه فتقبّل اللّه عمله وجزاه الجزاء الحسن :

﴿ **وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثلاثُونَ شَهراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قال : ربِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي في ذُرِّيَتي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ في أَصْحَابِ الجَنَّةِ ، وَعْدَ الصِّدق الَّذي كَانُوا يُوعَدُون** ﴾(١٥ ـ ١٦) .

فاللّه يأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وذلك بالإنعام عليهما بما يحتاجان إليه وإكرامهما وصنع كل جميل لهما ، ثم يعلّل القرآن هذا الإحسان بذكر ما قدمته الأم من تضحيات لولدها ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ كُرْهاً : أي مشقة . فالأم قاست مشقة في حمل وليدها بما صادفها من وحم وغثيان وثقل ولا سيما في الأشهر الأخيرة ، وما قاست من مشقة في وضع وليدها من الطلق وألم الوضع ، بالإضافة إلى ما يصادف البعض من خطر أثناء الولادة .

وعندما تخصّ الآية مشقة الأم بالذكر فلأنها تعبّر عن حقيقة الحال التي تعانيها الأم من تضحيات مشعرة بعظمة الأمومة وفضلها وقداستها ، ومذكرة بطرف خفي بواجب الأولاد نحو أمهاتهم ليبادلوهن إحساناً بإحسان .

وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : « يا رسول اللّه من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثُمَّ من ؟ قال : أمك ،

قال : ثُمَّ من ؟ قال : أمك ، قال : ثُمَّ من ؟ قال : ثم أبوك »(١) .

ويتابع القرآن ذكر فضل الأم : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾(٢) والفصال : هو الانفصال من الرضاع وهو الفطام ، أي مدة حمله مع رضاعته إلى وقت الفطام ثلاثون شهراً ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي حتى إذا اكتمل نموه واستحكمت قوته ونضج عقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي السن التي يبلغ فيها الإنسان كمال العقل والرشد ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ أي ألهمني يا رب شكر نعمتك التي أنعمت عليّ في هدايتك لي ، وما أنعمت على والديّ من الرحمة والشفقة حتى ربَّياني صغيراً ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ أي ألهمني أيضاً أن أعمل الأعمال الصالحة التي ترضاها . والتنكير في ﴿ صالحاً ﴾ يفيد التكثير كما يقول علماء اللغة ، وهذا إيحاء بالإكثار من الأعمال الصالحة ﴿ وَأَصْلِح لي في ذُرِّيَّتي ﴾(٣) وأصلح لي أموري في ذريتي الذين وهبتهم لي بأن تجعلهم : مهتدين بالإيمان بك عاملين على مرضاتك قائمين بطاعتك ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ والتوبة ترك الذنب لقبحه والندم على اقترافه ، والعزم على عدم العودة إليه ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وإني من الخاضعين لك بالطاعة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ﴾

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) هذه الآية تقول : إن مدة الحمل في بطن الأم مع الفطام بعد الرضاعة : ثلاثون شهراً . وجاء في القرآن : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ والحول : السنة ، أي مدة الرضاعة أربعة وعشرون شهراً ، فبإسقاط مدة الرضاعة عن مدة الحمل والفطام بعد الرضاعة يبقى للحمل ستة أشهر . وهذا ما يتفق مع ما ثبت علمياً من أن الطفل إذا ولد لستة أشهر فإنه قابل للحياة .

(٣) هذا الدعاء الذي علمه الله للمؤمنين هو في الوقت نفسه توجيه لهم بتربية ذريتهم التربية الصالحة التي هي نعمة من أجل النعم على الوالدين .

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الكريمة يتقبّل اللّه منهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال فيجازيهم بها ويثيبهم عليها ﴿ وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي يصفح اللّه عن سيئات أعمالهم التي عملوها بعد أن تابوا وعملوا الأحسن من الصالحات ﴿ في أصْحَابِ الجَنَّةِ ﴾ أي في جملة من يتجاوز عنهم من أصحاب الجنة ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذي كَانُوا يُوعَدُون ﴾ أي وَعَدهم اللّه وَعْد الصدق وهو لا شك أنه موفٍ لهم ما وعدهم إياه في الدنيا .

وبعد أن قدّم القرآن صورة للمؤمن البارّ بوالديه ، قدّم صورة أخرى للولد العاق المنكر للبعث والجزاء :

﴿ والَّذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدانني أن أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ : مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(١٧) .

فالولد العاق كان يقول لوالديه اللذين يدعوانه للإيمان والإقرار ببعث الموتى من قبورهم أحياء يوم الحساب ﴿ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ صوت صدر من العاق ينبىء عن تضجره مما سمعه من والديه . ثم يضيف قائلاً ﴿ أَتَعِدَانِني أَن أُخْرَجَ ﴾ أي أتعدانني أن أُخرج من قبري للبعث والحساب ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القُرونُ مِنْ قَبْلِي﴾ وقد مضت أجيال من الأمم قبلي ماتوا فلم يُبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أي ووالداه يدعوان اللّه بضراعة أن يهديه ، أو يستغيثان باللّه من كفره ، قائلين له : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ ويلك : تستعمل في الدعاء بالهلاك ، وهنا أريد بها الحث والتحريض على الإيمان ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ ﴾ إن وعد اللّه الذي وَعَدَ خلقه بأن يبعثهم من قبورهم للحساب هو وعد حق لا ريب فيه ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾

فيقول هذا الولد العـاق لوالديه : إن ما تؤمنان به من البعث ورجوع النـاس أحياء ما هو إلّا ما سطّره الأولون من الأباطيل .

هـذه الصورة لـمنكـر البعث نراهـا اليوم أوضـح ما تكـون في عصرنـا الحاضر حيث انخدع كثير من أبناء هذا الجيل بالمـذاهب الماديـة الملحدة التي صوّرت لهم أنه لا بعث ولا جـزاء بعد هـذه الحياة وأن الأديـان ما هي إلّا أسـاطير الأولين ، وأن الـدنيـا هي غـايـة المـطاف فليعبّـوا من ملذاتهـا وشهـواتها مـا طاب لهم بـأية وسيلة كـانت ، فكان أثـر ذلك شيـوع الفسـاد والمنكرات والإباحية .

فـالآيات السـابقة تـوجيه لنـا للتصدي للمـذاهب المـاديـة الملحـدة ، والحؤول دون تسرّب سمومها إلى عقول أبنائنا فتفسدهم وتقضي على نزعة الخير فيهم .

ثم يتابع القرآن الكلام عن هؤلاء المنكرين للبعث :

﴿ أُولَئِـكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـولُ(١) في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ والإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـاسِرِينَ . وَلِكُـلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّـا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (١٨ ـ ١٩) .

فهؤلاء المنكرون للبعث وجب عليهم عذاب اللّه ، وحلّت بهم عقوبته فيمن حـل بـه العـذاب من الأمم الـذين مضـوا قبلهم من الجن والإنس ، الذين كذّبوا رُسُل اللّه ، وتمرّدوا على أوامر اللّه ، فكان عاقبتهم الخسـران

---

(١) حق عليهم القول : هذه الجملة ترددت في القرآن وهي ترمز إلى عذاب اللّه التي فسرهـا في قـوله تعـالى في إبليس ومن تبعـه ﴿ لَقَـدْ حَقَّ القَـوْلُ مني لأمـلأنَّ جَهَنَّم مِنْكَ ومِمَّن اتبعك منهم أجمعين ﴾ .

باستبدالهم الضلال بالهدى ، والعقاب بالنعيم . ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عمِلُوا ﴾ أي ولكل من المؤمنين والكافرين منازل ومراتب عند اللّه يوم القيامة ، ﴿ وَلِيُوفِّيَهُم أعمالهم ﴾ أي ليجازيهم بما عملوا من خير أو شر . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص في الثواب للمؤمنين وزيادة العقاب للكافرين .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى أنذار الذين يهدرون قيم الحق والخير في سبيل استمتاعهم بالدنيا :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُم تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠) .

فهؤلاء الذين جحدوا وحدانية اللّه وأنكروا حدوث البعث يُجاء بهم يوم القيامة إلى النار فيكشف لهم عنها وتظهر لهم ثم يقال لهم توبيخاً : ﴿ أَذْهَبْتُم طيِّبَاتِكُم في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا[١] واسْتَمتَعتُم بهَا ﴾ أي أن كل ما قُدِّرَ لكم من الطيبات فقد أهدرتموها وتمتعتم بملاذ الحياة من أي الطرق كانت فلم تراعوا الحلال والحرام ﴿ فَاليَوْم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ ﴾ فاليوم ستقاسون عذاب الهوان والذل ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ

---

(١) فهم كثير من المفسرين من قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُم طيِّباتِكُم في حَيَاتِكُم الدُّنْيَا ﴾ بأنه دعوة للزهد ، واستشهدوا بقول عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : « لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً ولكني استبقي طيباتي » ونحن نخالف هذا المفهوم فإن سياق الآية وتذييلها بقوله تعالى : ﴿ بما كُنْتُم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كُنْتُم تَفْسقون ﴾ يؤكد أن المراد بإذهاب الطيبات هو عصيان اللّه والخروج عن طاعته والاستكبار في الأرض ، هذا وإن القرآن أباح الاستمتاع بالدنيا في حدود الاعتدال وعدم الإسراف وتجاوز حدود اللّه .

الحَقِّ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تتكبرون في الدنيا على ربكم فتأبون أن تخلصوا له العبادة وأن تذعنوا لأمره ونهيه ، وبسبب ما كنتم تستعلون على الناس بغير الحق ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ وبما كنتم تخرجون عن طاعة اللَّه وتعملون المعاصي .

فقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ تبيان منه سبحانه بأنه خصّ الإنسان بأشرف الصفات الإنسانية ، وأسمى الملكات النفسية والروحية التي يجب أن يحافظ عليها فلا يهدرها في سبيل الاستمتاع بالدنيا .

فهؤلاء الكافرون استحقوا عذاب اللَّه في الآخرة لأنهم :

أَذْهَبُوا طيباتهم بالزنا والفحش لإشباع شهواتهم الجنسية .

ولأنهم أَذْهَبوا طيباتهم بالظلم والكبر والتعالي على الناس لإرضاء شهوة الحكم والجاه في نفوسهم .

ولأنهم أَذْهَبُوا طيباتهم بالربا والغش وأكل أموال الناس بالباطل لزيادة أموالهم وإنفاقها على ملذاتهم

إنهم أَذْهَبوا كل طيباتهم في سبيل زيادة استمتاعهم بالدنيا .

فاللَّه أباح الاستمتاع بالدنيا ولكن في حدود العدل والاعتدال والحق كما جاء في القرآن : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمنوا في الحَياة الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَة . . . ﴾ الأعراف : ٣٢ . ثم يوضِّح القرآن حدود هذا الاستمتاع في الآية التي تليها : ﴿ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ ربِّي الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَن وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ الأعراف : ٣٣ .

۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ
ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم
مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا
مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ
رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ
إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ
إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟

شَرح المفردَات

أخَا عَادٍ : هو النبي هود عليه السلام .

الأحقاف : اسم الديار التي سكنتها قبيلة عاد .

خَلَتِ النُّذُرُ : مضت الرسل الذين خوّفوا قومهم من عذاب اللّه .

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ : من قبله .

وَمِنْ خَلْفِهِ : ومن بعده .

لِتَأْفِكَنَا : لتصرفنا .

عَارِضاً : العارض هو السحاب الذي يعترض في أفق السماء .

مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ : ثبتناهم ، وجعلنا لهم التصرّف فيها .

يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾
وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ
يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ
بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ
إِلَيۡكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا
كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ

شَـرح المفـردات

يَجْحَدُونَ : ينكرون .

وَحَاقَ بِهِم : نزل بهم العذاب وأصابهم .

وَصَرَّفْنَا الآياتِ : بيَّنا لهم الحجج والعظات .

فَلَوْلا نَصَرَهُمُ : هلَّا نصرهم .

قُرْبَاناً : أي ما يُتقرّب به إلى اللّه .

إِفْكُهُم : كذبهم .

يَفْتَرُون : يختلقون ويكذبون .

صَرَفْنَا : وجّهنا .

نَفَراً : جماعة بين الثلاثة والعشرة .

أنْصِتُوا : أي اسكتوا لاستماع القرآن .

قُضِيَ : فرغ محمد ﷺ من قراءة القرآن .

وَلَّوْا : انصرفوا .

كِتَاباً : المراد به القرآن .

وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ
بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ
بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ
يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ
مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

شرح المفردات

أجِيبوا دَاعِيَ اللَّهِ : أجيبوا محمداً إلى ما دعاكم إليه من الهدى .

يُجِرْكُم : يحميكم ويمنعكم .

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونه أولِيَاءُ : وليس له غير اللَّه من نصراء .

بِمُعْجِزٍ في الأرض : بمفلت من عذاب اللَّه .

يَعْيَ : يتعب .

أولو العَزْم : ذوو الحزم والثبات والصبر .

بلاغ : أي هذا القرآن به كفاية في الموعظة .

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لهم : أي ولا تستعجل حلول العقوبة بهم .

الفَاسِقُون : الذين عصوا الله وخرجوا عن طاعته .

تـابع سُورَة الأحقاف

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى التذكير بما حلّ بقوم عاد جزاء كفرهم :

﴿ واذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(٢١) .

عـاد : قوم تـردّد ذكـرهم في القـرآن وهم من العـرب البـائـدة الـذين أهلكهم اللَّه فلم يُبق منهم أحداً جزاء كفرهم ، وقد أرسل اللَّه إلى عاد نبياً منهم هو (هود) عليه السلام ، وقد وصفه القرآن بأنـه « أخو عـاد » أي أنه أخوهم في النسب وهم يعرفـونه صـادقاً فيجب عليهم أن يتبعـوه . ومساكن عاد كانت بالأحقاف : أي الرمال ، ويرى المؤرخون أن موضعها بين اليمن وعُمـان إلى حضـرمـوت والشحـر ، أي في الجنـوب الشـرقي من جـزيـرة العرب .

فاللَّه يقول في الآية السابقة : واذكر يا محمد لقومك قصة النبي هود إذ أرسله اللَّه إلى قـومه ـ قبيلة عـاد ـ الساكنـة بالأحقـاف ، فخـوفهم نبيهم أن تحل بهم نقمة اللَّه إن استمروا على كفرهم ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُر من بين يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي وقد مضت الـرسل من قبـل هود ومن بعـده وجاءوا بمثـل الدعوة التي دعا بها قومه وهي : ترك عبادة الأصنام والدعـوة إلى عبادة اللَّه وحده ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّه ﴾ وإلّا فليترقبوا عـذاب يوم عـظيم في الدنيـا[١] قبل الآخرة كما قال سبحانه : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أما جواب قبيلة عاد على إنذار نبيهم بعذاب يوم عظيم فهو قولهم :

---

(١) يدل على ذلك ما جاء في القـرآن بعد ذلـك ﴿ بل هُـو مَا اسْتَعْجَلْتُم بِـهِ رِيحٌ فِيهـا عَذَابٌ إليمٌ ﴾ .

﴿ قالوا أجِئتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا العِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُم قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

لقد قالوا لنبيهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأفِكَنَا عن آلِهَتِنَا ﴾ أجئتنا بهذه الدعوة إلى اللَّه والإنذار بعذابه لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ ﴾ فأتنا بما وعدتنا من العذاب إن كنت صادقاً بأنك نبي ، فيجيبهم هود : ﴿ إِنَّما العِلْمُ عند اللَّهِ ﴾ أي إن وقت مجيء العذاب عِلْمُهُ عند اللَّه ﴿ وَأُبَلِّغُكم مَا أُرْسِلُت بِهِ ﴾ وإنما أنا رسول اللَّه إليكم لأبلّغكم ما أرسلني به من دعوتكم إلى عبادة اللَّه وحده ، وتحذيركم من عذاب اللَّه إن بقيتم على كفركم ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ ولكني أراكم قد ركبكم الجهل فما تميزون بين ما ينفعكم أو ما يضركم ، أو تجهلون وظيفة الرسل وهي الإنذار المطلق دون تحديد وقت العذاب .

ثم يذكر القرآن نوع العذاب الذي حلّ بقوم عاد :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ، قَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِينَ ﴾ (٢٤ ـ ٢٥) .

والعارض : السحاب الذي يعترض في أُفق السماء . فلقد حُبس المطر عن ديار عاد مدة طويلة ، ثم ساق اللَّه سحابة سوداء ﴿ قَالوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أي هذا الذي وُعدنا به سحاب فيه الغيث ، ولكن جاءهم الرد الإلهي ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم به ﴾ أي هذا هو العذاب الذي استعجلتم به ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أليمٌ ﴾ وهي الريح الشديدة البرودة التي

استمرت سبع ليال وثمانية أيام على ما جاء في سورة الحاقة ، وهذه الريح ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كل شيء مرّت به من قوم عاد وأرزاقهم ﴿ فأَصْبَحوا لا يُرَى إلّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ أي بادوا كلهم عن آخرهم ولم يعد يُرى إلّا مساكنهم الخاوية ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ الْمُجْرِمِين ﴾ أي هذا حكم اللَّه فيمن كذب رسله وخالف أمره ، وهذا تهديد في الوقت نفسه لكفار مكة ، ولكل كافر مجرم يأتي بعدهم إلى يوم القيامة .

أما مصير هود عليه السلام فقد ذكر القرآن أن اللَّه أنجاه ومن معه من المؤمنين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنوا مَعَه ﴾ هود : ٥٨ . وكيفية نجاته لم يأت تحديدها في القرآن .

ثم تنتقل بنا الآيات وفيها خطاب لكفار مكة تعقيباً على ما حلّ بقوم عاد :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ[1] ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُم وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُون بآيات اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢٦) .

فاللَّه سبحانه يقول لكفار قريش : ولقد مكنّا عاداً في الأرض فيما لم نمكنكم فيه وأعطيناهم من النعم ما لم نعطكم منها من كثرة الأموال وبسطة الأجسام وشدة الأبدان ، ﴿ وَجَعَلْنَا لهم سَمْعاً وأبْصاراً وأفْئِدَةً ﴾ وجعلنا لهم سمعاً ليستعملوه في سماع الأدلة على صدق نبوّة نبيهم ، وجعلنا لهم

---

(١) إن مكناكم فيه : إن هنا نافية ، أي فيما لم نمكنكم فيه ، ومعنى مكن : ثبت ووطد وأطلق يده فيه .

أبصاراً ليتأملوا بها أدلة وجود اللّه ووحدانيته ، وجعلنا لهم عقولاً ليميّزوا بها الضار من النافع ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم سَمْعُهُمْ ولا أبصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ولكن لم ينفعهم سمعهم ولا أبصارهم ، ولا عقولهم إذ لم يستعملوها فيما أعطُوها له ولم يعملوا بما ينجيهم من عقاب اللّه ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي كانوا يكذّبون بحجج اللّه وهم رسله ، أو المعجزات التي جاءت على أيديهم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ونزل بهم ما سخروا به من العذاب .

ويتابع القرآن تهديده لكفار قريش :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(٢٧ ـ ٢٨) .

فاللّه يذكرهم بما أهلك حول مكة من القرى التي كذّبت رسلها كعاد وثمود وسبأ وقوم لوط ، وكان مشركو مكة قد سمعوا أخبار هذه القرى وما أصابها من هلاك ورأوا آثارها في رحلاتهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي وبيَّنا لهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا . ﴿ فَلَولَا نَصَرَهُمُ ﴾ أي فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب ﴿ الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً ﴾ أي أصنامهم التي اتخذوها من دون اللّه آلهة واتخذوا عبادتها « قُرباناً » يتقربون بها إلى اللّه في زعمهم ، ولكن أصنامهم ﴿ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي غابوا عنهم فلم تجبهم ولم تغثهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ ذلك : إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم ، وإفكهم : كذبهم، حيث كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى اللّه وتنصرهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ وما كانوا يختلقون بأن الأصنام هي جديرة بالعبادة .

وبعد أن سفَّه القرآن عبادة الأصنام انتقل القرآن إلى الحديث عن طائفة من الجن استمعت إلى القرآن واستجابت لما فيه من الهدى والحق .

والجن هو عالم مغيب عن الأنظار تحدَّث القرآن عنهم وأن لهم القدرة على إغواء الناس وإضلالهم ، ولكن لا سلطان لهم على الذين آمنوا ، وأن منهم المؤمنين ومنهم الكافرين ، وأنهم يتناسلون وغير ذلك مما أورده عنهم .

والجن كان لهم في أذهان العرب قبل الإسلام صورة قوية مرعبة فنسبوا إلى الجن أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب ، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة ، إنها عناصر مخيفة مرعبة تؤذي من يؤذيها ومن لا يؤذيها ، وتلحق به الضرر والأمراض ، إنها في نظرهم آلهة ، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها .

وعدم رؤيتنا للجن لا يعني أنهم غير موجودين ، وبالتالي لا يستدعي إنكارهم فهناك كثير من ظواهر الكون لا تزال محجوبة عن البشر ، وفي كل فترة من الزمن يكشف لنا العلم بعض أسرار ظواهر الكون ، فهل كانت قبل اكتشافها عدماً ، ثم وُجدت بعد أن اكتشفها الإنسان .

أما القرآن فقد صرح بأن اللَّه خلق الجن والإنس لعبادته[١] ، كما صرح في هذه السورة بأن بعض الجن أصغوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قوم منذرين :

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدون ﴾ .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَق وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

فاللَّه سبحانه يقول : واذكر أيها الرسول إذا وجّهنا إليك جماعة من الجن وهيأناهم للاستماع إلى القرآن وأنت تتلوه ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ فلما حضروا قراءتك للقرآن قال بعضهم لبعض أنصتوا مستمعين ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إلى قَوْمِهم مُنْذِرين ﴾ فلما فرغت أيها الرسول من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مؤمنين يدعونهم إلى الإيمان ويحذرونهم من الكفر ، قائلين لهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتاباً أُنْزل مِنْ بَعْدِ موسى ﴾ إنّا سمعنا كتاباً يُدعى القرآن ، أنزله اللَّه على محمد بعد رسالة موسى ، هذا القرآن ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدقاً لما جاء في الكتب الإلهية السابقة من توحيد اللَّه ، وعبادته وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق . وهذا القرآن ﴿ يَهْدي إلى الحق وإلى طريق مُستقيم ﴾ أي يرشد إلى الحق وإلى الطريق القويم .

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله هؤلاء النفر المؤمنون من الجن لقومهم :

﴿ يَا قَوْمَنَا أجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ[١] ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَليم . وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ في ضَلال مُبين ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

---

(١) من ذنوبكم : أي بعض ذنوبكم ، لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان فقط كذنوب ظلم الناس ، وغفرانها يكون برد المظالم إلى أهلها وإعطاء الحقوق إلى أصحابها .

أي يا قومنا أجيبوا رسول اللَّه محمداً إلى ما يدعوكم إليه من الهدى وصدّقوا برسالته يغفر لكم بعض ذنوبكم ﴿ وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وينقذكم من عذابٍ موجع ، ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ ومن لا يستجب لدعوة محمد ﷺ ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ فلن يُعجز اللَّه عن أخذه وإن هرب في الأرض كل مهرب وليس بمفلت من عذاب اللَّه ﴿ وَلَيْسَ لَه من دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ وليس له من دون اللَّه نصراء يمنعونه من عقابه ، وهؤلاء الذين لا يؤمنون بنبوة محمد وبما جاء به من الهدى هم في ضلال واضح .

فالذي يمكن أن يستفاد من الآيات السابقة هو أن الجن الذين كان لهم في أذهان العرب قبل الإسلام هذه الصورة المخيفة آمنوا بالقرآن بمجرد سماعه وذهبوا إلى قومهم منذرين ، فلماذا يظل الكافرون على ضلالهم ، ولا يعطون القرآن ما يستحقه من اهتمام وتفكير ، فيدركون أنه وحي إلّهي ، ويستجيبون لما يدعوهم إليه محمد ﷺ من الهدى .

وبعد الكلام عن الجن تعود بنا السورة إلى الكلام عن البعث وعدم استحالته عقلاً :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَم يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بلى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٣) .

أي ألم يتفكر المنكرون للبعث ويعلموا أن اللَّه الذي خلق السماوات وما فيها من بلايين الأجرام السماوية ، وخلق الأرض وما فيها من سهول وجبال ووديان وصنوف النبات والحيوان ، وأنه سبحانه ﴿ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي لم يتعب بخلقهن ، أليس الذي خلق السماوات والأرض ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ هذا الشطر من الآية أتى الجواب عليه

سريعاً مفحماً لا مجال فيـه للجدال ﴿ بَلَى إِنَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ ﴾ نعم إن قدرة اللَّه ليس لها حدود فهي قادرة على كل شيء .

وبعد أن وَضُحَ الحق لكل مبصر تأتي الآية التالية مبينة ما سيلقاه الذين يصرون على الكفر من عذابٍ يوم القيامة :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّـارِ : أَلَيْسَ هَذَا بِـالحَقِّ قَالـوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقوا العَذَابَ بِما كُنْتُم تَكْفُرُونَ ﴾ . (٣٤) .

ويوم القيامة يُري اللَّه الكفار النار ويظهرهـا لهم تمهيداً ليعـذبوا بهـا ، ثم يُقـال لهم تأنيبـاً وتـوبيخـاً : ﴿ أَلَيْسَ هَـذَا بِـالحَقِّ ﴾ فيجيبـون في ذلـة وخضوع : ﴿ بَلى وَرَبِّنَا ﴾ هكذا يقسمون بـربهم على الحق الذي أنكـروه في دنيـاهم ، ولكن هذا الإقـرار بالحق يـأتي متـأخـراً فقـد فـات الأوان ، واستحقوا وعيد اللَّه بالعذاب جزاء كفرهم ، عنـدئذٍ يلقـون في النار ويُقـال لهم : ﴿ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ثم يختم اللَّه هـذه السورة بـوصيّة رسـولـه محمـد ﷺ بـالصبـر على ما يلاقيه من قومه من أذى واضطهاد ، لأن الصبر من صفات أولي العزم من الرسل :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُـوا العَزْمِ مِنَ الـرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِـلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَـا يُوعَـدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ سَـاعةً مِنْ نَهَـارٍ ، بَلاَغٌ فَهَـلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾(٣٥) .

فـاللَّه يأمـر رسولـه محمداً بـالصبْر على مـا يـلاقيـه من قـومـه من أذى واضطهاد ، والاقتداء بمن صبر قبله من الرسل الذين وصفهم اللَّه بـ « أولي العزم » أي أولي الجد والثبات والصبر . أما الرسل المقصودون بأولي العزم

فقد قيل إنهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد . وقيل إنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام لأن اللَّه تعالى قال بعد أن ذكرهم ﴿ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِه ﴾ وقيل كل الرسل كانوا أولي عزم .

فوصية اللَّه لنبيه بالصبر كما صبر قبله الرسل فيها من التشجيع والمواساة له الشيء الكثير ، فالذي لاقاه من أذى واضطهاد من قومه فقد لاقى مثله الأنبياء قبله وكان النصر حليفهم ، فليقتد بهم في الصبر والاحتمال ، ولا يتقاعس عن دعوته مع هؤلاء الكافرين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ كأنهم يوم يرون عذاب اللَّه الذي أوعدهم به في الدنيا ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعةً مِنْ نَهار ﴾ فشدة العذاب في الآخرة وطول مدته ينسيهم المدة التي عاشوا فيها في دنياهم فكأنها ساعة من نهار ﴿ بلاغ ﴾ أي هذا القرآن فيه الكفاية من الموعظة ، أو هو تبليغ من الرسول لهم ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾ أي وما يهلكُ اللَّه بعذابه إذا أنزله إلّا القومَ الذين خالفوا أمره وخرجوا عن طاعته .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

أبرز المواضيع التي تعالجها هذه السورة هي الحث على القتال دفاعاً عن العقيدة ، ولهذا تسمى أيضاً سورة القتال ، إذ القتال ظاهرة عامة في موضوعها . فهي تبين الحكمة من القتال مع تكريم الاستشهاد والشهداء ، ووعد بنصر المؤمنين وإنذار بهلاك الكافرين مع بيان حال الفريقين في الآخرة حيث المؤمنون في جنات النعيم والكافرون في عذاب الجحيم .

بالإضافة إلى ذلك تكشف السورة عن حقيقة المنافقين وخصالهم ، وتنذرهم بعذاب من اللّٰه .

وفي هذه السورة دعوة للمؤمنين لاعتماد العقل والعلم عند الأخذ بالعقيدة ، مع الدعوة لتدبّر القرآن وفهمه ، كما أن فيها حَثّاً على الإنفاق في سبيل اللّٰه ، لأن فائدة الإنفاق تعود على المنفق ذاته .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنيّة ، وآياتها ثمانٍ وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ
كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ

شرح المفردات

صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ : أعرضوا عن الإسلام ، أو صرفوا غيرهم عن الدخول فيه .

أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ : أبطل اللَّه كيدهم ، أو لم يقبل اللَّه صالح أعمالهم .

وآمَنوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ : وآمنوا بالقرآن الذي أنزله اللَّه على محمد .

كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم : محا اللَّه ما عملوا من السيئات .

أَصْلَحَ بَالَهُمْ : أي أصلح حالهم وأمورهم بالتأييد والتوفيق .

يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ : يبين اللَّه للناس الأمثال من خيبة الكفر وانتصار الإيمان ليعتبروا .

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : فاقتلوهم بضرب رقابهم ليكون الموت أسرع لهم .

أَثْخَنْتُمُوهُمْ : أضعفتموهم وأوهنتموهم بالجراح .

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ
تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن
لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ
أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ
﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ * أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ
أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾

شرح المفردات

فَشُدُّوا الوَثَاقَ : فأسروهم وشدوا ربطهم بالحبل أوغيره .

فَإِمَّا مَنًّا : فإما أن تطلقوا الأسرى بغير فدية .

وَإِمَّا فِدَاءً : وإما إطلاق سراحهم في مقابل مال أو نحوه .

تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا : يضع المحاربون أسلحتهم ، وتنقضي الحرب .

لِيَبْلُوَ : ليختبر .

فَلَنْ يُضلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يبطلها ويذهبها سدى بل يوفيهم ثوابها .

عَرَّفَهَا لَهُم : بيّن لهم منازلهم في الجنة .

يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ : يقويكم على أعدائكم .

فَتَعْساً لهم : فشقاء أو خيبة لهم .

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ : فأبطل أعمالهم فلم يقبلها .

دَمَّر اللَّهُ عَلَيْهِمْ : أطبق الهلاك عليهم .

مَوْلَى : ناصر ومعين .

سورة محمد

ايضاح و دروس

تستهل هذه السورة بتحذير الكافرين من عاقبة كفرهم مع تطمين المؤمنين بحسن العاقبة :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِم كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (١ ـ ٣) .

فالذين كفروا ، أي جحدوا وجود اللّه ، أو جحدوا وحدانيته وعبدوا غيره ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه ﴾ أي أعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام ، أو صدوا غيرهم عن الدخول فيه ﴿ أَضَلَّ أعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطل اللّه ما عملوا من الكيد لرسول اللّه ودينه ، وجعل أعمالهم بعيدة عن الهدى والرشاد لا تحظى بالأجر والثواب ، أما الذين ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين صدّقوا بوجود اللّه وعملوا بطاعته ، واتبعوا أمره ونهيه ﴿ وآمنوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ أي صدقوا بالقرآن الذي أنزله اللّه على محمد ﴿ وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وهو الدين الحق الباقي على مرّ العصور ، هؤلاء المؤمنون ﴿ كَفَّر عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ والتكفير : الستر

والتغطية ، أي محا اللّٰه وستر ما عملوا من السيئات قبل الإيمان فلم يؤاخذهم بها ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي أصلح شأنهم وحالهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق ، وفي الآخرة بحسن الجزاء . ونحن نلمس ونرى أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات يشعرون براحة الضمير وطمأنينة القلب ، فضلاً عن أنهم يكونون الركيزة الصالحة للمجتمع يحملون إليه الخير ، وينشرون في أرجائه الهدى .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ ﴾ أي ذلك الأمر السابق من إضلال الكافرين ، والتكفير عن سيئات المؤمنين ، سببه : أن الكافرين اتبعوا الباطل ـ أي الشيطان ـ فأطاعوه ، والباطل ليس له مكان وثبات في هذا الكون القائم على الحق ﴿ وأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فالمؤمنون اتبعوا الحق الذي جاءهم به محمد من ربهم ، وكل من يتبعه فهو في فوز وفلاح . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي هكذا يبين اللّٰه للناس أحوال الفريقين : المؤمنين والكافرين ، وأوصافهما الجارية في الواقع مجرى الأمثال من خيبة الكفر وانتصار الإيمان .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها دعوة للمؤمنين لقتال الكافرين الذي يصدّونهم عن دينهم مع بيان ثواب الذين يُقتلون في سبيل اللّٰه :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كفروا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعضَكُم بِبَعْضٍ ، وَالَّذِين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ . (٤ ـ ٦) .

فـاللَّه سبحانـه يخاطب المؤمنين : ﴿ فَـإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَـروا فَضَـرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أي إذا لقيتم الذين كفروا في الحرب(١) فاضربوا رقابهم وضرب الرقاب عبارة عن القتل .

فـالزمن الـذي نزل فيـه القرآن كـانت الحرب مـع العدو تتم بـواسـطة الإلتحام به وجهـاً لوجـه ، وكان من أهم أسلحتهـا السيف ، ولذا أمـر اللَّه بضرب رقاب العدو(٢) .

﴿ حَتَّى إذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ ﴾ أي حتى إذا أضعفتم قوتهم بالقتل والجـراح فلم يستـطيعوا المقـاومة والنهوض من جراحاتهم ﴿ فَشُـدُّوا الْـوَثَـاق ﴾ أي فـأسروهم وأحكمـوا قيدهم ، فـالغايـة من القتال بمـوجب نص القرآن هـو إخضاع الخصم لا إبادته .

وبعــد أن يصبـح العــدو أسيـراً ، فللمسلمين الحق في أن يختــاروا

---

(١) هـذه الآية دعـوة المسلمين لقتال الكـافر الحـربي فقط . أما الكـافر المعـاهـد فله عهـده وحـرمته ، والكـافر الـذمّي الـذي دخـل في حكم المسلمين يسـوي الإسـلام بينـه وبين المسلمين في جميع الأحكام القضائية والسياسية ويوجب حمايته والدفاع عنه . والإسلام لم يأمر أتبـاعه بـالقتال إلاّ بعـد أن اضطهـد الكافـرون المسلمين وأخرجـوهم من ديارهم وصدوهم عن دينهم بألوان من العذاب وفي هذا يخاطب القرآن المؤمنين : ﴿ وَقَاتِلُوا في سَبيلِ اللَّهِ الذين يُقاتلونكم ولا تَعْتَدوا إنَّ اللَّهَ لا يُحب المعتدين ﴾ .

(٢) عينت الرقاب في هذه الآية لأن ضربها أنجع وسيلة للإجهاز السريع على المضروب بغيـر تعـذيب له ولا تمثيـل به ، إذ أنـه من الثابت علميـاً أن الرقبـة حلقة الاتصـال بين الرأس وسـائر الجسـد فإذا قـطع الجهاز العصبي شلت جميـع وظـائف الجسم الـرئيسيـة ، وإذا قطعت الشرايين والأوردة في الرقبة توقف الدم عن تغـذية المـخ ؛ وإذا قطعت الممـرات الهـوائية وقف التنفس ، وفي جميـع الحـالات تنتهي الحيـاة سـريعـاً (عن المنتخب في تفسير القرآن) .

ما يرونه الأصلح مما حدده النص القرآني : ﴿ فإما مَنًّا بَعْدُ وَإِما فِدَاءً ﴾(١) فالقرآن خيّر المسلمين بين المن على الأسرى بالحرية دون مقابل ، أو مقابل فدية كما وردت آيات في القرآن تأمر بقتل المحاربين كقوله تعالى : ﴿ واقتُلُوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ البقرة ١٩١ . هكذا فعل رسول اللّه ، فقد قتل بعضاً منهم بسبب إجرامهم ، وأطلق سراح آخرين مقابل فدية ، أو بدون مقابل ، واسترق البعض ليكون ذلك تشريعاً في مواجهة حالات ومعاملات متبادلة بين الأمم لا تعالج بغير هذا الإجراء ولكن التشريع الإسلامي أحاط معاملة الأسرى بجميع قواعد العدل والرحمة .

وإطلاق سراح الأسرى يكون وقته ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي حين يضع أهل الحرب سلاحهم ، وأوزار الحرب آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره ، وهذا ما يحصل حالياً إذ يحتفظ المحاربون بالأسرى حتى انتهاء الحرب ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي هذا ما أمركم به من

---

(١) هذه الآية الوحيدة التي تعرضت لأسرى الحرب وهي كما نرى لم تذكر الاسترقاق للأسرى حتى لا يكون هذا تشريعاً للبشرية في المدى البعيد . والإسلام بإباحته الاسترقاق أحياناً فإن هذا الحكم هو مجرد إباحة ولا يعني الإلزام وإنما هو أمر متروك لحكمة إمام المسلمين لمعاملة أعداء الإسلام بالمثل ، لأن الاسترقاق كان شائعاً في عهد الإسلام وبعد عهده بقرون عدة في كثير من أقطار العالم . فإذا حدث أن اتفقت الدول على عدم الاسترقاق كما يحصل حالياً فإن الإسلام يرجع إلى قاعدته الأساسية في معاملة الأسرى ﴿ فَإِمَّا منًّا بعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ فهذه الآية ـ كما نرى ـ حصرت مصير الأسرى في هاتين الحالتين فقط .

هذا وإن الإسلام دعا إلى حسن معاملة الرقيق وبيّن الثواب العظيم في الآخرة للذين يطلقون سراح أرقائهم في كثير من آيات القرآن ، وجعل عتقهم كفارة لبعض الذنوب ، كما أن الإسلام خصص قسماً من أموال زكاة المسلمين لتصرف في مساعدة الأرقاء لاستعادة حريتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه النظم والتشريعات في العالم تسوم الرقيق أشد أنواع العذاب والظلم وتستغله في أشق الأعمال .

الجهاد ولو شاء اللَّه لأهلك الكافرين وانتقم منهم بدون قتالكم لهم أيها المؤمنون ﴿ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي ولكن ليختبر إيمانكم فيعلم المجاهدين منكم والصابرين كما يختبر الكافرين بكم فيعاقب بأيديكم من شاء منهم .

﴿ والَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أعْمَالَهُمْ ﴾[١] فالذين قُتلوا دفاعاً عن دين اللَّه أو قاتلوا كما جاء في بعض القراءات فاللَّه لن يضيع ثواب أعمالهم بل يجعل ثوابها النعيم في الآخرة ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُم ﴾ أي يهديهم ربهم إلى الجنة ، ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيئاتهم ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي عرّفهم منازلهم فيها فلا يستدلون عليها ولا يخطئونها ، وقيل : عرّفها بمعنى طيبها لهم لأن العرف هو الرائحة الزكية .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها وعد من اللَّه بنصرة المؤمنين إن نصروا دينه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِين كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٧ ـ ٩) .

فالمسلمون الأوائل تجسد فيهم هذا المفهوم القرآني ، نصروا اللَّه

---

(١) هذه الآية أنزلت يوم معركة أحد وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذٍ أعلُ هُبَل (صنم يعبدونه) فنادى المسلمون : اللَّه أعلى وأجل ، فنادى المشركون يوم بيوم إن الحرب سجال إن لنا عُزّى ، ولا عُزّى لكم ، قال رسول اللَّه : « اللَّه مولانا ولا مولى لكم » إن القتلى مختلفة ، أما قتلانا فأحياء يُرزقون ، وأما قتلاكم ففي النار يُعذّبون » .

فنصرهم وهزموا جيوش الفرس والروم على الرغم من قلة عددهم وضعف إمكانيتهم المادية .

وليس المراد بنصرة اللّٰه أنه سبحانه بحاجة لنصرتنا فهو القوي الغني عن العالمين ، وإنما المراد نصرة دينه ، وتنفيذ أوامره التي فيها العدل والخير والحق .

واللّٰه سبحانه يعد الذين ينصرون دينه بقوله : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[١] وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب .

﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ ﴾ وتعساً تأتي بمعان منها : هلاكاً لهم ، أو شراً لهم ، أو خيبة لهم ، ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جعل اللّٰه أعمالهم على غير هدى ولا رشاد ولا فائدة ، فلم تُقبل حسناتهم لأنها لم تقم على أساس الإيمان باللّٰه والإخلاص له ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ معنى ذلك : أنهم كرهوا ما أنزل اللّٰه ، وهو القرآن الذي يحتوي على التوحيد والشرائع والأحكام التي تخالف ما ألف الكفار من عقائد وتقاليد ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطل اللّٰه ثواب أعمالهم فلم تحقق ثمرتها المرجوّة .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها دعوة للنظر والاعتبار بما آلت إليه الأمم السالفة من دمار وهلاك جزاء كفرهم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١٠ ـ ١١) .

---

(١) الأقدام : المراد بها المحاربون أنفسهم وعبر عنها بالأقدام لأن الثبات والضعف يظهران فيها .

فـاللَّه سبحانـه يقول : ألم يسـر هؤلاء المشـركـون في الأرض ـ أثنـاء سفرهم ـ فينظروا ويعتبـروا بما حـلّ بالأمم السـابقة من دمـار وهلاك جـزاء تكـذيبهم لرسـل اللَّه ﴿ وَلِلْكَافِـرِينَ أَمْثَـالُهَـا ﴾ أي وللكـافـرين من قـريش المكذبين رسول اللَّه محمداً لهم من العذاب العاجل أمثال ما حصل للأمم السابقة الذين كذّبوا رُسُل اللَّه تعالى .

هذه الآية من معجـزات القرآن تحقق مضمـونها بعـد سنين قلائـل من نزولها فقد قُتل أكثر المناوئين لرسول اللَّه ، وانتصر رسول اللَّه على كل من عاداه .

﴿ ذَلِـكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَـوْلى الَّـذِينَ آمَنُـوا ﴾ أي ذلـك الهـلاك الـذي حـل بالكافرين من قبل سببه أن اللَّه ناصر الذين آمنـوا ﴿ وَأَنَّ الكَافِـرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أي أن الكافرين لا ناصر لهم .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ
ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً
مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾
مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ
مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ
مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ
كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟

شرح المفردات

يَتَمَتَّعُونَ : ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا .

مَثْوًى لَهُمْ : مسكن لهم ومأوى .

كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ : كثير من القرى .

بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ : برهان وحجة وبيان من أمر ربه وهو القرآن الكريم .

كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ : كمن حسن له عمله من الشرك باللّٰه وسائر المعاصي .

واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم : إتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية اللّٰه .

مَثَلُ الجَنَّة : وَصْفُ نعيم الجنة .

مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ : ماء غير متغير الطعم والرُائحة .

مَاءً حميماً : ماء شديد الحرارة .

ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا
فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ
لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

شرح المفردات

مَاذَا قال آنفاً : ماذا قال الآن أو قبيل هذا الوقت .

وآتاهم تَقْوَاهُم : أعانهم على تقواهم ، أو أعطاهم جزاء تقواهم .

السَّاعَةَ : يوم القيامة .

بَغْتَةً : فجأة .

أَشْرَاطُهَا : علاماتها .

فَأَنَّى لَهُمْ : فكيف لهم ، أو من أين لهم .

ذِكْرَاهُمْ : أن يتـذكروا ويتعظوا ويتوبوا إلى اللَّه .

مُتَقَلَّبَكُمْ : تصرفكم في حياتكم .

مَثْوَاكُمْ : إقامتكم واستقراركم في الآخرة ، أو في استقراركم في القبور .

تَابع سُورَة مُحَـمَّد

ثم يبين اللّٰه بعد ذلك مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (١٢) .

فاللّٰه سبحانه يعدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنه سيدخلهم في الآخرة جناتٍ تجري من تحت أشجارها الأنهار جزاء إيمانهم ، أما الذين كفروا فهم في حياتهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ﴾ فكما أن الأنعام تأكل وتشرب ولا تدري ما يُهيأ لها من الذبح والنحر ، فكذلك الكفار (يتمتعون) : أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها ، ويأكلون مثل الأنعام أكلًا مجرداً عن الفكر والنظر ، غافلين عن المصير الذي ينتظرهم ، وعن التفكير في الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي أن جهنم هي مأوى لهم يوم القيامة .

للّٰه ما أروع هذا الوصف للذين يكون همهم الأوحد في الحياة إشباع البطون والتمتع باللذائذ البدنية بما يتساوون فيه مع الأنعام ، غافلين عما أودع اللّٰه في فطرتهم من شعور يتجه إلى الخالق بالشكر والتسبيح والعبادة ، ومن شعور داخلي يوقظ الضمير ويحاسب النفس مما يسمو بالإنسان إلى أرفع مدارج الكمال .

وبعد تصوير الكفار بهذه الصورة المزرية الشبيهة بالأنعام يأتي الخطاب للنبي ﷺ وفيه تهوين من شأن هؤلاء الكفار الذين آذوه واضطروه إلى إلى الهجرة :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾ (١٣ ـ ١٤) .

أي وكثير من أهل قرية يا محمد كانوا أشد بأساً ، وأكثر عدداً من قريتك وهي مكة التي أخرجك أهلها منها فأهلكهم اللّٰه جزاء كفرهم وطغيانهم ولم يجدوا ناصراً لهم يُنقذهم من عذاب اللّٰه . هذه الآية نزلت لما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة ، يومئذٍ نظر إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد اللّٰه إليّ ، ولولا أن أهلَك أخرجوني منك لم أخرج عنك .

ثم يوازن القرآن بين المهتدي والضال بقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي أفمن كان على برهان وحجة وبيان من أمر ربه فهو مؤمن به يعبده على بصيرة ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ كالكافر الذي حسَّن له الشيطان قبيح عمله فرآه حسناً ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي واتبع الكافرون ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية اللّٰه ، وعبادة الأوثان من غير برهان ولا حجة . وجواب الاستفهام هنا مفهوم ضمناً ، أي أن هناك فرقاً شاسعاً بين الفريقين ولا مجال للمقارنة بينهما .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان ما أعد اللّٰه في الآخرة من نعيم للمؤمنين وعذاب أليم للكافرين :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خمرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١٥) .

وصف اللّه الجنة التي وَعَدَ بها المتقين فقال : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾(١) أي ماء غير متغير الطعم والرائحة ؛ فالقرآن أول ما خاطب العرب العائشين في الصحراء وكان طبيعياً أن يتحدث إليهم بأعز ما يحتاجون له ويتشوقون إليه وهو الماء العذب ، ومن هنا يعدهم اللّه بأنهار من الماء العذب .

ويلي الماء في ضرورته للكائن الحي : اللبن ، وأكثر البشر يعيشون عليه من طفولتهم إلى كهولتهم ، ولهذا يعد اللّه المؤمنين بأنهار من لبن ﴿ لَمْ يَتَغَيَّر طَعْمه ﴾ أي لم يحمض لطول المقام ، كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

وفي الجنة أيضاً : ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْر لَذَّةٍ لِلشارِبينَ ﴾ والخمر كانت ألذ المشروبات عند العرب ، وقد جعلها الإسلام محرمة في الدنيا للأضرار التي تصيب شاربها عقلياً وجسمياً ، أما في الآخرة فقد جعلها اللّه خالية من كل ضرر ، فهي كما جاء وصفها في القرآن ﴿ لا فيها غَوْل(١) وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُون ﴾(٢) أي لا تؤذي الإنسان وتضره وتذهب بعقله .

وفي الجنة أيضاً طيبات أخرى ﴿ أَنْهَار مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها من الشوائب، وزيادة على ذلك ﴿ وَفِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي من كل الفاكهة التي تشتهيها النفوس . ثم

---

(١) توجه الآية الكريمة الأنظار إلى أن الماء الراكد المتغير ماء ضار ، وقد قررت الآية الكريمة ذلك قبل كشف المناظر المكبرة (ميكروسكوب) بقرون عدة حيث تبين أن الماء الراكد المتغير مستودع لملايين البكتريا الضارة وغيرها من الطفيليات التي تصيب الناس والأنعام بأمراض شتى (عن المنتخب في تفسير القرآن) .

(١) لا فيها غول : ليس فيها ضرر .

(٢) ولا هم عنها ينزفون : ولا يسكرون بسببها .

يقارن القرآن بين هذا النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين بقوله : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أي فهل من يقيم في هذا النعيم يشابه من هو خالد في النار ، وإضافةً إلى ذلك ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ والماء الحميم هو الماء الشديد الحرارة الذي يشربه الكفار فيقطّع أمعاءهم . ويلاحظ أن اللّه تعالى قابل بين أشربة المؤمنين اللذيذة وشراب الكافر وهو الماء الحار الذي يقطّع الأمعاء .

ونستدرك القول في النعيم المادي الذي ذكره القرآن فقد يقال إن القرآن قد أكثر من ذكر اللذائد المادية ، ولكن يجب أن لا ننسى أن الطبيعة البشرية تسر لهذه اللذائذ ، فليس في طبيعة الإنسان زهد في اللذائذ المادية ولا كراهة لها ، فلا ريب أن الوعد بالحصول على هذه اللذائذ جزاء العمل الصالح مغرٍ له وحاثٌ عليه ، هذا وإن القرآن لم ينس اللذة الروحية في وصف نعيم الجنة فبعد أن وصف ألواناً من النعيم المادي عقّب على ذلك بقوله : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] أي أن رضوان اللّه هو أميز من النعيم المادي وأعظم ، وهذا الرضوان هو نعيم روحي صرف .

وبعد أن بيّن القرآن نعيم الآخرة انتقل إلى الكلام عن المنافقين وصفاتهم ، والنفاق نشأ في المدينة المنوّرة حيث اعتز الإسلام فكره أناس من سكان هذه المدينة أن يُعزّ الإسلام ولم يكن بوسعهم محاربته وجهاً لوجه فحاربوه خفية لأنه يقوّض زعاماتهم الباطلة ، وامتيازاتهم الموروثة ، وحرصاً على مصالحهم أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر في قلوبهم ، وصاروا يتحيّنون كل فرصة سنحت لهم للقضاء على الإسلام .

وساعد هؤلاء المنافقين وجود اليهود في المدنية المنورة الذين كانوا

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٢ .

يضمرون العداء للإسلام أيضاً ، فسرعان ما جمعتهم العداوة والكيد لهذا الدِّين الجديد ومعتنقيه ، وأخذوا يتعاونون على حبك المؤامرات ودس الدسائس في كل فرصة تسنح لهم . هؤلاء المنافقون يصف القرآن بعض مواقفهم من الإسلام بقوله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَال آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ على قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ . وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَىً وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ . فَهَل يَنْظُرُونَ إلاّ السَّاعَة أن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُم أذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ (١٦ ـ ١٨) .

هذه صورة ما كان يفعله المنافقون لبلبلة الخواطر وإشاعة الفتنة والقلق في صفوف المسلمين ، فقد كانوا يستمعون لرسول اللَّه كالمسلمين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ولكن ما أن يخرجوا من مجلس رسول الله ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ عندئذٍ يتظاهرون بأنهم لم يفهموا شيئاً ، ويقولون لصحابة رسول اللَّه ﴿ قَالُوا للذين أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ أي ماذا قال النبي هذه الساعة ، يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء ، وإن كان قولهم على صورة الاستعلام ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ختم اللَّه على قلوبهم وأغلقها فلا تعي خيراً لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي اتبعوا ما دعتهم إليه أهواؤهم من الباطل ، ورفض ما جاء به الرسول من الهدى .

وبالمقابل يصف اللَّه حال المؤمنن : ﴿ والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ فالمؤمنون اهتدوا بالإسلام فزادهم اللَّه إيماناً على إيمانهم ، كما أنه سبحانه ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي أعانهم على تقواهم ، أو أعطاهم

جزاءها ، أو بيّن لهم ما يتقون ، وتقوى اللّه هي خشيته ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ثم يخاطب اللّه المنافقين : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ السَاعَةَ[١] أنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فهل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم القيامة فجأة تباغتهم ﴿ فَقَدْ جَاءَ أشْرَاطُهَا ﴾ أشراطها : جمع شَرَط بمعنى العلامة ، أي جاءت علامات تدل على قربها . ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إذَا جَاءَتْهُم ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي من أين لهم أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت القيامة ، فالإيمان حينئذٍ لا ينفع ، والتذكر لا يجدي لأنه إيمان يأس ، وتذكر عن اضطرار وجزع ، وكله لا ينفع صاحبه شيئاً .

أما عن علامات قرب القيامة فقد تحدث عنها رسول اللّه في عدة أقوال منها قوله : « بعثت أنا والساعة (أي القيامة) كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى »[٢] والمراد بهذا التشبيه أن النبي ليس بينه وبين القيامة نبي آخر فهي تليه وتأتي بعده ، وهذه إشارة بقربها[٣] .

ومن علامات القيامة : حدوث تغيير في نظام الكون ، يقول النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت

---

(١) الساعة : في اللغة جزء من الليل أو النهار لا يلحظ فيه التحديد وأطلقت الساعة معرفة بالألف واللام في القرآن على يوم القيامة .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) قد يقول قائل ها قد مضى ألف وأربعمائة سنة تقريباً على نزول القرآن ولم نشهد قيام القيامة ، فنقول : إن هذه المدة ليس لها حساب يُذكر في عمر الكون البالغ ملايين السنين ، ولكن بعثة النبي محمد ﷺ تنبىء عن قرب القيامة بالنسبة لما مضىٰ من عمر الكون .

من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً »[١] .

وبعد ذلك يأتي خطاب اللّه للنبي وللمؤمنين بأن تكون عقيدتهم بوجود اللّه ووحدانيته قائمة على العلم لا عن تقليدٍ وجهل :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ ولِلْمُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩).

أمر القرآن بالاعتماد على العلم عند الأخذ بالعقيدة الإسلامية ، عقيدة التوحيد : بقوله (فاعلم) ، والعلم من أدواته العقل والفكر والنظر والتأمل ، هذه هي السبل لترسيخ العقيدة الإسلامية في النفوس لتكون عن يقين واقتناع ، فالإسلام لا يقول : (آمن ثم فكر) كما هو الحال في بعض الديانات السالفة ، ولكنه يقول : فكّر واعلم لتؤمن عن اقتناع .

ومن عظمة الإسلام أنه لم يعرّف ذات اللّه وكنهه لأنه فوق إدراك الحواس ، ولكنه عرّفه بعظيم صنعه ، وعجائب خلقه ، ودعا العقل إلى التفكر في الكون الذي يدل على وجود خالقه :

﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأعراف : ١٨٥ .

﴿ إِنَّ في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤمِنين ﴾ الجاثية : ٢ .

فوجود الكون بسمائه وأرضه على هذا النظام البديع المحكم دليل قاطع على وجود اللّه خالقه ومبدعه وحكمته وعلمه ، فمن المشاهد والمعترف به في حياتنا العامة أن أية صناعة من الصناعات كالساعة والطائرة وجهاز التلفزيون وغير ذلك من ألوف الصناعات الدقيقة تشهد بمهارة

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

صانعها وحذقه وعلمه ، وأنها لم توجد اتفـاقاً وصـدفة ، فكيف يستقيم في حكم العقل والمنطق أن نلحد بوجـود الخالق ، وأن نـدّعي أن هذا الكـون على اختلاف عوالمه بغير صانع ، سواء أكان ذلك في السماء ومـا تحتويـه من بـلايين النجوم والكـواكب ، أو في الأرض وما فيهـا من ملايين الأحيـاء البـرية والبحـرية والحشـرات والطيـور والزواحف ، وأنـواع النبـات والثمـر والشجر ، إنه لا ينكر الخالق إلاّ من أنكر عقله .

والأكثـرية السـاحقة من فـلاسفة الإسـلام ومفكريـه لم يلحدوا خـلافـاً لفـلاسفة الأديـان الأخرى ، لأنهم عـرفـوا القـرآن أولاً فـأعـطاهم الصـورة الصحيحـة المقنعـة عن وجـود اللّه التي لم تؤثـر فيهـا قـراءتهم للمـذاهب الفلسفيـة المـاديـة ، وكيف يتصـور أن يلحـد مفكـر وفيلســوف ينتمي إلى الإسلام وهو يعرف أن إسلامه يعتبر العلم أهم أداة للإيمان بالخالق ، كمـا جاء في القرآن :

﴿ **شَهِـدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـه إلاّ هُوَ وَالمَـلَائِكَةُ وَأُولُـوا العِلْمِ قَائِمـاً بِالقِسْطِ لا إلَه إلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم** ﴾ آل عمران : ١٨ .

فـالقرآن جعـل شهادة العلمـاء مع شهـادة اللّه والمـلائكـة أهم أدوات الإثبات لوجود اللّه ووحدانيته وعزته وحكمته البالغة وعدالته الشاملة .

وأثبت القرآن أن العلماء هم أشـد الناس خشيـة للّه ﴿ **إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ العُلَماءُ** ﴾ فاطر : ٢٨ .

هذا وإن القرآن يقـدم دليلاً منـطقياً على وحـدانية اللّه فيـه كل وسـائل الإقناع :

﴿ **ما اتَّخذَ اللَّه مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَـانَ مَعَهُ من إلَـه إذاً لَذَهَبَ كُـلُّ إلَه بِمَـا خَلَقَ**

﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْض﴾ المؤمنون : ٩١ .

فلو كان مع اللّه آلهة أخرى لذهب كل واحد منهم بخلقه واستأثر بـه ، وقد يعلو بعضهم على بعض فتسود الفـوضى ، ويختل نـظام الكون ، ومن تصور إلّهاً بلا غلبة ، وبلا استئثار بـالسلطة فقد تصـوره في شأن غيـر شأنـه وطبيعة غير طبيعته .

وبعد هذا الاستطراد لنعد إلى تتمـة الآية فـإنها بعـد أن أمرت بـاعتماد العلم في مجـال العقيدة عقبت على ذلـك : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ ولِلْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ﴾ هذه الآية وإن كانت خطاباً للنبي[1] ﷺ فهي في الوقت نفسه خطاب للمؤمنين ليطلبوا الغفران لأنفسهم وللمؤمنين لكـل ما بـدر منهم من ذنـوب . وإن في دعوة المؤمن لمشاركة المؤمنين معـه في طلب الغفـران ، إيحاءً لهم في تجنب الخطايا ، والتعاون على نبـذها لمـا فيها من إغضـاب الرب وتدمير المجتمع . هذا وإن الرسول في منصبه الجليل وقربـه من اللّه كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وكيف لا يطلب المؤمن الغفران من اللّه والقرآن يصرح : ﴿واللّه يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ أي يعلم مـا تتصرفـون فيه من أشغـالكم بـالنهـار ﴿وَمَثْـوَاكُمْ﴾ ويعلم مأواكم إلى مضاجعكم بـالليل أو مصيـركم في الآخرة إلى الجنـة أو النار لا يخفى عليه شيء من ذلك .

---

(١) ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح ، وذنوب الناس فعـل القبائـح من الصغائـر والكبائر .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ
وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ
ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ
ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن
تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى
ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ

شرح المفردات

سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ : سورة ذكر فيها الجهاد بنص صريح غير قابل للتأويل .

نَظَرَ المغشيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوت : تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً كمن أصابته سكرة الموت .

فَأَوْلَى لَهُم : فويلٌ لهم لما أساءوا .

قَوْلٌ مَعْروف : قول مستحسن .

فإذا عَزَمَ الأَمْرُ : جد الأمر ولزمهم الجهاد .

فهل عَسَيْتُم : فهل يتوقع منكم .

تَوَلَّيْتُم : أي توليتم الحكم وصرتم حكاماً ، أو أعرضتم عن دين اللّه .

وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم : وتقطعوا صلة القرابة والرحم .

أفلا يتدبّرون القرآن : يقرأون القرآن قراءة تفهم وتفكر .

أم عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها : أم يتلقون القرآن بقلوب مقفلة بالكفر والعناد .

ارتدُّوا على أَدْبَارِهِم : رجعوا إلى الكفر .

سَوَّل لَهُم : زيّن لهم القبيح حتى رأوه حسناً .

أملى لهم : غرهم وخدعهم ومد لهم في الأماني الباطلة .

مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا
تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ
ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ * إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

شرح المفردات

أدبارهم : جمع الدُّبر ، وهو مؤخر كل شيء وظهره .

فَأَحْبَطَ أعمالهم : فأبطل أعمالهم وحرمهم من ثوابها .

أَضْغَانَهُم : أحقادهم الشديدة الكامنة .

لأَرَيْنَاكَهُم : لعرفناك إياهم بدلائل تعرفهم بها .

بِسِيمَاهُم : بعلامتهم التي تميزهم عن غيرهم .

في لَحْنِ القَوْلِ : ما في كلامهم من تعريض أو تورية لإخفاء مرادهم .

لَنبْلُونَّكُمْ : لنختبركم بالتكاليف الشاقة .

نَبلوَ أخبارَكُمْ : نختبر أعمالكم فنعلم حسنها من قبحها .

شاقُّوا الرسُول : خالفوا وعادوا رسول الله محمد ﷺ .

فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ
أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن
يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

شرح المفردات

فَلَا تَهِنُوا : فلا تضعفوا عن مقاتلة الكفار .

وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ : وتدعوا إلى السلام والصلح .

وأنتم الأَعْلَوْنَ : الفائزون الغالبون .

وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُم : ولن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم .

فَيُحْفِكُمْ : يجهدكم بطلبها بإلحاح .

تابع سورة محمد

ثم ينتقل بنا القرآن إلى وصف حال المنافقين عندما يسمعون أوامر اللّه بالقتال دفاعاً عن الإسلام :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمنوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوتِ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعةٌ وَقَولٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ (٢٠ - ٢١) .

فالمؤمنون الصادقون كانوا يتمنون دوماً أن يُنَزِّلَ اللّه أمراً صريحاً يبيح لهم القتال دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمنوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي قالوا : هلاّ نزلت سورة نؤمر فيها بالقتال ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ فإذا أُنزلت سورة وكانت واضحة وصريحة تنطق ألفاظها بحقيقة المقصود منها ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ ﴾ وذُكِرَ فيها الأمر بقتال المشركين ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي رأيت الذين في قلوبهم شك في دين اللّه وهم المنافقون ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوتِ ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد نظر المحتضر الذي يشخص بصره هلعاً من الموت ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ هذه الجملة هي وعيد من اللّه لهؤلاء المنافقين بمعنى : فويل لهم ، أو قارب ما يهلكهم ، أما قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْروفٌ ﴾[1] فهو كلام مستأنف ومعناه : طاعة للّه وقول مستحسن أحسن وخير لهم . وتأتي أوْلى بمعنى أحق وأفضل ، والكلام بعدها متصل مما يؤدي نفس المعنى .

---

(١) معروف : اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حُسْنُهُ .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ أي فإذا جدّ الأمر ، ولزم فرض القتال كرهوه أو تخلفوا عن القتال . فكرهوه أو تخلفوا جواب « إذا » وهو محذوف ، ومعلوم ان (إذا) حرف شرط يحتاج إلى جواب .

﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ فلو صدقوا اللّه في الإيمان وامتثلوا ما أمرهم به من القتال لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة .

ثم يبين القرآن بعد ذلك المصير السيء الذي يؤول إليه كل من يعرض عن هدي اللّه ويقطع صلة الرحم :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم ﴾(٢٢ ـ ٢٣) .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ هذه العبارة جاءت على سبيل التوبيخ والتقريع لهؤلاء المنافقين بمعنى : هل يتوقع منكم ﴿ إنْ تَوَلَّيْتُم ﴾ وهذه العبارة تحتمل معنى : تولي أمور الناس ، أو معنى : الإعراض عن الإسلام . فيكون المعنى : فهل يتوقع منكم إن توليتم الحكم وأمور الناس أن تفسدوا في الأرض بالظلم ، فتعصوا اللّه ، أو بمعنى : فلعلكم أو يخاف عليكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تعودوا إلى جاهليتكم فتعصوا اللّه وتفسدوا في الأرض .

﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ وتقطيع الأرحام يكون بالبغي والظلم والقتل ، والرحم : هي القرابة ، وتشمل ناحيتين :

قرابة عامة بين المؤمنين وهي التي وصفها اللّه بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَة ﴾ والتي يجب مراعاتها بالمحبة والنصيحة والعدل والنصرة .

وقرابة خاصة ، وهي رابطة القرابة عن طريق النسب من طرفي الرجل أبيه وأمه فتجب لهم الحقوق الخاصة من النفقة على المحتاجين ، وتفقد أحوالهم وتفضيلهم على غيرهم بالبر والإحسان .

وجزاء الذين أفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُم ﴾ أي أصابهم بالصمم عن سماع الحق ومواعظ اللَّه ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي أعماها عن رؤية الخير فلا يتبينون حجج اللَّه .

وبعد ذلك تأتي الآية الكريمة داعية إلى التأمل في معاني القرآن وتفهمه للعمل بموجبه :

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾ (٢٤) .

أي أفلا يتأمل هؤلاء المنافقون في معاني القرآن ، ويتبصّرون ما فيه من الهدى ويعلمون ما اشتملت عليه آياته من المواعظ الزاجرة ، والحجج الظاهرة التي تزجرهم عن الكفر باللَّه والعمل بمعاصيه ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾ وأقفالها جمع قفل ،وهو ما يغلق به الباب إغلاقاً محكماً ، وأقفال القلوب هي الكفر والعناد ونحوهما مما يصعب معه تقبّل الدين الحق ومبادئه القويمة ، وإذا أُقفلت القلوب فهي لا تفهم ولا تعقل ولا تتدبّر ما يتلى عليها من آيات القرآن .

هذه السمة التي يرسمها اللَّه للمنافقين على عهد النبي ﷺ تسري على من يسير سيرهم ، وها نحن اليوم بعد أربعة عشر قرناً نرى كثيراً من المسلمين يسيرون على خطى هؤلاء المنافقين فيتقاعسون عن الجهاد في سبيل اللَّه وطاعة أوامره بسبب ضعف إيمانهم وعدم تدبرهم للقرآن ،

وإعراضهم عما جاء به من الهدى ، إنهم يسمعون القرآن يتلى في الإذاعات ولكن يسمعونه للطرب لا للفهم والتدبر والإتعاظ والعمل بمبادئه وأحكامه ، لا يفهمون ما يتلى عليهم ، ولا يحاولون تدارس القرآن لفهمه . بل زاد في الطين بلّة جعلهم القرآن يُتلى على الأموات ، ومصدراً لاستدرار الرحمات ، مبتعدين كل البعد عن غرضه الحقيقي وهو أنه هدى ودستور للحياة ، وتشريع للأحياء . وبهذا قوّض المسلمون أهم ركن من أركان سعادتهم .

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين مهدداً إياهم بسوء المصير :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم وَأَمْلَى لَهُم . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ ، واللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢٥ ـ ٢٨) .

فهؤلاء المنافقون ﴿ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر بعد أن أعلنوا إسلامهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ من بعد ما ظهر لهم الحق بالدلائل الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ، إن هؤلاء المنافقين ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي زيّن لهم وسهل لهم العصيان ﴿ وأملى لهم ﴾ أي مدّ لهم في الأماني والآمال الكاذبة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالوا للَّذينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ أي وارتدادهم هذا بسبب أنهم قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن على محمد حسداً من عند أنفسهم ﴿ سَنُطِيعُكُمْ في بَعْضِ الأَمْرِ ﴾ أي سنطيعكم في بعض أموركم وأحوالكم ، وليس في كل الأمور ، إذ يجب أن يحافظوا على الشكل

الظاهري لهم باعتبارهم مسلمين ظاهراً ﴿ واللَّهُ يَعلَمُ إِسْرَارَهُم ﴾ أي يعلم كل ما يسرونه ويخفونه عن المسلمين . ﴿ فَكَيْفَ إذا تَوَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ ﴾ أي فكيف يكون حال هؤلاء المنافقين عندما يتوفاهم ملك الموت وأعوانه ﴿ يَضْرِبُون وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ فالملائكة عندئذٍ تضرب وجوههم وأقفيتهم إذلالاً لهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّه ﴾ أي ذلك الهوان والذل الذي سيلاقونه هو بسبب كفرهم ومعاصيهم التي تغضب اللَّه ، وبسبب أنهم ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ ولأنهم كرهوا ما يرضاه اللَّه لهم من الإيمان والطاعة ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فلأجل ذلك أبطل اللَّه ثواب أعمالهم وأذهبها سدى لأنها عُملت في غير رضاه فبطلت ولم تنفع صاحبها .

وتتابع الآيات مهددة المنافقين بفضحهم وكشفهم على حقيقتهم أمام المؤمنين :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُم . وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُم فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون ، والضغن : الحقد الشديد . والمعنى : هل ظن المنافقون أن اللَّه لن يظهر ما يضمرون في قلوبهم من حقد للنبي وللمؤمنين ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لو شاء اللَّه لعرّفك بهم يا محمد وأعلمك بحالهم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُم ﴾ فلعرفتهم بعلاماتهم التي يتميزون بها ﴿ وَلَتَعرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْلِ ﴾ أي في نبرات الصوت ، وفي فحوى القول ومقصده ومعناه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ لا يخفى عليه شيء منها .

ثم تعود بنا السورة إلى الكلام عن الجهاد في سبيل اللَّه وأن اللَّه

فرضه على المؤمنين ليمتحن جوهر عقيدتهم ، وأن الكافرين مهما تآمروا للقضاء على الإسلام فلن يستطيعوا النيل منه ، يقول تعالى :

﴿ وَلَنبْلُوَنّكُم حَتَّى نَعْلَمَ المجاهِدينَ مِنْكم والصَّابِرينَ وَنَبْلُوَ أَخْبارَكُم . إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

يخبر اللَّه المسلمين بأنه سيختبرهم بأنواع من المحن والتكاليف الشاقّة كالجهاد ليعلم المجاهدين منهم والصابرين ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبارَكُمْ ﴾ أي نختبر أعمالكم فنعرف الصادق منكم من الكاذب .

أما الذين كفروا بوجود اللَّه أو أنكروا وحدانيته ونبوة رسوله محمد ﴿ وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي منعوا الناس عن دين اللَّه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة أخرى ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُول ﴾ أي عادوه وحاربوه وآذوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي من بعد أن علموا أنه مرسل من عند اللَّه بالدلائل الواضحة ، هؤلاء ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شيئاً ﴾ هؤلاء لن يضروا دين اللَّه ولا منهجه ، ولا القائمين على دعوته ، وأنهم وإن قدروا على إيذاء بعض المسلمين فإن هذا بلاءٌ مؤقت يقع بإذن اللَّه لحكمة يريدها ، ولكن اللَّه في النهاية ﴿ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي سيبطل كل مكايدهم ومؤامراتهم ضد الإسلام .

وها نحن اليوم بعد أربعة عشر قرناً من بدء الدعوة الإسلامية نرى مصداق هذه الآية في أجلى مظاهرها ، فقد نشأ الإسلام ضعيفاً وتآمر عليه المتآمرون واستشهد الكثير في سبيله ، ولكنه خرج من كل ذلك ظافراً . وبعد وفاة النبي ﷺ امتد الإسلام وانتشرت دعوته في مشارق الأرض ومغاربها بدعوته السمحة ، وكان في كل فترة يصاب بانتكاسات على يد

أعدائه ، ولكن لم يستطيعوا طمس نوره بل ظـل ينتشر بسـرعة حتى أصبح أتباعه مئات الملايين ، وأصبح الإسلام اليـوم من أعظم القـوى التي توجـه العـالم ، وما ذلـك إلّا لأنـه دين اللّه الحق الـذي يـراعي في تنـظيمـه كـل المتطلبات المادية والروحية التي تنشدها شعوب العالم .

وبعد هذا التطمين الرباني للمؤمنين بإبطال كيد أعـدائهم تأتي الآيـات التالية ترشد المؤمنين إلى ما فيه سعادتهم وفوزهم برضاء اللّه :

﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِين آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الـرَّسُـولَ وَلاَ تُبْـطِلُوا أَعْمَالَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُم كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِـرَ اللَّهُ لَهُمْ . فَلاَ تَهِنُـوا وَتَـدْعُـوا إلى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فاللّه سبحانه يدعو المؤمنين إلى طاعته وطاعـة رسولـه لأن فيهما قـوام سعـادتهم ، وأن لا يبطلوا أعمـالهم الصالحـة بـالأعمـال السيئـة والكفـر . فالكفار الذين أنكروا وجود اللّه ووحدانيتـه ، وصدوا من أراد الإيمـان باللّه ورسوله بأية وسيلة كانت ، أو فتنوهم عن دينهم ثم ماتوا وهم كفار ، هؤلاء لن يغفـر اللّه لهم مـا فعلوا ، وسيكـون العـذاب نصيبهم يـوم القيـامـة . فالفرصـة متاحـة لكل كـافر أن يتـوب عن كفره ، ويـرجع عن عمله السيء ما دام على قيد الحياة ، ولكن إذا جاءه الموت تذهب كل فرصة سدى .

ثم يخاطب اللّه المؤمنين بقوله : « فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُـوا إلى السَّلْمِ ﴾ أي فـلا تضعفـوا ولا تـذلّـوا لأعـدائكم الـذين قـابلوكم بـالـظلم والعـدوان ، ولا تدعوهم إلى الصلح والمسالمة خـوفاً منهم وضعفـاً ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ وأنتم القـاهـرون والعـالـون عليهم ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ واللّه نـاصـركم على أعـدائكم . وكلمة : اللّه معكم تعـطي المؤمنين دعماً معنـوياً هـائلاً يشعـر

المؤمن معها أن لا قوة في الأرض تقف أمامه ، ومن كان اللَّه معه لن تغلبه قوة مهما عظمت ، كما أنها إرشاد للمؤمنين بتجنب الزهو والإعجاب بالنفس ، لأن اللَّه لما قال : وأنتم الأعلون كان ذلك داعياً للافتخار فبيَّن اللَّه أن ذلك العلو على الكفار بسبب معية اللَّه لهم ونصرته لهم ، ثم يعقب اللَّه على ذلك بقوله ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي ولن ينقصكم أجور أعمالكم .

ثم يختم اللَّه السورة داعياً المؤمنين إلى الإنفاق في سبيله لأن ذلك سبيل الفلاح لهم :

﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ . هَا أَنْتُمْ هؤلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا في سَبيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ واللَّهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ ، وَإِن تَتَولَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يكونوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٦ ـ ٣٨) .

فاللَّه يبين بأن الدنيا لعب ولهو فلا يجدر المؤمنين أن تلهيهم الدنيا عن واجبات الإيمان ، وبقدر ما يقدم المؤمن من تضحيات ، يرتفع قدره عند اللَّه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ فاللَّه يجزي ثواب الإيمان والتقوى فلا يظن الإنسان أن تضحياته ستذهب سدى . ومعنى ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُم ﴾ أي لا يطلب منكم إخراج أموالكم كلها في سبيل اللَّه ، بل يطلب منكم إنفاق بعضها[1] ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا ﴾ أي إن يسألكم ربكم إنفاق أموالكم كلها ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكل ، وعندئذٍ ﴿ تَبْخَلوا ﴾ بالمال فلا تنفقوه في سبيل اللَّه ﴿ وَيُخْرِجْ

---

(١) هي ربع العُشر (اثنان ونصف بالمئة) من أموالكم وهي مقدار فريضة الزكاة .

اضْغَانَكُمْ ﴾ أي ويظهر أحقادكم لهذا الدِّين .

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا في سَبيلِ اللَّهِ ﴾ فالمؤمنون مدعوون إلى الإنفاق في سبيل اللَّه ، وسبيل اللَّه كلمة لكل ما رسم اللَّه لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه ، والبذل في سبيله ، وعمل الخير .

فنشر دعوة الإسلام والإنفاق على ذلك هو في سبيل اللَّه ، ودفع الأعداء عن أرضنا هو في سبيل اللَّه ، وإقامة العدل في الأحكام ورد الأمانات إلى أهلها هو في سبيل اللَّه ، والعمل على مصالح الأمة بإنشاء دور العلم والمستشفيات ودور الصناعة التي تتوقف عليها حياة الأمة ورقيها هو في سبيل اللَّه .

ومن الجدير بالتأمل أن القرآن أثبت أن البخل في الإنفاق في سبيل اللَّه يعود وباله على البخيل ذاته ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فالبخل في الإنفاق في سبيل اللَّه يؤدي إلى خلل في المجتمع الذي يُعتبر البخيل جزءاً منه . هذا بالإضافة إلى أن البخيل حرم نفسه من ثواب اللَّه ، فالقرآن إذ دعا المؤمنين إلى الإنفاق في سبيل اللَّه فما ذلك إلّا لخيرهم ، وهو سبحانه ليس بحاجة إلى أحد فهو مالك السماوات والأرض ومن فيهن ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الفُقَرَاءُ ﴾ .

هذا وإن البخل في الإنفاق في سبيل اللَّه مدخل إلى ضعف الأمة وانهيارها وطمع الأعداء فيها وهلاكها ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يكونوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ فاللَّه سبحانه يهلك هؤلاء البخلاء ويستبدل بهم قوماً أصلح منهم وأطوع وأكثر استجابة للعمل بشريعته ثم لا يكون هؤلاء البدلاء أمثالهم في البخل بل يستجيبون إلى ما أمرهم اللَّه به من النفقة في سبيل اللَّه ، الذي هو سبيل الحق والخير .

سورة الفتح

هذه السورة تـدور في مجملها على صلح الحـديبية ، ومـا رافق ذلك من أحداثٍ قبل هذا الصلح وبعده ، ولذا كان ضرورياً ان نذكر قصـة هذا الصلح وظـروفـه ، لنعيش في جـوّ هـذه السـورة التي قـدمت دروســاً في الجهاد ، وثمراته المرجوّة من السعادة في الدنيا ، والنعيم في الآخرة .

صلح الحديبية

زيارة المسجد الحرام : كان المسجـد الحرام في مكـة وجهة العـرب قبل الإسلام في عبادتهم ، يحجّون إليـه كل عـام في الأشهر الحـرم[١] ، وكان له تعـظيم خاص في نفـوسهم ، وأن من دخله كان آمنـاً ، وإذا التقى المرء بأشد الناس عـداوة له لم يجـرؤ أن يجرّد نحـوه سيفاً ، أو يسفـك له دمـاً ، ولكن قبيلة قـريش آلت على نفسهـا منـذ أن هـاجـر محمـد ﷺ والمسلمـون معه إلى المـدينة المنوَّرة أن يصدوهم عن المسجـد الحرام ، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب، وكان المسلمون يتألمون كثيراً من هذا الحرمان الذي حال بينهم وبين أداء هذا الواجب الديني .

انقضت ست سنــوات على هجـرة المسلمين إلى المـدينـة ، وهم يتحرَّقون شوقاً لزيارة المسجد الحرام ، وإنهم لمجتمعون ذات يوم إذ أقبـل عليهم رسول الله ﷺ ينبئهم برؤيا رآها في منامه بـأنهم سيدخلون المسجـد الحـرام آمنين مطمئنين لا يخـافون ، ومـا لبث أن دعا رسـول الله ﷺ أهـل المدينة المنوّرة ومن حولها من أهل البوادي (الأعراب) ليخرجوا معـه إلى

---

(١) الأشهر الحرم : هي الأشهر التي كان العرب في الجاهلية يحرمـون فيها القتـال وقد أقر الإسلام حرمتها ، وهي : ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرّم ، ورجب .

المسجد الحرام لأداء فريضة[١] العمرة ، وكان النبي ﷺ يخشى أن يتعرض لـه الكفار من أهـل مكة بـالحرب ، أو يصـدّوه بالقـوة عن دخول المسجـد الحرام .

استجاب أهل المدينة لرسول اللّه ، أما الأعراب فامتنعوا عن الـذهاب معـه ، وقـالـوا : (شغلتنـا أمـوالنـا وأَهلونـا) وكـان السبب الحقيقي في إحجامهم عن المسير مع النبي ﷺ اعتقادهم أن محمداً وأصحابه لن يعودوا من سفرهم هذا أبداً سالمين لأن المشركين سيفتكون بهم .

خرج رسول اللّه ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وكان عددهم ألفاً وأربعمـائة ، لا يحملون من السـلاح إلاّ السيوف في أغمـادها ، يسـوقـون الهـدي[٢] أمـامهم لِتَعْلَم قـريش أَن محمـداً وصحبـه خـرجـوا للعبـادة لا للحرب .

منع رسول اللّه من دخول مكة : وصـل رسول اللّه وصحبـه إلى مكان يُدعى (عسفان)[٣] فجاءه الخبر أن قريشاً أجمعت على صدّه ومن معه من المسلمين عن دخـول مكة ، وأنّهـا استعـدت للحـرب ، ولمـا بلغ رسـول اللّه الخبـر باستعـداد قـريش للحـرب قـال : (يـا ويـح قـريش قـد أكلتهم

---

(١) بعض الأئمة يراها سنة لا فريضة ، والعمرة لها ثـلاثة أركـان : الإحرام ، والـطواف حول الكعبة ، والسعي بين الصفا والمروة .

(٢) الهدي هي ما يهدى إلى البيت الحرام من الإبل والبقر والغنم ، وقـد كان رسـول اللّه في هـذه الزيـارة يسوق أمـامه سبغين بـدنة (وهي النـاقة المسمنـة) وهي تنحر بعـد الزيـارة ويوهب لحمها للفقراء .

(٣) عسفـان : موضـع على بُعد مـرحلتين من مكة . المـرحلة : هي المسافـة التي يقـطعهـا المسافر في يومه .

الحرب ، ماذا لو خلّوا بيني وبين سائر الناس ! فإن أصابوني[١] كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني[٢] اللّه عليهم دخلوا في الإسلام وافرين[٣] ، واللّه لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني اللّه به حتى يظهره اللّه ، أو تنفرد هذه السالفة[٤] (مشيراً إلى صفحة عنقه) . ثم قال رسول اللّه ؛ من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل : أنا يا رسول اللّه ، فسار بالركب في طريقٍ وعرٍ قاس . . عانى المسلمون منه مشقة شديدة ، ثم وصلوا إلى مهبط الحديبية في أسفل مكة .

وبينما الركب في طريقه إلى مكة بركت ناقة رسول اللّه ، فقال الناس : خلأت[٥] ناقة رسول اللّه ، فقال رسول الله ؛ « ما خلأت ، وما هو لها بِخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إياها » ثم زجر ناقته مغيّراً وجهة سيره ، فوثبت الناقة ، وسار النبي ﷺ حتى نزل بأقصى الحديبية .

أرسلت قريش بعض السفراء سفيراً تلو الآخر يسألون عن سبب قدوم المسلمين إلى مكة ، وقد راودهم الشك فيما عزم عليه رسول اللّه ، فأخبرهم بأنه جاء لزيارة المسجد الحرام لأداء العمرة ، ثم رأى رسول اللّه أن يُرسل عثمان بن عفان سفيراً من قِبَله لإبلاغ قريش الغاية من مجيئه ، فبلّغ عثمان رسالته إلى قريش ، فقالوا لعثمان حين فرغ من مهمته : إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول

---

(١) أصابوني : قتلوني أو هزموني .
(٢) أظهرني : نصرني .
(٣) وافرين : سالمين لم يقتل منهم أحد .
(٤) السالفة : هي صفحة العنق وانفرادها عن الجسم كناية عن الموت .
(٥) حرنت وبركت .

الله ، ثم حبسوه عندهم ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قُتل ، فلما بلغ رسول الله خبر مقتله قال : لا نترك هذا المكان حتى نحارب هؤلاء القوم .

بيعة الرضوان : هنالك رأى النبي ﷺ أن الأمر خرج عن طوق الصفح والحلم ، ودعا أصحابه لمبايعته ، فعاهدوه باستثناء واحد منهم ، وقد سُئل أحد الذين شهدوا تلك البيْعة : (على أي شيء بايعتم « أي عاهدتم » رسول اللَّه يوم الحديبية ، قال : الموت) وفي رواية أخرى : (أنهم بايعوا رسول اللَّه على أن لا يفروا) والمراد بذلك : القتال حتى النصر ، مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، لا يفرون من وجه عدوهم مهما لاقوا منهم من شدة .

معاهدة الصلح : استعد المسلمون للقتال ، وبينهما هم كذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يُقتل ، ثم لم يلبثوا أن فوجئوا برجوعه . وبذلك عادت المفاوضات بين الفريقين ، فأرسلت قريش سفيراً من قبلها هو سهيل بن عمرو يعرض شروط الصلح التي تطلبها قريش وكانت أربعة :

أولاً : تقرير هدنة بين قريش والمسلمين مدتها عشر سنين .

ثانياً : إذا لجأ رجل من قريش إلى المسلمين فعليهم ردّه ، وإذا فرّ واحد من المسلمين إلى قريش فليس عليها ردّه .

ثالثاً : أن يعود المسلمون هذا العام بغيرِ عُمرة ، ويأتوا في العام الذي يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخليها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلّا السيوف في أغمادها .

رابعاً : من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ،

ومن طلب أن يدخل في عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فَقَبِلَ النبي ﷺ هذه الشروط ، ثم استدعى النبي علي بن أبي طالب فقال : اكتب « بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول اللّٰه : اكتب باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّٰه ، فقال سهيل لو شهدت أنك رسول اللّٰه لم أقاتلك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّٰه سهيل بن عمرو .

نزل بالمسلمين من أمر هذا الصلح شيء عظيم ، فهم يرون أنهم وهم على ما هم عليه من كثرة العدد ، وقوة الإيمان يقدمون لقريش هذه التنازلات ، وهم كانوا يؤمنون بأنهم سيدخلون مكة كما رأى رسول اللّٰه في منامه ، فإذا هم يُردّون عنها وعن زيارة المسجد الحرام ، ولهذا يقول عمر بن الخطاب للنبي آنذاك : يا رسول اللّٰه ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ فقال النبي : بلى ، قال عمر : ففيم نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم اللّٰه بيننا وبينهم ؟ فقال النبي : يا ابن الخطاب إني رسول اللّٰه ولن يضيعني اللّٰه أبداً .

ثم اطمأن المسلمون بعد ذلك إلى أمر اللّٰه ، ورجعوا مع نبيهم ﷺ إلى المدينة يحدوهم الإيمان واليقين بنصرة اللّٰه لهم .

وعند رجوعهم وفي الطريق بين مكة والمدينة وقف رسول اللّٰه في موضع يُدعى (كراع الغميم) وجمع الناس ليقرأ عليهم سورة الفتح .

سُورَةُ الفَتْح

مَدَنيّة ، وآياتها تِسْع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ
نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ
عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

شرح المفردات

إِنَّا فَتَحْنَا : فتح البلد هو الظفر به بحرب أو بغير حرب .

فَتْحاً مُبيناً : فتحاً ظاهراً واضحاً ، والمقصود هو صلح الحديبية .

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ : ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه قبل النبوة وبعدها .

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ : يتم فضله عليك بنشر الإسلام وفتح البلدان .

نَصْراً عَزِيزاً : نصراً فيه عز ومنعة .

أَنْزَلَ السَّكِينَة في قُلُوبِ المؤمِنينَ : أدخل الثبات والطمأنينة إلى قلوبهم .

يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم : يمحو الله سيئاتهم ولا يعاقبهم عليها .

وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ
وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا
يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

شرح المفردات

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ : أي أن الهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين سيقع بهم .

وَلَعَنَهُم : طردهم من رحمته .

وَسَاءَتْ مَصِيراً : وبئست جهنم نهاية سيئة لهؤلاء المشركين .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً : أي أرسل الله محمداً شاهداً على أمته بتبليغ الرسالة .

مُبَشِّراً : مخبراً المؤمنين بما يسرّهم من نعيم الآخرة .

نَذِيراً : محذراً ومخوفاً العصاة من عذاب الله .

تُعَزِّرُوهُ : تنصروا الله تعالى وذلك بنصرة دينه .

وَتُوَقِّرُوهُ : وتعظموه بتعظيم دينه .

بُكْرَةً وَأَصِيلاً : صباحاً ومساءً ، والمراد كل الأوقات .

يُبَايِعُونَكَ : يُعاهدونك .

يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم : نصر اللّه وتأييده لهم أقوى من نصرتهم إياه .

فَمَن نَكَثَ : فمن نقض العهد بعد إبرامه .

سُورَةُ الفَتْح

ايضاح و دروس

يستهل اللّٰه هذه السورة بوصف صلح الحديبية بأنه فتح واضح ظاهر :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصراً عَزِيزاً ﴾(١ ـ ٣) .

قال عمر بن الخطاب : أَوَ فتح هو يا رسول اللّٰه ، قال : نعم ، والذي نفسي بيده إنّه لفتح » .

قد يعجب القارىء من وصف القرآن صلح الحديبية بالفتح المبين ، وقد اعتبره قبل ذلك أكثر المسلمين ضعفاً واستسلاماً ، ولكنهم رأوا فيما بعد ثمرة هذا الصلح ، وتبين لهم أنه كان خيراً على المسلمين من أي فتح سبقه ، إذ كان لا بد من وجود هدنة يُلقى فيها السلاح جانباً بعض الوقت ، لتتمكن العقول من التفكير الهادىء في أصول هذا الدِّين الجديد ، فتأخذ به عن اقتناع لا عن رهبة .

ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا منهم القرآن وتناقشوا في أمر هذا الدين ، فدخل في الإِسلام في تلك السنتين ـ منذ إبرام الصلح إلى فتح مكة ـ كثير من الناس مثل من كان دخل في الإِسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويؤيد ذلك أن رسول اللّٰه خرج إلى الحديبية ومعه ألف وأربعمائة من أتباعه ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف .

إن وصف القرآن لهذا الصلح بأنه فتح مبين ، ثم تأتي الأيام مصدّقة لذلك بانتصار المسلمين في فتح مكة العظيم ، إن ذلك لمن أقوى الأدلة على أن القرآن وحي إلّهي .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ الفتح : هو النصر ، والمعنى : حكمنا لك بالنصر يا محمد على أعدائك نصراً ﴿ مُبِيناً ﴾ أي واضحاً ظاهراً لا مجال لإنكاره ، والمراد بهذا الفتح « صلح الحديبية » وسُمي فتحاً لأنه كان سبباً في فتح مكة ، كما أنه كان فتحاً للقلوب لتقبُّل الإسلام ، وأثاب اللَّه نبيه على هذا الفتح بالغفران :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر ﴾[1] ما تقدَّم من ذنبك ، أي قبل تلقيك الرسالة الإلّهية ، وما تأخَّر : أي بعد الرسالة .

وليس الذنب الذي غفره اللَّه لنبيه كذنوب الناس ، لأن الأنبياء معصومون عن الكبائر ، بل هو ما قد يفرط من مقام النبوة مما يَحتاج إلى التذكرة والعتاب ، وللنبوة تكاليف لا يطيقها الناس ، ولا يُلزمون بها ، وقد يتصرف النبي بشيء لو تصرف به غيره من الأبرار لكان مقبولاً لا حرج فيه ولكنه من النبي قد يُعتبر مأخذاً يُذكّر به ويعاتب عليه ، كما في عتاب اللَّه له في حادثة عبوسه مع الأعمى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلّى ﴾ .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ ومن النِّعَم التي أتمها اللَّه على محمَّد ﷺ : نشر دينه ، وإعلاء شأنه ، وفتح خيبر ومكة والطائف ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً

---

(١) هذه الآية كان رسول اللَّه ﷺ يقول فيها : « لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليَّ مما على الأرض » هذا وبالرغم من غفران اللَّه لذنوب نبيه فقد روي عن عائشة : أن النبي كان يقوم من الليل في العبادة حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تَصنع هذا يا رسول اللَّه وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً .

مُسْتَقِيماً ﴾ أي يرشدك طريقاً من الدِّين لا اعوجاج فيه ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي ينصرك اللَّه على سائر أعدائك نصراً لا يغلبه غالب .

وبعد أن بيّن اللَّه بأن صلح الحديبية هو الفتح المبين ، شرع سبحانه يذكّر المؤمنين بما أفاض عليهم وقتئذٍ من نِعَمه حيث ملأ قلوبهم سكينة وطمأنينة بعد الفزع من جرَّاء هذا الصلح وما ظنوا فيه من إجحاف بهم :

﴿ هُوَ الذي أنْزَلَ السَّكِينَة في قُلُوبِ المؤمِنينَ لِيَزدَادُوا إيماناً مَعَ إيمانهم ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حكيماً ﴾ (٤) .

بيّن اللَّه في هذه الآية بأنه سبحانه ثبَّتَ قلوب المؤمنين ، وألقى فيها الطمأنينة بعد أن تعرَّضوا لامتحانٍ قاسٍ من شأنه أن يزيغ القلوب ، وذلك من صدّ الكفار لهم عن دخول المسجد الحرام ، ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم .

﴿ لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إيمَانِهِم ﴾ فالمؤمنون الأوائل رأوا من التأييد الربّاني المستمرّ لهم ما زادهم إيماناً على إيمان ، ونحن اليوم في عصرنا الحاضر نستشعر زيادة الإيمان في قلوبنا كلما تمعنَّا وازددنا دراسة للقرآن فنرى ما فيه من تشريع عادل ، وأخلاق رفيعة ، وعبادات سامية ، وأنباء غيبية تحققت ، وإشارات إلى حقائق علمية اكتشفها العلم حديثاً ، بالإضافة إلى بلاغة القرآن وفصاحته التي عجز عن مجاراتها كل بلغاء الأرض .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ فكل ما في السماوات والأرض من ملائكة وجن وإنس في قبضته سبحانه يُصرِّفها

بعلمه ويدبِّرها بحكمته ، وفي هذا تطمين لقلوب المؤمنين ، وأنه لو حصل قتال في الحديبية لم يكن النصر بعيداً عنهم لأن قدرة اللّه ليس لها حدود .

ثم يبيّن اللّه ما أعدَّ للمؤمنين من نعيم في الآخرة :

﴿ لِيُدْخِلَ المؤمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٥) .

فاللّه يخبر بأنه أعدّ للمؤمنين والمؤمنات في الآخرة بساتين تجري من خلالها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، لا يخضعون لزمان لأنه يتوقف عندهم الزمان ، ولهم بجانب ذلك مغفرة من ربهم ، وهي تُعتبر ﴿ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ أي نجاةً لهم من كل غمّ ، وظفراً بكل مطلوب .

وتأمل كيف خصّ القرآن النساء المؤمنات بالنعيم مع الرجال لدفع ما يراود الذهن بأن الجزاء الموعود في الآخرة خاص بالرجال ، ولحثّ المرأة على الإيمان ومشاركة الرجل في الجهاد بأي نوع من أنواع المشاركة مما ينسجم مع طبيعتها واستعدادها .

وبالمقابلة يبيّن اللّه ما أعد للمشركين والمنافقين من عذاب :

﴿ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٦ ـ ٧) .

فالمنافقون والمنافقات هم الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، والمشركون والمشركات هم الذين جعلوا مع اللّه شريكاً في العبادة ، سواء أكان صنماً ، أو إنساناً ، أو مظهراً من المظاهر الطبيعية ، هؤلاء رفضوا

الانضمام إلى جماعة المسلمين وظلوا يناوئونهم . واللَّه سبحانه يخبر بأنه سيعذبهم جزاء عملهم في الدنيا والآخرة .

﴿ الظَّانِّينَ باللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي كانوا يظنون أن اللَّه لن ينصر رسوله والمؤمنين ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَة السَّوْءِ ﴾ عليهم يعود ما ينتظرونه من البلاء للنبي وصحبه ، والدائرة ما أحاط الشيء ، أي أن السَّوْء سيحيط بهم إحاطة الدائرة بمن فيها . ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ والغضب هو السخط على الشخص بالإعراض عنه ، وصب العقوبة عليه ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ واللعن هو الطرد من رحمة اللَّه . هاتان الصفتان : الغضب واللعنة من اللَّه عليهم فيهما من التهديد والوعيد لهؤلاء المنافقين والمشركين ما يردعهم عمّا هم عليه من الشرك والنفاق .

ثم كرَّر القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنودُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ . في معرض غير المعرض السابق ، فالأول كان المجال فيه مجال تصريف وتدبير ولذلك قرنه بالعلم والحكمة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أما هنا فهو مجال قهر وغلبة فناسب أن يقرنه بالعزَّة والحكمة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزيزاً حَكِيماً ﴾ .

ثم يبيِّن اللَّهُ وَظيفة النبي ﷺ وواجبات المؤمنين :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . لِتُؤْمِنُوا باللَّه وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوقِّرُوه وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾(٨ ـ ٩) .

فاللَّه سبحانه أرسل رسوله محمداً ليكون شاهداً على أمته بتبليغ رسالة ربه إليهم ، وشاهداً على أعمالهم من طاعة أو معصية ، كما أنه سبحانه أرسله ليكون ﴿ مُبَشِّراً ﴾ لمن أطاع منهم بالنصر في الدنيا والنعيم في

الآخرة . كما أرسله سبحانه ﴿ نَذِيراً ﴾ أي مخوفاً ومحذّراً من عصى منهم بعذاب اللّه .

وكانت الغاية من إرسال النبي ﷺ إلى الناس : ﴿لِتُؤمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لتصدّقوا أيها الناس بوجود اللّه ووحدانيته ، ونبوة رسوله محمد ﷺ ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تنصروا اللّه ، ونصرته سبحانه تكون بنصرة دين الإسلام ﴿ وَتُوقِّرُوهُ ﴾ أي تعظّموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ وتسبيح اللّه تنزيهه عن كل نقص ، وقيل : لتقوموا بالصلاة ، لأن الصلاة تحتوي على تسبيح اللّه ﴿ بُكْرَةً ﴾ أي غداة ، وهي أول النهار ﴿ وَأَصيلاً ﴾ أي عشية . والمراد بذلك جميع النهار ، إذ من عادة العرب أن يذكروا طرفي الشيء ويريدوا جميعه ، والهدف من ذلك هو اتصال القلب باللّه في كل آن على الدوام .

ثم انتقل القرآن إلى الثناء على المؤمنين الذين عاهدوا محمداً ﷺ على نصرة الإسلام حتى الموت :

﴿ إنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبايعونَ اللَّه ، يَدُ اللَّهِ فَوقَ أيديهم ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجراً عَظِيماً ﴾(١٠) .

يبايعونك : يعاهدونك ، والمبايعة المقصودة هنا هي بيْعة الرضوان ، وقد أشرنا إليها من قبل في المقدمة ، وهي التي بايع فيها المسلمون النبي ﷺ لنصرة الإسلام حتى الموت . فاللّه سبحانه يقول : إن الذين يعاهدون النبي إنما يعاهدون اللّه ، لأن النبيّ هو المبلغ والمنفِّذ لأوامر ربه ، فعندما كان المسلمون يضعون أيديهم بيد النبي ﷺ رمزاً للوفاء بالعهد أخبرهم اللّه بأن ﴿ يَدُ اللَّه فَوْقَ أَيْدِيهِم ﴾ ولما كان اللّه منزهاً عن أن تكون له يد فقيل إن معنى ذلك : يده في الثواب فوق أيديهم بالوفاء ،

وقيل : قوّة اللّه ونصرته لهم فوق نصرتهم للّه .

﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي من نقض العهد مع النبي ﷺ فإنما يرجع وبال نقضه على نفسه لأنه بذلك حرم نفسه صفقة رابحة عقدها مع اللّه وتخلى عنها معرّضاً نفسه للخسارة في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ أي ومن وفى بعهده الذي عاهد عليه النبي فسيجزيه اللّه على هذا الصنيع الأجر العظيم ، وهو نعيم الجنة في الآخرة .

هذه المبايعة وإن كانت مع رسول اللّه إلاّ أنها ممتدة على مر العصور ، ففي كل محنة تمر بالعالم الإسلامي يجب على المسلمين أن يبايعوا أولي الأمر منهم على نصرة الإسلام والدفاع عن الديار ، وليعلموا أنهم بهذه المبايعة ستكون يد اللّه فوق أيديهم ، تباركهم وتضفي عليهم الرحمة والرضوان ، وتشملهم بالرعاية والاطمئنان ، وأي شرف أعظم من هذا ، وأية قوة معنوية يستشعرونها من تلك المبايعة ، إنها حقاً قوة قاهرة غالبة ، تهون أمامها كل التضحيات ، وتكون من الحوافز الهامة للنصر .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا
وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ
قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ
بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ

شرح المفردات

المُخَلَّفُونَ : هم الذين تخلّفوا عن صحبة النبي في المسير إلى الحديبية .

الأَعْرَابِ : سكان البادية المتنقلون إرتياداً للماء والمرعى .

لَنْ يَنْقَلِبَ : لن يرجع .

بُوراً : هالكين أو فاسدين .

سَعِيراً : هي جهنم سُميت بذلك لتأجج نيرانها .

ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم : دعونا نلحق بكم .

كَلاَمَ اللَّه : المراد به تخصيص غنائم خيبر لأهل الحديبية .

لا يَفْقَهُونَ : لا يفهمون .

ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ
فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ
وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ
عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

شرح المفردات

أُولي بَأْسٍ : أصحاب شدة وقوة في الحرب .

تَتَوَلَّوْا : تُعرضوا عن الجهاد .

حَرَجٌ : إثم وضيق .

أَثابَهم : جزاهم خيراً .

فَتْحاً قَريباً : المراد به فتح خيبر .

تَابِع سُورَة الفَتْح

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى الكلام عن الذين تخلَّفوا عن المسير مع رسول اللَّه إلى مكة لإداء العمرة والتي تحولت إلى صلح الحديبية :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ في قلوبهم ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أو أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبِيراً ﴾(١١) .

هؤلاء المخلَّفون أي الذين تخلّفوا عن السير مع رسول اللَّه هم قبائل من الأعراب كانوا ينزلون حول المدينة المنورة كقبائل جُهينة ، ومُزَينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغِفار ، والدِّيل . هؤلاء لم يكن الإيمان قد تمكّن بعْدُ من قلوبهم فأخبر اللَّه رسوله محمداً أنهم سيعتذرون إليه حين يصل إلى المدينة بأن أموالهم وأهلهم شغلتهم عن الرحيل معه لأنهم لا يجدون من يخلفهم على حراستها ورعايتها ، ثم يسألونه أن يستغفر لهم . ولكن اللَّه فضحهم ، وكشف باطن أمورهم فكذَّبهم في اعتذارهم حين قال سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ ﴾ لقد كانوا في خوف من أن يُصابوا بأذى من قريش إذا قرَّرت محاربة النبي ﷺ ، ولكن اللَّه ردَّ على تلكئهم عن المسير مع النبي ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شيئاً إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أو أرادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ هذا سؤالٌ يُوحي بالخضوع والاستسلام لحكم اللَّه وطاعة نبيّه ، فالامتناع عن الذهاب مع النبي إلى مكة لن يدفع ضرراً عنهم إذا أراد اللَّه أن يصيبهم به ، ولو أراد بهم نفعاً فلا رادّ له ، وانتحالهم المعاذير لا تخفى على اللَّه ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبِيراً ﴾ .

ثم يكشف اللَّه عن خبايا قلوب هؤلاء المخلَّفين من الأعراب وما كانوا يظنونه من سوء بالنبي وبالمؤمنين :

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أن لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ والمؤمِنونَ إلى أهْلِيهِم أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُم وَظَنَنْتُم ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُم قَوْماً بوراً ﴾(١٢) .

فهؤلاء الأعراب اعتقدوا أن محمداً ومن معه من المؤمنين سيُقتلون على أيدي قريش ، وأنه لن يرجع أحد منهم حيًّا إلى أهله ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُمْ ﴾ أي زيَّنَ الشيطان ذلك الظن السيء في قلوبكم ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ وهذا الظن السيىء هو أن اللَّه لن ينصر محمداً وصحبه على أعدائهم ﴿ وَكُنْتُمْ قوماً بُوراً ﴾ أي هلكى ، وقيل فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير .

والسبب الحقيقي في تخلف هؤلاء الأعراب هو عدم تغلغل الإيمان في قلوبهم ، ولهذا يُنْذِر اللَّهُ هؤلاء بقوله :

﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلكَافرين سَعِيراً . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَان اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾(١٣ ـ ١٤) .

فاللَّه أنذر الذين لا يُصَدِّقون بوجود اللَّه ونبوة رسوله محمد ﷺ بعذاب في الآخرة هو نار جهنم ، والذي ينذرهم بذلك له وحده ملك السماوات والأرض ، وهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء ، كما يملك العذاب لمن يشاء من عباده ، ولكن غفرانه ورحمته أعم وأشمل ولهذا عقّب اللَّه على هذا العذاب بقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي غفوراً ورحيماً لمن تاب وعمل صالحاً .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها وعد من اللّه للمسلمين الذين شهدوا الحديبية بغنائم خاصة لهم وهي غنائم خيبر. وخيبر كانت أهم معقل لليهود وأوفرها مالاً وسلاحاً. ولما تجهّز النبي ﷺ والمسلمون إلى خيبر لفتحها، أبدى الأعراب الذين تخلّفوا عن المسير إلى الحديبية رغبتهم في المسير مع النبي ﷺ للحصول على الغنائم، وهنا يحدّد اللّه للمؤمنين الموقف الذي ينبغي أن يقفوه من هؤلاء الأعراب.

﴿ سَيَقُولُ المُخَلَّفُون إِذَا انْطَلَقْتُم إِلَى مَغَانِمَ لِتأخذوها ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُون أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّه قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُم قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانوا لا يَفْقَهُون إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٥).

فهذه الآية تنبىء بنبأ غيبي وهو أن هؤلاء المخلفين من الأعراب سيقولون للمسلمين عندما يرونهم يسيرون نحو خيبر ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أي دعونا نلحق بكم ﴿ يُرِيدُون أن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ وكلام اللّه المراد به هنا وعد اللّه للمسلمين الذين شهدوا الحديبية بغنائم خيبر خاصة لهم لا يشاركهم فيها أحد ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معنا ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي ذلك ما قال اللّه من قبل رجوعنا من الحديبية بأن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية فقط ﴿فَسَيَقُولُون بَلْ تَحْسُدُونَنا ﴾ أي سيقولون إن اللّه لم يمنعنا من الخروج معكم، بل أنتم تمنعوننا حسداً منكم وكراهية أن نشارككم الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إلَّا قَليلًا ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم ولا إدراك عندهم إلّا القليل.

لقد تصوّر هؤلاء الأعراب بأن الإسلام هو مجرد غنائم يربحونها ولكنهم نسوا تبعات الإسلام من التضحية والجهاد لإعلاء كلمة اللّه ولو

كلّفهم ذلك حياتهم ، فإذا تم النصر تكون الغنائم بعض نِعَم اللّه عليهم - وليست هي المقصودة من الجهاد - ثم لهم بعد ذلك الثواب الكبير في الآخرة .

درس كبير لقنهم اللّه إياه إذ حرمهم غنائم خيبر جزاء تقاعسهم عن نصرة نبيهم ، ولكن اللّه لم يدعهم في مجال الحرمان أبداً ، بل ترك لهم الباب مفتوحاً ليلجوا منه إلى مغفرة اللّه ورضوانه ، وأنه إذا دعا داعي الجهاد ثانية فليلبوا النداء عن طواعية ورغبة ، وهذا ما نطالعه في الآية التالية :

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أولي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلونَهُم أو يُسْلِمُون فإن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وإن تَتَولَّوا كما تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً﴾ (١٦) .

فاللّه سبحانه يأمر النبي ﷺ بأن يقول لهؤلاء الأعراب بأن باب الجهاد لا يزال مفتوحاً أمامهم ، فليستعدوا لنداء الواجب ، فإنهم سَيُدْعَون إلى مواجهة قوم ﴿ أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي أصحاب قوة وشدة في الحرب ، قيل هم : قبائل هوازن وثقيف وغطفان ، وقيل هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب (مُسيلمة الكذاب) ﴿ تُقَاتِلُونَهُم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي تخيّرونهم بين أمرين : الإسلام أو الحرب ﴿ فَإن تُطِيعُوا يُؤتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ أي فإن تستجيبوا للجهاد يؤتكم ربكم الأجر الحسن وهو الغنيمة والنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿ وَإِنْ تَتولَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ ﴾ أي وإن تُعرضوا عن الجهاد كما أعرضتم من قبل عن المسير مع النبي إلى الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً ﴾ أي عذاباً بالغ الألم وهو عقاب النار يوم القيامة .

ويلاحظ أن هذه الآية تضع هؤلاء المتخلفين أمام حقيقة نفوسهم

ونياتهم الخفية وتوجههم في الوقت نفسه إلى السلوك القويم محذّرة لهم من عواقب التخلف عن الجهاد الذي لا يُعفى منه إلّا أصحاب العاهات كما تنطق بذلك الآية التالية :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهار وَمَنْ يَتولَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أليماً ﴾ (١٧) .

هنا يظهر يُسر الإسلام ، فاللَّه سبحانه لا يكلفّ الناس من الواجبات فوق ما يطيقون ، وفي القرآن أيضاً قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا ﴾ البقرة : ٢٨٦ ، ومن هنا نرى أن القرآن يُعفي ذوي العاهات والمرضى من واجبات الجهاد ، وأنه لا إثم عليهم في تخلّفهم ، أما من عداهم من الأصحاء فمن يُطيع اللَّه ورسوله ويبادر إلى الجهاد مدفوعاً إليه بإيمانه القوي فإن اللَّه يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ وَمَنْ يَتولّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أليماً ﴾ ومن يُعرض عن طاعة اللَّه ورسوله فسيعذبه سبحانه عذاباً بالغ الألم .

ثم يعود بنا القرآن إلى الثناء على هؤلاء المؤمنين الذين عاهدوا رسول اللَّه في الحديبية على الجهاد لنصرة دين اللَّه وعلى الثبات معه حتى الموت :

﴿ لَقَد رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فتحاً قَرِيباً . وَمَغَانِمَ كَثِيرةً يأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حكيماً ﴾ (١٨ ـ ١٩) .

فاللَّه سبحانه يشير بهذه الآية إلى بيعة الرضوان حيث بايع المؤمنون

نبيهم محمداً في ظل شجرة من شجر السُمُر ، بايعوه على الثبات في الجهاد وعدم الفرار من وجه العدو ولو أدى ذلك إلى استشهادهم ، هذه المبايعة ذكرتها السورة من قبل ، وهنا يُظهر اللَّه رضاه عن المؤمنين الذين عاهدوا نبيهم لما عَلِمَ من صِدْق إيمانهم وإخلاصهم .

حقاً إنه لشيء عظيم جداً أكبر من أن يحيط به الوصف ، موقف هؤلاء الصحابة الكرام وهم يسمعون آيات اللَّه تتنزّل في حقهم ، وأنه سبحانه قد رضي عنهم ، فيحدد ذواتهم ، ويعين المكان الذي تمت فيه بيْعتهم للَّه ولرسوله وأنه تحت الشجرة ، يا لغمرة السعادة تنسكب على قلوبهم من هذا الرضى الإلّهي ، وحسب هؤلاء فخراً قول رسول اللَّه في حقهم : (أنتم خير أهل الأرض)[١] وقوله : (لا يدخل النار ممن بايع تحت الشجرة)[٢] .

وقد كان هؤلاء المؤمنون في حبٍّ عارم للَّه ورسوله ، كما كانوا في رغبة جامحة لملاقاة العدو والشوق إلى فتح مكة ، فعلم اللَّه ما في قلوبهم من الإخلاص ، فأنزل عليهم الطمأنينة ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أي أعطاهم فتحاً قريباً هو فتح مدينة خيبر حيث يأخذون منها مغانم كثيرة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن
تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ

شرح المفردات

فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ : فعجَّل لكم مغانم خيبر .

كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُم : كفّ اللّه أذى المشركين واليهود عنكم .

وَلِتَكُونَ آيَةً لِلمُؤْمِنِينَ : ولتكون عبرة ومعجزة يعرفون بها صدق الرسول ﷺ .

وَأُخرى لَمْ تَقدِرُوا عَلَيْهَا : أي وعدكم اللّه فتح بلدان أخرى لم تقدروا على فتحها الآن .

قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بها : أي حفظها اللّه حتى تفتحوها ومنعها عن غيركم .

لَوَلَّوْا الأَدْبَار : لانهزموا أمامكم .

وَلِياً : الذي يهيء للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه .

سُنَّة اللَّهِ : ما جرى به نظامه في خلقه .

بطْن مَكَّة : المراد بها الحديبية أو مكة .

الهَدْي : ما يهدي إلى البيت الحرام من الأنعام تذبح ويتصدق بلحومها على الفقراء .

مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ
لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ
فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ
فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ
ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

مَعْكُوفاً : محبوساً .

أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ : أن يبلغ المكان الذي يحل فيه النحر .

أنْ تَطَؤُوهُمْ : أن تُوقعوا بهم وتهلكوهم .

مَعَرَّة : إثم ومشقة أو مكروه .

لو تَزَيَّلُوا : لو تفرّق وتميّز المسلمون من الكافرين .

حَمِيَّة : الأنفة والتكبر والتعاظم .

كَلِمَةَ التَّقْوَى : هي كلمة : لا إلَه إلاّ اللَّه محمد رسول اللَّه .

وكانوا أحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا : وكانوا أحق بها من الكفار والمستأهلين لها .

تـابع سُورَة الفَتْح

ثم يتابع القرآن فيذكر وعد اللّه للمؤمنين بفتوحات وغنائم وافرة تقرُّ بها أعينهم :

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾(٢٠ ـ ٢١) .

والمغانم الكثيرة التي وعدهم اللّه بها هي كل مغنم سيحصل عليه المؤمنون من أموال أهل الشرك إلى يوم القيامة ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـذِهِ ﴾ أي غنائم خيبر ﴿ وَكَفَّ أيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائها من بني أسد وغطفان حيث جاءوا لنصرتهم فقذف اللّه في قلوبهم الرعب ونكصوا على عقابهم﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وليكون هذا كله أمارة للمؤمنين يعلمون بها أن اللّه حافظهم وناصرهم على أعدائهم ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً ﴾ يثبتكم على الهداية ويزيدكم هدى . ﴿ وأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ والمراد بها الفتوح التي فُتحت على المسلمين كأرض فارس والروم أو هي مكة ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أي حفظها لكم ومنع غيركم من أخذها ، أو قَدِرَ اللّه عليها وفاتحها لكم ، فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه فهو محاصر لا يستطيع الإنفلات ، ولما كانت هذه النعمة توحي في دلالتها على تفرّد اللّه بالقدرة فقد خُتمت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديراً ﴾ .

في هذا المقام تظهر معجزة للقرآن حيث وعد اللّه المسلمين بفتوحات

لا يقدرون عليها حاضراً أي وقت نزول الآية ولكنها ستحصل مستقبلاً ، ثم تتوالى الأيام فتسقط مكة بأيـدي المسلمين ، كما تسقط في أيـديهم دولتان من أعظم الدول في ذلك العصر وهما دولتا فارس والروم .

ثم تتابع الآيات معلنةً تأييد اللَّه للمؤمنين وحفظهم من كل سوء :

﴿ وَلَـوْ قَـاتَلَكُمُ الَّـذِينَ كَفـرُوا لَـوَلَّـوا الأَدْبَـارَ ثُمَّ لا يَجِـدُونَ وَلِيًّـا وَلاَ نَصِيـراً . سُنَّـةَ اللَّهِ الَّتي قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْـلُ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّـةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

فـاللَّه يخاطب المؤمنين بقـوله : ﴿ وَلَـوْ قَاتَلَكُمُ الَّـذِينَ كَفَرُوا ﴾ سـواء أكانوا أهل مكة أم حلفاء خيبر ﴿ لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ﴾ لانهزمـوا من أمامكم ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيـراً ﴾ أي لا يجدون صـديقاً محبًّـا ، ولا نصيراً يمـد لهم يد المعونة والنصرة ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا حكم اللَّه في خليقتـه بأن سنَّ الغلبـة لأنبيـائـه وللمؤمنين ﴿ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّـةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ ولن تجد يا محمد لسنة اللَّه التي سنّها في خلقه تغييراً بل إن ذلك دائم ثابت .

ثم يقدّم القرآن بعد ذلك مثالاً للمؤمنين على تأييد اللَّه لهم :

﴿ وَهُوَ الّذي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَـطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْـدِ أَنْ أَظْفَركُمْ عَلَيْهِم وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ (٢٤) .

فـاللَّه سبحانـه يقول بـأنه منـع أيـدي المشـركين وأيـدي المؤمنين عن الاقتتال ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهي الحديبية ، وسُميت بطن مكة لقربهـا من مكة ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي من بعد أن نصركم عليهم .

هذه الآية ترمز إلى حادثة معينة فقد رُوي أن النبي لما كان بـالحديبيـة

باغته ثمانون رجلاً من أهل مكة وهم مدجّجون بالسلاح يريـدون الفتك بـه والنيل من أصحابـه ، فشعر بهم المسلمـون وأسروهم ثم عفـا عنهم رسول اللَّه . وهذه الآية تُشعر المسلمين بأن يُسلموا أمرهم إلى اللَّه وأنـه سبحانـه لن يضيّعهم ، وهـو البصير بمصلحتهم وتصـرفاتهم ولـذا تُختتم الآية بقـوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

ويتـابع القـرآن فيذكـر السبب الذي من أجله مُنـع المسلمون من قتـال كفار مكة مع ما صدر منهم من مظاهـر العداء للمسلمين ومنعهم إيـاهم من التعبّد في المسجد الحـرام مع أن العـادة عند العـرب أن لا يُمنع أحـد من دخوله للعبادة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أن تَـطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُـدخِلَ اللَّهُ في رَحْمَتِـهِ مَنْ يَشَاءُ لَـوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾(٢٥) .

فالكفار من أهل مكة منعوا المسلمين من دخول المسجـد الحرام لأداء العمـرة والعبادة ، كمـا منعـوا المسلمين أن يسـوقـوا معهم (الهَـدْي) إلى مكـة ، والهدي : هـو ما يُهـدى إلى البيت الحـرام من المـواشي : الإبـل والبقر والغنم ، تُنحر هناك ويُتصدّق بلحـومها تقـرُّباً إلى اللَّه . ومعنى قـوله تعـالى : ﴿ مَعْكُـوفـاً أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أي ظـل هـذا الهـدي محبـوسـاً في الحديبية ، ممنوعاً أن يُسـاق إلى المكان الـذي يُحلّ فيـه الذبـح في الحـرم الشريـف .

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُـونَ وَنِساءٌ مُؤْمِنَـاتٌ ﴾ أي ولولا كـراهة أن تصيبـوا بالأذى رجالاً مؤمنين ، ونسـاء مؤمنات مـوجودين بين كفـار مكة ، وكـاتمين

إيمانهم لأذن اللّه لكم بدخول مكة وقتال أهلها ، ولكن اللّه لم يأذن لكم خوفاً ﴿ أنْ تَطَؤُوهُمْ ﴾ أي توقعوا بهم وتهلكوهم ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي فيصيبكم من جراء قتلهم إثم وعيب ومشقة بقتل من هم على دينكم وأنتم لا تعلمون .

﴿ لِيُدْخل اللّه في رحمته من يشاء ﴾ أي ليدخل اللّه في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها فاتحين ﴿ لَوْتَزَيَّلُوا ﴾ لو تميَّز المسلمون عن الكافرين ففارقوهم وخرجوا من ديارهم ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَروا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي لأهلكهم اللّه ببعض ما يؤلمهم من عذابه العاجل . فمن أجل هؤلاء المؤمنين المستترين بسط اللّه رحمته على أهل مكة ورحم بهم غيرهم من الكفار الذين شاء اللّه أن يهديهم بعد ذلك فيدخلوا في الإسلام ، وبذلك يتم اللّه عليهم نعمة الحِياة ونعمة الإسلام .

وهكذا يكشف اللّه بلاءه عن قوم بسبب وجود فئة صالحة تعيش بينهم .

ثم يصف القرآن تكبّر الكفار وجهلهم أثناء توقيع الصلح مع رسول اللّه :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنـزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمِنينَ . وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانوا أحقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٢٦) .

هذه الآية تشير إلى ذلك الموقف المتعنت من جانب الكفار الذي ذكرناه سابقاً في المقدمة ، عندما اتفق النبي ﷺ مع المشركين على إبرام الصلح وشرع في تحديد نص بنوده فاعترض ممثل المشركين على عبارة

« بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم » وعبارة « محمد رسول اللَّه » ، وقد وصف اللَّه هذا الاعتراض بقوله : ﴿ حَمِيَّـةَ الجَاهِلِيَّـة ﴾ والحمية هي الأنفـة والغضب الشديد والتكبر ، والجاهليـة : مشتقة من الجهـل الذي هـو تسلط النزوات والابتعـاد عن سلطان العقل ، وقـد وصف القـرآن العهـد الـذي كـان قبـل الإسلام بالجاهلية لأنه مطابق للحال التي كان عليها العرب من الجهل باللَّه وشرائع الدين والكبر ورفض الإذعان للحق والسير في ركاب الباطل .

﴿ فَـأَنْـزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَـهُ عَلَى رَسُـولِـهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ أي ثبتهم على الـرضـا والتسليم لأمـره فلم يجـاروا الكفـار في حميتهم ﴿ وأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَـةَ التَّقْوَى ﴾ أي جعل كلمـة التقوى مـلازمة لهم لا تفـارقهم ، وكلمة التقـوى هي : « لا إلٰه إلّا اللَّه » ، وقيل هي الـوفاء بـالعهد والثبـات عليه ﴿ وَكَـانُوا أَحَقَّ بَهَا ﴾ أي وكان المسلمون أحق بهذه الكلمة وواجباتهـا من المشركين ﴿ وَأَهْلَهَـا ﴾ أي المستأهلين لهـا دون سواهم . وهـذا تقديـر للمؤمنين من ربهم الذي يعلم حقيقة نفوسهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟
فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ
وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ
فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم
مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

مُقَصِّرِين : أي مقصرين بعض شعوركم .

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ : يُعليه ويقويه على الأديان كلها .

يَبْتَغُون فَضْلاً مِنَ اللَّهِ : يطلبون الثواب من اللّه .

سِيمَاهُم : علامتهم .

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ : الشطء ما خرج من الزرع وتفرَّع في جوانبه .

فَآزَرَهُ : فأعانه .

فاسْتَغْلَظَ : فصار غليظاً .

فاسْتَوَى : فاستقام واعتدل .

سُوقِهِ : جمع ساق وهو العود والجذع .

تَابع سُورَة الفَتْح

ثم تأتي الآية التالية وفيها تأكيد للرؤيا التي رآها النبي ﷺ بأنه سيدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين مطمئنين :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسكُم وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (٢٧) .

أي لقد صدق اللَّه رسوله رؤياه ـ دخول المسجد الحرام ـ ولم يكذّبها وأن رؤياه ستتحقق ﴿ إن شاءَ اللَّهُ ﴾ أي أن الدخول واقع حتماً ولكن متى يتم ذلك ؟ فهذا متروك لمشيئة اللَّه يحققه إذا شاء ومتى شاء .

﴿ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم ومُقَصِّرِينَ ﴾ وحلق الرأس استئصال الشعر كله ، والتقصير أخذ بعضه ، والحلق والتقصير لا يكونان إلّا بعد الفراغ من الحج أو العمرة ، فذكرهما مقترنين بدخول مكة تأكيد وإخبار بالغيب لحالة الأمن التي سيكون عليها المسلمون عند دخولهم مكة ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي علم اللَّه ما في تأخير الدخول إلى مكة من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أي فجعل اللَّه قبل تحقق الرؤيا بدخول المسجد الحرام فتحاً قريباً : هو فتح مدينة خيبر أو هو صلح الحديبية .

والرؤيا التي رآها النبي ﷺ في منامه بأنه سيدخل المسجد الحرام كانت في المدينة المنورة قبل الخروج إلى الحديبية ، فلما وقع ما وقع من الصلح ورجع المسلمون بدون أن يدخلوا المسجد احرام ، وقع في نفس بعض الصحابة شيء من التساؤل ، فجاءت هذه الآية مؤكدة أن هذه الرؤيا

ستتحقق آجلاً وسيسبقها فتح قريب ، وقد تحقق ذلك فعلاً وكشفت الأيام عن وقوعه ، فهذه الآية نزلت في السنة السادسة من الهجرة وبعد فترة وجيزة كان فتح خيبر ، وفي السنة التالية تحققت الرؤيا بحرفيتها إذ دخل النبي ﷺ مكة وأدى العمرة التي تعرف « بعمرة القضاء » وفي العام الذي تلا ذلك كان فتح مكة العظيم ، فقد دخل النبي والمؤمنون مكة بأعداد بلغت عشرة آلاف ، دخلوها فاتحين لها بدون قتال ، كل ذلك أراه اللّه لنبيه في منامه قبل أن يحدث ويتحقق ، وذلك أن رؤيا الأنبياء حق وصدق لا بد أن تتحقق مع الأيام .

ثم يبين القرآن بعد ذلك حقيقة الدعوة الإسلامية وأهدافها :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِين الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى باللَّهِ شَهيداً ﴾ (٢٨) .

فاللّه سبحانه أرسل (رسوله) وهو محمد ﷺ ، وقد أضافه اللّه إلى نفسه ليشرفه بنسبته إليه وليُعلي منزلته ، أرسله اللّه ﴿ بالهُدَى ﴾ أي بالرشاد والدين القويم ، كما أرسله سبحانه بـ ﴿ دِينِ الحَقِّ ﴾ أي دين الإسلام الذي قام على الحق ويدعو إلى الحق ، وما جعله اللّه كذلك إلاّ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ ﴾ أي يقوّيه ويعليه على الأديان كلها ، ﴿ وَكَفَى باللَّهِ شَهيداً ﴾ أي أن ما وعده اللّه من إعلاء على جميع الأديان كائن لا محالة .

هذه الآية نزلت قبل أن يستتب الأمر والسلطة للنبي في جزيرة العرب ، وما هي إلاّ سنوات قلائل حتى أصبحت كل جزيرة العرب تحت سلطة الإسلام ، ولم تمض بضع عشرة سنة من وفاة النبي ﷺ حتى تمت الفتوحات العظيمة ، وظهر الإسلام وعلا على كل الأديان التي كانت في زمانه ، وتحقق وعد اللّه ؛ وسيعلو الإسلام وينتشر قريباً على جميع الأديان

عندما تصل حقيقته إلى أذهـان الملايين من البشـر ، وها هي تبـاشير ذلـك تلوح في الأفق ، وقـد تنبأ كثيـر من دعاة الإِسـلام بأن الإِسـلام سينتشر في قارات بكاملها في غضون عشرات السنين بناءً لما لمسوه من تقبُّـل النفوس له ، فإنه ما من يـوم إلاّ ويدخـل في الإِسلام مؤمنـون جدد استهـواهم هذا الدِّين لما فيه من هدى وحق .

ثم يختتم اللَّه السورة بإبراز صورة عن صحابة النبي ﷺ بمـا هو قـدوة للأجيال القادمة :

﴿ مُحَمَّـدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّـذِينَ مَعَهُ أَشِـدَّاءُ علَى الكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ . تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانـاً سِيمَاهُمْ في وُجُـوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السّجودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوراَةِ وَمَثَلُهُمْ في الإِنْجيـلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى على سُوقِـهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّـارَ وَعَـدَ اللَّهُ الَّـذِينَ آمنـوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ مِنْهُمْ مَـغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيماً ﴾ (٢٩) .

﴿ مُحَمَدٌ رَسُولُ اللَّه ﴾ أي ذلـك الرسـول من اللَّه الذي جـاء بالهـدى ودين الحق هو محمد ﷺ ، وإذا نـظرنا في القـرآن نرى أن كـل نبي سُمي باسمه مجـرداً عن وصف النبوّة أو الـرسالـة، مثل يـا عيسى ، يا إبـراهيم ، يا موسى ، إلاّ محمداً فقد تفضّل اللَّه عليه فوصفه في أكثر المواطن بوصف النبوّة والرسـالة ، كمـا يمكن أن نفهم من هذا التصـريح بعـد رفض الكفار كتـابة ـ رسـول اللَّه ـ في معاهـدة الصلح بأنـه رد اعتبـار للنبي وأن اللَّه من عليـائـه يمنحـه هـذا الـوصف ، فـلا أهميـة لاعتـراض الكفـار وإنكـارهم لرسالته .

﴿ والَّذِينَ مَعَهُ أشِداءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وصف اللَّه أصحاب

محمد ﷺ بأن فيهم غلظة وشدة على الكفار أعداء الإسلام ، ومن جهةٍ أخرى فإنهم يعاملون إخوانهم المؤمنين بالعطف والرحمة ، فالمجتمع المتراحم هو المجتمع الفاضل ، فالرحمة يندرج تحتها التعاطف والعدالة والإحسان ، وهي بالمقابل تنافي الظلم والعدوان والخصام .

هذا الموقف من المؤمنين : شدة مع الكفار ورحمة مع المؤمنين يكشف عن جوهر الإسلام الذي يجعل المؤمن يبني عواطفه مع الغير على أساس العقيدة وحدها فيحبُّ للَّه ويُبغض للَّه .

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ فالرائي لهؤلاء المؤمنين يبصرهم يديمون الصلاة التي فيها ركوع وسجود وهم يرجون ثواب اللَّه ورضاه وعونه وكرمه ، فمقصدهم هو هذا الهدف السامي الذي يوحّد بين قلوبهم ، ويهذّب طبائعهم ، ويجعلهم متعلقين بما يُرضي اللَّه .

﴿ سِيمَاهُم في وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السّجُودِ ﴾ السِّيما : هي الأثر والعلامة ، وهذا الأثر هو النور والضياء والخشوع والتواضع الذي يفيض على الوجوه من كثرة العبادة ، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : « من كثُرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار »[١] .

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُم في التَّوْرَاةِ ﴾ أي هذه صفتهم في التوراة .

أما مثلهم في الإنجيل فهو التالي :

﴿ وَمَثَلُهُمْ في الإنْجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه فآزَرَهُ فاستغلظ فاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ فالإنجيل وصف أصحاب النبي بأنهم يكونون في بدء أمرهم في قلة وضعف ثم يكثر عددهم شيئاً فشيئاً حتى يظهر أمرهم ، وقد شبّه

---

(١) رواه ابن ماجة .

حالهم هذا بحال الزرع يخرج في بادىء الأمر ضعيفاً ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ وشطء الزرع ما خرج منه وتفرّع من نبات ، وهذا مما يقوي الزرع ﴿ فآزَرَهُ ﴾ أي أعانه وقواه ﴿ فاستغلظ ﴾ أي اشتد الزرع يوماً بعد يوم حتى صار غليظاً ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقه ﴾ أي كمل النبات في ذاته واعتدل وقوي أصله ، وساق الشجرة أو النبات أصلها النابت عليه فروعها . فالمراد بالزرع النبي ﷺ ، والشطء : أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقووا ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ ﴾ وهذا الزرع يعجب الذين زرعوه بكثافته وقوته وحسن نباته ، وهكذا كان المؤمنون جعلهم اللّٰه بهذه الصفة ليثير اللّٰه بقوتهم غضب الكفار .

وإلى هنا تكتمل هذه الصورة المشرقة لصحابة رسول اللّٰه لتبقى نبراساً مضيئاً للأجيال التي تأتي بعدهم يقتبسون منها الهداية والنور ، وقد كان هذا التكريم من ربّ العالمين لصحابة رسول اللّٰه يكفيهم ، ولكن إلى جانب هذا يعدهم اللّٰه في آخر المطاف بالمغفرة والأجر العظيم ليدل بذلك على أن عطاءه وفضله ليس له حدود ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ .

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

هذه السورة تضع أسساً كاملة لمجتمع مثالي يسوده الحب والسلام .

مجتمع يسير وفق أوامر اللّٰه وتعاليم رسوله محمد ﷺ التي فيها قواعد الحق والعدل .

مجتمع لـه منهجـه في التثبّت من الأقـوال والأنبـاء قبـل الحكم على شخص ما .

مجتمع له نظمه العادلة في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وتفرقة .

مجتمع تقوم دعائمه على الأخلاق الساميـة والسيرة الفـاضلة ، وتكون الرابطة بين أفراده قائمة على الاحترام المتبادل .

مجتمـع منفتـح القلب على الإِنسـانيـة جمعـاء لا مكـان فيـه للتعصب والعنصرية ، يكون التمايز فيه بالتقوى والعمل الصالح .

مجتمع يضحي فيه الإِنسان بروحه وماله في سبيل اللّٰه الذي هو سبيـل الحق والخير .

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنيّة ، وآياتها ثماني عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ

شرح المفردات

لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِه : لا تتقدموا على أوامرهما فتسبقوهما بقول أو حكم .

أَنْ تَحْبطَ أَعْمالُكُمْ : مخافة أن يبطل ثواب أعمالكم .

يَغضون أصواتهم : يخفضون أصواتهم .

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُم للتقْوى : أخلص قلوبهم للتقوى وطهرها من كل قبيح .

فَاسقٌ : كاذب وخارج عن طاعة اللَّه .

بِنَبأ : بخَبَرٍ .

فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ٦
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضْلًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى
تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠

شرح المفردات

فَتَبَيَّنُوا : فتثبتوا .

أن تُصِيبُوا قَوْماً بجهالة : لئلا تصيبوا قوماً بتصرفات خاطئة قائمة على غير علم .

لَعَنِتُّم : لنالكم إثم ومشقة شديدة .

زَيَّنَهُ في قُلوبكم : حسّن الإيمان وجمّلهُ في قلوبكم .

الرَّاشِدُون : الذين أصابوا طريق السداد والهدى .

بَغَتْ : إعتدت وأبت الصلح .

تفيء : ترجع .

أمْرِ اللّه : حكم اللّه .

أقْسِطوا : إعدلوا .

سورة الحجرات

ايضــاح و دروس

يستهل اللَّه هذه السورة بقوله :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمنـوا ﴾ نــداءٌ من اللَّه للمؤمنين فيـه من التكـريم لهم الشيء الكثيـر لأنه ينـاديهم بأحب الأوصـاف التي يصف بها عبـاده ، نـداء ما أعذبه من نداء وما أشد وقعه على النفس لأن اللَّه من عليائه يناديهم بهذا النداء . هذا النداء جدير بأن يهـز قلوبهم ويثير انتبـاههم إلى الاستماع إلى الأمر الملقى إليهم ، والاستجابـة له لأنـه من مقتضى الإيمان ، ومـا أجمل ما قاله ابن مسعود : إذا سمعت اللَّه يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا ﴾ فأعـرها سمعك .

﴿ لا تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِـهِ ﴾ أي لا تعجلوا بقضـاء أمـر من أموركم قبل الرجوع إلى قول اللَّه وقول رسوله ، أو لا تقـطعوا أمـراً قبل أن يحكم به اللَّه ورسوله . هذا الأمر الرباني يعني أن لا تُقدموا أيها المؤمنـون على أمر من الأمور دون التقيّـد بالقـرآن والسنة ﴿ واتَّقُـوا اللَّه ﴾ أي تجنبوا مخـالفة أمـره ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهـو سبحانـه يسمع أقـوالكم ويعلم تصرفاتكم فلا تعصوه في أوامره .

ثم ينتقل بنا القرآن إلى بيان أدب مخاطبة النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَـهُ بِـالقـولِ كَجَـهْـرِ بَعْضِكُـم لِبَـعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أعمـالُـكُم وَأَنْـتُـمْ لاَ تَشْعُرُون ﴾ (٢) .

ينهى اللَّه المؤمنين عن رفع أصواتهم بحضرة النبي ﷺ لأن ذلك يـدل على قلة الاحتشام ، وعدم الاحتـرام ، ذلك لأن خفض الصـوت من لوازم التعظيم والتوقير كما أن رفع الصوت ينافي التعظيم .

كمـا نهى اللَّه المؤمنين أن يكون خـطابهم للنبي ﷺ كخـطاب بعضهم لبعض في الجهر بالكلام وعلو الصوت وقلة الـوقار ، ذلـك أن الإيمان بـأن محمداً هو رسول من عند اللَّه يدفعهم إلى مهابته في قلوبهم وسريـان ذلك على تصرفاتهم معه وخطابهم له .

وقد فهم بعض العلماء من ذلك بأن رفـع الصوت في مجلس العلمـاء مكروه لأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، هذا النهي الربـاني للمؤمنين عن رفع أصواتهم في حضرة النبي ﷺ من شأنه أن يـردعهم عن الفظاظـة في القول ويمكِّن فيهم عـادة الكـلام المهـذب الخـافت ، وبـالأخص مـع من يجب توقيرهم كـأولي الأمر والـوالدين والمربين ومن هم أكبر منهم سنًّـا وفضلاً . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُم ﴾ الحبوط : البـطلان ، وذهـاب الشيء هـدراً ، أي مخـافـة أن يـذهب ثـواب أعمـالكم هـدراً ، فتبـطل حسنـاتكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صـوت النبي ﴿ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون ﴾ مغبـة رفع الصـوت أمام النبي ﷺ ومـ يترتب عليه من بطلان ثواب الأعمال .

وقد ورد في أسباب نـزول هذه الآيـة ما رواه البخـاري بأن الأقـرع بن حابِس قَدِمَ على النبي ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه استعمله على قومـه

« أي أمّره » فقال عمر لا تستعمله يا رسول اللّه ، فتكلما عند النبي حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلّا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، قال فنزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أصواتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ ولذلك كان الصاحبان أبو بكر وعمر بعد ذلك لا يكلمان النبي إلّا كالهمس تأدباً مع النبي ﷺ .

ثم بيَّن اللَّه ثواب الذين يراعون أدب الخطاب في حضرة نبيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

فالذين يخفضون أصواتهم في حضرة النبي ﷺ محترمون له وموقرون ، هؤلاء ﴿ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أي أخلص قلوبهم للتقوى ، وقيل : وسّعها وشرحها للتقوى ، هؤلاء لهم مغفرة من اللّه لذنوبهم ، وثواب بالغ العظم .

ثم انتقد القرآن بعد ذلك تصرفات بعض العرب تجاه نبيهم :

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُم لا يَعْقِلُون . وَلَوْ أَنَّهُم صَبَروا حتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِم لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤ ـ ٥) .

والمراد بالحجرات : الغرف التي كان يسكن فيها النبي ﷺ مع نسائه ، وكانت هذه الغرف ملاصقة لجدار المسجد .

هذه الآية نزلت في أعراب بني تميم ، وقد قَدِم وفد منهم على رسول اللّه فدخلوا المسجد ونادوا رسول اللَّه من وراء الحجرات بقولهم : أن

اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زيْنٌ(١) وإن ذمّنا شيْن(٢) ، فآذى صياحهم هذا رسول اللَّه ، فخرج إليهم فقالوا : إنّا جئناك يا محمد نفاخرك ، وقد نزلت هذه الآية في حقهم ناعتة إياهم بأن ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ أي لا يسيرون على مقتضى العقل ، ولا يراعون الأدب مع رسول اللَّه في ندائهم على تلك الصفة البعيدة عن الذوق والأدب .

ثم أوضح القرآن لهم أن الأجمل في حقهم الانتظار حتى يخرج رسول اللَّه إليهم ، فهو ما كان يحتجب عن أحد أبداً ، وهو في كل الأحوال موجود في المسجد للصلاة وتعليم الناس أمور دينهم ، وما كان يدخل حجرات نسائه إلّا لتناول الطعام أو الراحة ، ولا بد أن يكون في المسجد من أفهم بني تميم هذه الحقيقة ، ولكنهم أبوا إلّا أن يخرج إليهم رسول اللَّه فور وصولهم .

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه المؤمنين للتثبت من الأقوال والأخبار قبل تصديقها والتصرف على أساسها :

﴿ يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصِيبوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمين(٣) ﴾(٦) .

---

(١) زيْن : حسن . (٢) شيْن : قبيح .

(٣) هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة الذي أرسله النبي ﷺ ليجمع صدقات بني المصطلق ، فلما سمعوا بمقدمه أعدوا أنفسهم للقائه تعظيماً لمن بعثه رسول اللَّه ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله لعداوة سابقة بينه وبينهم ، فرجع إلى النبي وقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم وهموا بقتله فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه وهمّ بغزوهم . ولكن بني المصطلق لما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول اللَّه وقالوا : نعوذ باللَّه من سخط اللَّه وسخط رسوله ، بعثت إلينا مُصَدِّقاً (أي لتجمع الصدقات) فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من اللَّه ورسوله . . . ثم نزلت الآية مبينة الحقيقة التي كانت خافية عن العيون .

هـذه الآية تقـرر مبدأ هـامـاً للسلوك الإنسـاني لـه خـطره وأهميتـه في المجتمع . فالآية تقول : أيها المؤمنون إن جاءكم شخص خارج عن طاعة اللّه بأي خبر من الأخبار فتثبّتوا من صدقه ، وصدق الأخبار التي جـاء بها ، احترازاً أن تصيبوا أي قوم بأذى بسبب الجهل بواقع الأمور ، فتصبحـوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلازمكم الحزن والندم على تصرفاتكم .

هذا وكم فرقت الأخبار الكاذبة بين الأصدقاء وكم سفكت من الدماء .

وبعـد وصية اللّه للمؤمنين بـالتثبت من الأخبار قبـل الأخـذ بهـا ، يبين سبحانه فضله على المؤمنين :

﴿ واعْلَمُـوا أنَّ فِيكُم رَسُولَ اللَّهِ لَـوْ يُطِيعُكُمْ في كَثِيـرٍ مِنَ الأَمْـرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَـان وَزَيَّنَـهُ في قُلُوبِكُمْ ، وَكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْـرَ والْفُسُـوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِـكَ هُمُ الرَّاشِـدُونَ . فَضْـلاً مِنَ اللَّه وَنِعْمَـةً واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧ ، ٨) .

أي واعلمـوا أن رسـول اللّه يعيش في وسـطكم وجمـاعتكم فعـظمـوه وأطيعوا أمره ، فهو لو يـطيعكم في كثير من الأمـور ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لوقعتـم في الإثم والمشقـة والهلاك ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمـان ﴾ أي جعـل الإيمان أحب الأشياء إليكم فلايجدر أن يقع منكم إلاّ ما يـوافقه من الأمـور الصالحة ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكم الكُفْرَ ﴾ والكفـر هو نقيض الإيمـان ، وكذلـك كرَّه إليكم ﴿ الفُسُوقَ ﴾ وهي الذنوب الكبار وكل فعل يخـرج عن طاعـة اللّه . كما كرّه إليكم ﴿ العِصْيَان ﴾ أي جميع المعاصي . فمن كره هذه الصفات ﴿ أولئك هـم الراشـدون ﴾ أي الذين أصـابوا الهـدى والسداد وابتعـدوا عن الغي والضلال : ﴿ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَـةً ﴾ أي هذا الإيمـان الذي يقتضي

الرشد هو فضل من اللَّه ، ونعمة منه عليكم ﴿ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم بأحوالكم حكيم في ما شرعه لكم .

ثم يبيّن اللَّه كيفية القضاء على المنازعات بين جماعات المؤمنين وما ينشأ عن ذلك من قتال وتفرقة :

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمِنينَ اقتتلوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخرى فقَاتِلوا التي تَبغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ (٩) .

فالآية تدعو المؤمنين إلى أن يقوموا بالإصلاح بين جماعتين من المؤمنين نشب بينهما قتال وذلك بدعوة المتخاصمين إلى حكم اللَّه وهو القرآن الذي فيه موازين الحق والعدل ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرى ﴾ أي فإن تعدت إحدى الجماعتين على الأخرى ، ولم تستجب إلى حكم اللَّه ، أو بغت الجماعتان معاً برفض الصلح ، أو رفض قبول حكم اللَّه في المسائل المتنازع عليها ﴿ فَقَاتِلوا التي تبغي ﴾ أي فعلى المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية ، لأن البغي فساد في الأرض واعتداء على العدل الذي يأمر اللَّه به ﴿ حتى تَفِيءَ إلى أمرِ اللَّه ﴾ حتى ترجع إلى حكم اللَّه الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿ فَإِن فَاءَتْ ﴾ أي فإن رجعت الفئة الباغية عن التعدي ﴿ فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ أي ليكن الصلح بين الطائفتين المتنازعتين قائماً على العدل ، وذلك بالإنصاف بينهما وإعطاء كل ذي حق حقه . ﴿ وَأَقسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ والقسط هو

العدل أي واعدلوا إن اللّه يحب العادلين . فالدعوة إلى العدل جاءت بصيغة الأمر الرباني للمؤمنين ثم عقب القرآن على ذلك بأن اللّه يحب العادلين وفي هذا حث للمؤمنين ودعوة لهم على تحري العدل والتمسك به وجعله أساساً في أحكامهم ومنازعاتهم .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى إرساء الجامعة الإسلامية بين المؤمنين وإحاطتها بحوافظ تقيها من البغضاء والتفرقة ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّمَا المؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُون ﴾ (١٠) .

فالقرآن يعتبر المؤمنين (إخوة) وهذه اللفظة توحي بالمحبة والتعاطف والتناصر ، لأن هذه اللفظة مأخوذة من أخوّة النسب التي تحمل هذه المعاني ، وفي ذلك إشارة إلى استحكام الروابط بينهم حتى كأنهم من أب واحد ، والغرض من إطلاق اسم الأخوة عليهم تحريك عاطفة الصلة بينهم حتى يهتم كل واحد منهم بما يمس الآخر من ضر كما يهتم بمصلحة أخيه .

هذا وإن الإسلام يعتبر أخوّة الدِّين أحق بالمراعاة من أخوة النسب ، لأن أخوة النسب تنقطع شرعاً بالخروج من ربقة الإسلام ، أما أخوّة الدِّين فهي راسخة لأنها قائمة على عقيدة الإيمان ولكن لا توارث فيها .

وقد أوصى النبي ﷺ بترسيخ معنى الأخوة بين المؤمنين فقال :

« مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

هـذه الأخوة الإسـلامية التي قـررهـا القـرآن يجب أن يعي المسلمـون مضمـونها وحقيقتهـا ، فهم في بقاع الأرض إخـوة في الـدِّين عليهم واجب الـدفـاع عن بعضهم البعض ، ومعـونـة المحتـاج منهم ، والتعـاون لنشـر الإسلام الذي يحمل رسالة الحق والخير للإنسانية .

وبعد أن قرّر القرآن أخوة المؤمنين بعضهم لبعض ، أمر بالإصلاح بين المتخاصمين منهم : ﴿ فَأَصْلِحُـوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ﴾ وَعَقَّب القـرآن على ذلك بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُـون ﴾ وهذا وعـد من اللَّه بإسبـاغ رحمته على مَنِ اتقــاه ، لأن تقـوى اللَّه تُضفي الألفــة والتعـاطف والتــراحم بين المؤمنين وبهذا تشملهم رحمة اللَّه تعالى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ
مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ
خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ
آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ

شرح المفردات

لا يَسْخَر : لا يستهزىء .

لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ : لا يعب ولا يطعن بعضكم بعضاً .

وَلَا تَنابَزُوا بِالْأَلْقَابِ : ولا يَدْعُ بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب .

لا تجسَّسُوا : لا تتبعوا عورات المسلمين .

يَغْتَبْ : الغيبة ذكر الغير بما يكره في غيبته .

أتْقَاكُم : تقوى اللّٰه : هي تجنب عذابه وذلك بفعل ما أمر اللّٰه به وترك ما نهى عنه .

آمَنَّا : صدقنا بقلوبنا .

أسْلَمنا : أصبحنا مسلمين ، والإسلام هو الانقياد لأوامر الشرع .

لَمَّا يَدْخُلِ الإيمان في قُلُوبِكم : أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعدُ .

وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ
لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ
قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

لا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ : لا ينقصكم من ثواب أعمالكم .

أَتُعَلِّمون اللّه بدينكم : أتخبرون اللّه بحقيقة إيمانكم .

تـابع سُورَةِ الحُجُرات

ثم ينتقـل القرآن بعـد ذلك إلى بيـان الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون .

والمتمعن في هـذه الآداب يرى أنهـا تنفـرد عن الآداب التي أتت بهـا الأديـان السابقـة ، كما أنهـا تسمو على الآداب التي طـالعتنا بهـا المـدنيـة الحـديثـة التي هي آداب شكليـة ظـاهـريـة لا تنفـذ إلى أعمـاق النفس وأحاسيسها .

فالآداب القرآنية تحرص على احترام الغير وحفظ كرامته حـاضراً كـان أم غـائباً ، وتثبيت المحبـة في القلوب وصونهـا من كـل تصرّف يؤدي إلى البغضاء والخصام . يقول تعالى :

﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَـرْ قَوْمٌ مِنْ قَـوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُـوا خَيْـراً مِنْهُمْ ، وَلاَ نِسَـاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْـراً مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِـكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١) .

فـالقرآن ينهى المؤمنين أن يسخـر قوم من قـوم ، والسخريـة هي الهزء بـالغير واحتقـاره ، والقوم يـطلق على جماعـة من الرجـال والنسـاء ، فقـد يستهزىء الرجل الغني بالرجل الفقير الرثّ الثياب ، والرجل القوي بالرجل الضعيف أو ذي العاهة ، كما قد تستهزىء المرأة الجميلة بـالمرأة القبيحـة والمرأة ذات الحسب والنسب بالوضيعة النسب ، والشابة من العجوز ولكن هل يدري المستهزئون بالناس بأن المستهزأ بهم قد يكونون خيراً منهم عند اللّه ﴿ عَسَى أن يكـونوا خَيْـراً مِنْهُم ﴾ فيكون المؤمن بـذلك قـد ظلم نفسه

لأنه حَمَّلها إثماً بالاستهزاء بمن فضله اللَّه عليه ، وهذا إشعار بأن الميزات الظاهرة في الرجال والنساء ليست هي الميزات الحقيقية التي يتفاضل بها الناس ، فهناك قِيَم أخرى يتفاضل بها الناس عند اللَّه منها سلامة الطوية والنية الطيبة والأخلاق الرفيعة والعمل الصالح .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ﴾ فقد خصّ القرآن النساء بالذكر مع أن عبارة (قوم من قوم) تشملهن ، لأن السخرية تصدر من النساء أكثر من الرجال كما هو مشاهد في أحوالهن . هذا وقد استأصل النبي دواعي السخرية من الأعماق بهذا القول الحكيم : « إنَّ اللَّهَ لا ينظُرُ إلى صُوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[١] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم ﴾ أي لا يعب ولا يطعن بعضكم بعضاً ، والتعبير (بأنفسكم) بدلاً من لفظ « غيركم » إشعار بوحدة الجماعة الإسلامية لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فالمؤمن عندما يعيب غيره إنما يعيب نفسه[٢] ، والطعن بالغير منفذ لتسرّب العداوة إلى قلوب المؤمنين ولهذا نهى اللَّه عنه .

ولقد أصبح الطعن بالناس من سمات هذا العصر ، فترى ذلك السياسي المرموق يطعن بسياسي آخر على صفحات الصحف قاصداً الحط من منزلته ليتبوأ هو المكان الأفضل فيسيء بذلك إليه وإلى أنصاره ومؤيديه ، وترى كثيراً من الناس يبتغون من الطعن بالغير سبيلاً لتنفيس

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ومثل ذلك جاء في القرآن ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة فكأن المؤمن بقتل أخيه قاتل نفسه .

حسدهم وإفراغ حقدهم ، أو سبيلاً للظهور ، وهكذا أصبح الطعن بالناس من الأمراض الشائعة في مجتمعنا الحاضر يفعله أكثر الناس غير آبهين بنهي اللَّه عن هذا العمل الآثم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَاب ﴾ أي لا يدع بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب ، كأن يقول له : يا فاسق ، ويا منافق ، ويا كافر ، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال ، وإلّا رجعت عليه » وقال ابن عباس : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ، فنهى اللَّه أن يُعيّر بما سلف . ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ ﴾ أي بئس أن يسمى الرجل كافراً ، أو فاسقاً ، أو زانياً بعد إسلامه وتوبته . أو بمعنى : أن من لقَّب أخاه بما يكره ، أو سخر منه فهو فاسق ، أي خارج عن طاعة اللَّه . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ومن لم يترك هذه الخصال الذميمة فهو ظالم ، واللَّه لا يحب الظالمين .

ويتابع القرآن ذكر الآداب التي يجب أن يتخلق بها المسلم :

﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا اجتنبوُا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾(١٢) .

أمر اللَّه سبحانه باجتناب كثير من الظن لأن أكثره قائم على الأوهام ويؤدي بالإنسان إلى الخروج عن جادة الحق ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيئاً ﴾ يونس : ٣٦ .

وهناك ظنون سيئة في الإنسان تؤدي إلى اتهام الأبرياء زوراً وبهتاناً ومعاملتهم بالسوء حسب ما يوحي به الظن مما يثير البغضاء في القلوب ،

ولقد وصف اللَّه هذه الظنون السيئة بأنها إثم يجب اجتنابه : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ومدار التحريم إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الصلاح والسيرة الحسنة ، أما من اشتهر بتعاطي المنكرات والمجاهرة بالمعاصي فلا يحرم الظن السيء به .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ نهى اللَّه المؤمنين عن التجسس لأنه يتجاوب مع الظن السيء ، فالتجسس هو كشف العورات ، والإطلاع على مساوىء الغير ، والقرآن ينكر التجسس لأن للناس حرماتهم التي يجب أن لا تنتهك ، فالناس يحكم عليهم حسب ظواهرهم ، وليس لأحد أن يكشف عن أسرارهم ، ولا أن يؤاخذهم إلّا بما يظهر منهم من أعمال .

أما ما تفعله الحكومة من بث العيون لتتبع خطوات المفسدين والمخربين فهو ليس من التجسس الذي نهى اللَّه عنه لأنه يعتبر من باب درء المفاسد ونفعه يعود على الأمة شرط أن يُراعى في ذلك حرمات الناس .

ثم يقول سبحانه مخاطباً المؤمنين ﴿ وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ والغيبة هي أن يذكر المؤمن أخاه المؤمن بما يكره في غيبته ، سواء أكان الذكر صراحة أم كناية ، أم إشارة ، أم كتابة ، وسواء أكان ما يذكره متعلقاً بدينه أو دنياه ، وبخُلُقه أم خَلْقه .

وقد قال النبي ﷺ في تعريف الغيبة : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه »(١) أي كذبت وافتريت عليه .

---

(١) رواه مسلم .

وقد نقل القرطبي في تفسيره عن إجماع المسلمين على أن الغيبة من كبائر الإثم .

وللغيبة أسباب : أهمها الغيظ ، فيذكر الإنسان عيوب غيره لشفاء النفس من غضبها نحوه ، ولمجاملة الرفقاء ، ورغبة في أن يرفع الإنسان نفسه بالانتقاص من غيره ، ومنها : الحسد .

والقرآن نفّر من الغيبة حتى جعل الذي يغتاب أخاه كأنه يأكل لحمه ميتاً ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيه مَيْتاً[١] فَكَرِهْتُموه ﴾ وقد ضرب اللّه هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة فهي حرام في الدِّين ، وقبيحة في النفوس فكما أنت أيها المؤمن تكره أن تأكل من جيفة مدودة فكذلك فاكره أن تغتاب أخاك المؤمن وهو حي . أما المجاهر بالفسق ، والداخل في مواطن الريب فلا يحرم ذكر حاله إذا قُصِدَ التنفير من عمله والتحذير من سلوكه ، فهو حين تجاهر بالفسق كشف السِتر عن نفسه .

فالغيبة من أقبح الصفات التي تعكر صفو العلاقات بين الناس . ذلك أن الذي يوثق المودة بين المؤمنين هو تلك النفوس الطيبة التي تضمر الود والخير والاحترام للناس ويتبدى ذلك في قسمات الوجه واللهجة الصادرة من القلب . أما الكلام عن الغير في غيبته بما يسوؤه ويخدش من كرامته فهو تعكير لأجواء النفوس وخدش لتلك الرابطة الوثيقة التي تربط بين

---

(١) أما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر فشديد المناسبة جداً وذلك أن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة . وأما قوله تعالى : ﴿ لحم أخيه ميتاً ﴾ لأن المغتاب لا يشعر بمن يغتابه ولا يحس بالغيبة كما لا يحس الميت بشيء .

المؤمنين .

هذا وإن الشخص الذي تغتابه قد يصله كلامك فيه عن طريق أحد النمامين أو السذج فيكون ذلك مدعاةً للحقد والكراهية بينك وبين الذي اغتبته ، لهذا حرم الإسلام الغيبة وشدّد في النهي عنها .

ثم يختم اللَّه هذه الآيات بقوله : ﴿ واتقوا اللَّه إن اللَّه تواب رحيم ﴾ فمن يتقي اللَّه ويجتنب ما نهى عنه ويقلع عن فعل هذه الصفات الذميمة فإن اللَّه يقبل التوبة عن عباده وهو رحيم يرشدكم إلى ما فيه خيركم .

وبعد ذلك انتقل القرآن إلى مخاطبة الناس جميعاً في آية لا تزال هي النبراس في التمايز بين الشعوب ، كما أنها تعتبر الحجر الأساسي للسلام العالمي :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقبَائِلَ لِتعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١٣) .

ففي هذه الآية الكريمة يدعو اللَّه الناس جميعاً ، ولا يدعو شعباً بعينه ، مبيناً أصلهم الأول وهو : آدم وحواء ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ وإذا كان الناس من أب واحد ، وأم واحدة ، فلا محل لأن يدعي بعضهم العلو على البعض الآخر من ناحية الجنس ، أو من ناحية اللون .

ثم تُبيّن الآية أن الناس وإن تفرقوا في البلاد ، واختلفوا في الأجناس والمعتقدات والألوان ، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوَّة الإنسانية بل توجب عليهم أن يتعارفوا ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ والتعارف يدعو إلى التآلف والتواد والسلام بين الشعوب .

فالتعارف الإنساني يوجب أن يفيض أهل كل إقليم بفائض رزقهم على

الإقليم الذي شحّت أرضه وقلّ رزقه ، ونضب ماؤه ، والتعارف يؤدي إلى التعاون في رفع راية الحق ، ومحاربة الباطل والظلم .

ثم يأتي الشطر الأخير من الآية ليقضي على رواسب العصبية التقليدية في النفوس من ادعاء كل شعب بأنه أحق بالزعامة والكرامة ، وكذلك في محيط الأسر التي تتفاخر بالأنساب والأمجاد والغنى حيث تنطق الآية ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ والتقوى هي اجتناب ما نهى اللّه عنه من الشر خيفة من عذابه ، والوقوف عند حدود اللّه وامتثال أوامره ، والعمل بما أمر به من العمل الصالح . فالتفاضل بين الناس لا يكون إلّا على أساس أعمالهم الصالحة وما يتحلون به من قيم خيّرة .

وفي هذا المعنى قال النبي ﷺ في حجة الوداع : « يا أيها الناس : إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى »[١] .

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على بعض الأعراب الذين ادعوا الإيمان ، ومنّوا على رسول اللّه بإيمانهم :

﴿ قالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمانُ في قُلُوبِكُم . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) .

نزلت هذه الآية وما بعدها في أعراب بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول اللّه في سنة مجدبة وأشهروا الشهادتين ، يقولونها بألسنتهم وليس

---

(١) رواه الإمام أحمد .

في قلوبهم . . . وكانوا يقولون : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنّون عليه .

﴿ قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا ﴾ ليس المراد بالأعراب عموم الأعراب بل المراد بعضهم الذين جاءوا رسول اللّه . والإيمان هو التصديق بالقلب . ولكن اللّه رد على ادعاءاتهم ﴿ قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا ﴾ فهذا تكذيب لهم في آدعائهم الإيمان لأن الحاجة وحدها هي التي ألجأتهم إلى الإسلام ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ والمراد بالإسلام هنا : التسليم الظاهري بما جاء به محمد أي الإقرار باللسان والطاعة بالأعمال ولا يدخل فيه التصديق بالقلب ، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبكُم ﴾ أي لم يدخل العلم بحقائق الإيمان بَعدُ إلى قلوبكم ﴿ وَإن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وإن تطيعوا اللّه ورسوله صادقين وتعملوا بأوامرهما ﴿ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقصكم شيئاً من أجور أعمالكم وثوابها ﴿ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فهو سبحانه غفور لمن تاب ذو رحمة واسعة .

ثم بيّن اللّه سبحانه حقيقة الإيمان التي غفل عنها هؤلاء الأعراب :

﴿ إنَّما المؤمِنُون الَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِم وَأَنْفُسِهِم في سَبيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١٥) .

فالإيمان الحقيقي هو تصديق القلب بوجود اللّه ونبوة محمد ﷺ تصديقاً لا يخامره شك ولا ريب ، وتكون ثمرته الجهاد بالمال والنفس في سبيل اللّه . والجهاد : بذل الجهد بأقصى الطاقة .

فالجهاد في سبيل اللّه بالمال يكون بالإنفاق على تجهيز الجيش الإسلامي ، وكذلك الإنفاق في جميع أنواع البر كالزكاة والصدقة ، وبناء المساجد ونشر دعوة الإسلام ، وإنشاء دور العلم والمستشفيات والمصانع

التي توفر العمل للفقراء والعاطلين عن العمل وتحقق للأمة اكتفاءها بنفسها ودفع الحاجة عنها .

والجهاد بالنفس يشمل قتال الأعداء والمرابطة على حدود الوطن للحراسة ورد المعتدي ، وتأييد الحق .

وقد روي عن أبي موسى رضي اللّه عنه أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجلُ يُقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر[١] والرجلُ يُقاتل ليُرَى مكانه[٢] فمن في سبيل اللّه ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه[٣] .

يتبيّن لنا مما سبق أن الإيمان الحقيقي ليس إدعاءات ترددها الألسن، ولكنه سلوك خاص يضع فيه الإنسان روحه وماله في سبيل اللّه الذي هو طريق الحق والخير ، هؤلاء الذين يسيرون على هذا الدرب ﴿ أُولَئِك هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي في إيمانهم .

ثم يعود القرآن إلى مخاطبة هؤلاء الذين ادعوا الإيمان وهم بعيدون عن حقيقته :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ واللَّهُ يَعْلَمُ ما في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٦) .

أي أتخبرون اللّه بعقيدتكم وتقولون آمنا والإيمان شعور في القلب يصدقه العمل ، ولا يعلم ما في القلب إلا اللّه الذي يعلم كل ما في

---

(١) للذكر : للشهرة .
(٢) ليرى مكانه : أي مرتبته في الشجاعة .
(٣) رواه البخاري .

السماوات وكل ما في الأرض والله محيط علمه بكل شيء .

ثم يستنكر القرآن منّتهم على رسول الله بإسلامهم :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أن أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإيمَان إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ (١٧) .

لقد منّ هؤلاء الأعراب على النبي ﷺ بإسلامهم فجاءهم الرد بأن لا يمنوا ، لأن إسلامهم لا تعود ثمرته إلاّ على أنفسهم ، بل إن المنة لله تعالى عليهم حيث هداهم إلى الإيمان الذي فيه سعادتهم ، فإن كانوا صادقين في دعواهم فقد اهتدوا بهداية الله إياهم ، وإن لم يكونوا صادقين فلا معنى لهذه المنة فحقهم أن يخجلوا من أنفسهم .

ثم يختم الله هذه السورة بقوله :

﴿ إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعملون ﴾(١٨) .

الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض هو بلا ريب يعلم تصرفات وأعمال الإنسان ، ويعلم ما تكنه القلوب ، وما تخفيه النفوس . وإذا وعى الإنسان هذه الحقيقة كان ذلك أكبر حافز له لتجنب الشر والمعاصي ، لأنه يدرك أن الله لا تخفى عليه خافية من أعماله وتصرفاته ، فيسعى جهده لأن تكون أعماله منصبة في مرضاة الله سبحانه .

سُورَةُ قٓ

هذه السورة تعالج قضية البعث بعد الموت ، وما يحصل حينئذٍ من حساب على الأعمال .

ولما كانت الحياة الأخرى يستبعدها بعض الناس ، وينكر وجودها ، جاءت هذه السورة تثبت البعث عن طريق العقل والحجة والبرهان ، وتبين عدم استحالته .

وتبيّن هذه السورة بأن اللَّه أوكل بالإنسان ملائكة يحصون عليه أعماله ليحاسب عليها يوم الجزاء ، كما أنها تذكِّرُ بمصير الأقوام السابقين الذين كذّبوا رسل اللَّه ، ذاكرة ما حاق بهم من هلاك جزاء كفرهم ، وفي ذلك تثبيت لقلب النبي محمد ﷺ ، وإنذار لقومه إن استمروا على كفرهم بأن يحل بهم العذاب بمثل ما حل من قبلهم من الكافرين من هلاك ، كما تبيّن هذه السورة مصير المؤمنين وما أعد اللَّه لهم من نعيم في الآخرة ، ومصير الكافرين وما أعد اللَّه لهم من عذاب دائم .

سُورَةُ قٓ

مكية، وآياتها خمس وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ
هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا
مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ

شرح المفردات

وَالقُرآنِ المَجِيدِ : قَسَمٌ بالقرآن الكثير الفوائد الدنيوية والأخروية .

مُنْذِرٌ مِنْهُم : هو محمد ﷺ يخوف قومه عاقبة كفرهم .

رَجْعٌ بَعِيدٌ : الرجوع إلى الحياة بعد الموت أمر مستبعد غير ممكن .

ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُم : ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت .

كِتَابٌ حَفِيظٌ : كتاب يحفظ أعمال بني آدم لمحاسبتهم عليها .

أمرٍ مَرِيجٍ : أمر ملتبس عليهم مضطرب لا يعرفون حقه من باطله .

فُرُوج : شقوق وفتوق وتصدع .

والأرض مَدَدْنَاهَا : بسطناها للاستقرار عليها .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج : من كل صنف من النبات حسن المنظر .

لِكُلِّ عَبْدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ
وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ
وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١

شرح المفردات

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى : تبصيراً بقدرة اللّه ، وتذكيراً بعظمته .

لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ : لكل عبد راجع إلى ربه بالتوبة .

مَاءً مُبَاركاً : كثير الخير والبركة لما ينتفع به .

جَنَّاتٍ : جمع جنة وهي الحديقة ذات الشجر .

حَبَّ الحَصيد : حب الزرع الذي شأنه أن يُحصد كالقمح والشعير وغيرهما .

باسِقَات : عاليات طويلات .

نَضِيد : متراكم بعضه فوق بعض .

كَذَلِكَ الخُرُوج : أي هكذا يخرجكم اللّه من القبور أحياء يوم البعث .

سُورَةُ قٓ

ايضـاح و دروس

يستهل اللّٰه هذه السورة بالقسم بالقرآن بقوله :

﴿ قٓ[١] ، وَالقُرآنِ المَجِيدِ ﴾ (١) .

﴿ وَالقرآن ﴾ الواو هي للقسم ، فاللّٰه سبحانـه يقسم بالقـرآن الذي من صفـاته : ﴿ المَجيـد ﴾ أي ذي المجد والشـرف على سائـر الكتب ، وقيل بمعنى : الكـريم ، أو الكبير القـدر . وجواب القسم جملة : ﴿ قَـدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهم ﴾ .

---

(١) ق : حرف من حروف الهجاء : بدأت به هذه السورة كما بدأت به كثير من السور . وقـد قيل في تفسير ذلك أقوال كثرة . منها : إن اللّٰه ذكر هذه الأحـرف لينبه الكفـار أن القرآن ألفت كلماته من جنس مـا تؤلف منه كلمـاتهم في لغتهم التي يتخاطبـون بها ، فهـو قرآن عربي جاء بلغتهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات غريبة عنهم ، ومع هذا عجزوا عن الإتيـان بمثله ، فعجزهم هذا دليل على أن القرآن وحي إلّهي .

ومنها : أن هذه الأحرف قرع لأسمـاع هؤلاء الجاحـدين وإثارة لانتبـاههم ، وهم الذين تواصوا فيما بينهم ألّا يسمعوا هذا القرآن ، فالإتيان بهذه الأحرف في فـواتح السـور على غير المعهود في أساليبهم ، فيه استهواء لهم على سماع القرآن الذي أنكروا أنه من عنـد اللّٰه . والجدير بالذكر أنه جاء عقب هذه الحروف في أكثر المواضع ذكـر القرآن الكـريم وصفاته العلية لتأكيد أنه من عند اللّٰه .

ومنها : أن (ق) اسم من أسماء اللّٰه ، وقيل هو اسم من أسمـاء القرآن ، وقيـل (ق) هو افتتاح لأسماء اللّٰه التي تبدأ بحرف (ق) مثل قدير ، قاهر ، قريب ، قابض .

وقد طالعنا أحد الأساتذة المشتغلين بالكمبيوتر بهذه الحقيقة وهي أن حرف « ق » الذي هو في مستهل سورة قٓ وسورة الشورى يتكرر في كـل من هاتين السـورتين بعدد ٥٧ مـرة أي أن مجموع تكرار حرف ق في هاتين السورتين هو ١١٤ مرة وهذا العدد هو عدد سور القرآن . وحرف ق يرمز للقرآن كما جاء في هذه السورة ﴿ قٓ والقرآن المجيد ﴾ .

وافتتاح السورة بالقسم يؤذن بأن الموضوع الذي سيطرح هو خطير يستدعي الانتباه والاهتمام .

ثم يردّ اللّه سبحانه على المشركين الذين أنكروا نبوة محمد ، وأنكروا البعث :

﴿ **بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُم فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾(٢ ـ ٣) .

لقد تعجب المشركون أن يأتيهم رسول من عند اللّه ـ وهو محمد ﷺ ـ يخوفهم عذاب ربهم إن استمروا على الكفر ، وموطن العجب عندهم هو أن النبي محمداً ﷺ هو بشر مثلهم ، وكان الأجدر في زعمهم أن يكون معه ملك من الملائكة يصاحبه في دعوته كما ذكر القرآن في موضع آخر عن لسانهم : ﴿ لَوْلا أُنْزِلَ إليه مَلَكٌ فيكون مَعَهُ نَذِيراً ﴾ الفرقان : ٧ .

وكما عجب المشركون من إرسال الرسول ، فقد عجبوا أكثر من موضوع البعث الذي أخبرهم به ، وأنهم سيُبعثون أحياء يوم القيامة للحساب ، وكان اعتراضهم على ذلك بقولهم : ﴿ أإذَا مِتْنَا وكنا تُراباً ذلك رَجْعٌ بَعيدٌ ﴾ أي كيف سنرجع أحياء بعد موتنا ، وقد تحللت أجسادنا وصارت تراباً ، ذلك أن البعث بعد الموت ـ هو في نظرهم ـ رجوع إلى حياة أخرى بعيدة الوقوع لا تستسيغها العقول ، ولا تقرّها الأفهام .

وبعد هذا الإنكار والرفض من جانبهم للبعث يجابه اللّه إنكارهم بقوله :

﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ﴾(٤) .

أي أن اللّه يعلم ما تأكل الأرض وما تأخذه من أجسامهم بعد الموت ، ومن كان عالماً بذلك كان قادراً على إرجاعهم للحياة بعد الموت ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ وعنده سبحانه كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، وحافظ لأعمال بني آدم ليحاسبهم عليها لا يفوت منه شيء .

ولم يقتصر إنكار المشركين على البعث ، بل كان إنكارهم يشمل أساس الدعوة الإسلامية :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ في أمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ (٥) .

وتكذيبهم بالحق المراد به : القرآن ، بما يشتمل عليه من إثبات البعث ، فهم أمام هذا الحق الذي أنكروه ﴿ فَهُمْ في أمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس لا يعرفون حقه من باطله .

أمام هذا الواقع ، وأمام هذا الإنكار للبعث ، ينتقل القرآن إلى لفت الأنظار إلى قدرة اللّه البادية في خلق السماء حيناً ، وفي خلق الأرض حيناً آخر ، ثم في إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به ، وكلها آيات دالة على قدرة اللّه التي لا تعجز عن إعادة الإنسان حياً ، يقول تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦) .

حقاً ليس ما يقربنا إلى اللّه ويزيد في إيماننا إلاّ التأمل في ملكوت السماء والأرض ، وليس غريباً أن كَثُرَ الإلحاد في عصرنا الحاضر بعد أن أصبح البشر يعيشون في المكاتب والمصانع والمناجم وضوضاء المدن وهم بعيدون عن الطبيعة وجمالها وسكونها وما توحيه من إيمان واتصال باللّه .

فاللَّه سبحانه لفت الأنظار إلى السماء بقوله : ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ والبناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بمواد معينة ، وهكذا فعل اللَّه بالنجوم والكواكب حين وضع كلًّا منها على بعد معين من الآخر لا يتخطاه ، مع ما يمسك كلًّا في مداره وذلك برباط الجاذبية ، حتى كان منها عالم واحد سمي باسم السماء التي تعلونا ، ويضيف اللَّه سبحانه قوله في السماء : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ إشارة إلى ما فيها من بلايين النجوم والكواكب التي يشع بعضها القريب منا بأنواره الثاقبة ، كما تشع الزينة التي يصنعها الإنسان يوم الأفراح ، ولكن الزينة التي أبدعها اللَّه في هذا الكون هي زينة أبدية ، تسبح بحمد اللَّه ، وتشهد بعظمته ، وتثير الإيمان والخشوع في النفوس لخالقها .

﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ « ما » هنا حرف نفي بمعنى ليس . أي ليس في السماء تصدّع ولا شقوق ولا خلل ، والمراد بذلك : الدقة والنظام والتوازن الذي يقوم عليه ملكوت السماء .

وفي مواجهة جمال السماء حين تختفي نجومها بعد إطلال النهار ، يوجّه القرآن الأنظار إلى الأرض وما فيها من إبداع كما يدعو إلى التمتع بجمال النبات والزهور والتملي من منظرها لاستشعار عظمة القدرة الإلٰهية :

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (٧ ـ ٨) .

فاللَّه سبحانه مد الأرض ، أي بسطها ، وجعلها صالحة للسكنى ، ولم يجعلها صخوراً ناتئة ، وبراكين تقذف بالحمم ، ووديانا سحيقة ، كما

هو الحال في طبيعة القمر ، وكلمة ﴿ مَدَدْنَاهَا ﴾[١] مدّ الأرض : بسطها وسوّاها وهذه الكلمة يدرك أسرارها أكثر من غيرهم المسافرون في الطائرة حيث يطوون المسافات البعيدة بمدة قصيرة فلا يرون تحتهم إلّا الأرض وهي تمتد أمام أنظارهم سهولاً وجبالاً وبحاراً ، كل ذلك يشهد بعظمة القدرة الإلٰهية .

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي أن اللّٰه جعل في الأرض جبالاً ثوابت لا تتشقق وتنهار لأي عارض طبيعي ، هذه الجبال جعلها اللّٰه مستودعات للمياه بما تختزنه من مياه الأمطار والثلوج ، ومنها تسيل الينابيع فتسقي صنوف النبات التي تنقسم إلى ذكر وأُنثى كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي هذا النبات يسرّ من نظر إليه من حسنه ونضارته وألوانه الخلابة . ثم يعقّب القرآن على ذلك ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أي هذه الأمور المذكورة تبصّر وتذكّر الإنسان بقدرة اللّٰه وعظمته فتفتح القلوب نحو خالقها وتصل الأرواح ببارئها ، حقاً إن فيها تذكرة ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ ﴾ لكل إنسان مقرّ بعبوديته للّٰه ﴿ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى اللّٰه بالتوبة متفكّر في بديع صنعه .

ويتابع القرآن عرض مظاهر قدرة اللّٰه المتبدية في إنزال المطر ، وإحياء الأرض به بما تنبت من نبات وأشجار :

---

(١) مددناها : هذه اللفظة يفهم منها كروية الأرض ، فأينما نظرنا إلى الأرض نراها منبسطة فإذا كنا في خط الاستواء أو القطب الجنوبي أو الشمالي أو في أي موقع نتواجد فيه فالأرض أمامنا نراها منبسطة وهذا لا يمكن أن يحدث إلّا إذا كانت الأرض كروية ، فلو أن الأرض مسطحة أو مربعة أو مثلثة أو مسدسة في أي شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة وحيث أنه لا يمكن أن نصل في الأرض إلى حافة فذلك يدل على أن الأرض كروية .

﴿ وَنَـزَّلْنَا مِنَ السَّمَـاءِ مَاءً مُبـاركاً فَـأَنْبَتْنَا بِـهِ جَنَّـاتٍ وَحَبَّ الحَصِيـدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيـدٌ . رِزقاً لِلعِبـادِ وَأَحيَيْنَا بِـهِ بَلْدَةً ميتاً كَـذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾ (٩ ـ ١١) .

فـاللَّه سبحانـه نَزَّل من السحـاب ماء فيـه الخير والبـركـة ، ينتفـع بـه النـاس ، وبه قـوام المخلوقات الحيـة ، فهـذا المـاء ينبت اللَّه بـه أشجـار البساتين ، ﴿ وَحَبَّ الحَصِيد ﴾ وهي الحبـوب كالقمـح والشعير وغيـر ذلك ممـا يُحصد ويـدّخـر ويقتـات بـه ، وكـذلـك ينبت اللَّه بـالمـاء ﴿ وَالنَّخْـلَ بَاسِقَاتٍ ﴾[١] وباسقات بمعنى عاليات مرتفعات ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ والطلع أول ما يخرج من ثمر النخيل . ونضيد : أي متراكب بعضـه فوق بعض في اتسـاق وانتظام ﴿ رِزْقـاً لِلْعِبادِ ﴾ أي مـا تقدم من البسـاتين والحب والنخل جعله اللَّه رزقـاً للعباد ليقتـاتوا بـه ، بعد أن سخّـر اللَّه له المـاء المبارك . هذا الماء الذي قال عنه سبحانه ﴿ وَأَحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ ثم يعقِّب اللَّه على ذلك كله بقوله : ﴿ كَذَلِكَ الخُروجُ ﴾ أي كذلك تخرجون من قبـوركم يوم القيـامـة أحيـاء للوقـوف أمـام رب العـالمين للحسـاب . فجملة ـ كـذلـك الخروج ـ هي جواب للكافرين على تساؤلهم وتعجبهم من رجوعهم أحيـاءً بعـد أن يصيـروا تـرابـاً ، فكمـا أن الأرض تكـون هـامـدة لا عشب فيهـا ولا نبات ، فإذا أنزل اللَّه عليها الماء دبّت فيها الحياة من جديد ، فكذلـك قدرة اللَّه تخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن يصيروا تراباً ، وبهـذا الإيضاح يتبلور في أذهـان النـاس سلطان اللَّه المـطلق ، القـادر على كـل شيء ، وتضعف فكرة الإنكار للبعث في النفوس المرتابة الرافضة له .

---

(١) الملفت للنـظر أن اللَّه ذكـر من صنـوف النبـات : النخيـل التي هي في الـطول أضعـاف الإنسان ، فالقادر على خلق النخلة الباسقـة من النواة بـواسطة الميـاه والتراب قـادر على إعادة الإنسان حياً .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ
ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ
وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ
بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ
بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ
عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

شرح المفردات

أصْحابُ الرَّسّ : أصحاب البئر ، وهم قوم رموا نبيهم في البئر حياً ليموت فيه .

قَوْمُ تُبَّعٍ : لقب ملوك اليمن وقد نسب إليهم أهل اليمن في القديم .

فَحَقَّ وَعِيدِ : وجب عليهم العذاب . والوعيد التهديد بالشر .

أَفَعَيِينا بالخَلْق الأوَّل : هل عجزنا عن خلق الناس أول مرة ؟

لَبْسٍ : شك وحيرة .

مَا تُوَسْوِسُ : الوسوسة ، حديث النفس الخفي وما يدور في الضمير .

حَبْلِ الوَرِيدِ : عرق كبير لمجرى الدم في العنق يتصل بالقلب .

يَتَلَقَّى المتَلَقّيانِ : المتلقيان هما ملكان يتلقيان أعمال الإنسان ويكتبانها .

قَعِيدٌ : أي قاعد أو راصد .

رقِيبٌ : ملك حافظ لأقواله شاهد عليه .

عَتِيدٌ : مُعدّ ومهيأ لكتابة أعمال الإنسان من الخير والشر .

سَكْرَةُ المَوتِ : شدته وغمرته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله .

تَحِيدُ : تميل عنه وتنفر .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ
وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ
فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣ أَلۡقِيَا فِي
جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦

شرح المفردات

نُفِخَ في الصُّور : هي النفخة الثانية في البوق .

يَوْمُ الوَعِيدِ : اليوم الذي وَعَدَ اللّه الكفار أن يعذبهم فيه .

سَائِقٌ : ملك يسوقها إلى الحساب .

شَهِيدٌ : ملك يشهد عليها بما عملت .

كَشَفْنَا عَنْكَ غِطاءَكَ : كشفنا حجاب غفلتك عن الآخرة .

فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ : نظرك قوي نافذ يرى ما كان محجوباً عنك .

قَرِينُهُ : الملك الموكل بكتابة أعماله .

عَتِيدٌ : حاضر .

كَفَّارٍ عَنِيدٍ : شديد الكفر معاند للحق .

مُعْتَدٍ : ظالم ، مجاوز للحق .

مُرِيب : شاكٍ في وحدانية اللّه وفي دينه .

تابع سورة ق

وبعد أن عرض القرآن الدلائل على حصول البعث ، انتقل إلى ذكر بعض الأقوام الذين هلكوا بسبب تكذيبهم لأنبيائهم :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (١٢ ـ ١٤) .

فاللّه سبحانه يتوعَّد مشركي العرب وينذرهم بعقابه ، مذكِّراً إياهم بما حلّ ببعض الأمم السالفة الذين كفروا باللّه ، وكذّبوا برسله إليهم .

فقوم نوح أغرقهم اللّه جميعاً باستثناء فئة قليلة آمنت برسالة نوح فركبوا معه في السفينة ونجوا من الغرق .

﴿ وَأَصْحابُ الرَّسِّ ﴾ الرسّ : البئر ، والرسّ موضع نُسب إليه هؤلاء الأقوام الذين هلكوا ، قيل إنهم قتلوا نبيهم بأن رموه في البئر حياً حتى مات ، وهؤلاء كانوا يسكنون في قرية باليمامة يقال لها فلج ، وقيل هم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في سورة البروج ، وأصحاب الأخدود قوم كافرون نقموا على المؤمنين في زمانهم فنكّلوا بهم وذلك بأن حفروا لهم قناة في الأرض ، وأضرموا النار فيها ، ثم أحرقوهم .

﴿ وثمود ﴾ وهم قوم من العرب البائدة وقد بعث اللّه فيهم نبياً اسمه « صالح » وكانت مساكنهم في هضاب صخرية في وادي القرى من الحجاز ، وكان هؤلاء يعبدون الأصنام ، وقد وصف القرآن هلاكهم عندما خالفوا أمر اللّه وذبحوا الناقة التي أمرهم اللّه أن لا يمسوها بسوء

﴿ فَأَخَذَتْهم الصَّاعِقَةُ وهم يَنْظُرون ﴾ الذاريات : ٤٤ .

﴿ وَعَاد ﴾ هم قوم من العرب البائدة ، وقد بعث اللّه فيهم نبيه هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف التي تقع بين اليمن وعُمان ، وقد ذكر القرآن ما حلّ بهم جزاء كفرهم وطغيانهم فقد ﴿ أُهْلِكُوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عَاتية ﴾ الحاقة : ٦ .

﴿ وفرعون ﴾ لقب لملوك مصر القديمة والقرآن يقصد به فرعون الذي كان على عهد موسى وهو منفتاح بن رعمسيس الثاني وهو الذي غرق وعثر على جثته أخيراً في قبر أمنحتب الثاني بالأقصر ، ويوجد الآن بالمتحف المصري،وهنا لا بد من التنويه إلى أن في العثور عليه وعرضه في المتحف للناظرين معجزة من معجزات القرآن الذي قال فيه منذ أربعة عشر قرناً بعد غرقه ﴿ فَالْيَومَ نُنَجِّيكَ بِبَدنك لِتَكونَ لمن خَلْفَكَ آية ﴾ يونس : ٩٢ .

﴿ وإِخْوانُ لُوطٍ ﴾ هم قوم كانوا يسكنون قرية « سدوم » في الأردن ، وقد هاجر إليهم نبي اللّه لوط من العراق ودعاهم إلى عبادة اللّه وترك الفواحش فما استجابوا له ، وعبّر القرآن عن هؤلاء القوم بإخوانه لأنه صاهرهم ، وقد عاقبهم اللّه بأن جعل ديارهم عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجّيل .

﴿ وَأَصحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ الأيكة : الشجرة الملتفة ، وَأَصحَاب الأيكة هم قوم شعيب كانت مساكنهم كثيرة الأشجار ، وكانوا يطففون الكيل والميزان ، ويفسدون في الأرض فأخذهم عذاب يوم الظلّة ، بأن سلّط اللّه عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا ليستظلوا بها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا .

﴿ وَقَوْمُ تُبَّع ﴾ تُبّـع لقب يُطلق على ملوك حِمْيَر باليمن ، وقـوم تُبَّـع قبيلة عربية حلت بها نكبة من النكبات الطبيعيـة في عهد لا يبعـد كثيراً عن الإسلام ، وقيل المـراد بقوم تُبَّـع قوم سبـأ الذين خـرّب اللَّه ديارهم بتهـدم سدّهم العظيم وتشريدهم في شتى البلاد .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي كل هؤلاء الأقوام كذّبوا رسل اللَّه إليهم فحق عليهم وعيد اللَّه بالعذاب والهلاك .

والقـرآن إذ يسـوق هـذه الأمثلة عن مصـارع المكـذبين في الأزمنـة السـابقة ، إنمـا يهدف إلى إثـارة عقول الكـافرين زمن النبي محمـد ﷺ ، ليأخذوا العبرة بما حل بالمكذبين قبلهم .

بعد هذا التهديد والوعيد للكفار يعود القرآن إلى قضية البعث ، وإعادة الإنسان حيًّا بعد الموت للحساب :

﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (١٥) .

أَفَعَيِينَا : الهمزة لـلإنكار والتـوبيخ وإقـامـة الحجـة عليهم ، والعي : العجز . فاللَّه يقول : أعجزنا عن ابتداع الخلق الاول الذي خلقناه ، وهـو آدم وذريتـه وخلق السمـوات والأرض إنّـا لم نعجـز عن الخلق الأول كمـا علموا ، ولكنهم ﴿ في لَبْسٍ من خلق جديد ﴾ أي هم في شـك وحيرة من قدرتنا على خلقهم خلقاً جديداً وهو البعث بعد فناء أجسادهم في التراب .

هـذا وقد بيَّن القـرآن في موضـع آخر من هـذه السورة بـأن إعادة خلق الإنسان هو أهون وأسهل على اللَّه من بدء خلقه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الـروم : ٢٧ . وهذا دليـل منطقي يقبله العقـل

كل القبول ولا يرفضه .

فالإنسان عندما يصنع أنموذجاً أولياً لصناعة من الصناعات يحتاج إلى تصميم وتجارب وجهد حتى يخرج هذا الأنموذج خالياً من العيوب ، أما إعادة صنع هذا التصميم فيتحول بعد ذلك إلى مسألة رتيبة ، هذا هو المشاهد في حياة الإنسان ذلك المخلوق الضعيف ، فما بالك بقدرة اللّٰه العظيمة التي خلقت هذا الكون العظيم ، حيث يبدو الإنسان أمامه جزءاً صغيراً . وواضح من كلمة ﴿ أهوَنُ ﴾ أنها تقريب لأذهان الناس بما هو مألوف لديهم من أن إعادة الشيء أسهل من فعله ابتداء ، أما بالنسبة إلى اللّٰه فليس هناك هيّن وأَهْون بل البدء والإعادة سواء أمام قدرة اللّٰه العظيمة .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مدى إحاطة علم اللّٰه بالإنسان وما يفعله من خير وشر ليحاسب عليه عند البعث يوم القيامة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ (١٦) .

فاللّٰه سبحانه خلق الإنسان وخلق فيه العقل والشعور والإدراك ، وهذا ما يشعرنا بأنه سبحانه أدرى بما صنع . وتتابع الآية : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه ﴾ أي أن اللّٰه يعلم ما يختلج في سرّ الإنسان وضميره من المشاعر والأفكار ، وهذا مما يزجر الإنسان عن المعاصي التي يستخفي بها عن أعين الناس لأنه يعلم أن اللّٰه رقيب عليه لا يخفى عليه شيء . وتضيف الآية بعد ذلك ﴿ ونحن أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد ﴾ قيل المراد بالقرب : قرب العلم لا قرب الذات لتنزهه سبحانه عن القرب المكاني ، وقيل المراد بذلك : إن ملائكة اللّٰه تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه وهي

تكتب أعمال الإنسان من خير أو شر . وحبل الوريد هو عرق يجري فيه الدم في باطن العنق .

ثم يضيف القرآن أكثر من ذلك فيذكر بأن اللّٰه أوكل بالإنسان ملكين يحصيان عليه كل حركة من فعل أو قول ، ليشعر أن الرقابة محكمة عليه :

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيهِ رقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٧ ـ ١٨) .

المتلقيان : هما ملكان من الملائكة يأخذان ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال فيسجلانها ، ﴿ عَنِ اليَمينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ﴾ أي أنهما قاعدان عن يمين الإنسان وشماله ومكان قعودهما غير معلوم . هذا الإنسان ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ ما يتكلم بكلام يقصد به الخير أو الشر ، أو يعمل عملاً ﴿ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ أي ملك حافظ يرقب قوله وعمله ﴿ عَتِيد ﴾ حاضر ومهيأ لكتابة ما أمر به من أعمال الإنسان خيراً أو شراً . فكلا الملكين حافظ حاضر عند الإنسان ، فأما الملك الذي عن يمين الإنسان فيكتب الحسنات وأما الملك الذي عن شماله فيكتب السيئات .

ثم يذكِّر القرآن الإنسان بالموت وسكراته ، وأمام رهبة الموت يتلاشى غرور الإنسان ويستشعر عجزه ، ويتفجّر ينبوع الإيمان في قلبه ، مدركاً وجود قدرة إلٰهية فوق قدرته تتصرف في هذا الكون ؛ فالإنسان تجتاحه الغفلة في هذه الحياة التي تغريه ببهجتها وزينتها وشهواتها فيعرض بذلك عن الإيمان بخالقه ، ويبتعد عن ذكره وعن السير بموجب وصاياه ، والاستعداد لما بعد الموت ، ولكن عندما يصل إلى عتبة الموت تتبدى له الحقيقة بأجلى مظاهرها ، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْه تَحِيدُ . وَنُفِخَ في الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ . وَجَاءت كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (١٩ ـ ٢٢) .

وسكرة الموت هي شدته وغمرته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، والمراد : (بِالحَقِّ) أي عند سكرات الموت يتضح له الحق فيؤمن بخالقه ، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والحساب وتقرير الثواب والعقاب ولكن هذا الحق الذي يراه المحتضر لا ينفعه لأنه كذّب به من قبل ولم يؤمن به فلا ينفعه الإيمان المتأخر ﴿ ذَلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي ذلك الحق من أمر الآخرة هو الذي كنت تنفر منه وتفزع .

ومن مشهد سكرات الموت إلى مشهد آخر يعقب الموت وهو مشهد البعث والجزاء وهو ما تركز عليه السورة وتؤكده ، فيقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ ﴾ أي نفخ في البوق النفخة الثانية التي يبعث اللّه فيها الناس أحياءً بعد الموت ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ ﴾ وهو يوم القيامة حيث ينجز اللّه وعيده على المجرمين بالعذاب ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي جاءت كل نفس من الناس ومعها سائق من الملائكة يسوقها إلى أمر اللّه وإلى الحساب ، وشاهد من الملائكة يشهد عليها بما عملت وقيل الشاهد هي الجوارح ، وقد جاء في القرآن : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانوا يَعْمَلُونَ ﴾ النور : ٢٤ .

﴿ لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ هذا ما يقال للكافر الغافل إذا عاين وتبدت له حقائق الآخرة ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطاءَكَ ﴾ أي أزلنا غفلتك بما تشاهده اليوم من حقيقة البعث والجزاء ، والغطاء هنا هو الحجاب الذي

كان يغطي عقول الكافرين عن إدراك أمور الآخرة ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي بصرك اليوم أصبح حاداً أي قوياً نفاذاً تدرك به ما أنكرته من أمور الآخرة .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الكافر في الآخرة وما يلاقيه هناك من عذاب .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ (٢٣ ـ ٢٦) .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد ﴾ فالقرين : هو الشيطان الذي كان مصاحباً وملازماً للكافر فهو يقول : هذا الكافر الذي عندي مهيأ ومعد لجهنم بإضلالي له . وقد يكون المراد بالقرين : الملكين ، السائق والشهيد ، فالسائق يسوقه إلى ساحة الحساب ، والشهيد يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ، فالملك الذي كان يشهد على أعماله يقول : هذا ما لدي من أعماله حاضر ومعد للحساب ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ الخطاب هنا للملكين : السائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار ، يقال لهما : إطرحاه في نارها ليكتوي بحرارتها ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيد ﴾ كل شديد الكفر جاحد بوحدانية اللَّه ، معاند عن قبول الحق والهدى ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ يمنع الناس عن دخول الإسلام ، أو يمنع الناس عن كل خير ﴿ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ معتد على الناس بلسانه بالبذاءة والفحش ، وبيده بالسطوة والبطش ، وهو شاكٌّ في وجود اللَّه ووحدانيته والبعث ﴿ الذي جَعَلَ مَعَ اللَّه إلَهاً آخَرَ ﴾ أي أشرك باللَّه واتخذ معه معبوداً آخر ﴿ فَأَلْقِيَاهُ في العَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ والعذاب الشديد هو نار جهنم التي بُدىء بذكرها في هذه الآيات .

* قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ
وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

شرح المفردات

ما أطْغَيْتُهُ : ما حملته على الكفر والبغي .
كَانَ في ضَلَالٍ بعيدٍ : كان مائلاً عن طريق الهدى ميلاً بعيداً .
قَدَّمْتُ إلَيْكُم بالوَعِيدِ : أرسلت إليكم الرسل من قبل لتحذركم عقابي وعذابي .
مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ : ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا من عقاب العاصين .
وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلعَبيد : لا أعذب أحداً من عبادي ظلماً بغير جرم اقترفوه .
أُزلِفَت : قُرِّبت وأُدنيت .
الجَنَّة : دار النعيم في الآخرة .
لِكُلِّ أَوّابٍ : لكل راجع عن معصية اللّه إلى طاعته ، تائب من ذنوبه .
حَفِيظ : الحافظ لأوامر اللّه ولما استودعه اللّه من حقوقه .
مَنْ خَشِيَ الرَّحمٰن بِالغَيْبِ : من خاف اللّه دون أن يراه .
بِقَلْبٍ مُنيبٍ : بقلب تائب من ذنوبه .
يَوْم الخُلود : أي يوم الخلود في نعيم الجنة الذي لا انتهاء له .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ
هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ
طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾
وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ

شرح المفردات

كَمْ أَهْلَكْنَا : أي كثيراً ما أفنينا وأمتنا .

قَرْنٍ : أهل زمان واحد .

بَطْشاً : قوة .

فَنَقَّبوا في البلادِ : طافوا في البلاد وتوغلوا في أقاصيها .

هَلْ مِنْ مَحِيصٍ : هل لهم مهرب من أمر اللّٰه أو من الموت .

لَذِكْرَى : تذكرة وموعظة .

لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ : لمن كان له عقل يتدبّر به .

أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ : أصغى لما يقال له وهو متفهم لما يُخبر به .

وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ : وما أصابنا من إعياء وتعب .

سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك : نَزِّه ربك عن النقص ، أو صَلِّ له حامداً .

أَدْبَارَ السُّجُود : أعقاب الصلوات .

يَوْمَ ينادي المنادي : وهي صيحة يوم القيامة ينادي بها الملك إسرافيل .

يَسْمَعُون الصَّيْحَةَ : يسمعون صيحة البعث .

ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ
ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوج : ذلك يوم الخروج من القبور .

إِلَيْنَا المَصِير : إلى اللّٰه المرجع والمنتهى حيث يُجَازَى كلٌ بما عمل .

يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُم سِرَاعاً : يوم تصدّع الأرض عنهم فيخرجون منها مسرعين .

حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ : جمع الناس للحساب سهل يسير على اللّٰه .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ : ما أنت بمتسلّط تجبرهم على الإسلام .

مَنْ يَخَافُ وَعِيد : من يخاف وعد اللّٰه بالعذاب لمن خالف أمره .

تابع سورة ق

وتتابع الآيات فتذكر صورة عن الحوار الذي سيكون يوم الحساب والجزاء بين الكافر وشيطانه :

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بالوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ للْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّم هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٢٧ - ٣٠) .

القرين هنا هو شيطان الكافر الذي كان موكلاً به في الدنيا[١] ، فالكافر حينما يلقى في النار يقول : ربنا أطغاني شيطاني ، فيقول الشيطان : ﴿ ما أطغَيْتُهُ ﴾ أي ما جعلته طاغياً ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ، والطغيان : تجاوز الحد في العصيان والشر والمغالاة في الكفر والبغي . ثم يتابع الشيطان قوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ فهذا الكافر كان في ضلال بعيد عن الحق ، وكان طاغياً باختياره وقد دعوته إلى الضلال فاستجاب لي[٢] .

ففي ساعة الحساب يوم القيامة يتنصّل كل من الإنسان والشيطان من جرائمه ويلقي أحدهما التبعة على الآخر ، وهنا يردُّ اللَّه عليهما : ﴿ قَالَ

---

(١) وقد جاء في القرآن : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمٰن نُقَيِّض لهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرين ﴾ الزخرف : ٣٦ . أي ومن تغافل وأعرض عن ذكر اللّه هيأنا له شيطاناً فهو مصاحب وملازم له .

(٢) وقد ذكر القرآن ما يقوله الشيطان يوم القيامة في شأن الكافرين : ﴿ وَمَا كان لي عليكم من سُلْطانٍ إلّا أن دَعَوْتُكُم فاسْتجبتم لي ﴾ إبراهيم : ٢٢ .

لا تخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أي لا تختصموا في موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالوَعِيدِ ﴾ أي لقد سبق وقَدَّمْتُ إليكم الإنذار بالعذاب لكل من يسلك طريق الكفر ﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَـدَيَّ ﴾ فيما وعـدته من ثواب للمؤمنين وعقاب للكافرين ﴿ وَمَا أَنَا بِـظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي مـا اللَّه بـظالم للنـاس فيـزيـد على إسـاءة المسيء أو ينقص من إحسـان المحسن ﴿ يَـوْمَ نَقُولُ لِجَهنَّمَ هَـلِ امْتَـلأْتِ ﴾ فيـوم القيـامـة يقـول اللَّه لِجَهَنَّم هـل امتلأت بالكفار والعصاة ﴿ فَتَقُـولُ هَلْ مِنْ مَـزِيدٍ ﴾ أي هـل من زيادة منهم لأستقبلهم ، سؤال وجواب جيء بهما على هذا الوصف لتهويل أمرها وأنها من السعة بحيث يدخلها من يستحق دخولها ويظل فيها متسع لآخرين .

وبعد أن بيّن القرآن مصير الكافـرين في الآخرة انتقـل إلى بيان مصيـر المتقين :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجَنَّـةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيـدٍ . هَذَا مـا تُـوعَـدُونَ لِكُـلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الـرَّحمٰنَ بِالغَيْبِ وَجَـاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوهـا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلودِ . لَهُمْ مَا يَشاؤونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ ﴾(٣١ ـ ٣٥) .

فـاللَّه سبحانـه يقول : ﴿ وأُزْلِفَتِ الجَنَّـةُ للمتقين ﴾ أي وأدنيت الجنـة وقـرِّبت للذين اتقوا ربهم ، فخـافوا عقـوبته بـاجتنـاب المعـاصي والعمـل بـالـطاعـات ﴿ غَيْـرَ بَعِيـدٍ ﴾ أي أن الجنـة لم تَعُـد بـالنسبـة للمتقين أمنيـة ورجـاء بعيداً ، وإنمـا أصبحت اليوم أمـراً واقعاً غيـر بعيـدة عنهم وهي في متنـاول أيـديهم ﴿ هَـذَا مـا تُـوعَـدُونَ ﴾ هـذا الـذي يـرونـه من النعيم هـو مـا وعدهم بـه سبحانـه من الثواب على ألسنـة رسله ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ لكـل راجع إلى اللَّه بالتوبة وفعل الطاعات ﴿ حَفِيظ ﴾ أي حافظ لأوامر اللَّه ولما استودعه اللَّه من حقوقه ، أو حافظ لتوبتـه من النقض ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ

بالغَيْبِ ﴾ أي من خاف اللَّه وأطاعـه وهو لم يره ، أو خافه في الخلوة حيث لا يراه أحد .

فخشية اللَّه مصدر هـام لكل الفضـائل التي يتحلى بهـا الإنسان لأنهـا تنبع من الاعتقاد بـالبعث وأن الإنسان محـاسب على أعمالـه يوم القيـامة ، فيتوب من شروره وآثامه ، ويقبل على طاعة ربه ، ولهـذا عقّب القرآن على خشية اللَّه بالقـول : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ والإنـابة إلى اللَّه الـرجوع إليـه بالتوبة وإخلاص العمل .

هؤلاء المتقـون الَّذِينَ وصفتهم الآيـات بالصفـات الكريمـة السابقـة ، يُقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَـوْمُ الخُلُودِ ﴾ أي ادخلوا الجنة بـأمان من كل مكروه ، أو بسلام مِنَ اللَّه وملائكته ، وهم في الجنة في نعيم دائم لا يزول ﴿ لَهُمْ ما يَشاؤونَ ﴾ أي لهم في الجنة ما تشتهيه أنفسهم من أنواع النعيم ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ولهم عند اللَّه زيادة على ما يشاؤونـه مما لم يخـطر ببالهم من النعيم ، أو لهم من النعيم الزيادة على ما يستحقـونه من الثـواب على أعمالهم .

ثم يعود القرآن إلى الإشارة إلى إهلاك اللَّه للأمم السالفة بسبب كفرها بصورة مجملة غير الصورة التي سبق عرضها قبل قليل في هذه السورة :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا في البِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ . إِنَّ في ذَلِكَ لَذِكْـرَى لِمَنْ كَانَ لَـهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُـوَ شَهِيدٌ ﴾ (٣٦ ـ ٣٧) .

يخوف اللَّه المشركين من أهـل مكة بـذكر مصـارع أمثالهم من الكفـار من الأمم السالفة بقـوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَـا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ ﴾ والقـرن : أهل

كل زمان واحـد وهؤلاء الأقوام ﴿ هُمْ أَشَـدُّ مِنْهُـم بَطْشـاً ﴾ أي أشد قـوة من مشـركي مكة وأكثـر عدَّةً وعـدداً ﴿ فَنَقَّبُوا في البِـلَادِ ﴾ فساروا في البـلاد ، وطوّفوا فيها بقوتهم وسلكوا كل طـريق ، ولكن النتيجة المحتـومة : ﴿ هَـلْ مِنْ مَحِيص ﴾ أي هـل من مهرب من اللَّه أو من المـوت ؟ وفي هذا تـذكير بـإحكام القبضـة الإلهية على الخلق ﴿ إِنَّ في ذَلِـكَ لَـذِكْـرَى ﴾ أي إن في هلاك القرون الماضية لتذكرة وموعظة وعبـرة ﴿ لَمِنْ كَانَ لَـهُ قَلْبٌ ﴾ القلب هنا العقل لأنه موطن الإدراك في نظر العرب قـديماً ، أي لِمَن كـان له علم وفهم ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أو أصغى سمعه إلى هـداية اللَّه وهـو حاضر الذهن غير غافل عنه ولا ساه .

ثم يـذكر القـرآن بعد ذلـك قدرة اللَّه العـظيمة التي خلقت السمـاوات والأرض ولم يصبها تعب ولا مشقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (٣٨) .

واللغوب : التعب والإعياء . هذه الآية رد على اليهـود الذين قـالوا إن اللَّه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليـوم السابـع من الأسبوع وهو يوم السبت ، ولهذا لا يجوز العمل عندهم في هذا اليوم .

كمـا أن هذه الآيـة رد على منكري البعث ، فـالذي خلق هـذا الكون العظيم في ستة أيام ولم يصبه تعب قادر على إعادة الإنسـان حياً للحسـاب يوم القيامة .

وقد يقال إن النتائج التي توصل إليها العلم عن أصول العالم تخالف كل المخالفة ما هو مقرر في العهد القديم ، وما هو مـذكور في القـرآن من

أن اللّه خلق العالم في ستة أيام ، فالعلم الحديث ـ كما يقولون ـ يقـرر أن هناك فترة من الزمن طويلة المدى قام خلالها خلق هذا الكون .

هؤلاء الذين أثاروا الشبهات في هذا السبيل نقول لهم : إننا لا نستطيع معـرفة اليـوم إلّا بوجـود الشمس ، سواء أريـد من اليوم النهـار ، أو النهـار والليـل معـاً ، وقبـل خلق السمـاوات والأرض لم تكن شمس أي لم يكن يوم ، وقد تكون الشمس من أواخر خلق اللّه ، وعلى هـذا فالمـراد بالأيـام الستة : ستة أزمنة لا يعلم مقدارها إلّا اللّه سبحانه .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : المراد بـ « ستة أيام » إشارة إلى ستـة أطوار ، والذي يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكـون هـو المفهوم في وضـع اللغة ، لأن اليـوم في اللغـة عبـارة عن زمـان مكث الشمس فـوق الأرض من الطلوع إلى الغـروب ، وقبل خلق السمـاوات لم يكن شمس ولا قمر ، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت[١] . . .

ثم ينتقـل القـرآن بعـد ذلـك إلى الـدعـوة إلى الصبـر وتمجيـد اللّه سبحانه :

﴿ فَاصبِر عَلَى مَا يَقُولونَ وَسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحهُ وَأَدبَارَ السُّجُودِ ﴾ (٣٩ ـ ٤٠) .

فاللّه يخاطب نبيـه محمداً بـالصبر على مـا يقول هؤلاء المكـذبون من الطعن بنبوتـه ، والتكذيب بـالبعث . وهذا الخـطاب يشمل المؤمنين أيضـاً بدعوتهم إلى الصبر على ما يلاقونـه من أذى بسبب إيمانهم أو في دعـوتهم إلى اللّه . ﴿ وَسَبِّح بِحَمد رَبِّـكَ ﴾ أي نزِّه اللّه عمـا لا يليق بجنابـه متلبساً

---

(١) هذا وقد جاء في القرآن : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّك كألف سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ الحج : ٤٧ .

بحمده ، قيل المراد بالتسبيح الأمر بالصلاة ، وسميت الصلاة تسبيحاً لأنها تشتمل تسبيح اللَّه وحمده وشكره ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ المراد بها صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ الغُرُوبِ ﴾ وهي صلاة العصر ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ المراد بها صلاة المغرب والعشاء ، وقيل صلاة التهجد بالليل ﴿ وَأَدْبَارَ السّجُود ﴾ السجود يعبّر به عن الصلاة ، وأدبرت الصلاة إذا انقضت،قيل هما الركعتان النافلتان بعد صلاة المغرب ، أو النوافل بعد الصلوات المفروضة .

ثم يختم اللَّه هذه السورة بتأكيد قضية البعث الذي هو موضوع هذه السورة .

﴿ واسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُون الصَّيْحَة بالحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ . إنَّا نَحْنُ نُحيي وَنُمِيتُ وَإلَيْنَا المَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بجبَّارٍ . فَذَكِّر بالقُرآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ ﴾ (٤١ ـ ٤٥) .

هذه الآيات مرتبطة بأوائل السورة التي تذكر إنكار الكافرين للبعث ، فاللَّه يقول : واستمع يا محمد أخبار القيامة يوم ينادي المنادي الموتى من قبورهم ﴿ من مكان قريب ﴾ بحيث يصل صوته إلى الكل ، فيقول هذا المنادي : يا أيها الناس هلمّوا إلى الحساب فيقبلون ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَة بِالحَقِّ ﴾ أي يوم يسمع الخلائق صيحة البعث حيث هي كائنة حقاً إيذاناً ببعث الأجسام أحياء للحساب ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ﴾ أي ذلك اليوم هو يوم الخروج من القبور ﴿ إِنَّا نَحْنُ نحيي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المَصِيرُ ﴾ فاللَّه وحده هو الذي يحيي الخلق ويميتهم وإليه المنتهى للجزاء والحساب

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ أي يوم تتصدَّع الأرض وتتفتح ليبعث منها الأموات من لدن آدم حتى القيامة حيث يخرجون منها مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي جمع الناس للحساب يوم القيامة ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هو سهل هيِّن على اللَّه .

وبعد هذا كله يتوجه اللَّه بالخطاب إلى النبي بقوله : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي وما أنت يا محمد بمتسلّط عليهم لتجبرهم على الإيمان فما أنت إلّا نذير ﴿ فَذَكِّر بالقُرآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيد ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن وقم بالوعظ به من يخشى وعيد اللَّه ويخاف عقابه ، وما وعيد اللَّه إلّا الذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة والذي يخاف وعيد اللَّه هو المنتفع بالعظة والتذكير .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير القرآن لابن كثير .
تفسير فتح القدير للشوكاني .
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد بن محمد العمادي .
تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .
تفسير روح المعاني للألوسي .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير سورة الحجرات للشيخ محمد مصطفى المراغي ـ مجلة الأزهر .
تفسير سور من القرآن للشيخ عبد الرحيم فرغل البليني ـ مجلة الإسلام ـ مصر ـ .
تفسير سورة الفتح للأستاذ عبد الله عفيفي ـ مطبعة مجلة الإسلام .
تفسير سور من القرآن للأستاذ أحمد حسين ـ مجلة منبر الإسلام ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٢ .

الفهرس

اسم السورة	رقم السورة

كتب للمؤلف :

- روح الدين الإسلامي .
- مع الأنبياء في القرآن .
- روح الصلاة في الإسلام .
- الخطايا في نظر الإسلام .
- اليهود في القرآن .
- الحكمة النبوية .
- تفسير جزء عمَّ .
- تفسير جزء تبارك .
- تفسير جزء قد سمع .
- تفسير جزء والذاريات .
- تفسير جزء الأحقاف .
- تفسير جزء الشورى .
- تفسير جزء الزُّمَر .
- تفسير جزء يّس .

روح القرآن الكريم

تفسير جزء

وَالذّاريَاتِ

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذا التَّفْسِيرُ

• يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بَعيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون:
دَارُ العِلمِ للمَلايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

رُوحُ القرآن الكريم

تفسيرُ جُزء
وَالذَّارِيَاتِ

الجزء السَّابع وَالعشرون

بقلم
عَفيف عَبد الفتّاح طَبّارَه

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

الطبعة الخامسة

أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على هادينا محمد رسول الله .

« من أراد أن يخاطبه الله فليقرأ القرآن» .

بهذا الإيحاء يشعر المؤمن عندما يتلو آيات الله أو يسمعها تتردد بكرة وأصيلاً ، فيخالجه الشعور بالخشية تسري في عروقه ، وبالرهبة تأخذ عليه مجامع قلبه ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فيستجيب لأوامر الله بنفس راضية وقلب مطمئن .

وهذا الجزء من القرآن « والذاريات » فيه إطلاق النظر في الكون الفسيح يستخلص منه العبرة ، وتدعو آياته إلى تسريح الفكر بمشاهد العالم العلوي ، ليعود المؤمن منها محمّلاً بثمار المعرفة ، متسربلاً برداء اليقين ، شاهداً على عظمة الخالق ببديع خلقه ، وعظيم صنعه ، وفي هذا يقول تعالى في سورة الواقعة : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ . ويقول سبحانه في سورة الذاريات : ﴿ وَالسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعون ﴾ .

تستوقفنا هذه الآيات بإيحائها الكبير ، ومدلولها البعيد على عظمة الكون وما يحتويه من ملايين الملايين من النجوم ، تُعلن ذلك في وقت كان فيه علم الفلك في طور الطفولة .

ولا تقتصر آيات القرآن في الدعوة إلى النظر في العالم العلوي بل تدعو الإنسان إلى النظر في الأرض وما تحتويه من عجائب الخلق ، وكذلك النظر في جسم الإنسان وما يحتويه من أسرار الخلقة ، كل ذلك ليزداد الإنسان إيماناً بخالقه ، وفي هذا يقول تعالى في سورة الذاريات : ﴿ وفي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنينَ . وَفي أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرُون ﴾ .

ولقد أحسن المؤلف الكريم الأستاذ عفيف طبارة وهو من تستوقفه مثل هذه الآيات الداعية للتأمل في خلق الإنسان والكون فأعطاها ما تستحق من تنويه وتعليق ، لافتاً النظر إلى أسرارها وإعجازها ودلالتها على أن هذا القرآن وحي إلٓهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجزء من القرآن أكثره مكي « أي نزلت آياته بمكة » والآيات المكية تأخذ طابع غرس العقيدة في النفوس ، وتثبيت الإيمان في القلوب ، وذلك بلفت النظر إلى الكون ودلالته على عظمة الخالق ، أو بالترغيب والترهيب بذكر ما أعد الله للمؤمنين المتقين من نعيم ، وما أعد للكافرين العاصين من عذاب أليم ، كما نرى في سورتي الواقعة والطور ، أو باستعراض أحوال الأمم الغابرة التي عصت ربها ، وكذبت رسلها ، فأصابها العذاب والهلاك كما نرى في سورة القمر .

وفي سورة الطور إثبات لنبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلٓهي ، وذلك بتحدي العرب الذين ينكرون نبوته بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إذا كان من تأليف محمد ﷺ كما يدّعون وفي هذا يقول تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

وفي سورة الذاريات يبين الله الغاية من خلقه للإنس والجن بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وهنا يجول المؤلف في أسرار العبادة ومراميها ، وأثرها في سلوك الإنسان وسكينة النفس .

وبعد لا نستطيع في كلمة موجزة أن نستعرض كل ما في هذا الجزء من روعة وعظمة فهذا ما ستجده أخي القارىء عند قراءتك له بأسلوب مؤلفه الذي عودنا على طريقته المحببة من السهولة والإيضاح ، فيقبل عليه الجمهور بشغف وشوق لِمَا اشتمل عليه من تبويب وغزارة مادة ، وهو بهذا يكمل الجزء الرابع من تفسير القرآن .

والله أسأل أن ينتفع به جمهورنا المسلم، ويقبل عليه بقلبه وروحه فيجد فيه الضياء للقلب ، والنعيم للروح ، ﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّر المؤْمِنينَ الذين يَعْمَلُون الصَّالِحَات أنَّ لَهُمْ أجراً كبيراً ﴾ .

سورة الذاريات
مكية ، وآياتها ستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾
قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ

شرح المفردات

وَالذَّارِيَات ذَرْواً : قَسَمٌ بالرياح التي تفرق الأشياء تفريقاً .

فَالحَامِلاَتِ وِقْراً : قَسَمٌ بالسحب الحاملة ثقلاً من الماء .

فَالجَارِيَاتِ يُسْراً : قَسَمٌ بالسفن تجري على الماء جرياً سهلاً .

فَالْمُقَسِّمَاتِ أمْراً : قَسَمٌ بالملائكة التي تقسّم الأمور بين الخلق على نحو ما أمر الله به .

إنَّ مَا تُوعَدُون لَصَادِقٌ : إن ما وعدكم الله به من البعث والثواب والعقاب حقيقي .

إنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ : إن الحساب يوم القيامة واقع لا محالة .

والسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ : قَسَمٌ بالسماء ذات الخَلْق الحسن والبنيان المتقن .

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ : إنكم أيها الناس لفي قول مختلف في هذا القرآن فمنكم مصدّق به ومنكم مكذّب له .

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ : يُصرف عن الإيمان بالقرآن من صُرف عنه .

قُتِلَ الخَرَّاصُونَ : لُعِنَ الكذابون .

في غَمْرَةٍ : في ضلال وجهل .

سَاهُونَ : لاهون غافلون عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ .

يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي
كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ
مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ
ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ
لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ
أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ
إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ

شـرح المفـردات

أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين : متى يوم المجازاة والحساب .

يُفْتَنُونَ : يُعذبون بالإحراق بالنار .

فِتْنَتَكُم : عذابكم المعدّ لكم جزاء كفركم .

مَا آتَاهُم رَبُّهُمْ : ما أعطاهم من الثواب والكرامات .

يَهْجَعُونَ : ينامون ليلاً .

الأَسْحَارِ : أواخر الليل .

للسَّائِلِ : للمحتاج الفقير الذي يسأل الناس .

الْمَحْرُوم : الفقير المتعفّف الذي لا يسأل الناس فيُحرم الصدقة .

وفي الأرض آيات للموقنين : وفي الأرض علامات ودلائل على وجود الله لأهل اليقين الذين يعرفون ربهم ببديع صُنعه .

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرُونَ : وفي خلق أنفسكم علامات تدل على القدرة الإلّهية .

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ : ضيوف إبراهيم وكانوا من الملائكة .

الْمُكْرَمِين : الكرام عند الله لأنهم من الملائكة .

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ
بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ
عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ
مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ : قوم غرباء غير معروفين .

فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ : ذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه .

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً : أحسَّ في نفسه الخوف منهم .

في صَرَّة : في صيحة وضجة .

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا : لطمته بيدها تعجباً .

عَجُوزٌ عَقِيمٌ : عجوز عاقر لا تلد .

فَمَا خَطْبُكُمْ : فما شأنكم وقصتكم .

مُسَوَّمَةً : معلّمة بعلامة .

تَرَكْنَا فيهَا آيَةً : أي تركنا في تلك القرى علامة تدل على ما أصابهم من العذاب .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

ايضــاح و دروس

هذه السورة تؤكد وقوع البعث والجزاء في الآخرة ، وتنذر المكذبين بهما بسوء المصير ، كما تبيّن مصير المتقين ، وما أعد الله لهم من نعيم في الآخرة جزاء طاعتهم لربهم وإحسانهم في أعمالهم ، كما تلفت الأنظار إلى التأمل في الأرض وفي الأنفس وما أودع الله فيهما من عجائب الصنع التي تشهد بوجود خالق لها .

كما تحدثت هذه السورة عن قصة إبراهيم مع ضيوفه الملائكة ، ثم تعرضت لأحوال بعض الأمم السابقة ، وما أصابهم من الهلاك جزاء كفرهم وعصيانهم ، كذلك حثت هذه السورة على الرجوع إلى الله وإفراده بالعبادة .

إستهلت هذه السورة بالقسم بجملة أمور لتأكيد أن البعث والجزاء في الآخرة كائنان لا محالة :

﴿ وَالـذَّارِيَاتِ ذَرْواً . فَـالْحَامِـلَاتِ وِقْـراً . فَـالْجَـارِيَـاتِ يُسْـراً . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (١ ـ ٦) .

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ قَسَمٌ بالرياح التي تذرو الرمال والتراب واللقاح وتفرقها ، ومعنى ذرا : فرّق وبدد .

﴿ فَالحَامِلَاتِ وِقْراً ﴾ قَسَمٌ بالسحب المثقلة بالمطر ، والوقر : الحمل الثقيل .

﴿ فَالجَارِيَاتِ يُسْراً ﴾ قَسَمٌ بالسفن الجارية في البحر بسهولة ، واليُسر هو السهل في كل شيء .

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ قسم بالملائكة التي تتولى تقسيم أمور العباد وأرزاقهم بأمر الله ومشيئته .

ويحتمل أن يكون المُقْسَمُ بها هي الرياح فقط ، فهي التي تذرو التراب وتفرّقه ، وتحمل السحب المثقلة بالمطر ، وتجري بالسحب بيسر وسهولة بتسخير الله ، ويقسِّمُ بها سبحانه أرزاق العباد بالماء الذي ينزل من السماء .

أما الأمر المقسم عليه ، أو مَا يُسَمَّى جواب القسم فهو : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي إن ما وعدكم به ربكم من بعث الأجسام حيّة يوم القيامة بعد موتها ، لهو وَعْدٌ صادق لا ريب فيه ، وأن الجزاء والحساب على الأعمال لأمر حاصل يوم القيامة لا محالة .

فالله سبحانه أقسم في مستهل هذه السورة لأن القَسَم كان شائعاً عند العرب ومن أساليب كلامهم لتأكيد أمر أو الاهتمام به ، والقَسَم في هذه السورة هو لإظهار أهمية المقسم به وما فيه من الدلالة على قدرة الله وحكمته ، وأن الله الذي خلق الرياح والمياه وغيرهما لقادر على إعادة الأجسام كما بدأها أول مرة .

وما يكاد هذا القسم ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء على أنهم مختلفون في موضوع القرآن والنبوة ويوم الجزاء في الآخرة ، وأن المكذبين بهذه الأمور يستحقون العذاب في الآخرة :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ . قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ . يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٧ ـ ١٤) .

فالله سبحانه أقسم بالسماء ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي ذات البنيان المحكم المتقن وذات الخلق السوي الحسن ، والقسم بها دعوة للتأمل بها تأملاً يظهر عظمة خالقها .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذه الجملة جواب القسم ، أي إنكم يا أهل مكة تختلف أقوالكم في محمد والقرآن ويوم الجزاء ، فمنكم مصدّق بأن محمداً رسول الله ، والقرآن وحي إلٓهي وأن هناك يوم الجزاء بعد هذه الحياة حيث يُدان الناس بأعمالهم إما إلى نعيم وإما إلى عذاب . ومنكم مكذِّب بمحمد وواصف له بأنه ساحر أو مجنون أو كاهن ، وأن القرآن ليس من كلام الله ، وأنه لا بعث ولا جزاء بعد هذه الحياة .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالله وبرسالة نبيه محمد ﷺ من صُرف ممن كذّب بذلك واختار لنفسه الكفر بدل الإيمان .

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أي لُعن الكذابون الذين اعتمدوا في تكذيبهم على الظن والوهم ، لأن كل قول صادر عن ظن وتخمين يقال له : خَرْصٌ . وإنما عبَّر الله عن اللعن بالقتل لأن من لعنه الله : أي طرده من رحمته ، كان بمنزلة الهالك المقتول . والخرّاصون هم الذين كذبوا على الله فنسبوا له الشريك ، ونسبوا له الولد ، وكذّبوا محمداً بإنكار نبوته ، وكذّبوا في إنكارهم للبعث والجزاء على الأعمال بعد الممات ، كما هو حال المذاهب المادية التي تنكر الأديان والخالق وتشيع الإلحاد . هؤلاء الكذّابون ﴿ الذينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُون ﴾ في غمرة : أي في جهل وضلالة تغمرهم . ساهون : لاهون غافلون عن أمر الآخرة . فهؤلاء تسترهم وتغطيهم الأضاليل والأوهام والظنون ، وهم لاهون عن أمر الآخرة بانشغالهم بالدنيا وملذاتها وشهواتها .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين ﴾ إنهم يسألون متى يوم الحساب ، ولكنه

سؤال استهزاء وإنكار ، لا سؤال راغب في المعرفة ، والوصول إلى الحق . ويأتي الجواب على هذا السؤال سريعاً مرعباً وذلك بعرض مشهد من مشاهد العذاب التي أعدها الله لهم : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يُعذبون بالإحراق يوم القيامة ، ويُقال لهم : ﴿ ذُوقوا فِتْنَتَكُم ﴾ أي ذوقوا عذابكم ﴿ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

وفي مقابل هؤلاء الكفار المعذبين في الآخرة يبيّن الله حال المتقين :

﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ ﴾ (١٥ ـ ١٩) .

فالذين اتقوا الله في الدنيا بطاعته واجتناب معاصيه هم في حدائق وعيون في الآخرة ، إنهم متمتعون بما أسبغه الله عليهم من الثواب والكرامة ، وسبب ذلك . ﴿ إنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ إنهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين لأعمالهم ، مراقبين الله فيها ، آتين بها على الوجه الذي يريده الله ، فلذلك كافأهم ربهم بالنعيم الأخروي .

ثم أخذ القرآن يصوّر إحسانهم بما صدر عنهم من عبادة ربهم ومن مساعدتهم للمعوزين :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ما يهجعون : « ما » زائدة للتأكيد ، والهجوع النوم القليل بالليل ، فهؤلاء كانوا لا ينامون إلّا قليلاً ، ويمضون أكثر الليل في ذِكْرِ الله والصلاة والعبادة ، وهذا ما يجعل مشاعرهم وأحاسيسهم مرهفة فاعلة للخير ، على عكس أولئك الذين يفرطون في

النوم ، أو الذين يفرطون في السهر على اللهو والملذات .

﴿ وَبِالأَسْحَار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ والأسحار : جمع سَحَر وهو آخر الليل وقبيل الصبح . فهؤلاء المحسنون كانوا في أواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم لذنوب اقترفوها . يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره : إنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير . والسَّحَر هو وقت يُرجى فيه إجابة الدعاء ، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال : « إن الله تعالى يَنْزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فيُعطى سُؤله حتى يطلع الفجر » .

ومن صفات هؤلاء المتقين : ﴿ وفي أَمْوَالهم حقٌّ للسَائِلِ والْمَحْرُوم ﴾ والسائل هو الذي يسأل الناس المال لفقره ، والمحروم هو الذي حُرِمَ المال ، أو المتعفّف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلم فقره وحاجته ، أو الذي أُصيب بكارثة طبيعية أو المحتاج العاطل عن العمل .

فالمحسنون أدركوا أن أموالهم ليست كلها ملكاً لهم ، بل إن فيها جزءاً لغيرهم من المحتاجين ، وهذا الجزء هو « حق » للمستحقين وليس منّة ، وَوَصَفَهُ القرآن في موضع آخر من هذه السورة بـ «حق معلوم » . وقد أطلق العلماء على هذا الحق اسم « الزكاة » مع العلم أن هذه السورة مكية ـ أي نزلت بمكة ـ والزكاة شُرِعت في المدينة ، ولا يمنع من إطلاق اسم الزكاة على هذا « الحق » فالزكاة في مكة كانت مطلقة القيود ، وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد وأريحيتهم وغير محدودة ، أما في المدينة فقد نزلت آيات أكّدت وجوبها وبينت مستحقيها ، كما بيّن النبي ﷺ مقادير الزكاة .

فالزكاة في نظر الإسلام هي « حق » قرره الله سبحانه ، فليس في التصدّق بالمال معنى التفضّل والمنَّة من الغني على الفقير ، وأي فئة غنيَّة تتمرَّد على أداء هذا الحق فإن من واجب إمام المسلمين أن يقاتلهم حتى يُؤَدوا حق الفقراء في أموالهم ، وهذا ما صرحت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ، وهذا ما فعله الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومن معه من صحابة رسول الله حين قاتلوا الممتنعين عن أداء الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ .

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك بعض الدلائل على وجود الله من خلال التأمل في الأرض .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنين ﴾(٢٠) .

أي إن في الأرض دلائل وعلامات تدل على وجود الله ووحدانيته وذلك بما تحتويه الأرض من نبات وحيوان وجبال وبحار وتربة وغير ذلك ﴿ للموقنين ﴾ واليقين هو العلم ، وإزاحة الشك ، وتحقيق الأمر ، فالمؤمنون أيقنوا بوجود الله الذين يعرفونه ببدائع صنعه[1] .

والجدير بالذكر أن الطريقة التي سلكها القرآن في الدلالة على وجود الله

---

(١) يقول الدكتور لورنس كولتون ووكر : « ... ولكي يدرك الإنسان روعة هذا العالم وما وراءه من جلال الحكمة والتدبير لا بد أن يدرسه وأن يتأمل ما يدور في الغابات والحقول ، عندئذٍ سوف يجد أن ما كان يعده طبيعياً ليس إلاّ إعجازاً إلّهياً يعلو فوق مستوى البشر وتعجز العقول عن إدراك كنهه ، وهنا لا سبيل إلاّ الإيمان بالله وقدرته وجلاله » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

ويقول الدكتور لستر جون زمرمان : « وكلما ازددتُ دراسة وتعمقاً في طبيعة التربة والنباتات ، ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجاباً وتقديساً (نفس المصدر) .

ولو أردنا استعراض ما على الأرض من حيوانات برية وبحرية وحشرات وما يكتنف حياتها من نظام وأسرار تشهد بوجود الله لاستلزم لذلك مجلدات كثيرة .

هي الطريقة التي يستدل بها العلماء الكونيون في العصر الحاضر على وجود الله ، فالقرآن في كثير من الآيات يوجه الأنظار إلى خلق السماء والأرض ، ويدعو إلى التأمل فيهما تأملاً يوصل الإنسان إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وقدرته العظيمة التي خلقت هذا الكون .

وإذ يوجّه القرآن الأنظار إلى خلق الأرض فهو أيضاً يوجّه الأنظار إلى خلق الإنسان وما يحتويه جسمه من عجائب تدل على عظمة القدرة الإلّهية ، قال تعالى :

﴿ وَفي أَنْفُسِكُم أَفلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢١) .

أي إن في أنفسكم ـ أيها الناس ـ آيات وعبراً تدلكم على وحدانية خالقكم ، وأنه لا إلّه لكم سواه ، أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه فتؤمنوا بوجود ربكم .

أية ناحية من نواحي الإنسان ليست مثار دهشة وعجب ؟ ! أليست أطواره في الرحم آية من آيات الله ؟! أليس نظام طعامه وشرابه وتحلل الطعام إلى عناصر مختلفة يذهب كل عنصر إلى حيث يؤدي وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد فيطرد إلى الخارج ، أليس في هذا النظام من أسرار الخلق الشيء الكثير ؟

أليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب إلى جميع أنحاء الجسم بواسطة الشرايين ، ثم عودته إلى القلب بواسطة الأوردة ، ومرور الهواء الجديد الذي جلبه التنفس ليصلح الدم وينقيه ، أليس ذلك من آيات الله ؟

عمَّ أحدثك بعد ؟ أأحدثك عن سمع الإنسان وبصره وما فيهما من أسرار

الخلقة ؟ أم أحدثك عن نُطقه وإحساسه وتفكيره ؟ أم أحدثك عما يعرض له من تذكر ونسيان وحزن وأحاسيس أخرى ؟ أم عن الغريزة الكامنة الكافلة لبقاء النوع الإنساني ؟ إن كل واحدة من تلك الأمور تدل على معجزة من معجزات الله في الخلق التي وقف الإنسان أمامها مبهوراً .

وبعد عرض الدلائل على وجود الله يبين القرآن مصدر رزق الإنسان .

﴿ وَفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ (٢٢ ، ٢٣) .

﴿ وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي في السماء سبب رزقكم وهو المطر فإنه سبب الأرزاق ، وقيل : أي عند الله في السماء رزقكم ، وقيل : وفي السماء تقدير رزقكم ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من خير أو شر ، وثواب أو عقاب .

ثم يقسم الله بنفسه أن ما يُوعدون به من الرزق والثواب والعقاب هو حق لا ريب فيه مثل نطقهم ، فكما أنكم أيها الناس لا تشكُّون في نطقكم حين تنطقون ، فكذلك يجب ألا تشكوا في ما وعدكم به ربكم .

وقد يسأل سائل : لـمَ اختص الله النطق من بين سائر حواس الإنسان وقدراته واعتبره آية على الحق الذي لا يمكن جحوده ؟ الجواب : أن النطق هو أظهر حواس الإنسان اعتماداً على إرادته ، بينما السمع والبصر والذوق والشم واللمس تحتاج إلى مؤثر خارجي .

وقد ذُكِرَ أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية الأخيرة فقال : يا سبحان الله من الذي أغضبه حتى حلف ، ألم يصدقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين ؟ يا ويح الناس !

ثم تأتي بعد ذلك الآيات التالية وفيها الكلام عن إبراهيم عليه السلام

واستضافته للملائكة الذين جاؤوه بالبشرى بولد سَيُرْزَقه :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْراهيمَ الْمُكْرَمينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْه فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّت وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قالوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ ﴾ (٢٤ ـ ٣٠) .

أي هل أتاك يا محمد حديث ضيوف إبراهيم الذين جاؤوه بالبشرى ؟ والاستفهام هنا يراد به التعجب والتشويق إلى تلك القصة التي يرويها القرآن الكريم . وضيف : يطلق على الواحد والجمع ، وقد كان ضيوف إبراهيم جماعة من الملائكة أتوا على صورة شبان حسان ملاح ، وقد وصفهم الله بـ ﴿ المكرَمين ﴾ لأنهم مكرمون عنده ، أو عند إبراهيم لما قام به من حسن الضيافة نحوهم . ﴿ فقالوا سَلاماً ﴾ لإبراهيم ، فأجابهم : ﴿ سلام قوم منكرون ﴾ أي سلام عليكم أيها القوم الغرباء ، قال ذلك لأنهم ليسوا من معارفه ، ويحتمل أنه قال : ـ (قوم غرباء) ـ في قرارة نفسه ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ فذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمينٍ ﴾ أي أتى لضيوفه بعجل سمين مشوي[1] ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِم قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي وضع العجل بين أيديهم داعياً إياهم إلى الأكل .

والآيات التي وصفت ضيافة إبراهيم لزوّاره انتظمت فيها آداب الضيافة ، فإن إبراهيم جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، ولم يمتن عليهم بقوله : سآتيكم بطعام بل جاء به خفية عنهم ، وأتى بأفضل ما وجد عنده وهو عجل سمين فقرَّبه إليهم ولم يضعه بعيداً ، ولم يأمرهم بالاقتراب منه بل

---

(١) جاء في القرآن في موضع آخر : (وجاءهم بعجل حنيذٍ) أي مشوي .

وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً بالأكل بما يشق على أسماعهم بل قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلونَ ﴾ دعوة منه إلى الطعام بلطف ، لأن ألا ، تأتي في اللغة للحث بلطف .

وطبعاً هؤلاء الملائكة لم تمتد أيديهم إلى الطعام لأن الملائكة لا يأكلون ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أحس إبراهيم في نفسه الخوف منهم عندما رأى إعراضهم عن الطعام ، وظنَّ أن امتناعهم عنه هو لشرٍّ يبيّتونه له ، وذلك أن أكل الضيف من طعام مضيفه فيه أمان واطمئنان للمضيف ودليل على انبساطه ، وقد لاحظ الضيوف آثار الخوف على إبراهيم فكشفوا له عن حقيقة أمرهم وقالوا له : ﴿ لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أي قالوا لإبراهيم : نحن ملائكة لا بشر فلا تخف منا فقد أَرسلنا ربك إلَيْك بما يسرك ، وَبَشّروه بولد سيرزقه وهو الذي سمّاه : إسحق ، ووصفه الله بصفة العلم ليزداد سرور أبيه ، والعلم أكمل صفة في بني الإنسان ، وإنما قال : ﴿ عليم ﴾ ولم يقل عالم ، لأنها صيغة مبالغة تدل على أنه سيكون راسخاً في العلم محيطاً بشرائع الله .

سمعت سارة زوجة إبراهيم هذه البشرى ففوجئت بهذا النبأ ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ ﴾ أي أقبلت زوجته نحو الضيوف في صيحة وضجة ، وكانت صيحتها من الدهشة ﴿ فَصَكَّتَ وَجْهَهَا ﴾أي ضربت وجهها بيدها على عادة النساء عند التعجب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد ، والعاقر لا تلد إما لمرض أو لكبر في السن . لقد صرخت سارة دهشة وضربت وجهها عجباً لأن الخبر جاء على غير ما ألفه البشر ، وغاب عن بالها أن هذه البشرى التي تحملها الملائكة هي بشارة من الله حيث لا مجال للعجب والدهشة ، وأن الله إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون ، ولذا قالت

لها الملائكة : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هو الحَكيمُ العَليمُ ﴾ فهو سبحانه الحكيم فيما يفعله ، العليم بمصالح خلقه ، وقد رُوِي أن سارة ولدت إسحق ولها من العمر تسع وتسعون سنة وإبراهيم له من العمر مائة سنة .

إطمأن إبراهيم عليه السلام لضيوفه عندما علم أنهم من الملائكة ، وسُرَّ للبشرى التي بشروه بها ، ولكن البشارة يكفي فيها ملك واحد فقط ، لذلك أدرك أنه لا بد أن يكون لهم أَمْرٌ أَهم من البشارة التي جاؤوا بها ، عندئذٍ سألهم عن المهمة التي جاؤوا لأجلها :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُم أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قالوا إِنّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ المؤْمِنِينَ . فما وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَتَرَكْنَا فيها آيَةً لِلَّذين يَخَافُونَ العَذَابَ الأَليمَ ﴾ (٣١ ـ ٣٧) .

كلمات قليلة أخّاذة تصف العذاب الذي أصاب الله به قوم لوط ، تقرع القلوب ، وتقشعر لهولها الجلود .

لقد ذكر الله قصة لوط في عدة سور من القرآن ، وذكرنا في سورة الطور ملخصاً لها ، وفي هذه السورة يبين الله نوع العذاب الذي أصابهم .

لقد قال إبراهيم لضيوفه الملائكة : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي ما شأنكم وقصتكم أيها المرسلون من عند الله ﴿ قالوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ والمجرمون هم المذنبون الذين عظمت جريمتهم ، وجريمة قوم لوط كانت : اللواط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ أي لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي لها علامة فارقة ، قيل : إنها كانت مخططة بسواد وبياض ، وقيل : هي حجارة معروفة بأنها حجارة العذاب

﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي معدَّة في علم الله لعذاب العصاة ﴿ للمسرفين ﴾ للمجاوزين الحد في الفجور .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ المؤْمِنين ﴾ أي لما أراد الله إهلاك قوم لوط أخرج من كان في المدينة من المؤمنين لئلاّ يهلكوا ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين ﴾ أي لم يكن في المدينة غير بيت واحد من المسلمين ، والمراد بهؤلاء المسلمين : لوط وابنتاه ، وقيل كانوا ثلاثة عشر من المؤمنين . ومعنى المسلمين : أي أنهم كانوا مصدّقين بقلوبهم ، ناطقين بألسنتهم بكلمة الإيمان ، مطيعين بجوارحهم ما جاء به لوط عن ربه من الهدى ، وكلمة المسلمين تطلق في القرآن الكريم على أتباع الأنبياء السابقين وأتباع محمد ﷺ وما من مؤمن إلاّ وهو مسلم .

﴿ وَتركْنَا فِيهَا آيَةً للّذين يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي وأبقينا في مكان قرى قوم لوط علامة دالة على نوع العذاب الذي أصابهم فيعتبر من كان عنده استعداد للاعتبار والخوف من عذاب الله .

والبحر الميت في الأردن هو الموضع الذي كان فيه قوم لوط ، وهو لم يكن موجوداً قبل إهلاك قوم لوط ، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي المدن سافلها وصارت الأرض أخفض من سطح البحر بنحو ٤٠٠ متر ، وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت[١] .

---

(١) قصص الأنبياء ، للأستاذ عبد الوهاب النجار .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ
وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ
وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ
مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ
تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ
يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ
نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا
بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾

شرح المفردات

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ : بحجة واضحة ، وهي المعجزات التي أيّد الله بها موسى .

برُكْنه : أي بما يعتمد عليه من الجيوش التي كان يتعزّز بها ويتقوى .

فَنَبَذْنَاهُمْ في اليَمِّ : فألقيناهم في البحر .

وَهُو مُليمٌ : وهو ملام لما به من الكفر .

الرِّيحَ العَقِيمَ : الريح المهلكة التي لا خير فيها ولا بركة .

مَا تَذَرُ من شيء أَتَتْ عَلَيْهِ : ما تترك شيئاً مرت عليه .

جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم : جعلته كالشيء البالي المفتت الهالك .

تَمَتَّعُوا حتى حِينٍ : تمتعوا بعيشكم إلى وقت انقضاء آجالكم .

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ : تكبّروا عن طاعة ربهم .

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ : فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء .

فَاسِقِينَ : خارجين عن طاعة الله .

بَنَيْنَاهَا بأَيْدٍ : بنيناها بقوة وقدرة .

وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا : مهّدناها وبسطناها للسكن والزرع .

فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ : فنعم المسوُّون المصلحون لها .

وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم
مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟
سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا
خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ
وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

شرح المفردات

لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ : كي تعتبروا وتتعظوا وتعلموا أن الله واحد لا شريك له .

فَفِرُّوا إلى الله : فالجأوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به واتباع أمره

نَذِيرٌ : مُنذر ومحذِّر من عذاب الله .

مُبِينٌ : واضح الرسالة بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة .

طَاغُونَ : متجاوزون الحد في الكفر والعصيان .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ : فأَعْرض عنهم .

فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ : أي لا لوم عليك لأنك أديت رسالة ربك .

وَذَكِّرْ : داوم على تذكير الناس ووعظهم بالقرآن .

لِيَعْبُدُونِ(١) : ليخضعوا لي .

ذَنُوباً : نصيباً من العذاب .

مِثْل ذَنُوب أَصْحَابِهِمْ : مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود .

---

(١) أصل الفعل ليعبدوني حذفت الياء لمراعاة (الفواصل) وهي أواخر الآيات .

تَابع سُورَةِ الذّارِيَاتُ

ثم ينتقل القرآن ، بعد ذلك ، فيذكر بإيجاز ما حل بفرعون وقومه جزاء إعراضهم عن هدى الله وتكذيبهم برسالة نبيهم موسى ، هذا مع العلم أن قصة موسى مع فرعون هي أكبر قصص القرآن وهنا يشير القرآن إلى هلاكهم بسبب تكذيبهم رسالة موسى ، وهكذا سيكون مصير كفار مكة إن استمروا على تكذيبهم لرسالة محمد ﷺ : يقول تعالى :

﴿ وَفي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَو مَجْنونٌ . فَأَخَـذْنَاهُ وَجُنُـودَهُ فَنَبَذْنَـاهُمْ في اليَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٣٨ - ٤٠) .

أي في قصة موسى عظة وعبرة حين أرسله الله بالهدى إلى فرعون . وفرعون هو : منفتاح بن رعمسيس الثاني . ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة وبرهان ظاهر يشهد بنبوته ، وهي معجزة العصا التي انقلبت حية لتبتلع كل ما صنعه سحرة فرعون وكذلك معجزات أخرى أيده الله بها . ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾[1] أي أعرض عن الإيمان مع قومه الذين كان يتقوى بهم ويعتمد عليهم وهم جنوده ، ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ ﴾ وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه ، لا شكاً في صدق نبوة موسى ، فإن ما رآه فرعون من المعجزات لا يتحقق على يد ساحر أو يفعله من به مسٌّ من جنون .

ثم يبين القرآن نتيجة كفره مع جنوده : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في اليَمِّ ﴾ أي أمسكناه وجنوده بحيث لا يمكنهم الخلاص وطرحناهم في البحر ليهلكوا غرقاً ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ وهو مستحق اللوم لما عليه من كفر وطغيان .

وذلك أن موسى لما ضرب البحر بعصاه كما أمره الله انشق الماء وصار

(١) بركنه : ركن الشيء جانبه الذي يسكن إليه وقد استعير هنا لمعنى القوة .

فيه اثنا عشر طريقاً يبساً ، ووقف الماء على جوانبها كالجبل العالي ، فسار بنو إسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر هرباً من فرعون وجنوده ، ولحق بهم فرعون وجنوده ، فلما رأوا الطرق المفتحة لموسى وقومه ساروا خلفهم فانطبق الماء عليهم وغرقوا جميعاً ، ونجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل وذلك باجتيازهم البحر ووصولهم إلى اليابسة .

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما حلّ بقوم عاد وثمود وقوم نوح من الهلاك جزاء كفرهم :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (٤١ ـ ٤٦) .

أي وفي قصة قوم عاد عبرة وعظة لمن تأمّل فيها حين أرسل الله عليهم الريح ﴿ العَقيم ﴾ تلك الريح الخالية من كل منفعة ، فهي لا تسوق سحاباً ممطراً ، ولا تلقح شجراً فهي كالمرأة العقيم التي لا تنجب . وهي ريح عقيم بمعنى أنها مهلكة مدمرة قاطعة للحرث والنسل وكل خير يملكونه ، وهذه الريح ما تترك من شيء مرت عليه إلاّ جعلته ﴿ كالرَّميم ﴾ أي كالشيء الهالك المتفتت البالي .

وفي قصة قوم ثمود أيضاً عظة وعبرة ، إذ قيل لهم تهديداً ـ بعد نحرهم الناقة التي نهاهم الله أن يمسوها بسوء ـ : ﴿ تَمَتَّعوا حَتَّى حِينٍ ﴾ أي عيشوا متمتعين بلهوكم وغيكم إلى الوقت الذي قَدَّرَهُ الله لهلاككم ، هذا وقد كانت مدة تمتعهم ثلاثة أيام ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي تكبّروا عن امتثال أوامر الله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي أخذتهم صيحة جبريل المهلكة :

إنها صيحة العذاب ، وهم يشاهدونها لأنها جاءتهم في وضح النهار ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ﴾ فما قدروا عند نزول العذاب من الهرب ولا النهوض من أماكنهم من شدة الصيحة ﴿ وَمَا كانوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ وما كان لهم ناصر ينجيهم من العذاب الذي حلّ بهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي وقوم نوح أهلكهم الله قبل قوم عاد وثمود إنهم كانوا قوماً فاسقين . والفسق : هو الخروج عن طاعة الله فيشمل الكفر والمعصية واقتراف الرذائل ، وفي تعليل الإهلاك بالفسق دليل على أن المعاصي سبب في استئصال أصحابها والقضاء عليهم ، كما أن في إهلاك الفسقة تطهير الأرض منهم كما يُطهَّر الجسم باستئصال العضو الفاسد ، والقرآن يذكر أن هلاكهم كان بالطوفان ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِين ﴾ الأنبياء : ٧٦ .

وبعد أن بيَّن القرآن سُنَّة الله بإهلاك الأمم الظالمة الفاسدة ، وجّه الأنظار إلى التأمل في خلق السماء والأرض مما يشهد بوجود الله وعظمته :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[1] . والأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٧ ـ ٤٩) .

يبيّن الله تعالى للناس نماذج عن قدرته العظيمة وإبداعه في هذا

---

(١) إذا رجعنا إلى أصول اللغة وجدنا (أوسع) تأتي بالمعاني التالية :
أولاً : **أوسع الشيء ووسعه** : جعله واسعاً .
ثانياً : **انطلق الجمل وأوسع** : انطلق الجمل مبعداً في سيره .
ثالثاً : **اتسع النهار** : امتد وطال . وبناء على هذه المعاني لفعل « أوسع » يمكننا أن نقول إن الآية الكريمة : ﴿ **والسماء بنيناها بأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون** ﴾ يفهم منها معنيان اثنان : أولاً أن الله تعالى خلق السماء حين خلقها واسعة ، وهذا المعنى هو الذي فهمه الأوائل . ثانياً : أن الله خلق السماء حين خلقها واسعة وأنها تمتد وتتسع وتزيد .

الكون ، فيبدأ بذكر خلقه للسماء . ﴿ والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أي أوجدناها محكمة متقنة متماسكة كما يتماسك البناء المحكم ﴿ بأَيْدٍ ﴾ أي بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُون ﴾ أي إن الله جعل السماء واسعة ، أو بمعنى أنه سبحانه لموسع في خلق السماء ، وهذا ما سنوضحه فيما بعد في التفسير العلمي .

ثم يذكر سبحانه خلقه للأرض ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ أي بسطناها ومهدناها ، ولا ينافي ذلك كرويتها لأن كل بقعة منها ممهدة يسكنها جماعة فوق سطحها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أي فنعم الخالق المبدع الذي هيأ الأرض وسوّاها صالحة للسكن .

وأخيراً يذكر سبحانه مظهراً من مظاهر قدرته ينفي قيام الكون على الصدفة العمياء : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْن ﴾ أي من كل شيء خلقنا صنفين مزدوجين كالذكر والأنثى ، والليل والنهار ، والسالب والموجب ، وغير ذلك مما سنوضحه فيما بعد في التفسير العلمي . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذكَّرونَ ﴾ أي لكي تتذكروا عظمة الله فتتعظوا وتؤمنوا بوجوده ووحدانيته .

وبعد أن عرض القرآن مظهراً من قدرة الله وعظمته في خلق السماء والأرض أمر بالمسارعة إلى طاعة الله واللجوء إليه وحده :

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ. وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠ ـ ٥١) .

فالفرار هو الهرب ، ويكون عادة من الخطر الداهم ، والخطر الذي يتربص بالناس هو الكفر والعصيان وغفلتهم عن ربهم ،فالفرار يكون بالهرب من العصيان والذنوب والالتجاء إلى الله والعودة إليه بالتوبة والطاعة والعبادة .

وفي الفرار إلى الله لذة روحية يستشعرها كل من اتصل قلبه بالله عز وجل ، فمتطلبات الحياة تجعل الإنسان في دوامة من التعب والإرهاق والهم والقلق ، ففي الفرار إلى الله تخلّص من هذه الأثقال والهموم ، والاتصال بخالق السماء والأرض ، مصدر الرزق ، ومصدر الخير ، ومصدر السعادة للإنسان .

فالفرار إلى الله هو أعمق تعبير يُجَسِّد الاتصال بالله اتصالاً يقوم على الإيمان والشوق والحب للخالق . فما أجدر بالإنسان في رحلة العمر أن يفرّ إلى الله الفينة بعد الفينة ، ويعيش في ملكوت الله مسبحاً بحمده ، شاكراً لأنعمه ، مستغفراً لذنبه مما يسبغ على النفس سعادة وطمأنينة ، ولذة لا تقاس بلذات الحياة الدنيا .

﴿ إنّي لَكُمْ منه نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي قل لهم يا محمد إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم من انتقامه بالحجة الظاهرة والبرهان القاطع .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ ﴾ فهذه الآية تنهى الناس أن يُشركوا مع الله معبوداً آخر ، ويخطىء بعض الناس حين يتصورون أن هذا المعبود الآخر لا يكون إلّا صنماً من الحجارة ، في حين أن المعبود الآخر قد يكون المال ، وفي هذا يقول النبي ﷺ : « تعس عبدِ الدينار والدرهم »[1] . وقد يكون المعبود من دون الله : ملكاً أو زعيماً أو رجل دين ، وفي هذا المعنى يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ آل عمران : ٦٤ . وقد يكون المعبود من دون الله هوى الشخص ورغباته الجامحة ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مِن اتَّخذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ الجاثية : ٢٣ . ﴿ إني لكم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ كررها القرآن زيادة في النصح وتحذيراً من عواقب

(١) رواه البخاري .

الإشراك بالله .

ثم تنتقل بنا آيات القرآن حاملة العزاء للنبي ﷺ بسبب موقف العداء من قومه موضحة له أن هذا الموقف ينطبق على سائر الأمم مع أنبيائهم :

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ . وَذَكِّرْ فإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٢ ـ ٥٥) .

فالله يخبر نبيه بأن شأن الأمم مع أنبيائهم في الإنكار والإيذاء والجحود مثل شأن أمته معه ، ما أتى الذين من قبلهم من الأمم من رسول من عند الله إلاّ قالوا : ساحر أو مجنون ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم ، أي هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب ، ووصف كل رسول بأنه ساحر أو مجنون ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي ما أوصاهم أحد بذلك بل جمعتهم صفة الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في العصيان .

﴿ فَتَوَلَّ عَنهُم ﴾ أي أعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين بالله وكُفَّ عن جدالهم حتى يأتي أمر الله فيهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ فليس عليك ملامة عند الله بعد إنذارك إياهم لأنك قد أديت ما عليك وبلّغتَ رسالة ربك .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤْمِنين ﴾ أي عظ يا محمد بالقرآن مَنْ آمن مِنْ قومك فإن الذكرى تنفع فريقاً معيناً هم المؤمنون، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالوعظ . وهذه الآية هي موجهة في الوقت نفسه إلى كل داعية إلى الله كي يواظب على الوعظ والتذكير بهدى الله ؛ وأن لا يقول قد بُحَّ صوتي ولا من مجيب ، فإن دعوة الحق لا بد أن تجد آذاناً صاغية ولو بعد حين ، وأن الحق لا بدّ له في النهاية أن يقتلع الباطل من أساسه .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الغرض والهدف من خلق الله للإنس والجن :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) .

فالقرآن يبين الغاية من خلق الناس والجن ألا وهي : عبادة الله . وعبادة الله من أسس الإسلام جاء في الدعوة إليها كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية . ومظهر العبادة الأول هو الصلاة التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة ، وهناك مظاهر أخرى للعبادة وهي : الصوم والحج والزكاة والتي أُطْلِقَ عليها جميعاً اسم العبادات ؛ وهي تشكل مع الشهادتين ـ الشهادة بألوهية الله وحده ، والشهادة بنبوة محمد ﷺ ـ الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام . ولأهمية العبادة يحسن بنا أن نقف قليلاً عندها لنستعرض بعض معانيها ومظاهرها استعراضاً موجزاً .

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة رأينا معنى عبادة الله : الخضوع والتذلل لله والتنسك له ، مع طاعته والانقياد لأمره .

فالله سبحانه حين يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي ما خلقتهم إلّا لآمرهم أن يعبدوني ، وأدعوهم إلى عبادتي . ويقول بعض المفسرين : ما خلقتهم إلا ليعرفوني ، ومن عرف الله عرف استحقاقه للحب والتعظيم والحمد والثناء والشكر ، ومن عرف الله وعظمته وجه قوى النفس إلى البرّ والخير ، وكفها عن الإثم والشر .

فغاية الخلق هي العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية في القرآن والسنة النبوية تدعو إلى عبادة الله ، وما من شك في أن الله لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة فهو سبحانه الرزاق المعطي بلا حدود ، وهو الغني عن عباده ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ .

وما كانت العبادة إلّا لأجل تكميل الإنسان ، فمن فضل الله على عباده

أنه فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه فضلاً من الله ورحمة .

فالإسلام حين أمر بعبادة الله فإنه كان يرمي إلى تحرير الإنسان من عبودية الإنسان التي لازمته السنين الطوال : من ملوك الأرض المستبدين ، وزعمائها الطاغين ، ورؤساء الدين المتألهين ، كما أراد الإسلام أن ينزع من ذهن الإنسان الاعتقاد بأن هؤلاء من عنصر أفضل ، وأن بيدهم النفع والضر .

والمتمعن في القرآن والسنة يرى أن للعبادة مستلزمات شتى ، منها :

عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، جاء في القرآن : ﴿ واعْبُدوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ النساء : ٣٦ .

« وعن معاذ بن جبل قال : كنت رِدْفَ[١] النبي ﷺ فقال : يا معاذ ، أتدري ما حق الله على عباده ، وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الله على العباد ، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يُعذب من لا يشرك به شيئاً »[٢] .

وهذا الحق باقٍ ما بقي الإنسان على ظهر الأرض ، ولهذا يقول تعالى :

﴿ واعْبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقين ﴾ الحجر : ٩٩ . واليقين هو الموت .

ومن مستلزمات العبادة : الشكر لله ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ وَاشْكُرُوا لله إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدون ﴾ البقرة : ١٧٢ . وقال سبحانه : ﴿ بَل اللَّهَ فاعْبُد وَكُنْ مِنَ الشّاكِرين ﴾ الزمر : ٦٦ .

ومعنى الشكر لله : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده الإنسان ثناء على

---

(١) رِدْفَ : راكباً خلفه .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

ربه ، واعترافاً له بنعمه عليه ، وأن يكون قلب الإنسان مملوءاً محبة لله على هذه النعم ، وشهوداً منه بأنها من الله فضل وإحسان ، وتكون جوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلاماً له وانقياداً .

وقد كان رسول الله محمد ﷺ أشد الناس عبادة لربه ، وأكثر الشاكرين له فقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل (أي بالعبادة) حتى تتفطر(١) قدماه ، فقلت له : لِمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »(٢) .

« هذا ولقد أراد الإسلام أن يصيّر الحياة ـ في شكلها وجوهرها ـ إلى عبادة ، وليس معنى ذلك أن كل إنسان يلزمه أن يعتكف في المسجد عابداً ، وإنما معنى ذلك أن كل ما يأتيه الإنسان ، وكل عمل يتركه الإنسان يجب أن يتوفر فيه أمران :

الأول : أن يصدر في العمل ، أو في الترك قرآن أو سنة .

الثاني : أن يريد بعمله أو بتركه وجه الله .

فإذا كان الأمر كذلك كان عبادة »(٣) .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ البيّنة : ٥ . والإخلاص لله أن يأتي الإنسان بالأعمال لا يشوبها رياء قاصداً بذلك وجه الله ورضاه .

ويقول النبي ﷺ : « إنَّما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرىءٍ مَا نَوَى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه »(٤) .

---

(١) تتفطر : تتشقق .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) الإسلام والإيمان للدكتور عبد الحليم محمود .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

فإرادة الإِنسان بعمله وجه الله يجعل منه عبادة يؤجر عليها ويُثاب .

والحديث التالي له مغزاه العميق في الدلالة على ما نريد إيضاحه :

فقد رُوي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن ناساً قالوا يا رسول الله : « ذهب أهل الدثور[١] بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بُضع أحدكم[٢] صدقة ، قالوا يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وِزْر ؟ فكذلك ، إذا وضعها في الحلال كان له أجر »[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سُلامى[٤] من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعة صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة »[٥] .

فالعبادة عنصر من عناصر شخصية المسلم ، فهي التي تذكره بالله ، والتذكير بالله يعمر القلب بعظمته سبحانه ، وإذا عمر القلب بعظمته وجّه قوى النفس إلى البرّ والخير وكفها عن الإثم والشر ، بالإضافة إلى ذلك فإن العبادة تُضفي طمأنينة على النفس وتُبعد عنها الهمّ والقلق .

---

(١) أهل الدثور : أهل الثراء .
(٢) وفي بضع أحدكم : وفي شهوة أحدكم .
(٣) رواه الإمام مسلم .
(٤) سُلامى : عظام الأصابع ، وقيل كل عظم في البدن .
(٥) رواه البخاري ومسلم .

وبعد أن بين القرآن الغاية من خلق الإنس والجن أتبع ذلك بقوله :

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٥٧ ـ ٥٨) .

فالله تعالى يقول : ما أريد من الإنس والجن من رزق لأني غني عن العالمين ، وما أريد أَن يطعموني لأني أُطعِمُ ولا أُطعَم . فالله سبحانه هو وحده المتكفل برزق عباده ، وهو ذو القدرة الباهرة ، شديد القوة لا يطرأ عليه عجز ولا ضعف .

فعلى الناس أن يعملوا ويسعوا في الأرض لطلب الرزق ، ويأملوا من الله الرزق والعطاء ، وأن لا يَذلّوا لمخلوق في طلب الرزق لأن الرزق بيد الله لا بيد العباد .

ثم يختم الله هذه السورة بإطلاق وعيد للكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ :

﴿ فَإِنَّ لِلَّذين ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ . فَوَيْلٌ للذينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الّذي يُوعَدُونَ ﴾ (٥٩ ـ ٦٠) .

ومعنى ذنوباً : أي نصيباً من العذاب ، أي إن للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم في الكفر من الأمم الماضية ، فلا يستعجلون عذاب الله قبل أوانه فإنه واقع بهم لا محالة عاجلاً أو آجلاً ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذين كَفَروا ﴾ أي هلاك للذين كفروا ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدون ﴾ قيل إن هذا اليوم الذي يوعدون به بالعذاب والهلاك هو يوم القيامة ، وقيل هو يوم معركة بدر الذي قتل فيه الكثير منهم .

التفسير العلمي

الزوجية في كل شيء :

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴾ الإعجاز العلمي في هذه الآية هو إثبات الزوجية في كل شيء في هذا الكون .

فمن المعروف قديماً أن الزوجية هي أساس في كيان النبات والحيوان . وهذا ما صرح به القرآن حين قال عن النبات : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم ﴾ الشعراء : ٧ . وقال عن الإنسان والحيوان : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾

أما ما ذهب إليه القرآن من إثبات الزوجية لكل شيء ، فإن هذا مما لم يقل به بشر قبل أربعة عشر قرناً عهد نزول القرآن . فإذا نظرنا إلى الكهرباء التي اكتشفت بعد مجيء القرآن بقرون كثيرة رأيناها تحتوي على سالب وموجب وباتحادهما يتولد التيار الكهربائي .

ولننتقل إلى الذرَّة ، أصغر جزء في عنصر ما ، فقد اكتشف العلماء بأنها تحوي قلباً صغيراً يسمى (النواة الذرية) يحيط بها عدد من الجسيمات الخفيفة جداً تسمى (الالكترونات) ، وهذه تحمل شحنة كهربائية سالبة ، أما النوى فتحمل شحنة كهربائية موجبة .

وهناك أمرٌ أبعد من هذا فقد استنتج رجال الطبيعة من تجارب أجروها في معاملهم : أن النواة الذرية نفسها مؤلفة من أجزاء أصغر ، فوجدوا وحدتين أساسيتين من وحدات البناء في نواة الذرة : إحداهما نواة ذرة الهيدروجين وقد أطلق عليها رجال الطبيعة اسماً خاصاً هو « البروتون » يقابله وحدة البناء الثانية التي اكتشفها في عام **١٩٣٢** العالم الانجليزي السير جيمس تشادويك وتسمى : « النيوترون » .

سعة الكون وتمدده :

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

الإعجاز العلمي في هذه الآية هو قوله تعالى عن السماء : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ يمكن أن نفهم من معنى (لموسعون) استناداً إلى اللغة معنيين : المعنى الأول اننا موسعوها منذ البداية أي عند خلقها . والمعنى الثاني : اننا موسعوها بعد خلقها أي نجعلها تتسع .

فمن ناحية المعنى الأول نرى أينشتين يتخيل سعة هذا الكون بأن يتسع لبلايين من السدم[1] وكل سديم منها يحتوي على مئات الملايين من النجوم الملتهبة[2] .

ومن ناحية المعنى الثاني فهذا تؤيده نظرية تمدد الكون التي ينادي بها علماء الفلك حديثاً . فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركات السدم الخارجية ، حركات نظامية ، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو « الجزر الكونية » تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية ، بل إنها تتباعد عن بعضها البعض ، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ، ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها .

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد منهم الدكتور هابل Habble رائد الباحثين في السدم ، فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد وهي : أنها أميل إلى الإدبار عنا منها إلى الإقبال ، كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية .

---

(١) السُّدُم : مجموعة هائلة من النجوم .

(٢) عن كتاب (العالم واينشتين) .

سُورَةُ الطُّورِ

مكية ، وآياتها تسع وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ
ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ
ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ
يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى
كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا

شرح المفردات

والطُّور : الواو للقسم ، الطور : جبل في سيناء كلَّم الله عنده نبيه موسى .

كتَابٍ مَسْطُورٍ : مكتوب على وجه الانتظام ، قيل المراد به القرآن ، أو الكتب السماوية

رَقٍّ : ما يُكتب فيه جلداً كان أو صحيفة أو غير ذلك .

منشُورٍ : مبسوط غير مختوم ، وفي متناول كل أحد .

البَيْت الْمَعْمُور : الكعبة المعمورة بالوافدين إليها من الحجاج .

السَّقْفِ الْمَرْفُوع : السماء المرفوعة بقدرة الله تعالى .

البحْرِ الْمَسْجور : البحر المملوء بالماء .

تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً : تتحرك حول نفسها وتضطرب اضطراباً شديداً .

خَوْضٍ : إندفاع في الأباطيل والأكاذيب .

يُدَعُّونَ : يُدفعون .

إصْلَوْهَا : أُدخلوها وقاسوا حرّها .

فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ
رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ
عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ
وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾
* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ
﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ
إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

شرح المفردات

فاكهين : ناعمين متلذذين .

بِمَا آتاهُم رَبُّهُم : بما أعطاهم ربهم .

وَزَوَّجْناهُم بِحُورٍ عِينٍ : قرناهم بنساء بيض يمتزن باتساع العيون وجمالها .

مَا أَلَتْناهُم مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شَيْءٍ : ما نقصناهم من ثواب أعمالهم شيئاً .

كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ : كل إنسان مُرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره .

يَتَنَازَعُونَ : يتناولها بعضهم من البعض الآخر .

لا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ : لا كلام ساقط في أثناء شربها ، ولا فعل يوجب الإثم .

لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ : لؤلؤ مستور مصون في أصدافه .

مُشْفِقِينَ : خائفين من الله تعالى .

عَذَابَ السَّمُومِ : عذاب النار .

البَرُّ : المحسن العطوف .

سُورَةُ الطُّور

ايضـــاح و دروس

هذه السورة في مجملها بيان لحال المؤمنين في الآخرة ، وما هم عليه من نعيم ، وبيان لحال الكافرين يومئذٍ ، وما هم عليه من عذاب .

وهذه السورة تشتمل على تحدٍّ للمنكرين لرسالة النبي ﷺ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم بأن القرآن ليس وحياً من عند الله .

كما أن هذه السورة تُسفّه كثيراً من آراء الكافرين الفاسدة ، ومزاعمهم الباطلة ، وتقدم دليلاً منطقياً على وجود الله يخرس الألسنة ، ويبهر العقول .

إستهل الله هذه السورة بالقسم بخمسة أمور فيها دلالة على عظيم قدرته ، وبديع صنعه ، لتأكيد وقوع العذاب بالكافرين يوم البعث والجزاء .

ووقوع القسَم في مستهل السورة له أثره النفسي في إثارة الانتباه والتأثير على المستمع . يقول تعالى :

﴿ وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . في رَقٍّ مَنْشُورٍ . وَالبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دافعٍ ﴾ (١ ـ ٨) .

﴿ وَالطُّورِ ﴾ الواو للقسم . الطور : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وآتاه التوراة ، ويسمى طور سيناء ، وموقعه في مصر بين خليج السويس وخليج العقبة . والله يقسم بالطور تعظيماً له وبياناً لأهميته ، وإشعاراً بأن الإسلام ليس ديناً جديداً ، بل هو دين متمم للأديان

السماوية السابقة ، ومصحح لما طرأ عليها من تحريف وتبديل .

﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أي وأقسم بكتاب مكتوب على وجه الانتظام بسطور مصفوفة . وقد اختلف في المراد (بالكتاب المسطور) ، فقيل إنه القرآن ، وقيل إنه التوراة التي أُنزلت على موسى ، وقيل إنه كتاب أعمال الإنسان يأخذه بيمينه يوم القيامة أو بشماله حسب ما يُقدّم فيه المرء من حسنات أو سيئات .

﴿ في رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ الرق هو الجلد الرقيق المبسوط الذي يكتب فيه ، وقد كان الرق قديماً يستعمل للكتابة قبل أن يكتشف الورق الذي يستعمله العالم في أيامنا هذه ، ﴿ منشور ﴾ أي مبسوط غير مختوم ، أو بمعنى المنتشر ، والمراد أنه في متناول كل من يُريد قراءاته .

﴿ وَالبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ الكعبة المشرَّفة ، وهذا البيت يعمره الله بالوافدين إليه من الحجَّاج ليلاً نهاراً في كافة أيام السنة . وقيل إن المراد بالبيت المعمور بيت في السماء حيال الكعبة « أي بمحاذاتها » يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الملائكة يطوفون به كما يطوف الحجيج بالكعبة ثم يخرجون فلا يعودون إليه ، وفي هذا إشارة إلى كثرة ملائكة الله الذين يُسبِّحُون بحمد ربهم .

﴿ والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ هو السماء باعتبارها سقفاً للأرض ، والقسم بها فيه لفت للنظر إلى عظمة مبدعها ، وقدرته المسيطرة على هذا الكون ، وقد جاء في القرآن : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً ﴾ الأنبياء : ٣٢ .

﴿ وَالبَحْرِ المَسْجُورِ ﴾ هو البحر المملوء بالمياه ، والبحر هو مصدر الماء العذب الذي ينزل من السحاب بعد تبخره منه ، وبه حياة الكائنات النباتية والحيوانية جميعها ، وبدون الماء لا حياة على الأرض ، فالقسَم

بالبحر فيه لفت للأنظار إلى قدرة الله العظيمة ، وتذكير بفضله على الكائنات الحية . ويأتي المسجور بمعنى المضرم بالنار ويكون ذلك يوم القيامة .

هذه الأمور الخمسة المقسم بها يراد منها بيان قدرة الله تعالى ، وإثارة الخشوع له وتنبيه الأسماع إلى الأمر الهام المقسم به وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ أي إن عذاب الله كائن لا محالة في الآخرة ولا مهرب منه ، وهو واقع على من يستحقه ، لا دافع يدفعه عنه إذا وقع ولا مردّ له .

ثم يتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القيامة ، وما يحدث فيها من تغييرات في الكون إعلاناً بانتهاء الحياة الدنيا ، وانتقالاً إلى عالم آخر مع بيان المصير السيِّىء الذي ينتظر الكفار المكذبين بالإسلام :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الجِبالُ سَيْراً . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ . إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٩ ـ ١٦) .

فالسماء تمور موراً أي تتحرك وتدور دوراناً حول نفسها ، ويموج بعضها في بعض ﴿ وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً ﴾ أي تقتلع وتنتقل من أماكنها ثم تقع على الأرض مفتتة[١] ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي الويل والهلاك يومذاك للمكذبين بالبعث ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ[٢] يَلْعَبُونَ ﴾ أي الذين كانوا يخوضون في الكلام عن محمد بالتكذيب والاستهزاء وهم في باطلهم يلهون

(١) جاء في القرآن عن مصير الجبال يوم القيامة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُل يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ .
(٢) الخوض : في أصل اللغة الدخول في كل شيء ثم غلب استعماله في الدخول في الباطل .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي يوم القيامة يُدفع المكذّبون إلى نار جهنم بعنف وشدة ، فإذا دنوا منها قالت لهم الملائكة المولّجون بعذاب الكفرة على سبيل التوبيخ والتقريع : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم يُقال لهم زيادة في التوبيخ : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُم لا تُبْصِرُونَ ﴾ أي أهذا الذي ترونه من النار سحر خادع كما كنتم تسمون القرآن أم أنتم اليوم عُمي كما كنتم عمياً عن رؤ ية الصواب في الدنيا ، ﴿ إِصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوا النار وقاسوا حرّها ﴿ فَاصْبِرُوا أو لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فصبركم على عذابها أو عدم صبركم سيّان في عدم النفع لكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ إنكم ستُعاقبون بسبب ما عملتم في دنياكم من السيئات .

وبعد أن بيَّن القرآن حال الكافرين ومصيرهم السيِّىء يوم القيامة ، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين ونعيمهم في الآخرة :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ (١٧ ـ ٢٠) .

فالمتقون الذين آمنوا بالله ، وبما جاء من عند الله على لسان رسوله محمد ﷺ وامتثلوا أوامر الله ، واجتنبوا نواهيه هم ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ أي في بساتين ونعيم، بما يتمتعون به من مأكل ومشرب وملبس . ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أي عندهم فاكهة كثيرة ، أو بمعنى : مسرورين مغتبطين ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ بما أعطاهم ربهم من صنوف النعيم والفاكهة ﴿ وَوَقَاهُم رَبُّهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ وجنبهم ربهم عقابه الذي عذّب به أهل الجحيم ، وهذا مبعث لاغتباط عظيم لهم ، ثم يُقال لهم : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ أي كلوا واشربوا هنيئاً بدون تنغيص ولا كدر ، إن ذلك النعيم هو

ثواب ما كنتم تعملون في الدنيا من أعمال صالحة ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ فهم جالسون جلسة مريحة مسندين ظهورهم على سرر(١) جُعِلَتْ صفوفاً ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي جعل الله لهم أزواجاً من حور عين ، والحور : جمع حوراء ، وتطلق على المرأة البيضاء ، وعلى المرأة الشديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة ، وعِين : جمع عيناء ، وهي ذات العينين الواسعتين في حسن وجمال .

ثم يذكر القرآن الكريم ما خصَّ الله به المؤمنين في الآخرة من نعيم ، وهو جمعهم مع ذريتهم على صعيد واحد في الجنة لتقر أعينهم بهم ، ولكن شرط أن تشاركهم ذريتهم في الإيمان والعمل الصالح :

﴿ والَّذِينَ آمنوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شيءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢١) .

أي والذين آمنوا واستحقوا درجات عالية في الجنة بسبب أعمالهم الصالحة ، وشاركتهم ذريتهم في الإيمان ، ولكنهم كانوا دونهم في العمل الصالح ، ولم يبلغوا درجات الآباء في الثواب ، ألحقهم الله بآبائهم لتقرّ أعين الآباء بهم ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم ﴾ أي وما أنقص الله الآباء شيئاً من ثواب أعمالهم ، ولا يحمل الآباء شيئاً من أخطاء ذريتهم ﴿ كُلُّ امْرِىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً .

ويتابع القرآن ذكر ما خص الله به المؤمنين من نعيم أيضاً :

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . يَتَنَازَعُون فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا

---

(١) سرر : جمع سرير وهو الذي يُجلس عليه أو يضطجع عليه

وَلَا تَأْثِيمٌ . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّه هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾
(٢٢ ـ ٢٨) .

وأعطى الله المؤمنين زيادة على ما سلف فاكهة ولحماً من الأصناف التي تشتهيها نفوسهم وهم ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي يتعاطون كؤوس الشراب ويتداولونها فيما بينهم ، والكأس هو الإناء المملوء بالخمر . وهذه الكؤوس ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي لا يصاحب شُربها قول باطل ﴿ وَلَا تَأْثِيم ﴾ ولا فعل آثم يشين صاحبه ، وقد أعطى الله هذا الوصف للخمر في الآخرة احترازاً عن مواصفاتها في الدنيا حيث هي من فعل الشيطان ، وتفضي بشاربها إلى قول اللغو وفِعل الإثم .

ويطوف على المؤمنين بالكؤوس والفواكه واللحوم ﴿ غِلْمَانٌ لَهُم كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ أي خدم في مقتبل العمر صِباح الوجوه ، وهم في حسنهم كاللؤلؤ المخبوء في أصدافه من حيث البياض والصفاء . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي أخذ المؤمنون يسألون بعضهم بعضاً عن سبب هذا النعيم الذي أَغدقه الله عليهم ، ويأتي جواب المؤمنين : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا ﴾ أي كنا في الحياة الدنيا بين أهلينا ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله ، ويحتمل أن تكون مشفقين من الشفقة وهي الرفق والرحمة أي نرفق بأهلنا وغيرهم ، والشفيق : الناصح الحريص على صلاح المنصوح . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فتفضّل الله علينا بعطائه هذا ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ أي صرف عنا عذاب النار ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي كنا في الدنيا نوحّده ونخلص له العبادة والدعاء ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ إنه العطوف على عباده ، المحسن إليهم ، العظيم الرحمة بهم .

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟
فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ
مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ
أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم
بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا

شرح المفردات

فَذَكِّرْ : أي فَذَكِّر يا محمد بالقرآن قومك ، وعِظهم به .

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ : بإنعام الله عليك بالنبوة .

بِكَاهِنٍ : هو الذي يخبر بالغيب اعتماداً على الظن عند العرب في الجاهلية .

نَتَرَبَّصُ : ننتظر .

رَيْبَ الْمَنُونِ : حوادث الدهر المؤدية إلى الموت .

أَحْلَامُهُم : عقولهم .

طَاغُونَ : متجاوزون الحد في العناد والكفر .

تَقَوَّلَهُ : إختلق القرآن وافتراه من عند نفسه .

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ : فليأتوا بكلام مماثل للقرآن .

خَزَائِنُ رَبِّكَ : خزائن رزقه ورحمته .

الْمُصَيْطِرونَ : المسلَّطون الجبّارون ، أو الأرباب .

سُلَّمٌ : مرقى إلى السماء يصعدون به (درج) .

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ : بحجة واضحة .

فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾
أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ
سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا
يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي
فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ
يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ
حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

شرح المفردات

مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونِ : منْ غرامة مالية تُثقل كاهلهم .

يُرِيدُون كَيْداً : يريدون بك المكر وتدبير السوء ليهلكوك .

الْمَكيدُونَ : المعاقبون بكيدهم ومكرهم .

كسفاً : قطعاً .

سَحَابٌ مَرْكُومٌ : سحاب متراكم بعضه فوق بعض .

يُصعَقُونَ : يموتون .

لا يُغْني عَنْهُمْ : لا يدفع عنهم .

فَإنَّكَ بِأَعْيُننَا : في حفظنا وحراستنا .

سَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ : نَزِّه ربك حامداً له .

إِدْبَارَ النُّجُوم : وقت مغيبها بضوء الصباح .

تَابع سُورَة الطُّور

وبعد أن بيَّن الله مصير الكافرين ومصير المؤمنين في الآخرة ، أمر الله النبي ﷺ بالثبات على دعوته ، وأن لا يكترث للتهم الباطلة التي يرميه بها قومه ، ومنها الكهانة والجنون :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) .

فالله يأمر نبيه بالمداومة على التذكير والوعظ ، لأنه سبحانه بما أنعم عليه من النبوة ورجاحة العقل ليس بكاهن ولا مجنون ، بل رسول من رب العالمين .

فالكاهن هو رجل الدين عند العبرانيين ، أما الكاهن عند العرب قبل الإسلام فله مواصفات خاصة فهو المتنبىء بالغيب المخبر للناس بما قد يحدث لهم في المستقبل بما يزعم من اتصال له بالآلهة والأرواح ، وهو أيضاً الطبيب الذي يصف الدواء .

والكهان لهم أسلوب خاص في الكلام يعرف بالإغراق في استعمال السجع ، وبالإفراط في استعمال الكلام الغامض . وقد كان للكهان أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام فكان الناس يستشيرونهم في إبرام الأمور المهمة ، وكان هؤلاء الكهان يتقاضون أجراً مقابل ذلك ، لأن الجن والشياطين التي توحي إليهم بالأجوبة ـ في زعمهم ـ لا ترضى بالتنبؤ إلّا إذا رأت أجر التنبؤ ويقال له : « حلوان الكاهن » عندهم(١) .

فالكهان في جزيرة العرب لم يكونوا يدعون الناس إلى عبادة الله وحده ، ومكارم الأخلاق ، ومحاربة الشرك والفساد ، والامتناع عن الآثام

---

(١) باختصار عن كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي .

كما كان يدعو النبي ﷺ ، كما أن النبي لم يتقاضَ أي أجرٍ على دعوته كما كان يفعل الكهان . كل هذا ينفي نفياً قاطعاً تهمة الكهانة عن النبي ﷺ .

أما تهمة الجنون فهي تهمة تدل على إفلاس المشركين في محاربة النبي ﷺ إذ وصفوه بصفة هي أبعد ما تكون عنه ، وهي نفس التهمة التي ألصقها بعض أعداء الإسلام بالنبي ﷺ حديثاً ، فوصفوا الوحي بأنه حالة صرع كانت تصيبه . هؤلاء نقول لهم : إن مواضيع الهذيانات الهستيرية لا تخرج عادة إلّا عن تصورات وهمية تتناسب مع الأعصاب المتعبة المريضة ، كتخيل المريض رؤ ية روح شريرة تتوعده بالأذى أو تتقصده بالقتل أو تقلقه بالاستهزاء ، ولم يُشاهد هذيان هستيري يشتمل على العلوم الإلّهية ، وقوانين الفضائل والآداب ، وقواعد التشريع السياسي والمدني وغيرها من الأصول التي أتى بها محمد ﷺ من عند الله بواسطة الوحي ، والتي أسهب العلماء في شرحها وبيان مزاياها في ألوف المجلدات .

وبعد أن سقطت تهمة الكهانة والجنون ، تصوره البعض شاعراً بما أتى به من القرآن الكريم وهذا ما حكاه الله على لسانهم :

﴿ أم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (٣٠ ـ ٣١) .

والمعنى : بل يقولون عن النبي ﷺ إنه شاعر ، ننتظر به نزول الموت ، هنا يخاطب الله النبي ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي معكم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا موتي فإني معكم منتظر هلاككم . وهذا الأسلوب فيه تهكم بهم مع التهديد والوعيد .

هنا تتجلى إحدى معجزات القرآن ، فهذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن ، وقد كان المناوئون للنبي أكثر عدداً ، وأقوى شكيمة ، فما هي إلا

سنوات قلائل حتى هلك المناوئون للدعوة الإسلامية ، وانتصر النبي ﷺ على كل من عاداه واضطهده وعمّ الإسلام كل جزيرة العرب .

وتهمة وصف النبي ﷺ بأنه شاعر هي أضعف التهم ، فما كان محمد ﷺ شاعراً ولم ينظم بيتاً واحداً من الشعر طوال عمره ، فللشعر موضوعات يطرقها الشعراء وأوزان يتقيّدون بها . فالقرآن ليس شعراً ، وهذا واضح فهو لم يُقيّد بقيود الشعر ولا بأوزانه ، وليس نثراً عادياً لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره ، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بعضاً بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النغمة الصوتية الخاصة به[1] .

أمام هذه المزاعم الباطلة يتساءل القرآن :

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (٣٢) .

لقد كان شيوخ قريش يُلقبون بذوي الأحلام « أي العقول » إشارة إلى رجاحة عقولهم ، وحكمتهم في تصريف الأمور ، فالقرآن يتهكم بهم وبعقولهم لأن موقفهم من النبي ﷺ ينافي الحكمة والعقل فلو كان عندهم حكمة وعقل لما اتهموا النبي بتلك التهم الباطلة ، إنهم بموقفهم هذا من

---

(١) « كما أن القرآن لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه ، فهو لا يصف الأطلال والربوع ، ولا يصف الحنين إلى الأحبة ، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار . . . وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء . . . وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث عنها أحد قبله ، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه ، ويتحدث عن الشرك فيذمّه وينهى عنه ، ويتحدث عن الله فيعظّمه ويصف قدرته التي لا حدّ لها . . . وإرادته التي لا تُرد ، وخلقه للسماوات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها ، ومن صغير الأشياء وكبيرها . ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به ، والانتهاء عما ينهى عنه ، والتنزّه عما لا يليق بكرام الناس . . . وهو يبشر المؤمنين بما أعد لهم من نعيم وينذر الكافرين بما ادخر لهم من جحيم . . . » (عن كتاب مرآة الإسلام للدكتور طّه حسين) .

النبي ﷺ ﴿ قَوْمٌ طَاغُون ﴾ أي متجاوزون الحد في الكفر والعناد .

ولم يقتصر تطاول قريش على النبي ﷺ عند هذا الحد ، بل اتهموه بالكذب حين ادعوا أنه اختلق القرآن وأنه ليس وحياً من عند الله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانوا صَادِقِينَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٤) .

والتقوّل لا يستعمل إلاّ في الكذب ، فهم يقولون : إنه اختلق القرآن ، بل هم لمكابرتهم لا يؤمنون ، فعدم تحسسهم بالإيمان هو الذي أملى عليهم هذا الافتراء ، ولو تخلوا عن كبريائهم ، وأمعنوا بالقرآن إمعان عقل وفكر لأدركوا أن القرآن ليس من تأليف بشر .

وهذه التهمة يرددها في العصر الحاضر كثير من أعداء الإسلام لتشويهه والتنفير منه ، ولكن القرآن قَدَّم أعظم رد على هؤلاء جميعاً في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وهذا الرد هو في غاية البساطة هو تحدّيهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وبيانه وهديه ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في ادعائهم أن محمداً قد اختلق القرآن .

إن محمداً ﷺ لم يخرج عن كونه بشراً مِنْ عِداد قومه الذين اشتهر كثير منهم بالفصاحة والبيان ، ولمع فيهم شعراء عديدون فطاحل . هذا وإن محمداً ﷺ لم يشتهر في قومه قبل النبوة بالفصاحة والبيان ، ولم يكن من عداد شعرائهم وبُلغائهم ، فالأمر كما نرى في غاية السهولة عليهم فليؤلفوا إذن مثل هذا القرآن ما دام أنه من تأليف محمد على حدّ زعمهم .

حار الكفار في أمرهم لا يدرون كيف يأتون بكتاب مثل القرآن ، حاولوا أن

يردوا على هذا التحدي فعجزوا ، ولذا نرى القرآن يخاطبهم في هذا الأمر بما جاء في سورة الإسراء : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ الآية : ٨٨ .

ومضى القرآن خطوة أخرى عندما ظهر عجزهم ، فلم يطالب بمثل مجمل القرآن ولكن طالب بالإتيان بعشر[١] سُوَرٍ مثله ، وهذا ما جاء في سورة هود الآية ١٣ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ[٢] قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ .

أمام هذا التحدي أيضاً لم يستطع أحد من المناوئين للنبي ﷺ الإتيان بمثل عشر سُوَرٍ من القرآن :

ثم مضى القرآن بعد ذلك خطوة ثالثة قاصمة ، فتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن ، وهذا أقصى غايات التحدي : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنَا[٣] فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم[٤] مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة : ٢٣ .

إن تسجيل القرآن لعجزهم بقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ في الحاضر والمستقبل ، وعدم استطاعة أحد من كتّاب العرب ، وبلغائهم وشعرائهم مجاراة القرآن ـ قديماً وحديثاً ـ في بلاغته وهديه لهو برهان مفحم قاطع على كون القرآن وحياً إلّهياً ليس بعده برهان .

هذا مع العلم أن بلغاء العرب كثيرون ، ومنهم من كان لا يدين بالإسلام

---

(١) عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة .

(٢) افتراه : اختلقه من عنده .

(٣) عبدنا : أي محمد ﷺ .

(٤) شهداءكم : أعوانكم ونصراءكم .

ويضمر العداوة له . فلو وجدوا في بلاغة القرآن منفذاً من ضعف لجاهروا بذلك ، ولو استطاعوا مجاراة القرآن في بلاغته لفعلوا .

فالقـرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم محمداً ﷺ آية وبرهاناً على صدقه فيما يبلِّغ عن ربه .

وبعد أن أثبت القرآن صدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن الذي جاء به هو وحي إلٰهي ، انتقل إلى الرد على الذين يُنكرون الخالق كما هو شأن الدهريين والملحدين :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ[١] . أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٥ ـ ٣٦) .

هذا النص القرآني على إيجازه فيه كل ما توصّل إليه الفكر الحديث لإثبات وجود الله ، فالعقل البشري في كل زمان ومكان يرتكز على قاعدة أساسية هي في حكم البديهيات وهي : أنه لا بد لكل مصنوع من صانع أو بالأحرى لا بد لكل مخلوق من خالق ، وقديماً قال أرسطو : لا بد لكل متحرك من محرك .

فالقرآن يقول : هل خُلِقوا من غير خالق[٢] أوجدهم وخلقهم ؟ أم هم

---

(١) هذه الآية لما سمعها أحد المشركين في عهد النبي ﷺ كانت من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام .

(٢) يقول الدكتور بول كليرانس أبرسولد : إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة ، هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق ، بل إن لهما بداية ، ولا بد لكل بداية من مبدىء ، كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان ، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية ، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان ، إنها بداية مقدسة ، وتوجيه مقدس ، وتدبير إلٰهي محكم » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

الذين خلقوا أنفسهم ، ولو تصورنا على سبيل المكابرة والمغالطة أنهم خلقوا أنفسهم ، فهل هم الذين خلقوا السماوات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوات وَالأَرْضَ ﴾ وإذا كان هذان الفرضان يرفضهما منطق العقل والواقع ، ولا يمكن أن يدعي بذلك أحد ، فإنه لا يبقى إلّا الحقيقة التي يقولها القرآن : وهي أَنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق .

فالعالم العلوي وما فيه من نجوم وكواكب ، والعالم الأرضي وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، والترابط الوثيق بين هذه العوالم ما هو إلّا برهان قوي على وجود الله ، لأن العقل لا يتصور أن توجد هذه الأشياء بدون موجد ، كما لا يتصوّر أن توجد الصنعة بدون صانع ، ولكن رغم هذه الأدلة فإن الملحدين ﴿ لا يُوقِنُون ﴾ أي لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته ، وقدرته على البعث .

ثم يتابع القرآن سلسلة التساؤلات التي بدأها مع الكفار والتي لا تُبقي لهم أدنى حجة في استمرارهم على الكفر .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُون . أَمْ لَهُمْ سُلّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . أَمْ لَهُ البَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ (٣٧ ـ ٣٩) .

أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يُعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن أرادوا ؟ أم هم الأرباب فيفعلون ما شاءوا ولا يكونون تحت أمر ولا نهي .

أم لهم سلَّم يرتقون فيه إلى السماء يستمعون الوحي فيدعون أنهم سمعوا هنالك أن الذي هم عليه هو الحق ؟ وإذا كان الأمر كذلك فليأتِ

مستمعهم بحجة تبين أنه على حق . ثُمَّ سفّه الله عقولهم حيث اعتبروا الأصنام إناثاً ، وأنهن بنات الله ـ تنزه الله عن الولد ـ هذا مع كرههم للبنات ، فكيف ينسبون إلى الله ما يكرهونه لأنفسهم .

ويتابع القرآن سلسلة التساؤلات التي بدأها مع الكفار فيقول سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهم أَجراً فَهُمْ مِنْ مَغرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ . أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . أَمْ لَهُمْ إِلَٓهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ (٤٠ ـ ٤٤) .

فالله سبحانه يقول لنبيه : أتطلب منهم أجراً على ما جئتهم به من شريعة الإسلام ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ فهم متعبون مثقلون عن دفع تلك الغرامة فلذلك يكرهون اتباعك ، فإذا كنت يا محمد لا تطلب من قومك أجراً[١] ولا غرامة فلماذا يقفون منك هذا الموقف من العناد وعدم الإذعان لما جئت به من الهدى ؟ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أم يدَّعون أن عندهم عِلْمَ الغيب حتى علموا أن ما تخبرهم به من أمْرِ القيامة والبعث هو باطل ، فهم بذلك يكتبون ما اطّلعوا عليه ويخبرون به الناس . ﴿ أم يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أم يريدون مكراً بك يا محمد للقضاء عليك ﴿ فَالّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي فالذين كفروا هم المجزيون بكيدهم .

وقفة قصيرة عند قوله تعالى : ﴿ فالّذِين كَفَرُوا هُمُ الْمَكيدُونَ ﴾ هذا النص القرآني من الأنباء الغيبية التي تحقق وقوعها بعد فترة قصيرة من نزول الوحي بها في مكة مما يشهد أن القرآن وحي إلَٓهي . فقد تآمر على قتل

(١) هنا درس يقدمه القرآن للدعاة بأن يمتنعوا عن أخذ الأجر جزاء لما يقومون به من دعوة إلى الله إذا كانوا في كفاية مادية .

النبي ﷺ وجهاء قريش في دار الندوة يوم هجرته إلى المدينة فنجى الله نبيه من القتل ، وبعد ذلك وقعت غزوة بدر فقتل فيها أكثر المتآمرين على قتل النبي ﷺ ، وتتابعت انتصارات النبي حتى دانت له كل جزيرة العرب ، فلو كان القرآن من تأليف محمد لما حكم بهذا الحكم القاطع بهزيمة أعدائه في وقت كان يستعد فيه للهجرة إلى يثرب (أي المدينة المنورة) خوفاً من بطش كفار قريش ، ولم يكن أتباعه آنذاك إلاّ قلة لا يُعتَدُّ بقوتهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ﴾ أم يَدَّعون أن لهم إلَهاً غير الله يرزقهم وينصرهم ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يُشركون به من الأوثان والأصنام . ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَمَاءِ سَاقطاً ﴾ كسفاً : جمع كسفة وهي القطعة من الشيء . ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ مركوم : أي متراكم بعضه فوق بعض . والمعنى المراد : أي لو عذّبهم الله بسقوط قطع من السماء تنزل عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ، بل يقولون : هو سحابٌ متراكم بعضه فوق بعض عناداً منهم أن يسلّموا بالحق ، وهذا ردٌّ على كفار قريش الذين طلبوا من النبي ﷺ دليلاً على نبوته بقولهم بما ذكره القرآن : ﴿ أو تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ الإسراء : ٩٢ . فأخبر الله تعالى رداً عليهم : أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العناد أن يُغالطوا أنفسهم فيما شاهدوه ويعاندوا ويقولوا سحاب متراكم .

وأخيراً بعد أن تبين موقف الكافرين المبني على المكابرة والعناد يدعو الله النبي ليهمل أمرهم ، ويعرض عنهم حتى يأتيهم عقاب الله مع الوعد له بالتأييد :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الّذي فِيهِ يُصْعَقُون . يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمونَ ﴾ (٤٥ ـ ٤٧) .

أي فدعهم يا محمد غير مكترث بكيدهم حتى يُلاقوا اليوم الذي فيه ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ أي يهلكون وهو يوم القيامة حين لا يدفع عنهم كيدهم ولا مكرهم شيئاً من العذاب ولا هم يجدون ناصراً لهم ، وإذا كانوا في دنياهم يلجأون إلى الكيد والمكر والخداع فإنهم في ذلك اليوم لا ينفعهم كيد ولا يأخذ بيدهم نصير . ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي أن لهؤلاء الكفار عذاباً قبل يوم القيامة تتركه الآية بلا تحديد ، قد يكون عذاب الخزي في الدنيا كما حصل للكافرين يوم غزوة بدر وقد يكون عذاب القبر أو مصائب الدنيا ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك .

وبعد أن بين القرآن المصير القاتم الذي ينتظر الكافرين يأتي الخطاب من الله للنبي ﷺ بالصبر ، مع الوعد له بالتأييد والحفظ ، وأن يظل قلبه موصولاً بربه في الليل والنهار :

﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم ﴾ (٤٨ ـ ٤٩) .

فاصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه إلى أن يصيبهم العذاب الذي حذرناهم منه ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا وفي حفظنا ورعايتنا ، وهذا التعبير يبعث الراحة في القلب ، والاطمئنان في الضمير ، والعزيمة في مسيرة الجهاد .

كلمة : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ هي ما يجب أن يستشعره كل داعية إلى الله عندما يحيق به الأذى والمكروه من قومه ، فيعلم أنه بمرأى من الله ورعايته وتأييده وكفى بذلك عزاء وتثبيتاً لقلب الداعي إلى الله ، وهو عزاء عظيم تتضاءل أمامه كل الصعاب والأهوال والاضطهاد .

أمام هذا الوعد الإلَهي بالحفظ يأتي ختام السورة داعياً إلى ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ليظل القلب موصولاً بالله ، هادياً للدرب ، مطمئناً للقلب ﴿ فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزِّه ربك عن كل ما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إنعامه عليك ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي من مجلسك أو من منامك ، أو حين تقوم إلى الصلاة ﴿ وَمِنَ اللَّيْل فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَار النُّجُوم ﴾ أي وسبحه في ثنايا الليل وعند غروب النجوم ، وهو آخر الليل ووقت صلاة الفجر . وقيل : التسبيح يراد به صلاة المغرب والعشاء ،وإدبار النجوم : صلاة الفجر .

سورة النجم

مكية ، وآياتها اثنتان وستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ

شرح المفردات

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى : قَسَمٌ بالنجم إذا غرب وسقط .

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم : ما حاد محمد ﷺ عن طريق الحق والهدى .

مَا غَوَى : ما جَهل ولا اعتقد باطلاً قط .

وَمَا يَنْطِقُ : ما يلفظ من القرآن الكريم .

عَنِ الهَوَى : عن هوى نفسه ورأيه الشخصي .

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى : إن ما ينطق به من القرآن الكريم ما هو إلَّا وحيٌ من الله .

شَدِيدُ القُوَى : مَلَك عظيم القوة ، وهو جبريل .

ذو مِرَّةٍ : ذو رأي ، وعقل بالغ ، وقوة .

فاسْتَوَى : علا وارتفع وظهر على صورته الأصلية .

بالأُفُقِ الأَعْلَى : أفق السماء من جهة المشرق .

دَنَا : قَرُبَ .

فَتَدَلَّى : زاد في القُرْب ، أو نزل .

قَابَ قَوْسَيْن : مقدار قوسين أو ذراعين من النبي ﷺ .

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد الوحي الإلَهي .

ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ
مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾
أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ
أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ

شرح المفردات

مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى : ما أنكر قلب النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل .
أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى ما يَرَى : أتكذبون يا معشر قريش محمداً فيما رآه وتجادلونه بالباطل
نَزْلَةً أُخْرَى : مرة أخرى .
سِدْرَة المُنْتَهى : شجرة نبق عن يمين العرش تنتهي إليها علوم الخلائق .
جَنَّة المَأْوَى : الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء .
يَغْشَى السِّدْرَةَ : يغطيها ويسترها ، والغاشي لها نور الله .
مَا زَاغَ البَصَرُ : ما مال بصر محمد يميناً ولا شمالاً .
وَمَا طَغَى : ما جاوز ما أُمر برؤ يته .
لَقَدْ رَأَى : رأى ليلة عُرِجَ به إلى السماء .
مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى : بعضاً من مظاهر عظمة الله وقدرته .
اللَّات والعُزَّى وَمَنَاةَ : أصنام من حجارة كان المشركون يعبدونها في الجاهلية .
ضِيزَى : جائرة غير عادلة .
سُلْطَان : حُجة وبُرهان .
تَهْوَى الأَنْفس : تميل إليها النفوس .

ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْأٓخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَم
مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ
ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ
وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا
وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ
عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

أم للإنسانِ مَا تَمَنَّى : ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه .

الأُولى : أي الحياة الدنيا .

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ : وكثير من الملائكة .

لا تُغْنِي : لا تنفع ولا تفيد .

لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى : يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله .

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا : فاترك من ابتعد عن القرآن أو عن ذِكْرِ الله .

مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ : منتهى ما وصل إليه علمهم .

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ : حاد عن دينه .

سُورَةُ النَّجْمِ

ايضـــاح و دروس

موضوع هذه السورة التأكيد على صدق نبوة محمد ﷺ ، وأنه تلقّى الوحي الإلّهي من ربه بواسطة الملك جبريل الذي رآه النبي ﷺ على صورته الأصلية ، كما تبيّن هذه السورة تفاهة عقول الذين يعبدون الأصنـام من العرب في الجاهلية ، وفي بدء الدعوة الإسلامية ، كما تتحدث هذه السورة عن وجود اليوم الآخر حيث تُجزى كل نفس بما كسبت . وأخيراً تعرض قدرة الله في الأنفس والكون ، وفي إهلاك الأمم الظالمة .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١ ـ ٤) .

والنجم : الواو للقسم ، والنجم المقصود في الآية هو جنس النجوم الموجودة في السماء . ومعنى هوى : غرب أو سقط ، فغروب النجوم نراه ويحصل في دنيانا ، أما السقوط فإنه يحصل يوم القيامة ، وقد بيّن القرآن مصير النجوم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَت ﴾ التكوير : ٢ . أي تساقطت وتهاوت .

والحكمة من القسم بالنجم ما يرمز إليه هذا القسم من الدعوة إلى التأمل بالنجوم توصلاً إلى استشعار عظمة الخالق ، ولما كان من المشركين من يعبدها ، قرن بها وصفاً يدل على أنها لا تستحق العبادة لأنها غاربة يومياً ، وساقطة يوم القيامة .

وجواب القسم هو قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ أي الأمر الذي أراد الله أن يؤكده في أذهان السامعين من قريش وسواهم هو أن محمداً ﷺ ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي ما انحرف ولا حاد عن طريق الحق الذي اشتهر به بينهم . ولقد كان محمد ﷺ قبل النبوة مشهوراً بالصدق والأمانة حتى أطلقوا عليه اسم « الأمين » فلم تُعرف عنه جريمة ، ولا خصلة ذميمة ، ومن كانت حياته الأولى كلها طُهراً فكيف ينقلب بعد سن الأربعين إلى ضدها ، وهي السن التي جاءه فيها الوحي الإلّهي .

ولفظ ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ المراد به محمد ﷺ ، والتعبير بالمصاحبة دون التلفظ باسمه للإعلام بأنهم واقفون على تفاصيل حياته ، عالمون ببراءته من الضلال والغيّ ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لمحاسن أخلاقه يستدعي عدم تكذيبه .

﴿ وَمَا غَوَى ﴾ أي ما اعتقد باطلًا ، لأن الغيَّ هو الجهل مع اعتقاد فاسد ، وهو خلاف الرشد ، بينما الضلال هو في مقابلة الهدى .

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴾ أي أن القرآن الذي يتلوه ليس من هوى نفسه أو رأيه الشخصي ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وإنما هو من عند الله وحي يُوحى . والوحي هو ما يُبَلّغه الله إلى أنبيائه من الشرائع بواسطة الملك جبريل .

ويتابع القرآن فيبيّن بعض صفات المَلَك جبريل الذي علَّم محمداً القرآن :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ (٥ ـ ١٢) .

فمحمد علَّمَهُ الوحيَ مَلَكٌ شديد القوى ، هو الملك جبريل عليه السلام ، وكان رسولاً بينه وبين الله عَزَّ وجل . وجبَريل ﴿ ذو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو حصافة في عقله ومتانة في دينه أو ذو خلْقٍ ومنظر حسن ﴿ فاسْتَوَى ﴾ أي علا وارتفع وتجلّى بصورته الأصلية ﴿ وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى ﴾ أي بالجهة العليا من السماء جهة أُفق مشرق الشمس .

فلقد كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ إذا جاءه بالوحي في صورة رجل ، وأَحَبَّ النبي مرة أن يراه على حقيقته فتجلى جبريل بصورته الأصلية فعلا في أفق المشرق فملأه .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ دنا : أي اقترب من النبي ﷺ . وتَدَلَّى : نزل وزاد في القرب منه . والذي دنا وتدلّى هو جبريل الذي نزل إلى النبي بعد استوائه بالأفق الأعلى .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَينِ أَوْ أَدْنَى ﴾ والقاب هو المقدار ، والقوس هو سلاح كان يُستعمل في القديم ، وربما سمى العرب الذراع قوساً ، أي اقترب جبريل من النبي ﷺ مسافة تُقدَّر بقوسين أو ذراعين أو أقل من ذلك ، والمراد إفادة شدة القرب منه .

﴿ فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أمره الله به من الوحي الإلٓهي .

﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أي ما أنكر قلب محمد ﷺ ما رآه بصره من صورة جبريل عليه السلام ، بل صدَّق قلبه ما رآه ببصره .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ أتجادلونه وتنكرون عليه ما رآه من صورة جبريل .

ويشير القرآن إلى رؤية محمد لجبريل أيضاً ليلة عُـرِجَ بـه إلى السماء :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى ﴾ (١٣ ـ ١٨) .

لقد رأى محمد جبريل مرة أخرى[١] على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وكان ذلك ليلة الإسراء حين صعد إلى السماء ، فقد رأى جبريل عند ﴿ سِدْرَةِ المنْتَهى ﴾ والسدرة هي شجرة النبق ، والنبق شجر صحراوي ظليل ، أما تسمية السدرة بالمنتهى ، فقيل إنما سُمِّيت بذلك لأن إليها تنتهي الملائكة ولا تتعداها ، ولا يعلم ما وراءها إلّا الله ، وقيل : ينتهي إليها ما يعرج من الأرض ، والله أعلم بالمراد .

﴿ عِنْدَها جَنَّةُ المأْوَى ﴾ أي عند هذه الشجرة : الجنة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَة مَا يَغْشَى ﴾ يغشى : يُغطي ويستر ، والغاشي لها نور الله سبحانه ، وقيل : تغشاها الملائكة .

(١) اختلف المفسرون في الذي رآه محمد ﷺ هل هو جبريل ؟ أو هو رب العزَّة جل وعلا ؟ فذهب ابن عباس وعكرمة إلى أن الرسول رأى ربه ليلة المعراج بعينيه ، وأنكرت ذلك عائشة وقالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله لأن الله تعالى يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ وكانت تقول : إنما رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين : مرة في الأرض حين هبط من السماء وقد سدّ عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح . هذا والآيات الكريمة في سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لربه لأن الحديث فيها إنما جاء عن جبريل بدليل قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وقوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ فإنه يقتضي مرة متقدمة ، فالضمائر كلها تدل على أن المراد به جبريل .

﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ أي ما مال بصر محمد ﷺ يميناً ولا شمالاً عما أُمِرَ برؤ يته ، وما جاوزه إلى ما لم يُؤمر برؤ يته .

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى ﴾ لقد رأى محمد ﷺ ليلة عُـرِجَ به إلى السماء الآيات الكبرى ، والدلائل العظمى على قدرة الله ، فمما رآه : الجنة والنار ، ورأى جبريل في صورته الأصلية التي يكون عليها في السماوات حيث جعل الله له ستمائة جناح .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن تفاهة عقول الكافرين الذين عبدوا الأصنام :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (١٩ ـ ٢٢) .

فكفار قريش لم ينكروا وجود الله ، وأنه خالق كل شيء ، وإنما كانوا يشركون بالله ، ويعزون إلى أصنامهم : اللات[١] ، والعُزَّى[٢] ، ومناة[٣] أنها تتصرف مع الله في أمور العباد ، فإذا تقرّب الإنسان من هذه الأصنام

---

(١) اللات : من الأصنام التي كانت لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين ، وهم العرب الساكنون في الحجاز ، وكانت لها معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من هذه الأنحاء ، وعند ظهور الإسلام كان معبدها الشهير في مدينة الطائف مركز قبيلة ثقيف يقصده الناس للتبرك به . وذكر ابن الكلبي أنها كانت صخرة مربعة بيضاء بنت ثقيف عليها بيتاً كانوا يسيرون إليه يضاهون به الكعبة .

(٢) العُزّى : من الأصنام التي وضعت بواد من نخلة الشامية يُقال له حراض ، وكانت قريش تتعبد للعزى وتزورها وتهدي إليها ، وتتقرب إليها بالذبائح ، وذكر ابن الكلبي أنها كانت من أعظم الأصنام عند قريش .

(٣) مناة : وهي من أقدم الأصنام في نظر الإخباريين وكان موضعها على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، وكانت مُعظمة عند الأوس والخزرج وعند جميع العرب ، وكان المتعبدون لها يقصدونها فيذبحون حولها ويهدون إليها . وكان سدنتها يجنون من سدانتهم لها أرباحاً حسنة .

شفعت لهم عند الله . وينقل القرآن على لسانهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهم إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى ﴾ . الزمر : ٣ .

وكان الكفار يعتبرون هذه الأصنام إناثاً ، وأنها بنات الله . ولقد استنكر الله دعواهم فقال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾ قال لهم ذلك حيث كانوا يحبون الذكور ويكرهون ولادة البنات لهم ، ثمَّ قال سبحانه : ﴿ تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي قسمتكم هذه قسمة جائرة عوجاء ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون ، والله سبحانه يتنزه عن الولد ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وتجدر الإشارة إلى أن كلمة ضيزى فيها غرابة اللفظ لتتناسب مع غرابة القسمة التي ادعوها .

ثم يبين القرآن أن هذه الأصنام من صُنع أيديهم ، ومن تسمياتهم ، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً بل هي أحجار جامدة ، فكيف إذن يتوجهون إليها بالعبادة :

﴿ إنْ هِيَ إلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُموهَا أَنْتُم وَآباؤكم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ (٢٣) .

أي ما الأصنام التي تعبدونها إلاَّ أسماء محضة ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها ، لأنها لا تُبصر ، ولا تسمع ، ولا تعقل ، ولا تضر ولا تنفع ، فليست إلاَّ مُجرّد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلّد فيها الأبناء الآباء ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان تثبت أنها آلهة ﴿ إن يَتَّبِعُون إلاَّ الظنَّ ﴾ أي لا يتبعون إلاّ الظن والوهم في عبادتهم للأصنام ، والظن تصوّر لا يستند إلى دليل ، وهو يؤدي بصاحبه إلى وهم باطل ، لا يفيد ما يفيده الحق ، وما يفيده العلم

اليقيني الذي عليه مدار الإيمان الصحيح ﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُس ﴾ أي تميل إليه وتشتهيه أنفُسهم من غير التفات إلى الحق ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ أي جاءهم البيان الواضح الظاهر من ربهم بأنها ليست آلهة .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى إنكار وبطلان ما يتمناه الكفار من شفاعة الأصنام :

﴿ أَمْ لِلإِنْسانِ مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولى . وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السَّمٰوَاتِ لا تُغْنِي شَفاعتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٢٤ ـ ٢٦) .

أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، وليس لهؤلاء الكفار ما يتمنونه من شفاعة تلك الأَصنام أو غير ذلك مما تشتهيه أنفسهم ، فلله ـ وحده ـ التصرف في أمر الحياة الآخرة والحياة الأولى التي هي الحياة الدنيا .

ثم أعلمنا الله سبحانه أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع إلّا لمن أَذِنَ الله أن تشفع له ﴿ وَيَرْضَى ﴾ أي يراه سبحانه أهلاً للشفاعة .

فإذا كان الملائكة مع علو شأنهم لا يشفعون إلّا بعد إذنه سبحانه ومن يأذن الله له غير معروف من الخلق ، فكيف يسوّغ لنا نحن البشر أن نحكم على أناس بأنهم شفعاء لنا عند الله كما فعل بعض أتباع الأديان الأخرى إذ أطلقوا على أناس اشتهروا بالورع اسم قديسين ، واعتقدوا بأنهم يشفعون لهم ، وهذه التسمية هي من مسمياتهم ، لم يَرِد فيها حجة ولا برهان ، وَلَا وَحْيٌ من الله بأنهم قديسون وأنهم شفعاء لهم عند الله . وكذلك ما يفعله بعض عامة المسلمين في بعض البلدان الإسلامية ، الذين أطلقوا على أشخاص اشتهروا بالتقوى والورع أسم أولياء ، وشادوا لهم الأضرحة بعد

مماتهم ، وتقربوا منهم بالنذور ، واعتقدوا بأن لهم القدرة على شفاء المرضى ، وتيسير الحاجات ، وأنهم شفعاء لهم عند الله ، فهذه الأمور والمعتقدات كلها مما ينكره القرآن الكريم .

فنحن لا ننفي الولاية التي أثبتها القرآن لبعض عباده الصالحين بقوله :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُون . الَّذِين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون . لَهُمُ البُشْرى في الحَياةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرة . . . . ﴾ يونس : ٦٢ ـ ٦٣ .

فالله سبحانه لم يُثْبِتْ للأولياء القدرة على التصرف في مقدَّرات الكون والأرزاق ، والشفاء للمرضى ، والشفاعة للناس في الآخرة .

كما أنه ليس من حقنا أن نطلق على من نراه مُقبلاً مِنَّا على عبادة الله اسم وليّ لأن الله سبحانه يقول في هذه السورة أيضاً : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

وبعد تقرير هذه الحقيقة التي تصحح المفاهيم الخاطئة حول الشفاعة يعود القرآن للكلام عن مشركي العرب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّون المَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢٧ ـ ٢٨) .

فالذين لا يؤمنون بالآخرة أي بالبعث يوم القيامة ـ وهم مشركو العرب ـ ﴿ لَيُسَمُّونَ المَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ﴾ أي يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأَنهن بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فالمشركون حين يقولون هذا القول السخيف لم يقولوه نتيجة لعلم ، وإنما اعتماداً على الظن . وهم

﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلّا الظَّنَّ ﴾ فالعقيدة لا تُبنى على الظنون والأوهام ، إنما على العلم القائم على البرهان والحجة ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئاً ﴾ وإن الظن لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق .

وبعد هذا التحذير من الظنون والأوهام في مجال العقيدة يوجِّهُ القرآن الخطاب للنبي ﷺ ولكل مؤمن بالابتعاد عن الذين يُعرضون عن ذكر ربهم :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِد إلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْم إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

أي دع يا محمد من أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ، أو من أعرض عن القرآن ولم يأخذ بما فيه من الهدى ، واترك مجادلته فقد بلَّغت ما أُمرت به . وهو في إعراضه ﴿ لَمْ يُرِدْ إلّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي لم يرغب إلّا في الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها ، وليس له غاية أخرى وراءها .

هذا الخطاب موجه أيضاً إلى كل مسلم يواجه في الحياة أناساً يعرضون عن ذكر الله ، ويعرضون عن الإيمان به ، ويعرضون عن هدى القرآن ، ويجعلون وجهتهم وغايتهم الحياة الدنيا وملذاتها ، لا ينظرون إلى شيء وراءها ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يعملون لأجلها العمل الصالح ، وأَقرب من تتمثَّل فيهم هذه الصفات هم أصحاب المذاهب المادية الذين ينكرون الأديان .

والمؤمن مطالب بالثبات على إيمانه ، والمحافظة على أداء شعائر الله ، وليس هناك ضرر أكبر من مصاحبة هؤلاء الماديين الذين يمكن أن تتسرب عقائدهم وسلوكهم لا شعورياً إلى قلبه من جراء مصاحبتهم .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلمِ ﴾ هذا وصف لكل من جحد الآخرة ، وحصر همه في هذه الدنيا ، فهؤلاء علمهم تافه ، لأن إدراك حقيقة الكون كفيل بالإيمان بالخالق وشكره وعبادته .

﴿ إنَّ رَبَّك هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ فهو سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ بواسطة الوحي ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى ، فاقتنع بالحق وعمل به ، وهو سبحانه يجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾
ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى
بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى
تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ

شرح المفردات

بالحُسْنَى : بالمثوبة الحسنة ، وهي الجنة .

يَجْتَنبونَ : يبتعدون ويهجرون .

كَبَائِرَ الإِثْم : كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين .

الفَوَاحِشَ : جمع فاحشة ، وهي ما عَظُمَ قُبْحُه من الأفعال والأقوال .

اللَّمَمَ : صغائر الذنوب .

أَجِنَّة : جمع جنين ، وهو الطفل ما دام في بطن أمه .

فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ : فلا تمدحوا أنفسكم بحسن الأعمال .

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى : هو سبحانه أعلم بمن أخلص له العمل واتقى ما يُغضبه .

تَوَلَّى : أعرض عن الإيمان والحق .

أَعْطَى قَلِيلاً : منح قليلاً من المال .

أَكْدَى : قطع العطاء بُخلاً .

أَم لَمْ يُنَبَّأ : ألم يُخبر .

صُحُفِ مُوسَى : هي التوراة .

الذي وَفَّى : أتمَّ وأكمل ما أُمر به وبلَّغ رسالات ربه .

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره .

وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ
سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا

شرح المفردات

مَا سَعَى : ما عمل .

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى : أي يريه تعالى جزاءه يوم القيامة .

ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى : ثم يُجزي الإنسان على عمله الجزاء التام .

المنْتَهَى : المصير في الآخرة .

نُطْفَةٍ : ماء الرجل وهو المنيّ .

تُمْنَى : تُصَبُّ في رحم المرأة .

النَّشأَةَ الأُخْرَى : الإحياء بعد الممات يوم القيامة .

أَقْنَى : أعطاه ما يقتنى ويدّخر من المال . أو أرضى بما أعطى .

الشِّعْرى : نجم معروف كان العرب يعبدونه في الجاهلية .

عَاداً الأُولى : قوم من العرب البائدة وكان نبيهم هوداً عليه السلام .

ثَمُودَ : قوم من العرب البائدة وكان نبيهم صالحاً عليه السلام .

فَمَا أَبْقَى : أي أهلكهم الله فلم يُبقِ منهم أحداً .

المؤْتَفِكَةَ : قرى قوم لوط التي ائتكفت بهم أي انقلبت وانخسفت .

أَهْوَى : أسقطها إلى الأرض بعد رفعها .

فَغَشَّاهَا : غطّاها بأنواع من العذاب .

مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ
ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ
﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ۩

شرح المفردات

آلاءِ رَبِّك : نعَم الله تعالى ومنها دلائل قدرته .

تَتَمارَى : تشك وترتاب .

أزِفَتِ : إقتربت .

الآزِفَةُ : من أسماء القيامة .

أَنْتُمْ سَامِدُونَ : لاهون غافلون .

تابع سُورَة النَّجْم

ثم يبيّن القرآن مجازاة الله للمسيئين والمحسنين في الآخرة :

﴿ وَلِلَّهِ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ (٣١) .

هذه الآية تعليل لما قبلها ، فالله عالم بمن ضَلَّ وبمن اهتدى ، لأنه سبحانه مالك ما في السماوات وما في الأرض ، والمالك لا بد أن يحيط علماً بما يملك وما هو تحت سيطرته ، وهو سبحانه يعاقب الضالين جزاء ما عملوا من ضلال ، ويجزي الذين اهتدوا بالمثوبة الحسنة التي هي الجنَّة .

وهؤلاء الذين أحسنوا بَيَّن الله صفاتهم بقوله :

﴿ الَّذينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَم إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٣٢) .

في هذه الآية وَعْدٌ من الله بالجنة للذين يَدعُونَ ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ والإثم : هو الذنب ، والفواحش : جمع فاحشة ، وهي ما عَظُمَ قُبحه من الأقوال والأفعال ، وتطلق الفاحشة على الزنا خاصةً . وكبائر الإثم والفواحش قيل في تعريفها وتحديدها أقوال شتى ، نجمعها ونلخصها فيما يلي :

الكبائر هي ما نصَّ الله سبحانه على تحريمه ، أو ما وجب فيه عقوبة كالسرقة والقتل والزنا وغير ذلك ، أو ما ورد فيه توعّد بالعذاب بالنار يوم القيامة ، أو الغضب من الله ، أو ما وجب فيه لعنة ، أو ورد فيه وعيدٌ

شديد ، أو وُصِفَ فاعله بالفسق .

وقد عدد النبي ﷺ بعض هذه الكبائر بقوله :

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثَلاثاً ، قلنـا بلى يا رسـول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وَقَوْل الزُّور ، وشهادة الزُّور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »(١) .

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ :

« اجتنبوا السبع الموبقات(٢) ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسِحْر ، وَقَتْل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولي(٣) يوم الزحف(٤) ، وقذف(٥) المحصنات المؤمنات الغافلات(٦) .

ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير من هذه الكبائر(٧) .

أما معنى : « اللَّمَم » فهو الصغائر من الذنوب ، وأصل اللَّمم في اللغة ما قل أو صغُر ، ويأتي اللمم بمعنى مقاربة المعصية دون ارتكاب لها .

فالمراد باللَّمم أن يلمّ بالذنب الصغير مرة ثم يتوب فلا يعود إليه ، وقيل : إنه صغار الذنوب كالنظرة والقُبلة ، وما كان دون الزنا ، ويؤيد هذا

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) الموبقات : المهلكات .
(٣) التولي : الإعراض والفرار .
(٤) يوم الزحف : أي زحف جيوش الأعداء .
(٥) قذف المحصنات : إتهام العفيفات بالزنا .
(٦) رواه البخاري ومسلم .
(٧) للمؤلف كتاب في هذا الموضوع اسمه (الخطايا في نظر الإسلام) .

حديث رسول الله : « إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فَزِنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنّى وتشتهي والفَرْج يُصَدِّق ذلك أو يُكَذِّبه »(١) .

ويرجح الطبري معنى اللمم بأنه : ما دون الكبائر ، ودون الفواحش الموجبة للحدود(٢) في الدنيا ، والعذاب في الآخرة فإن ذلك معفو عنه .

ثم يقول سبحانه بعد أن ذكر كبائر الإثم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَة ﴾ فهذا النص القرآني بما له من أبعاد يفتح على العاصين أبواب المغفرة إذا ما رجعوا إلى الله ، وتابوا من ذنوبهم ، ولو كانت من الكبائر ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ والّذِينَ إِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِم . . . . ﴾ ١٣٥ ، ١٣٦ فالله ضمن للمذنبين المغفرة في حال عدم إصرارهم على الذنب واستغفارهم لما فعلوه من الإثم .

ولنعد إلى بقية الآية السابقة فيقول سبحانه : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي إن ربكم أعلم بكم في وقت إنشائكم من الأرض ، وإنشاء الإنسان من الأرض قد يُراد به أن أباهم آدم خُلِقَ من طين الأرض وهم من نسله ، وقد يُراد به أن الذي يتكوّن منه الإنسان ناشىء من التغذية التي مصدرها الأرض . ﴿ وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ في بُطُون أُمَّهاتِكُم ﴾ أي أنه سبحانه يعلم بكم حال كونكم أجنّة(٣) قبل الولادة ، وفي هذا دلالة على إحاطة علم

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) الحدود : هي الذنوب التي تجب فيها عقوبة حددها الشرع كالقتل والسرقة والزنا وغير ذلك .
(٣) أجنّة : جمع جنين ، وهو الولد في رحم أمه .

الله بالأشياء ، فإن رَحم الأم في غاية الظلمة ، ومن عَلِمَ بحال الجنين فيه لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد .

ويختم الله الآية بقوله : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي لا تمدحوها ، ولا تبرّئوها مِنَ الآثام ولا تُثنوا عليها ، فإن عدم تزكية النفس يبعدكم عن الرياء ، وهو سبحانه أعلم بمن خافه ، واتقى ما يغضبه . وقد يراد بقوله تعالى : ﴿ فلا تُزَكّوا أنْفُسَكُم ﴾ أي لا يثني بعضكم على بعض ، وقد عبّر بأنفسكم عن الغير لأن المؤمنين جماعة واحدة متشابكة وأجزاء في جسم واحد ، فكأن ما ينسبه الواحد منهم إلى غيره ينسبه إلى نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم ﴾ واللمز هو الطعن ، والمراد الطعن بالغير لأن الإنسان لا يطعن بنفسه .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان العدالة الإلّهية يوم الجزاء في الآخرة :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْب فَهُوَ يَرَى . أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (٣٣ ـ ٤٢) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، أي هل تأملت وعلمت ﴿ الذي تَوَلّى ﴾ أي الذي أعرض عن الإيمان واتباع الحق . ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ أي أعطى قليلاً من المال ﴿ وَأَكْدَى ﴾ وقطع العطاء وأمسك .

ولكن من الذي أعرض عن الإيمان ، وأعطى القليل من المال ثم أمسك عن العطاء ؟ قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتَّبع رسول الله على دينه فعيّره أحد المشركين وقال له : لِمَ تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت

أنهم في النار ؟ قال : إني خشيت عذاب الله ، فضمن له هذا الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله ، ورجع إلى دينه السابق أن يتحمل عنه عذاب الله في الآخرة ، فأعطى الوليد الذي عاتبه بعض ما كان تعهد به ، ثم بخل ومنع العطاء عنه .

فالذي فهمه الوليد بن المغيرة من أن الغير يتحمل عنه مسؤولية عمله في الآخرة أجاب عنه القرآن بأمرين : أولهما أنه لا علم له بالغيب حتى يعرف مصيره السيء يوم القيامة . وثانيهما هو ما ورد في صحف الأنبياء السابقين من أن كل إنسان يتحمل إثم عمله بنفسه لا بواسطة غيره قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أي ألَمْ يُخْبر بما اشتملت عليه الكتب المنزلة من الله ، وهي صحف موسى « أي التوراة » وصحف إبراهيم ذلك النبي الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه وبلّغ رسالة ربه ، هذه الصحف اشتملت على هذه القاعدة الجليلة التي جاء القرآن مصدّقاً لها والتي رددها خمس مرات في مواضع متفرقة منه لتأكيدها في النفوس :

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

ألّا : أن المخففة من الثقيلة مدغمة بـ لا النافية ، أي أن لا . تَزِرُ : تحمل . وَازِرَة : نفس آثمة مذنبة . وِزْرَ أخرى : إثم نِفس أخرى ، والوزر هو الذنب والإثم . والمعنى : لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، ولا تحمل نفس آثمة وزر نفس أخرى ، ولكن كل إنسان مجزيٌّ بعمله .

هذه القاعدة الجليلة العادلة بالرغم من سريان مفهومها في الحساب على الأعمال يوم القيامة ، هي في الوقت نفسه تعليم للبشر للأخذ بمضمونها في حياتهم الدنيا وسائر تصرفاتهم فيها ، فلو عمل الناس بمضمونها لتجنّبوا

كثيراً من الظلم والجرائم التي تقع في بقاع الأرض ، ويكون ضحيتها الأبرياء . فجرائم الأخذ بالثأر مثلاً خروج على هذه القاعدة الجليلة .

وهذه القاعدة تنقض أيضاً معتقد بعض الأديان بالخطيئة الأزلية التي تسلسلت إليهم عن أبيهم آدم .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَان إلاَّ مَا سَعَى ﴾ هذه الآية وثيقة الصلة بالتي قبلها ، فكما أن الإنسان في جانب الأوزار لا يسجل عليه ذنب غيره ، كذلك في أعمال البر لا يُسَجّل عليه إلاّ ما جنته يداه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الإمام الشافعي ومن اتبعه أن قراءة القرآن لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنها ليست من عملهم ولا من كسبهم ، ولهذا فإن رسول الله لم يحث أمته على تلك القراءة ، ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء ، ولم يُنقل ذلك عن أحد من الصحابة ، أما الدعاء والصدقة فمجمع على وصول ثوابها للميت إذا كان مؤمناً .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي أن عمله يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ ثم يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ أي ثم يجزي الله الإنسان على عمله الجزاء التام . ﴿ وأنَّ إلى رَبِّكَ المنْتَهى ﴾ أي المرجع والمصير إلى الله الذي سيجازي الناس على أعمالهم .

وبعد عرض هذه الحقائق التي تبين مسؤولية الإنسان في عمله ، ينتقل القرآن إلى بيان عظمة القدرة الإلَهية وضآلة الإنسان حيالها :

﴿ وأَنَّهُ هُوَ أَضْحكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأحْيَا . وَأَنه خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إذَا تُمْنَى . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى . وَأَنه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ (٤٣ ـ ٤٩) .

فالله سبحانه هو الذي خلق الفرح الذي يتسبب عنه الضحك ، وخلق

الحزن الذي يتسبب عنه البكاء ، فمهما بلغ الإنسان من مراتب المُلك والعظمة والغنى فإنه سيقف يوماً هذا الموقف الذي تنهمر فيه دموعه لمؤثرات خارجة عن إرادته كموت أحد أفراد أسرته ، وهذا يدل على ضعف الإنسان ، وأنه رهنٌ من بيده الملك ، لا حول له ولا قوة .

﴿ وأنه أمات وَأَحْيَا ﴾ هذه الآية تبين عظمة القدرة الإلٓهية المسيطرة على هذا الكون ، ففي كل لحظة تتكرر هذه الصورة ملايين المرات في عالم الأحياء على هذه الأرض ، مخلوقات تُبصر النور ، وآخرون يودعون هذه الحياة قسراً عنهم .

ثم يبين الله أنه خلق الزوجين : الذكر والأنثى ﴿ من نطفة إذا تُمنى ﴾ والنطفة هي منيّ الرجل . وتُمنى : أي تُصب في رحم المرأة . وسنزيد ذلك إيضاحاً في التفسير العلمي في آخر السورة .

﴿ وأن عليه النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ أي وأنه سبحانه تكفل بإعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعثِ يوم القيامة ليُجازي سبحانه كلاًّ من المحسن والمسيء حسب عمله . ﴿ وَأَنَّه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ فهو سبحانه أغنى العباد بفضله ، وهو سبحانه ﴿ أقنى ﴾ أي أعطاهم ما فيه من المال الذي يُدَّخر ويُقتنى ، وقيل : أقنى بمعنى أرضى ، فهو سبحانه أعطى العباد وأرضاهم ولم يدعهم محتاجين لأحد .

﴿ وَأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ والشعرى هي ألمع ما يرى من نجوم السماء ، وقد اختصها الله بالذكر لأن بعض العرب كانوا يعبدونها ، وكان قدماء المصريين يعبدونها أيضاً ، فأعلم الله الناس أن الشعرى ليست رباً ، وأن لها رباً هو الله سبحانه .

ثم يبين الله سبحانه ما فعل بالأمم السابقة جزاء كفرهم :

﴿ وأنَّه أَهْلَكَ عَاداً الأُولى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنَّهُم كَانُوا هُمْ أَظْلَم وَأَطْغَى . والمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتمارَى ﴾ (٥٠ ـ ٥٥) .

فالله أهلك قوم عاد وثمود . وعاد وثمود من قبائل العرب البائدة ، ووصفوا بذلك لأنهم بادوا أي هلكوا ، ولم يبقَ على وجه الأرض أحد من نسلهم . وقد بعث الله في قوم عاد نبياً منهم اسمه «هود» عليه السلام كما بعث الله في قوم ثمود نبياً منهم اسمه « صالح » عليه السلام . وَوُصِفَت عاد بالأُولى لأنهم كانوا قبل ثمود ، وقيل لأنهم أوّل أُمة أُهلكت بعد قوم نوح ، وقيل إنهما طبقتان : عاد الأولى ، وعاد الثانية . ومعنى ﴿ فما أَبْقَى ﴾ أي أنه سبحانه دمرهم وأهلكهم فلم يُبقِ من عاد وثمود أحداً .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي وأهلك الله أمة نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إنَّهم كانوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ أي أنهم أكثر ظلماً ، وأشد طغياناً من الفريقين السابقين .

﴿ والمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ الائتفاك : الانقلاب ، والمؤتفكة مدائن قوم لوط ، وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت بهم ، وصار عاليها سافلها . وأهوى : أي جعلها سبحانه تهوي على أهلها فتتدمر ويهلك أهلها ﴿ فَغَشَّاها مَا غَشَّى ﴾ أي أحاط بها من العذاب ما أحاط ، أو غشاها ما غشى من الحجارة التي أمطرها الله عليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارَةً مِن سجّيل ﴾ . الحجر : ٧٤ .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ الآلاء : النِّعَم . وتتمارى : تتشكك . أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته في إهلاك الأمم الظالمة تتشكك أيها الإِنسان وترتاب ، وتسمية الأمور التي ذُكرت من إهلاك الظالمين بأنها

من نعَم ِ الله حيث أنها نُصرةٌ للأنبياء والمؤمنين ، وتطهير للأرض من شر هؤلاء الظالمين .

وأخيراً يختم الله هذه السورة منذراً الكافرين ، داعياً إياهم إلى الخضوع له وعبادته وحده :

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى . أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ . أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ . وَأَنْتُم سَامِدُونَ . فَاسْجُدوا لِلَّهِ واعْبُدُوا ﴾ (٥٦ ـ ٦٦) .

قيل المقصود بالنذير هو محمد ﷺ ، وقيل : إنه القرآن فهو نذير من جنس الإنذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها ، وفي ذلك تخويف لأمة محمد ﷺ وكافة الأمم من أن يحل بهم من العذاب والهلاك مثل ما حلَّ بالأمم السابقة إن ساروا على نهجهم .

﴿ أَزِفَتِ الآزِفَة ﴾ أزفت : قربت ، والآزفة : المراد بها القيامة لأنها قريبة الحدوث بالنسبة لما مضى من الزمان ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَة ﴾ أي ليس لها غير الله من يكشف عن وقت وقوعها ، فعلمها مما اختص به الله سبحانه وحده وقيل : لا يقدر على كشفها إذا غشيت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير الله .

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُون ﴾ المراد بالحديث هنا : القرآن ، أي أفمن هذا القرآن تعجبون فتنكرونه ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ أي تضحكون استهزاء وسخرية منه ولا تبكون كما يفعل المؤمنون الموقنون بلقاء ربهم ﴿ وَأَنْتُم سَامِدُونَ ﴾ لاهون معرضون عنه ﴿ فاسْجُدوا لِلَّهِ وَاعْبُدوا ﴾ أي فاخضعوا لله وأفردوه بالعبادة ، فهو الذي أنزل القرآن هدى للناس ، ودعوا ما أنتم فيه من عبادة للأوثان والأصنام والإشراك بالله لعل الله يرحمكم .

التفسير العلمي

جنس الجنين مصدره الرجل :

يقول تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ .

فالله سبحانه يقول إنه خلق الذكر والأنثى من المنيّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة .

والملفت للنظر أن القرآن نص على أن جنس الذكورة ، أو جنس الأنوثة مصدره منيّ الرجل ، وهذا من الحقائق التي توصل إليها العلم حديثاً ، وأعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً .

فالسائل المنوي الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة يحتوي على ملايين الحييات (أي الحيوانات) المنوية ، وهذه الحييات تحمل صبيغات أنثوية وذكرية معاً . وأحد هذه الحييات المنوية من الملايين هو الذي يخصب بويضة الأنثى .

فإذا كان الحيوان المنوي الذي يخصب بويضة الأنثى للإنجاب يحمل صبغيات أنثوية كان الجنين أُنثى ، وإذا كان الحيوان المنوي يحمل صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً .

وهكذا نرى القرآن سبق العلم إلى إقرار حقائق عن تكوين الإنسان لم تُعرف إلّا منذ أمد قريب . وذلك بعد الاستعانة بالمجهر (الميكروسكوب) والتحاليل الطبية . وهذا مما يشهد بأن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقاً .

سُورَةُ القَمَر

مكية . وآياتها خمس وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟
سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣
وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ
ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ

شَرح المفـردَات

اقْتَرَبَت السَّاعَةُ : قَرُبت القيامة .

انشَقَّ القَمَرُ : انفلق فلقتين معجزة لمحمد ﷺ .

آيَةً : معجزة .

يُعْرِضُوا : يكذِّبوا .

وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ : أي يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله في الجنة ، والشر مستقر بأهله في النار .

الأَنْبَاء : أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا بسبب كُفرهم .

مُزْدَجَر : ما يزجرهم ويردعهم عَمَّا هُم عليه من التكذيب والكفر .

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ : الحكمة هنا القرآن ، وقد بلغت الغاية من السُموّ وعدم النقص والخلل .

فما تُغْني النُّذُر : فما تنفع الإنذارات لقوم لا يؤمنون بها .

فَتَوَلَّ عَنْهُم : فأعرِض عنهم .

يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ : يوم ينفخ الملك إسرافيل في البوق النفخة الثانية لِيُبعث الناس .

شَيْءٍ نُكُرٍ : منكر فظيع (هول يوم القيامة) .

خُشَّعاً أَبْصارُهُم : ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول .

يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى
ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ
فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا
فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾
تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

شـرح المفـردات

الأجْداث : القبور .

مُهْطِعِين : مسرعين ، مادين أعناقهم ناظرين إليه .

يَوْمٌ عَسِر : يوم صعب شديد لعظم أهواله .

قَبْلَهُمْ : أي قبل مشركي أهل مكة .

ازْدُجِرَ : زُجِرَ عن تبليغ رسالة ربه بالشتم والتخويف .

مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر : مقهور فانتقم لي منهم .

بمَاءٍ مُنْهَمِر : ماء منصب انصباباً شديداً .

فَجَّرْنَا الأَرْضَ عيوناً : جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة .

فالْتقى الماءُ : أي التقى ماء الأرض والماء النازل من السماء .

أَمْرٍ قَدْ قُدر : أمر قَدَّره الله وقضاه وهو هلاك قوم نوح .

دُسُر : جمع دِسار ، وهو الخيط من ليف تُشَدُّ به ألواح السفينة . وقيل : المسمار .

تجري بأعيُننا : تجري بعناية الله وحفظه ورعايته .

كُفِر : كذِّب وجحد ما جاء به نوح من الهدى .

تَرَكْنَاهَا آيةً : تركنا حادثة الطوفان ، أو آثار السفينة عظة وعبرة .

مُدَّكِرٍ : متذكر يعتبر بذلك .

﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا
وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا
مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ

شَــرح المفـردَات

نُذُر : جمع نذير بمعنى الإنذار .

يَسَّرنَا القرآن للذِّكْرِ : سهَّله الله للحفظ ، وهيأه للتذكر والاتعاظ .

ريحاً صرصراً : ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت .

يَوْمِ نَحسٍ مُسْتَمِرٍّ : يوم مشؤوم دائم النحس .

تَنْزِعُ النَّاسَ : تقلعهم من مواضعهم .

أَعْجَازُ نَخْلٍ : أصول نخل بلا فروع .

مُنقَعِر : مُنقلع من مغرسه .

سُعُر : عناء وعذاب .

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا : أُخصِّصَ بإنزال الوحي عليه من دوننا .

أَشِرٌ : بَطِر متكبِّر .

فِتْنَةً لَهُم : إمتحاناً وابتلاء لهم .

فارْتَقِبْهُم وَاصْطَبِر : إنتظر ما يصنعون واصبر على أذاهم .

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى
فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

شـرح المفـردات

أَنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُم : إن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة يوماً لهم ، ويوماً لها .

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ : كل شرب يحضره صاحبه في يومه ويستحقه .

فَتَعَاطَى فَعَقَرَ : فتناول الناقة بيده ونحرها .

كَهَشِيمِ : يابس النبات الذي يتكسّر ويتحطم .

الْمُحْتَظِرِ : هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر .

سُورَةُ القَمَرِ

ايضـاح و دروس

في هذه السورة استعراض لبعض أصحاب الرسالات الإلّهية السابقة ، الذين أتوا قومهم بالهدى والصلاح ، لكن قومهم تنكّروا لهم وقاوموهم واضطهدوهم ، فأرسل الله على هؤلاء الظالمين العذاب وأهلكهم ، ونجّى الله رسله ومن آمن من قومهم من العذاب والهلاك .

فالهدف من عرض أخبار الأمم السالفة ـ وما حل بهم من هلاك جزاء كفرهم ـ هو تثبيت قلب الرسول محمد ﷺ ومن آمن معه ، وإعلامهم بأن شأن الهداة والمصلحين وأهل الإيمان أن يقاومهم قومهم ويضطهدوهم ، ولكن الغلبة والنصر سيكونان لا محالة لهم في نهاية الأمر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذا العرض يهدف إلى إنذار الكافرين بسوء المصير .

وهذه السورة قَصُرَت آياتها ، واتّسقت فواصلها ، واطَّردت في أواخر الآيات على نسق معين ، كما نرى في أسلوبها ذلك الجمال الصوتي مع سُهولة اللفظ ، وعُذوبة السبك مما يعطي تأثيراً في النفس .

استهلّ الله هذه السورة بتخويف الكفار بقرب قيام القيامة ، مع ذِكْرِ معجزة من المعجزات التي أيّد الله بها نبيه ﷺ :

﴿ إقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أمر مُسْتَقِرٌّ . وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ (١ ـ ٥) .

فمعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أي قَرُبت القيامة ، وسُميت القيامة بالساعة

لأن وقتها هو ساعة الفصل بين الخلائق . وقد يقول القائل : لقد مضى على نزول الآية زمان طويل فكيف يكون زمان الساعة قد اقترب ، والجواب : أنه اقترب بالنسبة لما مضى من عمر الدنيا ، لأن القرب مسألة نسبية فقد تكون لحظات أو ساعات أو ألوف السنين ، والمؤمن يجب أن يتوقع القيامة في أية لحظة ، وأن يعمل لآخرته على هذا الأساس .

﴿ وَانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بانشقاق القمر ، فقيل : المراد إنه انشطر إلى فلقتين وذلك على عهد رسول الله ، وكان ذلك معجزة له ، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية (أي معجزة) فأراهم انشقاق القمر[١] . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر ، ويكون المعنى : اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر ، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من قمر وغيره . وقالوا لو انشق القمر على عهد النبي لرآه جميع الناس ولم تقتصر رؤ يته على البعض لأنه معجزة والناس في رؤ ية المعجزات سواء .

﴿ وَإن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ الآية : المعجزة ، أي وإن يروا معجزة تدل على صدق النبي ﷺ يُعرضوا عن التأمل فيها والاتعاظ بها ﴿ وَيَقُولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ومستمرّ بمعنى ذاهب أي باطل لا دوام له .

﴿ وَكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ ﴾ هذه علامة الكافرين ، فهم يكذبون أنبياءهم ، وهم بذلك يتبعون أهواء نفوسهم ورغباتهم وما زيّنه الشيطان لهم .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي أن كل أمر من أمور هذا العالم منتهٍ إلى غاية ، فالخير يستقر بأهل الخير ، والشرّ يستقر بأهل الشر .

﴿ وَلَقَدْ جاءَهُم مِنَ الأَنْباءِ ﴾ أي جاء هؤلاء القوم من أخبار الأمم السالفة

---

(١) روى الإمام مسلم أحاديث بهذا المعنى أيضاً .

الذين حلّ بهم العذاب والهلاك بسبب كفرهم ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما يزجرهم ويردعهم عن الكفر .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ فالحكمة هنا مراد بها القرآن الكريم ، الذي احتوى على حِكَم وعِظات بالغة النهاية في ردع الشر ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ فما تنفع الإنذارات من انصرف عنها ولم يتعظ بها .

ثم يبين القرآن بعد ذلك سوء مصير الكافرين يوم القيامة :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إلى شيءٍ نُكُرٍ . خُشَّعاً أبْصارُهُم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ منتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (٦ ـ ٨) .

فالله يخاطب نبيه بقوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم ، والمراد ترك جدالهم والمناظرة معهم . ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ والداعي هو مَلَكٌ من الملائكة ، اسمه إسرافيل ودعاؤه يكون بالنفخ في البوق يوم القيامة النفخة الثانية ، فيخرج الأموات من قبورهم أحياء للحساب . والداعي يدعوهم ﴿ إِلَى شَيءٍ نُكُرٍ ﴾ أي إلى شيء منكر تنكره النفوس لما ترى فيه من الأهوال والبلاء وهو كرب يوم القيامة وشدته ، وهم في هذا الكرب ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي أبصارهم خاضعة ذليلة ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ والأجداث : هي القبور ، أي يخرجون من القبور وكأنهم الجراد المنتشر ، والجراد هو الحشرة المعروفة التي تأتي على الأخضر واليابس من الزرع ، ووجه الشبه هنا من حيث كثافة الجراد في انطلاقه ، إذ يصل الأمر به إلى حد أن يحجب رؤ ية الشمس ، وهذا هو شأن ملايين الملايين من البشر عندما يُبعثون أحياء يوم القيامة من قبورهم وهم ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ أي مسرعين مادين أعناقهم ناظرين إلى الداعي ﴿ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

أي يوم صعب شديد لما يشاهدون فيه من الأهوال وسوء المصير .

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى ذِكْرِ أحوال بعض الأمم السالفة التي حلّ بها العذاب والهلاك في الدنيا بسبب كفرها ، ورفضها دعوة أنبيائها ، مذكّراً بذلك كفار قريش ليعتبروا ويرتدعوا ، وقد استهلت الآيات ببيان ما حلّ بقوم نوح عليه السلام :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٩ ـ ١٧) .

هذه الآيات تشير إشارات موجزة لقصة نوح عليه السلام ، وهي على إيجازها تتضمن كل عناصر القصة كما فصّلها القرآن في السور الآتية : الأعراف ، وهود ، ونوح .

فالله يخبرنا بأنه كما كذّب كفار مكة نبيهم محمداً ﷺ فقد كذّب قبلهم قوم نوح الذين كذّبوا نبيهم نوحاً ورموه بالجنون ﴿ وازْدُجِر ﴾ أي حالوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه بأنواع من الأذى والتخويف . عندئذٍ دعا نوح ربه : أني مغلوب يا رب من قومي وضعيف عن مقاومتهم فانتقم لي منهم .

إستجاب الله دعاء نوح وأهلك قومه بالطوفان بعد أن نجاه ومن آمن معه بالسفينة التي أمره بصنعها والركوب فيها قبل حصول الطوفان .

ويصوّر القرآن مشهد هذا الطوفان بتلك الصورة الحية المعبرة حيث بدأت تباشيره بالمطر الشديد ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ فكأن للسماء أبواباً تفتحت ومنها تنصب المياه كالسيول على الأرض ، وإضافة إلى ذلك

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجّر بالماء ، ﴿ فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أن ماء الأرض وماء السماء التقيا ليحصل من جراء ذلك الطوفان الذي قدّره الله وقضاه لهلاك الكافرين .

كما قد هيأ الله سبيل النجاة لنوح ومن آمن معه على السفينة التي أمره بصنعها قبل الطوفان ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي وحملنا نوحاً على سفينة من خشب تَشدُّ ألواحها مسامير أو خيوط من ليف . ووسط هذا الطوفان تسير السفينة بمن فيها بأمر الله وحفظه ورعايته ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي برعايتنا وحفظنا ، وهكذا كان الطوفان عقاباً وجزاء للذين كفروا : ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ أي جعلنا حادثة إغراق قوم نوح ونجاة المؤمنين عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الأمم . وقد يُراد بالآية السفينة نفسها فقد رُوي عن قتادة(١) أن الله أبقى سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة . ثم يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر ؟

ويعقب الله على هذا الحدث بآيتين ردَّدهما في آخر كل مشهد من مشاهد العذاب الذي حل بالأمم السالفة ، الآية الأولى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي فانظروا أيها الناس كيف كان عذابي وعقابي لهم على كفرهم ، وإنذاري لمن سلك سبيلهم بحلول مثل ذلك العقاب بهم . والآية الثانية : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي لقد سهلنا القرآن للحفظ وهيأناه للتذكر والاتعاظ فهل من متعظ بمواعظه ؟

وبعد قصة نوح شرع القرآن في ذكر قصة قوم عاد ، وما حلّ بهم جزاء كفرهم . وعاد قبيلة من قبائل العرب البائدة ، سُمّيت باسم جدها الأعلى

---

(١) قتادة : من مشاهير المفسرين من التابعين وغالب أقواله في التفسير تلقاها من الصحابة .

« عاد » الذي يرجع نسبه إلى نوح عليه السلام .

وعاد كانت مساكنهم « بالأحقاف » أي الرمال وموقعها بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر . وكانت هذه القبيلة تعبد الأصنام فأرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، وأنذرهم من عذاب الله إن استمروا على كفرهم ، فلم ينصتوا إلى إنذاره ، بل رموه بالسفه والطيش والكذب ، فأهلكهم الله بريح شديدة البرودة وشديدة الصوت استمرت أياماً ، ونجّى الله هوداً ومن آمن معه .

وقد ورد ذكر قبيلة عاد في كثير من سور القرآن بأساليب مختلفة ، بعضها يسهب في الكلام عنها ، والبعض الآخر يشير إليها بإيجاز كما في هذه السورة حيث يقول تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً في يَوْمِ نَحْسٍ مُستَمِرٍّ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (١٨ ـ ٢٢) .

كذبت عاد نبيهم هوداً ، فعلى أي حال كان عذاب الله وإنذاره للمخالفين أوامره ؟! لقد كان من غير شك على كيفية هائلة من العذاب . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي سَلَّط الله عليهم ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت ﴿ في يَوْم نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ أي في يوم شؤم عليهم مستمر حتى أهلكهم جميعاً ، ويمكن أن نفهم من قوله تعالى : ﴿ مُسْتَمِرّ ﴾ أن الريح استمرت سبع ليال وثمانية نهارات كما جاء في سورة الحاقة ، أو أن عذابهم كان غير منقطع لاتصال عذابهم الدنيوي بالأخروي . وهذه الريح كانت ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ أي تقلع الناس من أماكنهم ، وترميهم صرعى على الأرض كأنهم أصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها في الأرض .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الكلام عن قبيلة ثمود وما حلّ بها جزاء كفرها . وثمود من قبائل العرب البائدة سميت باسم جدها الأعلى ثمود الذي يرجع نسبه إلى نوح عليه السلام ، وكانت مساكن ثمود في الحِجر في وادي القرى من الحجاز . وكانت هذه القبيلة تعبد الأصنام ، فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادته وحده .

لم تؤمن قبيلة ثمود بما دعاها إليه نبيها من عبادة الله ، بل راحوا يتهمونه بالهذيان والكذب ، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه رسول الله حقًّا ، فأيَّده الله بالناقة التي خلقها سبحانه على غير المألوف « قيل إنها خرجت من صخرة » وأمرهم سبحانه ألّا يمسوها بسوء ، وجعل الله لهم شُرباً في يوم معلوم ، وجعل لها شرباً في يوم غيره ، وأوعدهم بالعذاب إن اعتدوا عليها بسوء .

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل من نبات الأرض تَرِدُ الماء يوماً ، وتبتعد عنه يوماً آخر ، وقد استمالت هذه الناقة بعض الكافرين ، إذ رأوا فيها معجزة تدل على صدق نبوة صالح فآمنوا بالله واتبعوه ، فأفزع هذا الأمر طبقة الأشراف ، وخافوا من ازدياد عدد المؤمنين ، فأرسلوا أحدهم لقتل هذه الناقة ، وقد نحرها بالرغم من تحذير نبيهم من خطورة هذا العمل ، فأرسل الله على ثمود صيحة واحدة أهلكتهم بعد أن نجّى الله نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين من الهلاك .

هذا ملخص ما جاء في القرآن الكريم عن قصة ثمود التي ورد ذكرها في كثير من السور ، أما في هذه السورة فيشير إليها القرآن إشارات موجزة كما نراه في الآيات التالية :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إذاً لَفِي ضَلَالٍ

وَسُعُرٍ . أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ . إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ واصْطَبِر . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ . فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٢٣ ـ ٣٢) .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ أي كذبت ثمود بإنذارات نبيهم صالح بأن عذاباً سيحل بهم إن استمروا على كفرهم .

﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ﴾ أي قالوا : أنتبع واحداً من عامتنا وليس من أشرافنا ، وهو واحد لا أتباع له ولا عصبية تشد أزره .

﴿ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُر ﴾ والسعر : الجنون ، وقيل : البُعد عن الحق . أي أننا إذا اتبعناه كنا غير مهتدين ، أو كنا في حالة جنون وبُعْدٍ عن الحق .

﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ الذكر : هو الوحي ، والأَشِر : المتكبر والبطر . والمعنى : كيف خُصَّ صالح من بيننا بالوحي الإلّهي وفينا من هو أحق بذلك ، إنه ، بادعائه النبوة ، كذاب متكبر بَطِر يريد العلو علينا .

﴿ سَيَعْلَمُونَ غداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ أي سيعلمون غداً يوم ينزل بهم العذاب من هو الكذاب المتكبر البطر .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ إننا سنرسل لهم الناقة معجزة كما طلبوا، وستكون فتنة لهم : أي امتحاناً واختباراً لهم ، والمعجزة في إرسال الناقة أن الله أخرجها من صخرة أمام أعينهم .

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ واصْطَبِرْ ﴾ فانتظر يا صالح وتبصّر ما هم فاعلون ، واصبر على ما يصيبك من أذاهم حتى يأتيهم أمر الله بعذابهم .

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وأخبرهم يا صالح أن الماء الذي يشربونه مقسوم بينهم وبين الناقة لها يوم ، ولهم يوم .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في يومه المخصص له للشرب ، فتحضر الناقة يوماً وتنال شربها ، ويحضر القوم يوماً آخر وينالون شربهم .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُم فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ أي نادى قوم ثمود صاحبهم يحضّونه على عقر الناقة وهو « قدار بن سالف » وكان أجرأهم على المعصية فتناول الناقة بسيفه ونحرها .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُرِ ﴾ فعلى أية حال كان عذابي وإنذاري للمخالفين أمري ؟ لقد كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بهما الوصف.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ والصيحة التي أرسلها الله عليهم قيل إنها صيحة جبريل ، وقيل إنها الصاعقة كما جاء في القرآن : ﴿ فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرون ﴾ الذاريات : ٤٤ . والصاعقة تحدث صوتاً عظيماً فذلك المراد بتسميتها بالصيحة ، وكانت من القوة والعِظَم أن أهلكتهم جميعاً وجعلتهم ﴿ كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ أي أصبحوا كأغصان الشجر اليابسة التي يجمعها صانع حظيرة الدواب ليبني بها حظيرته ، وقيل : كالعظام النخرة المحترقة ، وهذا كناية عن أنهم أصبحوا نتفاً من أجساد هامدة من غير روح .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار ، فهل من متعظ ؟

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ
أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ
فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ
مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم
بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

شرح المفردات

حَاصِباً : ريحاً ترميهم بالحصى أو الحجارة .

بسَحَر : هو ما بين آخر الليل وطُلوع الفجر .

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا : ولقد حذّرهم بطش الله وعقابه .

فَتَمَارَوْا بالنُّذُرِ : فشكُّوا بالإنذار والوعيد .

رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ : طلبوا منه أن يمكنهم من ضيوفه لفعل الفاحشة بهم .

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ : أعماهم الله ، وصيّر أعينهم كسائر الوجه لا يُرى لها أثر .

صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً : جاءهم في الصباح الباكر .

عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ : عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة .

في الزُّبُرِ : في الكتب السماوية أو في اللوح المحفوظ .

بآيَاتِنَا : بمعجزاتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبوة أنبيائنا .

نَحْنُ جَمِيعٌ : نحن جمَاعة ، أو يد واحدة على من خالفنا .

سَيُهْزَمُ الجَمْعُ : سيهزم جمع كفّار مكة .

ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ
فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ
بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ
فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

شَــرح المفـردَات

يُوَلُّونَ الدُّبُرَ : يفرون منهزمين .

السَّاعَة أدْهَى : أي القيامة أفظع . وأشد من الداهية ، وهي الأمر العظيم .

أَمَرُّ : أي أشد مرارة من القتل والأسر .

سُعُر : عناء ، أو نيران مسعّرة .

مَسَّ سَقَرَ : عذاب جهنم .

خَلَقْنَاهُ بقدرٍ : خلقناه بتقدير سابق ، أو بمقدار .

إلاّ وَاحِدَةٌ : كلمة واحدة هي « كن » .

أشْيَاعَكُم : أمثالكم في الكفر وأشباهكم .

الزُّبُر : كتب الحفظة من الملائكة أو في اللوح المحفوظ .

مُسْتَطَر : محفوظ مكتوب .

مَقْعَدِ صِدْق : مكان مرضي عنه ، ومجلس حق وهو الجنة .

مقتدر : قادر على كل شيء .

تابع سُورَة القَمَر

وبعد الكلام عن ثمود ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم لوط الذين كان موطنهم في الأردن في مدينة سدوم[١] ، وكان أهل هذه المدينة من أفجر الناس وأكفرهم ، يقطعون الطرق للسلب ويأتون في ناديهم المنكر ، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي الشذوذ الجنسي ، ونعني بهذه الفاحشة : إتيان الذكور بدل الإناث « اللواط » فأرسل الله نبيه لوطاً لهدايتهم وتحذيرهم من سوء أفعالهم ، فكذبوا نبيهم ، وهددوه بإخراجه من قريتهم .

وحدث أن بلغ قوم لوط نبأ نزول ضيوف حسان على لوط ، فأسرعوا إلى بيته لينالوا غايتهم الدنيئة من ضيوفه بالإكراه ، حاول لوط إقناع قومه بالعدول عما عزموا عليه ولكنه لم يفلح ، وعندما اشتد الأمر وأصروا على لقائهم خرج إليهم أحد الضيوف الذين كانوا في الحقيقة ملائكة في صورة البشر ، وقيل إن الذي خرج إليهم هو جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست ، وفقدوا أبصارهم ، فتبدد شملهم ، ورجعوا من حيث أتوا يتلمسون الطريق ، ثم كشف الملائكة حقيقة أمرهم للوط ، وأخبروه عن سبب مجيئهم وهو إهلاك قومه الذين تمادوا في كفرهم وفحشهم ، وأمروه بمغادرة القرية مع أهله بدون امرأته لأنها ساء عملها ، وأن موعد إهلاكهم هو الصباح . ولما حلّ العذاب الذي قدّره الله وقضاه لقوم لوط ، قلب بهم الأرض التي كانوا يعيشيون فيها وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجّر .

هذا ملخّص ما جاء في القرآن عن قوم لوط الذي وَرَدَ ذكرهم في القرآن في عدة سور وفي أساليب شتى وقد أوردنا هذا الملخص لنلقي الضوء على ما جاء في هذه السورة عنهم بإيجاز كما نراه في الآيات التالية :

---

(١) لم يسم القرآن اسم القرية وهذه التسمية جاءت في العهد القديم .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٣٣ - ٤٠) .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أي كذبت قوم لوط بإنذارات نبيهم الذي حذّرهم بحلول العذاب بهم إن استمروا على فعل الفواحش والمنكرات .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ أي عاقبهم الله بإرسال ريح تحمل الحصى ، وكان ذلك بعد أن خسف القرية بهم حتى هلكوا باستثناء آل لوط وهم ابنتاه فقط ﴿ إلاّ آل لُوط نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَر ﴾ والسَحَر هو آخر الليل قبل طلوع الفجر ، فلوط وابنتاه كانوا خارج القرية في هذا الوقت وبهذا نجوا من الهلاك .

﴿ نِعْمةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي أنعم الله على لوط وابنتيه بالنجاة كرامة لهم منه ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ وهكذا يجزي الله من شكر نعمته بالإيمان والطاعة فينجيه من العذاب ومن كل سوء .

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبة الله الشديدة ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ فارتابوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ولم يصدّقوه .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ ولقد أراد هؤلاء القوم من لوط تمكينهم من ضيوفه لفعل الفاحشة كما هو دأبهم ، وكان هؤلاء الضيوف ملائكة بصورة فتيان .

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أذهب الله أعينهم ، وجعلها ممسوحة لا يُرى لها

شق فلم يعودوا يرون شيئاً .

﴿ فَذُوقوا عَذَابي وَنُذُرِ ﴾ أي ذوقوا بهذا العمى مقدمات عذاب الله وإنذاراته .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي أتاهم صباحاً عذاب ثابت دائم لا يقدر أحد على إزالته .

﴿ فكَيْفَ كَانَ عَذابي ونُذُرِ ﴾ فعلى أي حال كان عذابي وإنذاري للمخالفين أمري ؟ لقد كانا شديدَيْن مريعَيْن لا يحيط بهما الوصف .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار فهل من متعظ بمواعظه .

هذا هو العقاب الإلّهي الذي حَلّ بقوم لوط بيّنه القرآن ليحذر كل من يسلك مسلكهم فيصيبه مثل ما أصابهم .

فاللواط فاحشة من أقبح الفواحش لأنه خروج عن الناموس الكوني ، فالحياة واستمرارها لا تقوم إلاَّ على الذَّكَر والأنثى ، ومن اتحادهما بالزواج تنشأ الحياة ، أما اتصال الذكور بالذكور فهو عمل مضاد لناموس الطبيعة وقضاء على الأسرة التي هي عماد المسؤولية والعطف والرحمة . ولما كانت الشرائع السماوية قد أُنزلت لخير الإنسان فقد حرَّمت اللواط ، واستحق قوم لوط أن يُبَادوا من الأرض لأنهم خرجوا على الناموس الكوني[1] .

وبعد ذكر ما حل بقوم لوط انتقل القرآن إلى بيان ما حلَّ بقوم فرعون بسبب

---

(١) طالعتنا الأخبار العلمية مؤخراً أن مرض (الإدز) الذي يضعف المناعة الجسدية ويقود المصاب به إلى الموت السريع ، وينتشر بالعدوى ، إنما يصيب الذين يمارسون هذا النوع من الشذوذ الجنسي .

كفرهم بكلمات قليلة ، هذا مع العلم أن قصة موسى مع فرعون وقومه من أكبر القصص تفصيلاً في القرآن والتي جاء تردادها في سُورٍ شتى ، أما في هذه السورة ففيها تلميح عنهم وإشارة إلى هلاكهم بسبب طغيانهم في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٤١ ـ ٤٢) .

والمعنى : ولقد جاء فرعون وقومه إنذار من الله لهم بالعذاب والهلاك إن استمروا على كفرهم فكذّبوا بكل ما جاء على يد نبيهم موسى من المعجزات التي تشهد بصدق نبوته ، ولم يؤمنوا بما جاء به من الهدى ، فعاقبهم الله على كفرهم عقوبة شديدة ، وهو الغالب في الانتقام ، القادر على ما يريد ، غير عاجز ولا ضعيف .

وبعد هذا الحديث عن الأمم السابقة وما حلّ بها من الهلاك بسبب كفرها وتكذيبها لأنبيائها ، أخذ القرآن يربط بين الكفار من الأمم السالفة ، وبين الكفار من قوم محمد ، متوجهاً إليهم بالسؤال ، سؤال إنكار وتقريع :

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (٤٣ ـ ٤٦) .

أي أأنتم يا كفار قريش أقوى من أولئكم الأقوام السابقين الذين أُهلكوا ، وأحسن حالاً منهم ، أم لكم براءة من العذاب ، وصك من الأمان مسجّل ﴿في الزُّبُرِ ﴾ أي في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، أم يقول هؤلاء الكفار ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أي نحن جمع كثير متفقون فلنا الانتصار على محمد . وهنا يردُّ الله على ادعاءاتهم : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ أي سيُهزم جمع المشركين ويولون الأدبار فارين منهزمين .

هذه الآية التي تعلن انهزام المشركين هي معجزة للقرآن تشهد أنه وحيٌ إلٓهي ، فهذه الآية نزلت في مطلع الدعوة الإسلامية حين كان المسلمون قليلين مُستضعَفين مُضطهَدين من كفار قريش الذين كانوا يفوقونهم عدّة وعدداً . فالقرآن يتنبأ بمصير طغاة قريش ، وأنهم سينهزمون على يد المسلمين ، فما هي إلّا فترة وجيزة على نزول هذه الآية حتى انتصر المسلمون في معركة بدر على طغاة قريش انتصاراً ساحقاً .

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله قال وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أنشُدُك[١] عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ[٢] ، اللهم إن تشأْ لا تُعبد بعد اليوم . فأخذ أبو بكر بيده فقال : حَسْبُك يا رسول الله ألححت[٣] على ربك ،فخرج رسول الله وهو يثب في الدِّرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ . فهذا النص القرآني الذي ردّده النبي ﷺ في هذا الموقف العصيب كان يعتبره بشارة للمؤمنين وتطميناً لهم من الله بالنصر على الأعداء .

هذا وقد انهزم كفار قريش في معركة بدر هزيمة نكراء بالرغم أنهم كانوا يفوقون المسلمين في عدد الجند وكمية السلاح ، فكفار قريش كان عددهم يوم معركة بدر تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، معهم مائة فرس ، وسبعمائة بعير محملة بالزاد والسلاح ، بينما كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً ، وقد بلغ عدد القتلى بعد المعركة من قريش سبعين رجلاً ، وأُسر منهم سبعون آخرون ، أما قتلى المسلمين فبلغوا أربعة عشر رجلاً .

وبعد أن حَكَمَ القرآن بهزيمة المشركين عقّب على ذلك : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ

---

(١) أنشدك : أطلب منك .

(٢) عهدك ووعدك : ما وعده الله به من النصر .

(٣) ألححت : بالغت .

مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ أي أن القيامة موعد عذاب المشركين ، وعذاب القيامة أعظم في الضر وأفظع ، وأشد مرارة من عذاب الدنيا .

ويتابع القرآن فيذكر نوع العذاب الذي يقاسيه المجرمون من الأمم السالفة والأمم اللاحقة في الآخرة :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ في ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ في النَّار عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٤٧ ـ ٤٨) .

فالمجرمون في ﴿ ضَلَالٍ ﴾ والضلال هو في مقابل الهداية ، وهو العدول عن الطريق المستقيم ﴿ وَسُعُر ﴾ أي في نيران تلتهب بهم في جهنم ، حيث يُجَرُّون في النار على وجوههم ، ويقال لهم إيلاماً ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي ذوقوا حرّ النار وشدة عذابها .

وأخيراً يختم القرآن هذه السورة مبيناً قدرة الله العظيمة ، وعلمه المحيط بالكون ، وما أعد للمتقين من نعيم في الآخرة :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . وَكُلُّ شَيْءٍ فَعلُوهُ في الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ . إِنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهرٍ . في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقتَدِرٍ ﴾ (٤٩ ـ ٥٥) .

فالله سبحانه خلق كل شيء في هذا الكون ﴿ بِقَدَر ﴾ والقَدَر هو ما يُقدِّره الله من القضاء ويحكم به من الأمور ، والتقدير بمعنى التروية والتفكير في تسوية أمر وتهيئته ، وتأتي (قدَر) بمعنى المقدار . ويقول الطبري في تفسير الآية : إنّا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه . وهذه الآية فيها إعجاز وهي على قصرها ينطوي مضمونها على معانٍ عظيمة تشير إلى مدى قدرة الله

وتدبيره المحكم في شؤون الكون ، وسنوضح ذلك في التفسير العلمي في آخر السورة .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ ﴾ أي وما أمر الله لشيء من الأشياء إذا أراد وجوده وتكوينه إلّا كلمة واحدة تصدر منه وهي ﴿ كن ﴾ فيكون ذلك الشيء ويُوجد كسرعة اللمح بالبصر لا يبطىء ولا يتأخر .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي ولقد أهلك الله أشباهكم وأمثالكم ـ يا كفار مكة ـ في الكفر من الأمم السالفة فهل من متعظ بذلك .

﴿ وَكُلُّ شِيْءٍ فَعَلُوهُ في الزُّبُرِ ﴾ الزبر : كتب الحفظة من الملائكة . فكل عمل تسجله الملائكة في كتب ليحاسب عليها الخلق يوم الحساب .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي كل عمل من الأعمال صغيراً كان أو كبيراً فهو ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي مسطور ومكتوب بتفاصيله . وكفار مكة لا يفهمون ولا يمكن أن يتصوروا كيف يمكن أن تحصى عليهم أقوالهم التي يتلفظون بها ، أما نحن في العصر الحاضر فقد بدأنا نلمس ذلك باليد بعد أن انتشرت بيننا أجهزة التسجيل التي تسجل كل شيء من الصوت والصورة .

﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهرٍ ﴾ أي إن المتقين يتنعمون في بساتين ذات أنهار .

﴿ في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ أي في مكانة رفيعة عالية ، أو في مجلس حق لا ريب فيه ، عند رب عظيم قادر على كل شيء .

فالمتقون هم في نعيم الجنان ، وفي نعيم القرب من الرحمن ، وأي منزلة أكرم من تلك المنزلة ، إنها غاية السعادة التي يمكن أن يبلغها بشر .

التفسير العلمي

يقول تعالى في هذه السورة : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي أنه سبحانه خلق كل شيء بمقدار قدَّره وقضاه . وجاء في القرآن ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار ﴾. الرعد : ٨ .

نعم كل شيء في هذه الدنيا جعله الله بمقدار . إن نسبة الأوكسجين توجد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة ، فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث ؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة .

والأوكسجين يستنشقه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات تكوينه منه ، فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسجين ، ويستنفذ النبات كل ثاني أوكسيد الكربون ، وحينئذٍ يذوي النبات ويموت الحيوان .

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار ، فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية ، ولو زاد إشعاعُها بمقدار النصف لأصبح ما عليها رماداً . هذه أمثلة قليلة في هذا المجال ، ولو أردنا أن نجول في هذا الكون ، ونستعرض مخلوقات الله ، ونتأمل في ما خلقه الله بمقدار مما يدل على الحكمة الإلٓهية لاستلزم ذلك مجلدات كثيرة .

سُورَةُ الرَّحْمٰن

مدنية، وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ
رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ
بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا

شرح المفردات

الرَّحْمٰنُ : مِنْ أسماء الله تعالى ، ومعناه الذي وسعت رحمته كل شيء .

عَلَّمَ القُرْآنَ : علَّم الإنسانَ القرآنَ وَيسَّرَ فهمَهُ .

عَلَّمَهُ البَيَانَ : علّمه النطق والإفصاح عمّا في نفسه .

بِحُسبَانٍ : أي يجريان بحساب معلوم في بروجهما ومنازلهما .

النَّجْم : معناه هنا : النبات الذي لا ساق له .

يَسْجُدَانِ : ينقادانِ لله فيما خُلِقَا له .

والسَّماءَ رَفَعَهَا : والسماءَ خَلَقَها اللَّهُ ورفعها بقدرته .

وَوَضَعَ المِيزَانَ : شَرَعَ العدلَ وأمرَ به الخلق .

أَلَّا تَطْغَوْا في المِيزانِ : لئلّا تتجاوزوا العدل والحق .

بِالقِسْطِ : بالعدل .

لا تُخْسِرُوا المِيزَانَ : لا تبخسوا الكيل والوزن .

لِلأنام : للخلائق .

فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

شرح المفردات

الأكْمَام : أوعية الثمر وهي الطَّلع .

والحَبُّ : الحبوب ، كالقمح والفول والذُّرة .

العَصْف : التبن أو ورق الزرع اليابس .

الرَّيْحَانُ : كل نبت له رائحة طيبة .

آلاء : نِعَم ، جمع « ألَى » .

صَلْصَال : طين يابس له صوت عند الضرب عليه .

كالفَخَّار : هو الطينُ يُحْرَقُ حتى يتحجر .

مارِجٍ : لهب النار الصافي الذي لا دُخانَ فيه .

مَرَجَ : أرسلَ .

البَحْرَيْنِ : البحر المالح والماء العذب .

بَرْزَخٌ : حاجز أرضي .

لا يَبْغِيَانِ : لا يختلطان .

المَرْجَانُ : صغار اللؤلؤ ، وقيل هو الخرز الطبيعي الأحمر .

الجَوَارِ : السّفن الجارية في البحر .

كَالأَعْلَام : جمع عَلَم وهو الجبل .

تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾
سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

شـرح المفـردات

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ : كل مَن على الأرض هالك .

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ : أي تبقى ذات ربك .

ذو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ : صاحب العظمة والذي له الإكرام والفضل على جميع خلقه .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ : يحتاج إليه كل من في السماوات والأرض ويسألونه الرحمة .

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ : أي يغفر ذنباً ، ويفرِّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ : سنقصد لحسابكم .

أَيُّهَا الثَّقَلَانِ : الإنس والجن .

تَنْفُذُوا : نفذ : دخل الشيء وتجاوزه .

أقطار : النواحي والجوانب .

بسُلْطَانٍ : بقوة وقهر .

شُوَاظٌ : لهب النار .

ونُحَاسٌ : نحاس مذاب ، أو دخان بلا لهب .

سُورَةُ الرَّحْمٰن

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعرض الدلائل الواضحة على وجود الله من خلال التأمُّل في مخلوقاته ، كما تبيّن قدرته العظيمة ، وتدبيره المحكم في هذا الكون ، وتعدِّد نِعَمَهُ التي أسبغها على الإنسان ، والتي تستوجب الخضوع له ، وشكره على هذه النِّعَمِ ، وعدم مقابلتها بالجحود والتكذيب .

ثم تندِّد هذه السورة بالمكذبين بنعم الله ، مُنذرةً إياهم بسوء المصير ، ومبينةً لهم جانباً مما سيلقونه من عذاب يوم القيامة ، كما تنوِّه بالمتقين وتبشرهم بحسن العاقبة عارضةً لنا جانباً من أنواع النعيم الذي سينالونه في الآخرة .

يستهل الله هذه السورة بقوله :

﴿ الرَّحْمٰن . عَلَّمَ القُرآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ (١ ـ ٤) .

﴿ الرَّحمٰن ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ، وصفة من صفاته ، وهي صيغة للمبالغة مشتقة من الرحمة ، ومعناها : ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء . والرحمة من الإنسان رقة قلبه وعطفه ؛ ورحمة الله : عطفه وإحسانه ورزقه .

ولما كانت هذه السورة تعدِّد آلاء الله على عباده ، فقد ابتدأت بأعلى مراتب الإنعام مقدِّمةً إياها على سائر النِّعَمِ ، وهي نعمة القرآن **﴿ عَلَّمَ القُرآنَ ﴾** فقد علَّم الله محمداً القرآنَ بواسطة الملك جبريل ثم علَّمه محمدٌ لأمته .

وإن في تقديم نعمة تعلم القرآن على سواها من النِّعَمِ ما يدل على أنها أعظم شأناً ، وأسمى مكانة ، حتى أنه قدَّمها على نعمة خلق الإنسان ، لأن الإنسان بدون هَدْي القرآن يعيش في تعاسة وبؤس ، وصراع مع أخيه الإنسان ، وهكذا كان شأن العرب قبل هدْي القرآن ، كانوا في صراع قَبَلي ، القوي منهم يأكل حقوق الضعيف ، وكانوا منغمسين في الفواحش والمُنكرات ، أما بعد نزول القرآن ، وأخذِهم بهديه فقد أصبحوا أمة قوية موحَّدة ، متحلية بالفضائل والآداب ، واستطاعوا أن يُسيطروا على أقوى الأمم في عصرهم ، وينشروا فيها العدل والرحمة .

﴿ خَلَقَ الإنْسانَ ﴾ فهو سبحانه أخرج الإنسان من العدم ، وسوَّاه في أحسن تقويم ، وأعطاه من العقل والحواس والمواهب ما عمَّر به الأرض ، وسخَّرها لمنفعته ، هذه النِّعَم تستوجب شكر الإنسان لخالقه ، كما تستوجب منه عبادتَه وطاعته .

ومن نِعَم الله على الإنسان أنه ﴿ عَلَّمهُ البَيَانَ ﴾ وهو النعمة العظيمة التي تُميِّز الإنسان عن سائر الحيوان . والبيان الذي علَّمه الله للإنسان يشمل : تمكين الإنسان من أن يُعبِّرَ عما يخالجه من الخواطر والأحاسيس والمشاعر بواسطة الكلام ، وتمكينه أيضاً من إفهام غيره والفهمِ عنه ، ولأجل هذه الضرورة نشأت اللغات التي تتضمّن ألفاظها المعاني والمعارف والعلوم .

ولكن لننظر كيف يكون البيان بواسطة النطق ، فالنطق عملية عجيبة معقدة ، كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة ، فالمخُّ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق باللفظ المطلوب ، وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها ليمرَّ من الشُعَب إلى القصبة الهوائية ، إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لا يُقاس بها أوتار أيَّة آلة صوتية صنعها الإنسان ، فيصوِّت الهواء

في الحنجرة صوتاً تُشكله حسبما يريد العقل ،ويشترك مع الحنجرة : اللسان والشفتان والفك والأسنان لصنع الصوت المراد كما يُريده العقل .

ويتابع القرآن فيذكر بعض ما خلقه الله مما يشهد بوجوده وعظمته :

﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا في المِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ (٥ ـ ٩) .

﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ حسبان : مصدر بمعنى الحساب ، أي أن الشمس والقمر يجريان بحساب مقدّر في بروجهما ومنازلهما لمصالح العباد . وإن في مسيرة الشمس والقمر اللذين لا يخطئان في سيرهما ثانية ولا درجة عن مدارهما ، وبُعدهما عن الأرض ما يدلّ على تقدير الله العليم الحكيم . فكل ذلك محسوب حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الكائنات على الأرض . فلو كانت الشمس أقرب إلينا من هذا القدر المعلوم ، وزادت إشعاعها لنا بمقدار النصف لأصبحنا رماداً منذ زمن بعيد ، ولو كانت أقل مما هي عليه وأعطتنا نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمّدنا وهلك ما على الأرض من حيوان ونبات . وكذلك القمر لو كان أقرب إلينا مما وضعه الله لكان المد الذي يحدثه من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب المياه كانت تُغمر مرتين بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ فالسماء ما يقابل الأرض وما علاها ، وَرَفْعُ الله للسماء إشارة إلى أنها مرفوعة بقدرته ، ولا ممسك لها سواه سبحانه وتعالى ، والإشارة إلى السماء لفت الأنظار إلى تناسق هذا الكون ، وعظمة القدرة الإلٰهية التي أبدعته ، فهذه السماء تسبح فيها ملايين المجرات ، كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم المشتعلة ، بالإضافة إلى ما فيها من كواكب .

أما قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ المِيزَانَ ﴾ فالميزان هنا المقصود به : العدل ، وقد شرعه الله في كل شيء خلقه ، بحيث جعله قانوناً عاماً ينتظم به الكون ، فكل شيء في الكون خُلِقَ بالعدل والتوازن في تكوين أجزائه بحيث لا يطغى جزء على جزء ، فكما أن كل شيء في الكون يسير بحساب دقيق وبميزان عادل ، كذلك يريد الله من عباده أن يطبقوا الميزان الدقيق العادل في معاملاتهم .

ومعنى ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا في المِيزَانِ ﴾ أي أن لا تتجاوزوا العدل في سائر أموركم ومعاملاتكم ، أو بمعنى : لا تظلموا في الأوزان . ﴿ وأقيموا الوَزْنَ بِالْقسطِ ﴾ أي اجعلوا أوزانكم قائمة على العدل والإنصاف ، ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ أي لا تُنقصوا الوزن في مبيعاتكم .

وبعد أن وجَّه القرآن النظر إلى خلق السماء أردف ذلك بتوجيه الأنظار إلى خلق الأرض وما تُنبت من صنوف الفاكهة والحبوب .

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَام . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَام . وَالحَبُّ ذُو العَصْفِ وَالرَّيْحَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٠ ـ ١٣) .

فالله سبحانه خلق الأرض وأوجدها ﴿ لِلأَنَام ﴾ أي للخلائق من إنسان وحيوان ، وجعل فيها أصناف الفاكهة ، والنخل[١] ﴿ ذَاتُ الأَكْمَام ﴾ وهي الأوعية التي يكون فيها الثمر ، وهو الطلع .

---

(١) لقد خصَّ القرآن النخل بالذكر بعد أن عمَّمَ أصناف الفاكهة لما له من فائدة كبيرة لجسم الإنسان. فبتحليل التمر كيماوياً وُجد أنه يحتوي على نسبة مرتفعة من السكريات (٧٥ في المائة تقريباً) مما يستفيد الجسم منه في إنتاج طاقة عالية وسعر حراري كبير . هذا فضلاً عن أن التمر يحوي أيضاً نسبة عالية من الكالسيوم والحديد والفوسفور التي يحتاج إليها الجسم ومقداراً من حمض النيوكوتينك ، الفيتامين الواقي من مرض البلاجرا وفيتاميني (أ) و (ب) . ويحتوي على نسبة من البروتينات والدهنيات ، وكل هذه المكونات تجعل من ثمر النخل غذاء كاملاً .

كما أن في الأرض أصناف الحبوب : كالقمح والشعير والفول والذرة ليقتات منها الإنسان والحيوان . أما ﴿ العَصْف ﴾ فهو غلاف حب القمح وحطامه المعروف باسم التبن ، ونحوه في الحبوب الأخرى مما تأكله المواشي . أما ﴿ الرَّيْحَان ﴾ فهو الرزق ، وقيل كل نبات له رائحة كالورد والياسمين وما شاكلهما .

فالله سبحانه امتنَّ على الناس بما خلقه لهم من الفاكهة والنخل والحبوب لغذائهم ، والأزهار ليتمتعوا بـرائحتها الـطيبة ، وهـذه النِّعَم تستوجب : شُكر الإنسان لخالِقه ، وعدم جحود فضله والكفر بنعمه ، ولهذا يعقِّب الله على هذه النعم بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ والآلاء هي النِّعَم ، والخطاب في ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ هو للإنس والجن . كما توضح ذلك الآيات التي ستأتي فيما بعد مثل ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ والمراد من تكذيب آلاء الله الكفر بالله جلَّ وعلا ، إما بإنكار كون هذه النعم منه سبحانه ، وإما بعدم شُكره على هذه النِعَمِ ، لأن الشكر من دلائل الإيمان ، كما أن عدم الشكر من علامات الكفر .

والجدير بالذكر أن القرآن ردّد هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة تارة عقب كل نعمة يمتن الله بها على عباده ، تقريراً لهذه النعمة ، وتأكيداً لها للتذكير بها ، ودعوة لشكر خالقها وهو الله سبحانه ، والاعتراف به وعدم جحوده ، وطوراً ردّد هذه الآية عقب كل تحذير من الله على عصيانه ، ليكون الإنسان متبصِّراً عظمة خالقه فلا يغضبه ، ولا يخرج عن إرادته خوفاً من عقابه .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ، ما أتيت على قول الله

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ إلّا قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب ، فلك الحمد .

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على الإنس والجن بنعمة الإيجاد والتكوين :

﴿ خَلَقَ الإنسَان مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ . وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٤ ـ ١٦) .

فالإنسان المقصود في هذه الآية أبو البشر آدم الذي انحدر جنس الإنسان من صُلبه ، والصلصال هو الطين اليابس غير المحروق ، له صوت عند الضرب عليه ، فإذا أُحرق فهو الفخار .

أما الجان فهم عالم غير مرئي للناس مخلوقون من نار ، وقد ذكر القرآن أنهم خُلقوا من ﴿ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه ، والجن كالبشر مكلفون بالعبادة ، منهم الكفار وهم الشياطين الذين يغْوُون الناس ويدفعونهم إلى ارتكاب الشرور والآثام ، ومنهم المؤمنون .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله في المظاهر الطبيعية وتسييره لها :

﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٧ ـ ١٨) .

قيل المراد في الآية مشرق الشمس صيفاً وشتاءً ، ومغرباها كذلك ، وقد يكون المراد بالتثنية مطلعها في أطول يوم من السنة ، وفي أقصر يوم فيها ، وكذلك المغربان . وقيل المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما وما بينهما من الموجودات قاطبة ، فهو رب الوجود كله .

والشروق والغروب يحصلان من دوران الأرض حول نفسها ، هذا

الدوران هو في نهاية الدقة بحيث لا يخطىء ثانية من الثواني ، فالكرة الأرضية تدور حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن لنفترض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة عندئذٍ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في نهار واحد ، فهذا الدوران بهذه السرعة المعهودة، الذي يترتب عليه شروق الشمس وغروبها بهذا الوقت المعلوم يبيّن عظمة الله وقدرته وفضله على الناس ، وهو من آلاء الله على خلقه التي لا مجال لتكذيبها .

ثم يوجِّه القرآن الأنظار إلى نِعَمِ الله على الإنسان بما سخَّر له البحر والأنهار والبحيرات لمنافعه :

﴿ مَرَجَ البَحْرَيْن يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤلؤ والمرجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٩ ـ ٢٣) .

فالله سبحانه ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ ﴾ أي أرسلهما ، والبحران هما : الماء المالح المتمثل بالبحار ، والماء العذب المتمثل بالأنهار والبحيرات ، فهما ﴿ يَلْتَقِيانِ ﴾ أي يتجاوران ، ويمسُّ أحدهما الآخر ، فتصب الأنهار في البحار ، ولكن بين الماء المالح والعذب (بَرْزَخٌ) أي حاجز من الأرض ﴿ لا يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يطغى أحدهما على الآخر ، أو لا يتجاوزان حدّيهما بإغراق الناس ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤْلُؤُ وَالْمَرجَان ﴾ والمرجان : صغار اللؤلؤ أو هي العروق الحمر التي تطلع من البحر ويصنع منها أدوات الزينة .

ويرى بعض الباحثين(١) أن الآيات القرآنية تنطبق على محيط الخليج

(١) دكتور محمد متولي ـ مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ الرياض ـ عدد ٢ ـ ١٩٧٨ .

العربي حيث يكثر استخراج اللؤلؤ هناك ، وحيث وُجِدَ في الأعماق هناك عيون يندفع منها الماء العذب اندفاعاً قوياً إلى أعلى وسط الماء المالح بحيث تساعده هذه القوة في الاندفاع على تكوين البرزخ المعجزة بين الماء العذب المتدفق وبين الماء المالح ويمنع اختلاطهما ، وتعرف هذه العيون باسم الكوكبات ، ومنها يشرب الغواصون عند فراغ مياه الشراب عندهم .

واللؤلؤ من عجائب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق وهو داخل صدف من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد عجيبة النسج تكون كالمصفاة تسمح بدخول الماء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها ، وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه ، فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد مكونة لؤلؤة(١) .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله على الإنسان بالسفن التي ألهمه صنعها ، هذه السفن التي أصبحت اليوم من دعامة الحضارة الحديثة :

﴿ وَلَه الجَوَارِ المُنْشَآتُ في البَحْرِ كالأَعْلَامِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٤ ـ ٢٥) :

الجوار : هي السفن . المنشآت : المصنوعات ، أو المرفوعات القلاع . الأعلام : جمع عَلَم وهو الجبل . فالله سبحانه يشبه السفن بالجبال من حيث الضخامة .

---

(١) عن كتاب الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

وقفة قصيرة عند تشبيه القرآن للسفن بالجبال ، هذا التشبيه لم يظهر على حقيقته إلّا بعد نزول القرآن بقرون عديدة حين بُنيت السفن العظيمة عابرات المحيطات التي تسع ألوف الركاب ، وناقلات النفط العملاقة التي تحمل آلاف الأطنان ، وحاملات الطائرات ، وكل هذه بضخامتها تشبه الجبال .

إن وصف السفن بالجبال لهو نبوءة للقرآن يكشفها للأجيال التالية لأنه كلام رب العالمين . فلو كان القرآن من كلام بشر لما وُصفت السفن بهذا الوصف قبل أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ حيث لم تكن السفن توحي بهذا الوصف ، فلقد كانت السفن آنذاك شراعية صغيرة الحجم ، ولم تكن من الضخامة لِتُشَبَّهَ بالجبال كهذه السفن التي نراها اليوم بما تتصف به من الحجم الهائل والكبر المتزايد الذي يشبه الجبال فعلاً .

وبعد أن بَيّن القرآن نِعَمَ الله على الإنسان ، بيّن بعد ذلك أن مآل كل ما على الأرض هو إلى فناء :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٦ ـ ٢٨) .

فكل من على الأرض هالكٌ إلّا ذات الله سبحانه ، وهذا ما ذكره القرآن أيضاً في موضع آخر ﴿ كُلُّ شَيء هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ ﴾ القصص : ٨٨ .

فهو سبحانه ﴿ ذُو الجَلالِ ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء ، وهو أيضاً ذو الإكرام ، أي أنه يُكرّم عن كل شيء لا يليق به ، وقيل صاحب الإكرام لأوليائه .

هذه الآية الكريمة ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ تعلن أهم حقائق الحياة التي

يقف الإنسان أمامها خاشعاً مطأطىء الرأس ، عاجزاً . فكل مخلوق حي في هذه الدنيا مُقبل على زوال ، والموت لا يستثني أحداً على وجه الأرض مهما علت مكانته ، والخلود والبقاء لله وحده .

هذه الآية توحي بعبادة الله الباقي بعد فناء الخلق ، وعدم الاغترار بالدنيا وملذاتها الزائلة .

وهذه الآية أيضاً تقدم أعظم العزاء للذين فقدوا الأحبة ، أو أصابهم المرض المضني الميؤوس منه ، أو نالتهم الخسارة في الأموال وغيرها ، أو يقاسون الظلم والطغيان ، فكل شيء في هذه الدنيا مصيره الزوال ، والناس جميعاً يتساوون في هذا المصير .

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك بأن كل مخلوق مفتقر إلى الله في بقائه واستمرار وجوده :

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُو في شَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

فأهل السماوات من الملائكة يسألونه المغفرة والرحمة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة والرحمة ، فهو سبحانه ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ ﴾ أي في كل ساعة ولحظة هو سبحانه في شأن من شؤون الخلق فهو يحيي ويُميت ، ويغفر ذنباً ، ويفرِّج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين ، ويُعزّ ويُذل ، ويُعطي ويمنع ، ويُشفي ويُمرِض ، لا يشغله شأن عن شأن .

وبعد أن بيّن القرآن افتقار الخلق إلى خالقهم انتقل إلى تحذير الإنس والجنّ من مغبَّة عصيان ربهم :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣١ - ٣٢) .

سنفرغ لكم : أي سنعمد إلى حسابكم ، وهنا وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة ، كما يقول القائل لمن يتوعّده : سأتفرّغ لك ، وليس هو فراغاً من شغل ، لأن الله لا يشغله شيء عن شيء . والثقلان : الإنس والجن ، وسمّيا بذلك لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من مخلوقات الأرض ، أو لأنهما مُثقلان بالذنوب ، أو لأنهما أُثقلا بالتكاليف الشرعية .

ثم يوجّه القرآن بعد ذلك الخطاب إلى الإنس والجن مبيّناً عجزهما ، وأن قدرتهما محدودة في ملكوت الله .

﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْس إِن اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض فَانفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ونُحاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣٣ - ٣٦) .

فمعنى سلطان : المُلْك . وقيل : هو القوة الغالبة التي يتسلط صاحبها على الأمر . وقيل : الحجة .

قيل إن هذه الآيات خطاب للإنس والجن يوم القيامة والمعنى : إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من عقاب الله فارين من عذابه فافعلوا ، وأنتم لا تقدرون على الخلاص إلاّ بمُلْكٍ وليس لكم مُلْكٌ لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكوت الله وسلطانه . يصب عليكما أيها العاصون من الإنس والجن نار ونحاس مذاب فلا تقدرون على دفع هذا العذاب .

وقيل في تفسير هذه الآيات ما نقله ابن جرير عن ابن عباس : إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلّا بسلطان يعني البينة من الله .

هذا التفسير الأخير يتسع لقبول فكرة غزو الفضاء والوصول إلى القمر وبقية الكواكب الأخرى في مجموعتنا الشمسية والتي حقق الإنسان بعض الإنجازات في ذلك ، إذ وطئت قدمه أرض القمر ، واستكشف بواسطة السفن الفضائية بعض أسرار كواكب المريخ وكوكب الزهرة .

ففي قوله تعالى : ﴿ فانْفُذُوا ﴾ إشعار أن باستطاعة الإنسان اختراق بعض نواحي السماء واختراق جوانب الأرض ، لكن هذا النفاذ يحتاج إلى سلطان ، وهو القوة التي يتسلط صاحبها على الأمر . ففي الأرض تم له ذلك بواسطة اختراع الطائرة وإحداث شبكة من الطيران ربطت العالم الأرضي بعضه ببعض .

أما في السماء فالإنجاز العلمي الذي حققه الإنسان فيها لا يزال في البداية ، وضعفه واضح ، وعجزه مكشوف ، فكل الكواكب التي تنتسب إلى المجموعة الشمسية ليست إلّا ذرات في هذا الكون الفسيح ، فعدد النجوم والكواكب يقدر بالبلايين ، وأبعاد هذه الكواكب والنجوم مستحيل الوصول إليها ، فأبعد الكواكب السيارة وهو « بلوتو » الذي ينتسب للمجموعة الشمسية يستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس ، وسرعة الضوء ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية مع أن الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق بين أربع سنوات وخمس وكل نجم هو شمس كشمسنا يدور في فلكه كواكب . لقد استطاع الإنسان بواسطة الصواريخ التي لقوتها واندفاعها تستطيع حمل سفن الفضاء إلى القمر ، فالصواريخ هي القوة التي

قامت على العلم لاستكشاف بعض أسرار الفضاء .

هذا وإن القرآن استدرك وبيَّن عجز الإنسان وأن قدرته لن تصل إلّا إلى حدٍّ محدود في غزو الفضاء وهو قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ ، مِنْ نَارٍ ونُحاسٌ فلا تَنْتَصِرَان ﴾ فالإنسان لا يستطيع التوغل كثيراً في الفضاء ، فهناك نار ومعدن ذائب ودخان ، كما أن هناك شهباً ونيازك ومذنبات وأشياء أخرى تحول بينه وبين محاولاته وطموحاته .

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً
كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا
مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ
عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

شرح المفردات

فكانت وَرْدَةً : فصارت حمراء كلون الورد الأحمر .

كالدِّهَان : تصير سائلة كالزيت .

بسيمَاهُم : بعلامات فيهم وهي : سواد الوجوه وزرقة الأعين .

بالنَّواصِي : جمع ناصية وهي شعر مقدم الرأس .

حَمِيمٍ : ماء حار .

آن : البالغ أقصى الحرارة .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ : ولمن اتّقى الله من عباده فخاف قيامه بين يديه للحساب ,

أَفْنَان : جمع فنن وهو الغصن ، وقيل : ألوان من الفاكهة .

فُرُشٍ : جمع فراش .

بطَائِنُها : جمع بطانة وهي ما بطن به الثوب من الداخل .

إِسْتَبْرق : الحرير الغليظ .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ
حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ
فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ
رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

شرح المفردات

قاصِرَاتُ الطَّرْفِ : النساء اللاتي قصرن أبصارهن على أزواجهن .

لم يَطْمِثْهُنَّ : عذارى لم يتزوجهن أحد من قبل .

مُدْهَامَّتَانِ : لونهما ضارب إلى السواد من شدّة الإخضرار والريّ .

نَضَّاخَتَانِ : تفوران بالماء .

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ : نساء فاضلات الأخلاق حِسان الوجوه .

حُور : جمع حوراء ، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة .

مَقْصُورَاتٌ : قَصَرْن أنفسهن على أزواجهن فلا يُردن غيرهم .

رَفْرَفٍ : الفرش والبسط والوسائد .

عَبْقَرِيٍّ : الطنافس الموشاة ، وقيل إنها وصف لكل جليل نفيس نادر .

تابع سورة الرحمن

ثم ينتقل القرآن إلى استعراض بعض مشاهد القيامة ، وما يعقب ذلك من مشاهد العذاب للمجرمين :

﴿ فإذَا انشقَّتِ السَّماءُ فكَانتْ وَرْدَةً كالدِّهَانِ . فبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ . فيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إنْسٌ ولاَ جانٌّ . فبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبانِ . يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فيُؤْخَذُ بالنَّواصِي وَالأَقْدَام . فبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ . هَذِهِ جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَها وبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ . فبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣٧ ـ ٤٥) .

أي فإذا جاء يوم القيامة تصدَّعت السماء ، واختل نظامها ، واحمرَّ لونها ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي صارت كلون الوردة ، وقد تختلف ألوانها ولكن الأغلب عليها هو اللون الأحمر .

وتصير السماء ﴿ كالدِّهَان ﴾ أي كدهن الزيت في الذوبان من شدة الحرارة ، ﴿ فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ لأن المذنبين يُعرفون بمظهرهم وهو ما يغشاهم من الكآبة والحزن ، أو سواد الوجه وزرقة الأعين[١] ، ثم يكون مصيرهم : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ فالملائكة الموكلون بعذاب المجرمين يأخذونهم بنواصيهم : أي بشعور مقدم رؤوسهم ، كما يأخذونهم بأقدامهم فيقذفونهم في نار جهنم ، ثم يُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : هذه جهنم التي أُخبرتم بها فكذبتم ، إنها حاضرة تشاهدونها عياناً . ثم بعد ذلك ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ فالحميم : هو الماء الشديد الحرارة . أما آن : فهو البالغ في الحرارة أقصاه .

---

(١) جاء في القرآن : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسودُّ وُجُوهٌ ﴾ آل عمران : ١٠٦ . وجاء أيضاً : ﴿ وَنَحْشُر المجرمين يومئذٍ زُرْقا ﴾ والمراد زرق الأعين .

فالمجرمون يترددون بين أمرين : بين نار جهنم فيحرقون بنارها ، وبين الماء الحار الذي يصب عليهم ، وإذا استغاثوا من النار أُغيثوا بالماء الحار .

ومجيء الآية ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ عقب آيات العذاب للمذنبين لأن آيات العذاب فيها زجر للعصاة ليرتدعوا ويتوبوا ، وفي ذلك نعمة لهم تستحق أن لا يُكذِّبوها .

وبعد أن أوضح القرآن عذاب الكفار انتقل إلى وصف نعيم المؤمنين في الآخرة :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بطائنها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٤٦ ـ ٥٩) .

أي ولمن اتقى الله من عباده فخاف ﴿ مَقَامَ رَبِّه ﴾ أي مقامه بين يديه للحساب يوم القيامة ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، فله ﴿ جَنَّتَان ﴾ والجنة هي البستان ذو الشجر المثمر . وهاتان الجنتان ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ جمع فنن وهو الغصن ، ومن هذه الأغصان تُنشر الظلال وتُجنى الثمار . وفي كل واحدة من الجنتين عين جارية بالماء العذب تجري مياهها بين الشجر ، كما أن فيهما صنفين من الفاكهة : صنفاً معروفاً في الدنيا ، وصنفاً غريباً عن العباد لم يُعرف . وأهل الجنة ﴿ متكئين ﴾ أي جالسين مسندين ظهورهم أو جنوبهم على ﴿ فُرُشٍ ﴾ جمع فراش ، وتشمل الأسرّة والوسائد والبسط ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ أي البطانة الداخلية من حرير

سميك ، فإذا كانت البطانة بهذا الوصف والبطانة تكون عادة من قماش غير ثمين فما بالك بالظواهر ؟ ﴿ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أي وثمر هذين البستانين قريب التناول يناله القائم والقاعد والمضطجع . وفيهن أي في الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي نساء حابسات عيونهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم عفافاً وطهراً ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُم وَلاَ جَانٌّ ﴾ أي هن عذارى لم يمسهن مس الزوج لزوجته أحد قبل أزواجهن لا من البشر ولا من الجن ﴿ كَأَنَهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَان ﴾ والياقوت : حجر كريم صلب صاف شفاف ذو ألوان مختلفة ، وإن كان يغلب على بعضه اللون الأحمر . والمرجان : صغار اللؤلؤ . أي هذه النساء شبهت بالياقوت والمرجان في حمرة الوجه وبياض البُشرة وصفائها .

ويبيّن الله سبب هذا النعيم كله بقوله :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ (٦٠ - ٦١) .

فكلمة الإحسان في الآية جاءت بمعنيين : الأول يُراد به إحسان الإنسان في عمله ، وامتثاله لطاعة ربه ، وكلمة الإحسان الثانية يُراد بها الجزاء على إحسان الإنسان في دنياه ، وهو إحسان الله على المتقين بنعيم الجنات والرضوان من الله . ويكون معنى الآية : ما جزاء من أحسن في الدنيا إلاّ أن يُحسن إليه في الآخرة .

ومن إحسان المؤمن امتثاله لجميع تعاليم دينه ، والنهوض بعبادة ربه على الوجه الأكمل مستشعراً أن الله مُطّلع عليه كما قال النبي ﷺ : « الإحسان أن تَعْبُدَ اللَّهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » رواه البخاري .

والإحسان بهذا المعنى يتطلّب أن يستشعر المؤمن أنه بحضرة ربه يراقبه

في كل صغيرة وكبيرة في السرّ والعلن لا يخفى عليه من أمر عباده خافية ، وهذا يستلزم الإخلاص لله والقيام بالعمل الصالح ابتغاء مرضاته ، وقد سمى الله كل ما يقدّمه المؤمن في دنياه من عمل صالح : حسنة ، يُثاب عليها في الآخرة : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَومَئِذٍ آمِنُون ﴾ النمل : ٨٩ .

ويتابع القرآن فيستعرض صورة أخرى من صور النعيم أقل رتبة من النعيم السابق يستحقه أناس أقل درجة في الفضل والإيمان والعمل الصالح :

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُدْهَامَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخلٌ وَرُمَّانٌ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٦٢ ـ ٦٩) .

أي ولكل فرد ممن خاف مقام ربه من دون الجنتين الأوليين في الفضل : جنتان ، أي بستانان في الجنة ، والجنة دار النعيم في الآخرة . وهاتان الجنتان ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي خضراوان من الريّ ، وقيل خضراوان تميل خضرتهما إلى السواد لأن الاخضرار إذا اشتد مال لونه إلى السواد ﴿ فيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ في هاتين الجنتين عينان فوارتان بالماء من غير انقطاع ﴿ فيهمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ والفاكهة هي كل ما يتفكه ويتلذذ به من الثمار ، وتخصيص النخل والرمان بالذكر وهما من الفاكهة لمزيد نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه .

ويتابع القرآن ذكر ما احتوت عليه هاتان الجنتان الأخيرتان من أنواع النعيم :

﴿ فِيهنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ . فَبِأَيِّ آلاءِ ربكما تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَقْصُورَاتٌ في الخِيَام . فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُم وَلاَ جانٌ . فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٧٠ - ٧٧) .

أي وفي هاتين الجنتين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي نساء فاضلات الأخلاق حِسان الوجوه ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ في الخِيَامِ ﴾ حور : جمع حوراء وهي المرأة النقية البياض ، الشديدة بياض العين الشديدة سواد الحدقة ، ومعنى مقصورات : أي قُصرن على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلاً ولا يرفعن أنظارهن إلى غيرهم من الرجال فهن يحببن أزواجهن حباً يشغلهن عن النظر إلى غيرهم ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ أي لم يمسّهن مسّ زواج قبل هؤلاء الذين يخافون ربهم أي بشر أو جانّ ﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ جالسين متمكنين في مجالسهم على بسط خضر أو متكئين على وسائد خضر ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ عبقر : تعني في الأصل موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن وينسب إليه كل فائق جليل تعجبوا من حذقه أو من جودة صنعه ، وكل نادر من فرش أو ثياب أو بسط موشاة . ومعنى حسان : حسنة المنظر .

وبعد أن استعرضت السورة نعم الله في الدنيا والآخرة تختتم بتقديس الخلاّق العظيم .

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٧٨) .

تبارك ، تأتي بمعنى : تَقَدَّسَ ، وَكَثُرَ خيره وفضله ، فهو سبحانه ذو الجلال ، والجليل : العظيم القدر ، ووصفه سبحانه بذلك الوصف إما لخلقه جميع الأشياء المستدلّ بها على وجوده ، أو لأنه يُجَلُّ عن الإحاطة به ، أو أن يُدرك بالحواس . وهو سبحانه ذو الإكرام أي الخليق بالحمد والشكر والثناء ، أو أنه ذو الإكرام أي المكرم لأوليائه وأصفيائه .

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية ، وآياتها ست وتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً
مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ

شرح المفردات

وَقَعَتِ الوَاقِعَة : قامت القيامة ، والواقعة من أسماء القيامة .

خَافِضَةٌ رَافِعَة : خافضة للكفار رافعة للمؤمنين .

رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا : حُركت تحريكاً شديداً .

بُسَّتِ الجِبَال بَسًّا : فُتّتت الجبال تفتيتاً .

هَبَاءً مُنْبثًّا : غباراً متفرقاً منتشراً .

أَزْواجاً : أصنافاً .

والسَّابقون السَّابِقون : المسارعون إلى الإيمان والتوبة وأعمال البرّ .

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُون : المقربون عند الله الذين نالوا حظوة عنده ورُفعت مراتبهم .

ثُلَّة : جماعة كثيرة من الناس .

الأَوَّلين : الأمم الماضية .

مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن
مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ
ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

شَرح المفردَات

سُرُر مَوْضُونَةٍ : مقاعد منسوجة من الذهب بإحكام .

مُتَّكئينَ عَليها مُتقابلين : يجلسون ووجوههم متقابلة .

يُطوفُ عَلَيْهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدون : يخدمهم غلمان يبقون في نضارة الصبا لا يهرمون .

بأكْوابٍ : بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها .

مَعينٍ : أي من خمر تجري كما تجري عيون الماء على وجه الأرض .

لا يُصَدَّعُونَ : لا يصيبهم صُداع من شربها .

ولا يُنزِفُون : لا تذهب عقولهم بالسكر .

حُورٌ : جمع حَوراء ، هي المرأة الحسناء البيضاء ، شديدة بياض العين شديدة سواد الحدقة

عِينٌ : جمع عَيناء ، وهي الواسعة العينين .

لَغْواً : الباطل والفاحش من الكلام .

تأْثيماً : كلاماً فيه إثم .

سِدْر : شجر النبق .

مَخْضُود : منزوع منه الشوك .

طَلْح منضُود : شجر الموز المرصوص المتراكم بالحمل من أسفله إلى أعلاه .

ظِلٍّ ممدُودٍ : ظل دائم باق لا يـزول .

وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣
وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦
عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ
ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ
٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ
مُتۡرَفِينَ ٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ
أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨
قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠

شرح المفردات

ماءٍ مَسْكُوبٍ : ماءٌ جارٍ لا ينقطع ، يجري في غير أخدود أو مجرى .

فُرُش مَرْفُوعةٍ : نساء رفيعات القدر في الحُسن والكمال .

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً : أي خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً في غاية الحسن .

أَبْكَاراً : عذارى .

عُرُباً : جمع عَرُوب ، وهي المتحببة إلى زوجها .

أَتْرَاباً : متماثلات في السن .

سَمُومٍ : الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن فتؤذيه .

حَمِيم : الماء الشديد الحرارة .

وَلَا كَرِيمٍ : ليس فيه خير ، أو ليس حسن المنظر .

مُتْرفينَ : متنعمين بالمحرمات ، مُقبلين على الشهوات .

الحِنْثِ العَظِيم : الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله .

مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ : وقت يوم معلوم ، هو يوم القيامة .

سُورَةُ الوَاقِعَة

ايضـــاح و دروس

القضية الأساسية التي تعالجها هذه السورة ، هي قضية الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت ، والدلائل العقلية على حدوثها ، وأحوال الناس فيها .

هذه الحياة الآخرة يكون أول بدئها يوم القيامة حيث يشاهد انفراط هذا الكون ، وقيام الناس من قبورهم أحياء للحساب على أعمالهم ، ثم يُساقون إما إلى نعيم أو إلى عذاب .

تبدأ هذه السورة بوصف يوم القيامة ، وذِكْر أحداث هذا اليوم مما يميزه عن غيره من الأيام ، ففيه تتبدل أقدار الناس وأوضاع الأرض . وقد سمى الله القيامة : الواقعة ، للإيذان بتحقق وقوعها ، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . يقول تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَت هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ (١ ـ ٦) .

فإذا قامت القيامة لا تكون نفس مكذِّبة بوقوعها ، وهي في وقوعها خافضة لأقوام في جهنم ، رافعة لأقوام آخرين إلى الجنة . ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ فالأرض يومذاك تُزلزل وتُحرك تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي تتفتت الجبال تفتتاً ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً ﴾ فتصير غباراً ﴿ منبثًّا ﴾ متفرقاً منتشراً .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مراتب الناس وأحوالهم يومذاك :

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً . فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ . والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . في جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ (٧ ـ ١٤) .

وسيكون الناس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة ، منهم صنفان في الجنة هما أصحاب الميمنة ، والسابقون ، والصنف الثالث يكون في النار وهم أصحاب المشأمة . والميمنة ناحية اليمين ، وتعني في اللغة اليُمن والسعادة ، ولذلك سمّى القرآن أهل الجنة بـ ﴿ أصحَاب اليمين ﴾ و ﴿ أَصْحَاب الْمَيْمَنَة ﴾ لأنهم يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم .

أما الذين كفروا واستحقوا العذاب فيأخذون كتب أعمالهم بشمائلهم ، وهم الذين سماهم الله ﴿ أَصْحَاب الشِّمال ﴾ و ﴿ أَصْحَاب المشْأَمَة ﴾ ، والمشأمة ناحية الشمال من الشؤم الذي هو ضد اليُمن .

والاستفهام بـ « ما » عند ذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، للتعجب من حالهم ، فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال .

أما الصنف الآخر وهم السعداء في الآخرة فهم ﴿ السَّابِقُون السَّابِقُون ﴾ قيل : هم الذين سبقوا غيرهم إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تَوانٍ ، وقيل : هم السابقون إلى الهجرة والجهاد ، وإلى التوبة وأعمال البرِّ ﴿ أُولَئِكَ المقَرَّبُون ﴾ أي أولئك الذين ينالون حظوة ومكانة عند الله . والمقَرَّبون هم : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الآخرين ﴾ والثلة هي الجماعة الكثيرة ، فالمراد بالأولين : الأمم الماضية الذين سبقوا عهد النبي ﷺ ، والمراد بالآخرين أمة محمد ﷺ ، وقيل : إن الأولين هم

أصحاب رسول الله ، والآخرين : هم التابعون لهم بإحسان ممن جاؤوا بعدهم على مرّ العصور .

ثم يذكر القرآن ما أُعد لهؤلاء السابقين إلى الإيمان من نعيم في الجنة :

﴿ على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ ممَّا يتخيَّرون . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً . إلَّا قيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ (١٥ - ٢٦) .

فالسابقون في الجنة ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أي على مجالس منسوجة من الذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلين ﴾ يجلسون متقابلين وجهاً لوجه متساوين في الرتب ، ليس أحد وراء أحد ، وهذا أدعى للسرور . ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدون ﴾ يدور حولهم لخدمتهم غلمان في نضارة الصبا لا يهرمون ولا يموتون . وهؤلاء الغلمان يطوفون ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أي بأقداح كبيرة لا عرى لها ، وأباريق لها عرى مملوءة بخمر الجنة ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ وهو الإناء إذا كان مملوءاً خمرةً ﴿ مِنْ مَعِينٍ ﴾ من خمر عين جارية ، والمعين هو الماء الجاري الظاهر ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْها ﴾ فهذه الخمر لا تسبب الصُّداع كخمر الدنيا ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ ولا يسكرون بشربها فتذهب بعقولهم .

وبالإضافة إلى ذلك يُقدم لهؤلاء المقربين أنواع الفاكهة فيختارون منها ما يشاؤون ، كما يقدم لهم أنواع من لحوم الطير فيتناولون منها ما تشتهيه نفوسهم .

ويقوم على إيناس هؤلاء المقربين ﴿ حُورٌ عِين ﴾ وحور :

جمع حوراء ، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة ، وعين : جمع عيناء وهي الحسناء الواسعة العينين ﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكْنُون ﴾ كأنهن في جمالهن اللؤلؤ المحفوظ في الأصداف في النقاء والصفاء ﴿ جَزَاءً بِمَا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا العطاء الإلٓهي هو مكافأة لهم على ما قدَّموه في دنياهم من عملٍ صالح . ﴿ لَا يَسْمَعُون فِيهَا لَغْواً ﴾ فهم لا يسمعون في الجنة كلاماً قبيحاً باطلاً ﴿ وَلَا تَأْثِيماً ﴾ ولا كلاماً فيه إثم أو كذب ﴿ إلَّا قيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾ أي لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض بالسلام ، وقيل تحييهم الملائكة بالسلام .

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما أعد الله من نعيم لأصحاب اليمين الذين هم دون [السابقون] في الدرجة والرتبة :

﴿ وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ . في سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ . إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً . لِأَصْحَابِ اليَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ (٢٧ ـ ٤٠) .

فأصحاب اليمين في الجنة بين أشجار وارفة ظليلة من أشجار (السدر) وهو شجر النبق وكان العرب يعجبون به لطيب رائحته ولأنه يستظل به ولكنه ﴿ مَخْضُود ﴾ أي منزوع الشوك . ولهم في الجنة ﴿ وطَلْحٍ مَنْضُود ﴾ وهو شجر الموز المتراكم بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، ﴿ وظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أي ظل دائم لا يزول ، ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ وماء جار دائم ينصب من العيون ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ وفاكهة لا تنقطع كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الفصول ولا يُحال بينهم وبينها أو يُمنعون من تناولها . ولأهل الجنة ﴿ فُرُش مَرْفُوعَة ﴾ أي يجلسون على فُرُشٍ وثيرة عالية القدر والرتبة .

وقيل المراد بالفرش : نساء رفيعات القدر في الحسن والكمال . ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أي خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً في غاية الحسن ، قيل المراد بذلك نساء الدنيا المؤمنات اللاتي كُنَّ في سن الشيخوخة فيعيدهن الله إلى حال الشباب وكمال الجمال . ﴿ فَجَعَلْنَاهن أَبْكَاراً ﴾ أي جعلهن الله عذارى ﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ أي متحببات إلى أزواجهن ، وجميعهن في عمر واحد . وكل هذا النعيم أعدَّه الله ﴿ لِأَصْحَابِ اليَمِينِ ﴾ وهم ﴿ ثُلَّةٌ من الأوّلين ﴾ جماعة من الذين مضوا قبل أمة محمد ﷺ ﴿ وَثُلَّةٌ من الآخِرين ﴾ وجماعة من أمة محمد ﷺ .

وبعد أن ذكر القرآن أحوال أهل النعيم انتقل إلى ذكر أحوال أهل الشقاء في الآخرة :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كانوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظِيمِ . وكَانوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وكُنّا تُراباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ (٤١ ـ ٤٨) .

فأصحاب الشمال تلفحهم ريح حارة تدخل مسامَّ البدن ، وهي التي تسمى ﴿ سموم ﴾ وإذا احتاجوا إلى ماء يبل ظمأهم فمـاؤهم متناهٍ في الحرارة وهو المسمى ﴿ حميم ﴾ وهم أيضاً في ﴿ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم ﴾ أي ظل شديد السواد وهو دخان جهنم ، وتسميته ظِلاً على سبيل التهكم ، وهذا الظل ﴿ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي لا بارد كسائر الظلال ولا نافع لمن يأوي إليه ، ولا هو حسن المنظر كظلال أهل الجنة .

لقد استحقوا العذاب : أولاً : لأنهم كانوا قبل هذا العذاب ﴿ مُتْرَفين ﴾ والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ، وهو المتنعّم والمتوسع في

ملاذ الدنيا وشهواتها .

ثانياً : لأنهم كانوا ﴿ يُصِرُّونَ عَلَى الحِنْثِ العَظِيمِ ﴾ أي كانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله .

ثالثاً : لأنهم كانوا يقولون : ﴿ أَئِذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ فهم كانوا يستبعدون أن يُبعثوا أحياء بعد أن تصبح أجسادهم تراباً وعظامهم نخرة . ﴿ أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ تأكيد للإنكار أي هل سيُبعث آباؤ نا وأجدادنا بعد أن تبلى أجسادهم .

وهنا نتساءل ما علاقة الترف بنكران الآخرة ؟ فالترف هو من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان ينزلق في هاوية المنكرات لأن السمة الغالبة في المترفين هي إرضاء ملذاتهم وشهواتهم ، فلا يتطلعون إلى حياة أخرى يستعدون لها بالعمل الصالح والتضحية بجانب من شهواتهم .

ثم يأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يرد على هؤلاء المنكرين للبعث :

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلومٍ ﴾ (٤٩ ـ ٥٠)

أي قل لهم يا محمد : إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدّده الله بوقت معلوم .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ
تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ

شرح المفردات

شَجَر مِنْ زَقُّوم : شجر قبيح المنظر ، كريه الطعم .

الهِيم : الإبل العطاش التي لا ترتوي لداء يصيبها .

هذا نُزُلُهُمْ : هذا ما أُعِدَّ لهم من الجزاء والضيافة .

يَوْمَ الدِّينِ : يوم الجزاء والحساب .

ما تُمْنُونَ : منيّكم الذي تصبونه في الأَرحام .

قَدَّرْنَا : قضينا ، وكتبنا .

بِمَسْبُوقِينَ : عاجزين ، مغلوبين .

النَّشْأَةَ الأُولى : أي حين خَلَقكم الله أول مرَّة في الدنيا .

فلولا تَذَكَّرون : فهلّا تتذكرون ذلك وتتعظون .

مَا تَحْرثونَ : تهيئون الأرض للزراعة وتلقون فيها الحب .

أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ : أأنتم تنبتونه في الأرض وتجعلونه يُخرج حبًّا وثمراً ؟

حُطَاماً : ما تكسَّر من الحشيش اليابس .

فَظَلْتُمْ تفكَّهُونَ : فظللتم تتعجبون وتحزنون على ما حلَّ بالزرع .

تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ
ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ
جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
* فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ
لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ

شرح المفردات

إنَّا لَمُغْرَمُون : إننا معذبون بذهاب رِزْقنا بدون عوض .

نحنُ مَحْرُومُونَ : حُرمنا الرزق الذي كنا ننتظره .

المُزْن : السُحُب .

أُجَاجاً : شديد الملوحة .

فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ : فهلّا تشكرون نعمة الله عليكم بإنزاله الماء عذباً من السحاب

النَّارَ التي تُورُونَ : تقدحون ، تشعلون .

جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً : جعل الله نار الدنيا تذكيراً لنار جهنم .

مَتَاعاً لِلمُقْوينَ : منفعة للمسافرين النازلين في الأرض القفر .

فَسَبِّحْ باسْم رَبِّكَ العَظيم : قدّس ونزّه ربك العظيم من كل سوء .

فِي كِتَابٍ مَكْنُون : في كتاب مَصُون محفوظ عن الباطل .

مُدْهِنُون : مكذِّبون ، منافقون .

تَجْعَلُون رِزْقَكُمْ : تجعلون شُكركم على ما رزقكم الله وأنعم عليكم .

رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ
حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ
إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن
كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ
جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

شرح المفردات

أنكم تُكَذِّبونَ : تكذبون بنعمة الله ، فتضعون التكذيب موضع الشكر .

بَلَغتِ الْحُلْقومَ : بلغت الروح الحلق عند الاحتضار .

تَنْظُرُون : تنظرون إلى المحتضر ولا تستطيعون فعل شيء له .

غير مَدِينينَ : غير مجزيين ومحاسبين على أعمالكم .

تَرجعُونَهَا : تعيدون الروح إلى الجسد بعدما بلغت الحلقوم .

المُقرَّبينَ : السابقين في الإيمان والعمل الصالح .

رَوْحٌ : راحة ، وقيل رحمة .

رَيْحَانٌ : الرزق في الجنة .

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ : فضيافتهم من ماء شديد الحرارة .

تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ : دخول النار ومقاساة عذابها .

اليَقين : هو الحق ، وقد اقتنع به الإنسان بما لا مجال للشك فيه .

تابع سُورَة الوَاقِعَة

ويتابع القرآن وصف عذاب أهل الشمال في الآخرة :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبونَ . لآكلون مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فمالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحَمِيمِ . فَشَارِبُون شُرْبَ الهِيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يوْمَ الدِّينِ ﴾ (٥١ ـ ٥٦) .

أي إنكم أيها الضالون عن هدى الإسلام المكذّبون بالبعث وبما جاء به الرسول عن ربه أعد الله لكم في جهنم شجراً لا نظير له في الدنيا اسمه : الزقّوم ، ثمره كأنه رؤوس الشياطين في قُبح منظره وبشاعته ، ومع هذا فإنكم لآكلون من ثمر هذا الشجر الكريه الطعم ، ومالئون منه بطونكم مكرهين لما يلحقكم من شدة الجوع ، ثم إنكم لشاربون عقب أكله من الماء الحار . وشُربكم هو ﴿ شُرْب الهِيم ﴾ أي شرب الإبل العطاش التي لا ترتوي لداء يصيبها ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ والنُّزُل : الضيافة التي تقدم للضيف أول قدومه ، وتسمية « الزقوم » نزلاً إنما هو للتهكم والسخرية ، لأن النزل للكرامة ، وهذا العذاب للإهانة . ويوم الدين : هو يوم الجزاء .

وبعد أن ذكرت السورة لنا عرضاً لوقائع الآخرة انتقلت إلى ترسيخ الإيمان بالله في الإنسان ، موجهةً أنظارَه إلى بعض مظاهر قدرة الله في مخلوقاته التي هي على مرأى بصره ، ولكن لطول أُلفته لها غَفَلَ عن موضع الإعجاز فيها ، وعن عظمة القدرة الإلّهية المبدعة لها .

فمن مظاهر القدرة الإلّهية : خلق الإنسان :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُون ﴾ (٥٧) .

ويلاحظ في هذه الآية أن الخطاب للناس فيه تلطف ورفق بالنفوس

لتقبل على الإيمان بفطرتها ، وإذا كان أمر الخلق مشاهَداً لدى الناس يرونه كل ساعة ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ فهلاّ تصدقون بأن الله خلقكم وقيل : المراد هنا التصديق بالبعث ، فالله الذي خلق الإنسان ابتداءً على هذه الأرض قادر على إعادة خلقه حياً يوم القيامة للحساب والمجازاة .

ومن مظاهر القدرة الإلَهية خلق منيّ الإنسان :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ (٥٨ ـ ٥٩) .

هذا النص القرآني ظهر إعجازه في العصر الحديث بعد اختراع الميكروسكوب الالكتروني ، ووجود التحاليل الطبية الدقيقة ، فقد تبين : ان المنيّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة يحتوي على ١٠٠ مليون حيوان مَنَويّ في السنتمتر المكعب ، وواحدٌ فقط من هذه الحيوانات المنوية هو الذي يُلقح بُبيضة الأنثى عند الإخصاب ، وهنا يبدأ تكوين الإنسان . وبعد تلقيح بُبيضة الأنثى تنقسم البُبيضة تباعاً إلى مجموعة خلايا تبلغ ملايين الملايين ، كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن المجموعات الأخرى ، فهذه خلايا عظام ، وهذه خلايا أعصاب ، وهذه خلايا لعمل عين ، وهذه خلايا لعمل أذن ، إلخ . . . وكل من هذه الخلايا تتوجه إلى مكان عملها إلى أن تصبح بمجموعها بشراً سويًّا ، فتبارك الله أحسن الخالقين . هذا مع العلم أن الإنسان عندما يدرس علم وظائف الأعضاء ونمو الإنسان وتكوينه يجد أن كل خلية من خلايا الجسم ـ دون استثناء ـ تعرف الدور الذي تلعبه في سبيل تحقيق سلامة الجسم كله .

والسؤال المطروح هنا : من خلق هذا المنيّ الذي هو مصدر تكوين الإنسان ومنه يحصل التناسل؟ . .

هنالك ثلاثة افتراضات : الافتراض الأول أن المنيّ مِنْ خَلْقِ الإنسان ، وهذا ما عرضه القرآن الكريم ﴿ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ ﴾ وهذا استفهام إنكاري توبيخي أي ليس الأمر كذلك ولا يجرؤ أحد على قوله .

الافتراض الثاني : هو أن ذلك حصل بمحض المصادفة[١] .

الافتراض الثالث : أن ذلك مِنْ صُنْع خالق حكيم ، وهو ما ذكره القرآن ﴿ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ .

فالافتراض الأول والثاني يرفضهما العقل بداهة ويـرفضهما العلم والواقع ، فلم يبق إلا الافتراض الأخير المقبول وهو : أن المنيّ من صنع خالق حكيم وهو الله سبحانه .

ثم يتابع القرآن فيذكر مصير الإنسان بعد هذه الحياة :

﴿ نَحْنُ قَدّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لاَ تَعْلَمُون . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُون ﴾ ٦٠ ـ ٦٢ .

فالله سبحانه يقول : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ ﴾ أي نحن قسمنا

---

(١) يقول الدكتور أدوين فاست ، عالم الطبيعة : « وإذا نظرنا إلى الكائنات الحية الراقية فإننا نرى : أن من بينها ما لديه من الذكاء ما يجعله قادراً على التخطيط والابتكار والقيام بأعمال تقرب من حد الإعجاز وتحاول أن تتغلب على القوانين الطبيعية . فإذا تصورنا إن كل ذلك يتم بمحض المصادفة التي تجعل الجزئيات تجتمع بصورة معينة لكي تكوّن ذرات يتآلف بعضها مع بعض لكي تكوّن أجساماً تقوم بدورها بالتكاثر ، وأداء سائر وظائف الحياة ويكون لها عقل وتفكير ، دون أن يكون وراء كل ذلك إلّه مدبّر هو الذي خلق فصور فأبدع ، فإن ذلك لا يقبله عقل أو يتصوره فكر . وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرض مستحيل من الوجهة العلمية ، وطرحنا وراء ظهورنا فرضاً منطقياً بسيطاً ألا وهو وجود الله الذي أنشأ هذا الكون وبدأه بقدرته ، فالله هو المبدىء » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

الموت بين الناس وقضينا به ، وحدّدْنا موت كل واحد بوقت معين لا يتجاوزه ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين ﴾ بعاجزين ﴿ عَلَى أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُم ﴾ أي نهلككم ونأتي بخلق جديد يكونون أطوع لنا منكم ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي ننشئكم خلقاً جديداً في صفات لا تعلمونها وعلى غير صوركم في الدنيا . ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى ﴾ أي ولقد علمتم أن الله أنشأكم وخلقكم في الحياة الدنيا من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً ﴿ فلولا تَذَكَّرُون ﴾ فهلّا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم أحياء كما كان قادراً على خلقكم أول مرة .

ثم يبين القرآن مظهراً آخر من قدرة الله وهي إنباته للزرع الذي به قِوام حياة الإنسان والحيوان :

﴿ أَفرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٦٣ - ٦٧) .

هذا النبات الذي ينبت ويُؤتي ثماره ، ما دوركم فيه أيها الناس ؟ إنكم تحرثون الأرض ، والحرث في اللغة : تهيئة الأرض للزرع وإلقاء البذر فيها، ثم تأخذ يد القدرة الإلّهية في عملها المعجز ؛ فلا كفي أن تتوفر: أرض وضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات ، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة ، والتي تعمل معاً في توافق عجيب، ثم تنتج هذه البذور والحبوب نباتاً شبيهاً بالنبات الذي جاءت منه الحبوب والبذور السابقة بنوعيته مع وراثة صفاته ، فإذا حبة القمح من نوع معين تصبح سنبلة تحمل الحب الكثير من ذلك النوع ، وإذا النواة تصبح شجرة كالشجرة السابقة

المأخوذة منها النواة(١) .

وما أكثر الحالات التي لا ينمو فيها النبات رغم ما بُذل فيه من مشقة وجهد ، فالمطر قد يشح ، وقد تهب رياح شديدة البرودة ، أو شديدة الحرارة ، أو تأتي آفات زراعية تقضي على النبات والثمر ، ولهذا يقول الله سبحانه ممتناً على الإنسان : ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ، وليس معنى الزرع كما هو متبادر في أذهان البعض من إلقاء البذور في الأرض ، فالزرع في اللغة : الإنبات ، والمعنى : أأنتم تنبتون الحب ، أم نحن الذي ننبته فيخرج منه الحب والثمر والنبات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ أي لو شئنا لجعلنا النبات هشيماً متكسّراً متفتتاً ﴿ فَظَلْتُم تَفَكَّهُون ﴾ تفكّه : تعجب أو تندم ، أي فظللتم تتعجبون من سوء حاله بعد أن شاهدتموه على أحسن ما يكون ، أو تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ والمغرم هو الذي ذهب ماله بغير عوض ، وقيل بمعنى العذاب ، أي تقولون : نحنُ مُعذبون وخاسرون بسبب ما حلَّ بنا ، وتضيفون قولكم : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرومونَ ﴾ أي حُرِمنا الرزق الذي كنا ننتظره .

---

(١) يقول الدكتور لستر جون زمرمان أستاذ الزراعة بكلية جوشن : « فمن الذي قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات ؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً ، ومن أين جاءت النباتات الأولى ؟ أو بعبارة أخرى كيف خُلق النبات الأول ؟ ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها ، أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ، ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع ، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا » .
(نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

ويتابع القرآن فيذكر مظهراً آخر من قدرة الله وفضله على الناس بالماء الذي ينزله لهم من السماء :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ المَاءَ الذي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْن أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ (٦٨ ـ ٧٠) .

فالله يخاطب الناس بقوله : أفرأيتم الماء العذب الذي تشربونه ، أأنتم أنزلتموه من المزن[1] أم نحن منزلوه لكم . ﴿ لَو نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ أي مالحاً لا يستساغ في شرب ولا يُفيد زرعاً ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُون ﴾ فهلاّ تشكرون الله على نعمه الجليلة عليكم .

وأخيراً يذكر القرآن فضل الله على الإنسان بحصوله على النار من الشجر :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ التي تُورُون . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أم نَحْنُ الْمُنْشِئون . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّح بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ (٧١ ـ ٧٤) .

فالنار التي استخرجها الإنسان تختزن حرارة الشمس ، وما الفحم الحجري من حيث مصدره إلاّ غابات كثيفة طُمرت في الأرض بفعل الزلازل ، وتحجّرت بمرور الزمن الطويل ، فيد القدرة الإلّهية جعلت الطاقة الشمسية مختزنة في الأشجار لينتفع بها الإنسان . وهذه النار يصفها القرآن :

---

(١) المزن هي السحب الممطرة ، وعملية الإمطار تتطلب توفر ظروف خاصة لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان أو يوفرها صناعياً مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن أو حالات عدم الاستقرار في الجو . وقد حاول الإنسان استمطار السحب صناعياً إلاّ أن هذه المحاولات لا تزال مجرد تجارب على أن الثابت علمياً أن نجاح هذه التجارب كان على نطاق ضيق جداً مع وجوب توفر بعض الظروف الملائمة طبيعياً . (المنتخب في تفسير القرآن) .

﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أي تذكيراً لنار جهنم عند رؤيتها ، وهي أيضاً : ﴿ وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾(١) أي منفعة للمسافرين . فالمسافرون قديماً كانوا يجتازون المسافات البعيدة بواسطة الدواب ، وكانت هناك محطات للاستراحة في الأراضي المقفرة ، فيوقدون النار للإضاءة في الليل ويتدفأون بها ، ويطهون عليها طعامهم إلى غير ذلك .

وبعد تعداد نعمه تعالى يأتي الأمر بتسبيح الخالق العظيم : ﴿ فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم ﴾ أي نزّه رَبَّك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص ، وقل سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته ، وسخّرها لنا بحكمته ، ما أعظم شأنه .

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الأنظار إلى النجوم السابحة في الفضاء ، وكان توجيهه للنظر إليها متمثلاً بالقسم بمواقعها ، والقرآن لا يقسم بشيء إلاّ تنويهاً بأهميته ، وللتأمل فيه تأملاً يظهر إبداع الخالق جل وعلا ، قال تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ ﴾ (٧٥ ـ ٧٦) .

ومواقع النجوم هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها . والنفي في القسم بقوله سبحانه : ﴿ لا أقسم ﴾ هو لتأكيد القسم أو أن الأمر هو من العِظَم بحيث لا يحتاج إلى قسم .

والأمر الملفت للنظر هو قوله تعالى بعد القسم بمواقع النجوم : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ ﴾ أي لو علمتم حقيقة النجوم ومواقعها ، لرأيتم أن القسم بها هو قسم عظيم .

---

(١) المقوين : المسافرون الذين ينزلون بالقواء وهي الأرض القفرة .

لقد نزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً وخاطب العرب والعالم بهذا القسم العظيم في وقت لم يكن الإنسان قد اخترع المرصد (التلسكوب) ولم يكن يعلم من حقائق النجوم من حيث العدد ، والحجم ، والبعد ، شيئاً يُذكر ، ولكن اليوم بعد اختراع المرصد الفلكي ، وتطور علم الفلك تبدت للعالم عظمة الآية القرآنية التي نحن بصددها(١) .

فهذه البلايين من النجوم ومواقعها في السماء ، وتوزيعها توزيعاً منتظماً ، وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا تصطدم ببعضها لأعظم برهان على وجود الله ليس بعده برهان .

أمام هذه الحقائق عن مواقع النجوم التي أقسم الله بها ، وأمام قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عظيم ﴾ لا نملك إلا أن نقف بخشوع وإجلال أمام روعة هذا النص القرآني الذي يشهد أنه وحي إلٓهي .

وبعد ذكر القسم العظيم الذي أشرنا إلى عظمته بما كشف عنه العلم ، يأتي المقسم عليه وهو القرآن الكريم ، والقسم العظيم لا يكون إلّا للشيء العظيم :

---

(١) قبل اختراع المرصد الفلكي كان عدد النجوم التي تتراءى لنا من مجموعتنا النجمية التي تسمى « درب التبانة » سواء منها التي تظهر في نصف الكرة الشمالي ، أو في نصف الكرة الجنوبي لا يزيد على ستة آلاف ، ولكن بعد اختراع المراصد الضخمة فإن الموقف يتغير تماماً ، فالعالم الفلكي « شايلي » يقدر عددها بـ ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم ، وقدّر عدد المجرات بما يزيد على ١٠٠ مليون مجرة كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم . وأقصى ما توصلت إليه المراصد من رؤ ية مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي مليون سنة ضوئية . والشمس هي نجم كسائر النجوم وهي تمثل نجماً متوسط الحجم ، وهي إن تراءت لنا نجماً عظيماً فما ذلك إلّا لقربها منا ، وهناك نجوم أكبر من الشمس بملايين المرات . وقد تبين أن مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي وكذلك المجاميع النجمية الأخرى في حالة دوران مشابهة .

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لا يَمَسُّه إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٧٧ ، ٨٠) .

فهذا القرآن هو ﴿ كريم ﴾ ولفظ الكريم اسم جامع لما يُحمد ، والقرآن يُحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة ، ولما فيه من صلاح للبشر . والمراد من قوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُون ﴾ أي في كتاب محفوظ مصُون من التغيير والتبديل . وهذا القرآن الكريم ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قيل هم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب ، وفي هذا رد على مزاعم المشركين بأن هذا القرآن تنزلت به الشياطين . وقيل : لا يجد نفعه وبركته إلّا المطهرون ، أي المؤمنون ، وقيل : لا يمسّه إلّا المطهرون من الجنابة ، أما مسّه على غير وضوء فقد اختلف في ذلك فأجاز البعض إذا كان المس للتعلم ومنع البعض الآخر .

﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فهذا القرآن منزل من عند رب العالمين ، وهو الحق الذي لا ريب فيه .

وبعد كل ما تقدَّم من الآيات التي توجهت لمنكري البعث تارة بالتهويل وتارة بالإرشاد تعود الآيات لتذكّر منكري البعث باللحظة الحاسمة بين الموت والحياة ، والموت هو أكبر قاهر للإنسان يقضي على غروره وعنفوانه ، وهو أهم باعث للإيمان بالخالق ، فأمام رهبة الموت تتفجر ينابيع الإيمان في النفس ، وهذا ما قصده القرآن هنا إذ يذكِّرُ منكري البعث برهبة الموت :

﴿ أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنْتُم مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُم حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨١ ـ ٨٧) .

﴿ أَفَبِهَٰذَا الحَدِيثِ ﴾ الحديث المراد به هنا القرآن ﴿ أَنْتُم مُدْهِنُونَ ﴾ أي مكذبون ، وقيل متهاونون به غير آخذين به مأخذ الجد ﴿ وَتَجْعَلُون رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تجعلون الشكر على ما رزقكم الله أن تكذبوا بنعمه عليكم فتضعون التكذيب موضع الشكر والإيمان ﴿ فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ فهلا إذا بلغت روح الإنسان حلقه عند الموت وشارفت الخروج من جسده ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرونَ ﴾ وأنتم حينئذٍ حول المحتضر تنظرون إليه وتحرصون على إنقاذه ولكن لا تستطيعون دفع الموت عنه ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أي وربكم أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وقدرته ﴿ وَلَكِنْ لا تُبْصرون ﴾ أي لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد(١) .

وفي هذا الجو الرهيب تأتي الآيات التالية مفحمة قاطعة لكل جدال : ﴿ فَلَوْلَا إنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينين ﴾ فهنا خطاب للمنكرين بالبعث يقول الله لهم : فهلا إن كنتم غير مربوبين وغير مملوكين لله ، أو غير محاسبين ومجزيين على أعمالكم ﴿ تَرْجِعُونَهَا إنْ كُنْتُم صَادِقين ﴾ أي فأَرجعوا الروح وقد بلغت الحلقوم إلى صاحبها حتى لا تذهب إلى ما ينتظرها من حساب إن كنتم صادقين في أنكم غير مربوبين وغير مملوكين لله ، ولكن هيهات أن يرجعوا الروح إلى صاحبها ؛ إذن فليعلموا أن الأمر بيد الله وحده وليؤمنوا به وليخضعوا له .

ثم تختتم السورة مشيرة إلى مصير الإنسان بعد الموت ، وفيها تذكير خاطف بأصناف الناس الثلاثة يوم القيامة الذين فُصِّلت مراتبهم في مطلع السورة .

---

(١) حبل الوريد : عرق في أعلى الرقبة يوصل الدم إلى الرأس .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمين . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالين . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ (٨٨ ـ ٩٤) .

فإذا كان الميت من المقربين الذين سبق ذكرهم ـ وهم السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح ـ فله ﴿ رَوْحٌ ﴾ أي راحة من الدنيا ، أو رحمة من الله ، أو فرح بما ينتظره من نعيم ، وله أيضاً ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي رزق في الجنة ﴿ وَجَنَّةُ نعيم ﴾ أي وبستان ذو تنعم .

وأما إن كان الميت من أصحاب اليمين الذين سبق ذكرهم ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمين ﴾ أي أنهم يدعون لـك يا محمد ويسلمون عليك ، وقيل : سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين .

وأما إن كان من ﴿ المكذبين ﴾ بالبعث والقرآن ومن ﴿ الضالين ﴾ عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي تقدم ضيافة له : ماء قد تناهت حرارته ، فهو شرابه ، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيم ﴾ أي دخول النار ليقاسي ألوان العذاب فيها .

ثم يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِين** ﴾ أي أن الذي ذكره الله في هذه السورة لهو الحق الثابت الذي لا يداخله شك .

كما تجيء الآية الأخيرة﴿ **فَسَبِّح باسْمِ رَبِّكَ العَظيم** ﴾مذكرة بما مرَّ في ثنايا السورة من الآيات الباهرة الدالة على عظمة الخالق المبدع ، والمعنى : نزه الله العظيم عمَّا يصفونه من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل .

سُورَةُ الحَدِيد

مدنية ، وآياتها تسع وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ

شـرح المفـردات

سَبَّحَ لِلَّهِ : نزَّهَ اللَّهَ عَن السّوء وَمَجَّدَه .

العَزِيزُ : القويّ الغالب الذي لا يُنازعه في مُلكه شيء .

الحكيم : الذي يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب .

الأَوَّل : السابق في الوجود جميع الموجودات ، فليس قبله شيء .

الآخِرُ : الباقي بعد فناء الخلق ، وليس لوجوده نهاية .

الظاهِرُ : الظاهر للعقول بالأدلَّة والبراهين الدالة على وجوده .

البَاطِنُ : الذي لا تُدركه الأبصار ، ولا تصل العقول إلى معرفة كُنْهِ ذاته .

اسْتَوى عَلَى العَرْش : إستولى على ملكوت السماوات والأرض بالتدبير والتصرف

ما يَلِجُ في الأرض : ما يدخل فيها من البذور والمياه والكنوز والموتى .

وَمَا يَخْرجُ مِنْهَا : من نبات ومعادن وغيرهما .

وما يَعْرجُ فيها : وما يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد .

فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ
وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ
مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ

شرح المفردات

وهو مَعَكُمْ : وهو معكم بعلمه وتدبيره .

يُولِجُ اللَّيْلَ في النهار : يُدخل ظُلمة الليل لتحل محل ضوء النهار .

وَيُولِجُ النهار في الليل : يُدخل ضوء النهار ليحل محل ظلمة الليل .

جَعَلَكُمْ مُسْتَخلفين فيه : جعلكم خلفاءه في التصرف في الأموال .

وَمالَكُمْ لا تُؤمِنونَ بالله : وأي عُذرٍ لكم في عدم إيمانكم بالله .

أَخَذَ ميثاقَكُم : أخذ عليكم العهد بالإيمان .

عَبْدِهِ : أي محمد ﷺ .

آياتٍ بَيِّنَاتٍ : القرآن الكريم .

مِنَ الظُلُمات إلى النُّور : من ظُلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ومالكم ألّا تنفقوا : وأي عُذرٍ لكم في أن لا تُنفقوا .

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض : الله يرث كل شيء فيهما ولا يَبْقى لأحد ملك

قَبْل الفَتْحِ : قبل فتح مكة .

وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ
قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ
ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ
قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ
بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ

شــرح المفـردات

يُقْرِضُ اللَّهَ : ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه .

حَسَناً : يحتسب أجره عند الله .

أجْرٌ كَريمٌ : هو الجنة .

بُشْراكم : البشرى هي الخبر السار .

خَالِدينَ فيها : ماكثين فيها أبداً .

انْظُرُونا : إنتظرونا أيها المؤمنون .

نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ : نستضيءْ بنوركم ، أو نُصِبْ منه .

ارجِعوا وَرَاءكم : إرجعوا إلى الدنيا فاعملوا فيها أعمالاً صالحة .

فالتَمِسُوا نُوراً : فاطلبوا النور بالإيمان والعمل الصالح .

فَضُرِبَ بينهم بِسورٍ : فأُقيم بين المؤمنين والكافرين حاجز .

بَاطِنُهُ فيه الرحمة : أي في باطن السور وهو جهة المؤمنين : الجنة .

وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ : أي في ظاهر السور وهو جهة الكافرين : النار .

أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ
وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ
لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

شـرح المفـردات

فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ : أهلكتم أنفسكم بالكفر والمعاصي .

وَتَرَبَّصْتُم : إنتظرتم أن يحلّ شر بمحمد والمؤمنين .

وارْتَبْتُم : وشككتم في نبوة محمد ﷺ وفي القرآن .

وَغَرَّتكُمُ الأَمَانيُّ : خدعتكم الأماني الباطلة بانتكاس الإسلام .

الغَرُورُ : الشيطان وكل خادع .

لا يُؤخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ : لا يُقبل منكم بَدَلٌ أو عوض تفدون به أنفسكم من العذاب .

مأواكُمُ النَّارُ : مقامكم ومنزلكم جهنم .

هي مَوْلاكم : هي أوْلى بكم لما أسلفتم من المعاصي .

سُورَةُ الحَدِيد

ايضـــاح و دروس

في هذه السورة يُسْبغ الله على ذاته العلية أوصافاً في غاية الكمال ، ويبيّن أنه خالق الكون ومبدعه والمتصرف فيه بما يشاء .

كما أن في السورة دعوة للمؤمنين إلى التضحية بالنفس والمال لإعزاز دين الله ورفع منار الإسلام ، ولكي لا يتمسك البعض بالمال ويضنّ به عن الإنفاق ، يصوّر الله حقيقة الدنيا بأنها متاع زائل خدّاع ، حتى لا يغترّ بها الإنسان .

وفي السورة بيان عن حقيقة المصيبة والموقف الذي يجب أن يقفه المؤمن تجاهها .

كما أن في السورة إشارة إلى معدن الحديد ، أهم عناصر حضارة العصر الحديث ، وليس غريباً أن سُمِّيت هذه السورة باسم (سورة الحديد) .

كما تتحدّث السورة عن رهبانية النصارى وتبيّن أنها بدعة ابتدعوها .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض وَهُوَ العَزِيزُ الحكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١ ، ٢) .

﴿ سَبَّح لِلَّهِ ﴾ مَجَّدَ وَعَظَّمَ وَنَزَّهَ الله وبرّأهُ من السوء والنقصان . وجملة ﴿ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ ﴾ تشمل جميع الموجودات علوية وسفلية ، فجميع الموجودات تنزّه الله عمّا لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وتدلّ على أنه الواحد الأحد ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرّأ من سمات النقص .

والأصل في معنى سبَّح نطق بعبارة « سبحان الله » أي أبعدته الموجودات عن كل عيب ونقص وعظّمته . فكل موجود في هذا الكون يسبح بطريقته الخاصة . ولكننا إذا كنا نفقه التسبيحات الصادرة عن الإنسان ، فإننا لا نفقه التسبيحات الصادرة عن الجماد والحيوان والطير ، والدليل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْده ، وَلكِن لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُم ﴾ الإسراء : ٤٤ .

فقد أثبت الله سبحانه أن لكل شيء تسبيحاً خاصاً له ، كما أثبت أننا نعلم بعضه ولا نعلم البعض الآخر .

﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ فالعزّة حَالة تمنع صاحبها من أن يُغلب ، فالله هو القويّ الغالب . وهو ﴿ الحكيم ﴾ والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل ، وحكمة الله : معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام والإتقان .

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ﴾ فالله سبحانه هو المالك المتصرف بكل ما في السماوات والأرض ﴿ يُحْيي ويُميتُ ﴾ فهو خلق الحياة والموت ، يُفيض بالحياة على الميت فيحيا ، ويسلبها من الحي فيموت ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي البالغ القدرة على كل شيء .

ويتابع القرآن ذكر بعض صفات الله التي يختصّ بها دون سواه :

﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

فهو سبحانه ﴿ الأوّل ﴾ أي السابق في الوجود على جميع الموجودات ، وجميع الموجودات انبثق وجودها منه .

وهو سبحانه ﴿ الآخِرُ ﴾ أي الباقي بعد فناء جميع الموجودات .

وهو سبحانه ﴿ الظَّاهِرُ ﴾ أي الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة الدالة على

وجوده ، أو الظاهر فوق كل شيء بقدرته وغلبته .

وهو سبحانه ﴿ البَاطِنُ ﴾ أي المحتجب عن أبصار الخلق ، فهو سبحانه لا تدركه الأبصار ، أو المطَّلع على ما بَطَنَ من الغيوب .

وهو سبحانه ﴿ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي محيط علمه بجميع الأشياء لا يغيب عنه شيء منها .

وبعد أن قرَّر القرآن هذه الحقيقة الهائلة عن عظمة الخالق ، وأنه بكل شيء عليم ، جعل يفصّل ما يتفرّع عن هذه الحقيقة في عالم الوجود :

﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤) .

فالله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وهذه الأيام الستة قد لا تكون من جنس أيامنا المعروفة ، فإن أيامنا هذه وُجدت بعد خلق الأرض ودورانها حول نفسها ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي لا يعلمها إلاّ هو سبحانه . وهي مقادير من الزمن غير أيامنا المعروفة وقد جاء في القرآن : ﴿ وإنَّ يوماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدّونَ ﴾ الحج : ٤٧ .

﴿ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ ﴾ استوى تأتي بمعنى استولى ، أو بمعنى استقر ، والعرش في اللغة : سرير الملك الذي يجلس عليه ، ويُكنّى بالعرش عن الملك ، وتأويل ذلك : هو التصرف في الموجودات والتمكن منها مع عدم المُنازع .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ الولوج : الدخول ، فالله يعلم ما يدخل في الأرض من كنوز وبذور وموتى ومياه ، ويعلم ما يخرج منها

من نبات ومعادن ونفط وغير ذلك . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فيهَا ﴾ والعروج : الصعود ، فالله يعلم ما يصعد في السماء من ملائكة وأرواح وأعمال العباد وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أين مَا كُنْتُم ﴾ أي أن الله معكم بعلمه وقدرته ، وقد نفى العلماء أن يكون المراد بها المعية الذاتية ، وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة علم الله بجميع المخلوقات ، وعن ابن عباس أنه فسَّر ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ أي عالم بكم .

﴿ واللَّهُ بمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ ﴾ أي رقيب على أعمال العباد مطَّلع على كل صغيرة وكبيرة .

ويتابع القرآن بيان قدرة الله التي تسيِّر هذا الكون الرحيب :

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٥ ـ ٦) .

فالله له السلطان المطلق ، والحكم النافذ في السماوات والأرض ، وإليه مصير جميع خلقه فيقضي بينهم بحكمه يوم القيامة .

وهو سبحانه جعل الليل والنهار يتعاقبان بحكمته وتقديره ، فيدخل كل واحد منهما بالآخر ، أو يدخل ما نقص من أحدهما في الآخر ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي عالم بالنيات الخافية في الصدور ، وبكل ما يهجس فيها من الخَواطر .

وبعد أن بيَّن القرآن مظاهر قُدرة الله في الكون وإحاطة علمه بجميع البشر توجه بالخطاب إلى الناس :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) .

﴿ آمنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والخطاب هنا موجه إلى الناس جميعاً سواء من آمن منهم أو من لم يؤمن ، أما من آمن فيطلب منهم الثبات على الإيمان ، وأما من لم يؤمن فيدعوهم للإقرار والتصديق بالله ورسوله .

ثم تنتقل الآية إلى الدعوة للإنفاق في سبيل الله الذي هو سبيل البر والخير ونصرة الدين . ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فهذه الآية تنبّه الناس إلى أن الأموال التي في أيديهم ليست أموالهم حقيقة ، بل هي أموال الله سبحانه خوّلهم الاستمتاع بها ، ومكّنهم من التصرّف فيها ، فهم خلفاؤه ووكلاؤه ، وهذا أمر مُسلّمٌ به ، فالإنسان يترك بعد وفاته كل ما يقتنيه للغير ، وهكذا دواليك ، وإذا كان المال هو مال الله تتداوله الأيدي ، فليس من الصواب الحرص الشديد عليه والبخل به ، وخيرٌ للإنسان أن يدّخره عند الله بالصدقة والإحسان ليكون له أجره وثوابه عند ربه يوم الحساب في الآخرة ، من أن يترك ماله كله للورثة ، أو يفنى بطارىء من الطوارىء .

وبعد دعوة القرآن للناس إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيل الله توجّه باللوم والتوبيخ للكافرين الذين أعرضوا عن الإيمان :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُون باللَّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُم مؤمنين . هُوَ الذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ٨ ـ ٩) .

أي لماذا لا تؤمنون بالله أيها الناس والرسول محمد يدعوكم للإيمان ويقدّم لكم البراهين الواضحة على وحدانية الله ، وصحة رسالته ؟ ﴿ وَقَدْ أَخذ مِيثَاقَكُم ﴾ أي أخذ الله عليكم العهد بأن تؤمنوا حين وضع فيكم العقل ، وأقام لكم الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه ﴿ إِنْ كُنْتُم مؤمنين ﴾

إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل ، فلا عذر لكم أبداً في الكفر .

فالله هو الذي نَزَّل على عبده محمد ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي آيات القرآن الواضحات ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ أي ليخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان . وإن الله بكم أيها الناس ﴿ لَرَؤُوفٌ ﴾ أي : رحيم بعباده : عطوف عليهم بألطافه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ أي الذي كثرت رحمته لخلقه بأن رزقهم وأرسل الرسل لهدايتهم .

ثم يتوجّه القرآن بالخطاب للذين يبخلون بأموالهم في سبيل الله ، ويتقاعسون عن نُصرة دينه :

﴿ وَمَالَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا في سَبِيلِ اللَّهِ ولِلَّه مِيراثُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ لا يستوي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبيرٌ ﴾(١٠) .

فالله يقول لهؤلاء موبخاً : ما الباعث لديكم على ترك الإنفاق في سبيل الله ، والله سبحانه سيرث السماوات والأرض ، والأموال صائرة إليه ، فإذا لم تُنفقوها في سبيل الله ذهبت منكم بعد موتكم دون مقابل ، فلا تنتفعون منها بشيء ، أما إذا أنفقتموها في سبيل الله فسينالكم من الله الأجر والثواب .

ثم يبيِّن الله بأنه لا يستوي في الفضل والأجر من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله ﴿ قَبْلِ الفَتْحِ ﴾ أي قبل فتح مكة ، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة . فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل فتح مكة أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة إلى النصرة بالأنفس والأموال ، لقلة عدد المسلمين وفقرهم يومذاك ، وكثرة أعدائهم وغناهم ، ولأنه لم يكن إذ ذاك غنائم تُنتظر ، ولا كان النصر محققاً ، فكان

الإنفاق أشد على النفس ، وكانت الحاجة إليه ملحة ، وكذلك كان شأن القتال . ومع عدم استواء فريقي المؤمنين في الأجر والثواب إلَّا أن الله أثبت لهما ﴿ الحُسْنى ﴾ وهي الجنة ، مع تفاوت الدرجات ﴿ والله بما تَعملون خَبير ﴾ أي عليم بما تنفقون في سبيل الله فيجازيكم عليه .

ويحث القرآن المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله لأنهم سيستردونه أضعافاً :

﴿ من ذَا الَّذي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١١) .

سمى الله سبحانه قرضاً كل ما ينفق في سبيل نصرة دينه ، وكذلك كل ما ينفق في وجوه الخير ابتغاء مرضاته . والقرض : هو الدَّيْنُ أي ما يُدفع من المال على شرط ردّه ، وفي ذلك دلالة على أن الله سيرد للمحسن ما أنفق من أموال ، وزيادة على ذلك فإن الله سيضاعف هذا البدل للمنفق مع إعطائه أجراً كريماً ، وهذا الأجر هو الجنة .

وإنما يقترض المحتاج ، والله غني عن العالمين الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، وإنما جاء التعبير بالإقراض ترغيباً بالإنفاق وتشجيعاً للمحسنين .

وقد ذكر العلماء شروطاً في القرض الحسن الذي يقبله الله ، منها :

أن يكون المتصدّق صادق النية ، طيّب النفس يبتغي به وجه الله دون رياء ، وأن يكون المال حلالاً ، وأن لا يكون رديئاً ، وأن يُعطى للأحوج فالأحوج ، وأن يكتم الصدقة ولا يتبعها بالمنّ والأذى ، وأن لا يستكثرها وإن كانت كثيرة ، وأن تكون من المال المحبوب عنده ، وأن لا يرى لنفسه عزّة

الغنى ويرى للفقير ذلة الفقر .

وبعد أن رغّب القرآن بالإنفاق ، ووعد فاعليه بالأجر الكريم ، انتقلت آيات القرآن إلى ذكر جانب من جوانب ذلك الأجر الكريم في الآخرة :

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (١٢) .

فالمؤمنون والمؤمنات يضيء نورهم بين أيديهم وعن أيْمانهم ، ونورهمْ على قدر أعمالهم ، فهو نور الأعمال الصالحة ، ونور الهداية إلى الجنة ، ثم يُبشرون بحدائق تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يتحولون عنها ، وهذا الخلود في الجنات هو الظفر والنجاح العظيم .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى تصوير حال المنافقين : وهم الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، يصورهم وهم يخاطبون المؤمنين ويجري فيما بينهم هذا الحوارالمؤثر :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ لِلَّذين آمنوا : انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ : ارْجِعُوا وَرَاءَكُم فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ (١٣) .

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذٍ : انتظرونا حتى نقتبس من نوركم فإنا كنا معكم في الدنيا ، فيقول المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من

الظلمة فالتمسوا هنالك النور . فضرب الله بين الفريقين بسور ، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار له باب ، وهذا السور باطنه من جهة المؤمنين رحمة وسلام وظاهره أي ما يلي المنافقين هو جهنم التي فيها العذاب .

ويتابع القرآن تتمة الحوار بين المنافقين والمؤمنين :

﴿ يُنَادُونَهُم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُم أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وارْتَبْتُمْ وَغَرَّتكُمُ الأَمَانِيُّ حتى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ . فَاليَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ (١٤ ـ ١٥) .

فالمنافقون ينادون المؤمنين من وراء السور : ألم نكن معكم في الدنيا نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ، فَلِمَ تمتازون علينا ﴿ قَالوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُم فَتَنْتُم أَنْفُسِكُم ﴾ أي قال لهم المؤمنون : نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أوقعتم أنفسكم في بلية وعذاب بسبب نفاقكم ﴿ وَتَرَبَّصْتُم ﴾ أي انتظرتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف شأننا ﴿ وَارْتَبْتُم وَغَرَّتكُم الأَمَانِيُّ ﴾ أي وشككتم في الدِّين وغرتكم الأماني التي كنتم تأملونها من زوال الإسلام وهزيمة المسلمين ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله ﴾ حتى جاءكم الموت ﴿ وَغَرَّكُم باللهِ الغَرُورُ ﴾ أي خدعكم الشيطان وزيّن لكم النفاق بما أوقع في صدوركم من الأماني ، وبما لوّح لكم من عفو الله ﴿ فَالْيَومَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذين كَفَرُوا ﴾ فاليوم لا سبيل لكم إلى النجاة ، ولا سبيل إلى دفع الفدية التي تنجيكم من عذاب النار ولا تقبل منكم ولا من الذين كفروا ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ فالنار أولى وأحق بكم وناصركم ، وهذا تهكم بهم ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ وبئس المرجع الذي انتهيتم إليه .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ
وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ

شرح المفردات

ألم يأْنِ : ألم يَحِن الوقت .

تَخْشَعَ : تلين وتتضرع وتنقاد للحق .

لِذِكْرِ الله : لمواعظ الله أو ذِكْر الله أو القرآن .

وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ : وهو القرآن الكريم .

أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى .

الأَمَدُ : الأجل أو الزمان .

فاسقون : خارجون عن حدود دينهم وطاعة ربهم .

المُصَّدِّقين والمصَّدِّقَاتِ : المتصدقين والمتصدقات .

الصِّدِّيقون : الكثيرو الصدق ، وهم قوم دون الأنبياء في الرتبة .

الشُّهَدَاءُ : هم الذين قُتلوا في سبيل الله .

أصحابُ الجَحيم : أصحاب النار يلازمونها كما يلازم الصاحب الصاحب .

غَيْثٍ : مطر .

أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ
وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ
ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ
بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

شرح المفردات

الكفّار : الزرّاع .

يَهِيجُ : ييبس .

يَكونُ حُطاماً : فُتاتاً هشيماً متكسراً بعد يبْسه .

سَابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبكم: سارعوا إلى الأعمال الصالحة التي تُوجب مغفرة الله .

مُصِيبَةٍ : هي النائبة والشر .

كِتَاب : المراد بالكتاب هنا علم الله ، وقيل المراد به اللوح المحفوظ .

نبرأها : نخلقها .

لِكَيْلَا تأسَوْا : لكيلا تحزنوا حزن قُنوط .

لا تَفْرَحُوا : لا تفرحوا بَطَر واختيال .

مُخْتَالٍ : متكبر .

فَخُورٍ : المباهي بالأشياء التي تدعو إلى المفاخرة كالمال والجاه .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ
وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن
يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ
وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ
فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

شَرح المفـردَات

الميزان : المراد به هنا : العدل .

ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ : ليتعاملوا فيما بينهم بالعدل .

وأنزَلْنا الحديد : خلقناه ، أو هيأناه للناس .

بأسٌ شديدٌ : قوة شديدة .

قَفَّيْنا على آثارهم : أتبعناهم ، وأرسلنا بعدهم .

رَأْفَةً : الرحمة الشديدة .

رَهْبَانِيَّةً : هجر الدنيا وشهواتها والتعبّد في الأديرة .

ابْتَدَعُوها : أحدثوها من عند أنفسهم .

مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم : أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها .

فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايتها : ما قاموا بها حق القيام .

فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ
مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ
وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

فاسِقُونَ : خارجون عن طاعة الله .

كِفْلَيْنِ : نصيبيْن (أجريْن) .

لِئَلَّا يَعْلَمَ : ليعلم . و (لا) مزيدة للتوكيد .

ألّا يَقْدِرُون : ألّا ، أصلها أن لا ، والمعنى : أنهم لا يقدرون .

تَابع سُورَة الحَدِيد

وبعد أن بيّن الله حال المنافقين في الآخرة انتقل إلى تحذير المؤمنين من أن يكونوا مثل المنافقين أو مثل اليهود والنصارى في قساوة القلب والخروج عن طاعة الله :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلّذين آمنوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ، وَلَا يكُونُوا كالَّذين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦) .

أي ألم يحن الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين ، وتلين ضارعة عند ذِكْرِ الله ، الذي تفرّد بالعظمة والربوبية ، وتخشع كذلك لما نزل من آيات القرآن فتعمل بمقتضاها ، ولا يكون مَثَلُهُم مَثَل اليهود والنصارى الذين خشعت قلوبهم ورقّت عند نزول التوراة والإنجيل ، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهُمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ولكن لما طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم مالوا إلى الدنيا ، وأعرضوا عن مواعظ الله ، وطال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعها في نفوسهم ، فكان ذلك سبباً لقسوة قلوبهم ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقون ﴾ وكثير منهم أصبحوا خارجين عن طاعة الله ، وهذا هو المشاهد اليوم في كثير من الدول التي تعتنق المسيحية واليهودية فنرى الخروج عن طاعة الله ظاهراً في تصرفاتهم ، وقسوة القلب مهيمنة على أعمالهم .

ويلاحظ أن هذه الآية فيها عتاب رقيق مؤثّر للمؤمنين لتأخرهم عن استشعار الخشوع والاستجابة الكاملة لما أنزل الله من الحق .

ثم يُعطي الله مثلاً لتأثير مواعظ القرآن في القلب :

﴿ اعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يُحْيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلون ﴾ (١٧) .

هذه الآية تصوّر تأثير ذكر الله والقرآن في القلب ، فكما أن الله يُحيي الأرض بالماء بعد جفاف زرعها ويبسه ، فكذلك القلوب القاسية التي ماتت الرحمة فيها تحيا وتلين بذكر الله وتدبر آيات القرآن الكريم ، ولقد بيَّن الله للناس الحجج الواضحة ، والدلائل الباهرة على وحدانيته ليستخدموا عقولهم ، ويتدبَّروا ما أنزل الله في القرآن من هدى .

ثم يعود القرآن لتأكيد ثواب الإيمان وإنفاق المال في سبيل الله :

﴿ إن الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ[١] وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِين آمنوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقونَ[٢] والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيم ﴾ (١٨ ، ١٩) .

أي إن الذين تَصدّقوا بأموالهم على الفقراء ، والذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله وفي وجوه الخير مع الإخلاص واحتساب الأجر من الله ، يُضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ، ولهم ﴿ أَجْرٌ كَرِيم ﴾ وهو الجنة .

والذين صدَّقوا بوحدانية الله وآمنوا برسله ﴿ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ أي في درجة الصدّيقين ، وهم الذين يلُون الأنبياء في الرتبة . وهم أيضاً في درجة ﴿ الشُّهَداء ﴾ وهم الذين قُتلوا في سبيل الله ﴿ لَهُم أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ، ولهم النور الذي ينجيهم يوم القيامة من الظلمات

---

(١) ﴿ المصَّدِّقين والمصَّدِّقات ﴾ (بتشديد الصاد) أصلها المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء في الصاد بمعنى التصدق .

(٢) الصدّيق : يقال لمن كثر منه الصدق ، ويقال لمن صدق بقوله واعتقاده وعمله ، فالصدّيقون هم قوم أقل من الأنبياء درجة في الفضل والرتبة .

ويهديهم إلى الجنة ﴿ وَالَّذين كَفروا وَكَذَّبُوا بآياتِنا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيم ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بالرسل والمعجزات التي أتوا بها أو كذّبوا بآيات القرآن أولئك هم المخلدون في النار .

ولما كان التعلق الشديد بالدنيا يصرف الناس عن بذل المال في سبيل الله والعمل بمستلزمات الإيمان جاءت الآية الكريمة التالية تصف حقيقة الدنيا بما يزهدهم فيها ، ويخفف من تعلقهم بها :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ في الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَما الحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ ﴾ (٢٠) .

لقد وصف الله الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو وزينة سواء في الملبس والمسكن ، وأنها تفاخر بين الناس في الجاه والحسب ، والمنصب ، وتكاثر في الأموال والأولاد . ولكن هذه الأمور وسرعة انقضاء نعيمها وبهجتها في حياة الإنسان مَثلُها : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أي كمثل المطر الذي أنبت الزرع فأعجب به ﴿ الكفّار ﴾ أي الزُرّاع لأنهم يكفرون بذور النبات أي يغطونها بالتراب . ولكن مآل هذا النبات أن ينمو ﴿ ثم يَهِيجُ ﴾ أي يجف بعد خضرته وييبس ﴿ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ﴾ فيصفرّ لونه ثم يذبل ﴿ ثم يَكونُ حُطاماً ﴾ أي يصير هشيماً متكسّراً بعد اليبس .

هذا أدق تصوير لحقيقة الدنيا بألفاظ قليلة تظهر إعجاز القرآن حيث أظهرت مشهد الحياة الدنيا بهذه الصور المألوفة لدى الناس مُنهية المشهد بصورة الحطام .

هذا شأن الدنيا فما شأن الآخرة ؟ إن لها شأناً يجب أن يعمل له

حسابه : ﴿ وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَديدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ هذه الآية حافز للإنسان للتزود لآخرته بالعمل الصالح ، ففي الآخرة فريقان : فريق العصاة الذين اغتروا بالدنيا وملذاتها فأعرضوا عن طاعة الله فهم في عذاب شديد ، وفريق المطيعين لله فهم في مغفرة الله ورضوانه .

ويختم الله هذه الآية بقوله : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ والمتاع كل ما انتفع به ، والغرور : الأباطيل والخداع ، فليست الحياة الدنيا إلاّ متاع باطل خدّاع يجب أن لا يغتر به المؤمن .

فالقرآن يبرز صورتين لهذه الحياة ، صورة تكون فيها الحياة مطية إلى نعيم اللهورضوانه ، وذلك إذا أخلص المؤمن في العمل ابتغاء وجه الله ، ولازم حدود الله ، ولم يتعدّها ، وشكر الله على نعمه ، وأطاع الله في أمره ونهيه .

والصورة الثانية تكون فيها الدنيا مطية إلى غضب الله وعذابه في الآخرة وذلك إذا افتخر الإنسان واختال ، وبخل بماله على المحتاجين ، واسترسل في الشهوات المحرّمة ، وتعدّى حدود الله ، وَظَلَمَ العباد ، وكفر بأنْعُمِ الله .

وبعد أن بين القرآن حقيقة الدنيا دعا إلى التسابق إلى العمل الصالح الموصل إلى مغفرة الله والنعيم في الآخرة :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (٢١) .

فالتسابق ـ في نظر القرآن ـ لا يكون بالحصول على زينة الدنيا ،

والتفاخر بمقتنياتها ، والتكاثر بالأموال ، إنما التسابق المطلوب يكون بالقيام بالأعمال الصالحة الموصلة إلى مغفرة الله ودخول الجنة . هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك بطولها ، وهذه الجنة هُيئت للذين آمنوا بالله ورسله . ثم إن ما وَعَدَ الله المؤمنين من المغفرة والجنة فهو عطاء وكرم منه غير واجب عليه ، بل هو فضل منه يعطيه من يشاء ، وهو سبحانه واسع العطاء ، عظيم الفضل .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن المصيبة بما يخفف وقعها على الأنفس :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأَرْضِ وَلاَ في أَنْفُسِكُمْ إلاَّ في كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يسِيرٌ . لكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

والمراد بالكتاب هنا : علم الله تعالى ، وقيل المراد به : اللوح المحفوظ ، وهو مستودع مشيئة الله تعالى ، وكيفيته تخفى علينا .

فالله يخبرنا أن ما أصابنا من مصيبة في الأرض مما يضرنا : من قحط ، أو نقص في الثمرات ، وما أصابنا من مرض أو فقر أو موت ، أو غير ذلك ، كما أن ما أصابنا من نِعَمٍ مما ينفعنا فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ مثبتة في علم الله ﴿ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا ﴾ أي من قبل أن يخلقها سبحانه ويظهرها إلى الوجود ، وهذا يسير سهل على الله لإحاطة علمه بكل شيء . ولقد أعلمنا الله ذلك كي لا يشتد حزننا إذا ما أصابتنا مصيبة فادحة ، ولكي لا يدمّر الحزن نفوسنا ، بل نستقبل المصيبة بصبر ويقين ، ونعلم بأنها مقدّرة من الله ، وأنه لا بد من وقوعها .

وإذا كانت المصيبة مقدّرة من الله ، مكتوبة في اللوح المحفوظ ، فكذلك النعمة أيضاً ، وقد أخبرنا الله ذلك كي لا يشتد فرحنا عند حلول النعم فرحاً يطغينا ويبطرنا ، ولنعلم كذلك أن النِّعم مِنْ فضل الله وتَكَرُّمه على عباده ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتاكم واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ والمختال هو المتكبر ، والاختيال يكون غالباً في الفعل ، والفخر يكون في القول :

فالله سبحانه لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفاخرونهم ، لأن الكبر والفخر يُبعدان المرء عن تذكّر نعمة الله ، ويؤذيان عباد الله ، ومن علم أن كل شيء مقدّر له وهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، وأن كل نعمة مصدرها من الله سبحانه توجَّه بالشكر إليه . ومن الشكر معاملة الناس بالتواضع .

ثم يتابع القرآن الكريم فيبيّن صفة هؤلاء المختالين :

﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ (٢٤) .

فالذين يبخلون يعني بهم القرآن المختالين الذين سبق ذكرهم ، ذلك أن المختال الفخور يطغيه الرزق ، ويرى أن المال سبب لعزته ، لذا يحرص عليه ويبخل به ، ولا يكتفي بهذا بل يأمر غيره بالبخل ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي ومن يعرض عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فإن الله غني عن كل إنفاق فهو محمود على كل حال لا يضره إعراض الناس عن الإنفاق .

ثم يبين القرآن الغرض من إرسال الله للرسل إلى الناس كما يذكر فضل

الله على الناس بخلقه معدن الحديد ليقتنعوا به :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢٥) .

فالله سبحانه أرسل الرسل ﴿ بالبيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة والشرائع الواضحة ﴿ وأنْزَلنَا مَعَهُمُ الكتَابَ ﴾ والكتاب المراد به جنس الكتاب ، فيدخل فيه كتاب كل رسول ، وهذه الكتب تتضمن الأحكام وشرائع الدين ، و ﴿ الميزان ﴾ والمراد به هنا العدل ، لأن الميزان هو أظهر مثل يتميّز به العدل من الظلم ، ﴿ ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ ﴾ والقسط هو العدل ، فالله أعطى الرسل الكتب السماوية التي فيها مقاييس العدل ليعدل الناس فيما بينهم .

ثم يبيّن الله الفائدة من معدن الحديد بقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنا الحديدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ ﴾ وأنزلنا الحديد : أي خلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس : والبأس هو الشدة والقوة في الحرب ، كما أن الحديد فيه ﴿ مَنَافِعَ للنّاس ﴾ .

هذه الحقيقة يعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً في وقت كان يستعمل فيه الحديد على نطاق ضيق حيث كانت تُصنع منه السيوف والحراب والسهام والدروع وبعض أدوات المنزل . أما الآن في القرن العشرين فقد وضحت منافع الحديد على أعظم ما يكون من الوضوح .

فالحديد ﴿ فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فهو أنسب المعادن لصناعة أدوات الحروب : فالمدافع على أنواعها ، والأسلحة النارية ، والدبابات ،

والقنابل ، والصواريخ ، والأساطيل البحرية تُصنع من الحديد .

وفي هذا لفتٌ لأنظار المسلمين لينتفعوا بالحديد ويُعِدُّوا منه ما يدعم قوتهم ويحافظ على سيادتهم وعزّتهم من مختلف أنواع الأسلحة اللازمة كما جاء في القرآن : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

والحديد فيه ﴿ مَنَافِعُ للنَّاس ﴾ فالسدود الضخمة التي تحتجز ملايين الأمتار المكعبة من المياه تُبنى بالاسمنت المسلح بالحديد ، والجسور الضخمة تبنى من الحديد ، وكذلك وسائل النقل من السيارات على أنواعها ، والقاطرات والبواخر تُصنع من الحديد ، زد على ذلك أدوات الصناعة الثقيلة والمعامل والبناء الحديث وغير ذلك قائم على الحديد ، فما أعظم نعمة الله على الإنسان بهذا المعدن[١] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي وأنزل الله الحديد ليعلم من ينصر دينه ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه ، وهم مؤمنون بالغيب لم يروا الله ولا الآخرة ، وإن الله قوي على الانتصار على من عاداه ، لا يقدر أحد على الانتصار عليه .

وبعد أن بيّن القرآن أنَّ الله أرسل رسله بالبينات والشرائع ، أتبع ذلك بذكر بعض هؤلاء الرسل :

---

(١) والحديد فيه منافع شتى لجسم الإنسان ، فالحديد يوجد في دم الإنسانَ ، وهو أحد مكونات « الهيموجلوبين » المادة الأساسية في كريات الدم الحمراء ، كذلك يوجد الحديد في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر ، ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد يتزود بها عن طريق الطعام الموجود في الخضار والحبوب واللحوم ، وإذا نقص الحديد في جسم الإنسان تعرض لعدة أمراض أهمها فقر الدم ، لذلك يتناول المرضى بفقر الدم أقراص الأدوية الحاوية لمادة الحديد .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢٦) .

فالله أرسل نوحاً وإبراهيم عليهما السلام إلى قوميهما لهدايتهما ، وإبراهيم قد انتسب أليه أكثر الأنبياء ، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الإلٓهية الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن . وإبراهيم من ذرية نوح . فالنبوة والكتب الإلٓهية لم تخرج إلا من ذرّيتهما ولذلك خصّهما الله بالذكر . ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي أن بعض هذه الذرّية اهتدى بكتب الأنبياء واتبعها ، والبعض الآخر خرج عن طاعة ربه وضل سواء السبيل فخرج على الدين جملة وكفر به ، أو بقي فيه وارتكب الإثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون .

ويتابع القرآن فيذكر رسالة عيسى ويبين أن الرهبانية بِدعة ابتدعها قومه :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢٧) .

فالتقفية جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار ، فالله سبحانه أرسل عقب نوح وإبراهيم على التتابع رسولاً بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى فأعطاه الإنجيل ، وجعل في قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عباده ، وجعلهم أيضاً رحماء بينهم .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ فالقرآن يقرّر أن الرهبانية بدعة ابتُدِعَتْ ، وليست من فروض المسيحية ، وهذا من إعجاز القرآن ، فالمسيحيون

الأوائل لا يعرفون شيئاً عن الرهبنة والأديرة . فقد نشأت الرهبنة والأديرة في مصر وعنها نُقلت إلى سائر بقاع الدنيا ، ويقترن اسم الرهبنة في مصر خلال القرنين الثالث والرابع الميلادي(١) ، فانظر أيها القارىء كيف يكشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة التي لا يعلمها الكثير ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها ولكنهم ابتدعوها طلباً لرضوان الله . أو بمعنى : ما أمرناهم إلّا بما يُرضي الله .

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام .

أحدث النصارى هذه الرهبانية فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها ، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها ، ولكنهم تركوها باطناً ، وضعفت عندهم دواعي التشدد في الطاعة فأخلّوا بما عاهدوا الله عليه ، وبما نذروا أنفسهم له من الزهد والتفرغ للعبادة، بل أكثر من ذلك اتخذوها اللّهِ للترؤس والسؤدد وإخضاع الشعب لأهوائهم، وعاشوا عيشة الترف والبذخ ولين العيش معرضين عن هدى الله ، وبذلك خرجوا عن طاعة الله وعلى العهد الذي ألزموا أنفسهم به وهؤلاء كثيرون كما قال سبحانه : ﴿ وَكَثِيرٌ منهم فاسِقُونَ ﴾ .

ويكفي أن تُطالع عشرات الكتب عما شاب الأديرة والرهبنة من شوائب في العصور الوسطى لتخرج بهذه النتيجة التي سجّلها القرآن عليهم : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ .

(١) يعتبر الأنبا أنطوني مؤسس نظام الرهبنة في العالم ، وكان مقامه في مصر وقد وضع زياً خاصاً بالنسك متخذاً إياه من زي كهنة الفراعنة ، فكان يلبس ثوباً من الكتان الأبيض وهو الزي الذي انتشر بين رهبان العالم ، وهو لم يطالب الراهب إلّا بالصلاة والتقشف والعمل اليدوي وقصد بالتقشف العفاف التام وتوفي سنة ٣٥٦ ميلادية . أما منظم الرهبنة الجماعية فهو الأنبا باخوم المتوفي سنة ٣٤٦ م فقد وضع للرهبنة قوانين لا يزال معمولاً بها حتى الآن ، وكانت هي الأساس التي قامت عليه حياة الأديرة في أوروبا (نقلاً باختصار عن موسوعة مصر للأستاذ أحمد حسين) .

أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد فقد وفّاهم الله أجرهم وذلك قبل رسالة محمد ﷺ(١) ﴿ فأتينا الذين آمنوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ .

ومعنى تلك الرهبانية التي ابتدعوها : تحمّل التكاليف الدينية زيادة على ما كُلّفوا به ، فقد زَهدوا في الدنيا ، ولزموا الخلوات ، واعتزلوا الخلق ، ولبسوا الخشن من اللباس ، واقتصروا في الأكل على الأطعمة النباتية ، وتركوا النساء ، وانقطعوا للعبادة .

وبعد ذلك انتقل القرآن إلى مخاطبة المؤمنين من كافة الملل :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٢٨) .

قد يكون الخطاب في الآية لأهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ طُلب إليهم تقوى الله والإيمان برسوله محمد ﷺ مع الوعد بإيتائهم نصيبين من الأجر ، نصيب على الإيمان بالأنبياء قبل محمد ، ونصيب على الإيمان بمحمد مع إيتائهم النور الذي يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة ، هادياً إياهم إلى الجنة .

ومن الممكن أن يكون الخطاب في الآية لمن آمن بمحمد ﷺ أُمروا بالتقوى والاستمرار والثبات على الإيمان ، مع وعدهم بنصيبين من الأجر أيضاً ، نصيب على إيمانهم بمحمد ، ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله ، كما وُعدوا النور والمغفرة لذنوبهم .

---

(١) أما بعد رسالة محمد ﷺ فالمطلوب الإيمان به واتباع شريعته وقد جاء في القرآن : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ .

ويختم الله هذه السورة بقوله :

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله ، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (٢٩) .

﴿ لئلا يعلم ﴾ أي ليعلم ﴿ أهل الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ أي لا يقدرون ﴿ عَلَى شيء مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ أي أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به وأعطاه لأُمَّة محمد وخصهم به .

فاليهود والنصارى كانوا يقولون : الوحي والرسل والكتب الإلَهية قد خصنا الله بها من بين جميع الخلق ، فرد الله عليهم بأن الله أعطى أمة محمد من الفضل والكرامة والشريعة ما لم يؤتهم ، وأن الفضل كله بيد الله يعطيه من يشاء والله صاحب الفضل العظيم .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير القرآن لابن كثير .
تفسير فتح القدير للشوكاني .
تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .
تفسير روح المعاني للألوسي .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير سورة الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضيف .
تفسير سورة الحديد للشيخ محمد مصطفى المراغي ـ مجلة الأزهر ـ مجلد ١٢ .
تفسير سور من القرآن للشيخ عبد الرحيم فرغل البليني ـ مجلة الإسلام ـ مصر ـ مجلد ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ .
تفسير سور من القرآن للأستاذ أحمد حسين ـ مجلة منبر الإسلام ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٢ .
صفوة التفاسير للأستاذ محمد علي الصابوني .

كلمة شكر

وفي الختام أقدم شكري للأساتذة الكرام :

الشيخ حسين غزال
الشيخ خليل الميس
الشيخ شريف سكر
مصطفى قصاص

على ما أبدوه لي من معونة وملاحظات قيمة .

كما أقدم شكري **لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت** على ما أسدته مطابعها والعاملون عليها من جهد وعناية ودقة في تنضيد أحرف هذا الجزء من التفسير وإخراجه بهذه الحلة الفنية الجميلة .

لهؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن يوفقنا سبحانه لخدمة كتابه الكريم .

كتب للمؤلف :

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن .
- روح الصلاة في الإسلام .
- اليهود في القرآن .
- الحكمة النبوية .
- الخطايا في نظر الإسلام .
- تفسير جزء عم
- تفسير جزء تبارك .
- تفسير جزء قد سمع .
- تفسير جزء والذاريات .
- تفسير جزء الأحقاف .
- تفسير جزء الشورى .

فهرس السُّوَر

رُوحُ القُرآنِ
الكريم

تفسير جزء
قَدْ سَمِعَ

بقلم

عفيف عبد الفتاح طباره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذَا التَّفْسِير

• يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .

• يعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُّنّة النبويّة وفقه اللغة .

• يبيّن التفسير العلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .

• يعرض التفسير بأسلوبٍ سهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع .

• يفسّر المجمل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

رُوحُ القرآنِ الكريم

تفسير

جُزْءُ قَدْ سَمِعَ

الجزء الثامن والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

الطبعة السابعة

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

مُقدِّمَة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، وبعد :

يقرأ المسلم القرآن فيشعر بالسكينة تنسكب على قلبه ، ويحس بالطمأنينة تسري في عروقه ، عندها ينسى الدنيا ومشاكلها ، فتسكن جوارحه بعد قلق ، ويطمئن قلبه بعد اضطراب ، وقد صدق الله في وصفه للقرآن :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء : ٨٢ .

ولا ريب في أن القرآن الكريم تختلف مواضيعه بين سورة وسورة ، وجزء وجزء ، وتتنوع أبوابه بين ما أنزل في مكة وبين ما أنزل في المدينة .

ويتضح جلياً أن ما أنزل بمكة يأخذ طابع التركيز على ترسيخ العقيدة الإسلامية في القلوب ، وأخذ النفوس على الإيمان ، وحملها على النظر والتأمل في الكون وفي الإنسان من جهة ، وإغراقها بمشاهد يوم القيامة ، ومصير الإنسان في يوم الدينونة من جهةٍ أخرى .

ولقد استمرت الآيات القرآنية تنزل في مكة ثلاث عشرة سنة ، حتى إذا اكتمل الإيمان في النفوس عندئذٍ وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حُقَّ للدعوة الإسلامية أن تتوجّه إلى تنظيم الأمة الإسلامية في معاملاتها الدنيوية ، وحُقَّ للتشريع أن ينصرف إلى النظم الاجتماعية والإدارية مما يعود على الأمة بالخير والصلاح ، كما حُقَّ للتشريع أن يخص المرأة باهتمام يعيد إليها حقوقها المهضومة .

نخلص من هذا التقديم لنفيد القارىء الكريم أن هذا الجزء « قد سمع » سُوَرُهُ مدنية نزلت في المدينة ، ومن هنا سيجد القارىء أن مواضيعه تختلف اختلافاً بيّناً عن مواضيع الجزءين السابقين (عمّ وتبارك) اللذين نزلا بمكة .

فهذا الجزء الذي بين أيدينا تُعنى مواضيعه بتوجيه المسلمين في أمور

دنياهم ، وتنظيم شؤونهم الحياتية في ما هو في مرحلة الانتقال من فترة الجاهلية إلى حظيرة الإسلام ، كما هو في موضوع الظهار المفصّل في (سورة المجادلة) أو تشريع ما يستجد في حياتهم كما في (سورة الطلاق) التي تعرضت لبيان أحكامه وما يترتب عليه من تنظيمات تتعلق به ، أو معالجة أمور كانت راهنة ويمكن أن تتكرر في كل زمان كما في (سورة المنافقون) ذاكرة صفاتهم التي من أظهرها الكذب ومخالفة الظاهر للباطن ، وتآمرهم على الرسول وعلى المسلمين ، أو التعرض لحادثة معينة بين النبي وبين بعض زوجاته في (سورة التحريم) حيث تبين أن إفشاء السر بين الزوجين ، والإفراط في الغيرة يسيء إلى الحياة الزوجية ويعكر صفاء العيش في العائلة . أو في (سورة الممتحنة) التي تحذر المؤمنين من موالاة أعداء الله الذين آذوهم واضطروهم إلى الهجرة وترك الديار ، موجهة إياهم وجهة خاصة قوامها الولاء المطلق للدعوة الإسلامية وإيثار هذا الولاء على رابطة القربى .

هذه جولة في بعض سُوَرِ هذا الجزء مشيرين إلى أن هذه المواضيع بالذات لم تستأثر بكل فصول هذه السور ، إذ لا تنسى السورة أن تأخذ بشعور الإنسان وتشده إلى خالقه متخذة من الحادثة عبرة ، ومن الواقعة منطلقاً للرجوع إلى الله ، تذكّره بأن لا يخلد إلى هذه الحياة الفانية ، وأن لا يعيقه شيء من مغريات الدنيا عن هدفه الأسمى وغايته من الوجود ، وأن مصيره إلى الله المصدر الذي عنه انبثق وإليه يعود ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المنافقون : ٩ .

ولقد أحسن المؤلف الأستاذ عفيف طبارة إذ درج في تفسير هذا الجزء على غرار سابقيه (عمّ وتبارك) فتوخى السهولة والوضوح وتجنب التعقيد ، والخوض في أمور مستفيضة تبعد القارىء عن جوهر الموضوع . وهو بذلك يقدم للقارىء الزبدة الصافية من المعاني ، بعد أن يكون قد غربل مئات الصفحات ، ليظفر منها بأسطر قليلة يراها صالحة للقارىء في هذا العصر .

ويكفي تنويهاً بفضل المؤلف أنه بهذا التفسير وما سبقه يفتح أعين الناس على معاني القرآن الخفية ، ويلفت العقول إلى أسراره الرائعة ، فإذا الناس يقبلون على تصفح القرآن الكريم بفهم وانفتاح ، ويتلقفونه بشغف وارتياح ، وعسى الله أن ينفع بهذا التفسير هذه الأمة ، ويأخذ بيدها إلى الحق والنور .

سُورَةُ المجادلة
مدنية ، وآياتها اثنتان وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم
مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ
ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ

شرح المفردات

تُجادِلُك في زوجها : تحاورك الكلام في شأن زوجها .

وتشتكي إلى الله : تتضرع إليه وتظهر له حزنها وضعفها .

تحاوركما : حديثكما وجدالكما .

يُظاهرون : الظهار هو أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، فتحرم عليه .

ما هُنَّ أمهاتهم : زوجات الرجال لسن أمهاتهم .

مُنكراً من القول : كلاماً قبيحاً .

وزوراً : كذباً .

المعنى الإجمالي

قد سمع الله قول المرأة التي تراجعك الكلام ـ أيها النبي ـ في شأن زوجها الذي حرمها على نفسه ، وتتضرع إلى الله أن يحل كربتها ، والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وحديث ، إن الله سميع بصير .

والذين يقولون لنسائهم أنتن محرمات علينا كأمهاتنا هم مخطئون ، فليست زوجاتهم أمهاتهم ، وما أمهاتهم في الحقيقة إلّا اللاتي ولدنهم ، وإن قولهم هذا

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن
يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

يعودون لِمَا قالوا : يعودون لنقض ما قالوا وتحليل ما حرموا .

فتحرير رقبة : منح الحرية لرقيق (عتق عبد أو أمة) .

من قبل أن يتماسّا : من قبل المعاشرة الزوجية .

ذلكم : أي ذلك الحكم بالكفارة .

تُوعظون به : الوعظ نصيحة مقترنة بتخويف .

فصيام شهرين متتابعين : صيام شهرين متواصلين دون انقطاع .

حُدُودُ الله : شرائعه وأحكامه التي لا يجوز تجاوزها .

مسكيناً : فقيراً يستحق الصدقة .

تابع المعنى الاجمالي

هو قول منكر وباطل ، والله عظيم العفو والمغفرة .

والذين يقولون لنسائهم : أنتن محرمات علينا كحرمة أمهاتنا علينا ثم يندمون ويودون إبطال ما قالوا ، يجب عليهم كفارة ، وهي عتق رقيق من قبل أن يتعاشرا معاشرة الأزواج ، هذا الحكم الذي شرعه الله لكم هو زجر لكم لتتركوا هذا التحريم لنسائكم والله خبير بكل أعمالكم . فمن لم يجد رقيقاً ليحرره فعليه صيام شهرين متتابعين بدون توقف عن الصوم قبل أن يعاشر زوجته ، فمن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكيناً ، تلك حدود الله فلا تتعدوها ، وللكافرين عذاب أليم موجع .

يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ
ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ أَلَمۡ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

شـرح المفـردات

يُحادُّون الله : يُعادون الله بمخالفة أوامره .

كُبتوا : أُذِلُّوا وأُخذوا بالعذاب .

آيات بيِّنات : حججاً واضحة وأحكاماً لا غموض فيها .

عَذابٌ مُهينٌ : عذاب يحقّرهم ويخزيهم .

يَبْعَثُهم الله : يحييهم بعد موتهم ليحاسبهم على أعمالهم .

فينبِّئهم : يخبرهم .

أحصاه الله : أحاط الله بما عمل كل منهم .

شهيد : مطلع وناظر لا يخفى عليه شيء .

نجوى : حديث خافت بين اثنين فأكثر .

ولا أدنى : ولا أقل .

تابع المعنى الإجمالي

إن الذين يعادون الله بمخالفة أوامره أولئك يُذلّون ويهلكون كما حصل لسابقيهم من كفار الأمم ، وقد أنزل الله آيات واضحات في أحكامها ، وللكافرين عذاب مهين . ويوم القيامة يبعثهم الله أحياء بعد موتهم فيخبرهم بما عملوا في دنياهم ، وقد أحصى الله أعمالهم ، وإن هم نسوها ، فعلم الله محيط بكل شيء لا يغيب عنه أمر من الأمور .

ألم تعلم يا محمد أن الله مطلع على كل ما في السماوات وما في الأرض ، ما يكون من حديث سرّي بين ثلاثة إلّا ويكون الله رابعهم يسمع نجواهم ،

رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ
إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟
عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ
حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ
حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ

شَـرح المفـردَات

الإثم : الذنب ، وهو ما لا يحل فعله للإنسان .

العُدوان : الظلم والاعتداء .

معصية الرسول : عصيان النبي ﷺ وعدم طاعته .

لولا يُعذّبنا الله : هلاّ يعذبنا الله .

حسبُهم جهنم : يكفيهم عذاب جهنم في الآخرة .

يَصْلَوْنَها : يدخلونها ويقاسون حرها .

المصير : المرجع .

تناجيتم : تحدثتم سراً .

تابع المعنى الإجمالي

ولا خمسة إلّا ويكون هو سادسهم ، ولا يتناجى أقل من هذا العدد ولا أكثر إلّا ويكون معهم يعلم ما يتناجون به ثم يخبرهم الله يوم القيامة بما عملوه إنه بكل شيء عليم .

ألا تعجب أيها النبي من أمْرِ هؤلاء المنافقين ، وأمْرِ اليهود الذين نهيتهم عن التحادث سراً فيما يؤذي المؤمنين لكنهم رغم هذا النهي يعودون إلى تناجيهم بالإثم والعدوان على المؤمنين ، ومعصية أوامرك ، وإذا جاءوك حيّوك بكلام لم يحيّك به الله ، ويقولون في أنفسهم : لو كان محمد نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول ،

فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ
وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ
لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟

شرح المفردات

البِرّ : كلمة جامعة لكل صفات الخير .

التقوى : حفظ النفس عن الآثام .

تُحشرون : تُجمعون أمامه يوم القيامة لمحاسبتكم .

لِيَحْزُنَ : ليوقع في الهم الشديد .

فليتوكل المؤمنون : فليعتمدوا على الله ويفوضوا أمرهم إليه .

تفسَّحوا : توسعوا .

تابع المعنى الإجمالي

هؤلاء تكفيهم جهنم يقاسون حرها ، وبئست هذه النهاية لهم .

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله إذا تحادثتم سراً فلا تتناجوا بالإثم والاعتداء على الغير ومعصية النبي ، بل تناجوا متواصين بفعل الخيرات ، والتحرز من الآثام ، وخافوا الله وحده الذي تجمعون إليه يوم القيامة . إن التناجي بالإثم والعدوان هو من تزيين الشيطان يوسوس به في صدور المنافقين واليهود ، ليدخل الهم والحزن إلى قلوب المؤمنين ، وليس هذا بضار المؤمنين شيئاً إلّا بمشيئة الله ، وعلى الله وحده فليفوض المؤمنون أمرهم إليه ويعتمدوا عليه .

يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله إذا طُلب منكم أن توسعوا في المجالس لقادمين يريدون الجلوس بينكم فأوسعوا لهم يوسّع الله عليكم برحمته ، وإذا قيل

يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ
يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

شـرح المفـردات

انشزوا : قوموا في المجلس لتوسعوا للمقبلين عليكم .

درجات : مقامات عالية في الكرامة في الدنيا ، والثواب في الآخرة .

بين يدي نجواكم : قبل مناجاتكم له .

فإن لم تجدوا : فإن كنتم فقراء لا تجدون ما تتصدقون به .

أأشفقتم : هل خفتم الفقر إذا تصدقتم .

تاب عليكم : خفف عنكم ، وأباح لكم مناجاة الرسول من دون صدقة .

إلى الذين : هم المنافقون .

تابع المعنى الإجمالي

لكم قوموا وتراجعوا لتوسعوا على الجالسين فقوموا لذلك ، يرفع الله مكانة المؤمنين المخلصين ، والذين أوتوا العلم درجات في الآخرة والكرامة في الدنيا ، والله بما تعملون خبير .

يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم مناجاة رسول الله فقدّموا قبل مناجاتكم له صدقة للفقراء، ذلك خير لكم وأطهر لقلوبكم ، فإن كنتم فقراء لا تجدون ما تتصدقون به فإن الله واسع المغفرة شامل الرحمة . هل خفتم الفقر من استمرار التصدق ؟ فإذا لم تفعلوا فإن الله خفف عنكم ورخّص لكم مناجاة الرسول من غير تقديم الصدقات ، فحافظوا على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله والله

وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى
ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

شـرح المفـردات

تولّوا : اتخذوهم أولياء (أي أصدقاء ونصراء) .

قوماً غَضِبَ الله عليهم : هم اليهود .

أَيْمَانَهُمْ : جمع يمين وهو الحلف أو القسم .

جُنَّة : وقاية وستراً .

فصدّوا عن سبيل الله : منعوا الناس عن دين الله .

لن تُغْنِيَ عنهم : لن تنفعهم .

تـابع المعـنى الاجمالي

خبير بما تعملون فيجازيكم عليه .

ألم تر أيها الرسول إلى هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا قوماً غضب الله عليهم ـ وهم اليهود ـ نصراء وأصدقاء ، فالمنافقون ليسوا من المؤمنين ، وليسوا من اليهود ، وهم مع هذا يحلفون كذباً بأنهم مؤمنون وهم يعلمون بأنهم كاذبون في حلفهم ، لقد هيأ الله لهؤلاء المنافقين عذاباً بالغ الشدة ، وإن أعمالهم هذه قبيحة سيئة . وقد اتخذوا من قسمهم بأنهم مؤمنون ، ستراً ووقاية يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ما قد يصيبهم منكم ـ أيها المؤمنون ـ من عقاب لهم على كفرهم ، وراحوا يصرفون الناس ويمنعونهم عن الإسلام ، هؤلاء لهم عذاب شديد المهانة . لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولن تَرُدَّ عنهم من عذاب الله شيئاً

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ
كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾
ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ
إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ

شــرح المفــردات

يبعثهم الله : يخرجهم الله أحياء من قبورهم يوم القيامة .

إِسْتحوذ : استولى وغلب على عقولهم .

حِزْبُ الشيطان : جماعته وجنده .

يُحَادُّون : يعادون .

الأَذلِّين : جمع أذل ، أي في زمرة من أذلهم الله لعصيانهم .

كَتَبَ الله : قضى الله وحكم .

تابع المعنى الاجمالي

أولئك أهل النار هم خالدون بالعذاب . ويوم القيامة حين يبعثهم الله أحياء من قبورهم للحساب يقسمون لله كذباً أنهم كانوا مؤمنين كما يقسمون لكم الآن ، ويظنون أن الكذب ينجيهم في الآخرة كما نجاهم في الدنيا ، ونسوا أن الله يعلم خفايا قلوبهم ، ولكن لن ينفعهم القسم لأنهم يكذبون . لقد استولى عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون .

إن الذين يعادون الله ورسوله أولئك في عداد من أذلهم الله في الدنيا والآخرة . ولقد قضى الله أن الغلبة والنصرة هي لدينه ورُسُله في هذه الدنيا ، إن الله له القوة والغلبة على أعدائه لا يغلبه شيء .

﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

شرح المفردات

يُوادُّون : يحبون ويصادقون .

عشيرتهم : العشيرة هي القبيلة ، ومعشر الرجل أهله .

كتب في قلوبهم الإيمان : ثبّته ومكنه في قلوبهم .

أيَّدهم : قواهم ونصرهم .

برُوح منه : بنور ورحمة منه أو بنصر منه .

المفلحون : الفائزون .

تابع المعنى الإجمالي

لا تجد ـ يا محمد ـ قوماً يُصدّقون بالله واليوم الآخر يبادلون المودة من عادى الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم أو من أهلهم ، أولئك المؤمنون ثبّت الله في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بنصر من عنده ، وسوف يدخلهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا ينقطع عنهم نعيمها ، رضي الله عن أعمالهم الصالحة ورضوا هم عن مكافأة الله لهم بما أثابهم من النعيم ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الفائزون .

سُورَةُ المجَادَلة

ايضـاح و دروس

هذه السورة تستهل بإصلاح بعض تشريعات العرب في الجاهلية في ما يتعلق بالمرأة وهو ما يسمى (الظهار) . والظهار أن يقول الرجل لزوجته : أنت عليَّ كظهر أمي ، فإذا قال الرجل لامرأته هذا الكلام تحرم عليه ولا تطلق منه وتبقى هكذا معلقة ، وقيل : إنه كان طلاقاً يوجب حرمة مؤ بدة لا رجعة فيه .

ولا بد أن نوضح أن الظهار هذا كان سارياً قبل الإسلام يمارسه أهل الجاهلية ويصيب المرأة بظلم عظيم لا مبرّر له ، ومن هنا انبرت هذه السورة تتصدى لهذه العادة الجائرة وتبطلها من أساسها ، وتوضح حكم الشريعة فيها .

ولقد رُوي أن أوس بن الصامت غضب على زوجته خولة بنت ثعلبة ، فقال لها : أنت عليَّ كظهر أُمي ، فاستعظمت ذلك خولة وأنكرت أن يقول لها زوجها هذه المقالة ولها منه الأولاد والعِشرة الطويلة. بيد أنه لاح لها أن الدين الجديد ـ دين الإسلام ـ الذي دخلت فيه مع زوجها سيكون فيه الملاذ والمخرج ، ولا بد أن يهدم هذه الشرعة الجاهلية الظالمة ، فذهبت خولة إلى النبي ﷺ تشكو إليه ظلم زوجها ، فقالت يا رسول الله : أكل مالي ، وأفنى شبابي ونثرت له بطني(١) ، حتى إذا كَبِرَتْ سني ظاهر مني ! فجعل رسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلّا قد حرمت عليه ، فتقول يا رسول الله :

---

(١) ونثرت له بطني : أرادت انها كانت شابة تلد الأولاد عنده .

ما طلقني والله ، وإن لي منه صبية صغاراً إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، فماذا ترى ؟ وأخذت تجادله وتراجعه وتتضرع إلى الله ، فنزلت الآية :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُون مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً وإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

فالله سبحانه رحيم بعباده قد سمع قول تلك المرأة المظلومة التي جاءت إليك أيها النبي تجادلك وتراجعك القول في زوجها التي حرمها على نفسه بالظهار ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتتضرع وتشكو أمرها إلى الله ، لقد سمع الله تضرع هذه المرأة ، وأنزل في شأنها تشريعاً يرفع عن كاهلها الظلم .

فالظهار في نظر الإسلام باطل في أساسه ، لأن الزوجة ليست أمّاً حتى تكون محرمة على الرجل كالأم ﴿ الذين يُظاهِرونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهم مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ فالأم هي التي ولدت ﴿ إِنْ أُمهاتُهم إلاَّ اللائي وَلَدْنَهُم ﴾ ولا يمكن أن تتحول الزوجة إلى أم بمجرد النطق بتلك الكلمة المنكرة المشوبة بالكذب ﴿ وإنَّهم لَيَقُولُونَ مُنكراً مِنَ القَوْل وزوراً ﴾ .

وبعد أن بيّن الله الظهار على حقيقته تنتقل الآيات إلى بيان حكمه الشرعي :

﴿ والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ

فَصِيَامُ شَهْرَيْن مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ولِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ثم يَعودونَ لِمَا قالوا ﴾ أي يرجعون عما قالوا ويريدون استمرار العلاقات الزوجية وتحليل ما حرموه على أنفسهم بالظهار ، فكفارة ذلك ﴿ تحرير رقبة ﴾ أي إعتاق عبد من الرق وجعله حرّاً ذكراً كان العبد أو أنثى ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً بهذا قال بعض الأئمة[١] .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يتماسَّا ﴾ أي من قبل المعاشرة الزوجية ، ثم يقول سبحانه : ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي أن هذه الكفارة الشاقة الباهظة هي زجر لكم عن التلفظ بكلمة الظهار حتى لا تعودوا إليها .

فإذا لم يجد من يريد الكفارة رقيقاً ليحرره ، أو مالاً يشتري به رقيقاً لعتقه ، فعليه صوم شهرين متتابعين ، فلا يفصل بالفطر يوماً عن يوم ، أو شهراً عن شهر ، فمن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكيناً قوت يوم غداءً وَعَشاءً ، أو يدفع لهم من المال قيمة ذلك القوت ، ولا يلزم أن يطعمهم مرة واحدة ، بل يجوز أن يطعم بعض الستين مسكيناً في يوم وبعضهم في يوم آخر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حدُودُ الله ﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه التي يجب أن لا يتعداها المؤمنون .

ثم يأتي الوعيد من الله لمن يتعداها بقوله : ﴿ وللكافرين عذابٌ أليمٌ ﴾ .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الذين يعادون الله ورسوله :

---

(١) منهم الإمام أبو حنيفة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فالذين يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي خُذلوا وذُلّوا كما خُذِلَ الذين من قبلهم من الأمم والجماعات السابقة الذين كفروا وعصوا ربهم وهذا ما وقع للمشركين في غزوة بدر فإن الله أذلهم بالهزيمة وأهلك الكثير منهم . فهذا النص القرآني إنذار من الله لكل الجماعات التي تسير على غير المنهج الذي شرعه الله في الأرض . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي أن الله أنزل آيات واضحات تدل على صدق النبي ﷺ وصحة ما جاء به من عند الله . ويضيف الله قوله : ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي عذاب يذهب بعزهم وكبريائهم . أما مصيرهم في الآخرة فهو سبحانه ﴿ يَبْعَثُهُمُ ﴾ أي يحييهم بعد موتهم يوم القيامة ﴿ فينبِّئهم بِمَا عَمِلُوا ﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً لحالهم . وأعمالهم هذه أحصاها الله بواسطة ملائكته بينما هم قد نسوها ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسوهُ ﴾ وهو سبحانه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عن علمه شيء .

وبعد ذلك تأتي الآيات التالية تعرض سعة علم الله تعالى وإحاطته بما في السماوات والأرض واطلاعه على أسرار الناس :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلاَ خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّه بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

مطلع الآية يقرر علم الله بكل شيء في السماوات والأرض مهما عظم

أو صغر ، ثم تبين الآية علاقة الإنسان بخالقه الذي يسمع نجوى المتناجين قلَّ عددهم أو كثر ، مع تدوين ما يتناجون به وما يقترفونـه من أعمال لمحاسبتهم يوم القيامة ، هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم تدفع بالإنسان إلى أن يراقب نفسه فلا يتكلم بكلام سوء ، ولا يأتي بأي إثم أو فاحشة خيفة وخجلاً من الله .

وينتقل القرآن إلى التنديد بموقف اليهود والمنافقين الذين يضمرون السوء للدعوة الإسلامية مع التعجب من موقفهم المريب ، وتهديدهم بالعذاب يوم القيامة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذين نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ والعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وإذا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بمَا لَمْ يُحيِّكَ بِهِ اللَّهُ ، وَيقولونَ في أنْفُسِهِمْ : لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ : حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ المصيرُ ﴾ .

هذه الآية نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين ، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلّا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السَّرايا[١] قَتْلٌ أو موت أو مصيبة ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتهم[٢] .

وكان اليهود إذا جاءوا للنبي يحيونه بقولهم : « السام عليك » يوهمون

---

(١) السرايا : جمع سرية وهي قطعة من الجيش .
(٢) أسباب النزول للواحدي .

السلام ظاهراً ، ويعنون الموت باطناً لأن « السام » معناه الموت ، وكان النبي يدرك غرضهم فيقول : وعليكم ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءُوكَ حيَّوْك بِمَا لم يُحيِّك به الله ﴾ والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ في أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُول ﴾ أي هلّا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد . لذلك ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ المَصيرُ ﴾ أي أن جهنم وما فيها من الهلاك ستكون كافية للتنكيل بهم ، وبئست هذه النهاية التعيسة لهم .

ويبدو أن بعض المسلمين الذين لم يترسخ الإيمان في قلوبهم كانوا يتجمعون في بعض الملمات ليتناجوا فيما بينهم بما يؤذي الجماعة المسلمة ، فهنا يأمر الله المؤمنين بقوله :

﴿ يَا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا إذَا تَنَاجَيْتُم فَلَا تَتَنَاجَوْا بالإِثْمِ والعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالبِرِّ والتَّقْوَى ، واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

فالله سبحانه ينهى المؤمنين عن التناجي فيما بينهم بالإِثم ، كما ينهاهم عن العدوان وهو كل ما يؤدي إلى الظلم ، وينهاهم أيضاً عن عصيان الرسول ومخالفته فيما يأمر به من الطاعات . أما المناجاة المطلوبة فالله يأمر بأن تكون في حدود فعل الخير وتجنب المآثم والمعاصي ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وتناجَوْا بالبِرِّ والتقوى ﴾ وزيادة على ذلك ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه ، فأنتم إليه ﴿ تُحشرون ﴾ أي تجمعون يوم القيامة للحساب .

وإذا سيطر على المجتمع الإسلامي هذا المفهوم القرآني أصبحوا في ذروة التسامي والرقي الاجتماعي .

ولقد بيَّن الله الباعث على النجوى بالإثم والعدوان :

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الذين آمنوا ، وَلَيْسَ بضارِّهِمْ شيئاً إلَّا بإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُونَ ﴾ .

فالتناجي بالإثم والعدوان هو من وسوسة الشيطان ، الـذي يغري المتناجين بها ليوقع المؤمنين في الحزن ، ويدخل إلى قلوبهم الوساوس والهموم، ولكن الله يطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ بهم ما يريد إلّا بمشيئة الله وإرادته فليعتمدوا على ربهم وليكلوا أمرهم إليه .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى تعليم المسلمين آداب الجلوس في حلقات العلم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ : تَفَسَّحُوا في المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ . وَإِذَا قِيلَ : انْشُزُوا فَانْشُزُوا، يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمنوا مِنْكُمْ وَالَّذِين أُوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبيرٌ ﴾ .

فقد كان المسلمون يتنافسون على مجلس رسول الله طلباً للعلم والفضل ، فإذا أقبل مسلم ليجلس قرب رسول الله ضن الجالسون بمجلسهم ، فأمرهم الله أن يوسع بعضهم لبعض ليتساوى الجميع في الجلوس ، وتلقي العلم من رسول الله .

ويمكن أن نستفيد من هذه الآية بأنها توجيه لإتاحة العلم لجميع الأمة ، وعدم تضييق مجال العلم ليقتصر على فئة ما ، فقد كان النبي ﷺ هو معلم الأمة ، وكان المسلمون يتنافسون لتلقي العلم منه ، وكان الجالسون حوله يستأثرون بمجلسهم ، فأمر الله المسلمين بأن يوسعوا لبعضهم البعض ويتيحوا العلم لغيرهم .

ومعنى ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُم ﴾ أي يوسع عليكم في الدنيا والآخرة، وقيل:

يوسع الله منازلكم في الجنة ، فكل من وسّع على عباد الله أبواب الخير وسّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ انشُزوا فَانْشُزوا ﴾ والنشوز هو الارتفاع ، قيل المراد بذلك : انهضوا من مجالسكم وتراجعوا للتوسعة على الجالسين ، وقيل : انهضوا إلى الصلاة أو الجهاد أو عمل الخير .

وإن الباعث للمسلمين على القرب من رسول الله هو الرغبة في مزيد من الإيمان والعلم ، ولذا بيّن الله منزلة العلم والإيمان بقوله : ﴿ يَرْفَعِ اللّهُ الذين آمنوا مِنْكُم والَّذين أُوتوا العِلمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أي يرفعهم درجات في الثواب في الآخرة ، والكرامة في الدنيا ، فيرفع الله المؤمن على غير المؤمن، والعالم على غير العالم، وهذه منزلة للمؤمنين والعلماء لا توازيها منزلة ، وثناء من الله على العلماء لا نجده في كتاب سماوي غير القرآن .

وفي الآية أيضاً إشارة إلى أن ما يتفاخر به الناس من جاه وغنى ونسب لا قيمة له عند الله ، وأنه لا يرفع الإنسان إلاّ أمران : الإيمان والعلم .

والعلم الذي يدعو إليه الإسلام هو كل علم سواء أكان في الشؤون الدينية أم الدنيوية ، فالعلم يبصّر الإنسان بعظمة الخالق ، ولذا جاء في القرآن : ﴿ إنَّما يخشى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ ﴾ فاطر : ٢٨ . كما أن استخدام حقائق العلم يؤدي إلى رفع شأن المسلمين ، ودفع الضرر عنهم . ولذا جاء في القرآن أيضاً : ﴿ هَلْ يَسْتَوي الذين يَعْلَمُون والَّذين لا يَعْلَمُون ﴾ الزمر : ٩ .

ثم ينتقل القرآن إلى تعليم المسلمين أدب الحديث مع رسول الله ، وعدم تضييع وقته الثمين سدى ، فاشترط قبل مناجاة النبي تقديم صدقة :

﴿ يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِن لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ذلك خيْرٌ لكم وَأَطْهَرُ ﴾ أي ذلك التصدق خير لكم لما فيه من الثواب ، وأطهر لنفوسكم من رذيلة البخل . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي فإن لم تجدوا مالاً لتتصدقوا به ، فقد أجاز لكم سبحانه المناجاة في الأمور الهامة بدون تقديم صدقة .

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية أن بعض من أسلموا أكثروا من مناجاة النبي ﷺ من غير حاجة إلّا لتظهر منزلتهم ، وكان الأغنياء بحكم مراكزهم يكثرون من ذلك ويغلبون الفقراء على القرب من النبي حتى شغلوا أوقاته ، التي يجب أن تكون موزعة على ما تقتضيه المصلحة العامة ، وكان النبي يؤذيه ذلك ، ولكن يغلبه الحياء عن صد الناس عنه .

ولهذا التكليف بتقديم صدقة قبل مناجاة النبي ﷺ حِكَمٌ شتى : منها ، تخفيف التزاحم عليه من غير حاجة ، ومنها : نفع الفقراء . ومنها : التمييز بين المخلص والمنافق .

وعندما استقر في نفوس المسلمين كمال الأدب مع النبي وتحقق الغرض المطلوب خفف الله سبحانه عنهم بقوله :

﴿ أَأَشْفَقْتُم أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَاتٍ ، فإذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَليكم ، فَأَقيموا الصَّلَاةَ وَآتوا الزكاةَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والمعنى : هل شق عليكم وخفتم من استمرار وجوب الصدقة عليكم قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُم ﴾ فإذا لم تفعلوا

ما أُمرتم به وَصَعُبَ ذلك عليكم ، عفا الله عنكم بأن رخّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فاستعيضوا عن الصدقة بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكـاة المفروضـة على كل مسلم ﴿ وأطيعوا اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ في جميع الأوامر الصادرة منهما ، والله خبير بما تعملون فيجازيكم عليه .

وهكذا نسخ الله في هذه الآية وجوب الصدقة عند مناجاة الرسول .

ثم يتحدث القرآن عن قوم من المنافقين يظهرون الود للمؤمنين ويضمرون الحب لليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ، مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْملُونَ ﴾ .

لقد كان المنافقون يتخذون من اليهود أولياء أي نصراء وأصدقاء ، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ مَا هُمْ مِنْكُم وَلاَ مِنْهُم ﴾ أي أن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم أيها المؤمنون ، وليسوا من اليهود ، بل هم كما وصفهم القرآن في موضع آخر : ﴿ مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ وهم ﴿ يَحْلِفُون عَلَى الكذب ﴾ أي يحلفون كذباً بأنهم مسلمون وأنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود ﴿ وهم يعلمون ﴾ بأنهم يحلفون كذباً ، ولقد أعد الله لهؤلاء المنافقين عذاباً شديداً جزاء نفاقهم ﴿ إنّهم سَاءَ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بئس ما كانوا يعملون بغشهم المسلمين ونصحهم لأعدائهم من اليهود .

والغاية من الحلف لهؤلاء المنافقين يبينها القرآن بقوله :

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

وأيْمانهم جمع يمين وهو القسم ، ولقد كان قسمهم ﴿ جُنَّةً ﴾ أي وقاية وستراً يدفعون بهذا القسم عن أنفسهم القتل والأذى من المسلمين جزاء خيانتهم ونفاقهم ، وقد كان شغلهم الشاغل صرف الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات حوله .

ويبين الله مصير هؤلاء المنافقين بقوله :

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾ .

فهؤلاء لن تصرف وتكف عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً وهم أهل النار خالدين فيها أبداً .

ثم تصورهم الآية التالية يوم القيامة في حالة ذليلة حيث تفتضح حقيقتهم ، فهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس ظناً منهم أن الله لا يعرف خفايا صدورهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَميعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُون أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهم هُمُ الكاذِبُونَ ﴾ .

فالله سبحانه ﴿ يَبْعَثُهُمْ ﴾ أي يحييهم بعد موتهم يوم القيامة فيحلفون لربهم كما كانوا يحلفون للمؤمنين ﴿ وَيَحْسَبُون أَنَّهم عَلَى شَيْءٍ ﴾ ويحسب المنافقون بذلك الحلف الكاذب بأنهم على شيء مما يجلب نفعاً أو ضراً كما كانوا عليه في الدنيا ﴿ أَلَا إِنَّهُم هُمُ الكاذبون ﴾ أي البالغون في الكذب غاية ليس بعدها غاية ، فالله سبحانه عليم بأسرار القلوب لا يروج عليه الكذب .

ويكشف الله عن سبب سلوك المنافقين بقوله :

﴿ إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

أي استولى عليهم الشيطان ، وغلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه الشر لهم حتى اتبعوه ، فأنساهم ذكر الله وعبادته ، فغفلوا عن طاعته وتركوا أوامره ، فهم بذلك ﴿ حِزْبُ الشَّيْطان ﴾ أي اتباعه وأنصاره الذين اتخذوا الشرّ طريقاً لهم .

ثم تنتقل الآيات إلى كشف مصير هؤلاء المنافقين ، وأن اعتمادهم على اليهود كقوة يستندون إليها لن يجديهم نفعاً ، فالله يقرر أنهم وحلفاءهم في جانب المغلوبين الأذلين وأن الغلبة لله ولرسوله وللمؤمنين :

﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسولَه أولئك في الأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

فالذين ﴿ يُحادُّون الله وَرَسولَه ﴾ أي يعادون وينازعون الله ورسوله ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي من جملة من كتب الله عليهم الذلة والشقاء في الدنيا والآخرة ، لأن العزة والنصرة هي للذين يسيرون على هدى الله ، وينصرون دينه ، والنصر دائماً لدين الله كما قال سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلي ﴾ وهذا وعد إلّهي ونبأ غيبي قد تحقق ، فالله نصر رسوله محمداً على أعدائه ، وَنَصَرَ دينه أمام كل جحافل الكفر .

وأخيراً يختم الله هذه السورة بالثناء على المؤمنين الذين يستعلون بإيمانهم ويجعلونه النسب ، والعقيدة الغالية التي يستميتون في سبيلها ، فيحجبون مودتهم عن أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليهم نسباً :

﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،

وَلَوْ كَانوا آباءَهُمْ أَوْ أَبناءَهُمْ أَوْ إخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أولئك كَتَبَ في قُلُوبهم الإيمانَ ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالدين فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولئك حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحونَ ﴾ .

أي لا ينبغي للمؤمنين بالله واليوم الآخر أن يحبوا ويصادقوا الذين يعادون الله ورسوله ، ولو كانوا أقرب الناس إليهم نسباً ، فما كانت العقيدة الصحيحة تحتمل المداراة والحل الوسط في نظر الإسلام ، بل هي الشغل الشاغل للمؤمن بها يحيا ، وبها يجاهد ، وبها يستشهد .

فالقرابة وغيرها من الروابط المتعارف عليها لدى البشر تتلاشى عند حدود الإيمان ولا يبقى لها أي ظل أو أثر في نفوس المؤمنين ، ولقد وعى المؤمنون الأولون هذه الحقيقة فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه الكافر يوم غزوة أُحُد ، وهمّ أبو بكر بقتل ابنه يوم غزوة بدر بدعوته إلى المبارزة ، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير يوم بدر .

هؤلاء المؤمنون وأمثالهم ﴿ كَتَبَ في قلوبهم الإيمان ﴾ أي جعله الله في قلوبهم وثبّته ، كما أنه سبحانه ﴿ أيّدهم برُوح منه ﴾ أي قواهم بنصر منه على عدوهم ، وقيل : برحمة منه أو نور منه وهدى ، كما أنه سبحانه خصهم بالنعيم الدائم في الآخرة ، وزيادة على ذلك ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْه ﴾ لقد رضي الله عنهم وقبل أعمالهم لأنهم أخلصوا له وحده وأطاعوه في الدنيا وقدموا حياتهم فداء له ، وهم رضوا عنه بما أثابهم من الثواب والنعيم ، فهؤلاء هم حزب الله وهو الحزب الفائز في هذه الحياة الدنيا ، كما أنه هو الحزب الفائز في الآخرة .

سُورَةُ الحَشْر

مدنية ، وآياتها اربع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ
أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ

شرح المفردات

سَبَّحَ لِلَّهِ : مَجّد الله وعظّمه ونَزّهه عن السوء وصلى له .

كفروا من أهْلِ الكتاب : هم يهود بني النضير .

الحشْر : الجلاء والإخراج عن الأوطان .

فأتاهم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا : أتاهم عذاب الله من حيث لم يخطر ببالهم .

قَذَفَ في قلوبهم الرُّعْب : ألقى في قلوبهم الخوف الشديد .

المعنى الاجمالي

نَزَّهَ الله عما لا يليق به ، ومجّده كلّ ما في السماوات وما في الأرض ، وهو القوي الغالب كل شيء ، الحكيم في أفعاله . وهو الذي أجلى الكفار من يهود بني النضير من بلدهم عند أول إخراج لهم من جزيرة العرب ، ما ظننتم ـ أيها المسلمون ـ أن يجلوا ويتركوا مساكنهم وذلك لقوتهم ومناعة حصونهم ، وظن بنو النضير أن حصونهم تمنع عنهم عذاب الله ، ولكن أمر الله وعذابه أتاهم من حيث لم يخطر لهم ببال ، فألقى الله في قلوبهم الفزع الشديد ، وأحسوا بالهزيمة ، فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم من الداخل حتى لا ينتفع بها المؤمنون ، كما

وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ
ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾
مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ

شـرح المفـردات

فاعتبروا يا أولي الأبصار : اتعظوا يا أصحاب النظر الواعي .

الجلاء : الخروج من الديار مع الأهل .

شَاقُّوا : خالفوا وعادوا .

لِينَةٍ : نخلة .

تركتموها قائمة على أصولها : أبقيتم عليها فلم تقطعوها .

لِيُخزي الفاسقين : ليذل الله الخارجين عن طاعته .

أَفَاءَ : الفيء ما أُخذ من الكفار من الغنائم بلا حرب .

أَوجَفْتم : أسرعتم في السير .

تابع المعنى الإجمالي

خرب المؤمنون بيوتهم من الخارج بسبب اقتحامهم لها ، فاتعظوا يا أصحاب النظر السديد بما نزل ببني النضير من الذل والتشريد .

ولولا أن قضى الله عليهم الإخراج من وطنهم لعذبهم بما هو أشد من الإخراج وهو القتل والأسر ، ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك لأنهم خالفوا أمر الله ورسوله ، ومن يخالف أمر الله فلن ينجو من عقابه الشديد .

ما قطعتم ـ أيها المسلمون ـ من نخلة من أشجار بني النضير ، أو تركتموها على ما كانت عليه بدون قطع ، فإن ذلك كان بأمر الله ، ولا حرج عليكم فيه ، والله يهين ويذل الخارجين عن طاعته .

مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ
دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ
عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ

شرح المفردات

مِن خَيْل ولا ركاب : راكبين الخيل والإبل .
يُسَلِّط رُسُله : يمكنهم من أعدائه بالقهر والغلبة .
من أهل القرى : من أموال الكفار كبني النضير وبني قريظة .
ولذي القربى : أقارب النبي ﷺ .
ابن السبيل : المسافر الذي فقد ماله فعجز عن الوصول إلى بلده .
دُولةً بين الأغنياء منكم : متداولاً بين أغنيائكم .
وما أتاكم الرسول فخذوه : ما أمركم به محمد ﷺ فتقبلوه ممتثلين للأمر .

تابع المعنى الإجمالي

وما أفاء الله على رسوله محمد وأعطاه من أموال بني النضير فإنه حصل بدون مشقة ، فلم يَجْهد المسلمون لتحصيله ، ولم يقطعوا المسافات الطويلة بواسطة الخيل والإبل ، ولكن كان ذلك بنصر من الله ، إنه سبحانه يقهر من يشاء بواسطة رسله ، وهو القادر على كل شيء .

وما أفاء الله على رسوله وأعطاه من أموال أهل القرى كبني النضير وغيرهم ممن غنموا منهم دون قتال ، فهذه الأموال هي : لله ، وللرسول ، وأقارب الرسول ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل وهو المنقطع في سفره عن أهله وليس له مال يوصله إليهم، فهذه الأموال توزع على هذه الوجوه حتى لا يكون المال متداولاً بين الأغنياء منكم خاصة ، وما جاءكم به الرسول محمد من الأحكام

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا
وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ
وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ﴾

شــرح المفــردات

يَبْتَغُون فَضْلاً من الله وَرضواناً : يطلبون رزقاً من الله وثواباً منه .

والذين تبوءوا الدار : الذين استوطنوا المدينة المنورة وهم الأنصار .

والإيمان : أي اخلصوا الإيمان وألزموا أنفسهم به .

حاجة : حسداً وحقداً .

مما أُوتوا : مما أعطي المهاجرون من أموال الفيء .

ويُؤثرون على أنفسهم : يفضلون غيرهم على أنفسهم .

خصَاصَة : فقر وحاجة .

تـابع المعنى الإجمالي

فاتبعوه ، وما نهاكم عنه فاتركوه ، واجعلوا لكم وقاية من غضب الله وذلك بامتثالكم لأوامر نبيكم إن الله شديد العقاب .

فأموال الفيء صُرفت على هؤلاء الفقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من أوطانهم وترك أموالهم ، فهاجروا إلى المدينة المنورة طلباً للرزق ونيلاً لثواب الله ونصرة لـه ولرسوله ، فأولئك هم الصادقون في إيمانهم .

والأنصار الذين كانوا مقيمين بالمدينة المنورة ، وأخلصوا الإيمان من قبل مجيء المكيين مهاجرين إليها ، يحبون هؤلاء المهاجرين ، ولا يحسدونهم على ما خصهم النبي من أموال الفيء ، وفوق ذلك فإن هؤلاء الأنصار يفضلون المهاجرين على أنفسهم ولو كانوا محتاجين إلى المال ، ومن يَصُنْ نفسه من

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ
فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن

شـرح المفـردات

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ : يحمي نفسه ويحفظها من البخل .

المفلحون : الفائزون بكل خير .

غِلًّا : حقداً .

نافقوا : أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر .

تابع المعنى الاجمالي

البخل الشديد فأولئك هم الفائزون .

والمؤمنون الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار جيلاً بعد جيل يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وذنوب إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا حقداً للذين آمنوا ، ربنا إنك بالغ الرأفة والرحمة .

ألم تعلم يا محمد بخبر هؤلاء المنافقين الذين يقولون لإخوانهم في الكفر من يهود بني النضير : لئن أخرجكم محمد من دياركم لنخرجن معكم ، ولا نطيع أحداً أبداً يأمرنا بقتالكم أو التخلي عنكم ، وإذا قاتلكم أحد سنهبُّ لنصرتكم ، إنهم قالوا ذلك ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . لئن أُجلي اليهود لن يخرج المنافقون معهم ، وإن قاتل المسلمون اليهود لن يمد لهم المنافقون يد النصرة ،

قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ
﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ
جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ

شرح المفردات

لَيُوَلُّنَّ الأدبار : ينهزمون ويفرون .

لا يفقهون : لا يفهمون مقدار عظمة الله .

جُدُر : جمع جدار وهو الحائط أو السور .

بأسهُم : البأس : القوة والشدة ويطلق البأس على الحرب كما يطلق على العذاب .

تحسَبُهُمْ جميعاً : تظنهم مجتمعين على الأُلفة والمحبة .

قلوبهم شتى : قلوبهم متفرقة مختلفة .

وَبَالَ أمرهم : سوء عاقبة كفرهم .

تابع المعنى الإجمالي

ولئن خرجوا معهم لينصروهم فإنهم عاجزون عن نصرهم ، فسوف يفرون منهزمين أمام المسلمين . أنتم أيها المسلمون أشد رهبة في صدور اليهود والمنافقين من الله عز وجل ، وسبب خوفهم هذا أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله .

لا يقاتلكم اليهود مجتمعين إلّا في قرى محصّنة أو من وراء جدران يستترون بها ، إذا انفردوا نسبوا إلى أنفسهم الشدة والبأس ، وإذا خرجوا إليكم فهم جبناء ، تظنهم مجتمعين على أمر ورأي ، ولكن قلوبهم متفرقة مختلفة ، وهم بهذا لا يعقلون ما يضرهم وما ينفعهم .

مثل بني النضير كمثل الذين كفروا من قبلهم ، فقد ذاقوا منذ زمن قريب عاقبة

أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ
فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ
عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ

شرح المفردات

اتقوا الله : خافوه واتقوا عقابه بترك المحظورات .

ما قدَّمت لِغَدٍ : ما قدَّمت من الأعمال ليوم القيامة .

الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

نسوا الله : تركوا أوامره .

تابع المعنى الإجمالي

كفرهم ولهم في الآخرة عذاب شديد مؤلم . ومثل المنافقين في إغرائهم بني النضير ـ بالتمرد على رسول الله ـ كمثل الشيطان حين أغرى الإنسان بالكفر ، فلما كفر قال الشيطان : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان جزاء الشيطان وجزاء ذلك الإنسان : العذاب في النار خالدين فيها ، وهذا جزاء المعتدين المتجاوزين لحدود الله .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا عقاب الله بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه ، ولينظر أحدكم أي شيء قدم لنفسه من الأعمال ليوم الغد الذي ينتظره وهو يوم القيامة ، واتقوا الله بالعمل بأوامره وترك نواهيه ، إنه خبير بما تعملون . ولا تكونوا مثل الذين نسوا الله فتركوا ما أمرهم به من الطاعات ، فأنساهم الله أن يعملوا لأنفسهم ما ينجيهم من العقاب ، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله . وبطبيعة

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ
خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ

شرح المفردات

لا يستوي : لا يتساوى .

أصحاب النار : العصاة الذين يستحقون دخول النار .

خاشعاً : خاضعاً ذليلاً .

مُتصدِّعاً : متشققاً .

عَالِمُ الغَيْبِ والشهادة : يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه .

الرحمن : هذا الاسم وما بعده من أسماء الله ، والرحمن الذي وسع كل شيء رحمة

الرحيم : الذي كثرت رحمته .

تابع المعنى الإجمالي

الحال لا يتساوى أصحاب النار المعذبون ، وأصحاب الجنة المنعمون في الآخرة ، فالقضية واضحة ، أصحاب الجنة هم الفائزون بكل ما يحبون .

لو أنزل الله هذا القرآن على جبل لرأيته خاضعاً ذليلاً متشققاً من خشية الله وتلك الأمثال يعرضها الله للناس ليتدبروا القرآن ، وينتفعوا بهديه .

هو الله الذي لا معبود بحق إلاّ هو وحده ، عالم بما غاب عن حواس الناس وعالم بما هو تحت الحواس مما يشاهدون ويشعرون ، وهو الرحمن المنعم بجلائل النعم الرحيم المنعم بدقائقها .

ثم ذكر الله بعض أسمائه الحسنى أوردنا معناها في شرح المفردات .

ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات

المَلِكُ : المالك كل شيء .

القدُّوسُ : الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص .

السَّلامُ : السالم من النقص والعيب والفناء .

المؤمن : المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم .

المهيْمِن : المسيطر الرقيب على كل شيء .

العَزيزُ : القوي الغالب كل شيء .

الجبَّار : العظيم المتعالي الذي لا يدانيه شيء ، وقيل : مصلح الأمور ومقومها .

المتكبِّر : المبالغ في الكبرياء والعظمة .

الخالق : المبتدىء للخلق والمكون لهم من العدم .

البارىء : الذي خلق الخلق لا عن مثال .

المصوِّر :هو الذي صوّر الموجودات بأشكال مختلفة حسب تقديره .

له الأسماء الحسنى : له الأسماء الدالة على محاسن المعاني .

سُورَةُ الحَشْرِ

ايضـــاح و دروس

كان اليهود في بدء الدعوة الإسلامية يسكنون في مدينة يثرب (المدينة المنورة) وفي خيبر وفدك وغيرها من المدن .

والنبي محمد ﷺ بعد هجرته من مكة إلى يثرب أصبح مجاوراً لليهود الذين كانوا يسكنون بعض أحيائها وضواحيها ، وكان فيها ثلاث طوائف هم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وهذه السورة تحكي قصة إجلاء بني النضير عن يثرب .

رُوي أن بني النضير صالحوا رسول الله على ألّا يحاربوه ولا يؤذوه ، ولا يكونوا عوناً لأعدائه عليه ، فلما انتصر الرسول في غزوة بدر قالوا : هذا هو النبي الذي جاء وصفه في التوراة لا تُرد له راية ، فلما هزم المسلمون في غزوة أُحُد ارتابوا ، ونكثوا العهد مع رسول الله ، فقد خرج زعيمهم كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا قريشاً ضد النبي . فأخبره الملك جبريل بذلك ، يضاف إلى ذلك أن كعباً هذا سبق أن هجا النبي ﷺ هجاء مراً مما حمل النبي أن يأذن لأحد رجاله محمد بن سلمة بقتل كعب فقتله ، وهذا مما أثّر في معنويات بني النضير .

وكان النبي ﷺ قد اطلع منهم على خيانة ، فقد ذهب إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما أحد أتباعه وهو عمرو بن أمية الصخري ليدفع الدية إلى أهلهما بموجب العهد الذي بينه وبينهم ، وبينما رسول الله جالس إلى جنب جدار من بيوتهم خلا اليهود بعضهم ببعض وهمّوا بالغدر به بإلقاء صخرة عليه من فوق أحد البيوت ، فجاءه الخبر من السماء

فقام لتوه راجعاً إلى المدينة ولحق به أصحابه .

أمام هذا الغدر من اليهود ، قرر النبي ﷺ محاربتهم ، وأمر بالتعبئة والمسير إليهم بعد أن نقضوا العهد وظهرت منهم الخيانة ، مصداقاً للآية الكريمة ﴿ وإمَّا تخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فانْبِذْ إليهم على سَوَاءٍ إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الخَائِنينَ ﴾ الأنفال : ٥٨ . فلما نزل بهم تحصنوا بالحصون فوجه إليهم الإنذار يأن يخرجوا من حصونهم وينزحوا عن يثرب في مدة عشرة أيام ، ولكنهم رفضوا الإذعان لهذا الإنذار أول الأمر ، ثم لما تبين لهم أنهم عاجزون عن مقاومة الرسول ﷺ قرروا الإذعان لحكم الرسول ورضوا بالجلاء عن يثرب ، ولكن جماعة من المنافقين من بني عوف بعثوا إليهم : « أن اثبتوا وتمنّعوا فإنَّا لَنْ نُسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا » .

وكانت حصون بني النضير قوية متينة جداً وكان من المحال فتحها في مدة وجيزة فاحتموا خلفها ، لذلك أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم وحرقه ، وكان هذا سبباً في تسرّب اليأس إلى قلوب اليهود إذ وجدوا أنفسهم بين أمرين : إمَّا الإذعان لحكم النبي ، وإما الخروج من تحصيناتهم لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق النخيل ، وكانت ثمارها من أهم مرافق الحياة عندهم ، فاختاروا الإذعان لحكم الرسول ، ورضوا بالجلاء بعد أن حاصرهم النبي خمس عشرة ليلة ، فسألوا الرسول أن يأذن لهم بالجلاء ، على أن يكف عن دمائهم ، وعلى أن يأخذوا ما حملت الإبل من أموالهم إلَّا الحلقة « أي السلاح » ففعل . . . فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

هذه قصة استسلام بني النضير وجلائهم عن ديارهم وهذا ما تعالجه هذه السورة التي تستهل ببيان عظمة الله سبحانه :

﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا في السَّمٰـوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

سبّح لله ، معناها : مجَّد وعظّم ونزّه الله وبرأه عن السوء والنقصان ، فجميع الخلائق الموجودة في السماوات والأرض تُنَزِّه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله ، وتدل على أنه الواحد الأحد المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن سمات النقصان .

وإذا كان كل شيء في هذا الوجود يمجد الله ، والجميع في قبضته ومسخّر لإرادته ، فإن الله لا يعجزه إخراج فئة من الذين كفروا من ديارهم وهم بنو النضير الذين قال الله فيهم بعد مطلع السورة :

﴿ هُوَ الَّذي أَخْرَجَ الّذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْديهِم وَأَيْدي المؤمِنِينَ فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبْصَارِ ﴾ .

فالذين كفروا من أهل الكتاب هم بنو النضير ، فقد أخرجهم الله ﴿ لأَوَّل الحَشْرِ ﴾ والحشر إخراج الجمع من مكان إلى مكان ، فبنو النضير هم أول من أُجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب ، والحشر يأتي بمعنى الجمع أي أنه سبحانه أخرجهم من ديارهم لأول جمعهم لمقاتلة المسلمين أو ما جمع من المسلمين لقتالهم .

ويخاطب الله المؤمنين بقوله : ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من ديارهم مهزومين لِمَا كانوا عليه من قوة ومنعة ، وتحصينات أقاموها في أحيائهم ، ولا ظن بنو النضير أن يخرجوا اعتقاداً منهم أن حصونهم تمنع عنهم الهزيمة وعذاب الله ، ولكن أمر الله وعذابه أتاهم من حيث لم يخطر

لهم ببال ، فقذف الله الهلع والخوف في قلوبهم حين حاصرهم النبي وأحرق نخيلهم ، فصاروا ﴿ يُخربونَ بُيُوتَهُم بأيديهم ﴾ حتى لا تقع سليمة في أيدي المسلمين ، كما أخذ المؤمنون يخربون بيوتهم من الخارج بما رشقوهم من السلاح ، ويختم الله قوله : ﴿ فاعتبروا يا أُولي الأبْصَار ﴾ أي فاتعظوا يا أصحاب العقول وتأملوا في مصير هؤلاء الذين ساقهم كفرهم وغدرهم إلى تلك الهزيمة النكراء .

ثم بين الله أن ما كتبه عليهم من الجلاء أي الانتقال من بلدة إلى أخرى كان أخف من القتل والأسر الذي كتبه على سواهم :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ في الدُّنْيا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ .

كما بيَّن اللَّهُ السبب في استحقاقهم هذا العذاب وإجلائهم عن وطنهم بقوله :

﴿ ذَلِكَ بأَنَّهُم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

أي أنهم عادوا الله ورسوله وخالفوا أوامرهما ، ومن يعادي الله فإن الله شديد العقاب .

وفي أثناء الحصار قطع المسلمون بعض نخيل هؤلاء اليهود وتركوا بعضه ، فنادى اليهود النبي ﷺ : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه ، أفمن الصلاح قطع النخيل ؟ فشق ذلك على النبي ، وحزن المسلمون في قرارة أنفسهم مما سمعوه ، وخشوا أن يكون قطع النخيل فساداً واختلفوا في ذلك ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ أو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ ﴾ .

هذه الآية جاءت مطمئنة للقلوب وبأن ما وقع من قطع بعض النخيل وترك الآخر قائماً كان بإذن الله وإرادته لا فساداً في الأرض بل إذلالاً لليهود الخارجين عن طاعة الله .

وبعد جلاء اليهود يقرّر الله حكم الفيء ، وهي الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بلا قتال .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرسُول وَلِذِي القُربى وَاليَتَامى والمَسَاكين وَابْنِ السَّبيل كي لا يكونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَديدُ العِقَابِ ﴾ .

فالفيء هو ما حصل عليه المسلمون من أموال العدو بدون مشقة القتال[١] ﴿ فَمَا أَوجَفْتُم عَلَيْهِ من خيل ولا ركاب ﴾ أي فلم تسرعوا للحصول عليه راكبين الخيل والإبل ولا تحملتم له مشقة الحرب ، وقد اعتبرت الآية أن ما أخذه المسلمون من أموال بني النضير فيئاً ، فقد كانوا على بعد ميلين من المدينة واستسلموا للنبي ﷺ .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي ولكن الله تعالى يمكّن رسله ويجعل لهم الغلبة على من يشاء ممن يعادون دينه وهذا ما مكّن الله رسوله محمداً

---

(١) أما ما يحصل عليه المسلمون في القتال فهو غنيمة يأخذ المحاربون أربعة أخماسها والخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل .

من بني النضير فقهرهم واستولى على أموالهم ﴿ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ والله قادر على كل شيء لا يعجزه شيء .

أما هذا الفيء فهو يقسم على الوجوه التالية :

﴿ للهِ ﴾ أي يصرف فيما يرضيه سبحانه من مصالح الدين العامة كالدعوة إلى الإسلام ، وعمارة الكعبة وكسوتها وسائر المساجد وإقامة شعائره تعالى .

﴿ ولِلرَّسُول ﴾ يأخذ كفايته من مال الفيء له ولعياله بصفته إمام المسلمين ورئيسهم ، وبعد وفاته تصرف حصته على الأئمة ، وقيل على المقاتلين ، وقيل على مصالح المسلمين ..

﴿ وَلِذِي القُربى ﴾ أي أقرب الأهل إلى النبي نسباً وولاء ، وهم الذين حرمت عليهم الصدقة كما حرمت عليه تكريماً له . وقد خصَّ النبي ﷺ ذلك ببني هاشم وبني المطلب .

﴿ واليَتَامَى ﴾ جمع يتيم وهو من فقد أباه دون البلوغ وكان فقير الحال .

﴿ والمساكين ﴾ جمع مسكين وهو السائل ، وقيل الذي لا مال له يكفيه .

﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع الذي لا يجد مالاً يوصله إلى وطنه .

علل القرآن الحكمة من القسمة على هؤلاء بقوله : ﴿ كَيْ لا يكونَ دُولةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنْكُم ﴾ أي كي لا تكون أموال الفيء متداولة بين الأغنياء

منكم دون سواهم .

هذا النص القرآني يُبرز قاعدة من أمهات القواعد التي يقوم عليها الاقتصاد الإسلامي ، وهي أن يكون المال متداولاً بين أفراد الشعب عامة ، لا بين الأغنياء خاصة ، فكل وضع اقتصادي يجعل المال محصور التداول بين الأغنياء ، ممنوعاً من التداول بين الفقراء ، هو وضع يكرهه الإسلام ، وعلى هذا فجميع القوانين وأصول المعاملات الاقتصادية التي لم ينصَّ عليها القرآن والسنة يجب أن تلحظ هذه القاعدة القرآنية وتسير بموجبها ، فكل النظم السياسية المعاصرة التي قامت في العالم ، وعملت للحد من طغيان رأس المال ، قد سبق الإسلام إليها وقرر أصولها بهذه القاعدة الجليلة ، ولكن مع احترام الملكية الفردية ، ومراعاة العدالة الإجتماعية بتقرير الزكاة وتحريم الربا والاحتكار ، وعدم إثارة الصراع الطبقي بين الفقير والغني .

وبعد ذلك يأمر الله المسلمين بطاعة رسوله محمد ﷺ فيما جاء به وفيما ينهى عنه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

وما أتى به الرسول محمد ﷺ يُعرف اليوم باسم « السُنّة » وهي كل ما ورد عن النبي من قول أو فعل أو تقرير ، وقد أجمع المسلمون على أن السُنّة متى ثبتت وصحت عن رسول الله كانت حجة في الدين ، ودليلاً من أدلة الأحكام يجب اتباعها ، والرجوع إليها ، والعمل بمقتضاها ، إتباعاً للآية الكريمة السابقة . فالسُنَّة النبوية بينت أحكام القرآن من : تفصيل المجمل ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق . فالقرآن أوجب الطهارة على من أراد الصلاة والسنّة فصلت ما في القرآن من إجمال .

والقرآن شرع الصلاة ، ولكنه لم يُبيّن صريحاً أعدادها ولا أعداد ركعاتها ، ولم يذكر أوقاتها إلّا إجمالاً ، فجاءت السُنَّة وبينت كل ذلك قولاً وعملاً .
ودعا القرآن إلى إيتاء الزكاة ولكنه لم يبيِّن نِصابها بالتفصيل ولا المقدار الواجب إنفاقه فبينت السُنَّة كل ذلك .

ولما بيَّن الله مصارف الفيء وأن من ضمنها أقارب الرسول واليتامى والمساكين وابن السبيل ذكر أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلباً لرزق الله ، ونيلاً لثوابه ، وحباً في نصرة دينه ، فأولئك هم الصادقون في إيمانهم .

﴿ لِلْفُقَراء المهاجرين الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُون فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

ثم أثنى الله على الأنصار ساكني المدينة المنورة بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم وَلَا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئك هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ .

فالذين ﴿ تبوَّءُوا الدَّارَ والإِيمَان ﴾ هم الأنصار من سكان المدينة المنورة ، والمراد بالإيمان هنا : أي آثروا الإيمان وأخلصوا له ، وقيل : سمى الله المدينة المنورة بالإيمان لأن فيها ظهر الإيمان وقوي . ﴿ من قبلهم ﴾ أي من قبل المهاجرين الفقراء . فهؤلاء الأنصار يحبون أولئك المهاجرين الذين حلوا في ديارهم ﴿ ولا يَجِدُونَ في أَنْفُسِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتوا ﴾ أي لا يجد هؤلاء الأنصار في قلوبهم حسداً لهؤلاء المهاجرين

الذين خصهم النبي ﷺ بأموال الفيء دونهم[١] كما أن هؤلاء الأنصار يُؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم ﴿ خصاصة ﴾ أي فقر وحاجة . وقد رُوي في شأن هذا الإيثار هذه الحادثة المؤثرة التي تدل على سمو النفس التي رباها الإسلام وصقلها بالإيمان والتضحية :

أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجَهْدُ[٢] . . . فقال النبي ﷺ : ألا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هذه الليلة يرحمه الله ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته : ضيفُ رسول الله لا تدّخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلّا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله فقال : لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة[٣] فأنزل الله : ﴿ وَيُؤثِرونَ عَلَى أَنْفُسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وتأمل في قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ والشح هو البخل الشديد ، وقيل : الشح حرص النفس على ما ملكت والبخل به ، ومعنى النص القرآني أن الجماعة التي تتجنب البخل

---

(١) كان الأنصار قد استضافوا المهاجرين في مساكنهم فلما غنم النبي أموال بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم منازلهم وإشراكهم في أموالهم ثم قال : إن أحببت قسمت ما أفاء الله عليَّ من أموال بني النضير بينكم وبينهم ، والمهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم ، فقال بعض الأنصار بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون في منازلنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا ، فقال رسول الله : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأعطى رسول الله المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلّا ثلاثة من الفقراء .

(٢) الجهد : مشقة الجوع .

(٣) نسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية والمراد بهما : الرضى بصنيعهما . وهذا الحديث رواه البخاري .

هي الجماعة الفائزة في حياتها ، أو بكلام آخر أن البخل يؤدي إلى الخسران .

فالبخل يصيب المجتمع بأشد الكوارث والأضرار ، فهو يزرع الأحقاد في قلوب المحرومين نحو الأغنياء البخلاء ، مما يجعلهم يتحينون الفرص للتألب عليهم وتدمير ممتلكاتهم ، وقد بيّن النبي الآثار السيئة التي تترتب على البخل في حديث جامع :

« إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[١] .

وبعد أن بيّن القرآن المزية التي يتحلى بها الأنصار من محبة المهاجرين وإيثارهم إياهم على أنفسهم ، ذَكَرَ أن التابعين لهم بإحسان وهم المؤمنون الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ـ على مر العصور ـ إلى يوم القيامة يدعون بالغفران لأنفسهم ولمن سبقهم من المؤمنين ، كما يطلبون من الله بألّا يجعل في قلوبهم حقداً لهم :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الذينَ سَبَقُونَا بالإِيمانَ وَلَا تَجْعَلْ في قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذينَ آمنوا رَبَّنَا إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

تتجلى في هذه الآية الكريمة الرابطة القوية التي تربط أول هذه الأمة بآخرها ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن الميت بالخير والدعاء ، كما يذكر أخاه الحي الذي تربطه به رابطة الود والإيمان ، كما يتجلى من وراء ذلك أيضاً

---

(١) أخرجه الإمام مسلم .

مراد الله من الأمة الإسلامية بأن تكون كتلة واحدة متراصة ، لا يعتريها تفرقة ولا خلاف ولا شتم ولا طعن .

فالله سبحانه إذ أمر المؤمنين بالاستغفار لمن سبقهم من المؤمنين وعدم إضمار الحقد لهم فيدخل في ذلك صحابة رسول الله بالدرجة الأولى لكونهم أشرف المؤمنين ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم فقد خالف أمر الله في ذلك ، فإن وُجِدَ في قلب المؤمن حقدٌ على بعضهم ، فقد حل به نصيب وافر من عصيان الله ، وبالأخص إذا صاحب الحقد الشتم والطعن .

ثم يعود القرآن فيذكر ما جرى بين المنافقين واليهود حين وعد المنافقون اليهود بأن ينصروهم ثم نكثوا العهد .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُوا يَقُولونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذين كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ : لَئِنْ أُخرِجْتُمْ لَنخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكم أَحَداً أَبَداً وإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

هذه الآية تذكر فريقاً آخر اشترك في هذه المعركة مع اليهود ، ولكنه لم يكن اشتراكاً عملياً بل اقتصر على الكلام والوعد الكاذب : إنهم فريق من المنافقين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر وتحيّنوا الفرصة للنيل من المسلمين ، وقد فضحهم الله هنا وكشف عن مؤامراتهم ، ووصفهم بصفة النفاق وربط بينهم وبين الكفار من اليهود برباط الأخوة . لقد عاهدوا اليهود على الخروج معهم إن أُخرجوا من المدينة ، وأن لا يطيعوا أمر محمد في قتالهم وإن قاتلهم أحد سيهبون لنصرتهم . ولكن الله يشهد أن المنافقين لكاذبون فيما وعدوا به اليهود .

ثم أخبر القرآن بأن المنافقين سينكثون العهد مع اليهود :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرونَهُم وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُون ﴾ .

فالله سبحانه يقول : لئن أُخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ولئن قُوتِلَ اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم ، ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم فسوف ينهزمون ، ثم لا ينصر الله اليهود على محمد ﷺ وأصحابه بل يخذلهم .

وهذا نبأ غيبي تحقق بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية مما يشهد بصحة نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلٓهي ، فاليهود أُخرجوا فلم يخرج المنافقون معهم ، وقوتلوا من قِبَلِ محمد وصحبه فلم ينصرهم المنافقون ، وكانت شهادة الله بالمنافقين بأنهم كاذبون شهادة حق ، ومن أصدق من الله شهادة .

ثم يكتشف القرآن حقيقة نفوس هؤلاء اليهود والمنافقين ، وما تنطوي عليه من جبن .

﴿ لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله ، ولو خافوا الله لم يرهبوا أحداً من عباده ، فهم لا يخافون الله لأنهم لا يفهمون عظمته .

كما يبين القرآن حقيقة جديدة تنبثق عن الحقيقة السابقة ، وأنه نتيجة لجبنهم لا يقاتلون المسلمين مواجهة :

﴿ لا يُقَاتِلونَكُمْ جَمِيعاً إلَّا في قُرًى مُحَصَّنَة أو مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُم شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلوبُهُمْ شَتَّى ذَلِك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

فهم لا يقاتلون المسلمين وجهاً لوجه ، بل في قرى محصنة ، أو من وراء جدران يستترون بها ، وفي هذا إشارة إلى جبنهم وأن الشجاعة تنقصهم عند منازلة المسلمين وجهاً لوجه . ﴿ بأسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ عداوتهم أو قوتهم فيما بينهم شديدة فإذا لاقوكم جبنوا ﴿ تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم شَتَّى ﴾ أي تظن أن هؤلاء اليهود والمنافقين مؤتلفة قلوبهم مجتمعة كلمتهم ، ولكن قلوبهم متفرقة مختلفة .

هذا النص القرآني علل سبب هزيمة يهود بني النضير والمنافقين، ويسري هذا السبب إلى غيرهم من كل جنس وفي كل عصر ، فتنهزم كل أمة في الأرض عندما تتفرق قلوب أبنائها ، وتتشعب ميولهم ، وتكثر أحزابهم وشعاراتهم، فالأمة لا تكون قوية إلّا باتحاد قلوب أبنائها ، ووحدة أهدافهم، وتأمل كيف عقّب الله على ذلك ﴿ ذَلِكَ بِأَنهم قَوْمٌ لَا يَعْقِلُون ﴾ فهذا بيان بأن تشتت القلوب ، وتشعب الميول المؤدي إلى الضعف والضياع والهزيمة إنما ينشأ من عدم النضج السياسي ، وانعدام العقل عند الشعب بسبب عدم إدراكه لما يصلح حاله .

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه بما أصابهم من التهجير وذل الهزيمة بل سبقهم غيرهم من قريب إلى هذا العذاب جزاء كفرهم وهم كفار قريش يوم غزوة بدر وكذلك بني قينقاع .

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ ﴾ .

لقد لاقوا سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ولهم ، إضافة إلى ذلك ، عذاب أليم في الآخرة .

ويبيّن القرآن أن مَثَلَ بني النضير في تعاملهم مع المنافقين الذين

وعدوهم بالنصرة ثم خذلوهم ، كمثل الإنسان مع الشيطان الذي يستجيب لإغرائه فيكفر أو يضل فينتهي أمرهما إلى شرّ مصير .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَال إِنِّي برِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا في النَّار خَالِدَينِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ .

فعاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر هي الخلود في النار .

ثم ينتقل القرآن إلى نصح المؤمنين بلزوم تقوى الله والتزود للآخرة بالعمل الصالح :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يأمر الله المؤمنين بتقواه ، وتقوى الله هي : خيفته ، واجتناب المعاصي التي تؤدي إلى عذابه ، كما يأمر الله المؤمنين بأن ينظروا ماذا قدّموا لآخرتهم من الأعمال الصالحة التي تنفعهم يوم الحساب ، وقد عبّر القرآن عن الآخرة بكلمة (غد) لدنوها ، أو لأن الدنيا كيوم يعيش فيها الإنسان والآخرة هي غده . ثم كرر الله الأمر بالتقوى بقوله ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ لتنبيه المؤمنين إلى أهميتها وأنها الحد الفاصل بين النجاة والهلاك ، وبين السعادة والشقاء ، وهو سبحانه خبير بما يعمل الناس لا تخفى عليه خافية .

وينذر القرآن المعرضين عن ذكر الله بشرّ المصير :

﴿ ولا تكونوا كالذين نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ .

أي لا تكونوا أيها المؤمنون كالذين نسوا ذكر الله ، ولم يراعوا حقوقه ، فجعلهم ناسين حقوق أنفسهم ، حتى أنهم لا يسعـون إلى ما ينفعهم ويخلصهم من العذاب . فالذي يذكر ربه يراقب نفسه دائماً في أعماله ، ويكون مسيطراً على نفسه ، موجهاً لها في السبل التي يرضاها الله ، أما الذي ينسى الله فينقاد إلى شهواته وأهوائه ، فيفقد السيطرة على نفسه ، وينسى أن يوجهها إلى الخير والفلاح فيكون من الذين وصفهم الله ﴿ أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله المستحقون عقابه .

ثم إن الناس فئتان : فئة سلكت طريق الله فكان مصيرها الجنة ، وفئة سلكت طريق الشيطان فكان مصيرها النار ، ولا تتساوى هاتان الفئتان في المصير :

﴿ لا يَسْتَوي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ .

وبعد ذلك يبين الله الأثر الذي يحدثه القرآن في أي شيء يتوجه إليه ولو كان أقسى شيء في عُرْفِ الناس معطياً بذلك مثلاً بالجبل ذي الصخور الصلبة :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ لَعَلّهم يَتفكَّرُونَ ﴾ .

أي لو أن الله أنزل هذا القرآن على جبل وألهم الجبل عقلاً وفهماً ، وتدبَّر ما في القرآن من عِظَات وَحِكَم لخضع وتشقق من خشية الله ، فكيف لا تلين قلوب البشر عند سماع آيات القرآن وهديه ، وتكون قلوبهم أشد قسوة من الحجارة . هذا المثل ضربه الله للناس ليتعظوا بما في القرآن من

مواعظ ، وليتفكروا بما فيه من هدى .

وأخيراً يختم الله هذه السورة بذكر بعض أسمائه الحسنى ذات الفعاليات المؤثرة في الإنسان وهي مؤلفة من ثلاثة مقاطع كل مقطع يبدأ بذكر التوحيد :

﴿ هُوَ اللَّهُ الذي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُـوَ الرحمنُ الرَّحيمُ ﴾ .

هذا النص القرآني يقرر وحدانية الله سبحانه الذي يجب أن تتوجه إليه القلوب بالعبادة لا إلى غيره ، فهو سبحانه يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا ، والغائبات فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وفي هذا إيحاء للإنسان بأن يراقب ربه في أعماله ، لأنه سبحانه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية من أمره . وهو سبحانه ﴿ الرَّحمٰن الرَّحيم ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة ، وهي رقة تقتضي الإحسان ، فإذا وصف بها الله فلا يراد بها إلّا الإحسان المجرد دون الرقة ، فالرحمن هو الذي وسع كل شيء رحمة ولا يجوز أن يسمى بها غير الله ، والرحيم هو الذي كثرت رحمته ، ويجوز أن يطلق هذا الاسم على غيره .

ويتابع القرآن ذكر أسماء الله :

﴿ هُوَ اللَّهُ الذي لا إِلَه إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجبَّارُ المتَكبِّر سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْركون . هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّمٰـوَات وَمَا في الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكيم ﴾ .

فهو سبحانه ﴿ المَلِكُ ﴾ أي المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه

فهم تحت ملكه وإرادته ، وهو ﴿ القدوس ﴾ أي الطاهر عن كل عيب المنزه عما لا يليق به . وهو ﴿ السَّلَامُ ﴾ أي ذو السلامة من النقائص ، وقيل : الذي سلم الخلق من ظلمه . وهو ﴿ المؤمن ﴾ أي المصدق لرسله بالمعجزات ، وقيل : الذي أَمِنَ من آمن به من عذابه . وهو ﴿ المهيْمِنُ ﴾ أي الشاهد على عباده بأعمالهم لا يغيب عنه شيء . وهو سبحانه : ﴿ العزيز ﴾ أي الغالب القاهر . وهو ﴿ الجبَّار ﴾ أي الذي لا يدانيه شيء ، وقيل : المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وهو سبحانه ﴿ المتكَبِّر ﴾ أي المبالغ في الكبرياء والعظمة ، وقيل : المتكبر عن ظلم عباده . ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ تنزه الله عما يشركون به أحداً من خلقه في العبادة . وهو سبحانه ﴿ الخالق ﴾ الذي أبدع الأشياء من غير أصل ولا احتذاء . وهو سبحانه ﴿ البارىء ﴾ أي المنشىء المبدع للأشياء المميز بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة . وهو سبحانه : ﴿ المصوِّرُ ﴾ أي مصور الكائنات ومركبها على هيئات مختلفة ﴿ له الأسماء الحُسْنَى ﴾ له الأسماء الدالة على محاسن المعاني والكمال المطلق ﴿ يُسَبِّحُ له ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، وهكذا ينهي الله هذه السورة بما بدأ به أولها فكل ما في السماوات وما في الأرض يمجده ويعظمه وينزهه عن السوء والنقصان فهو ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي القوي الغالب ، الحكيم في تصرفاته وأفعاله .

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ
مدنية ، وآياتها ثلاث عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ

شرح المفردات

عدوّي وعدوّكم : المراد بهم مشركو مكة .

أولياء : أصدقاء وأنصاراً .

تُلقون إليهم بالمودة : تصادقونهم وتحبونهم .

من الحق : من دين الإسلام والقرآن .

يُخرجون الرسول وإيَّاكم : يخرجون النبي ﷺ ويخرجونكم معه من مكة .

أن تؤمنوا بالله ربكم : لأنكم تؤمنون بالله ربكم .

جهاداً في سبيلي : لأجل الجهاد في سبيل الله وإعلاء دينه .

وابتغاء مرضاتي : وطلب رضا الله .

المعنى الإجمالي

يا أيها الذين آمنوا وصدّقوا بنبوة محمد : لا تتخذوا أعداء الله وأعداءكم أنصاراً وأصدقاء تفضون إليهم بالمحبة الخالصة ، مع أنهم جحدوا بما جاءكم من الحق والهدى من عند الله ، وأخرجوا الرسول كما أخرجوكم من دياركم لإيمانكم بالله ربكم ، فيا أيها المؤمنون إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل نصرة الله ونصرة دينه طالبين رضاه ، فلا تبلّغوا هؤلاء الكفرة أسرار المسلمين بسبب

مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ
وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ
أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
② لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

شرح المفردات

تُسرون إليهم بالمودة : تبلغونهم سراً مودتكم لهم .

ضلّ سواء السبيل : أخطأ طريق الهدى .

يثْقَفُوكُمْ : يظفروا بكم .

ودوا : أرادوا ورغبوا .

ويبسطوا : ويمدوا .

بالسوء : بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم .

أرحامكم : قراباتكم لهم .

بصير : عليم ومطلع .

أُسوة حسنة : قدوة طيبة .

تابع المعنى الاجمالي

ما بينكم وبينهم من المودة ، والله أعلم بما أخفيتم من المودة للكفار وما أظهرتم بألسنتكم منها ، ومن يتخذ أعداء الله أصدقاء ونصراء فقد أخطأ طريق الهدى .

إنَّ هؤلاء الكفار إنْ يظفروا بكم أو يصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ويمدوا أيديهم بالأذى وألسنتهم بالشتم ، ويتمنوا أن ترجعوا كافرين مثلهم . ويا من آمنتم بالله ورسوله لن ينفعكم أقرباؤكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار لأجلهم ، ويوم القيامة يفصل الله بينكم فيجعل الكفار في النار والمؤمنين في الجنة والله بما تعملون بصير .

مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ
تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ
وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

شَرح المفـردَات

برآء منكم : متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وهي جمع بريء .

ومما تعبدون : ومما تعبدون من الأصنام والكواكب وغيرها .

كفرنا بكم : كفرنا بدينكم .

عليك توكلنا : عليك اعتمدنا .

أنبنا : رجعنا تائبين .

المصير : المرجع يوم القيامة .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : ربنا لا تسلطهم علينا فيعذبونا .

تـابع المعـنى الاجمَالي

قد كانت لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوة حسنة في إبراهيم والذين آمنوا معه حين قالوا لقومهم : إننا متبرئون منكم ، ومتبرئون من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ، كفرنا بكم ، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ، وهي لن تزول أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، ولا تقتدوا بقول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، ولا تستغفروا للمشركين ، لأنه لما تبيّن لإبراهيم استمرار كفر أبيه تبرّأ منه وقال له : لا أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته . وقد دعا إبراهيم والمؤمنون : ربنا عليك اعتمدنا وإليك رجعنا تائبين إذ إليك المرجع والمآل . ربنا لا تعذبنا بأيدي الكافرين واغفر لنا ذنوبنا ، إنك أنت القوي الغالب ذو الحكمة في تصرفاتك .

كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾
۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ
قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

شرح المفردات

يرجو الله : يطمع في الخير والثواب من الله .

يتولَّ : يعرض عن الإيمان .

الحميد : من أسماء الله تعالى ، وهو الذي يحمد من أطاعه .

عسى : كلمة تفيد الرجاء .

مودة : محبة وصداقة .

تبرّوهم : تحسنوا إليهم وتكرموهم .

تُقسطوا : تعدلوا .

تابع المعنى الإجمالي

لقد كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ في إبراهيم والذين معه من المؤمنين قدوة حسنة لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة ، ومن يعرض عن الإيمان فإن الله هو الغني عن خلقه ، المستحق للحمد من كل ما عداه .

عسى الله أن يجعل بينكم ـ أيها المؤمنون ـ وبين الذين عاديتم من الكافرين مودة وذلك بتوفيقهم للإيمان ، والله تام القدرة على كل شيء وهو غفور لمن تاب ، رحيم بعباده .

لا ينهاكم الله عن الإحسان والعدل إلى كفار مكة وكافةالملل الذين لم يقاتلوكم بسبب دينكم ، ولم يخرجوكم من دياركم ، إن الله يحب العادلين في

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ

شرح المفردات

المقسطين : العادلين .

ظاهروا : ساعدوا وأيدوا .

تولّوهم : تتخذوهم أصدقاء وأنصاراً .

مُهاجراتٍ : تاركات مكة إلى المدينة المنورة .

فامتحنوهن : اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن .

فلا ترجعوهُنَّ إلى الكفار : فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار .

لا هُنَّ حلٌّ لهم : انقطعت صلة الزوجية فيما بينهم .

تابع المعنى الإجمالي

معاملة غيرهم . إنما ينهاكم الله عن الإحسان ومصادقة الذين حاربوكم في الدين ليصدوكم عنه ، وأجبروكم على الخروج من دياركم ، وعاونوا أعداءكم على إخراجكم ، ومن يصادقهم ويتخذهم نصراء فأولئك هم الظالمون .

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات إليكم من دار الكفر فاختبروهن لكي تظهر لكم أسباب هجرتهن ، هل هاجرن راغبات في الإسلام ؟ أم أنّ لهن مآرب أخرى من الهجرة ، والله وحده أعلم بحقيقة إيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار ، لا المؤمنات يحل زواجهن من الكافرين ، ولا الكافرون يحل زواجهم من المؤمنات ، وآتوا الأزواج الكافرين

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ
ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ
فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

شــرح المفـــردات

ولا جُناح : ولا إثم ولا حرج .

تنكحوهن : تتزوجوهن .

إذا آتيتموهن أجورهن : إذا أديتم لهن مهورهن .

لا تُمسكوا بِعِصَمِ الكوافر : لا تتمسكوا بعقود الزواج من الكافرات .

وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار : وإن ارتد بعض نسائكم فلحقن بالكفار .

فعاقبتم : أي غزوتم الكفار وأخذتم منهم غنائم .

فآتوا الذين ذهبت أزواجهم : فأعطوا المؤمنين الذين تركتهم زوجاتهم الكافرات.

مِثْلَ ما أنفقوا : مثل ما دفعوه من مهور لهن .

تـابع المعـنى الاجمَالي

بعد فسخ الزواج ما أنفقوا من المهور على زوجاتهم المهاجرات إليكم، ولا حرج عليكم ولا إثم أن تتزوجوا من هؤلاء المهاجرات إذا آتيتموهن مهورهن ، ولا تبقوا على زوجاتكم الكافرات ، لقد انقطعت بينكم وبينهن عقود الزواج بسبب كفرهن ، واطلبوا منهن ومن أهلهن رد ما أديتم لهن من مهور ، وليطلب الكفار الذين تركتهم زوجاتهم المؤمنات ما دفعوا إليهن من مهور ، ذلك التشريع هو حكم الله يحكم به بينكم وبينهن ، والله عليم بمصالح عباده حكيم في تشريعه .

وإن ارتد بعض زوجاتكم إلى الكفر ، وعدن إلى صفوف الكفار ، ولم يدفع هؤلاء الكفار المهور التي أنفقها المؤمنون عليهن ، ثم أصبتم غنائم في حرب لكم مع هؤلاء الكفار فأعطوا المؤمنين الذين كانوا أزواج هؤلاء المرتدات من

ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا
يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ
وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

يبايعنك : يعاهدنك .

ولا يأتين ببهتان يفترينه : أي لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم .

ولا يعصينك في معروف : ولا يعصينك فيما تأمر به من طاعة الله .

لا تتولّوا : لا تصادقوا ولا تناصروا .

يئسوا من الآخرة : يئسوا من مجيء الآخرة وثوابها .

كما يئس الكفار من أصحاب القبور : كيأس الكفار من موتاهم أن يرجعوا إليهم .

تابع المعنى الاجمالي

هذه الغنائم قدر ما دفعوه إليهن من مهور ، وافعلوا ما يقيكم من غضب الله الذي تؤمنون به .

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يعاهدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يلحقن بأزواجهن من ليسوا من أولادهم بهتاناً وكذباً ، ولا يخالفنك في معروف تدعوهن إليه ، فعاهدهن على ذلك ، واطلب لهن المغفرة من الله ، والله عظيم المغفرة والرحمة .

يا أيها الذين آمنوا لا تصادقوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة وما فيها من ثواب وحساب ، كما يئس الكفار أن يرجع إليهم موتاهم أحيـــاء .

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

ايضاح و دروس

يُروى في أسباب نزول معظم هذه السورة : أن النبي لما عقد العزم على الزحف إلى مكة أمر بتعبئة جيشه ولم يخبر أحداً بما عزم عليه كي لا يشيع الأمر فتعلم به قريش فتستعد للحرب ، والنبي ﷺ لا يريد حرباً ولا إراقة دماء . ولكن أحد أصحاب النبي واسمه « حاطب بن أبي بلتعة » كان له أقارب بمكة ، فأراد أن يتخذ عند قريش معروفاً ليدفع أذاهم عن أقاربه ، فكتب كتاباً إلى قريش بالذي أجمع عليه النبي ﷺ من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه إلى امرأة لتوصله إليهم مقابل أجر على ذلك ؛ فأخذت المرأة الكتاب وأخفته في طيات شعرها ، فأتى النبي الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليًّا بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وقال لهم : أدركوا امرأة قد أرسل معها حاطب كتاباً إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا لهم من أمرنا ، فخرجوا حتى أدركوها على الطريق إلى مكة ، ووجدوا معها الكتاب بعد أن حاولت الإنكار ، فأتوا بحاطب إلى النبي ﷺ الذي سأله قائلاً : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال : « يارسول الله ، والله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك(١) ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت غريباً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم ، فخشيت على أهلي ، فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً ، فصدّقه رسول الله وعذره » .

فنزلت هذه الآيات وما بعدها :

---

(١) نصحتك : أخلصت لك .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمَودَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا باللَّهِ رَبِّكُمْ ، إِنْ كُنْتُم خَرَجْتُمْ جِهَاداً في سَبِيلي وابتغاءَ مَرْضَاتي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُم فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيل ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين : بأن لا يجعلوا الكفار أنصاراً وأعواناً ، فيبلغوهم أسرار المسلمين بسبب ما بينهم وبين الكفار من مودة ، وهؤلاء الكفار كفروا بالحق ، وهو الإسلام ، وأخرجوا الرسول والمؤمنين من مكة ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله ربكم الواحد الأحد .

ثم يستثير الله حمية المؤمنين بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً في سَبِيلي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتي ﴾ شرطٌ حُذف جوابه[١] ، أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلباً لرضوانه فلا تتخذوا أعداء الله نصراء لكم ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ تسرون إليهم بالنصيحة وتخبرونهم بأسرار المسلمين ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُم ﴾ والله يعلم ما أضمرتم في نفوسكم وظاهر أعمالكم ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويفشِ أسرار المسلمين فقد حاد عن طريق الحق والهدى .

ثم يكشف القرآن عن حقيقة الكفار وما تنطوي عليه نفوسهم نحو المؤمنين :

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يكونوا لكم أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلسِنَتَهُمْ بالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

---

(١) هذا شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وقيل إنه متعلق بـ « لا تتخذوا » .

والمعنى : إن يظفر بكم الكافرون ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ويبسطوا إليكم أيديهم بالإيذاء ، وألسنتهم بالشتم والسباب ، والأكثر من ذلك أنهم يتمنون ارتدادكم عن دينكم ورجوعكم إلى الكفر .

ثم تأتي الآية الكريمة وفيها اللوم على ما فعله « حاطب » من مصادقته للكافرين مبتغياً بذلك نفع أقاربه وأولاده :

﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَولادُكُم ، يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم ـ الذين تصادقون الكفار من أجلهم ـ يوم القيامة شيئاً ، وفي ذلك اليوم يحكم الله بين المؤمنين والكافرين فيدخل المؤمنين جنات النعيم ويدخل الكافرين إلى النار .

وبعد هذا تركز الآيات على نفس الفكرة بعدم موالاة الكافرين فيرسم الله للمؤمنين مثلاً أعلى ، وقدوة طيبة يجدر بهم أن يقتدوا بها ، وهذه القدوة تتمثل في نبيه إبراهيم والذين آمنوا معه :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيكَ المَصِيرُ ﴾ .

لقد تبرأ إبراهيم ومن معه من المؤمنين من قومهم ومما يعبدون من دون الله من الأصنام ، هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، والتي قيدت العقل

البشري ، وجعلته أسير الأوهام والخرافات . لقد عادى إبراهيم ومن معه من المؤمنين قومهم بسبب كفرهم وقالوا لهم : ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي جحدنا وأنكرنا ما أنتم عليه من الكفر وما تعبدون من دون الله ، كما أنهم شهروا في وجوههم سلاح العداوة والبغضاء أبداً حتى يرجعوا عن كفرهم ويؤمنوا بالله وحده .

هذا المسلك من مقاطعة إبراهيم والمؤمنين لقومهم أثنى الله عليه وجعله أمثولة يجب أن يحتذيها المؤمنون ، ولكن باستثناء أمرٍ نهى الله أن يتأسوا به وهو استغفار إبراهيم لأبيه ؛ وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يستغفرون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله قوله :

﴿ مَا كَانَ للنّبي وَالَّذينَ آمنوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا للمشركين وَلَوْ كانوا أُولي قُربى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّن لَهُمْ أَنَّهُمْ أصْحَاب الجحيم . وَمَا كَانَ استِغْفَارُ إبراهيمَ لأَبيه إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّن لَهُ أَنَّهُ عدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة : ١١٣ ، ١١٤ .

فاستغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن وعد قطعه له أبوه بأن يؤمن ، فلما أصرّ على الكفر وتبيّن لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه .

وقول إبراهيم لأبيه : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللهِ مِنْ شيءٍ ﴾ قيل هي من ضمن ما استثناه الله ، والمعنى : أنا أستغفر لك يا والدي وما في طاقتي إلاّ الاستغفار ، ولو أني أملك أكثر من ذلك لفعلت . وقيل هذا الكلام خارج عن الاستثناء ومعناه : وما أدفع عنك من الله من عقوبة إن عاقبك الله على كفرك ، ولا أُغني عنك منه شيئاً .

ودعاء إبراهيم ومن معه من المؤمنين لربهم هو أمثولة أيضاً :

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ .

فالمتوكل على الله يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ، ويستسلم له . والإنابة إلى الله : هي الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل . ﴿ وإليه المصير ﴾ أي : المرجع يوم القيامة .

ومن جملة دعاء إبراهيم ومن آمن معه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذينَ كَفَروا واغْفِر لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

والفتنة تأتي بمعان كثيرة منها : الابتلاء ، والعذاب ، والضلال ، والكفر . فيكون المعنى : ربنا لا تجعلنا معذبين بيد الذين كفروا ، فالفتنة هنا بمعنى العذاب . أو بمعنى آخر : ربنا لا تجعلنا فتنة لهم بالقدوة السيئة وسبباً لإضلالهم عما يجب أن يكونوا عليه من الحق والهدى ، فالفتنة هنا بمعنى الضلال . أو بمعنى آخر أيضاً : ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا ، فالفتنة هنا بمعنى الكفر . ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ﴾ واستر علينا ذنوبنا بعفوك . وتكرار النداء « ربنا » للمبالغة في اللجوء إليه والتضرع له . ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ إنك أنت يا رب الغالب الشديد الانتقام ممن عصاك ، الحكيم في تدبيرك لشؤون خلقك .

ثم كرر القرآن الدعوة إلى القدوة بإبراهيم ومن آمن معه زيادة في الحث على الاقتداء بهم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فيهم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ واليَوْمَ الآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فإِنَّ اللَّه هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ .

ومعنى : ﴿ يرجو الله ﴾ فالرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرّة ، أي : إن هذه القدوة تكون لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فإِنَّ اللهَ هُوَ الغنيُّ الحَمِيدُ ﴾ أي من يعرض عن الإيمان فإن الله هو الغني عن العباد ، المستحق للحمد فلا يضره من يعرض عن الإيمان .

هذا النهي الإلّهي عن مصادقة الكفار والتودد إليهم ، والدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم ومن آمن معه في التبرؤ من قومهم ، فعل فعله في نفوس المؤمنين ، فتبرأ الكثيرون من المسلمين من قومهم وأقاربهم ، وأظهروا لهم العداء ، لكن هذا العداء ترك انطباعاً مؤلماً عند بعض المسلمين ، وتمنوا لو يجدون المخرج منه ، وفي غضون ذلك نزلت هذه الآية الكريمة تَعِدُ المؤمنين بإزالة هذا العداء ، وتغليب نزعة الود على نزعة الكراهية :

﴿ عَسَى اللَّهُ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، واللَّهُ قَدِيرٌ ، واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ عسى ﴾ كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت كلمة « عسى » من الله فما بعدها هو واجب الوقوع . وقد تحقق هذا الوعد الإلّهي بفتح مكة ،ودخول المشركين في دين الله أفواجاً . فتصافت القلوب على الإيمان ، وزالت الجفوة والكراهية التي سببها الكفر . وتُعتبر هذه الآية معجزة من معجزات القرآن ، لأنها أخبرت عن نبأ غيبي لم يلبث أن تحقق بعد فترة وجيزة من الإعلان عنه . والله قادر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ، وهو غفور لمن تاب رحيم بعباده المؤمنين .

وبعد هذا يرسم الله للمسلمين علاقاتهم مع الذين يخالفونهم في دينهم :

﴿ لاَيَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . إنَّما يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ في الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين : أن يعاملوا أهل الملل والأديان بالبر والقسط ، والبر كلمة جامعة لكل صنوف الخير ، والقسط هو العدل ، هذا إذا لم يقاتلوا المسلمين بسبب دينهم ، ولم يضطهدوهم فيضطروهم إلى الخروج من ديارهم . ولا شك أن هذا التوجيه الذي يقرره الإسلام يظهر مدى سماحته واتساع صدره في معاملة الذين يخالفونه في العقيدة ، فهو لم يمانع في برّهم ومعاملتهم على أساس من الحق والعدل ، ولا شك أن في هذا أسمى أنواع التسامح يمكن أن يوصي به دين أتباعه المؤمنين . ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المقْسِطين ﴾ أي إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم فيحسنون إلى من أحسن إليهم .

أما الذين يقاتلون المسلمين بسبب دينهم ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويعاونون أعداءهم على إخراجهم من أوطانهم ، فالإسلام ينهى عن مصادقتهم ونصرتهم ، وهذا عدل لا شائبة فيه ، ولا يمكن أن يعترض عليه أحد . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون الذين يعرضون أنفسهم لسخط الله .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان حكم الزوجة إذا أسلمت وهاجرت إلى ديار الإسلام تاركة زوجها في ديار الكفر على كفره :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمُ المؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بإيمَانِهِنَّ فَإن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌ لَهُمْ وَلَاهُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أن تَنْكِحُوهُنَّ إذَا آتَيْتُموهُنَّ أُجورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوافِرِ واسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُم وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية بعد صلح الحديبية وفيها بند أن من يأتي من الكفار إلى المسلمين مُسلماً يرد من حيث أتى ، فجاءت هذه الآيات تبين حكم النساء لأن الفقرة المتفق عليها لا تشمل النساء .

فالله سبحانه يأمر باختبار المؤمنات اللائي هاجرن إلى المدنية المنورة ، وكان ذلك الاختبار يحصل بأن يحلفن بالله على أنهن ما تركن مكة ولا هاجرن إلى المدينة إلاّ رغبة في الإسلام ، فإن تأكد إيمانهن فلا يصح أن تُرد المهاجرة المؤمنة إلى زوجها الكافر ، لأنها لا تحل له بعد أن آمنت بالله ، ولا الزوج الكافر يحل لها بعد أن ظل على كفره . ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ أي : أعطوا الأزواج الكفار الذين فارقتهم زوجاتهم ما سبق أن قدموه من المهور لهؤلاء المؤمنات المهاجرات . ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي لا إثم عليكم ـ أيها المؤمنون ـ في الزواج من هؤلاء المؤمنات اللاتي تركن أزواجهن الكفار ، بشرط أن تقدموا لهن مهورهن . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ ﴾ أي لا تتمسكوا ـ أيها المؤمنون ـ بعقود الزواج التي بينكم وبين زوجاتكم الكافرات بل فارقوهن ، والكوافر جمع كافرة ، ولهذا طلق الصحابة بعد

نزول هذه الآية زوجاتهم الكافرات اللاتي بقين على الكفر بمكة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ واسْألوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أي من ذهبت من المسلمات مرتدة عن دينها إلى الكفار ـ من أهل العهد ـ يقال للكفار : هاتوا مهرها الذي دفعه زوجها المسلم ليرد إليه ، ويقال للمسلمين : إذا أسلمت امرأة وجاءت إلى عند المسلمين تاركة زوجها الكافر ، ردوا مهرها إليه ، ثم يعقب الله على ذلك قوله : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي ذلكم الذي ذُكِرَ هو حكم الله فاتبعوا مايحكم به بينكم ﴿ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بأحوالكم ، حكيم في تشريعه .

ثم يذكر القرآن حكم المرتدات عن الإسلام وحق أزواجهن باسترداد مهورهن :

﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذينِ ذَهَبَت أَزْوَاجُهُم مِثْلَ مَا أَنفَقُوا واتَّقُوا اللَّهَ الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤمِنونَ ﴾ .

والمعنى : وإن ذهبت إحدى زوجاتكم ـ أيها المؤمنون ـ إلى الكفار مرتدة عن دينها ، ولم يردوا إلى زوجها المسلم المهر الذي دفعه لها ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي غزوتم الكفار وحصلتم منهم على غنيمة ، فأعطوا حينئذٍ الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار من أموال الغنيمة مثل ما أنفقوا على زوجاتهم المرتدات من المهور . ﴿ واتّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون ، فقوموا بطاعته ، واجتنبوا نواهيه .

وبعد ذلك يبين القرآن منزلة المرأة في الإسلام ، وأنها تتساوى مع الرجال في القيام بشعائر الدين ، فقد كان النبي ﷺ يعاهد الرجال على السمع والطاعة ، والقيام بحدود الشريعة ، وكذلك عاهد النساء كما أمره

الله ، هذا في الوقت الذي كان فيه كثير من الشعوب ينظرون إلى المرأة بامتهان ، ويحرمون عليها أداء شعائر دينها :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فالله يأمر نبيه إذا جاءته المؤمنات مبايعات أن يبايعهن (أي يعاهدهن) على : أن لا يشركن بالله شيئاً في عبادته والتوجه إليه ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يئدن البنات في التراب فيقتلوهن ـ كما كان يحصل في الجاهلية ـ ﴿ ولا يأتين بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ أي لا يلصقن أولاد الأجانب بأزواجهن كذباً وبهتاناً كما كانت تفعل بعض النساء في الجاهلية تقول الواحدة لزوجها هذا ولدي منك . وذكر القرآن الأيدي والأرجل لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ والمعروف : اسم جامع لكل ما عُرِفَ من طاعة الله والإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الدِّين وما نهى عنه ، والتقييد بالمعروف مع أن رسول ﷺ لا يأمر إلّا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق ﴿ فَبَايِعْهُنَّ واستغفر لَهُنَّ الله ﴾ أي فعاهدهن على الوفاء بما ذكر ، واطلب من الله الغفران لهن إن الله غفور رحيم إذا وفين بما عاهدن عليه .

ثم يختم الله هذه السورة بما بدأ به أولها من النهي عن مصادقة ونصرة الكافرين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾ .

فالله ينهى عن اتخاذ الكافرين ـ الذين غضب الله عليهم ـ نصراء وأصدقاء ، فهم قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها لأنهم لم يصدقوا بها وبما فيها من ثواب وعقاب ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفَّارُ مِنْ أصْحَابِ القُبُورِ ﴾ أي كما يئس الكفار الأحياء من موتاهم الذين في القبور أن يرجعوا إليهم .

فالنصرة والصداقة لا تكون ألاّ بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، لأنهم يسيرون على طريق الحق والهدى .

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية ، وآياتها اربع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا
مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ

شرح المفردات

سبَّح لِله : مجد الله وعظمه ونزّهه عما لا يليق به .

العزيز : من أسماء الله تعالى ، وهو القوي الغالب كل شيء .

كَبُرَ : عظم .

مَقْتاً : المقت هو البغض الشديد .

صفاً : مصفوفين ، والمراد ثابتين متحدين .

بُنيان مرصوص : بنيان متلاصق محكم .

لقومه : هم بنو إسرائيل .

المعنى الإجمالي

نَزَّهَ الله عن كل نقص ، ووصفه بكل كمال ، وعظمة وقدّسه كل ما في السماوات والأرض ، والله هو القوي الغالب ذو الحكمة البالغة .

يا أيها الذين آمنوا : لماذا تقولون كلاماً لا يصحبه عَمَلٌ يؤ يده وينفذه ، لَشَدَّ ما يبغض الله أن يخالف قولكم عملكم . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيل نصرة دينه متحدين متماسكين كأنهم بنيان محكم .

تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ
يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ

شَـرح المفـردَات

زاغوا : مالوا عن الحق .

أزاغ الله قلوبهم : أمال الله قلوبهم عن الهدى وصرفها عن قبول الحق .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله وهديه .

يا بني إسرائيل : يا ذرية يعقوب وهم اليهود .

مُصَدِّقاً : مقراً ومعترفاً .

لما بين يديّ : لما تقدمني من الكتب السماوية كالتوراة والزبور .

أحمد : من أسماء نبيّ الإسلام ، ومعناه : أحمد الناس لربه .

بالبينات : بالأدلة الواضحة على رسالته .

تابع المعنى الاجمالي

واذكر يا محمد حين قال موسى لقومه : لماذا تؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ فلما انحرفوا عن الحق أمال الله قلوبهم عن قبول الهداية ، والله لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته .

واذكر حين قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مؤيداً ومصدقاً لما تقدمني من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول محمد المبشّر به بالآيات الواضحات ، قالوا له : إن الذي جئتنا به هو سحر واضح ظاهر .

مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

شرح المفردات

مبين : بيّن ظاهر .

ومن أظلمُ : لا أحد أكثر ظلماً .

ممّن افترى : من الذي اختلق وكذب .

نور الله : دين الإسلام .

بالهدى : المراد به القرآن لأنه يهدي .

دين الحق : دين الإسلام .

لِيُظهره على الدين كله : ليعليه وينصره على الأديان كلها .

تُنجيكم : تنقذكم وتخلصكم .

تابع المعنى الإجمالي

ومن أشد ظلماً ممن اختلق على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدي القوم المصرّين على الظلم .

يريد بنو إسرائيل باختلاقهم الكذب على الله أن يطفئوا نور دينه بأفواههم ، والله مكمل نوره بإتمام دينه ولو كره الكافرون .

الله الذي أرسل رسوله محمداً بالقرآن هدى للناس ، وبالإسلام دين الحق ليجعله متفوقاً على جميع الأديان ولو كره المشركون.

يا أيها الذين آمنوا : هل أرشدكم على تجارة تنجيكم من عذاب شديد

وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

شرح المفردات

ذلكم : ما ذُكر من الإيمان والجهاد .

جنات عدن : جنات إقامة مستقرة .

وأخرى تحبونها : ويؤتكم نعمة أخرى تحبونها .

تابع المعنى الإجمالي

مؤلم . هذه التجارة أن تداوموا على الإيمان بالله ورسوله ، وتجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك الذي أرشدكم الله إليه هو خير لكم إن كنتم تعلمون ما في ذلك من المنافع لكم . وبهذا الإيمان والجهاد يغفر لكم ربكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويمتعكم بالإقامة في المساكن الطيبة في هذه الجنات التي تخلدون فيها ، ذلك الجزاء هو الفوز العظيم . هذه البشرى تحصلون عليها في الآخرة . وهناك نعمة أخرى عاجلة لكم أيها المؤمنون تحبونها ، هي نصر من الله وفتح قريب لبلدان هي بيد أعدائكم ، وبشِّر المؤمنين يامحمد بهذا النصر .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت
طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ ١٣ ١٤

شرح المفردات

للحواريين : هم أصحاب عيسى عليه السلام المقربون الذين آمنوا به وأخلصوا له .

طائفة : جماعة .

فأيَّدنا : فنصرنا وقوّينا .

فأصبحوا ظاهرين : فصاروا غالبين .

تابع المعنى الإجمالي

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله فارفعوا شأن دينه ، وأعلوا كلمته إذا دعاكم رسول الله أن تكونوا أنصاره ، كما قال عيسى بن مريم لأتباعه المخلصين : من أنصاري إلى الله ؟ قالوا : نحن أنصار الله ، فآمنت جماعة من بني إسرائيل بعيسى وكفرت جماعة ، فقوّى الله ونصر الذين آمنوا بعيسى على عدوهم الذين كفروا ، فأصبح المؤمنون منتصرين وغالبين على أعدائهم .

سُورَةُ الصَّفّ

ايضــاح و دروس

هذه السورة تدعو إلى وحدة الصف بين المسلمين ، وتحث على الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ، وتبين أن الله سبحانه خصَّ موسى برسالته لهداية الناس ، فلما انحرف اليهود بعد وفاة نبيهم موسى عن تعاليم الله ، أرسل الله سبحانه عيسى عليه السلام مجدّداً لتعاليم التوراة ، ومبشراً برسالة محمد ﷺ ، وقد كانت رسالة محمد متممة للرسالات الإلٓهية السابقة ، ومشتملة على مبادىء الحق والعدل والمساواة .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

فكل شيء في السماوات والأرض ينزه الله عن النقص ، ويبرِّئه من العيب ويقدّسه ، فهو سبحانه القوي الغالب ، وهو الحكيم في تدبيره وخلقه .

ثم يوجِّه الله اللوم الشديد للذين لا يقرنون القول بالفعل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

هذه الوصية شاملة لجميع أفراد الأمة ، ينطوي في مضمونها الخير كل الخير ، وترسم مسلكاً خُلقياً رفيع المدى ، إذا سارت عليه الأمة تقدمت شوطاً كبيراً في مضمار الرقي . إنها توصي بما هو متعارف عليه من الدقة

بالمواعيد ، والصدق في العهود والمواثيق ، وتجنب الإدعاءات الباطلة .

فالله سبحانه يقول : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ ، ثم يضيف قوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ : عظم ، والمقت : البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبيح ، فهذان وصفان شديدا التقريع ، وشديدا التوبيخ لكل قوم يقولون ما لا يفعلون[١] .

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى وحدة الصف ، وعدم التخاذل والتفرقة ، ومقابلة الأعداء في جبهة متحدة :

﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ .

فالله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ملازمين مكانهم ثابتين ثبات البناء المرصوص ، والرص : إنضمام الأشياء بعضها إلى بعض ، أو بمعنى آخر أن يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص .

ثم يلمح القرآن إلى الأذى الذي كان يلقاه موسى من قومه تثبيتاً لقلب النبي محمد ﷺ ، وتحذيراً للمؤمنين من سلوك مسلك اليهود مع نبيهم موسى .

---

(١) جاء في أسباب نزول هذه الآيات : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله هذه الآيات المذكورة .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ .

أي واذكر يا محمد قصة موسى مع قومه حين قال لهم : لماذا تؤذونني وقد رأيتم من الدلائل ما يشهد بأني رسول الله إليكم لأرشدكم إلى ما فيه سعادتكم ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أي مالوا عن الاستقامة وعن الحق الذي جاء به موسى ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي صرفها عن الخير والهدى وقبول الحق . ﴿ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ أي إن الله لا يهدي الخارجين عن طاعته ، فالهداية والإضلال من الله هما عن سابقة استحقاق ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكونوا مثل هؤلاء .

أما إيذاء بني إسرائيل لموسى فهو على ألوان ، فقد قالوا له كما جاء في القرآن : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ وقالوا له : ﴿ فاذهب أنت وربُّك فَقَاتِلَا إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون ﴾ وقالوا : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلَهاً كما لَهُمْ آلهة ﴾ . . . إلى غير ذلك .

وبعد رسالة موسى أرسل الله عيسى بن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

أي واذكر لقومك يا محمد ما قال عيسى بن مريم لقومه : يا قوم إني مُرْسَلٌ إليكم من الله وإني مصدق بالتوراة[١] .

---

(١) جاء على لسان عيسى في كتب النصارى : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » متى ٥ : ١٧ .

كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[1] وأحمد اسم لنبي الإسلام ، كما أن من أسمائه : « محمد » و « محمود » وهذه الأسماء مشتقة من الحمد وهو الشكر الذي هو نقيض الذم .

« محمد » : هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له . و « أحمد » : اسم تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره ، أو بمعنى أحمد الحامدين لربهم . و « محمود » : أي مشكور من الخلق لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي حين جاءهم أحمد المبشّر به بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الظاهرة فاجأوه بالتكذيب والإعراض عنه ، استكباراً وعناداً ، وقالوا له : إن ما جئت به ما هو إلّا سحر واضح ظاهر .

ثم يستنكر القرآن إعراض خصوم محمد عن الإسلام ، كاشفاً عن نياتهم

---

(١) هذه البشارة موجودة في كتب النصارى فقد كان المسيح يعبر عن المبشر به بلفظ (فارقليط) فقد جاء في كتبهم : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد » الفصل الرابع عشر من إنجيل يوحنا ١٦ ـ ١٧ ـ وكذلك ورد بهذا المعنى الفصل ١٥ و ١٦ . وقد بدل الرهبان لفظ (فارقليط) في المطبوعات الأخيرة بلفظ (المعزى) ولفظ فارقليط تعريب لفظ (بيريكلتوس) وقد سأل الأستاذ عبد الوهاب النجار الدكتور كارلو نلينو عن معنى (بيريكلتوس) فأجاب بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المعزى) فرد عليه قائلاً : إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية ولست أسأل قسيساً ، فقال : إن معناها الذي له حمد كثير ، وسأله : هل يوافق ذلك أفعل التفضيل من حمد ، فقال نعم . وهذا مصدق قوله تعالى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ ـ ملاحظة : ذكر ذلك الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء .

المبيتة ضده :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ ، واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ .

فالقرآن يقول : ومن أشد ظلماً ممن يُدعى إلى الإسلام والخضوع لله ، فلا يجيب الداعي ، بل يفتري على الله الكذب بتكذيب رسول الله محمد ﷺ ، وتسمية آيات القرآن سحراً ، والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشدهم . إنهم يريدون بهذا التكذيب ﴿ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ونور الله هو دين الإسلام وكان في أول عهده ضعيفاً وقد ظن المشركون والمنافقون أنهم يستطيعون القضاء عليه وإطفاء نوره وأنّى لهم ذلك فالله ﴿مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ ولقد صدق الله وعده فنصر رسوله ، وأكمل للمسلمين دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه ويجاهدون في سبيله .

ثم تأمل هذه النبوءة عن انتشار الإسلام ، وقد أعلنها الله حين كان المسلمون قلة ، وحين كان أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ .

شهادة من الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، بأن الإسلام هو الهدى ، وهو دين الحق ، أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ﴿ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي ليعلو على الأديان كلها وتكون له الغلبة . ولقد أنجز الله وعده وتحقق ظهور الإسلام على كل الأديان التي كانت في زمانه وذلك بعد بضع عشرة سنة من

وفاة النبي بواسطة الفتوحات العظيمة التي تمت على يد خلفائه ، ولا ريب أن تحقق هذا الوعد من أعظم الدلائل على أن القرآن وحي إلٓهي وعلى صدق نبوة محمد ﷺ ، وسيعلو الإسلام وينتشر مصداقاً لوعد الله قريباً على جميع الأديان عندما تصل حقيقته إلى أذهان وقلوب الملايين من البشر ، فالإسلام هو الدين الوحيد بين الأديان الحاضرة الذي يلائم بين مطالب الروح والجسد .

وبعد هذا البيان وفي جو البشرى بانتصار الإيمان وغلبة الإسلام تنتقل الآيات إلى تشويق المؤمنين وإرشادهم إلى أربح تجارة تنجيهم من العذاب ، ويحصل لهم منها الخير الكثير :

﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يخاطب المؤمنين : ﴿ هل أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ ﴾ أُسلوب يفيد التشويق ، وإثارة الاهتمام بما يأتي بعده ، هذه التجارة الرابحة هي : ﴿ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فالإيمان بالله ورسوله هو اتباع دين الإسلام الذي جاء بأعدل تشريع ، وأسمى مبادىء الحق التي تسعد الآخذين به ، وترشدهم إلى ما فيه الخير لهم في الحياة الدنيا والآخرة .

ومن الأسباب التي دعت القرآن الكريم إلى تشبيه الإيمان بالله والجهاد في سبيله بالتجارة الرابحة هو أن قبيلة قريش كانت تزاول التجارة فضرب الله لها مثلاً في حياتهم التي يحيونها .

ثم عقّب القرآن بعد ذلك : ﴿ وَتُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ وذلك من أجل قهر أعداء الله وأعداء المؤمنين ، ونشر دين الإسلام ، وإعلاء كلمة الله . وظاهر أن الجهاد هو الموضوع الرئيسي لهذه السورة جاء في صدر السورة ، ثم جاء هنا بهذا الأسلوب من التشويق ، وما ذاك إلّا لمدى أهميته من جهة ولتثبيته في النفوس من جهة أخرى .

والجهاد هو المسلك الذي يحفظ للأمة الإسلامية قوتها ، ويرهب أعداءها ، ويقوي نفوس أبنائها ، فترك الجهاد يؤدي إلى الركون لملذات الحياة ، والاستنامة إلى الترف ، فيؤدي ذلك إلى ميوعة الشعب ، وانتشار الفساد فيه ، فتضعف نفسية أفراده ، وتنمو الأثرة عنده ، فتفقد الأمة بذلك أكبر مصادر قوتها ، فيغير عليها جيران لها يطمعون بخيراتها فيستولون عليها ، ويذيقونها ألوان الخزي والعذاب ، ولهذا كان القرآن رائعاً عندما بيّن الثمرة الطيبة التي يمكن أن يجنيها الإنسان من الإيمان والجهاد بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم إن لهذه التجارة التي ذكرها القرآن فوائد آجلة ، وأخرى عاجلة ، فالآجلة وقد بدأ بها لأهميتها وأفضليتها على العاجلة ألا وهي قوله تعالى :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ .

فالله يعد المؤمنين في الآخرة بغفران ذنوبهم وإدخالهم إلى بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، وإسكانهم في قصور رفيعة في جنات الإقامة الدائمة ، ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه .

ويعقب القرآن بعد ذلك على ذكر الفوائد العاجلة :

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَها ، نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ ﴾ .

هذه الآية من الأنباء الغيبية للقرآن ، ومعجزة من معجزاته ، فقد نزلت قبل فتح مكة بقليل ، وقد أنجز الله وعده فتم النصر المبين للمؤمنين في دخولهم مكة ، والسيطرة على جميع أرجاء جزيرة العرب .

ثم يختم الله هذه السورة بدعوة المسلمين إلى أن ينصروا دين الله، كما نصر الحواريون دين عيسى أيام كان دينه قائماً على توحيد الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا كونوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلحَوارِيِّينَ : منْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الحَوارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفرتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمنوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بأن ينصروا دينه الذي أنزله على نبيه محمد كما نصر الحواريون الدين الذي أنزله الله على عيسى بن مريم. والحواريون هم أصفياء عيسى عليه السلام وخواصه وكانوا اثني عشر رجلاً ، وهم أول من آمن بعيسى من بني إسرئيل . ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ لما بلّغ عيسى عليه السلام رسالة ربه اهتدت جماعة من بني إسرائيل بما جاءهم به عيسى من الهدى ، وضلت جماعة أخرى جحوداً لرسالته أو غُلوًّا في المعتقد كقولهم عن عيسى : إنه ابن الله ، وإنه الله .

﴿ فَأَيَّدْنا الَّذِينَ آمنوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أي فنصر الله المؤمنين وجعل لهم الغلبة على عدوهم عالين عليهم ، وفي ذلك بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني ما داموا متناصرين على الحق مجتمعين عليه غير متفرقين .

سُورَةُ الجُمُعَة

مدنيـة ، وآياتها احدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

شرح المفردات

يُسبِّح لله : يمجد الله ويعظمه وينزهه عما لا يليق به .

القدُّوس : من أسماء الله تعالى ، وهو الطاهر المنزه عن النقائص .

الأميين : هم العرب في عصر النبي الذين كان أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب .

رسولاً منهم : هو محمد ﷺ من جنسهم ونسبهم .

يزكّيهم : يطهرهم من أدناس الجاهلية والكفر .

الكتاب : القرآن .

الحكمة : السُنّة وفهم الدين .

وإن كانوا من قَبْلُ : وقد كانوا قبل هداية النبي لهم .

المعنى الاجمالي

يُسبِّح الله وينزهه عما لا يليق به ويقدّسه كل ما في السماوات وما في الأرض ، فهو سبحانه المالك كـل شيء ، الطاهر المبرأ من كل عيب ، وهو القوي الغالب لكل شيء ، ذو الحكمة البالغة . وهو سبحانه أرسل في العرب الأميين رسولاً منهم يقرأ عليهم آيات القرآن ، ويطهرهم من خبائث العقائد والأخلاق ، ويعلمهم القرآن والسنة ، وقد كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ منحرفين

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ
لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ

شرح المفردات

وآخرين منهم : كل لاحق بأصحاب النبي من المسلمين بعد ذلك من أي الأجناس كانوا .

لمَّا يلحقوا بهم : لم يدركوا عهد الرسول ولا عهد صحابته وسيجيئون بعدهم .

حُمِّلوا التوراة : أوتوا التوراة وكلفوا العمل بما فيها .

لم يحملوها : لم يعملوا بتعاليمها .

أسفاراً : جمع سِفْر وهو الكتاب الضخم .

بِئس مَثَلُ القوم : ساء هذا المثل الذي ضربه الله لهؤلاء اليهود .

هادوا : اتخذوا اليهودية ديناً .

تابع المعنى الإجمالي

عن الحق ، ضالين ضلالاً واضحاً .

ودعوة النبي ﷺ ليست مقصورة على العرب في زمنه ولكنها تشمل غير العرب من جميع الأجناس ، كما تشمل الأجيال اللاحقة ممن يجيئون بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وهو سبحانه القوي الغالب كل شيء ، ذو الحكمة البالغة في كل أفعاله ، وذلك الفضل الذي امتاز به محمد على جميع الأنبياء في عموم دعوته ، هو فضل من الله يؤتيه من يصطفيه من عباده ، وهو صاحب الفضل العظيم .

وهؤلاء اليهود الذين أُوتوا التوراة وكُلِّفوا العمل بما فيها ، ثم لم يعملوا بموجبها ، مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل كتباً علمية على ظهره ، لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها ، وقد ساء هذا المثل الذي ضربه الله لهؤلاء اليهود ، ولكن الله لا يوفق الظالمين إلى الهدى .

أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ
لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ

شـرح المفـردات .

أولياء الله : أصفياء الله وأحباؤه .

بما قدَّمت أيديهم : بسبب ما ارتكبوا من الذنوب والآثام .

عَالِمِ الغَيْبِ والشهادة : العالم بما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه .

نُودي للصلاة من يوم الجمعة : أذَّن المؤذن لصلاة الجمعة .

فَاسْعَوا إلى ذِكْرِ الله : فامضوا إلى الصلاة واستماع موعظة الإمام .

تابع المعنى الاجمالي

قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم أحباء الله من دون الناس جميعاً ، بأن يتمنّوا الموت إن كانوا صادقين في دعوى حُبِّ الله لهم وحبهم لله ، ولكن هؤلاء اليهود لا يتمنون الموت أبداً ، بسبب ما قدّموه من الكفر وسوء الأفعال ، والله عليم بالظالمين .

قل لهم يا محمد : إن الموت الذي تهربون منه فإنه ملاقيكم ، ثم ترجعون إلى الله تعالى المطّلع على ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم ، وما يشهدونه بها ، ويوم القيامة يخبرهم الله بما كانوا يعملون في الدنيا .

يا أيها الذين آمنوا إذا أَذّن المؤذن لصلاة الجمعة فامضوا إلى سماع الخطبة

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾
وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ
خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

شَـرح المفـردَات

وذروا البيع : اتركوا البيع والشراء .

فإذا قُضيت الصلاة : إذا أُديت الصلاة .

فانتشروا في الأرض : تفرقوا طلباً لقضاء حوائجكم .

وابتغوا مِن فضل الله : اطلبوا الرزق الذي تفضل الله به عليكم .

تُفلحون : تفوزون .

انفضوا : تفرقوا عنك .

قائماً : أي قائماً على المنبر تخطب خطبة الجمعة .

ما عند الله : ثواب صلاة الجمعة .

تـابع المعـنى الاجمالي

وأداء الصلاة واتركوا البيع والشراء ، ذلكم الذي أمرتم به أنفع لكم إن كنتم تعلمون . فإذا أدَّيتم الصلاة فتفرَّقوا في الأرض ، واطلبوا الرزق الذي تفضل الله به عليكم ، واذكروا الله واشكروه على ما هداكم ، لعلكم تفوزون بخيري الدنيا والآخرة . وقد كان بعض المسلمين عندما يبصرون ، أثناء خطبة الجمعة ، تجارة أو لهواً تفرّقوا لملاقاتها ، وتركوك يا محمد قائماً تخطب الجمعة وتعظ من بقي من المؤمنين ، بلِّغ يا محمد الذين تفرقوا عنك وانصرفوا الى تعاطي التجارة : أنّ ما عند الله من الفضل والثواب أنفع لكم من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين ، فاطلبوا رزق الله بطاعته .

سُورَةُ الجُمُعَةِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تتوجّه إلى الأمة العربية زمن الرسول ﷺ بأن الله سبحانه شملها بفضله ، وأكرمها بمنته حيث اختار رسوله محمداً منها ليعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين ، وبذلك يرتفع شأنها على العالمين ، وإن هذا الاختيار يقتضي من هذه الأمة العرفان والشكر لله ، كما يقتضي أن تقوم بحمل الأمانة والتكاليف التي يطلبها الله منها .

وتعرض السورة بعد ذلك أن اختيار الله للعرب دون اليهود الذين كان الأنبياء منهم ، لأن اليهود تخلفوا عن الأمانة وتركوا العمل بأوامر الله .

ثم تنتقل السورة إلى مخاطبة المؤمنين بأن يلبوا نداء المؤذن لصلاة الجمعة ، فيتركوا البيع والشراء وسائر متطلبات الحياة آنذاك ، فللروح نصيب بالالتجاء إلى ربها ومناجاته وترك ما يعوقها عن ذلك ، كما للنفس نصيب لمتطلبات الجسد بعد الفراغ من الصلاة .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما في السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكيمِ ﴾ .

فكل ما في هذا الكون ينزه الله سبحانه عن السوء ، ويبرئه من العيب ويمجّده فهو سبحانه ﴿ المَلِك ﴾ أي المالك لما في السماوات والأرض ، المتصرّف فيهما بقدرته وهو ﴿ القُدُّوس ﴾ أي المطهر المنزه عن جميع العيوب والنقائص .

وهو أيضاً ﴿ العَزِيز الحَكيم ﴾ أي القوي الغالب كل شيء ، الحكيم في تصرفاته وأفعاله .

ثم يمتنّ الله على العرب برسالة محمد ﷺ التي أنقذتهم من ضلال الكفر :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

﴿ هُوَ ﴾ أي الله سبحانه ، الذي ﴿ بَعَثَ ﴾ أي أرسل ﴿ في الأُمِّيِّينَ ﴾ هم العرب فقد كانوا لا يكتبون ولا يقرأون في مجملهم . والمراد بقوله تعالى : ﴿رَسُولاً مِنْهُم﴾ هو محمد ﷺ الذي كان من جنسهم ونسبهم ، وكان أمياً مثل قومه لا يقرأ ولا يكتب ﴿ يَتْلُو عليْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن الكريم التي أنزلها الله عليه ﴿ وَيُزكِّيهِمْ ﴾ أي يصلحهم ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب ، فهو تطهير يشمل كل شيء في حياتهم ، ففي الجانب النفسي يطهر ضمائرهم وأرواحهم ، وفي الجانب العملي يطهر معاملاتهم من الغش والخداع والنفاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ ﴾ والمراد بالكتاب هو القرآن الكريم وما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه . أما الحكمة فهي سنة النبي ﷺ ، وما حوته من الفقه في الدين وروائع الحِكَم .

فأُميَّة النبي ﷺ آية على صدق نبوته وآية على أن القرآن وحي إلَهي ، فمحمد ﷺ نشأ أمياً بين قوم أميين ، لم يقرأ ولم يكتب ولم يتتلمذ على أحد ، ولا قال شعراً ، ولا عرف شيئاً من شرائع الأمم وأديانها بواسطة القراءة والكتابة ، ولو ثبت عنه شيء من ذلك لنقله أتباعه ، الذين عنوا برواية كل ما علموه وما سمعوه في شأنه ـ قبل النبوة وبعدها ـ أو لأذاعه أعداؤه ليكون حجة لهم في إنكار نبوته ، وهذا ما لم يحصل قط . ثم لما بَلَغَ النبي

محمد ﷺ من العمر أربعين سنة قام بالدعوة إلى الإسلام، وأيَّد نبوته بالقرآن، الذي اشتمل على أخبار الغيب الماضيـة والمستقبلة، وأسمى قوانين الأخلاق، والعبادات الجامعة بين المنافع الروحية والجسدية، وأعدل قواعد الشرائع السياسية، وقد جاء النبي ﷺ قومه بهذا الهدى، بعد أن كان ينطبق عليهم وصف القرآن ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

نعم لقد كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال ما بعده من ضلال، ندع وَصْفَهُ إلى جعفر بن أبي طالب حينما هاجر إلى الحبشة، مع جماعة من المسلمين فراراً من أذى قريش، فأرسلت قريش وفداً إلى النجاشي تطلب منه ردّ المهاجرين إلى مكة، ولكن النجاشي رأى قبل أن يُسَلِّم هؤلاء المهاجرين إلى قريش أن يستطلع دينهم ومعتقداتهم، فكان الذي كلّمه في ذلك جعفر بن أبي طالب الذي قال:

« أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي مِنَّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصِدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤ نا من دونه: من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدمـاء. ونهانـا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدّد له تعاليم الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الملّة، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله،

وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائِثْ ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك. . . » . ثم قرأ عليه صدراً من سورة مريم فتأثر النجاشي مما سمع ودمعت عيناه ، ورفض تسليم المسلمين إلى قريش .

ثم لنرجع إلى متابعة السورة فيذكر الله أن أمماً غير العرب ستدخل بالإسلام :

﴿ وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

فالمراد بـ (الآخـرين) سوى العـرب من الأمم والأجناس الـذين سيدخلون في الإسلام، ومعنى ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾[(١)] أي لم يدركوا النبي ﷺ ولا صحابته ، ولكن سيجيئون بعدهم ، وسيلحقون بهم باتِّبَاعِ الإسلام .

في هذه الآية معجزة من معجزات القرآن وذلك بالإخبار عن أنباء غيبية ستقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام ، وهذا ما قد حصل بعد سنين قلائل من موت النبي ﷺ .

هذه الأخبار عن انتشار الإسلام وتحقق وقوعها لا يمكن أن يعلنها إنسان ما من ذاتية نفسه ، مهما بلغ به الحماس لدعوته بدون أن تكون وحياً إلّهياً ،

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة (الجمعة) وفيها قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال : قلت : من هم يا رسول الله ، فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي . فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء » . هذه الآية تدل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس لأنه فسَّر قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ بفارس ، ولهذا ترى النبي بعد فترة قصيرة كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهما يدعوهم إلى الإسلام . والثريا : هي مجموعة من الكواكب ، أي لو كان الإيمان بعيداً بعد الكواكب لذهبوا إليه حتى ينالوه . لشدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه .

لأن كل صاحب دعوة حريص على نجاح دعوته ، وإن أقل وَعْدٍ يقطعه على نفسه ويخبر به أعوانه ، إذا كتب له الإخفاق ، سيكون دافعاً للقضاء على دعوته ، وانفضاض متبعيه من حوله . أما محمد ﷺ فقد جاء بالقرآن الذي يحتوي على عشرات النبوءات بانتصار الإسلام وانتشاره ، وقد تحقق ذلك بعد سنين قلائل من نزول القرآن .

وبعد هذا يبيّن القرآن بأن رسالة النبي ﷺ هي فضل من الله :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ .

ففضل الله هو الهداية إلى الإسلام ، فيكون المعنى : إن الله أرسل في الأميين رسولاً منهم ليهديهم كما يهدي به أناساً آخرين يلحقون بهم فيما بعد ، وهذه الهداية فضل من الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم على عباده حيث أنزل الشرائع لإصلاح أمورهم . وقد يراد بفضل الله (النبوة) ويكون المعنى : إن النبوة فضل من الله يعطيها من يشاء ويختار مِنْ عباده مَنْ يؤهله لتحمل هذه الرسالة .

ثم ينتقل القرآن إلى ذمّ اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة[١] .

﴿ مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

---

(١) أطلق القرآن على كتب اليهود المقدسة (التوراة) وهذه الكلمة من أصل عبراني ، وقد اختلف العلماء في تعيين حدود التوراة فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار ، ويرى البعض الآخر أنها أكثر من ذلك وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات . وليس في القرآن تحديد لأسفار التوراة ولكن اقترن اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير إلى أن المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) وهي الأسفار المنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى .

شبه القرآن عدم انتفاع اليهود بما في أيديهم من الهدى بالحمار الذي لا يعقل ، ثم يبرز هذا التشبيه بروعة ووضوح حين يقرر أن هؤلاء اليهود وقد ﴿ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ أي كلفوا العمل بما فيها من أحكام ولكنهم ﴿ لَمْ يَحْملوهَا ﴾ أي لم يعملوا بموجبها ولم يؤدُّوا حقها ، فمثلهم كمثل الحمار الذي ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ أي يحمل على ظهره كتباً ضخمة من كتب العلم لا ينتفع بها ، ولا يدري مما ضمته شيئاً ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال ، فليس له مما يحمل من حظ غير التعب .

فهذا المثل وإن ضرب على جماعة من يهود هجروا التوراة فإنه في الوقت نفسه تذكير للمسلمين بألا ينهجوا نهجهم فينطبق عليهم هذا المثل .

ويعقب الله على ذلك قوله : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أي ما أقبح هذا مثلاً لهم لتكذيبهم بآيات القرآن التي جاءت على لسان نبيه محمد ، وقيل المراد من الآيات آيات التوراة ، لأنهم كذَّبوا بها حين تركوا الإيمان بنبوة محمد ، في الوقت الذي تحتوي هذه التوراة على بشارات بنبوته . ويختم الله الآية بأنه لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب بسبب هذا التكذيب .

وبعد هذا يردُّ القرآن على ادعاءات اليهود بأنهم أصفياء الله وأحباؤه من دون سائر الناس :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

عبّر القرآن عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بالذين (هادوا) كما عبر عنهم أيضاً بلفظ (هوداً) و (بني إسرائيل) .

ففي قوله تعالى : ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ إشارة إلى أنانية اليهود فهم يريدون احتكار ولاية الله لهم كجنس مفضل مختار ، وهذا لا يمكن أن يصح ، لأن الله هو رب العالمين وليس رب اليهود فقط . ثم يتحداهم الله أن يتمنّوا الموت ، لأنهم إن كانوا أولياء لله وأَحباءه من دون الناس ، فما يخيفهم إذن من الموت ؟ وهم حين يموتون ينالون عند الله ما يلقاه الأولياء المقربون . لقد تحداهم الله بذلك إظهاراً لكذبهم ، فإنهم كانوا يقولون : ﴿ نَحنُ أَبنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤه ﴾ المائدة : ١٨ . ويدّعون أن نعيم الآخرة خاص بهم : ﴿ وَقَالوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً ﴾ البقرة : ١١١ . وهم أبعد الناس عن تمني الموت ، ولقد علل القرآن عدم تمنيهم الموت بأنهم يعرفون أنفسهم أنهم عاصون لله ، مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة . وهذا الموت سيلاقيهم كما سيلاقي كل حي على هذه الأرض ، ثم يرجعون بعد مماتهم إلى ربهم . فهو سبحانه ﴿ عَالِم الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فهو يعلم ما يغيب عن العباد وما يشهدونه ﴿ فَيُنَبئكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يخبركم بما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي فيجازيكم عليها .

ثم ينتقل القرآن إلى دعوة المؤمنين لتلبية المؤذن عندما يدعو إلى صلاة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمنوا إذا نُودِيَ للصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ إذا نُودِيَ للصَّلاَةِ ﴾ المراد بالنداء الأذان

الذي يُنادى به أمام الخطيب وهو على المنبر ولم يكن في عهد رسول الله أذان سواه ، فقد كان النبي ﷺ إذا جلس على المنبر أذن بلال على باب المسجد ، وكذلك كان على عهد أبي بكر وعمر ، فلما كثر الناس على عهد عثمان أمر بالأذان على دار بالسوق يقال لها الزوراء كي يجتمع الناس ، وكان إذا جلس الإمام على المنبر أذّن المؤذن أيضاً بين يديه ، فيكون الأذان عند جلوس الإمام هو الأذان الثاني .

وصلاة الجمعة فرض ثابت وهي ركعتان تصلى جماعة ، ووقتها هو وقت صلاة الظهر(١) .

أما العدد الذي تنعقد به صلاة الجمعة فقد ذهب العلماء في ذلك إلى مذاهب متعددة ، فقيل : يشترط أن لا يقل العدد عن أربعين(٢) ، والأفضل في صلاة الجمعة أن تضم أكبر جمع ممكن من المسلمين .

و (يوم الجمعة) سمي بهذا الاسم لأنه يوم الاجتماع ، فإن المسلمين يجتمعون فيه كل أسبوع مرة بالمساجد الجامعة لصلاة الجمعة ، وقيل سمي بذلك لأنه اليوم الذي كمل فيه جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض .

ويوم الجمعة له ميزة على بقية الأيام فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، ففيه خلق آدم ، وفيه أُدخِلَ الجنة ، وفيـه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلّا في يوم الجمعة » .

---

(١) وهو من وقت زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الاستواء .

(٢) هذا ما ذهب إليه الشافعية والحنابلة ، ويرى المالكية أن أقل عدد تنعقد به الجمعة اثنا عشر رجلاً عدا الإمام ، وقال الحنفية تنعقد الجمعة بثلاثة غير الإمام .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي دعوا التجارة في ذلك الوقت ، ولا يجوز البيع في وقت النداء لصلاة الجمعة والخطبة ووقت الصلاة ، ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، وقال الإمام الشافعي : إن البيع لا ينعقد . .

ولنقف قليلاً عند قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ففي هذا النص القرآني بيان بأن لصلاة الجمعة فوائد يعود خيرها على جماعة المؤمنين .

ولا بد من الإشارة إلى أن فوائد الجمعة يندرج فيها الفوائد التي تستفاد منها صلاة الجماعة[١] بصورة عامة ، وسنذكر بعض هذه الفوائد التي تعود للجمعة والجماعة معاً لأنها متداخلة .

١) صلاة الجماعة شرعت وسيلة لتعارف المؤمنين ، وإزالة الفوارق الاجتماعية فيما بينهم ، وتبادل المنافع فيما يعود عليهم من خير ، فالمسلمون يقفون جميعاً في الصلاة جنباً إلى جنب متلاصقين ، رئيس الدولة يقف إلى جانب أي فرد من أفراد الشعب ، ويقف الغني ملاصقاً للفقير ، وأبيض البشرة إلى جانب أسودها ، كل هؤلاء يتقربون إلى الله . إن الدعوة إلى المساواة والإخاء البشري لا تخرج عن كونها نظريات إذا لم تطبق في حياة المرء وتفكيره ، وهكذا طبقها الإسلام في صلاة الجمعة وصلاة الجماعة .

٢) الصلاة من أهم أهدافها (الإيحاء) للإنسان بالصفات الخيّرة ، وهناك عوامل شتى توفر إمكانية الإيحاء في علم النفس ، هي : العدد ،

---

(١) صلاة الجماعة هي فرض في صلاة الجمعة وسنة في غيرها .

والتنوع ، والمكان . فاجتماع عدد من الناس ثم تنوعهم ما بين شيوخ وشباب من كل الفئات ، ثم وجودهم في بناء واحد ذي مهابة لا يرغم هؤلاء على الاحترام فحسب لكن يجعل معظم الناس يتأثرون سريعاً بالإيحاء الباعث على المهابة لله وتوطين النفس على الخير .

٣) صلاة الجمعة من شروط صحتها خطبتان ـ يفصل بينهما جلسة قصيرة ـ وأن تتقدما على الصلاة ، يلقيهما الخطيب قبل صلاة الجمعة ، يحث المصلين فيهما على البر والتقوى والتحلي بالصفات الخيّرة التي ترضي الخالق ، ويحذرهم من الإثم والفجور وسائر أعمال السوء التي تغضب رب العالمين ، كل ذلك له أثره الفعال في سلوك الإنسان وتغيير مسرى حياته من سيء إلى أحسن .

٤) وبالإضافة إلى ما ذُكر فإن اجتماع المسلمين في المسجد راغبين في الله راجين رحمته يسبب في نزول البركات والرحمات من الله ، ولذلك يُسن الدعاء في خطبة الجمعة حيث يدعو الخطيب ، ويؤمّن على دعائه المصلون رجاء الاستجابة .

ثم يبين القرآن ما يستحسن عمله بعد أداء صلاة الجمعة :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، واذْكُرُوا اللَّهَ كَثيراً لَعلّكم تُفْلِحُونَ ﴾ .

أي إذا فرغتم من الصلاة فتفرقوا لأداء مصالحكم الدنيوية ، واسعوا في طلب الرزق ، واذكروا الله كثيراً حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم ، وإذا ذكر الإنسان ربه حين بيعه وشرائه ، وحين تعامله مع الغير ، فلا يظلم ، ولا يغش ولا يكذب ، ولا يعتدي على أحد ﴿ لَعَلّكُم تُفْلِحُونَ ﴾ أي لعلكم

تفوزون بالفلاح في دنياكم وآخرتكم .

ثم تختتم السورة بالتعريض بفريق من المسلمين تركوا النبي يخطب على المنبر يوم الجمعة منصرفين إلى قافلة تجارية قَدِمَت المدينة وقد سمعوا صوتها وضجيجها وما يصحبها من ضرب على الطبول إيذاناً بقدومها على عادة عرب الجاهلية ، لقد خرجوا إليها ولم يبقَ مع رسول الله إلاّ اثنا عشر رجلاً فنزل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ واللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

فالله سبحانه يقول مخاطباً نبيه ومعرضاً بأولئك الذين تركوه قائماً يخطب على المنبر منصرفين إلى قافلة التجارة : إذا رأى هؤلاء تجارة أو لهواً تفرقوا عنك وانصرفوا إليها وتركوك قائماً تخطب على المنبر ، فقل لهم إن ما عند الله من الثواب والأجر العظيم خير من اللهو ومن ربح التجارة ﴿ واللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي إن كنتم تخشون ذهاب ربحكم وبوار تجارتكم في وقت صلاة الجمعة فإن الله سيرزقكم خيراً من ذلك لأن الله خير الرازقين فإنه يرزق دون حساب ودون مقابل .

ولقد كان لانصراف بعض المسلمين أسباب منها : أنهم كانوا في ضيق وغلاء العيش ، وكان مع القافلة ما يحتاج إليه الناس من بُرّ(١) ودقيق وغيره ولقد ظن من في المسجد أنه ليس في ترك الخطبة إثم ، وإنما الإثم في ترك الصلاة ، فلما نزلت الآية لم يعد أحد منهم يترك الرسول وهو يخطب .

---

(١) برّ : قمح .

سُورَةُ المُنَافِقُون

مدنيـة ، وآياتها احدى عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ
جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ

شرح المفردات

المنافقون : هم الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر .

نشهد : نقرّ ونعترف ونحلف .

أَيْمَانهم : جمع يمين وهو القسم .

جُنَّةً : وقاية لأنفسهم من القتل .

فصدّوا عن سبيل الله : أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله وصرفوا الناس عن الإسلام .

ساء : قَبُحَ .

ذلك : أي ما ذُكر من الصد عن سبيل الله وقبح الأعمال .

المعنى الاجمالي

إذا جاء المنافقون إلى مجلسك يا محمد قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك رسوله حقاً ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في دعواهم الإيمان بك لعدم تصديقهم رسالتك بقلوبهم ، ولأنهم أضمروا غير ما أظهروا .

إنهم يكثرون من القسم بأنهم مؤمنون، متخذين من ذلك وقاية حتى لا تنكشف حقيقتهم ، وهم بذلك قد أعرضوا عن طاعة الله فقبحت أعمالهم وما يخفون من النفاق .

بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ
مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ
اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ

شــرح المفـردات

فَطُبِعَ على قلوبهم : خُتم على قلوبهم بالكفر .
لا يفقهون : لا يفهمون الإيمان ولا يتدبرون القرآن .
تُعْجِبك أجسامهم : تعجبك هيآتهم ومظاهرهم لما فيها من النضارة والرونق .
خُشُبٌ مُسنَّدة : خشب مستندة إلى جدار ، فهم أجسام بلا عقول .
فاحذرهم : لا تأمنهم على سرك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار .
قاتلهم الله : لعنهم الله وطردهم من رحمته .
أنَّى يُؤفكون : كيف ينصرفون عن الحق إلى الكفر .

تابع المعنى الاجمالي

هؤلاء المنافقون أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وأخفوا الكفر في قلوبهم ، فختم الله بذلك على قلوبهم ، وجعل عليها غشاوة فحرمها نعمة الإيمان ، فهم لا يفهمون ما ينجيهم من عذاب الله .

وإذا رأيتهم تعجبك مظاهر أجسامهم وهيآتهم لما فيها من النضارة والرونق ، وإن يتكلموا تسمع لحديثهم لحلاوته وفصاحته ، ولكنهم أجسام بلا عقول ، فهم في الواقع كالأخشاب المسندة إلى جدار لا حياة فيها، وهم لخوف افتضاح أمر نفاقهم يظنون كل صوت أو نداء في أمر من الأمور موجهاً إليهم يكشف أستارهم ، هؤلاء هم ألد أعدائك فاحذرهم ولا تأمنهم على سرّ ، لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فكيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من النفاق .

لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ
ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

شرح المفردات

لَوّوْا رؤوسهم : حركوا رؤوسهم استهزاء وإباء .
يصُدُّون : يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان .
الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله .
على مَنْ عِنْدَ رسول الله : هم فقراء المهاجرين .
حتى ينفَضُّوا : حتى يتفرقوا عنه .
الأَعَزُّ : الأقوى ، يقصد المنافقون بذلك أنفسهم .
الأَذَلَّ : الأضعف يقصد المنافقون بذلك النبي ومن معه من المؤمنين بزعمهم .
ولِله العِزةُ : الغلبة والمنعة .

تابع المعنى الاجمالي

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين : أقبلوا إلى النبي ليستغفر لكم ذنوبكم مالوا برؤوسهم استهزاء ، ورأيتهم يعرضون وهم مستكبرون عن الامتثال ، واستغفارك لهم يا محمد ، وعدم استغفارك سيّان لا يجديهم نفعاً ، لإصرارهم على النفاق ، والله لا يهدي القوم الخارجين على طاعته .

هؤلاء المنافقون كانوا يقولون للأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله من المهاجرين الفقراء حتى يتفرقوا عنه ، ولكن ما أشد جهلهم ! ألا يعرفون أن خزائن

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ
عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟
مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ
نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

شَرح المفـردَات

أنفقوا مِمَّا رزقْنَاكم : أنفقوا بعض ما رزقكم الله من أموال .

يأْتي أحدكُم الموتُ : ينزل الموت بأحدكم برؤ ية علاماته .

لَوْلا أخّرتني إلى أجل قريب : هلاّ أجلت موتي إلى وقت قريب .

فأصَّدَّقَ : فأتصدق .

جاء أجلها : حان وقت موتها .

تابع المعنى الإجمالي

السماوات والأرض بيد الله ، يعطيها من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفهمون هذه الحقائق . ويقول المنافقون متوعدين المؤمنين : والله لئن رجعنا إلى المدينة بعد هذه الغزوة لنخرجنكم منها لأننا الأقوياء الأعزاء ، وأنتم الضعفاء الأذلاء ، ولكن فات هؤلاء بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون .

يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله لا تشغلكم العناية بأموالكم وأولادكم عن ذِكْرِ الله ، وأداء ما فرضه عليكم ، ومن تشغله أمواله وأولاده عن ذلك فأولئك هم الخاسرون يوم القيامة . وأنفقوا ـ أيها المؤمنون ـ بعض ما رزقكم الله في سبيل الخير من قبل أن تأتي أحداً منكم بوادر الموت ، فيقول عندئذٍ نادماً : رب ليتك تؤخّر موتي قليلاً حتى أتصدّق وأكون من عبادك الصالحين . ولكن الله لن يؤخِّر الموت عن نفس حان وقت موتها ، والله عنده العلم الشامل بما تعملون فيجازيكم على عملكم .

سُورَةُ المنَافِقُونَ

ايضـــاح و دروس

النفاق هو اختلاف السرّ والعلانية ، أو اختلاف القول والعمل ، وهو نوعان : نوع يكون في العقائد وهو أشده وأخطره ، ونوع يكون في الأقوال والأعمال وهو دونه إثماً .

ولقد تحدّث القرآن الكريم عن نوع خاص من النفاق ، وهو النفاق في العقيدة ، أي أن يظهر الإنسان الإيمان ويبطن الكفر ، كما تحدث القرآن عن أسلوب المنافقين سواء في السلم أو في الحرب ، من حيث نشر الإشاعات الكاذبة بقصد التشكيك ، وإضعاف الروح المعنوية ، وزعزعة الإيمان وإثارة اليأس في القلوب .

والنفاق مدعاة لاقتراف الأخلاق الذميمة : كالرياء والخداع والمداهنة والغدر ، والكذب ، والخيانة ، وهي أوصاف ألصقها الله بالمنافقين ، وهي آفات تفتك بجسم الأمة ، لهذا حارب الإسلام النفاق في كثير من سُوَرِ القرآن ، وبيَّن فيها صفات المنافقين ، وعاقبتهم يوم القيامة ، مشدّداً النكير عليهم كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّ المنَافِقينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ النساء : ١٤٥ . كما أفرد لهم سورة خاصة تُدعى سورة (المنافقون) وهي ما نحن بصددها .

وهذه السورة نزل معظمها في كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول وأشباهه الذين خرجوا مع النبي إلى غزوة بني المصطلق لا رغبة في الجهاد ، ولكن طلباً للغنيمة ، فلما انتهت الغزوة وانتصر فيها رسول الله أقبل رجلان لاستقاء الماء أحدهما يُدعى سِنان وهو حليف لعبد الله بن

أُبيّ ، والآخر يُدعى جهجاه وهو أجير لعمر بن الخطاب ، فازدحما على الماء وتشاجرا ، فلطم جهجاه سِنان على وجهه فأدماه ، فنادى سِنان : يا آل الخزرج فأقبلوا ، ونادى جهجاه يا آل قريش فأقبلوا ، وكادت تحدث مجابهة بينهما ، فأصلح الأمرَ قومٌ من المهاجرين ، فبلغ الخبر عبد الله بن أُبيّ فقال وعنده جماعة من المنافقين : والله ما مثلكم ومثل هؤلاء الرهط من قريش إلّا مثل ما قال الأُوَل : سمّن كلبك يأكلك ، ولكن هذا فعلكم بأنفسكم ، آويتموهم في منازلكم ، وأنفقتم عليهم أموالكم فقووا وضعفتُم ، وايم الله : لو أمسكتم أيديكم لتفرقت عن هذا « أي النبي » جموعه . ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [يريد بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله] وكان في القوم زيد بن الأرقم وهو غلام لم يبلغ الحلم فأقبل على رسول الله وأخبره الخبر ، فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أُبيّ فأتاه ، فقال رسول الله : أنت صاحب هذا الكلام ؟ فقال : والذي أنزل عليك ما قلت شيئاً من هذا ، وإن زيداً لكذّاب ، فقال من حضر من المسلمين : لا يصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وَهِمَ ، فعذره رسول الله ، وفشت الملامة من الأنصار لزيد وكذبوه وقال له عمه : ما أردت إلّا أن كذبك رسول الله والمسلمون ومقتوك . . . ثم أنزل الله بعد ذلك سورة (المنافقون) في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أُبيّ . ولما قيل لعبد الله بن أُبيّ إنه قد نزلت فيك آيات شداد فاذهب إلى رسول الله ليستغفر لك لوى رأسه وأعرض واستكبر عن الذهاب إلى رسول الله .

هذا ما جاء في أسباب نزول هذه السورة نقلناه باختصار ، ولننتقل إلى عرض وتحليل آياتها .

يقول تعالى مستهلاً هذه السورة بكشف كذب المنافقين :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ ، واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّك لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يخاطب نبيه : إذا جاءك المنافقون وقالوا لك : نقر ونعترف أنك رسول الله ، فإن قولهم هذا كاذب لأنهم يضمرون غير ما يظهرون ، وإنك يا محمد غني عن شهادتهم ، لأن الله يشهد شهادة علم إنك لرسوله ، ويشهد إن المنافقين كاذبون فيما شهدوا ، وإن كانت شهادتهم مطابقة للواقع .

ثم بيَّن الله أنهم يحتالون بكل قسم من أجل تصديق الناس لهم بأنهم مؤمنون :

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالأيْمان جمع يمين وهو القَسَم ، فقد كانوا يقسمون بأنهم مؤمنون ، ويتخذون من هذا القسم جُنَّةً أي وقاية تقيهم ما يخافون على أنفسهم من القتل(١) . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله ، وصرفوا الناس عن الدخول في دين الله . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهل أسوأ من الكذب والخداع والضلال .

ويبين الله أيضاً حقيقة نفاقهم :

---

(١) الجُنَّةُ : هي الدرع التي يلبسها المقاتل ليتقي بها بأس الأعداء ، ومن دقة التعبير القرآني تصوير أنهم لا يلتمسون مجرد ساتر كالثوب مثلاً ، وإنما يشعرون بأنهم في حرب نفسية ، وأنهم في حاجة إلى شيء يسترون به ما في أنفسهم بشرط أن يكون من أدوات الحرب ، فاختار القرآن تعبير الجُنَّة ليكون مطابقاً لما في نفوسهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمنوا ثُمَّ كَفرُوا فَطُبعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفقَهُونَ ﴾ .

فهم قوم عرفوا الإيمان ولكنهم اختاروا الكفر ، أو أنهم آمنوا ظاهراً بوجه المؤمنين ثم إذا انصرفوا إلى قومهم أظهروا لهم الكفر . ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خُتم على قلوبهم فلا تهتدي إلى حق ، ولا يصل إليها خير ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون القرآن ولا يميزون بين نور الإيمان وظلام الكفر .

ويصف الله بعض سمات المنافقين وتصرفاتهم كي لا ينخدع بها المؤمنون :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفكُونَ ﴾ .

فهؤلاء المنافقون كان فيهم أقوام صباح الوجوه ، أشداء البنية ، فصحاء الألسنة ، فإذا تكلموا أعجبوا السامع بكلامهم المعسول ، ولكن دخيلة نفوسهم لا توافق ظواهر أجسامهم ، فهم أجسام بلا عقول ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ يشبههم الله بالأخشاب المسندة إلى الجدران فهي خالية من الحياة لا تفهم ولا تعلم ، وما أروعه من تشبيه .

وهم أيضاً لسوء طويتهم وممارستهم النفاق يعرفون أنهم يتسترون بثوب رقيق شفاف يشف عما تحته ويكشفهم على حقيقتهم ولذلك ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ هم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح ، وأسرارهم قد انكشفت . والتعبير القرآني يرسمهم أبداً متلفتين حولهم ، يخافون من كل حركة ، ومن كل صوت يحسبونه يطلبهم وقد عرف حقيقة

أمرهم ، ﴿ هم العَدُوُّ ﴾ الكامن داخل المجتمع الإسلامي ، وهو أخطر من العدو الخارجي لأنه يفكّك وحدة المجتمع ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ دعاء عليهم من الله بالطرد من رحمته والخزي ﴿ أَنَّى يُؤْفكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر .

ويتحدث القرآن عن فقدان الأمل في أن يصبحوا مؤمنين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ .

فهم إذا طُلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليطلب الغفران لهم من الله على ما اقترفوا من الذنوب ، وقد انكشف أمرهم ﴿ لَوّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي حركوها استهزاء من طلب المغفرة ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكبِرُونَ ﴾ أي يعرضون استكباراً . وإن استغفارك يا محمد لهؤلاء المنافقين وعدمه سيّان فهو لا يجديهم نفعاً ، فالله لن يغفر لهم ، لأنه سبحانه لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته .

كما يكشف القرآن عن مخططات المنافقين لإضعاف المسلمين :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

فهؤلاء المنافقون يقولون للأنصار : لا تنفقوا على محمد وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم حين يعضهم الجوع بنابه ، إنها حرب اقتصادية أثاروها ضد المسلمين وغالبيتهم من الفقراء ، كما تفعل أخبث وأخطر الوسائل التي توجه اليوم ضد بعض الشعوب الفقيرة لدوام السيطرة

عليها ، ولكن القرآن يسخر من خطتهم ، ويملأ قلوب المؤمنين يقيناً بفشل مخططات المنافقين ﴿ ولِلَّهِ خَزَائِنُ السَّـمَواتِ وَالأَرْضِ ﴾ فهو سبحانه الرزاق لهؤلاء المسلمين المهاجرين ، وخزائن الرزق بيده لا بيدهم ، وهو يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، والمنـافقون ﴿ لا يَفْقَهُـونَ ﴾ أي لا يفهمون هذه الحقيقة لجهلهم سنن الله في خلقه ، وأنه سبحانه لا يمنع الرزق عمن يجاهر بعصيانه فكيف بأوليائه .

وبعد هذا يرد الله على وعيد كبير المنافقين بإخراج النبي ذليلاً من المدينة :

﴿ يقُولونَ : لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمِنِينَ وَلٰكِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

القائل هذا القول هو عبد الله بن أُبيّ وقد قصد بالأعز نفسه ومن معه من المنافقين ، كما قصد بالأذلّ رسول الله ومن معه من المؤمنين . ومراده بالرجوع رجوعهم إلى المدينة بعد تلك الغزوة التي ساروا فيها مع الرسول بقصد الغنيمة .

ولنقف قليلاً عند قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمنينَ وَلَكِنَّ المنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فعزة الله تعني قهره وغلبته لأعداء دينه ، والعزة لرسوله(١) نصر الله له وإظهار دينه على الأديان كلها ، والعزة للمؤمنين نصر

(١) روي أنه لما قفل الناس راجعين إلى المدينة وقف ابن عبد الله بن أبي على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله فإنه العزيز وأنت الذليل ، فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له الرسول فقال الابن : أما أذا أذن لك رسول الله فجز الآن .

(١) رواه أبو داود وابن ماجة .

الله إياهم على أعدائهم . هذه الآية من الأمور الغيبية التي تحققت بعد زمن وجيز من نزولها ، فقد نزلت هذه الآية والإسلام في مهده والمسلمون مستضعفون مضطهدون فلم تمض سنوات قلائل حتى انتصر رسول الله على جميع أعدائه ، وتمت له السيطرة على كامل جزيرة العرب ، وبعد وفاته تمت الفتوحات العظيمة على يد خلفائه الراشدين فقوّضوا امبراطوريتي : فارس والروم وتوغلت جيوش المسلمين في فتوحاتهم إلى حدود فرنسا ، لقد تمّت هذه الفتوحات العظيمة على يد المؤمنين الحقيقيين الذين كانت حياتهم مصداق هذه الآية الكريمة : ﴿ إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم في سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقونَ ﴾ الحجرات : ١٥ .

ثم لما ضعُفَ الإيمان في قلوب المسلمين وانتابتهم الفرقة وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة ضعفوا وذلوا وطمع فيهم كل غريب .

ثم يختم الله هذه السورة بتحذير المؤمنين من كل ما يلصق بهم من صفات المنافقين من الغفلة عن ذكره اشتغالاً بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن الصدقات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالكُمْ وَلاَ أَوْلادُكمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

فالذين تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله هم الخاسرون ، الذين يخسرون نعيم الآخرة، ويخسرون طمأنينة النفس التي تنبعث من ذكر الله، كما قال تعالى : ﴿ ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ الرعد : ٢٨ . وذكر الله

يشمل الصلاة أيضاً .

والمجتمع الذي يغفل عن ذكر الله هو المجتمع الخاسر ، لأن الغفلة عن الله سبب في اقتراف الآثام واستفحال الإجرام ، بينما الذين يذكرون ربهم ، ويخشعون لعظمته تلين قلوبهم فلا يصدر عنهم إلاّ كل خير .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ ﴾ فالله يذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي بين أيديهم فهو من عند الله أودعهم إيّاه ، وأمرهم بأن ينفقوا جزءاً منه على الزكاة وصدقة التطوّع ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمُ الموْتُ ﴾ أي قبل أن يفارق أحدكم هذه الحياة وعندها سيترك كل ما جمعه من أموال ويرى أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ﴿ فَيَقُولُ : رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يتمنى على ربه أن يؤجل موته أمداً قصيراً وهو تمنٍّ يُشعر بالندم الشديد على ما فات ، وهو يتمنى ذلك ليعوض ما فاته من العمل الصالح ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي لأتصدق واعمل بطاعتك وأؤدي فرائضك ، ولكن الجواب يأتيه : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ فالله سبحانه لا يؤخر منيّة إنسان حضر أجله وانقضى عمره ﴿ واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه شيء فيجازيكم بأعمالكم .

سُورَةُ التَّغَابُن

مدنية ، وآياتها ثماني عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

شرح المفردات

يُسبِّح لله : يقدس الله وينزهه عما لا يليق بشأنه .

له الحمد : له المدح والشكر .

بصير : عليم مطلع .

المعنى الإجمالي

ينزه الله عما لا يليق بجلاله ويقدّسه كل ما في السماوات وما في الأرض ، وهو وحده مالك التصرف في كل ما في هذا العالم ، وهو المستحق للحمد والشكر من عباده ، وهو سبحانه عنده القدرة التامة على صنع كل شيء .

وهو سبحانه الذي تفرّد بخلقكم من العدم ، فمنكم أيها الناس منكر لألوهيته ، ومنكم مُصدّق بها ، والله بما تعملون بصير فيجازيكم على أعمالكم .

وهو سبحانه خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة ، ولم يخلقها عبثاً ، وخلق الإنسان في أكمل صورة ، وأبدع منظر ، ومرجعكم في الآخرة إليه وحده ليحاسبكم على الشكر والكفر . وهو سبحانه يعلم كل ما في السماوات وما في

وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ
يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ
يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾

شـرح المفـردات

عليمٌ بذات الصدور : عالم بما يجول بنفوسكم من الخواطر والمعتقدات .

نَبَأُ : خبر .

وَبَالَ أمرهم : العاقبة السيئة لكفرهم .

بالبيّنات : بالحجج الواضحات .

أَبَشَرٌ يهدوننا : استنكار منهم أن يكون الرسل من البشر .

تولَّوْا : أعرضوا عن الإيمان .

واستغنى الله : استغنى الله بسلطانه عن إيمانهم وعبادتهم .

غني حميد : غني عن جميع خلقه ومحمود على كل حال .

زعم : ادعى كذباً .

تابع المعنى الإجمالي

الأرض ، ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون ـ أيها الناس ـ من أقوال وأفعال ، وما تضمره نفوسكم .

هل بلغكم ـ أيها الكفار ـ خبر ما حصل للأمم قبلكم حين كفرت بأنبيائها كقوم نوح ومن بعده ؟ فعاقبهم الله على كفرهم في الدنيا بالذل والهلاك ، ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم . ذلك الذي أصابهم من العذاب كان بسبب أنهم كذّبوا رسلهم الذين أتوهم بالمعجزات الظاهرة على أنهم رسل من الله ، وقالوا منكرين : أبشرٌ مثلنا يرشدوننا ؟ فأنكروا رسالتهم ، وانصرفوا عن الحق ، وأظهر الله غناه عن إيمانهم بإهلاكهم ، والله غني عن خلقه مستحق للثناء والحمد .

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ
ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ
سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ

شرح المفردات

الذين كفروا : المراد بهم كفار مكة .

يُبعثوا : يرجعوا أحياء بعد موتهم يوم القيامة للحساب .

لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم : سيخبركم الله بجميع أعمالكم .

يسير : سهل هيّن .

النور : أي القرآن .

لِيوم الجمع : يوم القيامة الذي يجتمع فيه الناس للحساب .

يوم التَغابُن : يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان ، وأصل الغبن النقص في الثمن .

يُكَفِّر عنه سيئاته : يمحو الله له ذنوبه .

تابع المعنى الاجمالي

لقد زعم الذين كفروا أنهم لن يُبعثوا أحياء بعد الموت للحساب ، قل لهم يا محمد : بلى ، وأقسم لكم بربي أنكم ستبعثون أحياء بعد الموت وستحاسبون وتخبرون بما عملتم في الدنيا ، ثم تجازون عليه ، وذلك البعث والحساب هو يسير هيّن على الله فآمنوا بالله ورسوله ، واسترشدوا بالقرآن الذي أُنزل على محمد ، والله خبير بأعمالكم . يوم يجمعكم يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافرين لانصرافهم عن الإيمان ، وغبن المؤمنين المقصرين لتهاونهم في تحصيل المزيد من الطاعات . ومن يؤمن بالله ويعمل عملاً صالحاً يمحُ له ذنوبه ، ويدخله جنات تجري من خلالها الأنهار ماكثاً فيها أبداً ، ذلك الجزاء هو

ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

تابع المعنى الاجمَالي

الفوز العظيم . والذين جحدوا الإيمان بالله ورسوله ، وكذّبوا بآيات القرآن أولئك أصحاب النار ماكثين فيها أبداً ، وساء المرجع الذي يصيرون إليه .

ما أصاب الإنسان من بلاء ومحنة إلّا بتقدير الله وعلمه، ومن يُصدّق بالله يهدِ قلبه إلى الصبر والرضا بقضاء الله ، والله عنده العلم التام بكل شيء .

وأطيعوا الله فيما أمركم به ، وأطيعوا الرسول محمداً فيما بلّغ عن ربه ، فإن أعرضتم عن هذه الطاعة فلن يضر الله إعراضكم ، وإنما على رسول الله إبلاغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً . الله الذي لا معبود بحق إلّا هو ، وعليه وحده فليعتمد المؤمنون في كل أمورهم .

يا أيها الذين آمنوا إن بعضاً من أزواجكم وأولادكم عدوٌّ لكم بما يصرفونكم عن طاعة الله لتحقيق رغباتهم فكونوا منهم على حذر ، وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها في حقكم وتتجاوزوا عنها ، وتستروها عليهم يغفر الله لكم ، والله واسع المغفرة والرحمة .

إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا
حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨

شرح المفردات

فتنة : ابتلاء ومحنة واختبار .

من يُوقَ : من يحفظ نفسه .

شُحَّ نفسه : الشح هو البخل مع الحرص الشديد .

قَرْضاً حسناً : دَيْناً حسناً ، والمراد : التصدق من الحلال مع طيب نفس به .

شكور : من أسماء الله تعالى ، أي أنه يشكر أهل الإنفاق بحسن الجزاء .

حليم : من أسماء الله تعالى ، أي أنه لا يعجل عقوبة المسيء .

عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ : يعلم ما يغيب عن أنظار الناس وما يشاهدونه .

تابع المعنى الإجمالي

إنما أموالكم وأولادكم ابتلاء وامتحان، والله عنده أجر عظيم لمن يؤثر طاعته ومحبته على من سواه ، فابذلوا في تقوى الله غاية جهدكم ، واسمعوا مواعظه ، وأطيعوا أوامره ، وأنفقوا بعض ما رزقكم الله في سبيل الخير يكن الإنفاق خيراً لكم ، ومن يحفظ نفسه من البخل والحرص على المال فأولئك هم الفائزون بكل خير .

إن تنفقوا أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس يضاعف الله ثواب ما أنفقتم، ويغفر لكم ذنوبكم، والله عظيم الشكر يكافىء المحسنين ، والله حليم فلا يعجل بالعقوبة على من عصاه . والله عليم فلا يغيب عن علمه ما خفي من الأمور وما ظهر وهو الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

ايضـــاح و دروس

تستهل هذه السورة ببيان عظمة الله الذي يمجّده كل ما في السماوات وما في الأرض :

﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْض لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

سبّح لله : معناها مجّد وعظّم ونزهّ الله وبرّأه عن السوء والنقصان ، كما تأتي سَبَّح بمعنى الصلاة والذِّكر . فالله سبحانه يسبّحه كل ﴿ مَا في السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ ﴾ فجميع الموجودات تنزّه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله ، وتدل على أنه الواحد الأحد ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن صفات النقصان .

فالإِنسان المؤمن بخالقه يسبّح الله ويمجّده ويعظّمه ويبرّئه من كل عيب ونقص ، لأنه عندما يتأمل في هذا الكون ، ويتأمل أسرار الخلق يرى فيه قدرة الله المبرأة من كل نقص .

والكائنات الحية تسبّح الله بلسانها الخاص وبما ألهمها الله ، فمثلاً الطير يسبّح الله كما تسبحه الكائنات الموجودة في السماوات والأرض ، وقد جاء في القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ النور : ٤١ .

وكذلك المظاهر الطبيعية تسبح الله بطريقتها الخاصة ، فالرعد مثلاً هو نوع من التسبيح لله كما جاء في سورة الرعد : « وَيُسَبِّحِ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

وإذا انتقلنا إلى الجماد المجرد من الحياة فإننا نرى في ذراته حركة دائبة مستمرة[١] قد تكون هذه الحركة ـ والله أعلم ـ نوعاً من التسبيح لله ، وقد جاء في القرآن ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ[٢] إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الاسراء : ٤٤ .

ثم يتابع القرآن فيذكر بعض صفات الله : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو سبحانه المتصرف في جميع الكائنات ، وله الثناء والشكر على إبداعه هذا الكون ، وهو القدير على صنع كل شيء ، وقدرته تفعل ما تشاء . ولا شك أن المؤمن أمام هذا التصور لقدرة الله ، يشعر أنه يلجأ إلى ركن متين ، فيقوى إيمانه ، ويزداد ثقة بخالقه .

ثم تأتي الآية التالية تبين موقف الإنسان من خالقه :

﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

هذا بيان لطبيعة البشر منذ ابتداء خلقهم إلى الآن ، فهم مختلفون في آرائهم ومعتقداتهم ، ومتفاوتون في الفهم ؛ كلٌّ يتلقى الحقائق حسب تصوره ، ودرجة استعداده العقلي ، فمن نال حظًّا من الفهم ، وأُوتي العقل الكامل ، والبصيرة الواعية ، وتأمل في هذا الوجود ، وما فيه من إتقان وتدبير وحكمة ، هداه عقله إلى أن لهذا الوجود صانعاً حكيماً ، متصفاً بالعلم والقدرة ، أبدع هذا الكون ، فيخشع الإنسان أمام هذه القدرة الخلّاقة ، مؤمناً بعظمة الخالق ، منزهاً له من كل نقص . أما الذين طمس الله على قلوبهم

---

(١) ثبت ان مادة أي عنصر من عناصر هذا الكون تتألف من ذرات ، وكل ذرة تتألف من عنصرين هما (النيوترون) و (البروتون) وهذان العنصران يطلق عليهما اسم (نواة الذرة) يضاف إليهما عنصر ثالث هو (الالكترون) الذي يدور حول نواة الذرة .

(٢) وإن من شيء : أي وما من شيء .

وبصيرتهم وخانهم الفهم ، فهم جاحدون وكافرون بهذه القدرة الإلَهية الخلاّقة . ويعقّب الله على ذلك بقوله : ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو سبحانه رقيب على هذا الانسان فيما يعمل ، فليحذر الإنسان من أن يركب هواه ، ويشتط في سلوكه فالله مطلع على قلبه ونواياه .

وينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان مظاهر قدرة الله :

﴿ خَلَقَ السَّمٰـوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصيرُ ﴾ .

فالله سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق ، ولحكمة هو أعلم بحقيقتها وأسرارها ، وفي ذكر « الحق » في معرض خلق السماوات والأرض وما فيهما من عظمة الخلق ، وأسرار الإبداع الإلّهي إشادة بجوهره ، ودعوة البشر إلى التقيد به ، والأخذ بمضمونه لأنه عنصر أساسي في تكوين الكون . وفي قوله سبحانه : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ لفت للنظر إلى ما في الإنسان من كمال الإبداع ، وجمال الشكل ، وخصائص التكوين من ناحية العقل والشعور والإحساس ؛ ولكن يجب أن لا يغتر الإنسان بما اتصف به من هذه المزايا ، فإن وجوده على هذه الأرض هو لفترة محدودة ، ثم المرجع إلى الله ﴿ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ .

ثم يخاطب الله هذا الإنسان المغترّ بقوته بأنه مطلع على سره وجهره :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰـوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

هذه الحقيقة إذا وعاها الإنسان استصغر نفسه ، فالإنسان يعلم بعض ظواهر هذا الكون ، ولكن الله سبحانه يعلم كل ما في السماوات وما في

الأرض ، كما أنه يعلم ما يسرّه الناس وما يعلنونه ، فليحذر الإنسان من أن يراه ربه في مواقف العصيان وميدان الفجور .

ثم يذكّر الله الناس بمصير الأمم السابقة التي كفرت بربها :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

فالله يقول ، والخطاب هنا للكفار في عهد الرسول محمد ﷺ الذين كذّبوه ، يذكرهم بالمآل السيء الذي آل إليه الكافرون قبلهم لعلهم يرتدعون عن كفرهم ، فيقول لهم : ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي عوقبوا في الدنيا جزاء كفرهم ، فالوبال : هو الشدة والثقل والمكروه المترتبة على أمر من الأمور ، والمراد « بأمرهم » : أي كفرهم عبّر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب موجع يوم القيامة . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ ﴾ أي ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالّة على أنهم رسل من عند الله . وكان رد هؤلاء الكافرين : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ قالوا ذلك استكباراً منهم عن اتباع الرسل ، وان الرسل ـ في عرفهم ـ يجب أن لا يكونوا بشراً مثلهم . ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ أي كفروا بالله وأعرضوا عن التأمل فيما أتى به الرسل من البينات . ﴿ واسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أي واستغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم له ، والله سبحانه ليس بحاجة لعبادة خلقه له ، وقد ظهر استغناء الله عن إيمانهم وعن طاعتهم حين أهلكهم﴿ والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فهو غني عن جميع خلقه ، محمود عندهم بجميل فضله .

ويتابع القرآن فيؤكد على وقوع البعث للذين ينكرونه :

﴿ زَعَمَ[1] الَّذِين كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فالذين كفروا قالوا قولاً كاذباً وهو أنهم لن يبعثوا ، والبعث هو إحياء الله للموتى يوم القيامة ويرد الله عليهم بتوجيه الخطاب إلى النبي : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي أقسم لهم يا محمد بالله أنهم سيبعثون من قبورهم أحياء ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ ﴾ وهذا البعث هو سهل هيِّن على الله . وأمام هذا التوكيد بثبوت البعث تكمل الآية بالدعوة إلى الإيمان لأنه طريق الخلاص والنجاة . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ والنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ هو القرآن ، فإنه بإعجازه بيّن بنفسه كما أن النور كذلك ، أو هو كالنور في الليلة الظلماء يهتدي به الإنسان إلى سلوك الطريق القويم .

وبعد هذا يبين القرآن مصير الناس في الآخرة فهم إما إلى نعيم أو عذاب :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُن ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ : والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ .

فالآية تصف يوم القيامة بصفتين فهو يوم الجمع وهو يوم التغابن . فيوم الجمع هو يوم القيامة حيث يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وهذا اليوم هو

---

(١) زعم : هو القول يكون حقاً ويكون باطلاً ويقال للكلام الذي فيه شك ويطلق الزعم على الكذب .

أيضاً يوم التغابن ، وهو مأخوذ من الغُبن وهو النقص في الثمن يقال غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة لك ، ويوم القيامة هو يوم التغابن الحقيقي لأن الغبن لا يستدرك أبداً ، فيوم القيامة يظهر فيه غبن الكافر بترك الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان . والغبن يأتي بمعنى الضعف والنقص في الرأي ، وقد سئل الحسن رضي الله عنه عن يوم التغابن فقال : غبن أهل الجنة أهل النار ، أي استنقصوا عقولهم باختيارهم الكفر على الإيمان .

ويتابع القرآن مبيناً أن سبيل النجاة والسعادة في الآخرة يكون بالإيمان والعمل الصالح : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ وليس المراد بالإيمان الاعتقاد بأن هنالك إلَهاً يسيطر على هذا العالم فقط ولكن باستشعار قدسية الله وعظمته في النفس ، وظهور آثار هذا الإيمان بالأعمال التي تصدر عنه ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ ﴾ الأنفال : ٢ .

ويقول الرسول ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[١] .

والإيمان بالله يفجّر ينابيع الخير في النفس الإنسانية ، هذه حقيقة الإيمان التي أراد القرآن لفت الأنظار إليها ، ولذلك نرى أنه ما من آية في القرآن وَرَدَ فيها ذِكْرُ ﴿ الذين آمنوا ﴾ إلاّ أضاف إليهم سبحانه كلمة ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إشارة وتوجيهاً من الله بأن الإيمان بالله يجب أن يكون مقروناً بالعمل الصالح فهو مظهره وثمرته .

---

(١) رواه البخاري .

وعن طريق الإيمان بالله والعمل الصالح يستحق الإنسان غفران ذنوبه والدخول في جنات تجري من خلال أشجارها الأنهار ماكثاً فيها أبداً ، وذلك الفوز الذي لا فوز بعده ، أما الذين جحدوا وجود الله ، وكذّبوا بالأدلة التي تشهد بوحدانيته ، كما كذبوا بآيات القرآن التي تشهد بإعجازها بأنها وحي من الله أنزلها على رسوله محمد ﷺ ، فأولئك أصحاب النار خالدين فيها ، وبئست هذه النهاية التي ينتهون إليها .

وبعد أن بيّن القرآن حقيقة الإيمان أراد أن يضع في تصور الإيمان واقع القدر ليُدخل المؤمن في اعتقاده أن كل شيء يصيب الإنسان فهو بإذن الله وعلمه ومشيئته فيستسلم لقضاء الله ويرضى به ، وهو بذلك يقدّم العلاج الروحي لكل من أصيب بمصيبة يثقل تحملها :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فالله سبحانه يقول : لا يُصاب أحد من الخلق بمصيبة ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بقضائه وتقديره وعلمه . ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ أي يعلم أن المصيبة كانت بقضاء الله ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يوفق الله قلبه للتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلوائه .

ويبين النبي ﷺ مفهوم المصيبة فيقول : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك »(١) .

فإذا كانت المصيبة مقدرة من الله هانت على المؤمن المحن والمصائب

---

(١) رواه ابن ماجة .

إذ لا يقع في الكون شيْء إلّا بإذنه وعلمه ، ولذلك يصير المؤمن هادىء النفس قرير العين ، يستعين على مصابه بالصبر والصلاة ، أما غير المؤمن إذا نزل به حادث ، أَو ألمت به مصيبة ضجر وجزع ، وأصابه الغم والكرب ، واعتل جسمه ، وربما استعان على تخفيف غمه بما لا يرضي الله فيصاب بأشد الأضرار .

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ .

أي أطيعوا الله باتباع القرآن الذي فيه أوامره ونواهيه ، وأطيعوا الرسول باتباع سنّته ، فإن أعرضتم عن الطاعة فليس على الرسول إلّا تبليغ رسالة الله .

ثم يقرّر القرآن حقيقة وحدانية الله التي جحدها الكفار وواجب المؤمنين نحوها : **﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾** .

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ ﴾ أي لا معبود ولا محيي ولا مميت ولا رازق ولا نافع إلّا الله ، وإذا تيقن الإنسان ألوهية الله وحده وأنه سبحانه المؤثر بمصائر الناس ، تحرّر من الأوهام والخرافات والعبودية للغير . ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُون ﴾ والمتوكل على الله الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ويستسلم له ويفوض أمره إليه ، وفي التوكل على الله طمأنينة للنفس والقضاء على كل خوف ووهم .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى تحذير المؤمنين من بعض أزواجهم وأولادهم الذين قد يصرفونهم عن واجبات الإيمان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلَادِكُم عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فالقرآن يبين بعض المؤثرات في حياة المؤمن التي قد تصرفه عن واجبات الإيمان وهي تتمثل في بعض الزوجات والأولاد ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ﴾ فلفظة : من ، المذكورة في الآية تفيد التبعيض ، أي ليسوا كلهم بأعداء . فسلطان الزوجة ليس له حد على الزوج ، فالمرأة بفتنتها للرجل وتأثيرها الشديد عليه ، وكذلك حُبُّ الأولاد والتعلق بهم كل ذلك يصرف بعض المؤمنين عن واجباتهم نحو خالقهم ، وما أوجبه عليهم من أعمال صالحة نحو مجتمعهم .

فالأزواج والأولاد قد يكونون ملهاة عن ذِكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات وواجبات الإيمان : كالجهاد، والإنفاق في سبيل الله ، فالمجاهد في سبيل الله يتعرض للأخطار ، والمنفق في سبيل الله يضحي بالكثير ، وقد يتحمل المؤمن هذه التبعات لنفسه إذا كان خالياً من الزوجة والولد ، أما بوجود الزوجة والولد فيبخل ويجبن ليوفر لعائلته الأمن والمال فيكون بذلك بعض الزوجات والأولاد صارفين المؤمن عن عمل البِرِّ والخير ، حائلين بينه وبين واجباته نحو خالقه .

وكلمة « أزواج » في الآية جمع زوج وهي تشمل الذكر والأنثى ، فما على الزوج أن يحذره من زوجته وأولاده ، على الزوجة أيضاً أن تحذره من زوجها وأولادها .

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية : أن قوماً من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتون المدينة المنورة مهاجرين ، ثم إنهم بعد ذلك لما هاجروا وقدموا على رسول الله ، رأوا الناس قد فقهوا في

الدين ، فهمّوا أن يعاقبوا أهليهم الذين منعوهم من الهجرة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالله سبحانه يقول : إن تعفوا عن سيئاتهم ، وتصفحوا عنهم بالتجاوز عما فعلوه ، وتغفروا لهم بستر وإخفاء ما ظهر منهم ، فإن الله بالغ المغفرة والرحمة لهم . غير أنه وإن كانت الحادثة نزلت في حادثة معينة فإن معناها أبعد مدى من الحادثة وأوسع شمولاً .

ثم يحذر الله من فتنة المال والولد بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ واللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فالأموال والأولاد اختبار ومحنة فقد يحملونكم على كسب الحرام ، ومنع حق الله تعالى ، والوقوع في المحظورات ، فلا تنقادوا لهم ، ولا تطيعوهم في معصية الله ، والله عنده الأجر العظيم لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأموال والأولاد .

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي فيها الوصايا الخيّرة للمؤمنين :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يبذلوا في تقواه جهدهم وطاقتهم ، وأن يسمعوا سماع عقل وتدبر ما يوعظون به ، ويطيعوا فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ، ثم إن الله بعد ذلك يأمر المؤمنين بالإنفاق من أموالهم في وجوه الخير كالزكاة، والصدقة النافلة، وفي سبيل الله. وفي قوله تعالى: ﴿خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ﴾ بعد الأمر بالإنفاق : بيان أن الخير الحقيقي يعود على المنفق

لا على من ينال الزكاة والصدقة ، لأن مال الدنيا يفنى وما عند الله من الثواب باقٍ يوم القيامة . وقد يُراد بذلك أن الإنفاق في وجوه الخير تعود على المجتمع كله ومنهم المنفق الذي هو فرد في المجتمع . ثم يضيف الله إلى ذلك قوله : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ أي : من يبتعد عن البخل والحرص على المال فأولئك هم الظافرون بكل خير ، الفائزون بكل مطلب .

وأخيراً يختم الله هذه السورة بالترغيب في فعل الخير ، والتشويق إلى البذل والإنفاق :

﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ . عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

إنه لتلطف من الله تعالى في هذا التعبير حيث جعل الإحسان بمثابة الإقراض لله ، وإنما يقترض المحتاج ، والله غني عن العالمين الذي له ملك السماوات والأرض ، وقد جاء التعبير بهذا الأسلوب ترغيباً في الإحسان ، ودفاعاً عن المحتاجين ، وما قيمة إنسان يبخل بإقراض بعض المال لخالقه الذي رزقه هذا المال ، والذي سيردّه له أضعافاً ، وبالإضافة إلى ذلك يشمله الله بالمغفرة ، والله شكور للمحسنين يثيب من أطاعه وأنفق في سبيله ، وهو حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، كما أنه سبحانه يعلم ما يغيب عن الناس وما يشاهدونه ، وهو القوي الغالب ، أوجد الأشياء بغاية الحكمة .

سورة الطلاق

مدنية ، وآياتها اثنتا عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن
يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ
فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا

شرح المفردات

لِعِدَّتِهِنَّ : لابتداء العدة ، وهو الطهر الذي لم يعاشر فيه الزوج زوجته .

أحصوا العِدَّة : اضبطوا العدة وأكملوها ، والعدة وقت محدد يعقب الطلاق لا يسمح فيه للمرأة أن تتزوج غير مطلقها .

بفاحشة : كل أمر قبيح كالزنا والسرقة والبذاءة على حماتها .

حدُودُ الله : الأحكام التي بينها ، وقد منع الله تجاوزها .

يُحدث بعد ذلك أمراً : يبدل الله البغض الى محبة والخلاف الى وفاق .

المعنى الاجمالي

يا أيها النبي إذا أردت أو أراد المؤمنون الطلاق فليكن ذلك الطلاق في وقت يصلح لابتداء العدة ، وهو الطهر الخالي من العلاقة الزوجية ، واتقوا الله ربكم فلا تخرجوا المطلقات من مساكنهن التي كن يسكنها قبل الطلاق ، ولا يخرجن منها إلّا أن يفعلن منكراً واضحاً ، تلك حدود الله فمن تجاوزها فقد ظلم نفسه ، والناس لا يدرون الحكمة من هذا التشريع فلعل بقاء الزوجة في بيت زوجها أثناء العدة يكون سبباً لصفاء القلوب ، فيحوّل الله البغض إلى محبة والخلاف إلى

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا
ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ

شرح المفردات

بلغهن أجلهن : شارفن على انتهاء العدة .

فأمسكوهن بمعروف : أعيدوهن الى الحياة الزوجية من غير قصد الضرر بهن .

ذَوَيْ عَدْلٍ : رجلين مستقيمي الخلق ، ومقبولي الشهادة .

أقيموا الشهادة لِلّه : أدوا الشهادة خالصة لوجه الله .

يجعل له مخرجاً : يجعل له سبيلاً للخروج من الضيق والشدة .

من حيث لا يحتسب : من وجه لا يخطر بباله .

يتوكل على الله : يعتمد على الله ويسلم أمره إليه .

حسبُهُ : كافيه .

بالغُ أمره : نافذ أمره .

تابع المعنى الاجمالي

وفاق . وإذا قاربت المطلقات انتهاء العدة فأنتم بين أمرين : فإما ان تراجعوهن وتحسنوا معاشرتهن ، أو تفارقوهن من غير إضرار بهن ، وأشهدوا عند المراجعة أو الفراق شاهدين من أصحاب العدالة ، وليُؤَدِّ الشهود الشهادة عند اللزوم على وجهها الصحيح خالصة لوجه الله ، ذلكم الذي أُمرتم به ـ أيها المؤمنون ـ يوعظ به ويعتبر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . والذي يتقي الله فيحفظ نفسه من المآثم يجعل له ربه فرجاً من كل ضيق وعسر ، ويهيىء له أسباب الرزق من وجه لا يخطر له ببال ، ومن يفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه فهو كافيه ، إن الله منفِّذٌ حكمه وقضاءه في خلقه ، قد جعل الله لكل شيء تقديراً وتوقيتاً لا يتعداه .

أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن
نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ
ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ
لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ

شَـرح المفـردَات

قدراً : وقتاً مقدراً .

اللائي يئسن من المحيض : النساء اللاتي انقطع حيضهن لتقدمهن في السن .

إن ارتبتم : إن شككتم فلم تعرفوا مدة عدتهن .

اللائي لم يحضن : هن الصغيرات غير البالغات .

أولات الأحمال : النساء الحوامل .

أجلهن أن يضعن حملهن : عدتهن تنتهي بالولادة .

من وُجْدِكُمْ : بقدر استطاعتكم .

لا تضاروهن : لا تؤذوهن وتضروهن .

تابع المعنى الإجمالي

وعِدَّة النساء اللاتي انقطع عنهن الحيض لكبرهن أو مرضهن ـ فشككتم في عدتهن ـ فهؤلاء زمن عدتهن ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرات اللاتي لم يبلغن سن الحيض فعـدتهن أيضاً ثلاثة أشهر ، وأما النساء الحوامل فعدتهن وضع المولود ، ومن يتق الله فيعمل بأحكامه ييسر له أموره . هذا حكم الله وتشريعه أنزله إليكم في كتابه وهو القرآن ، ومن يتقِ الله بالمحافظة على أحكامه يمحُ عنه خطاياه ، ويعظم له الجزاء في الآخرة .

أسكنوا نساءكم المطلقات ـ وهن في العدة ـ بعض أماكن سكناكم ، وأنفقوا

لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم
بِمَعْرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٖ
مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٖ يُسْرٗا ٧ وَكَأَيِّن مِّن

شـرح المفـردات

لتضيّقوا عليهن : أي لتضيقوا عليهن في المسكن والنفقة .

فآتوهن أجورهن : أعطوهن أجرة الرضاع .

وائتمروا بينكم : وتشاوروا فيما بينكم .

تعاسرتم : لم تتفقوا على الإرضاع بسبب العسر .

فستُرضع له أُخرى : ترضع الولد امرأة أخرى غير الأم .

ذو سَعَةٍ : ذو غنى .

قُدِرَ عليه رزْقُهُ : قل رزقه وضاق .

تـابع المعنى الاجمالي

عليهن على قدر طاقتكم ، ولا تلحقوا بهن ضرراً بالتضييق عليهن في السكنى والنفقة ، وإن كانت المطلقات حوامل فأنفقوا عليهن حتى يضعن مولودهن، فإن أرضعت المطلقات لكم أولادكم فلهن أجور على ذلك ، وتشاوروا بينكم في شأن الإنفاق بمراعاة السماحة والروح الطيبة ، وإن اختلفتم في شأن الرضاعة وأجرتها ، فأحضروا للطفل مرضعة أخرى ترضعه بالأجر المناسب .

ولينفق الغني على قدر غناه ، ومن كان فقيراً فلينفق مما أعطاه الله على قدر طاقته ، لا يكلف الله أحداً بالنفقة إلا بمقدار طاقته ، سيجعل الله بعد الضيق فرجاً ، وبعد الشدة رخاء .

قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ
أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

شَرح المفـردَات

وكأيّن من قرية : وكثير من أهل القرى .

عَتَتْ : تكبر أهلها وعصوا أمر ربهم .

نُكْراً : منكراً فظيعاً .

وَبَالَ أمرها : سوء عاقبة كفرها .

خُسْراً : خسارة أي هلاكاً .

ذِكراً : قرآناً .

رسولاً : هو محمد ﷺ الذي أرسله الله رسولاً .

مبيّنات : موضحات الهدى من الضلال .

تابع المعنى الاجمالي

وكثيراً من أهل القرى عصوا وخالفوا أمر ربهم، وكذّبوا الرسل الذين أُرسلوا إليهم ، فحاسبهم الله حساباً شديداً ، وعذبهم عذاباً منكراً فظيعاً . فذاقوا سوء عاقبة كفرهم ، وكان عاقبة أمرهم هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة .

لقد هيأ الله لأهل القرى المخالفين أمر ربهم عذاباً بالغ الشدة ، فاتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ فأنتم أصحاب العقول الراجحة فقد أنزل الله إليكم قرآناً . وأرسل إليكم رسولاً يقرأ عليكم آيات الله موضحات لكم الحق من الباطل ،

إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

شـرح المفـردات

من الظلمات إلى النور : من الضلال إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان .
أحسن الله له رزقاً : وسّع الله له رزقه .
يتنزل الأمر بينهن : أي يجري أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن .

تابع المعنى الاجمالي

لِيُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من خلالها الأنهار خالدين فيها أبداً ، قد أحسن الله للمؤمن الصالح رزقاً طيباً في الجنة .

الله وحده الذي خلق سبع سماوات ، وخلق من الأرض مثلهن ، يجري أمره وتدبيره فيها جميعاً ، لتعلموا أن الله ذو قدرة بالغة على كل شيء ، وأنه سبحانه قد أحاط بكل شيء علماً .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعالج قضية الطلاق وتنظمه ، وتضع له العلاجات الناجعة .

والطلاق في الإسلام حل عقد الزواج بعبارة تفيد ذلك صريحاً: كأنت طالق، أو كناية كقوله : أنت عليّ حرام ، أو بقضاء القاضي بناء على طلب أحد الزوجين .

والحكمة من مشروعية الطلاق متعددة ، منها : عدم تعطيل النسل المرغوب فيه ، فقد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، والرجل فقيراً لا قدرة له على الجمع بين زوجتين ، وهو في الوقت نفسه يرغب في الولد ليعينه في شيخوخته ، ويحفظ له اسمه بعد وفاته ، فيلجأ إلى الطلاق لهذه الغاية .

ومن أسباب الطلاق : رفع الحرج عن الزوجين كأن يكون أحدهما سيء الخلق والعشرة ، أو يكون بينهما تخالف في الطباع ، فتتنافر القلوب ، وينعدم التآلف ، والأسرة إذا لم تقم على المحبة والتفاهم تداعت أركانها ، وانهار بناؤها ، ولهذا نرى كثيراً من الدول الغربية اضطرت أخيراً إلى تبني ما كانت تنكره سابقاً على الإسلام ، فأقرت الزواج المدني الذي يسمح بالطلاق ، وجعلته شرعة ثابتة في قانونها الشخصي ، وإن خالف ذلك أصول دينها .

والإسلام لا يرضى بحل رباط الزوجية من أول خلاف يحصل بين الزوجين ، بل إنه يحضّ الزوج على الصبر ، وتحمل أذى الزوجة ، وكبت

ما يشعر به من الكراهية نحوها ، لأن هذه الكراهية قد تخفي وراءها الخير الكثير للزوجين ، قال تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ النساء : ١٩ .

فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النفور الشديد بين الزوجين فليس الطلاق هو العلاج الفوري ، بل لا بد من محاولة يقوم بها الأقرباء وأهل الخير للتوفيق بين الزوجين ، جاء في القرآن :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُريدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ النساء : ٣٥ .

فالقرآن الكريم لا يعني أن كل خلاف بين زوجين يترتب عليه طلاق ، وإنما شرع الطلاق في حالة دوام الشقاق الذي يستحيل معه استمرار العشرة الزوجية ، ولكن مع ذلك فإن القرآن الكريم يرشدنا إلى إصلاح ما بين الزوجين ، وإجراء التحكيم قبل الطلاق بإرسال حكم من أهل الزوج ، وحكم من أهل الزوجة ليبذلا جهدهما في الإصلاح بينهما ، وإسداء النصيحة لهما بالرجوع عن رغبتهما بالطلاق التي قد تكون عابرة .

والإسلام ذمّ الطلاق فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[١] .

فإذا استحكم الخلاف بين الزوجين إلى حد لا يمكن معه التوفيق بينهما ، فليس أمامهما سوى الطلاق .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة .

هذا ويعترض الطلاق عقبات يقصد بها الإبقاء على الرابطة الزوجية ، فإذا حصل الطلاق بين الرجل وزوجته لا تنفصم عرى الزوجية من كل الوجوه ، بل هناك فترة تريّث ، ومدة محدودة تسمى (العدة) ومدتها (ثلاثة قروء) أي ثلاث دورات كاملة من الحيض أو الطهر وتقدّر تقريباً بثلاثة أشهر قمرية ، وقد جاء في القرآن : ﴿ والمُطلَّقَاتُ يَتَربَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُروءٍ ﴾ البقرة : ٢٢٨ .

وفي أثناء العدة أمر الله الزوج بأن لا يُخرج زوجته المطلّقة من منزل الزوجية ، كما أجاز للزوج أن يُعيد زوجته المطلقة طلاقاً رجعياً إلى الحياة الزوجية السابقة بدون عقد ومهر جديدين ضمن مدة العدة[1] وهذا ما تتعرض له هذه السورة مبينة بعض التشريعات في هذا السبيل .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ ﴾ .

نادى الله النبي تشريفاً له ، وبصفته إمام أمته ، والنداء موجه إلى الأمة عن طريق الخطاب إلى نبيها . والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي طلقوهن في الزمان الذي يصلح لابتداء العدة ، وهو أن يكون الطلاق في

---

(١) يجوز للرجل أن يعيد مطلقته إلى عصمته في زمن العدة إذا كان الطلاق رجعياً، وهو الطلاق الذي يوقعه الزوج على زوجته التي دخل بها ، ولم يكن مسبوقاً بطلقة أصلاً ، أو كان مسبوقاً بطلقة واحدة . فللزوج الحق في إرجاع مطلقته طلاقاً رجعياً ما دامت في العدة ، إما بالفعل بأن يقبلها أو بالقول كان يقول لها : أرجعتك إلى ذمتي ، فإذا انقضت العدة ولم يراجعها في أثنائها ثبت الطلاق (طلقة بائنة بينونة صغرى) ولا يحق للزوج إعادة مطلقته هذه إلاّ بعقد ومهر جديدين .

والإسلام جعل الطلاق مرتين فيجوز للزوج أن يطلق ثم يراجع امرأته ، كما أن له الحق في ذلك مرة ثانية ، فإن طلق للمرة الثالثة تطلق منه نهائياً ، ويسمى الطلاق حينئذٍ (طلاق بائن بينونة كبرى) ولا يحق للزوج إرجاع هذه المطلقة إلاّ بعد أن تتزوج برجل آخر ويدخل بها بغير قصد التحليل ثم يطلقها باختياره .

طهر لم يلامس فيه الرجل امرأته ملامسة زوجية ، أما تطليق المرأة وهي حائض فيحرم وهو مخالف للسنّة ، فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلَّق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : مُرْهُ فليُراجِعْها ، ثم لِيُمْسِكْهَا حتى تطهرَ، ثم تحيض ، ثم تَطهرَ، ثم إن شاء أمْسَكَ بَعْدُ وإن شاء طَلَّق قبل أن يَمسَّ فتلك العِدَّةُ التي أمر الله أن تُطَلَّق لها النساء[١] .

ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سُنّة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلّق الرجل زوجته وهي في طهرها من قبل أن يمسها أو تكون حاملاً وقد استبان حملها ، والطلاق البدعي هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد لامسها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا .

والحكمة في طلاق السُنَّة أن الرجل إذا طلق امرأته وهي حائض لا يعدّ ذلك من أيام عدتها بل تزيد على ثلاثة قروء فتطول العدة ، كما أن الطلاق في الحيض هو طلاق في فترة تكون فيه نفس الرجل غير راغبة في المرأة[٢] ، بخلاف فترة الطهر حيث تكون فيه النفس راغبة تائقة ، فإذا طلق الرجل مع ذلك كان دليلاً عن استحكام النفرة . وإذا كانت المرأة طاهرة غير حائض فعاشرها زوجها ـ معاشرة الأزواج ـ ثم طلقها لم يؤمن بأن تحمل بولد من

---

(١) وإذا رجعنا إلى حديث رسول الله في شأن تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني فهو أمر استحباب لتأخير الطلاق فترة ليزول ما في النفس من الغضب الحامل على الطلاق ، إلاّ أنه يجوز أن يطلق الإنسان امرأته في حال الطهر الذي يعقب الحيض كما رُوي في رواية أخرى عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال النبي : « مُره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً » . رواه مسلم .

(٢) هذا مع العلم أن بعض النساء يصبن أثناء الحيض بعوارض عصبية وتصرفات غير متزنة مما تثير غضب الزوج فيندفع حينئذٍ إلى إيقاع الطلاق بزوجته ، من هنا كانت الحكمة في نهي النبي ﷺ عن إيقاع الطلاق أثناء الحيض .

تلك المعاشرة الزوجية ، فلو علم الزوج بأنها حامل ربما لم يطلقها ، وذلك أن الرجل قد يرغب في طلاق امرأته إذا لم يكن بينهما ولد ، أما عند إقدام الرجل على طلاق امرأته في حال استبانة حملها فدليل على تأكد رغبته وعزمه على الطلاق .

ثم يقول تعالى ﴿ وَأَحْصُوا العِدَّةَ ﴾ أي احفظوا واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، والعدة تكون عند المطلقات اللواتي عاشرهن أزواجهن ، أما اللواتي طُلقن قبل الدخول فلا عدة عليهن .

ثم يأمر القرآن الرجل الذي طلق زوجته أن يتقي ربه ، فلا يظلم امرأته بل يتركها تقضي مدّة عدتها في بيت الزوجية مع الإنفاق عليها .

﴿ واتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكَمُ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لا تَدْرِي ، لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن التي كن فيها ما دمن في العدة ، وأضاف القرآن البيوت إليهن وهي في الحقيقة لأزواجهن لتأكيد النهي عن إخراجهن من بيت الزوجية ، وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة . والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ولا يَخْرُجْنَ ﴾ أي لا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنته عدتها ، فإن خرجت لغير ضرورة أَثمت ، ثم يقول سبحانه : ﴿ إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ هذا الاستثناء تابع للجملة الأولى وهو قوله تعالى : ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ والمراد بالفاحشة هنا الزنا على الأرجح والسرقة أيضاً ، وقال الشافعي : الفاحشة هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في البيت . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي هذه

الأحكام التي بيّنها الله لعباده هي حدوده التي لا يحل لكم أن تتجاوزوها . ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله ﴾ أي يتجاوزها إلى غيرها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بإيرادها مورد الهلاك ، ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً ﴾ فالأمر الذي يحدثه الله هو أن يحوّل قلب الزوج من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن المضي في الطلاق إلى الندم عليه .

فوصية القرآن بترك المطلقة في بيت الزوجية بعد إيقاع الطلاق لقضاء زمن العدة فيه ، هو عامل فعال في إصلاح خطأ الزوجين ، وفترةٌ لإمعان الفكر قبل حلّ الحياة الزوجية نهائياً ، فالمرأة قد تأتي بأعمال تستميل بها مطلقها إليها ، والزوج قد يندم على إيقاع الطلاق فيصلح خطأه ويراجع امرأته .

ثم يبين القرآن الكريم ما يجب اتباعه عندما تشرف المطلقات على انتهاء عدتهن :

﴿ فإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للَّهِ، ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

فالقرآن يقول : إذا قاربت المطلقات من نهاية انقضاء عدتهن ، فأمام أزواجهن حلّانُ : إما أن يراجعوهن ويعاشروهن بالمعروف بدون إيذاء وإضرار بهن ، أو يتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيتأكد الطلاق ويملكن حينئذٍ نفوسهن ، ويكون الفراق بمعروف مع إيفائهن ما هو لهن من مؤخر المهر

والحقوق ، وتكون المراجعة أو الطلاق أمام شاهدي عدل .

وقد اختلف الفقهاء في حكم الشهادة ، فمنهم من ذهب في وجوبها على المراجعة والطلاق ، ومنهم من فرق بينهما فأوجبها في المراجعة واستحبها في الطلاق ، وظاهر الأمر في الآية الوجوب فيهما .

وحضور شاهدي عدل أنفع وسيلة للوئام بين الزوجين ، لأن لأهل الصلاح تأثيراً في النفوس ، فلعل وجودهم ونصائحهم تفعل فعلها الحسن ، فيصلحوا ما بين الزوجين من خلاف .

كما يبين القرآن بأن الذي يخاف الله ويعمل بما أمره ، ويجتنب ما نهاه عنه ، يجعل له مخرجاً وفرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون في حسابه ، كما يعلن أن من يفوض أمره إلى الله فهو كافيه مما أهمه وأحزنه ، فالله سبحانه : ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي أمره نافذ ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً ﴾ أي قد جعل الله للشدة أجلاً تنتهي إليه ، ومنها الخلاف الذي يحصل بين الزوجين .

وبعد ذلك يبين القرآن مقدار زمن العدة عند النساء الكبار والصغيرات والحوامل :

﴿ وَاللَّائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ واللَّائي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً . ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ .

هنا تحديد لمدة العدة عند النساء اللاتي بلغن سن اليأس فانقطع

حيضهن لكبرهن ، وكذلك الفتيات الصغيرات اللاتي هن دون البلوغ ولم يبلغن سن الحيض ، فهؤلاء وأولئك عدتهن ثلاثة أشهر . أما الحوامل سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن فعدتهن تنتهي بالولادة ، ويعقب الله على ذلك قوله :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ .

واليسر في أمور الإنسان هي غاية ما يرجوه ، فلا مشقة في الحياة ولا عسر ولا ضيق ، كما يشمل اليسر أمور الآخرة ، فيوفق الله المتقي ، وييسر له العمل الصالح الذي يسعده في الآخرة ، ثم يقول سبحانه : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ فشريعة الطلاق وأحكامها منزلة من عند الله ، ويعقب الله على ذلك قوله : ﴿ ومن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّر عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ويُعْظِمْ له أجْراً ﴾ أي من يتق الله يمحُ عنه ذنوبه ، ويعطه في الآخرة الثواب العظيم بإدخاله الجنة ، وفي هذا ترغيب قوي للأخذ بالتقوى والإلتزام بما شرعه الله وعدم مخالفة أمره .

وبعد ذلك يبين القرآن حكم النفقة على المطلقات أثناء العدة :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ، وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ .

فالله يقول : اسكنوا المطلقات في المكان الذي تسكنون فيه ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ أي بما في وسعكم وقدر غناكم ، ولا يجوز إلحاق الضرر بهن قصداً بالتضييق عليهن في النفقة والمسكن بإسكان غيرهن معهن ممن لا يحببن السكنى معه ، وإن كانت المطلقات حوامل فأنفقوا عليهن حتى

يلدن ، والإنفاق يشمل السكن أيضاً . وبعد الولادة تكون الأمهات المطلقات بالخيار ، فإما أن يرضعن الأولاد وهذا حقهن لا يُنازعن عليه ، وإما أن يمتنعن عن الإرضاع ، فإن أرضعن فلهن أجورهن على الإرضاع بما تعورف عليه ، وبما يتفقن مع الآباء عليه . ثم يرشد القرآن الكريم الأب والأم إلى التشاور في شأن الوليد ، عارضاً كل واحد منهما رأيه تجاه الآخر ، بما هو متعارف عليه وبما هو حسن ، فيتراضى الأب والأم على أجر مسمى ، أما إذا اختلف الأب والأم على الأجرة فعلى الأب أن يحضر امرأة أخرى تقوم على الإرضاع .

ثم تأتي هذه الوصية الإلهية للأزواج بالإنفاق قدر طاقتهم :

﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لا يُكلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ مَا آتاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ .

فالقرآن يأمر الأزواج بأن ينفقوا على مطلقاتهم اللواتي يرضعن أولادهم على قدر سعتهم وغناهم ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَليه رِزْقُهُ ﴾ أي ومن ضُيّق عليه رزقه بأن كان فقيراً ، فلينفق مِمَّا أعطاه الله وعلى قدر طاقته ، لا يكلف الله أحداً من النفقة إلّا بمقدار ما آتاه الله من الرزق ، ثم يأتي الوعد من الله ، والبشرى للذين يلتزمون حدوده ويتقونه بأن الله سبحانه سيجعل لهم بعد الضيق الفرج ، وبعد الشدة اليُسر والغنى .

وينتقل القرآن إلى إنذار المعرضين عن الهدى مبيّناً ما أصاب غيرهم من العصاة من عذاب جزاء عصيانهم :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً ﴾ .

هذه الحقيقة نرى مصداقها عند التأمل في أحوال الأمم ، وما أصابها من ويلات وخراب ودمار جزاء عملها السيء . فالقرآن يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أي وكثير من أهل القرى من الأمم السالفة ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ استكبرت وتمردت وعصت أوامر ربها وأوامر الرسل الذين أرسلهم الله إليها ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً ﴾ أي فجازيناها على عصيانها بالعذاب الشديد في الدنيا ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً ﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً يفوق التصور ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ فذاق أهل هذه القرى عاقبة ما عملوا وأتوا من معاصي الله والكفر به ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ أي كان عاقبة أهل هذه القرى هلاكاً في الدنيا وعذاباً شديداً في الآخرة .

وتعود الآية التالية لتؤكد الوعيد للعصاة ، وتخلص منه إلى البشرى للمؤمنين الطائعين بحسن الجزاء :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الإِلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً . رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُم آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ .

لقد كرر الله ذكر العذاب للتأكيد على ما أصاب ويصيب كل من يعصي ربه ، منتقلاً بعد ذلك إلى مخاطبة المؤمنين ، محذراً إياهم من مغبة العصيان ، موصياً إياهم بالتقوى ، فهم أصحاب عقول راجحة لا يسلكون مسلك العصاة . ولقد أنزل الله على المؤمنين قرآناً يذكرهم بما فيه سعادتهم ، وأرسل إليهم رسولاً وهو محمد ﷺ يتلو عليهم آيات هذا الكتاب وهي واضحة لمن تدبرها ، ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من

ظلمات الضلال والكفر إلى نور الهداية والإيمان ، ثم يأتي الوعد الرباني بأن من يؤمن بالله ويعمل صالحاً فإن مصيره هو النعيم الخالد في الآخرة في بساتين تجري من خلالها الأنهار ، ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ، وقد أحسن الله لهم فيها الأرزاق ووسعها .

ثم يأتي ختام هذه السورة وفيها بيان لقدرة الله العظيمة في هذا الكون ، وفي هذا تذكير للأزواج بأن يراقبوا الله في أعمالهم فلا يظلموا زوجاتهم ، فإن قدرة الله التي خلقت هذا الكون لا يعجزها الانتقام من كل من يخالف أمره :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً ﴾ .

والسماوات السبع والأراضي السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها ، وعلمنا لم يصل بعد إلى اكتناه أسرار هذه الحقيقة الربانية ، ونفوض العلم بذلك إلى الله سبحانه ، ولعل الزمن يكشف لنا بعض أسرار هذه الحقيقة كما كشف العلم لنا كثيراً من أسرار القرآن . والمراد بقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه في السماوات والأرض وينفذ حكمه فيهن ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾ أي لتعلموا أيها الناس كنه قدرة الله وسلطانه وأنه لا يتعذر عليه شيء أراده ، وهو على كل ما يشاء قدير . وأنه سبحانه ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيء عِلْماً ﴾ فعلمه سبحانه محيط بكل شيء من خلقه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء مهما صغر وكبر ، فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم واتقوا عقوبته بإطاعة أوامره ، واتباع أحكامه التي شرعها لكم .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية ، وآياتها اثنتا عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا

شرح المفردات

تُحَرِّم : تجعله حراماً .

تبتغي : تطلب .

فَرَضَ : شرع وبيَّن .

تَحِلَّة أَيْمَانِكُم : تحليل القسم بالكفارة .

الله مولاكم : الله ناصركم ومتولي أموركم .

تابع المعنى الاجمالي

يا أيها النبي لا ينبغي أن تُحَرِّمَ على نفسك شيئاً حلالاً استرضاء لزوجاتك ، والله بالغ المغفرة ، واسع الرحمة . وقد بيّن الله كفارة اليمين للذين يحلفون بالامتناع عن الحلال ، والله متولي أموركم ، وهو العليم بأحوالكم ، الحكيم في تشريعه .

وقد أسرّ النبي إلى بعض زوجاته وهي حفصة بنت عمر بعض الكلام وأمرها

فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣
إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ

شرح المفردات

نَبَّأَتْ به : أخبرت به غيرها .

وأظهره اللَّهُ عليه : وأطلعه الله على خبر إفشائه .

عَرَّفَ بعضه : أخبر زوجته ببعض ما عرفه تكرماً .

وأعرض عن بعض : وترك بعضه الآخر فلم يخبرها به .

صَغَتْ : عدلت ومالت عن الحق .

تظاهرا عليه : تتعاونا عليه بما يسوءه .

مولاه : ناصره ومعينه .

صَالِحُ المؤمنين : خيار المؤمنين والمخلصين منهم .

ظهير : أعوان له ينصرونه .

تابع المعنى الإجمالي

بكتمانه ، فأفشته إلى عائشة ، وأطلع الله نبيه على ما فعلت ، فأخبر النبي حفصة بعض ما عرف ، وأعرض عن بعضه تكرّماً ، فلما أعلمها به قالت : من أخبرك بهذا ؟ فقال : أخبرني الله العليم الخبير بكل ما يفعله الناس ويحاولون إخفاءه .

ويخاطب الله زوجتي النبي حفصة وعائشة : إن ترجعا إلى الله نادمتين وتعملا ما يستوجب التوبة فهو خير لكما ، لأن قلوبكما مالتا عن الحق بإفشاء سرّ النبي ﷺ ، وإن تتعاونا على الإساءة إلى النبي ، فإن الله ينصره وجبريل وخيار المؤمنين ، وكذلك الملائكة فإنها تنصره .

﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ
مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ
وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ

شرح المفردات

مؤمنات : مصدّقات بوجود الله ووحدانيته .

قانتات : مطيعات لله ، وقيل : مصليات .

تائبات : ملازمات للطاعة وراجعات عن المعاصي .

عابدات : عبادة الله هي الخضوع والتذلّل له .

سائحات : صائمات ، وقيل : مهاجرات .

ثيِّباتٍ : نساء سبق أن تزوجن .

أبكاراً : عذارى لم يتزوجن .

قوا أنفسكم وأهليكم ناراً : احفظوا أنفسكم واهليكم من دخول النار بترك المعاصي وفعل الطاعات .

تابع المعنى الاجمالي

ولعل الله أن يوفق النبي - إن وقع منه طلاق - إلى زوجات خير منكن ، خاضعات لله ، مصدِّقات بقلوبهن لله ، مطيعات لله ، تائبات ، متعبّدات لله ، صائمات لله ، ثيِّبات وَأَبكار .

يا أيها الذين آمنوا احفظوا أنفسكم وأهليكم من نار جهنم بالطاعة وترك المعاصي ، هذه النار تختلف عن نار الدنيا بأن وقودها الناس والحجارة ، يقوم على أمرها وتعذيب العصاة فيها ملائكة قساة أقوياء لا يعصون لله أمراً ، ويفعلون

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا
نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ

شـرح المفـردَات

غِلاظٌ شِدَادٌ : قساة أقوياء .

توبوا إلى الله : عودوا إلى طاعة الله وارجعوا عن ذنوبكم .

توبة نصوحاً : توبة صادقة لا عودة بعدها إلى الإثم .

لا يُخْزي الله النبي : لا يذله بل يعزه ويكرمه .

تابع المعنى الإجمالي

ما يأمرهم الله تعالى به . ويقال للكافرين لا عذر لكم اليوم إنما تُجزون ما كنتم تعملون في الدنيا .

يا أيها الذين آمنوا عودوا إلى طاعة الله ، وارجعوا عن ذنوبكم رجعة صادقة بالغة الإخلاص ، عسى ربكم أن يمحو عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من خلالها الأنهار ، يوم لا يُذل الله النبي والذين آمنوا معه بل يكرمهم ، نورهم يسير أمامهم ويُرى بيمينهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا حتى نهتدي إلى الجنة ، وتجاوز عن سيئاتنا إنك يا ربنا لك القدرة الكاملة على صنع كل شيء .

يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين بالحجة والبرهان ، واشدُدْ

ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ

شرح المفردات

اغلُظ عليهم : شدّد عليهم واستعمل الخشونة في أمرهم .

مأواهم جهنم : مصيرهم إلى النار .

وبئس المصير : بئس المرجع الذي ينتهون إليه .

ضَرَب اللَّهُ مَثَلاً : ذكر الله مثلاً ينبغي أن يتأمله الناس ويأخذوا منه الموعظة .

كانتا تحت عبدين من عبادنا : كانتا زوجتين لعبدين من عباد الله .

فلم يُغْنيا عنهما من الله شيئاً : فلم ينفعهما عند الله أنهما زوجتان لنبيين .

تابع المعنى الإجمالي

وطأتك عليهم ، ومصيرهم جهنم وبئست هذه النهاية لهم .

بيّن الله حال الكافرين ، الذين يؤخذون بعملهم رغم قرابتهم للأنبياء وأعطى لذلك مثلاً : امرأة نوح وامرأة لوط ، فقد كانتا زوجتي نبيين من عباد الله الصالحين ، فخانتا زوجيهما بالكفر والتآمر عليهما وإفشاء سرهما إلى قومهما ، فلم تنفعهما هذه القرابة يوم القيامة ، ولم ترفع عنهما من عذاب الله شيئاً ، وقيل لهما : ادخلا النار مع الداخلين .

وأعطى الله مثلاً للذين آمنوا امرأتين : إحداهما امرأة فرعون إذ قالت : رب

وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ
ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ
بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

شَــرح المفــردَات

أحصنت فرجها : عفّت عن ارتكاب الفاحشة .
مِنْ رُوحِنَا : روحاً من خلق الله بلا واسطة أب وهو عيسى عليه السلام .
القانتين : المطيعين لربهم .

تابع المعنى الاجمَالي

ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، وأنقذني من فرعون وعمله ، وأنقذني من القوم الظالمين . والأخرى : مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها ، وعفَّت عن ارتكاب الفاحشة ، فنفخ فيها جبريل عليه السلام ـ بأمر الله ـ روحاً من خلقه سبحانه فحملت بعيسى ؛ ومريم صَدَّقت بالصُّحفِ المنزلة من الله على أنبيائه ، وكانت في عِدادِ المواظبين على طاعة الله .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعرض في مجملها صورة من الحياة البيتية لرسول الله محمد ﷺ ، وصورة من الانفعالات النفسية بين النبي وبعض نسائه وبينهن وبينه ، كما تأمر نساء النبي بالتوبة مبينة عواقبها الطيّبة ، كما تبين أن القرابة التي تجمعهن بالنبي لن تنفعهن يوم القيامة إذا عصين الله ونبيه .

وهُنا يعرض سؤال : ما هي الحكمة من طرح هذا الموضوع قرآنياً ؟ والجواب : بعد أن اختار الله محمداً ﷺ للرسالة لم تعد حياته ملكاً له بل أصبحت ملكاً لأمته ومن حقهم أن يعرفوا تفاصيل دقيقة من حياته الخاصة ليأخذوا منها دروساً وعبراً في حياتهم، ومن هنا كان كشف أمور خفية من حياة النبي ينطوي على حكمة بالغة ، فيكون الرسول مبلِّغاً ومُوجهاً لأمته في أقواله ، وفي أفعاله أيضاً ، علماً بأن نساء النبي لم يخرجن عن كونهن بشراً ، ويكون التوجيه القرآني للعدول عن الغيرة وعن إفشاء الأسرار الزوجية للمحافظة على سلامة العائلة .

وقبل أن نستعرض هذه السورة يحسن بنا أن نذكر تعريفاً مجملاً عن زوجات النبي ﷺ يعيننا على تصوّر الحوادث التي جاءت بصددها هذه السورة وينفي بعض التهم عن النبي ﷺ .

فمحمد ﷺ تزوج بإحدى عشرة امرأة ، وهو استثناء خاص به دون قومه ، وقد اتخذ أعداء الإسلام من هذا التعدّد مثاراً للطعن في سيرته . وللرد على هؤلاء نقول : إن محمداً كان معروفاً منذ صباه إلى كهولته بالعفة ، ولم يرمه بتهمة شائنة أحد من أعدائه في عصره ، وهم الحريصون

على إبراز كل نقيصة تطعن في نبوته .

وإن في الحديث عن كل زوجة من زوجاته ، والظروف التي تزوّج بها لرداً مفحماً على كل مفتر على النبي ﷺ ، وإليكم هذا العرض بإيجاز :

السيدة خديجة بنت خويلد : أول امرأة تزوجها النبي ﷺ وكانت أرملة في نحو الأربعين ، بينما كان النبي في الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت وقد جاوزت الستين من عمرها ، وهكذا يكون النبي قد عاش مع زوجته حوالي عشرين سنة في السنّ التي يفرط فيه الإنسان بالشهوات ، هذا مع العلم أن العادة في بلاد العرب أن يتخذ الرجل لنفسه عدة زوجات ، فإن النبي ﷺ لم يجمع مع خديجة أية زوجة أخرى وهي التي تكبره في السن بخمسة عشر عاماً .

وتعداد النبي ﷺ للزوجات كان بعد موت خديجة ، وكانت الغاية من ذلك جملة أمور : تعليمية ، وتشريعية ، وإنسانية ، وسياسية :

فالنبي ﷺ أراد تخريج بعض معلمات للنساء يعلمهن الأحكام الشرعية ، وقد فرض الإسلام على النساء من التكاليف الشرعية مثل ما فرض على الرجال ، وكان الكثيرات من النساء يستحين من سؤال النبي في بعض الأمور الخاصة بهن ، وحُكْم الإسلام في ذلك ، فكن يسألن نساءه .

السيدة سودة بنت زمعة : تزوجها النبي بعد وفاة خديجة وهي أرملة كان زوجها من المهاجرين إلى الحبشة ، ثم رجع إلى مكة فمات بها ، وترك لها خمسة صبية ، فأصبحت زوجته وحيدة لا معيل لها ، فتزوجها النبي ﷺ لإعالتها وتكريماً لها على صِدْقِ إيمانها .

السيدة عائشة بنت أبي بكر الصدّيق : تزوجها النبي ﷺ وقد كانت

صغيرة وهي الوحيدة بين نسائه التي تزوجها بكراً ، وقد كانت مصاهرة النبي لوالدها أبي بكر الصدّيق ، أعظم مكافأة له في هذه الحياة ، كما أن زواجه منها خير وسيلة لنشر سنّته وأحكام الإسلام ، وقد رُوي عنها أنها كانت أذكى نساء النبي ، وأحفظهن للعلم ، فروت آلاف الأحاديث عن رسول الله ، وكانت فقيهة تقدّمت على عديد من الصحابة في الرواية والفتوى .

السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب : تزوّجها النبي ﷺ وهي أرملة ، وكان زوجها قد أبلي بلاءً حسناً في غزوة بدر ، وغزوة أُحُد ، ثم مات بعد ذلك . والزواج منها كان لتوثيق الصلة بينه وبين والدها عمر بن الخطاب الذي أعزَّ الله الإسلام بإسلامه .

السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان : تزوجها النبي وهي أرملة ، وكان زوجها من مهاجري المسلمين إلى الحبشة ، وقد هاجرت معه فتنصّر وحاول أن يصرفها إلى دينه الجديد ، فأبت وصبرت على دينها ، فتزوجها النبي إكراماً لها على ثباتها وتمسكها بالإسلام .

السيدة أم سلمة هند بنت أبي أمية : كانت من أشد الناس إيماناً وجهاداً ، فقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فراراً بدينهما من أذى قريش ، ثم رجعا إلى مكة ، ثم هاجرت وإياه بعد ذلك إلى المدينة فراراً من اضطهاد قريش . وفي معركة أُحُد أُصيب زوجها بجُرح بليغ ظل يعاوده إلى أن تُوفي ، وترك لها أولاداً صغاراً ، فتزوجها النبي ﷺ إكراماً لها على جهادها وصبرها ، وضم إليه أولادها لإعالتهم .

السيدة زينب بنت جحش : تزوّجها النبي ﷺ لإبطال بعض العادات الجاهلية ، فقد كانت زينب زوجة متبناه زيد بن حارثة الذي طلقها حين ساءت الأمور بينهما ، فتزوجها النبي بأمْرٍ من الله ليكون ذلك تشريعاً في عدم

شرعية التبني في الإسلام ، وهذا الزواج كان محظوراً عند العرب قبل الإسلام .

السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار : وهي من قبيلة بني المصطلق الذين تجمعوا لقتال النبي ﷺ بقيادة سيدهم الحارث بن أبي ضرار ، فهزمهم المسلمون وسبوا منهم كثيراً من الرجال والنساء ، وكانت في السبي السيدة جويرية ، فوقعت في حصة أحد المسلمين ، فاتفقت معه على مبلغ من المال تدفعه له ثمناً لحريتها ، ثم جاءت إلى النبي تطلب منه بعض المال لذلك ، وهنا تجلّت حكمة النبي في بني المصطلق ، الذين كانوا من أعز العرب داراً ، وأسْرُ رجالهم ونسائهم بهذه الكثرة يترك مشكلة اجتماعية صعبة الحل ، فقال النبي ﷺ لجويرية : أقضي عنك المال الذي يعتقك وأتزوجك ، فقبلت ، وتزوجها النبي ﷺ ، فسرى الخبر إلى المسلمين أن رسول الله قد تزوج جويرية فقالوا : أصهار رسول الله نسترقهم! لا لن يكون . . . ثم اعتقوا كل من بأيديهم من الأسرى. ولقد قالت عائشة : فلقد أعتق رسول الله بتزوجه إيّاها أهل مائة بيت من بني المصطلق ، فما رأيت امرأة أعظم بركة على قومها منها .

السيدة زينب بنت خزيمة العامرية : وقد استشهد زوجها في غزوة أُحُد فتزوجها النبي ﷺ ، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت ، وقد وُصِفَتْ بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء حتى لقبت (بأم المساكين) .

السيدة صفية بنت حيي بن أخطب : كان أبوها سيد بني النضير من بني إسرائيل ، وقد أُسرت بعد مقتل زوجها في غزوة خيبر فاستدعاها النبي ﷺ وقال لها : إن تكوني على دينك لم نكرهك ، فإن اخترتِ الله ورسوله اتخذتك لنفسي ، قالت : بل أختار الله ورسوله ، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها

مكافأة لها على إسلامها ، وإنقاذاً لها من ذل السبي بعد أن كانت سيدة في قومها .

السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية : وهي أرملة تزوجها النبي ﷺ إكراماً لعشيرتها الذين آزروه ونصروه .

السيدة مارية القبطية : وهي واحدة من نساء النبي ﷺ لم تُلقّب بأم المؤمنين ، وهي جارية أهداها للنبي ﷺ « المقوقس » ملك مصر ، وقد وَلَدَت للنبي ابنه إبراهيم توفي ولم يتم السنتين من عمره .

وبعد هذه المقدمة عن أزواج النبي ﷺ نستعرض معاني هذه السورة التي تبدأ بعتاب إلّهي للنبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ورد في أسباب نزول هاتين الآيتين روايتان ، الأولى : أن النبي ﷺ كان يمكث عند زوجته زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً ، فتواطأت عائشة وحفصة لما وقع في نفسيهما من الغيرة من ضرتهما أن أيتهما دخل عليها النبي ﷺ فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير[1] ! أكلتَ مغافير ، فدخل النبي ﷺ على حفصة فقالت له ذلك ، فقال النبي : لا ، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود ، وقد حلفتُ فلا تخبري أحداً ، فأخبرت

---

(١) مغافير : صمغ حلو ينضحه شجر يقال له العرفط يؤخذ ثم ينضح بالماء فيشرب وله رائحة كريهة ، وكان النبي يكره أن يصدر منه رائحة كريهة .

عائشة بذلك ، فأطلع الله نبيه على إفشاء حفصة القصة لعائشة . وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ فأعلم النبي حفصة ببعض الحديث الذي دار بينها وبين عائشة لتعرف أنه علم بإفشائها السرّ وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ فظنت حفصة أن عائشة هي التي أخبرته بالقصة ، فقالت له : ﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ فقال النبي ﷺ : ﴿ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴾ أي الله سبحانه العليم بالسِرِّ والعلن ، والخبير بأحوال الناس جميعاً .

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ اختلى بمارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة التي كانت في زيارة لوالدها في اليوم المخصّص لها ، فلما رجعت حفصة وجدتهما في بيتها ، وغارت غيرة شديدة ، فلما خرج النبي ﷺ بادرته غاضبة معاتبة له على قربان مارية في بيتها ، معتبرة ذلك إهانة لها ، فقال لها النبي : إني مسرّ إليك سرّاً فاحفظيه ، قالت : ما هو ؟ قال : إني أُشهدك ان مارية عليّ حرام إرضاء لك ، ولكن حفصة لم تستطع أن تكتم سراً عن عائشة التي كانت تخصها بودّ خاص ، واندفعت عائشة تستثير ضرائرها من نساء النبي ، فما زالت حتى انضممن إليها ، ولجت عائشة في غيرتها ، ونساء النبي يعاونّها على زوجهن رسول الله ، غيرة من مارية التي حملت دونهن بابنه إبراهيم ، مما أغاظ ذلك النبي فاعتزلهن جميعاً في صرامة لم يألفنها ، وأقسم بأن لا يقرب نساءه شهراً ، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة ، فأنزل الله مطلع هذه السورة التي فيها العتاب للنبي على تحريم شيء قد أحلّه الله إرضاء لنسائه ، وختمها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مطمئنة النبي ﷺ ، لأن عتاب الله له لتحريمه ما أحل له قد يشعر بمؤاخذة شديدة من الله ، فأعقبه سبحانه بما يبعث الطمأنينة إلى قلبه من مغفرة ربه ورحمته . مبيناً له المخرج من هذا التحريم بقوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لكم

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أي شرع الله تحليل ما حرمتم على أنفسكم بالقسم وذلك بالكفارة التي وردت في سورة المائدة آية ٨٩ . ومؤداها إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، أو تحرير إنسان من الرق أو صيام ثلاثة أيام . ﴿ واللَّهُ مَوْلاكُمْ ﴾ والله وليكم وناصركم أيها المؤمنون ﴿ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه فلا يأمركم إلاّ بما تقتضيه الحكمة .

ثم تأتي هذه الآية موجهة اللوم إلى الزوجتين اللتين حصلت معهما الحادثة :

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

فالقرآن يخاطب زوجتي النبي ﷺ اللتين تآمرتا : إن تتوبا إلى الله وترجعا إلى الصواب فلتوبتكما موجب وسبب فقد ﴿ صَغَت قُلُوبُكُمَا ﴾ أي مالت قلوبكما عن الحق والواجب من الإخلاص لرسول الله ، ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تتعاونا على النبي بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء السرّ ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ أي ناصره ومعينه ﴿ وَصَالِحُ المُؤمِنِينَ ﴾ أي المخلصين الصادقين من المؤمنين ، ثم وأكثر من ذلك ﴿ وَالملاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ والملائكة مع جبريل وصالح المؤمنين لرسول الله أعوان على من آذاه .

وبعد هذا يحذّر الله نساء النبي ﷺ جميعهن ، مهدداً إياهن بأن النبي إذا طلقهن فسيعوّضه سبحانه خيراً منهن في العبادة والجمال :

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ .

والمعنى : إن طلقكن فعسى أن يُبدله الله أزواجاً خيراً منكن ﴿ مُسلِمات ﴾ خاضعات لله بالطاعة ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدقات بالله ورسوله ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ أي مطيعات لله ، ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ أي راجعات عن الذنوب لا يصررن عليها ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ أي متعبدات لله ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات ، وقيل : مهاجرات في سبيل الله ﴿ ثَيِّبَاتٍ ﴾ جمع ثيب وهي المرأة التي كانت ذات زوج ثم مات عنها زوجها أو طلقها ، ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ جمع بكر وهي العذراء التي لم يتصل بها رجل .

ولما كان جو الآيات دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله ، تأتي الآيات هنا داعية المؤمنين بأن يسيروا على هدى الله ، وأن يؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية لنسائهم وأولادهم وتوجيههم إلى طاعة الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم نار الآخرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات ، وهذه النار تختلف عن نار الدنيا ، فليس وقودها الحطب ، وإنما وقودها اثنان : الناس والحجارة ، فهي توقد بأجسام العصاة كما توقد بالحجارة[1] . وهذه النار موكّل بها ملائكة ﴿ غِلاَظٌ ﴾ أي

---

(١) قد يستغرب الإنسان في عصر نزول القرآن كيف توقد النار بالحجارة ، ولكن بعد اكتشاف الفحم الحجري بعد نزول القرآن بمئات السنين وما يحمل من طاقة عظيمة من الحرارة ظهر لنا الإعجاز في الاخبار عن أمور يكتشفها العلم في المستقبل ، كما يظهر لنا أسرار التعبير القرآني في وصف تأجج جهنم بالنيران ومصادر الوقود فيها .

قساة في تعذيبهم أهل النار ، كما أنهم ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي أقوياء لا يفلت منهم أحد ، وهؤلاء الملائكة يتميزون بالطاعة المطلقة لله تعالى ، وفي النار يُعذب الكافرون بأعمالهم ، ولا يقبل منهم اعتذار على ما فعلوه في دنياهم ، بل يقال لهم : ﴿ إِنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ أي تثابون اليوم جزاء ما عملتم من الكفر والمعاصي .

ومما يسترعي الانتباه هو وصية الله للمؤمنين بأن يقوا أهلهم نار يوم القيامة ، ومعنى هذا أن المؤمن مُكَلَّفٌ بهداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف بهداية نفسه ، وإذا صَلُحَ البيت صَلُحَ المجتمع .

كما أن في الآية إرشاداً للآباء بأن يكونوا قدوة لأبنائهم ، لأن القرآن ابتدأ بخطاب الآباء بأن يصلحوا أنفسهم ثم يصلحوا بعد ذلك أهلهم .

ثم يُبَيِّن الله للمؤمنين الطريق الذي يجب أن يسلكوه ، للنجاة من عذاب النار ، ونيل النعيم في الآخرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فالله يأمر المؤمنين بأن يتوبوا إلى الله ﴿ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ أي توبة صادقة بالغة النصح ، تنصح صاحبها بعدم العودة إلى ما تاب عنه ، توبة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وقال العلماء في ذلك : « التوبة النصوح هي أن يُقْلِعَ المذنب عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على أن لا يفعل الذنب في المستقبل ، ثم إن كان الحق

لآدمي ردّه إليه » .

وروي عن النبي ﷺ قوله : « التوبة ندم »[١] .

وبالتوبة النصوح يكفّر الله بها السيئات ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ وجيء بكلمة عسى قبل التكفير عن السيئات للإشعار بأن مغفرة الله لهم هي تفضّل منه سبحانه ، وأن الإنسان ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء وإن بالغ في العبادة . كما أن بالتوبة النصوح يدخل الله المؤمنين بساتين تجري من تحتها الأنهار يوم القيامة ، يوم يكرّم الله النبي والذين آمنوا معه فلا يخزيهم .

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أي نورهم يسعى بين أيديهم أي أمامهم حين يمشون ، ونورهم يظهر أيضاً باليد اليمنى عند الحساب ، لأن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه وفيه نور وخير . والمؤمنون يقولون : ﴿ ربَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ وذلك عندما يرى المؤمنون نور الكافرين يُطفأ يسألون الله أن يتمم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة ، كما أن المؤمنين يسألون ربهم بأن يغفر لهم فهو على كل شيء قدير .

وبعد توجيه المؤمنين إلى التوبة النصوح تأتي الآية القرآنية آمرة بمحاربة الأعداء لتأمين الحماية للدعوة الإسلامية ، وأن الأعداء فريقان : فريق يحارب من الخارج وهم الكفار ، وفريق يحارب من الداخل وهم المنافقون ، ولذا شملت الآية التالية الفريقين معاً :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ .

---

(١) رواه ابن ماجة .

أي جاهد الكفار بالسيف ، وجاهد المنافقين بالحجة والإنذار والوعيد ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي شدّد عليهم في الدعوة ، واستعمل الخشونة في أمرهم ، وسيكون مصيرهم جهنم ، وبئس هذا المرجع الذي ينتهون إليه .

ثم يأتي ختام هذه السورة فيقدّم القرآن مثالاً للذين كفروا يجب اجتنابه ، ومثالاً للذين آمنوا يجب الاقتداء به ، مبتدئاً بمثال الذين كفروا ويندرج تحته امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا : امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

فهذا المثل فيه توجيه لأزواج رسول الله ﷺ ولكافة المؤمنين ، فأزواج رسول الله إذا لم يُطِعْنَ الله ورسوله لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ، وأنهن زوجاته ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بنبيين من أنبياء الله . فالكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ولرسوله ، ولا ينفعه مع كفره وعصيانه ما كان بينه وبين المؤمنين من قرابة أو سبب من أسباب الاتصال . فلو نفعت صِلَة القرابة لنفعت الصِّلة التي كانت بين النبي نوح والنبي لوط وامرأتيهما ، فهاتان المرأتان خانتا زوجيهما بأن كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سرِّ نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت به الجبابرة من قوم نوح، واما امرأة لوط فكانت إذا جاء لوطاً أحدٌ من الضيوف خبَّرت به أهل المدينة ممن يعملون السوء ، وهاتان الزوجتان يُقال لهما يوم القيامة : ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

أما المثل المضروب للذين آمنوا الذي يجب الاقتداء به فهو امرأة فرعون

ومريم ابنة عمران :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمنوا : امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَمَرْيَمَ ابنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾ .

فموقف امرأة فرعون السلبي من زوجها هو مثل أعلى للاستعلاء على مفاتن الدنيا ومغرياتها ، فقد كانت امرأة فرعون زوجة أعظم ملوك الأرض يومئذٍ ، وكانت تعيش في قصر زوجها الذي تجد فيه كل ألوان النعيم والترف ، ولكنها أعرضت عن كل مباهج هذا القصر ، بسبب الكفر والظلم المسيطر عليه ، وتوجهت بقلبها إلى الله ، الذي آمنت به ، طالبة منه أن يبني لها بيتاً في الجنة ، وأن ينجيها من سوء أعمال فرعون وظلمه ، ومن قومه الظالمين .

والمثال الآخر هو : مريم ابنة عمران فهي كذلك مثل أعلى للإخلاص لله ، والامتثال لطاعته وعبادته منذ نشأتها إلى مماتها . فهي الطاهرة ﴿ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي عفَّت وعاشت حياة طاهرة ، فأعلن الله براءتها مما أَلصق بها اليهود من التهم الباطلة . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي نفخ جبريل في جيب درعها[1] روحاً من خلق الله هي روح عيسى عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّها ﴾ أي صَدَّقت بالصحف المنزلة على أنبيائه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾ أي كانت من القوم المطيعين لربهم .

---

(١) جيب درعها : عنق القميص أو الصدر .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .
لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .
روح المعاني للألوسي .
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

الفهرس

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي
باللغة الإنكليزية

روح القرآن
صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم

روح القرآن الكريم

تفسير جُزء تبَارك

طبعة جَديدة منقّحة

بقَلَم

عَفيف عَبد الفتّاح طَباره

توزيع

دار العلم للملايين

هَذا التَّفْسِيرُ

• يعَرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصَّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بَعيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصَّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون:
دَارُ العِلمِ للمَلايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

دراسات إسلامية
ISBN 9953-9-0496-0
9 789953 904962 2

روح القرآن الكريم

تفسير

جزء تبارك

الجزء التاسع والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة السابعة

أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه ، وبعد :

يطوف المؤمن في رحاب القرآن متنقلاً في سوره وآياته ، بين محكم وخبر وعظة وعبر ، ووعد ووعيد وترغيب وترهيب ، إنه ﴿ لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ فيهلع قلبه لمواقع الإنذار الرهيب ، ثم يُسرّى عنه وتُشرق أساريره لدى سماعه الوعد الرفيق ، والتطمين الهادىء الرقيق من لدن رب العالمين ، فينتعش قلبه بمواقع البشرى تَرِدُ هنا وهناك تشرح صدره ، وتجعله يعيش في جو من البهجة والحبور والرضى والسرور ، فإذا قلبه في ربيع دائم ، ونضرة متصلة ، وشذى عبير لا ينقطع ، يبهج القلب ويذهب الكرب ، ويمسح عن الفؤاد غبرة الهم ، وعن الوجه آثار الغم ، فتشرق عليه نضرة النعيم ، ينطبق عليه دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب غمي » .

ولقد أتى على الناس حين من الدهر لم يهتدوا فيه إلى تفسير مبسّط لآي الذكر الحكيم ، ولم يقعوا على كتاب يشرح كلام الله على نحو يجمع بين السهولة والإبانة ، ويجافي التطويل المعقد الممل ، أو الاسترسال في مواضيع لا يستسيغها القارىء في هذا العصر .

ولما كان جزء تبارك مألوفاً لدى الكثيرين يتلوه الطلاب ويحفظونه باعتباره مقرراً عليهم في المراحل المتوسطة من التعليم ، كما يتلوه الناس في بيوتهم ، ويرددون آياته في مجالسهم ، لكن هذه الآيات يبقى الكثير منها مستعصياً على الفهم ، منغلقاً على الذهن ، يحتاج إلى إبانة وتوضيح .

ومن هنا انبرى المؤلف الأستاذ عفيف طبارة لهذا العمل الجليل في تفسير هذا الجزء « تبارك » مواصلاً جهده المشكور الذي قدمه للناس في جزء « عم » ، وكأني به وقد لمس ارتياحاً عاماً لديهم ، وإقبالاً سافراً على مطالعته ، وتعطشاً زائداً في الحصول عليه، والارتواء منه، فدفعه ذلك كله لأن يكمل ما كان بدأ به، معتمداً نفس النمط ، متوخياً السهولة في التأليف ، والانصراف إلى الجوهر من روح القرآن ومعانيه .

والمعروف أن الناس في هذه الأيام شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، فقلما يجدون وقتاً يصرفونه في تفسير آيات القرآن الكريم ، فضلاً عن أن الذي يجد الوقت ويتوفر لديه التفسير ، يضيع في متاهات المفسرين ، وشروحاتهم الطائلة ، ولا يكاد يظفر بشيء يشفي الغلة .

ومن هنا كان عمل المؤلف يشكر عليه . أدرك بثاقب نظره ، أن الناس يتطلعون إلى تفسير يشبع رغباتهم ، ويلبي مطالبهم دون عناء أو جهد . فكانت مهمة المؤلف شاقة ، راعى أن يقدم للقارىء غذاءً روحياً مفيداً على طبق من الأسلوب ، يعتمد الرشاقة والغزارة ، وينفذ إلى روح الآيات ، فيظهر ما تنطوي عليه من خفاء ، ويقربها إلى الأذهان ، وكان عليه في سبيل ذلك أن يطوف في التفاسير المختلفة ليستخلص منها الثمار اليانعة ، ويجتني كل ما لذ وطاب ، ثم يقدم ذلك للقارىء على طبق من ذهب .

وإن الذين يعنون بالتفاسير يدركون ما لهذا التفسير من مكانة مرموقة ، وجهد مستفيض ، فلقد كانت الفكرة الواحدة تتطلب منه أن يعود إلى تفاسير عدة ، ليجلو غامضها ، ويوضح خفاءها ، ويكشف عن مراميها وأهدافها ، متعمداً أن يورد المعاني والأفكار التي تربط بين مقطع ومقطع في السورة ، أو حتى بين آية وآية ، ليقف عليها القارىء بطرب وحبور ، مستمداً منها غذاء لروحه ، وانفتاحاً لعقله ، وارتياحاً لمشاعره .

وإني أترك للقارىء أن يمضي في قراءة هذا التفسير ليلمس أن ما أشرنا إليه ما هو إلا جانب يسير مما سيقع عليه ، راجين الله سبحانه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع به البلاد والعباد .

سُورَةُ المُلك

مكية ، وآياتها ثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ
فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

شرح المفردات

تبارك : تعالى وتعاظم وتقدّس عن كل ما سواه .

الملك : السلطان والقدرة .

ليبلُوَكم : ليختبركم ويمتحنكم .

أحسَن عملاً : أصوبه وأخلصه .

العزيز : القوي الغالب على كل شيء .

طِباقاً : طبقات بعضها فوق بعض ، أو يوافق بعضها بعضاً .

الرحمن : من أسماء الله ، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء .

تفاوت : اختلاف وتباين .

فطور : شقوق أو خلل .

ثم ارجع البصر كرّتين : أعد نظرك مرّة بعد أخرى ، والمراد بالتثنية : التكرار والكثرة .

خاسئاً : مبعداً عن الشيء الذي طلبه .

حسير : أدركه الإعياء .

ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

السماء الدنيا : السماء القريبة إلى الأرض .

بمصابيح : نجوم وكواكب مضيئة كالمصابيح .

رجوماً : جمع رجم وهو ما يرمى به .

أعتدنا : أعددنا وهيأنا .

السعير : من أسماء جهنم ، وهي النار الملتهبة .

شهيقاً : صوتاً منكراً .

تفور : تغلي غلياناً شديداً .

تميّز من الغيظ : تتقطع لشدة غيظها من الكفار .

فوج : جماعة .

إن أنتم : ما أنتم ، (إن حرف نفي مثل ما) .

فسُحقاً : فبعداً .

يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ
أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟
فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى
ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

شَرح المفـرَدات

يخشون ربهم بالغيب : يخافون ربهم دون أن يروه .

أسرّوا قولكم : أخفوه .

بذات الصدور : بما تضمره القلوب .

اللطيف : من أسماء الله ، وهو العالم بدقائق الأمور ، الرفيق بعباده .

ذلولاً : سهلة طيّعة لكم .

مناكبها : جوانبها ونواحيها .

النشور : البعث من القبور يوم الحساب .

يخسف بكم الأرض : يغيبكم في باطنها .

تمور : تضطرب وتتحرك .

حاصباً : ريح فيها حصباء وهي الحصى .

كيف نذير : كيف كان عاقبة إنذاري لكم .

فكيف كان نكير : كيف كان إنكاري عليهم بتسليط العذاب عليهم .

سُورَةُ المُلك

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تبين الغاية من الموت والحياة، كما تلفت الأنظار إلى آثار قدرة اللّه الباهرة في الأرض وفي السماء ليكـون تثبيتاً لـلإيمان بـاللّه واليوم الآخر، كما تحذر الذين يعصون اللّه بعذاب النار يوم القيامة.

تُستَهَلُّ هذه السورة ببيان قدرة اللّه وسيطرته الكاملة على الكون:

﴿تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فلفظ ﴿تبـارك﴾ وصف لعدة كمـالات للّه سبحانـه، فمعناه: تقـدّس وتعالى وتعاظم. وقيل: تبارك من البَرَكة وهي الكثـرة في كل خيـر، أي زاد خيره وكثرت نعمته.

ومعنى ﴿بيده الملك﴾ كناية عن التصرف المطلق في هذه الكـائنات والاستيلاء التام عليها. و ﴿قدير﴾ صفة مبالغة من القدرة، فاللّه وحـده قادر على كل شيء يتصرف فيه حسب مشيئته وإرادته.

ثم تستعرض السورة بعض مظاهر قدرة اللّه:

﴿الذي خَلَقَ الْموتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَملاً وَهُـوَ العَزِيـزُ الغَفُور﴾.

فالقرآن قدّم ذكر الموت لأن المخلوقات الحيـة كلها كـانت في حكم العدم، ثم دخلت عليها الحياة، ثم يصيبها الموت، ثم تأتي بعد ذلك الحياة الآخـرة كما قـال سبحـانـه: ﴿وَكُنْتُم أَمْـواتـاً فَـأَحْيـاكم ثُمَّ يُميتكم ثُمَّ يُحييكم﴾ البقرة: ٢٨.

والغـاية من خلق الإنسـان على هـذه الأرض هي اختبـاره وامتحـانـه بصنوف الشر والخير ليظهر من أحسن عملاً وأخلصه ﴿لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلاً﴾ هذا المفهوم إذا وعاه الناس أثار فيهم التنافس في الأعمال الحسنة وجنبهم دواعي الشر.

وينتقل القرآن إلى بيان قدرة اللّه في خلقه للسماء:

﴿الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً ما تَرَى في خَلْقِ الرَّحمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾.

فاللّه سبحانه خلق سبع سماوات ﴿طِبَاقاً﴾ أي بعضها فوق بعض.

وحقيقة هذه السماوات السبع مجهولة لدينا، ولكننا مُلزمون بأن نؤمن بذلك ونفوض العلم في حقيقتها إلى اللّه سبحانه، ولعل الزمن يكشف لنا أسرار ذلك بما يكتشف الإنسان من خفايا الفضاء. ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن حين يذكر خلق السماوات والأرض لا يقصد إلى غايات علمية، وإنما يدعو إلى التأمل في خلقها، ليصل الإنسان بذلك إلى الإيمان بخالقها، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر من هذه السورة ﴿إنَّ في السَّموات وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمنين﴾.

والمراد من قوله سبحانه: ﴿مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوتٍ﴾ أي لا تـرى في ما خلق اللّه أي اختـلاف وتباين واضـطراب في الخِلْقة، وقـد جـاءت بحوث علمـاء الكائنـات الحية، وعلمـاء المادة وقـوانينهـا مـوافقـة لمضمون هذه الآية، فقالوا إن العالم جميعه من أصغر ذرة، إلى الخلية التي لا تُرى بالعين المجردة، إلى أكبر جرم في السماء خاضع لقوانين في غايـة الدقة والإحكام لا يعتريها أي خلل. ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَارْجِـعِ الْبَصَرَ

هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور﴾ أي رد بصرك إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً؟!

ويتابع القرآن قوله:

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

والتثنية في كَرَّتين يُرادُ بها مرات كثيرة، وقيل إن المثنى على ظاهره، أي مرة بعد أخرى، فمهما أمعنت النظر لتلتمس أي خلل سيرتد إليك نظرك ﴿خَاسِئاً﴾ أي ذليلاً مبعداً عن العثور على أي خلل ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو كليل متعب من شدة التحديق الذي لا يرى من خلاله نقصاً ولا عيباً.

هذا المفهوم القرآني عن كمال خلق اللّه لم يظهر جليًّا كما ظهر في هذا العصر بواسطة ما استحدثه الإنسان من آلات الرؤية كـ «الميكروسكوب الألكتروني» الذي يكبر الأشياء ٩٠٠ ألف مرة فما فوق، وكذلك (التلسكوب) الذي يقرب الأبعاد ملايين المرات، فرأى العلماء من خلالهما ما أدهشهم وزادهم إيماناً بالخالق، وما كانت كثرة التحديق تريهم أي خلل في مشاهداتهم، بل كانت كثرة التحديق تزيدهم تعباً وإرهاقاً.

ثم يوجه القرآن الأنظار إلى جمال السماء وما توحي من إيمان بخالقها:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعلْنَاها رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

فمشهد النجوم والكواكب في السماء في الليلة الظلماء له سحر وروعة وجمال، يظهر ذلك أوضح لأهل الأرياف، وسكان الصحاري، وراكبي البحار عندما تكون السماء صافية، خالية من الغيوم، وهذه السماء جعلها اللّه

موطن الشُّهب لرجم الشياطين. وقد كان كهنة العرب يزعمون أن لهم اتصالاً بالملأ الأعلى بواسطة الشياطين الذين ينقلون إليهم أنباء ما يُسجَّل في الملأ الأعلى، فنفى القرآن ذلك مبيناً: إن الشياطين لا تستطيع أن تصل إلى هذا الملأ دون أن تُرجم، وإذا كان هذا مصيرها في الدنيا، فإنه سبحانه هيأ لها عذاب النار في الآخرة.

ويبين القرآن ما أعد اللَّه للكافرين من عذاب في الآخرة:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصِيرُ. إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

فالكفار لهم عذاب جهنم وبئس هذا المصير الذي ينتهون إليه، فحين يُطرحون في جهنم تستقبلهم في غيظ وضيق شديد، ويسمعون لها ﴿شَهِيقاً﴾ أي صوتاً قبيحاً منكراً لشدة توقدها وغليانها ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ وهي تغلي بهم كما يغلي القِدْر بما فيه، والفوران: شدة الغليان ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي توشك من شدة غضبها عليهم أن تتقطع وتتفرق وينفصل بعضها عن بعض ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ كلما ألقي في النار جماعة من الكافرين ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سألهم ملائكة العذاب بطريق التوبيخ والتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسول من اللَّه يحذركم ويخوفكم من عذابه، حينئذٍ يجيب الكفار بما يذكره القرآن:

﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ إِنْ أَنْتُمْ إلاَّ في ضَلَالٍ كَبيرٍ﴾.

لقد اعترفوا بأنهم كذبوا رسل اللَّه وأنكروا نزول الوحي عليهم، بل اتهموا هؤلاء الرسل بأنهم في بُعد كبير عن الحق والصواب.

إن اعترافهم هذا، هو شهادة بعدالة اللّه، فهو سبحانه لا يُعذب قوماً إلّا بعد إرساله الرسل، وقد جاء في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء: ١٥.

ويتابع الكفار اعترافهم فيذكرون السبب الذي أدى بهم إلى عذاب النار:

﴿وَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنّا في أَصْحَابِ السَّعير. فاعْتَرفوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

فالكفار يقولون للملائكة الموكلين بجهنم: لو كنا نسمع سماع من يطلب الحق ويأخذ به، أو كنا نعقل عقل من يميّز بين الهدى والضلال لآمنا به، ولما أصبحنا في عِداد أهل جهنم، وهم بقولهم هذا أقروا بذنبهم ﴿فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فبعداً لأهل النار من رحمة اللّه.

هؤلاء الكفار لو حكّموا عقولهم لما وصلوا إلى هذه النهاية التعيسة، وهذه إشادة من القرآن بالعقل لأنه مناط التكليف بالشرائع الإلّهية، والعقل السليم يقود صاحبه إلى الإيمان باللّه والسير بمقتضى شريعته.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير المؤمنين في الآخرة فيقول:

﴿إنَّ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كبيرٌ﴾.

والخشية خوف ممزوج بتعظيم وإجلال، وخشية اللّه (بالغيب) هي خشيته وهم لم يروه فيؤمنون به ويقبلون على طاعته، أو يخافون عذاب اللّه حال كون العذاب غائباً عنهم، أو يخافون ربهم في خلوتهم وهم غائبون عن أعين الناس، كل هذه المعاني يحتملها نص القرآن، هؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير وهو الجنة، وكيف لا يخافون ربهم وهو يعلم سرّهم

وجهرهم:

﴿وأسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ آجْهَروا به إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فقد كان بعض الكفار يتكلمون فيما بينهم بأشياء ضد النبي ﷺ، فقال بعضهم لبعض: تحدّثوا سرّاً حتى لا يسمع رب محمد ما تقولون، فخاطبهم اللَّه سبحانه: تحدّثوا سرّاً أو جهراً فإن اللَّه يعلم ما بضمائركم قبل أن تفصح عنه ألسنتكم.

هذا المفهوم الذي يعلنه القرآن عن علم اللَّه بأسرار الإنسان وما يضمره في قلبه من شأنه أن يغرس خشية اللَّه في قلب الإنسان ويردعه عن كل ذنب؛ فمهما تستر الإنسان في إجرامه فاللَّه لا تخفى عليه خافية.

ثم يقدم القرآن دليلاً منطقياً عن إحاطة علم اللَّه بالأشياء: ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخبير﴾ فاللَّه سبحانه الذي خلق الكائنات وأبدعها، هو لاريب أعلم بها، وهذا دليل استدلالي منطقي مدهش عن إحاطة علم اللَّه بالأشياء، فالذي يصنع سيارة أو ساعة يعرف دقائقها وكلَّ قطعة فيها والدور الذي تقوم به، واللَّه سبحانه الذي خلق الكائنات عالم بها جميعاً لأنه خالقها، كما أنه سبحانه ﴿اللطيف الخبير﴾ أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائقها.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى بيان منّته ونعمته على خلقه:

﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ فالأرض وصفها اللَّه (بالذَّلُول) ومعناه المنقاد الذي يذل لك، ومنه يقال: دابة ذلول، أي سهلة الانقياد. وانقياد الأرض للإنسان ظاهرة طبيعية في كافة العصور، ولم تظهر جلية كما ظهرت في هذا العصر، حيث

سخّرها الإنسان لمنافعه، فلم يدع نوعاً من أنواع الاستفادة من خيراتها إلاّ سلكه، فتسخير البشر الأرض لمنافعهم هو مصداق لامتنان اللَّه سبحانه بجعل الأرض ذلولاً لهم.

والمراد من قوله **سبحانه**: ﴿فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أي امشوا في جوانبها وأطرافها وجبالها، وكلوا من رزق اللَّه الذي أخرجه لكم من الأرض، هذا التوجيه القرآني فيه حثٌّ للناس على السعي في الأرض لكسب معيشتهم وعدم الركون إلى التواكل والكسل. ومن جهة أخرى فإن التعبير القرآني بـ (رزق اللَّه) فيه تأكيد على أن مقومات المعيشة يجب أن تكون متوفرة لجميع الناس فليس لأحد أن يحتكرها من دون الناس. ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورِ﴾ وإلى اللَّه بعثكم من قبوركم أحياء يوم القيامة للحساب.

وبعد أن بيّن اللَّه للناس نعمته عليهم، عاد يحذرهم من عاقبة كفرهم، فبعد أن تكون الأرض ذلولاً صالحة للإنتفاع منها قد تصبح كالفرس الجموح فتضطرب اضطراب خسف وزلزال فتبتلعهم، يقول سبحانه:

﴿ءَأَمِنْتُم مَنْ في السماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ﴾.

أي أأمنتم فلم تخافوا من في السماء[1] قدرته وسلطانه وعرشه وهو اللَّه سبحانه وخص السماء بالذكر وإن عم ملكه الأرض تنبيهاً على أن الإلٰه الحقيقي هو الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظمون من أصنام على الأرض، ويحتمل أن يكون المعنى: أأمنتم خالق من في السماء ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ بأن تغور بهم وتغيبهم فيها ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب

---

(١) إن اللَّه منزه عن المكان وقد جاء في القرآن: ﴿وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه﴾ الزخرف: ٨٤ أي أن مشيئته وحكمه نافذان فيهما وسلطانه وقهره غالبان عليهما.

ذهاباً ومجيئاً .

والعذاب لا يقتصر على خسف الأرض بل هناك عذاب آخر:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ .

أي أم أمنتم أن اللّه تعالى بسلطانه لن يرسل عليكم ﴿حَاصِباً﴾ أي حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط، أو المراد بالحاصب الريح الشديدة التي تقلع الحصباء لشدتها ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ فسوف يظهر لكم أيها الكافرون حقيقة إنذاري لكم حين تعاينون العذاب.

ويقدم القرآن مثالاً لما أصاب الأمم السابقة بسبب تكذيبها لرسلها:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فكيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ .

أي ولقد كذّب الذين عاشوا قبل قومك يا محمد رسلهم، فكيف كان إنكاري عليهم بإنزال العذاب فيهم، وإن آثار الدمار والخراب تروي قصة هذا العذاب.

18 أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ
إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ
أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ

شرح المفردات

صافات : باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن .

ويقبضن : يضممن أجنحتهن .

ما يمسكهن : ما يمنعهن من السقوط .

من دون الرحمن : من غير الرحمن .

إن الكافرون : إن : حرف نفي بمعنى ما .

غرور : خداع وطمع بالباطل .

أمسك رزقه : منع رزقه .

لجّوا : تمادوا واستمروا .

في عتوّ : في طغيان .

نفور : بُعْدٍ عن الحق .

يمشي مكبًّا على وجهه : يمشي وهو لا يبصر ما بين يديه فيسقط على وجهه .

يمشي سويًّا : يمشي قائماً معتدلاً يبصر طريقه بوضوح .

صراط : طريق .

أنشأكم : خلقكم .

الأفئدة : هي القلوب ، والمراد بها هنا العقول .

هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ
وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

شـرح المفـردَات

ذرأكم : خلقكم .

تُحشرون : تجمعون يوم القيامة .

الوعد : أي يوم القيامة .

نذير : مبلّغ ومخوّف .

زُلْفَة : قريباً منهم .

سيئت وجوه : ظهر عليها السوء والحزن والكآبة .

تدّعون : تطلبونه وتستعجلونه من عذاب الله .

أرأيتم : أخبروني .

يجير : يمنع وينقذ .

توكّلنا : فوضنا أمرنا إلى الله سبحانه .

أصبح ماؤكم غوراً : أصبح ماؤكم غائراً في الأرض .

معين : ظاهر وجارٍ على سطح الأرض .

تابع سُورَة المُلك

وبعد آيات الوعيد للكافرين تنتقل الآيات لافتة الفكر إلى التأمل والنظر في قدرة اللَّه المتمثلة في خلق الطير:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى الطيـر[١] فوقَهُمْ صَـافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَـا يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصير﴾.

أي أَلَمْ يروا يا محمد الطيـر تحلق فوقهم ﴿صَـافَّات﴾، أي بـاسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها، والطيور تبسط أجنحتها وتركب متن الهواء. ومعنى ﴿يقبضن﴾ يضممن أجنحتهن إذا ضـربن بها جنـوبهن بعـد البسط، ويكون ذلك من حين إلى آخر حين ترغب في الهبوط أو الصعود ﴿إِنَّه بِكُلِّ شيء بَصِيرٌ﴾ إن اللَّه بكل شيء ذو بصر وخبرة لا يدخل في تدبيره خلل.

والطير أشكال كثيرة منها الوحشي والأليف، ومنهـا الجميل المنـظر، ومنها ما يغرِّد أو يصدح، ومنهـا ما ينعق، ومنهـا طويـل العنق والمنقار، مـع اختلاف الريش وتنوع الألوان وتعاريجها البديعة، عجائب تدل على قدرة اللَّه الباهرة.

وبعد هذا يخاطب الكافرين موبخاً إياهم على تصرفاتهم:

﴿أَمْ مَنْ هَـذَا الذي هُـوَ جُنْـدٌ لَكُمْ يَنْصُـرُكُمْ مِنْ دُون الـرحمٰن؟! إن الكافرونَ إلَّا في غُرُورٍ. أَمْ مَنْ هَذَا الذي يَرْزُقُكم إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُور﴾.

فـالنبي ﷺ كان إذا خَـوَّف الكفار من عـذاب اللَّه ذكروا لـه قـوتهم،

---

(١) تتجلى الطيور عامة بخصائص: منها خفة الوزن ومتانة البناء وعلو كفاءة القلب ودورة الدم وجهاز التنفس ودقة اتزانها وانسياب أجسامها وهي خصائص أودعها اللَّه فيها لتحفظها في الهواء حين تبسط أجنحتها أو تقبضهما

واعتمادهم على نصرة جندهم ، فقال سبحانه : من هؤلاء الجنود الذين أدعيتم أنهم ينصرونكم ويمنعون عنكم عذاب اللَّه ﴿إِنِ الكَافِرُونَ إلاَّ في غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون باللَّه إلاّ في خداع وطمع في الباطل لاعتقادهم أن جندهم تمنع عنهم عذاب اللَّه ﴿أَمَّنْ هَذَا الّذي يَرْزُقُكُم إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي من هذا الذي يرزقكم إن منع اللَّه عنكم أسباب الرزق من الأمطار وغيرها ﴿بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بل استمروا وتمادوا في طغيانهم وبُعد عن الحق.

وبعد أن اتضح الحق فمن هو أحسن حالاً؟ المؤمن أم الكافر:

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فالمكب هو الساقط على وجهه أو المتعثر في مشيته، إما لأنه لا يرى أمامه، أو بسبب وعورة الطريق، وهكذا حال الكافر يمشي متعثراً لا يأمن الزلل لأنه اختار طريقاً معوجاً بما فيه من ضلال وبُعْدٍ عن الحق، أما المؤمن فيمشي (سوياً) أي مستوي القامة ثابت القدم يبصر طريقه، سالماً من السقوط يمشي على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، لأنه اختار طريق الإيمان والهدى والحق.

ويبين اللَّه نعمته على الإنسان، فهو الذي خلقه وأعطاه نعمة السمع والبصر والعقل، وأن القليل من الناس يشكرون اللَّه على هذه النعم:

﴿قُلْ هُوَ الَّذي أَنْشَأَكم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَة قليلاً ما تَشكرون﴾.

فالترتيب الذي جاءت به هذه الآية ابتداءً من السمع ثم البصر ثم الأفئدة هو ترتيب ممارسة هذه الحواس. فحاسة السمع تبدأ مبكرة جدًّا في حياة الطفل في الأسابيع القليلة الأولى، وأما البصر فيبدأ في الشهر الثالث،

أما الفؤاد وهو الإدراك والتمييز فلا يتم إلّا بعد ذلك.

ومن نعم اللّه أيضاً على الإنسان الخلق والتكاثر:

﴿قُلْ هُوَ الذي ذَرَأَكُمْ في الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ذرأ اللّه الخلق: خلقهم على وجه الاختراع وكثّرهم، ومناط الامتنان على البشر إنما هو الخلق والتكاثر، فلو أنه تعالى خلق البشر ولم يُودع في نوعهم خاصية النمو والتكاثر لكانوا عرضة للزوال عند أية جائحة من جوائح الزمن، كما أن المرجع بعد الموت هو إلى اللّه وحده ﴿وإليه تحشرون﴾ والحشر جمع الناس يوم القيامة للحساب.

ويسأل الكفار عن موعد البعث والحساب فيجيب القرآن بأن العلم بذلك يختص باللّه وحده وأن وظيفة النبي هي إنذارهم عاقبة كفرهم وبيان شريعة اللّه:

﴿ويقُولُونَ: مَتَى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُم صَادِقين؟ قُلْ: إنَّمَا العِلْمُ عِنْد اللّهِ، وإنَّمَا أَنَا نذيرٌ مُبِينٌ﴾.

ثم يبين اللّه حال الكافرين حين حلول البعث والحساب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذينَ كَفَروا، وَقيلَ: هَذَا الذي كُنْتُم بِهِ تَدَّعُون﴾ فالكفار حين يرون العذاب (زُلفة) أي قريباً منهم يسوؤهم ذلك وتعلو وجوههم الكآبة، وتغشاها الذلة، فيقال لهم عندئذٍ توبيخاً لتصرفاتهم: هذا العذاب الذي كنتم ﴿به تدّعون﴾ أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً واستهزاءً.

ويتمنى الكفار أن يهلك النبي ومن آمن معه حتى يستريحوا من هذه الدعوة، فيأمر اللّه نبيه ﷺ بأن يرد على تمنياتهم بقوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمنَا فَمَنْ يُجيرُ الكافرينَ مِنْ عَذَابٍ أليم﴾ أي قل لهم أيها النبي: أخبروني إن أماتني اللَّه ومن معي من المؤمنين كما تتمنون أو رحمنا فأخَّر آجالنا وعافانا من عذابه **﴿فَمَنْ يُجيرُ الكافرينَ مِنْ عَذَابٍ أليم﴾** فمن يحمي الكافرين من عذاب أليم استحقوه بكفرهم. فسواء عذبنا اللَّه أو رحمنا فلا مناص لكم من عذابه الأليم يوم القيامة.

كما يأمر اللَّه الرسول ﷺ بأن يقول للكافرين:

﴿قُلْ: هُوَ الرَّحمٰنُ آمَنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾.

أي قل لهم يا محمد: إن الله الذي عمت رحمته كل شيء صدّقنا به وحده، وفوضنا إليه أمورنا، فستعلمون أيها الكفار إذا نزل العذاب بكم أي الفريقين في ضلال ظاهر واضح.

وأخيراً يختم اللَّه هذه السورة بهذه الآية التي تخاطب الكافرين وتبين فضل اللَّه عليهم، فهذا الماء الذي هو مصدر الحياة على هذه الأرض إنه يجري تحت مواقع أبصارهم وعلى مقربة من متناول أيديهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَصْبَحَ مَاؤكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

أي قل لهم أيها الرسول: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائراً في الأرض فلا سبيل لكم للوصول إليه، فمن غير الله يأتيكم بماء جارٍ ظاهر يصل إليه كل من أراده.

فما أعظم نعمة الله على الناس، وما أقبح كفرهم وجحودهم بخالقهم.

سُورَةُ القَلَمِ

مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ
﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ
﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ

شرح المفردات

والقلم : الواو للقسم ، والقلم أداة الكتابة .

يسطرون : يكتبون .

بنِعْمَةِ ربك : ما أنعم الله عليك من النبوة .

لأجْراً غير ممنون : ثواباً غير مقطوع ولا منقوص ، أو غير ممنون به عليك .

لعلى خُلُقٍ عظيم : لعلى أدب عظيم ، والخلق ما يُلزم به الإنسان نفسه من الآداب .

المفتون : المجنون .

وَدُّوا لو تدهن فيدهنون : تمنّوا لو تلين في دينك فيلينون لك .

حَلَّاف : كثير الحلف بالباطل .

مَهين : حقير الرأي ، وقليل النظر .

هَمَّازٍ : عيّاب يذكر عيوب الناس ويغتابهم .

مشّاءٍ بنميم : يمشي بين الناس بالنميمة وهي نقل الحديث من قوم إلى قوم للإفساد بينهم .

لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ
وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ
إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا
طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟

شرح المفردات

منّاع للخير : بخيل المال والخير .

مُعْتَدٍ : ظلوم يتعدى الحق .

أثيم : كثير الخطايا والذنوب .

عُتُلٍّ : فظ جافي الطبع .

زنيم : المجهول الأب ، وقيل الشرير اللئيم .

آياتنا : آيات القرآن الكريم .

أساطير الأولين : أكاذيب الأولين وأقاصيصهم .

سنسِمُه : سنجعل له سمة أي علامة .

الخرطوم : الأنف .

بلوناهم : امتحناهم واختبرناهم .

الجنّة : كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض .

ليصرِمُنها : يقطعون ثمارها .

مصبحين : وقت الصباح .

ولا يستثنون : لا يتركون شيئاً للفقراء .

طاف عليها طائف من ربك : أحاط بها وأصابها عذاب من ربك .

كالصريم : كالليل المظلم ، أي صارت الجنة سوداء لاحتراقها .

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟
وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن

شرح المفردات

تنادوا مصبحين : نادى بعضهم بعضاً في الصباح .

اغدوا : اذهبوا باكراً .

حرثكم : زرعكم .

صارمين : قاصدين قطف ثماره .

يتخافتون : يتحدثون بصوت منخفض .

وغدوْا : بكّروا بالذهاب .

على حَرْدٍ : على قصد وبخل مع حدّة الغضب .

لضالون : لتائهون ، أي لم نهتد إلى البستان .

أوسطهم : أرفعهم وأفضلهم رأياً .

لولا تُسبّحون : هلّا تستغفرون الله من فعلكم وخبث نيتكم .

سبحان ربنا : ننزهك يا رب ونبرئك من الظلم .

يتلاومون : يلوم بعضهم بعضاً .

يا ويلنا : دعاء بالهلاك ولكنها هنا يقصد بها إظهار الندم والحسرة .

طاغين : عاصين ومتجاوزين الحد في الظلم .

عسى ربنا : نرجو ربنا .

يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ
وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

سُورَةُ الْقَلَم

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تتضمن الدفاع عن رسول اللّه والثناء عليه وتقوية عزيمته في تبليغ رسالة اللّه، كما تحذر أهل مكة من عاقبة الطغيان معطية المثل بما جرى لأصحاب البستان من احتراق بستانهم جزاء حرمانهم حق الفقـراء من ثمره.

افتتح اللّه هذه السورة بحرف (ن) الذي هو أحد الحروف الأبجدية، كمـا افتتح اللّه بعض السـور بغيره من الحـروف. وقد قيـل في تفسير هـذه الحروف في أوائل السور أقوال كثيرة نذكـر أحدهـا وهو: أنـه سبحانـه ذكر الحـروف في القرآن لتنبيـه الكفـار إلى أن القـرآن أُلفت كلمـاتـه من جنس ما تؤلف منه كلماتهم فهو قرآن عربي، فلم ينزل القرآن بكلمات غريبة عنهم ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فعجزهم هذا دليل على أن القرآن ليس من صنع البشر بل هو من عند اللّه، إذن فلماذا لا يؤمنون به؟!

ثم يقسم اللّه في هـذه الســورة بـالقـلم والكتـابـة: ﴿**وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ والقسم بالشيء يدل على شرف المقسم به وعلو منزلته وتعدّد منافعه.

فاللّه سبحانه أقسم بالقلم لما فيه من الفـوائد والنعم على الإنسـان، فبواسطة القلم دُونت الشرائع والعلوم والمعارف، وقد أقسم اللّه بهذه الأشياء المدونة أيضاً بعد القسم بالقلم، فقال سبحانه: ﴿وَمَـا يَسْطُرُونَ﴾ أي أقسم

بما يكتبون، هذه الكتابة تعدّدت وسائطها فكان منهـا القلم والآلة الكـاتبة، وآلات الطباعة، ولا ريب أن هذه الحضـارة وما بلغتـه من رقي إنما هـو من نتائج الطباعة وتطورها التي نقلت نتـاج الفكر والثقافة والعلم على صفحات الصحف والمجلات والكتب إلى مئات الملايين من البشر. فمنذ أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ كان العرب في أمية عمياء ـ باستثنـاء القليل ـ ولم تكن المدارس والجامعات معروفة فيما بينهم، وكان النبي محمد ﷺ ـ لحكمة يريدها اللّه ـ أميّاً لا يعرف القراءة والكتابة. هذا ولم يتوصل العَالَم في ذلك العصر إلى اختراع آلات الـطباعـة والورق. فـالقسم بما (يسـطرون) الذي استبانت عظمته وأهميته في هذا العصر لهو نبوءة علمية للقرآن تضـاف إلى نبوآته الكثيرة في كل ميدان.

ولا ريب أن القسم بـالقلم والكتابـة إيحاء للمؤمنين ليهتمـوا بالقـراءة والكتابة التي هي أساس العلم والتعلم.

وبعد ذلك يخاطب اللّه رسوله محمداً نافياً عنه تهمة الجنون التي رماه المشركون بها: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فهنا يثبت اللَّه نعمتـه على نبيه في تعبير يُوحي بالقـربى والمودة حين يضيفـه سبحانـه إلى ذاته بقـوله: (ربك) كما ينفي سبحـانه تلك الصفـة المفتراة عليـه وهي: الجنون، التي لا تجتمع مع نعمة اللّه عليه بالنبوة وغيرها. ونعمة اللّه على نبيه كانت ظاهرة فيه من نواحٍ شتى: من العقل الكامـل، والسيرة العـطرة، والبراءة من كـل عيب، والاتصاف بكل مكرمة.

ولعل تهمة الجنون كانت تؤلم نفس النبي ﷺ وتؤذي شعـوره، فتأتي الآية التاليـة تواسيـه: ﴿وإِنَّ لَكَ لأَجْـراً غَيْرَ مَمْنُـونٍ﴾، فالنبـوة التي يزعم الكافرون بأنها جنون يجب أن لا تثني عزيمتك عن إرشاد قومك فـإن ثواب

قيامك بالهداية هو ثواب دائم غير مقطوع وغير ممنون به عليك.

ثم تجيء هذه الشهادة من اللّه بخلقه العظيم وهي ثناء ما بعده ثناء لهذا الخلق العظيم الذي اعترف به أعداؤه، كما أن في شهادة اللّه له بذلك رداً مفحماً على من اتهمه بالجنون، فالمجنون لا يتصف بالخلق العظيم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾ أي إنك على أدب عظيم وهو أدب القرآن، ولقد تخلّق النبي ﷺ بأدب القرآن، وقالت عنه زوجته عائشة: «وكان خلق رسول اللّه القرآن» وإن مبادىء الأخلاق في القرآن في القمة من السمو كما شهد بذلك بعض علماء الغرب[١].

وبعد هذا الثناء من اللّه لنبيه يَرُدُّ سبحانه على كفار مكة الذين وصفوا نبيه بالجنون والضلال مطمئناً له ومهدداً لهم:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ المفْتُونُ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ﴾.

أي سترى أيّها النبي وسيرى أولئك الكفار عند انتصارك عليهم ﴿بأَيِّكُم الْمَفْتُون﴾ أي بأيكم الجنون أأنت أم هم، إن ربك هو أعلم بالذين حادوا عن طريق الهداية والخير وهو أعلم بالمهتدين الذين اهتدوا بدين اللّه.

ثم ينهى اللّه نبيه عن إطاعة المكذبين ويصف تمنياتهم الضالة:

﴿فَلَا تُطِعِ المكذِّبينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

والمداهنة: هي الملاينة والمصانعة والمداراة، أي ودّ هؤلاء

---

(١) يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: «إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها».

المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون لآلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلَهك، وهذا يدل على ضعف عقيدتهم، فلو كانوا أصحاب عقيدة واقتناع بها لما ساوموا عليها.

ثم ينهى اللَّه نبيه ﷺ عن طاعتهم واصفاً بعضهم بخصال في غاية القبح والسوء:

﴿ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلك زَنِيمٍ﴾.

فاللَّه سبحانه في هذه الآيات يذكر تسع خصال تستوجب غضبه:

١) حلّاف: أي كثير الحلف، ولا يكثر الحلف إلّا إنسان غير صادق يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به.

٢) مهين: حقير الرأي والتدبير، أو كذاب.

٣) همّاز: الذي يعيب الناس ويطعن فيهم ويغتابهم.

٤) مشاء بنميم: الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم فينقل الكلام الذي يسوء من قوم إلى قوم فتشتعل العداوة فيما بينهم، وقد بيّن النبيّ ﷺ إثم النمام بقوله: «لا يدخل الجنة قتّات»[1] أي نمام.

٥) مناع للخير: أي يحول بين الناس وبين ما يريدونه من فعل الخير، والخير يأتي بمعنى المال أي يمنع ماله عن المحتاجين.

٦) معتد: يتعدى حدود العدل والإنصاف في معاملة الناس فيظلمهم.

٧) أثيم: كثير الإثم، والإثم هو الذنب.

---

(١) رواه الجماعة إلّا ابن ماجة.

٨) عُتُلٍّ: الفظ الجافي الشديد في كفره، أو الفاحش السيء الخلق.

٩) زنيم: الرجل الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه، أو هو الملصق بالقوم وليس منهم لأنه غير معروف الأب[1].

ثم يضيف اللّه إلى هذه الصفات صفة التكذيب بآيات القرآن:

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إذا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنَا قَالَ: أَسَاطِيرُ الأَوّلِينَ﴾.

فهذا الجاحد المغرور بأمواله وأولاده يصف آيات القرآن بأنها أساطير الأولين، أي الخرافات التي يتداولها الناس عن الأمم السابقة ولا مكان لها بين الحقائق. وقد اختلف المفسرون في الشخص المقصود بهذه الآية والأكثرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي. هذا الجاحد يهدده اللّه بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ﴾ وأصل الوسم الكي والمراد الأثر الذي يتركه. والخرطوم هو الأنف، والمراد بوسمه في أنفه: إذلاله وإهانته، فالأنف عند العرب مكان العزة والحمية لذلك اشتقوا منه كلمة الأنفة، وقالوا في الذليل: جُدِعَ أَنفه. وقد تحقق وعد اللّه وأصيب الوليد بن المغيرة بالسيف في أنفه يوم معركة بدر وكانت تلك علامة عُيِّر بها ما عاش.

وبعد الآية التي ورد فيها ذكر المال والبنين وبطر أصحابها جاءت الآيات تروي قصة أصحاب البستان الذين بطروا واغتروا بأموالهم ومنعوا إحسانهم عن الفقراء فعاقبهم اللّه بإحراق بستانهم، ولقد ذكر القرآن هذه القصة للاتعاظ والبعد عن البطر في المال لأنه يؤدي إلى الخسران، وقبل أن نستعرض آيات القرآن نذكر ملخصاً لهذه القصة:

كان لرجل صالح جنَّة (أي بستان) تحوي من الثمار الشيء الكثير،

---

(١) ومنه قول حسان بن ثابت: زنيم ليس يُعرف من أبوه   بغيُّ الأم ذو حسب لئيم.

وكان يدعو المساكين يوم جمع الثمار ويعطيهم حقهم من زكاة ثمارها، فلما مات ذلك الوالد الصالح ورثه أبناؤه، فلم يسيروا على سيرة أبيهم فأرادوا أن يحرموا الفقـراء ما اعتـاده أبوهم من الإِحسـان إليهم، فتداولـوا في أمرهم، وأقسمـوا أن يجمعوا ثمـار البستان سـرّاً في الصباح البـاكر على غيـر العادة المتبعة كي لا يأتي المساكين ويأخـذوا حصتهم المعتادة من ثمـار البستان، وفي الليل سلّط اللَّه جائحة سماوية على البستان فأتت على جميع ثماره.

يقول تعالى في قصة هذا البستان:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُم كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَـا مُصْبِحِينَ ولا يَسْتَثْنُونَ﴾.

أي لقد اختبرنا مشركي قريش المكذبين برسالة النبي ﷺ وامتحناهم، كما اختبرنا من قبل أصحاب البستان. واختبار اللَّه للبشر قد يكون بـإِغداق النعم عليهم فيبطرون وينسون خـالقهم، أو يشكرونه. وقد يكون الاختبار بإِنزال المصائب بهم فيجزعون ويكفرون، أو يصبرون ويلجأون إلى ربهم. ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ﴾ أي حلفوا أن يقطفوا ثمر بستانهم وقت الصباح ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي ولا يستثنون حصة المسـاكين فيتركونها لهم، وقيل المراد بهذا الاستثناء أنهم لم يقولوا (إن شاء اللَّه) على حد قوله تعالى: ﴿ولا تُقولَنَّ لِشَيءٍ إني فَاعِلٌ ذَلِك غَداً إلاَّ أنْ يَشاءَ اللَّه﴾.

ثم يبين اللَّه ما جرى لجنتهم (أي بستانهم):

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمون. فَأَصْبَحَتْ كالصَّريم﴾.

أي أحاط بها وطرقها ليلاً بلاء أو أمر من اللَّه وهم نائمون، ولا يكون الطائف إلاّ ليلاً، قد يكون ذلك الطائف صاعقة أحرقت بستانهم أو غير ذلك

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي أصبح بستانهم كالأرض المحصودة أو أصبح كالليل المظلم لأن من معنى الصريم الليل الشديد السواد، فالاحتراق جعله مسوداً كسواد الليل.

ثم يصف القرآن أصحاب البستان وهم يتهيأون للذهاب إلى بستانهم:

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِين. أنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُم صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أن لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾.

أي نادى بعضهم بعضاً في الصباح ﴿أنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى زرعكم ﴿إن كُنْتُم صَارِمينَ﴾ إن كنتم مصرين على قطف الثمار ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُون﴾ فانطلقوا نحو البستان وهم يتحدثون بصوت خافت كي لا يشعر بهم المساكين، قائلين: ﴿أن لا يَدْخُلَنَّها اليوم عَلَيْكُم مِسكِينٌ﴾ أي لا تُدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرينَ﴾ وساروا صباحاً وهم مجمعون على أمر قد قصدوه واعتمدوه وهم يظنون في أنفسهم أنهم على ذلك قادرون.

وبعد ذلك يصف القرآن المفاجأة التي أذهلتهم من احتراق بستانهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

أي فلما وصل هؤلاء القوم إلى بستانهم، ورأوا زرعه محترقاً أنكروه وتساءلوا: هل هو بستانهم أم لا، وقالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي ضلوا طريقهم إلى بستانهم، فقال من علم أنه بستانهم وأنهم لم يخطئوا الطريق: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرومُونَ﴾ أي حرمنا منفعة بستاننا باحتراق زرعه. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾

قال أعدلهم قولاً وخيرهم فعلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ لقد ذّكرهم بما قال لهم سابقاً: هلاّ تذكرون اللّه تعالى وانتقامه من المجرمين وتتوبون إليه من خبث نيتكم في حرمان الفقراء من ثمر البستان ﴿قالُوا: سُبْحَانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ننزه اللّه ربنا عن الظلم، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا حين عزمنا على حرمان الفقراء من ثمر البستان.

ثم شرع بعضهم يلوم بعضاً معترفين بذنبهم:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ. قَالُوا: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾.

أي واجه أصحاب البستان بعضهم بعضاً باللوم قائلين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهي في الأصل دعاء بالهلاك ولكن يقصد بها هنا إظهار الندم والحسرة ﴿إِنَّا كنَّا طَاغِين﴾ أي كنا متجاوزين الحد في العصيان والبغي بمنع الفقراء حقهم في الثمر.

وتنتهي هذه القصة بالتمني على اللّه أن يرزقهم خيراً من جنتهم (أي بستانهم) فهم راغبون في فضل اللّه ورحمته، راجون العفو منه:

﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

ويعقّب اللّه على هذه القصة بالعبرة المستقاة منها:

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانوا يَعْلَمُونَ﴾.

أي هكذا يكون عذاب اللّه لمن خالف أمره ومنع حق المسكين والفقير في ماله، وبدّل نعمة اللّه كفراً، وعقوبة الآخرة المعدّة لكل من طغى أشد وأعظم من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون عاقبة طغيانهم لما فعلوا ما يفضي إلى هذا العذاب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا
تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ
لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ
فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ
وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن

شـرح المفـردات

تحكمون : تقضون .

كتاب : كتاب منزل من عند الله .

تدرسون : تقرأون ما فيه .

تخيّرون : تختارون وتشتهون .

أيْمان : عهود ومواثيق .

بالغة : مؤكدة .

زعيم : كفيل ، ضمين .

يُكشف عن ساق : كناية عن شدة الهول يوم القيامة .

ترهقهم : تغشاهم .

سالمون : معافون أصحاء .

ذرْني : دعني وإياه فأنا أكفيك أمره .

يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ
إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن
كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟
ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

شَـرح المفـردَات

بهذا الحديث : أي القرآن الكريم .

سنستدرجهم : سنقربهم من العذاب درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه .

أُملي لهم : أمهلهم ليزدادوا إثماً .

كيدي : عذابي .

متين : قوي شديد .

مغرم : غرامة يؤدونها .

مثقلون : قد أثقلهم القيام بأدائه .

الغيب : ما اختص الله بعلمه .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام .

مكظوم : مملوء غمًّا وكرباً .

نعمة : رحمة .

نُبِذَ : طُرِحَ .

العراء : الأرض الخالية من الشجر .

اجتباه : اختاره نبياً .

ليُزلقونك بأبصارهم : يصرفونك بأبصارهم المشحونة بالعداوة عن تبليغ الرسالة .

تَابع سُورَة القَـلَم

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أعده اللَّه للمتقين من أجر في الآخرة:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِم جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

سمع أشراف قريش وأغنياؤهم هذه الآية وكانوا على كفرهم ومناوأتهم للنبي ﷺ فقالوا للمؤمنين وأكثرهم من الفقراء: إن اللَّه فضلنا عليكم في الدنيا فإن صح أن هناك حياة آخرة فلا بد أن يفضلنا اللَّه عليكم أيضاً، فرد اللَّه عليهم ﴿أَفَنَجْعَلُ المسْلِمِينَ كالمجرمينَ﴾ أي أن الفرق شاسع بين الفريقين فكيف يكون الفريقان سواء في نظركم؟ ثم تابع القرآن قوله: ﴿مَالَكُم كَيْفَ تحكمُونَ﴾ أي على أي أساس بنيتم هذا الحكم الغريب بجعل المسلمين والمجرمين في مرتبة واحدة؟!

ثم طلب القرآن منهم الدليل الذي بنوا عليه حكمهم هذا فقال:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ. إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

أي هل نزل عليكم كتاب من عند اللَّه فقرأتم فيه هذا الإدعاء، أو أن لكم في هذا الكتاب ما تختارون وتشتهون فيأتي موافقاً لهواكم.

ويتابع القرآن تفنيد مزاعمهم:

﴿أَمْ لَكُمْ أيْمان عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تحْكُمُونَ﴾.

أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة ثابتة لكم من اللَّه إلى يوم القيامة، وفي تلك العهود ما تحكمون فيه لأنفسكم من الخير والكرامة عند اللَّه.

ثم يأمر اللَّه نبيه بأن يقول لهؤلاء: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي إسألهم من هو ذلك الكفيل الذي ضمن لهم في الآخرة ما للمسلمين.

ويتابع اللّه قوله:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُركائِهِم إِنْ كَانوا صَادِقِين﴾.

والمراد بهؤلاء الشركاء: الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها شركاء للّه، أو المراد أناس كافرون مثلهم يشاركونهم في رأيهم القائل بالمساواة بين المسلمين والكافرين ويكفلون لهم الكرامة عند اللّه. فإن كان الكفار يعتمدون على هؤلاء الشركاء فليأتوا بهم، وهذا تحدٍّ لهم فليس هناك شركاء يكفلون لهم الكرامة عند اللّه.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد من المصير الأخروي الذي سينتهون إليه:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السّجودِ فَلَا يستطيعونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.

والكشف عن الساق تعبير أريد به في كلام العرب اشتداد الهول وعِظَمِ الخطب، والمراد بذلك يوم القيامة حيث يكشف فيه عن أمر عظيم في غاية الهول والشدة، وحيث يُدعى الكفار إلى السجود للّه لا تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً لهم على تركهم السجود له في الدنيا، وتركهم الصلاة التي من أركانها السجود، ولكنهم لا يستطيعون السجود لتيبس مفاصلهم وفقرات عظامهم التي لا تلين للسجود، فحينئذٍ تزداد حسرتهم وتنكسر أبصارهم، وتغشاهم ذلة شديدة، وقد كان هؤلاء يُدعون إلى السجود للّه في الدنيا وهم سالمون من كل العلل فيأبون للّه السجود.

وبعد هذا المشهد الذليل للكفار يوم القيامة تتوجه الآيات بالتهديد لهم:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّب بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي متينٌ﴾.

فاللّه تعالى يخاطب نبيه ﷺ : كِلْ أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إلَيَّ فإني أكفيك أمرهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي سندنيهم من العذاب درجة درجة من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم للعذاب ﴿وَأُمْلي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأؤخر عقابهم ليزدادوا إثماً ومن ثَمَّ عذاباً.

فكلا التعبيرين (سنستدرجهم، وأملي لهم) هو تمثيل لتأخير انتقام اللّه من أولئك المكذبين وتركهم يتمتعون بالصحة والعافية، فيجعلون نعمة اللّه ذريعة إلى ازدياد الكفر والمعاصي، وهم لا يشعرون أن في الإنعام عليهم استدراجاً لهم للعذاب، بل يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، بينما هو سبب لهلاكهم، وهذه سنة اللّه فهو لا ينتقم فوراً من الظالمين بل يعطيهم الفرصة لعلهم يثوبون إلى رشدهم فإذا تمادوا في غيهم أخذهم بالعذاب: ﴿إنّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن عذابي شديد، والكيد هو الاحتيال في إلحاق الضرر بالغير، وإذا أسند الكيد إلى اللّه كان المراد منه إفساد كيد الكفار أعداء اللّه ومجازاتهم على كيدهم، والكيد أيضاً يأتي بمعنى الحرب، فيكون المعنى: إن حرب اللّه عليهم شديدة.

وهكذا كان شأن مشركي العرب، فإنهم ما زالوا في غيهم حتى نزل بهم البلاء في معركة بدر وسائر الغزوات فقتل كثير منهم وتشتت شملهم.

ثم تأتي آيات القرآن مستغربة تصرفات المشركين وكأنها امتداد للحوار السابق:

﴿أم تَسْأَلُهم أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ. أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يكتبونَ﴾.

أي: هل رفضهم قبول الحق سببه أنك تطلب منهم أجراً ومكافأة على

تبليغ رسالة اللَّه، وهذا الأجر تنوء به قدراتهم المالية فلذلـك رفضوا، وأنت أيها النبي لم تطلب منهم أجراً على ذلك. أم هل عندهم اطلاع على الغيب وما أثبت في اللوح المحفوظ فهم يكتبـون ما يحكمـون به ويجعلونـه حجة لهم؟

وإلى هنا ينتهي الكلام مع أولئك المكذبين بما يفحمهم، فلم يبق إلاَّ تثبيت قلب النبي ودعوته إلى الصبر في مجال الدعوة إلى اللَّه وعدم تركه قومه واعتزالهم كما فعـل النبي يونس، فـابتلاه اللَّه بصعـاب وأهوال لم تكن في الحسبان، وهكذا سيكون حاله إذا فعل فعله واعتزل قومـه بدون إذن ربـه. يقول تعالى:

﴿فَـاصْبِـرْ لِحُكْمِ رَبِّـكَ وَلَا تَكُنْ كَصَـاحِبِ الحُـوتِ إِذْ نَـادَى وَهُـوَ مكظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فاجْتَبَاهُ رَبُّه فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي اصبر يا محمد لقضاء ربـك وحكمه فيـك وفي هؤلاء المشركين، وامضِ لما أمرك بـه، لا يثنيك عن تبليـغ ما أمـرت بتبليغه أنهم مكـذّبوك، ولا يكن حالك ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهـو يونس عليـه السلام، أي لا تكن مثله في العجلة والغضب، فيعاقبك ربك على تركك دعوة قومك، كما عاقبه فحبسه في بطن الحوت ﴿إِذْ نَادَى﴾ إذ نادى يونس ربه وهو في بطن الحوت بأن ينجيه، مقراً بذنبه، وهو ﴿مَكْظُومٌ﴾ مملوء غماً. ﴿لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي لولا أن تداركته نعمـة من ربه فـرحمه بهـا وتاب عليـه ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لطرح بـأرض قفراء خـالية من الأشجـار وهو مـلام ومعاتب بالذنب الذي اقتـرفه من قلة صبـره على قومـه وفراره منهم، ولكن بسبب توبته لم يبق مذموماً ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فاصطفاه ربه

واختاره لنبوته، وجعله من الكاملين في الصلاح وعصمه من كل سوء.

هذه إشارة إلى قصة يونس بن متى عليه السلام، وقد ذكر القرآن بعض وقائعها في عدة سور للعبرة والعظة، ويحسن بنا أن نذكر ملخصاً لها مسترشدين في ذلك بما ورد في القرآن الكريم.

قصة يونس عليه السلام:

يونس عليه السلام أحد أنبياء اللَّه، أرسله سبحانه إلى أهل نينوى قرب الموصل في العراق، وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام ويرتكبون المعاصي فدعاهم يونس إلى الإيمان باللَّه والتوبة عن سيئاتهم، ولكنهم أصرّوا على ما هم عليه ولم يستجيبوا لدعوته، فأنذرهم يونس بنزول العذاب عليهم بعد مدة من الزمن؛ وظن يونس أنه قد أدى الرسالة، وقام بالمهمة التي أمره اللَّه بها، وخرج من مدينتهم مغاضباً لهم بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر، وكان تركه للمدينة بدون إذن ربه اعتقاداً منه أن اللَّه لن يؤاخذه على ما فعل، وظل سائراً حتى أتى إلى ساحل البحر فوجد سفينة على أهبة السفر فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم ففعلوا.

أقلعت السفينة بهم وسارت في عرض البحر، ولكن سرعان ما اشتدت الرياح العاصفة، وجعلت أمواج البحر تضطرب بشدة وتهدد السفينة بالغرق، ففزع الملاحون والركاب وقالوا: إن بيننا صاحب ذنب، فتشاوروا فيما بينهم واستقر قرارهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة، فوقعت القرعة على نبي اللَّه يونس فألقي في البحر[1] فبعث اللَّه حوتاً عظيماً فالتقمه.

---

(١) لم يشر القرآن إلى البلد الذي أرسل إليه يونس ولا إلى ركوبه في السفينة وإلقائه منها بواسطة القرعة بل ورد في ذلك في كتب أهل الكتاب.

أراد اللَّه أن لا يصاب يونس بأذى، فظل يونس في جوف الحوت عدة أيام وهو عاكف على تسبيح ربه متضرّعاً إليه معترفاً له بالربوبية وبأنه كان ظالماً فيما صدر عنه، ونادى في الظلمات: ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت مستغيثاً بربه فقال: ﴿لا إلٰه إلّا أنت سُبْحَانك إني كُنْتُ مِنَ الظالمين﴾ فلبى اللَّه دعاءه وقبل توبته وألهم الحوت أن يطرح يونس في أرض قفراء.

خرج يونس من بطن الحوت وهو سقيم فأنبت اللَّه بقربه شجرة يقطين وارفة الظلال فاتقى بها من حرارة الشمس، وظل على تلك الحالة فترة من الزمن حتى استرد عافيته، فأمره اللَّه أن يعود إلى قومه الذين فارقهم، وكانوا بعد فراقه إياهم قد أيقنوا أن العذاب سينزل بهم من بعد أن ظهرت مقدماته فقذف اللَّه في قلوبهم التوبة فتضرعوا إليه فكشف اللَّه برحمته ورأفته العذاب عنهم فتوجه يونس إليهم وكانوا مئة ألف أو يزيدون على ذلك فدعاهم إلى الإيمان وأدى الرسالة التي أمره اللَّه بها فصاروا من المهتدين ومتعهم اللَّه بالسعادة والهناء مدة حياتهم.

وننتقل إلى ختام السورة حيث يقول سبحانه مخاطباً نبيه محمداً:

﴿وإن يَكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقُونَكَ[١] بأبصَارهم لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويقولونَ: إنَّه لمجنون. وَمَا هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ للعَالمينَ﴾.

---

(١) ورد في أسباب نزول هذه الآية حين أراد الكفار أن يصيبوا النبي بالعين فنظر إليه قوم من قريش فقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه، وكانت العين وأخطارها في بني أسد حتى أن الناقة السمينة تمر بأحدهم فيصيبها بالعين ثم يقول: يا جارية خذي المكتل (الوعاء) فأتينا من لحم هذه فما تبرح حتى تقع مريضة فتنحر. والعين إصابتها وتأثيرها حق بأمر اللَّه كما جاء في الحديث الشريف.

والمعنى: وإن يكاد الكافرون من شدة تحديقهم ونظرهم إليك ـ أيها النبي ـ بعيون العداوة والبغضاء أن يصرعوك أو يزيلوك عن مقامك الذي جعله اللَّه لك بصرفك عن تبليغ رسالة اللَّه ﴿لَمَّا سمعوا الذِّكر﴾ عندما يسمعون القرآن يتلى عليهم ويقولون في وصف النبي ﴿إنه لمجنون﴾ حيرة في أمر النبي وتنفيراً منه، وهم يعلمون أنه أعقلهم.

ولكن اللَّه يرد عليهم بأن القرآن هو موعظة للناس جميعاً ﴿وما هو إلّا ذكر للعالمين﴾[(١)] فهذه الآية من أعظم الدلائل على أن القرآن وحي إلٓهي لا من تأليف محمد كما يدعي أعداؤه، وإلّا فمن أين لإنسان لا قوة له ولا سلطان، يلتف حوله أفراد قلائل من المؤمنين يُقاسون الأذى من قومهم بسبب إيمانهم ثم يعلن على قومه بأن القرآن موعظة للناس جميعاً أي أنه ليس خاصاً بالعرب، وفحوى ذلك أن الإسلام سيعم الأرض ويهتدي به الكثيرون، إن هذه النبوءة لا يقول بها إنسان أبداً ما لم يكن وحياً إلٓهياً. وقد تحققت هذه النبوءة للقرآن بعد موت النبي ﷺ بسنين عدة، واستمر المد الإسلامي حتى اليوم، فعمّ الإسلام مدن الشرق والغرب واعتنقه مئات الملايين من البشر الذين يتدارسون القرآن ويستفيدون مما فيه من هدى ومواعظ.

---

(١) هذه الآية من أوائل ما نزل من القرآن حيث كان الإسلام مستضعفاً تهدده الأخطار من كل جانب.

سُورَةُ الحَاقَّة

مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ
بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟
بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا
فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم

شرح المفردات

الحاقّة : من أسماء القيامة .

القارعة : القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها .

ثمود : من قبائل العرب البائدة .

عاد : من قبائل العرب البائدة .

الطاغية : الصيحة المجاوزة للحد في الشدة .

ريح صَرْصَرٍ : ريح شديدة الصوت أو شديدة البرد .

عاتية : بالغة الغاية في الشدة .

سخّرها عليهم : سلطها عليهم .

حُسُوماً : متتابعة لم يتخللها انقطاع .

صرعى : هلكى ، مطروحين أرضاً .

أعْجَاز نخل : أصول نخل والمراد جذوعها .

خاوية : فارغة الجوف ، ساقطة على الأرض .

مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾
فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ
حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾
فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ

شرح المفردات

من باقية : من نفس باقية على قيد الحياة .

المؤتفكات : قرى قوم لوط .

بالخاطئة : الأفعال ذات الخطأ الجسيم .

فأخذهم الله : أنزل الله بهم العذاب .

أَخْذَةً رابية : عذاب زائد في الشدة ، ورابية من الربا وهو الزيادة .

طغى الماء : زاد وتجاوز حده ارتفاعاً وهو الطوفان .

الجارية : سفينة نوح عليه السلام .

تذكرة : عبرة وعظة .

تَعِيهَا : تحفظها وتفهمها .

أُذُن واعية : حافظة لما تسمع فتنفع صاحبها بما تسمع .

نُفِخَ في الصُّور : أعلم الناس بحلول يوم القيامة ، والصور هو البوق .

وَحُمِلَت الأرض والجبال : رفعت من أماكنها .

فدكّتا : فدقتا وهدّمتا .

وقعت الواقعة : قامت القيامة .

انشقت السماء : تصدعت واختل نظام أجرامها .

فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ
فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾
فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي
ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات

واهية : ضعيفة متداعية .

المَلَكُ : الملائكة .

أرجائها : جوانبها .

تُعرضون : تقفون بين يدي الله للحساب .

خافية : فعلة خافية تحاولون سترها .

أُوتي كتابه : أُعطي صحيفته التي سجلت فيها أعماله .

هاؤم : خذوا .

ظننت : علمت وأيقنت .

مُلاقٍ حسابيه : ملاق جزاء عملي يوم القيامة .

عيشة راضية : عيشة ترضي صاحبها بما نال من الثواب .

قطوفها دانية : ثمارها قريبة التناول يقطفها القاعد والقائم .

بما أسلفتم : بما قدمتم سابقاً من العمل الصالح .

في الأيام الخالية : في أيام الدنيا .

سُورَةُ الحَاقَّة

ايضــاح و دروس

هذه السورة تذكر مـا أصاب الأمم السـابقة من هـلاك جزاء تكـذيبهم رسل اللّه، كما تعرض لأهوال يوم القيامـة وما يكـون بعد ذلـك من حساب الناس على أعمالهم ومجازاتهم، ففريق في الجنة، وفريق في النار.

تفتتح هذه السورة بثلاث آيات قصار متوالية، شديدة الـوقع، جـديدة في التعبير، تطول آياتها بالتدريج شيئاً فشيئاً:

﴿الحَآقَّةُ . مَا الحَآقَّةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾.

والحاقة من أسماء القيامة، وهي من حق الشـيء إذا ثبـت ولم يشك في وقوعه، وسميت بذلك لأنهـا متحققة الـوقوع، وفيهـا يحق الجزاء على الأعمال. و ﴿الحَآقَّة﴾ تعبير جديد ليوم القيامة تُذكر فيها القاف المشددة التي تقـرع السمع قـرعاً، والمسبـوقة بـالمد الـطويل المبـرز لشدتهـا، ثم يقول سبحانه: ﴿ما الحَآقَّة؟﴾ استفهام يُقصد به تهويل شأنها بمعنى أي شيء هي الحاقة؟ ذلك الأمر العظيم. ثم يتبع ذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَآقَّة؟﴾ أي أنك لا تعلم حقيقتها فهي من عظم الشأن ومـا اشتملت عليه من الأحـداث بحيث لا تبلغها دراية أحد.

مقدمة مثيرة يعرضها القرآن ليهيىء الأسماع إلى ما سيذكر بعـدها من قصص الأمم الماضية معروضة عرضاً موجزاً غايته إثارة الذهن للتفكر في مصير الجماعات الذين لم يصدقوا بيوم القيامة وكذبوا أنبياءهم:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالـطَّاغِيَةِ . وَأَمَّـا عَادٌ فأُهْلِكُوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

فثمود وعاد ليس خبرهم عن العرب مجهولاً، فهم من القبائل العربية السابقة التي هلكت ولم يبق منهم أحد، فقبيلة ثمود كانت تسكن (الحجر) من بلاد الحجاز في وادي القرى، وقد أرسل اللّٰه إليهم نبيه (صالح) عليه السلام. أما قبيلة عاد فكانت تسكن الأحقاف بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر، وقد أرسل اللّٰه إليهم نبيه (هود) عليه السلام.

فثمود وعاد كذَّبوا ﴿بِالقَارعة﴾ والقارعة أيضاً من أسماء القيامة، وقد سميت بذلك لأنها تقرع القلوب والنفوس بالهول والفزع. فإنكارهم للقيامة وتكذيبهم بحياة آخرة يحاسبون فيها على أعمالهم أدى بهم إلى الطغيان والفساد، فاستحقوا غضب اللّٰه عليهم وعقابه إياهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطاغِيَةِ﴾ أي أُهلكوا بسبب طغيانهم، والطاغية من الطغيان وهو الإفراط ومجاوزة الحد في الكفر والمعاصي. وقيل: الطاغية هي الصاعقة، وسميت الطاغية لأنها تجاوزت حدود الوصف في التدمير والإهلاك(١).

وأما مصير قبيلة عاد فبيّنه اللّٰه سبحانه بقوله: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ والريح الصرصر هي الريح الشديدة الهبوب والبرودة، واختيار لفظ (صرصر) تعبير بليغ يصور صوت الريح، وما تحدثه من صوت

---

(١) وهذا ما ذكرته سورة الذاريات ﴿فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ وهم يَنْظُرون﴾ والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين سالبة وموجبة، فإذا دنت سحابة ذات كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل بالكهربائية السالبة في الأرض، ويكون الاستفراغ والاتحاد في جسم ما على الأرض، فيحترق إذا كان شجراً أو إنساناً، ويتهدم إن كان بناءً، ومبلغ ما تدمره الصاعقة منوط بمقدار كمية الكهربائيتين. وقد عبر القرآن في موضع آخر عن الصاعقة التي أهلكت ثمود بالصيحة قال تعالى: ﴿فَأَخَذَ الذين ظَلَموا الصَّيْحَةَ﴾ لأن الصاعقة تحدث صوتاً عظيماً فذلك المراد بتسميتها بالصيحة.

ينطبق على هذا اللفظ، كما أن هذه الريح كانت (عاتية) أي جاوزت الحدّ والمقدار في الشدة والبرد، أو عتت على عاد فلم يقدروا على دفعها والاتقاء منها، واستمرت على شدتها أياماً متتابعة:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً(١) فَتَرَى القَوْمَ فيها صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾.

فهذه الريح أرسلها اللّه عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة مستأصلة لهم حتى أهلكتهم فهم مطروحون على الأرض جثثاً هامدة هنا وهناك كأصول النخل الفارغة الجوف الساقطة على الأرض.

ثم يأتي هذا الاستفهام الداعي للتفكر والتأمل ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ باقية﴾ أي فهل ترى منهم أو من نسلهم أحداً باقياً على قيد الحياة؟ كلا.

ذلك شأن قبيلتي عاد وثمود، وكذلك كان شأن غيرهما من المكذبين لأنبيائهم كفرعون وقومه، ومن كان قبله من الأمم الظالمة، كذلك قرى قوم لوط وهي المؤتفكات:

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالمُؤْتَفِكَاتُ بالخَاطِئَةِ. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِم فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾.

ففرعون هو لقب يطلق على كل ملك تربع على عرش مصر في العصور القديمة، وفرعون المقصود في هذه السورة هو الملك الذي عاصر موسى عليه السلام، ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي من تقدمه من الأمم الكافرة

---

(١) حسوماً: تأتي بمعنى الشؤم والنحس، وتأتي بمعنى القطع أي قاطعة للخير عنهم ومنه قيل للسيف حسام لأنه قاطع.

﴿وَالمؤتَفِكَات﴾ جمع مؤتفكة أي المنقلبة، والمراد بالمؤتفكات: المدن المنقلبات وهي مدن قوم لوط التي انقلبت على ساكنيها وصار عاليها سافلها، وسبب انقلابها وهلاك من فيها أنهم جاءوا ﴿بِالخَاطِئَة﴾ يعني بالخطيئة، وكانت خطيئتها هي اللواط. ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصوا الرسول المرسل إليهم من اللَّه ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أي أخذهم اللَّه حينئذٍ بالعذاب أخذة بالغة الغاية في الشدة.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما حلّ بقوم نوح مصوراً بغاية الإيجاز مشهد الطوفان والسفينة وممتناً على العرب بنجاة أجدادهم:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ في الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

فطغى الماء أي تجاوز حده في الإرتفاع والعلو والمراد بذلك الطوفان ﴿حَمَلْنَاكُمْ في الجارية﴾ أي حملنا أجدادكم في سفينة نوح،فاللَّه لما أنقذ الأجداد فقد أنقذ الأحفاد الذين من نسلهم، وسميت سفينة نوح جارية لأنها تجري في الماء ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي ليجعل اللَّه إنجاء المؤمنين بالسفينة وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي عبرة وموعظة تتذكرونها وتتعظون بها، ودلالة على قدرة اللَّه وحكمته ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ وتحفظها وتفهمها أذن حافظة تسمع هذا الحديث وتنتفع به فيحذر أصحابها معاصي الله كي لا يعذبهم الله عليها.

وما ذكره اللَّه تعالى من مصير الأمم المكذبة لأنبيائها من خسف وطوفان يبدو ضئيلاً إلى جانب هول يوم القيامة الذي يصوره سبحانه بقوله:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ[١] نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَت الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

والنفخ في البوق هو إيذان بحلول يوم القيامة وخراب العالم. فالجبال حينئذٍ وسطح الأرض ترفع عن مواضعها ويضرب بعضها ببعض حتى تندق ويفتت أجزاؤها وتصير على مستوى واحد، فإذا حدث هذا فماذا تنتظر أن يكون؟ تجيب الآية: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾ أي عندئذٍ تكون قد قامت القيامة.

ويتبع قيام القيامة تشقق السماء: ﴿وانشقَّت السَمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ والانشقاق هو انفراط عقد الكون البديع الصنع فهو متشقق متصدع ضعيف بعد أن كان محكماً.

وبعد مشهد الرعب والهول يصور القرآن مشهد جلال اللَّه وعظمته المسيطرة على هذا الكون:

﴿والْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة﴾.

أي والملائكة على أطراف هذه السماء، وعرش اللَّه يحمله ثمانية من الملائكة، أو ثمانية صفوف منهم، والعرش كنّي به عن العز والسلطان والمملكة، وعرش اللَّه لا يعلمه البشر على الحقيقة إلّا بالاسم، وفي هذا اليوم يُعرض الناس على ربهم لمحاسبتهم على ما اقترفوه في دنياهم، فلا يخفى على اللَّه أي شيء استتر من أعمالهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خافِيَة﴾.

---

(١) وقد ورد النفخ في الصور في سورة الزمر مفصلاً وأنه يكون على دفعتين: في الأولى تموت كل الخلائق، وفي الثانية يبعث الأموات من قبورهم.

والناس يوم القيامة فريقان: أبرار وفجار يتناول القرآن ما يحل بهم بالتفصيل مبتدئاً بالأبرار:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بيمينه فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَه إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

فالمؤمن يأخذ كتابه ـ أي صحيفة أعماله ـ بيده اليمنى، فهذا الكتاب هو «شهادته» التي يستحق بها دخول الجنة، فيغمره السرور حينئذٍ وينطلق لسانه مخاطباً من حوله: ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ أي خذوا واقرأوا صحيفة أعمالي التي حازت رضاء ربي ﴿إني ظننت[1] أني ملاق حسابيه﴾ إني تيقنت في الدنيا بأن اللّه سيحاسبني في الآخرة.

ثم يصف القرآن حياة هذا المؤمن في الآخرة:

﴿فَهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيةٍ. في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُم في الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾.

فالمؤمن راض عن عيشه في الجنة لما يلقى من ثواب اللّه وهو في ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي مرتفعة ارتفاعاً حسياً وكذا ارتفاعاً معنوياً بمعنى أنها عالية الشأن ﴿قُطُوفُها دَانِيَةٌ﴾ أي ما يقطف من ثمار الجنة وعناقيدها قريب من قاطفه، وهناك يقال لهم تكريماً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنيئاً﴾ أي كلوا واشربوا غير منغص عليكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُم في الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ جزاءً من اللّه لكم، وثواباً على ما قدمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعة اللّه في أيام الدنيا التي مضت.

---

(١) الظن يأتي بمعنى الشك وبمعنى اليقين، أي يقين تدبّر، ويلحظ في استعمال القرآن الكريم للظن على أنه ضرب من يقين إذا استعملت بعده أنّ.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ
كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ
﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾
وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ

شَــرح المفـردَات

يا ليتها كانت القاضية : ليت الميتة التي ماتها لم يبعث بعدها .

ما أغنى عني مالِيَه : ما دفع عني مالي من عذاب الله شيئاً .

هلك عني سُلطانيه : زال نفوذي وجاهي ، وقيل : ضلت عني حجتي .

فغلّوه : قيدوه بالأغلال .

ثم الجحيم صلّوه : أدخلوه إلى جهنم ليقاسي نارها .

فاسلكوه : فأدخلوه فيها .

لا يحض : لا يحث غيره .

حميم : قريب يدفع عنه الضرر ويغيثه .

غسلين : ما يسيل من أجساد أهل النار من قيح أو صديد .

الخاطئون : المذنبون .

فلا أقسم : معناها حقاً أقسم و (لا) للتوكيد .

إنَّه : أي القرآن الكريم .

رسول كريم : هو محمد عليه الصلاة والسلام .

قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ
بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

شرح المفردات

كاهن : الذي يدّعي علم الغيب .

تقوّل : ادعى أقوالاً وافتراها .

الأقاويل : الأقوال الكاذبة .

لأخذْنا منه باليمين : لأخذناه بالقوة والقدرة .

الوتين : الشريان الواصل بين القلب والرأس إذا قطع مات صاحبه .

حاجزين : مانعين الهلاك عنه .

وانه لتذكِرَة للمتقين : أي إن القرآن هدى ورحمة للذين يخافون الله .

حسرة : الغم والندامة على ما فات .

حق اليقين : الحق الذي لا بطلان فيه ولا ريب .

فسبّح باسْم ربّك العظيم : نزه الله العظيم عن السوء والنقصان .

تابع سورة الحاقة

ثم يبين القرآن حياة الأشقياء في الآخرة:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.

فالشقي يتناول كتاب أعماله بشماله وهذا نذير بالشؤم وسوء العاقبة، عندئذٍ يتمنى أنه لم يُعط كتابه أبداً لما دُوِّن فيه من قبيح الأعمال وانجلاء الحساب عما يسوؤه ﴿يَا ليْتَها كَانَتِ القَاضِية﴾ أي يتمنى لو كانت الميتة التي ماتها في الدنيا كانت الفناء النهائي له فلم يُبعث بعدها حيًّا ﴿مَا أَغْنَى عَنّي مَالِيَه﴾ أي لم يدفع عنه ماله من العذاب شيئاً ﴿هَلَكَ عني سُلطانِيَه﴾ أي ضلت وبطلت عنه حجته التي كان يحتج بها في الدنيا بأن لا حساب في الآخرة، أو بمعنى: زالت عنه قوته وقهره للغير فلا معين له ولا نصير.

وبعد ذلك يصدر الأمر الإلٓهي إلى الملائكة الموكلين بالعذاب:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ أي خذوا هذا المذنب وقيّدوا يديه ورجليه بالأغلال ثم أدخلوه إلى جهنم ليقاسي نارها، ثم اربطوه في سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعاً لتلتف على جسده.

ويبين اللّٰه سبب عذاب هذا المذنب:

﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ. وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ. لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ﴾.

إن سبب عذاب هذا الشقي في الآخرة هو كفره بالله وعدم تصديقه بوحدانية الله وخلو قلبه من عاطفة الرحمة على المساكين، فهو لم يكن يحض الغير على إطعامهم فضلاً عن أنه لم يفعل ذلك، فليس لهذا الكافر الشقي في الآخرة ﴿حميم﴾ أي قريب مشفق يغيثه مما هو فيه من البلاء، وليس له في جهنم طعام ﴿إلّا من غِسْلين﴾ وهو شر طعام وأخبثه، وقيل: الغسلين هو ما يسيل من أجساد أهل النار من صديد وقيح، لا يأكله إلاَّ ﴿الخاطئون﴾ أي المذنبون المقترفون للآثام.

وبعد ذلك يقسم اللَّه بأسرار هذا الوجود الكوني بأن القرآن وحي من عنده بلّغه رسوله محمد عليه السلام:

﴿فَلَا أُقْسِمُ(١) بِمَا تُبْصِرونَ. وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ. إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَليلاً ما تُؤمِنُونَ. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

فاللَّه سبحانه يقسم بالوجود كله ما يرى منه وما لا يرى سواء أكان في عالم المادة، أو عالم الروح، أما في عالم المادة فلا يزال العلم يستكشف كل يوم من أسرار الطبيعة ما كان مغلقاً، فبعد صُنع آلات التلسكوب الضخمة اكتشف الإنسان حديثاً مئات الملايين من النجوم التي كانت غائبة عن أنظاره، وبعد صنع المكيروسكوب الالكتروني الذي يكبر الأشياء مئات الألوف من المرات، رأى الإنسان من عجائب الخلية وأسرارها ما أدهشه ووقف أمامها حائراً مسبحاً معظماً القدرة الإلٓهية التي أبدعتها والتي هي نواة كل

---

(١) فلا أقسم: أي أقسم على اعتبار أن (لا) زائدة للتوكيد، كأنه يقول لأقسم. أو أن (لا) عائد إلى باطلهم أي ليس الأمر كما يقولون بأنه لا بعث ثم يأتي القسم.

كائن حي على هذه الأرض، كما رأى أسراراً من طبيعة الكون ما كان مجهولاً لديه، فما أروع هذا القسم الذي ينطوي على أسرار هذا الوجود والذي خضع العلم لمضمونه.

لقد أقسم اللَّه بذلك على أن القرآن يتلوه رسول كريم هو محمد ﷺ الذي هو ليس بشاعر، فقد كان بعض منكري رسالة النبي ﷺ يقولون: إنه شاعر فنفى اللَّه عنه ذلك، لأن القرآن يختلف بنظمه عن نظم الشعر، كما أن محمداً ﷺ لم يُعرف عنه قبل النبوة ولا بعدها أنه نظم شعراً.

وفي قوله سبحانه ﴿قَليلاً ما تُؤْمِنُونَ﴾ فالمراد بالقلة النفي أي لا تؤمنون أصلاً، أو أنهم يؤمنون في قلوبهم إلا أنهم يرجعون عنه سريعاً، كما نفى اللَّه عن نبيه صفة الكهانة، والكاهن عند العرب هو الذي يدّعي معرفة الأسرار والإطلاع على الغيب، والمراد من قوله: ﴿قَليلاً مَا تَذَكَّرُون﴾ أي قليلاً ما تتعظون وتعتبرون بأن القرآن كلام اللَّه لا يشبه كلام الكهنة في شيء، فقد كان للكهان العرب أسلوب خاص في الكلام يعرف بالإغراق في استعمال السجع والإفراط في استعمال الكلام الغامض، ولم يكونوا يدعون إلى عبادة اللَّه ومكارم الأخلاق ومحاربة الشرك والفساد.

ولا بد من التنبه إلى أنه قد يتبادر إلى الذهن في الآية السابقة ﴿إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي إن القرآن هو من قول محمد ﷺ، وتوضيحاً لذلك فإن الآية تقول: ﴿إِنَّه لَقَولُ رَسُولٍ﴾ أي إنه يقوله لا بصفته الشخصية بل بصفته أنه رسول من عند اللَّه، وهذا المعنى أوضحته الآية التالية: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين﴾. أي أنه وحي من اللَّه.

ثم يأتي التهديد من اللَّه لمن يدعي النبوة كذباً:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل . لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين . فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ .

أي لو اختلق محمد بعض الأقوال ونسبها إلى الله، وغلب استعمال الأقاويل في الأقوال الكاذبة ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليمينِ﴾ أي لأخذنا بيده اليمنى وهو كناية عن التمكن منه، فإن من يضبط إنساناً من يده اليمنى التي هي آلة بطشه يكون قادراً على منعه من الحركة وشلّ قوته، وقد يراد باليمين هنا قوة اللّه وقدرته. و (الوتين) هو الشريان الذي يغذي القلب، ويصل القلب بالرأس إذا قطع مات صاحبه ﴿فَمَا مِنْكم منْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجزينَ﴾ أي فلا يستطيع أحد منكم أن يمنعنا من إهلاكه إن رأينا منه كذباً. ومفاد هذه الآيات أن محمداً لو كان كاذباً في ادعائه النبوة لقتله اللّه، وبما أنه لم يقتل حينما قال لكم إنه نبي فهو إذن صادق، وعلامة صدقه تأييد اللّه له ونصرته إياه[١].

وأخيراً يختم اللّه هذه السورة بذكر أوصاف للقرآن:

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ للمُتَّقينَ. وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ. وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرينَ. وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقين. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾.

---

(١) جاء في الفصل الثامن عشر من تثنية الاشتراع في العهد القديم: ٢٠ ـ وأي نبي تجبّر فقال باسمي قولاً لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهة أُخر فليقتل ذلك النبي. ٢١ ـ فإن قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب ٢٢ فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقع فذلك الكلام لم يتكلم به الرب. . . ».

هذا النص يشهد بصدق نبوة محمد عليه السلام فلو لم يكن محمد نبياً حقاً لكان قتل ولما أيده اللّه ونصره، فليتعظ أهل الكتاب ولينزعوا من عقولهم هذه الغشاوة من الشك حول نبوته، وليتحروا الحقيقة في شأنه بعقل منفتح فسيظهر لهم حينئذٍ أن محمداً رسول اللّه حقاً.

فـالقرآن هـو ﴿تَذْكِـرَةٌ﴾ أي عـظة يتعظ بهـا ﴿للمتقين﴾ وهم الـذين يخافون ربهم ويتقون عقابـه ﴿وإنَّا لنعلم أنَّ منكم مكـذبين﴾ وإنا لنعلم أن منكم ـ أيها الناس ـ مكـذبين بالقـرآن ﴿وإنَّه لَحَسْـرَةٌ على الكافـرين﴾ وإن القرآن سبب حسرة وندامة على الكـافرين يـوم القيامـة لما يـرون من ثواب للمتقين في مقابل جزاء سيء لهم. هذا في الآخرة، أما في الدنيا فإن القرآن سيكون حسرة على الكافرين عندما تطبق تعاليمه في الأرض وينتشر نوره في الآفاق وينتصر الحق على الباطل، وبالإضافة إلى ذلك فـالقرآن ﴿إنه لَحَقُّ اليقين﴾ أي الحق الثابت الذي لا شبهة فيه ولا ريب. أمام ذلك كله ﴿فَسَبِّح باسْمِ رَبِّكَ العظيم﴾ أي نزّه ربك العظيم عن كل نقصان، ومجِّده كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

سُورَةُ المعَارج

مكية، وآياتها أربع واربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ
ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾
وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ

شرح المفردات

سأل سائل بعذاب واقع : سأل سائل عذاباً لا شك في وقوعه .

ليس له دافع : لا يمنع وقوعه أحد .

ذي المعارج : ذي السماوات أو الفضائل والنِّعَم .

تعرج الملائكة : تصعد الملائكة .

الروح : الملك جبريل عليه السلام .

صبراً جميلاً : صبراً لا جزع فيه .

يرونه : أي يرون عذاب يوم القيامة .

المهل : عكر الزيت .

العِهْن : الصوف المصبوغ .

ولا يَسأل حميمٌ حميماً : ولا يسأل قريب قريبه عن حاله .

يبصّرونهم : يرى ويُعرّف الأقارب على بعضهم البعض .

يَودُّ المجرم : يتمنى الكافر وكل مذنب ذنباً يستحق به النار .

عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً
لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾

شرح المفردات

صاحبته : زوجته .

فصيلته : عشيرته الأقربين وأسرته .

تُؤويه : تضمه إليها وتحميه .

لظى : من أسماء جهنم واللظى اللهب الخالص .

نزَّاعة للشوى : تنزع الأطراف كاليدين والرجلين أو تنزع جلدة الرأس .

أدبر وتولى : أعرض عن الإيمان والحق .

جَمَعَ فأوعى : جمع مالاً أي خبأه وجعله في الوعاء (أي لم يؤدِّ زكاته) .

هلوعاً : الهلع قلة الصبر وشدة الحرص أو الجزع .

مسّه الشر : أصابه الفقر والمرض .

مسّه الخير : حصل على المال والغنى .

منوعاً : بخيلاً يمنع الفقير حقه من الزكاة .

على صلاتهم دائمون : مواظبون على أداء الصلوات الخمس .

حق معلوم : نصيب معين وهو الزكاة .

للسائل : الفقير الذي يسأل .

المحروم : الفقير الذي يتعفف عن السؤال فيحسبه الناس غنياً فيحرم .

سُورَة المَعَارِج

ايضـــاح و دروس

لما بعث اللَّه محمداً بـالرسـالة الإلّهيـة وخوّف المشـركين من عذاب اللَّه، عذاب الدنيا والآخرة، قـال المشركـون بعضهم لبعض: سلوا محمداً لمن هذا العذاب وبمن يقع فأخبر اللَّه عنه بقوله:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ[١] بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

فعـذاب اللَّه للكافـرين هو واقـع بهم في الآخرة وقد يكون في الدنيا أيضاً، لا يستطيع أحد دفعه. ومعنى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذي المَعارِجِ﴾ أي من اللَّه ذي العظمة والعلاء والصفات الحميدة. وقيل: ذي الفواضل والنِّعَم.

ثم يتابع اللَّه قوله: **﴿تَعْرُجُ الملائكة والرُّوحُ إِلَيْهِ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.**

ومعنى تعرج: تصعد. والمراد بالروح هوجبريل عليـه السلام، وقـد خُص بالذكر مع أنه أحد الملائكة تنويهاً بفضله وشرفه والمـراد بـ (إليه) أي إلى اللَّه لتلقي الأوامر وتصريفها. أما قوله سبحانه: ﴿في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قيل إنـه يوم القيـامة، فقـد جعل اللَّه هـذا اليـوم على الكـافرين طـويلاً جـداً يقدر بخمسين ألف سنـة، والمراد بـذلـك مـوقفهم للحساب حتى يفصل اللَّه بينهم، ثم بعـد ذلك يستقـر أهل النـار في النار،

---

(١) روي أن السائل هو نضر بن الحارث حيث قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿اللهم إن كـان هـذا هو الحق من عنـدك فأمـطر علينا حجـارة من السماء أو ائتنـا بعـذاب أليم﴾ الأنفال: ٣٢. هذا وقد قتل النضر بن الحارث في معركة بدر.

وأهل الجنة في الجنة.

وهذا الطول يكون في حق الكافر لما يحاسب فيه من حساب عسير، وما يراه من الأهوال، وما ينتظره من عذاب، أما المؤمن فيكون هذا اليوم بالنسبة إليه بمثابة دقائق معدودات، وذلك لما رواه الإمام أحمد عن رسول اللَّه عندما سُئل عن هذا اليوم سؤال تعجب من طوله فقال: «والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّفُ على المؤمن حتى يكونَ أَخَفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».

وهناك معنى آخر هو: لو صعد غير الملائكة من منتهى أمر اللَّه في أسفل الأرض إلى منتهى أمر اللَّه من فوق السماوات العلى لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة، أما الملائكة وجبريل فيقطعون هذه المسافة في أقل من يوم.

ثم يدعو اللَّه النبي إلى الصبر الجميل الذي لا يخالطه جزع ولا شكوى فيه لغير اللَّه على تكذيبهم بيوم القيامة، الذي يراه الكافرون غير كائن بينما هو ثابت هيّن في قدرة اللَّه:

﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنَّهُم يَرَوْنَهُ بعيداً. وَنَرَاهُ قريباً﴾.

ويصف سبحانه بعض مشاهد القيامة المرتسمة على الكون:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السمَاءُ كَالمُهْلِ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ﴾.

والمهل هو عكر الزيت أو الذائب من المعادن، فالسماء يصبح لونها مخضراً مائلاً إلى السواد، هذا بالنسبة لوصف السماء بعكر الزيت، أما إذا أخذنا المعنى الثاني وهو الذائب من المعادن، فلعلماء الطبيعة رأي وهو: أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى درجة الغازية، وهي بعد درجة

السيولة وشدة الحرارة بمراحل، فلعلها يوم القيامة ـ والله أعلم ـ ستبرد إلى حدّ أن تصير معادن سائلة، أما وصف الجبال بالعهن فهو الصوف المصبوغ وذلك بسبب تفتت أجزائها واختلاف ألوانها.

هذا حال السماء والأرض، أما حال الخلائق فهو كما قال سبحانه:

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ المجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ في الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

حميم المرء: قريبه أو صديقه الذي يهتم بأمره، فمن شدة ما ينزل بالناس جميعاً من الهول والفزع ينحصر هَمُّ كل واحد بنفسه بحيث لا يسأل أحد عن قريبه ما شأنه وحاله. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض. فالمجرم من عظيم ما ينزل به من البلاء والعذاب يتمنى آنذاك أن يفدي نفسه بأحب الناس إليه: من بنيه، وزوجته، وأخيه، وعشيرته التي تنصره في الملمات، بل بمن في الأرض جميعاً من الخلق إن كان ذلك ينجيه من عذاب الله. ولكن لا فداء له مِمّا يستحقه من العذاب الذي وصفه الله بقوله:

﴿كَلّا إِنَّها لَظَى. نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

كَلَّا: كلمة ردع، أي لا يُقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض جميعاً ﴿إنَّها لَظَى﴾ واللظى: من أسماء جهنم بمعنى اللهب وسميت بذلك لأنها تتلهب بالكفار ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ الشوى: أطراف الإنسان كاليدين والرجلين، وجلدة الرأس فهذه النار تنزع بحرها لحم أطراف الكافرين وجلود رؤوسهم ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلّى﴾ مجاز عن إحضارهم إلى النار، وقيل تدعو بمعنى:

تهلك، فهذه النار تدعو من تغافل وأعرض عن طاعة اللّه وكتاب اللّه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي جمع المال وخبأه وكنزه، لأن أوعى تعني جعله في وعاء ولا يحتاج المال إلى وعاء من صندوق وخزانة ونحو ذلك إلّا إذا كان كثيراً جداً، وهذا وعيد شديد لمن يبخل بالمال ويحرص على جمعه فلا ينفق بعضه في سبل الخير، فلا يزكي ولا ينفق فيما أوجب اللّه عليه إنفاقه من ماله للفقراء والمساكين.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف الطبيعة البشرية وكيفية مواجهتها للخير والشر:

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ المُصَلِّينَ﴾.

الهلع: من معانيه، الحِرصُ، والضجر، والجزع، وقلة الصبر. فالإنسان ﴿إذا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً﴾ أي إذا أصابه الفقر والمرض ونحوهما فهو جزوع أي كثير الجزع من ذلك لا صبر له عليه ﴿وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ وإذا كثر ماله ونال الغنى فهو منوع أي كثير المنع لما في يده بخيل به.

أما المؤمن فإنه بعيد عن ذلك، لا يصيبه الهلع، فهو عند الشدة لا يجزع وعند الخير لا يبخل، ذلك لأنه متصل بربه معتصم به، فهذا المؤمن هو من جملة المصلين الذين استثناهم اللّه بقوله: ﴿إِلَّا المُصَلِّينَ﴾ فبواسطة الصلاة يتصل المؤمن بخالقه، ومن اتصل باللّه سبحانه هانت عليه مصائب الحياة الدنيا وشدائدها، وتحلى بالصبر فلم يجزع، لأنه يعتقد أن اللّه قادر على كشف الضر عنه، وأنه سبحانه سيثيبه على ما أصابه من محن، هذا في حالة الشدة، وأما في حالة النعمة، فإن من اتصل بخالقه وتذكَّر نِعَمَ اللّه عنه وما وصَّاه به سبحانه من فعل الخير، انتفت عنه صفة البخل، فتراه ينفق من

ماله في سبل الخير، امتثالاً لأمر اللّه، وطمعاً في ثوابه، ويقيناً بأن اللّه سيعوّض له ما أنفق.

ثم يصف اللّه هؤلاء المصلّين المقصودين بالاستثناء بقوله: ﴿الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ والمراد بذلك المحافظة على الصلوات الخمس وتوفيتها حقها من الخشوع والإخلاص للّه، فالمداومة على الصلاة ترقق القلب وتجنبه القساوة وتدفع بالمصلي إلى الإحسان إلى الفقير، ولهذا يقول سبحانه في وصف هؤلاء المصلّين بعد ذلك:

﴿وَالّذِينَ في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم ِ﴾.

لقد عبّر القرآن الكريم عن الزكاة المفروضة بـ ﴿حَقٌّ مَعْلُوم﴾ لأن المؤمنين يعلمون أنها حق من اللّه فيؤدونها، ولا ينقصون حق المستحقين لها والقرآن جعلها: للسائل، وهو الذي يسأل الناس لفاقته، كما جعلها: للمحروم، وهو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلم بفقره، أو الذي أصابته جائحة فلم يبق له مال، أو حُرِمَ الرزق، كما أن للمحروم حقاً سوى الزكاة.

والقرآن بهذا التشريع يهدف إلى إرساء العدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي بحيث لا يبقى بين الناس بائس أو محروم. ففريضة الزكاة لا ترجع لهوى النفس إن شاء الغني أعطى، وإن شاء منع، بل هي إلزامية لأنها حق الفقير في مال اللّه الذي أعطاه للغني، ولهذا كان النبي ﷺ يجمع الزكاة ويأمر أتباعه بجمعها من الأغنياء، وبعد وفاته حدث أن أعلن بعض العرب منع الزكاة فقاتلهم الخليفة أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه على هذا المنع حتى رجعوا عنه.

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ
٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ٣٢
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٣٤

شرح المفردات

يُصدِّقون بيوم الدين : يؤمنون بيوم الحساب ويعملون له الأعمال الصالحة .

مشفقون : خائفون .

غير مأمون : غير مضمون دفعه .

لفروجهم حافظون : يلازمون العفة فلا يقترفون الزنا .

أزواجهم : زوجاتهم .

ملكت أيْمانهم : ما ملكوا من الرقيقات والجواري .

غير ملومين : غير معاتبين ولا مسؤولين .

ابتغى وراء ذلك : تجاوز الحلال إلى الحرام .

العادون : المعتدون .

وعهدهم : العهود والمواثيق التي تعهدوا بها لغيرهم .

راعون : حافظون .

بشهاداتهم قائمون : يؤدون الشهادة على حقيقتها .

أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦
عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ
نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ
إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ فَذَرۡهُمۡ
يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ
مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً
أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤

شَـرح المفـردَات

فمال الذين كفروا : فما شأن الذين كفروا .

قِبلَكَ : إليك ونحوك .

مُهطعين : مسرعين .

عِزين : فرق شتى .

بمسبوقين : بمغلوبين فلا يفوتوننا .

ذرهم : دعهم .

يخوضوا : يتحادثوا في الباطل .

الأجداث : القبور .

سِراعاً : مسرعين .

نُصُبٍ : صنم منصوب للعبادة أو العَلَم أو الراية .

يُوفضون : يسرعون .

خاشعة أبصارهم : أبصارهم ذليلة .

ترهقهم : تغشاهم وتعلوهم .

ذلك اليوم : أي يوم القيامة .

تابع سورة المعارج

ويتابع اللّه ذكر صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي والذين يقرُّون بالبعث والمجازاة بعد الممات يوم القيامة. فالتصديق بيوم الجزاء هو محور هذه الحياة وبه تستقيم الموازين، فالذي لا يصدّق به يبني سلوكه على أساس أن الحياة الدنيا غاية المطاف فينغمس في الآثام لا يبالي بتقصير أو تفريط في جَنْب اللّه، بينما المصدق بيوم الجزاء يزن أعماله على اعتبار أن هذه الحياة مقدّمة لما بعد الموت في حياة سرمدية لا تزول، إما إلى نعيم أو إلى عذاب.

ومن صفات المؤمنين:

﴿والَّذينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. إنَّ عَذَابَ ربِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

فالمؤمنون من عذاب ربهم ﴿مشفقون﴾ أي خائفون لأن هذا العذاب لا ينبغي لأحد أن يأمنه مهما بالغ في الطاعة. ولقد كان رسول اللّه ﷺ دائم الخشية من اللّه وكان على يقين أن عمله وحده لن يدخله الجنة إلّا برحمة من اللّه فقد قال مرة لأصحابه: «لَنْ يُدْخِلَ أحداً عَمَلُهُ الجنَّة، قالوا ولا أنْتَ يا رسُول اللّهِ قَالَ وَلاَ أَنَا إلَّا أن يتغمَّدَني اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ»(١).

ومن صفات المؤمنين أيضاً:

﴿والَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إلَّا على أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأولئكَ هُمُ العَادُونَ﴾.

فالمؤمنون يحافظون على العفة ولا يعاشرون إلّا زوجاتهم،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وما يملكون من الرقيقات وهم في هذا غير ملومين، أما الذين يعاشرون غير الزوجات والرقيقات معاشرة الزوجات فقد تجاوزوا الحلال إلى الحرام.

وهنا نقف قليلاً لنجيب على بعض التساؤلات حول الرقيق، فالعلاقات الزوجية أمر مشروع في كل عرف وقانون، وأما قوله تعالى: ﴿ما ملكت أيْمانُهُم﴾ أي ما يملكون من الرقيقات فهذا أمر يستدعي شيئاً من الإيضاح:

فالإسلام جاء والرق نظام عالمي، واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي، فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد فيصبح أسرى المسلمين أرقاء عند أعدائه بينما هو يحرر أسرى الأعداء.

فالإسلام سد كل منابع الرق عدا أسرى الحرب، إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى، ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن، ومن مقتضيات هذا الاسترقاق ألّا يرتفعن إلى مستوى الزوجات، فأباح الإسلام معاشرتهن كالزوجات وكرّمهن عما كن يلقين في غير بلاد الإسلام حيث كانت أعراضهن نهباً لكل طالب كالبغايا (وكان هذا مصير أسيرات الحروب في أغلب الأحيان) وإنما جعل الإسلام الرقيقات ملكاً لصاحبهن فقط لا يدخل عليهن أحد غيره.

والرقيقة تصير حرة بوسائل كثيرة منها: الولادة، فإذا ولدت من سيدها ولداً حررها ولدها بمعنى أنها تصبح أم ولد لا تباع وتكون حرة عقب وفاة سيدها.

ومنها: الإعتاق تطوّعاً أو كفارة لبعض الذنوب، وكذلك إذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال تفتدي به نفسها فَقَبِلَ سيدها ذلك فتصبح حرّة بعد

أدائها المبلغ المتفق عليه.

هذا مع العلم أن الإسلام جعل قسماً من أموال الزكاة يُصرف في سبيل تحرير الأرقاء، كما أنه شجع على عتق الأرقاء وبيّن أن ذلك العمل من أعظم القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، بل إنه أدخله في الكفارات عن بعض الذنوب، فمن أفطر متعمداً في بعض الحالات أعتق، ومن كفّر عن يمينه أعتق، ومن أخطأ في بعض أمور الحج أعتق، وهكذا وضع الإسلام تشريعاً لتسهيل العتق والقضاء على الرق في المدى الطويل.

والإسلام في كثير من وصاياه أمر بالإحسان إلى الأرقاء فقال النبي ﷺ:

«إخوانكم خولكم[1] فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

ثم لنرجع إلى بقية صفات المؤمنين التي ذكرها القرآن:

﴿والذينَ هُمْ لِإمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والأمانة اسم لجنس ما يؤتمن عليه الإنسان سواء من جهة الخالق، وهي الشرائع والأحكام التي يجب الإلتزام بها، أو من جهة الخلق وهي الودائع ونحوها. والعهد أيضاً يشمل عهد اللّه وهو ما ألزم الإنسان به نفسه للّه من عمل أو نذر، كما يشمل العهد بين الناس وهي جملة العقود التي اتفقوا عليها سواء أكانت فردية بين شخصين أو أكثر، أو كانت بين الدول كالمعاهدات الدولية، فالمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا.

ومن صفات المؤمنين: ﴿والذينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي يقومون

(١) خولكم: الأرقاء الذين يقومون بخدمة أسيادهم.

بأداء الشهادة عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها، بل يقومون بها بـالحق دون ميل أو هوادة، وبذلك تصان الحقوق بين الناس.

كمـا يذكـر القرآن أخيـراً من صفاتهم: ﴿**والـَّذينَ هُمْ على صَـلاَتِهِمْ يُحافِظُونَ**﴾ أي يُحافظون على صلواتهم لا يضيعـون لها ميقـاتاً، ويلتـزمون شروطها وآدابها، ولا سيما الخشوع ومراقبة اللَّه فيها، والاحتراز من الرياء.

ويلاحظ أن الصلاة وردت مرتين، مرة في بدء صفات المؤمنين ومـرة في ختامها مما يوحي بأهميتها وكبير شأنها، وفي هذا توجيه للمسلمين ولفت أنظارهم إلى الاهتمام بها والمحافظة عليها.

هؤلاء المؤمنون المتصفون بالصفات السابقة وعـدهم اللَّه بالنعيم في الآخرة: ﴿**أولئك في جنَّاتٍ مُكْرَمُـونَ**﴾ فهم في جنان الخلد يُكـرمون فيهـا بأنواع المسرّات والنعيم، ويكرمهم اللَّه بكرامته.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف سلوك الكفار مع النبي ﷺ:

﴿**فَمَـالِ الـذينَ كَفَــروا قِبَلَكَ مُهْطِعِين. عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَــالِ عِزينَ**﴾.

ومعنى ﴿**مُهْـطِعين**﴾: مسـرعين، وقيــل: يـديمــون النـظر إليــك. ﴿**عِزين**﴾: أي فرقـاً شتى. والمعنى: ما بـال الذين كفـروا يسرعـون إليك لسماع القرآن ويديمون النظر إليك وهم يجلسون حولك حلقات حلقات عن يمينك وشمالك وهم يفعلون ذلك لا ليهتدوا أو ينتفعوا بما يسمعون منك، بل للاستهزاء والتكذيب. وهم في حالتهم هذه كان يقـول بعضهم لبعض: إن دخل هؤلاء ـ أي المؤمنون ـ الجنة كما يقول محمد، فنحن داخلوها قبلهم، يريدون بذلك أنهم أحق من المؤمنين لأنهم سادات قريش، فردّ اللَّه عليهم:

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ . كلاّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ .

أي أيطمع هؤلاء وهم بهذا الكفر والإعراض عن دعوة اللَّه أن يدخلوا جنة النعيم في الآخرة ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما يطمع فيه هؤلاء الكفار من أن يدخل كل امرىءٍ منهم جنة نعيم. ثم لفت اللَّه نظرهم إلى مبدأ خلقهم وهي النطفة التي نزلت من مجرى البول، ولهذا لا يصح أن يتكبروا وينكروا يوم الجزاء.

ثم أنذر اللَّه هؤلاء بالهلاك فقال سبحانه:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ[1] إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا أقسم: أي اقسم، لأن (لا) للتأكيد فاللَّه سبحانه يقسم بنفسه فهو المالك المتكفل بالمشارق والمغارب بأنه قادر على إهلاكهم والمجيء بقوم غيرهم يكونون خيراً منهم وهو سبحانه

---

(١) قد يكون المراد بالمشارق والمغارب مشارق الشمس والقمر والكواكب وكافة النجوم ومغاربها للدلالة على سعة ملك اللَّه كله، وترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق ولولا دورانها لما كان هناك ليل ونهار ولما استقامت الحياة على وجه الأرض.

وقد يراد بالمشارق والمغارب فيما يتعلق بالشمس وحدها ويكون بهذا إشارة إلى التعدد اللانهائي لمشارق الأرض ومغاربها يوماً بعد يوم في كل موضع على سطح الأرض، فالشمس في كل لحظة غاربة عند قطعة من الأرض ومشرقة في قطعة أخرى تقابلها، ولا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذي أشرقت منه في الأمس أو تغرب على بلد من نفس مكانها الذي غربت منه بالأمس وإن كانت جهة الشرق واحدة وهذا بسبب دوران الأرض حول الشمس وكل ذلك من محكم تدبير اللَّه وعظمته وقدرته.

لا يعجزه إهلاكهم، ولكن مشيئته اقتضت تأخير عقوبتهم، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإنه سبحانه إذا لم يعاقبهم في الدنيا فهناك العقاب الأخروي الذي أشار إليه سبحانه في ختام هذه السورة:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُونَ. يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُم إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ اليومُ الذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّى يُلاقوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ﴾ حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة الذي وعدهم اللّه بملاقاته جزاء كفرهم ﴿يَوْمَ يخرجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ ففي ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مسرعين إلى موقف الحساب ﴿كَأَنَّهُم إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ كأنهم إلى آلهتهم ـ أي أصنامهم ـ يسرعون أيهم يأتيها أولاً لعبادتها ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُم﴾ خاضعة أبصارهم ساكنة لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم الذل والهوان ﴿ذَلِكَ اليَوْمُ الَّذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ذلك اليوم هو يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به بالعذاب في الدنيا وقد كذبوه وها هو يتحقق اليوم، ويرونه ماثلاً أمام أعينهم، فهذا العذاب الذي سألوا عنه في مطلع هذه السورة يجيب عنه سبحانه في آخرها.

سُورَةُ نُوحٍ

مكية، وآياتها ثمان وعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ
وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ
أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ
قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا
دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ
وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ

شرح المفردات

أَنذِرْ : حذِّر وخوِّف .

مبين : واضح ظاهر .

اتقوه : خافوه واجتنبوا معاصيه .

أجل مُسمى : وقت معين قدّره الله لموت الإنسان .

فِراراً : تباعداً .

استغشوا ثيابهم : غطوا رؤوسهم بثيابهم .

أصرّوا : ثبتوا على الكفر ولزموه .

جهاراً : علانية .

إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ
كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ
وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ
وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ
طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ
أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠ قَالَ

شرح المفردات

استغفروا ربكم : اطلبوا المغفرة من ربكم .

يُرسِلِ السماء : يرسل المطر .

مِدراراً : متتابعاً .

يُمددكم : يعطكم ويزدكم .

جنات : بساتين .

لا ترجون : لا تخافون .

وقاراً : عظمة .

أطواراً : حالات الخلق المتطورة في الرحم .

طِباقاً : بعضها فوق بعض .

يُخرجكم إخراجاً : يبعثكم أحياء يوم القيامة للحساب .

بساطاً : مستوية .

لتسلكوا منها : لتقطعوا وتسيروا .

سُبلاً : جمع سبيل وهو الطريق .

فِجَاجاً : جمع فج وهو الطريق الواسع .

نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا
وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ
وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ
نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا
يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

شـرح المفـردات

مكروا : المكر هو تدبير السوء في خفاء .

كبَّاراً : كبيراً جداً .

لا تذرُنَّ : لا تتركوا ، أصلها لا تذروا أُدخلت عليها نون التوكيد .

ود ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر : أسماء أصنام كان يعبدها قوم نوح .

مِمَّا خطيئاتهم : بسبب خطاياهم وذنوبهم .

ديّاراً : من يتحرك في الأرض فيذهب ويجيء فيها

تذرهم : تتركهم أحياء .

فاجراً : خارجاً عن طاعة الله .

كفَّاراً : كثير الكفر .

تَباراً : هلاكاً ودماراً .

سُورَةُ نُوح

ايضــــاح و دروس

قصص الأنبياء وسيرتهم مع قومهم من أهم العوامل المؤثـرة الموجهة التي ركز عليها القرآن واعتمدها في الجدال والحوار مع المخـالفين لدعـوة الإِسـلام، وفي التبشير بـرضوان اللّه، والتحـذير من معصيتـه، وفي شـرح مبادىء الإِسلام وأهدافه، وفي تقوية قلب النبي ﷺ ومن اتبعه، بعد أن لاقوا من الكفار الأذى الكثير.

وهذه السورة التي تعرض قصة النبي نوح عليه السلام مع قومه، نرى فيها ارتباطاً مع أحوال كفار مكة، فقوم نوح كانوا يعبدون الأصنام، وكفار مكة كانوا يعبدون الأصنام أيضاً. والقرآن يبين في هذه السورة العـاقبة الـوخيمة التي حلَّت بقوم نوح بسبب إصرارهم على الكفر، وفي هـذا تحذيـر وإنذار لكفار مكة إن استمروا على الكفر، ولم يستجيبوا لرسالة محمد ﷺ أن يحلَّ بهم عذاب كما حلّ بقوم نوح عليه السلام.

يقول تعالى في مستهل هذه السورة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا(١) نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِر قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ. قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبينٌ﴾.

فالله أرسل نوحاً إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام وقال له: حذّر قومك وخوفهم عاقبة كفرهم من قبل أن يأتيهم عذاب من الله شديد مؤلم. قال نوح لقومه: إني مُرسَلٌ من الله إليكم لأحذركم من مغبّة كفركم وعصيانكم، وقد أوضحت لكم إنذاري البيّن الظاهر.

وما يدعو إليه نوح عليه السلام واضح جلي فيه سعادة الإِنسان:

---

(١) إنَّا أرسلنا: أي نحن أرسلنا، وهو اللّه سبحانه.

﴿أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

فدعوة نوح تقوم على ثلاثة أركان:

أولًا: عبادة اللَّه وحده وترك عبادة الأصنام، هذه العبادة توحد بين قلوب الناس، فهم كلهم يتوجهون إلى إلّه واحد في العبادة، ففي وحدة العبادة وحدة الصف، كما أنها تحرّر الناس من الخرافات والأوهام والأساطير التي سببتها عبادة الأصنام، وترشدهم إلى الطريق المستقيم، فاللَّه وحده هو المعبود بحق.

ثانياً: تقوى اللَّه، والتقوى حفظ النفس عمّا يؤثم خيفة من اللَّه، وقد نهى اللَّه عن المآثم لأنها تفسد على الناس صحتهم وأخلاقهم، وتقوِّض مجتمعهم.

ثالثاً: طاعة رسول اللَّه، ويشمل ذلك اتباع شريعة اللَّه، لأن الرسول يتلقى الشريعة من اللَّه مباشرة بواسطة الوحي ويبلغها إلى قومه ويأمرهم باتباعها.

هذه الأركان الثلاثة تمثل الأسس التي دعا إليها الرسل في مختلف العصور، ثم وعدهم نوح إن هم فعلوها نالوا مغفرة اللَّه ونجوا من العذاب:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُم وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والمراد من قوله سبحانه ﴿مِنْ ذنوبكُم﴾ أي بعض ذنوبكم، وهي الذنوب التي وقعت منهم قبل الإيمان. وفي قوله سبحانه: ﴿ويُؤخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي يمهلكم ويمتعكم في هذه الدنيا إلى الوقت المقدر

والمقرّر في علم اللَّه الذي قدّره اللَّه لانتهاء آجالكم فلا يهلككم بالعذاب ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان الذي كتبه اللَّه على خلقه محدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى اللَّه لأنه هو الذي أثبته وكتبه(١) ﴿لَوْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ لو علمتم حقيقة ذلك لسارعتم إلى طاعة ربكم.

ثم يصف القرآن جهاد نوح، وما كان يلاقيه من قومه من إعراض ونفور:

﴿قال: رب إِنِّي دَعَوْتُ قومي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعَلُوا أَصَابِعَهُمْ في آذانهم واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكباراً﴾.

فنوح خاطب ربه قائلاً: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان بك وعبادتك ليلاً ونهاراً بلا فتور ولكن دعائي إلى الإيمان بك لم يزدهم إلا هرباً وعصياناً. وإني كلما دعوتهم إلى الإيمان بك لتغفر لهم ذنوبهم جعلوا أصابعهم في آذانهم كراهة أن يستمعوا دعوتي ﴿واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وغطوا وجوههم حتى لا يروني ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَروا استِكْبَاراً﴾ وأصروا على الكفر وتكبروا تكبراً بالغاً عن الإيمان.

---

(١) قد يقال: كيف قال: ﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، قيل الجواب على ذلك: قضى اللَّه مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم اللَّه ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكم على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا ﴿يؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي إلى وقت سماه اللَّه وجعله غاية الطول في العمر وهو تمام الألف، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول فإنه لا بد من الموت.

واستمر نوح في الدعوة إلى اللَّه، وأصرّ قومه على الكفر، واتبع نوح كل الأساليب التي تؤثر في قومه:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾.

لقد اعترف نوح بأنه دعا قومه إلى عبادة اللَّه وحده ﴿جهاراً﴾ أي رفع صوته بالدعوة حتى سُمِعَ واضحاً ﴿ثم إني أعْلَنْتُ لَهُم﴾ أي أنه أعلن لهم الدعوة إلى اللَّه، والإعلان إظهار الأمر خلاف السرّ ﴿وَأَسْرَرْتُ لهم إسْرَاراً﴾ أي دعاهم إلى اللَّه خفية. فنوح دعاهم بمختلف الأساليب التي يراها قد تؤثر فيهم.

وفي أثناء ذلك كان نوح يرغبهم في خيري الدنيا والآخرة:

﴿فَقُلْتُ اسْتغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. ويُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أنهاراً﴾.

يطلب منهم نوح أن يرجعوا إلى اللَّه ويتوبوا من ذنوبهم ويستغفروا ربهم عن آثامهم، إنهم إن فعلوا ذلك يقبل اللَّه توبتهم، ويغفر لهم ذنوبهم مهما كثرت، ليس هذا فحسب بل ينزل على أرضهم المطر غزيراً متتابعاً ويعطيهم مع ذلك كثيراً من المال والبنين، ويجعل لهم بساتين من الأشجار المثمرة ويجعل لهم أنهاراً تروي مزارعهم.

وفي القرآن آيات تبين ما للإيمان والتقوى والتوبة من الذنوب من أثر في وفرة الرزق، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ولو أن أَهْلَ القُرى آمنوا واتقوا لَفَتَحْنا عليهم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، وَلَكِنْ كَذَّبوا فَأَخَذْنَاهم بما كانوا يَكْسِبُون﴾ آية ٩٦. وقال سبحانه في سورة هود: ﴿وأن استغفروا رَبّكم ثم تُوبُوا إليه يُمَتّعكُم مَتاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُسمّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ آية ٣.

ونمضي مع نوح في جهاده الطويل فنجده يوجه أنظار قومه إلى آيات اللَّه في أنفسهم، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع ربهم:

﴿ما لكُم لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً. وَقَد خَلَقَكُمْ أطواراً﴾.

والرجاء: الأمل، وقد يأتي بمعنى الخوف وهو المراد هنا، والوقار في الإنسان الرزانة والحكمة، ولكنه في جانب اللَّه العظمة، والمعنى: ما لكم لا تخافون عظمة اللَّه، وهو الذي خلقكم (أطواراً) فالمراد بالأطوار حالات الخلق التي يتدرَّج بها الإنسان في بطن أمه من نطفة إلى علقة إلى مضغة ثم يتحول إلى مخلوق من عظم ولحم.

كما يوجه نوح أنظار قومه إلى هذا الكون الذي ينبىء عن خالق حكيم:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَموات طِبَاقاً. وَجَعَلَ القَمَرَ فيهنَّ نُورا، وَجَعَلَ الشمسَ سِرَاجاً﴾.

أي ألم تعتبروا أيها القوم كيف خلق اللَّه سبع سماوات بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماء الدنيا منيراً لوجه الأرض في ظلمة الليل وجعل الشمس مصباحاً يستضيء به الناس في النهار كما يستضيء الناس بالسراج في الليل.

ويوجه نوح نظر قومه إلى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت، ليقرّر لهم أن الذي خلقهم أول مرّة قادر على إعادتهم أحياء يوم القيامة للحساب والمجازاة:

﴿واللَّهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأرضِ نباتاً. ثمَّ يُعيدكُم فيها ويُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً﴾.

وأخيراً يوجه نوح أنظار قومه إلى نعمة اللَّه عليهم في تيسير الحياة لهم على سطح الأرض:

﴿واللَّهُ جَعَلَ لَكُم الأرضَ بِسَاطاً. لِتَسْلكُوا مِنهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾.

الأرض بساطاً: أي مستوية. وفجاجاً: جمع فج وهو الطريق الواسع.

حقيقة إن هذا الكلام جاء على لسان نوح وهو يعظ قومه ولكنه في الوقت نفسه موجه من اللَّه للجنس البشري.

فاللَّه سبحانه يمتن على عباده بأنه جعل لهم الأرض مستوية ليسلكوا فيها طرقاً واسعة. هذه نبوءة للقرآن تحققت في العصر الحاضر، فإذا نظرنا إلى العهد الذي نزل فيه القرآن منذ أربعة عشر قرناً رأينا الطرقات في ذلك العصر لا تكاد تتسع إلّا لبعض المشاة والراكبين على الدواب، ولكن بعد اختراع السيارات على اختلاف أحجامها منذ أمد ليس ببعيد، شق الناس الطرق الواسعة لتسهيل السير بواسطة ما استجد من آلات ضخمة، وأصبح شق الطرقات له اعتمادات مالية وافرة في ميزانيات الدول.

بعد كل هذا الوعظ ظل قوم نوح على ضلالهم، فالتجأ نوح آنذاك إلى ربه يبثه شكواه بلهجة مؤثرة تنبىء عن ألمه من الضلال المستحكم في قومه:

﴿قَالَ نوحٌ: رَبِّ إنَّهُم عَصَوْني واتَّبعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلَّا خَسَاراً﴾.

فنوح يخاطب ربه قائلاً: إن قومي عصوني فيما دعوتهم إليه من الإيمان بك وطلب المغفرة لذنوبهم، واتبعوا قادتهم ورؤساءهم الأغنياء

الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلَّا ضلالاً في الدنيا وعقوبةً في الآخرة.

إن إصرار قوم نوح على الكفر سببه: السير وراء القيادات والزعامات الضالة المضلّلة التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد، ومظاهر الجاه والسلطان.

فاتباعهم لهذه الزعامات الضالة الغنية كانت خسارة لهم في الدنيا والآخرة لأنها جعلتهم يتمادون في الكفر.

ويتابع نوح مخاطبة ربه قائلاً:

﴿ومكروا مكراً كُبَّاراً. وقالوا: لا تَذَرُنَّ آلهتكُم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُوَاعاً ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلَّا ضَلَالاً﴾.

﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ والمكر هو الخداع. فهؤلاء الرؤساء خدعوا قومهم خداعاً كبيراً، وحضوهم على الاستمساك بهذه الأصنام(١) التي ظلت تعبد من بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية وهي: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

وهكذا كل قيادة ضالة مضللة تقيم أصناماً تختلف أسماؤها وأشكالها، وتجمع حولها الأتباع، فمنها أصنام الأحجار، وأصنام الأشخاص «عبادة الشخصية» وأصنام الأفكار والمذاهب المضللة.

---

(١) الصنم هو تمثال مصنوع من خشب أو معدن أو حجر وله شكل مخلوق حي كإنسان أو حيوان أو طائر أو مزيج من ذلك كله، ويمثل الصنم في نظر عابده قوة عليا هي فوق الطبيعة.

كل هذه الأصنام استغلها الزعماء لمصالحهم الخاصة، فأرهقت عابديها، وولدت النزاع بين البشر، وصرفت الناس عن الخالق، والمبادىء الإنسانية التي أوصى بها دين اللّٰه.

هذه الأصنام ضل بسببها كثير من الناس ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ ويحتمل معنى آخر وهو: أن رؤساء قوم نوح أضلوا كثيراً من الناس.

بعد هذا الضلال المستحكم يدعو نوح على قومه الميؤوس منهم بقوله:

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالمينَ إلَّا ضَلالاً﴾ إنه دعاء المتألم اليائس من إيمانهم الذي استعمل معهم مختلف أساليب الإقناع فلم ينجح منها شيء ولم يبق أمامهم سوى الزيادة في الضلال كي يستحقوا العذاب الأليم.

ومن هنا يأتي الجواب القاصم من اللّٰه بإيجاز مدهش يصور عاقبة الكفر ونهايته الوخيمة:

﴿مِمَّا خطِيئاتِهِم أُغرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً. فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾. أي بسبب خطاياهم أغرقوا بالطوفان في الدنيا، وسيدخلون ناراً في الآخرة، وقد يكون المراد بالنار هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة، وهم لم يجدوا من غير اللّٰه أنصاراً ينقذونهم من عذاب اللّٰه.

ثم يكمل نوح دعاءه على قومه بقوله:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ ديّاراً. إنَّك إن تَذَرْهُمْ يُضلّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدوا إلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

فقد أدرك نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهرها من أدران الكفر الذي استعصى على العلاج، من أجل ذلك دعا نوح ربه بأن يهلك

الكافرين: ﴿لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافرين ديَّاراً﴾ أي لا تترك أحداً منهم حيّاً على وجه الأرض. فإصرار الكافرين على كفرهم يجمد الدعوة إلى دين اللَّه ويصرف الغير عن هداه، كما أن نسل هؤلاء الكافرين يسير على منهج آباءهم وبذلك يستمر الكفر في الأرض ﴿ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجِراً كفَّاراً﴾ والفاجر هو العاصي ربه المائل عن الحق، وكفّار هو المبالغ والمسرف في الكفر.

وإلى جانب دعاء نوح على قومه بالهلاك كان هذا الابتهال منه المشوب بالرحمة للمؤمنين:

﴿رَبِّ اغفِر لي ولوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بيتِيَ مُؤمناً، وللمؤمنين والمؤمناتِ، وَلاَ تَزِدِ الظالمين إلاّ تَباراً﴾.

ودعاء نوح ربه بأن يغفر له، وهو النبي المرسل من اللَّه، هو دعاء العبد الذي لا ينسى أنه بشر، وأنه يخطىء ويقصِّر مهما أطاع ربه.

ودعاؤه لوالديه هو دعاء الوفاء لهما، وتعليم للمؤمنين للبر بالوالدين.

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات هو برّ المؤمن بالمؤمن، وحب الخير لأخيه كما يحب لنفسه، هو برّ المؤمن بالمؤمنين في كل زمان ومكان، والشعور برابطة الأخوة الوثيقة والمحبة الخالصة التي تجمع بينهم على مدار الزمن.

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين يأتي ختام السورة بالدعاء بالهلاك على الظالمين ﴿وَلاَ تَزِدِ الظالمينَ إلاَّ تَبَاراً﴾ أي هلاكاً، أو خساراً.

وقد استجاب اللَّه دعاء نوح عليه السلام وأرسل الطوفان فأغرق الظالمين، بينما نجّى اللَّه نوحاً ومن آمن معه بأن أمره بصنع سفينة فركبوا فيها، ونجوا من الغرق، وقد ذكر القرآن ذلك في مواضع متفرقة منه.

التفسيرُ العِلمي

يقول تعالى على لسان نوح الذي يبين بعض مظاهر القدرة الإلٓهية:

﴿وَجَعَلَ الْقَمَر فيهنَّ نوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً﴾.

فاللّٰه سبحانه يُعلن بأن الشمسَ تشبه السراج أي المصباح وهو الذي يضاء بالزيت أو الكحول أو الكاز، والسراج له ضوء ذاتي كما أن له لهباً يصدر بواسطة الفتيل. وقد بيّن العلم أن الشمس كتلة غازية ملتهبة وأنها تستمد طاقتها من تفاعلات وانفجارات نووية، فاتفق العلم مع القرآن من حيث أن الشمس مكونة من لهب، وأن هذا اللهب يستمد طاقته من مركزها الداخلي.

كما وصف القرآن القمر بأنه (نور) فهو إذن كتلة مظلمة وضوؤه مكتسب ومعكوس منه، وهذا ما أثبته العلم من أن القمر جرم مظلم يستمد نوره من الشمس.

ولا شك أن هذا من الدلائل على أن القرآن هو من عند اللّٰه الذي خلق الشمس والقمر وعرف طبيعة كل واحد منهما وعبّر عنهما تعبيراً يتفق مع حقيقتهما.

النبات أساس غذاء الإنسان:

ويقول تعالى على لسان نوح أيضاً.

﴿وَاللَّهَ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾.

فهذه الآية تعلن بأن اللّٰه أنبتنا من الأرض مثل النبات وأن استمرار حياتنا يتوقف على النبات. هذا الوصف القرآني يدعونا إلى وقفة تأمل إذ من المعروف لدى العلماء أن الإنسان حيوان وليس نباتاً.

ولكن الأبحاث العلمية في مصدر الإنسان تؤكد المعنى الذي أشار إليه القرآن في هذه الآية فقد جاء في كتاب (الماء معجزة الطبيعة)[1]: «قرر علماء الأحياء أنه لا بد لجميع الحيوانات وضمنها أنا وأنت أيها القارىء، وكذلك جميع البكتيريا أن تعيش عن طريق أكل النباتات أو المنتجات النباتية أو الحيوانات التي أكلت هذه النباتات، فقد نأكل سمكة كانت تعيش على أكل أسماك أصغر، وهذه بدورها كانت تعيش على أسماك ما زالت أصغر أو على ديدان أو غيرها من الحيوانات، ولكن إذا تتبعنا هذه السلسلة حلقة حلقة فلا بد أن نجد نباتات في نهايتها... فالنباتات إذن هي قاعدة وأساس هرم الحياة الذي يحتل الجنس البشري قمته».

وهكذا نرى أن القرآن أوجز وصف غذاء الإنسان والعناصر التي يعيش منها كما قرره العلم حديثاً.

---

(١) تأليف طومسون كينج.

سُورَةُ الجِنّ

مكية ، وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ
رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى
ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

شرح المفردات

قل : الخطاب هنا لمحمد عليه السلام .

أُوحي إليَّ : نبئت بطريق الوحي .

نَفَرٌ : جماعة بين الثلاثة والعشرة .

الجن : عالم مخلوق من نار غير مرئي .

قرآناً عجباً : يثير الدهشة والعجب من فصاحته وهديه .

يهدي إلى الرشد : يدعو إلى الحق والهدى .

فآمنّا به : صدقنا أنه من عند الله .

تعالى جَدُّ ربنا : تنزهت عظمة ربنا .

صاحبة : زوجة .

سفيهنا : جاهلنا ، والسفيه الخفيف العقل السيء التصرف .

شططاً : قولاً بعيداً عن الحق .

الإنس : الناس .

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا
لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾
وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾
وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ
أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ
ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

شَـرح المفـردَات

يعوذون : يلجأون ويستجيرون .

رهقاً : ظلماً وإثماً ، وقيل : ذلة وضعفاً .

يبعث الله أحداً : يعيدهم أحياء يوم القيامة للحساب .

لمسنا السماء : طلبنا خبرها .

حرساً شديداً : حراساً أشداء وهم الملائكة .

شُهباً : جمع شهاب وهو شعلة النار الساطعة .

مقاعد للسمع : مواضع يقعدون فيها لاستراق السمع .

رصداً : مترقباً لينقض عليه .

رشداً : هداية وتوفيقاً .

دون ذلك : أدنى من الصالحين ، أو هم الكافرون .

طرائق قِدداً : فرقاً شتى ، جمع قدة .

لن نُعْجِزَ : لن نفلت من عقابه .

بخساً : انتقاصاً من حقه في الثواب .

سُورَة الجِنّ

ايضــاح و دروس

هذه السورة تصحح أوهاماً كثيرة عن عالم الجن، وتوضح حقيقة هذا الخلق الخفي عن الأنظار، وقد كان العرب المخاطبون بهذاالقرآن ـ في عهد النبي ﷺ ـ ينظرون إلى الجن نظرتهم إلى آلهة غامضة خفية[١]، وجعلوا بين الجن وبين اللّه نسباً، كما جعلوا للّه شركاء من الجن، وهذا ما ذكره القرآن: ﴿وجعلوا للّه شركاء الجن﴾ الأنعام: ١٠٠. كما كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان والعرافين فيتنبأون بما يُسألون عنه، وهذا ما دحضه القرآن في هذه السورة، كما أن النبي ﷺ أنكر ذلك ونهى عن تصديق الكهنة والعرافين فيما يقولون إذ قال: «من أتى كاهناً[٢] أو عرَّافاً[٣] فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد»[٤].

وأكثر من هذا فقد كانوا يعتقدون بأن للجن سلطاناً على الأرض، فإذا بات الواحد منهم في وادٍ مقفر استعاذ بكبير الجن أن يعتدي عليه أحد من قومه.

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً في كثير من المجتمعات البشرية، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) كاهناً: الكاهن هنا من يتعاطى الإخبار عن الكائنات في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار.

(٣) العراف: هو المنجم الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق والضالة وغير ذلك.

(٤) رواه أصحاب السنن.

كثيرة إلى يومنا هذا.

وكلمة (جن) مشتقة من الإجتنان أي الإستتار، فهم عالم خفي غير مرئي. وتحدث القرآن عن طبيعة أجسامهم فقال: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ الرحمٰن: ١٥، والمارج هو النار الصافية التي لا يشوبها دخان.

وهناك من ينكر وجود الجن أصلاً ويصف أيَّ حديث عن هذا الخلق المغيب عن الأنظار بأنه حديث خرافة.

أما الإسلام فقد جاء يقول كلمة الفصل في هذا الموضوع الذي اختلف فيه الناس بين منكر ومصدِّق، فيقرر الحقيقة، ويثبت وجود الجن، ويبيّن حقيقتهم، ويصحح المفاهيم الخاطئة عنهم، ويحرِّر القلوب من الخوف والخضوع لسلطانهم الموهوم. وفي موضع آخر من القرآن يبيّن اللَّه أن الجن كانت مسخرة لسيدنا سليمان يستخدمها في شؤونه.

والعلم اليوم لا يستطيع أن ينكر كل ما لا يكون تحت يده وحواسه، فهناك قوى طبيعية كانت غائبة عنه ثم ظهرت بواسطة ما استجد من مخترعات وآلات تعين الحواس على الإدراك، والعلم اليوم لم يرَ كل القوى التي استخدمها، فكيف له أن ينكر أشياء هو بنفسه عاجز عن تفسيرها والوصول إليها.

والقرآن الكريم خصّ الجن بسورة أماطت اللثام عن جانب من تصرفاتهم، وهي موضوع دراستنا الآن وفي مستهلها يقول تعالى:

﴿قُلْ: أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾.

فالخطاب هنا للنبي ﷺ، وإيحاء اللَّه له هو إلقاؤه إليه ما يريد أن يعلّمه

إياه من المعارف الدينية، ومما أوحى اللّه إليه هو هذه السورة. ومعنى: ﴿نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾ أي جماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة. وهؤلاء الجن بعد أن استمعوا إلى القرآن رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إنَّا سمعنَا قرآناً عجباً﴾ أي سمعنا قرآناً مثيراً للغرابة والدهشة من حيث مباينته لأمثاله ونظائره من الكتب، بما يحتويه من بديع الحكم، وبالغ العبر، وأصول الهدى.

وقد روي في أسباب نزول هذه السورة عن ابن عباس قوله: ما قرأ رسول اللّه على الجن ولا رآهم، أي أن الجن استمعوا إلى النبي ﷺ دون أن يعلم بوجودهم، وإنما انطلق النبي بطائفة من أصحابه متوجهين إلى عكاظ، وقد حيل بين الجن وخبر السماء بانقضاض الشهب عليهم، فقالت الجن: ما ذاك إلّا لشيء حدث، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا سبب هذا الأمر.. فانطلقوا فصادفوا النبي ﷺ وهو يصلي الفجر بأصحابه في (وادي نخلة) فلما استمعوا له وهو يقرأ القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، ورجعوا إلى قومهم يحدثونهم بما رأوا. وهؤلاء الجن وصفوا القرآن بقولهم:

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾.

فهذا القرآن يهدي إلى الحق والصواب، وإن النتيجة الطبيعية لهذه الهداية هي الإيمان والتصديق بأنه كتاب اللّه ولذا قالوا (فآمنا به) كما أن من مستلزمات الإيمان به الإيمان باللّه إيماناً خالصاً موحداً له غير مشرك به أحداً ولذا قالوا أيضاً: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بربِّنا أَحَداً﴾.

ويتابع القرآن ذكر حديثهم:

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنا ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا على اللّهِ شَطَطاً﴾.

فالجن قد قالوا ﴿وَأَنَّـهُ تَعَالَى جَـدُّ رَبِّنَا﴾ أي عـلا ملك ربنا وسلطانـه وقدرته وعظمته ﴿ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً ولا وَلداً﴾ ما اتخذ زوجة وبالتالي لم يكن له ولد ﴿وأنه كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً[١]﴾ وسفيه الجن هـو إبليس كان يقول على اللَّه قولاً كذباً بما نسب إلى اللَّه من زوجة وولد.

ثم يعتذر الجن عما كان منهم من عقائد باطلة:

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

أي أنهم حسبـوا أنه لن يكـذب أحد على اللَّه سـواء أكان من الإنس أو من الجن ولكن لما سمعوا القرآن أيقنوا أن إبليس كان كاذباً فلهذا سمـوه سفيهاً[٢].

ثم يبيّن القرآن أن استجارة الناس بالجن كانت ضلالاً وخطيئة:

﴿وأَنَّـهُ كَانَ رِجَـالٌ مِنَ الإِنْسِ يعُوذونَ بِـرِجَـالٍ مِنَ الجِنِّ فَـزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾.

وقد روي أن الرجل قبل الإسلام كان إذا أراد المبيت أو الحلول في وادٍ نادى بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طـاعتك، فيعتقـد أن مناداة كبيـر الجن الذي بـالوادي بمنعه ويحميه. ﴿فَزادُوهم رَهَقاً﴾ أي زاد الإنس الجن بفعلهم هـذا طغيانـاً وجراءة عليهم، أو بمعنى: فزاد الجن العائذين بهم من الإنس ضلالاً أو خوفاً، وقيل: إثماً.

ويبيّن القرآن ما كان عليه الجن من عقائد باطلة:

﴿وَأَنَّهُم ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُم أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحداً﴾.

---

(١) الشطط: الغلو في الكذب والكفر والظلم.

(٢) السفيه: الخفيف العقل الجاهل الأحمق.

أي وان الجن ظنوا كما ظننتم يـا كفار قـريش أن لن يبعث اللّه أحداً رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده، وقد يراد بـالبعث إعادة الإنسـان حيّاً للحساب.

كمـا يبين القرآن أن الجن لا يعلمـون الغيب بشـأن البشـر ، وأن مـا يدعيه الكهّان والعرّافون والسحرة من علمهم بالغيب بواسطة الجن هو كذب وافتراء، وبهذا يحرّر الإسلام أتباعه من كل الخرافات والأوهام ويضـع حدًّا لكل ما هو شائع وذائع آنذاك.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسـاً شَديـداً وَشُهُباً. وَأَنَّـا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾.

فاللّه يحكي عن الجن قولهم: ﴿وأَنَّا لمسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي طلبنا أخبـار السماء واللمس هنا استعير للطلب ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئت حَرَساً شديداً﴾ فوجدنا السمـاء ملئت حراسـاً أقويـاء من الملائكـة يحرسـونها من استـراق السمـع ﴿وَشُهُباً﴾ تنقض على مسترقي السمع ﴿وَأَنَّا كنَّـا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِـدَ للسَّمْعِ﴾ وأنّا كنا نقعـد قبل هـذا في السماء في مـواضع خـالية من الحـرس والشهب ﴿فَمَنْ يَسْتَمِـعِ الآن يَجِدْ لَـهُ شهابـاً رَصداً﴾ أمـا من يحـاول الآن استـراق السمع يجد شهاباً معداً ومهيئاً له ينقض عليه فيصيبه ويصده عن الاستمـاع إلى أخبار السماء، فالجن كانـوا قبل بعثـة النبي ﷺ يظفـرون بحاجتهم من أخبار السماء أما بعد بعثة محمد ﷺ فلم يعد للجن نصيب من ذلك.

ويذكر القرآن اعتراف الجن بجهلهم بالغيب ويبين معتقداتهم:

﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن في الأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً. وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدا﴾.

أي نحن معشر الجن لا ندري أعذاباً أراد اللَّه أن ينزله بـأهل الأرض بمنعه إيانا من استراق السمع من السماء، أم أراد بهم خيراً بأن يبعث منهم رسولاً يرشدهم إلى الهدى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصالحون﴾ وهم المسلمون العاملون بطاعة اللَّه ﴿ومِنَّـا دون ذلك﴾ ومنَّـا قوم ليس صـلاحهم كامـلاً أو ليس لهم صلاح ﴿كنّا طَرَائِقَ قِـدَداً﴾ الطرائق: جمع طريقة، وطريقة الرجل مـذهبه، وقدداً: متفرقة مختلفة أي كنا مذاهب مختلفة وفرقاً شتى، فمنا المؤمن، ومنا الكافر.

ويذكر القرآن اعتراف الجن بقدرة اللَّه القاهرة وسلطانه المطلق:

﴿وأَنَّا ظَنَنّا أن لن نُعجز اللَّهَ في الأرض وَلن نُعجزه هرباً﴾.

الظن هنا بمعنى العلم واليقين، أي أنهم علموا وأيقنوا أنهم لن يسبقوا اللَّه في الأرض فلا يدركهم، كما أنهم لا يقدرون أن يفوتوه بهـرب إن أراد بهم عقاباً، فهو يطالهم أينما كانوا.

ثم يصف القرآن حال الجن عند سماعهم القرآن.

﴿وَأَنَّـا لَمَّا سَمِعْنَـا الهُدى آمنَّـا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِـرَبِّهِ فَـلاَ يَخَافُ بَخْسـاً وَلاَ رَهَقاً﴾.

فهؤلاء الجن لما سمعوا القرآن وسموه (الهدى) لأنه النور الذي يهدي قلوبهم إلى الحق، لما سمعوه صدّقوا وأقرّوا بأنـه من عند اللَّه، ومن يؤمن بربه فلا يخاف ﴿بخساً﴾ أي انتقاصـاً من حقه في الثـواب فيعطى أقـل مما يستحق، كما أنه لا يخاف ﴿رَهَقاً﴾ أي ظلماً لا يطاق تحمله أو إثمـاً يحمل عليه من سيئات غيره، وهذا يبيّن عدالة اللَّه التي تطمئن النفوس إليها وتُغْريها بسلوك طريق الإيمان.

وَأَنَّا مِنَّا
ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾
وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى
ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ
عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا
تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ
عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى
لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ

شرح المفردات

المسلمون : الذين أسلموا لله وخضعوا له بالطاعة .

القاسطون : الجائرون الحائدون عن سبيل الهدى .

تحرّوا رشداً : قصدوا طريق الحق .

لجهنم حطباً : وقوداً لجهنم .

استقاموا على الطريقة : ساروا على طريق الإسلام .

ماء غَدَقاً : ماء كثيراً ، والمراد توسعة الرزق عليهم .

لنفتنهم : لنبلوهم ونختبرهم .

صعداً : شديداً شاقاً .

عبد الله : أي محمد عليه السلام .

يدعوه : يعبد ربه وحده .

لِبَداً : متراكمين من ازدحامهم عليه .

رشداً : هداية .

لن يُجيرني من الله أحد : لن يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي .

أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾
قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

شرح المفردات

مُلتحداً : ملجأ ألجأ إليه .

إلَّا بلاغاً من الله ورسالاته : لا أملك إلَّا تبليغ رسالة الإسلام .

ما يُوعدون : ما يُنذرون به من العذاب .

ناصراً : معيناً وحامياً .

إنْ أدري : ما أدري ، وإن حرف نفي بمعنى ما .

أمداً : زماناً بعيداً .

الغيب : ما خفي علمه عن العباد .

فلا يُظهر : فلا يطلع .

إلَّا من ارتضى من رسول : إلَّا من اصطفاه لرسالته ونبوته .

يسلك : يبث ويرسل .

رصداً : حراساً وحفظة من الملائكة .

تَابع سُورَة الجِنّ

والجن فريقان بالنسبة إلى الإيمان:

﴿وأَنَّا مِنَّا المسلمون ومِنَّا القاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأولئك تحرَّوْا رشداً. وَأَمَّا القاسِطُونَ فَكانُوا لجهنَّم حطباً﴾.

فالجن كالبشر منهم المسلمون الذين أسلموا للَّه وساروا على هديه فهؤلاء ﴿تَحَرّوا رَشَداً﴾ أي قصدوا طريق الحق عن تحرٍّ وبحث وتمحيص واجتهاد لأن التحري يعني كل ذلك، ويقودنا هذا إلى أن الإسلام ينبغي أن يكون نتيجة نظر وفكر وتأمل ليكون إسلاماً مطمئناً واثقاً مبنياً على قواعد ثابتة لا تتزحزح لأدنى شبهة أو تنهار لأي شكوك شأن الإسلام المبني على الوراثة غير المصحوب بالدراسة والبحث. أما ﴿القَاسِطُونَ﴾ أي الجائرون الظالمون المنحرفون عن طريق الهدى والرشد فمصيرهم أن يكونوا وقوداً للنار يزيدون في لهبها.

ويبين القرآن بأن الناس لو سلكوا سبيل الهداية لجاد اللَّه عليهم بالنعم:

﴿وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقيناهُم مَاءً غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾.

أي ولو سلكوا الطريق القويم طريق الحق والخير وهو الإسلام ﴿لأسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾ أي لأسقيناهم ماءً غزيراً، والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم وإغداق النعم لهم ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾ أي لنختبرهم ونمتحنهم به.

فالقرآن يبيّن حقيقتين يجب أن تعيها الأمم:

الحقيقة الأولى: أن الحياة الطيبة ورغد العيش إنما هو أثر من آثار تقوى اللَّه والعمل بطاعته.

والحقيقة الثانية: أن الرخاء الذي يسبغه اللَّه على عباده السائرين على هديه هو اختبار لهم وامتحان كما قال سبحانه: ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾ فالاختبار بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الانزلاق في الآثام. فنعمة المال وسعة الرزق غالباً ما تقود إلى البطر وقلة الشكر، ونسيان الإنسان لربه، والإعراض عن دينه مما يؤدي إلى الحرمان من النعم، وحلول عذاب اللَّه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ومن يُعرض عن ذِكْرِ ربه يَسلكه عَذَاباً صَعداً﴾ ومعنى: ﴿ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عبادة ربه، أو القرآن، أو مواعظ ربه. ﴿يَسْلُكه﴾ يدخله ﴿عَذاباً صَعَداً﴾ أي عذاباً شاقاً، لا راحة فيه.

ويدعو اللَّه نبيه إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به:

﴿**وَأَنَّ المسَاجِدَ للَّهِ فلا تدعوا مَعَ اللَّه أَحَداً**﴾ والمساجد هي الأماكن التي يحصل فيها السجود، فالمسجد إسم مكان مأخوذ من الفعل سجد فالمساجد هي المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة، لذلك توصف بأنها بيوت اللَّه.

فقد كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيَعهم أشركوا باللَّه فأمر اللَّه نبيه والمؤمنين أن يوحّدوا اللَّه وحده ويخلصوا له الدعاء.

وبعد هذا يبيّن القرآن تصرفات الجن أو الكافرين إزاء النبي ﷺ:

﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادوا يكونونَ عَلَيْهِ لِبَداً**﴾.

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي ولما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كادوا﴾ قاربوا وأوشكوا ﴿يكونون عليه لِبَداً﴾ لبدا: أي

مجتمعين بعضهم على بعض، وتأتي بمعنى: يركب بعضهم بعضاً. والضمير في ﴿كادوا﴾ يمكن أن يعود على الجن على اعتبارهم أنهم لما استمعوا إلى النبي وهو يتلو القرآن في صلاته قارب أن يركب بعضهم بعضاً من شدة ازدحامهم حوله إعجاباً بما تلا من القرآن وما رأوا من عبادته.

ويمكن أن يعود الضمير في ﴿كادُوا﴾ على كفار قريش، فيكون المعنى: ولما قام محمد بالرسالة الإلهية يعبد اللّه وحده التفوا حوله جماعات جماعات محاولين إطفاء نور اللّه وضرب الحصار حوله، للحؤول دون انتشار دعوته والإفادة منها.

أمام هذا يأمر اللّه نبيه ﷺ بمخاطبة المشركين بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً. قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولا رَشَداً﴾.

أي قل لهم يا محمد: إنما أعبد ربي ولا أُشرك معه أحداً في العبادة، وقل لهم: لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير إليكم، وليس لي من الأمر شيئاً في هدايتكم ولا غوايتكم.

هذه هي دعوة الإسلام واضحة خالية من التعقيد والألغاز، فهي تقوم على عبادة الله وحده، كما أنها تصحح المفاهيم الباطلة التي تسيطر على كثير من اتباع الديانات الذين جعلوا انبياءهم في منزلة الله ونسبوا إليهم النفع والضر، بينما ذلك من اختصاص الله وحده.

ثم يؤكد القرآن هذا المعنى فيقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحداً﴾.

أي قل يا محمد لن ينصرني ويحميني من عذاب اللّه أحد إن عصيته،

ولن أجد من غيره ملاذاً أو ملجأ ألجأ إليه.

فالنبي ﷺ لم يخرج عن كونه بشراً يسري عليه ما يسري على الناس جميعاً من الثواب إن أطاعه والعقاب إن عصاه كما قال سبحانه:

﴿إلَّا بلاغاً مِنَ اللَّهِ ورسالاته، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً. حَتَّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾.

فاللَّه يأمر نبيه بأن يقول لقومه: بأنه لا يخلصه ولا ينجيه إلّا تبليغ رسالة اللَّه التي أمره سبحانه بأدائها، ومن يعص اللَّه ورسوله فإن له نار جهنم ماكثاً فيها أبداً في الآخرة. والعصاة عندما يرون العذاب ـ الذي يعدهم به ربهم ـ ماثلاً أمام أعينهم تتبدى لهم حقيقة ضعفهم، ولا ينفعهم يومئذٍ أنصارهم، وهم يومئذٍ قلة لا يعتد بها أمام جند اللَّه الذين لا يحصون لكثرتهم.

ويأمر اللَّه سبحانه نبيه بأن يخبر قومه جهله بأمور الغيب ومنها يوم القيامة:

﴿قُلْ إنْ أَدري أقرِيبٌ ما تُوعَدونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ ربي أمداً. عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ على غيبه أحداً. إلَّا من ارتضى مِنْ رَسولٍ فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصداً﴾.

والمراد بقوله سبحانه ﴿إن أدري أقريبٌ ما توعَدُونَ﴾ إن: نافية بمعنى ما، أي: ما أدري أقريب ما توعدون به من العذاب الدنيوي أو من عذاب يوم القيامة، أم يجعل له ربي ﴿أمداً﴾ أي أجلاً وزمناً بعيداً. فاللَّه سبحانه اختص بعلم الغيب وعلم الساعة التي تأتي فيها القيامة، وقد استثنى اللَّه

حالة واحدة من الغيب ﴿إلّا من ارتضى من رسول﴾ أي إلّا من يصطفيه اللَّه لرسالته ونبوته فيطلعه على ما يشاء من الغيب حتى يُستدل على نبوته بما يخبر به من المغيبات فيكون ذلك معجزة له وآية دالة على نبوته. واللَّه سبحانه أحاط هؤلاء الرسل بالحراس من الملائكة لحفظهم وهم الذين سماهم ﴿رصداً﴾.

ويأتي ختام هذه السورة بقوله سبحانه:

﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالات ربِّهم وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شيءٍ عدداً﴾.

أي ليعلم رسول اللَّه محمد أن الأنبياء قبله قد أبلغوا أقوامهم ما أمرهم اللَّه بتبليغه من شرعه وأن اللَّه أحاط علمه بما عند الرسل من الشرائع كما أنه سبحانه أحصى ما خلق فلم يفته شيء من خلقه ولم تخفَ عليه خافية.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مكية ، وآياتها عشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾
أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا
طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ
وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

شرح المفردات

المزّمّل : المتلفف بثيابه ، وقيل : الحامل أمراً عظيماً وهو النبوة ، وهو محمد ﷺ .

قُم الليلَ إلاّ قليلاً : قم للصلاة والعبادة في الليل إلاّ قليلاً تنام فيه .

نِصْفَهُ أو انقُص منه قليلاً : أي قم نصف الليل للعبادة أو أقل من ذلك .

أو زِدْ عليه : أي تعبد أكثر من نصف الليل بقليل .

رتّل القرآن ترتيلاً : اقرأه في تأنٍّ وتثبت متأملاً حقائق الآيات .

قولاً ثقيلاً : كلاماً عظيماً جليلاً وهو القرآن .

ناشِئَة الليل : العبادة التي تنشأ به وتحدث ، والمعروفة بقيام الليل .

أَشدُّ وَطأً : أثبت قياماً وأكثر موافقة .

أقوم قِيلاً : أصوب قراءة .

سَبْحاً طويلاً : تصرفاً وتقلباً في مهماتك .

تبتّل إِلَيْهِ تَبتيلاً : إنقطع إليه في العبادة وتوجه إليه دون سواه .

فاتخذه وكيلاً : إعتمد عليه وفوض أمرك إليه . .

وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ
قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا
مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ

شَرح المفردات

هَجْراً جميلاً : اعتزالاً حسناً لا جزع فيه .

ذرْني : دعني ، بمعنى الوعيد ، أي اتركهم لي أتولى أمرهم .

والمكذّبين : أي المكذبين بالقرآن .

أُولي النَّعْمة : أهل التنعم .

ومهّلهم قليلاً : أمهلهم إلى نزول العقوبة فيهم .

أَنْكالاً : قيوداً شديدة ثقالاً .

وطعاماً ذا غُصَّة : طعاماً يغص به آكله .

ترجُفُ الأرض : تضطرب وتتزلزل .

كثيباً : رملاً مجتمعاً .

مهيلاً : رخواً ليناً إذا وطئته القدم زلَّ من تحتها ، وقيل : منثوراً .

رسولاً : أي محمد ﷺ .

فأخذناه : عاقبناه .

أَخْذاً وبيلاً : عقوبة شديدة ، والوبيل أي الشديد .

يجعل الوِلدان شيباً : يشيب به الصبيان من الهول والفزع .

مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩ ۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ
وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ
أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ
أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ
مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ
مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ
وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ
أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠

شَرح المفردَات

السماءُ منفطر به : أي السماء متشققة في ذلك اليوم .

كان وعده مفعولاً : كان وعد الله بحصول القيامة أمراً محتماً .

تذكرة : موعظة .

اتخذ إلى ربه سبيلاً : أي طريقاً يوصله إلى مرضاة ربه بالإيمان والطاعة .

تقوم : أي تتعبد وتتهجد .

أدنى من ثلثي الليل : زماناً أقل من ثلثي الليل .

ونصفه وثلثه : وتتعبد نصف الليل وثلثه .

وطائفة من الذين معك : ويتعبد في هذا المقدار جماعة من أصحابك المؤمنين .

والله يُقَدِّر الليل والنهار : أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقيقتها .

لن تُحصوه : لن تطيقوا ضبط وقت قيام الليل .

يضربون في الأرض : يسافرون للتجارة ونحوها .

يُقاتلون في سبيل الله : يجاهدون لنشر دين الله .

سُورَة المُزَّمِّل

ايضـــاح و دروس

يُروى في سبب نزول سورة المزمل روايات عدة منها:

أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تدبّر كيدهـا للنبي ﷺ لتصدّ النـاس عن دعوته، فبلغ ذلك رسول اللّه فاغتم له وتزمل في ثيابه (أي ٱلتف بها) ونام مهموماً فجاءه الملك جبريل وقال: ﴿**يـا أَيُّهَا المُـزَّمِّل**﴾ أي يـا أيها الملتف بثيابه، ونداؤه بذلك تأنيس لـه وملاطفـة على عادة العـرب من اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها.

وقيل: لما جاء جبريل النبي في غار حراء خافه النبي ورجع إلى منزله مرتعداً وأوى إلى فراشه وقال: زملوني، زملوني، فبينمـا هو كذلـك إذ جاءه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّر﴾، وعلى إثرها نزل: ﴿يَا أَيُّهَا المزمِّل﴾.

وقيل: إن النبي كان قـد تزمـل في ثيابـه للصلاة واستعـدّ لها فنـودي ﴿يا أَيُّهَا المزمِّل﴾ بمعنى: يا أيها المستعد للعبادة.

وقوله سبحانه: ﴿**قُمِ الليلَ إلاَّ قليلاً**﴾ أي قُم الليل بالعبـادة إلاّ قليلاً تنام فيه، والخطاب هنا للنبي ﷺ، إنها دعوة من أعـالي السماء تـدعوه لأن يترك النوم ويقـوم الليل بـالعبادة ويتهيـأ للعبء الثقيل الملقى على عـاتقه، وهو عبء الدعوة إلى اللّه.

وإذا كان الخطاب هنا للنبي فهو في الوقت نفسه خـطاب إلى أتباعـه المؤمنين ليشاركوه في العبادة وعبء الدعوة إلى اللّه، ولهذا نهج المسلمون نهج النبي ﷺ في قيام الليل واقتدوا به.

هذه هي باكورة التكاليف الإِلٓهية: بترك الفـراش، والقيام ليـلاً بعبادة

اللّٰه التي تشمل الصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل والاستغفار.

ولا بد من الإشارة إلى أن العبادة في الليل هي بمثابة التدريب العسكري للمبتدئين بدخول الجيش، ولكن العبادة هي تدريب من نوع آخر، إنها تدريب روحي تصل المؤمنين بالخالق، وتقوي أرواحهم وتنشطها، وتجعل نفوسهم طيعة لقبول الأوامر الإلٰهية، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإن العبادة في الليل تورث الأبدان صلابة، وتدرّبها على تحمل الخشونة بحيث تصبح النفس بعدها مهيأة لتقبّل أعباء الحياة برضى وصبر، وتجنب ما عليه المترفون من الراحة والانغماس في الملذات التي تضعف الهمم، وتصرفها عن جسام الأمور، فالعبادة في الليل هي مدرسة المؤمنين الأولى التي تخرّج منها المسلمون الأولون، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وهي الأمة التي فتحت البلدان، ونشرت الهدى والعدالة في أقطار المعمورة.

فاللّٰه سبحانه يقول في شأن العبادة:

﴿قُم اللَيْلَ إلاَّ قَليلاً. نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَليلاً. أَوْ زِدْ عَليه وَرَتِّلِ القرآنَ تَرْتيلاً. إنَّا سَنُلْقي عَلَيْك قَوْلاً ثَقيلاً﴾.

فالواجب أن تكون العبادة في الليل طويلة مقدار نصف الليل أو أقل من ذلك بقليل بحيث لا تقل عن ثلث الليل، حتى يكون لها التأثير المطلوب والفعل الناجح في صقل الروح واتصالها بالخالق، أو تزيد على نصف الليل بما دون الثلثين خشية أن يؤدي القيام الطويل بالعبادة إلى عكس المراد منه، فيضعف الجسم ولا يعود بعدها قادراً على تحمل أعباء الحياة[١]. ومعنى

---

(١) روي أنه لما نزلت هذه الآيات شرع المسلمون بقيام الليل لعبادة اللّٰه سنة أو أكثر حتى ورمت أقدامهم فأمر اللّٰه تخفيف ساعات قيام الليل كما جاء في آخر هذه السورة.

﴿وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرْتيلاً﴾ أي اقرأ القرآن قراءة إمعان وتدبر بتبيين حروفه وقراءته بتمهل آية إثر آية، ولا تسرده سرداً يضيع معه التدبّر وفهم المعنى، ويشمل ذلك التنغم بلا تكلف، وفي الحديث الشريف «زَيِّنوا القرآن بأصْواتكم».

﴿إنَّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلاماً عظيماً جليلاً ـ وهو القرآن ـ له الأرجحية على كلام البشر لما اختص به من هداية وحكمة وفصاحة وبيان، أو سيكون القرآن ثقيلاً شديد الوطأة على الناس لما فيه من ترك ما ألفوه من العقائد الباطلة، ونبذ ما ورثوه من التقاليد الفاسدة.

ويبين اللَّه الحكمة من قيام الليل للعبادة وقراءة القرآن فيه:

﴿إنَّ نَاشِئَةَ اللَيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً. وَإِنَّ لَكَ في النَّهارِ سَبْحاً طَويلاً فَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتيلاً. رَبُّ المشْرِقِ وَالمغربِ لا إلَـه إلاَّ هُو فَاتَّخِذْهُ وكِيلاً﴾.

فناشئة الليل هي ساعات الليل كلها وما ينشأ فيها من الطاعات كتلاوة القرآن والصلاة والعبادة فهي ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أشد ثبات قدم وبعداً عن الاضطراب وأثقل على المصلي من ساعات النهار. وقرئت ﴿وِطَاءً﴾ بكسر الواو وفتح الطاء بمعنى الموافقة أي أن الصلاة في الليل أكثر موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأصوب قولاً، فهدوء الأصوات في الليل وسكون الحركة فيه أجمع للتدبر في معاني القرآن والخشوع في الصلاة.

﴿وَإِنَّ لَكَ في النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ أي إن لك في النهار تصرفاً في حوائجك وفراغاً طويلاً تتسع به فإن فاتك في الليل شيء من ذكر اللَّه فلك في النهار فراغ لاستدراك ذلك ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكر ربك الذي

تعهدك بالخلق والتربية ﴿وَتَبَتَّل إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي انقطع إليه في العبادة وأخلص له النية ولا تشرك به غيره، والتبتل: الإنقطاع عن الدنيا إلى اللّه تعالى ﴿رَبُّ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ لا إلَه إلاَّ هُوَ﴾ فهو سبحانه مالك لمشارق الأرض ومغاربها لا إلَه غيره ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ أي فاركن إليه وحده واستسلم له واعتمد عليه.

ثم يأمر اللّه نبيه بالصبر على ما يلقاه من قومه من التكذيب والإعراض، وأن يهجرهم هجراً لا يشوبه أذى ولا غضب أو نزاع أو عقاب.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يقولُونَ. واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً﴾.

ويعقّب اللّه على ذلك بالتهديد لهؤلاء المكذبين:

﴿وَذَرْني والمُكَذِّبينَ أُولي النَّعْمَة وَمَهِّلْهُمْ قَليلاً﴾.

أي دعني ومن كذّبك من أصحاب التنعم في الدنيا والترف لا تهتم بهم، ولا تفكر في أمرهم فأنا أكفيكهم وحسابهم عندي، وأمهلهم إمهالاً قليلاً فسيحل بهم عذابي عاجلاً أم آجلاً. فهؤلاء المكذبون سماهم القرآن: ﴿أُولي النَّعْمَةِ﴾ فهم رفضوا دين اللّه لأنهم يريدون الاستئثار بكل ما أنعم اللّه عليهم لأنفسهم ولعيالهم، بينما التصديق برسالة اللّه والعمل بها، يستلزم التخلي عن بعض ملذاتهم وبعض ما يرفلون به من النعم لصالح غيرهم من الطبقات المحرومة وهذا هو سرّ موقفهم المعادي لدعوة الإسلام.

هؤلاء المكذبون لهم في الآخرة قيودٌ ونارٌ وطعام لا يُستساغ وعذاب مؤلم:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾.

فالأنكال جمع نِكل وهو القيد الثقيل، والجحيم دار العذاب في الآخرة

التي تشتعل بالنيران، والطعام ذو الغصة هو ما أعـده اللَّه في تلك الدار من الطعام المنكر البشع الذي ينشب في حلوق آكليه فيغصون به بالإضافة إلى ذلك لهم عذاب مؤلم موجع.

ويصف اللَّه مشهداً من أهوال يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ. وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾.

فالأرض والجبال تضطرب وتتزلزل بمن عليها، وتصبح الجبال تِـلالاً من الرمل إذا حرك أسفلها انهالت وتتابعت في الانهيال.

ثم يخـاطب اللَّه المكذبين بـدعوة رسـوله محمـد ﷺ مهدداً إيـاهم، ومُذكراً لهم بما حلّ بفرعون وقومه جزاء عصيانهم لرسوله الذي أرسله إليهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِـداً عَلَيْكُم كَمَـا أَرْسَلْنَـا إِلَى فِـرْعَـوْنَ رَسُولاً. فَعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾.

فالرسول محمد ﷺ يشهـد يوم القيـامة بمـا صدر عن قـومه من كفـر وعصيان، وقد أرسله اللَّه إلى قومه كما أرسل إلى فرعون رسولاً وهو موسى عليه السلام وقد عصى فرعون وقومه موسى فعـاقبهم اللَّه عقابـاً شديـداً بأن أهلك فرعون وجنوده غرقاً.

كما يذكّر اللَّه الكافرين بأهوال يوم القيامة، ومـا هم مقبلون عليه من عذاب:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِـهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعولاً﴾.

أي كيفَ تقون أنفسكم ـ إن بقيتم على كفركم ـ عذابَ يوم تشيب له

رؤوس الأطفال من شدة الهول والفزع، والسماء تكون في ذلك اليوم متشققة من شدة ذلك اليوم وعظيم هوله، ويؤكد اللَّه ذلك الأمر بأنه واقع لا محالة ﴿كان وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي كان وعد اللَّه واقعاً لا محالة وهو لا يخلف وعده.

ثم يعود القرآن ليبين الغاية من تلك الآيات السابقة:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

فهذه الآيات السابقة التي فيها تخويف للكفار يسوقها اللَّه للعظة والعبرة والتذكير لمن شاء أن يتعظ فيسلك الطريق المؤدي إلى رضاء ربه.

وأخيراً يختم اللَّه هذه السورة بآية طويلة نزلت بعد مطلع هذه السورة بعام وفيها يخبر اللَّه المؤمنين بأنه يعلم قيامهم بالليل للعبادة وقد قَبِلَهَا منهم، وأنه سبحانه خفف عنهم أمره في قيام الليل، يقول تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّك يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ واللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُم فَاقْرأُوا مَا تَيَسَّر مِنَ القُرآنِ..﴾.

فاللَّه سبحانه يقول: فعلت أيها النبي ومن معك من المؤمنين ما أمرناكم به من قيام ثلث الليل ونصفه وأقل من الثلثين في العبادة ونحن نعلم ذلك ﴿واللَّهُ يُقَدِّرُ الليلَ وَالنَّهارَ﴾ واللَّه يحدد امتداد كل منهما ويعلم أجزاءهما وساعاتهما ﴿عَلِمَ أن لَنْ تُحْصُوهُ﴾ علم أنه لا يمكنكم إحصاء كل جزء من أجزاء الليل والنهار ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إذ عجزتم وضعفتم عن القيام بالليل وتأتي التوبة بمعنى الرجوع، أي رجع ربكم بكم إلى التخفيف ﴿فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّر مِنَ القرآنِ﴾ قيل المراد بذلك الصلاة لأن قراءة القرآن من أعظم أركانها، أي أدوا ما تيسر لكم من الصلاة، أو بمعنى: اقرأوا ما تيسَّر

لكم من القرآن من دراسته وتلاوته بإمعان وَتَدَبُّر.

ويتابع القرآن فيذكر الأسباب المخففة لرفع الوجوب عن قيام الليل في تتمة الآية السابقة:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾ فالمؤمنون قد يطرأ عليهم أمراض وعلل يتعذر عليهم قضاء قسم من الليل بالعبادة.

﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّه﴾ هؤلاء هم التجار والمسافرون في البلاد يطلبون الرزق وكسب المال مما هو فضل من اللَّه ونعمة، فهؤلاء قد تحول أسفارهم والمشاق التي تلحقهم دون قيام الليل.

﴿وآخرونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الذينَ يعملون على نشر الإسلام والدعوة إليه ومحاربة من يتصدى لمنعهم من أداء مهمتهم هذه، أو الدفاع عن وطنهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَاقْرأوا ما تَيَسَّر مِنْهُ وَأَقيموا الصَّلاَةَ وَآتوا الزكاة﴾ فقراءة ما تيسّر منه، أي من القرآن، وإقامة الصلاة هي توفيتها حقها من خشوع وإخلاص مما يحول بين الإنسان واقتراف الفواحش والمنكرات، وإيتاء الزكاة هي إخراج الأموال الواجبة على المسلمين من ثرواتهم ودفعها للمستحقين لها من الفقراء وغيرهم من المعوزين.

ويضيف اللَّه إلى ذلك قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ حَثٌّ على إنفاق المال في رضاء اللَّه من الصدقات ووجوه الخير، وهنا يجعل اللَّه إنفاق المال في هذا السبيل بمنزلة الإقراض للَّه، واللَّه غني عن العالمين الذي له مُلك السماوات والأرض ومن فيهن، وإنما جاء التعبير في هذه الصورة ترغيباً

في الإحسان الذي سيرده اللّه سبحانه للمحسن أضعافاً مضاعفة.

ويختم اللّه هذه السورة بقوله: **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّهِ هُوَ خيراً وَأَعْظَمَ أَجْراً، واسْتَغْفِرُوا اللّهَ، إِنَّ اللّهَ غفورٌ رَحيمٌ﴾**.

فاللّه سبحانه يخبر المؤمنين بأنهم سيجدون في الآخرة ثواب ما قدَّموا في دنياهم من خير، سواء أكان صدقة أم عبادة وطاعة، وهذا الثواب سيجدونه خيراً وأفضل مما عملوه في دنياهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ أي إن الأجر المخصص لهم في الآخرة إذا قيس بالعمل الذي قدموه في الدنيا يجدونه أعظم وأفضل من عملهم. ﴿واسْتَغْفِرُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي اطلبوا الغفران لذنوبكم ولتقصيركم في العبادة إنه سبحانه يغفر ذنوب من استغفره ويرحم عبده التائب إليه.

سُورَةُ المُدَّثِّر

مكية ، وآياتها ست وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ
فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾
ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾
وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ

شرح المفردات

المدَّثِّر : المتلفف بثيابه .

قُمْ فأنْذِر : قم قيام عزم وتصميم ، وبلغ رسالة ربك ، وحذرهم من العذاب .

وربَّك فَكبِّر : خصص ربك بالتكبير والتعظيم .

وثيابك فَطهِّر : طهر ثيابك من النجاسة ، أو طهر نفسك من ذميم الأفعال والآثام .

والرُّجْزَ فاهْجُرْ : أُهجر المآثم الموجبة للعذاب .

ولا تَمنُنْ تَسْتَكثِر : لا تعطِ لتأخذ أكثر مما أعطيت .

نُقِرَ في النَّاقور : نفخ في الصور، والصور مثل القرن (البوق) ينفخ فيه إيذاناً بالبعث .

ذَرْني : دعني وَكِلْ أمره إليّ .

خَلَقْتُ وحيداً : خلقته وحدي لم يشاركني في خلقه أحد .

مالاً ممدوداً : مالاً كثيراً وفيراً .

وبنين شهوداً : أبناء حاضرين معه لا يفارقونه ولا يسافرون للتكسب وذلك لغناهم عنه .

مَهَّدْتُ له تمهيداً : بسطت له المال والجاه والرياسة .

إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾
فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾
لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ
أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ

شرح المفردات

لآياتنا عنيداً : جاحداً معانداً لما جاء به النبي ﷺ من الوحي .

سأُرْهقه صَعوداً : سأذيقه عذاباً شاقاً لا يطاق .

قَدَّر : هيأ في نفسه قولاً طاعناً .

فَقُتِلَ : لعن أو قبح .

نَظَرَ : تأمل فيما هيأ من الطعن .

بَسَرَ : قطَّب وجهه وتغير لونه .

أَدْبَرَ : أعرض عن الحق .

سِحْرٌ : السحر هو الخديعة وإظهار الباطل في صورة الحق .

يُؤْثَرُ : يروى وينقل عن غيره .

سأُصْليه سَقَر : سأدخله النار ، وسقر من أسماء جهنم .

لا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ : تأتي على كل شيء .

لَوَّاحَةٌ للبَشَر : مسودة للجلود محرقة لها ، والبشر جمع بشرة وهي ظاهر جلد الإنسان .

عليها تِسْعَةَ عَشَر : أي من الملائكة يتولون أمرها .

عِدَّتَهُمْ : عددهم .

فِتْنَةً : اختباراً لهم .

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ
﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ
أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى
جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾

شرح المفردات

ليستيقن الذين أوتوا الكتاب : ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدد خزنة جهنم موافق لما في كتبهم .

ولا يرتاب : ولا يشك .

في قلوبهم مرض : هم المنافقون .

جنود ربك : أي الملائكة المختصون بعذاب أهل النار .

كلَّا ، والقمر : كلا بمعنى ردع، والواو للقسم ، وقد أقسم سبحانه بالقمر .

والليل إذْ أدبَرَ : وأقسم سبحانه بالليل إذا ولّى .

والصُّبْح إذا أَسْفَرَ : وأقسم سبحانه بالصبح إذا أضاء .

إنَّهَا لإحْدَى الكُبَر : إنها لإحدى عظـائم العقوبات وهي النار .

نذيراً للبَشَر : لأجل إنذار البشر ، والإنذار إخبار فيه تخويف .

يَتَقَدَّم أو يتأخَّرَ : يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية .

كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهينةٌ : كل نفس مرتهنة بكسبها ، مؤاخذة على عملها .

ما سلككم : ما أدخلكم .

قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ
مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾
فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ
مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾
كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

شــرح المفــردات

نخوض مع الخائضين : نخالط أهل الباطل في باطلهم ونجاريهم فيه .

نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّين : لم نصدق بيوم القيامة ، يوم الجزاء على الأعمال .

أتانا اليقين : جاءنا الموت .

التَّذْكِرَةِ : مواعظ القرآن التي تذكّر بالآخرة .

مُعرضين : جاحدين لها ، تاركين العمل بها .

كأنَّهم حُمُرٌ : كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية ، وحُمُر جمع حمار .

مُسْتَنْفِرَة : نافرة مذعورة .

قَسْوَرَة : هم الرماة والصيادون ، وقيل : الأسد .

صُحُفاً مُنَشَّرةً : صحفاً منشورة تقرأ على الناس .

إنَّه تذكرة : أي إن القرآن عظة .

فمن شاء ذَكَرَهُ : فمن شاء اتعظ به .

وما يذكرون : وما يتعظون .

أهْلُ التقوى : أهل لأن يتقى ويخاف .

أهلُ المغفرة : أهل لأن يغفر لمن تاب .

سُورةُ الْمُدَّثِّر

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تحث رسـول اللّه على إنذار قـومه وتـرك ما لا يصـح أن يصدر منه وأن يترك من جحد فضل اللّه عليه، كما أخبرت هذه السورة عن صفات المجرمين ومصيرهم في النار يوم القيامة.

وهـذه السورة من أوائـل ما نـزل من القرآن، وبيـان ذلـك أن الملك جبريل بعد أن لقَّن النبي محمداً ﷺ أوائـل سورة ﴿إقـرأ باسْمِ ربِّـك الذي خَلَق﴾ وحصل له في بادىء الأمر ما حصل من الخـور والتأثـر، تخلّف عنه الملك جبـريل بعض الـوقت، ريثما يهـدأ روعه، وليحصـل له الحنين إلى الوحي. ويُروى عن جابر بن عبد اللّه، أنه سمع رسول اللّه يحدّث عن فترة الوحي (أي انقطاعه) وعن كيفية رجوعه إليه، فقال رسول اللّه ﷺ: فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي قِبلَ السماء فـإذا الملك الذي جاءني بحراء (غار حراء) جالساً على كرسيّ بين السماء والأرض فجُثثْتُ منه (أي فَزِعْتُ منه وخِفْتُ)، فرجعت فقلت: زمّلوني، زمّلوني، فدثّروني فأنزل اللّه:

﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرْ. قُمْ فَـأَنْذِرْ. وَرَبَّـكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالـرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ثم تتابع نزول الوحي(١).

والمدثر هو المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء، والدثار هو ما يُلبس فـوق الثياب الداخلية الملاصقة للبدن، أما الداخلية هذه فتسمى الشعار.

فاللّه سبحانه خاطب نبيه بقوله: ﴿يا أيُّها المدَّثِّر. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي يا أيها

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

المتغطي بثيابه، أو بمعنى: يا أيها المدثر بلباس النبوة والمعارف الإلّهية ﴿قُمْ﴾ وانشط من مضجعك هذا، فإن العناية الإلّهية قد رشحتك لمقام سام، ونشر دين عام ﴿فَأَنْذِرْ﴾ أي خوِّف قومك، وحذرهم من العذاب إن لم يسلموا، فهنا تنبيه للخطر القريب الذي يترصد المنغمسين في الضلال إذا استمروا على ضلالهم، وتحذير لهم إذا لم يستجيبوا للدعوة إلى الإسلام.

ويتابع اللَّه مخاطباً نبيه: ﴿وربَّك فَكَبِّر﴾ أي خصه وحده بالكبرياء، وأفرِدْه بالعظمة والمجد، هذا التصور لمقام الألوهية يقوي قلب النبي ﷺ، فيستصغر كل كيد، وكل قوة تعترض سبيله، فيبلغ دعوته وهو واثق من النصر مستصغر للصعاب، فاللَّه الذي يدعو الناس إلى عبادته هو أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، وهكذا حال المسلم فبمجرد أن يتلفظ بتكبير اللَّه، ويستشعر معناه، يهون أمامه كل صعب، ويتجاوز كل خطر.

ثم يقول اللَّه لنبيه ﷺ: ﴿وثيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر ثيابك من الأنجاس بالماء، فقد كان المشركون لا يتطهرون فأمره سبحانه أن يتطهر ويطهر ثيابه، وقيل: إن المراد بذلك هو تطهير النفس من أدران الأخلاق الذميمة، ومن المعتقدات الباطلة، والمعاصي والخطايا، فالعرب جرت عادتهم أن يقولوا: فلان طاهر الثياب، أو نقي الثياب، يريدون نقي النفس من الذنوب ومن دنس الأخلاق، وإذا كان خبيث العمل قالوا فلان خبيث الثياب. والنبي ﷺ لم يُعرف عنه خصلة ذميمة أو اقتراف لمعصية وإنما المراد بذلك توجيه الخطاب إلى قومه ليتطهروا من المعاصي والأخلاق الذميمة.

ويقول اللَّه لنبيه ﷺ أيضاً: ﴿والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي اهجر ما يؤدي إلى عذاب اللَّه، والرجز في اللغة: العذاب ثم أصبح يطلق على كل ما يؤدي إلى العذاب، من الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، واقتراف المعاصي والآثام. وليس معنى هذه الوصية أن النبي ملوّث بشيء من دنس الوثنية، أو العيوب

أو المعاصي، لا، فقد ثبت بالنقل المتواتر أن النبي ﷺ لم يسجد لصنم قط قبل الرسالة، ولم يتلوث بخلق ذميم، ولم يقترف أية معصية، وما أوصاه اللَّه به ما هو إلاّ من قبيل الحض على الاستمرار على ما هو عليه من الصفات السامية، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية فإنه خطاب لأمته ليأتمروا بهذا الأمر وينفذوا مضمونه فيهجروا كل معصية، وينبذوا كل إثم عالق بهم.

ويقول اللَّه لنبيه ﷺ: ﴿ولا تَمنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ والمنُّ هو أن يعدد الإنسان للغير ما يفعله له من الخير، والمعنى: إنك ستفعل الكثير في سبيل الدعوة فلا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين كالمستكثر لذلك التعليم ومعتبراً أن ما تفعله كثير. وقيل: لا تمنن على ربك بما تفعله من الطاعات كالمستكثر لما تفعله. ويأتي المن بمعنى العطاء، أي لا تعطِ شيئاً منتظراً أن تأخذ بدله ما هو أكثر مما أعطيت.

كما يقول اللَّه لنبيه ﷺ أيضاً: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي لوجه ربك اصبر على أذى قومك، واصبر على أداء فرائض اللَّه وعلى الطاعات واصبر على كل مصائب الحياة. فالصبر هو الوصية التي وصى اللَّه بها نبيه، لأنه سلاح الدعوة إلى اللَّه، وذلك لما يصادفه الداعي من أذى واضطهاد وسخرية، فبدون الصبر لا يستطيع الداعي الاستمرار في دعوته وبلوغ هدفه.

ويذكّر اللَّه الكافرين بيوم القيامة وما ينتظرهم فيه من مصير سيء:

﴿فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ. فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ والنقر في اللغة: الصوت، والمراد به هنا النفخ في الصور، والصور هو مثل القرن يُنفخ فيه فيجعل اللَّه سبحانه ذلك سبباً لقيام الأموات وعودة الأرواح إلى أجسامها. فهذا اليوم هو عسير على الكافرين لا مجال لليُسر فيه، لأنهم يُناقشون فيه الحساب، ويُعطون كتبهم بشمالهم، وتسودُّ وجوههم

بانتظار العقاب.

ثم ينتقل القرآن إلى مواجهة رجل من المكذبين برسالة النبي ﷺ وهو الوليد بن المغيرة الذي كان من أشراف قريش ومن أغنيائها، وكان له دور رئيسي في إيذاء النبي ﷺ وفي التهجم على القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبنينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَه تَمْهيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزيدَ. كَلّا، إِنَّهُ كَانَ لِآياتِنا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾.

فاللّه سبحانه يقول لنبيه مواسياً: **﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾** أي دعني وحدي مع هذا المكذب برسالتك وكِلْ أمره إليَّ فإني كافٍ في الانتقام منه، أو بمعنى: خلقته وحيداً لا مال له ولا ولد **﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾** أي مالاً كثيراً يمد بعضه بعضاً بالكثرة والنماء **﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾** وبنين حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ويستأنس بهم لا يغيبون عنه لكسب المال فهم كانوا في وفرة منه **﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾** أي بسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لُقِّب بريحانة قريش **﴿ثُمَّ يطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾** فهذا المكذب لشدة حرصه وطمعه يطمع في زيادة ما أنعمت عليه من هذه النعم **﴿كلّا﴾** أي ردع له عن ذلك الطمع **﴿إنَّه كَانَ لآيَاتِنَا عَنيداً﴾** إنه كان معانداً كافراً بما أنزلنا من القرآن على رسولنا محمد، هذا المكذب: **﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾** سأحمله مشقة من العذاب لا راحة له فيها كمن يكلف بالصعود في الجبال الوعرة الشاقة.

ثم يصف اللّه نفسية هذا المكذب وقسمات وجهه عند افترائه على القرآن وقوله فيه بأنه سحر:

﴿إنَّه فكَّر وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر وقدّر في نفسه ما يقوله في القرآن.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي لعن كيف قدَّر ذلك الافتراء الباطل.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كيف قَدَّرَ﴾ تكرار للمبالغة في التعجب منه.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأي شيء يطعن في القرآن.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ثُمَّ قَطَّبَ ما بين عينيه وكلح وجهه وتغير لونه.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتكبَرَ﴾ ثُمَّ أعرض عن الحق واستكبر عن اتّباعه.

﴿فقال: إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر يأخذه عن غيره(١).

﴿إنْ هَذَا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ﴾ أي إن القرآن ليس من كلام اللَّه بل هو من قول البشر.

هـذه صورة يقـدمها القـرآن لبعض النفـوس التي تعـرف الحق وتـراه واضحـاً وضـوح الشمس في رابعـة النهـار، ولكن لا تتبعـه إيثـاراً للجـاه، ومحافظة على المكانة الاجتماعية التي تتبوأها في قومها، فبمجرد تغيير دينها

---

(١) يروي أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن وكأنه رق لـه فقالت قـريش: غيّر الـوليد دينـه وستتبعه قـريش كلها في ذلـك، فقصد إليـه أبـو جهـل يستوضحه ويستطلع الأسباب التي جعلته يميل إلى القرآن مغريـاً له بـالمال مثيـراً نخوته بدينه القديم فأجابه الـوليد: «قـد علمت قريش أني من أكثـرها مـالاً» فقال أبو جهل: فقل فيه قولاً يُبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فـواللَّه ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، واللَّه ما يشبـه الذي يقول شيئاً من هذا، واللَّه إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى عليه، قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني أفكر فيه، فقال: ﴿هذا سحر يُؤثر﴾ يؤثره عن غيره، فنزلت الآيات ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وما بعدها.

ستصادف العداء من قومها والهجران منهم، ولهذا تؤثر الضلال على الهدى، هؤلاء الذين عرفوا الحق وخانتهم الشجاعة لإعلان رأيهم سيكون مصيرهم كمصير الوليد بن المغيرة الذي صوره اللّه بهذه الصورة المثيرة للسخرية ثم عقّب عليها بما سيناله من عقاب في الآخرة:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَر. وما أدْرَاكَ مَا سَقرُ. لا تُبقي وَلاَ تَذرُ. لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ. عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

فهذا المكذب سيدخله اللّه إلى سقر، وسقر من أسماء النار التي يُعذَّب بها العصاة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ وأي شيء أعلمك ما سقر فهي من شدة النيران بحيث لا يتصورها إنسان ﴿لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ فهي لا تبقي على شيء يلقى فيها إلاّ أهلكته ولا تترك من فيها ميتاً ولكنها تحرقهم كلما جُدِّد خلقهم. ﴿لَوَّاحَةٌ للبشرِ﴾ والبشر جمع بَشرة وهي ظاهر الجلد، فهذه النار محرقة للجلود مسوَّدة لها، ويجوز أن تكون البشر بمعنى الناس، ولوّاحة من لاح يلوح أي أن جهنم تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمَنْ يَرَى﴾.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي يلي أمر جهنم تسعة عشر ملكاً من الملائكة.

لقد تلقى الكافرون هذه الحقائق عن الآخرة بسخرية حتى قال أبو جهل عن هؤلاء الملائكة التسعة عشر. أما يستطيع كل عشرة منكم أن تغلب منها واحداً. وأما أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فقد سأل جماعة منهم النبي ﷺ عن خزنة جهنم المتولين أمرها فكان أن أجاب اللّه بعددهم.

ولقد بيّن اللّه الحكمة من كشف هذا الجانب من الغيب بقوله:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلائِكةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً للذينَ كفروا لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يَرْتَابَ الذين أُوتوا الكتابَ والمؤمنونَ وَلِيَقُولَ الـذين في قلوبهم مَرَضٌ والكـافرون مـاذا أرادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً، كَذَلِكَ يُضِـلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَـا يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّك إلاّ هُوَ وَمَا هِيَ إلاَّ ذِكْرَى لِلبَشَرِ﴾ .

فالله ما جعل المتولين على أمر جهنم، القائمين بتعذيب من فيها من الكفرة والعصاة إلاّ ملائكة لأنهم أبعد الخلق عن معصية الله ولأن قوتهم أعظم من قوة الإنس والجن ولهم القدرة على تنفيذ ما يأمرهم الله به من الأمور العظام ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا﴾ أي وما جعل الله عددهم تسعة عشر إلاَّ سبب فتنة وضلالة للذين كفروا حيث قابلوا هذا العدد بالاستهزاء وأظهروا استعدادهم لمقاومتهم ومغالبتهم، وقيل معنى: ﴿إلاَّ فِتْنَةً﴾ إلا عذاباً كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم عَلَى النَّار يُفْتَنُون﴾ أي يعذبون.

﴿لِيَسْتَيقِنَ الَّذين أُوتُوا الكِتابَ﴾ أي ليحصل اليقين عند اليهود والنصارى بنبوة محمد لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم الدينية ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً﴾ أي ويزداد المؤمنون بنبوة محمد إيماناً على إيمانهم سواء من آمن من أهل الكتاب أو من العرب ﴿وَلا يَرْتابَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ وَالمؤمِنُونَ﴾ ولا يشك أهل التوراة والانجيل والمؤمنون بالله من أمة محمد من أن القرآن كتاب الله، وهذا توكيد لما سبق ﴿وَلِيقُولَ الَّذِينَ في قُلُوبهم مَرَضٌ﴾ وهم المنافقون وضعاف الإيمان من العرب ﴿والكافرون﴾ والجاحدون لنبوة محمد ﴿مَاذَا أَراد اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي ماذا أراد الله بهذا العدد القليل من الملائكة حتى يخوفنا به، هذا العدد المستغرب استغراب المثل المتداول بين الناس ومرادهم إنكاره من أصله.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ كذلك: إشارة إلى تكذيب الكافرين وإيمان المؤمنين. أما إضلال اللَّه لقوم وهدايته لقوم آخرين فليس معناه أن يُجبر كل فريق ويُكْرِهَهُ على سلوك أي الطريقين شاء من طريقي الخير والشر، كلا، فإن هذا الإكراه منافٍ للعدل الإلٓهي ولا ينسجم مع نصوص القرآن التي تصرح بأن الإنسان له إرادة واختيار هما مناط التكليف، وقد جاء في القرآن ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبكم فَمَنْ شَاء فليؤمن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ الكهف: ٢٩. وجاء أيضاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسه وَمَنْ أَسَاءَ فعليها وما ربُّك بظلَّامٍ للعَبيد﴾ فصلت: ٤٦. وورد أيضاً: ﴿إن اللَّه لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأَنْفُسِهِم﴾ الرعد: ١١.

فمعنى يضل اللَّه من يشاء ويهدي من يشاء أنه تعالى يبين أمام البشر السبيلين: سبيلي الخير والشر والإنسان له أن يختار لنفسه ما يوافق استعداده وتجره إليه إرادته فيفضل أحد السبيلين على الآخر. فالإنسان محاسب على هذا الجزء من الاختيار لأن الذي سلك سبيل الشر يسلكه بكامل قواه العقلية، وبكامل إرادته وحريته واختياره، ومن هنا نشأة الجزاء والحساب. كذلك في الجانب المقابل فإن الذي يسلك سبيل الهداية إنما يسلكه بكامل إرادته ونتيجة إيمان ويقين.

لقد كشف اللَّه لنا عن طريق الهدى وحدد لنا نهجاً نسلكه فنهتدي ونسعد، كما بيّن لنا سبيل الضلال الذي نضل ونشقى إن سلكناه، ولم يكلفنا سبحانه أن نعلم ما وراء ذلك من أسرار القدر والغيب لأنه من الأمور التي اختص بها والتي لا تصل العقول إلى إدراك كنهها.

ولنرجع إلى تتمة الآية السابقة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ وَمَا هيَ إلاّ

ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ فهنا بيان بأن خزنة جهنم وإن كانوا تسعة عشر فليس ذلك عن قلة في جنود اللَّه، فإن جنوده لا يعلمهم إلاّ هو ولكن هذه القلة من الملائكة تكفي لأداء ما هي منوطة به. ﴿وما هي﴾ أي سقر ﴿إلاّ ذكـرى للبشر﴾ أي تذكرة ذُكِّر بها البشر ليحذروا معصية اللَّه.

وبعد هذا ينتقل القرآن إلى إنذار العصاة:

﴿كَلَّا، والقَمَرِ. والليـلِ إذْ أَدْبَرَ. والصُّبْـحِ إذا أَسْفَرَ. إنَّهـا لإِحْدى الكُبَرِ. نَذيراً لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَو يَتَأَخَّرَ﴾.

كلا، أي ردع للمكذبين بعذاب الآخرة، ثم أقسم اللَّه بالقمر، وقسمه تعالى بالشيء دليل على أهمية المُقسَم به ودليل على عظيم قدرته سبحانه، وكذلك أقسم بالليل إذا ولّى ذاهباً وبالصبح إذا أضاء. وذهاب الليل وضياء الصبح هما من تأثير دوران الأرض حول نفسها، هـذا الدوران من الآيـات الباهرة التي تدل على عظمة القدرة الإلَهية، فلولا هذا الدوران لما كان هناك ليل ونهار ولهلك من على الأرض من الحرّ أو البرد.

لقـد أقسم اللَّه بهـذه الأمـور على أن ﴿سقـر﴾ وهي جهنم ﴿إحـدى الكُبَرِ﴾ والكبر مفردها كبرى أي أنها من الأمور العظام ﴿نـذيراً للبشـر﴾ أي محذرة لهم من نفسها ومخوفة إياهم من عذابها. ثم يقول سبحـانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَو يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن شاء أن يتقدم في طاعة اللَّه أو يتأخر عنها فيقع في الشر والمعصية. وفي قوله: ﴿لمن شاء﴾ دليل على أن الإنسان غيـر مجبر على سلوك طـريق معين بل لـه الخيار في أعمـاله فيختـار طريق الهدى أو طريق الضلال.

وبعد هذا يبين القرآن حقيقةً طالما ضل البشر في مفهومها وكانت سبباً في إرهاق النفس الإنسانية، وهذه الحقيقة: أن كل نفس مرهونة بكسبها ومأخوذة بعملها لا تحمل خطيئة غيرها، يقول تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

فهذه الآية إعلان واضح من اللّه بأن النفس الإنسانية ليست مؤاخذة بخطيئة آدم ولا بخطايا آبائها وأجدادها كما يعتقد بعض أتباع الأديان الأخرى، كما أن كل نفس لا ينفعها وهي آثمة أعمال آبائها وأجدادها ولو كانوا على درجة عالية من الصلاح والتقوى.

ثم ينتقل بنا القرآن إلى ذكر الأعمال التي تؤدي إلى عذاب اللّه:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ: ما سلكَكُمْ في سَقَرَ. قالوا: لَمْ نَكُ مِنَ المصلّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوم الدّين. حَتى أَتَانَا الْيَقِينُ. فما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

فأصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة عنوان يطلقه القرآن على السعداء في الآخرة، كما يطلق لقب أصحاب الشمال، وأصحاب المشأمة على الأشقياء في الآخرة.

فأصحاب اليمين يتساءلون فيما بينهم عن سبب عذاب المجرمين في النار، فيجيب بعض المؤمنين ممن سبق لهم الحوار مع هؤلاء المجرمين وسألوهم عن سبب عذابهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي ما أدخلكم إلى

النار، فأجابوا بأن العذاب الذي يلاقونه كان لأمور أربعة:

١) ﴿قالوا: لم نَكُ مِنَ المصلّينَ﴾ فالصلاة هي عماد الدين، وهي العلاقة التي تنشئها النفس الإنسانية بينها وبين خالقها اعترافاً بالعبودية له وحده، وقياماً بواجب الشكر على ما أنعم عليها من نعم، فتارك الصلاة يُعزل عن جماعة المؤمنين ويصير في صف المجرمين لأنه جاحد لخالقه لا يؤدي له واجب الشكر.

٢) ﴿ولم نكُ نُطْعِمُ المسْكِينَ﴾ فإطعام المسكين ينجي من عذاب اللَّه، وإطعامه يشمل أيضاً ما يحتاج إليه من ملبس ومسكن. فإهمال المسكين يؤدي به تحت دافع الحاجة إلى الإرتماء في أوحال الرذيلة والإجرام، كما يجعل المساكين يتكتلون ويؤلفون العصابات للنهب والقتل، وهكذا فإن الذي يحرم المساكين حقهم من العيش الكريم هو في نظر الإسلام مجرم.

٣) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ﴾ والخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى، فقد قالوا في القرآن: إنه سحر، واتهموا محمداً بالجنون وغير ذلك، وهذا ينطبق اليوم على المستهترين بأمر العقيدة الإسلامية وشعائرها وأخذها مأخذ الهزل واللعب.

٤) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيومِ الدِّينِ﴾ يوم الدين: هو يوم الجزاء والحساب في الآخرة، فالإيمان بيوم الجزاء يجعل الإنسان يقظ الضمير يحاسب نفسه على كل هفوة تصدر منه خوفاً من العقاب في الآخرة، بينما التكذيب به ونكرانه يجعل الإنسان لا يبالي بأي عمل يصدر منه، فيقترف الشر إذا كان في ذلك إرضاءً لشهواته، وينغمس في الآثام إذا كان فيها نفع له.

هؤلاء هم المجرمون في نظر القرآن لقد عاشوا عمرهم على ذلك:

﴿حتَّى أَتَانَا اليقين﴾ أي الموت، فالموت ينهي كل شيء ولا يترك مجالاً لندم أو توبة.

وبعد أن يأتي الموت وترجع الأرواح إلى بارئها يوضح القرآن ما أعلنه من قبل بأن كل نفس مأخوذة بعملها، وهو قوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافعينَ﴾ فما يتكل عليه المذنبون من شفاعة الأصنام أو الصالحين، أو ما سُمي بالقديسين ـ كما يعتقد أهل الكتاب ـ هو وهم باطل لأنه لا شفاعة لهم.

ثم يصف اللَّه فئة نفرت ممن دعاها إلى الهدى بصورة تثير السخرية:

﴿فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَة﴾.

فالقرآن يتساءل: فما بال المشركين ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي عن تذكرة اللَّه إياهم بهذا القرآن معرضين لا يستمعون لها فيتعظوا ويعتبروا ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ جمع حمار والمراد بها حمر الوحش ﴿مُسْتَنْفِرَة﴾ أي نافرة مذعورة، فرت من ﴿قَسْوَرَة﴾ أي الأسد، وقيل: الرماة والصيادون الذين يتبعونها.

ثم يصف القرآن نفسية هؤلاء وما تتصف به من الحسد للنبي ﷺ:

﴿بل يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً. كَلَّا بل لا يَخافُونَ الآخرة﴾ فالقرآن يبين حسدهم للنبي ﷺ الذي اختاره اللَّه وأوحى إليه من دونهم، كما يبيّن رغبتهم الملحة بأن ينال كل منهم هذه المنزلة، وأن يؤتى كل واحد منهم صحيفة مفتوحة خاصة به تنشر ما بين يديه ﴿كَلَّا﴾ أي ليرتدعوا عن هذه الأمنية التي لا فائدة منها. ﴿بَل لا يَخافُونَ الآخِرَة﴾ فعدم

خوفهم من الآخرة وإنكـارهم البعث والحساب هـو الذي أفسـدهم وجعلهم يُعـرضون عن الاتعـاظ بالقـرآن، لأنهم لو خـافوا الآخـرة لتبـدلت نفـوسهم وصلحت.

ويختم اللَّه هذه السورة بقـوله: ﴿كَـلَّا إِنَّهُ تَـذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَـاءَ ذَكَرَهُ. وَمَا يذكرون إلَّا أن يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المغْفِرَةِ﴾.

كَلّا: أي ليرتدعوا عمّا هم عليه من الاستخفـاف بأمـور الآخرة ﴿إنَّـهُ تَذْكِرَة﴾ أي إن القرآن يذكّرهم بما يجب عليهم أن يعتقدوا ويعملوا به ﴿فمن شاء ذَكَرَهُ﴾ أي اتعظ به وعمل بمـا فيه من أمـر اللَّه ونهيه ﴿وَمَـا يَذْكُـرُونَ﴾ وما يتعظون وينتفعون بهذا القرآن ﴿إلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّه﴾ فكل ما يقع في الوجود يـرجع إلى مشيئـة اللَّه التي تسيطر على أقـدار الـوجـود كله، ونحن البشـر لا نعرف شيئاً من ذلك، ولكننا نعرف ماذا يريد اللَّه منا من الأوامر والنواهي. فهو سبحانه ﴿أهل التقوى﴾ أي حقيق وجدير لأن يُتقى ويحذر عقابه، فلماذا لا تتقونه يا قوم، وهو أيضاً ﴿أهـل المغفرة﴾ أي حقيق لأنـه يغفر لمن اتقـاه واتبع هداه، فلماذا لا تتوبون إلى ربكم وتستغفرونه لما بدر من ذنوبكم.

سُورَةُ القِيَامَةِ

مكية ، وآياتها أربعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ
ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ
(٤) بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (٦)
فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (٩)
يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ

شرح المفردات

لا أُقسم بيوم القيامة : لا ، تفيد التأكيد ، أي أقسم بهذا اليوم العظيم .

النفس اللوَّامة : النفس التي تلوم صاحبها على الشر الذي فعلته ، وعلى الخير الذي لم تستكثر منه .

نجمع عظامه : نعيد خلقها .

نُسوّي بنانه : نخلق أصابعه ، ونجعلها متناسبة .

ليفجُر أمامه : يظل على فجوره فيما يستقبله من الزمان .

أيّان : متى .

بَرِقَ البصر : فزع وتحير من عجائب ما يرى .

خَسَفَ القَمَرُ : ذهب ضوؤه .

لاَوَزَر : لا ملجأ .

يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ
لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ
قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾
وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا
بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ

شـرح المفـردات

المستقر : المصير والمنتهى .

يُنَبَّأ : يُخبَّر .

بما قدَّم وأخَّر : بما قدم من المعصية وأَخَّر من الطاعة .

بصيرة : حُجة وبَيِّنَة .

ولو ألقى معاذيره : ولو أدلى بحجج يعتذر بها عن نفسه .

فاتَّبع قرآنه : فاستمع واتبع بذهنك قراءته ، فالقرآن هنا مصدر بمعنى القراءة .

ثم إن علينا بيانه : بيان ما أشكل من معانيه .

العاجلة : الدنيا .

تذرون : تتركون .

ناضرة : حسنة ومُتنعِّمة .

باسِرَة : كالحة شديدة العبوس .

فاقرة : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

بلغت التراقي : بلغت الروح أعلى الصدر .

مَنْ راق : من يداويه وينجيه من الموت .

ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾
وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ
سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ
فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

شـرح المفـردات

التفَّت الساق بالساق : التفاف الساقين عند خروج الروح من الإنسان .

المساق : مرجع العباد .

فلا صدَّق : لم يُصدِّق بالقرآن ونبوة محمد ﷺ .

تولّى : أعرض عن طاعة الله .

يتمطّى : يتبختر ، ويختال في مِشيته .

أوْلى لك فأوْلى : ويل لك مرة بعد مرة .

أن يُترك سدى : أي يهمل فلا يكلّف ولا يُجزى .

يُمنى : يُراق في الرحم .

علقة : الفترة الثانية من بدء حياة الجنين حيث تكثر الخلايا وتلتصق بجدار الرحم .

فسوّى : فكمَّل أعضاءه .

سُورَةُ القِيَامَة

ايضـــاح و دروس

من أركان الإيمان في الإسلام: الإيمان باليوم الآخـر، والذي يُسمى أيضاً يوم القيامة.

وقد سُئل رسول اللّه عن حقيقة الإيمان فقال: «أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه من اللّه».

والقرآن خصَّ سورة بهذا الموضوع سماها: (سورة القيامة) التي هي موضوعنا الآن.

افتتحت هذه السورة بالتأكيد على أن يوم القيامة حق وهو آتٍ لا ريب فيه فقال سبحانه:

﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ. وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

والمعنى: أقسم بيوم القيامة، فإدخال (لا) النافية قبل القسم مستعمل بكثرة في كلام العرب وأشعارهم، وفائدته توكيد القسم، كأن سبحانه يقول: إن الأمر بَيِّن لا يحتاج أن أُقسم به. واللّه سبحانه يقسم بيوم القيـامة لتقـرير وجوده في عقل من ينكره، وتعظيم شأنه في نفس من يحقره.

كذلك أقسم سبحانه بالنفس ﴿اللوَّامَة﴾ وهي نفس المؤمن التي تلوم صاحبها سواء في فعل الـطاعة، أو في اقتـراف المعصية، تلوم نفسهـا على فعـل الطاعـة لأنها لم تعمـل زيادة على القـدر الذي قـامت بـه، كمـا تلوم نفسها على الذنب الذي فعلته، فترجع إلى اللّه تائبة، عاقدة العزم على أن لا تعود لِمِثله في المستقبل، يقول الحسن البصري: إن البارّ لا تراهُ إلاّ لائماً

نفسهُ، وإن الفاجر يمضي قُدُماً لا يعاتب نفسه.

والله إذ يقسم بالنفس اللوَّامة فهو بذلك يُثني عليها، وينوه بشأنها، ويرغِّب في طريقتها.

ثم ينتقل القرآن إلى محاجحة الكفار الذين ينكرون القيامة:

﴿أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

ولقد كان نكران الآخرة عند البعض هو صُعوبة تصورهم إعادة الإنسان حيًّا، وجمع عظامه البالية الذاهبة في التراب وإعادتها إلى طبيعتها، وقد ورد أن أحد الكفار العرب واسمه (عَدي) جلس يوماً إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يحدثه عن يوم القيامة، فذكر له شيئاً من أمرها، فقال له عدي: أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعيني لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن بك ولا به، أيمكن أن يجمع الله العظام؟! فنزل الوحي في الردّ عليه. فالله سبحانه يقول مؤكداً: بلى نقدر على جمع عظامه مع قدرتنا فوق ذلك على تسوية بنانه. و (البنان) الأصابع، وقيل: أطراف الأصابع.

ثم يبيّن القرآن الكريم السبب الجوهري، والدافع النفسي الخفي في نكران يوم القيامة، ذلك السبب هو أن الإنسان يريد أن ينجرف في الشهوات ويقبل على المحرمات، ولكن فكرة البعث والجزاء تَحُول بينه وبينها لذلك يستبعد يوم القيامة من ذهنه، وينسخه من فكره. يقول تعالى:

﴿بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ: أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ؟﴾.

إن (بل) في صدر الآية توحي بهذا التعليل وتمهد لهذا السبب الذي وصفه الله بقوله: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي يظل على فجوره فيما يستقبله من

الزمان، ويمضي قدماً في المعاصي، فأمامه: تعني في مستقبله، فهو يسأل عن يوم القيامة سؤالَ إنكار واستبعاد ليظل مُتمادياً في فجوره.

فالإنسان إذا آمن بالقيامة، والجزاء على الأعمال، جعل نفسه في يقظة وترقب لكل ما يصدر منه، فيمنع نفسه من الشر، ويقبل بكليته على الخير لأنه سيقف بين يدي اللّه للحساب في ذلك اليوم. فالاعتقاد بالقيامة إذن يجعل نفس الإنسان لوَّامة، تلوم نفسها على كل ما يصدر منها، وهذا هو السرُّ في اقتران القسم بالقيامة في مطلع السورة بالقسم بالنفس اللوَّامة.

وأمام إنكار الكافرين ليوم القيامة يأتي الجواب القرآني عاصفاً عنيفاً. مورداً بعض الحقائق عن ذلك اليوم:

﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ. وَخَسَفَ القَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ. يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

فإذا اضطرب البصر ودهش خوفاً وهلعاً من رؤية المتغيرات الهائلة في الدنيا، كنسف الجبال وشقّ الأرض، وإذا ما خسف القمر فذهب ضوؤه، وإذا ما الشمس اقترنت بالقمر بعد افتراق، وجمع بينهما في ذهاب النور، في وسط هذا الذعر والهول المسيطر على الكون، يتساءل الإنسان: أين المفر؟ فَيُجاب حينئذٍ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي ليس هناك فرار ينفع صاحبه لأنه لا ينجيه فراره ولا شيء يلجأ إليه من حصن أو ملجأ بل ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المسْتَقَرُّ﴾ فالمستقر عنده، والمصير يوم وقوع هذه الأحداث إلى اللّه وحده، فله يومئذٍ الأمر وإليه الحكم، حيثُ يُكشف الغطاء عن أعمال الإنسان ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ينبأ بما قدّم من عمل صالح أو شر قبل مماته، وبما أخَّر بعد موته من آثار منسوبة إليه سواء أكان عملاً صالحاً كصدقة جارية أو علم

ينتفع به، أو كان بدعة سيئة فسار الناس على منوالها فاكتسب وزرها.

وقد يكون المراد: أول عمله وآخره، فيكون المعنى: أن الإنسان ينبأ عن كل ما عمله في حياته منذ البداية حتى النهاية، والمقصود بـ ﴿يُنَبَّأُ﴾ أي يُخبر عن عمله ليجري الحساب عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والإنسان شاهد على نفسه بما عمل من أعمال:

﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

فالإنسان لو اعتذر بكل عُذْر لم ينفعه ذلك، فأعضاء جسمه تقوم عليه مقام الشاهد كما جاء في القرآن: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ النور: ٢٤.

ثم تأتي هذه الآيات بتوجيه النبي ﷺ إلى كيفية تلقيه للقرآن:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

ولقد كان النبي ﷺ حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقاه من جبريل متعجلاً فيحرك به لسانه وشفتيه طلباً لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، فلو كان القرآن صادراً من نفسه، أي من تأليفه كما يدعي أعداء الإسلام، لا من عند الله، لكان له من الروية والأناة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي وتمحيص الفكرة، ولما تعجَّلَ فحرّك به لسانه طلباً لحفظه. ولكن النبي ﷺ كان يرى نفسه أمام تعليم مفاجىء عليه أن يُعيد كل ما يُلقى إليه حرفياً، فكان لا بدّ له في أول عهده بتلك الحالة التي لم يألفها أن يكون شديد الحرص على حفظه.

فالله سبحانه يقول للنبي ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي

لا تحرك لسانك بالقرآن عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلَّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي علينا أن نجمعه في صدرك حتى تحفظه وتقرأه على الناس ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي إذا قرأناه عليك بواسطة جبريل فاستمع له واتَّبِعْ ما فيه واعْمل به ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي بيان حلاله وحرامه وما أشكل من معانيه وأحكامه.

ثم تعود الآيات لتنذر المنكرين للقيامة الذين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة:

﴿كَلَّا، بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾.

والمعنى: ارتدعوا يا معشر قريش فليس الأمر كما زعمتم من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم ولا تجازون بأعمالكم، بل أنتم قوم تحبون الدنيا الفانية وتتركون الآخرة الباقية. وفي تسمية الدنيا بالعاجلة إيحاء بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها في عمر الإنسان.

وفي الآخرة يبيّن اللّه مصير المؤمنين ومصير الكافرين:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

فوجوه ناضرة وهي وجوه المؤمنين، والناضرة بمعنى الحسنة المسرورة من أثر النعيم تنظر إلى ربها عَياناً بلا حجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم كالنظر إلى ربهم تبارك وتعالى، أما الكيفية فمجهولة لدينا لا ندري كنهها. فكل ما في الكون من جمال من صنيع رب العالمين، فتجليه سبحانه على خلقه المؤمنين فيه سعادة لهم ليس بعدها سعادة يتضاءل أمامها كل ما في الجنة من ألوان النعيم.

أما وجوه الكافرين فهي ﴿باسَرَةٌ﴾، أي عابسة كالحة لما تعلم من سوء أعمالها، فهي ﴿تَظُنُّ﴾ أي تستيقن ﴿أَن يُفْعَل بِها فَاقِرَةٌ﴾ أي ينزل بها داهية عظيمة تقصم فقار ظهرها.

وبعد أن يهزّ اللَّه الكافرين بين الحين والحين بمشهد من مشاهد يوم القيامة يقترب منهم هنا أكثر ليزلزلهم بمشهد يرونه كل يوم: انه مشهد الموت الذي يفصل الإنسان عن دنياه، إنه الموت الذي يُفَرِّقُ بين الأحبة والذي يواجه كل حي على وجه الأرض، فلا يملك له ردّاً، وهو يتكرر في كل لحظة في بقاع العالم، ويقف الجميع منه موقفاً واحداً لا وسيلة إلى دفعه مما يوحي بأنه قادم من جهة القدرة الإلّهية التي لا يملك البشر معها شيئاً، وهم مع هذا لا يعتبرون بزوال هذه الدنيا الفانية. يقول تعالى:

﴿كَلَّا، إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ. وَقِيلَ: مَنْ رَاقٍ. وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ. والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المسَاقُ﴾.

كلَّا، أيْ ردع لهم عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتذكير لهم بما سيؤولون إليه من الموت وفراق الدنيا. والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ يرجع إلى روح الإنسان و ﴿التَّرَاقِيَ﴾ جمع تَرْقُوَة وهي عظمة بين ثُغْرة أسفل الرقبة والكتف. أي بلغت الروح أعالي الصدر، وهي كناية عن الإشراف على الموت وظهور أماراته ﴿وقيل مَنْ رَاقٍ﴾ أي يقول أهل المحتضر لبعضهم البعض: هل من طبيب يشفيه ويرقيه ويداويه مما نزل به؟ و ﴿رَاق﴾ اسم فاعل من رقي، إذا قرأ شخص ليداوي المريض. ومعنى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الفِراقُ﴾ أي أيقن المحتضر حلول الموت الذي سيفارق به الدنيا والأهل والمال والولد. وقوله تعالى: ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ﴾ قيل المراد بذلك: إلتفاف الساقين عند خروج الروح. أو عندما يُلفَّان في الكفن.

وقيل: التفّت شدة كرب الموت بشدة أمر الآخـرة المقبل عليها وما فيها من أهوال وحساب وثواب وعقاب ﴿إلى ربِّك يَوْمَئِذٍ المسَاقُ﴾ أي إلى اللَّه مرجع العباد حيث يساقون إليه يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

وأمام مشهد الموت الفاصل بين حياة وحياة، والباعث على العمل لما بعد الموت، تستنكر الآيات التالية من أعرض عن هدى اللَّه:

﴿فَـلاَ صَـدَّقَ وَلاَ صَلَّى. وَلَكِنْ كَـذَّبَ وَتَـوَلَّى. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾.

هذا المنكِر للقيامة لم يُصـدِّق باللَّه وبـوحيه، ولم يصـلِّ له، وكـذَّب بالقرآن وأعـرض عن الإيمان، ثم بعـد هذا ذهب إلى أهله ﴿يتمـطّى﴾ أي يتبختر ويختال في مشيته فخوراً بما فعل.

المتصف بهذه الصفات يواجهه القرآن بالتهديد والوعيد:

﴿أوْلَى لَكَ فَأَوْلَى. ثم أوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾.

هذه العبارة في لغة العرب مراد بها التخويف والوعيد والتهديد أي ويل لك أيها الشقي ثم ويل لك وقد كرر القرآن ذلك زيادة في الوعيد.

هذا الإنسان المنكر للقيامة، المتهالك على هذه الحياة، المنكبّ على فجوره طيلة عمره، هذا الإنسان أيحسب أن اللَّه خلقه سُدى دون غاية، شأنه كشأن الحيوان، لا يُؤمـر ولا يُنهى، ولا يُكلف، ولا يُخاطب بشـرائع تُصلح أمره، ولا يُحاسب في الآخرة على ما اقترفت يداه؟!

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ثم يأتي الرد الإلَهي على الـذين ينكرون القيـامة مبينـاً نشأة الإنسـان

الأولى ومراحل تطوره في الرحم، فالقدرة الإلهية التي خلقت الإنسان بدءاً على الأرض قادرة على إعادته حيّاً بعد الممات:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحيِيَ الموْتَى﴾.

فالإنسان لم يكن وليد الصدفة، فقد خلقه اللّٰه من ماء الرجل الذي يحتوي على الملايين من الحييَّات المنوية التي تستقر في رحم المرأة وأحد هذه الحييات المنوية يلقح بويضة الأنثى، ثم تصير علقة وهي مجموعة الخلايا التي تنقسم إليها بويضة الأنثى بعد تلقيحها من إحدى الحُييَّات وتعلق بجدار الرحم، ثم تتطور الخلايا إلى إنسان تام الخلقة: ذكر أو أنثى.

فالقادر على خلق الإنسان على هذا الشكل قادر على إعادته حياً يوم القيامة للحساب: ﴿أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحيي الموتَى﴾، وبهذه الآية تنتهي هذه السورة متعاطفة مع الفكرة التي بدأت بها من الرد على الإنسان المنكر للبعث الذي يعتقد أن اللّٰه لن يعيده حيّاً ولن يجمع عظامه والجواب كان في مطلع السورة: ﴿بَلَى قَادِرِينَ﴾ وكان ختام السورة متناغماً معها بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِرٍ﴾.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه إذا قرأ آية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أن يُحيي الموتَى﴾. قال: سبحانك اللهم بلى.

التفسيرُ العِلمي

بصمات الأصابع :

يقول اللّٰه تعالى :

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ .

فاللّٰه يقول بأنه قادر على إعادة خلق أصابع الإنسان وإرجاعِهَا إلى ما كانت عليه في الدنيا بعد أن تبلى .

والسؤال هنا : لماذا اختار اللّٰه سبحانه بنان الإنسان ولم يختر عضواً آخر من أعضاء الجسم الكثيرة والمهمة؟

الجواب على ذلك : أن أعضاء الجسم كالعين والأنف والأذن وغيرها تتشابه بين إنسان وآخر، ولكن الأصابع لها ميزات خاصة فهي لا تتشابه ولا تتقارب، وهذه الميزات لم تُعرف لأول مرة، إلّا في القرن الماضي أي بعد نزول القرآن بثلاثة عشر قرناً، ففي سنة ١٨٨٤م استعملت رسمياً في إنكلترا طريقة التعرف على الإنسان بواسطة بصمات الأصابع، إذ أن بشرة الأصابع لدى الناس جميعاً مغطاة بخطوط على ثلاثة أنواع : أقواس، أو عراو، أو دوّامات بمعنى دوائر متحدة المركز، وكذلك يوجد نوع رابع يشمل جميع الأشكال التي لم توصف في الثلاثة السالفة الذكر وتسمى المركبات، وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة، وتتميز بين شخص وآخر، ولا تتشابه بصمة إنسان مع إنسان آخر في أقطار الدنيا قاطبة .

فكل لفظ من ألفاظ القرآن مقصود لمعنى مُراد يكشف عن سر من الأسرار الغامضة الخفية في الكون وفي خلق الإنسان، وفي هذا ما يشهد ويدل على إعجاز القرآن وأنه ليس من صنع البشر بل من خالق البشر .

مصدر جنس الجنين:

من الحقائق التي توصل إليها العلم حديثاً أن جنس الجنين الذي سيولد ذكراً كان أم أنثى مصدره من ماء الرجل وإليك البيان:

إن من المعتاد أن يفرز مبيضاً الأنثى بويضة واحدة كل شهر، ويفرز السائل المنوي عند معظم الرجال كميات هائلة تبلغ ملايين الحُييَّات المنوية كل مرة، وإحدى هذه الحُييّات المنوية إذا استطاعت الوصول إلى بويضة الأنثى فإنها تندمج فيها وتكوّنان معاً خلية كاملة تنقسم تباعاً حتى تصبح ملايين الملايين الخلايا وهذه هي الخطوات الأولى لتكوين الطفل.

والسائل المنوي الذي يصدر من الرجل يحمل صبغيات أنثوية وذكرية معاً، فإذا كان الحيوان المنوي الواحد الذي يخصب البويضة يحوي صبغيات أنثوية كان الجنين أنثى وإذا كان يحوي صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً.

والقرآن الكريم أقر بهذه الحقيقة حين قال عن مصدر خلق الإنسان:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً(١) **فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ: الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾**. فالنطفة من مني يُمْنى هي ماء الرجل التي تحتوي على الحييّات الذكرية والأنثوية والضمير في لفظ (منه) راجع إلى ماء الرجل. الذي جعل اللّه من هذا الماء (الذكر والأنثى).

---

(١) علقة: هي تكاثر الخلايا وتعلقها بجدار الرحم، والمفسرون القدامى فسروها بالدم الجامد.

سُورَةُ الدَّهْر

مدنية ، وآياتها احدى وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ① إِنَّا
خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ②
إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ④ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ

شرح المفردات

هل أتى : قد أتى ، والاستفهام للتقرير .

حِينٌ من الدهر : مدة من الزمن .

لم يكن شيئاً مذكوراً : معدوماً لا يُذكر ، وذلك قبل خلقه .

من نُطفة : ماء الرجل أي منيّه .

أمشَاجٍ : أخلاط .

نبتليه : نختبره .

هديناه السبيل : بيّنا له طريق الخير والشر ، والهدى والضلال .

شاكراً : مؤمناً بالله طائعاً له ، مقدراً نعمته عليه .

كفوراً : جاحداً الله حائداً عن طريق الهداية .

أعتدنا : أعددنا وهيأنا .

سلاسل : جمع سلسلة ، وهي حلقات من حديد يتصل بعضها ببعض .

أغلالاً : جمع غُل ، وهو طوق من حديد يجعل في العنق أو اليد .

سعيراً : ناراً ملتهبة .

الأبرار : جمع بَرّ أو بارّ وهو الصادق في الإيمان ، المطيع لربه ، القائم بأعمال الخير .

مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ
بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم
بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

شَرح المفـردَات

مِزَاجُها : المادة التي يُمزج بها الشراب .

كافوراً : اسم عين في الجنة ، شبهت بالكافور ، وهو معروف برائحته الطيبة .

عباد الله : أهل الإيمان .

يفجّرونها تفجيراً : يجرونها حيث شاءوا من منازلهم .

النَّذْرِ : كل فِعل خير وطاعة يوجبه الإنسان على نفسه .

كان شرّه مُستطيراً : كان عذابه فاشياً منتشراً .

على حُبّه : مع حبهم له وحاجتهم إليه .

مسكيناً : من ليس لديه من المال ما يكفيه .

وأسيراً : الذي يؤسر في الحرب فيحبس ، وكذا كل سجين .

جزاء : مكافأة .

شكوراً : ثناءً وشكراً .

قمطريراً : شديداً طويلاً .

لقّاهم : أعطاهم .

نضرة : حُسناً وبهجة .

سُورة الدَّهر

ايضَـــاح و دروس

هذه السورة في مجملها تتحدث عن نعيم الأبرار في الآخرة.

تبدأ هذه السورة بِذِكْرِ فَضْلِ اللَّه على الإنسان الذي أوجده من العدم:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير، و (هل) بمعنى: قد، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، تقول ذلك لا لتستفهم ولكن لتقرّر. والمراد بالإنسان جنس بني آدم، فإنه مرّ عليه مدة من الزمن قبل أن يُنفخ فيه الروح كان فيها معدوماً لا يذكر.

إن مطلع هذه السورة يدعو الإنسان لأن يفكر ويتدبّر كيف أنه لم يكن له وجود على وجه الأرض ثم وُجِدَ! أفلا يثير هذا الإيجاد في نفسه شعوراً بالامتنان لتلك القدرة الإلَهية، التي أوجدته من العدم وجعلته شيئاً مذكوراً؟

هذا المطلع إيحاء قوي، ودعوة صارخة للإنسان ليرجع إلى نفسه، ويكتشف ذاته وحقيقته، ويعلم عندها: أن من أنعم عليه بالخلق، وتفضَّل عليه بالوجود جدير بالعبادة والشكر.

ثم تأتي الآية التالية تُذكِّر الإنسان بكيفية خلقه وإيجاده:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.

ومعنى أمشاج: أخلاط، جمع مشج، من مشجَ الشيء إذا خلطه. فوصف اللَّه النطفة وهي ماء الرجل بالأمشاج، إشارةً إلى ما تحتويه هذه النطفة من عناصر مختلفة، والتي سنوضحها في التفسير العلمي.

واللَّه سبحانه لم يخلق الإنسان على هذا النحو للعبث أو اللهو، بل هناك حكمة وغاية يبينها بقوله: ﴿لنبتليه﴾ أي لامتحانه واختباره بموجب الشرائع التي أوحاها اللَّه إلى أنبيائه، أو امتحان الإنسان بأنواع النِعَم، أو بالحرمان والمصائب، ليظهر جوهره، ويتبيّن صدقه من كذبه.

وامتحان اللَّه للإنسان يعتمد على العقل والإدراك، لذلك فقد زوّد اللَّه الإنسان بالسمع والبصر ليدرك الأشياء ويعقلها، ثم يختار المناسب ليُجْزَى وفق هذا الاختيار، قال تعالى: ﴿فَجَعْلَنَاهُ سَميعاً بَصِيراً﴾، فالسمع والبصر هما قوام معيشة الإنسان وتفكيره والنعمة العظمى عليه، ولو وُلِدَ الناس جميعاً صُمًّا عُمياً لما كان لهم من العقل والإدراك مثل ما لهم اليوم، ولما استطاعوا العيش بدونهما.

وبجانب نعمة السمع والبصر فقد بيّن اللَّه للإنسان سبيل الهدى والضلال:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً﴾.

وهديناه السبيل: أي عرفناه إلى طريقي الخير والشر، وبيّنا له الهدى من الضلال، والخطأ من الصواب بواسطة الرسل والشرائع التي أوحينا لهم. وبعد أن عَرّفه اللَّه على الطريقين أوكل إليه أمر الاختيار بينهما، فإما أن يختار الهداية فيكون شاكراً لنعمة اللَّه عليه، فيعبده ويسلك طريق الخير فيحصل على رضاء ربه، وإما أن يختار الضلالة فيكون كافراً لنعمة ربه عليه، فيسلك طريق الإثم والفجور فيستحق غضبه وعقابه.

ثم يبيّن اللَّه ما أعد في الآخرة، للذين يسلكون سبيل الإثم والفجور:

﴿أَنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾.

فاللَّه أعدّ وهيأ للكافرين ثلاثة أشياء: هيّأ لهم سلاسل، وهي القيود التي تكون في الأرجل، كما هيأ لهم الأغلال، وهي القيود الخاصة بالمجرمين، وتكون الأغلال أكثر ما تكون في الأيدي، وهيأ لهم مع ذلك ﴿سَعيراً﴾، وهي النار التي تتوقد ويُعذّبون بها.

وبعد ذلك يبيّن اللَّه ما أعد للذين يسلكون سبيل الهدى من نعيم، مطلقاً عليهم اسم الأبرار:

﴿إِنّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً. عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّه يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾.

والأبرار جمع بَرٍّ فهو بارّ، وهو من جمع في نفسه: الصدق والتقوى والإخلاص إلى اللَّه والإحسان إلى خلقه، فهؤلاء الأبرار يشربون من كأس ممزوج شرابها بالكافور، وهو طيب معروف جنسه يُستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب التي يمزجونها بشرابهم ويتلذذون بها، وقد يراد أن من شرب هذه الكأس وجدها في طيب رائحتها وفوحان شذاها كالكافور. وهم يشربون تلك الكأس التي تُغترف من عين فوارة لا يخشون نضوبها لأنها وافرة بغزارة، يفجرونها حيث شاءوا. وقيل: يجرون ماءها إلى حيث شاءوا مما يشبه أنابيب المياه المستعملة اليوم، واللَّه أعلم.

وتجدر الإشارة إلى أن الآية أطلقت على المؤمنين وصفين: الأبرار، وعباد اللَّه. والأبرار وصف لعملهم، وعباد اللَّه وصف لقربهم من اللَّه.

وهؤلاء الأبرار كانوا يتصفون بهاتين الصفتين:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾.

والنـذر: هو أن يـوجب الإنسان على نفسـه شيئاً من الـطاعـات ليس بواجب عليه أصلاً، وذلك بـأن يقول مثـلاً: للَّه عليّ كذا وكـذا من صدقـة أو صلاة أو صوم أو حج، يعلق نذره بأمر يلتمسه من اللَّه، وذلك بأن يقول: إن شفى اللَّه مريضي كان للَّه عليَّ كذا. ويشمل الوفاء بالنذر: الـوفاء بمـا فرض اللَّه على الإنسان، فيدخل في ذلك جميع الطاعات. ولا بد من التنبيه إلى أن نذر المعصية لا يجب الوفاء به.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً﴾ أي يوم القيامة، والخوف من ذلك اليوم يجعل المرء ينشط لطاعة اللَّه والعمل الصالح واجتناب المعاصي. ومعنى ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾(١) أي كان شره وخـطره منتشراً فـاشياً في كـل جهة.

ومن صفات الأبرار التي ذكرها سبحانه:

﴿ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.

أي يطعمون الطعام وهم يحبون ذلك الطعام ويشتهونه، وهم بحـاجة ماسة إليـه، فهم مع حـاجتهم إليه وحبهم لـه يؤثرون بـه المحتاجين، وهم لا يحبونه عادة إلّا إذا كان من أجود طعامهم. وفي هذا المعنى جاء في القرآن الكريم: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّـونَ﴾ آل عمران: ٩٢. وهـذا الإحسان القائم على هذا الشعور يفرض على الغني احترام الفقير، وغرس شعور المساواة بينهما، فلا يخص الغني نفسه بجيد الـطعام ويعـطي الفقير رديئه..

وأول من خصه اللَّه بالإحسان هو (المسكين): وهو الذي لا شيء لـه

---

(١) مأخوذ من استطار الحريق إذا امتد وانتشر.

من المال يكفيه أو يكفي عياله وقد أذلته الحاجة.

و (اليتيم): هو الصغير الفقير الذي فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال. وإطعامه يشمل: إنشاء مؤسسة تطعمه وتعلّمه وتهذبه وتشرف عليه، فبذلك يصبح فرداً صالحاً في المجتمع عندما يبلغ مبلغ الرجال، أما إهماله فيؤدي به إلى الإرتماء في أوحال الرذيلة والجريمة.

و (الأسير): هو من أمسكه الجيش الإسلامي من جنود الأعداء، أو من استسلم لـه، فالإسـلام يأمـر بإطعـام الأسير حفـاظاً على حيـاته، وإكـرامـاً لإنسانيته، ويشمل ذلك توفير أسباب الراحة له. هذا المفهوم الإنساني يظهر رحمة الإسلام بالأسرى في زمن كانت الشعوب تفتك بالأسيـر وتسومه أشد أنواع العذاب. والإسلام له السبق على شرعة حقوق الإنسان التي وضعتهـا الأمم المتحدة ومن ضمن بنودها معاملة الأسير بالحسنى وتوفير الطعام له.

ويصف اللَّه نفسية الأبرار والوازع الذي يحدوهم إلى الإحسان:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكوراً. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾.

فهم يحسنون ويطعمون لأمرين، أولاً: طلب رضا اللَّه والقربى منه. ثانياً: إتقاء ذلك اليوم الرهيب، وهو يوم القيامة، وقد وصفه اللَّه (بالعبوس) بيـاناً لشـدته، وعظيم أهوالـه على الخلائق، أو أن الخلائق في هـذا اليـوم وجوههم عابسة من شدة الغم والقلق. ومعنى (قمطريراً) أي طويلاً شديداً.

ثم يـطمئن اللَّه هؤلاء الأبرار بـأنه سيعـطيهم الأمن يوم القيـامة بـدل الخوف، والسرور بدل العبوس:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وسُرُوراً﴾.

فاللَّه وقاهم عذاب يوم القيامة، ﴿ولقّاهم﴾ أي أعطاهم ﴿نَضْرَةً﴾ أي حسناً وبهجة في الوجوه، وسروراً في قلوبهم بسبب الثواب العظيم الذي نالوه من اللَّه.

وتتابع الآيات وصف الأبرار ووصف النعيم الذي يلقونه:

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾.

ففي وصف اللَّه الأبرار بصفة الصبر، وبيان ما أعدّ اللَّه للصابرين من الأجر هو إشادة بالصبر، وبيان منزلته عند اللَّه، وفي ذلك بشرى للصابرين الذين يكابدون مشاق الحياة وهمومها وأحزانها.

فالصبر أم الفضائل، ومنبع الخير على الأرض، وإن التغلب على أهواء النفس، وكبحها عن مشتهياتها الضارة، والسير بمقتضى الهداية الإلَهية يحتاج إلى صبر، وهذا الصبر بيّن القرآن ثوابه: ﴿جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ فهذا إيجاز بليغ يصف اللَّه فيه نعيم الأبرار بكلمتين هما: الشعور بلذة الطعام والشعور بلذة اللباس. فاللَّه أشار بقوله: ﴿جَنَّة﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار من صنوف الثمار الشهية، بالإضافة إلى المناظر الساحرة، والخمائل الفاتنة، والجداول الرقراقة. وفي قوله: ﴿حريراً﴾ إشارة إلى ما يتمتعون به من أنواع اللباس التي من أنفسها الحرير.

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ
فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ
كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ
فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾
* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ

شرح المفردات

متكئين : إتكأ ، جلس متمكناً مسنداً ظهره أو جنبه إلى شيء .

الأرائك : جمع أريكة ، وهي كل ما اتُّكِىء عليه من سرير أو فراش .

لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً : لا يرون في الجنة حراً ولا برداً شديداً .

دانية عليهم ظلالها : أي مرخاة مسدولة عليهم ظلالُ أشجارها .

ذُلِّلَت قطوفها : سُهّلت ثمارها لقاطفها .

كانت قواريرا : كانت من زجاج شفاف .

قَدَّروها تقديراً : أي يقدم السقاة الشراب ويقدرونه حسب حاجة الشاربين قلة وكثرة .

زنجبيلًا : الزنجبيل نبات له عروق في الأرض يستطيبه العرب في شرابهم .

سلسبيلًا : ما كان من الشراب في غاية السلاسة وسهولة الاستساغة .

وِلْدَانٌ : وُصَفاء للخدمة في مقتبل العمر .

مُخَلَّدُونَ : شبابهم دائم ، لا يهرمون ولا يتغيّرون .

حَسِبتهم لؤلؤاً : في بياضهم وحسنهم كاللؤلؤ .

منثوراً : متفرقين للخدمة .

عَالِيَهُم : يعلو أجسامهم ويغطيها .

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ
رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم
مَّشۡكُورًا ٢٢ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ فَٱصۡبِرۡ
لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ
رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا
طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ

شرح المفردات

سُنْدُسٍ : نسيج من حرير رقيق .

إِسْتَبْرق : نسيج من حرير سميك .

وحُلُّوا : أُلبسوا الحُلي .

شراباً طهوراً : شراباً نقياً خالياً من الأضرار .

سعيكم : عملكم .

لِحُكْم ربك : قضاء ربك .

آثماً : مذنباً منغمساً في المعاصي .

كفوراً : منكراً لله ، جاحداً لنعمه .

واذْكُرِ اسم ربك : صلِّ لربك .

بُكْرةً : أول النهار ، والمراد بذلك : صلاة الصبح .

أصيلاً : بعد منتصف النهار ، والمراد : صلاة الظهر والعصر .

ومن الليل فاسجد له : أي صلِّ صلاة المغرب والعشاء .

وسبّحه : نزهه عما لا يليق به ، وقيل : صلِّ له .

ليلاً طويلاً : وقتاً طويلاً من الليل ، والمقصود : صلاة التهجد .

العاجلة : الدنيا .

يذرون : يتركون .

يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا
بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

شرح المفردات

يوماً ثقيلاً : عسيراً شاقاً ، وهو يوم القيامة .

شَدَدْنَا أَسْرَهُم : أحكمنا خلقهم .

تذكرة : موعظة .

اتخذ إلى ربه سبيلاً : سلك طريقاً يؤدي إلى مرضاة ربه .

تابع سورة الدهر

ويصف اللّه حياة الأبرار ونعيمهم في الجنة :

﴿مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ .

فالأبرار يجلسون متكئين على الأرائك، والأرائك جمع أريكة، وهي السرير الذي يُرخى عليه فاخر الثياب والستور، وهم لا يرون في الجنة شمساً يؤذيهم حرها ولا ﴿زمهريراً﴾ ولا برداً شديداً يلسع أبدانهم .

والزمهرير يأتي أيضاً بمعنى القمر، أي لا يرون في الجنة شمساً ولا قمراً، وإن لهم من نورها الخاص ما يغنيهم عن ضياء هذين النيرين .

ومن مظاهر النعيم : الظلال الدانية والثمار التي هي في متناول اليد :

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَت قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾.

أي أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظللة عليهم، وثمار الجنة سخرت لمتناولها فلا يصعب قطفها على أحد.

وبالإضافة إلى ذلك يقدم للأبرار أفخر أنواع الآنية والأكواب التي فيها ما لذّ وطاب:

﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بآنيةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَـوَاريرَا. قَـوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾.

فالآنية هي الأوعية التي يوضع فيها الطعام، وهي من فضة. والأكواب جمع كوب وهو القدح الذي لا أذن له ولا عروة، فهذه الأكواب ﴿كانت قواريرا. قواريرا من فضة﴾ والقارورة وعاء يصب فيه الشراب ويكون غالباً من الزجاج أي هـذه الأكواب هي في صفـاء الزجـاج وشفيفها وبيـاض الفضة. ومعنى ﴿قَدَّروها تقـديراً﴾ أي أن السقـاة يقدّرون الشـراب الذي يقـدمونـه للشاربين بحيث لا يزيد ولا ينقص عن رغبة الشاربين فيه.

ويذكر اللَّه الشراب الذي يشربه الأبرار:

﴿وَيُسْقَـوْنَ فِيهَـا كَـأْسـاً كَـانَ مِـزَاجُهَـا زَنْجَبِيـلاً. عَيْنـاً فِيهـا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾.

فهذه الكؤوس المملوءة بالشراب تمزج بالزنجبيل، وهو عـروق نبات معروف كالقصب تمتد في الأرض، والعرب يستلذون طعمه، وهذه الكؤوس تملأ من عين جارية تسمى: (سلسبيلاً)[١] وقد سميت بذلك لشدة عذوبتها واستساغتها في الحلق.

---

(١) السلسبيل: هو ما كان في غاية السلاسة السهل المدخل في الحلق.

وزيادة في النعيم فإن الذين يحملون هذه الأواني والكؤوس هم غلمان عليهم مسحة الحسن والجمال مخلدون لا يتغيرون ولا تزيد أعمارهم، وهم في حسنهم، وانتشارهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾.

ويصف اللّٰه مجمل هذا النعيم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾.

وثَمَّ: أي هناك في الجنة، والمعنى: وإذا رميت ببصرك هناك في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً كبيراً مستوعباً لجميع ما يوفر على النفس راحتها وسعادتها.

كما يصف اللّٰه ثياب الأبرار وزينتهم:

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي تغطي أجسادهم: ثياب من الحرير الرقيق، وهو (السُّنْدُس) مخضر اللون، وثياب من حرير سميك وهي التي تسمى (إستبرق)، كما أنهم يتحلّون بأساور من فضة، وبالإضافة إلى هذا ﴿وَسَقَاهُم رَبُّهُم شَرَاباً طَهُوراً﴾، وهو الشراب الصافي البعيد عن الأدران والأضرار.

ثم يأتي النداء الرباني الذي فيه التشريف والتكريم للأبرار:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾.

ما أمتع هذا النداء وما أعظم وقعه على المؤمنين لأن فيه منتهى السعادة لهم، ففيه يستشعرون الرضى من رب العالمين والود والقربى منه سبحانه، فعملهم كان مشكوراً من ربهم فأثابهم عليه بنعيم الآخرة.

ولما كان كفار مكة في مطلع الدعوة يحاولون صد النبي عن الدعوة ويلجأون إلى إيذائه حيناً، ومحاولة تحويله عن الدعوة حيناً آخر بإغرائه بالمال والسلطان، لذلك نرى الآيات التالية تعالج هذا الموقف:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً. فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثماً أَوْ كَفُوراً﴾ فاللَّه سبحانه نزّل عليك القرآن يا محمد مفرّقاً لحكمة تقتضي تخصيص كل تشريع بوقت معين، فاصبر لقضاء اللَّه وحكمه في من يخاصمك، ولا تطع منهم أحداً ممن يريد أن يثنيك عن هذه الدعوة، وهم ما بين منغمس في الآثام أو مستغرق في الكفر.

ولما كانت المهمة شاقة فلا بد من عون، وهنا يأتي التوجيه الإلّهي بأن العون موجود وذلك بالإلتجاء إلى اللَّه والإكثار من ذكره والمحافظة على الصلوات، يقول تعالى:

﴿واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. وَمِنَ اللَّيْلِ فاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾.

قد يكون المراد بذكر اللَّه ذكره سبحانه بالقلب واللسان في جميع الأوقات، وقد يكون المراد بذكر اللَّه: الصلاة للَّه فيكون معنى ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار، والمراد بذلك صلاة الصبح. ﴿وَأَصِيلاً﴾ أي بعد منتصف النهار، والمراد: صلاتا الظهر والعصر. والمراد بقوله: ﴿وَمِنَ الليل فَاسْجُدْ لَهُ﴾ صلاتا المغرب والعشاء. والمراد بقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَويلاً﴾ صلاة التهجد بالليل.

ثم يبيّن القرآن بأن عناد الكافرين سببه حب الدنيا والإعراض عن الآخرة:

﴿إِنَّ هَؤلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾.

فهؤلاء الكفار يحبون (العاجلة) وهي الدنيا، وفي تسميتها بذلك إيحاء بقصر هذه الحياة وسرعة انقضاء أيامها في عمر الإنسان، والناس في عجلة للحصول على لذاتها وشهواتها، وهم بجانب ذلك ﴿ويذرون وراءهم﴾ أي يتركون وراءهم، والمراد تركهم الإيمان وتركهم ممارسة الأعمال الصالحة التي تنجيهم في الآخرة. ﴿يوماً ثقيلاً﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالثقل لشدائده وأهواله.

وبعد هذا تأتي الآية الكريمة مهددة الكفار إذا استمروا على كفرهم:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾.

فليعلم هؤلاء المشركون المعتزون بقوتهم: بأن اللَّه هو الذي خلقهم، ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ وهو الذي أحكم وقوى خلقهم. وهو القادر على إهلاكهم، وإبدالهم بقوم لا يماثلونهم في الكفر بل يطيعون ربهم ولا يعصونه.

ثم يبيّن اللَّه بأن هذه السورة هي موعظة للذي يريد الهداية ويتخذ من الإيمان والعمل الصالح سبيلاً يؤدي إلى رضوان ربه:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً. وما تشاؤونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي إن هذه السورة تذكرة لمن تذكر واتعظ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ واتخاذ السبيل إلى اللَّه عبارة عن التقرب إليه بأداء ما فرضه عليه وطاعته في أمره ونهيه. أما قوله سبحانه: ﴿وَمَا تشاؤون إلَّا أن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فليس فيه معنى الجبر بل على الإنسان وهو يختار سبيل الهدى أن يؤمن في الوقت نفسه بقدرة اللَّه المسيطرة ومشيئته الشاملة، فلا يكفي أن يسلك سبيل

الهدى ويزعم بأن له بذلك الفضل، بل يتواضع للَّه ويخضع له ويشكره على أن وفقه للهداية، وفي هذا تنبيه للإنسان لأن يعرف ضآلة نفسه أمام قدرة اللَّه المحيطة بالكون ومشيئته الشاملة التي لا يقع شيء في الكون إلا وفق إرادته.

ويختم اللَّه هذه السورة بقوله:

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ والظَّالِمينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

فهو سبحانه يدخل المؤمنين المهتدين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم وحسب استحقاقهم، كما يدخل الظالمين المكذبين دار العذاب وهي جهنم. ويمكن أن يكون الضمير في (يشاء) راجع إلى الإنسان، ويكون المعنى: يدخل اللَّه في رحمته من يشاء الهداية من الناس ويختار طريق الإيمان. ويؤكد هذا الاتجاه ورود الفعل (شاء) قبلها مُسنداً إلى الإنسان.

التفسيرُ العِلمي

قال تعالى: **﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾**.

الشاهد هنا لفظ (أمشاج) ومعناه: أخلاط. والمفسرون قديماً قالوا بأن المراد بالأخلاط هو التقاء ماء الرجل وماء المرأة، ولكن القرآن جعل الأمشاج وصفاً للنطفة، والنطفة هي منّي الرجل كما جاء في القرآن[1].

فالمراد من قوله تعالى: (نطفة أمشاج) أي أن النطفة ذات أخلاط من مواد متنوعة، وهذا ما كشفه العلم بواسطة المجهر والتحاليل، مظهراً معجزة

(١) يقول تعالى: ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾.

للقرآن تشهد بأنه كلام رب العالمين.

وقد فسّر أحد الأطباء المشهورين[١] هذه الحقائق المذهلة عن محتويات نطفة الرجل فقال:

«نطفة الرجل تحتوي على العناصر التالية:

١) الحُييّات المنوية (السبرماتوزوييد) هذه الحُيَيّات لها شكل متطاول ومؤلفة من رأس وذيل، فالرأس يحتوي على عناصر الوراثة وهو الذي يدخل بويضة الأنثى عند التلقيح.

وهذه الحُيَيّات المنوية موجودة في النطفة بمعدل متوسط قدره: ١٠٠ مليون حيية منوية بالسنتمتْر المكعب، وأحد هذه الحُيَيّات هو الذي يلقح بويضة الأنثى عند الإخصاب.

٢) السائل المنوي: وهو السائل الذي تسبح فيه الحُيّيات المنوية وتفرزه عدة غدد ثانوية، وهي: الحويصلات المنوية، والبروستات، والبربخ والأقنية الناقلة للمني. وهذا السائل له رائحة مميزة ولون (الكريم) ويحتوي على عدة نشادر معدنية، وحوامض أمينية، وسكريات خاصة (سكر الأثمار). ومعادن خاصة: (المغنزيوم، والزنك) وعدة أنزيمات خميرية كالخميرة الحالّة، والخمير النشوي، وخميرة حامض الفوسفات، وعدة عناصر أخرى كالبروستاغلاندين التي اكتشف مؤخراً».

وهكذا نرى أن العلم كشف لنا أن نطفة الإنسان تحتوي على أخلاط منوعة والقرآن سبق العلم إلى هذا الكشف العلمي حين وصف النطفة بالأمشاج: أي الأخلاط.

---

(١) هو الدكتور وليد خالد الصغير أخصائي في التوليد والأمراض والجراحة النسائية.

سُورَةُ المُرسَلات

مكية ، وآياتها خمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ

شرح المفردات

المرسلات : الرياح ، وقيل : الملائكة ، وقيل : آيات القرآن الكريم .

عُرْفاً : متتابعة ، وقيل : إفضالاً من الله .

العاصفات عصفاً : الرياح الشديدة الهبوب .

الناشرات نشراً : الرياح التي تنشر السحاب أو الملائكة التي تنشر الكتب .

فالفارقات فرقاً : الرياح التي تفرق بين السحاب أو الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل .

فالملقيات ذكراً : الملقيات وحياً أو عظة .

عُذراً : معذرة ، والاعتذار إلى الخالق بما يمحو الذنب .

نُذراً : منذرة ومخوفة من العقاب .

ما تُوعَدونَ : ما وعدكم الله به وهو يوم القيامة والحساب .

لواقع : لكائن لا محالة .

النجوم طُمست : ذهب ضوؤها .

السماء فُرجت : انشقت .

﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن
مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا
فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ
كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ
وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ

شرح المفردات

الرسل أُقتت : عُيّن لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم .

لأي يوم أجّلت ؟ : استفهام للتعظيم ، أي لأي يوم أخرت محاسبة الأمم ؟ .

ليوم الفصل : يوم القيامة حيث يفصل الله فيه بالحق بين الناس .

وَيْل : كلمة تقال لكل من وقع في عذاب أو هلاك يستحقه ، وقيل : الويل واد في جهنم

ألم نُهلك الأولين : ألم يعاقب الله الأمم السابقة الذين كذبوا أنبياءهم .

ثم نُتبعهم الآخرين : ثم نُلحق بالأولين في الهلاك من جاء بعدهم من الكافرين .

ماء مهين : منيّ ضعيف قليل.

قرار مكين : مكان يتمكن فيه ، وهو رحم المرأة .

قَدَرٍ معلوم : زمن معين ، وهو وقت الولادة .

فَقَدَرْنا : أي قَدِرْنا على خلقه وتصويره كيف شئنا .

كِفاتاً : الكفت هو الضم ، أي تضم أهلها أحياء على ظهرها وأمواتاً في باطنها .

رواسي شامخات : جبالاً ثوابت مرتفعات .

ماء فراتاً : ماء عذباً .

مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ
وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ
صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾
وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ

شرح المفردات

ظل : هو دخان جهنم .

ثلاث شعب : ثلاث فرق .

لا ظليل : لا مُظَلِّلَ من الحر .

ولا يُغني من اللهب : ولا يَرُدُّ عنهم لهب جهنم .

إنها : أي جهنم .

بشرر : جمع شررة ، وهي ما تطاير من النار .

كالقصر : في حجم القصر ، وقيل : القصر جمع قصرة ، وهو الحطب الضخم .

جِمَالة صُفْرٌ : الجمال السود الضارب لونها إلى الصفرة .

كَيْد : حيلة لاتقاء العذاب .

فكيدون : فاحتالوا للتخلص من العذاب ، وقيل : حاربوني وقاوموني .

عيون : جمع عين ، وهي منبع الماء .

هنيئاً : خالص اللذة لا يشوبه تنغيص .

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا
إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا
لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

شَرح المفردَات

نجزي : نثيب ونكرم .

اركعوا : صلوا .

سُورَة المُرسَلات

إيضاح ودروس

هذه السورة يتلخص مضمونها بالتأكيد على حصول يوم القيامة، وما فيه من أهوال، وبالتهديد لمن يكذب بهذا اليوم، وبتكرار ذلك التهديد عشر مرات، مع البشرى للمتقين بما سَيَلْقَونه من الرفاهية والنعيم .

واللَّه سُبحانه يُقْسِمُ في مطلع هذه السورة بأمور على أن ما وعد الناس بمجيء يوم القيامة هو واقع لا ريب فيه .

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً[1] . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً . إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ .

هذه الأمور المقسم بها اختلف المفسرون في حقيقة مدلولها، ونذكر بعض ما قيل فيها: ﴿وَالْمرسَلَات عُرْفاً﴾ أي قسم بالرياح المرسلات التي

---

(١) عُرْفاً: مأخوذة من عرف الفرس وهو الشعر المتدلي على رقبة الفرس، ويكون هذا الشعر مرسلاً متتابعاً، أو أن عُرفاً مأخوذة من المعروف والفضل .

يتبع بعضها بعضاً، وقيل: قسم بآيات القرآن المتتابعة النزول على محمد بكل عرف وخير، أو الملائكة التي ترسل بأمر اللَّه ونهيه ﴿فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ أي الرياح الشديدة الهبوب، أو المراد بذلك آيات القرآن التي تعصف بالقلوب بما ذكرته من الوعيد ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾ هي الرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر، وقيل هي آيات القرآن الناشرات الهداية والحكمة في قلوب الناس. ﴿فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ قيل هي آيات القرآن التي تفرق ما بين الحق والباطل، أو الرياح التي تفرق السحاب وتبدّده ﴿فَالملقِيَاتِ ذِكْراً﴾ قيل هي الملائكة التي تبلغ وحي اللَّه إلى رسله من البشر ﴿عُذْراً﴾ أي للإعذار بمعنى إزالة أعذار الخلق لئلا يبقى لهم حجة عند اللَّه أو ليعتذروا إلى اللَّه بتوبتهم ﴿أو نُذْراً﴾ أي للإنذار والتخويف بالعقاب عند العصيان.

ولكن على أي شيء أقسم سبحانه؟ أقسم على أن ما وعد به المشركين من مجيء يوم القيامة والثواب والعقاب هو واقع لا محالة.

وعندما أكدت الآيات أن يوم القيامة سيقع لا محالة ناسب ذلك أن تنقل مشهداً مرعباً من مشاهد ذلك اليوم:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ. لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الْفَصْلِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾.

فالنجوم يذهب ضوؤها، والسماء تتشقق أجرامها، والجبال تُقْتَلع من أصلها وتتفرق أجزاؤها، والرسل يُعيّن لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم، ولكن لأي يوم أُخرت هذه الأمور العظيمة؟ إنها أُخرت ﴿لِيَوْمِ الفَصْلِ﴾، أي يوم القضاء الفصل، حيث يفصل اللَّه فيه بين

الخلائق فيجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي ما أعلمك أيها الإنسان مقدار هوله وشدته فهو أعظم من أن يحيط به عقل.

وبعد أن بيّنت الآيات مشهد الهول والرعب في ذلك اليوم فكأن سائلاً يسأل: ما مصير المكذبين بذلك اليوم؟ فجاء الجواب سريعاً فاصلاً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ﴾ أي هلاك لأولئك المكذبين بيوم الجزاء ونبوة محمد. وقد تكررت هذه الآية عشر مرات، ذكرها اللَّه عقب عشرة مشاهد يلفت فيها النظر إلى أمر خطير في الكون، أو في تاريخ الأمم، أو في نشأة الإنسان، أو مصير الناس يوم القيامة إما إلى نعيم أو عذاب. فاللَّه إذ ذكّر الناس بنعمة، أو خوّف بنقمة، أكد التذكير والتخويف بذكر الويل للمكذبين الذين استخفُّوا بهذه النعمة، أو تهاونوا بتلك النقمة، فيكون ذلك زاجراً لهم عن التمادي في التكذيب. وتكرار جملة واحدة وإعادتها مراراً في خلال الكلام الواحد مألوف للعرب، ومعهود في خطبهم وأشعارهم.

ثم ينتقل القرآن بنا إلى التأمل في مصير الأمم السابقة التي أصابها الهلاك بسبب عصيانها أوامر رسلها:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ. ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ. كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ﴾.

فاللَّه يقول: ألم نهلك الأمم الماضية الذين كذبوا رسلي وجحدوا بآياتي كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ثم نتبعهم الآخرين بعدهم بالهلاك ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين، وما فعلناه بالأمم السابقة نفعله في كل أمة تسلك مسلكهم في الإعراض عن الحق إلى الطغيان والبغي.

ثم يوجه القرآن النظر إلى أصل الخلقة الإنسانية التي تشهد بالقدرة الإلّهية تلك القدرة التي لا يعجزها إعادة الإنسان حيًّا بعد الموت:

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ في قَرَارٍ مَكِينٍ. إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ﴾.

والماء المهين هو ماء الرجل (المنيّ) وقد وصفه اللَّه بالمهين بمعنى القليل الضعيف، هذا الماء يحتوي على الملايين من الحييّات إحداها يلتحم مع بويضة المرأة فتكَوِّنُ النواة الأولى للجنين ﴿فَجَعَلْنَاهُ في قرارٍ مكين﴾ أي جعله اللَّه في مكان ثابت مستقر وهو رحم المرأة، ووصفه بالمكين هو وصف بغاية الدقة للحالات الأولى لتكون الجنين فيه من حيث الاستقرار بوضع محكم، ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغيّر، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة حيث يصبح جنيناً. والمدة التي يمكثها في الرحم قُدرت بوقت معيّن ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ لا يتعداه ثم يُولد بشراً تام الخلقة. ثم يعقب اللَّه على ذلك قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ﴾ أي أنه سبحانه قدّر المدة المحددة لنشأة الجنين في الرحم والتطورات التي يتقلب فيها، فنعم صاحب هذه القدرة الجدير بالحمد والثناء والعبادة.

ويلفت القرآن الأنظار إلى الأرض وما أودع اللَّه فيها من جبال ومياه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً. وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ﴾.

فالأرض جعلها سبحانه ﴿كِفَاتاً﴾ أي ضامة جامعة، فهي تضم الأموات في بطنها، وتضم الأحياء على ظهرها، هذا التعبير بالضم للأحياء هو ما يطلق عليه في أيامنا هذه: قانون الجاذبية الذي بموجبه تجذب الأرض

إليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء، ولولا ذلك لطاروا وتبددوا في الفضاء بسبب حركة الأرض اليومية حول نفسها بسرعة فائقة، فالأرض تضم الأحياء إليها ولا تدعهم يتفلتون منها.

ومن نِعَمِ اللّه على الإنسانِ خلقه الجبال المرتفعات ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ ثم انظر كيف عَقّب اللّه على ذلك قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُراتاً﴾ وذلك لما للصلة بين الماء العذب والجبال، فالجبال هي مستودعات للمياه إذ ينزل عليها الثلج فيبقى في ثناياها حافظاً لشراب الناس يذوب بالتدريج فتسيل منه عيون الماء العذبة.

ثم تخبر الآيات التالية عن المصير الرهيب الذي ينتظر المكذبين بدين اللّه:

﴿إِنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ. إِنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي يقال للكفار سيروا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب النار فقد شاهدتموها عياناً ﴿انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب﴾ فالظل هو دخان جهنم وهو متشعب لعظم اللهب المختفي وراءه إلى ثلاث فرق ﴿لا ظليلٍ ولا يُغني من اللهب﴾ لا هو يظلل من يكون تحته ويقيه شدة الحر كما هو طبيعة الظلال كلها، ولا هو أيضاً يقيهم من ألسنة النار المندلعة إليهم من كل جانب، وقد سمى اللّه العذاب ظلاًّ للتهكم والاستهزاء بالمكذبين ﴿إِنَّها ترمي بشَرَرٍ كالقصْر﴾ أي هذه النار يتطاير منها شرر كل شرارة كالقصر، والقصر وإن كان يطلق في اللغة على هذا النوع من المساكن الشامخة فإنه

يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيراً، كما يطلق على أصول النخل والشجر ﴿كأنه جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ وهي الجمال السود الضارب لونها إلى الصفرة.

لقد شبه القرآن الشرر حين ينفصل من النار بالقصر أو أصول النخل والشجر، وحين يأخذ في الإنبساط والتشعّب عن أعداد غير محصورة شبهه بالجمال الصفر، والآيات إذ تستعمل هذا التشبيه فإنها تراعي الذهنية العربية وتخاطبهم بما هو مألوف لديهم، فقد كانت قرى العرب منتشرة بيوتها هنا وهناك، يتخللها ويسرح في كل جانب من جوانبها جمال مصفرة اللون. فالقرآن الكريم أراد أن يصور هول النار بتصوير شررها، فالشرر يكون متناسباً مع قوة النار.

ويتابع القرآن فيصف الحالة النفسية للمكذبين يوم القيامة:

﴿هَـذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ. ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فيوم القيامة لا ينطق فيه المكذبون لشدة هوله، ولا يجرؤون فيه على الكلام، ولا يؤذن لهم في أن يعتذروا عن تصرفاتهم لأن الوقت ليس للإعتذار بعد أن دعاهم اللّه إلى سبيل الخير فاختاروا سبيل الضلال.

ثم تتابع الآيات مبينةً أن يوم القيامة هو يوم القضاء بين العباد، وأن الحيل لا تنفع في ذلك اليوم:

﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ. فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبِينَ﴾.

فيوم القيامة هو يوم الحكم الفصل، وفيه يحكم اللّه بالحق بين الخلائق، وفي هذا اليوم يجمع اللّه المكذبين من هذه الأمة بالنبي محمد ﷺ

كما يجمع الذين كذبوا أنبياءهم من الأمم الماضية للحكم على أعمالهم، ويُقال لهؤلاء المكذبين: ﴿فإن كان لكم كيْد فكيدونِ﴾ أي إن كانت لكم حيلة ودهاء للنجاة من هول ذلك اليوم ومن عذاب اللَّه فاحتالوا وأنقذوا أنفسكم من بطش اللَّه وانتقامه، ولكن هيهات فإن الحيل لا تنفع يومئذٍ. وإن عذاب اللَّه واقع بهم.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى وصف التكريم الذي أعدّه اللَّه للمتقين:

﴿إنَّ المُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ. وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ﴾.

فالمتقون تظللهم الأشجار الوارفة، وهم في راحة وغبطة، قريبون من عيون الماء، يرتشفون منها متى شاءوا، ولهم أيضاً فواكه مما يشتهون، وفيما هم في هذا النعيم يأتيهم النداء العلوي: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ هذا القول يحتمل أن يكون مباشرة من اللَّه بلا واسطة، وما أعظمها من نعمة وتكريم وفضل، أو يكون هذا القول من جهة الملائكة على سبيل التكريم؛ ثم يعقب اللَّه على ذلك قوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزي المُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزى اللَّه المتقين بما ذُكِرَ من أنواع النعيم، كذلك يجزي ويثيب كل محسنٍ متقٍ محارم اللَّه مطيعٍ أوامره.

ثم تعود الآيات إلى مخاطبة المكذبين المنغمسين في ملذاتهم:

﴿كُلوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبِينَ﴾.

فاللَّه سبحانه يقول لهم: كلوا في هذه الدنيا ما شئتم من صنوف

الطعام، وتمتعوا بما يروق لكم من مشتهيات الحياة، هذا التمتع هو قليل لا يدوم، ومن كان هذا كل همه من الحياة صرفه ذلك عن قِيَمِ الروح وعن تطهير نفسه من المآثم، فكان بذلك في مصاف المجرمين المستحقين للعقاب.

وأخيراً يختم اللَّه هذه السورة بتوجيه اللوم للمكذبين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لاَ يَرْكعون. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبين. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يؤْمِنُونَ﴾ فالركوع المراد به الخضوع للإسلام، أو المراد به الصلاة لأن من أركانها الركوع وهو الانحناء المعروف، فالمكذبون إذا قيل لهم صدِّقوا وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ وصلُّوا للَّه لا يمتثلون ولا يستجيبون.

وإذا كانوا لا يؤمنون بعد كل هذه البينات إذن فإنهم لن يؤمنوا قط بأي بينة أخرى ﴿فَبِأَيِّ حديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فلا حديث ولا كتاب سماوي يبلغ محتوى ما اشتمل عليه القرآن من الهدى ووضوح الحجة.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

التفسير الكبير للفخر الرازي .

لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .

فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .

تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .

تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

تفسير أبي السعود للقاضي أبي السعود محمد العمادي .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .

روح المعاني للألوسي .

تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .

تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي .

في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .

سُوَر الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضيف .

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .

صفوة التفاسير للأستاذ محمد علي الصابوني .

الفهرس

شكر واعتراف بالجميل

وفي الختام أقدم شكري للأساتذة الكرام:

الشيخ حسين غزال
الشيخ خليل الميس
الشيخ شريف سكر
مصطفى قصاص

على ما أبدوه لي من معونة وملاحظات قيمة.

لهؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن يوفقنا سبحانه لخدمة كتابه الكريم، إنه سميع الدعاء.

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر : الحجر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام

روح القرآن الكريم

تفسير جُزْءَ عَمَّ

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

توزيع
دار العلم للملايين

هَذَا التَّفْسِيْر

• يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصَّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .

• يُعالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بَعيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغَة .

• يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجَازه .

• يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .

• يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصَّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوَحيدون:
دَارالعِلم للمَلايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

رُوحُ القرآنِ الكريم

تفسير

جُزْءِ عَمَّ

الجزءُ الثلاثون

بقلم
عَفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة الحادية عشرة

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، وبعد :

إن من أفضل العبادات الانكباب على كتاب الله ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ فيستزيد المؤمن من تلاوته ، ويتدبر آياته ، ويتعمق في معانيه وأهدافه ، ويتغلغل في مراميه وأبعاده ، ولا غرو فالقرآن هو المعجزة الخالدة التي تبقى على الدهر دستور الحياة ، ومصدر التشريع ، ومنارة الهداية ، وضياء الطريق في دنيانا وآخرتنا ، ودليلنا في الحالكات ، ورائدنا في الملمات ، منه نستمد زادنا للمعاد ، وعدتنا ليوم التناد .

وقد صدق رسول الله محمد ﷺ في وصفه للقرآن : ﴿ فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ﴾[١] .

(١) رواه الترمذي .

ولقد درجت الناشئة والكبار على حفظ الجزء الأخير من القرآن الكريم (جزء عم) ويكاد لا يخلو بيت من البيوت الإسلامية إلّا وكان لهذا الجزء نصيب من العناية بحفظه وترديده ، فهم يرددون سور هذا الجزء وآياته الكريمة في صلواتهم ، وكثير من مناسباتهم ، غير أنهم كثيراً ما يتلون آياته دون نفوذ إلى معانيها ، وبلوغ مراميها ، والوقوف على فحواها ، وأبعاد مداها .

من هنا إنبرى المؤلف الأستاذ عفيف طبارة يدلي بدلوه مسهلاً صعبه ، وميسراً فهمه جاعلاً من هذا الجزء ميداناً لمؤلفه القيم وتفسيره الرائع الجديد .

والمؤلف الذي عودنا في مؤلفاته السابقة أن يتحف المكتبة الإسلامية والعربية ويقدم للقارىء العادي التعاليم الإسلامية بأسلوبه المبسّط السهل المأخذ ، وكان فيها غنياً في عطائه ، غزيراً في مادته ، موفقاً في اختيار موضوعاته ، حتى استطاعت مؤلفاته برشاقة أسلوبها ، وبراعة تبويبها ، وسهولة مأخذها أن تدخل كل بيت ويحرص على اقتنائها كل مسلم .

وها هو المؤلف اليوم يتحفنا بهذا الجديد الرائع (تفسير جزء عم) ليضيف إبداعاً إلى إبداع ، وجوهرة في قلادة الشريعة لتكون نوراً على نور .

ولكم أمضى المؤلف من جهد ، وصرف من عناية ، مطوفاً في شتى المراجع ، باحثاً منقباً ، يلملم الخواطر ، يقرّب فيما بينها ، يغربل منها البعيد ، ويستبقي المفيد حريصاً على صيد الخواطر التي تتناغم مع روح الآيات ، مستفيضاً في المواضع التي يستدعيها المقام ، كل ذلك ليقدم للقارىء منهلاً سائغاً ، يرتشفه دون عناء ، تتوارى في ظله جهود المؤلف وهي تطالعه هنا وهناك .

وثقتنا الأكيدة بأن هذا المجهود الضخم سوف يلاقي لدى القارىء ما عوّده عليه المؤلف في ثمراته السابقة من ارتياح وتقدير يكفل له النجاح الذي ينشده ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

سُورَةُ النَّبَأ

مكية ، وآياتها أربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦)
وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ

شرح المفردات

عمّ : مركبة من كلمتين هما : عن ، وما الاستفهامية والمعنى : عن أي شيء ؟

النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة والمراد به هنا البعث بعد الموت .

مِهَاداً : المكان الممهّد المسوى للسكن .

أوتاداً : جمع وتد وهي القطع الخشبية التي تدق حول الخيمة لتشد إليها .

أزواجاً : ذكوراً وإناثاً .

نومكم سُبَاتاً : راحة ودعة تهدأون به وتسكنون .

النهار مَعَاشاً : أي وقتاً للسعي إلى العيش وطلب الرزق .

سَبْعاً شداداً : سبع سماوات قوية الخلق محكمة .

سرَاجاً : السراج هو المصباح والمراد هنا الشمس .

وهّاجاً : مضيئاً وقاداً .

المعصِرات : السحب المحملة بالأمطار .

مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ
كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ
فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ
مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا
بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

شرح المفردات

ماء ثجاجاً : ماء مُنصباً بشدة .

حبّاً : الحبوب التي يقتات بها .

يوم الفصل : يوم القيامة .

ميقاتاً : موعداً للحساب .

الصُّور : البوق .

أفواجاً : جماعات .

وفُتحت السماءُ فكانت أبواباً : انشقت وتصدعت وصارت شقوقها كالأبواب .

وسُيِّرت الجبال فكانت سراباً : قلعت من أماكنها وتناثرت أجزاؤ ها وصارت كالسراب .

جهنم كانت مِرْصَاداً : أي أن جهنم تترقب المستحقين للعذاب ليكتووا بنارها .

للطاغين : المجاوزين الحد في العصيان والكفر .

مآبا : مرجعاً ومنزلاً .

لابثين : مقيمين .

أحقاباً : أزماناً طويلة متتابعة .

بَرْداً : برد الشراب ، وقيل : نوماً .

حميماً : ماءً حاراً .

غَسَّاقاً : ما يسيل من أجساد أهل النار من الصديد والقيح .

جَزَاءً وِفاقاً : جزاء موافقاً لأعمالهم .

لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ
كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ
وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ

شرح المفردات

لا يرجون حساباً : لا يتوقعون محاسبة على أعمالهم .

وكذّبوا بآياتنا كِذّاباً : كذبوا بالقرآن تكذيباً كبيراً .

أحصيناه كتاباً : جمعناه في كتاب .

مفازاً : فوزاً بالنعيم .

أعناباً : كروم العنب .

كواعب : جمع كاعب وهي التي برز ثدياها وتمت أنوثتها .

أتراباً : متقاربات في السن .

دِهاقاً : ممتلئة ، صافية .

لغواً : اللغو ما لا يعتد به من الكلام ، أو الكلام القبيح .

ولا كِذّاباً : أي لا يكذب بعضهم بعضاً .

عطاءً حِساباً : عطاء من الله حساباً لما عملوا .

لا يملكون منه خطاباً : أي لا يملكون مخاطبة الله لتخفيف العذاب أو زيادة الثواب .

الروح : هو الملك جبريل عليه السلام .

ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ
يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

شرح المفردات

اتخذ إلى ربه مآباً : اتخذ إلى ربه مرجعاً بالعمل الصالح .
أنذرناكم : الإنذار هو الإخبار الذي فيه تخويف .
ما قدَّمت يداه : ما صنعت يداه في الحياة الدنيا .

ايضـاح و دروس

رُوي أنه لما بُعِثَ النبي ﷺ بالرسالة الإلٓهية جعل المشركون يتساءلون فيما بينهم فيقولون: ما الذي أتى به؟ ويتجادلون فيما بُعِثَ به النبي ﷺ من الوحي المشتمل على خبر البعث يوم القيامة الذي يحاسب فيه الإنسان على ما فعله في الحياة الدنيا، فأنزل اللّه هذه السورة وافتتحها بقوله: **﴿عَمَّ يَتَسَاءلونَ﴾** أي عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون؟ وهم ما كانوا يتساءلون عن حقيقة البعث، بل عن وقوعه، وهل سيقع أم لا؟

هذا الاستفهام الصادر من اللّه ليس استفهاماً حقيقياً لأن الاستفهام الحقيقي ينبىء عن جهل السائل بالمسؤول عنه وهو محال على اللّه، بل المقصود من الاستفهام هنا: التفخيم لأمره، كأن المعنى: ما أعظم هذا الشيء الذي يتساءلون عنه، بدليل ما ذكره القرآن بعد ذلك: **﴿عَنِ النَّبَأِ العَظِيمِ﴾** والنبأ هو الخبر ذو الفائدة، والنبأ العظيم المراد به هنا هو البعث بعد الموت **﴿الّذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾** أي مختلفون في البعث بين مصدق به ومكذب له .

ولا شك أن غايات التدين كلها إنما تؤول إلى معرفة سرّ ذلك اليوم حيث يحاسب فيه كل إنسان بما عمل إن خيراً فجزاؤه خير وإن شراً فجزاؤه شر.

ثم ينتقل القرآن إلى الزجر والوعيد على إنكارهم للبعث:

﴿**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**﴾.

كلا: كلمة ردع وزجر، أي ليس الأمر كما يزعمون من أنه لا بعث بعد الممات، فسيعلمون حقيقة الحال حين يرون البعث أمراً واقعاً، وكرّر القرآن ذلك للمبالغة في التهويل والتأكيد على قيام البعث.

ثم تجول الآيات القرآنية بنا جولة في أنفسنا ومعيشتنا وفي الكون الذي حولنا لتلفتنا إلى مظاهر قدرة اللّه العظيمة التي لا تعجز عن إعادة الإنسان حياً يوم البعث:

﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرضَ مِهاداً**﴾ والمهاد هو الفراش، وقد جعل اللّه الأرض موطئاً للناس والحيوانات يقيمون عليها فهي فراش لهم، والمراد أنها ممهدة ومخلوقة لتلائم الحياة عليها.

ثم يصف اللّه الجبال بالأوتاد: ﴿**وَالجبالَ أوتَاداً**﴾ وهذا تشبيه دقيق أقرّ به علم الجيولوجيا وهذا ما سنوضحه في التفسير العلمي.

ثم يقول سبحانه: ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً**﴾ أي من ذكر وأنثى[(١)] كي يتم

---

(١) استدل أحد العلماء الكونيين بذلك على وجود اللّه، فقال (كريس موريسون) في كتابه: (الإنسان لا يقوم وحده) «إن الحياة ترغم على التناسل لكي يبقى النوع، وهو دافع بلغ من القوة أن كل مخلوق يبذل أقصى تضحية في سبيل هذا الغرض. . . فمن أين تنشأ هذه الدوافع القاهرة؟ ولماذا بعد أن نشأت تستمر ملايين السنين؟ إنه قانون الطبيعة الذي يأتي من إرادة الخالق».

التناسل وبقاء النوع الإنساني، وعمارة الكون، وهذا من الدلائل على وجود قدرة إلٰهية مدبّرة حكيمة.

ويقول سبحانه بعد ذلك: ﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً**﴾ أي راحة ودعة، فالنوم من الآيات الدالة على قدرة الخالق، وسنوضح ذلك في التفسير العلمي.

ويصف اللَّه سبحانه الليل فيقول: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً**﴾ أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم لهذا سمي الليل لباساً على وجه المجاز. وأيضاً فإن اللباس يدفع عن الإنسان أذى الحرّ والبرد، فكذلك الليل الذي شبه باللباس يدفع عن الإنسان أذى التعب الجسماني بواسطة النوم الذي يريح الإنسان ويعوض به قواه.

ويصف اللَّه النهار بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**﴾ أي جعل النهار وقتاً للعيش والسعي في طلب الرزق، فهذا التقلب المستمر في حياة الإنسان من ليل يسكن فيه ويرتاح إلى نهار مشحون بالعمل والنشاط، والبحث فيه عن موارد الرزق هو آية من آيات القدرة الإلٰهية التي خلقت هذا الكون على هذه السنن المنتظمة التي لا يعتريها خلل.

ثم يقول سبحانه: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً**﴾ أي بنينا فوقكم أيها الناس سبع سماوات، وشِداداً جمع شديدة يعني قوية محكمة البناء لا يؤثر فيها مرور الزمان وحقيقتها في علم اللَّه وحده.

وبعد ذلك يصف اللَّه سبحانه الشمس بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا سِراجاً وَهَّاجاً**﴾ فاللَّه سبحانه يشبّه الشمس بالسراج الوهّاج، أي المصباح المضيء المتقد بلهب وهو الذي يضاء بالزيت أو الكحول أو الكاز. يقال توهجت النار إذا

اتقدت. والسراج له ضوء ذاتي وقد بيّن العلم أن الشمس كتلة غازية ملتهبة وأنها تستمد طاقتها من تفاعلات وانفجارات نووية في داخلها فاكتشف العلم حقيقة قرآنية من حيث أن الشمس مكونة من لهب، وأن هذا اللهب يستمد طاقته من مركزها الداخلي.

ويصف اللّه سبحانه السحب بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ أي وأنزلنا من السحب ماءً منصباً كثيراً والتعبير بالمعصرات عن السحب يُفهم منه أن مؤثراً يعصرها فينزل منها الماء، وهذا المؤثر هو الرياح والتفريغ الكهربائي الذي يساعد على إنزال المطر من السحب.

ثم يبين اللّه بكلمات قليلة جميع ما تنبته الأرض فيقول: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً﴾ أي ليخرج اللّه بهذا الماء أنواع الحبوب والنبات ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان ملتفة بعضها على بعض لتقاربها(١).

وبعد أن عدّد القرآن بعض مظاهر قدرة اللّه انتقل إلى تصوير بعض مظاهر يوم القيامة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقاتاً﴾ فيوم الفصل هو يوم القيامة إنه موقت بأجل محدد، وسمي بيوم الفصل لأن اللّه يفصل فيه بين خلقه

---

(١) هذه المظاهر لفتت نظر أحد العلماء الكونيين. فاستدل بها وبغيرها على وجود اللّه، يقول الدكتور فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية:

«أما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بدءاً من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية. عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولا بُدّ أن يكون هذا الكون من صُنع يديه. إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية». (عن كتاب اللّه يتجلى في عصر العلم).

فيثيب الطائعين على أعمالهم الحسنة ويعاقب المسيئين على أعمالهم السيئة.

ويوم القيامة يبتدىء بهذه المظاهر: ﴿**يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً**﴾ والصور هو على هيئة قرن يُنفخ فيه فيجعل اللَّه ذلك سبباً لعودة الأرواح إلى أجسامها وهذا ما يسمى بالنفخة الثانية فيأتي الناس جماعات جماعات للحساب والجزاء وهناك نفخة أولى تسبقها يموت على إثرها الخلائق عامة في السماوات والأرض، وقد أوضح اللَّه ذلك بقوله:

﴿وَنُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ في السمٰوات ومن في الأرض إلاّ مَنْ شاء اللَّه ثم نُفِخَ فيه أُخرى فإذا هم قِيَامٌ يَنْظُرون﴾ (الزمر: ٦٨).

ويُتابع القرآن وصف مظاهر القيامة: ﴿**وفُتِحَتِ السَّماءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً**﴾ أي تشققت السماء من كل جانب فترى هذه الشقوق كأنها الأبواب في الجدران، ولقد بيّن القرآن بأن السماء في الآخرة يتغير شكلها المعهود؛ ﴿يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرْضِ والسمٰوات وَبَرزوا لِلَّه الوَاحِدِ القَهَّار﴾ (إبراهيم: ٤٨).

ثم يقول سبحانه: ﴿**وسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً**﴾ فالجبالُ تُقتلع وتفتّت وتُثار في الهواء حتى يخيل للناظر أنها شيء وليست بشيء فهي كالسراب الذي يظن من يراه من بعيد أنه ماء وهو ليس بماء.

ثم يبين اللَّه مصير الطغاة في ذلك اليوم:

﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً**﴾ فجهنم هي دار العذاب في الآخرة فهي طريق وممر للطغاة، يقال فلاناً يرصد فلاناً أي يقعد له في طريقه، ومرصاداً تأتي بمعنى الترقب والإعداد فجهنم تترقبهم لدخولها أو هي معدة لهم ﴿**لِلطَّاغِينَ مآباً**﴾ للمجرمين والكافرين منزلاً ومأوى ﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً**﴾

أحقاباً: جمع حقب وهي مدة من الزمن يفهم منها الطول أي أنهم يمكثون في عذاب جهنم إلى ما لا نهاية لـه **﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَـرْداً وَلاَ شَرَابـاً﴾** أي لا يذوقون في جهنم ما يتبرّد به ظاهر أجسامهم، ولا شراباً يخفف عطشهم فيها **﴿إلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾** إلاّ ماءً حاراً بالغ الغاية في الحرارة، وما يسيل من أجساد أهل النار من صديد وقيح **﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾** أي هذا العقاب هو جزاء وافق أعمالهم السيئة. **﴿إنّهم كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾** إنهم كانوا لا يتوقعون حساب الله لهم على أعمالهم **﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾** وكذبوا بآيات القرآن تكذيباً مفرطاً **﴿وَكُلَّ شَيءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾** أي أن كل أعمالهم أحصاها اللّه كتابةً[1] ليجازوا عليها. ثم يُقال لهؤلاء الطغاة وهم يُعذبـون في النار إذلالاً وتوبيخاً **﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُم إلاَّ عَذَاباً﴾** أي فذوقوا أيها العصاة عذاب ربكم فلن يكون لكم منه إلاّ مزيد من العذاب، ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلوداً غيرها.

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى ذِكْرِ ما يفوز به المتقون من نعيم في الآخرة:

﴿إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً. حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً. وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً. وَكَأْساً دِهَاقـاً. لا يَسْمَعُون فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذّاباً. جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾.

فالذين اتقوا ربهم بطاعته واجتناب نواهيه لهم **﴿مَفَازاً﴾** أي ظفر وفوز بجنات النعيم وخلاص من عذاب الجحيم، ولهم **﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَـاباً﴾** أي بساتين من الشجر المثمر وكروم العنب **﴿وَكَـوَاعِبَ أَتْرَابـاً﴾** وفتيات اكتملت

---

(١) وهذا ليس بمستبعد على القدرة الإلَهية التي خلقت هذا الكون، وليس أسهل من تقريب ذلك للعقول من ذكر آلات التسجيل الصوتي والسينمائي التي اخترعها الإنسان والتي بواسطتها يسجل الإنسان كلامه وصورته، ولكن شتان ما بين القدرة الإلَهية المبدعة وقدرة الإنسان المحدودة.

أنوثتهن وبرزت أثداؤهن وهن في سنّ واحدة ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ أي ملأى متتابعة صافية لشرابهم ﴿لَا يَسْمَعُون فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً﴾ أي لا يسمعون باطلاً من القول ولا إثماً ولا يكذب بعضهم بعضاً أو لا يسمعون كذباً من القول ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ أي أعطاهم اللَّه ذلك كله ثواباً وتفضلاً منه جزاءً لما عملوا من أعمال صالحة.

هذا نعيم حسي يعرضه القرآن، أما حقيقة مذاقه والتمتع به فهو فوق مدارك أهل الأرض، ونعيم الآخرة يفوق نعيم الدنيا بنوعيته ودوامه إذ نعيم الدنيا قليل زائل. يقول النبي ﷺ في وصف نعيم الآخرة في حديث قدسي ينقله عن ربه:

(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

وبعد ذلك يبين القرآن جلال اللَّه وعظمته في يوم القيامة حيث الحكم للَّه وحده لا ينازعه فيه أحد:

﴿رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾.

فاللَّه هو رب السماوات والأرض وما بينهما من الخلق فهو الرحمٰن أي المنعم بجلائل النعم لا يملك أحد حق مخاطبته لتخفيف العذاب للعصاة أو زيادة في الثواب للأبرار.

ويتابع القرآن قوله:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾.

أي يوم يقوم جبريل والملائكة صفوفاً إجلالاً لعظمة اللّٰه لا يتكلمون إلّا من أذن له الرب سبحانه وقال صواباً من الكلام، وقيل لا يتكلمون في الشفاعة إلّا في حق شخص أذن اللّٰه أن يُشفع له، وكان ذلك الشخص ممن قال صواباً في الدنيا فوحَّد اللّٰه وقال: لا إلٰه إلّا اللّٰه.

ثم يبين القرآن أن البعث حق لا ريب فيه وأن الفرصة سانحة لكل إنسان لكي يستعد لهذا اليوم بالعمل الصالح:

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾.

فيوم القيامة هو اليوم الحق لأنه كائن لا شك فيه فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه فليفعل ذلك بالإيمان بالله وطاعته.

ثم تختتم هذه السورة بالإنذار للمنكرين للبعث المنغمسين في الآثام:

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكَافِرُ يا لَيْتَني كُنْتُ تُرَاباً﴾.

فاللّٰه يحذّر الناس من عذاب قد دنا منهم وقرب. يوم يرى كل إنسان ما قدم من خير أو شر مثبتاً في صحيفته التي سجلت فيها الملائكة أعماله ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾ أي يا ليتني كنت تراباً في الدنيا فلم أُخلق ولم أُكلف ولم أحاسب، أو يا ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أُبعث حياً للحساب.

التفسيرُ العِلمي

يشبه اللَّه الجبال بالأوتاد فيقول سبحانه: ﴿والجبال أوتاداً﴾ وهذه إحدى معجزات القرآن الكريم كشف عنها علم الجيولوجيا وإليك البيان:

قشرة الأرض مكونة من مادتين: (١) (السيال) (Sial) وهي عبارة عن مادة غرانيتية تتكون منها كتل القارات وأغلب مركباتها: (السيليكا) و (الألومنيوم) ونظراً لقلة كثافة هذه المادة فهي تطفو فوق مادة أخرى أكثر منها كثافة هي: (السيما).

(٢) المادة الثانية التي تتكون منها قشرة الأرض هي: (السيما) (Sima) وهي مادة بازلتية يتكون منها قاع المحيطات وترتكز عليها كتل القارات، وهذه المادة أكثر كثافة من الأولى وتتألف من عناصر تغلب عليها (السيليكا) و (المغنسيوم).

ولاحظ الجيولوجيون أن (السيال) تضغط دائماً على (السيما) التي باتت بذلك لزجة إلى حدّ ما[١].

والقارات وما عليها من الجبال المكونة من مادة (السيال) تطفو على سطح مادة (السيما) كما تطفو السفن فوق سطح الماء.

ومن الملاحظ أن الجبال المرتفعة فوق سطح القارات تتجمع تجتها كتل (السيال) فيغطس ويغور جزء كبير من الجبال بين صخور (السيما) إلى أعماق تفوق كثيراً ارتفاعات هذه الجبال فوق الأرض وتلك هي الجذور (Roots) ويتناسب غور هذه الجذور تحت سطح الأرض تناسباً طردياً مع

---

(١) الأبحاث الحديثة تدل على أن الصخر الصلب ذا تعرض لضغط شديد فإنه يكتسب صفات الأجسام المرنة.

ارتفاع الجبال فوقها. فكلما استطال الجبل ارتفاعاً في الهواء، غاص جذره في باطن الأرض. ولقد تبين أن طول الجذر يفوق ارتفاع الجبال أربع مرات ونصف مرة، وعلى ذلك فإن الجبال بارتفاعها الشاهق وبجذورها العميقة تشبه الأوتاد التي يكون جزؤها الغائب في باطن الأرض أكبر من جزئها الظاهر.

النوم راحة للأبدان:

يمتن اللّه على عباده بأنه جعل النوم راحة وسكوناً للإنسان فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُم سُبَاتاً﴾ فالنوم آية من آيات القدرة الإلّهية، جعله سبحانه سبباً لتجديد النشاط وبدونه لا يعيش كائن حيّ. فعند النوم يتوقف نشاط الجزء المدرك الواعي من المخ أو يهبط ذلك النشاط هبوطاً كبيراً متفاوت الدرجات في نشاط كافة أعضاء الجسم وأنسجته مما يترتب على ذلك انخفاض في توليد طاقة الجسم وحرارته، ثم يأخذ الجسم أثناء النوم نصيباً من الهدوء والراحة بعد عناء المجهودات العضلية أو العصبية أو كليهما، وتهبط وتبطىء جميع وظائف الجسم الحيوية، فالتنفس مثلاً يبطؤ ويصير أكثر عمقاً، وسرعة النبض تخف، وتوتر العضلات يضعف، وكل هذا يسبب الراحة للإنسان أثناء النوم ما عدا عمليات الهضم وإفراز البول والكليتين والعرق من الجلد فإن في وقفها عن العمل ضرراً على حياة الإنسان.

والنقص في النوم لأي سبب من الأسباب يحدثُ اضطراباً نفسيًا، وكل الاضطرابات التي تلاحظ على الأشخاص الذين يعملون بالليل ترجع بالتأكيد إلى نقص في النوم، وثبت أن نوم الليل أكثر فائدة من نوم النهار لأن نوم الليل أعمق، وقلة الضوضاء تتيح الراحة التامة للأعصاب.

سُورَةُ النَّازِعَات

مكية ، وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾
فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾
تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾

شرح المفردات

والنَّازِعَات غَرْقاً : أقسم الله بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار بشدة عند الموت .

وَالنَّاشِطَات نَشْطاً : وأقسم الله بالملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين برفق وسهولة .

والسَّابِحَات سَبْحاً : وأقسم الله بالملائكة التي تنزل من السماء مسرعة لأمر الله فجعل نزولهم من السماء كالسباحة .

فالسَّابقَاتِ سَبْقاً : وأقسم الله بالملائكة الذين يسبقون بني آدم بالإيمان والطاعة .

فالمُدَبِّراتِ أَمْراً : وأقسم الله بالملائكة الذين يدبرون أمر الله في أهل الأرض .

يوم تَرْجُفُ الرَّاجفة : يعني النفخة الأولى في الصور حيث يتزلزل ويضطرب كل شيء ويموت الخلائق .

تَتْبَعُهَا الرَّادِفَة : وهي النفخة الثانية في الصور حيث يقوم الناس أحياء .

واجفة : خائفة .

أبصارها خاشعة : أبصارها ذليلة منكسرة .

لمردودون في الحَافِرَة : لراجعون أحياء كما كنا قبل مماتنا .

عِظَاماً نَخِرةً : عظاماً بالية .

قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم
بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ
طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ
﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ

شرح المفردات

كَرَّةٌ خَاسِرَة : رجعة خائبة غير رابحة .

زَجْرَةٌ واحدة : صيحة واحدة يجمعون بها جميعاً .

السَّاهِرة : وجه الأرض .

طُوَى : اسم للوادي المقدس عند جبل الطور .

طغى : تجاوز الحد في الكفر والعصيان .

تَزَكَّى : (تتزكى) تتطهر من الذنوب وتنمي نفسك بالخيرات .

وَأَهْدِيَكَ : أرشدك إلى الطريق المستقيم .

الآية الكبرى : المعجزة الكبرى وهي تحويل العصا إلى حيّة تسعى .

أَدْبَرَ : أعرض عن الإيمان .

يسعى : يعمل الفساد في الأرض .

فحشر : جمع قومه وجنوده .

فأخذه الله : فعاقبه الله .

نَكَالَ الآخرة والأُولى : عقوبة الآخرة بالنار وعقوبة الدنيا بالإغراق في البحر .

رفع سَمْكَهَا : السمك هو العلو ، أي جعل مقدار ارتفاعها عن الأرض مديداً .

سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ
أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾
فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ
هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن
ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

شرح المفردات

فَسَوَّاهَا : أتقن صنعها وأحكمه .

أَغْطَشَ : أظلم .

أَخْرَجَ ضُحَاهَا : أظهر نورها .

دَحَاهَا : بسطها ومدها .

والجِبَالَ أَرْسَاها : ثبتها في الأرض .

مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُم : منفعة لكم ولأنعامكم من الإبل والبقر والغنم .

الطامَّةُ الكبرى : القيامة .

مَقَامَ ربه : جلاله وعظمته ، أو القيام بين يديه .

الساعة : يوم القيامة .

أيّان مُرسَاها : متى وقت مجيئها واستقرارها .

إلى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا : إلى ربك منتهى علمها .

عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا : العشية آخر النهار والضحى أوله .

سُورة النَّازِعَات

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعالج قضية البعث بعد الموت وما يعقب ذلـك من ثواب وعقاب، وتبين مصير الطغاة في الـدنيا والآخـرة متمثلة بما جـرى لفرعـون وقومه.

يستهل اللّه هذه السورة بالقسم[١] على مجيء البعث بالأمور الآتية:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً. وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً. فالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ الواو: واو القسم، والنزع: جذب الشيء بشدة، والإغراق في الشيء مجاوزة الحدّ فيه، قيل: المراد بـذلك مـلائكة المـوت تنزع أرواح الكفار بالقهر لشـدة تعلقها بـالأبدان، وذلـك أنه ليس من كـافر يحضره الموت إلّا وتعرض عليه جهنم فيراها قبل أن تخرج روحه، فعند ذلك تغرق روحه في جسده فيقبضها ملك الموت بعنف وشدة.

﴿وَالنَّـاشِطَاتِ نَشْـطاً﴾ يقال نشط في عمله خف وأسـرع فيه. قيـل: هم ملائكة الموت تنزع أرواح المؤمنين برفق وسهولة لكون أرواحهم راغبـة في الطيران إلى عـالم القدس، وذلـك أنه مـا من مؤمن يحضره المـوت إلّا ويرى منزلته في الجنة، فعند ذلك ترغب روحه في الخروج من ظلمة البدن وسجنه فيخرج ملك الموت روحه برفق لقلة تعلقها بالبدن.

﴿والسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ قيل هم الملائكة الذين ينزلون من السماء بأمره

---

(١) استعمل القرآن القسم في كثير من المواضع فما هي غـاية القـرآن من القسم هذا ما سنعالجه في آخر هذه السورة.

تعالى فجعل نزولهم من السماء كالسباحة(١).

﴿فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ قيل هم الملائكة الذين يسبقون ابن آدم بالخير والعمل الصالح.

﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ قيل هم الملائكة الذين يدبرون أمر اللَّه تعالى في أهل الأرض.

وجواب القسم مضمر تقديره: لتبعثن ولتحاسبن، والدليل على ذلك ما ذكره القرآن عقب ذلك من صفات يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قَلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾.

والراجفة هي الصيحة الأولى التي تضطرب لها الأرض وتميت الأحياء ويعبّر عنها بالنفخة الأولى في الصور، والرادفة: هي النفخة الثانية في الصور حيث يقوم الناس من قبورهم أحياء لرب العالمين، وقد جاء وصف ذلك في القرآن: ﴿وَنُفِخَ في الصُّور فَصَعِق مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْضِ إلاّ من شَاءَ اللَّه ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخرى فإذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرون﴾ (الزمر: ٦٨).

وهذا المشهد العظيم يجعل النفوس في وجوم وذهول ﴿قلوبٌ يَوْمَئِذٍ

---

(١) يرى بعض المفسرين أن الأمور السابقة المقسم بها يراد بها الكواكب أو الخيل أو غير ذلك ويرى الطبري أن المراد بالقسم التعميم فيقول: أقسم اللَّه بالنازعات غرقاً ولم يخصص نازعة دون نازعة فكل نازعة غرقاً داخلة في قسمه ملكاً كان أو موتاً أو نجماً أو قوساً. وأقسم سبحانه بالناشطات نشطاً ولم يخصص اللَّه بذلك شيئاً دون شيء بل عم القسم بجميع الناشطات، فالملائكة تنشط من موضع إلى موضع وكذلك الموت وكذلك النجوم وأقسم سبحانه بالسابحات سبحاً من خلقه ولم يخصص فيشمل ذلك كل سابح إلخ . . .

وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب خائفة من هول ذلك اليوم وهي قلوب الكفار ﴿أبصارها خاشعة﴾ عيونها ذليلة منكسرة.

ثم يحكي القرآن ما جرى على لسان الكافرين من إنكار للبعث واستهزاء به:

﴿يقولون: أَإِنَّا لَمَرْدُودونَ في الحَافِرَةِ. أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

فهم كانوا يقولون استهزاء: ﴿أإنَّا لَمَرْدُودونَ في الحَافِرَة[1]﴾ أي أنرجع إلى الحياة بعد الموت ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً﴾ بعد أن صرنا عظاماً بالية فانية؟ ﴿قالوا: تِلْكَ إذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي هذا الرجوع إلى الحياة الآخرة إن صح فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا به، وهذا القول استهزاء منهم.

ثم يرد القرآن على إنكارهم واستهزائهم: **﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾** القول هنا متعلق بمحذوف، أي لا تستصعبوها فما هي إلّا صيحة واحدة، والمراد بها النفخة الثانية في الصور **﴿فَإِذَا هُمْ بالسَّاهِرَة[2]﴾** فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد أن كانوا أمواتاً في بطنها.

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن قصة موسى مع فرعون متوخياً العظة والعبرة. وقصة موسى هي أكثر القصص القرآنية وروداً في القرآن لأن موسى كان نبي اليهود، وكان اليهود مجاورين للعرب في جزيرتهم يقصون عليهم أخبار الأنبياء ومنهم موسى عليه السلام كما هي في التوراة التي بين أيديهم.

---

(١) الحافرة: يقال رجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها، أي أثر فيها بمشيه فيها.

(٢) الساهرة: الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يظهر فيها أو لأن من عليها في سهر مستمر لا يذوقون النوم من الهول الذي هم فيه.

فمن أهداف القرآن في القصة أنه يتوخى التأثير على العرب باعتماد عناصر مستقاة من بيئتهم وعقليتهم هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى ليصحح المفهوم الخاطىء الذي وقع فيه اليهود أنفسهم حول ديانتهم وليدعوهم إلى الإسلام بما أظهر من حقائق ضلوا عنها وأنباء غيبية تشهد أن القرآن وحي إلّهي.

ولقد وردت قصة موسى في كثير من السُّوَر القرآنية في أساليب شتى مجملة ومفصلة، وهنا ترد قصة موسى مع فرعون مختصرة موجزة سريعة في إعطاء العبرة وهي: «هلاك فرعون بسبب طغيانه»، وفي ذلك تثبيت لقلب النبي ﷺ ووعده بالنصر على الكافرين الذين طغوا واضطهدوا المؤمنين كما نصر اللَّه موسى من قبل على فرعون. يقول تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. إذْهَبْ إِلَى فِرْعَونَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

أي هل جاءك يا محمد خبر موسى حين ناجاه ربه بالوادي المطهر المبارك المسمى: طوى، وهو الذي يقع في أسفل جبل طور سيناء إذ قال له ربه ﴿إذْهَبْ إلى فِرْعَونَ إِنَّه طَغَى﴾ أي تجاوز الحد في العصيان والكفر. فالطغيان يكرهه اللَّه لأنه مخالف لسنته في الحياة الدنيا، ولأنه يفسد الأرض، وما يطغى الإنسان إلاّ حين ينسى ربه أو ينكره ويضل عن هداه.

ويأمر اللَّه نبيه موسى بأن يعظ فرعون: ﴿فَقُلْ: هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ والاستفهام هنا فيه تلطف ولين في القول، والمعنى: هل لك أن تتطهر من دنس الكفر وادعائك الألوهية، ومن طغيانك، ومن تعذيبك لبني إسرائيل ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ وهل لك إلى أن أرشدك إلى ما يرضي ربك عنك فتخشى عقابه بأداء ما ألزمك من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من

معاصيه.

فالخشية من اللَّه لا تأتي إلا بعد الهداية، لأنه إذا هداه إلى ربه علم عظمته، والإنسان لا يخشى اللَّه إلاّ إذا علم عظمته.

ثم يذكر القرآن ما كان بين موسى وفرعون: **﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى. فَكَذَّبَ وَعَصَى. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾**.

لقد بيّن موسى لفرعون دعوته وأراهُ المعجزة الدالة على صدقه وهي تحوّل العصا إلى ثعبان وهي التي وُصِفَت بـ ﴿الآية الكُبْرى﴾ تعظيماً وتقريراً لقوة دلالتها وبلوغها في تأييد رسالة موسى أقصى درجة، ولكن فرعون كذب موسى وعصى أمر اللَّه، ثم أعرض عن موسى ساعياً إلى مواجهة الذي يتهدده، والحيلولة دون تصديق الناس برسالة موسى فجمع السحرة وقام فيهم يقول: ﴿أنا ربُّكُمُ الأَعْلى﴾ فغرور فرعون، دعاه إلى ادعاء الألوهية وهو يعلم في قرارة نفسه كَذِبَ هذا الادعاء.

ولكن سنة اللَّه تأبى على الإنسان أن يدعي الألوهية بدون أن ينال انتقام اللَّه الشديد: **﴿فَأَخَذَهُ اللَّه نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولَى. إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾** أي فعاقبه اللَّه عقوبة الآخرة بالنار، وعقوبة الدنيا بالإغراق في البحر، إن في ذلك لعظة لمن يخاف اللَّه ويخشى عقابه.

ثم ينتقل القرآن إلى مخاطبة منكري البعث الذين أنكروه استبعاداً لإمكان عودة الإنسان إلى الحياة بعد أن يموت وتبلى عظامه:

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾.

والمعنى: أأنتم أيها الناس أعظم خلقاً أم السماء التي بناها ربكم، فإن من بنى السماء هين عليه خلقكم وخلق أمثالكم وإحياؤكم بعد مماتكم،

وليس خلقكم بعد مماتكم بأشد على اللّه من خلق السماء.

وهـذا المعنى ردده القـرآن أيضـاً بقـولـه تعـالى: ﴿لَخَلْقُ السمٰوات وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: ٥٧).

ولقد وصف اللّه خلقه للسماء بالبناء ﴿أَمِ السَّماءُ بَنَاهَا﴾ والبنـاء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكهـا حتى تصبح بنيـة واحدة، وهكذا صنع اللّه بالنجوم والكواكب، وضع كلًّا منها على مدار معيّن من الآخر لا يتخطاه مع ما يمسك كُلًّا في مداره برباط الجاذبية حتى كان منها عالم واحد في النظر سمي باسم السماء التي تعلونا وتحيط بنا.

كما وصف اللّه السماء التي خلقها: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها عن الأرض مديـداً رفيعاً وجعلهـا متشابهـة الأجزاء والشكـل لا تفاوت فيها ولا خلل. ووصف اللّه بعض مظاهر السماء: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أظلم ليلها وأخرج النور من أجرامها.

ووصف اللّه الأرض: ﴿وَالأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِكَ دَحَـاهَـا﴾ أي بعـد خلق السماء بسط الأرض ومهدها لسكنى أهلها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَـاءَهَا وَمَـرْعَاهَـا﴾ بهذه الكلمات القليلة يصف القـرآن كافـة مظاهـر الحياة على وجـه الأرض وهو الماء والنبات، وليس هناك تعبير موجز يفوق النص القرآني بلاغـة ودقة في الوصف.

ووصف اللّه الجبال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاها﴾ وإرسـاء الجبال هـو تثبيتها وترسيخها في الأرض وهي من مظاهر قدرة اللّه. فبسط الأرض وإخراج مائها ومرعاها، وإرساء الجبال، هذه المـظاهر إلى جـانب كونهـا من آيات قـدرة اللّه، فهي في الـوقت نفسه منفعـة لـلإنسـان والحيوان ﴿مَتَـاعـاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن يوم القيامة ومصير الناس آنذاك:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى. يَومَ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ مَا سَعَى. وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾.

والطامة الكبرى هي القيامة، تفيض وتطغى على كل شيء بهولها، عندئذٍ يتذكر الإنسان سعيه في الدنيا ويستحضره ولكن حيث لا يفيد التذكر إلّا الحسرة والندم، ﴿وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ﴾ أي أُظهرت جهنم للناظرين فرآها الناس عياناً بادية لكل بصر.

أما أسباب العذاب فيبينها اللَّه بقوله:

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأْوَى﴾.

والطغيان وصف لكل من يجاوز الحد ويغلو في الكفر والعصيان، ولا يوصف بالطغيان إلّا من آثر الحياة الدنيا وعمل لها وحدها ولم يحسب للآخرة حساباً، هؤلاء منزلهم ومأواهم في الآخرة جهنم ليعذبوا بنارها.

وبالمقابل فإن أسباب النعيم في الآخرة هي:

﴿وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ المأْوَى﴾.

أي من خاف القيام بين يدي اللَّه يوم القيامة، وخاف حكم اللَّه فيه فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي نهى نفسه عن هواها فيما يكرهه اللَّه، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك وخالف هواها، فإن الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة.

فالذي يخشى جلال اللَّه وعظمته يكف نفسه عن أهوائها. والهوى

هو ميل الطبع إلى ما يلائمه، والانجذاب إلى شيء مرغوب شراً كان أو خيراً، محموداً أو غير محمود، على أن أكثر استعمال الهوى فيما ليس بمحمود شرعاً، ومطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات الضارة التي تسبب الألم والأذى.

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألماً، وشهوة تورث ندماً، والنفس مجبولة على حب الهوى فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة لما تطلبه أهواؤها، وما لم يزجر الإنسان نفسه عن الهوى فإن الفكر يساعد الهوى في طلب ما شُغِفَت به النفس، فتستأنس بالآراء الفاسدة، والأطماع الكاذبة، والأماني العجيبة، ومن هنا كان الهوى سبباً في كل شرّ وبلاء.

ونهي النفس عنه أساس الفوز والنجاح، ولا يلجم الهوى ويكبحه إلّا خوف اللَّه الذي ينتج عنه حرمان النفس من مشتهياتها الضارة، وشهواتها المهلكة[1]، وهذا الحرمان يعوّضه اللَّه في الآخرة بنعيم الجنة.

وأخيراً يجيب القرآن على أسئلة الكافرين الذين إذا سمعوا وصف أهوال يوم القيامة سألوا النبي ﷺ: متى قيامها وظهورها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ والساعة هنا المراد بها القيامة، أما لفظ «ساعة» في اللغة العربية فيعني الجزء من الوقت وأضيف إليه حديثاً استعماله في جزء محدّد منه بستين دقيقة ثم غلب اسم (الساعة) على الآلة الضابطة للوقت، ولكن للقرآن استعماله الخاص للساعة فهو لا يستعملها نكرة إلّا وكان المراد بذلك برهة من الوقت قصيرة دون تحديد لها بالدقائق والثواني، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل: ٦١). أما حين يستعمل القرآن لفظ (الساعة)

(١) عن كتاب(ذم الهوى) بتصرف للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي.

معرّفة فتلك هي ساعة الآخرة وهي القيامة التي تنفرد دون ساعات الزمان كله بأنها الحاسمة الفاصلة التي يتغير فيها نظام الكون لما يحدث فيها من حدث هائل خطير.

لقد سأل الكفار عن الزمن الذي تقوم فيه القيامة فكان الجواب: ﴿**فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا**﴾ أي ليس لك يا محمد من العلم بها شيء حتى تذكر وقتها ﴿**إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**﴾ إلى ربك يرجع منتهى علمها وتفاصيل أمرها لا يعلم وقت قيامها غيره ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا**﴾ فمهمتك يا محمد أن تُنذر بها من يوقن بوجودها فيخاف عقاب اللَّه على عصيانه له.

ثم يصور القرآن هولها: ﴿**كَأَنَّهم يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثوا إلاّ عَشِيّةً أو ضُحَاهَا**﴾ فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا وأحداثها، وكأن أيام العمر المديد بما اشتملت عليه من ملذات وشهوات، كل تلك الحياة الطويلة تتراءى لهم كأنها ساعات من ليل أو نهار عند مرأى القيامة والحياة الآخرة.

أمن أجل هذه الحياة الدنيا الفانية ومتاعها القليل يضحي الإنسان بالآخرة الباقية الدائمة؟ ما أجهل الإنسان وأتعسه حينما يضل عن حقيقة وجوده على هذه الأرض ومآله بعد الممات.

معنى القسم في القرآن:

يستعمل المتكلم القسم لدفع الشك عن المستمع، لأن الأساس في القسم أن الإنسان إذا أقسم فإنه يحلف بشيء عظيم في نفسه ونفس السامع، ويكون القسم عندئذٍ لتثبيت ما يذهب إليه المقسم في ذهن المخاطب بغية تصديقه فيما يقول، وذلك لاعتقاد السامع أن القسم الكاذب ينتهي إلى هلاك صاحبه، وهذا ناشيء في البدء من ارتباط القسم بفكرة القداسة الدينية،

ولذلك كان المعبود هو أول ما يقسم به وعلى هذا جاء الحلف عند العرب في الجاهلية فقد كانوا يقسمون بأكثر شيء قداسة عندهم فحلفوا باللَّه، جاء في القرآن: ﴿وَأَقْسَموا باللَّه جَهْدَ أيمانهم﴾ الأنعام: ١٠٩، وأقسموا بأصنامهم وغير ذلك.

فعرب الجاهلية عرفوا القسم واستخدموه في كلامهم حتى عدّه الشاعر الجاهلي زهير إحدى وسائل ثلاث لإحقاق الحق فقال:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ولقد نزل القرآن بلغة العرب وعلى ما ألفوه من أساليبهم ليكون مفهوماً لديهم وذا وقع في نفوسهم فاستعمل القرآن القسم في مواضع كثيرة وخصوصاً في أوائل ما نزل من السور المكية لأنه كان يخاطب قوماً ينكرون رسالة محمد ﷺ والبعث والحساب.

وقد جاء القسم في القرآن فاتحة لبعض السور كما جاء في سورة النازعات التي سبق شرحها وسور أخرى في هذا الجزء من التفسير، ووقوع القسم في ابتداء السورة له أثره النفسي فإن البدء به مدعاة لجذب انتباه السامع لما يحدثه القسم في نفسه من الرهبة، فإذا حدث ذلك صحبه تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال، خصوصاً أن ما يقال مبني على قسم وفي هذه الحال يكون الإنسان أشد تأثراً بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد من طريق الجدال والنقاش، ذلك أن الإقناع العقلي فيه انتصار حاد لعقل على آخر، ومن الصعب على النفوس الجامحة العنيدة كنفوس العرب في جاهليتهم أن تقر لأحد المتجادلين بالغلبة أو تسلم له بالانتصار عن طريق الإفحام، بل كثيراً ما يكون السامع غير عارف بأصول الإقناع العقلي فلا فائدة إذن من فتح هذا الباب أمامه والدخول عليه من هذا الطريق الذي يجهله.

وإذا رجعنا إلى ما أقسم اللَّه به في القرآن وجدنا أنه أقسم سبحانه بذاته فقال: ﴿فلا أُقسِمُ بِرَبِّ المشارِقِ والمغارب﴾ المعارج: ٤٠. وقال سبحانه: ﴿قُل بلى وربي لتبعَثُنَّ﴾ التغابن: ٧.

وقد يقسم اللَّه بشيء أنكره بعض الناس، أو ذهلوا عن موضع العبرة فيه، أو غفلوا عن حكمة اللَّه في خلقه، أو انعكس عليهم الرأي في أمره فاعتقدوا فيه غير الحق فيقسم اللَّه به إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره أو لتعظيم شأنه في نفس من يحقره أو لتصحيح فهم خاطىء في هذا المجال.

فمما أقسم اللَّه به سبحانه: يوم القيامة ﴿لا أُقْسِمُ بِيَومِ القِيَامَة﴾.

ومما أقسم اللَّه به: حياة النبي ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الحجر: ٧٢. لبيان شرف المقسم به وعلو قدره.

وأقسم اللَّه بالأماكن التي كانت موطناً للأنبياء كما في سورة التين.

وأحياناً يكون الغرض من القسم توجيه النظر إلى المظاهر الكونية فأقسم سبحانه بالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار وذلك للتوصل منها إلى خالقها والتأمل فيها تأملاً يظهر عظمة مُبدعها، أو لدحض الاعتقاد بأنها آلهة تتصرف في الكون كما اعتقد بذلك بعض الشعوب قديماً، فمثلاً الشمس التي فُتن بها بعض الناس وعبدوها لما رأوا فيها من المنافع، فاللَّه حين يقسم بالشمس لأن لها أهمية عظيمة عند السامعين يأتي بعد القسم بها بقسم آخر يناقض ألوهيتها فيقول: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ فالقسم بالليل الذي يغطيها فتأفل يناقض ألوهيتها لأن الذي يُعبد يجب أن لا يأفل، ولذلك قال إبراهيم عن الشمس ـ التي كان يعبدها قومه ـ عندما غابت عن الأنظار: ﴿إني لَا أُحِبُّ الآفلين﴾.

التفسير العلمي

ظلمة السماء:

يقول تعالى متحدثاً عن قدرته في خلق السماء: ﴿**وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا**﴾ أغطش أي أظلم، ومن المعروف أن الليل مظلم وإضافة الإظلام إليه هو تأكيد لظلمة السماء، ولكن ما حقيقة هذا التأكيد؟ إنه إشارة إلى حقيقة عُرِفت حديثاً وهي أن الظلام يعم الفضاء الكوني، وإذا كنا نرى النهار فإن ذلك يقتصر على جو الأرض وليس على السماء، فإذا تجاوزنا السماء الزرقاء بتجاوز الغلاف الفضائي الذي يحيط بأرضنا كما تجاوزه ملاحو الفضاء والسفن الفضائية فإن السماء تبدو كما بدت لهم سوداء حالكة ولو كانت الشمس طالعة، وتتراءى الشمس والنجوم أجساماً مضيئة من غير أن يكون لأضوائها أثر في تخفيف الظلام لأن الضوء في ذاته لا يُرى وليس في ذلك الجو المظلم ما يشتت ضوء الشمس ويعكسه إلى العين كما يحدث في جو الأرض أثناء النهار، فلولا الهواء وما يحمل في جو الأرض من ذرات تعكس نور الشمس لبدت الأرض للناس حالكة السواد حين تكون الشمس طالعة.

والمفسرون القدامى لم يخطر ببالهم أن السماء من وراء جو الأرض سوداء حالكة والشمس طالعة ففسروا الليل بليل الأرض الذي عهدوه رغم إضافة الليل في الآية إلى ضمير راجع إلى السماء.

وبعد ذلك يقول سبحانه: ﴿وأخرج ضُحَاها﴾ الضمير في ضحاها يرجع إلى السماء أيضاً وما السماء إلاّ مجموعة الأجرام السماوية، والضحى هو النور، فاللّه سبحانه أخرج النور من الأجرام السماوية، وإخراج النور منها لا يقدر عليه إلاّ اللّه سبحانه فليس نورها كضوء مصابيح الإنسان أو كالتيار الكهربائي، بل هذا النور يحدث نتيجة تفاعلات ذرية هائلة في جوف النجم، هذا مع العلم أن كل نجم هو كالشمس في طبيعته.

سُورَةُ عَبَسَ

مكية ، وآياتها ثنتان واربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾
أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ
تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾
وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن

شرح المفردات

عبس : قطب وجهه ، والذي عبس هو النبي محمد ﷺ .

تولّى : أعرض بوجهه .

يزكّى : يتطهر من الآثام ، وينمي نفسه بالخيرات .

يذَّكّر : يعتبر ويتعظ .

الذِّكرى : الموعظة .

استغنى : صرفه غناه عن سماع الهداية .

تصدَّى : تتعرض له وتقبل عليه .

وما عليك ألّا يزكّى : ليس عليك ملامة في ألا يتطهر من كفره فيسلم.

يسعى : يسرع إلى التعلم والهداية .

يخشى : يخاف الله .

تذكرة : موعظة.

شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى
سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ
شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ
أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾
فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا

شرح المفردات

ذَكَره : استحضره في ذهنه وتدبره .

في صحف مكرمة : صحف القرآن المعظمة عند الله والتي يجب تكريمها .

مرفوعة : عالية القدر .

مطهرة : أي مطهرة من التغيير والضلالة.

سفرة : جمع سافر بمعنى سفير وهم الملائكة لأنهم وسائط الوحي بين الله ورسله .

كرام : شرفاء يكرمهم الله .

بررة : أتقياء لله مطيعون له .

نطفة : خلية الإنسان المتكونة من ماء الرجل وبويضة الأنثى .

فقدَّره : فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء.

السبيل يسّره : يسر له الخروج من بطن أمه.

أنشره: بعثه حياً بعد الموت.

كلا : ردع للإنسان عن تكبره وكفره.

لَمَّا يقض ما أمره : لم يؤد الإنسان ما أمره الله به من شكر نعمته.

صببنا الماء صبا: أنزلنا المطر غزيراً.

شققنا الأرض: المراد شق الأرض بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر.

ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا
وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾
فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا
غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

شرح المفردات

حبّاً : الحبوب من الحنطة والشعير والذرة وغير ذلك.

قضباً : ما أُكل من الخضار طازجاً.

حدائق غُلْبا : البساتين ذات الأشجار الباسقة المتكاثفة.

أباً : مرعى تأكله البهائم.

متاعاً لكم : أي منفعةً ومتعة لكم.

أنعامكم : الإبل والبقر والغنم.

الصّاخة : هي الصيحة التي تكون فيها القيامة وهي تصم الآذان لشدتها.

صاحبته : زوجته.

شأن يُغنيه : حال يشغله عن غيره.

مُسْفرة : مشرقة متهللة.

مستبشرة : مسرورة بنيل كرامة الله ونعيمه.

عليها غبرة : الغبرة ما دقَّ من التراب وهنا كناية عن تغير الوجه للغم.

ترهقها قترة : يغشاها سواد وظلمة.

الفجرة : جمع فاجر وهو المنهمك في الآثام الخارج عن حدود الله

سُورَةُ عَبَسَ

ايضــاح و دروس

هذه السورة تتحدث عن دلائل القدرة الإلَهية في خلق الإنسان والنبات كما تتحدث عن القيامة وأهوالها، وفيها أيضاً عتاب من اللّه لنبيه محمد ﷺ.

تستهـل هـذه السـورة بـذكـر حـادث معين جـرى بين النبي ﷺ وبين صحـابي أعمى فقير اسمـه عبـد اللّه ابن أم مكتـوم إذ أقبـل على النبي ﷺ وهـو مشغول في حـديثه مـع كبراء قـريش وأشرافهـا في مكة يـدعوهم إلى الإسـلام رجـاء أن يُسلم بـإسـلامهم أتبـاعهم من قـريش والعـرب، فقـال ابن أم مكتـوم: يا رسـول اللّه أقرئني وعلمني ممـا علمك اللّه، وكـرّر ذلك وهـو لا يعلم انشغال النبي ﷺ بـالقوم، فكـره النبي من ابن أم مكتوم قـطعه لكلامه مع القوم فعبس وأعرض عنه فنزلت الآيات التالية:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أنْ جَـاءَهُ الأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيك لَعَلّه يَزَّكَّى. أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَه الذِّكْرَى. أَمَّا مَن استغنى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ ألَّا يَزَّكَّى. وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.

فـالنبي ﷺ عبس في وجه الأعمى وأعـرض عنه، ويـلاحظ أن عبـارة القـرآن أتت بضمـائـر الغيبـة ﴿عَبَسَ وَتَـوَلَّى﴾ فلم يقـل سبحـانـه: «عبست وتوليت» تلطفاً بالنبي ﷺ.

ثم يخاطب اللّه النبي ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أي وما يعلمك ويخبرك يا محمد لعلّ هذا الأعمى الذي عبست في وجهه يتطهر من ذنوبـه بما يتلقاه منك من الهدى ﴿أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أو يتعظ بما يسمع منك من الهدى فتنفعه موعظتـك ﴿أمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ أمـا من استغنى عن الإيمان

وعما عندك من الهدى ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ فأنت تتعرض له بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتطهر من كفره فيسلم ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسعَى وَهُوَ يَخْشَى﴾ وأما من جاءك مسرعاً في طلب الخير وهو يخاف اللَّه ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ فأنت تعرض عنه وتتشاغل بغيره.

فالنبي ﷺ كان في موقف المجتهد فيما رآه الأصلح لنشر الدعوة الإسلامية، وليس في موقف الممتنع عن تعليم الأعمى، ولكن اللَّه يرمي من هذا العتاب إلى إلغاء امتيازات الأشراف والإشادة بذوي النيات الحسنة من الناس ولو كانوا ذوي عاهات، وترجيحهم على الذين يترفعون عن كلمة الحق مهما علت مراكزهم الاجتماعية، فَضَعْفُ ذلك الأعمى وفقره لا يجوز اعتبارهما سبباً للعبوس في وجهه، والإعراض عنه مهما بدرت منه من أخطاء، فإنه مرهف الحس، طيب النفس، إذا سمع آيات اللَّه اتعظ بها.

ثم إن العبوس لم يعلم به الأعمى ولم يشاهده ولكن هذا العمل كان من النبي ﷺ خلاف الأوْلى والأفضل، ولهذا عاتب اللَّه نبيه بهذه الآيات تعليماً للمسلمين لتوفير التعليم للعميان، وعدم جرح شعورهم المرهف، كما أن في ذلك أيضاً إشادة بالعميان الذين يحرصون على تلقّي هدى اللَّه.

ومن جهةٍ أخرى فإن هذا العتاب الإلَهي من أعظم الدلائل على كون القرآن وحياً إلَهياً وعلى صدق نبوة محمد ﷺ فلو كان النبي محمد من عظماء الرجال فقط دون أن يكون نبياً وكان القرآن من تأليفه ـ كما يزعم أعداؤه ـ لما سمح النبي محمد ﷺ أن يُعرض ما عوتب به على أنظار الخاص والعام، ولَما رضي أن يقول أن هذا العتاب وحي إلَهي.

وبعد ذلك العتاب يقول تعالى:

﴿كَلّا، إنَّها تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ. مَرْفُوعةٍ مُطَهَّرَةٍ. بأيدي سَفَرةٍ. كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

كلا: كلمة ردع وزجر، أي لا تَعُد يا محمد إلى مثل ذلك ﴿إنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه السورة، أو هذه الآيات هي عظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فمن شاء من عباد اللَّه استحضره في ذهنه وتدبّره ﴿في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ وهذا القرآن منتسخ من اللوح المحفوظ وهو في صحف معظمة موقرة ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾أي عالية القدر والمكانة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ من الدنس والزيادة والنقص ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكةٍ جعلهم اللَّه سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ مكرمين عند اللَّه أتقياء صلحاء.

بعد تقرير هذه الحقيقة يندّد اللَّه بالإنسان الذي يجحد نعمته ويتمرد على أوامره.

﴿قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ. ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾.

﴿قُتِلَ الإنْسَانُ﴾ أي لُعِنَ والمراد به الكافر، وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفر ﴿مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾ استفهام عن كيفية خلقه وللتحقير من شأنه ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ والنطفة هي ماء الرجل التي تحتوي على ملايين الحييات المنوية وإحدى هذه الحييات تلقح بويضة الأنثى وهذه أول عملية تكوين الجنين ثم يصبح علقة ثم مضغة إلى آخر خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ثم سهل له الخروج من بطن أمه بفتح باب الرحم عند الولادة. وقد يكون المعنى: ثم هداه للإسلام ويسّره له. ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ ثم أماته اللَّه وجعل مثواه في قبر بجوف الأرض إكراماً له ﴿ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ ثم إذا حان موعد القيامة أعاده اللَّه حيّاً للحساب والمجازاة

على أفعاله.

وهنا يأتي السؤال: هل استعد الإنسان لهذه النهاية، ويأتي الجواب مِن اللَّه ﴿كَلَّا، لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي ردع وزجر للإنسان الكافر الذي يكفر بنعمة ربه، ولا يفعل ما هو مطلوب منه من الواجبات استعداداً ليوم الحساب.

وبعد أن بيّن القرآن أساس نشأة الإنسان وما ينتهي إليه أمره شرع اللَّه سبحانه في تعداد نعمه على الإنسان لعله يشكرها، من ذلك توجيه نظره إلى الطعام الذي يقتات به والذي هو سبب استمرار حياته، فقال سبحانه:

﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً. فأنبتنا فيها حبًّا. وَعِنَباً وَقَضْباً. وَزَيْتُوناً وَنَخلاً. وَحَدَائِق غُلْباً. وَفَاكِهَةً وأبًّا. مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

إن معجزة إنبات النبات كمعجزة خلق الإنسان وكلاهما يتكون من خليّة وهي المعروفة باسم (البروتوبلازم).

وبروتوبلازم النبات والإنسان متشابهتان إلى حدّ كبير، ولكن المعجزة تكمن في هذه الخلية الموجودة في بذور النبات والحبوب والفواكه والأشجار والقادرة على شق الأرض، وصنع حبوب أو نباتات أو أشجار مثلها.

كما أن الحكمة الإلٓهية تكمن في المطر الذي يغذي هذه النباتات جميعها ﴿أنّا صَبَبْنَا الماءَ صبّاً﴾ وكيف يتكوّن هذا المطر من بخار المحيطات والأنهر والبحيرات، وكيف ينزل بدوره إلى الأرض في فصول معيّنة فيكون به دوام الحياة على هذه الأرض، ثم كيف كان هذا المطر سبباً في شق الأرض وإنبات الحبوب، وكروم العنب، والخضار الطازجة، والزيتون والنخيل

﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً﴾ أي بساتين ذات أشجار غلاظ متكاثفة وبالإضافة إلى ذلك ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ والأب هو مرعى الدواب. ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ لتنتفعوا بهذا الزرع أيها الناس ولتنتفع به أنعامكم من الإبل والبقر والغنم بما ترعاه من العشب

ثم ينتقل القرآن إلى تذكير الناس بالقيامة وأهوالها:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

فإذا جاءت ﴿الصاخة﴾ وهي الصيحة التي تكون بها القيامة فهي تصخ الأسماع أي تصمها لشدتها عندئذٍ يتنكر الإنسان لأقرب الناس إليه: إنه يفر من أخيه، وأمه وأبيه وزوجته وبنيه فلكل إنسان شأنه، ولديه الكفاية من الهم.

وأخيراً يصور القرآن أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين يوم القيامة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

فوجوه المؤمنين يومئذٍ ﴿مُسْفِرَة﴾ أي مشرقة مضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ ضاحكة مسرورة بما أعطاها اللَّه من النعيم والكرامة مستبشرة لما ترجو من الزيادة. أما وجوه الكفار يومئذٍ فهي ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي عليها غبار ودخان، وهذا كناية عن تجهم الوجه للغم ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تغشاها ذلة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أولئك هم الكفرة باللَّه الذين كانوا لا يبالون بما أتوا من معاصي اللَّه ومحارمه فجزاهم اللَّه بسوء أفعالهم.

سُورَةُ التَّكْوِير
مَكيّة ، وآياتها تسع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ
۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ
سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨
بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ
۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ

شرح المفردات

الشمس كوِّرت : لُفّت وذُهب بنورها أو سقطت .

النجوم انكدرت : تناثرت من السماء فتساقطت وقيل ذهاب أضوائها .

الجبال سيِّرت : نزعت من أماكنها وسيرت منفصلة على وجه الأرض .

العِشَارُ : جمع عشراء وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر .

عُطّلت : أُهملت ولم يُعن بها .

البحار سُجِّرت : فاضت وصارت بحراً واحداً ، وقيل : اشتعلت والتهبت .

النفوس زوِّجت : قُرنت الأرواح بالأجساد .

الموؤودة : المدفونة حية .

السماء كشطت : نزعت عن مكانها .

الجحيم : دار العذاب في الآخرة .

سُعِّرت : ألهبت وأوقدت بالنار المتأججة .

أُزلفت : قربت للمتقين .

﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾
وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي
ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ
رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ

شرح المفردات

عَلِمَت نفس ما أحضرت : أي علمت كل نفس ما عملت من خير أو شر .

فلا أُقسم : معناها حقاً أقسم و (لا) للتوكيد .

الخنَّس : من الخنوس وهو الاستخفاء ، قيل إنها الكواكب لأنها تختفي في النهار .

الجوار : أي الأشياء التي تجري . قيل إنها الكواكب لأنها تسير في أفلاكها .

الكنّس : أصلها من كناس الظبي وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر ، قيل إنها الكواكب فهي تستتر وقت غروبها كما تستتر الظباء في بيتها .

والليل إذا عسعس : أدبر ظلامه .

الصبح إذا تنفّس : أضاء وتبلج .

إنه : أي القرآن الكريم .

لقول رسول كريم : هو الملك جبريل المكلف بتلقين الوحي الإلٓهي إلى محمد ﷺ .

عند ذي العرش : أي عند الله صاحب العرش .

مكين : أي جبريل ذي المنزلة والمكانة عند الله .

مُطَاعٍ ثَمَّ أمين : أي جبريل مطاع في ملائكة الله : وثَمّ بمعنى هناك أي المكان الذي يطاع فيه وهو من عالم الغيب ، وأمين على وحي الله .

وما صاحبكم : أي محمد ﷺ والخطاب لأهل مكة .

الغيب : أي الوحي الإلٓهي .

بضنين : ببخيل .

شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾
لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

وما هو بقول شيطان رجيم : وما هذا القرآن الكريم بقول شيطان مطرود عن الخيرات .

ذِكرٌ للعالمين : موعظة للناس جميعاً .

فأين تذهبون : فأين تعدلون عن كتاب الله وطاعته .

سورة التكوير

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعالج حقيقتين من حقائق العقيدة الإسلامية :

أولاً : حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقـلاب كوني وأحـداث ضخمة تَزْرَعُ الرُّعب والخوف في النفوس.

ثانياً: حقيقة الوحي المحمدي وما يتعلق بـه من صِفَةِ الملك جبـريل الذي يحمله، ومن صفَة النبي محمد ﷺ الذي يبلّغه.

فمن مظاهر القيامة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وتكويرها جمع بعضها إلى بعض وسقوطها أو ستر ضوئها، والمعروف أن الشمس كرة هائلة من غازات متجمعة ملتهبة مرتفعة الحرارة، وكل طاقة ومظهر للحيـاة على هذه الأرض يرجع إلى الطاقة المنبعثة من الشمس فحين يُستر ضوؤها وتُزال من مكانها، وتذهب هذه الطاقة يكون ذلك إيذاناً بموت كل ما على الأرض من أحياء.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي تناثرت فتساقطت وانطفأ نورها، وإذا علمنا أن متوسط حجم النجم هو كحجم الشمس وأن عدد نجوم الكون هو بالبلايين مما لا يُحصي عددها إلاّ اللّه أدركنا هول تساقط هذه النجوم.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ولعل جاذبية أحد الأجرام السماوية باقترابه من الأرض يقتلع الجبال وينسفها ويسيرها مستقلة عن الأرض.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ وهي النوق الحوامل التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر وهي أنفس الأموال عند العرب، فلو كان للشخص ناقة عشراء عزيزة على نفسه لعطلها وأهملها في ذلك اليوم من تأثير الهول وشدة الخطب الذي يقع حينذاك.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وإِذَا الوحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي جمعت، فهي تتجمع هائمة على وجهها لا تفكر في عدوان على بعضها البعض ولا يفكر القوي منها في اقتناص الضعيف، فهي في شغل شاغل عن ذلك بما نزل بها وبالكون.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرتْ﴾ فسجّرت تأتي بمعنى فاضت، فالبحار يفيض بعضها على بعض فتصير بحراً واحداً، فالجبال حين تندك ويتطاير ترابها الهائل فلا جرم أن ينصب القسم الكبير منها في البحار فتملأها وتفيض البحار ويتصل بعضها ببعض.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا النّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ والمراد بالنفوس الأرواح التي هي أمر رباني لا يعلم سرها أحد، والروح لا تفنى بفناء البدن، وتبقى

بعد الموت. ويوم القيامة ترد الأرواح لأبدانها بعد أن يكون اللَّه سبحانه قد أعاد خلق هذه الأبدان المتحللة بالتراب بهيئة مادية جديدة كما قال سبحانه: ﴿ونُنْشِئَكُم في مَا لاَ تَعْلَمُون﴾ الواقعة: ٦١. فالبعث يوم القيامة يكون بالأرواح والأجساد معاً. وقيل في معنى: ﴿وإذَا النُفُوسُ زُوِّجَت﴾ أي قرنت النفوس بأمثالها في الصلاح والسوء فيجتمع كل فريق مع نظيره.

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا المَوؤودَةُ سُئِلَتْ﴾ وهي البنت المدفونة حية، وقد كان العرب يئدون بناتهم أحياء إما خوف الفقر، وإما خوف العار من سبي النساء واسترقاقهن، وكان يحصل ذلك خلال الحروب التي كانت مستعرّة على الدوام بين القبائل، وكانت المرأة إذا سُبيت أصبحت سترقّة مملوكة لمن سباها، فالموؤودة تُسأل والمراد بسؤالها إثارة قضية الوأد برمتها، لأن الموؤودة ليست هي المسؤولة، فهي المظلومة، والمراد سؤال الظالم والقاتل عن الذنب الذي اقترفته وذلك تشنيعاً على قاتلها واستهجاناً لهذا العمل الإجرامي الذي اعتبره القرآن عملاً رهيباً وذكره في سياق أحداث الكون وانقلاباته. وفي قوله سبحانه: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وعيد لكل من يعتدي على نفس بريئة بالقتل، فقتل النفس ظلماً بغير حق من أشد الآثام والذنوب التي يحاسب عليها الجاني بالعذاب الشديد يوم القيامة على ما جاء في كثير من آيات القرآن الكريم[(١)] وهي من أول الذنوب التي يُحاسب عليها الإنسان يوم القيامة، فقد قال النبي ﷺ: (إن أول ما يحكم بين العباد في الدماء)[(٢)].

ومن مظاهر القيامة: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ وهي صحف الأعمال،

---

(١) راجع كتاب (الخطايا في نظر الإسلام) للمؤلف.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ونشرها هو فتحها بعد أن طويت عند الموت وهي الصحف التي كتبت فيها الملائكة ما فعله الناس في دنياهم من خَيْرٍ أو شرّ يراها الناس منشورة أمامهم يوم القيامة.

فنشر صحيفة الإنسان يحمل معنى الفضيحة، فكل ما كان يفعله الإنسان في حياته من إثم خفي وكان حريصاً على ستره إذا به يوم القيامة منشور ظاهر للملأ.

ومن مظاهر القيامة: ﴿**وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ**﴾ فالسماء تنزع من مكانها كما يُنزع الغطاء عن الشيء، وهو تصوير لما سيحدث من تغيّر في الكون، وأنه لن تظل الأرض كما هي، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْض والسَّمٰوات﴾ إبراهيم: ٤٨.

ثم يأتي المشهد الأخير للقيامة وهو وصف جهنم التي أعدها اللّٰه للعصاة ﴿**وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ**﴾ أي أُوقدت وزيد في إشعالها.

وفي مقابل ذلك وَصْفُ الجنة للمتقين ﴿**وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ**﴾ أي قربت وأدنيت من المتقين.

هذه جميعها مظاهر القيامة التي ذكرتها هذه السورة فعندما يحصل كل ذلك: ﴿**عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ**﴾ تنكير النفس يفيد العموم، فكل نفس تعلم جميع ما عملته من خير أو شر بإحضار صحف أعمالها التي كتبتها الملائكة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَت مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَودُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ آل عمران: ٣٠.

ثم يقسم اللّه بجملة أمور على أن القرآن وحي أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١). الْجَوَارِ(٢) الْكُنَّسِ(٣). وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أقسم اللّه بأشياء تغيب عن الأنظار، وتجري مراراً، وتستتر أخرى.

كما يقسم اللّه بالليل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي إذا أدبر بظلامه.

ويقسم سبحانه أيضاً بالصبح إذا أشرق وأضاء ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ هذا التعبير من فصاحة القرآن التي اختص بها، فالتنفس هنا يعرف بعلم البلاغة باسم الاستعارة وحقيقته بدء انتشاره فكأنما كانت الطبيعة هادئة هاجعة لا تحس فيها حركة ولا حياة فلما أقبل الصبح صحا الكون ودبّت الحياة في أرجائه، فالتنفس علامة الحياة، كما أن انقطاعه علامة الموت والسكون.

هذا القسم كله قد يكون ـ واللّه أعلم ـ رمزاً للرسالات الإلٓهية السابقة ثم اختفت حقيقتها بما طرأ عليها من البدع والتحريف والخلافات حولها،

---

(١) الخنس: الخنوس هو الانقباض والاستخفاء، يقال: خنس الرجل إذا توارى وغاب.

(٢) الجواري: جمع جارية من جرى يجري.

(٣) الكنّس: جمع كانس وهو الداخل في الكناس، والكناس مقر بقر الوحش أو الظبي الذي يتخذه من أغصان الشجر ليستتر به.

يرى كثير من المفسرين استعارة هذه المعاني اللغوية للنجوم والكواكب فقالوا: أقسم اللّه بالنجوم أو الكواكب التي تخنس بالنهار أي تختفي، والجواري أي جريها في أفلاكها: وتكنس أي تستتر وقت غروبها وتغيب عن الأنظار كما تكنس الظباء في مستترها الذي أعدته من الشجر أو تكنس بالنهار فلا ترى. وقيل المراد بالقسم بتلك الأمور هي الظباء أو بقر الوحش فهن خنّس إذا رأين الإنسان فتجري وتدخل مقرها لتستتر به. وأما الطبري فيرى عدم التخصيص وأخذ المعنى على عمومه اللغوي.

فعم الظلام الشعوب واختفى نور الهداية. وبعد هذا الظلام أراد اللّه أن يخرج منه صبحاً، صبح هداية، فبعث اللّه رسوله محمداً بالهدى ودين الحق، فكأن رسالة محمد ﷺ هو تنفس الصبح للبشر.

لقد أقسم اللّه بذلك كله على أن ما أخبر به محمد من القرآن هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه، وبلغه للنبي ﷺ الذي بلّغه بدوره إلى أمته:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ﴾ لقد وصف القرآن جبريل بأنه ذو قوة شديدة وذو مكانة عالية لدى اللّه صاحب العرش. والعرش سمي به مجلس السلطان اعتباراً بعلوه، وكني به عن العز والسلطان والمملكة، وعرش اللّه لا يعلمه البشر على الحقيقة إلّا بالاسم.

كما يصف اللّه جبريل ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أمين﴾ أي مطاع في السماء تطيعه الملائكة وأمين عند اللّه على وحيه ورسالته.

ثم ينتقل اللّه إلى وصف نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ وفي التعبير بـ ﴿صَاحِبُكُم﴾ إقامة الحجة على كذب أهل مكة في دعواهم بأنه مجنون، فإنه كان صاحبهم الذي خالطوه وعاشروه قبل النبوة وعرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من استقامة وأمانة وكمال عقل، فكيف يصفونه بالجنون بعد النبوة؛ ومحمد ﷺ قد رأى الملك جبريل على صورته وله ستمائة جناح في الأفق من ناحية المشرق ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.

كما أن محمداً لا يبخل بتعليم القرآن الذي علّمه اللّه إياه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

والقرآن الكريم ليس كما يدعي الكفار ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيطَانٍ رَجِيمٍ﴾ فقد كان الكفار يقولون بأن القرآن من أقوال الشياطين فقد كانوا يعتقدون أن كهنتهم يعلمون الغيب وأنه سخر لهم شياطين من الجن تسترق

السمع من الملأ الأعلى وتأتيهم بالأخبار الغيبية، فاللّه سبحانه يقول لهم بأن الشياطين لا توحي بمثل كلام القرآن الذي فيه الحق والخير والغيب والإعجاز. فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأي طريق تسلكون في تكذيبكم للقرآن وتعدلون عنه.

وأخيراً يبين اللّه أن القرآن هو موعظة للناس لمن شاء الاستقامة منهم:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾.

فاللّه جعل للإنسان الحرية في اختيار الطريق الذي يسلكه فإما طريق الهدى وإما طريق الضلال غير أن مشيئة الإنسان مقيدة ضمن مشيئة اللّه، فليست مشيئة الإنسان مطلقة. كما قال تعالى في ختام السورة ﴿وَمَا تشَاؤُون إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فمشيئة اللّه تتجلى في إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى سبيل الرشاد والتحذير من سبل الضلال، ومشيئة الإنسان تتوضح في اختياره لأحد السبيلين.

واللّه سبحانه يوفق إلى الهدى من اتبع سبيله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّه من اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ المائدة: ١٦ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن: ١١.

سُورَةُ الانفِطَار

مكية، وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ
﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا
الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾
فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ
لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ

شرح المفردات

السماء انفطرت : انشقت .

الكواكب انتثرت : تساقطت متفرقة .

البحار فجِّرت : اختلط بعضها ببعض فصارت بحراً واحداً ، وقيل : ذهب ماؤ ها .

القبور بُعثرت : قلب ترابها وخرج من فيها أحياء .

ما غرَّك بربك : أي شيء خدعك فكفرت بربك .

فَسوَّاك : جعلك حسن الصورة سالم الأعضاء .

فَعَدَلَك : جعلك معتدلاً متناسب الخلق .

في أي صورة ما شاء ركّبك : خلقك في الصورة التي اقتضتها مشيئته .

تكذّبون بالدين : تنكرون يوم الجزاء .

لحافظين : أي رقباء من الملائكة يحصون أعمالكم ويحفظونها .

كراماً كاتبين : كراماً عند الله يكتبون أعمال الناس .

لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ
عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

شرح المفردات

الأبرار : المتقون الطائعون لأوامر الله .

الفجار : المشركون المخالفون لأوامر الله .

يصلونها : يقاسون حرّ جهنم .

سُورَةُ الإِنفِطَار

ايضاح و دروس

هذه السورة تعالج قضية يوم الحساب، وما فيه من أحداث كونية مروعة، وما يعقب ذلك من ثواب وعقاب للإنسان على أعماله، يتخلل ذلك عتاب مبطن بالوعيد الشديد للذين يقصرون في حق ربهم، وينكرون يوم الجزاء.

يستهل اللّه هذه السورة بوصف بعض أهوال القيامة :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ .

فاللّه سبحانه يقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي انشقت، والمراد بذلك التغير العنيف في هيئة الكون وانتهاء نظامه المعهود ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي تساقطت، والمراد بذلك خروجها عن أفلاكها وإفلاتها من ذلك

الرباط الوثيق التي هي فيه ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي فتح بعضها إلى بعض واختلط عذبها بمالحها، وقد يحصل ذلك ـ والله أعلم ـ من تأثير نسف الجبال والتغير في طبيعة الأرض ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي قلب ترابها وخرج من فيها من الموتى أحياء. عند كل هذه التغيرات الكونية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(١)﴾ أي علمت كل نفس ما قدمت من طاعة الله وما أخرت من حق الله وطاعته.

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الخطاب إلى الإنسان المقصر في حق ربه مذكراً له بِنِعَمِ ربه عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي ما الذي خدعك بربك في دنياك فجعلك تقصّر في حقه عليك وتتهاون في طاعته، وتتجرأ على عصيانه، وهو ربك الكريم الذي أغدق عليك من كرمه وفضله ما يفوق الوصف، فهو سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم، وسواك بهذا الشكل الكامل، وجعلك معتدلاً متناسب الخلق في جميع أعضاءك ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي أبدعك على الصورة التي اقتضتها مشيئته من الطول أو القصر، ولون البشرة واختلاف الشكل.

هذه التسوية الخارقة في خلق الإنسان تبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي مما استحق به خلافة الأرض، وهنالك المؤلفات الوافية في وصف كمال التكوين الجسدي للإنسان وأسراره (٢) بما

---

(١) قيل المراد بأخرت هو ما سنّه الإنسان من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها الناس بعد موته فيكون له مثل أجر العامل أكان عملاً صالحاً أم سيئاً.

(٢) نشير إلى بعضها مثل الجهاز الهضمي، والجهاز الدموي والجهاز التنفسي والجهاز التناسلي والجهازالعظمي والجهاز العصبي والجهاز اللمفاوي، وأجهزة الذوق والسمع والبصر والنطق وغير ذلك.

يجعل طلبة الطب يمكثون السنين الطوال في سبر أغوارها في معاهد الطب.

ثم يكشف القرآن عن علة غرور الكافر وإعراضه عن طاعة ربه، فيقول إن السبب في ذلك هو التكذيب بيوم الجزاء ﴿**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُون بِالدِّينِ**﴾ كلا: ارتدعوا أيها الكفار عن الاغترار بكرم اللَّه وجعله ذريعة إلى الكفر والمعاصي، بل أنتم تكذبون بالدِّين: أي بيوم الحساب يوم يدين اللَّه العباد بأعمالهم، فالتكذيب بيوم الحساب هو السبب لكل الشرور التي تجتاح العالم، فلو آمن الإنسان بذلك اليوم لكان رقيباً على أعماله محاسباً نفسه على كل خطوة يخطوها، مبتعداً عن الشر وعن كل ما يغضب ربه.

ويلفت القرآن نظر الإنسان إلى دقة المراقبة الإلَهية التي تحيط به:

﴿**وَإِنّ عَلَيْكُم لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تفعَلُونَ**﴾.

أي وإن عليكم أيها الناس رقباء من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها فكل إنسان له ملكان ملك عن يمينه يكتب الحسنات وآخر عن يساره يكتب السيئات ﴿كِراماً كاتبين﴾ كراماً على اللَّه يكتبون أعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلونَ﴾ يعلم هؤلاء الملائكة الحفظة ما تفعلونه من خير أو شر فيحصون ذلك عليكم، فلا يظن الإنسان أنه خلق عبثاً دون مراقبة أو حساب على أعماله يوم القيامة.

والملائكة الذين يحصون أعمال الإنسان هم مخلوقات كرام لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وقد خلقهم اللَّه من نور، ولا يستطيع حس الإنسان وعلمه سبر كنههم. والاعتقاد بهم من الأمور الغيبية التي أوجب اللَّه علينا الإيمان بها.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مآل الإنسان على ضوء الإحصاءات التي

سجلتها الملائكة:

﴿إنَّ الأبرار لفي نَعيمٍ. وإنَّ الفُجَّارَ لفي جَحيمٍ. يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّين. وَمَا هُم عَنْها بغَائبين﴾.

فهؤلاء الأبرار هم في الجنة يتنعمون بما أعطاهم اللَّه به من نعيم والأبرار هم المتقون الطائعون لأوامر اللَّه، وطاعة اللَّه تشمل كل خير وفضيلة فيها الخير للإنسان والمجتمع. أما الفجار وهم المشركون المخالفون لأوامر اللَّه المستبيحون كل شر فجزاؤهم جهنم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّين﴾ يقاسون حرّها يوم الجزاء ﴿وما هُم عنْها بِغَائبين﴾ وما هم عن جهنم بمخرجين.

وأخيراً يذكر القرآن يوم الجزاء فيعظم من شأنه واصفاً عجز العقل الإنساني عن اكتناه حقيقته: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.**

فهنا تهويل لشأن يوم الجزاء بعد تهويل ببيان أنه خارج عن دائرة دراية الإنسان وفوق ما يتصوره.

ففي ذلك اليوم لا يستطيع الإنسان أن يقدم لغيره شيئاً من النفع، ولا أن يدفع عنه الضر، فكل الناس في قبضة اللَّه سبحانه:

﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئاً وَالأَمْرُ يَومَئِذٍ لِلَّه﴾.

فالأمر كله صار للَّه وحده الذي لا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، واضمحلت هنالك الممالك، وذهبت الرياسات والزعامات وحصل الملك للَّه الواحد القهار.

سُورَةُ المطففين

وآياتها ست وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا
كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا

شرح المفردات

ويْلٌ : قبح وهلاك لهم ، وقيل : الويل واد في جهنم يهوي الكافر فيه .

للمطففين : الذين يبخسون الناس حقهم في الكيل والوزن .

اكتالوا على الناس : أخذوا من الناس بضاعة بواسطة الكيل .

يسْتَوْفون : يأخذون حقهم وافياً زائداً .

كالوهم أو وزنوهم : كالوا لهم أو وزنوا لهم .

ألا يَظُنُّ : ألاّ يعلم.

مبعوثون : يقومون من قبورهم بعد مماتهم للحساب والجزاء .

كلا : كلمة ردع وزجر عما كانوا عليه .

سجِّين : أي في سجن في الأرض السفلى .

كتاب مرقوم : أي مكتوبة أعمالهم فيه ، أو له علامة خاصة تدل على شقاء صاحبه .

يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ
عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ
ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ
نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى
ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

شرح المفردات

مُعْتدٍ : متجاوز عن منهج الحق .

أساطير الأولين : أباطيل وأكاذيب توارثها الناس عن أسلافهم دون التحقق من صدقها .

ران على قلوبهم : غطى وغلب على قلوبهم . والرين شيء كالصدأ يغشى القلب .

لصالوا الجحيم : يدخلون النار ويقاسون حرّها .

علّيين : مكان في أعلى درجات الجنة.

يشهده المقرّبون: يشهد هذا الكتاب المقرّبون من ملائكة الله .

الأرائك: جمع أريكة وهي السرير الذي عليه ستار.

نضرة النعيم : رونق النعيم وحسنه.

رحيق : الشراب الخالص الذي لا غش فيه.

ختامه مسك : خاتمة شربه مسك.

ومزَاجُهُ : ما يمزج به ذلك الشراب .

تسنيم : عين في الجنة رفيعة القدر .

ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾
وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ
﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

شرح المفردات

فكهين : ملتذين .

حافظين : حارسين ومراقبين.

اليوم : أي يوم القيامة.

هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون : أي جوزي الكفار وعوقبوا على ما فعلوه في الدنيا.

ايضـــاح و دروس

أبرز أهداف هذه السورة محاربة الغش في المكاييل والأوزان، وبيـان أن هناك حياة بعد الموت يحاسب فيها الناس على أعمالهم، حيث يُجازى الأبرار بجنات النعيم والفجار بنار جهنم.

وقد روي أنه لمـا قدم النبي ﷺ المـدينة كـان أهلها من أسـوأ الناس كيلاً، فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ والآيات التاليـة، فأحسنـوا الكيل بعد ذلك.

فاللّه سبحانه ينذر المتلاعبين بالمكاييل والأوزان بقوله:

﴿وَيـلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّـذِينَ إِذَا اكتَالُـوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَـوْفُـونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

التطفيف: الإنقاص في الكيـل أو الوزن واللّه ينـذر من يقترف ذلـك بالهلاك والعذاب. فهؤلاء المطففون إذا كانـوا مشترين يـأخذون الكيـل من الناس وافياً كاملاً لأنفسهم. لكنهم إذا كانوا بائعين فكالوا للناس أو وزنوا لهم أنقصوا الكيل والميزان.

فالتطفيف في الكيل والوزن هو إثم كبير في نظر الإسلام فما ظنك بإثم من ينهب ويسلب ويختلس، ويأكل أموال الناس بالباطـل عن طريق الحيلة والخداع والقهر والابتزاز، إن إثم ذلك يندرج تحت الوعيد بالعذاب الشديد الذي أنذر اللّه به المطففين يوم القيامة.

هؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل يقول اللّه فيهم:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فهنا استفهام وتعجب من موقف المطففين الذين يتصرفون على هذا النحو الخاطىء متوهمين أن لا أحد سيحاسبهم، ولا قدرة قاهرة ستطالهم، لأنهم لا يعتقدون بالبعث والحساب ولكن ألا يخطر ببال هؤلاء المطففين بأنهم سيبعثون ليوم عظيم الهول وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لأمر رب العالمين وقضائه فيحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة ومنها تطفيف الكيل والميزان وأكل أموال الناس بالباطل.

ثم يتابع اللّه قوله: ﴿كَلَّا، إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.

كلا: أي ليرتدع هؤلاء المطففون عن إنكار البعث وعن أعمالهم السيئة. ثم يصفهم القرآن: بالفجار: أي القائمين بالكفر والمعاصي. والكتاب الذي فيه سجلّ أعمالهم هو في «سجّين»(١) أي في حبس في الأرض السفلى، لخساسة منزلتهم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تهويل لأمره وأنه لا يبلغ درايته أحد ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي مكتوب فيه أعمالهم، أو معلم بعلامة يعلم من رآه أنه لا خير فيه.

ثم ينذر اللّه هؤلاء المكذبين بيوم الجزاء بقوله:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين. وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

فاللّه ينذر بالعذاب الذين لا يصدقون بيوم الحساب والجزاء، وما يكذب بذلك اليوم إلّا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال، مبالغ في

---

(١) سجّين: على وزن فِعِّيل صيغة مبالغة من السجن.

ارتكاب الإثم والمعاصي ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ إذا قرئت عليه آيات القرآن زعم أنها ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما سطره الأولون من الأحاديث الملفقة التي لا أساس لها من الصحة.

ثم يبين اللّه سرّ إعراضهم عن الهدى:

﴿كَلَّا، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

كلا: أي ليرتدع هؤلاء الآثمون عن قولهم إن القرآن أساطير الأولين ﴿بَل رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ بل غطى على مداركهم وقلوبهم ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما كانوا يقترفونه من الذنوب والآثام حتى صار كالصدأ على قلوبهم. فالقلب الذي يعتاد على المعصية والإثم يغطيه حجاب كثيف يحجب عنه نور اللّه، ويفقده الإحساس بِقِيَمِ الحق والخير والرحمة والانصياع لها، ولهذا يقول النبي ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء(١) في قلبه، فإن تاب ونزع(٢) واستغفر صُقِلَ قلبه، فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره اللّه سبحانه في كتابه»(٣): ﴿كَلَّا، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ثم يبين اللّه مصير الفجار في الآخرة:

﴿كَلَّا، إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ. ثُمَّ يُقَالُ: هَذَا الَّذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

كلا: أي ليرتدع هؤلاء عن أعمالهم السيئة، فهم يحجبون عن النظر إلى وجه اللّه الكريم يوم القيامة، ويحرمون من هذه السعادة التي لا تتاح إلّا

---

(١) نكتة سوداء: أي ترك الذنب أثراً أسود على القلب.

(٢) نزع: كف عن الذنب.

(٣) هذا الحديث رواه ابن ماجة والإمام أحمد.

لمن صفت أرواحهم، وطهرت نفوسهم، واستحقوا أن تكشف الحجب بينها وبين ربها، هؤلاء المتقون الذين قال اللَّه فيهم في القرآن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظِرَة﴾ القيامة: ٢٢.

والحجاب الذي يحجبهم عن ربهم هو في حدّ ذاته عذاب لهم وحرمان يفوق كل حرمان، وفوق ذلك فإن نهايتهم بائسة تعيسة: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي لداخلو النار ليعذبوا بها، ثم يُقال لهم توبيخاً وتقريعاً من الملائكة الموكلة بعذابهم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا.

وبجانب عذاب هؤلاء الفجار يبين اللَّه مصير الأبرار في الآخرة:

﴿كَلَّا، إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

كلا: أي ليرتدع الذين يكذبون بيوم الجزاء، وليعلموا أن الأبرار: وهم الطائعون للَّه، الفاعلون كل خير، هؤلاء أعمالهم مدونة في كتاب، وهذا الكتاب في «عِلِّيين» أي عند اللَّه في السماء. وهذا اللفظ «عليين» يوحي بالسعادة والعلو وارتفاع المرتبة كما يوحي لفظ «سِجِّين» بالضيق والظلمة. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ فهو أمر فوق علم البشر وإدراكهم، إنه ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي مكتوب فيه الأمان للأبرار من النار يوم القيامة والفوز لهم بالجنة ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشهد على ما فيه من أعمال المقربين من ملائكة اللَّه ويحفظونه.

ثم يبين اللَّه ما يتمتع به الأبرار من نعيم في الآخرة:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ. تَعْرِفُ في وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ. يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ. خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

الْمتَنَافِسُونَ. وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْناً يَشْرَبُ بِها الْمُقَرَّبُونَ﴾.

فالأبرار في نعيم دائم يفوق كل نعيم عرفه الإنسان على هذه الأرض، فهم جالسون على أفخم الأسرّة، ينظرون إلى ما أعد اللَّه لهم من الكرامة والنعيم، كما يبدو أثر النعيم وبهجتِه وحسنه على وجوههم، ويشربون من خمر الجنة التي لا تسكر من أوان مقفلة لا تفتح إلّا عند الرغبة في الشراب، وخاتمة شربهم مسك أي أن ذلك الشراب يعبق برائحة المسك ﴿وَفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أصل التنافس التغالب للحصول على الشيء النفيس الذي يريده كل أحد لنفسه. والمعنى المراد من الآية بأن التنافس يجب أن يكون في طلب نعيم الآخرة الدائم لا التنافس على شهوات الدنيا الزائلة، فالتنافس على أمور الآخرة التي قوامها الإيمان باللَّه والعمل الصالح، يصلح الأرض ويعمرها، أما التنافس على أمور الدنيا وشهواتها الفانية فيجر إلى التنازع والخراب.

﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أي يُمزج ذلك الرحيق ـ أي خمر الجنة ـ من عين عالية رفيعة هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسنيم». والتسنيم في اللغة يأتي بمعنى العلو والارتفاع ﴿عَيْناً[1] يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عين في الجنة يشرب منها المقربون الذين نالوا حظوة عند اللَّه.

ثم يبين اللَّه ما كان يلقاه هؤلاء الأبرار من أذى المجرمين في الدنيا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالوا إِنَّ هؤُلَاءِ

---

(١) ذكر المفسرون أن هذه العين يشرب بها المقربون صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين.

لَضَالُّونَ. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾.

فالمجرمون كانوا يتخذون المؤمنين أداة لسخريتهم، وعندما يمرون بهم يغمز بعضهم بعضاً بما ينم عن سوء أدبهم، وإذا رجعوا إلى أهلهم بعدما فعلوه ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ رجعوا مسرورين مبتهجين بما فعلوه استخفافاً بأهل الإيمان. وفي كل مرة يرون المؤمنين يشيرون إليهم ويصرون على وصفهم بالضلال. ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي وما أرسل الكفار رقباء على غيرهم يحفظون أعمالهم ويشهدون بصلاحهم أو ضلالهم. وهذا تهكم وسخرية بالكفار.

ثم يختم اللّٰه هذه السورة بدعوة المؤمنين إلى الصبر على أذى الكفار لأن في يوم القيامة يحصل عكس ما جرى في الدنيا:

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِين آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ. هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانوا يَفْعَلُون﴾.

عزاء وبلسم يقدمه القرآن للمؤمنين المستضعفين المضطهدين، فالنهاية التعيسة تنتظر الكفار يوم القيامة بينما المؤمنون يرفلون في النعيم وهم جالسون على الأسرّة يضحكون من الكفار كما كان هؤلاء يضحكون منهم في الدنيا ولكن شتان ما بين الدنيا الفانية والآخرة الخالدة.

ولا بد من وقفة قصيرة أمام قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا الاستفهام توبيخي وتقريري أي أُثيب وجوزي الكفار ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين من السخرية بهم، ولكن أي ثواب؟ إنه نار الجحيم، وسُمي بالثواب للتهكم والاستهزاء بهم، لأن الثواب يكون جزاءً للطاعة، وشبيه بذلك ما جاء في القرآن: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشرى تكون للخبر السار لا للعذاب.

سُورَةُ الانْشِقَاق

مكية ، وآياتها خمس وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو
ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ

شرح المفردات

إذا السماء انشقت : تصدعت وتقطعت واختل نظامها .

أذنت لربها : أي استمعت له وأطاعت في أمره إياها بالانشقاق.

وحقَّت : وحق لها أن تسمع أمره وتطيعه ، وكان انقيادها أمراً لازماً .

الأرض مُدَّت : بسطت وجعلت مستوية بأن أُزيلت جبالها .

وألقت ما فيها وتخلّت : ألقت الأرض ما في بطنها من الموتى وتخلت عنهم .

كادحٌ : الكدح جهد النفس في العمل والكد فيه .

يدعو ثبوراً : يطلب الهلاك بقوله : واثبوراه .

يصلى سعيراً : يدخل النار ويقاسي حرّها ، والسعير من أسماء النار .

ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ
طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ
لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

شرح المفردات

لن يحور : لن يرجع حيًّا يوم القيامة للحساب وملاقاة ربه .

بصيرا : عالماً .

الشفق : الحمرة التي تظهر في الأفق بعد غروب الشمس .

الليل وما وسق : جمع وضم المخلوقات تحت ظلمته .

والقمر إذا اتسق : تم واكتمل بدراً .

لتركَبُنَّ طبَقاً عن طبق : أي ستقاسون حالاً بعد حال من شدائد يوم القيامة .

يسجدون : يخضعون .

يوعون : تضمره أنفسهم من التكذيب .

غير ممنون : غير منقوص ولا مقطوع ، وقيل : لا يمن عليهم به .

سُورَة الإِنشِقاق

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تذكر بعض علامات القيامة مبينة أن مصير الإنسان إلى ربه حيث يجازيه بما عمل من خير أو شر.

مطلع هذه السورة يبدأ بعرض مشاهد الانقلاب الكوني يوم القيامة من استسلام السماء والأرض وانقيادهما لأمر اللّه دون تذمـر أو اعتراض ويؤكـد هذا الأمر بقوله: ﴿وَحُقَّت﴾ أي وكان حقاً ثابتاً أن تنقـادا لأمر اللّه وتـطيعاه فهو خالقهما وهما جميعاً في قبضته، هذا المطلع يبعث في النفس الخشوع والاستسلام للّه سبحانه انعكاسـاً من استسلام السمـاء والأرض لخالقهمـا، يقول تعالى:

﴿إِذَا السَّمَـاءُ انشقّت. وَأَذِنَتْ لِـرَبِّهـا وَحُقَّتْ. وإِذَا الأرضُ مُـدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيها وَتَخلّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ﴾.

فـاللّه سبحانـه يقول: ﴿إِذَا السَّمَـاءُ انشَقَّتْ﴾ أي تصدعت وتقـطعت ﴿وَأَذِنَتْ لِـرَبِّهَـا وَحُقَّتْ﴾ واستمعت لـربهـا وأطـاعت فيمـا أمـرهـا بــه من الانشقاق، وكان حقاً ثابتاً أن تطيعه ﴿وَإِذَا(١) الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي بُسِطَتْ فزيد في سعتها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيها وَتَخَلَّتْ﴾ وألقت الأرض ما في بطنها من الموتى إلى ظهـرهـا أحيــاء وتخلت منهم إلى اللّه ﴿وَأَذِنَتْ لِــرَبِّهَــا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعـت الأرض إلى أمر ربها في إلقـائها مـا في بطنهـا على ظهر الأرض

---

(١) جـواب إذا الشرطيـة محذوف تـرك لمعرفـة المخـاطبين بـه معنـاه، والمعنى: إذا السماء انشقت، وإذا الأرض مدت رأى الإنسان ما قدم من خير أو شر.

وكان حقاً لها أن تسمع أمره وتطيعه.

يصور القرآن في ذلك عظمة القدرة الإلٓهية الخارقة التي تتصرف في الكون ليعي الإنسان حقيقة وجوده على هذه الأرض، وأن مصيره هو ملاقاة ربه:

﴿يَا أَيُّهَا الإنْسَانُ إنَّكَ كَادحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾.

والمعنى: يا أيها الإنسان إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً في دنياك سوف تلقى به الله خيراً كان أو شراً، فليكن عملك مما يجلب لك رضاه، ولا يكن عملك مما يجلب سخطه عليك فتهلك.

ثم يعطينا القرآن صورة مفرحة عن الذين أطاعوا ربهم وحازوا رضاه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً. وَيَنْقَلِبُ إلَى أَهْلِهِ مَسْروراً﴾.

فاللّٰه تعالى يقول: فأما من أُعطِيَ كتاب أعماله بيده اليمنى وهذا دليل البشارة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ والمراد بالحساب اليسير هو العَرْض[(١)]، أي تُعرض على المؤمن أعماله يوم القيامة فيُغفر له سيئها ويجازى على حسنها ﴿وَيَنْقَلِبُ إلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجاً مسروراً بما أعطاه اللّٰه من الفضل والكرامة.

وأمام هذه الصورة الكريمة نجد صورة أخرى للذين استحقوا عذاب

---

(١) عن عائشة رضي اللّٰه عنها قالت: قال رسول اللّٰه ﷺ: من نوقش الحساب عُذِّب، قالت فقلت: أفليس قال اللّٰه تعالى: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ قال: ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العَرْضُ من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب «رواه البخاري ومسلم».

اللَّه بسبب ما اقترفوه من سيئات:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً. وَيَصْلَى سَعِيراً﴾.

أي وأما من أعطي منكم أيها الناس كتاب أعماله بشماله وراء ظهره تحقيراً لأمره وخزياً له ﴿فسوفَ يَدْعُو ثُبوراً﴾ فسوف يستغيث طالباً الهلاك وهو يقول: واثبوراه[1] ﴿وَيَصْلَى سَعيراً﴾ أي يدخل ناراً مستعرة يقاسي حرها وعذابها.

ثم يتابع القرآن وصف هذا الشقي بالعودة إلى ذكر ماضيه في دنياه، موضحاً السبب الحقيقي الذي أوصله إلى هذه الخاتمة التعيسة: **﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ. بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾.**

لقد كان متنعماً في الدنيا، مسروراً بين أهله، راضياً بما عليه من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّه ظَنَّ أنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي إنه تيقن أنه لن يرجع إلى ربه، ولن يبعث بعد مماته للحساب، فلم يكن يبالي بما ارتكب من المآثم لأنه لم يكن يرجو ثواباً، ولم يكن يخشى عقاباً ﴿بلى﴾ أي ليس الأمر كما يظن، بل سيرجع إلى ربه ﴿إنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ أي إن اللَّه بصير بما كان يعمل من المعاصي عالم بذلك.

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الأنظار إلى بعض ملامح القدرة الإلَهية للعبرة والعظة.

---

(١) الثبور: الهلاك، ودعوة الثبور ما ينادي به المحرج الواقع في شدة يرى أن هلاكه أهون عليه من الاستمرار فيها وذلك بقوله: واثبوراه.

﴿فلا(١) أُقسِمُ بالشّفَقِ. واللّيْلِ وَمَا وَسَقَ. والْقَمَرِ إذَا اتّسَقَ. لَتركَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾.

فالغاية من القسم بهذه الأمور بيان عظمة الخالق وقدرته المتصرفة في الكون.

فالشفق هو حمرة الأفق التي تظهر بعد غروب الشمس فهذا الاحمرار الموحي بانتهاء النهار، وإقبال الليل يدعو النفس إلى التعمق في آيات الطبيعة الباهرة، وأن وراء ذلك اليد الإلّهية التي أبدعتها.

والفضاء الذي تسبح فيه الأرض وسائر الأجرام مظلم بطبيعته فهو ﴿واللَّيْل وَمَا وَسَقَ﴾ فاللَّه أقسم بالليل وما جمع وضم في ظلمته من أجرام وأنواع المخلوقات التي تسكن فيه وتهدأ، فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات. ثم يقسم سبحانه بالقمر: ﴿وَالْقَمَرِ إذَا اتَّسَقَ﴾ أي استوى واكتمل بدراً وهذا يبعث في النفس ارتياحاً في النظر والقلب، ويوحي بعظمة الخالق سبحانه.

ثم يأتي جواب القسم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ أي ستعانون حالاً بعد حال من الشدة وهو الموت وما بعده من أهوال يوم القيامة، وقيل هذه المعاناة هي في الدنيا: أي رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وصحة بعد سقم، وسقم بعد صحة.

أمام هذه الآيات الكونية التي تشهد بوجود اللَّه ووحدانيته وأمام آيات القرآن التي تتلى عليهم، يتابع اللَّه قوله:

---

(١) إدخال «لا» النافية على فعل القسم شائع وفائدتها توكيد القسم وتعظيم المقسم به أي لا أعظمه بإقسامي به فإنه حقيق بأكثر من ذلك.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ. وَاللَّه أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

استفهام فيه توبيخ، أي فَلِمَ لا يصدق الكافرون بوجود اللَّه ووحدانيته!! ولِمَ لا يقرون بالبعث بعد الموت!! ولِمَ لا يخضعون ويستكينون عند قراءة القرآن وفيه الدلائل الباهرة على كونه وحياً إلّهيّاً ﴿بَل الّذين كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ بل إنهم يكذبون بأن محمداً رسول اللَّه، ويكذبون بأن القرآن كتاب اللَّه عناداً واستكباراً ﴿وَاللَّه أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ واللَّه أعلم بما تضمره وتكنه صدورهم من التكذيب.

ويختم اللَّه هذه السورة مبيّناً مصير الكفار والمؤمنين.

﴿فبشِّرهُم بِعَذَابٍ أليم. إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ لَهُم أجْرٌ غَيْرُ مَمْنون﴾.

أي فبشر يا محمد هؤلاء الكافرين بعذاب أليم، والبشرى تكون للنعيم لا للعذاب، فالبشرى هنا نوع من السخرية والاستهزاء بالكافرين، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر ﴿غَيْرُ مَمْنُون﴾ أي غير منقوص ولا ممنون به عليهم.

سُورَةُ البُرُوج

مكية، وآياتها اثنتان وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾
قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾
وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن

شرح المفردات

والسماء ذات البروج : قسم بالسماء ذات البروج . والبروج هي نجوم السماء التي تتوزع في مجموعات متقاربة كما تتوزع المدن فوق أرضنا .

اليوم الموعود : يوم القيامة .

شاهد ومشهود : أي من يشهد يوم القيامة من الخلائق ، وما يشاهد فيه من الأهوال .

قُتِلَ : لُعِنَ واللعن هو الطرد من رحمة الله .

أصحاب الأخدود : الأخدود هو الشق العظيم المستطيل في الأرض ، وأصحاب الأخدود قوم كافرون نقموا على المؤمنين في زمانهم فنكلوا بهم وذلك بأن حفروا لهم أخدوداً وأشعلوا النار فيه وألقوا فيه المؤمنين .

النار ذات الوقود : شديدة الحرارة مرتفعة اللهب من كثرة الوقود .

إذ هُمْ عليها قعود : قعدوا حولها .

شهود : حضور .

نقموا : كرهوا وأنكروا .

يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ
وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ
لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ
هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

شرح المفردات

العزيز : القوي الذي لا يُغلب .

الحميد : الذي يستحق الحمد والثناء .

فتنوا المؤمنين : عذبوا المؤمنين واضطهدوهم بسبب إيمانهم .

بطش : البطش هو الأخذ بقوة وعنف .

الغفور : ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه .

الودود : بالغ المحبة للمطيعين له .

ذو العرش : ذو الملك والسلطان .

المجيد : الرفيع القدر المتناهي في الجود والكرم .

الجنود : يقال للعسكر جند ، والجند في قول آخر : المجتمع .

والله من ورائهم محيط : والله عالم فهو يجازيهم على أعمالهم .

قرآن مجيد : قرآن متناه في الشرف والكرم والبركة

في لوح محفوظ : مكتوب في لوح محفوظ من التغيير والتبديل .

سُورَةُ البُرُوج

ايضـــاح و دروس

لم تشهد الإنسانية في تاريخها القديم والحـديث أبشع ولا أعنف من المـآسي التي سببها الاضـطهاد الـديني الـذي هـو وليـد التعصب الحـاقـد الأعمى.

والقرآن يقص علينا شيئاً من أخبار الاضطهاد الـديني الذي وقـع قبل الإسلام وذلك في قصة (أصحاب الأخدود) وقد صوّر القرآن فيها ما تعرّض له المؤمنون السابقون من تنكيل وتعذيب بسبب إيمانهم باللّه. وتتلخص هذه القصة كما رواها الطبري وغيره من المؤرخين[١] ان الملك (ذا نواس) ملك حِمْيَر وكان على دين اليهود لما بلغه إيمان أهل نجران بالنصرانية وبما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام ساءه ذلـك وسار إليهم بجنـد من حمير وقبـائل اليمن فجمعهم ثم دعاهم إلى دين اليهودية وخيَّرهم بين القتـل أو الدخـول فيها، فاختاروا القتل، فحفر لهم الأخدود وحرق بعضهم بالنار وقتل البعض الآخر بالسيف، ومثّل بهم كل مثلة حتى قتل منهم ما يقارب العشرين ألفاً.

وفي صحيح مسلم قصة مماثلة خلاصتها أن ملكاً كافراً آمن قومه باللّه فحفر لهم أخاديد، وأُضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعـوه وإن أصـر على إيمانـه فألقـوه في النيـران، وقـد أُحـرق بـذلـك الكثيـر من المؤمنين.

ومن أخبار الاضطهاد الديني في بدء الدعوة الإسلامية ما أصاب الذين اعتنقوا الإسلام من تنكيل وتعذيب، منهم: بلال بن رباح وكان مملوكاً لرجل

---

(١) دون المؤرخون النصارى هذا الحادث في عدد من المؤلفات في القرن السادس للميلاد، ولزيادة الإيضاح راجع كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٣ للدكتور جواد علي.

يدعى (أمية بن خلف) فكان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في صحراء مكة ثم يأمر بحجر كبير فيوضع عليه ثم يقول له: لا واللَّه لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد (اللات والعزى) وهما صنمان، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد (أي اللَّه واحد).

وممّن عُذّب بسبب إيمانه: عمّار بن ياسر وأبوه وأمه فكان بنو مخزوم يخرجونهم وقت الظهيرة ويطرحونهم على الرمال الشديدة الحرارة، وقد ماتت الأم تحت العذاب.

كما قد تعرّض الكثير غيرهم من المؤمنين إلى الضرب والتجويع والعطش حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يستوي جالساً من شدة الضرّ الذي نزل به.

في هذا الجو المحموم نزلت (سورة البروج) تواسي المؤمنين وتخفف وقع الأذى عليهم، وتثبت قلوبهم على الإيمان وتدعوهم إلى الصمود في وجه الاضطهاد، وتنذر الكفار الذين يضطهدونهم بالعذاب في الآخرة.

يستهل اللَّه هذه السورة بالقسم بالسماء وما فيها من مجموعات نجمية[1] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُروجِ[2]﴾ ليلفت الأنظار إلى ما فيها من الروعة

---

(١) أُولع قدماء المصريين والصينيين والعرب برصد مجموعات النجوم وتصوروها على هيئة حيوانات أو حشرات أو غير ذلك وقسموها إلى اثني عشر قسماً تمر خلالها الأرض والكواكب في أثناء دورتها حول الشمس وأسماء هذه البروج: الحمل ـ الثور ـ الجوزاء ـ السرطان ـ الأسد ـ العذراء (أو السنبلة) ـ الميزان ـ العقرب ـ القوس ـ الجدي ـ الدلو ـ الحوت.

(٢) قيل في تفسير (والسماء ذات البروج) أي النجوم، وقيل ذات الخلْق الحسن، وقيل ذات المنازل وهي اثنا عشر برجاً وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. والبروج في كلام العرب القصور.

التي تدل على عظمة خالقها وقدرته اللامتناهية، فالقادر على خلق هذه النجوم قادر على دحر المعتدين والانتقام منهم.

كما أقسم سبحانه بيوم القيامة: ﴿وَالْيَوْمِ الْموعُودِ﴾ حيث يحاسب الناس على أعمالهم، وسُمي بالموعود لأن اللَّه وعد بأن هذا اليوم آتٍ لا ريب فيه.

كما أَقسم سبحانه بما يشهد يوم القيامة من الخلق وما يحصل فيه من الشدائد والأهوال: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وقيل إن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة. وقيل: الشاهد هو محمد ﷺ يوم يشهد على أمته يوم القيامة.

أقسم اللَّه بذلك كله مؤكداً إنزال اللعن على أصحاب الأُخدود، وهم قوم كافرون حفروا في الأرض أخدوداً (أي حفرة مستطيلة) وأضرموا في هذا الأخدود النار ثم ألقوا فيه المؤمنين الذين أبوا أن يرجعوا عن دينهم، وقعدوا حول النار يتفرجون على المؤمنين وهم يقاسون العذاب وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

فاللَّه سبحانه استنكر هذا الاضطهاد الذي وقع على المؤمنين وقال عن مرتكبيه ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود﴾ أي لعنوا أشد اللعن. واللعن هو الطرد من رحمة اللَّه طرداً مؤبداً كما وقع لإبليس. وهذا اللعن يسري على كل من يضطهد ويعذب مؤمناً بسبب إيمانه.

ولقد بيَّن اللَّه سبب اضطهاد المؤمنين السابقين:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ. الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ﴾.

فهؤلاء الذين اضطُهِدُوا لم يكن لهم ذنب سوى أنهم آمنوا باللّه ﴿العَزيز﴾ أي القوي الغالب كل شيء ﴿الحَميد﴾ الذي يُحمد على إحسانه لخلقه ﴿الذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ فلا مفرّ لهؤلاء الظالمين من سلطانه ﴿وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو شاهد على أعمال خلقه فلا تخفى عليه خافية من أعمالهم التي سيجازون عليها.

وإن لفظ ﴿شهيد﴾ في الآية فيه تطمين للمؤمنين المعذبين المضطهدين، فعندما يدركون أن اللّه يشهد عذابهم ينسون كل عذاب، ويهون في نظرهم كل تنكيل لأن اللّه سيثيبهم على كل ذلك، كما أن في ذلك وعيداً لمن يعذبهم، وبما ينتظرهم من العقاب الإلٰهي.

وبعد أن أثرت في نفوسنا هذه الآيات إشفاقاً على المؤمنين المعذبين وإكباراً لموقفهم حيث ضحوا بأرواحهم في سبيل اللّه، كما أثرت في نفوسنا وملأت قلوبنا سخطاً على هؤلاء الظالمين، تعود الآيات لتوضح أن الحادث لم ينتهِ إلى هنا وحسب، بل هناك في الآخرة الحساب العادل ينتظر كل فريق:

﴿إِنَّ الذينَ فَتَنُوا المؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبوا فَلَهُم عَذَابُ جَهَنَّم وَلَهُم عَذَابُ الحَريق﴾.

أي إن الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار ليفتنوهم عن دينهم ثم لم يتوبوا عن كفرهم فلهم في الآخرة عذاب جهنم ولهم عذاب

الحريق فيها.

ثم يبين اللَّه ثواب المؤمنين الذين عُذبوا في سبيل اللَّه:

﴿إنَّ الـذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّـاتٌ تَجْـري مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهارُ ذَلِك الفوزُ الكَبِيرُ﴾.

أي فالذين أقروا بتوحيد اللَّه وعملوا بطاعته وائتمروا بأمره لهم في في الآخرة عند اللَّه بساتين تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز العظيم.

وبعد أن استقرت الآيات على هذا المعنى المجمل تعود لتشفي قلوب المؤمنين وتنذر الكافرين الطغاة: **﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّـكَ لَشَديـدٌ. إِنَّهُ هُـوَ يُبدِىءُ وَيُعيدُ. وَهُوَ الغَفُورُ الْوَدُودُ. ذُو العَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِمَا يُريدُ﴾**.

والبطش: الأخذ بعنف، وحيث وُصف بطش اللَّه بالشدة فقد تضاعف البطش وتفاقم، وهـو بطشـه بالجبـابرة والـظالمين، وأخذه إيـاهم بالعـذاب والانتقام الشديد. فهو سبحانه ﴿يُبْدِىءُ وَيعيدُ﴾ أي يحدث خلقه ابتداءً ثم يعيدهم أحياء بعد مماتهم يوم القيامة للحساب. وهو سبحانه: ﴿الْوَدُود﴾ أي المحب لمن أطاعه، وإذا حـظي الإنسان بمحبـة اللَّه نال أعلى مـراتب السعادة، وهو سبحانه ﴿ذو العَرْشِ﴾ أي ذو الملك والسلطان لا ينازعـه فيه أحد. وهو ﴿المجيد﴾ أي ذو السعة في الكرم والجلال، وهو أيضاً ﴿فَعَّـالٌ لِمَا يُريـدُ﴾ فهو مـطلق الإرادة يختار مـا يشاء ويفعـل ما يـريد في الأرض، فما أصاب المؤمنين من اضطهاد إن هو إلاّ اختبار لإيمانهم ولو أراد نصرتهم مـا وقف شيء أمـام قـدرتـه وقـد جـاء في القـرآن: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنْكُم وَالصَّابِرينَ﴾ يونس: ٣٠.

وبعد ذلك يذكر اللَّه العاقبة السيئة التي تنتظر الكفار والطغاة في الدنيا

مشيراً إلى قوم فرعون الذين أهلكهم اللَّه بالغرق، وإلى قوم ثمود الذين عاقبهم اللَّه بصاعقة أهلكتهم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنودِ. فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾.

أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الطاغية في الأمم السابقة الذين تجندوا لحرب الرسل والأنبياء وهم فرعون وآله، وقبيلة ثمود وما حل بهم من هلاك بسبب طغيانهم وكفرهم.

ثم يختم اللَّه هذه السورة بالحديث عن كفار مكة الذين كَذَّبوا بنبوة محمد ﷺ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في تَكْذِيبٍ. وَاللَّه مِنْ وَرَائِهِم مُحِيطٌ. بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

أي لم يعتبر كفار مكة بما حل بالكفرة من الأمم السابقة بل هم مستمرون في التكذيب، والله محيط بهم، أي هم في قبضته وحوزته كالمحاط إذا أُحيط به فلا يجد مهرباً، ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي كثير الفوائد الدنيوية والأخروية، عالي الطبقة بين الكتب في النظم والمعنى ﴿في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ أي مثبت عند اللَّه في اللوح المحفوظ الذي في السماء، واللوح المحفوظ هو مستودع لما كان ويكون مما يعلمه اللَّه وَقَدَّر أن يعمله، وحقيقته فوق مستوى البشر.

سُورَةُ الطَّارِق

مكية ، وآياتها سبع عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣
إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥
خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠

شرح المفردات

والسماء والطارق : الواو واو القسم ، الطارق هو الآتي ليلاً والمراد بذلك النجوم لظهورها في الليل .

النَجْمُ الثَّاقِب : المراد النجوم كلها ، والثاقب هو المضيء فالنجوم تثقب الظلام بنورها .

إنْ كُلّ نفس لما عليها حافظ : ما كل نفس إلّا وعليها حافظ من الملائكة .

ماءٍ دافق : الماء هو منيّ الإنسان ، والدفق هو الصب فهو يصب في الرحم .

الصلب : سلسلة الظهر .

الترائب : عظام الصدر .

رجعه : ردّ الحياة إليه بعد مماته يوم القيامة .

تُبلى : تمتحن وتختبر .

السرائر : جمع سريرة وهي ما أسِرّ في القلوب من النيات وما أُخفي من الأعمال .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ
فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ
كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

شرح المفردات

الرجع : المطر ، وسمي رجعاً لأنه يتكرر ويرجع إلى الأرض بعد أن يخرج منها بخاراً .

والأرض ذات الصدع : اقسم الله بالأرض وما تتشقق عنه من النبات .

قولٌ فصل : قول يفصل بين الحق والباطل .

وما هو بالهزل : أي ليس باللعب والباطل بل كله جد محض .

يكيدون : الكيد هو المكر والاحتيال .

وأكيدُ كيداً : أبطل كيدهم فلا أمكنهم من إطفاء نور الإسلام .

فمهّل الكافرين : المهل هو التأخير ، أي انتظر يا محمد ولا تسأل الله تعجيل هلاكهم .

رويداً : قليلاً .

سُورةُ الطَّارق

ايضـــاح و دروس

هـذه السـورة تلفت الأنـظار إلى بعض مـظاهـر القـدرة الإلهيـة التي لا يصعب عليها إعادة الإنسان حيًّا بعد الممات يوم القيامـة لمحاسبتـه على أعماله، كما تنذر المناوئين للدعوة الإسلامية بسوء المصير.

يستهل اللَّه هذه السورة بالقسم بالسماء والنجوم:

﴿والسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ ما الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

والقسم بالشيء دليل على عظمته وأهميتـه وأنه آيـة من آيات القـدرة الإلَهية.

والنجم: إسم جنس لسـائـر النجـوم وسميت بـالـطارق لأن طلوعهـا بالليل، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق، وسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه إلى طرق الباب ثم اتسع المعنى في كل ما ظهر بالليل. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تفخيم لشـأن المقسم به وتنبيـه على عظمـة خلقه[1] بحيث لا ينـالـه إدراك الخلق ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ والثاقب المضيء والمتـوهج الـذي يثقب الـظلام بنوره.

---

(١) إن عـظمة خلق النجـوم لم تظهـر إلّا بعد قـرون من نـزول القـرآن حين تـوصـل الإنسـان إلى صنع «التلسكـوب» ففي عام ١٦٠٩ صنـع غاليلو مـرقبه الأول ومنـذ ذلك الحين بدأ العلماء يصنعون مراقب أكبر فأكبر حتى تـوصلوا إلى كشف الكثير من عوالم السماء التي كانت مجهولة عند البشر. فمثلاً مجـرتنا التي يـطلق عليها درب التبانة قدر العلماء عـددها بـواسطة المـراقب بين ٤٠,٠٠٠ مليون نجم إلى ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم وعدد المجرات في الكون قدر العلماء عـددها بمـا يزيـد على ١٠٠ مليون مجرة. والقرآن أول من أشار إلى عظمة خلق النجوم.

وجواب القسم هو قوله تعالى: ﴿**إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ إن: بمعنى ما النافية، ولما: بمعنى إلّا. أي ما كل نفس إلّا عليها حفظة من الملائكة يحفظون عملها، ويحصون عليها ما تكسب من خير أو شر.

والجدير بالذكر أن اللَّه اختار صفة ﴿الثاقب﴾ للنجم الذي يثقب الظلام ليكون متجانساً مع ﴿الحافظ﴾ الذي وكله اللَّه برقابة الإنسان لينفذ إلى قلبه وضميره كما ينفذ نور النجم في الظلام.

فاللَّه سبحانه لم يخلق الإنسان على هذه الأرض عبثاً، ولم يتركه مهملاً بعيداً عن رقابته، فأعماله محصية، وحركاته مسجلة محفوظة فكل الأعمال التي يعملها حتى في الخفاء بعيداً عن الأعين هي في متناول ﴿الحافظ﴾ من الملائكة الذي يحفظ ويحصي ويسجل أعمال الإنسان كما قال سبحانه في موضع آخر من القرآن ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق: ١٨.

وقد يراد بالحافظ الرعاية والعناية فاللَّه قد وكل بالإنسان ملائكة تحفظه من الأشياء التي تفوق قدرته والآفات التي يتعرض لها، وقد أشار القرآن إلى ذلك أيضاً: ﴿لَهُ معَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الرعد: ١١. والمعقبات هم الملائكة.

وبعد أن قَرَّر اللَّه أن الإنسان محصيةٌ عليه أعماله ليحاسب عليها يوم القيامة، أراد سبحانه أن يذكّرَ الذين يُراودهم الشك بيوم البعث ويستبعدون رجوعهم أحياء في الآخرة، أرادَ أنْ يذكّرهم بمبدأ خلقهم وأساس نشأتهم بقوله:

﴿**فَلْيَنْظُر الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ. إنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**﴾.

أي فليفكر الإنسان من أي شيء خُلِق، إنه ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ والماء الدافق هو منيّ الرجل[١] ومعنى الدافق: أي ذو انصباب ودفع.

وهذا الماء الدافق ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ والصلب فقار الظهر، والترائب عظام الصدر، فهذا الماء الدافق يخرج من صلب الرجل وترائبه.

فمنيّ الرجل يحتوي على ملايين الحيّيات المنوية، وبالتقاء واحد من هذه الحيّيات مع بويضة الأنثى تنشأ الخلية الملقحة التي يتكون منها الإنسان.

فالقدرة الإلٓهية التي خلقت الإنسان ابتداءً على هذا الشكل لا يعجزها إعادته حيّاً يوم القيامة للحساب، وهذا ما ذكرته الآية التالية: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي أن اللّه قادرٌ على رد الإنسان حياً كهيئته قبل مماته.

ويوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي تختبر وتمتحن ما أُسر في القلوب من النيات والعقائد، وما أُخفي من الأعمال. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ والإنسان يومذاك لا قوة تدافع عنه، ولا ناصر ينصره.

ولعل خاطراً من الشك يمكن أن يراود بعض النفوس في صحة ما جاء به القرآن بصدد البعث، فهنا يعيد اللّه القسم ولكن بالسماء ذات السحاب الذي فيه المطر وأرزاق العباد ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي ذات المطر،

---

(١) قيل المراد بالماء الدافق مني الرجل والمرأة لأن عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، ولما كان أحد قسمي المني دافقاً وهو منيّ الرجل أطلق هذا الإسم على المجموع تغليباً، ويكون معنى: (يخرج من بين الصلب والترائب) أي يخرج من صلب الرجل وترائبه، ومن صلب المرأة وترائبها.

وسمي المطر رجعاً لأنه يرجع إلى الأرض بعد تبخره منها[١]. كما يقسم سبحانه بالأرض التي تتشقق ويطلع منها النبات والشجر ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي ذات التشقق. فتشقق الأرض بالنبات يماثله إحياء الموتى يوم القيامة للحساب.

ثم يأتي جواب القسم: ﴿إِنَّه لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي إن القرآن هو قول فاصل بين الحق والباطل، وما هو باللعب ولابالباطل بل هو جدٌّ كله.

ثم يتحدث القرآن عن الكافرين الذين يناوئون الدعوة الإسلامية بقوله: ﴿إنّهم يَكيدونَ كَيْداً. وَأَكيدُ كيداً﴾ فالكيد هو المكر أي السعي بالفساد في خفية والاحتيال في إيصال الشر. وحينما تجد لفظاً نسبه اللّه إلى نفسه مما لا يستسيغ فكرك أن ينسب إلى اللّه مثل: اللّه يكيد، اللّه يمكر، كما جاء في القرآن أيضاً: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ النمل: ٥٠. فهذا يسمونه في علم البيان: المشاكلة، لأن اللّه ليس من صفاته المكر والكيد. ومعنى المشاكلة هو الإتيان بلفظ ليس المراد به حقيقة معناه اللغوي الذي يتبادر إلى الذهن، ولكنه جيء بهذا اللفظ لوقوعه في صحبة غيره من اللفظ ذاته، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى: ٤٠. فأنت عندما تجازي صاحب السيئة على سيئته هل يتبادر إلى الذهن أن المجازاة هي سيئة، لا، إنها تأديب، وإنما سميت سيئة لوقوعها في صحبة السيئة الأولى، فكأن اللّه

---

(١) وليس هذا فحسب فإننا نعلم الآن أن الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية ترتد هي الأخرى من السماء إذا أرسلت إليها... ولذا نستطيع أن نلتقط الإذاعات من محطات الأرض بعد انعكاسها ونستمع إليها ونشاهدها ولولا ذلك لضاعت وتشتت ولم نعثر عليها فالسماء هي أشبه بمرآة عاكسة ترجع ما يبث إليها.

يقول: إننا حين نعاقبك أيها المسيء على إساءتك نسيء إليك، وإننا حين نعاقبك على كيدك فإننا بذلك نكيد لك، فسمي الجزاء باسم ابتداء فعلهم وهو الكيد.

وأخيراً يخاطب اللَّه رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ أي فلا تستعجل بالانتقام منهم، ولا تسأل اللَّه تعجيل هلاكهم بل أَنْظِرْهُم وقتاً قليلاً إلى الموعد الذي هو وقت حلول النقمة بهم.

التفسيرُ العِلمي

يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما الطَّارق. النَّجْمُ الثَّاقِب﴾.

يؤخذ من وصف النجم (بالطارق) أن النجوم متحركة لا ساكنة لأن من معاني الطارق: القادم والآتي ليلاً وهي من صفات المتحرك، والسبب في أننا نرى النجوم ساكنة مع أنها في الحقيقة متحركة هو بعدها السحيق عن الأرض.

ويصف اللَّه سبحانه النجم (بالثاقب) وقد فسّره الأقدمون بأنه الذي يثقب الظلام بنوره، ولكن الدراسات في الكون تعطي للثاقب معنى آخر وهو: يثقب الغاز الكوني وإليك البيان.

الفضاء الكوني الذي تجري فيه النجوم ليس فراغاً تاماً بل ينتشر فيه الغاز الكوني (الإيدروجين) بصفة عامة بصرف النظر عن المواد الأخرى التي تتجمع هنا وهناك. وبديهي أنه عندما ينساب النجم في وسط من الغاز فإنه بفعل الجاذبية يجمع منه كميات يمكن حسابها رياضياً، وعلى ذلك فإنه كلما تحرك النجم خلال الغاز ترك خلفه «نفقاً» ضخماً من الفراغ وسط هذا الغاز، وقد يبلغ قطر النفق المحفور المتخلف خلال الغاز بهذه الطريقة أضعاف قطر النجم، إذ أن الجاذبية يمكن أن تجمع أجزاء الغاز على أبعاد كبيرة، وفي

العادة يتوقف قطر «النفق المحفور» على السرعة النسبية بين النجم والغاز، فكلما قلت السرعة النسبية هذه كان أمام النجم متسع من الوقت لترسب الغازات عليه بكميات أكبر ويتسع تبعاً لذلك قطر النفق المحفور[١].

خلق الإنسان:

يقول اللّه تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسَان مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائب﴾.

الصلب هو سلسلة عظام الظهر ويمتد من الكاهل (أي من أعلى الظهر مما يلي العنق) إلى أسفل الظهر. والترائب هي عظام الصدر.

ونتساءل هل يخرج الماء الدافق (أي المنيّ) من هذين المكانين فنجيب بأن منيّ الرجل يتكوّن في القنوات المنوية في الخصيتين، والخصيتان تتغذيان بالدم الذي يدخل في عملية تكوين المني، وهذا الدم الذي يصل إلى الخصيتين يأتي إليهما بواسطة شريانين:

أولاً: الشريان المنوي الداخلي.

ثانياً: الشريان المنوي الخارجي.

وهذان الشريانان هما فرعان من (الأبهر) وهو الشريان الأكبر الذي يبدأ من القلب من البطين الأيسر. . .

فلو تتبعنا شريان (الأبهر) في جريانه وسريانه لوجدناه يسير بين فقرات عظام الظهر وعظام الصدر أي بين الظهر والصدر، هذا الشريان الكبير هو الذي يغذي بفرعيه الخصيتين ويتكون بذلك المنيّ الذي سماه القرآن (الماء الدافق).

---

(١) القرآن والعلم للدكتور محمد جمال الدين الفندي.

سورة الأعلى

مكية، وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ
﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ
لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ

شرح المفردات

سبّح اسم ربك : نزه اسم ربك عن كل سوء وبرئه من كل نقص وعيب .

خلق فسوّى : خلق كل شيء فسواه وجعله في غاية الإحكام والإتقان .

قدّر فهدى : أي أعطى كل شيء ما فيه مصلحته وهداه لما فيه قوام حياته .

أخرج المرعى : أنبت النبات لترعاه الدواب .

غُثاءً : باليًا هشيمًا .

أحوى : النبات الذي أسودّ من القِدَم والعِتْق .

ونيسرك لليُسرى : نوفقك للطريق اليسرى وهي شريعة الإسلام السمحة السهلة .

فذكّر : عظ وانصح برسالة الإسلام .

سيذَّكَّرُ من يخشى : سيتعظ من يخاف الله .

يتجنّبها الأشقى : يبتعد عن شريعة الإسلام كل شقي .

النار الكبرى : نار الآخرة .

فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

شرح المفردات

تزكى : تطهر من الكفر والمعاصي وسيء الأفعال .
تُؤثرون : تفضلون .
الصحف الأولى : الكتب الإلٓهية المنزلة قبل القرآن .

سُورَة الأعلى

ايضاح و دروس

هذه السورة تبيّن بعض مظاهر قدرة اللّه العظيمة التي تستوجب تمجيده كما تدعو رسول اللّه أن يقوم بالموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل الإيمان مع بيان أن الفوز هو من نصيب من يتطهر من الذنوب والآثام .

تستهل هذه السورة بتوجيه نظر الإنسان إلى عظمة اللّه والدعوة إلى تمجيده وتنزيهه عن كل نقص وعن كل ما لا يليق به من الصفات والأفعال وهذا معنى قوله تعالى : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّك الأَعْلَى**﴾ . فهو العالي على كل شيء بملكه وسلطانه .

فهو سبحانه : ﴿**الّذي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾ أي خلق الأشياء فسوّى خلقها وعدّلها فجعل صُورَ المخلوقات على ما اقتضت حكمته معدة للمنافع المقصود منها ، تأمل في أسرار خلق الإنسان مثلاً ، يأخذك العجب في تركيب الجهاز الهضمي والتنفسي ، ودقة أجهزة السمع والبصر والأوردة والشرايين واليدين والرِّجلين ، وسائر الأجهزة التي تقوم عليها حياة الإنسان ، بالإضافة

إلى العقل الذي يمتاز به عن سائر المخلوقات.

ويذكر القرآن بعض مظاهر قدرة اللّه: ﴿وَالّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي قدّر لكل مخلوق وظيفته على هذه الأرض، فالإنسان هداه اللّه لسبيل الخير والشر وبيّن له هذين الطريقين ليختار أحدهما والكائنات الحيّة هداها اللّه إلى طريقة معيشتها، فالعلماء المتخصصون الذين تقصّوا حياة الحيوانات الطيور والحشرات أخذهم العجب والدهشة في كيفية معيشتها والمحافظة على نوعها وبناء بيوتها وتوالدها، واحتضان بويضاتها بطريقة لا تفسّر إلاّ أنها خُصَّت بإلهام خاص، هذا الإلهام أطلق عليه القرآن إسم (الهداية) التي مصدرها اللّه.

ويتابع القرآن وصف قدرة اللّه في إنبات النبات:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾.

فاللّه أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات وأنواع الكلأ، ثم ييبس هذا النبات ويتحطم ويصبح لونه مائلاً للسواد تذهب به الرياح أو السيول، وهكذا مآل الحياة الدنيا فكل شيء فيها إلى زوال.

ثم يبين القرآن بأن اللّه خص رسوله محمداً ﷺ برسالته إلى البشر بتلقين الملك جبريل له القرآن وأنه لن ينسى منه شيئاً:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى. إلاَّ مَا شَاءَ اللّه إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.

فاللّه يقول: سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه إلا ما شاء اللّه أن ينسيك إياه بنسخه، إنه يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت فعلاً، فمحمد ﷺ على الرغم من

أميته قد حفظ هذا القرآن المطوّل ولم ينسَ منه شيئاً.

ثم يخاطب اللَّه رسوله محمداً: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي نسهّل لك يا محمد عمل الخير وهو اليُسرى، وشريعة الإسلام هي الخير كله، وهي الشريعة المؤدية إلى اليُسر، ولقد بيّن القرآن في سورة البقرة بأن اللَّه يريد اليُسر للناس في كل ما شرعه لهم: ﴿يُرِيدُ اللَّه بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥.

ويخبر اللَّه بأن الناس قسمان: قسم يتعظ ويستفيد مما يعرض عليه من الحق والخير فيأخذ به فيكون في ذلك نجاحه وسعادته، وقسم فسدت طبيعته فعبثاً تؤثر فيه الموعظة فهؤلاء هم الأشقياء الذين يستحقون عذاب اللَّه الأبدي:

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى. سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَتَجَنَّبُها الأَشْقَى. الذي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرى. ثُمَّ لا يموتُ فيها ولا يَحْيَا﴾.

فاللَّه سبحانه يقول: فذكر يا محمد الناس بهدي اللَّه وعظهم وحذرهم عقوبته إن هم عصوه ﴿إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ إن بمعنى ما، أي فذكر ما نفعت الذكرى ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أي سيتعظ من يتقي اللَّه ويخافه ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ ويتباعد عن الموعظة الشقي فلا يقبلها ﴿الذي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى﴾ الذي يرد نار جهنم وهي النار الكبرى، ووصفت بذلك لشدة الحرّ فيها، ولشدة الألم الذي يقاسيه من يُعذّب بها ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾ أي لا يموت فيها الشقي فيستريح ولا يحيا فيها حياة تنفعه.

ووقفه عند قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ فهذه الآية فيها إرشاد للمجتمعات بأن يقوم فيها على الدوام من يقوم بواجب الوعظ والإرشاد

وتذكير الناس بالتعاليم الإلٓهية الخيّرة لأن المجتمع فيه القابلية والاستعداد الفطري للأخذ بها، أما الإعراض عن الموعظة فهو يؤدي إلى انهيار القِيَم الأخلاقية وشيوع الفساد وطغيانه على قِيَم الحق.

ثم يبين اللَّه بأن الفوز والنجاة يكونان لمن تطهر من الشرك والمآثم[١] ونمّى نفسه بالخيرات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ويضيف اللَّه إلى ذلك قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي وحّد اللَّه وذكره بقلبه ولسانه وقام بالصلوات الخمس.

كما يبين اللَّه بأن إيثار الحياة الدنيا هو أساس الداء لأنه يصرف الإنسان عن تلقي الموعظة والأخذ بها،وهذاتنبيه للناس حتى يعوا حقيقة دنياهم الآيلة إلى الزوال ويعملوا لآخرتهم التي هي خير من الدنيا وهي الباقية الخالدة:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

ويختم اللَّه هذه السورة بقوله:

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

أي إن جملة ما في هذه السورة من المعاني، أو أن المذكور من قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ إلى قوله: ﴿وَأَبقَى﴾ يطابق ما ورد في الصحف الأولى المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام.

---

(١) إن تطهير النفس من المآثم مذهب أخلاقي رفيع المنزلة يلخص كل مكتشفات علم النفس الحديثة التي تقول: «إنه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة والخلق القويم عن طريق التأمل الباطني الصرف، بل عن طريق تدريب النفس اي تهذيبها وحكمها والسيطرة عليها».

سُورَةُ الغَاشِيَة

مكية ، وآياتها ست وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ
نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ
إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾
لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا

شرح المفردات

هل أتاك : هل بمعنى قد ، والمعنى : قد جاءك ووصل إليك قصتها وخبرها .

الغاشية : هي يوم القيامة .

خاشعة : ذليلة .

عاملة ناصبة : عاملة أعمالاً شاقة في النار ، متعبة : بجر السلاسل والأغلال .

تصلى ناراً حامية : تدخل ناراً متناهية الحرارة وتقاسي حرها .

عين آنية : عين ماء متناهية في شدة الحرارة .

ضريع : نبات شوكي ترعاه الإبل ما دام رطباً فإذا يبس تحامته ويسمى الشِّبْرق.

وجوه يومئذ ناعمة : ذات بهجة وحسن أو متنعمة .

لسعيها راضية : أي راضية بما عملته في الدنيا حينما رأت ثواب الله في الآخرة .

جنة عالية : عالية المكان أو الدرجة والقدر .

لاغية : من اللغو وهو ما لا يعتد به من الكلام، أو الكلام القبيح .

عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ
خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ
عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

عين جارية : ينبوع ماء جار .

أكواب : جمع كوب ، وهو الكأس التي لا عروة لها (الكبـاية) .

موضوعة : معدّة ومهيأة للشراب .

نمـارق : جمع نمرقة وهي الوسادة وتعرف بالمخدة .

زرابيّ : جمع زُرْبية وهي البساط (السجادة) .

مبثوثة : مفروشة ومبسوطة .

وإلى الجبال كيف نُصِبَت : وضعت وضعاً ثابتاً لا تميل ولا تزول .

سُطِحَت : بسطت ومهدت .

فذكّر : عظ يا محمد قومك .

بمسيطر : بمتسلط تجبرهم على ما تريد .

تولّى وكفر : أعرض وأنكر الإسلام .

العذاب الأكبر : العذاب العظيم وهو عذاب جهنم .

إيابهم : رجوعهم بعد الموت .

سُورَةُ الغَاشِيَة

ايضـاح و دروس

هذه السورة تتحدث عن القيامة وعن مصير الناس آنذاك إما إلى نعيم أو عذاب مع لفت الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٓهيـة القادرة على كـل شيء.

بـدأت هذه السـورة بأسلوب يلفت الأسمـاع إلى أهوال يـوم القيامـة ومصيـر الناس في ذلـك اليوم، فيقـول اللّه سبحانـه: ﴿هَـلْ أَتَـاكَ حَـدِيثُ الغَاشِيَةِ﴾ فهنا استفهام لتعظيم أمر الغاشية مع تقريـر حدوثهـا والتشويق إلى استماع أخبارها، والغاشيـة هي القيامـة وسميت بذلـك لأنها تغـطي الناس بشدائدها وأهوالها.

ثم يعرض القرآن الكريم وصفاً لأهل العذاب ووصفاً آخر لأهل النعيم مبتدئاً بمشهد أهل العذاب لتناسبه مع الغاشية وشدائدها فيقول سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصْلَى نَاراً حَامية﴾.

فهناك يومئذٍ وجوه يظهر عليها الذل فقد عملت وتعبت في الدنيـا ولم تستفد من عملها في الآخرة لأن عملها في الدنيا إنما كان الكفر والمعاصي؛ أو بمعنى: أن الكفار يتعبون ويشقون في الآخرة بجر السلاسل والأغلال في النار، بالإضافة إلى مقاساة حر جهنم.

ويتابع القرآن وصف ما يقاسي هؤلاء أيضاً:

﴿تُسْقَى مِنْ عَينٍ آنيـةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعَـامٌ إلَّا مِنْ ضَـرِيـعٍ. لا يُسْمِنُ وَلَا يُغني مِنْ جُوعٍ﴾.

فإذا عطش أهل النار وطلبوا ما يطفىء ظمأهم الشديد جيء لهم بماء

من ينبوع بلغ ماؤه من الحرارة غايتها، وإذا طلبوا الطعام ليدفعوا ما أصابهم من ألم الجوع قدم إليهم (الضريع) وهو نوع من الشوك لا يدفع جوعاً ولا يفيد سمناً، بل يؤذي آكله.

هذه هي حال أهل العذاب، أما أهل النعيم فيصفهم القرآن:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا راضيةٌ. في جنّةٍ عَاليةٍ. لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغية﴾.

وجوههم ناعمة بمعنى أنها ذات بهجة وحسن من أثر ما يلاقون من النعيم.

﴿لِسَعْيِها رَاضية﴾ أي راضية عن عملها الذي عملت به في الدنيا، وراضية عن هذا النعيم الذي أثابها اللّه عليه في الآخرة. وأين هذا النعيم؟ إنه في ﴿جَنَّةٍ عَالية﴾ والجنة هي دار النعيم في الآخرة وسُمّيت بهذا الاسم من الاجتنان وهو الستر، لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، وهي عالية رفيعة في أوصافها ومزاياها. وقد وصف القرآن هذه الجنة: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَة﴾ أي لا تسمع فيها لغواً وباطلاً من القول. ووصفها بذلك قبل ذكر بقية أنواع النعيم فيها هو لنقد أحوال أهل النعيم والترف في الحياة الدنيا الذين يجعلون من متممات النعيم لهم الفحش وإطلاق الألسن عن حدود الأدب، وفي هذا درس للمؤمنين بأن لا يكونوا من أهل اللغو حينما يفيض اللّه عليهم نِعَمَهُ في الدنيا، فنعيمهم ينبغي أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لا نعيم أهل الجهل والحمق.

ويتابع القرآن وصف نعيم الجنة:

﴿فيها عَيْنٌ جَارِية. فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ. وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابيُّ مَبْثوثَةٌ﴾.

ففي الجنة ينابيع ماء جارية متدفقة لا تنقطع، وفيها المقاعد المريحة الموضوعة في أماكن مرتفعة ليرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما خوّله ربه من النعيم، وفيها الأكواب الموضوعة المهيأة الحاضرة بين أيديهم، كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى بالشراب، وفي مجالسهم يتكئون على وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض. وقد بُسط من حولهم (السجاد) ليضفي البهجة والزينة على تلك المجالس.

وبعد أن قدّم القرآن لمحة عن الحياة الآخرة يعود بنا إلى حياتنا الحاضرة في جولة مما نشاهده حولنا لافتاً أنظارنا إلى عظمة الخالق وقدرته الظاهرة في هذا الكون والتي هي على مرأى الأنظار، هذه القدرة الإلٓهية التي لا يعجزها بعث الناس من قبورهم للحساب في الآخرة. يقول سبحانه:

﴿أَفَلَا يَنْظُرونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وإلى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وإلى الجِبَال كيف نُصِبَتْ. وإلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

يلفت القرآن الأنظار إلى مخلوقات هي قربهم وفوقهم يرونها دون أن يأخذوا العظة منها وأول هذه المخلوقات: الجِمال لأن العرب الذين أُنزل القرآن عليهم كانوا يستخدمونها أكثر من غيرها في حياتهم، وفي خلقها أسرار وأسرار تنبىء عن الحكمة والقدرة الإلٓهية وهذا ما سنفصّله في آخر هذه السورة.

أما خلق السماء فهو ينبىء أكثر على القدرة الإلٓهية، والسماء هي كل ما علا الإنسان والتي فيها النجوم والكواكب وسائر الأجرام السماوية والتي قدّر العلماء عددها بعد اختراع المناظير القوية بما يزيد على بلايين الملايين.

كما لفت القرآن الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلٓهية التي نصبت الجبال

في الأرض، وبسطت الأرض وجعلتها ممهدة صالحة لسكنى مئات الملايين من البشر وأضعاف ذلك من المخلوقات الحيَّة.

بعد ذكر ما تقدم من صُوَر يوم القيامة، ومظاهر القدرة الإلّهية في هذا الكون يلفت اللَّه تعالى نظر رسوله محمد ﷺ إلى طبيعة رسالته القائمة على وعظ قومه وإرشادهم بالحسنى لا بالإكراه:

﴿فَذَكِّر إنَّما أنْتَ مُذَكِّر. لَسْتَ عَلَيهِم بِمُسَيْطرٍ﴾.

أي فذكّر يا محمد هؤلاء الناس بآيات اللَّه الدالة على قدرته وحكمته، ونعمه عليهم، فإنما أرسلناك إليهم لتذكرهم هدى الله وتعظهم به، لست عليهم بمتسلط ولا أنت بجبار لتحملهم على ما تريد.

ثم يبين القرآن مصير من أعرض عن هدى اللَّه:

﴿إلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّه الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾.

أي: لكن من أعرض عنك يا محمد ولم يهتد بهدي اللَّه وكفر بآياته فيعذبه اللَّه العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم.

هذا وإن رجوع الناس إلى اللَّه بالموت والبعث أمر محتم واللَّه سبحانه سيحاسبهم على أعمالهم: ﴿إنَّ إلَيْنا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسَابَهُمْ﴾.

التفسيرُ العِلمي

يقول اللَّه تعالى في معرض بيان قدرته: ﴿أَفَلَا يَنْظُرون إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَت﴾.

سؤال يتبادر إلى الذهن: لِمَ خص اللَّه الإبل (أي الجمال) بالذكر دون غيرها من الحيوانات والأنعام؟ إن المتمعن في خلق الجمال يرى في ذلك معجزة تدل على نهاية الحكمة الإلّهية.

فمن المعروف أن من صفات الجمل الظاهـرة استعداده للتكيُّف مـع المناخ الصحراوي مما يجعله جديراً باسم (سفينـة الصحراء) فعينـا الجمل تـرتفعان فـوق الرأس وتـرتدان إلى الخلف فضـلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانهما الرمال، وكذلك المنخران والأذنان يكتنفهما الشعر للغـرض نفسه. وأنف الجمل إنما هو شقان ضيقان، فإذا مـا هبت العواصف الـرملية انغلق المنخران وانثنت الأذنان على صغرهما نحو الجسم.

وإذا نـظرنا إلى خف الجمـل (أي قدمـه) نرى أن عـظامه تفـرطحت ولبست قفازاً عريضاً من لحم طري يلين للرمل الذي يخطو عليه.

وللجمل كلكل تحت صدره ووسائد قرنية على مفاصـل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة.

والصحراء تهدد مرتادها بالجوع ولهذا يأكل الجمـل إذا أنذره الجـوع بـالتهلكة كـل ما يجـد من العشب فإذا لم يجـد العشب أكل النبت الخشن والشوك.

وعلى ظهر الجمل سنام من عضل وشحم حتى إذا خرج الجمل إلى سفر وعزه الغذاء وكاد ينذره الجوع بالفناء وجد الجسم فيما حمل من شحم في سنامه غذاء يطول به العيش أياماً.

ومن أشـد الضرورات في الصحـراء: الماء، وفي جسم الجمـل من الاحتياط ما يحفظ به عليه المـاء، من ذلك أنـه لا يعرق أو لا يكـاد. وأنفه متصـل بفمه، والفم يحبس مـا يخرج من هـواء التنفس من ماء. وصـاحب الجمل يغري الجمل بشرب المقـدار الأكبر من المـاء عند القيـام بالسفـر، ويبلغ ما يشربه الجمل ستين ليتراً من الماء وعندئذٍ يستطيع البقاء بلا ماء أياماً تتراوح بين ستة وعشرة أيام.

سُورَةُ الفَجْر
مكية، وآياتها ثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ
جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟

شرح المفردات

والفجر : الواو واو القسم ، والفجر ضوء الصباح أول ظهوره في سواد الليل .

وليال عشر : العشر الأولى من شهر ذي الحجة ، وقيل : العشر الأخيرة من رمضان .

والشفع والوتر(١) : الشفع : العدد المزدوج . والوتر : العدد المفرد .

والليل إذا يسر : إذا ذهب ومضى .

لذي حِجْرٍ : لذي عقل .

عاد : قوم من العرب البائدة وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه (هود) .

إرَمَ : اسم للمدينة التي بنتها عاد .

ذات العماد : ذات البناء الرفيع ، أو ان أهلها طوال الأجسام.

ثمود : قوم من العرب البائدة وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه (صالح) .

جابوا الصَّخْرَ بالواد : أي قطعوا الصخور ونحتوها واتخذوا منها بيوتاً بوادي القرى .

فرعون : لقب لملوك مصر القديمة إلاّ أنه يأتي في القرآن خاصاً بفرعون الذي كان على عهد موسى .

ذي الأوتاد : أي الجنود ، لأنهم كانوا يشدون ملكه كما يقوي الوتد الخيمة .

فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ
رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ
فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾
وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا
لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾
وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ

شـرح المفـردات

طغوا : جاوزوا الحد في العصيان والظلم .

إنّ ربك لبالمرصاد : إن ربك يراقب كل إنسان حتى يجازيه بأفعاله .

ابتلاه : امتحنه واختبره .

فأكرمه ونعّمه : أي أعطاه المال وصيَّره يرفل في بحبوحة النعيم .

قَدَرَ عليه رزقه : ضيق عليه رزقه .

لا تحاضُّون : لا يحثُّ بعضكم بعضاً .

التُّراثَ : الميراث .

لمّا : شديداً .

جمّاً : كثيراً .

دُكّت الأرض : زلزلت وهدمت .

جاء ربك والملك صفاً صفاً : أي جاء أمر ربك بالمحاسبة والملائكة مصطفة صفوفاً .

لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾
يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً
﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

قدَّمت لحياتي : أي قدمت عملاً ينفعني في الحياة الآخرة .

فيومئذٍ لا يُعذِّب عَذابه أحد : أي لا يعذب كعذاب الله أحد .

ولا يوثق وثاقه أحد : الوثاق الربط بالسلاسل والأغلال أي لا يوثق كوثاق الله أحد .

سُورَةُ الفَجْر

ايضـــاح و دروس

هذه السورة فيها إنذار للأمم الطاغية الفاسدة بسوء المصير مع بيان سنن اللّٰه في ابتلاء عباده بالخير والشر مع ذكر القيامة وجلال اللّٰه المسيطر آنذاك ومصير الناس في ذلك اليوم الرهيب إما إلى نعيم أو إلى عذاب.

يستهل اللّٰه هذه السورة بالقسم بجملة أمور هامة تدل على عظمة إبداعه لخلقه وحكمة تدبيره له:

﴿وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ. واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ. هَلْ في ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم اللّٰه بضوء الصباح لأنه من بديع صنعه، ولما يشير إلى انقضاء الليل وإقبال النهار ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ كما أقسم سبحانه بليال عشر مفضلة عنده، قد تكون الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان حيث يصادف فيها ليلة القدر التي ابتدأ فيها نزول القرآن هدى للناس، ويكون لفت النظر إليها إلى الصلة التي تربطها بالفجر، فكما أن الفجر يزيل ويبدّد ظلمة الليل، فكذلك القرآن يزيل ويبدّد ظلمة الجهل والكفر. وقيل المراد بها الليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج وفيها يتطهر الإنسان من ذنوبه، وقد جاء في صحيح البخاري: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى اللّٰه فيهن من هذه الأيام».

﴿وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ﴾ وأقسم سبحانه بالزوج والفرد من كل ما هو موجود والمراد بذلك الخلق والخالق، فإن اللّٰه تعالى واحد «وتر» والمخلوقات ذكر

وأنثى، «شفع».

﴿واللَّيْلِ إذَا يَسْرِ﴾ وأقسم اللَّه بالليل إذا ذهب ومضى وحلّ بعده النهار فتناوب الليل والنهار من آيات القدرة الإلّهية ﴿هَلْ في ذَلِكَ قَسَمٌ لِذي حِجْرٍ﴾ أي هل فيما ذكر من هذه الأمور قسم مقنع لذي عقل. والاستفهام هنا تقرير لفخامة شأن المقسم بها وكونها أموراً جليلة، حقيقة بالتدبر والتفكر. والمقسم عليه محذوف تقديره: ورب هذه الأشياء ليعذبنّ الكفار، ويدل عليه ما جاء في القرآن بعد ذلك:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ. الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البِلادِ. وَثَمودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَونَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذين طَغَوا في البِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

فاللَّه سبحانه يقول: ألم تعلم يا محمد ماذا فعل اللَّه بقوم «عاد» وهؤلاء من العرب البائدة وكانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان واليمن ﴿إرم﴾ وإرم إما هي قبيلة من عاد، أو بلدة كانت تسكنها عاد ﴿ذَاتِ العِمَاد﴾ قيل إنهم كانوا طوال الأجسام وقيل المراد بذلك: عماد خيامهم فإنهم كانوا رحالة ينتجعون إلى المراعي وينصبون خيامهم في رحلاتهم، وقيل كانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور ﴿التي لَمْ يُخْلَق مِثْلُهَا في البِلَادِ﴾ أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في البلاد قوة وشدة وعِظم أجساد وطول قامة ﴿وَثَمودَ﴾ وهي قبيلة مشهورة من العرب البائدة وكانوا يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك ﴿الّذين جَابُوا الصَّخْرَ﴾ أي قطعوا صخر الجبال ونحتوها وجعلوا منها بيوتاً لهم ﴿بِالواد﴾ أي بوادي القرى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذي الأَوْتَادِ﴾ أي فرعون ذي الجنود الذين يقوون أمره وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد فيوثقهم بها إلى أن

يموتوا ﴿الَّذِين طَغَوْا في البِلَادِ﴾ أي تمردوا وَعَتَوْا وتجاوزوا الحد في الظلم والعدوان ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسادَ﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجوْر والقتل وسائر الآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي شدة عذاب. وأصل الصب في اللغة إراقة الماء مع تدفق. والسوط هو أداة الضرب المعهودة، والأصل في السوط أن يُضرب به ويؤلم، لكن البلاغة القرآنية عدلت عن الأصل إلى صب سوط عذاب فوصل بالتعذيب في السوط إلى أقصى مدى بما يعني الصب من تدفق وغمر، وبما يعني وقع السوط على الجسم من ألم شديد. ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾ أي إن ربك يرقب عمل كل إنسان حتى يجازيه به.

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الغنى والفقر وتأثيرهما على النفس:

﴿فَأمَّا الإنسَان إذا ما ابتلاهُ ربُّهُ فأكرمه ونعَّمه فيقول: ربي أكْرَمَنِ. وَأمَّا إذا ما ابتلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فيقول: ربّي أَهَانَنِ﴾.

فكثير من الأغنياء يتصورون أن كثرة أموالهم هو دليل رضاء اللَّه عنهم، وأنه سبحانه خصهم بالفضل والكرامة من دون الناس. وكثير من الفقراء يتصورون أن قلة أموالهم هي إهانة لهم من اللَّه، لهذين الصنفين يقول القرآن في مطلع الآية التالية (كَلَّا) أي ليس الأمر في الحالين كما يتصوره الإنسان، فتوسعته سبحانه بالرزق على من وسّع عليه ليس ذلك إكراماً له على الحقيقة ولا يدل على أنه كريم عند اللَّه، وأن تقتيره على من قتّر عليه لا يدل على إهانته وسقوط منزلته عنده، بل اللَّه يوسّع ويقتر ابتلاءً وامتحاناً للإنسان، ولذلك يصدّر اللَّه الآية في الحديث عن الغنى والحديث عن الفقر بقوله: ﴿إذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ والابتلاء هو الاختبار والامتحان.

فالغنى هو اختبار من اللَّه للإنسان ليظهر مدى صموده لفتنة النعم،

والفقر هو اختبار أيضاً لكشف مدى صبره على الضيق، وقد يكون، ما يبدو نعمة وبالاً على صاحبه، وما يبدو نقمة خيراً لـه، كأن يؤدي الانغماس في النعم إلى الطغيان واتباع الشهوات وترك طاعة اللَّه، كما يؤدي الفقر والحرمان إلى الرجوع إلى اللَّه وعبادته وطاعته.

ثم يندد اللَّه بالعصاة من الأغنياء الذين لا يدركون معنى الابتلاء ولا يسيرون على المنهج القويم:

﴿كـلّا بَلْ لا تُكْـرِمُونَ اليتيمَ. ولا تَحَـاضُّونَ عَلَى طَعَـامِ المسكينِ. وَتَأكلونَ التُّراثَ أكلاً لمًّا. وتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً﴾.

فهؤلاء الأغنياء الذين لا يكرمون اليتيم بل يهينونه، ولا يحث بعضهم بعضاً على إطعام المسكين ويأكلون الميراث أكلاً شديداً سواء أكان ميراثهم أو ميراث غيرهم، ويحبون المال حبّاً شديداً مما يدفعهم إلى جمعه بأي وسيلة كانت. هؤلاء يندّد اللَّه بهم في مطلع الآية التالية بقوله: (كلا) أي ارتدعوا عن هذه الأفعال فليس ذلك هو الطريق السليم الذي ينبغي سلوكه.

وبعد أن كشف اللَّه سوء أعمالهم يأتي الوعيد الرهيب لهؤلاء لعلهم يسلكون سبيل الهدى وذلك باستعراض أهوال يوم القيامة من زلزلة الأرض وتهدم ما عليها، والجلال المسيطر على ذلك اليوم من مجيء أمر اللَّه وقضائه والملائكة صفّاً بعد صف، وظهور جهنم للعصاة: **﴿كَلَّا! إذا دُكَّت الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً. وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صفّاً. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بجَهَنَّم﴾**.

أمام هذه المشاهدة المروعة يُعرض للإنسان سجل أعماله ويتذكر ولكن لا ينفعه هذا التذكر وقد فات الأوان **﴿يَـوْمَئِذٍ يَتَـذَكَّرُ الإِنْسَـان وأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾** عند ذاك ينطق الإنسان الذي عصى ربه بهذه الكلمة التي تفيض

بالحسرة والندم: ﴿**يقول: يا ليتني قَدَّمْتُ لحياتي**﴾ يا ليتني قدمت في الدنيا من صالح الأعمال ما ينفعني في حياتي الآخرة. فإطلاق اسم (حياتي) في القرآن على الآخرة إشعار بأنها **هي الحياة الحقيقية** التي تستحق اسم الحياة. فعصيان الإنسان لربه في الدنيا لم يجلب له في الآخرة غير الندم والتحسّر ولكن هيهات أن ينفع الندم فهناك عذاب اللّه ووثاقه للمجرمين الذي لا يشبهه أي عذاب في الدنيا: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لا يُعذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**﴾.

وفي غمرة هذا كله تتلفت النفس متلمسة مصير الصالحين البررة، وهنا تأتي البشرى من اللّه للصالحين بما أعد لهم من ثواب:

﴿**يا أيتها النَّفْسُ المطمئنَّة. ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي**﴾.

والنفس المطمئنة هي النفس التي لا يستفزها خوف ولا حزن، المطمئنة إلى لقاء ربها وإلى المصير الحسن الذي وعد اللّه به أهل الإيمان.

والنفس المطمئنة هي التي لم تعص اللّه في الدنيا، المسلمة أمرها فيما هو فاعل بها.

هذه النفس المطمئنة يخاطبها اللّه بالذات كما كلّم موسى عليه السلام أو على لسان الملك عند تمام حساب الناس وقيل عند البعث أو عند الموت ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته راضية بما أعده اللّه لكِ من المثوبة الحسنة، مرضية من اللّه بما قَدَّمْتِ من عمل صالح ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ فادخلي في زمرة عباد اللّه المقربين وتمتعي بالنعيم الدائم بالجنة.

سُورَةُ البَلَدِ

مكية ، وآياتها عشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ
٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ
أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ
نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠
فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣
أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا

شرح المفردات

لا أقسم : عبارة من عبارات العرب في القسم يراد بها تأكيد الخبر كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم والنفي في هذا القسم أريد به تعظيم المقسم به ،

بهذا البلد : أي مكة المكرمة .

حِلٌّ : مقيم .

كبد : شدة ومشقة .

مالاً لُبَدا : مالاً كثيراً.

النجدين : طريقا الخير والشر.

اقتحم : الاقتحام هو الدخول في الأمر الشديد وركوب المهالك والأمور العظام .

العقبة : طريق في الجبل وعرة يصعب سلوكها ، والمراد بها هنا مجاهدة الإنسان نفسه

فك رقبة : عتق رقيق .

مَسْغَبة : مجاعة .

ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ
بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

شرح المفردات

متربة : فقر شديد .

تواصوا بالمرحمة : أوصى بعضهم بعضاً بالرحمة على الخلق .

أصحاب الميمنة : السعداء في الآخرة .

أصحاب المشأمة : الأشقياء في الآخرة .

مؤصدة : مطبقة مغلقة .

سُورَة البَلَد

ايضــاح و دروس

هذه السورة تبين أن الإنسـان خلق بحيث يعاني المتـاعب والمشقات وأن الفوز بنعيم الآخرة يتوقف على اجتيازه العقبة التي صورتها السورة بجملة أمور من الأعمال الصالحة.

استهل اللّه تعالى هـذه السورة بـالقسم بمكة ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَـذَا البَلَدِ**﴾ نظراً لفضلها، فإنه سبحانه جعلها حرماً آمناً فقال في المسجد الحرام الذي فيها: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كان آمناً﴾. وجعل سبحانه ذلك المسجد قِبْلَةً للناس في الصلاة، كما أمرهم بالحج إليه.

ويكرم اللّه محمداً ﷺ فيذكره، ويذكر أن إقامته بمكة تزيد هذا البلد شرفاً ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ**(١) **بهَذَا البَلَدِ**﴾.

ويقسم اللّه أيضاً بـ ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ ويراد بذلك ـ واللّه أعلم ـ آدم وما ولد، وتتابع الأجيال طبقة بعد طبقة وما يرثه الأبناء عن آبـائهم وأمهاتهم من صفات وطباع، وفي ذلك دلالة واضحة على بالغ القدرة الإلٓهية.

ثم يـأتي جواب القسم: ﴿**لَقَـدْ خَلَقْنَا الإنْسَـان في كَبَدٍ**(٢)﴾ أيِ جُعل الإنسان بحيث يعاني المتاعب والمشقات لترتفع نفسه عن مستوى البهيمية، فحياة الإنسان منذ وجوده على ظهر الأرض إلى انتهاء أجله محفوفة بالآلام،

---

(١) وأنت حِلّ بهذا البلد: قيـل في تفسيرهـا: أحل اللّه يـا محمد مـا صنعت في مكة من قتال المشركين ولم يحل لأحد غيـرك، لأن مكة بلد آمن حـرّم اللّه أن يُسفك بهـا دم، إلّا أن اللّه أذن لنبيه محمـد ﷺ ساعـة من نهار في قتـالهم كما جـاء في الحديث الشريف.

(٢) كبد: يقال كابدت الأمر إذا قاسيت شدته.

مكتنفة بالمصائب والصعاب، وعلى الإنسان أن يتقبّل هذا المفهوم لحقيقة الحياة، ويكيّف حياته وتفكيره وفق ذلك فلا يُفاجأ بحلول المصائب والصعاب عليه.

والإنسان قد يصيبه الغرور بما ينال من أسباب القوة والثراء فيطغى ويظلم، وهنا يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي أيظن هذا الإنسان أنه سيكون بمنجاة من القِصاص. بئس ظنه وهو في قبضة اللَّه، وحين يُدعى لبذل بعض ماله في سبيل البر والإحسان ﴿يَقُولُ: أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ أي أنفقت مالاً كثيراً، وهو لم ينفق ماله غالباً إلَّا على ملذاته وشهواته ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي أَيظن أنه حين كان ينفق هذا المال أن اللَّه لا يسأله عنه، ولا يجازيه على إنفاقه له، وهل كان في سبيل الخير أم في سبيل الشر.

ثم يبيّن القرآن نِعَمَ اللَّه وفضله على الإنسان:

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَينينِ. وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

فاللَّه جعل للإنسان عينين على هذا القدر من الدقة وإعجاز الصنع، وبفضلهما يسعى إلى معاشه، وينعم بمتعة الرؤية فليشكر اللَّه على نعمة البصر ويحفظه من رؤية المحرمات. كما أنعم اللَّه على الإنسان بلسان وشفتين يستطيع التذوق والنطق بهما، فإذا اشتط في حديثه فليذكر منّة اللَّه عليه، وليجعل من هذه المنّة سبيلاً إلى الحق، فلا ينطق إلّا بخير.

واللَّه سبحانه أودع في الإنسان خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، وجعل له العقل للتمييز بينهما ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي عرفناه وبينا له طريقي الخير والشر، لذا يجدر بالإنسان ألّا ينساق إلى نزعة الشرّ التي فيها شقاؤه وليسلك طريق الصلاح، ويجتاز العقبة التي تحول بينه وبين الجنة.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَو إِطْعَامٌ في يَوْمٍ ذي مَسْغَبَةٍ . يَتيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ .

أي أفلا سلك الإنسان الطريق الذي فيه اجتياز العقبة، والعقبة هي الطريق الوعر في الجبل الذي يصعب اجتيازه، وقيل: العقبة المراد بها جبل في جهنم، وقيل: العقبة مثل ضربه اللّه لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال الخير ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وهذه الآية لزيادة تقريرها.

والسبيل لاجتياز العقبة واقتحامها هو: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق إنسان من الرق، واستعمال القرآن للفظي: الفك، والرقبة، فيه إشعار بأن الإنسان المسترق مغلول الرقبة بقيد يسلبه إنسانيته وينزل به إلى منزلة الدواب.

فالمجتمع العربي في عهد الرسالة الإسلامية كان يعاني من مآسي الرق فجاء الإسلام يعالج قضية الرق وما ينتج عنه من مآس فأحاطه بعوامل الرأفة والرحمة، وجعل عتق الأرقاء في كثير من الكفارات، كما جعل عتقهم من أجلّ الأعمال الصالحة التي يثاب عليها الإنسان من ربه.

والسبيل إلى اقتحام العقبة أيضاً: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي أن يطعم الفقير في يوم ذي مجاعة، والتقييد بهذا اليوم لأن إخراج المال فيه هو أشد على النفس، وبالأخص إذا كان هذا الفقير ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ يتيماً ذا قرابة في النسب للغني ﴿أَو مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو مسكيناً في نهاية العوز بحيث لا يجد بيتاً سوى التراب. فتضحية الغني بقسم من ماله في سبيل هؤلاء المعوزين يتطلب ترويض النفس ومجاهدتها وهي العقبة التي يجب أن يقتحمها الإنسان للوصول إلى رضاء ربه عليه. وهذه الأمور يجب أن يصحبها جملة خصال:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمنوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

فالإِيمان هو الأساس لقبول الأعمال عند اللَّه، أما التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة فهما يؤديان إلى إقامة المجتمع السليم المتماسك بأخلاقه ومبادئه.

وهؤلاء المؤمنون المتواصون بالصبر والمتواصون بالرحمة على عباد اللَّه هم ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَة﴾ أي السعداء في الآخرة. واللغة العربية تعني باليمين البركة خلاف الشؤم، والقرآن سمى أهل الجنة: ﴿أَصْحَاب اليَمين﴾ و ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَة﴾ لأنهم يأخذون كتاب أعمالهم يوم القيامة بأيديهم اليمنى.

ثم يأتي ختام السورة وفيها إنذار للكافرين بالعذاب يوم القيامة:

﴿والّذِينَ كَفَرُوا بآياتِنَا هُمْ أَصْحَاب الْمَشْأَمَة. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَة﴾ فالذين جحدوا بنبوة محمد ﷺ وكذبوا بآيات القرآن هم ﴿أَصْحَابُ المشْأَمَة﴾ والمشأمة خلاف الميمنة، وهي: الشمال وقد سمى اللَّه أهل النار ﴿أَصْحَابُ الشِّمَال﴾ لأنهم يأخذون كتب أعمالهم يوم القيامة بشمالهم، وأصحاب المشأمة ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي نار مطبقة مغلقة يوم القيامة.

سورة الشمس

مكية ، وآياتها خمس عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ
إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ

شرح المفردات

والشمس وضحاها : الواو واو القسم ، أي قسماً بالشمس وضيائها .

والقمر إذا تلاها : أي قسماً بالقمر إذا تبعها .

والنهار إذا جلّاها : أي قسماً بالنهار إذا أظهر الشمس وكشفها للناظرين .

والليل إذا يغشاها : أي قسماً بالليل إذا غطى الشمس فلم تظهر .

والسماء وما بناها : أي قسماً بالسماء وبالله الذي خلقها .

والأرض وما طحاها : أي قسماً بالأرض وبالله الذي بسطها ومهدها .

ونفس وما سوّاها : أي قسماً بالنفس الإنسانية وبالله الذي أبدعها في أحسن صورة .

فألهمها فجورها وتقواها : عرفها طريقي الخير والشر .

أَفْلَحَ من زكّاها : فاز من طهر نفسه من الآثام والمعاصي .

خابَ من دسّاها : خسر من أفسد نفسه بالإثم والمعاصي .

ثمود : قبيلة من العرب القدامى .

بطغواها : أي بسبب طغيانها ، والطغيان مجاوزة الحد في العصيان .

انبعث : اندفع ومضى لعقر الناقة .

أشقاها : أشقى رجل في ثمود وهو ذابح الناقة .

لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ
عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥

شرح المفردات

رسول الله : هو النبي صالح عليه السلام .

نَاقَةَ الله وسُقْيَاهَا : أي احذروا أن تمسوا الناقة بالسوء وتمنعوها من السقي في الأيام التي حدّدها الله لسقياها .

فعقروها : أي ذبحها الأشقى برضى الجميع .

دمدم عليهم ربهم بذنبهم : أهلكهم الله بسبب ذنبهم .

فسوّاها : أي جعل الله العذاب سواء بينهم فلم يفلت منهم أحد .

ولا يَخَافُ عُقباها : ولا يخاف الله تبعة عمله لأنه حرّ التصرف في ملكه .

سُورَةُ الشَّمْس

ايضـاح و دروس

في هذه السورة ترغيب في تطهير النفس من الآثام لأن في ذلك فوزها، وترهيب من خسرانها بالكفر والمعاصي. وإنذار لكفار مكة وأمثالهم أن يصيبهم من العذاب والهلاك مثل ما أصاب قوم ثمود حين كذبوا رسول اللّه صالح وعصوا ربهم.

يستهل اللّه هذه السورة بالقسم بالشمس وضوئها حين يسطع ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ليلفت الأنظار إلى بهائها وعظمة خلقها[١] وما ترسله من حرارة وأشعة وطاقة[٢] تبث بذلك الحياة على الأرض، فهي ترسل أشعتها

(١) حجم الشمس يعادل حجم الأرض مليوناً وثلثمائة ألف مرة.

(٢) الشمس تشع كل دقيقة ٩٠ ألف سعر حراري من كل سنتمتر مربع من سطحها أي ٨٤ ألف حصان ميكانيكي عن كل متر مربع.

وحرارتها بمقدار، فلو أعطت الشمس أقل من الحرارة التي ترسلها إلى الأرض لأصبح كل ما على الأرض جليداً، ولو أعطت أكثر من الحرارة التي ترسلها لالتهبت الغابات واشتعلت النيران في أكثر أقطار الأرض، والسؤال: من أين تأتي الشمس بوقودها؟ إن كانت تنفق من مختزن في باطنها لانخفضت درجة حرارة الشمس عاماً بعد عام، ولكن إذا نظرنا إلى الماضي البعيد رأينا الشمس أعطت الأرض ولا تزال تعطيها من الحرارة مقداراً معيناً في الحدود التي يعيش فيها النبات والحيوان(١).

فمن أين إذن تستمد الشمس مصدر طاقتها؟ وما هو المصدر الذي يمدها بالحرارة التي تفقد منها ويستمر في إمدادها بمقدار معين؟

إنه اللَّه سبحانه وتعالى جلَّت قدرته.

ثم يقسم اللَّه بالقمر إذا تبع الشمس وخلفها في الإضاءة بعد غروبها ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ وتأمل كيف قرن اللَّه القمر إلى الشمس تأكيداً على أهمية الشمس ولأن ضوء القمر مستمد من نورها. فالقمر آية من آيات اللَّه، فهو يرسل نوره اللطيف وما يستتبع ذلك من فائدة للكائنات الحية، كما قدره اللَّه منازل لنعلم عدد السنين وحساب الزمن، فهو بهذا يدل على وجود اللَّه وحكمته، وينفي قيام هذا الكون على الصدفة العمياء كما يدعي الماديون.

ويقسم اللَّه بالنهار الذي يظهر الشمس ويكشفها للناظرين ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وقد جعل اللَّه النهار ليلتمس فيه الإنسان معاشه، مبتغياً من فضل ربه ما يحفظ له وجوده واستمرار حياته.

---

(١) علم الجيولوجيا أثبت أن سلسلة التطور العضوي مستمرة ومتصلة الحلقات دون انقطاع منذ الحقبة السابقة على العهد الكمبيوري أي منذ بضع الملايين من السنين ولذلك ينتج أن إشعاع الشمس طوال هذه الحقبة لم يكد يتغير عما هو الآن.

كما يقسم سبحانه بالليل الذي يغطي الشمس ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وقد جعل الليل راحة للأبدان من عناء العمل، فلو كان العمر كله نهاراً لما استطاع الإنسان متابعة مسيرة الحياة بهمة ونشاط.

ثم يقسم سبحانه بالسماء: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا[١] بَنَاهَا﴾ أي هذه السماء ومن خلقها ورفعها وهو اللّٰه تعالى. فهذه السماء المحتوية على بلايين النجوم والكواكب ترمز إلى عظمة القدرة الإلٰهية التي أبدعتها.

ويقسم سبحانه بالأرض: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي هذه الأرض ومن بسطها وهو اللّٰه تعالى الذي جعلها ممهدة صالحة لسكنى الإنسان والحيوان.

وأخيراً يقسم اللّٰه بالنفس الإنسانية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي ومن كملها وسوّى خلقها وهو اللّٰه سبحانه، فجعل أعضاء الإنسان وجوارحه في نهاية الإبداع والمنفعة فزوده اللّٰه سبحانه بالعقل أداة للتفكير، واللسان للتكلم، والعين للبصر، والأذن للسمع، والأنف للشم، واليدين والرجلين لكسب عيشه. . وغيرها مما يحتويه جسم الإنسان من أسرار وعظمة إبداع.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أودع اللّٰه في نفس الإنسان من خصائص لإدراك الخير والشر، والهدى والضلال، فقال سبحانه ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي بيَّن للنفس الإنسانية ما ينبغي أن تأتي من خير وطاعة، وما يجب أن تترك من شر ومعصية، أو بعبارة أخرى عرّفها طريق الخير وطريق الشر.

وبعد ذلك يأتي جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾

---

(١) ما: اسم موصول بمعنى: من.

أي قد فاز من طهّر نفسه من الذنوب ونماها بالخيرات، وأعلاها بالتقوى ﴿وقد خَابَ من دسَّاهَا﴾ أي قد خسر من أخفى نفسه بالمعصية ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح. ودسّاها أصلها دسسها من التدسيس وهو الإخفاء(١).

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم ثمود وما حلّ بهم من عذاب جزاء عصيانهم نبيهم صالح عليه السلام، ولتوضيح ذلك يحسن بنا أن نمهد لذلك بالكلام عن غاية القصة في القرآن ثم حقيقة قصة ثمود.

الغاية من قصص الأنبياء: إن الغاية من إيراد قصص الأنبياء في القرآن هي التبشير برضوان اللّه، والتحذير من معصيته، وفي شرح مبادىء الدعوة الإسلامية، وفي تثبيت قلب النبي ومن اتبعه، وفي الدلالة على صدق نبوته. والقرآن يأخذ من قصص الأنبياء ما يحقق الهدف من الوعظ، فحيناً يقص القصة كلها محبوكة الأطراف موصولة الأجزاء كقصة يوسف عليه السلام، وفي معظم الأحيان يأخذ جانباً من القصة لأن في هذا الجزء العبرة المطلوبة كقصة موسى عليه السلام، وقد يلمح القرآن ويشير إلى القصة تلميحاً اعتماداً على أن القصة معروفة مشهورة.

وقصص الأنبياء تكررت تارة على وجه الإطناب وطوراً على طريقة

---

(١) هذا التعبير القرآني للتزكية بمعنى الإعلاء والتدسية بمعنى الإخفاء مستقى من البيئة العربية فقد كان أجواد العرب ينزلون الربى ومرتفعات الأرض يوقدون النار في الليل حتى يراهم الطارقون والسائلون ويقصدونهم، وكان اللئام ينزلون أسافل الأودية ليخفوا أنفسهم عن الطالبين وذوي الحاجة، فكان يقال للأولين أنهم علوا بأنفسهم وزكوها أي رفعوها وشهروها وكان يقال للآخرين أخفوا أنفسهم ودسوها، فالتقي رفع نفسه بأعمال البر والخير والفاجر أخفاها بالفجور والمنكرات.

الإيجاز وفي هذا يتجلى إعجاز القرآن وتظهر فصاحته.

وفي هذه السورة يذكر القرآن قصة ثمود بإيجاز ملمحاً لها، لذَا يَحْسُن بنا أن نوضحها مستنيرين بما ذكره القرآن في مواضع أخرى.

قصة ثمود: أرسل اللّه نبيه صالحاً إلى قومه ثمود ليعظهم ويدعوهم إلى عبادة اللّه وترك عبادة الأصنام. وكانت ثمود ـ وهي من قبائل العرب البائدة ـ تسكن شمالي الحجاز في (الحجر) وهي تعرف حالياً باسم (مدائن صالح). لم يؤمن الثموديون بما جاء به نبيهم ولم يسيروا في طريق الحق كما أرشدهم بل كذبوا دعوته، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تثبت أنه رسول اللّه حقاً فأتاهم بناقة خلقها اللّه على غير المألوف وأمرهم ألّا يمسوها بسوء وجعل اللّه لها شرباً في يوم معلوم وجعل لهم شرباً في يوم غيره وأوعدهم بالعذاب إن اعتدوا عليها.

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل من نبات الأرض ترِدُ الماء يوماً وتُصَدُّ عنه يوماً آخر، ولا ريب في أن قيامها على هذا الحال قد استمال الكثير من قوم صالح إذ رأوا فيها آيةً على صدق نبوته فأفزع هذا الأمر طبقة الأشراف فخافوا على كيانهم أن يزول فدفعهم ذلك إلى التأليب على قتلها فحذرهم نبيهم صالح فلم يرعووا، واندفع شقيٌّ منهم إلى المكان الذي ترعى فيه الناقة فذبحها بموافقتهم فاستحقوا بذلك غضب اللّه فأطبق عليهم العذاب واستأصلهم بسبب ذنبهم ولم ينج منهم أحد إلّا نبي اللّه صالح ومن آمن معه وهذا ما ذكره اللّه سبحانه بإيجاز في آخر هذه السورة:

﴿كَذَّبَت ثمودُ بِطَغْوَاهَا. إذ انْبَعَثَ أشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّه وسُقْيَاهَا. فَكَذَّبوه فَعَقَرُوهَا. فَدَمْدَمَ عليهم رَبُّهم بِذَنْبِهِم فَسَوَّاهَا. ولا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

فاللَّه سبحانه يخبرنا عن قوم ثمود أنهم كذبوا رسوله صالحاً بسبب ﴿طَغْوَاهَا﴾ أي بطغيانهم الذي هو مجاوزة الحد في الكفر والمعاصي. ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ إذ مضى مندفعاً أشقى فرد في ثمود وهو قدار بن سالف لعقر الناقة التي حذرهم اللَّه من أن يمسوها بسوء ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي قال لهم احذروا ناقة اللَّه أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ ولا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شربَ يوم ولكم شرب يوم معلوم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا رسول اللَّه صالح وعقرها أشقاهم وأضيف الضمير إلى الكل لأنهم رضوا بفعله ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾ أي أهلكهم اللَّه وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب لرسول اللَّه وعقر الناقة ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي سوّى الهلاك عليهم وعمهم العذاب فأتى على صغيرهم وكبيرهم ولم يفلت منهم أحد ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي لا يخاف اللَّه من أحد تبعة إهلاكهم كما يخاف الملوك تبعة ما يفعلون لأن اللَّه سبحانه لا يُسأل عما يفعل.

سورة الليل

مكية، وآياتها احدى وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾
فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

شرح المفردات

والليل إذا يغشى : الواو واو القسم ، أي قسماً بالليل إذ يغطي كل شيء بظلمته .

والنهار إذا تجلّى : أي قسماً بالنهار إذ يظهر ويكشف الأشياء بنوره .

إن سعيكم لشتى : ان عملكم لمختلف .

أعطى : أي أعطى المال في وجوه الخير زكاة وصدقة .

اتقى : تجنب الإثم والمعصية .

الحسنى : هي كل خصلة حسنة أمر الله بها وقيل المراد بها كلمة (لا إلّه إلاّ الله) .

فسنيسّره لليُسْرى : نسهل له أسباب الخير وكل ما أدت عاقبته إلى اليسر والراحة .

واستغنى : لم يرغب إلى الله تعالى بالعمل الصالح واستغنى بمالِهِ عن ربه .

العُسْرى : هي كل ما أدت عاقبته إلى عسر وتعب .

تَردّى : سقط في جهنم .

لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ
تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

شرح المفردات

الهدى : الإرشاد إلى الطريق المستقيم وهو نقيض الضلال والكفر .

تلظّى : تتوقد وتتوهج .

لا يصلاها : لا يقاسي حرّها .

تولّى : أعرض عن الإيمان .

يتزكّى : ينمي نفسه بالخيرات ويطهرها من الآثام .

من نعمة تجزى : مكافأة أحد على معروف كان قد تقدم به إليه .

إلّا ابتغاء وجه ربه : إلّا طلباً لرضاء الله .

سُورَةُ الليل

ايضاح و دروس

هذه السورة تتحدث عن عمل الإنسان الصالح الذي يؤدي به إلى اليُسر في الدنيا والنعيم في الآخرة، كما تتحدث عن عمل الإنسان السيء الذي يؤدي به إلى العسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

يستهل اللّه هذه السورة بالقسم بالليل والنهار اللذين هما آيتان من آياته الدالة على قدرته وحكمته: ﴿والَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهارِ إِذَا تَجلَّى﴾ .

فاللّه يقسم بالليل إذ يغطي النهار بظلمته ويُذهب ضوءه ويقسم بالنهار حين يظهر للأبصار ويضيء فينير الأشياء بنوره.

فلو كانت الحياة كلها ليلاً لتعذر على الناس السعي في طلب الرزق وعمارة الدنيا، ولو كانت الحياة كلها نهاراً لبطلت مصلحة الناس و لتعذر عليهم السكون والراحة بعد التعب.

كما يقسم اللّه بخلقه الذكر والأنثى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ فوجود الأنثى بجانب الذكر لأجل التناسل ودوام بقاء الحياة للنوع الإنساني والحيواني من البراهين القوية على وجود اللّه وعلى وجود القصد مما يدحض الزعم القائل بقيام الكون على المادة العمياء.

فاللّه سبحانه أقسم بما هو مدرك حسيّاً من تفاوت الليل والنهار، ومن التفاوت في المخلوقات بين ذكر وأنثى، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعي الناس في الدنيا بين هدى وضلال، ولهذا يأتي جواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّى﴾ أي إن عملكم لمختلف فمنكم تقي ومنكم شقي.

أما مظاهر التقى والهدى وآثارها فيصفها اللّه سبحانه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

هنا يرتّب اللّه الجزاء على جنس العمل، فالإنسان الذي يعمل ثلاثة أشياء: ﴿أَعْطَى﴾ أي أعطى المال صدقة وزكاة لسد حاجة المسكين. ﴿واتَّقَى﴾ أي اتقى الإنسان ما يغضب ربه وذلك بالوقوف عند حدوده وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ والحسنى هي عقيدة الإسلام التي فيها مجمل العقائد الحسنة وفي مقدمتها كلمة التوحيد. هذه الأشياء الثلاثة يترتب عليها التيسير لليسرى، ومن يسّره اللّه لليسرى فقد حاز السعادة، وما السعادة إلاّ الحياة الميسّرة الخالية من كل عسر وضيق. . .

وأما مظاهر الضلال والشقاء وآثارها فيصفها اللَّه سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾.

وهنا يرتّب اللَّه الجزاء على جنس العمل ولكنه جزاء مخالف تماماً للصورة السابقة، فمن يتصف بثلاثة أشياء: ﴿بَخِلَ﴾ والبخيل هو الذي يمسك يده عن الإحسان ولا يبذل ماله في سبيل الفقير المحتاج. ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ أي عد نفسه غنياً عن الناس بما لديه من المال فانكمش على نفسه فلا تجد الرحمة إلى قلبه سبيلاً إلى الضعفاء والمحتاجين. أو بمعنى زهد فيما عند اللَّه فلم يرغب إليه بالعمل الصالح. ﴿وَكَذَّب بالحُسْنَى﴾ أي كذّب بعقيدة الإسلام وما أمر اللَّه به من الخصال الحسنة. هذه الأمور الثلاثة يترتب عليها التيسير للعسرى، ومن يسره اللَّه للعسرى حُرِم كل تيسير في حياته، وقاسى كل ضيق ومشقة، وبهذا يكون هو الشقي التعيس، وإن ملك المال الكثير ﴿وَمَا يُغْني عَنْهُ مَالُهُ﴾ أي ولا ينفع هذا البخيل المال الذي جمعه واستغنى به عن ربه ﴿إذا تَرَدَّى﴾ إذا سقط في جهنم أو إذا مات.

واللَّه سبحانه بيّن للإنسان سبل الهداية التي فيها سعادته، فقال: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾** أي إن علينا بيان الحق من الباطل، والطاعة من المعصية. كما أنه سبحانه له ملك السموات والأرض يعطي منهما من أراد ويحرم من شاء **﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾** فمن طلب سعادة الدنيا والآخرة بغير هدى اللَّه فقد ضل الطريق الموصل إلى سعادته. والجدير بالذكر أن اللَّه قدّم ذكر ﴿الآخرة﴾ على ذكر الحياة الدنيا التي سماها ﴿الأُولى﴾ تأكيداً على وجود من ينكرها، وأنها أفضل من الحياة الدنيا.

ثم ينذر اللَّه من كذّب بالإسلام وأعرض عن هداه بالعذاب في

الآخرة:

﴿فَأَنْذَرْتُكُم نَاراً تَلَظَّى. لا يَصْلاَهَا إلاَّ الأَشْقَى. الَّذِي كَـذَّبَ وَتَوَلَّى. وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقَى. الَّذي يُؤْتي مَالَهُ يتزَكَّى﴾.

فاللَّه يقول: فأنذرتكم أيها الناس ناراً تتوهج وهي نار جهنم، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا لئلا تعذبوا بنارها ﴿لا يَصْلاَهَا إلاَّ الأَشْقَى﴾ لا يدخلها فيشوى بنارها إلاّ الكافر ﴿الَّذي كَذَّب وَتَوَلَّى﴾ الذي كذَّب بآيات القرآن وأعرض عنها ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ وسيبعد من النار ﴿الَّذي يُؤْتي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ الذي يعطي من ماله للفقراء وهو بذلك العطاء يتطهر من ذنوبه.

وأخيراً يوجّه اللَّه الإنسان إلى درب التسامي والتجرد للَّه وحده في كل الأعمال لأن ذلك هو السبيل الذي يرضاه اللَّه له:

﴿وَمَا لأَحدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إلاّ ابتغاءَ وَجْهِ رَبِّه الأعلى. وَلَسَوْفَ يَرضَى﴾.

فاللَّه سبحانه يثني على المحسن الذي لا يقصد بإنفاق ماله مكافأة أَحَدٍ على نعمة قد أسلفها إليه ولا انتظار الجزاء من أحد في المستقبل، وإنما ينفق أمواله ابتغاء وجه ربه، وثواب هذا المحسن هو رضاء ربه عليه، ولا أعظم من ذلك ثواب، وهو نهاية ما يطمح إليه الإنسان في الآخرة ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾والرضى يكون من اللَّه ويكون من الإنسان، فيرضى اللَّه عن الإنسان لحسن صنيعه، ويرضى هذا التقي برضاء ربه عليه، وما يعدّه له من النعيم السرمدي في الآخرة.

هذه الآيات قيل إنها نزلت في أبي بكر رضي اللَّه عنه حين اعتق ستة أو سبعة من الأرقاء بينهم بلال، ولم يبتغِ منهم جزاءً ولا شكوراً.

سُورَةُ الضُّحَى

مَكِّيَّة ، وآياتها إحدى عَشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

شرح المفردات

والضحى : الواو واو القسم ، الضحى : حين تطلع الشمس فيصفو ضوؤها

سجى : سكن باستقرار ظلامه .

ما ودعك : ما تركك .

قلى : أبغض وكره .

وللآخرة خير لك من الأُولى : أي ما أعده الله لك من النعيم في الدار الآخرة خير لك من هذه الحياة الدنيا .

ووجدك ضالاً : أي غير مهتد لما سيق إليك من النبوة .

عائلاً : فقيراً .

فأما اليتيم فلا تقهر : لا تغلب اليتيم على ماله وحقه ولا تستذله .

السائل : هو المستجدي الطالب للمال لفقره .

فلا تنهر : لا تزجره ولا تظلمه.

سُورَةُ الضُّحى

ايضـــاح و دروس

سبب نزول هذه السـورة هو إبـطاء الوحي الإلّهي وانقـطاعه مـدة من الزمن[١] عن النبي ﷺ حتى شعر النبي بالحزن، وقال أعداؤه: قد قلاه ربه وودعه. أي أبغضه وتركه. فـأنزل اللّه هـذه السورة تـواسي النبي وترد على افتراء أعدائه.

تستهـل هذه السـورة بـالقسم بـالضحى والليـل إذا سكن ﴿**والضُّحَى واللَّيْلِ إذَا سَجَى**﴾ واللّه سبحانه إذا أقسم ببعض مخلوقاته فإن ذلـك إشارة إلى أنها من عظيم آياته، وهنا يشبه اللّه نزول الوحي عليه وانقطاعه بمنزلـة الضحى إذا أضاء والليل إذا أظلم وسكن ودام. فالضحى والليل يتعاقبان دون أن يختل نظام الكون، وهكذا الوحي الإلّهي، فإشـراق الوحي الإلّهي على قلب النبي أول مرة هو بمنـزلة الضحى الـذي يبتدىء فيـه الناس بـالحركـة والنشاط في العمل، وما عرض بعد ذلك من انقطاع الوحي هو بمنزلة الليل إذا سكن، ثم يأتي بعده الضحى المتألق، أي استئناف نزول القرآن كسابق عهده.

وبعـد هـذا الإيحـاء المستمـد من الكـون يجيء الخـطاب من اللّه للنبي ﷺ

﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. ولـلآخرةُ خَيْـرٌ لَكَ مِنَ الأُولى. وَلَسَـوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**﴾.

---

(١) روي أن مدة انقطاع الوحي عن النبي ﷺ كانت خمسة وعشرين يوماً.

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿ما ودَّعك رَبُّـك وَمَا قَلى﴾ هنـا جواب القسم، أي ما تركك ربك ترك مودع ولا أبغضك منذ أحبك ﴿وللآخرة خَيْرٌ لَـكَ مِنَ الأولى﴾ أي ولـدار الآخرة التي أعـدها اللَّه للمتقين يـوم القيامـة خيـر لـك يا محمد من هذه الحياة الدنيا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّك فترضى﴾ ويشمل ذلك ما أعطاه اللَّه من كمال النفس وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره وانتشار دعوة الإِسلام والشفاعة لأمته يوم القيامة، ولما ادخر له من الثواب ما لا يعلمه إلا اللَّه.

ثم يعدّد اللَّه نعمه على نبيه ﷺ بقوله:

﴿أَلَمْ يَجِـدْكَ يَتيماً فـآوى﴾ فالنبي ﷺ كـان يتيم الأبـوين مـات أبـوه وهو جنين، وماتت أُمُّهُ وهو ابن ست سنين فجعل اللَّه من يحنو عليـه فكفله جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله عمه أبو طالب.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ فقد كان النبي ﷺ ضالاً غافلاً عما يراد به من أمر النبوة، لا تقنعه معتقدات قومه فهداه اللَّه إلى منهج الحق بواسطة الوحي الإِلَٰهي.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ أي ووجـدك فقيراً فـأغناك، فـالنبي ﷺ كان فقيراً لم يترك له والده من الميراث إلاّ ناقة وجارية فأغناه بما ربحه في التجارة وبما وهبته إياه زوجته خديجة من مالها.

وبرعايته تعالى للنبي وهو يتيم أمر اللَّه سبحانه نبيه والمسلمين من بعده إلى رعاية حق كل يتيم، والنهي عن قهره وإذلاله ﴿فَأَمَّا اليتيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾.

كما أمر اللَّه التلطف مع السائل المحتاج ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر﴾ أي فلا تزجره وتغلظ له القول وقد يـراد بالسـائل من يسـأل عن أحكام الـدين، أو مطلق سائل.

وأخيراً يخاطب اللَّه نبيه بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبّك فَحَدِّثْ﴾ فالنعمة هنا مراد بها ما تقدم ذكره من نعمة الإيـواء والهداية والإغناء. والتحدث بالنعمة: كناية عن بـذل المال للفقراء، وإعانة المحتاجين، وليس المراد بذلك مجرد ذكر الثروة فهذا من التفاخر الذي نهى اللَّه عنـه. وقيل: النعمـة هي القرآن والتحدث به أن يقرأه ويبين حقائقه.

هـذه السورة كمـا تخاطب النبي ﷺ وتـواسيه، هي من جهـةٍ أخـرى تخاطب كل مؤمن. فالمؤمن الذي أحكم صلته بربه، وأخلص له عبادته إذا أصابته مصائب الدهر فلا يظن أن ربه أبغضه وتركه بل إن هذه المصائب هي اختبار لصدق إيمانه، وهي مدخل لرضوان اللَّه عليه إذا صبر وتقبّلها برضىً محتسباً وجه ربه. وليعلم المؤمن أن الآخرة، وما فيها من نعيم مقيم دائم، خير من متاع الدنيا الزائل، ولسـوف يعطي اللَّه المؤمن الصـابر من خيـري الدنيا والآخرة ما ترضى به نفسه وتقرّ به عينه.

سُورَةُ الانْشِرَاح

مَكية ، وآياتها ثمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ
ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ
ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

شرح المفردات

ألم نشرح لك صدرك : ألم نوسع صدرك بنورنا وهدانا .

ووضعنا : حططنا وأسقطنا .

وِزْرَك : الوزر هو الحمل الثقيل مادياً أو معنوياً .

أنقض ظهرك : أثقل ظهرك فأوهنه .

ورفعنا لك ذكرك : نوهنا باسمك (قرن الله اسم النبي ﷺ باسمه في التشهد والأذان) .

فإن مع العسر يسراً : العسر أشد المشقة والمكابدة ، واليسر ضد العسر ، ويأتي اليسر بمعنى الغنى .

فإذا فرغت فانصب : أي إذا فرغت من أمر دنياك فاجهد في عبادة ربك .

سُورَةُ الإنشِرَاح

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تتحدث عن مكانة النبي ﷺ عند ربه وإعلاء ذكـره، كما تبشره وتبشر المؤمنين بأن مع العسر يسراً كثيراً فلا يجدر بالإنسـان أن ييأس من رحمة الله.

يستهـل الله هـذه السـورة بخـطابـه للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ[١] نَشْـرَحْ لَـكَ صَدْرَكَ﴾ أي قد وسعنا لك صدرك يا محمد للهدى، والإيمان بالله، ومعرفة الحق، حتى احتمل هموم النبوة وأعباءها. هذه الآية تُشعر بأن النبي ﷺ كان في ضائقة نفسية قد تكون عبء الدعوة الإسلامية، وقد تكـون في إعراض قومه عن الإسلام، وقد يكون ضلال الحيرة الذي كـان يشعر بـه قبل إنـزال الوحي عليه وقد أشار القرآن إلى ذلك: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ والوِزر: الحمل الثقيل ويأتي بمعنى الذنب. فالله حطّ وأسقط عن رسوله ذلك الحمل الثقيل الذي أثقل ظهره وهو عبء الدعوة الإسلامية وقد خفف الله عن نبيـه ذلك العبء بـاستمالـة قلوب الناس إليـه، وتوفيقـه إلى السيطرة على قلوبهم.

ثم يظهر الله فضله على نبيه ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ الرفع هـو الإعلاء وهذا يكون حسياً، كما يكون معنوياً كارتفاع الدرجة والمنزلة وهو المـراد به هنا، وحسب محمد ﷺ من رفعة الذكر أن اصطفـاه الله رسولاً وقـرن ذكره بذكر الله في الأذان والإقامة والتشهد وعدة مواضع في القرآن.

هـذه الآيات السـابقة مـع أنها خـطاب للنبي فهي في الـوقت نفسـه

---

(١) ألم: الاستفهام هنا تقـريري، والاستفهـام في الأصل طلب معـرفة أمـر مجهول، والله تعالى حين يسأَل في القرآن لا يطلب الجواب فهو أعلم به ولكنه يسأل ليمنّ على عبده، أو يسأل وهو يريد الأخبار.

خطاب للمؤمنين تذكّرهم بنعمة اللَّه عليهم وهي نعمة الإسلام الـذي يشرح صدورهم، ويزودهم بنور إلّهي يُذهب عنهم ضـلال الحيرة، ويخفف عنهم ما يشعرون به من ضيق نفسي يولده فراغ القلب من الإيمان والهدى.

وبعد ذلك تنتقل السورة إلى البشرى لكل من يكابد مشقة من مشقات الحياة أو يعاني همّاً من همومها، بأن العسر يعقبه اليسر وأن كل ضائقة إلى انفـراج، وما أحـلاها من بشـرى تبعث على الطمـأنينـة وتخفف العنـاء عن النفوس المتعبة، وهذا ما صرح به القرآن: ﴿**فَإِنَّ مَـعَ العُسرِ يُسْـراً. إنّ مَعَ العُسْرِ يُسراً**﴾ فالقرآن يؤكد اليسر بعد العسر بـ «إن» ثم يقوي التأكيد بتكرار الجملة مرتين نفياً للشك.

وهناك وجه آخر للتأكيـد: فإن العسـر معرّف بـالألف واللام، واليسـر نكرة، ومن عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرّفاً ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه فهو فرد مغاير لما أريد أولاً، أي أن القرآن على هذا المفهوم ذكر العسر مرّة، واليسر مرتين، ولهذا روي عن النبي ﷺ قوله: «لن يغلب عسر يُسرين».

وبعد أن عدّد اللَّه نعمه السابقة على نبيه أرشده إلى الشكر والاجتهاد في العبادة: ﴿**فَإِذَا فَـرَغْتَ فَانْصَبْ**﴾ أي إذا فـرغت من أمر الـدنيا فقم إلى الصلاة. أو إذا فرغت من تبليغ الناس ما أُنزِلَ إليك من الوحي فاتعب بالعبادة شكـراً لما أولاك اللَّه من النعم. ﴿**وَإلى رَبِّـكَ فَـارْغَب**﴾ أي اجعـل نيتـك ورغبتك إلى اللَّه.

وكذلك المؤمن عليـه أن يُشغل فـراغه بـالعبادة فهي تلهمـه الرشـد، وتزوده بالحكمة، وتثبت قلبه أمام المحن والمصائب، كما أن على المؤمن أن يجعل نيته ورغبته إرضاء ربه، هذا الهدف يُضفي عليه طمأنينة وسعادة في النفس، والفوز برضاء اللَّه ونعيمه في الآخرة.

سورة التين
مكية، وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

شرح المفردات

والتين والزيتون : الواو للقسم ، فالله يقسم بهاتين الشجرتين لما فيهما من منافع شتى .

طور سينين : جبل موسى عليه السلام وهو بشبه جزيرة سيناء .

البلد الأمين : مكة المكرمة .

أحسن تقويم : أحسن ما يكون صورة ومعنى .

أسفل سافلين : قيل المراد بذلك سلوكه المشين الذي يجعله أحط من الحيوان ، وقيل المراد بذلك عندما يخرف ويرد إلى أرذل العمر .

غير ممنون : غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم .

أحكم الحاكمين : أعدل قضاء ، وقيل : أكثر حكمة .

سُورَةُ التّين

ايضـــاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بقوله:

﴿والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ[١]. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ الواو واو القسم. فاللّه أقسم بالتين والزيتون لما فيهما من منافع شتى.

وأقسم اللّه سبحانه بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم عليه موسى عليه السلام وآتاه التوراة.

وأقسم اللّه سبحانه بهذا البلد الأمين وهو مكة المكرمة وفيها أوحى اللّه إلى نبيه محمد ﷺ بهذا القرآن.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فاللّه خلق الإنسان في أحسن تعديل لشكله وتسوية لأعضائه فيشمل ماله من انتصاب في القامة وحسن الصورة وجودة العقل وحسن البيان والتدبير وغير ذلك من الصفات ﴿ثم رددناه أَسْفَلَ سَافلين﴾ أي ثم رددناه بعد ذلك التقويم الحسن إلى أسفل من سفل في الخِلقة والشكل عند الهرم، حيث يتقوس ظهره بعد اعتداله، ويتجعّد وجهه بعد إشراقه، ويبيض شعره بعد اسوداده، ويضعف سمعه وبصره وتهن قواه، ويصير كالصبي في نقصان العقل، وربما أصابه الخرف.

وهذا ما ذكره القرآن: ﴿ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر﴾.

---

(١) قيل المراد بالقسم بالتين والزيتون القسم ببيت المقدس حيث تكثر هاتان الشجرتان والتي فيها أوحي اللّه لنبيه عيسى عليه السلام وآتاه الإنجيل.

وقد يكون المعنى: ثم جعلنا الكافر بعد هذا التقويم الحسن من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل خلقاً بعد أن كان على أحسن صورة.

أو بمعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار التي هي درجات بعضها أسفل من بعض.

ثم يبين القرآن صفات الحائزين على رضاء اللَّه:

﴿إلّا الذين آمنوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ فَلَهُم أجْرٌ غير ممنُون﴾.

فاللَّه استثنى الذين صدقوا بوجود اللَّه ووحدانيته وأطاعوه فيما أمرهم به من الأعمال الصالحة وانتهوا عما نهاهم عنه من عذاب النار، فهؤلاء لهم ﴿أجْرٌ غَير مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب من اللَّه غير مقطوع ولا منقوص أو غير ممنون به عليهم.

وقد يراد بهذا الاستثناء أن الإنسان إذا كان يعمل بطاعة اللَّه في شبابه ثم كبر حتى ذهب عقله وأصابه الخرف كُتِبَ له مثل عمله الصالح الذي يعمله في شبابه، ولم يؤاخذ بشيء مما عمل في كبره وذهاب عقله.

ويختم اللَّه هذه السورة بقوله:

﴿فَمَا يكذِّبُكَ بعد بالدين. أَلَيْسَ اللَّهُ بأَحكم الحاكمين﴾.

أي فمن يكذبك يا محمد بيوم الجزاء في الآخرة بعد هذه الحجج التي جاءتك من اللَّه؟ فإن خلق الإنسان في أجمل شكل وأبدع صورة من أوضح الدلائل على قدرة اللَّه على البعث والجزاء ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بأَحْكَمِ الحاكمين﴾ أي أليس اللَّه بأحكم من حكم في أحكامه وفصّل قضاءه بين عباده. وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

سُورَةُ العَلَق

مَكِّيّة ، وآياتها تِسع عَشْرَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ
وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥
كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيْتَ إِن
كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣
أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥

شرح المفردات

إقرأ باسم ربك : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أي قل باسم الله ثم اقرأ .

علق : دم جامد .

الأكرم : الذي زاد كرمه وفضله على كل كرم .

كلا : بمعنى حقاً .

ليطغى : ليجازو الحد في العصيان والكفر .

ان رآه استغنى : حين رأى نفسه ذا غنى وثراء وقوة .

التقوى : حفظ النفس عمّا يؤثم وذلك بترك المحظور .

تولّى : ذهب دون أن يصغي للدعوة ويهتم بها .

لَنَسْفَعاً : نلطمه ونجذبه بشدة .

الناصية : شعر مقدمة الرأس ، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان .

نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ
﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩

شرح المفردات

كاذبة خاطئة : كاذبة في قولها خاطئة في فعلها .

فليدع نَادِيه : فليدع أهل مجلسه وعشيرته ليستنصر بهم .

الزبانية : الملائكة الموكلون بعذاب الخاطئين في جهنم .

سُورَةُ العَلَق

ايضاح و دروس

في هذه السورة دعوة إلى القراءة والتعلم وبيان فضل اللّٰه على الإنسان مع بيان أن الثراء والقوة قد يدفعان الناس إلى الطغيان ومجاوزة حدود اللّٰه .

وهذه السورة أول ما نزل من القرآن، نزل بها جبريل على رسول اللّٰه محمد ﷺ وهو معتكف في غار حراء فعلمه خمس آيات منها، ثم علّمه بقيتها بعد ذلك، وهذه الآيات هي قوله تعالى :

﴿إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

ومن المدهش أن تكون كلمة (إقرأ) أول ما استهل به الوحي الإلٓهي إلى محمد النبي الأمي المبعوث في قوم أميين يسيطر عليهم الجهل والوثنية، بعيدين عن مظاهر الحضارة المادية والفكرية، فلفظ (إقرأ) دعوة إلى القراءة والعلم، وهذا يوضح لنا أن الإسلام اتصف منذ اللحظة الأولى بالطابع العلمي، وجاء ليمحو الجهل وينشر القراءة والمعرفة .

وهذه القراءة أمر اللَّه أن تكون ﴿باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ﴾ وهذا نص على أنّ القراءة لا تكون باسم وطن أو زعيم أو أي دافع آخر بل القراءة باسم الرب الخالق لجميع الخلق، وإذا تجردت القراءة والمعرفة للَّه تعالى كانت خيراً في كل الحالات.

ثم يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فالعلق هو الطور الثاني من تكوين الجنين، وسيأتي الكلام عنه. فالقرآن يوجّه نظر الإنسان إلى مصدر خلقه، ثم كيف تدرج في الخلق والتكوين إلى أن أصبح بشراً كاملاً سويّاً، فهذا التنقل يشهد بهذه القدرة الإلَهية المبدعة، وانتفاء ادعاءات الذين يقولون قيام الكون على المصادفة والمادة العمياء.

ويتابع اللَّه قوله: ﴿إقرأ وَرَبُّكَ الأكرم﴾ ففي وصف اللَّه بالأكرم في معرض القراءة، دليل على أن المعرفة أسمى عطايا اللَّه.

وفي قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿الذي علَّم بِالقلم. عَلَّم الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ إشادة بالقلم وبيان لأهميته، فالقلم كان وما يزال الأداة الأولى من أدوات التعلم ونشر المعرفة، ولم تكن هذه الحقيقة بادية للعيان منذ أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ كما هي بادية في هذا العصر حيث أُنشئت المعاهد والجامعات وانتشرت العلوم والمعارف وكان القلم وسيلتها. ولبيان قيمة القلم وأثره في نشر العلم والحضارة أشار إليه سبحانه في أول نزول القرآن، ومن الجدير بالذكر أن محمداً كان أميّاً ولم يكن كاتباً بالقلم، وفي هذا دليل على أن القرآن وحي إلَهي.

ثم يصف اللَّه سبحانه بعض خصائص الطبيعة البشرية:

﴿كَلَّا إِنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رآهُ اسْتَغْنَى﴾.

كلا: هنا بمعنى حقاً، أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز الحد في الكفر والعصيان إذا رأى نفسه غنياً بالمال والثروة. أو بمعنى: ردع وزجر لمن يكفر ويطغى عند الغنى.

فالمال، غالباً، مدعاة لطغيان الأفراد والجماعات بعضهم على بعض، وهذه حقيقة يعلنها القرآن ويصدقها الواقع في كافة العصور، فالمال يفسد نفوسَ كثيرٍ من الناس إذ أنه يفتح باب الشهوات على مصراعيه، والشهوات تؤدي إلى طغيان الإنسان وفساده.

وإذ يوضح القرآن هذه الحقيقة عن طبيعة الإنسان يبيّن أن المرجع للَّه وحده **﴿إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾** فلا مفر ولا مهرب للإنسان، وفي هذا تحذير له وتهديد لعله يقلع عن طغيانه.

ومما يلفت النظر هو الربط بين العلم والغنى المؤدي إلى الطغيان، وفي ذلك نبوءة للقرآن تحققت في هذا العصر، فالعلم الذي هو سبب التكريم وسبب المعرفة قد ينقلب إلى كفر وطغيان، وهذا ما نشاهده اليوم في كثير من الأفراد وبعض الدول في عصرنا الحاضر، عصر العلم، إلّا من فتح اللَّه بصائرهم على حقيقتهم الإنسانية.

ثم ينتقل القرآن إلى إنذار الذين يصرفون الناس عن عبادة اللَّه معطياً مثالاً بذلك بأبي جهل الذي قال اللَّه فيه **﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يَنْهَى. عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾** فالناهي هو «أبو جهل» والعبد المصلي هو محمد ﷺ فهاتان الآيتان وما بعدهما نزلت في أبي جهل حين قال: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنَّ عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً» أي أمام أعين الناس.

ويتابع القرآن إنذاره لهـذا الذي ينهى عن الصـلاة: **﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾** أي أخبرني عن حال هذا الطاغي الناهي عن الصلاة لو كان على الهدى، أو أمر بالتقوى أما كان ذلك خيراً له وأفضل من الكفر باللَّه **﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّه يَرَى﴾** وأخبرني عن حاله إن كذّب بالإسلام وأعرض عن العمل الصالح ألم يعلم بعقله بأن اللَّه يرى منه هذه الأعمال فيجازيه عليها.

ثم يأتي هذا التهديد الرباني لهذا الطاغي: **﴿كَلَّا، لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾** سفع: جذب وأخذ، والناصية: شعر مقدم الرأس، وقد يعبـر بها عن جملة الإنسان أو الرأس. والمعنى: زجر لأفعال أبي جهل لئن لم يكف عن إيذاء محمد فسيأمر اللَّه ملائكته بالأخذ بناصيته وسحبه بها إلى النار في الآخرة، وفي ذلك ما فيه من الإذلال الشديد له **﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾** هذه الناصية التي كذب صاحبها بنبوة محمد ﷺ وانغمس بالكفر والمعاصي.

ومشهد آخر لطغيان أبي جهل يتمثل فيمـا كان رسـول اللَّه ﷺ يصلي عند المقام (أي مقام إبراهيم) فمر به أبو جهل بن هشام فقال يا محمد: ألم أنهك عن هذا؟ وتوعّده، فأغلظ له رسول اللَّه ﷺ وانتهره، فقال أبو جهل: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما واللَّه إني لأكثر هذا الوادي نادياً فأنزل اللَّه: **﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَه. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾** والنادي هو المكان الذي يجلس فيه القوم من الأهل والعشيرة. أي فليدعُ أبو جهل أهل نـادية من عشيـرته وقـومه لينتصـر بهم، سيدعو اللَّه ملائكة العذاب لتلقيه في جهنم يوم القيامة.

ثم يخاطب اللَّه رسوله محمداً ﷺ: **﴿كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾** كلا: ليس الأمر كما يقول أبو جهل إذ ينهى محمداً عن عبادة ربه والصلاة له **﴿لا تطعه﴾** فيما أمرك به من ترك الصلاة لربك **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** واسجد

لربك واقترب منه بالتحبب إليه بطاعته فإن أبا جهل لن يقدر على ضرّك.

فالسجود للّه أعلى مراتب العبودية له، وفي السجود تعلو منزلة الإنسان عند اللّه ويكون من المقربين له، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[١].

وفي القرآن كثير من الآيات التي تحثُّ على السجود للّه، وإن من واجبات المؤمن الذي خالط الإيمان شعاب قلبه، واستشعر عظمة ربه أن ينفعل إذا أُمِرَ بالسجود للّه فيخر على الفور ساجداً للّه إقراراً بالعبودية له، هذه العبودية التي قوامها الحبّ للّه والشكر له، ولهذا شُرع في الإسلام لمن قرأ آية في القرآن فيها سجود أو سمعها أن يكبّر ويسجد سجدة ثم يكبّر للرفع من السجود، وهذا ما يسمى سجود التلاوة.

(١) رواه مسلم وأبو داود.

التفسيرُ العِلمي

يقول تعالى في مصدر خلق الإنسان: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

العلق جمع علقة، وقد ذهب المفسرون إلى أن العلق هو الدم الجامد، والحقائق الثابتة في علم الأجنة تسمح بتفسير العلق بما يعني: أنه نشب فيه وتعلق واستمسك، وهو ما يحصل في الفترة الثانية من حياة الجنين حيث تلتصق الخلايا بجدار الرحم، وهذا هو المراد بالعلق أي التعلق.

ولقد ذكر القرآن الفترة الأولى والثانية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ فالنطفة هي منيّ الرجل الذي يحتوي على الخلايا الحية أو الحييات المنوية، وأحد هذه الحييات الذي يصل إلى بويضة الأنثى يَتَّحِد ويمتزج بها، وهذه أول عملية تكوين الجنين، ثم يعقب ذلك تكاثر الخلايا التي تلتصق وتتعلق بجدار الرحم وهذه هي الفترة الثانية من حياة الجنين التي سماها القرآن علقة.

وهناك تفسير حديث مأخوذ من اللغة، فمن معاني العلق في اللغة الدودة التي تعيش في الماء، وقد أثبت العلم أن منيّ الإنسان هو سائل يحوي حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة وترى بالمجهر، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، فيقول سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي أن الإنسان خُلق من هذه الحييات التي تشبه العلق شكلاً، وقد أطلق عليها اسم العلق ليقرّبها إلى عقول البشر بهذا التشبيه.

سُورَةُ القَدْر

مكية ، وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

شرح المفردات

إنّا أنزلناه في ليلة القدر : أي ابتدأنا إنزال القرآن في ليلة عظيمة القدر والشرف .
ليلة القدر خير من ألف شهر : أي العبادة فيها خير من ألف شهر في سواها ، .
الروح : هو الملك جبريل الذي كان يبلغ الوحي الإلهي للنبي محمد ﷺ .
من كل أمر : أي من أجل كل أمر قدّره الله وأراده .
سلام هي مطلع الفجر : أي ليلة القدر هي أمن وسلام وخير كلها لا شر فيها . وقيل : تسلّم الملائكة على المطيعين العابدين حتى طلوع الفجر .

ايضـاح و دروس

جرت العادة عند كثير من الأمم أن تحتفل بذكرى عظمائها أو فتوحاتها أو دساتيرها، أو أية مناسبة أخرى فيها فخر لها، فتجعل من هذه الاحتفالات مناسبات للفجور وشرب الخمور وغير ذلك.

والإسلام يريد أن يقدّم لأتباعه أنموذجاً خاصاً بالاحتفال بالدستور الإلهي الذي يسيرون بموجبه ـ ألا وهو القرآن ـ هذا الاحتفال الجدير أن يكون بالعبادة التي تهذب القلب وتُرهف الوجدان، وتصلهم بالله العلي

القدير وذلك بقيام ليلة القدر بعبادة اللّه.

فاللّه سبحانه ـ بهذه السورة ـ يذكّر المسلمين بالنعمة التي أفاضها عليهم بنزول القرآن الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور فقال: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾** أي في ليلة القدر ابتدأ نزول الوحي الإلّهي على النبي ﷺ، وهي ليلة من ليالي شهر رمضان، ويؤيد هذا ما جاء في القرآن: **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة: ١٨٥**.

وقيل المراد بالإنزال أنه سبحانه أنزل القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر من رمضان إلى السماء الدنيا ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع والحوادث في ثلاث وعشرين سنة على النبي ﷺ بواسطة الملك جبريل عليه السلام، وكان النبي ﷺ يبلِّغ ما أنزل عليه من الوحي إلى أمته.

وسميت بليلة القدر لعظمها وشرفها، فالقدر بمعنى العظمة والشرف. ثم يضيف اللّه قوله: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها، أي أن علو قدرها خارج عن دراية الخلق لا يدريها إلا اللّه سبحانه.

ثم يبين اللّه مدى ثواب العمل الصالح في ليلة القدر **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾** أي العمل الصالح في ليلة القدر، وقيام الليل بالعبادة فيها خير من العمل والعبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختيار الليل هنا لأنه الوقت الذي تكون فيه العبادة للّه وحده، فالذي يرائي بعبادة اللّه لا يمكن أن يقوم الليل، ولكن الذي يقوم الليل هو الخاشع للّه سبحانه المؤمن به.

ثم يبين اللّه ما تمتاز به ليلة القدر من المزايا العظيمة:

﴿تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

أي تنزل الملائكة وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي بأمر ربهم ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أجل كل أمر قدّره اللَّه وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة، ففيها تقضي الأمور، وتقدّر الآجال والأرزاق ﴿سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي ليلة القدر سلام كلها لا شرّ فيها، ويدوم السلام فيها إلى طلوع الفجر. وقيل: إن الملائكة في هذه الليلة تسلم على المطيعين العابدين للَّه حتى طلوع الفجر.

فليلة القدر كلها خير وبركة فلا يليق بالمؤمن أن يفوته خيرها وبركتها ولهذا روي عن النبي ﷺ قوله: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

وقيامها هو الاجتهاد في العبادة من صلاة ودعاء واستغفار وقراءة للقرآن.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه كان يجاور[٢] في العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان[٣].

كما رُوي عن النبي ﷺ قوله: (تحرّوا لَيْلَة القَدْرِ في الوتر من العَشْرِ الأواخر مِنْ رَمضان)[٤] أي ليلة ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٢٧ ـ ٢٩ ـ وعدم تعيين ليلة القدر بيوم على التحديد من العشر الأواخر من رمضان فيه حثٌّ للمؤمن وترغيب له على مواصلة عبادة اللَّه في هذه الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، لينال الفضل والقربي من اللَّه، مع ما في ذلك من سكينة للنفس، وتصفية للروح.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) يجاور: يعتكف، والاعتكاف هو المكوث في المسجد للعبادة.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.

سُورَةُ البَيِّنَة

مدنية ، وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ
قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ

شرح المفردات

أهل الكتاب : هم اليهود والنصارى .

والمشركين : هم وثنيو العرب .

منفكّين : منتهين أو زائلين عن كفرهم .

البينة : الحجة القاطعة المبينة للحق ، والبيّنة هنا رسالة النبي محمد ﷺ

صحفاً مطهرة : هي صحف القرآن المبرأة من الضلال والبدع .

كتب قيّمة : كتابات قيمة ، والقيّمة هي المستقيمة المشتملة على الحق .

مخلصين له الدين : موحدين لا يعبدون سواه .

حنفاء : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام .

دين القيّمة : دين الأمة المستقيمة القائمة على الحق .

ٱلۡبَرِيَّةِ ۞ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۞ ٧
جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۞ ٨

شرح المفردات

شرّ البريّة : شر الخلق .

آمنوا : صدّقوا بكل ما جاء به النبي ﷺ عن ربه .

جنات : جمع جنة وهي كل بستان يستر بأشجاره الأرض .

عدن : استقرار واطمئنان .

سُورَةُ البَيِّنة

ايضاح و دروس

كان العالم في عهد بعثة محمد ﷺ في حاجة ماسة إلى رسالة اللّٰه، فقد عمّ الفساد أرجاء الأرض، وكان الكفر والباطل والبدع قد تطرقت إلى عقائد أتباع الديانات كلها، سواء اليهود أو النصارى، فضلاً عن المشركين في جزيرة العرب الذين عبدوا الأوثان بجانب عبادتهم للّٰه.

وكان أهل الكتاب من اليهود يذكرون للمشركين من العرب إن اللّٰه سيبعث نبياً من العرب بمكة يقيم الحق وينشر العدل مسترشدين ببعض المبشرات بنبي جديد أشارت إليه كتبهم، وكانوا يتوعدون العرب بأنه متى جاء نصروه واستنصروا به عليهم، وكان المشركون يترقبونه أيضاً ويقولون لخصومهم: إذا جاء فنحن أولى به منكم.

فلما بعث اللّٰه محمداً قام المشركون في وجهه وعاندوه، وقام أهل الكتاب أيضاً ينازعونه ويخاصمونه، مع أن أمارات نبوته ووصفه موجودة في

كتبهم(١)، ولكن الكفر قد أعمى قلوبهم وصرفهم عن اتباعه والإيمان به.

ففي بيان هذا الواقع، ورحمة من اللَّه الذي أراد إصلاح ما طرأ على الأرض من فساد نزلت هذه السورة الكريمة التي تُستهل بقوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَة. رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾.

والمعنى: لم يكن أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ والمشركون منتهين عما هم عليه من الكفر ولا متبعين الحق إلاّ بواسطة رسول اللَّه محمد ﷺ الذي هو في ذاته (بيِّنة) أي حجة قاطعة، ورسالته هي الحق الواضح، فهو يتلو صحفاً من القرآن مطهرة من الشرك والكفر **﴿فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾** أي مكتوب في هذه الصحف أحكام قيمة تبين الحق من الباطل.

ثم بَيَّنَ القرآن أن اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب لم يختلفوا إلاّ بعد مجيء أنبيائهم الذين جاءوا بالدلائل الواضحة على وحدة الدين:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَة﴾.

ولقد أوضح القرآن سبب هذا الخلاف في موضع آخر **﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إلاّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم﴾** الشورى: ١٤. فالبغي من رؤسائهم هو سبب الخلاف، والبغي هو التكبر والخروج عن الحق إلى الباطل كل ذلك بسبب الرئاسة ونيل المغانم والمكاسب.

فاليهود انقسموا شيعاً وأحزاباً مع أن رسولهم هو موسى وكتابهم هو التوراة، والنصارى اختلفوا حول طبيعة المسيح وألّهوه، كما دارت

---

(١) ورد في كتاب (إظهار الحق) لمؤلفه رحمة اللَّه الهندي كثير من المبشرات التي وردت في التوراة والإنجيل والتي تنطبق على صفات محمد عليه السلام.

خلافات بين اليهود والنصارى أدت إلى قتال مرير.

ثم بيّن اللّـه أن الدّين الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وأمر اليهود والنصارى به هو واحد لا مجال للاختلاف فيه:

﴿وَمَا أُمروا إلاّ لِيَعْبُدوا اللَّه مخلصِينَ لَهُ الدين حُنفاء وَيُقيموا الصَّلاَةَ وَيُؤتُوا الزكَاةَ[1] وَذَلِكَ دِينُ القَيّمة﴾ .

أي وما أُمر هؤلاء اليهـود والنصارى إلاّ أن يعبـدوا اللَّه مخلصين لـه الدين، فلا يخالط عبادتهم له شِركٌ ﴿حنفاء﴾ أي مائلين عن العقائد الباطلة إلى توحيد اللَّه، وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، ويعطوا الزكاة لمستحقيهـا عن طيب نفس ﴿وَذَلِـكَ دِينُ القَيِّمــةِ﴾ وذلـك كله دين الأمــة المستقيمة العادلة، وهو الدين الذي بعث اللَّه به رسوله محمداً ﷺ.

بعد تقرير هذه الحقيقـة يصنف القرآن النـاس إلى قسمين أمام هـدى اللَّه:

﴿إنَّ الَّذين كفروا مِنْ أَهْلِ الكِتَاب وَالمشْرِكينَ في نَارِ جَهَنّم خَالِدِينَ فيها أولئكَ هم شَرُّ البَريّة. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّة﴾ .

فـالذين كفـروا باللَّه وأشـركـوا بـه وجحـدوا نبـوة محمـد من اليهـود والنصارى والمشركين من العرب هم في الآخرة في نـار جهنم ماكثين فيهـا أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ليخفف من عذابهم وأولئـك هم ﴿شرُّ البريَّة﴾ أي شر الخليقة لأنهم أبوا أن يقروا بالحق وينصاعوا للهدى. وأما الذين صدقوا بوجود اللَّه ووحدانيته واتبعوا رسوله محمداً فيما جاء به من عند

---

(١) خص اللَّه الصلاة والزكاة دون سائر التكاليف لشرفهما.

اللَّه من الوحي فأطاعوه وعملوا بصالح الأعمال أولئك هم ﴿خَيْرُ البريَّة﴾ أي خير الخليقة.

والجدير بالذكر أن الإيمان يقرنه القرآن دائماً بالعمل الصالح، لأن الإيمان الحقيقي هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل. والعمل الصالح هو كل ما أمر اللَّه بفعله من عبادة وخُلُقٍ وعمل. فالذين يؤمنون حق الإيمان بخالقهم تصبح حياتهم مرآة لشرائعه.

ثم يبين القرآن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآخرة:

﴿جَزَاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

فاللَّه سبحانه يقول: ثواب هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي بساتين فيها استقرار واطمئنان تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ﴿رَضِيَ اللَّه عَنْهُم﴾ بما أطاعوه في الدنيا، هذا الرضى يملأ نفوس المؤمنين حبوراً وطمأنينة ويضفي عليهم غاية السعادة ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم اللَّه من جزيل الإنعام وجليل الإحسان بما يطيبون به نفساً ويقرّون به عيناً ﴿ذَلِك لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ إن ذلك الجزاء الحسن من اللَّه لا يناله إلّا الذين يخشون ربهم، فخشية اللَّه هي ملاك السعادة الحقيقية والفوز بالمراتب العليا في الآخرة.

والشعور بخشية اللَّه يدفع إلى كل صلاح وينهى عن كل شرّ وانحراف، وما أصيب العالم بالويلات والكوارث إلّا عندما فرغ القلب من خشية اللَّه الديّان، واستبد بالإنسان الظلم والطغيان.

سُورَةُ الزلزلة

مدنيـة ، وآياتها ثمـان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ
الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾
يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

شرح المفردات

زُلْزِلَت : اهتزّت بشدة واضطربت .

وأخرجت الأرض أثقالها : أخرجت الأرض ما في جوفها من الدفائن والكنوز والموتى .

أوحَى لها : الوحي هو الإشارة السريعة مع الخفاء ، فإن كان الموحى إليه من المخلوقات فهو إلهام وإن كان جماداً فهو تسخير .

يَصْدُرُ : يعود الناس بالبعث .

أشتاتاً : متفرقين ، فأهل الإيمان على حدة وأهل الكفر على حدة .

مثقال ذرَّة : ثقل الذرة ، أي الوزن المتناهي في الضآلة والخفة والصغر .

ليُرَوْا أعمالهم : ليبصروا جزاء أعمالهم خيراً كان أم شراً .

سورة الزلزلة

إيضـــاح و دروس

هـذه السورة تصـور أحوال يـوم القيامـة وما فيهـا من أحداث مـروعة ومجازاة الناس على أعمالهم يومئذٍ بمنتهى العدالة الإلّهية.

تستهل هذه السورة بذكر بعض أهوال القيامة:

﴿أذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها. وأَخْرَجَتِ الأَرضُ أثْقَالَها. وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبك أوْحَى لَهَا﴾.

فيوم القيامة تزلزل الأرض وهي أشد العوارض الطبيعية التي تثير الهلع والرعب في القلوب، ولا يقتصر ذلك على الزلزال ولكن الأرض تخرج أيضاً ما في جوفها من دفائن ومـوتى وكنوز ومعـادن، وهذا ممـا يصور الإنقـلاب الهائل في طبيعـة الأرض الذي يفـاجأ بـه الإنسان ويجعله يتسـاءل في هلع وخوف: ما جرى للأرض **﴿يومئذٍ تُحدّثُ أخبَارَهَا﴾**[1] أي **يومئذٍ تحدّث** ما عمل البشر على ظهرها من خير أو شر، قيل إن اللّه ينطقها فتخبر بذلك **﴿بأنَّ ربَّك أوحى لَهَا﴾** بأن ربك ـ أيها الإنسان ـ هو الذي سخرها بذلـك فسارعت إلى امتثال أمره.

ثم تأتي الصورة الثانية وقد انصرف الناس عن موقف الحساب:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.

أي يومئذٍ ينصرف الناس عن موقف الحساب أنـواعاً وأصنـافاً مـا بين

---

(١) قرأ رسول اللّه هـذه الآية فقال: «أتدرون مـا أخبارهـا قالـوا (أي الصحابـة) اللّه ورسوله أعلم قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذاوكذا فهذه أخبارها» رواه الترمذي.

شقي وسعيد ﴿لِيُرَوْا أعمالهم﴾ ليروا جزاء أعمالهم، فيرى المحسن في الدنيا المطيع للَّه عمله وما أعد اللَّه له من الكرامة، ويرى المسيء العاصي للَّه عمله وما أعد اللَّه له من الهوان والخزي في جهنم.

ثم يبيّن اللَّه للإنسان غاية البعث وعدالة الجَزَاء في الآخرة:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

أي من عمل في الدنيا وزن ذرة من خير يرى ثوابه في الآخرة، ومن عمل وزن ذرة من شرّ يرى جزاءه هنالك.

هذا هو الحساب العادل الذي يكافىء اللَّه به عباده في الآخرة فلا ظلم ولا انتقاص من عمل أحد، ولا محاباة ولا وساطات كما يحصل في الدنيا.

هذا المفهوم العادل للجزاء يُدخل العزاء إلى قلوب المؤمنين الذين يقاسون من ظلم الآخرين واضطهادهم. فالناظر في هذه الحياة يرى الخير والشر يتصارعان، وقد ينتصر الشر على الخير، والإنسان المؤمن يعز عليه أن لا ينال الخير ثوابه وأن لا يلقي الشر عقابه فهنا يخبرنا اللَّه سبحانه بأنه مهما عمل الإنسان من الأعمال ولو كان هذا العمل في نهاية الدقة من الصغر فاللَّه سبحانه سيحاسبه عليه يوم القيامة وسيلقى الجزاء العادل آنذاك.

وفي هذه السورة إيحاء للمؤمن بأن يقدم على فعل الخير ولو كان في نهاية القلة، فإن هذا القليل لن يضيع عند اللَّه، وقد حث النبي محمد ﷺ على عمل الخير كثيره وقليله، فدعا حتى إلى نزع الأذى عن الطريق فقال: (وتميط الأذى عن الطريق صدقة)(١) وبيَّن ثواب الإحسان إلى الفقير ولو بأقل القليل فقال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)(٢) يطعم بها الجائع.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه النسائي والإمام أحمد.

سُورَةُ العَادِيَات
مكية ، وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ① فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ② فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ③
فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ⑤ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ
لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ

شرح المفردات

والعاديات : الواو واو القسم ، والعاديات هي خيول المجاهدين التي تعدو نحو العدو .

ضبحاً : الضبح أصوات أنفاس الخيل عندما تعدو .

المغيرات صبحاً : التي تُغير على العدو وقت الصبح .

الموريات قدحاً : تقدح الشرر عند صك حوافرها بالحجارة عند العدو .

فأثرن : أظهرن وهيجن .

نقعاً : غباراً .

فوسطن به جمعاً : دخلن وسط جمع من الأعداء ففرّقنه وشتتنه .

كنود : كفور لنعم ربه عليه .

وإنّه على ذلك لشهيد : أي إن الإنسان يشهد على نفسه بذلك ، وقيل الضمير عائد إلى الله أي إن ربه شاهد عليه .

وإنه لحب الخير لشديد : الخير هو المال ، أي إن الإنسان مفرط في حب المال .

لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

شَـرح المفـردَات

بُعثر ما في القبور : بُعِث وأُخرِج ما في القبور من موتى .

حُصّل ما في الصدور : أظهر وأبرز ما أضمروه في صدورهم .

سُورَة العَادِيَات

ايضَـــاح و دروس

كانت الخيل مـركب الحرب[1] في عصـر النبوة ومـا بعدهـا، وأثبتت المعارك أهمية الفروسية في إحـراز النصر، فـأعظم الفتـوحات في التـاريخ كانت ترتكز على الفروسية، ولهذا اعتنت بها الشعوب قديماً أشد الاعتناء لما كان لها من أثر فعال في إحراز النصر.

ولقد أقسم اللَّه في هذه السورة بالخيل تنويهاً بشأنها، وإعلاءً من قدرها في نفـوس المؤمنين ليسارعـوا إلى اقتنائهـا، ويحرصـوا على العنايـة بهـا، والتـدرب على ركوبهـا، وليكونـوا مستعدين للجهـاد في سبيـل اللَّه، فقـال سبحانه:

﴿وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾.

---

(١) كـانت الخيل مـركب الحرب في عصـر النبوة ومـا بعدهـا فإذا تغيـر الزمـان وصار مركب الحرب سفناً حربية وطائرات ودبابات كما في هذا العصر، لذا وجب على المسلمين أن يعدوا ذلك.

﴿وَالعَادِيَاتِ﴾ أقسم اللّه بخيل الغزاة في سبيل اللّه تنبيهاً على فضلها ﴿ضَبْحاً﴾ هو صوت أنفاس الخيل عند عدْوها وجرْيها ﴿فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ أي الخيل التي تضرب الأرض بحوافرها قادحة فيها شرر النار من شدة الجري ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ هي الخيل تغير في الصبح(١) حيث لم يأخذ العدو أهبة لرد الهجوم ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ مثيرة بذلك الغبار من شدة العَدْو ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ أي صارت وَسَط جموع الأعداء ففاجأتهم على حين غرة ونشرت فيهم الرعب والذعر وأدت بهم إلى الهزيمة.

وجواب القسم هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّه لَكَنُودٌ﴾ أي لكفور جحود لنعم ربه، ويتمثل ذلك في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً فتقوم عليه مقام الشاهد كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أو بمعنى أن اللّه شاهد على كفره ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والخير هنا هو المال، والشديد: هو البخيل الممسك، فالإنسان مفرط في حب المال بخيل به إلى درجة تنسيه كل معاني الخير والرحمة.

وإن صفات الخيل الواردة في مطلع السورة تنعكس على صورتين في آخرها ليتم التوازن والتناغم بين المطلع والخاتمة. هاتان الصورتان هما:

صورة المحب للمال، الكفور بنعمة ربه حيث تتجمع فيه خصال أبرزها جموح في القلب، وعنف في الطبع، وشراسة في الخلق، وغرور في النفس، واغترار بالقوة، وهذه كلها أوصاف الخيل حين عدوها.

---

(١) يقول الطبري: أقسم اللّه بالمغيرات صبحاً ولم يخصص من ذلك مغيرة دون مغيرة فكل مغيرة صبحاً داخلة فيما أقسم به.

وصورة مفاجأة الخيل للأعداء وإيقاع الهزيمة بهم، فكذلك البعث يوم القيامة يفاجىء الإنسان الكافر الجاحد لنعم ربه المفرط في حب المال. فيقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ تهديد ووعيد له، بمعنى أيفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم مآله إذا أُخرج من في القبور من موتى أحياء للحساب ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي جُمعَ ما في القلوب من خير أو شر مما يظن الإنسان أن ما يضمره ويخفيه سرٌّ لا يعلمه أحد، وأظهر كل ذلك مكتوباً في صحائف الأعمال، أو بمعنى مُيِّز خيره من شره ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ إن ربهم عالم بجميع ما كانوا يفعلون في دنياهم وما أسرّوه في صدورهم لا تخفى عليه خافية فيجازي كل إنسان على عمله.

سُورَةُ القَارِعَة
مكية ، وآياتها احدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ
يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ
كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ
﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

شرح المفردات

القارعة : من أسماء القيامة سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بالفزع .

وما أدراك ما القارعة : وأي شيء يعرّفك بها ، ما أعظمها ، وأهولها .

الفراش : الحشرة التي تترامى على ضوء السراج ليلاً .

المبثوث : المنتشر .

العهن المنفوش : الصوف المندوف ذو الألوان المختلفة .

ثَقُلت موازينه : زادت حسناته بالأعمال الصالحة .

عيشة راضية : حياة طيبة في الجنة ورضا من الله تعالى .

خَفَّت موازينه : قلَّت حسناته فرجحت السيئات على الحسنات .

أُمُّهُ هَاوية : مأواه النار ، والهاوية من أسماء النار لأن العصاة يهوون فيها .

سُورَةُ القارعَة

ايضــاح و دروس

هؤلاء النــاس الممعنـون في ضـــلالهم، المنغمسـون في آثـــامهم، والمعرضون عن ربهم، الذين جعلوا الدنيا همهم الأوحد، فأطلقوا لشهواتهم العنان، هؤلاء وغيرهـم يخاطبهم اللَّه بأن هناك حياة أخرى يثاب الناس فيها بمـا عملوا في الحياة الـدنيا، وإن مصيـر الناس في الآخـرة إمـا إلى شقـاء أو نعيم.

تستهل هذه السورة بذكر القيامة والتهويل من شأنها:

﴿**القَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾.

سُميت القيامة بالقارعـة لأنها تقـرع القلوب بالهـول والفزع. فـالقرع هو الضرب بشدة، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ﴿مَا الْقَارِعَة﴾ أي شيء هي القارعة؟ وهذه التسمية يراد بها تعظيم أمر القيامة والتهويل من شأنها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَـارِعَة﴾ تـأكيد لهـولها وفـظاعتها ببيـان خروجها عن دائرة علوم الخلق بحيث لا يبلغها دراية أحد.

ثم يعرض القرآن مشهدين من مشاهد القارعة: مشهداً للناس ومشهداً للجبال. فمشهد الناس يتراءى عندما يخـرجون من قبـورهم أحياء فـزعين: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ أي يكون الناس كالفراش المنتشر، بسبب اضطرابهم وحيرتهم، فـالفراش عنـدما يثـار من الفزع لا يتجـه لجهةٍ واحدة، بل يتطاير في كل الاتجاهات.

وأمـا مشهد الجبـال فيصفه القـرآن بقولـه: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَـالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُـوشِ**﴾ أي تكون الجبـال كالصـوف المندوف ذي الألـوان المختلفة،

وهذا كناية عن تفتتها وتفرق أجزائها وتطايرها في الجو، قد يكون ذلك ـ واللَّه أعلم ـ من تأثير فعل جاذبية القمر أو أي كوكب آخر، فيكفي أن يقترب القمر من الأرض ـ بأمر اللَّه ـ أو أي كوكب آخر غير النسبة المعهودة فتحدث هذه العوارض الطبيعية بفعل الجاذبية، ويكون ذلك إيذاناً بأمارات يوم القيامة . وإذا كان ذلك شأن الجبال في ذلك اليوم مع صلابتها وشدة تماسكها، فما هو حال الإنسان مع ضعفه.

بعد هذه الصورة المروعة من مشاهد القيامة يبين القرآن مآل الناس في ذلك اليوم وانقسامهم إلى أشقياء وسعداء، واصفاً أعمالهم الصالحة والسيئة بالأشياء المادية التي لها وزن ﴿**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته فهو في حياة طيبة في الجنة، ورضا من اللَّه تعالى عليه، وهو مع ذلك راض بما أعطاه ربه من النعيم.

ومن خفَّ ميزان حسناته ورجحت كفة سيئاته فمصيره جهنم ﴿**وأمَّا مَنْ خَفّت مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاويةٌ**﴾ قيل أمه على سبيل التشبيه لأن الأم هي مأوى الوليد يلجأ إليها في جميع حوائجه، والهاوية من أسماء جهنم لأنها عميقة القرار، فهذا نوع من السخرية والتهديد للكافرين فكما أن الأم تحيط ولدها بحنوها وعطفها فكذلك جهنم هي مأوى الكافرين تحيط بهم بعذابها ونيرانها الملتهبة. وقيل المراد بأمه هاوية أي أم رأسه، بمعنى أنهم يهوون في النار على رؤوسهم ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ**﴾ استفهام للتفخيم والتهويل، أي وما أعلمك يا محمد ما الهاوية، فهي خارجة عن الحدود المعهودة ﴿**نَارٌ حامِيَةٌ**﴾ نار حميت من الوقود التي عليها.

سُورَةُ التَّكَاثُر

مكية ، وآياتها ثمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ
﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

شرح المفردات

ألهاكم : شغلكم عن طاعة الله وعبادته .

التكاثر : التباهي بكثرة المال والجاه والولد .

زرتم المقابر : أي حتى هلكتم وأصبحتم أمواتاً .

علم اليقين : هو العلم المبني على الحقيقة ، والمراد البعث بعد الممات .

الجحيم : هي دار العذاب في الآخرة وسميت بذلك لأنها تتأجج بالنار .

عين اليقين : رؤ ية متيقنة .

ثم لَتُسألُنّ يومئذٍ عن النعيم : عن الأمن والصحة والماء والطعام وكل نعم الحياة.

سُورَةُ التَّكَاثُرُ

ايضــــاح و دروس

هذه السورة تعالج الظاهرة المادية الطاغية والتي هي أشد ما تتمثل في عصرنا الحاضر.

فالمدنية الحاضرة بما قدمت للإنسان من ألوان الترف التي تستلزم نفقات شتى، جعلت الإنسان مستعبداً لها يشتغل ليل نهار لسد سيل تلك النفقات، وجعلت حياته في دوامة من الإرهاق بدلاً من الراحة، وأدخلت إلى قلبه الهم والقلق من جراء التفكير المستمر في الحصول على المال والتكاثر فيه، مستغرقاً كل سنيّ حياته حتى يوافيه الموت.

وقد كان العرب في الجاهلية يتباهون ويتفاخرون بكثرة المال والولد والجاه فنزلت هذه السورة التي مطلعها:

﴿أَلهَاكُمُ التَكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾.

والمعنى: شغلكم التباهي بكثرة المال والولد وطلب الجاه عن طاعة ربكم وعبادته إلى أن متم ودفنتم في المقابر.

وفي قوله سبحانه ﴿حتى زُرْتُمُ المقابر﴾ إيحاء بأن الإقامة في القبر ليست دائمة بل هي زيارة لها، وسوف تنتهي الزيارة إلى بعث وحساب وجزاء على الأعمال.

هذا النعيم الذي يسعى إليه الإنسان على هذه الأرض، وهذا التسابق المحموم على جمع المال والتكاثر فيه لم يؤد بالإنسان إلى السعادة، فقد ولّد هذا التكاثر: التنازع بين الناس، كما ولّد لصاحبه التعب والإرهاق والهموم،

وما نتج عن ذلك من أمراض جسدية ونفسية.

فالانكباب الكلي على متع الحياة وجمع المال، والإعـراض عن ذكر اللَّه وهديه جرّ على الإنسان الخسران كما قال سبحانه: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمنوا لا تُلهِكُمْ أَمـوالُكُم وَلا أولادُكُم عَن ذِكْرِ اللَّه وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ فـأولئِـكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾ المنافقون: ٩. فالإنسان عليه واجب العبادة نحو خالقه، وذكره باستمرار بلسان الشكر والمحبة على نعمه التي لا تحصى، فذكر اللَّه يدخل الطمأنينة إلى قلبه ويثبته أمام المصائب والمحن، أما الإعراض عن ذكر اللَّه فمآله الشقـاء في الدنيـا، وخسران نعيم اللَّه في الآخـرة، فالنعيم الحقيقي الذي يجب أن يسعى إليه الإنسان ليس نعيم الدنيـا القليل الـزائل كمـا قال سبحانه: ﴿مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ﴾ النساء: ٧٧. بل هو نعيم الآخرة الباقي الدائم كما وصفه سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُم ربُّهُم بِرَحْمَةٍ منه وَرِضْوَانٌ وَجَنّاتٌ لهم فيها نَعيمٌ مقيم﴾ التوبة: ٢١.

ثم نرجع بعد هذا الاستطراد إلى متابعة معاني السورة فيقول سبحانه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمونَ﴾ كلا، كلمة ردع أي ارتدعوا عمّا أنتم عليه من التكاثر في الأموال ومظاهر الترف المختلفة، وارتدعوا عما أنتم عليه من إعراضكم عن طاعة ربكم، فإن لم تفعلوا فسوف تعلمون عاقبة عملكم، وقد كرر القرآن الجملة مرتين والتكرار فيه مبالغة في الزجر وتأكيد الوعيد للمتكاثرين.

﴿كـلاّ لَوْ تَعْلَمُـونَ عِلْمَ اليَقِينَ﴾ أي مـا هكـذا ينبغي أن تفعلوا أيهـا الناس، فلو تعلمون علماً يقيناً أن اللَّه بـاعثكم يوم القيـامة بعـد مماتكم من قبوركم للجزاء لسـارعتم إلى عبادة ربكم وطـاعته إشفـاقاً على أنفسكم من عذابه.

والعاقبة التي هم مقبلون عليها يبينها اللَّه بقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِينِ﴾ كلمات قليلة معدودة حُشد لها كل ما تعرف اللغة العربية، من أدوات التوكيد: من اللام، والنون، والتكرار، والرؤية، والعين، واليقين، فبلغت ذلك ما لا تبلغه الصفحات المطولات، هو إذن اليقين الذي لا ريب فيه يتحقق برؤية الجحيم رأي العين، ورؤية الجحيم كناية عن معاناة العذاب في حرّها، فإذا كان اللاهون بالتكاثر لا بد أن يصلوا إلى هذا المصير، فليتقوا اللَّه ولينتهوا عما هم فيه من التكاثر البغيض والتمتع باللذات ونسيان اللَّه وترك عبادته وطاعته.

ثم يختم اللَّه السورة بقوله: ﴿ثم لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي ليسألنكم اللَّه جميعاً مؤمنين وكفاراً عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا كيف أصبتموه وجمعتموه، وكيف تصرفتم به، والسؤال للكفار توبيخاً لأنهم أعرضوا عن شكر ربهم، وسؤال المؤمنين تشريفاً لأنهم شكروا ربهم.

فالتنعم مذموم لمن عكف على استيفاء اللذات ولم يعش إلّا ليأكل ويشرب ويمضي أوقاته باللهو والطرب... فأما من تمتّع بنِعَمِ اللَّه وأرزاقه التي خلقها لعباده، وتقوّى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل الصالح، وكان قائماً بالشكر للَّه والتصدّق على المحتاجين والإحسان إلى مجتمعه فلا إثم عليه وهو من الناجين يوم القيامة من عذاب اللَّه بمشيئته.

سورة العصر

مكية ، وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

شرح المفردات

والعصر : الواو واو القسم . العصر : يُراد به الدهر ، وهو جملة الزمان الذي تقع الحوادث فيه وقد يُراد جزء معين منه وهو وقت صلاة العصر .

خُسر : أي خسران والمراد به الشقاء في الدنيا واستحقاق العذاب في الآخرة .

تواصوا : أوصى بعضهم بعضاً .

الحق : نقيض الباطل وهو الخير كله .

ايضاح و دروس

هذه السورة تبين للإنسان العناصر الضرورية لسعادته في معترك الحياة وبعد الممات ، يستهل الله هذه السورة بالقسم بالدهر ﴿والعصر﴾ لأهميته في حياة الإنسان ولاشتماله على تقلبات المعيشة ، ففيه السراء والضراء ، والغنى والفقر ، والهناء والشقاء ، ولما كان الناس يضيفون المصائب إلى الدهر ويشكون منه ويألمون ، أراد الله أن يبين بهذا القسم أن الخسران من عمل الإنسان في الدهر لا من الدهر نفسه ، وأن الإنسان في خسر ما لم يقم ويتحلى بأربعة أمور وهي : الإيمان بالله ، والعمل الصالح ، والتواصي

بالحق، والتواصي بالصبر، وفي هذا يقول سبحانه:

﴿والعَصْرِ. إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الإيمان باللَّه والعمل الصالح:

فالإيمان باللَّه هو أول واجبات الإنسان على هذه الأرض، لأن ذلك من علامات رشده وبصيرته، وكيف لا يؤمن الإنسان بخالقه وكل شيء في هذا الكون شاهد على وجوده جلَّ شأنه.

والإيمان باللَّه له أثر فعال في حياة الإنسان، فهو يبدّد ظلمات هذه الحياة، ويدخل الأمل إلى القلوب، ففي ساعة الفشل واليأس يتذكر المؤمن أن هناك ملاذاً يلجأ إليه، وهو اللَّه سبحانه، القادر على معونته، وأن ما يصيبه من ضرّ سيؤجر عليه فتطمئن نفسه، وتصغر أمامها الأهوال، وتهون المصاعب، لذلك ترى المؤمن دائماً منشرح الصدر، هادىء الأعصاب، لا يشكو قلقاً، ولا يعاني مرضاً نفسياً أو عصبياً.

أما غير المؤمن فهو فريسة للأمراض النفسية والعصبية والجسمانية، وهدف للتعلق بالأوهام، إن أصابته مصيبة عيل لها صبره، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهام في أودية السهر والسكر، فيكون نتيجة ذلك مرضاً يُقعده أو موتاً يُفاجئه.

والإيمان باللَّه يفجر ينابيع الخير في قلب الإنسان، ويخفف من أهوائه الضارة وأنانيته، ويبعده عن الشرور والآثام، فيسعى الإنسان في خدمة الجماعة، لأن الإنسان فيما يفعل وفيما يصدر عنه خاضع لسلطان عقيدته، هذه العقيدة التي تتمثل بأن اللَّه مطلع على أفعاله، وأنه سيحاسبه عليها يوم

القيامة إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، من هنا تظهر لنا العلاقة الوثيقة التي تربط بين الإيمان والعمل الصالح، فالعمل الصالح هو ثمرة الإيمان باللَّه، لهذا قرن اللَّه في القرآن الإيمان بالعمل الصالح مثل قوله: ﴿آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أكثر من خمسين مرة مع الوعد والبشرى بمن يتحلى بهما بالسعادة في الدنيا والآخرة.

والصالحات جمع صالحة، والصلاح في اللغة ضد الفساد، وتستعمل الصالحات في المجال الديني نقيضاً للسيئات، وهي الأعمال الطيبات التي تردّد ذكرها في القرآن الكريم داعياً إليها حاثاً عليها، وذلك فيما يتصل بعبادة اللَّه، وطهارة النفس والإحسان إلى الجماعة.

التواصي بالحق:

ثم استثنى اللَّه بعد ذلك من الخسران المتواصين بالحق، وفي هذا تقرير للمسؤولية الاجتماعية على الإنسان، وبيان أن كماله في نفسه لا يكفي حتى يسعى إلى كمال غيره.

والتواصي بالحق ضرورة اجتماعية، والأخذ بالحق عسير لأنه ضد أهواء النفس، وضد المصالح الخاصة وضد طغيان الحكام وظلم الأفراد، من هنا لم يأمر الإسلام متبعيه إلى الأخذ بالحق فقط، بل أمرهم بالتواصي به، والتواصي يشمل الأخذ بالحق وحث الغير عليه، وبهذا يعيشون للحق، ويصبح الحق هو المسيطر على كل منازعاتهم وبهذا يُقضى على كل خلاف في الجماعة.

فالتواصي بالحق هو المشاركة بين جميع أفراد الأمة في قاسم مشترك هو الخير لوجه الخير وفي سبيل خير المجموع.

والإسلام أشاد بالحق حتى كان الحق إسماً من أسماء اللَّه تعالى، جاء في القرآن: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّه هُوَ الحقّ وأنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونه هُوَ الباطل﴾ الحج: ٦٢.

وخاطب اللَّه رسوله محمداً عليه السلام مبيّناً حقيقة الشريعة الإسلامية التي أنزلها عليه: ﴿إنا أرسلناك بالحق بَشيراً ونذيراً﴾ البقرة: ١١٩.

التواصي بالصبر:

ولما كان وقع الحق ثقيلاً على الأنفس، وان التواصي به تلازمه المحن والصعاب وذلك يقتضي بدوره صبراً، لذلك قرن اللَّه التواصي بالصبر مع التواصي بالحق. والصبر أقسام:

صبر على أداء الطاعات التي فرضها الإسلام ودعا إليها.

وصبر عن اقتراف المعاصي التي نهى عنها.

وصبر عند نزول البلاء ومعاناة المصيبة.

وأعلى درجات الصبر ما يكون عند الصّدْمة الأولى للفاجعة فإنه يدل حينئذٍ على رباطة جأش وقوة في النفس، وصلابة في العقيدة، ولهذا يقول النبي ﷺ: «إنما الصّبْرُ عند الصدمة الأولى»[1].

والصبر أساس كثير من الفضائل، فما من فضيلة إلّا وهي محتاجة إلى الصبر، وقد حض اللَّه ـ في القرآن ـ المؤمنين على الصبر في كثير من الآيات بما يوازي عددها الثمانين آية، وأثنى على الصابرين ووعدهم بأرفع مراتب الجزاء، من ذلك قوله سبحانه: ﴿واصْبِروا إنَّ اللَّه مَعَ

---

(١) رواه البخاري.

الصَّـــابِـرين﴾ الأنفـــال: ٤٦. ﴿إنَّمـا يُــوفَّى الصَّـــابِـــرُون أَجْــرَهُم بِغَيْــرِ
حِــسَــابٍ﴾ الــزمــر: ١٠. ﴿وَاصْـــبِـــرْ فَـــإِنَّ اللَّه لا يُــضِــيــعُ أَجْــرَ
الْمُحْسِنين﴾ هود: ١١٥.

هــذه السورة الكــريمة ـ على قصــرهــا ـ لم تــدع شيئاً من الخيــر إلاّ واشتملت عليه وهي كما قال الإمام الشافعي رضي اللَّه عنه: لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم.

وقد كان الرجلان من أصحاب النبيّ ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة، ليذكّر كل واحد صاحبه بما يجب أن يكون عليه في تصرفاته وأفعاله.

سُورَةُ الهُمَزَة

مكية ، وآياتها تسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ
أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ
۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩

شرح المفردات

ويل : قبح لأعمالهم في الدنيا وعذاب لهم في الآخرة .

هُمزة : الهمز هو الكسر ثم استعير بمعنى الطعن بأعراض الناس وقيل : اغتيابهم

لُمَزة : اللمز اغتياب الناس وتتبع معايبهم .

يحسب ان ماله أخلده : يظن أن ماله يضمن له الخلود في الدنيا .

لَيُنبذن : ليرمين مع الإهانة ، والنبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به .

الحطمة : اسم لجهنم لأنها تحطم كل شيء يلقى فيها .

الموقدة : الشديدة اللهب التي لا تخمد أبداً .

تطّلع على الأفئدة : تصل إلى القلوب فتحرقها .

مؤصدة : مطبقة مغلقة .

عمد ممدة : أعمدة طويلة .

سُورَة الهُمَزة

ايضـــاح و دروس

في هذه السورة يتوعّد اللّه بعذاب الآخرة الذين ينتقصون من كرامات الناس يدفعهم إلى ذلك ما يقتنون من المال الـوفير الـذي أدخل في روعهم أنهم أعلى مكانة من غيرهـم، وأن سائر الناس دونهم في الكرامة والمنزلة.

يستهلُّ اللّه هذه السورة بقوله: ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**﴾ ويل: كلمة عذاب ودعاء بالشر تقال لمن يستحق الهلكة لسوء فعله، وقيل: الويل واد في جهنم. ﴿همزة لمزة﴾ الهمز واللمز شاع معناهمـا في الخوض في أعـراض الناس والطعن فيهم، وقيل: الهمزة المغتـاب للناس، واللمـزة الطعـان في أعراضهم، وقيل: الهمزة اللمزة المشاء بالنميمة، المفرق بين الجمع.

ويتابع اللّه قوله: ﴿**الَّذي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ**﴾ المراد أنه يحصيه مرة بعد مرة ليطمئن نفسه على ماله كما يعمل البخلاء، فيغلق على نفسه باب الحجرة، ويأخذ في عدّ ماله، لا ينفقه في سبيل اللّه، ولا يؤدي حق اللّه فيه من الزكاة وغيرها، وقد يراد بعدّده: أي جعله عدة لنوازل الدهر.

ثم يبين اللّه تأثير هذا المال عند هذا الصنف من الناس: ﴿**يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾ هذه الآية فيها أصدق تصوير لطبيعة كثير من الناس، الذين يظنون أن المال يضمن لهم الخلود في الدنيا، ويدفع عنهم غائلات الزمن ولكن ألا يعلم الإنسان أن العمر قصير، ومتاع الدنيا قليل، وأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يُسأل فيها الإنسان عن أعماله ويحاسب فيها على سيئاته.

ثم تأتي الآية التالية: ﴿**كَلّا لَيُنْبَذَنَّ في الْحُطَمَةِ**﴾ كلا: كلمة ردع وزجر أي ليرتدع عن أعماله وظنه هذا. لينبذن: النبذ هو الطـرح والإلقاء، وهـذه اللفظة توحي بالاحتقار والمهانة، وهذا رد طبيعي على استهلال السورة، لأنه

كان يهمز ويلمز احتقاراً للناس، فيأتي الجواب من جنس ما قدم وعمل، ولكن أين ينبذ؟ إنه ينبذ في ﴿**الحطمة**﴾ وهي نار جهنم سميت بالحطمة لأنها تكسر وتحطم كل ما يلقى فيها ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةِ**﴾ تعظيم لشأنها وتفخيم لأمرها ﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**﴾ أي ليس لأحد من خلق اللَّه أن يطفئها، والتعبير بموقدة تأكيد لاشتعالها. ﴿**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾ أي أن هذه النار تأكل أجساد العصاة وتصل إلى الأفئدة فتحرقها، وتخصيص الأفئدة بالذكر لأنها محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال السيئة ﴿**إِنَّها عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ**﴾ هذه النار عليهم مطبقة مغلقة ﴿**فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ**﴾ والعمد جمع عمود وهو كل مستطيل من خشب أو حديد، أي يعذبون بعمد من حديد، أو موثوقون إلى هذه العمد لا يستطيعون الإفلات، أو أن النار مغلقة بأبواب سدت بعمد ممدَّدَة لا يستطيعون الإفلات منها.

سُورَةُ الفِيل
مكية ، وآياتها خمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

شرح المفردات

ألم تر : ألم تعلم ، وهذا الاستفهام للتقرير والتذكير بحادث وقع .

أصحاب الفيل : جماعة من الأحباش النصارى قدموا مع رئيسهم أبرهة لهدم الكعبة .

كيدهم : الكيد هو تدبير السوء في الخفاء والمكر والمراد بذلك قصدهم تخريب الكعبة

تضليل : تضييع .

أبابيل : جماعات من الطير يتبع بعضها بعضاً .

سجّيل : حجارة من طين متحجر .

كعصْفٍ : العصف حطام النبت المتكسّر .

مأكول : الذي أكلته الدواب ثم راثته .

ايضاح و دروس

تشير هذه السورة لحادثة الفيل المشهورة عند العرب ففي سنة ٥٧١ من ميلاد عيسى عليه السلام وقعت بمكة واقعة الفيل، وكان لهذه الواقعة شأن ببلاد العرب كلها إذ تجلت فيها آية من آيات عناية اللّه بالكعبة وَرَدّ كيد من أراد بها السوء .

وتفصيل هذه الواقعة أن مملكة الحبشة لما استولت على بلاد اليمن، أقامت عليها حاكماً من قبلها اسمه أبرهة الأشرم، وكان حبشياً يدين بالنصرانية التي تدين بها الحبشة، فبنى بمدينة صنعاء عاصمة اليمن كنيسة بالغ في تفخيمها وتجميلها وسماها «القُلَّيْس» وعمل على أن يولي العرب وجوههم إليها في العبادة ويحجوا إليها بدل الكعبة، ولما لم تنجح جهوده السلمية في الوصول إلى هذه الغاية عزم على أن يحقق غايته بوسيلة القهر، وقرر أن يهدم الكعبة ليخلو الجو لكنيسة صنعاء، فجهز جيشاً وهيأ له من وسائل التخريب والتدمير ما لا قِبَل للعرب بمثله، وتوجه إلى مكة واستصحب معه الفيلة لإرهاب قريش، ولم يلقَ في طريقه إليها مقاومة ذات شأن حتى وصل إلى موضع قريب من مكة بطريق الطائف اسمه «المغمس» فعسكر في هذا الموضع وأرسل إلى مكة رسولاً يحمل إلى سيّد قريش رسالة قال له فيها: «إني لم آت لحربكم وإنما جئت لهدم البيت الحرام فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم» وكان مما قاله أبرهة لرسوله: «إن لم يُرِد سيد قريش حربي فأتني به».

وكان سيد قريش يومئذٍ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول اللَّه محمد ﷺ وكان رجلاً جليلاً وقوراً. ولما كان لا يستطيع مقاومة أبرهة فقد رضي أن يخرج لمقابلته والتفاوض معه فعرض عبد المطلب عليه ثلث أموال تهامة من قريش وغيرها على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت فأبى.

رجع عبد المطلب إلى قومه مشيراً عليهم باللجوء إلى الجبال إتقاء لجيش أبرهة، ثم توجه ومعه نفر من قريش إلى الكعبة يدعون اللَّه ويستنصرونه على أبرهة، وأنشد عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يــا ربِّ لا أرجـو لهم ســواكـا يـا رب فـامنــع منهم حِمـاكــا
إن عــدو البيـت من عــاداكــا امنعهم أن يَـخْــرِبُــوا قُــراكــا

ثم لحق عبـد المطلب ومن معـه من قـريش بمن سبقهم إلى الجبـال منتظرين ما يفعل أبرهة بمكة والكعبة.

وجّه أبرهة جيشه وأفياله لما جاء لـه، فبرك الفيـل الذي في المقـدمة وكذلك باقي الفيلة، وجهدوا في حملها على اقتحام الكعبة فلم يفلحوا، ثم كان ما أراده اللَّه من إهلاك الجيش المعتدي وقائده.

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾.

ألم تر: أي ألم تعلم، أو ألم تُخبر، واللفظ استفهام والمعنى تقرير. ثم قال سبحانه ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ ولم يقل (ما فعل) لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم اللَّه وقدرته وأصحـاب الفيل هم جيش أبـرهة الذين جاءوا لهدم الكعبة ومعهم الفيلة.

﴿**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**﴾ أي ألم يهلكهم اللَّه ويجعل سعيهم ومكرهم في بطلان وتضييع.

﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ**﴾ أبـابيل: أي طيـوراً كثيرة أو جمـاعات متتابعة بعضها إثر بعض، قيل إنها كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، وقيل كانت أشباه الوطاويط حمراء وسوداء وكـانت تحمل في أظـافرهـا ومناقيـرها الحجارة.

﴿**تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ**﴾ أي كانت تلقي عليهم حجارة من طين وكانت أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة.

﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾ أي جعلهم اللَّه كـورق الـزرع أو التبن

الذي أكلته الدواب وأخرجته من أجسادها وهو الروث، شبهوا بذلك لتقطع أوصالهم وتفرق أجزاء أبدانهم وتحقيراً لهم.

فاللَّه سبحانه في هذه السورة يذكر العرب ومن يجيء بعدهم من الأمم بدليل ملموس على وجوده وقدرته وعلى معجزة من معجزاته، لقد فعل اللَّه بأصحاب الفيل ما فعل لأنهم أرادوا هدم بيته، ذلك البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة اللَّه بأمر ربه، ثم بعث اللَّه محمداً ﷺ بالرسالة التي جاء بها إبراهيم وهي عبادة اللَّه وحده ونبذ الأصنام والشرك باللَّه مع شريعة توافق تطور الأمم.

ولما اشتد أذى قريش على رسول اللَّه بمكة، وأسرفوا في العدوان عليه وعلى من استجاب لدعوته، ونال رسول اللَّه من أجل ذلك حزن بالغ، ذكّره اللَّه في هذه السورة بحادثة الفيل تثبيتاً لقلب رسول اللَّه، وبرهاناً على أن اللَّه يحق الحق، وينصر الضعيف، ويبطل الباطل، ويهزم القوي الباغي.

فحادثة الفيل تعتبر فاتحة عصر جديد في حياة العرب، حتى أنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم فرسول اللَّه محمد ﷺ مثلاً ولد عام الفيل وبعد أربعين سنة من مولده بدأ نزول القرآن يتوالى عليه، وكان في هذه الأثناء أناس يتراوح سنهم بين الخمسين والمائة سنة وما فوق، ومعنى هذا أنهم رأوا هذه الحادثة رأي العين، ورأوا معجزة اللَّه في إهلاك الذين أرادوا هدم الكعبة، فلو كان في صحة هذه المعجزة أدنى ريب، لاعترض عليها أعداء النبي ﷺ وجعلوها حجة للتشكيك في القرآن، وهذا لم يحصل قط.

سورة قريش

مكية، وآياتها أربع

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

شرح المفردات

لإيلاف : ألف الشيء : أنس به وأحبه وهيأه وجهزه .

قريش : أكرم قبيلة عربية وهي القبيلة التي ينتسب إليها محمد ﷺ وكانت تسكن مكة .

إيلافهم : تكرار يفيد التقرير والتأكيد .

هذا البيت : هو الكعبة المشرفة في مكة المكرمة .

آمنهم : جعلهم آمنين من التعدي عليهم .

ايضاح و دروس

كان من آثار حادثة هلاك أبرهة وجيشه ـ بما ذكرناه في سورة الفيل ـ زيادة حرمة الكعبة عند العرب وزيادة مكانة سدنتها[1] من قريش في الجزيرة العربية وخارجها، يجدون الكرامة والرعاية والأمن حيثما حلوا لأنهم أهل بيت الله الحرام. وقد ساعدهم ذلك على أن يسيروا في الأرض آمنين لا يمسهم أحد بسوء على الرغم مما كان سائداً بين العرب من النهب والسلب، كما قد شجعتهم حالة الأمن هذه على أن يقوموا برحلتين للتجارة

(١) السدنة هم القائمون على خدمة الكعبة والحجيج .

عن طريق القوافل إحداهما إلى اليمن في الشتاء، والثانية إلى الشام في الصيف مما فتح لهم أبواب الرزق الوفير، وخصوصاً إذا لاحظنا أن أرضهم قاحلة ليست بذات زرع، وهم ليسوا بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس إليها. فالتجارة القائمة على الأمن كانت المورد الأساسي لوفرة رزقهم.

فاللَّه سبحانه يمتن على قريش بنعمة الأمن والرزق، كما يثير التعجب من حالهم بسبب بطرهم وإعراضهم عن عبادة اللَّه، وكان الواجب عليهم أن يعبدوا اللَّه ويشكروه على نعمه ولا يشركوا به شيئاً.

يستهل اللَّه هذه السورة بقوله:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِم. رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.

الإيلاف: مصدر آلف أي هَيَّأَ وَجَهَّزَ. أو من أَلِف الشيء إذا أنس به ولزمه. أو من أَلَّف الشيء إذا وصله أو جمع بعضه ببعض. واللام (لإ) في إيلاف متعلقة بالسورة التي قبلها وهي سورة الفيل، ويكون المعنى: نجاة بيت اللَّه من الهدم وردّ أبرهة وجيشه مدحورين لم ينالوا من البيت شيئاً كان من نتيجته أن هيأت قريش وجهَّزَت رحلتين للتجارة في السنة متصلتين لا تنقطعان مطمئنين في ذلك على رزقهم لا يهددهم أحد بخوف، واللَّه لم يصنع ذلك لهم إنما صنع ذلك حماية لبيته. ولما حمى اللَّه بيته تَبعَ ذلك أن تَأْلَفَ قريش رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام.

أما إيلاف الثانية المذكورة في الآية بلفظ (إيلافهم) فهي بدل من (لإيلاف) الأولى وكررت للتفخيم وإبراز شأنها الهام.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ﴾ أُمروا بعبادة رب الكعبة وهو اللَّه سبحانه، وتأمل كيف أن اللَّه لم يقل: «فليعبدوا ربهم» بل قال: ﴿رَبَّ هَـذا البَيْت﴾ للتركيز بادىء ذي بدء على سبب النعم والخصائص التي خصهم اللَّه بها في

زمانهم إذ يقومون بتجارتهم آمنين باسم هذا البيت، فإذا اعترضهم معترض من غوغاء الفيافي قالوا: نحن جيران بيت اللَّه، فتكف النفوس الشريرة عن اعتدائها.

فنعم اللَّه على قريش غير محصورة فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لأجل تسهيل اللَّه لهم ما كانوا يألفونه من رحلة الشتاء والصيف ولذا قيل إن اللام في «لإيلاف» متعلقة بالفعل: «فليعبدوا».

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾ والتنكير في جوع وخوف للدلالة على شدتهما، يعني أن اللَّه أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه لأن أرضهم غير ذات زرع، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوفهم من أصحاب الفيل الذين أهلكهم اللَّه ونجاهم من شرهم، كما آمنهم من كل عدو يترصدهم. كما أن اللَّه أكرمهم بعد ذلك بواسطة رسالة محمد ﷺ التي جعلت الناس تفد إليهم بمكة من كل البلدان فضمنوا بقاء ثرائهم وازدياد تجارتهم، وآمنهم من خوف الناس الذين أصبحوا بنعمة اللَّه إخواناً.

وتأمل الترتيب القرآني حيث ذكر الإطعام بإزالة الجوع ثم الأمن بإزالة الخوف وهو ما أثبتته أبحاث علم النفس التي تقرّر أن غريزة البحث عن الطعام هي أقوى الغرائز جميعاً، وأسبقها إلى الظهور، ويليها في المنزلة غريزة طلب الأمن.

فنعمة الرزق والأمن من الخوف من أجلّ نِعَم اللَّهِ على الإنسان التي تستوجب عبادته وشكره، وتمجيده بلسان المحبة والامتنان، أمّا الإعراض عن عبادة اللَّه وكفر النِعَم التي أسبغها اللَّه سبحانه على الإنسان فإنه يؤدي إلى زوالها.

سُورَةُ الماعُون

مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ②
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ
عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦

شرح المفردات

أرأيت : أعلمت وعرفت .

الدين : هو دين الإسلام ، وقيل : هو يوم الجزاء والحساب في الآخرة .

يدعُّ اليتيم : يدفع اليتيم عن حقه ويزجره بعنف .

لا يحض : لا يحث الناس .

فويل : هلاك وعذاب .

صلاتهم ساهون : يؤخرونها عن وقتها ويتركونها أو لا يخشعون فيها .

يُراؤون : المراءاة إظهار العبادة للناس ليثنى عليهم بالصلاح لا ابتغاء مرضاة الله

الماعون : قيل هي الزكاة ، أو الإعارة من الحاجات الضرورية ولوازم البيت .

سُورَة المَاعُون

ايضـــاح و دروس

هذه السورة جاءت لتوضح حقيقة الإسلام، وأنه ليس عقيدة فقط، ولا كلمة تُقال، وإنما هو منهج وسلوك في الحياة، فكل من لا يطبق تعاليمه، ولا يخرج بها من دائرة القول إلى دائرة الفعل فهو مكذب بالدِّين:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يُكَذِّبُ بِالدِّين. فَذَلِكَ الَّذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ﴾.

فاللَّه سبحانه يستهل هذه السورة بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وهو استفهام فيه التعجب وتشويق السامع إلى تعرّف صفات المكذّب بالدِّين، والدِّين هو الثواب والعقاب في الآخرة، كما يمكن أن يُراد من الدِّين: الإسلام. والرؤية بمعنى المعرفة، والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء في الآخرة أو الإسلام، إن أردت أن تعرفه فهو الذي ﴿يَدُعُّ اليَتِيمَ﴾ أي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً عن حقه بخشونة ولا يطعمه ولا يُحسن إليه. واليتم مظهر من مظاهر الضعف الإنساني، فكل مستهين بضعيف أيضاً يظلمه أو يمنعه حقه يسري عليه هذا المعنى.

ومن صفات المكذب بالدين: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَام المسكين﴾ فاللَّه سبحانه سَمَّى ما يقدّم للمسكين من القوت: ﴿طعام المسكين﴾ كأنه ليس طعام من يتفضّل به عليه من ذوي الغنى، بل هذا الطعام هو طعام المسكين ملَّكه له ربه بما فرض على الموسرين من إنفاق على المعسرين.

والذي لا يحث غيره على إطعام المساكين فهو لا يطعمهم في العادة،

فقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طعام المِسْكِينِ﴾ كناية عن الذي لا يجود بشيء من ماله على الفقير المحتاج، وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا ما احتاج المسكين إلى مال ولم تجد ما تعطيه إياه فعليك أن تَطْلُبَ مِنَ الناس أنْ يعطوه، وفي ذلك حث للمؤمنين على إغاثة الفقراء، ولو بجمع المال من غيرهم، وهي طريقة الجمعيات الخيرية التي لها أصل في القرآن بهذه الآية.

ثم يتابع القرآن فينذر المصلين الذين يغفلون عن حقيقة الصلاة بالعذاب والهلاك: ﴿**فَوَيْلٌ للمُصلّين. الذين هُمْ عَنْ صَلاَتهم سَاهُونَ**﴾.

الويل: كلمة تقال لمن يستحق الهلاك والعذاب في الآخرة، أما الذين عن صلاتهم (سَاهُون) فهم الذين يلهون ويتغافلون عنها فلا يؤدونها في أوقاتها، أو يتركونها فلا يصلونها، أو يغفلون عن معانيها من الخشوع للّه، والنهي عن الفحشاء والمنكر، كما جاء في القرآن: ﴿إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمنْكَر﴾.

﴿**الّذينَ هُمْ يُراءُونَ**﴾ والمراءاة هي أن يُري الإنسان الناس خلاف ما هو عليه في الواقع ليخدعهم، والمراؤون هنا هم المنافقون الذي يُصلّون لا رغبة في رضاء اللّه، بل ليراهم المؤمنون فيظنوهم منهم، وهم في صلاتهم لا يرغبون في ثواب ولا يرهبون من عقاب.

﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ والماعون هي الزكاة، أو ما يتداوله الناس ويتعاونون به من إعارة حاجيات البيت الضرورية: كالفأس والقدر والدلو والحبل والقداحة وغير ذلك. وقيل: الماعون هو أن يمنعوا معروفهم ومعونتهم عن الناس فلا يهمهم إلاّ أنفسهم.

سُورَةُ الكَوْثَرِ
مكية ، وآياتها ثلاث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

شرح المفردات

الكوثر : هو الخير الكثير الذي أعطاه الله للنبي ﷺ ويشمل : النبوة ، والقرآن ، والحكمة ، ورفعة الذكر ، وكثرة الأتباع ،والشفاعة .وقيل : الكوثر نهر في الجنة وعد الله به نبيه محمداً .

فصلّ لربك : داوم على الصلوات الخمس لربك واجعلها خالصة لوجهه دون سواه .

وانحر : اذبح الذبائح من المواشي قربى لله تعالى وحده .

شانئك : مبغضك .

الأبتر : الأبتر من الرجال الذي لا ولد له ، وكل أمر انقطع الخير منه فهو أبتر .

ايضاح و دروس

كان بعض أعداء النبي ﷺ إذا رأوا أبناءه الذكور يموتون يقولون: بُتِرَ محمد وانقطع نسبه فليس له من يقوم بأمره من بعده. وكان هذا النوع من التهكم يجد له في البيئة العربية ـ التي تتكاثر وتتفاخر بالأبناء ـ أثراً في نفوس البعض ولعلها آلمت قلب النبي ﷺ، ومن ثمّ نزلت هذه السورة تواسي النبي ﷺ وتردّ على أعدائه وتبين فضل أمر الدّين على الولد.

في هذه السورة يواسي اللّه النبي ﷺ بأنه أعطاه الكوثر:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ أي الخير الكثير.

هذا الخير الكثير يتمثل في النبوة التي خصّه اللَّه بها، المتلقية لوحيه وهو القرآن الـذي يتلوه مئات المـلايين من البشر ويتلقـون ما فيـه من هدى ورحمة.

وهذا الخير يتمثّل أيضاً في سنّته وسيرته العطرة التي يتدارسها أتبـاعه ويسيرون على منهجها ويقتدون بها.

وهذا الخير يتمثل كذلك بإعـلاء ذكر النبي ﷺ وعلو منـزلته، فمئـات الملايين من المسلمين يدعون اللَّه له بمحبة وإخلاص في صلواتهم بالرحمة والبركة بقولهم: (اللهم صَلِّ[١] على محمد) (اللهم بَارِكْ على محمد).

وهذا الخير يتمثل أيضاً بالنعيم في الآخرة ومنها نهر في الجنـة خصه اللَّه بمزايا خاصة يشرب من حوضه النبي ﷺ وأتباعه كما جـاء في الحديث الصحيح.

بعد بيان هذا العطاء الكبير الذي خص اللَّه به نبيه أمره سبحانه بشكر هذه النعم الفائضة، وتوجيهه إلى درب الإخلاص في العبادة: فقال سبحانه: **﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾** أي فاجعل صلاتك كلها لربك خالصة له دون سـواه من الأنداد والآلهة، وانحر ذبيحتك للَّه وحده فيما هو نسك لـك في شعائـر الحج وسواهـا واطعم منها الفقـراء. فقد كـان كفار مكـة يجعلون صلواتهم وقرابينهم للأوثان، فاللَّه سبحانه يريد أن يقضي على الشرك بكافة مظاهره، فهو إذ يخاطب نبيه بهذا المفهوم المجرد لتوحيد اللَّه فهـو في الوقت نفسـه

---

(١) صلّ: الصلاة من اللَّه الرحمة، والمعنى: أي يا أللَّه أرحم محمداً.

يخاطب من وراء ذلك اتباعه ليقضي على كل رواسب الشرك في قلوبهم.

ولقد أعطى اللَّه رسوله محمداً (الكوثر) ويشمل الخير له ولأمته، وأمام هذه النعمة فإن على المؤمنين أن يُقابلوا ذلك بالصلاة والشكر ونحر الذبائح قربى من اللَّه لإطعامها الفقراء.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما خص اللَّه به نبيه من منزلة رفيعة مما يذهب عنه كل ضيق وحرجٍ مما كان يسمعه من قومه: بأنه أبتر فيقول سبحانه له: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ أي أن مبغضك يا محمد هو الأبتر لأنه سيكون منقطع الذكر.

ولقد صدق اللَّه وعده فانقطع ذكر أعدائه وانطوى أثرهم لأنهم كانوا يمثلون الكفر والباطل والشر وهي أمور أراد اللَّه لها الخسران والهلاك، بينما امتد ذكر محمد ﷺ في جميع أرجاء الأرض لأنه كان يحمل رسالة الدعوة إلى اللَّه وهي رسالة الحق والخير التي أراد اللَّه لها أن تنتصر على جحافل الكفر ودعاة الباطل والشر.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

مكية، وآياتها ست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

المعنى الاجمالي

قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبد مثل عبادتكم، ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد لله، لكم عبادتكم التي تصرون عليها وهي عبادة ضالة ولي عبادتي التي ارتضاها الله لي.

ايضاح و دروس

يروى أن جماعة من كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: هَلُمَّ فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال النبي ﷺ: معاذ اللّه أن أُشرك به سبحانه غيره، فقالوا: فاستلم (أي: قَبِّلْ) بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت هذه السورة.

وما ذكرته هذه السورة من تكرار العبادة مقصود بها العبادة الحاضرة،

والعبادة الحاصلة في المستقبل هذا رأي بعض المفسّرين، ويرى البعض أن تكرار العبادة في السورة هو للتأكيد، فالقرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام فيقول المجيب: بلى، بلى، والممتنع: لا، لا. وفائدة التأكيد قطع أطماع الكفار بالتأثير على النبي ﷺ أو على المؤمنين، وتحقيق أن الكفار باقون على الكفر أبداً ولا فائدة منهم.

فالكافرون المخاطبون في هذه السورة فئات:

منهم الماديون الذين أنكروا وجود اللّه.

ومنهم الذين عبدوا المال والأهواء، أو عبدوا زعماءهم ورجال دينهم.

ومنهم الذين اتخذوا للّه ولداً أو شريكاً في الخلق والتدبير، أو عبدوا مع اللّه المظاهر الطبيعية والملائكة والحيوانات أو الأصنام والأوثان.

هؤلاء الكافرون لهم دعاتهم الذين يحاولون إغراء المؤمن بسلوك طريقهم والتأثير عليه بشتى السبل حتى ينساق إلى منهجهم.

ففي هذه السورة يأمر اللّه سبحانه المسلم بمتابعة مسيرة الإيمان بعزم وتصميم وعدم الإصغاء لأي نداءات تفسد عليه إيمانه، وذلك بأسلوب قاطع جازم، فسارت بنفي بعد نفي وتوكيد بعد توكيد.

﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الذي أعبده غير الذي تعبدونه.

﴿ولاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ومعبودكم غير معبودي.

﴿وَلاَ أنا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّم﴾ توكيد لمضمون الجملة الأولى.

﴿وَلاَ أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُد﴾ توكيد لمضمون الجملة الثانية.

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنيـة ، وآياتها ثلاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

شرح المفردات

إذا جاء نصر الله : إذا نصرك الله وأعانك على عدوك يا محمد .

والفتح : المراد بذلك فتح مكة وكان ذلك سنة ثمانٍ للهجرة .

دين الله : دين الإسلام .

أفواجاً : جماعات ، فوجاً بعد فوج .

فسبّح : نزه الله تعالى عن كل نقيصة في ذاته وصفاته وأفعاله .

واستغفره : اطلب المغفرة منه .

توّاباً : كثير القبول لتوبة عباده التائبين .

ايضـاح و دروس

تشير هذه السورة إلى فتح مكة حيث نقضت قريش معاهدة الصلح مع النبي ﷺ فحشد النبي جيشاً مكوناً من عشرة آلاف مقاتل وسار في رمضان من العام الثامن للهجرة، فأوصى النبي بعدم القتال إلا إذا أكرهوا عليه، وقد شاء اللّٰه أن يدخل النبي وجيشه مكة من غير حرب وهكذا استطاع أن يكسب أكبر نصر في تاريخ الدعوة الإسلامية وبغير إراقة دماء .

وكان لفتح مكة آثار بعيدة المدى إذ قضى على الوثنية في معقلها الأكبر بتحطيم الأصنام المقامة بالكعبة وأزال ما بها من صور وتماثيل، وبدخول مكة حظيرة الإسلام استطاع النبي التغلب على بقية القبائل في الحجاز وإرساء دعامة دولة الإسلام.

فاللَّه سبحانه يقول:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً﴾.

فاللَّه يخبر رسوله محمد ﷺ بأن النصر سيجيء لا محالة، وهذا ما تحقق فعلاً، فالفتح كان فتح مكة الذي تحقق بعد نزول هذه السورة بفترة وجيزة.

هذا وإن كثيراً من قبائل العرب كانت تنتظر هذه المعركة بين قريش وبين رسول اللَّه ﷺ فلما حصل النصر والفتح بدأ الناس يدخلون في دين اللَّه جماعات جماعات، أمام هذا الأمر يخاطب اللَّه رسوله محمداً:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.

أي نزه ربك يا محمد عن صفات النقص والسوء مصاحباً ذلك بحمده وشكره على النصر الذي أولاك به، واطلب الغفران من اللَّه سواء من استبطاء وعد اللَّه بالنصر، أو من الزهو الذي يمكن أن يراود النفوس عند حصول فتح البلدان.

ولكن أيًّا كان السبب للاستغفار، فالملاحظ في الاستغفار أنه إيحاء للنفس لتعترف وتقرّ بأنها في موقف التقصير والعجز، وإن النصر الذي تمّ على يدها ليس من صنعها فقط، فالنصر هو نصر اللَّه، وفتح البلدان تمّ

بفضله، هذا الشعور بالتقصير والعجز يوحي للفاتحين بعدم الطغيان على المقهورين والانتقام منهم، إنه درس إلٓهي يريد اللَّه أن يلقّنه للمسلمين كي يتواضعوا عند النصر، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما دخل مكة فاتحاً، لقد دخلها وهو راكب على ناقته حاني الرأس تواضعاً خاشعاً للَّه على ما أكرمه من الفتح.

إن مشهد هذا التواضع بما ينطوي عليه من أبعاد ومضامين تظهر مزاياه إذا ما قارناه بموقف الفخر والعظمة والوحشية وشرب الخمور على إشلاء الجثث التي فعلها القادة والمحاربون غير المسلمين في انتصاراتهم.

وهذه السورة أوحت في الوقت نفسه بأنها نعي للنبي ﷺ فقد قال النبي ﷺ عند نزول هذه السورة «نُعِيَتْ إلَيَّ نفسي».

ففي حصول النصر والفتح ودخول الناس في دين اللَّه أفواجاً دليل على حصول الكمال والتمام، وذلك الكمال يعقبه النقص والزوال، كما أن الأمر من اللَّه لنبيه بالتسبيح والحمد والاستغفار دليل على أن تبليغ الرسالة الإلٓهية قد تم وكمل، وذلك يقتضي قرب انقضاء الأجل.

سُورَةُ اللَّهَب
مكية ، وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي
جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

شرح المفردات

أبي لهب : أحد أعمام النبي واسمه عبد العزى .

وتب : أي هلك ، فكلمة تب الأولى دعاء عليه بالخسران والهلاك . وكلمة تب الثانية إخبار من الله بأن أثر هذا الدعاء قد حصل .

ما أغنى عنه ماله : أي لم ينفعه ما جمعه من الأموال .

وما كسب : وما كسبه في حياته من ثراء ومغانم .

سيصلى ناراً : أي يدخلها ويقاسي حرها .

ذات لهب : ذات توقد وحرارة شديدة وهي نار جهنم .

حمالة الحطب : كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق رسول الله ، وقيل : كانت نقالة للحديث السوء .

في جيدها : في عنقها .

حبل من مسد : حبل من ليف أو شعر أو وبر أو جلد أُجيد فتله .

ايضاح و دروس

أبو لهب هو عمّ النبي ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب وكني

بأبي لهب لتلهب وجنتيه وإشراقهما.

وكان أبو لهب يتبع النبي ﷺ في بعض غدواته إلى القبائل لدعوتها إلى اللَّه، فإذا قال «إنّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُم» يكذبه عمه وينهى الناس عن تصديقه.

وكانت امرأته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان تعاون زوجها في إيذاء النبي ﷺ.

فأبو لهب صنف من الرجال بطروا في حياتهم بسبب أموالهم الوفيرة، فهم ضد أي دعوة إصلاحية تمس وضع حياتهم، وتفرض عليهم واجبات وحقوقاً لمجتمعهم، فأبو لهب على الرغم من قرابته للنبي كان أشد الناس عداءً له بسبب تلك الرسالة الإلٓهية التي كان ينادي بها، تلك الرسالة التي تقوم على الأخوة والرحمة والمساواة.

وروي في أسباب نزول هذه السورة عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: لما نزلت الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾ خرج رسول اللَّه ﷺ حتى صعد الصَّفا فهتف: «يا صباحاه» فاجتمعوا إليه، فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبًّا لك، ما جمعتنا إلّا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة التي مطلعها:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَب. سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

﴿تَبّت﴾ دعاء عليه بالهلاك والخسران ﴿يَدَا أبي لَهَبٍ﴾ أي نفس وذات أبي لهب. ﴿وَتَبّ﴾ إخبار من اللَّه بتحقق الهلاك والخسران. ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ ما: نافية. أي لن ينفعه ماله ﴿وَمَا كَسَب﴾ وهم ولده، أو ما كسبه من الأرباح والمنافع والوجاهة والأتباع ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾

سيدخل في الآخرة ناراً ذات اشتعال وتوقّد ليقاسي حرّها.

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي أن امرأته كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق رسول اللَّه، وقيل إنها كانت تسعى عند القوم بالنميمة على رسول اللَّه لتفسد عليه قلوب القوم كما أفسدت قلب زوجها عليه. والساعي بالنميمة يلقب بحامل الحطب في كلام العرب.

﴿في جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ وصفها القرآن بذلك تحقيراً لشأنها لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في عنقها كما يفعل الحطابون وهي التي تعتبر سيدة في قومها، كما أن العنق هو موضع الزينة، وقيل المراد بذلك بيان حالها يوم القيامة حيث يكون في عنقها حبل من نار أو سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعاً.

لقد أنزل اللَّه بأبي لهب وزوجته هذه السورة التي فيها دعاء بهلاكهما ليكون ذلك مثلاً يعتبر به كل من يصرف الناس عن هدى اللَّه، أو يعرض عنه مطاوعة لهواه، وإيثاراً لما ألفه من العقائد، واغتراراً بما عنده من الأموال.

وقد تحقق وعد اللَّه، وخسر أبو لهب(١)، وبطل سعيه الذي كان يسعى إليه من صد الناس عن الإسلام، وانطمس ذكره وحقّر على مدى العصور، ومات ميتة شنيعة، فقد أصيب بمرض معدٍ كالطاعون يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خاف قومه العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه.

وهذه السورة تصور الطبيعة البشرية عند بعض النساء اللاتي يثابرن

---

(١) تأمل تناسق كلمات هذه السورة لفظاً ومعنى فعم النبي يكنى بأبي لهب. ومآله جهنم وهي نار ذات لهب وامرأته حمالة الحطب والحطب مما يوقد به اللهب.

على إثارة النميمة، وإشعال نار الفتنة في المجتمع معطية مثالاً على ذلك بامرأة أبي لهب التي وصفها القرآن بـ (حمالة الحطب) فإذا تقصينا أسباب أكثر العداوات التي تنشأ في المجتمع والأسر لرأينا مصدرها بعض النساء اللاتي يثرن الفتنة حبًّا في رؤية الناس متعادين متباغضين، يساعدهن في ذلك فتنتهن للرجال وطلاقة ألسنتهن، ووقوع الرجال في حبائلهن وسرعة الانقياد لهن مأسورين بحبهن.

معجزة للقرآن

هذه السورة تحمل أكبر دليل على أن القرآن وحي إلٓهي بما فيها من نبأ غيبي تحقق فعلاً.

فمن المعلوم أن كثيراً من خصوم رسول اللَّه ﷺ ظلوا مدة على خصومتهم وعدائهم للإسلام ثم لانت قلوبهم له وجاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ يعلنون إسلامهم مثل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص. ولكن المدهش أن يختار القرآن واحداً من هؤلاء الخصوم ليحكم عليه بالكفر الأبدي، ويؤكد على ذلك بقوله: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَب﴾ ومعنى هذا أنه سيظل على كفره إلى أن يموت ويستحق بذلك عذاب الآخرة.

فهذا الحكم القاطع بأن أبا لهب لن يسلم يمكن أن يُنقض لو كان القرآن من عند غير اللَّه، فمن الجائز أن يقف أبو لهب وسط العرب ويقول على رؤوس الأشهاد أشهد أن لاإله إلاّ اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه يقولها نفاقاً ويعقب على ذلك قائلاً: إن قرآنكم قال إني سأدخل النار بسبب عدم إيماني، وها أنا أعلن إيماني وأشهد بصدق رسول اللَّه، إن هذا لو حصل قد يثير شكوك الناس بالقرآن بأنه وحي إلٰهي، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل، وتحقق ما أعلنه القرآن بأنه لن يُسلم إلى أن يموت[١].

---

(١) باختصار وتصرف عن الشيخ محمد متولي الشعراوي.

سُورَةُ الأَخلاصِ
مَكيّة، وآياتها أربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

شرح المفردات

الصمد : المقصود في الحوائج كلها(١).

ولم يكن له كفواً أحد : ليس له مثيل ولا نظير من خلقه .

ايضاح و دروس

نزلت هذه السورة جواباً للمشركين حين سألوا رسول الله محمداً ﷺ أن يصف لهم ربه، ويبين لهم نسبه، فوصفه لهم بما أنزل عليه من الوحي :

﴿قُلْ هُوَ اللَّه أَحَدٌ. اللَّه الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ .

أي قل يا محمد عن اللّه : **﴿هُوَ اللَّه أَحَدٌ﴾** فهو واحد في ذاته وصفاته وفي أفعاله، وفي التوجه نحوه في العبادة. فوحدانية اللّه عقيدة أساسية بني عليها الإِسلام، وبُني عليها كل دين إِلّهي، وما من رسول ولا نبي إلّا وأساس دعوته ﴿اعبدوا اللّه ما لَكُم مِن إِله غيره﴾ المؤمنون : ٣٢ .

فاللّه سبحانه (واحد) تشهد عليه آثار خلقه، تأمل أيها القارىء في هذا العالم، وأمعن النظر فيما حواه من دقة ونظام وحكمة وتدبير، وكيف ارتبطت

---

(١) الصمد : قيل أيضاً في معناه هو السيد المطاع الذي لا يقضي دونه أمر . وقيل : هو المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد . وقيل : الدائم الباقي بعد فناء خلقه .

أجزاؤه بعضها ببعض حتى كونت على تباعدها وتباينها وحدة كاملة، دقق النظر فستجدها صادرة عن تدبير واحد، وصدق القائل:

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد

والله سبحانه (واحد) لا إله سواه، وإن إشراك أي قوة من قوى الطبيعة، أو أحد من خلقه معه، لظلم عظيم، وإثم كبير كما جاء في القرآن:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان : ١٣.

ومن ادعى أن الله ثالث ثلاثة فقد كفر بالله، جاء في القرآن:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِين قَالُوا: إِنَّ اللَّه ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ المائدة: ٧٣.

ولو كان مع الله شركاء في ألوهيته لاختلف الشركاء في التدبير والتكوين والتنظيم، وأدى ذلك إلى فساد الكون وعدم انتظامه، وهذا ما جاء في القرآن عقب الكلام عن خلق السماء والأرض:

﴿لَوْ كَانَ فِيهما آلِهَةٌ إلاَّ اللَّه لَفَسَدَتَا﴾.

والله سبحانه (واحد) فلو كان مع الله شركاء لعلا بعض الشركاء على بعض وتنازعوا، واستبد كل واحد بما خلق، فلا يصلح هذا الكون، ولا تستقر له نظم. وإلى هذا يشير القرآن:

﴿ما اتَّخَذَ اللَّه مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْض سُبْحان اللَّهِ عَمَّا يَصُفون﴾ المؤمنون: ٩١.

ثم يصف القرآن الله سبحانه عقب وصفه بالوحدانية ﴿اللَّه الصَّمَدُ﴾ أي السيد المقصود الذي لا يُقضى أمرٌ إلّا بإذنه، فهو المقصود وحده في الحوائج، وهو الملاذ عند الملمات، والملجأ والمستغاث عند الشدائد.

واللجوء إلى الله وقصده عند الملمات نزعة فطرية فَطَرَ الله الناس

عليها، وأثبتها تاريخ الأديان وفلسفتها، فالإنسان يلجأ إلى ربه ويقصده عند الملمات وهذا ما ذكره القرآن: ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ ضرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنيباً إليـه﴾

وبعد ذلك يصف القرآن اللّٰه سبحانه: ﴿**لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَد**﴾ أي لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، وهذا ردٌّ على مشركي العرب حين قالوا: الملائكة بنات اللّٰه، وردٌّ على اليهود حين قالوا عُزير ابن اللّٰه، وردٌّ على النصارى الذين قالوا: المسيح ابن اللّٰه.

واللّٰه سبحانه لو كان مولوداً لكان حادثاً بعد عدم مثل جميع الآدميين، ولكان يحتاج في حدوثه إلى موجد يوجده، وصانع يصنعه، وبذلك تسقط ألوهيته إذ يكون محتاجاً إلى إلٰه يمنحه الوجود.

وأخيراً يصف القرآن اللّٰه سبحانه: ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد**﴾ أي ليس له مماثل في ذاته وصفاته وأفعاله ولا في ألوهيته، فهو سبحانه كما جاء في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ الشورى: ١١.

وقد ضل كثير من الشعوب إذ وصفوا الخالق بأشكال من نسج خيالهم، وصوّروه بصُورٍ لا يستسيغ العقل قبولها، مما أعطى الملحدين حجة استغلوها في مهاجمة الأديان.

أما الإسلام فرد الأمر إلى نصابه، وأتى بالقول الفصل في حقيقة اللّٰه فهو المتصف بجميع صفات الكمال، وهو البعيد عن كل صفات المخلوقين، وهو سبحانه كما وصف نفسه في القرآن: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ الروم: ٢٧.

سميت هذه السورة بسورة الإخلاص لما قررت من حقيقة اللّٰه مما يقتضي الإخلاص في عبادته وحده، وفي الاتجاه إليه وحده، وقد ورد عن النبي ﷺ «ان هذه السورة تعدل (أي تساوي) ثلث القرآن» (رواه مسلم).

سُورَةُ الفَلَق

مكية ، وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾
وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

شرح المفردات

أعوذ : ألتجىء وأحتمي وألوذ .

الفلق : الصبح ، وقيل : جميع المخلوقات .

غاسقٍ : ليل مظلم ، والغسق : الظلمة .

وقب : دخل ظلامه في كل شيء .

النفَّاثات في العُقد : النفث ، النفخ مع ريق . العقد جمع عقدة وهي التي تكون في الخيط أو الحبل . والنفّاثة تُقال للذكر والأنثى والنفاثات جمعه . قيل المراد بذلك السحرة ، وقيل : هم النمامون .

حَاسِدٍ : الحاسد هو الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره .

حسد : أي أنفذ ما يضمره من حسد وحققه بالفعل .

ايضاح و دروس

هذه السورة توجيه من اللّه لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين للإلتجاء إليه من كل خوف يصيبه ويصيبهم، ومن كل شرّ يخشون حصوله .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ والفلق : شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض، قيل المراد بذلك الصبح ، وسُمي فَلَقاً لأن

الليل ينفلق عنه الصبح، جاء في القرآن: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ الانعام: ٩٦. وقيل: الفلق هو الخلق والوجود كله، فقد كان مَسْتوراً في ظلمة العدم وفلقه اللَّه منها بالتكوين. وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّه فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى﴾ الانعام: ٩٥. فاللَّه يشق الحبّة اليابسة فتنفلق عن النبات الأخضر، ويشق النواة اليابسة فتنفلق عن الشجرة الكبيرة.

فالقرآن يوجهنا إلى أن نحتمي ونلتجيء بربّ الصبح، أو برب الخلق والوجود كله من هذه الأشياء الآتية: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شرّ ما خلق اللَّه إطلاقاً وإجمالاً، فهذه الآية الموجزة تصور كل الشرور التي يمكن أن تحصل في هذه الحياة. فمخلوقات اللَّه لا تخرج عن كون بعضها نافعاً والبعض الآخر ضاراً، والاستعاذة باللَّه تكون من شرّ مخلوقات اللَّه الضارة.

ومعنى قوله سبحانه ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي من شر الليل إذا أظلم، فالليل له رهبة ورعشة فهو يثير الخوف عند الكثير بما يحمل في طياته من أخطار كالسرقات والاعتداءات، أو الخوف مما يتحرك فيه من حيوانات مؤذية أو حشرات سامة، وبالأخص لمن يسكنون في القرى والأصقاع النائية، فاللَّه سبحانه يأمر المؤمن بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن النفس بأن يُعلّق قلبه باللَّه وذلك بالاحتماء به والالتجاء إليه.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ﴾ قيل هم السحرة، والسبب فيه أن الساحر كان إذا أخذ في قراءة الرقية لمن يريد إيذاءه أخذ خيطاً ولا يزال يعقد عليه عقدة بعد عقدة وينفث في تلك العقد فيخرج من نفسه الخبيثة ريق ممازج لذلك ليتحقق السحر[1]. وقيل هم

---

(١) السحر موجود أثبته القرآن وهو من تعليم الشياطين.

النمامون(١).

ثم يختم اللَّه السورة بقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فالحسد أن يتمنى الشخص أن يزول عن الآخرين ما هم فيه من نعمة، أما إذا تمنّى مثلها دون تمني زوالها فليس حسداً إنما هو غبطة ومنافسة، وقد تسمى الغبطة حسداً ويكون الحسد على هذا المعنى محموداً في حالتين كما قال رسول اللَّه ﷺ: (لا حسد إلّا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالاً فسلَّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها) رواه البخاري.

والحسد أول ذنب عصي به اللَّه في السماء والأرض أما في السماء فحسد إبليس آدم حسداً جعله لا يمتثل لأمر اللَّه بالسجود له، فقال: ﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ الإسراء: ٦١ والسجود المقصود هو سجود تكريم لا سجود عبادة، فطرده اللَّه من الجنة وكتب عليه اللعنة إلى يوم القيامة. وأما في الأرض فحسد قابيل هابيل حسداً جعله يقتله لأن اللَّه تقبَّل قربان أخيه ولم يتقبل قربانه.

هذه السورة ترمي إلى تحرير الإنسان من الخوف، والخوف كما

---

(١) وهذا ما ذهب إليه الإمام الشيخ محمد عبده إذ قال: تستعمل العقدة في كل ما ربط وأُحكم ربطه ولذلك سمى اللَّه الارتباط الشرعي بين الزوجين عقدة النكاح، وسمي الإيجاب والقبول في البيع ونحوه عقداً ونسميه عقدة أيضاً... والنفاثات المراد بهم هنا النمامون المقطّعون لروابط الألفة، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائهم، وإنما جاءت العبارة كما في الآية لأن جَلّ شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجته مثلاً فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلّوها ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين، والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة... عن (تفسير جزء عم).

هو معلوم في علم النفس له آثار مدمرة على النفس والجسد، فإذا استولى الخوف والذعر على الناس ضعفت معنوياتهم، وانهارت ثقتهم بأنفسهم، هذا من ناحية تأثيره على النفس، أما على الجسد فالخوف يزيد من سرعة خفقان القلب، ويسبب اضطرابات عضوية في الجسم تؤثر على عصارة المعدة فتسبب في وجعها، ويحدث رعشة وشعوراً بالضعف.

فاللّه سبحانه يريد أن ينزع عن الإنسان الخوف من كل الشرور والأوهام وذلك بالالتجاء إليه، ومن يلتجىء إلى اللّه رب جميع الخلق حماه من كل شر، ونفى عنه الخوف، ورزقه كل طمأنينة وثقة في النفس تعينه على السير بثبات وقوة في مسيرة الحياة.

كما أن هذه السورة توحي بالتصدي للمفسدين النمامين الذين يزرعون الشقاق في المجتمع، وكذلك التصدي للحاسدين الذين يريدون الإضرار بالغير، وعدم إفساح المجال لهم لتنفيذ رغائبهم، فالاستعاذة باللّه هي في الوقت نفسه العمل على اتخاذ الوسائل الوقائية لاتقاء شرورهم.

وقد كان النبي كثيراً ما يتلو هذه السورة وغيرها فقد روى البخاري عن عائشة رضي اللّه عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما ﴿قل هو اللّه أحد﴾ و ﴿قل: أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل: أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

سُورَةُ النَّاس

مكية ، وآياتها ست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

شرح المفردات

أعوذ : ألتجىء وأستجير .

رب الناس : مربيهم ومصلح أحوالهم .

ملك الناس : المتصرف بالأمر والنهي فيهم .

إله الناس : معبودهم .

الوسواس : الشيطان ويطلق أيضاً على ما يخطر بالقلب من الشرّ .

الخنَّاس : الذي ينقبض ويتنحى ويختفي .

الجِنّة : أي الجن وهم نوع من الخلق سموا بذلك لاختفائهم عن الأبصار فلا يُرون .

سُورَةُ النَّاس

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تصور تنازع الخير والشرّ وترمز إلى بغي الشـر في طبيعة الإنسان، وهي في الوقت نفسه إيحاء لتجنب الشر والاستعانـة باللَّه للتغلب عليه.

تستهل هذه السورة بالطلب من المؤمن أن يلوذ ويلجأ إلى اللَّه مع ذكر ثلاث صفات له: فهو رب الناس، أي المتعهد لهم بالتربية، وهو ملك الناس أي المسيـطر عليهم والمتصرف بـالأمـر والنهي فيهم، وهـو إلـه النـاس أي المعبود بحق، فكأن اللَّه يذكرنـا أنه قـوي وعلى كل شيء قـدير فهـو الذي يحمينا من كل شر، وإن قوى الشر هائلة تحتاج في مقابلها هذه الصفـات. فـالمؤمن مطلوب منـه أن يلتجىء إلى اللَّه ﴿**قُلْ أَعُـوذُ بِرَبِّ النَّـاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ**﴾ صفات ثـلاث للَّه فيها القـوة والمنعة والحفظ يلتجىء إليها المؤمن من عدو خفي يترصده ويزيّن له السوء في نفسه.

وفي تكرار كلمة (الناس) وتخصيصها مضافة إلى اللَّه بيـان على علو منزلة الناس وشرفهم وكرامتهم عند اللَّه إذا ساروا على هديه.

﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ والوسواس هو الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، والوسوسة هي الصوت الخفي وحديث النفس، فالشيطان يجثم على قلب ابن آدم، فـإذا سها وغفـل عن ذِكْرِ اللَّه وسـوس لـلإنسـان بدواعي الشرّ بكلام خفي، أما إذا ذكر الإنسان ربه فإن الشيطان يخنس أي ينقبض ويتنحى عن إفساده وإضلاله.

وإن استعاذتنا باللَّه سبحانه يجب أن تقترن بترك نوازع الشر والاحتياط

من الوقوع فيها، وإلا فلا معنى للاستعاذة بدون ذلك.

ثم قال سبحانه عن الوسواس إنه يكون من الجن ويكون من الناس:

﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الجِنّةِ وَالنَّاسِ﴾.

فوسوسة الناس أخطر وأكثر ضرراً، فربما يأتيك إنسان قد يكون صديقاً أو قريباً أو رفيقاً يأتيك في ثوب ناصح أمين ثم ما يزال يزيّن لك الشر حتى تقع فيه فتكون من الخاسرين النادمين.

والجن طوائف فمنهم الصالحون الذين يعملون الخير، ومنهم الضالون المفسدون كإبليس وذريته وهم الشياطين الذين يدأبون على تقوية دواعي الشر والباطل في النفس الإنسانية وهم المقصودون بالاستعاذة باللّه منهم.

ومن الملاحظ أن اللّه وصف الوسواس بأنه يوسوس في صدور الناس. والعرب تطلق اسم الصدور وتريد بها القلوب التي هي فيها، فالقلب هو المكان الذي تكون فيه الوسوسة، كما أنه ليس المراد منه الصورة المادية وإنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

التفسير الكبير للفخر الرازي .

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد بن محمد العمادي .

تفسير فتح القدير للشوكاني .

تفسير ابن كثير .

روح المعاني للألوسي .

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .

تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين مخلوف .

تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده .

تفسير جزء عم لعبد الله الطيب .

في ظلال القرآن لسيد قطب .

تفسير القرآن لمحمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .

صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

المنتخب من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد متولي الشعراوي .

سورة الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضيف .

التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتور عائشة عبد الرحمن .

مجلة الأزهر . مجلة لواء الإسلام . مجلة الوعي الإسلامي .

الفهرس

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يَس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طَه
- تفسير سُوَر : الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم